صفوة التفاسير

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٨٣٣٧ / ٢٠١٣

الترقيم الدولي

978 - 977 - 6354 - 22 - 7

ISBN 978-977-6354-22-7



الدار العالمية للنشر والتجليد

جاكرتا - أندونيسيا

هاتف: 081310218626 - 087889324793

085218824802 - 087880176606

email: darul_aalamiyyah@yahoo.com

abdallaelnady@gmail.com

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول
مستمدة من أوثق الكتب التفسيرية
بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

نسخة محققة ومخرجة الأحاديث

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

المجلد الأول




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إِنَّ الْحَمْدَ لِلهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ص، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ.

إن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله على قلب نبيه محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيراً، وهو هدى ونور وشفاء لما في الصدور، وقد كان على الرسول ﷺ بيانه للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

والقرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي. والأمة الإسلامية هى أمة القرآن، إليه يُرَدُّ أصلُها، وبه يُعرَف نسبُها، ومنه نَسجَت وتنسج ما لبِست وتلبس من حلل العزة والكرامة والسيادة. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠]، وعلى قدر ما يقترب المسلمون من كتابهم الكريم، وبقدر ما يرعُون حقّه، ويؤدون أمانته، يكون نصيبهم من الخير، ويكون حظهم من السلامة فى أنفسهم، وأموالهم، وأوطانهم! والعكس صحيح. فإنه على قدر ما يبعد المسلمون عن كتابهم، وبقدر ما يفرّطون فى حقه، بقدر ما يكون بُعدُهم عن الخير، ودُنُوُّهم من الخطر، وتعرّضهم لآفات التفكك والانحلال!

وتفسير القرآن أشرف علوم الدين، وقد حاول الشيخ محمد على الصابوني بتأليفه لكتاب «صفوة التفاسير» أن يقدم للأمة الإسلامية تفسيرًا موجزًا يجمع عيون ما في التفاسير الكبيرة المفصَّلة، مع الاختصار والترتيب، والوضوح والبيان.

وقد قُمْتُ بِتَحْقِيقِهِ وضَبْط نَصِّهِ، وتَخْرِيج أَحَادِيثِهِ والتَّعْلِيق عَلَيْهِ، عَلَى نَحْوٍ يُيَسِّر الانتفاع بِـه، ويُحقِّقُ رَغْبَةَ بعض أَهْل العِلْـم في تصحيحه والتعليق عليه. وأرجو أن يكون هذا التحقيق خدمةً لكتاب انتشر في الآفاق تنبيهًا على ما فيه من انتقادات نبَّه عليها بعض أهل العلم، وقد ذكر مؤلِّفه في مواضع من تفسيره ما يؤيد صحَّتها.

عمل المحقق:

١- مراجعة الأحاديث المذكورة في الكتاب من مصادرها في كتب السنة، وتشكيل الأحاديث الصحيحة الموجودة بالكتاب، وبعض الأحاديث الضعيفة، وشرح غريبها.

٢- بيان درجة أحاديث الكتاب صِحَّةً وضعفًا من كتب الشيخ الألباني وغيره. وأحيانًا أنقل عن المحدثين والعلماء والمحققين أكثر من حكم على حديث واحد، فأحكامهم قد تختلف حسب اجتهاداتهم.

٣- التعليق على الأخطاء التي استدركها العلماء على الكتاب، خاصةً فيما يتعلق بما في الكتاب من أخطاء في العقيدة في مسألة الأسماء والصفات والتي وافق فيها المؤلف تأويلات الأشاعرة، وفي هذه التعليقات انتصار للشيخ الصابوني نفسه؛ فقد ذكر في كتابه «كشف الافتراءات في رسالة التنبيهات حول صفوة التفاسير» (ص / ١٦٧) أنه لا يتبنى مذهب الأَشاعرة، وأقَرَّ بأنهم مُخطِئون في التأْويل.

وقد استفدت في تلك التعليقات كثيرًا من كتاب «تعقيبات وملاحظات على كتاب صفوة التفاسير»، للشيخ صالح بن فوزان الفوزان، واستفدت كذلك من كتاب الشيخ محمد بن جميل زينو «تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسير ومخالفات هامة في مختصر تفسير ابن جرير الطبري».

٤- محاولة بيان درجة أسباب النزول الواردة في الكتاب، وذلك بالاستفادة من كتاب «الصحيح المسند من أسباب النزول» للشيخ مُقْبلُ بنُ هَادِي الوادعِيُّ، و«الاستيعاب في بيان الأسباب، أول موسوعة علمية حديثية محققة في أسباب نزول آي القرآن الكريم» لسليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر، وكتاب «أسباب نزول القرآن» للواحدي بتحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، ونسخة أخرى بتحقيق كمال بسيوني زغلول.

وإذا كان سبب النزول المذكور في الكتاب ضعيفًا ووجدت سببًا آخر صحيحًا أذكره في الهامش.

وما لا أجده في تلك الكتب أبحث عنه في التفاسير، وغالبًا ما يكون فيها بدون إسناد أصلًا، وأنبه على ذلك في الهامش.

٥- الآيات أو الكلمات التي لم يفسرها المؤلف أنقل في الهامش تفسيرًا ميسرًا لها من تفسير السعدي أو ابن كثير أو غيرهما.

٦- التعليق على تفسير الآيات في أحوال نادرة جدًا بنَقْل كلام الإمام ابن جرير الطبري أو الحافظ ابن كثير أو الشيخ السعدي، أو غيرهم، وذلك لتوضيح كلام المؤلف أو بيان أن الصواب أو المشهور في التفسير غير ما ذكره، أو لغير ذلك.

٧- محاولـة تصويـب الأخطاء المطبعية الموجـودة بالكتاب وذلك بالرجـوع أحيانًا إلى المصـادر التي ينقـل منها المؤلف، ومحاولة وضع الهوامـش في مكانها الصحيح إن كانت في غيره. ولا يُشار إلى ما تم تصويبه إلا نادرًا حتى لا يُثقَل الكتاب بالهوامش.

٨- تشكيل الشواهد الشعرية، وشرح غريبها.

٩- شرح غريب الألفاظ الواردة في الكتاب، بالرجوع إلى كتب التفسير وشروح الحديث ومعاجم اللغة، وأحيانًا أوضِّح كلام المؤلف بنقل كلامه في مواضع أخرى من الكتاب.

١٠- تشكيل الكلمات التي قد يُساء فهمها.

١١- التعليقات الموجودة في التحقيق أنقلها من كتب أهل العلم وقد أختصرها أو أتصرف فيها بما ييسر على القارئ فهْمَها.

١٢- الروايـات التاريخيـة في قصـص الأنبيـاء يذكرهـا المؤلف بـدون إسـناد ومعظمها إسـرائيليات، أو أقوال مرسـلة، وغالبًا ما ينسـبها لأحد المفسـرين أو يذكرها بعد قوله: «قال المفسـرون: ...»، وهذه لا يتم التعليق عليها إلا إذا غلب على الظن أنه قد يُفْهَمَ منها معارضة الكتاب والسُنَة الصحيحة.

١٣- وكذلـك بعـض أحـداث السـيرة يذكرها المؤلـف بدون إسـناد أو بعـد قوله: «قال المفسرون: ...»، وقد لا أجدها بإسناد ثابت فلا أعلق عليها.

١٤- تجـد تعليقـات المحقق في الهامـش، متميزة عـن هوامش الكتـاب الأصلية بالرمز (ش)، وإذا كانـت هنـاك حاجـة لذِكْر التعليق في أكثـر من موضع فأعيد ذِكْـره فيها ولا أكتفي بالإحالة على ما سبق؛ تيسيرًا على القارئ.

١٥- تيسيرًا للانتفاع بالكتاب وضعت بين يديه بعض المقدمات:

أ- الدكتور محمد علي الصابوني، بطاقة حياة.

ب- «صفوة التفاسير» في الميزان، ما له وما عليه.

ج- مصادر الشيخ الصابوني في «صفوة التفاسير».

د- اعتقاد الأئمة الأربعة.

هـ- قواعد في الأسماء والصفات.

و- أسباب النزول، قواعد وأصول.

ز- مناهج المفسرين.

ح- مصطلحات بلاغية.

وأرجـو مـن الله ﷻ أن يكـون هذا التحقيق تحقيقًا لرغبة الشـيخ أبي بكـر جابر الجزائري حيث نصح الشـيخ محمـد بن جميل زينـو بمواصلة البحـث والتصويب والتصحيـح وتَتَبُّع

«صفـوة التفاسـير» من أَلِفه إلى يائِه – أي من أوله إلى آخـره – معللًا ذلك بأنه هو المفروض لمن أراد أن يصحح الأخطاء ويُبيِّن العيبَ ليُجْتَنَب، ونَصَحَه بكتابة ذلك على هامش التفسير، ورأى أن تتحمل دار الإفتاء تكاليف الطباعة ومصاريفها(١).

وفي الختام أتمنى مِن كل مَن وجد بهذا التحقيق خطأً أن لا يبخل به، إعذارًا إلى الله ونُصحًا للعبـد الفقيـر. ويأبَى الله العصمةَ لكتـاب غير كتابه، والمُنصِف من اغتفـرَ قليل خطأ المرء في كثير صوابه. وقديمـًا قيل: «المتصفِّح للكتاب أبْصَرُ بمواقع الخلل فيه من مُنشِئه».

بـل إن من يكتب الشـيء اليـوم قد يتراجع عنـه غدًا، فيتدارك بنفسـه بعـض أخطائه، قال الثعالبـي: «لا يكتـب أحـدٌ كتابـًا، فيبيت عنده ليلـة، إلا أحَبَّ في غيرها، أن يزيـد فيه أو ينقص منه». وقال العماد الأصبهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسـان كتابـًا في يومه، إلا قال في غَدِه: لو غُيِّر هذا لكان أحسـن، ولو زِيد كذا لكان يُستحسـن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل؛ وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

واللهَ العظيمَ أسألُ أن ينفع المسلمين بهذه الورقات وأن يرزقنا الإخلاص في السر والعلن، وصلى الله وسـلم وبـارك على عبده ونبيه – سـيدنا محمد – وعلى آلـه وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْـرَافِيلَ فَاطِرَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ أَنْتَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

شحاتة محمد صقر

---

(١) تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسير، ص ٣٧– ٣٨، للشيخ محمد بن جميل زينو.

وقد كتب الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقات على كتاب «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني مُنبهًا على ما فيه من أخطاء، وقد طبعت هذه التعليقات مع الكتاب.

بين يدي « صفوة التفاسير »

١- الدكتور محمد علي الصابوني، بطاقة حياة [(١)] :

ولد الشيخ محمد علي الصابوني بمدينة حلب الشهباء [(٢)] بسوريا في ١ يناير، عام ١٩٣٠م، من أسره عريقة، وكان والده الشيخ جميل الصَّابوني من كبار علماء حلب، وتلقَّى تعليمه على يد والده وغيره من العلماء فقام بدراسة العربية والفرائض وعلوم الدين، كما حفظ القرآن الكريم في الكُتَّاب وأكمل حِفْظه وهو في المرحلة الثانوية، هذا بالإضافة لدراسته للعديد من العلوم التي تلقاها على يد كبار العلماء بسوريا، والتي كانت تشتهر بعلمائها الكبار، فدرس الصابوني على يد كل من الشيخ محمد نجيب سراج، والشيخ أحمد الشماع، الشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ راغب الطباخ والشيخ محمد نجيب خياطة وغيرهم الكثير من العلماء والشيوخ.

التعليم:

لما حصل على الشهادة الابتدائية انتسب إلى إعدادية وثانوية التجارة فدرس فيها سنة واحدة، ولما لم توافق ميوله العلمية لأنهم كانوا يعلمون فيها الطلاب أصول المعاملات الربويّة التي تجري في البنوك هجر الإعدادية التجارية مع أن ترتيبه فيها كان الأول على زملائه، وانتقل إلى الثانوية الشرعية التي كانت تسمى (الخسروية) في مدينة حلب وفيها نال الإعدادية والثانوية، وكانت دراسته فيها مزدوجة تجمع بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية التي كانت تدرس في وزارة المعارف، فقد كانت المواد الشرعية كلها من التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والفرائض، وسائر العلوم الشرعية إلى جانب الكيمياء والفيزياء والجبر والهندسة والتاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية، فكانت دراسته جامعة بين الدراسة الشرعية والدراسة العصرية، وقد تخرج من الثانوية الشرعية عام ١٩٤٩.

وبعد أن أتم الصابوني دراسته الثانوية الشرعية بنجاح قامت وزارة الأوقاف السورية بإرساله في بعثة إلى الأزهر الشريف بالقاهرة بمصر، وذلك حتى يُتِم دراسته الجامعية هناك وبالفعل تمكن الصابوني من أن يحصل على شهادة كلية الشريعة عام ١٩٥٢م، ثم أتم دراسة التخصص وتخرج عام ١٩٥٤ من الأزهر حاملاً شهادة العالمية في تخصص القضاء الشرعي، وكانت هذه الشهادة من أعلى الشهادات في ذلك العصر فتعادل الدكتوراه في درجتها العلمية.

---

(١) انظر في ذلك: صفحة الشيخ محمد علي الصابوني على الفيس بوك.
https: //www.facebook.com /m.a.alsabouni ترجمة الدكتور محمد علي الصابوني على موقع المكتبة الشاملة. محمد علي الصابوني، من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(٢) الشَّهْبَاءُ :لقبُ مدينة حلب، سُمِّيَت بذلك لبياض حجارتها.

الحياة العلمية:

بعد أن حصل الصابوني على درجة العالمية بتفوق من الأزهر الشريف عاد مرة أخرى إلى سوريا وبالتحديد إلى مدينته حلب حيث تم تعيينه أستاذاً لمادة الثقافة الإسلامية في ثانويات حلب ودور المعلمين، وظل يعمل في التدريس في الفترة ما بين ١٩٥٥ - ١٩٦٢م.

تم بعد ذلك انتدابه إلى المملكة العربية السعودية لكي يعمل أستاذاً معاراً من قبل وزارة التربية والتعليم السورية وذلك للتدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، وكلية التربية بالجامعة بمكة المكرمة، وكان على رأس البعثة السورية إلي المملكة آنذاك، فقام بالتدريس فيها لمدة طويلة اقتربت من الثلاثين عامًا، وتخرج على يديه الكثير من أساتذة الجامعة في هذه الفترة الطويلة.

ونظراً لنشاطه العلمي في البحث والتأليف فقد رأت جامعة أم القرى أن تسند إليه تحقيق بعض كتب التراث الإسلامي فعيّن باحثاً علمياً في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، فاشتغل في تحقيق كتاب مهم في التفسير يسمى (معاني القرآن) للإمام أبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ، والمخطوطة نسخة وحيدة في العالم لا يوجد لها ثان، فقام بتحقيقها على الوجه الأكمل، بالاستعانة بالمراجع الكثيرة بين يديه من كتب التفسير واللغة والحديث وغيرها من الكتب التي اعتمد عليها، وقد خرج الكتاب في ستة أجزاء، وطبع باسم جامعة أم القرى بمكة المكرمة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي.

بعد ذلك انتقل الشيخ للعمل في رابطة العالم الإسلامي كمستشار في هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وبقي فيها عدة سنوات قبل أن يتفرغ للتأليف والبحث العلمي.

المؤلفات:

للشيخ مؤلفات عديدة في العلوم الشرعية والعربية، ألفها في مشواره العلمي الطويل فكانت من بين أهم الكتب في مجالاتها ولاقت قبولاً وانتشاراً واسعاً بين طلاب العلم في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وترجم العديد منها إلى لغات مختلفة كالتركية والإنجليزية والفرنسية والملاوية والهوساوية وغيرها من لغات العالم الإسلامي. وقد ألّف بعضها أثناء تدريسه في الجامعة، والبعض الآخر بعد انتهائه من التدريس، وتفرغه للتأليف، ومن هذه المؤلفات ما يلي:

١. صفوة التفاسير.
٢. المواريث في الشريعة الإسلامية.
٣. من كنوز السنة.
٤. روائع البيان في تفسير آيات الأحكام.

٥. قبس من نور القرآن الكريم.
٦. السنة النبوية قسم من الوحي الإلهي المنزّل.
٧. موسوعة الفقه الشرعي الميسر (سلسلة التفقه في الدين)
٨. الزواج الإسلامي المبكر سعادة وحصانة.
٩. التفسير الواضح الميسر.
١٠. الهدي النبوي الصحيح في صلاة التراويح.
١١. إيجاز البيان في سور القرآن .
١٢. موقف الشريعة الغرّاء من نكاح المتعة.
١٣. حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن.
١٤. التبيان في علوم القرآن.
١٥. عقيدة أهل السنة في ميزان الشرع.
١٦. النبوة والأنبياء.
١٧. رسالة الصلاة.
١٨. المهدي وأشراط الساعة.
١٩. المقتطف من عيون الشعر.
٢٠. كشف الافتراءات في رسالة التنبيهات حول صفوة التفاسير.
٢١. درة التفاسير (على هامش المصحف).
٢٢. جريمة الربا أخطر الجرائم الدينية والاجتماعية.
٢٣. التبصير بما في رسائل بكر أبو زيد من التزوير.
٢٤. شرح رياض الصالحين.
٢٥. شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول.
٢٦. رسالة في حكم التصوير.
٢٧. معاني القرآن (للنحاس).
٢٨. المقتطف من عيون التفاسير (للمنصوري).
٢٩. مختصر تفسير ابن كثير.
٣٠. مختصر تفسير الطبري.
٣١. تنوير الأذهان من تفسير روح البيان (للبروسوي).
٣٢. المنتقى المختار من كتاب الأذكار (للنووي).
٣٣. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (للأنصاري).

٣٤. الشرح الميسّر لصحيح البخاري .
٣٥. الإبداع البياني في القرآن الكريم .
٣٦. صفحات مُشرقة من حياة الرسول ﷺ وصحابته الكرام .
٣٧. نكاح المتعة في الإسلام حرام .
٣٨. آمنت بالله (الأدلّة العقليّة والنقليّة على صفاء عقيدة التوحيد).
٣٩. الجهاد في الإسلام والخطأ الدارج في مفهومه .
٤٠. الشرح الميسّر لصحيح الإمام مسلم (تحت الطبع).
٤١. الشرح الميسّر لصحيح الإمام الترمذي (تحت الطبع).
٤٢. الشرح الميسّر لصحيح الإمام أبي داود (تحت التأليف).
٤٣. تفسير الدعوات المباركات في القرآن الكريم .

الدروس:

بالإضافة للمؤلفات والرحلة العملية والعلمية للشيخ الصابوني فقد كانت له العديد من الإسهامات العلمية الأخرى فكان له درْس يومي بالمسجد الحرام بمكة المكرمة يقعد فيه للإفتاء في المواسم،، ودرْس أخر أسبوعي بأحد مساجد مدينة جدة يقوم فيه بتفسير آيات القرآن الكريم، وامتد لفترة ما يقارب الثماني سنوات فسّر خلالها لطلاب العلم أكثر من ثلثي القرآن الكريم، وهي مسجلة على أشرطة كاسيت، كما قام الشيخ بتصوير أكثر من ستمائة حلقة لبرنامج تفسير القرآن الكريم كاملاً ليعرض في التلفاز، وقد استغرق هذا العمل زهاء السنتين، وقد أتمه نهاية عام ١٤١٩ هـ.

جوائز وتكريم:

تقديراً لجهوده في المجال العلمي والإسلامي فقد تم اختياره في رمضان ١٤٢٨ هـ من قِبَل جائزة دبي للقرآن ليكون «الشخصية الإسلامية» للدورة الحادية عشر، وتمنح هذه الجائزة للشخصيات الإسلامية المتميزة، وقد صدر عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم كتيب تعريفي بالشيخ الصابوني ذُكِر فيه نبذة عن حياته ومؤلفاته.

التلاميذ:

أثناء فترة عمله الأكاديمي تخرج على يديه العديد من علماء الإسلام المتميزين، بالإضافة للمستفيدين من كتبه.

ردود أهل العلم على كتبه:

لبعض أهل العلم ملاحظات على ما كتبه الشيخ الصابوني، لا سيما كتبه في التفسير، وكلٌّ يؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم ﷺ . قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:«ما منَّا إلا رادٌّ ومردودٌ عليه

إلا صاحب هذا القبر»، (يعني: النبي ﷺ).

ومن تلك الردود:

١- تنبيهات هامة على ما كتبه الشيخ علي الصابوني في صفات الله عزَّ وجلَّ، تأليف الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز. وهي موجودة ضمن «مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز» (٣/ ٥١-٨٢).

٢- ملاحظات على صفوة التفاسير، تأليف الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين.

٣- تعقيبات وملاحظات على كتاب صفوة التفاسير، تأليف الشيخ صالح الفوزان.

٤- التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير، تأليف الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد.

٥- مخالفات هامة في مختصر تفسير ابن جرير الطبري للشيخ محمد علي الصابوني، تأليف الشيخ محمد بن جميل زينو.

٦- تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسير، تأليف الشيخ محمد بن جميل زينو.

٧- ملاحظات على مختصر تفسير ابن جرير الطبري، تأليف الشيخ إسماعيل الأنصاري.

٨- في مقدمة الجزء الرابع من «السلسلة الصحيحة» للألباني تعقيبات على «مختصر تفسير ابن كثير». وفي مواضع من الجزئين الثالث والرابع من «السلسلة الضعيفة» للألباني.

٩- ملاحظات على «كتاب صفوة التفسير»: تأليف الدكتور سعد ظلام، عميد كلية اللغة العربية بمصر: (ص/ ١٠٣، ١٠٩) من مجلة منار الإسلام في العدد الرابع من السنة العاشرة، ونشر بعضها في مجلة التوحيد المصرية في العدد السادس عام ١٤٠٨ هـ لشهر رجب.

١٠- كتاب الشيخ عثمان بن عبد القادر الصافي الطرابلسي، وعنوانه: الأخطار على المراجع العلمية لأئمة السلف دراسة تمهيدية تهدف إلى المحافظة على التراث العلمي الإسلامي، والتحذير من العبث به، على ضوء وجهة نظر في كتابَي: «مختصر تفسير ابن كثير»، و«صفوة التفاسير» للشيخ علي الصابوني.

١١- منهج الأشاعرة في العقيدة - تعقيب على مقالات الصابوني للدكتور سفر الحوالي.

١٢- تعقيبات على مقالات الصابوني، للشيخ إدريس بن محمد علي.

١٣- نظرات في كتاب النبوة والأنبياء، تأليف الشيخ محمد محمود أبو رحيم.

١٤- الرد على الصابوني فيما سماه: «الهدي النبوي الصحيح في صلاة التراويح»، تأليف الشيخ محمد بن يوسف العجمي.



٢- «صفوة التفاسير» في الميزان
ما له وما عليه

اسم الكتاب:

«صفوة التفاسير، تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأْثور، والمعقول مستمد من أَوثق كتب التفسير: الطبري، الكشاف، القرطبي، الأَلوسي، ابن كثير، البحر المحيط وغيرها».

ولكن الكتاب يشتمل على أخطاء مستمدة من كتب ليست هي من أوثق التفاسير، وقد انتقد الشيخ بكر أبو زيد هذه التسمية (صفوة التفاسير) مستنكرًا أن ينتج الصفاء من الخلط بين تفسيرَي ابن جرير، وابن كثير السلفيين، وتفسير الزمخشري المعتزلي، والرضي الرافضي، والرازي الأَشعري، والصاوي الأَشعري القبوري المتعصب.

إن تفسير الكشاف إِنما أَلفه الزمخشري على أُصول المعتزلة كما بينه أَئمة العلم، وحذروا من دسائسه فيه، وتفسير الأَلوسي وإِن احتوى على كثير مما لا يُستغنى عنه في التفسير فقد شانه بما فيه من تحريفات المتصوفة للقرآن المسماة بالتفسير الإِشاري يأْتي بها بعد فراغه من الكلام على تفسير الآيات.

فهذان التفسيران ما داما كذلك فلا يصح إِطلاق القول عليهما بأَنهما من أَوثق كتب التفسير هذا بالنسبة إِلى ما سماه المؤلف من المصادر التي يعتبرها أَوثق التفاسير.

وكذلك حاشية الصاوي التي وصل من الانحراف فيها إِلى القول بأَن الأَخذ بظاهر القرآن والحديث أَصلٌ من أُصول الكفر، وإِلى إجازة الاستغاثة بغير الله عز وجل فيما لا يقدر عليه إِلا الله عز وجل، فلا يليق ما دام الأَمر هكذا إِطلاق القول بأَن هذه المراجع من أَوثق التفاسير(١).

منهج الشيخ الصابوني في كتاب «صفوة التفاسير»:

كتاب «صفوة التفاسير» تفسير موجز ذكر مؤلفه في مقدمته أن يجمع عيون ما في التفاسير الكبيرة المفصَّلة، مع الاختصار والترتيب، والوضوح والبيان، وأنه قد سلك في طريقه لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي:

أولًا: بين يدي السورة، وهو بيانٌ إجمالي للسورة الكريمة وتوضيح مقاصدها الأساسية.

ثانيًا: المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة.

ثالثًا: اللغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية.

رابعًا: سبب النزول. **خامسًا**: التفسير.

سادسًا: البلاغة. **سابعا**: الفوائد واللطائف.

لقد حاول الشيخ الصابوني في كتاب «صفوة التفاسير» أن يجمع أسهل وأبسط أقوال

(١) باختصار من كتابه «التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير».

المفسـرين، بحيث يفهمه عامة المسـلمين، وابتعد فيه عن التعقيد في العبارة، وعن المسـائل الفقهيـة، والنحوية، وحاول أن يقدم أقرب فكرة ممكنة تسـاعد قـارئ القرآن على فهم وتدبر ما يقرؤه.

ومما يلاحَظ عند دراسة الكتاب ما يلي:

١- المؤلـف ينقل عن أصحاب التفاسـير المختلفـة نَصَّ كلامهم ويشـير إلى مصدره في الهامـش، ولكنـه أحيانًا لا ينقله بنَصِّه بل يتصرف فيه ويختصره بأسـلوبه هو مع الإشـارة إلى مصدره في الهامش،وأحيانًا لا يشير إلى المصدر.

٢- معظم الأحاديث ينقلها من تفسير ابن كثير، وغالبًا لا يشير إلى درجة صحة الحديث إن لم يكن في الصحيحين (البخاري ومسـلم) أو أحدهما، وأحيانًا ينقل الأحاديث من التفاسير، ويكتفي بالإحالة إليها موضعها فيها ولا يذكر مَن خرّجها، وأحيانًا أخرى يذكر الحديث دون الإشارة إلى أي مصدر.

٣- معظم الشـواهد الشعرية ينقلها من «البحر المحيط» و«القرطبي»، ونادرا ما ينقلها من تفسير «الرازي» أو «الألوسي».

٤- الروايـات التاريخية في قصـص الأنبياء يذكرها المؤلف بدون إسـناد ومعظمها أقوال مرسلة، وغالبًا ما ينسبها لأحد المفسرين أو يذكرها بعد قوله:«قال المفسرون:...».

٥- غالبًـا مـا يذكر أحداث السـيرة النبويـة المتعلقة بتفسـير الآيات بـدون تخريج، وبعد قوله:«قال المفسرون:...»..

محاسن التفسير:

لا ينكر أحد أن في الكتاب فوائد كثيرة منها الأسـلوب الواضح، وذِكْر المقاصد الأساسـية للسـور، وتوضيـح بعض معـاني الكلمـات وبيان اشـتقاقها، والمناسـبة بين الآيات السـابقة والآيات اللاحقة، وذكر الفوائد التي لها علاقة بالآيات والمستنبطة منها.

وننقـل هنا في مميزات الكتـاب ما ذكره أحد ناقدي الكتاب وهو الشـيخ محمد بن جميل زينـو، حيـث قال:« فقـد كلفَتني مدرسـة دار الحديث الخيريـة بمكة المكرمـة بتدريس مادة التفسـير، واختارت كتاب «صفوة التفسـير» لتوفُّـره لديها، وما كدنا نقرأ منـه قليلاً حتى ظهر بعـض الأخطـاء فيه. وقبـل أن أذكر الأخطـاء أود إيراد بعض محاسـن التفسـير، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الشعراء:١٨٣] ففي التفسير المذكور:

١- سهولة العبارة في تفسيره.

٢- معلومات موجزة عن السورة في أولها.

٣- كلامـه علـى البلاغة في آخر السـورة، وللعلمـاء عليه ملاحظات كما سـيأتي عند ذكر الخطأ التاسع.

٤- جمعه لأقوال كثير من المفسرين، لكنه لم يتحرَّ الصواب منها أحياناً [١] .

ومن محاسن «صفوة التفاسير»:

١- كشف ضلال أصحاب الأديان الباطلة من المشركين واليهود والنصارى والتي كشَف القرآن زَيْفها، مما تجده متناثرًا في أجزاء كثيرة من الكتاب، ومن الأمثلة على ذلك قول المؤلف في تفسير سورة الإخلاص: «يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم (الآب، والابن، وروح قدس) وهي عقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية ويعتقدون بأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، ويزعمون أنهم موحدون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

٢- بيان محاسن الإسلام وحكمة التشريع، والتصدي لمن يطعنون فيه، ومن ذلك قوله في تفسير سورة النساء إن العبد الرقيق في الإسلام له من الحقوق ما ليس للأحرار في الأمم الأخرى وأن مَن يطّلع على معاملة الزنوج في أمريكا يتضح له جلياً صحة ما نقول وها هي الأمم الغربية تحرم استرقاق العبيد في حين أنها تسترق الأحرار، وتحرم استرقاق الأفراد وتستَرِقّ الجماعات والأمم والشعوب، باسم الاستعمار والانتداب، فأين هذه الحضارة المزعومة والمدنيَّة الزائفة من حضارة الإسلام ومدنيته الصادقة التي حررت الشعوب والأمم والأفراد؟!

٣- تركيزه في مواطن عديدة من التفسير على أن القرآن يدعو إلى إصلاح المجتمع المسلم على أسس من الفضيلة والخُلق الكريم، وحذر المؤلف مما يؤدي إلى تعرُّض المجتمع للتفسخُ والانحلال الخلقي كالتعري ومجالس اللهو، والسينما، والقمار، والغناء المحرَّم.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ إن الآية قد أوضحت هدف إبليس اللعين فمن دعا إلى تعرِّي المرأة وشجَّع على ذلك كما هو حال من يزعم التقدمية ويدعو المرأة إلى نزع الحجاب بدعوة الحرية والمساواة فإنما هو عدوٌ للمرأة ومن أنصار وأعوان إبليس لأن الهدف واحد، وهي دعوة مكشوفة غايتها التفسخُ والانحلال الخلقي، وليست التقدمية بالتكشف والتعري وإنما هي بصيانة الشرف والعفاف.

وقد ردَّ المؤلف في تفسير سورة الأحزاب على من أباح كشف الوجه، وذكَر طائفةً من أقوال المفسرين في وجوب ستره.

٤- التثبت ورَدّ الروايات الباطلة، ومن ذلك:

أ- قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا

---

(١) تنبيهات عامة على كتاب «صفوة التفاسير»، ص ٥-٦.

صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٩، ١٩٠]: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾ أي فلما وهبهما الولد الصالح السويّ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والذرية شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام. وقال في الهامش: «ذهبْنا إلى هذا الرأي لجلائه ووضوحه وهو ما رجَّحه المحققون من أهل العلم، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في: (آدم وحواء) وأن الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ يعود إليهما وروَوْا في ذلك أحاديث وآثار منها ما رُوِيَ عن سمرة مرفوعًا قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش بها ولد فقال: سمّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمَّتْه عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان» رواه أحمد والترمذي قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث معلولٌ من ثلاثة أوجه وقد وضحها رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورجح أن الحديث موقوف وضعَّف ما ورد من آثار، ثم روى بسنده عن الحسن أنه قال: «كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم»، ثم قال ابن كثير: «وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق (آدم وحواء) وإنما المراد المشركون من ذريته بدليل قول الله بعده: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾». أقول: وهو الحق الذي لا محيد عنه».

ب- قوله إن الصحابي المشهور «ثعلبة بن أبي حاطب»، ليس هو المقصود بالآيات ٧٥-٧٨ من سورة التوبة، مع أن هذه القصة المكذوبة عليه مشهورةٌ في كتب التفاسير. وهذه القصة المكذوبة قد أشار إلى ضعفها ابنُ حزم والبيهقيُّ والقرطبي والذهبي وابن حجر العسقلاني والسيوطي والألباني[١].

ج - تحذيره من قصة الغرانيق المكذوبة، فقال عند تفسير الآية ٥٢ من سورة الحج: وأما قصة الغرانيق التي أولع بذكرها بعض المفسرين فهي باطلة مردودة، وهي أن الرسول عليه السلام قرأ سورة: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ بمحضر من المشركين والمسلمين فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ ألقى الشيطان على لسانه «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجي» ففرح بذلك المشركون ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون... إلخ. قال ابن العربي: إن جميع ما ورد في هذه القصة باطل لا أصل له وقال ابن إسحاق: هي من وضع الزنادقة وقال البيهقي: رواتها مطعون فيهم وقال ابن كثير: ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق وهي روايات مرسلات ومنقطعات لا تصح وقال القاضي عياض: هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون، المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

(١) انظر: الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه، لسليم الهلالي

أقول: مما يدل على بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه! سبحانك هذا بهتان عظيم.

د- قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

يتشبث بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية، لا زِمَام لها ولا خطام، للطعن في الرسول الكريم والنَّيْل من مقامه العظيم، وُجِدَت في بعض كتب التفسير!! من هذه الروايات الباطلة التي تلقَّفَها «المستشرقون» وخَبُّوا فيها وأَوْضَعُوا، أن الرسول ﷺ رأى «زينب» وهي متزوجة بزيد بن حارثة فأحبها ووقعت في قلبه فقال: «سبحان مقلب القلوب» فسمعتها زينب فأخبرت بها زيدًا، فأراد أن يطلقها فقال له الرسول: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك.... إلخ. وهذه روايات باطلة لم يصح فيها شيء كما قال العلامة: «أبو بكر بن العربي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والآية صريحة في الرد على هذا البهتان، فإن الله سبحانه أخبر بأنه سيُظْهِر ما أخفاه الرسول: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فماذا أظهر الله تعالى؟ هل أظهر حب الرسول وعشقه لزينب، أمْ أن الذي أظهره هو أمْرُه عليه السلام بالزواج بها لحكمة عظيمة جليلة هي إبطال «حكم التبني» الذي كان شائعًا في الجاهلية ولهذا صرح تعالى بذلك وأبداه علنًا وجهارًا: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ يا قوم اعقِلوا وفكِّروا، وتفهموا الحق لوجه الحق بلا تلبيس ولا تشويش وتبَصَّروا فيما تقولون فمن غير المعقول أن يعاتَب الشخصُ لأنه لم يُجاهِر بحبه لزوجة جاره؟ وحاشا الرسول الطاهر الكريم أن يتعلق قلبه بامرأة هي في عصمة رجل، وأن يُخفي هذا الحب حتى ينزل القرآن يعاتبه على إخفائه، فإن مثل هذا لا يليق بأي رجل عادي، فضلًا عن أشرف الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم، وغاية ما في الأمر - كما نقل في البحر - عن علي بن الحسين أنه قال: «أعْلَم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، عاتبه الله وقال له: أخبرتُك أني مزوِّجُكَها وتخفي في نفسك ما الله مُبديه»!! انظر رد الفرية في كتابنا «النبوة والأنبياء» ص ٩٩.

هـ- قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص:٢١- ٢٥].

«وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش حين نقلو بعض الأقوال الواهية في تفسيرهم اعتمادًا علي ما جاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص، مما لم يصح سنده ولا يجوز اعتماده، لأنه من القصص الإسرائيلية التي تتنافي مع العقيدة الإسلامية في (عصمه الأنبياء).

من هذه الأباطيل المدسوسة ما رُوي من أمر عشقه لزوجة قائد جيشة وخلاصتها: (أن داود كان يمشي علي سطح داره فنظر إلي امرأه تستحم فأعجبته وعشقها، وكانت زوجة أحد قواده ويسمي (أوريا) فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدي المعارك وحمله الراية وأمره بالتقدم فانتصر، فأرسله مرارًا ليتخلص منه حتي قُتِل فتزوجها . . .) إلخ ما هناك من الكذب والبهتان، قال ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصصًا وأخبارًا أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا إيرادها في كتابنا قصدًا، اكتفاءً بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم، والله يهدي من يشاء إلي الصراط المستقيم، وقال البيضاوي: ما قيل: أنه أرسل (أوريا) مرارًا إلى الحرب، وأمره أن يتقدم حتى قُتل فتزوجها داود، فزُورٌ وافتراء، ولذلك قال علي رضي الله عنه: (من حدث بحديث داود علي ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة) وهو حد الفرية علي الأنبياء.

والصحيح في موضوع هذه القصة ما ذكره المحققون من أئمة التفسير وعلمائه الأعلام، وبيان هذة القصة أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصريف شئون الملك، وللقضاء بين الناس، ويخصص البعض الأخر للخلوة والعباده وترتيل الزبور تسبيحًا لله في المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعباده والخلوة لم يدخل إليه أحد حتي يخرج هو إلي الناس، وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه، ففزع منهما وأضمر في نفسه أن يبطش بهما، فبادرا يُطَمْئِنَانه أنهما خصمان اختلفا في أمر بينهما، وبدأ أحدهما فعرض خصومته. كما قصها القرآن الكريم في آياته البينات. والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يتحمل التأويل ومن ثم اندفع داود علي إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلي الخصم الأخر حديثًا، ولم يطلب إليه بيانًا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضي يحكم بقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ إلي آخر الآيات فعاتبه الله علي ذلك ونبهه إلي ضروره تثبت القاضي علي حكمه وسماعه للخصم الاخر . . . أما ما قاله البعض اعتمادا علي بعض الرويات الإسرائيليه مما ذكرناه وحذرناه منه، فانه لايصلح بالنسبه إلي عوام المسلمين وجهلة الفساق، فما بالك بالأنبياء بل بخواص الأنبياء «فليتدبَّرْ هذا مَن له عقل سليم ودين قوي».

و- قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤] «قال ابن كثير: «وقد أورد بعضُ المفسرين أثاراً كثيرة عن جماعةٍ من السلف، وأكثرها أو كلُّها مُتَلقَّاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة».

ثم قال المؤلف في الهامش: أشار ابن كثير إلي ما ذكره، بعض المغرمين بالروايات الضعيفة، والحكايات الاسرائيلية المصطنعة، حول فتنه سليمان التي أشار اليها القران الكريم هذه الاشاره الخاطفه «ولقد فتنا سليمان» ومن أغربها وأنكرها ما رواه ابن أبي حاتم أن سليمان عليه السلام أراد ان يدخل الخلاء، فأعطي الجراده . زوجته . خاتمه، وكانت أحب نسائه إليه فجاءها الشيطان في صوره سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فظنَّتْه سليمان فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الأنس والجن والشياطين . . .، إلخ، وكل هذه الروايات خرافات وأباطيل ردَّها المحققون من العلماء كابن كثير، والفخر الرازي، والبيضاوي والنسفي وغيرهم .

٥- في بعض مواضع من «صفوة التفاسير» يرُدّ المؤلف التفاسير المخالفة للقرآن والسُّنة، ومن ذلك:

أ- قوله في تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام: تنبيه: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ءَازَرَ﴾ عم إبراهيم وليس أباه وقال آخرون: إنه اسم للصنم، والصحيح كما قال المحققون من المفسرين أنه اسم لوالد إبراهيم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، والآية صريحة في أن آزر كان كافراً ولا يقدح ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام وفي صحيح البخاري «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ ...» الحديث ودعوى إيمانه مرفوضة بنص الكتاب والسنة والله أعلم.

ب- قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٣ - ٣٥]:

« جنح بعض المتأخرين في هذه إلى تفسير الآية تفسيرًا خاطئًا فزعموا أن الإنسان يُمكنه الصعود إلى السماوات وإلى الكواكب وفسروا «السلطان» بالعلم وهو مخالف لأقوال المفسرين، ويردُّه سياق الآية وسباقها، فإن الآية سيقت لبيان أهوال الآخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى قبلها: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وقوله بعدها: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ﴾ وقد اتفق المفسرون على أنها في الآخرة، ونحن لانستنكر إمكان وصول الإنسان. بالصواريخ والمخترعات الحديثة. إلى القمر أو بعض الكواكب، فإن ذلك مقدور الإنسان ويستطيع بواسطة العلم أن يدور حول الأرض ويعلو في الأجواء ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى السماء، فقد جعلها الله سقفًا محفوظًا، أما القمر وسائر الكواكب فهي دون السماء الدنيا

ويمكن الوصول إليها. ولكننا نستنكر ونتعجب ممن يتهجم على القرآن بدون علم ولا فهم، ويقول في كتاب الله برأيه دون الرجوع إلى أقوال المفسرين المعتمَدين، وانظر ما كتبناه في مجلة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٧ حول الوصول إلى القمر».

ج- قال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: ١]: «أي واللهُ واسع المغفرة، عظيم الرحمة، حيث سامحك في امتناعك عن مارية، وإنما عاتبك رحمةً بك، وفي هذه إشارة إلى أن عتابه في ذلك إنما كان كرامةً له، وإنما وقع العتاب لتضييقه عليه السلام على نفسه، وامتناعه مما كان له فيه أُنسٌ ومتعة، وبئس ما قاله الزمخشري في أن هذا كان منه ﷺ زلة لأنه حرَّم ما أحل الله له إلخ فإن هذا القول قلة أدب مع مقام النبوة، وجهل بصفات المعصوم، فلم يكن منه صلوات الله عليه تحريمٌ للحلال كما زعم حتى تعتبر مخالفة ومعصية، وإنما امتنع عن بعض إمائه تطييباً لخاطر بعض أزواجه، فعاتبه الله تعالى عليه رفقاً به، وتنويهاً بقدره، وإجلالاً لمنصبه عليه السلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما أُلف من لطف الله تعالى به».

ثم قال في الهامش: شنَّ صاحب «الإنصاف على الكشاف» الغارة على الزمخشري وشنع عليه وهو مُحِقٌّ في ذلك، لأن من نظر إلى لطف العتاب عرف حقيقة الأمر والصواب.

٦- التنبيه على أن القرآن لا يخالف الحقائق العلمية: فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ أي وإلى الأرض التي يعيشون عليها، كيف بُسِطت ومُهِدَت حتى صارت شاسعة واسعة يستقرون عليها، ويزرعون فيها أنواع المزروعات؟! قال الألوسي: ولا ينافي هذا، القول بأنها كرة أو قريبة من الكرة لمكان عِظَمِها ثم قال في الهامش: أثبت علماؤنا أن الأرض كروية كالإمام الفخر الرازي، وابي السعود، والألوسي، كما نقلنا بعض ذلك في سورة لقمان، وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فإنما هي بالنسبة لعظمها وسمتها أبو بالنسبة للناظرين، فليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية.

٧- نصر المؤلف عقيدة أهل السنة في بعض المواضع من تفسيره ومن ذلك:

أ- في الرد على مَن يحتجون بالقدر نقل عن «محاسن التأويل» قول ابن تيمية في منهاج السنة: «والاحتجاج بالقدر حجةٌ باطلة داحضة، باتفاق كل ذي عقل ودينٍ من جميع العالمين، ولهذا لما قال المشركون ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ردَّ الله عليهم بقوله ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة، فإنَّ أحدهم لو ظلم الآخر، أو أراد قتل ولده، أو الزنى بزوجته، أو كان مصراً على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال: لو شاء الله لم أفعل هذا، لم يقبلوا منه هذه الحجة ولا يقبلها هو من غيره، وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للّوم عن نفسه بلا وجه ...»[(١)].

---

(١) عن محاسن التأويل الجزء العاشر بإيجاز.

ب- فيما يتعلق برؤية المؤمنين لله ﷻ في الآخرة:

قال في تفسير قوله تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]: «الآية نفت الإحاطة ولم تَنْفِ الرؤية فلم يقل تعالى: (لا تراه الأبصار)، فمن ذهب إلى عدم رؤية الله في الآخرة كالمعتزلة فقد جانَبَ الحقَّ وضلَّ السبيلَ بمخالفة ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ المتواترة، أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] وأما السُنة فما أخرجه البخاري «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ. .» الحديث وكفى بالكتاب والسنة دليلاً وهادياً.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] «مذهب أهل السنة قاطبة على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنكرت المعتزلة ذلك واستدلوا بالآية الكريمة ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وليس لهم في هذه الآية متمسك بل هي دليلٌ لأهل السنة والجماعة على إمكان الرؤية، لأنها لو كانت مُحالاً لم يسألها موسى فإن الأنبياء عليهم السلام يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل، ولو كانت الرؤية مستحيلة لكان في الجواب زجرٌ وإغلاظ كما قال تعالى لنوح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا لضعف البنية البشرية عن ذلك قال مجاهد: إن الله قال لموسى: لن تراني، لأنك لا تطيق ذلك ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد، فإن استقر وأطاق الصبر لِهَيْبَتِي أَمْكَنَ أن تراني أنتَ، وإن لم يُطِق الجبلُ فأحرى ألاّ تطيق أنت، فعلى هذا جعل الله الجبل مثالاً لموسى ولم يجعل الرؤية مستحيلة على الإطلاق، وقد صرح بوقوع الرؤية في الآخرة كتابُ الله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] فلا ينكرها إلا مبتدع».

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]: أي تنظر إلى جلال ربها، وتهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى جلا وعلا والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب. قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحُقَّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق(١)، وبذلك وردت النصوص الصحيحة».

ثم قال في الهامش: «هذا هو مذهب أهل السنة، ويؤيده ما ورد في الصحيحين: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَـذَا الْقَمَرَ» الحديث وفي صحيح مسلم: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ» وأنكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة

(١) تفسير الطبري ٢٩/ ١٢٠.

وأوَّلوا الآية: «ناظرة» بمعنى منتظرة تنتظر ثواب ربها، وهذا باطل لأن نظر بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف الجر، وانظر الأدلة وافية في تفسير الخازن ٤/ ١٨٦.

ج- فيما يتعلق بالعقيدة في الصحابة رضي الله عنهم: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

نقل المؤلف عن الحافظ ابن كثير قوله: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسُبُّ الصحابة ليس له في مال الغنيمة شيء لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين»، ونقل عن شيخ زادة قوله: «بيَّن تعالى أن مِن شأنِ مَن جاء مِن بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء فقد كان خارجاً عن جملة أقسام المؤمنين بمقتضى هذه الآيات، وقد روي عن الشعبي أنه قال: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى فقالوا: أصحاب عيسى، وسئلت الرافضة من شرُّ أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحابُ محمد ﷺ أُمِرُوا بالاستغفار لهم فسَبُّوهُم، فالسيفُ عليهم مسلولٌ إلى يوم القيامة».

د- في توحيد الأسماء والصفات: قال في تفسير الآية ١٥٨ من سورة البقرة: «الشكر معناه مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان، وهذا المعنى محالٌ على الله إذ ليس لأحدٍ عنده يدٌ ونعمة حتى يشكره عليها ولهذا حملة العلماء على الثواب والجزاء أي أنه تعالى يُثِيبُه ولا يضيع أجر العاملين، أقول: والصحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت، فهو شُكْرٌ يليق بجلاله وكماله» اهـ.

فالمؤلف هنا ردَّ القول المخالف لمذهب السلف؛ فالشاكر والشكور، من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه، العظيم من الأجر.

هـ- في توحيد الأسماء والصفات: استواء الله على عرشه:

ذكر المؤلف أن الله فوق العرش، وأثبت الله ﷻ استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف، وفسَّر الاستواء بالعلوّ والاستقرار وأنه عَلا فوق العرشً عُلُواً يليق بجلاله، وأنا لا نعلم كيفية الاستواء.

فقال في تفسير الآية ١٨٦ من سورة البقرة: قال الإمام ابن تيمية «وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطّلعٌ إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه» وفي الصحيح إنَّ « الَّذِى تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» (١) وما ذُكِر في الكتاب والسنة

(١) رواه مسلم بلفظ: «وَالَّذِى تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ»

مِن قُرْبه ومَعِيَّته لا يُنافي ما ذُكِر مِن عُلوّه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء[١].

وفي تفسير سورة الرعد فسر المؤلف الاستواء بالعلو فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٣]: «أي عَلا فوق العرش عُلُواً يليق بجلاله».

وقال في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: «﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ الاستواء: العلوّ والاستقرار». ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: «أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاستواء معلوم، والكَيْفُ مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبارُ الصفات تُمَرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال: كيف؟ ولِـمَ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء، وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلُغها واصِفٌ أو يَحُدُّها حَادٌّ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونَكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم الله عَزَّ وَجَلَّ»، وقال القرطبي: لم ينكر أحدٌ من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلم حقيقته».

وقال في تفسير قوله تعالى في سورة طه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [طه: ٥]: «استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تجسيمٍ، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل كما هو مذهب السلف».

وقال في تفسير قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩]: «استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل».

وقال في تفسير قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]: «استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل».

وقال في تفسير قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]: «استواءً يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييفٍ».

وقال في تفسير سورةً يونس: «﴿ثُمَّ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تكييفٍ، ولا تشبيه، ولا تعطيل».

ثم نقل المؤلف عن ابن كثير قوله: «نسلُك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل، والمتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفيٌ عن الله، فإن الله لا يُشْبِهه شيءٌ من خلقه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار

(١) اختصره المؤلف من مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٢-١٤٣).

الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، فقد سلك سبيل الهدى» اهـ. وفي تفسير كل هذه الآيات يُحيل المؤلف على تفسيره لآية الأعراف في تفسير استواء الله على عرشه.

ولكن المؤلف نقل في تفسير سورة يونس قولَ أبي السعود: «استوى على العرش على الوجه الذي عناه، وهو صفة له سبحانه بلا كيف، مُنَزَّهًا عن التمَكُّن والاستقرار».

وهذا من الملاحظات التي أُخِذَت على المؤلف، فقول أبي السعود «منزَّهًا عن التمكُّن والاستقرار» غير موافق لِما يثبته السلف من صفة العلو، ومخالفٌ لِما ذكره المؤلف نفسُه - في تفسير سورة الأعراف - من تفسير الاستواء بالعلوّ والاستقرار.

فكلام أبي السعود مخالفٌ لعقيدة أهل السنة والجماعة، والواجب السكوت عما سكتت عنه النصوص وسكت عنه السلف؛ بل إن عامة أهل السنة على إثبات «التمكن والاستقرار» الذي نزَّه أبو السعود اللهَ عنه، فإن جمعًا من علماء أهل السنة فسروا الاستواء بالاستقرار والتمكن، وما أنكرَ البقيةُ عليهم. جاء في كتاب «التمهيد» لابن عبد البر (٧/ ١٣١): «الاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار، والتمكُّن فيه».

فمن الملاحظات التي أخِذت على المؤلف أنه في الأسماء والصفات يتردد في مواضع من كتابه بين مذهب السلف وبين مذهب المفوضة، أو يخلط بينهما[1]، أو يُخطئ في الوصول إلى مذهب السلف، أو يقتصر على جزءٍ منه:

أ- فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ

(١) التفويض في أسماء الله تعالى وصفاته له معنيان: الأول: معنى صحيح، وهو إثبات اللفظ ومعناه الذي يدل عليه، ثم تفويض علم كيفيته إلى الله، فنثبت لله تعالى أسماءه الحسنى، وصفاته العلى، ونعْرف معانيها ونؤمن بها، غير أننا لا نعلم كيْفيتها. فنؤمن بأن الله تعالى قد استوى على العرش، استواء حقيقيًّا يليق بجلاله سبحانه، ليس كاستواء البشر، ولكن كيفية الاستواء مجهولة بالنسبة لنا؛ ولذا، فإننا نفوِّض كيفيته إلى الله، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة: إثبات صفات الله تعالى، إثباتًا بلا تمثيل ولا تكييف، قال الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾. والمعنى الثاني للتفويض - وهو معنى باطل -: إثبات اللفظ من غير معرفة معناه. فيثبتون الألفاظ فقط، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ثم يقولون: لا ندري معناه، ولا ماذا أراد الله به!! وقد توهم البعض أن مذهب السلف هو التفويض، وفهموا ذلك من قول السلف في أحاديث الصفات: (أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف) . وهو فهم غير صحيح، بل هذا القول الوارد عن السلف يدل على أنهم كانوا يثبتون الصفات بمعانيها لله تعالى، ثم ينفون علمهم بكيفية ذلك. وفي هذه العبارة رد على المعطلة والممثلة، ففي قولهم: «أمِرُّوها كما جاءت» رَدٌّ على المعطلة. وفي قولهم: « بلا كيف» رد على الممَثِّلة. وفيها أيضا دليل على أن السلف كانوا يُثبتون لنصوص الصفات المعاني الصحيحة التي تليق بالله تدل على ذلك من وجهين: الأول: قولهم: «أمِرُّوها كما جاءت». فإن معناها إبقاء دلالتها على ما جاءت به من المعاني، ولا ريب أنها جاءت لإثبات المعاني اللائقة بالله تعالى، ولو كانوا لا يعتقدون لها معنى لقالوا: «أمروا لفظها ولا تتعرضوا لمعناها». ونحو ذلك. الثاني: قولهم: «بلا كيف» فإنه ظاهر في إثبات حقيقة المعنى، لأنهم لو كانوا لا يعتقدون ثبوته ما احتاجوا إلى نفي كيفيته، فإن غير الثابت لا وجود له في نفسه، فنَفْيُ كيفيته من لغو القول.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]: أي ما ينتظرون شيئًا إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق» اهـ.

وهذا القول من المؤلف إثباتٌ لمذهب السلف، فالإتيان والمجيء صفتان ثابتتان بالكتاب والسنة على ما يليق بجلال الله، فهما من صفات الله على الحقيقة على ما هو لائق بالله بلا معرفة الكيف. ومن الدلائل على بطلان تأويل الإتيان والمجيء بالأمر أن الملائكة من أمر الله فلا معنى لمجيء الأمر مع تصريح مجيء الملائكة لأنه يكون ذكراً للملائكة بلا فائدة.

ولكن المؤلف عاد وقال في الهامش: «ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله: ﴿أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ وهو مجاز مشهور يقال ضرب الأمير فلانًا وصلبه وأعطاه المراد أنه أمر بذلك واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى» اهـ.

والمؤلف هنا بنَقْله لكلام الفخر الرازي خلَط بين مذهب السلف ومذهب الخلف، وأيضًا أخطأ في قوله إن مذهب السلف هو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى؛ لأن السلف إنما يفوِّضون كيفية الصفة ولا يفوِّضون معناها، ويدل على ذلك ما نقله المؤلف نفسُه بعد ذلك حيث قال:

تنبيه: قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في رسالته «التدمرية»: «وَصْفُه تعالى نفسه بالإتيان في ظلل من الغمام كوصْفه بالمجيء في آيات آخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه أو صحَّ عن رسوله ﷺ والقول في جميع ذلك من جنس واحد وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها، إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل ولا تكييفٍ ولا تمثيل، والقول في صفاته كالقول في ذاته والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه؟ فليُقَل له: كما لا تعلم كيفية ذاته كذلك لا تعلم كيفية صفاته» (١).

ب- والخلط بين مذهب السلف والخلف تجده أيضًا في تفسيره لسورة الفجر حيث

---

(١) ما نقله المؤلف ليس في «التدمرية» لابن تيمية بل هو كلام القاسمي في تفسيره «محاسن التأويل» (٢/ ٨٨): «فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه أو كيف يأتي..؟ فليقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال: لا أعلم كيفية ذاته! فليقل له: وكذلك لا تعلم كيفية صفاته..! فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف. وقد أطلق غير واحد، ممن حكى إجماع السلف، منهم الخطابيّ: مذهب السلف أن صفاته تعالى تجري على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها».

قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ أي وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد، وجاء الملائكة صُفوفـًا متتابعة صفًّا بعد صَفٍّ» اهـ.

وكلام المؤلف هنا موافقٌ لمذهب السلف، ولكنه لم يقف عند هذا بل نقل عن ابنِ جَزِيٍّ في تفسيره «التسهيل لعلوم التنزيل» قولَ المنذر بن سعيد: «معناه ظهوره للخلق هنالك»، وأن هذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييفٍ ولا تمثيل وما ذكره المؤلف في بداية تفسير الآية هو الصواب، فالمجيء صفة من صفات الله على الحقيقة على ما هو لائق بالله بلا معرفة الكَيْف.

فقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ لا يصح تأويله بظهور الله للخلق. بل هذا مع مخالفته لظاهر القرآن يخالف نص السنة الصحيحة، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَجْمَعُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ، وَيَنْزِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ» (رواه ابن أبي الدنيا والطبراني، والحاكم وصححه، وحسنه الذهبي، وصححه الألباني).

وبذلك قال أئمة التفسير. قال الإمام الطبري في تفسيره (٢٤/ ٤١٧): «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَإِذَا جَاءَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَمْلَاكُهُ صُفُوفًا صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ». اهـ. ثم أورد من الأحاديث والآثار ما يدل لقوله ويثبت مجيء الله تعالى.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٩٩): ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي: لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَيْهِ بِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ، ... فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ فَيُشَفِّعُهُ اللهُ فِي ذَلِكَ، ... فَيَجِيءُ الرَّبُّ تَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا».

ج- قال المؤلف في تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة: «﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ المراد علو المنزلة والشأن الذي تعالى في جلاله وعظم في سلطانه» اهـ.

ولم يذكر علو الذات الذي ذكره في تفسيره لآيات الاستواء، حيث ذكر أن الله فوق العرش، وأثبت لله ﷻ استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف، وفسَّر الاستواء بالعلوّ والاستقرار وأنه عَلا فوق العرشَ عُلُواً يليق بجلاله، وأنا لا نعلم كيفية الاستواء.

فمن أسماء الله الحسنى (العلِيّ الأعلَى) وذلك دال على أن جميع معاني العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات، وهو أنه مستو على عرشه، فوق جميع خلقه، مباين لهم، وهو مع هذا مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأمورهم الظاهرة والباطنة متكلم بأحكامه القدرية، وتدبيراته الكونية، وبأحكامه الشرعية.

وأما علو القدر فهو علو صفاته، وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق

كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته.

وله علو القهر فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلّهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره، ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

ملاحظات عامة على كتاب " صفوة التفاسير " للشيخ الصابوني[١]:

١- اعتماد المؤلف على مصادر غير مرغوب فيها ووصْفُه لها بأنها أوثق كتب التفسير، مثل: «تلخيص البيان» للرضي الشيعي الرافضي، و «تفسير الزمخشري» المعتزلي، وعلى تفاسير الأشاعرة كالرازي وأبي السعود والصاوي والبيضاوي، وبعض التفاسير العصرية، ولا يخفى أن كثيرًا من القراء يعرفون حقيقة هذه الكتب وما فيها من أخطاء.

٢- إثبات المجاز والاستعارات في القرآن الكريم مما لا يتناسب مع مكانته الجليلة، وكلام الله يجب حَمْله على الحقيقة لا على المجاز[٢].

٣- حَشْو الكتاب بما لا يفهمه كثير من القراء من اصطلاحات البلاغيين، مثل: الطباق، والجناس، والاشتقاق، والإطناب، والحذف، ويذكر هذه الأشياء بمجرد أسمائها من غير إيضاح لها[٣].

٤- يُورِد في الكتاب كثيرا من الأحاديث في أسباب النزول وغيرها، ولا يبين درجتها من الصحة وعدمها.

٥- ينقل من كتب المعتزلة والأشاعرة من غير تعليق على ما تشتمل عليه عباراتهم من أغلاط في العقيدة، وهذا فيه تمرير لعقائدهم الباطلة وتغرير بالقارئ المبتدئ.

---

(١) انظر: تعقيبات وملاحظات على كتاب صفوة التفاسير(ص ١٢ -١٣)، تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسير ومخالفات هامة في مختصر تفسير ابن جرير الطبري (ص ٧-٣٥).

(٢) انظر: «منع جواز المجاز في المُنَزّل للتعبُّد والإعجاز»، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

(٣) من الملاحظات المتكررة في الكتاب قول المؤلف إن في القرآن سجعًا، والصواب ألا يُقال ذلك؛ لأن السجع من كلام الكهنة المذموم. وقد ذكر الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٥٤) كلامًا ينفي فيه وجود السجع في القرآن، وذكر السيوطي في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» (٣/ ٣٣٤) أن الْجُمْهُورُ عَلَى أنه لا يجوز أَنْ يُقَالَ: فِي الْقُرْآنِ سَجْعٌ؛ لِأَنَّ السَجْعَ أَصْلُهُ مِنْ سَجْعِ الطَّيْرِ فَشَرُفَ الْقُرْآنُ أَنْ يُسْتَعَارَ لِشَيْءٍ مِنْهُ لَفْظٌ أَصْلُهُ مُهْمَلٌ وَلِأَجْلِ تَشْرِيفِهِ عَنْ مُشَارَكَةِ غَيْرِهِ مِنَ الْكَلَامِ الْحَادِثِ فِي وَصْفِهِ بِذَلِكَ وَلِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى فَلَا يَجُوزُ وَصْفُهُ بِصِفَةٍ لَمْ يَرِدِ الْإِذْنُ بِهَا. وَفَرَّقُوا بِأَنَّ السَّجْعَ هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ فِي نَفْسِهِ ثُمَّ يُحَالُ الْمَعْنَى عَلَيْهِ وَالْفَوَاصِلَ الَّتِي تَتْبَعُ الْمَعَانِيَ وَلَا تَكُونُ مَقْصُودَةً فِي نَفْسِهَا، ولذلك كانت الفواصل بَلَاغَةً وَالسَّجْعُ عَيْبًا.

٦- يفسر بعض آيات الصفات بما فسرها به نفاة الصفات[١]، ولا يفسرها بالأحاديث التي جاءت توضحها، كما في آية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، وآية: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾، وآية: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٢].

٧- يتمشى مع منهج المتكلمين في الاستدلال بالآيات على إثبات توحيد الربوبية ووجود الرب ولا يستدل بها على توحيد الإلهية الذي سِيقَت من أجله وجاءت لمُحَاجَّة المخالفين فيه[٣].

٨- يتمشى مع منهج المرجئة في تفسير الإيمان بالتصديق فقط[٤].

٩- تمر في تفسيره تعبيرات صوفية.

١٠- قوله في تفسير أنه لا إله إلا الله: «لا معبود سواه» والصواب: لا معبود بحق سواه، لأن هناك معبودات بغير حق، ومن ذلك قوله في تفسير الآية ٦٢ من سورة آل عمران: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي لا يوجد إله غير الله، فالصواب أن يقال: «لا يوجد إلهٌ حَقٌّ غيرُ الله» لأن هناك آلهة باطلة[٥].

---

(١) قال المؤلف في كتابه «كشف الافتراءات في رسالة التنبيهات حول صفوة التفاسير» (ص / ١٦٧) إنه لا يتبنى مذهب الأشاعرة وأَقَرَّ بأنهم مُخطِئون في التأويل، ولكنه وقع في بعض ما وقعوا فيه من التأويل، ومن ذلك تأويل الوجه بالذات؛ لأنه نَفْيٌ لصفة ثابتة لله تعالى. ومن ذلك قوله في تفسير سورة ص: «﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: قال له ربه: ما الذي صرفك وصدَّك عن السجود لمن خلقْتُه بذاتي». وتفسير اليدين بالذات تعطيل للصفات وجَحْد ليدَيْ الله الكريمتين. فاليدان صفةٌ ذاتيةٌ خبريَّةٌ لله عَزَّ وجَلَّ، نثبتها كما نثبت باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل، وهي ثابتةٌ بالكتاب والسنة.

(٢) خالف المؤلف في ذلك ما نقله في تفسير «سورة الكوثر» عن أبي حيَّان في «البحر المحيط» من أنّ فِي الْكَوْثَرِ سِتَّةً وَعِشْرِينَ قَوْلًا، وَأن الصَّحِيحُ هُوَ مَا فَسَّرَهُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

(٣) هذا هو الغالب، ولكنه نادرًا ما يخالف ذلك، فقد نقل عن الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الغاشية قوله: «نبه تعالى البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكبٌ عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، الذي لا يستحق العبادة سواه» اهـ. وقال في تفسير سورة الشمس: «قال المفسرون: أقسم سبحانه بسبعة أشياء «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهاراً لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية، وإشارةً إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعِظَم نفعها وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها».

(٤) وقد ذكر المؤلف كلام أهل السنة في تفسير الآية ٧ من سورة «فاطر» حيث قال: «فالإيمان تصديقٌ، وقول، وعمل».

(٥) ولكن في مواطن من تفسيره ذكر المؤلف القول الصواب، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]: «أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا». وقال في تفسير الآية ١٨ من سورة آل عمران: «﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو». وقال في تفسير الآية ٢ من سورة غافر: «﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍ إلا الله، ولا ربَّ في الوجود سواه». وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٣]: « أي هو جلَّ وعلا الإله المعبود بحقٍ لا إله ولا رب سواه».

١١- من الملاحظات المتكررة في الكتاب قول المؤلف: هذا تعجيب من الله تعالى لنبيه، هذا التعبير خطأ، لأنه يتضمن نَفْيَ التعجب عن الله، وقد ثبت في الأدلة أنه سبحانه يعجب(١)، ومثل هذا يتكرر كثيرًا، والصواب أن يقول: هذا تعجُّب من الله. فالله هو من يتكلم بصيغة التعجب فيكون متعجبًا(٢).



(١) قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «قَوْلُهُ تَعَالَى: بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخُرُونَ. قَرَأَ هَذَا الْحَرْفَ عَامَّةُ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ غَيْرَ حَمْزَةَ وَالْكِسَائِيِّ: عَجِبْتَ بِالتَّاءِ الْمَفْتُوحَةِ وَهِيَ تَاءُ الْخِطَابِ، الْمُخَاطَبُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ. وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ: بَلْ عَجِبْتُ، بِضَمِّ التَّاءِ وَهِيَ تَاءُ الْمُتَكَلِّمِ، وَهُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا. وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي تَرْجَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ أَنَّ الْقِرَاءَتَيْنِ الْمُخْتَلِفَتَيْنِ يُحْكَمُ لَهُمَا بِحُكْمِ الْآيَتَيْنِ. وَبِذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ عَلَى قِرَاءَةِ حَمْزَةَ وَالْكِسَائِيِّ فِيهَا إِثْبَاتُ الْعَجَبِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَهِيَ إِذًا مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ» [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ٣٠٨)].

(٢) وقد أثبت المؤلف صفة التعجب لله فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم﴾: «أيْ أيُّ شيءٍ خدعك بربك الحليم الكريم، حتى عصيْتَه وتجرأتَ على مخالفة أمره، مع إحسانه إليك وعطفه عليك؟». ثم قال في الهامش: هذه الآية واردة على سبيل التوبيخ والتعجب من حال الإنسان الجاحد لنعم ربه. وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تعَجُّبٌ من حال ذلك الشقي الفاجر أي أَخْبِرني يا محمد عن ذلك المجرم الأثيم، الذي ينهى عبداً من عباد الله عن الصلاة، ما أسخفَ عقله. وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾: «الاستفهام للتعجب والاستغراب». وقد ذكر المؤلف ما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ». وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ » [الحشر: ٩].

٣- مصادر الشيخ الصابوني في «صفوة التفاسير»

١- تفسير ابن جرير الطبرى «جامع البيان في تأويل القرآن».
٢- تفسير ابن كثير «تفسير القرآن العظيم».
٣- تفسير القاسمى «محاسن التأويل فى تفسير القرآن الكريم».
٤- تفسير الزمخشري «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»[(١)].
٥- تفسير ابن عطية «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز».
٦- تفسير الرازى «مفاتيح الغيب» أو «التفسير الكبير».
٧- تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن».
٨- تفسير البيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»[(٢)].
٩- تفسير ابن جِزّي « التسهيل لعلوم التنزيل».
١٠- تفسير الخازن «لباب التأويل في معاني التنزيل».
١١- تفسير أبي حيان الأندلسى «البحر المحيط في التفسير»[(٣)].
١٢- تفسير الجلالين، لجلال الدين المحلى،وجلال الدين السيوطى.
١٣- حاشية الجمل على «تفسير الجلالين» (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية).
١٤- حاشية الصاوي على «تفسير الجلالين» .
١٥- تفسير السيوطي «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور».
١٦- تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم».
١٧- تفسير الشوكانى «فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من التفسير ».
١٨- تفسير الألوسي «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني».

ومن الكتب الأخرى التي نقل منها الشيخ الصابوني في «صفوة التفاسير»:

١- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني.
٢- غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري.
٣- كشف المعانى فى المتشابه من المثانى، لابن جماعة الكناني الحموي الشافعي.
٤- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى اليحصبي.

---

(١) لشرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي حاشية على تفسير الكشاف اسمها «فتوح الغَيْب في الكشف عن قناع الرَّيْب».
(٢) محي الدين شيخ زاده له حاشية على تفسير البيضاوي، كتبها على سبيل الإيضاح والبيان للمبتدئ.
(٣) وبهامشه «النهر الماد من البحر» له أيضًا.

٥- مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري.

٦- جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد، للمحدث الأديب محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي السوسي المغربي، وبذيله «أعذب الموارد في تخريج جمع الفوائد» للسيد عبد الله هاشم اليماني المدني.

٧- تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي.

٨- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي.

٩- لسان العرب، لجمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقى.

١٠- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى.

١١- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي.

١٢- مقدمة في التفسير، لحسن البنا.

١٣- روائع البيان تفسير آيات الأحكام، لمحمد علي الصابوني.

١٤- النبوة والأنبياء، لمحمد علي الصابوني.

١٥- متن الجوهرة فِي التوحيد، لبرهان الدين إبراهيم بن هارون اللقاني [١].

١٦- الحكم لابن عطاء الله السكندري[٢].

١٧- تلخيصُ البَيان فى مَجازات القرْآن، للشريف الرضى [٣].



(١) كتاب جوهرة التوحيد مختصر في العقيدة الأشعرية، انظر في الرد عليه: «ملاحظات على البيجوري، في شرح جوهرة التوحيد»، لعمر بن محمد أبو عمرو.

(٢) ابن عطاء الله السكندري هو: أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل، وهو من أهل التصوف الغلاة، يسير على الطريقة الشاذلية، وهو من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد ادَّعى عليه عند السلطان، وألَّب عليه السفهاء، توفي سنة ٧٠٩ هـ . وكتاب «الحكَم الإلهية» قد تتبع ما فيه من ضلالات الشيخ محمود مهدي الإستانبولي رَحِمَهُ اللَّهُ، وذلك في كتابه الماتع «كتب ليست من الإسلام» (٩١-١٠١)، ومن تلك الضلالات: أ. أقوال يؤيد فيها نظرية وحدة الوجود القائلة بأن الخالق والمخلوق واحد، ومثلها نظرية الاتحاد والحلول، وكل ذلك كفر. ب. أقواله في النهي عن دعاء الله، مما يصادم أصول الشريعة :ج . أقوال تشجع على تعطيل المواهب والعزائم وتدعو إلى التماوت وترك التدبير.

(٣) الشريف الرضى شيعي متعصب، قال عنه الذهبي: «رافِضِيٌّ جلد». [انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٣/ ٥٢٣)].

٤ - اعتقاد الأئمة الأربعة[(١)]

إن عقيدة الأئمة الأربعة هي العقيدة الجديرة بأن تجمع المسلمين على كلمة سواء وتعصمهم من التفرق في الدين لأنها مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فاعتقاد الأئمة الأربعة - أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله - هو ما نطق به الكتاب والسُّنَّة وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان وليس بين هؤلاء الأئمة ولله الحمد نزاع في أصول الدين بل هم متفقون على الإيمان بصفات الرب وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الإيمان لا بد فيه من تصديق القلب واللسان، بل كانوا ينكرون على أهل الكلام من جهمية وغيرهم ممن تأثروا بالفلسفة اليونانية والمذاهب الكلامية.

فعقيدة هؤلاء الأئمة الأربعة هي العقيدة الصحيحة التي جاءت في الكتاب والسنة من منبع صاف لا تشوبه شائبة التأويل والتعطيل أو التشبيه أو التمثيل.

من أقوال الإمام أبي حنيفة رحمه الله في التوحيد:

أولاً: عقيدته في توحيد الله وبيان التوسل الشرعي وإبطال التوسل البدعي:

١ - قال أبو حنيفة رحمه الله: «لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به والدعاء المأذون فيه المأمور به ما استفيد من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ... » .

٢ - وقال أبو حنيفة رحمه الله: «يكره أن يقول الداعي أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام»[(٢)].

---

(١) باختصار من: اعتقاد الأئمة الأربعة، للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس.

(٢) قال الإمام الشاطبي - رحمه الله -: «وَأَمَّا كَلَامُ الْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُمْ - وَإِنْ أَطْلَقُوا الْكَرَاهِيَةَ فِي الْأُمُورِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا - لَا يَعْنُونَ بِهَا كَرَاهِيَةَ التَّنْزِيهِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا هَذَا اصْطِلَاحٌ لِلْمُتَأَخِّرِينَ حِينَ أَرَادُوا أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْقَبِيلَيْنِ. فَيُطْلِقُونَ لَفْظَ الْكَرَاهِيَةِ عَلَى كَرَاهِيَةِ التَّنْزِيهِ فَقَطْ، وَيَخُصُّونَ كَرَاهِيَةَ التَّحْرِيمِ بِلَفْظِ التَّحْرِيمِ وَالْمَنْعِ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ. وَأَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنَ السَّلَفِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِمْ فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ صَرِيحًا أَنْ يَقُولُوا: هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ. وَيَتَحَامَوْنَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ خَوْفًا مِمَّا فِي الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، وَحَكَى مَالِكٌ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ هَذَا الْمَعْنَى. فَإِذَا وُجِدَتْ فِي كَلَامِهِمْ فِي الْبِدْعَةِ أَوْ غَيْرِهَا: أَكْرَهُ هَذَا، وَلَا أُحِبُّ هَذَا، وَهَذَا مَكْرُوهٌ. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَلَا تَقْطَعَنَّ عَلَى أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ التَّنْزِيهَ فَقَطْ» (الاعتصام (٢/ ٥٣٧ - ٥٣٨). وقال الإمام ابن القيم: «قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْت مَالِكًا يَقُولُ: «لَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ وَلَا مَنْ مَضَى مِنْ سَلَفِنَا، وَلَا أَدْرَكْت أَحَدًا أَقْتَدِي بِهِ يَقُولُ فِي شَيْءٍ: هَذَا حَلَالٌ، وَهَذَا حَرَامٌ، وَمَا كَانُوا يَجْتَرِئُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَقُولُونَ: نَكْرَهُ كَذَا، وَنَرَى هَذَا حَسَنًا؛ فَيَنْبَغِي هَذَا، وَلَا نَرَى هَذَا»، وَرَوَاهُ عَنْهُ عَتِيقُ بْنُ يَعْقُوبَ، وَزَادَ: «وَلَا يَقُولُونَ حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ، أَمَا سَمِعْت قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، الْحَلَالُ: مَا أَحَلَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ». قُلْت (القائل الإمام ابن القيم): =

ثانيًا: قوله في إثبات الصفات والرد على الجهمية:

١- قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف، وهو قول أهل السُّنَّة والجماعة وهو يغضب ويرضى ولا يقال: غضبه عقوبته ورضاه ثوابه، ونَصِفُه كما وصف نفسَه أحدٌ صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، حيٌّ قادر سميع بصير عالم، يد الله فوق أيديهم ليست كأيدي خلقه ووجهه ليس كوجوه خلقه».

٢- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وله يد ووجه ونفس، كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس، فهو له صفات بلا كيف ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته، لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال».

٣- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء بل يصفه بما وصف به نفسه ولا يقول فيه برأيه شيئًا تبارك الله وتعالى رب العالمين».

٤- ولما سُئل عن النزول الإلهي قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينزل بلا كيف».

٥- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله تعالى يدعى من أعلى لا من أسفل لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء».

٦- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو يغضب ويرضى ولا يقال غضبه عقوبته ورضاه ثوابه».

٧- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يشبه شيئًا من الأشياء من خلقه ولا يشبهه من خلقه لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته».

٨- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصفاته بخلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويسمع لا كسمعنا، ويتكلم لا ككلامنا».

٩- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين».

= «وَقَدْ غَلِطَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ عَلَى أَئِمَّتِهِمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ، حَيْثُ تَوَرَّعَ الْأَئِمَّةُ عَنْ إطْلَاقِ لَفْظِ التَّحْرِيمِ، وَأَطْلَقُوا لَفْظَ الْكَرَاهَةِ، فَنَفَى الْمُتَأَخِّرُونَ التَّحْرِيمَ عَمَّا أَطْلَقَ عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ الْكَرَاهَةَ، ثُمَّ سَهُلَ عَلَيْهِمْ لَفْظُ الْكَرَاهَةِ وَخَفَّتْ مُؤْنَتُهُ عَلَيْهِمْ فَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى التَّنْزِيهِ، وَتَجَاوَزَ بِهِ آخَرُونَ إلَى كَرَاهَةِ تَرْكِ الْأَوْلَى، وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا فِي تَصَرُّفَاتِهِمْ؛ فَحَصَلَ بِسَبَبِهِ غَلَطٌ عَظِيمٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ وَعَلَى الْأَئِمَّةِ». ثم ذكر الإمام ابن القيم أمثلة كثيرة منها قول الإمام أَحْمَدَ: «لَا يُعْجِبُنِي أَكْلُ مَا ذُبِحَ لِلزَّهْرَةِ وَلَا الْكَوَاكِبِ وَلَا الْكَنِيسَةِ، وَكُلُّ شَيْءٍ ذُبِحَ لِغَيْرِ اللهِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]. فَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ: «لَا يُعْجِبُنِي» فِيمَا نَصَّ اللهُ - سُبْحَانَهُ - عَلَى تَحْرِيمِهِ، وَاحْتَجَّ هُوَ أَيْضًا بِتَحْرِيمِ اللهِ لَهُ فِي كِتَابِهِ» [انظر: إعلام الموقعين (١/ ٤٠ - ٤١)]. ومما يوضح كلام الإمامين الشاطبي والنووي أن الإمام الترمذي قال في سننه: «بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ إِتْيَانِ الحَائِضِ»، وذكر فيه قول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «مَنْ أَتَى حَائِضًا، أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ». [سنن الترمذي (١/ ١٩٩)، والحديث صححه الألباني]. فهل يُعقل أن يستدل الإمام الترمذي بالحديث على الكراهة التنزيهية؟!!

١٠ – وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر» .

١١ – وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر، وكذا من قال إنه على العرش ولا أدري العرش أفي السماء أم في الأرض» .

١٢ – وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومتكلمًا بكلامه والكلام صفة في الأزل» .

١٣ – وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويتكلم لا ككلامنا» .

١٤ – وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقرآن كلام الله في المصاحف مكتوب وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي ﷺ، أنزل» .

١٥ – وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقرآن غير مخلوق» .

ثالثًا: أقوال الإمام أبي حنيفة في القدر:

١ – جاء رجل إلى الإمام أبي حنيفة يجادله في القدر فقال له: «أما علمت أن الناظر في القدر كالناظر في عيني الشمس كلما ازداد نظرًا ازداد تحيرًا» .

٢ – يقول الإمام أبو حنيفة: «وكان الله تعالى عالمًا في الأزل بالأشياء قبل كونها» .

٣ – وقال: «يعلم الله تعالى المعدوم في حالة عدمه معدومًا ويعلم أنه كيف يكون إذا أوجده، ويعلم الله تعالى الموجود في حال وجوده موجودًا ويعلم كيف يكون فناؤه» .

٤ – يقول الإمام أبو حنيفة: «وقدره في اللوح المحفوظ» .

٥ – وقال: «ونقر بأن الله تعالى أمر بالقلم أن يكتب فقال القلم، ماذا أكتب يا رب؟ فقال الله تعالى: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[1] لقوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٢ – ٥٣]» .

٦ – وقال الإمام أبو حنيفة: «ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلا بمشيئته» .

٧ – وقال: «نقر بأن العبد مع أعماله وإقراره ومعرفته مخلوق، فلما كان الفاعل مخلوقًا فأفعاله أولى أن تكون مخلوقة» .

٨ – وقال: «جميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم والله تعالى خالقها وهي كلها بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره» .

٩ – قال الإمام أبو حنيفة: «وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة والله تعالى خلقها وهي كلها بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره، والطاعات كلها كانت واجبة بأمر الله تعالى وبمحبته وبرضاه وعلمه ومشيئته وقضائه وتقديره، والمعاصي كلها بعلمه وقضائه وتقديره ومشيئته لا بمحبته ولا برضائه ولا بأمره».

---

(١) قال ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ. قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

١٠ – وقال: «وهو الذي قدر الأشياء وقضاها ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلا بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره، وكَتَبه في اللوح المحفوظ» .

رابعًا: أقوال الإمام أبي حنيفة في الإيمان:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان والإقرار وحده لا يكون إيمانًا» .

خامسًا: قول الإمام أبي حنيفة في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم :

١ – قال الإمام أبو حنيفة: «ولا نذكر أحدًا من صحابة رسول الله إلا بخير» .

٢ – وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا نتبرأ من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نوالي أحدًا دون أحد» .

٣ – وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «مقام أحدهم مع رسول الله ﷺ، ساعة واحدة خير من عمل أحدنا جميع عمره وإن طال» .

٤ – وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونقر بأن أفضل هذه الأمة بعد نبينا محمد ﷺ: أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم أجمعين» .

عقيدة الإمام مالك بن أنس:

أولًا: قوله في التوحيد:

١ – عن جعفر بن عبد الله قال: «كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟. فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته. فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء – يعني العرق – ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وأظنك صاحب بدعة». وأمر به فأُخرِج.

٢– وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: الله في السماء وعِلمُه في كل مكان» .

ثانيًا: قوله في القدر:

١ – أخرج ابن أبي عاصم عن سعيد بن عبد الجبار قال: «سمعت مالك بن أنس يقول: رأيي فيهم أن يستتابوا فإن تابوا وإلا قتلوا – يعني القدرية –»[1] .

٢– وعن مروان بن محمد الطاطري قال: (سمعت مالك بن أنس يسأل عن تزويج القدري؟ فقرأ: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١] ... » .

٣– وقال القاضي عياض: «قال مالك: لا تجوز شهادة القدري الذي يدعو، ولا الخارجي والرافضي» .

---

(١) أي من لا يؤمنون بالقدر.

ثالثًا: قوله في الإيمان:

١ - عن عبد الرزاق بن همام قال: «سمعت ابن جريج وسفيان الثوري ومعمر بن راشد وسفيان بن عيينة ومالك بن أنس يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص».

٢- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان قول وعمل».

رابعًا: قوله في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

١ - قال الإمام مالك بن أنس: من تنقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غل، فليس له حق في فيء المسلمين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ [الحشر: ١٠]. فمن تنقصهم أو كان في قلبه عليهم غل، فليس له في الفيء حق».

٢- عن رجل من ولد الزبير قال: «كنا عند مالك فذكروا رجلاً يتنقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ﴾ -حتى بلغ - ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]. فقال مالك: (من أصبح في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته الآية)».

عقيدة الإمام الشافعي:

أولًا: قوله في التوحيد:

١ - قال الشافعي في كتابه الرسالة: «والحمد لله ... الذي هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه».

٢ - وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «نثبت هذه الصفات التي جاء بها القرآن ووردت بها السنة وننفي التشبيه عنه كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]».

٣- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من قال القرآن مخلوق فهو كافر».

ثانيًا: قوله في القدر:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن مشيئة العبادة هي إلى الله تعالى ولا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين، فإن الناس لم يخلقوا أعمالهم وهي خلق من خلق الله تعالى أفعال العباد وإن القدر خيره وشره من الله عز وجل، وإن عذاب القبر حق، ومساءلة أهل القبور حق، والبعث حق، والحساب حق، والجنة والنار حق، وغير ذلك مما جاءت به السنن».

ثالثًا: قوله في الإيمان:

١ - قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان قول وعمل واعتقاد بالقلب».

٢ - وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت الشافعي يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص».

رابعًا: قوله في الصحابة:

١ - قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل وسبق لهم لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله، وهنأهم بما أتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، فهم أدوا إلينا سُنن رسول الله ﷺ، وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله ﷺ عامًّا وخاصًّا وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا من سُنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل، وأمر استدرك به علم واستنبط به وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا والله أعلم» .

٢ - وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: « أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي - رضي الله عنهم -» .

٣- عن يوسف بن يحيى البويطي قال: «سألت الشافعي أأصلي خلف الرافضي؟ قال: لا تصل خلف الرافضي ولا القدري ولا المرجئ، قلت: صفهم لنا، قال: من قال: الإيمان قول فهو مرجئ، ومن قال: إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامين فهو رافضي، ومن جعل المشيئة إلى نفسه فهو قدري» .

عقيدة الإمام أحمد بن حنبل:

أولًا: قوله في التوحيد:

١ - قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يزل الله عزّ وجل متكلمًا، والقرآن كلام الله عزّ وجل غير مخلوق، ولا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه عز وجل».

٢- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من زعم أن الله لا يتكلم فهو كافر» .

٣ - وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «نحن نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حدّ ولا صفة يبلغها واصف أو يحُدُّه أحد، فصفات الله منه وله وهو كما وصف نفسه لا تدركه الأبصار» .

٤- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر مكذب بالقرآن» .

ثانيًا: قوله في القدر:

١ - قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومُرّه من الله» .

٢ - وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والقدر خيره وشره وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومره، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره من الله قضاء قضاه على عباده وقدر قدره، ولا يعدو واحد منهم مشيئة الله عز وجل ولا يجاوز قضاءه» .

ثالثًا: قوله في الإيمان:

١ - قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان يزيد وينقص».

٢- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: الصلاة والزكاة والحج والبر من الإيمان والمعاصي تُنقِص الإيمان».

رابعًا: قوله في الصحابة:

١ - قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن السُّنَّة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ، كلهم أجمعين، والكَفُّ عن ذكر مساوئهم والخلاف الذي شجر بينهم، فمن سبّ أصحاب رسول الله ﷺ، أو أحدًا منهم فهو مبتدع، رافضي خبيث، لا يقبل الله منه صرفًا، ولا عدلاً، بل حبهم سُنَّة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة».

ثم قال: «ثم أصحاب رسول الله ﷺ، بعد الأربعة خير الناس، ولا يجوز لأحد أن يذكر شيئًا من مساوئهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا بنقص، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه» .

٢- وقال عبد الله بن أحمد: «سألت أبي عن الأئمة فقال: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي» .

٣ - وقال عبد الله بن أحمد: «سألت أبي عن قوم يقولون: إن عليًّا ليس بخليفة، قال هذا قول سوء ردِيّ» .

٤ - وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم يثبت الخلافة لعلي فهو أضَلُّ من حمار أهله» .



٥- قواعد في الأسماء والصفات [١]

أسماء الله كل ما دل على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به؛ مثل: القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير؛ فإن هذه الأسماء دلَّت على ذات الله، وعلى ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر، أما الصفات؛ فهي نُعُوت الكمال القائمة بالذات؛ كالعلم والحكمة والسمع والبصر؛ فالاسم دل على أمرين، والصفة دلت على أمر واحد، ويقال: الاسم متضمن للصفة، والصفة مستلزمة للاسم.

ولمعرفة ما يُميِّز الاسم عن الصفة، والصفة عن الاسم أمور، منها:

أولاً: أن الأسماء يشتق منها صفات، أما الصفات؛ فلا يشتق منها أسماء، فنشتق من أسماء الله الرحيم والقادر والعظيم، صفات الرحمة والقدرة والعظمة، لكن لا نشتق من صفات الإرادة والمجيء والمكر اسم المريد والجائي والماكر،

ثانياً: أن الاسم لا يُشتق من أفعال الله؛ فلا نشتق من كونه يحب ويكره ويغضب اسم المحب والكاره والغاضب، أما صفاته؛ فتشتق من أفعاله فنثبت له صفة المحبة والكره والغضب ونحوها من تلك الأفعال، لذلك قيل: باب الصفات أوسع من باب الأسماء.

ثالثاً: أن أسماء الله عَزَّ وجَلَّ وصفاته تشترك في الاستعاذة بها والحلف بها، [٢]لكن تختلف في التعبد والدعاء، فيُتَعَبد الله بأسمائه، فنقول: عبد الكريم، وعبد الرحمن، وعبد العزيز، لكن لا يُتعبد بصفاته؛ فلا نقول: عبد الكرم، وعبد الرحمة، وعبد العزة؛ كما أنه يُدعى اللهُ بأسمائه، فنقول: يا رحيم! ارحمنا، ويا كريم! أكرمنا، ويا لطيف! الطف بنا، لكن لا ندعو صفاته فنقول: يا رحمة الله! ارحمينا، أو: يا كرم الله! أو: يا لطف الله! ذلك أن الصفة ليست هي الموصوف؛ فالرحمة ليست هي الله، بل هي صفةٌ لله، وكذلك العزة، وغيرها؛ فهذه صفات لله، وليست هي الله، ولا يجوز التعبد إلا لله، ولا يجوز دعاء إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠] وغيرها من الآيات.

قواعد عامة في الصفات:

القاعدة الأولى: إثباتُ ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو أثبته له رسوله ﷺ؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

لأن الله أعلم بنفسه من غيره، ورسوله ﷺ أعلم الخلق بربه.

القاعدة الثانية: نفيُ ما نفاه الله عن نفسه في كتابه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، مع اعتقاد ثبوت كمال ضده لله تعالى.

---

(١) باختصار من: صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، للشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف.

(٢) فيجوز أن نحلف ونستعيذ بالله وأسمائه وصفاته فنقول: والله والرحمن وهكذا، وكذلك يجوز أن نقول: نعوذ بالله، ونعوذ بالرحمن، ونعوذ بعزة الله وقدرته.

لأن الله أعلم بنفسه من خلقه، ورسوله أعلم الناس بربه؛ فنَفْيُ الموت عنه يتضمن كمال حياته، ونفي الظلم يتضمن كمال عدله، ونفي النوم يتضمن كمال قيُّوميَّته.

القاعدة الثالثة: صفات الله عَزَّ وجَلَّ توقيفية؛ فلا يُثبت منها إلا ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ، ولا يُنفى عن الله عَزَّ وجَلَّ إلا ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ.

لأنه لا أحد أعلم بالله من نفسه تعالى، ولا مخلوقٌ أعلم بخالقه من رسول الله ﷺ.

القاعدة الرابعة: التوقف في الألفاظ المجملة التي لم يرد إثباتها ولا نفيها، أما معناها؛ فَيُسْتفصل عنه، فإن أريد به باطل يُنَزَّه الله عنه؛ رُدَّ، وإن أريد به حق لا يمتنع على الله؛ قُبِلَ، مع بيان ما يدلُّ على المعنى الصواب من الألفاظ الشرعية، والدعوة إلى استعماله مكان هذا اللفظ المجمل الحادث.

مثاله: لفظة (الجهة): نتوقف في إثباتها ونفيها، ونسأل قائلها: ماذا تعني بالجهة؟ فإن قال: أعني أنه في مكان يحويه. قلنا: هذا معنى باطل يُنَزَّه الله عنه، ورددناه. وإن قال: أعني جهة العلو المطلق؛ قُلْنا: هذا حق لا يمتنع على الله. وقبلنا منه المعنى، وقلنا له: لكن الأولى أن تقول: هو في السماء، أو في العلو؛ كما وردت به الأدلة الصحيحة، وأما لفظة (جهة)؛ فهي مجملة حادثة، الأَوْلَى تَرْكُها.

القاعدة الخامسة: كل صفة ثبتت بالنقل الصحيح؛ وافقت العقل الصريح، ولابد.

القاعدة السادسة: قطع الطمع عن إدراك حقيقة الكيفية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

القاعدة السابعة: صفات الله عَزَّ وجَلَّ تُثبت على وجه التفصيل، وتنفى على وجه الإجمال.

فالإثبات المفصل؛ كإثبات السمع والبصر وسائر الصفات، والنفي المجمل كنفي المثلية في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

القاعدة الثامنة: كل اسم ثبت لله عَزَّ وجَلَّ؛ فهو متضمن لصفة، ولا عكس.

مثاله: اسم الرحمن متضمن صفة الرحمة، والكريم يتضمن صفة الكرم، واللطيف يتضمن صفة اللطف ... وهكذا، لكن صفاته: الإرادة، والإتيان، والاستواء، لا نشتق منها أسماء، فلا نقول: المريد، والآتي، والمستوي **وهكذا القاعدة التاسعة**: صفات الله تعالى كلها صفات كمال، لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه.

القاعدة العاشرة: صفات الله عَزَّ وجَلَّ ذاتِيَّة وفعليَّة، والصفات الفعليَّة متعلقة بأفعاله، وأفعاله لا منتهى لها، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

القاعدة الحادية عشرة: دلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة: إما التصريح بها، أو تَضَمُّن الاسم لها، أو التصريح بفعلٍ أو وصفٍ دالٍّ عليها. مثال الأول: الرحمة، والعزة، والقوة، والوجه، واليدين، والأصابع ... ونحو ذلك.

مثال الثاني: البصير متضمن صفة البصر، والسميع متضمن صفة السمع.. ونحو ذلك.

مثال الثالث: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾: دالٌّ على الاستواء، ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾: دالٌّ على الانتقام ... ونحو ذلك.

القاعدة الثانية عشرة: صفات الله عَزَّ وجَلَّ يستعاذ بها ويُحلف بها.

ومنها قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ». (رواه مسلم).

القاعدة الثالثة عشرة: الكلام في الصفات كالكلام في الذات.

فكما أن ذاته حقيقية لا تُشبه الذَوَات؛ فهي متصفة بصفات حقيقية لا تشبه الصفات، وكما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، كذلك إثبات الصفات.

القاعدة الرابعة عشرة: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر.

فمن أقر بصفات الله؛ كالسمع، والبصر، والإرادة، يلزمه أن يقر بمحبة الله، ورضاه، وغضبه، وكراهيته.

القاعدة الخامسة عشرة: ما أضيف إلى الله مما هو غير بائنٍ عنه؛ فهو صفة له غير مخلوقة، وكلُّ شيء أضيف إلى الله بائن عنه؛ فهو مخلوق؛ فليس كل ما أضيف إلى الله يستلزم أن يكون صفةً له.

مثال الأول: سمعُ الله، وبصرُ الله، ورضاه، وسخطُه ...

ومثال الثاني: بيت الله، وناقة الله ...

القاعدة السادسة عشرة: صفات الله عَزَّ وجَلَّ وسائر مسائل الاعتقاد تثبت بما ثبت عن رسول الله ﷺ، وإن كان حديثًا واحداً، وإن كان آحاداً.

القاعدة السابعة عشرة: معاني صفات الله عَزَّ وجَلَّ الثابتة بالكتاب أو السنة معلومة، وتُفَسَّر على الحقيقة، لا مجاز ولا استعارة فيها البتة، أمَّا الكيفية؛ فمجهولة.

القاعدة الثامنة عشرة: ما جاء في الكتاب أو السنة، وجب على كل مؤمن القول بموجبه والإيمان به، وإن لم يفهم معناه.

القاعدة التاسعة عشرة: باب الأخْبار أوسع من باب الصفات، وما يطلق عليه من الأخبار؛ لا يجب أن يكون توقيفيًا؛ كالقديم، والموجود، والشيء، والذات[1]، ولا يقال إن من أسماء الله الشيء، والذات، أو إن من أسمائه القديم، والموجود.

القاعدة العشرون: صفات الله عَزَّ وجَلَّ لا يقاس عليها.

فلا يقاس السخاءُ على الجود، ولا الجَلَدُ على القوة، ولا الاستطاعةُ على القدرة، ولا

---

(١) والأفضل والأسلم في باب الإخبار أن يُصار إلى اللفظ الوارد في الكتاب والسنة عند وجود مثل هذا اللفظ، فنقول: الأول بدل القديم، ونقول: الآخر بدل الأزلي والأبدي والتعبير بالمنصوص أولى وأحرى.

الرقـة على الرحمة والرأفـة، ولا المعرفة على العلم ... وهكـذا؛ لأن صفات الله عَزَّ وجَلَّ لا يتجاوز فيها التوقيف؛ كما مر في القاعدة الثالثة.

القاعدة الحادية والعشـرون: صفات الله عَزَّ وجَلَّ لا حصر لها؛ لأن كل اسم يتضمن صفة - كما مرَّ في القاعدة الثامنة -، وأسـماء الله لا حصر لها، فمنها ما اسـتأثر الله به في علم الغيب عنده.



٦- أسباب النزول قواعد وأصول

إن معرفة أسباب نزول آي القرآن من أجَلِّ علومه وأشرف مقاصدها؛ لأنه يعين على فهم معناها، ولهذا فقد أشكلت آيات على بعض الصحابة فمن دونهم حتى استبان لهم سبب نزولها؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فقد وضّح لهم أبو أيوب الأنصاري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سبب نزولها؛ فعرفوا تفسيرها؛ فاستبان لهم معناها[١].

ولا يعني هذا: أن يلتمس الإنسان لكل آية سبباً؛ فإن القرآن لم يكن نزوله وقفاً على الحوادث والوقائع أو على السؤال والاستفسار، بل كان القرآن يتنزل ابتداءً بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله -تعالى- في حياة الفرد وحياة الجماعة. فالقرآن نزل على قسمين: قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال.

١- ما هو سبب النزول؟

سبب النزول هو: ما نزل قرآنٌ بشأنه وقت وقوعِه كحادثة أو سؤال.

فسبب النزول يكون قاصرا على أمرين:

أحدهما: أن تحدث حادثة فينزل القرآن الكريم بشأنها كما في سبب نزول ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ كما سيأتي إن شاء الله.

الثاني: أن يُسْأل الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن شيء فينزل القرآن ببيان الحكم فيه كما في سبب نزول آية اللعان.

وسبب النزول هو ما نزلت الآية أيام وقوعه؛ وعلى هذا فسورة الفيل ليس من سبب نزولها قصة قدوم الحبشة؛ فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية؛ كذكر قصة قوم نوح، وعاد، وثمود، وبناء البيت، ونحو ذلك.

٢- ما يُعتَمَد عليه في معرفة سبب النزول:

والعلماء يعتمدون في معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكون بالرأي، بل يكون له

---

(١) عن حُذَيْفَةَ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾؛ قالَ: نزلَتْ في النَّفَقَة (رواه البخاري). (نزلَتْ في النَّفَقَة): أي: في ترك النفقة في سبيل الله. عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ، قَالَ: غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَالرُّومُ مُلْصِقُوا ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ، فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ، فَقَالَ النَّاسُ: مَهْ مَهْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةَ. فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: « إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، لَمَّا نَصَرَ اللهُ نَبِيَّهُ، وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، قُلْنَا لَهُمْ: نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا، وَنُصْلِحُهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَالْإِلْقَاءُ بِأَيْدِينَا إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا، وَنَدَعَ الْجِهَادَ » قَالَ أَبُو عِمْرَانَ: فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ (رواهأبو داود والترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني).

حكم المرفوع. وقد تقرر في علوم الحديث: أن سبب النزول حكمه حكم الحديث المرفوع؛ لا يقبل منه إلا الصحيح المتصل المسند، لا ضعيف ولا مقطوع.

وقد كان السلف الصالح -رضي الله عنهم- يتورعون أن يقولوا في القرآن أو تفسيره أو أسباب نزوله دون علم أو تثبت خوفاً من الوقوع في وعيد قول الرسول ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (حديث متواتر، رواه البخاري ومسلم وغيرهما).

٣- قد تتعدد الأسباب والنازل واحد:

كما في آية اللعان وغيرها من الآيات[1].

إذا جاءت روايتان في نازل واحد من القرآن وذكرت كل من الروايتين سبباً صريحاً غير ما تذكره الأخرى، نُظر فيهما:

فإما أن تكون إحداهما صحيحة والأخرى غير صحيحة.

وإما أن تكون كلتاهما صحيحة، ولا مرجح لأحدهما على الأخرى، ولكن يمكن الأخذ بهما معاً.

وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولإحداهما مرجح.

وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولا مُرجِّح ولا يمكن الأخذ بهما معًا.

فتلك صور أربع لكل منها حكم خاص نسوقه إليك:

أما الصورة الأولى: وهي ما صحت فيه إحدى الروايتين دون الأخرى؛ فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب، ورَدُّ الأخرى غير الصحيحة.

أما الصورة الثانية: وهي صحة الروايتين كلتيهما، ولإحداهما مرجح؛ فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة، والمرَجِّح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى، أو أن يكون راوي إحداهما مشاهداً للقصة دون راوي الأخرى.

وأما الصورة الثالثة: وهي ما استوت فيه الروايتان في الصحة، ولا مرَجِّح لإحداهما، لكن يمكن الجمع بينهما، بأن كلاًّ من السببين حصل، ونزلت الآية عقب حصولهما معاً؛ لتقارب زمنيهما، فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب؛ لأنه الظاهر، ولا مانع يمنعه.

وأما الصورة الرابعة: وهي استواء الروايتين في الصحة دون مرجح لإحداهما ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعد الزمان بين الأسباب؛ فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان أو تلك الروايات؛ لأنه إعمال لكل رواية ولا مانع منه.

---

(١) انظر الروايات الصحيحة في ذلك في «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٢/ ٥٤٦- ٥٥٤).

٤- قد تتعدد الآيات النازلة والسبب واحد:

كما في حديث المسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شأن وفاة أبي طالب وقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم «لأستغفرن لك ما لم أنه عنه» فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾. ونزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[1].

٥- صيغة سبب النزول إما أن تكون صريحة في السببية وإما أن تكون محتملة:

فتكون نَصًّا صريحًا إذا قال الراوي سبب نزول هذه الآية كذا أو إذا أتى بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال كما إذا قال حدث كذا أو سئل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن كذا فنزلت الآية.

فهاتان صيغتان صريحتان في السببية.

وتكون الآية محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام إذا قال الراوي نزلت هذه الآية في كذا فذلك يراد به تارة أنه سبب النزول وتارة أنه داخل في معنى الآية.

وكذا إذا قال أحسب هذه الآية نزلت في كذا أو ما أحسب هذه الآية إلا نزلت في كذا فإن الراوي بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب فهاتان صيغتان تحتملان السببية وغيرها.

٦- العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

والدليل على ذلك أن الأنصاري الذي قَبَّل الأجنبية ونزلت فيه ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللهِ أَلِي هَذَا قَالَ « لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ » (رواه البخاري ومسلم).

فوائد معرفة أسباب النزول:

لمعرفة أسباب النزول فوائد أهمها:

١ – بيان أن القران نزل من الله تعالى وذلك لأن النبي ﷺ يُسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانا، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع فينزل الوحي مُبيِّنا له .

٢ – بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه، مثال ذلك آيات الإفك ؛فإنها دفاع عن فراش النبي ﷺ وتطهير له عمّا دنسه به الأفاكون .

٣– معرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معاني القرآن على الوجه الصحيح ، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها ما لم يعرف سبب نزولها.

مثال ذلك: قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، أي يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ﴾ أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح، وفي صحيح البخاري عن عاصم بن سليمان قال سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: «كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسَكْنا عنهما، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

٤- بيان الحكمة التي دعت إلى تشريع حُكْم من الأحكام وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة في علاج الحوادث رحمةً بالأمة، وفي ذلك فائدة للمؤمن وغير المؤمن: أما المؤمن: فيزداد إيمانًا وبصيرة بحكمة الله في تشريعه؛ فيدعوه ذلك إلى شدة التمسك بها. وأما غير المؤمن: فيعلم أن الشرع قام على رعاية المصلحة، وجلب المنفعة، ودفع المضرة، فيدعوه ذلك إن كان منصفًا إلى الدخول في الإسلام.

فمثلًا إذا عرفنا سبب تحريم الخمر؛ عرفنا الحكمة في التحريم؛ إذ أنها توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتذهب العقل والوقار، وتضر بالصحة وتفني الأموال في غير طائل.

٥- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم فيأتي الفرج الإلهي، وذلك كسبب نزول آية التيمم، وقصة الثلاثة الذين خُلِّفُوا، وكقصة الإفك وما حصل لنبي الهدى من الأذى بسببه وكذا لأم المؤمنين إذ بكت حتى ظن أبواها أن البكاء فالق كبدها. فيأتي الفرج بعد الشدة. وكقصة هلال بن أمية إذ رمى زوجته بالزنى فقال له الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: البينة أو حد في ظهرك فقال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فأراد الرسول أن يأمر بضربه فأنزل الله آية اللعان وأبر قسمه وأتى بالعلاج بعد تفاقم الداء فخاب وخسر من ظن أنه يستطيع أن يستغني عن هذا التشريع الحكيم.

٦- الاستفادة من مراحل التشريع في الدعوة، فتجد في أسباب النزول الكثير الطيب من بيان مراحل الدعوة والتوجيهات الإلهية كآية القتال فإنها لم تنزل إلا بعد أن علم الله أن لهم اقتدارا على القتال.

٧- تثبيت الوحي وتيسير الحفظ والفهم، وتأكيد الحكم في ذهن مَن يسمع الآية إذا عرف سببها.

٨- معرفة اسم من نزلت فيه الآية، وتعيين المُبهَم فيها.

٧- مناهج المفسرين

هذه التفاسير نقل عن أكثرها الشيخ الصابوني في صفوة التفاسير.

من التفاسير السلفية:

١- ابن جرير الطبرى في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن»:

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب، (٢٢٤-٣١٠هـ، ٨٣٩ - ٩٢٣م). إمام المفسرين، ثقة عالم، أحد أئمة أهل السنة الكبار، وتفسيره من أجلّ التفاسير المأثورة، وأعظمها قدراً، وهو إمام متّبع، نصر مذهب السلف واحتج له، والتزم ذكر الروايات بأسانيدها، ولا يحكم عليها في الغالب، ويذكر الأحكام الفقهية وأقوال العلماء، ويرجّح بينها. وهو إمام مجتهد مطلق، يرجع المفسرون إلى قوله، وهم عيال عليه.

يعتني بذكر القراءات ومعانيها، ويرُدّ على الشواذ منها، ويورد الأخبار والقصص عن «كعب الأحبار» و«وهب بن منبه» وغيرهما، ويتعقبها بالنقد في الأغلب، ويحتوي على جمل عظيمة من المعالجات اللغوية والنحوية، حتى اكتسب الكتاب بها شهرة عظيمة، يرجع إلى كلام العرب كثيراً، ويذكر أشعار العرب القديمة، ويستشهد بها، ويعرض كثيراً لمذاهب النحويين، ويرجّح الأقوال، ويوجّه الأخرى.

وهو فى تفسيره يبدى رأيه ثم يستشهد عليه بالآثار والأخبار مستعينا فى ذلك بقواعد وأقوال السابقين.

٢- منهج ابن كثير في تفسيره «تفسير القرآن العظيم»:

هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ). كان ابن كثير من بيت علم وأدب، وتتلمذ على كبار علماء عصره، فنشأ عالمًا محققًا ثقة متقنًا، وكان غزير العلم واسع الاطلاع إمامًا في التفسير والحديث والتاريخ، سمع من ابن تيمية الذي كانت تربطه به علاقة خاصة تعرض ابن كثير للأذى بسببها.

ترك مؤلفات كثيرة قيمة أبرزها كتاب تفسير القرآن العظيم، وهو من أفضل كتب التفسير لما امتاز به من عناية بالمأثور وتجنُّب للأقوال الباطلة والروايات المنكرة.

يُعتبر هذا التفسير من أشهر ما دوِّن في التفسير بالمأثور، ويأتي في المرتبة الثانية بعد تفسير ابن جرير الطبري، إذ يعتني بالرواية، يذكر الآيات المتشابهة للآية التي يريد تفسيرها، والأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها.

والحافظ ابن كثير سلفي العقيدة، وقد أثبت في التفسير معظم الصفات الإلهية وبيَّن فيها مذهب السلف.

وهـو يذكر الأحاديـث والآثار بأسـانيدها، ويهتم بتصحيـح الروايـات وتضعيفها، وذكر الجـرح والتعديـل في الرواية، يذكر المناقشـات الفقهية وأقوال العلماء وأدلتهم عند تفسـيره لآيات الأحكام باعتدال، ويحيل على كتب الفقه.

يعرض لذكر القراءات باقتصاد، يمتاز بنقده للإسرائيليات والتحذير منها عمومـًا، مع نقده لها غالبـًا عند ذكر شيء منها، وقليلاً ما يعرض للإعراب والنحو والشعر.

ينقل أقوال أهل العلم في مسائل الأحكام، مشفوعة بأدلة كل منهم، ثم يُرجِّح من أقوالهم ما يرى أن الدليل يدعمه، أو أن السياق يؤيده؛ وهو في كل ذلك مقتصد غير مسرف، ومعتدل غير مفرط.

وقـد اعتمد في تفسـير القرآن الكريم على المأثور؛ فهو أولاً يفسـر الآيـة بآية أخرى، وهو في هذا شـديد العناية، وبارعٌ إلى أقصى غاية في سـرد الآيات المتناسـبة في المعنى الواحد. ثم بعد ذلك يشـرع في سـرد الأحاديـث المتعلقة بالآية المراد تفسـيرها، ويبين مـا يُقبل من تلك الأحاديـث وما لا يُقبل. ثم يشـفع هذا وذاك بذكر أقـوال الصحابة والتابعين، ومَن بعدهـم من أهـل العلـم، ويرجِّح ما يراه الأرجح، ويُعْرِض عن كل نقل لـم يصح ثبوته، وعن كل رأي لم ينهض به دليل.

إن أصح الطرق فى تفسير القرآن الكريم– حسبما يرى الحافظ ابن كثير– هى:

أ– أن يفسـر القرآن بالقرآن، وذلك أنه كثيرا ما يكون المجمل فى مكان قد بسـط فى موضع آخر.

ب – فإذا تعذر ذلك فعلى المفسِّر بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له.

ج – فإذا لم نجد التفسـير فى القرآن ولا فى السـنة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرَى بذلـك لِمَا شـاهدوا مـن القرائن والأحوال التـى اختصّوا بها، ولما لهم مـن الفهم التام والعلـم الصحيـح والعمل الصالح، لا سـيما علماؤهـم وكبراؤهم كالأئمـة الأربعة الخلفاء الراشـدين، وعبد الله بن مسـعود ﵁ والحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسـول الله ﷺ وترجمان القرآن.

د – وإذا لم تجد التفسـير فى القرآن ولا فى السـنة ولا وجدته عند الصحابة فقد رجع كثير مـن الأئمـة فى ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية فى التفسـير، وكسـعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء ابن ابى رباح والحسن البصرى ومسروق بن الأجدع، وسـعيد بن المسـيب وأبى العالية والربيع بن أنس والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم فتذكر أقوالهم فى الآية.

ومـن منهجـه –وهـو مما امتاز بـه– أن ينبِّـه إلى ما في التفاسـير مـن منكـرات المرويات الإسرائيلية.

٣- منهج البغوي في تفسيره «معالم التنزيل»:

هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفَرَّاء[١] البغوي الفقيه الشافعي المحدث المفسر، توفي سنة (٥١٠هـ) وقيل (٥١٦ هـ) وقيل بينهما. سلفي العقيدة، له مقدمة مفيدة في كتابه «شرح السنة» بَيَّن فيها عقيدة السلف في الأسماء والصفات. أما في تفسيره فالغالب عليه فيه الإثبات في الصفات، لكن وقع منه التأويل في بعض الصفات تبعًا للثعلبي وسكت عن البعض وأجمل في البعض.

إن «معالم التنزيل» قد نقل فيه مؤلفه عن مفسري الصحابة والتابعين ومن بعدهم، حاوٍ للصحيح من الأقوال، عارٍ عن الغموض والتكلف في توضيح النص القرآني، مُحَلًّى بالأحاديث النبوية والآثار الغالب عليها الصحة. وهو مختصر من تفسير الثعالبي، لكنه صان تفسيره عن أقوال المبتدعة والأحاديث الموضوعة.

ملامح منهج البغوي في التفسير:

١- يتعرض لتفسير الآية الكريمة بلفظ سهل موجز، لا تكلُّف في لغته ولا تطويل، فهو يكتفي بالوقوف على الكلمة الغريبة ليكشف عن معناها بالرجوع إلى أصلها ومصدرها، مستدلًا بالآيات والأحاديث وما أثر عن الصحابة والتابعين وبأقوال أهل اللغة.

٢- يفسر القرآن بالقرآن أو بالحديث أو بأقوال الصحابة، ويستأنس بأقوال التابعين والمجتهدين، وذلك أن القرآن يفسر بعضه بعضًا فما أُجمل في موضع فُصِّل في موضع آخر، وقد تخصص آية عموم آية أخرى.

إن اعتماد البغوي على السنة في تفسير القرآن الكريم سمة واضحة في تفسيره. فقد جاء تفسيره حافلًا بالأحاديث التي انتخبها، وقلَّ أن يورد حديثًا ضعيفًا، وقد نجده يسوق عدة أحاديث عند الآية الواحدة.

٣- يتعرض للقراءات من غير إسراف وذلك حين يجد أن القراءة يترتب عليها تَغَيُّر المعنى.

٤- يظهر بوضوح اهتمامه بالآراء الفقهية فكثيرًا ما نجده يبسط آراء الفقهاء ويرجِّح رأي الشافعية وهو من أبرز فقهائهم، وأحيانًا يورد الآراء بدون ترجيح.

٦- يذكر أحيانًا بعض الإسرائيليات، ونراه يمر على بعضها- وهي قليلة مقارنة بالتفاسير الموجودة بين أيدينا- دون التعقيب عليها.

(١) فرَّاء: صانِع الفِرَاء. كان أبوه يعمل الفِرَاء ويبيعها. والفَرْو: جُلود بعض الحيوانات تُدبغ ويُتخذ منها ملابس للدفْء وللزينة.

٤- منهج القاسمى في تفسيره «محاسن التأويل فى تفسير القرآن الكريم»:

من علماء الشام الكبار المحقق المدقق العالم الجليل جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمى (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ = ١٨٦٦ - ١٩١٤ م). كان من أقطاب المدرسة السلفية ومن المعجبين بالشيخ ابن تيمية، وتأثر به وبتلميذه ابن القيم وهو يهتم اهتماما واضحا بكل ما انفردا به من آراء، وقد تأثر بمنهج ابن تيمية فى التفسير.

يعتبر تفسير القاسمي مصدرًا كبيرًا في التعبير عن العقيدة السلفية السمحة السهلة جمع فيه من المباحث والأقوال ما لو جُمِع لكان مؤلَّفًا في مجلدات، فإذا أحببت أن تقرأ تفسيرا كاملا للقرآن لا تجد فيه خرافة ولا أسطورة ولا شيئا من الإسرائيليات المذمومة التى حُشيت بها التفاسير فعليك بكتاب القاسمى (محاسن التأويل) الذى فسر به القرآن الكريم تفسيرا يعتبر نموذجا إلى حد كبير.

والناظر فى هذا التفسير يجد أن مؤلفه قد أفرد جزءا كاملا مقدمة لتفسيره وفى هذه المقدمة يتجلى منهجه فى التفسير بل فى التأليف عموما.

لقد ناقش قضايا عامة وخطيرة فيما يتصل بالتفسير ونقل كثيرا عن مشاهير العلماء فى الأصول والتفسير وسائر العلوم القرآنية.

لقد تحدث عن مصادر التفسير وعد أن أصولها أربعة:

الأول: النقل عن النبى ﷺ وعلى المفسر بطريق النقل أن يحذر من الضعيف والموضوع.

الثانى: الأخذ بقول الصحابى إذ هو المعاصر للتنزيل والفاهم لجو القرآن.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة.

الرابع: التفسير بما يقتضيه معنى الكلام ومفهوم الشرع.

لقد كان القاسمى بوفرة اطلاعه ودقة فهمه وأمانته فى النقل ينتقى أجود الأقوال فيما يختص بموضوع بحثه ثم ينقله فى كتبه وعلى هذا النهج جرى فى تفسيره، فتفسيره أشبه ما يكون بحديقة غناء لا ترى فيها إلا زرعا ناضرا أو وردا عاطرا ولا تجد فيه ما يؤذى النفس ويثير الشعور ويمتاز هذا التفسير الجليل زيادة على التحرى فى النقل وحسن الاختيار والبعد عن الضعيف والموضوع بما يأتى:

١ - العناية بالمعانى اللغوية للمفردات وتوجيه الإعراب فى سهولة ويُسر دون تفريع أو تطويل.

٢ - اعتماده فى تفسير القرآن على القرآن ثم على السنة الصحيحة ثم على أقوال الصحابة وآراء السلف الصالح.

٣ - اهتمامه بالآيات التى تحتاج إلى بحث وإطالته النفس فيها وذلك أن فى القرآن آيات بينه واضحة لا تحتاج إلى بحث لأنها واضحة من ناحية المعنى.

وفى القرآن آيات واضحة ولكن بعض المفسرين قد حاول إثارة الجدل فيها أو أخطأ فى فهمها أو فسرها باسرائيليات أو انحرفت بها الأهواء على أى وضع كانت ويشتد اهتمام مفسرنا بمثل هذه الآيات، شارحًا ومبيِّنا ومحقِّقا للحق وكاشفا لزيف الباطل. وينقل فى سبيل ذلك عن القدماء ما يؤيد فكرته ويتخذ من هذا التأييد كمصدر أول - القرآن نفسه فإنه يفسر بعضه بعضا ويتخذ كذلك الأحاديث الصحيحة الشريفة عن رسول الله ﷺ كمصدر آخر ثم ينقل عن العلماء القدامى وعن العلماء المحدثين ما يؤيد وجهة نظره، وهى فى الأغلب الأعم وجهة نظر سليمة.

٤ - اهتمامة بذكر وجوه القراءات.

ومن المعالم البارزة فى هذا التفسير اعتناء المفسر بالربط بين الآيات المختلفة والكشف عن مظاهر الحكمة فى ترتيب القرآن.

ومما يلاحظ على القاسمى فى تفسيراته إن استمداده من ابن كثير بلغ حدا كبيرا. إنه يكاد يشبه تفسير ابن كثير فى كثير من الموضوعات فى صورة تكاد تكون متقنة .. ومع ذلك فإن هذا التشابه القوى بينه وبين ابن كثير لا ينزله عن أصالته فإن هذا التشابه آت من اتحاد الرأى وتشابه الأفكار لا من النقل والتقليد.

والخلاصة أن الكتاب نخبة ممتازة يضم الأفكار القيمة والآراء الصحيحة فى كل ما يتصل بالتفسير[(١)].

ثانيًا: من تفاسير المعتزلة:

٥ - منهج الزمخشري في تفسيره «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»[(٢)]:

الزمخشري هو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨هـ، ١٠٧٤ - ١١٤٣م). من أئمة متأخري المعتزلة، وهو من علماء اللغة والتفسير.

وقد تعرض تفسير الزمخشري لانتقاد جمع من الأئمة؛ بسبب النهج الاعتزالي في تفسيره.

ومن تلك الانتقادات:

١ - أن تفسيره محشو بالبدع، وعلى طريقة المعتزلة من القول بخلق القرآن وإنكار

(١) تنبيه: هناك كتاب منسوب للقاسمي اسمه «تاريخ الجهمية» شكك بعض أهل العلم في نِسبته إليه لما فيه من التعارض الشديد مع كتابه الكبير «محاسن التأويل». وقد بيَّن في تفسيره (٣/ ٤٥٧- ٤٥٨) ضلال ابن عربيّ وابن سبعين والقونويّ ونحوهم من أهل وحدة الوجود والحلول والاتحاد القائلين إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق، واصفًا هذا القول بالكفر.

(٢) لشرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي حاشية على تفسير الكشاف اسمها «فتوح الغَيْب في الكشف عن قناع الرَّيْب».

الصفـات الإلهية، ورؤية المؤمنين ربهم في الآخـرة،، وأن الله خالقٌ لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة.

٢- احتوائه على الأحاديث الموضوعة.

وهذا التفسير لا يُنصَح به طالب العلم الذي لم يتضلع من علم العقيدة وفهم منهج السلف الصالح الذي قرره أئمة أهل السنة والجماعة.

ثالثًا: من تفاسير الأشاعرة، ومن قلدهم في تأويل الصفات الإلهية:

وهذه التفاسير لا يُنصَح بها طالب العلم الذي لم يتضلع من علم العقيدة وفهم منهج السلف الصالح الذي قرره أئمة أهل السنة والجماعة.

٦- منهج ابن الجوزي في تفسيره: «زاد المسير في علم التفسير»:

هـو عبـد الرحمن بـن علي بن محمـد القرشـي البغـدادي، (٥٠٨هـ - ٥٩٧، ١١١٦ - ١٢٠١م). بـرز في الحديـث والوعظ والتفسـير والتاريخ وغيرها من أصنـاف العلوم الدينية، ووصل فيها إلى مرتبة مشهورة.

عمد ابن الجوزي إلى كتب الذين سـبقوه في التفسـير فأشبعها دراسة واستفاد من الثغرات التي كانت في تفاسـيرهم، ووضع تفسيره هذا مخلِّصا إياه من التطويل المملّ ومن الاختصار المخلّ. وقال في مقدمة كتابه: «... أني نظرت في جملة من كتب التفسـير فوجدتها بين كبير قد يئس الحافظ منه، وصغير لا يسـتفاد كل المقصود منه، والمتوسـط منهـا قليل الفوائد، عديم الترتيب، وربما أهمل فيه المشكل وشرح غير الغريب، فأتيتك بهذا المختصر اليسير، منطويا على العلم الغزير، ووسمته بـ «زاد المسير في علم التفسير».

فجاء كتابه وسـطا بين التفاسـير الطويلة والمختصرة الشديدة الاختصار، مع تميّزه بجملة من الخصائص، إضافة إلى أسـلوب ابن الجوزي السّـلس المتين والسهل الممتنع. ومن هذه الخصائـص أنـه تحدّث عمن نزلت بعض الآيات فيهم، وذكر القراءات المشـهورة والشـاذة أحيانـا، وتوقـف عند الآيات المنسـوخة والتي اختلـف العلماء حولها أمنسـوخة هي أم لا؟ وأورد أقـوال العلماء بهذا الصدد، بالإضافـة إلى ردّه كل قول إلى مصدره معتمدا على علماء اللغـة مثل: ابـن قتيبة وأبي عبيـدة والخليل بـن أحمد الفراهيـدي وعلى النحاة مثـل: الفرّاء والزجّـاج والأخفش والكسـائي ومحمد بن القاسـم النحوي وعلى القـرّاء مثل: الجحدري وعاصم وغيرهم.

ويعد تفسير ابن الجوزي من التفاسير التي تنقل أقوال السلف بدون أسانيد.

أما عقيدته في الأسماء والصفات فقد كان مضطربًا فيُثبِت بعض الصفات وينفي بعضها.

٧- منهج ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»:

هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى المغربى الغرناطى (٤٨١ - ٥٤٢ هـ = ١٠٨٨ - ١١٤٨ م).

لخَّص ابن عطية تفسيره مؤلفه من كتب تفاسير المنقول كلها، وتحرى ما هو أقرب للصحة منها، ويفسّر الآية بعبارة عذبة سهلة، وينقل عن ابن جرير كثيراً.

يورد الأقوال المأثورة دون ذكر الأسانيد، ويختار منها من غير إكثارٍ لها، ويقد يُضعِّف بعضها، يذكر أقوال الفقهاء من السلف، ويوجهها ويختار منها ما يراه صوابًا، يعرض كثيراً للقراءات، ويُنزّل عليها المعاني المختلفة. ينقل بعض الإسرائيليات عن «ابن منبِّه» و«السُدِّي» وغيرهما، ويتعقّب بعضها بالتضعيف. له اهتمام كبير بالصناعة النحوية، ويعتني بذكر الشواهد الأدبية للعبارات.

أما عقيدة ابن عطية في تفسيره في الصفات فهو مُؤَوِّل أشعري يدافع عن التأويل الأشعري ويحتج له، وهو في نقله عن السلف لا ينقله على وجهه، بل يخالفه ويذكر خلافه، ويزعم أنه قول المحققين ويعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرّروا أصولهم بطرقٍ من جنس ما قرّرت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة.

٨- منهج الرازى في تفسيره «مفاتيح الغيب» أو «التفسير الكبير»:

هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي المشهور بفخر الدين الرازي، (٥٤٤ - ٦٠٦هـ، ١١٥٠ - ١٢١٠م). ولد في مدينة الري واليها نسبته بالرازي. كان فريد عصره ومتكلم زمانه جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، فكان اماماً في التفسير والكلام والعلوم العقلية وعلوم اللغة، ولقد اكسبه نبوغه العلمي شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من البلاد ويشدون اليه الرحال من مختلف الاقطار.

يُعد (مفاتيح الغيب) من أطول التفاسير القديمة التي وصلتنا، بل هو من أطول كتب التفسير القديمة والحديثة، وأكثرها تفصيلاً وعرضاً للآراء، ومناقشةً للمعتقدات والمذاهب المختلفة.

إن منهجية الفخر الرازي في التفسير لا نجد لها نظيراً في التفاسير الأخرى. فلقد اعتمد التفصيل إلى أقصى قدر ممكن في كل آية من آيات القرآن الكريم. حيث جزأ الآية الواحدة الى أصغر وحدة كلامية يمكن أن تستقل بالمعنى، وتناولها في عدد من المسائل، ثم يجعل من المسألة الواحدة مباحث لفروع تفصيلية، يُعبر عنها تارة (بالأقوال) وأخرى (بالوجوه) وثالثة (بالأمور) وغير ذلك من التقسيمات. وكل قسم من هذه التقسيمات قابل للتفريع والتفصيل.

ويرى بعض الباحثين أن فخر الدين الرازي اعتمد في تفسيره على منهجين: الأول: ما فسر فيه سورة الفاتحة وهي منهجية مطولة جداً تتناول الآية من كافة جوانبها. والثاني: المنهجية

التي فسر بها القرآن الكريم ابتداءً من سورة البقرة وحتى آخر آية من سورة الناس. ويرى هذا البعض من الباحثين أن الرازي لو اعتمد منهجيته في تفسير سورة الفاتحة، في تفسير القرآن الكريم لاحتاج الى مئات المجلدات.

ولكن يرى بعض الباحثين أن الفخر الرازي اعتمد منهجية واحدة في تفسيره. واذا كان قد استغرق في الحديث عن سورة الفاتحة فلِأن لها خصوصيتها المتميزة وفضائلها الكثيرة. ولا نجد مفسراً من المفسرين إلا وقد أطال الحديث عنها بشكل يميزها عن بقية سور القرآن.

والناظر فى هذا التفسير الكبير يجد أمورا هامة تلفت النظر وتشد الانتباه منها:

١ – الاهتمام بذكر المناسبات بين سور القرآن وآياته وبعضها مع بعض حتى يوضح ما عليه القرآن من ترتيب على الحكمة «تنزيل من حكيم حميد».

٢ – كثرة الاستطراد إلى العلوم الرياضية والفلسفية والطبيعة وغيرهما.

٣ – الفخر الرازى فى تفسيره لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها مع ترويجه لمذهب الشافعى الذى كان يتابعه هو فى عبادته ومعاملاته.

٤ – ويضيف الرازى إلى ما سبق كثيرا من المسائل فى علوم: الأصول والبلاغة والنحو وغيرها، وان كانت هذه المسائل فى مجموعها بعيدة عن الإطناب والتوسع كما هو الحال فى المسائل الكونية والرياضية والفلسفية بوجه عام.

والذي يظهر لقارئ هذا التفسير –فوق ما تقدم– أن مؤلِّفه رَحِمَهُ اللهُ كان مولعـًا بكثرة الاستنباطات والاستطرادات في تفسيره، إضافة إلى توسُّعه في ذكر مسائل الكون والطبيعة، ولأجل هذا، فقد قلَّل البعض من قيمة هذا الكتاب، كتفسير للقرآن الكريم، بل وصل الأمر ببعضهم بأن وصف هذا التفسير بقوله: «فيه كل شيء إلا التفسير» وهذا القول قد يكون فيه شيء من المبالغة.

ولكثير من العلماء والمحققين العديد من المآخذ على هذا التفسير؛ كتوسعه في ذكر مسائل علم الكلام، والعلوم الطبيعية والرياضية، التي لا علاقة لها بموضوع التفسير إلا بشيء غير يسير من التكلف والتأويل البعيد، والتعرض لمثل هذه الأمور مما يجلُّ عنه كتاب الله سبحانه.

إن الرازي رَحِمَهُ اللهُ تعالى من أئمة الأشاعرة وعلماء الكلام الذين جانبوا منهج أهل السنة والجماعة في كثير من أبواب الاعتقاد، ولقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرازي وأمثاله: «أوتُوا ذكاءً ولم يُؤتَوْا زكاةً». ولقد تصدى له رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «بيان تلبيس الجهمية» وبين أحواله وتناقضه وقواعده التي أسس عليها بنيانه وهي أوهن من بيت العنكبوت، كما خصص له جزءاً كبيراً من كتابه «درء تعارض العقل والنقل».

ويعتبر تفسير الرازي مرجعـًا كبيراً في علم الكلام عمومـًا وفي العقيدة الأشعرية خصوصـًا، ثم إنه انشغل بذكر أقوال المعتزلة المذمومة والرد عليها، إلا أنَّ ردَّه لم يكن كافيـًا ولا شافيـًا، فقد قال الحافظ ابن حجر ـ كما في «لسان الميزان»: «وكان يعاب بإيراد الشبهة الشديدة، ويقصِّر في حلها، حتى قال بعض المغاربة: «يورد الشبهة نقداً ويحلها نسيئة».

وأورد ابن حجر في «لسان الميزان» أيضـًا عن الرازي في تفسيره أنه يورد شبهات المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة على غاية من الضعف.

ثم إن الرازي في تفسيره أكثر من الاستطراد في الفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة، وعرض كثيراً لأقوال الفلاسفة بالرد والتفنيد، ولكنه كان يصوغ أدلته على نمط استدلالاتهم العقلية لا على الطريقة السلفية المرضية.

والرجل لم يكن عالمـًا بعقيدة السلف الصالح تخبط في باب الأسماء والصفات تخبطـًا شديداً ولقب القائلين بمذهب السلف بلقب "المجسمة".

وليُعلَم أن الرازي في خواتيم حياته قد مَنَّ الله تعالى عليه بالتوبة من اعتقاده الفاسد وبالرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح من أئمتنا، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان»: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَخْرَ الرَّازِيَّ الَّذِي كَانَ فِي زَمَانِهِ أَعْظَمَ أَئِمَّةِ التَّأْوِيلِ - رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ إِلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ مُعْتَرِفًا بِأَنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ هِيَ اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ فِي صِفَاتِ اللهِ.

وَقَدْ قَالَ فِي ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ «أَقْسَامُ اللَّذَّاتِ»: لَقَدِ اخْتَبَرْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ، فَلَمْ أَجِدْهَا تَرْوِي غَلِيلًا، وَلَا تَشْفِي عَلِيلًا، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، أَقْرَأُ فِي الْإِثْبَاتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [٢٠\٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [٣٥\١٠]، وَفِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [٤٢\١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [١٩\٦٥]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي. اهـ.

وَقَدْ بَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي أَبْيَاتِهِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلٌ وَقَالُ

إِلَى آخِرِ الْأَبْيَاتِ»[1].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٩٦).
«وَكَذَلِكَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ، كَانَ فِي زَمَانِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْقَائِلِينَ بِالتَّأْوِيلِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ، وَبَيَّنَ أَنَّ =

وقد ترك الرازي وصيةً شهيرة أوردَتها الكثير من المصادر التاريخية. وهذه الوصيّة استكتبها الرازي في الحادي والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٠٦ هجرية، وذكرها السُّبكي في «طبقات الشافعية» (٥/ ٣٧-٣٨)، وفيها رجوعه إلى مذهب السلف الصالح، وبراءته من كتبه التي فيها ما يخالف العقيدة السلفية.

٩- منهج القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي (٦٠٠ - ٦٧١هـ، ١٢٠٤ - ١٢٧٣م). من كبار المفسرين، يتضمّن تفسيره نكتـًا من التفسير واللغات والإعراب والقراءات، والردّ على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما يذكره من الأحكام ونزول الآيات.

والقرطبي مُؤَوِّل أشعري، واعتمد في نقله في الأسماء والصفات على أئمة الأشاعرة، كـ«الجويني» و«الباقلاني» و«الرازي» و«ابن عطية» وغيرهم، وفيه مواضع ردّ فيها على أهل التصوّف، وأنكر أقوالهم وأفعالهم المخالفة للشرع.

يُكثِر من إيراد الأحاديث النبوية، مع عزوها، ويسوقها بلا إسناد غالبـًا، يستفيض في آيات الأحكام الفقهية، ويذكر مسائل الخلاف مع الأقوال وأدلتها، حتى كأنه كتاب فقه؛ وهو منصف، لا يتعصب لمذهبه المالكي.

يعرض لِذِكْر القراءات باقتصاد، وترك كثيراً من قصص وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بدّ

= الْحَقَّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ. وَقَالَ فِي كِتَابِهِ: إِلْجَامُ الْعَوَامِّ عَنْ عِلْمِ الْكَلَامِ: «اعْلَمْ أَنَّ الْحَقَّ الصَّرِيحَ الَّذِي لَا مِرَاءَ فِيهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَصَائِرِ - هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ، أَعْنِي الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْبُرْهَانَ الْكُلِّيَّ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ فِي مَذْهَبِ السَّلَفِ وَحْدَهُ يَنْكَشِفُ بِتَسْلِيمِ أَرْبَعَةِ أُصُولٍ مُسَلَّمَةٍ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ. ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الْأَوَّلَ مِنْ تِلْكَ الْأُصُولِ الْمَذْكُورَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِصَلَاحِ أَحْوَالِ الْعِبَادِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ. الْأَصْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ بَلَّغَ كُلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ صَلَاحِ الْعِبَادِ فِي مَعَادِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ، وَلَمْ يَكْتُمْ مِنْهُ شَيْئًا. الْأَصْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ أَعْرَفَ النَّاسِ بِمَعَانِي كَلَامِ اللهِ وَأَحْرَاهُمْ بِالْوُقُوفِ عَلَى أَسْرَارِهِ هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِينَ لَازَمُوهُ وَحَضَرُوا التَّنْزِيلَ وَعَرَفُوا التَّأْوِيلَ. وَالْأَصْلُ الرَّابِعُ: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي طُولِ عَصْرِهِمْ إِلَى آخِرِ أَعْمَارِهِمْ مَا دَعَوُا الْخَلْقَ إِلَى التَّأْوِيلِ، وَلَوْ كَانَ التَّأْوِيلُ مِنَ الدِّينِ أَوْ عِلْمِ الدِّينِ لَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا وَدَعَوْا إِلَيْهِ أَوْلَادَهُمْ وَأَهْلَهُمْ. ثُمَّ قَالَ الْغَزَالِيُّ: وَبِهَذِهِ الْأُصُولِ الْأَرْبَعَةِ الْمُسَلَّمَةِ عِنْدَ كُلِّ مُسْلِمٍ نَعْلَمُ بِالْقَطْعِ أَنَّ الْحَقَّ مَا قَالُوهُ وَالصَّوَابَ مَا رَأَوْهُ». انْتَهَى بِاخْتِصَارٍ. وَلَا شَكَّ أَنَّ اسْتِدْلَالَ الْغَزَالِيِّ هَذَا لِأَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ هُوَ الْحَقُّ - اسْتِدْلَالٌ لَا شَكَّ فِي صِحَّتِهِ، وَوُضُوحِ وَجْهِ الدَّلِيلِ فِيهِ، وَأَنَّ التَّأْوِيلَ لَوْ كَانَ سَائِغًا أَوْ لَازِمًا لَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، وَلَقَالَ بِهِ أَصْحَابُهُ وَتَابِعُوهُمْ كَمَا لَا يَخْفَى. وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ الْغَزَالِيِّ أَنَّهُ رَجَعَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ إِلَى تِلَاوَةِ كِتَابِ اللهِ وَحِفْظِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَالِاعْتِرَافِ بِأَنَّ الْحَقَّ هُوَ مَا فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ. وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مَاتَ وَعَلَى صَدْرِهِ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ». [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٩٦)].

منه، يعرض للإعراب، ويبين الغريب من ألفاظ القرآن، يُكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويحتكم كثيراً إلى اللغة.

١٠- منهج البيضاوى في تفسيره «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»[(١)]:

هو عبد الله بن عمر بن محمد بن على الشيرازى، (؟ - ٦٩١هـ، ؟ - ١٢٩٢م). كان عارفا بالفقه والتفسير وأصول الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق وكان عالما بفنون المناظرة وآداب المناقشة، صالح السلوك، مجتهدا فى العبادة، زاهدا فى متاع الدنيا الفانى، شافعى المذهب.

والمتأمل فى تفسيره يجد أنه قد نحا فيه نحو الاختصار، وركز فيه الافكار، ووجه الأنظار إلى ما تشتمل عليه الآيات فى كثير من نواحى الإعراب والفقه والأصول ونحو ذلك، معتمدا على ما سبقه من التفاسير كتفسير الكشاف والرازى ونحوهما.

أما مذهبه في تفسيره في الأسماء والصفات فهو على مذهب الأشاعرة في تأويل الصفات إلا في الاستواء فقد حكى فيه الخلاف، والرؤية والمعية.

١١- منهج النسفى في تفسيره «تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل»:

هو عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، نسبة إلى بلدة نسف ببلاد السند. كان مولده في النصف الأول من القرن السابع، وتوفي سنة عشرٍ وسبعمائة للهجرة (٧١٠هـ). كان عالما أصوليا وفقيها على طريقة المذهب الحنفي، ألّف العديد من الكتب في الفقه الحنفي وأصوله. كما كان محدثًا ومفسرًا ولغويًّا وعالما من علماء القراءات، ويبدو ذلك واضحا في تصانيفه. من غُلاة المُؤَوِّلة، أوَّلَ جميع الصفات بلا استثناء.

تفسيره ليس بالطويل المُمِل، ولا بالقصير المخل، وقد اختصره من تفسيرَي البيضاوى والزمخشري. لكن أسلوبه يعلو على مستوى العامة، حيث حشد فيه ألوانا من العلوم المتعلقة بالقرآن لا يفهمها إلا من عنده فكرة سابقة عنها. لم يتوسع فى الإعراب، ولم يَخْلُ تفسيره من الإشارة إلى المذاهب الفقهية فى بعض آيات الأحكام، والانتصار لمذهبه الحنفى، فقد كان النسفي من أئمة المذهب الحنفي وفقهائه.

يعرض النسفي في تفسيره أنواع القراءات المتواترة والشاذة، بقدرٍ يدل على معرفة تامة بها. فالمتواترة يلتزم بها وينسبها إلى أصحابها في غالب الأحيان، أما القراءة الشاذة فيصرح بشذوذها دون أن ينسبها لأصحابها، إلا إذا كانت متعلقة بالمعنى أو المسألة الفقهية التي يسعى إليها.

ولم يسْلم تفسيره من الإسرائيليات رغم احتياطه وتحفظه وإقلاله منها، وابتعاده ما استطاع عنها، وأحيانًا يتعمد ذكر بعض الروايات أحيانا أخرى، ليبين أنها خرافات وإسرائيليات يسعى

(١) محي الدين شيخ زاده له حاشية على تفسير البيضاوي، كتبها على سبيل الإيضاح والبيان للمبتدئ.

أصحابها من خلالها إلى تشكيك المسلمين في أمر دينهم، خصوصا تلك التي تمس العقيدة وتتنافى مع عصمة الأنبياء. وما عدا ذلك؛ فإنه في الغالب، لا يعقب على الروايات الإسرائيلية التي أوردها.

١٢- منهج ابن جِزّي في تفسيره: «التسهيل لعلوم التنزيل»:

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الكلبي(٦٩٣-٧٤١هـ= ١٢٩٤-١٣٤٠م)، فقيه مالكي، عالم بالأصول والتفسير واللغة، من أهل غرناطة.

وتفسيره تفسيرٌ مختصر وجيز جامع، من غير إخلال، لخّصه من كتب التفاسير المختلفة الطويلة، بعد تمحيصها وتنقيح فصولها وحذف فضولها، وأضاف إليها فوائد عديدة غريبة، ونكت عجيبة من كتب شتى، قلّما توجد في كتاب، لأنها من عنده أو من شيوخه أو ما سطّره في دفاتره. جعله سهلاً على الطالبين، قريباً من الراغبين، واهتم بإيضاح المشكلات وبيان المجملات، وتحقيق أقوال المفسرين، وتمييز الراجح من المرجوح.

ويمتاز تفسيره بالسهولة واليُسر مع حُسن الترتيب والتنقيح، وقد يذكر فوائد بعض الآيات مرتبة، وقد يتوسع في بعض المسائل.

يذكر الأحاديث مختصرة وبدون أسانيد، ولا يعزوها لمخرجيها، ولم يتوسع في إيراد الأحاديث وأسباب النزول، بل يشير إليها أحياناً ولا يسوقها.

يهتم بذكر مذهب مالك، ويقارن بينه وبين مذهب أبي حنيفة والشافعي وغيرهما، وينقل الإجماع إن وجد، ومسلكه في ذلك مسلك وسط، لا طويل ممل ولا قصير مخلّ.

يهتم بذكر القراءات، ويبين معانيها وألفاظها وما تدل عليه.

يذكر بعض الإسرائيليات عن «وهب بن مُنبِّه» و«السُدِّي» وغيرهما، وأحياناً يذكر معانيها ويصرّح بضعفها، ويصدرها أحياناً بقوله: رُوي.

وتجد في كتابه الكثير من المواعظ وآداب السلوك والأخلاق، وعليه في بعضها مؤاخذات.

وابنُ جِزّي مُؤَوِّل لأغلب الصفات، ومُفَوِّض لبعضها، وفيه نزعة صوفية، وعليه في بعضها مؤاخذات.

١٣- منهج الخازن في تفسيره «لباب التأويل في معاني التنزيل»:

هو علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي البغدادي الصوفي المعروف بالخازن، (٦٧٨ - ٧٤١هـ= ١٢٨٠ - ١٣٤١م). كان فقيهاً شافعياً مؤرخاً عالماً بالتفسير والحديث، وسمي بالخازن لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق[١].

وتفسير الخازن مختصَر من تفسير البغوي مع إضافات، وقد أكثر فيه من ذكر الإسرائيليات،

(١) خازِن: متعهّد أو مسئول الخَزْن، الذي يتولّى حفظَ المال وغيره وإنفاقه.

وأخذ كثيرًا من تفسير الثعلبي فيما يتعلق بالأخبار، وله عناية بذكر ما يتعلق بالمواعظ والرقائق مما يهذب الأخلاق ويقوي العزائم ويزهّد في الدنيا ويرغّب في الآخرة ويذكّر بالله تعالى واليوم الآخر.

أما عقيدته في الأسماء والصفات فهو مُؤَوِّلٌ في كثير من الصفات، ومُثْبِتٌ في قليل منها مثل الإتيان والمجيء، ويذكر في بعض الصفات مذهب السلف والخلف ولكن بدون ترجيح.

ومن مزايا هذا التفسير:

١- ردُّه على بعض مفتريات وشبهات الفرق المبتدعة من المعتزلة والخوارج والمرجئة والرافضة وغيرهم. وفيه عناية بآيات الأحكام وذكر خلاصة الحكم فيما يورده من المسائل دون التوسع غالبًا في التفريعات الفقهية والخلافات المذهبية وقد يعقد الفصول لذلك .

٢- اعتماده أسلوب الترجيح أو التصحيح أو الجمع لكثير من الخلافات والوجوه التي يوردها وإن كان ذلك ليس مطرداً في تفسيره

٣- تتبعه لأخطاء بعض المفسرين وبيان وجه الحق في ذلك.

٤- رده لكثير من الإسرائيليات فيُتبع القصة ببيان ما فيها من باطل حتى لا ينخدع بها ولا يفتن جاهل. ولكن الخازن رحمه الله تعالى لم يلتزم بمنهجه هذا في جميع تفسيره.

١٤- منهج أبي حيان الأندلسي في تفسيره «البحر المحيط في التفسير»: (١)

هو أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، (٦٥٤ - ٧٤٥هـ، ١٢٥٦ - ١٣٤٤م).

و«البحر المحيط» مرجع مهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن، حيث توسّع في مسائل النحو والخلاف بين النحويين، وينقل كثيراً عن «الزمخشري» و«ابن عطية» ويتعقّبهما، خصوصاً «الزمخشري» لآرائه الاعتزالية. ويختم تفسيره للآيات بكلام منثور، يشرح به مضمون الآيات على ما اختاره من المعاني باختصار. يتناول الأحكام، وينقل أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم، ويحيل على كتب الفقه، توسّع في مباحث الإعراب والنحو، حتى كأنه كتاب نحو. وفي ختام تفسيره للآيات يذكر ما فيها من علم البيان والبديع، وهو إمام في النحو والعربية؛ يحشر القراءات المتواترة والشاذة، ويذكر توجيهها في علم العربية. وينقل أقوال السلف والخلف في فهم معانيها، ولا يترك كلمة - وإن اشتهرت - إلا ويتكلم عليها، ويبدي ما فيها من غوامض الإعراب، والبديع والبيان.

ويُلاحظ من منهج أبي حيان في تفسيره أنه كان في منهجه بعيداً عن أقوال أهل الفلسفة، وبريئًا من مذهب أهل الاعتزال؛ غير أنه - في المقابل - لم يلتزم مذهب أهل السنة والجماعة

(١) وبهامشه «النهر الماد من البحر» له أيضًا.

في مسائل الأسـماء والصفات، فهو مُؤَوِّل أشعري، اتخذ «ابن عطية» و«الرازي» و«الباقلاني» عمدة له.

١٥- منهج تفسير الجلالين:

سُـمِّي هذا التفسـير بـ «الجلالين» نسـبة إلى مؤلِّفَيه جلال الدين المحلى، (٧٩١ - ٨٦٤ هـ = ١٣٨٩ - ١٤٥٩ م) وجلال الدين السـيوطى (٨٤٩ - ٩١١ هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠٥م)، وكلاهما مُؤَوِّلٌ للصفات على مذهب الأشاعرة. وقد اشتركا فى تفسير القرآن غاية فى الإيجاز، وربما كان أوجز تفسير للقرآن.

«تفسـير الجلاليـن» ابتـدأه «المحلـي» بتفسـير سـورة الكهـف إلى آخـر سـورة الناس، وابتـدأ تفسـير سـورة الفاتحة، ثـم توُفِّي؛ وأكمله السـيوطي، فابتـدأه من سـورة الفاتحة إلى سورة الإسراء.

والقارئ لهذا التفسير لا يكاد يلمس فرقـًا واضحـًا بين طريقة الشيخين، فيما فسراه، بل لا يكاد يحس بمخالفة بينهما -لا شـكلاً ولا مضمونـًا- في ناحية من نواحي التفسـير المختلفة، اللهم إلا في مواضع قليلة لا تكاد تذكر.

و«تفسير الجلالين» تفسير مختصر، وعبارته موجزة، اشتهر بين الناس لسهولته واختصاره.

تُذكـر فيه الأحاديث وأسـباب النزول والآثار عن السـلف بلا أسـانيد ولا عـزو لمصادرٍ غالبـًا، وأحيانـًا تُذكر المصادر.

وتُذكر في الأقوال التي رجّحها المفسران من غير تطويل، يقعُ فيه ذكر الإعراب على وجه مختصر. ينبّه على القراءات المشهورة باختصار.

تُذكَر فيه معاني الإسرائيليات دون التنبيه عليها. وقد تتضمن الغض من بعض الأنبياء (كما في تفسير فتنة داود عليه السلام في سورة (ص).

ومما يُؤخذ على هذا التفسير أنَّ مؤلِّفَيه لم يلتزما منهج أهل السنة والجماعة في مسائل الأسماء والصفات، التي أجمع السلف على إثباتها، دون تحريف، أو تعطيل، أو تكييف، أو تمثيل.

ومن الحواشـي التي كُتبت على هذا التفسـير، حاشية الجمل (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسـير الجلالين للدقائق الخفية) لسـليمان بن عمر الشـهير بالجمل المتوفَّى عام ١٢٠٤ هـ، وحاشـية الصـاوي، وهو أحمد بن محمـد الصاوي، وهو مالكى المذهـب، وصوفى من كبار الصوفية، (١١٧٥ -١٢٤١ هـ = ١٧٦١ - ١٨٢٥ م).

وهاتـان الحاشـيتان متداولتـان بيـن أهـل العلـم. وتجـد فيهمـا تأويـل الصفـات علـى مذهب الأشـاعرة، فلم يلتزما منهج أهل السـنة والجماعة في مسائل الأسماء والصفات، التي أجمع السلف على إثباتها، دون تحريف، أو تعطيل، أو تكييف، أو تمثيل.

وحاشية الجمل، حاشية مفيدة، على ما فيها من أخطاء في العقيدة، تبعًا للأصل، لكن هي أفضل من حاشية الصاوي، وحاشية الصاوي فيها بعض الكلام الذي لا يسوغ نقله، فضلاً عن ابتدائه. وقد وصل الانحراف فيها إلى القول بأن الأخذ بظاهر القرآن والحديث أصلٌ من أصول الكفر، وإلى إجازة الاستغاثة بغير الله عز وجل فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

١٦- منهج السيوطي في تفسيره «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور»:

عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، والسيوطي نسبة إلى أسيوط مدينة في صعيد مصر. (٨٤٩ - ٩١١ هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠٥م)، والدر المنثور هو أجمع كتاب للتفسير بالمأثور، لم يُبْدِ فيه السيوطى رأيًا، ولم يقل فيه كلمة مفسرة أو جملة شارحة، وإنما التزم التزاما كاملا أن يكون تفسيره جمعًا لأحاديث رسول الله ﷺ فى الآية وسردا لبعض أقوال الصحابة رضي الله عنهم.

وهو فى جمعه هذا لم يلتزم صحة الأحاديث والنقل، وإنما خلط فيه بين الصحيح والعليل، ومن أجل ذلك فإن هذا الكتاب الجليل فى حاجة ماسة إلى عمل متقن، فى التحقيق والتخريج، وبيان الصحيح من الأحاديث والحسن منها والضعيف.

فكتاب «الدُرّ المنثور» كل ما فيه هو سرد الروايات عن السَلَف فى التفسير بدون أن يُعقِّب عليها، فلا يُعَدِّل ولا يُجَرِّح، ولا يُضَعِّف ولا يُصَحِّح، فهو كتاب جامع فقط لما يُروى عن السَلَف فى التفسير، أخذه السيوطى من البخارى، ومسلم، والنسائى، والترمذى، وأحمد، وأبى داود، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وعبد ابن حميد، وابن أبى الدنيا، وغيرهم ممن تَقدَّمه ودَوَّن التفسير.

١٧- منهج أبي السعود في تفسيره «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»:

هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفى، المُفْتي والمُفسِّر. ولد في إحدى ضواحي القسطنطينية عام ٨٩٨ هـ، تلقى العلوم على يد نخبة من علماء عصره، ومنهم والده، اشتغل بالتدريس، وتولى قضاء القسطنطينية وغيرها من المدن، وتولى بعد ذلك الإفتاء ومكث فيه ثلاثين سنة، توفي أبو السعود ٩٨٢هـ.

وقد استفاد في تفسيره من تفاسير الزمخشري والبيضاوي والرازي والواحدي والثعلبي والقرطبي والبغوي وغيرها.

أما عقيدته في الأسماء والصفات فهو على عقيدة المُؤَوِّلة ما حاد عنها تبع الرازي في تصرفه بل ينقل ترجيحات الرازي ويقرها.

١٨- منهج الشوكاني في تفسيره «فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من التفسير»:

مؤلف هذا التفسير هو العلامة محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني، (١١٧٣هـ ١٢٥٠هـ، ١٧٥٩-١٨٣٤م)، تفقه على مذهب الزيدية، وبرع فيه، وألَّف وأفتى. ثم خلع ربقة التقليد،

وتحلَّى بمنصب الاجتهاد، وألَّف رسالة سماها «القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد»، تحامل عليه من أجلها جماعة من العلماء.

وعنوان تفسيره «فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من التفسير» يشرح الطريقة، فهى ليست طريقة التفسير بالمأثور تقتصر على إيراد ما ورد فى الآية من الآثار كما فعل السيوطى فى تفسيره الذى اقتصر فيه على إيراد ما ورد من المأثورات.

وليس تفسيرًا يجعل كلَّ هَمّه العقليات كما فعل مثلًا الفخر الرازى وإنما هو تفسير يجمع بين «الرواية والدراية» والرواية، هى ايراد المأثورات والدراية هى ابداء الرأى الشخصى بعد الفهم والتأمل فى الآية وما روى عنها.

والشوكاني فى تفسيره يذكر الآيات، ثم يفسِّرها تفسيراً معقولاً ومقبولاً، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك: الروايات التفسيرية الواردة عن السَلَف، وهو ينقل كثيراً عمن ذكر من أصحاب كتُب التفسير. ويذكر المناسبات بين الآيات، ويحتكم إلى اللُّغة كثيراً. وينقل عن أئمتها كالمبرد وأبى عبيدة والفرَّاء، كما أنه يتعرض أحياناً للقراءات السبع، ولا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقهية فى كل مناسبة، ويذكر اختلافاتهم وأدلتهم، ويُدلى بدلوه بين الدلاء، فيرجح، ويستظهر، ويستنبط، ويعطى نفسه حرية واسعة فى الاستنباط، لأنه يرى نفسه مجتهداً لا يقل عن غيره من المجتهدين.

ويتميز تفسير الشوكاني بالتحذير من البدع المضلة والعقائد المنحرفة والتقليد الأعمى، وقد لقي المؤلف بسبب ذلك إيذاءً وفتناً شتى رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

وموقفه من الأسانيد ما ذكره في مقدمة تفسيره من الحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله أو الصحابة أو التابعين أو تابعيهم أو الأئمة المعتبرين، وأنه قد يذكر ما في إسناده ضعف، وهو يتعقب أحياناً الروايات التي يذكرها ويبين حالها، لكن يؤخذ عليه أنه يذكر أحاديث ضعيفة وموضوعة في مواضع كثيرة ولا ينبه عليها، وهو ينقل من "الدر المنثور" للسيوطي كثيراً.

أما الإسرائيليات فإنه يمتاز عن غيره بقلة إيرادها، بل لا تكاد توجد فيه إلا للرد عليها، فهو من أشد المفسرين انتقادا لها، ولايدع فرصة تمر إلا ويوجه نقده اللاذع إليها.

وموقفه من الأحكام الفقهية أنه يذكر مذاهب العلماء الفقهية (الأئمة الأربعة وغيرهم) واختلافاتهم وأدلتهم، ويرجح ويستنبط، فهو إمام مضطلع مجتهد في الفقه، فقد ألف فيه مؤلفات، مثل: «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار»، و«السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار»، و«الدر البهية» وشرحها وغيرها.

ولا يدع الشوكاني فرصة تسنح له في تفسيره للتنديد بالتقليد إلا ويشنع فيها على المقلدة.

بل إنك تلحظ أنه لا يمر بآية من القرآن تنعى على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبقها على مقلدي المذاهب الفقهية ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله تعالى معرضون عن سنة رسوله ﷺ.

والشوكاني في تفسيره يُؤَوِّل الصفات، إلا صفة الاستواء حاول أن يقرر فيها مذهب السلف، أما سائر الصفات فهو مُؤَوِّلٌ فيها ينقل فيها عبارة غيره ويسكت عنها، فأَوَّلَ صفة الغضب والاستهزاء والحياء والوجه والإتيان والمجيء والمحبة والنفس واليد والفوقية والعين، أما الرؤية فقد أثبت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة كما أثبتها غيره ردًّا على المعتزلة.

وللشوكاني رسالة أسماها «التحف في مذاهب السلف» ذم فيها أهل الكلام وطريقتهم في تقديم العقل على نصوص الكتاب والسنة ومدح فيها مذهب السلف، وحاول فيها تقرير مذهب السلف.

والشوكاني في التوسل لا يجيز التوسل بجاه أحد ولا بشيء لم يرد جوازه في الكتاب أو السنة ويفيض فى الإنكار على مَن يفعل. ورَدَّ على المعتزلة في إنكارهم لحقيقة وتأثير السحر.

١٩- منهج الألوسي في تفسيره «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»:

الألوسي هو أبو شهاب الدين محمود أفندي الألوسي نسبة إلى قرية اسمها ألوس، وهي جزيرة في منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد، كانت موطن أجداده، ولد سنة ١٢١٧م في الكرخ من بغداد.

وتفسير الألوسي يعد من التفاسير الصوفية، فقد كان اتجاهه صوفيًّا، وقَلَّ ما تفوته مناسبة إلا وينبِّه على ما في الآية من التفسير الإشاري، وهو الذي تُؤَوَّل به الآيات على غير ظاهرها مع محاولة الجمع بين الظاهر والخفي، فبعد أن يُورِد فيه تفسير الآيات حسب الظاهر، يشير إلى بعض المعاني الخفية التي تستنبط بطريق الرمز والإشارة.

وتفسيره موسوعة تفسيرية لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير. ينقل عن «ابن عطية» و«أبي حيان» و«الزمخشري» و«أبي السعود» و«البيضاوي» و«الرازي» وغيرهم.

وهو يُدقّق ما ينقله وينقده، ويبدي رأيه فيه، ويستطرد في الكلام على الأمور الكونية، ويذكر كلام أهل الهيئة والحكمة، ويُقرُّ ما يرتضيه، ويرد على ما لا يرتضيه، ويطيل النَفس في بحوثه.

يميل إلى التصوف، وكثيراً ما يفسّر الآيات تفسيراً رمزيـًا إشاريـًا، على طريقة المتصوّفة، مع المتابعة لهم في بعض شطحاتهم، وخلع الألقاب العظيمة عليهم، ويصرّح بأسمائهم أحيانـًا كـ«ابن الفارض» وغيره؛ وفيما يسوقه من «التفسير الإشاري» بلايا وأوابد، ولهذا عدّه بعضهم من تفسير «الصوفية».

وقد ضم في تفسيره معظم بحوث «الرازي»، مع تقرير مذهب «الأشاعرة»، والانتصار

لهم، والوقيعة في أئمة السلف، ولهذا عدَّه بعضهم من تفاسير «الماتريدية»، وأحيانـًا يردّ على الأشاعرة أقوالهم، ويقرّر مذهب السلف، ويفنّد آراء «المعتزلة» و«الشيعة» وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة؛ ولهذا عدّه بعضهم من مفسري السلف. والحقُّ أن الألوسي عنده تردّد بين مذهب السلف والخلف، وتفسيره مزيج بين الاتجاهات الثلاثة.

وقد سلك الألوسي في تفسيره مسلك التفسير اللغوي، حيث يهتم بالتحقيقات اللغوية باعتبارها تفتح أوسع المجالات لفهم آيات الذكر الحكيم. وإذا تكلم عن آيات الأحكام فإنه لا يمر عليها إلا إذا استوفى مذاهب الفقهاء وأدلتهم، مع عدم تعصب منه لمذهب بعينه.

كما يستهل الألوسي تفسير السورة بالكلام عنها هل هي مكية أم مدنية وعدد آياتها، ثم يبين وجه مناسبتها للسورة التي قبلها، ويذكر أقوال العلماء في ذلك.

أما طريقته في تفسير السورة فإنه لا يلتزم بنظام معين، بل يعرضها حسب ما يتفق وتبيان المراد منها في نظره، فقد يعرض الآية كاملة ثم يفسرها وقد يجزِّئُ بعضها.

أما طريقته في توظيف الحديث الشريف في التفسير، فإنه يحشد في معنى الآية المزمع تفسيرها مجموعة من الأحاديث النبوية الواردة في النص، وقد تكون متعارضة قوةً وضعفًا، فما إن ظهرت قوة أحدها أو مجموعة منها رجحها وعول عليها لتوجيه معنى الآية، وكثيرا ما يلجأ الألوسي إلى أقوال الصحابة لتفسير الآيات، وغالبا يعقب عليها إما توضيحا أو تعضيدها بأقوال أخرى. وقد يسوق الألوسي قول أحد الصحابة لبيان الناسخ والمنسوخ.

أما موقفه من الإسرائيليات، فيلاحظ عليه أنه شديد النقد للإسرائيليات، والأخبار المكذوبة التي حشا بها كثير من المفسرين تفاسيرهم وظنوها صحيحة. أما نهجه في توظيف أقوال التابعين، فإنه يستشهد كثيرا بأقوال التابعين في صدد تبيان مراد الله من آيات كتابه، ولكن منهجه في ذلك ليس دائم القبول، فقد يستبعد قول أحد التابعين إن رآه بعيدا عن المعنى المطلوب، وقد اعتمد على كبار المفسرين من التابعين كمجاهد وقتادة وعكرمة وطاووس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري وسعيد بن جبير ومسروق وغيرهم من العلماء الأجلاء الذين ورثوا أمانة العلم من الصحابة وأدوها أحسن أداء.

واستعمل الألوسي الشعر في تفسيره كثيرا، ولو أراد باحث أن يتقصى ذلك وأن يحصره لضاق ذرعا، ففي الكتاب عدد كبير من الأبيات الشعرية، وكان يذكر الشعر لأغراض مختلفة، فتارة يذكره لبيان معنى لغوي أو للاستدلال على قاعدة نحوية أو بلاغية. كما نجد الألوسي يولي اهتماما خاصا للقراءات المختلفة التي تساعده في استخلاص المعاني.

وقد اعتمد الألوسي على مجموعة من المصادر منها:

١- **كتب التفسير**: كان الألوسي يعرض آراء كثير من المفسرين ويناقشها كتفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن حبان، وتفسير ابن عطية، وتفسير البيضاوي، وتفسير الزمخشري، وتفسير الرازي.

٢- **كتب الحديث**: اعتمد على كثير من المصنفات الحديثية كالبخاري ومسلم والترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجة وكتب البيهقي والدار قطني والحاكم.

٣- **كتب الفقه**: أخذ تفسير بعض الألفاظ القرآنية من مؤلفات فقهية لمذاهب مختلفة كمذهب مالك والشافعي والحنفي وغيرهم.



٨- مصطلحات بلاغية

* **الفصاحةُ:** عبارةٌ عن الألفاظِ البيِّنةِ الظاهرةِ، المتبادرةِ إلى الفهم، والمأنوسةِ الاستعمال بين الكتَّابِ والشّعراء لمكانِ حُسنها.

* **البلاغـةُ:** البلاغـةُ في الكلام: مطابقتُه لما يقتضيه حالُ الخطاب- مع فصاحةِ ألفاظهِ «مفردِها ومركَّبِها». والكلامُ البليغُ: هو الذي يُصورُّهُ المتكلِّمُ بصورةٍ تناسبُ أحوالَ المخاطَبين.

* **الخبـرُ:** الخبرُ كلامٌ يحتملُ الصدقَ والكذبَ لذاتـهِ، والمرادُ: بصدقِ الخبر مُطابقتُه للواقع ونفسِ الأمر،والمرادُ بكذبهِ عدمُ مطابقتهِ له. والأصلُ في الخبر أن يلقَى لأحدِ غرضين: إمَّا إفادةُ المخاطبِ الحكمَ الذي تضمنتْهُ الجملةُ، إذا كان جاهلاً له، وإمَّا إفادةُ المخاطَبِ أنَّ المتكلمَ عالمٌ أيضاً بأنهُ يعلمُ الخبرَ.

* **الإنشـاءُ:** ما لا يحتملُ صدقاً ولا كذباً، كالأمرِ والنهيِ والاستفهامِ والتمنِّي والنداءِ وغيرها.

* **القصْرِ:** هو تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ بطريقٍ مخصوصٍ. نحو: ما شوقي إلا شاعرٌ، فمعناهُ تخصيصُ (شوقي بالشِّعرِ) وقصرُهُ عليه، ونفيُ صِفةِ(الكتابةِ) عنه - (ردًّا على من ظنَّ أنَّهُ شاعرٌ وكاتبٌ) والذي دلَّ على هذا التخصيصِ هو النفيُ بكلمةِ (ما) المتقدمةِ، والاستثناءُ بكلمةِ (إلا) التي قبلَ الخبر. ولو قلتَ (شوقي شاعرٌ) بدونِ (نفي واستثناءٍ) ما فُهِمَ هذا التخصيصُ.

* **الإيجازُ:** هو وَضعُ المعاني الكثيرةِ في ألفاظٍ أقلَّ منها، وافيةٍ بالغرضِ المقصودِ، مع الإبانةِ والإفصاحِ، كقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فهذه الآيةُ القصيرةُ جمعتْ مكارمَ الأخلاقِ بأسرها.

* **الإطنابُ:** زيادةُ اللفظِ على المعنى لفائدةٍ، أو هو تأديةُ المعنَى بعبارةٍ زائدةٍ عن متعارفِ أوساطِ البلغاءِ، لفائدةِ تقويتِه وتوكيدِه - نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم:٤]، أي: كبرتُ.

وأنواع الإطناب كثيرة منها: ذِكْرُ الخَاصِّ بَعْدَ العـام لِلتَّنبيهِ عَلَى فَضْـلِ الْخَاصِّ: كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وذِكْرُ العَامِّ بَعد الخَاصِّ، كقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨]. والإيضاحُ بَعْدَ الإبهامِ، لتقريرِ المَعْنى في ذهنِ السامعِ بذكرهِ مرتين، مرةً على سبيل الإبهام والإجمالِ، ومرّةً على سبيل التفصيل والإيضاح، فيزيدُه ذلك نبلاً وشرفاً، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (١٠) تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف:١٠، ١١].

* **التشبيهِ:** هو عقدُ مماثلةٍ بينَ أمرينِ أو أكثرَ، قصِدَ اشتراكهُما في صفةٍ أو أكثرَ، بأداةٍ لغرضٍ

يقصُدهُ المتكلِّمُ للعلمِ، نحو: أَنْتَ كالشَّمس في الضِّياءِ.

* **تشبيهُ التمثيل:** هو ما كان وجهُ الشَّبَّهِ فيه وصفًا منتزَعًا من متعددٍ، حسِّيًا كان أو غيرَ حسِّيٍّ، كقول الشاعر:

وما المَرْءُ إلاَّ كالشِّهَابِ وضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ ساطِعُ

فوجهُ الشَّبَّهِ سرعةُ الفناءِ انتزعَهُ الشاعرُ من أحوالِ القمرِ المتعددةِ، إذ يبدو هلالاً، فيصيرُ بدراً، ثم ينقصُ، حتى يدركَه المحَاقُ.

وتشبيهُ التمثيلِ نوعانِ:

الأولُ: ما كانَ ظاهرَ الأداةِ، نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥] فالمشبَّهُ: همُ الذين حُمّلوا التوراةَ ولم يعقلوا ما بها: والمشبَّهُ به (الحمارُ) الذي يحملُ الكتبَ النافعةَ، دونَ استفادتهِ منها، والأداةُ الكافُ، ووجهُ الشبَّهِ (الهيئةُ الحاصلةُ منَ التعبِ في حمل النافع دونَ فائدةٍ).

الثاني: ما كانَ خفيَّ الأداةِ: كقولكَ للذي يتردّدُ في الشيء بينَ أن يفعلَهُ، وألاّ يفعلَهُ (أراكَ تقدِّمُ رِجلاً وتُؤخِّرُ أخرَى)، إذِ الأصلُ أراكَ في ترددكَ مثلَ مَنْ يقدِّمُ رجلاً مرةً، ثم يؤخّرُها مرة أخرى، فالأداةُ محذوفةٌ، ووجهُ الشبهِ هيئةُ الإقدامِ والإحجامِ المصحوبينِ بالشَكِّ.

* **التشبيهُ المرسَلُ:** هو ما ذكِرتْ فيه الأداةُ، كقول الشاعر:

إِنَّمَا الدُّنْيَا كَبَيْتٍ نَسَجَتْهُ العَنْكَبُوتُ

* **التشبيهُ المؤكَّدُ:** هو ما حذفتْ منه أداته، كقول الشاعر:

أَنْتَ نجْمٌ في رِفْعةٍ وضِياءٍ تجْتَليكَ الْعُيُونُ شَرْقًا وغَرْبا

* **التشبيهُ البليغُ:** هو ما حُذفتْ فيه أداةُ التشبيهِ ووجهُ الشبَّهِ، نحو قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

* **التشبيهُ الضمنيُّ:** هو تشبيه لا يوضعُ فيه المشبَّهُ والمشبَّهُ به في صورةٍ من صورِ التشبيهِ المعروفةِ، بل يلمحُ المشبَّهُ والمشبَّهُ به، ويفهمانِ من المعنَى، ويكونُ المشبَّهُ به دائمًا برهانًا على إمكانِ ما أُسندَ إلى المشبِّه، كقول المتنبي:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيهِ ما لجُرْحٍ بمَيّتٍ إيلامُ

أيْ أنَّ الذي اعتادَ الهوانَ، يسهلُ عليه تحمّلُه، ولا يتألمُ له، وليس هذا الادعاءُ باطلاً، لأنَّ الميتَ إذا جُرِحَ لا يتألمُ، وفي ذلك تلميحٌ بالتشبيهِ في غير صراحةٍ، وليس على صورةٍ من صورِ التشبيهِ المعروفة.

* **التشبيهُ المقلوبُ:** التشبيهُ المقلوبُ: هو جعلُ المشبَّهِ مشبَّهًا به بادّعاءِ أنَّ وجهَ الشبَّهِ فيه

أَقوَى وأَظهرُ. ويسمَّى ذلك بالتشبيهِ المقلوبِ أو المعكوسِ، نحو: كأنَّ ضوءَ النهارِ جبينُهُ، ونحو: كأنَّ الماءَ في الصفاءِ طباعُهُ.

*** المجازُ العقليُّ:** هو إسنادُ الفعل، أو ما في معناهُ من اسمِ فاعل، أو اسمِ مفعولٍ أو مصدرٍ إلى غير ما هو له في الظاهرِ، من حال المتكلِّم، لعلاقةٍ مع قرينةٍ تمنعُ من أن يكونَ الإسنادُ إلى ما هوَ لهُ. كقوله: (بنَى الأميرُ المدينة) فإنّ الأميرَ سببُ بناءِ المدينة، لا إنّه بناها بنفسِه.

*** المجازَ اللغويُّ:** وهو استعمالُ اللفظ في غير ما وضع له لعلاقةٍ، بمعنى مناسبةٍ بين المعنى الحقيقيِّ والمعنى المجازيِّ ويكون الاستعمالُ لقرينةٍ مانعةٍ من إرادةِ المعنى الحقيقيِّ.

*** المجازُ المرسلُ:** هو الكلمةُ المستعملةُ قصداً في غير معناها الأصليِّ لملاحظةِ علاقةٍ غيرِ (المشابهةِ) مع قرينةٍ دالّةٍ على عدمِ إرادة المعنى الوضعيِّ.

وله علاقاتٌ كثيرةٌ منها:

١- **السببيَّةُ:** هي كونُ الشيءِ المنقولِ عنه سبباً ومؤثراً في غيرِه، وذلك فيما إذا ذكِرَ لفظُ السببِ، وأريدَ منه المسبِّبُ، نحو: رعتِ الماشيةُ الغيثَ - أي النباتَ، لأنَّ الغيثَ أيْ (المطرَ) سببٌ فيه، وقرينتُه (لفظيةٌ) وهي (رعَت) لأنَّ العلاقةَ تعتبرُ من جهةِ المعنى المنقولِ عنه.

٢- **الكليةُ:** هي كونُ الشيءِ متضمناً للمقصود ولغيره، وذلك فيما إذا ذكرَ لفظُ الكلِّ، وأريدَ منه الجزءُ، نحو: شربتُ ماءَ النيل - والمرادُ بعضُهُ، بقرينةِ شربتُ.

٣- **الجزئيةُ:** هي كونُ المذكورِ ضمنَ شيءٍ آخر، وذلك فيما إذا ذكرَ لفظُ الجزءِ، وأريدَ منه الكلُّ، نحو: نشرَ الحاكمُ عيونَهُ في المدينة، أي الجواسيسُ، فالعيونُ مجازٌ مرسلٌ، علاقتُه (الجزئيةُ) لأنَّ كلَّ عينٍ جزءٌ من جاسوسِها - والقرينةُ الاستحالةُ.

*** الاستعارةُ:** هي استعمالُ اللفظُ في غير ما وضعَ له لعلاقةِ (المشابهةِ) بين المعنَى المنقولِ عنه والمعنِى المستعملِ فيهِ، مع (قرينةٍ) صارفةٍ عن إرادةِ المعنَى الأصليِّ،(والاستعارةُ) ليست إلا (تشبيهاً) مختَصراً، لكنها أبلغُ منهُ كقولك: رأيتُ أسداً في المدرسةِ، فأصلُ هذه الاستعارةِ «رأيتُ رجلاً شجاعاً كالأسدِ في المدرسةِ» فحذفتَ المشبهَّ «لفظُ رجلٍ» وحذفتَ الأداةَ الكاف - وحذفتَ وجهَ التشبيهِ «الشجاعةَ» وألحقتهُ بقرينةِ «المدرسةِ» لتدلَّ على أنكَ تريدُ بالأسدِ شجاعاً.

- **الاستعارةُ التصريحيةُ:** هي ما صُرِّحَ فيها بلَفظِ المشبَّه بهِ. كقول المتنبي:

وَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى الْبَدْرُ نَحْوَهُ ... وَلَا رَجُلاً قَامَتْ تُعَانِقُهُ الْأُسْدُ

فكلمتي البدرِ والأسدِ مشبَّهٌ به في الأصلِ، وحُذِفَ المشبَّهُ، فالبدرُ لا يمشي والأُسْدُ لا تعانق.

- **الاستعارةُ المكنيَّةُ:** هي ما حُذِفَ فيها المشَبَّهَ بِهِ ورُمِزَ لهُ بشيء مِنْ لوازمه.

كقوله الحجَّاجُ بن يوسفَ في أول خطبة بأهل الكوفة: «أني لأرَى رُؤوُسًا قَدْ أيْنَعَتْ وحَانَ قِطافُها وإنّي لَصَاحِبُهَا».

فإنَّ الذي يفهَمُ منه أَن يشبِّه الرؤوسَ بالثمراتِ، فأَصلُ الكلام إني لأرى رؤوسًا كالثمراتِ قد أينعتْ، ثم حذف المشبَّه به فصار إني لأرى رؤوسًا قد أينعتْ، على تخيُّل أن الرؤوسَ فد تمثلت في صورةِ ثمار، ورُمز للمشبَّه به المحذوف بشيء من لوازمهِ وهو أيَنعت، ولما كان المشبَّه به في هذه الاستعارةُ محْتجبًا سميتِ استعارةً مكنيةً.

*** تقسيم الاستعارة إلى مطلقة ومُرشَّحة ومجرّدة:**

تنقسم الاستعارة بالنظر إلى اقترانها بما يلائم المستعار منه «وهو المشبه به» أو المستعار له «وهو المشبّه» أو عدم اقترانها بشيءٍ من ذلك إلى ثلاثة أقسام:

١- الاستعارة الْمُطْلَقة: وهي الاستعارة التي لم تقترن عِبَارَتُها بأوصاف أو تفريعات أو كلامٍ مما يُلائم المستعارَ منه، أو يلائم المستعارَ له، باستثناء القرينة الصارفة عن إرادة المعنى الأصلي للّفظ المستعار.

مثل: «قطع الأمير رأس الحيَّة الكبرى» بمعنى أنّه قطع رأس رئيس عصابة الشرّ والفساد، إذا كانت قرينة الحال دالّة على المراد. فالحيّةُ لفظ مستعار للدلالة به على رئيس عصابة الشرّ والفساد، ويُلاحظ أنّ العبارة لم تقترن بما يلائم لفظ الحيّة، ولا بما يُلائم رئيس عصابة الشرّ والفساد. هذه الاستعارة استعارة تصريحيّة مطلقة.

٢- **الاستعارة المرشحة**: وهي الاستعارة التي اقترنت بما يلائم المستعار منه. وسمّيت مُرَشَّحة لأنّ ما اقترن بها يعطيها زيادة تقوية للمستعار منه بزيادة أَغْطِيَةٍ تحتاج زيادة عمل ذهني لكشف إرادة المعنى المجازي الّذي اسْتُعْمِلَ اللَّفْظ للدلالة عليه. مثل أن نقول في المثال السابق: «قطع الأمير رأسَ الحيّة الكبرى التي باضَتْ وفرّخت صغار الحيّات والثعابين وسعت تنهش وتنفثُ سُمَّها». هذه العبارة اقترنت الاستعارة فيها بما يلائم المستعار منه، إذ الحيّة الحقيقيّة هي التي تبيض وتفرّخ وتنهش وتنفث سُمَّها. فالاستعارة في هذا المثال استعارة تصريحيّة مُرَشَّحة.

٣- **الاستعارة المجرّدة**: وهي الاستعارة التي اقترنت بما يلائم المستعار له. وسمّيت مجرّدة لأنّ المقارنات الملائمات للمستعار له تُجَرِّدُ الاستعارة من أغطيتها الساترة، فيظهر المعنى المجازيّ المراد دون تأمُّلٍ فكريّ. كأن نقول في المثال السابق:

«قطع الأمير رأس الحيّة الكبرى الّتي جمعت أشرار الناس، وأرادت إفساد المجتمع».

هذه العبارة اقترنت بما يلائم المستعار له الذي هو رئيس عصابة الشرّ والفساد.

وإذا اجتمع في العبارة المشتملة على الاستعارة الترشيح والتجريد معًا، كانت الاستعارة

في حكم الاستعارة المطلقة.

كقول زهير:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

استعار الأسدَ للرجل الشجاع، وقد ذكر ما يناسبُ المستعارُ له، في قوله: شاكي السلاحَ مقذَّفٍ وهو التجريدُ، ثم ذكر ما يناسبُ المستعارَ منه، في قوله: له لبدٌ أظفاره لم تقلمِ، وهو الترشيحُ، واجتماعِ التجريدِ والترشيحِ يؤدِّي إلى تعارُضِهما وسقوطِهما، فكأنّ الاستعارةَ لم تقترنْ بشيءٍ وتكونُ في رتبةِ المطلقةِ.

*** تنقسم الاستعارة باعتبار اللفظِ المستعارِ الأفعالِ أو المشتقاتِ أو الحروفِ على النحو التالي:**

١- إذا كانَ اللفظُ المستعارُ «اسماً جامداً لذاتٍ» كالبدرِ إذا استعيرَ للجميلِ، سميتِ الاستعارةُ « أصليَّةً».

٢- إذا كان اللفظ المُستعارُ « فعلاً» أو اسمَ فعل، أو اسماً مشتقاً أو اسماً مُبهَماً أو حرفاً فالاستعارةُ « تصريحيةٌ تبعيةٌ» نحو: نامتْ همومي عنّي.

الكناية: لفظٌ أريد به غيرُ معناهُ الذي وضعَ له، مع جواز إرادةِ المعنى الأصليِّ، لعدم وجود قرينةٍ مانعة من إرادته، نحو: « زيدٌ طويل ُالنجادُ » تريد بهذا التركيب أنه شجاعٌ عظيم، فعدلت عن التصريح بهذه الصفة، إلى الإشارة إليها بشيءٍ تترتب عليه وتلزمه، لأنه يلزم من طول حمالةِ السيف طولُ صاحبه، ويلزم من طول الجسمِ الشجاعةُ عادةً، فإذاً: المراد طولُ قامته، وإنْ لم يكن له نجادٌ، ومع ذلك يصحُّ أن يراد المعنى الحقيقيَّ، ومن هنا يعلَمُ أنَّ الفرقَ بين الكناية والمجاز صحةُ إرادةِ المعنى الأصليِّ في الكناية، دون المجاز، فإنه ينافي ذلك.

وقد يُقالُ: فُلاَنٌ كثيرُ الرَّمَادِ، أي: مضيافٌ جواد، مع أنَّه لا يَطْبُخُ الطعامَ لضُيُوفِه الكثرين بنار الحطب الّذي يُخَلِّف رماداً، إنّما يطبُخ لهم بالأفران الكهربائية أو الغازيّة. وبهذا يظهر الفرق بين الكناية والمجاز، فالمجاز لا يصحّ معه إرادة المعنى الحقيقيّ للفظ، بل يتعيّن فيه إرادة المعنى المجازيّ فقط، مثل: خطب الأَسَدُ المغوار خُطْبَةً عظيمة في الجيش ألهب بها المشاعر، واستثار الحماسة. فلفظ "الأسد" هنا مجاز عن الرجل الشجاع، ولا يصحّ أن يُرادَ به معناه الحقيقي، وهو الحيوان المفترسُ المعروف.

وتنقسمُ الكنايةُ بحسبِ المعنى الذي تُشيرُ إليه إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

١- **كنايةٌ عن صفةٍ**: كما تقول: (فلانٌ نظيفُ اليدِ) تكني عن العفةِ والأمانةِ،وتعرف كنايةُ الصفة بذكر الموصوفِ: ملفوظاً أو ملحوظاً من سياق الكلام.

٢- **كنايةٌ عن موصوفٍ**: كما تقولُ (الناطقينَ بالضادِ) تكني عن العربِ، و (دارُ السَّلام) تكني عن بغدادَ، و(طَيْبَةُ) كنايةٌ عن المدينةِ المنورةِ، وتعرفُ بذكرِ الصفةِ مباشرةً، أو

ملازمة،ومنها قولهم: (هو حارسٌ على مالِهِ) كنوا به عن البخيلِ الذي يجمعُ ماله، ولا ينتفعُ به.

٣- **كنايةٌ عن نسبةٍ**: الكنايةُ التي يراد بها نسبةُ أمرٍ لآخرَ، إثباتـًا أو نفيـًا فيكون المكنَّى عنه نسبةً، أُسنِدتْ إلى ماله اتصالٌ به - نحو قولنا عن شخص: (العزُّ في بيتهِ) فإن العزَّ ينسبُ للشخصِ وليس للبيت.

* **الطباقُ**: هو الْجَمْعُ في العبارة الواحدة بين معنَيْين متقابلين، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، ولو إيهامـًا، ولا يشترط كون اللّفظين الدَّالَّيْن عليهما من نَوْع واحدٍ كاسمين أو فعلين، فالشرط التقابل في المعنييّْن فقط. والتقابل بين المعاني له وجوه، منها ما يلي:

١- **تقابل التناقض**: كالوجود والعدم، والإيجاب والسلب.

٢- **تقابل التضاد**: كالأسود والأبيض، والقيام والقعود.

٣- **تقابل التضايُف**: كالأب والابن، والأكبر والأصغر، والخالق والمخلوق.

ينقسمُ الطباقُ إلى قسمينِ طباقُ إيجابٍ وطباقُ سلبٍ:

طباقُ الإيجابِ: هو ما لم يختلفْ فيه الضِّدانِ إيجابـًا وسلبـًا، مثل الطباق بين (حُلو) و (مُرّ)، و(يقظ) وَعَنْ(نائم).

طباقُ السَّلبِ: هو ما اختلف فيه الضدانِ إيجابـًا وسلبـًا، بحيثُ:

أ- يجمعُ بين فعلينِ من مصدرٍ واحدٍ، أحدهُما مثبتٌ مرةً، والآخرُ منفيٌّ تارةً أخرى، في كلامٍ واحدٍ، مثل الطباق بين (يعلم) و(لا يعلم) في قولنا: «بعض الناس يعلم الكثير عن أمر دنياه، ولا يعلم عن امر دينه إلا القليل».

ب- أو أحدهُما أمرٌ، والآخرُ نهيٌ، نحو: «صاحب المصلح، ولا تصاحب المفسد».

* **المقابلة**: هي طباقٌ مُتَعَدِّدُ عَناصرِ الفريقَيْنِ المتقابلَيْنِ، وفيها يؤتى بمعنَيْين فأكْثر، ثُمَّ يُؤْتَى بما يُقابلُ ذلِكَ على سبيل الترتيب. قال الشاعر:

فَلاَ الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ وَلاَ الْبُخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرُ

الْجَدُّ: الحظُّ والنَّصِيبُ من الْخَيْر. في هذا البيت مقابلة بين فريقين من المعاني يوجد بين عناصرهما طباق، وهي ثلاَث:

الفريق الأول: الجود - يُفْنِي - مُقْبل.

الفريق الثاني: البخل - يُبْقِي - مُدْبر.

* **التوريةُ**: هي أن يذكُرَ المتكلمُ لفظـًا مفرداً له معنيان; أحدهُما قريبٌ غيرُ مقصودٍ ودلالةُ اللفظِ عليه ظاهرةُ، والآخرُ بعيدٌ مقصودٌ، ودلالةُ اللفظِ عليه خَفِيَّةٌ، فيتوهَّمُ السَّامعُ: أنه يُريدُ المعنَى القريبَ، وهو إنَّما يُريدُ المعنى البعيدَ بقرينةٍ تشيرُ إليه ولا تُظهرُه، وتسترُه عن غير

المتيقظِ الفطِنِ.

وهي تنقسمُ إلى قسمين:

١- **مجـردةٌ**: وهـي التي لم تقترنْ بما يلائم المعنى القريـب، ولا بما يلائم المعنى البعيد: كقول إبراهيم الخليل عليه السلام لما سأله الجبار عن زوجته: فقال «هَذِهِ أُخْتِي» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). أراد أخوةَ الدِّينِ.

وكقول سراج الدين الوراق:

أَصُــونُ أَدِيــمَ وَجْــهِي عَـنْ | أُنَاسٍ لِقَاءُ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الأَدِيبُ
وَرَبُّ الــشِّــعْــرِ عِــنْــدَهُــمُ | بَغِيضٌ وَلَـوْ وَافَـى بِـهِ لَـهُمُ حَبِيبُ

كلمة «حبيب» لا يريد بها المعنى القريب وهو المحبوب، بل يريد بها المعنى البعيد، وهو اسم أبي تمّام الشاعر: «حَبِيبُ بن أوس».

٢- **مرشَّحةٌ**: وهي التي اقترنتْ بما يلائمُ المعنى القريبَ، وسميتْ بذلك لتقويتِها به، لأنَّ القريبَ غيرُ مراد، فكأنهُ ضعيفٌ، فإذا ذكر لازمُه تقوَّى به، نحو:

أَقُولُ وَقَدْ شَنُّوا إِلَى الحْربِ غَارَةً | دَعُونِي فَإِنِّي آكُلُ الْعَيْشَ بِالجُبْنِ

الشـاهدُ فيه: العيشُ والجبنُ، فالعيشُ يعني الخبز ويعني الحيـاة، والجبنُ يعني المصنوع من اللبن، ويعني الخورُ عكسُ الشجاعةِ.

* **التجريـدُ**: أنْ ينتـزعَ المتكلِّـمُ مـن أمر ذي صفةٍ أمراً آخـرَ مثله في تلك الصفـةِ مبالغةً في كمالِهـا في المنتَـزعِ منه، حتى أنه قدْ صـارَ منها بحيثُ، يمكنُ أنْ يُنتـزعَ منه موصوفٌ آخرُ بها، كقولك: لي «مِنْ» فَلانٍ صديقٌ حميمٌ، أي بلغَ فلانٌ من الصداقةِ حدًّا صحَّ معه أنْ يسـتخلصَ منه آخرُ مثلهُ فيها. وقولك: لئنْ سألتَ فلانـاً لتسألنَّ به البحرَ، بالغ في اتصافِه بالسماحةِ، حتى انتـزعَ منه بحراً فيها. ونحو: (شـربتُ بمائها عسـلاً مصفًّى...). فكأنَّ حـلاوةَ ماءِ تلكِ العين الموصوفةِ وصلتْ إلى حدٍّ يمكنُ انتزاعُ العسل منها حينَ الشُّربِ.

* **المشاكلَةُ**: هيَ أنْ يذكرَ الشيءُ بلفظِ غيره، لوقوعهِ في صحبتهِ، كقول «عمرو بن كلْثُوم»:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

سَـمَّى تأديبَ الجاهل على جَهْلِهِ جَهْلاً من بَاب المشـاكلة، مع أنّ التأديب والعقاب ليسـا من الْجَهْل. والمرادُ من الجهل هنا السّفَهُ والغضَبُ المنافي للحلْم وما ينتُج عنه من أعمال غَيْرِ حميدة.

ومـنْ ذلـكَ ما حُكيَ عن أحد الشـعراء أنَّ أصحاباً له أرسـلوا يدعونهُ إلى الصبـوح في يوم باردٍ، ويقولون لهُ: ماذا تريدُ أنْ نصنعَ لكَ طعاماً؟ وكانَ فقيراً، ليسَ له كسوةٌ تقيهِ البردُ، فكتبَ إليهم يقولُ:

وَعِصَابَةٍ عَزَمُوا الصَّبُوحَ بِسَحْرَةٍ | بَعَثُوا إِلَـيَّ مَـعَ الصّباحِ خُصُوصَا
قَالُوا: اقْتَرِحْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصَا

فطلـبَ طَبْـخَ جُبَّةٍ وقميص على سـبيل المشـاكلة لطلبهم أن يطبخوا له شـيئًا يأكله، أي:

خيطوا لي جبّةً وقميصـًا، فأبدلَ الخياطةَ بلفظِ الطبخِ لوقوعِها في سياقِ طبخِ الطعامِ.ودلّ بهذا على أنّه بحاجة إلى ما يَلْبَسُه.

* **اللَّفُّ والنَّشْـرَ: الطَّيُّ والنَّشْـرُ:** هو أنْ يذكرَ متعددٍ، ثم يذكرَ ما لكلٍّ منْ أفرادهِ شائعـًا منْ غيرِ تعيينٍ، اعتماداً على تصرفِ السامعِ في تمييزِ ما لكلِّ واحدٍ منها، وردّهِ إلى ما هوَ لهُ، كقول ابن الرومي:

آرَاؤُكُــمْ وَوُجُوهُكُـمْ وَسُيُوفُكمْ ... فِي الْحَـادِثَاتِ إِذَا دَجَـوْنَ نُجومُ
فِيهَا مَعَالِـم لِلْهُـدَى وَمَصَـابِحٌ ... تَجْلُو الدُّجَى والأُخْـرَيَاتُ رُجُومُ

فالآراءُ معالمُ للهدى، والوجوهُ مصابيحُ للدُّجى، والسيوفُ رجومُ.

* **الجمعُ:** هو أنْ يجمعَ المتكلِّم بين متعدِّدٍ، تحتَ حكمٍ واحدٍ كقول الشاعر:

إِنَّ الشَّبَابَ والفَرَاغَ والجِدَهْ مَفْسَدَةٌ للعَقْلِ أَيُّ مَفْسَدَهْ

* **التفريقُ:** أن يفرِّقَ بينَ أمرينِ من نوعٍ واحدٍ في اختلافِ حكمهُما، كقول الشاعر:

مَــنْ قَــاسَ جَـــدْوَاكَ يَـوْمـاً ... بـالـسُّـحْـبِ أَخْــطَــأَ مَـدْحَـكْ
الـسُّـحْـبُ تُـعْـطِـي وَتَـبْـكِـي ... وَأَنْــــتَ تُـعْـطِـي وَتَـضْـحَـكْ

مـنْ قاسَ جـدواكَ بالغمـامِ فما أنصـفَ في الحكمِ بين شـكلينِ، أنتَ إذا جُـدْتَ ضاحكٌ أبداً،وهو إذا جادَ دامعُ العين .

* **التَّقسيم:** هو أن يُذكرَ مُتعددٍ، ثمَّ يضافُ إلى كلٍّ مِن أفرادهِ ما لهُ على جهةِ التعيينِ، كقول الشاعر:

وَلَا يقيـمُ عَـلَـى ضَـيْـمٍ يُـرَادُ بِـهِ ... إِلّا الْأَذَلَّانِ عَـيْرُ الْـحَـيِّ والْـوَتَـدُ
هَـذَا عَلَى الخَسْفِ مَرْبُـوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُـشَـجُّ فَـلَا يَـرْثِـي لَـهُ أَحَـدُ(١)

* **الجناسُ:** هو تشـابهُ لفظينِ في النطقِ، واختلافهُما في المعنَى، الجناسُ التامّ نحو: رحبةٌ رحبةٌ، فرحبةٌ الأولى: فناءُ الدارِ، ورحبةٌ الثانية: بمعنَى واسعةٌ . ونحو قول الشاعر:

أَعْـذَبُ خَـلْقِ اللهِ نُطْقًا وَ(فَـمَـا) ... إِنْ لَمْ يَكُنْ أحَقُّ بَالْحُسْنِ (فَمَنْ)

ونحو قول الشاعر:

إِنْ تُـلْـقِـكَ الْـغُـرْبَـةُ فِـي مَعْشَرٍ ... قَـدْ أَجْـمَـعُـوا فِـيكَ عَلَى بُغْضِهِمْ
فَـدَارِهِــمْ مَـا دُمْـتَ فِـي دَارِهِــمْ ... وَأَرْضِـهِــمْ مَـا دُمْـتَ فِـي أَرْضِـهِـمْ

فدارهمُ الأولى فعلُ أمرٍ من المدارة، ودارهمُ الثانيةِ اسمٌ للبيتِ، وأرضهمُ الأولى فعلُ أمرٍ

---

(١) الأَذَلّان: مثنى الأَذَل، وهو المهين الحقير. العَيْر: حمار، حمار وحشيّ. والمراد هنا الحمار الأهلي، والجمع أعيار. والعِير: قافلة الإبل أو الحمير أو البِغال يُجلب عليها الطَّعامُ وغيره. الوَتَد/ الوَتِد: ما ثُبِّتَ في الأرض أو الحائط من خشب ونحوه، لدعم سور أو تثبيت خيمة أو ربط حيوان. والوتد ككتف: ما يسمر في الأرض من الخشب. الرُمَّة: قطعة من الحبْل. لَا يَرْثِي لَهُ أَحَدُ: لا أحد يرقّ ويرأف بحاله ويتوجّع له.

من الإرضاءِ، وأرضهمُ الثانية هيَ الأرضُ اسمٌ .

الجناسُ غيرُ التامِّ: نحوَ: الْخَيْلُ والْخَيْرُ، مفرٌّ ومقرٌّ، الهوَى مطيةُ الهوانِ . رحمَ اللهُ امرأ، أمسكَ ما بينَ فكيهِ، وأطلقَ ما بين كفيهِ.

* **السَّجعُ:** هو توافقُ الفاصلتينِ في الحرفِ الأخيرِ منَ (النثرِ)، كقول أعرابي ذهب السَّيلُ بابْنِه: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ قَدْ أَبْلَيْتَ، فَإِنَّكَ طَالَمَا قَدْ عَافَيْتَ». وكقولهم: «الحرُّ إِذَا وَعَدَ وَفَى، وإذا أَعَانَ كَفَى، وإِذَا قَدَرَ عَفَا». وكقولهم: «الإِنْسَانُ بِآدَابِهْ لاَ بِزِيِّهِ وَثِيَابِهْ».

* **السَّجعُ المُرصَّعُ:** وهو ما اتفقَتْ فيه ألفاظُ إحدَى الفِقرتين أو أكثرُها في الوزنِ والتَّقفيةِ، نحـو: «هو يطبعُ الأسـجاعَ بجواهرِ لفظهِ، ويقرعُ الأسـماعَ بزواجرِ وعظـهِ»، ونحو: «إنَّ بعدَ الكدرِ صفْواً، وبعدَ المطرِ صحْوًا».

* **السَّجعُ المتوازي:** وهو ما كان الاتفاقُ فيه في الكلمتينِ الأخيرتينِ فقط، نحو: «حُسِدَ الناطقُ والصامتُ، وهلكَ الحاسدُ والشامتُ».

* **الترصيعُ:** هو توازُنُ الألفاظِ، معَ توافقِ الأعجازِ، أو تقارُبِها، مثل قول المتنبي: قَدْ حِرْنَ في بَشَرٍ في تاجِهِ قَمَرٌ في دِرْعِهِ أَسَدٌ تَدْمَى أظافِرُهُ

حرنَ تحيرنَ يعني الأبصارُ وأرادَ بالبشـر الممدوحُ،وبالقمرِ وجهَه،وجعلهُ أسـداً في الدرعِ لشجاعتهِ، والأظافرُ جمع أظفارٍ، وقوله تدمَى أنْ تتلطخَ بالدمِ بافتراسهِ أعداءَه .

ومنه قول الشاعر:

هَـوَانُ الْـحَـيَـاةِ، وَذُلُّ الـمَـمَـاتِ ... وَكُـلاًّ أَرَاهُ طَـعَـامًـا وَبِـيـلاَ
فَــإِنْ كَـانَ لَا بُــدَّ مِــنْ ذِلَّــةٍ ... فَسِيرُوا إِلَى الْمَوْتِ سَيْراً جَمِيلَا

* **ردُّ العجزِ على الصَّدر:** أنْ يَجْعَلَ المتكلِّمُ أحَدَ اللَّفْظَيْنِ المكرَّرَين أو المتجانسين، أو مَا هو مُلْحقٌ بالمتجانِسَيْن في أوّل الفقْرَة، والآخر في آخِرِها مثل ما يلي:

١- قـول الله عـزَّ وجلَّ خطاباً لرسـوله ﷺ بشـأن تزوجِّه من زينـبَ مُطَلَّقة متبَنَّـاه زَيْد بن حارثة رضي الله عنهما: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ...﴾

هذا مثال اللفظين والمكرّرَيْن.

٢- قول الله -عزَّ وجلَّ- في حكاية ما قال نوحٌ -عليه السلام- لقومه:
﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾.

هذا مثال للّفظَيْن المتلاقِيَيْن في الاشتقاق.

٣- قول الله -عزَّ وجلَّ- حكاية لما قال لوطٌ -عليه السلام- لقومه:
﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾.

هذا مثال للّفظَيْن المتلاقِيَيْن فيما يشبه الاشتقاق.



أهم مراجع التحقيق[(١)]

أبو حيان الأندلسي ومنهجه في تفسيره البحر المحيط وفي إيراده القراءات فيه، للدكتور أحمد خالد شكري.

أبو حيان وتفسيره البحر المحيط، للدكتور بدر بن ناصر البدر .

أسباب النزول، لعلي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان.

أسباب النزول، لعلي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق: كمال بسيوني زغلول.

أصول في التفسير، للشيخ محمد العثيمين.

الإبحار في جمع الأسفار، موسوعة تحتوي على تعريف بأكثر من ١٠٠٠ كتاب تهم طالب العلم، للشيخ جماز بن عبد الرحمن الجماز.

الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي.

الاستيعاب في بيان الأسباب «أول موسوعة علمية حديثية محققة في أسباب نزول آي القرآن الكريم»، لسليم بن عيد الهلالي، ومحمد بن موسى آل نصر.

البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي .

البلاغة العربية، لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني.

التفسير والمفسرون، للدكتور محمد السيد حسين الذهبي.

الخلاصة في علوم البلاغة، لعلي بن نايف الشحود.

الصحيح المسند من أسباب النزول، لمُقْبلُ بنُ هَادِي بنِ مُقْبِل بنِ قَائِدَةَ الهَمْدَاني الوادِعِيُّ.

العجاب في بيان الأسباب، للحافظ ابن حجر العسقلاني.

القاموس المحيط، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى.

المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات، للدكتور محمد بن عبد الرحمن المغراوي.

أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين، للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس.

ترجمة الدكتور محمد علي الصابوني من موقع «المكتبة الشاملة».

---

(١) بالإضافة إلى كثير من كتب التفسير، وكتب السنة وشروحها، وكتب التخريج لا سيما كتب العلامة الألباني وغيره، وكتب العقيدة والفتاوى.

تفسير الخازن والإسرائيليات، للدكتور عيادة الكبيسي.
حياة الرازي ومنهج تفسيره، حسين بركة الشامي.
رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في التفاسير المطبوعة، جمع وتعليق: بشير جواد القيسي.
صفحة الشيخ محمد علي الصابوني على الفيس بوك.
https: //www.facebook.com/m.a.alsabouni
لسان العرب، لابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى.
مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان.
مجموع فتاوى ورسائل محمد بن صالح العثيمين.
مذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي.
معجم اللغة العربية المعاصرة، للدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل.
مناهج المفسرين، للدكتور منيع بن عبد الحليم محمود.
منهج الألوسي من خلال تفسيره «وح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، للدكتور عبد المجيد معلومي.
موقع الإسلام، سؤال وجواب، بإشراف الشيخ محمد صالح المنجد.
موقع الشبكة الإسلامية، بإشراف الدكتور عبد الله الفقيه.
ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، محمد علي الصابوني.



كلمة سماحة الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد:

فقد أطلعني الأخ الأستاذ محمد علي الصابوني على شيء من كتابه الجديد «**صفوة التفاسير**» وهو كتاب تحرى فيه المؤلف ذكر أصح الآراء في تفسير كتاب الله تعالى مع الاختصار والسهولة، وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله، فإنه لا شك أن المؤلف وفق توفيقًا كبيرًا في الاختيار من أمهات كتب التفسير التي رجع إليها على علم وبصيرة.

و ليس هذا هو الكتاب الأول للمؤلف في موضوع القرآن الكريم فقد سبق أن اختصر كتاب «**تفسير ابن كثير**» وكان اختصاره لهذا الكتاب العظيم مفيدًا نافعًا خلا من كل تعقيد.

و لقد اختص آيات الأحكام في القرآن الكريم بمؤلف مستقل سماه «**روائع البيان في تفسير آيات الأحكام**»، وهو كتاب يبين الأحكام في المرجع الأول لها وهو الكتاب الكريم.

وسبق أيضًا أن ألف في علوم القرآن الكريم تحت عنوان: «**التبيان في علوم القرآن**»، وها هو يتوج كل هذه الدراسات بكتاب نفيس هو زهور رائعة لكثير مما أنتجته قرائح أسلافنا رضوان الله عليهم في التفسير.

و نرجو الله سبحانه له التوفيق وأن يهدي سبحانه لكتابه ويهدي به إنه سميع قريب مجيب.

عبد الحليم محمود
شيخ الجامع الازهر
مكة المكرمة ٢٧ صفر ١٣٩٦ هـ
٢٧فبراير ١٩٧٦ م

كلمة سماحة الشيخ عبد الله بن حميد
رئيس مجلس القضاء الأعلى
الرئيس العام للإشراف الديني على المسجد الحرام

الحمد لله وحده، و بعد: بناء على طلب الأخ فضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني المدرس بجامعة الملك عبد العزيز كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة أن أكتب تقريظًا لكتابه «**صفوة التفاسير**» بعد أن قرأ علي بنفسه بعض المواضع من هذا الكتاب ولم يتسع الوقت لسماعه كله.

فقد أجاد المؤلف وأفاد فيما سمعته من كتابه جزاه الله خيرًا، كما اجتهد في جمعه واختار أصح الأقوال وأرجحها في تفسير كتاب الله وجمع في هذا التفسير بين المأثور والمعقول، بأسلوب واضح، وطريقة حديثة سهلة، يذكر بين يدي السورة خلاصة للمقاصد الأساسية لها. يوضح معاني الكلمات وبيان اشتقاقها. والمناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة، ويبين السبب الذي نزلت من أجله الآيات. يبدأ بتفسير الآيات دون وجوه الإعراب، ويذكر الفوائد التي لها علاقة بالآيات والمستنبطة منها، ويوضح بيان الصور البيانية والنكات البلاغية.

نسأل الله لنا وله التوفيق والسداد وأن يعم النفع بهذا الكتاب ويجزي المؤلف على ما بذل من جهد.

و الله الموفق وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

عبد الله بن حميد
رئيس مجلس القضاء الأعلى
الرئيس العام للإشراف الديني على المسجد الحرام
٧/ ٤/ ١٣٩٧ هـ

كلمة سماحة الشيخ أبى الحسن علي الحسني الندوي
رئيس ندوة العلماء بلكنهو - الهند

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كان الاتجاه العلمي السائد في عصور التأليف الإسلامي الأولى هو الاستيعاب الشامل لكل ما قيل وروي في الموضوع، فكانت كتب المؤلفين في التفسير، والحديث، والسيرة، والتاريخ أشبه بموسوعات علمية. وإن كانت لهذا الاتجاه والأسلوب الشائع فوائد أعظمها صيانة هذه الثروة العلمية من الضياع، وتمكين القارئ من اختيار ما هو أوفق وأقرب إلى ذوقه فقد أحدث مشكلة -خصوصًا في هذا العصر- وهي أن الطالب المبتدئ والمتوسط يحار في اختيار أقرب الأقوال إلى الصواب، ويتشتت ذهنه فلا يرسخ فيه قول واحد ويجد نفسه في غابة ملتفة من الأقوال والآراء والمذاهب، ولذلك مال كثير من المؤلفين في كل عصر إلى الانتقاء من هذه الكتب الموسوعية، واختيار أقرب الأقوال وأقواها، فكانت لهذه الكتب فائدة عظيمة وفضل كبير على طلبة العلم.

و كان هذا العصر من أحوج العصور إلى هذا الأسلوب من التأليف لقصر الوقت وضعف الهمم وتشتت الأذهان، لذلك كان صديقنا الفاضل فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني موفقًا كل التوفيق في وضع كتابه «**صفوة التفاسير**» فقد وفر على طلبة علم التفسير وقتًا طويلًا وأخذ بيدهم إلى ما هو عصارة دراسته وخلاصة التفاسير، لا يقدر على ذلك إلا من توسعت دراسته وسلم ذوقه وحسنت ممارسته لفن التدريس، فاستحق بذلك شكر طلبة العلم والمشتغلين بفن التفسير جزاه الله خيرًا وأثابه وتقبل عمله.

أبو الحسن علي الحسني الندوي
مكة المكرمة
٩/ ٤/ ١٣٩٦ هـ

كلمة معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف
مدير جامعة الملك عبد العزيز

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على عبده ونبيه ورسوله نبينا الأمين، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن أشرف ما يقدمه الباحثون، وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون، في بحوثهم وتآليفهم، ما كان في خدمة القرآن العظيم، وعلومه الجليلة الزاهرة.. وشرف الإنسان بشرف الرسالة التي يحملها، والغاية التي يسعى من أجل تحقيقها.. وليس ثمة جهد يضاهي جهد العلماء، فإنهم مشاعل النور والضياء، في كل زمان ومكان، ولهذا رفع الله قدرهم، وأعلى شأنهم بقوله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩]، وإن هذا العمل الجليل، الذي قام به فضيلة الأخ العزيز الشيخ محمد علي الصابوني أستاذ التفسير وعلوم القران بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، من استخلاص لمجموعة من تفاسير القرآن الكريم، لعدد من جهابذة الأئمة المفسرين، لتكون في متناول العلماء وطلاب العلم على حد سواء، لهو توفيق من الله سبحانه وتعالى للمؤلف، فقد مكنه جل وعلا من تقديم هذه الكنوز العظيمة، في سفر واحد هو «**صفوة التفاسير**» ليسهل على الباحثين مهمة الاطلاع والفهم لكتاب الله عز وجل.

والله أسأل أن يثيب فضيلة المؤلف على عمله، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجزيه عنهم خير الجزاء إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الدكتور عبد الله عمر نصيف
مدير جامعة الملك عبد العزيز
جدة: ١٥ صفر ١٤٠٠ هـ
الموافق: ٣ يناير ١٩٨٠ م

كلمة سعادة الدكتور راشد بن راجح
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

و بعد، لقد اطلعت على كتاب «**صفوة التفاسير**» لفضيلة الأستاذ محمد علي الصابوني وقرأت بعض صفحاته فألفيته كتابًا ثمينًا حوى خلاصة ما قاله أئمة المفسرين ليسهل فَهمُه على طلبة العلم بأسلوب مبسط وعبارات ميسرة وإيضاحات جيدة مع العناية بالجوانب اللغوية والبيانية... فهو بذلك كتاب جيد يستحق الطبع والنشر لتعم الفائدة.

جزى الله مؤلفه خير الجزاء ونفع به الإسلام والمسلمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه الفقير إلى عفو مولاه
راشد بن راجح الشريف
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة
مكة المكرمة ١٥/ ١٠/ ١٣٩٦ هـ

كلمة فضيلة الشيخ عبد الله خياط
خطيب المسجد الحرام
كتاب صفوة التفاسير

كنت أجد في نفسي رغبة ملحة لتفسير للقرآن الكريم في متناول طالب العلم، يجمل ما تفرق في كتب التفسير المعتبرة، ويغنيه عن المراجع المطولة، ويعطيه فكرة واضحة عن لغة القرآن، وسبب النزول، وييسر له المعاني فيكون زاده وعدته، فكان كتاب «**صفوة التفاسير**» هو الضالة المنشودة والحلقة المفقودة، إذ قد عني مؤلفه فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني بكل ما أشرت إليه مما حقق الرغبة، ولبى الحاجة.

و الله أسأل أن ينفع به ويأجر مؤلفه على ما بذله من جهد وتضحية، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه[1].

و كتبه الفقير إلى الله
عبد الله خياط
خطيب المسجد الحرام
في اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٩٥ هجرية

---

(١) (ش): تراجع الشيخ عبد الله خياط عما كتبه في هذه المقدمة، فقد قال الشيخ محمد جميل زينو في كتابه «تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسير ومخالفات هامة في مختصر تفسير ابن جرير الطبري» (ص ٣٨):
«وكتب فضيلة الشيخ عبدالله خياط استدراكًا لما سبق أن كتب موضحًا سبب ذلك قائلًا: أما بعد: فقد كنت كتبت مقدمة وجيزة لكتاب: «صفوة التفاسير» بعد أن أطلعني مؤلفه الشيخ محمد علي الصابوني على ملزمة من ملازم الكتاب قبل طبعه وطلب إليَّ كتابة مقدمة لهذا الكتاب، ولم يكن فيما اطلعت عليه شيء منتقد أو مردود. ولقد كانت المحاسن التي أشار إليها كاتب هذه التنبيهات الهامة النافعة الأخ الشيخ محمد بن جميل زينو في مطلع نقده سببًا باعثًا على كتابة تلك المقدمة. وقد كتبت هذه الكلمة إيضاحًا للحقيقة، وإبراءً للذمة، والله يتولانا برعايته وعنايته، وصلى الله على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه. كتبت في ٢٢ من شعبان ١٤٠٥ هـ».

كلمة فضيلة الشيخ محمد الغزالي
رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

الحمد لله أهل التقوى والمغفرة، والصلاة والسلام على منار العلم والهدى في الدنيا والاخرة، وبعد:

فإن الثقافة القرآنية تحتاج إلى قلم سهل العبارة، فياض الأداء، بعيد عن المصطلحات الفنية، والمناقشات الفلسفية، همه الأكبر إبراز السياق السماوي، والوصول به إلى نفوس الجماهير دون تكلف أو التواء.

و قد نجح فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني في تحقيق هذه الغاية، إذ يسر تفسير الكتاب العزيز، وجمع في تفسيره جملًا من أقوال الأئمة تتضمن خلاصات علمية وأدبية جعلته غنيًّا بالحقائق، والحكم النافعة. وقد لاحظنا أن الشيخ محمد علي الصابوني قرن في تفسيره بين كثير من مأثورات السلف واجتهادات الخلف، أي: إنه جمع بين المنقول والمعقول - كما يقولون - فيستطيع القارئ أن يرى أمامه اللونين معًا، وأن ينتفع بخير ما في الطريقتين.

كما لاحظنا أن التفاسير الأخرى قد تجنح إلى أحد الطرفين، فإما إيجاز شديد أو إطناب لا يطيقه العصر، ولكن الشيخ محمد علي الصابوني - جزاه الله خيرًا - استطاع أن يتوسط في مسلكه العلمي فأفاد وأجمل كما ابتعد عن الشطط الذي وقع فيه البعض حين جازف بذكر نظريات علمية أو أحاديث نبوية لا بد في سوقها من التثبت والتمحيص.

نفع الله به وشرح الصدور له وجزاه عن الأمة كل خير.

محمد الغزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

في ٦/ ٤/ ١٣٩٦ هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقـــدمة

الحمـد لله الذي أنار قلـوب عباده المتقين بنـور كتابه المبين، وجعل القرآن شـفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسـلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين، سـيدنا محمد النبـي العربي الأمين، الذي فتح الله به أعينًا عميًـا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا [١]، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم البعث والنشور وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه الهادين الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فـلا يزال القران الكريم بحرًا زاخرًا بأنواع العلوم والمعارف، يحتاج من يرغب الحصول على لآلئه ودرره، أن يغوص في أعماقه، ولايزال القرآن يتحدى أسـاطين البلغاء[٢]، ومصاقيع العلمـاء[٣] بأنـه الكتاب المعجـز، المنزل على النبي الأمي شـاهدًا بصدقه، يحمـل بين دفتيه برهان كماله، وآية إعجازه، ودليل أنه تنزيل الحكيم العليم: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ [الشعراء].

وعلـى كثرة ما كتب العلماء وألفوا – وعلى كثرة ما تحويه المكتبة الإسـلامية من أسـفار ضخمة، وكتب نفيسـة، خـدم بها العلماء كتـاب الله الجليل– يبقى القرآن زاخـرًا بالعجائب، مملـوءًا بالـدرر والجواهر، بما يبهر العقـول ويحير الألباب، بما فيه من الإشـراقات الإلهية، والفيوضات القدسـية، والنفحات النورانية، بما هو كفيل لتخليص الإنسانية، من شقاء الحياة وجحيمها المستعر... وكل علم شاط واحترق[٤] إلا «**علم التفسير**» فإنه لا يزال بحرًا لجيًّا[٥]، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه، لاسـتخراج كنوزه الثمينة، واسـتنباط روائعه وأسراره، ولا يـزال العلماء يقفون عند سـاحله، يرتشـفون من معينه الصـافي ولا يرتـوون... ومن ذا الذي يسـتطيع أن يحيط علمًا بكلام رب العزة جل وعلا، وأن يدرك أسـراره، ودقائقه، وإعجازه! وأن يزعم أنه أوفى أو وصل إلى درجة الكمال!

---

(١) (ش): الْقَلْـبُ الأغْلَـفُ هو قَلْبُ الْكَافِرِ لأنه داخل في غلافه، وغشـائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، كمـا قـال تعالى حاكيًا عن اليهود: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ [البقـرة:٨٨]، فهو قلب مغلف في أغلفة الكفر لا يسمع الحق ولا يفهمه، وهذه الأغلفة عقوبة من الله بسبب الإعراض عن الحق وعدم اتباع الرسل.

(٢) (ش): (أساطين العلم أو الأدب) الثقات المُبرَّزُون فيه. وأساطين الزمان حكماؤه. مفرده أسطون معرب (أستون) الفارسية.

(٣) (ش): (مَصَاقِيـعُ) لم أجدها في كتب اللغة، ولعل الصـواب (مَصاقِعُ): جمع (مِصْقَع) وهو البليغُ. يُقَالُ: الخَطيبُ المِصقَع، أَي البليغُ الماهِرُ فِي خُطبَتِه.

(٤) (ش): شاط واحترق: أي كاد أن يستوفي حقه من البحث والدراسة.

(٥) (ش): (البَحْر اللُّجِّيّ): البَحْرُ العميقُ الوَاسِعُ.

إنــه الكتــاب المعجــز، الذي سـيظل يمنح الإنسـانية، من علومـه ومعارفه، ومن أسـراره وحكمــه، ما يزيدهم إيمانًا وإذعانًا بأنه «**المعجزة الخالدة**» للنبي العربي الأمي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وإنه تنزيل الحكيم الحميد.

وإذا كان المسـلم قـد اضطرته الدنيا ليشـغل وقتـه في تحصيل معاشــه، وضاقت أيامه عن الرجوع إلى التفاسـير الكبيرة، التي خدم بها أسـلافنا -رضـوان الله عليهم- كتاب الله تعالى، تبيانًـا وتفصيلًا لآياته، وإظهارًا لبلاغته، وإيضاحًا لإعجازه، وإبرازًا لما حواه الكتاب المجيد من تشـريع وتهذيب، وأحـكام وأخلاق، وتربية وتوجيـه... فإن من واجـب العلماء اليوم أن يبذلـوا جهدهـم لتيسـير فَهْمه على الناس، بأسـلوب واضـح، وبيان ناصع، لا حشـو فيه ولا تطويـل، ولا تعقيد ولا تكلـف، وأن يبرزوا ما في القرآن من روعة الإعجـاز والبيان، بما يتفق وروح العصـر الحديـث، ويلبـي حاجة الشـباب المثقـف، المتعطـش إلى التـزود من علوم ومعارف القرآن الكريم.

ولم أجد تفسـيرًا لكتاب الله ﷻ -على ما وصفت- رغم الحاجة إليه، وسؤال الناس عنه، ورغبتهــم فيه، فعزمت على القيام بهذا العمل، رغم ما فيه من مشـقة وتعب، واحتياجه لوقت لا يتاح في هذا الزمان، مسـتعينًا بالله الكريم، متوكلًا عليه، سائلًا إياه أن يعينني على إتمام هذا الواجـب، وأن يوفقني لإخراجه بشـكل يليق بكتاب الله تعالى، يعين المسـلم على فهم آيات القـرآن، والتزود من بيانه، ما يزيـده إيمانًا ويقينًا، ويدفعه إلى العمل الجاد الموفق إلى مرضاة الرب جل وعلا.

و قـد أسـميت كتابي «صفوة التفاسـير» وذلـك لأنه جامع لعيـون ما في التفاسـير الكبيرة المفصلـة[١]، مع الاختصـار والترتيب، والوضوح والبيان، وكلي أمل أن يكون اسـمه مطابقًا لمسماه، وأن تستفيد منه الأمة الإسلامية، بما يوضح لها السبيل الأقوم، والصراط المستقيم.

و قد سلكت في طريقي لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي:

أولًا: بين يدي السورة، وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة وتوضيح مقاصدها الأساسية.

ثانيًا: المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة.

ثالثًا: اللغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية.

رابعًا: سبب النزول.

خامسًا: التفسير.

سادسًا: البلاغة.

سابعًا: الفوائد واللطائف.

وقد مكثتُ في تأليف هذا التفسير خمس سنوات، أواصل فيه الليل بالنهار، وما كنت أكتب

(١) (ش): ولكن منها ما استنكره العلماء على المؤلف، راجع مقدمة محقّق الكتاب.

شـيئًا حتـى أقرأ ما كتبه المفسـرون في أمهات كتب التفسـير الموثوقة[(١)]، مـع التحري الدقيق لأصح الأقوال وأرجحها، وإنني أشـكر المولى جل وعلا أن سـهل لي هذا العمل، فقد كنت أشـعر أن الزمن يطوى لي، وكل ذلك ببركات جوار البيت العتيق الذي أكرمني الله وشـرفني بجواره، منذ أن انتدبت للتدريس بكلية الشـريعة والدراسـات الإسـلامية بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمائة وواحد وثمانين من هجرة سيد المرسلين.

و الله تعالى أسال أن يسدد خطاي، ويجزل لي الثواب يوم المآب، فما عملت إلا أملًا بنيل رضـاه، راجيًا منه أن يجعل عملي خالصًا لوجهـه الكريم، ويبقيه ذخرًا لي يوم الدين، وأرجو ممـن قرأ فيه فاسـتفاد أن يخصني بدعوة صالحـة تنفعني يوم المعاد، وصلى الله على سـيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

مكة المكرمة – غرة ذي الحجة ١٣٩٩ هـ.
وكتبه الفقير إلى عفو ربه
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة – جامعة الملك عبد العزيز

(١) (ش): هذه التفاسير منها ما هو غير موثوق، راجع مقدمة محقّق الكتاب.

(١) سُورَةُ الفَاتِحَةِ (٧)

مكية وآياتها سبع

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

تفسير الاستعاذة: المعنى: أستجير بجناب الله وأعتصم به من شر الشيطان العاتي المتمرد، أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، وأحتمي بالخالق السميع العليم من همزه ولمزه ووساوسه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله رب العالمين.. عن النبي ﷺ أنه كان إذا قام من الليل، استفتح صلاته بالتكبير ثم يقول: «**أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه**»(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير البسملة: المعنى: أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء، مستعينًا به جل وعلا في جميع أموري، طالبًا منه وحده العون، فإنه الرب المعبود ذو الفضل والجود، واسع الرحمة كثير التفضل والإحسان، الذي وسعت رحمته كل شيء، وعم فضله جميع الأنام.

تنبيه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ افتتح الله بهذه الآية سورة الفاتحة وكل سورة من سور القرآن -ماعدا سورة التوبة- ليرشد المسلمين إلى أن يبدءوا أقوالهم باسم الله الرحمن الرحيم التماسًا لمعونته وتوفيقه ومخالفة للوثنيين الذين يبدءون أعمالهم وأقوالهم بأسماء آلهتهم أو طواغيتهم فيقولون: باسم اللات، أو باسم العزى، أو باسم الشعب، أو باسم هبل.

قال «الطبري»: «إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه، أدب نبيه محمدًا ﷺ بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك لجميع خلقه سنة يستنون بها، وسبيلًا يتبعونه عليها فقول القائل: بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح تاليًا سورة ينبئ عن أن مراده: أقرأ باسم الله، وكذلك سائر الأفعال»(٢).



---

(١) أخرجه أصحاب السنن.

(ش): وصححه الألباني. (هَمْزُهُ): الْمُوتَةُ: نَوْع مِن الْجُنُون وَالصَّرْع يَعْتَرِي الإِنْسَان، فَإِذَا أَفَاقَ، عَادَ إِلَيْهِ كَمَال الْعَقْل، (وَنَفْثُهُ): الشِّعْرُ، (وَنَفْخُهُ): الْكِبْرِيَاءُ.

(٢) «جامع البيان للطبري.

تفسير سورة الفاتحة

بَيْنَ يَدَي السُّوَرَة

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها سبعٌ بالإجماع، وتسمى «الفاتحة» لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول، وهي – على قصرها ووجازتها – قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، فهي تتناول أصول الدين وفروعه، تتناول العقيدة، والعبادة، والتشريع، والاعتقاد باليوم الآخر، والإيمان بصفات الله الحسنى، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء، والتوجه إليه جلَّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم، والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين، وفيها الإخبار عن قصص الأمم السابقين، والإطْلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء، وفيها التعبد بأمر الله سبحانه ونهيه، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تسمّى «أم الكتاب» لأنها جمعت مقاصده الأساسية.

فضْلَهَا: أ – روى الإمام أحمد في المسند أن» أبيَّ بن كعب «قرأ علَيَّ النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيمُ الذي أوتيتهُ**»[(١)] فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

ب – وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلَّى: «**لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن: الحمد لله رب العالمين، هي السبعُ المثاني والقُرآن العظيم الذي أوتيتُه**»[(٢)].

التسميَة: تسمى «الفاتحة، وأم الكتاب، والسبع المثاني، والشافية، والوافية، والكافية، والأساس، والحمد» وقد عدّدها العلامة «القرطبي» وذكر أن لهذه السورة اثني عشر اسمًا.

---

(١) (ش): صححه الألباني.

(٢) (ش): (أعظم سورة): اعتبارًا بعِظَم قدرها، وتفردها بالخاصية التي لم يشاركها فيها غيرها من السور، ولاشتمالها على فوائد ومعانٍ كثيرة مع وجازة ألفاظها. وقيل: (أعظم سورة): أي من حيث كثرة الثواب لقارئها (السبع المثاني) قِيلَ: لِأَنَّهَا تُثَنَّى كُلّ رَكْعَة، أَيْ: تُعَاد – أي تكرر – قراءتها في كل ركعة من التثنية وهي التكرير. وَقِيلَ: لِأَنَّهَا يُثْنَى بِهَا عَلَى الله تَعَالَى، وَفِي الحديث دَلِيل عَلَى أَنَّ الْفَاتِحَة سَبْع آيَات فهي سبع آيات. وأما عطف «القرآن» علي «السبع المثانى» المراد منه الفاتحة، فمن باب عطف العام على الخاص. ونظيره في النسق «لكن» من عطف الخاص على العام قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

اللغة: ﴿الْحَمْدُ﴾ الثناء بالجميل على جهة التعظيم، والتبجيل مقرونًا بالمحبة وهو نقيض الذم وأعمُّ من الشكر، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد ﴿اللَّهِ﴾ اسم علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره، قال القرطبي: هذا الاسم ﴿اللَّهِ﴾ أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، وهو اسم للموجود الحق، الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه[١]. ﴿رَبِّ﴾ الربّ: مشتق من التربية وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمره قال الهروي: «يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربَّه ومنه الربانيون لقيامهم بالكتب»[٢] والربُّ يطلق على عدة معان وهي «المالك، والمصلح، والمعبود، والسيد المطاع» ﴿الْعَالَمِينَ﴾ العالم: اسم جنس لا واحد له من لفظه كالرهط، وهو يشمل: الإنس والجن والملائكة والشياطين كذا قال الفراء، وهو مشتق من العلامة لأن العالم علامة على وجود الخالق جل وعلا ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة[٣]، وقد روعي في كل من ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ معنى لم يراع في الآخر فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن «فَعْلان» صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة (فعيل) تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائم الإحسان[٤].

---

(١) (ش): أسماء الله توقيفية، وليس منها «الموجود الحق»، ولا «المنفرد بالوجود الحقيقي». ووجود الله معلوم من الدين بالضرورة، وهو صفة لله بإجماع المسلمين، بل صفة لله عند جميع العقلاء حتى المشركين لا ينازع في ذلك إلا ملحد دهري. ولا يلزم من إثبات الوجود صفةً لله أن يكون له مُوجِدٌ؛ لأن الوجود نوعان:

الأول: وجود ذاتي وهو ما كان وجوده ثابتًا له في نفسه لا مكسوبًا له من غيره، وهذا هو وجود الله سبحانه وصفاته، فإن وجوده لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

الثاني: وجود حادث وهو ما كان حادثًا بعد عدم فهذا الذي لا بد له من موجد يوجده وخالق يحدثه وهو الله سبحانه، قال تعالى اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.

وعلى هذا يوصف الله تعالى بأنه موجود ويخبر عنه بذلك في الكلام فيقال: الله موجود، وليس الوجود اسمًا، بل صفة. و«الواجد» ليس اسمًا من أسماء الله ولا صفة من صفاته، والحديث الذي ورد فيه تسميته بذلك ليس بصحيح. انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٣/ ١٨٩-١٩٤).

(٢) «القرطبي» ١/ ١٣٣ .

(٣) (ش): الصواب أنهما اسمان من أسماء الله الحسنى متضمنان لصفة الرحمة.

(٤) «كشف المعاني» تفسير ابن جماعة.

قال الخطابي: الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمَّت المؤمن والكافر، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿ٱلدِّينِ﴾ الجزاء ومنه الحديث «كما تدين تُدان»[1] أي: كما تفعل تُجزى ﴿نَعۡبُدُ﴾ قال الزمخشري: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مَوْلَى أعظم النعم فكان حقيقًا بأقصى الخضوع[2] ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الطريق وأصله بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يبتلع السالك قَالَ الشَّاعِرُ:

شَحَنَّا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى ... تَرَكْنَاهُمْ أَذَلَّ مِنَ الصِّرَاطِ

﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف «آمين» أي استجب دعاءنا. وهي ليست من القرآن الكريم إجماعًا.

التفسير: علمنا الباري جلّ وعلا كيف ينبغي أن نحمده ونقدسه ونثني عليه بما هو أهله فقال ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي: الحمدلله، اشكروني على إحساني وجميلي إليكم، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد، المتفرد بالخلق والإيجاد، رب الإنس والجن والملائكة، ورب السماوات والأرضين، فالثناء والشكر لله رب العالمين دون ما يُعبد من دونه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمَّ فضله جميع الأنام، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: هو سبحانه المالك للجزاء والحساب، المتصرف في يوم الدين تصرّف المالك في ملكه ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي: نخصك يا الله بالعبادة، ونخصك بطلب الإعانة، فلا نعبد أحدًا سواك، لك وحدك نذلُّ ونخضع ونستكين ونخشع، وإيَّاك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم، ولا يملك القدرة على عوننا أحدٌ سواك ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم، وثبتنا على الإسلام الذي بعثت به أنبياءك ورسلك، وأرسلت به خاتم المرسلين، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي طريق من تفضّلت عليهم بالجود والإنعام، من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وَحَسُنَ أولئك رفيقًا ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: لا تجعلنا يا الله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم، السالكين غير المنهج القويم، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية،

(١) (ش): رواه ابن عدي، وضعَّفه الألباني.
(٢) ««الكشاف»» ١/ ١١.

فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية(١). اللهم آمين.

البَلَاغَة: ١ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الجملة خبرية لفظًا إنشائية معنىً أي قولوا «الحمدلله» وهي مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى كقوله:م: الكرم في العرب.

٢ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى الكلام على الأصل لقال: إيّاه نعبد، وتقديم المفعول يفيد القصر أي: لا نعبد سواك كما في قوله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

٣ - قال في ««البحر المحيط»»: وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع:

الأول: حسن الافتتاح وبراعة المطلع.

الثاني: المبالغة في الثناء لإفادة «أل» الاستغراق.

الثالث: تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي: قولوا الحمد لله.

الرابع: الاختصاص في قوله ﴿لِلَّهِ﴾.

الخامس: الحذف كحذف صراط من قوله ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تقديره غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين.

السادس: التقديم والتأخير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

السابع: التصريح بعد الإبهام ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

الثامن: الالتفات في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

التاسع: طلب الشيء والمراد به دوامه واستمراره في ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: ثبتنا عليه.

العاشر: السجع المتوازي في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ... ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقوله: ﴿نَسْتَعِينُ ... ٱلضَّآلِّينَ﴾.

الفوَائِد: الأولى: الفرق بين ﴿ٱللَّهِ﴾ و «الإله» أن الأول اسم علم للذات المقدسة ذات البارئ جل وعلا ومعناه المعبود بحق والثاني معناه المعبود بحقٍ أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره.

الثانية: وردت الصيغة بلفظ الجمع «نعبد ونستعين» ولم يقل «إياك أعبد وإياك أستعين» بصيغة المفرد وذلك للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحّدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعًا نعبدك ونستعين بك.

الثالثة: نسبَ النعمة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم ينسب إليه الإضلال والغضب

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان ١/ ٣١.

فلم يقل: غضبتَ عليهم أو الذين أضللتَهم وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدبًا وإن كان منه تقديرًا «الخير كله بيديك والشر لا ينسب إليك»[١].



(١) (ش): عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

خاتمة

في بَيَان الأَسَرار القُدْسِيّة في فاتِحَة الكِتاب العَزِيز

[يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا في رسالته القيمة «مقدمة في التفسير» ما نصه: «لا شك أن من تدبَّر الفاتحة الكريمة رأى من غزارة المعاني وجمالها، وروعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلبه، ويضيء جوانب قلبه، فهو يبتدئ ذاكرًا تاليًا متيمنًا باسم الله، الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وذكّره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله، وجميل آلائه البادية في تربيته للعوالم جميعًا، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له، ثمّ تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة، ليست عن رغبةٍ ولا رهبة، ولكنها عن تفضلٍ ورحمة، فنطق لسانه مرة ثانية بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ومن كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمن بـ «العدل» ويذكّر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابغة المتجددة سيدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة، والترهيب بالعدالة والحساب ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفًا بتحري الخير، والبحث عن وسائل النجاة، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل، ويرشده إلى الصراط المستقيم، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه، غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء، والنكوص بعد الاهتداء، وغير الضالين التائهين، الذين يضلون عن الحق أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعثور عليه، آمين. ولا جرم أن «آمين» براعة مقطع في غاية الجمال والحسن، وأي شيء أولى بهذه البراعة من فاتحة الكتاب، والتوجه إلى الله بالدعاء؟ فهل رأيت تناسقًا أدق، أو ارتباطًا أوثق، مما تراه بين معاني هذه الآية الكريمة، وتذكر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. .» الحديث [1].

---

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وأَدِمْ هذا التدبير والإنعام[١]، واجتهد أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكث وتمهّل، وخشوع وتذلّل، وأن تقف على رؤوس الآيات، وتعطى التلاوة حقها من التجويد أو النغمات، من غير تكلف ولا تطريب، واشتغال بالألفاظ عن المعاني، فإن ذلك يعين على الفهم، ويثير ما غاض من شآبيب الدمع[٢]، وما نفع القلب شيء أفضل من تلاوة في تدبرٍ وخشوع»[٣].

«انتهى تفسير سورة الفاتحة»



(١) (ش): الصواب «وأَدِمْ هذا التدبُّر والإنعام»، والتصحيح من «مقدمة في التفسير»، (والإنعام) هو الإمعان: يُقال: أَنْعَم النَّظَرَ فِي الشَّيْءِ، وأَمْعَنَ فِي الشَّيْءِ النَّظَرَ: إِذَا أَطَالَ الفِكْرَةَ فِيهِ. «أَمْعَنَ» و«أَنْعَم» يتفقان في المعنى وفي الحروف عددًا ونوعًا.

(٢) (ش): الشُّؤْبوبُ: الدُّفْعَةُ مِنَ المَطَرِ.

(٣) «مقدمة في التفسير» ص ٥٩ .



مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل، وآياتها مائتان وثمانون وست آيات

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة البقرة أطول سور القرآن على الإطلاق، وهي من السور المدنية التي تُعنى بجانب التشريع، شأنها كشأن سائر السور المدنية، التي تعالج النُّظُم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية.

* اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية: في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور الزواج، والطلاق، والعدة، وغيرها من الأحكام الشرعية.

* وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، فوضّحت حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر والنفاق، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء.

* ثم تحدثت عن بدء الخليقة فذكرت قصة أبي البشر «آدم» عليه السلام، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري.

* ثم تناولت السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب، وبوجه خاص بني إسرائيل "اليهود" لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة، ونقض العهود والمواثيق، إلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبها هؤلاء المفسدون، مما يوضح عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة، بدءًا من قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠]، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤].

* وأما بقية السورة الكريمة فقد تناولت جانب التشريع، لأن المسلمين كانوا -وقت نزول هذه السورة- في بداية تكوين «الدولة الإسلامية» وهم في أمسّ الحاجة إلى المنهاج الرباني، والتشريع السماوي، الذي يسيرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات، ولذا فإن جماع السورة تتناول الجانب التشريعي، وهو باختصار كما يلي:

«أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل، أحكام الحج والعمرة، أحكام الجهاد في سبيل الله، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج، والطلاق، والرضاع، والعدة، تحريم نكاح المشركات، والتحذير من معاشرة النساء في حالة الحيض[1] إلى غير ما هنالك من أحكام تتعلق بالأسرة،

---

(١) (ش): كان الأصح أن يقول: «والتحذير من جماع النساء في حالة الحيض» لأن المعاشرة بغير الجماع ليست ممنوعة. فعَنْ أَنَس بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي =

لأنها النواة الأولى للمجتمع الأكبر».

* ثم تحدثت السورة الكريمة عن «جريمة الربا» التي تهدّد كيان المجتمع وتقوّض بنيانه، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين، بإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

* وأعقبت آيات الربا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب، الذي يجازى فيه الإنسان على عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١] وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم، وآخر وحي تنزَّل من السماء إلى الأرض، وبنزول هذه الآية انقطع الوحي، وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه، بعد أن أدى الرسالة وبلَّغ الأمانة(١).

* وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والتضرع إلى الله جلَّ وعلا برفع الأغلال والآصار، وطلب النصرة على الكفار، والدعاء لما فيه سعادة الدارين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦] وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام، ويلتئم شمل

= الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ» فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٢٠٥) أن مُبَاشَرَة الْحَائِض أَقْسَام:

أَحدهَا: أَنْ يُبَاشِرهَا بِالْجِمَاعِ فِي الْفَرْج، فَهَذَا حَرَام بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. بِنَصِّ الْقُرْآن الْعَزِيز وَالسُّنَّة الصَّحِيحَة.

الْقِسْم الثَّانِي: الْمُبَاشَرَة فِيمَا فَوْق السُّرَّة وَتَحْت الرُّكْبَة بِالذَّكَرِ أَوْ بِالْقُبْلَةِ أَوْ الْمُعَانَقَة أَو اللَّمْس أَوْ غَيْر ذَلِكَ، وَهُوَ حَلَال بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاء.

الْقِسْم الثَّالِث: الْمُبَاشَرَة فِيمَا بَيْن السُّرَّة وَالرُّكْبَة فِي غَيْر الْقُبُل وَالدُّبُر، وَفِيهَا ثَلَاثَة أَوْجُه: أَنَّهَا حَرَام. وَالثَّانِي: أَنَّهَا لَيْسَتْ بِحَرَام، وَلَكِنَّهَا مَكْرُوهَة كَرَاهَة تَنْزِيه، وَالْوَجْه الثَّالِث: إِنْ كَانَ الْمُبَاشِر يَضْبِط نَفْسه عَن الْفَرْج، وَيَثِق مِنْ نَفْسه بِاجْتِنَابِهِ إِمَّا لِضَعْفِ شَهْوَته، وَإِمَّا لِشِدَّةِ وَرَعه ؛ جَازَ وَإِلَّا فَلَا.

وَقَالَ: إِنَّ الْوَجْه الثاني أَقْوَى مِنْ حَيْثُ الدَّلِيل.

(١) (ش): اختلف أهل العلم في آخر آية نزلت من القرآن، على أقوال متعددة، تكلم فيها كلٌّ بما أداه إليه اجتهاده، وذلك بناءً على ما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم، ويحتمل أن كُلًّا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وليس في شيء من ذلك خبر عن المعصوم ﷺ، يمكن القطع به.

وأكثر العلماء على أن آخر آية نزولًا هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

السورة أفضل التئام!

التسمِيَـة: سميت السورة الكريمة «سورة البقرة» إِحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة، التي ظهرت في زمن موسى الكليم، حيث قُتل شخص من بني إِسرائيل ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل، فأوحى الله تعالى إِليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزءٍ منها فيحيا بإِذن الله ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهانًا على قدرة الله جل وعلا في إِحياء الخلق بعد الموت، وستأتي القصة مفصلة في موضعها إِن شاء الله.

فضـــلها: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إِن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**» أخرجه مسلم والترمذي. وقال ﷺ: «**اقرؤوا سورة البقرة، فإِن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلَة**» يعني السَّحَرَة. رواه مسلم في صحيحه.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ
وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥

اللغة: ﴿رَيۡبَ﴾ الرَّيبُ: الشك وعدم الطُّمأنينة يقال: ارتاب، وأمرٌ مريب إذا كان فيه شك وريبة، قال الزمخشري: الريب مصدر رَابَه إذا أحدث له الريبة وهى قلق النفس واضطرابها، ومنه رَيْبُ الزمان لنوائبه[1] ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أصل التقوى مأخوذ من اتِّقاء المكروه بما تجعله حاجزًا بينك وبينه، قال النابغة:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ ... فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ[2]

فالمتقي هو الذي يقي نفسه مما يضرها، وهو الذي يتقي عذاب الله بطاعته، وجماع التقوى أن يمتثل العبد الأوامر، ويجتنب النواهي ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ما غاب عن الحواس، وكل شيء مستور فهو غيب، كالجنة، والنار، والحشر والنشر قال الراغب: الغيب ما لا يقع تحت الحواس[3] .

---

(١) ««الكشاف»» ١/ ٢٧ .

(ش): في تفسير الزمخشري (١/ ٣٤): ومنه: ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه.

(٢) (ش): النصيف: الخمار، قال ﷺ: «وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (رواه البخاري). ومعنى البيت أنها كانت عليها النصيف فلما (سَقَطَ النَّصِيفُ) -ومن عفافها أنها (لَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ)- فتناولت النَّصِيفُ بإحدى اليدين وسترت وجهها باليد الأخرى.

(٣) «مفردات القرآن» للراغب.

﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفلاح: الفوز والنجاح[١] قال أبو عبيدة: كل من أصاب شيئًا من الخير فهو مفلح[٢] وقال البيضاوي: المفلح: الفائز بالمطلوب كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر[٣]، وأصل الفلح في اللغة: الشق والقطع، ومنه قولهم: «إن الحديد بالحديد يفلح» أي: يشق، ولذلك سمي الفلاح فلاحًا لأنه يشق الأرض بالحراثة ﴿كَفَرُواْ﴾ الكفر لغة: ستر النعمة ولهذا يسمى الكافر كافرًا لأنه يجحد النعمة ويسترها، ومنه قيل للزارع والليل: كافر، قال تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: أعجب الزُّرَّاع، وسمى الليل كافرًا لأنه يغطي كل شيء بسواده ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ الإنذار: الإعلام مع التخويف، فإن خلا من التخويف فهو إعلام وإخبار، لا إنذار ﴿خَتَمَ﴾ الختم: التغطية على الشيء والطبع عليه حتى لا يدخل شيء، ومنه خَتْمُ الكتاب[٤].

﴿غِشَٰوَةٞ﴾ الغشاوة: الغطاء من غشاه إذا غطاه، ومنه الغاشية وهى القيامة، لأنها تغشى الناس بأهوالها.

التفسير: ابتدأت السورة الكريمة بذكر أوصاف المتقين، وابتداء السورة بالحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾ وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة في تخاطبهم، فينتبهون إلى ما يُلقى إليهم من آياتٍ بينات، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على «إعجاز القرآن» فإن هذا الكتاب منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهم، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن. يقول العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وقد قرره الزمخشري في «تفسيره» ««الكشاف»» ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الإمام «ابن تيمية» ثم قال: ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف، فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيانُ إعجازه وعظمته مثل ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١ - ٢] ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١ - ٢] ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ - ٣] وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن[٥]، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ﴾ هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتابُ الذي لا يدانيه كتاب ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ أي لا شك في أنه من عند الله لمن تفكر

---

(١) «مفردات القرآن» للراغب.

(٢) ««مجاز القرآن»» لأبي عبيدة ص ٢٩ .

(٣) «البيضاوي» ١/ ١٠ .

(٤) (ش): الكتاب: رسالة أو صحيفة مكتوبة، والخَتْم: الخاتم، ما يُختم به على الأوراق، يصنع عادة من المعدن أو المطاط، وله مِقْبَض.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٢٧٠.

وتدبر، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هادٍ للمؤمنين المتقين، الذين يتقون سخط الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويدفعون عذابه بطاعته، قال ابن عباس: المتقون هم الذين يتقون الشرك، ويعملون بطاعة الله، وقال الحسن البصري: اتقوا ما حُرِّم عليهم، وأدَّوْا ما افتُرِض عليهم. . ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من البعث، والجنة، والنار، والصراط، والحساب، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن أو النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها قال ابن عباس: إقامتُها: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع[1] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان، والآية عامة تشمل الزكاة، والصدقة، وسائر النفقات، وهذا اختيار ابن جرير، وروي عن ابن عباس أن المراد بها زكاة الأموال، قال ابن كثير: كثيرًا ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، لأن الصلاة حقُّ الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه، والإنْفاقُ هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد، فكلٌّ من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة[2]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي وبما جاءت به الرسل من قبلك، لا يفرّقون بين كتب الله ولا بين رسله ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي ويعتقدون اعتقادًا جازمًا لا يلابسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ، وجنةٍ، ونار، وحساب، وميزان، وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة، على نور وبيان وبصيرة من الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم.

البَلاَغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز العقلي ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أسند الهداية للقرآن وهو من الإسناد للسبب، والهادي في الحقيقة هو الله ربُّ العالمين ففيه مجاز عقلي.

٢ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ للإيذان بعلو شأنه، وبعد مرتبته في الكمال، فنُزِّل بُعْد المرتبة منزلة البعد الحسي.

٣ - تكرير الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ للعناية بشأن المتقين، وجيء بالضمير ﴿هُمُ﴾ ليفيد الحصر كأنه قال: هم المفلحون لا غيرهم.

٤ - التيئيس من إيمان الكفار ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالجملة

---

(١) اقتبسنا التفسير من «الطبري» وابن كثير وتفسير الجلالين.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٣٠ .

سيقت للتنبيه على غلوهم في الكفر والطغيان، وعدم استعدادهم للإيمان، ففيها تيئيس وإِقناط من إِيمانهم.

٥ - الاستعارة التصريحية اللطيفة ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ شبَّه قلوبهم لتَأَبِّيها[١] عن الحق، وأسماعهم وأبصارهم لامتناعها عن تلمُّح نور الهداية، بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغشَّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، واستعار لفظ الختم والغشاوة لذلك بطريق الاستعارة التصريحية[٢].

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى صفاتِ المؤمنين في الآيات السابقة، أعقبها بذكر صفات الكافرين، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار، والتمييز بينَ أهل السعادة وأهل الشقاوة «وبضدها تتميز الأشياء» .

التفسِير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد ﷺ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يتساوى عندهم ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي سواءٌ أَحذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بما جئتهم به، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له ... ثم بيَّن تعالى العلة في سبب عدم الإيمان فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان. قال المفسرون: الختمُ التغطيةُ والطبعُ، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها، فلا يكون للإيمان إِليها مسلكٌ، ولا للكفر عنها مخلص كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥][٣] ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ أي وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء، فلا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون، لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطَّاة بحجب كثيفة، لذلك يرون الحقَّ فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه قال أبو حيان: شبَّه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحقِّ، وأسماعهم لإِضرابها عن سماع داعي الفلاح، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية، بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغطَّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، وذلك لأنها كانت - مع صحتها وقوة إدراكها - ممنوعة عن قبول الخير وسماعه، وتلمح نوره،

---

(١) (ش): تأبَّى عليه: تكبَّر وامتنع.

(٢) انظر «"تلخيص البيان"» للشريف الرضى ١/ ٣، «و"البحر المحيط"» لأبي حيان ١/ ٥١ .

(٣) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير حول معنى الختم ففيه تحقيق وتفصيل جميل.

وهذا بطريق الاستعارة[١] ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخِرة عذاب شديدٌ لا ينقطع، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله.

قال الله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا
يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا
كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ
ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ
إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ
إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ
ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ
أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾
أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ
مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ
ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر هنا «المنافقين» وهم الصنف الثالث، الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقَّب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحًا لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يئول إليه حالهم من الهلاك والدمار.

اللغَة: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ الخِداع: المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن، وأصله الإخفاء، ومنه سُمِّيَ الدَّهْرُ خَادِعًا لِمَا يُخْفِي مِنْ غَوَائِلِهِ[٢]، وسُمي المِخْدع مِخْدعًا لتَسَتُّر أصحاب المنزل فيه ﴿مَّرَضٌ﴾ المرض: السُّقْم وهو ضد الصحة وقد يكون حسيًّا كمرض الجسم، أو معنويًا كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء، قال ابن فارس: المرضُ كلُّ ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علةٍ، أو نفاق: أو تقصير في أمر ﴿تُفۡسِدُواْ﴾ الفساد: العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه وهو الجاهل، الضعيف الرأي، القليل المعرفة، بمواضع المنافع والمضار، وأصل السَّفه، الخِفَّة، والسفيه: الخفيف العقل. قال علماء اللغة: السَّفه خفةٌ

(١) «تفسير «البحر المحيط»» لأبي حيان ١/ ٥١ .
(٢) (ش): غائلة: فساد، شرٌّ، هَلَكة.

وسخافة رأي يقتضيان نقصان العقل، والحِلْمُ يقابله[١] ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الطغيان: مجاوزة الحد في كل شيء ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] أي: ارتفع وعلا وجاوز حده، والطاغية: الجبار العنيد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ العَمَه: التحير والتردُّد في الشيء يقال: عَمِه يَعْمَه فهو عَمِه قال رؤبة:

أعْـمَـى الْـهُـدَى بِـالْـحَـائِـرِيـنَ الْـعُـمَّـهِ

قال الفخر الرازي: العَمَهُ مثل العمى، إلا أن العَمَى عام في البصر والرأي، والعَمَه في الرأي خاصة، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه[٢] ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ حقيقة الاشتراء: الاستبدال، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب، والعرب تقول لمن استبدل شيئًا بشيء: اشتراه قَالَ الشَّاعِرُ:

فَـإِنْ تَزْعُمِينِي كُنْتُ أَجْـهَـلُ فِيكُمْ   فَإِنِّي شَرَيْتُ الْحِلْمَ بَعْدَكِ بِالْجَهْلِ[٣]

﴿صُمٌّ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم وهو الأخرس الذي لا ينطق ﴿عُمْىٌ﴾ جمع أعمى وهو الذي فقد بصره ﴿كَصَيِّبٍ﴾ الصَيّبُ: المطر الغزير مأخوذ من الصوب وهو النزول بشدة قَالَ الشَّاعِرُ:

سَقَتْكِ رَوَايَـا الْـمُزْنِ حَيْثُ تصوب[٤]

﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جمع صاعقة وهي نارٌ محرقة لا تمر بشيء إلا أتت عليه، مشتقة من الصَّعْق وهو شدة الصوت ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ السماء في اللغة: كلُّ علاكَ فأظلَّك، ومنه قيل لسقف البيت سماء، ويسمى المطر سماءً لنزوله من السماء قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا سَـقَـطَ الـسَّـمَـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ   رَعَـيْـنَـاهُ وَإِنْ كَـانُـوا غِـضَـابـا[٥]

﴿يَخْطَفُ﴾ الخَطْفُ: الأخذ بسرعة ومنه ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠] وسُمِي الطير خُطّافًا لسرعته، والخاطف الذي يأخذ الشيء بسرعة شديدة.

سَبَبُ النّزول: قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب منهم «عبد الله بن أُبي ابن سلول، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس» كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون: إنّا لنجد في كتابنا نعته وصفته[٦].

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة»، «والصحاح»، «والقاموس».

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/ ٧١ .

(٣) (ش): معنى البيت: إن كنت تزعمين أنى كنت أجهل في هواى لكم فقد شريت بذلك الجهل حلمًا وعقلاً، ورجعت عما كنت عليه.

(٤) (ش): (الراوية): المزادة: وعاء الماء في السفر. روايا المزن: التي تروي بكثرة مائها. صابَ المطرُ الأرضَ: انْصَبَّ ونزل.

(٥) (ش): رَعَيْنَاهُ من الرعي، أي: رَعَيْنَا نبات الأرض في مكان نزول المطر. قصد بلفظ السماء أوّلاً المطر الّذي ينزل من السماء، وأعاد الضمير عليه مريدًا به النبات الذي يَنْبُت في الأرض بسبب ارْتواء الأرض بالمطر.

(٦) تفسير الفخر الرازي ٢/ ٦١ . (ش): هكذا ذكره الفخر الرازي بدون إسناد.

التفسير: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم: صدَّقنا بالله وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ أي وصدَّقنا بالبعث والنشور ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين، لأنهم يقولون ذلك قولًا دون اعتقاد، وكلامًا دون تصديق. قال البيضاوي: هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله، لأنّهم موَّهوا الكفر وخلطوا به خداعًا واستهزاء، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم، واستهزأ بهم وتهكَّم بأفعالهم، وسجَّل عليهم الضلال والطغيان، وضرب لهم الأمثال[١] ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يعملون عمل المخادِع بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إصرارهم على الكفر، يعتقدون - بجهلهم - أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، وما علموا أن الله لا يُخدع لأنه لا تخفى عليه خافية قال ابن كثير: النفاق هو إظهار الخير، وإِسرارُ الشر وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلّد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار، لأن المنافق يخالف قولُه فعلَه، وسرُّه علانيته. وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه[٢] ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ولا يُحسّون بذلك ولا يفطنون إليه، لتمادي غفلتهم، وتكامل حماقتهم ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق فزادهم الله رجسًا فوق رجسهم، وضلالًا فوق ضلالهم، والجملةُ دُعَائِيَّة

قال ابن أسلم: هذا مرضٌ في الدين، وليس مرضًا في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله رجسًا وشكًّا[٣] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ أي ولهم عذابٌ مؤلمٌ بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن. . ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم، وأحوالهم الشنيعة فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وإذا قال لهم بعض المؤمنين: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن، والكفر والصَدِّ عن سبيل الله. قال ابن مسعود: الفسادُ في الأرض هو الكفرُ، والعملُ بالمعصية، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي ليس شأننا الإفسادُ أبدًا، وإنما نحن أناسٌ مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك قال البيضاوي: تصوَّروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] ولذلك ردَّ الله

---

(١) «تفسير البيضاوي» ١/ ١١.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٣٣ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣ .

عليهم أبلغ ردٍّ بتصدير الجملة بحرفي التأكيد ﴿أَلَآ﴾ المنبهة و ﴿إِنَّ﴾ المقررة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، والاستدراك بعدم الشعور[١] فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي ألَا فانتبهوا أيها الناس، إنهم هم المفسدون حقًّا لا غيرهم، ولكنْ لا يفطنون ولا يحُسون، لانطماسِ نور الإيمان في قلوبهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيمانًا صادقًا لا يشوبه نفاقٌ ولا رياء، كما آمن أصحاب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الهمزة للإنكار مع السخرية والاستهزاء أي قالوا أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة أمثال «صهيب، وعمار، وبلال» ناقصي العقل والتفكير؟! قال البيضاوي: وإنما سفَّهوهم لاعتقادهم فسادَ رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالٍ كصهيب وبلال[٢] ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي ألا إنهم هم السفهاء حقًّا، لأن من ركب متن الباطل كان سفيهًا بلا امتراء، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

أكَّد وَنبَّه وحصر السفاهة فيهم، ثم قال تعالى منبهًا إلى مصانعتهم ونفاقهم ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقًا ومصانعة ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم، أهل الضلالِ والنفاق ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي قالوا لهم: نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال قال ابن عباس: يسخر بهم للنقمة منهم ويُملي لهم كقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] قال ابن كثير: هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه، فاللفظ متفق والمعنى مختلف[٣]، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ومثل ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ فالأول ظلم والثاني عدل[٤] ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويزيدهم - بطريق

(١) «البيضاوي» ١/ ١٢.

(٢) «البيضاوي» ١/ ١٢.

(٣) يسمى هذا النوع عند علماء البيان «المشاكلة» وهو أن تتفق الجملتان في اللفظ وتختلفا في المعنى كقوله:

قَالُوا: اقْتَرِحْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ ... قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصَا

(ش): (نُجِدْ) من الإجادة. (اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصَا): أي خيطوا لي جُبَّةً وَقَمِيصَا، فذكر الخياطة بلفظ الطبخ لوقوعه في صحبة طبخ الطعام.

(٤) (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ =

الإِمهال والترك - في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويتردّدون حيارى، لا يجدون إِلى المخرج - منه سبيلًا لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم، فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلًا. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ أي ما ربحت صفقتُهم في هذه المعارضةِ والبيع ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك، لأنهم خسروا سعادة الدارين ثم ضرب تعالى مثلين وضَّح فيهما خسارتهم الفادحة فقال ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد نارًا ليستدفئ بها ويستضيء، فما اتقدت حتى انطفأت، وتركته في ظلام دامس وخوفٍ شديد ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر وأمِن، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية، فتلاشت النار وعُدم النور ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ أي وأبقاهم في ظلماتٍ كثيفة وخوف شديد، يتخبطون فلا يهتدون قال ابن كثير: ضرب الله

= [الروم:٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع:

الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفًا مطلقًا ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . إلخ.

الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبدًا، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة.. إلخ.

الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالًا، ويمكن أن تكون نقصًا، على حسب الحال التي تُذكر فيها.

فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالًا يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصًا لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء، فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيدًا بما يجعله كمالًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة:١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالًا في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخادع وصفًا مطلقًا. لأنه حينئذٍ لا يكون كمالًا.

فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾. وقوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾. وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾. وقوله: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحًا سيئًا لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

للمنافقين هذا المثل، فشبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله .. فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى، واستحبابهم الغيَّ على الرشد، وفي هذا المثل دلالةٌ على أنهم آمنوا ثم كفروا، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير، ولا يعرفون طريق النجاة[1] ﴿ صُمٌّ ﴾ أي هم كالصم لا يسمعون خيرًا ﴿بُكْمٌ﴾ أي كالخرص لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمْىٌ﴾ أي كالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال. ثم ثنَّى تعالى بتمثيل آخر لهم زيادة في الكشف والإيضاح فقال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد، أظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء، مصحوب بالبرق والرعد والصواعق ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ أي في ذلك السحاب ظلماتٌ داجية، ورعدٌ قاصف، وبرقٌ خاطف ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ أي يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق، وذلك من فرط الدهشة والفزع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جملة اعتراضية أي والله تعالى محيط بهم بقدرته، وهم تحت إرادته ومشيئته لا يفوتونه، كما لا يفوتُ من أحاط به الأعداء من كل جانب ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ أي يقارب البرقُ لشدته وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾ أي كلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في مكانهم. . وفي هذا تصوير لما هم فيه من غاية التحير والجهل، فإذا صادفوا من البرق لمعة – مع خوفهم أن يخطف أبصارهم – انتهزوها فرصة فَخَطَوْا خطواتٍ يسيرة وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير، وثبتوا في أماكنهم خشية التردي في حفرة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي لو أراد الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم، وفي ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي إنه تعالى قادر على كل شيء، لا يعجزه أحدٌ في الأرض ولا في السماء قال ابن جرير: إنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر[2].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٦ .

(٢) «تفسير الطبري» ١/ ٧٩ .

أولًا: المبالغة في التكذيب لهم ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ كان الأصل أن يقول: «وما آمنوا» ليطابق قول من يقول «آمنا» ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين وأكده بالباء للمبالغة في نفي الإيمان عنهم.

ثانيًا: الاستعارة التمثيلية ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ شبَّه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعيةٍ تخادع سلطانهم واستعير اسم المشبَّه به للمشبه بطريق الاستعارة.

ثالثًا: صيغة القصر ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهذا من نوع «قصر الموصوف على الصفة» أي نحن مصلحون ليس إلاَّ.

رابعًا: الكناية اللطيفة ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المرضُ في الأجسام حقيقة وقد كنى به عن النفاق؛ لأن المرض فسادٌ للبدن، والنفاق فساد للقلب.

خامسًا: تنويع التأكيد ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ جاءت الجملة مؤكدة بأربعة تأكيدات ﴿أَلَآ﴾ التي تفيد التنبيه، و ﴿إِنَّ﴾ التي هي للتأكيد، وضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ ثم تعريف الخبر ﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ ومثلها في التأكيد ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وهذا ردٌّ من الله تعالى عليهم بأبلغ ردٍّ وأحكمه.

سادسًا: المشاكلة ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ سمَّى الجزاء على الاستهزاء استهزاءً بطريق المشاكلة وهي الاتفاق؛ في اللفظ مع الاختلاف في المعنى.

سابعًا: الاستعارة التصريحية ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ المراد استبدلوا الغيَّ بالرشاد، والكفر بالإيمان فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم، فاستعار لفظ الشراء للاستبدال ثم زاده توضيحًا بقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ وهذا هو الترشيح الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا[1].

ثامنًا: التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وكذلك ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ شبه في المثال الأول المنافق بالمستوقد للنار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، وفي المثال الثاني شبَّه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء، وشبَّه شبهات الكفار بالظلمات، وما في القرآن من الوعد والوعيد بالرعد والبرق.. إلخ[2].

تاسعًا: التشبيه البليغ ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ أي هم كالصم والبكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

عاشرًا: المجاز المرسل ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ وهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء أي رءوس أصابعهم لأن دخول الأصبع كلها في الأذن لا يمكن.

---

(١) قال الزمخشري: وهذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا، انظر «الكشاف» ١/ ٥٣ .

(٢) قال الفخر الرازي: والتشبيه ههنا في غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نورًا، ثم بنفاقهم ثانيًا أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين لخسران نفسه أبد الآبدين. الرازي ٢/ ٧٣ .

الحادي عشر: توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهذا له وقع في الأذن حسن، وأثر في النفس رائع مثل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية[١].

الفوَائِد: الأولى: الغاية من ضرب المثل: تقريب البعيد، وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المشاهد المحسوس، وللأمثال تأثير عجيب في النفس ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

الثانية: وصف تعالى المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف كلها شنيعة وقبيحة تدل على رسوخهم في الضلال وهي (الكذب، الخداع، المكر، السَّفه، الاستهزاء، الإفساد في الأرض، الجهل، الضلال، التذبذب، السخرية بالمؤمنين) أعاذنا الله من صفات المنافقين.

الثالثة: حكمة كفه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ عن قتل المنافقين مع أنهم كفار وعلمه ﷺ بأعيان بعضهم ما أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال لعمر: «**أكره أن يتحدث العرب أن محمدًا يقتل أصحابه**»[٢].

لطيفَة: قال العلامة ابن القيم: تأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: «ذهب الله بنارهم» مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو «النور» وأبقى ما فيها من الإحراق وهو «النارية»!! وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بضوئهم، لأن الضوء زيادةٌ في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل! وتأمل كيف قال ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحَّد النور ثم قال ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فجمعها، فإن الحقَّ واحد هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه، بخلاف طُرُق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا أفرد سبحانه «الحقَّ» وجمع «الباطل» في آيات عديدة مثل قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦] وقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فجمع سبل الباطل ووحَّد سبيل الحق[٣].

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ

---

(١) ذكرنا الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر، ليتذوق القارئ بعض روائع القرآن، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية، والصور البلاغية، ما يتذوقه الإنسان ويعجز عن وصفه اللسان.

(٢) ذكرها ابن كثير كذا في «المختصر» ١/ ٣٣.

(٣) نقلاً عن «محاسن التأويل» للقاسمي.

أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الأصناف الثلاثة «المؤمنين، والكافرين، والمنافقين» وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة، أو إيمان أو نفاق، وضرب الأمثال ووضَّح طرق الضلال أعقبه هنا بذكر الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين، وعَرَّف الناس بنعمه ليشكروه عليها، وأقبل عليهم بالخطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهو خطاب لجميع الفئات ممتنًّا عليهم بما خلق ورزق، وأبرز لهم «معجزة القرآن» بأنصع بيان وأوضح برهان ليقتلع من القلوب جذور الشك والارتياب.

اللغَة: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ الخلق: الإيجاد والاختراع بلا مثال، وأصله في اللغة التقدير يقال: خَلَق النعل إذا قدَّرها وسوَّاها بالمقياس، وخلق الأديمَ للسقاء إذا قدَّره. قال الحجاج: ما خلقتُ إلا فريتُ، ولا وعدتُ إلا وفيتُ «أي ما قدرت شيئًا إلا أمضيته، ولا وعدت بشيء إلا وفيت به». ﴿فِرَاشًا﴾ الفراش: الوطاءُ والمهاد الذي يقعد عليه الإنسان وينام ﴿بِنَاءً﴾ البناء: ما يُبنى من قبةٍ أو خباءٍ أو بيت ﴿أَندَادًا﴾ جمع نِدّ وهو الكفء والمثيل والنظير، ومنه قول علماء التوحيد «ليس لله نِدٌّ ولا ضِدّ» قال حسان:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ[1]

وقال الزمخشري: «النِدُّ: المثل ولا يقال إلا للمخالف المناوئ، قال جرير:

أَتَيْمًا تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نِدًّا؟[2]

﴿وَقُودُهَا﴾ الوَقود: الحطب الذي توقد به النار قال «القرطبي»: الوَقود بالفتح الحطب، وبالضم مصدر بمعنى التَوَقُّد[3] ﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيِّئَتْ، وأعددنا هيأنا قال البيضاوي: ﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيئت لهم وجُعلت عُدَّة لعذابهم[4] ﴿وَبَشِّرِ﴾ البشارة: الخبر السارُّ الذي يتغير به بشرة الوجه من السرور، وإذا استعمل في الشر فهو تهكم مثل ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤] ﴿أَزْوَاجٌ﴾ جمع زوج ويطلق على الذكر والأنثى ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ [البقرة: ٣٥] فالمرأة زوج الرجل،

---

(١) «القرطبي» ١/ ٢٣٠ .
(٢) «الكشاف» ١/ ٧٢ .
(٣) «القرطبي» ١/ ٢٣٨ .
(٤) «البيضاوي» ١/ ١٨.

والرجل زوج المرأة قال الأصمعي: لا تكاد العرب تقول زوجة ﴿خَـٰلِدُونَ﴾ باقون دائمون.

التفسير: يقول تعالى منبهًا العبادَ إِلى دلائل القدرة والوحدانية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ أي يا معشر بني آدم اذكروا نِعَم الله الجليلة عليكم، واعبدوا الله ربكم الذي ربَّاكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا، اعبدوه بتوحيده، وشكره، وطاعته ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي الذي أوجدكم بقدرته من العدم، وخلق من قبلكم من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والفلاح قال البيضاوي: لما عدَّد تعالى فِرَق المكلفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزا للسَّامع، وتنشيطًا له، واهتمامًا بأمر العبادة وتفخيمًا لشأنها، وإِنما كثر النداء في القرآن بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إِنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيقٌ بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ[1]، ثمَّ عدَّد تعالى نِعَمه عليهم فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي جعلها مهادًا وقرارًا، تستقرون عليها وتفترشونها كالبساط المفروش مع كرويتها، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها. قال البيضاوي: جعلها مهيأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطَّحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراش عليها[2] ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي وسقفًا للأرض مرفوعًا فوقها كهيئة القبة ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي مطرًا عذبًا فراتًا أنزله بقدرته من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضار غذاءً لكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة، وأنتم تعلمون أنها لا تَخْلُق شيئًا ولا تَرْزق، وأنَّ الله هو الخالق الرازق وحده، ذو القوة المتين قال ابن كثير: شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده بإِخراجهم من العدم، وإِسباغه عليهم النِّعَم، والمرادُ بالسَّماء هنا السحاب، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إِليه، فأخرج لهم به أنواع الزروع والثمار ورزقًا لهم ولأنعامهم، ومضمونه أنه الخالق الرازق مالكُ الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره[3]، ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد الحجة على النبوة، وأقام البرهان على إِعجاز القرآن فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي وإِذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب من صدق هذا القرآن، المعجز في بيانه، وتشريعه، ونظمه،

---

(١) «البيضاوي» ١/ ١٦.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة، ورأي الإمام البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يدور روادُ الفضاء حولها في هذا العصر.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٨ .

الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي فأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل هذا القرآن، في البلاغة والفصاحة والبيان ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى. قال البيضاوي: المعنى ادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجِنكم وآلهتكم غيرَ اللهِ سُبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله[1] ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أنه مختَلَقٌ وأنه من كلام البشر، وجوابُه محذوف دلَّ عليه ما قبله. ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورةٍ من سوره، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ أي ولن تقدروا في المستقبل أيضًا على الإتيان بمثله، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل كقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] أي: معينًا قال ابن كثير: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا، ﴿وَلَن﴾ لنفي التأبيد[2] في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبدًا، وهذه أيضًا معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا، غير خائفٍ ولا مشفق أنَّ هذا القرآن لا يُعارَض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ومن تدبّر القرآن وجد فيه من وجه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، والقرآنُ جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب، ويفهم تصاريف الكلام[3] ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي فخافوا عذاب الله، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي اتقوا النار التي مادتُها التي تُشعل بها وتُضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله كقوله: تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال مجاهد: حجارةٌ من كبريت أنتن من الجيفة يعذبون بها مع النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي هُيّئت تلك النارُ وأُرصدت للكافرين الجاحدين، ينالون فيها ألوان العذاب المهين.

ثم لما ذكر ما أعدَّه لأعدائه، عطف عليه بذكر ما أعدَّه لأوليائه، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، للمقارنة بين حال الأبرار والفجار فقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وبَشِّرْ يا محمد المؤمنين المتقين، الذين كانوا في الدنيا محسنين، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي بأن

---

(١) «البيضاوي» ١/ ١٧.

(٢) (ش): الصواب: أن يقال النفي المؤبَّد؛ لأن نَفْيَ التأبيد معناه عدم التأبيد.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٤١.

لهم حدائق وبساتين ذات أشجار ومساكن، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة[١] ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ أي كلما أعطوا عطاءً ورُزقوا رزقًا من ثمار الجنة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي هذا مثلُ الطعام الذي قُدِّم إلينا قبل هذه المرة. قال المفسرون: إن أهل الجنة يُرزقون من ثمارها، تأتيهم به الملائكة، فإذا قُدّم لهم مرة ثانية قالوا: هذا الذي أتيتمونا به من قبل فتقول الملائكة: كلْ يا عبد الله فاللون واحدٌ والطعم مختلف[٢] قال تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أي متشابهًا في الشكل والمنظر، لا في الطعم والمَخْبر. قال ابن جرير: يعني في اللون والمرأى وليس يشبهه في الطعم قال ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم في الجنة زوجاتٌ من الحور العين مطهَّرات من الأقذار والأدناس الحسية والمعنوية. قال ابن عباس: مطهَّرة من القذر والأذى وقال مجاهد: مطهَّرة من الحيض والنفاس، والغائط والبول والنخام، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧] ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي دائمون، وهذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين، يعيشون مع زوجاتهم في هناءٍ خالد لا يعتريه انقطاع.

البَلَاغَة: ١ - ذكر الربوبية ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ مع إضافته إلى المخاطبين للتفخيم والتعظيم.

٢ - الإضافة ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ للتشريف والتخصيص، وهذا أشرف وصفٍ لرسول الله ﷺ.

٣ - التعجيز ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ خرج الأمر عن صيغته إلى معنى التعجيز، وتنكيرُ السورة لإرادة العموم والشمول.

٤ - المقابلة اللطيفة ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ فقد قابل بين الأرض والسماء، والفراش والبناء، وهذا من المحسنات البديعية.

٥ - الجملة الاعتراضية ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ لبيان التحدي في الماضي والمستقبل وبيان العجز التام في جميع العصور والأزمان.

٦ - الإيجاز البديع بذكر الكناية ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ أي فإن عجزتم فخافوا نار جهنم بتصديقكم بالقرآن.

---

(١) جاء في الحديث أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود.

(ش): ضعفه أبو إسحق الحويني. وعن مسروق قال: «أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وثمرها كالقلال، كلما أخذ ثمرةً عادت مكانها أخرى، والعنقود: اثنا عشر ذراعًا». رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» وقال الحويني: «سنده صحيحٌ». أخرجه ابن مردويه في «تفسيره»- كما في ابن كثير (٧/ ٢٩٧)- وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٥)، وفي «صفة الجنة»

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي في الدنيا، وهذا قول مرجوح والصحيح ما روي عن ابن عباس وغيره أن هذا في الجنة وأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ
ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي
بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ
أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ
وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم
مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾

المنَاسَبَة: لما بيَّن تعالى بالدليل الساطع، والبرهان القاطع، أن القرآن كلام الله لا يتطرأ إليه شك، وإنه كتاب معجز أنزله على خاتم المرسلين، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورةٍ من أقصر سوره، وذكر هنا شبهة أوردها الكفار للقدح فيه وهي أنه جاء في القرآن ذكر (النحل، والذباب، والعنكبوت، والنمل) إلخ وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلًا عن كلام ربِّ الأرباب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة، وردَّ عليهم بأنَّ صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه، إذا كان ذكر المثل مشتملًا على حِكَمٍ بالغة.

اللغَة: ﴿لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ﴾ الحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم، والمراد به هنا لازمه وهو الترك، قال الزمخشري: أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي من ذكرها لحقارتها[1] ﴿فَمَا فَوۡقَهَا﴾ فما دونها في الصغر ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أصل الفسق في كلام العرب: الخروج عن الشيء، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه، قال الفراء: الفاسق

(١) «الكشاف» ١/ ٨٥.

(ش): هذا تأويلٌ للحياء في حق الله تعالى بغير معناه الحقيقي، فالْحَيَاءُ وَالاسْتِحْيَاءُ صفةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجَلَّ بالكتاب والسنة، و (الحَيِيُّ) من أسمائه تعالى. وحياؤه تعالى وصْفٌ يليق به، ليس كحياء المخلوقين، الذي هو تغير وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يُعَابُ أو يُذَمُّ. بل هو حياء الكمال يليق بالله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه وتعالى يوصف بهذه الصفة لكن ليس مثل المخلوقين، فالقول في الْحَيَاءِ وَالاسْتِحْيَاء كالقول في سائر ما أثبته الله عزَّ وجلَّ لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من الصفات، والواجب في جميع ذلك هو الإثبات مع نفي مماثلة المخلوقات. قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فيوصَفُ ربنا سبحانه وتعالى بالحياء والاستحياء كما في النصوص الشرعية على وجه لا نقص فيه؛ بل على الوجه اللائق من غير تكييف ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل. ولا يجوز تأويلها بغير معناها الظاهر من لوازمها وغير ذلك.

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ». (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني). وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ». (رواه أبو داود وصححه الألباني).

مأخوذ من قولهم: «فسقت الرطبة من قشرها» أي خرجت، ويسمى الفاسق فاسقًا لخروجه عن طاعة الله، وتسمى الفأرة فويسقه لخروجها لأجل المضرة[١]، ﴿يَنقُضُونَ﴾ النقض: فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناءٍ، أو حبل، أو عهد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [النحل: ٩٢] وقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] أي: فبنقضهم الميثاق ﴿عَهْدَ﴾ العهد: المَوْثق الذي يعطيه الإنسان لغيره ويقال عهد إليه أي أوصاه ﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾ العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد. ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ الاستواء في الأصل: الاعتدال والاستقامة يقال: استوى العود إذا قام واعتدل، واستوى إليه كالسهم إذا قصده قصدًا مستويًا، وقال ثعلب: الاستواء: الإقبال على الشيء[٢]، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ خلقهن وأتقنهن وقيل معناه: صيّرهن.

سَبَبُ النزّول: لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، وما أراد بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ فأنزل الله الآية[٣].

التفسِير: يقول تعالى في الرد على مزاعم اليهود والمنافقين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أيَّ مثل كان، بأي شيءٍ كان، صغيرًا كان أو كبيرًا ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق، لا يقول غير الحق، وأن هذا المثل من عند الله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون: ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة؟ قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أي يضل بهذا المثل كثيرًا من الكافرين لكفرهم به، ويهدي به كثيرًا من المؤمنين لتصديقهم به، فيزيد أولئك ضلالة، وهؤلاء هدىً ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله، الجاحدين بآياته ثم عدّد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي ينقضون ما عهده إليهم في الكتب السماوية، من الإيمان بمحمد ﷺ من بعد توكيده عليهم، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله، والتصديق بالرسل، والعمل بالشرائع ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام والقرابات،

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢/ ١٤٧.

(٢) الصاوي على الجلالين ١/ ١٩، و«الكشاف» ١/ ٩٢. (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٣): ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ: قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَالِاسْتِوَاءُ هَاهُنَا تَضَمَّن مَعْنَى الْقَصْدِ وَالْإِقْبَالِ؛ لِأَنَّهُ عُدِّيَ بـ (إِلَى).

(٣) «القرطبي» ١/ ٢٤٤، والصاوي ١/ ١٧. (ش): ضعيف جدًّا، أخرجه الواحدي في «أسباب النزول».

واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء، وقطع الأرحام، وترك موالاة المؤمنين ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، والفتن، والمنع عن الإيمان، وإثارة الشبهات حول القرآن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي أولئك المذكورون، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحة هم الخاسرون لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فصاروا إلى النار المؤبدة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام للتوبيخ والإنكار والمعنى كيف تجحدون الخالق، وتنكرون الصانع ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أي وقد كنتم في العدم نُطفًا في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي أخرجكم إلى الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء الآجال ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء يوم النشور.

ثم ذكر تعالى برهانًا على البعث فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي خلق لكم الأرض وما فيها لتنتفعوا بكل ما فيها، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي ثم وجّه إرادته إلى السماء ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أي صيّرهن وقضاهن سبع سماوات محكمة البناء وذلك دليل القدرة الباهرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي وهو عالم بكل ما خلق وذرأ، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك - وهي أعظم منكم - قادر على إعادتكم؟! بلى إنه على كل شيء قدير.

البَلَاغَة: ١ - قوله: ﴿لَا يَسْتَحْيِي﴾ مجاز من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، والمعنى: لا يترك فعبّر بالحياء عن الترك، لأن الترك من ثمرات الحياء، ومن استحيا من فعل شيء تركه[1].

٢ - قوله: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ فيه (استعارة مكنية) حيث شبه العهد بالحبل، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو النقض على سبيل الاستعارة المكنية.

٣ - قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ هو من باب (الالتفات) للتوبيخ والتقريع، فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثم التفت فخاطبهم بصيغة الحضور، وهو ضرب من ضروب البديع.

٤ - قوله ﴿عَلِيمٌ﴾ من صيغ المبالغة، ومعناه الواسع العلم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء، قال أبو حيان: وصف تعالى نفسه بـ(عالم وعليم وعلام) وهذان للمبالغة، وقد أدخلت العرب الهاء لتأكيد المبالغة في (علامة) ولا يجوز وصفه به تعالى[2].

الفوَائِد: الأولى: قال الزمخشري: التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمرًا تستدعيه حال المتمثل له، ألا ترى إلى الحق لما كان أبلج واضحًا جليًّا، كيف تمثَّل له بالضياء

---

(١) أفاده الزمخشري.

(ش): تقدم قبل قليل أن هذا تأويلٌ للحياء في حق الله تعالى بغير معناه الحقيقي، وأن هذا لا يجوز.

(٢) «البحر المحيط» ١/ ١٣٦ .

والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثّل له بالظلمة؟ ولما كان حال الآلهة التي جعلها الكفار أندادًا لله تعالى ليس أحقر منها وأقل، لذلك ضرب لها المثل ببيت العنكبوت في الضعف والوهن ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] وجعلت أقل من الذباب وأخسَّ قدرًا ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] والعجبُ منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور، والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم سائرة في حواضرهم وبواديهم[١].

الثانية: قدّم الإضلال على الهداية ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرًا فظيعًا يسوءهم ويفتُّ في أعضادهم، وأوثرت صيغة الاستقبال إيذانًا بالتجدد والاستمرار، أفاده العلامة أبو السعود[٢].

الثالثة: قال ابن جزي في «التسهيل»: وهذه الآية ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ تقتضي أنه خلق السماء بعد الأرض، وقوله: تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] ظاهره خلاف ذلك، والجواب من وجهين: أحدهما أن الأرض خلقت قبل السماء، ودحيت بعد ذلك فلا تعارض، والآخر تكون ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الأخبار[٣].

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

المناسَبَة: لما امتنَّ تعالى على العباد بنعمة الخلق والإيجاد وأنه سخر لهم ما في الأرض جميعًا، وأخرجهم من العدم إلى الوجود، أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه، بجعله خليفة، وإسكانه دار الكرامة، وإسجاد الملائكة تعظيمًا لشأنه، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا ناسب أن يذكّرهم بذلك، لأنه من وجوه النعم التي أنعم بها عليهم.

اللغَة: ﴿وَإِذْ﴾ ظرف زمان منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر حين أو اذكر وقت، وقد يصرح بالمحذوف كقوله: تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦] قال المبرد: إذا جاء

(١) «الكشاف» ١/ ٨٣.
(٢) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٦٠.
(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ١/ ٤٣.

«إِذْ» مع مستقبل كان معناه ماضيًا، نحو قوله: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] معناه إِذْ مكروا، وإذا جاء «إذا» مع الماضي كان معناه مستقبلًا كقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٤] و﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [النصر: ١] أي يجيء[1]، ﴿خَلِيفَةً﴾ الخليفة: من يخلف غيره وينوب منابه، فعيل بمعنى فاعل والتاء للمبالغة، سمي خليفة لأنه مستخلف عن الله عَزَّ وَجَلَّ في إجراء الأحكام وتنفيذ الأوامر الربانية قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص:٢٦] الآية[2] ﴿وَيَسۡفِكُ ﴾ السفك: الصب والإراقة لا يستعمل إلا في الدم قال في «المصباح»: وسفك الدم: إراقة وبابه ضرب ﴿نُسَبِّحُ ﴾ التسبيح: تنزيه الله وتبرئته عن السوء[3]، وأصله من السَّبْح وهو الجري والذهاب قال تعالى ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل: ٧] فالمسَبِّح جارٍ في تنزيه الله تعالى ﴿وَنُقَدِّسُ ﴾ التقديس: التطهير ومنه الأرض المقدسة، وروح القدس، وضده التنجيس، وتقديس الله معناه: تمجيده وتعظيمه وتطهير ذكره عما لا يليق به وفي «صحيح مسلم» أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**» ﴿أَنۢبِـُٔونِي ﴾ أخبروني والنبأ: الخبر الهام ذو الفائدة العظيمة قال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴾ [ص:٦٧] ﴿تُبۡدُونَ ﴾ تظهرون ﴿تَكۡتُمُونَ ﴾ تخفون ومنه كتم العلم، أي: إخفاؤه.

التفسير: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ أي خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم أو قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾ أي قالوا على سبيل التعجب والاستعلام: كيف تستخلف هؤلاء، وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ أي يريق الدماء بالبغي والاعتداء! ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ ﴾ أي ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بحمدك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أي نعظم أمرك ونطهر ذكرك مما نسبه إليك الملحدون ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي أعلم من المصالح ما هو خفيٌّ عليكم، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها

(١) «القرطبي» ١/ ٢٦٢ .

(٢) (ش): ذكر الشيخ بكر أبو زيد في «معجم المناهي اللفظية» (ص: ٢٤٧- ٢٤٨) أن لفظ «خليفة الله» اختلف فيه أهل العلم على ثلاثة أقوال: الأول: الجواز، فيجوز أن يقال: فلان خليفة الله في أرضه. الثاني: منع هذا الإطلاق؛ لأن الخليفة إنما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره، والله تعالى شاهد غير غائب، فمحال أن يخلفه غيره بل هو سبحانه وتعالى الذي يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته. والثالث: - وهو ما قرره ابن القيم - إن أُريد بالإضافة إلى الله: أنه خليفة عنه، فالصواب قول الطائفة المانعة فيها. وإن أُريد بالإضافة: أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الإضافة. وحقيقتها: خليفة الله الذي جعله الله خلفًا عن غيره.

(٣) روى طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال: «هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء» «القرطبي» ١/ ٢٧٦ .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ أي أسماء المسمّيات كلها قال ابن عباس: علّمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة ﴿عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي عرض المسميات على الملائكة وسألهم على سبيل التبكيت[١] ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾ أي أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته. الحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصّه بالمعرفة التامة دونهم، من معرفة الأسماء والأشياء، والأجناس، واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ أي ننزهك يا الله عن النقص ونحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ أي أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي أخبرهم بكل الأشياء، وسمَّى كل شيء باسمه، وذكر حكمته التي خلق لها ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قال تعالى للملائكة: ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السماوات والأرض عنكم ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي تُسِرُّون من دعواكم أن الله لا يخلق خلقًا أفضل منكم، رُوِيَ أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام، رأت الملائكة فطرته العجيبة، وقالوا: ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقًا إلا كنا أكرم عليه منه[٢].

البَلَاغَة: ١ – التعرض بعنوان الربوبية ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ مع الإضافة إلى الرسول عليه السلام للتشريف والتكريم لمقامه العظيم وتقديم الجار والمجرور ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ للاهتمام بما قُدّم، والتشويق إلى ما أُخّر.

---

(١) (ش): التَّبْكِيتُ: التَّقْرِيع والتَّوبيخ. وَالغَلَبَةُ بالحُجَةِ: أي أَنْ تُكَلِّمَ خَصْمَكَ حَتَّى تَنْقَطِعَ حُجَّتُهُ. ولعل المعنى الثاني هو المقصود هنا، فقد ذكر المؤلف قبل ذلك أنهم إنما قالوا ما قالوا على سبيل التعجب والاستعلام، فإذا كان سؤالهم عن الحكمة، لا على وجه الاعتراض، فعَلَامَ يكون التَّقْرِيع والتَّوبيخ؟!

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٢، «وأبو السعود» ١/ ٦٩.

(ش): ذكره المؤلف هنا بصيغة التمريض « رُوِيَ» التي تشير إلى ضعف الرواية، ولم أجد في ذلك حديثًا ثابتًا عن النبي ﷺ نستدل به على هذا الأمر الغيبيّ، وما في «تفسير ابن كثير» قاله قتادة بصيغة التمريض عن ابن عباس حيث قَالَ: وَذُكِرَ لَنَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ لَمَّا أَخَذَ فِي خَلْقِ آدَمَ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: «مَا اللهُ خَالِقٌ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَّا وَلَا أَعْلَمَ مِنَّا»، فَابْتُلُوا بِخَلْقِ آدَمَ، وَكُلُّ خَلْقٍ مُبْتَلًى كَمَا ابْتُلِيَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِالطَّاعَةِ فَقَالَ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١١].

وفي «تفسير «الطبري» (١/ ٥٣٢) عن الْحَسَنِ البصري أنه قال: إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ رَأَتِ الْمَلَائِكَةُ خَلْقًا عَجِيبًا، فَكَأَنَّهُمْ دَخَلَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَأَسَرُّوا ذَلِكَ بَيْنَهُمْ، فَقَالُوا: «وَمَا يُهِمُّكُمْ مِنْ هَذَا الْمَخْلُوقِ إِنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا إِلَّا كُنَّا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ».

٢ - الأمر في قوله تعالى ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيت[١].
٣ - ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ فيه مجاز بالحذف والتقدير: فأنبأهم بها فلما أنبأهم؛ حذف لفهم المعنى.
٤ - ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ﴾ هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور، ولو لم يغلّب لقال ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ﴾ أو عرضهن.
٥ - إبراز الفعل في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ثم قال ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ للاهتمام بالخبر والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، ويسمى هذا بالإطناب.
٦ - تضمنت آخر هذه الآية من علم البديع ما يسمى بـ «الطباق» وذلك في كلمتي ﴿تُبۡدُونَ﴾ و﴿تَكۡتُمُونَ﴾.

الفوَائِد: الأولى: قال بعض العلماء: في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض، تعليمٌ لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها[٢].

الثانية: الحكمة من جعل آدم عليه السلام خليفة هي الرحمة بالعباد - لا لافتقار الله - وذلك أن العباد لا طاقة لهم على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة، ولا بواسطة مَلَك، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر.

الثالثة: قال الحافظ ابن كثير: وقول الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ الآية. يس هذا على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض؟[٣]

وقال في «التسهيل»: وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك، وقيل: كان في الأرض جن فأفسدوا، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم، فقاس الملائكة بني آدم عليهم[٤].

الرابعة: سئل الشعبي: هل لإبليس زوجة؟ قال: ذلك عرسٌ لم أشهده؟ قال: ثم قرأتُ قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة، فقلت: نعم[٥].

---

(١) أفاده أبو السعود.
(٢) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٧) تعليقًا على ما رُوِيَ عن السُّدِّي أن الله ـ اسْتَشَارَ الْمَلَائِكَةَ فِي خَلْقِ آدَمَ. قَالَ: «وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ إِنْ لَمْ تَرْجِعْ إِلَى مَعْنَى الْإِخْبَارِ فَفِيهَا تَسَاهُلٌ».
وقال الشيخ عبد العزيز الراجحي في «تفسير سورة البقرة»: «هذه الاستشارة لا محل لها هنا، ولا وجه لها، لكن يحمل على أن المراد أخبرهم».
(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٩٤٩.
(٤) «التسهيل لابن جزي» ١/ ٤٣.
(٥) «محاسن التأويل» ٢/ ١٠٤.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا
يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا
جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

المناسَبَة: أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خصّ آدم عليه السلام بالخلافة، كما خصّه بعلم غزير وقفت الملائكة عاجزة عنه، وأضافت هذه الآيات الكريمة بيان نوع آخر من التكريم أكرمه الله به ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له، وذلك من أظهر وجوه التشريف والتكريم لهذا النوع الإنساني ممثلًا في أصل البشرية آدم عليه السلام.

اللغَة: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ أصل السجود: الانحناء لمن يُسجد له والتعظيم، وهو في اللغة: التذلل والخضوع، وفي الشرع: وضع الجبهة على الأرض ﴿إِبْلِيسَ﴾ اسم للشيطان وهو أعجمي، وقيل: إنه مشتق من الإبلاس وهو الإياس ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع، والإباء: الامتناع مع التمكن من الفعل ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبار: التكبر والتعاظم في النفس ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا كثيرًا لا عناء فيه، والرغد: سعة العيش، يقال: رَغِد عيش القوم إذا كانوا في رزقٍ واسع قَالَ الشَّاعِرُ:

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا ... يَأْمَنُ الْأَحْدَاثَ فِي عَيْشٍ رَغَدْ

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أصله من الزلل وهو عثور القدم يقال: زلت قدمه أي: زلقت، ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازًا يقال: زلّ الرجل إذا أخطأ وأتى ما ليس له إتيانه، وأزله غيره: إذا سبّب له ذلك[1] ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ التلقي في الأصل: الاستقبال تقول: خرجنا نتلقى الحجيج، أي: نستقبلهم، ثم استعمل في أخذ الشيء وقبوله تقول: تلقيت رسالة من فلان، أي: أخذتها وقبلتها ﴿فَتَابَ﴾ التوبة في أصل اللغة الرجوع، وإذا عديت بـ(عن) كان معناها الرجوع عن المعصية، وإذا عديت بـ(على) كان معناها قبول التوبة.

التفسير: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك حين قلنا للملائكة ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ لآدَمَ﴾ أي سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أي سجدوا جميعًا له غير إبليس ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي امتنع مما أمر به وتكبر عنه ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي صار بإبائه واستكباره من الكافرين حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ

(١) «مختصر «الطبري»» ١/ ٤٢ .

وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أي اسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي كلا من ثمار الجنة أكلًا رغدًا واسعًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أي من أي مكان في الجنة أردتما الأكل فيه ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ أي لا تأكلا من هذه الشجرة. قال ابن عباس: هي الكرمة ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ أي أوقعهما في الزَّلَّة بسببها وأغواهما بالأكل منها هذا إذا كان الضمير عائدًا إلى الشجرة، أما إذا كان عائدًا إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحوّلهما من الجنة[1] ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أي من نعيم الجنة ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي الشيطان عدوّ لكم فكونوا أعداء له كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ أي استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه إياها فدعاه بها وهذه الكلمات مفسّرة في موطن آخر في سورة الأعراف ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ الآية[2] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أي قبل ربه توبته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي إن الله كثير القبول للتوبة، وواسع الرحمة للعباد ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ كرر الأمر بالهبوط للتأكيد ولبيان أنَّ إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ أي رسول أبعثه لكم، وكتاب أنزله عليكم ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ ﴾ أي من آمن بي وعمل بطاعتي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي جحدوا بما أنزلت وبما أرسلت ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي هم مخلدون في الجحيم. أعاذنا الله منها.

البَلَاغَة: أولًا: صيغة الجمع ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ للتعظيم، وهي معطوفة على قوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ [البقرة: ٣٠] وفيه إلتفات من الغائب إلى المتكلم لتربية المهابة وإظهار الجلالة.

ثانيًا: أفادت الفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ أنهم سارعوا في الإمتثال ولم يتثبطوا فيه، وفي الآية إيجاز بالحذف، أي: فسجدوا له وكذلك ﴿أَبَىٰ ﴾ مفعوله محذوف أي أبى السجود.

ثالثًا: قوله ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ المنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهي بالقرب منها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ لقصد المبالغة في النهي عن الأكل، إذ النهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ كقوله: تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢] فنهى عن القرب من الزنى ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه.

رابعًا: التعبير بقوله: ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات مما لو قيل: من

(١) وهذا ما ذهب إليه السيوطي والمحلي في «تفسير الجلالين»، والأول اختيار «الطبري».

(٢) (ش): وتمامها: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]

النعيم أو الجنة، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبّر عنه بلفظ مبهم نحو ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ لتذهب نفس السامع في تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه.

خامسًا: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ من صيغ المبالغة أي كثير التوبة واسع الرحمة.

الفوَائِد: الأولى: كيف يصح السجود لغير الله؟ والجواب: أن سجود الملائكة لآدم كان للتحية وكان سجود تعظيم وتكريم لا سجود صلاةٍ وعبادة، قال الزمخشري: السجود لله تعالى على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم، ويعقوب وأبناؤه ليوسف(١).

الثانية: قال بعض العارفين: سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجناية، ولا يحُط عن رتبة الولاية، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة لم تخرجه عن حظيرة القدس، ولم تسلبه رتبة الخلافة، بل أجزل الله له في العطية فقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢] وقَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ... جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعِ(٢)

الثالثة: هل كان إبليس من الملائكة؟ الجواب: اختلف المفسرون على قولين: ذهب بعضهم إلى أنه من الملائكة بدليل الاستثناء ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وقال آخرون: الاستثناء منقطع وإبليس من الجن وليس من الملائكة وإليه ذهب الحسن وقتادة واختاره الزمخشري، قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين، ونحن نرجح القول الثاني للأدلة الآتية:

١ – الملائكة منزهون عن المعصية ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] وإبليس قد عصى أمر ربه.

٢– الملائكة خلقت من نور وإبليس خلق من نار فطبيعتهما مختلفة.

٣ – الملائكة لا ذرية لهم وإبليس له ذرية ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] ؟

٤ – النص الصريح الواضح في سورة الكهف على أنه من الجن وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ﴾ [الآية: ٥٠] وكفى به حجة وبرهانًا(٣).

---

(١) «الكشاف» ١/ ٩٥ .

(٢) «البحر المحيط» ١/ ١٤١ .

(ش): كيف يُستَدَلُّ بقصة آدم على أن المعاصي لا تؤثر في الولاية؟ وقد قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] إن آدم عليه السلام قد تاب من معصيته والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. إن كلام المؤلف قد يُفهَم منه أن الولي تسقط عنه التكاليف.

(٣) انظر التحقيق المفصل في كتابنا «النبوة والأنبياء».

قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ
بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا
تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ
ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

المناسَبَة: من بداية هذه الآية إلى الآية (١٤٢) ورد الكلام عن بني إسرائيل، وقد تحدث القرآن الكريم بالإسهاب عنهم فيما يقرب من جزءٍ كامل، وذلك يدل على عناية القرآن بكشف حقائق اليهود، وإظهار ما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من خبثٍ وكيد وتدمير حتى يحذرهم المسلمون، أما وجه المناسبة فإن الله تعالى لما دعا البشر إلى عبادته وتوحيده، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده، ثم ذكّرهم بما أنعم به على أبيهم آدم عليه السلام، دعا بني إسرائيل خصوصًا - وهم اليهود - إلى الإيمان بخاتم الرسل وتصديقه فيما جاء به عن الله، لأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، وقد تفنّن في مخاطبتهم فتارة دعاهم بالملاطفة، وتارة بالتخويف، وتارة بالتذكير بالنعم عليهم وعلى آبائهم، وأخرى بإقامة الحجة والتوبيخ على سوء أعمالهم وهكذا انتقل من التذكير بالنعم العامة على البشرية في تكريم أبي الإنسانية، إلى التذكير بالنعم الخاصة على بني إسرائيل.

اللغَة: اسم أعجمي ومعناه: عبد الله وهو اسم ﴿يَعۡقُوبَ﴾ عليه السلام، وقد صرَّح به في سورة آل عمران ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣] الآية ﴿وَأَوۡفُواْ﴾ الوفاء: الإتيان بالشيء على التمام والكمال، يقال أوفى ووفّى أي أداه وافيًا تامًّا. ﴿تَلۡبِسُواْ﴾ اللَّبْس: الخلط تقول العرب: لبَسْتُ الشيء بالشيء خلطته، والتبس به إختلطَ، قال تعالى ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] وفي «المصباح»: لَبِسَ الثوب من باب تعب لُبسًا بضم اللام، ولَبَسْتُ عليه الأمر لَبْسًا من باب ضرب خلطته، والتبس الأمر: أشكل. ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مشتقة من زكاه الزرع يزكو أي: نما لأن إخراجها يجلب البركة، أي هي من الزكاة أي الطهارة لأنها تطهر المال قال تعالى ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٦].

التفسير: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي يا أولاد النبي الصالح يعقوب ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ أي أدّوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي اخشوني دون غيري ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ من القرآن العظيم ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ أي من التوراة في أمور التوحيد والنبوة ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أي أول من كفر من أهل الكتاب فحقكم أن تكونوا أول من آمن ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ أي لا تستبدلوا

بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي خافون دون غيري ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي ولا تخفوا ما في كتابكم من أوصاف محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق أو حال كونكم عالمين بضرر الكتمان ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي أدوا ما وجب عليكم من الصلاة والزكاة، وصلوا مع المصلين بالجماعة، أو مع أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام.

البَلَاغَة: أولًا: في إضافة النعمة إليه سبحانه ﴿نِعْمَتِىَ﴾ إشارة إلى عظم قدرها، وسعة برّها، وحسن موقعها لأن الإضافة تفيد التشريف كقوله: «بيتُ الله» و ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ثانيًا: قوله ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى﴾ الشراء هنا ليس حقيقيًّا بل هو على سبيل الاستعارة كما تقدم في قوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦].

ثالثًا: تكرير الحق في قوله: ﴿تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ وقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ لزيادة تقبيح المنهي عنه إذ في التصريح ما ليس في الضمير من التأكيد ويسمى هذا الإطناب أضعف من سواه.

رابعًا: قوله ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ هو من باب تسمية الكل باسم الجزء، أي: صلوا مع المصلين أطلق الركوع وأراد به الصلاة ففيه مجاز مرسل.

خامسًا: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ و ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ يفيد الاختصاص.

فَائِدَة: قال بعض العارفين: عبيد النّعم كثيرون، وعبيد المُنْعِم قليلون، فالله تعالى ذكّر بني إسرائيل بنعمه عليهم، حتى يعرفوا نعمة المنعم فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ وأما أمة محمد ﷺ فقد ذكّرهم بالمُنعِم فقال ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ليتعرفوا من المنعم على النعمة وشتان بين الأمرين.

قال الله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

اللغَة: ﴿بِٱلْبِرِّ﴾ البرُّ: سعة الخير والمعروف، ومنه البرُّ والبريَّة للسعة، وهو اسم جامع لأعمال الخير، ومنه بر الوالدين وهو طاعتهما وفي الحديث «البرُّ لا يبلى والذنب لا ينسى»(١) ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ : تتركون والنسيان يأتي بمعنى الترك كقوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وهو المراد هنا ويأتي بمعنى ذهاب الشيء من الذاكرة كقوله: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]

(١) (ش): أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩) وابن الجوزي في «ذم الهوى» وضعفه الألباني.

﴿تَتْلُونَ﴾ : تقرءون وتدرسون ﴿الْخَاشِعِينَ﴾ الخاشع: المتواضع وأصله من الاستكانة والذل قال الزجاج: الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه، وخشعت الأصوات: سكنت[١] ﴿يَظُنُّونَ﴾ الظنُّ هنا بمعنى اليقين لا الشك، وهو من الأضداد قال أبو عُبيدة: العرب تقول لليقين ظنٌّ[٢]، وللشك ظن وقد كثر استعمال الظن بمعنى اليقين ومنه ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، ﴿شَفَاعَةٌ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع ضد الوتر، وهي ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ولهذا سميت شفاعة، فهي إِذًا إظهارٌ لمنزلة الشفيع عند المشفّع ﴿عَدْلٌ﴾ بفتح العين فداء وبكسرها معناه: المِثْل يقال: عِدْل وعديل للذي يماثلك.

المنَاسَبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن بني إِسرائيل، وفي هذه الآيات ذمٌّ وتوبيخ لهم على سوء صنيعهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون الناس إِلى الهدى والرشاد ولا يتبعونه.

سَبَبُ النّزول: نزلت هذه الآية في بعض علماء اليهود، كانوا يقولون لأقربائهم الذين أسلموا: اثبتوا على دين محمد فإِنه حق، فكانوا يأمرون الناس بالإِيمان ولا يفعلونه[٣].

التفسير: يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي أتدعون الناس إِلى الخير وإِلى الإِيمان بمحمد ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تتركونها فلا تؤمنون ولا تفعلون الخير ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي حال كونكم تقرءون التوراة وفيها صفة ونعت محمد عليه الصلاة والسلام ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تفطنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؟! ثم بيَّن لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ أي اطلبوا المعونة على أموركم كلها ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي بتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية، وبالصلاة التي هي عماد الدين ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي شاقةٌ وثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي يعتقدون اعتقادًا جازمًا لا يخالجه شك ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي سيلقون ربهم يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي معادهم إِليه يوم الدين. ثم ذكّرهم تعالى بنعمه وآلائه العديدة مرة أخرى فقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ أي فضلت آباءكم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم بإِرسال الرسل، وإِنزال الكتب، وجعلهم سادة وملوكًا،

---

(١) «القرطبي» ١/ ٣٧٤ .

(٢) «مجاز القرآن» ص ٣٩ .

(٣) الصاوي ١/ ٢٦ و«القرطبي» ١/ ٣٦٥ . (ش): موضوع ذكره الواحدي -معلقًا- في «أسباب النزول».

وتفضيل الآباء شرفٌ للأبناء ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تقضي فيه نفسٌ عن أخرى شيئًا من الحقوق ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ أي لا تقبل شفاعة في نفس كافرة بالله أبدًا ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله.

البلاغة: أولًا: ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾ الاستفهام خرج عن حقيقته إلى معنى التوبيخ والتقريع.

ثانيًا: أتى بالمضارع ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾ وإن كان قد وقع ذلك منهم لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والحدوث، وعبّر عن ترك فعلهم بالنسيان ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ مبالغة في الترك فكأنه لا يجري لهم على بال، وعلقه بالأنفس توكيدًا للمبالغة في الغفلة المفرطة، ولا يخفى ما في الجملة الحالية ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من التبكيت والتقريع والتوبيخ.

ثالثًا: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لبيان الكمال، لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور، فلما قال ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٠] عمَّ جميع النعم فلما عطف ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ﴾ كان من باب عطف الخاص على العام.

رابعًا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ التنكير للتهويل أي يومًا شديد الهول، وتنكير النفس ﴿نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ﴾ ليفيد العموم والإقناط الكلي.

الفوَائِدَ: الفائدة الأولى: قال «القرطبي»: إنما خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهًا بذكرها وقد كان عليه الصلاة والسلام إِذَا حَزَبَهُ (أغمّه) أمرٌ فَزِع إلى الصلاة[1]، وكان يقول: «أرحنا بها يا بلال»[2].

الثانية: قال علي كرم الله وجهه: «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك» ومن دعا غيره إلى الهدى ولم يعمل به كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه قَالَ الشَّاعِرُ:

فَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى ... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وقال أبو العتاهية:

وَصَفْتَ التُّقَى حَتَّى كَأَنَّكَ ذُو تُقَى ... وَرِيحُ الْخَطَايَا مِن ثِيَابِكَ تَسْطَعُ

وقال آخر:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى ... طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهْوَ عَلِيلُ

---

(١) (ش): عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى (رواه أبو داود وحسنه الألباني).

(٢) (ش): عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ قَالَ رَجُلٌ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا بِلاَلُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا». (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

المناسَبَة: لما قدّم تعالى ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالًا، بيَّن بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل؛ ليكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى الشكر، فكأنه قال: اذكروا نعمتي، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، واذكروا إذ فرقنا بكم البحر. . إلى آخره. وكل هذه النعم تستدعي شكر المنعم جل وعلا لا كفرانه وعصيانه.

اللغة: ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أصل «آل» أهل ولذلك يصغر بأهيل فأبدلت هاؤه ألفًا، وخُصَّ استعماله بأولي الخَطَر والشأن كالملوك وأشباههم، فلا يقال آل الإسكاف والحجام، ﴿فِرْعَوْنَ﴾ علمٌ لمن ملك العمالقة كقيصر لملك الروم وكسرى ملك الفرس[1]، ولِعُتُوِّ الفراعنة اشتقوا (تَفَرْعَنَ) إذا عتا وتجبر[2] ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يذيقونكم من سامه إذا أذاقه وأولاه قال «الطبري»: يوردونكم ويذيقونكم. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يستبقون الإناث على قيد الحياة ﴿بَلَاءٌ﴾ اختبار ومحنة، ويستعمل في الخير والشر كما قال تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] ﴿فَرَقْنَا﴾ الفرق: الفصل والتمييز ومنه ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي فصلناه وميزناه بالبيان ﴿بَارِئِكُمْ﴾ الباري هو الخالق للشيء على غير مثال سابق، والبرية: الخلق.

التفسير: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم حين نجيت آباءكم ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي من بطش فرعون وأشياعه العتاة، والخطاب للأبناء المعاصرين للنبي ﷺ إلا أن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يولونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأفظعه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء، محنة واختبارٌ عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم

---

(١) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٥٨): «وَفِرْعَوْنُ عَلَمٌ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ، كَافِرًا مِنَ الْعَمَالِيقِ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا أَنَّ قَيْصَرَ عَلَمٌ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ الرُّومَ مَعَ الشَّامِ كَافِرًا، وَكِسْرَى لِكُلِّ مَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ، وتُبَّع لِمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ كَافِرًا، وَالنَّجَاشِيُّ لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ».

(٢) «الكشاف» ١/ ١٠٢.

عليكم ليتميز البرُّ من الفاجر ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ أي اذكروا أيضًا إذ فلقنا لكم البحر حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي أنجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي وأنتم تشاهدون ذلك فقد كان آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أي وعدنا موسى أن نعطيه التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي عبدتم العجل ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد غيبته عنكم حين ذهب لميقات ربه ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾ أي تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعد ذلك الاتخاذ المتناهي في القبح ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا نعمة الله عليكم وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ ﴾ أي واذكروا نعمتي أيضًا حين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وأيدته بالمعجزات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام.

ثم بيَّنَ تعالى كيفية وقوع العفو المذكور بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ أي واذكروا حين قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد عبدوا العجل يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي بعبادتكم للعجل ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي توبوا إلى مَن خَلَقَكم بريئًا[1] من العيب والنقصان[2] ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي ليقتل البريءُ منكم المجرم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي القتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي قبل توبتكم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي عظيم المغفرة واسع التوبة.

البَلَاغَة: أولًا: قال ابن جزي: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يلزمونهم به وهو استعارة من السَّوْم في البيع وفسَّر سوء العذاب بقوله ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ولذلك لم يعطفه هنا.

ثانيًا: التنكير في كل من ﴿بَلَآءٌ﴾ و ﴿عَظِيمٌ﴾ للتفخيم والتهويل.

ثالثًا: صيغة المفاعلة في قوله ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا﴾ ليست على بابها لأنها لا تفيد المشاركة من الطرفين، وإنما هي بمعنى الثلاثي ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا﴾ .

رابعًا: قال أبو السعود: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ التعرض بذكر البارئ للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية منتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم، الذي خلقهم بلطيف حكمته، إلى عبادة البقر الذي هو مثلٌ في الغباوة[3].

---

(١) (ش): الصواب «بَريئين» أو بُرَآء.

(٢) (ش): الخالق مَن يُوجد الشيء على غير مثال سابق، والبارئ من يوجد الشيء بريئًا من العيب.

(٣) أبو السعود ١/ ٨١ .

الفوَائِد: الأولى: العطف في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ هو من باب عطف الصفات بعضها على بعض، لأن الكتاب هو التوراة والفرقان هو التوراة أيضًا، وحسن العطف لكون معناه أنه آتاه جامعًا بين كونه كتابًا منزلًا وفرقانًا يفرق بين الحق والباطل(١).

الثانية: سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل ما رواه المفسرون أن فرعون رأى في منامه كأنَّ نارًا أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر، وأحرقت كل قبطي بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا: يولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكك وزوال ملكك على يده، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل.

الثالثة: قال القشيري: من صبر في الله على قضاء الله، عوّضه الله صحبة أوليائه، هؤلاء بنو إسرائيل، صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه، فجعل منهم أنبياء، وجعل منهم ملوكًا، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين(٢).

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

المنَاسَبَة: بعد أن ذكّرهم تعالى بالنعم، بيَّن لونًا من ألوان طغيانهم وجحودهم، وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يعاملون باللطف والإحسان، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم! قال «الطبري»: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالًا يعتذرون إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين رجلًا من خيارهم كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقال لهم: صوموا وتطهروا وطهّروا ثيابكم ففعلوا، وخرج بهم إلى «طور سيناء» فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ (٣).

---

(١) قاله الزجاج واختاره الزمخشري.
(٢) «البحر المحيط» ١/ ١٩٤ .
(٣) انظر «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٦ .

اللغَة: ﴿جَهۡرَةً﴾ علانية، وأصل الجهر: الظهور، ومن؛ الجهر بالقراءة والجهر بالمعاصي يعني المظاهرة بها، تقول: رأيت الأمير جهارًا وجهرة أي غير مستتر بشيء، وقال ابن عباس: جهرةً عيانًا. ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ صيحة العذاب أو هي نار محرقة ﴿بَعَثۡنَٰكُم﴾ أحييناكم. قال «الطبري»: وأصل البعث: إثارة الشيء من محله ﴿ٱلۡغَمَامَ﴾ جمع غمامة كسحابة وسحاب وزنًا ومعنى، لأنها تغم السماء أي تسترها، وكل مغطّى فهو مغموم، وغُمَّ الهلال: إذا غطّاه الغيم فلم ير ﴿حِطَّةٌ﴾: مصدر من حطَّ عنا ذنوبنا[١]، وهي كلمة استغفار ومعناها: اغفر خطايانا. ﴿رِجۡزًا﴾ عذابًا ومنه ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] أي: العذاب! ﴿يَفۡسُقُونَ﴾ الفسق: الخروج عن الطاعة وقد تقدم.

التفسير: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل فقلتم ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدّق لك بأنَّ ما نسمعه كلام الله ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ أي: حتى نرى الله علانية ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي أرسل الله عليهم نارًا من السماء فأحرقهم ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ أي ما حلّ بكم. ثم لما ماتوا قام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم، وما زال يدعو ربه حتى أحياهم قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ أي أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يومًا وليلة، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت.

ثم ذكّرهم تعالى بنعمته عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم وقالوا لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤] فعُوقبُوا على ذلك بالضياع أربعين سنة يتيهون في الأرض فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ أي سترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظُلّة ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ أي أنعمنا عليكم بأنواع من الطعام والشراب من غير كدٍّ ولا تعب، والمنُّ كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه[٢]، والسلوى طير يشبه السُّمَانَى لذيذ الطعم[٣] ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي وقلنا لهم: كلوا من لذائذ نعم الله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي إنهم كفروا هذه النعم الجليلة، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ أي واذكروا أيضًا نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه، ادخلوا بيت المقدس ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدًا﴾ أي كلوا منها أكلًا واسعًا هنيئًا ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ

---

(١) «مجاز القرآن» ١/ ٤١ .
(٢) هو قول الربيع بن أنس.
(٣) قول جمهور المفسرين.

سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكرًا على خلاصكم من التيه ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي قولوا يا ربنا: حطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي نمح ذنوبكم ونكفّر سيئاتكم ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي نزيد من أحسن إحسانًا، بالثواب العظيم، والأجر الجزيل. ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي غيَّر الظالمون أمر الله فقالوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ حيث دخلوا يزحفون على أستاههم أعني «أدبارهم» وقالوا على سبيل الاستهزاء: «حبة في شعيرة» وسخروا من أوامر الله ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أنزلنا عليهم طاعونًا وبلاءً ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله، روي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفًا.

البَلاغَة: أولًا: إنما قيَّد البعث بعد الموت ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي، ولدفع ما عساه يتوهم أن بعثهم كان بعد إغماء أو بعد نوم.

ثانيًا: في الآية إيجاز بالحذف في قوله: ﴿كُلُواْ﴾ أي قلنا لهم كلوا وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ تقديره فظلموا أنفسهم بأن كفروا وما ظلمونا بذلك دل على هذا الحذف قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع ﴿ظَلَمُونَا﴾ و ﴿يَظْلِمُونَ﴾ للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر[1].

ثالثًا: وضع الظاهر مكان الضمير في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولم يقل «فأنزلنا عليهم» لزيادة التقبيح والمبالغة في الذم والتقريع، وتنكير ﴿رِجْزًا﴾ للتهويل والتفخيم[2].

تنبيه: قال الراغب: تخصيص قوله ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو أن العذاب ضَرْبان[3]: ضَرْبٌ قد يمكن دفاعه وهو كل عذاب جاء على يد آدمي، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق، وضَربٌ لا يمكن دفاعه بقوة آدمي كالطاعون والصاعقة والموت وهو المراد بقوله: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[4].

قال الله تعالى:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا

(١) «الفتوحات الإلهية» ١/ ٥٧.
(٢) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٨٣.
(٣) (ش): ضَرْبٌ: نوع.
(٤) «محاسن التأويل» ٢/ ١٣٥.

سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

المناسَبَة: لا تزال الآيات تعدّد النعم على بني إسرائيل، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه، وعطشوا عطشًا شديدًا كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة فجرى لكل منهم جدول خاص، يأخذون منه حاجتهم لا يشاركهم فيه غيرهم، وكان موضوع السقيا آية باهرة ومعجزة ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام ومع ذلك كفروا وجحدوا.

اللغَة: ﴿اسْتَسْقَىٰ﴾ طلب السقيا لقومه لأن السين للطلب مثل: استنصر واستخبر قال أبو حيان: الإستسقاء: طلب الماء عند عدمه أو قلته، ومفعوله محذوف، أي: استسقى موسى ربّه[1]. ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ الانفجار: الانشقاق ومنه سمي الفجر لانشقاق ضوئه، وانفجر وانبجس بمعنى واحد قال تعالى: ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ جهة وموضع الشرب ﴿تَعْثَوْا﴾ العيث: شدة الفساد، قال: عَثِيَ يعثَى: وعثَا يعثو إذا أفسد فهو عاثٍ[2]، قال «الطبري»: معناه تطغوا وأصله شدة الإفساد ﴿وَفُومِهَا﴾ الفوم: الثوم وقيل: الحنطة ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ الاستبدال: ترك شيء لآخر وأخذ غيره مكانه ﴿أَدْنَىٰ﴾ أخسَّ وأحقر يقال: رجل دنيء إذا كان يتتبع الخسائس ﴿الذِّلَّةُ﴾ الذل والهوان والحقارة ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ الفاقة[3] والخشوع مأخوذة من السكون لأن المسكين قليل الحركة لما به من الفقر ﴿وَبَاءُو﴾ رجعوا وانصرفوا قال الرازي: ولا يقال: باء إلا بشرّ ﴿يَعْتَدُونَ﴾ الاعتداء: تجاوز الحد في كل شيء واشتهر في الظلم والمعاصي.

التفسير: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي اضرب أيّ حجر كان؛ يتفجر بقدرتنا العيون منه ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي فضرب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عينًا بقدر قبائلهم ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أي قلنا لهم: كلوا من المنّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء، من غير كدّ منكم ولا تعب، بل هو من خالص إنعام الله ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

(١) «البحر المحيط» ١/ ٢٢٦.
(٢) كذا في «المصباح».
(٣) (ش): فاقة: فَقْر؛ حاجة؛ ضيق الحال.

﴿مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المن والسلوى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ أي على نوع واحدٍ من الطعام وهو المنُّ والسلوى ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمنا المنَّ والسلوى وكرهناه ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ من خضرتها كالنَّعْناع والكَرَفْس والكُرَّاث ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ يعني القثَّة التي تشبه الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ أي الثوم ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ أي العدس والبصل المعروفين ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي قال لهم موسى منكرًا عليهم: ويحكم أتستبدلون الخسيس بالنفيس! وتفضلون البصل والبقل والثوم على المنّ والسلوى؟ ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي ادخلوا مصرًا من الأمصار وبلدًا من البلدان أيًّا كان لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء. ثم قال تعالى منبهًا على ضلالهم وفسادهم وبغيهم وعدوانهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي لزمهم الذل والهوان وضرب عليهم الصَّغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما نالوه من الذل والهوان والسخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بسبب كفرهم بآيات الله جحودًا واستكبارًا، وقتلهم رسل الله ظلمًا وعدوانًا ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي بسبب عصيانهم وطغيانهم وتمردهم على أحكام الله. ثمَّ دعا تعالى أصحاب الملل والنحل «المؤمنين، واليهود، والنصارى، والصابئين» إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله وساقه بصيغة الخبر فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ المؤمنون أتباع محمد ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ اليهود أتباع موسى ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ أتباع عيسى ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي من آمن من هذه الطوائف إيمانًا صادقًا فصدَّق بالله، وأيقن بالآخرة ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي عمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في الآخرة، حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب[1].

البَلَاغَة: أولًا: في إضافة الرزق إلى الله تعالى ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ تعظيمٌ للمنَّة والإنعام وإيماء إلى أنه رزقٌ من غير تعب ولا مشقة.

---

(١) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٨٤): «نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَأَطَاعَ، فَإِنَّ لَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ كُلّ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ فَلَهُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا يَتْرُكُونَهُ وَيُخَلِّفُونَهُ».

ثانيًا: في التصريح بذكر الأرض ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ مبالغةٌ في تقبيح الفساد وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مؤكدة، ووجه فصاحة هذا الأسلوب أن المتكلم قد تشتد عنايته بأن يجعل الأمر أو النهي لا يحوم حوله لبسٌ أو شك، ومن مظاهر هذه العناية التوكيد فقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يكسو النهي عن الفساد قوة، ويجعله بعيدًا من أن يُغفل عنه أو يُنسى.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ المنبت الحقيقي هو الله سبحانه ففيه مجاز يسمى (المجاز العقلي) وعلاقته السببية لأن الأرض لما كانت سببًا للنبات أُسند إليها.

رابعًا: قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ كناية[1] عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبَّة بمن ضربت عليه كما قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالـمُـرُوءَةَ وَالنَّـدَى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ[2]

خامسًا: تقييد قتل الأنبياء بقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع أن قتلهم لا يكون بحق البتَّة إنما هو لزيادة التشنيع بقبح عدوانه.

الفوَائِد: الأولى: حكى المفسرون أقوالًا كثيرة في الحجر الذي ضربه موسى فجرت منه العيون ما هو؟ وكيف وصفه؟ وقد ضربنا صفحًا عن هذه الأقوال والذي يكفي في فهم معنى الآية أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه «المعجزة» وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم الذي ليس من شأنه الانفجار بالماء، وهنا تكون المعجزة أوضح، والبرهان أسطع. قال الحسن البصري: لم يأمره أن يضرب حجرًا بعينه قال: وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة[3].

الثانية: فإن قيل ما الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عينًا؟ فالجواب: أن قوم موسى كانوا كثيرين وكانوا في الصحراء، والناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع، فأكمل الله هذه النعمة بأن عيّن لكل سبط منهم ماءً معينًا على عددهم لأنهم كانوا اثني عشر سبطًا، وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر والله أعلم.

الثالثة: ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفوم في قوله ﴿وَفُومِهَا﴾ الحنطة والأرجح أن المراد به الثوم بدليل قراءة ابن مسعود ﴿وثومها﴾[4] وبدليل اقتران البصل بعده. قال الفخر الرازي: الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة، واستدل «القرطبي» على ذلك بقول حسان:

---

(١) تسمى الاستعارة بالكناية كما نبّه على ذلك أبو السعود.

(٢) (ش): لم يصرح بثبوت هذه الصفات المذكورة لابن الحشرج بل كنى عن ذلك في قبة مضروبة عليه فأفاد إثباتها له. والقُبَّة: خيمة صغيرة أعلاها مستدير.

(٣) «الكشاف» ١/ ١٠٧.

(٤) (ش): قراءة ابن مسعود ﴿وثومها﴾. أخرجها سعيد بن منصور في سننه (١٩١ – التفسير) وابن أبي داود في المصاحف ص ٥٤ بأسانيد ضعيفة.

وَأَنْـتُـمْ أُنَـاسٌ لِـئَـامُ الْأُصُـولِ طَـعَـامُـكُـمُ الْـفُـومُ وَالْـحَـوْقَـلُ

يَعْنِي الثُّومَ وَالْبَصَلَ (١).

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾

المناسَبَة: لمّا ذكرهم تعالى بالنعم الجليلة العظيمة، أردف ذلك ببيان ما حلَّ بهم من نقم، جزاء كفرهم وعصيانهم وتمردهم على أوامر الله، فقد كفروا النعمة، ونقضوا الميثاق، واعتدوا في السبت فمسخهم الله إلى قردة، وهكذا شأن كل أمةٍ عتت عن أمر ربها وعصت رسله.

اللغَة: ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ الميثاق: العهد المؤكد بيمين ونحوه، والمراد به هنا العمل بأحكام التوراة ﴿الطور﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بحزم وعزم ﴿تَوَلَّيْتُم﴾ التولي: الإعراض عن الشيء والإدبار عنه ﴿خَاسِئِينَ﴾ جمع خاسئ وهو الذليل المهين قال أهل اللغة: الخاسئ: الصاغر المبعد المطرود كالكلب إذا دنا من الناس قيل له: اخسأ أي تباعد وانطرد صاغرًا. ﴿نَكَالًا﴾ النكال: العقوبة الشديدة الزاجرة ولا يقال لكل عقوبة نكالٌ حتى تكون زاجرة رادعة.

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي اعملوا بما في التوراة بجد وعزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أعرضتم عن الميثاق بعد أخذه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي بقبول التوبة ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بالعفو عن الزَّلَّة ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي عرفتم ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي مسخناهم قردة بعد أن كانوا بشرًا مع الذلة والإهانة ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسخة ﴿نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعاينها وعبرة لمن جاء بعدها

---

(١) «القرطبي» ١/ ٤٢٥ .

ولم يشاهدها[١] ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي عظةً وذكرى لكل عبدٍ صالح متّقٍ لله سبحانه وتعالى.

البَلَاغَة: أولًا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ فيه إِيجاز بالحذف أي قلنا لهم خذوا فهو كما قال الزمخشري على إرادة القول.

ثانيًا: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ خرج الأمر عن حقيقته إِلى معنى الإِهانة والتحقير، وقال بعض المفسرين: هذا أمر تسخيرٍ وتكوين، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنَقْلهم من حقيقة البشرية إِلى حقيقة القردة[٢].

ثالثًا: ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا﴾ كناية عمن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر.

الفوَائِد: الأولى: قال القفال: إنما قال ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾ ولم يقل «مواثيقكم» لأنه أراد ميثاق كل واحدٍ منكم كقوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: ٦٧] أي يخرج كل واحدٍ منكم طفلًا[٣].

الثانية: قال بعض أهل اللطائف: كانت نفوس بني إِسرائيل من ظلمات عصيانها تخبط في عشواء حالكة الجلباب، وتخطر من غلوائها وعلوّها في حلتي كبر وإِعجاب، فلما أُمروا بأخذ التوراة ورأوا ما فيها من أثقال ثارت نفوسهم فرفع الله عليهم الجبَل فوجدوه أثقل مما كلِّفوه، فهان عليهم حمل التوراة قَالَ الشَّاعِرُ:

إِلَى اللهِ يُدْعَى بِالْبَرَاهِينِ مَنْ أَبَى ... فَإِنْ لَمْ يُجِبْ نَادَتْهُ بِيضُ الصَّوَارِمِ[٤]

الثالثة: إنما خصَّ المتقين بإِضافة الموعظة إِليهم ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) (ش): قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا﴾ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم. ﴿وَمَا خَلۡفَهَا﴾ أي: مَن بعدهم.
ورجَّح الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٩٢-٢٩٣) أن الْمُرَادُ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا فِي الْمَكَانِ، أي لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِنَ الْقُرَى وَمَا خَلْفَهَا مِنَ الْقُرَى. وَرَدَّ على من يَقُولُونَ: الْمُرَادُ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا فِي الزَّمَانِ، بأن هَذَا مُسْتَقِيمٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ تِلْكَ الْقَرْيَةِ عِبْرَةً لَهُمْ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ سَلَفَ قَبْلَهُمْ مِنَ النَّاسِ فَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا الْكَلَامُ أَنْ تُفَسَّرَ الْآيَةُ بِهِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ سَبَقَهُمْ؟ هَذَا لَعَلَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لَا يَقُولُهُ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا فِي الْمَكَانِ، وَهُوَ مَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى.
وقال: «وَأَرْجَحُ الْأَقْوَالِ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا: مَنْ بِحَضْرَتِهَا مِنَ الْقُرَى الَّتِي يَبْلُغُهُمْ خَبَرُهَا، وَمَا حَلَّ بِهَا، فَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِمَنْ فِي زَمَانِهِمْ، وَعِبْرَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾».

(٢) «الفتوحات الإلهية» ١/ ٦٣.

(٣) «البحر المحيط» ١/ ٢٤٣.

(٤) «البحر المحيط» ١/ ٢٤٥.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ
مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ
بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ
لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ
وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى بعض قبائح اليهود وجرائمهم، من نقض المواثيق، واعتدائهم في السبت، وتمردهم على الله عَزَّ وَجَلَّ في تطبيق شريعته المنزلة، أعقبه بذكر نوع آخر من مساويهم ألا وهو مخالفتهم للأنبياء وتكذيبهم لهم، وعدم مسارعتهم لامتثال الأوامر التي يوحيها الله إليهم، ثم كثرة اللجاج والعناد للرسل صلوات الله عليهم، وجفاؤهم في مخاطبة نبيهم الكريم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى آخر ما هنالك من قبائح ومساوي.

اللغة: ﴿هُزُوًا﴾ الهزؤ: السخرية بضم الزاي وقلب الهمزة واوًا ﴿هُزُوًا﴾ مثل ﴿كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] والمعنى على حذف مضاف أي أتخذنا موضع هزؤ، أو يحمل المصدر على معنى اسم المفعول أي أتجعلنا مهزوءًا بنا ﴿فَارِضٌ﴾ الفارض: الفتية التي لم تلد من الصغر ولم يلقحها الفحل لصغرها قال الشاعر:

لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْطَيْتَ ضَيْفَكَ فَارِضًا ... تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِ
وَلَمْ تُعْطِهِ بِكْرًا فَيَرْضَى سَمِينَهُ ... فَكَيْفَ تُجَازَى بِالْمَوَدَّةِ وَالْفَضْلِ(١)

﴿عَوَانٌۢ﴾ وسط ليست بمُسِنَّة ولا صغيرة، وقيل: هي التي ولدت بطنًا أو بطنين، ﴿فَاقِعٌ﴾ الفقوع: شدة الصفرة يقال: أصفر فاقع، أي: شديد الصفرة كما يقال: أحمر قانٍ أي شديد الحمرة قال «الطبري»: وهو نظير النصوع في البياض ﴿ذَلُولٌ﴾ أي مذللة للعمل يقال: دابة ذلول أي ريّضة

---

(١) (ش): الْبِكْرُ: الصَّغِيرَةُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ مِنَ الصِّغَرِ. وَقِيلَ: الَّتِي وَلَدَتْ وَلَدًا وَاحِدًا.
(لَعَمْرِي): كلام أهل العلم أن هذه الكلمة ليست يمينًا، بل تُذكَر لتأكيد مضمون الكلام فقط؛ لأنها أقوى من سائر المؤكِّدات، وأسْلَمُ من التأكيد بالقسم بالله لوجوب البر به. [انظر: المدونة الكبرى رواية الإمام سحنون ابن سعيد التنوخي عن عبد الرحمن بن القاسم وغيره عن الإمام مالك (٢/ ٣٣٨)].

زالت صعوبتها فقوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ أي لم تذلّل لإثارة الأرض، أي: لحرثها ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من السلامة، أي: خالصة ومبرأة من العيوب ﴿شِيَةَ﴾ الشِّية: اللمعة المخالفة لبقية اللون الأصلي قال «الطبري»: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي لا بياض ولا سواد يخالف لونها ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾ أي تدافعتم واختلفتم وتنازعتم وأصلها تدارأتم أدغمت التاء في الدال، وأُتي بهمزة الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالسكن فصار أدّارأتم، ومعنى الدرء: الدفع لأن كلًّا من الفريقين كان يدرأ على الآخر أي يدفع، وفي الحديث «ادرءوا الحدود بالشبهات»(١) ﴿قَسَتْ﴾ القسوة: الصلابة ونقيضها الرقة ﴿يَشَّقَّقُ﴾ التشقق: التصدع بطولٍ أو عرض ﴿يَهْبِطُ﴾ الهبوط: النزول من أعلى إلى أسفل(٢).

«معجزة إحياء الميت وقصة البقرة»

ذكر القصة: روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال: «كان رجل من بني إسرائيل عقيمًا لا يولد له وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلًا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنُّهى: علام يقتل بعضنا بعضًا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قال: ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شدّدوا فشدَّد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبًا، فاشتروها بملء جلدها ذهبًا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ قال: هذا وأشار إلى ابن أخيه ثم مال ميتًا، فلم يعط من ماله شيئًا فلم يورث قاتل بعد»(٣).

وفي رواية «فأخذوا الغلام فقتلوه».

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي فكان جوابكم الوقح لنبيكم أن قلتم: أتهزأ بنا يا موسى ﴿قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين﴾ أي ألتجئ إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي ما هذه البقرة وأي شيء صفتها؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشدّدوا فيشدّد الله عليكم ﴿قَالُواْ ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أي ما لونها أبيض أم أسود أم غير ذلك؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ الناظرين﴾ أي إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة، حسن منظرها تسر كل

---

(١) (ش): رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، وضعفه الألباني.

(٢) «مختصر «الطبري» ١/ ٤٧ .

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٧٦.

من رآها. ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سنها ولونها ليزدادوا بيانًا لوصفها، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عوانًا وبالصفرة الفاقعة كثيرٌ ﴿إِنَّ البقر تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ الله لَمُهْتَدُونَ﴾ أي سنتهدي إلى معرفتها إن شاء الله، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها أبدًا كما ثبت في الحديث[1] ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض، ولا لسقاية الزرع ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي سليمة من العيوب ليس فيها لونٌ آخر يخالف لونها فهي صفراء كلها ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي الآن بينتها لنا بيانًا شافيًا لا غموض فيه ولا لبس. قال تعالى إخبارًا عنهم ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة، وعما شهدوه من آيات الله الباهرة، فقال ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفسًا ﴿فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم بشأنها، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر ما تخفونه ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا القتيل بشيء من البقرة يحيا ويخبركم عن قاتله ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي كما أحيا هذا القتيل أمام أبصاركم يحيي الموتى من قبورهم ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي يريكم دلائل قدرته لتتفكروا وتتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير.

ثم أخبر تعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ أي صلبت قلوبكم يا معشر اليهود فلا يؤثر فيها وعظٌ ولا تذكير ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد رؤية المعجزات الباهرة ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي تتدفق منها الأنهار الغزيرة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ أي من الحجارة ما يتصدع إشفاقًا من عظمة الله فينبع منه الماء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي ومنها ما يتفتت ويتردّى من رءوس الجبال من خشية الله، فالحجارة تلين وتخشع وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي إنه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية، وسيجازيهم عليها يوم القيامة، وفي هذا وعيد تهديد.

البَلاغَة: أولًا: قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ من إيجاز القرآن أن حذف من صدر هذه الجملة جملتين مفهومتين من نظم الكلام والتقدير: فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وحصلوها، فلما اهتدوا إليها ذبحوها وهذا من الإيجاز بالحذف.

---

(١) (ش): الحديث لم يثبت.

رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْلَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لَمَا أُعْطُوا، وَلَكِنِ اسْتَثْنَوْا» (رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ٢٢٣)، وضعفه الألباني). والاسثناء: قَوْلُ إِن شَاءَ اللهُ.

ثانيًا: قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ هذه الجملة اعتراضية بين قوله: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾ وقوله: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ﴾ والجملة المعترضة بين ما شأنهما الاتصال تجيء تحلية يزداد بها الكلام البليغ حسنًا، وفائدة الاعتراض هنا إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي لا محالة.

ثالثًا: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾ وصف القلوب بالصلابة والغلظ يراد منه نبُوُّها عن الاعتبار، وعدم تأثرها بالمواعظ ففيه استعارة تصريحية قال أبو السعود: القسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لِنُبُوِّ قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تميع منها الجبال وتلين بها الصخور[١].

رابعًا: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾ فيه تشبيه يسمى (مرسلًا مجملًا) لأن أداة الشبه مذكورة ووجه الشبه محذوف.

خامسًا: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي ماء الأنهار، والعرب يطلقون اسم المحل كالنهر على الحالِّ فيه كالماء والقرينة ظاهرة؛ لأن التفجر إنما يكون للماء، ويسمى هذا مجازًا مرسلًا.

الفوَائِد: الفائدة الأولى: نبه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ على أن الإستهزاء بأمرٍ من أمور الدين جهل كبير، وقد منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن للتدبر والخشوع لا للتسلي والتفكه والمزاح.

الثانية: الخطاب في قوله: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ وقد جرى على الأسلوب المعروف في مخاطبة الأقوام، إذ ينسب إلى الخلف ما فعل السلف إذا كانوا سائرين على نهجهم، راضين بفعلهم، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين.

الثالثة: هذه الواقعة واقعة (قتل النفس) جرت قبل أمرهم بذبح البقرة، وإن وردت في الذكر بعده، والسرُّ في ذلك التشويق إلى معرفة السبب في ذبح البقرة، التكرير في التقريع والتوبيخ قال العلامة ابن السعود: وإنما غُيِّر الترتيب لتكرار التوبيخ وتثنية التقريع، فإن كل واحدٍ من قتل النفس المحرمة، والاستهزاء بموسى عليه السلام والافتئات على أمره جناية عظيمة جديرة بأن تنعى عليهم[٢].

الرابعة: ذكر تعالى إحياء الموتى في هذه السورة الكريمة في خمسة مواضع: أ - في قوله ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٦] ب - وفي هذه القصة ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا﴾ ج - وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ [البقرة:٢٤٣] د - وفي قصة عزير ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩] هـ- وفي قصة إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي

---

(١) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٩٠ . (ش): النُبُوُّ: الإستعصاء وعدم الانقياد. القوارع: المصائب.

(٢) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٩٠ .

كَيْفَ تُحْيِي الموتى﴾ [البقرة: ٢٦٠] .

الخامسة: ﴿أوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بمعنى «بَلْ» أي بل أشد قسوة كقوله: تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] وقال بعضهم: هي للترديد، أو التخيير فمن عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد، ومن لم يعرفها شبهها بالحجارة أو قال: هي أقسى من الحجارة.

السادسة: ذهب بعض المفسرين إلى أن الخشية هنا حقيقية، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار خشية بقدرها كقوله: تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤] وقال آخرون: بل هو من باب المجاز كقول القائل: قال الحائط للمسمار: لم تشقني؟ قال: سل من يدقني والله أعلم؟[1].

قال الله تعالى:

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ
مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟
أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ
مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ
لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ
قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن
كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى عناد اليهود، وعدم امتثالهم لأوامر الله تعالى، ومجادلتهم للأنبياء الكرام، وعدم الانقياد والإذعان، عقَّب ذلك بذكر بعض القبائح والجرائم التي ارتكبوها كتحريف كلام الله تعالى، وادعائهم بأنهم أحباب الله، وأن النار لن تمسَّهم إلا بضعة أيام قليلة، إلى آخر ما هم عليه من أماني كاذبة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وقد بدأ تعالى الآيات بتيئيس المسلمين من إيمانهم لأنهم فطروا على الضلال، وجبلوا على العناد والمكابرة.

اللغَة: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الطمع: تعلق النفس بشيء مطلوب تعلقًا قويًا، فإذا اشتد فهو طمع، وإذا ضعف كان رجاءً ورغبةً ﴿فَرِيقٌ﴾ الفريق: الجماعة وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ التحريف: التبديل والتغيير وأصله من الانحراف عن الشيء ﴿عَقَلُوهُ﴾ عقل الشيء أدركه بعقله والمراد فهموه وعرفوه ﴿أُمِّيُّونَ﴾ جمع أمي وهو الذي

(١) أفاده العلامة ابن كثير .

لا يحسن القراءة والكتابة، سمي بذلك نسبة إلى الأم، لأنه باقٍ على ما ولدته عليه أمه من عدم المعرفة ﴿أَمَانِيَّ﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه، أو يقدّر في نفسه من مُنى ولذلك تطلق على الكذب قال أعرابي لإنسان: «أهذا شيء رأيته أم تمنيته» أي اختلقته، وتأتي بمعنى قرأ قال حسان:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ [1]

﴿فَوَيْلٌ﴾ الويل: الهلاك والدمار وقيل: الفضيحة والخزي، وهي كلمة تستعمل في الشر والعذاب قال القاضي: هي نهاية الوعيد والتهديد كقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١] وقال سيبويه: ويلٌ لمن وقع في الهلكة، وويح لمن أشرف عليها.

سَبَبُ النّزول: ١ - نزلت في الأنصار كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوارٌ ورضاعة وكانوا يودون لو أسلموا فأنزل الله تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [2] الآية.

٢ - وروى مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون: إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعذب بكل ألف سنة يومًا في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [3].

التفسير: يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين فيقول: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي والحال قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بينًا جليًّا ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي يغيّرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يرتكبون جريمة، أي إنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطأ أو نسيان ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أي إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود آمنا بأنكم على الحق، وأن محمدًا هو الرسول المبشَّر به ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي إذا انفرد واختلى بعضهم ببعض ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا عاتبين عليهم أتخبرون أصحاب محمد بما بيَّن الله لكم في التوراة من صفة محمد عليه السلام ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفليست لكم عقول تمنعكم من

---

(١) **(ش):** قال حسان بن ثابت رضي الله عنه لما قتل القتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو يذكر الله ويقرأ القرآن: تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لَاقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ (تَمَنَّى كِتَابَ الله) أي: تلا كتاب الله من (أَوَّلَ لَيْلِهِ)، حتى إذا بلغ آخر الليل قام عليه القتلة فقتلوه، فتلقى حمام قدره رضي الله عنه.

(٢) «البحر المحيط» ١/ ٢٧١ . **(ش):** هكذا ذكره أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» بدون إسناد.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٨٢ . **(ش):** أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»، وابن أبي حاتم في «التفسير»، وابن جرير في «جامع البيان»، والواحدي في «أسباب النزول»، وسنده ضعيف؛ فيه محمد -شيخ ابن إسحاق- مجهول.

أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم. قال تعالى ردًا عليهم وتوبيخًا: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرون، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان!

ولما ذكر تعالى العلماء الذين حرّفوا وبدّلوا، ذكر العوام الذين قلدوهم ونبّه أنهم في الضلال سواء فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ومن اليهود طائفة من الجهلة العوامّ، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي إلاَّ ما هم عليه من الأماني التي منّاهم بها أحبارهم، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم على يقين من أمرهم، بل هم مقلّدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء.

ثم ذكر تعالى جريمة أولئك الرؤساء المضلّين، الذين أضلّوا العامة في سبيل حطام الدنيا فقال ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرّفوا التوراة، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي يقولون لأتباعهم الأميين هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذبًا وزورًا ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي فشدة عذاب لهم على ما فعلوا من تحريف الكتاب ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي لن ندخل النار إلا أيامًا قلائل، هي مدة عبادة العجل، أو سبعة أيام فقط ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ: هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله، والكذب والبهتان عليه جل وعلا.

ثم بيَّن تعالى كذب اليهود، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها فقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي بلى تمسكم النار وتخلدون فيها، كما يخلد الكافر الذي عمل الكبائر، وكذلك كل من اقترف السيئات ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي غمرته من جميع جوانبه، وسدّت عليه مسالك النجاة، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبدًا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان، والعمل الصالح فلا تمسهم النار، بل هم في روضات الجنات يحبرون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي مخلدون في الجنان لا يخرجون منها أبدًا، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

البَلَاغَة: أولًا: قوله: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ جملة مفيدة لكمال قبح صنيعهم، فتحريفهم للتوراة كان عن قصد وتصميم لا عن جهل أو نسيان، ومن يرتكب المعصية عن علم يستحق الذم والتوبيخ أكثر ممن يرتكبها وهو جاهل.

ثانيًا: قوله ﴿يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ ذكر الأيدي هنا لدفع توهم المجاز، وللتأكيد بأن الكتابة باشروها بأنفسهم كما يقول القائل: كتبته بيميني، وسمعته بأذني.

ثالثًا: قوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ فيه من المحسّنات البديعية ما يسمى بـ (الطباق) حيث جمع بين لفظتي «يسرون» و «يعلنون» وهو من نوع طباق الإيجاب.

رابعًا: التكرير في قوله ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ وقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ وقوله: ﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع ولبيان أن جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى.

خامسًا: قوله ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ هو من باب الاستعارة حيث شبّه الخطايا بجيش من الأعداء نزل على قوم من كل جانب فأحاط بهم إحاطة السِّوار بالمِعْصَم، واستعار لفظة الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات، فكأنها أحاطت بها من جميع الجهات[1].

الفَوائِد: الفائدة الأولى: تحريف كلام الله يصدق بتأويله تأويلًا فاسدًا، ويصدق بمعنى التغيير وتبديل كلام بكلام، وقد وقع من أحبار اليهود التحريف بالتأويل، وبالتغيير، كما فعلوا في صفته عليه السلام قال العلامة أبو السعود: روي أن أحبار اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها «حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، أبيض ربعة» فغيروها وكتبوا مكانها «طوال، أزرق، سبط الشعر» فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفًا لما في التوراة فيكذبونه[2].

الثانية: التحريف بقسميه وقع في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل كما قال تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] أما التحريف بمعنى التأويل الباطل فقد وقع في القرآن من الجهلة أو الملاحدة، وأما التحريف بمعنى إسقاط الآية ووضع كلام بدلها فقد حفظ الله منه كتابه العزيز ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

الثالثة: روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لرسول الله ﷺ شَاةٌ

---

(١) انظر «تلخيص البيان» ١/ ٨.

(٢) «تفسير أبي السعود» ١/ ٩٤.

فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «اجْمَعُوا لِيَ مَنْ كَانَ مِن اليهُودِ هُنَا »فَقَالَ لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: فُلاَنٌ، قَالَ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ»، فقَالُوا: صَدَقْتَ، وبررت ثم قال لهم: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكم عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبينا، فَقَالَ لَهُمْ رسول الله ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، فقَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ لهم رسول الله ﷺ: «اخْسَئُوا وَاللهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ لهم رسول الله ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»، فقالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟»، فقَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ منك، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ»[1].

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

المنَاسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تعدّد جرائم اليهود، وفي هذه الآيات أمثلة صارخة على عدوانهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة، وقتلوا النفس التي حرّم الله، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار، فاستحقوا اللعنة والخزي والدمار.

اللغَة: ﴿مِيثَٰقَ﴾ الميثاق: العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد، فإن لم يكن مؤكدًا سمي عهدًا ﴿حُسْنًا﴾ الحُسْنُ: اسم عام جامعٌ لمعاني الخير، ومنه لين القول، والأدب الجميل، والخلق الكريم، وضده القُبْح والمعنى: قولوا قولًا حُسْنًا فهو صفة لمصدر محذوف ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ التولّي عن الشيء: الإعراضُ عنه ورفضُه وعدم قبوله كقوله: ﴿فأعرض عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] وفرّق بعضهم بين التولي والإعراض فقال: التولي بالجسم، والإعراض

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٨٢ . (ش): الرواية التي في الأصل نقلها المؤلف من «تفسير ابن كثير» وهي ليست رواية البخاري بل رواية الْحَافِظِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مَرْدَوَيْهِ، وقد ذكرها الحافظ ابن كثير ثم قال: «وَرَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالْبُخَارِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، بنحوه». فذكرْتُ هنا نَصَّ رواية البخاري بدلًا منها.

بالقلب[1] ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ تتعاونون وهو مضارع حذف منه أحد التاءين، كأن المتظاهرين يسنُد كل واحد منهما ظهره إلى الآخر، والظهير: المعين ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ الذنب الذي يستحق صاحبه الملامة وجمعه آثام ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ تجاوز الحد في الظلم ﴿خِزۡيٞ﴾ الخزي: الهوان والمقت والعقوبة.

التفسير: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي اذكروا حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بأن لا تعبدوا غير الله ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ أي وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحسانًا ﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أي وأن يحسنوا أيضًا إلى الأقرباء، واليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ أي قولًا حسنًا بخفض الجناح، ولين الجانب، مع الكلام الطيّب ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي صلوا وزكّوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنين العظيمين «الصلاة، والزكاة» لأنهما أعظم العبادات البدنية والمالية ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي ثم رفضتم أنتم وأسلافكم الميثاق رفضًا باتًا، وأعرضتم عن العمل بموجبه إلاّ قليلًا منكم ثبتوا عليه ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾ أي واذكروا أيضًا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضًا ﴿وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار، والإجلاء عن الأوطان ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ أي ثمّ اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون بلزومه ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي ثم نقضتم أيضًا الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به، فقتلتم إخوانكم في الدين، وارتكبتم ما نهيتم عنه من القتل ﴿وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ﴾ أي كما طردتموهم من ديارهم من غير التفات إلى العهد الوثيق ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾ أي إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡ﴾ أي فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟ ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾؟ أي أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض؟ والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان، والكفر ببعض آيات الله كفرٌ بالكتاب كله ولهذا عقّب تعالى ذلك بقوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذلٌ وهوان، ومقتٌ وغضب في الدنيا ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي وهم صائرون في الآخرة إلى

(١) «البحر المحيط» ١/ ٢٨١ .

عذاب أشدّ منه، لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى أوامر الله! ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك العصيان والعدوان فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة بمعنى اختاروها وآثروها على الآخرة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي لا يُفتّر عنهم العذاب ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي وليس لهم ناصر ينصرهم، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم.

تنبيه: كانت (بنو قريظة) و(بنو النضير) من اليهود، فحالفت بنو قريظة الأوس، وبنو النضير الخزرج، فكانت الحرب إِذا نشِبت بينهم قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والمتاع والمال، وذلك حرام عليهم في دينهم وفي نص التوراة، ثم إِذا وضعت الحرب أوزارها افْتكُوا الأسارى من الفريق المغلوب عملًا بحكم التوراة ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾ [1].

البَلَاغَة: ١ - ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ خبرٌ في معنى النهي، وهو أبلغ من صريح النهي كما قال أبو السعود لما فيه من إِيهام أن المنهيّ حقه أن يسارع إِلى الانتهاء فكأنه انتهى عنه، فجاء بصيغة الخبر وأراد به النهي[2].

٢ - ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ وقع المصدر موقع الصفة أي قولًا حسنًا أو ذا حسنٍ للمبالغة فإِن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة بقصد المبالغة فيقولون: هو عدل.

٣ - التنكير في قوله ﴿خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ للتفخيم والتهويل.

٤ - ﴿تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ عبّر عن قتل الغير بقتل النفس لأن من أراق دم غيره فكأنما أراق دم نفسه فهو من باب المجاز لأدنى ملابسة.

٥ - ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ﴾ الهمزة للإِنكار التوبيخي.

الفَوائِد: الفائدة الأولى: جاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم، فقدّم حق الله تعالى لأنه المنعم في الحقيقة على العباد، ثم قدم ذكر الوالدين لحقهما الأعظم في تربية الولد، ثم القرابة لأن فيهم صلة الرحم وأجر الإِحسان، ثم اليتامى لقلة حيلتهم، ثمّ المساكين لضعفهم ومسكنتهم.

الثانية: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ ولم يقل: وقولوا لإِخوانكم أو قولوا للمؤمنين حسنًا ليدل على أنّ الأمر بالإِحسان عامٌّ لجميع الناس، المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وفي هذا حضٌّ على

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٨٥.

(٢) «تفسير أبي السعود» ١/ ٩٦.

مكارم الأخلاق، بلين الكلام، وبسط الوجه، والأدب الجميل، والخلق الكريم قال أحد الأدباء.

بُنيَّ إنَّ البِرَّ شيءٌ هيّنُ ... وَجْهٌ طَلِيقٌ وَلِسَانٌ لَيِّنُ

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ
ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟
قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ
ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

اللغَة: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أردفنا وأتبعنا وأصله من القفا يقال: قَفَاه إذا أتبعه، وقفَّاه بكذا إذا أتبعه إياه ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الباهرات كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قويناه مأخوذ من الأيْد وهو القوة ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام، والقدسُ: الطهر والبركة ﴿تَهْوَىٰٓ﴾ تحب من هَوِي إذا أحب ومصدره الهوى ﴿غُلْفٌۢ﴾ جمع أغلف، والغلاف: الغطاء، يقال سيف أغلف إذا كان في غلافه، وقلب أغلف أي مستور عن الفهم والتمييز، مستعار من الأغلف الذي لم يختتن[١] ﴿لَّعَنَهُمُ﴾ أصل اللعن في كلام العرب: الطردُ والإبعاد يقال: ذئب لعين أي مطرود مبعد والمراد: أقصاهم وأبعدهم عن رحمته ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح أي النصرة ﴿بِئْسَمَا﴾ أصلها بئس ما أي بئس الذي، و«بئس» فعل للذم، كما أنّ «نِعْم» للمدح ﴿بَغْيًا﴾ البغي: الحسد والظلم، وأصله الفساد من بغى الجرح إذا فسد، قاله الأصمعي[٢] ﴿فَبَآءُو﴾ رجعوا وأكثر ما يستعمل في الشر ﴿مُّهِينٌ﴾ مخزٍ مذل مأخوذ من الهوان بمعنى الذل.

المنَاسَبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، وفي هذه الآيات الكريمة تذكير لهم بضربٍ من النعم التي أمدّهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام، كعادتهم في مقابلة الإحسان بالإساءة، والنعمة بالكفران والجحود.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ

---

(١) «الكشاف» ١/ ١٢٢ .

(٢) «البحر المحيط» ١/ ٢٩٨.

﴿بِٱلرُّسُلِ﴾ أي أتبعنا وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي أعطينا عيسى الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدالة على نبوته ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي قويناه وشددنا أزره بجبريل عليه السلام ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ أي أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي تكبرتم عن اتباعه فطائفة منهم كذبتموهم، وطائفة قتلتموهم. . ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وبيّن ضَلالهم في اقتدائهم بالأسلاف فقال حكاية عنهم ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد، والغرض إقناطه عليه السلام من إيمانهم، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم وضلالهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فقليلٌ من يؤمن منهم، أو يؤمنون إيمانًا قليلًا وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهو القرآن العظيم الذي أنزل على خاتم المرسلين، مصدقًا لما في التوراة ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟﴾ أي وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم الذي عرفوه حق المعرفة كفروا برسالته ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم المرسلين ﴿بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بئس الشيء التافه الذي باع به هؤلاء اليهود أنفسهم ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي كفرهم بالقرآن الذي أنزله الله ﴿بَغْيًا﴾ أي حسدًا وطلبًا لما ليس لهم ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي حسدًا منهم لأجل أن ينزل الله وحيًا من فضله على من يشاء ويصطفيه من خلقه ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال لأن كفرهم سببه التكبر والحسد فقوبلوا بالإهانة والصغار ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدّقوه واتبعوه ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي يكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقًا لما معهم من كلام الله ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحًا فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل إذا كنتم فعلًا مؤمنين؟ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالحجج الباهرات ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع.

البَلاَغَة: ١- تقديم المفعول في الموضعين ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ و﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ للاهتمام

وتشويق السامع إِلى ما يلقى إِليه.

٢- التعبير بالمضارع ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل قتلتم كما قال كذبتم، لأن الفعل المضارع - كما هو المألوف في أساليب البلاغة - يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغًا عظيمًا، فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع، وجعله ينظر إِليها بعينه، فيكون إِنكاره لها أبلغ، واستفظاعه لها أعظم.

٣ - وضع الظاهر مكان الضمير ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل «عليهم» لِيُشْعِر بأن سبب حلول اللعنة هو كفرهم.

٤ - الخبر في قوله ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يراد به التبكيت والتوبيخ على عدم اتباع الرسول.

٥ - أسندت الإِهانة إِلى العذاب فقال: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لأن الإِهانة تحصل بعذابهم، ومن أساليب البيان إسناد الأفعال إِلى أسبابها.

فَائِدَة: قال الحسن البصري: إنما سمي جبريل «روح القدس» لأن القدس هو الله، وروحه جبريل، فالإِضافة للتشريف، قال الرازي: ومما يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية: ١٠٢][(١)].

قال الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ
إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ
فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ
بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ
عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ
وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

المُنَاسَبَة: هذه طائفة أخرى من جرائم اليهود، فقد نقضوا الميثاق حتى رفع جبلُ الطور عليهم وأمروا أن يأخذوا بما في التوراة، فأظهروا القبول والطاعة ثم عادوا إلى الكفر والعصيان، فعبدوا العجل من دون الله، وزعموا أنهم أحباب الله، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس لا يدخلها أحد سواهم، وعادَوا الملائكة الأطهار وعلى رأسهم جبريل عليه السلام، وكفروا بالأنبياء والرسل، وهكذا شأنهم في سائر العصور والدهور.

---

(١) «محاسن التأويل» ٢/ ١٨٦ .

اللغَة: ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ الميثاق: العهد المؤكد بيمين ﴿الطُّورَ﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بعزم وجِدّ ﴿وَأُشْرِبُوا﴾ أُشرب: سُقي جعلت قلوبهم تشربه، يقال: أُشرب قلبُه حبَّ كذا قال زُهَيْر:

فَصَحَوْتُ عَنْهَا بَعْدَ حُبٍّ دَاخِلٍ ... وَالْحُبُّ تُشْرِبُهُ فُؤَادَكَ دَاءُ(١)

﴿خَالِصَةً﴾ مصدر كالعافية والعاقبة بمعنى الخلوص أي خاصة بكم لا يشارككم فيها أحد ﴿أَحْرَصَ﴾ الحرص: شدة الرغبة في الشيء وفي الحديث «إحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»(٢).

﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ الزحزحة: الإبعادُ والتنحية قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٨٥] أي أُبعد وقَالَ الشَّاعِرُ:

خَلِيلَيَّ مَا بَالُ الدُّجَى لَا يزحزح ... وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لَا يَتَوَضَّحُ

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة، ورفعنا فوقكم جبل الطور قائلين: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم وحزم وإلا طرحنا الجبل فوقكم ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي سماع طاعة وقبول ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي خالط حبُّه قلوبهم، وتغلغل في سويدائها والمراد أن حب عبادة العجل امتزج بدمائهم ودخل في قلوبهم، كما يدخل الصبغُ في الثوب، والماء في البدن ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان فبئس هذا العمل والصنيع والمعنى: لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كانت الجنة لكم خاصة لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي اشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة، لأن نعيم هذه الحياة لا يساوي شيئًا إذا قيس بنعيم الآخرة. ومن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها قال تعالى رادًّا عليهم تلك الدعوة الكاذبة ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي ولتجدنَّ اليهود أشدّ الناس حرصًا على الحياة، وأحرص من المشركين أنفسهم، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة

---
(١) «القرطبي» ٢/ ٣١.
(٢) (ش): رواه مسلم.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي وما طول العمر - مهما عمر - بمبعده ومنجيه من عذاب الله ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي مطّلع على أعمالهم فيجازيهم عليها ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي قل لهم يا محمد من كان عدوًّا لجبريل فإنه عدو لله، لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله فمن عاداه فقد عادى الله ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي فإن جبريل الأمين نزّل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وفيه الهداية الكاملة، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ أي من عادى الله وملائكته ورسله، وعادى على الوجه الأخص «جبريل وميكائيل» فهو كافر عدو لله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ لأن الله يبغض من عادى أحدًا من أوليائه، ومن عاداهم عاداه الله، ففيه الوعيد والتهديد الشديد.

سَبَبُ النّزول: روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنه ليس نبيٌّ من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبُك حتى نتابعك؟ قال: جبريل قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ذاك عدونا! لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك فأنزل الله ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [١] الآية.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ فيه استعارة مكنية، شبّه حبَّ عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب، وطوى ذكر المشبه به ورمز بشيء من لوازمه وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية، قال في «تلخيص البيان»: «وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبة فمازجها ممازجة المشروب، وخالطها مخالطة الشيء الملذوذ»[٢].

٢ - ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ إسناد الأمر إلى الإيمان تهكمٌ بهم كقوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧] وكذلك إضافة الإيمان إليهم، أفاده الزمخشري.

٣ - التنكير في قوله ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ للتنبيه على أن المراد بها حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين.

٤ - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ الجملة واقعة في جواب الشرط وجيء بها اسمية لزيادة التقبيح لأنها تفيد الثبات، ووضع الظاهر موضع الضمير فقال: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بدل (عدوٌّ لهم) لتسجيل صفة الكفر عليهم، وأنهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين.

٥ - ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ وجاء بعد ذكر الملائكة فهو من باب ذكر الخاص بعد العام

---

(١) رواه الترمذي وانظر «القرطبي» ٢/ ٣٦ . (ش): صحيح، ورَوَاهُ أيضًا الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ».
(٢) «تلخيص البيان» للشريف الرضى ص ٩ .

للتشريف والتعظيم.

الفوَائِد: الأولى: ليس معنى السمع في قوله ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ إدراك القول فقط، بل المراد سماع ما أمروا به في التوراة سماع تدبرٍ وطاعةٍ والتزام فهو مؤكد ومقرر لقوله ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ .

الثانية: خصّ القلب بالذكر ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف كما قال تعالى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

الثالثة: الحكمة في الإتيان هنا بـ «لن» ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ وفي الجمعة بـ «لا» ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ [الآية: ٧] أن ادعاءهم هنا أعظم من ادعائهم هناك، فإنهم ادعوا هنا اختصاصهم بالجنة، وهناك كونهم أولياء لله من دون الناس، فناسب هنا التوكيد بـ «لن» المفيدة للنفي في الحاضر والمستقبل، وأما هناك فاكتفى بالنفي[1].

الرابعة: الآية الكريمة من المعجزات لأنها إخبار بالغيب وكان الأمر كما أخبر، ويكفي في تحقق هذه المعجزة أن لا يقع تمني الموت من اليهود الذين كانوا في عصره ﷺ وفي الحديث الشريف «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار»[2] .

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا
نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ
مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ
ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا
نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ
مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى ما جبل عليه اليهود، من خبث السريرة ونقض العهود، والتكذيب لرسل الله ومعاداة أوليائه، حتى انتهى بهم الحال إلى عداوة السفير بين الله وبين خلقه وهو «جبريل» الأمين عليه السلام، أعقب ذلك ببيان أن من عادة اليهود عدم الوفاء بالعقود، وتكذيب الرسل، واتباع طرق الشعوذة والضلال، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ حيث سلكوا معه هذه

---

(١) الصاوي على الجلالين ١/ ٤٩.

(٢) «القرطبي» ٢/ ٣٢. (ش): رواه البزار وابنُ جرير، وصححه الألباني.

الطريقة، في عدم الأخذ بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير ببعثة السراج المنير، وإلزامهم الإيمان به واتباعه، فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم، واتبعوا ما ألقت إليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة، ونسبوها إلى سليمان عليه السلام وهو منها بريء، وهكذا حالهم مع جميع الرسل الكرام، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

اللغة: ﴿نَبَذَ﴾ النَّبْذُ: الطَّرْحُ وَالْإِلْقَاءُ، ومنه سمي اللقيط منبوذًا لأنه يُنْبَذُ على الطريق قال الشاعر:

إِنَّ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا ... نَبَذُوا كِتَابَكَ وَاسْتَحَلُّوا الْمَحْرَمَا [١]

﴿تَتْلُوا﴾ تحدّث وتروي من التلاوة بمعنى القراءة، أو من التلاوة بمعنى الإتباع قال «الطبري»: ولقول القائل: «هو يتلو كذا» في كلام العرب معنيان: أحدهما الإتباع كما تقول: تلوت فلانًا إذا مشيت خلفه وتبعتَ أثره، والآخر: القراءة والدراسة كقولك: فلان يتلو القرآن أي يقرؤه[٢] ﴿ٱلسِّحْرَ﴾ قال الجوهري: كلُّ ما لطف مأخذه ودقَّ فهو سحر، وسحره أيضًا بمعنى خدَعه[٣] وفي الحديث «إنّ من البيان لسحرًا»[٤] ﴿فِتْنَةٌ﴾ : الإبتلاء والإختبار ومنه قولهم: فتنتُ الذهب إذا إمتحنته بالنار لتعرف سلامته أو غشه ﴿خَلَٰقٍ﴾ الخلاق: النصيب قال الزجاج: هو النصيب الوافر من الخير، وأكثر ما يستعمل في الخير ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ المثوبة: الثواب والجزاء.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات دالات على نبوتك ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب بها إلا الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي أيكفرون بالآيات وهي في غاية الوضوح وكلما أعطوا عهدًا نقضه جماعة منهم؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق، لذلك ينقضون العهود والمواثيق ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي مصدقًا للتوراة وموافقًا لها في أصول الدين ومقررًا لنبوة موسى عليه السلام ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي طرح أحبارهم وعلماؤهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئًا ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أي اتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها

---

(١) «القرطبي» ٢/ ٤٠.
(٢) «الطبري» ٢/ ٤٠٧.
(٣) «الصحاح للجوهري».
(٤) (ش): رواه البخاري. و(البيان): الفصاحة.

الشياطين في عهد ملك سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أي وما كان سليمان ساحرًا ولا كفر بتعلمه السحر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي ولكنّ الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ أي وكما اتبع رؤساء اليهود السحر كذلك اتبعوا ما أنزل على الملَكين وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحانًا للناس ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي إن الملَكَيْن لا يعلمان أحدًا من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولا إن هذا الذي نَصِفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء، فلا تستعمِلْه للإضرار ولا تكفر بسببه، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس فقد نجا، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل[(١)].. قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سببًا في التفريق بين الزوجين، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وما هم بما استعملوه من السحر يضرون أحدًا إلا إذا شاء الله ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ أي ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لأثابهم الله ثوابًا أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، الذي لا يعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار.

سَبَبُ النّزول: لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبيًا!! والله ما كان إلا ساحرًا فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[(٢)].

البَلَاغَة: ١ - ﴿رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ التنكير للتفخيم ووصفُ الرسول بأنه آتٍ من عند الله

---

(١) (ش): لا يجوز تَعَلُّم السحر ليحل به السحر أو لمقاصد أخرى، بل هو من نواقض الإسلام، لأنه لا يمكن تعلمه إلا بالوقوع في الشرك، وذلك بعبادة الشياطين من الذبح لهم، والنذر لهم، ونحو ذلك من أنواع العبادة، والذبح والتقرب إليهم بما يحبون حتى يخدموه بما يحب. ولا يجوز استخدام السحر لأي مقصد من المقاصد، حسنا كان أم سيئًا، لأن السحر من أعظم الموبقات، فلا يجوز تعلمه ولا تعليمه ولا تعاطيه، لأن النبي ﷺ قد نهى عن ذلك وحذر منه أشد التحذير، ورتب عليه أشد أنواع الوعيد وهو الحكم بكفر من يفعل ذلك.

(٢) «زاد المسير» ١/ ١٢٠، و«القرطبي» ٢/ ٤١. (ش): أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، وسنده ضعيف جدًا.

لإفادة مزيد التعظيم.

٢ - ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثلٌ يُضرب للإعراض عن الشيء جملةً تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضًا، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية.

٣ - ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ هذا جارٍ على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة، من أن العالم بالشيء إذا لم يجر على موجب علمه قد ينزّل منزلة الجاهل به، وينفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين.

٤ - ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جيء بالجملة الاسمية بدل الفعلية للدلالة على الثبوت والاستقرار.

فَائِدَة: الحكمة من تعليم الملكين الناس السحر، أن السحرة كثروا في ذلك العهد واخترعوا فنونًا غريبة من السحر، وربما زعموا أنهم أنبياء، فبعث الله تعالى المَلكين ليعلما الناس وجوه السحر حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة، ويعرفوا أن الذين يدّعون النبوة كذبًا إنما هم سحرة لا أنبياء[1].

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

المُنَاسَبَة: لما ذكر تعالى قبائح اليهود، وما اختصوا به من ضروب السحر والشعوذة، أعقبه ببيان نوع آخر من السوء والشر، الذي يضمرونه للنبيّ ﷺ والمسلمين، من الطعن والحقد والحسد، وتمني زوال النعمة عن المؤمنين، واتخاذهم الشريعة الغراء هدفًا للطعن والتجريح بسبب النسخ لبعض الأحكام الشرعية.

---

(١) (ش): لم أجد روايات ثابتة تدل على ذلك.

اللغَة: ﴿رَٰعِنَا﴾ من المراعاة وهي الإنظار والإمهال، وأصلها من الرعاية وهي النظر في مصالح الإنسان، وقد حرفها اليهود فجعلوها كلمة مسبة مشتقة من الرعونة وهي الحُمْق ولذلك نُهي عنها المؤمنون ﴿أنظُرْنَا﴾ من النظر والإنتظار تقول: نظرتُ الرجل إذا انتظرته وارتقبته أي انتظرنا وتأنَّ بنا ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ويحب ﴿نَنسَخْ﴾ النسخ في اللغة: الإبطال والإزالة يقال: نسخت الشمس الظل أي أزالته وفي الشرع: رفع حكم شرعي وتبديله بحكم آخر ﴿نُنسِهَا﴾ من أنسى الشيءَ جعله منسيًا فهو من النسيان الذي هو ضد الذكر أي نمحها من القلوب ﴿وَلِيٍّ﴾ الولي: من يتولى أمور الإنسان ومصالحه ﴿نَصِيرٍ﴾ النصير: المعين مأخوذ من قولهم نصره إذا أعانه ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل وهي تفيد الانتقال من جملة إلى جملة كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افتراه﴾ [يونس: ٣٨] أي بل يقولون ﴿يَتَبَدَّلِ﴾ يقال: بدّل وتبدل واستبدل أي جعل شيئًا موضع آخر، وتبدل الكفر بالإيمان معناه أخذه بدل الإيمان ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق، والسواء من كل شيء: الوسط، والسبيل معناه الطريق ﴿فَٱعْفُواْ﴾ العفو: ترك المؤاخذة على الذنب ﴿وَٱصْفَحُواْ﴾ والصفح: ترك التأنيب عنه.

سَبَبُ النّزول: روي أن اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد؟ أمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولًا ويرجع عنه غدًا، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، يناقض بعضه بعضًا فنزلت[1] ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾[2].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا نداء الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه فيقول ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ أي راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ أي انتظرنا وارتقبنا ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي أطيعوا أوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبّوه، عذاب أليم موجع ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزّل عليكم شيء من الخير، بغضًا فيكم وحسدًا لكم ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان. من شاء من عباده ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والله واسع الفضل والإحسان ثم قال تعالى ردًا على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي ما نبدّل من حكم آية فنغيره بآخر أو ننسها يا محمد أي نمحها من قلبك ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم في العاجل أو الآجل، إما برفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

(١) «الكشاف» ١/ ١٣١. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند.
(٢) انظر حكمة النسخ وتفصيل أحكامه في كتابنا «روائع البيان» ١/ ١٠٠.

﴿كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد! ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم أن الله هو المالك المتصرف في شئون الخلق يحكم بما شاء ويأمر بما شاء؟ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لكم وليٌّ يرعى شئونكم أو ناصر ينصركم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل ويكون مثلكم مثل اليهود الذين قالوا لنبيهم ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فتضلوا كما ضلوا ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي يستبدل الضلالة بالهدى ويأخذ الكفر بدل الإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي تمنى كثير من اليهود والنصارى ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي لو يصيّرونكم كفارًا بعد أن آمنتم ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي حسدًا منهم لكم حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة أن دينكم هو الحق ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ أي اتركوهم وأعرضوا عنهم فلا تؤاخذوهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي حتى يأذن الله لكم بقتالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل شيء فينتقم منهم إذا حان الأوان ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي حافظوا على عمودي الإسلام وهما «الصلاة والزكاة» وتقربوا إليه بالعبادة البدنية والمالية ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ما تتقربوا به إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضًا كان أو تطوعًا تجدوا ثوابه عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب عليكم مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها يوم الدين.

البَلَاغَة: ١ - الإضافة في قوله ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ للتشريف. وفيها تذكير للعباد بتربيته لهم.

٢ - تصدير الجملتين بلفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ﴾ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ للإيذان بفخامة الأمر.

٣ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهام للتقرير والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٤ - وضع الإسم الجليل موضع الضمير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لتربية الروعة والمهابة في النفوس.

٥ - ﴿ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق المستوي، وفي التعبير به نهاية التبكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل.

الفوَائِد: الأولى: خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في ثمانية

وثمانين موضعًا من القرآن، وهذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم، ونداء المخاطبين بإسم المؤمنين يذكّرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة والامتثال.

الثانية: نهي المسلمون أن يقولوا في خطاب النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿رَٰعِنَا﴾ وأمروا بأن يقولوا مكانها ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ وفي ذلك تنبيه لأدبٍ جميل هو أن الإنسان يتجنب في مخاطبته الألفاظ التي توهم الجفاء أو التنقيص في مقام يقتضي إظهار المودة أو التعظيم.

الثالثة: كانت اليهود تستعمل كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ يعنون بها المسبة والشتيمة وروى أن سعد ابن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربنَّ عنقه فقالوا: أولستم تقولونها؟ فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ (١).

قال الله تعالى:

وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾

المناسَبَة: في هذه الآيات الكريمة بيان آخر لأباطيل أهل الكتاب، حيث ادعى كل من الفريقين اليهود والنصارى أن الجنة خاصة به وطعن في دين الآخر، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم، ويكفرون بعيسى وبالإنجيل، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر ويزعم أن الجنة وقفٌ عليه، فأكذب الله الفريقين، وبيّن أن الجنة إنما يفوز بها المؤمن التقي الذي عمل الصالحات.

اللغَة: ﴿هُودًا﴾ أي يهودًا جمع هائد، والهائد: التائب الراجع مشتق من هاد إذا تاب ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ﴿أَمَانِيُّهُمۡ﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه، ﴿بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ البرهان: الدليل والحجة الموصلان إلى اليقين، ﴿أَسۡلَمَ﴾ استسلم وخضع، ﴿خَرَابِهَآ﴾

(١) (ش): عزاه السيوطي في «الباب النقول» لأبي نعيم في «الدلائل» وقال: «هذا السند واه». وفيه أن الصحابي هُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وليس سعد بن معاذ.

الخراب: الهدم والتدمير وهو حسّيٌ كتخريب بيوت الله، ومعنوي كتعطيل إقامة الشعائر فيها، ﴿خِزۡيٌ﴾ هوانٌ وذلة، ﴿فَثَمَّ﴾ بفتح الثاء أي هناك ظرفٌ للمكان ﴿وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ الوجه: الجهة والمراد بوجه الله: الجهة التي إرتضاها وأمر بالتوجه إليها.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ[١]﴾ الآية[٢].

التفسير: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ أي قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡ﴾ أي تلك خيالاتهم وأحلامهم ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد أئتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعواكم ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي بلى يدخل الجنة من استسلم وخضع وأخلص نفسه لله ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أي وهو مؤمن مصدّقٌ متبعٌ لرسول الله ﷺ ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي فله ثواب عمله ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يعتريهم حزنٌ أو كدر بل هم في نعيم مقيم ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي كفر اليهود بعيسى وقالوا ليس النصارى على دين صحيح معتدٍّ به فدينهم باطل ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل ذلك وكفروا بموسى ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي والحال أن اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل فقد كفروا عن علم ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ أي كذلك قال مشركو العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا: ليس محمد على شيء ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي يحكم بين اليهود والنصارى ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أي لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش[٣] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع فضلًا عن التجرؤ على تخريبها أو تعطلها ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ أي لأولئك المذكورين هوانٌ وذلة في الدنيا ﴿وَلَهُمۡ فِي

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ١٠٨.

(٢) (ش): أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» بسند ضعيف.

(٣) (ش): أي كما فعل كفار قريش ببيت الله الحرام.

﴿ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي لله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم، وقد نزلت الآية فيمن أضاع جهة القبلة(١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يسع الخلق بالجود والإفضال، عليم بتدبير شئونهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم.

البَلَاغَة: ١ - ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ الجملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان الدعوى وأنها دعوى كاذبة.

٢ - ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ الأمر هنا للتبكيت والتقريع.

٣ - ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء والوجه هاهنا (استعارة) أي من أقبل على عبادة الله وجعل توجهه إليه بجملته(٢).

٤ - ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ العندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافًا إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به.

٥ - ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه توبيخ عظيم لأهل الكتاب لأنهم نظموا أنفسهم - مع علمهم - في سلك من لا يعلم أصلًا.

٦ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم منه.

٧ - ﴿فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ التنكير للتهويل أي خزي هائل فظيع لا يكاد يوصف لهوله.

٨ - ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة فعيل للمبالغة. أي واسع العلم.

فَائِدَة: قال الإمام الفخر: إسلام الوجه لله يعني إسلام النفس لطاعة الله وقد يكنى بالوجه عن النفس كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وقال زيد بن نفيل.

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالَا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... له الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا(٣)

---

(١) (ش): عَنْ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَلَمْ نَدْرِ أَيْنَ القِبْلَةُ، فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا عَلَى حِيَالِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾. (رواه الترمذي، وحسنه الألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]».

(٢) «تلخيص البيان» ص ١٠.

(٣) التفسير الكبير ٤/ ٤.

(ش): تأويلُ الوجهِ بالذاتِ تأويلٌ باطلٌ؛ لأنه نَفْيٌ لصفةٍ ثابتةٍ لله تعالى.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا
ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ
١١٩ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم
بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ
أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي
فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا
هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾

المناسَبَة: لمّا ذكر تعالى افتراء اليهود والنصارى أن الجنة خاصة بهم لا يشاركهم فيها أحد أعقبه بذكر بعض قبائحهم وقبائح المشركين في ادعائهم أنَّ لله ولدا حيث زعم اليهود أن عزيرًا ابن الله، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله فأكذبهم الله وردّ دعواهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع.

اللغَة: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ سبحان مصدر سبّح بمعنى نزّه ومعناه التبرئة والتنزيه عما لا يليق بجلاله تعالى ﴿قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون خاضعون من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿بَدِيعُ﴾ البديع: المبدع من الإِبداع، والإِبداع: اختراع الشيء على غير مثال سبق ﴿قَضَىٰٓ﴾ أراد وقدّر ﴿بَشِيرٗا﴾ البشير: المبشّر وهو المخبر بالأمر الصادق السار ﴿وَنَذِيرٗا﴾ النذير: المنذر وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ المتأجج من النار ﴿مِلَّتَهُمۡ﴾ أي دينهم وجمعها ملل وأصل الملّة: الطريقة المسلوكة ثم جعلت اسمًا للشريعة التي أنزلها الله ﴿عَدۡلٞ﴾ فداء.

التفسير: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ هو قول اليهود والنصارى والمشركين فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله فأكذب الله الجميع في دعواهم فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ أي تقدس وتنزّه عما زعموا تنزهًا بليغًا ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بل للإِضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي الكل منقادون له لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة فمتى أراد شيئًا وجد بلمح البصر، فمراده نافذ وأمره لا يتخلف ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ المراد بهم جهلة

المشركين وهم كفار قريش ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي هلا يكلمنا الله مشافهة أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ أي تكون برهانًا وحجة على صدق نبوتك، قالوا ذلك استكبارًا وعنادًا ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسلهم ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد والتكذيب للأنبياء وفي هذا تسلية له ﷺ ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين لقوم يطلبون الحق واليقين، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي أرسلناك يا محمد بالشريعة النيّرة والدين القويم بشيرًا للمؤمنين بجنات النعيم، ونذيرًا للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي أنت لست مسئولًا عمن لم يؤمن منهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي لن ترضى عنك الطائفتان «اليهود والنصارى» حتى تترك الإسلام المنير وتتبع دينهم الأعوج ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي قل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين الحق وما عداه فهو ضلال ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي ولئن سايرتهم على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لك من يحفظك أو يدفع عنك عقابه الأليم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مبتدأ وهم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي يقرءونه قراءة حقة كما أنزل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ هذا خبر المبتدأ أي فأولئك هم المؤمنون حقًا دون المعاندين المحرفين لكلام الله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي ومن كفر بالقرآن فقد خسر دنياه وآخرته ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئًا، لأن كل نفس بما كسبت رهينة ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي لا تفيدها شفاعة أحد لأنها كفرت بالله ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه[(١)].

البَلَاغَة: ١ - ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ جملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا لله الولد قال أبو السعود: وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من «السَّبح» ومن جهة النقل إلى التفعيل «التسبيح» ومن جهة العدول إلى المصدر ما لا يخفى والمراد أنزهه تنزيهًا لائقًا به.

---

(١) «تفسير أبي السعود» ١/ ١١٧.

٢ - ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ صيغة جمع العقلاء في ﴿قَٰنِتُونَ﴾ للتغليب أي تغليب العقلاء على غير العقلاء، والتغليب من الفنون المعدودة في محاسن البيان.

٣ - التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إيذانٌ بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان.

٤ - إيراد الهدى معرفًا ب «أل» في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ مع اقترانه بضمير الفصل «هو» يفيد قصر الهداية على دين الله فهو من باب قصر الصفة على الموصوف فالإسلام هو الهدى كله وما عداه فهو هوى وعمى.

٥ - ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ هذا من باب التهييج والإلهاب.

تنبيه: قال «القرطبي»: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حدّ ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له: مبدع، ومنه أصحاب البدع، وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام[1] وفي البخاري «نعمت البدعة هذه» يعني قيام رمضان[2].

---

(١) (ش): الأصل في العبادات المنع حتى يأتي دليل من القرآن أو السُّنة الصحيحة، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). قال الحافظ ابن رجب: «فمن تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله فعمله باطل مردود» [جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٨)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «الأصل الذي بنى الإمام أحمد وغيره من الأئمة عليه مذاهبهم أن أعمال الخلق تنقسم إلى عبادات يتخذونها دينًا ينتفعون بها في الآخرة أو في الدنيا والآخرة، وإلى عادات ينتفعون بها في معايشهم. فالأصل في العبادات أن لا يشرع منها إلا ما شرعه الله. والأصل في العادات أن لا يحظر منها إلا ما حظره الله» «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (ص ٢٥٨٢)».

(٢) (ش): عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضى الله عنه - لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ، إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلاَتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلاَءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ . ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَةِ قَارِئِهِمْ، قَالَ عُمَرُ نِعْمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ، وَالَّتِي يَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي يَقُومُونَ . يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ . (رواه البخاري).

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٤/ ٢٥٣): (قَوْلُهُ: قَالَ عُمَرُ: «نِعْمَ الْبِدْعَةُ». فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ» بزيادة تَاءٍ). اهـ. وهي رواية مالك في «الموطأ».

وهذا القول من عمر رضي الله عنه قد يكون على سبيل الرد والمناظرة، ومعناه: إذا كان هذا الفعل بدعة، فنعم البدعة هذه، كأنه كان جوابًا على معترض، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١].

أو أنه قصد البدعة اللغوية، أي أنها بدعة باعتبار إحيائها وإعادة العمل بها بعد أن توقف. فصلاة التراويح جماعة وراء إمام واحد لم يكن معهودًا ولا معمولًا زمن خلافة أبي بكر وشطرًا من خلافة عمر فهي بهذا الاعتبار حادثة ولكن بالنظر إلى أنها موافقة لما فعله ﷺ فهي سنة وليست بدعة وما وصفها بالحُسْن إلا لذلك. ومراده أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت، ولكن له أصول في الشريعة يُرجع إليها، فمنها أن النبي ﷺ =

ثم قال: وكل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أو لا؟ فإن كان لها أصل فهي في حيز المدح ويعضده قول عمر: «نعمت البدعة هذه» وإلاّ فهي في حيز الذم والإنكار وقد بيّن هذا الحديث الشريف «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها. . ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها..» (١) (٢).

= كان يحث على قيام رمضان ويُرغّب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحدانًا، وهو ﷺ صلى بأصحابه في رمضان غير ليلة، ثم امتنع بعد ذلك معللًا بأنه خشي أن يكتب عليهم، فيعجزوا عن القيام به (رواه البخاري)، وهذا قد أُمِنَ بعده ﷺ وروى عنه أنه كان يقوم بأصحابه ليالي الأفراد في العشر الأواخر (رواه أبو داود وصححه الألباني.). ومنها أنه ﷺ أمَر باتباع سنة الخلفاء الراشدين، وهذا قد صار من سنة خلفائه الراشدين، فإن الناس اجتمعوا عليه في زمن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم». (انظر: «الاعتصام» (١/ ١٩٠). «جامع العلوم والحكم» (ص٣٦٦، ٣٦٧).)

(١) «القرطبي» ٢/ ٨٧.

(٢) (ش): عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِى النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِى السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ « ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ وَالآيَةَ الَّتِى فِى الْحَشْرِ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ». قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ - ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). المجتاب: اللابس. المذهبة: الشيء المموه بالذهب. النمار: جمع نمرة وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب. قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ الِاسْتِنَانَ بِمَعْنَى الِاخْتِرَاعِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَذَلِكَ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي جَاءَ لِأَجْلِهِ الْحَدِيثُ هُوَ الصَّدَقَةُ الْمَشْرُوعَةُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ هَاهُنَا مِثْلُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ الصَّحَابِيُّ، وَهُوَ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ كَوْنُهُ سُنَّةً، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ سُنَّةً أَيْقَظَهَا رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِفِعْلِهِ، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ: مَنِ اخْتَرَعَ سُنَّةً وَابْتَدَعَهَا وَلَمْ تَكُنْ ثَابِتَةً. فَإِذًا قَوْلُهُ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً» مَعْنَاهُ: مَنْ عَمِلَ بِسُنَّةٍ، لَا مَنِ اخْتَرَعَ سُنَّةً. وَالْوَجْهُ الثَّانِي مِنْ وَجْهَيِ الْجَوَابِ: أَنَّ قَوْلَهُ: مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ مِنْ أَصْلٍ لِأَنَّ كَوْنَهَا حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً لَا يُعْرَفُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ فَلَزِمَ أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ فِي الْحَدِيثِ إِمَّا حَسَنَةً فِي الشَّرْعِ وَإِمَّا قَبِيحَةً بِالشَّرْعِ، فَلَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى مِثْلِ الصَّدَقَةِ الْمَذْكُورَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ السُّنَنِ الْمَشْرُوعَةِ، وَتَبْقَى السُّنَّةُ السَّيِّئَةُ مُنَزَّلَةً عَلَى الْمَعَاصِي الَّتِي ثَبَتَ بِالشَّرْعِ كَوْنُهَا مَعَاصِيَ كَالْقَتْلِ الْمُنَبَّهِ عَلَيْهِ فِي حَدِيثِ ابْنِ آدَمَ، حَيْثُ قَالَ عليه السلام: لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، (رواه البخاري). وَعَلَى الْبِدَعِ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ ذَمُّهَا وَالنَّهْيُ عَنْهَا بِالشَّرْعِ (انظر:الاعتصام (١/ ١٧٩ - ١٨١)).

فالحديث لا يثبت الابتداع الحسن في الإسلام، فقد قال ﷺ:« مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً »، ولم يقل: «من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة». وقد ردّ النبي ﷺ قول الثلاثة الذين قال أحدهم: «أما أنا فأنا أصلى الليل أبدًا»، وقال آخر: «أنا أصوم الدهر ولا أفطر» وقال آخر: «أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا»، وقال لهم: «من رغب عن سنتي فليس مني» (رواه البخاري). مع أن لفعلهم هذا أصلًا في الشرع من الصلاة والصيام؟

قال الله تعالى:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

المناسَبَة: بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة نعمه على بني إِسرائيل، وبيّن كيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال، وصل حديثهم بقصة إِبراهيم أبي الأنبياء الذي يزعم اليهود والنصارى انتماءهم إِليه ويقرون بفضله، ولو كانوا صادقين لوجب عليهم اتباع هذا النبي الكريم «محمد» ﷺ ودخولهم في دينه القويم لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل حين دعا لأهل الحرم، ثم هو من ولد إسماعيل عليه السلام فكان أولى الاتباع والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة التي هي شريعة الخليل عليه السلام.

اللغَة: ﴿ابْتَلَى﴾ امتحن والابتلاء: الاختبار ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أتى بهن على التمام والكمال ﴿إِمَامًا﴾ الإِمام: القدوة الذي يؤتم به في الأقوال والأفعال ﴿مَثَابَةً﴾ مرجعًا من ثاب يثوب إذا رجع أي أنهم يترددون إِليه لا يقضون منه وطرهم قَالَ الشَّاعِرُ:

جُعِلَ الْبَيْتُ مَثَابًا لَهُمْ ... لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرَ يَقْضُونَ الْوَطَرْ

﴿وَأَمْنًا﴾ الأمن: السلامة من الخوف والطمأنينة في النفس والأهل ﴿وَعَهِدْنَا﴾ أمرنا وأوحينا ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ جمع طائف من الطواف وهو الدوران حول الشيء ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ جمع عاكف من العكوف وهي الإِقامة على الشيء والملازمة له والمراد المقيمون في الحرم بقصد العبادة ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ من التمتيع وهو إِعطاء الإنسان ما ينتفع به ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] ﴿الْقَوَاعِدَ﴾ جمع قاعدة وهي الأساس ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ جمع مَنْسك وهي العبادة والطاعة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ العلم النافع المصحوب بالعمل والمراد بها السنة النبوية المطهرة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من التزكية وهي في الأصل التنمية يقال: زكا الزرع إذا نما ثم استعملت في معنى الطهارة النفسية قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

التفسير: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي اذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم الخليل، وكلّفه بجملة من التكاليف الشرعية «أوامر ونواهٍ» فقام بهن خير قيام ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ

﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي قال له ربه إني جاعلك قدوة للناس ومنارًا يهتدي بك الخلق ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي قال إبراهيم واجعل يا ربّ أيضًا أئمة من ذريتي ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي لا ينال هذا الفضل العظيم أحدٌ من الكافرين ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي واذكر حين جعلنا الكعبة المعظمة مرجعًا للناس يقبلون عليه من كل جانب ﴿وَأَمْنًا﴾ أي مكان أمن يأمن من لجأ إليه، وذلك لما أودع الله في قلوب العرب من تعظيمه وإجلاله ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ أي وقلنا للناس اتخذوا من المقام - وهو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلّى أي صلوا عنده ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي أوصينا وأمرنا إبراهيم وولده إسماعيل ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي أمرناهما بأن يصونا البيت من الأرجاس والأوثان ليكون معقلًا للطائفين حوله والمعتكفين الملازمين له والمصلين فيه، فالآية جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام: الطائفين، والمعتكفين، والمصلين.. ثم أخبر تعالى عن دعوة الخليل إبراهيم فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أي اجعل هذا المكان - والمراد مكة المكرمة - بلدًا ذا أمن يكون أهله في أمنٍ واستقرار ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك وخصَّ بدعوته المؤمنين فقط قال تعالى جوابًا له ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ أي قال الله وأرزق من كفر أيضًا كما أرزق المؤمن، أأخلق خلقًا ثم لا أرزقهم؟ أما الكافر فأمتعه في الدنيا متاعًا قليلًا وذلك مدة حياته فيها ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ أي ثم أُلجئه في الآخرة وأسوقه إلى عذاب النار فلا يجد عنها محيصًا[1] ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم. قاس الخليل الرزق على الإمامة فنبهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبرّ والفاجر بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من المؤمنين، ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أي واذكر يا محمد ذلك الأمر الغريب وهو رفع الرسولين العظيمين «إبراهيم وإسماعيل» قواعد البيت وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه وهما يقولان بخضوع وإجلال ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي يبنيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة قائلين يا ربنا تقبل منا أي اقبل منا عملنا هذا واجعله خالصًا لوجهك الكريم فإنك أنت السميع لدعائنا العليم بنياتنا ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي تب علينا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ

(١) (ش): أي ليس له منها مفر ولا مهرب.

﴿رَسُولًا مِّنۡهُمۡ﴾ أي ابعث في الأمة المسلمة رسولًا من أنفسهم وهذا من جملة دعواتهما المباركة فاستجاب الله الدعاء ببعثة السراج المنير محمد ﷺ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ أي يقرأ آيات القرآن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم والسنة المطهرة ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يُقهر ولا يُغلب، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

البَلَاغَة: ١ - التعرض لعنوان الربوبية ﴿ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ تشريف له عليه السلام وإيذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير، والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه بأوامر ونواه يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى.

٢ - إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل في قوله ﴿ءَامِنًا﴾ للمبالغة والإسناد مجازيٌ أي آمنًا من دخله كقوله: تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٨] وخيرُ ما فسرته بالوارد.

٣ - إضافة البيت إلى ضمير الجلالة ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] للتشريف والتعظيم.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي ولذلك وجه معروف في محاسن البيان وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان فكأنَّ السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع والبنّاء هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قال أبو السعود: وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة[1].

٥ - ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ صيغتان من صيغ المبالغة لأن (فعال وفعيل) من صيغ المبالغة.

الفوَائِد: الفائدة الأولى: تقديم المفعول في قوله ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ واجب لاتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول، فلو قُدّم الفاعل لزم عود الضمير على متأخر لفظًا ورُتبةً قال ابن مالك:

وَشَاعَ نَحو خَافَ رَبَّهُ عُمَرْ ... وشَذَّ نَحوَ زَانَ نَوْرُهُ الشَّجَرْ[2]

الثانية: الاختبار في الأصل الامتحان بالشيء ليعلم صدق ذلك الشخص أو كذبه وهو مستحيل على الله لأنه عالم بذلك قبل الاختبار، فالمراد أنه عامله معاملة المختبر ليظهر ذلك للخلق.

الثالثة: اختلف المفسرون في الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام وأصح هذه الأقوال ما روي عن ابن عباس أنه قال: «الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه في الله

---

(١) «تفسير أبي السعود» ١/ ١٢٤.

(٢) (ش): (النَّوْرُ) بفتح النون، هو الزهر أو الأبيض منه. (وشَذَّ نَحْو زَانَ نَوْرُهُ الشَّجَر) أي شذ في كلامهم تقديم الفاعل المتصل بضمير المفعول المتأخر.

حين أمر بمفارقتهم، ومحاجة نمروذ في الله، وصبره على قذفهم إِياه في النار ليحرقوه، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه»[١] .

الرابعة: المراد من الإِمامة في الآية الكريمة «الإِمامة في الدين» وهي النبوة التي حرمها الظالمون، ولو كانت الإِمامة الدنيوية لخالف ذلك الواقع إِذ نالها كثير من الظالمين، فظهر أن المراد الإِمامة في الدين خاصة.

الخامسة: ذكر العلامة ابن القيم أن السرَّ في تفضيل البيت العتيق ظاهر في انجذاب الأفئدة، وهوى القلوب ومحبتها له، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهم يثوبون إِليه من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرًا، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقًا.

لا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْها حِينَ يُبْصِرُها حتَّى يَعودَ إليها الطَّرْفُ مشتاقا[٢]

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى مآثر الخليل إِبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقصة بنائه للبيت العتيق منار التوحيد، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشركين، وأكّد أنه لا يرغب عن ملته إِلا كل شقي سفيه الرأي، خفيف العقل، متبع لخطوات الشيطان.

اللغَة: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ امتهنها واستخفّ بها وأصل السفه: الخفة ومنه زمام سفيه، أي: خفيف ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ أي جعلناه صافيًا من الأدناس، مشتق من الصفوة ومعناه تخير الأصفى والمراد اصطفاؤه بالرسالة والخلَّة والإِمامة العظمى ﴿وَوَصَّىٰ﴾ التوصية: إِرشاد الغير إِلى ما فيه صلاح وقربة ﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شاهد أي حاضر ﴿خَلَتْ﴾ مضت وانقرضت.

التفسير: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي لا يرغب عن دين إِبراهيم وملته الواضحة الغراء إِلا من استخفّ نفسه وامتهنها ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإِمامة ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من المقربين الذين لهم الدرجات العلى ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي استسلم لأمر ربك وأخلصْ نفسك له

(١) «الدر المنثور» ١/ ١١.
(٢) «محاسن التأويل» ٢/ ٢٤٧.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي استسلمت لأمر الله وخضعتُ لحكمه ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي وصّى الخليل أبناءه باتباع ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي اختار لكم دين الإسلام دينًا وهذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهما ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ ؟ أي أيَّ شيء تعبدونه بعدي؟ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي لا نعبد إلا إلهًا واحدًا هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي نحن له وحده مطيعون خاضعون، والغرض تحقيق البراءة من الشرك. قال تعالى مشيرًا إلى تلك الذرية الطيبة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾ استفهام يراد به الإنكار والتقريع، وقع فيه معنى النفي أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفيه والجملة واردة مورد التوبيخ للكافرين.

٢ - التأكيد بـ «إنَّ» و «اللام» ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لأنه لما كان إخبارًا عن حالة مغيبة في الآخرة احتاجت إلى تأكيد بخلاف حال الدنيا فإنه معلوم ومشاهد.

٣ - ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ هو من باب الالتفات إذ السياق ﴿إِذْ قَالَ﴾ والالتفات من محاسن البيان، والتعرض بعنوان الربوبية ﴿رَبُّهُۥٓ﴾ لإظهار مزيد اللطف والإعتناء بتربيته كما أن جواب إبراهيم جاء على هذا المنوال ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقل: أسلمت لك للإيذان بكمال قوة إسلامه وللإشارة إلى أن من كان ربًّا للعالمين لا يليق إلا أن يُتلقّى أمرُه بالخضوع وحسن الطاعة.

٤ - قوله ﴿ءَابَآئِكَ﴾ شمل العم والأب والجد، فالجد إبراهيم والعم إسماعيل والأب إسحاق وهو من باب «التغليب» وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام.

فَائِدَة: قال أبو حيان: «كنّى بالموت عن مقدماته لأنه إذا حضر الموت نفسُه لا يقول المحتضر شيئًا، وفي قوله ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ كناية غريبة وهو أنه غائب ولا بدّ أن يقدم ولذلك يقال في الدعاء: واجعل الموت خير غائب ننتظره»[1].

تنبيه: ظاهر قوله تعالى ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ النهي عن الموت إلا على هذه

(١) «البحر المحيط» ١/ ٤٠١.

الحالة من الإسلام، والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت، أي فاثبتوا على الإسلام ولا تفارقوه أبدًا واستقيموا على محجته البيضاء حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل، كقولك: لا تصلّ إلا وأنت خاشع.

قال الله تعالى:

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ
ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ
ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً
عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا
تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي ملة الحنيفية السمحة، وأن من لم يؤمن بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة، ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية، وبيّن أن تلك الدعوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد جحود وعناد، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام، دين جميع الأنبياء والمرسلين.

اللغة: ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق، والحنفُ الميل وبه سمي الأحنف لميل في إحدى قدميه قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَكِنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا ... حَنِيفًا دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينِ[1]

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ جمع سِبْط وهم حفدةُ يعقوب أي ذريات أبنائه وكانوا اثني عشر سبطًا وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ﴿شِقَاقٍ﴾ الشقاق: المخالفة والعداوة وأصله من الشق وهو الجانب أي صار هذا في شق وهذا في شق ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ من الكفاية بمعنى الوقاية ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الصبغة مأخوذة من الصَّبْغ وهو تغيير الشيء بلونٍ من الألوان والمراد بها الدِّينُ ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا من المحاجّة وهي المجادلة ﴿مُخْلِصُونَ﴾ الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله وحده.

التفسير: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ أي قال اليهود كونوا على ملتنا يهودًا

(١) «الكشاف» ١/ ١٤٥.

تهتدوا وقال النصارى: كونوا نصارى تهتدوا فكلٌ من الفريقين يدعو إلى دينه المعوج ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد بل نتّبع ملة الحنيفية السمحة وهي ملة إبراهيم حال كونه مائلًا عن الأديان كلها إلى الدين القيم وما كان إبراهيم من المشركين بل كان مؤمنًا موحّدًا وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيذان بأنَّ ما هم عليه إنما هو شرك وضلال. ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي قولوا أيها المؤمنون: آمنا بالله وما أنزل إلينا من القرآن العظيم ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم من الصحف والأحكام التي كان الأنبياء متعبدين بها وكذلك حفدة إبراهيم وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعًا ونصدّق بما جاءوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي منقادون لأمر الله خاضعون لحكمه ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ أي إن آمن أهل الكتاب بنفس ما آمنتم به معشر المؤمنين فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك، وليسوا من طلب الحق في شيء ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي سيكفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو تعالى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب، ولا أحد أحسن من الله صبغةً أي دينًا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ أي ونحن نعبده جلّ وعلا ولا نعبد أحدًا سواه ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ أي أتجادلوننا في شأن الله زاعمين أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأن الأنبياء منكم دون غيركم؟ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي ربُّ الجميع على السواء وكلُّنا عبيده ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم لا يتحمل أحد وزر غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي قد أخلصنا الدين والعمل لله ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾؟ أي أم تدّعون يا معشر أهل الكتاب أن هؤلاء الرسل وأحفادهم كانوا يهودًا أو نصارى ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ أي أأنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ وقد شهد الله لهم بملة الإسلام وبرأهم من اليهودية والنصرانية.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٦٧] فكيف تزعمون أنهم على دينكم؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن أخفى وكتم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله، أو لا أحد أظلم ممن كتم ما

أخبر الباريءُ عنه من أن الأنبياء الكرام كانوا على الإسلام ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالهم ومجازيهم عليها وفيه وعيد شديد ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كرّرها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء -على فضلهم وجلالة قدرهم- يجازون بكسبهم فأنتم أحرى، وقد تقدم «تفسيره»ا فأغنى عن الإعادة(١).

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قال اليهود: كونوا يهودًا وقال النصارى: كونوا نصارى، وليس المعنى أن الفريقين قالوا ذلك لأن كل فريق يعدُّ دين الآخر باطلًا.

٢ - ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ﴾ فيه إيجاز ظاهر أن يكفيك الله شرهم، وتصدير الفعل بالسين دون سوف مشعر بأن ظهوره عليهم واقع في زمن قريب.

٣ - ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ من صيغ المبالغة ومعناه الذي أحاط سمعه وعلمه بجميع الأشياء.

٤ - ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ سمي الدين صبغةً بطريق الاستعارة حيث تظهر سِمتُه على المؤمن كما يظهر أثر الصبغ في الثوب(٢).

٥ - ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ الاستفهام وارد على جهة التوبيخ والتقريع.

الفوَائِد: الفائدة الأولى: تكرر ورود هذه الآية في مواطن من القرآن ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ قال أبو حيان: ولا تأتي الجملة إلا عقب ارتكاب معصية فتجيء متضمنة وعيدًا ومُعْلِمَةً أن الله لا يترك أمرهم سُدى(٣).

الثانية: قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: إنَّ النَّصَارَى كَانَ إذَا وُلِدَ لِأَحَدِهِمْ وَلَدٌ فَأَتَى عَلَيْهِ سَبْعَةُ أَيَّام، صَبَغُوهُ فِي مَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ له: الْمَعْمُودِيُّ، لِيُطَهِّرُوهُ بذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: هَذَا طَهُورٌ مَكَانَ الْخِتَانِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ قَالُوا: الْآنَ صَارَ نَصْرَانِيًا حَقًّا(٤)، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ(٥)(٦).

الثالثة: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا ﴿..وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾» . الآيَةَ . رواه البخاري.

---

(١) راجع تفسير الآية ١٣٤.

(٢) «تلخيص البيان» ص١١.

(٣) «البحر المحيط» ١/ ٤١٦.

(٤) (ش): في الأصل: فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ صَارَ نَصْرَانِيًّا حَقًّا، والتصحيح من «أسباب النزول» للواحدي.

(٥) (ش):أي قوله تعالى: صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً، وما رُوِيَ عن ابن عباس ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٦) «أسباب النزول» للواحدي ص٢٢.

قال الله تعالى:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

المناسَبَة: زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم والأنبياء معه كانوا يهودًا ونصارى وقد كانت قبلة الأنبياء بيت المقدس وكان صلوات الله عليه وهو بمكة يستقبل بيت المقدس فلما أُمر ﷺ بالتوجه إلى الكعبة المشرّفة طعن اليهود في رسالته واتخذوا ذلك ذريعة للنيل من الإسلام وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دين قومه، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء ولقّنه الحجة الدامغة ليردّ عليهم، ويوطّن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له عليه السلام.

اللغَة: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ضعيف الرأي، قليل المعرفة بالمنافع والمضار، وأصل السفه الخفة والرقة من قولهم: ثوب سفيه إذا كان خفيف النسيج ﴿وَلَّىٰهُمْ﴾ صرفهم يقال: ولّى عن الشيء وتولّى عنه، أي: انصرف ﴿وَسَطًا﴾ قال «الطبري»: الوسط في كلام العرب: الخيار وقيل: العدل[1]، وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلو والتقصير مذمومان ﴿عَقِبَيْهِ﴾ تثنية عقب وهو مُؤَخَّر القدم ﴿لَكَبِيرَةً﴾ شاقة وثقيلة ﴿شَطْرَ﴾ الشطر في اللغة يأتي بمعنى الجهة كقول الشاعر: تَعْدُو بنَا شَطْرَ نَجْدٍ وَهِيَ عَاقِدَةٌ، ويأتي بمعنى النصف ومنه الحديث «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ»[2].

سَبَبُ النّزول: عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يتوجَّهَ نحو الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، فَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ - وَهُمُ الْيَهُودُ - مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾[3] إلى آخر الآية، أخرجه البخاري.

التفسير: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي سيقول ضعفاء العقول من الناس ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ

(١) «مختصر «الطبري» ١/ ٥٥.

(٢) رواه مسلم.

(٣) «أسباب النزول» للواحدى ص ٢٣.

عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ أي ما صرفهم وحوّلهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس، قبلة المرسلين من قبلهم؟ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي قل لهم يا محمد: الجهات كلها لله له المشرق والمغرب فأينما ولينا وجوهنا فهناك وجه الله ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولًا خيارًا ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلّغتهم، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدّق الرسول، ممن يشكّك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي وإن كان هذا التحويل لشاقًّا وصعبًا إلا على الذين هداهم الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها، وذلك حين سألوه ﷺ عمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت، وقوله: تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للحكم أي: إنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه كثيرًا ما رأينا تردّد بصرك يا محمد جهة السماء تشوقًا لتحويل القبلة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي فلنوجهنك إلى قبلةٍ تحبها، - وهي الكعبة - قبلة أبيك إبراهيم ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي توجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضًا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي إن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حقٌّ من عند الله ولكنهم يفتنون الناس بإلقاء الشبهات ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها، وفيه وعيد وتهديد لهم.

البَلَاغَة: ١ - في قوله ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ استعارة تمثيلية حيث مثَّل لمن يرتد عن دينه بمن ينقلب على عقبيه. أفاده الإمام الفخر.

٢ - ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: شدة الرحمة وقدّم الأبلغ مراعاة للفاصلة وهي الميم في قوله ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كلاهما من صيغ المبالغة.

٣ - ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ أطلق الوجه وأراد به الذات كقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] وهذا النوع يسمى «المجاز المرسل» من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل[1].

---

(١) (ش): تأويلُ الوجهِ بالذاتِ تأويلٌ باطلٌ؛ لأنه نَفْيٌ لصفةٍ ثابتةٍ لله تعالى.

الفوَائِد: الأولى: أخرج البخاري في «صحيحه» أن رسول الله ﷺ قال: «يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلّغ» فذلك قوله عزَّ وَجلَّ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾ .

الثانية: سمى الله تعالى الصلاة «إيمانًا» في قوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ أي صلاتكم لأن الإيمان لا يتمُّ إلا بها، ولأنها تشتمل على نيةٍ وقولٍ وعمل.

الثالثة: في التعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين، لأن في إصابة عين الكعبة من البعيد حرجًا عظيمًا على الناس.

قال الله تعالى:

وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ
قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ
﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ
يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ
فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى ما قاله السفهاء من اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة، وأمر رسوله بأن يتوجه في صلاته نحو البيت العتيق، ذكر في هذه الآيات أن أهل الكتاب قد انتهوا في العناد والمكابرة إلى درجة اليأس من إسلامهم، فإنهم ما تركوا قبلتك لشبهة عارضة تزيلها الحجة، وإنما خالفوك عنادًا واستكبارًا، وفي ذلك تسلية له ﷺ من جحود وتكذيب أهل الكتاب.

اللغَة: ﴿ءَايَةٖ﴾ الآية: الحجة والعلامة ﴿أَهۡوَآءَهُم﴾ جمع هَوى مقصور، وهوى النفس: ما تحبه وتميل إليه ﴿ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ الامتراء: الشك، امترى في الشيء شك فيه ومنه المراء والمرْية ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ [الحج: ٥٥] أي: شك ﴿وِجۡهَةٌ﴾ قال الفراء: وجهة وجِهَة ووجه بمعنى واحد والمراد بها القِبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي هو مولّيها وجهه فاستغنى عن ذكر الوجه قال الفراء: أي مستقبلها ﴿فاستبقوا﴾ أي: بادروا وسارعوا ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ الأعمال الصالحة جمع خيْرة ﴿تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ تخافوهم والخشية: الخوف.

التفسير: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ أي والله لئن جئت

اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة ما اتبعوك يا محمد ولا صلّوا إلى قبلتك ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أي ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حوّلك الله عنها، وهذا لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود: لو ثبتَّ على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره تغريرًا له عليه السلام ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أي إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي ولئن فرض وقدّر أنك سايرتهم على أهوائهم، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي تكون ممن ارتكب أفحش الظلم، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير وإلا فحاشاه ﷺ من اتباع أهواء الكفرة المجرمين، وهو من باب التهييج للثبات على الحق. ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ أي يعرفون محمدًا معرفة لا امتراء فيها كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن جماعة منهم - وهم رؤساؤهم وأحبارهم - ليخفون الحق ولا يعلنونه ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت لديهم بأظهر النعوت ﴿الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فهم يكتمون أوصافه عن علم وعرفان ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة والدين هو الحق فلا تكوننَّ من الشاكّين، والخطاب للرسول والمراد أمته ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي لكل أمة من الأمم قبلةٌ هو مولّيها وجهه أي مائل إليها بوجهه فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي في أي موضع تكونون من أعماق الأرض أو قمم الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسامكم وأبدانكم ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام﴾ أي من أيّ مكان خرجت إليه للسفر فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تقدم «تفسيره» وكرّره لبيان تساوي حكم السفر والحضر. ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ هذا أمر ثالث باستقبال الكعبة المشرفة، وفائدة هذا التكرار أن القبلة كان أول ما نسخ من الأحكام الشرعية، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة قال تعالى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي عرّفكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود فيقولوا: يجحد ديننا ويتبع قبلتنا فيكون لهم حجة عليكم أو كقول المشركين: يدعى محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي إلا الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أيّ

تعليل فلا تخافوهم وخافوني ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أي أتمّ فضلي عليكم بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم والتوفيق لسعادة الدارين.

البَلَاغَة: ١ - وضْع اسم الموصول موضع الضمير في قوله ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للإيذان بكمال سوء حالهم من العناد[1].

٢ - ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ هذا من باب التهييج والإلهاب للثبات على الحق.

٣ - ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ﴾ هذه الجملة أبلغ في النفي من قوله ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ لأنها جملة اسمية أولًا ولتأكيد نفيها بالباء ثانيًا ذكره صاحب «الفتوحات الإلهية».

٤ - ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ فيه تشبيه «مرسل مفصل» أي يعرفون محمدًا معرفةً واضحة كمعرفة أبنائهم الذين من أصلابهم.

الفوَائِد: الأولى: روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمدًا كما تعرف ولدك؟ قال وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ولست أشك فيه أنه نبيٌّ، وأما ولدي فلا أدري ما كان من أمه فلعلها خانت، فقبّل عمر رأسه[2].

الثانية: توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه إلى غيرهم، ولهذا زاد الله في ذم أهل الكتاب بقوله ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فإنه ليس المرتكب ذنبًا عن جهل كمن يرتكبه عن علم.

الثالثة: تكرر الأمر باستقبال الكعبة ثلاث مرات قال «القرطبي»: والحكمة في هذا التكرار أن الأول لمن هو بمكة، والثاني لمن هو ببقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار[3].

قال الله تعالى:

كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ
وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

المناسَبَة: بدأت الآيات الكريمة بمخاطبة المؤمنين، وتذكيرهم بنعمة الله العظمى عليهم، ببعثة خاتم المرسلين ﷺ، بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل، وذكرت بالتفصيل نعم الله عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران فيما يزيد على ثلث السورة الكريمة، وقد

(١) (ش): أي ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بدلاً من (ولئن أتيتهم).
(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ١٤٠.، و«محاسن التأويل» ٢/ ٣٠٥.
(٣) «القرطبي» ٢/ ١٦٨.

عدّد القرآن الكريم جرائمهم ليعتبر ويتعظ بها المؤمنون، ولما انتهى الحديث عن اليهود بعد ذلك البيان الواضح جاء دون التذكير للمؤمنين بالنعم الجليلة والتشريعات الحكيمة التي بها سعادتهم في الدارين.

اللغَة: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن العظيم ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنّة النبوية ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور، وسُمّي الذكر باللسان ذكرًا لأنه علامة على الذكر القلبي ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ أصل البلاء المحنة، ثم قد يكون بالخير أو بالشر ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿مُّصِيبَةٌ﴾ المصيبة: كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه في نفسه أو ماله أو ولده ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ الأصل في الصلاة الدعاء وهي من الله بمعنى الرحمة ومن الملائكة بمعنى الاستغفار.

التفسير: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ الكلام متعلق بما سبق في قوله ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى﴾ [البقرة: ١٥٠] والمعنى كما أتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولًا منكم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يقرأ عليكم القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي يطهركم من الشرك وقبيح الفعال ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمكم أحكام الكتاب المجيد، والسنة النبوية المطهرة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة[1] ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي اشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروها بالجحود والعصيان، روي أن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني»[2] ثم نادى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ليستنهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلهية، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر والصلاة فالبصبر تنالون كل فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ» رواه البخاري ومسلم.

(٢) «ابن كثير المختصر» ١/ ١٤٢.

(ش): هذا الأثر لا يثبت عن النبي ﷺ، وقد ذكره المؤلف هنا بصيغة التمريض «رُوِيَ» التي تشير إلى ضعف الرواية. وقد ورد عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ مُوسَى عليه السلام قَالَ لِرَبِّهِ: أَيْ رَبِّ أَخْبِرْنِي كَيْفَ أَشْكُرُكَ. قَالَ لَهُ رَبُّهُ: تَذْكُرُنِي وَلا تَنْسَانِي، فَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَقَدْ شَكَرْتَنِي. (رواه ابن أبي حاتم الرازي في «تفسيره»).

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٥) قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَنَّ مُوسَى عليه السلام قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَشْكُرُكَ؟ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: تذكرُني وَلَا تَنْسَانِي، فَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَقَدْ شَكَرْتَنِي، وَإِذَا نَسِيتَنِي فَقَدْ كَفَرْتَنِي.

وزيد بن أسلم هو مولى عمر بن الخطاب، روى عَن أنس وَجَابِر بن عبد الله وَسَلَمَة بن الْأَكْوَع وَابْن عمر وَأبي هُرَيْرَة وَعَائِشَة، وهو فقيه مفسر، من أهل المدينة. كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته. وكان ثقة، توفي سنة ١٣٦هـ. فبينه وبين موسى عليه السلام مفاوز.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي معهم بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ﴾ أي لا تقولوا للشهداء: إنهم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ أي بل هم أحياء عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك، لأنهم في حياةٍ برزخية أسمى من هذه الحياة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ولنختبرنكم بشيءٍ يسير من ألوان البلاء مثل الخوف والجوع، وذهاب بعض الأموال، وموت بعض الأحباب، وضياع بعض الزروع والثمار ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي بشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم ثم بيّن تعالى تعريف الصابرين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد الله يفعل بهم ما يشاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله، وهم المهتدون إلى طريق السعادة.

البَلاَغَة: ١ - بين كلمتي ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿رَسُولًا﴾ جناس الاشتقاق وهو من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ بعد قوله ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول ويسمى هذا في البلاغة بـ (الإطناب) .

٣ - ﴿أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي لا تقولوا هم أموات بل هم أحياء (وبينهما طباق) .

٤ - التنكير في قوله ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ للتقليل أي بشيء قليل.

٥ - ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ التنوين فيهما للتفخيم، والتعرض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ﴿رَّبِّهِمْ﴾ لإظهار مزيد العناية بهم.

٦ - ﴿هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ صيغة قصر وهو من نوع قصر الصفة على الموصوف.

الفوائِد: الأولى: روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «ما أصابتني مصيبة إلا وجدتُ فيها ثلاث نعم: الأولى: أنها لم تكن في ديني، الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة: أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير ثم تلا قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ » .

الثانية: قال ﷺ «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون حَمِدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسمُّوه بيتَ الحمد»[1] .

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾

المنَاسَبَة: لما أمر تعالى بذكره وشكره ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، أعقب ذلك ببيان أهمية الحج وأنه من شعائر دين الله، ثم نبّه تعالى على وجوب نشر العلم وعدم كتمانه، وذكر خطر كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم فاستحقوا اللعنة والغضب والدمار.

اللغَة: ﴿شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ جمع شعيرة وهي في اللغة: العلامة ومنه الشِّعار، وأشعر الهَدْي جعل له علامة ليعرف بها، والشعائر: كلُّ ما تعبّدنا الله به من أمور الدين كالطواف والسعي والأذان ونحوه. ﴿حَجَّ﴾ الحجُّ في اللغة: القصد، وفي الشرع: قصد البيت العتيق لأداء المناسك من الطواف والسعي ﴿ٱعۡتَمَرَ﴾ العمرة في اللغة: الزيارة ثم صار علمًا لزيارة البيت للنُّسك ﴿جُنَاحَ﴾ الجُناح: الميل إلى الإثم وقيل: هو الإثم نفسه سمي به لأنه ميل إلى الباطل يقال: جنح إلى كذا إذا مال قال ابن الأثير .. وأينما ورد فمعناه الإثم والميل ﴿يَكۡتُمُونَ﴾ الكتمان: الإخفاء والستر ﴿يُنظَرُونَ﴾ يُمهلون.

التفسير: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾ اسم الجبلين بمقربة من البيت الحرام ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي من أعلام دينه ومناسكه التي تعبدنا الله بها ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ﴾ أي من قصد بيت الله للحج أو قصده للزيارة بأحد النسكين «الحج» أو «العمرة» ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالأصنام، فاسعوا أنتم لله رب العالمين، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا﴾ أي من تطوّع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه، أو فعل خيرًا فرضًا كان أو نفلًا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه شاكرٌ له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء، لأنه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ أي يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية كقوله: تعالى ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي أولئك الموصوفون

بقبيح الأعمال، الكاتمون لأوصاف الرسول، المحرّفون لأحكام التوراة يلعنهم الله فيبعدهم من رحمته، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي إلا الذين ندموا على ما صنعوا، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان، وبينوا للناس حقيقة ما أنزل الله فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم، أصفح عما فرط منهم من السيئات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي كفروا بالله واستمرّوا على الكفر حتى داهمهم الموت وهم على تلك الحالة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ أي يلعنهم الله وملائكته وأهل الأرض جميعًا، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضًا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي خالدين في النار - وفي إضمارها تفخيم لشأنها - ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع لا يخف عنهم طرفة عين ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥] ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي ولا يمهلون أو يؤجلون بل يلاقيهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا.

سَبَبُ النّزول: عن أنسٍ ﵁ أنه سئل عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ (١).

البَلاَغَة: ١ - ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي من شعائر دين الله ففيه إيجاز بالحذف.

٢ - ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي يثيب على الطاعة قال أبو السعود: عبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان على العباد فأطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز(٢).

٣ - ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ الأصل «نلعنهم» ولكن في إظهار الاسم الجليل ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلقاء الروعة والمهابة في القلب.

٤ - ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ فيه جناس الاشتقاق. وهو من المحسنات البديعية.

٥ - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة أو في النار وأضمرت النار تفخيمًا لشأنها وتهويلًا لأمرها.

٦ - ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ إيثار الجملة الإسمية لإفادة دوام النفي واستمراره.

الفوَائِد: الأولى: كان على الصفا صنم يقال له: «إِساف» وعلى المروة صنم يقال له: «نائلة» فكان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما فخشي المسلمون أن يتشبهوا بأهل الجاهلية ولذلك تحرجوا من الطواف لهذا السبب فنزلت الآية تبين أنهما من شعائر الله وأنه لا حرج عليهم في السعي بينهما فالمسلمون يسعون لله لا للأصنام.

الثانية: الشكر معناه مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان، وهذا المعنى محالٌ على الله إذ ليس لأحد عنده يدٌ ونعمة حتى يشكره عليها ولهذا حمله العلماء على الثواب والجزاء أي

---

(١) أخرجه البخاري، وانظر «الدر المنثور» للسيوطي ١/ ١٥٩. (ش): (رواه البخاري ومسلم).

(٢) (ش): الشاكر والشكور، من أسماء الله تعالى.

إنه تعالى يثيبه ولا يضيع أجر العاملين. أقول: والصحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت، فهو شكر يليق بجلاله وكماله[(١)].

قال الله تعالى:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة، ذكر هنا أدلة القدرة والوحدانية، وأتى بالبراهين على وجود الخالق الحكيم، فبدأ بذكر العالم العلوي ثم العالم السفلي، ثم بتعاقب الليل والنهار، ثم بالسفن التي تمخر عباب البحار، ثم بالأمطار التي فيها حياة الزروع والنفوس، ثم بما بث في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله لفائدة الإنسان وختم ذلك بالأمر بالتفكر في بدائع صنع الله، وإعمال العقل في جميل خلقه، ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبّر الحكيم.

اللغَة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ الإله: المعبود بحِق أو باطل والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين ﴿وَالْفُلْكِ﴾ ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع ﴿وَبَثَّ﴾ فرّق ونشر ومنه ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] ﴿دَابَّةٍ﴾ الدابة في اللغة: كل ما يدِب على الأرض من إنسانٍ وحيوان مأخوذ من الدبيب وهو المشي رويدًا وقد خصّه العرف بالحيوان، ويدل على المعنى اللغوي قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن

---

(١) (ش): الشاكر والشكور، من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامتثل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطًا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق. ثم بعد ذلك، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملا موفرًا، لم تنقصه هذه الأمور. ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئا لله أعاضه الله خيرا منه، ومن تقرب منه شبرا، تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا؛ تقرب منه باعًا، ومن أتاه يمشي؛ أتاه هرولة، ومن عامله؛ ربح عليه أضعافًا مضاعفة. ومع أنه شاكر، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد، فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖ﴾ [النور: ٤٥] فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ الرِّيَاح: جمع ريح وهي نسيم الهواء، وتصريفُها تقليبها في الجهات ونقلها من حال إلى حال، فتهب حارة وباردة، وعاصفة ولينة، وملقحة للنبات وعقيمًا ﴿ٱلۡمُسَخَّرِ﴾ من التسخير وهو التذليل والتيسير ﴿أَندَادٗا﴾ جمع نِدّ وهو المماثل والمراد بها الأوثان والأصنام ﴿ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ جمع سبب وأصله الحبل والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصداقة ﴿كَرَّةٗ﴾ الكرَّة: الرَّجعة والعودة إلى الحالة التي كان فيها ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ جمع حسْرة وهي أشد الندم على شيء فائت وفي التنزيل ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

سَبَبُ النّزول: عن عطاء قال: أنزلت بالمدينة على النبي ﷺ ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ﴾ فقالت كفار قريش بمكة: كيف يسعُ الناس إلهٌ واحد؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ... إلى قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[1].

التفسير: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إلهٌ واحد، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا مولي النعم ومصدر الإحسان[2] ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي إن في إبداع السماوات والأرض بما فيهما من عجائب الصنعة ودلائل القدرة ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم، يأتي الليل فيعقبه النهار، وينسلخ النهار فيعقبه الليل، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي موقرةٌ بالأثقال ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ﴾ أي وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي جاء به حياة البلاد والعباد ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ أي نشر وفرّق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها جنوبًا وشمالًا، حارة وباردة، وليّنة وعاصفة ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي السحاب المذلّل بقدرة الله، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبُّه على الأرض قطرات قطرات، قال كعب

(١) «أسباب النزول» للواحدى ص ٢٥، و«القرطبي» ٢/ ١٩١. (ش): أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، والواحدي في «أسباب النزول» بسند ضعيف.

(٢) (ش): الرحمن الرحيم: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء. والنعم كلها من آثار رحمته.

الأحبار: السحاب غِربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض[١] ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي وأبصار تدرك، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إِله قادر حكيم ثم أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أندادًا أي رؤساء وأصنامًا ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي حب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعدّ لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي وأنَّ عذاب الله شديد أليم وجواب «لو» محذوف أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أي تبرأ الرؤساء من الأتباع ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ أي حين عاينوا العذاب وتقطعت بينهم الروابط وزالت المودّات ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾ أي تمنّى الأتباع لو أنّ لهم رجعة إِلى الدنيا ليتبرءوا من هؤلاء الذين أضلوهم السبيل ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب.. قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي إنه تعالى كما أراهم شدة عذابه كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسرات تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي ليس لهم سبيل إِلى الخروج من النار، بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ورد الخبر خاليًا من التأكيد تنزيلًا للمنكر منزلة غير المنكر، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإِقناع.

٢ - ﴿لَآيَٰتٍ﴾ التنكير في آيات للتفخيم أي آيات عظيمة دالة على قدرة قاهرة وحكمة باهرة.

٣ - ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ فيه تشبيه (مرسل مجمل) حيث ذكرت الأداة وحذف وجه التشبيه.

٤ - ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ التصريح بالأشدّية أبلغ من أن يقال «أحبُّ لله» كقوله: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] مع صحة أن يقال: أو أقسى.

٥ - ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير ﴿إِذۡ يَرَوۡنَ﴾ لإِحضار الصورة في ذهن السامع وتسجيل السبب في العذاب الشديد وهو الظلم الفادح.

٦ - في قوله ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ و﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ من علم البديع ما يسمى بـ «الترصيع» وهو أن يكون الكلام مسجوعًا.

---

(١) «البحر المحيط» ١/ ٤٦٧.

٧ - ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الجملة إسمية وإيرادها بهذه الصيغة لإفادة دوام الخلود.

الفوَائِد: الأولى: ذكر تعالى في الآية من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع تنبيهًا على ما فيها من العبر واستدلالًا على الوحدانية من الأثر، الأول: خلق السماوات وما فيها من الكواكب والشمس والقمر، الثاني: الأرض وما فيها من جبال وبحار وأشجار وأنهار ومعادن وجواهر، الثالث: اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان، الرابع: السفن العظيمة كأنها الراسيات من الجبال وهي موقرة بالأثقال والرجال تجري بها الريح مقبلة ومدبرة، الخامس: المطر الذي جعله الله سببًا لحياة الموجودات من حيوان ونبات وإنزاله بمقدار، السادس: ما بثّ في الأرض من إنسان وحيوان مع اختلاف الصور والأشكال والألوان، السابع: تصريف الرياح والهواءُ جسم لطيفٌ وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الصخر والشجر ويخرب البنيان العظيمة وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفة عين لَمَاتَ كل ذي روح وأنْتَنَ ما على وجه الأرض، الثامن: السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية الكبيرة يبقى معلقًا بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده فسبحان الواحد القهار.

الثانية: ورد لفظ الرياح مفردة ومجموعة، فجاءت مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨] وقوله: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وروي أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبت الريح «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»[١].

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾
إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟
بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا
يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

---

(١) (ش): رواه الطبراني، وضعفه الألباني.

المناسَبَة: لمّا بيّن تعالى التوحيد ودلائله، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصين، أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن، ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام، لأنه تعالى رب العالمين، فإحسانه عام لجميع الأنام دون تمييز بين مؤمن وكافر وبرٍّ وفاجر، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم جلَّ وعلا والأكل من الطيبات التي أباحها الله، واجتناب ما حرّمه الله من أنواع الخبائث.

اللغَة: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ جمع خُطوة وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي وتستعمل مجازًا في تتبع الآثار ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أصل السُّوء ما يسوء الإنسان أي يحزنه، ويطلق على المعصية قولًا أو فعلًا أو اعتقادًا لأنها تسوء صاحبها أي تحزنه في الحال أو المآل ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ ما يستعظم ويستفحش من المعاصي فهي أقبح أنواع المعاصي ﴿أَلۡفَيۡنَا﴾ وجدنا ومنه ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا﴾ [يوسف: ٢٥] و﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ﴾ [الصافات: ٦٩] أي وجدوا ﴿يَنۡعِقُ﴾ يصيح يقال: نعق الراعي بغنمه ينعِق نعيقًا إذا صاح بها وزجرها. قال الأخطل:

فَانْعَقْ بِضَأْنِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا ... مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَا

﴿أُهِلَّ﴾ الإهلال: رفع الصوت يقال: أهلَّ المحرم إذا رفع صوته بالتلبية، ومنه إهلال الصبي وهو صياحه عند الولادة، وكان المشركون إذا ذبحوا ذكروا اللات والعزَّى ورفعوا بذلك أصواتهم ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ أُلجئ أي ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات ﴿بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ الباغي من البغي والعادي من العدوان، وهما بمعنى الظلم وتجاوز الحدّ ﴿يُزَكِّيهِمۡ﴾ يطهرهم، من التزكية وهي التطهير ﴿شِقَاقٖ﴾ الشقاق: الخلاف والعداوة.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ الخطاب عام لجميع البشر أي كلوا ممّا أحله الله لكم من الطيبات حال كونه مستطابًا في نفسه غير ضار بالأبدان والعقول ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي لا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ أي إنه عظيم العداوة لكم وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي لا يأمركم الشيطان بما فيه خير إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات وما تناهى في القبح من الرذائل ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل لكم وتحليل ما حرّم عليكم فتحلوا وتحرّموا من تلقاء أنفسكم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا قيل للمشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، قال تعالى في الردّ عليهم: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ أي أيتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء، ثم ضرب تعالى مثلًا للكافرين في غاية

الوضوح والجلاء فقال تعالى ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ أي ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد، أو تدرك المعنى الذي يقال لها، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون، يسمعون القرآن ويصمّون عنه الآذان ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] ولهذا قال تعالى ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي صمٌّ عن سماع الحق، بكم أي خرسٌ عن النطق به، عُمْيٌ عن رؤيته؛ فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالدواب فهم في ضلالهم يتخبطون. وخلاصة المثل – والله أعلم – مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى وهو خلاصة قول ابن عباس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ خاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالتوجيهات الربانية. والمعنى كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى إن كنتم تخصونه بالعبادة ولا تعبدون أحدًا سواه ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ أي ما حرّم عليكم إلا الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي وما ذبح للأصنام فذكر عليه اسم غير الله كقوله:م باسم اللات والعزّى ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شيء من المحرمات بشرط ألا يكون ساعيًا في فساد، ولا متجاوزًا مقدار الحاجة ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي فلا عقوبة عليه في الأكل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي يغفر الذنوب ويرحم العباد ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي يخفون صفة النبي عليه السلام المذكورة في التوراة وهم اليهود قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي يأخذون بدله عوضًا حقيرًا من حطام الدنيا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ أي إنما يأكلون نارًا تأجّج في بطونهم يوم القيامة لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النار ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلام رضى كما يكلم المؤمنين بل يكلمهم كلام غضب كقوله: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي لايطهرهم من دنس الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي عذاب مؤلم وهو عذاب جهنم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي أخذوا الضلالة بدل الهدى والكفر بدل الإيمان ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ أي واستبدلوا الجحيم بالجنة ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي ما أشدَّ صبرهم على نار جهنم؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي ثم قال تعالى مبينًا سبب النكال والعذاب ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه ﴿التوراة﴾

ببيان الحق فكتموا وحرّفوا ما فيه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي اختلفوا في تأويله وتحريفه ﴿لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ أي في خلاف بعيد عن الحق والصواب، مستوجب لأشدّ العذاب.

سَبَبُ النّزول: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد وأمر شرائعه فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [١] الآية[٢].

البَلَاغَة: ١ - ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ استعارة عن الاقتداء به واتباع آثاره قال في «تلخيص البيان»: وهي أبلغ عبارة عن التحذير من طاعته فيما يأمر به وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله[٣].

٢ - ﴿بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ هو من باب «عطف الخاص على العام» لأن السوء يتناول جميع المعاصي، والفحشاء أقبح وأفحش المعاصي.

٣ - ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه تشبيه (مرسل ومجمل) مرسل لذكر الأداة ومجمل لحذف وجه الشبه فقد شبه الكفار بالبهائم التي تسمع صوت المنادي دون أن تفقه كلامه وتعرف مراده.

٤ - ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ حذفت أداة الشبه ووجه الشبه فهو «تشبيه بليغ» أي هم كالصم في عدم سماع الحق وكالعمي وكالبكم في عدم الانتفاع بنور القرآن.

٥ - ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يؤول إليه أي إنما يأكلون المال الحرام الذي يفضي بهم إلى النار. وقوله: ﴿فِي بُطُونِهِمۡ﴾ زيادة تشنيع وتقبيح لحالهم وتصويرهم بمن يتناول رضف جهنم، وذلك أفظع سماعًا وأشد إيجاعًا.

٦ - ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ استعارة والمراد استبدلوا الكفر بالإيمان وقد تقدّم في أول السورة إجراء هذه الاستعارة.

الفوَائِد: الأولى: عن ابن عباس قال: تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة! فقال: «يا سعد؛ أطبْ مطعمَك تكنْ مستجابَ الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبَّلُ منه أربعين يومًا، وأيمّا عبدٍ نبت لحمه من السُّحتِ والربا فالنارُ أولى به» [٤] [٥].

---

(١) الفخر الرازي ٥/ ٢٨.

(٢) (ش): موضوع، أخرجه الثعلبي، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» معلقًا.

(٣) «تلخيص البيان» ص ١١.

(٤) أخرجه الحافظ ابن مردويه.

(٥) (ش): أخرجه الطبراني، وضعفه الألباني. ويُغني عنه قوله ﷺ: كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به، (رواه أبو نُعيم في «الحلية» وأحمد في «الزهد» وصححه الألباني). وحديث أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: =

الثانية: قال بعض السلف: «يدخل في اتباع خطواتِ الشيطان كلُّ معصية لله، وكل نذرٍ في المعاصي قال الشعبي: نذر رجلٌ أن ينحر ابنه فأفتاه مسروقٌ بذبح كبش وقال: هذا من خطوات الشيطان»(١) .

الثالثة: قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» عن قوله تعالى ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ قال: لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرّق، فإن جعلته من المركب كان تشبيهًا للكفار - في عدم فقههم وانتفاعهم - بالغنم التي ينعق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئًا غير الصوت المجرّد الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرّق: فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق. والله أعلم.

قال الله تعالى:

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾
وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾
كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾
فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

المناسَبَة: من هنا بداية النصف الثاني من السورة الكريمة على وجه التقريب، ونصف السورة السابق كان متعلقًا بأصول الدين وبقبائح بني إسرائيل، وهذا النصف غالبه متعلق بالأحكام التشريعية الفرعية، ووجه المناسبة أنه تعالى ذكر في الآية السابقة أنّ أهل الكتاب

= «إنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاَّ طيِّبًا، وإنَّ اللهَ تَعَالَى أمَرَ المُؤْمِنينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثُمَّ ذكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ: أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يمُدُّ يدَيْهِ إلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بالحَرَام، فأنَّى يُستَجَابُ لِذلكَ؟» (رواهُ مُسلمٌ).

(١) «محاسن التأويل» ٣/ ٣٦٨. (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

اختلفوا في دينهم اختلافًا كبيرًا صاروا بسببه في شقاق بعيد، ومن أسباب شقاقهم أمر القبلة إذ أكثروا الخوض فيه وأنكروا على المسلمين التحول إلى استقبال الكعبة، وادّعى كلٌّ من الفريقين - اليهود والنصارى - أن الهدى مقصور على قبلته، فردّ الله عليهم بيَّن أن العبادة الحقة وعمل البرّ ليس بتوجه الإنسان جهة المشرق والمغرب، ولكن بطاعة الله وامتثال أوامره وبالإيمان الصادق الراسخ.

اللغَة: ﴿ٱلْبِرَّ﴾ اسم جامع للطاعات وأعمال الخير ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ جمع رقبة وهي في الأصل العُنقُ، وتطلق على البدن كله كما تطل العين على الجاسوس والمراد في الآية الأسرى[1] والأرِقَاء ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾ الفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ السقم والوجع ﴿ٱلْبَأْسِ﴾ القتال وأصل البأس في اللغة: الشدّة ﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿ٱلْقِصَاصُ﴾ العقوبة بالمثل من قتل أو جرح مأخوذ من القصّ وهو تتبع الأثر ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] اتبعي أثره ﴿ٱلْقَتْلَى﴾ جمع قتيل يستوي فيه المذكر والمؤنث يقال: رجل قتيل وامرأة قتيل ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقول جمع لب مأخوذ من لبّ النخلة ﴿إِثْمًا﴾ الإثم: الذنب ﴿جَنَفًا﴾ الجنف: العدول عن الحق على وجه الخطأ.

سَبَبُ النّزول: عن قتادة أن أهل الجاهلية كان فيهم بغيٌ وطاعةٌ للشيطان، وكان الحيُّ منهم إذا كان فيهم منعة فقتل عبدُهم عبد آخرين قالوا لن نقتل به إلا حرًا، وإذا قتلت امرأةٌ منهم امرأةً من آخرين قالوا: لن نقتل بها إلا رجلًا فأنزل الله ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [2].

التفسير: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي ليس فعلُ الخير وعملُ الصالح محصورًا في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق والمغرب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي ولكنَّ البرَّ الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي وأن يؤمن بالملائكة والكتب والرسل ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي أعطى المال على محبته له ذوي قرابته فهم أولى بالمعروف ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وأعطى المال أيضًا لليتامى الذين فقدوا آباءهم والمساكين الذين لا مال لهم، وابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي الذين يسألون المعونة بدافع الحاجة وفي تخليص الأسرى والأرِقَّاء بالفداء ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي وأتى

---

(١) (ش): أي الأسرى من المسلمين.

(٢) «الدر المنثور» ١/ ١٧٣. (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، والبيهقي في «السنن الكبرى».
وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: كان قبلكم يقتلون القاتل بالقتيل لا تقبل منه الدية؛ فأنزل الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ إلى آخر الآية: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فخفف عنكم ما كان على من قبلكم؛ أي: الدية لم تكن تقبل، فالذي يقبل الدية؛ فذلك عفو؛ فاتباع بالمعروف، ويؤدي إليه الذي عفي من أخيه بإحسان. (أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، وابن حبان في «صحيحه» بسند حسن).

بأهم أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ أي ومن يوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي الصابرين على الشدائد وحين القتال في سبيل الله، وهو منصوب على المدح ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى، وفي الآية ثناء على الأبرار وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيراتٍ حسان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دون بغي أو عدوان ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي اقتصوا من الجاني فقط فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى، مثلًا بمثل ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم واعتداء ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ أي فمن تُرك له من دم أخيه المقتول شيء، بأن ترك وليُّه القَوَد[1] وأسقط القصاص راضيًا بقبول الدية ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي فعلى العافي اتباعٌ للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنفٍ ولا إرهاق، وعلى القاتل أداءٌ للدية إلى العافي – ولي المقتول – بلا مطل ولا بخس ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم ورحمة منه بكم، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفع لأولياء القتيل وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة، فجعل القصاص حقًا لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية فله عذاب أليم في الآخرة ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ولكم – يا أولي العقول – فيما شرعت من القصاص حياةٌ أيُّ حياة لأنه من علم أنه إذا قتل نفسًا قُتل بها يرتدع وينزجر عن القتل، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله وبذلك تُصان الدماء وتحفُظ حياة الناس ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي فرض عليكم إذا أشرف أحدكم على الموت وقد ترك مالًا كثيرًا ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي وجب عليه الإيصاء للوالدين والأقربين ﴿بالمعروف حَقًّا عَلَى المتقين﴾ أي بالعدل بأن لا يزيد على الثلث وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء، حقًا لازمًا على المتقين لله. وقد كان هذا واجبًا قبل نزول آية المواريث ثم نسخ بآية المواريث ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ أي من غيَّر هذه الوصية بعد ما علمها من وصيّ أو شاهد ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ أي إثم هذا التبديل على الذين بدّلوه لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه وعيد شديد للمبدِّلين ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ أي فمن علم أو ظنَّ

(١) (ش): الْقَوَدُ: الْقِصَاص.

من الموصِي ميلًا عن الحق بالخطأ ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ أي: ميلًا عن الحق عمدًا ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ أي أصلح بين الموصِي والموصَى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإِصلاح.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ﴾ جعل البرُّ نفس من آمن على طريق المبالغة وهذا معهود في كلام البلغاء إِذ تجدهم يقولون: السخاء حاتم، والشعر زهيرٌ أي: إن السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير، وعلى هذا خرّجه سيبويه حيث قال في كتابه قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ﴾ وإِنما هو ولكنَّ البر برُّ من آمن بالله انتهى[1] ونظير ذلك أن تقول: ليس الكرم أن تبذل درهمًا ولكنَّ الكرم بَذْلُ الآلاف، فلا يناسب: «ولكنَّ الكريم من يبذل الآلاف».

٢ - ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ إِيجاز بالحذف أي وفي فك الرقاب يعني فداء الأسرى، وفي لفظ الرقاب «مجاز مرسل» حيث أطلق الرقبة وأراد به النفس وهو من إِطلاق الجزء وإِرادة الكل.

٣ - ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ الأصل أن يأتي مرفوعًا كقوله: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ﴾ وإِنما نصب على الاختصاص أي وأخصُّ بالذكر الصابرين وهذا الأسلوب معروف بين البلغاء فإِذا ذُكرت صفاتٌ للمدح أو الذم وخولف الإِعراب في بعضها فذلك تفننٌ ويسمى قطعًا لأن تغيير المألوف يدل على مزيد اهتمام بشأنه وتشويق لسماعه.

٥ - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ الجملة جاء الخبر فيها فعلًا ماضيًا «صدقوا» لإِفادة التحقيق وأن ذلك وقع منهم واستقر، وأتى بخبر الثانية جملة اسمية ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ ليدل على الثبوت وأنه ليس متجددًا بل صار كالسجية لهم ومراعاة للفاصلة أيضًا.

٦ - ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ذكر المتقين من باب الإِلهاب والتهييج.

٧ - الطباق بين ﴿فَٱتِّبَاعُۢ﴾ و﴿وَأَدَآءٌ﴾ وبين ﴿ٱلۡحُرُّ﴾ و﴿وَٱلۡعَبۡدُ﴾ .

الفوَائِد: الأولى: في ذكر الأخوة تعطف داع إِلى العفو فقد سمّى الله القاتل أخًا لولي المقتول ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ تذكيرًا بالأخوَّة الدينية والبشرية حتى يهزّ عطف كل واحد منهما إِلى الآخر فيقع بينهم العفو والاتباع بالمعروف والأداء بالإِحسان.

الثانية: كان في بني إِسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية، وكان في النصارى الدية ولم يكن فيهم القصاص، فأكرم الله هذه الأمة المحمدية وخيّرها بين القصاص والدية والعفو، وهذا من يسر الشريعة الغراء التي جاء بها سيِّد الأنبياء ﷺ .

الثالثة: اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ بالغة أعلى درجات البلاغة، ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم: القتل أنفى للقتل، ولكنْ لورود الحكمة في القرآن فضلٌ من ناحية حسن البيان، وإِذا شئتَ أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته

---

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٣.

على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر فانظر إلى العبارتين فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق. أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاصَ وهو القتل عقوبةً على وجه التماثل، والمثل العربي جعل سبب الحياة القتل، ومن القتل ما يكون ظلمًا فيكون سببًا للفناء. وتصحيحُ العبارة أن يقال: القتل قصاصًا أنفى للقتل ظلمًا، والآية جاءت خالية من التكرار اللفظي والمثل كرر فيه لفظ القتل فمسَّه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية، ومن الفروق الدقيقة بينهما أن الآية جعلت القصاص سببًا للحياة والمثل جعل القتل سببًا لنفي القتل وهو لا يستلزم الحياة إلخ. وقد عدّ العلماء عشرين وجهًا من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية وقد ذكرها السيوطي في «الإتقان» فارجع إليه تجد فيه شفاء الغليل.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾
أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ
فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ
رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ
ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا
يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ
﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ
بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ
لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ
مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ
إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

المناسَبَة: ذكر تعالى في الآيات السابقة حكم القصاص ثم عقبه بحكم الوصية للوالدين والأقربين، ثم بأحكام الصيام على وجه التفصيل لأن هذا الجزء من السورة الكريمة يتناول جانب الأحكام التشريعية، ولما كان الصوم من أهم الأركان ذكره الله تعالى هنا ليهيئ عباده إلى منازل القدس ومعارج المتقين الأبرار.

اللغَة: ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ في اللغة: الإمساك عن الشيء قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم قَالَ الشَّاعِرُ:

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا[١]

وفي الشرع: الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في النهار مع النيّة ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي يصومونه بعسر ومشقة قال الراغب: الطاقة اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله مع المشقة وشبِّه بالطوق المحيط بالشيء[٢] ﴿فِدْيَةٌ﴾ ما يفدي به الإنسان نفسه من مالٍ وغيره ﴿شَهْرُ﴾ من الاشتهار وهو الظهور ﴿رَمَضَانَ﴾ من الرّمض وهو شدة الحر والرمضاء شدة حر الشمس وسمي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ الجماع ودواعيه وأصله قولُ الفحش ثم كنّي به عن الجماع قَالَ الشَّاعِرُ:

وَيُرَيْنَ مِنْ أُنْسِ الْحَدِيثِ زَوَانِيَا وَبِهِنَّ عَنْ رَفَثِ الرِّجَالِ نِفَارٌ[٣]

﴿تَخْتَانُونَ﴾ قال في اللسان: خانه واختانه والمخانة مصدر من الخيانة وهي ضد الأمانة وسئل بعضهم عن السيف فقال: أخوك وإن خانك ﴿عَٰكِفُونَ﴾ الإعتكاف في اللغة: اللبث والزوم، وفي الشرع: المكث في المسجد للعبادة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الحدّ في اللغة: المنع وأصله الحاجز بين الشيئين المتقابلين، وسميت الأحكام حدودًا لأنها تحجز بين الحق والباطل.

سَبَبُ النّزول: روي أن جماعة من الأعراب سألوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ الآية[٤].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويُذْكي فيهم جَذْوة الإيمان ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام﴾ أي فرض عليكم صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي كما فرض على الأمم قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتكونوا من المتقين لله المجتنبين لمحارمه ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي والصيام أيامه معدودات وهي أيام قلائل، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفًا ورحمةً بكم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي من كان به مرضٌ أو كان مسافرًا فأفطر فعليه قضاء عدة ما أفطر من أيام غيرها ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخةٍ أو ضعفٍ إذا أفطروا فعليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ ثم قال تعالى ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون

---

(١) (ش): خَيْلٌ صِيَامٌ: أَيْ خَيْلٌ ثَابِتَةٌ مُمْسِكَةٌ عَنِ الْجَرْيِ وَالْحَرَكَةِ. وعَلَكَ الفرسُ اللجام: أي مضَغَه وعَضَّه.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣١٢.

(٣) (ش): نِفار: ابتعاد، إعراض، وصدود.

(٤) (ش): أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، وابن جرير في «جامع البيان» وضعّفه الحافظ ابن حجر والشيخ أحمد شاكر.

ما في الصوم من أجر وفضيلة، ثم بيّن تعالى وقت الصيام فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان الذي ابتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي من حضر منكم الشهر فليصمه ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي ومن كان مريضًا أو مسافرًا فأفطر فعليه صيام أيام أخر، وكرّر لئلا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي ولتكملوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي ولتحمدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه.. ثم بيّن تعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعين ويقضي حوائج السائلين فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ أي أنا معهم أسمع دعاءهم، وأرى تضرعهم وأعلم حالهم كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان وخشوع قلب ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين. . ثم شرع تعالى في بيان تتمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء فقال ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ أي أبيح لكم أيها الصائمون غشيان النساء في ليالي الصوم ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ قال ابن عباس: هنّ سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهن ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرمًا في صدر الإسلام ثم نسخ، روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي فقبل توبتكم وعفا عنكم لما فعلتموه قبل النسخ ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن الولد ولا تباشروهن لقضاء الشهوة فقط ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي كلوا واشربوا إلى طلوع الفجر ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي أمسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي لا تقربوهن ليلًا أو نهارًا ما دمتم معتكفين في المساجد ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يتقون المحارم.

البَلاَغَة: ١ - ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ التشبيه في الفرضية لا في الكيفية أي فرض الصيام عليكم كما فرض على الأمم قبلكم وهذا التشبيه يسمى «مرسلًا مجملًا».

٢ - ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ فيه إِيجاز بالحذف أي من كان مريضًا فأفطر، أو على سفرٍ فأفطر فعليه قضاء أيام بعدد ما أفطر.

٣ - ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ في تفسير الجلالين قدّره بحذف «لا» أي لا يطيقونه، ولا ضرورة لهذا الحذف لأن معنى الآية يطيقونه بجهدٍ شديد وذلك كالشيخ الهرم والحامل والمرضع فهم يستطيعونه لكن مع المشقة الزائدة، والطاقةُ اسم لمن كان قادرًا على الشيء مع الشدة والمشقة.

٤ - ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ «طباق السلب».

٥ - ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ الرفث كناية عن الجماع وعدّي بـ «إلى» لتضمنه معنى الإِفضاء وهو من الكنايات الحسنة كقوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقوله: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ قال ابن عباس: إِن الله عَزَّ وَجَلَّ كريم حليمٌ يكني[1].

٦ - ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ استعارة بديعة شبّه كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق والضم باللباس المشتمل على لابسه قال في «تلخيص البيان»: «المراد قرب بعضهم من بعض واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام فاللباس استعارة[2].

٧ - ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ قال الشريف الرضي: وهذه استعارة عجيبة والمراد بها بياض الصبح وسواد الليل والخيطان هاهنا مجاز وإِنما شبههما بذلك لأن بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقًا خافيًا، ويكون سواد الليل منقضيًا مولّيًا، فهما جميعًا ضعيفان إِلا أن هذا يزداد انتشارًا وهذا يزداد استسرارًا، وذهب الزمخشري إِلى أنه من التشبيه البليغ.

الفوَائِد: الأولى: روي عن الحسن أنه قال: إِن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود والنصارى، أما اليهود فإِنها تركت هذا الشهر وصامت يومًا من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون، وأما النصارى فإِنهم صاموا رمضان فصادفوا فيه الحر الشديد فحولوه إِلى وقت لا يتغير ثم قالوا عند ذلك: نزيد فيه. فزادوا عشرًا، ثم بعد زمانٍ اشتكى[3] ملكهم فنذر سبعًا فزادوه، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال: ما بال هذه الثلاثة فأتمه خمسين يومًا وهذا معنى قوله

---

(١) «روائع البيان» ١/ ١٩٠، و«تلخيص البيان» ص ١٢.

(٢) انظر «الكشاف» ١/ ١٧٥.

(٣) اشتكى: أي مرضًا.

تعالى ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ [١] [التوبة: ٣١].

الثانية: قال الحافظ ابن كثير: وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ إرشادٌ إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر لحديث «إنّ للصائم عند ف شكونا إلى رسول الله طره دعوة ما تُرد» وكان عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي.

الثالثة: ظاهر نظم الجملة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ أنهم سألوا عن الله، والسؤال لا يكون عن الذات وإنما يكون عن شأن من شئونها فقوله في الجواب ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ يدل على أنهم سألوا عن جهة القرب أو البعد، ولم يصدر الجواب بـ «قل» أو فقل كما وقع في أجوبة مسائلهم الواردة في آيات أخرى نحو ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥] بل تولّى جوابهم بنفسه إشعارًا بفرط قربه منهم، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوي الحاجات.

الرابعة: قال الإمام ابن تيمية «وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطّلعٌ إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه» وفي الصحيح «إنَّ الَّذِى تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[٢] وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوّه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء[٣].

الخامسة: عبّر المولى جل وعلا عن المباشرة الجنسية التي تكون بين الزوجين بتعبير سام لطيف، لتعليمنا الأدب في الأمور التي تتعلق بالجنس والنساء ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله عزّ وجل كريم حليم يكني.

قال الله تعالى:

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ

---

(١) «التفسير الكبير» ٥/ ٧٦.

(٢) (ش): رواه مسلم بلفظ: «وَالَّذِى تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ».

(٣) (ش): اختصره المؤلف من مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٢-١٤٣).

ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

المناسَبَة: لمَّا بيّن تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطعام والشراب والنكاح في ليالي رمضان عقّبه بالنهي عن أكل الأموال بغير حق، لأن المسلم لا يصح له أن يستمتع بالمال الحرام لا في ليالي رمضان ولا غيره، ولما كان حديث الصيام يتصل برؤية الهلال وهذا ما يحرك في النفوس خاطر السؤال عن الأهلة جاءت الآيات الكريمة تبيّن أن الأهلة مواقيت لعبادات الناس في الصيام وسائر أنواع القربات.

اللغَة: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ في اللغة: الزائل الذاهب يقال: بطل الشيء بطولًا فهو باطل. وفي الشرع: هو المال الحرام كالغصب والسرقة والقمار والربا ﴿وَتُدْلُوا۟﴾ الإدلاء في الأصل: إرسال الدلو في البئر ثم جعل كل إلقاء أو دفع لقول أو فعل إدلاءً يقال: أدلى بحجته أي أرسلها، والمراد بالإدلاء هنا الدفع إلى الحاكم بطريق الرشوة ﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾[1] جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس ثم يصبح قمرًا ثم بدرًا حين يتكامل نوره ﴿مَوَٰقِيتُ﴾ جمع ميقات وهو الوقت كالميعاد بمعنى الوعد وقيل: الميقات منتهى الوقت ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ثقِفَ الشيءَ إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة، ورجل ثَقِفٌ سريع الأخذ لأقرانه قَالَ الشَّاعِرُ:

فَـإِمَّـا تَـثْـقَـفُـونِـي فَـاقْـتُـلُـونِـي ... فَـمَـنْ أَثْـقَـفْ فَـلَـيْـسَ إِلَـى خُـلُـودِ

﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ الهلاكُ يقال: هَلَكَ هَلاكًا وتَهْلُكةً.

سَبَبُ النّزول: روي أن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ...﴾ الآية[2].

ثانيًا: روى أن الْأَنْصَار كانوا إِذَا أَحْرَمَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لم يدخل بيتًا من بابه بل كان يدخل من نَقْب فِي ظَهْرِهِ، أَوْ يَتخذ سُلَّمًا يَصْعَدُ فيه فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[3].

التفسير: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أي تدفعوها إلى الحكام رشوة ﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) «الرازي» ٥/ ١٣٢، و«أسباب النزول» للواحدى ص ٢٨.

(٢) (ش): (موضوع) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «معرفة الصحابة»، وابن منده في «معرفة الصحابة».

(٣) (ش): عَنِ الْبَرَاءِ ﵁ قَالَ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا، كَانَتِ الأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا، لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ، فَنَزَلَتْ» : ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

أنكم مبطلون تأكلون الحرام ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ﴾ أي يسألونك يا محمد عن الهلال لم يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾ أي فقل لهم إنها أوقات لعبادتكم ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والحج والزكاة ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ أي ليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي ولكنَّ العمل الصالح الذي يقرّبكم من الله في اجتناب محارم الله ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا﴾ ادخلوها كعادة الناس من الأبواب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي اتقوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ أي قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي لا تبدءوا بقتالهم فإنه تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [الآية: ٣٦] وقيل: نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ أي اقتلوهم حيث وجدتموهم في حلّ أو حرم ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾ أي شرّدوهم من أوطانهم وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ أي فتنة المؤمن عن دينه أشدُّ من قتله، أو كفر الكفار أشد وأبلغ من قتلكم لهم في الحرم، فإذا استعظموا القتال فيه فكفرهم أعظم ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ﴾ أي لا تبدءوهم بالقتال في الحرم حتى يبدءوا هم بقتالكم فيه ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ أي إن بدءوكم بالقتال فلكم حينئذٍ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمته والبادي بالشر أظلم ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي هذا الحكم جزاء كل من كفر بالله ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فكفّوا عنهم فإن الله يغفر لمن تاب وأناب ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي قاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم ولا يبقى شرك على وجه الأرض ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فإن انتهوا عن قتالكم فكفوا عن قتلهم فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، أو فإن انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا عليهم ثم بيّن تعالى أن قتال المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه فقال: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله(١) ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي ردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بالمثل ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي راقبوا الله في جميع أعمالكم وأفعالكم واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ أي أنفقوا في

(١) وقيل معناه الشهر الحرام الذي دخلتم فيه مكة بالشهر الحرام الذي صددتم فيه عن دخولها، وكان ذلك لما صدَّ الكفار النبي ﷺ عن دخول مكة عام الحديبية في شهر ذي القعدة.

الجهاد وفي سائر وجوه القربات ولا تبخلوا في الإنفاق فيصيبكم الهلاك ويتقوى عليكم الأعداء وقيل معناه: لا تتركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم حتى يحبكم الله وتكونوا من أوليائه المقربين.

البَلَاغَة: ١ - ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾ هذا النوع من البديع يسمى «الأسلوب الحكيم» فقد سألوا الرسول ﷺ عن الهلال لمَ يبدو صغيرًا ثم يزداد حتى يتكامل نوره؟ فصرفهم إلى بيان الحكمة من الأهلة وكأنه يقول: كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة لا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره، وهذا ما يسميه علماء البلاغة «الأسلوب الحكيم»[1].

٢ - ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ فيه إيجاز بالحذف تقديره: هتكُ حرمة الشهر الحرام تقابل بهتك حرمة الشهر الحرام ويسمى حذف الإيجاز.

٣ - ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ سمّي جزاء العدوان عدوانًا من قبيل «المشاكلة» وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] قال الزجاج: العرب تقول ظلمني فلان فظلمته، أي: جازيته بظلمه.

فَائِدَة: لا يذكر في القرآن الكريم لفظ القتال أو الجهاد إلا ويقرن بكلمة «سبيل الله» وفي ذلك دلالة واضحة على أن الغاية من القتال غاية شريفة نبيلة هي إعلاء كلمة الله لا السيطرة أو المغنم أو الاستعلاء في الأرض أو غيرها من الغايات الدنيئة.

تنبيه: كل ما ورد في القرآن بصيغة السؤال أجيب عنه بـ «قل» بلا فاء إلا في طه ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ [الآية: ١٠٥] فقد وردت بالفاء، والحكمة أن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره إن سئلت عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفًا[2].

فَائِدَة: روي أن رجلًا من المسلمين حمل على جيش الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس: سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار حين أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقلنا: لو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فنزلت ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتَرْك الجهاد في سبيل الله فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى استشهد ودفن بأرض الروم[3].

---

(١) (ش): تقدم أن هذه الرواية لم تثبت.

(٢) «الفتوحات الإلهية» ١/ ١٥٢.

(٣) (ش): (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني).

قال الله تعالى:

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن
كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى
ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ
يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ
فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ
وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن
تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ
ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ
حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ
فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى
ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى
ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞
وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ
ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

المناسَبَة: لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام، أعقب ذلك بذكر أحكام الحج لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام، وأمّا آيات القتال فقد ذكرت عَرضًا لبيان حكمٍ هام وهو بيان الأشهر الحرام والقتال فيها وفيما لو تعرّض المشركون للمؤمنين وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم ردُّ العدوان عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم؟ فقد وردت الآيات السابقة تبيّن حكمة الأهلة وأنها مواقيت للصيام والحج ثم بيَّنت الآيات بعدها موقف المسلمين من القتال في الشهر الحرام وذلك حين أراد رسول الله ﷺ العمرة وصدّه المشركون ومنعوه من دخول مكة ووقع صلح الحديبية ثم لمّا أراد القضاء في العام القابل وخشي أصحابه غدر المشركين بهم وهم في حالة الإحرام نزلت الآيات تبيّن أنه ليس لهم أن ينتهكوا هذه الحرمات على سبيل الابتداء بل على سبيل القصاص ودفع العدوان، ثم عاد الكلام إلى أحكام الحج وحكم الإحصار فيه فهذا هو الإرتباط بين الآيات السابقة واللاحقة.

اللغَة: ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ الإحصار: معناه المنع والحبس يقال حَصَرَه عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه. قال الأزهري: حُصر الرجلُ في الحبس، وأُحصر في السفر من مرضٍ أو انقطاعٍ به ﴿ٱلْهَدْىِ﴾ هو ما يُهدى إلى بيت الله من أنواع النعم كالإبل والبقر والغنم وأقله شاة ﴿مَحِلَّهُۥ﴾ المحِلُّ: الموضع الذي يحل به نحر الهَدْي وهو الحرام أو مكان الإحصار للمحْصَر ﴿نُسُكٍ﴾

جمع نسيكة وهي الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى ﴿جُنَاحٌ﴾ إثم وأصله من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿أَفَضْتُم﴾ أي دفعتم وأصله من فاض الماء إذا سال منصبًّا ومعنى ﴿أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ أي دفعتم منها بقوة تشبيهًا بفيض الماء. ﴿خَلَٰقٍ﴾ نصيب من رحمة الله تعالى ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون للحساب.

الفوائد: أولًا: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [(١)].

ثانيًا: وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحُمْس وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيّه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، وكانت قريش تفيض من جمع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [(٢)].

التفسير: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي أدُّوهما تامَّيْن بأركانهما وشروطهما لوجه الله تعالى ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي إذا منعتم عن إتمام الحج أو العمرة بمرضٍ أو عدوٍ وأردتم التحلل فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة أو بقرةٍ أو شاة ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾ أي لا تتحللوا من إحرامكم بالحلق أو التقصير حتى يصل الهدي المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو الحرم أو مكان الإحصار ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ أي فمن كان منكم معشر المُحْرِمين مريضًا مرضًا يتضرر معه بالشعر فحلق، أو كان به أذى من رأسه كقملٍ وصداعٍ فحلق في الإحرام، فعليه فدية وهي إما صيام ثلاثة أيام أو يتصدق بثلاثة آصع على ستّة مساكين أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي كنتم آمنين من أول الأمر، أو صرتم بعد الإحصار آمنين ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي من اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرها، فعليه ما تيسّر من الهدي وهو شاة يذبحها شكرًا لله تعالى ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي من لم يجد ثمن الهدي فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة حين يحرم بالحج وسبعة إذا رجع إلى وطنه ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزئ عن الذبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي ذلك التمتع أو الهَدْي خاص بغير أهل الحرم، أما سكّان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي خافوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واعلموا أن عقابه شديد لمن خالف أمره.

---

(١) «أسباب النزول» ١/ ٣٢ للواحدى. (ش): رواه البخاري.

(٢) «أسباب النزول» ١/ ٣٢ للواحدى. (ش): رواه البخاري.

ثم بيّن تعالى وقت الحج فقال: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ أي وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس وهي: شوال وذو القعدة وعشرٌ من ذي الحجة ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾ أي من ألزم نفسه الحجَّ بالإحرام والتلبية ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ أي لا يقرب النساء ولا يستمتع بهن فإنه مقبل على الله قاصد لرضاه، فعليه أن يترك الشهوات، وأن يترك المعاصي والجدال والخصام مع الرفقاء ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾ أي وما تقدموا لأنفسكم من خير يجازكم عليه الله خير الجزاء ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أي تزودوا لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي خافون واتقوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة في أثناء الحج فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية، وقد كانوا يتأثمون من ذلك فنزلت؛ الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي اذكروه ذكرًا حسنًا كما هداكم هداية حسنة، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضالين، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي ثمّ انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم وكانوا يقولون: نحن أهل الله وسُكّان حرمه فلا نخرج منه فيقفون في المزدلفة لأنها من الحرم ثم يفيضون منها وكانوا يسمون «الحُمْس» فأمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها ثم يفيض منها ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي استغفروا الله عمّا سلف منكم من المعاصي فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ أي إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثروا ذكره وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشدّ، قال المفسرون: كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم فأمروا أن يذكروا الله وحده ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ أي من الناس من تكون الدنيا همّه فيقول: اللهم اجعل عطائي ومنحتي في الدنيا خاصة وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ أي ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة وهو المؤمن العاقل، وقد جمعت هذه الدعوة كل خيرٍ وصرفت كل شر، فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية، والدار الرحبة، والزوجة الحسنة، والرزقَ الواسع إلى غير ما هنالك

والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب ودخول الجنة، والنظر إلى وجه الله الكريم إلخ ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي نَجّنا من عذاب جهنم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات والله سريع الحساب يحاسب الخلائق بقدر لمحة بصر[1] ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ أي كبروا الله في أعقاب الصلوات وعند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي من استعجل بالنفر من منى بعد تمام يومين فنفر فلا حرج عليه ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي ومن تأخر حتى رمى في اليوم الثالث - وهو النفر الثاني - فلا حرج عليه أيضًا ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي ما ذكر من الأحكام لمن أراد أن يتقي الله فيأتي بالحج على الوجه الأكمل ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي خافوا الله تعالى واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب فيجازيكم بأعمالكم.

البَلَاغَة: ١ - ﴿يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ كناية عن ذبحه في مكان الإحصار.

٢ - ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كان مريضًا فحلق أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية.

٣ - ﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ فيه التفات من الغائب إلى المخاطب وهو من المحسنات البديعية.

٤ - ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ فيه إجمال بعد التفصيل وهذا من باب «الإطناب» وفائدته زيادة التأكيد والمبالغة في المحافظة على صيامها وعدم التهاون بها أو تنقيص عددها.

٥ - ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة.

٦ - ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ صيغته نفيٌ وحقيقته نهيٌ أي لا يرفثْ ولا يفسقْ وهو أبلغ من النهي الصريح لأنه يفيد أن هذا الأمر ممّا لا ينبغي أن يقع أصلًا فإنَّ ما كان منكرًا مستقبحًا في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع ففي الإتيان بصيغة النفي وإرادة النهي مبالغة واضحة.

٧ - ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾ فيه تشبيه تمثيلي يسمى (مرسلًا مجملًا).

٨ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ وبين ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ ...﴾ الآية.

فائِدَة: أصل النسك: العبادة، وسميت ذبيحة الأنعام نسكًا لأنها من أشرف العبادات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى.

---

(١) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٣٦): وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَيْ: يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ، كَمَا يُحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لُقْمَانَ: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [الْقَمَرِ: ٥٠].

فائدة ثانية: زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة؛ ولهذا ذكر تعالى زاد الآخرة وهو الزاد النافع وفي هذا المعنى يقول الأعشى:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... وَلَاقَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ ... لَمْ تَرْصُدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا

قال الله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى
نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ
كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ
مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ
ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تُطهر القلوب، وتزكّي النفوس كالصيام، والصدقة، والحج، وذكر أن في الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله تبارك وتعالى، أعقبها بذكر نموذج عن الفريقين: فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن، ثم حذَّر تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان، وبيَّن لنا عداوته الشديدة.

اللغة: ﴿أَلَدُّ﴾ اللَّدَدُ: شدة الخصومة قال «الطبري»: الألدُّ: الشديد الخصومة، وفي الحديث: «إنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إلى الله الألدُّ الخَصِم»[1].

﴿ٱلْحَرْثَ﴾ : الزرع لأنه يزرع ثم يحرث ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾ الذريّة والولد، وأصله الخروج بسرعة ومنه ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] وسمي نسلًا لأنه ينسُل - يسقط - من بطن أمه بسرعة. ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾ الأنفة والحميَّة. ﴿فَحَسْبُهُۥ﴾ حسب اسم فعل بمعنى كافيه. ﴿ٱلْمِهَادُ﴾ : الفراش الممهَّد للنوم. ﴿يَشْرِى﴾ : يبيع. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ طلب. ﴿ٱلسِّلْمِ﴾ بكسر السين بمعنى الإسلام وبفتحها بمعنى الصلح، وأصله من الاستسلام وهو الخضوع والانقياد قَالَ الشَّاعِرُ:

دَعَوْتُ عَشِيرَتِي لِلسِّلْمِ حتى ... رَأَيْتُهُمُ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَا[2]

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٢) (ش): السِّلْمُ: الإِستِسْلام والانْقِياد، والسِّلْمُ: الإِسلام، ومنه قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كافَّةً﴾، أي الإِسلام وَشَرَائِعهُ كلِّها.

﴿زَلَلۡتُم﴾ الزّلل: الانحراف عن الطريق المستقيم، وأصله في القَدَم، ثم استعمل في الأمور المعنوية، ﴿ظُلَلٖ﴾ جمع ظلّة وهي ما يستر الشمس ويحجب أشعتها عن الرؤية.

سَبَبُ النّزول: ١ - روي أن الأخنس بن شريق أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه، وكان منافقًا حسن العلانية خبيث الباطن، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر فأحرق الزرع وقتل الحُمُر فأنزل الله تعالى فيه الآيات ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ...﴾ الآية وإلى قوله: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ...﴾[1] الآية[2].

٢ - وروي أن صهيبًا الرومي لما أراد الهجرة إلى المدينة المنورة لحقه نفر من قريش من المشركين ليردوه فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلًا، وايْمُ الله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم، قالوا: جئتنا صعلوكًا لا تملك شيئًا وأنت الآن ذو مال كثير! فقال: أرأيتم إن دللتكم على مالي تخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم، فدلّهم على ماله بمكة فلما قدم المدينة دخل على رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «رَبِحَ البَيْعَ صُهَيْب رَبِحَ البَيْعَ صُهَيْب» وأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ فيه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ...﴾[3] الآية[4].

التفسير: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ أي ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويثير إعجابَك بخلابة لسانه وقوة بيانه، ولكنه منافق كذّاب ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي في هذه الحياة فقط أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطّلع على القلوب والسرائر ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ أي يُظْهِر لك الإيمان ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ أي شديد الخصومة يجادل بالباطل ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ أي وإذا انصرف عنك عاث في الأرض فسادًا، وقد نزلت في الأخنس ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه [كقوله:] :

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً ... وَيَـرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَـرُوغُ الثَّعْلَبُ

﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾ أي يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان، والحيوان ومعناه أن فساده عام يشمل الحاضر والباد، فالحرث محل نماء الزروع والثمار، والنسل وهو نتاج

(١) الفخر الرازي ٥/ ٢١٥، و«أسباب النزول» ص ٣٤.
(٢) (ش): أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»وسنده ضعيف جدًّا.
(٣) المرجع السابق.
(٤) (ش): أخرجه الحاكم، وصححه، وسكت عنه الذهبي. وقال الشيخ مقبل بن هادي: الحديث له طرق ... وهي بمجموعها تزيد الحديث قوة وتدل على ثبوته».

الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بهما، فإفسادهما تدمير للإنسانية ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي يبغض الفساد ولا يحب المفسدين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي إذا وُعظ هذا الفاجر وذكِّر وقيل له انزع عن قولك وفعلك القبيح، حملته الأنفة وحميَّةُ الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي يكفيه أن تكون له جهنم فراشًا ومهادًا، وبئس هذا الفراش والمهاد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ هذا هو النوع الثاني وهم الأخيار الأبرار، فبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أتبعه بذكر صفات المؤمنين الحميدة والمعنى ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله، طلبًا لمرضاته ورغبةً في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي عظيم الرحمة بالعباد يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات ولا يعجل العقوبة لمن عصاه. . ثم أمر تعالى المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا سواه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ أي ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه، فلا تأخذوا حكمًا وتتركوا حكمًا، لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلًا فالإسلام كل لا يتجزأ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي لا تتبعوا طرق الشيطان وإغواءه فإنه عدوٌ لكم ظاهر العداوة ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي إن انحرفتم عن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه حكيم في خلقه وصنعه ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي ما ينتظرون شيئًا إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق(١) حيث تنشق السماء وينزل الجبار عَزَّ وَجَلَّ في

---

(١) ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله: ﴿أن يأتيهم الله﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله: ﴿واسأل القرية﴾ وهو مجاز مشهور يقال ضرب الأمير فلانًا وصلبه وأعطاه والمراد أنه أمر بذلك واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى.

(ش): مذهب السلف هو إثبات الصفات وعدم تأويلها وتفويض كيفية الصفة إلى الله تعالى، وليس تفويض معنى الآية كما ذكر المؤلف. فالتفويض في أسماء الله تعالى وصفاته له معنيان: الأول: معنى صحيح، وهو إثبات اللفظ ومعناه الذي يدل عليه، ثم تفويض علم كيفيته إلى الله، فنثبت لله تعالى أسماءه الحسنى، وصفاته العلى، ونعْرف معانيها ونؤمن بها، غير أننا لا نعلم كيْفيتها. فنؤمن بأن الله تعالى قد استوى على العرش، استواء حقيقيًّا يليق بجلاله سبحانه، ليس كاستواء البشر، ولكن كيفية الاستواء مجهولة بالنسبة لنا؛ ولذا، فإننا نفوض كيفيته إلى الله، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة: إثبات صفات الله تعالى، إثباتًا بلا تمثيل ولا تكييف، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾. والمعنى الثاني للتفويض – وهو معنى باطل –: إثبات اللفظ من غير معرفة معناه. فيثبتون الألفاظ فقط، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ثم يقولون: لا ندري معناه، ولا ماذا أراد الله به!.

ظلل من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله ولهم زَجَلٌ من التسبيح يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح(١) ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي انتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم فريق في الجنة وفريق في السعير، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعًا. والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جل وعلا الذي لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه وهو أحكم الحاكمين. ثم قال تعالى مخاطبًا رسوله الكريم ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖ﴾ أي سلْ يا محمد بني إسرائيل - توبيخًا لهم وتقريعًا - كم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي من يبدل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي زُيِّنَتْ لهم شهواتُ الدنيا ونعيمُها حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود. ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي وهم مع ذلك يهزءون ويسخرون بالمؤمنين يرمونهم بقلة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلةً ومكانة، فهم في أعلى علّيين وأولئك في أسفل سافلين، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة والكافرون في حضيض الذل والمهانة ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي والله يرزق أولياءه رزقًا واسعًا رغدًا، لا فناء له ولا انقطاع كقوله: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [غافر: ٤٠] أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع على من شاء مؤمنًا كان أو كافرًا، برًا أو فاجرًا على حسب الحكمة والمشيئة دون أن يكون له محاسب سبحانه وتعالى.

البَلاَغَة: ١ - ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ ذكر لفظ الإثم بعد قوله العزة يسمى عند علماء البديع بـ «التميم» لأنه ربما يتوهم أن المراد عزة الممدوح فذكر بالإثم ليشير إلى أنها عزة مذمومة.

٢ - ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ هذا من باب التهكم أي جعلت لهم جهنم غطاءً ووطاءً فأكرم بذلك كما تكرم الأم ولدها بالغطاء والوطاء اللّيّنَيْن.

٣ - ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي بدليل مجيء إلا بعدها أي ما ينتظرون.

٤ - ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ التنكير للتهويل فهي في غاية الهول والمهابة لما لها من الكثافة

(١) (ش): جزء من حديث طويل رواه الإمام محمد بن جرير «الطبري» في «تفسيره» «جامع البيان في تأويل القرآن» وضعفه الشيخ أحمد محمد شاكر في تحقيقه له (٤/ ٢٦٧).

التي تغم على الرائي ما فيها. وقوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ هو عطف على المضارع ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان.

٥ - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة.

٦ - ﴿زُيِّنَ... وَيَسۡخَرُونَ﴾ أورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغًا منه مركوزًا في طبيعتهم وعطف عليه بالفعل المضارع ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ للدلالة على استمرار السخرية منهم لأن صيغة المضارع تفيد الدوام والاستمرار.

تنبيه: قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالى في رسالته «التدمرية»[1]: «وَصْفُه تعالى نفسه بالإتيان في ظلل من الغمام كوصْفه بالمجيء في آيات آخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه أو صحَّ عن رسوله ﷺ والقول في جميع ذلك من جنس واحد وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها، أنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل ولا تكييفٍ ولا تمثيل، والقول في صفاته كالقول في ذاته والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه؟ فليُقَل له: كما لا تعلم كيفية ذاته كذلك لا تعلم كيفية صفاته»[2].

قال الله تعالى:

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ
بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ
فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ
حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ
يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ
أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ
﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا
وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ
وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ
مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ

---

(١) (ش): ما نقله المؤلف ليس في «التدمرية» لابن تيمية بل هو كلام القاسمي في «تفسيره» «محاسن التأويل» (٢/ ٨٨).

(٢) (ش): في تفسير القاسمي: فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه أو كيف يأتي..؟ فليقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال: لا أعلم كيفية ذاته! فليقل له: وكذلك لا تعلم كيفية صفاته..! فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف. وقد أطلق غير واحد، ممن حكى إجماع السلف، منهم الخطابيّ: مذهب السلف أن صفاته تعالى تجري على ظاهرها مع نفْي الكيفية والتشبيه عنها.

فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

المَنَاسَبَة: ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان: فريق يسعى في الأرض فسادًا ويُضل الناس بخلابة لسانه وقوة بيانه، وفريق باع نفسه للحق يبتغي به رضى الله ولا يرجو أحدًا سواه، ولما كان لا بدّ من التنازع بين الخير والشر - ولا بدَّ للحق من سيفٍ مُصْلَتٍ(١) إلى جانبه - لذا شرع الله للمؤمنين أن يحملوا السيف مناضلين وشرع الجهاد دفعًا للعدوان وردعًا للظلم والطغيان(٢).

اللغة: ﴿بَغْيًا﴾ البغيُ: العدوان والطغيان. ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ مأخوذ من زلزلة الأرض وهو اضطرابها والزلزلة: التحريك الشديد. ﴿كُرْهٌ﴾ مكروهٌ تكرهه نفوسكم قال ابن قتيبة: الكُره بالضم المشقة وبالفتح الإكراه والقهر. ﴿وَصَدٌّ﴾ الصدُّ: المنع يقال: صدّه عن الشيء أي منعه عنه. ﴿يَرْتَدِدْ﴾ يرجع والردةُ الرجوع من الإيمان إلى الكفر قال الراغب: الارتداد والردة: الرجوع في الطريق الذي جاء به منه لكن الردَّة تختص بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره قال تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾(٣) [الكهف: ٦٤] ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت وذهبت قال في «اللسان»: حَبِطَ: عَمِلَ عَملًا ثُمَّ أَفْسَدَهُ. وَفِي التَّنْزِيل: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٩] أي أبطل ثوابهم ﴿يَرْجُونَ﴾ الرجاء: الأمل والطمع في حصول ما فيه نفعٌ ومصلحة(٤).

---

(١) (ش): يُقَالُ: أَصْلَتَ السيفَ جَرَّده مِنْ غِمْده، أي من جرابه فَهُوَ مُصْلَتٌ. وضَرَبه بِالسَّيْفِ صَلْتًا وصُلْتًا أَي ضَرَبه بِهِ وَهُوَ مُصْلَتٌ. ويُقَالُ: سَيْفٌ مُصْلَتٌ: أي حادٌّ سريع القطع فيمن يضربه.

(٢) (ش): شُرِع الجهاد إعلاءً لكلمة الله تعالى، ودفعًا للعدوان وردعًا للظلم والطغيان، فجهاد الكفار بالقتال نوعان: جهاد دفع، وجهاد طلب. **النوع الأول**: جهاد الدفع: فإذا داهم العدو بلدًا إسلاميًّا، أو قاتل العدو إحدى البلاد الإسلامية، فالجهاد حينئذ واجب، فإن قامت الكفاية بأهل تلك البلاد، فَبِها ونِعْمَت، فالبقية يساندونهم بالمال والدعاء، وإن لم تقُم الكفاية بأهل تلك البلاد، وجب على من كان قريبًا منهم أن يقوم معهم، كلٌّ على قَدر طاقته، فهذا بماله، وهذا بلسانه، وهذا بنفسه وسلاحه. **النوع الثاني**: جهاد الطلب: وهو أن يغزو المسلمون الكفارَ في ديارهم حتى يُسْلِموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. وقبل الجهاد يُخَيِّرهم المسلمون بين أمور ثلاثة: إما الإسلامَ وإما الجزية وإما القتال. وشُرِع هذا النوع من الجهاد للحكم والمصالح العظيمة المترتبة عليه، ولما في تَرْكه من أضرار ومفاسد. فالهدف الرئيس للجهاد هو تعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد.

(٣) «مفردات القرآن» للراغب.

(٤) «لسان العرب» مادة رجا.

سبب النّزول: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية ليترصدوا عيرًا لقريش فيها «عمرو بن الحضرمي» وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام، شهرًا يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معايشهم وعظم ذلك على المسلمين فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ... .﴾ الآية.

التفسير: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي كانوا على الإيمان والفطرة المستقيمة فاختلفوا وتنازعوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي بعث الأنبياء لهداية الناس مبشرين للمؤمنين بجنات النعيم ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل لإزالة الاختلاف إلا الذين أعطوا الكتاب أنهم عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سببًا لاستحكامه ورسوخه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب فقد كان خلافهم عن بيّنة وعلم لا عن غفلةٍ وجهل ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسدًا من الكافرين للمؤمنين ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي هدى الله المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي بل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة بدون ابتلاء وامتحان واختبار ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ أي والحال لم ينلكم مثل ما نال من سبقكم من المؤمنين من المحن الشديدة، ولم تُبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النكبات ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي أصابتهم الشدائد والمصائب والنوائب ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ ؟ أي أزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيهًا بالزلزلة حتى وصل بهم الحال أن يقول الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله؟ أي متى يأتي نصر الله وذلك استبطاءً منهم للنصر[1] لتناهي الشدة عليهم، وهذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة، فإذا كان الرسل - مع علو كعبهم في الصبر والثبات - قد عِيلَ صبرُهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضيق كان ذلك دليلًا على أن الشدة بلغت منتهاها[2] قال تعالى جوابًا لهم: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أي ألا فأبشروا فإنه حان أوانه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ

---

(١) (ش): مع يقينهم به.

(٢) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٧٢): «أَيْ: يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، ويَدْعُونَ بقُرْب الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ، عِنْدَ ضِيقِ الْحَالِ وَالشِّدَّةِ».

ﱹﭐﱹﭐاللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌﱸ [الحج: ٤٠] ثم قال تعالى: ﱹ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﱸ أي يسألونك يا محمد ماذا ينفقون وعلى من ينفقون؟ وقد نزلت لمّا قال بعض الصحابة: يا رسول الله، ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟[1] ﱹقُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﱸ أي قل لهم يا محمد اصرفوها في هذه الوجوه ﱹوَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﱸ أي وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء، ثم قال تعالى مبينًا حكمة مشروعية القتال في الإسلام ﱹ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﱸ أي فرض عليكم قتال الكفار أيها المؤمنون وهو شاق ومكروه على نفوسكم لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ﱹوَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﱸ أي ولكن قد تكره نفوسكم شيئًا وفيه كل النفع والخير ﱹوَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﱸ أي وقد تحب نفوسكم شيئًا وفيه كل الخطر والضرر عليكم، فلعل لكم في القتال - وإن كرهتموه - خيرًا لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر، ولعل لكم في تركه - وإن أحببتموه - شرًا لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ﱹوَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﱸ أي الله أعلم بعواقب الأمور منكم وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم فبادروا إلى ما يأمركم به ﱹيَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِﱸ أي يسألك أصحابك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام أيحل لهم القتال فيه؟ ﱹقُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌﱸ أي قل لهم القتال فيه أمره كبير ووزره عظيم ولكن هناك ما هو أعظم وأخطر وهو ﱹوَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﱸ أي ومنع المؤمنين عن دين الله وكفرهُم بالله وصدُّهم عن المسجد الحرام - يعني مكة - وإخراجكم من البلد الحرام وأنتم أهله وحماته، كلُّ ذلك أعظم وزرًا وذنبًا عند الله من قتل من قتلتم من المشركين، فإذا استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أنَّ ما ارتكبوه في حق النبي والمؤمنين أعظم وأشنع ﱹوَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﱸ أي فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه أكبر عند الله من القتل ﱹ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﱸ أي ولا يزالون جاهدين في قتالكم حتى يعيدوكم إلى الكفر والضلال إن قدروا فهم غير نازعين عن كفرهم وعدوانهم ﱹوَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﱸ أي ومن يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر فقد بطل عمله الصالح في الدارين وذهب ثوابه ﱹوَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﱸ أي وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون منها أبدًا ﱹ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﱸ أي إن المؤمنين الذين فارقوا الأهل والأوطان وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله ﱹأُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﱸ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم الجديرون

(١) (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير في «جامع البيان».

بأن ينالوا رحمة الله والله عظيم المغفرة، واسع الرحمة.

البَلَاغَة: ١ - ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كانوا أمة واحدة على الإيمان متمسكين بالحق فاختلفوا فبعث الله النبيين ودلّ على المحذوف قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

٢ - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم ففيه استفهام إنكاري.

٣ - ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ لمّا تدل على النفي مع توقع وقوع المنفي كما قال الزمخشري والمعنى: لمّا ينزل بكم مثل ما نزل بمن قبلكم وسينزل فإن نزل فاصبروا قال المبرد: إذا قال القائل: لم يأتني زيد فهو نفي لقولك أتاك زيد؟ وإذا قال: لما يأتني فمعناه أنه لم يأتني بعد وأنا أتوقعه وعلى هذا يكون إتيان الشدائد على المؤمنين متوقعًا منتظرًا.

٤ - ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ في هذه الجملة عدة مؤكّدات تدل على تحقق النصر أولًا: بدء الجملة بأداة الاستفتاح «ألا» التي تفيد التأكيد. ثانيًا: ذكر «إنَّ» الدالة على التوكيد أيضًا. ثالثًا: إيثار الجملة الاسمية على الفعلية فلم يقل «ستنصرون» والتعبير بالجملة الاسمية يفيد التأكيد. رابعًا: إضافة النصر إلى رب العالمين القادر على كل شيء.

٥ - ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ وضع المصدر موضع اسم المفعول «كرهٌ» مكان «مكروه» للمبالغة كقول الخنساء:

فَـإِنَّـمَـا هِـيَ إِقْـبَـالٌ وَإِدْبَـــارٌ،...(١)

٦ - ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا ... وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾ بين الجملتين من المحسنات البديعية ما يسمى بـ«المقابلة» فقد قابل بين الكراهية والحب، وبين الخير والشر.

٧ - ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ طباق بالسلب.

فَائِدَة: عبّر تعالى بصيغة الواحد عن كتب النبيّين ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ للإشارة إلى أن كتب النبيّين وإن تعددت هي في لبّها وجوهرها كتاب واحد لاشتمالها على شرع واحد في أصله كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ...﴾ [الشورى:١٣] الآية.

تنبيه: روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ

---

(١) (ش): قالت الخنساء في قصيدة ترثى بها أخاها صخرًا.

تَـرْتَـعُ مَـا رَتَـعَـتْ حَـتَّـى إِذَا ادَّكَـرَتْ ... فَـإِنَّـمَـا هِـيَ إِقْـبَـالٌ وَإِدْبَـــارُ

ومعنى: (ترتع) ترعى. تصف ناقة أو بقرة فقدَتْ ولدها، فكلما غفلت عنه رتعت، فإذا ادكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت، فضربتها مثلا لفقدها أخاها صخرًا.

الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

قال الله تعالى:

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ
وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ
مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ
مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ
وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ
يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ
حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

المناسَبَة: لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام القتال، وبيّن الهدف السامي من مشروعيته وهو نصرة الحق وإعزاز الدين وحماية الأمة من أن يلتهمها العدو الخارجي، ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخُلق الكريم، ولا بدّ للدولة من الإصلاح الداخلي والخارجي لتقوم دعائمهم على أسسٍ متينة وتبقى صرحًا شامخًا لا تؤثر فيه الأعاصير.

اللغَة: ﴿ٱلْخَمْرِ﴾ المسكر من الأشربة سميت خمرًا؛ لأنها تستر العقل وتغطيه، ومنه خمّرتُ الإناء أي غطيته. ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ القمار وأصله من اليسر لأنه كسب من غير كدّ ولا تعب، وقيل من اليسار لأنه سبب الغنى. ﴿إِثْمٌ﴾ الإثم: الذنب وجمعه آثام وتسمى الخمر بـ «الإثم» لأن شربها سبب في الإثم قَالَ الشَّاعِرُ:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى ضل عَقْلِي ... كَذَاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بِالْعُقُولِ

﴿ٱلْعَفْوَ﴾ الفضل والزيادة على الحاجة. ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أوقعكم في الحرج والمشقة، وأصل العنت: المشقة. ﴿وَلَأَمَةٌ﴾ الأَمَةُ: المملوكة بملك اليمين وهي تقابل الحرة وجمعها إماء. ﴿ٱلْمَحِيضِ﴾ مصدر بمعنى الحيض كالمعيش بمعنى العيش، وأصل الحيض: السيلان يقال:

حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة أي: سألت ويقال للمرأة: حائض وحائضة وأنشد الفراء:

كَحَائِضَةٍ يُزْنَى بِهَا غَيْرَ طَاهِرِ ...

﴿حَرْثٌ﴾ الحرث: إلقاء البذر في الأرض قاله الراغب، وقال الجوهري: الحرث: الزرع، والحارث الزارع ومعنى حرث، أي: مزرعٌ ومنبتٌ للولد على سبيل التشبيه[1]. ﴿عُرْضَةً﴾ مانعًا وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء فهو عُرضة، ولهذا يقال للسحاب: عارض لأنه يمنع رؤية الشمس. ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ الساقط الذي لا يعتد به سواء كان كلامًا أو غيره ولغو الطائر: تصويته.

سَبَبُ النّزول: أ – جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبةٌ للعقل مسلبةٌ للمال فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ...﴾ الآية[2].

ب – عن ابن عباس قال: لمّا أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢] انطلق من كان عنده مال يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، واشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ...﴾ الآية[3].

ج – عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى . .﴾ الآية[4].

التفسير: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم القمار ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي قل لهم إن في تعاطي الخمر والميسر ضررًا عظيمًا وإثمًا كبيرًا ومنافع مادية ضئيلة ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي وضررهما أعظم من نفعهما؛ فإن ضياع العقل وذهاب المال وتعريض البدن للمرض في الخمر، وما يجرُّه القمار من خراب البيوت ودمار الأسر وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعبين، كلُّ ذلك محسوس

---

(١) «الصحاح للجوهري» مادة حرث.

(٢) (ش): عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِى فِى الْبَقَرَةِ فَدُعِىَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِى فِى النِّسَاءِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فَكَانَ مُنَادِى رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلاَةَ نَادَى لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى فَدُعِىَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِى فِى الْمَائِدَةِ فَدُعِىَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَلَمَّا بَلَغَ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا. (رواه النسائي، وصححه الألباني).

(٣) (ش): (حسن لغيره، رواه أبو داود والنسائي). وتكملته: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم.

(٤) (ش): رواه مسلم، وأبو داود.

مشاهد، وإِذا قيس الضرر الفادح بالنفع التافه ظهر خطر المنكر الخبيث ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي ويسألونك ماذا ينفقون وماذا يتركون من أموالهم؟ قل لهم: أنفقوا الفاضل عن الحاجة ولا تنفقوا ما تحتاجون إِليه وتضيعوا أنفسكم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي كما يبين لكم الأحكام يبيّن لكم المنافع والمضار والحلال والحرام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي لتتفكروا في أمر الدنيا والآخرة فتعلموا أن الأولى فانية والآخرة باقية فتعملوا لما هو أصلح، والعاقل من آثر ما يبقى على ما يفنى. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي ويسألونك يا محمد عن مخالطة اليتامى في أموالهم أيخالطونهم أم يعتزلونهم؟ فقل لهم: مداخلتهم على وجه الإِصلاح خير من اعتزالهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي إِذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إِخوانكم في الدين، وأخوة الدين أقوى من أخوّة النسب، ومن حقوق هذه الأخوّة المخالطة بالإِصلاح والنفع ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ أي والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإِفساد لأموالهم، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإِصلاح فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي لو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج والمشقة وشدَّد عليكم ولكنه يسّر عليكم الدين وسهّله رحمة بكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم فيما يشرّع لعباده من الأحكام ثم قال تعالى محذرًا من زواج المشركات اللواتي ليس لهن دين سماوي ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي لا تتزوّجوا أيها المسلمون بالمشركات من غير أهل الكتاب حتى يؤمنَّ بالله واليوم الآخر ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي ولأمة مؤمنة خير وأفضل من حرة مشركة، ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي ولا تُزوِّجوا بناتكم من المشركين - وثنيّين كانوا أو أهل كتاب - حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي ولأن تزوجوهنَّ من عبد مؤمنٍ خير لكم من أن تزوجوهن من حرّ مشرك مهما أعجبكم في الحسب والنسب والجمال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حُرِّمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إِلى ما يوصلكم إِلى النار وهو الكفر والفسوق فحقكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي هو تعالى يريد بكم الخير ويدعوكم إِلى ما فيه سعادتكم وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميزوا بين الخير والشر والخبيث والطيب. ثم بيّن تعالى أحكام الحيض فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ ويسألونك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أيحل أم يحرم؟ فقل لهم: إِنه شيء مستقذر ومعاشرتهن في هذه الحالة

فيه أذى للزوجين ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي اجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ أي لا يجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن. والمرادُ التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤاكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة(١) ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي فإذا تطهَّرن بالماء فأتوهنَّ في المكان الذي أحله الله لكم، وهو مكان النسل والولد القُبُل لا الدبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي يحبُّ التائبين من الذنوب، المتنزهين عن الفواحش والأقذار ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ﴾ أي نساؤكم مكان زرعكم وموضع نسلكم وفي أرحامهن يتكوّن الولد، فأتوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه إلى غيره قال ابن عباس: اسق نباتك من حيث ينبت. ومعنى ﴿أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ أي كيف شئتم قائمةً وقاعدةً ومضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث «الفرج» وهو رَدٌّ لقول اليهود: إذا أتى الرجل امرأته في قُبُلها من دبرها جاء الولد أحول ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ أي قدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخرًا في الآخرة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ أي خافوا الله باجتناب معاصيه وأيقنوا بأن مصيركم إليه فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي لا تجعلوا الحلف بالله سببًا مانعًا عن فعل الخير فتتعللوا باليمين بأن يقول أحدكم: قد حلفتُ بالله ألّا أفعله وأريد أن أبرّ بيميني بل افعلوا الخير وكَفِّروا عن أيْمانكم(٢) قال ابن عباس: لا تجعلنَّ الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أي لا تجعلوه تعالى سببًا مانعًا عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس وقد نزلت في «عبد الله بن رواحة» حين حلف ألا يكلّم ختنه «النعمان بن بشير» ولا يصلح بينه وبين أخته(٣) ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم. ثم قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي لا يؤاخذكم بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف كقول أحدكم: بلى والله، ولا والله لا يقصد به اليمين ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ أي يؤاخذكم بما قصدتم إليه وعقدتم القلب عليه من الإيمان إذا حنثتم فيها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ أي واسع المغفرة لا يعاجل عباده بالعقوبة.

البَلَاغَة: ١ - ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي عن شرب الخمر وتعاطي الميسر.

---

(١) (ش): المحرم هو الجماع فقط كما تقدم.

(٢) وقيل المعنى: لا تكثروا الحلف فتجعلوا الله هدفًا لأيمانكم تبتذلون اسمه الأعظم في كل شيء قليل أو كثير، أو حقير إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا فإن الحلاف لا يكون برًّا ولا تقيًّا.

(٣) (ش): ضعيف، ذكره البغوي في «معالم التنزيل»، والواحدي في «أسباب النزول». والخَتَن: أقرب أقرباء المرأة كأبيها وأخيها. و زوج الابنة أو الأخت.

٢ - ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ هذا من باب التفصيل بعد الإجمال وهو ما يسمى في البلاغة بـ «الإطناب».

٣ - ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجملٌ.

٤ - ﴿ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ في الآية طباقٌ بين كلمة «المفسد» و «المصلح» وهو من المحسنات البديعية.

٥ - ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ كذلك يوجد طباق بين كلمة «النار» وكلمة «الجنة».

٦ - ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ فيه تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا، وأصله الحيض شيء مستقذر كالأذى فحذف ذلك مبالغة على حد قولهم: عليٌّ أسَدٌ.

٧ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ كناية عن الجماع.

٨ - ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ على حذف مضاف، أي: موضع حرث، أو على سبيل التشبيه، فالمرأة كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات الخارج، فالحرث بمعنى المحترث سمي به على سبيل المبالغة.

الفوَائِد: الأولى: تسمى الخمر أم الخبائث؛ لأنها سبب في كل فعل قبيح، روى النسائي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبد فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باب أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلامٌ وباطية خمر فقالت: إني ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ أو تشرب من هذه الخمر كأسًا أو تقتل هذا الغلام، قال فاسقيني من هذه الخمر كأسًا فسقته كأسًا فقال: زيدوني فزادوه فلم يبرح حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه».

الثانية: كيف يكون في الخمر منافع مع أنها تذهب بالعقل والمال؟ والجواب أنّ المراد بالمنافع في الآية «المنافع المادية» حيث كانوا يتاجرون بها فيربحون منها الربح الفاحش، ويحتمل أن يراد بالنفع تلك اللذة والنشوة المزعومة التي عبّر عنها الشاعر بقوله:

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا ... وَأُسْدًا مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ[1]

قال «القرطبي»: وشارب الخمر يصير ضُحكةً للعقلاء فيلعب ببوله وعذرته وربما يمسح وجهه حتى رُئي بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول: اللهمّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، ورئي بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول: أكرمك الله كما أكرمتني[2].

---

(١) (ش): يُنَهْنِهُنَا: النَّهْنَهَةُ: الكف والمنع.

(٢) «القرطبي» ٣/ ٥٧.

الثالثة: قال الزمخشري: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم[1].

قال الله تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٧ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾

المناسَبَة: ذكر تعالى في الآيات السابقة بعض الأمراض الاجتماعية التي تنخر جسم الأمّة وتحلُّ عرى الجماعة وتوقع بينهم العداوة والبغضاء كالخمر والميسر، ثم انتقل إلى الحديث عن الأسرة باعتبار أنها النواة الأولى لبناء المجتمع الفاضل، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع، وابتدأ من أحكام الأسرة بالعلاقة الزوجية ونبّه على ضرورة أن يكون الاختيار على أساس الدّين لتظل العلاقة موثقة بروابط المودة والرحمة والإخلاص، فالمشركة لا يحل لها أن تكون في حجر المسلم، والمؤمنة لا يحل لها أن تكون تحت سلطان الرجل المشرك ولهذا حرّم الإسلام الزواج بالمشركات وتزويج المشركين بالمؤمنات، ثم بيّن في هذه الآيات الكريمة بعض الأمراض التي تحل بالأسرة وتهدد كيانها فذكر منها الإيلاء، والطلاق، والخلع، وبيّن العلاج الناجع لمثل هذه المشاكل التي تقوّض بنيان الأسرة.

اللغَة: ﴿يُؤۡلُونَ﴾ الإيلاء لغة: الحلف يقال: آلى يؤالي إيلاءً قَالَ الشَّاعِرُ:

فَآلَيْتُ لَا أَنْفَكُّ أَحْدُو قَصِيدَةً ... تَكُونُ وَإِيَّاهَا بِهَا مَثَلًا بَعْدِي

وفي الشرع: اليمين على ترك وطء الزوجة ﴿تَرَبُّصُ﴾ التربص: الانتظار، ومنه ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١] أي: انتظروا. ﴿فَآءُو﴾ الفيء: الرجوع، ومنه قيل للظلّ: فيءٌ لأنه يرجع بعد أن تقلص قال الفراء: العرب تقول: فلان سريع الفيء أي سريع الرجوع بعد الغضب، قَالَ الشَّاعِرُ:

فَفَاءَتْ وَلَمْ تَقْضِ الَّذِي أَقْبَلَتْ لَهُ ... وَمِنْ حَاجَةِ الإِنْسَانِ مَا لَيْسَ قَاضِيَا

(١) «الكشاف» ١/ ٢٠٢.

﴿قُرُوٓءٍ﴾ جمع قرء اسم يقع على الحيض والطهر فهو من الأضداد وأصل القرء: الاجتماع سمي به الحيض لاجتماع الدم في الرحم قال في «القاموس»: القَرْءُ بالفتح ويضم: الحيضُ والطهرُ والوقت، وجمع الطهر قروءٌ، وجمع الحيض أقراءٌ. ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ جمع بعل ومعناه الزوج. ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ [هود: ٧٢] والمرأة بعلة. ﴿دَرَجَةٌ﴾ الدرجة: المنزلة الرفيعة. ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ مصدر طلقتُ المرأة ومعنى الطلاق: حلُّ عقد النكاح وأصله الانطلاق والتخلية يقال: ناقة طالق أي: مهملة تركت في المرعى بلا قيد ولا راعٍ، فسميت المرأة المخلَّى سبيلها طالقًا لهذا المعنى. ﴿تَسۡرِيحُۢ﴾ التسريح: إرسال الشيء ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض، وسرَّح الماشية أرسلها، قال الراغب: والتسريح في الطلاق مستعارٌ من تسريح الإبل كالطلاق مستعار من إطلاق الإبل[1].

سَبَبُ النّزول: كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها، فعمد رجل لامرأته فقال لها: «لا آويك ولا أدَعُك تحلّين». قالت: وكيف؟ قال: «أطلّقك فإذا دنا مُضِيُّ عدتك راجَعْتُك»، فشكت المرأة أمْرها للنبيّ ﷺ فأنزل الله ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ الآية[2].

التفسير: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖ﴾ أي للذين يحلفون ألّا يجامعوا نساءهم للإضرار بهن انتظار أربعة أشهر ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي إن رجعوا إلى عشرة أزواجهن بالمعروف - وهو كناية عن الجماع - أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء؛ فإن الله يغفر ما صدر منهم من إساءة ويرحمهم ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي وإن صمّموا على عدم المعاشرة والامتناع عن الوطء؛ فإن الله سميعٌ لأقوالهم عليم بنيّاتهم، والمراد من الآية أنّ الزوج إذا حلف ألا يقرب زوجته تنتظره الزوجة مدة أربعة أشهر فإن عاشرها في المدة فبها ونعمت ويكون قد حنث في يمينه وعليه الكفارة، وإن لم يعاشرها وقعت الفرقة والطلاق بمُضِيِّ تلك المدة عند أبي حنيفة، وقال الشافعي: ترفع أمره إلى الحاكم فيأمره إما بالفيئة أو الطلاق، فإن امتنع عنهما طلّق عليه الحاكم هذا هو خلاصة حكم الإيلاء. ثم قال تعالى مبينًا أحكام العدّة والطلاق الشرعي ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ أي الواجب على المطلقات المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار - على قول الشافعي ومالك - أو ثلاث حِيَض على قول أبي حنيفة وأحمد ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها، وهذا في المدخول بها أما غير المدخول بها فلا عدة عليها لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾ [الأحزاب: ٤٩] ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ أي لا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن

(١) «المفردات» ص ٢٢٩.

(٢) (ش): أخرجه مالك في «الموطأ» والترمذي، وضعفه الألباني.

من حبل أو حيض استعجالًا في العدة وإبطالًا لحق الزوج في الرجعة ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي إن كنَّ حقًا مؤمنات بالله ويخشَيْن من عقابه، وهذا تهديد لهنَّ حتى يخبرن بالحق من غير زيادة ولا نقصان، لأنه أمر لا يُعلم إلاّ من جهتهنَّ ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ وأزواجهن أحقُّ بهنَّ في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقض عدتهن وكان الغرض من الرجعة الإصلاح لا الإضرار، وهذا في الطلاق الرجعي ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي ولهنَّ على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، بالمعروف الذي أمر تعالى من حسن العشرة وترك الضرار ونحوه ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي وللرجال على النساء ميزةٌ وهي فيما أمر تعالى به من القوامة والإنفاق والإمرة ووجوب الطاعة فهي درجة تكليفٍ لا تشريف؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب ينتقم ممن عصاه، حكيم في أمره وتشريعه ثم بيّن تعالى طريقة الطلاق الشرعية فقال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج الرجعة مرتان وليس بعدهما إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسان بألا يظلمها من حقها شيئًا ولا يذكرها بسوء ولا ينفّر الناس عنها ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ أي لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما دفعتم إليهن من المهور شيئًا ولو قليلًا ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة وألا يرعيا حقوق الزوجية التي أمر الله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي فإن خفتم سوء العشرة بينهما وأرادت الزوجة أن تختلع بالنزول عن مهرها أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها فلا إثم على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها هي شرائع الله وأحكامه فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها ممّا لم يشرعه الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي من خالف أحكام الله فقد عرَّض نفسه لسخط الله وهو من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي فإن طلّق الرجل المرأة ثالث مرة فلا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج غيره وتطلق منه، بعد أن يذوق عُسَيْلَتها وتذوق عُسَيْلَته كما صرّح به الحديث الشريف[1]، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثًا لمن له رغبة في زوجته لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي إن طلقها الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد انقضاء العدّة إن كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي تلك

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم. العُسَيْلَة: تصغير عسل والمراد لذة الجماع.

شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور[١].

البَلَاغَة: ١ - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ خرج الخبر عن ظاهره إلى معنى الوعيد والتهديد.

٢ - ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبرٌ في معنى الأمر وأصل الكلام وليتربصْ المطلقاتُ، قال الزمخشري: وإخراج الأمر في صيغة الخبر تأكيدٌ للأمر وإشعارٌ بأنه ممَّا يجب أن يُتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر فهو يخبر عنه موجودًا، وبناؤه على المبتدأ مما زاده فضل تأكيد[٢].

٣ - ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ﴾ ليس الغرض منه التقييد بالإيمان بل هو للتهييج وتهويل الأمر في نفوسهن.

٤ - ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ فيه إيجاز وإبداع لا يخفى على المتمكن من علوم البيان، فقد حذف من الأول بقرينة الثاني، ومن الثاني بقرينة الأول. والمعنى: لهنّ على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق، وفيه من المحسنات البديعية أيضًا الطباق بين «لهنَّ» و «عليهنَّ» وهو طباقٌ بين حرفين.

٥ - ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ بين لفظ «إمساك» ولفظ «تسريح» طباقٌ أيضًا.

٦ - ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ وضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس، وتعقيبُ النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

٧ - ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ قصر صفة على موصوف.

فَائِدَة: أول خلع كان في الإسلام في امرأة (ثابت بن قيس) «أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله، لا يجمع الله رأسي ورأسه شيءٌ أبدًا، والله ما أعيب عليه في خلقٍ ولا دين ولكن أكره الكفر بعد الإسلام فقال لها عليه السلام: «أَتَرُدِّينَ عَلَيهِ حَدِيقَتَهُ؟» قالت: نعم ففرّق بينهما»[٣].

لطيفَة: روي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهما أنه قال: إني لأحب أن أتزين لامرأتي كما تتزين لي لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيهِنَّ بالمعروف﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ

(١) انظر الحكمة التشريعية للطلاق في كتابنا «روائع البيان» ١/ ٣٤٣.

(٢) «الكشاف» ١/ ٢٠٥.

(٣) (ش): رواه البخاري

﴿مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

المنَاسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن أحكام الطلاق وتوضّح طريقته وشروطه وآدابه، وتنهى عن الإيذاء والإضرار، فوجه المناسبة إذًا ظاهر.

اللغَة: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن من الانتهاء من العدة. ﴿ضِرَارًا﴾ أي بقصد الإضرار، قال القفال: الضرار هو المضارّة كقوله: ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التوبة: ١٠٧] أي ليضاروا المؤمنين. ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ العَضْل: المنع والتضييق يقال: أعضل الأمر أي أشكل وضاقت فيه الحيل، وداء عُضال، أي: عسير أعيا الأطباء، قال الأزهري: وأصله من عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه(١). ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ يوصى ويؤمر به. ﴿أَزْكَىٰ﴾ أنمى وأنفع يقال: زكا الزرع إذا نما بكثرةٍ وبركة. ﴿وَأَطْهَرُ﴾ الطهارة: التنزه عن الدَّنس والمعاصي.

سَبَبُ النّزول: روي أنّ «معقل بن يسار» زوَّج أخته رجلًا من المسلمين على عهد النبيّ ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدّة، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطّاب فقال له: يا لُكَع، أي «يا لئيم» أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها!! والله لا ترجع إليك أبدًا فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ . .﴾ الآية فلما سمعها معقل قال: سمعًا لربي وطاعة. ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك(٢) (٣).

التفسير: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي إذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقًا رجعيًّا وقاربن انقضاء العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فراجعوهنّ من غير ضرار ولا أذى أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدّة عليهن ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهنّ لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء، وفيه زجرٌ لما كان عليه الناس حيث كان الزوج يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدّة

---

(١) «تهذيب اللغة» مادة عضل.

(٢) رواه البخاري وانظر التاج ٤/ ٦٣.

(٣) (ش): عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهُ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكَانَتْ عِنْدَهُ مَا كَانَتْ ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً لَمْ يُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتِ الْعِدَّةُ فَهَوِيَهَا وَهَوِيَتْهُ ثُمَّ خَطَبَهَا مَعَ الْخُطَّابِ فَقَالَ لَهُ: يَا لُكَعُ، أَكْرَمْتُكَ بِهَا وَزَوَّجْتُكَهَا فَطَلَّقْتَهَا وَاللهِ لاَ تَرْجِعُ إِلَيْكَ أَبَدًا آخِرُ مَا عَلَيْكَ قَالَ: فَعَلِمَ اللهُ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا وَحَاجَتَهَا إِلَى بَعْلِهَا فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ سَمْعًا لِرَبِّى وَطَاعَةً ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ أُزَوِّجُكَ وَأُكْرِمُكَ. (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

أما رواية البخاري: فعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ قَالَ زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا، حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ، فَطَلَّقْتَهَا، ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا، لاَ وَاللهِ لاَ تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لاَ بَأْسَ بِهِ وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فَقُلْتُ الآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ .

يراجعها للإِضرار بها ليطوّل عليها العدّة لا للرغبة فيها ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي من يمسكها للإِضرار بها أو ليكرهها على الافتداء فقد ظلم بذلك العمل نفسه لأنه عرّضها لعذاب الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي لا تهزءوا بأحكام الله وأوامره ونواهيه فتجعلوا شريعته مهزوءًا بها بمخالفتكم لها ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإِسلام وما أنعم به عليكم من القرآن العظيم والسنّة المطهّرة ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي يرشدكم ويذكّركم بكتابه وهدي رسوله إِلى سعادتكم في الدارين ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي خافوا الله وراقبوه في أعمالكم واعلموا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ثم أمر تعالى الأولياء بعدم عضل النساء الراغبات في العودة إِلى أزواجهن فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي إِذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي فلا تمنعوهن يا معشر الأولياء من العودة لأزواجهن إِذا صلحت الأحوال بين الزوجين، وظهرت أمارات الندم ورضي كل منهما إِلى العودة لصاحبه والسير بما يرضي الله ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي ما نهيتكم عنه من الإِضرار والعضل يُنصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي الاتعاظ بما ذكر والتمسك بأوامر الله خير وأنفع لكم وأطهر من الآثام وأوضار الذنوب[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله يعلم ما هو أصلح لكم من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تذرون.

البَلَاغَة: ١ - ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن انقضاء عدتهن أُطلق اسم الكل على الأكثر فهو مجاز مرسل؛ لأنه لو انقضت العدّة لما جاز له إِمساكها والله تعالى يقول: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

٢ - ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لأن النعمة يراد بها نعم الله والكتاب والسنّة من أفراد هذه النعم.

٣ - ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بين كلمة «اعلموا» و «عليم» من المحسنات البديعية ما يسمى بجناس الاشتقاق.

٤ - ﴿يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ يراد بأزواجهن «المطلقين» لهن فهو من باب المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما كان.

فَائِدَة: قال الإمام الفخر: الحكمة في إِثبات حق الرجعة أنّ الإِنسان ما دام مع صاحبه لا يدري هل تشقُّ عليه المفارقة أو لا؟ فإِذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة

(١) (ش): أوضار: أوساخ.

مانعةً من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان إذ قد تظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة أثبت تعالى حق المراجعة مرتين، وهذا يدل على كمال رحمته تعالى ورأفته بعباده[1].

قال الله تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى جملة من الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والعدة والرجعة والعَضْل، ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرضاع؛ لأنّ الطلاق يحصل به الفراق فقد يطلّق الرجل زوجته ويكون لها طفل ترضعه وربما أضاعت الطفل أو حرمته الرضاع انتقامًا من الزوج وإيذاءً له في ولده، لذلك وردت هذه الآية لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية الأطفال والاهتمام بشأنهم، ثم أعقب ذلك ببيان حكم الفراق بين الزوجين بالموت وما يجب على المرأة من العدَّة فيه رعايةً لحق الزوج، كما ذكر تعالى موضع خطبة المرأة في حالة العدّة، وموضوع استحقاق المرأة لنصف المهر أو كامل المهر بعد الفراق أو الطلاق.

اللغَة: ﴿فِصَالًا﴾ الفِصال والفَصْل: الفطام سمي به؛ لأن الولد ينفصل عن لبن أمه إلى غيره من الأقوات، قال المبرّد: الفِصال أحسن من الفصل لأنه إذا انفصل عن أمه فقد انفصلت عنه فبينهما فِصال كالقِتال والضراب ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ التشاور: استخراج الرأي ومثله المشاورة؛ والمشورة مأخوذ من الشَّوْر وهو استخراج العسل. ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون وهذا الفعل لا يستعمل منه الماضي ولا المصدر. ﴿عَرَّضْتُمْ﴾ التعريض: الإيماء والتلويح من غير كشفٍ

(١) «التفسير الكبير» ٦/ ١٠٥.

وإظهار، مأخوذ من عُرْضِ الشيء، أي: جانبه كقول الفقير للمحسن: جئت لأنظر إلى وجهك الكريم ﴿خِطْبَةِ﴾ بكسر الخاء طلب النكاح، وبالضم الموعظة كخُطبة الجمعة والعيدين. ﴿أَكْنَنتُمْ﴾ سترتم وأضمرتم والإكنان: السرُّ والخفاء. ﴿عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ من العقد وهو الشدُّ، وفي المثل «يا عاقد اذكر حلًّا»[1] قال الراغب: العُقدة اسم لما يعقد من نكاح أو يمين أو غيرهما. ﴿حَلِيمٌ﴾ يمهل العقوبة فلا يعجّل بها للعاصي. ﴿ٱلْمُقْتِرِ﴾ الفقير يقال: أقتر الرجل إذا افتقر.

سَبَبُ النّزول: روي «أن رجلًا من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسمّ لها مهرًا ثم طلّقها قبل أن يمسَّها فنزلت الآية ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ فقال له النبيّ ﷺ «مَتِّعْها وَلَوْ بِقَلَنْسُوَتِكَ»[2] [3].

التفسير: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي الواجب على الأمهات أن يرضعن أولادهن لمدة سنتين كاملتين ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ أي إذا شاء الوالدان إتمام الرضاعة ولا زيادة عليه ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف بدون إسراف ولا تقتير لتقوم بخدمته حق القيام ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي تكون النفقة بقدر الطاقة لأنه تعالى لا يكلّف نفسًا إلا وسعها ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي لا يضرَّ الوالدان بالولد فيفرِّطا في تعهده ويقصّرا في ما ينبغي له، أو يضارَّ أحدهما الآخر بسبب الولد فترفض الأم إرضاعه لتضرّ أباه بتربيته، وينتزع الأب الولد منها إضرارًا بها مع رغبتها في إرضاعه ليغيظ أحدهما صاحبه، قاله مجاهد ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي وعلى الوارث مثلُ ما على والد الطفل من الإنفاق على الأم والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، والمراد به وارثُ الأب، وقيل: وارثُ الصبي، والأول اختيار «الطبري» ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي فإذا اتفق الوالدان على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعةً لولدكم غير الأم بسبب عجزها أو إرادتها الزواج فلا إثم عليكم شريطة أن تدفعوا لها ما اتفقتم عليه من الأجر، فإن المرضع إذا لم تكرم لا تهتم بالطفل ولا تُعنى بإرضاعه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي راقبوا الله في جميع أفعالكم فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي على النساء اللواتي

---

(١) (ش): أي إنّك ستحلّها إذا استقللت، فلا تحكم شدّها.

(٢) «القرطبي» ٣/ ٢٠٢.

(٣) (ش): ضعيف جدًّا، ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير». والقَلَنْسُوَة: غطاء للرأس.

يموت أزواجهن أن يمكثن في العدّة أربعة أشهر وعشرة أيام حدادًا على أزواجهنَّ وهذا الحكم لغير الحامل أما الحامل فعدتها وضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيها الأولياء في الإذن لهنّ بالزواج وفعل ما أباحه لهنّ الشرع من الزينة[1] والتعرُّض للخُطّاب[2] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي عليم بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفّى عنهن أزواجهن في العدّة، بطريق التلميح لا التصريح، قال ابن عباس: كقول الرجل: وددتُ أنّ الله يسَّر لي امرأةً صالحة، وإن النساء لمن حاجتي ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي ولا إثم عليكم أيضًا فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهنّ ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي قد علم الله أنكم ستذكرونهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن فرفع عنكم الحرج، فاذكروهنَّ ولكنْ لا تواعدوهنَّ بالنكاح سرًّا إلا بطريق التعريض والتلويح وبالمعروف الذي أقرّه لكم الشرع ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدّة ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ أي احذروا عقابه في مخالفتكم أمره ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ أي يمحو ذنب من أناب ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه. ثم ذكر تعالى حكم المطلقة قبل المساس فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس «الجماع» وقبل أن تفرضوا لهنَّ مهرًا، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي فإذا طلقتموهن فادفعوا لهنَّ المتعة تطييبًا لخاطرهن وجبرًا لوحشة الفراق، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتيعًا بالمعروف حقًّا على المؤمنين المحسنين ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ أي وإذا طلقتموهن قبل الجماع وقد كنتم ذكرتم لهنَّ مهرًا معينًا فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمّى لهن لأنه طلاقٌ قبل المسيس ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي إلا إذا أسقطت المطلّقة حقها أو أسقط وليُّ أمرها الحق إذا كانت صغيرة، وقيل: هو الزوج لأنه هو الذي يملك عُقدة النكاح وذلك بأن يسامحها بكامل المهر الذي دفعه لها واختاره ابن جرير،

(١) (ش): أي داخل بيتها . فليس المعنى أن تخرج إلى الأسواق والطرقات متجملة سافرة الوجه.
(٢) (ش): فبعد انقضاء عدتها، يراها الخُطَّاب داخل بيتها.

وقال الزمخشري: القول بأنه الوليُّ ظاهر الصحة[1] ﴿وَأَن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى﴾ الخطاب عام للرجال والنساء، قال ابن عباس: أقربهما للتقوى الذي يعفو ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا تنسوا أيها المؤمنون الجميل والإحسان بينكم، فقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودّة والإحسان والجميل بين الزوجين، فإذا كان الطلاق قد تمَّ لأسباب ضرورية قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعًا لروابط المصاهرة ووشائج القربى.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ أمر أُخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيقه أي ليرضعن كالآية السابقة ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٢ - ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي يسترضعوا المراضع لأولادكم، كما أنّ فيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لأنّ ما قبله ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ وفائدة هذا الالتفات هز مشاعر الآباء نحو الأبناء.

٣ - ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ ذكر العزْم للمبالغة في النهي عن مباشرة النكاح، فإذا نهي عنه كان النهي عن الفعل من باب أولى.

٤ - ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ كنّى تعالى بالمسّ عن الجماع تأديبًا للعباد في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به.

٥ - ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟﴾ و﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ﴾ الخطاب عام للرجال والنساء ولكنه ورد بطريق التغليب.

٦ - ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والروعة.

الفَوائِد: **الأولى:** التعبير بلفظ «الوالدات» دون قوله «والمطلقات» أو النساء المطلقات لاستعطافهن نحو الأولاد، فحصول الطلاق لهنَّ لا ينبغي أن يحرمهنَّ عاطفة الأمومة.

الثانية: أضاف تعالى الولد في الآية الكريمة إلى كلٍّ من الأبوين في قوله: ﴿وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ و﴿مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ وذلك لطلب الاستعطاف والإشفاق عليه، فالولد ليس أجنبيًا عن الوالدين هذه أمه وذاك أبوه فمن حقهما أن يشفقا عليه ولا تكون العداوة بينهما سببًا للإضرار به.

الثالثة: الحكمة في إيجاب المتعة للمطلقة هي جبر إيحاش الطلاق قال ابن عباس: إن كان معسرًا متعها بثلاثة أثواب، وإن كان موسرًا متعها بخادم.

الرابعة: روي أنّ الحسن بن علي متّع زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت المرأة: «متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارق» وسبب طلاقه إيّاها ما روي أنه لما أصيب عليٌّ كرّم الله وجهه وبويع الحسن

---

(١) هذا القول مروي عن ابن عباس وهو مذهب مالك وقول الشافعي في القديم قال الناصر في تعليقه على كلام الزمخشري: وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه ستة ساقها بألطف بيان فانظرها في «الكشاف» ١/ ٢١٧.

بالخلافة قالت له: لتهنك الخلافة يا أمير المؤمنين! فقال: يُقتل عليٌّ وتظهرين الشماتة؟ اذهبي فأنت طالق ثلاثًا، فتلفعت بجلبابها وقعدت حتى انقضت عدتها فبعث إِليها بعشرة آلاف متعة وبقية ما بقي لها من صداقها فقالت ذلك، فلما أخبره الرسول بكى وقال: لولا أنني طلقتها ثلاثًا لراجعتها[(١)].

قال الله تعالى:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

المناسَبَة: توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق وذلك لحكمة بليغة، وهي أنّ الله تعالى لما أمر بالعفو والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق بيّن بعد ذلك أمر الصلاة، لأنها أعظم وسيلة إِلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها ولهذا كان ﷺ إِذا حزبه همٌّ فزع إِلى الصلاة. فالطلاق يولّد الشحناء والبغضاء، والصلاة تدعو إِلى الإِحسان والتسامح وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وذلك أفضل طريق لتربية النفس الإِنسانية.

اللغَة: ﴿حَٰفِظُواْ﴾ المحافظة: المداومة على الشيء والمواظبة عليه. ﴿ٱلْوُسْطَىٰ﴾ مؤنث الأوسط، ووسط الشيء خيره وأعدله، قَالَ أَعْرَابِيٌّ يَمْدَحُ الرسول ﷺ:

يَا أَوْسَطَ النَّاسِ طُرًّا فِي مَفَاخِرِهِمْ ... وَأَكْـرَمَ النَّـاسِ أُمًّـا بَـرَّةً وَأَبَـا[(٢)]

﴿قَٰنِتِينَ﴾ أصل القنوت في اللغة: المداومة على الشيء وقد خصّه القرآن بالدوام على الطاعة والملازمة لها على وجه الخشوع والخضوع قال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣]. ﴿فَرِجَالًا﴾ جمع راجِل وهو القائم على القدمين قال الراغب: اشتُقَّ من الرِّجْل راجِلٌ للماشي بالرِّجْل ويقال: رجُلٌ راجِلٌ أي قَوِيٌّ على المشي[(٣)]. ﴿رُكْبَانًا﴾ جمع راكب وهو من يركب الفرس والدابة ونحوهما.

التفسير: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي واظبوا أيها المؤمنون وداوموا على أداء الصلوات في أوقاتها وخاصة صلاة العصر فإِن الملائكة تشهدها ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾

---

(١) «القرطبي» ٣/ ٢٠٢.
(٢) (ش): طُرًّا أي جَمِيعًا.
(٣) «مفردات الراغب» مادة رجل.

أي داوموا على العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع، أي: قوموا لله في صلاتكم خاشعين ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أي فإذا كنتم في خوفٍ من عدوٍ أو غيره فصلوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فإذا زال الخوف وجاء الأمن فأقيموا الصلاة مستوفية لجميع الأركان كما أمركم الله وعلى الوجه الذي شرعه لكم وهذه كقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النساء: ١٠٣] والذكرُ في الآية يراد به الصلاة الكاملة المستوفية للأركان، قال الزمخشري: المعنى اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع وكيف تصلون في حال الخوف والأمن. ثم قال تعالى مبينًا أحكام العدة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ أي والذين يموتون من رجالكم ويتركون زوجاتهم على هؤلاء أن يوصوا قبل أن يُحتضروا بأن تمتَّع أزواجهم بعدهم حولًا كاملًا - يُنْفق عليهنَّ من تركته ولا يُخرجن من مساكنهنَّ - وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أي فإن خرجن مختارات راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت في تركهن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب[1] والتعرُّض للخُطّاب[2] ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو سبحانه غالبٌ في ملكه حكيم في صنعه ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي واجبٌ على الأزواج أن يُمتِّعوا المطلقات بقدر استطاعتهم جبرًا لوحشة الفراق وهذه المتعة حقٌّ لازم على المؤمنين المتقين لله ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة يبيّن الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ عطف خاص على عام؛ لبيان مزيد فضلها.

٢ - ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ بين لفظ (خفتمخ) و(أمنتم) طباق وهو من المحسنات البديعية، قال أبو السعود: وفي إيراد الشرطية بكلمة «إن» المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف، وإيراد الثانية بكلمة «إذا» المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى والإطناب في جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الأبصار[3].

تنبيه: الصلاة الوسطى على الراجح من الأقوال هي صلاة العصر لأنها وسط بين الفجر والظهر والمغرب والعشاء ويقوي هذا ما ورد في «الصحيحين»: «شَغَلُونَا عن الصَّلاةِ الوُسْطَى

---

(١) (ش): أي داخل بيتها . فليس المعنى أن تخرج إلى الأسواق والطرقات متجملة سافرة الوجه.

(٢) (ش): فبعد انقضاء عدتها، يراها الخُطَّاب داخل بيتها.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١/ ١٨٠.

صَلاَةِ العَصْرِ مَلأَ الله قُلُوبَهُم وَبُيُوتَهُم نَارًا» وفي الحديث: «الَّذِي تَفُوتُه صَلاةُ العَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَتِر أَهْلُهُ وَمَالُهُ» أخرجه الشيخان وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ
إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً
وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟
لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ
أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ
يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ
يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن
يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ
تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ
قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ
غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا
ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ
فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ
ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ
ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل والنظم التي تربط بين أفرادها، وسعَى لإصلاحها[1] باعتبار أنها النواة واللبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل، ذكر بعدها أحكام الجهاد وذلك لحماية العقيدة وصيانة المقدسات، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تَنْشُد الحياة الكريمة، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لها ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره، ولهذا أمر تعالى بالقتال وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة، كيف جاهدت

(١) (ش): قول المؤلف عن الله أنه سعَى لإصلاح الأسرة تعبير غير مناسب في حق الله لأنه لم يَرِدْ وَصْفُ الله بالسعي.

في سبيل الحق وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله.

اللغَة: ﴿أُلُوفٌ﴾ جمع ألف جمع كثرة وفي القلة آلاف، ومعناه كثرة كاثرة وألوف مؤلفة. ﴿حَذَرَ﴾ خشية وخوف ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ القبض: ضم الشيء والجمع عليه والمراد به التقتير والبسط ضدُّه والمراد به التوسيع قال أبو تمام:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوَ انَّهُ
دَعَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنَامِلُه

﴿ٱلْمَلَإِ﴾ الأشراف من الناس سمّوا بذلك لأنهم يملؤون العين مهابةً وإجلالًا. ﴿فَصَلَ﴾ انفصل من مكانه يقال: فصل عن الموضع انفصل عنه وجاوزه. ﴿مُبْتَلِيكُم﴾ مختبركم. ﴿يَظُنُّونَ﴾ يستيقنون ويعلمون. ﴿فِئَةٍ﴾ الفئة: الجماعة من الناس لا واحد له كالرهط والنفر. ﴿أَفْرِغْ﴾ أفرغ الشيء صبَّه وأنزله.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أي ألم يصل إلى سمعك يا محمد أو أيها المخاطب حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي خوفًا من الموت وفرارًا منه، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم وكانوا سبعين ألفًا ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ أي أماتهم الله ثم أحياهم، وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفًا من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم «حزقيل» فعاشوا بعد ذلك دهرًا، وقيل: هربوا من الطاعون فأماتهم الله. قال ابن كثير: وفي هذه القصة عبرةٌ على أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ما يبصّرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه بل ينكرون ويجحدون ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي قاتلوا الكفار لإعلاء دين الله، لا لحظوظ النفس وأهوائها واعلموا أنّ الله سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنيَّاتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها، وكما أنّ الحذر لا يغني من القدر فكذلك الفرار من الجهاد لا يقرّب أجلًا ولا يبعده ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ أي من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله، ولإعلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير، فيكون جزاؤه أن يضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضعافًا كثيرة؟ لأنه قرضٌ لأغنى الأغنياء ربّ العالمين جلّ جلاله وفي الحديث «مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيم وَلاَ ظَلُومٍ»(1) (2) ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ أي يقتّر على من يشاء ويوسّع على

---

(١) حديث قدسي ذكره ابن كثير عند هذه الآية من حديث النزول، وانظر «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٢٢.

(٢) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَنزِلُ اللهُ فِى السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِشَطْرِ اللَّيْلِ أَوْ لِثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِى؟ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ أَوْ يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيَهُ. ثُمَّ يَقُولُ مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلاَ ظَلُومٍ؟. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

من يشاء ابتلاءً وامتحانًا ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ أي ألم يصل خبر القوم إليك؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى عليه السلام كما دلت عليه الآية ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي حين قالوا لنبيِّهم «شمعون» – وهو من نسل هارون[1] أقم لنا أميرًا واجعله قائدًا لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله ﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ أي قال لهم نبيّهم: أخشى أن يُفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجبنوا عن لقائه ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ أي أيُّ سببٍ لنا في ألاّ نقاتل عدونا وقد أخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد؟ قال تعالى بيانًا لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجبن ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي لما فرض عليهم القتال نكل أكثرهم عن الجهاد إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت، قال «القرطبي»: وهذا شأن الأمم المتنعِّمة المائلة إلى الدَّعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جُبنت وانقادت لطبعها[2] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد عصيانًا لأمره تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗا﴾ أي أخبرهم نبيّهم بأنَّ الله تعالى قد ملَّك عليهم طالوت ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميرًا عليهم ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾ أي قاموا معترضين على نبيّهم كيف يكون ملكًا علينا والحال أننا أحقُّ بالملك منه لأن فينا من هو من أولاد الملوك وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكًا علينا؟ ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ﴾ أي أجابهم نبيّهم على ذلك الاعتراض فقال: إنّ الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، والعمدة في الاختيار أمران: العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة، والأمر الثاني قوة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد، وقد خصّه الله تعالى منهما بحظ وافر، قال ابن كثير: ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم، وشكل حسن، وقوّةٍ شديدة في بدنه ونفسه[3]، ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ أي يعطي الملك لمن شاء من عباده من غير إرثٍ أو مال ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ أي واسع الفضل عليمٌ بمن هو أهلٌ له فيعطيه إياه.. ولمّا طلبوا آية تدل على اصطفاء الله لطالوت أجابهم إلى ذلك ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾ أي علامة ملكه واصطفائه عليكم ﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ

(١) قاله مقاتل وهو من أنبياء بني إسرائيل
(٢) «القرطبي» ٣/ ٢٤٥.
(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٢٤.

﴿ٱلتَّابُوتُ﴾ أي يردَّ الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم، وهو كما قال الزمخشري: صندوق التوراة الذي كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا قاتل قدَّمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: في التابوت السكون والطمأنينة والوقار، وفيه أيضًا بقية من آثار آل موسى وآل هارون وهي عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة، قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعوه بين يدي طالوت والناس ينظرون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن في نزول التابوت لَعَلامَةٌ واضحة أنّ الله اختاره ليكون ملكًا عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي خرج بالجيش وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه وكانوا ثمانين ألفًا أخذ بهم في أرض قفرة فأصابهم حرٌّ وعطشٌ شديد ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي مختبركم بنهر وهو نهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ أي من شرب منه فلا يصحبني - وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب - ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ أي من لم يشرب منه ولم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ أي لكن من اغترف قليلًا من الماء ليبلَّ عطشه وينقع غُلَّته فلا بأس بذلك[1]، فأذن لهم برشفةٍ من الماء تذهب بالعطش ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي شرب الجيش منه إلا فئة قليلة صبرت على العطش، قال السدي: شرب منه ستة وسبعون ألفًا وتبقّى معه أربعة آلاف ﴿فَلَمَّا فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي لما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب ورأوا كثرة عدوهم واعتراهم الخوف فقال فريق منهم ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء مع قائد جيشهم جالوت فنحن قلة وهم كثرة كاثرة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ أي قال الذين يعتقدون بلقاء الله وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي كثيرًا ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة بإرادة الله ومشيئته، فليس النصر عن كثرة العدد وإنما النصر من عند الله ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي معهم بالحفظ والرعاية والتأييد ومن كان الله معه فهو منصور بحول الله ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي ظهروا في الفضاء المتسع وجهًا لوجه أمام ذلك الجيش الجرار جيش جالوت المدرّب على الحروب ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ دعوا الله ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر فقالوا أولًا: ربنا أفرغ علينا صبرًا يعُمُّنا في جمْعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي ثبتنا في ميدان الحرب

---

(١) (ش): نَقَعَ الماءُ غُلَّته أي أَرْوى عَطَشَه.

ولا تجعل للفرار سبيلًا إِلى قلوبنا وهي الدعوة الثانية ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي انصرنا على من كفر بك وكذب رسلك وهم جالوت وجنوده وهي الدعوة الثالثة قال تعالى إِخبارًا عنهم: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي هزموا جيش جالوت بنصر الله وتأييده إِجابة لدعائهم وانكسر عدوهم رغم كثرته ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ أي وقتل داود - وكان في جيش المؤمنين مع طالوت - رأس الطغيان جالوت واندحر جيشه ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي أعطى الله تعالى داود الملك والنبوّة وعلّمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه، قال ابن كثير: كان طالوت قد وعده إِن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له ثم آل الملك إِلى داود عليه السلام مع ما منحه الله من النبوّة العظيمة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي لولا أن يدفع الله شرّ الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة، لأنَّ الشر إِن غلب كان الخراب والدمار ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي ذو تفضل وإِنعام على البشر حيث لم يُمكِّن للشر من الاستعلاء ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إِسرائيل هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها إِليك بالحق بواسطة جبريل الأمين ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإِنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ دعوة الله عزَّ وجلَّ.

البَلَاغَة: ١ - قال أبو حيان: تضمنت الآية الكريمة من ضروب البلاغة وصنوف البيان أمورًا كثيرة منها الاستفهام الذي أُجري مجرى التعجب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ والحذف بين ﴿مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي فماتوا ثم أحياهم، والطباق في قوله: ﴿مُوتُوا﴾ و ﴿أَحْيَاهُمْ﴾ كذلك في قوله: ﴿يَقْبِضُ﴾ و ﴿وَيَبْسُطُ﴾ والتكرار في قوله: ﴿فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ و ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ والالتفات في ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والتشبيه بدون الأداة في قوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ شبّه قبوله تعالى إِنفاق العبد في سبيله بالقرض الحقيقي فأطلق اسم القرض عليه، والتجنيس المغاير في قوله: ﴿فَيُضَاعِفَهُ﴾ وقوله: ﴿أَضْعَافًا[(١)]﴾ .

٢ - ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ فيه استعارة تمثيلية فقد شبّه حالهم والله تعالى يفيض عليهم بالصبر بحال الماء يصب ويفرغ على الجسم فيعمه كله، ظاهره وباطنه فيلقي في القلب بردًا وسلامًا وهدوءًا واطمئنانًا.

الفوَائِد: الأولى: أسند الاستقراض إِلى الله في قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ وهو المنزه عن الحاجات ترغيبًا في الصدقة كما أضاف الإِحسان إِلى المريض والجائع والعطشان إِلى نفسه تعالى في قوله جلّ وعلا في الحديث القدسي: «ابن آدم مرضتُ فلم تعدني» و «استطعمتك فلم

---

(١) «البحر المحيط» ٣/ ٢٥٣.

تطعمني» و«استسقيتك فلم تسقني» الحديث الذي رواه الشيخان[١].

الثانية: روي أنه لمّا نزلت الآية الكريمة «جاء أبو الدحداح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: وإنّ الله ليريد منّا القرض؟ قال: «نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ!» قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي - أي بستاني وكان فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها - فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أُمَّ الدحداح قالت: لبّيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عزَّ وجلَّ»[٢]، وفي رواية قالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح وخرجت منه مع عيالها[٣].

الثالثة: قال البقاعي: ولعلّ ختام بني إسرائيل بهذه القصة لما فيها للنبيّ ﷺ من واضح الدلالة على صحة رسالته؛ لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بني إسرائيل[٤].

قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل، وتفضيل

---

(١) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِى. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِى فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِى عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِى. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِى فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِى. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِى. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِى فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِى». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). والحديث ليس في «صحيح البخاري». وإنما رواه البخاري في كتاب «الأدب المفرد».

(٢) أخرجه البزار والطبراني عن ابن مسعود

(٣) (ش): ضعَّفه البوصيري والألباني. عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ لِفُلاَنٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي. فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي. قَالَ: فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ» قَالَهَا مِرَارًا. قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ. أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا. (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ والحاكم وصححه، والألباني). «عذق» قيل: بالكسر الغصن، وبالفتح النخلة أو الحائط، والظاهر أن المراد ها هنا النخلة. «رداح»: ثقيل لكثرة ما فيه من الثمار.

(٤) «محاسن التأويل» ٣/ ٦٥٠.

داود عليهم بالملك والنبوّة ثم خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل، ذكر في هذه الآية أنّ المرسلين ليسوا في درجة واحدة بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين البشر.

اللغَة: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ جمع درجة وهي المنزلة الرفيعة السامية. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قويناه من التأييد بمعنى التقوية. ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ القدس: الطهارة وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم. ﴿خُلَّةٌ﴾ الخُلَّة: الصداقة والمودة سميت بذلك؛ لأنها تتخلل الأعضاء أي تدخل خلالها ومنه الخليل. ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ مأخوذة من الشفع بمعنى الضم، والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصرًا له وسائلًا عونه.

التفسير: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبائهم يا محمد هم رسل الله حقًّا، وقد فضّلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي منهم من خصّه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي ومنهم من خصّه الله بالمرتبة الرفيعة السامية كخاتم المرسلين محمد ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي قويناه بجبريل الأمين وهو عيسى ابن مريم ﴿وَلَوْ شَآءَ الله مَا اقتتل الذين مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات﴾ أي لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاؤوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أنّ الرسل متفقون على كلمة الحق ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ أي ولكنَّ الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر ﴿وَلَوْ شَآءَ الله مَا اقتتلوا ولكن الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون ولكنّ الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة، وكلُّ ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعال لما يريد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إيّاه، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمالٍ تقدمونه فيكون كالبيع، ولا تجدون صديقًا يدفع عنكم العذاب، ولا شفيعًا يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله ربّ العالمين ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافرًا، والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب.

البَلاَغة: ١ -﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ الإشارة بالبعيد لبعيد مرتبتهم في الكمال.

٢ - ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ...﴾ الآية تفصيلٌ لذلك التفضيل ويسمى هذا في البلاغة: التقسيم وكذلك في قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَ﴾ وبين لفظ «آمن» و «كفر» طباقٌ.
٣ - الإِطناب وذلك في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ حيث كرر جملة ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ .
٤ - ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قصر صفة على الموصوف، وقد أكدت بالجملة الاسمية وبضمير الفصل[١].

فَائِدَة: روي عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: «والظالمون هم الكافرون» ومراده أنه لو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم بالكفر فلم يخلص منه إِلا من عصمه الله.

تنبيه: يحتمل أن يراد بالكفر المعنى الحقيقي أو المجازي فيكون المراد بالكافر تارك الزكاة كما ذهب إِليه الزمخشري حيث قال: أراد والتاركون للزكاة هم الظالمون، وإِيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما في آية الحج ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] مكان «ومن لم يحج» ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ - ٧].

قال الله تعالى:

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥٧

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى تفضيل بعض الأنبياء على بعض، وبيّن أن الخلائق قد اختلفوا من بعدهم وتنازعوا وتقاتلوا بسبب الدين، ذكر أن هذا التفضيل بين الأنبياء لا يستدعي الصراع بين الأتباع ولا الخصام والنزاع، فالرسل صلوات الله عليهم وإِن كانوا متفاوتين في الفضل إِلا أنهم جميعًا جاءوا بدعوةٍ واحدة هي «دعوة التوحيد» فرسالتهم واحدة ودينهم واحد، وأنه لا إِكراه في الدين فقد سطع نور الحق وأشرق ضياؤه.

اللغَة: ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ ذو الحياة الكاملة ومعناه الباقي الدائم الذي لا سبيل للفناء عليه ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ القائم بتدبير الخلق ﴿سِنَةٞ﴾ بكسر السين النعاس وهو ما يسبق النوم من فتور قَالَ الشَّاعِرُ:

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ ... فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ[٢]

---

(١) (ش): ضمير الفصل «هُمْ».
(٢) (ش): رنق النوم في عينه: خالطها.

﴿يَـُٔودُهُۥ﴾ يُثْقِلُه ويُتْعِبُه ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ المراد علو المنزلة والشأن الذي تعالى في جلاله وعظم في سلطانه[1] ﴿إِكۡرَاهَ﴾ الإكراه: حمل الشخص على ما يكره بطريق القسر والجبر ﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ من الطغيان وهو كل ما يطغي الإنسان ويضله عن طريق الحق والهدى ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ مؤنث الأوثق وهو الشيء المحكم الموثق ﴿ٱنفِصَامَ﴾ الانفصام: الانكسار قال الفراء: الانفصام والانقصام لغتان وبالفاء أفصح وقال بعضهم: الفصم انكسار بغير بينونة والقصم انكسار ببينونة.

سَبَبُ النّزول: كان لرجل من الأنصار ابنان تنصّرا قبل بعثة النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفرٍ من التجار يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تسلما فنزلت ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[2]. الآية[3].

التفسير: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ أي هو الله جل جلاله الواحد الأحد الفرد الصمد، ذو الحياة الكاملة، الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شئون الخلق بالرعاية والحفظ والتدبير ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ أي لا يأخذه نعاسٌ ولا نوم كما ورد في

---

(١) (ش): لم يذكر المؤلف علو الذات الذي أثبته في تفسيره لآيات الاستواء، حيث ذكر أن الله سبحانه وتعالى فوق العرش، وأثبت لله ﷻ استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف، وفسَّر الاستواء بالعلوّ والاستقرار وأنه سبحانه وتعالى عَلا فوق العرشِ عُلُوًّا يليق بجلاله، وأنا لا نعلم كيفية الاستواء. من أسماء الله الحسنى (العليّ الأعلَى) وذلك دال على أن جميع معاني العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات، وهو أنه مستو على عرشه، فوق جميع خلقه، مباين لهم، وهو مع هذا مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأمورهم الظاهرة والباطنة متكلم بأحكامه القدرية، وتدبيراته الكونية، وبأحكامه الشرعية. وأما علو القدر فهو علو صفاته، وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته. وله علو القهر فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلّهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره، ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

(٢) «القرطبي» ٣/ ٢٨٠.

(٣) (ش): ضعيف، ذكره البغوي في «معالم التنزيل»، والواحدي في «أسباب النزول».
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلاَتًا فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ فَقَالُوا: لاَ نَدَعُ أَبْنَاءَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ قَالَ أَبُو دَاوُدَ: الْمِقْلاَتُ الَّتِي لاَ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).
(مِقْلَاتًا) الْمَرْأَةُ الَّتِي لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ . (فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا) أَيْ تَنْذُرُ (أَنْ تُهَوِّدَهُ) إِذَا عَاشَ الْوَلَدُ جَعَلَتْهُ فِي الْيَهُودِ (فَلَمَّا أُجْلِيَتْ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ، جَلَا عَنِ الْوَطَنِ يَجْلُو، وَأَجْلَى يُجْلِي: إِذَا خَرَجَ مُفَارِقًا (بَنُو النَّضِيرِ) قَبِيلَةٌ مِنْ يَهُودٍ (فَقَالُوا) أَيِ الْأَنْصَارُ (لَا نَدَعُ) أَيْ لَا نَتْرُكُ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنِ انْتَقَلَ مِنْ كُفْرٍ وَشِرْكٍ إِلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ قَبْلَ مَجِيءِ دِينِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ يُقَرُّ عَلَى مَا كَانَ انْتَقَلَ إِلَيْهِ وَكَانَ سَبِيلُهُ سَبِيلَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُ وَجَوَازِ مُنَاكَحَتِهِ وَاسْتِبَاحَةِ ذَبِيحَتِهِ.

الحديث «إِنَّ اللهَ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ»(١)، ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في السماوات والأرض ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي لا أحد يستطيع أن يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى قال ابن كثير: وهذا بيان لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما هو حاضر مشاهد لهم وهو الدنيا وما خلفهم أي أمامهم وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أي لا يعلمون شيئًا من معلوماته إلا بما أعلمهم إيّاه على ألسنة الرسل ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أحاط كرسيّه بالسماوات والأرض لبسطته وسعته، والسماواتُ السبع والأرضون بالنسبة للكرسي كحلقةٍ ملقاةٍ في فلاة، وروي عن ابن عباس ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه بدلالة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فأخبر أن علمه وسع كل شيء(٢) وقال الحسن البصري: الكرسي هو العرش قال ابن كثير: والصحيح

(١) (ش): رواه مسلم.
(وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ) مَعْنَاهُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَنَامُ وَأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ النَّوْمُ فَإِنَّ النَّوْمَ انْغِمَارٌ وَغَلَبَةٌ عَلَى الْعَقْلِ يَسْقُطُ بِهِ الْإِحْسَاسُ وَاللهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ في حقه جل وعلا. (يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ): الْقِسْطُ الْمِيزَانُ وَسُمِّيَ قِسْطًا لِأَنَّ الْقِسْطَ الْعَدْلُ وَبِالْمِيزَانِ يَقَعُ الْعَدْلُ. وَالْمُرَادُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَخْفِضُ الْمِيزَانَ وَيَرْفَعُهُ بِمَا يُوزَنُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الْمُرْتَفِعَةِ وَيُوزَنُ مِنْ أَرْزَاقِهِمُ النَّازِلَةِ وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِمَا يُقَدَّرُ تَنْزِيلُهُ فَشُبِّهَ بِوَزْنِ الْمِيزَانِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْقِسْطِ الرِّزْقُ الَّذِي هُوَ قِسْطُ كُلِّ مَخْلُوقٍ يَخْفِضُهُ فَيُقَتِّرُهُ وَيَرْفَعُهُ فَيُوَسِّعُهُ.

(٢) قال ابن جرير: وقول ابن عباس هذا يدل على صحته ظاهر القرآن، ولأن أصل الكرسي العلم، ومنه يقال للعلماء: كراسي لأنهم المعتمد عليهم كما يقال: أوتاد الأرض انتهى والصحيح ما قاله ابن كثير.
(ش): عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ قال: «والكرسي موضع القدمين (رواه الذهبي في «مختصر العلو»، وصححه الألباني). ورواه أبو الشيخ أيضًا في «العظمة» (٢/ ٦٢٧) عن أبي موسى الأشعري، وصححه الألباني). قال الإمام «الطبري» بعد أن ذكر بعض الأقوال في تفسير الكرسي: ولكل قول من هذه الأقوال وجه ومذهب، غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ ..، [تفسير «الطبري»، جامع البيان (٥/ ٣٩٩)]. ثم قال بعد صفحتين ما نقله المؤلف: «وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن فقول ابن عباس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عنه أنه قال: «هو علمه» [جامع البيان:(٥/ ٤٠١)].
وقد أنكر الشيخ محمود محمد شاكر في تحقيقه لتفسير «الطبري» «جامع البيان» (٥/ ٤٠١) على ابن جرير«الطبري» ما اعتبره تناقضًا. ونقل عن أبي منصور الأزهري أن الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «لكرسي موضع القدمين». وأن هذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها. وأن من روى عنه في الكرسي أنه العلم، فقد أبطل. ثم قال الشيخ محمود محمد شاكر: «وهذا هو قول أهل الحق إن شاء الله. وقد أراد «الطبري» أن يستدل بعدُ بأن الكرسي هو «العلم»، بقوله تعالى: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما»، فلِمَ لم يجعل»الكرسي» هو»الرحمة»، وهما في آية واحدة؟ ولم يجعلها كذلك لقوله تعالى في سورة الأعراف: ١٥٦: «قال عذابي أصيب به من أشاء آية ورحمتي وسعت كل شيء»؟ واستخراج معنى الكرسي من هذه الآية كما فعل «الطبري»، ضعيف جدا، يُجَلّ عنه من كان مثله حذرًا ولطفًا ودقةً. =

أن الكرسي غير العرش وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي لا يثقله ولا يعجزه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما وهو العلي فوق خلقه ذو العظمة والجلال كقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ﴾ أي لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام، فقد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي من كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله تمسك من الدين بأقوى سبب ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ أي الله ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولي أمورهم، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ أي وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي ماكثون في نار جهنم لا يخرجون منها أبدًا.

البَلَاغَة: ١ - في آية الكرسي أنواعٌ من الفصاحة وعلم البيان منها حسنُ الافتتاح لأنها افتتحت بأجل أسماء الله تعالى، وتكرار اسمه ظاهرًا ومضمرًا في ثمانية عشر موضعًا، والإطناب بتكرار الصفات، وقطعُ الجمل حيث لم يصلها بحرف العطف، والطباقُ في ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أفاده صاحب «البحر المحيط».

٢ - ﴿ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ استعارة تمثيلية حيث شبه المستمسك بدين الإسلام بالمستمسك بالحبل المحكم، وعدم الانفصام ترشيح[١].

٣ - ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استعارة تصريحية حيث شبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور قال في «تلخيص البيان»: وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائر ويهتدي به الحائر، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب[٢].

فَائِدَة: أفرد النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد لا يتعدد، وأما طرق الضلال فكثيرة ومتشعبة.

= وأما ما ساقه بعدُ من الشواهد في معنى «الكرسي»، فإن أكثره لا يقوم على شيء، وبعضه منكَر التأويل. وكان بحسبه شاهدًا ودليلًا أنه لم يأت في القرآن في غير هذا الموضع، بالمعنى الذي قالوه، وأنه جاء في الآية الأخرى بما ثبت في صحيح اللغة من معنى»الكرسي»، وذلك قوله تعالى في «سورة ص»: «ولقد فتنا سليمان وألقينا على آية كرسيه جسدا ثم أناب».

(١) (ش): حيث قُرِنَت الاستعارة بما يلائم المشبه به، فعدم الانفصام يلائم العروة والتمسك بها. والترشيح إكمالٌ للاستعارة يقويها.

(٢) «تلخيص البيان» ص١٥.

تنبيه: آية الكرسي لها شأن عظيم وقد صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله[1] وفيها اسم الله الأعظم كما جاء في الحديث الشريف: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث: سورة البقرة وآل عمران وطه»[2] وقال هشام: أما البقرة فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وفي آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [الآيات: ١ - ٢] وفي طه ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [الآية: ١١١] قال ابن كثير: وقد اشتملت على عشر جملٍ مستقلة، متعلقة بالذات الإلهية وفيها تمجيد الواحد الأحد[3].

قال الله تعالى:

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢٥٨ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٥٩ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٢٦٠

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية، وذكر ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين، ذكر هنا نموذجًا عن تحكم الطغيان في نفوس الكفرة المعاندين ومجادلتهم في وحدانية الله، فذكر هاهنا قصصًا ثلاثة: الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم والثانية والثالثة في إثبات الحشر والبعث بعد الفناء.

اللغَة: ﴿حَآجَّ﴾ المحاجّة: المغالبة يقال: حاججته فحججته، وحاجّه أي بادله الحجة ﴿فَبُهِتَ﴾ انقطع وسكت متحيرًا قال العذري:

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً ... فَأُبْهَتُ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ

﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عُرُوشِهَا﴾ العرش: سقف البيت، وكلُّ ما يهيأ لِيُظلَّ أو يُكنَّ فهو عريش

---

(١) (ش): عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَىُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قَالَ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَىُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قَالَ: قُلْتُ: اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ. قَالَ فَضَرَبَ فِى صَدْرِى وَقَالَ «وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ) أي لِيَكُن العلمُ هنيئًا لك، وفي الحديث مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِأُبَيِّ بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَدَلِيلٌ عَلَى كَثْرَةِ عِلْمِهِ.

(٢) (ش): رواه الحاكم وابن ماجه وحسنه الألباني.

(٣) ابن كثير المختصر ١/ ٢٣٠

﴿يَتَسَنَّهْ﴾ يتغيّر ويتبدّل من تَسَنَّهَت النخلة إِذا أتت عليها السنون وغيّرَتْها ﴿نُنشِزُهَا﴾ نركّب بعضها فوق بعض من النشاز وهو الرفع يقال لما ارتفع من الأرض: نشز ومنه نشوز المرأة ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ ضمهنَّ إِليك ثم اقطعهنَّ من صار الشيء يصوره إِذا قطعه.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ تعجيب للسامع من أمر هذا الكافر، المجادل في قدرة الله أي ألم ينته علمك إِلى ذلك المارد وهو «النمروذ بن كنعان» الذي جادل إِبراهيم في وجود الله؟ ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي لأن آتاه الله الملك حيث حمله بطره بنعم الله على إِنكار وجود الله، فقابل الجود والإِحسان بالكفر والطغيان ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي حين قال له إِبراهيم مستدلًّا على وجود الله إِن ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهو وحده ربُّ العالمين ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أي قال ذلك الطاغية وأنا أيضًا أحيي وأميت، روي أنه دعا برجلين حكم عليهما بالإِعدام فأمر بقتل أحدهما فقال: هذا قتلتُه، وأمر بإِطلاق الآخر وقال: هذا أحييتُه، ولما رأى الخليل حماقته ومشاغبته في الدليل عدل إِلى دليل آخر أجدى وأروع وأشد إِفحامًا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي إِذا كنت تدعي الألوهية وأنك تحيي وتميت كما يفعل رب العالمين جل جلاله فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي أُخْرِس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة، وأصبح مبهوتًا دَهِشًا لا يستطيع الجواب ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يُلْهِمُهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وهذه هي القصة الثانية وهي مثل لمن أراد الله هدايته والمعنى ألم ينته إِلى علمك كذلك مثل الذي مرَّ على قرية وقد سقطت جدرانها على سقوفها وهي قرية بيت المقدس لما خرَّ بها بُخْتُنَصَّر ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي قال ذلك الرجل الصالح واسمه «عزير» على الرأي الأشهر: كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها؟ قال ذلك استعظامًا لقدرة الله تعالى وتعجبًا من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب والدمار، وكان راكبًا على حماره حينما مرَّ عليها ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أي أمات الله ذلك السائل واستمر ميتًا مائة سنة ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي قال له ربه بواسطة الملك كم مكثت في هذه الحال؟ قال يومًا ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب فقال: أو بعض يوم أي أقل من يوم فخاطبه ربه بقوله: ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي بل مكثت ميتًا مائة سنة كاملة ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي إِن شككت فانظر إِلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان، وكان معه عنب وتينٌ وعصير فوجدها على حالها

لم تفسد ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي كيف تفرقت عظامه ونخرت وصار هيكلًا من البلى ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمًا﴾ أي تأمل في عظام حمارك النخرة كيف نركّب بعضها فوق بعض وأنت تنظر ثم نكسوها لحمًا بقدرتنا ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فلما رأى الآيات الباهرات قال: أيقنت وعلمت علم المشاهدة أن الله على كل شيء قدير ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ وهذه هي القصة الثالثة وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء والمعنى: اذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان، ولهذا خاطبه ربه بقوله: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ أي أولم تصدِّق بقدرتي على الإحياء؟ قال بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرةً وسكون قلب برؤية ذلك ﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ أي خذ أربعة طيور فضمهنَّ إليك ثم اقطعهن ثم اخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ أي فرِّق أجزاءهن على رءوس الجبال ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗا﴾ أي نادهنَّ يأتينك مسرعات قال مجاهد: كانت طاووسًا وغرابًا وحمامة وديكًا فذبحهن ثم فعل بهن ما فعل ثم دعاهن فأتين مسرعات ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ أي لا يعجز عما يريده حكيم في تدبيره وصنعه. قال المفسرون: ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودماؤها ولحومها ثم أمسك برءوسها عنده وجزأها أجزاءً على الجبال ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم حتى عادت طيرًا كما كانت وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرؤية لما سأل. ذكره ابن كثير.

البَلَاغَة: ١ - ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الرؤية قلبية والاستفهام للتعجيب.

٢ - ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ التعبير بالمضارع يفيد التجدد والاستمرار، والصيغة تفيد القصر ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ لأن المبتدأ والخبر وردا معرفتين والمعنى أنه وحده سبحانه هو الذي يحيي ويميت، وبين كلمتي «يحيي» و«يميت» طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ «المشرق» و «المغرب» .

٣ - ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ التعبير بالنَّصِّ السَّامِي[1] يُشْعِرُ بالعلة وأن سبب الحيرة هو كفره ولو قال فبهت الكافرُ لما أفاد ذلك المعنى الدقيق.

٤ - ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ موت القرية هو موتُ السكان فهو من قبيل إطلاق

(١) (ش): أي ما ذُكِرَ من كلام الله عز وجل.

المحل وإِرادة الحال ويسمى المجاز المرسل.

٥ - ﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗا﴾ نسترها به كما يستر باللباس قال أبو حيان: الكسوةُ حقيقةً هي ما وراء الجسد من الثياب واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطّى العظم وهي استعارة في غاية الحسن[١].

الفوائد: الأولى: قال مجاهد: ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان، وكافران فالمؤمنان «سليمان بن داود» و «ذو القرنين» والكافران «النمرود» و «بُخْتُنَصَّرَ»[٢] الذي خرّب بيت المقدس.

الثانية: لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد، انتقل إِبراهيم إِلى حجة أخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه.

الثالثة: سؤال الخليل ربه بقوله ﴿كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ليس عن شك في قدرة الله ولكنه سؤال عن كيفية الإِحياء ويدل عليه وروده بصيغة ﴿كَيۡفَ﴾ وموضوعها السؤال عن الحال ويؤيد المعنى قول النبي ﷺ «نحن أحق بالشك من إِبراهيم»[٣] ومعناه: ونحن لم نشك فلأن لا يشك إِبراهيم أحرى وأولى.

قال الله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

---

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٢٩٤.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٣٤.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ
ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان: أولياء الله وهم المؤمنون، وأولياء الطاغوت وهم الكافرون ثم أعقبه بذكر نموذج للإيمان ونموذج للطغيان، ذكر هنا ما يرغّب في الإِنفاق في سبيل الله وخاصة في أمر الجهاد لأعداء الله، لأن الجهاد في سبيل الحق ميادين ثلاثة: أولها الإِقناع بالحجة والبرهان وثانيها الجهاد بالنفس وثالثها الجهاد بالمال، فلما ذكر فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر الجهاد بالمال.

اللغَة: ﴿بِٱلْمَنِّ﴾ أن يعتد بإِحسانه على من أحسن إِليه، وأن يذكّره النعمة على سبيل التطاول والتفضل قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفْسَدْتَ بِالْمَنِّ مَا أَسْدَيْتَ مِنْ حَسَنٍ ... لَيْسَ الْكَرِيمُ إِذَا أَسْدَى بِمَنَّانِ

﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ لا يريد بإِنفاقه رضى الله وإنما يريد ثناء الناس وأصله من الرؤية وهو أن يرى الناسَ ما يفعله حتى يثنوا عليه ويعظموه ﴿صَفْوَانٍ﴾ الصفوان: الحجر الأملس الكبير قال الأخفش: وهو جمْعٌ واحِدُه صفوانة وقيل: هو اسم جنس كالحجر ﴿وَابِلٌ﴾ الوابل: المطر الشديد ﴿صَلْدًا﴾ الصَّلْد: الأملس من الحجارة وهو كل ما لا ينبت شيئًا ومنه جبينٌ أصلد ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ الربوة: المكان المرتفع من الأرض يقال: ربوة ورابية وأصله من ربا الشيء إِذا زاد وارتفع ﴿فَطَلٌّ﴾ الطلُّ: المطر الخفيف الذي تكون قطراته صغيرة وقال قوم منهم مجاهد: الطلُّ الندى ﴿إِعْصَارٌ﴾ الإِعصار: الريح الشديدة التي تهبُّ من الأرض وترتفع إِلى السماء كالعمود ويقال لها: الزوبعة ﴿تَيَمَّمُوا۟﴾ تقصدوا ﴿تُغْمِضُوا۟﴾ من أغمض الرجل في أمر كذا إِذا تساهل فيه وهذا كالإِغضاء عند المكروه.

سَبَبُ النّزول: نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك، حيث جهز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار، فصار رسول الله ﷺ يقلّبها ويقول: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»، وأتى عبد الرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم فقال: يا رسول الله كان عندي ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتُها ربي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما

أمسكت وفيما أعطيت»، فنزلت فيهما الآية ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾[1] الآية.

التفسير: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ قال ابن كثير: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أي مثل نفقتهم كمثل حبة زُرعت فأنبتت سبع سنابل ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ﴾ أي كل سنبلةٍ منها تحتوي على مائة حبة فتكون الحبة قد أغلَّتْ سبعمائة حبة، وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر لمن أخلص في صدقته ولهذا قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يضاعف الأجر لمن أراد على حسب حال المنفق من إخلاصه وابتغائه بنفقته وجه الله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل عليم بِنِيَّة المنفق ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ أي لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله، ولا يُعْقِبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمنِّ على من أحسنوا إليه كقوله: قد أحسنتُ إليك وجبرتُ حالك، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يعتريهم فزعٌ يوم القيامة ولا هم يحزنون على فائتٍ زهرة الدنيا ﴿قَوْلٞ مَّعْرُوفٞ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتْبَعُهَآ أَذٗى﴾ أي ردُّ السائل بالتي هي أحسن والصفحُ عن إلحاحه، خيرٌ عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه أو تعييره بذلّ السؤال ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ﴾ أي مستغنٍ عن الخلق حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره. ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ أي لا تحبطوا أجرها بالمنِّ والأذى ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ أي لا يصدّق بلقاء الله ليرجو ثوابًا أو يخشى عقابًا ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٞ﴾ أي مثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الظانُّ أرضًا طيبةً منبتةً ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلْدٗا﴾ أي فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلدًا أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلًا كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالًا صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أي لا يجدون له ثوابًا في الآخرة فلا ينتفع بشيءٍ منها أصلًا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد. ثم ضرب تعالى مثلًا آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتٗا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي ينفقونها طلبًا لمرضاته وتصديقًا بلقائه تحقيقًا للثواب عليه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۢ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثل بستان كثير الشجر بمكانٍ مرتفع من الأرض، وخُصَّت بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها

(١) «أسباب النزول» للواحدى ص ٤٧.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي أصابها مطر غزير فأخرجت ثمارها جَنِيَّة مضاعفة، ضِعْفَيْ ثمر غيرها من الأرض ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف أو يكفيها الندى لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها فهي تنتج على كل حال ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي أيحب أحدكم أن تكون له حديقة غَنَّاء فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي تمر الأنهار من تحت أشجارها ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أي أصابته الشيخوخة فضعف عن الكسب وله أولاد صغار لا يقدرون على الكسب ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ أي أصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار فأحرقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبيّن الله لكم آياته في كتابه الحكيم لكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها من العبر والعظات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي ولا تقصدوا الرديء الخسيس فتتَصدقوا منه ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ أي لستم تقبلونه لو أعطيتموه إلا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر فكيف تؤدون منه حق الله! ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي إنه سبحانه غني عن نفقاتكم حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء. ثم حذّر تعالى من وسوسة الشيطان فقال ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم ويغريكم بالبخل ومنع الزكاة ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ أي وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرةً للذنوب وخلفًا لما أنفقتموه زائدًا عن الأصل ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق الثناء ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ أي يعطي العلم النافع المُؤَدّي إلى العمل الصالح من شاء من عباده ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي مَن أُعطِيَ الحكمة فقد أُعطِيَ الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى.

البَلاَغَة: ١ - ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ شبّه سبحانه الصدقة التي تُنفق في سبيله بحبة زرعت وباركها المولى فأصبحت سبعمائة حبة، ففيه تشبيه «مرسل مجمل» لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه قال أبو حيان: وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر[1].

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٣٠٤.

٢ - ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ إسناد الإنبات إلى الحبة إسنادٌ مجازي ويسمى «المجاز العقلي» لأن المنبت في الحقيقة هو الله تعالى.

٣ - ﴿مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول؛ لأن الأذى يشمل المنَّ.

٤ - ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾ فيه تشبيه يسمى «تشبيهًا تمثيليًّا» لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ .

٥ - ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ ...﴾ الآية، لم يذكر المشبه ولا أداة التشبيه وهذا النوع يسميه علماء البلاغة «استعارة تمثيلية» وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبّه به فقط وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه، والهمزة للاستفهام، والمعنى على التبعيد والنفي أي ما يود أحدٌ ذلك.

٦ - ﴿تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ المراد به هنا التجاوز والمساهلة لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك، ففي الكلام مجاز مرسل أو استعارة[١].

الفوَائِد: الأولى: قال الزمخشري: المنُّ أن يعْتَدّ على من أحسن إليه بإحسانه، وفي نوابغ الكلم «صِنْوَان: مَن مَنَحَ سَائِلَهُ وَمَنَّ، وَمَنْ مَنَعَ نَائِلَهُ وَضَنَّ»[٢] و«طَعْمُ الْآلاءِ أَحْلَى مِنَ الْمَنِّ، وَهِيَ أَمَرُّ مِنَ الْآلَاءِ مَعَ الْمَنِّ»[٣] [٤] وقَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِنِ امْـرؤٌ أَسْـدَى إِلَـيَّ صَنِيعَةً ... وَذَكَّـرَ فيها مَـرَّةً لَـلَـئِـيمُ [٥]

الثانية: المطرُ أوَلُه رَشٌ ثم طشٌ ثم طَلٌّ ثم نَضْحٌ ثم هَطْلٌ ثم وَبْلٌ، والمطر الوابل الشديد الغزير.

الثالثة: قَالَ عُمَرُ بن الخطاب يَوْمًا لأَصْحاب النَّبِيِّ ﷺ فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ . فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لاَ نَعْلَمُ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلاَ تَحْقِرْ نَفْسَكَ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلاً لِعَمَلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ» أخرجه البخاري.

---

(١) «الفتوحات الإلهية» ١/ ٢٢٣.

(٢) (ش): الصِنْوُ: النظير والمثيل النائل: المُعطِي. نالَ عليه بهديّة/ نالَ له بهديّةٍ: جادَ، أعطاهُ إيّاهَا.

(٣) «الكشاف» ١/ ٢٣٨، والآلاء بالفتح شجرٌ حسن المنظر مر الطعم كذا في الصحاح.

(٤) (ش): الآلاء الأولَى: النِّعَم. والآلاء الثانية: شَجرٌ مُرُّ الورق، والمنُّ الأول: شيء يشْبه العسل يقع كالنَّدَى على بعض شجر البادية. والمنّ الثاني: تذكيرُ المُنْعَم عليه بالنِّعْمَةِ . والمعنى أنَّ طَعْمَ النِّعَمِ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَلكنها إنْ صَاحَبَها الْمَنُّ فَهِيَ أَشَدُّ مَرَارَةً مِنَ شَجَرٍ وَرَقُهُ مُرٌّ.

(٥) (ش): أي لو أن رجلاً أعطانى عَطِيَّةً وذكَّرني بها مرةً واحدةً، فإنه لئيم.

الرابعة: قال الحسن البصري: هذا مثل قلَّ والله من يعقله: شيخ كبير، ضعف جسمه، وكثر صبيانه أفقر ما كان إِلى جنته فجاءها الإِعصار فأحرقها، وإِن أحدكم والله أفقر ما يكون إِلى عمله إِذا انقطعت عنه الدنيا.

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾
إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم
مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن
يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ
خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا
يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم
بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

المناسَبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن الإِنفاق في وجوه البر والخير، وأعلاها الجهاد في سبيل الله والإِنفاق لإِعلاء كلمته، وترغّب في إِخفاء الصدقات لأنها أبعد عن الرياء، فوجه المناسبة ظاهر.

اللغَة: ﴿فَنِعِمَّا﴾ أصلها «نعم ما» أدغمت الميمان فصارت نعمّا قال الزجاج: أي نعم الشيء هو ﴿أُحْصِرُوا۟﴾ الحصر: الحبس أي: حبسوا أنفسهم على الجهاد وقد تقدم معنى الحصر ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾ من العفة يقال: عفّ عن الشيء أمسك عنه وتنزّه عن طلبه والمراد التعفف عن السؤال ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ السِّيما: العلامة التي يعرف بها الشيء، ويقال: سيمياء كالكيمياء وأصلها من السّمة بمعنى العلامة قال تعالى ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿إِلْحَافًا﴾ الإِلحاف: الإِلحاح في السؤال يقال: ألحف: إِذا ألحَّ ولجَّ في السؤال والطلب.

سَبَبُ النّزول: عن سعيد بن جبير أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ «لا تتصدقوا إِلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ مبيحةً للصدقة على من ليس من دين الإِسلام[1] [2].

التفسير: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ أي ما بذلتم أيها المؤمنون من مال أو نذرتم من شيء في سبيل الله فإِن الله يعلمه ويجازيكم عليه ﴿وَمَا

(١) «القرطبي» ٣/ ٣٣٧.
(٢) (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

﴿لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي وليس لمن منع الزكاة أو صرف المال في معاصي الله، من معين أو نصير ينصرهم من عذاب الله ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي إن تظهروا صدقاتكم فنعم هذا الشيء الذي تفعلونه ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وإن تخفوها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي يزيل بجميل أعمالكم سيء آثامكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي هو سبحانه مطلع على أعمالكم يعلم خفاياكم، والآية ترغيب في الإسرار ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي ليس عليك يا محمد أن تهدي الناس فإنك لست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتد، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب، والله يهدي من شاء من عباده إلى الإسلام ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي أيّ شيء تنفقونه من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم لأن ثوابه لكم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ خبر بمعنى النهي، أي: لا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ دنيوي ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي فإن أجره وثوابه أضعافًا مضاعفة تنالونه أنتم ولا تنقصون شيئًا من حسناتكم ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يستطيعون بسبب الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئًا أصلًا فلا يقع منهم إلحاح وقيل معناه: إن سألوا سألوا بلطفٍ ولم يلحّوا ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي ما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته، في جميع الأوقات، من ليل أو نهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهر ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ بين أنفقتم ونفقة جناس الاشتقاق وكذلك بين نذرتم ونذر.

٢ - ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ في الإبداء والإخفاء طباقٌ لفظي، وكذلك بين لفظ «الليل والنهار» و «السر والعلانية» وهو من المحسنات البديعية.

٣ - ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ إطناب لورودها بعد قوله: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ الذي معناه يصلكم وافيًا غير منقوص.

فَائِدَة: قال بعض الحكماء: إِذا اصطنعت المعروف فاستره، وإِذا اصطُنع إِليك فانشره وأنشدوا:

يُخفي صنائعه والله يُظهرها ... إِن الجميل إِذا أخفيتَه ظهرا

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ
إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ
لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا
بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ
أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ
لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ
وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

المُنَاسَبَة: لما أمر تعالى بالإِنفاق من طيبات ما كسبوا، وحضّ على الصدقة، ورغب في الإِنفاق في سبيل الله، ذكر هنا ما يقابل ذلك وهو الربا الكسب الخبيث ذو الوجه الكالح الطالح، الذي هو شحٌّ وقذارة ودنس، بينما الصدقة عطاء وسماحة وطهارة، وقد جاء عرضه مباشرة بعد عرض ذلك الوجه الطيب من الإِنفاق في سبيل الله ليظهر الفارق بجلاء بين الكسب الطيب والكسب الخبيث وكما قيل «وبضدها تتميّز الأشياء» .

اللغَة: ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ لغة: الزيادة يقال: ربا الشيء إِذا زاد ومنه الربوة والرابية: وشرعًا: زيادة على أصل المال يأخذها الدائن من المدين مقابل الأجل[1] ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ التخبط: الضرب على غير استواء كخبط البعير الأرض بأخفافه ويقال للذي يتصرف ولا يهتدي: خبط في عشواء وتورَّط في عمياء، وتخبطه الشيطان إِذا مسه بخبل أو جنون ﴿ٱلۡمَسِّ﴾ الجنون وأصله من المسّ باليد كأن الشيطان يمسُّ الإِنسان فيحصل له الجِّنون ﴿سَلَفَ﴾ مضى وانقضى ومنه سالف الدهر أي ماضيه ﴿يَمۡحَقُ﴾ المحق: نقصان الشيء حالًا بعد حال ومنه المحاق في الهلال يقال: محقه

(١) (ش): هذا التعريف للربا خاص بالزيادة في الدَّيْن، وهو ربا النسيئة، وهناك ربًا آخر هو ربا الفضل. وقد جاءت الشريعة بتحريمه أيضًا، وهو زيادة في أحد الجنسين إذا بيع أحدهما بالآخر. بحيث إذا بيع ذهب بذهب فإنه لا يجوز إلا مِثلًا بمثل ويدًا بيد، فاشترط فيه التقابض والتماثل فمن زاد أو استزاد فقد أربى، فإذا باع صاع قمح بصاعين ولو كان يدًا بيَد فقد وقع في الربا. وقد حرَّمت الشريعة الإسلامية ربا الفضل في ستة أشياء: الذهب، والفضة، والبُرّ، والشعير، والتمر، والملح.

الله فانمحق وامتحق ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم المتمادي في الذنوب والآثام.

سَبَبُ النّزول: كان لبني عمرو بن ثقيف ديونٌ ربا على بني المغيرة فلما حلّ الأجل أرادوا أن يتقاضوا الربا منهم فنزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية. فقالت ثقيف: لا يد لنا «أي لا طاقة لنا» بحرب الله ورسوله وتابوا وأخذوا رءوس أموالهم فقط[1] [2].

التفسير: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي الذين يتعاملون بالربا ويمتصون دماء الناس لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه، يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي سويًّا، يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكًا لهم وفضيحة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي ذلك التخبط والتعثر بسبب استحلالهم ما حرّمه الله، وقوله:م: الربا كالبيع فلماذا يكون حرامًا؟ قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أي أحل الله البيع لما فيه من تبادل المنافع، وحرّم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع، لأن فيه زيادة مقتطعة من جهد المدين ولحمه ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي من بلغه نهيُ الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي أمره موكول إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي ومن عاد إلى التعامل بالربا واستحله بعد تحريم الله له فهو من المخلدين في نار جهنم ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي يُذهب ريعه ويمحو خيره وإن كان زيادة في الظاهر، ويُكثر الصدقات وينميها وإن كانت نقصانًا في الشاهد ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي لا يحب كل كفور القلب، أثيم القول والفعل، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار، ثم قال تعالى مادحًا المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي صدّقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لهم ثوابهم الكامل في الجنة، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون، واتركوا ما لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين بالله حقًّا ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي وإن لم تتركوا التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم قال ابن عباس: يقال لآكل الربا يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ

---

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٣٣٧.

(٢) (ش): موضوع، أخرجه أبو يعلى في «مسنده» والواحدي في «أسباب النزول».

﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي إن رجعتم عن الربا وتركتموه فلكم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي إذا كان المستدين معسرًا فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه: إمّا أن تَقْضي وإمّا أن تُرْبي ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن تجاوزتم عمّا لكم عنده فهو أكرم وأفضل، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل والأجر العظيم ثم حذّر تعالى عباده من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي احذروا يومًا سترجعون فيه إلى ربكم ثم توفى كل نفسٍ حسابها وأنتم لا تظلمون، وقد ختمت هذه الآيات الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن وبنزولها انقطع الوحي، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد[1].

قال ابن كثير: هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى.

البَلَاغَة: ١ - ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فيه تشبيه يسمى (التشبيه المقلوب) وهو أعلى مراتب التشبيه حيث يجعل المشبّه مكان المشبّه به كقول الشاعر: كأن ضياء الشمس غرةُ جعفر والأصل في الآية أن يقال: الربا مثل البيع ولكنه بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلًا يقاس عليه فشبهوا به البيع.

٢ - ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ بين لفظ «أحلَّ» و «حرَّم» طباق وكذلك بين لفظ «يمحق» و «يربي».

٣ - ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ صيغة فعّال وفعيل للمبالغة فقوله: ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي عظيم الكفر شديد الإثم.

٤ - ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ التنكير للتهويل أي بنوعٍ من الحرب عظيم لا يُقادَر قَدْرُه، كائن من عند الله، أفاده أبو السعود.

٥ - ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى «الجناس الناقص» لاختلاف الشكل.

---

(١) (ش): اختلف أهل العلم في آخر آية نزلت من القُرآن، على أقوال متعددة، تكلم فيها كلٌّ بما أداه إليه اجتهاده، وذلك بناءً على ما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم، ويحتمل أن كُلًّا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وليس في شيء من ذلك خبر عن المعصوم ﷺ، يمكن القطع به. وأكثر العلماء على أن آخر آية نزولًا هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١]

٦ - ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾ التنكير للتفخيم والتهويل.

الفوَائِد: الأولى: عبّر بقوله: ﴿يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ عن الانتفاع به لأن الأكل هو الغالب في المنافع وسواءٌ في ذلك المعطي والآخذ لقول جابر في الحديث الشريف «لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء»[1].

الثانية: شبّه تعالى المرابين بالمصروعين الذين تتخبطهم الشياطين، وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون قال سعيد بن جبير تلك علامة آكل الربا يوم القيامة.

الثالثة: أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجلٌ يداينُ الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيتَ معسرًا فتجاوز عنه لعلّ الله أن يتجاوز عنا، فلقي الله فتجاوز عنه»[2] .

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى الربا وبيَّن ما فيه من قباحة وشناعة، لأنه زيادة مقتطعة من عرق المدين ولحمه وهو كسب خبيث يمقته الإسلام ويحرمه، أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة، وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن، وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق مما يدل على عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية.

---

(١) (ش): عَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).
مُوكِلُ الرِّبَا: مُطْعِمُهُ، أي المُمَكِّن منه غيره.

(٢) انظر الأدوار التي مر بها تحريم الربا والحكمة التشريعية في كتابنا روائع البيان ١/ ٣٨٩.

اللغَة: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ﴾ من الإملاء وهو أنْ يُلقي عليه ما يكتبه يقال: أملَّ وأملى ﴿يَبۡخَسۡ﴾ البخس: النقص ﴿تَسۡـَٔمُوٓاْ﴾ السأم والسآمة: الملل من الشيء والضجر منه ﴿أَقۡسَطُ﴾ القِسط: بكسر القاف العَدْل يقال: أقسط الرجل إِذا عدل، وبفتح القاف الجورُ يقال: قسط أي جار ومنه ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] ﴿تَضِلَّ﴾ قال أبو عبيد: معنى تضل أي تنسى والضلال عن الشهادة نسيان جزءٍ منها ﴿وَأَدۡنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿تَرۡتَابُوٓاْ﴾ تشكوا من الريب بمعنى الشك ﴿فَرِهَٰنٌ﴾ جمع رهن وهو ما يدفع إِلى الدائن توثيقًا للدين.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾ أي إِذا تعاملتم بدينٍ مؤجل فاكتبوه، وهذا إِرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدارها وميقاتها ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي وليكتب لكم كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ أي ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علّمه الله ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ أي وليمل على الكاتب ويلقي عليه المدينُ وهو الذي عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ أي وليخشَ الله رب العالمين ولا ينقص من الحق شيئًا ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا﴾ أي إِن كان المدين ناقص العقل مبذرًا أو كان صبيًّا أو شيخًا هرمًا ﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي لا يستطيع الإِملاء بنفسه لِعيٍّ أو خرسٍ أو عُجْمة فلْيُملل قيِّمُه أو وكيله بالعدل من غير نقصٍ أو زيادة ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡ﴾ أي اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين زيادة في التوثقة ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي فإِن لم يكن الشاهدان رجلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان ممن يُوثق بدينهم وعدالتهم ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي تنسى إِحدى المرأتين الشهادة فتذكّرها الأخرى، وهذا علةٌ لوجوب الاثنين لنقص الضبط فيهن ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ أي ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إِذا طلب منهم ذلك ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ أي لا تملّوا أن تكتبوا الدَّين صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا إِلى وقت حلول ميعاده ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ أي ما أمرناكم به من كتابة الدين أعدل في حكمه تعالى، وأثبت للشهادة لئلا تنسى، وأقرب أن لا تشكّوا في قدر الدَّيْن والأجل ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي إِلا إِذا كان البيع حاضرًا يدًا بيد والثمن مقبوضًا ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾ أي فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحذور ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ﴾ أي أشهدوا على حقكم مطلقًا سواءٌ كان البيع ناجزًا أو بالدين لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞ﴾ أي لا يضر صاحبُ الحق الكُتَّاب والشهود ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ﴾ أي إِن فعلتم ما نهيتم عنه

فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي خافوا الله وراقبوه يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجلٍ مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم، فليكن بدل الكتابة رهانٌ مقبوضة يقبضها صاحب الحقّ وثيقة لدينه ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي فإن أمن الدائن المدين فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذاك المؤتَمن الدين الذي عليه وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي إذا دعيتم إلى أداء شهادة فلا تكتموها فإن كتمانها إثم كبير، يجعل القلب آثمًا وصاحبه فاجرًا، وخُصّ القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال وأفعال العباد.

البَلَاغَة: ١ - في الآية من ضروب الفصاحة «الجناس المغاير» في قوله ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ وفي ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ﴾ وفي ﴿ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ وفي ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ... عَلِيمٌ﴾.

٢ - الطباق في قوله ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ وفي ﴿تَضِلَّ ... فَتُذَكِّرَ﴾ لأن الضلال هنا بمعنى النسيان.

٤ - الإيجاز بالحذف وذلك كثير وقد ذكر أمثلته صاحب «البحر المحيط».

٥ - كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لإدخال الروعة وتربية المهابة في النفوس.

٦ - ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ جمع ما بين الاسم الجليل والنعت الجميل مبالغة في التحذير.

فَائِدَة: العلم نوعان: كسبيٌّ ووهبيٌّ، أما الأول فيكون تحصيله بالاجتهاد والمثابرة والمذاكرة، وأما الثاني فطريقه تقوى الله والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهذا العلم يسمى العلم اللّدُني ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن شاء من عباده المتقين(١) وإليه أشار الإمام الشافعي بقوله:

(١) (ش): قال الشيخ بكر أبو زيد: «هذا الاصطلاح من مخترعات الصوفية ومواضعاتها، وإلا فإن العلم اللدني هو: العلم العِنْدِيُّ، فـ«عند»، و «لدنّ» في الآية معناهما واحد في لغة العرب التي بها نزل القرآن، فما لم يكن العلم من عند الله على لسان رسول الله؛ فلا يكون من لدنه، والأُمور مرهونة بحقائقها». [معجم المناهي اللفظية (ص: ٣٨٥)]. قال الإمام ابنُ القيِّم: «الْعِلْمُ اللَّدُنِّيُّ: مَا قَامَ الدَّلِيلُ الصَّحِيحُ عَلَيْهِ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ، وَمَا عَدَاهُ فَلَدُنِّيٌّ مِنْ لَدُنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَقَدِ انْبَثَقَ سَدُّ الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ، وَرَخُصَ سِعْرُهُ، حَتَّى ادَّعَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ أَنَّ عِلْمَهُمْ لَدُنِّيٌّ، وَصَارَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَالسُّلُوكِ وَبَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ بِمَا يَسْنَحُ لَهُ، وَيُلْقِيهُ شَيْطَانُهُ فِي قَلْبِهِ: يَزْعُمُ أَنَّ عِلْمَهُ لَدُنِّيٌّ، فَمَلَاحِدَةُ الِاتِّحَادِيَّةِ، وَزَنَادِقَةُ الْمُنْتَسِبِينَ

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللَّهِ لَا يُهْدَى لِعَاصِي

قال الله تعالى:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾

المناسَبَة: ناسب ختم هذه السورة الكريمة بهذه الآيات لأنها اشتملت على تكاليف كثيرة في الصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والطلاق والعدة وأحكام الربا والبيع والدين إلخ. فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السماوات وما في الأرض فهو يكلف من يشاء بما يشاء والجزاء على الأعمال إنما يكون في الدار الآخرة، فختم هذه السورة بهذه الآيات على سبيل الوعيد والتهديد.

اللغَة: ﴿إِصْرًا﴾ الإِصْرُ في اللغة: الثِّقَل والشِّدَّة، قال النابغة:

يَا مَانِعَ الضَّيْمِ أَنْ يَغْشَى سَرَاتَهُمْ ... وَالْحَامِلَ الْإِصْرَ عَنْهُمْ بَعْدَمَا غَرِقُوا[1]

وسميت التكاليف الشاقة إِصرًا لأنها تثقل كاهل صاحبها كما يسمى العهد إصرًا لأنه ثقيل. ﴿طَاقَةَ﴾ الطاقة: القدرة على الشيء من أطاق الشيء وهو مصدر جاء على غير قياس الفعل ﴿واعف عَنَّا﴾ العفو: الصفح عن الذنب ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ الغفران: ستر الذنب ومحوه.

سَبَبُ النزّول: لما نزل قوله تعالى ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله فقالوا: كُلِّفنا من الأعمال ما

إِلَى السُّلُوكِ يَقُولُونَ: إِنَّ عِلْمَهُمْ لَدُنِّيٌّ، وَقَدْ صَنَّفَ فِي الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ مُتَهَوِّكُو الْمُتَكَلِّمِينَ، وَزَنَادِقَةُ الْمُتَصَوِّفِينَ، وَجَهَلَةُ الْمُتَفَلْسِفِينَ، وَكُلٌّ يَزْعُمُ أَنَّ عِلْمَهُ لَدُنِّيٌّ، وَصَدَقُوا وَكَذَبُوا فَإِنَّ اللَّدُنِّيَّ مَنْسُوبٌ إِلَى «لَدُنْ» بِمَعْنَى عِنْدَ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: الْعِلْمُ الْعِنْدِيُّ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ فِيمَنْ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ عِنْدِهِ وَمِنْ لَدُنْهُ، وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى بِأَبْلَغِ الذَّمِّ مَنْ يَنْسِبُ إِلَيْهِ مَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [البقرة: ٧٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣] [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٠٠)].

(١) (ش): (الضَّيْمُ): الظُّلْمُ. السَراة: جمع السَرِيّ: الشريف، الكريم الحسب.

نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ «فلما قرأها القوم وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ ونسخها الله تعالى فأنزل ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [(١)] الآية»

التفسير: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو سبحانه المالك لما في السماوات والأرض المطّلع على ما فيهن ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يعفو عمن يشاء ويعاقب من يشاء وهو القادر على كل شيء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي صَدّق مُحمدٌ ﷺ بما أنزل الله إليه من القرآن والوحى وكذلك المؤمنون ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي الجميع من النبي والأتْباع صدَّق بوحدانية الله، وآمن بملائكته وكتبه ورسله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بجميع رسل الله دون تفريق ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك فنسألك ياالله المغفرة لمن اقترفناه من الذنوب، وإليك وحدك يا الله المرجع والمآب.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يكلف المولى تعالى أحدًا فوق طاقته ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ أي لكل نفس جزاء ما قدمت من خير، وجزاء ما اقترفت من شرّ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي قولوا ذلك في دعائكم. والمعنى: لا تعذبنا يا ألله بما يصدر عنا بسبب النسيان أو الخطأ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي ولا تكلفنا بالتكاليف الشاقة التي نعجز عنها كما كلفت بها من قبلنا من الأمم كقتل النفس في التوبة وقَرْضِ موضع النجاسة[(٢)] ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي لا تحمّلنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي امحُ عنا ذنوبنا واستر سيئاتنا فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أنت يا ألله ناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا، وانصرنا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذبوا

---

(١) أخرجه مسلم وانظر «أسباب النزول» للواحدى ص ٥١.
(٢) (ش): القَرْضُ: القَطْعُ.

برسالة نبيك ﷺ . روي أنه عليه السلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة: قد فعلتُ[1].

البَلاَغَة: ١ - تضمنت الآية من أنواع الفصاحة وضروب البلاغة أشياء منها «الطباق» في قوله ﴿وَإِن تُبْدُواْ ... أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وبين «يغفر» و «يعذب» ومنها الطباق المعنوي بين ﴿كَسَبَتْ﴾ و ﴿اكْتَسَبَتْ﴾ لأن (كسب) في الخير و(اكتسب) في الشر.

٢ - ومنها الجناس ويسمى جناس الاشتقاق في قوله ﴿ءَامَنَ ... وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ .

٣ - ومنها الإطناب في قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ .

٤ - ومنها الإيجاز بالحذف في قوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي آمَنُوا بالله ورسله. ومواضع أخرى.

فَائِدَة: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ » أخرجه البخاري[2] وفي رواية لمسلم أن ملكًا نزل من السماء فأتى النبي ﷺ فقال له: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ».

« تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة »



(١) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا». قَالَ: فَأَلْقَى اللهُ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ - قَالَ قَدْ فَعَلْتُ ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ ٣ ٢٠٠

مدنية وآياتها مائتان

بَين يَدَي السُّورَة

سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين من أركان الدين هما: **الأول:** ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله جلَّ وعلا. **الثاني:** التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازى والجهاد في سبيل الله.. أما الأول فقد جاءت الآيات الكريمات لإثبات الوحدانية، والنبوة، وإثبات صدق القرآن، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد عليه الصلاة والسلام، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم «**اليهود**» وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وخباياهم، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم «**النصارى**» الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى عليه السلام، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتقريعات لليهود، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب. أما الركن الثاني فقد تناول الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر، وغزوة أحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات، فقد انتصروا في بدر، وهُزموا في أحد بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيرًا من كلمات الشماتة والتخذيل، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة، ليميز بين الخبيث والطيب، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين، ثم ختمت بالتفكر والتدبر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من إتقان وإبداع، وعجائب وأسرار تدل على وجود الخالق الحكيم، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذة الجامعة، التي بها يتحقق الخير، ويعظم النصر، ويتم الفلاح والنجاح ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فضلها: عن النواس بن سمعان قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ**»(١)

(١) أخرجه مسلم.

التسمية: سميت السورة بـ «آل عمران» لورود لعل الأَوْلى: لمجيء ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» والد مريم أم عيسى، وما تجلى من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ
﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ
يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

اللغَة: ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ القائم على تدبير شئون العباد ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ التصوير: جعل الشيء على صورة معينة أي يخلقكم كما يريد ﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾ جمع رحم وهو محل تكوّن الجنين ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾ المحكم: ما كان واضح المعنى قال «القرطبي»: «المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل مما استأثر تعالى بعلمه دون خلقه مثل الحروف المقطعة في أوائل السور، هذا أحسن ما قيل فيه»[1] ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب وأساسه وعموده ﴿زَيْغٌ﴾ ميلٌ عن الحق يقال: زاغ زيغًا أي مال ميلًا ﴿تَأْوِيلِهِۦ﴾ التأويل: التفسير وأصله المرجع والمصير من قولهم آل الأمر إلى كذا إذا صار إليه[2].

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ الرسوخ: الثبوت في الشيء والتمكّن منه، قَالَ الشَّاعِرُ:

لَقَدْ رَسَخَتْ فِي الْقَلْبِ مِنِّي مَوَدَّةٌ ... لِلَيْلَى أَبَتْ أَيَّامُهَا أَنْ تُغَيَّرَا[3]

سَبَبُ النّزول: نزلت هذه الآيات في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكبًا، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم «عبد المسيح» أميرهم و «الأيهم» مُشِيرُهم[4] و«أبو حارثة بن علقمة» حَبْرُهم، فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه فقالوا تارةً: عيسى هو «الله» لأنه كان يحيي الموتى، وتارةً هو «ابن الله» إذ لم يكن له أب، وتارة إنه «ثالث ثلاثة» لقوله

(١) «القرطبي» ٤/ ٩.

(٢) (ش): قوله: التأويل التفسير فيه نقص؛ لأن التأويل قد يراد به التفسير، وقد يراد به الحقيقة التي يئول إليها الشيء والمراد هنا المعنى الثاني.

(٣) «القرطبي» ٤/ ١٩.

(٤) (ش): أشار عليه بكذا: أرشده، ونصحه أن يفعل كذا، مُبَيِّنًا ما فيه من الصواب.

تعالى: «فعلنا وقلنا» ولو كان واحدًا لقال «فعلتُ وقلتُ» فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت وأن عيسى يموت»! قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئًا من ذلك؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئًا من ذلك إلا ما علم؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث» ! قالوا: بلى فقال ﷺ: «فكيف يكون كما زعمتم؟» فسكتوا وأبوا إلا الجحود فأنزل الله من أول السورة إلى نيفٍ وثمانين آية[١].

التفسير: ﴿الٓمٓ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وقد تقدّم في أول البقرة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا ربَّ سواه ولا معبود بحقٍّ غيره ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شئون عباده ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نزّل عليك يا محمد القرآن بالحجج والبراهين القاطعة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المنزّلة قبله المطابقة لما جاء به القرآن ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي أنزل الكتابين العظيمين «التوراة» و «الإنجيل» من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي جنس الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وقيل: المراد بالفرقان القرآن وكرّر تعظيمًا لشأنه[٢] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردّوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي عظيم أليم في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي غالب على أمره لا يعزب، منتقم ممن عصاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا يغيب ولا يغرب عن علمه أمرٌ من الأمور، فهو مطلع على كل ما في الكون لا تخفى عليه خافية ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكرٍ وأنثى، وحسن وقبيح ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي لا ربّ سواه، متفردٌ بالوحدانية والألوهية، العزيز في ملكه الحكيم في صنعه، وفي الآية ردٌّ على النصارى حيث ادعوا ألوهية عيسى فنبّه تعالى بكونه مصوّرًا في الرحم، وأنه لا يعلم الغيب على أنه عبد كغيره من العباد ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي فيه آيات بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام، هنَّ أصل الكتاب وأساسه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي وفيه آيات أُخر فيها اشتباه في الدلالة

(١) «الفخر الرازي» ٧/ ١٦٥، و«ابن كثير المختصر» ١/ ٢٨٨.

(ش): ذكره الواحديُّ في «أسباب النزول» بدون إسنادٍ.

(٢) وهو قول قتادة والربيع واختار ابن جرير أن الفرقان بمعنى الفارق بين الغي والرشاد والهدى والضلال لتقدم ذكر القرآن في قوله: ﴿نزل عليك الكتاب﴾.

على كثير من الناس، فمن ردّ المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، وإن عكس فقد ضلّ ولهذا قال تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ أي فأمّا من كان في قلبه ميلٌ عن الهدى إلى الضلال فيتبع المتشابه منه ويفسّره على حسَب هواه ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي طلبًا لفتنة الناس في دينهم، وإيهامًا للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله، كما فعل النصارى الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾[1] على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله فادعوا ألوهيته وتركوا المحكم وهو قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] الدالّ على أنه عبد من عباد الله ورسوله من رسله ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله وحده[2] ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي الثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند الله ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي كلّ من المتشابه والمحكم حقٌّ وصدق لأنه كلام الله، قال تعالى ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي ما يتعظ ويتدبر إلا أصحاب العقول السليمة المستنيرة ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا﴾ أي لا تُمِلْها عن الحق ولا تضلنا ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ أي بعد أن هديتنا إلى دينك القويم وشرعك المستقيم ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك رحمةً تثبتنا بها على دينك الحق ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ أي أنت يا رب المتفضل على عبادك بالعطاء والإحسان ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي جامع الخلائق في ذلك اليوم الرهيب «يوم الحساب» الذي لا شك فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي وعدك حق وأنت يا رب لا تخلف الموعد، كقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧] ؟!

---

(١) (ش): ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ أي من الأرواح التي خلقها، وكمَّلها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام، فنفخ في فرج مريم عليها السلام فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام.

(٢) (ش): هنا تناقض مع ما سبق أنْ قاله المؤلف من أن المتشابه يُرَدُّ إلى المحكم، فإن كان لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله فكيف يُرَدُّ إلى المحكم.

للمفسرين في الوقوف على ﴿الله﴾ من قوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿والراسخون في العلم﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على ﴿إلا الله﴾ لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته. وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الراسخون﴾ على ﴿الله﴾ فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه ورَدَّه إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضًا، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون ﴿كل﴾ من المحكم والمتشابه ﴿من عند ربنا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضًا ويشهد بعضه لبعض.

البَلاَغَة: ١ - ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عبّر عن القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس إيذانًا بكمال تفوقه على بقية الكتب السماوية كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب.

٢ - ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كناية عمّا تقدمه وسبقه من الكتب السماوية فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره.

٣ - ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي أنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل فهو من باب عطف العام على الخاص حيث ذكر أولًا الكتب الثلاثة ثم عمَّ الكتب كلها لإفادة الشمول مع العناية بالخاص.

٤ - ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال الشريف الرضي: هذه استعارة والمراد بها أن هذه الآيات جماع الكتاب وأصله فهي بمنزلة الأم له، وكأنَّ سائر القرآن يتبعها أو يتعلق بها كما يتعلق الولد بأمه ويفزع إليها في مهمة[1].

٥ - ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ وهذه استعارة المراد بها المتمكنون في العلم تشبيهًا برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوَّارة وهو أبلغ من قوله والثابتون في العلم[2].

الفوَائِد: الأولى: روى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ تلا ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ الآية ثم قال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّاهُم اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»[3].

الثانية: قال «القرطبي»: أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم: أنَّ المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه ولم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل، قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدجال، وعيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور[4].

الثالثة: آيات القرآن قسمان: محكمات ومتشابهات كما دلت عليه الآية الكريمة، فإن قيل: كيف يمكن التوفيق بين هذه الآية وبين ما جاء في سورة هود أن القرآن كلَّه محكم ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [الآية: ١] وما جاء في (الزمر) أن القرآن كلَّه متشابهٌ ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الآية: ٢٣]؟! فالجواب أنه لا تعارض بين الآيات إذ كل آية لها معنى خاص غير ما نحن في صدده فقوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] بمعنى أنه ليس به عيب، وأنه كلامٌ حق فصيح الألفاظ، صحيح المعاني وقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] بمعنى أنه يشبه بعضه بعضًا في الحُسْن ويصدق بعضه بعضًا، فلا تعارض بين الآيات.

---

(١) «تلخيص البيان» ص ١٧.

(٢) «تلخيص البيان» ص ١٧.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) «القرطبي» ٤/ ٩.

الرابعة: روى البخاري عن سعيد بن جبير أن رجلًا قال لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ، قال: ما هو؟ قال قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] وقال ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقد كتموا في هذه الآية، وفي النازعات ذكرَ خلق السماء قبل خلق الأرض، وفي فصِّلت ذكَر خلق الأرض قبل خلق السماء، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿وَكَانَ الله سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] فكأنه كان ثم مضى. . فقال ابن عباس: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] في النفخة الأولى ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، وأما قوله ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم لهم فعند ذلك عُرِف أن الله لا يكتم حديثًا وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، وخلق الله الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سماوات في يومين، ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينها في يومين آخرين فذلك قوله ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] فخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام وخلقت السماء في يومين، وقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] فسمّى نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك، ويحكَ فلا يختلف عليك القرآن فإن كلًّا من عند الله.

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾
كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ
ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ
مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ
مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ
عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ
بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾
ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

المناسَبَة: لما حكى تعالى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم أن يثبتهم الله على الإيمان، حكى عن الكافرين سبب كفرهم وهو اغترارهم في هذه الحياة بكثرة المال والبنين، وبيّن أنها لن تدفع عنهم عذاب الله، كما لن تغني عنهم شيئًا في الدنيا، وضرب على ذلك الأمثال بغزوة بدر حيث التقى فيها جند الرحمن بجند الشيطان، وكانت النتيجة اندحار الكافرين مع كثرتهم وانتصار المؤمنين مع قلتهم، فلم تنفعهم الأموال ولا الأولاد، ثم أعقب تعالى ذلك بذكر شهوات الدنيا ومُتَع الحياة التي يتنافس الناس فيها، ثم ختمها بالتذكير بأن ما عند الله خيرٌ للأبرار.

اللغَة: ﴿تُغْنِيَ﴾ الإغناء: الدفع والنفع ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ الوَقود بفتح الواو الحطبُ الذي توقد به النار، وبالضم مصدر بمعنى الاتقاد ﴿كَدَأْبِ﴾ الدأب: العادة والشأن وأصله من دأب الرجل في عمله إذا جدَّ فيه واجتهد ثم أُطلق الدأب على العادة والشأن لأن من دأب على شيء أمدًا طويلًا صار له عادة ﴿ءَايَةٌ﴾ علامة ﴿فِئَةٌ﴾ جماعة، وسميت الجماعة من الناس فئةً لأنه يُفَاءُ إليها في وقت الشدة[1] ﴿لَعِبْرَةً﴾ العبرة: الاتعاظ ومنه يقال: اعتبر، واشتقاقها من العبور وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء، ومنه عبور النهر، فالاعتبار انتقال من حالة الجهل إلى حالة العلم ﴿زُيِّنَ﴾ التزيين: تحسين الشيء وتجميله في عين الإنسان ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الشهوة: ما تدعو النفس إليه وتشتهيه، والفعل منه اشتهى وتُجمع على شهوات ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو العُقدة الكبيرة من المال أو المال الكثير الذي لا يحصى ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ المضعَّفة وهو التأكيد كقولك ألوف مؤلَّفة وأضعاف مضاعفة قاله «الطبري»، وروي عن الفراء أنه قال: القناطير جمع القنطار، والمقنطرة جمع الجمع فيكون تسع قناطير[2] ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلّمة بعلامة تجعلها حسنة المنظر تجتلب الأنظار وقيل المسوَّمة: الراعية وقال مجاهد وعكرمة: إنها الخيلُ المُطَهَّمَة[3] الحسان[4] ﴿ٱلْمَـَٔابِ﴾ المرجع يقال: آب الرجل إيابًا ومآبًا قال تعالى ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ ﴿بِٱلْأَسْحَارِ﴾ السَّحر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر.

سَبَبُ النّزول: لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ وَرَجَعَ إِلى الْمَدِينَةَ جَمَعَ الْيَهُودَ فَقَالَ لهم: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا». قَالُوا يَا مُحَمَّدُ لاَ يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا - يَعْنِي جُهَّالًا- لاَ يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا. فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾

(١) (ش): أي يُرجعُ إليها في وقت الشدة.
(٢) «القرطبي» ٤/ ٣١.
(٣) (ش): خَيْلٌ مُطَهَّمَة: مُقَرَّبَةٌ مُكَرَّمَةٌ عَزِيزَةُ الأَنْفُسِ.
(٤) «تفسير الرازي» ٧/ ٢١١.

الآية [١] »[٢].

التفسير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ أي لن تفيدهم الأموال والأولاد، ولن تدفع عنهم من عذاب الله في الآخرة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي من عذاب الله وأليم عقابه ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي هم حطب جهنم الذي تُسْجر وتوقد به النار ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي حال هؤلاء الكفار وشأنهم كحال وشأن آل فرعون، وصنيعُهم مثلُ صنيعهم ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي كذبوا بالآيات التي تدل على رسالات الرسل ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي أليم العذاب شديد البطش، والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي قل يا محمد لليهود ولجميع الكفار ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي تُهزمون في الدنيا ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي تُجمعون وتساقون إلى جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي بئس المهاد والفراش الذي تمتهدونه نار جهنم[٣] ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي قد كان لكم يا معشر اليهود عظة وعبرة ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ أي في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي طائفةٌ مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي يرى الكافرون المؤمنين أكثر منهم مرتين ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ أي رؤية ظاهرةً مكشوفة بالعين المجردة لا بالوهم والخيال، وقيل: المراد يرى المؤمنون ضعفيهم في العدد، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليرهبوهم ويجبنوا عن قتالهم، والقول الأول اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ أي رؤية حقيقية لا بالخيال ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يقوّي بنصره من يشاء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي لآية وموعظة ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة، ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء، وأن النصر لا يكون بكثرة العَدد والعتاد، وإنما يكون بمعونة الله وتأييده كقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٠] ثم أخبر تعالى عن اغترار الناس بشهوات الحياة الفانية فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٢٦٨ و«أسباب النزول» للواحدى ص ٥٤.

(ش): أخرجه ابن جرير، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند حسن.

(٢) (ش): رواه أبو داود، وضعفه الألباني.

(٣) (ش): ﴿المهاد﴾: الفراش الممهَّد للنوم. مَهَد الفِرَاشَ امْتَهِده: بَسَطَهُ ووطّأه وجعله ليِّنًا يسهُل القعودُ والنّومُ عليه، أعدّه وهيَّأه.

﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ أي حُسِّن إليهم وحُبِّب إلى نفوسهم المَيْل نحو الشهوات، وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، والالتذاذ بهن أكثر وفي الحديث «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[1] ثم ذكر ما يتولد منهن فقال ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ وإنما ثنّى بالبنين؛ لأنهم ثمرات القلوب وقرة الأعين كما قال القائل:

وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا ... أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ ... لَامْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمْضِ

وقُدِّمُوا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ أي الأموال الكثيرة المكدَّسة من الذهب والفضة، وإنما كان المال محبوبًا لأنه يحصل به غالب الشهوات، والمرء يرتكب الأخطار في تحصيله ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢] والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خُصَّا بالذكر ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي الأصيلة الحسان ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي الإبل والبقروالغنم فمنها المَرْكَب والمَطْعم والزِّينة ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ أي الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقواتهم ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتُها الفانية الزائلة ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي حسن المرجع والثواب ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي قل يا محمد أأخبركم بخيرٍ ممّا زُيِّن للناس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل؟ والاستفهام للتقرير ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي للمتقين يوم القيامة جناتٌ فسيحات تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي منزهةٌ عن الدنس والخبث، الحسي والمعنوي، لا يتغوَّطن ولا يتبوَّلْن ولا يَحِضْن ولا ينفسْن، ولا يعتريهن ما يعتري نساء الدنيا ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم رضوانٌ من الله وَأيُّ رضوان، وقد جاء في الحديث «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[2] ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي عليم بأحوال العباد يعطي كلًّا بحسب ما يستحقه من العطاء. ثم بيّن تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالخلود في دار النعيم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي آمنا بك وبكتبك ورسلك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي اغفر لنا بفضلك ورحمتك ذنوبنا ونجنا من عذاب النار ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي الصابرين على البأساء والضراء، والصادقين في إيمانهم وعند اللقاء، والمطيعين لله في الشدة والرخاء ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أي الذين يبذلون أموالهم في وجوه الخير ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ أي وقت السحر قُبيل طلوع الفجر[3].

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١/ ٢٢١.

البَلَاغَة: ١ - ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من عذاب الله ٢ - ﴿شَيْـًٔا﴾ التنكير للتقليل أي لن تنفعهم أيّ نفع ولو قليلًا. ٣- ﴿وأولئك هُمْ وَقُودُ النار﴾ الجملة إسمية للدلالة على ثبوت الأمر وتحققه. ٤ - ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر والأصل فأخذناهم. ٥- ﴿لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ الأصل «آيةٌ لكم» وقدّم للإعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، والتنكير في آية للتفخيم والتهويل أي آية عظيمة ومثله التنكير في ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢] ٦- وقوله تعالى ﴿يَرَوْنَهُم﴾ و ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ بينهما جناس الاشتقاق ٧- ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يراد به المشتهيات قال الزمخشري: عبَّر بالشهوات مبالغة كأنها نفس الشهوات، وتنبيهًا على خستها لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء. ٨- ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفته ٩- ﴿ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال «أبو السعود»: التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم. ١٠- ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ بينهما من المحسنات البديعية ما يسمى بالجناس الناقص.

فَائِدَة: الأولى: من المزيّن للشهوات؟ قيل: هو الشيطان ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] وتزيين الشيطان: وسوسته وتحسينه الميل إليها وقيل: المزيّن هو الله ويدل عليه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧] وتزيين الله للابتلاء ليظهر عبد الشهوة من عبد المولى وهو ظاهر قول عمر: «اللهم لا صبر لنا على ما زينتَ لنا إلا بك»[1].

الثانية: تخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن النفس أصْفى، والروح أجمع، والعبادة أشق فكانت أقرب إلى القبول، قال ابن كثير: كان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول يا نافع: هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح[2].

قال الله تعالى:

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ
ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ
وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل
لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ
بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه البخاري.

(ش): لم أجده في البخاري بهذا اللفظ، لكن رواه البخاري مُعَلَّقًا بصيغة الجزم بلفظ آخر فقال: قَالَ عُمَرُ اللَّهُمَّ إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ إِلاَّ أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنْتَهُ لَنَا ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ أُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ .

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٢٧١.

يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ
إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا
مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ
نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾

المناسَبَة: لما مدح تعالى المؤمنين وأثنى عليهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أردفه بأنْ بيّن أنَّ دلائل الإيمان ظاهرة جلية فقال ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم بيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وأمر الرسول بأن يعلن استسلامه لله وانقياده لدين الله، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب واختلافهم في أمر الدين اختلافًا كبيرًا، وإِعراضهم عن قبول حكم الله.

اللغَة: ﴿شَهِدَ﴾ الشهادة: الإقرار والبيان ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ العدل ﴿ٱلدِّينَ﴾ أصل الدين في اللغة: الجزاء ويطلق على الملَّة وهو المراد هنا ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ الإسلام في اللغة: الاستسلام والانقياد التام قال ابن الأنباري: المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم: سلم الشيء لفلان أي خلص له؛ فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿حَآجُّوكَ﴾ جادلوك ونازعوك ﴿وَغَرَّهُمۡ﴾ فتنهم ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ يكذبون.

سَببُ النّزول: لمّا استقر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حَبْران من أحبار الشام، فلما دخلا عليه عرفاه بالصّفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالا: وأنت أحمد؟ قال نعم، قالا: نسألك عن شهادةٍ فإِن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدَّقناك، فقال لهما رسول الله ﷺ: سلاني، فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية فأسلم الرجلان[١] وصدّقا برسول الله ﷺ[٢].

التفسير: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي بَيَّنَ وأعْلَمَ تعالى عباده بانفراده بالوحدانية، قال الزمخشري: شُبِّهَتْ دلالته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي حال كونه مقيمًا للعدل فيما يقسم من الآجال والأرزاق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ أي الشرع المقبول عند الله هو الإسلام، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي وما اختلف

(١) (ش): موضوع، ذكره الواحدي في «أسباب النزول».
(٢) «القرطبي» ١/ ١٤، و«البحر المحيط» ٢/ ٤٠١

اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد عليه السلام، إلا بعد أن علموا بالحجج النيرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبار وعناد، فكانوا ممن ضلَّ عن علم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسدًا كائنًا بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وهو وعيد وتهديد أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعًا فيجازيه على كفره ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي إن جادلوك يا محمد في شأن الدِّين فقل لهم: أنا عبدٌ لله قد استسلمتُ بكليتي لله، وأخلصت عبادتي له وحده، لا شريك له ولا نِدّ ولا صاحبة ولا ولد ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي أنا وأتباعي على ملة الإسلام، مستسلمون منقادون لأمر الله ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ أي قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ أي هل أسلمتم أم أنتم باقون على كفركم فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم؟ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ أي فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي وإن أعرضوا فلن يضروك يا محمد إذ لم يكلفك الله بهدايتهم وإنما أنت مكلف بالتبليغ فحسب والغرض منها تسلية النبي ﷺ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها، روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: أسلمنا فقال عليه السلام لليهود: أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله «فقالوا: معاذ الله، فقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله» فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبدًا وذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ [(١)]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يُكَذِّبون بما أنزل الله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي يقتلون أنبياء الله بغير سبب ولا جريمة إلا لكَوْنِهم دعَوْهُم إلى الله، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله، قال ابن كثير: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبيّ من أول النهار، وأقاموا سوق بقلهم من آخره» ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ أي أخبرهم بما يسرهم وهو العذاب الموجع المهين، والأسلوب للتهكم وقد استحقوا ذلك لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم: الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل الدعاة إلى الله، قال تعالى مبينًا عاقبة إجرامهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات، ولم يبق لها أثر في الدارين، بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه. . ثم ذكر تعالى طرفًا من لجاج وعناد أهل الكتاب

(١) «تفسير أبي السعود» ١/ ٣٢٢.

(ش): موضوع، ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في «العجاب في بيان الأسباب». وهو في «تفسير أبي السعود» بدون سند بصيغة التمريض «رُوِيَ» التي ذكرها المؤلف.

فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب فالصيغة صيغة تعجيب للرسول أو لكل مخاطب قال الزمخشري: يريد أحبار اليهود وأنهم حصلوا نصيبًا وافرًا من التوراة ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون صحته، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله، وهو استبعاد؛ لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه، وجملة ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ تأكيد للتولي أي وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل والآية كما يقول المفسرون تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم إثنان فحكم عليهما بالرجم فأبوا وقالوا: لا نجد في كتابنا إلا التحميم فجيء بالتوراة فوجد فيها الرجم فرجما، فغضبوا فشنَّع تعالى عليهم بهذه الآية[1] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي ذلك التولي والإعراض بسبب افترائهم على الله وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء وأن النار لن تصيبهم إلا مدةً يسيرة - أربعين يومًا - مدة عبادتهم للعجل ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي غرهم كذبهم على الله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب! وهو استعظام لما يَدْهَمُهم[2] من الشدائد والأهوال ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي نالت كل نفسٍ جزاءها العادل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب.

البَلَاغَة: ١ - ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ الجملة مُعَرَّفة الطرفَيْن فتفيد الحصر أي لا دين إلا الإسلام.

٢ - ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التعبير عن اليهود والنصارى بقوله «أوتوا الكتاب» لزيادة التشنيع والتقبيح عليهم فإن الاختلاف مع علمهم بالكتاب في غاية القبح والشناعة.

٣ - ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفس.

٤ - ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ أطلق الوجه وأراد الكل فهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٥ - ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأصل في البشارة أن تكون في الخير واستعمالها في الشر للتهكم ويسمى «الأسلوب التهكمي» حيث نزّل الإنذار منزلة البشارة السارة كقوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨] وهو أسلوبٌ مشهور.

فَائِدَة: قال «القرطبي»: في هذه الآية دليل على فضل العلم، وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء، ويكفي في شرف

---

(١) انظر القصة في «صحيح البخاري» كتاب التفسير.

(٢) (ش): دَهَمَ الأمرُ فلانًا: فَجَأه، أتاه، غشِيَه وفاجأه.

العلم قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وقوله ﷺ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ»(١) وفي حديث ابن مسعود أن من قرأ قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية فإنه يجاء به يوم القيامة فيقول الله تعالى: عبدي عهد إليَّ عهدًا وأنا أحقُّ من وفّى، أدخلوا عبدي الجنة(٢).

لطيفة: من أطرف ما قرأتُ في بيان فضل العلم تلك المحاورة اللطيفة بين العقل والعلم حيث يقول القائل وقد أبدع وأجاد:

عِلْمُ الْعَلِيمِ وَعَقْلُ الْعَاقِلِ اخْتَلَفَا ... مَنْ ذَا الَّذِي فِيهِمَا قَدْ أَحْرَزَ الشَّرَفَا
فَالْعِلْمُ قَالَ أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ ... وَالْعَقْلُ قَالَ أَنَا الرَّحْمَنُ بِي عُرِفَا
فَأَفْصَحَ الْعِلْمُ إِفْصَاحًا وَقَالَ لَهُ: ... بِأَيِّنَا اللهُ فِي فُرْقَانِهِ اتَّصَفَا
فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ الْعِلْمَ سَيِّدُهُ ... وَقَبَّلَ الْعَقْلُ رَأْسَ الْعِلْمِ وَانْصَرَفَا

قال الله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ
بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ
﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ
أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام، أعقبه بذكر البشائر التي تدل على قرب نصر الله للإسلام والمسلمين، فالأمر كله بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، وأمر رسوله بالدعاء والابتهال إلى الله بأن يعزّ جند الحق وينصر دينه المبين.

اللغَة: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أصله يا ألله حذفت أداة النداء واستعيض عنها بالميم المشدّدة هكذا قال الخليل وسيبويه ﴿وَتَنزِعُ﴾ تسلب ويعبر به عن الزوال يقال: نزع الله عنه الشر، أي أزاله: ﴿تُولِجُ﴾ الإيلاج: الإدخال يقال: ولج يلج ولوجًا ومنه ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ﴿أَمَدًا﴾ الأمد: غاية الشيء ومنتهاه وجمعه آماد ﴿تُقَىٰةً﴾ تقيَّةً وهي مدارة الإنسان مخافة شره.

سَبَبُ النّزول: أ- لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون

---

(١) (ش): رواه الإمام أحمد وأصحاب السُّنن وصححه الألباني.
(٢) رواه الطبراني في «الكبير». (ش): وضعفه الألباني.

واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم!! هم أعزُّ وأمنع من ذلك ألم يكفه مكة حتى طمع في ملك فارس والروم فأنزل الله ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ ...﴾ الآية[١].

ب – عن ابن عباس أن «عُبادة بن الصامت» – وكان بدريًّا تقيًّا – كان له حلفٌ مع اليهود، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال له عبادة: يا نبيَّ الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو فأنزل الله ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ الآية[٢].

التفسير: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي قل: يا الله يا مالك كل شيء ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي أنت المتصرف في الأكوان، تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي تعطي العزة لمن تشاء والذلة لمن تشاء ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي بيدك وحدك خزائن كل خير وأنت كل على كل شيء قدير ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس، وهكذا في فصول السنة شتاءً وصيفًا ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع، والنخلةَ من النواة والنواة من النخلة، والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن هكذا قال ابن كثير، وقال «الطبري»: «وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال: يخرج الإنسان الحيَّ والأنعام والبهائم من النطف الميتة، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء» ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي تعطي من تشاء عطاءً واسعًا بلا عَدٍّ ولا تضييق. . ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصارًا وأحبابًا فقال ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي لا توالوا أعداء الله وتتركوا أولياءه فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه قال الزمخشري: نُهوا أن يوالوا الكافرين لقرابةٍ بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يُتَصادق بها ويُتَعاشر ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ أي من يوالِ الكفرة فليس من دين الله في شيء ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ أي إلا أن تخافوا منهم محذورًا أو تخافوا أذاهم وشرهم، فأظهروا موالاتهم باللسان دون القلب، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روي «إِنّا لَنَبَشّ في وجوه أقوامٍ

(١) «القرطبي» ٤/ ٥٢.

(ش): ذكره الواحدي في«أسباب النزول» بدون إسناد.

(٢) «روائع البيان» ١/ ٣٩٩.

(ش): ضعيف جدًا، ذكره الواحدي في«أسباب النزول».

وقلوبُنا تلعنُهم»(١) ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي يخوفّكم الله عقابه الصادر منه تعالى(٢) ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المنقلب والمرجع فيجازي كل عاملٍ بعمله ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاةً الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا يخفى عليه خافية ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي عالم بجميع الأمور، يعلم كل ما هو حادث في السماوات والأرض ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره، وهو تهديد عظيم ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضرًا لا يغيب عنه، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، فإن كان عمله حسنًا سرّه ذلك وأفرحه ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي وإن كان عمله سيئًا تمنّى أن لا يرى عمله، وأحبَّ أن يكون بينه وبين عمله القبيح غايةً في نهاية البعد أي مكانٌ بعيدٌ كما بين المشرق والمغرب ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي يخوفكم عقابه(٣) ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي رحيم بخلقه يحبّ لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنتم حقًّا تحبون الله فاتبعوني لأني رسوله؛ يحبكم الله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحبكم الله ويغفر لكم ما سلف من الذنوب قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه تلك حتى يتّبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله»(٤) ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا عن الطاعة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

(١) (ش): (ليس بحديث).
ولكن رواه البخاري معلقًا بصيغة التمريض التي تدل على الضعف فقال: وَيُذْكَرُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء: «إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَام، وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ». (نَكْشِرُ): نبتسم حتى تظهرَ أسنانُنا. بشَّ بفلانٍ. بشَّ لفلانٍ: فَرح به وسُرَّ ولقيه بوجْهٍ ضاحِك. والبَشاشة: طَلَاقَةُ الْوَجْهِ.

(٢) (ش): الواجب على المسلم في باب الأسماء والصفات أن يثبتَ ما أثبته الله تعالى لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، والمسلم يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ فما يثبته المسلم لربه تعالى من الصفات لا يماثل صفات المخلوقات .ولفظة «النفْس» ثابتة لله تعالى في كتابه الكريم وفي سنَّة النبي ﷺ الصحيحة ، ولذا فلا يسع المسلم إلا إثباتها : و«النَّفس» في الآيات والأحاديث الصحيحة ليست ذاتًا منفكة عن الصفات ، وليست صفة من صفات الله تعالى كالسمع والبصر ، بل معناها في الآيات والأحاديث : ذاته تعالى المقدَّسة. قال شيخ الإسلام: «ومعلوم أن نفس الله، التي هي ذاته المقدسة، الموصوفة بصفات الكمال، ليست مثل نفس أحد من المخلوقين» (درء تعارض العقل والنقل ١٠/٣٠٨). وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين : «وليس النفس صفة كسائر الصفات كالسمع والعلم والقدرة ، فالنفس يعني : الذات ، فقوله (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ) يعني : ذاته. (شرح الأربعين النووية ص ٢٢٨).

(٣) (ش): راجع الهامش السابق.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٢٧.

﴿يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨].

البَلَاغَة: جمعت هذه الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة ما يلي:

١ - الطباق في مواضع مثل «تؤتي وتنزع» و «تعز وتذل» و «الليل والنهار» و «الحي والميت» و «تخفوا وتبدوا» وفي «خير وسوء» و «محضرًا وبعيدًا».

٢ - والجناس الناقص في «مالك الملك» وفي «تحبون ويحببكم» وجناس الاشتقاق بين «تتقوا وتقاة» وبين «يغفر وغفور».

٣ - رد العجز على الصدر في ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

٤ - التكرار في جمل للتفخيم والتعظيم كقوله ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

٥ - الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة كقوله ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي من تشاء أن تؤتيه ومثلها وتنزع، وتعز، وتذل.

٦ - ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ قال في «تلخيص البيان»: وهذه استعارة عجيبة وهي عبارة عن إدخال هذا على هذا، وهذا على هذا فما ينقصه من الليل يزيده في النهار والعكس، ولفظ الإيلاج أبلغ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطيف الممازجة وشديد الملابسة.

٧ - ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ الحيُّ والميت مجاز عن المؤمن والكافر فقد شبه المؤمن بالحي والكافر بالميت(١) والله أعلم.

فَائِدَة: في الاقتصار على ذكر الخير ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ دون ذكر الشر تعليمٌ لنا الأدب مع الله فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدبًا وإن كان منه خلقًا وتقديرًا ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨](٢).

تنبيه: روى مسلم في «صحيحه» عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا**

---

(١) هذا على رأي من فسر الآية بالوجه الآخر وهو أن المراد يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ وهو قول الحسن البصري.

(ش): وتكملة الآية: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

(٢) (ش): عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: «إِنِّي أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ»، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ، فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ».

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ
وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا
وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ
ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ
إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ
وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

المناسَبَة: لما بيّن تعالى أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل وطاعتهم، بيّن علوَّ درجات الرسل وشرف مناصبهم، فبدأ بآدم أولهم، وثنَّى بنوح أبي البشر الثاني، ثم أتى ثالثًا بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ لأنه من ولد إسماعيل، ثم أتى رابعًا بآل عمران فاندرج فيهم عيسى عليه السلام، وأعقب ذلك بذكر ثلاث قصص: قصة ولادة مريم، وقصة ولادة يحيى، وقصة ولادة عيسى، وكلها خوارق للعادة تدل على قدرة العلي القدير.

اللغَة: ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار وأصله من الصفوة، أي: جعلهم صفوة خلقه ﴿مُحَرَّرًا﴾ مأخوذ من الحرية وهو الذي يُجعل حرًّا خالصًا، والمراد الخالص لله عَزَّ وَجَلَّ الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ﴿أُعِيذُهَا﴾ عاذ بكذا: اعتصم به ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ الكفالة: الضمان يقال كفَلَ فهو كافل، وهو الذي ينفق على إنسانٍ ويهتم بمصالحه وفي الحديث «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»[١] ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ الموضع العالي الشريف: قال أبو عبيدة: سيد المجالس وأشرفها ومقدمها وكذلك هو من المسجد[٢] ﴿وَحَصُورًا﴾ من الحصر وهو الحبس، وهو الذي يحبس نفسه عن الشهوات، وللمفسرين في معناه قولان نختار منهما ما اختاره المحققون: أنه الذي لا يأتي النساء لا لعجزٍ

---

(١) (ش): (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، والترمذي).

(٢) «البحر المحيط» ٢/ ٤٣٣.

بل للعفة[١] ﴿عَاقِرٌ﴾ عقيم لا تلد. والعاقر من لا يولد له من رجل أو امرأة ﴿رَمْزًا بِالْعَشِيِّ﴾ الرمز: الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما قال «الطبري»: الإيماءً بالشفتين وقد يستعمل في الحاجبين والعينين[٢] ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ من حين زوال الشمس إلى غروبها ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ من طلوع الشمس إلى وقت الضحى قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَا الظِّلَّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ وَلَا الْفَيْءَ مَنْ بَـرْدِ الْعَشِيِّ تَـذُوقُ

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ أي اختار للنبوة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر ﴿وَنُوحًا﴾ شيخ المرسلين ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي عشيرته وذوي قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتم المرسلين ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ أي أهل عمران ومنهم عيسى بن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم قال «القرطبي»: وخصَّ هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل جميعًا من نسلهم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي اصطفاهم متجانسين في الدين والتُّقى والصلاح ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بضمائرهم ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران واسمها «حنَّة بنت فاقود» ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ أي نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي مخلصًا للعبادة والخدمة ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيتي ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ أي لمَّا ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار يا رب إنها أنثى قال ابن عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور فقبل الله مريم. قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت قالت ذلك أو لم تقله ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أي ليس الذكر الذي طَلَبْته كالأنثى التي وُهبتها بل هذه أفضل والجملتان معترضتان من كلامه تعالى تعظيمًا لشأن هذه المولودة وما علّق بها من عظائم الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ من تتمة كلام امرأة عمران والأصل إني وضعتُها أنثى وإني سميتُها مريم أي أسميت هذه الأنثى مريم ومعناه في لغتهم العابدة خادمة الرب ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي أُجيرها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم، فاستجاب الله لها ذلك قال تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي قبلها الله قبولًا حسنًا قال ابن عباس: سلك بها طريق السعداء ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي ربَّاها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعل زكريا كافلًا لها ومتعهدًا للقيام بمصالحها، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعامًا، قال مجاهد:

---

(١) «تفسير الفخر الرازي» ٨/ ٣٩، وبنحوه في «الطبري» و«القرطبي».

(٢) «الطبري» ٦/ ٣٨٦.

وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ ؟ أي من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ أي رزقًا واسعًا بغير جهد ولا تعب ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أي في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم دعا ربه متوسلًا ومتضرعًا ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي أعطني من عندك ولدًا صالحًا - وكان شيخًا كبيرًا وامرأته عجوزًا وعاقرًا - ومعنى طيبة صالحة مباركة ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي مجيب لدعاء من ناداك ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائمًا في الصلاة[1] ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ أي يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مصدقًا بعيسى مؤمنًا برسالته، وسمي عيسى كلمة الله لأنه خلق بكلمة «كن» من غير أب ﴿وَسَيِّدٗا﴾ أي يسود قومه ويفوقهم ﴿وَحَصُورٗا﴾ أي يحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهدًا ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك، وما قاله بعض المفسرين أنه كان عنّينًا فباطل لا يجوز على الأنبياء لأنه نقص وذم والآية وردت مورد المدح والثناء[2] ﴿وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ويكون نبيًّا من الأنبياء الصالحين قال ابن كثير: وهذه بشارة ثانية بنبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [3] [القصص: ٧] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ أي كيف يأتينا الولد ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ أي أدركتني الشيخوخة وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾ أي عقيم لا تلد وكانت زوجته بنت ثمان وسبعين سنة، فقد اجتمع فيهما الشيخوخة والعقم في الزوجة وكلٌّ من السببين مانع من الولد ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ أي علامة على حمل امرأتي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ أي علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها مع أنك سويٌّ صحيح والغرض أنه يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ أي اذكر الله ذكرًا كثيرًا بلسانك شكرًا على النعمة، فقد منع عن الكلام ولم يُمنع عن الذكر لله والتسبيح له وذلك أبلغ في الإعجاز ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أي

---

(١) (ش): لا يوجد دليلٌ صحيح على تفسير الملائكة بجبريل، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٧): قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ أَيْ: خَاطَبَتْهُ الْمَلَائِكَةُ شِفَاهًا خِطَابًا أَسْمَعَتْهُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابِ عِبَادَتِهِ، وَمَحَلِّ خَلْوَته، وَمَجْلِسِ مُنَاجَاتِهِ، وَصَلَاتِهِ.

(٢) قال ابن كثير نقلاً عن القاضي عياض: «اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصورًا ليس كما قاله بعضهم إنه كان عنينًا أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، وقالوا: هذه نقيصه وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصور أو يمنع نفسه من الشهوات، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام» انتهى.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٨١.

نزّه الله عن صفات النقص بقولك: سبحان الله في آخر النهار وأوله. وقيل: المراد صلّ لله، قال «الطبري»: يعني عظّم ربك بعبادته بالعشي والإبكار.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾ جملتان معترضتان لتعظيم الموضوع ورفع منزلة المولود.

٢ - ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد.

٣ - ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ شبهها في نموها وترعرعها بالزرع الذي ينمو شيئًا فشيئًا، والكلام مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها بطريق الاستعارة التبعية.

٤ - ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المنادي جبريل وعبّر عنه باسم الجماعة تعظيمًا له لأنه رئيسهم[١].

٥ - ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ بين كلمتي العشيّ والإبكار طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

الفوَائِد: الأولى: روي أن «حنَّة» امرأة عمران كانت عجوزًا فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة إذ رأت طائرًا يطعم فرخه فحنّت إلى الولد وتَمَنَّته وقالت: اللهم إن لك عليَّ نذرًا إن رزقتني ولدًا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سَدَنَته[٢] ثم هلك عمران وهي حامل وهذا سر النذر[٣].

الثانية: قال ابن كثير عند قوله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا﴾ قال: والآية فيها دلالة على كرامات الأولياء، وفي السنة بهذا نظائر كثيرة وساق بسنده عن جابر قصة الجفنة وخلاصتها «أن النبي ﷺ جاع أيامًا فدخل على ابنته فاطمة الزهراء يسألها عن الطعام فلم يكن عندها شيء وأرسلت إليها جارتها برغيفين وقطعة لحم فوضعتها في جفنة ثم رأت الجفنة وقد امتلأت لحمًا وخبزًا»[٤].

قال الله تعالى:

وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ
ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ
يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ
إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ
ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ
وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ

---

(١) (ش): تقدم أنه لا يوجد دليلٌ صحيح على تفسير الملائكة بجبريل.

(٢) (ش): السادِن: خَادِمُ الْكَعْبَةِ المشرّفة، خَادِمُ المعبد.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١/ ٢٣٠.

(٤) (ش): القصة رواها أبو يعلى، وضعفها الألباني.

كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرَۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ
ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة ولادة «يحيى بن زكريا» من عجوز عاقرٍ وشيخ قد بلغ من الكبر عتيًا، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة، أعقبها بما هو أبلَغ وأروع في خرق العادات، فذكر قصة ولادة السيد المسيح عيسى من غير أب وهي شيء أعجب من الأول، والغرضُ من ذكر هذه القصة الردّ على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى، فذكر ولادته من مريم البتول[1] ليدل على بشريته، وأعقبه بذكر ما أيده به من المعجزات ليشير إلى رسالته، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات، وليس له شيء من أوصاف الربوبية.

اللغَة: ﴿أَنۢبَآءِ﴾ جمع نبأ وهو الخبر الهام ﴿نُوحِيهِ﴾ الوحي: إلقاء المعنى في النفس في خفاء ﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾ القلم معروف وهو الذي يكتب به وقد يطلق على السهم الذي يقترع به وهو المراد هنا ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ لقبٌ من الألقاب المشرّفة كالصدّيق والفاروق وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك[2] ﴿وَجِيهًا﴾ شريفًا ذا جاهٍ وقدر، والوجاهةُ الشرف والقدر ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ فراش الطفل ﴿وَكَهْلًا﴾ الكهل: ما بين الشاب والشيخ والمرأة كهلة ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الذي يولد أعمى ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ المصاب بالبرص وهو بياض يعتري الجلد وداءٌ عُضال.

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي اذكر وقت قول الملائكة، أي: جبريل[3] يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصَّكِ بالكرامات ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأدناس والأقذار ومما اتهمكِ به اليهود من الفاحشة ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي اختارك على سائر نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي إلزمي عبادته وطاعته شكرًا على اصطفائه ﴿وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي صلي لله مع المصلين ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا يحيى إنما هو من الأنباء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحينا بها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ

---

(١) (ش): البَتُول مِنَ النِّسَاءِ: العَذْراء الْمُنْقَطِعَةُ مِنَ الأزواج، وَيُقَالُ: هِيَ الْمُنْقَطِعَةُ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الدُّنْيَا. والتَّبَتُّل: تَرْكُ الزواج والزهدُ فِيهِ وَالِانْقِطَاعُ عَنْهُ.
(٢) «الكشاف» ١/ ٢٧٨.
(٣) (ش): تقدم أنه لا يوجد دليلٌ صحيح على تفسير الملائكة بجبريل.

﴿يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ أي ما كنت عندهم إِذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كلٌ يريدها في كنفه ورعايته ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ أي يتنازعون فيمن يكفلها منهم، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحيًا من عند الله العليم الخبير. . روي أن حنّة حين ولدتها لفتَّها في خرقة وحملتها إِلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إِمامهم ثم اقترعوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها[1] قال ابن كثير: وإِنما قدّر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علمًا جمًّا وعملًا صالحًا ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾ أي بمولود يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ أي اسمه عيسى ولقبه المسيح، ونسبَه إِلى أمه تنبيهًا على أنها تلده بلا أب ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي سيدًا ومعظمًا فيهما ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ أي طفلاً قبل وقت الكلام ويكلمهم كهلًا قال الزمخشري «ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوتٍ بين حال الطفولة وحال الكهولة»[2] ولا شك أن ذلك غاية في الإِعجاز ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ أي كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج؟ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسببٍ من الوالدين وبغير سبب ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي إِذا أراد شيئًا حصل من غير تأخرٍ ولا حاجةٍ إِلى سبب، يقول له كن فيكون ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الكتابة ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ أي ويجعله يحفظ التوراة والإِنجيل قال ابن كثير: وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي ويرسله رسولاً إِلى بني إِسرائيل قائلًا لهم ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي بأني قد جئتكم بعلامةٍ تدل على صدقي وهي ما أيدني الله به من المعجزات، وآيةُ صدقي ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ أي أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيرًا بإِذن الله. قال ابن كثير: وكذلك كان يفعل، يصوّر الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عيانًا بإِذن الله عَزَّ وَجَلَّ الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله[3]، وهذه المعجزة الأولى ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ أي أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص، وهذه المعجزة الثانية ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي أحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة

---

(١) «الطبري» ٦/ ٣٥١.

(٢) «الكشاف» ١/ ٢٧٨.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٨٤.

الله وقدرته، وقد أحيا أربعة أنفس: عازر وكان صديقًا له، وابن العجوز، وبنت العاشر، وسام بن نوح هكذا ذكر «القرطبي» وغيره، وكرر لفظ «بِإذن الله» دفعًا لتوهم الألوهية، وهذه المعجزة الثالثة ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكُّون فيها فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته وهذه هي المعجزة الرابعة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي فيما أتيتكم به من المعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدّقين بآيات الله؛ ثم أخبرهم أنه جاء مؤيدًا لرسالة موسى فقال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي جئتكم مصدقًا لرسالة موسى، مؤيدًا لما جاء به في التوراة ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ولأحلّ لكم بعض ما كان محرمًا عليكم في شريعة موسى قال ابن كثير: وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيدني الله به من المعجزات وكرّر تأكيدًا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي خافوا الله وأطيعوا أمري ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له جلَّ وعلا ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي فإن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ أُطلق الملائكة وأريد به جبريل فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيمًا له ويسمى المجاز المرسل[1].

٢ - ﴿اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ﴾ تكرر لفظ اصطفاك كما تكرر لفظ «مريم» وهذا من باب الإِطناب.

٣ - ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ كنّى عن الجماع بالمسّ كما كنّى عنه بالحرث واللباس والمباشرة.

٤ - ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بين لفظ ﴿وَلِأُحِلَّ﴾ و﴿حُرِّمَ﴾ من المحسنات البديعية الطباق، كما ورد الحذف في عدة مواضع والإِطناب في عدة مواضع، وهناك نواح بلاغية أخرى ضربنا عنها صفحًا خشية الإِطالة.

فَائِدَة: جاء التعبير هنا بقوله ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وفي قصة يحيى ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] والسرُّ في ذلك هو أن خلق عيسى من غير أب إِيجاد واختراع من غير سببٍ عادي فناسبه ذكر الخلق، وهناك الزوجة والزوج موجودان ولكن وجود الشيخوخة والعقم مانع في العادة من وجود الولد فناسبه ذكر الفعل، والله أعلم.

تنبيه: قال بعض العلماء: الحكمة في أنَّ الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إِلا «مريم» هي الإِشارة من طرفٍ خفي إِلى ردّ ما قاله النصارى من أنها زوجته فإِن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ولينسب إِليها عيسى باعتبار عدم وجود أبٍ ولهذا قال في الآية

---

(١) (ش): تقدم أنه لا يوجد دليلٌ صحيح على تفسير الملائكة بجبريل.

﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ (١).

قال الله تعالى:

فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ
وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ
مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ
أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ
عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾
فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا
وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا
ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾

المناسَبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة بشارة مريم بالسيد المسيح، ثم أعقبها بذكر معجزاته وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام، ومع كل البراهين والمعجزات التي أيده الله بها فإِنَّ الكثيرين من بني إِسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزم أعداء الله «اليهود» على قتله فنجّاه الله من شرهم ورفعه إِلى السماء.

اللغَة: ﴿أَحَسَّ﴾ عرف وتحقق وأصله من الإِحساس وهو الإِدراك ببعض الحواس الخمس ﴿ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ جمع حواري وهو صفوة الرجل وخاصته، ومنه قيل للحضريات: حواريات لخلوص ألوانهن وبياضهن قَالَ الشَّاعِرُ:

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا ... وَلَا تَبْكِنَا إِلَّا الْكِلَابُ النَّوَابِحُ

والحواريون أتباع عيسى كالصحابة لرسول الله ﷺ سمّوا حواريين لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم ﴿وَمَكَرُواْ﴾ المكر: الخداع وأصله السعي بالفساد في خفية قال الزجاج: يقال مكر الليل وأمكر إِذا أظلم، ومكرُ الله استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون حكي عن الفراء وغيره ﴿نَبۡتَهِلۡ﴾ نتضرع في الدعاء، وأصل الابتهال: الاجتهاد في الدعاء باللعن، والبَهْلَةُ: اللعنة.

سَبَبُ النّزول: لما قدم وفد نصارى نجران، وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى، قالوا للرسول ﷺ: ما لك تشتِم صاحبنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا: تقول إِنه عبد قال: أجل إِنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إِلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إِنسانًا قط من غير

(١) انظر الجزء الأول من «حاشية الصاوي على الجلالين».

أب؟ فإن كنت صادقًا فأرنا مثله فأنزل الله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ الآية[١]. وروي أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولدًا، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب فقالوا: فمن أبوه فأنزل الله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ ﴾ . . إلى قوله ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم نارًا. فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: الإسلام أو الجزية أو الحرب فأقروا بالجزية[٢].

التفسير: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي استشعر من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال وإرادتهم قتله ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه نحن أنصار دين الله ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي صدقنا بالله وبما جئتنا به واشهد بأننا منقادون لرسالتك مخلصون في نصرتك ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي آمنا بآياتك واتبعنا رسولك عيسى فاكتبنا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق ثم أخبر تعالى عن اليهود المتآمرين الذين أرادوا قتل عيسى فقال ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي أرادوا قتله فنجّاه الله من شرهم ورفعه إلى السماء دون أن يمسَّ بأذى وألقى شبهه على ذلك الخائن «يهوذا» وسمّي مكرًا من باب المشاكلة[٣] ولهذا قال ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أي أقواهم مكرًا بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم[٤]

(١) (ش): ضعيف جدًّا، رواه ابن جرير في «جامع البيان».

(٢) «القرطبي» ٤/ ١٠٣، و«أسباب النزول» للواحدى ص ٥٨.

(ش): ضعيف، رواه ابن جرير في «جامع البيان».

(٣) المشاكلة: الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، وقد تقدم.

(٤) (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل:٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم:٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل.

والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفًا مطلقًا ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . إلخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبدًا، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة. . إلخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالًا، ويمكن أن تكون نقصًا، على حسب الحال التي تُذكر فيها. فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالًا يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصًا لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء. فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيدًا بما يجعله كمالًا. قال الله تعالى: =

وفي الحديث «اللهم امكرْ لي ولا تمكر عليَّ»[1] ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أي إني رافعك إلى السماء ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعه إلى السماء سالمًا دون أذى قال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليَّ ثم متوفيك بعد ذلك، وقد ذكره «الطبري» فقال: وقال آخرون معنى ذلك: إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إيّاك إلى الدنيا[2] ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي مخلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك قال الحسن: طهّره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي جاعل أتباعك الذين آمنوا بك فوق الذين جحدوا نبوتك ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة وقال في «تفسير الجلالين»: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي صدَّقوا بنبوتك من المسلمين والنصارى ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وهم اليهود يعلُونهم بالحجة والسيف ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي ثم مصيركم إلى الله فأقضي

= ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالًا في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفًا مطلقًا. لأنه حينئذٍ لا يكون كمالًا. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾. وقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾. وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾. وقوله: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحًا سيئًا لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وأصحاب السنن، وصححه الألباني).

(٢) «الطبري» ٦/ ٤٥٨، وأما قول بعض المفسرين: إنه توفى ثلاث ساعات من نهار ثم رفع. وقول بعضهم: المراد بالوفاة وفاة النوم فضعيف فقد رده المحققون قال «القرطبي»: «والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار «الطبري» وهو الصحيح عن ابن عباس».

(ش): قال الإمام «الطبري» في تفسيره «جامع البيان» (٦/ ٤٥٨): «وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا، قولُ من قال: «معنى ذلك: إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ»، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة ذكَرها، اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه».

بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي أما الكافرون بنبوتك المخالفون لملتك فإني معذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا بالقتل والسبي، وبالآخرة بنار جهنم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي وأما المؤمنون فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملةً غير منقوصة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يحب من كان ظالمًا فكيف يظلم عباده؟ ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ أي هذه الأنباء التي نقصها عليك يا محمد ﴿مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي من آيات القرآن الكريم المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي إن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي خلق آدم من غير أب ولا أم ثم قال له كن فكان، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكِّين ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي من جادلك في أمر عيسى بعدما وضح لك الحق واستبان ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي هلمّوا نجتمع ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة وفي صحيح مسلم **لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أَهْلِي»**. ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي نتضرع إلى الله فنقول: اللهم العن الكاذب منا في شأن عيسى، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا بالجزية **عَن ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: لَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَرَجَعُوا لا يَجِدُونَ مَالًا وَلاَ أَهْلًا**[1]. قال أبو حيان: «وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته»[2] ثم قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا شك فيه ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي لا يوجد إله غير الله[3]، وفيه ردٌّ على النصارى في قولهم بالتثليث ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي هو جل شأنه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد فإنهم مفسدون والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء.

البَلَاغَة: ١ - ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾ قال أبو حيان: فيها استعارة إذ الكفر ليس بمحسوس وإنما يُعلم ويفطن به فإطلاق الحسّ عليه من نوع الاستعارة.

---

(١) (ش): (رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ، وصححه الألباني).

(٢) «البحر المحيط» ٢/ ٤٨٠.

(٣) (ش): الصواب أن يقال: «لا يوجد إلهٌ حَقٌّ غيرُ الله» لأن هناك آلهة باطلة.

٢ - ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ بين لفظ (مكروا والماكرين) جناس الاشتقاق وهو من باب المشاكلة.

٣ - ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فيه التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة.

٤ - ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى الرسول لتشريفه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام.

٥ - ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ هو من باب الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت أفاده «أبو السعود».

لطيفة: قال صاحب «البحر المحيط»: وَسَأَلَ رَجُلٌ الْجُنَيْدَ، فَقَالَ: كَيْفَ رَضِيَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ الْمَكْرَ وَقَدْ عَابَ بِهِ غَيْرَهُ؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، وَلَكِنْ أَنْشَدَنِي فُلَانٌ الظَّهْرَانِيُّ:

وَيَقْبُحُ مَنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي ... فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكَ إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ[1].

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

المناسَبَة: لما أقام القرآن الحجة على النصارى وأبطل دعواهم في شأن ألوهية المسيح، دعا الفريقين «اليهود والنصارى» إلى التوحيد، والاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، إذ كانت ملته الحنيفية السمحة وهي ملة الإسلام، ولم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا كما زعم كل من الفريقين، ثم بيّن أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم محمدٌ ﷺ وأمته.

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٤٧٢.

(ش): المقصود أن مكر الله ـ غير مكر المخلوقين، وأن فِعْل الله كلَّه حسنٌ في غاية الإتقان، لا عيب فيه ولا نقصان.

اللغَة: ﴿سَوَآءِۭ﴾ السَّواء: الْعَدْلُ وَالنَّصَفُ، قال أبو عبيدة: يقال: قد دعاك إِلى السَّواء فاقبل منه قال زهير:

أَرُونَـا خُـطَّـةً[1] لاَ عَـيْـبَ فِيهَا يُـسَـوِّي بَـيْـنَـنَـا فِـيـهَـا الـسَّـوَاءُ

﴿أَوْلَى﴾ أحقُّ ﴿وَدَّت﴾ تمنت ﴿تَلْبِسُونَ﴾ اللَّبْس: الخلط. يقال: ألبس الأمرُ عليه إِذا اشتبه واختلط ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أوله سميّ وجهًا لأن أول ما يواجه من النهار أوله قَالَ الشَّاعِرُ:

مَـنْ كَـانَ مَـسْـرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَـلْـيَـأْتِ نِـسْـوَتَـنَـا بِـوَجْـهِ نَـهَـارِ[2]

سَبَبُ النّزول: روي عن ابن عبَاس أن أحبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا في إِبراهيم فقالت اليهود: ما كان إِلا يهوديًّا، وقالت النصارى: ما كان إِلا نصرانيًا فأنزل الله ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ الآية[3].

التفسير: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي قل لهم يا معشر اليهود والنصارى هلموا إِلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إِنصاف من بعضنا لبعض ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكًا ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يعبد بعضنا بعضًا كما عبد اليهود والنصارى عزيرًا وعيسى، وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرّموا، روي أن الآية لمّا نزلت قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، فقال ﷺ «أما كانوا يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم؟» فقال: نعم فقال النبي ﷺ: «هو ذاك»[4]. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي فإِن أعرضوا عن التوحيد ورفضوا قبول تلك الدعوة العادلة فقولوا أنتم اشهدوا يا معشر أهل الكتاب بأننا موحّدون مسلمون، مقرّون لله بالوحدانية مخلصون له العبادة ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لِمَ تجادلون وتنازعون في إِبراهيم وتزعمون أنه على دينكم ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إِلا من بعده بقرونٍ كثيرة فكيف يكون من أهلها؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بطلان قولكم؟ فقد كان بين إِبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألفا سنة فكيف

---

(١) (ش): (الخُطّة): الأمر أو الحالة، والسَّوَاءُ هنا هو العدل.

(٢) «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ص ٩٧.

(ش): معنى البيت أنه إذا نظر إلى النساء وما يصنعن لمقتل مالك عَلِمَ أن ثأر مثله لا يُترَك.

(٣) «مجمع البيان» ٢/ ٤٥٦.

(ش): ضعيف، أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»، وابن جرير في «جامع البيان»، والبيهقي في «دلائل النبوة».

(٤) (ش): عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قَالَ «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ». (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

يقول بذلك عاقل؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصمتم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي فلم تخاصمون وتجادلون في شأن إبراهيم ودينه وتنسبونه إلى اليهودية أو النصرانية بدون علم؟ أفليست هذه سفاهة وحماقة؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي والله يعلم الحقَّ من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك، قال أبو حيان: «وهذا استدعاء لهم أن يسمعوا كما تقول لمن تخبره بشيء لا يعلمه: اسمع فإني أعلم ما لا تعلم»[١] ثم أكذبهم الله تعالى في دعوى إبراهيم فقال ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية، فإن اليهودية ملة محرّفة عن شرع موسى، وكذلك النصرانية ملة محرفة عن شرع عيسى ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ أي مائلًا عن الأديان كلها إلى الدين القيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي كان مسلمًا ولم يكن مشركًا، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وردٌّ لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ أي أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم أتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ أي محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي المؤمنون من أمة محمد فهم الجديرون بأن يقولوا نحن على دينه لا أنتم ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي حافظهم وناصرهم. ولما دعا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية نزل قوله: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي تمنَّوا إضلالكم بالرجوع إلى دينهم حسدًا وبغيًا ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي لا يعود وبال ذلك إلا عليهم إذ يُضاعف به عذابهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي ما يفطنون لذلك، ثم وبّخهم القرآن على فعلهم القبيح فقال ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي تعلمون أنه حق ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أي لِمَ تخلطون بين الحق والباطل بإلقاء الشُّبَه والتحريف والتبديل؟ ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك، ثم حكى تعالى نوعًا آخر من مكرهم وخبثهم، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدوا عنه في آخره ليشككوا الناس في دين الإسلام فقال ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ ﴾ قال ابن كثير: وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعُهم على نقيصةٍ وعيبٍ في دين المسلمين[٢] ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٤٨٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٩١.

أي اكفروا بالإسلام آخر النهار ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يَشُكُّون في دينهم فيرجعون عنه ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من تتمة كلام اليهود حكاه الله عنهم والمعنى: لا تصدقوا ولا تظهروا سرّكم وتطمئنوا لأحدٍ إلا إذا كان على دينكم ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه كما هدى المؤمنين، والجملة اعتراضية، ثم ذكر تعالى بعد ذلك الاعتراض بقية كلام اليهود فقال ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي يقول اليهود بعضهم لبعض: لا تصدّقوا إلا لمن تبع دينكم، وانظروا فيمن ادعى النبوة فإن كان متبعًا لدينكم فَصدِّقوه وإلا فكذّبوه، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحدٍ بالنبوة إلا إذا كان على دينكم، خشية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم، فإذا أقررتم بنبوة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي قل لهم يا محمد: أمر النبوة ليس إليكم وإنما هو بيد الله والفضل والخير كله بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يختص بالنبوة من شاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي فضله واسع عظيم لا يُحدُّ ولا يُمنع.

البَلَاغَة: جمعت هذه الآيات من ضروب الفصاحة والبلاغة ما يأتي: المجازُ في قوله ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ حيث أطلق اسم الواحد على الجمع، والتشبيه في قوله ﴿أَرْبَابًا﴾ حيث شبّه طاعتهم لرؤساء الدين في أمر التحليل بالربّ المستحق للعبادة، والطباق في قوله ﴿ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ والجناس التام في قوله ﴿يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿أَوْلَى﴾ و﴿وَلِيُّ﴾ والتكرار في عدة مواطن، والحذف في عدة مواطن(١).

فَائِدَة: كتب رسول الله ﷺ كتابًا إلى «هرقل» ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام واستشهد فيه بالآية الكريمة التي فيها إخلاص الدعوة لعبادة الله وحده، ونَصُّ الكتاب كما هو في صحيح مسلم « **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ** - يعني الفلاحين والخدم - وَ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٢).

---

(١) نقلا عن «البحر المحيط».

(٢) انظر «صحيح البخاري» ومسلم.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

المناسَبَة: لما حكى تعالى قبائح أهل الكتاب، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر، أعقبه بذكر بعض أوصاف اليهود خاصة وهي خيانتهم من الناحيتين: المالية والدينية، فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل.

اللغَة: ﴿بِقِنطَارٍ﴾ القنطار المالُ الكثير وقد تقدم ﴿قَآئِمًا﴾ ملازمًا ومداومًا على مطالبته ﴿ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ المراد بهم العرب. وأصلُ الأميّ الذي لا يقرأ ولا يكتب. والعربُ كانوا كذلك ﴿يَلْوُۥنَ﴾ من الليّ وهو اللّف والفتل تقول: لويتُ يده إِذا فتلتها والمراد أنهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إِلى العبارات المحرّفة ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ أي لا نصيب لهم من رحمة الله ﴿رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ جمع رباني وهو المنسوب إِلى الربّ قال «الطبري» معناه: كونوا حكماء علماء[1].

سَبَبُ النّزول: عن الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجلٍ من اليهود أرض فجحدني فقدمته إِلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: هل لك بيّنة؟ قلتُ: لا، قال لليهودي: احلفْ قلت: إِذًا يحلف فيذهب بما لي فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ...﴾[2] الآية.

التفسير: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ أي من اليهود من إِذا ائتمنته على المال الكثير أدّاه إِليك لأمانته كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهبًا فأداها إِليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ أي ومنهم من لا يؤتمن على دينار لخيانته كفنحاص بن عازوراء ائتمنه قرشي على دينار فجحده ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أي إِلا إِذا كنت ملازمًا له ومُشهدًا عليه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ أي إِنما حملهم على الخيانة زعمهم أن الله أباح لهم أموال الأميين -يعني العرب-

(١) «الطبري» ٦/ ٥٤٠.

(٢) «القرطبي» ٤/ ١٢٠. (ش): (رواه البخاري ومسلم).

روى أن اليهود قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١٨] والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحدٍ علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا، وقيل: إنهم قالوا: إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون، روي أنهم لما قالوا ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ قال نبي الله ﷺ: كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت قدميَّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر[1] ثم قال تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي ليس كما زعموا بل عليهم فيه إثم لكنْ من أدّى الأمانة منهم وآمن بمحمد ﷺ واتقى الله واجتنب محارمه فإن الله يحبه ويكرمه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد، وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلام أنسٍ ولطف، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا يطهرهم من أوضار[2] الأوزار، ولهم عذاب مؤلم على ما ارتكبوه من المعاصي ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه قال ابن عباس: يحرفونه بتأويله على غير مراد الله ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي لتظنوا أن هذا المحرَّف من كلام الله وما هو إلا تضليل وبهتان ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي ينسبونه إلى الله وهو كذبٌ على الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كذبوا وافتروا على الله، ثم قال تعالى ردًّا على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي لا يصح ولا ينبغي لأحدٍ من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله، والنفيُ في مثل هذه الصيغة ﴿مَا كَانَ﴾ إنما يؤتى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلًا ثبوتُه والغرض أنه لا يصح أصلًا ولا يتصور عقلًا صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة والشريعة فضلًا عن أن يحصل ذلك بالفعل لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه؟ ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي ولكن يقول لهم كونوا ربانيّين قال ابن عباس: حكماء علماء حلماء والمعنى: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عبادًا لي ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ

---

(١) «القرطبي» ٤/ ١١٩. (ش): ضعيف، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، ورواه «الطبري» في تفسيره (٦/ ٥٢٢). لكن ثبت منه قوله ﷺ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) (ش): أوضار: أوساخ.

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إيّاه ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله - ملائكة أو أنبياء - لأنَّ مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي يأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟ والاستفهام إنكاري تعجبي.

البَلَاغَة: ١ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان بكمال غلوهم في الشر والفساد.

٢ - ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي ليس علينا في أكل الأموال الأميين سبيل.

٣ - ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ فيه استعارة فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال.

٤ - ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ مجاز عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم وكذلك في الآتي بعدها[1].

٥ - ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزمخشري: مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم لأن من اعتد بإنسانٍ التفت إليه وأعاره نظر عينيه[2].

٦ - بين لفظ ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ و ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جناس الاشتقاق وبين لفظ ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ و ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ طباق.

فَائِدَة: روي أن رجلًا قال لابن عباس: «إنّا: نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فماذا تقولون؟ قالوا نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم» ذكره ابن كثير.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ

(١) (ش): من التأويل الباطل القَولُ بأن عدم تكليم الله للمجرمين مجازٌ عن شدة غضبه.

(٢) (ش): من التأويلِ الباطل القَولُ بأن عدم نظر الله إلي المجرمين مجازٌ عن الاستهانة بهم والسخط عليهم.

﴿ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته؟ ثم ذكر تعالى أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان وبيَّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه.

اللغَة: ﴿مِيثَٰقَ﴾ الميثاق: العهد المؤكد بيمين ونحوه وقد تقدم ﴿إِصْرِي﴾ عهدي وأصله في اللغة الثِّقْل قال الزمخشري: وسمي إصرًا لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد[1] ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله ﴿طَوْعًا﴾ انقيادًا عن رغبة ﴿وَكَرْهًا﴾ إجبارًا وهو كاره ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ جمع سبط وهو ابن الإبن والمراد به هنا قبائل بني إسرائيل من أولاد يعقوب ﴿يُنظَرُونَ﴾ يُمْهَلون يقال: أنظره يعني أمهله والنظرة: الإمهال ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الخسران: انتقاص رأس المال يقال: خسر فلان أي أضاع من رأس ماله ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ التائهون في مهامه[2] الكفر.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: ارتد رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك ثم ندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ هل من توبة فإني قد ندمت؟ فنزلت الآية ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ ... .﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم[3].

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيّين ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي لمن أجل ما آتيتكم من الكتاب والحكمة قال «الطبري»: المعنى لمهْما آتيتكم أيها النبيّون من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ

(١) «الكشاف» ١/ ٢٩٠.
(٢) (ش): المَهْمَهُ، وَالمَهْمَهَةُ: المفازةُ الْبَعِيدَةُ لاَ ماءَ بِهَا وَلاَ أَنِيسَ، وَالْجَمْعُ المَهامِهُ.
(٣) أخرجه النسائي وانظر «القرطبي» ٤/ ١٢٩.
(ش): صحيح، أخرجه أحمد والنسائي

﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو محمد ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أي لتصدقنه ولتنصرنه، قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدًا وهو حي ليؤمننَّ به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي أأقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ أي اعترفنا ﴿قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي أعرض ونكث عهده ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي أي أيبتغي أهل الكتاب دينًا غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله؟ ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ولله استسلم وانقاد وخضع أهل السماوات والأرض ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي طائعين ومكرهين قال قتادة: المؤمن أسلم طائعًا والكافر أسلم كارهًا حين لا ينفعه ذلك[1] قال ابن كثير: فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله طوعًا، والكافر مستسلم لله كرهًا فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يُخالف ولا يُمانع[2] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلاًّ بعمله ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي قل يا محمد أنت وأمتك: آمنا بالله وبالقرآن المنزل علينا ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي آمنا بما أنزل على هؤلاء من الصحف والوحي، والأسباطُ هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد يعقوب ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي وما أنزل على الأنبياء جميعهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بالكل ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون في العبادة مقرّون له بالألوهية والربوبية لا نشرك معه أحدًا أبدًا، ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي يطلب شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام ليدين بها فلن يتقبل الله منه ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي مصيره إلى النار مخلدًا فيها ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ استفهام للتعجيب والتعظيم لكفرهم أي كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ أي بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمدًا رسول الله ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي جاءتهم المعجزات والحجج البينات على صدق النبي ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفقهم لطريق السعادة، قال الحسن: هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم، وشهدوا أنه حق فلما بعث من

(١) «الطبري» ٦/ ٥٧٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٧٩.

غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إِيمانهم[(١)] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ أي جزاؤهم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ أي ماكثين في النار أبد الآبدين، لا يُفتّر عنهم العذاب ولا هم يمهلون ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ أي إِلا من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ أي متفضل عليه بالرحمة والغفران ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا ﴾ نزلت في اليهود كفروا بعيسى بعد إِيمانهم بموسى ثم ازدادوا كفرًا حيث كفروا بمحمد والقرآن ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ أي لا تقبل منهم توبة ما أقاموا على الكفر ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ أي الخارجون عن منهج الحق إِلى طريق الغي، ثم أخبر تعالى عمّن كفر ومات على الكفر فقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ أي كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا وهو عام في جميع الكفار ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ أي لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي مؤلم موجع ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

البَلَاغَة: ١ - الالتفات ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾ فيه التفات من الغيبة إِلى الحاضر لأن قبله ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ .

٢ - بين لفظ ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾ و ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ جناس الاشتقاق وكذلك بين لفظ ﴿كَفَرُواْ﴾ و ﴿كُفۡرٗا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٣ - الطباق بين ﴿طَوۡعٗا﴾ و ﴿وَكَرۡهٗا﴾ وكذلك يوجد الطباق بين لفظ الكفر والإِيمان.

٤ - ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ قصر صفة على موصوف ومثله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾

٥ - ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ هو من باب عطف العام على الخاص.

٦ - ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي مؤلم. والعدول إِلى صيغة فعيل للمبالغة.

فَائِدَة: الآيات الكريمة قسمت الكفار إِلى ثلاثة أقسام:

١ - قسم تاب توبة صادقة فنفعته وإِليهم الإِشارة بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ .

٢ - وقسم تاب توبة فاسدة فلم تنفعه وإِليهم الإِشارة بقوله: ﴿ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا ﴾ .

٣ - وقسم لم يتب أصلًا ومات على الكفر وإِليهم الإِشارة بقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ ﴾ .

تنبيه: روى الشيخان عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ : «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ**

---

(١) «الطبري» ٦/ ٥٧٥.

عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي؟ بِهِ فَيَقُولُ نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلاَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي».

قال الله تعالى:

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ
حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ
فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ
إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ
مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟
بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ
إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حال الكفار ومآلهم في الآخرة، وبيّن أن الكافر لو أراد أن يفتدى نفسه بملء الأرض ذهبًا ما نفعه ذلك، ذكر عنا - استطرادًا - ما ينفع المؤمن لنيل رضى الله والفوز بالجنة، ثم عاد الكلام لرفع الشبهات التي أوردها أهل الكتاب حول النبوة والرسالة وصحة دين الإسلام، ثم جاء بعده التحذير من مكائدهم ودسائسهم التي يدبرونها للإسلام والمسلمين لتفرقة الصف وتشتيت الشمل.

اللغَة: ﴿ٱلْبِرَّ﴾ كلمة جامعة لوجوه الخير والمراد بها هنا الجنة ﴿حِلًّا﴾ حلالًا وهو مصدر نعت به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هو يعقوب عليه السلام ﴿بِبَكَّةَ﴾ اسم لمكة فتسمى «بكة» و«مكة» سميت بذلك لأنها تبُكُّ أي تدق أعناق الجبابرة فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله ﴿مُبَارَكًا﴾ البركة: الزيادة وكثرة الخير ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ محل قيام إبراهيم وهو الحجر الذي قام عليه لما ارتفع بناء البيت ﴿عِوَجًا﴾ العِوَج: الميل قال أبو عبيدة: في الدين والكلام والعمل، وبالفتح عَوَج في الحائط والجذع ﴿يَعْتَصِم﴾ يتمسك ويلتجئ وأصله المنع قال «القرطبي»: وكل متمسك بشيء معتصمٌ وكل مانع شيئًا فهو عاصم[1] ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] ﴿شَفَا﴾ الشَّفا: حرف كل شيء وحده ومثله

(١) «القرطبي» ٤/ ١٥٦.

الشفير: وشفا الحفرة: حرفها قال تعالى ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

سَبَبُ النّزول: يروى أنّ «شاس بن قيس» اليهودي مرَّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، ثم أمر شابًّا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكّرهم يوم «بُعاث» ويُنشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار - وكان يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس - ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاحَ السلاحَ، فبلغ النبي ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألّف بينكم؟» فعرف القوم أنها كانت نزعة من الشيطان وكيدًا من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضًا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (١) الآية.

التفسير: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي لن تكونوا من الأبرار ولن تدركوا الجنة حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي وما تبذلوا من شيء من سبيل الله فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي كل الأطعمة كانت حلالًا لبني إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإبل ولبنها ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبةً لهم على معاصيهم ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أي كانت حلالًا لهم قبل نزول التوراة ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: ائتوني بالتوراة واقرءوها عليَّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم قال الزمخشري: وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل الله فلما حاجَّهم بكتابهم وبكَّتهم بُهِتُوا وانقلبوا صاغرين ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ (٢) ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي اختلق الكذب من بعد قيام الحجة ظهور البينة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي المعتدون المكابرون بالباطل ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي صدق الله في كل ما أوحى إلى محمد وفي كل ما أخبر ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي اتركوا اليهودية واتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلًا عن الأديان الزائفة كلها ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ برأه مما نسبه اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية،

---

(١) «أسباب النزول» «ص ٦٦» و«الكشاف» ١/ ٣٠١.

(ش): ضعيف، أخرجه ابن إسحاق في «المغازي» و«الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٢) «الكشاف» ١/ ٢٩٥.

وفيه تعريض بإشراكهم ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله المسجد الحرام الذي هو بمكة ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وضع مباركًا كثيرًا الخير والنفع لمَن حَجَّهُ واعْتمَرَهُ، ومصدر الهداية والنور لأهل الأرض لأنه قبلتهم، ثم عدد تعالى من مزاياه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد فقال ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت، وفيه زمزم والحطيم[1]، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود، أفلا يكفي برهانًا على شرف هذا البيت وأحقيته أن يكون قبلة للمسلمين؟ ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وهذه آية أخرى وهي أن من دخل الحرَم بدعوة الخليل إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ أي فرضٌ لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي من ترك الحج فإن الله مستغنٍ عن عبادته وعن الخلق أجمعين، وعبّر عنه بالكفر تغليظًا عليه قال ابن عباس: من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه[2]، ثم أخذ يُبكّت أهل الكتاب على كفرهم فقال ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لم تجحدون بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ ﴾ أي لم تصرفون الناس عن دين الله الحق، وتمنعون من أراد الإيمان به؟ ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجّة، وذلك بتغيير صفة الرسول، والتلبيس على الناس بإيهامهم أن في الإسلام خللًا وعوجًا ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد، وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين: الضلال والإضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام ثم صدّوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشُّبَه والشكوك في قلوب الضَعَفَة من الناس ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أي إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ أي يُصَيِّروكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنتهم كما في سبب النزول. واللفظ في الآية عام ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إنكار واستبعاد أي كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تتنزّل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حيٌّ بين أظهركم؟ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي من

(١) (ش): الحَطِيمُ: الْحِجْرُ: الْقِسْمُ الْخَارِجُ عَنْ جِدَارِ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ مَحُوطٌ مُدَوَّرٌ عَلَى صُورَةِ نِصْفِ دَائِرَةٍ وَيُسَمَّى (حِجْرَ إِسْمَاعِيل).

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٠٣.

يتمسك بدينه الحق الذي بَيَّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي اتقوا الله تقوى حقة أو حق تقواه قال ابن مسعود: «**هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرُ فَلَا يُكْفَرَ**» والمراد بالآية ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي كما أن يُتَّقى وذلك باجتناب جميع معاصيه ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي تمسكوا بالإسلام وعَضُّوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي تمسكوا بدين الله وكتابه جميعًا ولا تتفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ أي حين كنتم قبل الإسلام أعداء أَلِدَّاءَ فأَلَّفَ بين قلوبكم بالإسلام وجَمَعَكُم على الإيمان ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي وكنتم مشرفين على الوقوع في نارجهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين[1].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البلاغة نوجزها فيما يلي:

١ - ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ الأمر للتبكيت والتوبيخ للدلالة على كمال القبح.

٢ - ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أي للبيت الذي ببكة وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى.

٣ - ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وضع هذا اللفظ موضع «ومن لم يحج» تأكيدًا لوجوبه وتشديدًا على تاركه قال «أبو السعود»: «ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات ما لا مزيد عليه وهي قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق وأبرزت في صورة الجملة الإسمية الدالة على الثبات والاستمرار، على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذمم الناس، وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص، والإبهام ثم التبيين، والإجمال ثم التفصيل»[2].

٤ - ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ شبّه القرآن بالحبل واستعير اسم المشبه به وهو الحبل للمشبه وهو القرآن على سبيل الاستعارة التصريحية والجامع بينهما النجاةُ في كلٍّ.

٥ - ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية بحال من كان مشرفًا على حفرة عميقة وهوّة سحيقة ففيه استعارة تمثيلية والله أعلم.

تنبيه: وردت الآيات الكريمة لدفع شبهتين من شبه أهل الكتاب:

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٠٤.

(٢) «أبو السعود» ١/ ٢٥٥.

الشبهة الأولى: أنهم قالوا: للنبي ﷺ: إنك تدّعي أنك على دين إبراهيم وقد خالفت شريعته فأنت تبيح لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حرامًا في دين إبراهيم؟ فرد الله عليهم بقوله ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ﴾ الآية.

الشبهة الثانية: قالوا إن «بيت المقدس» قبلة جميع الأنبياء؛ وهو أول المساجد وأحق بالاستقبال فكيف تترك يا محمد التوجه إليه ثم تزعم أنك مصدّق لما جاء به الأنبياء فرد الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ الآية.

قال الله تعالى:

وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ
﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾
يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا
كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا
عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ
﴿١٠٩﴾ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ
وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن
يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ
إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ
يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾

المناسَبَة: لما حذّر تعالى من مكايد أهل الكتاب، وأمر بالاعتصام بحبل الله والتمسك بشرعه القويم، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف، ثم ذكر ما حلَّ باليهود من الذل والصَّغار بسبب البغي والعدوان.

اللغة: ﴿أُمَّةٞ﴾ طائفة وجماعة ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ الآيات الواضحات ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ما أمر به الشرع واستحسنه العقل السليم ﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾ ما نهى عنه الشرع واستقبحه العقل السليم ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ جمع دبر وهو مؤخر كل شيء يقال: ولاه دبره أي هرب من وجهه ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ وجدوا وصودفوا ﴿بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الحبل معروف والمراد به هنا: العهد وسمي حبلًا لأنه سبب يحصل به الأمن وزوال الخوف ﴿وَبَآءُو﴾ رجعوا ﴿ٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ الفقر.

التفسير: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي ولتقم منكم طائفة للدعوة إلى الله ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي لا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه بسبب اتباع الهوى من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهم بسبب الاختلاف عذاب شديد يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال. والمعنى أما أهل النار الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التوبيخ: أكفرتم بعد إيمانكم أي بعد ما وضحت لكم الآيات والدلائل ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي وأما السعداء الأبرار الذين ابيضت وجوههم بأعمالهم الصالحات ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي فهم في الجنة مخلدون لا يخرجون منها أبدًا[1] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي هذه آيات الله نتلوها عليك يا محمد حال كونها متلبسة بالحق ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وما كان الله ليظلم أحدًا ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الجميع ملْكٌ له وعبيد ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس ولهذا قال ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم، روى البخاري عن أبي هريرة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: **خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ.** ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل: السبب في كونكم خير أمة هذه الخصال الحميدة روي عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال « **مَنْ سَرَّه أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللهِ فِيهَا** »[2] ثم قال تعالى ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا﴾ أي لو آمنوا بما أنزل على محمد وصدّقوا بما جاء به لكان ذلك خيرًا لهم في الدنيا والآخرة ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي منهم فئة قليلة مؤمنة كالنجاشي وعبد الله بن سلام[3]، والكثرةُ الكثيرة فاسقة خارجة عن طاعة الله، ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ أي لن يضروكم إلا ضررًا يسيرًا بألسنتهم من سبٍّ وطعن ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي ينهزموا من غير أن ينالوا منكم شيئًا ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي

---

(١) (ش): فالجنة أثرٌ من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣١١.

(٣) (ش): فقد دخلوا الإسلام وآمنوا بالنبي ﷺ.

ثم شأنهم الذي أبشركم به أنهم مخذولون لا ينصرون والجملة استئنافية[١] ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي إلا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين قال ابن عباس: بعهدٍ من الله وعهدٍ من الناس ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ أي لزمتهم الفاقة والخشوع فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ أي ذلك الذل والصغار والغضب والدمار، بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلمًا وطغيانًا ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ أي بسبب تمردهم وعصيانهم أوامر الله تعالى.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٢ - ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فيه قصر صفة على موصوف حيث قصر الفلاح عليهم.

٣ - ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ بين كلمتي ﴿تَبۡيَضُّ﴾ و﴿وَتَسۡوَدُّ﴾ طباق.

٤ - ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ مجاز مرسل أطلق الحالُّ وأريد المحل أي ففي الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة.

٥ - ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ فيه استعارة حيث شبه الذل بالخباء المضروب على أصحابه وقد تقدمت في البقرة.

٦ - ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ﴾ التنكير للتفخيم والتهويل.

فَائِدَة: قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ جملة مستأنفة ولهذا ثبتت فيها النون قال الزمخشري: «وعدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم مخذولون مُنْتَفٍ عنهم النصر، ولو جزم لكان نفي النصر مقيدًا بقتالهم بينما نفي النصر وعدٌ مطلق»[٢].

تنبيه: الاختلاف الذي أشارت إليه الآية ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ﴾ إنما يراد به الاختلاف في العقيدة وفي أصول الدين، وأما الاختلاف في الفروع كما اختلف الأئمة المجتهدون فذلك من اليسر في الشريعة كما نبه على ذلك العلماء ولابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة قيمة أسماها «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» فارجع إليها فإنها رائعة ومفيدة[٣].

---

(١) (ش): الجملة الاستئنافية: هي التي يُبتَدَأُ بها معنًى جديدٌ بعد كلام سابق، كالجملة الثانية والثالثة في قولنا: «أَحزنَتْكَ وشاية فلان، لا تلتفت إليها، إني لم أُصدقها».

(٢) «الكشاف» ١/ ٣٠٨ باختصار.

(٣) (ش): أنواع الاختلاف الواقع بين المسلمين: =

قال الله تعالى:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن
دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ
بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ
قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن
تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

المناسَبَة: لما وصف تعالى أهل الكتاب بالصفات الذميمة، ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة

= ١ – اختلاف التنوع: وهو ما لا يكون فيه أحد الأقوال منافيًا للأقوال الأخرى بل كل الأقوال صحيحة، وهذا مثل القراءات وأنواع التشهُّدات، فمن يقرأ في التشهد بتشهد ابن مسعود لا يرى مانعًا من تشهد ابن عباس –رضي الله عنهما – أو تشهد عمر – رضي الله عنه – أو غيره من الصيغ، بل اتفق العلماء على جواز كل منها، وإنما اختلافهم في اختيار كل منهم لما يراه الأفضل لاعتبارات يراها.

٢ – اختلاف التضاد: وهو أن يكون كل قول من أقوال المختلفين يضاد الآخر ويحكم بخطئه أو بطلانه، وهو يكون في الشيء الواحد يقول البعض بحُرمَته والبعض بحِلِّه. وينقسم اختلاف التضاد إلى: أولًا: اختلاف سائغ غير مذموم: وهو ما لا يخالف نصًّا من كتاب أو سنة صحيحة، أو إجماعًا أو قياسًا جليًّا. أمثلة الاختلاف السائغ: – وجوب المضمضة والاستنشاق أو استحبابهما. – وضع اليمنى على اليسرى على الصدر بعد الركوع أو إرسالهما. – النزول على الركبتين أو على اليدين في السجود. ثانيًا: اختلاف غير سائغ مذموم: وهو ما خالف نصًّا من كتاب أو سنة أو إجماعًا أو قياسًا جَليًّا لا يختلف فيه. أمثلة للاختلاف غير السائغ: – القول بصحة النكاح دون وليّ وهو مصادم لنص الحديث الصحيح: «أيُّما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل» ثلاثًا. – القول بجواز المعازف وسماعها وهو مصادم لنص الحديث الصحيح: « لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِى أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ » رواه البخاري. – تهنئة الكفار من النصارى وغيرهم بأعيادهم الكفرية أو بمناصبهم الطاغوتية بزعم سماحة الإسلام أو مصلحة الدعوة؛ فإن هذا عند كل أهل العلم من موالاتهم وهي محرمة بالكتاب والسنة والإجماع. وليس معنى أن الخلاف في المسألة خلاف سائغ أنه يجوز لكل واحد أن ينتقي بالتشهي أيًّا من القولين دون اجتهاد، فهذا سبيل إلى الزندقة والانحلال، وقد أجمع العلماء فيما نقل الإمام أبو عمر بن عبد البر أنه: «لا يجوز تتبع رخص العلماء فضلًا عن الزلات والسقطات». [جامع بيان العلم وفضله (ص٣٦٠)].

واحدة ففيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر[١]، ثم ذكر تعالى عقاب الكافرين وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم يوم القيامة شيئًا، وأعقب ذلك بالنهي عن اتخاذ أعداء الدين أولياء ونَبَّهَ إلى ما في ذلك من الضرر الجسيم في الدنيا والدين.

اللغَة: ﴿ءَانَآءَ﴾ أوقات وساعات مفردها إِنىَ على وزن مِعَى ﴿يُكۡفَرُوهُ﴾ يُجحدوه من الكفر بمعنى الجحود، سمي منعُ الجزاء كفرًا لأنه بمنزلة الجحد والستر ﴿صِرٌّ﴾ الصِرُّ: البرد الشديد قاله ابن عباس. وأصله من الصرير الذي هو الصوت ويراد به الريح الشديدة الباردة ﴿حَرۡثَ﴾ زرع وأصله من حرث الأرض إذا شقها للزرع والبذر ﴿بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل: خاصته الذين يفضي إليهم بأسراره شبّه ببطانة الثوب لأنه يلي البدن ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ﴾ أي لا يقصّرون قال الزمخشري: يقال ألَا في الأمر يألو إذا قصّر فيه ﴿خَبَالًا﴾ الخبال: الفساد والنقصان ومنه رجل مخبول إذا كان ناقص العقل ﴿عَنِتُّمۡ﴾ العنت: شدة الضرر والمشقة﴿ٱلۡأَنَامِلَ﴾ أطراف الأصابع.

سَبَبُ النّزول: لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قال أحبار اليهود، ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وقالوا لهم: لقد كفرتم وخسرتم فأنزل الله ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ [٢] الآية.

التفسير: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗ﴾ أي ليس أهل الكتاب مستوين في المساوئ، وهنا تمّ الكلام. ثم ابتدأ تعالى بقوله ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على دين الله ﴿يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ أي يتهجدون في الليل بتلاوة آيات الله حال الصلاة ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي يؤمنون بالله على الوجه الصحيح[٣] ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي يدعون إلى الخير وينهون عن الشر ولا يداهنون ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي يعملونها مبادرين غير متثاقلين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وهم في زمرة عباد الله الصالحين ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُ﴾ أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر المتقين، ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئًا ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي مخلدون في عذاب جهنم ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي مثل ما ينفقونه في الدنيا

---

(١) (ش): فمنهم من آمَن بالنبي ﷺ ودخل الإسلام.

(٢)«أسباب النزول» للواحدي ﷺ ٦٨. (ش): ضعيف، أخرجه ابن إسحاق؛ في «السيرة» و«الطبري» في «جامع البيان».

(٣) (ش): ومن أركان الإيمانِ الإيمانُ بالنبي ص ، قال ﷺ: وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِىٌّ وَلاَ نَصْرَانِىٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

بقصد الثناء وحُسْن الذكر كمثل ريح عاصفة فيها بردٌ شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أي أصابت تلك الريح المدمرة زرع قوم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به؛ فكذلك الكفار يمحق الله أعمالهم الصالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب، ثم حذر تعالى من اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على أسرارهم فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي لا تتخذوا المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي تمنوا مشقتكم وما يوقعكم في الضرر الشديد ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم فهم لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرحوا بذلك بأفواههم ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي وما يبطنونه لكم من البغضاء أكثر مما يظهرونه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم عقلاء، وهذا على سبيل الهزّ والتحريك للنفوس كقولك: إن كنت مؤمنًا فلا تؤذ الناس وقال ابن جرير: المعنى: إن كنتم تعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم بيّن سبحانه ما هم عليه من كراهية المؤمنين فقال ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي ها أنتم يا معشر المؤمنين خاطئون في موالاتكم إذ تحبونهم ولا يحبونكم، تريدون لهم النفع وتبذلون لهم المحبة وهم يريدون لكم الضر ويضمرون لكم العداوة ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم؟ وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي وهذا من خبثهم إذ يُظْهِرون أمامكم الإيمان نفاقًا ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي وإذا خلت مجالسهم منكم عضوًا أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب لما يرون من ائتلافكم، وهو كناية عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ هو دعاء عليهم، أي: قل يا محمد: أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي إن الله علام بما تُكِنُّه سرائركم من البغضاء والحسد للمؤمنين، ثم أخبر تعالى بما يترقبون نزوله من البلاء والمحنة بالمؤمنين فقال ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي إن أصابكم ما يسركم من رخاءٍ وخِصْبٍ ونصرة وغنيمة ونحو ذلك ساءتهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ أي وإن أصابكم ما يضركم من شدةٍ وجدبٍ وهزيمةٍ وأمثال ذلك سرتهم، فبيّن تعالى بذلك فرط

(١) هذا قول «الطبري» وكثير من المفسرين وقيل المراد منه: التقريع والإغاظة. والمعنى: أنهم لا يدركون ما يؤملون فإن الموت دون ذلك كذا في «القرطبي» ١/ ١٨٣.

عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ أي إن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم، فشرط تعالى نفْيَ ضررهم بالصبر والتقوى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي هو سبحانه عالم بما يُدبّرونه لكم من مكائد فيصرف عنكم شرهم ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة.

البَلَاغَة: ١ - ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾ جيء بالجملة اسمية للدلالة على الاستمرار كما جيء بعدها بصيغة المضارع ﴿يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ للدلالة على التجدد ومثله في ﴿يَسۡجُدُونَ﴾ .

٢ - ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الإشارة بالبعيد لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل.

٣ - ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ فيه تشبيه وهو من نوع التشبيه التمثيلي، شَبَّهَ ما كانوا ينفقونه في المفاخر وكسب الثناء بالزرع الذي أصابته الريح العاصفة الباردة فدمرته وجعلته حطامًا.

٤ - ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ﴾ شبه دخلاء الرجل وخواصّه بالبطانة لأنهم يستبطنون دخيل أمره ويلازمونه ملازمة شعاره لجسمه ففيه استعارة أفاده في «تلخيص البيان»(١).

٥ - ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ﴾ قال أبو حيان: يوصف المغتاظ والنادم بِعَضِّ الأنامل فيكون حقيقة ويحتمل أنه من مجاز التمثيل عبّر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين(٢).

٦ - في الآيات من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة وذلك في قوله ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ حيث قابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة، كما أن فيها جناس الاشتقاق في ﴿ظَلَمَهُمُ﴾ و﴿يَظۡلِمُونَ﴾ وفي ﴿ٱلۡغَيۡظِ﴾ و﴿بِغَيۡظِكُمۡ﴾ وفي ﴿وَتُؤۡمِنُونَ﴾ و﴿ءَامَنَّا﴾ .

لطيفَة: عبّر بالمس في قوله ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ﴾ وبالإصابة في قوله ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ وذلك للإشارة إلى أن الحسنة تسوء الأعداء وحتى ولو كانت بأيسر الأشياء ولو مسًّا خفيفًا، وأما السيئة فإذا تمكنت الإصابة بها إلى الحد الذي يرثي له الشامت فإنهم لا يرثون بل يفرحون ويسرون، وهذا من أسرار بلاغة التنزيل، نقلًا عن «حاشية الكشاف».

قال الله تعالى:

وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ

(١) «تلخيص البيان» ص ٢١.
(٢) «البحر المحيط» ٣/ ٤١.

اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ
﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

المناسَبَة: يبدأ الحديث عن الغزوات من هذه الآيات الكريمة، وقد انتقل السياق من معركة الجدل والمناظرة إلى معركة الميدان والقتال، والآيات تتحدث عن غزوة «أحد» بالإسهاب وقد جاء الحديث عن غزوة بدر في أثنائها اعتراضًا ليذكّرهم بنعمته تعالى عليهم لمّا نصرهم ببدر وهم أذلة قليلون في العَدَد والعُدَد، وهذه الآية هي افتتاح القصة عن غزوة أحد وقد أنزل فيها ستون آية، ومناسبة الآيات لما قبلها أنه تعالى لما حذّر من اتخاذ بطانة السوء ذكر هنا أن السبب في هَمِّ الطائفتين من الأنصار بالفشل إنما كان بسبب تثبيط المنافقين لهم وعلى رأسهم عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس النفاق فالمناسبة واضحة، روى الشيخان **عَنْ جَابِرٍ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلِمَةَ وَمَا نُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ لِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾** .

اللغَة: ﴿غَدَوْتَ﴾ خرجت غُدوة وهي الساعات الأولى من الصبح ﴿تَفْشَلَا﴾ الفشل: الجبن والضعف ﴿تُبَوِّئُ﴾ تُنْزِل يقال: بوأته منزلًا وبوأت له منزلًا أي أنزلته فيه وأصل التَّبَوُّؤ اتخاذ المنزل ﴿أَذِلَّةٌ﴾ أي قلة في العدد والسلاح ﴿فَوْرِهِمْ﴾ الفور: السرعة وأصله شدة الغليان من فارتْ القدر إذا غلت ثم استعملت للسرعة تقول: من فوره أي من ساعته ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بفتح الواو بمعنى معلَّمين على القتال وبكسرها بمعنى لهم علامة وكانت سيماهم يوم بدر عمائم بيضاء[1] ﴿طَرَفًا﴾ طائفة وقطعة ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾ الكبتُ: الهزيمة والإهلاك وقد يأتي بمعنى الغيظ والإذلال ﴿خَائِبِينَ﴾ الخيبة: عدم الظفر بالمطلوب.

سَبَبُ النّزول: ثبت «في صحيح مسلم» أن النبي ﷺ **كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ[2] عَنْهُ وَيَقُولُ « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ**

---

(١) (ش): أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: «كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض، قد أرسلوها إلى ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمر» . (وضعفه الألباني).

(٢) (ش): يَسْلُتُ الدَّمَ : يقطع نزوله ويزيله. رَباعِيَة: سِنٌّ بين الثنيّة والنَّاب، وهي أربع: اثنتان في الفكّ الأعلى واثنتان في الفكّ الأسفل. والثَنِيَّة: إحدى الأسنان الأربع في مُقَدَّم الفمّ، ثِنتان من فوق وثِنتان من تحت.

إِلَى اللهِ ». فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ .

التفسير: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي اذكر يا محمد حين خرجت إلى أحد من عند أهلك ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أي تُنْزِل المؤمنين أماكنهم لقتال عدوهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لأقوالكم عليمٌ بأحوالكم ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ أي حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وهمتا بالرجوع وهما «بنو سلمة» و «بنو حارثة» وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأحد بألفٍ من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل «عبد الله بن أبي» بثلث الجيش وقال: علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فَهَمَّ الحَيَّان من الأنصار بالرجوع فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ وذلك قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ أي ناصرهما ومتولي أمرهما ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي في جميع أحوالهم وأمورهم، ثم ذَكَّرهم تعالى بالنصر يوم بدر لتقوى قلوبهُم ويتَسَلَّوْا عمّا أصابهم من الهزيمة يوم أحد فقال ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أي نصركم يوم بدر مع قلة العدد والسلاح لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعُدد ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي اشكروه على ما مَنَّ به عليكم من النصر ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ أي إذ تقول يا محمد لأصحابك أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لنصرتكم ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ بلى تصديق للوعد، أي: بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة واتقيتم الله وأطعتم أمره ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا ﴾ أي يأتيكم المشركون من ساعتهم هذه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي يَزِدْكم الله مددًا من الملائكة مُعَلَّمين على السلاح ومُدَرَّبين على القتال(١) ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ أي وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتًا ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ أي ولتسكن قلوبكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العَدَد والعُدَد، ما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده، لا من الملائكة ولا من غيرهم ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي الغالب الذي لا يُغْلَب في أمره ، الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي ذلك التدبير الإلهي ليُهلِك طائفةً منهم بالقتل والأسر، ويهدم ركنًا من أركان الشرك ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ أي يغيظهم ويخزيهم بالهزيمة ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾ أي يرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم، وقد فعل تعالى ذلك بهم في بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسروا سبعين وأعز الله المؤمنين وأذل الشرك والمشركين ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ هذه الآية وردت اعتراضًا وهي

---

(١) وقيل: معنى مسوّمين: معلَّمون بعلامة، قال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم، انظر «الطبري» و«الكشاف». (ش): ضعيف.

في قصة أحد، وذلك لما كسرت رباعيته ﷺ وشُج وجهه الشريف قال: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟ فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء وإنما أمرهم إلى الله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي فالله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصرّوا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي له جل وعلا ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ هذا نهيٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه قال ابن كثير: كانوا في الجاهلية إذا حلّ أجل الدين يقول الدائن: إمّا أن تَقْضي وإمّا أن تُرْبي فإن قضاه وإلاَّ زاده في المدة وزاده في القدر وهكذا كلّ عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرًا مضاعفًا[1] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لتكونوا من الفائزين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي احذروا نار جهنم التي هُيِّئَتْ للكافرين ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله.

البَلَاغَة: ١ - ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضي باستحضار صورتها في الذهن.

٢ - ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع إِضافته للمخاطبين لإِظهار كمال العناية بهم. أفاده «أبو السعود».

٣ - ﴿يَغْفِرُ - وَيُعَذِّبُ﴾ بينهما طباق.

٤ - ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ جناس الاشتقاق.

٥ - ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ سمي الأخذ أكلًا لأنه يئول إليه فهو مجاز مرسل.

تنبيه: ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية ليس للقيد ولا للشرط، وإنما هو لبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية، وللتشنيع عليهم بأنَّ في هذه المعاملة ظلمًا صارخًا وعدوانًا مبينًا حيث كانوا يأخذون الربا أضعافًا مضاعفة قال أبو حيان: «نهوا عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها فربما استغرق بالنزر اليسير مال المدين، وأشار بقوله: ﴿مُّضَٰعَفَةً﴾ إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عامًا بعد عام، والربا محرم بجميع أنواعه، فهذه الحال ليست قيدًا في النهي»[2].

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣١٨.

(٢) «البحر المحيط» ٣/ ٤٥.

قال الله تعالى:

وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ
ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ
وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ
فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ
لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ
مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ
شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن
تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ
أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ
قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ
﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن
يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ
لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا
ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ
ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

المنَاسَبَة: لما حث تعالى على الصبر والتقوى ونبه المؤمنين إِلى إِمداد الله لهم بالملائكة في غزوة بدر، عقّبه بالأمر بالمسارعة إِلى نيل رضوان الله، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أُحد وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول، ثم بيّن أن الابتلاء سنة الحياة، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن يُدخل الوهن إِلى قلوب المؤمنين، ثم توالت الآيات الكريمة في بيان الدروس والعبر من غزوة أُحد.

اللغَة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ بادروا ﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾ الرخاء ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الشدة والضيق ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ﴾ كظم الغيظ: ردّه في الجوف يقال: كظم غيظه، أي: لم يظهره مع قدرته على إِيقاعه بالعدو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وشد رأسها ﴿فَٰحِشَةً﴾ الفاحشة: العمل الذي تناهى في القبح ﴿خَلَتۡ﴾ مضت ﴿سُنَنٞ﴾ السُّنَن: جمع سُنَّة وهي الطريقة التي يقتدى بها ومنها سُنة النبي ﷺ والمراد بها هنا الوقائع التي حصلت للمكذبين ﴿قَرۡحٞ﴾ جرح بالفتح والضم قال الفراء: هو بالفتح الجرح وبالضم ألَمه[1]، وأصل الكلمة الخلوص، ومنه ماء قُراح ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نصرّفها

(١) «القرطبي» ٤/ ٢١٧.

والمداولة: نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال: تداولته الأيدي إذا انتقل من شخص إلى شخص ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ التمحيص: التخليص يقال: محصته إذا خلَّصته من كل عيب وأصله في اللغة: التنقية والإزالة ﴿وَيَمْحَقَ﴾ المحق: نقص الشيء قليلًا قليلًا ﴿أَعْقَٰبِكُمْ﴾ جمع عقب وهو مؤخر الرجل يقال: انقلب على عقبه أي رجع إلى ما كان عليه ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ له وقت محدّد لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وَكَأَيِّن﴾ كم وهي للتكثير وأصلها (أيٌّ) دخلت عليها كاف التشبيه فأصبح معناها التكثير ﴿رِبِّيُّونَ﴾ جمع ربِّي نسبة إلى الربّ كالربانيين وهم العلماء الأتقياء العابدون لربهم وقيل: نسبة إلى الربّة وهي الجماعة ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾ خضعوا وذلّوا وأصله من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليصنع به ما يريد.

التفسير: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتثال أوامره ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي وإلى جنة واسعة عرضها السماء والأرض كما قال في سورة «الحديد» ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢١] والغرض بيان سعتها فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي هُيِّئَتْ للمتقين لله ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي يمسكون غليظهم مع قدرتهم على الانتقام ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي يعفون عمن أساء إليهم وظلمهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ أي ارتكبوا ذنبًا قبيحًا كالكبائر[1] ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بإتيان أي ذنب ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي تذكروا عظمة الله ووعيده لمن عصاه فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يغفر الذنوب إلا الله وهي جملة اعتراضية لتطييب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة ولبيان أن الذنوب - وإن جلَّت[2] - فإن عفوَه تعالى أجَلُّ ورحمته أوسع ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لم يقيموا على قبيح فعلهم وهم عالمون بقبحه بل يقلعون ويتوبون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي نعمت الجنة جزاءً لمن أطاع الله، ثم ذكر تعالى تتمة تفصيل غزوة أُحد بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح فقال ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي قد مضت سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ

---

(١) قال ابن عباس: الفاحشة الزنى وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة.

(٢) (ش): جَلَّ الأمرُ: عَظُمَ.

﴿عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي تعرفوا أخبار المكذبين، وما نزل بهم لتتعظوا بما ترون من آثار هلاكهم ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن[١] فيه بيانٌ شاف للناس عامة ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وهداية لطريق الرشاد وموعظة وذكرى للمتقين خاصة، وإنما خصّ المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر الناس، ثم أخذ يسليهم عمّا أصابهم من الهزيمة في وقعة أُحد فقال ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على ما أصابكم من قتلٍ أو هزيمة ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتم الغالبون لهم المتفوقون عليهم فإن كانوا قد أصابوكم يوم أُحد فقد أبْلَيْتم فيهم يوم بدر[٢] ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقًّا مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي إن أصابكم قتلٌ أو جراح فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي الأيام دُولٌ، يومٌ لك ويومٌ عليك، ويوم تُسَاءُ ويومٌ تُسَرُّ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد ويميز بين المؤمنين والمنافقين ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة في سبيل الله ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذين انخذلوا عن نبيه يوم أُحد ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ينقيهم ويطهرهم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي يهلكهم شيئًا فشيئًا ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة بدون ابتلاء وتمحيص؟ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي ولما تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد؟[٣]

قال «الطبري» المعنى: أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم و لما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه[٤]!! ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحظوا بالشهادة ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ﴾ أي من قبل أن تذوقوا شدته، والآية عتاب في حق من انهزم ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي رأيتموه بأعينكم حين قُتل من إخوانكم وشارفتم[٥] أن تُقْتَلوا، ونزل لما

---

(١) اختار «الطبري» وبعض المفسرين أن تكون الإشارة راجعة إلى ما تقدم ذكره والمعنى: هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك الأمم السابقة فيه بيان للناس من العمى وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين.

(٢) (ش): أبْلى في الحَرْب ونحوها: اجتهد فيها، وأظهر فيها بأسًا.

(٣) (ش): لمَّا: حرف نَفْي يجزم المضارع، ويقلبه إلى ماضٍ ممتدٍّ حتّى وقت الحديث مع توقّع حدوثه في المستقبل القريب. «لمَّا يذاكر درسَه»: لم يفعله إلى وقت الحديث. ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: لم يدخل الإيمانُ حتّى الآن».

(٤) «تفسير الطبري».

(٥) (ش): شارَف المُسافرُ البلدَ/ شارَف المُسافرُ على البلد: قاربه، دنا منه.

أشاع الكافرون أن محمدًا قد قتل وقال المنافقون: إن كان قد قتل فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي ليس محمد إلا رسول الله مضت قبله رسل، والرسل منهم من مات ومنهم من قتل ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ أفإن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفارًا بعد إيمانكم؟ ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أي يثيب الله المطيعين وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلًا لا يتقدم ولا يتأخر فقال ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإرادته ومشيئته ﴿كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي كتب لكل نفس أجلها كتابًا مؤقتًا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو، فالجبنُ لا يزيد في الحياة، والشجاعة لا تنقص منها، والحذر لا يدفع القدر والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناه منها وليس له في الآخرة من نصيب، وهو تعريض بالذين رغبوا في الغنائم، فبيّن تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة[1] لأنها مبذولة للبر والفاجر ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطيناه الأجر كاملًا مع ما قسمنا له من الدنيا كقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا بحسب شكرهم وعملهم ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي كم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون[2] وعُبّاد صالحون قاتلوا فقُتل منهم من قتل ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ما جبنوا ولا ضعفت هممهم لما أصابهم من القتل والجراح ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ عن الجهاد ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي ما ذلّوا ولا خضعوا لعدوهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي ما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين إلا طلب المغفرة من الله ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ أي وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي ثبتنا في مواطن الحرب ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي انصرنا على الكفار ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي جمع الله لهم بين جزاء الدنيا بالغنيمة والعز والظفر والتمكين لهم بالبلاد وبين جزاء الآخرة بالجنة ونعيمها ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب من أحسن عمله وأخلص نيته، وخَصَّ ثواب الآخرة بالحُسْنِ إشعارًا بفضله وأنه المعتَدُّ به عند الله.

---

(١) (ش): غبَط فلانًا: تمنَّى مثلَ ما لَه من النعمة من غير أن يحسدَه أو يريدَ زوالَها عنه.

(٢) ذهب «الطبري» إلى معنى ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي جموع كثيرة. وهذا قول قتادة، وعن الحسن أن المراد علماء كثيرون.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي كعرض السماوات والأرض حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه. يسمى هذا «التشبيه البليغ».

٢ - ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ من باب تسمية الشيء باسم سببه أي إِلى موجبات المغفرة.

٣ - ﴿ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ فيه الطباق وهو من المحسنات البديعية.

٤ - ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استفهام يقصد منه النفي أي لا يغفر إلا الله.

٥ - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ الإشارة بالبعيد للإِشعار بِبُعْد منزلتهم وعُلُوّ طبقتهم في الفضل.

٦ - ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك.

٧ - ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ هو من باب الالتفات لأنه جاء بعد لفظ ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ فهو التفات من الحاضر إلى الغيبة، والسرُّ في هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله.

٨ - ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ قصر موصوف على صفة.

٩ - ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ قال في «تلخيص البيان»: هذه استعارة والمراد بها الرجوع عن دينه، فشبّه سبحانه الرجوع في الارتياب بالرجوع على الأعقاب[١].

الفوَائِد: **الأولى:** في هذه الآيات الكريمة ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ أمهات مكارم الأخلاق من البذل وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين والتوبة من الذنوب، وكلٌّ منها مصدر لفضائل لا تدخل تحت الحصر.

الثانية: قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية فلا يستحق دخول الجنة من لم يتطهر من الذنوب والآثام.

الثالثة: تخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصف الجنة بالسعة والبسطة فإِذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها؟ قال ابن عباس: كسبع سماوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض[٢].

الرابعة: كتب هرقل إِلى النبي ﷺ إِنك دعوتني إِلى جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار؟ فقال عليه السلام: «سبحان الله أين الليل إِذا جاء النهار»[٣].

الخامسة: أمر تعالى بالمسارعة إِلى عمل الآخرة في آيات عديدة ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾

(١) «تلخيص البيان» ص ٢١.
(٢) «البحر المحيط» ٣/ ٥٨.
(٣) أخرجه أحمد، (ش): وضعَّفه الألباني.

و﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ [الحديد: ٢١] ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] وأما لعمل الدنيا فأمر بالهوينى ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المزمل: ٢٠] فتدبر السرّ الدقيق.

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ
خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ
بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾
وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي
ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ
ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾
۞إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ
غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ
﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ
يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ
فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ
لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ
حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ
لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

المناسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أُحد وما فيها من العظات والعبر، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة، وتآمرهم على الدعوة الإِسلامية بتثبيط عزائم المؤمنين.

اللغَة: ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ حجة وبرهانًا وأصله القوة ومنه قيل للوالي: سلطان ﴿مَثۡوَى﴾ المثوى: المكان الذي يكون مقر الإِنسان ومأواه من قولهم ثوى بالمكان إِذا أقام فيه ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم قال الزجاج: الحَسُّ الاستئصال بالقتل وأصله الضرب على مكان الحِسِّ قَالَ الشَّاعِرُ:

حَسَسْنَاهُمْ بِالسَّيْفِ حَسًّا فَأَصْبَحَتْ بَقِيَّتُهُمْ قَدْ شُرِّدُوا وَتَبَدَّدُوا

﴿تُصۡعِدُونَ﴾ الإصعاد: الذهاب والإبعاد في الأرض، والفرق بينه وبين الصعود أن الإصعاد يكون في مستوى من الأرض، والصعود يكون في ارتفاع ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾ أي لا تلتفتون إلى أحد كما يفعل المنهزم وأصله من ليّ العنق للإلتفات ﴿أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ آخركم ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ جازاكم ﴿أَمَنَةً﴾ أمنًا واطمئنانًا ﴿يَغۡشَىٰ﴾ يستر ويغطي ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ التمحيص: التنقية وتخليص الشيء مما فيه من عيب ﴿ٱسۡتَزَلَّهُمُ﴾ أوقعهم في الزلّة وهي الخطيئة ﴿غُزًّى﴾ جمع غازٍ وهو الخارج في سبيل الله.

سَبَبُ النّزول: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أُحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ ... إلى قوله مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أُحد[1]

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ أي يردوكم إلى الكفر ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي ترجعوا إلى الخسران، ولا خسران أعظم من أن تتبدلوا الكفر بالإيمان قال ابن عباس: هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أُحد لو كان نبيًّا ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ بل للإضراب أي ليسوا أنصارًا لكم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم فأطيعوا أمره ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ أي هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره، ثم بشر تعالى المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم فقال ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ أي سنقذف في قلوبهم الخوف والفزع ﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مستقرهم النار ﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بئس مقام الظالمين نار جهنم، فهم في الدنيا مرعوبون وفي الآخرة معذبون وفي الحديث «نصرت بالرعب مسيرة شهر» ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ أي وَفَّى الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي تقتلونهم قتلًا ذريعًا وتحصدونهم بسيوفكم بإرادة الله وحكمه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي حتى إذا جبنتم وضعفتم واختلفتم في أمر المقام في الجبل ﴿وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ أي عصيتم أمر الرسول ﷺ بعد أن كان النصر حليفكم، روي أن النبي ﷺ وضع خمسين من الرماة فوق الجبل وأمرهم أن يدفعوا عن المسلمين وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا

(١) «أسباب النزول» للواحدى ص ٢٧. (ش): ضعيف.

تخطفتنا الطير، فلما التقى الجيشان لم تقو خيل المشركين على الثبات بسبب السهام التي أخذتهم في وجوههم من الرماة فانهزم المشركون، فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمة الغنيمة ونزلوا لجمع الأسلاب، وثبت رئيسهم ومعه عشرة فجاءهم المشركون من خلف الجبل فقتلوا البقية من الرماة ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم فانقلب النصر إلى هزيمة للمسلمين فذلك قوله تعالى ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من بعد النصر ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي الغنيمة وهم الذين تركوا الجبل ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي ثواب الله وهم العشرة الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم «عبد الله بن جبير» ثم استشهدوا ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡ﴾ أي ردكم بالهزيمة عن الكفار ليمتحن إيمانكم ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡ﴾ أي صفح عنكم مع العصيان، وفيه إعلان بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم لولا عفو الله عنهم ولهذا قال ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي ذو مَنٍّ ونعمةٍ على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي اذكروا يا معشر المؤمنين حين وليتم الأدبار تبعدون في الفرار ولا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لآخر ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي ومحمد ﷺ يناديكم من ورائكم يقول «إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ، إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ، فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ مَنْ يَكِرُّ لَهُ الْجَنَّةُ»[1] وأنتم تمعنون في الفرار ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ أي جازاكم على صنيعكم غمًّا بسبب غمكم للرسول ﷺ ومخالفتكم أمره[2] ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ أي لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ أي من الهزيمة، والغرض بيان الحكمة من الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم وما أصابهم وذلك من رحمته تعالى بهم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي يعلم المخلص من غيره ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾ وهذا امتنانٌ منه تعالى عليهم، أي: ثم أرسل عليكم بعد ذلك الغم الشديد النعاس للسكينة والطمأنينة ولتأمنوا على أنفسكم من عدوكم فالخائف لا ينام، روى البخاري **عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ: غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ**. ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمنة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإخلاص، وبقي أهل النفاق في خوف وفزع فقال ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ أي يغشى النوم فريقًا منكم وهم المؤمنون المخلصون

(١) (ش): ذكره بهذا اللفظ في تفسيره: الرازيُّ، والنسفيُّ، والبيضاويُّ، والألوسيُّ، والزمخشريُّ، ورواه ابن جرير «الطبري» في تفسيره «جامع البيان»، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «والرسول يدعوكم في أخراكم»، « إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ ارْجِعُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ ارْجِعُوا!». (يَكِرُّ): يرجع.

(٢) ذهب «الطبري» إلى أن الباء بمعنى على والمعنى: فجازاكم على معصيتكم ومخالفتكم أمر الرسول غمًّا على غم، كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ أي على جذوع النخل، وقد رجح هذا القول ابن القيم واعتمده ابن كثير ١/ ٣٢٠.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمة فلا رغبة لهم إلاَّ نجاتها وهم المنافقون، وكان السبب في ذلك توعد المشركين بالرجوع إلى القتال، فقعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمنة فناموا، وأما المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفزع والجزع ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي يظنون بالله الظنون السيئة مثل ظنِّ أهل الجاهلية، قال ابن كثير: وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة[(١)]، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة[(٢)] ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي ليس لنا من الأمر شيء، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا لقتال ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين: الأمر كله بيد الله يصرّفه كيف شاء ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَ﴾ أي يُبْطِنون في أنفسهم ما لا يُظْهِرون ذلك ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ أي لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نُقتل ولكن أكرهنا على الخروج، وهذا تفسير لما يبطنونه قال الزبير: أُرسل علينا النوم ذلك اليوم وإنّي لأسمع قول «معتّب بن قشير» والنعاس يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا[(٣)] ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾ أي قل لهم يا محمد لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم مَن قَدَّر الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم، فَقَدَرُ الله لا مناص منه ولا مفر ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ أي ليختبر ما في قلوبكم من الإخلاص والنفاق ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي ولينقّي ما في قلوبكم ويطهّره فَعَلَ بكم ذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالم بالسرائر مطّلع على الضمائر وما فيها خير أو شر، ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أُحد فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ﴾ أي انهزموا منكم من المعركة ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ أي إنما أزلهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ أي واسع المغفرة حليم لا يعجل العقوبة لمن عصاه، ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي لا تكونوا كالمنافقين ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وقالوا لإخوانهم من أهل

---

(١) (ش): أي المعركة الفاصلة.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٣٠.

(٣) تفسير «القرطبي» ٤/ ٢٤٢. (ش): حسن، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، والبيهقي في «دلائل النبوة».

النفاق إذا خرجوا في الأسفار والحروب ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ على قولهم واعتقادهم أي هو سبحانه المحيي المميت فلا يمنع الموت قعود ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مُطَّلِعٌ على أعمال العباد فيجازيهم عليها ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي استشهدتم في الحرب والجهاد ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ أي جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم، فآثروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته، ولله در القائل حيث يقول:

فَإِنْ تَكُنِ الْأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أُنْشِئَتْ ... فَقَتْلُ امْرِئٍ بِالسَّيْفِ فِي اللهِ أَفْضَلُ

البَلَاغَة: ١ - ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي يرجعوكم من الإيمان إلى الكفر وهو من باب الاستعارة وقد تقدم.

٢ - بين لفظ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ و﴿كَفَرُوا۟﴾ في الآية طباق وكذلك بين ﴿يُخْفُونَ﴾ و﴿يُبْدُونَ﴾ وبين ﴿فَاتَكُمْ﴾ و﴿أَصَٰبَكُمْ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٣ - ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يقل وبئس مثواهم بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ وللإشعار بأنهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أي بئس مثوى الظالمين النار أفاده «أبو السعود»[1].

٤ - ﴿ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التنكير للتفخيم. وقوله ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون «عليهم»[2] فيه الإظهار في موضع الإضمار للتشريف والإشعار بعلة الحكم.

٥ - ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ... ظَنَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿فَتَوَكَّلْ ... ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٦ - ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه استعارة تشبيهًا للمسافر في البر بالسابح الضارب في البحر. لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقًّا لها واستعانة على قطعها كذا في «تلخيص البيان»[3].

فَائِدَة: من الذين ثبتوا في المعركة بأحد الأسد المقدام «أنس بن النضر» عم أنس بن مالك، فلما هزم المسلمون وأشاع المنافقون أن محمدًا ﷺ قد قتل قال: اللهم إني أعتذر إليك مما

---

(١) «أبو السعود» ١/ ٢٨٢.

(٢) (ش): أي قال: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقُلْ: «عليهم».

(٣) «تلخيص البيان» ص ٢٢.

صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم بسيفه فلقيه «سعد بن معاذ» فقال: أين يا سعد؟ والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقُتل ومثَّل به المشركون فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه ورئى وبه بضع وثمانون من طعنةٍ وضربةٍ ورميةٍ بسهم(١).

فَائِدَة: روى ابن كثير عن ابن مسعود قال: إن النساء كنَّ يوم أُحد خلف المسلمين يُجْهِزن على جَرحى المشركين، فلو حلفتُ يومئذٍ رجوت أن أبرّ أنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾(٢) فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أُمروا به أُفْرِدَ النبي ﷺ في تسعة وهو عاشرهم، فلما أرهقوه قال: رحم الله رجلًا ردّهم عنا فلم يزل يقول ذلك حتى قتل سبعة منهم(٣)، فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطيع أن تأكلها(٤)، وحزن عليه رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا، وصلى عليه يومئذٍ سبعين صلاة(٥).

قال الله تعالى:

فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ
لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ
لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن
يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ
ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ
بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ
وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ

---

(١) انظر قصته في «صحيح البخاري». (ش): القصة رواها البخاري ومسلم.

(٢) (ش): رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ، وضعَّفه الحافظ ابن كثير والألباني.

(٣) (ش): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ فَلَمَّا رَهِقُوهُ قَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ». فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا فَقَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ». فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٤) (ش): (فلاكَتْها): اللَّوْكُ: أَهْوَنُ المَضْغِ، أو مَضْغُ صُلْبٍ. لم يثبت أن هند بنت عتبة أكلَت من كبد حمزة، انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص: ١٤٧). وعلى فرض ثبوته فإن هندًا - رضي الله عنها - أسلمَتْ، والإسلام يهدم ما كان ما قبله.

(٥) (ش): ما رواه الإمام أحمد من أن النبي ﷺ صلّى على شهداء أحد، وأنه صلّى على حمزة سبعين صلاة بتعدادهم، قد ضعَّفه الحافظ ابن كثير والألباني. بل روى البخاري أن النبي ﷺ أَمَرَ بِدَفْنِهِمْ بِدِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا. وقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم أنه ﷺ صلّى عليهم بعد ذلك ببضع سنين كالمودع للأحياء.

أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا
قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ
يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا
مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

المناسَبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن غزوة أُحد، فقد ذكر تعالى فيما سبق انهزام المسلمين وما أصيبوا به من غمّ واضطراب، وأرشدهم إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء، وفي هذه الآيات الكريمة إشادة بالقيادة الحكيمة، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول ﷺ فقد وَسِعَهم عليه السلام بخلقه الكريم وقلبه الرحيم، ولم يخاطبهم بالغلظة والشدة وإنما خاطبهم باللطف واللين، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته، وتوحّدت تحت قيادته، والآيات تتحدث عن أخلاق النبوة، وعن المنّة العظمى ببعثة الرسول الرحيم والقائد الحكيم وعن بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة.

اللغَة: ﴿فَظًّا﴾ الفظُّ: الغليظ الجافي قال الواحدي هو الغليظ سيئ الخلق

قَالَ الشَّاعِرُ[1]:

أَخْشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أَوْ جَفَاءَ أَخٍ … أَخْشَى عَلَيْهَا مِنْ أَذَى الْكَلِمِ

﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ هو الذي لا يتأثر قلبه ولا يرقّ ومن ذلك قول الشاعر:

يُبْكَى عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ … لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ[2]

﴿لَانفَضُّوا﴾ تفرقوا وأصل الفض الكسر ومنه قولهم: لا يفضض الله فاك (يغل) الغلول: الخيانة وأصله أخذ الشيء في الخفية يقال: غل فلان في الغنيمة، أي: أخذ شيئًا منها في خفية (باء) رجع (سخط) السخط: الغضب الشديد (مأواه) منزله ومثواه (يزكيهم) يطهرهم (من) المنة: الإنعام والإحسان (فادرءوا) الدرء :الدفع ومنه ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ .

سبب النزول: فقدت قطيفة حمراء يوم بدر من المغنم فقال بعض الناس لعل النبي ﷺ أخذها فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ[3]﴾ الآية.

التفسير: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي فبسبب رحمةٍ من الله أودعها الله في قلبك يا محمد كنت هينًا ليّن الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لَتفرَّقُوا عنك ونفروا منك، ولمّا كانت الفظاظةُ في الكلام نَفَى الجفاءَ عن لسانه والقسوةَ عن

---

(١) (ش): قَالَه الشَّاعِرُ فِي ابْنَةٍ لَهُ.

(٢) «البحر المحيط» ٣/ ٨١.

(٣) «أسباب النزول» للواحدى ص ٧٢. (ش): حسن، أخرجه أبو داود، والترمذي.

قلبه ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي فتجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد، واطلب لهم من الله المغفرة وشاورهم في جميع أمورك ليقتدي بك الناس قال الحسن: «ما شاور قومٌ قط إلاّ هُدوا لأرشد أمورهم»[1] وكان عليه السلام كثير المشاورة لأصحابه ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي إذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فاعتمد على الله وفوّض أمرك إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي يحب المعتمدين عليه، المفوضين أمورهم إليه ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ أي إن أراد الله نصركم فلا يمكن لأحدٍ أن يغلبكم ﴿وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي وإن أراد خذلانكم وترك معونتكم فلا ناصر لكم، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أُحد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله، بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي وعلى الله وحده فليلجأ وليعتمد المؤمنون ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام شرعًا ولا عقلًا لنبيٍّ من الأنبياء أن يخون في الغنيمة، والنفيُ هنا نفيٌ للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل لأنَّ المراد أنه لا يتأتّى ولا يصحُّ أن يُتصوّر فضلًا عن أن يحصل ويقع ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي ومن يخنُ من غنائم المسلمين شيئًا يأت حاملًا له على عنقه يوم القيامة فضيحةً له على رءوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ أي تعطى جزاء ما عملت وافيًا غير منقوص ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي تنال جزاءها العادل دون زيادة أو نقص، فلا يزاد في عقاب العاصي، ولا ينقص من ثواب المطيع ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يستوي من أطاع الله وطلب رضوانه، ومن عصى الله فاستحق سخطه وباء بالخسران ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي مصيره ومرجعه جهنم وبئست النار مستقرا له ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي متفاوتون في المنازل قال «الطبري»: هم مختلفو المنازل عند الله، فلمن اتبع رضوان الله الكرامةُ والثواب الجزيل، ولمن باء بسخطٍ من الله المهانةُ والعقاب الأليم[2] ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي لا تخفى عليه أعمال العباد وسيجازيهم عليها، ثمَّ ذكّر تعالى المؤمنين بالمنّة العظمى عليهم ببعثة خاتم المرسلين فقال ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي والله لقد أنعم الله على المؤمنين حين أرسل إليهم رسولًا عربيًّا من جنسهم، عرفوا أمره وخبروا شأنه، وخصَّ تعالى المؤمنين بالذكر وإن كان رحمة للعالمين، لأنهم هم المنتفعون ببعثته ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يقرأ عليهم الوحي المنزل ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ أي يطهرهم من الذنوب ودنس الأعمال ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن المجيد والسنة المطهرة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي وإنه الحال والشأن كانوا قبل بعثته في ضلال ظاهر،

---

(١) «الطبري» ٧/ ٣٣٤.

(٢) «الطبري» ٧/ ٣٦٧.

فنقلوا من الظلمات إِلى النور، وصاروا أفضل الأمم ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي أو حين أصابتكم أيها المؤمنون كارثةٌ يوم أحد فقُتل منكم سبعون ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ أي في بدر حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي من أين هذا البلاء، ومن أين جاءتنا الهزيمة وقد وعدنا بالنصر، وموضع التقريع قولهم ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مع أنهم سبب النكسة والهزيمة ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي قل لهم يا محمد: إِن سبب المصيبة منكم أنتم بمعصيتكم أمر الرسول وحرصكم على الغنيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا رادّ لِقضائه ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي وما أصابكم يوم أُحد، يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين فبقضاء الله وقدره وبإِرادته الأزلية وتقديره الحكيم، ليتميّز المؤمنون عن المنافقين ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي ليعلم أهل الإِيمان الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ﴾ أي وليعلم أهل النفاق كعبد الله بن أُبي ابن سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أُحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحوًا من ثلاثمائة رجل فقال لهم المؤمنون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾ أي قال المنافقون لو نعلم أنك تلقون حربًا لقاتلنا معكم، ولكن لا نظن أن يكون قتال ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ أي بإِظهارهم هذا القول صاروا أقرب إِلى الكفر منهم إِلى الإِيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي يظهرون خلاف ما يضمرون ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ أي بما يخفونه من النفاق والشرك ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ﴾ أي وليعلم الله أيضًا المنافقين الذين قالوا لإِخوانهم الذين هم مثلهم وقد قعدوا عن القتال ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا ما قتلوا هنالك ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين: إِن كان عدم الخروج ينجي من الموت فادفعوا الموت عن أنفسكم إِن كنتم صادقين في دعواكم، والغرض منه التوبيخ والتبكيت وأن الموت آتٍ إِليكم ولو كنتم في بروج مشيدة.

البَلَاغَة: ١ - ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ... وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ﴾ بينهما مقابلة وهي من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ تقديم الجار والمجرور لإِفادة الحصر.

٣ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي ما صح ولا استقام والنفي هنا للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل.

٤ - ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال أبو حيان: «هذا من الاستعارة البديعة جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به، وجعل العاصي كالشخص الذي

أمر بأن يتبع شيئًا فنكص عن اتباعه ورجع بدونه»[(١)].

٥ - ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ التنكير للتهويل أي بسخط عظيم لا يكاد يوصف.

٦ - ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ على حذف مضاف أي ذوو درجات متفاوتة، فالمؤمن درجته مرتفعة والكافر درجته متضعة[(٢)].

٧ - ﴿لِلْكُفْرِ... لِلْإِيمَٰنِ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يُبْدُونَ ... يُخْفُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

٨ - ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق، وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: في هذه الآية ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ دلالة على اختصاص نبينا بمكارم الأخلاق، ومن عجيب أمره ﷺ أنه كان أجمع الناس لدواعي العظمة ثم كان أدناهم إلى التواضع، فكان أشرف الناس نسبًا وأوفرهم حسبًا وأزكاهم عملًا وأسخاهم كرما وأفصحهم بيانًا وكلها من دواعي العظمة، ثم كان من تواضعه عليه السلام أنه كان يرقع الثوب ويخصف النعل ويركب الحمار ويجلس على الأرض ويجيب دعوة العبد المملوك فصلوات الله وسلامه على السراج المنير بحر المكارم والفضائل.

فَائِدَة: التوكل على الله من أعلى المقامات لوجهين: أحدهما محبة الله للعبد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ والثاني الضمان في كنف الرحمن ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[(٣)] [الطلاق: ٣].

قال الله تعالى:

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ
مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ
ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ
أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ
شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن
يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ
لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ
ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟

(١) «البحر المحيط» ٣/ ١٠١.
(٢) «تلخيص البيان» ص ٢٢. (ش): اتَّضع فلانٌ: وضُع، صار دنيًّا مَحْطوطَ القدْر.
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٢٢.

وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

المناسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتابع أحداث أُحد، وتكشف عن أسرار المنافقين ومواقفهم المخزية، وتوضّح الدروس والعبر من تلك الغزوة المجيدة.

اللغَة: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون وأصله من البشرة لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه قال ابن عطية: وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة وإنما هي بمعنى الفعل المجرد كقوله تعالى ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ [التغابن: ٦] ﴿الْقَرْحُ﴾ بالفتح الجرح وبالضم ألم الجرح وقد تقدم ﴿حَسْبُنَا﴾ كافينا مأخوذ من الإحساب بمعنى الكفاية قَالَ الشَّاعِرُ:

فَتَمْلأُ بَيْتَنَا إِقْطًا[1] وَسَمْنًا ... وَحَسْبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ وَرِيُّ

﴿حَظًّا﴾ الحظ: النصيب ويستعمل في الخير والشر وإذا لم يقيّد يكون للخير ﴿نُمْلِي﴾ الإملاء: التأخير والإمهال قال «القرطبي»: والمراد بالإملاء هنا طول العمر ورغد العيش[2] ﴿يَمِيزَ﴾ يُميِّز يقال: ماز وميّز أي فصل الشيء من الشيء ومنه ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] ﴿يَجْتَبِي﴾ يختار ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ من الطّوق وهو القلادة أي يلزمون به لزوم الطوق في العنق.

سَبَبُ النّزول: أ- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ. فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلاَّ يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلاَ يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾**». إِلَى آخِرِ الآيَةِ[3].

ب- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «**يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ عِيَالاً وَدَيْنًا. قَالَ: «**أَفَلاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ**». قَالَ قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ «**مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا**[4] **فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لاَ يُرْجَعُونَ**». فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

---

(١) (ش): (الأَقِطُ): لبن محمَّض يُجَمَّد حتى يَستَحْجِر، أي يصير صلبًا، ويُطبَخ أو يُطبَخ به. (وَحَسْبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ وَرِيٌّ): يحتمل معنيين: أحدهما أعط كل ما كان لك وراء شبعك وريك، والآخر القناعة باليسير. أي اقْنَعْ من الغِنَى بما يُشْبِعك ويُرْوِيك وجُدْ بما فَضَلَ، وهذا المثل لامرئ القيس يذكر مِعْزى كانت له.

(٢) «القرطبي» ٤/ ٢٨٦.

(٣) «أسباب النزول» ص ٧٣ و«القرطبي» ٤/ ٢٦٨. (ش): (رواه أبو داود وحسنه الألباني.

(٤) كفاحًا: أي مواجهة بدون حجاب ولا رسول.

قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا﴾ الآيَةَ(١).

التفسير: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا﴾ أي لا تظنَّن الذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه أمواتًا لا يُحسّون ولا يتنعمون ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ أي بل هم أحياء متنعمون في جنان الخلد يرزقون من نعيمها غدوًّا وعشيًّا قال الواحدي: الأصح في حياة الشهداء ما روي عن النبي ﷺ من أن أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يُرزقون ويأكلون ويتنعمون(٢) ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي هم منعّمون في الجنة فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ أي يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يموتوا في الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا فهم لذلك فرحون مستبشرون ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي بأنْ لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا لأنهم في جنات النعيم ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أكّد استبشارهم ليذكر ما تعلّق به من النعمة والفضل. والمعنى: يفرحون بما حباهم الله تعالى من عظيم كرامته وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب، فالنعمة ما استحقوه بطاعتهم، والفضلُ ما زادهم من المضاعفة في الأجر ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ أي الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول من بعد ما نالهم الجراح يوم أُحد قال ابن كثير: وهذا كان يوم «حمراء الأسد»(٣) وذلك أن المشركين لما أصابوا من المسلمين كرّوا راجعين إلى بلادهم ثم ندموا لِمَ لا تَمَّمُوا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة(٤)، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أنّ بهم قوة وجَلَدًا، ولم يأذن لأحدٍ سوى من حضر أحدًا فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عَزَّ وَجَلَّ ولرسوله ﷺ(٥) ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لمن أطاع منهم أمر الرسول وأجابه إلى الغزو - على ما به من جراح وشدائد - الأجرُ العظيم والثواب الجزيل

---

(١) أخرجه ابن ماجه والترمذي كذا في «القرطبي» ٤/ ٢٦٨. (ش): حسَّنه الألباني.

(٢) (ش): عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ قَالَ أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) حمراء الأسد مكانٌ على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة.

(٤) (ش): أي ندموا على عدم القضاء على أهل المدينة وجعْل «أحد» المعركة الفاصلة.

(٥) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٣٨.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم: إن قريشًا قد جمعت لكم جموعًا لا تحصى فخافوا على أنفسكم فما زادهم هذا التخويف إلا إيمانًا ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي قال المؤمنون: الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه جل وعلا ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي فرجعوا بنعمة السلامة وفضل الأجر والثواب ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي لمْ ينَلْهُم مكروهٌ أو أذى ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي نالوا رضوان الله الذي هو سبيل السعادة في الدارين ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي ذو إحسان عظيم على العباد ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي إنما ذلكم القائل ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ بقصد تثبيط العزائم هو الشيطان يخوفكم أولياءه وهم الكفار لترهبوهم ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي فلا تخافوهم ولا ترهبوهم فإني متكفل لكم بالنصر عليهم، ولكن خافوا إن كنتم مؤمنين حقًّا أن تعصوا أمري فتهلكوا، والمراد بالشيطان «نعيم ابن مسعود الأشجعي» الذي أرسله أبو سفيان ليثبط المسلمين، قال أبو حيان: وإنما نسب إلى الشيطان لأنه ناشئ عَنْ وَسْوَسَتِهِ وَإِغْوَائِهِ وَإِلْقَائِهِ[1]. ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ تسلية للنبي ﷺ أي لا تحزن ولا تتألم يا محمد لأولئك المنافقين الذين يبادرون نحو الكفر بأقوالهم وأفعالهم، ولا تُبَالِ بما يظهر منهم من آثار الكيد للإسلام وأهله ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي إنهم بكفرهم لن يضروا الله شيئًا وإنما يضرون أنفسهم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي يريد تعالى بحكمته ومشيئته ألاّ يجعل لهم نصيبًا من الثواب في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظيم في نار جهنم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي الذين استبدلوا الكفر بالإيمان وهم المنافقون المذكورون قَبْلُ، لن يضروا الله بكفرهم وارتدادهم ولهم عذاب مؤلم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ أي لا يظنَّن الكافرون أن إمهالنا بدون جزاء وعذاب، وإطالتنا لأعمارهم خير لهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ أي إنما نمهلهم ونؤخر آجالهم ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب يُهينُهم ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٤٠.

(ش): ليس في «تفسير ابن كثير» بل في «البحر المحيط» في التفسير» لأبي حيَّان الأندلسي (٣/ ٤٤٠). فقال: «وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالشَّيْطَانِ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ».

(ش): قولُ مَنْ قال: إن الآية نزلَتْ في خروج النبيّ ﷺ إلى بدر الصّغرى لميعاد أبي سفيان، وإنَّ النَّاسَ هنا هو نُعَيْمُ بْنُ مسعودٍ- قولٌ ضعيفٌ. (تفسير الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ١٤١).

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٧٢): ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أَيْ: يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ، وَيُوهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذَوُو بَأْسٍ وَذَوُو شِدَّةٍ.

﴿يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ هذا وعدٌ من الله لرسوله بأنه سيميّز له المؤمن من المنافق. والمعنى: لن يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يبتليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء، كما فعل في غزوة أُحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق قال ابن كثير: «أي لا بدّ أن يعقد شيئًا من المحنة يظهر فيها وليُّه ويُفضح بها عدوه، يُعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر، كما ميّز بينهم يوم أُحد»[1]. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ قال «الطبري»: وأولى الأقوال بتأويله: أي وما كان الله ليطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والإبتلاء كما ميّز بينهم يوم أُحد بالبأساء وجهاد عدوه[2] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يختار من رسله من يشاء فيطلعهم على غيبه كما أطلع النبي ﷺ على المنافقين ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي آمنوا إيمانًا صحيحًا بأن الله وحده المطلع على الغيب وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحي من الله ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي وإن تصدّقوا ربكم بطاعته فلكم ثواب عظيم ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُم﴾ لما بالغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله. والمعنى: لا يحسبنَّ البخيلُ أن جمعه المال وبخله بإنفاقه ينفعه، بل هو مضرّة عليه في دينه ودنياه ﴿بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡ﴾ أي ليس كما يظنون بل ذلك البخلُ شرٌّ لهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي سيجعل الله ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة كما جاء في «صحيح البخاري»: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ** – أي ثعبانًا عظيمًا – **لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ ـ يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ ـ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ» ثُمَّ تلاَ** ﷺ **هَذِهِ الآيَةَ** ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ **الآيَةَ**»[3]. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ » أي جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي مطلع على أعمالكم.

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٤٠.

(٢) «الطبري» ٧/ ٤٢٧.

(٣) (ش): (مُثِّلَ لَهُ) أَيْ صوِّرَ. وَالْمُرَاد بِالشُّجَاع: الْحَيَّة الذَّكَر، وَقِيلَ: الَّذِي يَقُوم عَلَى ذَنَبه وَيُوَاثِب الْفَارِس. والأَقْرَع مِنْ الْحَيَّات الَّذِي اِبْيَضَّ رَأْسه مِنْ السُّمّ. (لَهُ زَبِيبَتَانِ) هُمَا النُّكْتَتَانِ السَّوْدَاوَانِ فَوْق عَيْنَيْهِ، وَقِيلَ: نُقْطَتَانِ يَكْتَنِفَانِ فَاهُ، وَقِيلَ: لَحْمَتَانِ عَلَى رَأْسه مِثْل الْقَرْنَيْنِ، وَقِيلَ: نَابَانِ يَخْرُجَانِ مِنْ فِيهِ. (يُطَوَّقه) أَيْ يَصِير لَهُ ذَلِكَ الثُّعْبَان طَوْقًا. (ثُمَّ يَأْخُذ بِلِهْزِمَتَيْهِ) فَاعِل يَأْخُذ هُوَ الشُّجَاع، وَالْمَأْخُوذ يَد صَاحِب الْمَال كَمَا ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَكُونُ كَنْزُ أَحَدِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ يَفِرُّ مِنْهُ صَاحِبُهُ، فَيَطْلُبُهُ وَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ» قَالَ: «وَاللهِ لَنْ يَزَالَ يَطْلُبُهُ حَتَّى يَبْسُطَ يَدَهُ فَيُلْقِمَهَا فَاهُ». (رواه البخاري). قَوْله: (بِلِهْزِمَتَيْهِ): الشِّدْقَيْنِ، وقيل: هُمَا الْعَظْمَانِ الْفَانِئانِ فِي اللَّحْيَيْنِ تَحْت الْأُذُنَيْنِ. وقيل: هُمَا لَحْم الْخَدَّيْنِ الَّذِي يَتَحَرَّك إِذَا أَكَلَ الإِنْسَان. (ثُمَّ يَقُول: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ) فَائِدَة هَذَا الْقَوْل الْحَسْرَة وَالزِّيَادَة فِي التَّعْذِيب حَيْثُ لَا يَنْفَعهُ النَّدَم، وَفِيهِ نَوْع مِن التَّهَكُّم.

البَلاغَة: قال في «البحر»: تضمنت هذه الآيات فنونًا من البلاغة والبديع: الإِطنابُ في ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وفي ﴿لَن يَضُرُّوا﴾ وفي اسم الجلالة في مواضع، والطباق في ﴿أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ وفي ﴿الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ والاستعارة في ﴿اشْتَرَوُا الْكُفْرَ﴾ وفي ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وفي ﴿الْخَبِيثَ والطَّيِّبِ﴾ يراد به المؤمن والمنافق والحذف في مواضع[1].

فَائِدَة: قوله تعالى ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار قال السيوطي في «الإكليل»: يستحب قول هذه الكلمة عند الغمّ والأمور العظيمة.

قال الله تعالى:

لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ
حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ
﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ
جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ
فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا
تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ
عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ
ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن
يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

المُنَاسَبَة: بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أُحد وما فيها من أحداث جسيمة، وتناولت الآيات ضمن ما تناولت مكائد المنافقين ودسائسهم، وما انطوت عليه نفوسهم من الكيد للإِسلام والغدر بالمسلمين وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله، أعقبه تعالى بذكر دسائس اليهود وأساليبهم الخبيثة في محاربة الدعوة الإِسلامية عن طريق التشكيك والبلبلة، والكيد والدسّ، ليحذّر المؤمنين من خطرهم كما حذّرهم من المنافقين، والآيات الكريمة تتحدث عن اليهود وموقفهم المخزي من الذات الإِلهية، واتهامهم لله عَزَّ وَجَلَّ بأشنع الاتهامات بالبخل والفقر، ثم نقضهم للعهود، وقتلهم للأنبياء، وخيانتهم للأمانة التي حمَّلهم الله إيَّاها، إلى آخر ما هنالك من جرائم وشنائع اتصف بها هذا الجنس الملعون.

(١) «البحر المحيط» ٣/ ١٩٢.

اللغَة: ﴿عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ أوصانا ﴿بِقُرۡبَانٍ﴾ القربان: ما يذبح من الأنعام تقربًا إلى الله تعالى ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الآيات الواضحات والمراد هنا المعجزات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور وهو الكتاب من الزَّبْر وهو الكتابة، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب كالرَّكوب بمعنى المركوب قال الزجاج: الزبور كل كتاب ذي حكمة ﴿زُحۡزِحَ﴾ الزحزحة: التنحية والإبعاد تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿فَازَ﴾ ظفر بما يؤمل ونجا مما يخاف ﴿ٱلۡغُرُورِ﴾ مصدر غرّه يغرّه غرورًا أي خدعه ﴿مَتَٰعُ﴾ المتاع: ما يُتمتع به ويُنتفع ثم يزول ﴿لَتُبۡلَوُنَّ﴾ لتُمْتَحَنُنَّ، من بلاه أي امتحنه ﴿عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أصل العزم ثباتُ الرأي على الشيء والمراد هنا صواب التدبير والرأي وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه ﴿بِمَفَازَةٖ﴾ بمنجاة من قولهم: فاز فلان إذا نجا.

سَبَبُ النّزول: أ – عن ابن عباس قال: **دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – ذَاتَ يَوْمٍ بَيْتَ مِدْرَاسِ الْيَهُودِ، فَوَجَدَ نَاسًا مِنَ الْيَهُودِ قد اجتمعوا إلى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: فنحاص بن عازوراء، وَكَانَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِفِنْحَاصَ: اتَّقِ اللهَ وَأَسْلِمْ، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ، فَآمِنْ وَصَدِّقْ وَأَقْرِضِ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُدْخِلْكَ الْجَنَّةَ وَيُضَاعِفْ لَكَ الثَّوَابَ، فَقَالَ فِنْحَاصُ: يَا أَبَا بَكْرٍ تَزْعُمُ أَنَّ رَبَّنَا يَسْتَقْرِضُنَا أَمْوَالَنَا وَمَا يَسْتَقْرِضُ إِلَّا الْفَقِيرُ مِنَ الْغَنِيِّ فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَإِنَّ اللهَ إِذًا لَفَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا مَا اسْتَقْرَضَنَا أَمْوَالَنَا، فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحَاصَ ضَرْبَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يَا عَدُوَّ اللهِ، فَذَهَبَ فِنْحَاصُ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، انْظُرْ إِلَى مَا صَنَعَ بِي صَاحِبُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِأَبِي بَكْرٍ: «مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ عَدُوَّ اللهِ قَالَ قَوْلًا عَظِيمًا، زَعَمَ أَنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَأَنَّهُمْ عَنْهُ أَغْنِيَاءُ، فَغَضِبْتُ لِلَّهِ وَضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَجَحَدَ ذَلِكَ فِنْحَاصُ، فَأَنْزَلَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – رَدًّا عَلَى فِنْحَاصَ وَتَصْدِيقًا لِأَبِي بَكْرٍ: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ الْآيَةَ**[1].

ب– عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ – منهم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وفنحاص بن عازوراء – وغيرهم فقالوا: يا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتابًا، وقد عهد الله إلينا في التوراة ألاّ نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا بهذا صدّقناك فنزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ[2]﴾ الآية.

(١) «أسباب النزول» للواحدى ص ٧٦ و«مختصر ابن كثير» ١/ ٣٤٢.
(ش): إسناده حسن، أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، و«الطبري» في «جامع البيان».
(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٩/ ١٢١. (ش): موضوع.

التفسير: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ هذه المقالة الشنيعة مقالة أعداء الله اليهود عليهم لعنة الله زعموا أن الله فقير، وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالوا: إن الله فقير يقترض منا كما قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة: ٦٤] قال «القرطبي»: وإنما قالوا هذا تمويهًا على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون هذا، وغرضُهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين وتكذيب النبي ﷺ أي إنه فقير على قول محمد لأنه اقترض منا[1] ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ أي سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم ونكتب جريمتهم الشنيعة بقتل الأنبياء بغير حق، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافِهم ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي ويقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة: ذوقوا عذاب النار المحرقة الملتهبة ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي ذلك العذاب بما اقترفته أيديكم من الجرائم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي وأنه سبحانه عادل ليس بظالم للخلق، والمراد أن ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم، وعدلِ الله تعالى فيكم، قال الزمخشري: ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن[2] ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ أي هم الذين قالوا: إن الله أمرنا وأوصانا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ أي أمرنا بأن لا نصدق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة وهي أن يقدّم قربانًا فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخًا وإظهارًا لكذبهم: قد جاءتكم رسلٌ قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتم ﴿فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي فلم كذبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بالله والتصديق برسله؟ ثم قال تعالى مسليًا لرسوله ﷺ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذَّبت أسلافُهم من قبلُ رسل الله فلا تحزن فلك بهم أسوة حسنة ﴿جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي كذبوهم مع أنهم جاءوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الواضحة ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ أي بالكتب السماوية المملوءة بالحِكَم والمواعظ، والكتاب الواضح الجلي كالتوراة والإنجيل ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ أي مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفسٍ ميّتة لا محالة كقوله ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن: ٢٦] ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ أي تُعطون جزاء أعمالكم وافيًا يوم القيامة ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ أي فمن نُحي عن النار وأُبْعِد عنها، وأُدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السَّرْمَدِيَّة[3] والنعيم المخلّد

---

(١) «القرطبي» ٤/ ٣٩٤.

(٢) «الكشاف» ١/ ٣٤٤.

(٣) (ش): سَرْمَدِي: دائم متّصل لا ينقطع.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي ليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحمق المغرور قال ابن كثير: الآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة[(١)] ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي والله لتُمْتَحَنُنَّ وَتُخْتَبَرُنَّ في أموالكم بالفقر والمصائب، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ أي ولَيَنالَنَّكم من اليهود والنصارى والمشركين - أعدائكم - الأذى الكثير، وهذا إِخبارٌ منه جلّ وعلا للمؤمنين بأنه سينالهم بلايا وأكدار من المشركين والفجّار، وأمرٌ لهم بالصبر عند وقوع ذلك لأن الجنة حُفَّتْ بالمكاره[(٢)] ولهذا قال ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ أي وإِن تصبروا على المكاره وتتقوا الله في الأقوال والأعمال ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها لأنها ممّا أمر الله بها ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود في التوراة ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ أي لتظهرنَّ ما في الكتاب من أحكام الله ولا تخفونها، قال ابن عباس: هي لليهود أُخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه[(٣)] ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي طرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم واستبدلوا به شيئًا حقيرًا من حُطام الدنيا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي بئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ أي لا تظننَّ يا محمد الذين يفرحون بما أَتَوا من إِخفاء أمرك عن الناس ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ أي ويحبون أن يحمدهم الناس على تمسكهم بالحق وهم على ضلال ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي فلا تظننهم بمنجاة من عذاب الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم قال ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إيّاه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إِياه ما سألهم عنه[(٤)] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له سبحانه جميع ما في السماوات والأرض فكيف يكون من له ما في السماوات والأرض فقيرًا؟ والآية ردٌّ على الذين قالوا إِن الله فقير ونحن أغنياء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على عقابهم. البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي: ١ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ أكد اليهود الجملة بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ على سبيل المبالغة، فحيث نسبوا إِلى أنفسهم الغنى لم يؤكدوا بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إِلى تأكيد كأن الغنى وصف لهم لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إِلى تأكيد وهذا دليل على تمردهم في الكفر والطغيان.

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٤٣.
(٢) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ». رواه مسلم.
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٢٦.
(٤) «الكشاف» ١/ ٣٤٥.

٢ - ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ فيه مجاز يسمى المجاز العقلي أي ستكتب ملائكتنا ولما كان الله لا يكتب[١] وإنما يأمر بالكتابة أسند الفعل إليه مجازًا.

٣ - ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تزاول بهن.

٤ - ﴿تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ إسناد الأكل إلى النار بطريق الاستعارة إذ حقيقة الأكل إنما تكون في الإنسان والحيوان وكذلك توجد استعارة في قوله ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ لأن حقيقة الذوق ما يكون بحاسّة اللسان.

٥ - ﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ قال الزمخشري: «شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلّس به على المُسْتَام[٢] ويُغر حتى يشتريه والشيطان هو المدلِّس الغرور»[٣] فهو من باب الاستعارة.

٦ - ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ كذلك توجد استعارة في النبذ والاشتراء شبّه عدم التمسك والعمل به بالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان وباشتراء ثمن قليل ما تعوضوه من الحطام على كتم آيات الله.

٧ - وفي الآيات الكريمة من المحسنات البديعية الطباق في ﴿فَقِيرٞ - أَغۡنِيَآءُ﴾ والمقابلة ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وفي ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ... وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ والجناس المغاير في ﴿قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ وفي ﴿كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ﴾ .فَائِدَة: صيغة فعّال في الآية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ليست للمبالغة وإنما هي للنسب مثل عطّار ونجّار وتمّار كلها ليست للمبالغة وإنما هي للنسب قال ابن مالك.

وَمَـعَ فَـاعِـلٍ وَفَـعَّـالٍ فَـعِـلْ فِي نَسَبٍ أَغْنَى عَنِ اليَا فَقُبِلْ[٤]

تنبيه: إنما وصف تعالى عيش الدنيا ونعيمها بأنه متاع الغرور، لِمَا تُمَنِّيهِ لَذَّاتُها وشهواتُها من طول البقاء وأمل الدوام فتخدعه ثم تصرعه، ولهذا قال بعض السلف: الدنيا متاعٌ متروك يوشك أن يضمحلّ ويزول، فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم والله المستعان.

---

(١) (ش): ما الدليل على هذا النفي وفي الحديث الصحيح أن الله ﷻ كَتَبَ لَموسَى عليه السلام التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ.

(٢) (ش): السَّوْمُ: عَرْضُ السِّلْعَةِ عَلَى الْبَيْع. وَيُقَالُ: اسْتَامَ مِنِّي بِسِلْعَتي اسْتِيامًا إذا كَانَ هُوَ الْعَارِض عَلَيْكَ الثَّمَن. وَسَامَنِي الرجلُ بسِلْعته سَوْمًا: وَذَلِكَ حِينَ يَذْكُرُ لَكَ هُوَ ثَمَنَهَا.

(٣) «الكشاف» ١/ ٣٤٥.

(٤) (ش): (ومع فاعل وفعَّال فعل) هذه ثلاث صيغ للمبالغة، (في نسب أغنى عن اليا)؛ يعني: ياء النَّسب، معناه أنه يصاغ على وزن فاعل، وعلى وزن فعَّال، وعلى وزن فَعَل، للنسبة عوضًا عن الياء، فيقال في الرجل كثير البيع للتمر: تامِر، وكذلك الرجل كثير بيع اللبن، أو كثير شرب اللبن، يقال: لابِن. والفعَّال كثير ولاسيما في الحرف، مثل بناء ونجار وحداد وصناع. وأما فَعِل فهو قليل، لكنه موجود مثل نَهِر: نسبة إلى النهار.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا
إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا
وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾
فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا
فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

المناسَبَة: بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة، وختمها بذكر دلائل الوحدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختام مسك، ولما كان المقصود من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق، جاءت الآيات الكريمة تنير القلوب بأدلة التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال، فلفتت الأنظار إلى التفكير والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوحدانية الله وباهر قدرته وهو يتأمل في كتاب الله المنظور «الكون الفسيح» بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور «القرآن العظيم» وفي الكتاب المسطور إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

اللغَة: ﴿الْأَلْبَابِ﴾ العقول ﴿بَاطِلًا﴾ عبثاً بدون حكمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهٌ لله عن السوء ﴿أَخْزَيْتَهُ﴾ أذْلَلْتَه وأَهَنْتَه ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا﴾ استر وامح ﴿الْأَبْرَارِ﴾ جمع بَرّ أو بارّ، وهم المستمسكون بالشريعة ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ بمعنى أجاب ﴿نُزُلًا﴾ النُّزُل: ما يُهَيَّأ للنزيل وهو الضيف من أنواع الإكرام ﴿وَرَابِطُوا﴾ المرابطة: تَرَصُّد العدو في الثغور.

سبب النزول: عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة

بشيء فأنزل الله ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ [١]﴾ الآية[٢].

التفسير: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي إن في خلق السماوات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي وتعاقب الليل والنهار على الدوام ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكر والاستدلال لا كما تنظر البهائم[٣]، ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ أي يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم في جميع الأحوال في حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يتدبرون في ملكوت السماوات والأرض، في خلقهما بهذه الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ أي ما خلقت هذ الكون وما فيه عبثًا من غير حكمة ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي ننزهك يا الله عن العبث فأَجِرْنا واحْمِنا من عذاب جهنم ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ أي من أدخلته النار فقد أذللته وأهنته غاية الإهانة وفضحته على رءوس الأشهاد ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم من عذاب الله، والمراد بالظالمين الكفار كما قال ابن عباس وجمهور المفسرين وقد صرح به في البقرة ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ أي داعيًا يدعو إلى الإيمان وهو محمد ﷺ ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾ أي يقول هذا الداعي أيها الناس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية فصدقنا بذلك واتبعناه ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي امح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي أَلْحِقْنا بالصالحين قال ابن عباس: الذنوب هي الكبائر والسيئات هي الصغائر ويؤيده ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١] فلا تكرار إذًا ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع أي أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك وهي الجنة لمن أطاع قاله ابن عباس ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي لا تفضحنا كما فضحت الكفار ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ

---

(١) «الطبري» ٧/ ٤٨٨، و«أسباب النزول» ص ٨٠.

(٢) (ش): عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ لَا أَسْمَعُ اللهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ . فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾. (رواه الترمذي ، وصححه الألباني).

(٣) «البحر المحيط» ٣/ ١٤٢.

أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ أي أجاب الله دعاءهم بقوله إني لا أُبطل عمل من عمل خيرًا ذكرًا كان العامل أو أنثى قال الحسن: مازالوا يقولون ربنا، ربنا، حتى استجاب لهم[١] ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أي الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، فإذا كنتم مشتركين في الأصل فكذلك أنتم مشتركون في الأجر[٢] ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ أي هجروا أوطانهم فارِّينَ بدينهم، وألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار ﴿ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى ﴾ أي تحملوا الأذى من أجل دين الله ﴿ وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾ أي وقاتلوا أعدائي وقتلوا في سبيلي ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أي الموصوفون بما تقدم لأَمْحُوَنَّ ذنوبهم بمغفرتي ورحمتي ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي ولأدخلنهم جنات النعيم جزاءً من عند الله على أعمالهم الصالحة ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ أي عنده حسن الجزاء وهي الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم نبه تعالى إلى ما عليه الكفار في هذا الدار من النعمة والغبطة والسرور، وبيَّن أنه نعيم زائل فقال ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ أي لا يخْدَعَنَّك أيها السامع تنَقُّل الذين كفروا في البلاد طلبًا لكسب الأموال والجاه والرتب ﴿ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي إنما يتنعمون بذلك قليلًا ثم يزول هذا النعيم، ومصيرهم في الآخرة إلى النار، وبئس الفراش والقرار نار جهنم.
﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: لكن المتقون لله لهم النعيم المقيم في جنات النعيم مخلدين فيها أبدًا ﴿ نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي ضيافة وكرامة من عند الله ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ أي وما عند الله من الثواب والكرامة للأخيار الأبرار، خير مما يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزائل، ثم أخبر تعالى عن إيمان بعض أهل الكتاب فقال ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي ومن اليهود والنصارى فريق يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل إليكم وهو القرآن وبما أنزل إليهم وهو التوراة والإنجيل كعبد الله بن سَلَام وأصحابه، والنجاشي وأتباعه[٣] ﴿ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ أي خاضعين متذللين لله ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي لا يحرّفون نعت محمد ولا أحكام الشريعة الموجودة في كتبهم لعرضٍ من الدنيا خسيس كما فعل الأحبار والرهبان ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ثواب إيمانهم يعطونه مضاعفًا كما قال ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي سريعٌ حسابُه لِنفوذ علمه بجميع المعلومات، يعلم ما لكل واحدٍ من الثواب والعقاب، قال ابن عباس والحسن:

(١) «القرطبي» ٤/ ٣١٨.
(٢) قال «الطبري»: بعضكم من بعض في النصرة والملة والدين، وما ذكرناه رأي الجلالين وهو أظهر.
(٣) (ش): فقد دخلوا الإسلام وآمنوا بالنبي ﷺ.

نزلت في النجاشي وذلك أنه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لأصحابه: قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي، فقال بعضهم لبعض: يأمرنا أن نصلي على علج[1] من علوج الحبشة فأنزل الله ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾[2] الآية ثم ختم تعالى السورة الكريمة بهذه الوصية الجامعة لسعادة الدارين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ أي اصبروا على مشاقّ الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ﴿وَصَابِرُوا﴾ أي غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب ﴿وَرَابِطُوا﴾ أي لازموا ثغوركم مستعدين للكفاح والغزو ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين.

البَلَاغَة: تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع ما يلي:

١ - الإطناب في قوله ﴿رَبَّنَا﴾ حيث كرر خمس مرات والغرض منه المبالغة في التضرع.

٢ - الطباق في قوله ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ و ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ و ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ و ﴿ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

٣ - الإيجاز بالحذف ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي على ألسنة رسلك وكذلك في قوله ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قائلين ربنا.

٤ - الجناس المغاير في قوله ﴿آمِنُوا... فَآمَنَّا﴾ وفي ﴿عَمَلَ عَامِلٍ﴾ وفي ﴿مُنَادِيًا يُنَادِي﴾.

٥ - ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ التنكير للتفخيم ودخلت اللام في خبر إنَّ لزيادة التأكيد.

٦ - الاستعارة في قوله ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استعير التقلب للضرب في الأرض لطلب المكاسب والله أعلم.

الفوَائِدَ: الأولى: إنما خصص التفكر بالخلق للنهي عن التفكر في الخالق ففي الحديث الشريف «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون الله قدره»[3] وذلك لعدم الوصول إلى كُنْه[4] ذاته وصفاته قال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله كالناظر في عين الشمس لأنه تعالى ليس كمثله شيء.

الثانية: تكرر النداء بهذا الاسم الجليل ﴿رَبَّنَا﴾ خمس مرات كل ذلك على سبيل الاستعطاف

---

(١) (ش): العِلْج: الرجل من كفار العجم وَغَيْرِهِمْ.

(٢) «البحر المحيط» ٣/ ١٤٨، و«القرطبي» ٤/ ٣٢٢.

عن أنس؛ قال: لما جاء نَعْيُ النجاشي؛ قال رسولُ الله ﷺ: «صَلُّوا عَلَيْه»، قالوا: يا رسول الله! نصلي على عبد حبشي؟ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ (صحيح، أخرجه النسائي في «تفسيره»، والطبراني في «الأوسط»).

(٣) (ش): (رواه أبو الشيخ، وضعفه الألباني). وقَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وآله وسلم -: «تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الله - عز وجل -» رواه الطبراني وغيره، وحسنه الألباني).

(٤) (ش): كُنْه الشّيء: جوهر وأصله وحقيقته.

وتطلب رحمة الله بندائه بهذا الاسم الشريف الدال على التربية والملك والإصلاح.

الثالثة: سئلت السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها عن أعجب ما رأته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: كل أمره كان عجبًا،«أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عَزَّ وَجَلَّ» فقلت: والله إني لأحب قربك وأحب هواك، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر صبّ الماء ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال: يا رسول الله: ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال«ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... .﴾ الآيات ثم قال: «ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة آل عمران»



(١) أخرجه ابن مردوية، وانظر «ابن كثير» ١/ ٣٤٨.

(ش): سُئِلَتْ أم المُؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن أَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَتْهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي». قُلْتُ: «والله إِنِّي لأُحِبُّ قُرْبَكَ وَأُحِبُّ مَا يَسُرُّكَ». قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ. قَالَتْ: وَكَانَ جَالِسًا فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي ﷺ حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ. قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ، فَجَاءَ بِلاَلٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاَةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ الله تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَة، وَيْل لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

رواه ابنُ حبان وحسنه الألباني. وقوله ﷺ: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» رواه البخاري.



مدنية وآياتها ست وسبعون ومائة

بين يدي السورة

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية، التي تنظم الشئون الداخلية والخارجية للمسلمين، وهي تُعْني بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع ولكنَّ معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ولهذا سميت «سورة النساء»!

تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام - وبخاصة اليتيمات - في حجور الأولياء والأوصياء، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج، واستَنْقَذَتْهُنَّ من عَسْف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة.

* وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتها، وحفظت كِيانها، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر، والميراث، وإحسان العشرة.

* كما تعرضت بالتفصيل إلى «أحكام المواريث» على الوجه الدقيق العادل، الذي يكفل العدالة ويحقق المساواة، وتحدثت عن المحرمات من النساء «بالنسب، والرضاع، والمصاهرة».

* وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية وبينت أنها ليست علاقة جسد وإنما علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجرًا ولا ثمنًا، وإنما هو عطاء يوثق المحبة، ويديم العشرة، ويربط القلوب.

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى «قوامة الرجل» وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته.

* ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى «دائرة المجتمع» فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبينت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم، والتناصح والتسامح، والأمانة والعدل، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان.

* ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها، فأمرت بأخذ العدة لمكافحة الأعداء.

* ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية.

واستتبع الأمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر التي ينبغي الحذر منها، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكايدهم وخطرهم.

*كما نبهت إلى خطر أهل الكتاب وبخاصة اليهود وموقفهم من رسل الله الكرام.

*ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ضلالات النصارى في أمر المسيح عيسى ابن مريم حيث غالوا فيه حتى عبدوه ثم زعموا أنه صُلِبَ(١) مع اعتقادهم بألوهيته، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيين، وقد دعتهم الآيات إلى الرجوع عن تلك الضلالات إلى العقيدة السمحة الصافية «عقيدة التوحيد» وصدق الله حيث يقول: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النساء: ١٧١].

التسمية: سميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ولذلك أطلق عليها «سورة النساء الكبرى» في مقابلة «سورة النساء الصغرى» التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا (١) وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا
تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا (٢) وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ (٣) وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ
صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا (٤) وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ
لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا (٥) وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ
رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا
فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا (٦) لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ
ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا (٧)
وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا (٨)
وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا
(٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا (١٠)

---

(١) وقد أحسنَ مَن قال:

إِذَا صُلِبَ الْإِلَهُ بِفِعْلِ عَبْدٍ ... يَهُودِيٍّ فَمَا هَذَا الْإِلَهُ؟

اللغَة: ﴿وَبَثَّ﴾ نشر وفرّق ومنه ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٦] ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ جمع رحم وهو في الأصل مكان تكون الجنين في بطن أمه، ثم أطلق على القرابة ﴿رَقِيبًا﴾ الرقيب: الحفيظ المطّلع على الأعمال ﴿حُوبًا﴾ الحُوب: الذنب والإثم ﴿تَعُولُوا۟﴾ تميلوا وتجوروا يقال: عال الميزان إذا مال، وعال الحاكم إذا جار ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ جمع صَدُقة وهو المهر ﴿نِحْلَةً﴾ هبة وعطية ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ ضعفاء العقول والمراد به هنا المبذّرون للأموال ﴿ءَانَسْتُم﴾ أبصرتم من آنس الشيءَ أبصره ﴿وَبِدَارًا﴾ أي مبادرةً، بمعنى مسارعة، أي يسارع في تبذيرها قبل أن يكبر اليتيمُ فيتسلمها منه ﴿سَدِيدًا﴾ من السداد بمعنى الاستقامة.

سَبَبُ النّزول: أ – عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ فقالت: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها تَشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليّها أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صَداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن ذلك إلاّ أن يُقْسطوا لهنَّ ويبلغوا لهنَّ أعلى سنتهن في الصَّداق، فأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ، وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ١٢٧] [(١)] الآية.

ب – عن مقاتل بن حيان أن رجلًا من غطفان يقال له «مرثد بن زيد» وليَ مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ...﴾[(٢)] الآية.

التفسير: افتتح الله جل ثناؤه سورة النساء بخطاب الناس جميعًا ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، منبهًا لهم على قدرته، ووحدانيته فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي خافوا الله الذي أنشأكم من أصلٍ واحد وهو نفس أبيكم آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي أوجد من تلك النفس الواحدة زوجها وهيَ حواء ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ أي نشر وفرّق من آدم وحواء خلائق كثيرين ذكورًا وإناثًا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ أي خافوا الله الذي يناشد بعضكم بعضًا به حيث يقول: أسألك بالله، وأَنشُدك بالله، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي حفيظًا مطلعًا على جميع أحوالكم وأعمالكم، وقد أكد تعالى الأمر بتقوى الله في موطنين: في أول الآية، وفي آخرها ليشير إلى عِظَم حق الله على عباده، كما قرن تعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية، فالناس جميعًا من أصل واحد، وهم إخوة في الإنسانية والنسب، ولو أدرك الناس هذا لَعاشوا في سعادة وأمان، ولَمَا كانت هناك حروب طاحنة مدمرة تلتهم الأخضر واليابس، وتقضي على الكهل والوليد،

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) «القرطبي» ٥/ ٥٣، و«أسباب النزول» ص ٨٣.
(ش): لا يصح لانقطاعه، فمقاتل بن حيان تُوُفِّي فِي حُدُوْدِ الخَمْسِيْنَ وَمائَةٍ.

ثم ذكر تعالى اليتامى فأوصى بهم خيرًا وأمر بالمحافظة على أموالهم فقال ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي أعطوا اليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار أموالهم إذا بلغوا ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي لا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعًا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي ذنبًا عظيمًا، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية لأنه ضعيف، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله، ثم أرشد تعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل فقال ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي إذا كانت تحت حِجْر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مِثلِها فلْيَتْركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ولم يضيّق الله عليه[1] ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهنَّ إن شاء أحدكم اثنتين وإن شاء ثلاثًا وإن شاء أربعًا ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ أي إن خفتم من عدم العدول بين الزوجات فالزَموا الاقتصار على واحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي اقتصروا على نكاح الإماء لملك اليمين إذْ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي ذلك الاقتصار على الواحدة أو على ملك اليمين أقرب ألا تميلوا وتجوروا ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أي أعطوا النساء مهورهنّ عطيةً عن طيب نفس ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ أي فإن طابت نفوسهن بهبة شيءٍ من الصَّداق ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي فخذوا ذلك الشيء الموهوب حلالًا طيبًا ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ أي لا تعطوا المبذرين من اليتامى أموالهم التي جعلها الله قيامًا للأبدان ولمعايشكم فيضيعوها قال ابن عباس: السفهاء هم الصبيان والنساء قال «الطبري»: لا تؤتِ سفيهًا ماله وهو الذي يفسده بسوء تدبيره، صبيًا كان أو رجلًا، ذكرًا كان أو أنثى[2] ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ أي أطعموهم منها واكسوهم ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي قولًا لينًا كقولكم إذا رَشَدْتم سلمنا إليكم أموالكم ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ أي اختبروا اليتامى حتى إذا بلغوا سنَّ النكاح وهو بلوغ الحلم الذي يصلحون عنده للنكاح ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي إن أبصرتم منهم صلاحًا في دينهم ومالهم فادفعوا إليهم أموالهم بدون تأخير ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ أي لا تسرعوا في إنفاقها وتبذّروها قائلين ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي من كان منكم غنيًّا أيها الأولياء فليعف عن مال اليتيم ولا يأخذ أجرًا على وصايته ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي ومن كان فقيرًا فليأخذ بقدر حاجته الضرورية وبقدر أجرة عمله ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ

---

(١) اختار «الطبري» أن المعنى: إن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى فخافوا أيضًا ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتموهن، وما أثبتناه هو الموافق لسبب النزول وهو اختيار ابن كثير.

(٢) «الطبري» ٧/ ٥٦٥.

عَلَيۡهِمۡ﴾ أي فإذا سلمتم إلى اليتامى أموالهم بعد بلوغهم الرشد فأشهدوا على ذلك لئلا يجحدوا تسلمها ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ أي كفى بالله محاسبًا ورقيبًا، ثم بيّن الله تعالى أن للرجال والنساء نصيبًا من تركة الأقرباء فقال ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ أي للأولاد والأقرباء حظ من تركة الميت كما للبنات والنساء حظ أيضًا الجميع فيه سواء يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا في قدرها، وسببها أن بعض العرب كانوا لا يورثون النساء والأطفال وكانوا يقولون: إنما يرث مَن يحارب ويذُبُّ عن الحوزة[1] فأبطل الله حكم الجاهلية ﴿مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ﴾ أي سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة ﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ أي نصيبًا مقطوعًا فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ أي إذا حضر قسمة التركة الفقراء من قرابة الميت واليتامى والمساكين من غير الوارثين فأعطوهم شيئًا من هذه التركة تطييبًا لخاطرهم ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي قولًا جميلًا بأن تعتذروا إليهم أنه للصغار وأنكم لا تملكونه ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ نزلت في الأوصياء، أي: تذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك وكيف يكون حالهم وعامِل اليتامى الذين في حِجْرك بمثل ما تريد أن يُعامل به أبناؤك بعد فَقْدِك ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ أي فليتقوا الله في أمر اليتامى وليقولوا لهم ما يقولونه لأولادهم من عبارات العطف والحنان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ أي يأكلونها بدون حق ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾ أي ما يأكلون في الحقيقة إلا نارًا تتأجج في بطونهم يوم القيامة ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ أي سيدخلون نارًا هائلة مستعرة وهي نار السعير.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات من ضروب الفصاحة والبيان ما يلي:

١ – الطباق في ﴿غَنِيًّا – فَقِيرٗا﴾ وفي ﴿قَلَّ – كَثُرَ﴾ وفي ﴿رِجَالٗا – وَنِسَآءٗ﴾ وفي ﴿ٱلۡخَبِيثَ – بِٱلطَّيِّبِ﴾.

٢ – والجناس المغاير في ﴿دَفَعۡتُمۡ – فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾ وفي ﴿وَقُولُواْ – قَوۡلٗا﴾.

٣ – والإطناب في ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ .... فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ وفي ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ ... وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾.

٤ – والمجاز المرسل في ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ أي الذين كانوا يتامَى فهو باعتبار ما كان وكذلك ﴿يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾ مجاز مرسل وهو باعتبار ما يؤول إليه كقوله ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ [يوسف: ٣٦] أي عنبًا يئول إلى الخمر.

٥ – المقابلة اللطيفة بين ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ . وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

---

(١) (ش): ذَبَّ عنه: دفع ومَنَع. حَوْزَةُ الرَّجُلِ: مِلْكُه.

٦ - والإِيجاز في مواضع مثل ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ أي ونساء كثيرات ... إلخ.

الفوَائِد: الأولى: في الافتتاح بتذكير الناس أنهم خلقوا من نفسٍ واحدة تمهيد جميل وبراعة مطلع لما في السورة من أحكام الأنكحة والمواريث والحقوق الزوجية وأحكام المصاهرة والرضاع وغيرها من الأحكام الشرعية.

الثانية: الأغلب أنه إذا كان الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وكان للكافرين فقط أو للكافرين وغيرهم أُعقب بدلائل الوحدانية والربوبية مثل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر: ٥] وإذا كان الخطاب للمؤمنين أُعقب بذكر النعم كما هنا أفاده صاحب «البحر»[1].

الثالثة: ذكْرُ البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها للتأكيد والمبالغة فهو كقولك: أبصرتُ بعيني وسمعت بأذني ومثله قوله تعالى ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

الرابعة: أضاف تعالى أموال اليتامى إلى الأوصياء مع أنها أموال اليتامى[2] للتنبيه إلى «التكافل بين الأمة» والحث على حفظ الأموال وعدم تضييعها فإن تبذير السفيه للمال فيه مضرّة للمجتمع كله.

«كلمة حول تعدد الزوجات»

مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة وهي ليست تشريعًا جديدًا انفرد به الإسلام، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا حدود وبصورة غير إنسانية فنظّمَه وشَذّبَه[3] وجعله علاجًا ودواءً لبعض الحالات الاضطرارية التي يعاني منها المجتمع وفي الحقيقة فإن تشريع التعدد مفخرة من مفاخر الإسلام لأنه استطاع أن يحل «مشكلة اجتماعية» هي من أعقد المشاكل التي تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم فلا تجد لها حلًّا. . إن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كِفّتَاه فماذا نصنع حين يختل التوازن ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال؟ أَنَحْرِم المرأة من نعمة الزوجية و «نعمة الأمومة» ونتركها تسلك طريق الفاحشة والرذيلة، أم نحل هذه المشكلة بطرق فاضلة نصون فيها كرامة المرأة وطهارة الأسرة وسلامة المجتمع؟ وأقرب الأمثلة شاهدًا على ما نقول ما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال فأصبح مقابل كل شاب ثلاث فتيات وهي حالة اختلال اجتماعي فكيف يواجهها المشرّع؟ لقد حلّ الإسلام المشكلة بتشريعه الإسلامي الرائع، بينما وقفت المسيحية حائرةً مكتوفة الأيدي لا تُبدي ولا تُعيد. . إن الرجل الأوربي لا يبيح له دينه التعدد، لكنه يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات بطريق الرذيلة، يرى الوالد

(١) «البحر المحيط» ٣/ ١٥٣.

(٢) (ش): في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾.

(٣) (ش): شذَّب الشّجرةَ: هذَّبها، قطع ما تفرّق من عيدانها.

منهم فتاته مع عشيقها فيُسرّ ويغتبط بل ويمهد لهما جميع السبل المؤدية لراحتهما حتى أصبح ذلك عرفًا ساريًا اضطرت معه الدول إلى الاعتراف بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين ففتحت باب التدهور الخلقي على مصراعيه، ووافقت على قبول مبدأ «تعدد الزوجات» ولكن تحت ستار المخادنة وهو زواج حقيقي لكنه غير مسجل بعقد[1]، ويستطيع الرجل أن يطردها متى شاء دون أن يتقيد حيالها بأي حق من الحقوق، والعلاقة بينهما علاقة جسد لا علاقة أسرة وزوجية، فاعجَبُ من منع «تعدد الزوجات» بالحلال وإباحته بالحرام حتى نزلوا بالمرأة من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية.

رَبِّ إِنَّ الْـهُـدَى هُـدَاكَ وَآيَـا تُـكَ حَـقٌّ تَـهْـدِي بِـهَـا مَـنْ تَـشَاءُ

قال الله تعالى:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

المناسَبَة: لما أوصى تعالى في الآيات السابقة بالأيتام وذكر ضمنها حق الأقارب بالإجمال، أعقبه بذكر أحكام المواريث بالتفصيل ليكون ذلك توضيحًا لما سبق من الإجمال فذكر نصيب الأولاد بنين وبنات، ثم ذكر نصيب الآباء والأمهات، ثم نصيب الأزواج والزوجات، ثم نصيب الإخوة والأخوات.

---

(١) (ش): كيف يكون زواجًا حقيقيًّا وهو بدون عقد، ولعل المؤلف يقصد أن الرجل في الغرب يعيش مع المرأة في الحرام كما يعيش الرجل المسلم مع زوجته في الحلال، فكيف ينكرون التعدد وهو موجود بينهم؟! ومما يدل على ذلك قول المؤلف بعد ذلك: «فأعجب من منع «تعدد الزوجات» بالحلال وإباحته بالحرام».

اللغَة: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ الوصية: العهد بالشيء والأمر به، ولفظ الإيصاء أبلغ وأدل على الاهتمام من لفظ الأمر لأنه طلب الحرص على الشيء والتمسك به ﴿فَرِيضَةً﴾ أي حقًّا فرضه الله وأوجبه ﴿كَلَٰلَةً﴾ أن يموت الرجل ولا ولد له ولا والد أي لا أصل له ولا فرع لأنها مشتقة من الكَلّ بمعنى الضعف يقال: كَلَّ الرجل إذا ضَعُف وذهبَتْ قُوَّتُه ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها.

سَبَبُ النّزول: روي أن امرأة «سعد بن الربيع» جاءت رسول الله ﷺ بابنتيها فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما سعد معك بأُحد شهيدًا، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالًا، ولا تُنكحان إلا بمال فقال ﷺ: «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية المواريث ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ الآية فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما أن أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك[1].

التفسير: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ أي يأمركم الله ويعهد إليكم بالعدل في شأن ميراث أولادكم ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ أي للابن من الميراث مثل نصيب البنتين ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أي إن كان الوارث إناثًا فقط اثنتين فأكثر ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي فللبنتين فأكثر ثُلُثا التَّركة ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصۡفُ﴾ أي وإن كانت الوارثة بنتًا واحدة فلها نصف التركة. . بدأ تعالى بذكر ميراث الأولاد ثم ذكر ميراث الأبوين، لأن الفرع مقدم في الإرث على الأصل فقال تعالى ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي من تركة الميت ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ أي إن وجد للميت ابن أو بنت لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ أي فإن لم يوجد للميت أولاد وكان الوارث أبواه فقط أو معهما أحد الزوجين ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي فللأم ثلث المال أو ثلث الباقي بعد فرض أحد الزوجين والباقي للأب ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ أي فإن وجد مع الأبوين إخوة للميت «اثنان فأكثر» فالأم ترث حينئذٍ السدس فقط والباقي للأب،

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(ش): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ خَرَجْنَا: مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى جِئْنَا امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ فِى الأَسْوَاقِ فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ بِابْنَتَيْنِ لَهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ هَاتَانِ بِنْتَا ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَدِ اسْتَفَاءَ عَمُّهُمَا مَالَهُمَا وَمِيرَاثَهُمَا كُلَّهُ فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً إِلاَّ أَخَذَهُ فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ فَوَاللهِ لاَ تُنْكَحَانِ أَبَدًا إِلاَّ وَلَهُمَا مَالٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقْضِى اللهُ فِى ذَلِكَ». قَالَ وَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلاَدِكُمْ﴾ الآيَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «ادْعُوا لِيَ الْمَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا». فَقَالَ لِعَمِّهِمَا «أَعْطِهِمَا الثُّلُثَيْنِ وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ وَمَا بَقِىَ فَلَكَ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ أَخْطَأَ بِشْرٌ فِيهِ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ وَثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ قُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ.

وحسنه الألباني. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ عَادَنِى النَّبِىُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِى بَنِى سَلَمَةَ يَمْشِيَانِ فَوَجَدَنِى لاَ أَعْقِلُ فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَشَّ عَلَىَّ مِنْهُ فَأَفَقْتُ فَقُلْتُ كَيْفَ أَصْنَعُ فِى مَالِى يَا رَسُولَ اللهِ فَنَزَلَتْ ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إِلى المال أكثر ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ أي إِن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه فلا تقسم التركة إِلا بعد ذلك ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي إِنه تعالى تولّى قسمة المواريث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة، فقسم حيث توجد المصلحة وتتوفر المنفعة ولو ترك الأمر إِلى البشر لم يعلموا أيهم أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة ولهذا أتبعه بقوله ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي إِنه تعالى عليم بما يصلح لخلقه حكيم فيما شرع وفرض.. ثم ذكر تعالى ميراث الزوج والزوجة فقال ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ﴾ أي ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إِن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ﴾ أي من ميراثهن، وألحق بالولد في ذلك ولد الإبن بالإِجماع ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾ أي من بعد الوصية وقضاء الدين ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ﴾ أي ولزوجاتكم واحدة فأكثر الربع مما تركتم من الميراث إِن لم يكن لكم ولد منهن أو من غيرهن ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ﴾ أي فإِن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾ وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنهما ما لا يخفي ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ أي وإن كان الميت يورث كلالة أي لا والد له ولا ولد وورثة أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع ﴿أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ عطف على رجل والمعنى أو امرأةٌ تورث كلالة ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ أي وللمورّث أخ أو أخت من أم ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ﴾ أي فللأخ من الأم السدس وللأخت السدس أيضًا ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ أي فإِن كان الإِخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإِنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإِناثهم في الميراث سواء، قال في «البحر»: وأجمعوا على أن المراد في هذه الآية الإِخوة للأم ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ أي بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإِضرار بالورثة أي في حدود الوصية بالثلث لقوله عليه السلام: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»(١) ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي أوصاكم الله بذلك وصية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ أي عالم بما شرع حليم لا يُعاجِلُ العقوبة لمن خالف أمره ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ أي تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التي حَدَّها لعباده ليعملوا بها ولا يَعْتَدُوها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي من يطع أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بَيَّنَ، يدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي الفلاح العظيم ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ أي ومن يعص أمر الله وأمر الرسول يتجاوز ما حَدَّهُ تعالى له من الطاعات ﴿يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أي يجعله مخلدًا في نار جهنم لا يخرج منها أبدًا ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي وله عذاب شديد مع الإِهانة والإِذلال والعذاب والنكال.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات من أصناف البديع ما يلي:

١ - الطباق في لفظ ﴿ٱلذَّكَرِ﴾ و﴿ٱلۡأُنثَىٰ﴾ وفي ﴿وَمَن يُطِعِ﴾ و﴿وَمَن يَعۡصِ﴾ وفي ﴿ءَابَآؤُكُمۡ﴾ و ﴿وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ .

٢ - الإِطناب في ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ و﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ والفائدة التأكيد على تنفيذ ما ذكر.

٣ - جناس الاشتقاق في ﴿وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ﴾ .

٤ - المبالغة في ﴿عَلِيمٌ ، حَلِيمٌ﴾ .

فَائِدَة: استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ أنه تعالى أرحم من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم ويؤيده ما ورد « **اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا** »[(١)].

تنبيه: وجه الحكمة في تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إِلى مؤنة النفقة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق، فنفقاته أكثر والتزاماته أضخم فهو إِلى المال أحوج[(٢)].

قال الله تعالى:

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) (ش): عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ». قُلْنَا لاَ وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) انظر الحكمة التشريعية في «كتابنا المواريث في الشريعة الإسلامية» ص ١٨.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾

المناسَبَة: لما بيّن سبحانه وتعالى حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث، بيّن حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام، ثم أعقبه بالتحذير عن عادات الجاهلية من ظلم النساء، وأكل مهورهن، وعدم معاملتهن المعاملة الإنسانية الشريفة.

اللغَة: ﴿وَٱلَّٰتِي﴾ جمع التي على غير قياس ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة والمراد بها هنا الزنا ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ تثنية الذي ﴿ٱلتَّوۡبَةُ﴾ أصل التوبة الرجوع وحقيقتها الندم على فعل القبيح[1] ﴿كَرۡهٗا﴾ بفتح الكاف بمعنى الإكراه وبضمها بمعنى المشقة ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾ [الأحقاف: ١٥] ﴿تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ تمنعوهن يقال عضل المرأة إذا منعها الزواج ﴿بُهۡتَٰنٗا﴾ ظلمًا وأصله الكذب الذي يتحير منه صاحبه ﴿أَفۡضَىٰ﴾ وصل إليها، وأصله من الفضاء وهو السعة ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ عهدًا شديدًا مؤكدًا وهو عقد النكاح.

سَبَبُ النّزول: روي أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات الرجل جاء ابنه من غيرها أو وليه فورث امرأته كما يرث ماله وألقى عليها ثوبًا، فإن شاء تزوجها بالصَّداق الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا..﴾[2].

التفسير: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ أي اللواتي يزنين من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنا أربعة رجال من المسلمين الأحرار ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ أي فإن ثبتت بالشهود جريمتهن فاحبسوهن في البيوت ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي احبسوهنَّ فيها إلى الموت ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ أي يجعل الله لهنَّ مخلصًا بما يشرعه من الأحكام قال ابن كثير: كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبيِّنة العادلة حُبست في بيت فلا تُمكَّن من الخروج منه إلى أن تموت،

---

(١) (ش): قَالَ العلماءُ: التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كَانَتِ المَعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لَا تَتَعلَّقُ بحقّ آدَمِيٍّ، فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط: أَحَدُها: أنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ. والثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا. والثَّالثُ: أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا. فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ. وإِنْ كَانَتِ المَعْصِيَةُ تَتَعلَّقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أرْبَعَةٌ: هذِهِ الثَّلاثَةُ، وأنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِها، فَإِنْ كَانَتْ مالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْه، وإِنْ كَانَت حَدَّ قَذْفٍ ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانْت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا.

(٢) «زاد المسير» ٢/ ٣٩.

(ش): رواه البخاري

حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم[(١)] ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ أي واللذان يفعلان الفاحشة والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أي بالتوبيخ والتقريع والضرب بالنعال ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ﴾ أي فإن تابا عن الفاحشة وأصلحا سيرتهما فكفّوا عن الإيذاء لهما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ أي مبالغًا في قبول التوبة واسع الرحمة. قال الفخر الرازي: «خص الحبس في البيت بالمرأة وخص الإيذاء بالرجل لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة»[(٢)] ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٖ﴾ أي إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهًا وجهالة مقدّرًا قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وأناب ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ أي يتوبون سريعًا قبل مفاجأة الموت ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي يتقبل الله توبتهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي عليمًا بخلقه حكيمًا في شرعه ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٔـٰنَ﴾ أي وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة وفي الحديث «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[(٣)] ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي يموتون على الكفر فلا يُقبل إيمانهم عند الاحتضار ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي هيأنا وأعددنا لهم عذابًا مؤلمًا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ أي لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهًا عنهن قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقَّ بامرأته إن شاءوا تزوجها أحدهم، وإن شاءوا زوجوها غيرهم، وإن شاءوا منعوها الزواج[(٤)] ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٦٦.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٩/ ٢٣٥.

(٣) (ش): رواه الترمذي، وحسّنه الألباني. والْغَرْغَرَة هي وصول الروح الحلقوم، وهذا هو الوقت الذي قد يعاين فيه بعض الناس الملائكة. وقد دلت الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة فإن توبته مقبولة، وأما متى وقع الإياس من الحياة وعاين الملك وحشرجت الروح في الحلق وضاق بها الصدر فلا توبة مقبولة حينئذ. ويشرع دعوة الكافر عند احتضاره إلى الإسلام، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ قد عرض الإسلام على عمه أَبِي طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْه الْوَفَاةُ فجَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وقَالَ له: «يَا عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ». فأَبَى أَنْ يَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وكذلك عرض ﷺ الإسلام على الغلام اليهودي الذي كان يخدمه فأسلم. رواه البخاري. والتوفيق بين الآيات والحديث هو أن الغلام لم يبلغ درجة الغرغرة، والله تعالى يقبل توبة كل من المسلم والكافر إذا تاب توبة صادقة قبل الغرغرة.

(٤) «القرطبي» ٥/ ٩٤.

﴿بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أي ولا يحل لكم أن تمنعوهن من الزواج أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموه لهن من الصَّداق ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ أي إلا في حال إتيانهن بفاحشة الزنا وقال ابن عباس: الفاحشة المبينة النشوز والعصيان ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإحسان ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أي فإن كرهتم صحبتهن فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن فعسى أن يرزقكم الله منهن ولدًا صالحًا تَقَرُّ به أعينكم، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير وفي الحديث الصحيح «**لاَ يَفْرَكْ**» أي «لا يُبْغِض» **مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ** »[1]. ثم حذّر تعالى من أخذ شيء من المهر بعد الطلاق فقال ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ أي وإن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ أي والحال أنكم كنتم قد دفعتم مهرًا كبيرًا يبلغ قنطارًا ﴿فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ أي فلا تأخذوا ولو قليلًا من ذلك المهر ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ استفهام إنكاري أي أتأخذونه باطلًا وظلمًا؟ ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي كيف يباح لكم أخذه وقد استمتعتم بهن بالمعاشرة الزوجية؟ ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ أي أخذن منكم عهدًا وثيقًا مؤكدًا هو «عقد النكاح» قال مجاهد: الميثاق الغليظ عقدة النكاح وفي الحديث « **اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ** »[2].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات أنواعًا من البيان والبديع وهي بإيجاز كما يلي:

١ - المجاز العقلي في قوله ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ والمراد يتوفاهنَّ الله أو ملائكته.

٢ - الاستعارة ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ استعار لفظ الميثاق للعقد الشرعي.

٣ - الجناس المغاير في ﴿فَإِن تَابَا ... تَوَّابٗا﴾ وفي ﴿كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ... أَن تَكۡرَهُواْ﴾.

٤ - المبالغة في تفخيم الأمر وتأكيده ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾ لتعظيم الأمر والمبالغة فيه.

فَائِدَة: كنّى الله تعالى عن الجماع بلفظ الإفضاء ﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ لتعليم المؤمنين الأدب الرفيع قال ابن عباس: «الإفضاء في هذه الآية الجماعُ ولكنَّ الله كريم يكني»[3].

---

(١) (ش): رواه مسلم

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) «القرطبي» ٥/ ١٠٢.

تنبيه: خطب عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه فقال: أيها الناس لا تغالوا في مهور النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدَق امرأة من نسائه ولا أحدًا من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية، فقامت إليه امرأة فقالت: يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا؟ يقول تعالى ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ فقال رَضِيَ اللهُ عَنْه: أصابت امرأة وأخطأ عمر»[1].

قال الله تعالى:

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ
وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ
نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟
دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن
تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ
مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم
مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا
تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ
ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ
بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ
وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ
ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ
لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن
يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ
وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن
تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا
تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

المناسَبَة: لما أوصى تعالى بحسن معاشرة الأزواج، وحذّر من إيذائهن أو أكل مهورهن، عقّبه بذكر المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز الزواج بهن بسبب القرابة أو المصاهرة أو الرضاع.

---

(١) «الكشاف» ١/ ٣٧٩. (ش): هذه القصة باطلة. وقد ضعّفها الألباني وغيره.

اللغَة: ﴿سَلَفَ﴾ مضى ﴿وَمَقْتًا﴾ المقت: البغض الشديد لمن تعاطى القبيح وكان العرب يسمون زواج الرجل امرأة أبيه «نكاح المقت» ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ جمع ربيبة وهي بنت المرأة من آخر سميت به لأنها تتربّى في حجر الزوج ﴿حُجُورِكُم﴾ جمع حَجْر[1] أي في تربيتكم يقال: فلان في حجر فلان إذا كان في تربيته قال أبو عبيدة: في حجوركم أي في بيوتكم ﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾ جمع حليلة بمعنى الزوجة سميت بذلك لأنها تحل لزوجها ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ متعففين عن الزنى ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾ السفاح: الزنى وأصله في اللغة من السفح وهو الصبّ وسمي سفاحًا لأنه لا غرض للزاني إلا سفح النطفة وقضاء الشهوة ﴿طَوْلًا﴾ سعةً وغنى ﴿أَخْدَانٍ﴾ جمع خِدْنَ وهو الصديق للمرأة يزني بها سرًّا ﴿ٱلْعَنَتَ﴾ الفجور وأصله الضرر والفساد ﴿سُنَنَ﴾ جمع سنة وهي الطريقة ﴿نُصْلِيهِ﴾ ندخله.

سَبَبُ النّزول: أ – لما توفي «أبو قيس بن الأسلت» وكان من صالحي الأنصار، خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني أعدّك ولدًا! ولكني آتي رسول الله ﷺ أستأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ... .﴾[2] الآية.

ب – عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي ﷺ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ...﴾ الآية قال: فاستحللناهن[3].

التفسير: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء لكن ما سبق فقد عفا الله عنه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ أي فإن

---

(١) (ش): حَجْر/ حِجْر – بالفتح والكسر مع سكون الجيم– هو ما يحويه مجتمَع الرِّجْلَيْن للجالس المتربِّع. والمراد به هنا الحضانة والكفالة والعطف.

(٢) «القرطبي» ٥/ ١٠٤.

(ش): ضعيف جدًا بهذا السياق، رواه الطبراني وغيره. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ قَالَ كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا ، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا ، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا ، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِى ذَلِكَ . رواه البخاري. وعن سهل بن حنيف –رضي الله عنه–؛ قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت؛ أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان ذلك لهم في الجاهلية؛ فأنزل الله: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾. صحيح، أخرجه النسائي في «التفسير»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، و«الطبري» في «جامع البيان».

(٣) «أسباب النزول» ص ٨٥.

(ش): عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ –ﷺ– يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أَوْطَاسٍ فَلَقُوا عَدُوًّا فَقَاتَلُوهُمْ فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا فَكَأَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ –ﷺ– تَحَرَّجُوا مِنْ غِشْيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِى ذَلِكَ (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) أَىْ فَهُنَّ لَكُمْ حَلاَلٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ. (رواه مسلم).

نكاحهن أمر قبيح قد تناهى في القبح والشناعة، وبلغ الذروة العليا في الفظاعة والبشاعة، إذ كيف يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه وأن يعلوها بعد وفاته وهي مثل أمه ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي بئس ذلك النكاح القبيح الخبيث طريقًا، ثم بيّن تعالى المحرمات من النساء فقال ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ أي حُرّم عليكم نكاح الأمهات وشمل اللفظ الجدات من قبل الأب أو الأم ﴿وَبَنَاتُكُمۡ﴾ وشمل بنات الأولاد وإن نزلْنَ ﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ﴾ أي شقيقة كانت أو لأب أو لأم ﴿وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾ أي أخوات آبائكم وأجدادكم ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾ أي بنت الأخ وبنت الأخت ويدخل فيهن أولادهن، وهؤلاء المحرمات بالنسب وهنَّ كما تقدم «الأمهات، البنات، الأخوات، العمات، الخالات، بنات الأخ، بنات الأخت» ثم شرع تعالى في ذكر المحرمات من الرضاع فقال ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ نزّل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمّى المرضعة أما للرضيع أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، وكذلك أختك من الرضاع، ولم تذكر الآية من المحرمات بالرضاع سوى «الأمهات والأخوات» وقد وضحت السنة النبوية أن المحرمات بالرضاع سبع كما هو الحال في النسب لقوله عليه السلام: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»(١). ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة فقال ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ أي وكذلك يحرم نكاح أم الزوجة سواء دخل بالزوجة أو لم يدخل لأن مجرد العقد على البنت يحرم الأم ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ أي بنات أزواجكم اللاتي ربيتموهن، وذِكرُ الحجر ليس للقيد وإنما هو للغالب لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتُها وهذا بالإجماع(٢) ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ الدخول هنا كناية عن الجماع أي من نسائكم اللاتي أدخلتموهن الستر قاله ابن عباس فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمهاتهن وفارقتموهن فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ أي وحُرم عليكم نكاح زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم بخلاف مَن تَبَنَّيْتُمُوهم فلكُّم نكاح حلائلهم ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ أي وحُرّم عليكم الجمع بين الأختين معًا في النكاح إلا ما كان منكم في الجاهلية فقد عفا الله عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي غفورًا لما سلف رحيمًا بالعباد ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): هذا مذهب جمهور السلف والخلف، ومذهب الأئمة الأربعة. قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٥١): وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ فَجُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ عَلَى أَنَّ الرَّبِيبَةَ حَرَامٌ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي حِجْرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حِجْرِهِ، قَالُوا: وَهَذَا الْخِطَابُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ»

أي وحرّم عليكم نكاح المتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسَّبْي فيحل لكم وطؤُهنَّ بعد الاستبراء ولو كان لهنَّ أزواج في دار الحرب لأن بالسبْي تنقطع عصمة الكافر ﴿وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الكوافر﴾ [الممتحنة: ١٠].[١] ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي هذا فرض الله عليكم ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي أُحل لكم نكاح ما سواهنّ ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي إرادة أن تطلبوا النساء بطريق شرعي فتدفعوا لهن المهور حال كونكم متزوجين غير زانين ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ أي فما تلذذتم به من النساء بالنكاح فآتوهنَّ مهورهن فريضةً فرضها الله عليكم بقوله: ﴿وَآتُواْ النسآء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] ثم قال تعالى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِ﴾ أي لا إثم عليكم فيما أسقطن من المهر برضاهن كقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤] قال ابن كثير: أي إذا فرضت لها صداقًا فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي عليمًا بمصالح العباد حكيمًا فيما شرع لهم من الأحكام ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي من لم يكن منكم ذا سعة وقدرة أن يتزوج الحرائر والمؤمنات ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي فله أن ينكح من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ جملة معترضة لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر والله يتولى السرائر ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ أي إنكم جميعًا بنو آدم ومن نفسٍ واحدة فلا تستنكفوا من نكاحهن فَرُبَّ أَمَةٍ خَيْرٌ مِنْ حُرَّةٍ، وفيه تأنيسٌ لهم بنكاح الإماء فالعبرة بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ أي تزوّجوهن بأمر أسيادِهن وموافقة مَوَالِيهِن ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي ادفعوا لهن مهورهن عن طيب نفسٍ ولا تبخسوهن منه شيئًا استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ أي عفيفات غير مجاهرات بالزنى ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ أي ولا متسترات بالزنى مع أخدانهن قال ابن عباس: الخِدنُ هو الصديق للمرأة يزني بها سرًّا فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن[٢] ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي فإذا أُحصنَّ بالزواج ثم زنين فعليهن نصف ما على الحرائر[٣] من عقوبة الزنى ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء لمن

---

(١) (ش): الاستدلال على جواز نكاح المسلم المسْبِيَّة المُزَوَّجة من كافر بقوله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، استدلال غير صحيح لأن الآية تمنع تزَوُّج المسلم من كافرة. وإنما الدليل قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ كما تقدم في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ الذي رواه مسلم.

(٢) «البحر المحيط» ٣/ ٢٢٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه عن أنس مرفوعًا.

خاف على نفسه الوقوع في الزنى ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي صبركم وتعففكم عن نكاحهن أفضل لئلا يصير الولد رقيقًا في الحديث «**من أراد أن يلقى الله طاهرًا مطهرًا فلينكح الحرائر**»[(١)] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي يريد الله أن يفصّل لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي يرشدكم إلى طرائق الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يقبل توبتكم فيما اقترفتموه من الإثم والمحارم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بأحوال العباد حكيم في تشريعه لهم ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كرّره ليؤكد سعة رحمته تعالى على العباد أي يحب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام، ويريد توبة العبد ليتوب عليه ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي ويريد الفَجَرة أتباعُ الشيطانِ أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتكونوا فسقة فجرة مثلهم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي يريد تعالى بما يسَّر أن يسهّل عليكم أحكام الشرع ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي عاجزًا عن مخالفة هواه لا يصبر عن إتباع الشهوات، ثم حذر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله[(٢)] لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل وهو كل طريق لم تُبِحْهُ الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ أي إلا ما كان بطريق شرعي شريف كالتجارة التي أحلها الله قال ابن كثير: الاستثناء منقطع أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراضٍ من البائع والمشتري فافعلوها[(٣)] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي لا يسفك بعضكم دم بعض، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار وذلك من رحمته تعالى بكم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ أي ومن يرتكب ما نهى الله عنه معتديًا ظالمًا لا سهوًا ولا خطأً ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي ندخله نارًا عظيمة يحترق فيها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي هينًا يسيرًا لا عسر فيه لأنه تعالى لا يُعْجِزُه شيء ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي إن تتركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله عَزَّ وَجَلَّ عنها نَمْحُ عنكم صغائر الذنوب بفضْلنا ورحمتنا ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي نُدخلكم الجنة دار الكرامة والنعيم، التي فيها ما لا عينٌ

---

(١) (ش): رواه ابن ماجه بلفظ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى الله طَاهِرا مطهرًا فليتزوج الْحَرَائِر» وضعفه الألباني.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بأنه التصديق، مخالف لتعريفه عند جمهور أهل السنة، وموافق لقول المرجئة. فالإيمان عند أهل السنة: اعتقاد بالقلب – وتصديق القلب يدخل فيه أعمال القلب– ،وقول باللسان وعمل بالجوارح. يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٨٧.

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

البَلاَغَة: تضمنت الآيات أنواعًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز المرسل في ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ أي حرّم عليكم نكاح الأمهات فهو على حذف مضاف.

٢ - الطباق في ﴿حُرِّمَتْ ... وَأُحِلَّ﴾ وفي ﴿مُّحْصِنِينَ ... مُسَٰفِحِينَ﴾ وفي ﴿كَبَآئِرَ ... سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ لأن المراد بالسيئات الصغائر من الذنوب.

٣ - الكناية في ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ فهو كناية عن الجماع كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب.

٤ - الاستعارة في ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ استعار لفظ الأجور للمهور، لأن المهر يشبه الأجر في الصورة.

٥ - الجناس المغاير في ﴿تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ﴾ وفي ﴿أَرْضَعْنَكُمْ ... مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ وفي ﴿مُحْصَنَٰتٍ ... فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ والإطناب في مواضع، والحذف في مواضع.

الفوَائِد: الأولى: استنباط العلماء في آية المحرمات القاعدة الآتية وهي «العقد على البنات يحرّم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرّم البنات».

الثانية: حمل بعض الروافض والشيعة قوله تعالى ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ على نكاح المتعة وهو خطأ فاحش لأن الغرض من الاستمتاع هنا التمتع بالأزواج عن طريق الجماع لا نكاح المتعة فقد ثبت حرمة نكاح المتعة بالسنة والإجماع ولا عبرة بما خالف ذلك[1].

الثالثة: قال ابن عباس: الكبيرة كل ذنبٍ ختمه الله بنار، أو غضبٍ، أو لعنةٍ، أو عذاب.

الرابعة: روى سعيد بن جبير أن رجلًا قال لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع، ولكن لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار، ذكره «القرطبي».

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ

---

(١) انظر تفصيل البحث وأدلة التحريم للمتعة في كتابنا «روائع البيان» ١/ ٤٥٧ ففيه بحث هام.

(ش): بل قد ورد في كتب الشيعة ما يدل على تحريم الزنا الذي يسمونه زواج المتعة.

ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ
أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ
شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ
وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا
﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا
وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ
شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ
حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ
مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى المحرمات من النساء وذكر قبلها تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث، جاءت الآيات تنهى عن تمني ما خصّ الله به كلًّا من الجنسين لأنه سبب للحسد والبغضاء، ثم ذكر تعالى حقوق كل من الزوجين على الآخر، وأرشد إلى الخطوات التي ينبغي التدرج بها في حالة النشوز والعصيان.

اللغَة: ﴿مَوَٰلِيَ﴾ المَوْلى: الذي يتولى غيره يقال للعبد: مَوْلى: وللسيد مَوْلى: لأن كلًّا منهما يتولى الآخر والمراد به هنا الورثة والعصبة ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ قوّام: مبالغة من القيام على الأمر بمعنى حفظه ورعايته، أي يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعات، وأصل القنوت دوام الطاعة ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن وترفعهن وأصله المكان المرتفع، ومنه تلٌّ ناشز ويقال: نشزت المرأة إذا ترفعت على زوجها وعَصَتْه ﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾ جمع مضجع وهو المرقد ﴿شِقَاقَ﴾ الشقاق: الخلاف والعداوة مأخوذ من الشق بمعنى الجانب لأن كلًّا من المُتَشَاقّين يكون في شق غير شق صاحبه أي في ناحية ﴿بِٱلْجَنۢبِ﴾ البعيد الذي ليس له قرابة تربطه بجاره، وأصل الجنابة: البعد ﴿مُخْتَالًا﴾ المختال: ذو الخيلاء والكبر ﴿مِثْقَالَ﴾ وزن ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾ الحدث وأصله المطمئن(١) من الأرض وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا منخفضًا من الأرض فكني عن الحدث بالغائط.

سَبَبُ النّزول: أ - عن مجاهد قال: قالت «أم سلمة» يا رسول الله: يغزو الرجال ولا نغزو

---
(١) (ش): المُطْمَئِنّ من الأرض: السَّهل المنخفض.

وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ [١]﴾ الآية[٢].

ب - روي أن سعد بن الربيع - وكان نقيبًا من نقباء الأنصار - نشزت عليه امرأته «حبيبة بنت زيد» فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها فقال النبي ﷺ لتقتصَّ منه فنزلت ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فقال ﷺ: «أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا والذي أراد الله خير»[٣].

التفسير: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خصّ الله تعالى به غيركم من أمر الدنيا أو الدين ذلك يؤدي إلى التحاسد والتباغض قال الزمخشري: نُهوا عن الحسد وعن تمني ما فضل الله بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ أي لكل من الفريقين في الميراث نصيبٌ معين المقدار قال «الطبري»: كلٌّ له جزاء على عمله بحسبه إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر[٤] ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي وسَلُوا الله من فضله يُعْطِكم فإنه كريم وهاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي ولذلك جعل الناس طبقات ورفع بعضهم درجات ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي ولكل إنسانٍ جعلنا عصبةً يرثون ماله ممّا تركه الوالدان والأقارب من الميراث ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي والذين حالفتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث فأعطوهم حظهم من الميراث، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ قال الحسن: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسبٌ فيرث أحدُهما الآخر فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] وقال ابن عباس: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ نسخت[٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أي مطلعًا على كل شيء وسيجازيكم عليه. ثم بيّن تعالى أن الرجال يتولون أمر النساء في المسئولية والتوجيه فقال ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي قائمون عليهن بالأمر والنهي، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير، وخصهم

(١) «أسباب النزول» ص ٨٥.
(٢) (ش): صحيح، أخرجه أحمد، والترمذي، و«الطبري» في «جامع البيان».
(٣) «الكشاف» ١/ ٢٩٠. (ش): ضعيف، أخرجه ابن مردويه.
(٤) «الطبري» ٨/ ٢٦٧.
(٥) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٨٤.

به من الكسب والإِنفاق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإِنفاق والتأديب قال أبوالسعود: «والتفضيلُ للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإِمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك»[1] ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل، وقد ذكر تعالى أنهن قسمان: قسم صالحات مطيعات، وقسم عاصيات متمردات، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن، قائمات بما عليهن من حقوق، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويجمل ستره وفي الحديث «**إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا**»[2] ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ هذا القسم الثاني وهنَّ النساء العاصيات المتمردات أي واللاتي يتكَبَّرْنَ ويتَعَالَيْنَ عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سبل الإِصلاح ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ أي فخوفوهنَّ الله بطريق النصح والإِرشاد، فإِن لم ينجح الوعظ والتذكير فاهجروهنَّ في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن قال ابن عباس: الهجر ألا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره[3]، فإِن لم يرتَدِعْن فاضربوهن ضربًا غير مبرّح ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي فإِن أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقًا لإِيذائهن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ أي فإِن الله تعالى أعلى منكم وأكبر وهو وَلِيُّهُنَّ ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. . انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا وانظر إِلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضربًا غير مبرح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين! ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ أي وإِن خشيتم أيها الحكام مخالفةً وعداوة بين الزوجين فوجِّهوا حكَمًا عدْلًا من أهل الزوج وحكَمًا عدْلًا من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ أي إِن قصدا إِصلاح ذاتِ البَيْنِ وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهما وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرحمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ أي عليمًا بأحوال العباد حكيمًا في تشريعه لهم ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ أي وحدوه وعظموه ولا تشركوا به شيئًا من الأشياء صنمًا أو غيره، واستوصوا بالوالدين برًّا وإِنعامًا وإِحسانًا وإِكرامًا

(١) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٣٣٩٩.
(٢) (ش): رواه مسلم.
(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٨٦.

﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أي وأحسنوا إِلى الأقارب عامة وإِلى اليتامى والمساكين خاصة ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي الجار القريب فله عليك حق الجوار وحق القرابة ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ أي الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ قال ابن عباس: هو الرفيق في السفر، وقال الزمخشري: «هو الذي صحبك إِما رفيقًا في سفر، أو جارًا ملاصقًا، أو شريكًا في تعلم علم، أو قاعدًا إِلى جنبك في مجلس أو غير ذلك، من له أدنى صحبةٍ التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وقيل: هي المرأة»[1] ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ أي المماليك من العبيد والإماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ أي متكبرًا في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخورًا على الناس مترفعًا عليهم يرى أنه خير منهم، وهذه آية جامعة جاءت حثًا على الإِحسان واستطرادًا لمكارم الأخلاق، ومن تدبرها حق التدبر أغنتْه عن كثير من مواعظ البلغاء، ونصائح الحكماء، ثم بين تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ أي يمنعون ما أوجب الله عليهم من الإِنفاق في سبيل الله ويأمرون غيرهم بترك الإِنفاق، والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار: لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات، وهي مع ذلك عامة ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي يخفون ما عندهم من المال والغنى، ويخفُون نعته عليه السلام الموجود في التوراة[2] ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي هيأنا للجاحدين نعمة الله عذابًا أليمًا مع الخزي والإِذلال لهم ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ينفقونها للفخار والشهرة لا ابتغاء وجه الله ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي ولا يؤمنون الإِيمان الصحيح بالله واليوم الآخر، والآية في المنافقين ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ أي من كان الشيطان صاحبًا له وخليلًا يعمل بأمره فساء هذا القرين والصاحب ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الإِستفهام للإِنكار والتوبيخ أي ماذا يضيرهم وأي تبعةٍ ووبالٍ عليهم في الإِيمان بالله والإِنفاق في سبيله؟ قال الزمخشري: وهذا كما يقال للمنتقم: ما ضرك لو عفوت؟ وللعاقّ: ما كان يرزؤك لو كنت بارًا؟ وهو ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة[3] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم بالعقاب أي سيجازيهم بما عملوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ أي لا يبخس أحدًا من عمله شيئًا ولو كان وزن ذرة وهي الهَبَاءة[4]

---

(١) «الكشاف» ١/ ٣٩٣ وهذا الرأي اختيار «الطبري» أيضًا.

(٢) هذا ما رجحه «الطبري» و«أبو السعود».

(٣) «الكشاف» ١/ ٣٩٥.

(٤) (ش): الهَبَاءة: جزء من الهَباء: غبار، تراب تطيِّره الرِّيحُ ويلزق بالأشياء، أو ينبثُّ في الهواء فلا يبدو إلّا في ضوء الشَّمس.

وذلك على سبيل التمثيل تنبيهًا بالقليل على الكثير ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾ أي وإن كانت تلك الذرة حسنة يُنَمِّها ويجعلْها أضعافًا كثيرة ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ أي ويُعطِ مِن عندهِ تفضُّلًا وزيادة على ثواب العمل أجرًا عظيمًا وهو الجنة ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ أي كيف يكون حال الكفار والفجار حين نأتي من كل أمةٍ بنبيها يشهد عليها، ونأتي بك يا محمد على العصاة والمكذبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان؟ كيف يكون موقفهم؟ وكيف يكون حالهم؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وحدانية الله وعصوا رسوله ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي لو يدفنون في الأرض ثم تُسوّى بهم كما تُسوَّى بالموتى، أو لو تنشق الأرض فتبتلعهم ويكونون ترابًا كقوله ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠] وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ أي لا يستطيعون أن يكتموا الله حديثًا لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه[١]. . ثم أمر تعالى باجتناب الصلاة في حال السكر والجنابة فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ أي لا تصلوا في حالة السكر لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته سبحانه وتعالى، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر روى الترمذي عن علي كرم الله وجهه[٢] أنه قال « **صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَقَدَّمُونِى فَقَرَأْتُ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﻻ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾[٣] الآية ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾ أي ولا تقربوها وأنتم جنب أي غير طاهرين بإنزالٍ أو إيلاج إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحالة بالتيمم ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ أي وإن كنتم مرضى

(١) هذا التفسير على أن الجملة مستأنفة وهو الظاهر وقيل: إن الجملة معطوفة على السابق أي يودون أن يدفنوا تحت الأرض وأنهم لم يكتموا ولم يكذبوا في قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ لأنهم إذا كتموا افتضحوا فلشدة الأمر يتمنون أن تسوى بهم الأرض، انظر «الكشاف» ١/ ٣٩٦.

(ش): الجملة الاستئنافية: هي التي يُبتَدَأُ بها معنًى جديدٌ بعد كلام سابق، كالجملة الثانية والثالثة في قولنا: «أحزنَتْكَ وشايةُ فلان، لا تلتفِتْ إليها، إني لم أُصَدِّقْها».

(٢) (ش): سُئِلَ الشيخ ابن باز - رحمه الله - عن تخصيص علي رضي الله عنه بلفظ (عليه السلام) فقال: «لا ينبغي تخصيص علي - رضي الله عنه - بهذا اللفظ بل المشروع أن يقال في حقه وحق غيره من الصحابة (رضي الله عنه) أو (رحمه الله) لعدم الدليل على تخصيصه بذلك، وهكذا قول بعضهم: «كرم الله وجهه» فإن ذلك لا دليل عليه ولا وجه لتخصيصه بذلك، والأفضل أن يعامل كغيره من الخلفاء الراشدين ولا يخص بشيء دونهم من الألفاظ التي لا دليل عليها». (مجموع الفتاوى ٦/ ٥٠١)

(٣) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. (ش): صححه الألباني.

ويضركم الماء، أو مسافرين وأنتم مُحْدِثُون أو أحدثتم ببولٍ أو غائطٍ ونحوهما حدثًا أصغر ولم تجدوا الماء ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قال ابن عباس: هو الجماع ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ أي فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي يرخّص ويسهّل على عباده لئلا يفعلوا في الحرج.

البَلاَغَة: تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبيان والبديع ما يلي:

١ - الإطناب في قوله ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ... نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ وفي ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وفي ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ .

٢ - الاستعارة ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ﴾ شبه استحقاقهم للإرث وتملكهم له بالإكتساب واشتق من لفظ الاكتساب اكتسبوا على طريقة الاستعارة التبعية.

٣ - الكناية في ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ فقد كنى بذلك عن الجماع وكذلك في ﴿لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قال ابن عباس معناه: جامعتم النساء كما كنى عن الحدث بالغائط في قوله ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ .

٤ - صيغة المبالغة في ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾ لأن فعّال من صيغ المبالغة ومجيء الجملة إسمية لإفادة الدوام والاستمرار.

٥ - السؤال عن المعلوم لتوبيخ السامع في قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾ يراد بها التقريع والتوبيخ.

٦ - جناس الاشتقاق في ﴿حَـٰفِظَـٰتٌ ... حَفِظَ﴾ وفي قوله ﴿بِشَهِيدٍ ... شَهِيدًا﴾ .

٧ - التعريض في ﴿مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ عرّض بذلك إلى ذم الكبر المؤدي لاحتقار الناس.

٨ - الحذف في عدة مواضع مثل ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي أحسنوا إلى الوالدين إحسانًا.

الفوَائِد: الأولى: لم يذكر الله تعالى في الآية إلا «الإصلاح» في قوله ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا﴾ ولم يذكر ما يقابله وهو التفريق وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنه ينبغي للحكمين أن يبذلا جهدهما للإصلاح لأن في التفريق خراب البيوت وتشتيت الأولاد وذلك مما ينبغي أن يجتنب.

الثانية: ختم تعالى الآية بهذين الإسمين العظيمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ وذلك لتهديد الأزواج عند التعسف في استعمال الحق فكأن الآية تقول: لا تغتروا بكونكم أعلى يدًا منهن وأكبر درجة منهن فإن الله عليٌّ قاهر ينتقم ممن ظلمهن وبَغَى عليهن، فالله أعلى منكم وأقدر عليكم منكم عليهن فاحذروا عقابه.

الثالثة: روى البخاري «عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: قال لي رسول الله ﷺ إقرأ عليَّ القرآن فقلت يا رسول الله: اقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: نعم فإني أحب أن أسمعه من

غيري!! فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ فقال: حسبك الآن فنظرت فإذا عيناه تذرفان»[١].

تنبيه: ورد النظم الكريم ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولو قال: بتفضيلهم عليهن لكان أخصر وأوجز ولكنَّ التعبير ورد بتلك الصيغة لحكمة جليلة وهي إفادة أن المرأة من الرجل بمنزلة عضوٍ من جسم الإنسان وكذلك العكس، فالرجل بمنزلة الرأس، والمرأة بمنزلة عضوٌ على عضو، فالأذن لا تغني عن العين، واليد لا تُغْنِي عن القَدم، ولا عار على الشخص أن يكون قلبه أفضل من معدته ورأسه أشرف من يده فالكل يؤدي دوره بانتظام ولا غنى لواحدٍ عن الآخر وهذا هو سر التعبير بقوله ﴿بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فظهر أن الآية في نهاية الإيجاز والإعجاز.

«كلمة حول تأديب النساء»

لعل أخبث ما يتخذه أعداء الإسلام للطعن في الشريعة الإسلامية زعمهم أن الإسلام أهان المرأة حين سمح للرجل أن يضربها ويقولون: كيف يسمح القرآن بضرب المرأة ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أفليس هذا إهانة للمرأة واعتداءً على كرامتها؟ والجواب: نعم لقد أذن الحكيم العليم بضربها ولكن متى يكون الضرب؟ ولمن يكون؟ إن الضرب - ضربًا غير مبرح - كما ورد به الحديث الشريف[٢] أحد الطرق في معالجة نشوز المرأة وعصيانها لأمر الزوج، فحين تسيء المرأة عشرة زوجها وتركب رأسها وتسير بقيادة الشيطان وتقلب الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة؟ لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الدواء فأمر بالصبر والأناة، ثم بالوعظ والإرشاد، ثم بالهجر في المضاجع، فإذا لم تنجح كل هذه الوسائل فلا بدَّ من سلوك طريق آخر هو الضرب غير المبرح لكسر الغطرسة والكبرياء، وهذا أقل ضررًا من إيقاع الطلاق عليها، وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأكبر كان حسنًا وجميلًا وما أحسن ما قيل «وَعِنْدَ ذِكْرِ العَمَى يُسْتَحْسَنُ الْعَوَرُ» فالضرب طريق من طرق العلاج ينفع في بعض الحالات التي يستعصي فيها الإصلاح باللطف والإحسان والجميل ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] !.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ

---

(١) (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» . قُلْتُ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » . فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قَالَ «أَمْسِكْ» . فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ . رواه البخاري.

(٢) (ش): رواه مسلم.

سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ
وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ
أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن
يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ
فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا
﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ
نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ
لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

سَبَبُ النّزول: روي أن أبا سفيان قال لكعب بن الأشرف - أحد أحبار اليهود - إنك امرؤٌ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقًا نحن أم محمد؟ فقال: اعرضوا عليَّ دينكم فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونَقْري الضيف، ونعمر بيت ربنا، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم!! فقال: دينكم خير من دينه وأنتم والله أهدى سبيلًا مما هو عليه فأنزل الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴾(١) الآية.

المناسَبَة: لما ذكر تعالى شيئًا من أحوال الكفار في الآخرة وأنهم يتمنون لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثًا. أعقبه بذكر ما عليه اليهود من الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله، ثم ذكر طائفة من عقائد أهل الكتاب الزائغة وما أعد لهم من العذاب المقيم في دار الجحيم أعاذنا الله منها.

---

(١) «أسباب النزول» ص ٨٩، و«الطبري» ٨/ ٤٦٨.

(ش): ضعيف بهذا السياق، والكوماءُ: الناقَةُ العَظيمَةُ السَّنامِ. الكَوْماءُ السَّمينَةُ. قَرَى الضيفَ: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ قَالَتْ قُرَيْشٌ: «أَلَا تَرَى هَذَا الصُّنْبُورَ الْمُنْبَتِرَ مِنْ قَوْمِهِ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَجِيجِ، وَأَهْلُ السِّدَانَةِ، وَأَهْلُ السِّقَايَةِ!». قَالَ: «أَنْتُمْ خَيْرٌ». فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الْكَوْثَر: ٣] وَنَزَلَ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النِّسَاء: ٥١، ٥٢]. (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ وَابْنُ جَرِيرٍ، وصحّحه الألباني). (الصُّنْبُورُ) (وفي رواية الصُّنَيْبِير) بالتصغير: الرَّجُلُ الفَرْدُ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ بِلَا أَهْلٍ وعَقِبٍ وَنَاصِرٍ. أي أَبْتَر لَا عقِبَ لَهُ وَلَا أَخ فإِذا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ.

اللغَة: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ راقبنا وانظرنا وهي كلمة سب في العبرية وكان اليهود يقولونها ويعنون بها معنى الرعونة[١] ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أعدل وأصوب ﴿نَّطْمِسَ﴾ الطمس: المحو وإِذهاب أثر الشيء ﴿فَتِيلًا﴾ الفتيل: الخيط الذي في شق النواة ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾ اسم الصنم ثم صار مستعملًا لكل باطل ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ كل ما عبد من دون الله من حجر أو بشر أو شيطان وقيل.. هو اسم للشيطان ﴿نَقِيرًا﴾ النقير: النقطة التي على ظهر النواة ﴿نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الاستفهام للتعجيب من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم، أي: ألم تنظر يا محمد إِلى الذين أُعطُوا حظًا من علم التوراة وهم أحبار اليهود ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أي يختارون الضلالة على الهدى ويؤثرون الكفر على الإِيمان ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا مثلهم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ أي هو تعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضَّالين منكم فاحذروهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي حسبكم أن يكون الله وليًا وناصرًا لكم فثقوا به واعتمدوا عليه وحده فهو تعالى يكفيكم مكرهم. . ثم ذكر تعالى طرفًا من قبائح اليهود اللُّعَناء فقال ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي من هؤلاء اليهود فريق يبدّلون كلام الله في التوراة ويفسرونه بغير مراد الله قصدًا وعمدًا فقد غيرّوا نعت محمد ﷺ وأحكام الرجم وغير ذلك ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي ويقولون لك إِذا دعوتهم للإِيمان سمعنا: قولك وعصينا أمرك قال مجاهد: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في الكفر والعناد ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي اسمع ما نقول لا سمعت، والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر وأصله للخير أي لا سمعتَ مكروهًا ولكنَّ اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ أي لا أسمعكَ الله وهو دعاء بالصمَم أو بالموت ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أي ويقولون في أثناء خطابهم راعنا وهي كلمة سبّ من الرعونة وهي الحُمْق، فكانوا سخريةً وهزؤًا برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإِهانة ويظهرون به التوقير والإِكرام ولهذا قال تعالى ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ أي فتلًا وتحريفًا عن الحق إِلى الباطل وقدحًا في الإِسلام قال ابن عطية: وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربّون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير[٢] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي عوضًا من قولهم: سمعنا وعصينا ﴿وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ أي عوضًا عن قولهم: غير مسمع وراعنا أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع ﴿لَكَانَ

---

(١) (ش): رُعُونَةً: رعَن الشَّخصُ: كان أهوج في منطقه، حمُقَ وطاش فيما يقول أو يفعل.

(٢) «البحر المحيط» ٣/ ٢٦٤.

﴿خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي لكان ذلك القول خيرًا لهم عند الله وأعدل وأصوب ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلًا قال الزمخشري: أي ضعيفًا ركيكًا لا يُعبأ به[1] وهو إيمانهم ببعض الكتاب والرسل.. ثم توعدهم تعالى بالطمس وإذهاب الحواس فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي يا معشر اليهود آمنوا بالقرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أي مصدقًا للتوراة ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أي انطمس منها الحواس من أنفٍ أو عين أو حاجب حتى تصير كالأدبار، وهذا تشويه عظيم لمحاسن الإنسان وهو قول ابن عباس[2] ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت وهم الذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قردة وخنازير ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي لا يغفر الشرك ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي من أشرك بالله فقد اختلق إثمًا عظيمًا قال «الطبري»: قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركًا بالله[3].. ثم ذكر تعالى تزكيةَ اليهود أنفُسَهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ أي ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى؟ والاستفهام للتعجيب من أمرهم قال قتادة: ذلكم أعداء الله اليهود زكَّوا أنفسهم فقالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقالوا: لا ذنوب لنا[4] ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي ليس الأمر بتزكيتهم بل بتزكية الله فهو أعلم بحقائق الأمور وغوامضها يزكي المرتضَيْنَ من عباده وهم الأطهار الأبرار لا اليهود الأشرار ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا يُنقَصُون من أعمالهم بقدر الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثلٌ للقلة كقوله ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠] ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ هذا تعجيب من افترائهم وكذبهم أي انظر يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيتهم أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي كفى بهذا الافتراء وزرًا بينًا وجرمًا عظيمًا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الاستفهام للتعجيب والمراد بهم أيضًا اليهود أُعطوا حظًّا من التوراة وهم مع ذلك

---

(١) «الكشاف» ١/ ٤٠١.

(٢) وهو اختيار «الطبري» حيث قال: أي من قبل أن نطمس أبصارهم ونمحو آثارها فنسويها كالأقفاء فنجعل أبصارها في أدبارها فيمشون القهقرى.

(٣) «الطبري» ٨/ ٤٥٠.

(٤) «الطبري» ٨/ ٤٥٢.

يؤمنون بالأوثان والأصنام وكلّ ما عبد من دون الرحمن ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ أي يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى سبيلًا من محمد وأصحابه قال ابن كثير: يفضّلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم(١) قال تعالى إخبارًا عن ضلالهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ أي من يطرده من رحمته فمن ينصره من عذاب الله؟ ويمنع عنه آثار اللعنة وهو العذاب العظيم ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي أم لهم حظٌّ من الملك؟ وهذا على وجه الإنكار يعني ليس لهم من الملك شيء ﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحدًا مقدار نقير لفرط بخلهم، والنقير مثلٌ في القلة كالفتيل والقطمير وهو النكتة في ظهر النواة(٢)، ثم انتقل إلى خَصلة ذميمة أشد من البخل فقال ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ قال ابن عباس: حسدوا النبي ﷺ على النبوة وحسدوا أصحابه على الإيمان والمعنى: بل أيحسدون النبي ﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضل الله بها محمدًا وشرّف بها العرب ويحسدون المؤمنين على ازدياد العز والتمكين؟ ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ أي فقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة كداود وسليمان فلأي شيء تخصون محمدًا ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وإلزام لهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ﴾ أي من اليهود من آمن بمحمد ﷺ وهم قلة قليلة ومنهم من أعرض فلم يؤمن وهم الكثرة كقوله ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦] ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي كفى بالنار المسعّرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم. . ثم أخبر تعالى بما أعده للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد فقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا ﴾ أي سوف ندخلهم نارًا عظيمة هائلة تشوي الوجوه والجلود ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي كلما انشوت جلودهم واحترقت احتراقًا تامًّا بدلناهم جلودًا غيرها ليدوم لهم ألم العذاب، قال الحسن: تُنْضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فعادوا كما كانوا وقال الربيع: جلد أحدهم أربعون ذراعًا، وبطنُه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلودًا غيرها وفي الحديث «يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعًا وإن

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٠٣.

(٢) (ش): القِطْمِير: القِشرَةُ الرَّقيقَةُ على النواة كاللِّفافة لَهَا، القِشرَةُ الرَّقيقَةُ بين النَّواةِ والتَّمْرَةِ. والنَقِيرُ: حفرة مستديرة في ظهر نواة البلح.

والفتيل: خَيْط فِي شقّ النواة أو قشرَة في بطنها.

ضرسه مثل أحد»(١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزًا لا يمتنع عليه شيء حكيم لا يعذّب إلا بعدل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء أي سندخلهم جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا مقيمين في الجنة لا يموتون ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأقذار والأذى قال مجاهد: مطهرات من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظلًّا دائمًا لا تنسخه الشمس ولا حر فيه ولا برد قال الحسن: وُصف بأنه ظليل لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحرّ والسموم، وفي الحديث «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»(٢).

البَلَاغَة: تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبلاغة والبديع ما يلي بالإيجاز:

١ – المجاز المرسل في ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ المراد به محمد ﷺ من باب تسمية الخاص باسم العام إشارة إلى أنه جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين.

٢ – الاستعارة في ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ وفي ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ لأن أصل الذوق باللسان فاستعير إلى الألم الذي يصيب الإنسان وفي ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ لأن أصل الليّ فتل الحبل فاستعير للكلام الذي قصد به غير ظاهره وفي ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ وهي عبارة عن مسخ الوجوه تشبيهًا بالصحيفة المطموسة التي عُمّيت سطورها وأشكلت حروفها.

٣ – الاستفهام الذي يراد به التعجب في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في موضعين.

٤ – التعجب بلفظ الأمر في ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾ وتلوين الخطاب في ﴿يَفْتَرُونَ﴾ وإقامته مقام الماضي للدلالة على الدوام والاستمرار.

٥ – الاستفهام الذي يراد منه التوبيخ والتقريع في ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ وفي ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾.

٦ – التعريض في ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ عرَّض بشدة بخلهم.

٧ – الطباق في ﴿وُجُوهٌ .. وَأَدْبَٰرَ﴾ وفي ﴿ءَامَنُواْ . كَفَرُواْ﴾ .

٨ – جناس الاشتقاق في ﴿نَلْعَنَهُمْ . . لَعَنَّآ﴾ وفي ﴿يُؤْتُونَ ... ءَاتَىٰهُمُ﴾ وفي ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ .

٩ – الإطناب في مواضع، والحذف في مواضع.

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم

---

(١) أخرجه أحمد في المسند. (ش): ضعيف بهذا السياق.
قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ خَرِيفًا (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وصححه الألباني).

(٢) أخرجه الشيخان.

بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ
فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ
أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ
بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ
أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ
ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ
فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ
أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا
يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ
صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ
وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال في الآخرة، أعقبه بتوجيه المؤمنين إلى طريق السعادة بطاعة الله ورسوله وأداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس، ثم ذكر صفات المنافقين التي ينبغي الحذر منها والبعد عنها.

اللغَة: ﴿نِعِمَّا﴾ أصلها نِعْمَ مَا أي نِعْم الشيء يعظكم به ﴿تَأۡوِيلًا﴾ مآلًا وعاقبة ﴿يَزۡعُمُونَ﴾ الزعم: الاعتقاد الظني قال الليث: أهل العربية يقولون: زعم فلان إذا شكُّوا فيه فلم يعرفوا أَكَذَب أو صدَقَ وقال ابن دريد: أكثر ما يقع على الباطل ومنه قولهم «زعموا مطيّةُ الكذب»(١) ﴿وَتَوۡفِيقًا﴾ تأليفًا والوفاق والوَفْق ضد المخالفة ﴿بَلِيغٗا﴾ مؤثرًا ﴿شَجَرَ﴾ اختلف واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه واختلاط بعضها في بعض ﴿حَرَجٗا﴾ ضيقًا وشكًّا قال الواحدي: يقال للشجر الملتف الذي لا يكاد يوصل إليه حرج.

سَبَبُ النّزول: أ - روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أغلق «عثمان بن طلحة» باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال: لو علمتُ أنه رسول الله

---

(١) **(ش):** عن حذيفة قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا» (رواه أبو داود وصححه الألباني). الْمَطِيَّةُ بِمَعْنَى الْمَرْكُوبِ (زَعَمُوا) الزَّعْمُ قَرِيبٌ مِنَ الظَّنِّ، أَيْ أَسْوَأُ عَادَةٍ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَّخِذَ لَفْظَ (زَعَمُوا) مَرْكَبًا إِلَى مَقَاصِدِهِ فَيُخْبِرَ عَنْ أَمْرٍ تَقْلِيدًا مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ فَيُخْطِئَ.

لم أمنعه فلوى عليٌّ يده وأخذه منه وفتح بابها فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج أمر عليًّا أن يردّ المفتاح إِلى عثمان بن طلحة ويعتذر إِليه فقال له عثمان: آذيتَ وأكرهت ثم جئتَ تترفق!! فقال لقد أنزل الله في شأنك قرآنًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا..﴾ وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان فقال النبي ﷺ: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إِلا ظالم»[١].

ب – عن ابن عباس أن رجلًا من المنافقين يقال له: «بِشْر» كان بينه وبين يهودي خصومةٌ فقال اليهودي: تعال نتحاكم إِلى محمد فقال المنافق: بل نتحاكم إِلى «كعب بن الأشرف» – وهو الذي سماه الله الطاغوت – فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إِلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله لليهودي على المنافق، فلما خرج من عنده لم يرض المنافق وقال: تعالى نتحاكمْ إِلى عمر بن الخطاب فأتيا عمر فقال اليهودي: كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكمنا إِلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إِليك فقال عمر للمنافق: أكذلك هو؟ فقال: نعم فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إِليكما فدخل عمر فاشتمل عليه سيفه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد – أي مات – وقال: هكذا أقضي فيمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت الآية ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ..﴾[٢] الآية.

التفسير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواءً كانت حقوق الله أو العباد قال الزمخشري: الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة[٣]، والمعنى يأمركم الله أيها المؤمنون بأداء الأمانات إِلى أربابها قال ابن كثير: يأمر تعالى بأداء الأمانات إِلى أهلها وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإِنسان من حقوق الله عَزَّ وَجَلَّ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات وغيرها، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها[٤] ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي ويأمركم أن تعدلوا بين الناس في أحكامكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ فيه وعد ووعيد أي سميع لأقوالكم بصير بأفعالكم

---

(١) «الفخر الرازي» ١٠/ ١٣٨، و«أسباب النزول» ص ٩٠.

(ش): ضعيف، ذكره الثعلبي في «تفسيره» بغير سند جازمًا به، وفيه زيادات منكرة. والثابت أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَزَلَ بِمَكَّةَ وَاطْمَأَنَّ النَّاسُ، خَرَجَ حَتَّى جَاءَ الْبَيْتَ، فَطَافَ بِهِ سَبْعًا عَلَى رَاحِلَتِهِ، يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمِحْجَنٍ فِي يَدِهِ، فَلَمَّا قَضَى طَوَافَهُ، دَعَا عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، فَفُتِحَتْ لَهُ،(أخرجه ابن إسحاق في «السيرة». وحسنه الحافظ ابن حجر). مِحْجَنٍ: عصًا مُعْوجَّة الرَّأس.

(٢) «الكشاف» ١/ ٤٠٦، و«القرطبي» ٥/ ٢٦٤. (ش): موضوع، أخرجه الثعلبي في «تفسيره».

(٣) «الكشاف» ١/ ٤٥٠.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٥٠.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ أي أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة، وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، وفي قوله ﴿مِنكُمۡۖ﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا مسلمين حسًّا ومعنى، لحمًا ودمًا، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلًا ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي فإن اختلفتم في أمرٍ من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ أي إن كنتم مؤمنين حقًا وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق أي فردوه إلى الله والرسول والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة كما يقول القائل: إن كنت ابني فلا تخالفني ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ أي الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلًا. . ثم ذكر تعالى صفات المنافقين الذين يَدَّعون الإيمان وقلوبهم خاوية منه فقال ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ تعجيبٌ من أمر من يدّعي الإيمان ثم لا يرضى بحكم الله أي ألا تعجب من صنيع هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك وهو القرآن وما أنزل من قبلك وهو التوراة والإنجيل[1] ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي يريدون أن يتحاكموا في خصومتهم إلى الطاغوت قال ابن عباس هو «كعب بن الأشرف» أحد طغاة اليهود سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوته للرسول عليه السلام ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ أي والحال أنهم قد أمروا بالإيمان بالله والكفر بما سواه كقوله ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ أي ويريد الشيطان بما زيّن لهم أن يحرفهم عن الحق والهدى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ أي وإذا قيل لأولئك المنافقين: تعالوا فتحاكموا إلى كتاب الله وإلى الرسول ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴾ أي رأيتهم لنفاقهم يعرضون عنك إعراضًا ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أي كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم وبما جنته أيديهم من الكفر والمعاصي أيقدرون أن يدفعوا عنهم العذاب؟ ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴾ أي ثم جاءك هؤلاء المنافقون للإعتذار عما اقترفوه من الأوزار يقسمون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا الصلح والتأليف بين الخصمين وما أردنا رفض حكمك قال تعالى تكذيبًا لهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ أي هؤلاء المنافقون يكذبون والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة وهم يريدون أن يخدعوك بهذا الكلام

(١) (ش): هذا التعبير خطأ، لأنه يتضمن نَفْيَ التعجب عن الله، وقد ثبت في الأدلة أنه سبحانه يَعْجَب، والصواب أن يقول: هذا تعجُّبٌ من الله.

المعسول ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن معاقبتهم للمصلحة ولا تُظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي ازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم يكون لهم رادعًا ولنفاقهم زاجرًا، ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل فقال ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي لم نرسل رسولًا من الرسل إلا ليطاع بأمر الله تعالى فطاعَتُه طاعةٌ لله ومعصيتُه معصيةٌ لله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك جاءوك تائبين من النفاق مستغفرين الله من ذنوبهم معترفين بخطئهم ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي واستغفرت لهم يا محمد أي سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي لعلموا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم ثم بين تعالى طريق الإيمان الصادق فقال ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ اللام لتأكيد القسم أي فوربك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حَكَمًا بينهم ويرضَوْا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا من حكمك وينقادوا انقيادًا تامًا كاملًا لقضائك، من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة، فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ أي لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على ما قبلهم من المشقات وشدّدنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بني إسرائيل ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم لضعف إيمانهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله وطاعة رسوله لكان خيرًا لهم في عاجلهم وآجلهم وأشد تثبيتًا لإيمانهم، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي أعطيناهم ثمرة الطاعة ثوابًا كثيرًا ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ثم ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ورسوله فقال ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يسكنه دار كرامته في دار الخلد مع المقربين ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي مع أصحاب المنازل العالية في الآخرة وهم الأنبياء الأطهار والصديقون الأبرار وهم أفاضل أصحاب الأنبياء والشهداء الأخيار وهم الذين استشهدوا في سبيل الله ثم مع بقية عباد الله الصالحين ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ أي ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم، وحَسُن رفيق أولئك الأبرار، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها قالت: سمعت النبي ﷺ في شكواه التي قُبض فيها يقول ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فعلمتُ أنه خُيِّر[1] ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي ما أُعطيه المطيعون من الأجر العظيم إنما هو بمحض فضله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي وكفى به تعالى مجازيًا لمن أطاع عالمًا بمن يستحق الفضل والإحسان.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة والبديع ما يلي باختصار:

١ - الاستفهام المراد به التعجب في ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ .

٢ - الالتفات في ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ تفخيمًا لشأن الرسول وتعظيمًا لاستغفاره ولو جرى على الأصل لقال ﴿واستغفرت لهم﴾ .

٣ - إيراد الأمر بصورة الإخبار وتصديره بـ «إِنَّ» المفيدة للتحقيق في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ للتفخيم وتأكيد وجوب العناية والامتثال.

٤ - الجناس المغاير في ﴿يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا﴾ وفي ﴿وَقُل لَّهُمْ... قَوْلًا﴾ وفي ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ وفي ﴿يَصُدُّونَ ... صُدُودًا﴾ وفي ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا﴾ [النساء: ٧٣] .

٥ - الاستعارة في قوله ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ استعار ما اشتبك وتضايق من الشجر للتنازع الذي يدخل به بعض الكلام في بعض استعارة للمعقول بالمحسوس.

٦ - تكرير الاسم الجليل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لتربية المهابة في النفوس.

٧ - الإطناب في مواضع والحذف في مواضع.

فَائِدَة: عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إليَّ من نفسي وأحبُّ إليَّ من أهلي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك عرفتُ أنك إذا دخلت الجنةُ رفعتَ مع النبيين وإن دخلتُ الجنة خشيتُ أن لا أراك فلم يردّ عليه النبي ﷺ حتى أنزل الله ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية[2].

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤١١.

(ش): عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ؛ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ - قَالَتْ - فَسَمِعْتُ النَّبِىَّ ﷺ فِى مَرَضِهِ الَّذِى مَاتَ فِيهِ وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ يَقُولُ؛ (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) قَالَتْ: فَظَنَنْتُهُ خُيِّرَ حِينَئِذٍ. (رواه مسلم).

(٢) أخرجه ابن مردويه.

(ش): رواه الطبراني وغيره، وصححه الشيخ أحمد شاكر، وهو في «السلسلة الصحيحة» للألباني. عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ، =

قال الله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ
أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ
كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ
فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ
ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا
﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ
كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ
ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ
وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ
عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ
مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ
فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى
تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ
وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟
بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً
يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا
حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

المُنَاسَبَة: لما حذّر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله، أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه، وأمر بالاستعداد والتأهب حذرًا من مباغتة الكفار، ثم بيّن حال المتخلفين عن الجهاد المثبطين للعزائم من المنافقين وحذّر المؤمنين من شرهم.

= فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]» الْآيَةَ.

اللغَة: ﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع ثُبتة وهي الجماعة، أي جماعة بعد جماعة ﴿بُرُوجٍ﴾ جمع برج وهو البناء المرتفع والقصر العظيم والمراد به هنا الحصون ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ مرتفعة البناء ﴿بَيَّتَ﴾ دبَّر الأمر ليلًا، والبَيَاتُ أن يأتي العدو ليلًا ومنه قول العرب: أمرٌ بُيِّتَ بليل ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ أشاعوه ونشروه ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ يستخرجونه مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجته، ومنه استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ﴿وَحَرِّضِ﴾ التحريض: الحث عن الشيء ﴿تَنكِيلًا﴾ تعذيبًا والنكالُ: العذابُ ﴿كِفْلٌ﴾ نصيب وأكثر ما يستعمل الكفل في الشر ﴿مُّقِيتًا﴾ مقتدرًا من أقات على الشيء قدر عليه[1] قَالَ الشَّاعِرُ:

وَذِي ضَغَنٍ[2] كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ ... وَكَانَ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُقِيتًا

سَبَبُ النّزول: عَن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً. فَقَالَ « **إِنِّى أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلاَ تُقَاتِلُوا** ». فَلَمَّا حَوَّلَنَا اللهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَنَا بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ** ...﴾[3] الآية.

التفسير: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين، سريةً بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف، فخيَّرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي ليتثاقلنَّ ويتخلفنَّ عن الجهاد، والمراد بهم المنافقون وجُعِلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر[4] ﴿فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي قتل وهزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ أي قال ذلك المنافق: قد تفضَّل الله عليَّ إذ لم أشهد الحرب معهم فأُقتل ضمن من قتلوا ﴿ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون نصر وظفر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ

---

(١) (ش): وقيل:المُقيت الذي أوْصَلَ إلى كل موجود ما به يقتات وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمه وحمده.

(٢) (ش): ضِغْنٌ، ضَغَن: حقد شديد، بُغْضٌ، حسَدٌ.

(٣) «أسباب النزول» ص ٩٦، و«القرطبي» ٥/ ٢٨١. (ش): رواه النسائي وصححه الألباني وغيره.

(٤) (ش): قال الشيخ السعدي: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ أي: أيها المؤمنون ﴿لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفًا وخورًا وجبنًا، هذا الصحيح. وقيل معناه: ليبطئن غيرَه أي: يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون، ولكن الأول أَولى لوجهين: أحدهما: قوله ﴿مِنْكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين. والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة. وأيضا فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين: صادقون في إيمانهم أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد. وضعفاء دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد. كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ إلى آخر الآيات.

﴿مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ليقولنَّ هذا المنافق قول نادم -متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة- يا ليتني كنت معهم في الغزو لأنال حظًّا وافرًا من الغنيمة، وجملة ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزة الإسلام بل طلبًا للمال وتحصيلًا للحُطَام، ولما ذم تعالى المبطئين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنين فيه فقال ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا وعدٌ منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله سواءٌ غَلَب أو غُلِب أي من يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فيُستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيه ثوابًا جزيلًا فهو فائز بإحدى الحسنيين: الشهادة أو الغنيمة كما في الحديث «**تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَاد فِى سَبِيلِى وَإِيمَان بِى وَتَصْدِيق بِرُسُلِى فَهُوَ عَلَىَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**»[1] ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد أي وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد؟ وقوله ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ بيانٌ للمستضعفين قال ابن عباس: كنتُ أنا وأمي من المستضعفين، وهم الذين كان يدعو لهم الرسول ﷺ فيقول: «**اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ** إلخ كما في الصحيح[2] ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي الذين يدعون ربهم لكشف الضُّرّ عنهم قائلين: ربنا أخرجنا من هذه القرية وهي مكة إذ إنها كانت موطن الكفر ولذا هاجر الرسول ﷺ منها ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالكفر وهم صناديد قريش الذين منعوا المؤمنين من الهجرة ومنعوا من ظهور الإسلام فيها ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ أي اجعل لنا من هذا الضيق فرجًا ومخرجًا وسخّر لنا من عندك وليًّا وناصرًا، وقد استجاب الله دعاءهم فجعل لهم خير وليّ وناصر وهو محمد ﷺ حين فتح مكة ولما خرج منها ولّى عليهم «عتّاب بن أسيد» فأنصف مظلومهم من ظالمهم، ثم شجع تعالى المجاهدين ورغبهم في الجهاد فقال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي المؤمنون يقاتلون لهدف سَام وغاية نبيلة وهي نصرة دين الله وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاته فهو تعالى وليهم وناصرهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي وأما الكافرون فيقاتلون في سبيل

(١) أخرجه مسلم.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

الشيطان الداعي إلى الكفر والطغيان ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ أي قاتلوا يا أولياء الله أنصار وأعوان الشيطان فإنكم تغلبونهم، فشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وبين من يقاتل في سبيل الشيطان، فمن قاتل في سبيل الله فهو الذي يَغْلب لأن الله وَلِيُّه وناصِرُه، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب ولهذا قال ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي سعيُ الشيطان في حد ذاته ضعيف فكيف بالقياس إلى قدرة الله؟» قال الزمخشري: كيدُ الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه[1] ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي ألَا تعجب يا محمد من قوم طلبوا القتال وهم بمكة فقيل لهم: أمسكوا عن قتال الكفار فلَمْ يَحِنْ وقْتُه وأعِدُّوا نفوسَكم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ﴾ أي فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجبنون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله أو أشد من ذلك، قال ابن كثير: كان المؤمنون في إبتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة والصبر على أذى المشركين وكانوا يتحرقون لو أُمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم فلما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم وخاف من مواجهة الناس خوفًا شديدًا[2] ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾ أي وقالوا جزعًا من الموت ربنا لم فرضت علينا القتال؟ ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾ لو لا للتحضيض بمعنى هَلَّا أي هَلا أخَّرْتَنا إلى أجل قريب حتى نموتَ بآجالنا ولا نقتل فيفرح بنا الأعداء! ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن نعيم الدنيا فانٍ ونعيم الآخرة باقٍ فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتقى الله وامتثل أمره ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا تُنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء ولو كان فتيلًا وهو الخيط الذي في شق النواة قال في «التسهيل»: إن الآية في قوم من الصحابة كانوا قد أُمروا بالكف عن القتال فتمنوا أن يؤمروا به، فلما أُمروا به كرهوه لا شكًا في دينهم ولكن خوفًا من الموت، وقيل هي في المنافقين وهو أليق في سياق الكلام[3] ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ أي في أي مكانٍ وُجِدتُم فلا بدّ أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجل ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة فلا تخشوا القتال خوف الموت ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ أي إن تصب هؤلاء المنافقين حسنةٌ من نصر وغنيمة وشبه ذلك يقولوا: هذه من جهة الله ومن تقديره لما علم فينا من الخير ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ أي وإن تنلهم سيئة من هزيمة

(١) «الكشاف» ١/ ٤١٤.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤١٣.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٤٨، واختار هذا «القرطبي» وأبو حيان وهو الأرجح قال في «البحر»: إن القائلين هذا هم منافقون لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يَسْأل عن علته من هو خالص الإيمان ولهذا السياق بعده: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ وهذا لا يصدر إلا من منافق. اهـ. «البحر» ٣/ ٩٢٨.

وجوع وشبه ذلك يقولوا هذه بسبب اتباعنا لمحمد ودخولنا في دينه يعنون بشؤم محمد ودينه قال السدي: يقولون هذا بسبب تركنا ديننا واتباعنا محمدًا أصابنا هذا البلاء كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أمر ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويلقمهم الحجر ببيان أن الخير والشر بتقدير الله أي قل يا محمد لهؤلاء السفهاء: الحسنةُ والسيئة والنعمةً والنقمة كلٌّ ذلك من عند الله خلقًا وإيجادًا لا خالق سواه فهو وحده النافع الضار وعن إرادته تصدر جميع الكائنات ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي ما شأنهم لا يفقهون أن الأشياء كلها بتقدير الله؟ وهو توبيخ لهم على قلة الفهم. . ثم قال تعالى مبينًا حقيقة الإيمان ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ الخطاب لكل سامع أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان فمن الله تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا وامتحانًا، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك لأنك السبب فيها بما ارتكبت يداك كقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] . . ثم قال تعالى مخاطبًا الرسول ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وأرسلناك يا محمد رسولًا للناس تبلغهم شرائع الله وحسبك أن يكون الله شاهدًا على رسالتك، ثم رغب تعالى في طاعة الرسول فقال ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ أي من أطاع أمر الرسول فقد أطاع الله، لأنه مبلّغٌ عن الله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي ومن أعرض عن طاعتك فما أرسلناك يا محمد حافظًا لأعمالهم ومحاسبًا لهم عليها إنْ عليك إلا البلاغ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ أي ويقول المنافقون: أمرك يا محمد طاعة كقول القائل «سمعًا وطاعةً» فإذا خرجوا من عندك دبّر جماعة منهم غير الذي تقوله لهم وهو الخلاف والعصيان لأمرك ﴿يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي يأمر الحفظة بكتابته في صحائف أعمالهم ليُجازُوا عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اصفح عنهم وفوّض أمرك إلى الله وثق به ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي فهو سبحانه ينتقم لك منهم وكفى به ناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه، ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي لو كان هذا القرآن مختلقًا كما يزعم المشركون والمنافقون لوجدوا فيه تناقضًا كبيرًا في أخباره ونظمه ومعانيه ولكنه منزه عن ذلك فأخباره صدق، ونظمه بليغ، ومعانيه محكمة، فدلَّ على أنه تنزيل الحكيم الحميد ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ أي إذا جاء المنافقين خبرٌ من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به أي أفشوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي

لو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم وردوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم لعلمه الذين يستخرجونه منهم أي من الرسول وأولي الأمر ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال الرسول ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلًا منكم، ثم أمر الرسولَ بالجهاد فقال ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي قاتل يا محمد لإعلاء كلمة الله ولو وحدك فإنك موعود النصر ولا تهتم بتخلف المنافقين عنك ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي شجِّعْهُم على القتال ورَغِّبْهُم فيه ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هذا وعدٌ من الله بكفهم ﴿عَسَى﴾ من الله تفيد التحقيق أي بتحريضك المؤمنين يكف الله شرّه الكفرة الفجار، وقد كفهم الله بهزيمتهم في بدر وبفتح مكة ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي هو سبحانه أشد قوة وسطوة، وأعظم عقوبة وعذابًا ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ أي من يشفع بين الناس شفاعة موافقة للشرع يكن له نصيب من الأجر ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي ومن يشفع شفاعة مخالفة للشرع يكن له نصيب من الوزر بسببها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي مقتدرًا فيجازي كل أحدٍ بعمله[1] ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أي إذا سلّم عليكم المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلّم أو رُدُّوا عليه بمثل ما سلّم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ أي يحاسب العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا قسم من الله بجمع الخلائق يوم المعاد أي الله الواحد الذي لا معبود سواه[2] ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة الذي لا شك فيه وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحدٍ للجزاء والحساب ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ لفظه استفهام ومعناه النفي أي لا أحد أصدق في الحديث والوعد من الله رب العالمين.

البَلَاغَة: تضمنت هذه الآيات أنواعًا من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة في قوله ﴿يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي يبيعون الفانية بالباقية فاستعار لفظ الشراء للمبادلة وهو من لطيف الاستعارة.

٢ - الاعتراض في ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾.

٣ - التشبيه المرسل المجمل في ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

٤ - الطباق في ﴿ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾.

---

(١) (ش): وقيل: المُقيت الذي أوْصَلَ إلى كل موجود ما به يقتات وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمه وحمده.

(٢) (ش): الصواب أن يقال: «لا معبود بحق سواه»؛ لأن هناك معبودات بغير حق.

٥ – جناس الاشتقاق في ﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ وفي ﴿حُيِّيتُم ... فَحَيُّواْ﴾ وفي ﴿يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً﴾ وفي ﴿بَيَّتَ ... يُبَيِّتُونَ﴾.

٦ – الاستفهام الذي يراد به الإنكار في ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٧ – المقابلة في قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وكذلك في قوله ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَا﴾ وهذه من المحسنات البديعية وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.

تنبيه: لا تعارض بين قوله تعالى ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي كلٌّ من الحسنة والسيئة وبين قوله ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ إذ الأولى على الحقيقة أي خلقًا وإيجادًا والثانية تسببًا وكسبًا بسبب الذنوب ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] أو نقول: نسبة الحسنة إلى الله، والسيئة إلى العبد هو من باب الأدب مع الله في الكلام وإن كان كل شيء منه في الحقيقة كقوله ﷺ: «الخير كلُّه بيديك والشرُّ ليس إليك» والله أعلم[1].

قال الله تعالى:

فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ
ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ
يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا
نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ
يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا
جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ
إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ
حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا
خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن
كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ
وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ

(١) (ش): عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا
مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا
﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ
لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم
مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسۡتَوِي
ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ
مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى مواقف المنافقين المخزية، عقّبه بذكر نوع آخر من أحوال المنافقين الشنيعة، ثم ذكر حكم القتل الخطأ والقتل العمد، وأمر بالتثبت قبل الإقدام على قتل إنسان لئلا يُفضي إلى قتل أحد من المسلمين، ثم ذكر تعالى مراتب المجاهدين ومنازلهم الرفيعة في الآخرة.

اللغَة: ﴿أَرۡكَسَهُم﴾ ردّهم إلى الكفر أو نكّسهم وأصل الركس ردُّ الشيء مقلوبًا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَأُرْكِسُوا فِي حَمِيمِ النَّارِ أَنَّهُمُ ... كَانُوا عُصَاةً وَقَالُوا الْإِفْكَ وَالزُّورَا [1]

﴿حَصِرَتۡ﴾ ضاقت من الحصر وهو الضيق ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلام والانقياد ﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ صادفتموهم ووجدتموهم ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ فتثبتوا ﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾ قلبوا فيها.

سَبَبُ النّزول: أ - عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أُحد فرجع ناسٌ ممن كان معه، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين فقال بعضهم: نقتلهم، وقال بعضهم: لا، فأنزل الله ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ الآية فقال ﷺ: «إنها طيبة تنفي الخَبث كما تنفي النار خبث الحديد» أخرجه الشيخان.

ب - يروى أن «الحارث بن يزيد» كان شديدًا على النبي ﷺ فجاء مهاجرًا وهو يريد الإسلام فلقيه «عياش بن أبي ربيعة» - والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر - فقتله فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗا...﴾[2]. الآية.

ج - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لقي المسلمون رجلًا في غنيمةٍ له فقال: السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ...﴾[3] الآية.

التفسير: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت.
(٢) «أسباب النزول» ص ٩٧. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره».
(٣) رواه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم، (غُنَيْمَة) تصغير «غنم» أي قطيع صغير من الغَنَم.

أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين، بعضكم يقول نقتلهم وبعضكم يقول لا نقتلهم والحال أنهم منافقون والله نكَّسهم وردّهم إِلى الكفر بسبب النفاق والعصيان ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أي أتريدون هداية من أضله الله، والاستفهام للإِنكار والتوبيخ في الموضعين والمعنى لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير، لأن الله حكم بضلالهم ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ أي من يضلله الله فلن تجد له طريقًا إِلى الهدى والإِيمان ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ أي تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا مثلهم فتستووا أنتم وهم وتصبحوا جميعًا كفارًا ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا توالوا ولا تصادقوا منهم أحدًا حتى يؤمنوا ويحققوا إِيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾ أي إِن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله فخذوهم أيها المؤمنون واقتلوهم حيث وجدتموهم في حِلٍّ أو حَرَم ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا تستنصروهم ولا تستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي إِلا الذين ينتهون ويلجؤون إِلى قوم عاهدوكم فدخلوا فيهم بالحِلْف فحكمهم حكم أولئك في حقن دمائهم ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾ وهذا استثناء أيضًا من القتل أي وإِلا الذين جاؤوكم وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ أي من لطفه بكم أنْ كفّهم عنكم ولو شاء لَقوّاهُم وجَرّأهم عليكم فقاتلوكم ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ أي فإِن لم يتعرضوا لكم بقتال وانقادوا واستسلموا لكم فليس لكم أن تقاتلوهم طالما سالموكم ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ أي ستجدون قومًا آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم بإِظهار الإِيمان ويأمنوا قومهم بإِظهار الكفر إِذا رجعوا إِليهم قال «أبو السعود»: هم قوم من «أسد وغطفان» كانوا إِذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين فإِذا رجعوا إِلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ أي كلما دُعُوا إِلى الكفر أو قتال المسلمين عادوا إِليه وقُلبوا فيه على أسوأ شكل فهم شرّ من كل عدو شرير ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ أي فإِن لم يجتنبوكم ويستسلموا إِليكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾ أي فأْسِرُوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ أي جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة وبرهانًا بينًا بسبب غدرهم وخيانتهم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ﴾ أي لا ينبغي لمؤمنٍ ولا يليق به أن يقتل مؤمنًا إِلا على وجه الخطأ لأن الإِيمان زاجرٌ عن العدوان

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أي ومن قتل مؤمنًا على وجه الخطأ فعليه إعتاق رقبةٍ مؤمنة لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، وعليه كذلك ديةٌ مؤداة إلى ورثة المقتول إلا إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الدية، وقد أوجب الشارع في القتل الخطأ شيئين: الكفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة في مال القاتل، والدية وهي مائةٌ من الإبل على العاقلة[١] ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ أي إن كان المقتول خطأً مؤمنًا وقومه كفارًا أعداء وهم المحاربون فإنما على قاتله الكفارة فقط دون الدية لئلا يستعينوا بها على المسلمين ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ أي وإن كان المقتول خطأً من قوم كفرة بينكم وبينهم عهد كأهل الذمة فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله لأجل معاهدتهم ويجب أيضًا على القاتل إعتاق رقبة مؤمنة ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فمن لم يجد الرقبة فعلية صيام شهرين متتابعين عوضًا عنها شرع تعالى لكم ذلك لأجل التوبة عليكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي عليمًا بخلقه حكيمًا فيما شرع.. ثم بيَّن تعالى حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته الشديدة فقال ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ أي ومَن يُقْدِم على قَتْل مؤمن عالمًا بإيمانه متعمدًا لقتله فجزاؤه جهنم مخلدًا فيها على الدوام، وهذا محمول عند الجمهور على من استحل قتل المؤمن كما قال ابن عباس لأنه باستحلال القتل يصبح كافرًا[٢] ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ أي ويناله السخط الشديد من الله والطرد من رحمة الله والعذاب الشديد في الآخرة[٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ أي إذا سافرتم في الجهاد لغزو الأعداء فتثبتوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ أي ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمنًا وإنما قلت هذا خوفًا من القتل فتقتلوه ﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي حال كونكم طالبين لماله الذي هو حُطامٌ سريع الزوال ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾ أي فعند الله ما هو خير من ذلك وهو ما أعده لكم من جزيل الثواب والنعيم ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي كذلك كنتم كفارًا فهداكم للإسلام ومَنَّ عليكم بالإيمان فتبينوا أن تقتلوا مؤمنًا وقيسوا حاله بحالكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ أي مطلعًا على أعمالكم فيجازيكم عليها، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين فقال ﴿لَّا يَسۡتَوِي

---

(١) (ش): عاقلة القاتل هم عصبته كالأب والابن والإخوة والأعمام ونحوهم.

(٢) (ش): هذا الكلام فيه خلط بين مذهب الجمهور ومذهب ابن عباس في عقوبة قتل العمد.

(٣) انظر تفصيل حكم القاتل عمدًا في البحر ٣/ ٣٢٦، وفي ابن كثير ١/ ٤٢٢ من المختصر.

ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها، ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله: هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ -وكان أعمى- فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [١]. ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أي فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية كما قال ﷺ: « **إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ** » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ « **وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ** » [٢] ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكلاً من المجاهدين والقاعدين بسبب ضررٍ لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة وفي الحديث « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** »[٣] .

البَلاغَة: تضمنت هذه الآيات من البلاغة والبيان والبديع أنواعًا نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام بمعنى الإنكار في ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ؟ وفي ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ﴾ ؟

٢ - الطباق في ﴿أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وكذلك ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ .... وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ .

٣ - والجناس المغاير في ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ وفي ﴿وَمَغْفِرَةً ... غَفُورًا﴾ .

٤ - الإطناب في ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ... وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ وكذلك في ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ .

٥ - الاستعارة في ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء واستعار السبيل لدين الله، ففيه استعارة الضرب للجهاد، واستعارة السبيل لدين الله.

٦ - المجاز المرسل في ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق مملوك.

الفوَائِد: القتل العمد من أعظم الجرائم في نظر الإسلام ولهذا كانت عاقبته في غاية التغليظ والتشديد وقد قال ﷺ «من أعان على قتل مسلم مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ

---

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه النسائي. (ش): رواه البخاري

بين عينيه آيسٌ من رحمة الله»[(١)] وفي الحديث أيضًا «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن»[(٢)]

تنبيه: أمر تعالى في القتل الخطأ بإعتاق رقبةٍ مؤمنة والحكمة في هذا - والله أعلم - أنه لما اخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار إذ أن إطلاقها من قيد الرق إحياءٌ لها، والعبد الرقيق في الإسلام له من الحقوق ما ليس للأحرار في الأمم الأخرى وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [النحل: ٧١] [(٣)]. وقوله ﷺ في مرضه الذي مات فيه «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون»[(٤)] ومن يطّلع على معاملة الزنوج في أمريكا يتضح له جليًا صحة ما نقول وها هي الأمم الغربية تحرم استرقاق العبيد في حين أنها تسترق الأحرار، وتحرم استرقاق الأفراد وتسترق الجماعات والأمم والشعوب، باسم الاستعمار والانتداب، فأين هذه الحضارة المزعومة والمدنيَّة الزائفة من حضارة الإسلام ومدنيته الصادقة التي حررت الشعوب والأمم والأفراد؟!

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه. (ش): رواه ابن ماجه بلفظ: مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » ، ، وضعفه الألباني).

(٢) أخرجه البيهقي. (ش): (رواه الترمذي بلفظ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ» ، وصححه الألباني).

(٣) (ش): لم يتبيَّنْ لي وجهُ استدلال المؤلف بالآية على حقوق الرقيق، فقد قال في تفسيرها: أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستووا في ذلك مع عبيدهم، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟

(٤) (ش): عَنْ عَلِيٍّ ت قَالَ كَانَ آخِرُ كَلَام رَسُولِ اللهِ ﷺ «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». رواه أبو داود وصححه الألباني. وقال ﷺ: وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ » رواه البخاري

لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ
بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ
فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن
تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا
﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا
﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا
لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ
نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا
يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى ثواب المجاهدين الأبرار، أتبعه بذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر، ثم رغب تعالى في الهجرة من دار الكفر إِلى دار الإِيمان وذكر ما يترتب عليها من السعة والأجر والثواب، ثم لما كان الجهاد والهجرة سببا لحدوث الخوف بيَّنَ تعالى صلاة المسافر وطريقة صلاة الخوف، ثم أتبع ذلك بذكر أروع مثل في الانتصار للعدالة سجله التاريخ ألا وهو إِنصاف رجل يهودي اتهم ظلمًا بالسرّقة وإِدانة الذين تآمروا عليه وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة المنورة.

اللغَة: ﴿مُرَٰغَمًا﴾ مذهبًا ومتحولًا مشتق من الرّغام وهو التراب قال ابن قتيبة: المُراغم والمُهَاجر واحد وأصله أن الرجل كان إِذا أسلم خرج عن قومه مُراغمًا لهم أي مغاضبًا فقيل للمذهب مُرَاغمًا وسمي مصيرة إِلى النبي ﷺ هجرة[1] ﴿وَسَعَةً﴾ اتساعًا في الرزق ﴿تَقْصُرُوا۟﴾ القصر: النقص يقال قصر صلاته إِذا صلّى الرباعية ركعتين قال أبو عبيد: فيها ثلاث لغات قصرتُ الصلاة وقصَّرتها وأقصرتها[2] ﴿تَغْفُلُونَ﴾ الغفلة: السهو الذي يعتري الإِنسان من قلة التحفظ والتيقظ ﴿مَّوْقُوتًا﴾ محدود الأوقات لا يجوز إِخراجه عن وقته ﴿تَهِنُوا۟﴾

(١) تفسير غريب القرآن ص ١٣٤.
(٢) «القرطبي» ٥/ ٣٦٠.

تضعفوا ﴿خَصِيمًا﴾ الخصيم بمعنى المخاصم أي المنازع والمدافع ﴿خَوَّانًا﴾ مبالغًا في الخيانة.

سَبَبُ النَّزول: أ - عن ابن عباس قال: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة - وكانوا يستخفون بالإسلام - فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرهوا على الخروج فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ [1] الآية.

ب - كان ضمرة بن القيس [2] من المستضعفين بمكة وكان مريضًا فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده احملوني فإني لستُ من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق، والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير ثم خرجوا به فمات في الطريق بالتنعيم فأنزل الله ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ [3]﴾.

ج - روي أن رجلًا من الأنصار يقال له «طُعمة بن أُبيرق» من بني ظفر سرق درعًا من جاره «قتادة ابن النعمان» في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرقٍ فيه فخبأها عند «زيد بن السمين» اليهودي فالتُمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها فقال: دفعها إليَّ طُعْمة وشهد له ناسٌ من اليهود فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ . .﴾ الآية وهرب طُعْمة إلى مكة وارتد ونقب حائطًا بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله[4].

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٢٧. (ش): أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) (ش): الصواب: ضمرة بن جندب.

(٣) «القرطبي» ٥/ ٣٤٩. (ش): صحيح، أخرجه أبو يعلى في «المسند»، والطبراني في «المعجم الكبير» وابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٤) «أبو السعود» ١/ ٣٨٠. (ش): ضعيف جدًا، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان». ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. =

= روى الترمذي عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَ: كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقَالُ لَهُمْ بَنُو أُبَيْرِقٍ بِشْرٌ وَبَشِيرٌ وَمُبَشِّرٌ وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا مُنَافِقًا يَقُولُ الشِّعْرَ يَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ يَنْحَلُهُ بَعْضَ الْعَرَبِ ثُمَّ يَقُولُ قَالَ فُلاَنٌ كَذَا وَكَذَا قَالَ فُلاَنٌ كَذَا وَكَذَا فَإِذَا سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَلِكَ الشِّعْرَ قَالُوا وَاللهِ مَا يَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ إِلاَّ هَذَا الْخَبِيثُ أَوْ كَمَا قَالَ الرَّجُلُ وَقَالُوا ابْنُ الأُبَيْرِقِ قَالَهَا قَالَ وَكَانَ أَهْلُ بَيْتِ حَاجَةٍ وَفَاقَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلاَمِ وَكَانَ النَّاسُ إِنَّمَا طَعَامُهُمْ بِالْمَدِينَةِ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ مِنَ الدَّرْمَكِ ابْتَاعَ الرَّجُلُ مِنْهَا فَخَصَّ بِهَا نَفْسَهُ وَأَمَّا الْعِيَالُ فَإِنَّمَا طَعَامُهُمُ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ فَابْتَاعَ عَمِّي رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ حِمْلًا مِنَ الدَّرْمَكِ فَجَعَلَهُ فِي مَشْرَبَةٍ لَهُ وَفِي الْمَشْرَبَةِ سِلاَحٌ وَدِرْعٌ وَسَيْفٌ فَعُدِيَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الْبَيْتِ فَنُقِبَتِ الْمَشْرَبَةُ وَأُخِذَ الطَّعَامُ وَالسِّلاَحُ فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِي إِنَّهُ قَدْ عُدِيَ عَلَيْنَا فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ فَنُقِبَتْ مَشْرَبَتُنَا فَذُهِبَ بِطَعَامِنَا وَسِلاَحِنَا. قَالَ فَتَحَسَّسْنَا فِي الدَّارِ وَسَأَلْنَا فَقِيلَ لَنَا قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أُبَيْرِقٍ اسْتَوْقَدُوا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَلاَ نُرَى فِيمَا نُرَى إِلاَّ عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ. قَالَ وَكَانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ قَالُوا وَنَحْنُ نَسْأَلُ فِي الدَّارِ وَاللهِ مَا نُرَى صَاحِبَكُمْ إِلاَّ لَبِيدَ بْنَ سَهْلٍ رَجُلٌ مِنَّا لَهُ صَلاَحٌ وَإِسْلاَمٌ فَلَمَّا سَمِعَ لَبِيدٌ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَقَالَ أَنَا أَسْرِقُ فَوَاللهِ لَيُخَالِطَنَّكُمْ هَذَا السَّيْفُ أَوْ لَتُبَيِّنُنَّ هَذِهِ السَّرِقَةَ. قَالُوا إِلَيْكَ عَنْهَا أَيُّهَا الرَّجُلُ فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا. فَسَأَلْنَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا فَقَالَ لِي عَمِّي يَا ابْنَ أَخِي لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ. قَالَ قَتَادَةُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلَ جَفَاءٍ عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ فَنَقَبُوا مَشْرَبَةً لَهُ وَأَخَذُوا سِلاَحَهُ وَطَعَامَهُ فَلْيَرُدُّوا عَلَيْنَا سِلاَحَنَا فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلاَ حَاجَةَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « سَآمُرُ فِي ذَلِكَ ». فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أُبَيْرِقٍ أَتَوْا رَجُلًا مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أَسِيرُ بْنُ عُرْوَةَ فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ فَاجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَعَمَّهُ عَمَدَا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلِ إِسْلاَمٍ وَصَلاَحٍ يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلاَ ثَبْتٍ. قَالَ قَتَادَةُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ فَقَالَ « عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلاَمٌ وَصَلاَحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبْتٍ وَلاَ بَيِّنَةٍ ». قَالَ فَرَجَعْتُ وَلَوَدِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أُكَلِّمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِي مَا صَنَعْتَ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ اللهُ الْمُسْتَعَانُ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ بَنِي أُبَيْرِقٍ ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللهَ﴾ أَيْ مِمَّا قُلْتَ لِقَتَادَةَ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَيْ لَوِ اسْتَغْفَرُوا اللهَ لَغَفَرَ لَهُمْ ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِثْمًا مُبِينًا﴾ قَوْلُهُمْ لِلَبِيدٍ ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالسِّلاَحِ فَرَدَّهُ إِلَى رِفَاعَةَ فَقَالَ قَتَادَةُ لَمَّا أَتَيْتُ عَمِّي بِالسِّلاَحِ وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسِيَ أَوْ عَشِيَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكُنْتُ أُرَى إِسْلاَمَهُ مَدْخُولًا فَلَمَّا أَتَيْتُهُ بِالسِّلاَحِ قَالَ يَا ابْنَ أَخِي هُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَعَرَفْتُ أَنَّ إِسْلاَمَهُ كَانَ صَحِيحًا فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لَحِقَ بَشِيرٌ بِالْمُشْرِكِينَ فَنَزَلَ عَلَى سُلاَفَةَ بِنْتِ سَعْدِ ابْنِ سُمَيَّةَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلًا بَعِيدًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَ عَلَى سُلاَفَةَ رَمَاهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ شِعْرِهِ فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَى رَأْسِهَا ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ فَرَمَتْ بِهِ فِي الأَبْطَحِ ثُمَّ قَالَتْ أَهْدَيْتَ لِي شِعْرَ حَسَّانَ مَا كُنْتَ تَأْتِينِي بِخَيْرٍ. (حسّنه الألباني).

شرح الحديث: (ثُمَّ يَنْحَلُهُ بَعْضَ الْعَرَبِ) أَيْ يَنْسُبُهُ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّحْلَةِ وَهِيَ النِّسْبَةُ بِالْبَاطِلِ (أَوْ كَمَا قَالَ الرَّجُلُ) أَوْ لِلشَّكِّ مِنْ الرَّاوِي ، أَيْ قَالَ لَفظُ الْخَبِيثِ . أَوْ قَالَ لَفْظُ الرَّجُل (وَقَالَ ابْنُ الْأُبَيْرِقِ قَالَهَا) أَيْ هَذِهِ الْأَشْعَارَ (وَكَانُوا)أَيْ بَنُو أُبَيْرِقٍ (إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ) أَيْ غِنًى (فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنْ الشَّام) الضَّافِطُ وَالضَّفَّاطُ : مَنْ يَجْلِبُ الْمِيرَةَ وَالْمَتَاعَ إِلَى الْمُدُنِ ، وَالْمُكَارِي : الَّذِي يُكْرِي الْأَحْمَالَ وَكَانُوا يَوْمَئِذٍ قَوْمًا مِنْ الْأَنْبَاطِ يَحْمِلُونَ =

التفسير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي تتوفاهم الملائكة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الإيمان ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تقول لهم الملائكة في أيّ شيء كنتم من أمر دينكم؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع قالوا معتذرين: كنا مستضعفين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ﴾ ؟ أي قالت لهم الملائكة توبيخًا: أليست أرض الله واسعة فتهاجروا من دار الكفر إلى دارٍ تقدرون فيها على إقامة دين الله كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة؟ قال تعالى بيانًا لجزائهم ﴿فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي مقرهم النار وساءت مقرًا ومصيرًا، ثم استثنى تعالى منهم الضعفة والعاجزين عن الهجرة فقال ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي لكن من كان منهم مستضعفًا كالرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة ولا يستطيعون الخلاص ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي لعل الله أن يعفو عنهم لأنهم لم يتركوا الهجرة اختيارًا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي يعفو ويغفر لأهل الأعذار، وعسى في كلام الله تفيد التحقيق ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذا ترغيبٌ في الهجرة أي من يفارق وطنه ويهرب فرارًا بدينه من كيد الأعداء يجد مُهَاجرًا ومتجولًا في الأرض كبيرًا يُراغم به أنف عدوه ويجد سعةً في الرزق فأرض الله واسعة ورزقه سابغ على العباد ﴿ياعبادي الذين آمنوا إنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فاعبدون﴾ [العنكبوت: ٥٦] ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أخبر تعالى أن من خرج من بلده مهاجرًا من أرض الشرك فارًا بدينه إلى الله ورسوله ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي ساترًا على العباد رحيمًا بهم ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

= إِلَى الْمَدِينَةِ الدَّقِيقَ وَالزَّيْتَ وَغَيْرَهُمَا (مِنْ الدَّرْمَكِ) هُوَ الدَّقِيقُ الْحَوَارِيُّ (فَجَعَلَهُ) أَيْ فَوَضَعَهُ (فِي مَشْرَبَةٍ) الْمَشْرَبَةُ: الْغُرْفَةُ (سِلَاحٌ) بِكَسْرِ السِّينِ وَهُوَ اِسْمٌ جَامِعٌ لِآلَاتِ الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ (دِرْعٌ وَسَيْفٌ) بَيَانٌ لِسِلَاحٌ (فَعُدِيَ عَلَيْهِ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ سُرِقَ مَالُهُ وَظُلِمَ، (فَنُقِّبَتْ) مِنْ التَّنْقِيبِ أَوْ النَّقْبِ (فَتَحَسَّسْنَا) التَّجَسُّسِ: تَطَلُّبِ مَعْرِفَةِ الْأَخْبَارِ، (رَجُلٌ مِنَّا) أَيْ هُوَ رَجُلٌ مِنَّا (اِخْتَرَطَ سَيْفَهُ) أَيْ اِسْتَلَّهُ (إِلَيْك عَنْهَا) أَيْ تَنَحَّ عَنْهَا (فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا) أَيْ لَسْت بِصَاحِبِ السَّرِقَةِ (حَتَّى لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُمْ) أَيْ بَنِي أُبَيْرِقٍ (أَهْلَ جَفَاءٍ) الْجَفَاءُ: تَرْكُ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ. (﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ بَنِي أُبَيْرِقٍ)، قَوْلُهُ بَنِي أُبَيْرِقٍ تَفْسِيرٌ وَبَيَانٌ لِلْخَائِنِينَ (مِمَّا قُلْت لِقَتَادَةَ)، هَذَا تَفْسِيرٌ وَبَيَانٌ لِمَا أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنْهُ (أَيْ لَوْ اِسْتَغْفَرُوا اللهَ لَغَفَرَ لَهُمْ) هَذَا تَفْسِيرٌ يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، (قَوْلُهُمْ لِلَبِيدٍ) هَذَا تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾. (وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَشَا أَوْ عَسَا) عَشَا: أَيْ قَلَّ بَصَرُهُ وَضَعُفَ. عَسَا: أَيْ كَبِرَ وَأَسَنَّ. (وَكُنْت أُرَى) بِضَمِّ الْهَمْزَةِ أَيْ أَظُنُّ (مَدْخُولًا) الدَّخَلُ: الْعَيْبُ وَالْغِشُّ وَالْفَسَادُ، يَعْنِي أَنَّ إِيمَانَهُ كَانَ مُتَزَلْزِلًا فِيهِ نِفَاقٌ.

﴿أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي وإذا سافرتم للغزو أو التجارة أو غيرهما فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي إن خشيتم أن ينالكم مكروه من أعدائكم الكفرة، وذكرُ الخوف وليس للشرط وإنما هو لبيان الواقع حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو لكثرة المشركين ويؤيده حديث «يعلى بن أمية» قال قلت لعمر بن الخطاب: إن الله يقول ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ وقد أمن الناس فقال: عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»[1] ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ أي إن الكافرين أعداء لكم مظهرون للعداوة ولا يمنعهم فرصة اشتغالكم بمناجاة الله أن يقتلوكم ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ﴾ أي وإذا كنت معهم يا محمد وهم يصلون صلاة الخوف في الحرب فلتأتم بك طائفة منهم وهم مدججون بأسلحتهم احتياطًا ولتقم الطائفة الأخرى في وجه العدو ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ أي فإذا فرغت الطائفة الأولى من الصلاة فلتأت الطائفة التي لم تصلّ إلى مكانها لتصلي خلفك ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡ﴾ أي وليكونوا حذرين من عدوهم متأهبين لقتالهم بحملهم السلاح ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي تمنى أعداؤكم أن تنشغلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيأخذوكم غرة، ويشدوا عليكم شدة واحدة فيقتلونكم وأنتم تصلون والمعنى لا تتشاغلوا بأجمعكم بالصلاة فيتمكن عدوكم منكم ولكن أقيموها على ما أُمرتم به ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡ﴾ أي لا إثم عليكم في حالة المطر أو المرض أن لا تحملوا أسلحتكم إذا ضعفتم عنها ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ أي كونوا متيقظين واحترزوا من عدوكم ما استطعتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي أعدَّ لهم عذابًا مخزيًا مع الإهانة، روى ابن كثير عند هذه الآية عن أبي عياش الزُرقي قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بعُسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد - وهم بيننا وبين القبلة - فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: لقد كانوا على حالٍ لو أصبنا غرتهم ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر» ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[2] الآية ثم أمر تعالى بكثرة ذكره عقب صلاة الخوف فقال ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ أي فإذا فرغتم من الصلاة فأكثروا من ذكر الله في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم واذكروه في جميع الحالات لعلة ينصركم على عدوكم ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٣١. (ش): صحيح، أخرجه وأبو داود، والنسائي، وابن حبان.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي فإذا أمنتم وذهب الخوف فأتموا الصلاة وأقيموها كما أمرتم بخشوعها وركوعها وسجودها وجميع شروطها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ أي فرضًا محدودًا بأوقات معلومة لا يجوز تأخيرها عنه، ثم حث تعالى على الجهاد والصبر عند الشدائد فقال ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل جِدُّوا فيهم وقاتِلُوهم واقعُدوا لهم كل مرصد ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ أي إن كنتم تتألمون من الجراح والقتال فإنهم يتألمون أيضًا منه كما تتألمون ولكنكم ترجون من الله الشهادة والمثوبة والنصر حيث لا يرجونه هم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليمًا بمصالح خلقه حكيمًا في تشريعه وتدبيره، قال «القرطبي»: نزلت هذه الآية في حرب أُحد حيث أمر ﷺ بالخروج في آثار المشركين وكان بالمسلمين جراحات وكان أمر ألا يخرج معه إلا من حضر في تلك الوقعة(١)، وقيل: هذا في كُل جهاد(٢). ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن متلبسًا بالحق لتحكم بين الناس بما عرّفك الله وأوحى به إليك ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ أي لا تكن مدافعًا ومخاصمًا عن الخائنين تجادل وتدافع عنهم، والمراد به «طعمة بن أبيرق» وجماعته ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي استغفر الله مما هممتَ به من الدفاع عن طُعْمة اطمئنانًا لشهادة قومه بصلاحه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي مبالغًا في المغفرة والرحمة لمن يستغفره ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي لا تخاصم وتدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعاصي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾ أي لا يحب من كان مفرطًا في الخيانة منهمكًا في المعاصي والآثام ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي يستترون من الناس خوفًا وحياءً ولا يستحيون من الله وهو أحق بأن يُستحيا منه ويخاف من عقابه ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي وهو معهم جل وعلا عالمٌ بهم وبأحوالهم يسمعُ ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي لا يعزب عنه شيء منها ولا يفوت. . ثم قال تعالى توبيخًا لقوم طُعْمة ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي ها أنتم يا معشر القوم دافعتم عن السارق والخائنين في الدنيا ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي فمن يدافع عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه؟ ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ ؟؟ أي من يتولى الدفاع عنهم ونصرتهم من بأس الله وانتقامه؟ ثم دعاهم الله تعالى إلى الإنابة والتوبة فقال ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ أي من يعمل أمرًا قبيحًا يسوء به غيره كاتهام بريء أو يرتكب جريمة يظلم بها نفسه

(١) (ش): ذكره «القرطبي»، بدون إسناد.
(٢) «القرطبي» ٥/ ٣٧٤.

كالسرقة ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن عباس: عرض اللهُ التوبة بهذه الآية على بني أُبيرق ﴿إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي من يقترف إِثمًا متعمدًا فإِنما يعود وبال ذلك على نفسه وكان الله عليمًا بذنبه حكيمًا في عقابه ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ أي من يفعل ذنبًا صغيرًا أو إِثمًا كبيرًا ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي ثم ينسب ذلك إِلى بريء ويتهمه به فقد تحمّل جرمًا وذنبًا واضحًا، ثم بين تعالى فضله على رسوله فقال ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ أي لولا فضل الله عليك بالنبوة ورحمته بالعصمة لَهَمَّتْ جماعة منهم أن يضلوك عن الحق، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يبرئ صاحبهم «طُعْمة» من التهمة ويلحقها باليهودي فتفضل الله عَزَّ وَجَلَّ على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ أي وبَالُ إِضلالهم راجع عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ أي وما يضرونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي أنزل الله عليك القرآن والسنة فكيف يضلونك وهو تعالى يُنزل عليك الكتاب ويوحي إِليك بالأحكام ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أي علمك ما لم تكن تعلمه من الشرائع والأمور الغيبية وكان فضله تعالى عليك كبيرًا بالوحي والرسالة وسائر النعم الجسيمة.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من البلاغة والبيان والبديع أنواعًا نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع في ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾ ؟ وفي ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ ؟

٢ - إِطلاق العام وإِرادة الخاص ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ أريد بها صلاة الخوف.

٣ - الجناس المغاير في ﴿يَعْفُوَ ... عَفُوًّا﴾ وفي ﴿يُهَاجِرْ ... مُهَاجِرًا﴾ وفي ﴿يَخْتَانُونَ ... خَوَّانًا﴾ وفي ﴿يَسْتَغْفِرِ ... غَفُورًا﴾ .

٤ - إِطلاق الجمع على الواحد في ﴿تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يراد به ملَكُ الموت وذُكِر بصيغة الجمع تفخيمًا له وتعظيمًا لشأنه(١).

٥ - طباق السلب ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ .

٦ - الإِطناب بكرار لفظ الصلاة تنبيهًا على فضلها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ .

---

(١) (ش): ملَكُ الموت واحد كما هو ظاهر حديث الصحيحين أن موسى عليه السلام جاءه ملك الموت فقال «أَجِبْ رَبَّكَ»، وكما دل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١] غير أن له أعوانا. قال الله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]. وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٧].

قال الله تعالى:

لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ
الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ
أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ
مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ
نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا
﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ
عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ
الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ
مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾
وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ
خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي
النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ
مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ
وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا
كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن
يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ
وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ
اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة طُعْمة وحادثة السرقة التي اتهم بها اليهودي البريء ودفاع قومه عنه وتآمرهم في السرّ لإيقاع البرئ بها، ذكر تعالى هنا أن موضوع النجوى لا يخفى على الله وأن كل تدبير في السرّ يعلمه الله، وأنه لا خير في التناجي إلا ما كان بقصد الخير والإصلاح،

ثم ذكر تعالى أن مخالفة أمر الرسول ﷺ جرمٌ عظيم وحذَّر من الشيطان وطرق إغوائه، ثم عاد الحديث إلى التحذير من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن وأكد على وجوب الإحسان إليهن، وأعقبه بذكر النشوز والطريق إلى الإصلاح بين الزوجين إمّا بالوفاق أو بالفراق.

اللغَة: ﴿نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ النجوى: السرُّ بين الإثنين قال الواحدي: ولا تكون النجوى إلا بين اثنين ﴿يُشَاقِقِ﴾ يخالف والشقاقُ: الخلاف مع العداوة لأن كلًا من المتخالفين يكون في شق غير شق الآخر ﴿مَّرِيدًا﴾ المريد: العاتي المتمرد من مرد إذا عتا وتجبر قال الأزهري: مرد الرجل إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو ما رد ومريد ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ البَتْك: القطع، ومنه سيفٌ باتِكٌ أي قاطع ﴿مَحِيصًا﴾ مهربًا من حاص إذا هرب ونفر وفي المثل «وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ» أي فيما لا يقدر على التخلص منه ﴿خَلِيلًا﴾ من الخلة وهي صفاء المودة قال ثعلب: سمي الخليل خليلًا لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللًا إلا ملأته قال بشار:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الـرُّوحِ مِنِّي   وَبِـهِ سُـمِّـيَ الْـخَـلِـيـلُ خَـلِـيـلَا[1]

﴿الشح﴾ شدة البخل ﴿المعلقة﴾ هي التي ليست ذات بعل ولا مطلقة.

سبب النزول: أ- لما سرق «طعمة بن أُبيرق» وحكم النبي ﷺ عليه بالقطع هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام فأنزل الله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ[2]﴾ الآية.

ب- قال قتادة: تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم، وقال المؤمنون: نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على سائر الكتب فنزلت ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ[3]﴾ الآية.

التفسير: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ أي لا خير في كثير مما يُسرّه القوم ويتناجون به في الخفاء ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي إلا نجوى من أمر بصدقةٍ ليعطيها سرًا أو أمر بطاعة الله قال «الطبري»: المعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، والإصلاح هو الإصلاح بين المختصمين[4] ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي ومن يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح طلبًا لرضى الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ أي فسوف نعطيه ثوابًا جزيلًا هو الجنة قال الصاوي: والتعبير بـ «سوف» إشارة إلى أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة لا في الدنيا لأنها ليست دار جزاء ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي يخالف أمر الرسول

(١) «القرطبي» ٥/ ٤٠٠.
(٢) «القرطبي» ٥/ ٣٨٥. (ش): راجع حديث الترمذي الطويل الذي حسنه الألباني والمذكور في هامش قبل صفحات.
(٣) «أسباب النزول» ص ١٠٤. (ش): أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».
(٤) «الطبري» ٩/ ٢٠١.

فيما جاء به عن الله من بعد ما ظهر له الحق بالمعجزات ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي يسلك طريقًا غير طريق المؤمنين ويتبع منهاجًا غير منهاجهم ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ أي نتركه مع اختياره الفاسد وندخله جهنم عقوبة له ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ أي وساءت جهنم مرجعًا لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ أي فقد بَعُد عن طريق الحق والسعادة بعدًا كبيرًا ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ أي ما يدعو هؤلاء المشركون وما يعبدون من دون الله إلا أوثانًا سموها بأسماء الإناث «اللات والعزى ومناة» قال في التسهيل: كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة[١] ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ أي وما يعبدون إلا شيطانًا متمردًا بلغ الغاية في العتو والفجور وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربه ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ أي أبعده الله عن رحمته فأقسم الشيطان قائلًا: لأتخذنَّ من عبادك الذين أبعدتني من أجلهم نصيبًا أي حظًا مقدرًا معلومًا أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعصاة وفي صحيح مسلم **يَقُولُ اللهُ** تعالى لآدم يوم القيامة: «**أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ**» ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ لأصرفنّهم عن طريق الهدى وأعدهم الأماني الكاذبة وألقي في قلوبهم طول الحياة وأن لا بعث ولا حساب ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي ولآمرنهم بتقطيع آذان الأنعام قال قتادة: يعني تشقيقها وجعلها علامة للبحيرة والسائبة[٢] كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾ أي ولآمرنهم بتغيير خلق الله كخصاء العبيد والحيوان والوشم وغيره وقيل: المراد به تغيير دين الله بالكفر والمعاصي[٣] وإحلال ما حرّم الله وتحريم ما أحل الله ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ومن يتول الشيطان ويُطِعْه ويترك أمْرَ الله ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ أي خسر دنياه وآخرته لمصيره إلى النار المؤبدة وأي خسرانٍ أعظم من هذا؟ ثم قال تعالى عن إبليس ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡ﴾ أي يعدهم بالفوز والسعادة ويمنيهم بالأكاذيب والأباطيل قال ابن كثير: هذا إخبارٌ عن الواقع فإن

(١) هذا اختيار «الطبري» وقيل: إن المراد بالإناث الملائكة كقوله تعالى: ﴿ ٱ پ ڀ ڀ﴾ فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله.

(٢) (ش): البَحِيرَةُ: هِيَ الوَاحِدَةُ مِنَ الأَنْعَامِ التِي يَبْحَرُونَ أُذْنَهَا، أَيْ يَشُقُّونَهَا شَقًّا وَاسِعًا، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا انْتَجَتْ خَمْسَةَ أَبطُنٍ وَكَانَ الخَامِسُ أُنْثَى. وَكَانُوا يَجْعَلُونَ دَرَّهَا لِلطَّوَاغِيتِ، فَلاَ يَحْلِبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَيُسَيِّبُونَهَا لآلِهَتِهِمْ. السَّائِبَةُ: وَهِيَ التِي تُسَيَّبُ بِأَنْ يَنْذُرُهَا لآلِهَتِهِمْ، فَتَرْعَى حَيْثُ تَشَاءُ، وَلا يُحْمَلُ عَلَيهَا شَيءٌ، وَلا يُجَزُّ صُوفُها، وَلا يُحْلَبُ لَبَنُها إلاَّ لِضَيْفٍ.

(٣) هذا مروي عن ابن عباس ومجاهد والضاحك وهو اختيار «الطبري».

الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة وقد كذب وافترى في ذلك[١] ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وما يعدهم إلا باطلًا وضلالًا قال ابن عرفة: الغُرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه، فهو مُزَيَّن الظاهر فاسد الباطن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة نار جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي ليس لهم منها مفر ولا مهرب، ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم من الكرامة في دار القرآن فقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي مخلدين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعدًا لا شك فيه ولا ارتياب ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أي ومن أصدق من الله قولًا؟ والاستفهام معناه النفيُ أي لا أحد أصدق قولًا من الله قال «أبو السعود». والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه[٢] ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني ولكنْ ما وقر في القلب وصدّقه العمل، إن قومًا ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أي من يعمل السوء والشر ينال عقابه عاجلًا أو آجلًا ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة سواءً كان ذكرًا أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٣] أي يدخلهم الله الجنة ولا يُنقصون شيئًا حقيرًا من ثواب أعمالهم كيف ولا والمجازي أرحم الراحمين! وإنما قال ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ليبيّن أن الطاعة لا تنفع من دون الإيمان، ثم قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؟ أي لا أحد أحسن دينًا ممن انقاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي مطيعٌ لله مجتنبٌ لنواهيه ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، مستقيمًا على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي صفيًا اصطفاه لمحبته وخلته قال ابن كثير: فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٣٩.

(٢) «أبو السعود» ١/ ٣٨٤.

(٣) (ش): النَقِيرُ: حفرة مستديرة في ظهر نواة البلح. والقِطْمِير: القِشرَةُ الرَّقيقَةُ على النواة كاللفافة لَهَا، القِشرَةُ الرَّقيقَةُ بين النَّواةِ والتَّمْرَةِ. والفتيل: خَيْط فِي شقّ النواة أو قشرَة في بطنها.

المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه [١] ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جميع ما في الكائنات ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع لذلك، لا رادّ لما قضى ولا معقب لما حكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي يسألونك عما يجب عليهم في أمر النساء ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي قل لهم يا محمد: يبين الله لكم ما سألتم في شأنهنَّ ويبين لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي ويفتيكم أيضًا في اليتيمات اللواتي ترغبون في نكاحهن لجمالهن أو لمالهنَّ ولا تدفعون لهن مهورهنَّ فنهاهم الله عَزَّ وَجَلَّ عن ذلك قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا فإن كانت جميلة واحبها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمةً منعها الرجال حتى تموت فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي ويفتيكم في المستضعفين الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء ويقولون: كيف نعطي المال من لا يركب فرسًا ولا يحمل سلاحًا ولا يقاتل عدوًا فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ وما تفعلوه من عدلٍ وبرًّ في أمر النساء واليتامى فإن الله يجازيكم عليه قال ابن كثير: وهذا تهييجٌ على فعل الخيرات وامتثال الأوامر وأن الله سيجزي عليه أوفر الجزاء، ثم ذكر تعالى حكم نشوز الرجل فقال ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ أي وإذا علمت امرأة أو شعرت من زوجها الترفع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكره لها لدمامتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى من هي أشَبُّ وأجمل منها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقةٍ أو كسوةٍ أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته، روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت: هذا الرجل يكون له امرأتان إحداهما قد عجزت أو هي دميمة وهو لا يحبها فتقول: لا تطلِّقني وأنت في حِلٍّ من شأني [٢] ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي والصلح خيرٌ من الفراق ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ أي جبلت الأنفس على الشح وهو شدة البخل فالمرأة لا تكاد تسمح بحقها من النفقة والاستمتاع، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٢٢.
(ش): وفي هذه الآية، إثبات صفة الخُلّة لله ـ وهي أعلى مقامات المحبة، والاصطفاء.
(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٤٣.

وأحبَّ غيرها ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي وإن تحسنوا في معاملة النساء وتتقوا الله بترك الجور عليهن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي فإن الله عالم بما تعملون وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء(١).. ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغٌ من الصعوبة مبلغًا لا يكاد يطاق، وهو كالخارج عن حد الاستطاعة فقال ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لن تستطيعوا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسوّوا بينهن في المحبة والأُنس والاستمتاع ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي ولو بذلتم كل جهدكم لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلًا كاملًا فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة، شبّهت بالشيء المعلَّق بين السماء والأرض، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء، وهذا من أبلغ التشبيه ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتتقوا الله بالتمسك بالعدل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه، فإن الله يغنيه بفضله ولطفه، بأن يرزقه زوجًا خيرًا من زوجة، وعيشًا أهنأ من عيشه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ أي واسع الفضل على العباد حكيمًا في تدبيره لهم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ملكًا وخلقًا وعبيدًا ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي وصينا الأولين والآخرين وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة ﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي وصيناكم جميعًا بتقوى الله وطاعته ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي وإن تكفروا فلا يضره تعالى كفركم لأنه مستغنٍ عن العباد وهو المالك لما في السماوات والأرض ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ أي غنيًا عن خلقه، محمودًا في ذاته، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كفى به حافظًا لأعمال عباده ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ أي لو أراد الله لأهلككم وأفناكم وأتى بآخرين غيركم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ أي قادرًا على ذلك ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي من كان يريد بعمله أجر الدنيا فعند الله ما هو أعلى وأسمى وهو أجر الدنيا والآخرة فلم يطلب الأَخَسَّ ولا يطلب الأعلى؟ فليسأل العبد ربه خيري الدنيا والآخرة فهو تعالى سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات أنواعًا من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة في ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ استعار الوجه للقصد والجهة وكذلك في قوله ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ لأن الشح لما كان غير مفارق للأنفس ولا متباعد عنها كان كأنه

(١) «الطبري» ٩/ ٢٧١.

أحضرها وحمل على ملازمتها فاستعار الإحضار للملازمة(١).

٢ - الجناس المغاير في ﴿ضَلَّ ... ضَلَٰلَۢا﴾ وفي ﴿خَسِرَ... خُسۡرَانٗا﴾ وفي ﴿أَحۡسَنُ... مُحۡسِنٞ﴾ وفي ﴿صُلۡحٗا... وَٱلصُّلۡحُ﴾ وفي ﴿تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ .

٣ - التشبيه في ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ﴾ وهو مرسل مجمل.

٤ - الإطناب والإيجاز في عدة مواضع.

تنبيه: العدل المقصود في هذه الآية هو العدل في المحبة القلبية فقط وإلا لتناقضت الآية مع الآية السابقة ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول «اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»(٢) يعني بذلك المحبة القلبية ويدل على هذا قوله تعالى ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ﴾ ، وأما ما يدعو إليه بعض من يتسمون بـ «المجددين» من وجوب التزوج بواحدة فقط بدليل هذه الآية فلا عبرة به لأنه جهل بفهم النصوص وهو باطل محض تَرُدُّه الشريعة الغراء، والسنة النبوية المطهرة، وكفانا الله شر علماء السوء.

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ
إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ
وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ
ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ
لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن
دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ
جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ
أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ
بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ
خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ

---

(١) «تلخيص البيان» ص ٢٦.

(٢) (ش): (رواه أبو داود وضعفه الألباني. وقالَتْ عائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَسْمِ مِنْ مُكْثِهِ عِنْدَنَا وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلاَّ وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتُ عِنْدَهَا (رواه أبو داود ، وصححه الألباني).

﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَٰكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

المناسَبَة: لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل سواء كان المشهود عليه غنيًا أو فقيرًا، وحذّر من إتباع الهوى، ثم دعا إلى الإيمان بجميع الملائكة، والكتب والرسل، ثم أعقب ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخزية وما له من العذاب والنكال في دركات الجحيم.

اللغَة: ﴿تَلْوُۥٓا۟﴾ الليُّ: الدفع يقال لويت فلانًا حقه إذا دفعته ومطلته ومنه الحديث «ليُّ الواجد ظلم» أي مَطْل الغنِيّ ظُلْمٌ[١] ﴿يَخُوضُواْ﴾ الخوض: الاقتحام في الشيء ومنه خوض الماء ﴿نَسْتَحْوِذْ﴾ الاستحواذ: الاستيلاء والتغلب يقال استحوذ على كذا إذا غلب عليه ومنه قوله تعالى ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة: ١٩] ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ الذبذبة: التحريك والاضطراب يقال ذبذبته فتذبذب والمذبذب المتردّد بين أمرين ﴿ٱلدَّرْكِ﴾ بسكون الراء وفتحها بمعنى الطبقة وهي لما تسافل قال ابن عباس: الدَّرْك لأهل النار كالدرج لأهل الجنة إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض، والدركات بعضها أسفل من بعض[٢]. التفسير: ﴿يَا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي ما من آمنتم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ حتى لا يكون منهم جورٌ أبدًا ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ أي تقيمون شهاداتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو أقربائكم فلا تمنعكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنيًا فلا يراعَى لِغِناه، أو فقيرًا فلا يَمْتَنع من الشهادة عليه ترَحُّمًا وإشفاقًا ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما فيه صلاحهما فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ أي فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس قال ابن كثير: أي لا يحملنكم الهوى

---

(١) (ش): قَالَ « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ» رواه البخاري. وقَالَ ﷺ « لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ ». رواه البخاري. قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ يُحِلُّ عِرْضَهُ يُغَلَّظُ لَهُ، وَعُقُوبَتَهُ يُحْبَسُ لَهُ.

(٢) البحر ٣/ ٣٨٠.

والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شئونكم بل الزموا العدل على كل حال[١] ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ أي وإِن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو تُعرضوا عن إِقامتها رأسًا ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي اثبتوا على الإِيمان ودوموا عليه ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ أي وبالكتب السماوية التي أنزلها من قبل القرآن قال «أبو السعود»: المراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية[٢] ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك فقد خرج عن طريق الهدى، وبَعُد عن القصد كل البعد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ هذه الآية في المنافقين[٣] آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم ماتوا على الكفر قال ابن عباس: دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي ﷺ في البر والبحر وقال ابن كثير: يخبر تعالى عمن دخل في الإِيمان ثم رجع فيه ثم عاد إِلى الإِيمان ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات فإِنه لا توبة له بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجًا ولا مخرجًا ولا طريقًا إِلى الهدى[٤] ولهذا قال تعالى ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ أي لم يكن الله ليسامحهم على ذلك ولا ليهديهم طريقًا إِلى الجنة قال الزمخشري: ليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإِيمان بعد تكرار الردة لم يُقبل منهم ولم يُغفر لهم ولكنه استبعاد له واستغراب كأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجى منه الثبات، والغالب أنه يموت على شر حال[٥]، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عبّر تعالى بلفظ ﴿بَشِّرِ﴾ تهكمًا بهم أي أخبر يا محمد المنافقين بعذاب النار الأليم ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعوانًا وأنصارًا لما يتوهمونه فيهم من القوة ويتركون ولاية المؤمنين ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أي أيطلبون بموالاة الكفار القوة والغلبة؟ والاستفهام إِنكاري أي إِنّ الكفار لا عزة لهم فكيف تُبْتغى منهم! ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي العزة لله ولأوليائه قال ابن كثير والمقصود من هذا التهييجُ على طلب العزة من جناب الله ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي نزّل عليكم في القرآن، والخطابُ لمن

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٤٧.

(٢) «أبو السعود» ١/ ٣٨٩.

(٣) وقيل إنها في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل ثم آمنوا بعد عودة موسى إليهم ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفرًا بكفرهم بمحمد وهو قول قتادة واختاره «الطبري»

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٤٨.

(٥) «الكشاف» ١/ ٤٤٧.

أظهر الإِيمان من مؤمن ومنافق ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي أنزل عليكم أنه إِذا سمعتم القرآن يَكْفر به الكافرون ويَسْتهزئ به المستهزئون ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ أي لا تجلسوا مع الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله حتى يتحدثوا بحديث آخر ويتركوا الخوض في القرآن ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي إِنكم إِن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكفر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أي يجمع الفريقين الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنم لأن المرء مع من أحب، وهذا الوعيد منه تعالى للتحذير من مخالطتهم ومجالستهم.. ثم ذكر تعالى تربصهم السوء بالمؤمنين فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي ينتظرون بكم الدوائر ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي غلبةٌ على الأعداء وغنيمة ﴿قالوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ﴾ أي فأعطونا مما غنمتموه من الكافرين ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي ظفرٌ عليكم يا معشر المؤمنين ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قالوا للمشركين ألم نغلبكم ونتمكنْ من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم وثبطنا عزائم المؤمنين حتى انتصرتم عليهم؟ فهاتوا نصيبنا مما أصبتم لأننا نواليكم ولا نترك أحدًا يؤذيكم قال تعالى بيانًا لمآل الفريقين ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يحكم بين المؤمنين والكافرين ويفصل بينهم بالحق ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي لن يمكّنَ الكفرة من رقاب المؤمنين فيبيدوهم ويستأصلوهم[1] قال ابن كثير: وذلك بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية وإِن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان، فإِن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة[2] ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي يفعلون ما يفعل المخادع من إِظهار الإِيمان وإِبطال الكفر والله يجازيهم على خداعهم ويستدرجهم بأمر المؤمنين بحقن دمائهم، وقد أعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، فسمّى تعالى جزاءهم خداعًا بطريق المشاكلة لأن وبَالُ خداعهم راجع عليهم ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ أي يصلون وهم متثاقلون متكاسلون، لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يذكرون الله سبحانه إِلا ذكرًا قليلًا ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي لا ينتسبون إِلى المؤمنين ولا إِلى الكافرين ﴿وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾

---

(١) ذكر «القرطبي» خمسة أقوال للمفسرين في هذه الآية هذا أحدها وهو الذي رجحناه وقيل: إن المراد بالسبيل الحجة وقيل هذا يوم القيامة وقد رجحه «الطبري» حيث قال: يعني حجة يوم القيامة واستدل له بما روى أن رجلًا سأل عليا عن هذه الآية فقال: ادن مني ثم قرأ: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي يوم القيامة وقد ضعف هذا الرأي ابن العربي انظر «القرطبي» ٥/ ٤١٩.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٤٩.

أي ومن يضلله الله فلن تجد له طريقًا إلى السعادة والهدى، ثم حذّر تعالى المؤمنين من موالاة أعداء الدين فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تتركوا موالاة المؤمنين وتوالوا الكفرة المجرمين بالمصاحبة والمصادقة ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي أتريدون أن تجعلوا لله حجة بالغة عليكم أنكم منافقون؟ قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن حجةٌ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات قال ابن عباس: أي في أسفل النار، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله، والنارُ دركات كما أن الجنة درجات ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي لن تجد لهؤلاء المنافقين ناصرًا ينصرهم من عذاب الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ وهذا استثناء أي تابوا عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أي أعمالهم ونياتهم ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي تمسكوا بكتاب الله ودينه ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي لم يبتغوا بعملهم إلا وجه الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة وهو الجنة ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ أي أيُّ منفعةٍ له سبحانه في عذابكم؟ أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يدفع به الضر ويستجلب النفع وهو الغنى عنكم؟ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي شاكرًا لطاعة العباد مع غناه عنهم يعطي على العمل القليل الثواب الجزيل.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات أنواعًا من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المبالغة في الصيغة في ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي مبالغين في العدل.

٢ - الطباق بين ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ وبين ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ .

٣ - الجناس الناقص في ﴿ءَامَنُواْ ءَامَنُواْ﴾ لتغير الشكل.

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿يُخَٰدِعُونَ ... خَٰدِعُهُمْ﴾ وفي ﴿جَامِعُ ... جَمِيعًا﴾ وفي ﴿شَكَرْتُمْ ... شَاكِرًا﴾ .

٥ - الأسلوب التهكمي في ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار تهكمًا.

٦ - الاستعارة في ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة على العمل، والله تعالى منزّه عن الخداع(١).

(١) (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دَالَّةٌ على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفًا مطلقًا ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . إلخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبدًا، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة. . إلخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالًا، =

٧ - الاستفهام الإنكاري في ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ والغرضُ منه التقريع والتوبيخ.

الفوَائِد: الأولى: قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ ليس تكرارًا وإنما معناه اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه كقول المؤمن ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أي ثبتنا على الصراط المستقيم.

الثانية: سمى تعالى ظفر المؤمنين فتحًا عظيمًا ونسبه إليه ﴿فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وظفر الكافرين نصيبًا ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم ينسبه إليه وذلك لتعظيم شأن المسلمين، وتخسيس حظ الكافرين.

الثالثة: قال المفسرون: النار سبع دركات أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعيرة، ثم سقرن ثم الجحيم، ثم الهاوية وقد تسمى بعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها، كذا في البحر.

تنبيه: المنافق أخطر من الكافر ولهذا كان عذابه أشد ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ وقد شرط تعالى للتوبة على الكافر الانتهاء عن الكفر فقط ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨] وأما المنافق فشرط عليه أربعًا: التوبة، والإصلاح، والاعتصام، وإخلاص الدين له فقال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فدل على أن المنافقين شرٌّ من كفر به وأولاهم بمقته، وأبعدهم من الإنابة

= ويمكن أن تكون نقصًا، على حسب الحال التي تُذكر فيها. فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالًا يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصًا لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء. فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيدًا بما يجعله كمالًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء :١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة :١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالًا في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفًا مطلقًا. لأنه حينئذٍ لا يكون كمالًا. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا *وَأَكِيدُ كَيْدًا. وقوله: وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ. وقوله: اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ. وقوله: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ. وقوله: وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحا سيئا لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

إليه ثم قال ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولم يقل فأولئك هم المؤمنون ثم قال ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ ولم يقل «وسوف يؤتيهم» بغضًا لهم وإعراضًا عنهم وتفظيعًا لما كانوا عليه من عظم كفر النفاق، زادنا الله فهمًا لأسرار كتابه.

قال الله تعالى:

لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ
أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن
يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ
سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ
أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا
مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي
ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ
وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ
بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا
﴿١٥٩﴾ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ
ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ
فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة، ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبائح، إلا في حق من زاد ضررهُ وعظُم خطرُه، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر، ثم تحدث عن اليهود وعدَّد بعض جرائمهم الشنيعة مثل طلبهم لرؤية الله، وعبادتهم للعجل وادعائهم صلب المسيح، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم شنيعة.

اللغة: ﴿جَهۡرَةٗ﴾ عيانًا ﴿بُهۡتَٰنًا﴾ البهتان: الكذب الذي يُتحير فيه من شدته وعظمته ﴿شُبِّهَ﴾ وقع الشَّبه بين عيسى والمقتول الذي صلبوه ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ هيأنا ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ المتمكنون من العلم.

سَبَبُ النّزول: روي أن كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود قالوا يا محمد: إن كنت نبيًا فأتنا بكتاب من السماء جملةً كما أتى موسى بالتوراة جملة فأنزل الله ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ...﴾[1] الآية[2].

التفسير: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي لا يحب الله الفُحْش في القول والإيذاء باللسان إلا المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظالمه وأن يذكره بما فيه من السوء قال ابن عباس: المعنى لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلومًا[3] ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي سميعًا لدعاء المظلوم عليمًا بالظالم ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ أي إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه أو عفيتم عمن أساء إليكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي كان مبالغًا في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة، قال الحسن يعفوا عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى[4] حث تعالى على العفو وأشار إلى أنه عفوٌّ مع قدرته فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم؟! ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ الآية في اليهود والنصارى لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد ﷺ وغيره، جعل كفرهم ببعض الرسل كفرًا بجميع الرسل، وكفرَهُم بالرسل كفرًا بالله تعالى ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ التفريقُ بين الله ورسله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم وقد فسره تعالى بقوله بعده ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ أي نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض قال قتادة: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وتركوا الإسلام دين الله الذي بعث به رسله[5] ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي طريقًا وسطًا بين الكفر والإيمان ولا واسطة بينهما ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يقينًا ولو ادعوا الإيمان ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي هيأنا لهم عذابًا شديدًا مع الإهانة والخلود في نار جهنم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي صدّقوا الله وأقروا بجميع الرسل وهم المؤمنون أتباع محمد ﷺ لم يفرقوا بين أحد من رسله بل آمنوا بجميعهم ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي سنعطيهم ثوابهم الكامل

(١) مجمع البيان ٣/ ١٣٣.
(٢) (ش): ضعيف جدًا، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».
(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٥٢.
(٤) «أبو السعود» ١/ ٣٩٣.
(٥) «الطبري» ٩/ ٣٥٤.

على الإيمان بالله ورسله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي غفورًا لما سلف منهم من المعاصي والآثام متفضلًا عليهم بأنواع الإنعام ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبيًا فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى جملة، وإنما طلبوا ذلك على وجه التعنت والعناد، فذكر تعالى سؤالهم ما هو أفظع وأشنع تسلية للنبي ﷺ للتأسي بالرسل فقال ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي سألوا موسى رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ عيانًا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي جاءتهم من السماء نار فأهلكتهم بسبب ظلمهم ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي ثم اتخذوا العجل إلهًا وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات من العصا واليد وفلق البحر وغيرها قال «أبو السعود»: وهذه المسألة - وهي طلب رؤية الله - وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم في كل ما يأتون ويذرون أسندت إليهم[١] ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أي عفونا عما ارتكبوه مع عظيم جريمتهم وخيانتهم ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي حجة ظاهرة تظهر صدقة وصحة نبوته قال «الطبري»: وتلك الحجة هي الآيات البينات التي آتاه الله إياها[٢] ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي رفعنا الجبل فوقهم لما امتنعوا عن قبول شريعة التوراة بسبب الميثاق ليقبلوه ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا باب بيت المقدس مُطَأْطِئِينَ رءوسكم خضوعًا لله فخالفوا ما أُمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة استهزاءً ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي لا تعتدوا باصطياد الحيتان يوم السبت فخالفوا واصطادوا ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي عهدًا وثيقًا مؤكدًا ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق لعنّاهم وأذللناهم و ﴿مَا﴾ لتأكيد المعنى ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي وبجحودهم بالقرآن العظيم ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كزكريا ويحيى عليه السلام ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي قولهم للنبي ﷺ قلوبنا مغشّاة بأغشية لا تعي ما تقوله يا محمد، قال تعالى ردًا عليهم ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي بل ختم تعالى عليها بسبب الكفر والضلال فلا يؤمن منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ أي وبكفرهم بعيسى عليه السلام أيضًا ورميهم مريم بالزنى وقد فضلها الله على نساء العالمين ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي قتلنا هذا الذي يزعم أنه رسول الله، وهذا إنما قالوه على سبيل «التهكم والاستهزاء» كقول فرعون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وإلاّ فهم يزعمون أن عيسى ابن زنى وأمه زانية ولا يعتقدون أنه رسول الله قال تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي وما قتلوا عيسى

---

(١) «أبو السعود» ١/ ٣٩٤.

(٢) «الطبري» ٩/ ٣٦٠.

ولا صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من أُلقي عليه شَبَهُهُ قال البيضاوي: روي أن رجلًا كان ينافق لعيسى فخرج ليدل عليه فألقى الله عليه شبهه فأخذ وصُلب وهم يظنون أنه عيسى[١] ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من قتله، روي أنه لما رُفع عيسى وأُلقي شبهه على غيره فقتلوه قالوا: إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فاختلفوا فقال بعضهم هو عيسى وقال بعضهم ليس هو عيسى بل هو غيره، فأجمعوا أن شخصًا قد قتل واختلفوا من كان[٢] ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ أي ما لهم بقتله علم حقيقي ولكنهم يتبعون فيه الظنَّ الذي تخيَّلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ونجّاه الله من شرهم فرفعه إلى السماء حيًا بجسده وروحه كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة[٣] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ أي عزيزًا في ملكه حكيمًا في صنعه ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ أي ليس أحد من اليهود والنصارى إلا ليؤمننَّ قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله حين يعاين ملائكة الموت ولكن لا ينفعه إيمانه قال ابن عباس: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى قيل له: أرأيت إن ضرُبت عُنق أحدهم؟ قال: يلجلج بها لسانه وكذا صحّ عن مجاهد وعكرمة وابن سيرين[٤] ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ أي يشهد عيسى على اليهود بأنهم كذبوه وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ أي بسبب ظلم اليهود وما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرمنا عليهم أنواعًا من الطيبات التي كانت محلّلة لهم ﴿وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ أي ويمنعهم كثيرًا من الناس عن الدخول في دين الله قال مجاهد: صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أي تعاطيهم الربا وقد حرمه الله عليهم في التوراة ﴿وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ﴾ أي بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي وهيأنا لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب المؤلم الموجع ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ﴾ أي لكن المتمكِّنون في العلم منهم والثابتون فيه كعبدالله بن

---

(١) البيضاوي ص١٤١.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٦٣.

(٣) منها ما رواه الشيخان: « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً ، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ » الحديث وانظر كتاب «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» للكشميري تحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة.
(ش): (يَضَعَ الْجِزْيَةَ) لَا يَقْبَلُهَا، وَلَا يَقْبَلُ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَمَنْ بَذَلَ مِنْهُمُ الْجِزْيَةَ لَمْ يَكُفَّ عَنْهُ بِهَا، بَلْ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوِ الْقَتْلَ.

(٤) اختار «الطبري» أن الضمير في: ﴿قبل موته﴾ يعود على عيسى ويصبح المعنى: لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى قبل موت عيسى لما ينزل قرب الساعة، وما ذكرناه هو اختيار أبي السعود و«الكشاف» والجلالين.

سلام وجماعته ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ﷺ من غير أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي يؤمنون بالكتب والأنبياء[1] ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أمدحُ المُقيمين الصلاة؛ فهو نصبٌ على المدح ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي المعطون زكاة أموالهم ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي والمؤمنون بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة سنعطيهم ثوابًا جزيلًا على طاعتهم وهو الخلود في الجنة.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات أنواعًا من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿تُبْدُواْ ... أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وبين ﴿نُؤْمِنُ ... وَنَكْفُرُ﴾ .

٢ - التعريض والتهكم في ﴿قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ قالوه على سبيل التهكم والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون برسالته.

٣ - زيادة الحرف لمعنى التأكيد ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ أي فبنقضهم.

٤ - الاستعارة في ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ استعار الرسوخ للثبوت في العلم والتمكن فيه وكذلك الاستعارة في ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ استعار الغلاف بمعنى الغطاء لعدم الفهم والإدراك أي لا يتوصل إليها من الذكر والموعظة.

٥ - الاعتراض في ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ ردًا لمزاعمهم الفاسدة.

٦ - الالتفات في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والأصل سيؤتيهم وتنكير الأجر للتفخيم.

٧ - المجاز المرسل في ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَآءَ﴾ حيث أُطلق الكل وأُريد البعض وكذلك في ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم كفروا بالقرآن والإنجيل ولم يكفروا بغيرهما[2].

الفوَائِد: قال في التسهيل: إن قيل كيف قالوا فيه رسول الله وهم يكفرون به ويسبونه؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم قالوا ذلك على وجه التهكم والاستهزاء، والثاني: أنهم قالوه على حسب اعتقاد المسلمين فيه كأنهم قالوا: رسولُ الله عندكم أو بزعمكم والثالث: أنه من قول الله لا من قولهم فيوقف قبله وفائدته تعظيم ذنبهم وتقبيح قولهم إنا قتلناه وقوله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ردٌّ على اليهود وتكذيبٌ لهم وردٌ على النصارى في قولهم إنه صلب حتى عبدوا الصليب من أجل ذلك، والعجب كل العجب من تناقضهم في قولهم إنه إلهٌ أو ابن إله ثم يقولون إنه صلب[3].

---

(١) (ش): وفي مقدمتهم النبي ﷺ؛ قال ﷺ: وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) (ش): لما رَضُوا بفِعْل أسلافِهم شارَكوهم في الجريمة، ولما كفروا بكتابٍ واحد كفروا بالكل حقيقةً لا مجازًا.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٦٣.

تنبيه: دلَّ قوله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ على أن الله تعالى نجّى رسوله عيسى من شر اليهود الخبثاء فلم يُقتل ولم يصلب وإِنما صلبوه شخصًا غيره ظنوه عيسى وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فقتلوه وهم يحسبونه عيسى، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع العقل والنقل، وأما النصارى فيعتقدون أنه صلب وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه وأنه تضرّع وبكى مع زعمهم أنه هو «الله» أو «ابن الله» وأنه جاء ليخلّص البشرية من أوزارها إلى غير ما هنالك من التناقض العجيب الغريب ولقد أحسن من قال:

عَجَبًا لِلْمَسِيحِ بَيْنَ النَّصَارَى ... وَإِلَى أَيِّ وَالِدٍ نَسَبُوهْ!
أَسْلَمُوهُ إِلَى الْيَهُودِ وَقَالُوا ... إِنَّهُمْ بَعْدَ ضَرْبِهِ صَلَبُوهْ
فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا ... وَصَحِيحًا فَأَيْنَ كَانَ أَبُوهْ؟
حِينَ خَلَّى ابْنَهُ رَهِينَ الْأَعَادِي ... أَتُرَاهُمْ أَرْضَوْهُ أَمْ أَغْضَبُوهْ؟
فَلَئِنْ كَانَ رَاضِيًا بِأَذَاهُمْ ... فَاحْمَدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ عَذَّبُوهْ
وَلَئِنْ كَانَ سَاخِطًا فَاتْرُكُوهُ ... وَاعْبُدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ غَلَبُوهْ

قال الله تعالى:

إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا
قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾
رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾
لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ
ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا
﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ
وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ
عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا
﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا
﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ

﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

المناسَبَة: لما حكى تعالى جرائم اليهود التي من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح، ذكر تعالى هنا أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان، وأنه أرسل سائر المرسلين مبشرين ومنذرين، ثم دعا النصارى إلى عدم الغلو في شأن المسيح باعتقادهم فيه أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة، فليس هو ابن الله كما يزعم النصارى وليس ابن زنى كما يزعم اليهود فكلا الفريقين واقع بين الإفراط والتفريط، ثم ختمت السورة الكريمة بما ابتدأت به من رعاية حقوق الورثة من الأقرباء.

اللغة: ﴿تَغْلُوا۟﴾ الغلوُّ: مجاوزة الحد ومنه غلا السعر ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ يأنف والاستنكاف الأنفة والترفع قال الزجاج: مأخوذ من نكفْتُ الدمع إذا نحيته بأصبعك عن خدك ﴿بُرْهَٰنٌ﴾ البرهان: الدليل والمراد به هنا المعجزات ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟﴾ لاذوا ولجأوا والعصمةُ الامتناعُ ﴿ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ من لا ولد له ولا والد وقد تقدم.

سَبَبُ النّزول: جاء وفد من النصارى إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى قال: وأي شيء أقول فيه؟ قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله، فقال لهم: إنه ليس بعار أن يكون عبدًا لله قالوا: بلى فأنزل الله ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ الآية[1].

التفسير: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده، وإنما قدّم ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ أي وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل الخ، خصَّ تعالى بالذكر هؤلاء تشريفًا وتعظيمًا لهم وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني ثم ذكر إبراهيم لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقدّم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه والنصارى وفي تقديسه ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أي وخصصنا داود بالزبور قال «القرطبي»: كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكمٌ من الأحكام وإنما

---

(١) «أسباب النزول» للواحدى ص ١٠٧. (ش): لا يثبت، رواه الواحدي في«أسباب النزول» بدون إسناد.

هي حِكَمٌ ومواعظ[١] ﴿وَرُسُلًا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾ أي وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة ﴿وَرُسُلًا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ أي ورسلًا آخرين لم نخبرك عن أحوالهم ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ أي وخصّ الله موسى بأن كلّمه بلا واسطة ولهذا سُمي الكليم، وإنما أكّد ﴿تَكۡلِيمًا﴾ رفعًا لاحتمال المجاز قال ثعلب: لولا التأكيد لجاز أن تقول: قد كلمت لك فلانًا بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولًا فلما قال تكليمًا لم يكن إلا كلامًا مسموعًا من الله تعالى[٢] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي يبشرون بالجنة من أطاع وينذرون بالنار من عصى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي بعثهم الله ليقطع حجة من يقول لو أُرسل إليّ رسولٌ لآمنتُ وأطعت فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزًا في ملكه حكيمًا في صنعه، ثم ذكر تعالى ردًا على اليهود حين أنكروا نبوة محمد فقال ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ﴾ أي إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك من القرآن المعجز ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ أي أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره بأسلوب يعجز عنه كل بليغ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي كفى الله شاهدًا فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك وإن لم يشهد غيره ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ أي كفروا بأنفسهم ومنعوا الناس عن الدخول في دين الله قد ضلوا عن طريق الرشاد ضلالًا بعيدًا لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال فضلالهم في أقصى الغايات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ قال الزمخشري: أي جمعوا بين الكفر والمعاصي[٣] ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾ أي لن يعفو الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنة لأنهم ماتوا على الكفر ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم مخلّدين فيها أبدًا ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي تخليدهم في جهنم لا يصعب عليه ولا يستعظمه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أي يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشريعة السمحة من عند ربكم ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡ﴾ أي صدّقوا ما جاءكم من عند ربكم يكن الإيمان خيرًا لكم ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وإن تستمروا على الكفر فإن الله غني عنكم لا يضره كفركم إذ لو له ما في الكون ملكًا وخلقًا وعبيدًا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليمًا بأحوال العباد حكيمًا فيما دبره لهم، ولما ردّ تعالى على شبه اليهود فيما سبق أخذ في الردّ على ضلالات

(١) «القرطبي» ٦.
(٢) البحر ٣/ ٣٩.
(٣) وقال «الطبري»: أي جحدوا رسالة محمد ﷺ فكفروا بالله وظلموا بمقامهم على الكفر.

النصارى في إفراطهم في تعظيم المسيح حيث عبدوه من دون الله فقال ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي يا معشر النصارى لا تتجاوزوا الحدَّ في أمر الدين بإفراطكم في شأن المسيح وادعاء ألوهيته ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ أي لا تصفوا الله بما لا يليق من الحلول والاتحاد[1] واتخاذ الصاحبة والولد ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي ما عيسى إلا رسولٌ من رسل الله وليس ابن الله كما زعمتم ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي وقد خلق بكلمته تعالى «كنْ» من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ أي ذو رُوح مُبْتَدَأَةٍ من الله[2] وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى، وإنما أُضيف إلى الله تشريفًا وتكريمًا ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي آمنوا بوحدانيته وصدقوا رسله أجمعين ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، أو الله ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، فنهاهم تعالى عن التثليث وأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزّه عن التركيب وعن

(١) (ش): الحلول والاتحاد من العقائد الكُفْرِيَّة: والحلول: هو الاعتقاد بحلول الله – عز وجل – في مخلوقاته، أو بعض مخلوقاته. وينقسم الحلول إلى قسمين: ١– حلول عام: وهو اعتقادٌ أن الله تعالى قد حلَّ في كل شيء. ٢– حلول خاص: وهو اعتقاد أن الله – جل وعلا – قد حلَّ في بعض مخلوقاته، كاعتقاد بعض فرق النصارى أن الله جل وعلا – حلَّ بعيسى عليه السلام –، وكذلك اعتقاد بعض غلاة الرافضة – كالنصيرية – أن الله – عز وجل – حلَّ في علي بن أبي طالب، وأنه هو الإله؛ حيث حلت فيه الألوهية، وذلك من عقائدهم الأساسية. والاتحاد: هو الاعتقاد باتحاد الله – عز وجل – بمخلوقاته، أو ببعض مخلوقاته. أي: اعتقاد أن وجود الكائنات أو بعضها هو عين وجود الله تعالى. و«الاتحاد» ينقسم إلى قسمين: ١– الاتحاد العام – وهو ما يطلق عليه أيضًا: «وحدة الوجود» –: وهو اعتقاد كون الوجود هو عين الله عز وجل. بمعنى: أن الخالق متحد بالمخلوقات جميعها، وهذا هو معنى «وحدة الوجود»، والقائلون به يسمون «الاتحادية»، أو «أهل وحدة الوجود»، كابن الفارض، وابن عربي، وغيرهما. ٢– الاتحاد الخاص: هو اعتقاد أن الله عز وجل اتحد ببعض المخلوقات دون بعض. فالقائلون بذلك نزهوه من الاتحاد بالأشياء القذرة القبيحة، فقالوا: إنه اتحد بالأنبياء، أو الصالحين، أو الفلاسفة، أو غيرهم، فصاروا هم عين وجود الله جل وعلا. الفرق بينهما يتلخص فيما يلي: ١– أن الحلول إثبات لوجودين، بخلاف الاتحاد فهو إثبات لوجود واحد. ٢– أن الحلول يقبل الانفصال، أما الاتحاد فلا يقبل الانفصال. و من الأمثلة التي يتبين بها الفرق بين الحلول والاتحاد: أ. السُّكَّر إذا وضعته في الماء دون تحريك: فهو حلول؛ لأنه ثَمَّ ذاتان، أما إذا حرَّكْته فذاب في الماء: صار اتحادًا؛ لأنه لا يقبل أن ينفصل مرة أخرى. أما لو وضعت شيئًا آخر في الماء كأن تضع حصاة: فهذا يسمَّى حلولًا، لا اتحادًا؛ لأن الحصاة شيء، والماء شيء آخر، وهما قابلان للانفصال. ولا ريب أن القول بالحلول أو الاتحاد هو من أعظم الكفر والإلحاد – عياذًا بالله – ولكن الاتحاد أشد من الحلول؛ لأنه اعتقاد ذاتٍ واحدة، بخلاف الحلول، ثم إن القول بأنه اتحد في كل شيء أعظم من القول بأنه اتحد في بعض مخلوقاته. وبالجملة: فإن اعتقاد «الحلول والاتحاد» اعتقاد ظاهر البطلان، وقد جاء الإسلام بمحوه من عقول الناس؛ لأنه اعتقاد مأخوذ من مذاهب وفلسفات ووثنيات هندية ويونانية ويهودية ونصرانية وغيرها، تقوم على الدجل، والخرافة.

(٢) (ش): ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ أي من الأرواح التي خلقها الله عز وجل.

نِسْبَة المُركَّب إليه[1] ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ أي انتهوا عن التثليث يكن ذلك خيرًا لكم ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أي منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾ أي تنزّه الله عن أن يكون له ولد ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ خلقًا وملكًا وعبيدًا وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولدًا ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ تنبيه على غناه عن الولد أي كفى الله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولدٍ معين لأنه مالك كل شيء، ثم ردّ تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة فقال ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾ أي لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنه إلهٌ عن أن يكون عبدًا لله ﴿وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ أي لا يستنكفون أيضًا أن يكون عبيدًا لله ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ أي ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ أي يوفيهم ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ﴾ أي بإعطائهم ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي وأما الذين أنفوا وتعظّموا عن عبادته فسيعذبهم عذابًا موجعًا شديدًا ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤيد بالمعجزات الباهرة ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ أي أنزلنا عليكم القرآن ذلك النور الوضاء ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ أي صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ﴾ أي سيدخلهم في جنته دار الخلود[2] ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ أي يهديهم إلى دين الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنة في الآخرة ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ أي يستفتونك يا محمد في شأن الميت إذا لم يكن له والدٌ أو ولد من يرثه ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ أي قل لهم من مات وليس له والدٌ أو ولد وهي الكلالة ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ﴾ أي وله أخت شقيقة أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ أي وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ أي إن كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا

---

(١) (ش): ليس هذا من تعبيرات السلف. والتركيب لم يَرِدْ نَفْيُه ولا إثباتُه في حق الله تعالى فيجب السكوت عنه، والحق أن يقال ما قاله الله عن نفسه: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾. والأصل الذي عليه أهل السنة والجماعة: أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، فلا يتجاوز القرآن والحديث.

(٢) (ش): فالجنة أثَرٌ من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

﴿وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾ أي وإن كان الورثة مختلطين إخوة وأخواتٍ فللذكر منهم مثل نصيب الأختين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ أي يبيّن الله لكم أحكامه وشرائعه خشية أن تضلوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ أي يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم فهو تعالى العالم بمصالح العباد في المحيا والممات.

البَلاَغَة: ١ - تخصيص بعض الأنبياء بالذكر ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ الخ للتشريف وإظهار فضل المذكورين وفيه تشبيه يسمى «مرسلًا مفصلًا».

٢ - قوله ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ اللفظ للعموم ويراد منه الخصوص وهم «النصارى» بدليل قوله بعده ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌۚ﴾ وهي قولة النصارى.

٣ - قوله ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فيه قصر وهو من نوع قصر موصوف على صفة.

٤ - في قوله ﴿يَشۡهَدُونَ ... شَهِيدًا﴾ جناس الاشتقاق.

الفوَائِد: لفظة «مِن» تكون للتبعيض وقد تأتي لابتداء الغاية كما في قوله تعالى ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ يحكى أن طبيبًا نصرانيًا للرشيد ناظر الإمام الواقدي ذات يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزءٌ من الله وتلا هذه الآية ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ فقال الواقدي قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣] فيجب إذا كان عيسى جزءًا من الله أن يكون ما في السماوات وما في الأرض جزءًا منه فانقطع النصراني وأسلم، وفرح الرشيد بذلك فرحًا شديدًا ووصل الواقدي بصلة عظيمة[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النساء»

---

(١) «تفسير أبي السعود» ١/ ٤٠١.

سُورَةُ المَائِدَةِ ٥ ١٢٠

مدنية وآياتها عشرون ومائة

بين يدي السورة

* **سورة المائدة** من السور المدنيّة الطويلة، وقد تناولت كسائر السور المدنية جانب التشريع بإسهاب مثل سورة البقرة، والنساء، والأنفال، إلى جانب موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب، قال أبو ميسرة: المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ وفيها ثماني عشرة فريضة(١).

* **نزلت هذه السورة** ورسول الله منصرف ﷺ من الحديبية، وجماعها يتناول الأحكام الشرعية لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار.

* **أما الأحكام** التي تناولتها السورة فنلخصها فيما يلي: «أحكام العقود، الذبائح، الصيد، الإحرام، نكاح الكتابيات، الردة، أحكام الطهارة، حد السرقة، حد البغي والإفساد في الأرض، أحكام الخمر والميسر، كفارة اليمين، قتل الصيد في الإحرام، الوصية عند الموت، البحيرة والسائبة، الحكم على من ترك العمل بشريعة الله» إلى آخر ما هنالك من الأحكام التشريعية.

* وإلى جانب التشريع قص تعالى علينا في هذه السورة بعض القصص للعظة والعبرة، فذكر قصة بني إسرائيل مع موسى وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان ممثلة في هذه الشرذمة الباغية من «اليهود» حين قالوا لرسولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وما حصل لهم من التشرد والضياع إذ وقعوا في أرض التيه أربعين سنة.

* **ثم قصة** ابنى آدم وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين قوتي الخير والشر، ممثلة في قصة «قابيل وهابيل» حيث قتل قابيل أخاه (هابيل) وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض أريق فيها الدم البريء الطاهر، والقصة تعرض لنموذجين من نماذج البشرية: نموذج النفس الشريرة الأثيمة، ونموذج النفس الخيرة الكريمة ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠] كما ذكرت السورة قصة «المائدة» التي كانت معجزة لعيسى ابن مريم ظهرت على يديه أمام الحواريين.

والسورة الكريمة تعرض أيضًا لمناقشة «اليهود والنصارى» في عقائدهم الزائفة، حيث نسبوا إلى الله ما لا يليق من الذرية والبنين، ونقضوا العهود والمواثيق، وحرفوا التوراة والإنجيل، وكفروا برسالة محمد عليه السلام إلى آخر ما هنالك من ضلالات وأباطيل، وقد

---

(١) «القرطبي» ٦/ ٣٠.

ختمت السورة الكريمة بالموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيث يُدْعَى السيد المسيح عيسى ابن مريم على رءوس الأشهاد ويسأله ربه تبكيتًا للنصارى الذين عبدوه من دون الله ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ويا له من موقف مخز لأعداء الله، تشيب لهوله الرءوس، وتتفطر من فزعه النفوس!

فضلها: عن **عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو** بن العاص رضي الله عنه قال: **أُنْزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سُورَةُ الْمَائِدَةِ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْمِلَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا**(١).

التسمية: سميت سورة «المائدة» [لمجيء] ذكر المائدة فيها حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيدًا وقصتها أعجب ما ذكر فيها لاشتمالها على آيات كثيرة ولطف عظيم من الله العلي الكبير.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ
وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ
وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى
ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ
لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ
وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ
ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ
غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا
عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ
حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ
ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ
وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ
سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ

(١) أخرجه أحمد. (ش): صححه الشيخ أحمد شاكر.

بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

اللغَة: ﴿بِٱلْعُقُودِ﴾ أصل العقد في اللغة: الربط تقول: عقدتُ الحبل بالحبل، ثم استعير للمعاني قال الزمخشري: العقد العهدُ الموثّق شبه بعقد الحبل قال الحطيئة:

قَـوْمٌ إِذَا عَـقَـدُوا عَـقْـدًا لِـجَـارِهِـمُ ... شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرَبَا[1]

﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ البهيمة ما لا نطق له لما في صوته من الإبهام، والأنعام جمع نَعَم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة وهي ما يُقَلَّدُ به الهدى من لحاء الشجر ليُعلم أنه هدي[2] ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يكسبنكم يقال: جرم ذنباً أي كسبه وأجرم اكتسب الإثم ﴿شَنَـَٔانُ﴾ الشنآن: البغض ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ الوقذ: ضرب الشيء حتى يسترخي ويشرف على الموت ﴿ٱلنُّصُبِ﴾ صنمٌ وحجر كانت الجاهلية تنصبه وتذبح عنده وجمعه أنصاب كذا في «اللسان» ﴿بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ القداح جمع زَلَم كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة ضرب بالقداح وهو الاستقسام بالأزلام[3] ﴿مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة لأن البطون فيها تُخمص، أي تضمر والخَمْص ضمور البطن ﴿ٱلْجَوَارِحِ﴾ الكواسب من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والصقر والشاهين.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظّمون الشعائر وينحرون، فأراد المسلمون أن يُغيروا عليهم فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾[4] الآية.

«التفسير»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ الخطاب بلفظ الإيمان للتكريم والتعظيم أي يا معشر المؤمنين أوفوا بالعقود وهو لفظ يشمل كل عقدٍ وعهد بين الإنسان وربه وبين

---

(١) «الكشاف» ١/ ٤٦٦. (ش): الْعِنَاجَ: حبْلٌ أو سَيْرٌ يُشَدُّ تحت الدلو ويتصل طرفاه من أعلاها بما تتصل به آذانها فإذا انقطعت آذانها أمسكها أن تقع في البئر، والكَرَبُ: الحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ عَلَى الدَّلْو، بَعْدَ المَنِينِ، وَهُوَ الحَبْل الأَوَّل، فإذا انْقَطَع المنِينُ بَقِيَ الكَرَبُ. وهذه أمثال ضربها الحطيئة لإيفائهم بالعهد.

(٢) (ش): قَلَّده قلادةً: وضعها في عنقه، كانوا يضعون القلائد، وهي ضفائر من صوف أو وَبَر في الرقاب علامةً على أن البهيمة هَدْيٌ وأن الرجل يريد الحج، والهَدْيُ: ما يُهْدَى إلى البيت الحرام من بهيمة الأنعام - الإبل والبقر والغنم- تقَرُّباً إلى الله تعالى.

(٣) «البحر» ٣/ ٤١٠.

(٤) «الطبري» ٩/ ٤٦٣. (ش): حسن، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم.

الإنسان والإنسان قال ابن عباس: العقود العهود وهي ما أحلَّ الله وما حرّم وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام[١] ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي أُبيح لكم أكل الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم بعد ذبحها إلا ما حرّم عليكم في هذه السورة وهي الميتة والدم ولحم الخنزير إلخ ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي أُحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي يقضي في خلقه بما يشاء لأنه الحكيم في أمره ونهيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي لا تستحلوا حُرمات الله ولا تتعدوا حدوده قال الحسن: يعني شرائعه التي حدها لعباده وقال ابن عباس: ما حرّم عليكم في حال الإحرام[٢] ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أي ولا يستحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه، ولا ما أُهدي إلى البيت أو قُلّد بقلادة ليعرف أنه هدي بالتعرض له ولأصحابه ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام لحج أو عمرة، نهى تعالى عن الإغارة عليهم أو صدهم عن البيت كما كان أهل الجاهلية يفعلون ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ أي إذا تحللتم من الإحرام فقد أُبيح لكم الصيد ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ أي لا يحملنكم بغضُ قوم كانوا قد صدوكم عن المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي تعاونوا على فعل الخيرات وترك المنكرات، وعلى كلْ ما يقرب إلى الله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي خافوا عقابه فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ أي حُرّم عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة وهي ما مات حتف أنفه من غير ذكاة والدمُ المسفوح ولحم الخنزير قال الزمخشري: كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات: البهيمة التي تموت حتف أنفها والفصيد وهو الدم في الأمعاء يشوونه ويقولون: لم يحرم من فُزد - أي فصد - له[٣] وإنما ذكر لحم الخنزير ليبيّن أنه حرام بعينه حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي ما ذكر عليه غير اسم الله أو ذبح لغير الله كقولهم: باسم اللات والعزى ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ هي التي تُخنق بحبل وشبهه ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ هي المضروبة بعصا أو حجر ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تسقط من جبلٍ ونحوه ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ هي التي نطحتها بهيمة أُخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي أكل بعضه

---

(١) هذا القول اختاره «الطبري» والزمخشري، والأرجح العموم فهو أمر بالوفاء بكل عقد وهو اختيار صاحب «البحر» وجمع من المفسرين. قال ابن أسلم هي ستة: عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين كذا في ««ابن كثير»».

(٢) القول الأول أرجح وهو اختيار «الطبري» لعموم الآية.

(٣) «الكشاف» ١/ ٤٦٨.

السبع فمات ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت قال «الطبري» معناه: إلاّ ما طهرتموه بالذبح الذي جعله الله طهوراً[1] ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي وما ذبح على الأحجار المنصوبة قال قتادة: النُّصبُ حجارةٌ كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك قال الزمخشري: كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويْشَرحون اللحم عليها، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي وحُرّم عليكم الاستقسام بالأزلام أي طلب معرفة ما قُسم له من الخير والشر بواسطة ضرب القداح قال في «الكشاف»: كان أحدهم إذا أراد سفرا أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معاظم الأمور ضرب بالقداح وهي مكتوب على بعضها: نهاني ربي، وعلى بعضها أمرني ربي، وبعضُها غُفْلٌ[2] فإن خرج الآمر مضى لغرضه وإن خرج الناهي أمسك وإن خرج الغفل أعاد[3] ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي تعاطيه فسقٌ وخروجٌ عن طاعة الله لأنه دخولٌ في علم الغيب الذي استأثر الله به علام الغيوب[4] ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ أي انقطع طمع الكافرين منكم ويئسوا أن ترجعوا عن دينكم قال ابن عباس: يئسوا أن ترجعوا إلى دينهم أبداً ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي لا تخافوا المشركين ولا تهابوهم وخافون أنصركم عليهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي أكملت لكم الشريعة ببيان الحلال والحرام ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ بالهداية والتوفيق إلى أقوم طريق ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أي اخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان وهو الدين المرضي الذي لا يقبل الله ديناً سواه﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فمن ألجأته الضرورة إلى تناول شيء من المحرمات المذكورة، في مجاعةٍ حال كونه غير مائل إلى الإثم ولا متعمد لذلك، فإن الله لا يؤاخذه بأكله، لأن الضرورات تُبيح المحظورات ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يسألونك يا محمد ما الذي أَحل لهم من المطاعم والمأكل؟ ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي قل لهم: أُبيح لكم المستلذات وما ليس منها بخبيث، وحُرّم كل مستقذر كالخنافس والفئران وأشباهها ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ أي وأَحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكلاب ونحوها مما يُصطاد به ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي مُعلمين للكلاب الاصطياد قال الزمخشري: المكلِّب

(١) «الطبري» ٩/ ٥٠٢.
(٢) (ش): غُفْلٌ: ليس فيها علامة.
(٣) «الكشاف» ١/ ٤٦٩.
(٤) هذا إذا قلنا إن الإشارة عائدة على الاستقسام بالأزلام لعوده على أقرب المذكور وهو قول ابن عباس وهو الراجح، واختار «الطبري» أن الإشارة تعود إلى المحرمات. وكلٌّ صحيح.

مؤدبُ الجوارح ورائضها واشتقاقه من الكَلَب، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب[١] ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أي تعلمونهنَّ طرق الاصطياد وكيفية تحصيل الصيد، وهذا جزءٌ مما علّمه الله للإِنسان ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فكلوا مما أمسكن لكم من الصيد إِذا لم تأكل منه، فإِن أكلت فلا يحل أكله لحديث « **إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ فَقَتَلَ فَكُلْ ، وَإِذَا أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَهُ عَلَى نَفْسِهِ** »[٢] وعلامة المعلَّم أن يسترسل إِذا أُرسل، وينزجر إِذا زُجر، وأن يُمسك الصيد فلا يأكل منه، وأن يذكر اسم الله عند إِرساله فهذه أربعة شروط لصحة الأكل من صيد الكلب المعلَّم[٣] ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي عند إِرساله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي راقبوا الله في أعمالكم فإِنه سريع المجازاة للعباد ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي أبيح لكم المستلذات من الذبائح وغيرها ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ أي ذبائح اليهود والنصارى حلالٌ لكم ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ أي ذبائحكم حلالٌ لهم فلا حرج أن تُطعموهم وتبيعوه لهم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي وأُبيح لكم أيها المؤمنون زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي وزواج الحرائر من الكتابيات (يهوديات أو نصرانيات) وهذا رأي الجمهور وقال عطاء: قد أكثر الله المسلمات وإِنما رخص لهم يومئذٍ[٤] ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي إِذا دفعتم لهن مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي وغير متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن سرًّا قال «الطبري»: المعنى ولا منفرداً ببغيه قد خادنها وخادنته واتخذها

(١) «الكشاف» ١/ ٤٧١.

(٢) أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم.

(٣) (ش): لم يذكر المؤلف إلا شرطين: التعليم وذكر اسم الله.

(٤) (ش): الزواج من اليهودية أو النصرانية جائز في قول جماهير أهل العلم ، قال ابن المنذر : ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك، والنصارى واليهود كفار مشركون بنص القرآن ، لكن إباحة نسائهم مخصص لقوله سبحانه: ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١] وهذا أظهر الوجوه في الجمع بين الآيتين . وقد وصفهم الله بالشرك في قوله : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١] فهم كفار مشركون ، لكن الله تعالى أحل ذبائحهم ونساءهم إذا كُنَّ محصنات ، وهذا تخصيص لعموم آية البقرة. لكن ينبغي أن يُعْلَم أن الأوْلَى والأسْلَم تَرْكُ نكاح الكتابيات ، لاسيما في هذا الزمن ، قال الشيخ ابن باز رحمه الله: (فإذا كانت الكتابية معروفة بالعفة والبعد عن وسائل الفواحش جاز؛ لأن الله أباح ذلك وأحل لنا نساءهم وطعامهم .لكن في هذا العصر يُخشى على مَن تزوَّجهن شر كثير ، وذلك لأنهن قد يدعونه إلى دينهن وقد يسبب ذلك تنصُّر أولاده ، فالخطر كبير ، والأحوط للمؤمن ألا يتزوجها ، ولأنها لا تؤمَن في نفسها في الغالب من الوقوع في الفاحشة ، وأن تعلّق عليه أولادًا من غيره ... لكن إن احتاج إلى ذلك فلا بأس حتى يعف بها فرجه ويغض بها بصره ، ويجتهد في دعوتها إلى الإسلام ، والحذر من شرها وأن تجره هي إلى الكفر أو تجر الأولاد) اهـ . فتاوى إسلامية ٣/ ١٧٢ .

لنفسه صديقة يفجر بها[١] ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي ومن يرتد عن الدين ويكفر بشرائع الإيمان فقد بطَل عمله وهو من الهالكين، ثم أمر تعالى بإسباغ الوضوء عند الصلاة فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم مُحْدِثُون[٢] ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أي اغسلوا الوجوه والأيدي مع المرافق ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ أي امسحوا رءوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين أي معهما قال الزمخشري: وفائدة المجيء بالغاية ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ لدفع ظن من يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تُضرب له غاية في الشريعة وفي الحديث: « **وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ** »[٣] وهذا الحديث يردُّ على الإمامية الذين يقولون بأن الرجلين فرْضُهما المسحُ لا الغسل، والآية صريحة لأنها جاءت بالنصب[٤] ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فهي معطوفة على المغسول وجيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ أي إن كنتم في حالة جنابة فتطهروا بغسل جميع البدن ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي إن كنتم مرضى ويضركم الماء، أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أي أتى من مكان البراز ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي جامعتموهنَّ ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي ولم تجدوا الماء بعد طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتيمم به ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ أي امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب بضربتين كما وضّحت السنة النبوية ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يُريد بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم تضييقاً عليكم ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي يطهركم من الذنوب وأدناس الخطايا بالوضوء والتيمم، وليتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام لتشكروه على نعمه التي لا تحصى ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الخطاب للمؤمنين والنعمةُ هنا للإسلام وما صاروا إليه من اجتماع الكلمة والعزة، أي: اذكروا يا أيها المؤمنون نعمة الله العظمى عليكم بالإسلام وعهده الذي عاهدكم عليه رسوله حين بايعتموه على السمع والطاعة

(١) «الطبري» ٩/ ٥٩٠.

(٢) (ش): الحَدَثُ: هو وصف قائم بالبدن يمنع من الصلاة ونحوها مما يشترط له الطهارة. وهو نوعان: حدث أصغر؛ وهو الذي يقوم بأعضاء الوضوء كالخارج من السبيلين من بول وغائط، ويرتفع هذا بالوضوء، وحدث أكبر؛ وهو الذي يقوم بالبدن كله، كالجنابة، وهذا يرتفع بالغسل.

(٣) «الكشاف» ١/ ٤٧٤. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) (ش): الإمامية: الشيعة، وقد ورد في كتبهم المُعتبَرة عندهم روايات عن الأئمة الذين يدَّعون أنهم معصومون تُناقض ما ذهبوا إليه، بل تدل على وجوب تخليل أصابع القدمين.

في العسر واليسر، والمنشط والمكره ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي اتقوا الله فإنه عالم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ أي كونوا مبالغين في الإستقامة بشهادتكم لله وصيغة (قوّام) للمبالغة ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي تشهدون بالعدل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي العدل مع من تبغضونهم أقرب لتقواكم لله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها قال الزمخشري: وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله وكان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه[1] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وعد الله المؤمنين المطيعين ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهم في الآخرة مغفرة للذنوب وثواب عظيم وهو الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ لما ذكر مآل المؤمنين المتقين وعاقبتهم ذكر مآل الكافرين المجرمين وأنهم في دركات الجحيم دائمون في العذاب قال أبو حيان: وقد جاءت الجملة فعلية بالنسبة للمؤمنين متضمنة الوعد بالماضي الذي هو الدليل على الوقوع، وفي الكافرين جاءت الجملة إسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم وأنهم أصحاب النار فهم دائمون في عذاب الجحيم[2].

البَلاَغَة: ١ - ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ فيه استعارة استعار الشعيرة وهي العلامة للمتعبدات التي تعبَّد الله بها العباد من الحلال والحرام.

٢ - ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أي ذوات القلائد وهي من باب عطف الخاص على العام لأنها أشرف الهدي كقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣ - ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٤ - ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أطلق العام وأراد به الخاص وهو الذبائح.

٥ - ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ بينهما طباق لأن معنى محصنين أي أعِفَّاء ومسافحين أي زناة.

٦ - ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة فعبّر عن إرادة الفعل بالفعل وأقام المسبّب مقام السبب للملابسة بينهما[3]، وفي الآية إيجاز بالحذف أيضاً إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم مُحْدِثُون.

---

(١) «الكشاف» ١/ ٤٧٦.

(٢) «البحر» ٣/ ٤٤١.

(٣) أفاده الزمخشري في «الكشاف» ١/ ٤٧٣.

الفَوائِد: الأولى: يحكى أن أصحاب الكِنْدِيّ - الفيلسوف - قال له أصحابه: أيها الحكيم إعمل لنا مثل هذا القرآن فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحتُ المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلّل تحليلاً عامًّا، ثم استثنى استثناءً، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحدٌ أن يأتي بهذا إلا في مجلدات[١].

الثانية: جرت سنة الجاهلية على مبدأ العصبية العمياء الذي عبّر عنه الشاعر الجاهلي بقوله:

وَهَـلْ أَنَـا إِلَّا مِـنْ غَـزِيَّةَ إِنْ غَـوَتْ ... غَـوَيْـتُ، وَإِنْ تَـرْشُـدْ غَـزِيَّةُ أَرْشُـدِ

فجاء الإسلام بهذا المبدأ الإنساني الكريم ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ وشتّان بين المبدأيْن.

الثالثة: روي أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً! قال أيَّ آية تعني؟ قال ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ الآية فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ فيه، والساعة التي نزلت فيها، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة[٢].

قال الله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ
فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ
مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ
سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ
فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَـٰقَهُمۡ لَعَنَّـٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ
ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ
فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا
مِيثَـٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ
وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ
رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن
كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ
رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ

(١) «القرطبي» ٦/ ٣١.
(٢) أخرجه الشيخان.

صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن
يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ
﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ
خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ
فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ
ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ
ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ
رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ
وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ
ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى
ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة من الأحكام، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام، ذكر هنا نعمته عليهم بالهداية إِلى الإِسلام ودفع الشرور عنهم والآثام، ثم أعقبه ببيان نعمته تعالى على أهل الكتاب «اليهود والنصارى» وأخذه العهد والميثاق عليهم ولكنهم نقضوا العهد فألزمهم الله العداوة والبغضاء إِلى يوم القيامة، ثم دعا الفريقين إِلى الاهتداء بنور القرآن والتمسك بشريعة خاتم المرسلين، وترك ما هم عليه من ضلالات وأوهام.

اللغَة: ﴿نَقِيبًا﴾ النقيب: كبير القوم الذي يبحث عن أحوالهم ومصالحهم فهو كالكفيل عن الجماعة ﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ التعزير: التعظيم والتوقير ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قصد الطريق ووسطه ﴿قَٰسِيَةٗ﴾ صلبة لا تعي خيراً والقاسية والعاتية بمعنى واحد ﴿خَآئِنَةٖ﴾ خيانة ويجوز أن يكون صفة للخائن كما يقال: رجل طاغية وراوية للحديث ﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾ هَيَّجْنا وأَلْزَمْنا مأخوذٌ من الغِراء، وغَري بالشيء إِذا لصق به ﴿فَتۡرَةٖ﴾ انقطاع ﴿يَتِيهُونَ﴾ التِّيه: الحَيْرة والضياع.

سَبَبُ النّزول: أراد بنو النضير أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى وأن يغدروا به وبأصحابه فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن

يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ . .﴾ الآية[١].

«التفسير»: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بحفظه إِياكم من أعدائكم ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ[٢]﴾ أي يبطشوا بكم بالقتل والإِهلاك ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي عصمكم من شرهم وردَّ أذاهم عنكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي فليثق المؤمنون بالله فإِنه كافيهم وناصرهم، ثم ذكر تعالى أحوال اليهود وما تنطوي عليه نفوسهم من الخيانة ونقض الميثاق فقال ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

أي عهدهم المؤكد باليمين ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ أي وأمرنا موسى بأن يأخذ اثني عشر نقيباً - والنقيبُ كبير القوم القائم بأمورهم - من كل سبطٍ[٣] نقيبٌ يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بالعهد توثقةً عليهم قال الزمخشري: لما استقر بنو إِسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالسير إِلى «أريحاء» بأرض الشام كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال لهم: إِني كتبتها لكم داراً وقراراً فجاهدوا من فيها فإِني ناصركم، وأمر موسى بأن يأخذ من كل سِبْطٍ نقيباً فاختار النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعثهم يتجسّسون الأخبار فرأوا قوماً أجسامهم عظيمة ولهم قوةٌ وشوكة فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم وكان موسى قد نهاهم أن يتحدثوا بما يرون فنكثوا الميثاق وتحدثوا إِلا إِثنين منهم[٤] ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ﴾ أي ناصركم ومعينكم ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ اللام للقسم أي وأقسم لكم يا بني إِسرائيل لئن أردتم ما فرضتُ عليكم من إِقامة الصلاة وإِيتاء الزكاة ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أي وصدقتم برسلي ونصرتموهم ومنعتموهم من الأعداء ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي بالإِنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ أي لَأَمْحُوَنَّ عنكم ذنوبكم، وهذا جواب القسم، قال «البيضاوي»: وقد سدَّ مسدَّ جواب الشرط[٥] ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾

---

(١) (ش): ضعيف جدًّا، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٩٦.

(٣) (ش): السِّبط من اليهود كالقبيلة من العرب.

(٤) «الكشاف» ١/ ٤٧٨.

(٥) «البيضاوي» ص ١٤٧ قال ابن مالك:

وَاحْـذِفْ لَـدَى اجْـتِـمَـاعِ شَـرْطٍ وَقَـسَـمْ ... جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَـهُـوَ مُـلْـتَـزَمْ

(ش): القَسَم كالشرط في احتياجه إلى جواب إلا أن جوابه مؤكد باللام أو إن أو منفي، فإذا اجتمع شرط وقسم حُذف جواب المتأخر منهما لدلالة جواب الأول عليه فتقول: إن قام زيد والله يقم عمرو فتحذف جواب القسم لدلالة جواب الشرط عليه، وتقول: والله إن يقم زيد ليقومن عمرو. فتحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه.

أي تجري من تحت غرفها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي من كفر بعد ذلك الميثاق، فقد أخطأ الطريق السويّ وضلّ ضلالاً لا شبهة فيه ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق طردناهم من رحمتنا ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ أي جافة جافية لا تلين لقبول الإيمان(١) ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ قال «ابن كثير»: تأولوا كتابهم - التوراة - على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا على الله ما لم يقل(٢)، ولا جُرْم أعظمُ من الاجتراء على تغيير كلام الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي تركوا نصيباً وافيًا مما أمروا به في التوراة ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي لا تزال يا محمد تَظْهَر على خيانةٍ منهم(٣) بنقض العهود وتدبير المكايد، فالغدرُ والخيانة عادتُهم وعادةُ أسلافهم إلا قليلاً منهم ممن أسلم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا تعاقبهم واصفح عمن أساء منهم، وهذا منسوخ بآية السيف والجزية كما قال الجمهور ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي ومن الذين ادعوا أنهم أنصار الله وسمّوا أنفسهم بذلك أخذنا منهم أيضـًا الميثاق على توحيد الله والإيمان بمحمد رسول الله ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي فتركوا ما أمروا به في الإنجيل من الإيمان بالأنبياء ونقضوا الميثاق ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ألزمنا وألصقنا بين فرَق النصارى العداوة والبغضاء إلى قيام الساعة قال «ابن كثير»: ولا يزالون متباغضين متعادين، يكفِّر بعضهم بعضـًا، ويلعن بعضهم بعضـًا، وكل فرقةٍ تمنع الأخرى دخول معبدها(٤).

وهكذا نجد الأمم الغربية - وهم أبناء دين واحد - يتفنّن بعضهم في إهلاك بعض، فمن مخترع للقنبلة الذرية إلى مخترع للقنبلة الهيدروجينية وهي مواد مدمّرة لا يمكن أن يتصور العقل ما تحدثه من تلفٍ بالغ وهلاك شامل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥] ثم قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ تهديد لهم أي سيلقون جزاء عملهم القبيح ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب لليهود والنصارى أي يا معشر أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبيّن لكم الكثير مما كنتم تكتمونه في كتابكم من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا

---

(١) هذا قول ابن عباس كما في «البحر».

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٩٧.

(٣) (ش): ظهَر على الأمرِ: اطَّلَع عليه: تعرّف عليه، علم به.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٩٨.

قردة وغير ذلك مما كنتم تخفونه ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي يتركه ولا يبيّنه وإِنما يبيّن لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادة على صدقه، ولو ذكر كل شيء لَفضَحكُم قال في «التسهيل»: وفي الآية دليلٌ على صحة نبوته لأنه بَيَّن ما أَخْفَوْه في كتُبِهم وهو أُمِّيٌّ لم يقرأ كتبهم[1] ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ أي جاءكم نور هو القرآن لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك وهو كتاب مبين ظاهر الإِعجاز ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي يهدي بالقرآن من اتبع رضا الله طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي يخرجهم من ظلمات الكفر إِلى نور الإِيمان بتوفيقه وإِرادته ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإِسلام، ثم ذكر تعالى إِفراط النصارى في حق عيسى حيث اعتقدوا ألوهيته فقال ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي جعلوه إِلهاً وهم فرقةٌ من النصارى زعموا أن الله حلَّ في عيسى ولهذا نجد في كتبهم «وجاء الرب يسوع» وأمثاله، ويسوع عندهم هو عيسى[2] ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي قل لهم يا محمد: لقد كذبتم فمن الذي يستطيع أن يدفع عذاب الله لو أراد أن يهلك المسيح وأمه وأهل الأرض جميعاً؟ فعيسى عبد مقهور قابلٌ للفناء كسائر المخلوقات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ولو كان إِلهاً لقدر على تخليص نفسه من الموت ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي من الخلق والعجائب ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي هو قادر على أن يخلق ما يريد ولذلك خلق عيسى من غير أب ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء، ثم حكى عن اليهود والنصارى افتراءهم فقال ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ أي نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء ونحن أحباؤه لأننا على دينه قال «ابن كثير»: أي نحن منتسبون إِلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا[3] ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي لو كنتم كما تدَّعون أبناءه وأحباءه فلِمَ أَعَدَّ لكم نار جهنم على كفركم وافترائكم ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي أنتم بشر كسائر الناس وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يغفر لمن شاء من عباده ويعذب من شاء لا اعتراض لحكمه

(١) «التسهيل» ١/ ١٧٢.

(٢) قال أبو حيان: ذكر سبحانه أن من النصارى من قال: إِن المسيح هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة، ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من تستر بالإِسلام ظاهرًا وانتمى إِلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة ومن ذهب من ملاحدتهم إِلى القول بـ «الاتحاد والوحدة» كالحلاج والصفار وابن اللباج وأمثالهم وإِنما ذكرتهم نصحًا لدين الله وقد أولع جهلة من ينتمي إِلى التصوف بتعظيم هؤلاء وادعائهم أنهم صفوة الله وأولياؤه، «البحر المحيط ٣/ ٤٤٨.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٩٩.

ولا رادَّ لأمره ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإِليه المرجع والمآب، ثم دعاهم إِلى الإِيمان بخاتم المرسلين فقال ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لقد جاءكم محمد ﷺ يوضّح لكم شرائع الدين على انقطاع من الرسل ودُروسٍ[1] من الدين، وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ومدتها خمسمائة وستون سنة لم يُبعث فيها رسول ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي لئلا تحتجوا وتقولوا: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ هو محمد ﷺ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير: أي قادرٌ على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه، ثم ذكر تعالى ما عليه اليهود من العناد والجحود فقال ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لبني إسرائيل: يا قوم تذكّروا نعمة الله العظمى عليكم واشكروه عليها ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي حين بعث فيكم الأنبياء يرشدونكم إِلى معالم الدين وجعلكم تعيشون كالملوك لا يغلبكم غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين فأنقذكم منه بإِغراقه قال «البيضاوي»: لم يُبعث في أمةٍ ما بعث في بني إِسرائيل من الأنبياء[2] ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من أنواع الإِنعام والإِكرام من فَلْقِ «البحر» وتظليل الغمام وإِنزال المنّ والسلوى ونحوها ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ قال «البيضاوي»: هي أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين[3] ومعنى ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي التي وعدكموها على لسان أبيكم إسرائيل وقضى أن تكون لكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة قال في «التسهيل»: روي أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها وهمّوا أن يرجعوا إِلى مصر[4] ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أي عظام الأجسام طوال القامة لا قدرة لنا على قتالهم وهم العمالقة من بقايا عاد ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ أي لن ندخلها حتى يسلّموها لنا من غير قتال ﴿فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ أي لا يمكننا الدخول ما داموا فيها فإِن خرجوا منها دخلناها ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي فلما جبنوا حرضهم رجلان من النقباء ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه وفيهما الصلاح واليقين ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ أي قالا لهم لا يهولنكم عِظَم

(١) (ش): درَس الرَّسمُ/ درَس المكانُ: امَّحى وذهَبَ أثَرُه، خلق وبلي .
(٢) «البيضاوي» ص ١٤٨.
(٣) «البيضاوي» ص ١٤٨.
(٤) «التسهيل» ١/ ١٧٣.

أجسامهم، فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فإِذا دخلتم عليهم باب المدينة غلبتموهم بإِذن الله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي اعتمدوا على الله فإِنه ناصركم إِن كنتم حقًّا مؤمنين ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ وهذا إِفراط في العصيان وفي سوء الأدب بعبارةٍ تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله -وأين هؤلاء من الصحابة الأبرار الذين قالوا لرسول الله ﷺ: لسنا نقول لك كما قالت بنو إِسرائيل ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون؟![1]- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي قال موسى حينذاك معتذراً إِلى الله متبرئًا من مقالة السفهاء: يا رَبّ لا أملك قومي، لا أملك إلا نفسي وأخي هارون فافصل بيننا وبين الخارجين عن طاعتك بحكمك العادل ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استجاب الله دعاءه وعاقبهم في التِّيه أربعين سنة والمعنى: قال الله لموسى إِن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها مدة أربعين سنة يتيهون في الأرض ولا يهتدون إِلى الخروج ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي لا تحزن عليهم فإِنهم فاسقون مستحقون للعقاب قال في «التسهيل»: روي أنهم كانوا يسيرون الليل كله فإِذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه[2].

البَلاَغَة: ١ - ﴿أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ بسط الأيدي كناية عن البطش والفتك، وكف الأيدي كناية عن المنع والحبس.

٢ - ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ﴾ فيه التفات عن الغيبة إِلى المتكلم ومقتضى الظاهر وبعث وإِنما التفت اعتناءً بشأنه.

٣ - ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فيه استعارة استعار الظلمات للكفر والنور للإِيمان.

٤ - ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ فيه تشبيه بليغ أي كالملوك في رغد العيش وراحة البال فحذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغـاً.

---

(١) (ش): قَالَ المقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لاَ نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وَلَكِنِ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وقال الحافظ «ابن كثير»: «وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ». وعن عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهْوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: لاَ نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ. فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ. يَعْنِي قَوْلَهُ.

(٢) «التسهيل» ١/ ١٧٤.

٥ – الطباق بين ﴿يَغْفِرُ .. وَيُعَذِّبُ﴾ .
٦ – ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ جملة اعتراضية لبيان فضل الله على عباده الصالحين.

الفوَائِد: الأولى: إنما سميت الأرض المقدسة أي المطهرة لسكنى الأنبياء المطهرين فيها فشرفت وطهرت بهم فالظرف طاب بالمظروف.

الثانية: قال بعض العارفين لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فسكت ولم يردّ عليه فتلا عليه هذه الآية ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ ففي الآية دليل على أن المحب لا يعذب حبيبه ذكره «ابن كثير»[1].

قال الله تعالى:

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ
لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ
لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ
وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ
ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ
هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا
فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ
فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن
يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ
لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ
وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ
أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟
أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ
ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى تمرد بني إسرائيل وعصيانهم لأمر الله في قتال الجبارين، ذكر قصة

---

(١) (ش): قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فهم إن كانوا أحبَّاءه حقًّا لَمَا عذّبهم.

ابني آدم وعصيان «قابيل» أمْرَ الله وإِقدامه على قتل النفس البريئة التي حرمها الله، فاليهود اقتفوا في العصيان أوّل عاصٍ لله في الأرض، فطبيعةُ الشر فيهم مستقاةٌ من ولد آدم الأول، فاشتبهت القصتان من حيث التمرد والعصيان، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطّاع الطريق والسُرَّاق الخارجين على أمن الدولة والمفسدين في الأرض.

اللغَة: ﴿قُرۡبَانٗا﴾ القُربان ما يُتقرب به إِلى الله ﴿تَبُوٓأَ﴾ ترجع يقال: باء إِذا رجع إِلى المباءة وهي المنزل ﴿ فَطَوَّعَتۡ﴾ سوَّلت وسهَّلت يقال: طاع الشيءُ إِذا سهل وانقاد وطوَّعه له أي سهّله ﴿يَبۡحَثُ﴾ يفتش وينقب ﴿سَوۡءَةَ﴾ السوأة: العورة ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ كلمة تحسر وتلهف قال سيبويه: كلمة تقال عند الهلكة ﴿يُنفَوۡاْ﴾ نفاه: طرده وأصله الإِهلاك ومنه النقابة لرديء المتاع ﴿خِزۡيٞ﴾ الخزي الفضيحة والذل يقال: أخزاه الله أي فضحه وأذله ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ كل ما يتوسل به إِلى الله ﴿نَكَٰلٗا﴾ عقوبة.

سبب النزول: عن أنس أن رهطًا من عُرينة قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا المدينة- استوخموها - فبعث رسول الله ﷺ إِلى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ في آثارهم فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا في الحرة حتى ماتوا فنزلت ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ[(١)]﴾. الآية.

«التفسير»: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي اقرأ يا محمد على هؤلاء الحسدة من اليهود وأشباههم خبر «قابيل وهابيل» ابنيْ آدم ملتبسةً بالحق والصِّدق وذكّرهم بهذه القصة فهي قصة حق ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ أي حين قرَّب كلٌّ منهما قرباناً فتُقبل من هابيل ولم يُتقبل من قابيل قال المفسرون: سبب هذ القربان أن حوّاء كانت تلد في كل بطنٍ ذكراً وأنثى وكان يزوّج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر فلما أراد آدم أن يزوّج قابيلَ أخت هابيل ويزوّج هابيل أخت قابيل رضي هابيل وأبى قابيل لأن توأمته كانت أجمل فقال لهما آدم: قرّبا قرباناً فمن أيكما تُقبل تزوجها، وكان قابيل صاحب زرع فقرّب أرذل زرعه وكان هابيل صاحب غنم فقرّب أحسن كبشٍ عنده فقبل قربانُ هابيل بأن نزلت نارٌ فأكلته فازداد قابيل حسداً وسخطاً وتوعّده بالقتل[(٢)] ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾ أي قال قابيل لأخيه هابيل لأقتلنك قال: لِمَ؟ قال لأنه تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني قال: وما ذنبي؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي إِنما يتقبل ممن اتقى ربه وأخلص نيته قال «البيضاوي»: توعّده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه فأجابه بأنك أتيت من قِبل نفسك بترك التقوى لا من

---

(١) «القرطبي» ٦/ ١٤٨. (ش): (رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني).

(٢) «الكشاف» ١/ ٤٨٤، و«القرطبي» ٦/ ١٤٣.

قِبَلي وفيه إِشارة إِلى أن الطاعة لا تُقبل إِلا من مؤمن متّقٍ لله[١] ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾ أي لئن مددتَ إِليَّ يدك ظلماً لأجل قتلي ما كنتُ لأقابلك بالمثل قال ابن عباس المعنى: ما أنا بمنتصر لنفسي ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي لا أمدُّ يدي إِليك لأني أخاف ربَّ العالمين قال الزمخشري: قيل: كان هابيل أقوى من القاتل ولكنه تحرّج عن قتل أخيه خوفاً من الله[٢] ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي إِن قتلتني فذاك أحبُّ إِليَّ من أن أقتلك قال أبو حيان: المعنى إِن سبق بذلك قَدَرٌ فاختياري أن أكون مظلوماً ينتصر الله لي لا ظالماً[٣] وقال ابن عباس: المعنى لا أبدؤك بالقتل لترجع بإِثم قتلي إِن قتلتني، وإِثمك الذي كان منك قبل قتلي فتصير من أهل النار ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عقاب من تعدّى وعصى أمر الله ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي زيّنت له نفسه وسهّلت له قتل أخيه فقتله فخسر وشقي قال ابن عباس: خوّفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ أي أرسل الله غراباً يحفر بمنقاره ورجله الأرض ليُري القاتل كيف يستر جسد أخيه قال مجاهد: بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر له فدفنه، وكان ابن آدم هذا أول من قُتِل، وروي أنه لما قتله تركه بالعراء ولم يدر كيف يدفنه حتى رأى الغراب يدفن صاحبه فلما رآه ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي﴾ أي قال قابيل متحسرًا: يا ويلي ويا هلاكي أضعفتُ أن أكون مثل هذا الطير فأستر جسد أخي في التراب كما فعل هذا الغراب؟ ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ أي صار نادماً على عدم الاهتداء إِلى دفن أخيه لا على قتله قال ابن عباس: ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبةً له[٤] ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي من أجل حادثة «قابيل وهابيل» وبسبب قتله لأخيه ظلماً فرضنا وحكمنا على بني إِسرائيل أن من قتل منهم نفساً ظلماً بغير أن يقتل نفساً فيستحق القصاص وبغير فسادٍ يوجب إِهدار الدم كالردّة وقطع الطريق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ أي فكأنه قتل جميع الناس قال «البيضاوي»: من حيث إِنه هتك حرمة الدماء وسنَّ القتل وجرأ الناس عليه، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإِحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها[٥] ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ أي ومن تسبَّب لبقاء حياتها واستنقذها من الهَلَكة فكأنه

---

(١) «البيضاوي» ص ١٤٩.
(٢) «الكشاف» ١/ ٤٨٥.
(٣) «البحر» ٣/ ٤٦٣.
(٤) «القرطبي» ٦/ ١٤٢.
(٥) «البيضاوي» ص ١٥١.

أحيا جميع الناس قال ابن عباس في تفسير الآية: من قتل نفساً واحدةً حرّمها الله فهو مثلُ من قتل الناس جميعاً ومن امتنع عن قتل نفسٍ حرمها الله وصان حرمتها خوفاً من الله فهو كمن أحيا الناس جميعاً[١] ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بعدما كتبنا على بني إسرائيل هذا التشديد العظيم جاءتهم رسلنا بالمعجزات الساطعات والآيات الواضحات ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي ثم إنهم بعد تلك الزواجر كلها يسرفون في القتل ولا يبالون بعظمته قال «ابن كثير»: هذا تقريعٌ لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها وقال «الرازي»: إن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بُعْدِهم عن طاعة الله تعالى، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول ﷺ لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود[٢]، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطّاع الطريق فقال ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يحاربون شريعة الله ودينه وأولياءه ويحاربون رسوله[٣] ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يفسدون في الأرض بالمعاصي وسفك الدماء ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾ أي يُقتلوا جزاء بغيهم ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ أي يُقتلوا ويُصلبوا زجراً لغيرهم، والصيغةُ للتكثير ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ معناه أن تُقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي يُطردوا ويُبعدوا من بلدٍ إلى بلد آخر[٤] ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي ذلك الجزاء المذكور ذلٌّ لهم وفضيحة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو عذاب النار، قال بعض العلماء: الإمام بالخيار إن شاء قتل، وإن شاء صلب، وإن شاء قطع الأيدي والأرجل، وإن شاء نفى وهو مذهب مالك وقال ابن عباس: لكُلِّ رُتبة من الحِرَابَة[٥] رُتبةٌ من العقاب فمن قَتَل قُتِل، ومَن قَتَل وأخذ المال قُتِل وصُلِب، ومن اقتصر على أخذ المال قُطعت يدُه ورِجْلُه من خلاف، ومن أخاف فقط نُفِيَ من الأرض، وهذا قول الجمهور[٦] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أي لكن الذين تابوا من المحاربين وقطاع الطريق قبل القدرة على أخذهم وعقوبتهم ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٠٩.
(٢) ««التفسير» الكبير» ١١/ ٢١١.
(٣) (ش): قال الشيخ السعدي: المحاربون لله ولرسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل، وأخْذِ الأموال، وإخافةِ السبل.
(٤) قال الشافعي: النفي من بلدٍ إلى بلد لا يزال يطلب وهو هاربٌ فزعًا، وقال أبو حنيفة: النفي السجن. واختار ابن جرير أن المراد بالنفي هاهنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه.
(٥) (ش): الحِرَابَة: قَطْعُ الطَّريق على المارّة وسلبهم بقوّة السِّلاح.
(٦) ««الفخر الرازي»» ١١/ ٢١٥.

واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب يقبل توبته ويغفر زلّته، ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى والعمل الصالح فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ أي خافوا عقابه واطلبوا ما يقربكم إليه من طاعته وعبادته قال قتادة: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي جاهدوا لإعلاء دينه لتفوزوا بنعيم الأبد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي لو كان لكل كافر جميع ما في الأرض من خيرات وأموال ومثله معه ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي وأراد أن يفتدي بها نفسه من عذاب الله ما نفعه ذلك وله عذاب مؤلم موجع ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي دائم لا ينقطع وفي الحديث: « **يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ . فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ كُنْتَ سُئِلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، أَنْ لا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ**»[(١)(٢)].

ثم ذكر تعالى عقوبة السارق فقال ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ أي كل من سرق رجلاً كان أو امرأة فاقطعوا يده ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي مجازاة لهما على فعلهما القبيح ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عقوبة من الله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي حكيم في شرعه فلا يأمر بقطع اليد ظلماً ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ ﴾ أي رجع عن السرقة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي أصلح سيرته وعمله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة، ثم نبّه تعالى على واسع ملكه وأنه لا معقّب لحكمه فقال ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر والملك الباهر وبيده ملكوت السماوات والأرض والاستفهام للتقرير ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي يعذّب من يشاء تعذيبه ويغفر لمن يشاء غفران ذنبه وهو القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء.

البَلاَغَة: ١ - الطباق بين كلمة ﴿قَتَلَ ... أَحْيَا﴾ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين ﴿يُعَذِّبُ ... وَيَغْفِرُ﴾.

٢ - ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ هو على حذف مضاف أي يحاربون أولياء الله لأن الله لا يُحارب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاب.

(٢) (ش): قال ﷺ « يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ . فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ كُنْتَ سُئِلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ » (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وبقية الحديث رواه الإمام أحمد وغيره، وصححه الألباني).

ولا يُغالب فالكلام على سبيل المجاز[١].

٣ - الاستعارة ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ لأن المراد استبقاها ولم يتعرض لقتلها، وإحياء النفس بعد موتها لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

٤ - ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾ قال الزمخشري: هذا تمثيلٌ للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجهٍ من الوجوه[٢].

٥ - طباق السلب ﴿لَئِن بَسَطتَ... مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ﴾.

الفوَائد: الأولى: النفي من الأرض كما يكون بالطرد والإبعاد يكون بالحبس ولهذا قال مالك رَحِمَهُ اللهُ: النفيُ: السجنُ ينفي من سعة الدنيا إلى ضيقها قال الشاعر وهو في السجن:

خَرَجْنَا عَنِ الدُّنْيَا وَعَنْ وَصْلِ أَهْلِهَا ... فَلَسْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ وَلَسْنَا مِنَ الْمَوْتَى
إِذَا جَاءَنَا السَّجَّانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ ... عَجِبْنَا وَقُلْنَا جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا[٣]

الثانية: السرُّ في تقديم السارق على السارقة هنا وتقديم الزانية على الزاني في قوله ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ [النور: ٢] أن الرجل على السرقة أجرأ، والزنى من المرأة أشنع وأقبح فناسب ذكر كل منهما المنام.

الثالثة: قال الأصمعي: قرأتُ يوماً هذه الآية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ وإلى جنبي أعرابي فقلت ﴿اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سهواً فقال الأعرابي: كلامُ من هذا؟ قلت: كلام الله. قال: ليس هذا بكلام الله أعِدْ فأعدت وتنبهتُ فقلت: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: نعم هذا كلام الله. فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا قلت: فمن أين علمت أني أخطأتُ؟ فقال: يا هذا عزّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع[٤].

الرابعة: اعترض بعض الملحدين على الشريعة الغراء في قطع يد السارق بالقليل من المال ونظم ذلك شعراً فقال[٥]:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ؟
تَحَكُّمٌ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ ... وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

فأجابه بعض العلماء بقوله:

---

(١) (ش): قال الشيخ السعدي: المحاربون لله ولرسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل، وأخْذِ الأموال، وإخافةِ السبل.

(٢) «الكشاف» ١/ ٤٤٨.

(٣) «الفخر الرازي» ١١/ ٢١٦.

(٤) «زاد المسير» لابن الجوزي ٢/ ٣٥٤.

(٥) (ش): عَسْجَد: ذَهَب. يَدٌ بخَمْسِ مِئِينٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ: أي دِيَتُها خمسمائة دينار من الذهب.

عِـزُّ الْأَمَـانَـةِ أَغْـلَاهَـا، وَأَرْخَـصَـهَـا ذُلُّ الْخِيَانَةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي

أي لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت، ويا له من قول سديد.

«كلمة وجيزة حول قطع يد السارق»

يعيب بعض الغربيين على الشريعة الإسلامية قطع يد السارق ويزعمون أن هذه العقوبة صارمة لا تليق بمجتمع متحضر ويقولون: يكفي في عقوبته السجن ردعاً له، وكان من أثر هذه الفلسفة التي لا تستند على منطقٍ سليم أن زادت الجرائم وكثرت العصابات وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطريق الذين يهدّدون الأمن والاستقرار، يسرق السارق وهو آمن مطمئن لا يخشى شيئاً اللهم إلا ذلك السجن يُطعم ويُكسى فيه فيقضي مدة العقوبة التي فرضها عليه القانون الوضعي ثم يخرج منه وهو إلى الإجرام أميل وعلى الشر أقدر، يؤكد هذا ما نقرؤه ونسمعه عن تَعداد الجرائم وزيادتها يوماً بعد يوم، وذلك لقصور العقل البشري عن الوصول إلى الدواء الناجع والشفاء النافع لمعالجة مثل هذه الأمراض الخطيرة، أما الإسلام فقد استطاع أن يقتلع الشر من جذوره ويدٌ واحدة تقطع كافية لردع المجرمين فيا له من تشريع حكيم!!

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ
تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ
ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ
فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ
فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ
فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ
ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ
يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ
وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ
يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ
بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ
بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم
بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ
ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ

اللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ
شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ
إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ
ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

المناسَبَة: لما ذكَر تعالى قصة ابني آدم وإِقدام الأخ على قتل أخيه بسبب البغي والحسد وذكَر أحكام الحِرابة والسرقة، أعْقبَه بذكر أمر المنافقين وأمر اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وتربصهم به وبأصحابه الدوائر، وأمر رسوله ﷺ ألا يحزن لما يناله من أذى من أعداء الإِنسانية فالله سيعصمه من شرهم، وينجيه من مكرهم، ثم يذكر ما أنزل الله من أحكام نورانية في شريعة التوراة.

اللغَة: ﴿يَحْزُنكَ﴾ الحُزْن والحَزَن خلاف السرور ﴿ٱلسُّحْتَ﴾ الحرام: سمي بذلك لأنه يسحتُ الطاعات، أي: يذهبها ويستأصلها وأصل السحت: الهلاك قال تعالى ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١] أي يستأصلكم ويهلككم ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ جمع حَبْر وهو العالم مأخوذ من التحبير وهو التحسين ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أتبعنا ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ المهيمن: الرقيب على الشيء[(١)] الحافظ له، من هيمن عليه أي راقبه ويأتي بمعنى العالي والمرتفع على الشيء ﴿شِرْعَةً﴾ الشِّرعة: السُّنَّة والطريقة يقال: شرع لهم، أي: سنَّ لهم ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ المنهاج: الطريق الواضح.

سَبَبُ النّزول: عن البراء بن عازب قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمّماً مجلوداً فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم: فدعا رجلاً من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إِذا أخذنا الشريف تركناه، وإِذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ: اللهم إِني أول من أحيا أمرك إِذ أماتوه فأمر به فرجم» فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إِلى قوله ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: ائتوا محمداً فإِن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإِن أفتاكم بالرجم فاحذروا[(٢)].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ

(١) «القرطبي» ٦/ ٢١٠.
(٢) رواه مسلم.

على وجه التسلية أي لا تتأثر يا محمد ولا تحزن لصنيع الذين يتسابقون نحو الكفر ويقعون فيه بسرعة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ أي من المنافقين الذين لا يُجاوز الإيمان أفواههم يقولون بألسنتهم: آمنا وقلوبهم كافرة ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي ومن اليهود ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ أي هم مبالغون في سماع الأكاذيب والأباطيل وفي قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله وتحريف كتابه ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾ أي مبالغون في قبول كلام قوم آخرين لم يحضروا مجلسك تكبراً وإفراطاً في العداوة والبغضاء وهم يهود خيبر، والسماعونَ للكذب بنو قريظة ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي يُزيلونه ويُميلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها، والمراد تحريف أحكام الله وتغييرها بأحكام أخرى قال ابن عباس: هي حدود الله في التوراة غيروا الرجم بالجلد والتحميم[1] -يعني تسويد الوجه- ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾ أي إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا قال تعالى ردّاً عليهم ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ أي ومَن يُرِدِ اللهُ كُفْرَه وضلالته فلن يقدر أحدٌ على دفع ذلك عنه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ أي لم يُرِدِ اللهُ أنْ يطهرّ قلوبهم من رجس الكفر وخبث الضلالة لقبح صنيعهم وسوء اختيارهم ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ أي ذلٌّ وفضيحة ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ هو الخلود في نار جهنم قال أبو حيان: والآية جاءت تسلية للرسول ﷺ وتخفيفاً عنه من ثقل حزنه على مسارعتهم في الكفر وقطعاً لرجائه من فلاحهم[2] ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ أي الباطل كرره تأكيداً وتفخيماً ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ أي الحرام من الرشوة والربا وشبه ذلك ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي إن تحاكموا إليك يا محمد فيما شجر بينهم من الخصومات فأنت مخير بين أن تحكم بينهم وبين أن تُعرض عنهم قال «ابن كثير»: أي إن جاءوك يتحاكمون إليك فلا عليك ألا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم[3] ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـًٔا﴾ أي لأن الله عاصمك وحافظك من الناس ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل والحق وإن كانوا ظلمةً خارجين عن طريق العدل لأن الله يحب العادلين، ثم قال تعالى منكراً عليهم مخالفتهم لأحكام التوراة ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ أي كيف يحكّمك يا محمد هؤلاء اليهود ويرضون بحكمك وعندهم التوراة فيها حكم الله يرونه ولا يعملون به؟ قال «الرازي»: هذا تعجبٌ من الله تعالى

(١) «البحر» ٣/ ٤٨٨.
(٢) «البحر» ٣/ ٤٨٨.
(٣) «مختصر تفسير «ابن كثير» ١/ ٥١٩.

لنبيه ﷺ[١] بتحكيم اليهود إيّاه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني ثم تركهم قبول ذلك الحكم، فعدلوا عما يعتقدونه حكماً حقًّا إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة فظهر بذلك جهلهم وعنادهم[٢] ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد أن وضح لهم الحق وبان ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليسوا بمؤمنين لأنهم لا يؤمنون بكتابهم «التوراة» لإعراضهم عنه وعن حكمك الموافق لما فيه قال في «التسهيل»: وهذا إلزامٌ لهم لأن من خالف كتاب الله وبدّله فدعواه الإيمان باطلة[٣]، ثم مدح تعالى التوراة بأنها نور وضياء فقال ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أنزلنا التوراة على موسى فيها بيانٌ واضح ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ أي يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي يَحْكُمون بالتوراة لليهود لا يخرجون عن حكمها ولا يُبدّلونها ولا يُحرّفونها ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي العلماءُ منهم والفقهاءُ ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أي رقباء لئلا يُبدّل ويُغير ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي لا تخافوا يا علماء اليهود الناس في إظهار ما عندكم من نعت محمد ﷺ والرجم بل خافوا مني في كتمان ذلك ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي حطام الدنيا الفاني من الرشوة والجاه والعَرَض الخسيس ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي من لم يحْكم بشرع الله كائناً من كان فقد كفر. وقال الزمخشري: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون وصفٌ لهم بالعتوّ في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمرّدوا بأن حكموا بغيرها[٤] قال أبو حيان: والآية وإن كان الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم[٥].. وكل آية وردت في الكفار تجرُّ بذيلها على عصاة المؤمنين ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي فرضنا على اليهود في التوراة أن النفس تُقتل بالنفس ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ أي تُفقأ بالعين إذا فقئت بدون حق ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ أي يجدع بالأنف إذا قطع ظلماً ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ أي تقطع بالأذن ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ أي يقلع بالسنِّ ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي يُقتص من جانبها بأن يُفعل به مثل ما فعله بالمجني عليه وهذا في الجراح التي

---

(١) (ش): هذا التعبير خطأ، لأنه يتضمن نَفْيَ التعجب عن الله، وقد ثبت في الأدلة أنه سبحانه يَعْجَب، والصواب أن يقول: هذا تعجُّبٌ من الله.

(٢) «الفخر الرازي» ١١/ ٢٣٦.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٧٨.

(٤) «الكشاف» ١/ ٤٩٦.

(٥) «البحر» ٣/ ٤٩٢.

يمكن فيها المماثلة ولا يُخاف على النفس منها ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قال ابن عباس: أي فمن عفا عن الجاني وتصدَّق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجرٌ للطالب[١] وقال «الطبري»: من تصدَّق من أصحاب الحق وعفا فهو كفارة له أي للمصدِّق ويكفّر الله ذنوبه لعفوه وإِسقاطه حقه[٢] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي المبالغون في الظلم لمخالفة شرع الله ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أتبَعْنا على آثار النبيّين بعيسى ابن مريم وأرسلناه عَقِيبَهُم[٣] مصدقاً لما تقدّمه من التوراة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أنزلنا عليه الإِنجيل فيه هدى إِلى الحق ونور يُستضاء به في إِزالة الشبهات ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي مُعترفاً بأنها من عند الله، والتكرير لزيادة التقرير ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وهادياً وواعظاً للمتقين ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي وآتينا عيسى بن مريم الإِنجيل وأمرناه وأتباعه بالحكم به ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي المتمردون الخارجون عن الإِيمان وطاعة الله ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي وأنزلنا إِليك يا محمد القرآن بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي مصدّقاً للكتب السماوية التي سبقته ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي مؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب قال الزمخشري: أي رقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات[٤] قال «ابن كثير»: اسم المهيمن يتضمن ذلك فهو أمينٌ وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره[٥] ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس بما أنزل الله إِليك في هذا الكتاب العظيم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا توافقهم على أغراضهم الفاسدة عادلاً عمّا جاءك في هذا القرآن قال «ابن كثير»: أي لا تنصرفْ عن الحق الذي أمرك الله به إِلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء[٦] ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي لكل أمةٍ جعلنا شريعة وطريقاً بيناً واضحاً خاصاً بتلك الأمة قال أبو حيان: لليهود شرعةٌ ومنهاج وللنصارى كذلك والمراد في الأحكام وأما المعتقد فواحدٌ لجميع الناس توحيدٌ وإِيمان بالرسل وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء[٧] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي لو أراد الله لجمع الناس كلهم على دين

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٢٢.

(٢) «الطبري» ١٠/ ٣٦٩.

(٣) (ش): العَقِيبُ: كلُّ شيءٍ أَعْقَبَ شَيْئًا. وَهُمَا يَتعاقَبانِ ويَعْتَقِبانِ أَي إِذا جاءَ هَذَا، ذَهَب هَذَا.

(٤) «الكشاف» ١/ ٤٩٧.

(٥) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٢٤.

(٦) «ابن كثير» «المختصر» ١/ ٥٢٤.

(٧) «البحر» ٣/ ٥٠٢.

واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيءٌ منها الآخر ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ أي شرع الشرائع مختلفة ليختبر العباد هل يذعنون لحكم الله أم يُعرضون، فخالف بين الشرائع لينظر المطيع من العاصي ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خيرٌ لكم من طاعة الله واتباع شرعه ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ أي معادكم ومصيركم أيها الناس إلى الله يوم القيامة فيخبركم بما اختلفتم فيه من أمر الدين ويجازيكم بأعمالكم ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ أي احكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن ولا تتّبع أهواءهم الزائفة ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ أي احذر هؤلاء الأعداء أن يصرفوك عن شريعة الله فإنهم كذبةٌ كفرةٌ خونة ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره فاعلم يا محمد أنما يريد الله أن يعاقبهم ببعض إجرامهم ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ أي أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق منهمكون في المعاصي ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى أيتولون عن حكمك ويبتغون غير حكم الله وهو حكم الجاهلية؟ ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه، وأصدقُ في بيانه، وأحكم في تشريعه لقومٍ يصدّقون بالعليّ الحكيم!!

البَلَاغَة: ١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ الخطاب بلفظ الرسالة للتشريف والتعظيم.

٢ - ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه إلى بعض آخر[1].

٣ - ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ صيغة فعّال للمبالغة أي مبالغون في سماع الكذب.

٤ - ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ تنكير الخزي للتفخيم وتكرير لهم ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لزيادة التقرير والتأكيد وبين كلمتي «الدنيا والآخرة» طباقٌ.

٥ - ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ تعجيبٌ من تحكيمهم لرسول الله ﷺ وهم لا يؤمنون به ولا بكتابه.

٦ - ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان ببعد درجتهم في العتو والمكابرة.

٧ - ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ خطابٌ لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الإلتفات والأصل «فلا يخشوا» .

٨ - ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي بادروا فعل الخيرات وفيه استعارة حيث شبهه بالمتسابقين على ظهور الخيل إذ كل واحد ينافس صاحبه في السبق لبلوغ الغاية المقصودة[2].

---

(١) «أبو السعود» ٢/ ٢٧.

(٢) تلخيص البيان ص ٣١.

الفَوَائِد: قال «الفخر الرازي»: خاطب الله محمداً ﷺ بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١] في مواضع كثيرة وما خاطبه بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ إلا في موضعين أحدهما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ والثاني في هذه السورة أيضاً وهو قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وهذا الخطاب لا شك أنه خطاب تشريف وتعظيم(١).

تنبيه: يقول شهيد الإسلام الجزم بالشهادة لمعين لا يجوز إلا بنص من الكتاب أو السُّنَّة الصحيحة، لكن المسلم يرجو للمحسنين ويخاف على المسيئين من المسلمين.

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ
فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ
وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ
قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ
لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ
أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

---

(١) «الفخر الرازي» ١١/ ٢٣١.

المناسَبَة: لما حكى تعالى عن أهل الكتاب أنهم تركوا العمل بالتوراة والإنجيل وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق، حذّر تعالى في هذه الآيات من موالاة اليهود والنصارى، ثم عدّد جرائم اليهود وما اتهموا به الذات الإلهية المقدسة من شنيع الأقوال وقبيح الفعال.

اللغَة: ﴿دَآئِرَةٌ﴾ واحدة الدوائر وهي صُروفُ الدهر ونوازلُه قال الراجز:

تَــرُدُّ عَـنْـكَ الْـقَـدَرَ الْـمَـقْـدُورَا وَدَائِــرَاتِ الـدَّهْـرِ أَنْ تَــدُورَا[1]

﴿حَبِطَتۡ﴾ بطلت وذهبت ﴿تَنقِمُونَ﴾ تنكرون وتَعيبون ﴿ٱلسُّحۡتَ﴾ الحرام وقد تقدم ﴿مَغۡلُولَةٌ﴾ مقبوضة والغُلُّ: القيد يوضع في اليد وهو كناية عن البخل، وغلّه وضع القيد في يده ﴿أَطۡفَأَهَا﴾ الإطفاء: الإخماد حتى لا يبقى هناك أثر ﴿مُّقۡتَصِدَةٌ﴾ أي عادلة غير متغالية من القصد وهو الاعتدال.

سَبَبُ النّزول: ١ – عن ابن عباس قال: كان «رفاعةُ بن زيد» و «سُوَيْد بن الحارث» قد أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا ...﴾[2] الآية[3].

ب – عن ابن عباس قال: جاء نفرٌ من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام، فقال: أومن بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله «ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دينٍ أقلَّ حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينـًا شرًّا من دينكم فأنزل الله ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾[4] الآية[5].

«التفسير»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ نهى تعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرونهم معاشرة المؤمنين[6] ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أي هم يدٌ واحدة على المسلمين لاتحادهم في الكفر والضلال، وملةُ الكفر واحدة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أي من جملتهم وحكمهُ حكمهُم قال الزمخشري: وهذا تغليظٌ من الله وتشديدٌ في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله كما قال ﷺ: «لا تراءى

---

(١) «الطبري» ١٠/ ٤٠٤.
(٢) ««أسباب النزول»» للواحدى ص ١١٤.
(٣) (ش): حسن، أخرجه ابن إسحاق في «المغازي»؛ و«الطبري» في «جامع البيان».
(٤) «القرطبي» ٦/ ٢٣٣، «و«مجمع البيان»» ٣/ ٢١٤.
(٥) (ش): أخرجه ابن جرير، وإسناده حسن.
(٦) «البحر» ٣/ ٥٠٧.

نارهما»(١)(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى الإيمان ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ أي شك ونفاق كعبد الله بن أُبيّ وأصحابه يسارعون في مُوالاتهم ومُعاونتهم ﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ أي يقولون معتذرين عن موالاة الكافرين نخاف حوادث الدهر وشروره أن يظفر اليهود بالمسلمين فلا يتم الأمر لمحمد قال تعالى رداً على مزاعمهم الفاسدة: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ يعني فتح مكة(٣) وهذه بشارة للنبي ﷺ والمؤمنين بوعده تعالى بالفتح والنصرة ﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ أي يُهلكهم بأمرٍ من عنده لا يكون فيه تسبّبٌ لمخلوق كإلقاء الرعب في قلوبهم كما فعل ببني النضير ﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ أي يصير المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاة أعداء الله من اليهود والنصارى ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي يقول المؤمنون تعجباً من حال المنافقين إذا هتك الله سترهم ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ﴾ أي حلفوا لكم يا معشر اليهود بأغلظ الإيمان إنهم لمعكم بالنصرة والمعونة كما حكى تعالى عنهم ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ [الحشر: ١١] ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي بطلت أعمالهم بنفاقهم فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ خطابٌ على وجه التحذير والوعيد والمعنى: يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدّله بدينٍ آخر ويرجع عن الإيمان إلى الكفر(٤) ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ

---

(١) (ش): عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ؟ قَالَ: «لاَ تَرَاءَى نَارَاهُمَا». (رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني). ﴿بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيْ بَيْنَهُمْ، ﴿لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا﴾ مِنَ التَّرَائِي تَفَاعُلٌ مِنَ الرُّؤْيَةِ، يُقَالُ تَرَاءَى الْقَوْمُ إِذَا رَأَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، تَرَاءَى الشَّيْءُ أَيْ ظَهَرَ حَتَّى رَأَيْته. وَالْأَصْلُ فِي تَرَاءَى تَتَرَاءَى، فَحُذِفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ تَخْفِيفًا. وَإِسْنَادُ التَّرَائِي إِلَى النَّارِ مَجَازٌ مِنْ قَوْلِهِمْ دَارِي تَنْظُرُ مِنْ دَارِ فُلَانٍ أَيْ تَقَابُلُهَا. أَيْ يَلْزَمُ الْمُسْلِمَ وَيَجِبُ أَنْ يَتَبَاعَدَ مَنْزِلُهُ عَنْ مَنْزِلِ الْمُشْرِكِ، وَلَا يَنْزِلُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي إِنْ أُوقِدَتْ فِيهِ نَارُهُ تَلُوحُ وَتَظْهَرُ لِلْمُشْرِكِ إِذَا أَوْقَدَهَا فِي مَنْزِلِهِ، وَلَكِنَّهُ يَنْزِلُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، هُوَ حَثٌّ عَلَى الْهِجْرَةِ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ فِي مَعْنَاهُ ثَلَاثَةُ وُجُوهٍ: قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا يَسْتَوِي حُكْمُهُمَا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنَ دَارَيِ الْإِسْلَامِ وَالْكُفْرِ، فَلَا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُسَاكِنَ الْكُفَّارَ فِي بِلَادِهِمْ حَتَّى إِذَا أَوْقَدُوا نَارًا كَانَ مِنْهُمْ حَيْثُ يَرَاهَا. وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا يَتَّسِمُ الْمُسْلِمُ بِسِمَةِ الْمُشْرِكِ وَلَا يَتَشَبَّهُ بِهِ فِي هَدْيِهِ وَشَكْلِهِ. [انظر: تحفة الأحوذي (٥/ ١٩٠)].

(٢) «الكشاف» ١/ ٤٩٩.

(٣) هذا قول السدى. وقال ابن عباس: هو ظهور النبي ﷺ والمسلمين على جميع الخلق بانتصاره عليهم.

(٤) في الآية إعلامٌ بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه وقد ارتد عن الإسلام فرقٌ كثيرة منهم من ارتد في عهد رسول الله ﷺ ومنهم في عهد أبي بكر رضي الله عنه وقد ارتد بنو حنيفة قومُ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ وكتب مُسَيْلِمَةُ إلى رسول الله ﷺ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْأَرْضَ نِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لَكَ فأجابه عليه السلام: مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ: السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يُشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، =

﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ أي فسوف يأتي الله مكانهم بأناسٍ مؤمنين يحبّهم الله ويحبّون الله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي رحماء متواضعين للمؤمنين أشداء متعززين على الكافرين قال «ابن كثير»: وهذه صفاتُ المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعززاً على عدوه[1] كقوله تعالى ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون ليّن الجانب متواضعاً لإخوانه المؤمنين متسربلاً بالعزّة حيال الكافرين والمنافقين ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي يجاهدون لإعلاء كلمة الله ولا يبالون بمن لامهم فهم صلاب في دين الله لا يخافون في ذات الله أحداً ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي من اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الإفضال والإحسان عليمٌ بمن يستحق ذلك، ثمّ لما نهاهم تعالى عن موالاة الكفرة ذكر هنا من هم حقيقون بالموالاة فقال ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ليس اليهود والنصارى بأوليائكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون متواضعون لله عَزَّ وَجَلَّ قال في «التسهيل»: ذكر تعالى الوليَّ بلفظ المفرد إفراداً لله تعالى بهما، ثم عطف على اسمه تعالى الرسول ﷺ والمؤمنين على سبيل التّبع، ولو قال «إنما أولياؤكم» لم يكن في الكلام أصلٌ وتبع[2] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي من يتولّ الله ورسوله والمؤمنين فإنه من حزب الله وهم الغالبون القاهرون لأعدائهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي لا تتخذوا أعداء الدين الذين يسخرون من دينكم ويهزءون ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ أي من هؤلاء المستهزئين اليهود والنصارى وسائر الكفرة أولياء لكم تودّونهم وتحبونهم وهم أعداء لكم، فمن اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه بل يجب أن تبغضوه وتعادوه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي اتقوا الله في موالاة الكفار والفجار إن كنتم مؤمنين حقًّا، ثمَّ بيَّن تعالى جانباً من استهزائهم فقال ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي وإذا أذنتم إلى الصلاة ودعوتم إليها سخروا منكم ومن صلاتكم قال في «البحر»: حسد اليهود الرسول ﷺ حين سمعوا الأذان وقالوا: ابتدعت شيئاً لم يكن للأنبياء فمن أين لك الصياح كصياح العير فما أقبحه من صوت

= وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. (ش): كَانَ مُسَيْلِمَةُ كَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني). أما كتاب النبي ﷺ إلى مُسَيْلِمَةَ فرواه ابن إسحاق في «السيرة» بإسناد رجاله ثقات.

(١) «مختصر تفسير «ابن كثير»» ١/ ٥٢٨.

(٢) «التسهيل» ١/ ١٨١.

فأنزل الله هذه الآية[١] نبّه تعالى على أنَّ من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يُتّخذ وليًّا بل يُهجر ويطرد، وهذه الآية جاءت بالتوكيد للآية قبلها ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصلاة ولا يدركون غايتها في تطهير النفوس، ونفى العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين وإن كان لهم عقول يدركون بها مصالح الدنيا ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾ أي قل يا محمد: يا معشر اليهود والنصارى هل تعيبون علينا وتنكرون منا ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي إلا إيماننا بالله وبما جاء به رسل الله قال «ابن كثير»: أي هل لكم علينا مطعنٌ أو عيبٌ إلا هذا؟ وهذا ليس بعيبٍ ولا مذمة فيكون الاستثناء منقطعـًا[٢] ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي هل أخبركم بما هو شرٌّ من هذا الذي تعيبونه علينا؟ ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ أي ثوابـًا وجزاءً ثابتـًا عند الله قال في «التسهيل»: ووضع الثوابَ موضع العقاب تهكمـًا بهم نحو قوله[٣] ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي طرده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي سَخِطَ عليه بكفره وانهماكه في المعاصي بعد وضوح الآيات ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي ومسخ بعضَهم قردةً وخنازير ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي وجعل منهم من عَبَد الشيطان بطاعته ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شرٌّ مكانـًا في الآخرة وأكثر ضلالاً عن الطريق المستقيم قال «ابن كثير» والمعنى: يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر[٤]؟ قال «القرطبي»: ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم: يا إخوة القردة والخنازير فنكّسوا رءوسهم افتضاحـًا وفيهم يقول الشاعر:

فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ ... إِنَّ الْيَهُودَ إِخْوَةُ الْقُرُودِ[٥]

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ الضمير يعود إلى المنافقين من اليهود أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام ﴿وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي والحال قد دخلوا إليك كفارًا وخرجوا كفاراً لم ينتفعوا بما سمعوا منك يا محمد من العلم، ولا نَجَعَتْ[٦]. فيهم المواعظ والزواجر ﴿وَاللَّهُ

---

(١) «البحر» ٣/ ٥١٥، وقال «أبو السعود» عند هذه الآية: روى أن نصرانيًّا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله يقول: أحرق الله الكاذب، فدخل خادمه ذات ليلة بنارٍ وأهله نيام فتطايرت منه شرارة في البيت فأحرقته وأهله جميعًا «أبو السعود» ٢/ ٤٠.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٣٠.

(٣) «التسهيل» ١/ ١٨٢.

(٤) «ابن كثير» ١/ ٥٣١.

(٥) «القرطبي» ٦/ ٢٣٦.

(٦) (ش): نجَع الشّيءُ: نفَع، وظهر أثرُه.

﴿أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي من كفرهم ونفاقهم وفيه وعيد شديدٌ لهم ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي وترى كثيراً من اليهود يسابقون في المعاصي والظلم ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي أكلهم الحرام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس أعمالهم القبيحة تلك الأخلاق الشنيعة ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي هلاّ يزجرهم علماؤهم وأحبارهم ﴿عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي عن المعاصي والآثام وأكل الحرام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي بئس صنيعهم ذلك تركهم النهي عن ارتكاب محارم الله قال ابن عباس: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية - يعني على العلماء - وقال أبو حيان: تضمنت هذه الآية توبيخ العلماء والعبَّاد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله وأنشد ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوْءٍ وَرُهْبَانُهَا[٧]

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي قال اليهود اللُّعَناءُ: إن الله بخيلٌ[٨] يقتّر الرزق على العباد قال ابن عباس: مغلولة أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون: إنه بخيل ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاءٌ عليهم بالبخل المذموم والفقر والنكد ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ أي أبعدهم الله من رحمته بسبب تلك المقالة الشنيعة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي بل هو جواد كريم سابغ الإنعام يرزق ويعطي كما يشاء[٩] قال «أبو السعود»: وتضييق الرزق ليس لقصورٍ في فيضه بل لأن إنفاقه تابع لمشيئته المبنيّة على الحِكَم وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيّق عليهم[١٠] ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي وليزيدنَّهم هذا القرآن الذي أُنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم وطغياناً فوق طغيانهم إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً قال «الطبري»: أعلم تعالى نبيّه أنهم أهل عتو وتمرّد على ربهم وأنهم لا يذعنون للحق وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه يسلّي بذلك نبيَّه ﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إيّاه[١١] ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي ألقينا بين اليهود العداوة والبغضاء فكلمتهم مختلفة وقلوبهم شتّى لا يزالون متباغضين متعادين إلى قيام الساعة ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي كلما أرادوا إشعال حربٍ على رسول الله ﷺ أطفأها الله ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله ويسعون لإثارة الفتن بين المسلمين قال «ابن كثير»: أي من

---

(٧) «البحر المحيط» ٣/ ٥٢٢.

(٨) «الطبري» ١٠/ ٤٥٢.

(٩) (ش): دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ اللهَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِصِفَةِ الْيَدَيْنِ.

(١٠) «أبو السعود» ٢/ ٤٣.

(١١) «الطبري» ١٠/ ٤٥٧.

سَجِيَّتِهم[١] أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا يحب من كانت هذه صفته[٢] ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ أي لو أن اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسوله حق الإيمان واتقوا محارم الله فاجتنبوها ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي محونا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي ولأدخلناهم مع ذلك في جنان النعيم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ولو أنهم استقاموا على أمر الله وعملوا بما في التوراة والإنجيل وبما أُنزل إليهم في هذا الكتاب الجليل الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي لَوَسَّع الله عليهم الأرزاق وأغدق عليهم الخيرات بإفاضة بركات السماء والأرض عليهم ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي منهم جماعة معتدلة مستقيمة غير غالية ولا مقصّرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام والنجاشي وسلمان ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي وكثير منهم أشرار بئس ما يعملون من قبيح الأقوال وسوء الفعال.

البَلَاغَة: ١ - ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بين لفظ «أعزّة» و «أذلة» طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ ﴿مِن فَوْقِهِمْ .. وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ .

٢ - ﴿لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ في تنكير لومة ولائم مبالغةٌ لا تخفى لأن اللّومة المرّة من اللوم.

٣ - ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا على سبيل التهييج.

٤ - ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا﴾ يسمى مثل هذا عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس فقد جعلوا التمسك بالإيمان موجباً للإنكار والنقمة مع أن الأمر بالعكس.

٥ - ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ هذا من باب التهكم حيث استعملت المثوبة في العقوبة.

٦ - ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ نسب الشرُّ للمكان وهو في الحقيقة لأهله وذلك مبالغة في الذم.

٧ - ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ غلُّ اليد كناية عن البخل وبسطها كناية عن الجود[٣].

٨ - ﴿أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ إيقاد النار في الحرب استعارة لأن الحرب لا نار لها وإنما شبهت بالنار لأنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها.

٩ - ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ استعارة أيضاً عن سبوغ النعم وتوسعة الرزق عليهم كما يقال: عمَّه الرزق من فوقه إلى قدمه.

الفَوَائِد: الأولى: روي أن عمر بلغه أن كاتباً نصرانياً قد استعمله أبو موسى الأشعري فكتب إلى أبي موسى: لا تكرموهم إذْ أهانهم الله، ولا تأمنوهم إذْ خوّنهم الله، ولا تُدنوهم إذْ أقصاهم

(١) (ش): سَجِيّة : طبيعة، خُلُق، صِفة فطريّة في الإنسان.
(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٣٢.
(٣) (ش): دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ اللهَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِصِفَةِ الْيَدَيْنِ.

الله فقال له أبو موسى: لا قوام للبصرة إلا به فقال عمر: مات النصراني فماذا تفعل[(١)(٢)].

الثانية: قُتِل مسيلمةُ الكذاب في عهد أبي بكر على يد «وحشي» قاتل حمزة وكأن يقول: **قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ** في الجاهلية - يريد حمزة - **وشَرَّ النَّاسِ** في الإسلام - يريد مسليمة الكذاب[(٣)(٤)].

الثالثة: قال المفسرون: «عسى» من الله واجب لأن الكريم إذا أطمع في خيرٍ فعله فهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به[(٥)].

الرابعة: قال «البيضاوي» في قوله تعالى ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ فيها تحضيضٌ لعلمائهم للنهي عن ذلك فإنَّ ﴿لَوۡلَا﴾ إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض[(٦)].

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ

(١) «البحر» ٣/ ٥٠٧.

(٢) (ش): عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قلت لعمر - رضي الله عنه -: «إن لي كاتبـًا نصرانيًّا»، قال: «ما لك؟ قاتلك الله، أما سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [المائدة:٥١] ألا اتخذت حنيفـًا؟» قال: قلت: «يا أمير المؤمنين لي كتابتُه وله دينُه»، قال: «لا أكرمهم إذ أهانهم الله ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أُدْنِيهم إذ أقصاهم الله». [رواه ابن أبي شيبة والبيهقي بسند حسن].

(٣) «محاسن التأويل» ٦/ ٢٠٣٤

(٤) (ش): قال وَحْشِيٌّ: قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَتَلْتُ شَرَّ النَّاسِ. رواه ابن إسحاق «السيرة النبوية» بإسناد صحيح.

(٥) «الرازي» ١٢/ ١٦.

(٦) «البيضاوي» ص ١٥٦.

ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ
ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ
قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا
مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ
هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ
كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

المناسَبَة: لما حذر تعالى المؤمنين من موالاة الكافرين، وكانت رسالته ﷺ تتضمن الطعن في أحوال الكفرة والمخالفين، وهذا يستدعي مناصبتهم العداء له ولأتباعه أمره تعالى في هذه الآيات بتبليغ الدعوة، ووعده بالحفظ والنصرة، ثم ذكر تعالى طرفًا من عقائد أهل الكتاب الفاسدة وبخاصة النصارى الذين يعتقدون بألوهية عيسى وأنه ثالث ثلاثة، وردّ عليهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع.

اللغَة: ﴿يَعۡصِمُكَ﴾ العصمة: الحفظ والحماية ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾ الطغيان: تجاوز الحد في الظلم والغلوُّ فيه ﴿تَأۡسَ﴾ تحزن يقال: أسِيَ يأسى، والأسى: الحزن قال:

وَانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى[1] ... ﴿خَلَتۡ﴾ مضت ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ الصدِّيق: المبالغ في الصدق وفِعِّيل من أبنية المبالغة كما يقال رجل سِكِّيت أي مبالغٌ في السكوت، و سِكِّير أي كثير السُّكْر ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ يُصرفون عن الحق يقال: أفكه إذا صرفه ومنه ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] ﴿تَغۡلُواْ﴾ الغلو: التجاوز في الحد والتشدد في الأمر يقال: غلا في دينه غلوًّا تشدد فيه حتى جاوز الحد.

سَبَبُ النّزول: أ - عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لما بعثني الله برسالته ضقتُ بها ذرعـًا وعرفتُ أن من الناس من يكذبني فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[2] الآية»[3].

ب - وعن ابن عباس قال: «جاء جماعة من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: ألست تُقرُّ أن التوراة حق من عند الله؟ قال: بلى فقالوا: فإنّا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها» فأنزل الله ﴿قُلۡ

---

(١) «القرطبي» ٦/ ٢٤٥.

(٢) «أسباب النزول» ص ١١٥.

(٣) (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «"أسباب النزول"».

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ...﴾[١] الآية[٢].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا نداءُ تشريفٍ وتعظيمٍ ناداه تعالى بأشرف الأوصاف بالرسالة الربانية أي بلّغْ رسالة ربك غير مراقب أحداً ولا خائفٍ أن ينالك مكروه ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[٣] قال ابن عباس: المعنى بلّغْ جميع ما أنزل إليك من ربك فإن كتمتَ شيئًا منه فما بلّغت رسالته، وهذا تأديبٌ لحَمَلَة العلم من أمته ألا يكتموا شيئًا من أمر شريعته ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يمنعك من أن ينالوك بسوء قال الزمخشري: هذا وعدٌ من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى: والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم؟ «روي أن رسول الله ﷺ **كَانَ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ فَأَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنَ قُبَّةِ أَدَمٍ وقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللهُ»**[٤][٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي إنما عليك البلاغ والله هو الذي يهدي من يشاء فمن قُضي له بالكفر لا يهتدي أبداً ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: لستم على شيء من الدين أصلاً حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل وتقيموا أحكامهما على الوجه الأكمل، ومن إقامتهما الإيمان بمحمد ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ قال ابن عباس: يعني القرآن العظيم ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ اللام للقسم أي وأُقْسِم لَيَزيدنَّ هذا القرآنُ المنزَّلُ عليك يا محمد الكثير منهم غلوًّا في التكذيب وجحوداً لنبوتك[٦] وإصراراً على الكفر والضلال ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا تحزن عليهم فإن تكذيب الأنبياء عادتُهم ودأبهم، وهذه تسليةٌ للنبي ﷺ وليس بنهي عن الحزن[٧] ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي صدّقوا الله ورسوله وهم المسلمون ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وهم اليهود ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ وهم طائفة من النصارى عبدوا الكواكب[٨] ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ وهم أتباع عيسى ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي مَنْ آمن من هؤلاء المذكورين إيمانًا

---

(١) «القرطبي» ٦/ ٢٤٥.
(٢) (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».
(٣) «القرطبي» ٦/ ٢٤٢.
(٤) «الكشاف» ١/ ٥١٤.
(٥) (ش): حسن، أخرجه الترمذي، و«الطبري» في «جامع البيان». والْقُبَّةُ مِنْ الْخِيَام: بَيْتٌ صَغِيرٌ مُسْتَدِيرٌ، وَهُوَ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ. والأَدَم: جَمْعُ أَدِيمٍ أَيْ جِلْدٍ.
(٦) «الطبري» ١٠/ ٤٧٤.
(٧) «القرطبي» ٦/ ٢٤٥.
(٨) (ش): الصواب أنهم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه.

صحيحًا خالصًا لا يشوبه ارتيابٌ بالله وباليوم الآخر وعمل صالحًا يقربه من الله[١] ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فلا خوفٌ عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من الدنيا بعد معاينتهم جزيل ثواب الله[٢] قال «ابن كثير»: والمقصود أن كلَّ فرقة آمنت بالله واليوم الآخر وعملت عملاً صالحًا -ولا يكون ذلك كذلك حتى يوافق الشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين- فمن اتصف بذلك فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما تركوه وراء ظهورهم[٣] ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أخذنا من اليهود العهد المؤكد على الإيمان بالله ورسله قال في «البحر»: هذا إخبار بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذه تعالى عليهم وما اجترحوه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم، وهؤلاء أخلاف أولئك فغيرُ بدْعٍ ما يصدر منهم للرسول من الأذى والعصيان إذ ذاك شنشنةٌ من أسلافهم[٤] ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ أي أرسلنا لهم الرسل ليرشدوهم ويبينوا لهم أمر الدين ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ أي كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما يخالف أهواءهم وشهواتهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي كذبوا طائفةً من الرسل ويقتلون طائفة أخرى منهم قال «البيضاوي»: وإنما جيء بـ «يَقْتُلُونَ» موضع «قتَلوا» على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعًا للقتل وتنبيهًا على أن ذلك من ديدنهم ماضيًا ومستقبلاً ومُحافظةً على رءوس الآي[٥] [٦].

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي وظن بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاءٌ وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل اغتراراً بإمهال الله عزّ وجلّ لهم ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ أي تمادوا في الغيّ والفساد فعَمُوا عن الهدى وصمّوا عن سماع الحق وهذا على التشبيه بالأعمى والأصمّ لأنه لا يهتدي إلى طريق الرشد في الدين لإعراضه عن النظر ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قال «القرطبي»: في الكلام إضمارٌ أي أوقَعْتُ بهم الفتنةَ فتابوا فتابَ اللهُ عليهم[٧] ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي عميَ كثير منهم وصمَّ بعد تبيّن الحق له ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي عليم بما عملوا وهذا وعيدٌ لهم وتهديد، ثم ذكر تعالى عقائد النصارى الضالة في المسيح فقال ﴿لَقَدْ كَفَرَ

(١) (ش): ومن أركان الإيمان الإيمان بالنبي محمد ﷺ الكامل، وبما جاء به.
(٢) «الطبري» ١٠/ ٤٧٦.
(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٣٥.
(٤) «البيضاوي» ص١٥٧. (ش): الشِّنْشِنَةُ: الطَّبيعَةُ، والعادَةُ الغالبة.
(٥) «القرطبي» ٦/ ٢٤٨.
(٦) (ش): الآي: الآيات. أي لتتوافق مع نَظْم أواخِرِ الآيَاتِ ﴿يَحْزَنُونَ / يَقْتُلُونَ / يَعْمَلُونَ﴾.
(٧) «أبو السعود» ٢/ ٤٩.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ قال «أبو السعود»: هذا شروعٌ في تفصيل قبائح النصارى وإِبطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء الذين قالوا: إِن مريم ولدت إِلهـًا هم «اليعقوبية» زعموا أن الله تعالى حلَّ في ذات عيسى واتحد به، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ أي أنا عبدٌ مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم الذي يذلّ له كل شيء ويخضع له كل موجود قال «ابن كثير»: كان أول كلمة نطق بها وهو صغير أن قال ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] ولم يقل: إِني أنا الله، ولا ابن الله بل قال ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾[٨] [مريم: ٣٠] وقال «القرطبي»: ردَّ الله عليهم ذلك بحجةٍ قاطعةٍ مما يُقرّون به فقال ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ فإِذا كان المسيح يقول: يا رب، ويا الله فكيف يدعو نفسه أم كيف يسألها؟ هذا محال[٩] ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي من يعتقد بألوهية غير الله فلن يدخل الجنة أبداً لأنها دار الموحّدين ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ أي مصيره نار جهنم ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أي فلا ناصر ولا منقذ له من عذاب الله ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ أي أحد ثلاثة الإِلهيّة وهذا قول فرقةٍ من النصارى يسمون «النُّسطورية والمَلكانية» القائلين بالتثليث وهم يقولون: إِن الإِلهيّة مشتركة بين الله، وعيسى، ومريم وكل واحدٍ من هؤلاء إِله ولهذا اشتهر قولهم «الأب والإبن وروح القدس»[١٠] ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي والحال أنه ليس في الوجود إِلا إِله واحدٌ

(٨) «القرطبي» ٦/ ٢٤٩.

(٩) «القرطبي» ٦/ ٢٤٩.

(١٠) قال السدى: نزلت في جَعْلهم المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار وقال في «البحر»: يقولون جوهر واحدٌ وثلاثة أقانيم: «أب وابن وروح قدس» وهذه الثلاثة إله واحد كما أن الشمس تناول القرص والشعاع والحرارة وزعموا أن الأب إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد، وهذا معلوم البطلان ببداهة العقل أن الثلاثة لا تكون واحدًا وأن الواحد لا يكون ثلاثة.

(ش): وقد كانت أحد أجوبة الفطرة سببًا في هداية الداعية يوسف إِسْتِسْ، وانتقاله من النصرانية إلى الإسلام بعد أن كان قِسًا، فأصبح الآن من الدّعاة إلى الله عزّ وجلّ، يجوب أقطار الدّنيا، ويُسلم على يديه الآلاف، بل عشرات الآلاف، وكان كلّ هدف يوسف إِسْتِسْ أن يحوّل هذا الشّخص المسلم إلى النّصرانيّة. وقد ذكر في قصّة إسلامه حوارًا دار بينه وبين رجل أعمال مصري مسلم اسمه محمّد عبد الرّحمن، قال يوسف إِسْتِسْ: «لم أكن وحدي أنوي تحويل محمّد عبد الرحمن إلى النّصرانيّة حتّى أنجيه من النّار، لقد التحق بنا في البيت قسّ آخر كاثوليكي، وأنا كنت قسًا بروستانتيًا، وكذلك أبي وأمّي كانا يعملان بالتّبشير، وزوجتي كذلك، فكنّا خمسة بالبيت، وكان هدفنا الأسمى أن نحوّل محمّد عبد الرحمن إلى النّصرانيّة. ضربنا له مثالا: أنّ عقيدة التّثليث هي العقيدة الصّحيحة، انظر إلى التّفّاحة، لها قشر أحمر، ولها قلب أبيض، وفيها بذور، وهي تفّاحة واحدة، ولكنّها تحتوي على ذلك كلّه. فسألني: إذاً كم فيها من بذرة ؟ – وهو يشير إليّ بذلك – إذاً عندكم أكثر من إله، وليس إلهًا واحدًا كما تدّعون. ثمّ ضربنا له مثالًا آخر عن الثّالوث، قلنا: البيضة لها قشرة، ثمّ بياض، ثمّ صفار، وهكذا ثلاثة في واحد. فأجاب عبد الرّحمن: وكيف الحال إذا كان بالبيضة الواحدة أكثر من صفار =

موصوفٌ بالوحدانية متعالٍ عن المثيل والنظير ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي وإنْ لم يَكُفّوا عن القول بالتثليث ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليمسنهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أفلا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة ويستغفرون الله مما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول[١]؟ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا قال «البيضاوي»: وفي هذا الاستفهام ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ تعجيبٌ من إصرارهم على الكفر ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي ما المسيح إلا رسولٌ كالرسل الخالية الذين تقدموه خصّه الله تعالى ببعض الآيات الباهرات إظهاراً لصدقه كما خصّ بعض الرسل، فإن أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا في يد موسى. وجعلت حية تسعى وهو أعجب، وإن خُلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أبٍ ولا أم وهو أغرب، وكلُّ ذلك من جنابه عَزَّ وَجَلَّ وإنما موسى وعيسى مظاهر شئونه وأفعاله[٢] ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي مبالغة في الصّدق ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي أنه مخلوق كسائر المخلوقين مركبٌ من عظمٍ ولحمٍ وعروقٍ وأعصاب وفيه إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام لا بدّ أن يكون في حاجة إلى إخراجه ومن يكن هذا حاله فكيف يُعْبد، أو كيف يُتوهم أنه إله؟ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تعجيبٌ من حال الذين يدَّعون ألوهيّته هو وأمه أي انظر كيف نوضّح لهم الآيات الباهرة على بطلان ما اعتقدوه ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النّهار[٣] ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ﴾ أي قل يا محمد أتوجهون عبادتكم إلى من لا يقدر لكم على النفع والضر؟[٤] ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم وتضمنت الآية

= كصفارين، إذاً في هذه الحالة البيضة لها أربعة أجزاء، إذاً الإله أربعة، وليس ثلاثة. وضربنا له أمثلة عديدة جدا، ولم نكُن مقتنعين من الدّاخل بهذه الأمثلة، وفي الأخير لمّا يئسنا قلنا له: أخبرنا عن حقيقة إلهك. قال: أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، بسم الله الرّحمن الرّحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، ثمّ أعطانا معاني هذه السورة العظيمة. وهنا، بدأ الإسلام يدبّ، وبدأت عقيدة التّوحيد تدبّ في قلوب الحضور.

(١) (ش): الحلول والاتحاد من العقائد الكُفْريَّة: والحلول: هو الاعتقاد بحلول الله – عز وجل – في مخلوقاته، أو بعض مخلوقاته. والاتحاد: هو الاعتقاد باتحاد الله – عز وجل – بمخلوقاته، أو ببعض مخلوقاته. أي: اعتقاد أن وجود الكائنات أو بعضها هو عين وجود الله تعالى. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

(٢) (ش): هذا التعبير غير مناسب؛ لأنه يشبه تعبير الصوفية.

(٣) (ش): رابعةُ النَّهار: وسطُه.

(٤) قال في «البحر»: لما بين تعالى بدليل النقل والعقل انتفاء الألوهية عن عيسى ودعاهم للتوبة وطلب الغفران =

الإنكار عليهم حيث عبدوا مَن هو مُتَّصِفٌ بالعجز عن دفع ضرّ أو جلب نفع ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا الحد في دينكم وتُفْرِطُوا كما أَفْرَط أسلافكم فتقولوا عن عيسى: إنه إلهٌ[١] أو ابن إله قال «القرطبي»: وغلو اليهود قولهم في عيسى إنه ليس ولد رشْدة - أي هو ابن زنا - وغلوُّ النصارى قولهم إنه إله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي لا تتبعوا أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل بعثة النبي ﷺ ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ أي أضلوا كثيراً من الخلق بإغوائهم لهم ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ضلوا عن الطريق الواضح المستقيم قال «القرطبي»: وتكرير ضلوا للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد، والمرادُ الأسلافُ الذين سنُّوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى[٢] ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله عَزَّ وَجَلَّ في الزبور، والإنجيل قال ابن عباس: لُعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى في التوراة، وعلى عهد داود في الزبور، وعلى عهد عيسى في الإنجيل وعلى عهد محمد في القرآن[٣] قال المفسرون: إن اليهود لما اعتدوا في السبت دعا عليهم داود فمسخهم الله قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى دعا عليهم عيسى فمُسخوا خنازير ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم، ثمَّ بيَّن تعالى حالهم الشنيع فقال ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي لا ينهى بعضُهم بعضاً عن قبيحٍ فعلوه ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي بئس شيئاً فعلوه قال الزمخشري: تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم فيا حسرتا على المسلمين في إعراضهم عن التناهي عن المنكر كأنه ليس من الإسلام في شيء مع ما يتلون من كتاب الله من المبالغات في هذا الباب[٤] وقال في «البحر»: وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر، والتجاهر به، وعدم النهي عنه، والمعصيةُ إذا فُعلت ينبغي أن يُستتر بها لحديث «من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر».

فإذا فعلت جهاراً وتواطأ الناس على عدم الإنكار كان ذلك تحريضاً على فعلها وسبباً مثيراً لإفشائها وكثرتها[٥] ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ترى كثيراً

= أنكر عليهم ووبخهم من وجهٍ آخر وهو عجز عيسى عن دفع ضررٍ وجلب نفع وأنَّ من كان لا يدفع عن نفسه حريٌّ أن لا يدفع عنكم؛ «البحر» ٣/ ٥٣٨.

(١) «القرطبي» ٦/ ٢٥٢.

(٢) «القرطبي» ٦/ ٢٥٢.

(٣) «البحر» ٣/ ٥٣٩.

(٤) «الكشاف» ١/ ٥١٩.

(٥) «البحر» ٣/ ٥٤٠.

من اليهود يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين والمراد «كعب بن الأشرف» وأصحابه ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا هو المخصوص بالذم أي بئس ما قدموه لآخرتهم سخطُ الله وغضبُه عليهم ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي وفي عذاب جهنم مخلّدون أبد الآبدين ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يصدّقون بالله ونبيّهم وما جاءهم من الكتاب ما اتخذوا المشركين أولياء ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثرهم خارجون عن الإيمان وطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

البَلَاغَة: ١ - ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ في هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غاية وراءه[١].

٢ - ﴿إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أضاف الاسم الجليل إليهم تلطفاً معهم في الدعوة.

٣ - ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لم يقل (عليهم) وإنما وضع الظاهر مكان الضمير للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر.

٤ - ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ صيغة المضارع بدل الماضي ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة ومراعاة لرءوس الآيات.

٥ - ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة.

٦ - الاستعارة ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ استعار العمى والصمم للإعراض عن الهداية والإيمان.

٧ - ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾ ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ قال «أبو السعود»: تكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب ولفظ «ثمَّ» لإظهار ما بين العجبين من التفاوت أي إن بياننا للآيات أمرٌ بديع بالغٌ أقصى الغايات من الوضوح والتحقيق وإعراضهم عنها أعجبُ وأبدع[٢].

٨ - ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ تقبيحٌ لسوء أعمالهم وتعجيبٌ منه بالتوكيد مع القسم.

الفوَائِد: قال بعض المحققين في قوله تعالى ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ إذا كان هذا في حق عيسى النبي فما ظنك بوليّ من الأولياء هل يملك لهم نفعاً ولا ضرًّا؟!

تنبيه: قال «ابن كثير»: دلت الآية ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ على أن مريم ليست بنبيَّة كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة «سارة» ونبوة «أم موسى» استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيًّا إلا من الرجال ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩] وحكى الأشعري الإجماع على ذلك[٣].

(١) «أبو السعود» ٢/ ٤٦.
(٢) «أبو السعود» ٢/ ٥٠.
(٣) «ابن كثير» ١/ ٥٣٧.

قال الله تعالى:

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً
لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا
يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ
يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا
رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ
جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا
طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم
بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ
تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ
عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ
وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ
فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ
إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ
فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ
ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ
أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ
مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩٦﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى اليهود والنصارى وما هم عليه من الزيغ والضلال، ذكر هنا أنَّ اليهود في غاية العداوة للمسلمين، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة، وذكر أن النصارى أَلْيَنُ عريكةً(١) من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم، ثم لما استقصى المناظرة مع أهل الكتاب عاد إلى بيان الأحكام الشرعية فذكر منها كفارة اليمين، وتحريم الخمر والميسر، وجزاء قتل الصيد في حالة الإحرام.

اللغَة: ﴿قِسِّيسِينَ﴾ القِسُّ والقسيِّس اسم لرئيس النصارى ومعناه العالم ﴿وَرُهۡبَانٗا﴾

---

(١) (ش): عَرِيكة: طبيعة. (ليِّن العَرِيكة): سَهْل الانقياد. (شديد العَرِيكة): صُلْب، صَعْب الانقياد، شديد النَّفس، أَبِيٌّ. (صَعْب العَرِيكة): خشِنٌ سيِّئ الخُلُق.

جمع راهب وأصله من الرهبة بمعنى المخافة، والرهبانيةُ التعبد في الصومعة[١] ﴿تَفِيضُ﴾ الفيض أن يمتلئ الإِناء ويسيل من شدة الامتلاء يقال: فاض الماء وفاض الدمع قال الشاعر:

فَفَاضَتْ دُمُـوعُ الْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً ... عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِيَ مِحْمَلِي[٢]

﴿رِجْسٌ﴾ قال الزجاج: الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل ويقال للعذرة والأقذار: رجس لأنها قذارة ونجاسة ﴿الْجَحِيمِ﴾ النار الشديدة الاتقاد ﴿الصَّيْدِ﴾ كل ما يصطاد من حيوانٍ وطيرٍ وغيره فالصيد يطلق على المصيد قال الشاعر:

صَـيْدُ الْـمُـلُـوكِ أَرَانِــبُ وَثَـعَـالِـبُ ... وَإِذَا رَكِـبْـتُ فَـصَـيْـدِيَ الأَبْـطَـالُ

سَبَبُ النّزول: أ - عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إِني إِذا أكلت هذا اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي وإِني حرّمت عليّ اللحم فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ[٣]﴾ الآية[٤].

ب - عن أنس قال: كنتُ ساقي القوم يوم حُرّمت الخمر في بيت «أبي طلحة» وما شرابهم إِلا الفضيخ والبسر والتمر، وإِذا منادٍ ينادي إِن الخمر قد حرّمت قال: فأريقت في سكك المدينة فقال أبو طلحة اِذهب فأهرقها فقال بعض القوم: قُتل قومٌ وهي في بطونهم فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾[٥][٦].

«التفسير»: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ اللام للقسم أي قسماً لتجدنَّ يا محمد اليهود والمشركين أشدَّ الناس عداوة للمؤمنين ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه[٧] قال الزمخشري: وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة إِجابتهم إِلى الحق، ولين عريكة النصارى وسهولة ميلهم إِلى الإِسلام، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين بل نبّه على زيادة عداوتهم وبتقديمهم على الذين أشركوا[٨] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ تعليلٌ لقرب مودتهم أي كونهم أقرب مودة بسبب أن منهم علماء وعُباداً ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي

---

(١) «القرطبي» ٦/ ٢٥٨.

(٢) (ش): صَبَابَةً: اشتياقًا. المِحْمل: العِلاقة التي يُعلَّق بها السَّيفُ.

(٣) «أسباب النزول» ١١٧، و«القرطبي» ٦/ ٢٦٠.

(٤) (ش): (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٥) «القرطبي» ٦/ ٢٩٣، و«أسباب النزول» ١٢٠

(٦) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٧) (ش): أخرج ابن جرير والنسائي والطبراني عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: نزلت في النجاشي وأصحابه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾... الآية» وإسناده صحيح.

(٨) «الكشاف» ١/ ٥٢١.

يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود قال «البيضاوي»: وفيه دليلٌ على أن التواضعَ والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات، محمودٌ وإن كان من كافر[(١)] ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي إذا سمعوا القرآن المُنْزَل على محمد رسول الله ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي فاضت أعينهم بالدمع من خشية الله لرقة قلوبهم وتأثرهم بكلام الله الجليل ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي من أجل معرفتهم أنه كلام الله وأنه حق ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي يقولون يا ربنا صدقنا بنبيّك وكتابك ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي مع أمة محمد عليه السلام الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم «جعفر بن أبي طالب» بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم[(٢)(٣)]. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي ما الذي يمنعنا عن الإيمان ويصدنا عن اتّباع الحق وقد لاح لنا الصواب وظهر الحق المنير؟ قالوا ذلك في جواب من عيّرهم بالإسلام من اليهود قال في «البحر»: هذا إنكارٌ واستبعادٌ لانتفاء الإيمان منهم مع قيام موجبه وهو عرفان الحق[(٤)] ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة بصحبة الصالحين من عباده الأبرار ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ﴾ أي جازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ذلك الأجر والثواب جزاء من أحسن عمله وأصلح نيّته، ثم أخبر تعالى عن حال الأشقياء فقال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي جحدوا بآيات الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ فهم أهل الجحيم المعذّبون فيها قال «أبو السعود»: وذكَرهم بمقابلة المصدِّقين بآيات الله جمعًا بين الترغيب والترهيب[(٥)] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ روى «الطبري» عن عكرمة قال: كان أناسٌ من أصحاب النبي ﷺ همّوا بالخِصاء[(٦)] وترك اللحم والنساء فنزلت هذه الآية[(٧)] أي لا

---

(١) «البيضاوي» ص ١٥٩.

(٢) «ابن كثير» ١/ ٥٣٩.

(٣) (ش): عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ الآية. أخرجه ابن جرير وهو في الصحيح المسند من «أسباب النزول»، للشيخ مُقبل ابنِ هَادِي. وأخْضَلَ الشيءَ: بَلَّهُ. بكوا حتى أَخْضَلُوا لِحاهم: بكوا حتى بَلُّوهَا بالدموع.

(٤) «البحر» ٤/ ٦.

(٥) «أبو السعود» ٢/ ٥٥.

(٦) (ش): الخِصْيُ والخُصْيَةُ، بضمهما وكسرهما: من أعْضاءِ التَّناسُل، وهاتانِ خُصْيَتانِ وخُصْيانِ، وخَصاهُ خِصاءً: سَلَّ خُصْيَيْه، فهو خَصِيٌّ ومَخْصِيٌّ.

(٧) «الطبري» ١٠/ ٥١٤.

تمنعوا أنفسكم تلك اللذائذ وتقولوا حرّمناها على أنفسنا مبالغة في تركها وتقشفاً وتزَهُّداً ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ أي ولا تتعدَّوا حدود ما أحل الله لكم بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي يبغض المتجاوزين الحد، والإسلامُ يدعو إلى القصد بدون إفراط أو تفريط ولهذا قال: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حلَّ لكم وطاب مما رزقكم الله قال في «التسهيل»: أي تمتعوا بالمآكل الحلال وبالنساء وغير ذلك، وإنما خصّ الأكل بالذكر لأنه أعظم حاجات الإنسان[١] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ هذا استدعاء إلى التقوى بألطف الوجوه كأنه يقول: لا تضيّعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ فتكون عليكم الحسرة العظمى فإن الإيمان بالله تعالى يوجب المبالغة في تقوى الله ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي لا يؤاخذكم بما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقولكم: لا والله، وبلى والله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي ولكن يؤاخذكم بما وَثَّقْتُم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حَنثتم[٢] ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي كفارة اليمين عند الحنث أن تُطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تُطعمون منه أهليكم قال ابن عباس: أي من أعدل ما تُطعمون أهليكم وقال ابن عمر: الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزبيب، وخيرُ ما نُطعم أهلينا الخبز واللحم[٣] ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي كسوة المساكين لكل مسكين ثوبٌ يستر البدن ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي إعتاق عبد مملوك لوجه الله قال في «البحر»: وأجمع العلماء على أن الحانث مُخيّر بين الإطعام والكسوة والعتق[٤] ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام[٥] ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية عند الحنث ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أي احفظوها عن الابتذال ولا تحلفوا إلا لضرورة قال ابن عباس: أي لا تحلفوا وقال ابن جرير: أي لا تتركوها بغير تكفير ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مثل ذلك التبيين يبيّن الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ قال ابن عباس: الخمر جميع الأشربة التي تُسكر، والميسرُ القمار كانوا يتقامرون به في الجاهلية ﴿وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ أي الأصنام المنصوبة للعبادة والأقداح التي كانت عند سدنة البيت وخُدّام الأصنام قال ابن عباس ومجاهد: الأنصاب حجارةٌ كانوا يذبحون قرابينهم عندها والأزلام:

---

(١) «التسهيل» ص ١٨٦.

(٢) (ش): حنِث بيمينه/ حنِث في يمينه: تراجع فيه، لم يبرّ في قَسَمِه وأثِم.

(٣) «ابن كثير» ١/ ٥٤٣.

(٤) «البحر» ٤/ ١١.

(٥) شرط الأحناف والحنابلة التتابع في الأيام، وقال الشافعي ومالك، لا يجب التتابع. واختار «الطبري» أنه كيفما صامهن مفرقة أو متتابعة أجزأه كذا في «الطبري» ١٠/ ٥٦٢.

قداحٌ كانوا يستقسمون بها[١] ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي قذر ونجسٌ تعافه العقول، وخبيثٌ مستقذر من تزيين الشيطان ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اتركوه وكونوا في جانب آخر بعيدين عن هذه القاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي ما يريد الشيطان بهذه الرذائل إلا إيقاعَ العداوة والبغضاء بين المؤمنين في شربهم الخمر ولعبهم بالقمار ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصلاة التي هي عماد دينكم قال أبو حيان: ذكر تعالى في الخمر والميسر مفسدتين: إحداهما دنيوية، والأخرى دينية، فأما الدنيوية فإن الخمر تثير الشرور والأحقاد وتئول بشاربها إلى التقاطع، وأما الميسر فإن الرجل لا يزال يقامر حتى يبقى سليبًا لا شيء له وينتهي إلى أن يقامر حتى على أهله وولده، وأما الدينية فالخمر لغلبة السرور والطرب بها تُلهي عن ذكر الله وعن الصلاة، والميسر - سواء كان غالبًا أو مغلوبًا- يلهي عن ذكر الله[٢] ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ الصيغة للاستفهام ومعناه الأمر، أي: انتهوا ولذلك قال عمر: انتهينا ربّنا انتهينا. • قال في «البحر»: وهذا الاستفهام من أبلغ ما يُنهى به كأنه قيل: قد تُلي عليكم ما فيهما من المفاسد التي توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم[٣]؟ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله واحذروا مخالفتهما ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم ولم تعملوا بأمر الله ورسوله ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ليس عليه هدايتكم وإنما عليكم تبليغكم الرسالة وجزاؤكم علينا قال «الطبري»: وهذا من الله وعيدٌ لمن تولى عن أمره ونهيه يقول تعالى ذكره لهم: فإن توليتم عن أمري ونهي فتوقعوا عقابي واحذروا سخطي[٤] وقال أبو حيان: وفي هذا من الوعيد البالغ ما لا خفاء به إذ تضمّن أن عقابكم إنما يتولاه المرسِلُ لا الرسول[٥] ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ قال الإثم والذمّ إنما يتعلق بفعل المعاصي والذين ماتوا قبل التحريم ليسوا بعاصين ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ليس عليهم جُناحٌ فيما تناولوه من المأكل والمشروب إذا اتقوا المحرَّم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ أي اتقوا المحرّم وآمنوا بتحريمه بمعنى اجتنبوا ما حرّمه الله معتقدين حرمته ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ أي ثم استمروا على تقوى الله واجتناب المحارم وعملوا الأعمال الحسنة التي تقربهم من الله

(١) «البحر المحيط» ٤/ ١٥.
(٢) «البحر المحيط» ٤/ ١٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) «الطبري» ١٠/ ٥٧٥.
(٥) «البحر» ٤/ ١٥.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب المتقربين إِليه بالأعمال الصالحة. قال في «التسهيل»: كرّر التقوى مبالغة. وقيل: الرتبة الأولى: إِتقاء الشرك، والثانيةُ: اتقاء المعاصي، والثالثةُ: اتقاء ما لا بأس به حذراً مما به البأس[١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي لَيَخْتَبِرَنَّكُم الله في حال إِحرامكم بالحج أو العمرة بشيء من الصيد تنالُ صغارَه الأيدي وكبارَه الرماحُ، قال «البيضاوي»: نزل في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون[٢] قال في «البحر»: وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة[٣] ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي ليتميز الخائف من الله بطريق الغيب لقوة إِيمانه ممن لا يخاف الله لضعف إِيمانه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فمن تعرّض للصيد بعد هذا الإِعلام والإِنذار فله عذابٌ مؤلم موجع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحجٍ أو عمرة ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي من قتل الصيد في حالة الإِحرام فعليه جزاء يماثل ما قتل من النَّعم وهي الإِبل والبقر والغنم ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي يحكم بالمِثْل حكمان عادلان من المسلمين ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي حال كونه هدياً يُنحر ويُتصدَّق به على مساكينه فإِن لم يكن للصيد مثلٌ من النَّعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي وإِذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النَّعم فيُقوّم الصيدُ المقتول ثم يُشترى به طعامٌ فيصرفُ لكل مسكينٍ مدٌّ منه ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي عليه مثل ذلك الطعام صياماً يصومه عن كل مدٍّ يوماً ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإِحرام قال في «التسهيل»: عدَّد تعالى ما يجب في قتل المحرم للصيد، فذكر أولاً الجزاء من النَّعم، ثم الطعام، ثم الصيام ومذهب مالك والجمهور أنها على التخيير وهو الذي يقتضيه العطف بـ «أو» وعن ابن عباس أنها على الترتيب[٤] ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي ومن عاد إِلى قتل الصيد وهو محرم فينتقم الله منه في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي غالب في أمره منتقم ممن عصاه ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أي أُحلَّ لكم أيها الناس صيد «البحر» سواء كنتم محرمين أو غير محرمين ﴿وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي وما يُطعم من صيده كالسمك وغيره منفعةً وقوتاً لكم وزاداً للمسافرين يتزودونه في أسفارهم ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي وحُرّم عليكم صيد

---

(١) «التسهيل» لعلوم التنزيل ١/ ١٨٧.

(٢) «البيضاوي» ص١٦٠.

(٣) «البحر» ٤/ ١٦.

(٤) «التسهيل» ١/ ١٨٨.

البر ما دمتم محرمين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي خافوا الله الذي تبعثون إِليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم وهو وعيد وتهديد.

البَلَاغَة: ١ - بين لفظ ﴿عَدَاوَةً .. مَوَدَّةً﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي تمتلئ بالدمع فاستعير له الفيضُ الذي هو الانصباب عن الامتلاء مبالغةً، أو جُعِلَت أعينُهم من فرط البكاء تفيض بأنفسها[1].

٣ - ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق إِنسان.

٤ - ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ الاستفهام يراد به الأمر أي: انتهوا وهو من أبلغ ما يُنهى به قال «أبو السعود»: ولقد أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صُدرت الجملة بـ «إِنما» وقُرنا بالأصنام والأزلام، وسُميا رجساً من عمل الشيطان، وأُمر بالاجتناب عن عينهما وجعل ذلك سبباً للفلاح، ثم ذكر ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية، ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ إِيذاناً بأن الأمر في الزجر والتحذير قد بلغ الغاية القصوى[2].

فَائِدَة: التعبير بقوله تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ نصٌّ في التحريم ولكنه أبلغ في النهي والتحريم من لفظ «حُرّم» لأن معناه البعد عنه بالكلية فهو مثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢] لأن القرب منه إِذ كان حراماً فيكون الفعل محرماً من باب أولى وكذلك هنا.

تنبيه: لم يذكر في القرآن الكريم تعليل الأحكام الشرعية إِلا بالإِيجاز أمّا هنا فقد ذكرت العلة بالتفصيل فذكر تعالى منها إِلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين، والصدّ عن سبيل الله وذكره، وشغل المؤمنين عن الصلاة، ووصف الخمر والميسر بأنهما رجس وأنهما من عمل الشيطان وأن الشيطان يريد إِغواء الإِنسان وكل ذلك ليشير إِلى ضرر وخطر هاتين الرذيلتين «القمار والخمر» فتدبر أسرار القرآن العظيم[3].

قال الله تعالى:

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي
الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ

(١) انظر «حاشية الكشاف» ١/ ٥٢١.
(٢) «أبو السعود» ٢/ ٥٦.
(٣) «روائع البيان» ١/ ٥٦٢.

عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ
بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا
يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى
ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ
ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم
مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ
وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا
مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ
وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى في الآية المتقدمة أن الصيد على المحرم حرام، ونهى عن قتل الطير والوحش في حالة الإحرام، ذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس إذ ركَز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى لأحد، فكما أن الحرم سببٌ لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات(١)، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة(٢).

اللغَة: ﴿بَحِيرَةٖ﴾ من «البَحْر» وهو الشق قال أبو عبيدة: وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن آخرها ذكرٌ شقوا أذنها وخلَّوا سبيلها فلا تُركب ولا تُحلب(٣) ﴿سَآئِبَةٖ﴾ البعير يُسَيَّبُ(٤)

---

(١) (ش): هذا لا دليل عليه وفيه مبالغةٌ واعتقادٌ فاسدٌ بغير الله.

(٢) (ش): قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].ووجه البركة، أن الطواف بالبيت فيه مغفرة للذنوب فهذه بركة، فقد قال ﷺ: «مَنْ طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ أُسْبُوعًا فَأَحْصَاهُ كَانَ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ وَلَا يَضَعُ قَدَمًا وَلَا يَرْفَعُ أُخْرَى إِلَّا حَطَّ اللهُ عَنْهُ خَطِيئَةً وَكَتَبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةً» [رواه الترمذي، وصححه الألباني]. طَافَ أُسْبُوعًا: أَيْ سَبْعَ مَرَّاتٍ. والصلاة فيه بمائة ألف صلاة، وأي بركة أعظم من هذا، قَالَ ﷺ: «صَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ» [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني].
وزمزم قال عنها رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ؛ إِنَّهَا طَعَامُ طُعْم» [رواه مسلم]. «إِنَّهَا طَعَامُ طُعْم» أَيْ تُشْبِعُ شَارِبَهَا كَمَا يُشْبِعُهُ الطَّعَام. وقال ﷺ: «خَيْرُ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَاءُ زَمْزَم؛ فِيهِ طَعَامٌ مِنَ الطُّعْمِ وَشِفَاءٌ مِنَ السُّقْم» (صحيح رواه الطبراني). (وَشِفَاءٌ مِنَ السُّقْم) أي شفاء من الأمراض إذا شُرِب بنية صالحة. وقال ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ» (رواه ابن ماجه وصححه الألباني). ومَاءُ زَمْزَمَ حَمَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْأَدَاوَى وَالْقِرَبِ وَكَانَ يَصُبُّ عَلَى الْمَرْضَى وَيَسْقِيهِمْ. (رواه البيهقي، وصححه الألباني). (الإداوة) إناء صغير يُحمَل فيه الماء.(القِرْبَة): وعاء مِنْ جِلْد يُخرز من جانب واحد يستعمل لِحفْظِ السوائل.

(٣) «البحر» ٤/ ٢٨.

(٤) (ش): سَيَّبه: ترَكه، أطْلَقه، خلّاه يذهب حيث شَاء.

بنذرٍ ونحوه ﴿وَصِيلَةٍ﴾ الوصيلة من الغنم كانوا إذا وَلدت الشاة سبعة أبطن وكان السابع ذكراً وأُنثى قالوا: قد وصلت أخاها فلم تُذبح[1] ﴿حَامٍ﴾ : الفَحْل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن يقال قد حمى ظهره فلا يُركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء ﴿عُثِرَ﴾ ظهر يقال: عثرت منه على خيانة، أي: اطلعت وظهرت لي ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ تثنية أولى بمعنى أحق.

سَبَبُ النّزول: أ - عن ابن عباس قال: كان قومٌ يسألون النبي ﷺ استهزاء فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ...﴾ الآية[2].

ب - وعن ابن عباس قال: كان تميم الداريُّ وعَدِيُّ بن بدّاء يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من «بني سهم» فتوفي بأرضٍ ليس بها مسلم، فأوصى إليهما فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاماً من فضة مخوّصاً بالذهب، فاستحلفهما رسول الله ﷺ ما كتمتما ولا اطلعتما!! ثم وُجد الجام بمكة فقالوا: اشتريناه من عدي وتميم فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي ولشهادتنا أحقُّ من شهادتهما وما اعتدينا فأخذوا الجام وفيهما نزلت هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ ...﴾ الآية[3].

«التفسير»: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي جعل الله الكعبة المشرّفة وهي البيت المحرّم صلاحاً ومعاشاً للناس لقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سبب لانتعاشهم في أمور معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحُجَّاج والعمار ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي الأشهر الحُرُم «ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب» قياماً لهم لأمنهم القتال فيها ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ أي الهدي الذي يُهدى للحرم من الأنعام، والبُدن ذوات القلائد التي تُقلّد من شجر الحرم لتأمَنَ هي وأصحابُها جعلها الله أيضاً قياماً للناس ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي جعل هذه الحرمة للبيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد لتعلموا أيها الناس أن الله يعلم تفاصيل أمور السماوات والأرض ويعلم مصالحكم لذلك جعل الحرم آمنا يسكن فيه كل شيء، فانظروا لطفه بالعباد مع كفرهم وضلالهم ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي اعلموا أيها الناس أن الله شديد العقاب لمن عصاه وأنه غفور رحيم لمن تاب وأطاع وأناب، فلا تسيئنكم نِقْمَتُه ولا تُطْمِعَنَّكم رحمَتُه ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ أي ليس على الرسول إلا أداء الرسالة وتبليغ الشريعة وقد بلّغ ما وجب عليه فلا عذر لأحدٍ في التفريط

---

(١) «غريب القرآن» ص١٤٧.

(٢) «أسباب النزول» ص ١٢٠.

(٣) «القرطبي» ٦/٣٤٦.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم وسيجازيكم عليها قال أبو حيان: الجملة فيها تهديد إذ أخبر تعالى أنه مُطَّلِع على حال العبد ظاهراً وباطناً فهو مجازيه على ذلك ثواباً أو عقاباً[١] ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ أي قل: يا محمد لا يتساوى الخبيث والطيّبُ ولو أعجبك -أيها السامع- كثرة الخبيث وهو مثلٌ ضربه الله للتمييز بين الحلال والحرام، والمطيع والعاصي، والرديء والجيد قال «القرطبي»: اللفظ عامٌّ في جميع الأمور يتصور في المكاسب، والأعمال، والناس، والمعارف، من العلوم وغيرها، فالخبيث من هذا كلّه لا يُفلح ولا يُنْجِب ولا تَحسن له عاقبةُ وإن كثر، والطيّب - وإن قلَّ - نافعٌ حميدٌ جميل العاقبة[٢] وقال أبو حيان: الظاهر أن الخبيث والطيّب عامّان فيندرج تحتهما المال وحرامه، وصالح العمل وفاسده، وجيّد الناس ورديئهم، وصحيح العقائد وفاسدها ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ [الأعراف: ٨٥] [٣] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يا ذوي العقول لتفلحوا وتفوزوا برضوان الله والنعيم المقيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ أي لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها إن ظهرت لكم ساءتكم قال الزمخشري: أي لا تُكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليفَ شاقّةٍ عليكم إن أفتاكم بها وكلّفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها[٤] ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف التي تسؤكم فلا تسألوا عنها[٥] ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَا﴾ أي عفا الله عن مسائلكم السالفة التي لا ضرورة لها وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية فلا تعودوا إلى مثلها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الفضل والإحسان ولذلك عفا عنكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي سأل أمثال هذه المسائل قومٌ قبلكم فلما أعطوها وفُرضت عليهم كفروا بها ولهذا قال ﴿ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي صاروا بتركهم العمل بها كافرين وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أُمروا بها تركوها فهلكوا ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ كان أهل الجاهلية

(١) «البحر» ٤/ ٢٧.

(٢) «القرطبي» ٦/ ٣٢٧.

(٣) «البحر» ٤/ ٢٧.

(٤) «الكشاف» ١/ ٥٣٣.

(٥) وقال ابن عباس في تفسير الآية: لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم إما لتكليف شرعي يلزمكم، وإما خبر يسوءكم مثل الذي قال أين أبي؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتدأكم ربكم بأمر فحينئذ إن سألتم عن بيانه بين لكم وأبدى. نقلاً عن «البحر المحيط» ٤/ ٣١.

إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وحرموا ركوبها وهي البحيرة، وكان الرجل يقول: إذا قدمتُ من سفري أو بَرِئْتُ من مرضي فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وهي الوصيلة، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره وهو الحام، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادات كلها فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولكنَّ الذين كفروا بالله يختلقون الكذب على الله وينسبون التحريم إليه فيقولون الله أمرنا بهذا وأكثرهم لا يعقلون أن هذا افتراء؛ لأنهم يقلّدون فيه الآباء ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الضالين: هلموا إلى حكم الله ورسوله فيما حلّلتم وحرّمتم ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي يكفينا دين آبائنا ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الهمزة للإنكار والغرض التوبيخ أي أيتبعون آباءهم فيما هم عليه من الضَّلال ولو كانوا لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون إلى الحق؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي احفظوها عن ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب والزموا إصلاحها ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ أي لا يضركم ضَلال مَن ضلَّ من الناس إذا كنتم مهتدين قال الزمخشري: كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام فقيل لهم عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشي بها في طرق الهدى لا يضُرّكم الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ[1]﴾ [فاطر: ٨] وقال «أبو السعود»: ولا يتوهمنّ أحدٌ أنّ في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن من جملة الاهتداء أن ينكر وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ**»[2] ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي مصيركم ومصير جميع

(١) «الكشاف» ١/ ٥٣٤.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ٦٥ ويؤيده حديث: «ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعـًا، وَهَوًى متَّبعـًا، وَدُنْيا مُؤْثَرَة، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأيٍ برأيِه، فَعَلَيْكَ نفسك، وَدَعْ أمْرَ الْعَوَامِّ» أخرجه الحاكم.

(ش): حديث: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ» (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وصححه الألباني). أما حديث: «ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعـًا، وَهَوًى مُتَّبَعـًا، وَدُنْيا مُؤْثَرَة، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ نفسك، وَدَعْ أمْرَ الْعَوَامِّ» فرواه ابن حبان، وضعفه الألباني، وحسَّنه الشيخ ابن باز.

ورواه الحاكم بلفظ: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَابُدَّ لَكَ مِنْ طَلَبِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ وَدَعْهُمْ وَعَوَامَّهُمْ»، (وصححه الحاكم والذهبي والطحاوي). (الشُّحُّ): البُخْل الشديد، وطاعته: أن يتبع الإنسان هوى نفسه لبخله، وينقاد له. (دُنْيَا مُؤْثَرَة) أي: مَحْبُوبة مُشْتَهَاة. (وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ) أي: أن يُعجَب الإنسان برأيه ولا يُعَوِّلُ على نصوص الكتاب والسنة، =

الخلائق إلى الله ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم بأعمالكم قال «البيضاوي»: هذا وعدٌ ووعيد للفريقين، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ أي يا أيها المؤمنون إذا شارف أحدكم على الموتِ وظهرت علائمه[1] فينبغي أن يُشْهِد على وصيته ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي يُشهد على الوصية شخصين عدلين من المسلمين أو اثنين من غير المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي إن أنتم سافرتم فقاربكم الأجل ونزل بكم الموت ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي توقفونهما من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس وكذا فعل رسول الله ﷺ استحلف عَدِيًّا وتميمًا بعد العصر عند المنبر ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادتهما قال «أبو السعود»: أي إن ارتاب بهما الوارث منكم بخيانةٍ وأَخْذِ شيء من التركة فاحبسوهما وحَلِّفُوهما بالله[2] ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي يحلفان بالله قائلين: لا نحابي بشهادتنا أحداً ولا نستبدل بالقسم بالله عرضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذبين من أجل المال ولو كان من نُقسم له قريباً لنا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ أي ولا نكتم الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها إنّا إن فعلنا ذلك كنا من الآثمين ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي فإن اطلع بعد حلفهما على خيانتهما أو كذبهما في الشهادة ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ أي فرجلان آخران من الورثة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنين وليكونا من أولى من يستحق الميراث ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي يحلفان بالله لشهادتنا أصدق وأولى بالسماع والاعتبار من شهادتهما لأنهما خانا ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وما اعتدينا فيما قلنا فيهما من الخيانة إنّا إذا كذبنا عليهم نكون من الظالمين ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي ذلك الحكم أقرب أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا تبديل ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي يخافوا أن يحلف غيرهم بعدهم فيفتضحوا ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ﴾ أي خافوا ربكم وأطيعوا أمره ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي والله لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى جنته ورحمته.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ عطفُ القلائد على الهدي من عطف الخاص على العام، خُصّت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر، وبَهَاءُ الحج بها أظهر.

= وإنما يُعَوِّل على رأيه. (فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ وَدَعْهُمْ وَعَوَامَّهُمْ) عند ذلك عليك أن تجتهد في خلاصك ونجاتك، وتدع عنك الناس، وذلك لقلة الجدوى والفائدة؛ لأنها حصلت هذه الأمور التي انشغلوا بها عن الاستجابة والالتزام بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ.

(١) (ش): علائمه: علاماته.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ٦٦.

٢ – ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أطلق المصدر البلاغ وأراد به التبليغ للمبالغة.

٣ – ﴿ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ بينهما طباقٌ، وبين ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية.

٤ – ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى يراد منها الأمر أي ليشهد بينكم.

الفوَائِد: قال الإمام الشاطبي: الإكثار من الأسئلة مذموم وله مواضع نذكر منها عشرة:

أحدها: السؤال عما لا ينفع في الدين كسؤال بعضهم: من أبي؟

ثانيها: أن يسأل ما يزيد عن الحاجة كسؤال الرجل عن الحج: أكلَّ عام؟

ثالثها: السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ويدل عليه: « **ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ** »[(١)]

رابعها: أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها كما جاء في النهي عن الأغلوطات[(٢)].

خامسها: أن يسأل عن علة الحكم في التعبدات كالسؤال عن قضاء الصوم للحائض دون الصلاة[(٣)].

سادسها: أن يبلغ بالسؤال حدّ التكلف والتعمق كسؤال بني إسرائيل عن البقرة وما هي وما لونها؟

سابعها: أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي ولذلك قال سعيد: أعراقي أنت[(٤)]؟

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا». فَقَالَ رَجُلٌ أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ – ثُمَّ قَالَ – ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

(٢) (ش): عَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْأُغْلُوطَاتِ. (رواه أحمد وأبو داود، وضعفه الألباني). والأغلوطات: ما لا يُحتاجُ إليه من كيف وكيف.الأُغْلُوطَاتِ: جمع أغلوطة، من الغلط: «شِدَادُ الْمَسَائِلِ وَصِعَابُهَا: أَنْ يُقَابِلَ الْعَالِمَ بِصِعَابِ الْمَسَائِلِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا الْغَلَطُ، لِيُسْتَزَلَّ وَيُسْتَسْقَطَ فِيهَا رَأْيُهُ.

(٣) (ش): عَنْ مُعَاذَةَ قَالَتْ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؛ فَقَالَتْ: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟ قُلْتُ: لَسْتُ بِحَرُورِيَّةٍ وَلَكِنِّي أَسْأَلُ. قَالَتْ كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (حَرُورِيَّةٌ أَنْتِ) نِسْبَةٌ إِلَى حَرُوراءَ وَهِيَ قَرْيَةٌ بِقُرْبِ الْكُوفَةِ كَانَ أَوَّلُ اجْتِمَاعِ الْخَوَارِجِ بِهَا. ومَعْنَى قَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْخَوَارِجِ يُوجِبُونَ عَلَى الْحَائِضِ قَضَاءَ الصَّلَاةِ الْفَائِتَةِ فِي زَمَنِ الْحَيْضِ وَهُوَ خِلَافُ إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ الَّذِي اسْتَفْهَمَتْهُ عَائِشَةُ هُوَ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، أَيْ: هَذِهِ طَرِيقَةُ الْحَرُورِيَّةِ وَبِئْسَتِ الطَّرِيقَةُ.

(٤) (ش): سعيد هو سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ والسائل رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ.
«أعراقي أنت؟» أي: تأخذ بالقياس المخالف للنص. (والحوار رواه مالك في «الموطأ»).

(ش): الصواب: أن يقال: عن كيفية الاستواء لأن السائل قال: «كيف استوى؟». فقال مالك: «الاستواء معلوم والكيف مجهول». ولم يسأله عن معنى الاستواء.

تاسعها: السؤال عما حصل بين السلف وقد قال عمر بن عبد العزيز: تلك دماءٌ كَفَّ الله عنها يدي فلا ألطّخ بها لساني.

ثامنها: السؤال عن المتشابهات ومن ذلك سؤال مَن سأل مالكًا عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم.. إلخ.

عاشرها: سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام ففي الحديث: « **أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ** »[(١)].

قال الله تعالى:

يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ
يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ
وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ
بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ
كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾
وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ
ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن
كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا
وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ
أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي
وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ
تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ
صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الوصية عند دنوّ الأجل وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة، أعقبه بذكر اليوم المهول المخيف وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين للجزاء والحساب، ثم ذكر المعجزات التي أيّد بها عبده ورسوله «عيسى» ومنها المائدة من السماء،

(١) نقلاً عن ««محاسن التأويل»» للقاسمي ٦/ ٢١٧٦.

(ش): رواه البخاري ومسلم ، (الأَلَدُّ الْخَصِمُ): هُوَ الدَّائِمُ فِي الْخُصُومَةِ.

وختم السورة الكريمة ببراءة السيد المسيح من دعوى الألوهية.

اللغَة: ﴿كَفَفْتُ﴾ منعتُ وصرفتُ ومنه الكفيف لأنه مُنِعَ الرؤية ﴿أَيَّدتُّكَ﴾ قوّيتك مأخوذ من الأيْد وهو القوة ﴿أَوْحَيْتُ﴾ الوحي: إِلقاء المعنى إِلى النفس خفية وهو على أقسام: وحيٌ بمعنى الإِلهام ووحيٌ بمعنى الإِعلام في اليقظة والمنام، ووحيٌ بمعنى إِرسال جبريلَ إِلى الرسل عليهم السلام[1] ﴿مَآئِدَةً﴾ المائدة: الخُوان الذي عليه الطعام أي السُّفرة فإِن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة[2] ﴿الرَّقِيبَ﴾ المراقب الشاهد على الأفعال ﴿أَبَدًا﴾ أي بلا انقطاع.

«التفسير»: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ أي اذكروا أيها الناس ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة حين يجمع الله الرسل والخلائق للحساب والجزاء ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أي ما الذي أجابتكم به أممكم؟ وما الذي ردّ عليكم قومكم حين دعوتموهم إِلى الإِيمان والتوحيد؟ ﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ أي لا علم لنا إِلى جنب علمك قال ابن عباس: أي لا علم لنا إِلا علم أنت أعلم به منا[3] ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي تعلم ما لا نعلم ممّا ظهر وبطن قال «أبو السعود»: وفيه إِظهارٌ للشكوى ورد للأمر إِلى علمه تعالى بما لقوا من قومهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاءٌ إِلى ربهم في الانتقام منهم[4] ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ قال «ابن كثير»: يذكر تعالى ما منَّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام بما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، أي: اذكر نعمتي عليك في خلقي إِياك من أمّ بلا ذكر وجعلي إِيّاك آية قاطعة على كمال قدرتي، وعلى والدتك حيث جعلتك برهاناً على براءتها ممّا اتهمها به الظالمون من الفاحشة[5] وقال «القرطبي»: هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال: اذكر يوم يجمع الله الرسل وإِذ يقول لعيسى كذا[6] وذكر بلفظ الماضي ﴿إِذْ قَالَ﴾ تقريباً للقيامة لأن ما هو آتٍ قريب ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي حين قوّيتك بالروح الطاهرة المقدسة «جبريل» عليه السلام ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي تكلّم الناس في المهد صبيًّا وفي الكهولة نبياً ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين علمتك الكتابة والحكمة وهي العلم النافع مع التوراة والإِنجيل ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي واذكر أيضاً حين كنت تصوّر الطين كصورة الطير بتيسيري وأمري ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا

---

(١) «القرطبي» ٦/ ٣٦٣.
(٢) «البحر» ٤/ ٣٠.
(٣) «القرطبي» ٦/ ٣٦١، قال «ابن كثير»: وهذا من باب التأدب مع الرب جل جلاله أي لا علم بالنسبة إِلى علمك المحيط بكل شيء فأنت المطلع على كل شيء فعِلْمُنا لَا شيء بالنسبة لعلمِك المحيط.
(٤) «أبو السعود» ٢/ ٧٠.
(٥) «ابن كثير» ١/ ٥٦١.
(٦) «القرطبي» ٦/ ٣٦٢.

﴿فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِي﴾ أي فتنفخ في تلك الصورة والهيئة فتصبح طيراً بأمر الله ومشيئته ﴿وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِي﴾ أي تشفي الأعمى الذي لا يبصر والأبرص الذي استعصى شفاؤه بأمري ومشيئتي ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾ أي تحيي الموتى بأمري ومشيئتي، وكرر لفظ ﴿بِإِذۡنِي﴾ مع كل معجزة ردًّا على من نسب الربوبية إلى عيسى ولبيان أن تلك الخوارق من جهته سبحانه أظهرها على يديه معجزة له ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي واذكر حين منعتُ اليهود من قتلك لما همّوا وعزموا على الفتك بك حين جئتهم بالحجج والمعجزات ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي قال الذين جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك ما هذه الخوارق إلا سحرٌ ظاهر واضح ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ وهذا أيضـًا من الامتنان على عيسى أي واذكر حين أمرتُ الحواريين وقذفت في قلوبهم أن صدّقوا بي وبرسولي عيسى ابن مريم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ أي قال الحواريون: صدّقنا يا رب بما أمرتنا واشهد بأننا مخلصون في هذا الإيمان خاضعون لأمر الرحمن ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي واذكر حين قال الحواريون: يا عيسى هل يقدر ربك على إنزال مائدة من السماء علينا؟ قال «القرطبي»: وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عَزَّ وَجَلَّ ويجوز أن يكون ذلك صدر ممن كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾[1] [الأعراف: ١٣٨] وقال أبو حيان: وهذا اللفظ يقتضي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن ينزّل مائدة من السماء وهذا ما ذهب إليه الزمخشري[2]، وأما غيره من أهل «التفسير» فأطبقوا على أن الحواريين: كانوا مؤمنين وهم خواص عيسى وأنهم لم يشكّوا في ذلك حتى قال الحسن: لم يشكوا في قدرة الله وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزّل أم لا؟ فإن كان ينزّل فاسأله لنا[3] فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي قال الحواريون نريد بسؤالنا المائدة أن نأكل منها تبركـًا وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ أي ونعلم علمـًا يقينـًا لا يحوم حوله شائبة من الشك بصدقك في دعوى النبوة ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي نشهد بها عند من لم يحضرها

(١) «القرطبي» ٦/ ٣٦٤.
(٢) قال الزمخشري: فإن قلتَ: كيف قالوا: هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلتُ: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما فدعواهم كانت باطلة وإنهم كانوا شاكين: وهذا كلام لا يَرِدُ مثله عن مؤمنين معظمين لربهم! «الكشاف» ١/ ٥٤٠.
(٣) «البحر» ٤/ ٥٣.

من الناس ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أجابهم عيسى إِلى سؤال المائدة لإِلزامهم بالحجة الدامغة وروي أنه لما الدعاء لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويدعو ربه ويبكي قال «أبو السعود»: نادى عيسى ربه مرتين: مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إِظهاراً لغاية التضرع[1] ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي يكون يوم فرح وسرور لنا ولمن يأتي بعدنا ﴿وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي ودلالة وحجة شاهدة على صدق رسولك وارزقنا يا ألله فإِنك خير من يعطي ويرزق لأنك الغني الحميد ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ أي أجاب الله دعاءه فقال: إِني سأُنزل عليكم هذه المائدة من السماء ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذبه عذاباً شديداً لا أُعذّب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر وفي الحديث «**أُنْزِلَتِ الْمَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا وَلَحْمًا وَأُمِرُوا أَنْ لاَ يَخُونُوا وَلاَ يَدَّخِرُوا لِغَدٍ فَخَانُوا وَادَّخَرُوا وَرَفَعُوا لِغَدٍ فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ**»[2] قال في «التسهيل»: جرت عادة الله عَزَّ وَجَلَّ بعقاب من كفر بعد اقتراح آية فأُعطيها، ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم الله خنازير[3] ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا عطف على قصة ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ قال ابن عباس: هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل[4] والمعنى: اذكر للناس يوم يخاطب الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم في الآخرة توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم قائلاً، يا عيسى أأنت دعوت الناس إِلى عبادتك والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك؟! قال «القرطبي»: إِنما سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادّعى ذلك عليه ليكون إِنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع[5] ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي أنزهك عما لا يليق بك يا رب فما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ أي إِن كان ذلك صدر مني فإِنك لا يخفى عليك شيء وأنت العالم بأنّي لم أَقُلْهُ، وهذا اعتذارٌ وبراءة من ذلك القول ومبالغةٌ في الأدب وإِظهار الذلّة والمسكنة في حضرة ذي الجلال ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي تعلم حقيقة ذاتي وما انطوت عليه ولا أعلم حقيقة ذاتك وما احتوت عليه من صفات الكمال إِنك أنت العالم

---

(١) «أبو السعود» ٢/ ٧٣.

(٢) أخرجه الترمذي في باب «التفسير». (ش): وضعفه الألباني.

(٣) «التسهيل» ١/ ١٩٤.

(٤) «البحر» ٤/ ٥٨.

(٥) «القرطبي» ٦/ ٣٧٥.

بالخفايا والنوايا وعلمك محيط بما كان وما يكون ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به قال «الرازي»: وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معاً ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ أي قلت لهم اعبدوا الله خالقي وخالقكم فأنا عبد مثلكم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي كنت شاهداً على أعمالهم حين كنتُ بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فلما قبضتني إليك بالرفع إلى السماء كنت يا الله الحفيظ لأعمالهم، والشاهد على أفعالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي وأنت المطّلع على كل شيء لا يخفى عليك شيء ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ أي إن تعذبهم فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك أنت الغالب على أمره الحكيم في صنعه ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ أي يوم القيامة ينفع الصادقين في الدنيا صدقُهم لأنه يوم الجزاء ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي لهم جنات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ورضوا عن الله فيما أثابهم وجازاهم ذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنات النعيم ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره ومشيئته وهو القادر على كل شيء.

تنبيه: روى الإمام مسلم في صحيحه «أن النبي ﷺ تلا قول الله عَزَّ وَجَلَّ في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله تعالى: يا جبريل: اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله يا جبريل: اذهب إلى محمد فقل له. إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المائدة»



سُورَةُ الأَنْعَامِ ٦ ١٦٥

مكية وآياتها خمس وستون ومائة

بين يدي السورة

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول «العقيدة وأصول الإيمان» وهي تختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية التي سبق الحديث عنها كالبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، فهي لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين، كالصوم والحج والعقوبات وأحكام الأسرة، ولم تذكر أمور القتال ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام كما لم تتحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا على المنافقين، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة والإيمان، وهذه القضايا يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- قضية الألوهية. ٢-قضية الوحي والرسالة. ٣-قضية البعث والجزاء.

* نجد الحديث في هذه السورة مستفيضًا يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة، والدلائل الباهرة، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين. ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من السور هما:

١- أسلوب التقرير. ٢- أسلوب التلقين.

* **أما الأول:** «أسلوب التقرير» فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته، وسلطانه وقهره، في صورة الشأن المسلَّم، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحس الحاضر في القلب الذي لا يماري فيه قلب سليم ولا عقل راشد في أنه تعالى المبدع للكائنات صاحب الفضل والإنعام فيأتي بعبارة «هو» الدالة على الخالق المدبر الحكيم، استمع قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ...﴾، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ...﴾، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ...﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ...﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ...﴾ إلخ.

* **أما الثاني:** «أسلوب التلقين» فإنه يظهر جليًّا في تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها، ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب يسألهم ثم يجيب استمع إلى الآيات الكريمة ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ...﴾، ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ...﴾، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم

﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ...﴾، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل. ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية[1]، تقرر حقائقها، وتثبت دعائمها، وتفند به المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة، فهي تذكر توحيد الله جلَّ وعلا في الخلق والإيجاد، وفي التشريع والعبادة، وتذكر موقف المكذبين للرسل وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين، وتذكر شبههم في الوحي والرسالة، وتذكر يوم البعث والجزاء، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والآفاق، وفي الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء.. وتذكر أبا الأنبياء إبراهيم وجملة من أبنائه الرسل وترشد الرسول ﷺ إلى اتباع هداهم وسلوك طريقهم في احتمال المشاق وفي الصبر عليها، وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر، وتفيض في هذا بألوان مختلفة ثم تعرض لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم وتقضي عليه بالتفنيد والإبطال، ثم تختم السورة بعد ذلك – في ربع كامل – بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السابقة، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ الآية. وتنتهي بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة. وهو أنه خليفة في الأرض، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله، ويقوم اللاحق منها مقام السابق، وأن الله سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي «الابتلاء والاختبار» في القيام بتبعات هذه الحياة، وذلك شأن يرجع إليه كماله المقصود من هذا الخلق وذلك النظام ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

التسمية: سميت بـ «سورة الأنعام» لورود ذكر الأنعام فيها ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ...﴾ ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهلات المشركين تقربًا بها إلى أصنامهم مذكورة فيها، ومن خصائصها ما روى عن ابن عباس أنه قال: **نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْعَامِ بِمَكَّةَ لَيْلًا جُمْلَةً واحدة، حَوْلَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْأَرُونَ حَوْلَهَا بِالتَّسْبِيحِ**»[2].

(١) يقول الإمام «الرازي»: «امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة: أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة، وثانيهما أنه شيعها سبعون ألفًا من الملائكة، والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين» ويقول الإمام «القرطبي»: إن هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور» وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة.

(٢) «محاسن التأويل» ٦/ ٢٢٣٢. (ش): رواه الطبراني بإسناد ضعيف.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ
يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا
كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ
أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ
بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ
لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ
بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ
ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ
ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞
وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ
وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ
عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾
وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ
فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾

اللغَة: ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ يسوون به غيره ويجعلون له عِدْلاً وشريكاً يقال: عدل فلانـاً بفلان أي سواه به ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ تشكّون يقال: امترى في الأمر إذا شك فيه ﴿قَرۡنٍ﴾ القرن: الأمة المقترنة في مدةٍ من الزمان ومنه حديث «خير القرون قرني»[1] وأصل القرن مائة سنة ثم أصبح يطلق على الأمة من الناس التي تعيش في ذلك قال الشاعر:

إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِمْ ... وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ[2]

﴿مِّدۡرَارٗا﴾ غزيرة دائمة ﴿قِرۡطَاسٖ﴾ القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها ﴿وَلَلَبَسۡنَا﴾ خلطنا يقال لَبَسْتُ عليه الأمر أي خلطته عليه حتى اشتبه ﴿فَحَاقَ﴾ نزل بهم وأصابهم ﴿وَلِيّٗا﴾ ناصراً ومعيناً.

---

(١) (ش): اللفظ الثابت «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» [رواه البخاري ومسلم]. و«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» رواه البخاري ومسلم، والمشهور على ألسنة الناس (خير القرون قرني) ونبه الشيخ الألباني أن هذا خطأ في الرواية.

(٢) «القرطبي» ٦/ ٣٩١.

سَبَبُ النّزول: روي أن مشركي مكة قالوا: يا محمد والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله فأنزل الله ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

«**التفسير**»: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بدأ تعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذا الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإِعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد فلا نِدَّ له ولا شريك، ولا نظير ولا مثيل ومعنى الآية: احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإِنعام والإِكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السماوات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة، بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر، وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة، ومسالكه متنوعة، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منوّر الأكوان قال في «التسهيل»: وفي الآية ردٌّ على المجوس في عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار، وقولهم إِن الخير من النور والشر من الظلمة، فإِن المخلوق لا يكون إِلهاً ولا فاعلاً لشيء من الحوادث[2] ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم فيساوون به أصناماً نحتوها بأيديهم، وأوهاماً ولّدوها بخيالهم، ففي ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم قال ابن عطية: والآية دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلقه السماوات والأرض وغيرها قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإِنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتُك وأكرمتُك وأحسنتُ إليك ثم تشتمني؟ أي بعد وضوح هذا كله[3] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي خلق أباكم آدم من طين ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي حكم وقدَّر لكم أجلاً من الزمن تموتون عند انتهائه ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أي وأجلٌ آخر مسمّى عنده لبعثكم جميعاً، فالأجل الأول الموتُ والثاني البعثُ والنشور ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي ثم أنتم أيها الكفار تشكّون في البعث وتنكرونه بعد ظهور تلك الآيات العظيمة ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو الله المعظّم المعبود في السماوات والأرض قال «ابن كثير»: أَيْ: يَعْبُدُهُ وَيُوَحِّدُهُ وَيُقِرُّ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَيُسَمُّونَهُ اللهَ[4] ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ

---

(١) «أسباب النزول» ص ١٢٢. (ش): موضوع، ذكره البغوي في «تفسيره»، والواحدي في ««أسباب النزول»».

(٢) «التسهيل» ٢/ ٢.

(٣) «البحر المحيط» ٦/ ٦٨.

(٤) «ابن كثير» ١/ ٥٦٨.

وَجَهْرَكُمْ ﴾ أي يعلم سركم وعلَنكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي من خير أو شر وسيجازيكم عليه، ثم أخبر تعالى عن عنادهم وإعراضهم فقال ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي إلاّ تركوا النظر فيها ولم يلتفتوا إليها قال «القرطبي»: والمراد تركهم النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، والمعجزات التي أقامها لنبيه ﷺ التي يستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به عن ربه[١] ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ أي كذبوا بالقرآن الذي جاءهم من عند الله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي سوف يحل بهم العقاب إن عاجلاً أو آجلاً ويظهر لهم خبر ما كانوا به يستهزئون، وهذا وعيدٌ بالعذاب والعقاب على استهزائهم، ثم حضهم تعالى على الاعتبار بمن سبقهم من الأمم فقال ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي ألا يعتبرون بمن أهلكنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم الأنبياء ألم يعرفوا ذلك؟ ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ ﴾ أي منحناهم من أسباب السعة والعيش والتمكين في الأرض ما لم نعطكم يا أهل مكة ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ أي أنزلنا المطر غزيراً متتابعاً يدرُّ عليهم درًّا ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ أي من تحت أشجارهم ومنازلهم حتى عاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي فكفروا وعصوا فأهلكناهم بسبب ذنوبهم، وهذا تهديد للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم في الأرض ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ أي أحدثنا من بعد إهلاك المكذبين قوماً آخرين غيرهم قال أبو حيان: وفيه تعريض للمخاطبين بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم[٢] ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ﴾ أي لو نزّلنا عليك يا محمد كتاباً مكتوباً على ورقٍ كما اقترحوا ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي فعاينوا ذلك ومسّوه باليد ليرتفع عنهم كل إشكال ويزول كل ارتياب ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي لقال الكافرون عند رؤية تلك الآية الباهرة تعنتاً وعناداً: ما هذا إلا سحرٌ واضح، والغرضُ أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدلائل ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي هلاّ أنزل على محمد ملك يشهد بنبوته وصدقه و ﴿لَوْلَآ ﴾ بمعنى هَلّا للتحضيض[٣] قال «أبو السعود»: أي هلاّ أُنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبيّ وهذا من أباطيلهم المحقّقة وخرافاتهم الملفّقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيَل وعَيِيَتْ بهم العلل[٤]

(١) «القرطبي» ٦/ ٣٩٠.
(٢) «البحر المحيط» ٤/ ٧٧.
(٣) (ش): حضَّضه على الأمر: حَضّه، حثّه عليه بقوّة وأغراه، شجّعه وحَمَّسَه.
(٤) «أبو السعود» ٢/ ٨٣.
(ش): عَيِيَ بأمره: عجز عنه ولم يُطِق إحكامه، أو لم يهتدِ لوجه مُراده. (عَيِيَ في مَنطِقِهِ): عَيَّ، عجز عنه فلم يستطع بيان مراده.

﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي لو أنزلنا الملك كما اقترحوا وعاينوه ثم كفروا لَحَقَّ إِهلاكهم[١] كما جرت عادة الله بأن من طلب آية ثم لم يؤمن أهلكه الله حالاً ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي ثم لا يُمهلون ولا يُؤخرون، والآية كالتعليل لعدم إِجابة طلبهم، فإِنهم - في ذلك الإِقتراح - كالباحث عن حتفه بظِلْفه[٢] ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ أي لو جعلنا الرسول ملكاً لكان في صورة رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، فإِنهم لو رأوا الملك في صورة إِنسان قالوا: هذا إِنسانٌ وليس بملك قال ابن عباس: لو أتاهم ملكٌ ما أتاهم إِلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إِلى الملائكة من النور[٣]، ثم قال تعالى تسلية للنبي ﷺ ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذين بعثوا إِليهم ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي أحاط ونزل بهؤلاء المستهزئين بالرسل عاقبة استهزائهم، وفي هذا الإِخبار تهديد للكفار ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين الساخرين: سافروا في الأرض فانظروا وتأملوا ماذا حَلَّ بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب لتعتبروا بآثار من خلا من الأمم كيف أهلكهم الله وأصبحوا عبرةً للمعتبرين ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي قل يا محمد: لمن الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتصرفاً؟ والسؤال لإِقامة الحجة على الكفار فهو سؤال تبكيت ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أي قل لهم تقريراً وتنبيهاً هي لله لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة لأنه خالق الكل إِما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً وإِحساناً والغرضُ التلطف في دعائهم إِلى الإِيمان وإِنابتهم إِلى الرحمن ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ[٤] إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي ليحشرنكم من قبوركم مبعوثين إِلى يوم القيامة الذي لا شك فيه ليجازيكم بأعمالكم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

---

(١) وقيل: المعنى لو أنزلنا ملكًا لماتوا مِن هَوْل رؤيته إذ لا يطيقون رؤيته وهو منقول عن ابن عباس كذا في «القرطبي» ٦/ ٢٩٣.

(٢) (ش): من أمثال العرب: «بَحَثَ عَنْ حَتْفِه بظِلْفِه» البحث: التفتيش. والحتْف: الهلاك. والظلف- بكسر الظاء- للشاة والبقرة والظَّبي بمنزلة القدم للإنسان. ويضرب هذا المثل في الحاجة تؤدي بصاحبها إلى التلف وجناية الإنسان على نفسه. وأصله أنَّ ماعزة لبعض العرب كانوا أرادوا ذبحها، فلم يجدوا شفرة يذبحونها بها فجعلت تنبش برجلها في الأرض حتى استخرجت بنبْشها شفرةً كانت ضاعت لهم في الأرض، فذبحوها بها وقالوا: بحثت عن حتفها بظلفها. فذهبت مثلًا.

(٣) «ابن كثير» ١/ ٥٦٩ («المختصر»).

(٤) قال «أبو السعود»: هذا جواب قسم والجملة استئناف مسوقٌ للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي والله ليجمعنكم في القبور.. إلخ.

أي أضاعوها بكفرهم وأعمالهم السيئة في الدنيا فهم لا يؤمنون ولهذا لا يقام لهم وزن في الآخرة وليس لهم نصيب فيها سوى الجحيم والعذاب الأليم ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي لله عَزَّ وَجَلَّ ما حَلَّ واستقر في الليل والنهار الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه، والمراد عموم ملكه تعالى لكل شيء ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الاستفهام للتوبيخ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أغير الله أتخذ معبوداً؟ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي هو جل وعلا يرزق ولا يُرْزَق قال «ابن كثير»: أي هو الرازق لخلقه من غير احتياج إليهم[1] ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم لله من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي وقيل لي: لا تكونَنَّ من المشركين قال الزمخشري ومعناه: أُمرتُ بالإسلام ونُهيت عن الشرك[2] ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي قل لهم أيضاً إنني أخاف إن عبدتُ غير ربي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أي من يصرف عنه العذاب فقد رَحِمَهُ اللهُ ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي النجاة الظاهرة ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي إن تنزل بك يا محمد شدةٌ من فقرٍ أو مرضٍ فلا رافع ولا صارف له إلا هو ولا يملك كشفه سواه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وإن يصبك بخيرٍ من صحةٍ ونعمة فلا رَادَّ له لأنه وحده القادر على إيصال الخير والضر قال في «التسهيل»: والآية برهان على الوحدانية لانفراد الله تعالى بالضر والخير وكذلك ما بعد هذا من الأوصاف براهين ورَدٌّ على المشركين[3] ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ قال «ابن كثير»: أي هو الذي خضعت له الرقاب وذلّت له الجبابرة وعنت له الوجوه وقهر كل شيء وهو الحكيم في جميع أفعاله الخبير بمواضع الأشياء[4].

البَلاَغَة: ١ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الصيغة تفيد القصر أي لا يستحق الحمد والثناء إلا الله رب العالمين.

٢ - ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ فيه من المحسنات البديعية الطباق.

٣ - ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فيه استبعاد أن يعدلوا به غيره بعد وضوح آيات قدرته ووضع الرب ﴿رَبِّهِمْ﴾ موضع الضمير لزيادة التشنيع والتقبيح.

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٧٠.

(٢) «الكشاف» ٢/ ٧.

(٣) «التسهيل» ٢/ ٤. (ش): وهذا دليل على وجوب إفراده بالألوهية فلا يُعْبَدُ إلا هو ﷻ.

(٤) «ابن كثير» ١/ ٥٧١.

٤ - ﴿سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ بينهما طباق.
٥ - ﴿مِّن قَرۡنٍ﴾ أي أهل قرن فهو مجاز مرسل.
٦ - ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارًا﴾ أي المطر عبَّر عنه بالسماء لأنه ينزل من السماء فهو مجاز أيضـًا.
٧ - ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٍ﴾ تنكير رسل للتفخيم والتكثير.
٨ - ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ من صيغ المبالغة.

فَائِدَة: في القرآن العظيم خمس سور ابتدأت بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وهي سورة الفاتحة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٢] والأنعام ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الآية: ١] وسورة الكهف ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الآية: ١] وسورة سبأ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية: ١] وسورة فاطر ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية: ١].

قال الله تعالى:

قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ
لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ
ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ
وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾
وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ
وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ
لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا
بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ
ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا
ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي
يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ
عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ
كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ
لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

المنَاسَبَة: لما أفاض جلّ ذكره في إقامة الدلائل والبراهين على قدرته ووحدانيته من أول

السورة الكريمة ذكر هنا شهادته تعالى على صدق نبوة محمد عليه السلام ثم ذكر موقف الجاحدين للقرآن المكذبين للوحي، وحسرتهم الشديدة يوم القيامة.

اللغَة: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ الإنذار: إخبار فيه تخويف ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ الفتنة الاختبار ﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كِنان وهو الغطاء ﴿وَقْرًا﴾ ثقلاً يقال وقرت أذنه إذا ثَقُلَتْ أو صُمَّتْ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ خرافات وأباطيل جمع أسطورة قال الجوهري الأساطير: الأباطيل والتُّرهات[1] ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ يبعدون يقال نأى عنه إذا ابتعد ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة يقال: بغته إذا فَجَأَه ﴿فَرَّطْنَا﴾ فرّط: قصّر مع القدرة على ترك التقصير قال أبو عبيد: فرَّط: ضيّع ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوبهم جمع وزر ﴿يَزِرُونَ﴾ يحملون ﴿وَلَهْوٌ﴾ اللهو: صرف النفس عن الجدّ إلى الهزل، وكل ما شغلك فقد ألهاك.

سَبَبُ النّزول: أ – روي أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكرٌ ولا صفةٌ فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم؟ فأنزل الله ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾[2] الآية.

ب – عن ابن عباس أن «أبا سفيان» و «الوليد بن المغيرة» و «النضر بن الحارث» جلسوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ...﴾[3] الآية.

ج – روي أن «الأَخنَس بن شُريق» التقى بـ «أبي جهل بن هشام» فقال له: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادقٌ هو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحدٌ غيرنا فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب «بنو قصيّ» باللواء، والسقاية، والحجابة، والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ...﴾[4] الآية.

---

(١) «مجمع البيان» ٤/ ٢٨٦.

(٢) «أسباب النزول» ص ١٢٢. (ش): موضوع، ذكره الواحدي في ««أسباب النزول»».

(٣) «القرطبي» ٦/ ٤١٤. (ش): ضعيف لانقطاعه. ذكره الواحدي في ««أسباب النزول»».

(٤) ««التفسير» الكبير» ١٢/ ٢٠٥. (ش): ضعيف لانقطاعه. ذكره الواحدي في ««أسباب النزول»».

والحجابة: حجابة الكعبة: سدانة البيت؛ أي تَوَلِّي مفاتيحه. والسِّقاية: إسْقَاء الحجيج الماءَ العذب الذي كان عزيزًا بمكة، وإسقاؤهم كذلك نبيذ التمر. الرفادة: أموال تُخْرِجها قريش من أموالها في كل عام يصنع منه طعام للحجاج. واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجّهوا إلى عدوّ. والقيادة إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب، والندوة رياسة الاجتماع كل أيام العام، وكانت هذه المناصب كلها معتبرة في مكة وكأنها تحيط بالكعبة مُتَّجَّه أنظار العرب جميعًا في عباداتهم.

التفسير: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي قل لهم يا محمد: أي شيء أعظم شهادة حتى يشهد لي بأني صادقٌ في دعوى النبوة؟ ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ[1]﴾ أي أجبهم أنت وقل لهم: الله يشهد لي بالرسالة والنبوة وكفى بشهادة الله لي شهادة قال ابن عباس: قال الله لنبيه محمد ﷺ قل لهم أي شيء أكبر شهادة؛ فإِن أجابوك وإِلا فقل لهم: الله شهيد بيني وبينكم[2] ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي وأوحي إِليَّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إِلى يوم القيامة قال ابن جزيّ: والمقصودُ بالآية الاستشهاد بالله - الذي هو أكبر شهادة - على صدق رسول الله ﷺ وشهادة الله بهذا هي علمه بصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ وإِظهار معجزته الدالة على صدقه ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ استفهام توبيخ أي أئنكم أيها المشركون لتقرون بوجود آلهة مع الله؟ فكيف تشهدون أن مع الله آلهة أخرى بعد وضوح الأدلة وقيام الحجة على وحدانية الله؟ ﴿قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ أي قل لهم: لا أشهد بذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي قل يا محمد إِنما أشهد بأن الله واحد أحدٌ، فرد صمد ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي وأنا بريء من هذه الأصنام، ثم ذكر تعالى أن الكفار بين جاهل ومعاند فقال ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ يعني اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا يعرفون النبي ﷺ بحليته ونعته على ما هو مذكور في التوراة والإِنجيل كما يعرف الواحد منهم ولده لا يشك في ذلك أصلاً قال الزمخشري: وهذا استشهادٌ لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب وبصحة نبوته[3] ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أولئك هم الخاسرون لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بعد وضوح الآيات ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الاستفهام إِنكاري ومعناه النفي، أي: لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب أو كذّب بالقرآن والمعجزات الباهرة وسمّاها سحراً قال «أبو السعود»: وكلمة ﴿أَوْ﴾ للإِيذان بأن كلاً من الافتراء والتكذيب وحده بالغٌ غاية الإِفراط في الظلم، فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله ونفوا ما أثبته! قاتلهم الله أنّى يؤفكون[4] ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يفلح المفتري ولا المكذّب وفيه إِشارة إِلى أن مدّعي الرسالة لو كان كاذباً مفترياً على الله فلا يكون محلاً لظهور المعجزات ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي اذكر يوم نحشرهم جميعاً للحساب ونقول لهم على رءوس الأشهاد ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي أين آلهتكم التي جعلتموها شركاء

(١) «البحر» ٤/ ٩٠.
(٢) «التسهيل» ٢/ ٥.
(٣) «الكشاف» ٢/ ٩.
(٤) «أبو السعود» ٢/ ٨٨.

الله؟ قال «البيضاوي»: والمراد من الاستفهام التوبيخ و ﴿تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم آلهة وشركاء مع الله فحذف المفعولان ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذٍ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها[١] قال ابن عباس: كل زعم في القرآن فهو كذب[٢] ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي لم يكن جوابهم حين اخْتُبِرُوا بهذا السؤال ورأوا الحقائق ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي أقسموا كاذبين بقولهم والله يا ربنا ما كنا مشركين قال «القرطبي»: تبرءوا من الشرك وانتفوا منه؛ لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين قال ابن عباس: يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم فإذا رأى المشركون ذلك قالوا تعالوا نقول: إنّا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي انظر يا محمد كيف كذبوا على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام علاّم الغيوب، وهذا التعجيب من كذبهم الصريح ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي تلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء، ثم وصف تعالى حال المشركين حين استماع القرآن فقال ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي ومن هؤلاء المشركين من يصغي إليك يا محمد حين تتلو القرآن ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً وصمماً يمنع من السمع قال ابن جزي: والمعنى أن الله حال بينهم وبين فَهْم القرآن إذا استمعوه وعبّر بالأكنَّة والوقر مبالغة[٣] ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ أي مهما رأوا من الآيات والحجج البيّنات لا يؤمنوا بها لفرط العناد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك مجادلين يقولون عن القرآن: ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي هؤلاء المشركون المكذبون ينهون الناس عن القرآن وعن اتباع محمد عليه السلام ويُبعَدون هم عنه ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك قال «ابن كثير»: فهم قد جمعوا بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يَدعون أحداً ينتفع ولا يعود وباله إلا عليهم وما يشعرون[٤] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي لو ترى يا محمد هؤلاء المشركين إذ عرضوا على النار لرأيت أمراً عظيماً تشيب لهوله الرءوس قال «البيضاوي»: وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً شنيعاً[٥] وإنما حذف

(١) «البيضاوي» ص ١٦٩.
(٢) «القرطبي» ٦/ ٤٠١.
(٣) «التسهيل» ٢/ ٦.
(٤) «ابن كثير» ١/ ٥٧٣.
(٥) «البيضاوي» ص ١٦٩.

ليكون أبلغ ما يقدره السامع ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ أي تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات الله ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي إذا رجعنا إلى الدنيا نصدّق ونؤمن بالله إيماناً صادقاً فتمنوا العودة ليصلحوا العمل ويتداركوا الزلل قال تعالى ردًّا لذلك التمني ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ﴾ أي ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفون في الدنيا من عيوبهم وقبائحهم فتمنوا ذلك ﴿وَلَوۡ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي لو ردّوا – على سبيل الفرض لأنه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت – لعادوا إلى الكفر والضلال وإنهم لكاذبون في وعدهم بالإيمان ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ أي قال أولئك الكفار الفجار: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ولا بعث ولا نشور ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي لو ترى حالهم إذ حُبسوا للحساب أمام رب الأرباب كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعقاب وجواب ﴿وَلَوۡ﴾ محذوف للتهويل من فظاعة الموقف ﴿قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي أليس هذا المعاد بحق؟ والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي قالوا: بلى والله إنه الحق ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي ذوقوا العذاب بسبب كفركم في الدنيا وتكذيبكم رسل الله، ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار فقال ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي لقد خسر هؤلاء المكذبون بالبعث ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ أي حتى إذا جاءتهم القيامة فجأةً من غير أن يعرفوا وقتها قال «القرطبي»: سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها[1] ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ أي قالوا يا ندامتنا على ما قصَّرنا وضيّعنا في الدنيا من صالح الأعمال ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ أي والحال أنهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم قال «البيضاوي»: وهذا تمثيلٌ لاستحقاقهم آصار الآثام[2] وقال ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ لأن العادة حمل الأثقال على الظهور، قال ابن جزي: وهذا كناية عن تحمل الذنوب، وقيل: إنهم يحملونها على ظهورهم حقيقة فقد رُوي أن الكافر يركبه عمله بعد أن يتمثل له في أقبح صورة، وأن المؤمن يركب عمله بعد أن يتمثل له في أحسن صورة[3] ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس ما يحملونه من الأوزار ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهۡوٌ﴾ باطل وغرور لقصر مدتها وفناء لذتها ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الآخرة وما فيها من أنواع النعيم خير لعباد الله المتقين من دار الفناء، لأنها دائمة لا يزول عنهم نعيمها ولا يذهب عنهم سرورها ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا؟ ثم سلَّى تعالى نبيه لتكذيب قومه له فقال ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم قال الحسن: كانوا يقولون: إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون

(١) «القرطبي» ٦/ ٤١٢.
(٢) «البيضاوي» ص ١١٩.
(٣) «التسهيل» ٢/ ٧.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي فإنهم في دخيلة نفوسهم لا يكذبونك بل يعتقدون صدقك ولكنهم يجحدون عن عناد فلا تحزن لتكذيبهم قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون فكان أبو جهل يقول: ما نكذبك يا محمد وإنك عندنا لمصدّق وإنما نُكذِّبُ ما جئتنا به[1] ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾ أي صبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء ﴿وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي وأُوذوا في الله حتى نصرهم الله، وفي الآية إرشادٌ إلى الصبر، ووعدٌ له بالنصر ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: أي لمواعيد الله، وفي هذا تقوية للوعد ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد جاءك بعض أخبار المرسلين الذين كُذّبوا وأُوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم فتسلَّ ولا تحزن فإن الله ناصرك كما نصرهم ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي إن كان إعراضهم عن الإسلام قد عظم وشقّ عليك يا محمد ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي إن قدرت أن تطلب سرَباً [2] ومسكناً في جوف الأرض ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي مصعداً تصعد به إلى السماء فتأتيهم بآيةٍ ممّا اقترحوه فافعل ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لو أراد الله لهداهم إلى الإيمان فلا تكوننَّ يا محمد من الذين يجهلون حكمة الله ومشيئته الأزلية.

البَلَاغَة: ١ - ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ فيه تشبيه يسمى «المرسل المجمل».

٢ - ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تزعمونهم شركاء.

٣ - ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ﴾ الصيغة للتعجيب من كذبهم الغريب.

٤ - ﴿ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ عبَّر بالأكنة في القلوب والوقر في الآذان وهو تمثيل بطريق الاستعارة لإعراضهم عن القرآن.

٥ - ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل الكفر عليهم.

٧ - ﴿يَنْهَوْنَ ... وَيَنْـَٔوْنَ﴾ وردت الصيغة مؤكدة بمؤكدين «إنَّ» و«اللام» للتنبيه على أن الكذب طبيعتهم.

٨ - ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تشبيه بليغ حيث جعلت الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كقول الخنساء: «فإنما هي إقبال وإدبار».

٩ - ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ.

١٠ - ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ تنوين رسل للتفخيم والتكثير.

تنبيه: قال الإمام الفخر: قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يقتضي له جواباً وقد حُذف

---

(١) «البحر المحيط» ٤/ ١١٢.

(٢) (ش): سَرَب: بَيْتٌ تحت الأرض لا منفذ له، وهو الوَكْرُ.

تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن، وأشباهه كثير في القرآن والشعر، وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ألا ترى أنك لو قلت لغلامك: والله لئن قمتُ إليك - وسكتَّ عن الجواب - ذهب فكره إلى أنواع المكروه من الضرب، والقتل، والكسر، وعظم خوفه لأنه لم يدر أي الأقسام تبغي، ولو قلت: والله لئن قمتُ إليك لأضربنك فأتيتَ بالجواب لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب، فثبت أن حذف لجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف[1].

قال الله تعالى:

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ
إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ
إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي
الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ
اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ
وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا
إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا
مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ
(٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ
وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ
أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ
الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي
مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ
يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ
فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ
رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ
(٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)

---

(١) «التفسير الكبير» ١٢/ ١٩٠.

المنَاسَبَة: لما ذكر الله تعالى إعراض المشركين عن القرآن وعن الإيمان بالنبي عليه السلام، ذكر في هذه الآيات السبب في ذلك وهو أن القرآن نور وشفاء يهتدي به المؤمنون، وأما الكافرون فهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، ثم ذكر اقتراح المشركين بعض الآيات وشَبَّهَهُم بالصُّمِّ البُكم الذين لا يعقلون.

اللغَة: ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ التضرع من الضراعة وهي الذلة يقال: ضرع فهو ضارع ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾ من البؤس وهو الفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ من الضر وهو البلاء قال «القرطبي»: البأساء في الأموال، والضراء في الأبدان، هذا قول الأكثر(١) ﴿مُّبْلِسُونَ﴾ المبلس: اليائس من الخير من أبلس الرجل إذا يئس ومنه «إبليس» لأنه أبلس من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ(٢) ﴿دَابِرُ﴾ الدابر: الآخِر ودابر القوم: خلفهم من نسلهم قال قطرب: يعني استؤصلوا وأهلكوا قال الشاعر:

فَأُهْلِكُوا بِعَذَابٍ حَصَّ دَابِرَهُمْ ... فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ صَرْفًا وَلَا انْتَصَرُوا(٣)

﴿يَصْدِفُونَ﴾ صَدَفَ عن الشيء أعرض عنه ﴿تَطْرُدِ﴾ الطرد: الإبعاد مع الإهانة ﴿ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ الحاكمين.

سَبَبُ النّزول: عن ابن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده «صهيب، وخبّاب، وبلال، وعمّار» وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد، أرضيتَ بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهم؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم إتّبعناك فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الآية(٤).

«التفسير»: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي إنما يستجيب للإيمان الذين يسمعون سماع قبول وإصغاء، وهنا تمَّ الكلام ثم ابتدأ فقال ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال «ابن كثير»: يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد، وهذا من باب التهكم بهم والإزراء

---

(١) «القرطبي» ٦/ ٤٢٤.

(٢) «غريب القرآن» لابن قتيبة ص ٢٣.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في «القرطبي» ٦/ ٤٢٧. (ش): حَصَّ الشَّعْرَ: حَلَقَه.

(٤) «أسباب النزول» ص ١٢٤. (ش): عَنْ سَعْدٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اطْرُدْ هَؤُلاَءِ لاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلاَلٌ وَرَجُلاَنِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا فَوَقَعَ فِى نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وفي سنن ابن ماجه عَنْ سَعْدٍ قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا سِتَّةٍ: فِىَّ وَفِى ابْنِ مَسْعُودٍ وَصُهَيْبٍ وَعَمَّارٍ وَالْمِقْدَادِ وَبِلاَلٍ. قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّا لاَ نَرْضَى أَنْ نَكُونَ أَتْبَاعًا لَهُمْ فَاطْرُدْهُمْ عَنْكَ. قَالَ فَدَخَلَ قَلْبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْخُلَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الآيَةَ. ، (صححه الألباني).

عليهم[١] وقال «الطبري»: يعني والكفار يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاءً، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته ولا يتذكرون فينزجرون عن تكذيب رسل الله[٢] ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي قال كفار مكة: هَلاَّ نُزِّل على محمد معجزة تدل على صدقه كالناقة والعصا والمائدة قال «القرطبي» وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله[٣] ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ أي هو تعالى قادرٌ على أن يأتيهم بما اقترحوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن إنزالها يستجلب لهم البلاء لأنه لو أنزلها وَفْق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما من حيوان يمشي على وجه الأرض ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي ولا من طائر يطير في الجو بجناحيه ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي إلا طوائف مخلوقة مثلكم خلقها الله وقدَّر أحوالها وأرزاقها وآجالها قال «البيضاوي»: والمقصود من ذلك الدلالةُ على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزّل آية[٤] ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ أي ما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئاً من أمر الدين يحتاج الناس إليه في أمورهم إلا بَيَّنَّاهُ، وقيل: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويكون المعنى: ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً فلم نكتبه[٥] ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يجمعون فيقضي بينهم قال الزمخشري: يعني الأمم كلها من الدواب والطير فيُعَوِّضها ويُنْصِف بعضها من بعض كما روي أنه يأخذ للجماء من القرناء[٦] ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن صمٌّ لا يسمعون كلام الله سماع قبول بُكْمٌ لا ينطقون بالحق خابطون في ظلمات الكفر قال «ابن كثير»: وهذا مثل أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه[٧]

(١) «ابن كثير» ١/ ٥٧٦.
(٢) «الطبري» ١١/ ٣٤١
(٣) «القرطبي» ٦/ ٤١٩
(٤) «البيضاوي» ص ١٧٠.
(٥) هذا اختيار «الطبري» والزمخشري والجلالين ورجح أبو حيان في ««البحر المحيط»» أن المراد بالكتاب القرآن العظيم ثم قال: وهذا الذي يقتضيه سياق الآية والمعنى وبه بدأ ابن عطية.
(٦) «الكشاف» ٢/ ١٦. (ش): قَالَ ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ» (رواه مسلم) (الْقَرْنَاء) التي لها قرنان، وَالْجَلْحَاء هِيَ الْجَمَّاء الَّتِي لَا قَرْن لَهَا. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).
(٧) «ابن كثير» ١/ ٥٧٧.

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي من يشأ الله إضلاله يضلله ومن يشأ هدايته يرشده إلى الهدى ويوفقه لدين الإسلام ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ استفهام تعجيب أي أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى مَن قَبْلَكم أو أتتكم القيامة بغتة من تدعون؟ ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي أتدعون غير الله لكَشْف الضر عنكم؟ إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ أي بل تخُصُّونه تعالى بدعائكم في الشدائد فيكْشِف الضر الذي تدعونه إلى كَشْفِه إنْ شاء كَشْفَه ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي تتركون الآلهة فلا تدعونها لاعتقادكم أن الله تعالى هو القادر على كشف الضر وحده دون سواه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ أي والله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرين من قبلك فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي بالفقر والبؤس والأسقام والأوجاع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي لكي يتضرعوا إلى الله بالتذلل والإنابة ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ (لولا) للتحضيض أي فهلا تضرعوا حين جاءهم العذاب، وهذا عتاب على ترك الدعاء وإخبارٌ عنهم أنهم لم يتضرعوا مع قيام ما يدعوهم إلى التضرع ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي ولكن ظهر منهم النقيض حيث قست قلوبهم فلم تلن للإيمان ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي زين لهم المعاصي والإصرار على الضلال ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لما تركوا ما وُعظوا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي من النعم والخيرات استدراجًا لهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ أي فرحوا بذلك النعيم وازدادوا بطراً ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي أخذناهم بعذابنا فجأة فإذا هم يائسون قانطون من كل خير ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي استؤصلوا وهلكوا عن آخرهم ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على نصر الرسل وإهلاك الكافرين قال الحسن: مُكر بالقوم وربِّ الكعبة، أُعْطُوا حاجتَهم ثم أُخِذوا[1] وفي الحديث «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» ثم قرأ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[2] .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المعاندين من أهل مكة أخبروني لو أذهب الله حواسكم فأصمكم وأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ أي طبع على قلوبكم حتى زال عنها العقل والفهم ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على ردّ ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي انظر

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٧٨.
(٢) أخرجه الإمام أحمد. (ش): صححه الألباني.

كيف نبيّن ونوضح الآيات الدالة على وحدانيتنا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها فلا يعتبرون ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾ أي قل لهؤلاء المكذبين: أخبروني إن أتاكم عذاب الله العاجل فجأة أو عياناً بالليل أو بالنهار ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي ما يهلك بالعذاب إلا أنتم لأنكم كفرتم وعاندتم ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لتبشير المؤمنين بالثواب، وإنذار الكافرين بالعقاب، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحه الكافرون من الآيات ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي فمن آمن بهم وأصلح عمله فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون والمراد أنهم لا يخافون ولا يحزنون لأن الآخرة دار الجزاء للمتقين ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ أي وأما المكذبون بآيات الله فيمسهم العذاب الأليم بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله قال ابن عباس: يفسقون أي يكفرون[1] ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين يقترحون عليك تنزيل الآيات وخوارق العادات: لستُ أدعي أن خزائن الله مفوضةٌ إليَّ حتى تقترحوا عليَّ تنزيل الآيات ولا أدعي أيضاً أني أعلم الغيب حتى تسألوني عن وقت نزول العذاب ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي ولست أدعي أني من الملائكة حتى تكلفوني الصعود إلى السماء وعدم المشي في الأسواق وعدم الأكل والشرب قال الصاوي: وهذه الآية نزلت حين قالوا له: إن كنت رسولاً فاطلب من ربك أن يوسّع علينا ويغني فقرنا وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا فأخبر أن ذلك بيد الله سبحانه لا بيده[2].

والمعنى: إني لا أدعي شيئًا من هذه الأشياء الثلاثة حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة رسالتي ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي ما أتّبع فيما أدعوكم إليه إلاّ وحي الله الذي يوحيه إليّ ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي هل يتساوى الكافر والمؤمن والضال والمهتدي؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ تقريعٌ وتوبيخ أي أتسمعون فلا تتفكرون؟ ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي خوِّف يا محمد بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يتوقعون عذاب الحشر قال أبو حيان: وكأنه قيل: أنذر بالقرآن من يُرجى إيمانهُ وأما الكفرة المعرضون فدعهم ورأيهم[3] ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس لهم غير الله وليٌّ ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي أنذرهم لكي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ أي لا تطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء

(١) «زاد المسير» ٣/ ٤٢.
(٢) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٢/ ١٦.
(٣) «البحر» ٤/ ١٣٤.

من مجلسك يا محمد الذين يعبدون ربَّهم دوما في الصباح والمساء يلتمسون بذلك القرب من الله والدنوَّ ثم رضاه قال «الطبري»: نزلت الآية في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك[(١)] وأراد النبي ﷺ ذلك طمعاً في إسلامهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي لا تؤاخذ بأعمالهم وذنوبهم كقول نوح: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ [الشعراء: ١١٣] قال الصاوي: هذا كالتعليل لما قبله والمعنى لا تُؤاخَذُ بذنوبهم ولا بما في قلوبهم إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله، وهذا على فرض تسليم ما قاله المشركون وإلا فقد شهد الله لهم بالإخلاص بقوله ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[(٢)] ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وهذا التأكيد لمطابقة الكلام والمعنى لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك فَلِمَ تطردهم؟ وقيل: إن المراد بالحساب الرزق، والمعنى ليس رزقهم عليك ولا رزقك عليهم وإنما يرزقك وإياهم الله رب العالمين[(٣)] ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تطردهم فإنك إن طردتهم تكون من الظالمين -وهذا لبيان الأحكام وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام قال «القرطبي»: وهذا كقوله تعالى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله[(٤)]- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ابتلينا الغنيّ بالفقير والشريف بالوضيع ﴿لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ أي ليقول الأشراف والأغنياء أهؤلاء الضعفاء والفقراء منَّ الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا! قالوا ذلك إنكاراً واستهزاء كقولهم ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] قال تعالى ردًّا عليهم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ؟ أي الله أعلم بمن يشكر فيهديه ومن يكفر فيخزيه، والاستفهام للتقرير ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال «القرطبي»: نزلت في الذين نهى الله نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام»[(٥)] وأُمر ﷺ بأن يبدأهم

(١) «الطبري» ١١/ ٣٧٤.

(٢) «حاشية الصاوي» ٢/ ١٧.

(٣) ذهب إلى هذا «الطبري» وبعض المفسرين.

(٤) «القرطبي» ٦/ ٤٣٤.

(٥) نفس المرجع ٦/ ٤٣٥. (ش): ضعيف. رواه: البغوي في ««التفسير»» ، والواحدي في «أسباب النزول».
وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ،قَالَ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ،وَهُوَ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِهِ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف:٢٨]،خَرَجَ يَلْتَمِسهُمْ،فَوَجَدَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْهُمْ ثَائِرُ الرَّأْسِ،وَجَافُّ الْجِلْدِ،وَذُو الثَّوْبِ الْوَاحِدِ،فَلَمَّا رَآهُمْ جلَسَ مَعَهُمْ،فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ» (رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» والطَّبَرَانِيُّ، وقال الهيثمي: «وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ»، وعَبْد الرَّحْمَنِ بْن سَهْل بْن حُنَيْفٍ ذَكَرَهُ الطَّبَرَانِيُّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ فِي الصَّحَابَةِ. وذكره الصغاني فيمن في صُحبَته نظر، وقال ابن الأثير: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ الْأَنْصَارِيُّ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ فِي الصَّحَابَةِ، =

بالسلام إكراماً لهم وتطييباً لقلوبهم ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي خطيئة من غير قصد(١) قال مجاهد: أي لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته ركب الأمر ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ثم تاب من بعد ذلك الذنب وأصلح عمله فإن الله يغفر له، وهو وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي كما فصلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على ضلالات المشركين كذلك نبيّن ونوضّح لكم أمور الدين ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولتتوضح وتظهر طريق المجرمين فينكشف أمرهم وتَسْتَبِين سُبُلُهم ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إني نُهيت أن أعبد هذه الأصنام التي زعَمْتُموها آلهة وعبدتموها من دون الله ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ أي في عبادة غير الله، وفيه تنبيه على سبب ضلالهم ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي قد ضللْتُ إن اتَّبعْتُ أهواءَكم ولا أكون في زمرة المهتدين ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إليّ ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي وكذَّبتم بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي ليس عندي ما أبادركم به من العذاب قال الزمخشري: يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢](٢) ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم في أمر العذاب وغيره إلا لله وحده ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي يخبر الحق ويبينه البيان الشافي وهو خير الحاكمين بين عباده ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ أي لو أن بيدي أمر العذاب الذي تستعجلونه ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لعجَّلْتُه لكم لأستريحَ منكم ولكنه بيد الله، قال ابن عباس: لم أُمْهِلْكم ساعةً ولأَهلَكْتُكم(٣) ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هو تعالى أعلم بهم إن شاء عاجلهم وإن شاء أخّر عقوبتهم، وفيه وعيد وتهديد.

البَلاَغَة: ١ - ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه استعارة لأن الموتى عبارة عن الكفار لموت قلوبهم.

= وَلَا يَصِحُّ». (ثائر الرأس): قائم شعره منتفش منتشر.

(١) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] أي إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهاً وجهالة مُقَدِّراً قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وأناب».

قال الشيخ السعدي: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أي: جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهْل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهْل منه بما تئول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالما بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقبًا عليها.

(٢) «الكشاف» ٢/ ٣٢.

(٣) «زاد المسير» ٣/ ٥٢.

٢ - ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز لأن الطائر قد يستعمل مجازاً للعمل كقوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] .

٣ - ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ تشبيه بليغ أي كالصم والبكم في عدم السماع وعدم الكلام فحذفت منه الأداة ووجه الشبه.

٤ - ﴿إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ فيه قصر أي لا تدعون غيره لكشف الضر، فهو قصر صفة على موصوف.

٥ - ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ﴾ كناية عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال.

٦ - ﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ استعارة عن الكافر والمؤمن.

٧ - ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ في هاتين الجملتين من أنواع البديع ما يسمى ردَّ الصدر على العَجُز[1].

فَائِدَة: قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة وأنه مِن أَجَلِّ النعم وأجزل القسم[2].

فَائِدَة: قال بعض المفسرين: إن الواجب في الدعاء الإخلاص به لأنه تعالى قال ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وهكذا جميع الطاعات لا ينبغي أن تكون لشيء من أغراض الدنيا.

قال الله تعالى:

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا
يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ
وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ
رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ
مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ
ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ
مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ
ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ
ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ

---

(١) (ش): ردُّ العَجُز علَى الصدر أن يجعل أحد اللفظين المكرَّرين، أو المتجانسين، في أول الفقرة والآخر في آخرها.

(٢) «الكشاف» ٢/ ١٨.

أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

المنَاسَبَة: لما أقام تعالى الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته، أعقبه بذكر الأدلة على صفاته القدسية: علمه، وقدرته، وعظمته، وجلاله، وسائر صفات الجلال والجمال، ثم ذكر نعمته على العباد بإنجائهم من الشدائد، وقدرته على الانتقام ممَّن خالف أمره وعصى رسله.

اللغَة: ﴿كَرْبٍ﴾ الكرب: الغمُّ الذي يأخذ بالنفس ﴿شِيَعًا﴾ الشيعة: الفرقة تتبع الأخرى ويجمع على شيع وأشياع ﴿أُبْسِلُواْ﴾ الإبسال: تسليم الإنسان نفسه للهلاك ﴿عَدْلٍ﴾ فدية ﴿حَمِيمٍ﴾ الحميم: الماء الحار ﴿حَيْرَانَ﴾ الحَيْرة: التردد في الأمر لا يهتدى إلى مخرج منه ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الحواس ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما كان مُشاهَداً ظاهراً للعيَان ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون.

التفسير: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي عند الله خزائن الغيب وهي الأمور المغيبة الخفيّة لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي ويعلم ما في البر و«البحر» من الحيوانات جملةً وتفصيلاً وفي كلِّ عوالمُ وعجائب وسعها علمه وقدرته ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغةٌ في إحاطة علمه بالجزئيات أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها والأرض التي تسقط عليها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ولا حبة صغيرة في باطن الأرض إلا يعلم مكانها وهل تنبت أو لا وكم تنبتُ ومن يأكلها ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي ولا شيءٍ فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله ومسجّل في اللوح المحفوظ[1] قال أبو حيان:

وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات: بدأ أولاً بأمرٍ معقول لا ندركه نحن بالحسّ وهو ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ ثم ثانياً بأمرٍ ندرك كثيراً منه بالحسّ وهو ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علوّ والثاني سفلي وهو اختفاء حبةٍ في بطن الأرض فدل ذلك على أنه تعالى عالمٌ بالكليّات والجزئيات[2] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم

(١) «البحر المحيط» ٤/ ١٤٦.
(٢) «القرطبي» ٥/ ٧.

بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي يُنِيمُكُم بالليل ويعلم ما كسبتم من العمل بالنهار قال «القرطبي»: وليس ذلك موتـًا حقيقةً بل هو قبض الأرواح، قال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم[1]، وفي هذا اعتبار واستدلالٌ على البعث الأخروي ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ أي ثم يوقظكم في النهار لتبلغوا الأجل المسمّى لانقطاع حياتكم، والضمير عائد على النهار لأن غالب اليقظة فيه وغالب النوم بالليل ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي ثم مرجعكم إليه يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي يخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًا فشرٌّ، ثم ذكر تعالى جلال عظمته وكبريائه فقال ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ أي ملائكة تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون قال «أبو السعود»: وفي ذلك حكمة ونعمة جليلة لأن المكلّف إذا علم أن أعماله تُحفظ عليه وتعرض على رءوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح[2] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ أي حتى إذا انتهى أجل الإنسان توفته الملائكة الموكلون بقبض الأرواح. والمعنى أن حفظ الملائكة للأشخاص ينتهي عند نهاية الأجل فهم مأمورون بحفظ ابن آدم ما دام حيًّا فإذا انتهى أجله فقد انتهى حفظهم له ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يقصّرون في شيءٍ مما أُمروا به من الحفظ والتوَفِّي ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ أي ثم يردُّ العباد بعد البعث إلى الله خالقهم ومالكهم الذي له الحكم والتصرف والذي لا يقضي إلا بالعدل ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ أي إنه جل وعلا الحكم وحده يوم القيامة وله الفصل والقضاء لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن، يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا كما ورد به الحديث وروي أنه يحاسب الناس في مقدار حلب شاة[3] ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البر و«البحر»؟ ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ أي تدعون ربكم عند معاينة هذه الأهوال مخلصين له الدعاء مظهرين الضراعة، تضرعـًا بألسنتكم وخفية في أنفسكم قال ابن عباس المعنى: تدعون ربكم علانيةً وسرًّا قائلين: ﴿لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي لئن خلّصتنا من هذه الظلمات والشدائد لنكوننَّ من المؤمنين الشاكرين والغرض: إذا خفتم الهلاك دعَوْتُموه فإذا نجّاكم كفَرْتُمُوه قال «القرطبي»: وبّخهم الله في دعائهم إيّاه عند الشدائد وهم يدعُون معه في حالة الرخاء غيرَه[4]

(١) «زاد المسير» ٣/ ٥٥.
(٢) «أبو السعود» ٢/ ١٠٧.
(٣) (ش): لم أجده إلا في بعض كتب «التفسير» بدون إسناد.
(٤) «القرطبي» ٧/ ٨.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ﴾ أي الله وحده ينجيّكم من هذه الشدائد ومن كل كربٍ وغمّ ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾ تقريعٌ وتوبيخ أي ثم أنتم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه تشركون به ولا تؤمنون ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة إِنه تعالى قادر على إِهلاككم بإِرسال الصواعق من السماء وما تلقيه البراكين من الأحجار والحُمَم وكالرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح كما فُعل بمن قبلكم ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ ﴾ بالخسف والزلازل والرجفة كما فُعل بقارون وأصحاب مدين ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ أي يجعلكم فرقاً متحزبين يقاتل بعضكم بعضاً قال «البيضاوي»: أي يخلطكم فرقاً متحزبين على أهواء شتّى فينشب القتال بينكم[١] وقال ابن عباس: أي يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقاً[٢]، والكل متقارب والغرض منه الوعيد ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴾ أي انظر كيف نبيّن ونوضّح لهم الآيات بوجوه العبر والعظات ليفهموا ويتدبروا عن الله آياته وبراهينه وحججه، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: هذه أهون أو أيسر[٣] ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي وكذَّب بهذا القرآن قومك يا محمد - وهم قريش - وهو الكتاب المنزّل بالحق ﴿قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي لستُ عليكم بحفيظ ومتسلّط إنما أنا منذر ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ﴾ أي لكل خبر من أخبار الله عَزَّ وَجَلَّ وقتٌ يقع فيه من غير خُلْفٍ ولا تأخير ﴿وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ مبالغة في الوعيد والتهديد أي سوف تعلمون ما يحل بكم من العذاب ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي إِذا رأيت هؤلاء الكفار يخوضون في القرآن بالطعن والتكذيب والاستهزاء ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾ أي لا تُجالِسْهم وقُمْ عنهم حتى يأخذوا في كلامٍ آخر ويدَعوا الخوض والاستهزاء بالقرآن قال السدي: كان المشركون إِذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ والقرآن فسبّوه واستهزءوا به فأمرهم الله ألاّ يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره[٤] ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي إِن أنساك الشيطان النهي عن مجالستهم فجالستهم ثم تذكرت ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا تجلس بعد تَذَكُّر النَّهْي مع الكفرة والفُسّاق الذين يهزءون بالقرآن والدين قال ابن عباس: أي قُمْ إِذا ذَكَرْتَ النهْيَ ولا تقعُدْ مع المشركين ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أي ليس على المؤمنين

---

(١) «البيضاوي» ص ١٧٣.
(٢) «زاد المسير» ٣/ ٥٩.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) «الطبري» ١١/ ٤٣٧.

شيء من حساب الكفار على استهزائهم وإِضلالهم إِذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ولكنْ عليهم أن يذكّروهم ويمنعوهم عمّا هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير[١]، ويُظهروا لهم الكراهة لعلهم يجتنبون الخوض في القرآن حياءً من المؤمنين إِذا رأوهم قد تركوا مجالستهم قال ابن عطية: ينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدل والخوض فيه[٢] ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي اترك هؤلاء الفجرة الذين اتخذوا الدين الذي كان ينبغي احترامه وتعظيمه لعباً ولهواً باستهزائهم به ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتهم هذه الحياة الفانية حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي وذكّر بالقرآن الناس مخافة أن تُسْلم نفسٌ للهلاك وتُرهن بسوء عملها ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس لها ناصرٌ ينجيها من العذاب ولا شفيع يشفع لها عند الله ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ أي وإِن تُعْط تلك النفس كل فدية لا يقبل منها قال قتادة: لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يُقبل منها[٣] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي أُسْلِمُوا لعذاب الله بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي لهؤلاء الضالين شرابٌ من ماء مغليّ يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم، ونارٌ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر فلهم مع الشراب الحميم العذاب الأليم والهوان المقيم ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الاستفهام للإِنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد أنعبد ما لا ينفعنا إِن دعوناه ولا يضرنا إِن تركناه؟ والمراد به الأصنام ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي نرجع إِلى الضلالة بعد الهدى ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي بعد أن هدانا الله للإِسلام ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فيكون مَثَلُنا كمَثَل الذي اختطفتْه الشياطين وأضلته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقته في هوّة سحيقة ﴿حَيْرَانَ﴾ أي متحيراً لا يدري أين يذهب ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ أي إِلى الطريق الواضح يقولون: ائتنا فلا يقبل منهم ولا يستجيب لهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي قل لهؤلاء الكفار: إِنَّ ما نحن عليه من الإِسلام هو الهدى وحده وما عداه ضلال ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أمرنا بأن نستسلم لله عَزَّ وَجَلَّ ونخلص له العبادة في جميع أمورنا وأحوالنا، وهذا تمثيلٌ لمن ضلّ عن الهدى وهو يُدْعى إِلى الإِسلام فلا يُجيب قال ابن عباس: هذا مَثَلٌ ضربه الله للآلهة ومن يدعو إِليها وللدعاة الذين يدعون إِلى الله، كمثل رجل ضلّ عن الطريق تائهاً ضالًّا إِذ ناداه منادٍ يا فلان هلُمَّ إِلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان

(١) ذهب «الطبري» إلى أن معنى الآية: ولكن ليعرضوا عنهم حينئذٍ ذكرى لأمر الله ليتقوا الله.
(٢) «البحر» ٤/ ١٥٤.
(٣) «الطبري» ١١/ ٤٤٧.

هلُمَّ إِلى الطريق، فإِن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة وإِن أجاب من يدعوه إِلى الهدى اهتدى إِلى الطريق يقول: مَثَلُ من يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله فإِنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الهَلَكة والندامة[1] ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي وأُمرنا بإِقامة الصلاة وبتقوى الله في جميع الأحوال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تجمعون إِليه يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي هو سبحانه الخالق المالك المدبِّر للسماوات والأرض ومن فيهما خلقهما بالحق ولم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي واتقوه واتقوا عقابه والشدائد يوم يقول كن فيكون[2] قال أبو حيان: وهذا تمثيلٌ لإِخراج الشيء من العدم إِلى الوجود وسرعته لا أنَّ ثَمَّ شيئاً يؤمر[3] ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي قوله الصدق الواقع لا محالة وله الملك يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي يوم ينفخ إِسرافيل في الصور النفخة الثانية وهي نفخة الإِحياء ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي يعلم ما خفي وما ظهر وما يغيب عن الحواس والأبصار وما تشاهدونه بالليل والنهار ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي الحكيم في أفعاله الخبير بشئون عباده.

البَلاَغَة: ١ - ﴿مَفَاتِحُ الغيب﴾ استعار المفاتح للأمور الغيبية كأنها مخازن خزنت فيها المغيبات قال الزمخشري: مفاتح على طريق الاستعارة لأن المفاتح يتوصل بها إِلى ما في المخازن المغلقة بالأقفال، فهو سبحانه العالم بالمغيَّبات وحده[4].

٢ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإِحساس والتمييز.

٣ - ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير «معهم» للتسجيل عليهم بشناعة ما ارتكبوا حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء مكان التصديق والتعظيم.

٤ - ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ عبّر بالرد على الأعقاب عن الشرك لزيادة تقبيح الأمر وتشنيعه.

٥ - ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٦ - من المحسنات البديعية الطباق في كل من ﴿رَطْبٍ ..يَابِسٍ﴾ و﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ و﴿فَوْقَ وَتَحْتِ﴾ و﴿يَنفَعُنَا وَيَضُرُّنَا﴾ و ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ والسجع في ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ

---

(١) «الطبري» ١١/ ٤٥٢.

(٢) (ش): قال الحافظ «ابن كثير» في «تفسيره» (٣/ ٢٨١): وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِي يَقُولُ اللهُ: ﴿كُنْ﴾ فَيَكُونُ عَنْ أَمْرِهِ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ.

(٣) «البحر» ٤/ ١٦٠.

(٤) «الكشاف» ٢/ ٢٤.

أَلِيمٌ﴾ والله أعلم.

تنبيه: قال الحاكم: دلّ قوله تعالى ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ على بطلان قول الإمامية[١]: إن الإمام يعلم شيئًا من الغيب[٢]، انتهى. أقول: هذا كذب وبهتان؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله.

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ
نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ
هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ
يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ
أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا
تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ
أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ
أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ
﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ
وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ
وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ
بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل
لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا
وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ
مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا

---

(١) (ش): الإمامية: الشيعة.

(٢) مجالس التأويل ٦/ ٢٣٤٣.

﴿فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٩٤﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الحجج الدامغة الدالة على التوحيد وبطلان عبادة الأوثان، ذكر هنا قصة أبي الأنبياء «إبراهيم» لإقامة الحجة على مشركي العرب في تقديسهم الأصنام، فإنه جاء بالتوحيد الخالص الذي يتنافى مع الإشراك بالله، وجميع الطوائف والملل معترفةٌ بفضل إبراهيم وجلالة قدره، ثم ذكر شرف الرسل من أبناء إبراهيم، وأمر رسوله بالاقتداء بهديهم الكريم.

اللغَة: ﴿مَلَكُوتَ﴾ ملك والواو والتاء للمبالغة في الوصف كالرَّغبوت والرَّهبوت من الرغبة والرهبة ﴿جَنَّ﴾ ستره بظلمته قال الواحدي: جنَّ عليه الليلُ وأجنّه الليل ويقال لكل ما سترته: جنَّ وأجنَّ ومنه الجنَّة، والجِنُّ، والجنون، والجنين، وكل هذا يعود أصله إلى الستر والاستتار[1] ﴿بَازِغًا﴾ طالعاً يقال: بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع قال الأزهري: كأنه مأخوذ من البَزْغ وهو الشق لأنه بنوره يشق الظلمة شقًّا[2] ﴿أَفَلَ﴾ غاب يقال: أفل أفولاً إذا غاب ﴿سُلۡطَٰنًا﴾ حجة ﴿يَلۡبِسُوٓاْ﴾ يخلطوا يقال: لبس الأمر خلطه ولبس الثوب اكتسى به ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ اصطفيناهم ﴿قَرَاطِيسَ﴾ جمع قرطاس وهو الورق قال الشاعر:

اسْتَوْدَعَ الْعِلْمَ قِرْطَاسًا فَضَيَّعَهُ ... فَبِئْسَ مُسْتَوْدَعُ الْعِلْمِ الْقَرَاطِيسُ

﴿غَمَرَٰتِ﴾ الغمرة: الشدة المذهلة وأصله من غمرة الماء وهي ما يغطي الشيء ﴿خَوَّلۡنَٰكُمۡ﴾ أعطيناكم ومَلَّكْناكم والتخويل: المنح والإعطاء ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ ضاع وبطل.

سَبَبُ النّزول: «عن سعيد بن جبير» أن مالك بن الصَّيْف «من اليهود جاء يخاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنَّ الله يبغض الحَبْر السمين؟ - وكان حبراً سميناً - فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ... ﴾[3] الآية».

«التفسير»: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ أي واذكر يا محمد لقومك عبدة الأوثان وقت قول إبراهيم - الذي يدّعون أنهم على ملّته - لأبيه آزر منكراً عليه أتتخذ أصناماً آلهة تعبدها وتجعلها ربًّا دون الله الذي خلقك فسوّاك ورزقك؟ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي

(١) «تفسير الرازي» ١٣/ ٤٦.
(٢) تهذيب اللغة مادة بزغ
(٣) «أسباب النزول» ص ١٢٦ و«القرطبي» ٧/ ٣٧. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره».

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي فأنت وقومك في ضلال عن الحق مبين واضح لا شك فيه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي نُرى إِبراهيم المُلْك العظيم والسلطان الباهر ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ أي وليكون من الراسخين في اليقين أريناه تلك الآيات الباهرة قال مجاهد: فُرجت له السماوات والأرض فرأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل[1] ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ أي فلما ستر الليلُ بظلمته كل ضياء رأى كوكباً مضيئاً في السماء هو الزهرة أو المشتري ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ أي على زعمكم قاله على سبيل الرد عليهم والتوبيخ لهم واستدراجاً لهم لأجل أن يعرفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله قال الزمخشري: كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إِلى الحق من طريق النظر والاستدلال، ويعرّفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إِلى ألا يكون شيء منها إِلهاً وأن وراءها محدثاً أحدثها، ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها. وقوله ﴿هَٰذَا رَبِّى ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطلٌ، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إِلى الحق ثم يكرُّ عليه فيبطله بالحجة[2] ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ أي فلما غاب الكوكب قال: لا أحب عبادة من كان كذلك، لأن الرب لا يجوز عليه التغيُّر والانتقال لأن ذلك من صفات الأجْرام[3] ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ أي فلما رأى القمر طالعاً منتشر الضوء قال: هذا ربي، على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إِلى فساد ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي فلما غاب القمر قال إِبراهيم لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكوننَّ من القوم الضالين، وفيه تعريضٌ لقومه بأنهم على ضلال ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ أي هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي فلما غابت الشمس قال أنا بريء من إِشراككم وأصنامكم قال أبو حيان: لما أوضح لهم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون ربًّا ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ فرأى القمر أول طلوعه، ثم لما غاب ارتقب الشمس إِذ كانت أنور من القمر وأضوأ، وأكبر جرماً وأعم نفعاً، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبيّن أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث[4] وقال «ابن كثير»: والحق أن إِبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة

(١) «البحر» ٤/ ١٦٥.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٣١.
(٣) (ش): جِرْم: جسم. ونفي الانتقال ونفي الجِرْم عن الله لم يرد به دليل من الكتاب والسنة، وما كان كذلك وَجَب التوقف فيه.
(٤) «البحر المحيط» ٤/ ١٦٧.

وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[1] ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي الله الذي أبدع العالم وخلق السماوات والأرض ﴿حَنِيفٗا﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي لست ممن يعبد مع الله غيره ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾[2] أي جادلوه وناظروه في شأن التوحيد قال ابن عباس: جادلوه في آلهتهم وخوّفوه بها فأجابهم منكراً عليهم ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ أي أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِ﴾ أي وقد بصّرني وهداني إلى الحق ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ أي لا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تسمع وليست قادرة على شيء مما تزعمون ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ أي إلا إذا أراد ربي أن يصيبني شيءٌ من المكروه فيكون ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ استفهام للتوبيخ أي أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وفي هذا تنبيهٌ لهم على غفلتهم التامة حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع وأشركوا مع ظهور الدلائل الساطعة على وحدانيته سبحانه ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ أي كيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة! ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذي أشركتم به بدون حجة ولا برهان ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي أيُّنا أحَقُّ بالأمن أنحن وقد عرفنا الله بأدلة وخصصناه بالعبادة أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتم بالواحد الديان؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي لهم الأمن من العذاب وهم على هداية ورشاد، روي أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها أصحاب النبي ﷺ فقالوا: وأيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: «ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]»[3]

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٩٢.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قول إبراهيم عن الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ إنما كان في حال الطفولة قبل استحكام النظر في معرفة الله جلا وعلا، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور من أن هذا القول كان في مقام المناظرة لقومه لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر، وأن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح البراهين، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ فالمقام مقام مناظرة -كما قال الحافظ «ابن كثير»- لا مقام نظر، وحاشا الخليل أن يشك في الرب الجليل وهو أبو الأنبياء وإمام الحنفاء، وقد ساق «الفخر «الرازي» اثنتي عشرة حجة في تأييد مذهب الجمهور في «تفسيره الكبير» ١٣/ ٤٧، وهذا اختيار أساطين المفسرين كـ«القرطبي» والزمخشري وأبي السعود و«ابن كثير» وصاحب «البحر المحيط». والله أعلم.

(٣) الحديث أصله في الصحيحين.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من الحجج الباهرة التي أيّد الله بها خليله عليه السلام أي هذا الذي احتج به إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب والشمس والقمر من أدلتنا التي أرشدناه لها لتكون له الحجة الدامغة على قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي بالعلم والفهم والنبوة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيم يضع الشيء في محله عليم لا يخفى عليه شيء ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي وهبنا لإبراهيم ولداً وولد ولد لتقر عينه ببقاء العقب ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي كلًّا منهما أرشدناه إلى سبيل السعادة وآتيناه النبوة والحكمة قال «ابن كثير»: يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن في السنّ وأيس من الولد، وبُشّر بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم حين اعتزل قومه وهاجر من بلادهم لعبادة الله، فعوّضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه لتقرَّ بهم عينه[1] ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إبراهيم، وذكر تعالى نوحاً لأنه أبو البشر الثاني فذكر شرف أبناء إبراهيم ثم ذكر شرف آبائه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ أي ومن ذرية إبراهيم هؤلاء الأنبياء الكرام[2]، وبدأ تعالى بذِكْر داود وسليمان لأنهما جمعا الملك مع النبوة وسليمانُ ابنُ داود فذكر الأب والإبن ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الامتحان والبلاء ﴿وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الأخوّة وقدَّم موسى لأنه كليم الله ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم نجزي من كان محسناً في عمله صادقاً في إيمانه ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي الكاملين في الصلاح ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ إسماعيل هو ابن إبراهيم، ويونس بن متّى، ولوط بن هاران وهو ابن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي كلًّا من هؤلاء المذكورين في هذه الآية فضلناه بالنبوة على عالمي عصرهم ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعاتٍ كثيرة ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي اصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق الحق المستقيم الذي لا عوج فيه قال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء كلهم مُضَافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان فيهم من لا يلْحَقه بولادةٍ مِن قِبَل أمٍّ ولا أب[3] ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي ذلك الهدى إلى الطريق

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٩٦.

(٢) الضمير في: «ذريَّته» يرجع إلى نوح، واختاره الفراء وابن جرير، وقيل إنه يرجع إلى إبراهيم وهو قولُ عطاء واختاره «أبو السعود»، لأن مساق الآية لبيان شئون إبراهيم العظيمة. (ش): ومما يؤيد أن الضمير يرجع إلى نوح أنَّ لوطًا ليس من ذرية إبراهيم فهو من ذرية نوح -عليه السلام-.

(٣) «البحر» ٢/ ١٧٣. (ش): فلوطٌ عليه السلام ليس من ذرية إبراهيم عليه السلام.

المستقيم هو هدى الله يهدي به من أراد من خلقه ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو قدرهم لبطل عملهم فكيف بغيرهم؟ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية والحكمة الربانية والنبوة والرسالة ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أي فإن يكفر بآياتنا كفار عصرك يا محمد فقد استحفظناها واسترعيناها رسلنا وأنبياءنا[1] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أي هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم هم الهداة المهديّون فتأس واقتد بسيرتهم العطرة ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي قل يا محمد لقومك لا أسألكم على تبليغ القرآن شيئاً من الأجر والمال ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظةٌ وتذكير لجميع الخلق ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظّموه حقَّ تعظيمه ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أي حين أنكروا الوحي وبعثة الرسل، والقائلون هم اليهود اللُّعَناء تفوَّهُوا بهذه العظيمة الشنْعاء مبالغة في إنكار نزول القرآن على محمد عليه السلام ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين من أنزل التوراة على موسى نوراً يستضاء به وهداية لبني إسرائيل؟ ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي تكتبونه في قراطيس مقطعة وورقات مفرقة تبدون منها ما تشاءون وتخفون ما تشاءون قال «الطبري»: ومما كانوا يكتمونه إياهم ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته[2] ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي عُلّمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم ولا آباؤكم ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي قل لهم في الجواب: الله أنزل هذا القرآن ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه يهزءون ويلعبون، وهذا وعيدٌ لهم وتهديد على إجرامهم ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي وهذا القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي يصدّق كتب الله المنزّلة كالتوراة والإنجيل ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي والذين يصدّقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل في أوقاتها قال الصاوي: خصّ الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات[3] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام معناه النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب

(١) قيل إن المراد بهم أهل المدينة من الأنصار وهو قول ابن عباس، وقيل: هم النبيون الثمانية عشر المذكُورون في هذه الآية وهو قول قتادة واختيار الزجاج وابن جرير.

(٢) «الطبري» ١١/ ٥٢٧.

(٣) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٢/ ٣١.

على الله فجعل له شركاء وأنداداً ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أي زعم أن الله بعثه نبيًّا كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم يرسله ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي ومن ادعى أنه سينظم كلاماً يماثل ما أنزله الله كقول الفجار: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ [الأنفال:٣١] قال أبو حيان: نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين لأنه عارض القرآن بكلام سخيف لا يُذكر لسخفه[1] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً عظيماً ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أي وملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم، وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال[2] ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي تُجزون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي بافترائكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بآيات الله فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد حفاةً عراة غرلاً كما ورد في الحديث « **يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً – ثُمَّ قَالَ** ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].»[3] ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي تركتم ما أعطيناكم من الأموال في الدنيا فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي وما نرى معكم آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله في استحقاق العبادة ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي تقطّع وصلكم وتشتّت جمعكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي ضاع وتلاشى ما زعمتوه من الشفعاء والشركاء.

البَلَاغَة: ١ – ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ حكاية حال ماضية أي أريناه.

٢ – ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فيه تعريض بضلال قومه، وبين لفظ (الهداية والضلالة) طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

٣ – ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٤ – ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف وبين ﴿هُدَىٰ﴾ و﴿يَهْدِي﴾ جناس الاشتقاق أيضاً.

٥ – ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ مبالغة في إنكار نزول شيء من الوحي على أحدٍ من الرسل.

---

(١) «البحر المحيط» ٤/ ١٨٠. (ش): ضعيف جدًّا، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٢) «الكشاف» ٢/ ٣٦.

(٣) الحديث من رواية الشيخين ومعنى (غُرلاً): أي غَيْر مَخْتُونِينَ.

٦ - ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ استفهام للتبكيت والتوبيخ.
٧ - ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ﴾ بينهما طباق.
٨ - ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة المكرمة وفيه استعارة حيث شبهت بالأم لأنها أصل المدن والقرى.
٩ - ﴿غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ قال الشريف الرضي: هذه استعارة عجيبة حيث شبه سبحانه ما يَعْتَورُهُم من كُرَب الموت وغُصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه وسميت غمرة لأنها تغمر قلب الإِنسان[1].

تنبيه: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ءَازَرَ﴾ عم إبراهيم وليس أباه وقال آخرون: إنه اسم للصنم، والصحيح كما قال المحققون من المفسرين: إنه اسم لوالد إبراهيم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، والآية صريحة في أن آزر كان كافراً ولا يقدح ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام وفي صحيح البخاري «**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ** ...» الحديث ودعوى إيمانه مرفوضة بنص الكتاب والسنة. والله أعلم.

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾
فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ
مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ
أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ
ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ
لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ
أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ

(١) «تلخيص البيان» ص٣٧. (ش): يَعْتَورُهُم: يُصيبهم. الغُصَّة: ما اعترضَ في الحلقِ مِن طعامٍ أو شراب، وغُصَّة الموت: سكرته. اللُّجَّة: ماء كثير تصطخب أمواجه.

ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة، ذكر هنا الأدلة الدالة على وجود الخالق وكمال علمه وقدرته وحكمته، تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله.

اللغَة: ﴿فَالِقُ﴾ الفلق: الشقُّ، وانفلق الصبح انشق ﴿سَكَنًا﴾ السَّكن ما يسكن إليه الإنسان ويأنس به، والسَّكن: الرحمة ﴿حُسْبَانًا﴾ أي بحساب قال الزمخشري: الحُسبان مصدر حَسَب كما أن الحِسْبان مصدر حَسِب ونظيره الكُفران والشُكران[1] ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض ﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع قِنْو وهو العِذقُ أي عنقود النخلة ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي نُضْجه وإدراكه يقال: يَنَعت الشجرةُ وأيْنعتْ إذا نضجت ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ اختلقوا كذباً وإفكاً ﴿بَدِيعُ﴾ مبدع وهو الخالق على غير مثال سابق، والإبداع الإتيان بشيء لم يُسبق إليه ولهذا يقال لمن أتى في فنّ من الفنون لم يسبقه فيه غيره: إنه أبدع ﴿نُصَرِّفُ﴾ التصريف: نقل الشيء من حال إلى حال.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهما قال: قال كفار قريش لأبي طالب إمّا أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والنَّيل منها وإمّا أن نسب إلهه ونهجوه فنزلت ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾[2] الآية وفي رواية أخرى أن المشركين قالوا: يا محمد، لتنتهينّ عن سبك آلهتنا أو لنهجونَّ ربك[3] فنزلت.

التفسير: عاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين بعجائب الصنع ولطائف التدبير فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ أي يفلق الحبَّ تحت الأرض لخروج النبات منها ويفلق النوى لخروج الشجر منها قال «القرطبي»: أي يشق النواة الميتة فيُخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة[4] ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي يخرج النبات الغض الطريّ من الحبّ اليابس، ويخرج الحبَّ اليابس من النبات الحيّ النامي عن ابن عباس: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي ذلكم الله الخالق المدبر فكيف تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي شاقُّ الضياء عن الظلام وكاشفه قال «الطبري»: شقَّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده[5] ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون ﴿وَٱلشَّمْسَ

(١) «الكشاف» ٢/ ٣٩.
(٢) «القرطبي» ٧/ ٦١. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».
(٣) «أسباب النزول» ص ١٢٧. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».
(٤) «القرطبي» ٧/ ٤٤.
(٥) «الطبري» ١١/ ٥٥٤.

﴿وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد، ويُعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر و«البحر»، وإنما امتنّ عليهم بالنجوم لأن سالكي القفار، وراكبي البحار إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي بيّنا الدلائل على قدرتنا لقوم يتدبرون عظمة الخالق ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي خلقكم وأبدعكم من نفسٍ واحدة هي آدم عليه السلام ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قال ابن عباس: المستقرُّ في الأرحام والمستودع في الأصلاب، أي لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب آبائكم، وقال ابن مسعود: مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها[(١)] ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي بيَّنَّا الحُجَجَ لقوم يفقهون الأسرار والدقائق قال الصاوي: عبّر هنا بـ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ إشارة إلى أن أطوار الإنسان وما احتوى عليه أمرٌ خفيٌّ تتحير فيه الألباب، بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد، ولذا عبّر فيها بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾[(٢)] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي أنزل من السحاب المطر فأخرج به كل ما ينبتُ من الحبوب والفواكه والثمار والبقول والحشائش والشجرَ قال «الطبري»: أي أخرجنا به ما ينبتُ به كل شيء وينمو عليه ويصلح[(٣)] ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي أخرجنا من النبات شيئاً غضّاً أخضر ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي نُخرج من الخضر حباً متراكباً بعضُه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير قال ابن عباس: يريد القمح والشعير والذرة والأرز ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي وأخرجنا من طلع النخل - والطلعُ أول ما يخرج من التمر في أكمامه[(٤)]- عناقيد قريبة سهلة التناول قال ابن عباس: يريد العراجين التي قد تدلّت من الطلع دانيةً ممن يجتنيها ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي وأخرجنا بالماء بساتين وحدائق من أعناب ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي وأخرجنا به أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهاً في المنظر وغير متشابه في الطعم قال قتادة: مشتبهاً ورقُه مختلفاً ثمرُه، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي انظروا أيها الناس نظر اعتبار واستبصار إلى خروج هذه الثمار من ابتداء خروجها إلى انتهاء ظهورها ونضجها كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون

---

(١) وفسر المستقر أيضًا بالاستقرار فوق الأرض والمستودع تحت الأرض. واختار «الطبري» العموم.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢/ ٤٢.

(٣) «الطبري» ١١/ ٥٧٣.

(٤) (ش): أكمام النخلةُ: ما غَطَّى جُمَّارها من السَّعف والليف والجذع.

والرائحة والصغر والكبر، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مراً وبعضه مالحـًا لا يُنتفع بشيء منه، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً طيبـًا نافعـًا مستساغ المذاق فسبحان القدير الخلاّق! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس والأشكال والألوان لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يُصَدّقون بوجود الله[١] قال ابن عباس: يصدّقون أن الذي أخرج هذا النبات قادر على أن يحيي الموتى[٢] ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ أي وجعلوا الجنَّ شركاء لله حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي وقد علموا أنه تعالى هو الذي خلقهم وانفرد بإيجادهم فكيف يجعلونهم شركاء له؟ وهذه غاية الجهالة ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي واختلقوا ونسبوا إليه تعالى البنين والبنات حيث قالوا: عزيرٌ ابن الله والملائكة بناتُ الله سفهـًا وجهالة ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزّه الله وتقدس عن هذه الصفات التي نسبها إليه الظالمون وتعالى علواً كبيراً ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما من غير مثالٍ سبق ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ أي كيف يكون له ولد وليس له زوجة؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي وما من شيء إلا هو خالقه والعالم به ومن كان كذلك كان غنيًّا عن كل شيء قال في «التسهيل»: والغرض الرد على من نسب لله الولد من وجهين: أحدهما أن الولد لا يكون إلا من جنس والده والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد، والثاني: أن الله خلق السماوات والأرض ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن كل شيء[٣] ثم أكّد تعالى على وحدانيته وتفرده بالخلق والإيجاد فقال ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي ذلكم الله خالقكم ومالككم ومدبّر أموركم لا معبود بحق سواه ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي هو الخالق لجميع الموجودات ومن كان هكذا فهو المستحق للعبادة وحده ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو الحافظ والمدبر لكل شيء ففوّضوا أموركم إليه وتوسلوا إليه بعبادته ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به[٤] وهو يراها ويحيط بها لشمول علمه تعالى للخفيات ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي اللطيف بعباده الخبير بمصالحهم قال «ابن كثير»: ونفيُ الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة إذ يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس

---

(١) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق بوجود الله تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) تفسير الجوزي ٣/ ٩٦. (ش): الكلام المنسوب لابن عباس ذكره ابن الجوزي بدون إسناد.

(٣) «التسهيل» ٢/ ١٨.

(٤) (ش): ثبت أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، فالصواب أن يقال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾: أي لا تحيط به حين تراه. وقد قال ذلك المؤلف في نهاية تفسير هذه الآيات.

فلا تدركه الأبصار ولهذا كانت عائشة تثبت الرؤية في الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية[١] ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي قد جاءكم البينات والحجج التي تُبصرون بها الهدى من الضلال وتميزون بها بين الحق والباطل قال الزجاج: المعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر[٢] ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ قال الزمخشري: المعنى من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر وإيّاها نفع، ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي وإيّاها ضرَّ بالعمى[٣] ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي لست عليكم بحافظ ولا رقيب وإنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي وكما بينا ما ذُكر نبيّن الآيات ليعتبروا ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ أي وليقول المشركون: درست يا محمد في الكتب وقرأت فيها وجئتَ بهذا القرآن واللامُ لامُ العاقبة[٤] ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي اتبع يا محمد القرآن الذي أوحاه الله إليك قال «القرطبي»: أي لا تشغل قلبك وخاطرك بهم بل اشتغل بعبادة الله[٥] ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تحتفل بهم ولا تلتفت إلى آرائهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لهداهم فلم يشركوا ولكنه سبحانه يفعل ما يشاء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي وما جعلناك رقيباً على أعمالهم تجازيهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي ولستَ بموكل على أرزاقهم وأمورهم قال الصاوي: وهذا تأكيد لما قبله أي لستَ حفيظاً مراقباً لهم فتجبرهم على الإيمان وهذا كان قبل الأمر بالقتال[٦] ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تسبوا آلهة المشركين وأصنامهم ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي فيسبوا الله جهلاً واعتداءً لعدم معرفتهم بعظمة الله قال ابن عباس: قال المشركون: لتنتهينَّ عن سبك آلهتنا أو لنهجونَّ ربك فنهاهم الله أن يسبّوا أوثانهم[٧] ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي كما زينّا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينّا لكل أمةٍ عملهم قال ابن عباس: زينّا لأهل الطاعة الطاعة ولأهل الكفر الكفرَ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ثم معادهم ومصيرهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم، وهو وعيدٌ بالجزاء والعذاب ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٠٥.
(٢) «تفسير ابن الجوزي» ٣/ ٩٩.
(٣) «الكشاف» ٢/ ٤٣.
(٤) (ش): لامُ العاقبة: «حرف نصب يفيد الصيرورةَ أو العاقبةَ، فيكون ما بعده أمرًا مفاجئًا غير متوقّع بالنسبة لما قبله، ويسمى لام العاقبة» ﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.
(٥) «القرطبي» ٧/ ٦٠.
(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢/ ٣٧.
(٧) «ابن كثير» ١/ ٦٠٧.

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي حلف كفار مكة بأغلظ الأيمان وأشدها ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي لئن جاءتهم معجزة أو أمر خارقٌ مما اقترحوه ليؤمننَّ بها ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: أمر هذه الآيات عند الله لا عندي هو القادر على الإتيان بها دوني ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وما يدريكم أيها المؤمنون لعلها إذا جاءتهم لا يصدقون بها!! ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي ونحوّل قلوبهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا بما أُنزل من القرآن أول مرة قال الصاوي: وهو استئناف مسوقٌ لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره فمن أراد له الهدى حوّل قلبه له، ومن أراد الله شقاوته حوّل قلبه لها[1] ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ونتركهم في ضلالهم يتخبطون ويتردّدون متحيرين.

البَلَاغَة: ١ - ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ بين لفظ الحيّ والميت طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وفي الآية أيضاً من المحسنات ما يسمى ردّ العجز على الصدر في قوله ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

٢ - ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا وجه لصرفكم عن الإيمان بعد قيام البرهان.

٣ - ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ فيه التفاتٌ عن الغيبة والأصل فأخرج به والنكتة هي الاعتناء بشأن المُخْرج والإشارة إلى أنَّ نِعَمه عظيمة.

٤ - ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ من عطف الخاص على العام لمزيد الشرف لأنهما من أعظم النعم.

٥ - ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ مجاز مرسل من باب تسمية المسبب باسم السبب أي حجج وبراهين تبصرون بها الحقائق.

٦ - ﴿أَبْصَرَ..عَمِىَ﴾ طباق وبين لفظ ﴿بَصَآئِرُ ..أَبْصَرَ﴾ جناس الاشتقاق.

تنبيه: قوله تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الآية نفت الإحاطة ولم تَنْفِ الرؤية فلم يقل تعالى: (لا تراه الأبصار)، فمن ذهب إلى عدم رؤية الله في الآخرة كالمعتزلة فقد جانَبَ الحقَّ وضلَّ السبيلَ بمخالفة ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ المتواترة، أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] وأما السُّنة فما أخرجه البخاري «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِى رُؤْيَتِهِ...**» الحديث. وكفى بالكتاب والسنة دليلاً وهادياً[2].

---

(١) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٢/ ٣٩.

(٢) (ش): (لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ) بِضَمِّ التاء وَتَشْدِيدِ الميم مَعْنَاهُ لاَ تَجْتَمِعُونَ لِرُؤْيَتِهِ فِي جِهَةٍ وَلاَ يُضَمُّ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَمَعْنَاهُ بِفَتْحِ التَّاءِ كَذَلِكَ (تَضَامُّونَ) وَالأَصْلُ لَا تَتَضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ بِاجْتِمَاعٍ فِي جِهَةٍ. لأن الشيء =

قال تعالى:

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ
ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن
تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم
بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا
ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ
ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ
ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ
﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ
مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا
لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ
نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ
وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ
يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ
رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى دلائل التوحيد والنبوّة والبعث، واقتراح المشركين بعض الآيات على رسول الله ﷺ، ذكر هنا أن رؤية المعجزات لن تفيد مَن عَمِيَتْ بصيرتُه، وأنه لو أتاهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة، وإحياء الموتى حتى يكلموهم، وحشر السباع

= إذا كان خفيا؛ ينضم الواحد إلى صاحبه ليُرِيَهُ إياه. وَبِتَّخْفِيفِ الميم (لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ) مِنَ الضَّيْمِ وَمَعْنَاهُ لَا تُظْلَمُونَ فِيهِ بِرُؤْيَةِ بَعْضِكُمْ دُونَ بَعْضٍ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ فِي جِهَاتِكُمْ كُلِّهَا، فلا يحجب بعضكم بعضًا عن الرؤية فيظلمه بمَنْعه إياه؛ لأن كل واحد يراه. والتشبيه في هذا الحديث للرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي لأن الله ليس كمثله شيء، ولأن كاف التشبيه داخلة على فعل الرؤية المؤول بالمصدر (سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ) ولم يقل (سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كالقمر).

والدواب والطيور وشهادتهم بصدق الرسول ما آمنوا بمحمد والقرآن لتأصلهم في الضلال.

اللغَة: ﴿قُبُلًا﴾ مقابلة ومواجهة ومنه قولهم أتيتك قُبُلاً لا دُبُراً، أي: من قِبَل وجهك ﴿وَحَشَرْنَا﴾ الحشر: الجمع مع سَوْقٍ(١).

وكلُّ جَمع حشرٌ ومنه ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣] . ﴿زُخْرُفَ﴾ قال الزجاج: الزخرف الزينة وقال أبو عبيدة: كلُّ ما حسنته وزينته وهو باطل فهو زخرف ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ صغى إلى الشيء مال إليه ومثله أصغى وفي الحديث «**فَأَصْغَى لَهَا الإِنَاءَ**»(٢) وأصله الميل ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ اقترف: اكتسب وأكثر ما يكون في الشر يقال: قرف الذنبَ واقترفه أي اكتسبه ﴿يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون قال الأزهري: أصله الظن فيما لا يستيقن(٣) ﴿صَغَارٌ﴾ ذلة وهوان ﴿يَشْرَحْ﴾ يوسّع والشرح: البسط والتوسعة ﴿حَرَجًا﴾ الحَرج: شدة الضيق قال ابن قتيبة: الحَرج الذي ضاق فلم يجد منفذاً(٤).

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ **بِفَرْثٍ** – وحمزة لم يؤمن من بعد – فأُخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنْصه وبيده قوس فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس فقال أبو جهل: أما ترى ما جاء به سفّه عقولنا، وسب آلهتنا، وخالف آباءنا قال حمزة: **وَمَنْ أَسْفَهُ مِنْكُمْ**؟ تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فأنزل الله ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ...﴾(٥) الآية.

«التفسير»: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هذا بيان لكذب المشركين في أيمانهم الفاجرة حين أقسموا ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٩] والمعنى: ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه من آيةٍ واحدة من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكة وأحيينا لهم الموتى فكلموهم وأخبروهم بصدق محمد ﷺ كما اقترحوا ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ أي وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكل آية لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله، والغرضُ التيئيسُ من إيمانهم

---

(١) (ش): ساق الإبلَ: حثّها من خلفِها على السير.

(٢) (ش): عَنْ كَبْشَةَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ – وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ – أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ دَخَلَ فَسَكَبَتْ لَهُ وَضُوءًا فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ فَأَصْغَى لَهَا الإِنَاءَ حَتَّى شَرِبَتْ قَالَتْ كَبْشَةُ: فَرَآنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَتَعْجَبِينَ يَا ابْنَةَ أَخِي؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ». (رواه أبو داود وصححه الألباني. (تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ) كانت زوجة ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ.

(٣) «تهذيب اللغة» مادة خرص.

(٤) «غريب القرآن» ص ١٦٠.

(٥) «أسباب النزول» ص ١٢٨. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول»». الفَرْثِ: بقايا الطعام في الكَرِش، طعام مهضوم في القناة الهاضمة من المعدة والأمعاء.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين يجهلون ذلك قال «الطبري»: أي يجهلون أن الأمر بمشيئة الله، يحسبون أن الإِيمان إِليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا، ومتى شاءوا كفروا، وليس الأمر كذلك، ذلك بيدي لا يؤمن منهم إِلا من هديتُه له فوفقته، ولا يكفر إِلا من خذلتُه فأضللتُه[١] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ أي كما جعلنا هؤلاء المشركين أعداءك يعادونك ويخالفونك كذلك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء من شياطين الإِنس والجن، فاصبر على الأذى كما صبروا قال ابن الجوزي: أي كما ابتليناك بالأعداء ابتلينا من قبلك من الأنبياء ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى[٢] ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يوسوس بعضهم إِلى بعض بالضلال والشر ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي يوسوسون بالكلام المزيّن والأباطيل المموّهة ليغروا الناس ويخدعوهم قال مقاتل: وكَلَ إِبليسُ بالإِنس شياطينَ يُضلونهم فإِذا التقى شيطان الإِنس بشيطان الجن قال أحدهما لصاحبه: إِني أضللتُ صاحبي بكذا وكذا فأضللْ أنتَ صاحبك بكذا وكذا، فذلك وحيُ بعضهم إِلى بعض[٣] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم ولكنَّ حكمة الله اقتضت هذا الابتلاء قال «ابن كثير»: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإِرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدوٌّ من هؤلاء[٤] ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من المكائد فإِن الله كافيك وناصرُكَ عليهم ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي ولتميل إِلى هذا القول المزخرف قلوبُ الكفرة الذين لا يصدّقون بالآخرة ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي وليرضوا بهذا الباطل وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أي قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم؟ قال أبو حيان: قال مشركو قريش لرسول الله ﷺ: اجعلْ بيننا وبينك حكماً إِن شئتَ من أحبار اليهود أو النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت[٥]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي أنزل إِليكم القرآن بأوضح بيان، مفصّلاً فيه الحق والباطل موضّحاً الهدى من الضلال ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم أن القرآن حقٌّ لتصديقه ما عندهم

---

(١) «الطبري» ١٢/ ٤٧.

(٢) «زاد المسير» ٣/ ١٠٨.

(٣) تفسير ابن الجوزي ٣/ ١٠٩.

(٤) «أبو السعود» ٢/ ١٣١.

(٥) «البحر المحيط» ٤/ ٢٠٦. (ش): الذي في «البحر المحيط» هكذا بدون إسناد: «قَالَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ لِلرَّسُولِ: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حَكَمًا مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، وَإِنْ شِئْتَ مِنْ أَسَاقِفَةِ النَّصَارَى، لِيُخْبِرَنَا عَنْكَ بِمَا فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَمْرِكَ فَنَزَلَتْ». وهو في «زاد المسير» في علم «التفسير» لابن الجوزي بدون إسناد أيضًا، وقال: ذكره الماوردي.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي فلا تكوننَّ من الشَّاكِّين قال «أبو السعود»: وهذا من باب التهييج والإِلهاب وقيل: الخطاب للرسول والمراد به الأمة[١] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي تمَّ كلام الله المنزّل فيما أخبر، وعدلاً فيما قضى وقدَّر ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي لا مغيّر لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي إن تطع هؤلاء الكفار وهم أكثر أهل الأرض يضلّوك عن سبيل الهدى قال «الطبري»: وإنما قال ﴿أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأنهم كانوا حينئذٍ كفاراً ضُلاّلاً والمعنى: لا تطعهم فيما دعوك إليه فإنك إن أطعتهم ضللتَ ضلالهم وكنت مثلهم لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطؤوه[٢] ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما يتبعون في أمر الدين إلا الظنون والأوهام يقلّدون آباءهم ظناً منهم أنهم كانوا على الحق وما هم إلا قومٌ يكذبون ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي إن ربك يا محمد أعلم بالفريقين بمن ضلّ عن سبيل الرشاد وبمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد. قال في «البحر»: وهذه الجملة خبريةٌ تتضمن الوعيد والوعد لأن كَوْنه تعالى عالماً بالضال والمهتدى كناية عن مجازاتهما[٣] ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي كلوا مما ذبحتم وذكرتم اسم الله عليه إن كنتم حقاً مؤمنين قال ابن عباس: قال المشركون للمؤمنين إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله - يريدون المَيْتة - أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فنزلت الآية[٤] ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي وما المانع لكم من أكل ما ذبحتموه بأيديكم بعد أن ذكَرْتُم اسمَ ربكم عليه عند ذَبْحه؟ ﴿عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي وقد بيَّن لكم ربكم الحلال والحرام ووضّح لكم ما يحرم عليكم من الميتة والدم الخ في آية المحرمات إلا في حالة الاضطرار فقد أحلّ لكم ما حرّم أيضاً فما لكم تستمعون إلى الشبهات التي يثيرها أعداؤكم الكفار؟ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وإن كثيراً من الكفار المجادلين ليُضلون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بغير شرع من الله بل بمجرد الأهواء والشهوات ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي المجاوزين الحدَّ في

(١) «أبو السعود» ٤/ ٢٧٤.

(٢) «الطبري» ١٢/ ٦٤.

(٣) «البحر المحيط» ٤/ ٢١٠.

(٤) «زاد المسير» ٣/ ١١٢. (ش): عن ابن عباس؛ قال: جادل المشركون المسلمين، فقالوا: ما بال ما قتل الله لا تأكلونه، وما قتلتم أنتم أكلتموه وأنتم تتبعون أمر الله؟ وفي رواية: خاصمهم المشركون فقالوا: ما نذبح لا تأكلونه، وما ذبحتم أكلتموه فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. (أخرجه النسائي والحاكم، و«الطبري» في «جامع البيان» بإسناد صحيح).

الاعتداء فيحلّلون ويحرمون بدون دليل شرعي من كتاب أو سنّة، وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لمن اعتدى حدود الله[١] ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ أي اتركوا المعاصي ظاهرها وباطنها وسرَّها وعلانيتها قال مجاهد: هي المعصية في السر والعلانية وقال السدي: ظاهره الزنى مع البغايا وباطنه الزنى مع الصدائق والأخدان[٢] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي يكسبون الإثم والمعاصي ويأتون ما حرّم الله سيلقون في الآخرة جزاء ما كانوا يكتسبون ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي لا تأكلوا أيها المؤمنون ممَّا ذُبح لغير الله أو ذكر اسم غير الله عليه كالذي يذبح للأوثان ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي وإن الأكل منه لمعصيةٌ وخروجٌ عن طاعة الله ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ أي وإن الشياطين ليوسوسون إلى المشركين أوليائهم في الضلال لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم: أتأكلون ممّا قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله؟ يعني الميتة ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي وإن أطعتم هؤلاء المشركين في استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم إنكم إذاً مثلهم قال الزمخشري: لأن من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به، ومن حق ذي البصيرة في دينه ألا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان للتشديد العظيم[٣] ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ قال أبو حيان: لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين مثَّل تعالى بأن شبّه المؤمن بالحيّ الذي له نور يتصرف به كيفما سلك، والكافر بالمتخبط في الظلمات المستقر فيها ليظهر الفرق بين الفريقين[٤] والمعنى: أو من كان بمنزلة الميت أعمى البصيرة كافراً ضالاً، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وأنقذه من الضلالة بالقرآن ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي وجعلنا مع تلك الهداية النور العظيم الوضاء الذي يتأمل به الأشياء فيميز به بين الحق والباطل ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي كمن هو يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة لا يعرف المَنْفذ ولا المخْلص؟ قال «البيضاوي»: وهو مَثَلٌ لمن بقي في الضلالة لا يفارقها بحال[٥] ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي وكما بقي هذا في الظلمات يتخبّط فيها كذلك حسناً للكافرين وزَيَّنَّا لهم ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل بلدةٍ مجرميها من الأكابر والعظماء ليفسدوا فيها قال ابن الجوزي: وإنما جعل الأكابر فُسَّاق كل قرية لأنهم أقربُ إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة[٦] ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يدرون أن وبال

---

(١) (ش): لعل الصواب: تَعَدَّى حدود الله.
(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦١٢.
(٣) «الكشاف» ٢/ ٤٩.
(٤) «البحر المحيط» ٤/ ٢١٤.
(٥) «البيضاوي» ص ١٨١.
(٦) «زاد المسير» ٣/ ١١٧.

هذا المكر يحيق بهم ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ﴾ أي وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجةٌ قاطعة وبرهانٌ ساطع على صدق محمد ﷺ قالوا لن نصدّق برسالته حتى نُعطى من المعجزات مثل ما أُعطي رسُل الله، قال في «البحر»: وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ولو كانوا موقنين غير معاندين لاتبعوا رسل الله تعالى، وروي أن أبا جهل قال: زاحمنا بني عبد منافٍ في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيٌّ يُوحى إليه! والله لا نرضي به ولا نتبعه أبدًا إلا أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه فنزلت الآية[1] ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي الله أعلم من هو أهلٌ للرسالة فيضعها فيه وقد وضعها فيمن اختاره لها وهو محمد ﷺ دون أكابر مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ أي سيصيب هؤلاء المجرمين الذل والهوان، والعذاب الشديد يوم القيامة بسبب استكبارهم ومكرهم المستمر قال في «البحر»: وقدَّم الصغار على العذاب لأنهم تمردوا عن اتباع الرسول وتكبّروا طلبًا للعزّ والكرامة فقوبلوا بالهوان والذل أولاً ثم بالعقاب الشديد ثانيًا[2] ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ أي من شاء الله هدايته قذف في قلبه نوراً فينفسح له وينشرح وذاك علامة الهداية للإسلام قال ابن عباس: معناه يوسّع قلبه للتوحيد والإيمان، وحين سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال: إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح. قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله[3] ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ أي ومن يرد شقاوته وإضلاله ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ أي يجعل صدره ضيّقاً شديد الضيق لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان قال عطاء: ليس للخير فيه منفذ[4] ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي كأنما يحاول الصعود إلى السماء ويزاول أمراً غير ممكن قال ابن جرير: وهذا مثلٌ ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، مثلُ امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه[5] ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي مثل جعل صدر الكافر شديد الضيق كذلك يلقي الله العذاب والخِذلان على الذين لا يؤمنون بآياته قال مجاهد: الرجسُ كل ما لا خير فيه وقال الزجاج: الرجس اللعنةُ في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا﴾ أي وهذا الدين الذي أنت عليه يا محمد هو الطريق المستقيم الذي لا عوج

(١) «البحر» ٤/ ٢١٦. (ش): ضعيف. رواه البيهقي في «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ». (كفرَسَيْ رهان): أي كالمتسابقَين إلي هدف.

(٢) «البحر» ٤/ ٢١٧.

(٣) «الطبري» ١٢/ ١٠٠. (ش): ورواه الحاكم والبيهقي، وضعفه الألباني).

(٤) «ابن كثير» ١/ ٦١٧.

(٥) «الطبري» ١٢/ ١٠٩.

فيه فاستمسك به ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي بينا ووضحنا الآيات والبراهين لقوم يتدبرون بعقولهم ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهؤلاء الذين يؤمنون ويعتبرون وينتفعون بالآيات دار السلام، أي: السلامة من المكاره وهي الجنة في نُزل الله وضيافته ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي هو تعالى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم جزاءً لأعمالهم الصالحة قال «ابن كثير»: وإنما وصف تعالى الجنة هنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام[1].

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ التعرض لوصف الربوبية والإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿رَبُّكَ﴾ لتشريف مقامه وللمبالغة في اللطف في التسلية[2].

٢ - ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠] الخطاب للرسول ﷺ على طريق التهييج والإلهاب.

٣ - ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي تمَّ كلامه ووحيه أطلق الجزء وأراد الكل فهو مجاز مرسل.

٤ - ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ بين لفظ (ظاهر) و (باطن) طباقٌ.

٥ - ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ الموت والحياة، والنور والظلمة كلها من باب الاستعارة فقد استعار الموت للكفر والحياة للإيمان وكذلك النور والظلمات للهدى والضلال[3].

٦ - ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الشرح كناية عن قبول النفس للحق والهدى الذي جاء به الرسول ﷺ وبين لفظ الشرح والضيق طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

فائِدَة: الحَكَم أبلغ من الحاكم وأدلُّ على الرسوخ؛ لأنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرّر منه الحكم بخلاف الحاكم[4].

تنبيه: قال «الرازي»: دلّت هذه الآية ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام، لأن القول بالتقليد قولٌ بمحض الهوى والشهوة، والآية دلّت على أن ذلك حرام[5].

قال الله تعالى:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦١٨.

(٢) أفاده «أبو السعود».

(٣) انظر «البحر المحيط» ٤/ ٢١٤.

(٤) «محاسن التأويل» ٦/ ٢٤٧٤.

(٥) ««التفسير» الكبير» ١٣/ ١٦٧. (ش): أي تحريم الحلال وتحليل الحرام بغير شرعٍ من الله بل بمجرد الأهواء والشهوات.

رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ
ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ
وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ
ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن
ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا
لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ
إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ
ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن
نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا
كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ
أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾
قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا
كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

المناسَبَة: لما ذكر سبحانه أن البشر فريقان: مهتد وضال، وذكر أن منهم من شرح الله صدره وأنار قلبه فآمن واهتدى، ومنهم من اتبع الهوى وسار بقيادة الشيطان فضلَّ وغوى، ذكر هنا أنه سيحشر الخلائق جميعاً يوم القيامة للحساب، لينال كلٌّ جزاءه العادل(١) على ما قدّم في هذه الحياة.

اللغَة: ﴿مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ مأواكم يقال: ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿يَقُصُّونَ﴾ يحكون يقال قصَّ الخبر يقصُّه قصًّا أي حكاه ﴿ذَرَأَ﴾ خلق ﴿ٱلۡحَرۡثِ﴾ الزرع ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ الإرداء: الإهلاك يقال أراده يرديه أي أهلكه ﴿حِجۡرٞ﴾ الحِجر: الحرام وأصله المنع يقال حجره، أي: منعه والحِجْر: العقل سمي به لأنه يمنع عن القبائح قال تعالى ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ [الفجر: ٥] ﴿سَفَهَۢا﴾ حماقة وجهالة والسَّفه: خفة العقل.

«التفسير»: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي اذكر يوم يجمع الله الثقلَين: الإنس والجن جميعاً للحساب قائلاً ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم

(١) (ش): أي كلُّ واحد منهم جزاءه العادل.

قال ابن عباس: أضللتم منهم كثيراً، وهذا بطريق التوبيخ والتقريع ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي وقال الذين أطاعوهم من الإِنس: ربنا انتفع بعضنا ببعض قال «البيضاوي»: انتفع الإِنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إِليها، وانتفع الجنُّ بالإِنس بأن أطاعوهم وحصّلوا مرادهم[١] ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي وصلنا إِلى الموت والقبر ووافينا الحساب، وهذا منهم اعتذارٌ واعترافٌ بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتحسر على حالهم ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ أي قال تعالى ردًّا عليهم: النارُ موضعُ مقامكم وهي منزلكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ماكثين في النار في حال خلودٍ دائم إِلا الزمان الذي شاء الله أن لا يخلدوا فيها قال «الطبري»: هي المدة التي بين حشرهم إِلى دخولهم النار[٢] وقال الزمخشري: يخلدون في عذاب النار الأبد كلَّه إلا ما شاء الله أي إلا الأوقات التي يُنقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد رُوي أنهم يدخلون وادياً من الزمهرير فيتعَاوَوْن ويطلبون الرد إِلى الجحيم[٣] ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيم في أفعاله عليم بأعمال عباده ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي كما متعنا الإِنس والجن بعضهم ببعض نسلّط بعض الظالمين على بعض بسبب كسبهم للمعاصي والذنوب قال «القرطبي»: وهذا تهديد للظالم إِن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالماً آخر قال ابن عباس: إِذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإِذا سخط الله على قوم ولى أمرهم شرارهم[٤] وعن مالك بن دينار قال: قرأتُ في بعض كتب الحكمة إِن الله تعالى يقول: «إِني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشْغلوا أنفسكم بسَبِّ الملوك ولكن توبوا إِليَّ أُعطِّفْهُم عليكم»[٥] ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ هذا النداء أيضاً يوم القيامة والاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم تأتكم الرسل يتْلون عليكم آيات ربكم؟ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يخوفونكم عذاب هذا اليوم الشديد؟ ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أي لم يجدوا إِلا الاعتراف فقالوا: بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتَتْنا وأنذرَتْنا لقاءَ يومِنا هذا قال ابن عطية: وهذا إِقرارٌ

(١) «البيضاوي» ص ١٨١.
(٢) «الطبري» ١٢/ ١١٨.
(٣) «الكشاف» ٢/ ٥١. (ش): لم أجده إلا في بعض كتب «التفسير» بدون إسناد. تعاوتِ الكلابُ: تصايحت.
(٤) «القرطبي» ٧/ ٨٥. (ش): ذكره «القرطبي» وغيره من المفسرين بدون إسناد.
(٥) «الفخر الرازي» ١٣/ ١٩٤. (ش): المسلم مطالب بطاعة الله والتوبة إليه ليسعد في الدنيا والآخرة، ولكن على فرض صحة نسبة هذا الكلام إلى مالك بن دينار، فكلام ربنا نأخذه من القرآن الكريم والسُّنَّة الصحيحة وليس من كتب الحكمة.

منهم بالكفر واعتراف على أنفسهم بالتقصير كقولهم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٩] ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي خدعتهم الدنيا بنعيمها وَبَهْرجِها الكاذب ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ أي اعترفوا بكفرهم قال «البيضاوي»: وهذا ذمٌ لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيا ولذاتها الفانية، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلّد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم[1] ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي إنما فعلنا هذا بهم من إرسال الرسل إليهم لإنذارهم سوء العاقبة؛ لأن ربك عادل لم يكن ليهلك قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً قال «الطبري»: أي إنما أرسلنا الرسل يا محمد يقصون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم من أجل أن ربك لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر[2] ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي ولكل عامل بطاعة الله أو معصيته، منازل ومراتب من عمله يلقاها في آخرته إن كان خيراً فخير، وإن كان شرا فشر، قال ابن الجوزي: وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج[3] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي ليس الله بِلَاهٍ أو سَاهٍ عن أعمال عباده، وفي ذلك تهديد ووعيد ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي هو جل وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي ذو التفضل التام قال ابن عباس: ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته، وقال غيره: بجميع الخلق ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين قال «أبو السعود»: وفيه تنبيهٌ على أنَّ ما سلف ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد[4] ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي لو شاء لأهلككم أيها العصاة بعذاب الاستئصال ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي وأتى بخلقٍ آخر أمثل منكم وأطوع ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي كما خلقكم وابتدأكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم قال أبو حيان: وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإهلاك[5] ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ أي ما تُوعَدُونه من مجيء الساعة والحشر لَواقعٌ لا محالة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا تخرجون عن قدرتنا وعقابنا وإن ركبتم في الهرب مَتْن كُل صعبٍ وذَلول[6] ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: يا قوم اثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي واعملوا ما أنتم عاملون، والأمر هنا للتهديد كقوله ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾

(١) «البيضاوي» ص ١٨٢.
(٢) «الطبري» ١٢/ ١٢٤.
(٣) ابن الجوزي ٣/ ١٢٦.
(٤) «أبو السعود» ٢/ ١٣٨. (ش): أي أن إرسال الله للرسل ليس لمنفعة تعود على الله بل لرحمته بعباده.
(٥) «البحر» ٤/ ٢٢٥.
(٦) (ش): (مَتْن): ظَهْر. (ركِب كلّ صَعْبٍ وذلولٍ في أمْره): اتّخذ كلَّ سبيل وبذل فيه الطّاقة.

[فصلت: ٤٠] ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي عاملٌ ما أمرني به ربي من الثبات على دينه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة أنحن أم أنتم؟ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا ينجح ولا يفوز بمطلوبه من كان ظالماً قال الزمخشري: في الآية طريقٌ من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال وأدبٌ حسن، مع تضمن شدة الوعيد، والوثوق بأن المُنْذر محِقٌّ، والمُنْذَر مبطل[١] ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ أي جعل مشركو قريش لله ممّا خلق من الزرع والأنعام نصيباً ينفقونه على الفقراء ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها قال «ابن كثير»: هذا ذمٌّ وتوبيخٌ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله شركاء وهو خالق كل شيء سبحانه ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام جزءاً وقسماً[٢] ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ أي قالوا: هذا نصيب الله بزعمهم أي بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع قال في «التسهيل»: وأكثرُ ما يقال الزعم في الكذب[٣] ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ أي وهذا النصيب لآلهتنا وأصنامنا قال ابن عباس: إنَّ أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرثٍ أو ثمرةٍ أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمي لله ردّوه إلى ما جعلوه للوثن وقالوا إن الله غنيٌّ والأصنام أحوج[٤] ولهذا قال: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما كان للأصنام فلا يصل إلى الله منه شيء ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ وما كان من نصيب الله فهو يصل إلى أصنامهم قال مجاهد: كانوا يسمُّون جزءاً من الحرث لله وجزءاً لشركائهم وأوثانهم فما ذهبت به الريح من نصيب الله إلى أوثانهم تركوه وما ذهب من نصيب أوثانهم إلى نصيب الله ردوه، وكانوا إذا اصابتهم سَنَةٌ «قحط» أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس هذا الحكم الجائر حكمهم ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ أي مثل ذلك التزيين في قسمة القربان بين الله وبين آلهتهم زيَّن شياطينُهم لهم قتل أولادهم بالوأد أو بنحرهم لآلهتهم قال الزمخشري: كان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنَّ أحدهم كما حلف عبد المطلب[٥] ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي وليخلطوا عليهم ما كانوا عليهم من دين إسماعيل عليه السلام ﴿وَلَوْ شَآءَ

---

(١) «الكشاف» ٢/ ٥٣.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٢٢.

(٣) «التسهيل» ٢/ ٢٢.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٢٢.

(٥) «الكشاف» ٢/ ٥٤.

﴿ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله ما فعلوا ذلك القبيح ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي دَعْهُم وما يَخْتَلِقُونه من الإفك على الله، وهو تهديد ووعيد ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ هذه حكاية عن بعض قبائحهم وجرائمهم أيضاً أي قال المشركون هذه أنعام وزروع أفردناها لآلهتنا حرام ممنوعة على غيرهم ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أي من خَدمة الأوثان وغيرهم ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أي بزعمهم الباطل من غير حجة ولا برهان ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي لا تركب كالبحائر والسوائب والحوامي ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي عند الذبح وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي سيجزيهم على ذلك الافتراء، وهو تهديد شديد ووعيد ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ هذا إشارة إلى نوع آخر من أنواع قبائحهم أي قالوا ما في بطون هذه البحائر والسوائب حلال لذكورنا خاصة ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أي لا تأكل منه الإناث ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ أي وإن كان هذا المولود منها ميتةً اشترك فيه الذكور والإناث ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي سيجزيهم جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ أي والله لقد خسر هؤلاء السفهاء الذين قتلوا أولادهم قال الزمخشري: نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر[(١)] ﴿سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي جهالة وسفاهة لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة وشبهها ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ أي لقد ضلوا عن الطريق المستقيم بصنيعهم القبيح وما كانوا من الأصل مهتدين لسوء مسيرتهم، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهما قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ[(٢)]﴾ .

البَلَاغَة: ١ - ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي أفرطتم في إضلال وإغواء الإنس، ففيه إيجاز بالحذف ومثله ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي استمتع بعض الإنس ببعض الجن، وبعضُ الجن ببعض الإنس.

٢ - ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ تعريف الطرفين لإفادة الحصر.

٣ - ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع.

---

(١) «الكشاف» ٢/ ٥٧.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٢٤.

٤ - ﴿وَلِكُلٍّ﴾ أي لكل من العاملين فالتنوين عوضٌ عن محذوف.

٥ - ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ صيغة الاستقبال ﴿تُوعَدُونَ﴾ للدلالة على الاستمرار التجددي، ودخولُ إِنَّ واللام على الجملة للتأكيد لأن المخاطبين منكرون للبعث فلذا أكّد الخبر بمؤكِّدين.

٦ - ﴿مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وضلالهم أفاده «أبو السعود»[1].

الفوائِد: الأولى: قال السيوطي في الإكليل: قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ الآية في معنى حديث «كما تكونون يولّى عليكم»[2]

وقال الفضيل بن عياض: إذا رأيتَ ظالمـاً ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجباً.

الثانية: الجمهور على أن الرسل من الإنس ولم يكن من الجن رسول وقوله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ هو من باب التغليب كقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرجان من «البحر» المالح دون العذب.

الثالثة: ذكر «القرطبي» في تفسيره «أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ كَانَ لَا يَزَال مُغْتَمًّا بَيْن يَدَيْ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ الرَسُولُ الله ﷺ: «مَا لَكَ تَكُون مَحْزُونًا» ؟ فَقَالَ: يَا رَسُول الله، إِنِّي أَذْنَبْت ذَنْبًا فِي الْجَاهِلِيَّة فَأَخاف أَلَّا يَغْفِرهُ الله لِي وَإِنْ أَسْلَمْت ! فَقَالَ لَهُ: «أَخْبِرْنِي عَنْ ذَنْبك» فقَالَ: يَا رَسُول الله، إِنِّي كُنْت مِنْ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ بَنَاتهمْ، فَوُلِدَتْ لِي بِنْت فَتَشَفَّعَتْ إِلَيَّ امْرَأَتِي أَنْ أَتْرُكهَا فتَرَكْتهَا حَتَّى كَبِرَتْ وَأَدْرَكَتْ، وَصَارَتْ مِنْ أَجْمَل النِّسَاء فَخَطَبُوهَا: فَدَخَلَتْنِي الْحَمِيَّة وَلَمْ يَحْتَمِل قَلْبِي أَنْ أُزَوِّجهَا أَوْ أَتْرُكهَا فِي الْبَيْت بِغَيْرِ زَوْج، فَقُلْت لِلْمَرْأَة: إِنِّي أُرِيد أَنْ أَذْهَب إِلَى قَبِيلَة كَذَا وَكَذَا فِي زِيَارَة أَقْرِبَائِي فَابْعَثِيهَا مَعِي، فَسُرَّت بِذَلِكَ وَزَيَّنَتْهَا بِالثِّيَابِ وَالْحُلِيّ، وَأَخَذَتْ عَلَيَّ الْمَوَاثِيق بِأَلَّا أَخُونهَا، فَذَهَبْت بِهَا إِلَى رَأْس بِئْر فَنَظَرْت فِي الْبِئْر فَفَطِنَتْ الْجَارِيَة أَنِّي أُرِيد أَنْ أُلْقِيهَا فِي الْبِئْر، فَالْتَزَمَتْنِي وَجَعَلَتْ تَبْكِي وَتَقُول: يَا أَبَت ! أَيْش تُرِيد أَنْ تَفْعَل بِي ! فَرَحِمْتهَا، ثُمَّ نَظَرْت فِي الْبِئْر فَدَخَلَتْ عَلَيَّ الْحَمِيَّة، ثُمَّ الْتَزَمَتْنِي وَجَعَلَتْ تَقُول: يَا أَبَت لَا تُضَيِّع أَمَانَة أُمِّي، فَجَعَلْت مَرَّة أَنْظُر فِي الْبِئْر وَمَرَّة أَنْظُر إِلَيْهَا فَأَرْحمهَا، حَتَّى غَلَبَنِي الشَّيْطَان فَأَخَذْتهَا وَأَلْقَيْتهَا فِي الْبِئْر مَنْكُوسَة، وَهِيَ تُنَادِي فِي الْبِئْر: يَا أَبَت، قَتَلْتنِي. فَمَكَثْت هُنَاكَ حَتَّى اِنْقَطَعَ صَوْتهَا فَرَجَعْت. فَبَكَى رَسُول الله ﷺ وَأَصْحَابه وَقَالَ : «لَوْ أَمَرْت أَنْ أُعَاقِب أَحَدًا بِمَا فَعَلَ فِي الْجَاهِلِيَّة لَعَاقَبْتُك»[3].

---

(١) «أبو السعود» ٢/ ١٤١.

(٢) «محاسن التأويل» للقاسمي ٦/ ٢٥٠٥. (ش): حديث: «كما تكونُوا يُوَلَّى عليكم» رواه البيهقي والديلمي، وضعفه ابن حجر العسقلاني والألباني.

(٣) تفسير «القرطبي» ٧/ ٩٧. (ش): لم أجده إلا في «تفسير القرطبي» وبدون إسناد.

قال تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ
وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا
تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ
ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ
عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ
إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ
فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ
حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ
ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ
ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا
وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم
مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ
لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ
مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

المناسَبَة: لما أخبر تعالى عن المشركين أنهم حرّموا أشياء مما رزقهم الله وحكى طرفًا من قبائحهم وجرائمهم، ذكر تعالى هنا ما امتنَّ به عليهم من الرزق الذي تصرفوا فيه بغير إذنه تعالى افتراءً منهم عليه واختلاقًا، ثم أعقبه باحتجاجهم على الشرك وعدم الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا أيضًا من جملة الكذب والبهتان والافتراء على الله.

اللغَة: ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ مرفوعات على ما يحملها من العيدان ﴿حَصَادِهِۦ﴾ الحصاد: جمع الثمر، كالجُذاذ ﴿حَمُولَةٗ﴾ الحمولة: الإبل التي تحمل الأثقال على ظهورها ﴿وَفَرۡشٗا﴾ الفرش: الصغار التي لا تصلح للحمل كالفُصلان والعجاجيل قال الزجاج: الفرشُ صغار الإبل قال الشاعر:

أَوْرَثَنِي حَمُولَةً وَفَرْشًا ... أَمُشُّهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَشًّا (١)

---

(١) (ش): مشَّى، مَشِّ، تمشيةً، مشَّاه: أَمْشاه، سيَّره، جعله يمشي.

﴿ٱلْحَوَايَآ﴾: قال الواحدي: هِيَ الْمَبَاعِرُ[1] والمصارين، واحدتها حَاوِيَةٌ وحَوِيَّةٌ. وَقِيلَ: الْحَوَايَا الْأَمْعَاءُ الَّتِي عَلَيْهَا الشُّحُومُ سميت حوايا لأن البطن يحويها.

﴿هَلُمَّ﴾: هاتوا. ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يشركون به.

التفسير: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾ أي هو الذي أنعم عليكم بأنواع النعم لتعبدوه وحده، فخلق لكم بساتين من الكروم منها مرفوعات على عيدان، ومنها متروكات على وجه الأرض لم تعرش ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي وأنشأ لكم شجر النخيل المثمر بما هو فاكهة وقوت، وأنواع الزرع المحصّل لأنواع القوت مختلفاً ثمره وحبُّه في اللون والطعم والحجم والرائحة ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ أي متشابهاً في اللون والشكل وغير متشابه في الطعم ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أي كلوا أيها الناس من ثمر كل واحد مما ذكر إذا أدرك من رطبه وعنبه ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ أي أعطوا الفقير والمسكين من ثمره يوم الحصاد ما تجود به نفوسكم وقال ابن عباس: يعني الزكاة المفروضة يوم يُكَال ويعلم كيْلُه[2] ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن قال «الطبري»: المختار قول عطاء أنه نهيٌ عن الإسراف في كل شيء[3] ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقالَ وما يُفرش للذبح «أي يضجع» قال ابن أسلم: الحمُولةُ ما تركبون، والفَرْشُ ما تأكلون وتحلبون ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي كلوا من الثمار والزروع والأنعام فقد جعلها الله لكم رزقاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي طريقه وأوامره في التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فاحذروا كيده ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أنواع أحلّ لكم أكلها، من الضأن ذكراً وأنثى، ومن المعز ذكراً وأنثى قال «القرطبي»: يعني ثمانيةَ أفرادٍ، وكلُّ فردٍ عند العرب يحتاج إلى آخر يُسمَّى زوجاً فيقال للذكر: زوجٌ وللأنثى زوجٌ[4] ويراد بالزوجين من الضأن: الكبشُ والنعجة، ومن المعز: التيسُ والعنز ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ هذا إنكارٌ لما كانوا يفعلونه من تحريم ما أحلَّ الله أي قل لهم يا محمد على وجه التوبيخ والزجر: آلذكرين من الضأن والمعز حرّم الله عليكم أيها المشركون أم الأنثيين منهما؟ ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى؟ ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن

(١) (ش): الْمَبَاعِرُ: جَمْعُ مَبْعَرٍ، وهو مكانُ الْبَعَرِ مِنْ كُلِّ ذِي أَربع، سُمِّي بِذَلِكَ لاجْتِمَاعِ الْبَعْرِ فِيهِ. وَهُوَ الزِّبْلُ. المصارينُ: الأمعاء، وهي ما ينتقل إليها الطَّعامُ بعد المَعِدة.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٢٤.

(٣) «الطبري» ١٢/ ١٧٦.

(٤) «القرطبي» ٧/ ١١٣.

كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ تعجيزٌ وتوبيخ أي أخبروني عن الله بأمرٍ معلوم لا بافتراءٍ ولا بتخرص إِن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إِلى الله ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي وأنشأ لكم من الإِبل اثنين هما الجمل والناقة ومن البقر اثنين هما الجاموس والبقرة[1] ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ ؟ كرره هنا مبالغة في التقريع والتوبيخ قال «أبو السعود»: والمقصود إِنكار أن الله سبحانه حرّم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة وإِظهار كذبهم في ذلك فإِنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإِناثها تارة، وأولادها تارة أخرى ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ زيادة في التوبيخ أي هل كنتم حاضرين حين وصاكم الله بهذا التحريم؟ وهذا من باب التهكم ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فنسب إِليه تحريم ما لم يحرّم بغير دليل ولا برهان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عمومٌ في كل ظالم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يبيّن لهم ما حرمه الله عليهم فقال ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة لا أجد فيما أوحاه الله إِليَّ من القرآن شيئاً محرماً على أيّ إِنسان إِلا أن يكون ذلك الطعام ميتةً أو دماً سائلاً مصبوباً أو يكون لحم خنزير فإِنه قذرٌ ونجس لِتَعَوُّدِهِ أَكْلَ النجاسات ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي أو يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله كالمذبوح على النُّصب، سُميّ فسقاً مبالغةً كأنه نفس الفسق لأنه ذبح على اسم الأصنام ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي من أصابته الضرورة واضطرته إِلى أكل شيء من المحرمات فلا إِثم عليه إِن كان غير باغٍ أي غير قاصد التلذذ بأكلها بدون ضرورة ولا عادٍ أي مجاوزٍ قدر الضرورة التي تدفع عنه الهلاك فالله غفور رحيم بالعباد، ثم بيّن تعالى أن ما حرّمه على اليهود إِنما كان بسبب بغيهم وعصيانهم فقال ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾ أي وعلى اليهود خاصةً حرمنا عليهم كل ذي ظُفر قال ابن عباس: هي ذوات الظِّلْفِ كالإِبل والنعام وما ليس بذي أصابع منفرجة كالبط والأوز ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ أي وحرّمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾ أي إِلا الشحم الذي علق بالظهر منهما ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾ أي الأمعاء والمصارين ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖ﴾ كشحم الألية والمعنى أن الشحم الذي تعلَّق بالظهور أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم كشحم الألية جائز لهم ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي ذلك التحريم بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق من قتل الأنبياء وأكل الربا واستحلال أموال الناس بالباطل وإِنّا لصادقون فيما قصصنا عليك

---

(١) (ش): البَقَر: يشمل البقر والجاموس، فالجامُوسُ: نَوْعٌ مِنَ البَقر، فالصواب أن يُقال: ومن البقر اثنين هما (الثور أو الفحل، والبقرة أو الجاموسة).

يا محمد، وفي ذلك تعريضٌ بكذب من حرّم ما لم يحرّم الله والتعريض بكذب اليهود ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أي فإن كذبك يا محمد هؤلاء اليهود فيما جئت به من بيان التحريم فقل متعجباً من حالهم ربكم ذو رحمة واسعة حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة إجرامكم. قال في «البحر»: وهذا كما تقول عند رؤية معصية عظيمة: «ما أحْلَم الله تعالى!»، وأنت تريد ما أحلمَه لإمْهالِه العاصِي[1]، ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بالوعيد الشديد فقال ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي لا تغتروا بسعة رحمته فإنه لا يُردُّ عذابه وسطوتُه عمن اكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات فهو مع رحمته ذو بأس شديد، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب حتى لا يقنط المذنب من الرحمة ولا يغتر العاصي بحلم الله.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ أي سيقول مشركو العرب لو أراد الله ما كفرنا ولا أشركنا نحن ولا آباؤنا يريدون أن شركهم وتحريمهم لما حرّموا كان بمشيئة الله ولو شاء ألا يفعلوا ذلك ما فعلوه، فاحتجوا على ذلك بإرادة الله كما يقول الواقع في معصية إذا طلب منه الإقلاع عنها: هذا قدرُ الله لا مهربَ ولا مفرَّ منه، ولا حجة في هذا لأنهم مكلفون مأمورون بفعل الخير وترك القبيح ولكنها نزعةٌ جبرية يحتجّ بها السفهاء عندما تدمغهم الحجة قال تعالى في الرد عليهم ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي كذلك كذَّب من سبقهم من الأمم حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ استفهام إنكاري يقصد به التهكم أي قل لهم هل عندكم حجة أو برهان على صدق قولكم فتظهروه لنا ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلا الظنون والأوهام وما أنتم في الحقيقة إلا تكذبون على الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قل لهم إن لم تكن لكم حجة فلله الحجة البينة والواضحة التي بلغت غاية الظهور والإقناع، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر ليتم التكليف ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي قل لهم يا محمد أَحْضِرُوا لي مَن يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله تعالى حرَّم هذه الأشياء التي تدَّعونها من البحيرة والسائبة وغيرهما ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي فإن حضروا وكذبوا في شهادتهم وزوَّروا فلا تشهد بمثل شهادتهم ولا تصدّقهم فإنه كذبٌ بحتٌ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي ولا تتبع أهواء المكذبين بآيات الرحمن الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي وهم يشركون بالله غيره فيعبدون الأوثان.

(١) «البحر المحيط» ٤/ ٢٤٦.

البَلَاغَة: ١ - ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ بينهما طباقٌ لأن الحمولة الكبارُ الصالحة للحمل، والفرشُ الصغار الدانية من الأرض كأنها فرش.

٢ - ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ هذا من لطيف الاستعارة وهي أبلغ عبارة للتحذير من طاعة الشيطان والسير في ركابه[1].

٣ - ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من صيغ المبالغة أي مبالغ في المغفرة والرحمة.

٤ - ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ جاءت الأولى جملة اسمية لأنها أبلغ في الإخبار من الفعلية فناسبت وصفه تعالى بالرحمة الواسعة وجاءت الجملة الثانية فعلية ﴿وَلَا يُرَدُّ﴾ لئلا يتعادل الإخبار عن الوصفين، وباب الرحمة أوسع[2] أفاده في «البحر».

فَائِدَة: في قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ إيذان بأن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى، وأن الله وَجَلَّ وعلا المشرع للأحكام والرسول مبلّغٌ عن الله ذلك التشريع كقوله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٢ - ٣].

قال الله تعالى:

قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ
أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ
وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ
إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ
وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)
أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُواْ لَوْ
أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ
(١٥٧) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ
لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ
فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَآءَ

---

(١) تلخيص البيان ص ١١.

(٢) «البحر المحيط» ٤/ ٢٤٦.

﴿بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ
إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ
وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ
كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ
فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ
ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى ما حرّمه الكفار افتراء عليه وذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان، ذكر هنا ما حرّمه تعالى عليهم حقيقة من الأمور الضارة، وذكر الوصايا العشر التي اتفقت عليها الشرائع السماوية وبها سعادة البشرية.

اللغَة: ﴿أَتۡلُ﴾ أقرأ وأقص ﴿إِمۡلَٰقٖ﴾ فقر يقال أملق الرجل إذا افتقر ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ قوته وهو بلوغ سن النكاح والرشد، والأشدُّ جمعٌ لا واحد له ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بالعدل بلا بخس ولا نقصان ﴿ٱلسُّبُلَ﴾ جمع سبيل وهي الطريق ﴿شِيَعٗا﴾ فرقـًا وأحزابـًا جمع شيعة وهي الفرقة تتشيع وتتعصب لمذهبها ﴿قِيَمٗا﴾ مستقيمـًا لا عوج فيه ﴿وَنُسُكِي﴾ النُّسُك جمع نسيكة وهي الذبيحة وقال الزجاج: عبادتي ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة[(١)].

«**التفسير**»: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي قل يا محمد تعالوا أقرأ الذي حرّمه ربكم عليكم باليقين لا بالظن والتخمين ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ أي لا تعبدوا معه غيره ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ أي وأحسنوا إلى الوالدين إحسانـًا، وذُكر ضمن المحرمات لأن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده فكأنه قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين قال «أبو السعود»: والسرُّ في ذلك المبالغةُ والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما غير كافٍ في قضاء حقوقهما[(٢)] ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر قال ابن الجّوزي: المراد دفن البنات أحياء من خوف الفقر[(٣)] ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ أي رزقكم ورزقهم علينا فإن الله هو الرازق للعباد ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي لا تقربوا المنكرات الكبائر علانيتها وسرّها قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأسـًا في السرّ ويستقبحونه في العلانية فحرمه الله في السر والعلانية[(٤)] ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي لا تقتلوا النفس البريئة التي حرّم الله قتلها إلا بموجب وقد فسّره قول رسول الله ﷺ: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ

(١) تفسير «القرطبي» ٧/ ١٥٢.
(٢) «أبو السعود» ٢/ ١٤٦.
(٣) زاد المسر ٣/ ١٤٨.
(٤) «الطبري» ١٢/ ٢١٩.

إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ الثَّيِّبُ الزَّانِي وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»[1] ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ذلكم المذكور هو ما أوصاكم تعالى بحفظه وأمركم به أمراً مؤكداً لعلكم تسترشدون بعقولكم إلى فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا قال أبو حيان: وفي لفظ وصّاكم من اللطف والرأفة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان[2] ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التي هي أنفع له حتى يصير بالغاً رشيداً، والنهي عن القرب يعمُّ وجوه التصرف لأنه إذا نُهي عن أن يقرب المال فالنهيُ عن أكله أولى وأحرى والتي هي أحسن منفعةُ اليتيم وتثمير ماله قال ابن عباس: هو أن يعمل له عملاً مصلحاً فيأكل منه بالمعروف ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والتسوية في الأخذ والعطاء ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا نكلّف أحداً إلّا بمقدار طاقته بما لا يعجز عنه قال «البيضاوي»: أي إلا ما يسعها ولا يعسرُ عليها، وذكره بعد وفاء الكيل لأن إيفاء الحق عسرٌ فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفوٌّ عنكم[3] ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي اعدلوا في حكومتكم وشهادتكم ولو كان المشهود عليه من ذوي قرابتكم ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ أي أوفوا بالعهد إذا عاهدتم قال «القرطبي»: وهذا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين الناس وأضيف إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به[4] ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلكم تتعظون ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي وبأن هذا ديني المستقيم شرعته لكم فتمسكوا به ولا تتبعوا الأديان المختلفة والطرق الملتوية فتفرقكم وتزيلكم عن سبيل الهدى عن ابن مسعود قال: «خطّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً ثم قال هذا سبيل الله، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه ويساره ثم قال: هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليها ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[5] الآية».

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كرر الوصية على سبيل التوكيد أي لعلكم تتقون النار بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه قال ابن عطية: لما كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عاقل جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] والمحرمات الأخر شهوات وقد ويقع فيها من لم يتذكر جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والسير في الجادة المستقيمة يتضمن

(١) (ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني.
(٢) «البحر» ٤/ ٢٥٢.
(٣) «البيضاوي» ص ١٨٤.
(٤) «القرطبي» ٧/ ١٣٧.
(٥) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٣٣. (ش): رواه أحمد وصححه الألباني.

فعل الفضائل ولا بد لها من تقوى الله جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] [البقرة: ٦٣] ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة تماماً للكرامة والنعمة على من كان محسناً وصالحاً قال «الطبري»: أي آتينا موسى الكتاب تماماً لنعمتنا عليه في قيامه بأمرنا ونهينا فإن إيتاء موسى الكتاب نعمةٌ مِن الله عليه ومِنَّةٌ عظيمة لما سلف منه من صالح العمل وحسن الطاعة[٢] ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وهدى لبني إسرائيل ورحمة عليهم ليصدّقوا بلقاء الله قال ابن عباس: كي يؤمنوا بالبعث ويصدّقوا بالثواب والعذاب[٣] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزلناه على محمد كتابٌ عظيم الشأن كثير المنافع مشتملٌ على أنواع الفوائد الدينية والدنيوية ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي تمسكوا به واجعلوه إماماً واحذروا أن تخالفوه لتكونوا راجين للرحمة ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ أي أنزلناه بهذا الوصف العظيم الجامع لخيرات الدنيا والآخرة كراهة أن تقولوا يوم القيامة ما جاءنا كتاب فنتّبعه وإنما نزلت الكتب المقدسة على اليهود والنصارى قال ابن جرير: فقطع الله بإنزاله القرآن على محمد ﷺ حجتهم تلك ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي وإنه الحال والشأن كنا عن معرفة ما في كتبهم ودراستهم غافلين لا نعلم ما فيها لأنها لم تكن بلغتنا ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أو تقولوا لو أننا أُنزل علينا الكتاب كما أُنزل على هاتين الطائفتين لكنَّا أهدى منهم إلى الحق وأسرعَ إجابةً لأمر الرسول لمزيد ذكائنا وجدِّنا في العمل ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ قرآن عظيم، فيه بيانٌ للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعبادة قال «القرطبي»: أي قد زال العذر بمجيء محمد ﷺ[٤] قال ابن عباس: بيّنة أي حجة وهو النبي ﷺ والقرآن[٥] ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي مَن أكْفَرُ مِمَّن كذّب بالقرآن ولم يؤمن به ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي أعرض عن آيات الله قال «أبو السعود»: أي صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال[٦] ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ وعيدٌ لهم أي سنثيب هؤلاء المعرضين عن آيات الله وحججه الساطعة شديد العقاب بسبب إعراضهم عن آيات الله وتكذيبهم لرسله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ

(١) «البحر» ٤/ ٢٥٤.
(٢) «الطبري» ١٢/ ٢٣٦.
(٣) «أبو السعود» ٢/ ١٤٨.
(٤) «القرطبي» ٧/ ١٤٤.
(٥) «زاد المسير» ٣/ ١٥٥.
(٦) «أبو السعود» ٢/ ١٤٩.

﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعذيبها وهو وقتٌ لا تنفع فيه توبتُهم ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: أي يأتي أمر ربك فيهم بالقتل أو غيره[١]

وقال «الطبري»: المراد أن يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه أو يأتيهم بعض آيات ربك وهو طلوع الشمس من مغربها[٢] ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا﴾ أي يوم يأتي بعض أشراط الساعة وحينئذٍ لا ينفع الإيمان نفسـاً كافرة آمنت في ذلك الحين ولا نفسـاً عاصيةً لم تعمل خيراً قال «الطبري»: أي لا ينفع من كان قبل ذلك مشركـاً بالله أن يؤمن بعد مجيء تلك الآية لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله، فحكم إيمانهم كحكم إيمانهم عند قيام الساعة[٣] وفي الحديث «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ ورآها النَّاسُ آمنوا وذلك حين لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا »[٤] ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أي انتظروا ما يحلُّ بكم وهو أمر تهديد ووعيد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ أي فرّقوا الدين فأصبحوا شيعـاً وأحزابـاً قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى فرّقوا دين إبراهيم الحنيف ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ أي أنت يا محمد بريء منهم ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي جزاؤهم وعقابهم على الله هو يتولى جزاءهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أي يخبرهم بشنيع فعالهم قال «الطبري»: أي أخبرهم في الآخرة بما كانوا يفعلون وأجازي كلاً منهم بما كان يفعل[٥] ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنةٍ واحدة جوزي عنها بعشر حسناتٍ أمثالها فضلاً من الله وكرمـاً وهو أقلُّ المضاعفة للحسنات فقد تنتهي إلى سبعمائة أو أزيد ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ أي ومن جاء بالسيئة عوقب بمثلها دون مضاعفة ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي لا يُنقصون من جزائهم شيئـاً وفي الحديث القدسي: يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيدُ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغْفرُ»[٦] فالزيادة في الحسنات من باب الفضل، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

(١) (ش): هذا من التأويل المخالف لعقيدة السلف، فالصحيح ما نقله المؤلف بعد ذلك مباشرةً عن «الطبري» من أن المراد أن يأتيهم ربك. وما رُوِيَ عن ابن عباس وجدته في «تفسير القرطبي» و««البحر المحيط»» لأبي حيان الأندلسي، ولكن بدون إسناد.
(٢) «الطبري» ١٢/ ٢٤٥.
(٣) «الطبري» ١٢/ ٢٦٦.
(٤) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٥) «الطبري» ١٢/ ٢٧٤.
(٦) رواه مسلم.

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين إن ربي هداني إلى الطريق القويم وأرشدني إلى الدين الحق دين إبراهيم ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ديناً مستقيماً لا عوج فيه هو دين الحنيفية السمحة الذي جاء به إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وما كان إبراهيم مشركاً، وفيه تعريضٌ بإشراك من خالف دين الإسلام لخروجه عن دين إبراهيم ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ أي قل يا محمد إنَّ صلاتي التي أعبد بها ربي ﴿وَنُسُكِي﴾ أي ذبحي[1] ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي حياتي ووفاتي وما أقدّمه في هذه الحياة من خيرات وطاعات ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ذلك كله لله خالصاً له دون ما أشركتم به ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ أي لا أعبد غير الله ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي بإخلاص العبادة لله وحده أُمرتُ ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أولُّ من أقرَّ وأذعنَ وخضع لله جلّ وعلا ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ تقريرٌ وتوبيخ للكفار، وسببها أنهم دعوه إلى عبادة آلهتهم والمعنى: قل يا محمد أأطلب رباً غير الله تعالى؟ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي والحال هو خالق ومالك كل شيء فكيف يليق أن أتخذ إلهاً غير الله؟ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي لا تكون جناية نفسٍ من النفوس إلا عليها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا يحمل أحدٌ ذنب أحد، ولا يؤاخذ إنسانٌ بجريرة غيره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا وعيدٌ وتهديد أي مرجعكم إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ويميز بين المحسن والمسيء ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي جعلكم خلفاً للأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضكم بعضاً قال «الطبري»: أي استخلفكم بعد أن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها[2] ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي خالف بين أحوالكم في الغنى والفقر، والعلم والجهل، والقوة والضعف وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي ليختبر شكركم على ما أعطاكم قال ابن الجوزي: أي ليختبركم فيظهر منكم ما يكون به الثواب والعقاب[3] ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه، قال في «التسهيل»: جمع بين الخوف والرجاء، وسرعة العقاب إما في الدنيا بتعجيل الأخذ أو في الآخرة لأن كل ما هو آتٍ قريب[4].

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ السُّبل استعارة عن البدع والضلالات والمذاهب المنحرفة.

---

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره «الطبري» وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالنسك العبادة والأولى أرجح.

(٢) «الطبري» ١٢/ ٢٨٧.

(٣) «زاد المسير» ٣/ ١٦٣.

(٤) «التسهيل» ٢/ ٢٨.

٢ - ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ التنكير لإفادة العموم والشمول.

٣ - ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف والتعظيم.

٤ - ﴿يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ وضع الظاهر مكان الضمير ﴿عَنْهَا﴾ لتسجيل شناعة وقباحة طغيانهم(١).

٥ - ﴿قُلِ انْتَظِرُوا﴾ الأمر للتهديد والوعيد.

٦ - ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ...﴾ الآية اشتمل هذا الكلام على النوع المعروف من علم البيان باللَّف وأصل الكلام: يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنةً قبلُ إيمانُها بعدُ، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبلُ ما تكسبه من الخير بعد، إلا أنه لفّ الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً بلاغة واختصاراً وإعجازاً، أفاده صاحب الانتصاف(٢).

٧ - (ظَهَرَ) و (بَطَنَ) طباق وبين ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ و ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ طباق كذلك وهو من المحسنات البديعية.

٨ - ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ قال الشريف الرضي: ليس هناك على الحقيقة أحمال على الظهور وإنما هي أثقال الآثام والذنوب فهو من الاستعارة اللطيفة(٣).

فَائِدَة: وحّد تعالى ﴿سَبِيلِهِ﴾ لأن الحق واحد وجمع ﴿السُّبُلَ﴾ لأن طرق الضلالة كثيرة ومتشعبة.

تنبيه: قال الحافظ «ابن كثير»: كثيراً ما يقرن تبارك وتعالى في القرآن بين هاتين الصفتين ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كقوله تعالى ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠] إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارةً يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهما لينجع في كلٍ بحسبه(٤).

«تم تفسير سورة الأنعام بعونه تعالى وله الحمد والمنة»



(١) (ش): قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾، ومعنى كلام المؤلف أن في قوله تعالى: ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ تكرار الإشارة إلى آيات الله بالاسم الظاهر ﴿آيَاتِنَا﴾، بدل الضمير (الهاء) الذي يشير إليها، فلم يقل (عَنْهَا).

(٢) حاشية «الكشاف» ٢/ ٦٤.

(٣) تلخيص البيان ص ٤٠.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٤٢. (ش): نجَع الشّيءُ: نفَع، وظهر أثرُه.



مكية وآياتها ست ومائتان

بين يدي السورة

سورة الأعراف من أطول السور المكية، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء، ومهمتها كمهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جل وعلا، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة.

* تعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقرآن العظيم معجزة محمد الخالدة، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين.

* ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أب واحد، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلًا في أبي البشر آدم عليه السلام الذي أمر الله الملائكة بالسجود له، ثم حذرت من كيد الشيطان ذلك العدو المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم.

* وقد ذكر الله تعالى قصة آدم مع إبليس وخروجه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض كنموذج للصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، وبيان لكيد إبليس لآدم وذريته، ولهذا وجه الله أبناء آدم -بعد أن بين لهم عداوة إبليس لأبيهم- أربعة نداءات متتالية بوصف البنوة لآدم ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ وهو نداء خاص بهذه السورة يحذرهم بها من عدوهم الذي نشأ على عداوتهم من قديم الزمن حين وسوس لأبيهم آدم حتى أوقعه في الزلة والمخالفة لأمر الله ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

* كما تعرضت السورة الكريمة لمشهد من المشاهد الواقعة يوم القيامة، مشهد الفرق الثلاثة وما يدور بينهم من محاورة ومناظرة: فرقة المؤمنين أصحاب الجنة، وفرقة الكافرين أصحاب النار، وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف وسميت باسمها السورة «سورة الأعراف» مشهد سوف يشهده العالم يوم البعث والجزاء على الحقيقة دون تمثيل ولا تخييل، تبين ما يكون فيه من شماتة أهل الحق «أصحاب الجنة» بالمبطلين أصحاب النار، وينطلق صوت علوي يسجل عليهم اللعنة والطرد والحرمان، وقد ضرب بين الفريقين بحجاب ووقف عليه رجال يعرفون كلًّا بسيماهم، ويعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ونضرتها، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وقترتها.

*وتناولت السورة قصص الأنبياء بإسهاب «نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، موسى» وقد ابتدأت بشيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام وما لاقاه من قومه من جحود وعناد، وتكذيب

وإعراض، وقد ذكرت بالتفصيل قصة الكليم موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية، وتحدثت عما نال بني إسرائيل من بلاء وشدة ثم من أمن ورخاء وكيف لما بدلوا نعمة الله وخالفوا أمره عاقبهم الله تعالى بالمسخ إلى قردة وخنازير.

*وتناولت السورة كذلك المثل المخزي لعلماء السوء، وصورتهم بأشنع وأقبح ما يمكن للخيال أن يتصوره، صورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث، ولا ينفك عن التمرغ في الطين والأوحال ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ وتلك لعمر الحق أقبح صورة مُزْرِيَة[1] لمن رزقه الله العلم النافع فاستعمله لجمع الحطام الفاني وكان خزيًا ووبالًا عليه، لأنه لم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من النعمة، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

* وقد ختمت السورة الكريمة بإثبات التوحيد، والتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع، ولا يبصر ولا يسمع، من أحجار وأصنام اتخذوهما شركاء مع الله، وهو جل وعلا وحده الذي خلقهم وصورهم ويعلم منقلبهم ومثواهم، وهكذا ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد، فكانت الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الرب المعبود في البَدْء والختام.

التسمية: سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما، روى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟
مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا
بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ
ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ
يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ
يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

(١) (ش): مُزْرِيَة: مُخجِلة، مُؤسِفة.

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ
إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ
ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ
فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن
تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾
قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ
وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا
تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ
أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟
وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا
حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

اللغَة: ﴿حَرَجٌ﴾ ضيق يقال: حَرِج المكانُ أو الصدرُ إذا ضاق ﴿بَيَٰتًا﴾ قال الراغب: البيَاتُ والتبيتُ: قصدُ العدو ليلاً[1] ﴿قَآئِلُونَ﴾ من القيلولة وهي النوم وسط النهار، والقائلة: الظهيرة ﴿مَذْءُومًا﴾ مذموماً يقال ذأمه، أي: ذمه وحقَّره ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً يقال دحره أي طرده وأبعده ﴿سَوْءَٰتِهِمَا﴾ السوأة: العورة سميت بذلك لأن الإنسان يسوءه ظهورها ﴿وَطَفِقَا﴾ شرعا وأخذا يقال: طفِق يطفق إذا ابتدأ وأخذ ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يرقعان ويلزقان ﴿وَرِيشًا﴾ لباساً تتجملون به وأصل الريش: المالُ والجمال ومنه ريش الطير لأنه زينةٌ له وجمال ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده وأصل القبيل: الجماعةُ سواءً كانوا من أصلٍ أو أصول شتى ﴿فَٰحِشَةً﴾ الفاحشة هي الشيء الذي تناهى قبحه والمراد بها هنا الطوافُ حوَل البيت عراةً، وكل أمرٍ قبيح يسمى فاحشة، والفحشاء ما اشتد قبحه من الذنوب كالفاحشة.

«التفسير»: ﴿الٓمٓصٓ﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام عن الحروف المقطّعة وأن الحكمة في ذكرها بيان «إعجاز القرآن» بالإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله. وروي عن ابن عباس معناه: أنا الله

(١) «المفردات للراغب» مادة بيت.

أعلم وأَفْصِل، وقال أبو العالية: الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي هذا كتاب أنزله الله إِليك يا محمد وهو القرآن ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ أي لا يضقْ صدرك من تبليغه خوفاً من تكذيب قومك ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن، ولِتُذَكِّر وتَعِظَ به المؤمنين لأنهم المنتفعون به ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان المنزّل إِليكم من ربكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكُهّان تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكّرون تذكراً قليلاً قال الخازن: أي ما تتعظون إِلا قليلاً[1] ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ أي وكثير من القرى أهلكناها والمراد بالقرية أهلُها ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾ أي جاءها عذابنا ليلاً ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ أي جاءهم العذاب في وقت القيلولة وهي النوم في وسط النهار قال أبو حيان: وخصّ مجيء البأس بهذين الوقتين لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أشق وأفظع لأنه يكون على غفلةٍ من المهلكين[2] ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ﴾ أي ما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أماراته ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي إِلا اعترافهم بظلمهم تحسراً وندامة، وهيهات أن ينفع الندم ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي لنسألن الأمم قاطبة هل بلّغكم الرسل وماذا أجبتم؟ والمقصودُ من هذا السؤال التقريع والتوبيخ للكفار ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي لنسألنَّ الرسل أيضاً هل بلّغوا الرسالة وأدوا الأمانة؟ قال في «البحر»: وسؤال الأمم تقريرٌ وتوبيخ يُعْقِبُ الكفار والعصاة نكالاً وعذاباً، وسؤال الرسل تأنيسٌ يُعْقِبُ الأنبياء كرامة وثواباً[3] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖ﴾ أي فلنخبرنهم بما فعلوا عن علم منا قال ابن عباس: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ أي ما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم قال «ابن كثير»: يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور[4] ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ أي والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ولا يظلم ربك أحداً ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي فمن رجحت موازين أعماله بالإِيمان وكثرة الحسنات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي الناجون غداً من العذاب الفائزون بجزيل

(١) «تفسير الخازن» ٢/ ١٧٣.
(٢) «البحر» ٤/ ٢٦٩.
(٣) «البحر المحيط» ٤/ ٢٧٠.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٦.

الثواب ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي ومن خفت موازين أعماله بسبب الكفر واجتراح السيئات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ أي خسروا أنفسهم وسعادتهم ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله قال «ابن كثير»: والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً يروى هذا عن ابن عباس، وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة، وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة»[1] والكل صحيح فتارةً توزن الأعمال، وتارةً محالها، وتارة يوزن فاعلها والله أعلم. أقول: لا غرابة في وزن الأعمال ووزن الحسنات والسيئات بالذات، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا عن موازين للحر والبرد، واتجاه الرياح والأمطار، أفيعجز القادر على كل شيء عن وضع موازين لأعمال البشر؟ ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جعلنا لكم أيها الناس في الأرض مكاناً وقراراً قال «البيضاوي»: أي مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي ما تعيشون به وتحيون من المطاعم والمشارب وسائر ما تكون به الحياة ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي ومع هذا الفضل والإنعام قليل منكم من يشكر ربه كقوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوَّر ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له لأنه أبو البشر ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ولذريته ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس امتنع من السجود تكبراً وعناداً، والاستثناء منقطع لأنه استثناء من غير الجنس وقد تقدم قول الحسن البصري: لم يكن إبليسُ من الملائكة طرفة عين ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي قال تعالى لإبليس: أيُّ شيء منعك أن تدع السجود لآدم؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي قال إبليس اللعين: أنا أفضل من آدم وأشرف منه فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ ثم ذكر العلة في الامتناع فقال ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ أي أنا أشرف منه لشرف عنصري على عنصره، لأنني مخلوق من نار والنار أشرف من الطين، ولم ينظر المسكين لأمر من أمره بالسجود وهو الله تعالى قال «ابن كثير»: نظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم وهو أن الله خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً فأخطأ قبّحه الله في قياسه في دعواه أن النار أشرف من الطين، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم، والنار من شأنها الإحراق والطيش، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح والنار محل العذاب ولهذا خان إبليس عنصره فأورثه الهلاك والشقاء والدمار قال ابن سيرين: أول من قاس إبليس فأخطأ فمن قاس الدين برأيه قرنه

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

الله مع إبليس ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ أي اهبط من الجنة فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن تستكبر عن طاعتي وأمري وتسكن دار قدسي ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أي الذليلين الحقيرين قال الزمخشري: وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار فمن تواضع لله رفعه ومن تكبّر على الله وضعه ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ استدرك اللعين فطلب من الله الإمهال إلى يوم البعث لينجو من الموت لأن يوم البعث لا موت بعده فأجابه تعالى بقوله ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ قال ابن عباس: أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين فأبى الله ذلك عليه[1] ويؤيده الآية الأخرى ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر: ٣٧ - ٣٨] ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي فبسبب إغوائك وإضلالك لي لأقعدنَّ لآدم وذريته على طريق الحق وسبيل النجاة الموصل للجنة كما يقعد القُطّاع للسَّابِلة[2] ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أي آتي عبادك من كل جهة من الجهات الأربع لأصدّهم عن دينك قال «الطبري»: معناه لآتِيَنَّهُم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصُدُّهم عن الحق وأُحَسِّنُ لهم الباطل قال ابن عباس: ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى[3] ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أي مؤمنين مطيعين شاكرين لنعمك ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ أي اخرج من الجنة مذموماً معيباً مطروداً من رحمتي ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ اللام موطئة للقسم أي لمن أطاعك من الإنس والجن لأملأنَّ جهنم من الأتباع الغاوين أجمعين، وهو وعيد بالعذاب لكل من انقاد للشيطان وترك أمر الرحمن ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة بعد أن أُهبط منها إبليس وأخرج وطرد ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أي كلا من ثمارها من أي مكان شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلا شجرة عيّنها لهما ونهاهما عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في الوسوسة والمكر والخديعة ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ أي ألقى لهما بصوتٍ خفي لإغرائهما بالأكل من الشجرة ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا ﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ وهذا توضيح لوسوسة اللعين أي قال في وسوسته لهما: ما نهاكما ربكما عن الأكل من الشجرة إلا كراهية أن تكونا مَلَكين أو تصبحا من المخلّدين في الجنة ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

(١) «القرطبي» ٧/ ١٤٧.
(٢) (ش): سابِلَة: طريقٌ مسْلوُكة، مارُّون على الطريق.
(٣) «الطبري» ١٢/ ٣٤١.

أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يُخْدع المؤمن بالله قال الألوسي: وإِنما عبّر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحداً في فِعْل يَجِدُّ فيه[(١)] ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي خدعهما بما غرهما به من القسم بالله قال ابن عباس: غرهما باليمين وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحدٌ بالله كاذبًا فغرهما بوسوسته وقسمه لهما[(٢)] ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي فلما أكلا من الشجرة ظهرت عوراتهما قال الكلبي: تهافت عنهما لباسهما فأبصر كلٌ منهما عورة صاحبه فاستحيا ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي أخذا وشرعا يلصقان ورقة على ورقة ليستترا به بعد أن كانت كسوتهما من حلل الجنة قال «القرطبي»: أي جعلا يقطعان الورق ويلزقَانِه ليسْتَتِرا به، ومنه خصْفُ النعل[(٣)] وعن وهب ابن منبه قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما[(٤)] ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ قائلاً: أَلم أحَذِّرْكما من الأكل من هذه الشجرة وأخبِرْكُما بعداوة الشيطان اللعين؟ روى أنه تعالى قال لآدم: ألم يكن لك فيما مَنَحْتُك من شجر الجنة مندوحةٌ عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك ولكنْ ما ظننتُ أنّ أحداً من خلقك يحلف بك كاذبًا قال: فوعِزَّتي لأُهْبطَنَّك إِلى الأرض ثم لا تنال العيش إِلا كدًّا[(٥)] ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ اعترفا بالخطيئة وتابا من الذنب وطلبا من الله المغفرة والرحمة قال «الطبري»: وهذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه[(٦)] ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الخطاب لآدم وحواء وإِبليس ولهذا جاء بصيغة الجمع أي اهبطوا من سماء القدس إِلى الأرض حال كون بعضكم عدوًّا لبعض، فالشيطان عدوٌّ للإِنسان، والإِنسان عدوٌّ للشيطان كقوله ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي لكم في الأرض موضع استقرار وتمتع وانتفاع إِلى حين انقضاء آجالكم ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي في الأرض تعيشون وفيها تُقبرون ومنها تُخرجون للجزاء كقوله

(١) «روح المعاني» ٨/ ١٠٠.
(٢) «القرطبي» ٧/ ١٨٠.
(٣) «القرطبي» ٧/ ١٨١. (ش): خَصَف النَّعْلَ ونحوَها: خَاطَها بالمِخْصَف، خرَزها، أصلحها.
(٤) «الطبري» ١٢/ ٣٥٥.
(٥) «البحر» ٤/ ٢٨١. (ش): هو في بعض كتب «التفسير» بدون إسناد. (مندوحة): سَعة وفسحة. (لا مندوحة لك عن هذا الأمر/ لا مندوحة لك من هذا الأمر): لا يمكنك تَرْكُه. (لك عن هذا الأمر مندوحة/ من هذا الأمر مندوحة): يمكنك تَرْكُه والميل عنه. (الكَدُّ): الإرهاق والتعب.
(٦) هذه الرواية نقلها «الطبري» عن الضحاك وفيه الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥] ثم ذكر تعالى ما امتنَّ به على ذرية آدم من اللباس والرياش[١] والمتاع فقال ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشًا ﴾ أي أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يستر عوراتكم، ولباساً يزينكم وتتجملون به قال الزمخشري: الريش لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته[٢] ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ أي ولباس الورع والخشية من الله تعالى خير ما يتزين به المرء فإن طهارة الباطن أهم من جمال الظاهر قال الشاعر:

وَخَيْـرُ لِبَـاسِ الْـمَـرْءِ طَـاعَـةُ رَبِّـهِ ... وَلَا خَـيْـرَ فِـيـمَـنْ كَـانَ للهِ عَاصِيا

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي إنزال اللباس من الآيات العظيمة الدالة على فضل الله ورحمته على عباده ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي لا يغوينكم الشيطان بإضلاله وفتنته ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ أي كما أغوى أبويكم بالأكل من الشجرة حتى أخرجهما من الجنة ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾ أي ينزع عنهما اللباس لتظهر العورات، ونسب النزع إليه لأنه المتسبب، وهذا هدف اللعين أن يهتك الستر عن الإنسان ويعريه من جميع الفضائل الحسيّة والمعنوية ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ ﴾ أي إن الشيطان يبصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها، فهو لكم بالمرصاد فاحذروا كيده ومكره لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشدَّ وأخوف ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أي جعلنا الشياطين أعواناً وقرناء للكافرين ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ﴾ أي وإذا فعل المشركون فاحشة وهي الفعلة المتناهية في القبح كالطواف حول البيت عراة ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا ﴾ أي اعتذروا عن ذلك الفعل القبيح بتقليد الآباء ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أي أمرنا بالتجرد من الثياب إذ كيف نطوف في ثيابٍ عصينا فيها الله! وهذا افتراء على ذي الجلال قال «البيضاوي»: احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله سبحانه، فأعرض عن الأول لظهور فساده، وردَّ الثاني بقوله ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾[٣] أي قل لهم يا محمد: الله منزّه عن النقص لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوي الخصال ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علم ونظرٍ صحيح؟ ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ ﴾ أي توجهوا بِكُلِّيَّتِكُم إليه عند كل سجود ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي واعبدوه مخلصين له العبادة والطاعة قال «ابن كثير»: أي أمركم بالاستقامة في عبادته وهي

(١) (ش): رِياش: لِباسٌ أو أثاثٌ فاخر.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٩٧.
(٣) «البيضاوي» ص ١٨٩.

متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات وبالإخلاص لله في العبادة فإن الله تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك[١] ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي كما بدأكم من الأرض تعودون إليها ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي هدى فريقاً منكم وأضلَّ فريقاً منكم وهو الفعال لما يريد لا يُسأل عما يفعل ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هذا تعليل للفريق الذين حقت عليهم الضلالة أي اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي يظنون أنهم على بصيرة وهداية.

البَلَاغَة: ١ - ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي ضيق من تبليغه فهو على حذف مضاف مثل ﴿وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

٢ - ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين لمزيد اللطف بهم وترغيبهم في امتثال الأوامر[٢].

٣ - ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بين ﴿ثَقُلَتْ﴾ و ﴿خَفَّتْ﴾ طباقٌ وكذلك بين ﴿بَيَاتًا﴾ و ﴿قَائِلُونَ﴾ لأن البيات معناه ليلاً و ﴿قَائِلُونَ﴾ معناه نهاراً وقت الظهيرة.

٤ - ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ هو على حذف مضاف أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم.

٥ - ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ استعار الصراط المستقيم لطريق الهداية الموصل إلى جنان النعيم.

٦ - ﴿وَيَا آدَمُ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي وقلنا يا آدم.

٧ - ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ عبَّر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها.

٨ - ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أكد الخبر بالقسم وبإنَّ واللام لدفع شبهة الكذب وهو من الضَّرْب[٣] الذي يسمى «إنكاريّا» لأن السامع متردّد.

٩ - ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ بين الجملتين طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: سميت العورة سوأة لأن كشفها يسوء صاحبها قال العلماء: في الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور وأنه مستهجنٌ في الطباع ولذلك سميت سوأة أقول: إن الآية قد أوضحت هدف إبليس اللعين ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ فمن دعا إلى تعري المرأة وشجَّع على ذلك كما هو حال من يزعم التقدمية ويدعو المرأة إلى نزع الحجاب بدعوى الحرية والمساواة فإنما هو عدو للمرأة ومن أنصار وأعوان إبليس لأن الهدف واحد،

(١) «مختصر ابن كثير» ٢/ ١٣.

(٢) أفاده «أبو السعود» ٢/ ١٥٥.

(٣) (ش): الضَّرْب: النوْع.

وهي دعوة مكشوفة غايتها التفسخُ والانحلال الخلقي، وليست التقدمية بالتكشف والتعري وإنما هي بصيانة الشرف والعفاف ولله دَرُّ القائل[(١)]:

يَابْنَتِي إِنْ أَرَدْتِ آيَةَ حُسْنٍ ... وَجَمَالاً يَزِينُ جِسْماً وَعَقْلَا
فَانْبِذِي عَادَةَ التَّبَرُّجِ نَبْذاً ... فَجَمَالُ النُّفُوسِ أَسْمَى وَأَعْلَى
يَصْنَعُ الصَّانِعُونَ وَرْداً وَلَكِنْ ... وَرْدَةُ الرَّوْضِ لَا تُضَارِعُ شَكْلَا

قال الله تعالى:

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ
زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ
ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ
ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا
دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ
عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا
مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ
ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ
مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ
نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ
ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ
أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا
حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ
أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا
لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا

---

(١) (ش): لله دَرُّه: عبارة تعجّب ومدح، أي لله ما بذلَ من خيرٍ وما قامَ به من عملٍ، ما أحسن ما أتى به من قول أو عمل.

كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟
إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام، وذكر ما امتن به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يستر العورات، أمر هنا بأخذ الزينة والتجمل في المناسبات وعند إرادة الصلاة، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى طوائف: «أهل الجنة، وأهل النار، وأهل الأعراف» ومآل كل فريق من سعادة أو شقاء في دار العدل والجزاء.

اللغَة: ﴿زِينَتَكُمْ﴾ الزينة: ما يتزين به المرء ويتجمل من ثياب وغيرها ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحه من المعاصي ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ الظلم والاستطالة على الناس ﴿سُلْطَٰنًا﴾ حجة وبرهانا ﴿سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ ثَقْب الإبرة ﴿مِهَادٌ﴾ فِراشٌ يَمْتَهِدُه الإنسانُ[١] ﴿غَوَاشٍ﴾ أغطية جمع غاشية قال ابن عباس: هي اللحُف[٢] ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾ السور المضروب بين الجنة والنار جمع عُرْف مستعار من عرف الديك ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلامتهم.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعيرني تَطْوافًا تجعله على فَرْجها وتقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كلّه فما بدا منه فلا أُحلّه

فنزلت هذه الآية ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وأذن مؤذن رسول الله ﷺ: ألاّ يطوف بالبيت عُريان[٣].

التفسير: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي البسوا أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف[٤] ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي المعتدين حدود الله فيما أحلَّ وحرّم ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ

---

(١) (ش): مَهَد الفِرَاشَ/ امْتَهدُه: بَسَطَهُ ووطّأه وجعله ليِّنًا يسهُل القعودُ والنّومُ عليه، أعدّه وهيّأه.

(٢) (ش): اللحاف: كُلُّ ما يُتَغطَّى به، والجمع أَلْحِفَة ولُحُف.

(٣) أخرجه مسلم كذا في «القرطبي» ٧/ ١٨٩. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ فَتَقُولُ مَنْ يُعِيرُنِي تِطْوَافًا تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا وَتَقُولُ: اَلْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي الْحَجَّةِ الَّتِي أَمَّرَهُ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ فِي رَهْطٍ يُؤَذِّنُونَ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ لاَ يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٤) (ش): قال الشيخ السعدي: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلِّها، فَرْضِها ونَفْلِها، فإن سترْها زينةٌ للبدن، كما أن كشْفَها يدعُ البدن قبيحًا مُشَوَّهًا.

﴿زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراةً ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من الطيبات من حرّم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لنَفْعكم من النبات، والمستلذات من المآكل والمشارب[1]! والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفار، وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد لأن الله حرم الجنة على الكافرين ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي نبيّن ونوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي قل لهم يا محمد: ما حرّم الله إلا القبائح من الأشياء التي تَفاحَش قُبْحُها وتَناهَى ضَرَرُها، سواء ما كان منها في السر أو في العلن ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي وحرّم المعاصي كلها والعدوان على الناس ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته بدون حجة أو برهان ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي تفتروا على الله الكذب في التحليل والتحريم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾ أي لكل أمة كذبت رسلها مدة مضروبة لهلاكها قال في «البحر»: هذا وعيد للمشركين بالعذاب إذا خالفوا أمر ربهم[2] ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء وقت هلاكهم المقدر لهم لا يتأخر عنهم برهة من الزمن ولا يتقدم كقوله ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾[3] [الكهف: ٥٩] والساعة مَثَلٌ في غاية القلة من الزمان ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ المراد ببني آدم جميع الأمم والمعنى إن يَجِئْكُمُ رسلي الذين أرسلتهم إليكم يُبَيِّنُون لكم الأحكام والشرائع ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي فمن اتقى منكم ربه بفعل الطاعات وترك المحرمات فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي وأما من كذب واستكبر عن الإيمان بما جاء به الرسل فأولئك في نار جهنم ماكثون لا يخرجون منها أبداً ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ الاستفهام للإنكار أي مَن أقْبَحُ وأشْنَعُ مِمَّن تعَمَّد الكذب على الله أو كذّب بآياته المنزلة؟ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي يصيبهم حظهم في الدنيا مما كُتب لهم وقُدر من الأرزاق والآجال قال مجاهد: ما وُعدوا به من خير أو شر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ

---

(١) (ش): أي من حرّم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لنَفْعكم من النبات، ومن حرّم عليكم المستلذات من المآكل والمشارب!

(٢) «البحر المحيط» ٤/ ٢٩٢.

(٣) هذا الراجح في تفسير الآية: أن المراد به أجل الأمم المكذبين للرسل وهو اختيار «الطبري» و«ابن كثير» وأبي السعود، وقيل: المراد أن كل إنسان له عمر ينتهي إليه لا يزيد ولا ينقص، والأول أرجح لأن اللفظ ورد: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ والله أعلم.

رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي جاءت ملائكة الموت تقبض أرواحهم ﴿قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله ادعوهم ليخلصوكم من العذاب، والسؤال للتبكيت والتوبيخ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي قال الأشقياء المكذبون لقد غابوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال، وإنما قالوا ذلك على سبيل التحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء المكذبين بآياته: ادخلوا مع أمم أمثالكم من الفجرة في نار جهنم من كفار الأمم الماضية من الإنس والجن ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ أي كلما دخلت طائفة النار لعنت التي قبلها لضلالها بها. قال الألوسي: يلعن الأتباع القادة يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله تعالى [1]، والمراد أن أهل النار يلعن بعضهم بعضاً كقوله تعالى ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ أي تلاحقوا واجتمعوا في النار كلهم ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ أي قال الأتباع للقادة والرؤساء الذين أضلوهم: يا ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي أذقهم العذاب مضاعفاً لأنهم تسببوا في كفرنا ونظير هذه الآية ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٧ - ٦٨] ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أي لكلٍّ من القادة والأتباع عذاب مضاعف أما القادة فلضلالهم وإضلالهم، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ أي لا تعلمون هوله ولهذا تسألون لهم مضاعفة العذاب[2] ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ أي قال القادة للأتباع: لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب فنحن متساوون في الضلال وفي استحقاق العذاب الأليم ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم، قالوه لهم على سبيل التشفي لأنهم دعوا عليهم بمضاعفة العذاب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ أي كذبوا بآياتنا مع وضوحها واستكبروا عن الإيمان بها والعمل بمقتضاها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا يصعد لهم عمل صالح كقوله تعالى ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] قال ابن عباس: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، وقيل: لا تُفتَّح لأرواحهم أبواب السماء إذا قبضت أرواحهم ويؤيده حديث «إن العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا يجيئه ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى

(١) «روح المعاني» ٨/ ١١٦.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ من كلام الله للفريقين على سبيل التوبيخ وهو اختيار «الطبري»، والظاهر أنه من كلام القادة للأتباع كما في «البحر» والله أعلم.

سخطٍ من الله وغضب، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة فلا يمر على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له..»[١] الحديث ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ أي لا يدخلون يوم القيامة الجنة حتى يدخل الجمل في ثَقْب الإبرة، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على دقته مُبالغةً في التصوير ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي أهل العصيان والإجرام ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ﴾ أي لهم فراش من النار من تحتهم ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ أي ومن فوقهم أغطية من النار ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل من ظلم وتعدّى حدود الله، ولما ذكر تعالى وعيد الكافرين وما أعده لهم في الآخرة أَتْبَعَه بذكر وعد المؤمنين وما أعدّ لهم فقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي والذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ أي لا نكلف أحداً بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه بل بما هو في وسعه والجملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر قال في «البحر»: وفائدته التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم ما فيها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة[٢] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذا هو الخبر أي هؤلاء المؤمنون السعداء هم المستحقون للخلود الأبدي في جنات النعيم لا يُخرجون منها أبداً ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ أي طهرنا قلوبهم من الحسد والبغضاء حتى لا يكون بينهم إلا المحبة والتعاطف كما ورد في الحديث «يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَيْسَ فِي قُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ غِلٌّ»[٣] وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أي تجري أنهار الجنة من تحت قصورهم زيادة في نعيمهم ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ أي وفقنا لتحصيل هذا النعيم العظيم ولولا هداية الله تعالى وتوفيقه لما وصلنا إلى هذه السعادة ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي والله لقد صدقنا الرسل فيما أخبرونا به عن الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي وتناديهم الملائكة أن هذه هي الجنة التي أُعْطِيتُمُوها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا. قال «القرطبي»: ورثتم منازلها بعملكم، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله وفي الحديث «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» الحديث[٤]

---

(١) هذا من حديث أخرجه الإمام أحمد وانظره كاملاً في «ابن كثير» ٢/ ١٨. (ش): صححه الألباني.

(٢) «البحر المحيط» ٤/ ٢٩٨.

(٣) أخرجه أبن أبي حاتم. (ش): (رواه ابنُ أبي حاتم في «تفسيره»، وابنُ أبي الدنيا في «الأهوال». بسند ضعيف).

(٤) أخرجه مسلم وانظر «القرطبي» ٧/ ٢٠٩. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: ﷺ «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قَالُوا وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾ هذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وعبَّر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه أي ينادي أهلُ الجنة أهلَ النار يقولون: إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله من النعيم والكرامة حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقاً؟ قال أهل النار مجيبين: نعم وجدناه حقاً قال الزمخشري: وإنما قالوا لهم ذلك[1] اغتباطاً بحالهم، وشماتةً بأهل النار، وزيادة في غَمِّهِم[2] لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي أعلن معلنٌ ونادى منادٍ بين الفريقين بأن لعنة الله على كل ظالم بالله ثم وصفهم بقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي الذين كانوا في الدنيا يمنعون الناس عن اتباع دين الله ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة مكذبون جاحدون ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ أي بين الفريقين حجاب وهو السور الذي ذكره بقوله ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾ [الحديد: ١٣] يمنع من وصول أهل النار للجنة، وعلى هذا السور رجال يعرفون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم أي بعلامتهم التي ميّزهم الله بها قال قتادة: يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وأهل الجنة ببياض وجوههم[3] ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة حين رأوهم أن سلامٌ عليكم أي قالوا لهم: سلام عليكم قال تعالى ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة وهم يطمعون في دخولها ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال المفسرون: أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار، يحبسون هناك على السور حتى يقضي الله فيهم فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلّموا عليهم، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، سألوا الله ألاّ يجعلهم معهم قال أبو حيان: وفي التعبير بقوله ﴿صُرِفَتۡ﴾ دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنة وأن نظرهم إلى أصحاب النار ليس من قِبَلهم بل هم محمولون عليه والمعنى أنهم إذا حُملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما عليه أهل النار من العذاب استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم[4] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ أي من أهل النار وهم رؤساء الكفرة﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي أيُّ شيء

(١) (ش): أي قال أهل الجنة لأهل النار.
(٢) «الكشاف» ٢/ ١٠٦.
(٣) «الطبري» ١٢/ ٤٦٣.
(٤) «البحر المحيط» ٤/ ٣٠٣.

نَفَعَكُم جَمْعُكُم للمال واستكبارُكم عن الإيمان؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ أي هؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم في الدنيا تسخرون منهم وتحلفون أن الله لا يُدْخِلُهم الجنة، والاستفهام استفهام تقرير وتوبيخ وشماتة يوبخونهم بذلك ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ أي يقولون: للمؤمنين ادخلوا الجنة رغم أنوف الكافرين قال الألوسي: هذا من كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل الجنة المشار إليهم: دوموا في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة[1] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يخبر تعالى عن المحاورة بين أهل النار وأهل الجنة بعد أن استقر بكلٍّ من الفريقين القرار واطمأنت به الدار، وعن استغاثتهم بهم عند نزول عظيم البلاء من شدة العطش والجوع والمعنى ينادونهم يوم القيامة أغيثونا بشيء من الماء لنسكن به حرارة النار والعطش أو مما رزقكم الله من غيره من الأشربة فقد قتلنا العطش ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي منع الكافرين شراب الجنة وطعامها قال ابن عباس: ينادي الرجل أخاه وأباه فيقول: قد احترقت فأفض عليَّ من الماء! فيقال لهم أجيبوهم فيقولون: إن الله حرمهما على الكافرين[2]، ثم وصف تعالى الكافرين بقوله ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ أي هزءوا من دين الله وجعلوا الدين سخرية ولعباً ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي خدعتهم بزخارفها العاجلة وشهواتها القاتلة وهذا شأنها مع أهلها تَغُرُّ وتَضُرُّ، وتخدع ثم تصرع ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي ففي هذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا فلم يخْطِر ببالهم ولم يهتموا به قال الألوسي: الكلام خارجٌ مخرج التمثيل أي نتركهم في النار وننساهم مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذي ينبغي ألا يُنسى[3] وقال «ابن كثير»: أي يعاملهم معامَلَة مَن نَسِيَهم لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيءٌ ولا ينساه[4] ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي وكما كانوا منكرين لآيات الله في الدنيا، يكذبون بها ويستهزئون، ننساهم في العذاب.

البَلاَغَة: ١ - ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية لأن المراد بالمسجد هنا الصلاة والطواف، ولما كان المسجد مكان الصلاة أطلق ذلك عليه.

٢ - ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ كناية عن عدم قبول العمل، فلا يقبل لهم دعاء أو عمل[5].

---

(١) «روح المعاني» ٨/ ١٢٦.

(٢) «الطبري» ١٢/ ٤٧٣.

(٣) «روح المعاني» ٨/ ١٢٧.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٢٤.

(٥) (ش): ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لا تُفتَّح أبواب السماء لأعمالهم في الحياة ولا لأرواحهم عند الممات.

٣ - ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ فيه تشبيه ضمني أي لا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال إلا إذا أمكن دخول الجمل في ثقب الإبرة، وهو تمثيلٌ للاستحالة.

٤ - ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال صاحب «البحر»: هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب كقوله ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾(١) [الزمر: ١٦].

٥ - ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بين «ظهر» و«بطن» طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

فَائِدَة: يروى أن الرشيد كان له طبيبٌ نصراني حاذق فقال ذلك الطبيبُ لأحد العلماء: ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلمُ علمان: علم الأبدان وعلم الأديان: فقال له العالم: قد جمع الله تعالى الطبَّ كله في نصف آية من كتابه قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ فقال النصراني: ولا يُؤثر عن رسولكم شيء في الطب فقال العالم: قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة قال: وما هي؟ قال: قوله: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ**»(٢) الحديث فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًّا(٣).

قال تعالى:

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى
تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ
فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ
رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ
نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ

---

(١) «البحر المحيط» ٤/ ٢٩٨.

(٢) (ش): رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني.

(٣) «محاسن التأويل» ٧/ ٢٦٦٤. (ش): جَالِينُوس (نحو ١٢٩ - ٢٠٠ م): طبيب يوناني، ويُعتبر أحد أعظم الأطباء في العصور القديمة.

مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ
تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ
قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ
لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾
أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ
قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ
ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ
عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ
ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا
وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء وخسارتهم الفادحة في الآخرة، ذكر هنا أنه لا حجة لأحد فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لهداية البشرية، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء فبدأ بنوح عليه السلام شيخ الأنبياء ثم أعقبه بذكر هودٍ عليه السلام وموقف المشركين من دعوة الرسل الكرام.

اللغة: ﴿تَأۡوِيلَهُۥ﴾ عاقبة أمره وما يئول إليه من آل يئول إذا صار إليه ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ الاستواء: العلوّ والاستقرار. قال الجوهري: استوى على ظهر الدابة: استقرّ واستوى إلى السماء: قصد، واستوى الشيءُ إذا اعتدل ﴿يُغۡشِي﴾ يغطي ﴿حَثِيثٗا﴾ سريعاً والحثُّ: الإعجال والسرعة ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة وهي الكثرة والاتساع قال الأزهري: تبارك أي تعالى وتعاظم وارتفع ﴿تَضَرُّعٗا﴾ تذللاً واستكانة وهو إظهار الذل الذي في النفس مع الخشوع ﴿وَخُفۡيَةً﴾ سرًّا ﴿بُشۡرَۢا﴾ مبشرة بالمطر ﴿أَقَلَّتۡ﴾ حملت ﴿نَكِدٗا﴾ العسر القليل ﴿ءَالَآءَ﴾ الآلاء النِّعَم واحدها «إلَى» كمِعَى[1].

«التفسير»: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾ أي ولقد جئنا أهل مكة بكتاب هو القرآن العظيم ﴿فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي بينَّا معانيه ووضحنا أحكامه على علم منا حتى جاء قيّماً غير ذي عوج ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي هداية ورحمة وسعادة لمن آمن به ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ أي ما ينتظر أهل مكة إلا عاقبة ما وُعدوا به من العذاب والنكال قال قتادة: تأويله عاقبتُه ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ هو يوم القيامة ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ أي يقول الذين ضيّعوا وتركوا العمل به في الدنيا: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة وتحقق لنا صدقهم فلم نؤمن

---

(١) (ش): مِعًى: مفرد أمعاء.

بهم ولم نتبعهم قال «الطبري»: أقسم المساكين حين حل بهم العقاب أن رسل الله قد بلّغتهم الرسالة ونصحتْ لهم وصدَقَتْهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرةُ القيل والقال[١] ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب؟ استفهام فيه معنى التمني ﴿أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعمل صالحـًا غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال؟ قال تعالى ردًّا عليهم ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي خسروا أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة، وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أي إن معبودكم وخالقكم الذي تعبدونه[٢] هو المنفرد بقدرة الإيجاد الذي خلق السماوات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال «القرطبي»: لو أراد لخلقها في لحظة ولكنه أراد أن يعلِّم العبادَ التثبت في الأمور[٣] ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: الاستواء معلوم، والكَيْفُ مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: أخبارُ الصفات تُمَرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال: كيف؟ ولِمَ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء، وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلُغها واصِفٌ أو يَحُدُّها حَادٌّ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم الله عَزَّ وَجَلَّ[٤] وقال «القرطبي»: لم ينكر أحدٌ من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلم حقيقته[٥] ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ أي يغطي الليل على النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعـًا حتى يدركه ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي الجميع تحت قهره ومشيئته وتسخيره ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ أي له الملك والتصرف التام في الكائنات ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي تعظّم وتمجّد الخالق المبدع رب العالمين ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ أي ادعوا الله تذللاً وسرًّا بخشوع وخضوع ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي لا يحب المعتدين في الدعاء بالتشدق ورفع الصوت وفي الحديث «**إِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا**»[٦] ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ

---

(١) «الطبري» ١٢/ ٤٨٠.

(٢) (ش): إن كثيرًا من المخاطَبين يعبدون غير الله معه، فلا يكفي التعبير بـ «تعبدونه»، والصواب أن يقال: إن خالقكم ومالككم والمستحق للعبادة».

(٣) «القرطبي» ٧/ ٢١٩.

(٤) «محاسن التأويل» ٧/ ٢٧٠٨.

(٥) «القرطبي» ٧/ ٢١٩.

(٦) (ش): رواه البخاري ومسلم.

﴿إِصۡلَٰحِهَا﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله ببعثة المرسلين ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي رحمته تعالى قريبة من المطيعين الذين يمتثلون أوامره ويتركون زواجره ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ أي يرسل الرياح مبشرة بالمطر قال في «البحر»: ومعنى بين يدي رحمته أي أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجلّ النعم وأحسنها أثراً على الإنسان[١] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً مثقلاً بالماء ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ أي سقنا السحاب إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي أنزلنا في ذلك البلد الميت الماء فأخرجنا بذلك الماء من كل أنواع الثمرات ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي مثل هذا الإخراج نُخرج الموتى من قبورهم لعلكم تعتبرون وتؤمنون. قال «ابن كثير»: وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال لعلكم تذكّرون[٢] ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾ أي الأرضُ الكريمةُ التربة يخْرج النبات فيها وافياً حسناً غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، وهذا مَثَلٌ للمؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ أي والأرض إذا كانت خبيثة التربة كالحرّة أو السَّبْخة[٣] لا يخرج النبات فيها إلا بعسر ومشقة وقليلاً لا خير فيه، وهذا مَثَلٌ للكافر الذي لا ينتفع بالموعظة قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، فالمؤمن طيّب وعمله طيب كالأرض الطيبة ثمرها طيب، والكافر خبيثٌ وعملهُ خبيث كالأرض السبخة المالحة لا ينتفع بها[٤] ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ أي كما ضربنا هذا المثل كذلك نبيّن وجوه الحجج ونكررها آية بعد آية، وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله على نعمه، وإنما خصّ الشاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بسماع القرآن قال الآلوسي: أي مِثلَ هذا التصريف البديع نردِّد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكررها لقوم يشكرون نعم الله تعالى، وشكرُها بالتفكر والاعتبار بها[٥] ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ اللامُ جواب قسمٍ محذوف أي والله أرسلنا نوحاً، ونوحٌ شيخ الأنبياء لأنه أطولهم عمراً وهو أول نبيّ بعثه الله بعد إدريس، ولم يلق نبيٌّ من الأذى مثل نوح[٦] ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أي وحدّوا الله ولا تشركوا به فما لكم إلهٌ مستحقٌّ للعبادة غيره ﴿إِنِّيٓ

(١) «البحر المحيط» ٤/ ٣١٧.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٢٧.

(٣) الحرة: الأرض ذات الحجارة السود. والسَّبْخة: الأرض ذات المِلْح.

(٤) «الطبري» ١٢/ ٤٩٧.

(٥) «روح المعاني» ٨/ ١٤٨.

(٦) انظر ترجمة نوح مفصلة في كتابنا «النبوة والأنبياء».

﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إن أشركتم به ولم تؤمنوا فأنا أخاف عليكم عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي قال الأشراف والسادة من قومه إنا لنراك يا نوح في ذهابٍ عن طريق الحق والصواب واضح جلي قال أبو حيان: ولم يُجبْه من قومه إلا أشرافُهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغماس عقولهم بالدنيا وطلب الرياسة[١]، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ[٢] وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ما أنا بضال ولكنْ أنا مُرسَلٌ إليكم من عند ربكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أنا أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم وأقصد صلاحكم وخيركم وأعلم من الأمور الغيبية أشياء لا علم لكم بها قال «ابن كثير»: وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات[٣] ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي ليخوفكم هذا الرسول من العذاب إن لم تؤمنوا ولتتقوا ربكم وتنالكم الرحمة بتقواه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي كذبوا نوحاً مع طول مدة إقامته فيهم فأنجاه الله والمؤمنين معه في السفينة ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي أهلكنا المكذبين منهم بالغرق ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي عميت قلوبهم عن الحق فهم لا يبصرونه ولا يهتدون له قال ابن عباس: عميتْ قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد[٤] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هودًا وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أي قال لهم رسولهم: وحّدوا الله فليس لكم إله غيره ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون عذابه؟ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي قال السادة والقادة منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي نراك في خفة حلم وسخافة عقل وإننا لنظنك من الكاذبين في ادعائك الرسالة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ليس بي كما تزعمون نقص في العقل ولكني مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي أبلغكم أوامر الله وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه، أمينٌ

---

(١) «البحر» ٤/ ٣٢٠.

(٢) لم يأت التركيب لستُ في ضلال مبين بل جاء في غاية الحسن: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ لنفي أن يلتبس أو يختلط به ضلالة ما، وهذا أبلغ من الانتفاء من الضلال إذ لم يتعلق به ولا ضلالة واحدة، أفاده صاحب «البحر».

(٣) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٢٨.

(٤) «البحر» ٤/ ٣٢٣.

على ما أقول لا أكذب فيه، قال الزمخشري: وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام مِمَّنْ نسبَهم إلى السفاهة والضلالة - بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة - أدبٌ حسنٌ وخُلُق عظيم، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم[١] ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم لقاء الله ويخوفكم عذابه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي اذكروا نعمة الله حين استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي زاد في أجسامكم قوةً وضخامة ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم كي تفلحوا وتفوزوا بالسعادة ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي أجئتنا يا هود تتوعدنا بالعذاب كي نعبد الله وحده ونهجر عبادة الآلهة والأصنام ونتبرأ منها؟ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأتنا بما تعدنا به من العذاب فلن نؤمن لك إن كنت من الصادقين في قولك ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي قد حلّ بكم عذاب وغضب من الله ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي أتخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع ما أنزل الله بعبادتها من حجة أو برهان ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أي فانتظروا نزول العذاب إني من المنتظرين لما يحل بكم وهذا غاية الوعيد والتهديد ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي أنجينا هوداً والذين معه من المؤمنين رحمةً منا لهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي كذبوا ولم يؤمنوا فاستحقوا العذاب قال «أبو السعود»: أي أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبداً فأهلكهم الله بالريح العقيم[٢].

البَلاَغَة: ١ - ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الآية على قلة ألفاظها جمعت معاني كثيرة استوعبت جميع الأشياء والشئون على وجه الاستقصاء حتى قال ابن عمر: من بقي له شيء فليطلبه. وهذا الأسلوب البليغ يسمى «إيجاز قِصَر» ومداره على جمع الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة.

٢ - ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وصفُ البلد بالموت استعارةٌ لجدبه وعدم نباته كأنه كالجسد الذي لا روح فيه من حيث عدم الانتفاع به.

٣ - ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي مثل إخراج النبات من الأرض نخرج الموتى من قبورهم

(١) «الكشاف» ٢/ ١١٦. (ش): الذيل: أسفل الثوب، والمعنى أنهم يتغاضَوْن عما يكون من قومهم من سفاهات، ويتغافلون عنها.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ١٧٤.

فهو تشبيه «مرسل مجمل» ذكرت الأداة ولم يذكر وجه الشبه.

٤ - ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾ قطع الدابر كنايةٌ لطيفةٌ عن استئصالهم جميعاً بالهلاك.

تنبيه: ذكر العلامة الألوسي عند قوله تعالى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ عن الحسن البصري أنه قال: لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وأنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً فقال ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] ثم قال: وذكروا للدعاء آداباً كثيرة منها: أن يكون على طهارة، وأن يستقبل القبلة، وتخلية القلب من الشواغل، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النبي ﷺ ورفع اليدين نحو السماء، وإشراك المؤمنين فيه، وتحري ساعات الإجابة كثلث الليل الأخير، ووقت إفطار الصائم، ويوم الجمعة وغير ذلك[1].

قال الله تعالى:

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم
بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ
مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾
قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ
صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا
بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا
تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ
قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً
مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم
مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ
وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا

---

(١) «روح المعاني» ٨/ ١٣٩. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «فِي الْجُمُعَةِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَسَأَلَ اللهَ خَيْرًا، إِلاَّ أَعْطَاهُ» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِم].

فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ
ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ
أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ
فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟
هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ
ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

المناسَبة: لما ذكر تعالى في أول السورة قصة آدم، وما اتصل بها من آثار قدرته، وغرائب صنعته، الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم، فذكر نوحاً وهوداً وأعقبه هنا بذكر قصة صالح وشعيب، وموقف المعاندين للرسل الكرام.

اللغَة: ﴿نَاقَةُ﴾ الناقة: الأنثى من الجمال، وعقر الناقة: ضرب قوائمها بالسيف[1] ﴿وَعَتَوْا۟﴾ استكبروا عتا عتوًّا أي استكبر، والليلُ العاتي: الشديد الظلمة ﴿جَٰثِمِينَ﴾ لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجْثُم الطائر ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ الطَامَّة[2] التي يرجف لها الإنسان، أي: يتزعزع ويضطرب وأصل الرجف الاضطراب رجفت الأرض اضطربت ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في عذاب الله، والغابر بمعنى الباقي ويجيء بمعنى الماضي والذاهب، ومنه قول الأعشى: في الزمن الغابر فهو من الأضداد كما في «الصحاح» ﴿يَغْنَوْا۟﴾ يقيموا يقال غَنَى بالمكان إذا أقام به دهراً طويلاً ﴿عَفَوا۟﴾ كثروا ونموا من عفا النبات إذا كثر.

«التفسير»: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي وحّدوا الله ولا تشركوا به ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي معجزة ظاهرة جلية تدل على صحة نبوتي ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ هذا بيانٌ للمعجزة أي هذه الناقة معجزتي إليكم وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم، لأنها خلقت بغير واسطة قال «القرطبي»: أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صلد[3] ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي اتركوها تأكل من رزق ربها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا تتعرضوا لها بشيءٍ من السوء أصلاً

(١) (ش): العَقْرُ: القَتْلُ والذَّبْحُ.
(٢) (ش): الطَامَّة: الشِّدَّة.
(٣) «القرطبي» ٧/ ٢٣٨.

إكراماً لها لأنها آية الله، والعذاب الأليم هو ما حلَّ بهم حين عقروها ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي خلفاء في الأرض قال الشهاب: لم يقل خلفاء عاد إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي أسكنكم في أرض الحِجر تبنون في سهولها قصوراً رفيعة ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي تنحتون الجبال لسكناكم قال «القرطبي»: اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم فإن الأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم[1] ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم واشكروه على ما تفضل به ولا تعيثوا في الأرض فساداً ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ أي قال الأشراف المستكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين من أتباع صالح عليه السلام: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي أن الله أرسله إلينا وإليكم، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي أجابوهم بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته قال أبو حيان: وعدولهم عن قولهم هو مرسل إلى قولهم ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ في غاية الحسن إذْ أمر رسالته معلوم واضح مسلَّم لا يدخله ريب لما أتى به من هذا المعجز الخارق العظيم فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته[2] ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قال المستكبرون: نحن كافرون بما صدَّقتم به من نبوة صالح وإنما لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون إظهاراً لمخالفتهم إياهم وردًا لمقالتهم ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي نحروا الناقة واستكبروا عن امتثال أمر الله ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به إن كنت يا صالح حقاً رسولاً، قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أخذتهم الزلزلة الشديدة فصاروا في منازلهم هامدين موتى لا حِراك بهم قال في «البحر»: أخذتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوتُ كل شيء له صوتٌ في الأرض فقطعت قلوبهم وهلكوا[3] ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي أدبر عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم وقال على سبيل التفجع والتحسر عليهم: لقد بلّغتكم الرسالة وحذرتكم عذاب الله وبذلت وسعي في نصيحتكم ولكن شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم قال الزمخشري ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ حكاية حال ماضية قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت - وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى

---

(١) «القرطبي» ٧/ ٢٣٩.
(٢) «البحر» ٤٣٣٠.
(٣) «البحر» ٤/ ٣٣١.

بنفسه في التهلكة -: يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني[١]! ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي واذكر وقت أن قال لوط لقومه أهل سدوم على سبيل الإنكار والتوبيخ: أتفعلون تلك الفعلة الشنيعة المتناهية في القبح التي ما عملها أحد قبلكم في زمن من الأزمان! والفاحشة هي إتيان الذكور في الأدبار، أنكر عليهم أولاً فعلها ثم وبخهم بأنهم أول من فعلها قال أبو حيان: ولما كان هذا الفعل معهوداً قبحُه، ومركوزاً في العقول فحشه أتى به معرفًا بالألف واللام ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بخلاف الزنى فإنه قال فيه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [النساء: ٢٢] فأتى به مُنكَّراً، والجملة منفية ﴿مَا سَبَقَكُم﴾ تدل على أنهم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها، والمبالغة في ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ حيث زيدت مِنْ التأكيد لنفي الجنس، وفي الإتيان بعموم ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمعـًا قال عمرو بن دينار: ما رُئِي ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط[٢] ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ هذا بيانٌ للفاحشة وهو توبيخٌ آخر أشنع مما سبق لتأكيده بإنَّ وباللام أي إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في أدبارهم شهوة منكم لذلك الفعل الخبيث المكروه دون ما أحله الله لكم من النساء ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح واتباع الشهوات فقال ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي لا عذر لكم بل أنتم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء قال «أبو السعود»: وفي التقييد بقوله ﴿شَهْوَةً﴾ وصفٌ لهم بالبهيمية الصِّرفة وتنبيهٌ على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النسل لا قضاء الشهوة[٣] ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي ما كان جوابهم للوطٍ إذ وبخهم على فعلهم القبيح إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطـًا وأتباعه المؤمنين من بلدتكم لأنهم أناس يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتقذرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء، قالوا ذلك سخرية واستهزاءً بلوط وقومه وعابوهم بما يمدح به الإنسان ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي أنجيناه من العذاب الذي حلّ بقومه وأهله المؤمنين إلا امرأته فلم تنج وكانت من الباقين في ديارهم الهالكين قال «الطبري»: أي أنجينا لوطًا وأهله المؤمنين به إلا إمرأته فإنها كانت للوط خائنة وبالله كافرة فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب[٤] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي أرسلنا عليه نوعـًا من المطر عجيبـًا هو حجارة من

---

(١) «الكشاف» ٢/ ١٢٤.

(٢) «البحر» ٤/ ٣٣٣.

(٣) «أبو السعود» ٢/ ١٧٨.

(٤) «الطبري» ١٢/ ٥٥١.

سجيل كما في الآية الأخرى وشبه العذاب بالمطر المدرار لكثرته حيث أُرْسِل إرسال المطر ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي انظر أيها السامع إلى عاقبة هؤلاء المجرمين كيف كانت؟ وإلى أي شيءٍ صارت؟ هل كانت إلا البوار والهلاك؟! ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً داعياً لهم إلى توحيد الله وعبادته قال «ابن كثير»: ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب «معان» من طريق الحجاز وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره[1] ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي معجزة تدل على صدقي ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به والوزن الذي تزنون به ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تُنْقصوهم إياها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي ما أمرتكم به من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم وترك الفساد في الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين لي في قولي ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي لا تجلسوا بكل طريق تُخوِّفُون من آمن بالقتل قال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ[2] ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي تريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة بمعنى تصويرهم أن دين الله غير مستقيم كما يقول الضالون في هذا الزمان «هذا الدين لا ينطبق مع العقل» لأنه لا يتمشى مع أهوائهم الفاجرة ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي كنتم قلة مستضعفين فأصبحتم كثرة أعزة فاشكروا الله على نعمته ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هذا تهديد لهم أي انظروا ما حلّ بالأمم السابقة حين عصوا الرسل كيف انتقم الله منهم واعْتَبِرُوا بهم ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي إذا كان فريق صدقوني فيما جئتهم به وفريق لم يصدقوني فاصبروا حتى يفصل الله بحكمه العادل بيننا وهو خير الفاصلين قال أبو حيان: هذا الكلام من أحسن ما تلطّف به في المحاورة إذ برز المتحقق في صورة المشكوك وهو من بارع التقسيم فيكون وعدا للمؤمنين بالنصر ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار[3] ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي قال أشراف قومه المستكبرين عن الإيمان بالله ورسله:

(١) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٥٣.
(٢) «البحر» ٤/ ٣٣٨.
(٣) «البحر» ٤/ ٣٤٠.

﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أقسموا على أحد الأمرين: إما إخراج شعيب وأتباعه وإما العودة إلى ملتهم أي إلى الكفر والمعنى لنخرجنك يا شعيب ومن آمن بك من بين أظهرنا أو لترجعن أنت وهم إلى ديننا قال شعيب مجيباً لهم: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في ملتكم ولو كنّا كارهين لذلك؟ والاستفهام للإِنكار ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَا﴾ أي إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه بالإِيمان وبصّرنا بالهدى نكون مختلقين على الله أعظم أنواع الكذب، وهذا تيئيسٌ للكفار من العودة إلى دينهم ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي لا ينبغي ولا يصح لنا أن نعود إلى ملتكم ودينكم إلا إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان فيمضي فينا قضاؤه ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ أي وسع علمه كل الأشياء ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ أي اعتمادنا على الله وهو الكافي لمن توكل عليه ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا ظلم وأنت خير الحاكمين ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة: إذا اتبعتم شعيباً وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذاً لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى قال تعالى ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي فأخذتهم الزلزلة العظيمة فأصبحوا ميّتين جاثمين على الركب ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَا﴾ أي أهلك الله المكذبين كأنهم لم يقيموا في ديارهم مُنَعَّمين ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ إخبارٌ عنهم بالخسار بعد الهلاك والدمار ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ قاله تأسفاً لشدة حزنه عليهم لأنهم لم يتبعوا نصحه ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ أي كيف أحزن على من لا يستحق أن يُحزن عليه قال «الطبري»: أي كيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم(١).

البَلاَغَة: ١ - ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم.

٢ - ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ التنكير للتقليل والتحقير أي لا تمسوها بأدنى سوء.

٣ - ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ الاستفهام للإِنكار والتوبيخ والتشنيع.

٤ - ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يسمى هذا النوع في علم البديع التعريض بما يوهم الذم ولذلك قال ابن عباس: عابوهم بما يُمدح به.

٥ - ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ إظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع وتقديم الجار والمجرور لإِفادة الحصر.

٦ - بين لفظ ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾ و ﴿كَٰفِرُونَ﴾ طباقٌ.

---

(١) «الطبري» ١٢/ ١٥٧.

فَائِدَة: الذي عقر الناقة هو «قُدار بن سالف» وإنما نسب الفعل إليهم جميعاً في قوله تعالى ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾ لأنه كان برضاهم وأمرهم، والراضي بالعمل القبيح شريك في الجريمة.

قال الله تعالى:

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ
بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ
لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ
فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ
ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا
لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ
مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾
يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾
قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾
فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ
مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ
إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا
مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ
قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ
وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن
قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي

﴿ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٢٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصص الأنبياء (نوح، هود، صالح، لوط، شعيب) وما حلَّ بأقوامهم من العذاب والنكال حين لم تُجْدِ[1] «فيهم الموعظة»، ذكر تعالى هنا سنته الإلهية في الانتقام ممن كذّب أنبياءه وذلك بالتدرج معهم بالبأساء والضراء، ثم بالنعمة والرخاء، ثم بالبطش بهم إن لم يؤمنوا ثم أعقب ذلك بقصة موسى مع الطاغية فرعون وفيها كثير من العبر والعظات.

اللغة: ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ شدة الفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الضرُّ والمرض ﴿عَفَوا۟﴾ كثروا ونموا ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أشراف قومه ﴿أَرْجِهْ﴾ أخِّرْ ﴿صَٰغِرِينَ﴾ أذلاء ﴿تَلْقَفُ﴾ تبتلع وتلتقم ﴿يَأْفِكُونَ﴾ الإفك: الكذب ﴿أَفْرِغْ﴾ الإفراغ: الصبُّ أي اصببه علينا.

«التفسير»: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ في الكلام حذف أي وما أرسلنا في قرية من نبي فكذبه أهلها ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي عاقبناهم بالبؤس والفقر، والمرض وسوء الحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي ثم أبدلناهم بالفقر والمرض، الغنى والصحة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي حتى كثروا ونموا ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي أبْطرَتْهم النعمة وأشروا فقالوا كفرانًا لها: هذه عادة الدهر وقد مسّ آباءنا مثل ذلك من المصائب ومن الرخاء وليست بعقوبة من الله فلنبق على ديننا، والغرضُ أن الله ابتلاهم بالسيئة لينيبوا إليه فما فعلوا، ثم بالحسنة ليشكروا فما فعلوا، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ولهذا قال تعالى ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأةً من حيث لا يدرون ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي ولو أن أهل تلك القرى الذين كَذَّبوا وأُهلكوا آمنوا بالله ورسله واتقوا الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لوسّعنا عليهم الخير من كل جانب وقيل: بركاتُ السماء المطرُ، وبركات الأرض الثمارُ، قال السدي: فتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق[2] ﴿وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي ولكنْ كذّبوا الرسل فعاقبناهم بالهلاك بسوء كسبهم ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ الهمزة للإنكار أي هل أمن هؤلاء المكذبون أن يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون غافلون عنه؟ ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ؟ أم هل أمنوا أن يأتيهم عذابنا ونكالنا نهارًا جهارًا وهم يلهون ويشتغلون بما لا يُجدي كأنهم يلعبون؟ ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي أفأمنوا استدراجه إياهم بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم؟ فإنه لا يأمن ذلك إلا القوم الذين خسروا عقولهم وإنسانيتهم فصاروا أخسَّ من البهائم قال

---

(١) (ش): أجْدَى الشَّيءُ: نَفَعَ.
(٢) «البحر» ٤/ ٣٤٨.

الحسن البصري: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفقٌ خائفٌ وجلٌ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن[١] ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي أولم يتضح ويتبيّن للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم، والمراد بها كفار مكة ومن حولهم ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا مَن قبلَهم قال في «البحر»: أي قد علمتم ما حلّ بهم أفما تحذرون أن يحل بكم ما حلّ بهم فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا[٢] ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظةً ولا تذكيرًا سماع مُنْتَفِع بهما ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ أي تلك القرى المذكورة نقصُّ عليك يا محمد بعض أخبارها وما حصل لأهلها من الخسف والرجفة والرجم بالحجارة ليعتبر بذلك من يسمع وما حدث أهولُ وأفظع ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم بالمعجزات والحجج القاطعات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعد مجيئهم بها فحالهم واحد في العتو والضلال قال الزمخشري: أي استمروا على التكذيب من لدنْ مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مُصِرِّين لا يَرْعَوُون[٣] مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات[٤] ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين فلا يكاد يؤثر فيهم النُّذر والآيات، وفيه تحذير للسامعين ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء للعهد بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامتثال قال «ابن كثير»: والعهد الذي أخذه هو ما فطرهم عليه وأخذه عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم فخالفوه وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع[٥] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم موسى بن عمران بالمعجزات الباهرات والحجج الساطعات ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أرسلناه إلى فرعون - ملك مصر في زمن موسى - وقومه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كفروا وجحدوا بها ظلمًا وعناداً ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر أيها السامع ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين كيف أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغُ في النكال لأعداء الله، وأشفى لقلوب أولياء الله ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي إني رسولٌ إليك

---

(١) «ابن كثير» ٢/ ٣٨ «المختصر».
(٢) «البحر» ٤/ ٣٥٠.
(٣) (ش): ارعوى الشَّخصُ عن غَيِّه: كَفَّ عنه وارْتَدَع.
(٤) «الكشاف» ٢/ ١٣٥.
(٥) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٣٩٠.

من الخالق العظيم رب كل شيء وخالقه ومليكه ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي جديرٌ بي وحقٌ عليَّ أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حقٌّ وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي جئتكم بحجة قاطعة من الله تشهد على صِدْقي فَخَلِّ واترُكْ سبيل بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطنُ آبائهم[١]. قال أبو حيان: ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى بقوله ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لينبهه على الوصف الذي ادعاه وأنه فيه مبطلٌ لا محقٌّ، ولما كان قوله ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أردفها بما يدل على صحتها وهو قوله ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولما قرّر رسالته فرَّع عليها تبليغ الحكم وهو قوله ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٢] ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي قال فرعون لموسى: إن كنت جئت بآية من ربك كما تدّعي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك، قال ذلك على سبيل التعجيز لموسى ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي فإذا بها حية ضخمة طويلة قال ابن عباس: تحولت إلى حية عظيمة فاغرة فَاهَا[٣] مسرعةً نحو فرعون ﴿مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر لا متخيَّل ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي أخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً عجيباً يغلب نورها نور الشمس. قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي قال الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته: إن هذا عالمٌ بالسحر ماهرٌ فيه، وقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بالغٌ الغاية في علم السحر وخدعه وفنونه ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي يخرجكم من أرض مصر بسحره ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي بأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره؟ وبأي شيء تشيرون فيه؟ قال «القرطبي»: قال فرعون: فماذا تأمرون. وقيل: هو من قول الملأ أي قالوا لفرعون وحده ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ كما يُخاطب الجبارون والرؤساء: ما ترون في كذا ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي أخِّر أمرهما حتى ترى رأيك فيهما وأرسلْ في أنحاء البلاد من يجمع لك السحرة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي يأتوك بكل ساحرٍ مثله ماهر في السحر، وكان رؤساء السحرة بأقصى صعيد مصر ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[٤] في الكلام محذوفٌ يدل عليه السياق وهو أنه بعث إلى السحرة وطلب أن

---

(١) قال المفسرون: كان سبب سكن بني إسرائيل بمصر مع أن أباهم كان بالأرض المقدسة أن الأسباط. أولاد يعقوب. جاءوا مصر إلى أخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر فلما ظهر فرعون استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة فأحب موسى أن يخلصهم من هذا الأسر ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم.

(٢) «البحر» ٤/ ٣٥٥.

(٣) (ش): فَاهَا: فمها. فغَر فمَه: فتحه.

(٤) «القرطبي» ٧/ ٢٥٧.

يُجْمَعُوا له فلما جاءوا فرعون قالوا: إنَّ لنا لأجراً عظيماً إن نحن غلبنا موسى وهزمناه وأبطلنا سحره؟ ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي قال فرعون: نعم لكم الأجر وأزيدكم على ذلك بأن أجعلكم من المقربين أي من أعزّ خاصتي وأهل مشورتي قال «القرطبي»: زادهم على ما طلبوا ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ أي قال السحرة لموسى: اختر إمّا أن تُلقي عصاك أو نلقي نحن عِصِيَّنا. قال الزمخشري: تخييرهم إيّاه أدبٌ حسن كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يخوضوا في الجدال[1] هذا ما قاله الزمخشري، والأظهر أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس وتوهم الغلبة وعدم الاكتراث بأمر موسى كما يقول المعتد بنفسه: أَبْدَأُ أو تَبْدَأُ ﴿ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا العصيّ والحبال سحروا أعين الناس أي خيلوا إليهم ما لا حقيقة له كما قال تعالى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ أي أفزعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً حيث خيلوها حياتٍ تسعى وجاءوا بسحر عظيم يهابه من رآه قال ابن اسحاق: صُفَّ خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحرٍ حبالُه وعصيُّه وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى رجل منهم ما في يده من العصيّ والحبال فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً[2] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي أوحينا إليه بأن ألق عصاك فألقاها فإذا هي تبتلع بسرعةٍ ما يُزَوِّرونه من الكذب قال ابن عباس ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ لا تمر بشيء من حبالهم وخشبهم التي ألقوها إلا التقمته ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ثبت وظهر الحق لمن شهده وحضره، وبطل إفك السحر وكذبه ومخايله ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ أي غُلب فرعونُ وقومهُ في ذلك المجمع العظيم وصاروا ذليلين ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ أي خرّوا ساجدين معلنين إيمانهم بربّ العالمين لأن الحق بهرهم قال قتادة: كانوا أول النهار كفاراً سحرة وفي آخره شهداء بررة[3] ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي قال فرعون الجبار للسحرة: آمنتم بموسى قبل أن تستأذنوني؟ والمقصود بالجملة التوبيخ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي صنيعكم هذا حيلةٌ احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد لتخرجوا منها القبط وتسكنوا بني إسرائيل، قال هذا تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف

---

(١) «الكشاف» ٢/ ١٤٠.

(٢) «الطبري» ١٣/ ٢٨.

(٣) «البحر المحيط» ٤/ ٣٦٤.

تعلمون ما يحلُّ بكم، وهذا وعيد وتهديد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقّبه بالتفصيل فقال ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم ﴾ أي لأقطعنَّ من كل واحد منكم يده ورجله من خلاف قال «الطبري»: ومعنى ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى فيخالف بين العضوين في القطع[١] ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ثم أصلبكم جميعاً تنكيلاً لكم ولأمثالكم، والصلب التعليق على الخشب حتى الموت ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ إنّا راجعون إلى الله بالموت لا محالة فلا نخاف مما تتوعدنا به ولا نبالي بالموت وحبذا الموت في سبيل الله ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ أي ما تكره منا ولا تعيب علينا إلا إيماننا بالله وآياته!!

كقوله ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله العزيز الحميد﴾[البروج:٨] قال الزمخشري: أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان[٢] ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي أفض علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب فرعون إيانا وتوفنا على ملة الإسلام غير مفتونين ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي قال الأشراف لفرعون: أتترك موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض بالخروج عن دينك وترك عبادة آلهتك!! وفي هذا إغراءٌ لفرعون بموسى وقومه وتحريضٌ له على قتلهم وتعذيبهم ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أي قال فرعون مجيباً لهم: سنقتل أبناءهم الذكور ونستبقي نساءهم للاستخدام كما كنا نفعل بهم ذلك وإنّا عالون فوقهم بالقهر والسلطان ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ أي قال موسى لقومه تسليةً لهم حين تضجروا مما سمعوا: استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما ينالكم من أذاهم واصبروا على حكم الله ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي الأرض كلها لله يعطيها من أراد من عباده، أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي النتيجة المحمودة لمن اتقى الله ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي أوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعدما جئتنا بها يعنون أن المحنة لم تفارقهم فهم في العذاب والبلاء قبل بعثة موسى وبعد بعثته ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لعل ربكم أن يهلك فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم وينظر كيف تعملون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد، والغرضُ تحريضهم على طاعة الله، وقد حقق الله رجاء موسى فأغرق فرعون وملّك بن إسرائيل أرض مصر قال في «البحر»: سلك موسى طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء[٣].

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٣٤.

(٢) «الكشاف» ٤/ ٣٦٩.

(٣) «البحر المحيط» ٤/ ٣٦٩.

البَلَاغَة: ١ - ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباقٌ وكذلك بين لفظ ﴿ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ .

٢ - ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شبّه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول فهو من باب الاستعارة أي وسعنا عليهم الخير من جميع الأطراف.

٣ - ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ تكررت الجملة والغرض منها الإنذار ويسمى هذا في علم البلاغة الإطناب ومثلها ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قال «أبو السعود»: تكريرٌ للنكير لزيادة التقرير، ومكرُ الله استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب[١].

٤ - ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أكد الجملة بإن واللام لإزالة الشك من نفوس السحرة ويسمى هذا النوع من أَضْرُب[٢] الخبر إنكاريًا.

٥ - ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ فيه استعارة استعير الوقع للثبوت والحصول والله أعلم.

تنبيه: لما عجز فرعون عن دفع الحجة بالبرهان عدل إلى البطش والفتك بالسنان، وهكذا

(١) «أبو السعود» ٢/ ١٨٤. (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل .والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفًا مطلقًا ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . إلخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة. . إلخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، ويمكن أن تكون نقصًا، على حسب الحال التي تُذكر فيها. فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصًا لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء. فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كمالاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالاً في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفًا مطلقًا. لأنه حينئذٍ لا يكون كمالاً. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾. وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾. وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحًا سيئًا لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

(٢) (ش): أنواع، ضَرْب: نوع وصنف، والجمع أَضْرُب وضُروب.

حال كل ضال مبتدع إذا أعيته الحجة مال إلى التهديد والوعيد.

قال الله تعالى:

وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ
ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ
﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ
لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ
إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ
كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا
كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ
يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم
مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم
بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ
أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾
وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ
ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ
سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي
وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ
وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ
عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ
ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا
غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ
وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ
قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

المناسَبة: لما كان قصة الكليم مع الطاغية فرعون مملوءة بالعبر والعظات لذلك استطردت

الآيات في الحديث عنهم فتحدثت عمّا حلَّ بقوم فرعون من البلايا والنكبات، وما ابتلاهم الله به من القحط والجدب، والطوفان والجراد وغير ذلك من المصائب نتيجة إِصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله، ثم ذكرت أنواع النعم التي أنعم الله بها على بني إِسرائيل ومن أعظمها إِهلاك عدوهم وقطعهم «البحر» مع السلامة والأمان.

اللغَة: ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ جمع سَنَة وهي الجدبُ والقحطُ ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ يتشاءموا والأصل يتطيّروا مأخوذٌ من الطِّيرة وهي زجر الطير ثم استعمل في التشاؤم ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ السيل المتلف المدمِّر ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ السوس وهي حشرات صغيرة تكون في الحنطة وغيرها تفسد الحبوب ﴿ٱلرِّجْزُ﴾ العذاب، والرجس بالسين: النجس وقد يستعمل بمعنى العذاب ﴿ٱلْيَمِّ﴾ «البحر» ﴿يَعْكُفُونَ﴾ عكف على الشيء أقام عليه ولزمه ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلكٌ والتبار: الهلاك ﴿صَعِقًا﴾ مغشيًّا عليه يقال: صَعِق الرجل إِذا أُغمي عليه.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد ابتلينا واختبرنا فرعون وأتباعه بالجدب والقحط ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي وابتليناهم بإِذهاب الثمار من كثرة الآفات قال المفسرون: كانت النخلة لا تحمل إِلا ثمرة واحدة[(١)] ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون وترقُّ قلوبهم فإِن الشدة تجلب الإِنابة والخشية ورقة القلب، ثم بيّن تعالى أنهم مع تلك المحن والشدائد لم يزدادوا إِلا تمرداً وكفراً فقال ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي إِذا جاءهم الخِصْب والرّخاء قالوا هذه لنا وبسعدنا ونحن مستحقون لذلك ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي وإِذا جاءهم الجدب والشدة تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين. أي: قالوا: هذا بشؤمهم قال تعالى ردًّا عليهم ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي إِن ما يصيبهم من خير أو شر بتقدير الله وليس بشؤم موسى قال ابن عباس: الأمر من قِبَل الله ليس شؤمهم إِلاّ من قِبَله وحكمه[(٢)] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن ما لحقهم من القحط والشدائد من عند الله بسبب معاصيهم لا من عند موسى ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي قال قوم فرعون لموسى: أي شيء تأتينا به يا موسى من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك قال الزمخشري: فإِن قلت كيف سموها آية ثم قالوا ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ قلت: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية وإِنما قصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي[(٣)] قال تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ أي أرسلنا عليهم المطر الشديد حتى عاموا فيه وكادوا يهلكون قال ابن عباس: الطوفان كثرة الأمطار المغرقة

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٤٦.

(٢) «روح المعاني» ٩/ ٣٢. (ش): أي إنَّ ما يصيبهم من الجدب والقحط إنما هو بقضاء الله وقدره، وبسبب ذنوبهم وكفرهم.

(٣) «الكشاف» ٢/ ١٤٦.

المتلفة للزروع والثمار[1] ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ أي وأرسلنا عليهم كذلك الجراد فأكل زروعهم وثمارهم حتى أكل ثيابهم ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ وهو السوس حتى نخر حبوبهم وتتّبع ما تركه الجراد وقيل: هو القمل المشهور كان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصه ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ جمع ضُفْدُع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم وإذا تكلم أحدهم وثبت الضُفْدُع إلى فمه ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي صارت مياههم دماً فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دماً ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي علامات ظاهرات فيها عبرٌ وعظاتٌ ومع ذلك استكبروا عن الإيمان ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي استكبروا عن الإيمان بها لغلوهم في الإجرام ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي وحين نزل بهم العذاب المذكور ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء بحق ما أكرمك به من النبوة قال الزمخشري: أي أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة[2] ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اللام لام القسم أي والله لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه يا موسى لَنُصَدِّقَنَّ بما جئت به ولنطلقنَّ سراح بني إسرائيل، وقد كانوا يستخدمونهم في أرذل الأعمال ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي فلما كشفنا بدعاء موسى عنهم العذاب إلى حدٍّ من الزمان هم واصلون إليه ولا بدَّ قال ابن عباس: هو وقت الغَرق ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي إذا هم ينقضون عهودهم ويصرّون على الكفر ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي فانتقمنا منهم بالإغراق في «البحر» ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها وعدم مبالاتهم بها ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ أي وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يُستذلون بالخدمة أرض الشام وملّكناهم جميع جهاتها ونواحيها: مشارقها ومغاربها ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخيرات وكثرة الثمرات ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي تمَّ وعد الله الصادق بالتمكين لبني إسرائيل في الأرض ونصره إياهم على عدوهم قال «الطبري»: وكلمتُه الحسنى هي قوله جل ثناؤه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص: ٥] الآية[3] ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بسبب صبرهم على الأذى ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ أي خرّبنا ودمّرنا القصور والعمارات التي كان يشيدها فرعون وجماعته وما كانوا يعرشون من الجنّات والمزارع. وإلى هنا تنتهي قصة فرعون وقومه ويبتدئ الحديث عن بني إسرائيل وما أغدق الله عليهم من النعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام، تسليةً لرسوله عَلَيْهِ

(١) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٤٥.
(٢) «الكشاف» ٢/ ١٤٨.
(٣) «الطبري» ١٣/ ٧٧.

الصَّلَاة وَالسَّلَامُ مما رآه منهم قال تعالى ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي عبرنا ببني إسرائيل «البحر» وهو بحر القُلْزم عند خليج السويس الآن ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ أي مروا على قوم يلازمون على عبادة أصنام لهم ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أي اجعل لنا صنماً نعبده كما لهم أصنام يعبدونها قال ابن عطية: الظاهر أنهم استحسنوا ما رأَوْا فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يُتقرب به إلى الله وإلا فبعيدٌ أن يقولوا لموسى اجعل لنا إلهاً نُفْرِدُه بالعبادة [١] ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي إنكم قوم تجهلون عظمة الله وما يجب أن ينزّه عنه من الشريك والنظير قال الزمخشري: تعجَّبَ من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكّده، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع [٢] ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي هالك مدمَّر ما هم فيه من الدين الباطل وهو عبادة الأصنام ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي باطل عملهم مضمحلٌ بالكلية لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أأطلب لكم معبوداً غير الله المستحق للعبادة والحال أنَّ الله فضَّلكم على غيركم بالنعم الجليلة! قال «الطبري»: فضلَّكم على عالمي دهركم وزمانكم [٣] ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل النعم التي سلفت مني إليكم حين أنجيتكم من قوم فرعون يذيقونكم أفظع أنواع العذاب وأسوأه ثم فسره بقوله ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث لامتهانهن في الخدمة ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي هذا العذاب اختبار وابتلاء من الله لكم عظيم فنجاكم منه أفلا تشكرونه؟ ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي واعدنا موسى لمناجاتنا بعد مضي ثلاثين ليلة وأكملناها بعشر ليالٍ فتمت المناجاة بعد أربعين ليلة قال الزمخشري: روي أن موسى وعد بني إسرائيل وهو بمصر إنْ أهْلَكَ اللهُ عَدُوَّهم أتاهم بكتابٍ من عند الله فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما أتمَّ الثلاثين أنكر خلوف فمه «تغير رائحته» فتسوّك فأوحى الله تعالى إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك. فأمره تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة [٤] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

---

(١) «البحر» ٤/ ٣٨٧. (ش): تكملة كلام ابن عطية: اجعل لنا إلهاً نُفْرِدُه بالعبادة ونكفر بربك.

(٢) «الكشاف» ٢/ ١٥٠.

(٣) «الطبري» ١٣/ ٨٤.

(٤) «الكشاف» ٢/ ١٥١.

﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وأصلح أمرهم ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم لله ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي ولما جاء موسى للوقت الذي وعدناه فيه وناجاه ربه وكَلَّمَهُ من غير واسطة ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي أرني ذاتك المقدسة أنظر إليها قال «القرطبي»: اشتاق إلى رؤية ربه لما أسمعه كلامه فسأل النظر إليه[1] ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ أي أجابه ربه لن تستطيع رؤيتي في الدنيا فإن هذه البنية البشرية لا طاقة لها بذلك ولكنْ سأتجلّى لما هو أقوى منك وهو الجبل فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسوف تراني أي تثبت لرؤيتي وإلاّ فلا طاقة لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي فلما ظهر من نور الله قدر نصف أنملة الخنصر أندك الجبل وتفتّت وسقط موسى مغشيًّا عليه[2] من هول ما رأى قال ابن عباس: ما تجلّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فصار تراباً وخرَّ موسى مغشيًّا عليه وفي الحديث: فساخ الجبل[3] ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فلما صحا من غشيته قال تنزيهاً لك يا رب وتبرئة أن يراك أحدٌ في الدنيا تبتُ إليك من سؤالي رؤيتك في الدنيا وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ أي اخترتك على أهل زمانك بالرسالة الإلهية وبتكليمي إياك بدون واسطة ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم قال «أبو السعود»: والآية مسوقة لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل: إن مَنَعْتُكَ الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحداً من العالمين فاغتنمها وثابرْ على شكرها[4] ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام مبيّنة للحلال والحرام كلُّ ذلك في ألواح التوراة ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي ليتعظوا بها ويزدجروا وتفصيلاً لكل التكاليف الشرعية ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي خذ التوراة بجدٍّ واجتهادٍ شأن أولي العزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي وأمر بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل كالأخذ بالعزائم دون الرخص فالعفو أفضل من القصاص، والصبر أفضل من الانتصار كما قال تعالى ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] قال ابن عباس: أُمر موسى أن يأخذها

---

(١) «القرطبي» ٧/ ٢٧٨.

(٢) «الطبري» ١٣/ ٩٧.

(٣) (ش): عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قَالَ حَمَّادٌ هَكَذَا وَأَمْسَكَ سُلَيْمَانُ بِطَرَفِ إِبْهَامِهِ عَلَى أَنْمُلَةِ إِصْبَعِهِ الْيُمْنَى قَالَ: فَسَاخَ الْجَبَلُ ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾. [رواه الترمذي، وصححه الألباني]. ساخَ: انْخَسَفَ وغَاصَ.

(٤) «أبو السعود» ٢/ ١٩٥.

بأشدّ مما أُمر به قومه[1] ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي سترون منازل الفاسقين - فرعون وقومه- كيف أقفرت منهم ودُمِّر لفسقهم لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم، فإن رؤيتها وهي خالية عن أهلها موجبة للاعتبار والانزجار ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي سأمنع المتكبرين عن فهم آياتي فلا يتفكرون) ولا يتدبرون بما فيها، وأطمس على قلوبهم عقوبةً لهم على تكبرهم قال الزمخشري: وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يُصرفون عن آيات الله لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم[2] ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية من الآيات المنزلة عليهم أو يرَوْا كل معجزة ربانية لا يصدقوا بها ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي وإن يروا طريق الهدى والفلاح لا يسلكوه ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه كقوله ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ذلك الانحراف عن هَدْي الله وشرعه بسبب تكذيبهم بآيات الله ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي وغفلتهم عن الآيات التي بها سعادتهم حيث لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي جحدوا بما أنزل الله ﴿وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي وكذبوا بلقاء الله في الآخرة أي لم يؤمنوا بالبعث بعد الموت ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي بطلت أعمالهم الخيرية التي عملوها في الدنيا من إحسانٍ وصلة رحم وصدقة وأمثالها وذهب ثوابها لعدم الإيمان ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي هل يُثابون أو يعاقبون إلا بما عملوا في الدنيا؟ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ قال الحافظ «ابن كثير»: يخبر تعالى عن ضلال من ضلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامريُّ من الحليّ، فشكّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع له خُوار أي صوتٌ كصوت البقر[3] ومعنى ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهـًا مع أنه ليس فيه شيء من صفات الخالق الرازق، فإنه لا يملك قدرة الكلام ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة فكيف يتخذ إلهـًا؟ ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أي عبدوا العجل واتخذوه إلهـًا فكانوا ظالمين لأنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير موضعها، وتكرير لفظ ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ لمزيد التشنيع عليهم ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ندموا على جنايتهم واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ أي تبينوا ضلالَهم تَبْيِينًا جليًا كأنهم

---

(١) «الطبري» ١٣/ ١١٠.

(٢) «الكشاف» ٢/ ١٥٩.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٥١.

أبصروه بعيونهم ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ أي لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي لتكوننَّ من الهالكين قال «ابن كثير»: وهذا اعترافٌ منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ[1].

البَلَاغَة: ١ - ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباق كما أن بين لفظ ﴿طَـٰٓئِرُهُمْ﴾ و ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ عدل عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب ومثله ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ والأصل ما صنعوا وما عرشوا.

٣ - ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أتى بلفظ (تجهلون) ولم يقل: (جهلتم) إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا مستقبل[2].

٤ - ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الحض على نهج سبيل الصالحين، والأصل أن يقال: سأريهم.

٥ - ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا من باب الكناية فهو كناية عن شدة الندم لأن النادم يَعَضُّ على يده غمًّا.

٦ - بين لفظ ﴿مَشَـٰرِقَ﴾ و ﴿مَغَـٰرِبَ﴾ طباقٌ.

تنبيه: مذهب أهل السنة قاطبة أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنكرت المعتزلة ذلك واستدلوا بالآية الكريمة ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وليس لهم في هذه الآية متمسك بل هي دليلٌ لأهل السنة والجماعة على إمكان الرؤية، لأنها لو كانت مُحالاً لم يسألها موسى فإن الأنبياء عليهم السلام يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل، ولو كانت الرؤية مستحيلة لكان في الجواب زجرٌ وإغلاظ كما قال تعالى لنوح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا لضعف البنية البشرية عن ذلك قال مجاهد: إن الله قال لموسى: لن تراني، لأنك لا تطيق ذلك ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد، فإن استقر وأطاق الصبر لِهَيْبَتِي أَمْكَنَ أن تراني أنتَ، وإن لم يُطِق الجبل فأحرى ألاّ تطيق أنت، فعلى هذا جعل الله الجبل مثالاً لموسى ولم يجعل الرؤية مستحيلة على الإطلاق، وقد صرح بوقوع الرؤية في الآخرة كتابُ الله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] فلا ينكرها إلا مبتدع.

فَائِدَة: لما سمع الكليم موسى كلام الله اشتاق إلى رؤيته، لأن التلذذ بسماع كلام الحبيب

(١) «المختصر» ٢/ ٥١.

(٢) أفاده صاحب «البحر» ٤/ ٣٧٨.

يزيد في الشوق إليه والحنين وقد أحسن مَن قال:

وَأَفْــرَحُ مَـا يَـكُـونُ الـشَّـوْقُ يومًا إِذَا دَنَــتِ الــدِّيَــارُ مِــنَ الــدِّيَـارِ

لطيفَة: السعادة والشقاوة بيد الله فموسى بن عمران ربّاه فرعون فكان مؤمنـًا، وموسى السامري ربّاه جبريل وكان كافراً، فلم تنفع تربية الأمين لموسى السامري، ولم تضر تربية اللعين لموسى الكليم عليه السلام، وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُخلَقْ سَعِيداً مِنَ الأَزَلِ فَقَدْ خَابَ مَنْ رَبَّى وَخَابَ المُؤَمَّلُ

فَمُوسَى الَّـذِي رَبَّـاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ(١)

قال الله تعالى:

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى
ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ
بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ
وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ
لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ
أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن
تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى
ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ
ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ
فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾
قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ

(١) (ش): لا شك أن نبي الله موسى عليه السلام قد تربى في بيت فرعون، وقصته وردت في مواطن كثيرة من القرآن، وجاءت في الأحاديث الصحيحة، وأما موسى السامري فقد ورد في كتب القصص والتاريخ أن السامري ولد في السنة التي يقتل فيها البنون ، فوضعَتْه أمه في كهف خوفًا عليه ، فبعث الله إليه جبريل ليربيه ويغذّيه، وهذه الروايات لا تثبت، فلا يُعَوَّل عليها.

أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ
مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ
وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ
﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ
ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ
﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ
حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ
يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً
إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾
وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ
وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ
وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ
عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

المناسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وما أغدق الله عليهم من النعم، وما قابلوها به من الجحود والعصيان، وقد ذكرت الآيات قصة واعتداءهم يوم السبت بالاصطياد فيه وكيف أن الله تعالى مسخهم قردة، وفي ذلك عبرة للمعتبرين.

اللغَة: ﴿أَسِفًا﴾ الأسف: شدة الحزن أو الغضب يقال هو أسِفٌ وأسيف ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾ أصلها ابن أمي وهي استعطاف ولين ﴿تُشۡمِتۡ﴾ الشماتة: السرور بما يصيب الإنسان من مكروه وفي الحديث «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ **شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ**»[1] ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿هُدۡنَآ﴾ تُبنا يقال: هاد يهودُ إذا تاب ورجع فهو هائد قال الشاعر: إِنِّي امْرُؤٌ مِمَّا جَنَيْتُ هَائِدُ ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾ التكاليف الشاقة وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه عن الحِرَاك ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾ جمع غُل وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وقّروه ونصروه ﴿أَسۡبَاطًا﴾ جمع سبط وهو

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

ولد الولد أو ولد البنت ثم أطلق على كل قبيلة من بني إسرائيل ﴿تَأَذَّنَ﴾ آذَنَ من الإيذان بمعنى الإعلام ﴿يَسُومُهُمْ﴾ يذيقهم ﴿خَلْفٌ﴾ بسكون اللام من يخلف غيره بالسوء والشر وأمّا بفتح اللام من فهو يخلف غيره بالخير ومنه قولهم: «جعلك الله خير خلف لخير سلف»

«التفسير»: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ أي ولما رجع موسى من المناجاة ﴿غَضْبَٰنَ﴾ مما فعلوه من عبادة العجل ﴿أَسِفًا﴾ أي شديد الحزن ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ أي بئس ما فعلتموه بعد غيبتي حيث عبدتم العجل ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور؟ والاستفهام للإنكار ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ أي طرح الألواح لما عَرَاه[1] من شدة الغضب، وفرط الضجر غضباً لله من عبادة العجل[2]، وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظنّاً منه أنه قصَّر في كفهم عن ذلك وكان عليه السلام شديد الغضب لله سبحانه قال ابن عباس: لما عاين قومه وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح فكسرها غضباً لله وأخذ برأس أخيه يجره إليه[3] ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾ أي قال هارون يا بن أمي - وهو نداء استعطاف وترفق[4]- إن القوم استذلوني وقهروني وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك فأنا لم أقصر في نصحهم ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تُسِئْ إليَّ حتى يُسَرَّ الأعداء بي ويشمتوا بإهانتك إليَّ ولا تجعلني في عداد الظالمين بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير قال مجاهد: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين عبدوا العجل ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾

(١) (ش): عَرَاه: اعتراه؛ أصابه، أَلَمَّ به، لحِق به.

(٢) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَى الْأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ» [رَوَاهُ أَحْمَدُ، وصحّحه الألباني].

إلقاء الألواح لا يقتضي إهانتها، ولا إهانة كلام الله تعالى، وحاشا لنبي من الأنبياء أن يستهين بكلام الله، وكيف يستهين به وهو الذي يبلغه ويدعو إلى تعظيمه فهو أولى بالتعظيم له من غيره؛ ولكنه عندما رأى قومه على ما رأى من عبادة العجل غضب غضبًا شديدًا، فعجل بوضع الألواح تفظيعًا لفِعْل قومه. فليس في الأمر إلا العجلة في الوضع الناشئ من الغيرة لله كما هو واضح من حديث الرسول ﷺ أن موسى عليه السلام طرح الألواح مِن هَوْل ما رأى غفلةً عنها وليس ضجرًا بها أو ازدراءً أو تحقيرًا لها أو تبرمًا بها.

وكلمة (ألقي) في اللغة لا تستلزم الإزدراء أو الضجر أو عدم التوقير وإهدار الحرمة لقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وما جاء من أن بعض الألواح قد انكسرت، فلم يكن قَصْدُ موسى عليه السلام أن تنكسر، فما حدث هو أن الغضب أذهله عليه السلام عن الألواح، ولما ذهب عنه الغضب أخذها موقرًا لها حريصًا عليها لما فيها من الهدي والرحمة، ولأنه تلقاها من ربّه عز وجل الذي غضب لانتهاك حرمته؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]

(٣) «الطبري» ١٣/ ١٢٣.

(٤) قال «ابن كثير»: وإنما قال: «ابنَ أمَّ» ليكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لما تحقق لموسى براءة ساحة هارون عليه السلام من التقصير طلب عند ذلك المغفرة له ولأخيه فقال ﴿اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ الآية قال الزمخشري: استغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه مما عسى أن يكون فرط منه في حين الخلافة، وطلب ألاّ يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة[1] ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إن الذين عبدوا العجل - ذَكَر البقر - واتخذوه إلهـاً سيصيبهم غضب شديد من الرحمن، وينالهم في الدنيا الذل والهوان قال «ابن كثير»: أما الغضب الذي نال بني إسرائيل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتلَ بعضُهم بعضـاً، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلّاً وصَغاراً في الحياة الدنيا[2] ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افترى الكذب على الله قال سفيان بن عُيينة: كلُّ صاحب بدعة ذليل[3] ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ أي عملوا القبائح والمعاصي ثم تابوا ورجعوا إلى الله من بعد اقترافها وداموا على إيمانهم وأخلصوا فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إنَّ ربك يا محمد من بعد تلك التوبة لغفور لذنوبهم رحيم بهم قال الألوسي: وفي الآية إعلامٌ بأنَّ الذنوب وإن جَلَّتْ وعَظُمَت فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجلُّ، وما ألطف قول أبي نواس غفر الله تعالى له:

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ ... فَبِمَنْ يَلُوذُ وَيَسْتَجِيرُ المُجْرِمُ[4]

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أي سكن غضب موسى على أخيه وقومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ أي ألواح التوراة التي كان ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي وفيما نُسخ فيها وكُتب هداية للحق ورحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدارين ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي هذه الرحمة للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ أي اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ممن لم يعبدوا العجل للوقت الذي وعده ربه الإتيان للاعتذار عن عبادة العجل ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي فلما رجف بهم الجبل وصعقوا ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ أي قال موسى على وجه التضرع والإستسلام لأمر الله: لو شئت يا ربِّ أن تهلكنا قبل ذلك لفعلتَ فإنَّا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ ؟ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل

(١) «الكشاف» ٢/ ١٦٢.
(٢) «المختصر» ٢/ ٥٢.
(٣) «الطبري» ١٣/ ١٣٦.
(٤) «روح المعاني» ٩/ ٧٠.

هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]؟ والاستفهام استعطاف وتذلل فكأنه يقول: لا تعذبنا يا ألله بذنوب غيرنا قال «الطبري» في رواية السدي: إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناسٍ من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم لو شئت أهلكتَهم من قبل وإياي»[١] أقول: إذا كان هذا قول الأخيار من بني إسرائيل فكيف حال الأشرار منهم؟ نعوذ بالله من خبث اليهود ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محنتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي تُضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله وتَهْدي من تشاء هدايته ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ أي أنت يا رب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ أي أنت خيرُ مَن صَفَحَ وسَتَرَ، تغْفِر السيئةَ وتُبَدِّلها بالحسنة ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هذا من جملة دعاء موسى عليه السلام أي حقّقْ وأثبتْ لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي قال تعالى: أما عذابي فأصيب به من أشاء من عبادي وأما رحمتي فقد عمَّتْ خلقي كلهم قال «أبو السعود»: وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذانٌ بأن الرحمة مقتضى الذات، وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد[٢] ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي سأجعل هذه الرحمة خاصة في الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصي ويعطون زكاة أموالهم ويصدّقون بجميع الكتب والأنبياء ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ أي هؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداً ﷺ النبيَّ العربي الأمي أي الذي لا يقرأ ولا يكتب قال «البيضاوي»: وإنما سمّاه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى، ونبيًّا بالإضافة إلى العباد[٣] ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ أي الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل قال «ابن كثير»: هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثته وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم[٤] ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

(١) «الطبري» ١٣/ ١٤٠.
(٢) «أبو السعود» ٢/ ٢٠١.
(٣) «البيضاوي» ص ٢.
(٤) «المختصر» ٢/ ٥٥.

﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي لا يأمر إلا بكل شيء مستحسن ولا ينهى إلا عن كل شيء قبيح ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ أي يحل لهم ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة بشؤم ظلمهم ويُحرّم عليهم ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي تشبه الأغلال كقتل النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة من الثوب والقصاص من القاتل عمداً كان القتل أو خطأً وشبه ذلك ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي فالذين صدقوا بمحمد وعظّموه ووقّروه ونصروا دينه ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي واتبعوا قرآنه المنير وشرعه المجيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون بالسعادة السرمدية ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ هذا بيان لعموم رسالته ﷺ لجميع الخلق أي قل يا محمد للناس: إني رسولٌ من عند الله إلى جميع أهل الأرض ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي المالك لجميع الكائنات ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي لا ربَّ ولا معبود سواه[1] فهو الإله القادر على الإحياء والإفناء ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي صدّقوا بآيات الله وصدقوا برسوله المبعوث إلى جميع خلقه ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي آمنوا بالنبي الأمي صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره رجاء اهتدائكم إلى المطلوب ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ أي ومن بني إسرائيل جماعة مستقيمون على شريعة الله يهدون الناس بكلمة الحق لا يجورون قال الزمخشري: لما ذكر تعالى الذين تزلزلوا منهم من الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين: عبادة العجل، وطلب رؤية الله، ذكر أن منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم ويرشدونهم على الاستقامة[2] ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا﴾ أي وفرقنا بني إسرائيل فجعلناهم قبائل شتّى اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من أولاد يعقوب قال أبو حيان: أي فرقناهم وميّزناهم أسباطاً ليرجع أمر كل سبط أي «قبيلة» إلى رئيسه ليخفَّ أمرهم على موسى لئلا يتحاسدوا فيقع الهْرج، ولهذا فجّر لهم اثنتي عشرة عيناً لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء، وجعل لكل سبطٍ نقيباً ليرجعوا في أمورهم إليه[3] ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ أي حين استولى عليهم العطش في التيه ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَ﴾ أي أوحينا إليه أن يضرب الحجر بعصاه فضربه ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾ أي انفجرت من

(١) (ش): الصواب أن يُقال: «ولا معبود بحق سواه»، لأن هناك معبودات كثيرة لكن بغير حق.
(٢) «الكشاف» ٢/ ١٦٧.
(٣) «البحر المحيط» ٤٠٦.

الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾أي قد عرف كل سبطٍ وجماعة منهم عينهم الخاصة بهم قال «الطبري»: لا يدخل سبطٌ على غيره في شربه[١] ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلنا الغمام يكنّهم من حر الشمس ويقيهم من أذاها قال الألوسي: وكان الظلُّ يسير بسيرهم ويسكن بإقامتهم ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي وأكرمناهم بطعام شهي هو ﴿الْمَنَّ﴾ وهي شيء حلوٌ ينزل على الشجر يجمعونه ويأكلونه و ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾[٢] وهو طائر لذيذ اللحم يسمى السُّمَّاني كلُّ ذلك من إفضال الله وإنعامه عليهم دون جهدٍ منهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لهم: كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إياه ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكنْ ظلموا أنفسهم حيث عرّضوها بالكفر لعذاب الله ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي واذكر لهم حين قلنا لأسلافهم اسكنوا بيت المقدس وكلوا من مطاعمها وثمارها من أي جهة ومن أي مكان شئتم منها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي وقولوا حين دخولكم: يا ألله حُطَّ عنا ذنوبنا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ أي نمح عنكم جميع الذنوب التي سلفت منكم ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وسنزيد من أحسن عمله بامتثال أمر الله وطاعته فوقَ الغفران دخولَ الجنان ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي غيَّر الظالمون منهم أمر الله بقولهم كلاماً لا يليق حيث قالوا بدل ﴿حِطَّةٌ﴾ حنطة في شعيرة، وبدل أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله دخلوا يزحفون على أستاهم، «أدبارهم» سخرية واستهزاء بأوامر الله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي فأرسلنا عليهم عذاباً من السماء بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر سابقاً ولاحقاً قال «أبو السعود»: والمراد بالعذاب «الطاعون» روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً[٣] ﴿وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي واسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب «البحر» وعلى شاطئه ماذا حلَّ بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت؟ ألم يمسخهم الله قردة وخنازير؟ قال «ابن كثير»: وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطئ بحر القلزم[٤] ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي يتجاوزون حدّ الله فيه وهو اصطيادهم يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي حين كانت الحيتان» الأسماك «تأتيهم يوم السبت - وقد حُرِّم عليهم الصيدُ فيه - كثيرةً ظاهرةً على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا

---

(١) «الطبري» ١٣/ ١٧٧.
(٢) «روح المعاني» ٩/ ٨٨.
(٣) «أبو السعود» ٢/ ٢٠٥.
(٤) «المختصر» ٢/ ٥٨.

﴿يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡ﴾ أي وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفي ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ أي مثل ذلك البلاء العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرَّم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمات الله قال «القرطبي»: روي أنها كانت في زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نُهيتُم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها[1] ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ قال «ابن كثير»: يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمُنْكِرَة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ﴾ أي لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم[2]؟ ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ أي قال الناهون: إنما نعظهم لِنُعْذَر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي ينزعون عمَّاهم فيه من الإجرام قال «الطبري»: أي لعلهم أن يتقوا الله فينيبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إيّاه وتعدّيهم الاعتداء في السبت[3] ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ أي فلما تركوا ما ذكَّرهم به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضاً كلياً ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ أي نجينا الناهين عن الفساد في الأرض ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ أي وأخذنا الظالمين العصاة بعذاب شديد وهم الذين ارتكبوا المنكر ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أي فلما استعصوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي مسخناهم إلى قردة وخنازير، والمعنى أنهم عُذبوا أولاً بعذاب شديد فلما لم يرتدعوا وتمادوا في الطغيان مُسِخوا قِرَدَةً وخنازير، والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فرق: فرقةٌ عصتْ فحلَّ بها العذاب، وفرقة نهت ووعظت فنجاها الله من العذاب، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تُقارف المعصية وقد سكت عنها القرآن قال ابن عباس: ما أدري ما فعل بالفرقة الساكتة أنجوا أم هلكوا؟ قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا لأنهم كرهوا ما فعله أولئك، فكساني حلة[4] ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ

---

(١) «القرطبي» ٧/ ٣٠٦.
(٢) «المختصر» ٢/ ٥٩.
(٣) «الطبري» ٣١/ ١٨٥.
(٤) «المختصر» ٢/ ٥٩.

ٱلْعَذَابِ﴾ أي واذكر يا محمد حين أَعْلَمَ ربُّك لَيُسَلِّطَنَّ على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتيالهم على المحارم، وقد سلّط الله عليهم **بُخْتُنَصَّرَ** فقتلهم وسباهم، وسلّط عليهم النصارى فأذلوهم وضربوا عليهم الجزية، وسلَّط عليهم محمدًا ﷺ فطهَّر الأرض من رجسهم وأجلاهم عن الجزيرة العربية، وسلّط عليهم أخيراً «هتلر» فاستباح حماهم وكاد أن يبيدهم ويفنيهم بالقتل والتشريد في الأرض، ولا يزال وعد الله بتسليط العذاب عليهم سارياً إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة إن شاء الله ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي سريع العقاب لمن عصاه وغفورٌ رحيم لمن أطاعه ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي فرّقناهم في البلاد طوائف وفرقاً ففي كل بلدة فرقة منهم، وليس لهم إقليم يملكونه حتى لا تكون لهم شركة، وما اجتمعوا في الأرض المقدسة في هذه الأيام إلا لِيُذْبَحُوا بأيدي المؤمنين إن شاء الله كما وعد بذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ** . .» الحديث أخرجه مسلم ثم بيّن تعالى أنهم ليسوا جميعاً فجاراً بل فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي منهم من آمن وهم قلة قليلة ومنهم من انحطّ عن درجة الصلاح بالكفر والفسوق وهم الكثرة الغالبة ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي اختبرناهم بالنعم والنقم والشدة والرخاء لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال «ابن كثير»: أي خلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح خلْفٌ آخر لا خير فيهم ورثوا الكتاب وهو التوراة عن آبائهم[1] ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي يأخذون ذلك الشيء الدنيء من حطام الدنيا من حلال وحرام ويقولون متبجحين: سيغفر الله لنا ما فعلناه، وهذا اغترار منهم وكذب على الله ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ أي يرجون المغفرة وهم مصرّون على الذنب كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا أخذوه لا يُبالون من حلالٍ كان أو حرام ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله؟ فكيف يزعمون أنه سيغفر لهم مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام؟ ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ في هذا أعظم التوبيخ لهم أي والحال أنهم درسوا ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي والآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ الاستفهام للإنكار أي فلا ينزجرون ويعقلون؟ والمراد أنهم لو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يتمسكون في أمور دينهم بما أنزله

(١) «المختصر» ٢/ ٦١.

الله ويحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي لا نضيع أجرهم بل نجزيهم على تمسكهم وصلاحهم أفضل وأكرم الجزاء.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ شبّه الغضب بإنسان يرعد ويزبد ويزمجر بصوته آمراً بالانتقام ثم اختفى هذا الصوت وسكت، ففي الكلام «استعارة مكنية» ويا له من تصوير لطيف يستشعر جماله كل ذي طبع سليم وذوقٍ صحيح.

٢ - بين لفظ «تضل» و «تهدي» طباقٌ وكذلك بين لفظ «يحيي» و «يميت» .

٣ - ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة، وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب.

٤ - ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾ استعار الإصر والأغلال للأحكام والتكاليف الشاقة.

٥ - ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والتأنيب.

فَائِدَة: الخَلَف بفتح اللام من يخلف غيره بالخير، والخَلْف بسكون اللام من يخلف غيره في الشر، ومنه قوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] وهذه الآية ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والله أعلم.

قال الله تعالى:

وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ
شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا
ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ
عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ
تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾
سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن
يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾
وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

﴿مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

المنَاسَبَة: لما حكى تعالى عن بني إسرائيل عصيانهم وتمردهم على أوامر الله، حكى هنا ما عاقبهم به من اقتلاع جبل الطور وسحقهم به إن لم يعملوا بأحكام التوراة، ثم ذكر تعالى مثلاً لعلماء السَّوْء في قصة الذي انسلخ عن آيات الله طمعاً في حطام الدنيا وضرب له مثلاً بالكلب اللاهث في حالتَي التعب والراحة، وكفى به تصويراً لنفسية اليهود في تكالبهم على الدنيا وعبادتهم للمال.

اللغَة: ﴿نَتَقْنَا﴾ النتق: الجذب بقوة قال أبو عبيدة: أصل النتق قلعُ الشيء من موضعه والرمي به[1] ﴿ظُلَّةٌ﴾ الظلةُ: كل ما أظلّك من سقفٍ أو سحابةٍ أو جناح[2] حائطٍ والجمع ظُلُلٌ وظِلال ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ علموا أو أيقنوا ﴿فَٱنسَلَخَ﴾ الانسلاخُ: الخروجُ يقال لكل من فارق شيئاً بالكلية انسلخ منه وانسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه ﴿أَخْلَدَ﴾ مال إلى الشيء وركن إليه وأصله اللزوم يقال أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به ومنه الخلود في الجنة ﴿يَلْهَث﴾ قال الجوهري: لهثَ الكلبُ يَلْهَثُ إذا أخرج لسانه من التعب أو العطشِ[3] ﴿ذَرَأْنَا﴾ خلقنا ﴿يُلْحِدُونَ﴾ الإلحاد: الميلُ عن القصد والاستقامة يقال ألحد في الدين ولحد فهو ملحد لانحرافه عن تعاليم الدين.

«التفسير»: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي اذكر حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رءوس بني إسرائيل ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي كأنه سقيفة أو ظلة غمام ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ﴾ أي أيقنوا أنه ساقط عليهم إن لم يمتثلوا الأمر قال المفسرون: روي أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رءوسهم وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلاّ ليقعنَّ عليكم فلما نظروا إلى الجبل خرَّ كل واحد منهم ساجداً خوفاً من سقوطه ثم قال تعالى ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي وقلنا لهم: خذوا التوراة بجد وعزيمة ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي اذكروا ما فيه بالعمل واعملوا به لتكونوا في سلك المتقين ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال «الطبري»: أي واذكر يا محمد إذ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم فقرّرهم بتوحيده وأشهد بعضَهم على بعض بذلك[4] قال ابن عباس: مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه

---

(١) «الرازي» ٤/ ٤٥٧.
(٢) (ش): جناح: جانب أو ركن.
(٣) الصحاح مادة لهث.
(٤) للمفسرين في هذه الآية قولان: أحدهما أن الله لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر وأخذ عليهم العهد بأن ربهم فأقروا وشهدوا بذلك وقد روى هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة وقال به جماعة من الصحابة والثاني: أن هذا من باب التمثيل والتخييل والمعنى أنه سبحانه نصب لهم الأدلة على ربوبيته =

كلَّ نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة. ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ أي وقرّرهم على ربوبيته ووحدانيته فأقروا بذلك والتزموا ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أي لئلا تقولوا يوم الحساب إنا كنا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبية غافلين لم ننبه عليه ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي ولكيلا تقولوا يوم القيامة أيضـًا نحن ما أشركنا وإنما قلدنا آباءنا واتبعنا منهاجهم فنحن معذورون ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي أفتهلكنا بإشراك من أشرك من آبائنا المضلّين بعد اتباعنا منهاجهم على جهلٍ منا بالحق؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وكما بينا الميثاق نبيّن الآيات ليتدبرها الناس وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي واتل يا محمد على اليهود خبر وقصة ذلك العالم الذي علمناه علم بعض كتب الله فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها بأن كفر بها وأعرض عنها ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي فلحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضالين الراسخين في الغَواية بعد أن كان من المهتدين قال ابن عباس: هو «بلعم بن باعوراء» كان عنده اسم الله الأعظم وقال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى إلى ملك «مَدْيَنَ» داعيـًا إلى الله فرشاه الملك وأعطاه المُلْك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل وأضل الناس بذلك[1] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي لو شئنا لرفعناه إلى منزل العلماء الأبرار، ولكنه مال إلى الدنيا وسكن إليها وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة واتبع ما تهواه نفسه فانحط أسفل سافلين ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي فمثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لَهَث، وإن تركته على حاله لَهَث، وهو تمثيل بادي الروعة ظاهر البلاغة ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي هذا المثل السيّء هو مثلٌ لكل من كذّب بآيات الله، وفيه تعريضٌ باليهود فقد أوتوا التوراة وعرفوا صفة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي اقصص على أمتك ما أوحينا إليك لعلهم يتدبرون فيها ويتعظون ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ

= ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم: ألست بربكم؟ فقالوا: بلى. وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان و«أبو السعود» والأول أصح.

(ش): القول الأول لايصح غيره، فإشهاد بني آدم على أنفسهم ليس تخييلًا وتمثيلًا، بل الإشهاد حقيقي دلت عليه الأحاديث الصحيحة، وقد قال المؤلف في تفسير الآية ١٠٣ من سورة الأنعام: «وكفى بالكتاب والسنة دليلاً وهاديـًا».

(١) «التسهيل» ٢/ ٥٤.

كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بئس مثلاً مثلُ القوم المكذبين بآيات الله ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ أي وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتعداها ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي من هداه الله فهو السعيد الموفق، ومن أضله فهو الخائب الخاسر لا محالة، والغرضُ من الآية بيان أن الهداية والإضلال بيد الله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي خلقنا لجهنم ليكونوا حطباً لها خلقاً كثيراً كائناً من الجن والإِنس، والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي لهم قلوب لا يفهمون بها الحق ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر اعتبار ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ أي لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ، وليس المراد نفي السمع والبصر بالكلية وإنما المراد نفيها عما ينفعها في الدين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي هم كالحيوانات في عدم الفقه والبصر والاستماع بل هم أسوأ حالاً من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار ولهذا يُقْدمون على النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي الغارقون في الغفلة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لإِنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها فسَمُّوه بتلك الأسماء ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ أي اتركوا الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق كما فعل المشركون حيث اشتقوا لآلهتهم أسماء منها كاللات من الله، والعُزَّى من العزيز، ومناة من المنّان ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومن بعض الأمم التي خلقنا أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً يدعون الناس إلى الحق وبه يعملون ويقضون قال «ابن كثير»: والمراد في الآية هذه الأمة المحمدية لحديث «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خَذَلَهم ولا من خَالفَهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[1] وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان بل هم في كل زمان وفي كل مكان، فالإِسلام دائماً يعلو ولا يُعلى عليه وإن كثر الفُسَّاق وأهل الشر فلا عبرة فيهم ولا صَوْلة لهم، وفي الحديث بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية بأن الإِسلام في علوّ شرف وأهله كذلك إلى قرب الساعة ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن من أهل مكة وغيرهم سنأخذهم قليلاً ونُدْنِيهم من الهلاك من حيث لا يشعرون قال «البيضاوي»: وذلك بأن تتواتر عليهم النعم، فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغيِّ حتى تحق عليهم كلمة العذاب[2] ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي وأمهلهم ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر كما في الحديث الشريف «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ**

(١) «المختصر» ٢/ ٧٠ والحديث في الصحيحين.

(٢) «البيضاوي» ص ٢٠٥.

يُفۡلِتْهُ» ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ أي أخذي وعقابي قوي شديد وإنما سمّاه كيداً لأن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلان ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بآيات الله فيعلموا أنه ليس بمحمد ﷺ جنون بل هو رسول الله حقاً أرسله الله لهدايتهم، وهذا نفيٌ لما نسبه له المشركون من الجنون في قولهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ليس محمد إلا رسول منذر أمره بيّن واضح لمن كان له لُبٌّ[1] أو قلبٌ يعقل به ويَعِي ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أولم ينظروا نظر استدلال في ملك الله الواسع مما يدل على عظم الملك وكمال القدرة، والاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ أي وفي جميع مخلوقات الله الجليل فيها والدقيق فيستدلوا بذلك على كمال قدرة صانعها وعظم شأن مالكها ووحدة خالقها ومبدعها؟ ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡ﴾ أي وأن يتفكروا لعلهم يموتون عن قريب فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر والتدبر فيما يخلصهم عند الله قبل حلول الأجل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في الظهور والبيان ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ أي من كتب الله عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أي ويتركهم في كفرهم وتمردهم يترددون ويتحيرون.

البَلَاغَة: ١ - ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ فيه التفات من المتكلم إلى المخاطب والأصلُ وإذْ أخذنا والنكتة في ذلك تعظيم شأن الرسول بتوجيه الخطاب له، ولا يخفى أيضاً ما في الإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿رَبُّكَ﴾ من التكريم والتشريف، وفي الآية البيانُ بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي خرج منها بالكلية انسلاخ الجلد من الشاة قال «أبو السعود»: التعبير عن الخروج منها بالانسلاخ للإيذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال[2] ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ فيه تشبيه تمثيلي أي حاله التي هي مثلٌ في السوء كحال أخسّ الحيوانات وأسفلها وهي حالة الكلب في دوام لهثه في حالتي التعب والراحة فالصورة منتزعة من متعدد ولهذا يسمى التشبيه التمثيلي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ التشبيه هنا مرسل مجمل.

فَائِدَة: روي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أنه قال: لو قالوا: نعم لكفروا، ووجهه أن «نَعَمْ» تصديقٌ للمخبر بنفيٍ أو إيجاب فكأنهم أقروا أنه ليس ربهم بخلاف «بلى» فإنها حرف جواب وتختص بالنفي وتفيد إبطاله فالمعنى بلى أنت ربنا ولو قالوا: نعم لصار المعنى نعم لستَ ربنا فهذا وجه قول ابن عباس فتنبه له فإنه دقيق.

---

(١) (ش): لُبّ: عقل. يَعِي: يفهم. (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٢) «أبو السعود» ٢/ ٢١٠.

تنبيه: في الحديث الشريف « **إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ** »[1] رواه الترمذي قال العلماء: معناه من حفظها وتفكر في مدلولها دخل الجنة وليس المراد حصر أسمائه تعالى في هذه التسعة والتسعين بدليل ما جاء في الحديث الآخر « **أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ** »[2] وقد ذكر ابن العربي عن بعضهم أن الله تعالى ألف اسم.

قال الله تعالى:

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ
أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ
ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا
زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ
ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى
ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن
تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ
عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ
فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ
هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا
تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى موقف المستهزئين من دعوة الرسول ﷺ ذكر هنا طرفاً من عنادهم واستهزائهم بسؤالهم الرسول ﷺ عن وقت قيام الساعة، ثم ذكر الحجج والبراهين على بطلان

---

(١) (ش): ورواه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): رواه أحمد، وصحَّحه الألباني.

عقيدة المشركين في عبادة الأوثان والأصنام، وختم السورة الكريمة ببيان عظمة شأن القرآن ووجوب الاستماع والإنصات عند تلاوته.

اللغَة: ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ استقرارها وحصولها من أرساه إذا أثبته وأقره، ومنه رست السفينة إذا ثبتت ووقفت ﴿يُجَلِّيهَا﴾ يظهرها: والتجلية: الكشفُ والإظهار ﴿حَفِيٌّ﴾ الحفيُّ: المستقصي للشيء المعتني بأمره قال الأعشى:

فَـإنْ تَـسْأَلِي عَنِّي فَيَا رُبَّ سَائِلٍ ... حَفِيٍّ عَنِ الأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أَصْعَدا[1]

والإحفاء الاستقصاء، ومنه إحفاء الشوارب، وحفِيَ عن الشيء إذا بحث للتعرف عن حاله ﴿بِٱلْعُرْفِ﴾ المعروف وهو كل خصلة حميدة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس ﴿وَٱلْأَصَالِ﴾ جمع أصيل قال الجوهري: والأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب[2].

سَبَبُ النّزول: روي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: إن كنتَ نبيًّا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم؟ فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا[3]﴾ .

«التفسير»: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي يسألونك يا محمد عن القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي متى وقوعها وحدوثها؟ وسميت القيامة ساعة لسرعة ما فيها من الحساب كقوله ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي قل لهم يا محمد: لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام القيامة فيه إلا الله سبحانه ثم أكَّد ذلك بقوله ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا الرب سبحانه بالذات هو العالم بوقتها ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي عظمت على أهل السماوات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها[4] ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي يسألونك يا محمد عن وقتها كأنك كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفتها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يعلم وقتها إلا الله لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها علام الغيوب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون السبب الذي لأجله أُخفيتْ قال الإمام الفخر: والحكمة في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذرٍ منها فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية[5] ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيراً ولا أدفع عنها شراً إلا بمشيئته تعالى فكيف أملك علم الساعة؟

(١) «القرطبي» ٧/ ٣٣٦. (ش): أصْعَد في البلاد: سار ومضى وذهب.
(٢) «الصحاح» مادة أصل.
(٣) «القرطبي» ٧/ ٣٣٥. (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير «الطبري» في «جامع البيان».
(٤) هذا قول قتادة، وقيل: المعنى: خفي علمها على أهل السماوات والأرض.
(٥) «الفخر الرازي» ٤/ ٤٨٤.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي لو كنتُ أعرف أمور الغيب لحصَّلْتُ كثيراً من منافع الدنيا وخيراتها ودفَعْتُ عني آفاتِها ومضراتِها ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي لو كنت أعلم الغيب لاحْتَرَسْتُ من السوء ولكنْ لا أعلمه فلهذا يصيبني ما قُدِّر لي من الخير والشر ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لقوم يُصَدِّقون بما جئْتَهم به من عند الله[1] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعاً وحده من غير مُعِينٍ من نفسٍ واحدة هي آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي وخلق منها حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليطمئن إليها ويستأنس بها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي فلما جامعها حملت بالجنين حملاً خفيفاً دون إزعاج لكونه نطفةً في بادئ الأمر قال «أبو السعود»: فإنه عند كونه نطفة أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب، والتعرضُ لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه إياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود، ومن الضعف إلى القوة[2] ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي استمرت به إلى حين ميلاده ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبر الحمل في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي دعوا الله مربيهما ومالك أمرهما ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي لئن رزقتنا ولداً صالحاً سويَّ الخِلْقة لنشكرنَّك على نعمائك ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي فلما وهبهما الولد الصالح السويّ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والذرية[3] شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزّه وتقدّس الله عما ينسبه إليه المشركون ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أيشركون مع الله ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي والحال أن تلك الأوثان والآلهة مخلوقة فكيف يعبدونها مع الله؟ قال «القرطبي»: وجمع الضمير بالواو

(١) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق فقط تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) «أبو السعود» ٢.

(٣) ذهبنا إلى هذا الرأي لجلائه ووضوحه وهو ما رجَّحه المحققون من أهل العلم، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في: «آدم وحواء» وأن الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ يعود إليهما وروَوْا في ذلك أحاديث وآثار منها ما رُوِيَ عن سمرة مرفوعًا قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش بها ولد فقال: سمّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمَّتْه عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان» رواه أحمد والترمذي قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث معلولٌ من ثلاثة أوجه وقد وضحها رحمه الله ورجح أن الحديث موقوف وضعَّف ما ورد من آثار ثم روى بسنده عن الحسن أنه قال: «كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم»، ثم قال ابن كثير: «وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق «آدم وحواء» وإنما المراد المشركون من ذريته بدليل قول الله بعده: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾». أقول: وهو الحق الذي لا محيد عنه.

والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع فأجريت مجرى الناس[١] ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أي لا يستطيع هذه الأصنام نصر عابديها ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ أي: إن ولا ينصرون أنفسهم ممن أرادهم بسوء، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة؟ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ أي أن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى خير أو رشاد لأنها جمادات ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ أي يتساوى في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم قال «ابن كثير»: يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها كما قال إبراهيم ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢][٢] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أي إن الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة مخلوقون مثلكم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش وتلك لا تفعل شيئًا من ذلك فلهذا قال ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أمرٌ على جهة التعجيز والتبكيت أي أدعوهم في جلب نفع أو دفع ضرٍّ إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة[٣] ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ﴾ توبيخ إثر توبيخ وكذلك ما بعده من الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي هل لهذه الأصنام ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ﴾ أي أم هل لهم أيدٍ تفتك وتبطش بمن أرادها بسوء؟ ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ﴾ أي أم هل لهم أعينٌ تبصر بها الأشياء؟ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي أم هل لهم آذان تسمع بها الأصوات؟ والغرض بيان جهلهم وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئًا لأنها فقدت الحواس وفاقد الشيء لا يعطيه، والإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام لوجود العقل والحواس فيه فكيف يليق بالأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخسّ الأدون الذي لا يحسُّ منه فائدة أبداً لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرّة؟! ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد: ادعوا أصنامكم واستنصروا واستعينوا بها عليَّ ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي ابذلوا جهدكم أنتم وهم

---

(١) «القرطبي» ٧/ ٣٤١.

(٢) «المختصر» ٢/ ٧٥.

(٣) قال الحافظ «ابن كثير»: أسلم مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَمُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ وكانا شابين فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطبًا، وكان لعَمْرو بن الجموح. وهو سيد قومه. صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان في الليل فَيُنَكِّسَانِهِ عَلَى رَأْسِهِ، وَيُلَطِّخَانِهِ بالعَذِرة. النجس. فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله وَيُطَيِّبُهُ ويضع عنده سيفًا ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك علم أن ما عليه من الدين باطل فأنشد يقول:

« تَاللهِ لَوْ كُنْتَ إِلَهًا مُسْتَدَنْ ... لَمْ تَكُ وَالكَلْبُ جَمِيعًا فِي قَرَنْ »

ثُمَّ أَسْلَمَ فَحسُن إِسْلَامُهُ، وَقُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا

(ش): (مُسْتَدَن): مُسْتَعْبَدٌ ذليلٌ، (قَرَنْ): حبلٌ يقادُ به.

في الكيد لي وإلحاق الأذى والمضرة بي ولا تمهلون طرفة عين، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله قال الحسن: خوفوا الرسول ﷺ بآلهتهم فأمره تعالى أن يجابهم بذلك ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي إنَّ الذي يتولى نصري وحفظي هو الله الذي نزَّل عليَّ القرآن ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي هو جل وعلا يتولى عباده الصالحين بالحفظ والتأييد، وهو وليهم في الدنيا والآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ كرّره ليبيّن أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ أي وإن تدعوا هذه الأصنام إلى الهداية والرشاد لا يسمعوا دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي وتراهم يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئاً ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أمْرٌ له عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ بمكارم الأخلاق أي خذ بالسهل اليسير في معاملة الناس ومعاشرتهم قال «ابن كثير»: وهذا أشهر الأقوال ويشهد له قول جبريل للرسول ﷺ: «إن الله يأمركَ أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»[(١)] ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف والجميل المستحسن من الأقوال والأفعال ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم قال «القرطبي»: وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام فهو تأديبٌ لجميع خلقه[(٢)] ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي وإمّا يصيبنَّك يا محمد طائف من الشيطان بالوسوسة والتشكيك في الحق ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي فاسْتَجِرْ بالله والْجَأْ إليه في دَفْعِه عنك ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميعٌ لما تقول عليمٌ بما تفعل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي الذين اتصفوا بتقوى الله ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي إذا أصابهم الشيطان بوسوسته وحام حولهم بهواجسه ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ أي تذكروا عقاب الله وثوابه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي يبصرون الحق بنور البصيرة ويتخلصون من وساوس الشيطان ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي إخوان الشياطين الذين لم يتقوا الله وهم الكفرة الفجرة فإن الشياطين تغويهم وتزين لهم سبل الضلال ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي لا يُمْسِكون ولا يَكُفّون عن إغوائهم ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ أي وإذا لم تأتهم بمعجزةٍ كما اقترحوا ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ أي هلا اختلَقْتَها يا محمد واخترَعْتَها مِن عند نفسك؟! وهو تهكُّمٌ منهم لعنهم الله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ أي قل لهم يا محمد ليس الأمر إليَّ حتى آتي بشيءٍ من عند نفسي وإنما أنا عبدٌ امتثل ما يوحيه الله إليَّ ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي هذا القرآن الجليل حججٌ بيّنة، وبراهين نيّرة يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر للقلوب به يُبْصر الحق ويُدرك ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وهداية ورحمة للمؤمنين لأنهم المقتبسون من

(١) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.
(٢) «القرطبي» ٧/ ٣٤٧.

أنواره والمنتفعون من أحكامه ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ أي وإذا تليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر واسكتوا عند تلاوته إعظاماً للقرآن وإجلالاً ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ أي واذكر ربك سرًّا مستحضراً لعظمته وجلاله ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي متضرعاً إليه وخائفاً منه ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي وسطاً بين الجهر والسرّ ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي في الصباح والعشيّ ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي ولا تغفلُ عن ذكر الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة الأطهار ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي لا يتكبرون عن عبادة ربهم ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي ينزهونه عما لا يليق به ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ أي لا يسجدون إلا لله.

البَلَاغَة: ١ - ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ التشبيه مرسل مجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

٢ - ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ التغشي هنا كناية عن الجماع وهو من الكنايات اللطيفة.

٣ - ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ...﴾ إلخ هذا الأسلوب يسمى «الإطناب» وفائدته زيادة التقريع والتوبيخ.

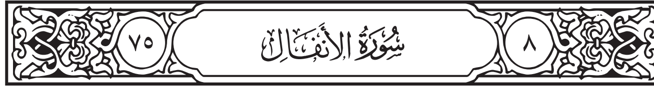
٤ - ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ شبّه وسوسة الشيطان وإغراءه الناس على المعاصي بالنزغ وهو إدخال الإبرة وما شابهها في الجلد ففيه استعارة لطيفة.

٥ - ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فيه تشبيه وأصله هذا كالبصائر، حُذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو بليغ. ويرى بعض العلماء أنه من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق المسبّب على السبب لأن القرآن لما كان سبباً لتنوير العقول أطلق عليه لفظ البصيرة.

لطيفَة: حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سوَّل لك الخطايا؟ قال: أجاهده قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: إن هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ماذا تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك، فهذه فائدة الاستعاذة.

«تم بعون الله تعالى تفسير سورة الأعراف»





مدنية وآياتها خمس وسبعون

بين يدي السورة

* سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عُنيت بجانب التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات، وتضمنت كثيرًا من التشريعات الحربية، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله، وتناولت جانب السلم والحرب، وأحكام الأسر والغنائم.

* نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب «غزوة بدر» التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة «سورة بدر» لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال، وبينت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود.

* ومن المعلوم من تاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل، ورد البغي والطغيان، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين قعد بهم الضعف في مكة، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها، وقد استجاب الله ضراعتهم فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة، التي تم فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم، وضعف في عددهم، وعلى عدم تهيئهم للقتال، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده، وقَوِيَتْ شَوْكتُه، وامتد سلطانه، فلابد من له من يوم يخر فيه صريعًا أمام جلال الحق وقوة الإيمان، وهكذا كانت غزوة بدر نصرًا للمؤمنين، وهزيمة المشركين.

*وفي ثنايا سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أُمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلو به، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال.

***أما النداء الأول**: فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب.

* **وأما النداء الثاني:** فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ كما صورت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع لا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق.

* **وأما النداء الثالث:** فقد بين فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...﴾ الآية.

* **وأما النداء الرابع:** فقد نبههم فيه على أن إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله وخيانة للأمة أيضًا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

* **وأما النداء الخامس:** فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى، وذكرهم بأنها أساس الخير كله، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، وبه يفرق بين الرشد والغي، والهدى والضلال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

* **وأما النداء السادس:** وهو النداء الأخير فقد وضع لهم فيه طريق العزة، وأسس النصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء، واستحضار عظمة الله التي لا تحد، وقوته التي لا تقهر، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيرًا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

* وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين، وأنه مهما تناءت ديارهم، واختلفت أجناسهم، فهم أمة واحدة، وعليهم نصر الذين يستنصرونهم في الدين، كما أن ملة الكفر أيضًا واحدة، وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

*هذه خلاصة ما أشارت إليه السورة الكريمة من أهداف، وما أرشدت إليه من دروس وعبر، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والبصر.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾
أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ
إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ

ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ
وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم
بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ
ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا
لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ
تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً
حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ
جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا
يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾

اللغَة: ﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾ الغنائم جمع نَفَل بالفتح وهو الزيادة وسميت الغنائم به لأنها زيادة على القيام بحماية الدين والأوطان، وتسمى صلاة التطوع نفلاً، وولد الولد نافلة لهذا المعنى قال لبيد:

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ ... وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَالْعَجَلْ [1]

﴿وَجِلَتۡ﴾ الوجل: الخوف والفزع ﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ الشوكة: السلاح وأصلها من الشَّوك قال أبو عبيدة: ومجاز الشوكة الحد يقال: ما أشدَّ شوكة بني فلان أي حدّهم[2] ﴿تَسۡتَغِيثُونَ﴾ الاستغاثة: طلب النصرة والعون ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ متتابعين يتلو بعضهم بعضاً وردف وأردف بمعنى واحد أي تبع قال «الطبري»: العرب تقول: أردفته وردِفته بمعنى تبعته وأتبعته قال الشاعر:

إِذَا الْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا[3]

---

(١) (ش): خَيرُ نَفَلْ: أَيْ خَيرُ غَنِيمَةٍ. (وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَالْعَجَلْ): أي أن التأنِّي والعَجَلة من قدر الله ﷻ.

(٢) «زاد المسير» ٣/ ٣٢٤.

(٣) «الطبري» ١٣/ ٤١٥. (ش): (الجَوْزاء): أحد أبراج السَّماء. (الثُّرَيَّا): مجموعة من النجوم في صورة الثَّوْر، وهي سبعة كواكب. معنى البيت أنه إذا طلعت الجوزاء إثر الثريا عند الفجر ثم لم يردفها نجم آخر لغلبة نور الشمس على النجوم.

﴿بَنَانٍ﴾ البنان: جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين قال عنترة:

وَكَانَ فَتَى الْهَيْجَاءِ يَحْمِي ذِمَارَهَا   وَيَضْرِبُ عِنْدَ الْكَرْبِ كُلَّ بَنَانِ[١]

﴿زَحْفًا﴾ الزحف: الدنو قليلاً مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على أليته قليلاً قليلاً ثم سمي به الجيش الكثير العدد لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف زحفاً ﴿مُتَحَيِّزًا﴾ منضماً يقال: تحيّز أي انضم واجتمع إلى غيره ﴿بَآءَ﴾ رجع ﴿مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿تَسْتَفْتِحُواْ﴾ استفتح: أي طلب الفتح والنصرة على عدوه.

سَبَبُ النّزول: أ – عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ أَسَرَ أَسِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا**»، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم فقال المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإننا كنا لكم ردءًا ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فأبوا واختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية فقسَّم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية»[٢].

ب – روي «أن النبي ﷺ أخذ قبضة من تراب يوم بدر فرمى بها في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه فما بقي أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه تراب من تلك القبضة وولوا مدبرين» فنزلت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ...﴾ الآية[٣].

التفسير: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها من بدر لمن هي؟ وكيف تقسم؟ ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي قل لهم: الحكم فيها لله والرسول لا لكم ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي أصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في الحكم في الغنائم قال عبادة بن الصامت: نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ فقسمها على السواء[٤] فكان في ذلك تقوى الله، طاعة رسوله، وإصلاح ذات البين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط

---

(١) «القرطبي» ٧/ ٣٧٩. (ش): الهَيْجاءُ: الحَرْبُ. الذِمار: ما يجب حمايتُه، والدفاعُ عنه، كالأهل، والعِرْض.

(٢) «روح المعاني» ٩/ ١٦٢. (ش): رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) «الطبري» ١٣/ ٤٤٥. (ش): عن أبي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ يومَ بَدْرٍ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ، فَانْهَزَمُوا فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[الأنفال: ١٧]. (صحيح، رواه الطبراني).

وعَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَ كَفًّا مِنَ الْحَصْبَاءِ فَاسْتَقْبَلَنَا بِهِ، فَرَمَانَا بِهَا، وَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» ، فَانْهَزَمْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] (حسن، رواه الطبراني).

(٤) «التسهيل» ٢/ ٦٠. (ش): حسن، رواه أحمد.

حذف جوابه أي إن كنتم حقاً مؤمنين كاملين في الإيمان فأطيعوا الله ورسوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم لمجرد ذكره، استعظاماً لشأنه، وتهيباً منه جلَّ وعلا ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي إذا تليت عليهم آيات القرآن ازداد تصديقهم ويقينهم بالله[1] ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [2] أي لا يرجون غير الله ولا يرهبون سواه قال في «البحر»: أخبر عنهم باسم الموصول بثلاث مقامات عظيمة وهي: مقام الخوف، ومقام الزيادة في الإيمان، ومقام التوكل على الرحمن[3] ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل بخشوعها وفروضها وآدابها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون في طاعة الله مما أعطاهم الله، وهو عام في الزكاة ونوافل الصدقات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة هم المؤمنون إيماناً حقاً لأنهم جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم منازل رفيعة في الجنة ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي تكفير لما فرط منهم من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الكاف تقتضي مشبّهاً قال ابن عطية: شهبت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع[4] فيها، والمعنى: حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب وقال «الطبري»: المعنى: كما أخرجك ربك بالحق على كرهٍ من فريقٍ من المؤمنين كذلك يجادلونك في الحق بعدما تَبيَّن، والحقُّ الذي كانوا يجادلون فيه النبي ﷺ بعدما تبيّنوه هو القتال[5] ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ أي والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفاً من القتل أو لعدم الاستعداد ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن الخروج للقتال بعد أن وضح لهم الحق وبان، وكان جدالهم هو قولهم: ما كان خروجنا إلاّ للعير ولو عرفنا لَاسْتَعْدَدْنا للقتال ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ قال «البيضاوي»: أي يكرهون القتال

(١) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) قال ابن الخطيب: ليقرأ هذه الآية وليتدبرها كل مؤمن، وليعرضها على نفسه، فإن وجدها تنطبق على صفاته فليهنأ بما آتاه الله من فضل، وما وهبه من خير، وإن وجدها في وادٍ وهو في واد، فليلجأ إلى الرحيم الودود، وليجأر إلى اللطيف الحميد، أن يصفي قلبه ويزيده إيمانًا وتوكلًا، ويوفقه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فنعم القريب ونعم المجيب، وليكن هذا بإخلاص قلب وصدق طوية.

(٣) «البحر» ٤/ ٤٥٧.

(٤) «الطبري» ٤/ ٤٦١.

(٥) «الطبري» ١٣/ ٢٩٣.

كراهة من ينساق إِلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم، وفيه إِيماء إِلى أن مجادلتهم إِنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم[(١)] ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ أي اذكروا حين وعدكم الله يا أصحاب محمد إِحدى الفرقتين أنها لكم غنيمة إِما العير أو النفير ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح لها وهي العير لأنها كانت محمّلة بتجارة قريش قال المفسرون: «روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة برئاسة أبي سفيان، ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد: إِن الله وعدكم إِحدى الطائفتين: إِما العير وإِما قريشاً، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى أبو جهل: يا أهل مكة النجاءَ النجاءَ، عيركُم أموالكم إِن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدراً، ونجت القافلة فأخبر الرسول ﷺ أصحابه وقال لهم: إِن العير قد مضت على ساحل «البحر»، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا يا رسول الله: عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله فقام سعد بن عبادة فقال: امض بنا لما شئت فإِنا متبعوك، وقام سعد بن معاذ فقال: والذي بعثك بالحق لو خضت بنا «البحر» لخضناه معك فسرْ بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ وقال لأصحابه: سيروا على بركة الله وأبشروا فإِن الله قد وعدني إِحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إِلى مصارع القوم»[(٢)] ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي يظهر الدين الحق وهو الإِسلام بقتل الكفار وإِهلاكهم

---

(١) «البيضاوي» ص ٢٠٩.

(٢) «البيضاوي» ص ٢٠٩ بتصرف.

(ش): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: «إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا): لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَ الْخَيْلَ الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا. (بَرْكَ الْغِمَادِ): قِيلَ: هُوَ مَوْضِعٌ مِنْ وَرَاءِ مَكَّةَ بِخَمْسِ لَيَالٍ بِنَاحِيَةِ السَّاحِلِ، وَقِيلَ: هُوَ مَوْضِعٌ بِأَقَاصِي هَجَرَ. وَقِيلَ: هُوَ فِي أَقْصَى الْيَمَنِ.

وفي رواية: قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: «وَاللهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ». قَالَ: «أَجَلْ». قَالَ: «فَقَدْ آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَكَ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ».

فَسُرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشَّطَهُ. ثُمَّ قَالَ: «سِيرُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ» (رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ بإسناد صحيح.).

انظر ما ثبت من تفاصيل غزوة بدر في كتاب «السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ الصَّحِيْحَةُ مُحَاوَلَةٌ لِتَطْبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ» للدكتور أكرم ضياء العمري.

يوم بدر ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي يستأصل الكافرين ويهلكهم جملة من أصلهم قال في «البحر»: والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة، وسلامة الأحوال، وسفساف الأمور، والله تعالى يريد معالي الأمور، وإعلاء الحق، والفوز في الدارين، وشتّان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكهم عياناً خذلانهم، فنصركم وهزمهم، وأذلهم وأعزكم[١] ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ليحق الحقَّ ويبطل الباطل فعَلَ ما فعَلَ والمراد إظهار الإسلام وإبطال الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي ولو كره المشركون ذلك أي إظهار الإسلام وإبطال الشرك ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي اذكروا حين تطلبون من ربكم الغوث بالنصر على المشركين، روي أن سول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر، فاستقبل القبلة ومدَّ يديه يدعو: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيَّ الله كفاكَ مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ أي استجاب الله الدعاء بأني معينكم بألف من الملائكة ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً[٢]، قال المفسرون: ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل بها في يسار الجيش، ولم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر، وأما في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل[٣] ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي وما جعل إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي وما النصر في الحقيقة إلا من عند الله العلي الكبير فَثِقُوا بنصره ولا تَتَّكِلُوا على قُوَّتكم وعُدَّتكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب لا يُغلب يفعل ما تقضي به الحكمة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي يلقي عليكم النوم أمناً من عند سبحانه وتعالى، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث غشي الجميعَ النومُ في وقت الخوف قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْه: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح»[٤]، قال ابن كثير: وكأن ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله[٥] ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تعديد لنعمة أخرى، وذلك أنهم عدموا

---

(١) «البحر» ٤/ ٤٦٤.

(٢) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ والترمذي. (مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ)، أي: دعاؤُك إياه وتضرُّعُك إليه.

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ١١٨.

(٤) رواه أبو يعلى. (ش): رواه أحمد بإسناد صحيح.

(٥) «المختصر» ٢/ ٩٠.

الماء في غزوة بدر فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية، وكان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي من الأحداث والجنايات ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي يدفع عنكم وسوسته وتخويفه إياكم من العطش، قال «البيضاوي»: روي أنهم نزلوا في كثيبٍ أعفر، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء، وأنتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟ فأنزل الله المطر حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة[1] ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي يقوّيها بالثقة بنصر الله ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي يُثبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ في الرمل قال «الطبري»: ثبّت بالمطر أقدامهم لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملةٍ مَيْثاء فلبّدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها[2] ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ تذكير بنعمةٍ أخرى أي يوحي إلى الملائكة بأني معكم بالعون والنصر ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ثبتوا المؤمنين وقوّوا أنفسهم على أعدائهم ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ أي سأقذف في قلوب الكافرين الخوف والفزع حتى ينهزموا ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي اضربوهم على الأعناق كقوله ﴿فَضَرْبَ الرقاب﴾ [محمد: ٤] وقيل: المراد الرءوس لأنها فوق الأعناق ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي اضربوهم على أطراف الأصابع قال في «التسهيل»: وفائدة ذلك أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطَّل عن القتال فأمكن أسره وقتله[3] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ذلك العذاب الفظيع واقع عيلهم بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الله وأمر رسوله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله بالكفر والعناد فإن عذاب الله شديد له ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في الدنيا، مع أن لكم العقاب الآجل في الآخرة وهو عذاب النار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ أي إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ أي ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي إلا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى، أو بالفر للكرّ بأن يخيّل إلى عدوه أنه منهزم ليغرّه مكيدة وهو من باب «الحرب خدعة» ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ

---

(١) البيضاوي ص ٢١٠. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» وابنُ الْمُنْذِرِ وَأَبُو الشَّيْخِ. والكثيب: تلّ أو مرتفَع من الرِّمال كوَّمته الرياحُ. (أعْفَرُ): لوْنُه كالعَفْر: وجه الأرض والتراب.

(٢) «الطبري» ١٣/ ٤٢١. (ش): (الرملة المَيْثاء): اللَيِّنة السهلة. قد تسوخ فيها الرجل قليلًا. (لبَّد المطرُ الأرضَ): ألصق بعض ترابها ببعض فصارت قوية لا تسوخ فيها الأرْجُل، أي لا تغوص فيها.

(٣) «التسهيل» ٢/ ٦٢.

فِئَةٍ﴾ أي منضماً إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فقد رجع بسخطٍ عظيم ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي مقره ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئس المرجع والمآل ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي فلم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوتكم وقدرتكم، ولكنَّ الله قتلهم بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي وما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضةٍ من تراب لأن كفاً من تراب لا يملأ عيون الجيش الكبير، قال ابن عباس: أَخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينيه ومنخريه من تلك الرمية فولوا مدبرين[١] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي بإيصال ذلك إليهم فالأمر في الحقيقة من الله ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي فعل ذلك ليقهر الكافرين ويُنعم على المؤمنين بالأجر والنصر والغنيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالهم عليهم بنِيَّاتِهم وأحوالهم ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ذلك[٢] الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق، والغرض منه إضعاف وتوهين كيد الكافرين حتى لا تقوم لهم قائمة ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ هذا خطاب لكفار قريش أي إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة والقهر، وهذا على سبيل التهكم بهم قال «الطبري» في رواية الزهري: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم أينا كان أفجر، وأقطع للرحم، فأحِنْه اليوم - أي أهلكه - فأنزل الله ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ فكان أبو جهل هو الْمُسْتَفْتِحَ[٣]، ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وإن تكُفّوا يا معشر قريش عن حرْب الرسول ومعاداته، وعن الكفر بالله ورسوله فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ أي وإن تعودوا لحربه وقتاله نَعُدْ لنَصْرِه عليكم ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لأن الله سبحانه مع المؤمنين بالنصر والعون والتأييد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي دُومُوا على طاعة الله وطاعة رسوله يَدُمْ لكم العز الذي

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٤٤٣.

(٢) ذلكم مبتدأ حذف خبره تقديره: ذلكم الذي حدث حق.

(٣) (ش): رواه أحمد بلفظ: «اللَّهُمَّ أَقْطَعَنَا لِلرَّحِمَ، وَآتَانَا بِمَا لاَ يُعْرَفُ فَأَحْنِهِ الْغَدَاةَ» فَكَانَ الْمُسْتَفْتِحَ (رَوَاهُ أَحْمَدُ وصححه الأرنؤوط). ورواه الحاكم بلفظ: وفيه: فَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَاحَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩] وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. (أَقْطَعَنَا لِلرَّحِمَ): أَقْطَعَنَا: اسْمُ تَفْضِيل لِلْقَطْعِ، أَيْ أَكْثَرُنَا قَطْعًا الرَّحِمَ. (فَأَحْنِهِ): الْحَيْنُ: الْهَلاَكُ، وَقَدْ حَانَ الرَّجُلُ: هَلَكَ. يُقَالُ: أَحَانَهُ اللهُ، أَيْ: أَهْلَكَهُ وَلَمْ يُوَفِّقْهُ لِلرَّشَادِ. أَيْ اللَّهُمَّ مَنْ كَانَ أَكْثَرَنَا قَطْعًا الرَّحِمَ وَإِتْيَانًا بِمَا لا يُعْرَفُ فَأَهْلِكْهُ الْيَوْمَ.

حصل ببدر ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره وأصله تتولوا حذفت منه إحدى التاءَيْن ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي تسمعون القرآن والمواعظ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بآذانهم دون قلوبهم، فسماعُهم كَلَا سماع[1] لأن الغرض من السماع التدبر والاتعاظ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ أي شرَّ الخلق وشرَّ البهائم التي تدبُّ على وجه الأرض ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ أي الصمُّ الذين لا يسمعون الحق، البكم أي الخرس الذين لا ينطقون به ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر، نزلت في جماعة من بني عبد الدار كانوا يقولون: نحن صمٌّ بكمٌّ عما جاء به محمد، وتوجهوا لقتال الرسول ﷺ مع أبي جهل، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشرُّ من الكلب والخنزير والحمير، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم فصاروا أخسَّ من كل خسيس ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لو علم الله فيهم شيئاً من الخير لأسمعهم سماعَ تَفهُّمٍ وتَدبُّر ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي ولو فُرض أن الله أسمعهم – وقد علم أن لا خير فيهم – لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إيمان الكافرين.

البَلَاغَة: ١ – ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب لعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف.

٢ – ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ استعار الدرجات للمراتب الرفيعة والمنازل العالية في الجنة.

٣ – ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ التشبيه هنا تمثيلي.

٤ – ﴿أَن يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٥ – ﴿ذَاتِ الشوكة﴾ استعيرت الشوكة للسلاح بجامع الشدة والحدّة بينهما.

٦ – ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك.

٧ – ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ صيغة المضارع لاستحضار صورتها الغريبة في الذهن.

٨ – ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمُقدَّم والتشويق إلى المُؤخَّر.

٩ – ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ الخطاب للمشركين على سبيل التهكم كقوله ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

١٠ – ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ شبّه الكفار بالبهائم بل جعلهم شراً منها، وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز، إذ أن الكافر لا يسمع الحق والبهائم لا تسمع، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقي أنه يضر والبهائم لا تضرُّ فكيف لا يكون شراً منها؟

(١) (ش): أي سماعُهم كعَدمِ السَّماعِ.

تنبيه: ذكر تعالى في هذه السورة أنه أمدَّ المؤمنين بألف من الملائكة، وذكر في سورة آل عمران أنه أمدَّهم بثلاثة آلاف، ولا تعارض بن الآيات فإنه تعالى ذكر هنا لفظ ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ ومعناه متتابعين فأمدهم أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف والله الموفق.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ
بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن
يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ
فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ
عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ
يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ
سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ
هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ
يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ
تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ
وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ
﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ
ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الكافرين، وشبّههم بالأنعام السارحة لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله، أمر المؤمنين هنا بالاستجابة لله والرسول، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة.

اللغَة: ﴿مُكَآءٗ﴾ المكاء: الصفير قال أبو عبيدة: والكثير في الأصوات أن تكون على فعال كالصراخ والخوار والدُّعاء والنباح[1] ﴿وَتَصۡدِيَةٗ﴾ التصدية: التصفيق يقال: صدى

---

(١) «البحر» ٤/ ٤٧٤.

تصدية إِذا صفق بيديه وأصله من الصَّدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ الركم: الجمع قال الليث: هو أن تجمع الشيء فوق الشيء حتى تجعله ركاماً مركوما كركام الرمل والسحاب[١] ﴿سَلَفَ﴾ مضى ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عادة الله وسنته في إِهلاك المكذبين من الأمم السالفة ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومعينكم.

سَبَبُ النّزول: أخرج ابن جرير عن الزهري «أن رسول الله ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم» سعد بن معاذ «فقالوا: أرسل لنا» أبا لبابة «فبعثه رسول الله ﷺ إِليهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد؟ فأشار إِلى حلقه يعني أنه الذبح، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله فقال: لا والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليَّ فنزلت الآية» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ....﴾ الآية ثم نزلت توبته[٢].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي أجيبوا دعاء رسوله إِذا دعاكم للإِيمان الذي به تحيا النفوس، وبه تَحْيَوْن الحياة الأبدية قال قتادة: هو القرآن فيه الحياة، والثقة، والنجاة، والعصمة في الدنيا والآخرة[٣] ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء، يُصَرِّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغيّر مقاصده، ويلهمه رشده، أو يُزيغ قلبه عن الصراط السوي، وفي الحديث: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[٤]، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإِيمان[٥] قال أبو حيان: وفي ذلك حضٌ على المراقبة، والخوف من الله تعالى والمبادرة إِلى الاستجابة له جلَّ وعلا[٦] ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وأنه سبحانه إِليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي احذروا بطش الله وانتقامه إِن عصيتم أمره واحذروا فتنة إِن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع، وتصل إِلى الصالح والطالح، لأن الظالم يهلك

---

(١) نفس المرجع ٤/ ٤٧٤.

(٢) «روح المعاني» للألوسي ٩/ ١٩٥. (ش): نزول الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان». لكن روى الإمام أحمد بإسناد حسن أن بني قريظة، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكم الرسول ﷺ فيهم، وقد استشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر من الصحابة - وكان حليفاً لهم - فأشار إِلى أن ذلك يعني ذبحهم.

(٣) «الطبري» ١٣/ ٤٦٨.

(٤) (ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٥) «روح المعاني» ٩/ ١٩١.

(٦) «البحر» ٤/ ٤٨١.

بظلمه وعصيانه، وغير الظالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه وفي الحديث « **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ** »(١)، قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألاّ يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب، فيصيب الظالم وغير الظالم(٢) ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وهذا وعيد شديد أي شديد العذاب لمن عصاه ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم وقتَ أنْ كنتم قلة أذلة يستضعفكم الكفار في أرض مكة فيفتنونكم عن دينكم وينالونكم بالأذى والمكروه ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي تخافون المشركين أن يختطفوكم بالقتل والسلب، والخطف: الأخذ بسرعة ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ أي جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم وهو المدينة المنورة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ أي أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره المؤزر حتى هزمتموهم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي منحكم غنائمهم حلالاً طيبة ولم تكن تحل لأحد من قبل ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة، والغرض التذكير بالنعمة فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي لا تخونوا دينكم ورسولكم بإِطْلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ أي ما ائتمنكم عليه من التكاليف الشرعية كقوله ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية قال ابن عباس: خيانة الله سبحانه بترك فرائضه، والرسول ﷺ بترك سنته وارتكاب معصيته، والأمانات: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد(٣) ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي تعلمون أنه خيانة وتعرفون تبعة ذلك ووباله ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ أي محنة من الله ليختبركم كيف تحافظون معها على حدوده قال الإمام الفخر: وإنما كانت فتنة لأنها تشغل القلب بالدنيا، وتصير حجاباً عن خدمة المولى(٤) ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي ثوابه وعطاؤه خير لكم من الأموال والأولاد فاحرصوا على طاعة الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ أي إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم، تُفرِّقون به بين الحق والباطل كقوله ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨] وفي الآية دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ أي يسترها

---

(١) رواه البخاري. (ش): ليس في البخاري، وإنما رواه الترمذي، وصححه الألباني.
(٢) حاشية الصاوي ٢/ ١٢٢.
(٣) «روح المعاني» ٩/ ١٥٩.
(٤) التفسير الكبير ١٥/ ١٥٢.

عليكم فلا يؤاخذكم بها ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي واسع الفضل عظيم العطاء ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هذا تذكير بنعمة خاصة على الرسول ﷺ بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم والمعنى: اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون في دار الندوة ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ أي يحبسوك ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ أي بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمه ﷺ بين القبائل ﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ أي من مكة ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ أي يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد ويدبر لك ربك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيراً قال «الطبري» في روايته عن ابن عباس: إن نفراً من أشراف قريش اجتمعوا في دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال شيخ من العرب، سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح قالوا: أجل فادخل، فقال انظروا في شأن هذا الرجل - يعني محمداً ﷺ - فقال قائل: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، فصرخ عدو الله وقال: والله ما هذا لكم برأي، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه فإنه إذا خرج فلن يضركم ما صنع وأين وقع، فقال الشيخ المذكور: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذه القلوب بحديثه؟ والله لئن فعلتم لتجتمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم ويقتلوا أشرافكم، قالوا صدق فانظروا رأياً غير هذا، فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره! قالوا: وما هو؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً جلداً، ونعطي كل واحد سيفاً صارماً، ثم يضربونه فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه، فصرخ عدو الله إبليس: هذا والله الرأي لا أرى غيره، قالوا: وما هو؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً جلداً، ونعطي كل واحد سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، ويتفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه، فصرخ عدو الله إبليس: هذا والله الرأي لا أرى غيره، فتفرقوا على ذلك فأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن له بالهجرة، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ..﴾[1] الآية ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن المبين ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾ أي قالوا مكابرة وعناداً: قد سمعنا هذا الكلام ولو أردنا لقلنا مثله ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطروها وليس كلام الله تعالى قال

(١) «الطبري» ١٣/ ٤٩٥. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان» وأبو نعيم في «دلائل النبوة» وابن أبي حاتم في «تفسيره» والبيهقي في «دلائل النبوة».

«أبو السعود»: وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد، كيف لا، ولو استطاعوا لما تأخروا فما الذي كان يمنعهم وقد تحداهم عشر سنين؟ وقُرِّعوا[١] على العجز، ثم قُورِعوا[٢] بالسيف فلم يعارضوه، مع أنفتهم، وفرط استنكافهم[٣] أن يغلبوا لا سيما في باب البيان؟[٤] ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ أي إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أنزل علينا حاصباً وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي بعذاب مؤلم أهلكنا به، وهذا تهكم منهم واستهزاء قال ابن كثير: وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفههم[٥] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم أي إنهم مستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً لك يا محمد، فقد جرت سنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها قال ابن عباس: لم تعذب أمة قط ونبيها فيها[٦]، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال[٧] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وما ان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله، وهو إشارة إلى استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبي الله ﷺ، والاستغفار، أما النبي فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال؟ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي وحالهم الصد عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وكما اضطروه والمؤمنين إلى الهجرة من مكة، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي ما كانوا أهلاً لولاية المسجد الحرام مع إشراكهم ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً[٨] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة سفلة فقد كانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرام، نصد من نشاء، وندخل من نشاء.. والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة، ولكن

---

(١) (ش): قرَّع: عَنَّف.
(٢) (ش): قارعَ فلانٌ فلانًا: ضارَبَهُ وصارَعَهُ. قارع الحجّة بالحُجّة: ردّ على الدليل بدليل عكسيّ.
(٣) (ش): اسْتَنْكفَ: امْتنع أنَفَةً وحميَّة واستكبارًا.
(٤) «أبو السعود» ٢/ ٢٣٧.
(٥) «المختصر» ٢/ ١٠١.
(٦) «البحر» ٤/ ٤٨٩.
(٧) «الرازي» ١٥/ ١٥٨.
(٨) (ش): استأهل الشيءَ: استحقّه، كان أهلًا له، حقيقًا به.

الله رفعة عنهم إكراماً لرسوله عليه السلام، ولاستغفار المسلمين المستضعفين ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ هذا من جملة قبائحهم أي ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيراً وتصفيقاً، وكانوا يفعلونهما إذا صلى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم، والمعنى أنهم وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراةٌ يصفرون ويصفقون[١] ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي فذوقوا عذاب القتل والأسر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة، وهو إشارة إلى ما حصل لهم يوم بدر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يصرفون أموالهم ويبذلونها لمنع الناس عن الدخول في دين الإسلام، ولحرب محمد عليه السلام، قال «الطبري»: لما أصيب كفار قريش يوم بدر، ورجع فلُّهم[٢] إلى مكة قالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وَتَرَكم[٣] وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا فنزلت الآية[٤] ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي فسينفقون هذه الأموال ثم تصير ندامة عليهم، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يطمعون من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ إخبار بالغيب أي ثم نهايتهم الهزيمة والاندحار ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي والذين ماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم، فأَعْظِمْ بها حسرةً وندامةً لمن عاش منهم ومَن هلك ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان، ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار، والمراد بالخبيث والطيب الكافر والمؤمن ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يجعل الكفار بعضهم فوق بعض ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي يجعلهم كالركام متراكماً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ أي فيقذف بهم في نار جهنم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم، ثم دعاهم تعالى إلى التوبة والإنابة، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال فقال سبحانه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٢٤.

(٢) (ش): قومٌ فَلٌّ: مُنْهزِمونَ، والجمع فُلولٌ وأفْلالٌ. فلول الجيش: الجماعات المتفرِّقة من الجنود المنهزمين.

(٣) (ش): وَتَر الشَّخصَ: أدركَه بمكروه. قتَل حَميمَه، أي قريبه الذي يهتمّ لأمره، أو صديقه الذي يُكِنُّ لك حبًّا شديدًا.

(٤) نفس المرجع ١٣/ ٥٣٢. (ش): ضعيف. أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، و«الطبري» في «جامع البيان».

﴿سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائي، فكذلك نفعل بهم، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده، قال ابن عباس: الفتنة: الشرك، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض وقال ابن جريج: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه[1] ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلا دين الإسلام قال الألوسي: واضمحلاها إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل[2]، لقوله عليه السلام «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»[3]، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا فإن الله مطلع على قلوبهم، يثيبهم على توبتهم وإسلامهم ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ أي وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان فاعلموا يا معشر المؤمنين أن الله ناصركم ومعينكم عليهم، فثقوا بنصرته وولايته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي نعم الله أن يكون مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه، ونعم النصير لكم فإنه لا يُغلب من نصره الله.

البَلَاغَة: ١ - ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية، شَبَّه تَمَكُّنه تعالى من قلوب العباد وتصريفها كما يشاء، بمن يحول بين الشيء والشيء، وهي استعارة لطيفة.

٢ - ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ﴾ صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تآمر المشركين على صاحب الرسالة عليه السلام.

٣ - ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ إضافة المكر إليه تعالى على طريق «المشاكلة» بمعنى إحباط ما دبروا من كيد ومكر، والمشاكلة أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى وقد تقدم[4].

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٣٨.

(٢) «روح المعاني» ٩/ ٢٠٧.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) انظر توضيح ذلك عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ من سورة البقرة.

(ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع:

الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفًا مطلقًا ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . إلخ.

الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبدًا، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة.. إلخ.

الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالًا، ويمكن أن تكون نقصًا، على حسب الحال التي تُذكر فيها. =

٤ - ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ تأمل التعبير الرائع في أسلوب القرآن حيث وضعوا المكاء والتصدية «التصفير والتصفيق» موضع الصلاة التي ينبغي أن تؤدى عند البيت فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة، ولا تعرف حرمة بيوت الله، وهو على حَدِّ قولِ القائل: « تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ»[١].

٥ - ﴿ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ كناية عن المؤمن والكافر وبين لفظ «الخبيث» و «الطيب» طباق وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: روى الحافظ ابن كثير عن أبي سعيد بن المعلى رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ؟ ثم قال: لأعلمنك أعظم صورة في القرآن قبل أن أخرج، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ذلك فقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٢].

لطيفة: حكي عن معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْه أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملَّكُوا عليهم امرأة! فقال الرجل: أجهل من قومي قومك حين قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم

= فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالًا يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصًا لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء، فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيدًا بما يجعله كمالًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالًا في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخادع وصفًا مطلقًا. لأنه حينئذٍ لا يكون كمالًا.

فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾. وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾. وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾. وقوله: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحًا سيئًا لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

(١) (ش): أَي: الْقَائِمُ مَقَامَ التَّحِيَّةِ هُوَ الضَّرْبُ الْوَجِيعُ.

(٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٩٥. (ش): رواه البخاري

إلى الحق ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، فسكت معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

تنبيه: البلاذري لا يُعْتمد عليه فيما ينقله عن الصحابة رضي الله عنهم من أحداث الفتنة؛ فقد ورد في ترجمته ما يدل على أن في عدالته نظرًا.

قال الله تعالى:

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ
ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ
تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ
بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ
وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ
كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ
مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ
أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا
يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ

(١) (ش): هذه القصة لا تثبت، رواها الواحدي في «التفسير الوسيط»، البلاذري في «أنساب الأشراف» بسند ضعيف.

مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ
إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ
وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ
إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾

المناسَبَة: لما أمر تعالى بقتال المشركين، وذكر فيما تقدم طرفاً من غزوة بدر، وكان لا بد بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم - وهي أموال المشركين - على طريق القهر والظفر، ذكر سبحانه هنا حكم الغنائم وكيفية قسمتها - ثم سرد بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة المجيدة «غزوة بدر» .

اللغَة: ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ عدوة الوادي: جانبه وشفيره، والدنيا تأنيث الأدنى أي الأقرب والمراد ما يلي جانب المدينة ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ القصوى: تأنيث الأقصى أي الأبعد، وكل شيء تنحى عن شيء فقد قصا والمراد ما يلي جانب مكة ﴿نَكَصَ﴾ النكوص: الإحجام عن الشيء ﴿كَدَأۡبِ﴾ الدأب: العادة، وأصله في اللغة إدامة العمل يقال: فلان يدأب في كذا أي يدوم عليه ويواظب ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان مداوم على عادته ﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾ قال الليث: يقال ثقفنا فلاناً في موضع كذا أي أخذناه وظفرنا به[1] ﴿فَشَرِّدۡ﴾ التشريد: التفريق والتبديد يقال: شردت القوم إذا قاتلتهم وطردتهم عنها حتى فارقوها.

التفسير: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ أي اعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتوه من أموال المشركين في الحرب سواء كان قليلاً أو كثيراً ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ قال الحسن: هذا مفتاح كلام، الدنيا والآخرة لله[2] أي أن ذِكْر اسم الله على جهة التبرك والتعيظم كقوله ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] قال المفسرون: تقسم الغنيمة خمسة أقسام، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية، والباقي يوزع على الغانمين ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أي سهم من الخمس يعطى للرسول ﷺ ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ولهؤلاء الأصناف من اليتامى الذين مات آباؤهم، والفقراء من ذوي الحاجة، والمنقطع في سفره من المسلمين ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ جواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامتثلوا أمره بطاعته ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ وبما أنزلنا على محمد ﷺ ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ أي يوم بدر لأن الله فرق به بين الحق والباطل ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين، والتقى فيه جند الرحمن بجند الشيطان ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء، ومنه

(١) «الرازي» ١٥/ ١٨٩.
(٢) «القرطبي» ٨/ ١٠.

نَصْرُكم مع قلَّتكم وكثْرتهم ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ هذا تصوير للمعركة أي وقت كنتم يا معشر المؤمنين بجانب الوادي القريب إلى المدينة ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي وأعداؤكم المشركون بجانب الوادي الأبعد عن المدينة ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي والعير التي فيها تجارة قريش في مكان أسفل من مكانكم فيما يلي ساحل «البحر» ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي ولو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال لاختلفتم له ولكن الله بحكمته يسر وتمم ذلك قال كعب بن مالك: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[1] قال «الرازي»: المعنى لو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لقلتكم وكثرتهم[2]، ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ولكن جمع بينكم على غير ميعاد ليقضي الله ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، فكان أمراً متحققاً واقعاً لا محالة قال «أبو السعود»: والغرض من الآية أن يتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح، ليس إلا صنعاً من الله عَزَّ وَجَلَّ خارقاً للعادات، فيزدادوا إيماناً وشكراً، وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس[3] ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ أي فعل ذلك تعالى ليَكْفر مَن كَفَر عن وضوح وبيان[4] ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ أي ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان، فإن وقعة بدر من الآيات الباهرات على نصر الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بنياتهم ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أي اذكر يا محمد حين أراك الله في المنام أعداءك قلة، فأخبرت بها أصحابك حتى قويت نفوسهم وتشجعوا على حربهم قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي ولو أراك ربك عدوك كثيراً لجبن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم، وانظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ لأنه معصوم بل قال ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ إشارة إلى أصحابه ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتالهم ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عليم بما في القلوب يعلم ما يغيّر أحوالها من الشجاعة والجبن، والصبر والجزع ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ هذه الرؤية باليقظة لا بالمنام أي واذكروا يا معشر المؤمنين حين

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٦٦.

(٢) تفسير «الرازي» ١٥/ ١٦٧.

(٣) «أبو السعود» ٢/ ٢٤٠.

(٤) ذهب «الطبري» إلى أن المعنى ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره، وليعش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعلمها وما ذهبنا إليه هو اختيار الجلالين وهو أوضح ويؤيده: ﴿لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين﴾.

التقيتم في المعركة فقلل الله عدوكم في أعينكم لتزداد جرأتكم عليهم، وقلَّلكم في أعينهم حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لكم قال أبو مسعود: لقد قُلِّلُوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل: أتراهم يكونون مائة[١]؟ وهذا قبل التحام الحرب فلما التحم القتال كثر الله المؤمنين في أعين الكفار فبُهتوا وهابوا، وفُلَّت شوكتهم[٢]، ورأوا ما لم يكن في الحسبان، وهذا من عظائم آيات الله في تلك الغزوة ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي فَعَلَ ذلك فجَرَّأ المؤمنين على الكافرين، والكافرين على المؤمنين، لتقع الحرب ويلتحم القتال، وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي مصير الأمور كلها إلى الله يصرّفها كيف يريد، لا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ هذا إرشاد إلى سبيل النصر في مبارزة الأعداء أي إذا لقيتم جماعة من الكفرة فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي أكثروا من ذكر الله بألسنتكم لتستمطروا نصره وعونه وتفوزوا بالظفر عليهم ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي في جميع أقوالكم وأفعالكم ولا تخالفوا أمرهما في شيء ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجبنوا عن لقاء عدوكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي تذهب قوتكم وبأسكم، ويدخلكم الوهن والخور ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي واصبروا على شدائد الحرب وأهوالها، فإن الله مع الصابرين بالنصر والعون ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي لا تكونوا ككفار قريش حين خرجوا لبدر عتواً وتكبراً، وطلباً للفخر والثناء، والآية إشارة إلى قول أبي جهل: والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً، فنشرب فيها الخمور وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان - المغنيات - وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً[٣]، قال «الطبري»: فَسُقُوا مكانَ الخمر كؤوسَ المنايا[٤]، وناحت عليهم النوائح مكان القيان ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي وهو سبحانه عالم بجميع ذلك وسيجازيهم عليه ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي واذكر وقت أن حسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الشرك وعبادة الأصنام، وخروجهم لحرب الرسول عليه السلام ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي لن يغلبكم محمد وأصحابه ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي مجير ومعين لكم ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٧٣.

(٢) (ش): فَلّ السَّيفُ ونحوُه: تثلّم حدُّه؛ صار ضعيف القطع. فَلَّ السَّيفَ: كسَره في حَدِّه.

(٣) ذكر «الطبري» في روايته عن ابن عباس أن أبا سفيان لما نجا بالعير أرسل إلى قريش يقول: ارجعوا فقد سلمت عيركم ونجت تجارتكم فقال أبو جهل اللعين ما قال. (ش): ذكره ابن اسحق في «السيرة» بدون إسناد.

(٤) «الطبري» ١٣/ ٥٧٨.

نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ أي فلما تلاقى الفريقان ولى الشيطان هارباً مولياً الأدبار ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ ﴾ أي بريء من عهد جواركم، وهذا مبالغة في الخذلان لهم ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ أي أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك وفي الحديث «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر، ولا أدحر، ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، إلا ما رأى يوم بدر، فإنه رأى جبريل يزْعُ الملائكة»[1] أي يصفها للحرب ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه قال ابن عباس: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيته في صورة «سراقة بن مالك» فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضه من التراب فرمى بها وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وكذب عدو الله فإنه علم أنه لا قوة له ولا منعة وذلك حين رأى الملائكة[2] ، ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي حين قال أهل النفاق الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ أي اغتر المسلمون بدينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به قال تعالى في جوابهم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصره لأن الله عزيز أي غالب لا يذل من استجار به، حكيم في أفعاله وصنعه ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب أو أيها السامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين، وجواب (لَوْ) محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً فظيعاً وشأناً هائلاً قال أبو حيان: وحذف جواب (لَوْ) جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التهويل والتعظيم[3] أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم، على وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي ويقولون لهم: ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل: كانت معهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم ناراً[4] ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي ذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي وأنه تعالى عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه

(١) رواه مالك في الموطأ. (ش): ضعفه الألباني.
(٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١١١. (ش): ضعيف. رواه الطبراني، و«الطبري» في «جامع البيان».
(٣) «البحر» ٤/ ٥٠٦.
(٤) «البيضاوي» ص ٢١٥.

بغير ذنب، وصيغة ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب أي ليس منسوباً إلى الظلم فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالى فتدبره ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي دأب هؤلاء الكفرة في الإجرام يعني عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه كعمل وطريق آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود في العناد والتكذيب والكفر والإجرام ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي جحدوا ما جاءهم به الرسل من عند الله ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي قوي البطش شديد العذاب، لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي ذلك الذي حل بهم ن العذاب بسبب أن الله عادل في حكمه لا يغير نعمة أنعمها على أحدٍ إلا بسبب ذنبٍ ارتكبه، وأنه لا يبدل النعمة بالنقمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي حتى يبدلوا نعمة الله بالكفر والعصيان، كتبديل كفار قريش نعمة الله من الخصب والسعة والأمن والعافية، بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين قال السدي: نعمة الله على قريش محمد ﷺ فكفروا به وكذبوه، فنقله الله إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب[1] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وأنه سبحانه سميع لما يقولون عليم بما يفعلون ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كرره لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم أي شأن هؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السابقين حيث غيروا حالهم فغيّر الله نعمته عليهم ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكناهم بسبب ذنوبهم بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف وبعضهم الحجارة، وبعضهم بالغرق ولهذا قال ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه معه ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرَّضوها للعذاب ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي شر من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يتوقع منهم إيمان لذلك قال ابن عباس: نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يحاربوه فنقضوا العهد[2]، ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أي الذين عاهدتهم يا محمد على ألا يعينوا المشركين ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ أي يستمرون على النقض مرة بعد مرة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي لا يتقون الله في نقض العهد قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود بني قرظة ألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين، فنقضوا العهد وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر،

(١) «القرطبي» ٨/ ٢٩.

(٢) «زاد المسير» ٣/ ٣٧١. (ش): ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» في علم التفسير» بسند ضعيف.
وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ قَالَ هُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِى عَبْدِ الدَّارِ رواه البخاري.

ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوا العهد ومالئوا الكفار يوم الخندق[١] ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي فإن تظفر بهم في الحرب ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أي فاقْتُلْهم ونكِّل بهم تنكيلاً شديداً يشَرِّد غيرهم من الكفرة المجرمين[٢] ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي لعلهم يَتَّعِظون بما شاهدوا فيَرْتَدِعُوا والمعنى: اجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ أي وإن أحسست يا محمد من قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثاً بأمارات ظاهرة ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي اطرح إليهم عهدهم على بينة ووضوح من الأمر قال النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه والمعنى: وإما تخافن من قوم - بينك وبينهم عهد - خيانة فانبذ إليهم العهد أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً[٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وهذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد أي لا يحب من ليس عنده وفاء ولا عهد ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أي لا يظنن هؤلاء الكفار الذين أفلتوا يوم بدر من القتل أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم في قبضتنا وتحت مشيئتنا وقهرنا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ كلام مستأنف أي إنهم لا يُعجزون ربهم، بل هو قادر على الانتقام منهم في كل لحظة، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ أي أعدوا لقتال أعدائكم جميع أنواع القوة: المادية، والمعنوية قال الشهاب: وإنما ذكر القوة هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنُبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان[٤] ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ أي الخيل التي تربط في سبيل الله ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أي تُخيفون بتلك القوة الكفار أعداء الله وأعداءكم ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي وترهبون به آخرين غيرهم قال ابن زيد: هم المنافقون وقال مجاهد: هم اليهود من بني قريظة والأول أصح لقوله ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي وما تنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ أي تُعْطون جزاءه وافياً كاملاً يوم القيامة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي لا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً.

البَلاَغَة: ١ - ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ التنكير للتقليل.

٢ - ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ذكره ﷺ بلفظ العبودية وإضافته إلى الله للتشريف والتكريم.

---

(١) الفخر «الرازي» ١٥/ ١٦٢.

(٢) (ش): نَكَّلَ بِهِ تَنْكِيلاً إذا جَعَلَهُ نكالاً وعِبْرة لِغَيْرِهِ. وَيُقَالُ: نَكَّلْت بِفُلاَنٍ إذا عَاقَبْتَهُ فِي جُرْم أَجْرَمَه عُقوبةً تُنَكِّل غَيْرَهُ عَنِ ارْتِكَابِ مِثْلِهِ. أي تجعله إذا رَآهُ خَافَ أَن يَعْمَلَ عَمَلَهُ.

(٣) تفسير «القرطبي» ٨/ ٣٢.

(٤) «محاسن التأويل» ٨/ ٣٠٢٤.

٣ - ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بين لفظ «الدنيا» و «القصوى» طباق.

٤ - ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ استعار الهلاك والحياة للكفر والإِيمان، وبين «يهلك» و «يحيا» طباقٌ.

٥ - ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي تذهب قوتكم وشوكتكم وهو من باب الاستعارة أيضاً.

تنبيه: يأمرنا الله تعالى بإِعداد القوة لقتال الأعداء، وقد جاء التعبير عاماً ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ ليشمل القوة المادية، والقوة الروحية، وجميع أسباب القوة، وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإِسلامية وهو لا يرى عندنا معامل للأسلحة، وذخائر للحرب، بل كلها مما يشتريه المسلمون من بلاد العدو؟ فلا بد لنا من العودة إِلى تعاليم الإِسلام إِذا ما أردنا حياة العزة والكرامة.

قال الله تعالى:

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ
فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ
عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ
مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ
لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾
لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا
يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ
مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم
مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ
وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ
وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

المناسَبَة: لما أمر الله تعالى بإِعداد العدة لإِرهاب الأعداء، أمر هنا بالسلم بشرط العزة والكرامة متى وجد السبيل إِليه، لأن الحرب ضرورة اقتضتها ظروف الحياة لرد العدوان،

وحرية الأديان، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان[١]، ثم تناولت الآيات الكريمة حكم الأسرى، وختمت السورة بوجوب مناصرة المؤمنين بعضهم لبعض، بسبب الولاية الكاملة وأخوة الإيمان.

اللغَة: ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾ مال يقال: جنح الرجل إلى فلان إذا مال إليه وخضع له، وجنحت الإبل: إذا مالت أعناقها في السير، ومنه قيل للأضلاع جوانح ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ المسالمة والصلح قال الزمخشري: وهي تؤنث تأنيث ضدها وهي الحرب قال الشاعر:

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ[٢]

﴿حَرِّضِ﴾ التحريض: الحث على الشيء وتحريك الهمة نحوه كالتحضيض ﴿يُثۡخِنَ﴾ قال الواحدي: الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته، يقال: قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه، وأثخنته الجراح، والثخانة: والغلظة، والمراد بالإثخان هنا المبالغة في القتل والجراحات[٣].

سَبَبُ النّزول: أ - عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله: «**مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ!**» قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة على المشركين، هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان، فقلت يا رسول الله: أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت، فقال ﷺ: «**أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» لشجرة قريبة فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية[٤].

---

(١) (ش): لقد شُرع الجهاد في الإسلام لنَشْر عقيدة التوحيد في الأرض وظهور دين الإسلام على سائر الأديان، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ﴾، وغيرها من الآيات التي تبين الحكمة التي من أجلها شرع الجهاد في سبيل الله لا من أجل ظروف الحياة ولا من أجل حرية الأديان.

(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٣٣. (ش): معنى البيت أن الصلح تأخذ منها ما يكفيك من طول المدة، وأما الحرب فيكفيك منها القليل.

(٣) الفخر «الرازي» ١٥/ ٢٠١.

(٤) «زاد المسير» ٣/ ٣٨٠ والرواية لمسلم.

ب - لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر كان معه عشرون أوقية من ذهب، فلم تحسب له من فدائه، وكلف أن يفدي ابني أخيه فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب، وقال النبي ﷺ «أضعفوا على العباس الفداء» فأخذوا منه ثمانين أوقية فقال العباس لرسول الله ﷺ : لقد تركتني أتكفَّف قريشاً ما بقيت، فقال له ﷺ : وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟ فقال: أي الذهب؟ فقال: إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا! فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك، فقال يا ابن أخي: من أخبرك بهذا؟ قال: الله أخبرني فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم، وأمر ابني أخيه فأسلما ففيهما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية[1].

التفسير: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ أي إن مالوا إلى الصلح والمهادنة فمل إليه وأجبهم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فوض الأمر إلى الله ليكون عوناً لك على السلامة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي هو سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنياتهم ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ أي وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي فإن الله يكفيك وهو حسبك، ثم ذكره بنعمته عليه فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي قواك وأعانك بنصره وشد أزرك بالمؤمنين قال ابن عباس: يعني الأنصار ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي جمع بين قلوبهم على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فأبدلهم بالعداوة حبّاً، وبالتباعد قرباً قال «القرطبي»: وكان تأليف القلوب مع العصبيّة الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته، لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها، وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بينهم بالإيمان، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين[2] ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال

---

(١) «القرطبي» ٨/ ٤٢.

(ش): قَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللهُ يَجْزِيكَ، فَافْدِ نَفْسَكَ وَابْنَيْ أَخَوَيْكَ: نَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعُقَيْلَ بْنَ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرِو بْنِ جَحْدَمٍ أَخَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ» فَقَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ فَقُلْتَ لَهَا: إِنْ أُصِبْتُ فَهَذَا الْمَالُ لِبَنِي الْفَضْلِ، وَعَبْدِ اللهِ وَقُثَمَ؟» فَقَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الْفَضْلِ، فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عِشْرِينَ أُوقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «افْعَلْ» فَفَدَى الْعَبَّاسُ نَفْسَهُ وَابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [الأنفال: ٧٠] فَأَعْطَانِي مَكَانَ الْعِشْرِينَ الْأُوقِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ عِشْرِينَ عَبْدًا كُلُّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يَضْرِبُ بِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

رواه الحاكم وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» ووافقه الذهبي.

(٢) «القرطبي» ٨/ ٥٣.

ما قدرت على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضها بعضاً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب على أمره لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الله وحده كافيك، وكافي اتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد وقال الحسن البصري: المعنى حسبك أي كافيك الله والمؤمنون[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي حض المؤمنين ورغبهم بكل جهدك على قتال المشركين ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ قال «أبو السعود»: هذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم[2] والمعنى: إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب يغلبوا مائتين من عدوهم، بعون الله وتأييده ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وإن يوجد منكم مائة - بشرط الصبر عند اللقاء - تغلب ألفاً من الكفار بمشيئة الله ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الباء سببية أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة لا يفقهون حكمة الله، ولا يعرفون طريق النصر وسببه، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، فلذلك يُغلبون قال ابن عباس: كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً، ثم لما شق ذلك عليهم نُسِخ وأصبح ثبات الواحد للاثنين فرضاً ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ أي رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ أي وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ أي إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾ أي وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء، يتغلبوا على ألفين من الأعداء ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذا ترغيب في الثبات وتبشير بالنصر أي الله معهم بالحفظ والرعاية والنصرة، ومن كان الله معه فهو الغالب ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عتاب للنبي ﷺ وأصحابه على أخذ الفداء[3] والمعنى: لا ينبغي لنبي من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى إلا بعد أن يكثر القتل ويبالغ فيه ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء حطام الدنيا ومتاعها الزائل؟ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي يريد لكم الباقي الدائم، وهو ثواب الآخرة، بإعزاز دينه وقتل أعدائه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي

(١) القول الأول معناه: حسبك الله وحده وحسب أتباعك وقد اختاره الزمخشري ونصره ابن القيم في مقدمة «زاد المعاد» بأدلة مقنعة، والقول الثاني روى عن مجاهد والحسن البصري واختاره السيوطي والمحلى في تفسير الجلالين، والأول أرجح.

(٢) تفسير «أبو السعود» ٢/ ٢٤٧.

(٣) انظر سبب النزول.

عزيز في ملكه لا يقهر ولا يُغلب، حكيم في تدبير مصالح العباد ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ أي لولا حكم في الأزل من الله سابق وهو ألا يعذب المخطئ في اجتهاده[1] ﴿لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم، وروي أنها لما نزلت قال عليه السلام «لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر»[2]، ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾ أي كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالاً أي محللاً لكم ﴿طَيِّبٗا﴾ أي من أطيب المكاسب لأنه ثمرة جهادكم، وفي الصحيح « **وجُعِلَ رِزْقِى تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِى** »[3] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا الله في مخالفة أمره ونهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي مبالغ في المغفرة لمن تاب، رحيم بعباده حيث أباح لهم الغنائم ﴿ياأيها النبي قُل لِّمَن في أَيْدِيكُمْ مِّنَ الأسرى﴾ أي قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر من الأعداء، والمراد بهم أسرى بدر ﴿إِن يَعْلَمِ الله فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾ أي إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وإخلاصاً، وصدقاً في دعوى الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من الذنوب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي واسع المغفرة، عظيم الرحمة لمن تاب وأناب قال «البيضاوي»: نزلت في العباس رَضِيَ اللهُ عَنْه حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه «عقيل» و «نوفل» فقال يا محمد: تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت، فقال: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في جهتي هذه، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعيالك! فقال العباس: ما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي تعالى، قال: فأشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله، والله لم يطلع عليه أحد، ولقد دفعته إليها في سواد الليل ! قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي - يعني الموعود - بقوله تعالى ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾[4] ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ ﴾ وإن كان هؤلاء الأسرى يريدون خيانتك يا محمد بما أظهروا من القول ودعوى الإيمان ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ أي فقد خانوا الله تعالى قبل هذه الغزوة غزوة بدر ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡ﴾ أي فقواك ونصرك الله عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضاً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عالم بجميع ما يجري، يفعل ما تقضي به حكمته البالغة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي صدقوا

(١) هذا القول اختاره «الرازي» وضعف بقية الأقوال وهو أحد الأقوال المروية عن ابن عباس. انظر الفخر «الرازي» ١٥/ ٢٠٢.

(٢) (ش): ضعيف، رَوَاهُ الطَّبَرِيّ في «جامع البيان».

(٣) انظر تفصيل موضوع الفداء في التفسير الكبير للرازي. (ش): حديث: « جُعِلَ رِزْقِى تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِى» رواه البخاري ومسلم.

(٤) تفسير «البيضاوي» ١/ ٢١٧.

الله ورسوله ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ أي تركوا وهجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله، وهم المهاجرون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ أي آووا المهاجرين في ديارهم ونصروا رسول الله وهم الأنصار ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الفاضلة بعضهم أولياء بعض في النصرة والإرث، ولهذا أخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟﴾ أي آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ أي لا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية حتى يهاجروا من بلد الكفر ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي وإن طلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي إلا إذا استنصروكم على من بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب على أعمالكم فلا تخالفوا أمره. ذكر تعالى المؤمنين وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: المهاجرين، الأنصار، الذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله، وثنى بالأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا بيّن أنهم حرموا الولاية حتى يهاجروا في سبيل الله، وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة ذكر حكم الكفار فقال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي هم في الكفر والضلال ملة واحدة فلا يتولاهم إلا من كان منهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي وإن لم تفعلوا ما أُمِرْتُم به من تولي المؤمنين وقطع الكفار ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين، ثم عاد بالذكر والثناء على المهاجرين والأنصار فقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي هؤلاء هم الكاملون في الإيمان، المتحققون في مراتب الإحسان ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في جنات النعيم قال المفسرون: ليس في هذه الآيات تكرار، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين، وهذه تضمنت الثناء والتشريف، ومآل حال أولئك الأبرار من المغفرة والرزق الكريم في دار النعيم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ هذا قِسْمٌ رابع وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحُكْمُهم حكم المؤمنين السابقين في الثواب والأجر ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي أصحاب القرابات بعضهم أحق بإرث بعض من الأجانب في حكم الله وشرعه قال العلماء: هذه ناسخة للإرث بالحِلْفِ والإخاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ أي أحاط بكل شيء

علماً، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو ختم للسورة في غاية البراعة.

البَلاَغَة: ١ - ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ هذا الأسلوب يسمى بـ «الإِطناب» وفائدته التذكير بالمنة الكبرى والنعمة العظمى على الرسول والمؤمنين.

٢ - ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ...﴾ الآيات [١]

قال في «البحر»: انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر، وحذف نظيره من الثانية، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة، وحذفه من الأولى، ولما كان الصبر شديد الطلب أثبت في جملتي التخفيف، ثم ختمت الآيات بقوله ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ مبالغة في شدة المطلوبية، وهذا النوع من البديع يسمى «الاحتباك»[٢] . فلله در التنزيل ما أحلى فصاحته وأنضر بلاغته!!

«تم بحمده تعالى تفسير سورة الأنفال»



(١) (ش): قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(٢) «البحر» المحيط ٤/ ٥١٦.



مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تعني بجانب التشريع، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة[1]، وروى الحافظ ابن كثير: أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك وبعث أبا بكر الصديق أميرًا على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فيها من الأحكام[2]

نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ «غزوة تبوك» وكنت في حر شديد، وسفر بعيد، حين طابت الثمار، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين، وامتحانًا لصدقهم وإخلاصهم لدين الله، وتمييزًا بينهم وبين المنافقين، ولهذه السورة الكريمة هدفان أساسيان -إلى جانب الأحكام الأخرى- هما:

أولًا: بيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين، وأهل الكتاب.

ثانيًا: إظهار ما كانت عليه النفوس حينما استفزهم الرسول لغزو الروم.

* أما بالنسبة للهدف الأول فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حدًا، ومنعت حج المشركين لبيت الله الحرام، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية، وإباحة التعامل معهم، وقد كان بين النبي ﷺ والمشركين عهود ومواثيق، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضًا، ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين، وخانت طوائف اليهود بنو النضير «بنو قريظة» و«بنو قينقاع» ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ ونقضوا عهودهم مرات ومرات، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها أعداؤهم، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود ونبذها إليهم على وضوح وبصيرة، لأن الناكثين

---

(١) البخاري ٨/ ٢٢٧. (ش): عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضى الله عنه قَالَ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ كَامِلَةً بَرَاءَةٌ رواه البخاري.

(٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١٢٣. (ش): عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه قَالَ بَعَثَنِى أَبُو بَكْرٍ فِى تِلْكَ الْحَجَّةِ فِى مُؤَذِّنِينَ، بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى أَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ. فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِىٌّ يَوْمَ النَّحْرِ فِى أَهْلِ مِنًى بِبَرَاءَةَ، وَأَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

لا يتورعون عن الخيانة كلما سنحت لهم الفرصة، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين والمشركين من صلات، فلا عهد، ولا تعاهد، ولا سلم، ولا أمان، بعد أن منحهم الله فرصة كافية هي السياحة في الأرض أربعة أشهر ينطلقون فيها آمنين، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم، ويختاروا ما يرون فيه المصلحة لهم، وفي ذلك نزل صدر السورة الكريمة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾ الآيات.

* ثم تلتها الآيات في قتال الناقضين للعهود من أهل الكتاب ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...﴾ الآية، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من عشرين آية، كشف الله سبحانه فيها القناع عن خفايا أهل الكتاب، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، وحقد على الإسلام والمسلمين حين استفزهم رسول الله ﷺ لغزو الروم، وقد تحدثت الآيات عن المتثاقلين منهم والمتخلفين، والمثبطين، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين، وفضحت أساليب نفاقهم، وألوان فتنتهم وتخذيلهم للمؤمنين، حتى لم تدع لهم سترًا إلا هتكته، ولا دخيلة إلا كشَفَتْها، وترَكَتْهم بعد هذا الكشف والإيضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة بدءًا من قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [(١)]﴾ ولهذا سماها بعض الصحابة «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم، قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال: تلك الفاضحة، ما زال ينزل ومنهم، ومنهم، حتى خفنا ألا تدع منهم أحدا[(٢)]، وروى عن حذيفة بن اليمان أنه قال: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحدًا من المنافقين إلا نالت منه[(٣)]، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها قال ابن عباس: سألت على ابن أبي طالب لِم لمْ يُكتب في براءة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ قال: لأن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف، ليس فيها أمان، وقال سفيان بن عيينة: إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين[(٤)].

* وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة قد تناولت «الطابور الخامس»[(٥)] المُنْدَسّ بين

---

(١) الآيات من (٤٢-١١٠) ويكاد يكون جو السورة في النفاق والمنافقين.

(٢) «القرطبي» ٨/ ٦١.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٢٤١.

(٤) «القرطبي» ٨/ ٦٣.

(٥) (ش): الطابور الخامس: جماعة من المواطنين تساعد العدُوَّ في السِّرِّ بالتجسس لصالحه.

صفوف المسلمين آلا وهم «المنافقون» الذين هم أشد خطرًا من المشركين ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تُبق منهم ديارًا، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام، أن يتخذوا بيوت الله أوكارًا للتخريب والتدمير، وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين، في مسجدهم، الذي عرف باسم «مسجد الضرار» وقد نزل في شأنه أربع آيات في هذه السورة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ...﴾ الآيات ولم يكد النبي ﷺ يتلقى الوحي حتى قال لأصحابه: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم وأهله فاهدموه وحرقوه» فهدموه[١] وكفى الله الإسلام والمسلمين شرهم، وكيدهم، وخبثهم، وفضحهم إلى يوم الدين.

التسمية: تسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسمًا، قال العلامة الزمخشري: لهذه السورة عدة أسماء: (براءة، والتوبة، والمقشقشة، والمبعثرة، والمشردة، والمخزية، والفاضحة، والمثيرة، والحافرة، والمنكلة، والمدمدمة، وسورة العذاب) قال: لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي تبرئ منه ،وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكل بهم، وتشردهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم[٢].

قال الله تعالى:

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا

---

(١) (ش): قال الألباني : «ضعيف»، رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد. لكن أخرج الحاكم عن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «رَأَيْتُ الدُّخَانَ مِنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ حِينَ انْهَارَ» وصححه ووافقه الذهبي، فلعل المسجد انهار بأمر الله دون حرق، والله أعلم. (انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص ٢٢٠- ٢٢١).

(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٤١.

ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟
فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ
وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟
أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ
وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا
رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا
يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا
ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

اللغة: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ برئتُ من الشيء: إذا قطعت ما بينك وبينه من سبب وأزلته عن نفسك، قال الزجاج: برئت من الرجل والدين براءةً، وبرئت من المرض بُروءاً[1] ﴿فَسِيحُوا۟﴾ السياحة: السير في الأرض والذهاب فيها للتجارة أو العبادة أو غيرهما ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ الأذان: الإعلام ومنه أذان الصلاة ﴿مَرْصَدٍ﴾ المرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو من قولهم: رصدت فلاناً إذا ترقبته قال الشاعر: إن المنية للفتى بالمرصد[2] ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلب جوارك أي أمانك ﴿إِلًّا﴾ الإلُّ: العهد والقرابة وأنشد عبيدة:

أَفْسَدُ النَّاسِ خُلُوفٌ خَلَفُوا ... الإلَّ وأعراف الرَّحِمْ[3]

﴿نَّكَثُوٓا۟﴾ النكث: النقض وأصله في كل ما فُتل ثم حل ﴿وَلِيجَةً﴾ بطانة ودخيلة، قال

(١) «زاد المسير» ٣/ ٣٩٢.
(٢) «القرطبي» ٨/ ٧٣.
(٣) «البحر» المحيط ٥/ ٣.

أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة[١] وأصله من الولوج، فالداخل في القوم وليس منهم يسمى وليجة وقال الفراء: الوليجة: البطانة من المشركين يفشي إليهم سره، ويعلمهم أمره. سَبَبُ النّزول: روي أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر، وفيهم «العباس بن عبد المطلب» فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فعيّروهم بالشرك، وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقال: وهل لكم من محاسن؟ فقال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني - الأسير - فنزلت هذه الآية ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ... ﴾ الآية[٢].

التفسير: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي هذه براءة من المشركين ومن عهودهم كائنة من الله ورسوله قال المفسرون: أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك، ثم أتبعه علياً ليعلم الناس بالبراءة، فقام علي فنادى في الناس بأربع: ألاّ يقرب البيت الحرام بعد العام مشرك، وألا يطوف بالبيت عريان، وأنه لا يدخل الجنة إلا مسلم، ومن كان بينه وبين رسول الله مدة فأجله إلى مدته، والله بريء من المشركين ورسوله[٣] ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي سيروا آمنين أيها المشركون مدة أربعة أشهر لا يقع بكم منا مكروه، وهو أمر إباحة وفي ضمنه تهديد ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي لا تفوتونه تعالى وإن أمهلكم هذه المدة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ أي مُذِلُّهم في الدنيا بالأسر والقتل، وفي الآخرة بالعذاب الشديد ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ أي إعلام إلى كافة الناس بتبرئ الله تعالى ورسوله من المشركين ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ أي يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك قال الزمخشري: وصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر[٤] ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي إعلام لهم بأن الله بريء من المشركين وعهودهم، ورسوله بريء منهم أيضاً ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي فإن تبتم عن الكفر ورجعتم إلى توحيد الله فهو خير لكم من التمادي في الضلال ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي وإن أعرضتم عن الإسلام وأبيتم إلا الاستمرار على الغيّ والضلال، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً، ولا

---

(١) «الرازي» ١٦/ ٥.

(٢) «زاد المسير» ٣/ ٤٠٧. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٣) (ش): عَنْ زَيْدِ بْنِ يُثَيْعٍ قَالَ سَأَلْنَا عَلِيًّا بِأَيِّ شَيْءٍ بُعِثْتَ فِي الْحَجَّةِ قَالَ بُعِثْتُ بِأَرْبَعٍ أَنْ لَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ وَلاَ يَجْتَمِعُ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُسْلِمُونَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا. (رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني).

(٤) «الكشاف» ٢/ ٢٤٥.

تُعجزونه هرباً ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي بشر الكافرين بعذاب مؤلم موجع يحل بهم قال أبو حيان: جعل الإِنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم، وفي هذا وعيد عظيم لهم(١) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي إِلا الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد فأتموا إِليهم عهدهم قال في «الكشاف»: وهو استثناء بمعنى الاستدراك أي لكن من وفى ولم ينكث فأتموا عليهم عهدهم، ولا تُجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفي كالغادر(٢) ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لم ينقصوا من شروط الميثاق شيئاً ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي لم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي وفوا العهد كاملاً إِلى انقضاء مدته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي يحب المتقين لربهم الموفين لعهودهم قال «البيضاوي»: هذا تعليل وتنبيه على أن إِتمام عهدهم من باب التقوى(٣) قال ابن عباس: كان قد بقي لحيٍّ من كنانة من عهدهم تسعة أشهر، فأتم ﷺ إِليهم عهدهم ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي مضت وخرجت الأشهر الأربعة التي حرم فيها قتالهم ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي اقتلوهم في أي مكانٍ أو زمان من حلٍّ أو حرم، قال ابن عباس: في الحلِّ والحرم وفي الأشهر الحرم(٤) ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي بالأسر ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أي احبسوهم وامنعوهم من التقلب في البلاد قال ابن عباس: إِن تَحَصَّنُوا فاحصروهم أي في القلاع والحصون حتى يُضطروا إِلى القتل أو الإِسلام ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي اقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه، وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم قال في «البحر»: وهذا تنبيه على أن المقصود إِيصال الأذى إِليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال(٥) ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي فإِن تابوا عن الشرك وأدوا ما فرض عليهم من الصلاة والزكاة ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ أي كفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي إِن استأمنك مشرك وطلب منك جوارك ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي أَمِّنْهُ حتى يسمع القرآن ويتدبره قال الزمخشري: المعنى إِن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر، لا عهد بينك وبينه، واستأمنك ليسمع ما تدعو إِليه من التوحيد والقرآن، فأَمِّنْهُ حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطّلع على حقيقة الأمر أقول: هذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق، لأن المراد ليس النيل من الكافرين، بل إِقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق

(١) «البحر» ٥/ ٨.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٤٦.
(٣) «البيضاوي» ٢١٨.
(٤) «زاد المسير» ٣/ ٣٩٨.
(٥) «البحر» المحيط ٥/ ١٠.

فيتبعوه، ويتركوا ما هم عليه من الضلال ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ أي ثم إن لم يُسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي ذلك الأمر بالإجارة للمشركين، بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة دين الإسلام، فلا بد من أمانهم حتى يسمعوا ويتدبروا، ثم بين تعالى الحكمة من البراءة من عهود المشركين فقال ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ استفهام بمعنى الانكار والاستبعاد أي كيف يكون عهد معتدٌ به عند الله ورسوله، ثم استدرك فقال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي لكن من عهدتم من المشركين عند المسجد الحرام ولم ينقضوا العهد قال ابن عباس: هم أهل مكة وقال ابن إسحاق: هم قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده منهم ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على العهد قال «الطبري»: أي فما استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على الوفاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي يحب من اتقى ربه، ووفى عهده، وترك الغدر والخيانة ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أي كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ أي لا يراعوا فيكم عهداً ولا ذمة، لأنه لا عهد لهم ولا أمان قال أبو حيان: وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي يرضونكم بالكلام الجميل إن كان الظفر لكم عليهم ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي وتمنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهروه وقال «الطبري»: المعنى يعطونكم بألسنتهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء، وتأبى قلوبهم أن يذعنوا بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي وأكثرهم ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ أي استبدلوا بالقرآن عرضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي منعوا الناس عن اتباع دين الإسلام ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي بئس هذا العمل القبيح الذي عملوه ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ أي لا يراعون في قتل مؤمن لو قدروا عليه عهداً ولا ذمة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ أي وأولئك الجامعون لتلك الأوصاف الذميمة هم المجاوِزُون الحدَّ في الظلم والبَغْي ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي فإن تابوا عن الكفر وأقاموا الصلاة وأعطوا الزكاة ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي ونبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم، والجملة اعتراضية للحث على التدبر والتأمل ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ أي وإن نقضوا عهودهم الموثقة بالأيمان ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي عابوا الإسلام بالقدح والذم ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ

﴿ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي رؤساء وصناديد الكفر ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ أي لا أيمان لهم ولا عهود يوفون بها ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ أي كي يكفوا عن الإِجرام، وينتهوا عن الطعن في الإِسلام، قال «البيضاوي»: وهو متعلق بـ «قاتلوا» أي ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه، لا إِيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذين[1] ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ تحريض على قتالهم أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين قوماً نقضوا العهود وطعنوا في دينكم ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي عزموا على تهجير الرسول ﷺ من مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إِخراجه من بين أظهركم ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي هم البادئون بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة، والبادئ أظلم، فما يمنعكم أن تقاتلوهم؟ ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾؟ أي أتخافونهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تركتم أمره ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي إِن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه قال الزمخشري: يعني أن قضية الإِيمان الصحيح ألا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بما سواه[2].. ثم بعد الحض والحث أمرهم بقتالهم صراحة فقال ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ أي قاتِلوهم يا معشر المؤمنين فتقالكم لهم عذاب بأيدي أولياء الله وجهاد لمن قاتلهم ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ أي يذلهم بالأسر والقهر ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي يمنحكم الظفر والغلبة عليهم ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي يشف قلوب المؤمنين بإِعلاء دين الله وتعذيب الكفار وخزيهم قال ابن عباس: هم قوم من اليمن قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيراً فشَكَوْا إِلى رسول الله ﷺ فقال: أبشروا فإِن الفرج قريب[3] ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي يذهب ما بها من غيظ، وغمٍّ، وكرب، وهو كالتأكيد لشفاء الصدور وفائدَتُه المبالغةُ في جَعْلِهم مسرورين بما يمنّ الله عليهم من تعذيب أعدائهم قال «الرازي»: أمر تعالى بقتالهم وذكر فيه خمسة أنواع من الفوائد، كل واحد منها يعظم موقعه إِذا انفرد، فكيف بها إِذا اجتمعت[4]؟ ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ كلام مستأنف أي يمن الله على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإِسلام كأبي سفيان ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عالم بالأسرار لا تخفى عليه خافية، حكيم لا يفعل إِلا ما فيه حكمة ومصلحة قال «أبو السعود»: ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون، فكان إِخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة[5] ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ﴾ أي منقطعة

(١) «البيضاوي» ص٢١٩.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٥٢.
(٣) «أبو السعود» ٢/ ٢٥٨. (ش): لم أجده إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد.
(٤) الفخر «الرازي» ١٦/ ٢.
(٥) «أبو السعود» ٢/ ٢٥٨.

بمعنى بل والهمزة أي بل أحسبتم يا معشر المؤمنين أن تتركوا بغير امتحان وابتلاء يعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه! ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾[(١)] أي والحال أنه لم يتبيّن المجاهد منكم من غيره، والمراد بالعلم علم ظهور لا علم خفاء فإنه تعالى يعلم ذلك غيباً فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين، والغرض من الآية: إن الله تعالى لا يترك الناس دون تمحيص يظهر فيه الطيب من الخبيث ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يستقيم ولا ينبغي ولا يليق بالمشركين أن يعمروا شيئاً من المساجد ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ أي حال كونهم مقرين بالكفر، ناطقين به بأقوالهم وأفعالهم حيث كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» يعنون الأصنام، وكانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت، وكانوا يطوفون عراة كلما طافوا طوفه سجدوا للأصنام[(٢)] والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة مساجد الله، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي بطلت أعمالهم بما قارنها من الشرك ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي ماكثون في نار جهنم أبداً ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي إنما تستقيم عمارة المساجد وتليق بالمؤمن من المصدق بوحدانية الله، الموقن بالآخرة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أقام الصلاة المكتوبة بحدودها، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي خاف الله ولم يرهب أحداً سواه ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة قال ابن عباس: كل عسى في القرآن واجبة قال الله لنبيه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة[(٣)] قال أبو حيّان: وعسى من الله تعالى واجبة حيثما وقعت في القرآن، وفي التعبير بعسى قطع لأطماع المشركين أن يكونوا مهتدين، إذ من جميع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من لا ترجى له الهداية، فكيف بمن هو عارٍ منها؟ وفيه ترجيح الخشية على الرجاء، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة[(٤)] ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ

(١) (ش): لمَّا: حرف نَفْي يجزم المضارع، ويقلبه إلى ماضٍ ممتدٍّ حتّى وقت الحديث مع توقّع حدوثه في المستقبل القريب «لمَّا يذاكر درسَه: لم يفعله إلى وقت الحديث- ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: لم يدخل حتّى الآن».

(٢) الصاوي على الجلالين ٢/ ١٤١.

(٣) «الطبري» ١/ ٩٤.

(٤) «البحر» المحيط ٥/ ٢٠.

﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الخطاب للمشركين[١]، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله؟ وهو رد على العباس حين قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج فنزلت قال «الطبري»: هذا توبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت الحرام، فأعلمهم أن الفخر في الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله[٢] ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يتساوى المشركون بالمؤمنين، ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنازلهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا كالتعليل أي لا يوفق الظالمين إلى معرفة الحق، قال في «البحر»: ومعنى الآية إنكار أن يُشَبَّه المشركُون بالمؤمنين، وأعمالُهم المحبَطة بأعمالِهم المُثبَتَة[٣]، ولما نفَى المساواة بينهم أوضحها بأن الكافرين بالله هم الظالمون، ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم، وأثبت للمؤمنين الهداية في الآية السابقة، ونفاها عن المشركين هنا فقال ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ[٤]﴾ ثم قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذا زيادة توضيح وبيان لأهل الجهاد والإيمان والمعنى: إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان[٥]، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجراً، وأرفع ذكراً من سُقَاةِ الحاج، وعُمَّار المسجد الحرام وهم بالله مشركون ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ أي أولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾ أي يبشرهم المولى برحمة عظيمة، ورضوان كبير من ربٍّ عظيم ﴿وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ أي وجنات عالية، قطوفها دانية، لهم في تلك الجنات نعيم دائم لا زوال له ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين في الجنان إلى ما لا نهاية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي ثوابهم عند الله عظيم، تعجز العقول عن وصفه قال أبو حيان: لما وصف المؤمنين بثلاث صفات: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: الرحمة، الرضوان، والجنان، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان، وثنَّى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد، وثلَّث بالجنان في مقابلة الهجرة

---

(١) انظر سبب النزول.
(٢) «الطبري» ١٠/ ٩٤.
(٣) (ش): أي إنكار تشبيه المشركين بالمؤمنين، وإنكار تشبيه أعمال المشركين المحبَطة بأعمال المؤمنين المُثبَتَة.
(٤) «البحر» المحيط ٥/ ٢٠.
(٥) «البحر» ٥/ ٢١.

وترك الأوطان وقال الألوسي: ولا يخفى أن وصف الجنات بأن لهم فيها نعيمٌ مقيم جاء في غاية اللطافة، لأن الهجرة فيها السفر، الذي هو قطعة من العذاب[١].

البَلاَغَة: ١ - ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ التنوين للتفخيم والتقييد بأنها من الله ورسوله لزيادة التفخيم والتهويل.

٢ - ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا يسمى «الأسلوب التهكمي» لأن البشارة بالعذاب تهكم به.

٣ - ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ شَبَّه مُضِيَّ الأشهر وانقضاءها بالإنسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فهو من باب الاستعارة.

٤ - ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ذكر الاسم الجليل مكان الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في القلب.

٥ - ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الجملة مفيدة للحصر أي هم الفائزون لا غيرهم.

٦ - ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر تفخيم لشأنهما وحث على التنبه لهما.

٧ - ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ تنكير الرحمة والرضوان للتفخيم والتعظيم أي برحمة لا يبلغها وصف واصف.

فَائِدَة: عمارة المساجد نوعان: حسية، ومعنوية، فالحسية بالتشييد والبناء، والمعنوية بالصلاة وذكر الله، وقد ربط الباري جل وعلا بين العمارة والإيمان وفي الحديث «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان لأن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [٢]، فالعمارة الحقيقية بالصلاة وذكر الله.

لطيفَة: ذكر «القرطبي» أن أعرابياً قدم المدينة المنورة فقال: من يقرئني مما أُنزل على محمد ﷺ؟ فأقرأه رجل سورة براءة حتى أتى الآية الكريمة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ فقرأها عليه بالجرِّ ﴿وَرَسُولِهُۥ﴾ فقال الأعرابي: وأنا أيضـاً أبرأ من رسوله، فاستعظم الناس الأمر وبلغ ذلك عمر فدعاه فقال يا أعرابي: أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال يا أمير المؤمنين: قدمت المدينة فأقرأني رجل سورة براءة فقلت إن يكن الله بريئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال: ما هكذا الآية يا أعرابي؟ قال فكيف يا أمير المؤمنين! فقرأها عليه بالضم ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما بريئ الله ورسوله منه، فأمر عمر ألا يقرئ الناس إلا عالمٌ بلغة العرب[٣].

---

(١) «روح المعاني» ١٠/ ٧٠.

(٢) رواه الترمذي. (ش): ورواه ابن ماجه، وضعفه الألباني.

(٣) «القرطبي» ١/ ٢٤.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى
ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ
وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ
أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي
ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ
كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم
مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ
بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ
حَكِيمٞ ٢٨ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ
٢٩ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم
بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠
ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ
إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ يُرِيدُونَ
أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ
أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قبائح المشركين، وأثنى على المهاجرين المؤمنين الذين هجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله، حذر هنا من ولاية الكافرين وذكر أن الانقطاع عن الآباء والأقارب واجب بسبب الكفر، ثم استطرد إلى تذكير المؤمنين بنصرهم في مواطن كثيرة ليعتزوا بدينهم، ثم عاد إلى الحديث عن قبائح أهل الكتاب للتحذير من موالاتهم، وأنهم كالمشركين يسعون لإطفاء نور الله.

اللغة: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ جمع ولي: وهو الناصر والمعين الذي يتولى شئون الغير وينصره ويقويه ﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾ العشيرة: الجماعة التي يعتز ويحتمي بها الإنسان قال الواحدي: عشيرة الرجل أهله الأدنون وهو من العِشرة، أي: الصحبة لأنها من شأن القربى ﴿كَسَادَهَا﴾ كسد الشيء كساداً وكسوداً إذا بَارَ ولم يكن له نَفَاق[1] ﴿عَيۡلَةٗ﴾ فقراً يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر قال الشاعر:

(١) (ش): بارتِ السِّلعةُ: كسدت ولم تجد من يشتريها لكثرتها وابتذالها. نفَقتِ البضاعةُ نَفَاقًا: راجَت كثُر طلَابها

وَمَـا يَـدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ   وَمَا يَدْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ (١)

﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾ ما أخذ من أهل الذمة سميت جزية؛ لأنهم أعطوها جزاء ما مُنحوا من الأمن ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يشابهون والمضاهاة المماثلة والمحاكاة ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق والإفك الصرف يقال: أُفك الرجل، أي: قلب وصرُف.

سَبَبُ النّزول: قال الكلبي: لما أُمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: لقد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده فيقولون: ناشدناك الله إن تدعْنا من غير شيء فنضيع، فيَرِق فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزلت الآية تعاتبهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ ..﴾(٢) الآية.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ النداء بلفظ الإيمان للتكريم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امتثال أوامر الله قال ابن مسعود: «إذا سمعت الله تعالى يقول: يا أيها الذين آمنوا فأَرْعها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه» والمعنى: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصاراً وأعواناً تودونهم وتحبونهم ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي إن فضلوا الكفر واختاروه على الإيمان وأصروا عليه إصراراً ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم، لأن من رضي بالشرك فهو مشرك(٣) ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء، والأبناء، والإخوان، والزوجات ومن سواهم ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي جماعتكم التي تستنصرون بهم ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي وأموالكم التي اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي تخافون عدم نفاقها ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي منازل تعجبكم الإقامة فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا هو خبر كان أي إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ أي وأحب إليكم من الجهاد لنصرة دين الله ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي انتظروا وهو وعيد شديد وتهديد ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بعقوبته العاجلة أو الآجلة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى طريق السعادة، وهذا وعيد لمن آثر أهله، أو ماله، أو وطنه، على الهجرة والجهاد، ثم ذكرهم تعالى بالنصر على الأعداء في مواطن اللقاء فقال ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ

ورُغِبَ فيها .

(١) «البحر» ٥/ ٤.

(٢) «أسباب النزول» ص ١٤٠. (ش): موضوع، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٣) «القرطبي» ٨/ ٩٤.

كَثِيرَةٍ﴾ أي نصركم في مشاهد كثيرة، وحروب عديدة ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي ونصركم أيضًا يوم حنين بعد الهزيمة التي مُنِيتُم بها بسبب اغتراركم بالكثرة ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ أي حين أعجبكم كثرة عددكم فقلتم: لن نغلب اليوم من قلة، وكنتم اثني عشر ألفًا وأعداؤكم أربعة آلاف، فلم تنفعكم الكثرة ولم تدفع عنكم شيئًا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي وضاقت الأرض على رَحْبها وكثرة اتساعها بكم من شدة الخوف ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي وليتم على أدباركم منهزمين قال «الطبري»: يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء، ويخلّي القليل فيهزم الكثير[1]، قيل للبراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء: أشهد أن رسول الله ﷺ لم يفر: ولقد رأيته على بغلته البيضاء - وأبو سفيان آخذ بلجامها يقودها - فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول:

أَنَـا الـنَّـبِـيُّ لاَ كَـذِبْ   أَنَـا ابْـنُ عَـبْـدِ الْـمُـطَّـلِـبْ[2]

ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال: شاهت الوجوه. ففروا، فما بقي أحد إلا ويمسح القذى عن عينيه[3]، وقَالَ الْبَرَاءُ: كنا والله إذا حميَ البأس نتقي برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذي يحاذيه»[4]

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنزل بعد الهزيمة الأمن والطمأنينة على المؤمنين حتى سكنت نفوسهم قال «أبو السعود»: أي أنزل رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن إليها[5] ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ قال ابن عباس: يعني الملائكة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي وذلك عقوبة الكافرين بالله ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي يتوب على من يشاء فيوفقه للإسلام، وهو إشارة إلى إسلام هوازن ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة واسع

(١) (ش): الذي في «تفسير «الطبري»» : «ويخلّي الكثيرَ والقليلَ، فَيَهْزِم الكثيرُ»: قال محققه الشيخ أحمد شاكر: «وإنما أراد أن الله يخلّي بين الكثير والقليل فلا ينصر القليل، فيهزم الكثير القليل، على ما جرت به العادة من غلبة الكثير على القليل».

(٢) (ش): (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَأَبُو سُفْيَانَ هو أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب.

(٣) «الطبري» ١٠/ ١٠٣. (ش): عن إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ عن أَبِيه قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُنَيْنًا ... فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الأَرْضِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ فَقَالَ « شَاهَتِ الْوُجُوهُ». فَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلاَّ مَلأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ فَهَزَمَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَنَائِمَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٤) (ش): قَالَ الْبَرَاءُ: « كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِى بِهِ وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِى يُحَاذِى بِهِ. يَعْنِى النَّبِىَّ ﷺ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). نَتَّقِى بِهِ: يَعْنِى النَّبِىَّ ﷺ.

(٥) «أبو السعود» ٢/ ٢٦٣.

الرحمة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ أي قذر لخبث باطنهم قال ابن عباس: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وقال الحسن: من صافح مشركاً فليتوضأ [١]، والجمهور على أن هذا على التشبيه أي هم بمنزلة النجس أو كالنجس لخُبْث اعتقادِهم وكُفْرهم بالله جُعِلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغةً في الوصف على حد قولهم: عليٌّ أسدٌ أي كالأسد ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ أي فلا يدخلوا الحرم، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله قال «أبو السعود»: وقيل: المراد المنع عن الحج والعمرة أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة ويؤيده حديث «**وَأَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ** »[٢] وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة ونادى بها عليٌّ في المواسم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي وإِن خفتم أيها المؤمنون فقراً بسبب منعهم من دخول الحرم أو من الحج فإِن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطريق آخر من فضله وعطائه قال المفسرون: لما مُنع المسلمون من تمكين المشركين من دخول الحرم، وكان المشركون يجلبون الأطعمة والتجارات إليهم في المواسم، ألقى الشيطان في قلوبهم الحزن فقال لهم: من أين تأكلون؟ وكيف تعيشون وقد منعت عنكم الأرزاق والمكاسب؟ فأمنهم الله من الفقر والعيلة، ورزقهم الغنائم والجزية[٣] ﴿إِن شَآءَ﴾ أي يغنيكم بإِرادته ومشيئته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ قال ابن عباس: عليم بما يصلحكم، حكيم فيما حكم في المشركين. . ولما ذكر حكم المشركين ذكر حكم أهل الكتاب فقال ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي قاتلوا الذين لا يؤمنون إِيماناً صحيحاً بالله واليوم الآخر وإِن زعموا الإِيمان، فإِن اليهود يقولون عزير ابن الله، والنصارى يعتقدون بألوهية المسيح ويقولون بالتثليث ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي لا يحرمون ما حرم الله في كتابه، ولا رسوله في سنته، بل يأخذون بما شرعه لهم الأحبار والرهبان ولهذا يستحلون الخمر والخنزير وما شابههما ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي لا يعتقدون بدين الإِسلام الذي هو دين الحق ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ هذا بيان للمذكورين أي من هؤلاء المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإِنجيل ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ أي حتى يدفعوا إِليكم الجزية منقادين مستسلمين ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أي أذلاء حقيرون مقهورون بسلطان الإِسلام، ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائحهم فقال ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ أي نسب اللُّعَناءُ إلى اللهِ الولدَ،

---

(١) «القرطبي» ٨/ ١٠٣، وهو الذي نقل عن ابن عباس والحسن البصري ورجحه الفخر «الرازي» والألوسي وهو ظاهر الآية، والجمهور على أنه على التشبيه.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ٢٦٤. (ش): رواه البخاري ومسلم. (بَعْدَ الْعَامِ): أي بَعْدَ هذا الْعَام.

(٣) «انظر «الطبري»» ١٠/ ١٠٧.

وهو واحد أحد فرد صمد قال «البيضاوي»: وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد بختنصر من يحفظ التوراة، فلما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله[1] ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ أي وزعم النصارى - أعداء الله - أن المسيح ابن الله قالوا: لأن عيسى ولد بدون أب، ولا يمكن أن يكون ولد بدون أب، فلا بد أن يكون ابن الله، قال تعالى رداً عليهم ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ذلك القول الشنيع هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا برهان قال في «التسهيل»: يتضمن معنيين: أحدهما إلزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك، والثاني أنهم لا حجة لهم في ذلك، وإنما هو مجرد دعوى كقولك لمن تكذبه: هذا قولك بلسانك[2] ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم: الملائكة بنات الله ﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ دعاء عليهم بالهلاك أي أهلكهم الله كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولداً قال «الرازي»: الصيغة للتعجب وهو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطباتهم، والله تعالى عجَّب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل[3] ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أطاع اليهود أحبارهم والنصارى رهبانهم في التحليل والتحريم وتركوا أمر الله فكأنهم عبدوهم من دون الله والمعنى: أطاعوهم كما يطاع الرب وإن كانوا لم يعبدوهم[4] وهو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ قال عدي ابن حاتم: «أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن»، قال وسمعته يقرأ سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه السلام: «أليس يُحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه، ويحلون ما حرم الله فيستحلون؟فقلت: بلى، قال: فذلك عبادتهم»[5] ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذه النصارى رباً معبوداً ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا على لسان الأنبياء إلا بعبادة إله واحد هو الله رب العالمين ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علواً كبيراً ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يريد هؤلاء

(١) «البيضاوي» ص ٢٢٢.
(٢) «التسهيل» ٢/ ٧٤.
(٣) «الرازي» ١٦/ ٣٦. (ش): التعجب ثابت لله صفة من صفاته الفعلية على ما يليق به سبحانه وتعالى.
(٤) (ش): اعتبر الله تعالى طاعتهم لهم في تحليلِ ما حرَّم وتحريمِ ما أحلَّ عبادة، فكيف يقال: إنهم لم يعبدوهم، وقد بَيَّنَ النبي - صلى الله عليه وسلم - لعدِيٍّ معنى عبادتهم لهم.
(٥) الألوسي ١٠/ ٨٤. (ش): رواه أحمد والترمذي والطبراني ، وحسنه الألباني. الوثن:ما يُعْبَدُ من دون الله تعالى، وأراد به ها هنا الصليب. أحبارهم:الأحبار:جمع حَبْر، وهو العالم.

الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور الإِسلام وشرع محمد عليه السلام بأفواههم الحقيرة، بمجرد جدالهم وافترائهم، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياءً، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه بفمه ولا سبيل إِلى ذلك ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي ويأبى الله إِلا أنْ يُعْلِيَه ويرفعَ شأنه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي ولو كره الكافرون ذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة والدين الكامل وهو الإِسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي ليعليه على سائر الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ جوابه محذوف أي ولو كره المشركون ظهوره.

البَلاَغَة: ١ - ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ صيغته أمر وحقيقته وعيد كقوله ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

٢ - ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ من باب عطف الخاص على العام للتنويه بشأنه حيث جاء النصر بعد اليأس، والفرج بعد الشدة.

٣ - ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي بضيق الأرض على سعتها على سبيل الاستعارة.

٤ - ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الصيغة لإِفادة الحصر واللفظ فيه تشبيه بليغ أي كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً، ومثله ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ أي كالأرباب في طاعتهم وامتثال أوامرهم في التحريم والتحليل.

٥ - ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ﴾ عبَّر عن الدخول بالقرب للمبالغة.

٦ - ﴿يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أراد به نور الإِسلام فإِن الإِسلام بنوره المضيء وحججه القاطعة يشبه الشمس الساطعة في نورها وضيائها فهو من باب الاستعارة. وهي من لطائف الاستعارات.

لطيفَة: قال العلامة «القرطبي»: دل قوله تعالى ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ على أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان، وقد أنشدوا في ذلك أبياتاً:

يَقُولُونَ لِي: دَارُ الْأَحِبَّةِ قَدْ دَنَتْ ... وأنت كَئِيبٌ إِنَّ ذَا لَعَجِيبُ
فَقُلْتُ: وَمَا تُغْنِي دِيَارٌ قَرِيبَةٌ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقُلُوبِ قَرِيبُ

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ
وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ

ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ
ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ
عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ
وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ
وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ
أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ
ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ
خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ
﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ
ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ
لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

المناسَبَة: لما وصف تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية، وصفهم هنا بالطمع والجشع والحرص على أكل أموال الناس، تحقيراً لشأنهم وتسفيهاً لأحلامهم، لأنهم اتخذوا الدين مطية لنيل الدنيا، وذلك نهاية الذل والدناءة، ثم ذكر تعالى قبائحهم وقبائح المشركين، ثم دعا إلى النفير العام وذكر موقف المنافقين المثبطين عن الجهاد في سبيل الله.

اللغَة: ﴿ٱلۡأَحۡبَارِ﴾ علماء اليهود ﴿وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ علماء النصارى قال ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا [(١)]

﴿يَكۡنِزُونَ﴾ أصل الكنز في اللغة: الجمع والضم، ومنه حديث «**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»[(٢)] أي يضمه لنفسه ويجمعه، ثم غلب استعماله على المدفون من الذهب والفضة قال «الطبري»: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض

(١) «القرطبي» ٨/ ١٢٠.
(٢) (ش): رواه أبو داود، وضعفه الألباني.

كان أو على ظهرها[١] ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ الكي: إِلصاق المحمي من الحديد وشبهه بالعضو حتى يتمزق الجلد وفي الأمثال «آخر الدواء الكي» ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ التأخير يقال: نسأه وأنسأه إِذا أخره ومنه حديث « **وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ**»[٢] أي يُؤَخَّر له في أجله قال الزمخشري: النسِيءُ: تأخير حرمة الشهر إِلى شهر آخر ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ ليوافقوا والمواطأة: الموافقة يقال: تواطأ القوم: إِذا اتفقوا على أمر خفية ﴿ٱنفِرُواْ﴾ النفر: الخروج بسرعة، ومنه ﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٦] ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ أصله تثاقلتم بمعنى تباطأتم ولم تسرعوا ﴿عَرَضٗا﴾ العرض: ما يعرض للإِنسان من منافع الدنيا سمي عرضاً لأنه لا يدوم وفي الحديث «الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر»[٣] ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾ المسافة البعيدة التي لا تقطع إِلا بمشقة قال الجوهري: الشقة السفر البعيد[٤]، وكأنه مأخوذ من المشقة يقال: **شُقَّةٌ شاقَّةٌ**.

سَبَبُ النّزول: لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف وغزوة حنين، أمر الناس بالجهاد، لغزو الروم، وذلك في زمن عسرة من البأس، وجدبٍ من البلاد، وشدةٍ من الحر، حين أثمرت النخل، وطابت الثمار، فعظم على الناس غزو الروم، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إِلى القتال فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ الآية[٥].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله[٦] إِن كثيراً من علماء اليهود «الأحبار» وعلماء النصارى «الرهبان» ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ليأخذون أموال الناس بالحرام، ويمنعونهم عن الدخول في دين الإِسلام قال ابن كثير: والمقصود التحذير من علماء السوء، وعُبَّادِ الضلال قال ابن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى[٧] ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ أي يجمعون الأموال ويدخرون الثروات ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يؤدون زكاتها ولا يبذلون منها في وجوه الخير قال ابن عمر: الكنز ما لم تُؤد زكاته، وما أديت زكاته فليس بكنز ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أسلوب

---

(١) «الطبري» ١/ ١٢١.
(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٣) (ش): رواه الشافعي في «مُسْنَدِه» والبيهقي، وضعفه الألباني.
(٤) «القرطبي» ٨/ ١٥٤.
(٥) «أسباب النزول» للواحدى ص ١٤١. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير في «جامع البيان».
(٦) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.
(٧) «المختصر» ٢/ ١٣٨.

تهكم أي أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم قال الزمخشري: وإنما قَرَنَ بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يُعطِي من المسلمين مِن طيب ماله- سواءٌ[1] في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم[2] ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية ﴿فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡ﴾ أي تحرق بها الجباه والجنوب والظهور بالكي عليها قال ابن مسعود: والذي لا إِله غيره لا يكوى عبد بكنزٍ فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته[3]، وخصت هذه الأماكن بالكي لأن البخيل يرى الفقير قادماً فيقطب جبهته، فإِذا جاء أعرض بجانبه، فإذا طالبه بإِحسان ولاه ظهره، قال «القرطبي»: الكي في الوجه أشهر وأشنع، وفي الظهر والجنب آلم وأوجع، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء[4] ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ أي يقال لهم تبكيتاً وتقريعاً: هذا ما كنزتموه لأنفسكم فذوقوا وبال ما كنتم تكنزونه وفي صحيح مسلم «**ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**» ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ أي إِن عدد الشهور المعتد بها عند الله في شرعه وحكمه هي اثنا عشر شهراً على منازل القمر، فالمعتبر به الشهور القمرية إذا عليها يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ قال ابن عباس: كتبه يوم خلق السماوات والأرض في الكتاب الإِمام الذي عند الله ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ﴾ أي منها أربعة شهور محرمة هي: «ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب» وسميت حرماً لأنها مُعَظَّمَةٌ محترمة تتضاعف فيها الطاعات ويَحْرُم القتال فيها ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ أي ذلك الشرع المستقيم ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي لا تظلموا في هذه الأشهر المحرمة أنفسكم بِهَتْك حُرْمَتِهن وارتكاب ما حرم الله من المعاصي والآثام ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ أي قاتلوهم جميعاً مجتمعين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعاً ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي معهم بالنصرة والتأييد، وهو بشارة وضمان لأهل التقوى ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي إِنما تأخير حرمة شهر لشهر آخر زيادة في الكفر لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه فهو كفر آخر

(١) (ش): سواءٌ: متساوون.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٦٦.
(٣) «الطبري» ١٠/ ١٢٤.
(٤) «القرطبي» ٨/ ١٢٩.

مضموم إِلى كفرهم قال المفسرون: كان العرب أهل حروب وغارات، وكان القتال محرماً عليهم في الأشهر الحرم، فإِذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، كأنهم يستقرضون حرمة شهر لشهر غيره، فربما أحلوا (المحرم) وحرموا (صفر) حتى يكمل في العام أربعة أشهر محرمة ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي يُضَلُّ بسببه الكافرون ضلالاً على ضلالهم ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ أي يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال عاماً فيجعلون هذا مكان هذا والعكس ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي فيستحلوا بذلك ما حرمه الله قال مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إِلى الموسم على حمار له، فيقول أيها الناس: إِني لا أعاب ولا أجاب، ولا مرد لما أقول، إِنا قد حرمنا (المحرم)، وأخرنا (صفر)، ثم يجيء العام المقبل ويقول: إِنا قد حرمنا (صفر) وأخرنا (المحرم) فذلك قوله تعالى ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾[1] ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ أي زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي لا يرشدهم إِلى طريق السعادة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك والمعنى: ما لكم أيها المؤمنون إِذا قيل لكم: اخرجوا لجهاد أعداء الله تباطأتم وتثاقلتم، وملتم إِلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعه؟! ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي؟ ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إِلا شيء مستحقر قليل لا قيمة له، ثم توعَّدهم على ترك الجهاد فقال ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي إِن لا تخرجوا إِلى الجهاد مع رسول الله يعذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً، باستيلاء العدو عليكم في الدنيا، وبالنار المحرقة في الآخرة وقال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم[2] ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويستبدل قوماً آخرين خيرًا منكم، يكونون أسرع استجابة لرسوله وأطوع ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ ولا تضروا الله شيئاً بتثاقلكم عن الجهاد فإِنه سبحانه غني عن العالمين ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء بدونكم قال «الرازي»: وهو تنبيه على شدة الزجر من حيث إِنه تعالى قادر لا يجوز عليه العجز، فإِذا توعد بالعقاب فعل[3] ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي إِن لا تنصروا

---

(١) «الطبري» ١٠/ ١٣٤.
(٢) «الطبري» ١٠/ ١٣١.
(٣) «الرازي» ١٦/ ٦١.

رسوله فإن الله ناصره وحافظه وجواب الشرط محذوف تقديره: فسينصره الله، دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ والمعنى: إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نَصَره حين كان ثاني اثنين، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي حين خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة، وأسند إخراجه إلى الكفار لأنهم ألجئوه إلى الخروج وتآمروا على قتله حتى اضطُّروا إلى الهجرة ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين لا ثالث لهما هو أبو بكر الصديق ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ أي حين كان هو والصديق مختبئين في النقب في جبل ثَوْر ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي حين يقول لصاحبه وهو أبو بكر الصديق تطميناً وتطييباً: لا تخف فالله معنا بالمعونة والنصر، روى «الطبري» عن أنس أن أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْه قال «بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار، وأقدام المشركين فوق رءوسنا فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا فقال يا أبا بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»[1] وكان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله ﷺ فنهاه الرسول تسكيناً لقلبه ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي أنزل الله السكون والطمأنينة على رسوله ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي قوَّاهُ بجنوده من عنده من الملائكة يحرسونه في الغار لم تروها أنتم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أي جعل كلمة الشرك سافلة دنيئة حقيرة، أذل بها الشرك والمشركين ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ أي وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هي الغالبة الظاهرة، أعزَّ الله بها المسلمين، وأذل الشرك والمشركين ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي قاهر غالب لا يُغلب، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي اخرجوا للقتال يا معشر المؤمنين شيبًا وشبانًا، مشاة وركبانًا، في جميع الظروف والأحوال، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جاهدوا بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي هذا النفير والجهاد خير من التثاقل إلى الأرض والخلود إليها والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا إن كنتم تعلمون ذلك قال في «البحر»: والخيرية في الدنيا بغلبة العدو ووراثة الأرض، وفي الآخرة بالثواب العظيم ورضوان الله[2]، ثم ذكر تعالى أحوال المخلفين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وموقف المثبطين المنافقين منهم فقال ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي لو كان ما دعوا إليه غُنماً قريبًا سهل المنال ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي وسفراً وسطًا ليس ببعيد ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ أي لخرجوا معك لا لوجه الله بل طمعاً في الغنيمة

---

(١) «الطبري» ١٠/ ١٣٦. (ش): عن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق حَدَّثَهُ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ: مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «البحر» ٥/ ٤٤.

﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي ولكن بعدت عليهم الطريق والمسافة الشاقة ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ أي وسيحلفون لكم معتذرين[١] بأعذار كاذبة لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا، ولو كان لنا سعة في المال أو قوة في الأبدان لخرجنا للجهاد معكم، قال تعالى رداً عليهم وتكذيباً لهم ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي يوقعون أنفسهم في الهلاك بأيمانهم الكاذبة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي لكاذبون في دعواهم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ تلطف في عتاب الرسول ﷺ حيث قدم العفو على العتاب إكراماً له عليه السلام[٢] والمعنى سامحك الله يا محمد لم أذنت لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار!! ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي وهلا تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره من الكاذب المنافق قال مجاهد: نزلت في المنافقين قال أناس منهم: «استأذِنُوا رسول الله، فإن أذِنَ لكم فاقعُدوا[٣]، وإن لم يأذن لكم فاقْعُدوا»، فقد كانوا مُصِرِّين على القعود عن الغزو وإن لم يأذن لهم، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه أهل الإيمان فقال ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي لا يستأذنك يا محمد عن الجهاد والغزو من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ أي كراهية الجهاد بالمال والنفس لأنهم يعلمون ما أعده الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل فكيف يتخلفون عنه؟ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي عليم بهم لأنهم مخلصون في الإيمان متقون للرحمن ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي إنما يستأذنك يا محمد المنافقون الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي شَكَّتْ قلوبُهم في الله وثوابه فهم يترددون حيارى لا يدرون ما يصنعون.

البَلاَغَة: ١ - ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ بين يحلون ويحرمون طباق وهو من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ استفهام يقصد به الإنكار والتوبيخ.

---

(١) هذا إخبار بغيب أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين بهذه الأيمان الكاذبة وقد حصل كما أخبر القرآن فكان ذلك من أوضح المعجزات القرآنية.

(٢) قال المفسرون: من هذه الآية يعرف الإنسان مكانة الرسول ﷺ عند ربه، وعلو قدره، وسمو منزلته، بشره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب، ولو قال له معاتبًا: لم أذنت لهم؟ لخيف عليه أن ينشق قلبه حزنًا وكمدًا قال عون: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبة، أقول: وما ذكره الزمخشري سوء أدب في مقام الرسول ﷺ. (ش): أي ما ذكره الزمخشري في تفسير الآية حيث قال: ﴿عَفَا الله عَنكَ﴾ كناية عن الجناية ، لأن العفو رادف لها . ومعناه : أخطأت وبئس ما فعلت .

(٣) «الطبري» ١١/ ١٤٢.

٣ - ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ فيه إِيجاز بالحذف أي أرضيتم بنعيم الدنيا ولذائذها بدل نعيم الآخرة.

٤ - ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أظهر في مقام الإِضمار لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها بالنسبة للآخرة.

٥ - ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٦ - ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ «كلمة الذين كفروا» استعارة عن الشرك كما أن «كلمة الله» استعارة عن الإِيمان والتوحيد.

٧ - ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ بينهما طباق.

٨ - ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ استعار الشقة للمسافة الطويلة البعيدة التي توجب المشقة على النفس.

٩ - ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ خبر يقصد تقديم المسرة على المضرة وقد أحسن من قال: إِن من لطف الله بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب.

فَائِدَة: روي أن أعرابياً قال لابن عمر: أخبرني عن قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ فقال ابن عمر: **مَنْ كَنَزَهَا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا فَوَيْلٌ لَهُ إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللهُ طَهُورًا لِلأَمْوَالِ. ثُمَّ الْتَفَتَ فَقَالَ مَا أُبَالِي لَوْ كَانَ لِي أُحُدٌ ذَهَبًا أَعْلَمُ عَدَدَهُ وَأُزَكِّيهِ وَأَعْمَلُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.**(١)

تنبيه: دلت الآية ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ على عظيم فضل الصديق وجليل قدره، إِذ جعله الله صاحب الرسول في الغار، ورفيقه في الهجرة، ولهذا قال العلماء: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لأنه رد كتاب الله تعالى.

لطيفَة: عن حيان بن زيد قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، فرأيت شيخاً كبيراً هرماً، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبَلْتُ عليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إِليك قال: فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي: استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، ألا إِنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه، وإِنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إِلا الله عَزَّ وَجَلَّ(٢).

أقول: رحم الله تلك الأنفس الزكية التي باعت أرواحها في مرضاة الله تعالى.

قال الله تعالى:

وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ

---

(١) رواه ابن ماجه. (ش): وصححه الألباني.
(٢) «الطبري» ١٠/ ١٣٨.

ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ
وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ
حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ
أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ
تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ
﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ
عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ
مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟
بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾
وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا
أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟
وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا
ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ
وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ
فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى المنافقين وتباطؤهم عن الخروج للجهاد، ذكر هنا بعض أعمالهم القبيحة من الكيد، والمكر، وإِثارة الفتن بين المسلمين، والفرح بأذاهم، وذكر تعالى أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إِلا ضعفاً وانحداراً بتفريق الجماعة وتشتيت الكلمة، وذكر كثيراً من مثالبهم وجرائمهم الشنيعة.

اللغَة: ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ الانبعاث: الانطلاق في الأمر ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ التثبيط: رد الإِنسان عن الفعل الذي همَّ به ﴿خَبَالًا﴾ الخبال: الشر والفساد في كل شيء ومنه المخبول للمعتوه الذي فسد عقله ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟﴾ الإِيضاع: سرعة السير، قال الراجز:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ ... أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ[1]

يقال: وضع البعير إِذا أسرع السير، وأوضع الرجل إِذا سار بنفسه سيراً حثيثاً[2] ﴿يَجْمَحُونَ﴾ جمح: نفر بإِسراع من قولهم فرس جموح أي لا يرده اللجام ﴿يَلْمِزُكَ﴾ اللمز: العيب

(١) (ش): الجَذَعُ من الرِّجال: الشَّابّ. الخَبَب: نوع من أنواع سير الفرس بحيث تمسّ أقدامُها الأرضَ بشكل متتابع.
(٢) «الرازي» ١٦/ ٨١.

يقال: لمزه إذا غابه قال الجوهري: وأصله الإشارة بالعين ونحوها ورجل لّماز أي عيَّاب[١] ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ الغارم: المديون قال الزجاج: أصل الغرم لزوم ما يشق، والغرام العذاب اللازم الشاق وسمي العشق غراماً لكونه أمراً شاقاً ولازماً، وسمي الدين غراماً لكونه شاقاً على الإنسان[٢].

سَبَبُ النّزول: «لما أراد ﷺ الخروج إلى تبوك قال للجد بن قيس - وكان منافقاً - يا أبا وهب: هل لك في جلاد بني الأصفر - يعني الروم - تتخذ منهم سراري ووصفاء؟ فقال يا رسول الله: لقد عرف قومي أني مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهن فلا تفتني وأْذَنْ لي في القعود وأعينك بمالي، فأعرض عنه النبي ﷺ وقال: قد أذنت لك فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي[٣]﴾ » الآية.

التفسير: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له بالسلاح والزاد، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي ولكن كره الله خروجهم معك ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ أي اجلسوا مع المخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعذار، وهو ذم لهم لإيثارهم القعود على الخروج للجهاد، والآية تسلية له ﷺ على عدم خروج المنافقين معه إذ لا فائدة فيه ولا مصلحة بل فيه الاذى والمضرة ولهذا قال ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾ أي أسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة بإلقاء العداوة بينكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي وفيكم ضعفاء قلوب يصغون إلى قولهم ويطيعونهم[٤] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي عالم بالمنافقين علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي طلبوا لك الشر بتشتيت شملك وتفريق صحبك عنك من قبل غزوة تبوك كما فعل ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم يوم أحد ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي دبروا لك المكايد والحيل وأداروا الآراء في إبطال دينك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلا على سائر الأديان ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ أي والحال أنهم كارهون لذلك لنفاقهم

(١) الصحاح للجوهري.
(٢) «البحر» ٥/ ٣٥.
(٣) «أسباب النزول» ص ١٤٢. (ش): ضعيف أخرجه الطبراني، والواحدي في ««أسباب النزول»».
(٤) وقال مجاهد: المعنى وفيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، والمعنى الأول أظهر وهو الأشهر، وإليه ذهب قتادة واختاره ابن كثير.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج قال ابن عباس: نزلت في «الجد ابن قيس» حين دعاه الرسول ﷺ إلى جلاد بني الأصفر، فقال يا رسول الله: ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء[١] ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ﴾ أي ألا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه، بل فيما هو أعظم وهي فتنة التخلف عن الجهاد وظهور كفرهم ونفاقهم قال «أبو السعود»: وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة، المفصحة عن ترديهم في دركات الردى أسفل سافلين[٢] ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا مفر لهم منها لأنها محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، وفيه وعيد شديد ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ﴾ أي إن تصبك في بعض الغزوات حسنة، سواء كانت ظفراً أو غنيمة، يسؤهم ذلك ﴿وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة، أو هزيمة ومكروه يفرحوا به ويقولوا: قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحذر والتيقظ فلم نخرج للقتال من قبل أن يحل بنا البلاء ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ أي وينصرفوا عن مجتمعهم وهم فرحون مسرورون[٣] ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي لن يصيبنا خير ولا شر، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدة ولا رخاء، إلا هو مقدر علينا مكتوب عند الله ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَا﴾ أي ناصرنا وحافظنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله، ولا يعتمدوا على أحد سواه ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ﴾ أي قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين: إما النصر، وإما الشهادة، وكل واحدة منهما شيء حسن!! ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ أي ونحن ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين: أن يهلككم الله بعذاب من عنده يستأصل به شأفتكم، أو يقتلكم بأيدينا ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ أي انتظروا ما يحل بنا ونحن ننتظر ما يحل بكم، وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ أي قل لهم انفقوا يا معشر المنافقين طائعين أو مكرهين، فمهما أنفقتم الأموال فلن يتقبل الله منكم قال «الطبري»: وهو أمر معناه الخبر كقوله ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٨٠] والمعنى لن يُتقبل منكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً[٤] ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل لرد إنفاقهم أي لأنكم كنتم عتاة متمردين

(١) انظر سبب النزول.
(٢) «أبو السعود» ٢/ ٢٧٥.
(٣) قال «القرطبي»: المعنى يُعرضوا عن الإيمان وهم معجبون بذلك.
(٤) «الطبري» ١٠/ ١٥٢.

خارجين عن طاعة الله، ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ أي وما منع من قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله ورسوله ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ أي ولا يأتون إلى الصلاة إلا وهم متثاقلون ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ أي ولا ينفقون أموالهم إلا بالإكراه لأنهم يعدونها مغرماً قال في «البحر»: ذكر تعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر واتبعه بما هو مستلزم له وهو إتيانهم الصلاة كسالى، وإيتاء النفقة وهم كارهون، لأنهم لا يرجون بذلك ثواباً ولا يخافون عقاباً، وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما: الصلاة، والنفقة، لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية[1] ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة، إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا قال «البيضاوي»: وعذابهم بها بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب[2] ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ أي ويموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع بزينة الدنيا عن النظر في العاقبة فيشتد في الآخرة عذابهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي ويُقْسِمون بالله لكم إنهم لَمُؤْمِنون مثلُكم، وما هم بمؤمنين لكفر قلوبهم ﴿وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي ولكنهم يخافون منكم أن تقتلوهم كما تقتلون المشركين، فيُظْهِرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالأَيمان الفاجرة ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي حصناً يلجأون إليه ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ أي سراديب يختفون فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ أي مكاناً يدخلون فيه ولو ضيقاً ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي لأقبلوا إليه يسرعون إسراعاً كالفرس الجموح، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أنَّ المنافقين لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأخسها لفعلوا لشدة بغضهم لكم فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة أنهم معكم ومنكم ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ أي ومنهم من يعيبك يا محمد في قسمة الصدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ ﴾ أي فإن أعطيتهم من تلك الصدقات استحسنوا فعلك ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي وإن لم تعطهم منها ما يرضيهم سخطوا عليك وعابوك قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فجاء إليه رجل من المنافقين يقال له «ذو الخويصرة» فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال ﷺ: « **وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ**

---

(١) «البحر» المحيط ٥/ ٥٣.

(٢) «البيضاوي» ص ٢٢٦.

إِنْ لَمْ أَعْدِلْ ؟»[١] ، الحديث[٢]. ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أي ولو أن هؤلاء الذين عابوك يا محمد رضوا بما أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة وإِن قلَّت قال «أبو السعود»: وذكرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه[٣] ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي كفانا فضل الله وإِنعامه علينا ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ أي سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى خيراً وأكثر مما آتانا ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ أي إنا إِلى طاعة الله وإِفضاله وإِحسانه لراغبون، وجواب ﴿ وَلَوْ ﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم قال «الرازي»: وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل وهو كقولك للرجل: لو جئتنا. . ثم لم تذكر الجواب أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً[٤]، ثم ذكر تعالى مصرف الصدقات فقال ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ قال «الطبري»: أي لا تنال الصدقات إِلا للفقراء والمساكين ومن سماهم الله جل ثناؤه[٥] والآية تقتضي حَصْرَ الصدقات وهي الزكاة في هذه الأصناف الثمانية فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم، والفقير الذي له بُلْغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له قال يونس: سألت اعرابياً أفقير أنت؟ فقال: لا والله بل مسكين، وقيل: المسكين أحسن حالاً من الفقير، والمسألة خلافية ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أي الجُبَاة الذين يجمعون الصدقات ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ هم قوم من أشراف العرب أعطاهم ﷺ ليتألف قلوبهم على الإِسلام، وروى «الطبري» عن صفوان بن أمية قال: **وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ**[٦] ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ أي وفي فك الرقاب لتخليصهم من الرق ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ ﴾ أي المديونين الذين أثقلهم الدين ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي المجاهدين والمرابطين وما تحتاج إِليه الحرب من السلاح والعتاد ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي الغريب الذي انقطع في سفره ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي

---

(١) «روح المعاني» ١٠/ ١١٩.

(٢) (ش): عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ بَيْنَا النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – يَقْسِمُ ذَاتَ يَوْمٍ قِسْمًا فَقَالَ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ – رَجُلٌ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ – يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ . قَالَ « وَيْلَكَ مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ » . (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– بِالْجِعِرَّانَةِ وَهُوَ يَقْسِمُ التِّبْرَ وَالْغَنَائِمَ وَهُوَ فِى حِجْرِ بِلاَلٍ فَقَالَ رَجُلٌ اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ. فَقَالَ « وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ بَعْدِى إِذَا لَمْ أَعْدِلْ ». (رواه ابن ماجه ، وصححه الألباني).

(٣) «أبو السعود» ٢/ ٢٧٧.

(٤) «الرازي» ١٦/ ٩٩.

(٥) ١٠/ ١٥٧. (ش): الذي في تفسير «الطبري» بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر: «ما الصدقات إلا للفقراء والمساكين، ومن سماهم الله جل ثناؤه». وقال الشيخ أحمد شاكر: «في المطبوعة: «لا ينال الصدقات»، وهو كلام غير مستقيم، والصواب ما كان في المخطوطة».

(٦) «الطبري» ١٠/ ١٦٢. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ والترمذي.

فرضها الله جل وعلا وحددها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمصالح العباد، حكيم لا يفعل إِلا ما تقتضيه الحكمة قال في «التسهيل»: وإِنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها فاتصلت هذه في المعنى بآية اللمز في الصدقات(١).

البَلاَغَة: ١ - ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في قوله ﴿اقعدوا مَعَ القاعدين﴾.

٢ - ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ قال الطيبي: فيه استعارة تبعية حيث شبه سرعة إِفسادهم ذات البين بالنميمة بسرعة سير الراكب ثم استعير لها الإِيضاع وهو للإِبل، والأصل ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم(٢).

٣ - ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه استعارة حيث شبه وقوعهم في جهنم بإِحاطة العدو بالجند أو السوار بالمعصم، وإِيثار الجملة الإِسمية للدلالة على الثبات والاستمرار.

٤ - ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ..﴾ الآية فيها من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٥ - ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لإِفادة القصر، وإِظهار الاسم الجليل مكان الاضمار لتربية الروعة والمهابة.

٦ - ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ بينهما طباق وكذلك بين الرضا والسخط في قوله ﴿رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

٧ - ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صيغة فعيل للمبالغة أي عظيم العلم والحكمة.

لطيفَة: قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ هذا ذم لهم وتعجيز وإِلحاق بالنساء والصبيان والزَّمْنَى الذين شأنُهم القعود والجُثُوم في البيوت(٣) على حد قول القائل:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي(٤)

تنبيه: قال ابن كثير: لما قدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوسٍ واحدة، وحاربته يهود

---

(١) التسيهل ٢/ ٧٩.

(٢) «روح المعاني» ١٠/ ١١٢.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٣٧٦. (ش): الزَّمْنَى: الزَّمِنُ: من طال مرضُه ودام زَمانًا طويلًا أو ضعُف بكبَر سِنٍّ أو طُول عِلّة. جثَم الشَّخصُ جُثُومًا: لزِم مكانَه فلم يبرح.

(٤) (ش): في البيت أمران (دع، واقعد) يُراد منهما التوبيخ، أو التحضيض. فالطَّاعِمُ الْكَاسِي، أَيِ الْمَطْعُومُ الْمَكْسُوُّ. أي من كُفِيَ طعامَه وكساءَه، فاكتفَى ولم يسْعَ للمكارم. والمكارم لا ينالُها إلا مَن رَحل في طلبها، ولا ينالها المقيمُ في منزله.

المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال ابنُ أُبَيّ وأصحابه: هذا أمر قد توجه - يعني أقبل - فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله، أغاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[1] .

قال الله تعالى:

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ
بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ
أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾
يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ
مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ
نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ
بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ
حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً
وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ
أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ
يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

المنَاسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين توضيحاً لخطرهم، وتحذيراً

---

(١) «المختصر» ٢/ ١٤٧.

للمؤمنين من مكائدهم، وفي هذه الآيات ذكر تعالى نوعـًا آخر من قبائحهم، وهو إيذاؤهم للرسول ﷺ، وإقدامهم على الإيمان الكاذبة، واستهزاؤهم بآيات الله وشريعته المطهرة، إلى غير ما هنالك من الأعمال المنكرة، والأفعال الخبيثة.

اللغَة: ﴿أُذُنٌ﴾ قال الجوهري: قال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع[1] وقال الزمخشري: الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع[2]. قال الشاعر:

قَدْ صِرْتُ أُذُنًا لِلْوُشَاةِ سَمِيعَةً ... يَنَالُونَ مِنْ عِرْضِي وَلَوْ شِئْتُ مَا نَالُوا[3]

﴿يُحَادِدِ﴾ المحادة: المخالفة والمعاداة كالمشاقة وهي أن يكون كل واحد من المتخاصمين في حد وشق غير ما عليه صاحبه ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾ الخلاق: النصيب كقوله ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقد تقدم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ الخوض: الدخول في اللهو والباطل وهو مستعار من الخوض في الماء ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت وذهب ثوابها ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ الائتفاك: الانقلاب ويراد بهم قوم لوط لأن أرضهم ائتكفت بهم أي انقلبت، وقيل هو مجاز عن انقلاب حالها من الخير إلى الشر كقول ابن الرومي:

وَمَا الْخَسْفُ أَنْ تَلْقَى أَسَافِلَ بَلْدَةٍ ... بَلْ أَنْ يَسُودَ الْأَرَاذِلُ[4]

سَبَبُ النّزول: أ – كان جماعة من المنافقين يؤذون رسول الله ويقولون فيه ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا، فقال «الجلاس بن سويد»: نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة فأنزل الله ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ ...﴾[5].

ب – قال مجاهد: كان المنافقون يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي سرنا فأنزل الله ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ...﴾[6] الآية.

التفسير: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي ومن المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يصدّق بكل خبر يسمعه ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي هو أذن خير لا أذن شر، يسمع الخير فيعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ

---

(١) الصحاح للجوهري.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٨٤.
(٣) (ش): الواشي: النمَّام.
(٤) (ش): أَرذَلُ: دونٌ خسيسٌ رديءٌ.
(٥) «أسباب النزول» ص ١٤٣. (ش): ذكره الواحدي في ««أسباب النزول»» بدون إسناد.
(٦) «زاد المسير» ٣/ ٤٦٣. (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في ««أسباب النزول»» عن مجاهد.

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدِّق الله فيما يقول، ويصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به لعلمه بإخلاصهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين لأنه كان سبب إيمانهم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي والذين يعيبون الرسول ويقولون ما لا يليق بجنابه الشريف لهم عذاب موجع في الآخرة ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا شيئًا فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أي والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة، والمتابعة، وتعظيم أمره عليه السلام ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كانوا حقًا مؤمنين فليُرْضُوا اللهَ ورسولَه ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله والرسول، والاستفهام للتوبيخ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أي فقد حق دخوله جهنم وخلوده فيها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ . أي ذلك هو الذل العظيم، والشقاء الكبير، المقرون بالفضيحة حيث يفتضحون على رءوس الأشهاد ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عما في قلوبهم من النفاق ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ أي استهزئوا بدين الله كما تشتهون وهو أمر للتهديد كقوله ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي مُظْهِرٌ ما تُخْفُونه وتحذرون ظهوره من النفاق، قال الزمخشري: كانوا يستهزئون بالإسلام ويحذرون أن يفضحهم الله بالوحي، حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله، ولوددت أني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا[(١)] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، في حقك وفي حق الإسلام، ليقولون لك ما كنا جادين، وإنما كنا نمزح ونلعب للترويح عن النفس قال «الطبري»: بَيْنَا[(٢)] رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات!! فأطلع الله نبيه فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله: إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت[(٣)] ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

(١) «الكشاف» ٢/ ٢٨٦.

(٢) (ش): بَيْنَا: بينما.

(٣) هذه رواية قتادة كذا في «الطبري». (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في ««أسباب النزول»» عن قتادة. وعن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوما: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ- يَعْنِي رسول الله ﷺ وأصحابه- ، فقال رجل في المجلس: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقا بحَقَبِ ناقة رسول الله تَنْكُبُه الحجارة وهو يقول: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.(حسن، رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير في «جامع البيان»، =

تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي قل لهؤلاء المنافقين: أتستهزئون بدين الله وشرعه، وكتابه ورسوله؟ والاستفهام للتوبيخ، ثم كشف تعالى أمرهم وفضح حالهم فقال ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ أي لا تعتذروا بتلك الأيمان الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور أمركم، فقد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول بعد إظهاركم الإيمان ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ أي إن نعف عن فريقٍ منكم لتوبتهم وإخلاصهم ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ أي نعذب فريقاً آخر لأنهم أصروا على النفاق والإجرام ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أي المنافقون والمنافقات صنف واحد، وهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان، كتشابه أجزاء الشيء الواحد قال في «الكشاف»: وأريد بقوله ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ [التوبة: ٥٦] (١) ثم وصفهم بما يدل على مخالفة حالهم لحال المؤمنين فقال ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي يأمرون بالكفر والمعاصي وينهون عن الإيمان والطاعة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي يمسكون أيديهم عن الانفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي تركوا طاعته فتركهم من رحمته وفضله وجعلهم كالمَنْسِيِّين (٢) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي الكاملون

= وقال الشيخ مقبل بن هادي في «الصحيح المسند من «أسباب النزول»» (ص: ١٠٩): الحديث رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد، وأخرجه «الطبري» وله شاهد بسندٍ حسن عند ابن أبي حاتم». الحَقَبُ: حَبْلٌ يُشَدُّ به الرَّحْل في بطن البعير. تنْكُبُه الحجارة: تصيبه وتؤذيه.

(١) «الكشاف» ٢/ ٢٨٧.

(٢) (ش): للنسيان معنيان: أحدهما: الذهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) البقرة / ٢٨٦. وهذا المعنى للنسيان منتف عن الله عز وجل بالدليلين السمعي، والعقلي. أما السمعي: فقوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى﴾ [طه:٥٢]. وأما العقلي: فإن النسيان نقص، والله تعالى منزه عن النقص، موصوف بالكمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]. وعلى هذا فلا يجوز وصف الله بالنسيان بهذا المعنى على كل حال. والمعنى الثاني للنسيان: الترْك عن علم وعمد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤]. وهذا المعنى من النسيان ثابت لله تعالى عز وجل قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة:١٤]. وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧]. في صحيح مسلم أن الله لأ يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ له: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ فَإِنِّى أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِى. وترْكُه - للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧]. وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف:٩٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت:٣٥]. والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه. وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى، كما هو معلوم عند أهل السنة. [باختصار من «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١/ ١٧٢-١٧٤) .

في التمرد والعصيان، والخروج عن طاعة الرحمن، وكفى به زجراً لأهل النفاق ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي وعد الله المنافقين والمتجاهرين بالكفر بإصلائهم في نار جهنم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ أي هي كفايتهم في العذاب، إذ ليس هناك عذاب يعادلها ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم لا ينقطع ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ﴾ أي حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أقوى منكم أجساماً وأشد بطشاً ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أي وكانوا أوفر أموالاً، وأكثر أولاداً، ومع ذلك أهلكهم الله فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم[1] ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي تمتعوا بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصيبهم منها ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ أي وخضتم في الباطل والضلال كما خاضوا هم فيه قال «الطبري»: المعنى سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بالدنيا كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم، وخضتم في الكذب والباطل على الله كخوض تلك الأمم قبلكم، فاحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من قبيح الفعال ذهبت أعمالهم باطلاً فلا ثواب لها إلا النار ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي وأولئك هما الكاملون في الخسران ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ألم يأتِ هؤلاء المنافقين خبرُ الأمم السابقين حين عصوا الرسل ماذا حلَّ بهم من العقوبة؟ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي قوم نوح الذين أُهلِكُوا بالطوفان وقوم هود «عاد» الذين أُهْلِكُوا بالريح، وقوم صالح «ثمود» الذين أُهْلِكُوا بالصيحة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذين أهلكوا بسلب النعمة ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب الذين أُهلِكُوا بعذاب يوم الظُّلَّة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فما أهلكهم الله ظلماً إنما أهلكهم بإجرامهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي، أَفَأَمِنَ هؤلاء المنافقون أن يُسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم المكذبين من أهل الإجرام؟ ولما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أعقبها بذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي هم إخوة في الدين يتناصرون ويتعاضدون ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي يأمرون الناس بكل خيرٍ وجميلٍ يرضي الله،

(١) «الطبري» ١٠/ ١٧٥.

وينهونهم على كل قبيح يسخط الله، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الكامل ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي يُعطونها إلى مستحقيها ابتغاء وجه الله ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي في كل أمر ونهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي سيدخلهم في رحمته، ويفيض عليهم جلائل نعمته[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب، لا يُغلب من أطاعه ولا يُذَلُّ مَن عصاه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي يضع كل شيء في موضعه على أساس الحكمة، في النعمة والنقمة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي وعدهم على إيمانهم بجنات وارفة الظلال، تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي لابثين فيها أبداً، لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي ومنازل يطيب فيها العيش في جنات الخلد والاقامة قال الحسن: هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد[2] ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله، **وفي الحديث يَقُولُ الله تعالى لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِى يَدَيْكَ. فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ يَا رَبِّ وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا** »[3] ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم الذي لا سعادة بعده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال ابن عباس: جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي اشدد عليهم بالجهاد والقتال والإرعاب[4] ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مسكنهم ومثواهم جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئس المكان الذي يصار إليه جهنم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ أي يحلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من السب قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي، وذلك أنه اقتتل رجلان: جهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال ابن سلول للأنصار: ألا تنصرون أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل « **سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ** » فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية[5] ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ هي قول ابن سلول « **لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ** » ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿وَهَمُّواْ

---

(١) (ش): جلائلُ النِّعم: النِّعم العظيمة الشأن أو القدر.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٨٩.
(٣) «الطبري» ١٠/ ١٨٢ والحديث في الصحاح. (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٤) (ش): أرعبَ العدوَّ: خوَّفه وأفزعه.
(٥) «محاسن التأويل» ٨/ ٣٢٠٤. (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن قتادة.

﴿بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قال ابن كثير: هم نفر من المنافقين همّوا بالفتْك بالنبي ﷺ عند عودته من تبوك وكانوا بضعة عشر رجلاً[(١)] ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ما عابوا على الرسول وما له عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته، ويُمْن سعادته، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب.. ثم دعاهم تبارك وتعالى إلى التوبة فقال ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي فإن يتوبوا عن النفاق يكن رجوعهم وتوبتهم خيراً لهم وأفضل ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ أي يعرضوا ويصروا على النفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي يعذبهم عذاباً شديداً ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالنار وسخط الجبار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من العذاب، أو يشفع لهم فيخلصهم وينجيهم يوم الحساب.

البَلَاغَة: ١ - ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أصله هو كالأذن يسمع كل ما يقال له، فحذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فصار تشبيهاً بليغاً مثل زيد أسد.

٢ - ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أبرز اسم الرسول ولم يأت به ضميراً «يُؤْذُونَه» تعظيماً لشأنه عليه السلام وجمعًا له بين الرتبتين العظيمتين «النبوة والرسالة» وإِضافته إِليه زيادة في التكريم والتشريف[(٢)].

٣ - ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب للإيذان ببعد درجته في الهول والفظاعة.

٤ - ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قبض اليد كناية عن الشح والبخل، كما أن بسطها كناية عن الجودة والكرم.

٥ - ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ من باب المشاكلة لأن الله لا ينسى أي تركوا طاعته فتركهم تعالى من رحمته.

٦ - ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إِلتفات من الغيبة إِلى الخطاب لزيادة التقريع والعتاب.

٧ - ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ...﴾ الآية فيه إِطناب والغرض منه الذم والتوبيخ لاشتغالهم بالمتاع الخسيس، عن الشيء النفيس.

٨ - ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ...﴾ في الآية تأكيد المدح بما يشبه الذم على حد قول القائل «ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم» البيت[(٣)].

---

(١) (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره ابن كثير في «تفسيره» والواحدي في ««أسباب النزول»» عن الضحاك.

(٢) أفاده في «البحر» ٥/ ٦٣.

(٣) (ش): قال الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

فُلول: جمع فَلّ وهو ثَلْم، يصيب حد السيف من الضرب الشديد به. يقال: تثلَّم السَّيفُ: ضعُف حده.القراع: التقاتل ضربًا بالسيوف والرماح، والكتائب: الجيوش المحاربة. كأنه يقول: إن كان فلول السيف من القراع عيبًا فإنهم ذَوُو عيب، وإن لم يكن هذا عيبًا فليس فيهم عيب البتة لأنه لا شيء سوى هذا.

فَائِدَة: روى ابن كثير عن علي كرم الله وجهه قال: بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ..﴾ [التوبة: ٢٩] وسيف لأهل الكتاب ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وسيفٍ للمنافقين ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وسيف للبغاة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩](١).

لطيفَة: قال الإمام الفخر: لما وصف تعالى المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض، ذكر بعده خمسة أمور بها يتميز المؤمن، عن المنافق، فالمنافق يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف، ولا يقوم إلى الصلاة إلا بكسل، ويبخل بالزكاة وسائر الواجبات، وإذا أُمر بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف ويثبط غيره، والمؤمن بالضد منه فإنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويؤدي الصلاة على الوجه الأكمل، ويؤتي الزكاة، ويسارع إلى طاعة الله ورسوله، ولهذا قابل تعالى بين صفات المؤمنين، وصفات المنافقين بقوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ كما يقابل في الجزاء بين نار جهنم والجنة فكانت مقابلة لطيفة(٢).

قال الله تعالى:

وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم
مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا
اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ
اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ
وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا
قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ
فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾
وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾
وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾
وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن

(١) «المختصر» ٢/ ١٥٦.

(٢) تفسير «الرازي» ١٦/ ١٣٠ بشيء من التصريف.

مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

المناسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين، وتفضح أسرارهم، وتكشف أحوالهم، باعتبار خطرهم الداهم عن الإسلام والمسلمين.

اللغَة: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ قال الليث: يقال أعقبت فلاناً ندامة إِذا صارت عاقبة أمره ذلك، ويقال: أكل أكلة أعقبته سقماً أي حصل له بها السقم قال الهذلي:

أَوْدَى[١] بَنِيَّ وأَعْقَبوني حَسْرَةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وعَبْرَةً لا تُقْلِعُ[٢]

﴿سِرَّهُمْ﴾ السر: ما ينطوي عليه الصدر ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ النجوى: ما يكون بين شخصين أو أكثر من الحديث مأخوذ من النجوة وهو الكلام الخفي، كأن المتناجين منعا إِدخال غيرهما معهما ﴿يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون واللمز: العيب ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المخلف، المتروك الذي تخلف عن الجهاد ﴿ٱلطَّوْلِ﴾ الغِنَى ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ جمع مُعَذِّر كمقصِّر وهو الذي يعتذر بغير عذر قال الجوهري: هو الذي يعتذر بالكذب[٣] وأصله من العذر وفي الأمثال «أُعذر من أنذر» أي بالغ في العذر من تقدم إِليك فأنذرك.

سَبَبُ النّزول: أ - «روي أن رجلاً يسمى ثعلبة جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: ادع الله أن يرزقني مالاً فقال: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره، خير من كثير، لا تطيقه، فقال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فلم يزل يراجعه حتى دعا له، فاتخذ غنماً فنمَت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة، فسأل رسول الله ﷺ عنه فأخبروه يخبره فقال: يا ويح ثعلبة ثلاثاً،

---

(١) (ش): أَوْدَى: هلَك.
(٢) «الرازي» ١٦/ ١٤٢.
(٣) «القرطبي» ٨/ ٢٢٥.

فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَـئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ . .﴾ الآية[(١)] فهلك في خلافة عثمان.

ب – عن ابن عمر قال: «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فقال يا رسول الله: أعلى عدو الله تصلي؟ فقال: «**أَخِّرْ عَنِّى يَا عُمَرُ. إِنِّى خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ قَدْ قِيلَ لِى** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية **لَوْ أَعْلَمُ أَنِّى لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ**»، ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره فما كان إلا يسيراً حتى أنزل الله ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا . . .﴾ [التوبة:٨٤][(٢)] الآية.

التفسير: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ أي ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لَـئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا في الرزق ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي لنصدقن على الفقراء والمساكين، ولنعملن فيها بعمل أهل الخير والصلاح ﴿فَلَمَّآ ءَاتَـٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي فلما رزقهم الله وأغناهم من فضله ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي بخلوا بالإنفاق ونقضوا العهد وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي جعل الله عاقبتهم رسوخ النفاق في قلوبهم إلى يوم لقاء الله ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أي بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه من التصدق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ أي وبسبب كذبهم في دعوى الإيمان والإحسان ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرارهم وأحوالهم ما يخفونه في صدورهم، وما يتحدثون به بينهم؟ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ

---

(١) «أسباب النزول» ١٤٥ وهذا الذي ذكره المفسرون غير: «ثعلبة بن أبي حاطب» الصحابي المشهور، وإنما هذا رجل من المنافقين يسمى ثعلبة والله أعلم.

(ش): القصة التي ذكرها المؤلف عن ««أسباب النزول»» للواحدي إسنادها ضعيف جداً. تنبيه: إذا ثبت لرجل أو لامرأة الصحبة فلا يمكن أن يقبل لمزة بالنفاق إلا بإسناد صحيح، ولهذا لا يصح قول من قال: إن ثعلبة بن حاطب الأنصاري – رضي الله عنه – وهو ممن شهد غزوة بدر ـ هو المقصود بقوله – عز وجل –: ﴿وَمِنهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (التوبة: ٧٥). وهذه القصة ـ التي يذكرها كثير من الخطباء في أثناء حديثهم عن الزكاة ـ لا تصح سندًا ولا مَتْنًا، أما سندًا فهى من طريق معان بن رفاعة عن على بن يزيد، وكلاهما لا يصح حديثه. وأما متنًا فالنبى – صلى الله عليه وآله وسلم – قرر أن مانع الزكاة تؤخذ منه قسرًا، وحارب أبو بكر الصديق ت مانعي الزكاة، فكيف يرفضُ أَخْذَها رسولُ الله – صلى الله عليه وآله وسلم – وأبو بكر وعمر – رضي الله عنهما؟ وهذه القصة المكذوبة قد أشار إلى ضعفها ابنُ حزم والبيهقيُّ و«القرطبي» والذهبي وابن حجر العسقلاني والسيوطي والألباني. (انظر: الشهاب الثاقب فى الذب عن الصحابى الجليل ثعلبة بن حاطب رضى الله عنه، لسليم الهلالي).

(٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١٦١. (ش): رواه البخاري ومسلم والترمذي.

﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس؟ ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يعيبون المتطوعين المتبرعين من المؤمنين في صدقاتهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلا طاقتهم فيهزءون منهم روى «الطبري» عن ابن عباس قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ، وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءٌ، وإن كان الله ورسوله لَغَنِيَّيْن عن هذا الصاع فنزلت[1] ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم وهو من باب المشاكلة[2] ﴿وَلَهُمْ

---

(١) «الطبري» ١٠/ ١٩٤. (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في ««أسباب النزول»» عن قتادة. وعَنْ أَبِى مَسْعُودٍ قَالَ: لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الآخَرُ إِلاَّ رِئَاءً. فَنَزَلَتْ (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ) الآيَةَ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وفي «صحيح مسلم» أن أَبَا خَيْثَمَةَ الأَنْصَارِيُّ هُوَ الَّذِى تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ.

(٢) المشاكلة: اتفاق الكلمتين لفظًا واختلافهما معنى. (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفًا مطلقًا ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . إلخ.
الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبدًا، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة.. إلخ.
الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالًا، ويمكن أن تكون نقصًا، على حسب الحال التي تُذكر فيها.
فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالًا يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصًا لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء، فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيدًا بما يجعله كمالًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالًا في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخادع وصفًا مطلقًا. لأنه حينئذٍ لا يكون كمالًا. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾. وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾. وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحًا سيئًا لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي عذاب موجع، هو عذاب الآخرة المقيم ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أمر ومعناه الخبر أي سواء يا محمد استغفرت لهؤلاء المنافقين أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ قال الزمخشري: والسبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير(١) والمعنى مهما أكثرت من الاستغفار لهم وبالغت فيه فلن يغفر الله لهم أبداً ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله كفراً شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يوفق للإيمان الخارجين عن طاعته، ولا يهديهم إلى سبيل السعادة ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي فرح المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بقعودهم بعد خروج الرسول ﷺ مخالَفَةً له حين سار وأقاموا ﴿وَكَرِهُوٓا أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وكرهوا الخروج إلى الجهاد إيثاراً للراحة وخوف إتلاف النفس والمال لما في قلوبهم من الكفر والنفاق ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض: لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة في حر شديد، قال «أبو السعود»: وإنما قال ﴿وَكَرِهُوٓا أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على قوله «وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو» إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه مِن أَجَلِّ الرغائب، وأشرف المطالب، التي يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه، كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ وقالوا لإخوانهم تواصياً فيما بينهم بالشر والفساد لا تنفروا في الحر، فقد جمعوا ثلاث خصال من الكفر والضلال: الفرح بالقعود، وكراهية الجهاد، ونهي الغير عن ذلك(٢)، قال تعلى رداً عليهم ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ أي قل لهم يا محمد: نار جهنم التي تصيرون إليها بتثاقلكم عن الجهاد أشد حراً مما تحذرون من الحر المعهود، فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى، وحر جهنم دائم لا يفتر، فما لكم لا تحذرون نار جهنم؟ قال الزمخشري: وهذا استجهال لهم، لأن من تصوَّن من مشقة ساعة، فوقع بذلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل(٣) ﴿لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كانوا يفهمون لَنَفَروا مع الرسول ﷺ في الحر، لِيَتَّقُوا به حَرَّ جهنم الذي هو أضعاف أضعاف وهذا ولكنهم «كالمستجير من الرمضاء بالنار» ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أمر يراد به الخبر معناه: فسيضحكون قليلاً، وسيبكون كثيراً، قال ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً(٤)

---

(١) «الكشاف» ٢/ ٢٩٥.
(٢) «أبو السعود» ٢/ ٢٨٦.
(٣) «الكشاف» ٢/ ٢٩٦.
(٤) مختصر ابن كثير ٢/ ١٦٠.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي جزاءً لهم ما اجترحوا من فنون المعاصي ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي فإن ردك الله من غزوة تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ أي طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ أي قل لهم لن تخرجوا معي للجهاد أبداً ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي لن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله، وهو خبر معناه النهي للمبالغة، جَارٍ مجرى الذَّمّ لهم لإظهار نفاقهم ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أي قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى تبوك ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ أي فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ أي لا تصل يا محمد على أحدٍ من هؤلاء المنافقين إذا مات، لأن صلاتك رحمة، وهم ليسوا أهلاً للرحمة ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾ أي لا تقف على قبره للدفن، أو للزيارة والدعاء[1] ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يُظْهِرون الإيمان ويُبْطِنون الكفر ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان، نزلت في ابن سلول[2] ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡ﴾ أي لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي لا يريد بهم الخير إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب والنكبات ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ التنكير للتفخيم أي وإذا أنزلت سورة جليلة الشأن ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي بأن آمنوا بالله بصدقٍ ويقين، وجاهدوا مع رسول لنصرة الحق وإعزاز الدين ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ أي استأذنك في التخلف أُولوا الغِنَى والمال الكثير ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي دعنا نكن مع الذين لم يخرجوا للغزو وقعدوا لعذر، قال تعالى تقبيحاً لهم وذماً ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي خُتِم عليها ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أي فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة، وما في التخلف عنه من الشقاوة ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ قال «الرازي»: لما شرح حال المنافقين، بيّن حال الرسول والمؤمنين بالضد منه، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه[3] والمعنى: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد مَن هو خيرٌ منهم وأخلصُ نيَّةً واعتقاداً ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُ﴾ أي لهم منافع الدارين:

---

(١) (ش): أي الدعاء له بالمغفرة.

(٢) انظر سبب النزول السابق.

(٣) «الرازي» ١٦/ ١٥٧.

النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي الفائزون بالمطلوب ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾ أي أعد الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي لابثين في الجنة أبداً ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ أي جاء المعتذرون من الأعراب الذين انتحلوا الأعذار وتخلفوا عن الجهاد ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ أي في ترك الجهاد، وهذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب بعد بيان أحوال المنافقين من أهل المدينة، قال «البيضاوي»: هم «أسد» و «غطفان» استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال[1] ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي وقعد عن الجهاد الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وعيد لهم شديد أي سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين في دعوى الإيمان عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا، والنار في الآخرة ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ أي ليس على الشيوخ المُسِنِّين، ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ أي إثم في القعود ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أخلصوا الإيمان والعمل الصالح، فلم يرجفوا بالناس ولم يُثَبِّطوهم[2]، ولم يثيروا الفتن، فليس على هؤلاء حرج إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعذار ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل قال في «التسهيل»: وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا لله ورسوله، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم[3]، وهذا من بليغ الكلام لأن معناه: لا سبيل لعاتب عليهم، وهو جارٍ مجرى المثل ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي عظيم المغفرة والرحمة حيث وسع على أهل الأعذار ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ نزلت في البكّائين الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه قال «البيضاوي»: هم البَكَّاءُون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك، فقال عليه السلام: لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون[4] ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم، ولم يكن عند

(١) «البيضاوي» ٢٣٠.
(٢) (ش): ثَبَّطه عن سَعْيه: عوّقه عنه وبطّأه، شغله ومنعه عن المُضيّ فيه.
(٣) «التسهيل» ٢/ ٨٣.
(٤) «البيضاوي» ٢٣٠. (ش): ذكره الواحدي في «"أسباب النزول"» بدون إسناد.

رسول الله ما يحملهم عليه ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ أي إنما الإثم والحرج على الذين يستأذنونك في التخلف وهم قادرون على الجهاد وعلى الإنفاق لغناهم ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ختم عليها فهم لذلك لا يهتدون.

البَلَاغَة: ١ - ﴿يَعْلَمُ .. عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بين (يعلم وعلام) جناس الاشتقاق.

٢ - ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التنوين في عذابٌ للتهويل والتفخيم.

٣ - ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بينهما طباق السلب، وقد خرج الأمر عن حقيقته إلى التسوية.

٤ - ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٥ - ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ الخوالف: النساء المقيمات في دار الحي بعد رحيل الرجال ففيه استعارة، وإنما سمي النساء خوالف تشبيهاً لهن بالخوالف وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحي فشبههن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت(١).

٦ - ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ هو من عطف الخاص على العام اعتناءً بشأنهم أفاده الألوسي(٢).

فَائِدَة: قال الزمخشري عند قوله تعالى ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ لفظ السبعين جارٍ مجرى المثل في كلام العرب للتكثير قال علي بن أبي طالب:

لَأُصَبِّحَنَّ الْعَاصِ وَابْنَ الْعَاصِي ... سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي(٣)

فذكرها ليس لتحديد العدد، وإنما هو المبالغة جرْياً على أساليب العرب(٤).

تنبيه: إنما منع ﷺ من الصلاة على المنافقين، لأن الصلاة على الميت دعاء واستغفار واستشفاع له، والكافر ليس بأهل لذلك.

لطيفَة: «اشتهر» حذيفة بن اليمان بأنه صاحب سر الرسول ﷺ وقد قال له ﷺ: إني مسرٌّ إليك سرًّا فلا تذكره لأحد، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان، لرهط ذوي عدد من المنافقين، ولذلك كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأتيه فيقول: أسألك بالله هل عدَّني رسول الله من المنافقين»(٥).

---

(١) تلخيص البيان للشريف الرضى ص ١٤٨.

(٢) «روح المعاني» ١٠/ ١٥٩.

(٣) (ش): عقَد ناصيتَه: غضب وتهيأ للشرّ. والمقصود بهذا البيت معاوية بن أبي سفيان، والبيت رواه ابن جرير «الطبري» في «تاريخه» بإسناد ضعيف في قصة طويلة في الفتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية ب، وكم من قصص مكذوبة تسيء إلى الصحابة الكرام تذكرها كتب التاريخ بلا تثبُّت.

(٤) «الكشاف» ٢/ ٢٩٥.

(٥) (ش): عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دُعِيَ عُمَرُ، لِجِنَازَةٍ، فَخَرَجَ فِيهَا أَوْ يُرِيدُهَا فَتَعَلَّقْتُ بِهِ فَقُلْتُ: اجْلِسْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،=

قال الله تعالى:

يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ
أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ
رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن
تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ
أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا
وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ
وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ
ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم
بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ
ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ
لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ
خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ
تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ
ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ
وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ
لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا
وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ
وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ
فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ
مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي

= فَإِنَّهُ مِنْ أُولَئِكَ، فَقَالَ: «نَشَدْتُكَ اللهَ أَنَا مِنْهُمْ» ، قَالَ: «لَا وَلَا أُبَرِّئُ أَحَدًا بَعْدَكَ» (رواه البزار بإسناد صحيح).

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ سَائِرٌ إِلَى تَبُوكَ نَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ لِيُوحَى إِلَيْهِ، وَأَنَاخَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَنَهَضَتِ النَّاقَةُ تَجُرُّ زِمَامَهَا مُنْطَلِقَةً، فَتَلَقَّاهَا حُذَيْفَةُ فَأَخَذَ بِزِمَامِهَا يَقُودُهَا حَتَّى أَنَاخَهَا وَقَعَدَ عِنْدَهَا، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ فَأَقْبَلَ إِلَى نَاقَتِهِ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا لَا تُحَدِّثَنَّ بِهِ أَحَدًا أَبَدًا، إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أُصَلِّيَ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ»، رَهْطٍ ذَوِي عَدَدٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، قَالَ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاسْتُخْلِفَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّنْ يَظُنُّ عُمَرُ أَنَّهُ مِنْ أُولَئِكَ الرَّهْطِ أَخَذَ بِيَدِ حُذَيْفَةَ فَقَادَهُ، فَإِنْ مَشَى مَعَهُ صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِنِ انْتَزَعَ مِنْ يَدِهِ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ، وَأَمَرَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ (رواه البيهقي في «السنن الكبرى» بإسناد ضعيف.

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

المناسَبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن المنافقين، الذين تخلفوا عن الجهاد وجاءوا يؤكدون تلك الأعذار بالأيمان الكاذبة، وقد ذكر تعالى من مكايد المنافقين «مسجد الضرار» الذي بنوه ليكون وكراً للتآمر على الإسلام والمسلمين، وحذر نبيه ﷺ من الصلاة فيه، لأنه لم يُشَيَّد على أساس من التقوى، وإنما بني ليكون مركزاً لأهل الشقاق والنفاق، ولتفريق وحدة المسلمين، وقد اشتهر باسم مسجد الضرار.

اللغَة: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ رجعتم ﴿رِجْسٌ﴾ الرجس: الشيء الخبيث المستقذر، وقد يطلق على النجس ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ قال الجوهري: المأوى كل مكان يأوى إليه ليلاً ونهاراً ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ جمع أعرابي قال أهل اللغة: يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب، ورجل أعرابي إذا كان بدويـًا يطلب مساقط الغيث والكلأ، سواء كان من العرب أو من مواليهم، فمن استوطن القرى العربية فهم عرب، ومن نزل البادية فهم أعراب[1] ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أولى وأحق ﴿مَغْرَمًا﴾ المغرم: الغرم والخسران وأصله من الغرام وهو لزوم الشيء[2] ﴿مَرَدُوا۟﴾ ثبتوا واستمروا وأصل الكلمة من اللين والملامسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه رملة مرداء لا نبت فيها، وغصن أمرد لا ورق عليه، وغلام أمرد لا لحية له ﴿مُرْجَوْنَ﴾ الإرجاء: التأخير يقال: ارجأته، أي: أخرته ومنه المرجئة لأنهم أخروا العمل[3] ﴿ضِرَارًا﴾ الضرار: محاولة الضر وفي الحديث «**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ**»[4] ﴿وَإِرْصَادًا﴾ الإرصاد: الترقب والانتظار يقال أرصدت له كذا إذا أعددته مرتقباً له به ﴿شَفَا﴾ الشفا: الحَرْف والشفير ومنه أشفى على كذا إذا دنا منه ﴿جُرُفٍ﴾ : ما تجرفه السيول من الأودية ويبقى على الأطراف طين مشرف على السقوط وأصله من الجرف وهو اقتلاع الشيء من أصله ﴿هَارٍ﴾ ساقط يقال: تهور البناء إذا سقط وأصله هائر.

سَبَبُ النّزول: «روي أن أبا عامر الراهب[5] قد تنصر في الجاهلية وترهب، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه لأنه ذهبت رياسته وقال: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم – وسماه النبي ﷺ

---

(١) «الرازي» ١٦/ ١٦٥.

(٢) «القرطبي» ٨/ ٢٣٤.

(٣) (ش): المرجئة يخالفون أهل السنة والجماعة في أصل من أصول العقيدة، حيث يقول أهل السنة :إن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية .وأهل الإرجاء يخالفون في ذلك وغيره، فالإيمان عندهم هو التصديق والقول فقط، ولا يزيد ولا ينقص، ولا دخل للطاعة والمعصية في مسمى الإيمان.

(٤) رواه الدارقطني. (ش): ورواه ابن ماجه، وصححه الألباني.

(٥) هو والد حنظلة الذي غسلته الملائكة.

أبا عامر الفاسق - فلما انهزمت هوازن في حنين خرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجدًا فإني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند الروم فأُخرج محمداً وأصحابه، فبنوا مسجداً إلى جانب مسجد قباء، وأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا بنينا مسجداً لذي العِلة، والحاجة، والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فدعا بثوبه ليلبسه فيأتيهم فنزل عليه القرآن، وأخبر الله رسوله خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا ﷺ بعض الصحابة وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم وأهله واحرقوه، فذهبوا إليه فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله، وفيه نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا ...﴾[١] الآية».

التفسير: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ أي يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ أي قل لهم لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ أي قد أخبرنا الله بأحوالكم وما فيه من ضمائركم من الخبث والنفاق ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي وسيرى اللهُ ورسولهُ عملَكم فيما بعد، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الله تعالى الذي يعلم السر والعلانية، ولا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي فيخبركم عند وقوفكم بين يديه بأعمالكم كلها، ويجازيكم عليها الجزاء العادل ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ﴾ أي سيحلف لكم بالله هؤلاء المنافقون ﴿إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي إذا رجعتم إليهم من تبوك معتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ أي لتصفحوا عنهم ولتعرضوا عن ذمهم ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض مقتٍ واجتناب، وخلُّوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق قال ابن عباس: يريد ترك الكلام والسلام[٢] ثم ذكر تعالى العلة فقال: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾ أي لأنهم كالقذر لخُبْث باطِنهم ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيرهم إلى جهنم هي مسكنهم ومأواهم ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي جزاءً لهم على نفاقهم في الدنيا، وما اكتسبوه من الآثام ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ كرره لبيان كذبهم وللتحذير من الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة، أي يحلفون لكم بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن رضيتم عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم لأن الله ساخط عليهم قال «أبو السعود»: ووضع

---

(١) «أسباب النزول» ١٤٩. (ش): قال الألباني -رحمه الله-: «ضعيف رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد. لكن أخرج الحاكم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «رَأَيْتُ الدُّخَانَ مِنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ حِينَ انْهَارَ» وصححه ووافقه الذهبي، فلعل المسجد انهار بأمر الله دون حرق، والله أعلم. (انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص ٢٢٠- ٢٢١).

(٢) «الرازي» ١٦/ ١٦٤.

الفاسقين موضع الضمير للتسجيل عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة[١] ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ الأعراب - أهل البدو - أشد كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر، لجفائهم وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصلاح ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي وهم أولى بألا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع قال في «البحر»: وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب، فقد نشئوا كما شاءوا، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة[٢] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بخلقه حكيم في صنعه ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ أي ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء من يعدُّ ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به غرامة وخسراناً، لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجو له ثواباً ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ جملة اعتراضية للدعاء عليهم أي عليهم يدور العذاب والهلاك ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميعٌ لأقوالهم عليمٌ بأفعالهم ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أي ومن الأعراب من يصدِّق بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت على عكس أولئك المنافقين ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبته ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي دعاء الرسول واستغفاره له ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ (ألا) أداة استفتاح للتنبيه على الاعتناء بالأمر أي ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقربهم لرضا ربهم حيث أنفقوها مخلصين ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لأهل طاعته رحيم بهم حيث وفقهم للطاعة ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة[٤] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي سلكوا طريقهم واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة، وهم التابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ وعدٌ بالغفران والرضوان أي رَضِيَ اللهُ عَنْهم وأرضاهم، وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون، ويتنافس فيها المتنافسون أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم قال «الطبري»: رَضِيَ اللهُ عَنْهم لطاعتهم وإجابتهم نبيه، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على الطاعة والإيمان ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا

(١) «أبو السعود».

(٢) «البحر» المحيط.

(٣) (ش): فالجنةُ أثرٌ من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

(٤) روى عن الشعبي أنهم الذي، بايعوا بيعة الرضوان. وقيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين. وما ذكرناه أنهم جميع الصحابة وهم السابقون في الهجرة والنصرة هو ما رجحه «الطبري» واختاره الفخر «الرازي».

﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ أي مقيمين فيها من غير انتهاء ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه قال في «البحر»: لما بيّن تعالى فضائل الأعراب المؤمنين، بيّن حال هؤلاء السابقين، ولكن شتان ما بين الثناءين فهناك قال ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ وهناك قال ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وهنا ختم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وهناك ختم ﴿ذلك الفوز العظيم﴾[1] ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ﴾ أي وممن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب منازلهم قريبة من منازلكم ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي ومن أهل المدينة منافقون أيضـاً ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي لَجُّوا في النفاق واستمروا عليه قال ابن عباس: مرنوا عليه وثبتوا [2] منهم ابن سلول، والجلاس، وأبو عامر الراهب[3] ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾ أي ثم في الآخرة يردون إلى عذاب النار، الذي أعده الله للكفار والفجار ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي وقوم آخرون أقروا بذنوبهم ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة قال «الرازي»[4]: هم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك لا لنفاقهم بل لكسلهم، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أي خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول لسائر الغزوات بالعمل السيئ وهو تخلفهم عن غزوة تبوك هذه المرة ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي لعل الله يتوب عليهم قال «الطبري»: و«عسى» من الله واجب، ومعناه: سيتوب الله عليهم، ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي على ما وصَفْتُ[5] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي ذو عفوٍ لمن تاب، عظيم الرحمة لمن أناب ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوضار، وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ أي وادع لهم بالمغفرة فإن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم قال ابن عباس: ﴿سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ رحمة لهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لقولهم عليهم بنيّاتهم ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ الاستفهام للتقرير أي

---

(١) «البحر» ٥/ ٩٢.

(٢) (ش): لجَّ في الأمر: تمادَى فيه معاندًا، لازمه وأبى أن ينصرف عنه. مرنوا عليه: أي تعوَّدوا عليه ومهروا فيه.

(٣) تفسير ابن الجوزي ٣/ ٤٩١.

(٤) «الرازي» ١٦/ ١٧٤.

(٥) «الطبري» ١١/ ١٢.

ألم يعلم أولئك التائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يتقبلها ممن أخلص النية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وأن الله وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة لقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٣] ﴿وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون﴾ صيغة أمر متضمنة للوعيد أي اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي وستردُّون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي وآخرون من المتخلفين مُؤَخَّرُون إلى أن يظهر أمر الله فيهم قال ابن عباس: هم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار، وكانوا من أصحاب بدر، فنهى النبي ﷺ عن كلامهم والسلام عليهم، فصاروا مرجئين لأمره تعالى[١] إلى أن يتجاوز عن سيئاتهم، فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ويتوب على العبد دون غيره ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي إما أن يعذبهم إن لم يتوبوا، وإما أن يوفقهم للتوبة ويغفر لهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بأحوالهم حكيم فيما يفعله بهم، وهؤلاء الثلاثة المذكورون في قوله تعالى ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨] وقد وقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ أي ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجرام حتى ابتنوا مجمعاً يدبرون فيه الشر، وسموه مسجداً مُضَارَّةً للمؤمنين[٢]، وقد اشتهر باسم «مسجد الضرار» ﴿وَكُفۡرٗا﴾ أي نصرة للكفر الذي يخفونه ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين، ويصرفونهم عن مسجد قباء ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ أي ترقباً وانتظاراً لقدوم أبي عامر الفاسق الذي قال لرسول الله: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتَلْتُك معهم، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ليكون معقلاً له قال «الطبري» في رواية الضحاك: هم ناس من المنافقين بنوا مسجداً بقباء يضارون به نبي الله والمسلمين وكانوا يقولون: إذا رجع أبو عامر صلى فيه، وإذا قدم ظهر على محمد وتغلب عليه[٣] ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي وليُقْسِمُنَّ ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان، من الرفق بالمسكين، والتوسعة على المصلين ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي والله يعلم كذبهم في ذلك الحلف، وأتى بإن واللام لزيادة التأكيد، ثم نهى تعالى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار فقال ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ أي لا تصلِّ فيه يا محمد أبداً لأنه لم يُبْنَ إلا ليكون معقلاً لأهل النفاق

(١) «أبو السعود» ٢/ ٢٩٥.
(٢) انظر سبب النزول.
(٣) «الطبري» ١١/ ٢٥.

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ اللام لام القسم أي لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي من أول يوم ابتدئ في بنائه ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أي أولى وأجدر بأن تصلي فيه من مسجد الضرار ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ أي في هذا المسجد رجال أتقياء – وهم الأنصار – يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي[1] ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة، ثم أشار تعالى إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى: هل من أسس بنيانه على تقوى وخوف من الله تعالى وطلبٍ لمرضاته بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي هل ذاك خير أم هذا الذي أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط؟ ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي فسقط به البناء في نار جهنم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق الظالمين إلى السداد، ولا يهديهم سبيل الرشاد، والآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل أهل الإخلاص، والإيمان، وعمل أهل النفاق والضلال، والمعنى هل من أسس بنيان دينه على التقوى والإخلاص كمن أسسه على الباطل والنفاق الذي يشبه طرف الوادي أو الجبل الذي أشفى على السقوط؟ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار شك ونفاقٌ، وغيظ وارتياب بسبب هدمه، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين، روي أن النبي ﷺ بعث إلى ذلك المسجد من هدمه وحرقه وأمر بإلقاء الجيف والنتن والقمامة فيه إهانة لأهله، فلذلك اشتد غيظ المنافقين وحقدهم[2] ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا يزالون في ارتياب وغيظ إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي والله سبحانه عليم بأحوال المنافقين، حكيم في تدبيره إياهم ومجازاتهم بسوء نياتهم.

البَلَاغَة: ١ – ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ بين الكلمتين طباق.

٢ – ﴿لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الإظهار في موضع الإضمار لزيادة التشنيع والتقبيح وأصله لا يرضى عنهم.

٣ – ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ فيه مجاز مرسل أي يُدخلهم في جنته التي هي محل

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِى أَهْلِ قُبَاءَ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ قَالَ: كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةُ. (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وصححه الألباني).

(٢) (ش): قال الألباني : «ضعيف رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد. لكن أخرج الحاكم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ الأَنْصَارِيَّ رضي الله عنهما ، قال: «رَأَيْتُ الدُّخَانَ مِنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ حِينَ انْهَارَ» وصححه ووافقه الذهبي، فلعل المسجد انهار بأمر الله دون حرق، والله أعلم. (انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص ٢٢٠– ٢٢١).

الرحمة وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل[١].

٤ - ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ بين ﴿صَٰلِحًا .. سَيِّئًا﴾ طباق.

٥ - ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ فيه تشبيه بليغ حيث جعل الصلاة نفس السكن والاطمئنان مبالغة وأصله كالسكن حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغـًا.

٦ - ﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾ بينهما جناس ناقص وهو من المحسنات البديعية.

٧ - ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ ﴾ في الكلام استعارة مكنية حيث شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة يعتمد عليها البنيان وطوي ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو التأسيس[٢].

تنبيه: كلمة «عسى» من الله واجب قال الإمام «الرازي»: وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئـًا فإنه لا يجيبه إلا على سبيل الترجي مع كلمة «عسى» أو «لعل» تنبيهـًا على أنه ليس لأحد أن يلزمه بشيء، بل كل ما يفعله فإنما هو على سبيل التفضل والتطول، وفيه فائدة أخرى وهو أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الإتكال والإهمال[٣].

لطيفَة: روى الأعمش أن أعرابيًّا جلس إلى «زيد بن صوحان» وهو يحدث أصحابه وكانت يده أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني! قال زيد: ما يريبك من يدي إنها الشمال، فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال فقال زيد: صدق الله ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ...﴾ الآية، معنى تريبني أي تدخل إلى قلبي الشك هل قطعت في سرقة وهذا من جهل الأعرابي[٤].

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ

---

(١) (ش): فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

(٢) انظر ما كتبه الشريف الرضي في «تلخيص البيان» حول هذه الآية الكريمة ص ١٤٩، ففيه روائع البيان.

(٣) «الرازي» ١٦/ ١٧٦.

(٤) «محاسن التأويل» ٨/ ٣٢٣٩.

ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ
لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ
ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن
لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن
رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ
صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟
كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ
يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال المنافقين، المتخلفين عن الجهاد، المثبطين عنه، ذكر صفات المؤمنين المجاهدين، الذين باعوا أنفسهم لله. . ثم ذكر قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وتوبة الله عليهم، وختم السورة بتذكير المؤمنين بالنعمة العظمى، ببعثة السراج المنير، النبي العربي، الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

اللغَة: ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوه ومعناه الخاشع المتضرع، يقال: تأوه الرجل تأوهاً إِذا توجع

قال الشاعر:

إِذَا مـا قُـمْـتُ أَرْحَـلُـهـا بِـلَـيْـلٍ   تَـأَوَّهُ[١] آهَـةَ الـرَّجُـلِ الـحَـزِينِ[٢]

﴿حَلِيمٌ﴾ الحليم: الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنب ويصبر على الأذى ﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾ الشدة وصعوبة الأمر وتسمى غزوة تبوك «غزوة العسرة» لما فيها من المشقة والشدة ﴿يَزِيغُ﴾ الزيغ: الميل: يقال زاغ قلبه إذا مال عن الهدى والإيمان ﴿ظَمَأٌ﴾ الظمأ: شدة العطش ﴿نَصَبٌ﴾ النصب: الإعياء والتعب ﴿مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة شديدة يظهر بها ضمور البطن ﴿يَنَالُونَ﴾ يصيبون، نال الشيء إذا أدركه وأصابه ﴿غِلْظَةً﴾ شدة وقوة وحمية ﴿عَزِيزٌ﴾ صعب وشاق ﴿عَنِتُّمْ﴾ العنت: الشدة والمشقة.

سَبَبُ النّزول: أ - «لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة - وكانوا سبعين رجلاً - قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل» فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ...﴾[٣] الآية[٤].

---

(١) (ش): تَأَوَّهُ: أصلها تتأَوَّهُ ومعناها تتألم، آهة الرجل: مثل تألم الرجل. عنَى بذلك ناقته، تَحِنُّ إلى ديارها وأوطانها. فعندما يذهب الشاعر إلي ناقته لتجهيزها للسفر يسمعها وهي تتألم مثلما يتألم الرجل الحزين.

(٢) «البحر» ٥/ ٨٨.

(٣) «زاد المسير» ٣/ ٥٠٤.

(٤) (ش): سبب النزول ضعيف، رواه ابن جرير في «جامع البيان». أما قصة المبايعة فثابتة. فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَبِثَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ الْحَاجَّ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوْسِمِ وَبِمَجَنَّةٍ وَبِعُكَاظٍ، وَبِمَنَازِلِهِمْ بِمِنًى يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟». فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَيُؤْوِيهِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ يَرْحَلُ مِنْ مُضَرَ، أَوْ مِنَ الْيَمَنِ، إِلَى ذِي رَحِمِهِ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: «احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ»، وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ. حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ، فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ فَيُؤْمِنُ بِهِ، فَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ يَثْرِبَ إِلَّا فِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ بَعَثَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأْتَمَرْنَا، وَاجْتَمَعْنَا سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَّا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَذَرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ، وَيَخَافُ. فَرَحَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ: «يَا ابنَ أَخِي، إِنِّي لَا أَدْرِي مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ جَاءُوكَ؟ إِنِّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ»، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ فِي وُجُوهِنَا، قَالَ: «هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ»، فَقُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَامَ نُبَايِعُكَ؟» قَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمُ الْجَنَّةُ». فَقُمْنَا نُبَايِعُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ، فَقَالَ: «رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، إِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى السُّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ، وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ، وَعَلَى مُفَارَقَةِ =

ب - لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «**أَيْ عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، كَلِمَةً أُحَاجّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فقال أبو جهل وابن أُمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول «لا إله إلا الله» فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَا وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ...﴾ » ونزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] [القصص: ٥٦] .

التفسير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين[2]، مَثَّل تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء قال الحسن: بايعهم فأَغْلَى لهم الثمنَ [3] وانظروا إلى كرم الله، أَنْفُساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة وقال بعضهم: ناهيك عن[4] بيعٍ البائعُ فيه المؤمنُ، والمشتري فيه ربُّ العزة والثمنُ فيه الجنةُ، والصَكُّ فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي وعدهم به المولى وعداً قاطعاً ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أي وعداً مثبتاً في الكتب المقدسة «التوراة، والإنجيل، والقرآن» ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أوفى من الله جل وعلا قال الزمخشري: لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق، فكيف بالغني

= الْعَرَبِ كَافَّةً، فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ، فَهُوَ أَعْذَرُ عِنْدَ اللهِ». قَالَوا: «يَا أَسْعَدُ بْنَ زُرَارَةَ أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ، فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ، وَلَا نَسْتَقِيلُهَا، فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشُرْطَةِ الْعَبَّاسِ ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ» (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وقال ابن كثير: هَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِم). «هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ»: هَذَا يَدُلُّ عَلَى غَلَبَةِ الشَّبَابِ عَلَى الْوَفْدِ.(أَمِطْ): أَبْعِدْ. (لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ): أَيْ لَا نَتْرُكهَا. (وَلَا نَسْتَقِيلُهَا): لَا نَطْلُبُ فَسْخَهَا وَالرُّجُوعَ فِيهَا. والِاسْتِقَالَةُ: طَلَبُ الْإِقَالَةِ، وَالْإِقَالَةِ هِيَ رَفْعُ الْعَقْدِ بَعْدَ وُقُوعِهِ. (بِشُرْطَةِ الْعَبَّاسِ): يَعْنِي الْمَوَاثِيق الَّتِي أَخَذَهَا الْعَبَّاسُ عَلَيْهِمْ بِالْوَفَاءِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) (ش): هذا خطأ لأنه لا مانع من حَمْله على الحقيقة، لأن الأصل في الكلام لاسيما كلام الله الحقيقة لا المجاز، والشراء في اللغة استبدال شيء بشيء، وهو حاصِلٌ هنا.

(٣) «الطبري» ١١/ ٣٥، و«الرازي» ١٦/ ١٩٩.

(٤) (ش): ناهيك عن/ ناهيك بـ: كَافِيكَ. صَكٌّ: سَنَدٌ أو وثيقة اعتراف بالمال المقبوض أو بالمال المستحقّ للغير.

الذي لا يجوز عليه القبيح؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ[١] ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ أي أبشروا بذلك البيع الرابح وافرحوا به غاية الفرح ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ كلا مستأنف قال الزجاج: مبتدأ خبره محذوف أي التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥] والمعنى التائبون عن المعاصي، العابدون أي المخلصون في العبادة، الحامدون لله في السراء والضراء ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم، من السياحة وهي السير والذهاب في المدن والقفار للعظة والاعتبار[٢] ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ أي المصلون ﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي الداعون إلى الله، يدعون الناس إلى الرشد والهدى، وينهونهم عن الفساد والردى ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي المحافظون على فرائض الله، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام قال «الطبري»: أي المؤدون فرائض الله، المنتهون إلى أمره ونهيه[٣] ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بجنات النعيم، وحذف المبشر به إشارة إلى أنه لا يدخل تحت حصر، بل لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾ أي ولو كان المشركون أقرباء لهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر، والآية نزلت في أبي طالب[٤] ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه آزر أي ما أقدم إبراهيم على الاستغفار ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي إلا من أجل وعدٍ تقدم له بقوله ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم:٤٧] وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي فلما تبين لإبراهيم أن أباه مُصِرٌّ على الكفر ومستمر على الكفر، تبرأ من أبيه بالكلية فضلاً عن الاستغفار له، ثم بيّن تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو فرط ترحمه وصبره على أبيه فقال ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي كثير التأوه من فرط الرحمة ورقة القلب ﴿حَلِيمٌ﴾ أي صبور على ما يعترضه من الأذى ولذلك حلم عن أبيه مع توعده له بقوله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ

---

(١) «الكشاف» ٢/ ٣١٤.

(٢) فسر بعضهم «السائحون» بأنهم الصائمون، وقال عطاء: هم الغزاة، وقال ابن زيد: هم المهاجرون، وما ذهبنا إليه هو ما رجحه الفخر «الرازي»، وهو الأولى بتفسير الآية الكريمة ويدل عليه: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والله أعلم.

(٣) «الطبري» ١١/ ٣٩.

(٤) انظر سبب النزول.

لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك قال أبو حيان: ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد أن يُقتدى به بيّن تعالى العلة في استغفار إبراهيم لأبيه، وهو الوعد الذي كان وعده به، فكان يرجو إيمانه فلما تبيّن له من جهة الوحي أنه عدو لله، وأنه يموت كافراً، وانقطع رجاؤه منه تبرأ منه وقطع استغفاره[١] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين، فخافوا على أنفسهم من ذلك فنزلت الآية تأنيساً لهم[٢] أي ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ أي بعد أن وفقهم للإيمان ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي حتى يبين لهم ما يجتنبونه فإن خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية، ومن يستحق الإضلال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له سلطان السماوات والأرض ومُلْكُهُما، وكُلُّ مَن فيهما عبيدُه ومماليكُه ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي بيده وحده حياتهم وموتهم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لكم أيها الناس من أحد غير الله تلجئون إليه أو تعتمدون عليه قال الألوسي: لما منعهم سبحانه عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى، وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم، بيّن لهم أن الله سبحانه مالك كل موجود، ومتولي أمره، والغالب عليه، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى، ليتوجهوا إليه بكُلِّيَّتِهم، مُتَبَرِّئين عما سواه، غير قاصدين إلا إياه[٣] ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي تاب الله على النبي من إذنه للمنافقين في التخلف، وتاب على المهاجرين والأنصار لما حصل منهم من بعض الهفوات في غزوة تبوك، حيث تباطأ بعضهم، وتثاقل عن الجهاد آخرون، والغرض التوبة على من تخلفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأنابوا، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم، وصدّرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم، وتنويهاً لشأنهم، وبعثاً للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرون والأنصار[٤] ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي اتبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة في شدة الحر، وقلة الزاد، والضيق الشديد روى «الطبري» عن عمر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير فيعصر فرثه فيشربه، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، قال: تحب ذلك؟ قال: نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء فملأوا

(١) «البحر» المحيط ٥/ ١٠٥.
(٢) التسهيل ٢/ ٨٦. (ش): ذكره ابن جزي في ««التسهيل» لعلوم التنزيل» بدون إسناد.
(٣) «روح المعاني» ١١/ ٣٩.
(٤) انظر «الكشاف» ٢/ ٣١٦.

ما معهم، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر(١) ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب، لما نالهم من المشقة والشدة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي وتاب كذلك على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو، وهم «كعب، وهلال، ومرارة»(٢) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي ضاقت عليهم مع سعتها ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي ضاقت نفوسهم بما اعتراها من الغم والهَمِّ، بحيث لا يَسَعُها أُنْسٌ ولا سرور، وذلك بسبب «أن الرسول عليه السلام دعا لمقاطعتهم، فكان أحدهم يفشي السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه، وهَجَرَتْهم نساؤُهم وأهلُوهم وأهملوهم حتى تاب الله عليهم» ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي وأيقنوا أنه لا معتصم لهم من الله ومن عذابه، إلا بالرجوع والإنابة إليه سبحانه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي رجع عليهم بالقبول والرحمة، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي المبالغُ في قبول التوبة وإن كثُرتْ الجنايات وعَظُمَتْ، المتفضلُ على العباد بالرحمة الشاملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي راقِبُوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وكونوا مع أهل الصدق واليقين، الذين صدقوا في الدنيا نية وقولاً وعملاً ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ عتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك أي ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره ولا يكرهوها له عليه السلام، بل عليهم أن يُفْدوه بالمُهَج والأرواح، وأن يكابِدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب قال الزمخشري: أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسُه، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها عليه، لا أن يَضَنُّوا(٣) بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ، وتهييج لمتابعته عليه السلام(٤) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾ أي ذلك النهي عن التخلف بسبب أنهم لا يصيبهم عطش ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾ أي ولا تعب ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾ أي ولا مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طرق الجهاد ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة

---

(١) «الطبري» ١١/ ٥٥. (ش): قال الهيثمي: «رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار ثقات».

(٢) انظر قصتهم في صحيح البخاري كتاب المغازي وفي «الطبري» ١١/ ٥٨. (ش): هم كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ومُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِى، وَهِلاَل بْن أُمَيَّةَ الْوَاقِفِى رضي الله عنهم. والقصة رواها أيضًا مسلم في «صحيحه».

(٣) (ش): ضنَّ بالمَال وغيره: بَخِلَ به.

(٤) «الكشاف» ٢/ ٢/ ٣٢١.

الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي يُغْضِب الكفارَ وَطْؤُها ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي ولا يصيبون أعداءهم بشيء بقتل أو أسرٍ أو هزيمة قليلاً كان أو كثيراً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أي إلا كان ذلك قربة لهم عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال ابن عباس: تمرة فما فوقها ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي ولا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضاً ذهاباً أو إياباً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي أثبت لهم أجر ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ليجزيهم على كل عمل لهم جزاء أحسن أعمالهم قال الألوسي: على معنى أن لأعمالهم جزاءً حسناً وجزاء أحسن، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء[١] ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ أي لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو[٢] بحيث تخلو منهم البلاد، روي عن ابن عباس أنه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا: لا يتخلف منا أحد عن جيشٍ أو سرية أبداً، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية[٣] ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي فإذا لم يكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهَلَّا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه قال الألوسي: وكان الظاهر أن يقال ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ بدل ﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾ و ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بدل ﴿يَحْذَرُونَ﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم: الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلم: اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار[٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي قاتِلوا القريبين منكم وطَهِّروا ما حولكم من رجس المشركين ثم انتَقِلوا إلى غيرهم، والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي واعلموا أن من اتقى الله كان الله معه بالنصر والعون ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أي من سور القرآن ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ أي فمن هؤلاء المنافقين من يقول استهزاء: أيكم زادته هذه إيماناً؟ على وجه الاستخفاف

---

(١) «روح المعاني» ١١/ ٤٧.

(٢) وقيل: المراد أن ينفروا لطلب العلم.

(٣) «الرازي» ١٦/ ٢٢٥.

(٤) «روح المعاني» ١١/ ٤٨.

بالقرآن كأنهم يقولون: أي عجب في هذا وأي دليل في هذا؟ يقول تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي فأما المؤمنون فزادتهم تصديقاً[(١)] وذلك لما يتجدد عندهم من البراهين والأدلة عند نزول كل سورة ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي وهم يفرحون لنزولها لأنه كلما نزل شيء من القرآن ازدادوا إيماناً ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي وأما المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي زادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم، فازدادوا رجساً وضلالاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي ماتوا على الكفر ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أوَلا يرى هؤلاء المنافقون الذين تُفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين حين ينزل فيهم الوحي؟ ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق ولا يعتبرون ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ أي وإذا أُنزلت سورة من القرآن فيها عيب المنافقين وهم في مجلس النبي ﷺ نظر بعضهم لبعض هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف، فإنا لا نصبر على استماعه وهو يفضحنا ثم قاموا فانصرفوا ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ جملة دُعائيَّة أي صرفها عن الهدى والإيمان ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لأجل أنهم لا يفهمون الحق ولا يتدبرون فهم حمقى غافلون ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي لقد جاءكم أيها القوم رسول عظيم القدر، من جنسكم عربي قرشي، يُبلغكم رسالة الله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يشق عليه عَنَتُكم وهو المشقة ولقاء المكروه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي حريص على هدايتكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي رءوف بالمؤمنين رحيم بالمذنبين، شديد الشفقة والرحمة عليهم قال ابن عباس: سماه باسمين من أسمائه[(٢)] ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمد فقل: يكفيني ربي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود سواه[(٣)] ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليه اعتمَدتُ فلا أرجو ولا أخاف أحداً غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء، لكونه أعظم الأشياء؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى.

البَلَاغَة: ١ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ استعارة تبعية شبه بذلهم الأموال والأنفس وإثابتهم عليها

---

(١) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) «زاد المسير» ٣/ ١٢٥.

(٣) (ش): الصواب أن يقال: أي لا معبود بحق سواه.

بالجنة بالبيع والشراء[١].

٢ - ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ فيه جناس ناقص لاختلافهما في الشكل وهو من المحسنات البديعية.

٣ - ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ يعني المصلين فيه مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[٢].

٤ - ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بهم وتكريمهم.

٥ - ﴿مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٦ - ﴿لِيُضِلَّ .. هَدَىٰهُمۡ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يُحۡيِۦ .. وَيُمِيتُ﴾ وكذلك ﴿ضَاقَتۡ .. رَحُبَتۡ﴾.

٧ - ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ من صيغ المبالغة.

٨ - ﴿يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ جناس الاشتقاق وكذلك ﴿يَنَالُونَ .. نَّيۡلًا﴾.

٩ - ﴿صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ طباق.

١٠ - ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ قال في تلخيص البيان: السورة لا تزيد الأرجاس رجسًا، ولا القلوب مرضًا، بل هي شفاء للصدور وجلاء للقلوب، ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمىً، حَسُنَ أن يضاف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة.

تنبيه: «روي أن أبا خيثمة الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الحر والريح ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومر كالريح فنظر رسول الله ﷺ خلفه فإذا براكب وراء السراب، فقال: «كن أبا خيثمة» فكان ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له»[٣].

«تم تفسير سورة التوبة ولله الحمد في البدء والختام»



(١) (ش): هذا خطأ لأنه لا مانعَ مِن حَمْله على الحقيقة، لأن الأصل في الكلام لاسيما كلام الله الحقيقة لا المجاز، والشراء في اللغة استبدال شيء بشيء، وهو حاصِلٌ هنا.

(٢) تلخيص البيان ١٥٢. (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) (ش): حديث (كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ) صحيح، وهو عند مسلم وأحمد، وهو جزء من حديث كعب بن مالك الطويل. أما قصة أبي خيثمة التي ذكرها المؤلف؛ فقد أوردها ابن هشام عن ابن إسحاق بدون سند. ورواها الطبراني في «الكبير» بسند فيه يعقوب بن محمد الزهري، وهو ضعيف.



مكية وآياتها تسع ومائة

بين يدي السورة

سورة يونس من السور المكية التي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية «الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالكتب، والرسل، والبعث والجزاء» وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية، وبوجه أخص إلى «القرآن العظيم» خاتمة الكتب المنزلة، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور.

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول، وبينت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين، فما من أمة إلا بعث الله إليها رسولًا، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس: ٢]؟ ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة «الألوهية» و«العبودية» وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق، وعرَّفت الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يعبدوه، وأن يُسلموا وجوههم إليه، فهو وحده الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر الحكيم، وكل ما سواه فباطل وهباء ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [يونس: ٣] الآيات.

* وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة، الدالة على صدق النبي الأمي، وانه يحمل برهانه في تفرده المعجز، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة وأمراء البيان، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود:١٣].

* وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإله الحق، بذكر آثار قدرته ورحمته الدالة على التدبير الحكيم، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة، التي هي أوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ... ﴾ الآيات وهذه هي القضية الكبرى التي يدور محور السورة عليها وهي موضوع الإيمان بوحدانية الله جل وعلا، وقد عرضت السورة لها بشتى الأدلة السمعية والعقلية.

* وتحدثت السورة عن قصص بعض الأنبياء، فذكرت قصة نوح مع قومه، وقصة موسى مع فرعون الجبار، وذكرت قصة نبي الله «يونس» -الذي سميت السورة باسمه- وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في إهلاك الظالمين، ونصرة المؤمنين.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمساك بشريعة الله، والصبر على ما

يلقى من الأذى في سبيل الله ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

التسمية: سميت السورة «سورة يونس» لذكر قصته فيها، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب، وهذا من الخصائص التي خص الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ
ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ
وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ
لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي
ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا
يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ
وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم
بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ
مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ
وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ
فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ
لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ
أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ
عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ
مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعۡبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ
بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ

أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

اللغَة: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ قال الليث: القدم السابقة قال ذو الرمة:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ذُؤَابَةٍ لَهُمْ قَدَمٌ[١] مَعْرُوفَةٌ وَمَفَاخِرُ [٢]

وقال أبو عبيدة: كل سابقٍ في خير أو شر فهو قدم وقال الأخفش: سابقة إخلاص ﴿يُدَبِّرُ﴾ التدبير القضاء والتقدير على حسب الحكمة ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ العدل ﴿حَمِيمٍ﴾ الحميم: الماء الحار الذي سخن بالنار حتى انتهى حره ﴿يُفَصِّلُ﴾ التفصيل: التبيين والتوضيح ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ مثواهم ومقامهم ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الطغيان العلو والارتفاع ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيَّرون ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شئونه.

سَبَبُ النّزول: قال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ أنكرت الكفار وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ...﴾[٣] الآية.

التفسير: ﴿الٓر﴾ إشارة إلى أن هذا الكلام البليغ المعجز، مكوّن من جنس الأحرف التي يتكون منها كلامكم، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم، وهي في متناول أيديهم ثم يعجزون عن الإِتيان بمثل آية واحدة منه[٤] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن المُحكَم المبين الذي لا يدخله شك، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي أكان عجباً لأهل مكة إيحاؤنا إلى رجل منهم هو محمد عليه السلام؟ والهمزة للإِنكار أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي أوحينا إليه بأن خوف الكفار عذاب النار ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي وأنْ بَشّرِ المؤمنين بأنَّ لهم سابقةً ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ومع ضوح صدق الرسول ﷺ قال المشركون: إنَّ محمداً لساحرٌ ظاهر السحر، مبطلٌ فيما يدَّعيه قال «البيضاوي»: وفيه اعترافٌ من حيث لا يشعرون بأنَّ ما جاء به خارجٌ عن طوق البشر[٥] ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى

(١) (ش): القدم السابقة: ما تقدموا فيه غيرهم. الذُؤابة: أعْلَى كلِّ شيء، أو قمَّته وناصيتُه.
(٢) التفسير الكبير للرازي ١٧/ ٧.
(٣) «القرطبي» ٨/ ٣٠٦. (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» والواحدي في ««أسباب النزول»».
(٤) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة.
(٥) «البيضاوي» ٢٣٥.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إنَّ ربكم ومالك أمركم الذي ينبغي أن تُفْرِدوه بالعبادة هو الذي خلق الكائنات في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، ولو شاء لخلقهنَّ في لمحة ولكنه أراد تعليم العباد التأني والتثبت في الأمور ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تكييفٍ، ولا تشبيه، ولا تعطيل قال ابن كثير: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل، والمتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفيٌ عن الله، فإن الله لا يُشْبِهه شيءٌ من خلقه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، فقد سلك سبيل الهدى[(١)] وقال «أبو السعود»: استوى على العرش على الوجه الذي عناه، وهو صفة له سبحانه بلا كيف، مُنَزَّهـاً عن التمَكُّن والاستقرار[(٢)]، وهذا بيانٌ لجلالة ملكه وسلطانه، بعد بيان عظمة شأنه[(٣)] ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أي يدبّر أمر الخلائق على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة قال ابن عباس: لا يشغله في تدبير خلقه أحد ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ أي لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا بعد أن يأذن له في الشفاعة، وفي هذا ردٌّ على المشركين في زعمهم أن الأصنام تشفع لهم ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي ذلكم العظيم الشأن هو ربكم وخالقكم لا ربَّ سواه، فوحّدوه بالعبادة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتعظون وتعتبرون؟ تعلمون أنه المتفرد بالخلق ثم تعبدون معه غيره ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا﴾ أي إلى ربكم مرجعكم أيها الناس يوم القيامة جميعاً ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعداً من الله لا يتبدّل، وفيه ردٌّ على منكري البعث حيث قالوا ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي كما ابتدأ الخلق كذلك يعيده ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي ليجزي المؤمنين بالعدل، ويوفيهم أجورهم بالجزاء الأوفى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي والذين جحدوا بالله وكذبوا رسله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٌ مِّنۡ حَمِيمٍ﴾ أي لهم في جهنم شرابٌ من حيمم، بالغ النهاية في الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ

---

(١) «المختصر» ٢/ ٢٥، وانظر توضيح المسألة في أول سورة الأعراف من هذا الكتاب.

(٢) (ش): قول أبي السعود «منزَّهـاً عن التمكُّن والاستقرار» مخالفٌ لِما يثبته السلف من صفة العلو، ومخالفٌ لِما ذكره المؤلف نفسُه – في تفسير سورة الأعراف – من تفسير الاستواء بالعلوّ والاستقرار. فكلام أبي السعود مخالفٌ لعقيدة أهل السنة والجماعة، والواجب السكوت عما سكتت عنه النصوص وسكت عنه السلف؛ والسلف أثبتوا الحق ونفَوا الباطل، وتفسيرهم لآيات الصفات وأحاديثها على الوجه اللائق بالله تعالى أمر معلوم، بل إن عامة أهل السنة على إثبات «التمكن والاستقرار» الذي نزَّه أبو السعود اللهَ عنه، فإن جمعـاً من علماء أهل السنة فسروا الاستواء بالاستقرار والتمكن، وما أنكرَ البقيةُ عليهم. جاء في كتاب «التمهيد» لابن عبدالبر (٧/ ١٣١): «الاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار، والتمكُّن فيه». [وانظر: «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (١/ ٢٤٠)].

(٣) «أبو السعود»٢/ ٣٠٧.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي ولهم عذاب موجع بسبب كفرهم وإِشراكهم قال «البيضاوي»: والآية كالتعليل لما سبق فإِنه لما كان المقصود من البدء والإِعادة مجازاة المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إِليه لا محالة[١] ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية أي هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهّاج ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي وجعل القمر منيراً بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد، ولما كانت الشمس أعظم جرماً خُصَّت بالضياء، لأنه هو الذي له سطوعٌ ولَمعان قال «الطبري»: المعنى أضاء الشمس وأنار القمر[٢] ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي قدَّر سيره في منازل وهي البروج[٣] ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلق تعالى ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة، وفائدة جليلة ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يبيّن الآيات الكونيّة ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله، ويتدبرون حكمته قال «أبو السعود»: أي يعلمون الحكمة في إِبداع الكائنات، فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا[٤] ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في تعاقبهما يأتي الليل فيذهب النهار، ويأتي النهار فيذهب الليل ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وما أوجد فيهما من أصناف المصنوعات ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي لآيات عظيمة وبراهين جليلة، على وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته، لقوم يتقون الله ويخافون عذابه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي لا يتوقعون لقاء الله أصلاً ولا يخطر ببالهم، فقد أعْمَتْهم الشهوات عن التصديق بما بعد الممات ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي رضوا بالدنيا عوضاً من الآخرة، وآثروا الخسيس على النفيس ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ أي فرحوا بها وسكنوا إِليها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ أي وهم عن الأدلة المنبثّة في صحائف الأكوان غافلون، لا يعتبرون فيها ولا يتفكرون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مثواهم ومقامهم النار ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي بسبب كفرهم وإِجرامهم، وبعد أن ذكر الله حال الأشقياء أردفه بذكر حال السعداء فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي يهديهم إِلى طريق الجنة بسبب إِيمانهم ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي تجري من تحت قصورهم الأنهار أو من تحت أسرَّتهم وهم مقيمون في جنات النعيم ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي دعاؤهم في الجنة سبحانك اللهم وفي الحديث « **يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا**

---

(١) «البيضاوي» ٢٣٦.

(٢) «الطبري» ١١/ ٨٦.

(٣) (ش): المنازل للقمر والبروج للشمس، ومنازل القمر ثمان وعشرون والبروج اثنا عشر فقط.

(٤) «أبو السعود» ٢/ ٣١٠.

يُلْهَمُونَ النَّفَس»(١) أي كلامهم في الجنة تسبيح الله ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي وتحية بعضهم بعضاً سلامٌ عليكم كما تحيِّيهم بذلك الملائكة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤] ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وآخر دعائهم أن يقولوا: الحمد لله ربّ العالمين ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ قال مجاهد: هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب، اللهم أهلكْه، اللهم لا تبارك فيه قال «الطبري»: المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء الناس في الشر وفيما عليهم فيه مضرَّة، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي لهلكوا وعُجِّل لهم الموت(٢) ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي فنترك المكذبين بلقائنا الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في تمردهم وعتوهم يتردَّدون تَحَيُّراً والمعنى: نترك المجرمين ونُمْهِلُهم ونفيض عليهم النِّعم مع طغيانهم لتَلْزَمهم الحجة ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الضرُّ من مرضٍ أو فقرًا ونحو ذلك ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي دعانا في جميع الحالات: مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً لكشف ذلك الضر عنه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ أي فلما أزلنا ما به من ضرّ استمرَّ على عصيانه، ونسي ما كان فيه من الجَهْد والبلاء أو تناساه، وهو عتابٌ لمن يدعو الله عند الضر، ويغفل عنه عند العافية ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي كما زُيّن لذلك الإنسان الدعاء عند الضرِّ والإعراضُ عند الرخاءِ، كذلك زُيّن للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر، ومتابعة الشهوات ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمادَوا في الغيِّ والضلال ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل، أي أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب إهلاكهم شيئان: ظلمهم، وعدم إيمانهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء - يعني الإهلاك- نجزي كل مجرم، وهو وعيدٌ لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة من بعد إهلاك أولئك القرون، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لننظر أتعملون خيراً أم شرًا فنجازيكم على حسب عملكم قال «القرطبي»: والمعنى: يعاملكم معاملة المختبِر

---

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «الطبري» ١١/ ٩١، وقال بعض المفسرين: نزلت في كفار مكة حيث قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، قال الزمخشري: يعني: لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لأُمِيتُوا وأُهلِكوا. اهـ. «الكشاف» ٢/ ٣٣٢.

(ش): سبب نزول الآية في كفار مكة حيث قالوا» لم أجده إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد.

إِظهاراً للعدل[١] وقال في «التسهيل»: معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة[٢] والغرض أن الله تعالى عالمٌ بأعمالهم من قبل ذلك ولكن يختبرهم ليتبيَّن في الوجود ما علمه تعالى أزلاً ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين، حال كونها واضحات لا لَبْس فيها ولا إِشكال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي قال الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، ولا يرجون الأجر والثواب ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي ائت يا محمد بكتابٍ آخر غير هذا القرآن، ليس فيه ما نكرهه من عيب آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، ومكان سب آلهتنا مدحهم، ومكان الحرام حلالًا، وإِنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية قال ابن عباس: نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة قالوا: يا محمد ائتنا بقرآن غير هذا فيه ما نسألك[٣] ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي قل لهم يا محمد ما ينبغي ولا يصح لي أن أغيرّ أو أبدّل شيئًا من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي لا أتّبع إِلا ما يوحيه إِليَّ ربي، فأنا عبد مأمور، ورسولٌ مبلِّغ، أبلغكم رسالة الله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إِني أخشى إِن خالفْتُ أمرَه، وبدَّلْتُ وحْيَه، عذابَ يوم شديد الهَوْل هو يوم القيامة، وهذا كالتعليل لما سبق ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أيً قل لهم يا محمد: لو شاء الله ما تلَوْتُ هذا القرآن عليكم، وما تلوته إِلا بمشيئته تعالى، لأنه من عنده وما هو من عندي ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي ولا أعلَمكم به على لساني ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي فقد مكثتُ بين أظهركم زمنًا طويلاً، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا ولا أتلوه عليكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أنَّ مثل هذا الكتاب المعجز ليس إِلا من عند الله؟ قال الإِمام الفخر: إِن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إِلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله، وأنه ما طالع كتاباً، ولا تتلمذ لأستاذ، ولا تعلَّم من أحد، ثم بعد انقراض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم، المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين، وعجز عن معارضته العلماء، والفصحاء، والبلغاء، وكلُّ من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إِلا على سبيل الوحي والتنزيل[٤] ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام انكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريف ﷺ

(١) «القرطبي» ٨/ ٣١٨.
(٢) «التسهيل» ٢/ ٩٠.
(٣) «البحر» ٥/ ١٣١.
(٤) «الرازي» ١٧/ ٥٧.

حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ أي كذّب بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجرام وكذّب الرسل الكرام ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ بيانٌ لقبائح المشركين أي ويعبدون الأوثان التي هي جمادات لا تقدر على جلب نفع أو دفع ضر ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي يزعمون أن الأصنام تشفع لهم مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ؟ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أتخبرون الله تعالى بشريكٍ أو شفيعٍ كائنٍ في السماوات أو الأرض لا يعلمه جلَّ وعلا، وهو علاّم الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي تنزّه الله وتقدَّس عما يقول الظالمون، وينسبه إليه المشركون ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ أي وما كان الناس إلا على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح فاختلفوا في دينهم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعُبدت الأوثان والأصنام فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين[(١)] ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ أي ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي لعُجِّل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين[(٢)] ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ أي ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون: هلاّ أنزل على محمد معجزة من ربه كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ أي قل لهم أمر الغيب لله وحده ولا يأتي بالآيات إلا هو وإنما أنا مُبلِّغ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ أي فانتظروا قضاء الله بيننا فأنا ممن ينتظر ذلك.

البَلاَغَة: ١ - ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ فعيل بمعنى مفعول أي المُحْكم الذي لا يتطرق إليه الفساد ولا يعتريه الكذب والتناقض.

٢ - ﴿أَنذِرِ .. وَبَشِّرِ﴾ بينهما طباقٌ.

٣ - ﴿قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ كناية عن المنزلة الرفيعة، والعبارةُ غايةٌ في البلاغة لأن بالقدم يكون السبق والتقدم، كما سميت النعمة يداً لأنها تُعطى بها.

٤ - ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بين كلمتي البدء والإعادة طباقٌ.

٥ - ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فيه التفاتٌ مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله.

---

(١) «المختصر» ٢/ ١٨٨.

(٢) (ش): أي: ولولا كلمةٌ سبقت من الله بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقُضِيَ بينهم: بأن يُهْلكَ أهلُ الباطل منهم، ويُنَجِّي أهلُ الحق.

٦ - ﴿ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم بالخير ففيه تشبيه مؤكد مجمل، وبين الشر والخير طباقٌ.

٧ - ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ في الكلام استعارة تمثيلية حيث شبّه حال العباد مع ربهم بحال رعية مع سلطانها في إمهالهم للنظر في أعمالهم، واستعير الاسم الدال على المشَّبه به للمشبَّه على سبيل التمثيل والتقريب، ولله المثل الأعلى.

٨ - ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

فَائِدَة: قال السيوطي في قوله تعالى ﴿جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ إن هذه الآية أصلٌ في علم المواقيت، والحساب، والتاريخ، ومنازل القمر.

لطيفَة: قال الحافظ ابن كثير: من قال مقالة صادقًا أو كاذبًا فلا بدَّ أن يُنْصَب عليه من الأدلة على برِّه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وحِنْدِس[1] الظلماء، قال عبد الله بن سلام: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (أي تفرق اليهود عنه) فكنت فيمن انجفل، فلما رأيتُه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «**يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلو الجنة بسلام**»[2] فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى من الدلائل. قال حسان:

لَـوْ لَـمْ تَـكُـنْ فِـيـهِ آيَـاتٌ مُـبَـيِّـنَـةٌ ... لَـكَـانَ مَـنْـظَـرُهُ يُـنْـبِـيـكَ بِـالْـخَـبَـرِ

قال الله تعالى:

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ

---

(١) (ش): حِنْدِس: ظُلْمَة شديدة.

(٢) (ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني.

ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ
﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا
كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ
كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ
ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ
﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي
لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ
أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ
قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ
وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان، وشبهات المشركين حول الرسالة والقرآن، ذكر هنا أن عادة هؤلاء الأشقياء المكرُ، والجحودُ، والعِنَاد، فإن أصابتهم الشدة تضرّعوا، وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا، ثم ضرب تعالى المثل بالحياة الدنيا في الزوال والفناء، ثم عاد إلى ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية الله ربّ العالمين.

اللغَة: ﴿عَاصِفٌ﴾ العاصف: الريح الشديدة التي تعصف بالأوراق والأشجار، قال الفراء: يقال: عصفت الريح وأعصفت أي اشتدت قال الشاعر:

إِنَّ الرِّيَاحَ إِذَا مَا أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ ... عَيْدَانَ نَجْدٍ وَلَا يَعْبَأْنَ بِالرَّتَمِ (١)

﴿ٱلۡمَوۡجُ﴾ ما ارتفع من الماء فوق «البحر»، سُمّي موجاً لاضطرابه ﴿زُخۡرُفَهَا﴾ الزخرف: كمالُ حسنِ الشيء ونضارتهُ، سُمّي زخرفاً لبهجته ونضارته ﴿تَغۡنَ﴾ غني بالمكان إذا أقام به وعَمره ﴿يَرۡهَقُ﴾ يغشى ويعلو يقال: رهقه الذل، أي: غَشِيَه ﴿قَتَرٌ﴾ القتَر والقترة: الغبار الذي معه سواد قال تعالى ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤١] أي تعلوها غَبَرة جهنم، وقيل: القَتَر الغبارُ وإن لم يكن معه سواد قال الفرزدق:

مُـتَـوَّجٌ بِــرِدَاءِ الْـمُـلْـكِ يَـتْـبَـعُـهُ ... مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرَّايَاتِ وَالْقَتَرَا (٢)

---

(١) «البحر» ٥/ ١٢٠. (ش): (أَعْصَفَتْ الريح): عصفت: اشتد هبوبُها. (قَصَفَ): كَسَر. (عَيْدان): جَمْع عَيْدانة، وهي النّخلةُ الطويلة والشجرة الصُّلْبة القديمة. والرَّتَم: نباتٌ من أدقِّ الشجر، كأنه من دِقَّتِه شُبِّه بالخَيْط.
(٢) «القرطبي» ٨/ ٣٣١.

﴿فَزَيَّلۡنَا﴾ فرَّقنا وميَّزنا ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾ تصرفون عن الحق إلى الباطل.

التفسير: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ المراد بالناس كفار مكة رُوِي أن الله سلّط عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان فلما رحمهم الله بإنزال المطر رجعوا إلى الكفر والعناد[١] والمعنى: وإذا أذقنا هؤلاء المشركين رخاءً بعد شدة، وخصباً بعد جدب أصابهم ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ قال مجاهد: استهزاءٌ وتكذيب ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾ أي أعْجَلُ عقوبةً على جزاء مكرهم[٢] ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ أي إنَّ الملائكة الحفظة يكتبون مكركم ويسجّلون إجرامكم، وفيه تنبيهٌ على أن ما دبَّروه غير خافٍ على الحَفَظة فضلاً عن العليم الخبير ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي «البحر» على السفن التي تسير على وجه الماء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي حتى إذا كنتم في «البحر» على ظهور هذه السفن ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ فيه التفات أي وجَرَيْن بهم[٣] بالريح اللَّيِّنة الطرية التي تُسَيِّر السفن ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ أي فرح الركاب بتلك الريح الطيبة ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ أي وفجأةً جاءتها الريح الشديدة العاصفة المدمِّرة ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي أيقنوا بالهلاك ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون، قال «القرطبي»: وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً، لانقطاع الأسباب، ورجوعه إلى ربّ الأرباب[٤] ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك، والعاملين

---

(١) (ش): لم أجِدْه إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد.

(٢) مكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم سماه مكرًا مشاكلة لفعلهم وتسمية للعقوبة باسم الذنب.

(٣) (ش): جَرَيْن بهم: جَرَتْ بِهِمْ السفن.

(٤) «القرطبي» ٨/ ٣٢٥. (ش): «رب الأرباب»، لا تعني الاعتراف أوالإقرار بربوبية غير الله على الحقيقة. بل هو إبطال لربوبية ما سوى الله، فإذا كان سبحانه هو الرب الموجود والمتصرف بهذه الأرباب، فلا معنى لاتخاذها أو عبادتها. إذ ربوبيتها قاصرة محدودة التأثير حتى في نظر أصحابها وعابديها، وهي عند الله فاسدة باطلة، وحجة عابديها عنده داحضة. وعلى تقدير آخر إذا كان المقصود بالأرباب: أصحاب الشأن ومُلّاك العبيد ونحوهم فكذلك أيضـًا، لأن ربوبيتهم صورية، أخذت من كلمة الرب معناها اللغوي، وهم وما يملكون عبيدٌ الله خاضعون لسلطانه. فإن الدار لها رب، والأرض لها رب، والنخل له رب، والأنعام لها رب يعني (مالك)، فهو رب هذه الأرباب يعني رب هذه المخلوقات التي لها أتباع، فالله هو رب الجميع وإن سُمُّوا أرباباً هم لكنهم مملوكون له سبحانه، هم عبيده، هو رب الأرباب يعني رب المخلوقات جميعـًا، مربوبها وربها، عبيدها وأحرارها، جمادها وعاقلها، إلى غير ذلك.

بطاعتك ومرضاتك قال في «البحر»: ومعنى الإخلاص[١] إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها وقال الحسن: مخلصين لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جارياً مجرى الإيمان الاضطراري[٢] ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي فلما خلّصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي قال ابن عباس: يبغون بالدعاء فيدعون غير الله ويعملون بالمعاصي[٣] قال تعالى ردا عليهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي وبالُ البغي عليكم، ولا يجني ثمرته إلا أنتم ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحسرات الباقية ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مرجعكم بعد الموت إلينا فنجازيكم عليها، وفي هذا وعيد وتهديد. والآية الكريمة تمثيلٌ لطبيعة الإنسان الجَحُود[٤]، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يرجع إليه إلا وقت الكرب والشدة، فإذا نجّاه الله من الضيق، وكشف عنه الكرب، رجع إلى الكفر والعصيان، وتمادى في الشرّ والطغيان. ثم ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا الزائلة الفانية وقصر مدة التمتع بها فقال ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض قال ابن عباس: اختلط فنبت بالماء كلُّ لون[٥] ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول، والأنعامُ من الكلأ والتبن والشعير ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي أخذت حُسْنَها وبَهجَتَها ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي تزينت بالحبوب والثمار والأزهار، وهو تمثيلٌ بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي وظنَّ أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها، محصّلون لثمرتها وغلّتها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات إمّا ليلاً وإمّا نهاراً ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها كالذي حصد بالمناجل ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الأرض قبل ذلك ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا نبيّن الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال قال الألوسي: وتخصيصُهم بالذكر لأنهم المنتفعون[٦] ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة

---

(١) (ش): في قوله تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.
(٢) «البحر» ٥/ ١٣٩.
(٣) نفس المرجع السابق ٥/ ١٤٠.
(٤) (ش): جحَد الحقَّ/ جحَد بالحقِّ: أنكرَه مع علمِه به.
(٥) «الطبري» ١١/ ١٠٢.
(٦) «روح المعاني» ١١/ ١٠٢.

﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ أي يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي للذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصالح لهم الحسنى أي الجنة ﴿وَزِيَادَةٞ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم[١] ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ﴾ أي ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي هوانٌ وصغار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فعصوا الله وكفروا فسيجزون على السيئةِ بمثلها لا يزادون على ذلك، فالحسنات مضاعفة بفضل الله، والسيئات جزاؤها بالمثل عدلاً منه تعالى[٢] ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ أي تغشاهم ذلة وهوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ أي ليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ أي كأنما أُلبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ أي نجمع الفريقين للحساب: المؤمنين والكافرين ثم نقول للذين أشركوا الله ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡ﴾ أي الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡ﴾ أي ففرقنا وميزنا بينهم وبين المؤمنين كقوله ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي تبرأ منهم الشركاء وهم الأصنام الذين عبدوهم من دون الله[٣] قال مجاهد: يُنطِق الله الأوثان فتقول: ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون وما أمرناكم بعبادتنا[٤] كقوله ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة: حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل،

---

(١) ورد هذا في حديث صحيح أخرجه مسلم. (ش): قَالَ ﷺ: « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ – قَالَ – يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ – قَالَ – فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) قال في الجوهرة: فالسيئات عنده بالمثل: والحسنات ضوعفت بالفضل.

(٣) (ش): ليس هذا خاصًّا بالأصنام، بل كل ما عُبد من دون الله من الملائكة والأولياء وغيرهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

(٤) «القرطبي» ٨/ ٣٣٣.

لأنا كنا جماداً لا روح فينا ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي في ذلك الوقت تُختبر كلُّ نفسٍ بما قدمت من خير أو شر، وتنال جزاء ما عملت ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي ردّوا إلى الله تعالى المتولي جزاءهم بالعدل والقسط ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه م أن الأوثان تشفع لهم، وفي الآية تبكيتٌ شديدٌ للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنهم شيئاً ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في هذه الآيات الأدلةُ على وحدانية الله وربوبيته أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من ينزل لكم الغيث والقطر، ويخرج لكم الزروع والثمار؟ ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم، التي تسمعون وتبصرون بها؟ ومن يستطيع أن يردها لكم إذا أراد الله أن يسلبكموها؟ كقوله ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦] الآية ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ ؟ أي من يخرج الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، والسنبلة من الحبة، والنبات من الأرض، والمؤمن من الكافر؟ ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي ومن يدبّر أمر الخلائق، ويصرِّف شئون الكائنات؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي فسيُقِرُّون بأن فاعل ذلك كلِّه هو الله ربُّ العالمين، إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد أفلا تخافون عقابه ونقْمته بإشراككم وعبادتكم غير الله؟ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو ربكم الحق، الثابت ربوبيتُه ووحدانيتُه بالبراهين القاطعة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ استفهام إنكاري أي ليس بعد الحق إلا الضلال، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت؟ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كذلك وجب قضاء الله وحُكْمُه السابق ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذَّبوا ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لأنهم لا يصدّقون بوحدانية الله ورسالة نبيّه، فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع: هل من الأوثان والأصنام من ينشئ الخلق من العدم ثم يفنيه، ثم يُعيدُه ويُحْييه؟ قال «الطبري»: ولما كانوا لا يقدرون على دعوى ذلك، وفيه الحجة القاطعة، والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى الأرباب كاذبون مفترون، أُمر ﷺ بالجواب[١] ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ويبدأ ويُعيد، وليس أحدٌ من هؤلاء الآلهة المزعومة يفعل ذلك ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل؟ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾

(١) هذا ما ذهب إليه «الطبري». وقال بعض المفسرين: المراد الرؤساء والمضِلّون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدي إلا أن يُرشدوا.

توبيخٌ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين: هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من يرشد ضالاً؟ أو يهدي حائراً؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي فقل لهم: إن عجزتْ آلهتكم عن ذلك فالله هو القادر على هداية الضالِّ، وإنارة السبيل، وبيان الحق ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي أفمن يرشد إلى الحق وهو سبحانه وتعالى أحقُّ بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلاً عن هداية غيرها[1]؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي ما لكم أيها المشركون تسوّون بين الأصنام وبين ربّ الأرباب، وتحكمون بهذا الباطل الصراح؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار، ثم بيّن تعالى فساد نحلتهم بعد أن أفحمهم بالبراهين النَّيِّرة التي توجب التوحيد وتبطل التقليد فقال ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي وما يتبعون في اعتقادهم ألوهية الأصنام، إلا اعتقاداً غير مستند لدليل أو برهان، بل مجرد أوهام باطلة، وخرافات فاسدة ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام والخيالات، ظَنٌّ كاذب لا يغني من اليقين شيئـًا، فليس الظنُّ كاليقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي عالمٌ بما هم عليه من الكفر والتكذيب، وهو وعيدٌ على اتباعهم للظنّ، وإعراضهم عن البرهان، ثم بيَّن تعالى صدق النبوة والوحي فقال ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يعقل، ولا يستقيم لذي عقلٍ سليم، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوب على الله، لأنه فوق طاقة البشر ﴿وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكنّه جاء مصدقـًا لما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي وفيه تفصيلُ وتبيينُ الشرائع والعقائد والأحكام ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي لا شك في أنه تنزيل ربّ العالمين ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن مِن قِبَل نفسه؟ وهو استفهام معناه التقريع ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورةٍ مثل هذا القرآن، وهو تعجيزٌ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه، من الإنس والجن للاستعانة بهم ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه قال «الطبري»: والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كذبة، لأن محمداً لن يَعْدُو أن يكون بشراً مثلكم[2]، فإذا عجز الجميعُ من الخلق أن يأتوا بسورةٍ مثله، فالواحد منهم أن يأتي بجميعه أعجز[3]، قال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم، وساروا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه، والناس دائمـًا أعداءٌ لِمَا جهِلوا ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾

(١) «الطبري» ١١/ ١١٥.
(٢) (ش): لا يَعْدُو أن يكون كذا: ليس إلّا كَذا.
(٣) «الطبري» ١١/ ١١٨.

أي والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فانظر يا محمد كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك بسبب ظلمهم وبغيهم، فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين.

البَلاَغَة: ١ - ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تسمية عقوبة الله مكراً من باب «المشاكلة» .

٢ - ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وحكمته زيادة التقبيح والتشنيع على الكفار لعدم شكرهم النعمة.

٣ - ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ هذا من بديع الاستعارة شبّه الأرض حينما تتزين بالنبات والأزهار بالعروس التي تتزين بالحليّ والثياب واستعير لتلك البهجة والنضارة لفظ الزخرف.

٤ - ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ الأمر هاهنا كناية عن العذاب والدمار.

٥ - ﴿أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بينهما جناس الإشتقاق.

٦ - ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجمل.

٧ - ﴿يَبْدَؤُا۟ .. ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بينهما طباقٌ.

٨ - ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ، ومثله ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

٩ - ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استعارة لطيفة والمراد لما سبقه من التوراة والإِنجيل فإِنها قد بشرت به.

قال الله تعالى:

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي
عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ
تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا
يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن
لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ
بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ
رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل
لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ
﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم
بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ
نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ

وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم
مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾
وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا
إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ
أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ
ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ
أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾
مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞

المناسَبَة: لما حكى تعالى عن الكافرين طعنهم في أمر النبوة والوحي، ذكر هنا أنَّ منهم من يصدِّق بأن القرآن كلام الرحمن، ولكنه يكابر ويعاند، ومنهم من لا يصدّق به أصلاً لفرط غباوته، وسخافة عقله، واختلال تمييزه ... ثم ذكر تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور، وأعقبه بذكر مآل المشركين في الآخرة.

اللغَة: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ جمع أصمّ وهو الذي لا يسمع ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلاً ﴿تُفِيضُونَ﴾ يقال أفاض فلانٌ في الحديث إذا اندفع فيه ﴿يَعْزُبُ﴾ يخفى ويغيب ﴿مِّثْقَالِ﴾ وزن ﴿سُلْطَٰنٍۭ﴾ حجة وبرهان ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ لله جل وعلا عن النقائص.

التفسير: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي ومن هؤلاء الذين بعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أُرسلت به ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بل يموت على ذلك ويُبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي وإن كذَّبك هؤلاء المشركون فقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تقرؤه وتتلوه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ ؟ أي أنت يا محمد لا تقدر أن

تسمع من سلبه الله السمع ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون؟ قال ابن كثير: المعنى ومن هؤلاء من يسمعون كلامك الحسن، والقرآن النافع، ولكنْ ليس أمر هدايتهم إليك، فكما لا تقدر على إسماع الأصم فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله[1] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي ومن هؤلاء من ينظر إليك ويعاين دلائل نبوتك الواضحة، ولكنّهم عُمْيٌ لا ينتفعون بما رأوا، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم ولو كانوا عُمْيَ القلوب؟ شبّههم بالعُمْي لتعاميهم عن الحق، قال «القرطبي»: والمراد تسلية النبي ﷺ أي كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به، فكذلك لا تقدر أن توفّق هؤلاء للإيمان[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ أي لا يعاقب أحداً بدون ذنب، ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله قال «الطبري»: وهذا إعلامٌ من الله بأنه لم يسلب هؤلاء الإيمان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم، وإنما سلبهم ذلك لذنوب اكتسبوها، فحقَّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم[3] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلاّ ساعة من النهار، لهول ما يرون من الأهوال ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا، وهو تعارف توبيخ وافتضاح، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني، وليس تعارف محبة ومودّة ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون الذين كذبوا بالبعث والنشور، وما كانوا موفَّقين للخير في هذه الحياة ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقرَّ عينك منهم فذاك، وإن توفيناك قبل ذلك فمرجعهم إلينا في الآخرة، ولا بدَّ من الجزاء إن عاجلاً أو آجلاً ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي هو سبحانه شاهدٌ على أفعالهم وإجرامهم ومُعاقِبُهم على ما اقترفوا ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ أي ولكل أمة من الأمم رسولٌ أُرسل لهدايتهم ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة قُضِي بينهم بالعدل قال ابن كثير: فكلُّ أمة تُعرض على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر شاهدٌ عليها، وحَفَظَتُهم من الملائكة شهود أيضاً[4] ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُعذبون بغير ذنب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي ويقول كفار مكة متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً؟ وهذا

---

(١) «المختصر» ٢/ ١٩٥.

(٢) «القرطبي» ٨/ ٣٤٦.

(٣) «الطبري» ١١/ ١٢٠.

(٤) «المختصر» ٢/ ١٩٦.

القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ أي لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضراً، ولا أجلب إليها نفعاً، وليس ذلك لي ولا لغيري ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ أي إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ أي لكل أمة وقتٌ معلوم لهلاكهم وعذابهم ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ أي فإِذا جاء أجل هلاكهم فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيُمْهَلُون ويُؤَخَّرُون، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ أي قل لأولئك المكذبين: أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً فما نَفْعُكم فيه؟ ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم أي ما أعظم ما يستعجلون به؟ كما يقال لمن يطلب أمراً وخيماً: ماذا تجني على نفسك ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: أتؤخرون إلى أن تؤمنوا بها وإذا وقع العذاب وعاينتموه فما فائدة الإِيمان وما نفعكم فيه، إذًا كان الإِيمان لا ينفع حينذاك؛ قال «الطبري»: المعنى أهنالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون صدّقتم به في حالٍ لا ينفعكم فيه التصديق[١] ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ أي يقال لكم أيها المجرمون: الآن تؤمنون وقد كنتم قبله تهزءون وتسخرون وتستعجلون نزول العذاب؟ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا زوال له ولا فناء ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي هل تُجزون إلا جزاء كفركم وتكذيبكم؟ ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ أي ويستخبرونك يا محمد فيقولون: أحق ما وعدتنا به من العذاب والبعث؟ ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾ أي قل نعم والله إنه كائن لا شك فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي لستم بمعجزين الله بهربٍ أو امتناع من العذاب بل أنتم في قبضته وسلطانه[٢] ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لو أن لكل نفسٍ كافرةٍ ما في الدنيا جميعاً من خزائنها وأموالها، ومنافعها قاطبة ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ أي لَدَفَعَتْه فدية لها من عذاب الله ولكنْ هيهات أن يُقبل كما قال تعالى ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ [آل عمران:٩١] ثم قال تعالى مخبراً عن أسفهم وندمهم: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ أي أخفى هؤلاء الظلمة الندم لما عاينوا العذاب قال الإِمام الجلال: أي أخفاها رؤساؤهم عن الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعيير[٣] ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي قُضي بين الخلائق بالعدل ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾

(١) «الطبري» ١١/ ١٢٢.

(٢) وقيل المعنى: لستم بفارين من العذاب بل هو مدرككم لا محالة، من «تفسير الطبري».

(٣) تفسير الجلالين ٢/ ١٩٢، وقال في «البحر»: وإخفاء الندامة هو من كونهم بُهِتُوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ولا خَطَرَ ببالهم، ومعاينتهم ما أَوْهَى قُوَاهُم، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخًا، كما يعرض لمن يُقدّم للصلب لا يكاد ينبس بكلمة، ويبقى مبهوتًا جامدًا.

أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً، ولا يُعاقبون إلا بجريرتهم ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ «أَلَآ» كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام أي انتبهوا لما أقول لكم فكل ما في السماوات والأرض ملكٌ لله، لا شيء فيها لأحدٍ سواه، هو الخالق وهو المالك ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء حق كائن لا محالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنَّ أكثر الناس لقصور عقولهم، واستيلاء الغفلة عليهم، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي هو سبحانه المحيي والمميتُ، وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ خطابٌ لجميع البشر أي قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظةٌ لكم من خالقكم ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي يشفي ما فيها من الشك والجهل ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان قال صاحب «الكشاف»: المعنى قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة، والتنبيه على التوحيد، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق، ورحمة لمن آمن به منكم[١] ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ قال ابن عباس: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام[٢] والمعنى: ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله، من القرآن والإسلام، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أي هو خيرٌ مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية، والنعيم الزائل، فإن الدنيا بما فيها لا تساوي جناح بعوضة كما ورد به الحديث الشريف ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ خطابٌ لكفار العرب والمعنى: أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ أي فحَرَّمتم بعضه وحلَّلْتُم بعضه كالبَحِيرة، والسَّائبة، والميتة قال ابن عباس: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب، والحرث والأنعام[٣] ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ أي قل لهم يا محمد أخبروني: أحصل إذنٌ من الله لكم بالتحليل والتحريم، فأنتم فيه ممتثلون لأمره، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال؟ ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي وما ظنُّ هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب فيحلون ويحرمون من تلقاء أنفسهم، أيحسبون أن الله يصفح عنهم ويغفر يوم القيامة؟ كلاَّ بل سيصليهم سعيراً، وهو وعيدٌ شديد للمفترين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي لذو إنعام عظيم على العباد حيث رحمهم بترك معاجلة العذاب، وبالإنعام عليهم ببعثة الرسل وإنزال الكتب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون

(١) «الكشاف» ٢/ ٣٥٣.
(٢) «البحر» ٥/ ١٧١.
(٣) «المختصر» ٢/ ١٩٨.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ أي ما تكون يا محمد في أمر من الأمور، ولا عمل من الأعمال ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً من القرآن ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي إلا كنا شاهدين رقباء، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي ما يغيب ولا يخفى على الله ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من وزن هباءة أو نملة صغيرة في سائر الكائنات أو الموجودات ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا وهو معلوم لدينا ومسجَّل في اللوح المحفوظ قال «الطبري»: والآية خبرٌ منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خفَّ في الوزن، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم، فإنّا محصوها عليكم ومجازوكم بها[1] ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي انتبهوا أيها الناس واعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا، ثم بيّن تعالى هؤلاء الأولياء فقال ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أي الذين صدّقوا الله ورسوله[2]، وكانوا يتقون ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فالوليُّ هو المؤمن التقيُّ وفي الحديث «إن لله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداءَ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله، قالوا: أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم؟ فلعلَّنا نحبُّهم، قال: هم قومٌ تحابّوا في الله، على غير أرحام بيْنهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنورٌ، وإنهم لعلى منابرَ من نور، لا يخافون إذاً خاف الناسُ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية»[3] ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي لهم ما يسرهم في الدارين، حيث تبشرهم الملائكة[4] عند الاحتضار برضوان الله ورحمته،

---

(١) «الطبري» ١١/ ١٣٠.

(٢) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «الطبري» ١١/ ١٣٢. (ش): عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ. قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ». وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. رواه أبو داود وصححه الألباني.

(٤) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة في الدنيا هي: «الرؤيا الصالحة» التي يراها المؤمن أو تُرى له، وقد ورد ذلك في حديث أخرجه الحاكم، واختار «الطبري» أن البشارة تكون بالرؤيا الصالحة وبشارة الملائكة عند الموت.
(ش): عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: نُبِّئْتُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قَالَ: «هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

وفي الآخرة بجنان النعيم والفوز العظيم كقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا إخلاف لوعده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي هو الفوز الذي لا فوزَ وراءَه، والظفر بالمقصود الذي لا يُضاهى[١] ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا يحزُنْك ولا يؤلمْك يا محمد تكذيبُهم لك وقولهم: لسْتَ نبياً مرسلاً، ثم ابتدأ تعالى فقال ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي القوة الكاملة، والغلبة الشاملة، لله وحده، فهو ناصرك ومانعك ومعينك، وهو المنفرد بالعزّة يمنحُها أولياءَه، ويمنعُها أعداءَه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالهم، العليم بأعمالهم ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الجميع له سبحانه عبيداً وملكاً وخلقاً ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي وما يتبع هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله آلهة على الحقيقة، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع، وهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما يتبعون إلا ظناً باطلاً ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يحسدون ويكذبون، يظنون الأوهام حقائق ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ تنبيهٌ على القدرة الكاملة والمعنى من دلائل قدرته الدالة على وحدانيته، أن جعل لكم أيها الناس الليل راحةً لأبدانكم تستريحون فيه من التعب والنصب في طلب المعاش ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي وجعل النهار مضيئاً تبصرون فيه الأشياء لتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي لَعَلامَاتٍ ودلالاتٍ على وحدانيَّة الله، لقوم يسمعون سمع اعتبار، ثم نبّه تعالى على ضلال اليهود والنصارى والمشركين فقال ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي نسب اليهود والنصارى لله ولداً[٢] فقالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، كما قال كفار مكة: الملائكة بناتُ الله ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي تنزّه الله وتقدّس عما نسبوا إليه فإنه المستغني عن جميع الخلق، فإن اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه، والله تعالى غير محتاج إلى شيء، فالولد مُنْتَفٍ عنه ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الجميع خَلْقُه وملْكُه ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أتفترون على الله وتكذبون بنسبه الشريك والولد؟ وهو توبيخ وتقريع على جهلهم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح ﴿مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي متاعٌ قليل في الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ أي

---

(١) (ش): لا يُضاهَى: لا مثيلَ له.

(٢) يا له من جهل وحمق ينسبون إلى العلي الأعلى ما ينزهون عنه رهبانهم ويزعمون أنهم مقدسون لا يتزوجون!.

ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجع الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله.

البَلاَغَة: ١ - ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ .. مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بينهما طباقُ السلب.

٢ - ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ .. تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ الصُّمُ والعميُ مجازٌ عن الكافرين شبههم بالصُّم والعمي لتعاميهم عن الحق.

٣ - ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ بينهما طباقٌ وكذلك بين ﴿بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ وبين ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿يَسْتَقْدِمُونَ .. يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ .

٤ - ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ مجاز مرسل أطلق المحلَّ وأراد الحالَّ أي شفاءٌ للقلوب لأن الصدور محلُّ القلوب.

٥ - ﴿حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ بينهما طباق.

٦ - ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ قال في تلخيص البيان: هذه استعارة عجيبة، سمّى النهار مبصراً لأن الناس يبصرون فيه، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له على طريق المبالغة كما قالوا: ليلٌ أعمى وليلةٌ عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئًا لشدة إظلامها[1].

٧ - ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام توبيخ وتقريع.

فَائِدَة: أمر تعالى رسوله ﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في هذه السورة ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ وفي سورة سبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وفي سورة التغابن ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن -الآية: ٧] ذكره ابن كثير.

تنبيه: كلمة «أرأيتَ» تستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية، أو العلمية، وهذا أصل وَضْعِها ثم استعملت بمعنى «أخبرني» فيقولون: أرأيت ذلك الأمر أي أخبرني عنه، والرؤية إما بصرية أو علمية والتقدير: أأبصرت حالته العجيبة، أو أعرفت أمره العجيب؟ فأخبرني عنها، ولذا لم تستعمل في غير الأمر العجيب، ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ؟ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩ - ١٠] ؟ وهكذا.

قال الله تعالى:

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ
كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١) «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص ١٥٦.

فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ
أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا
جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ
سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ
ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن
سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت
دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته، وذكر ما جرى بين الرسول ﷺ وكفار مكة، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء، تسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره، وقد ذكر تعالى هنا ثلاث قصص: ١ - قصة نوح عليه السلام مع قومه ٢ - قصة موسى وهارون مع الطاغية فرعون ٣ - قصة يونس مع قومه، وفي كل قصة عبرةٌ لمن اعتبر، وذكرى لمن تدبر.

اللغَة: ﴿كَبُرَ﴾ قال الواحدي: كَبِرَ يكْبَرُ كِبَراً في السنِّ، وكبُر الأمرُ والشيءُ يكبُرُ كُبراً وكُبارةً إذا عَظُم[1] ﴿غُمَّةً﴾ مبهماً من قولهم غُمَّ علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس واستتر قال طَرفة:

لَعَمْرُكَ مَا أَمْـرِي عَلَـيَّ بِغُـمَّةٍ نَـهَارِي وَلَا لَيْلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ[2]

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ﴾ الإجماع: الإعداد والعزيمة على الأمر وأنشد الفراء:

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمُنَى لَا تَنْفَعُ أَغْـدُوْنَ يَوْمًا وَأَمْـرِي مُجْمَعُ[3]

﴿نَطۡبَعُ﴾ نختم ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾ تصرفنا وتلوينا واللفت: الصرف عن أمر وأصله اللَّيُّ يقال لفت عنقَه إذا لواها ﴿ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ العظمة والملك والسلطان ﴿لَعَالٖ﴾ عاتٍ متكبر ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾

---

(١) «الرازي» ١٧/ ١٣٦.

(٢) (ش): (لَعَمْرُكَ): كلام أهل العلم أن هذه الكلمة ليست يمينًا، بل تُذكَر لتأكيد مضمون الكلام فقط؛ لأنها أقوى من سائر المؤكِّدات، وأسْلَمُ من التأكيد بالقسم بالله لوجوب البر به.[انظر: المدونة الكبرى رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن عبد الرحمن بن القاسم وغيره عن الإمام مالك (٢/ ٣٣٨)].
السَّرْمَد: الدائم الذي لا ينقطع.

(٣) «القرطبي» ٨/ ٣٦٣.

المجاوزين الحد في الضلال والطغيان ﴿ٱطْمِسْ﴾ الطمسُ: المسخ قال الزجاج: طَمْسُ الشيءِ إِذهابه عن صورته ومنه عينٌ مطموسة.

التفسير: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي اقرأ يا محمد على المشركين من أهل مكة خبر أخيك نوح مع قومه المكذبين ﴿قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ أي حين قال لقومه الجاحدين المعاندين يا قوم إن كان عَظُمَ وشَقَّ عليكم ﴿مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي طولُ مقامي ولبثي فيكم، وتخويفي إِياكم بآيات ربكم، وعزمتم على قتلي وطردي ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي على الله وحده اعتمدتُ، وبه وثقْتُ فلا أُبَالِي بكم ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي فاعزموا أمركم وادعوا شركاءكم، ودبّروا ما تريدون لمكيدتي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً بل مكشوفاً مشهوراً، ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي أَنْفِذُوا ما تريدونه[1] في أمْري ولا تُؤَخِّروني ساعة واحدة، قال «أبو السعود»: وإِنما خاطبهم بذلك إِظهاراً لعدم المبالاة، وثقةً بالله وبوعده مِن عصمته وكِلَاءته[2] ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي فإِن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري فليس لأني طلبت منكم أجرًا حتى تمتنعوا، بل لشقاوتكم وضلالكم ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما أطلب ثواباً أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله، وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ من أغراض الدنيا ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي من الموحدين لله تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي فأصَرُّوا واستَمَرُّوا على تكذيب نوح فنَجَّيْناه ومن معه من المؤمنين في السفينة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي جعلنا من معه من المؤمنين سكان الأرض وخلفاً ممن غرق ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي أغرقنا المكذبين بالطوفان ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان نهاية المكذبين لرسلهم؟ والغرض: تسلية للرسول ﷺ والتحذير لكفار مكة أن يحل بهم ما حلَّ بالسابقين ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي أرسلنا من بعد نوح رسلاً إِلى قومهم يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإِبراهيم وشعيباً ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات الواضحات ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي ما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به الرسل، ولم يزجرهم عقاب السابقين ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي كذلك نختم على قلوب المجاوزين الحدَّ في الكفر والتكذيب والعناد ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي بعثنا من بعد أولئك الرسل والأمم موسى وهارون إِلى فرعون وأشراف قومه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بالبراهين والمعجزات الباهرة، وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٣] أي تكبروا عن الإِيمان بها وكانوا مفسدين، تعوّدوا الإِجرام وارتكاب

(١) (ش): أَنْفَذَ الأمرَ: قضاهُ وأَجْراهُ وأَتَمَّه.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ٣٤١. (ش): كلأَ اللهُ العبادَ: حفِظهم ورَعَاهم وحَرَسهم.

الذنوب العظام ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ أي فلما وضح لهم الحق الذي جاءهم به موسى من اليد والعصا قالوا لفرط عتوهم وعنادهم: هذا سحرٌ ظاهرٌ بَيِّنٌ أراد به موسى أن يسحرنا ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡ ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحرٌ؟ ثم أنكر عليهم أيضـاً باستفهام آخر ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ أي أسحرٌ هذا الذي جئتكم به؟ ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ أي والحال أنه لا يفوز ولا ينجح الساحرون ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي أجئتنا لتصرفنا وتَلْوِيَنا عن دين الآباء والأجداد؟ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يكون لك ولأخيك هارون العظمة والمُلْك والسلطان في أرض مصر ﴿ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي ولسنا بمُصدِّقين لكما فيما جئتُما به ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ أي ائتوني بكل ساحر ماهر، عليمٍ بفنون السحر ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾ في الكلام محذوف تقديره فأَتَوْه بالسحرة فلما جاءوا قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون من حِبالِكم وعِصِيِّكم ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ ﴾ أي ما جئتم به الآن هو السحرُ لا ما اتهمتموني به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ أي سيمْحَقُه وسيذهب به ويُظْهر بطلانَه للناس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل مَن سعَى بالفساد ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي يثبت الله الحق ويقوّيه بحججه وبراهينه ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ أي ولو كره ذلك الفجرة الكافرون ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ أي فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه، مع مشاهدة تلك الآيات الباهرة إلا نفرٌ قليلٌ من أولاد بني إسرائيل قال مجاهد: هم أولاد الذين أُرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم[١] ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡ ﴾ أي على تخوُّف وحذَرٍ من فرعون وملئه أن يعذِّبهم ويصرفهم عن دينهم ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي عاتٍ متكبر مفسد في الأرض ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي المتجاوزين الحدَّ بادعاء الربوبية ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي قال لقومه لما رأى تخوف المؤمنين من فرعون: يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وبآياته ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ أي على الله وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم كل شرٍّ وضُرّ ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ أي إن كنتم مُستسْلِمين لحكم الله مُنقادين لشرعه ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾ أي أجابوا قائلين: على ربنا اعتمدنا وبه وثقنا ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا تسلِّطهْم علينا حتى يعذبونا ويُفتَتَنُوا بنا فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لَمَا أُصيبوا ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي خلِّصنا وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا ﴾ أي اتخذا لهم بيوتـاً للصلاة والعبادة ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ اي

(١) اختار الإمام الجلال أن الطائفة التي آمنت بموسى هم من آلِ فرعون. وما ذكرناه هو اختيار «الطبري» والجمهور، وهو الأرجح.

اجعلوها مُصَلًّى[١] تُصَلُّون فيها عند الخوف قال ابن عباس: كانوا خائفين فأُمِروا أن يُصَلُّوا في بيوتهم[٢] ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أَدُّوا الصلاة المفروضة في أوقاتها، بشروطها وأركانها على الوجه الأكمل ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بَشِّرْ يا موسى أتباعَك المؤمنين بالنصر والغلبة على عدوهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافَهم، زينةً من متاع الدنيا وأثاثها، وأنواعـًا كثيرة من المال ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ اللام لامُ العاقبة[٣] أي آتيتَهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبةُ أمرِهم إِضلالَ الناس عن دينك، ومَنْعَهم عن طاعتك وتوحيدك ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ دعاءٌ عليهم أي أهلكْ أموالهم يا الله وبدِّدْها ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قَسِّ قلوبهم واطبعْ عليها حتى لا تنشرح للإيمان قال ابن عباس: أي امنعهم الإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ دعاءٌ عليهم بلفظ النفي أي اللهمَّ فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدة ضلالهم، وقد علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم قال ابن عباس: كان موسى يدعو وهارون يؤمّن فنسبت الدعوة إليهما[٤] ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي قال تعالى: قد استجبتُ دعوتكما على فرعون وأشراف قومه ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي اثبتَا على ما أنتم عليه من الدعوة إلى الله وإلزام الحجة ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا تسْلُكا سبيل الجهَلة في الاستعجال أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى، قال «الطبري»: رُوي أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة ثم أغرقَ الله فرعون[٥].

البَلاَغَة: ١ - ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ تقديمُ ما حَقُّه التأخير لإفاده الحصر أي على الله لا على غيره.

٢ - ﴿وَيُحِقُّ .. ٱلْحَقَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٣ - ﴿لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ عبَّر عن الالتباس والستر بالغُمة بطريق الاستعارة أي لا

---

(١) وقيل: المراد اجعلوا بيوتكم موجهة إلى جهة القبلة.

(٢) «الطبري» ١١/ ١٥٤.

(٣) هذه اللام كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وفي الخبر (لُدُّوا لِلْمَوْتِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ) أي لتكون العاقبة الموت والخراب. (ش): هذا الخبر أخرجه البيهقي في «شُعَب الإيمان» وضعفه الألباني. (لَدَّ المريضَ): أعطاه الشرابَ الذى يُسقَاه فى أحد شِقَّيْ فمِه. (لُدُّوا لِلْمَوْتِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ): فالمريض مهما أخذ من أسباب العلاج سيموت يومًا، وكذلك ما يبنيه الناس مصيره يومًا إلى الخراب.

(٤) «البحر» ٥/ ١٨٧.

(٥) «الطبري» ١١/ ١٦١. (ش): رواه ابن جرير «الطبري» عن ابن جُرَيْج بلفظ: «يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة». وهل يثبت هذا الكلام وبَيْنَ ابنِ جُرَيج وموسى عليه السلام مئات أو آلاف السنين؟

يكن أمركم مغطّى تغطيةَ حيرةٍ ومبهمًا فيكون كالغُمّة العمياء.

٤ - ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ الشدُّ استعارةٌ عن تغليظ العقاب، ومضاعفة العذاب.

تنبيه: قال ابن كثير: دعوة موسى على فرعون كانت غضباً لله ولدينه كما دعا نوح على قومه فقال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧] ولهذا استجاب الله لموسى دعوته التي شاركه فيها أخوه هارون، كما استجاب دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الله تعالى:

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

المناسَبَة: لّما ذكر تعالى دعاء موسى على فرعون لطغيانه، ذكر هنا ما حدث لفرعون وجنوده من الإِغراق في «البحر» نتيجة البغي والعدوان، وأن إِيمانه لم ينفعْه لأنه إِيمان المضطر، ثم ذكر قصة يونس وتوبة الله تعالى على قومه، وختم السورة الكريمة ببيان حقيقة التوحيد، وأن

الإنسان لا ينجيه عند الله إلا الإيمان.

اللغَة: ﴿بَوَّأْنَا﴾ أنزَلْنا وأسكنّا ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّين، امترى: شَكَّ وارتاب ﴿فَلَوْلَا﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلا ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب أو السخط ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة كلِّها ﴿يَمْسَسْكَ﴾ يصبك ﴿كَاشِفَ﴾ دافِعٌ ومُزيل يقال: كشف السوء أي أزاله ﴿بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إِلَيَّ أمرُكم.

التفسير: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي قطَعْنا وعدَّيْنا ببني إِسرائيل «البحر» «بحر السويس» حتى جاوزوه ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي لحقهم فرعونُ مع جنوده ظلمـاً وعدوانـاً وطلبـاً للاستعلاء بغير حق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي حتى إِذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي قال عندئذٍ: أقرَرْتُ وصدقْتُ بأنه لا إِله إِلا اللهُ ربُّ العالمين، الذي آمنت وأقرَّت به بنو إِسرائيل ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ تأكيدٌ لدعوى الإِيمان أي وأنا ممَّن أسلم نفسه لله، وأخلص في إِيمانه قال ابن عباس: جعل جبريل عليه السلام في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة[١] ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي الآن تؤمن حين يئستَ من الحياة، وقد عصيْتَ الله قبل نزول نقمته بك، وكنتَ من الغالين في الضلال والإِضلال والصدِّ عن دين الله؟ ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي فاليوم نخرجك من «البحر» بجسدك الذي لا روح فيه ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي لتكون عبرةً لمن بعدك من الناس، ومن الجبابرة والفراعنة، حتى لا يطغَوا مثل طغيانك قال ابن عباس: إِن بعض بني إِسرائيل شكّوا في موت فرعون، فأمر الله «البحر» أن يلقيه بجسده سويًّا بلا روح ليتحققوا موته وهلاكه[٢] ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي مُعرضون عن تأمُّل آياتنا لا يتفكرون فيها ولا يَعتبرون بها ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي أنزلنا وأسكَنَّا بني إِسرائيل بعد إِهلاك أعدائهم منزلاً صالحـاً مرضيًّا ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي اللذائذ الطيبة النافعة ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فما اختلفوا في أمر الدين إِلا من بعد ما جاءهم العلم وهو التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذَمٌّ لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدينُ يجمع ولا يفرّق، ويوَحِّد ولا يشتت وقال «الطبري»: كانوا قبل أن يُبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإِقرار بمبعثه، فلما

---

(١) الطبري ١١/ ١٦٣ والمراد بإدراك الرحمة النجاة من الغرق كما كان طلب المخذول، قال «أبو السعود».

(ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ « لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِى وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِى فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني). حَالِ الْبَحْرِ: طِينه الأسود.

(٢) «المختصر» ٢/ ٢٠٦.

جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم[١] ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ هذا على سبيل الفرض والتقدير: أي إن فرض أنك شككت فاسأل قال ابن عباس: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل وقال الزمخشري: هذا على الفرض والتمثيل[٢] كأنه قيل: فإن وقع شك مثلاً، وخيَّل لك الشيطان خيالاً تقديراً فسَلْ علماء أهل الكتاب، وفرقٌ عظيم بين قوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥] بإثبات الشك على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ بمعنى الفرض والتمثيل وقال بعضهم: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي اسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل، فإن ذلك محقَّق عندهم كما قصصنا عليك، والغرضُ دفع الشك عن قصص القرآن ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي جاءك يا محمد البيانُ الحق، والخبر الصادق، الذي لا يعتريه شك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي فلا تكن من الشاكين المرتابين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تكذّبْ بشيءٍ من آيات الله ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي فتصبح ممن خسر دنياه وآخرته، قال «البيضاوي»: وهذا من باب التهْييج والتثبيت وقطْع أطماع المشركين عنه[٣] وقال «القرطبي»: الخطابُ في هاتين الآيتين للنبي ﷺ والمراد غيره[٤] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب بإرادة الله الأزلية ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ أي لا يصدِّقون ولا يؤمنون أبداً ولو جاءتهم البراهين والمعجزات ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي فحينئذٍ يؤمنون كما آمن فرعون ولكن لا ينفعهم الإيمان ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ﴾ أي فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها، تابَتْ عن الكفر وأخلصَت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي غير قوم يونس ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله رفعنا عنهم العذاب المُخزِي المُهين في الحياة الدنيا ﴿وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي أخَّرْناهم إلى انتهاء آجالهم قال قتادة: روي أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم، فلما فقدوا نبيَّهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المُسُوح[٥]، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندم على ما مضى منهم، كشف الله عنهم العذاب[٦] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي لو أراد الله لآمن الناس جميعاً، ولكنْ لم

(١) «الطبري» ١١/ ١٦٧.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٣٧٠.
(٣) «البيضاوي» ٢٤٥.
(٤) «القرطبي» ٨/ ٣٨٣.
(٥) (ش): المِسْح: كساء غليظ.
(٦) «الطبري» ١١/ ١٧١.

يشأْ ذلك لكونه مخالفاً للحكمة، فإِنه تعالى يريد من عباده إِيمان الاختيار، لا إِيمان الإِكراه والاضطرار ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ ؟ أي أفأنت يا محمد تُكره الناس على الإِيمان، وتضطرهم إِلى الدخول في دينك؟ ليس ذلك إِليك، والآية تسليةٌ له ﷺ وترويحٌ لقلبه مما كان يحرص عليه من إِيمانهم قال ابن عباس: كان النبيُّ ﷺ حريصاً على إِيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إِلا من سبقت له السعادة في الذكّر الأول، ولا يضلُّ إِلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول[1] ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي ما كان لأحدٍ أن يؤمن إِلا بإِرادته تعالى وتوفيقه ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون آيات الله، ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار: انظروا نظَرَ تفكُّر واعتبار، ما الذي في السماوات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه؟ ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي وما تنفع الآيات والإِنذارات قوماً سبق لهم من الله الشقاء ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي فهل ينتظر مشركو مكة إِلا مثل أيام أسلافهم، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال؟ ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: انتظروا عاقبة البغي والتكذيب إِني من المنتظرين هلاككم ودماركم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي ثم إِذا نزل العذاب بالمكذبين نُنجّي الرسل والمؤمنين إِنجاءً مثل ذلك الإِنجاء ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي حقاً ثابتاً علينا من غير شك قال الربيع بن أنس: خوَّفهم عذابه ونقمته، ثم أخبرهم أنه إِذا وقع من ذلك أمرٌ أنجى الله رسله والذين آمنوا معه[2] ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك إِن كنتم في شك من حقيقة ديني وصحته ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ أي ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم، وبيده محياكم ومماتكم، قال «الطبري»: وهذا تعريضٌ ولحنٌ من الكلام لطيف، وكأنه يقول: لا ينبغي لكم أن تَشُكُّوا في ديني، وإِنما ينبغي أن تَشُكُّوا في عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، فأما إِلهي الذي أعبده فهو الذي يقبض الخلق وينفع ويضر[3] ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وأنا مأمور بأن أكون مؤمناً موحّداً لله لا أشرك معه غيره ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾ أي وأمرتُ بالاستقامة في الدين، على الحنيفية السمحة ملةِ إِبراهيم ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي ولا تكوننَّ ممن يشرك في عبادة ربه

(١) «القرطبي» ٨/ ٣٨٥.
(٢) «الطبري» ١١/ ١٧٦.
(٣) «الطبري» ١١/ ١٧٦.

﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ تأكيدٌ للنهي المذكور أي ولا تعبدْ غير الله ممّا لا ينفع ولا يضر كالآلهة[1] والأصنام ﴿فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فإن عبدتَ تلك الآلهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرَّضْتَها لعذاب الله، والخطابُ هنا للرسول ﷺ والمراد غيره كما تقدم ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي وإن أراد الله إصابتك بضرٍّ فلا دافع له إلا هو وحده ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ أي وإن أراد إصابتك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو سبحانه الغفور لذنوب العباد، الرحيم بأهل الرشاد ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أي جاءكم القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ أي من اهتدى بالإيمان فمنفعة اهتدائه لها خاصة ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ أي ومن ضلَّ بالكفر والإعراض فوبال الضلال مقصور عليها ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي ولست بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم إنما أنا بشيرٌ ونذير ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ أي اتّبعْ يا محمد في جميع شئونك ما يوحيه إليك ربُّك ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي اصبر على ما يعتريك من مشاقّ التبليغ حتى يقضي الله بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي هو سبحانه خير من يفصل في الحكومة، والآية تسلية للنبي ﷺ ووعيدٌ للمشركين.

البَلَاغَة: ١ - ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنكار.

٢ - ﴿بَوَّأۡنَا ... مُبَوَّأَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٣ - ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ كناية عن القضاء والحكم الأزلي بالشقاوة[2].

٤ - ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ صيغة المضارع حكاية عن الماضي لتهويل أمرها باستحضار صورتها.

٥ - ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بينهما طباق.

٦ - ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ ... وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ بين الجملتين مقابلة لطيفة وهي من المحسنات البديعية.

٧ - ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ .. وَمَن ضَلَّ﴾ بينهما طباقٌ.

٨ - ﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُ .. ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

فَائِدَة: قال الإمام الفخر: آمن فرعون ثلاث مرات: أولها قوله ﴿ءَامَنتُ﴾ وثانيها قوله

---

(١) (ش): أي معبوداتهم الباطلة.

(٢) (ش): قال الإمام ابن جرير «الطبري» في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن» (١٥/ ٢٠٤): في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: «يقول تعالى ذكره: إن الذين وجبت عليهم يا محمد «كلمة ربك»، هي لعنته إياهم بقوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، [سورة هود: ١٨]، فثبتت عليهم.

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ وثالثها قوله ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ فما السبب في عدم قبول إيمانه؟ الجواب: أنه إنما آمن عند نزول العذاب، والإيمانُ في هذا الوقت غير مقبول، لأنه يصير الحال حال الإلجاء فلا ينفع التوبة ولا الإيمان قال تعالى ﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا ﴾ [غافر: ٨٥] .

تنبيه: قال المفسرون: إنما نجّى الله بدن فرعون بعد الغرق، لأن قومـًا اعتقدوا فيه الإلهية، وزعموا أن مثله لا يموت، فأراد الله أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة، ليتحققوا موته، ويعرفوا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة قد آل أمره إلى الذل والهوان، فيكون عبرة للخلق، وزجراً لأهل الطغيان.

«تم تفسير سورة يونس بعون الله وحسن توفيقه، والحمد لله رب العالمين»

تم بحمد الله المجلد الأول

فهرس أحاديث المجلد الأول

***

فهرس موضوعات المجلد الأول

١ - سورة الفاتحة

٢ - سورة البقرة

٣- سورة آل عمران

٤- سورة النساء

٥- سورة المائدة

٦- سورة الأنعام

٧- سورة الأعراف

٨- سورة الأنفال

٩- سورة التوبة

١٠- سور يونس

❊ ❊ ❊

صفوة التفاسير

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع
٢٠١٣ / ٨٣٣٧

الترقيم الدولي
978 - 977 - 6354 - 22 - 7

ISBN 978-977-6354-22-7



الدار العلمية للنشر والتجليد
جاكرتا - أندونيسيا
هاتف: 081310218626 - 087889324793
085218824802 - 087880176606
email: darul_aalamiyyah@yahoo.com
abdallaelnady@gmail.com

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول
مستمدة من أوثق الكتب التفسيرية
بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

نسخة محققة ومخرجة الأحاديث

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

المجلد الثاني




بسم الله الرحمن الرحيم



مكية وآياتها ثلاث وعشرون ومائة

بين يدي السورة

* **سورة هود مكية وهي تُعني بأصول العقيدة** الإسلامية «التوحيد، الرسالة، البعث والجزاء»(١) وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من أذى المشركين لاسيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه «أبي طالب» وزوجه «خديجة» فكانت الآيات تتنزَّل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء، ليتأسى بهم في الصبر والثبات...

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم، الذي أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، لأنه تنزيل الحكيم العليم، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد.. ثم عرضت لعناصر الدعوة الإسلامية، عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين الفريقين: فريق الهدى، وفريق الضلال، وضربت مثلًا للفريقين وضَّحت به الفارق الهائل بين المؤمنين والكافرين، وفرقت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟

* ثم تحدثت عن الرسل الكرام مبتدئة بقصة «نوح» عليه السلام أبي البشر الثاني، لأنه لم ينج من الطوفان إلا نوحٌ والمؤمنون الذين ركبوا معه في السفينة، وغرق كل من على وجه الأرض، وهو أطول الأنبياء عُمُرًا، وأكثرهم بلاءً وصبراً.

* ثم ذكرت قصة «هود» عليه السلام الذي سميت السورة الكريمة باسمه، تخليدًا لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم «عاد» العتاة المتجبرين، الذين اغتروا بقوة أجسامهم وقالوا: من أشد منا قوة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

* ثم تلتها قصة نبي الله «صالح» ثم قصة «لوط» ثم قصة «شعيب» ثم قصة «موسى وهارون» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم جاء التعقيب المباشر بما في هذه

---

(١) (ش): أصول العقيدة ستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره كما في حديث جبريل عليه السلام حين قَالَ للنبي ﷺ: فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِيمَانِ. فقَالَ ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

القصص من العِبر والعظات في إهلاك الله تعالى للظالمين ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين، وذلك للاعتبار بما حدث للمكذبين في العصور السالفة، ولتثبيت قلب النبي عليه الصلاة والسلام أمام تلك الشدائد والأهوال ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وهكذا تختم السورة بالتوحيد كما بدأت به ليتناسق البدء مع الختام!

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ
وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ
فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ
إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي
كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى
ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ
مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ
أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ
بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ
صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ
﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم
مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾
أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ
يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ
رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا
كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾
لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟
إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

اللغـة: ﴿أُحْكِمَتْ﴾ الإِحكام: المنعُ من الفساد يقال: أحكم الأمر إِذا أتى به على وجه لا يتطرأ إِليه خلل أو فساد ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ المكان الذي تأوي إليه في الدنيا ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المكان الذي تصير إِليه بعد الموت ﴿أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ الأمة هنا بمعنى المدة من الزمن أي مدة محدودة من السنين قال «القرطبي»: والأُمَّة اسم مشترك يطلق على ثمانية أوجه: الجماعة، الملة، الرجل الجامع للخير، الحين والزمن، أتباع الأنبياء[1] إلخ ﴿مِرْيَةٍ﴾ شك وارتياب ﴿وَضَلَّ﴾ ضاع وتلاشى ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمة واحدة بمعنى حقاً وهو قول الخليل وسيبويه ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟﴾ خشعوا وخضعوا والإِخباتُ: الذل والخضوع ﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾ الذي لا يسمع وبه صمم.

سَبَبُ النُّزول: ذكر «القرطبي» عن ابن عباس أن «الأَخْنس بن شريق» كان رجلاً حلو الكلام وحلو المنطق، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي له بقلبه على ما يسوء فأنزل الله ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ..﴾ الآية[2].

التفسـير: ﴿الٓر﴾ إِشارة إِلى إِعجاز القرآن، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية، وعن ابن عباس أن معناه: أنا الله أرى ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي هو كتابٌ جليل القدر، نظمت آياته نظماً محكماً، لا يلحقه تناقضٌ ولا خلل ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي بُيّنت فيه أمور الحلال والحرام، وما يحتاج إِليه العباد في أمور المعاش والمعاد ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي من عند الله فصَّلها وبيَّنها الخبير العالم بكيفيات الأمور، ولذا كانت محكمة أحسن الإِحكام ومفصلة أحسن التفصيل ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لئلا تعبدوا إلا الله ﴿إِنَّنِى

---

(١) كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي جماعة، وقوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي حين من الزمن، وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي ملة ودين.. إلخ.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٥. (ش): ضعيف. رواه الواحدي في ««أسباب النزول»»، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يُجَامِعُ امْرَأَتَهُ فَيَسْتَحِي أَوْ يَتَخَلَّى فَيَسْتَحِي فَنَزَلَتْ «أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ». [رواه البخاري].

لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي إنني مرسلٌ إليكم من جهته تعالى، أنذركم بعذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي استغفروه من الذنوب وأخلصوا التوبة واستقيموا عليها بالطاعة والإنابة ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ أي يمتعكم في هذه الدنيا بالمنافع الجليلة من سعة الرزق، ورغَد العيش ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقتٍ محدَّد هو انتهاء أعماركم ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي ويعط كل محسنٍ في عمله جزاء إحسانه ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي وإن تتولوا عن الإيمان وتُعرضوا عن طاعة الرحمن ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، ووصف العذاب بأنه كبير لما فيه من الأهوال الشديدة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي إليه جلَّ وعلا رجوعكم بعد الموت ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على إماتتكم ثم إحيائكم وعلى معاقبة من كذَّب لا يعجزه شيء، وفي الآية تهديد عظيم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: نزلت في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف إنه ليحبه ويضمر خلاف ما يظهر[(١)] وقال «القرطبي»: أخبر عن معاداة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم[(٢)] والمعنى: أنهم يطوون صدورهم على عداوة النبي والمؤمنين، يريدون بذلك أن يستخفوا من الله حتى لا يفتضح أمرهم ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي حين يتغطون بثيابهم ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم تعالى ما يُبْطنون وما يُظهرون وكأن الآية تقول: لا تظنوا أن تغطيتكم تحجبكم عن الله بل الله يعلم سرائركم وظواهركم لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في القلوب ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفَّل الله برزقه تفضلاً منه تعالى وكرماً، فكما كان هو الخالق كان هو الرازق ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قال ابن عباس: مستقرها حيث تأوي إليه من الأرض، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن[(٣)] ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي كلٌّ من الأرزاق، والأقدار، والأعمار، مسطَّرٌ في اللوح المحفوظ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، وفيه الحث للعباد على التأني في الأمور فإن الإله القادر على خلق الكائنات بلمح البصر خلقها في ستة أيام ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أي وكان العرش قبل خلقهما على الماء قال الزمخشري: أي ما كان تحته خلق، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات

---

(١) «البحر المحيط» ٥/ ٢٠٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٥.

(٣) «البحر المحيط» ٥/ ٢٠٤. (ش): تقدَّمَ أنه ضعيف، رواه الواحدي في ««أسباب النزول»».

والأرض[١] ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي خلقهن لحكمة بالغة ليختبركم فيظهر المحسنُ من المسيء، ويجازيكم حسَب أعمالكم ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ أي ولئن قلت يا محمد لأولئك المنكرين من كفار مكة: إنكم ستبعثون بعد موتكم للحساب ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ليقولنَّ الكفار المنكرون للبعث والنشور: ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح مكشوف ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي إلى مدةٍ من الزمن قليلة ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي ليقولُنَّ استهزاءً: ما يمنعه من النزول؟ ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي ألا فلينتبهوا فإنه يوم يأتيهم العذاب ليس مدفوعاً عنهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي نزل وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة، والأمن، والرزق وغيرها من النعم ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي ثم سلبنا تلك النعم منه ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ أي قنوط من رحمة الله، شديد الكفر به ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي ولئن منحنا الإنسان نعمة من بعد ما نزل به من الضر، وما أصابه من البلاء، كالفقر والمرض والشدة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي انقطع الفقر والضيق والمصائب ولن تصيبني بعد اليوم ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي بطرٌ بالنعمة مغترٌّ بها، متعاظم على الناس بما أُوتي، والآيةُ ذمٌ لمن يقنط عند الشدائد، ويبطر عند النعم ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي هذه عادة الإنسان إلا المؤمنين الذين يصبرون على الضراء، ويفعلون الخير في النعماء، فهم في حالتي المحنة والنعمة محسنون ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الحميدة لهم مغفرةٌ لذنوبهم، وأجر كبيرٌ في الآخرة هو الجنة قال في البحر: ووصف الثواب بأنه كبير وذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي، والأمن من العذاب، ورضا الله عنهم، والنظر إلى وجهه الكريم[٢] ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ كان المشركون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتي بكنز أو يأتي معه ملك، وكانوا يستهزئون بالقرآن فقال الله تعالى له: فللك يا محمد تاركٌ بعض ما أُنزل إليك من ربك فلا تبلغهم إيَّاه لاستهزائهم ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ أي ويضيق صدرك من تبليغهم ما نزل عليك من ربك خشية التكذيب، والغرضُ تحريضُه ﷺ على تبليغ الرسالة وعدم المبالاة بمن عاداه ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي لأجل أن يقولوا: هلا أُنزل عليه مالٌ كثير ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ أي جاء معه ملك يصدّقه كما اقترحنا، قال تعالى محدّداً مهمته عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي لست يا محمد إلا منذراً

---

(١) «الكشاف» ٢/ ٣٨٠.

(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٢٠٦.

تخـوّف المجرمين من عذاب الله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ﴾ أي قائم على شئون العباد يحفظ عليهم أعمالهم ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ أي بل أيقولون: اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من عند نفسه؟ ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ أي إن كان الأمر كذلك فأتوا بعشر سور مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات فأنتم عرب فصحاء ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي استعينوا بمن شئتم غير الله سبحانه ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّ هذا القرآن مفترى ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ أي فإن لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاونة وعجزوا عن ذلك فاعلموا أيها المشركون أنما نزل هذا القرآن بوحي من الله ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا ربّ ولا معبود إلا الله[١] الذي أنزل هذا القرآن المعجز ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ لفظه استفهام ومعناه أمرٌ أي فأسلموا بعد ظهور هذه الحجة القاطعة إذ لم يبق لكم عذر مانع من ذلك، قال في «التسهيل»: الاستفهام معناه استدعاء إلى الإسلام، وإلزامٌ للكفار أن يسلموا لما قام الدليل على صحة الإسلام لعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن[٢] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي من كان يقصد بأعماله الصالحة نعيم الدنيا فقط لأنه لا يعتقد بالآخرة ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ أي نوفّ إليهم أجور أعمالهم بما يحبون فيها من الصحة والأمن والرزق ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ أي وهم في الدنيا لا يُنقصون شيئاً من أجورهم قال قتادة: من كانت الدنيا همَّه ونيّته جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يُفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها، وأما المؤمن فيُجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة[٣] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ أي هؤلاء الذين هدفهم الدنيا ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم وعذابها المخلَّد ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي بطل ما صنعوه من الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تأكيدٌ لما سبق، أي: باطل ما كانوا يعملون في الدنيا من الخيرات ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي أفمن كان على نور واضح، وبرهان ساطع من الله تعالى، وهو النبي ﷺ والمؤمنون، وجوابه محذوف أي كمن كان يريد الحياة الدنيا؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً، وتبايناً بعيداً، فلا يستوي من أراد الله، ومن أراد الدنيا وزينتها ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ أي ويتبعه شاهد من الله بصدقه قال ابن عباس: هو جبريل عليه السلام ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب التوراة الذي أنزله الله على موسى قدوةً في الخير ورحمة لمن نزل عليهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ أي

---

(١) (ش): الصواب أن يقال: ولا معبود بحق إلا الله، لأن هناك معبودات كثيرة بغير حق.

(٢) «التسهيل» ٢/ ١٠٢.

(٣) «المختصر» ٢/ ٢١٤.

أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدّقون بالقرآن حق التصديق ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ أي ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان، فله نار جهنم يردُها لا محالة[1] ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي فلا تكن في شك من هذا القرآن ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي إنه الحق الثابت المنزّل من عند الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي لا يصدّقون أنه تنزيل رب العالمين ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾ أي لا أحد أطغى ولا أظلم ممن اختلق الكذب على الله بنسبة الشريك والولد إليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي يُعرضون يوم القيامة في جملة الخلق على خالقهم ومالكهم ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ أي ويقول الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم هؤلاء الذين كذبوا على الله، والغرضُ فضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الأشهاد والتشهيرُ بهم خزياً ونكالاً ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لظلمهم وافترائهم على الله، واللعنةُ: الطرد من رحمة الله ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعون الناس عن اتِّباع الحق، وسلوك سبيل الهدى الموصل إلى الله ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي ويريدون أن تكون السبيل معوّجة، أي: يبغون أن يكون دين الله معوجاً على حسب أهوائهم ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي جاحدون بالآخرة منكرون للبعث والنشور ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ليسوا مُفْلِتين من عذاب الله وإن أمهلهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو يمنعهم من عذاب الله ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ جملة مستأنفة، أي: يضاعف عليهم العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ أي سبب تشديد العذاب ومضاعفته عليهم أن الله جعل لهم سمعاً وبصراً، ولكنهم كانوا صُمًّا عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من حواس ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي خسروا سعادة الدنيا والآخرة، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر الناس، ولا ترى أحداً أبينَ خسراناً منهم، لأنهم آثروا الفانية على الباقية، واستعاضوا عن الجنان بلظى النيران، ثم لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء، ذكر حال المؤمنين السعداء فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح الإخبات: وهو الاطمئنان إليه سبحانه والخشوع له والانقطاع لعبادته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ

---

(١) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

﴿ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي مُنَعَّمُون في الجنة لا يخرجون منها أبداً ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ ﴾ أي فريق المؤمنين وفريق الكافرين ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ قال الزمخشري: شبَّه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللفّ والطباق[1] والمعنى حال الفريقين العجيب كحال من جمع بين العمى والصمم، ومن جمع بين السمع والبصر ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ الاستفهام إنكاري، أي: لا يستويان مثلاً فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضيائه كحال من يخبط في ظلمات الضلالة ولا يهتدي إلى سبيل السعادة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تعتبرون وتتعظون؟ والغرض التفريق بين أهل الطاعة والإيمان، وأهل الجحود والعصيان.

البلاغة: ١ - ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ كَبِيرٍ﴾ إضافة العذاب إلى اليوم الكبير للتهويل والتفظيع.

٢ - ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ بينهما طباقٌ وكذلك بين ﴿نَعۡمَآءَ﴾ و ﴿ضَرَّآءَ﴾ وبين ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

٣ - ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ من صيغ المبالغة أي شديد اليأس كثير الكفران.

٤ - ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل لوجود أداة التشبيه وحذف وجه الشبه، أي: مثل الفريق الكافر كالأعمى والأصم في عدم البصر والسمع، ومثل الفريق المؤمن كالسميع والبصير.

لطيفَة: قال بعض الصالحين: الاستغفار بلا إقلاع عن الذنب توبة الكذابين[2].

تنبيه: التحدي بعشر سور جاء بعد التحدي بالقرآن الكريم، فلما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحداهم بعشر سور، ثم لما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة مثله في البلاغة والفصاحة والاشتمال على المغيبات والأحكام التشريعية وأمثالها، وهي الأنواع التسعة وقد نظمها بعضهم بقوله:

أَلا إِنَّمَا الْقُرْآنُ تِسْعَةُ أَحْرُفٍ ... سَأُنْبِيكَهَا فِي بَيْتِ شِعْرٍ بِلا مَلَلْ
حَلَالٌ، حَرَامٌ، مُحْكَمٌ، مُتَشَابِهٌ ... بَشِيرٌ، نَذِيرٌ، قِصَّةٌ، عِظَةٌ، مَثَلْ

قال الله تعالى:

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ
عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ
ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا

(١) «الكشاف» ٢/ ٣٨٧.
(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣.

وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ
لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟
يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم
بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن
يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾
وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ
كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ
ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب
مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ
أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ
وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ
نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ
مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾
قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ
إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى عناد الكافرين من أهل مكة، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ واتهامهم لـه بافـتراء القرآن، ذكر هنا قصة نوح مع قومه الكافرين لتكـون كالعظة والعبرة لمن كذّب وعاند، ولتسلية الرسول ﷺ بسرد قصص المرسلين وما جرى مع أقوامهم.

اللغة: ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ أشـراف القوم وسـادتهم ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ الأراذل هنا: المـراد بهم الفقراء والضعفاء والسَّـفَلة، وهو جمع أَرْذَل بمعنى السـافل الذي لا خَلاَق له ولا يبالي بما يفعل ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ عمـي عن كذا، وعمي عليه كـذا، بمعنى التبس عليه ولـم يفهمه، وخفي عليه

أمره ﴿جَـٰدَلْتَنَا﴾ الجدل في كلام العرب: المبالغة في الخصومة ﴿تَزْدَرِىٓ﴾ تحتقر ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ السفينة ويطلق على المفرد والجمع ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ مُسْتَوقَد النار[١] ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ رسا الشيء يرسو ثبت واستقر ﴿عَاصِمَ﴾ مانع يقال: عصمه إذا منعه ومنه الحديث «**فقد عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ**»[٢] ﴿وَغِيضَ﴾ غاض الماء نقص بنفسه وغضتُه أنقصته ﴿ٱلْجُودِيِّ﴾ جبلٌ بقرب المَوْصل.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي أرسلناه رسولاً إلى قومه بعد أن امتلأت الأرض بشركهم وشرورهم ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي بأني منذرٌ لكم ومخوّف من عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي أرسلناه بدعوة التوحيد وهي عبادة الله وحده ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غيره عذاب يوم شديد مؤلم ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي قال السادة والكبراء من قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي ما نراك إلا واحداً مثلنا ولا فضل لك علينا قال الزمخشري: وفيه تعريضٌ بأنهم أحقُّ منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البشر لجعلها فيهم[٣] ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي وما اتبعك إلا سفلةُ الناس قال في «التسهيل»: وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم جهلاً منهم واعتقاداً بأن الشرف هو بالمال والجاه، وليس الأمر كذلك، بل المؤمنون أشرف منهم على فقرهم وخمولهم[٤] ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي في ظاهر الرأي من غير تفكر أو رويّة ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ أي وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوة، واستحقاق المتابعة ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ أي بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه، أرادوا أن يَحُجُّوا[٥] نوحاً من وجهين: **أحدهما**: أن المتبعين له أراذل القوم ليسوا قدوة ولا أسوة، والثاني: أنهم مع ذلك لم يتروَّوا في اتّباعه، ولا أمعنوا في الفكر في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا رويّة، وغرضُهم ألا تقوم الحجة عليهم بأن منهم من آمن به وصدّقه ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ تلطف معهم في الخطاب لاستمالتهم إلى الإيمان أي قال لهم نوح:

---

(١) (ش): التنُّور: فُرْنٌ يُخبز فيه.

(٢) (ش): قال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ. فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ» [رواه البخاري ومسلم].

(٣) «الكشاف» ٢/ ٣٨٨.

(٤) «التسهيل» ٢/ ١٠٣.

(٥) (ش): حجَّ الشَّخصَ: غلَبه بالحُجَّة.

أخبروني يا قوم إن كنتُ على برهان وأمر جليٍّ من ربي بصحة دعوايَ ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي ورزقني هداية خاصة من عنده وهي النبوة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي فخفي الأمر عليكم لاحتجابكم بالمادة عن نور الإيمان ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي أنكرهكم على قبولها ونجبركم على الإهتداء بها والحال أنكم كارهون منكرون لها؟ والاستفهام للإنكار أي لا نفعل ذلك لأنه لا إكراه في الدين ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجراً، ولا أطلب على النصيحة مالاً حتى تتهموني ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما أطلب ثوابي إلا من الله فإنه هو الذي يثيبني ويجازيني ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي ولست بمُبْعِدٍ هؤلاء المؤمنين الضعفاء عن مجلسي، ولا بطاردهم عني كما طلبتم ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي إنهم صائرون إلى ربهم، وفائزون بِقُرْبه فكيف أطردهم؟ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فتطلبون طردهم، وتظنون أنكم خير منهم ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي من يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم وطردتهم؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه؟ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي لا أقول لكم: عندي المال الوافر الكثير حتى تتبعوني لِغِنَاي ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي ولا أقول لكم: إني أعلم الغيب حتى تظنوا بي الربوبية ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي ولا أقول لكم إني من الملائكة أُرسلت أليكم فأكون كاذباً في دعواي ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ أي ولا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بي واحتقرتموهم لفقرهم: لن يمنحهم الله الهداية والتوفيق ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أعلم بسرائرهم وضمائرهم ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إني إن قلت ذلك أكون ظالماً مستحقًّا للعقاب ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي قال قوم نوح لنوح عليه السلام: قد خاصَمْتَنا فأكثرت خصومتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فائتنا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقاً في ما تقول ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي أمر تعجيل العذاب إليه تعالى لا إليَّ فهو الذي يأتيكم به إن شاء ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولستم بفائتين الله هرباً لأنكم في ملكه وسلطانه ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي إن أراد الله إضلالكم وهو جواب لما تقدم. والمعنى ماذا ينفع نصحي لكم إن أراد الله شقاوتكم وإضلالكم؟ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي هو خالقكم والمتصرف في شئونكم، وإليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم على أعمالكم ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي أيقول كفار قريش: اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه[1]

(١) هذا رأي كثير من المفسرين، وذهب ابن عطية وأبو حيان إلى أن الآية من جملة قصة نوح وأن الضمير عائد إلى قوم نوح والمعنى أيقولون افترى نوح هذه الأخبار.. إلخ.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنت قد افتريْتُ هذا القرآن فعليَّ وزري وذنبي، ولا تؤاخذُون أنتم بجريرتي[1] ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي وأنا بريءٌ من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم، والآية اعتراضٌ بين قصة نوح للإشارة إلى أن موقف مشركي مكة كموقف المشركين من قوم نوح في العناد والتكذيب ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ أي أوحى الله إلى نوح أنه لن يتبعك ويصدِّق برسالتك إلا من قد آمن من قبل ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أيْ فلا تحزن بسبب كفرهم وتكذيبهم لك فإني مهلكهم ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا[2] ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي وتعليمنا لك قال مجاهد: أي كما نأمرك ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي لا تشفع فيهم فإني مهلكهم لا محالة ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي هالكون غرقًا بالطوفان ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ لاستحضارها في الذهن، أي: صنع نوحٌ السفينة كما علّمه ربُّه ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ أي كلما مرَّ عليه جماعة من كبراء

(١) (ش): جَرِيرَة: جِناية وذنب.

(٢) (ش): فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ سَفِينَةِ نُوحٍ: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] وَقَوْلِهِ لِمُوْسَى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩] وقوله للنبي ﷺ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المَعْنَى عَلَى ظَاهِرِ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتِهِ، لَكِنْ مَا ظَاهِرُ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتُهُ هُنَا؟ هَلْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ وَحَقِيقَتَهُ أَنَّ السَّفِينَةَ تَجْرِي فِي عَيْنِ اللهِ؛ أَوْ أَنَّ مُوْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرْبَّى فَوْقَ عَيْنِ اللهِ تَعَالَى؟! أَوْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ السَّفِينَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ تَعَالَى يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ القَوْلَ الأَوَّلَ بَاطِلٌ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: ١- أَنَّهُ لَا يَقْتَضِيْهِ الكَلَامُ بِمُقْتَضَى الخِطَابِ العَرَبِيِّ، وَالقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ العَرَبِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يُوْسُف:٢] وَلَا أَحَدَ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ يَسِيرُ بِعَيْنِي أَنَّ المَعْنَى أَنَّهُ يَسِيْرُ دَاخِلَ عَيْنِهِ، وَلَا مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ تَخَرَّجَ عَلَى عَيْنِي؛ أَنَّ تَخَرُّجَهُ كَانَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى عَيْنِهِ، وَلَو ادَّعَى مُدَّعٍ أَنَّ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ فِي هَذَا الخِطَابِ لَضَحِكَ مِنْهُ السُّفَهَاءُ فَضْلًا عَنِ العُقَلَاءِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ: إِنَّكَ تَحْتَ عَيْنِي، وَفُلَانٌ تَخَرَّجَ مِنْ تَحْتِ يَدِي، وَفُلَانٌ يَدِي اليُمْنَى وَ.... مِمَّا مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ مَفْهُوْمٌ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ. ٢- أَنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ غَايَةَ الامْتِنَاعِ، وَلَا يُمْكِنُ لِمَنْ عَرَفَ اللهَ وَقَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ أَنْ يَفْهَمَهُ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ لَا يَحُلُّ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ، وَلَا هُوَ حَالٌّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِذَا تَبَيَّنَ بُطْلَانُ هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُوْنَ ظَاهِرُ الكَلَامِ هُوَ القَوْلُ الثَّانِي؛ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ بِمَرْأى مِنِّي، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَكْلَؤُهُ بِعَيْنِهِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَاهُ. وَوَجْهُ كَوْنِ العَيْنِ هِيَ الَّتِي تَرْعَاهُ دُوْنَ الوَجْهِ أَوِ اليَدِ أَو... هُوَ لِأَنَّ العَيْنَ تُفِيْدُ الاطِّلَاعَ وَالمُرَاقَبَةَ وَالإِحَاطَةَ مِمَّا يُنَاسِبُ الحِفْظَ. وَاللهُ أَعْلَمُ. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ فإنما هو للتعظيم.

قومه هَزءوا منه وضحكوا وقالوا: يا نوحُ كنتَ بالأمس نبيًّا، وأصبحتَ اليوم نجاراً!! ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ أي إن تهزءوا منا اليوم ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ أي فإنّا سنسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون مثل سخريتكم منا الآن، فأنتم أولى بالسخرية والاستهزاء ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ وعيدٌ وتهديد أي سوف تعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ أي عذابٌ يُذلُّه ويهينه وهو الغرق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ أي وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب جهنم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي جاء أمرنا الموعود بالطوفان ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي فار الماء من التنور الذي يوقد به النار قال العلماء: جعل الله ذلك علامة لنوح وموعداً لهلاك قومه، وقال ابن عباس: التنور وجهُ الأرض قال «الطبري»: والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض، قيل له: إذا رأيتَ الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك[1] في السفينة وقال ابن كثير: التنور وجه الأرض أي صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماءً، وهذا قول جمهور السلف والخلف[2] ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي احمل في السفينة: من كل صنفٍ من المخلوقات اثنين: ذكراً، وأنثى ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي واحمل قرابتك أيضاً أولادك ونساءك إلا من حكم الله بهلاكه، والمراد به ابنهُ الكافر «كنعان» وامرأته «واعلة» ﴿وَمَنۡ ءَامَنَ﴾ أي واحمل معك من آمن من أتباعك ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ أي وما آمن بنوح إلا نزرٌ يسير مع طول إقامته بينهم وهي مدة تسعمائة وخمسين سنة، قال ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب: كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل: كانوا عشرة[3] ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ أي وقال نوح لمن آمن به اركبوا في السفينة، باسم الله يكون جريُها على وجه الماء، وباسم الله يكون رسوُّها واستقرارها قال «الطبري»: المعنى باسم الله حين تجري وحين تُرسي، أي حين تسير وحين تقف[4] ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي ساتر لذنوب التائبين، رحيمٌ بالمؤمنين حيث نجاهم من الغرق ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ أي والسفينة تسير بهم وسط الأمواج، التي هي كالجبل في العِظَم والارتفاع، بإذن الله وعنايته ولطفه قال الصاوي: رُوي أن الله أرسل المطر أربعين يوماً وليلة، وخرج الماء من الأرض ينابيع كما قال تعالى ﴿فَفَتَحۡنَآ

(١) بعد أن ذكر الإمام «الطبري» أقوال السلف في المراد بالتنور قال: وأولى هذه الأقوال عندنا قولُ من قال: هو التنور الذي يخبز فيه لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب وكلام الله يحمل على الأغلب الأشهر. انظر «الطبري» ١٢/ ٤٠.

(٢) «المختصر» ٢/ ٢٢٠.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٢٢٠.

(٤) «تفسير الطبري» ١٢/ ٤٤.

﴿أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ - ١٢] وارتفع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعاً حتى أغرق كل شيء[1] ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي ونادى نوحٌ ولده «كنعان» قبيل سير السفينة وكان في ناحيةٍ منها لم يركب مع المؤمنين ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ أي اركب معنا ولا تهلكْ نفسك بالغرق ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي فتغرق كما يغرقون ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي سأصعد إلى رأس جبل أتحصن به من الغرق، ظنًا منه أن الماء لا يصل إلى رءوس الجبال ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي قال له أبوه نوح: لا معصوم اليوم من عذاب الله ولا ناجي من عقابه إلا من رَحِمَهُ اللهُ ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ أي حال بين نوح وولده موجُ البحر فغرق ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ أي انشقي وابتلعي ما على وجهك من الماء ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أي أمسكي عن المطر ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي ذهب في أغوار الأرض قال مجاهد: نقص الماء ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي تمَّ أمر الله بإغراق من غرق، ونجاة من نجا ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي استقرت السفينة على جبل الجودي بقرب الموصل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هلاكاً وخساراً لمن كفر بالله وهي جملة دعائية قال «الألوسي»: ولا يخفى ما في الآية من الدلالة على عموم هلاك الكفرة، بل على عموم هلاك أهل الأرض ما عدا أهل السفينة، ويدل عليه ما رُوي أن الغرقَ أصاب امرأة معها صبيٌّ لها فوضعته على صدرها، فلما بلغها الماء وضعته على منكبها، فلما بلغها الماء رفعته بيديها، فلو رحم الله أحداً من أهل الأرض لرحمها[2] ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي نادى نوح ربَّه متضرعاً إليه فقال: ربِّ إن ابني «كنعان» من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي وعدك حقٌّ لا خُلْف فيه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي وأنت يا الله أعدل الحاكمين بالحق ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي قال له ربه: يا نوحُ إنَّ ولدك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم لأنه كافر ولا ولاية بين المؤمن والكافر ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: إنَّ عمله سيئ غير صالح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي لا تطلب مني أمراً لا تعلم أصوابٌ هو أم غير صواب؟ ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي إني أنبهك وأنصحك خشية أن تكون من الجاهلين قال في «التسهيل»: وليس في ذلك وصفٌ له بالجهل، بل فيه ملاطفةٌ وإكرام[3] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي قال نوح معتذراً إلى ربه عمّا صدر عنه: ربّ إني

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢/ ٢١٦.
(٢) «روح المعاني» ١٢/ ٦٢.
(٣) «التسهيل» ٢/ ١٠٦.

أستجير بك من أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي وإلا تغفر لي زلتي، وتتداركني برحمتك، أكنْ ممن خسر آخرته وسعادته ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ أي اهبط من السفينة بسلامة وأمن ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ أي وخيرات عظيمة عليك وعلى ذريةِ مَن معك من أهل السفينة، قال «القرطبي»: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة[1] ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ أي وأمم أخرى من ذرية من معك نمتعهم متاع الحياة الدنيا وهم الكفرة المجرمون ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي ثم نذيقهم في الآخرة العذاب الأليم وهو عذاب جهنم ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي هذه القصة وأشباهها من أخبار الغيوب السالفة التي لم تشهدها ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ أي نعلمك بها يا محمد بواسطة الوحي ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحدٍ من قومك علمٌ بها من قبل هذا القرآن ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي فاصبر على أمر الله بتبليغ الدعوة كما صبر نوح، فإن العاقبة المحمودة لمن اتقى الله، وفيه تسلية له ﷺ على أذى المشركين.

البَلَاغَة: ١ - ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ شبّه الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه، بمن سلك مفازةً لا يعرف طرقها ومسالكها، واتبع دليلاً أعمى فيها على سبيل الاستعارة التمثيلية.

٢ - ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع.

٣ - ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ الأمر يراد به التهكم والاستهزاء.

٤ - ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ مجاز بالحذف أي عقوبة إجرامي وجاء بـ ﴿إِنِ﴾ الدالة على الشك لبيان أنه على سبيل الفرض ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ بخلاف إجرامهم فإنه محقّق ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾.

٥ - ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ الأعين كناية عن الرعاية والحفظ يقال للمسافر: «صحبتك عين الله» أي رعاية الله وحفظه[2].

٦ - ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ بين الأرض والسماء طباقٌ، وبين ابلعي وأقلعي جناسٌ ناقص، وكلاهما من المحسنات البديعية.

---

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٤٨. (ش): قال الإمام ابن جرير «الطبري» في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن» (١٥/ ٣٥٣): ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ وعلى قرون تجيء من ذرية من معك من ولدك. فهؤلاء المؤمنون من ذرية نوح الذين سبقت لهم من الله السعادة، وبارك عليهم قبل أن يخلقهم في بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم.

(٢) (ش): في هذه الآية إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. واللفظ ورد هنا بصيغة الجمع للتعظيم.

فَائِـدَة: قـال ابن عباس في قوله تعالـى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ كان ابنه من صلبه، ولكنه لم يكن مؤمنـًا، وما بغت امرأة نبيٍّ قط. ومعنى الآية: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك[١].

أقول: نبهت الآية على أن أهله هم الصلحاء، أهل دينه وشـريعته، فمن لا صلاح له لا نجاة له، ومدار الأهلية القرابة الدينية، لا القرابة البدنية.

أَبِـي الْإِسْــلَامُ لَا أَبَ لِـي سِـوَاهُ   إِذَا افْـتَـخَـرُوا بِـقَـيْـسٍ أَوْ تَـمِـيـمِ

لطيفَـة: روي أن أعرابيًّا سـمع هـذه الآيـة ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ...﴾ الآية فقال: هذا كلام القادرين لا يشـبه كلام المخلوقين، ويروى أن «ابن المقفع» - وكان أفصح أهل زمانه - رام أن يعارض القرآن فنظم كلامـًا، وجعله مفصلاً، وسمّاه سوراً، فمرَّ يومـًا بصبي فسمعه يقرأ الآية فرجع إلى بيته ومحا ما كان قد بدأ به، وقال: أشهد أن هذا لا يُعارَضُ أبداً، وما هو من كلام البشر[٢].

تنبيـه: هـذه الآية بلغت من أسـرار الإعجاز غايتهـا، وحوت من بدائـع الفوائد نهايتها، وجمعـت من المحاسـن اللفظيـة والمعنوية ما يضيـق عنه نطاق البيان، وقـد اهتم بإظهار لطائفهـا وأسـرارها العلاّمة أبو حيان حيث قـال رَحِمَهُ اللهُ وطيَّب ثـراه: في هذه الآية أحد وعشـرون نوعـًا من البديع: المناسبةُ في قوله ﴿أَقۡلِعِي﴾ و﴿ٱبۡلَعِي﴾ والمطابقةُ بذكر الأرض والسـماء، والمجازُ في ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ المراد مطر السماء، والاستعارةُ في ﴿أَقۡلِعِي﴾ والإشارة في ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ فإنهـا إشـارة إلى معانٍ كثيـرة، والتمثيـلُ في ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ عبّر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين، والإرداف في ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ فلفظ واسـتوت كلام تـامٌّ أردفه بلفظ ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ قصـداً للمبالغة في التمكن بهذا المـكان، والتعليلُ في ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ فإنه علة للاسـتواء، والاحـتراسُ في ﴿بُعۡدًا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو أيضـًا ذم لهم، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعبـًا للمعاني الجمَّة، وعدَّد بقية الوجوه وهي: الإيضاحُ، والمسـاواة، وحسنُ النَّسق، وصحة التقسـيم، وحسن البيان، والتمكين، والتجنيس، والتسهيم، والمقابلة، والتهذيب، والوصف[٣].

قال الله تعالى:

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ

---

(١) «تفسير الطبري» ١٢/ ٥١.

(٢) «روح المعاني» ١٢/ ٦٣.

(٣) النهر الماد من البحر ٥/ ٢٢٧.

ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا
تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ
لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ
مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن
دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ
وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ
رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ
أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ
هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ
كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ
يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ
فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ
وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ
وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ
خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ
رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا
تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ
فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي
شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ
ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾

المناسَبة: هذه هي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة، وهي قصة هود مع قومه عاد، وقد ذكرها تعالى بالإسهاب، ولهذا سميت السورة «سورة هود» ثم أعقبها بالحديث عن ثمود وهي القصة الثالثة في هذه السورة، ثم قصة إبراهيم وبشارة الملائكة له بإسحاق وهي القصة الرابعة.

اللغة: ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ كثيراً متتابعاً من درَّت السماء تدرُّ إذا سكبت المطر بسخاء، والمدرارُ: الكثير الدرّ وهو من أبنية المبالغة ﴿ٱعۡتَرَىٰكَ﴾ أصابك ﴿بِنَاصِيَتِهَآ﴾ الناصيةُ: منبت الشعر

في مقدم الرأس ﴿جَبَّارٍ﴾ الجبار: المتكبر (١) ﴿عَنِيدٍ﴾ العنيد «الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له، قال أبو عبيدة: العنيد والمعاند: المعارضُ بالخلاف ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ جعلكم عمَّارها وسكانها ﴿تَخْسِيرٍ﴾ تضليل وإبعاد عن الخير ﴿حَنِيذٍ﴾ مشوي يقال: حنذتُ الشاة أحنِذُها حنْذاً، أي: شويتها ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنكرهم يقال: نكِرَهُ وأنْكرَهُ واستَنْكرهُ بمعنى واحد وهو أن يجده على غير ما عهده قال الشاعر:

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا (٢)

فجمع الشاعرُ بين اللُّغتين ﴿وَأَوْجَسَ﴾ استشعر وأحسَّ ﴿بَعْلِي﴾ زوجي.

التفسير: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد نبيًّا منهم اسمه هود ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اعبدوا الله وحده دون الآلهة والأوثان ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي ليس لكم معبودٌ غيره يستحق العبادة ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي ما أنتم في عبادتكم غير الله إلا كاذبون عليه جل وعلا، لأنه لا إله سواه ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي لا أطلب منكم على النصح والبلاغ جزاءً ولا ثواباً ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ أي ما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أتغفُلون عن ذلك فلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاءٍ منكم هو لكم ناصح أمين؟ والاستفهام للإنكار والتقريع ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي استغفروه من الكفر والإشراك ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والإستقامة على دينه والتمسك بالإيمان والتوحيد ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي يرسل عليكم المطر غزيرًا متتابعاً، رُوي أن عاداً كان حُبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون، فأمرهم هودٌ بالتوبة والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر، وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار، سببٌ للرحمة ونزول الأمطار ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي ويزدكم عزًّا وفخراً فوق عزكم وفخاركم قال مجاهد: شدة إلى شدتكم (٣)، فإنهم كانوا في غاية القوة والبطش حتى قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؟ ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي لا تُعْرِضوا عما أدعوكم إليه مُصِرِّين على الإجرام، وارتكاب الآثام ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي ما جئتنا بحجةٍ واضحة تدل على صدقك قال «الألوسي»: وإنما قالوه لفرط عنادهم، أو لشدة عَمَاهم عن الحق (٤) ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك

(١) (ش): أي المستكبر عن الحق.
(٢) تفسير «القرطبي» ٩/ ٦٦. (ش): الشَّيْب: بياض الشَّعر، الصَّلَع: انحسار الشّعر عن مقدّم الرأس أو وسطها.
(٣) «تفسير الطبري» ١٢/ ٥٨.
(٤) «الألوسي» ١٢/ ٨١.

﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي لسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك[1]، والجملة تقنيطٌ من دخولهم في دينه، ثم نسبوه إلى الخبل والجنون فقالوا ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي ما نقول: إلا أصابك بعض آلهتنا بجنون لَمَّا سَبَبْتَها ونَهَيْتَنا عن عبادتها قال الزمخشري: دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاةً، غلاظ الأكباد، لا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد[2]، وقد دلَّ قولهم الأخير على جهل مفرط، وبلَهٍ متناهٍ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم[3] ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾ أي قال هودٌ: إني أُشهدُ الله على نفسي ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦ﴾ أي وأشهدكم أيضاً أيها القوم أنني بريءٌ مما تشركون في عبادة الله من الأوثان والأصنام ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي فاحتالوا في هلاكي أنتم وآلهتكم ثم لا تمهلوني طرفة عين قال «أبو السعود»: وهذا من أعظم المعجزات، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير من عتاة عاد، الغلاظ الشداد، وقد حقّرهم وهيّجهم بانتقاص آلهتهم، وحثهم على التصدّي له فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً[4] وقال الزمخشري: من أعظم الآيات أن يُواجه بهذا الكلام رجلٌ واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوسٍ واحدة، وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم، ومثله قول نوح ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾[5] [يونس: ٧١] ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي إني لجأت إلى الله وفوضت أمري إليه تعالى مالكي ومالككم ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي ما من نَسَمَةٍ تدبُّ[6] على وجه الأرض إلا هي في قبضته وتحت قهره، والأخذُ بالناصية تمثيلٌ للمُلك والقهر، والجملةُ تعليلٌ لقوة توكُّله على الله وعدم مبالاته بالخلق ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي إن ربي عادل، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحداً شيئاً ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي فإن تُعرضوا عن قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربي، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي فسوف يهلككم الله ويستخلف قوماً آخرين غيركم، وهذا وعيدٌ شديد ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔا﴾ أي لا تضرون الله شيئاً بإشراككم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ أي إنه سبحانه رقيبٌ على كل

---

(١) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) (ش): شَكِيمة: عِزّة وشدّة وعزيمة.

(٣) «الكشاف» ٣/ ١٥.

(٤) «أبو السعود» ٣/ ١٥.

(٥) «الكشاف» ٢/ ٤٠٣.

(٦) (ش): نَسَمَة: كلّ كائن حيّ فيه روح.

شيء، وهو يحفظني من شركم ومكركم ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ أي نجينا من العذاب هوداً والمؤمنين بفضل عظيم ونعمة منا عليهم ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ أي وخلصناهم من ذلك العذاب الشديد، وهي الريح المدمرة التي كانت تهدم المساكن، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم، وتصرعهم على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ الإشارة لآثارهم، أي: تلك آثار المكذبين من قوم عاد انظروا ماذا حلّ بهم حين كفروا بالله، وأنكروا آياته في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته؟ ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ أي عصوا رسوله هوداً، وجَمَعُه تفظيعاً لحالهم، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم، ببيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ أي أطاعوا أمر كل مستكبر على الله، حائدٍ عن الحق، لا يُذعن له ولا يقبله، يريد به الرؤساء والكبراء ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ أي وأُلحقوا باللعنة والطرد من رحمة الله في الدنيا ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي ويوم القيامة أيضاً تلحقهم اللعنة قال «الرازي»: جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا والآخرة، ومعنى اللعنة الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير[(١)] ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ هذ تشنيعٌ لكفرهم وتهويلٌ ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ أي أبعدهم الله من الخير، وأهلكهم عن بكرة أبيهم[(٢)]، وهي جملة دُعائيَّة بالهلاك واللعنة ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود نبيًّا منهم وهو صالح عليه السلام ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ أي اعبدوا الله وحده ليس لكم ربٌّ معبود سواه[(٣)] ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي هو تعالى ابتدأ خلقكم من الأرض، فخلق آدم من تراب ثم ذريته من نطفة ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي جعلكم عمّارها وسكانها تسكنون بها ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي استغفروه من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ أي إنه سبحانه قريب الرحمة مجيب الدعاء ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيّداً قبل تلك المقالة فلما قلتها انقطع رجاؤنا فيك ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي أتنهانا يا صالح عن عبادة الأوثان التي عبدها آباؤنا؟ ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ أي وإننا لَشَاكّونَ في دعواك، وأمرُك مريب يوجب التهمة ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ

---

(١) «الفخر الرازي» ١٨/ ١٦.

(٢) (ش): بَكْرة: جماعة، جاءوا على بكرة أبيهم/ جاءوا عن بكرة أبيهم/ جاءوا على بكرتهم/ جاءوا عن بكرتهم: جميعًا لم يتخلّف منهم أحد.

(٣) (ش): الصواب أن يقال: ليس لكم رب معبودٌ بحقٍّ سواه.

﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي أخبروني إن كنتُ على برهانٍ وحجة واضحةٍ من ربي ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي وأعطاني النبوة والرسالة ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله إن عصيت أمره؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي فما تزيدونني بموافقتكم وعصيان أمر الله غير تضليل وإبعاد عن الخير قال الزمخشري: ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يعني تُخَسِّرون أعمالي وتبطلونها[1] ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أضاف الناقة إلى الله تشريفاً لها؛ لأنها خرجت من صخرة صماء بقدرة الله حسب طلبهم أي هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي دعوها تأكل وتشرب في أرض الله فليس عليكم رزقها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي لا تنالوها بشيءٍ من السوء فيصيبكم عذاب عاجل لا يتأخر عنكم ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي ذبحوا الناقة فقال لهم صالح: استَمْتِعوا بالعيش في بلدكم ثلاثة أيام ثم تهلكون قال «القرطبي»: إنما عقرها بعضهم وأضيف إلى الكل لأنه كان برضى الباقين، فعقرت يوم الأربعاء فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد[2] ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي وعدٌ حق غير مكذوب فيه ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي فلما أمرنا بإهلاكهم نجينا صالحاً ومن آمن به ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي بنعمةٍ وفضل عظيم من الله ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذُلّه ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي القوي في بطشه، العزيز في ملكه، لا يغلبه غالب، ولا يقهره قاهر ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي أخذتهم صيحةٌ من السماء تقطعت لها قلوبهم، فأصبحوا هامدين موتى لا حَراك بهم كالطير إذا جثمت ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ أي كأن لم يقيموا في ديارهم ولم يَعْمُروها ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم إن ثمود كفروا بآيات ربهم فسحقاً لهم وبُعْداً، وهلاكاً ولعنة ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هذه هي القصة الرابعة وهي قصة لوط وهلاك قومه المكذبين أي جاءت الملائكةُ الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط إبراهيمَ بالبشارة بإسحاق[3]، قال «القرطبي»: لما أنزل الله الملائكة لعذاب قوم لوط مرّوا بإبراهيم فظنهم أضيافاً، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قاله ابن عباس، وقال السدي: كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه[4] ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي سلموا عليه

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٠٨.
(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٦٠.
(٣) البشرى هي البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط قال الزمخشري: والظاهر الولد.
(٤) «تفسير القرطبي» ٩/ ٦٢.

سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي قال لهم إبراهيم: سلام عليكم قال المفسرون: ردَّ عليهم التحية بأحسن من تحيتهم لأنه جاء بها جملة اسميّة وهي تدل على الثبات والاستمرار ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٍ﴾ أي فما أبطأ ولا تأخر مجيئه حتى جاء بعجل مشويٍّ فقدمه لهم قال الزمخشري: والعجل: ولد البقرة ويسمى «الحسيل» وكان مالُ إبراهيم عليه السلام البقر، والحنيذ: المشوي بالحجارة المحماة في أخدود وقيل: الذي يقطر دسمه ويدل عليه ﴿بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦][1] ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ﴾ أي فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام ولا يأكلون منه أنكرهم ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أي أحسَّ منهم الخوف والفزع قال قتادة: كان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير وأنه جاء يحدث نفسه بشرّ[2] ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ أي قالت الملائكة: لا تخف فإنا ملائكة ربك لا نأكل، وقد أُرسلنا لإهلاك قوم لوط ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ﴾ أي وامرأة إبراهيم واسمها «سارة» قائمة وراء الستر تسمع كلامهم فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ أي بَشَّرْتها الملائكة بإسحاق ولداً لها ويأتيه مولودٌ هو يعقوب ابناً لولدها ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ أي قالت سارة متعجبة: يا لهفي ويا عجبي أألد وأنا امرأة مسنّة وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً فكيف يأتينا الولد؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ أي إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجر به العادة قال مجاهد: كانت يومئذٍ ابنة تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة[3] ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين؟ ليس هذا بمكان عجب على قدرة الله ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أي رحمكم الله وبارك فيكم يا أهل بيت إبراهيم ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ أي إنه تعالى محمود ممجد في صفاته وذاته، مستحق للحمد والتمجيد من عباده، وهو تعليل بديع لما سبق من البشارة.

البَلاَغَة: ١ - ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ المراد بالسماء المطر فهو مجاز مرسل؛ لأن المطر ينزل من السماء ولفظ «مدراراً» للمبالغة أي كثير الدر.

٢ - ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ أمرٌ بمعنى التعجيز.

٣ - ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ استعارة تمثيلية شبّه الخلق وهم في قبضة الله وملكه وتحت قهره وسلطانه بالمالك الذي يقود المقدور عليه بناصيته كما يقاد الأسير

---

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٠٩. (ش): قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦]

(٢) «تفسير الطبري» ١٢/ ٧١.

(٣) ««البيضاوي»» ٢٥٣.

والفرس بناصيته.

٤ - ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ استعارة لطيفة عن كمال العدل في ملكه تعالى فهو مطلع على أمور العباد لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

٥ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ الأمر كناية عن العذاب[1].

٦ - ﴿نَجَّيْنَا هُودًا .. وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ التكرار في لفظ الإنجاء لبيان أن الأمر شديد عظيم لا سهل يسير، ويسمى هذا الإطناب.

٧ - ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي عصوا رسولهم هوداً وفيه تفظيع لحالهم وبيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين، وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض.

٨ - ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا .. أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ تكرير حرف التنبيه وإعادة لفظ «عاد» للمبالغة في تهويل حالهم.

تنبيه: لم يقل هود عليه السلام: إني أُشهد الله وأشهدكم وإنما قال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وذلك لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما، فأين شهادة الله العلي الكبير من شهادة العبد الحقير؟!

قال الله تعالى:

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

---

(١) (ش): هذا خطأ لأن المراد الأمر الكوني القدري فليس هو كناية، بل هو أمر حقيقة كما يدل عليه كلام المؤلف في تفسيرها حيث قال: «أي ولما جاء أمْرُنا بالعذاب، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم».

مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ
يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ
لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ
وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ
عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ
هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي
رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ
لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ
ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ
تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾
وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ
فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾
يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾

المناسَبة: لا تزال الآيات تتحدث عن قصة ضيوف إبراهيم، وهم الملائكة الذين مروا عليه وهم بطريقهم لإهلاك قوم لوط، وبشروه بالبشارة السارة بولادة غلام له، وقد ذكرت الآيات مرورهم على لوط وما حلَّ بقومه من النكال والدمار، وهي القصة الخامسة، ثم ذكرت قصة شعيب مع أهل مدين، وقصة موسى مع فرعون، وفي جميع هذه القصص عبرٌ وعظات.

اللغَة: ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ الخوف والفزع ﴿مُّنِيبٞ﴾ الإنابة: الرجوع والتوبة ﴿عَصِيبٞ﴾ شديد في الشر قال الشاعر:

وَإِنَّـكَ إِلَّا تُـرْضِ بَكْـرَ بْـنَ وَائِـلٍ ... يَكُـنْ لَـكَ يَـوْمٌ بِـالْعِـرَاقِ عَصِيبُ

﴿يُهۡرَعُونَ﴾ يسرعون قال الفراء: الإهراع الإسراع مع رِعدة يقال: أُهرع الرجل إهراعًا، أي: أسرع في رعدة من برد أو غضب[1] ﴿تُخۡزُونِ﴾ أخزاه: أهانه وأذلَّه، قال حسان:

فَـأَخْـزَاكَ رَبِّـي يَـا عُتَيْـبَ بْـنَ مَالِكٍ ... وَلَقَّاكَ قَبْلَ الْمَوْتِ إِحْدَى الصَّوَاعِقِ

﴿سِجِّيلٖ﴾ السّجيل والسّجين: الشديد من الحجر قاله أبو عبيدة، وقال الفراء: طينٌ

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٧٤.

طبخ حتى صار كالآجُر[١] ﴿مَّنضُودٖ﴾ متتابع بعضه فوق بعض في النزول ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلَّمة من السِّما وهي العلامة ﴿شِقَاقِيٓ﴾ الشقاق: العداوة قال الشاعر:

أَلَا مَنْ مُبْلِغ عَنِّي رَسُولًا فَكَيْفَ وَجَدْتُمْ طَعْمَ الشِّقَاقِ[٢]

﴿رَهۡطُكَ﴾ رهط الرجل: عشيرته التي يتقوى بهم ﴿ٱلۡوِرۡدُ﴾ المدخل ﴿ٱلرِّفۡدُ﴾ العطاء والإِعانة.

التفسير: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أي فلما ذهب عن إبراهيم الخوفُ الذي أوجسه في نفسه، واطمأن قلبُه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي جاءته البشارة بالولد ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ أي أخذ يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط، وغرضُه تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون قال المفسرون: لما قالت الملائكة: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، فقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢][٣] ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ أي غير عجولٍ في الانتقام من المسيء إليه ﴿أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ أي كثير التأوه والتأسف على الناس لرقة قلبه، منيب رجّاعٌ إلى طاعة الله ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ أي قالت الملائكة: يا إبراهيم دع عنك الجدال في قوم لوط فقد نفذ القضاء بعذابهم ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ أي جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ أي نازلٌ بهم عذابٌ غير مصروفٍ عنهم ولا مدفوع ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي ولما جاءت الملائكة لوطاً أصابه سوء وضجر، لأنه ظهر أنهم من البشر فخاف عليهم من قومه ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم خشيةً عليهم من قومه الأشرار ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ أي شديد في الشر ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي جاء قومه يسرعون إليه لطلب الفاحشة بالضيوف كأنهم يُدْفَعُون إلى ذلك دفعاً ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي ومن قبل ذلك الحين كانت عادتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة فلذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون لها مجاهرين قال «القرطبي»: وكان سبب إسراعهم أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجمالهم، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت لهم: إن لوطاً قد أضاف الليلة فتيةً ما رأيت مثلهم جمالاً فحينئذٍ جاءوا يُهرعون إليه[٤] ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾

---

(١) (ش): آجُرّ: طوب: لبِنٌ محروق مُعَدٌّ للبناء، وتتكوَّن المادّة المحرقة من الطِّين أو أي مخلوط آخر كالجير والرَّمل أو الأسمنت والرَّمل. واللَّبِن: قوالب مربَّعة أو مستطيلة مضروبة من الطِّين تستعمل في البناء.

(٢) الرسول هنا بمعنى الرسالة والبيت للأخطل كذا في ««القرطبي»».

(٣) انظر «الطبري» ١٢/ ٨٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ٩/ ٧٥.

أي قال لهم لوط: هؤلاء نساء البلدة أُزوِّجكم بهن فذلك أطهر لكم وأفضل، وإنما قال بناتي لأن كل نبيٍّ أبٌ لأمته في الشفقة والتربية ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي اخشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي استفهام توبيخ، أي: أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح؟ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي قال له قومه: لقد علمت يا لوط ما لنا في النساء من أرَبٍ(١). وليس لنا رغبة فيهن ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي وأنت تعلم غرضنا وهو إتيان الذكور، صرّحوا له بغرضهم الخبيث قبّحهم الله ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي ألجأ إلى عشيرة وأنصار تنصرني عليكم، وجواب «لو» محذوف تقديره لبطشتُ بكم وفي الحديث «رحم الله أخي لوطًا لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد»(٢) يريد ﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده، فهو ركنه الشديد وسنده القوي قال قتادة: وذُكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبيًا بعد لوط إلا في منعة من عشيرته(٣)، وحين سمع رسل الله تعالى تحسر لوط على ضعفه وانقطاعه من الأنصار ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي قالت الملائكة للوط: إنا رسلُ ربك أُرسلنا لإهلاكهم وإنهم لن يصلوا إليك بضرر ولا مكروه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي اخرج بهم بطائفةٍ من الليل قال «الطبري»: أي اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل(٤) ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ أي لا ينظر أحدٌ منكم وراءه إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا، نُهوا عن الالتفات لئلا تتفطر أكبادهم على قريتهم قال «القرطبي»: إن امرأة لوط لمّا سمعت هدّة العذاب التفتت

---

(١) (ش): أَرَب: بُغية وحاجة مُلحَّة.

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعًا. (ش): قال ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» رواه البخاري ومسلم. أما الزيادة «أخي» فلم أجدها إلا في جامع البيان في تفسير القرآن للطبري والمعجم الأوسط للطبراني بإسنادٍ ضعيف. قال الإمام النووي: «الْمُرَادُ بِالرُّكْنِ الشَّدِيدِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّهُ أَشَدُّ الْأَرْكَانِ وَأَقْوَاهَا وَأَمْنَعُهَا وَمَعْنَى الْحَدِيثِ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ لُوطًا ﷺ لَمَّا خَافَ عَلَى أَضْيَافِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَشِيرَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ ضَاقَ ذَرْعُهُ وَاشْتَدَّ حُزْنُهُ عَلَيْهِمْ فَغَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْحَالِ: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قوة فى الدفع بنفسى أو آوى إِلَى عَشِيرَةٍ تَمْنَعُ لَمَنَعْتُكُمْ وَقَصْدُ لُوطٍ ﷺ إِظْهَارُ الْعُذْرِ عِنْدَ أَضْيَافِهِ وَأَنَّهُ لَوِ اسْتَطَاعَ دَفْعَ الْمَكْرُوهِ عَنْهُمْ بِطَرِيقٍ مَا لَفَعَلَهُ وَأَنَّهُ بَذَلَ وُسْعَهُ فِي إِكْرَامِهِمْ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِعْرَاضًا مِنْهُ ﷺ عَنْ الِاعْتِمَادِ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَإِنَّمَا كَانَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ تطييب قُلُوبِ الْأَضْيَافِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَسِيَ الِالْتِجَاءَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي حِمَايَتِهِمْ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْتَجَأَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَأَظْهَرَ لِلْأَضْيَافِ التَّأَلُّمَ وَضِيقَ الصَّدْرِ». [شرح صحيح مسلم ٢/ ١٨٤- ١٨٥].

(٣) «روح المعاني» ١٢/ ١٠٨. (ش): قال ﷺ: «فَمَا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا بَعْدَهُ، إِلاَّ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» [رواه أحمد بإسناد حسن].

(٤) «الطبري» ١٢/ ٨٩. (ش): أي اخرج بهم بعد مرور جزء من الليل.

وقالت: واقوماه! فأدركها حجر فقتلها[1] ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي إنه يصيب امرأتك من العذاب ما أصاب قومك ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم الصبحُ ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه فقالوا له: أليس وقت الصبح قريباً؟ قال المفسرون: إن قوم لوط لما سمعوا بالضيوف هرعوا نحوه، فأغلق بابه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما بلوطٍ من الكرب قالوا يا لوط: افتح الباب ودعنا وإيّاهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا، وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاءَ، النجاء كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] ثم إن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر، ولما حان وقت عذابهم أمر الله جبريل فاقتلع مَدائن قوم لوط - وهي خمسٌ - من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها، حتى سمع أهل السماء صراخ الديكة، ونباح الكلاب، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة ولهذا قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي فلما جاء وقت العذاب قَلَبْنا بهم القرى فجعلنا العالي سافلاً ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي أرسلنا على أهل تلك المدن حجارة صلبة شديدة من نارٍ وطين، شبّهها بالمطر لكثرتها وشدتها ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي متتابعة، بعضُها في إثر بعض ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي معلَّمة بعلامة قال الربيع: قد كتب على كل حجر اسم من يُرمى به قال «القرطبي»: وقوله ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دليلٌ على أنها ليست من حجارة الأرض[2] ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي ما هذه القرى المهلكة[3] ببعيدة عن قومك «كفار قريش» فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون؟ قال المفسرون: وقد صار موضع تلك المدن بحراً أُجاجاً يعرف بـ «البحر الميت» لأن مياهه لا تغذي شيئاً من الحيوان وقد اشتهر باسم «بحيرة لوط» والأرض التي تليها قاحلة لا تنبتُ شيئاً ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة، أي: وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً، وقد كان شعيب من نفس القبيلة ولهذا قال «أخاهم» ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي اعبدوا الله وحده فليس لكم ربٌّ سواه ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان، وقد اشتهروا بتطفيف الكيل والوزن ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي إني أراكم في سعةٍ تغنيكم عن نقص الكيل والميزان قال «القرطبي»: أي في سعة من الرزق، وكثرةٍ من

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٨٠.
(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٨٣.
(٣) وقيل: الضمير يعود على الحجارة أي وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم.

النعم[١] ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ أي إني أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مهلك، لا يفلت منه أحد، والمراد به عذاب يوم القيامة ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي أتموا الكيل والوزن للناس بالعدل ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي لا تُنْقصوهم من حقوقهم شيئاً ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أي ولا تسعوا بالفساد في الأرض، والعُثِيُّ أشدُّ الفساد ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ أي ما أبقاه الله لكم من الحلال خيرٌ مما تجمعونه من الحرام، إن كنتم مصدّقين بوعد الله ووعيده[٢] وقال مجاهد: أي طاعة الله خير لكم[٣] ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي ولستُ برقيب أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها وإنما أنا ناصح مبلّغ، وقد أعذر من أنذر ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان، وبإيفاء الكيل والميزان، ردّوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا: أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤنا؟ إن هذا لا يصدر عن عاقل ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ أي وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان. قال الإمام الفخر: إن شعيباً أمرهم بشيئين: بالتوحيد، وترك البخس، فأنكروا عليه أمره بهذين النوعين فقوله ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا﴾ إشارة إلى ترك البخس، وقد يراد بالصلاة الدينُ والمعنى: دينُك يأمرك بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعار الدين، وروي أن شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾ السخرية والهزء، كما إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فتقول: هذا من مطالعة تلك الكتب؟[٤] ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشد؟ قال «الطبري»: يستهزئون به فإنهم أعداء الله قالوا له ذلك استهزاءً، وإنما سفّهوه وجهّلوه بهذا الكلام[٥] ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أي قال لهم شعيب: أخبروني إن كنت على برهان من ربي وهو الهداية والنبوة ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ أي أعطاني المال الحلال، فقد كان عليه السلام كثير المال قال الزمخشري: والجواب محذوف دل عليه المعنى أي أخبروني إن كنت على حجة واضحة،

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٨٥.
(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.
(٣) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٠٠.
(٤) «تفسير «الرازي»» ١٨/ ٤٢.
(٥) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٠٣.

ويقين من ربي، وكنتُ نبياً على الحقيقة أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان، والكف عن المعاصي؟ والأنبياء لا يُبعثون إلا لذلك[١] ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ أي لست أنهاكم عن شيء وأرتكبه وإنما آمركم بما آمر به نفسي ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ أي لا أُريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم أمركم بقدر استطاعتي ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي ليس التوفيق إلى الخير إلا بتأييده سبحانه ومعونته ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي على الله سبحانه اعتمدت في جميع أموري، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ أي لا تُكْسِبَنَّكُم عداوتي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ أي يصيبكم العذابُ كما أصاب قوم نوح بالغرق، وقوم هود بالريح، وقوم صالح بالرجفة وقال الحسن المعنى: لا تَحْمِلَنَّكُم مُعادَاتي على تَرْك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار[٢] ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم لوطٍ بمكان بعيد، أفلا تتعظون وتعتبرون!؟ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ أي استغفروا ربكم من جميع الذنوب، ثم توبوا إليه توبةً نصوحاً ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ أي إنه جل وعلا عظيم الرحمة، كثير الود والمحبة لمن تاب وأناب ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي قالوا لنبيِّهم شعيب على وجه الاستهانة: ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به قال «الألوسي»: جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحِكَم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يُفهم معناه، ولا يدرك فحواه مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ)[٣] ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ أي لا قوة لك ولا عزَّ فيما بيننا ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ أي ولولا جماعتك لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ أي لستَ عندنا بمكرَّم ولا محترم حتى نمتنع من رجمك ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ؟ هذا توبيخ لهم أي أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى؟ فهل عشيرتي أعزّ عندكم من الله وأكرم؟ قال ابن عباس: إن قوم شعيب ورهطه كانوا أعزَّ عليهم من الله وصغُر شأنُ الله عندهم، عزَّ ربنا وجلَّ ثناؤه[٤] ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعبأ به، وهذا مثلٌ قال «الطبري»: يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل: نبذ حاجته وراء ظهره أي تركها

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٢٠.
(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٩٠.
(٣) «روح المعاني» ١٢/ ١٢٣. (ش): رواه الحاكم في «المستدرك» وابن أبي حاتم في تفسيره، بإسناد ضعيف.
(٤) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٠٦.

ولـم يلتفـت إليهـا[1] ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي إنـه جـل وعلا قد أحـاط علماً بأعمالكـم السيئة وسـيجازيكم عليهـا ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ تهديدٌ شـديد أي اعملوا على طريقتكم إني عاملٌ على طريقتي كأنه يقول: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي سـوف تعلمـون الـذي يأتيـه عـذاب يذلـه ويهينـه ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ أي وتعلمـون من هو الـكاذب ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي انتظروا عاقبة أمركم إنني منتظر معكـم ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شـعيباً والمؤمنين معه بسـبب رحمة عظيمة منا لهم ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي وأخـذ أولئـك الظالمين صيحةُ العـذاب قال «القرطبي»: صـاح بهم جبريل صيحـةً فخرجـت أرواحهـم مـن أجسـادهم[2] ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي موتى هامديـن لا حراك بهم قال ابن كثير: وذكر هاهنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمةٌ واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلّها، وإنما ذكر في كل سياقٍ ما يناسبه[3] ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ أي كأن لم يعيشوا ويقيموا في ديارهم قبل ذلـك ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ قـال «الطـبري»: أي ألا أبعـد الله مديـن من رحمته بإحـلال نقمته، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سـخطه بهم[4] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هـذه هي القصة السـابعة وهي آخر القصص في هذه السـورة والمعنى: لقد أرسـلنا موسـى بشـرائعَ وأحكام وتكاليف إلهية، وأيدناه بمعجزات قاهرة، وبينـات قاهـرة، كالعصـا واليـد ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي إلى فرعون وأشـراف قومه ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي فأطاعوا أمر فرعون وعصوا أمر الله ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي وما أمر فرعون بسـديد لأنه ليس فيه رشـد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يتقدم أمامهم إلى النار يوم القيامة كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي أدخلهـم نار جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي بئس المدخل المدخول هي. ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ أي أُلحقـوا فـوق العـذاب الـذي عجلـه الله لهم لعنـةً في الدنيا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي وأُردفـوا بلعنةٍ أخـرى يوم القيامة ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي بئس العونُ الُمعان والعطاء المُعْطى لهم، وهي اللعنة في الدارين.

البَلَاغَة: ١ - ﴿ذَهَبَ ٱلرَّوْعُ .. وَجَآءَتْهُ﴾ بينهما طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

---

(١) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٠٦.
(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٩٢.
(٣) «المختصر» ٢/ ٢٣١.
(٤) «تفسير الطبري» ١٢/ ٩.

٢ - ﴿جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ كناية عن العذاب الذي قضاه الله لهم[١].

٣ - ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ الاستفهام للتعجب والتوبيخ.

٤ - ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ قال الشريف الرضي: وهذه استعارة والمراد بها قومه وعشيرته جعلهم ركناً؛ له لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته، ويستند إلى أعوانه كما يستند إلى ركن البناء الرصين، وجاء جواب «لو» محذوفاً تقديره: لحلت بينكم وبين ما هممتم به من الفساد، والحذف هاهنا أبلغ لأنه يوهم بعظيم الجزاء وغليظ النكال[٢].

٥ - ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ بينهما طباقٌ.

٦ - ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ فيه مجاز عقلي أسند الإحاطة لليوم مع أن اليوم ليس بجسم باعتبار أن العذاب يكون فيه، فهو إسنادٌ للزمان.

٧ - ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ فيه استعارة تمثيلية كالشيء الذي يلقى وراء الظهر ولا يكترث به.

٨ - ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ فيه استعارة مكنية لأن الورود في الأصل يقال للمرور على الماء للاستسقاء منه، فشبّه النار بماءٍ يورد وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورد، وشبّه فرعون في تقدمه على قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء ليكسر العطش. وقوله ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ تأكيد له لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد وفي النار إلهابٌ للعطش وتقطيع للأكباد، نعوذ بالله من جهنم.

قال الله تعالى:

ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ
غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ
إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ
رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا
كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ

---

(١) (ش): هذا خطأ لأن المراد الأمر الكوني القدري فليس هو كناية، بل هو أمر حقيقة كما يدل عليه كلام المؤلف في تفسيرها حيث قال: «أي جاء أمر الله بإهلاكهم».

(٢) «تلخيص البيان» ١٦٣.

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

المناسَبَة: لمّا ذكر تعالى بعض قصص المرسلين، وما حلَّ بأممهم من النكال والدمار، ذكر هنا العبرة من سرد هذه القصص، وهي أن تكون شاهداً على تعجيل العقوبة للمكذبين والانتقام العاجل منهم وبرهاناً على تأييد الله ونصرته لأوليائه وأنبيائه، وقد ذكرت الآيات يوم القيامة وانقسام الناس فيه إلى فريقين: سعداء، وأشقياء، وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على الأذى، والتوكل على الحي القيوم.

اللغة: ﴿وَحَصِيدٌ﴾ مستأصل كالزرع المحصود ﴿تَتْبِيبٍ﴾ التباب: الهلاك والخسران قال لبيد:

وَلَقَدْ بَلِيتُ وَكُلُّ صَاحِبِ جِدَّةٍ ... لِبِلًى يَعُودُ وَذَاكُمُ التَّتْبِيبُ [1]

﴿زَفِيرٌ﴾ الزفير: إخراج النَّفَس من شدة الجري ﴿وَشَهِيقٌ﴾ الشهيقُ: ردُّ النَّفس وقال الليث: الزفير أن يملأ الرجل صدره من النَّفَس في حال الغمّ الشديد ويخرجه، والشهيقُ أن يخرج ذلك النَّفَس بشدة[2] وقال بعض أهل اللغة: الزفير مثلُ أول نهيق الحمار، والشهيق مثل آخره ﴿مَجْذُوذٍ﴾ مقطوع من جَذه يجذه إذا قطعه ﴿تَرْكَنُوٓا۟﴾ الركون: الميلُ إلى الشيء والرضا به ﴿وَزُلَفًا﴾ الزُّلف: جمع زُلفة وهي الطائفة من أول الليل قال ثعلب: هي أول ساعات الليل، وأصلها من الزلفى وهي القربة ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ [الشعراء: ٩٠] قُرِّبت

(١) تفسير «القرطبي» ٩/ ٩٥. (ش): بلِيَ الثَّوبُ ونحوُه: رثَّ وتَلِف، أصبح باليًا. بَلِيَ المُلْكُ: فنِيَ وزال. البليَ: الفَناء. جِدَّة: حداثة. كُلُّ صَاحِبِ جِدَّةٍ: كل ما هو جديد.

(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٢٥١.

﴿أُتۡرِفُواْ﴾ التَّرف: البطر يقال: فلان مترف، أي: أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿مِرۡيَةٖ﴾ شك وريب.

سَبَبُ النّزول: عن ابن مسعود أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجتُ امرأةً في أقصى المدينة، وإني أصبتُ منها من دون أن أمسَّها، وأنا هذا فاقض فيَّ ما شئتَ! فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك، فلم يردَّ عليه رسولُ الله ﷺ شيئًا، فانطلق الرجل ونزلت هذه الآية ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه فتلاها عليه[(١)].

التفسير: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾ أي ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرسل، نقصه عليك يا محمد ونخبرك عنه بطريق الوحي ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ أي من هذه القرى ما هو عامر قد هلك أهلُه وبقي بنيانُه، ومنها ما هو خراب قد اندثر بأهله فلم يبق له أثر كالزرع المحصود ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي وما ظلمناهم بإهلاكهم بغير ذنب، ولكنْ ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فاستحقوا عذاب الله ونقمته ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي ما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله، ولا دفعت عنهم شيئًا من عقاب الله وعذابه ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ أي حين جاء قضاء الله بعذابهم ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ أي وما زادتهم تلك الآلهة غير تخسير وتدمير ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ أي مثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين، يأخذ تعالى بعذابه الفجرة الظلمة قال «الألوسي»: وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى كما قال عليه السلام «إنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ الآية[(٢)] ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ أي إن عذابه موجع شديد، وهذا مبالغة في التهديد والوعيد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي إن في هذه القصص والأخبار لعظة وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يجتمع فيه الخلائق للحساب والثواب والعقاب ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ أي يشهده أهل السماء والأرض،

---

(١) تفسير «القرطبي» ٩/ ١١١. (ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني، وفيه: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟ قَالَ: «لَا بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً».

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِن امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلِي هَذَا؟ قَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ].

(٢) «روح المعاني» ١٢/ ١٣٧. (ش): قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾. رواه البخاري.

والأولـون والآخـرون قال ابـن عباس: يشـهده الـبر والفاجـر[١] ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ أي ما نؤخر ذلك اليوم - يوم القيامة - إلا لزمنٍ معيَّن سبق به قضاء الله، لا يتقدم ولا يتأخـر ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي يـوم يأتي ذلك اليـوم الرهيب لا يتكلم أحدٌ إلا بإذن الله تعالى ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي فمن أهل الموقف شقيٌّ، ومنهم سعيد كقولـه ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ أي فأما الأشـقياء الذين سبقت لهم الشـقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم، لهم من شدة كربهم ﴿زَفِيرٌ﴾ وهو إخراج النَّفَس بشدة ﴿وَشَهِيقٌ﴾ وهو ردُّ النَّفَس بشدة، وقال بعض المفسـرين: شـبِّه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير قال «الطبري»: في روايته عن قتادة: صوتُ الكافر في النار صوت الحمار، أوله زفير وآخره شـهيق[٢] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي ماكثين في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السماوات والأرض قال «الطبري»: إن العرب إذا أرادت أن تصف الشـيء بالدوام أبداً[٣] قالت: هذا دائمٌ دوام السماوات والأرض بمعنى أنه دائمٌ أبداً، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم قال ابن زيد: ما دامت السماء سماء، والأرض أرضًا، والمعنى خالدين فيها أبدًا وقال الزمخشري فيها وجهان: أحدهما أن تراد سماوات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد، والثاني أن يكون عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع[٤] ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ الاستثناء في أهل التوحيد[٥]، لأن لفظـة ﴿شَقُواْ﴾ تعـم الكفـار والمذنبين، فاسـتثنى الله من خلود أهل الشـقاوة العصاة من المؤمنين، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشـفاعة سـيد المرسـلين ﷺ ويدخلهـم الله الجنـة ويقـال لهـم: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعـل مـا يريد يرحمْ ويعذب كما يشـاء ويختار، لا معقّـب لحكمه، ولا رادّ لقضائـه ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هذا بيانٌ لحال الفريق الثاني «أهل السـعادة» اللهم اجعلنا منهم أي وأما السـعداء الأبرار فإنهم مسـتقرون في الجنـة، لا يُخْرجون منها أبداً، دائمون فيها دوام السـماوات والأرض، أو ما دامت سـماوات الجنة وأرض الجنة حسـب مشـيئته تعالى، وقد شـاء تعالى لهم الخلود والـدوام ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي عطاءً غير مقطوع عنهم، بل هو ممتد إلى غير نهاية ﴿فَلَا

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٩٦.
(٢) «تفسير الطبري» ١٢/ ١١٧.
(٣) «تفسير الطبري» ١٢/ ١١٧.
(٤) «الكشاف» ٢/ ٤٣.
(٥) هذا اختيار «الطبري» وهو أحد أوجه عشرة ذكرها المفسرون في معنى الاستثناء، وانظر ««القرطبي»» ٩/ ٩٩.

تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي لا تكن في شك من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال بمعنى لا تشك في فساد دينهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ أي هم متبعون لآبائهم تقليداً من غير حجة ولا برهان، وهذه تسلية للرسول ﷺ ووعدٌ له بالانتقام منهم، إذ حالُهم حالُ من سبقهم من الضالين المكذبين، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم فسينزل بهم مثله ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ أي وسنعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص وقال ابن عباس: ما قُدِّر لهم من الخير والشر[١] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ قال «الطبري»: يقول تعالى مسلياً نبيه في تكذيب مشركي قومه له: لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك، فلقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك الفرقان، فاختُلِفَ في ذلك الكتاب، فكذَّب به بعضُهم، وصدَّق به بعضُهم، كما فعل قومك[٢] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي ولولا حُكم الله السابق بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة لقُضي بينهم في الدنيا فجُوزيَ المُحسنُ بإحسانه، والمسيءُ بإساءته، ولكن سبق القدر بتأخير الجزاء إلى يوم الحساب[٣] ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي وإن كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مُريب لهم، إذ لا يدرون أحقٌّ هو أم باطل؟ ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي وإنَّ كلًّا من المؤمنين والكافرين لمَّا ينالوا جزاء أعمالهم وسيوفيهم ربُّك جزاءها في الآخرة ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي عليمٌ بأعمالهم جميعاً، صغيرها وكبيرها، وسيجازيهم عليها ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ أي استقم يا محمد على أمر الله واثبُت وداوم على الاستقامة كما أمركَ ربُّك ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي ومن تاب من الشرك والكفر وآمن معك ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ ﴾ أي لا تجاوزوا حدود الله بارتكاب المحارم ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي إنه تعالى مطّلع على أعمالكم ويجازي عليها ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي لا تميلوا إلى الظلمة من الولاة وغيرهم من الفسقة الفجرة فتمسكم نار جهنم قال «البيضاوي»: الركونُ هو الميل اليسير، أي: لا تميلوا إليهم أدنى ميل فتمسكم النار بركونكم إليهم، وإذا كان الركونُ اليسير إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم، والميل إليهم كلَّ الميل[٤]؟! ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي ليس لكم من يمنعكم من عذابه ثم لا تجدون من

(١) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٢٢.
(٢) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٢٣.
(٣) (ش): أي: ولولا كلمةٌ سبقت من الله بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقُضِيَ بينهم: بأن يُهْلكَ أهلُ الباطل منهم، ويُنَجَّى أهلُ الحق.
(٤) «البيضاوي» ٢٥٨.

ينصركم من ذلك البلاء قال «القرطبي»: والآية دالة على هِجران أهل الكفر والمعاصي فإنَّ صُحْبَتَهم كُفْرٌ أو معصية إذ الصُّحبةُ لا تكون إلا عن مودَّة، وأما صُحبة الظالم على التقيَّة فمستثناةٌ من النهي بحال الاضطرار(١) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي أقم الصلاة المكتوبة على تمامها وكمالها أول النهار وآخره، والمراد صلاة الصبح والعصر لأنهما طرفا النهار(٢) ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي ساعاتٍ منه قريبةً من النهار، والمراد بهما المغرب والعشاء ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي إن الأعمال الصالحة ومنها الصلوات الخمس تكفّر الذنوب الصغائر، لحديث «الصلواتُ الخمسُ كفارةٌ لما بينهما ما اجتُنبت الكبائرُ»(٣).

قال المفسرون: المراد بالحسنات الصلواتُ الخمسُ واستدلوا على ذلك بسبب النزول، وهذا قول الجمهور، والأظهر أن المراد بها العموم وهو اختيار ابن كثير حيث قال: المعنى إن فعل الخيرات يكفّر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ»(٤) ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي ذلك المذكور من الاستقامة والمحافظة على الصلاة، عظةٌ للمتعظين وإرشادٌ للمسترشدين ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي اصبر يا محمد على ما تلقى من المكاره ومن أذى المشركين، فإنَّ الله معك وهو لا يضيع ثواب المحسنين ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي فهلَّا كان من الأمم الماضية قبلكم أُولُو عقل وفضل، وجماعةٌ أخيارٌ ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ استثناء منقطع أي لكنْ قليلاً منهم، نَهَوْا عن الفساد فَنَجَوْا قال في البحر: «لولا» في الآية للتحضيض صحبها معنى التأسف والتفجع مثل قوله ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠] والغرضُ التأسف على تلك الأمم التي لم تهتد كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره(٥) ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ أي واتَّبع أولئك الظلمة شهواتهم، وما نُعّموا به من الاشتغال بالمال واللذات وآثروها على الآخرة ﴿وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ أي وكانوا قوماً

---

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ١٠٨.

(٢) هذا قول الحسن وقتادة واختار «الطبري» أنهما الصبح والعصر وهو مروي عن ابن عباس.

(٣) (ش): قال ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ» [رَوَاهُ أحمد]. ورواه مسلم بلفظ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

(٤) «المختصر» ٢/ ٢٣٥. (ش): أَنَّهُ قَالَ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ». ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ. [رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وصححه الألباني].

(٥) «البحر المحيط» ٥/ ٢٧١.

مصرِّين على الإِجرام ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي ما جرت عادة الله تعالى أن يهلك القرى ظلماً وأهلُها مصلحون في أعمالهم، لأنه تعالى منزّه عن الظلم، وإِنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلَّهم مؤمنين مهتدين على ملة الإِسلام، ولكنَّه لم يفعل ذلك للحكمة ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي ولا يزالون مختلفين على أديان شتى، وملل متعددة ما بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، إلا ناساً هداهم الله من فضله وهم أهل الحق ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اللام لامُ العاقبة أي خلقهم لتكون العاقبة اختلافهم ما بين شقي وسعيد قال «الطبري»: المعنى وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم، فريق في الجنة، وفريقٌ في السعير[1] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي تمَّ أمر الله ونفذ قضاؤه بأن يملأ جهنم من الجنّ والإِنس من الكفرة الفجرة جميعاً قال «الألوسي»: والجملة متضمنة معنى القسم ولذا جيء باللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾[2] وكأنه قال: واللهِ لأملأن جهنم من أتباع إِبليس من الإِنس والجن أجمعين ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي كل هذه الأخبار التي قصصناها عليك يا محمد من أخبار الرسل السابقين، إِنما هي بقصد تثبيتك على أداء الرسالة، وتطمين قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة فتصبر كما صبروا ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي جاءك في هذه الأنباء التي قصها الله عليك النبأ اليقيني الصادق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما فيه عظة وعبرة للمعتبرين، وخصَّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بمواعظ القرآن ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ أي اعملوا على طريقتكم ومنهجكم إِنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا، وهو أمرٌ ومعناه التهديد والوعيد ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديدٌ آخر أي انتظروا ما يحلُّ بنا إِنا منتظرون ما يحل بكم من عذاب الله ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي علمُ ما غاب وخفي فيهما، كلُّ ذلك بيده وبعلمه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ أي إِليه يردُّ أمر كل شيء، فينتقم ممن عصى، ويثيب من أطاع وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفار بالانتقام منهم ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي اعبد ربَّك وحده، وفوّضْ إِليه أمرك، ولا تعتمدْ على أحدٍ سواه، فإنه كافي من توكّل عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، ويجازي كلًّا بعمله.

البَلاَغَة: ١ - ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ شبَّه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم

---

(١) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٤٤.

(٢) «روح المعاني» ١٢/ ١٦٥.

على ساقه، وشبَّه ما هلك مع أهله ولم يبق له أثر بالزرع المحصود بالمناجل على طريق الاستعارة المكنية.

٢ – ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ فيه طباق السلب.

٣ – ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ مجازٌ عن الأهل أي أخذ أهل القرى.

٤ – ﴿شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ بينهما طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

٥ – ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ .. وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ﴾ فيه لفٌّ ونشر مرتب.

٦ – ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ الكلمة هنا كناية عن القضاء والقدر.

٧ – ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ بينهما طباقٌ.

٨ – ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

تنبيه: خلود أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ثابتٌ مقطوعٌ به بالنصوص العديدة، وأما الاستثناء بالمشيئة في هذه السورة فقد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار، والنكتة في ذكره بيان أنَّ هذه الأمور إنما كانت بمشيئته تعالى ولو شاء لغيَّرها، وليس شيء خارجًا عن مشيئته، فالإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والخلود والخروج كلها بمشيئته تعالى.

فَائِدَة: أشار الشهاب إلى لطيفةٍ من البلاغة القرآنية، وهي أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ وإن كانت عامة في المعنى ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾، ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ وفي المنهيات جمعت للأمة ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾، ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كذا في «العناية»[١].



(١) (ش): حَاشِيَةُ الشِّهَابِ عَلَى تفسِيرِ البَيضَاوِي (الْمُسَمَّاة: عِنَايَةُ القَاضِي وكِفَايَةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي) لأحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي، (٥/ ١٤٥).



مكية، وآياتها إحدى عشرة ومائة

بين يدي السورة

* سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله «يوسف بن يعقوب» وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخوته ومن الآخرين، في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تآمر النسوة، حتى نجَّاه الله من ذلك الضيق، والمقصود بها تسلية النبي ﷺ بما مرَّ عليه من الكرب والشدة، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد.

* والسورة الكريمة أسلوبٌ فذ فريد، في ألفاظها، وتعبيرها، وأدائها، وفي قَصَصها الممتع اللطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري -برقتها وسلاستها- في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور المكية، التي تحمل -في الغالب- طابع الإنذار والتهديد، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طرية ندية، في أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جو الأنس والرحمة، والرأفة والحنان، ولهذا قال خالد بن معدان: «سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة»(١) وقال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلا استراح إليها»(٢).

* نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد سورة «هود»، في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام نصيرَيْه: زوجه الطاهر الحنون «خديجة» وعمَّه «أبا طالب» الذي كان له خير نصير، وخير معين، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، حتى عُرف ذلك العام بـ «عام الحزن».

* في تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون الوحشة، والغربة، والانقطاع في جاهلية قريش، كان الله سبحانه ينزل على نبيه الكريم هذه السورة تسليةً له، وتخفيفًا لآلامه، بذكر قصص المرسلين، وكأن الله تعالى يقول لنبيه عليه السلام: لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك، وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فَرَجًا، وإن بعد الضيق مخرجًا، انظر إلى أخيك «يوسف» وتمعَّنْ ما حدث له من صنوف البلايا والمِحَن، وألوان الشدائد والنكبات، وما ناله من ضروب

---

(١) (ش): وصْفُ الجنةِ ونعيمِ أهلها من الغيب الذي لا يثبت إلا بدليل من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢/ ٣٣٢.

المِحَن: محنة حَسد إخوته وكيدهم له، ومحنة رميه في الجب، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له، ثم مراودته عن نفسه بشتّى طرق الفتنة والإغراء، ثم محنة السجن بعد ذلك العزِّ ورغد العيش! انظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل العقيدة، وصبر على الضر والبلاء، نقله الله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزًا في أرض مصر، وملكه الله خزائنها، فكان السيد المطاع، والعزيز المكرم.. وهكذا أفعل بأوليائي، ومن صبر على بلائي، فلا بد أن توطد النفس على تحمل البلاء، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وهكذا جاءت قصة يوسف الصديق تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه، وجاءت تحمل البِشْرَ والأنس، والراحة، والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء، فلا بدَّ من الفرج بعد الضيق، ومن اليسر بعد العُسر، وفي السورة دروسٌ وعبر، وعظات بالغات، حافلات بروائع الأخبار العجيبة، والأنباء الغريبة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

* هذا هو جو السورة، وهذه إيحاءاتُها ورموزُها. تُبشّر بقرب النصر، لمن تمسَّك بالصبر، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين، والدعاة المخلصين، فهي سلوى للقلب، وبلسمٌ للجروح، وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواطن عديدة، بقصد «العظة والاعتبار» ولكن بإيجاز دون توسع، لاستكمال جميع حلقات القصة، وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سآمة أو ملل، وأما سورة يوسف فقد ذُكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص الرسل، لتشير إلى «إعجاز القرآن» في المجمل والمفصل، وفي حالتي الإيجاز والإطناب، فسبحان المَلِك العلي الوهاب.

* قال العلامة «القرطبي»: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد، في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل.

قال الله تعالى:

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ
عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾
إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ
يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ

يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ
مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾
إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ
أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ
يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا
تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾
قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ
أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ
ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾
قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا
وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ
جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ
هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ
وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ
وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾

اللغَة: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ الظاهر الجلي ﴿ٱلۡقَصَصِ﴾ إتْباعُ الخبر بعضه بعضاً وأصلُه في اللغة المتابعة ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي اتَّبعي أثَره والمراد بالقَصص الأخبار التي قَصَّها علينا الله في كتابه العزيز ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾ خاصة بالمنام وأما باليقظة فهي بالتاء (الرؤية) قال «الألوسي»: مصدر رأى الحُلْمية الرؤيا ومصدر البصرية الرؤية، ولهذا خُطّئ المتنبي في قوله «وَرُؤْيَاكَ أَحْلَى فِي الْعُيُونِ مِنَ الغَمْضِ»(١) ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾ الاجتباء: الاصطفاء والاختيار وأصله من جبيتُ الشيء أي حصَّلته ﴿عُصۡبَةٌ﴾ جماعة قال الفراء: ما زاد على العشرة، والعصبةُ والعصابة العشرة فصاعداً ﴿ٱطۡرَحُوهُ﴾ الطرح: رمي الشيء وإلقاؤه ﴿غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ قَعْرُه وغَوْرُه(٢) سُمِّيَ به لغيبته عن عين الناظر ﴿يَرۡتَعۡ﴾ يتسع في أكل ما لذَّ وطاب قال الراغب: الرتْع حقيقته في أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير قالت الخنساء:

---

(١) «روح المعاني» ١٢/ ١٧٩.
(٢) (ش): الجُبّ: بئر، حفرة واسعة عميقة، كثيرة الماء. غَوْرُه: عُمقُه.

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ (١)

﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ المسافرين ﴿سَوَّلَتۡ﴾ زيَّنت ﴿وَارِدَهُمۡ﴾ الوارد الذي يَرِدُ الماءَ ليستقي للقوم(٢).

سَبَبُ النّزول: روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وما حصل له مع إخوته من أولاد يعقوب فنزلت السورة(٣).

التفسير: ﴿الٓر﴾ إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي تلك الآيات التي أنزلت إليك يا محمد هي آيات الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حججه وبراهينه، الواضح في معانيه، الذي لا تشتبه حقائقه، ولا تلتبس دقائقه ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الأحرف العربية ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي لكي تعقلوا وتدركوا أن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز(٤) ليس بشراً، وإنما هو إله قدير، وهذا الكلام وحيٌ منزل من رب العالمين ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ أي نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام، وأحسن بيان ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي بإيحائنا إليك هذا القرآن المعجز ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ أي وإنَّ الحال والشأن أنك كنتَ من قبل أن نوحي إليك هذا القرآن لمن الغافلين عن هذه القصة، لم تخطِر ببالك، ولم تقرعْ سمعك، لأنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ من هنا بداية القصة، أي اذكر حين قال يوسف

---

(١) تصف بقرة فقدت ولدها فكلما غفلت عنه رتعت فإذا ذكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت. وهو مثل لفقدها أخاها صخرًا. (ش): قالت الخنساء في قصيدة ترثى بها أخاها صخرًا

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

ومعنى: (ترتع) ترعى. تصف ناقة أو بقرة فقدَتْ ولدها، فكلما غفلت عنه رتعت، فإذا ادكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت، فضربتها مثلا لفقدها أخاها صخرًا.

(٢) (ش): ورَد فلانٌ المكانَ: ورَد فلانٌ على المكانِ: أشرف عليه، أتاه، دخَلَه أو لم يدْخلْه ورَد فلانٌ الماءَ: أقبل عليه.

(٣) (ش): باطل لا أصل له. عزاه ابن الجوزي للضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يَلْق ابنَ عباس. عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] الْآيَةُ. قَالَ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَلَا عَلَيْهِمْ زَمَانًا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] تَلَا إِلَى قَوْلِهِ ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] الْآيَةُ. فَتَلَا عَلَيْهِمْ زَمَانًا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ حَدَّثْتَنَا. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣] الْآيَةُ. كُلُّ ذَلِكَ يُؤْمَرُ بِالْقُرْآنِ [رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

(٤) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة والتحقيق الدقيق حول الموضوع في أول سورة البقرة.

لأبيه يعقوب: يا أبي، إني رأيت في المنام هذه الرؤيا العجيبة، رأيت أحد عشر كوكباً من كواكب السماء خرّت ساجدةً لي ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ أي ورأيت في المنام الشمس والقمر ساجدةً لي مع الكواكب قال ابن عباس: كانت الرؤيا فيهم وحياً[1] قال المفسرون: الكواكب الأحد عشر كانت إخوته، والشمس والقمر أبواه، وكان سِنُّهُ إذْ ذَاك اثنتي عشرة سنة، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته في مصر أربعون سنة[2] ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ أي قال له يعقوب: لا تخبرْ بهذه الرؤيا إخوتك ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ أي فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمة لا تقدر على ردّها ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي ظاهر العداوة قال أبو حيان: فهم يعقوب من رؤيا يوسف أن الله تعالى يبلّغه مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوة، وينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه من حسد إخوته فنهاه أن يقصَّ رؤياه عليهم[3] ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك ربك للنبوة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ أي يعلمك تفسير الرؤيا المناميَّة ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ أي يتمم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ أي كما أكمل النعمة من قبل ذلك على جدك إبراهيم وجدك إسحاق بالرسالة والاصطفاء ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي عليمٌ بمن هو أهلٌ للفضل، حكيم في تدبيره لخلقه ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي لقد كان في خبر يوسف وإخوته الأحد عشر عبرٌ وعظاتٌ للسائلين عن أخبارهم ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ هذه هي المحنة الأولى ليوسف عليه السلام أي حين قالوا: والله ليوسف وأخوه «بنيامين» أحبُّ منَّا عند أبينا، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابتٌ لا شبهة فيه، وإنما قالوا ﴿وَأَخُوهُ﴾ وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أي والحال نحن جماعة ذوو عدد، نقدر على النفع والضر، بخلاف الصغيرين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي إنه في خطأٍ وخروج عن الصواب بيّن واضح، لإيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبة قال «القرطبي»: لم يريدوا ضلال الدين إذ لو أرادوه لكفروا، وإنما أرادوا أنه في خطأ بيّن في إيثار اثنين على عشرة[4] ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ أي أقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض بعيدة مجهولة ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ أي فعند ذلك يخلصْ ويصف لكم حبُّ أبيكم، فيُقْبل عليكم قال «الرازي»: المعنى إن

(١) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٥١.
(٢) الصاوي على الجلالين ٢/ ٢٣٤.
(٣) «البحر المحيط» ٥/ ٢٨٠.
(٤) «تفسير القرطبي» ٩ / ١٣١.

يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه، فإذا فقده أقبل علينا بالمحبة والميل[١] ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي وتتوبوا من بعد هذا الذنب وتصبحوا قوماً صالحين ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي قال لهم أخوهم «يهوذا»[٢] وهو أكبر ولد يعقوب: لا تقتلوا يوسف بل ألقوه في قعر الجب وغوره ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي يأخذه بعض المارَّة من المسافرين ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي إن كان لا بدَّ من الخلاص منه فاكتفوا بذلك، وكان رأيه فيه أهون شراً من رأي غيره ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ المعنى أيُّ شيء حدث لك حتى لا تأمنا على أخينا يوسف، ونحن جميعاً أبناؤك؟ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أي ونحن نشفق عليه ونريد له الخير قال المفسرون: لما أحكموا العزمْ ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف، وفي غاية الشفقة عليه، ليستنزلوه عن رأيه في تخوفه منهم وكأنهم قالوا: لِمَ تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به! ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي أرسله معنا غداً إلى البادية، يتسع في أكل ما لذَّ وطاب ويله ويلعب بالاستباق وغيره ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه، أكّدوا كلامهم بـ «إنَّ» واللام وهم كاذبون ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أي قال لهم يعقوب: إنه ليؤلمني فراقُه لقلة صبري عنه ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ أي وأخاف أن يفترسه الذئب في حال غفلتكم عنه، وكأنه لقنهم الحجة قال الزمخشري: إعتذر إليهم بشيئين: **أحدهما**: أن ذهابهم به ومفارقته إيّاه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة، **والثاني**: خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برَعْيهم ولَعِبهم[٣] ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ اللام للقسم أي والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء أشداء إنا لمستحقون أن يُدعى علينا بالخسارة والدمار ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ في الكلام محذوف، أي: فأرسله معهم فلما أخذوه وابتعدوا به عن أبيه ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي عزموا واتفقوا على إلقائه في غور الجب ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أوحينا إلى يوسف لتخبرنَّ إخوتك بفعلهم هذا الذي فعلوه بك وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف، قال «الرازي»: وفائدة هذا الوحي تأنيسُه، وتكسينُ نفسه، وإزالةُ الغمّ والوحشةِ عن قلبه، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة[٤] ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ أي رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً وهم يبكون، روي أنه لما سمع يعقوب بكاءهم فزع، وقال: ما لكم يا بَنيَّ،

(١) «الرازي» ١٨/ ٩٤.

(٢) هذا قول ابن عباس. وقيل: هو «روبيل» وهو قول قتادة.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٤٤٨.

(٤) «الفخر الرازي» ١٨/ ١٠٠.

وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي نتسابق في العَدْو، أو في الرمي ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ أي تركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا ليحفظها فجاء الذئب فافترسه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾ أي لست بمصدّق لنا في هذه المقالة ولو كنا في الواقع صادقين، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا؟ وهذا القول منهم يدل على الارتياب، وكما قيل: يكاد المريبُ يقول خذوني ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي جاءوا على ثوبه بدمٍ كاذب، وُصِفَ بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الكذب وعينُه قال ابن عباس: ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص فلما جاءوا يعقوب قال: كذبتم لو أكله الذئب لخرقَ القميص[1] وروي أنه قال: «ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشق قميصه»؟ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي زيَّنت لكم أنفسكم أمراً في يوسف وليس كما زعمتم أن الذئب أكله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي أمري صبرٌ جميل لا شكوى فيه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي وهو سبحانه عوني على تَحَمُّل ما تَصِفون من الكذب ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي قوم مسافرون مروا بذلك الطريق قال ابن عباس: جاء قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطئوا الطريق فانطلقوا يهيمون حتى هبطوا على الأرض التي فيها جُبُّ يوسف، وكان الجُبُّ في قفرة[2] بعيدة عن العمران[3] ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ أي بعثوا من يستقي لهم الماء ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي أرسل دلوه في البئر. قال المفسرون: لما أدلى الواردُ دلوه وكان يوسف في ناحيةٍ من قعر البئر تعلَّق بالحبل فخرج فلما رأى حسنه وجماله نادى ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ قاله على سبيل السرور والفرح لتبشير نفسه وجماعته. قال «أبو السعود»: كأنه نادى البشرى وقال: تعالَيْ فهذا أوانُكِ[4] حيث فاز بنعمة جليلة[5] ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾ أي أخفوا أمره عن الناس ليبيعوه في أرض مصر متاعاً كالبضاعة والضمير يعود على الوارد وجماعته ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى عليه سبحانه أسرارهم، وما عزموا عليه في أمر يوسف ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ هذه هي المحنة الثانية في حياة يوسف الصدّيق وهي محنة الاسترقاق أي باعه أولئك المارة الذين استخرجوه من البئر بثمنٍ قليل منقوص هو عشرون درهماً كما قال ابن عباس ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي وكانوا في يوسف من الزاهدين الذين لا يرغبون فيه لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون

(١) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٦٤.

(٢) (ش): الجُبّ: بئر، حفرة واسعة عميقة، كثيرة الماء. قفرة: أرض خالية من الماء والعُشب والناس.

(٣) «الرازي» ١٨/ ١٠٥.

(٤) (ش): أي كأنه نادى البشرى وقال لها: تعَالَيْ أيتها البشرى فهذا أوانُكِ أي اقْرُبي أَوِ احْضُري فَهَذا زَمَنُكِ.

(٥) «أبو السعود» ٢/ ٥٩. (ش): الذي في تفسير «أبي السعود»: «حيث فاز بنعمة باردةٍ وأيِّ نعمةٍ مكانَ ما يوجد مباحـًا من الماء».

عبداً آبقاً فينتزعه سيّده من أيديهم، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي وقال الذي اشتراه من مدينة مصر لزوجته: أكرمي إقامته عندنا قال ابن عباس: كان اسم الذي اشتراه «قطفير» وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر[1] ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي عسى أن يكفينا بعض المهمات إذا بلغ أو نتبناه حيث لم يكن يولد لهما ولد ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وكما نجيناه من الجب جعلناه متمكناً في أرض مصر يعيش فيها بعز وأمان ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي بلغ منتهى شدته وقوته وهو ثلاثون سنة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي أعطيناه حكمةً وفقهاً في الدين ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي المحسنين في أعمالهم.

البَلَاغَة: ١ - ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ الإشارة بالبعيد لبعد مرتبته في الكمال وعلو شأنه.

٢ - ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

٣ - ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ قال الشريف الرضي: هذه استعارة لأن الكواكب والشمس والقمر مما لا يعقل فكان الوجه أن يقال: ساجدة، ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل جاز أن توصف بصفة من يعقل لأن السجود من فعل العقلاء[2].

٤ - ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ الدم لا يوصف بالكذب والمراد بدم مكذوبٍ فيه أو دمٍ ذي كذب وجيء بالمصدر على طريق المبالغة.

لطيفة: روي أن امرأةً تحاكمت إلى شريح فبكت فقال الشعبي: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال الشعبي: لقد جاء إخوة يوسف يبكّون وهم ظلمةٌ كذبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق[3].

تنبيه: ذهب بعض المفسرين إلى أن إخوة يوسف أنبياء واستدلوا على ذلك بأنهم الأسباط المذكورون في قوله تعالى ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤] والصحيح أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب كما نبّه عليه المحققون، ولو كان إخوة يوسف أنبياء لما أقدموا على مثل هذه الأفعال الشنيعة، فالحسد، والسعي بالفساد، والإقدام على القتل، والكذبُ، وإلقاء يوسف في الجب، كل ذلك من الكبائر التي تنافي

(١) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٧٥.
(٢) «تلخيص البيان» ١٦٩.
(٣) «الفخر الرازي» ١٨/ ١٠١.

عصمـة الأنبيـاء، فالقول بأنهم أنبياء – مع هذه الجرائـم – لا يقبله عقل حصيف، وانظر ما قاله العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في هذا الشأن، فإنه لطيف ودقيق.

قال الله تعالى:

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ
إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ
رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٢٤) وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ
وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ
أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٥) قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن
قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧)
فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ (٢٨) يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ
وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ (٢٩) ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ
تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ
وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ
وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ (٣١) قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ
عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ
رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٖ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ
أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا
يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ
لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ
مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَشۡكُرُونَ (٣٨) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعۡبُدُونَ
مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٤٠) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ
أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي
فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ (٤٢)

المناسَبة: لما ذكر تعالى ما أكرم به يوسف من الإقامة في القصر مع عزيز مصر، ذكر هنا

ما تعرّض له عليه السلام من أنواع الفتنة والإغراء من زوجة العزيز، وصموده أمام تلك الفتنة العارمة، وما ظهر منه من العفة والنزاهة حتى آثر دخول السجن على عمل الفاحشة، وكفى بذلك برهاناً على عفته وطهارته.

اللغَـة: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ المراودة: الطلب برفقٍ ولين مأخوذة من راد يرود إذا جاء وذهب، ومنه الرائد لطلب الكلأ، يقال في الرجل: راودها عن نفسها، وفي المرأة راودته عن نفسه أي طلبت منه مضاجعتها ﴿هَيۡتَ﴾ اسم فعل أمر بمعنى تعال وهلُمّ ﴿مَثۡوَايَ﴾ مقامي، والثواء الإقامة مع الاستقرار ﴿هَمَّتۡ﴾ الهمُّ يأتي بمعنى العزم والقصد، ومنه ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥] ويأتي بمعنى الخاطر وحديث النفْس دون عزم قال الشاعر:

هَمَمْتُ بِهَمٍّ مِنْ بُثَيْنَةَ لَوْ بَدَا ... شَفَيْتُ غَلِيلَاتِ الْهَوَى مِنْ فُؤَادِيَا[١]

فالهَمُّ من امرأة العزيز كان هَمَّ عزمٍ وتصميم، والهمُّ من يوسف كان مجرد حديث نفْس ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ المنكر، والفجور، والمكروه ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ ما تناهى قبحه والمراد به الزنى ﴿وَقَدَّتۡ﴾ القَدُّ: الشَّقُّ والقَطْع وأكثر ما يستعمل في الطول، والقَطُّ يستعمل في العرض ﴿وَأَلۡفَيَا﴾ وَجدا ﴿كَيۡدَكُنَّ﴾ الكيد: المكر والحيلة ﴿ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ المتعمدين للذنب قال الأصمعي: خطئ الرجل فهو خاطئ إذا تعمد الذنب، وأخطأ يخطئ إذا غلط ولم يتعمد[٢] ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ وصل حبه إلى سويداء قلبها قال الزجاج: الشَّغاف سويداء القلب[٣] ﴿أَصۡبُ﴾ أَمِلْ يقال: صبا إلى اللهو إذا مال إليه.

التفسير: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ هذه هي المحنة الثالثة بعد محنة الجب والاسترقاق، والمراودةُ الطلبُ برفقٍ ولين كما يفعل المخادع بكلامه المعسول المعنى: طلبت امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها منه أن يضاجعها، ودَعَتْه برفق ولين أنْ يواقِعَها، وتوسَّلت إليه بكل وسيلةٍ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ أي غلّقت أبواب البيوت عليها وعلى يوسف وأحكمت إغلاقها قال «القرطبي»: كانت سبعة أبواب غلّقتها ثم دعته إلى نفسها[٤] ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي هلُمَّ وأسرع إلى الفراش فليس ثمة ما يُخشى قال في «البحر»: أمرته بأن يسرع إليها[٥] ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي عياذاً بالله من فعل السوء قال «أبو السعود»:

---

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ١٦٦.
(٢) «غريب القرآن» لابن قتيبة ٢١٥.
(٣) (ش): سُوَيْداءُ القَلْب: حَبَّة القلب، أعمَقُ أعماقِه.
(٤) «تفسير القرطبي» ٩/ ١٦٣.
(٥) «البحر المحيط» ٥/ ٢٩٣.

وهـذا إشـارة إلى أنه منكـر هائل يجب أن يعاذ بـالله تعالى للخلاص منه، لمـا أراه الله من البرهـان النيِّر على مـا فيه من غاية القبـح ونهاية السـوء[١] ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَ﴾ أي إن زوجك هو سيدي العزيز الذي أكرمني وأحسن تعهدي فكيف أسيء إليه بالخيانة في حَرَمه؟ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا يظفـر الظالمون بمطالبهم، ومنهـم الخائنون المُجازون الإِحسـانَ بالسـوء، ثم أخبر تعالـى ان امرأة العزيز حاولت إيقاعه في شـراكها، وتوسَّـلت إليـه بكل وسـائل الإِغـراء، ولولا أنَّ الله جلَّ وعـلا حفظه من كيدهـا لهلك فقال ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ أي همَّـت بمخالطتـه عن عزمٍ وقصـدٍ وتصميم، عزمـًا جازمـًا على الفاحشـة لا يصرفهـا عنها صارف، وقصـدت إجباره على مطاوعتها القوة، بعد أن اسـتحكمت من تغليـق الأبواب، ودعوته[٢] إلى الإِسـراع، مما اضطره إلـى الهرب إلى الباب ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي مالت نفسـه إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وحدَّثَتْه نفسُـه بالنزول عند رغبتها حديث نفـسٍ، دون عـزمٍ وقصد، فبَيْن الهَمَّيـن فرْقٌ كبير[٣] قال الإِمام الفخر: الهمُّ خطورُ الشـيء بالبـالِ أو ميـلُ الطبع، كالصائـم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسُـه على الميل إليه وطلب شـربه، ولكنْ يمنعه دينُه عنه[٤] ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جوابه محذوفٌ أي لولا حفـظ الله ورعايتُـه ليوسـف، وعصمتُه له لخالطها وأمضى ما حدثته نفسـه بـه، ولكنَّ الله عصمه بالحفظ والتأييد فلم يحصل منه شـيءٌ البتَّة قال في البحر: نسـب بعضُهم ليوسـف ما لا يجوز نسـبتُه لآحاد الفُسَّـاق، والذي أختاره أن «يوسـف» عليه السلام لم يقع منه همٌّ البتَّـة، بل هو منفـيٌّ لوجود رؤية البرهان كما تقول: «فارقـتَ الذنبَ لولا أن عصمك الله» وكقول العرب: «أنتَ ظالمٌ إن فعلتَ» وتقديره: إن فعلتَ فأنتَ ظالم وكذلك هنا التقدير: لـولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ولكنه وجد رؤية البرهان فانتفَى الهمُّ، وأمّا أقوال السـلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحدٍ منهم شيءٌ من ذلك، لأنها أقوالٌ متكاذبة يناقضُ بعضُها بعضـًا مـع كونهـا قادحة في بعض فسـاق المسـلمين فضلاً عن المقطـوع لهم بالعصمـة[٥] وقال

---

(١) «أبو السعود» ٢/ ٦٢.

(٢) (ش): لعل الصواب: ودَعَتْهُ.

(٣) هذا من باب المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، فالهَمُّ منها كان هَمَّ عزمٍ، وقصدٍ، والهَمُّ منه كان حديثَ نفس.

(٤) «الفخر الرازي» ١٨/ ١١٩.

(٥) «البحر المحيط» ٥/ ٢٩٥. (ش): قال أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» في التفسير»(٦/ ٢٥٧): «طَوَّلَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ هَذَيْنِ الْهَمَّيْنِ، وَنَسَبَ بَعْضُهُمْ لِيُوسُفَ مَا لَا يَجُوزُ نِسْبَتُهُ لِآحَادِ الْفُسَّاقِ. وَالَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ هَمٌّ بِهَا الْبَتَّةَ، بَلْ هُوَ مَنْفِيٌّ لِوُجُودِ رُؤْيَةِ الْبُرْهَانِ كَمَا تَقُولُ: لَقَدْ قَارَفْتَ الذنب لَوْلَا أَنْ عَصَمَكَ اللهُ».

«أبو السعود»: إن همَّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، ميلاً جِبِلِّيًّا[١] لا أنه قصَدها قصْداً اختيارياً، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المُنْبِئِ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين، وهل هو إلا تسجيلٌ باستحالة صدور الهمّ منه تسجيلاً محكماً؟ وما قيل: إنه حلَّ الهميان[٢]، وجلس مجلس الختان، فإنما هي خرافاتٌ وأباطيل، تمجها [٣] الآذان، وتردّها العقول والأذهان[٤] ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي ثبتناه على العفة أمام دوافع الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور، وهذه آيةٌ بيِّنة، وحجةٌ قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية، ولو كان كما زعموا لقال «لنصرفه عن السوء والفحشاء» فلما قال ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ﴾ دلَّ على أن ذلك شيء خارج عن الإرادة فصرفه الله عنه، بما منحه من موجبات العفة والعصمة ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ أي لنصرف عنه الزنى الذي تناهى قبحُه ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصهم الله لطاعته، واصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته، فلا يستطيع أن يغويهم الشيطان.

ثم أخبر تعالى بما حصل من المفاجأة العجيبة بقدوم زوجها وهما يتسابقان نحو الباب، ولا تزال هي في هياجها الحيواني ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ أي تسابقا نحو باب القصر، هو للهرب، وهي للطلب ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ أي شقت ثوبه من خلف لأنها كانت تلحقه فجذبته فشقت قميصه ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ﴾ أي وجدا العزيز عند باب القصر فجأة وقد حضر في غير أوان حضوره، وبمهارة فائقة تشبه مهارة إبليس انقلب الوضع فأصبح الظالم مظلوماً، والبريء متهماً ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي ما جزاؤه إلا السجن أو الضرب ضرباً مؤلماً وجيعاً ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ أي قال يوسف مكذباً لها: هي التي دعتني إلى مقارفة الفاحشة لا أني أردت بها السوء ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ قال ابن عباس: كان طفلاً في المهد أنطقه الله، وكان ابن خالها[٥] قال في البحر: وكونُه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثَقُ لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة[٦] ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي إن كان ثوبُه قد شُقَّ من أمام فهي صادقة وهو كاذب ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي وإن كان ثوبه قد شُقَّ من الوراء فهي كاذبة وهو صادق، لأن الأمر المنطقي

(١) (ش): جِبِلَّة: خِلْقَة، طبيعة. جِبِلِّيّ: طبيعي.
(٢) (ش): الهِمْيانُ: شِدادُ السَّراويل.
(٣) (ش): مجَّ الشّرابَ ونحوَه من فَمه: لفَظه، رمى به وألقى.
(٤) «أبو السعود» ٢/ ٦٣.
(٥) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٩٣.
(٦) «البحر المحيط» ٥/ ٢٩٧.

أن يُشق الثوب من خلف إن كانت هي الطالبة له وهو الهارب ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي فلما رأى زوجها أن الثوب قد شُقَّ من الوراء ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي إن هذا الأمر من جملة مَكْرِكُنَّ واحتيالِكُنَّ أيتها النسوة ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ تأكيد لما سبق ذكره أي مكركُنَّ معشر النسوة واحتيالكُنَّ للتخلص مما دبَّرْتُنَّ شيءٌ عظيم ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي يا يوسف اكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ أي من القوم المتعمدين للذنب، وفي هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغَيْرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانته، وتدنيس فراشه بالإثم والفجور قال ابن كثير: كان زوجها ليِّن العريكة سهلاً[١]، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبرَ لها عنه[٢] ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي قال جماعة من النساء في مدينة مصر، روي أنهن خمس نسوة: امرأة ساقي العزيز، وامرأة الحاجب، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن قاله ابن عباس وغيره، والأظهر أن تلك الواقعة شاعت في البلد، واشتهرت وتحدث بها النساء ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي امرأة عزيز مصر تطلب من خادمها وعبدها أن يواقعها وتخادعه وتتوسل إليه لقضاء وطرها منه قال أبو حيان: وتصريحهن بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع، لأن النفوس أميل لسماع أخبار ذوي الجاه، وعبَّرن بـ ﴿تُرَٰوِدُ﴾ للدلالة على أن ذلك صار سجِيَّةً لها فهي دائماً تخادعه عن نفسه لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار[٣] ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي بلغ حبُّه شَغَاف قلبها - وهو حجابه - وشقَّه حتى وصل إلى فؤادها ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنا لنعتقد أنها في ضلال عن طريق الرشد واضح بسبب حبها إيّاه ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي فلما سمعت بحديثهن، وسماه مكراً لأنه كان في خفية، كما يخفي الماكر مكره ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي أرسلت إليهنَّ تدعوهنَّ إلى منزلها لحضور وليمة قال المفسرون: دعت أربعين امرأةً من الذوات منهن النساء الخمس المذكورات ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي هيأت لهنَّ ما يتكئن عليه من الفرش والوسائد ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ في الكلام محذوف، أي: قدمت لهن الطعام وأنواع الفاكهة ثم أعطت كل واحدة منهنَّ سكيناً لتقطع به ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي وقالت ليوسف وهنَّ مشغولات بتقشير الفاكهة والسكاكين في أيديهن: اخرجْ عليهنَّ فلم يشعرن إلا ويوسف يمرُّ من بينهن ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي فلما رأين يوسف أعْظَمْنه وأجْلَلْنَه، وبُهِتْن من جماله ودُهِشْن ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي جرحن أيديهن بالسكاكين لفرط الدهشة المفاجئة ﴿وَقُلْنَ

(١) (ش): ليِّن العَرِيكة: سَهْل الانقياد.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٢٤٧.
(٣) «البحر المحيط» ٥/ ٣٠١.

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي تنزَّه الله عن صفات العجز، وتعالت عظمته في قدرته على خلق مثله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي ليس هذا من البشر ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ أي ما هو إلا مَلَك مِن الملائكة، فإن هذا الجمال الفائق، والحسن الرائع مما لا يكاد يوجد في البشر ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ﴾ صرَّحت عند ذلك بما في نفسها من الحب ليوسف لأنها شعرت بأنها انتصرت عليهن فقالت قولة المنتصرة: هذا الذي رأيتمنه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتُنَّني في محبته، فانظرن ماذا لقيتنَّ منه من الافتتان والدهَش والإعجاب! ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ أي أردت أن أنال وطري منه، وأن أقضي شهوتي معه، فامتنع امتناعاً شديداً، وأبى إباءً عنيفاً قال الزمخشري: والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد[1] ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي ولئن لم يطاوعني ليعاقبنَّ بالسجن والحبس وليكوننَّ من الأذلاء المهانين قال «القرطبي»: عَاوَدَتْهُ الْمُرَاوَدَةَ بِمَحْضَرٍ مِنْهُنَّ، وهتكتْ جلباب الحياء، وتوعدتْ بالسجن إن لم يفعل، ولم تعد تخشى لوماً ولا مقالاً، خلاف أول أمرها إذ كان ذلك سراً بينها وبينه[2] ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ لجأ يوسف إلى ربه وجعل يناجيه في خشوع وتضرع فقال: ربّ السجن آثَرُ عندي[3] وأحبُّ إلى نفسي من اقتراف الفاحشة، وأسند الفعل إليهن لأنهن جميعاً مشتركات في الدعوة بالتصريح أو التلويح، وقيل: إنها لما توعَّدَتْه نصَحْنه وزيَّنَّ له مطاوعتها، ونهَيْنَه عن إلقاء نفسه في السجن ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾ أي وإن لم تدفع عني شرهن وتعصمني منهن ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ أي أملْ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي بسبب ما يدعونني إليه من القبيح، وهذا كله على سبيل التضرع والاستغاثة بجناب الله تعالى كعادة الأنبياء والصالحين ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ﴾ أي أجاب الله دعاءه فنجّاه من مكرهن، وثبَّته على العصمة والعفة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ أي لدعاء الملتجئين إليه ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما انطوت عليه نياتهم. وهكذا اجتاز يوسف محنته الثالثة بلطف الله ورعايته ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ هذه بداية المحنة الرابعة وهي الأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف الصّديق وهي «محنة السجن» وكل ما بعدها فرخاء والمعنى ثم ظهر للعزيز وأهله ومن استشارهم بعد الدلائل القاطعة على براءة يوسف، سجنه إلى مدة من الزمن غير معلومة، روي ان امرأة العزيز لما استعصى عليها يوسف وأيست منه، احتالت بطريق

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٦٧.

(٢) «القرطبي».

(٣) (ش): آثَرُ عندي: أفضل عندي، آثَرَ الشَّيءَ: فَضَّله واختاره.

آخر، فقالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يقول لهم: إني راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر، وإما أن تحبسه، فعند ذلك بدا له سجنه قال ابن عباس: فأمر به فحمل على حمار، وضُرب بالطبل، ونُودي عليه في أسواق مصر، إن يوسف العبراني أراد سيدته فجزاؤه أن يسجن، قال أبو صالح ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلَّا بكى[1] ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ أي أُدخل يوسف السجن واتفق أنه أُدخل حينئذٍ آخران من خدم الملك الخاص أحدهما خبازه، والآخر ساقيه، اتهما بأنهما أرادا أن يسماه فحبسهما ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا ﴾ أي قال الساقي: إني رأيت في المنام أني أعصر عنباً يئول إلى خمر وأسقي منه الملك ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ ﴾ أي وقال الخباز: إني رأيت في منامي أني أحمل على رأسي طبقاً فيه خبز، والطيرُ تأكل من ذلك الخبز ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أي أخْبِرْنا بتفسير ما رأينا إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الرؤيا، أخبراه عن رؤياهما لما علما أنه يجيد تفسير الرؤيا ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ﴾ أي لا يأتيكما شيء من الطعام إلا أخبرتكما ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما، أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة «المغيبات» توطئةً لدعائهما إلى الإيمان قال «البيضاوي»: أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه، كما هو طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدَّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير[2] ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ ﴾ إن ذلك الإخبار بالمغيبات ليس بكهانة ولا تنجيم، وإنما هو بإلهامٍ ووحيٍ من الله ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ أي خصني ربي بذلك العلم لأني من بيت النبوة وقد تركت دين قوم مشركين لا يؤمنون بالله ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ أي يكذبون بيوم القيامة، نبّه على أصلين عظيمين: الإيمان بالله، والإيمان بدار الجزاء، إذ هما أعظم أركان الإيمان، وكرر لفظه ﴿هُمۡ ﴾ على سبيل التأكيد ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ ﴾ أي اتبعت دين الأنبياء، لا دين أهل الشرك والضلال، والغرضُ إظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق بكلامه ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ أي ما ينبغي لنا –معاشر الأنبياء– أن نشرك بالله شيئاً مع اصطفائه لنا وإنعامه علينا ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي ذلك الإيمان والتوحيد من فضل الله علينا حيث

---

(١) «البحر المحيط» ٥/ ٣٠٧.

(٢) «البيضاوي» ٢٦٤.

أكرمنا بالرسالة، وعلى الناس حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون فضل الله عليهم فيشركون به غيره.

ولما ذكر عليه السلام ما هو عليه من الدين الحنيف الذي هو دين الرسل، تلطَّفَ في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام فقال ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أي يا صاحِبَيَّ في السجن أآلهةٌ متعددة لا تنفع ولا تضر ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام، خيرٌ أم عبادة الواحد الأحد، المتفرد بالعظمة والجلال؟! ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماءً فارغة سميتموها آلهة وهي لا تملك القدرة والسلطان لأنها جمادات ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ أي ما أنزل الله لكم في عبادتها من حجة أو برهان ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم في أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي أمر سبحانه بإفراد العبادة له، لأنه لا يستحقها إلا من له العظمة والجلال ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ أي ذلك الذي أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع.. تدرّج عليه السلام في دعوتهم وألزمهم الحجة بأن بيَّن لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله لا تستحق الألوهية والعبادة، ثم نصَّ على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، وذلك من أسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله، حيث قدَّم الهداية والإرشاد، والنصيحة والموعظة، ثم شرع في تفسير رؤياهما فقال ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ أي يا صاحبيَّ في السجن أمّا الذي رأى أنه يعصر خمراً فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر، وأمّا الآخر الذي رأى على رأسه خبزًا فيُقتل ويُعلَّق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه، قال المفسرون: روي أنه لما أخبرهما بذلك جحدا وقالا ما رأينا شيئًا فقال ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ أي انتهى وتمَّ قضاء الله صدقتما أو كذبتما فهو واقع لا محالة ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ أي قال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الساقي ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي اذكرني عند سيّدك وأخبره عن أمري لعلّه يخلصني ممّا ظُلمتُ به ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي أنسى الشيطان الساقي أن يذكر أمر يوسف للملك ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ أي مكث يوسف في السجن سبع سنين، قال المفسرون: وإنما لبث في السجن بضع سنين، لأنه اعتمد ووثق

بالمخلوق، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق جل وعلا [1] قال «القرطبي»: قال وهب ابن منبه: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

البَلَاغَة: ١ - بين ﴿فَصَدَقَتْ﴾ و﴿فَكَذَبَتْ﴾ و﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ و﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ من باب تغليب الذكور على الإناث.

٣ - ﴿سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ استعير المكر للغِيبة لشبهها له في الإخفاء.

٤ - ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ كذلك فيه استعارة حيث استعار لفظ القطع عن الجرح أي جرحن أيديهن.

٥ - ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يكون أي عنباً يئول إلى خمر.

فَائِدَة: روي أن جبريل جاء إلى يوسف وهو في السجن معاتباً له فقال له: يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوتك؟ قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجب؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عصمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف تركتَ ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق!؟ قال: يا رب كلمةٌ زلَّتْ مني أسألك يا إله إبراهيم وآله والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين[2].

تنبيه: قال العلماء في قوله تعالى ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ هذا من اختصار القرآن المعجز، الذي يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وذلك أنها لما راودته عن نفسه وأبى، عزمت على أن تجبره بالقسر والإكراه، فهرب منها فتسابقا نحو الباب هي لترده إلى نفسها وهو يهرب منها فاختصر القرآن ذلك كله بتلك العبارة البليغة ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾.

(شطحات بعض المفسرين في تفسير الهمّ)

لقد شطَّ القلم، وزلقت القدم ببعض المفسرين حين زعموا أن يوسف عليه السلام قد همَّ بمقارفة الفاحشة، وشُحنت بعضُ كتب التفسير بكثير من الروايات الإسرائيلية الواهية، بل المنكرة الباطلة في تفسير «الهمّ» و«البرهان» حتى زعم بعضهم أن يوسف حلَّ رباط السروال، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، ثم رأى صورة أبيه «يعقوب» عاضًّا على أصبعه، فقام عنها وتركها خجلاً من أبيه إلى غير ما هنالك من أقوال واهية،

(١) (ش): رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ لَمْ يَقُلْ -يَعْنِي: يُوسُفَ- الْكَلِمَةَ الَّتِي قَالَ: مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ. حَيْثُ يَبْتَغِي الْفَرَجَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ». (رواه الإمام ابن جرير «الطبري» في «تفسيره» وقال الحافظ ابن كثير: «هَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ جِدًّا»، ورواه ابنُ حبّان، وضعفه الألباني).

(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ١٩٦. (ش): ذكره «القرطبي» بدون إسناد، وقد تقدم أن هذا لا يثبت.

لا زمام لها ولا خطام. ولستُ أدري كيف دخلت تلك الروايات المنكرة إلى بعض كتب التفسير، وتقبّلها بعضهم بقبول حسن، وكلُّها - كما يقول العلامة «أبو السعود» - خرافات وأباطيل، تمجّها الآذان، وتردها العقول والأذهان ؟ ثم كيف غاب عن أولئك المفسرين أن «يوسف الصدّيق» نبيٌّ كريم، ابن نبي كريم، وأن العصمة من صفات الأنبياء يا قوم اعقلوا وفكروا، ونزّهوا هذه الكتب عن أمثال هذه التُّرهات والأباطيل، فإن الزنى جريمة من أبشع الجرائم فكيف يرتكبها نبيٌّ من الأنبياء المكرمين؟ وهاكم الأدلة أسوقها من كتاب الله فقط على عصمته عليه السلام من عشرة وجوه:

الأول: امتناعه الشديد ووقوفُه أمامها بكل صلابة وعزم ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ..﴾.

الثاني: فراره منها بعد أن غلَّقت الأبواب وشدّدت عليه الحصار ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ ...﴾.

الثالث: إيثاره السجن على الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ...﴾.

الرابع: ثناء الله تعالى عليه في مواطن عديدة ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ فهل يكون مخلصاً لله من همَّ بفاحشة الزنى؟

الخامس: شهادة الطفل الذي أنطقه الله وهو في المهد بالحجة الدامغة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ ...﴾ الآية.

السادس: اعتراف امرأة العزيز ببراءته وعفته ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ ...﴾.

السابع: استغاثته بربه لينجيه من كيد النساء ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ ...﴾.

الثامن: ظهور الأمارات الواضحة والبراهين الساطعة على براءته وإدخالِهِ السجن لدفع مقالة الناس ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾.

التاسع: عدم قبوله الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته من التهمة ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ ...﴾؟

العاشر: الاعتراف الصريح من امرأة العزيز والنسوة ببراءته ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وكفى بذلك برهاناً على عفته ونزاهته ! والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل.

قال الله تعالى:

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾

يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ
فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا
تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا
جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾
قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾
قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا
حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ
تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ
ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟
إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ
إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ
حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ
ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا
كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

المناسبة: لما أراد الله الفرج عن يوسف وإخراجه من السجن، رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، فجمع السحرةَ والكهنة والمنجمين وأخبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويلها فأعجزهم الله جميعاً ليكون ذلك سبباً في خلاص يوسف من السجن.

اللغة: ﴿عِجَافٌ﴾ هزيلة ضعيفة جمع أعجف والأنثى عجفاء ﴿تَعْبُرُونَ﴾ التعبير: معرفة تفسير الرؤيا المنامية ﴿أَضْغَٰثُ﴾ جمع ضِغث وهو الحزمة من الحشيش اختلط

فيها اليابس بالرطب ﴿أَحۡلَٰمٍ﴾ جمع حُلم وهو ما يراه النائم ومعناه أخلاط منامات اختلط فيها الحق بالباطل ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ تذكّر بعد النسيان ﴿دَأَبٗا﴾ الدَّأب: الاستمرار على الشيء يقال: دأب على عمله فهو دائب، أي: استمر عليه ﴿تُحۡصِنُونَ﴾ تُحرزون وتدخرون ﴿حَصۡحَصَ﴾ ظهر وبان ﴿مَكِينٌ﴾ ذو مكانة رفيعة ﴿رِحَالِهِمۡ﴾ جمع رحل وهو ما على ظهر المركوب من متاع الراكب وغيره ﴿وَنَمِيرُ﴾ نأتي لهم بالميرة وهي الطعام ﴿يُحَاطَ بِكُمۡ﴾ تهلكوا جميعًا.

التفسير: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ أي قال ملك مصر: إني رأيت في منامي سبع بقرات سمانٍ خرجت من نهرٍ يابسٍ، وفي أثرها سبع بقراتٍ هزيلة في غاية الهُزال فابتلعت العجافُ السمان ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ هذا من تتمة الرؤيا أي ورأيتُ أيضًا سبع سنبلاتٍ خضر قد انعقد حبُّها وسبعًا أُخر يابسات قد استحصدت، فالتوتْ اليابسات على الخضر فأكلنهنَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ أي يا أيها الأشراف من رجالي وأصحابي أخبروني عن تفسير هذه الرؤيا ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ أي إن كنتم تجيدون تعبيرها وتعرفون مغزاها ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ أي أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها. قال الضحاك: أحلامٌ كاذبة ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الكاذبة[1] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي وقال الذي نجا من السجن وهو الساقي وتذكّر ما سبق له مع يوسف بعد مدة طويلة: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ أي فأرسلوني إليه لآتيكم بتأويلها، خاطب الملك بلفظ التعظيم قال ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة ولهذا قال: فأرسلون[2] ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ في الكلام محذوف دلَّ عليه السياق وتقديره: فأرسلوه فانطلق الساقي إلى السجن ودخل على يوسف وقال له: يا يوسف يا أيها الصِّديق وسمّاه صديقًا لأنه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن، والصدّيق مبالغةٌ من الصدق ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ أي أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ويخلصوك من محنتك قال الإمام الفخر: وإنما قال ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ لأنه رأى عجز سائر المعبّرين عن جواب هذه المسألة

(١) وقيل المعنى: لسنا نعرف تأويل الأحلام على الإطلاق.
(٢) «تفسير الطبري» ١٢/ ٢٢٩.

فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها فلهذا السبب قال: لعلّي[١] ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي تزرعون سبع سنين دائبين بجدٍّ وعزيمة ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ أي فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوّس ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي ثمَّ يأتي بعد سني الرخاء سبعُ سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي ثم يأتي بعد سني القحط والجدب العصيبة عام رخاء، فيه يُمطر الناس ويُغاثون، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه، قال الزمخشري: تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشّرهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً، كثير الخير، غزير النعم، وذلك من جهة الوحي[٢] ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ أي ولما رجع الساقي إلى الملك وعرض عليه ما عبَّر به يوسف رؤياه استحسن ذلك فقال: أحضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسي ولأبصره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أي فلما جاء رسول الملك يوسف ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي قال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي سلْه عن قصة النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن هل يعلم أمرهنَّ؟ وهل يدري لماذا حُبست ودخلت السجن؟ وأني ظُلمت بسببهنَّ؟ أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تُبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة، وأن يعلم الناس جميعاً أنه حُبس بلا جرم ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور وبما دبَّرْنَ مِن كيدٍ لي ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ جمع الملك النسوة ودعا امرأة العزيز معهن فسألهن عن أمر يوسف وقال لهن: ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء، وهو تنزيهٌ له وتعجب من نزاهته وعفته ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي أنا التي أغريتُه ودعوتُه إلى نفسي وهو بريءٌ من الخيانة وصادقٌ في قوله «هي راودتني عن نفسي» وهذا اعتراف صريحٌ ببراءة يوسف على رءوس الأشهاد ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ الأظهر أن هذا من كلام يوسف قاله لمّا وصله براءة النسوة له والمعنى ذلك الأمر الذي فعلتُه من ردّ الرسول حتى تظهر براءتي ليعلم العزيز أني

(١) «الرازي» ١٨/ ١٤٩.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٤٧٧.

لم أَخُنْه في زوجته في غيبته بل تعفَّفْتُ عنها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أي لا يوفق الخائن ولا يسدّد خطاه ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي لا أزكي نفسي ولا أنزّهها، فإن النفس البشرية ميَّالة إلى الشهوات، قاله يوسف على وجه التواضع قال الزمخشري: أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكيًا، وبحالها معجبًا ومفتخرًا[1] ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أي إلا من رَحِمَهُ اللهُ بالعصمة ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أي ائتوني بيوسف أجعله من خاصتي وخلصائي، قال ذلك لمّا تحقق براءته وعرف عفته وشهامته وعلمه ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي فلما أتوا به وكلَّمه يوسف وشاهد الملك فضله، ووفور عقله، وحُسن كلامه قال إنك اليوم قريب المنزلة رفيع الرتبة، مؤتمنٌ على كل شيء ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي قال يوسف للملك: اجعلني على خزائن أرضك ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ أي أمينٌ على ما استودعتني، عليمٌ بوجوه التصرف، وإنما طلب منه الولاية رغبةً في العدل، وإقامة الحق والإحسان، وليس هو من باب التزكية للنفس، وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لاستلام وزارة الماليَّة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وهكذا مكنّا ليوسف في أرض مصر، وجعلنا له العزَّ والسلطان بعد الحبس والضيق ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ أي يتخذ منها منزلاً حيث يشاء ويتصرف في المملكة كما يريد ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ أي نخص بإنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي لا نضيع أجر من أحسن عمله وأطاع ربه بل نضاعفه له ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي أجر الآخرة وثوابها خير للمؤمنين المتقين من أجر الدنيا، وفيه إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأن ما يُدَّخر لهؤلاء المحسنين أعظمُ وأجلُّ من هذا النعيم العاجل في الدنيا ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي دخلوا على يوسف فعرف أنهم إخوته ولكنهم لم يعرفوه لهيبة المُلْك، وبُعْد العهد، وتغير الملامح قال ابن عباس: كان بين إلقائه في الجب وبين دخولهم عليه اثنتان وعشرون سنة

---

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٨٠. (ش): رجح الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٩٤) أن الكلام في الموضعين لامرأة العزيز فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ تَقُولُ: إِنَّمَا اعْتَرَفْتُ بِهَذَا عَلَى نَفْسِي، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ زَوْجِي أَنْ لَمْ أَخُنْهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَا وَقَعَ الْمَحْذُورُ الْأَكْبَرُ، وَإِنَّمَا رَاوَدْتُ هَذَا الشَّابَّ مُرَاوَدَةً، فَامْتَنَعَ؛ فَلِهَذَا اعترفتُ لِيَعْلَمَ أَنِّي بَرِيئَةٌ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ تَقُولُ الْمَرْأَةُ: وَلَسْتُ أُبَرِّئُ نَفْسِي، فَإِنَّ النَّفْسَ تَتَحَدَّثُ وَتَتَمَنَّى؛ وَلِهَذَا رَاوَدَتْهُ لِأَنَّهَا أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أَيْ: إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَشْهَرُ وَالْأَلْيَقُ وَالْأَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْقِصَّةِ وَمَعَانِي الْكَلَامِ. وَقَدْ حَكَاهُ الْمَاوَرْدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ»، وَانْتَدَبَ لِنَصْرِهِ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيمِيَّةَ، رَحِمَهُ اللهُ، فَأَفْرَدَهُ بِتَصْنِيفٍ عَلَى حِدَةٍ».

فلذا أنكروه[١]، وكان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم بسبب القحط الذي عمَّ البلاد، فخرجوا إلى مصر ليشتروا من الطعام الذي ادخره يوسف، فلما دخلوا على يوسف قال كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: جئنا للميرة، قال: لعلكم عيونٌ «جواسيس» علينا؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيُّ الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا وهلك في البرِّية - وكان أحبَّنا إليه - وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلّى به عنه وجئنا نحن العشرة، فأمر بإنزالهم وإكرامهم[٢] ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي هيأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ أي ائتوني بأخيكم بنيامين لأُصَدِّقَكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أي ألا ترون أني أتم الكيل من غير بخسٍ ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي خير من يكرم الضيفان وخير المضيفين لهم، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية، رغبهم ثم توعدهم قال في البحر: والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحيٍ من الله وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكنَّ الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته، ولتتفسَّر الرؤيا الأولى[٣] ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده، ونجتهد في طلبه منه، وإنّا لفاعلون ذلك ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي قال يوسف لغلمانه الكيالين اجعلوا المال الذي اشتروا به الطعام في أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ أي لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها، فإنه علم أنَّ دينهم يحملهم على رد الثمن لأنهم مطهّرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له - قبل أن يفتحوا متاعهم - يا أبانا لقد أنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين، فإنَّ ملك مصر ظنَّ أننا جواسيس وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي أرسل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تُكال لنا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي نحفظه من أن يناله مكروه ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي قال لهم يعقوب: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف

(١) «حاشية الصاوي» ٢/ ٢٤٩.
(٢) «تفسير الجلالين» ٢/ ٢٤٩.
(٣) «البحر المحيط» ٥/ ٣٢٢.

ما فعلتم بعد أن ضمنتم لي حفظه، ثمَّ خنتم العهد؟ فأَخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ أي حفظ الله خيرٌ من حفظكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي هو أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يمُنَّ عليَّ بحفظه ولا يجمع عليَّ مصيبتين ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي ولما فتحوا الأوعية التي وضعوا فيها الميرة وجدوا ثمن الطعام في متاعهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي ماذا نبغي؟ وأيَّ شيءٍ نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي هذا ثمن الطعام قد ردّ إلينا من حيث لا ندري، فهل هناك مزيدٌ فوق هذا الإِحسان، أوفى لنا الكيل، وردَّ لنا الثمن! أرادوا بذلك استنزال أبيهم عن رأيه ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نأتي بالميرة والطعام لأهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ أي نحفظه من المكاره، وكرروا حفظ الأخ مبالغةً في الحض على إرساله ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي ونزداد باستصحابنا له حمل بعير، روي أنه ما كان يعطي الواحد إلا كيل بعير من الطعام، فأعطاهم حمل عشرة جمال ومنعهم الحادي عشر حتى يحضر أخوهم ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي سهلٌ على الملك إعطاؤه لسخائه ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ أي قال لهم أبوهم: لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى تعطوني عهداً مؤكداً وتحلفوا بالله لتردُنه عليَّ ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلا أن تُغْلَبوا فلا تقدروا على تخليصه، ولا يبقى لكم طريق أو حيلة إلى ذلك قال مجاهد: إلا أن تموتوا كلُّكم فيكون ذلك عذراً عندي ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي الله شهيد رقيب على ذلك ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ أي لا تدخلوا مصر من بابٍ واحد قال المفسرون: خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين إذ كانوا أهل جمالٍ وهَيْبَة، والعينُ حقٌّ تُدخل الرجلَ القبرَ، والجملَ القِدر كما جاء في الحديث[1] ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي لا أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضاه الله عليكم، فإن الحذَر لا يدفع القدر ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم إلا لله جلَّ وعلا وحده لا يشاركه أحد، ولا يمانعه شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليه وحده اعتمَدتُ وبه وثقْتُ ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي وعليه فليعتمدْ أهل التوكل والإيمان، وليُفوضوا أمورهم إليه ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي دخلوا من الأبواب المتفرقة كما أوصاهم أبوهم ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئاً ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي إلا خشية العين

(١) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. وقال ﷺ: «الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَتُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقِدْرَ» رواه أبو نعيم في «الحلية»، وحسنه الألباني.

شفقةً منه على بنيه ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ أي وإن يعقوب لذو علمٍ واسع لتعليمنا إياه بطريق الوحي، وهذا ثناءٌ من الله تعالى عظيمٌ على يعقوب، لأنه علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون ما خصَّ الله به أنبياءه وأصفياءه من العلوم التي تنفعهم في الدارين.

البَلاغَة: ١ - ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية.

٢ - ﴿سِمَانٖ .. عِجَافٞ﴾ بينهما طباقٌ وكذلك بين ﴿خُضۡرٖ .. يَابِسَٰتٖ﴾ طباقٌ.

٣ - ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ هذا من أبلغ أنواع الاستعارة وألطفها فإن الأضغاث هو المختلط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض، فشبه اختلاط الأحلام وما فيها من المحبوب والمكروه، والخير والشر باختلاط الحشيش المجموع من أصناف كثيرة.

٤ - ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ هذا من براعة الاستهلال فقد قدَّم الثناء قبل السؤال طمعاً في إجابة مطلبه.

٥ - ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ فيه مجاز عقلي لأن السنين لا تأكل وإنما يأكل الناس ما ادَّخروه فيها، فهو من باب الإسناد إلى الزمان كقول الفصحاء: نهارُ الزاهدِ صائم وليلُه قائم.

٦ - ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ لم يقل آمرة مبالغة في وصف النفس بكثرة الدفع في المهاوي، والقود إلى المغاوي لأن «فَعّال» من أبنية المبالغة.

٧ - ﴿فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ بين عرف وأنكر طباقٌ.

٨ - ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ فيه إطناب وهو زيادة اللفظ على المعنى، وفائدتُه تمكين المعنى من النفس، وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى «طباق السلب».

فَائِـدَة: أثنى رسول الله ﷺ على يوسف الصدِّيق في كرمه وصبره وحلمه فقال: «لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ لَبْثِ يُوسُفَ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ»[1] وكفى بهذا برهاناً على عفة يوسف ونزاهته عليه السلام.

لطيفَة: ذكر بعض العلماء أن يوسف عليه السلام ما زال النساء يملن إليه ميل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبتُه كل من رآه عن حسنه.

قال الله تعالى:

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن
جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا
سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ
كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ
مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ
فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾
قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ
خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ
مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾
ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا
لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ
﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾
قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ
فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ
﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ
وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ
جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ
إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ
ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ
أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى
بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

المناسَبَة: تتحدث الآيات عن مجيء إخوة يوسف للمرة الثانية إلى مصر ومعهم «بنيامين» الأخ الشقيق ليوسف، وما كان من شأنه حين ظهر الصواع في رحله، فاحتجزه يوسف عنده بحكم شريعة يعقوب، ثم ما كان مِن تمام المحنة على يعقوب عليه السلام بفَقْد ولَدَيْه حتى ذهب الحزن ببصره.

اللغَة: ﴿تَبۡتَئِسۡ﴾ تحزن ﴿ٱلۡعِيرُ﴾ الإبل التي عليها الأحمال ثم كثر الاستعمال حتى قيل لكل قافلة: عيرٌ ﴿صُوَاعَ﴾ الصواع: الصاع الذي يُكال به يُذكَّر ويؤنَّث وهو السقاية ﴿زَعِيمٞ﴾ كفيل ﴿سَوَّلَتۡ﴾ زيَّنت وسهَّلت ﴿كَظِيمٞ﴾ ممتلئ من الحزن يكتمه ولا يبديه ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ لا تفتأ ولا تزال من أخوات كان الناقصة ﴿حَرَضًا﴾ الحرَض: المَرَض الذي يُشْفي على الهلاك قال الشاعر:

سَرَى هَمِّي فأَمْرَضَنِي | وقِدْماً[1] زَادَنِي مَرَضا
كَذَاكَ الْحُبُّ قبلَ اليَوْ | مِ مِمَّا يُورِثُ الحَرَضَا

وأصل الحَرَض الفساد في الجسم أو العقل ﴿بَثِّي﴾ البثُّ: أشد الغمّ والهمّ ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ التحسُّسُ: طلب الشيء بالحواس، والتعرُّفُ عليه مع الاستقصاء الدقيق ويستعمل في الخير كما أن التجسُّس يستعمل في الشر، وقيل: يستعمل في الخير والشر ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾ التثريبُ: التأنيب والتوبيخ.

التفسير: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي وحين دخل أولاد يعقوب على يوسف ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ أي ضمَّ إليه أخاه الشقيق بنيامين ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أي أنا أخوك يوسف، أخبره بذلك واستكتمه ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي لا تحزنْ بما فعلوا بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير قال المفسرون: لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ثم أنزل كل اثنين في بيت وبقي «بنيامين» وحيداً فقال: هذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويعانقه، وقال له: أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا، ثم أعلاه أنه سيحتال لإبقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ أي ولمّا قضى حاجتهم وحمَّل إبلهم بالطعام والميرة ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ أي أمر يوسف بأن تُجعل السقاية - وهي صاعٌ مرصَّعٌ بالجواهر - في متاع أخيه بنيامين ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ أي يا أصحاب الإبل ويا أيها الركب المسافرون ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ أي أنتم قوم سارقون، وإنما استحل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾؟ قال المفسرون: لما وصل المنادون إليهم قالوا: ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم؟ ونوفّ إليكم الكيل؟ ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى وما ذاك؟

(١) (ش): قِدْمـًا: قديمًا، أي في القدِيم، في الزمن الماضي. يُقَالُ: قِدْمـًا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ اسْمٌ مِنَ القِدَم، جُعِلَ اسْمًا مِنْ أَسماء الزَّمَانِ.

قالوا: فقدنا سقاية الملك ولا نتّهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ أي التفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع منكم وماذا فُقد؟ وفي قولهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ بدل «ماذا سرَقْنا» إرشادٌ لهم إلى مراعاة حسن الأدب، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة، ولهذا التزموا الأدب معهم فأجابوهم ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي ضاع منا مكيال الملك المُرصَّع بالجواهر ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي ولمن جاءنا بالمكيال وردَّه إلينا حِمْلُ بعيرٍ من الطعام كجائزة له ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي أنا كفيلٌ وضامنٌ بذلك ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قسمٌ فيه معنى التعجب أي قالوا متعجبين: والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا بقصد أن نفسد في أرضكم ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي ولسنا ممن يُوصف بالسرقة قطُّ لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح قال «البيضاوي»: استَشْهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كردّ البضاعة التي جُعلت في رحالهم، وكَكَمِّ أفواه الدواب[1] لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد[2] ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادعاء البراءة ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ أي جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسترقَّ ويصبح مملوكاً لمن سَرَق منه ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي كذلك نجازي من تعدَّى حدود الله بالسرقة وأمثالها، وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب وقد نسخ بقطع الأيدي في الشريعة الإسلامية ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ أي بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه بنيامين قال المفسرون: هذا من تمام الحيلة ودفع التهمة فإنهم لما ادعوا البراءة قال لهم: لا بدَّ من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء «بنيامين» قال قتادة: ذُكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاءً إلا استغفر الله مما قذفهم به، حتى بقي أخوه - وكان أصغرَ القوم فقال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً فقالوا: والله لا نتركُك حتى تنظر في رَحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ أي استخرج الصواع من متاع أخيه بنيامين، فلما أخرجها منه نكّس الإخوةُ رءوسَهم من الحياء، وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له: فضحتنا وسوَّدت وجوهنا يا ابن راحيل ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أي ما

(١) (ش): كَمَّ السِّقاءَ: غطّاه وستَره وأخفاه. كَمَّ الحيوانَ كَمًّا وكُمُومًا: شدَّ فمَه بالكِمامة.

(٢) «البيضاوي» ٢٦٧.

كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر(١)، لأن جزاء السارق عنده أن يُضرب ويُغرَّم ضعفَ ما سَرَق ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي إلا بمشيئته تعالى وإذنه، وقد دلّت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ أي نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا ما رفعنا يوسف ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ أي فوق كل عالمٍ من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو ربُّ العالمين قال الحسن: ليس عالمٌ إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله. وقال ابن عباس: الله العليم الخبير فوق كل عالم(٢) ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ أي إن سرق فقد سرق أخوه الشقيق من قبله يعنون يوسف، تنصّلوا من السرقة ورموا بها يوسف وأخاه ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ أي أخفى تلك القولة في نفسه وكتمها ولم يُظهرها لإخوته تلطفاً معهم ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ أي أنتم شرٌّ منزلةً حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي أعلم بما تتقوّلو وتفترون ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ استرحامٌ واستعطافٌ أي قالوا مستعطفين: يا أيها السيد المبجّل إنَّ أباه شيخ كبير في السِّن لا يكاد يستطيع فراقه ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ ﴾ أي خذْ بدله واحداً منا فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي تممْ إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً بجرم غيره ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي نكون ظالمين إن فعلنا ذلك قال «الألوسي»: والتعبير بقوله ﴿مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ بدل «من سَرَقَ» لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب(٣) ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ أي ولما يئسوا من إجابة طلبهم يأساً تامًّا، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء، اعتزلوا جانباً عن الناس يتنَاجَوْن(٤) ويتشاورون ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي قال أكبرهم سنًّا وهو «روبيل»: أليس قد أعطيتم أباكم عهداً وثيقاً بردِّ أخيكم؟ ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾ أي ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم في يوسف؟ فكيف ترجعون إليه الآن؟ ﴿ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ أي فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها

---

(١) (ش): ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين مِلِك مصر: أي ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في حُكْم مَلِك «مصر»، لأنَّ القَانُونَ المِصْرِيَّ لاَ يُجِيزُ اسْتِرْقَاقَ السَّارِقِ.

(٢) «الطبري» ١٣/ ٢٧.

(٣) «روح المعاني» ١٣/ ٣٤.

(٤) (ش): تناجَى الشَّخصان: أفضَى كلّ منهما إلى الآخر بما يخصّه به، ويكتمه غيرَه، تسَارّا.

﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ أي يحكم لي بخلاص أخي ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي وهو سبحانه أعدل الحاكمين لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ أي ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى وقولوا له: إن ابنك بنيامين سَرَق ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ أي ولسنا نشهد إلا بما تيَقَّنَّا وعلمنا فقد رأينا الصاع في رَحْله ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث قال «البيضاوي»: أي أرسلْ إلى أهلها واسألهم عن القصة[1] ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا﴾ أي واسأل أيضاً القافلة التي جئنا معهم وهم قوم من كنعان كانوا بصحبتهم في هذه السفرة ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي صادقون فيما أخبرناك من أمره ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ أي زيَّنتْ وسهَّلت لكم أنفسكم أمراً ومكيدةً فنفذتموها، اتهمهم بالتآمر على «بنيامين» لما سبق منهم في أمر يوسف ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ﴾ أي لا أجد سوى الصبر محتسباً أجري عند الله ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ أي عسى أن يجمع الله شملي بهم، ويقرّ عيني برؤيتهم جميعاً ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي العالم بحالي الحكيم في تدبيره وتصريفه ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ أي أعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي يا لهفي ويا حسرتي وحزني على يوسف ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ أي فقد بصره وعشي[2] من شدة البكاء حزناً على ولديه ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ أي مملوء القلب كمداً وغيظاً ولكنه يكتم ذلك في نفسه، وهو مغموم ومكروب لتلك الداهية الدهياء قال «أبو السعود»: وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخَويْه[3] لأن ذكر يوسف كان آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقاً بحياتهما طامعاً في إيابهما وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله[4] وقال «الرازي»: الحزن الجديد يقوّي الحزن القديم الكامن في النفس، والأسى يبعث الأسى ويثير الأحزان قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى ... فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ[5]

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه

(١) «البيضاوي» ٢٦٨.

(٢) عشي البصر ضعف حتى كاد لا يرى من شدة البكاء كأن غشاوة صارت عليه قال الشاعر: عشيت عيناي من طول البكاء. قال المفسرون: إن يعقوب فقد بصره من شدة حزنه على يوسف وبقي لا يبصر ست سنوات حتى كشف الله عنه الضر بقميص يوسف واستدلوا بقوله تعالى: ﴿أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾.

(٣) (ش): الذي أخذه يوسف وكبيرهم الذي قال: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾

(٤) «أبو السعود» ٣/ ٨٨.

(٥) «الفخر الرازي» ١٨/ ١٩٣.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي حتى تكون مريضاً مشرفاً على الهلاك أو تهلك أسى وحسرة وتموت ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي قال لهم يعقوب: لستُ أشكو غمي وحزني إليكم وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي تنفع الشكوى إليه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون أنتم؛ فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه فالتمسوا يوسف وتعرّفوا على خبره وخبر أخيه بحواسكم ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفيسه ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي فإنه لا يقنط من رحمته تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرته جلَّ وعلا ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ في الكلام محذوف، أي: فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف فلما دخلوا قالوا: يا أيها العزيز أصابنا وأهلَنا الشدة من الجدب والقحط ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً قال ابن عباس: كانت دراهمهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام[1]، أظهروا له الذل والانكسار استرحاماً واستعطافاً ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتمم لنا الكيل ولا تنقصْه لرداءة بضاعتنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي بردّ أخينا إلينا[2] أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي يثيب المحسنين أحسن الجزاء. ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار أدركته الرأفة فباح لهم بما كان يكتمه من أمره ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؟ أي هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه حال شبابكم وطيشكم؟ والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه! قال «أبو السعود»: وإنما قاله نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقةً عليهم[3] ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أي قال إخوته متعجبين مستغربين: أأنت يوسف حقاً؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ أي قال: نعم أنا يوسف وهذا أخي الشقيق ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي منَّ علينا بالخلاص من البلاء، والاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء قال «البيضاوي»: ووضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر[4] ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اعترافٌ بالخطيئة وإقرار

(١) «الرازي» ١٨/ ٢٠١.

(٢) هذا قول ابن جريج واختار «الطبري» أن المراد المسامحة لرداءة البضاعة.

(٣) «أبو السعود» ٣/ ٩٠.

(٤) «البيضاوي» ٢٦٩.

بالذنب، أي: والله لقد فضَّلك الله علينا بالتقوى والصبر، والعلم والحلم ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي وحالُنا وشأننا أننا كنا مذنبين بصنيعنا الذي صنعنا بك، ولذلك أعزَّك الله وأذلنا، وأكرمك وأهاننا ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي قال لهم يوسف: لا عتب عليكم اليوم ولا عقوبة بل أصفح وأعفو ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ دعاءٌ لهم بالمغفرة وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي هو جل وعلا المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة، أرحم بعباده من كل أحد ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي﴾ قال «الطبري»: ذُكر أن يوسف لمّا عرَّف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه[1]، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك ﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ أي يرجع إليه بصره ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي وجيئوني بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب.

البَلَاغَة: ١ - ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ فيه جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾.

٢ - ﴿فَأَسَرَّهَا ... وَلَمۡ يُبۡدِهَا﴾ بينهما طباق.

٣ - ﴿شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ فيه إطناب للاستعطاف.

٤ - ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية.

٥ - ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ بين لفظتي الأسف ويوسف جناس الاشتقاق.

٦ - ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ﴾ إيجاز بالحذف أي تالله لا تفتأ.

٧ - ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ فيه استعارة استعير الرَّوْح وهو تنسيم الريح التي يلذُّ شميمها ويطيب نسيمها، للفَرَج الذي يأتي بعد الكربة، واليُسر الذي يأتي بعد الشدة.

لطيفة: ذكر القاضي عياض في كتابه «الشفا» أن أعرابيًّا سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام[2]. وذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس، وانفرادهم من غيرهم، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزْوِير[3] ما يَلْقَوْن به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمنت تلك الآية القصيرة، معاني القصة الطويلة.

قال الله تعالى:

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ

---

(١) «تفسير الطبري» ١٣/ ٥٧.

(٢) كتاب الشفا بحث إعجاز القرآن.

(٣) (ش): التزوير: هو التحسين والتزيين. زوَّرَ مقالته: أي هيأها وحسَّنها.

أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ
﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ
إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ
وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ
وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ
ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ
حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم
مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾
قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن
تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

المناسَبة: تتحدث الآيات عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف وهو في عز السلطان وعظمة الملك، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه، واجتماع الشمل بعد الفرقة، وحلول الأنس بعد الكدر، ثم تختم السورة الكريمة بتوجيه الأنظار إلى عجائب الكون الدالة على القدرة والوحدانية، وما في قصص القرآن من العبر والعظات ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ !

اللغَة: ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الخَرَف قال الأصمعي: إذا كَثُر كلام الرجل من خَرَفٍ فهو المُفْنِد وقال الزمخشري: التفنيد النسبة إلى الفَنَد وهو الخَرَف وإنكار العقل من هرم يقال: شيخ مُفْنِد ولا يقال عجوز مُفْنِدة، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها[1] ﴿ضَلَٰلِكَ﴾ ذهابك عن الصواب ﴿ٱلْبَدْوِ﴾ البادية ﴿نَّزَغَ﴾ أفسد وأغوى وأصله من نزغ الراكب الدابة إذا نخسها ليحملها على الجري ﴿فَاطِرَ﴾ مبدع ومخترع وأصله من فطر إذا شقَّ ثم صار عبارة عن الخلق والإيجاد ﴿غَٰشِيَةٌ﴾ عذاب يغشاهم ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة

(١) «الكشاف» ٢/ ٥٠٤.

﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿عِبْرَةٌ﴾ عظة وتذكرة.

التفسير: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي خرجت مُنْطَلِقَةً من مصر إلى الشام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي قال يعقوب لمن حضر من قرابته: إني لأشمّ رائحة يوسف قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمان ليال[1] ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ أي تسفهوني وتنسبوني إلى الخَرَف وهو ذهاب العقل وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حيٌّ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي قال حفدته ومن عنده: والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب قديم، بإفراطك في محبة يوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقائه قال المفسرون: وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ أي فلما جاء المبشر بالخبر السارّ قال مجاهد: كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم فقال: أُفرحه كما أحزنته[2] ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي عاد بصيراً لما حدث له من السرور والانتعاش[3] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي قال يعقوب لأبنائه: ألم أخبركم بأني أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف وأن الله سيرده عليَّ لتتحقق الرؤيا؟ قال المفسرون: ذكّرهم بقوله ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] روي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك على أيّ دين تركتَه؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمّت النعمة[4] ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ طلب أبناؤه أن يستغفر لهم لما فرط منهم ثم اعترفوا بخطئهم بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ أي مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ وعدهم بالاستغفار قال المفسرون: أخّر ذلك إلى السَّحَر ليكون أقرب إلى الإجابة وقيل: أخرّهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي الساتر للذنوب الرحيم بالعباد ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلوهم على يوسف ضمَّ إليه أبويه واعتنقهما ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ أي ادخلوا بلدة مصر آمنين من كل مكروه، وإنما قال ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تبركاً وتيمناً ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي أجلسهما على سرير الملك بجانبه ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه قال المفسرون: كان السجود

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٢٥٩.

(٢) «تفسير الطبري» ١٣/ ٦٣.

(٣) (ش): في هذا التعليل نظر: لأن ذلك معجزة من معجزات الأنبياء التي لا ندرك حقيقتها.

(٤) «الرازي» ١٨/ ٢٠٩.

عندهم تحية وكرامة لا عبادة ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ أي هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في منامي وأنا صغير ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أي صدقاً حيث وقعت كما رأيتها في النوم ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي أنعم عليَّ بإخراجي من السجن قال المفسرون: ولم يذكر قصة الجب تكرماً منه لئلا يُخْجل إخوته ويذكّرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ أي جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين، ذكّرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر قال «الطبري»: ذُكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف[1] ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أي أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء قال أبو حيان: وذكر هذا القدر من أمر إخوته لأن النعمة إذا جاءت إثْر بلاءٍ وشدة كانت أحسن موقعاً[2] ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي لطيف التدبير يحقّق مشيئَته بلطفٍ ودقةٍ خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي العليم بخلقه الحكيم في صنعه قال المفسرون: إن يعقوب عليه السلام أقام مع يوسف في مصر أربعاً وعشرين سنة ثم مات وكان قد أوصى أن يُدفن بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فمضى يوسف بنفسه ودفنه ثمَّة، ثم لما عاد إلى مصر عاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد، واشتاق إلى لقاء الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق فقال ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي أعطيتني العزَّ والجاه والسلطان، وذلك من نعمة الدنيا ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أي علمتني تفسير الرؤيا، وذلك من نعمة العلم ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يا مبدع السماوات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق ﴿وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أي أنت يا رب متولي أموري وشئوني في الدارين ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي اقبضني إليك مسلماً، واجعل لحاقي بالصالحين، ابتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه، وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصدّيق ثم يأتي التعقيب بعد ذلك بإقامة البرهان على صحة نبوة محمد عليه السلاة والسلام ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ أي ذلك الذي أخبرناك عنه يا محمد من أمر يوسف وقصته، من الأخبار المغيَّبة التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، وإنما نُعلمك نحن بها على أبلغ وجه وأدق تصوير، ليظهر صدقُك في دعوى الرسالة ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ أي وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تآمروا على أخيهم

(١) «الطبري» ١٣/ ٧٣.
(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٣٤٩.

وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، فإنك يا محمد لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحي من العليم الخبير ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ أي ليس أكثر الخلق ولو حرصتَ على إيمانهم وبالغتَ في إرشادهم بمصدقين لك[١] لتصميمهم على الكفر ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي وما تطلب منهم على هذا النصح، والدعاء إلى الخير والرشد أجرة حتى يثقل عليهم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير للعالمين، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالاً، فلو كانوا عقلاء لَقَبلُوا ولم يتمردوا ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كم من الآيات والعلامات الدالة على وجود الله جل وعلا[٢] ووحدانيته، الكائنة في السماوات والأرض كالشمس والقمر والنجوم، والجبال والبحار والأشجار، وسائر ما فيهما من العجائب ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي يشاهدونها ليلَ نهار، ويمرون عليها بالعشي والإبكار ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي لا يفكرون فيها ولا يعتبرون، فلا تتعجب من إعراضهم عنك فإن إعراضهم عن هذه الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته أغرب وأعجب ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي لا يؤمن أكثر هؤلاء المكذبين من قومك إلا إذا أشركوا مع الله غيره، فإنهم يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون معه الأصنام قال ابن عباس: ومن ذلك قولهم في تلبيتهم: لبَّيْك لا شريك لك، إلا شريكـًا هو لك، تملكه وما ملك»[٣] ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أفأمن هؤلاء المكذبون عقوبةً من عذاب الله تغشاهم وتشملهم؟ ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أو تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون؟ والاستفهام إنكاري وفيه معنى التوبيخ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي قل يا محمد هذه طريقي ومنهاجي واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أي أدعو إلى عبادة الله وطاعته، على بيانٍ وحجة واضحة أنا ومن آمن بي ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي وأنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد، فأنا مؤمن موحِّد ولست من المشركين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ أي: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً من البشر لا ملائكة من السماء قال «الطبري»: أي رجالاً لا نساءً ولا ملائكة نوحي إليهم آياتنا للدعاء إلى طاعتنا[٤]، والآية

(١) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) (ش): لو قال على قدرة الله لكان أنسب، لأن مجرد الوجود لا مدح فيه.

(٣) «تفسير القرطبي» ٩/ ٢٧٢.

(٤) «تفسير الطبري» ١٣/ ٨٠.

ردٌّ على من أنكر أن يكون النبي من البشر، أو زعم أن في النساء نبيات ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ أي من أهل المُدن والأمصار لا من أهل البوادي قال الحسن: لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن[1] قال المفسرون: وإنما كانوا من أهل الأمصار لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ أي أفلم يَسِرْ هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا نظر تفكر وتدبر ما حلَّ بالأمم السابقين ومصارع المكذبين فيعتبرون بذلك؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ أي الدار الآخرة خير للمؤمنين المتقين من هذه الدار التي ليس فيها قرار ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون فتؤمنون! ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي يئس الرسل من إيمان قومهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ أي أيقن الرسل أن قومهم كذَّبوهم[2] ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ أي أتاهم النصر عند اشتداد الكرب، ففي اللحظة التي تستحكم فيها الشدة، ويأخذ فيها الكرب بالمخانق[3]، ولا يبقى أملٌ في غير الله، في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ أي فنجينا الرسل والمؤمنين بهم دون الكافرين ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي ولا يُردُّ عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته عظة وتذكرة لأولي العقول النيِّرة ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ أي ما كان هذا القرآن أخباراً تُروى أو أحاديث تختلق ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي ولكن كان هذا القرآن مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية المنزّلة من قبل ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي تبيان كل ما يُحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام، والشرائع والأحكام ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي وهداية من الضلالة ورحمة من العذاب لقوم يصدّقون به ويعملون بأوامره ونواهيه.

البَلاغَة: ١ - ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ﴾ أكدوا كلامهم بالقسم وإنَّ واللام وهذا الضَّرْب[4] يسمى (إنكاريًا) لتتابع أنواع المؤكدات.

٢ - ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ جملة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ دعائيةٌ جيء بها للتبرك وفي الآية تقديم وتأخير تقديره: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله.

٣ - ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ أبواه المراد به الأب والأم فهو من باب

---

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٢٧٤.

(٢) (ش): ولا أمَلَ في إيمانهم.

(٣) (ش): المَخنَق: مكان الخَنْق، وهو العُنُق أو الحلق من الإنسان.

(٤) (ش): ضَرْب: نوع.

التغليب، والرفع مؤخر عن الخرور وإن تقدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما أي سجدوا له ثم أجلس أبويه على عرش الملك.

٤ - ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ جملة ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ اعتراضية بين اسم (ما) الحجازية وخبرها، وجيء بهذا الاعتراض لإفادة أن الهداية بيد الله جل وعلا وحده.

٥ - ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ هذا على حذف مضاف أي وما تسألهم على تبليغ القرآن من أجر.

٦ - ﴿وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ ﴿إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ فيه من المحسنات البديعية «السجعُ» وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير.

تنبيه: دلَّ قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ على أن الغرض من ذكر هذه القصص والأخبار، العظةُ والاعتبار، ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه، وإخراجه من السجن، وتمليكه مصر بعد العبودية، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع، قادرٌ على إعزاز محمد صلى الله عليه، وإعلاء شأنه، وإظهار دينه، وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب، فكان ذلك معجزة لرسول الله ﷺ.

«انتهى بعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف»





مدنية وآياتها ثلاث وأربعون

بين يدي السورة

* سورة الرعد من السور المدنية، التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المدنية، من تقرير «الوحدانية» و«الرسالة» و«البعث والجزاء» ودفع الشبه التي يثيرها المشركون.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته، فمع سطوع الحق ووضوحه، كذَّب المشركون بالقرآن وجحدوا وحدانية الرحمن، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى، وعجيب خلقه، في السماوات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والزروع والثمار وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع.

* ثم تَلَتْها الآيات في إثبات البعث والجزاء، ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على انفراده جل وعلا بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والنفع والضر، ضرب القرآن مثلين للحق والباطل **أحدهما**: في الماء ينزل من السماء، فتسيل به الأودية والشعاب، ثم هو يجرف في طريقه الغثاء، فيطفو على وجهه الزبد الذي لا فائدة فيه **والثاني**: في المعادن التي تُذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة، وما يعلو هذه المعادن من الزبد والخبث، الذي لا يلبث أن يذهب جفاء ويضمحل ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا...﴾ الآيات فذلك مثل الحق والباطل.

* وذكرت السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة وأهل الشقاوة، وضربت لهم المثل بالأعمى والبصير، وبينت مصر كل من الفريقين، ثم ختمت بشهادة الله لرسوله بالنبوة والرسالة وأنه مرسل من عند الله.

التسمية: سميت (سورة الرعد) لتلك الظاهرة الكونية العجيبة، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه، فالماء جعله الله سببًا للحياة، وأنزله بقدرته من السحاب، والسحابُ جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق، وفي الماء الإحياء، وفي الصواعق الإفناء، وجمع النقيضين من العجائب كما قال القائل:

جَمْعُ النَّقِيضَيْنِ مِنْ أَسْرَارِ قُدْرَتِهِ ... هَـذَا السَّحَابُ بِهِ مَاءٌ بِهِ نَارُ

فما أجل وأعظم قدرة الله!

قال الله تعالى:

المٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (١) ٱللَّهُ
ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ
يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ
وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ
(٣) وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ
وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٤) ۞ وَإِن
تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥) وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ
ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ
هَادٍ (٧) ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ
(٨) عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ
هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ (١٠) لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ
مِن وَالٍ (١١) هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ
ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي
ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ (١٣) لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى
ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ (١٤) وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا
وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ (١٥) قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا
يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ
شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ (١٦)

اللغة: ﴿عَمَدٖ﴾ العَمَد: الدعائم وهو اسم جمع، وقيل: جمع عمود ﴿صِنۡوَانٞ﴾ جمع صِنْو وهو الغصنُ الخارج عن أصل الشجرة وأصله المِثْلُ ومنه قيل للعمّ: صِنْوٌ لمماثلته للأب، فإذا كان للشـجرة عدة فروع فهي صِنوانٌ ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ جمع غل وهو طوقٌ تُشدّ به اليد إلى العُنُق ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾ جمعَ مَثُلَة وهي العقوبة وسـميت بذلك لما بين العقاب والمُعَاقب من المماثلـة ﴿تَغِيضُ﴾ غاض الماءُ نقص أو غار ﴿وَسَارِبُۢ﴾ السـاربُ: الذاهب في سَـرْبه أي طريقـه بوضَح النهار لا يسـتخفى عـن الأنظار ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ ملائكة يعقـب بعضهم بعضًا،

أي: يأتي بعضهم عقب بعض ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ القوة والإهلاك والنّقمة.

سبب النزول: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا مَرَّةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ فَرَاعِنَةِ الْعَرَبِ، فَقَالَ: «اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي»، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَدْعُوكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: وَمَا اللهُ أَمِنْ ذَهَبٍ هُوَ أَوْ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ مِنْ نُحَاسٍ؟ قَالَ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، وَقَالَ: قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ فَادْعُهُ لي»، فرجع إليه، فعاد عَلَيْهِ مِثْلَ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ»، فَرَجَعَ الثَّالِثَةَ فَأَعَادَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْكَلَامَ، فَبَيْنَا هُوَ يُكَلِّمُنِي إِذْ بُعِثَتْ إِلَيْهِ سَحَابَةٌ حِيَالَ رَأْسِهِ فَرَعَدَتْ فَوَقَعَتْ مِنْهَا صَاعِقَةٌ فَذَهَبَتْ بِقِحْفِ رَأْسِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣].(١)

التفسير: ﴿الٓمٓر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن(٢) وقال ابن عباس معناه: أنا الله أعلم وأرى(٣) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات القرآن المعجز، الذي فاق كل كتاب ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي والذي أوحي إليك يا محمد في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحتمل الشك والتردّد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ومع وضوحه وجلائه كذّب به أكثر الناس ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي خلقها مرتفعة البناء، قائمة بقدرته لا تستند على شيء حال كونكم تشاهدونها وتنظرونها بغير دعائم، وذلك دليل وجود الخالق المبدع الحكيم ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي علا فوق العرش علوًّا يليق بجلاله من غير تجسيم(٤) ولا تكييفٍ ولا تعطيل(٥) ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذلّل الشمس والقمر لمصالح العباد، كلٌّ يسير بقدرته تعالى إلى زمنٍ معيَّن هو زمن فناء الدنيا ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يصرِّف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشئون الملكوت من إيجاد وإعدام، وإحياء وإماتة وغير ذلك ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي يُبيِّنُها ويوضِّحها ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي لتصدقوا بلقاء الله، وتوقنوا بالمعاد إليه، لأن من قدر على ذلك كلّه فهو قادرٌ على إحياء الإنسان بعد موته ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي هو تعالى بقدرته بسط

---

(١) «أسباب النزول» ١٥٦. (ش): صحيح، رواه النسائي والبزار وأبو يعلَى.

(٢) انظر توضيح الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة.

(٣) «تفسير الطبري» ١٣/ ٩١.

(٤) (ش): التجسيم لم يَرِدْ نَفْيُه ولا إثباته في الكتاب والسنة وهو من الألفاظ التي تحتمل حقًّا وباطلاً.

(٥) انظر أقوال السلف في سورة الأعراف من هذا الكتاب.

الأرض وجعلها ممدودة فسيحة، وهذا لا ينافي كرويتها فإن ذلك مقطوعٌ به، والغرضُ أنه تعالى جعلها واسعة فسيحة ممتدة الآفاق ليستقر عليها الإنسان والحيوان، ولو كانت كلها جبالاً ووديانـاً لما أمكن العيش عليها قال في «التسهيل»: ولا يتنافى لفظُ البسط والمدِّ مع التكوير، لأن كل قطعةٍ من الأرض ممدودةٌ على حِدتَها، وإنما التكوير لجملة الأرض[1] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي وخلق في الأرض جبالاً ثوابتَ رواسخ لئلا تضطرب بأهلها كقوله ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] ﴿وَأَنْهَارًا﴾ أي وجعل فيها الأنهار الجاريات ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى ليتمَّ بينهما أسباب الإخصاب والتكاثر طبق سنته الحكيمة وقال «أبو السعود»: أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين، إمّا في اللون كالأبيض والأسود، أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في القَدْر كالصغير والكبير، أو في الكيفيّة كالحارّ والبارد وما أشبه ذلك[2] ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي يُلبسه إياه فيصير الجو مُظْلماً بعد ما كان مضيئاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إنَّ في عجائب صنع الله لدلالات وعلامات باهرة على قدرته ووحدانيته لمن تأمل وتفكَّر، وخُصَّ «المتفكرون» بالذكر لأنَّ ما احتوتْ عليه هذه الآيات من الصنيع العجيب لا يُدرك إلا بالتفكر ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي في الأرض بقاعٌ مختلفةٌ متلاصقات قريبٌ بعضها من بعض قال ابن عباس: أرضٌ طيبة، وأرضٌ سَبْخة، تُنْبِتُ هذه، وهذه إلى جنبها لا تُنْبِت[3] ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي بساتين كثيرة من أشجار العنب ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي وفي هذه القطع المتجاورة أنواع الزروع والحبوب والنخيل والرطب، منها ما يَنْبُت منه من أصل واحدٍ شجرتان فأكثر، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ أي الكل يسقى بماء واحدٍ، والتربة واحدة، ولكنَّ الثمار مختلفات الطعوم قال «الطبري»: الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ، والكمثرى، والعنب الأبيضُ والاسود، بعضُها حلوٌ، وبعضُها حامض، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شربٍ واحد[4] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي علامات باهرة ظاهرة لمن عقل وتدبَّر، وفي ذلك ردٌّ على القائلين بالطبيعة ﴿وَإِن تَعْجَبْ

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٢/ ١٣٠.
(٢) «أبو السعود» ٣/ ٩٧.
(٣) «تفسير الطبري» ١٣/ ٩٧.
(٤) «نفس المرجع السابق» ١٣/ ٩٨.

﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إن تعجب يا محمد من شيء فليس ما هو أعجب من قول الكفار أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً هل سنبعث من جديد؟ فإن إنكارهم للبعث حقيقٌ أن يُتعجب منه، فإن الذي قدر على إنشاء ما ذكرنا من السماوات والأرض، والأشجار والثمار، والبحار والأنهار قادرٌ على إعادتهم بعد موتهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي هؤلاء الذين أنكروا البعث هم الجاحدون لقدرة الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي يُغلُّون بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي وهم في جهنم مخلدون فيها أبداً لا يموتون فيها ولا يُخْرجون ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي يستعجلك المشركون يا محمد بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، استعجلوا ما هُدّدوا به من عذاب الدنيا استهزاءً ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي وقد مضت عقوباتُ أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون ولا يتّعظون؟ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي وإن ربك لذو صفح عظيم للناس، لا يعجّل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي شديد العقاب لمن أصرَّ على المعاصي ولم يتب ومن ذنوبه. قرن تعالى بين سعة حلمه وشدة عقابه ليبقى العبد بين الرغبة والرهبة، والرجاء والخوف ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي ويقول المشركون من كفار قريش: هلاّ أُنزل على محمد معجزة تدل على صدقه مثل معجزات موسى وعيسى! قال في البحر: لم يعتدّوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر، وانقياد الشجر، ونبع الماء من بين الأصابع وأمثال هذه المعجزات فاقترحوا عناداً آيات أخرى[١] ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ جواب لما اقترحوا أي لستَ أنت يا محمد إلا محذّر ومبصِّر، شأنك شأن كل رسول قبلك، فلكل قوم نبيٌّ يدعوهم إلى الله وأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبّر الكون والعباد ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي الله وحده الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها هل هو ذكرٌ أم أنثى؟ تامٌّ أم ناقص؟ حسنٌ أم قبيح ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي وما تنقصه الأرحامُ بإلقاء الجنين قبل تمامه ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي وما تزداد على الأشهر التسعة قال ابن عباس: ما تغيضُ بالوضع لأقلَّ من تسعة أشهر، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر، وعنه المراد بالغيض: السقطُ الناقصُ، وبالازدياد: الولدُ التام[٢] ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي كلُّ شيء من الأشياء عند الله تعالى بقدر محدد لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ما غاب عن الحسّ وما كان مشاهَداً

(١) «البحر المحيط» ٥/ ٣٦٧.

(٢) «زاد المسير» ٤/ ٣٠٨.

منظوراً، فعلمهُ تعالى شاملٌ للخفيّ والمرْئيّ لا يخفى عليه شيء ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ أي العظيم الشأن الذي كل شيء دونه المُسْتَعْلِي على كل شيء بقدرته(١) المنزَّه عن المشابهة والمماثلة ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي يستوي في علمه تعالى ما أضمرتْهُ القلوبُ وما نطقتْ به الألسنة ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ويستوي عنده كذلك من هو مستترٌ بأعماله في ظلمات الليل وهو في غاية الاختفاء، ومن هو ذاهبٌ في طريقه بوَضَح النهار مستعلنٌ لا يستخفي فيما يعمل وهو في غاية الظهور ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي لهذا الإِنسان ملائكة موكَلةٌ به تتعقب في حفظه يأتي بعضُهم بعَقِب بعض كالحَرَس في الدوائر الحكومية(٢) ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي من أمام الإِنسان ومن ورائه ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي يحفظونه من الأخطار والمضارّ بأمره تعالى قال مجاهد: ما من عبدٍ إلا وملكٌ موكلٌ به يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإِنس والهوام(٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي لا يزيل نعمته عن قوم ولا يسلبهم إيّاها إلا إذا بدّلوا أحوالهم الجميلة بأحوال قبيحة، وهذه من سنن الله الاجتماعية أنه تعالى لا يبدل ما بقومٍ من عافيةٍ ونعمة، وأمنٍ وعزة إلا إذا كفروا تلك النعم وارتكبوا المعاصي وفي الأثر «أوحى الله إلى نبيّ من أنبياء بني إسرائيل أن قلْ لقومك: إنه ليس من أهل قرية، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون»(٤) ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ أي وإذا أراد تعالى هلاك قوم أو عذابهم ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي لا يقدر على ردّ ذلك أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي ليس لهم من دون الله وليٌّ يدفع عنهم العذاب والبلاء ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ هذا بيانٌ لآثار قدرته تعالى المنبثّة في الكون أي يريكم أيها الناس البرق الخاطف من خلال السحاب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال ابن عباس: خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث(٥)، فإن البرق غالباً ما يعقبه صواعق مدمّرة، وقد يكون وراءه المطر المدرار الذي به حياة البلاد والعباد ﴿وَيُنشِئُ

---

(١) (ش): هذا تفسير ناقص، والحق: أنه تعالى مُسْتَعْلٍ على كل شيء بذاته وقَدْرِه وقهره، وقد أثبت المؤلف: لله عز وجل علو ذاته عز وجل فوق العرش علوًّا يليق بجلاله.

(٢) (ش): تشبيه الملائكة بالبشر فيه تنقيصٌ لقَدْرهم، وفيه تشبيه لحراسة الملائكة بحراسة البشر، والمشبه أقل من المشبه به، فعلى هذا تكون حراسة الملائكة أقل من حراسة البشر.

(٣) «الطبري» ١٣/ ١١٩.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في «مختصر ابن كثير» ٢/ ٢٧٤. (ش): هذا الأثر ضعيف لا يثبت، فهو من كلام إبراهيم بن يزيد النخعي المتوفى سنة ٩٦ هـ وبينه وبين أنبياء بني إسرائيل مفاوز. ورُوِيَ مرفوعًا (أي منسوبًا إلى النبي ﷺ) فِي كِتَابِ «صِفَةُ الْعَرْشِ» لابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وضعَّفه الحافظ ابن كثير.

(٥) «زاد المسير» ٤/ ٣١٣.

﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي وبقدرته كذلك يخلق السحب الكثيفة المحمَّلة بالماء الكثير ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي يسبّح الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه، وتسبّح له الملائكة خوفاً من عذابه، وتسبيحُ الرعد حقيقةٌ دلَّ عليها القرآن فنؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات فهو تعالى لا يخبر إلا بما هو حقٌّ كما قال ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أي يرسل الصواعق المدمّرة نقمة يهلك بها من شاء ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي وكفار مكة يجادلون في وجود الله[1] ووحدانيته وفي قدرته على البعث ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي وهو تعالى شديد القوة والبطش والنكال، القادر على الانتقام ممن عصاه ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي لله تعالى تتجه الدعوةُ الحق فهو الحقيق بأن يُعبد وحده بالدعاء والالتجاء ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي والآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداءً ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي إلا كمن يبسط كفيه للماء من بعيد يدعوه ويناديه ليصل الماء إلى فمه، والماءُ جمادٌ لا يُحسُّ ولا يسمع قال «أبو السعود»: شبّه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلاً بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فمه وليس الماء ببالغ فمه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه[2] ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي ما دعاؤهم والتجاؤهم لآلهتهم إلا في ضياع وخسار لأنه لا يُجدي ولا يفيد ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ولله وحده يخضع وينقاد أهل السماوات وأهل الأرض ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي طائعين وكارهين قال الحسن: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرْهاً[3] أي في حالة الفزع والاضطرار ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي وتسجد ظلالُهم أيضاً لله في أول النار وأواخره، والغرضُ الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كلَّ شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الآدميّين، الكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: مَنْ خالق السماوات والأرض ومدبّر أمرهما؟ والسؤال للتهكم والسخرية بما عبدوا من دون الله ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي قل لهم تقريعاً وتبكيتاً: اللهُ خالقُهما ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي قل لهم - إلزاماً لإقامة الحجة

(١) (ش): كان كفار قريش يؤمنون بوجود الله، وإنما يجادلون في تخصيصه بالعبادة.
(٢) «أبو السعود» ٣/ ١٠٢.
(٣) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٠١.

عليهم - أجعلتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم، ولا على دفع الضُرّ عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ هذا تمثيلٌ لضلالهم في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن، وبالظلمات الضلالُ وبالنور الهدى أي كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء، فالفارق بين الحق والباطل واضحٌ وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج عليهم والتهكم بهم أي أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً خلقوا مخلوقاتٍ كالتي خلقها الله فالتبس الأمر عليهم فلا يدرون خَلْقَ الله مِن خَلْقِ آلهتهم؟ وهو تهكم لاذع فإنهم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئًا، ثم بعد هذا كلّه يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين، ولما أقام الحجة عليهم جاء بهذا البيان الواضح ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ أي الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره، وهو المنفرد بالألوهية والربوبية، الغالب لكل شيء، وجميعُ الأشياء تحت قدرته وقهره.

البَلاغَة: في الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي:

١ - الإشارة بالبعيد عن القريب في ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تنزيلاً لها منزلة البعيد للدلالة على علو شأنها ورفعة منزلتها و (أل) في الكتاب للتفخيم أي الكتاب العجيب الكامل في إعجازه وبيانه.

٢ - الاستعارة التبعية في ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ شبّه إزالة نور النهار بواسطة ظلمة الليل بالغطاء الكثيف واستعار لفظ ﴿يُغْشِى﴾ المشير إلى تغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية الحسية للأمور المعنوية.

٣ - الطباق في ﴿تَغِيضُ .. تَزْدَادُ﴾ وفي ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وفي ﴿أَسَرَّ... جَهَرَ﴾ وفي ﴿مُسْتَخْفٍ .. وَسَارِبٌ﴾ لأن السارب الظاهر وفي ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وفي ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ وكلها من المحسنات البديعية اللفظية.

٤ - الإيجاز بالحذف في ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي اللهُ خالقُ السماوات والأرض.

٥ - التشبيه التمثيلي في ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾ شبَّه عدم استجابة الأصنام للداعين لها بعدم استجابة الماء لباسط كفيه إليه من بُعْد فوجه الشبه منتزع من متعدد.

٦ - الاستعارة في ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ استعار لفظ الظلمات والنور للكفر والإيمان وكذلك لفظ الأعمى للمشرك الجاهل والبصير للمؤمن العاقل.

تنبيه: سميت الملائكة معقبات لأنهم يتعاقبون على أعمال العباد بالليل والنهار كما في البخاري « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الْعَصْرِ » الحديث.

فَائِدَة: روي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن النبي ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد يقول: «سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير» وكان أبو هريرة يقول من قالها فأصابته صاعقةٌ فعليَّ دِيَتُه»[1].

قال الله تعالى:

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ
ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ
ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن
صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ
عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٢٩٨. (ش): رواه ابن جرير «الطبري» في تفسيره دون قوله: من قالها فأصابته صاعقةٌ فعليَّ دِيَتُه، بإسناد ضعيف. وعن ابن عباس، قال: «من سمع صوت الرعد، فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليَّ ديته» [رواه سعيد بن منصور بإسناد ضعيف جدًّا]. وكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ وَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ من خيفته. ثُمَّ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ». [رَوَاهُ البخاري في الأدب المُفرَد، وصححه الألباني].

تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ
أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ
هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ
ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ
جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ
فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ
مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أنَّ في الأرض دعوتين: دعوة الحق، ودعوة الباطل، وذكر أن دعوة الله هي دعوة الحق، ودعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل ذكر تعالى هنا مثلين ضربهما للحق وأهله، والباطلِ وحزبه، ليتضح الفرق بين الهدى والضلال، والرشد والغيّ، ثم أعقبه بذكر مآل المؤمنين في دار النعيم، والكافرين في دار الجحيم.

اللغَة: ﴿زَبَدًا﴾ الزبد: الغُثَاء الذي يحمله السيْل[1] ﴿رَّابِيًا﴾ عاليًا منتفخًا ﴿جُفَآءً﴾ مضمحلًّا متلاشيًا لا منفعة فيه ولا بقاء له[2] يقال: جفا الماء بالزبد إذا قذفه ورمى به ﴿ٱلْمِهَادُ﴾ الفِراش وأصله المكان الممهَّد الموطأ للنوم والراحة ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يدفعون والدرءُ: الدفع ﴿عُقْبَى﴾ العاقبة ويسمى الجزاء على الفعل عقبى لأنه يكون عقب الفعل ﴿عَدْنٍ﴾ استقرار وثبات وخلود يقال: عَدَن بالمكان إذا أقام به ﴿يَبْسُطُ﴾ يوسّع ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيّق ﴿مَتَٰعٌ﴾ كل شيء يتمتع به إلى أجل ثم ينتهي ويفنى ﴿طُوبَىٰ﴾ فرحٌ وقرة عين قال الزمخشري: مصدر من طاب كبشرى وزلفى ومعناه أصبتَ خيراً وطيباً[3] ﴿يَاْيْـَٔسِ﴾ اليأسُ: القنوط من الشيء ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ أمهلتُ يقال: أملى الله له إذا أمهله وطوَّل له المدة ﴿وَاقٍ﴾ اسم فاعل من وقى إذا دفع الأذى والضر عنه.

سَبَبُ النزول: قال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ فأنزل الله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ

(١) (ش): الغُثاء: ما يحمله السَّيلُ من رغوة ومن فُتات الأشياء التي على وجه الأرض.
(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٣٨٢.
(٣) «الكشاف» ٢/ ٥٢٨.

رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴾[١].

التفسير: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾ أي أنزل تعالى من السماء مطراً ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أي فجَرتْ مياه الأودية بمقدار سعتها كل بحَسَبه، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدار صغره ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾ أي حمل السيل الذي حدث من الأمطار زبداً عالياً فوقه وهو ما يحمله السيل من غثاء، ورغوة تظهر على وجه الماء قال «الطبري»: هذا مثلٌ ضربه الله للحق والباطل، والإيمان والكفر، فمثل الحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، مثلُ الماء الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض، فاحتمل السيل زبداً عالياً، فالحق هو الماء الباقي الذي يمكث في الأرض، والزبد الذي لا يُنتفع به هو الباطل، وهذا أحد مثلي الحق والباطل، والمثل الآخر[٢] قوله تعالى ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس، مما يُسبك في النار طلب الزينةِ أو الأشياء التي يُنتفع بها كالأواني زبدٌ مثل زبد السيل، لا يُنْتفع به كما لا يُنْتفع بَزَبد السيل ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ أي كذلك يضرب الله المَثَل للحق والمَثَل للباطل، فمثلُ الحق في ثباته واستقراره كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض فينتفع منه الناس، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء الذي يقذف به الماء يتلاشى ويضمحل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾ أي فأما الزبد الذي لا خير فيه مما يطفو على وجه الماء والمعادن فإنه يرمي به السيل ويقذفه ويتفرق ويتمزّق ويذهب في جانبَي الوادي ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وأمّا ما ينتفع الناس به من الماء الصافي، والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ أي مِثْلَ المَثَلين السابقين يبيّن الله الأمثال للحق والباطل، والهدى والضلال ليعتبر الناس ويتعظوا ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي للمؤمنين الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة المثوبةُ الحسنى وهي الجنة دار النعيم ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ أي لم يجيبوا ربهم إلى الإيمان به وهم الكافرون ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الدنيا من الأموال ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي ومثلَ جميع ما في الدنيا ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾ أي لبذلوا كل ذلك فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي لهم الحساب السيئ قال الحسن: يُحاسبون بذنوبهم كلها لا يُغفر لهم منها شيء ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة نار جهنم ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي بئس هذا المستقر والفِراش الممهد لهم في النار ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ الهمزة للاستفهام

---

(١) «أسباب النزول» ٢٥٧، و«تفسير القرطبي» ٩/ ٣١٨. (ش): ضعيف. رواه الواحدي في «"أسباب النزول"».

(٢) «الطبري» ١٣/ ١٣٤.

الإنكاري، أي: هل يستوي من آمن وصدَّق بما نزل عليك يا محمد ومن بقي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال لا لُبَّ له كالأعمى؟ والمراد به عَمَى البصيرة. قال ابن عباس نزلت في حمزة وأبي جهل[١] ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول السليمة، ثم عَّدد تعالى صفاتهم فقال ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي يُتِمُّون عهد الله الذي وصاهم به وهي أوامره ونواهيه التي كلَّف بها عباده ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ أي لا يخالفون ما وثقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله، وبين العباد ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي يصلون الأرحام التي أمر الله بصلتها ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ أي يهابون ربهم إجلالاً وتعظيماً ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي يخافون الحساب السيئ المؤدي لدخول النار، فهم لرهبتهم جادّون في طاعة الله، محافظون على حدوده ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ أي صبروا على المكاره طلباً لمرضاة الله ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدَّوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أي أنفقوا بعض أموالهم التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون الجهلَ بالحلم والأذى بالصبر وقال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح السيئ من الأعمال[٢] بمعنى يفعلون الحسنات ليدرءوا بها السيئات وفي الحديث « وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا »[٣] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة وهي الجنة وقد جاء تفسيرها في قوله ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ أي جنات إقامة خالدة يدخلها أولئك الأبرار ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم، ليأنسوا بلقائهم ويتمَّ بهم سرورهم، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم، فترفع منازل هؤلاء إكراماً لأولئك وذلك فضل الله، ثم إنَّ لهم إكراماً آخر بيّنه بقوله ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ أي والملائكةُ تدخل عليهم للتهنئة من كل باب من أبواب الجنة يقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ أي سلمتم من الآفات والمحن بصبركم في الدنيا، ولئن تعبتم فيما مضى فلقد استرحتم الساعة، وهذه بشارة لهم بدوام السلامة ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي نعمت هذه العاقبة الحميدة عاقبتكم وهي الجنة بدل النار، ولما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين التسع أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الذميمة فقال ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن

---

(١) (ش): ذكره «القرطبي» وأبو حيان الأندلسي في تفسيرَيهما بدون إسناد.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣١١.

(٣) (ش): رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

﴿يُوصَلَ﴾ أي يقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر من القبائح لهم البعد من رحمته، والطردُ من جنته ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي لهم ما يسوءهم في الدار الآخرة وهو عذاب جهنم على عكس المتقين ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسّع على من يشاء من عباده ويضيّق على من يشاء حسب الحكمة والمصلحة ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وفرح هؤلاء المشركون بنعيم الدنيا فرحَ أشَرٍ وبَطَرٍ[1]، وهو إخبار في ضمنه ذم وتسفيه لمن فرح بالدنيا ولذلك حقّرها بقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي قليل وشيء حقير بالنظر إلى الآخرة ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي ويقول كفار مكة: هَلَّا أُنزل على محمد معجزة من ربه مثل معجزة موسى في فلق البحر، ومعجزة عيسى في إحياء الموتى ونحو ذلك ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي قل لهم يا محمد: الأمر بيد الله وليس إليَّ، يُضلُّ من يشاء إضلاله فلا تغني عنه الآياتُ والنُّذُر شيئًا، ويرشد إلى دينه من أراد هدايته لأنه رجع إلى ربه بالتوبة والإنابة قال في «التسهيل»: خرج بالكلام مخرج التعجب حين طلبوا آية. والمعنى قد جاءكم محمد ﷺ بالقرآن وآياتٍ كثيرة فعميتُم عنها، وطلبتم غيرها، وتماديتم على الكفر فإنه تعالى يضل من يشاء مع ظهور الآيات، ويهدي من يشاء دون ذلك[2] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هذا بدلٌ[3] والمعنى يهدي أهل الإنابة وهم الذين آمنوا وتسكن وتستأنس قلوبهم بذكر الله وتوحيده، وجيء بصيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم فإن بذكر الله تستأنس وتسكن قلوب المؤمنين، فلا يشعرون بقلق واضطراب من سوء العقاب، على عكس الذين إذا ذكر الله اشمأزتْ قلوبُهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي أما المؤمنون أهل الأعمال الصالحة فقرة عينٍ لهم ونعم ما يلقون من الهناءة والسعادة في المرجع والمنقلب قال ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ فرحٌ وقرة عين ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي كما أرسلنا الأنبياء من قبلك كذلك أرسلناك يا محمد في أمة قد مضت قبلها أمم كثيرة، فهي آخر الأمم وأنتَ

---

(١) (ش): أشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرح ونشِط. بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرَحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.

(٢) «التسهيل» ٢/ ١٣٤.

(٣) (ش): البدل: تابعٌ ممهَّدٌ له بذِكْر اسمٍ قبله غير مقصود لذاته، مثل «حضر أخوك حسنٌ». فإن ذِكْر الأخ غير مقصود لذاته، وإنما المقصود بالذِّكْر هو «حسن» وقد ذُكرت كلمة الأخ تمهيدًا لما بعدها، وليكون الكلام أقوى في نفس السامع؛ لأنك تنسب فيه الحضور إلى حسن مرتين، مرة باعتبار أنه أخ، ومرة بذكر اسمه.

خاتم الأنبياء ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي لتبلّغهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ أي والحال أنهم يكفرون بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته هو ربي الذي آمنتُ به لا معبود لي سواه ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ أي عليه وحده اعتمدت، وإليه توبتي ومرجعي فيثيبني على مجاهدتكم، والغرضُ تسلية النبي ﷺ مما يلقاه من كفار قريش من الجحود والعناد فقد كذَّب قبلهم الأمم ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي لو كان كتابٌ من الكتب المنزّلة سُيرت بتلاوته الجبال وزعزعت عن أماكنها ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي شُققت به الأرض حتى تتصدَّع وتصير قطعاً ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي خوطبت به الموتى حتى أجابت وتكلمت بعد أن أحياها الله بتلاوته عليها، وجواب ﴿وَلَوۡ﴾ محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكونه غايةً في الهداية والتذكير، ونهايةً في الإنذار والتخويف[1] وقال الزجاج: تقديره «لما آمنوا» لغلوهم في المكابرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ بلْ للإضراب والمعنى: لو أن قرآناً فُعل به ما ذُكر لكان ذلك هذا القرآن، ولكنَّ الله لم يُجِبْهم إلى ما اقترحوا من الآيات، لأنه هو المالك لجميع الأمور والفاعل لما يشاء منها من غير أن يكون لأحدٍ عليه تحكّمٌ أو اقتراح ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ أي أفلم يقْنَط وييأس المؤمنون من إيمان الكفار، ويعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم لأن الأمر له، ولكنْ قضت الحكمة أن يكون بناء التكليف على الاختيار[2] ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أي ولا يزال كفار مكة يصيبهم بسوء أعمالهم وكفرهم داهيةٌ تقرع أسماعهم وتقلق بالهم من صنوف البلايا والمصائب ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ أي أو تحلُّ القارعة والداهية قريباً من ديارهم فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ بإظهار الإسلام وانتصارك عليهم بفتح مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي لا يخلف وعده لرسله وأوليائه بنصرهم على أعدائه ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تسلية وتأنيس للنبي ﷺ، أي: كما استهزأ بك المشركون فقد استهزأ المجرمون برسلهم وأنبيائهم ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ أي أمهلتهم وتركتهم في أمنٍ ودَعة ثم أخذتهم بالعذاب ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فكيف كان عقابي لهم على الكفر والتكذيب؟

(١) هذا اختيار الزمخشري. واختار الزجاج أن التقدير «لما آمنوا».

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أفلم يعلم ويتَبيَّن وهي لغة هوازن وهذا منقول عن بعض السلف، ولكن لا ضرورة لإخراج الكلمة عن معناها الأصلي طالما يمكن فهمها على الوجه المتبادر كما بَيَّنَّا.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي أفمن هو رقيب حفيظ على عمل كل إنسان لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد وهو الله تعالى، والخبر محذوف تقديره: كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تملك من الأمر شيئاً قال الفراء: وتُرك جوابُه لأن المعنى معلومٌ وقد بيّنه بعد هذا بقوله ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ كأنه قيل: هل الله كشركائهم؟[١] وقال الزمخشري: هذا احتجاجٌ عليهم في إشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو قائم رقيب على كل نفس صالحة أو طالحة بما كسبت من خير أو شر وقد أعدَّ لكل جزاءه كمن ليس كذلك[٢] ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي وجعل المشركون آلهة عبدوها معه من أصنام وأنداد في منتهى العجز والحقارة والجهالة، قل لهم يا محمد: سمّوهم لنا وصِفُوهُم لننظر هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة مع الله؟ ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أم تخبرون الله بشركاء لا يعلمهم سبحانه وهو استفهام للتوبيخ ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي أم تسمونهم شركاء بظن باطل فاسد لا حقيقة له، لفرط الجهل وسخافة العقل ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ أي زيَّن لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي مُنعوا عن طريق الهدى ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يضلله الله فما له أحدٌ يهديه ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي لهؤلاء الكفرة عذاب عاجل في هذه الحياة الدنيا بالقتل والأسر وسائر المحن ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أثقل وأشد إيلاماً من عذاب الدنيا ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ﴾ أي وليس لهم من يحميهم من عذاب الله أو يدفع عنهم سخطه وانتقامه.

البَلاَغَة: ١ - ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ ..﴾ الآية. شبّه تعالى الحق والباطل بتشبيه رائع يسمى «التشبيه التمثيلي» لأن وجه الشبه فيه منتزعٌ من متعدد، فمثَّل الحق بالماء الصافي الذي يستقر في الأرض، والجوهرِ الصافي من المعادن الذي به ينتفع العباد، ومثَّل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على وجه الماء، والخبثِ من الجوهر الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل، والصورة التي توحي بها الآية «صورة الحق والباطل» وهما في صراع كالزبد الذي تتقاذفه الأمواج ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو تمثيل في منتهى الروعة والجمال.

٢ - ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ مجاز عقلي من إسناد الشيء لمكانه والأصل فسالت مياه الأودية.

٣ - ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أمثال الحق وأمثال الباطل.

---

(١) «زاد المسير» ٤/ ٣٣٣.

(٢) «الكشاف».

٤ - ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ ... وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ بينهما طباق السلب.

٥ - ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ شبّه الجهل والكفر بالعمى على سبيل الاستعارة التبعية لأن المراد بالأعمى الجاهل الكافر.

٦ - ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ و ﴿يَبْسُطُ .. وَيَقْدِرُ﴾ و ﴿يُضِلُّ ..وَيَهْدِيٓ﴾ للتضاد بين اللفظين.

٧ - ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي إلا مثل المتاع الذي يستمتع به الإنسان في الحاجات الموقتة ففيه تشبيه بليغ لحذف الأداة ووجه الشبه.

فَائِـدَة: بيَّـن تعالى في قوله ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أن النسب لا ينفع إذا لم يحصل معه العمل الصالح، وفيه قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب.

تنبيـه: قال الإمام الطيبي في قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾: في هذه الآية احتجاج بليغ مبنيٌّ على فنون من علم البيان أولها: التوبيخ لهم على قياسهم الفاسد في عبادة غير الله.

ثانيها: وضع الظاهر موضع الضمير ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾[(١)] تنبيهاً على ضلالهم في جعل شركاء لمن هو فردٌ واحد لا يشاركه أحد في اسمه. ثالثها: إنكار لوجود الشركاء على وجه برهاني ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾[(٢)]

رابعها: نَفْيُ الشيءِ بنفْيِ لازمِه ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾[(٣)].

خامسها: الاحتجاج عليهم بطريق التدرج لبَعْثِهم على التفكر ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي أتقولون بأفواهكم من غير رَوِيَّة[(٤)] ولا تفكير ببطلان ما تقولون؟ فكان هذا الاحتجاج منادياً على نفسه بالإعجاز وأنه ليس من كلام البشر[(٥)].

قال الله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ

(١) (ش): فلم يقل: (وجعلوا له شركاء).

(٢) (ش): أي عيِّنوا أسماءَهم فقولوا: فلان وفلان فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني، كما تقول: إن كان الذي تدَّعيه موجوداً فسَمِّهِ، لأن المراد بالاسم العَلَم.

(٣) (ش): فما لا يعلمه الله فليس بموجود إذ الله خالق كل شيء.

(٤) (ش): رَوِيَّة: نَظَرٌ وتفكير في الأمور.

(٥) نقلاً عن «حاشية الصاوي على الجلالين».

أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ
لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ
بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ
ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى ما أعدَّ للكفار في الآخرة ذكر ما أعد للمؤمنين في جنات النعيم، ثم توعد المشركين بالعذاب الأليم، وختم السورة الكريمة ببيان صدق رسالته عليه السلام بشهادة الله تعالى وشهادة المؤمنين من أهل الكتاب.

اللغـة: ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ الطوائف المتفرقة من أحزاب اليهود والنصارى سموا بذلك؛ لأنهم جماعات متفرقة لا تجمعهم عقيدة واحدة ﴿مَـَٔابِ﴾ أي مآبي بمعنى مرجعي ﴿يَمْحُوا۟﴾ المحو: إزالة الأثر من كتابة أو غيرها وعكسه الإثبات ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل كل الكتب والمراد منه علم الله أو اللوح المحفوظ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ اسم بمعنى التبليغ ﴿مَكَرَ﴾ المكرُ: تدبير أمرٍ في خفاء، وقد يكون في الخير وقد يكون في الشر.

سَبَبُ النّزول: قال الكلبي: عيَّرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح ولو كان نبيًا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (١).

التفسير: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي صفة الجنة العجيبة الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين أنها تجري من تحت قصورها وغرفها الأنهار ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي ثمرها دائم لا ينقطع، وظلُّها دائم لا تنسخه الشمس ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي تلك الجنة عاقبة المتقين ومآلهم ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ أي وأما عاقبة الكفار الفجار فهي النار ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي والذين أنزلنا إليهم التوراة والإنجيل - ممن آمن بك واتبعك يا محمد - كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه يفرحون بهذا القرآن لِمَا في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي ومن أهل الملل المتحزبين عليك وهم أهل أديان شتى من ينكر بعض القرآن مكابرة مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما معهم ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي قل يا محمد إنما أُمرتُ بعبادة الله وحده لا أشركُ معه غيره

---

(١) «أسباب النزول» ١٥٨. (ش): موضوع. رواه الواحدي في ««أسباب النزول»».

﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس وإليه مرجعي ومصيري ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّا﴾ أي ومثل إنزال الكتب السابقة أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب لتحكم به بين الناس ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي ولئن اتبعتَ المشركين فيما يدعونك إليه من الأهواء والآراء بعد ما آتاك الله من الحجج والبراهين ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ أي ليس لك ناصرٌ ينصرك أو يَقِيك من عذاب الله، والمقصود تحذير الأمة من اتباع أهواء الناس؛ لأن المعصوم إذا خوطب بمثل ذلك كان الغرض تحذير الناس قال «القرطبي»: الخطاب للنبي ﷺ والمراد الأمة[1] ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي أرسلنا قبلك الرسل الكرام ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾ أي وجعلنا لهم النساء والبنين، وهو ردٌّ على من عاب على الرسول ﷺ كثرة النساء وقالوا: لو كان مرسلاً حقًّا لكان مشتغلاً بالزهد وترك الدنيا والنساء، فردَّ الله مقالتهم وبيَّن أن محمداً ﷺ ليس ببِدْعٍ في ذلك، بل هو كمن تقدم من الرسل[2] ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي لم يكن لرسولٍ أن يأتي قومه بمُعجزة إلا إذا أذن الله له فيها، وهذا ردٌّ على الذين اقترحوا الآيات ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ أي لكل مدةٍ مضروبة كتابٌ كتبه الله في اللوح المحفوظ، وكلُّ شيء عنده بمقدار قال «الطبري»: لكل أمر قضاه الله كتابٌ قد كتبه فهو عنده[3] ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ﴾ أي ينسخ الله ما يشاء نَسْخَه من الشرائع والأحكام وصحف الملائكة الكرام، ويثبتُ ما يشاء منها دون تغيير قال ابن عباس: يبدّل الله ما يشاء فينسخه إلا الموتَ والحياة والشقاء والسعادة فإنه قد فرغ منها[4] وقيل: إن المحو والإثبات عامٌّ في جميع الأشياء[5] لما روي أن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت ويبكي ويقول: اللهمَّ إن كنتَ كتبت عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمُّ الكتاب، واجعله سعادةً ومغفرة[6]، وقد رجحه «أبو السعود» وهو قول ابن مسعود أيضاً ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقاديرَ الأشياءِ كلِّها ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ أي وإن أريناك يا محمد بعض الذي وعدناهم من العذاب ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي نقبضك قبل أن نقر عينك بعذاب هؤلاء المشركين ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ الرسالة وعلينا حسابهم وجزاؤهم ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٢٧.
(٢) (ش): تقدمَ أن سبب النزول موضوع. رواه الواحدي في ««أسباب النزول»».
(٣) «تفسير الطبري» ١٣/ ١٦٥.
(٤) وهذا قول مجاهد أيضًا حيث قال: إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران.
(٥) (ش): أي يمحو الله ما يشاء من الأحكام والأقدار، ويُبْقِي ما يشاء منها لحكمة يعلمها.
(٦) «تفسير الطبري» ١٣/ ١٦٧.

﴿مِنۡ أَطۡرَافِهَا﴾ أي أولمْ ير هؤلاء المشركون أنّا نُمَكِّن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام؟ وذلك من أقوى الأدلة على أن الله منجزٌ وعده لرسوله عليه السلام ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ أي ليس يتعقب حُكْمَه أحدٌ بنقصٍ ولا تغيير ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي سريع الانتقام ممن عصاه ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي مكر الكفار الذين خَلَوْا بأنبيائهم كما مكر كفار قريش بك ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗا﴾ أي له تعالى أسباب المكر جميعاً لا يضر مكرهم إلا بإرادته، فهو يوصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ أي من خير وشر فيجازي عليه ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي لمن تكون العاقبة الحسنة في الآخرة ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗا﴾ أي يقول كفار مكة: لستَ يا محمد مرسلاً من عند الله ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي حسبي شهادة الله بصدقي بما أيدني من المعجزات ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب.

البَلاَغَة: في الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ – التشبيه في قوله ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ وفي ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ويسمى مرسلاً مجملاً.

٢ – الإيجاز بالحذف في ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾ أي وظلها دائم حذف منه الخبر بدليل السابق.

٣ – المقابلة في ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٤ – جناس الاشتقاق في ﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا﴾.

٥ – الطباق في ﴿يَمۡحُواْ .. وَيُثۡبِتُ﴾.

٦ – القصر في ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ وفي ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ وكلاهما قصرٌ إضافي من باب قصر الموصوف على الصفة، أي: ليس لك من الصفات إلا صفة التبليغ.

٧ – التهييج والإلهاب ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾.

٨ – المجاز المرسل في ﴿نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي يأتيها أمرُنا وعذابُنا[1].

---

(١) (ش): (أَتى): تَأتي بعدة معان، مِنْهَا: بِمَعْنَى الْمَجِيءِ، وَمِنْهَا بِمَعْنَى الْإِنْذَارِ، وَمِنْهَا بِمَعْنَى الْمُدَاهَمَةِ. وَيُقَالُ: أُتِيَ فُلَانٌ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ التَّاءِ إِذَا أَظَلَّ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: «من مأمنه يُؤتى الحَذِرُ»، أَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ، فَإِنَّ سِيَاقَ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا السِّيَاقِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الصِّفَاتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾، أَيْ هَدَمَهُ وَاقْتَلَعَهُ مِنَ قَوَاعِدِهِ، وَنَظِيرِهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ أي أَخَذَهُمْ وَدَهَاهُمْ وَبَاغَتَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا. [انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ١٨)].

لطيفـة: فسَّـر بعضهـم قولـه تعالـى: ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَا﴾ أن نقصانها بمـوت علمائها وفقهائها وأهل الخير والصلاح، وهذا مرويٌّ عن مجاهد وابن عباس في رواية عنه وأنشـد بعضهم:

الْأَرْضُ تَحْيَا إِذَا مَا عَـاشَ عَالِمُهَا ... مَتَى يَمُتْ عَالِمٌ مِنْهَا يَمُتْ طَـرَفُ

كالْأَرْضِ تَحْيَا إِذَا مَا الْغيْثُ حَلَّ بِهَا ... وإِنْ أَبَى عَـادَ فِي أَكْنَافِهَا التَّلَفُ(١)

«انتهى تفسير سورة الرعد»



---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٢٨٧. (ش): طَرَف: قسْم، جزء، جانب، ناحية. أطراف المعمورة: أنحاء الأرض.

الغَيْث: المطر الغزير يجلب الخير. كَنَف: ناحية.



مكية وآياتها اثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة «الإيمان بالله، الإيمان بالرسالة، الإيمان بالبعث والجزاء» ويكاد يكون محور السورة الرئيس «الرسالة والرسول» فقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل، وبينت وظيفة الرسول، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، جاءوا لتشييد صرح الإيمان، وتعريف الناس بالإله الحق الذي تعنو له الوجوه، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فدعوتهم واحدة، وهدفهم واحد، وإن كان بينهم اختلاف في الفروع.

* وقد تحدثت السورة عن رسالة موسى عليه السلام، ودعوته لقومه إلى أن يعبدوا الله ويشكروه، وضربت الأمثال بالمكذبين للرسل، من الأمم السابقة كقوم نوح، وعاد، وثمود، ثم تناولت الآيات موضوع الرسل مع أقوامهم على مر العصور والدهور، وحكت ما جرى بينهم من محاورات ومناورات انتهت بإهلاك الله للظالمين ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾.

* وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة، حيث يلتقي الأشقياء المجرمون بأتباعهم الضعفاء، وذكرت ما يدور بينهم من حوار طويل، ينتهي بتكدس الجميع في نار جهنم يصطلون سعيرها، فلم ينفع الأتباع تلك اللعنات والشتائم التي وجهوها إلى الرؤساء فالكل في السعير، ثم ضربت الآيات مثلًا لكلمة الإيمان، وكلمة الضلال، بالشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة، وختمت السورة ببيان مصير الظالمين يوم الجزاء والدين.

التسمية: سميت السورة الكريمة «سورة إبراهيم» تخليدًا لمآثر أبي الأنبياء، وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي حطم الأصنام، وحمل راية التوحيد، وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين، وقد قص علينا القرآن الكريم دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق، وكلها دعوات إلى الإيمان والتوحيد.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ
لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ
لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ
وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟
أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾
۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ
عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم
مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ
ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ
ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

اللغة: ﴿وَوَيْلٌ﴾ هلاكٌ ودمار ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون ويفضّلون ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يذيقونكم يقال: سامه الذلَّ أي أذاقه الذل ﴿تَأَذَّنَ﴾ أعلم إعلاماً لا شبهة فيه ﴿نَبَؤُا۟﴾ النبأ: الخبر وجمعه أنباء ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ حجة وبرهان ﴿فَاطِرِ﴾ مبدع ومخترع ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ استنصروا على أعدائهم ﴿جَبَّارٍ﴾ الجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقًّا ﴿عَنِيدٍ﴾ العنيد: المعاند للحق والمجانب له الذي يذهب عن طريق الحق،

تقول العرب: شرُّ الإبل العَنُود ﴿صَدِيدٍ﴾ الصديد: القيح الذي يسيل من أجساد أهل النار ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي يتحسّاه[١] ويتكلفُ بَلْعَه بمرارة ﴿يُسِيغُهُۥ﴾ يبتلعه.

التفسير: ﴿الٓر﴾ هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف المقطعة فأتوا بمثله إن استطعتم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ أي هذا القرآن كتاب أنزلناه عليك يا محمد، لم تنشئْه أنت وإنما أوحيناه نحن إليك ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي لتخرج البشرية من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره وتوفيقه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي لتهديهم إلى طريق الله العزيز الذي لا يُغالب، المحمود بكل لسان، الممجَّد في كل مكان ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي المالك لما في السماوات والأرض، الغني عن الناس، المسيطر على الكون وما فيه ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال الزجاج: ﴿وَوَيْلٌ﴾ كلمة تُقال للعذاب والهلكة[٢]، أي هلاك ودمارٌ للكافرين ويا ويلهم من عذاب الله الأليم، ثم وضّح صفات أولئك الكفار بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي يفضّلون ويؤثرون الحياة الفانية على الحياة الآخرة الباقية ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يصرفون الناس ويمنعونهم عن دين الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون أن تكون دين الله معوجَّة لتوافق أهواءهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلالٍ عن الحق مبين، لا يُرجى لهم صلاح ولا نجاح ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي وما أرسلنا في الأمم الخالية رسولاً من الرسل إلا بلغة قومه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي ليبيّن لهم شريعة الله ويفهمهم مراده، لتتمَّ الغاية من الرسالة ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي وليست وظيفة الرسل إلا التبليغ وأما أمر الهداية والإيمان فذلك بيد الله يضلُّ من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته على ما سبق به قضاؤه المحكم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أن تفسيرية بمعنى أيْ. والمعنى أي أخرج بني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والتوحيد قال أبو حيان: وفي قوله ﴿قَوْمَكَ﴾ خصوصٌ لرسالة موسى إلى قومه بخلاف قوله لمحمد ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾[٣]

---

(١) (ش): تحسَّى المَرَقَ: تناوله جُرعةً بعد جُرعةٍ.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٣٩.

(٣) (ش): قال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

ما يدل على عموم الرسالة(١) ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي ذكّرهم بأياديه ونعمه عليهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي في التذكير بأيام الله لعبراً ودلالات لكل عبد منيب صابر على البلاء، شاكر للنعماء ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي حين نجاكم من الذل والاستعباد من فرعون وزبانيته ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث على قيد الحياة مع الذل والصَّغار ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي تلك المحنة ابتلاءٌ واختبار لكم من ربكم عظيم قال المفسرون: وكان سبب قتل الذكور أن الكهنة قالوا لفرعون: إنّ مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل كل مولود ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ هذا من تتمة كلام موسى أي واذكروا أيضًا حين أعلم ربكم إعلامًا لا شبهة فيه لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ أي ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان فإن عذابي شديد، وعدَ بالعذاب على الكفر، كما وعَدَ بالزيادة على الشكر ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي وقال موسى لبني إسرائيل بعد أن أيس من إيمانهم لئن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروا الله شيئًا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي هو غنيٌّ عن شكر عباده، مستحق للحمد في ذاته وهو المحمود وإنْ كَفَره مَن كَفَره ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي ألم يأتكم أخبار من قبلكم من الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود ماذا حلَّ بهم لما كذبوا بآيات الله ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي والأمم الذين جاءوا بعدهم ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي بالحجج الواضحات، والدلائل الباهرات ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيبًا لهم. وقال ابن مسعود: عَضُّوا أصابعَهم غيظًا(٢) ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي في شك عظيم من دعوتكم، وقلق واضطراب من دينكم ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم: أفي

(١) «البحر المحيط» ٥/ ٤٠٥.

(٢) مبنى القول الثاني على المجاز ومثله: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ والقول الأول محمول على الحقيقة وتوضيحه أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه.

وجـود الله ووحدانيته شـك؟ والاسـتفهام للإنكار والتوبيخ لأنه لا يحتمل الشـك لظهور الأدلـة ولهـذا لفتـوا الانتباه إلـى براهين وجـوده بقولهـم ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خالقهمـا ومبدعهمـا علـى غيـر مثـال سـابق ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي يدعوكـم إلـى الإيمـان ليغفـر لكـم ذنوبكـم ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي إن آمنتـم أمـدَّ في أعماركم إلى منتهـى آجالكم ولم يعاقبكم في العاجـل فيهلككم ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أي ما أنتم إلا بشـر مثلنـا لا فضل لكم علينا ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي تريـدون أن تصرفونـا عـن عبادة الأوثـان التي كان عليهـا آباؤنا ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي فأتونـا بحجـة ظاهـرة علـى صدقكـم ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي قالـت الرسـل: نحن كما قلتم بشـر مثلكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي يتفضـل علـى مـن يشـاء بالنبوة والرسـالة قال الزمخشـري: لـم يذكروا فضلهم تواضعـاً منهم وسـلّموا لقولهم وأنهم بشـرٌ مثلُهم في البشـرية وحدها، فأمّـا مـا وراء ذلك فمـا كانـوا مثلهـم[1] ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي ومـا ينبغـي لنا أن نأتيكم بحجة وآيـة مما اقترحتموه علينا إلا بمشـيئة الله وإذنه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي علـى الله وحـده فليعتمـد المؤمنـون في جميـع أمورهـم ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي قالت الرسـل: أيُّ شـيء يمنعنا مـن التوكل على الله؟ ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أي والحـال أنـه قد بصّرنـا طريق النجاة مـن عذابه ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا﴾ أي ولنصـبرنَّ على أذاكم قـال ابن الجوزي: وإنما قُصَّ هذا وأمثاله على نبينـا ﷺ ليقتدي بمـن قبله في الصبر وليعلم ما جرى لهـم[2] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ ليـس هذا تكراراً وإنما معناه الثبـات على التوكل أي فليدوموا وليثبتـوا على التوكل عليه وحـده، وهنا يسـفر الطغيان عن وجهـه متبجحاً بالقـوة المادية التي يملكهـا المتجبرون ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي قـال الكفار للرسـل الأطهار والله لنطردنكم من ديارنـا أو لترجعنَّ إلى ديننا ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي أوحـى الله إلى الرسـل لأهلكنَّ أعداءكـم الكافرين المتجبرين ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي ولأمْنَحنَّكـم سُـكْنَى أرضهـم بعـد هلاكهـم ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي ذلـك النصـر للرسـل وإهـلاك الظالميـن لمن خـاف مقامـه بين يديَّ وخـاف عذابي ووعيدي قـال في البحر: ولما أقسـموا على إخراج الرسـل أو العـودة في ملتهم أقسـم تعالى على إهلاكهـم، وأي إخراجٍ أعظـم من الإهلاك

---

(١) «الكشاف» ٢/ ٥٤٤.

(٢) «زاد المسير» ٤/ ٣٥٠.

بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً[1] ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي واستنصر الرسل بالله على قومهم وخسر وهلك كل متجبر معاند للحق ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم ويسقى فيها من ماءٍ صديد هو من قيح ودم ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته، ولا يكاد يستسيغه لقبحه وكراهته ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ أي يأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنَّه لا يموت ليستكمل عذابه ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ أي ومن بين يديه عذابٌ أشدُّ مما قبله وأغلظ.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة في ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ حيث استعار الظلمات للكفر والضلال، والنور للهدى والإيمان، وكذلك ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾ استعارة عن غواشي[2] الكروب وشدائد الأمور، فقد يوصف المغموم بأنه في غمرات الموت مبالغة في عظيم ما يغشاه وأليم ما يلقاه.

٢ - الطباق بين ﴿يُضِلُّ وَيَهۡدِي﴾ وبين ﴿شَكَرۡتُمۡ .. كَفَرۡتُمۡ﴾ وبين ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم.. لَتَعُودُنَّ﴾.

٣ - صيغة المبالغة في ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ وفي ﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ وفي ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

٥ - السجع في ﴿شَدِيدٞ ، بَعِيدٍ ، عَنِيدٍ﴾ إلخ.

فَائِـدَة: ذكر تعالى في البقرة ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٩] بغير واوٍ وهنا ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بالواو، والسرُّ في ذلك أنه في سورة البقرة جاء اللفظ تفسيراً لما سبق من قوله ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩] فكأنه قال يسومونكم سوء العذاب ثم فسره بقوله ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٩] أما في هذه السورة فهو غير تفسير لأن المعنى أنهم يعذبونهم بأنواع من العذاب وبالتذبيح أيضاً فهو نوع آخر من العذاب غير الأول. والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ

---

(١) «البحر المحيط» ٥/ ٤١١.

(٢) (ش): غاشية: داهية، نازلة من خير أو شرّ أو مكروه.

قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ
ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم
مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ
وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ
أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ
ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي
ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا
لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

المناسَبَة: لما حكى تعالى استهزاء الكفار بالرسل، وما أعدَّ لهم من العذاب والنكال في الآخرة، ضرب مثلاً لأعمالهم، ثم ذكر المناظرة بين الرؤساء والأتباع، وعقّبها بالتذكير بنعم الله على العباد ليعبدوه ويشكروه.

اللغَة: ﴿عَاصِفٍ﴾ شديد الريح ﴿وَبَرَزُواْ﴾ البروز: الظهور بعد الخفاء، والبَراز المكان الواسع لظهوره، وامرأةٌ بـرْزة أي تظهر للناس ﴿مَّحِيصٍ﴾ منجى ومهرب يقال: حاصَ عن كذا أي فرَّ وأراد الهرب منه ﴿أَجَزِعْنَآ﴾ الجزع: عدم احتمال الشدة وهو نقيض الصبر ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ مُغيثكم. الصارخ: المستغيث، والمُصرِخ: المغيث، قال أمية:

فَلَا تَجْزَعُوا إِنِّي لَكُمْ غَيْرُ مُصْرِخٍ ... وَلَيْسَ لَكُمْ عَنِّي غَنَاءٌ وَلَا نَصْرٌ (١)

﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ اقتُلِعَت من أصلها ﴿ٱلْبَوَارِ﴾ الهلاك ﴿خِلَٰلٌ﴾ جمع خُلَّة وهي الصحبة والصَّداقة قال امرؤ القيس:

---

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٥٧.

صَرَفْتُ الْهَوَى عَنْهُنَّ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى وَلَسْتُ بِمُقْلِي الْخِلَالِ وَلَا قَالِ[١]

﴿دَآئِبَيْنِ﴾ الدؤب في اللغة: مرورُ الشيء في العمل على عادة مطردة يقال دأب دؤباً.

التفسير: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي مثلُ أعمالِ الكفار التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر من صدقةٍ وصلة رحم وغيرها مثلُ رمادٍ عصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي في يوم شديد هبوب الريح قال «القرطبي»: ضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى[٢] ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي لا يقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البرِّ في الدنيا لإِحباطه بالكفر، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيَّرته الريح ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي الخسران الكبير ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ألم تر أيها المخاطب بعين قلبك وتتأمل ببصيرتك أن اللهَ العظيم الجليل انفرد بالخلق والإيجاد، وأنه خلق السماوات والأرض ليُستدلَّ بهما على قدرته؟ قال المفسرون: أي لم يخلقهن عبثاً وإنما خلقهنَّ لأمرٍ عظيم ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هو قادرٌ على الإفناء كما هو قادر على الإِيجاد والإحياء قال ابن عباس يريد: يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع[٣] ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ليس ذلك بصعبٍ أو متعذرٍ على الله، فإنَّ القويَّ القادر لا يصعبُ عليه شيء ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي خرجوا من قبورهم يوم البعث، وظهروا للحساب لا يسترهم عن الله ساتر. قال الإمام الفخر: ورد بلفظ الماضي ﴿وَبَرَزُواْ﴾ وإن كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدقٌ وحق، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾[٤] [الأعراف: ٤٤] ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ أي قال الأتباع والعوام للسادة الكبراء والقادة الذين أضلوهم في الدنيا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي كنا أتباعاً لكم نأتَمِرُ بأمْرِكم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي هل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ أي قال القادة معتذرين: لو هدانا الله للإيمان لهديناكم إليه، ولكن حصل لنا الضلال فأضللناكم فلا ينفعنا العتاب ولا الجزع ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ

(١) «البحر المحيط» ٥/ ٤٢٧. (ش): غَناء: نفع، كفاية.
(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٥٣. (ش): قلَى/ قلِيَ فلانًا: أبغضه وكَرِهَهُ غاية الكراهة فتركه.
(٣) «زاد المسير» ٤/ ٣٥٣.
(٤) «الفخر الرازي» ١٩/ ١٠٧.

صَبَرْنَا﴾ أي يستوي علينا الجزع والصبر قال «الطبري»: إن أهل النار يجتمعون فيقول بعضهم لبعض: إنما أدركَ أهلُ الجنةِ ببكائهم وتضرعهم إلى الله فتعالواْ نبكي ونتضرع إلى الله، فبكوا فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا نصبر فصبروا صبراً لم يُر مثلُه، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾(١) وقال مقاتل: جزعوا خمسمائة عام، وصبروا خمسمائة عام(٢) ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي ليس لنا من مهرب أو ملجأ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ هذه هي الخطبة البتراء التي يخطب بها إبليس في محفل الأشقياء في جهنم، أي: لمّا فُرغ من الحساب ودخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي وعدكم وعداً حقًّا بإثابة المطيع وعقاب العاصي فوفَّى لكم وعده ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ﴾ أي وعدتكم أن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب فكذبتكم وأخلفتكم الوعد ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ أي لم يكن لي قدرة وتسلط وقهر عليكم فأقهركم على الكفر والمعاصي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بالوسوسة والتزيين فاستجبتم لي باختياركم ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ أي لا ترجعوا باللوم عليَّ اليوم ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ أي ما أنا بمُغيثِكم ولا أنتم بمُغيثيَّ من عذاب الله ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾ أي كفرت بإشراككم لي مع الله في الطاعة ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي إن المشركين لهم عذاب مؤلم قال المفسرون: هذه الخطبة إنما تكون إذا استقر أهل الجنةِ في الجنة، وأهلُ النار في النار، فيأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم فيما بينهم خطيباً بما أخبر عنه القرآن(٣) وقال الحسن: يقف إبلس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً(٤) ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ لمّا ذكر تعالى أحوال الأشقياء، ذكر بعده أحوال السعداء، ليبقى العبد بين الرغبة والرهبة، وبين الخوف والرجاء، أي: أدخلهم الله تعالى جناتٍ تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ماكثين فيها أبداً بأمره تعالى وتوفيقه وهدايته ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي تُحيِّيهم الملائكة بالسلام مع الإجلال والإكرام ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لكلمة الإيمان وكلمة الإشراك، فمثَّل لكلمة الإيمان بالشجرة الطيبة، ولكلمة

(١) «تفسير الطبري» ١٣/ ٢٠٠.
(٢) «زاد المسير» ٤/ ٣٥٦.
(٣) «الفخر الرازي» ١٩/ ١١٠.
(٤) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٥٦.

الإشراك بالشجرة الخبيثة قال ابن عباس: الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» والشجرة الطيبة «المؤمن»[١] ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أصلها راسخ في الأرض وأغصانها ممتدة نحو السماء ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي تعطي ثمرها كلَّ وقت بتيسير الخالق وتكوينه، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعملُه يصعد إلى السماء ويناله بركته وثوابه في كل وقت ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يبيّن لهم الأمثال لعلهم يتعظون فيؤمنون ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي ومثل كلمة الكفر الخبيثة كشجرة الحَنْظل الخبيثة ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي استؤْصِلَتْ من جذورها واقتُلِعَتْ من الأرض لعدم ثبات أصلها ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي ليس لها استقرارٌ وثبات، كذلك كلمة الكفر لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة قال ابن الجوزي: شُبه ما يكسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين، فالمؤمن كلما قال «لا إله إلا الله» صعدت إلى السماء ثم جاء خيرُها ومنفعتها، والكافر لا يُقبل عمله ولا يصعد إلى الله تعالى، لأنه ليس له أصل في الأرض ثابت، ولا فرع في السماء[٢] ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي يثبتهم على كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» وعلى الإيمان في هذه الحياة فلا يزيغون ولا يُفْتنون ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي عند سؤال الملكين في القبر كما في الحديث الشريف «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾...»[٣] الآية ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يهديهم في الحياة ولا عند سؤال الملكين وقت الممات ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي من هداية المؤمن وإضلال الكافر لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ استفهام للتعجيب أي ألا تعجب أيها السامع من أولئك الذين غيَّروا نعمة الله بالكفر والتكذيب؟ قال المفسرون: هم كفار مكة فقد أسكنهم الله حرمه الآمن، وجعل عيشهم في السِّعة، وبعث فيهم محمداً ﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، وكفروا به وكذبوه، فابتلاهم الله بالقحط والجدب ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي أنزلوا قومهم دار الهلاك بكفرهم وطغيانهم ثم فسَّرها بقوله ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي أحلوهم في جهنم يذوقون سعيرها وبئست جهنم مستقرًا ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي جعلوا لله شركاء مماثلين عبدوهم كعبادته ليُضلوا الناس عن دين الله ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي استَمْتِعوا بنعيم الدنيا فإن مردَّكم

---

(١) «المختصر» ٢/ ٢٩٦.

(٢) «زاد المسير» ٤/ ٣٦٠.

(٣) أخرجه البخاري وهذا الرأي هو اختيار «الطبري». (ش): الحديث رواه البخاري ومسلم.

ومرجعكم إلى عذاب جهنم، وهو وعيد وتهديد ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي قل يا محمد لعبادي الذين آمنوا: فلْيقيموا الصلاة المفروضة عليهم ويؤدوها على الوجه الأكمل ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي ولينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق خفيةً وجهراً ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا صداقة، ولا فداء ولا شفاعة، ولما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء ختم ذلك بذكر الدلائل الدالة على وجود الخالق الحكيم[1] فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أبدعهما واخترعهما على غير مثال سبق ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي أنزل من السحاب المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي أخرج بالمطر من أنواع الزروع والثمار رزقاً للعباد يأكلونه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي ذلَّل السفن الكبيرة لتسير بمشيئته، تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي الأنهار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي وذلَّل لكم الشمس والقمر يجريان بانتظام لا يَفْتُران[2]، لصلاح أنفسكم ومعاشكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله بالنهار، هذا لمنامكم وذاك لمعاشكم ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي أعطاكم كل ما تحتاجون إليه، وما يصلح أحوالكم ومعاشكم، مما سألتموه بلسان الحال أو المقال ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي وإن تعدُّوا نِعَم اللهِ عليكم لا تطيقوا حصرها وعدَّها، فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها عدد ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسان اسم جنس، أي: إن الإنسان لَمُبالغٌ في الظلم والجحود، ظالمٌ لنفسه بتعديه حدود الله، جحودٌ لنعم الله، وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفَّار في النعمة يجمع ويمنع.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - التشبيه التمثيلي ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ومثلها ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾.

٣ - الطباق في ﴿أَصْلُهَا.. وَفَرْعُهَا﴾ وفي ﴿طَيِّبَةً بِخَلْقٍ.. خَبِيثَةٍ﴾ وفي ﴿وَيُذْهِبَ..

---

(١) (ش): كان كفار قريش يؤمنون بوجود الله، وإنما يجادلون في تخصيصه بالعبادة، فالآيات سِيقَتْ هي وأمثالها لإثبات توحيد الإلهية والاستدلال عليه بتوحيد الربوبية الذي يعترفون به.

(٢) (ش): فتَرت هِمَّتُه: سكنَتْ بعد حدَّة ونشاط، ضعُفَت، خفَّتْ.

يَأۡتِيَ﴾ وفي ﴿سِرّٗا .. وَعَلَانِيَةٗ﴾ وفي ﴿أَجَزِعۡنَآ .. صَبَرۡنَا﴾.

٤ - طباق السلب في ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾.

٥ - التعجيب ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾.

٦ - التهديد والوعيد ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾.

٧ - صيغة المبالغة ﴿لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ لأن (فعول وفعّال) من صيغ المبالغة.

٨ - السجع المرصَّع دون تكلف مثل ﴿ٱلۡبَوَارِ .. ٱلۡقَرَارُ .. ٱلنَّارِ﴾ الخ.

قال الله تعالى:

وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ
إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ
أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ
مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا
نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى
ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ
رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا
تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾
مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ
ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ
تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدۡ
مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا
تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾
سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ
ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾

المناسَبة: لمّا ذكر تعالى بالدلائل الحسية والسمعية انفراده بالألوهية وأن لا معبود إلا الله، ذكر هنا أبا الأنبياء «إبراهيم» عليه السلام حصنَ التوحيد، ومبالغتَه في هدم الشرك والأوثان، ثم ذكر موقف الظالمين يوم الدين، وما يعتريهم من الذل والهوان في يوم الحشر الأكبر.

اللغَـة: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ أبعدني ونحّني يقال: جَنب وجنَّب وأصله جعل الشـيء في جانب آخـر ﴿تَشۡخَصُ﴾ شـخَص البصـر: إذا بقيـت العيـن مفتوحـة لا تغمض من هـول ما ترى ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ مسرعين يقال: أهطع إهطاعـًا إذا أسرع قال الشاعر:

بِـدِجْـلَـةَ دَارُهُـــمْ وَلَـقَـدْ أَرَاهُــمْ   بِـدِجْـلَـةَ مُـهْـطِعِينَ إِلَـى السَّمَاعِ [١]

﴿مُقۡنِعِي﴾ المقنعُ: الرافـع رأسـه المقبـل ببصـره علـى ما بيـن يديـه ﴿هَوَآءٞ﴾ خالية ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مشـدودين ﴿ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ الأغـلال والقيـود واحدهـا صَفَد ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ جمع سربال وهو القميص والثوب ﴿وَتَغۡشَىٰ﴾ تُجَلّل وتُغطّي.

التفسـير: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ أي اجعـل مكة بلد أمنٍ يأمن أهلـه وسـاكنوه ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ أي احمنـي يـا رب وجنبني وأولادي عبـادة الأصنـام، والغـرضُ تثبيتُه على ملـة التوحيد والإسـلام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يـا ربّ إنَّ هـذه الأصنام أضلَّـت كثيراً من الخلق عـن الهداية والإيمان ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي فمـن أطاعنـي وتبعني على التوحيد فإنـه من أهل ديني ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي ومـن خالـف أمري فإنك يا رب غفار الذنوب رحيمٌ بالعباد ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ كرّر النداء رغبةً في الإجابة وإظهاراً للتذلل والالتجاء إلى الله تعالى أي يا ربنا إني أسـكنت من أهلي - ولدي إسـماعيل وزوجي هاجر[٢] - ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ أي بوادٍ ليس فيه زرع في جوار بيتك المحرم، وهو وادي مكة شرفها الله تعالـى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي ربنـا لكي يعبدوك ويقيموا الصلاة أسـكنتهم بهذا الوادي فاجعل قلوبَ الناسِ تحنُّ وتسـرع إليهم شوقـًا قال ابن عباس: لو قال: (أفئدة الناس) لازدحمت عليه فارس والروم والناسُ كلهم، ولكنْ قال ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهـم المسـلمون[٣] ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ أي وارزقهم في ذلـك الوادي القَفْر[٤] من أنواع الثمار ليشـكروك على جزيل نِعمك، وقد اسـتجاب الله

---

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٧٦.

(٢) روى أن هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها «سارة» زوجة إبراهيم فأمره الله تعالى أن يحمل ولده إسماعيل مع أمه من الشام إلى مكة فوضعهما عند دوحة مكان زمزم كما في الحديث.

(ش): قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ رواه البخاري. (الْمِنْطَق) هُوَ مَا يُشَدّ بِهِ الْوَسَط. (لَتُعَفِّي أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ) أي لتجُرّه على الأرض وتُخْفِي أثرها على سارة. (عِنْدَ دَوْحَة) الدوحة: الشَّجَرَة الْكَبِيرَة.(فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ) أَيْ مَكَان الْمَسْجِد، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حِينَئِذٍ بُنِيَ.

(٣) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٧٣.

(٤) (ش): قَفْر: خالٍ من الماء والعُشب والناس.

دعاءه فجعل مكة حرماً آمناً يجبى إليها ثمرات كل شيء رزقاً من عند الله ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أي يا ربنا إنك العالم بما في القلوب تعلم ما نسرُّ وما نظهر ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا يغيب عنه تعالى شيء في الكائنات، سواء منها ما كان في الأرض أو في السماء، فكيف تخفى عليه وهو خالقها وموجدها؟ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ أي الحمد لله الذي رزقني على كبر سني وشيخوختي إسماعيل وإسحاق قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة[1] ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي مجيبٌ لدعاء من دعاه ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ هذه هي الدعوة السادسة من دعوات الخليل عليه السلام أي يا رب اجعلني ممن حافظ على الصلاة واجعل من ذريتي من يقيمها أيضاً، وهذه خير دعوةٍ يدعوها المؤمن لأولاده فلا أحبَّ له من أن يكون مقيماً للصلاة هو وذريته لأنها عماد الدين ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ أي تقبَّل واستجبْ دعائي فيما دعوتك به ﴿ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ هذه هي الدعوة السابعة وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين، يوم يقوم الناس لرب العالمين قال المفسرون: استغفر لوالديه قبل أن يتبيَّن له أنَّ أباه عدوٌّ لله قال القشيري: ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه[2].

وينتقل السياق إلى مشاهد القيامة وما فيها من الأهوال حين تتزلزل القلوب والأقدام ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ أي لا تظننَّ يا محمد أنَّ الله ساهٍ عن أفعال الظَلَمَة، فإن سنة الله إمهال العصاة ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، قال ميمون بن مِهْران: هذا وعيدٌ للظالم، وتعزيةٌ للمظلوم[3] ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي إنما يؤخرهم ليومٍ رهيب عصيب، تَشْخص فيه الأبصار من الفزع والهَلع، فتظلُّ مفتوحة مبهوتة لا تطرف ولا تتحرك قال «أبو السعود»: تبقى أبصارهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه[4] ﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ أي مسرعين لا يلتفتون إلى شيء رافعين رءوسهم مع إدامة النظر قال الحسن: وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد[5] ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ أي لا يطرفون بعيونهم من الخوف والجزع ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ

(١) «زاد المسر» ٤/ ٣٦٨.
(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٧٥.
(٣) «تفسير الطبري» ١٣/ ٢٣٦.
(٤) «أبو السعود» ٣/ ١٣٣.
(٥) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٧٧.

﴿هَوَآءٌ﴾ أي قلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي خوّف يا محمد الكفار من هول يوم القيامة حين يأتيهم العذاب الشديد ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أي فيتوجه الظالمون يومئذٍ إلى الله بالرجاء يقولون يا ربنا أمهلنا إلى زمنٍ قريب لنستدرك ما فات ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ أي نجب دعوتك لنا إلى الإيمان ونتّبع رسلك فيما جاءونا به ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ أي يقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أخرى؟ والمراد إنكارهم للبعث والنشور ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناهم، فهلّا اعتبرتم بمساكنهم؟ ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ أي تبيَّن لكم بالإخبار والمشاهدة كيف أهلكناهم، وانتقمنا منهم ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ أي بينا لكم الأمثال في الدنيا فلم تعتبروا ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ أي مكر المشركون بالرسول وبالمؤمنين حين أرادوا قتله ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي وعند الله جزاء هذا المكر فإنه محيط بهم وبمكرهم ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال ولكنَّ الله عصَم ووقى منه ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ أي لا تظننَّ أيها المخاطب أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من النصرِ وأخْذِ الظالمين المكذبين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ أي إنه تعالى غالبٌ لا يعجزه شيء منتقم ممن عصاه ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي ينتقم من أعدائه يوم الجزاء، يوم تتبدل هذه الأرض أرضاً أخرى، وتتبدل السماوات سماوات أخرى قال ابن مسعود: تُبدَّل الأرضُ بأرضٍ كالفضة نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة[1] ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم، وإنما هم في أرض المحشر أمام الواحد القهار ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ أي وفي ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين مشدودين مع شياطينهم بالقيود والأغلال قال «الطبري»: أي مقرَّنة أيديهم وأرجُلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي الأغلال والسلاسل ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾ أي

---

(١) «تفسير الطبري» ١٣/ ٢٥٠، وعن ابن عباس هي تلك الأرض وإنما تغير صفاتها فتسوى الجبال وتقلع الأشجار وتنشق الأنهار، وتتناثر الكواكب وأنشد:

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتَهُمْ ... وَلا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْلَمُ

«أبو السعود» ٣/ ١٣٧. (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لِأَحَدٍ» رواه البخاري ومسلم. (عَفْرَاءُ):بَيْضَاءُ مشوبة بحمرة. أي: ليس بياضها بالناصع. وقوله: كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ كرغيف مصنوع من دقيق خالص من الغش والنخالة. (لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لِأَحَدٍ) أَيْ لَيْسَ بِهَا عَلَامَة سُكْنَى أو بناء ولا أثر.

ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهي مادة يسرع فيها اشتعال النار، تُطلى بها الإبل الجَرْبَى[١] فيحرقُ الجَرَبَ بِحَرِّه وحِدَّتِه[٢]، وهو أسود اللون مُنتِنُ الريح ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تعلوها وتحيط بها النار، جزاء المكر والاستكبار ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي برزوا يوم القيامة لأحكم الحاكمين ليجازيهم الله على أعمالهم، المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي لا يشغله شأن عن شأن، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان[٣]، في مقدار نصف نهار من أيام الدنيا كما ورد به الأثر[٤] ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن بلاغٌ لجميع الخلق من إنس وجان، أنزل لتبليغهم بما فيه من فنون العبر والعظات ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لكي يُنصَحُوا به ويُخَوَّفُوا من عقاب الله ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي ولكي يتحققوا بما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة، على أنه تعالى واحد أحدٌ، فردٌ صمد ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة، وهم السعداء أهل النهي والصلاح.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - التشبيه البليغ ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه، أي: قلوبهم كالهواء لفراغها من جميع الأشياء فأصبح التشبيه بليغًا.

٢ - الإيجاز بالحذف ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ حذف منه والسماوات تبدل غير السماوات لدلالة ما سبق.

٣ - الطباق في ﴿تَبِعَنِي .. عَصَانِي﴾ وفي ﴿نُخْفِي .. نُعْلِنُ﴾ وفي ﴿ٱلْأَرْضِ .. ٱلسَّمَآءِ﴾.

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾.

٥ - العدول عن المضارع إلى الماضي ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ بدل «ويبرزون» للدلالة على تحقق الوقوع مثل ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] فكأنه حدث ووقع فأخبر عنه بصيغة الماضي.

٦ - الاستعارة في ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ قال الشريف الرضي: وهذه من محاسن الاستعارة، وحقيقةُ الهُوِيّ النزول من علوٍّ إلى انخفاض كالهبوط والمراد تسرع إليهم شوقًا وتطير إليهم حبًّا، ولو قال «تحنُّ إليهم» لم يكن فيه من الفائدة ما في التعبير بـ ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ لأن الحنين قد يكون من المقيم بالمكان[٥].

---

(١) (ش): جرِبَ الحيوانُ: أصابه الجَرَب.

(٢) (ش): أي يحرقُ القطرانُ الجَرَبَ بِحَرِّه وحِدَّتِه.

(٣) (ش): قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٣٦): وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أَيْ: يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ، كَمَا يُحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لُقْمَانَ: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [الْقَمَرِ: ٥٠].

(٤) (ش): لم أجدْه إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد.

(٥) «تلخيص البيان» ١٨٤.

لطيفَة: حكمة تعريف البلد هنا ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وتنكيره في البقرة ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] أنه تكرر الدعاء من الخليل، ففي البقرة كان قبل بنائها فطلب من الله أن تجعل بلداً، وأن تكون آمنًا، وهنا كان بعد بنائها فطلب من الله أن تكون آمنًا أي بلد أمنٍ واستقرار(١)، وهذا هو السرُّ في التفريق في الآيتين، اللهم ارزقنا فهم أسرار كتابك العظيم.

«انتهى تفسير سورة إبراهيم»



(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢/ ٢٨٦.



مكية وآياتها تسع وتسعون

بين يدي السورة

* سورة الحجر من السور المكية، التي تستهدف المقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية «الوحدانية، النبوة، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسل الله في شتَّى الأزمان والعصور، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد، مُلَفَّعًا بظِلٍّ من التهويل والوعيد ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

* عرضت السورة لدعوة الأنبياء، وبَيَّنَتْ موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام، فما مِن نبي إلا سخر منه قومه الضالون، من لدن بعثة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، إلى بعثة خاتم المرسلين، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين، في كل زمان وحين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الآيات.

* وعرضت السورة إلى الآيات الباهرات، المُنْبَثَّة[1] في صفحة هذا الكون العجيب، الذي ينطق بآثار اليد المبدعة، ويشهد بجلال عظمة الخالق الكبير، بدءًا بمشهد السماء، فمشهد الأرض، فمشهد الرياح اللواقح، فمشهد الحياة والموت، فمشهد الحشر والنشر، وكلُّها ناطقة بعظمة الله وجلاله، وشهادة بوحدانيته وقدرته ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ...﴾ الآيات.

* وعرضت السورة إلى قصة «البشرية الكبرى» قصة الهدى والضلال ممثلة في خلق آدم عليه السلام، وعدوه اللدود إبليس اللعين، وما جرى من سجود الملائكة لآدم، واستكبار إبليس عن السجود، واعتراضه على أمر الله وتوعده لذرية آدم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ...﴾ الآيات.

* ومن قصة آدم تنتقل السورة إلى قصص بعض الأنبياء، تسليةً لرسول الله عليه السلام، وتثبيتًا لقلبه الشريف لئلا يتسرب إليه اليأس والقنوط، فتذكر قصة لوط، وشعيب، وصالح عليهم السلام، وما حل بأقوامهم المكذبين.

* وتختم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه، بإنزال هذا الكتاب

(١) (ش): انْبَثَّ: تفرَّقَ وانتشَر.

المجيد المعجز، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى المشركين، وتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ...﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

التسـمية: سميت السـورة الكريمة «الحجر» لأن الله تعالى ذكر ما حدث لقوم صالح، وهم قبيلة ثمود -وديارهم في الحجر بين المدينة والشام- فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها، وكأنهـم مخلدون في هذه الحياة، لا يعتريهم موت ولا فنـاء، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ
﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا
وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى
نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ
نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ
جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ
ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ
شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ
وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ
أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ
وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ
حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا
مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ
أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ
فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ
لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ

مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

اللغة: ﴿رُّبَمَا﴾ ربَّ للتقليل و﴿مَا﴾ نكره موصوفة أي رب شيء ﴿لَّوْ مَا﴾ للتحضيض كَـ«لولا» و«هلَّا» ﴿شِيَعِ﴾ جمع شيعة وهي الفرقة والطائفة من الناس ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ نُدْخِله، والسَّلْك: إدخال الشيء في الشيء ﴿يَعْرُجُونَ﴾ عَرَج: صعد، والمعارج المصاعد ﴿سُكِّرَتْ﴾ سُدَّت ومنعت ﴿بُرُوجًا﴾ البروج: منازل الكواكب السيارة وأصله الظهور ومنه تبرج المرأة وهو إظهار زينتها ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع لاقح وهي الريح التي تحمل المطر، والتي لا تأتي بخير تسمى الريح العقيم، أو ملقّحة للشجر أي تحمل اللّقاح له ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ طين يابس يسمع له صلصلة إذا يبس ﴿حَمَإٍ﴾ الحمأ: الطين الأسود ﴿مَّسْنُونٍ﴾ منتن متغير قال الفراء: هو المتغيّر وأصله من سننتُ الحجر إذا حككته به ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ الريح الحارة القاتلة.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطه فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾[1].

التفسير: ﴿الٓر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن أي هذا الكتاب العجيب المعجز كلام الله تعالى وهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية الألف واللام والراء ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات الكتاب، الكامل في الفصاحة والبيان، المتعالي عن الطاقة البشرية، ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي قرآنٍ عظيم الشأن، واضحٍ بَيِّنٌ، لا خلل فيه ولا اضطراب

---

(١) «أسباب النزول» ١٥٨، و«القرطبي» ١٠ / ١٩. (ش): أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والطبراني والحاكم، وفي إسناده ضعف، من أجل عمرو بن مالك النكري، وقال الحافظ ابن كثير: «غريب جدًّا». وهذا فيه طعن في صحابة رسول الله ﷺ وحاشاهم عن مثله، لا سيما أن أسلوب حكاية القصة يوحي بأن ذلك مشهور بينهم، فكيف يسكت رسول الله ﷺ عن مثل ذلك؟!.وقد ضعَّف الحديثَ الشيخُ شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند، وكان قد حسَّنَ إسناده في تعليقه على (صحيح ابن حبان)، ثم تبين له أنه ضعيف لا يستحق التحسين، ولذلك نبَّه على ذلك.ولكن صححه الشيخ الألباني، ومن الملاحظ أن مدار الحديث على عمرو بن مالك النكري والشيخ الألباني - رحمه الله - قال في تخريجه لهذا الحديث في «السلسلة الصحيحة»: «وهو ثقة»، رغم أنه أشار إلى ضعفه في مواضع أخرى من كتبه خاصةً إذا تفرد بالحديث، انظر مثلًا: «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة» (١/ ٢١١)، حديث رقم٩٤، (٥/ ٤٤٩)، حديث رقم ٢٤٢٩». وعمرو هذا قد تفرد بهذا الحديث - حديث المرأة الحسناء - فاللائق به الضعف، فكان الأوْلَى بالشيخ الألباني - رحمه الله - أن يضعِّفه بناءً على قواعده. أما كونها حسناء على فرض صحة الحديث وقد تبين ما فيه فقد يكون ذلك قبل فرض الحجاب. [انظر: الاختلاط بين الرجال والنساء، لمحقق هذا الكتاب (٢/ ٢٧٤- ٣٩٧)].

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي ربما تمنى الكفار ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ أي لو كانوا في الدنيا مسلمين، وذلك عند معاينة أهوال الآخرة ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ أي دَعْهم يا محمد يأكلوا كما تأكل البهائم، ويستمتعوا بدنياهم الفانية ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ أي يشغلهم الأمل بطول الأجل، عن التفكر فيما ينجيهم من عذاب الله ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ أي عاقبة أمرهم إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهو وعيد وتهديد ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ ﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة التي كذبت رسل الله ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ أي إلا لها أجل محدود لإهلاكها ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ أي لا يتقدم هلاك أمةٍ قبل مجيء أوانه ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾ أي ولا يتأخر عنهم قال ابن كثير: وهذا تنبيهٌ لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العِناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك[1] ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ قال كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء والتهكم: يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ أي إنك حقًّا لمجنون، أكّدوا الخبر بـ «إنَّ واللام» مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء بمقامه الشريف عليه السلام ﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أي هلّا جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة إن كنت صادقًا في دعواك أنك رسول الله! قال تعالى رداً عليهم ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي ما ننزّل ملائكتنا إلا بالعذاب لمن أردنا إهلاكه ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴾ أي وفي هذه الحالة وعندئذٍ لا إمهال ولا تأجيل، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد إهلاكهم بعذاب الاستئصال، وهو لا يريد ذلك مع أمته ﷺ لعلمه تعالى أنه يخرج من أصلابهم من يعبد الله، ففيه ردٌّ عليهم فيما اقترحوا ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ ﴾ أي نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ أي ونحن الحافظون لهذا القرآن، نصونه عن الزيادة والنقصان، والتبديل والتغيير، قال المفسرون: تكفَّل الله بحفظ هذا القرآن، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان، ولا على التبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإنَّ حِفْظَها موكولٌ إلى أهلها لقوله تعالى ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٤] وانظر الفرق بين هذه الآية ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية السابقة حيث وكل حفظه إليهم فبدَّلوا وغيَّروا ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً في طوائف وفرق الأمم الأولين ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ أي وما جاءهم رسولٌ إلاّ سخروا منه واستهزءوا به، وهذا تسلية للنبي ﷺ والمعنى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعل بمن قبلك من الرسل فلا تحزن ﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ أي كذلك

(١) «المختصر» ٢/ ٣٠٨.

نسلك الباطل والضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي لا يؤمنون بهذا القرآن وقد مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فما أقرب هؤلاء من الهلاك والدمار! ثم بيَّن تعالى أن كفار مكة لا ينقصهم توافر براهين الإيمان فهم معاندون مكابرون، وفي ضلالهم وعنادهم سائرون فقال ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ أي لو فرض أننا أصعدناهم إلى السماء، وفتحنا لهم باباً من أبوابها، فظلوا يصعدون فيه حتى شاهدوا الملائكة والملكوت ﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ أي لقالوا - لفرط مكابرتهم وعنادهم - إنما سُدَّت أبصارنا وخُدعت بهذا الارتقاء والصعود ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ أي سحرنا محمد وخيَّل إلينا ذلك وما هو إلا سحر مبين قال «الرازي»: لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج، وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لَشَكّوا في تلك الرؤية، وبقوا مُصِرِّين على الكفر والعناد كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر، والقرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله[1]، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ أي جعلنا في السماء منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي زيناها بالنجوم ليُسَرَّ الناظر إليها ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ أي حفظنا السماء الدنيا من كل شيطان لَعِينٍ مطرود من رحمة الله ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ أي إلا من اختلس شيئاً من أخبار السماء فأدركه ولحقه شهاب ثاقب فأحرقه ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أي بسطناها ووسعناها وجعلنا فيها جبالاً ثوابت[2] ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي أنبتنا في الأرض من الزروع والثمار من كل شيءٍ موزون بميزان الحكمة، بدقةٍ وإحكام وتقدير ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ أي وجعلنا لكم من العيال والمماليك والأنعام من لستم له برازقين، لأننا نخلق طعامهم وشرابهم لا أنتم ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي ولكن لا ننزله إلا على حسب حاجة الخلق إليه، وعلى حسب المصالح، كما نشاء ونريد ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ أي تلقِّح السحاب فيدر ماءً، وتلقّح الشجر فيتفتّح عن أوراقه وأكمامه، فالريح

---

(١) «الفخر الرازي» ١٩/ ١٦٧.

(٢) قال «الفخر الرازي»: إن الأرض كرة في غاية العظمة، والكرة العظيمة تكون كل قطعة صغيرة منها إذا نظر إليها كالسطح المستوي فلا إشكال في بسطها مع أنها كرة والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ سماها أوتادًا مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية فكذا هنا. «الرازي» ١٩/ ١٧٠.

كالفحل للسحاب والشجر ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي فأنزلنا من السحاب ماءً عذباً، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي لستم بقادرين على خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكتم عطشاً كقوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] ؟ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي الحياة والموت بيدنا ونحن الباقون بعد فناء الخلق، نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ أي أحطنا علماً بالخلق أجمعين، الأموات منهم والأحياء قال ابن عباس: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون مَن هو حيٌّ ومَن سيأتي إلى يوم القيامة[1] وقال مجاهد: المستقدمون: الأمم السابقة، والمستأخرون أمة محمد ﷺ، والغرضُ أنه تعالى محيطٌ علمه بمن تقدم وبمن تأخر، لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو يجمعهم للحساب والجزاء ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه، ولما ذكر تعالى الموت والفناء، والبعث والجزاء، نبّههم إلى مبدأ أصلهم وتكوينهم من نفسٍ واحدة، ليشير إلى أن القادر على الإحياء قادر على الإفناء والإعادة، وذكّرهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم ليحذروه فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ أي خلقنا آدم من طين يابسٍ يسمع له صَلْصلة أي صوت إذا نُقر ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي من طين أسود متغيّر ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ أي ومن قبل آدم خلقنا الجانَّ - أي الشياطين ورئيسهم إبليس - من نار السموم وهي النار الحارة الشديدة التي تنفذ في المسامّ فتقتل بِحَرِّها. قال المفسرون: عنى بالجانِّ هنا «إبليس» أبا الجنِّ لأن منه تناسلت الجن فهو أصل لها كما أن آدم أصل للإنس ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي اذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة: إني خالق بشراً من طين يابسٍ، أسود متغيّر قال ابن كثير: فيه تنويهٌ بذكر آدم في الملائكة قبل خلقه له، وتشريفه إيّاه بأمر الملائكة بالسجود له، وامتناع إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً[2] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي سويت خَلْقه وصورته، وجعلته إنساناً كاملاً معتدل الأعضاء ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أي أفضتُ عليه من الروح التي هي خلقٌ من خلقي فصار بشراً حيًّا ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي خروا له ساجدين، سجود تحيةٍ وتكريم لا سجود عبادة، قال المفسرون:

(١) هذا اختيار «الطبري»، وقد فسرت الآية بثمانية تأويلات ذكرها في البحر ثم قال: الأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر «البحر» ٥/ ٤٥١.
(٢) «المختصر» ٢/ ٣١١.

وإنما أضاف الروح إليه تعالى على سبيل التشريف والتكريم كقوله «بيت الله، ناقة الله! شهر الله» وهي من إضافة الملك إلى المالك، والصنعة إلى الصانع ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ أي سجد لآدم جميع الملائكة لم يمتنع منهم أحد ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ الاستثناء منقطع لأن إبليس خلقٌ آخر غير الملائكة[1]، فهو من نار وهم من نور، وهم لا يعصون الله ما أمرهم وهو أبى وعصى، فليس هو من الملائكة بيقين، ولكنه كان بين صفوفهم فتوجه إليه الخطاب والمعنى: سجد جميع الملائكة لكنْ إبليس امتنع من السجود بعد أن صدر له الأمر الإلهي ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي ما المانع لك من السجود؟ وأيُّ داعٍ دعا بك إلى الإباء والامتناع؟ وهو استفهام تبكيتٍ وتوبيخ ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أي قال إبليس: لا ينبغي ولا يليق لمثلي أن يسجد لآدم وهو مخلوق من طينٍ يابسٍ متغير، فهو من طينٍ وأنا من نار فكيف يسجد العظيم للحقير، والفاضل للمفضول؟ رأى عدوُّ الله نفسه أكبر من أن يسجد لآدم، ومنعه كبره وحسده عن امتثال أمر الله ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي اخرجْ من السماوات فإنك مطرودٌ من رحمتي ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أي وإن عليك لعنتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي قال اللعين: أمهلني وأخرني إلى يوم البعث ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ أي قال له الله: إنك من المؤجلين إلى حين موت الخلائق قال «القرطبي»: أراد بسؤاله الإنظار -إلى يوم يبعثون - ألا يموت، لأن البعث لا موتَ بعده، فأجابه المولى بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم موت الخلائق، فيموت إبليس ثم يُبعث[2] ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ أي بسبب إغوائك وإضلالك لي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لأزيننَّ لذرية آدم المعاصي والآثام ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي ولأضلَّنهم عن طريق الهدى أجمعين ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي إلا من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك فلا قدرة لي على إغوائه ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي قال الله تعالى: هذا طريق مستقيم واضح، وسنة أزليةٌ لا تتخلف وهي ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أي إن عبادي المؤمنين لا قوة على إضلالهم ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ استثناء منقطع لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين، والمعنى لكنْ من غوى وضل من الكافرين فلك عليهم تسلط، لأن الشيطان إنما يتسلط على الشاردين عن الله، كما يتسلط الذئب على الشاردة من القطيع

(١) قد حققنا ذلك في سورة البقرة والأعراف. وتقدم قول الحسن البصري: «والله ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين» وانظر كتابنا: «النبوة والأنبياء» ﷺ ١٢٨، ففيه البيان الشافي.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٢٧.

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي موعد إبليس وأتباعه جميعاً ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ أي لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم وروي عن عليّ أنها أطباقٌ، طبقٌ فوق طبق وأنها دركاتٌ بعضها أشد من بعض ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي لكل جماعة من أتباع إبليس بابٌ معينٌ معلوم، قال ابن كثير: كلٌّ يدخل من بابٍ بحسب عمله، ويستقر في دَرَكٍ بقدر عمله[1].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - المجاز المرسل في ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ المراد أهلها وهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحالّ.

٢ - الاستعارة التخيليَّة في ﴿ عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ فهو تمثيل لكمالِ قُدرته، شَبَّه قدرته على كل شيء بالخزائن المودوعة فيها الأشياء، وإخراج كل شيء بحسب ما اقتضته حكمته على طريق الاستعارة[2].

٣ - الطباق بين ﴿نُحْيِۦ .. وَنُمِيتُ﴾ وبين ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ .. ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾.

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿خَزَآئِنُهُۥ .. بِخَـٰزِنِينَ ﴾.

٥ - السجع الذي له وقع على السمع مثل ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ ، ٱلْأَوَّلِينَ، ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ إلخ.

لطيفَة: ذكر أن رجلاً أراد أن يمتحن الأديان أيها أصح وأحسن؟ فعمد إلى التوراة والإنجيل والقرآن - وكان خطاطًا - فنسخ من كل كتاب نسخة بخط جميل وزاد فيها ونقص، ثم عرض التوراة على علماء اليهود فقبلوها وتصفحوها وأكرموه بالمال، ثم عرض الإنجيل الذي نسخه بيده على القسس فاشتروه بثمن كبير وأكرموه، ثم عرض نسخة القرآن على شيوخ المسلمين فنظروا فيه فلما رأوا فيه بعض الزيادة والنقص أمسكوا به فضربوه ثم رفعوا أمره إلى السلطان فحكم بقتله، فلما أراد قتله أشهر إسلامه وأخبرهم بقصته وأنه امتحن الأديان فعرف أن الإسلام دين حق. انظر «تفسير القرطبي» ١٠/ ٦.

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ

---

(١) «المختصر» ٢/ ٣١٢.

(٢) (ش): الأصل في كلام الله عز وجل وكلام نبيه ﷺ أن يُحمَل على ظاهره، كما قال المؤلف في تفسيرها: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته. وكما قال الشيخ السعدي: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾. أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة.

عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ
إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ
عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا
خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ
أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾
قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ
حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ
ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ
نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ
﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ
إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾
وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ
وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى
ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ
يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ
بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم، أعقبهم بذكر حال السعداء من أهل النعيم، ثم ذكر قصص بعض الرسل مع أقوامهم «لوط، وشعيب، وصالح» تسلية لرسول الله ﷺ ليتأسى بهم في الصبر، ثم ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وختم السورة ببشارته عليه السلام بإهلاك أعدائه المستهزئين.

اللغة: ﴿نَصَبٌ﴾ تعب وإعياء ﴿وَجِلُونَ﴾ خائفون فزعون ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب ﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ القنوط: كمالُ اليأس ﴿تَفۡضَحُونِ﴾ الفضيحةُ: أن يُظهر من أمره ما

يلزمه به العارُ، يقال: فضحه الصبح إذا أظهره للناس قال الشاعر:

وَلَاحَ ضَوْءُ هِلَالٍ كَادَ يَفْضَحُنَا مِثْلُ الْقُلَامَةِ قَدْ قُصَّتْ مِنَ الظُّفْرِ (١)

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسمٌ بحياة محمد ﷺ أي وحياتك(٢) ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ السكرة: الغواية والضلالة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون تحيراً أو يعمون عن الرشد. والعَمه للقلب مثل العمى للبصر ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ التوسُّم من الوَسم وهي العلامة التي يستدل بها على المطلوب يقال: توسَّم فيه الخير إذا رأى فيه أثراً منه قال ابن رواحة في رسول الله ﷺ:

إِنِّي تَوَسَّمْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفُهُ والله يَعْلَمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ (٣)

وأصله التثبتُ والتفكر مثل التفرس وفي الحديث: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»(٤).

﴿الْأَيْكَةِ﴾ الشجرة الملتفَّة وجمعها أيك ﴿الْحِجْرِ﴾ اسم واد كانت تسكنه ثمود ﴿عِضِينَ﴾ أجزاء متفرقة من التعضية وهي التجزئة والتفريق ﴿الْيَقِينُ﴾ الموت لأنه أمر متيقن.

سَبَبُ النّزول: روي «أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال: أتضحكون وبين أيديكم الجنةُ والنار؟ فشقَّ ذلك عليهم فنزلت ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾(٥)».

التفسير: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي إن الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر والعسل ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، آمنين من الموت ومن زوال هذا النعيم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أي أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والبغضاء والشحناء ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي حال كونهم إخوة متحابين لا

---

(١) «البحر المحيط» ٥/ ٤٥٦.

(٢) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» [رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني]. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» [رواه البخاري ومسلم].

(٣) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٤٣.

(٤) رواه الترمذي. (ش): رواه الترمذي، وضعفه الألباني. وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ».

(٥) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٣٤. (ش): أخرجه الطبراني والبزار وابن جرير، وإسناده ضعيف.

يكدّر صفوهم شيء، على سررٍ متقابلين وجهاً لوجه قال مجاهد: لا ينظر بعضُهم إلى قفا بعض زيادةً في الأنس والإكرام، وقال ابن عباس: على سررٍ من ذهب مكلّلة بالدر والياقوت والزبرجد[١] ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبهم في الجنة إعياءٌ وتعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي لا يُخرجون منها ولا يُطردون، نعيمهم خالد، وبقاؤهم دائم، لأنها دار الصفاء والسرور ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي أخبر يا محمد عبادي المؤمنين بأني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أي وأخبرهم أنَّ عذابي شديد لمن أصرَّ على المعاصي والذنوب قال أبو حيان: وجاء قوله ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة (وأني المعذّب المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة[٢] ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي وأخبرهم عن قصة ضيوف إبراهيم، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وكانوا عشرة على صورة غلمانٍ حسانٍ معهم جبريل ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فسلَّموا عليه ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي قال إبراهيم: إنّا خائفون منكم، وذلك حين عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي قالت الملائكة لا تخف فإنا نبشرك بغلام واسع العلم، عظيم الذكاء، هو إسحاق ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي قال إبراهيم أبشرتموني بالولد على حالة الكبر والهرم، فبأي شيء تبشروني؟ قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ أي بشرناك باليقين الثابت فلا تستبعدْه ولا تيأس من رحمة الله ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط من رحمة الله إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب، الجاهلون برب الأرباب، أما القلب العامر بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط قال «البيضاوي»: وكان تعجب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ وعجوزٍ عاقر؟ ولذلك أجابهم بذلك الجواب[٣] ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي قال إبراهيم: ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله أيها الملائكة الكرامُ؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي أرسلنا ربنا إلى قوم مشركين ضالين لإهلاكهم يعنون قوم لوط ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إلَّا أتباعَ لوط وأهلَه المؤمنين، فسَنُنَجِّيهِم من ذلك العذاب أجمعين ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي إلا امرأة

---

(١) «زاد المسير» ٤/ ٤٠٤.
(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٤٥٧.
(٣) «البيضاوي» ٢٨٦.

لوط فقد قدَّر الله بقاءها في العذاب مع الكفرة الهالكين قال «القرطبي»: استثنى من آل لوطٍ امرأتـه وكانت كافرة فالتحقـت بالمجرمين في الهـلاك[١] ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي فلمـا أتى رسـلُ الله لوطـًا عليه السـلام ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي قال لهم إنكم قـوم لا أعرفكم فمـاذا تريـدون؟ ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي قالوا له بل نحن رسـل الله، جئناك بما كان فيه قومك يشـكُّون فيه وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ أي أتينـاك بالحـق اليقين من عذابهـم وإنا لصادقون فيما نقول ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي سِـرْ بأهلك في طائفةٍ من الليل[٢] ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي كنْ من ورائهم وسـرْ خلفهم لتطمئنَّ عليهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا يتلفتْ أحد منكـم وراءه لئـلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتاع ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ أي سـيروا حيث يأمركم الله عَزَّ وَجَلَّ قال ابن عباس: يعني الشـام ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ أي أوحينـا إلى لوط ذلـك الأمر العظيم أن أولئك المجرمين سيُسـتأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحدٌ ﴿مُّصْبِحِينَ ﴾ أي إذا دخل الصباح تمَّ هلاكهم واستئصالهم ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي جاء أهل مدينة سـدوم – وهم قوم لوطٍ – مسـرعين يستبشـرون بأضيافـه، طمعـًا في ارتكاب الفاحشـة بهم، ظنًّـا منهم أنهم أنـاسٌ أمثالهم قال المفسـرون: أُخبر أولئك السـفهاء أن في بيت لوطٍ شـبانـًا مرداً حسـانـًا فأسـرعوا فرحين يبشّـر بعضهم بعضـًا بأضياف لوط ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ أي هؤلاء ضيوفي فلا تقصدوهم بسوء فتُلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ أي خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي قالوا ألـم نمنعك عن ضيافة أحد؟ قال «الرازي»: المعنى ألسـنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحدٍ من الناس إذا قصدناه بالفاحشة؟[٣] ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ أي هؤلاء النساء فتزوجوهنَّ ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشـهوة قال المفسـرون: المراد بقولـه ﴿بَنَاتِيٓ ﴾ بناتُ أمته لأن كل نبيٍّ يعتـبر أبـًا لقومه ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي وحياتـك يا محمـد إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخبطـون ويترددون، وهذه جملة اعتراضية جاءت ضمن قصة لوط قسـمـًا بحياة الرسـول ﷺ تكريمـًا له وتشـريفـًا قال ابن عبـاس: «مـا خلـق الله وما ذرأ وما برأ نفسـًا أكرمَ على الله من محمد ﷺ وما سـمعتُ الله

(١) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٣٦.
(٢) (ش): أي اخرج بهم بعد مرور جزء من الليل.
(٣) «الفخر الرازي» ١٩/ ٢٠٢.

أقسم بحياة أحدٍ غيره»[١] ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴾ أي أخذتهم صيحةُ العذاب المهلكة المدمرة وقت شروق الشمس ﴿ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي قلبناها بهم فجعلنا أعالي المنازل أسافلها قال المفسرون: حمل جبريل عليه السلام قريتهم واقتلعها من جذورها، حتى رأوا الأفلاك وسمعوا تسبيح الأملاك ثم قلبها بهم ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة كالمطر مِن طينٍ طُبِخَ بنار جهنم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي إن فيما حلَّ بهم من الدمار والعذاب للدلالات وعلامات للمعتبرين، المتأملين بعين البصر والبصيرة ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴾ أي وإن هذه القرى المهلكة، وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه، لبطريقٍ ثابتٍ لم يندرس، يراها المجتازون في أسفارهم أفلا يعتبرون؟ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي لَعبرةً للمصدّقين[٢] ﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾ أي وإنه الحال والشأن كان قوم شعيب - وهم أصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف - لظالمين بتكذيبهم شعيباً، وقَطْعِهم الطريقَ، ونَقْصِهم المكيالَ والميزانَ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ أي أهلكناهم بالرجفة وعذاب يوم الظُلَّة قال المفسرون: اشتد الحر عليهم سبعة أيام حتى قربوا من الهلاك، فبعث الله عليهم سحابة كالظلة، فالتجئوا إليها واجتمعوا تحتها للتظلل بها، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقَتْهُم جميعاً ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ أي وإن قرى قوم لوط وشعيب بطريق واضح أفلا تعتبرون بهم يا أهل مكة؟ ﴿ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[٣] هذه هي القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام أي كذبت ثمود نبيَّهم صالحاً - والحجرُ وادٍ بين المدينة والشام وآثاره باقية يمرُّ عليها المسافرون - قال «البيضاوي»: ومن كذَّب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع ولذا قال ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴾ أي وأريناهم معجزاتنا الدالة على قدرتنا مثل الناقة وما فيها من العجائب فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتَّعظون قال ابن عباس: كان في الناقة آيات: خروجُها من الصخرة، ودنوُّ ولادتها عند خروجها، وعظمُ خَلْقها فلم تشبهها ناقة، وكثرةُ لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً فلم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها[٤] ﴿ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ أي كانوا ينقبون الجبال فيبنون فيها بيوتاً آمنين يحسبون أنها تحميهم من عذاب الله ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴾ أي أخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا

---

(١) «تفسير الطبري» ١٤/ ٤٤.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «البيضاوي» ٢٨٦.

(٤) «زاد المسير» ٤/ ٤١١.

﴿ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ أي ما دفعَ عنهم عذابَ الله ما كانوا يُشيِّدونه من القلاع والحصون ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي وما خلقنا الخلائق كلَّها سماءها وأرضها وما بينهما إلا خَلْقاً مُلتَبساً بالحق، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء المكذبين لئلا يعم الفساد ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ أي وإن القيامة لآتيةٌ لا محالة فيُجازى المحسنُ بإحسانه، والمسيء بإساءته، فأعرِضْ يا محمد عن هؤلاء السفهاء وعاملهم معاملة الحليم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي الخالق لكل شيء، العليمُ بأحوال العباد ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي ﴾ أي ولقد أعطيناك يا محمد سبع آيات هي الفاتحة لأنها تثنّى أي تكرر قراءتها في الصلاة وفي الحديث «(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»[1] وقيل: هي السور السبع الطوال، والأول أرجح ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ أي وآتيناك القرآن العظيم الجامع لكمالات الكتب السماوية ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار، فإن الذي أعطيناك أعظم منها وأشرف وأكرم، وكفى بإنزال القرآن عليك نعمة ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي لا تحزن لعدم إيمانهم ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي تواضعْ لمن آمن بك من المؤمنين وضعفائهم ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي قل لهم يا محمد: أنا المنذر من عذاب الله، الواضح البيِّن في الإنذار لمن عصى أمر الجبار ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴾ الكاف للتشبيه والمعنى أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه، فانقسموا إلى قسمين ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴾ أي جعلوا القرآن أجزاءٌ متفرقة وقالوا فيه أقوالاً مختلفة قال ابن عباس: آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم له بقولهم سحر، وشعر، وأساطير، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب مثل فعل كفار مكة ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ أي فأقسمُ بربك يا محمد لنسألنَّ الخلائق أجمعين عما كانوا يعملون في الدنيا ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي فاجهر بتبليغ أمر ربك، ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ أي كفيناك شرَّ أعدائك المستهزئين بإهلاكنا إياهم وكانوا خمسة من صناديد قريش ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي الذين أشركوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ وعيدٌ وتهديد، أي: سوف يعلمون عاقبة أمرهم في الدارين ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي يضيق صدرك بالاستهزاء والتكذيب ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي فافزع فيما نالك من مكروه إلى التسبيح والصلاة

(١) أخرجه البخاري. وهذا القول هو اختيار «الطبري».

والإكثار من ذكر الله ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ أي اعبد ربك يا محمد حتى يأتيك الموت؛ سمي يقيناً لأنه متيقن الوقوع والنزول.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الإيجاز بالحذف في ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ أي يقال لهم: ادخلوها.

٢ - المقابلة اللطيفة في ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ مع الآية بعدها ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى﴾ فقد قابل بين العذاب والمغفرة وبين الرحمة الواسعة والعذاب الأليم، وهذا من المحسنات البديعية.

٣ - الكناية في ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ كنّى به عن عذاب الاستئصال.

٤ - المجاز في ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مجازاً وهو لله وحده وذلك لِمَا لهم مِن القرب والاختصاص لأنهم رسل الله أُرسلوا بأمْره تعالى.

٥ - الجناس الناقص في ﴿ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ﴾.

٦ - صيغة المبالغة في ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وفي ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٧ - الطباق في ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾.

٨ - السجع بلا تكلف في مواطن عديدة مثل ﴿ءَامِنِينَ ، مُصْبِحِينَ، مُعْرِضِينَ﴾.

٩ - عطف العام على الخاص في ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[1].

١٠ - الاستعارة التبعية في ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حيث شبّه إلانة الجانب بخفض الجناح بجامع العطف والرقة في كل واستعير اسم المشبَّه به للمشبَّه، وهذا من بليغ الاستعارات لأن الطائر إذا كف عن الطيران خفض جناحيه.

تنبيه: الجمع بين هذه الآية ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وبين قوله ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨] وقوله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] أن القيامة مواطن، فموطنٌ يكون فيه سؤال وكلام، وموطنٌ لا يكون ذلك فيه، هذا قول عكرمة، وقال ابن عباس: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا، لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم: لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟[2]

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر»



(١) (ش): فالفاتحة جزء من القرآن الكريم.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٦١.

سُورَةُ النَّحْلِ ١٦ ١٢٨

مكية وآياتها ثمان وعشرون ومائة

بين يدي السورة

* سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى «الأُلوهية، والوحي، والبعث، والنشور» وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العالم الفسيح في السماوات والأرض، والبحار والجبال، والسهول والوديان، والماء الهاطل، والنبات النامي، والفلك التي تجري في البحر، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته، ويدركها بسمعه وبصره، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة، دالة على وحدانية الله جلَّ وعلا، وناطقةٌ بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات.

* تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوَّفهم به، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالًا وزادوا استهزاءً واستهتارًا.

* ولقد هدفت السورة الكريمة إلى تقرير مبدأ «وحدانية الله» جل وعلا بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهار، فخاطبت كل حاسةٍ في الإنسان، وكل جارحةٍ في كيانه البشري، ليتجه بعقله إلى ربّه، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله على عظمة الله سبحانه.

* ثم تتابعت السورة الكريمةُ تذكِّر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله، وعدم القيام بشكرها، وتحذرهم تلك العاقبة الوخيمة التي يؤول إليها مصيرُ كل معاندٍ وجاحد.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والصبر والعفو عما يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله.

التسمية: سميت هذه السورة الكريمة «سورة النحل» لاشتمالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق، وتدلُّ على الألوهية بهذا الصنع العجيب.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾
وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ

تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

اللغة: ﴿نُّطْفَةٍ﴾ النطفة الماء المهين الذي يتكون منه الإنسان، من نطف إذا قطر ﴿دِفْءٌ﴾ الدفء: ما يستدفئ به الإنسان من البرد ﴿تُرِيحُونَ﴾ الرَّواح: رجوع المواشي بالعَشِيِّ[1] من المرعى ﴿تَسْرَحُونَ﴾ السَّراح: الخروج بها صباحاً إلى المرعى ﴿أَثْقَالَكُمْ﴾ الأثقال: الأمتعة جمع ثقل سميت أثقالاً لأنها ثقيلة الحمل ﴿جَائِرٌ﴾ مائل عن الحق ﴿تُسِيمُونَ﴾ أسام الماشية: تركها ترعى، وسامت هي إذا رعت حيث

(١) (ش): العَشِيّ: الْوَقْت من زَوَال الشَّمْس إِلَى الْمغرب أَو من صَلَاة الْمغرب إِلَى الْعَتَمَة، والعَتَمَة: ظُلْمَة اللَّيْل. والعَتَمَة: وقت صلاة العشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل.

شاءت فهي سائمة ﴿ذَرَأَ﴾ خلق وأبدع ﴿مَوَاخِرَ﴾ أصل المخْر شقُّ الماء عن يمين وشمال يقال: مخرت السفينةُ إذا جرت تشق الماء مع صوت ﴿تَمِيدَ﴾ تضطرب.

سَبَبُ النّزول: قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] قال الكفار بعضهم لبعض: إنَّ محمداً يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئًا مما تُخَوِّفنا به فأنزل الله تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ...﴾[1] الآية.

التفسير: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ أي قرب قيام الساعة فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد، وإنما أتى بصيغة الماضي لتحقق وقوع الأمر وقربه، قال «الرازي»: لما كان واجب الوقوع لا محالة عبّر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث: جاءك الغوثُ فلا تجزع[2] ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله عما يصفه به الظالمون، وتقدس عن إشراكهم به غيره من الأنداد والأوثان ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أي يُنزّل الملائكة بالوحي والنبوة بإرادته وأمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي على الأنبياء والمرسلين، وسمَّى الوحي روحًا لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ أي بأن أنذروا أهل الكفر أنه لا معبود إلا الله[3] فخافوا عذابي وانتقامي، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي خلقهما بالحق الثابت، والحكمة الفائقة، لا عبثًا ولا جُزافًا ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي تمجَّد وتقدَّس عن الشريك والنظير ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي خلق هذا الجنس البشري من نطفةٍ مهينة ضعيفة هي المنيُّ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ أي فإذا به بعد تكامله بشراً مخاصمٌ لخالقه، واضح الخصومة، يكابر ويعاند، وقد خُلق ليكون عبداً لا ضدًّا قال ابن الجوزي: لقد خُلق من نطفة وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث، أفلا يستدل بأوله على آخره، وبأن من قدر على إيجاده أولاً قادرٌ على إعادته ثانيًا؟[4] ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ أي وخلق الأنعام لمصالحكم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ أي لكم فيها ما تستدفئون به من البرد مما تلبسون وتفترشون من الأصواف والأوبار ﴿وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي ولكم فيها منافع عديدة من النسل والدَّرّ[5] وركوب

---

(١) «زاد المسير» ٤/ ٤٢٦. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٢) «الرازي» ٩١/ ٢١٨.

(٣) (ش): الصواب أن يُقال: لا معبود بحقٍّ إلا الله، لأن هناك معبودات بالباطل، فلا بد من التقييد.

(٤) «زاد المسير» ٤/ ٤٢٩.

(٥) (ش): الدَّرُّ: اللَّبَنُ.

الظَّهر، ومن لحومها تأكلون وهو من أعظم المنافع لكم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي ولكم في هذه الأنعام والمواشي زينةٌ وجمالٌ حين رجوعها عشيًّا من المرعى، وحين غُدوّها صباحًا لترعى، جمال الاستمتاع بمنظرها صحيحةً سمينةً فارهة ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ أي وتحمل أحمالكم الثقيلة وأمتعتكم التي تعجزون عن حملها إلى بلدٍ بعيد لم تكونوا لتصلوا إليه إلا بجهدٍ ومشقة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إنَّ ربكم أيها الناس الذي سخَّر لكم هذه الأنعام لعظيمُ الرأفة والرحمة بكم ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي وخلق الخيل والبغال والحمير للحمل والركوب وهي كذلك زينة وجمال ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث: القاطرات، والسيارات، والطائرات النفاثة وغيرها مما يجدُّ به الزمان وهو من تعليم الله للإنسان ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي وعلى الله جل وعلا بيانُ الطريق المستقيم، الموصل لمن يسلكه إلى جنات النعيم ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي ومن هذه السبيل طريقٌ مائلٌ عن الحق منحرفٌ عنه، لا يوصل سالكه إلى الله وهو طريق الضلال، كاليهودية والنصرانية والمجوسية ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى الإيمان لهداكم جميعًا ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن يدع للإنسان حرية الاختيار. ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ليترتب عليه الثواب والعقاب، ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام، شرع في ذكر سائر النعم العظام وآياته المنبثة في الكائنات فقال ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل المطر بقدرته القاهرة من السحاب ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي أنزله عذبًا فراتًا لتشربوه فتسكن حرارة العطش ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرًا ترعون فيه أنعامكم ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ومن كل الفواكه والثمار يخرج لكم أطايب الطعام ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في إنزال الماء وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يتدبرون في صنعه فيؤمنون قال أبو حيان: ختم الآية بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل، واستعمال فكر، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وُضعت في الأرض ومرَّ عليها زمن معيَّن لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيُشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرةٌ أخرى وهي العروق، ثم ينمو

الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار، والأكْمَام[١] والثمار، المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع وذلك بتقدير قادرٍ مختار وهو الله تعالى[٢] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ذلّل الليل والنهار يتعاقبان لمنامكم ومعاشكم، والشمس والقمر يدوران لمصالحكم ومنافعكم ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي والنجومُ تجري في فلكها بأمره تعالى لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في ذلك الخلق والتسخير لدلائل باهرة عظيمة، لأصحاب العقول السليمة ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من الأمور العجيبة، من الحيوانات والنباتات، والمعادن والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وخواصها ومنافعها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعبرةً لقومٍ يتعظون ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي وهو تعالى - بقدرته ورحمته - ذلّل لكم البحرَ المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي لتأكلوا من البحر السمك الطريَّ الذي تصطادونه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي وتستخرجوا منه الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي وترى السفن العظيمة تشق عُباب البحر جاريةً فيه وهي تحمل الأمتعة والأقواتَ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي سخر لكم البحر لتنتفعوا بما ذُكر ولتطلبوا من فضل الله ورزقه سبل معايشكم بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إفضاله ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي نصب فيها جبالاً ثوابت راسيات لئلا تضطرب بكم وتميل قال «أبو السعود»: إن الأرض كانت كرةً خفيفة قبل أن تُخلق فيها الجبال، وكان من حقها أن تتحرك كالأفلاك بأدنى سبب فلما خُلقت الجبال توجهت بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد لها[٣] ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي وجعل فيها أنهاراً وطرقاً ومسالك لكي تهتدوا إلى مقاصدكم ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي وعلامات يستدلون بها على الطرق كالجبال والأنهار، وبالنجوم يهتدون ليلاً في البراري والبحار قال ابن عباس: العلامات معالمُ الطرق بالنهار

---

(١) (ش): الكِمّ: غلاف يحيط بالزَّهر أو الثَّمر أو الطَّلع فيستره ثمّ ينشقّ عنه. والكِمّ: بُرعوم الثَّمرة / بُرْعُم الثَّمرة: فرع صغير ناتئ من ساق النبات، تنبت منه الأوراق والأزهار.

(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٤٧٩.

(٣) «أبو السعود» ٣/ ١٦٧.

وبالنجم هم يهتدون بالليل[١] ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ الاستفهام إنكاري أي أتُسَوُّون بين الخالق لتلك الأشياء العظيمة والنعم الجليلة، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا فضلاً عن غيره؟ أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل؟ وهو تبكيت للكفرة وإبطالٌ لعبادتهم الأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتذكرون فتعرفون خطأ ما أنتم فيه من عبادة غير الله؟ وهو توبيخٌ آخر ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ أي إن تعدوا نعم الله الفائضة عليكم لا تضبطوا عددها فضلاً عن أن تطيقوا شكرها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي غفور لما صدر منكم من تقصير رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي يعلم ما تخفونه وما تظهرونه من النوايا والأعمال وسيجازيكم عليها ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله كالأوثان والأصنام لا يقدرون على خَلْق شيء أصلاً والحال أنهم مخلوقون صَنَعَهم البشر بأيديهم، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله؟ ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ أي وتلك الأصنام أمواتٌ لا أرواح فيها، لا تسمع ولا تبصر لأنها جمادات لا حياة فيها، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها لما فيكم من الحياة؟ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي ما تشعر هذه الأصنام متى يبعث عابدوها، وفيه تهكم بالمشركين لأنهم عبدوا جماداً لا يحس ولا يشعر ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إله واحدٌ لا شريك له ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ أي فالذين لا يصدّقون بالبعث والجزاء قلوبهم تنكر وحدانية الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي متكبرون متعظمون عن قبول الحق بعدما سطعت دلائله ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي حقًّا إن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم يعلم ما يخفون وما يظهرون ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ أي المتكبرين عن التوحيد والإيمان ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ أي وإذا سئل هؤلاء الجاحدون أيَّ شيء أنزل ربكم على رسوله ﷺ؟ ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء: ما أنزله ليس إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين ليس بكلام رب العالمين قال المفسرون: كان المشركون يجلسون على مداخل مكة يُنفّرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج ماذا أُنزل على محمد؟ قالوا: أباطيل وأحاديث الأولين[٢] ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي قالوا ذلك البهتان ليحملوا ذنوبهم كاملةً من غير أن يُكفَّر منها شيء ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي وليحملوا ذنوب الأتباع الذين أضلوهم بغير دليلٍ أو برهان، فقد كانوا رؤساء يُقتدى بهم في الضلالة

(١) «زاد المسير» ٤/ ٤٣٦.

(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٤٨٤.

ولذلك حملوا أوزارهم وأوزار من أضلوهم ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ألاَ للتنبيه أي فانتبهوا أيها القوم بئس الحمل الذي حملوه على ظهورهم، والمقصودُ المبالغة في الزجر ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مكر المجرمون بأنبيائهم وأرادوا إطفاء نور الله من قبل كفار مكة، وهذا تسلية له ﷺ ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي قلع بنيانهم من قواعده وأسسه، وهذا تمثيلٌ لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسل ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي فسقط عليهم سقف بنيانهم فتهدّم البناء وماتوا ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي جاءهم الهلاك والدمار من حيث لا يخطر على بالهم، والآية مشهد كاملٌ للدمار والهلاك، وللسخرية من مكر الماكرين، وتدبير المدبرين، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُردّ، وتدبيرهم لا يخيب، والله من ورائهم محيط ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم ويهينهم ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي يقول تعالى لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تخاصمون وتعادون من أجلهم الأنبياء؟ أحضروهم ليشفعوا لكم، والأسلوب استهزاءٌ وتهكم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي يقول الدعاة والعلماء شماتةً بأولئك الأشقياء: إن الذلَّ والهوان والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي تقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك بالله ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ أي استسلموا وانقادوا عند الموت على خلاف عادتهم في الدنيا من العناد والمكابرة، وقالوا ما أشركنا ولا عصينا كما يقولون يوم المعاد ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يكذبهم الله ويقول: بلى قد كذبتم وعصيتم وكنتم مجرمين ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئست جهنم مقرًا ومقامًا للمتكبرين عن طاعة الله.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الالتفات في ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فهو خطاب للمستعجلين بطريق الالتفات.

٢ - أسلوب الإطناب في ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ تأكيداً لسفاهة مَن عَبَدَ الأصنام ومثله ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

٣ - الطباق بين ﴿يُسِرُّونَ و يُعْلِنُونَ﴾ وبين ﴿تُرِيحُونَ و تَسْرَحُونَ﴾.

٤ - صيغة المبالغة في ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ وفي ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥ - طباق السلب في ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾.

٦ -الجناس الناقص في ﴿لَا يَخْلُقُونَ .. وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

٧ - الاستعارة التمثيلية في ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.. فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ شبهت حال أولئك الماكرين بحال قوم بنوا بنياناً شديد الدعائم فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم بطريق الاستعارة التمثيلية، ووجه الشبه أن ما عَدُّوه سبباً لبقائهم، عاد سبباً لفنائهم كقولهم «من حفر حفرة لأخيه سقط فيها».

فَائِدَة: قال «القرطبي»: تسمى سورة النحل سورة النِّعم لكثرة ما عدَّد الله فيها من نعمه على عباده(١).

قال الله تعالى:

وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

(١) «تفسير القرطبي» ١٠/٣٦.

المناسَبَة: لما أخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا نعمة الله، وطعنوا في القرآن فزعموا أنه أساطير الأولين، وبيَّن ما يكونون عليه في الآخرة من الفضيحة والذل والهوان، ذكر هنا ما أعده للمتقين من وجوه التكريم في دار النعيم، ليظهر الفارق بين حال أهل السعادة وحال أهل الشقاوة، وبين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في المقارنة بين الفريقين.

اللغَة: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ الكتب السماوية جمع زبُور من زبرت الكتاب إذا كتبته ﴿يَخۡسِفَ﴾ خسَف المكانُ خسوفًا إذا ذهب وغاب في الأرض ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾ يميل من جانب إلى جانب ومنه قيل للظل: فيءٌ لأنه يفيء أي يرجع من جهة إلى أخرى ﴿دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون ذليلون، والدُّخُور الصَّغَارُ والذُّل قال ذو الرمَّة:

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا دَاخِـرٌ فِـي مُخَيَّسٍ وَمُنْجَحِرٌ فِي غَيْرِ أَرْضِكَ فِي جُحْرِ[(١)]

التفسير: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ أي قيل للفريق الثاني وهم أهل التقوى والإيمان ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗا﴾ أي ماذا أنزل ربكم على رسوله؟ قالوا أنزل خيراً قال المفسرون: هذا كان في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون: إنه ساحر وكاهن وكذاب، فيأتي المؤمنين ويسألهم عن محمد وعمَّا أنزل الله عليه فيقولون: أنزل الله عليه الخير والهدى والقرآن[(٢)]، قال تعالى بيانًا لجزائهم الكريم ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ أي لهؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإحسانهم ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ أي وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا لفنائها وبقاء الآخرة ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي ولنعم دار المتقين دار الآخرة وهي ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أي جناتُ إقامة ﴿يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أي يدخلون تلك الجنان التي تجري من بين أشجارها وقصورها الأنهار ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ أي لهم في تلك الجنات ما يشتهون بدون كدٍّ ولا تعب، ولا انقطاع ولا نَصب ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين لمحارمه، المتمسكين بأوامره ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي هم الذين تقبض الملائكةُ أرواحهم حال كونهم أبراراً، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي، طيبةً نفوسهم بلقاء الله ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ أي تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة قال ابن عباس: الملائكة يأتونهم بالسلام من قِبل الله، ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين[(٣)] ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي هنيئًا

---

(١) «تفسير الطبري» ١٤/ ١١٦. (ش): مُخَيَّسٌ ومُخَيِّسٌ: سِجْنٍ. والمُنْجَحِرُ: الداخل في الجُحْر، والجُحْر: حُفْرة تأوي إليها الهوامّ وصغار الحيوانات.
(٢) «الرازي» ٢٠/ ٢٣.
(٣) «تفسير الطبري» ١٤/ ١٠١.

لكم الجنة بما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ عاد الكلام إلى تقريع المشركين وتوبيخهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا والمعنى ما ينتظر هؤلاء إلا أحد أمرين: إما نزول الموت بهم، أو حلول العذاب العاجل(١)، أو ليس في مصير المكذبين قبلهم عبرةٌ وغناء؟ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي كذلك صَنَع مَن قبلَهم من المجرمين حتى حلَّ بهم العذاب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم ولكنْ ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي أصابهم عقوبات كفرهم وجزاء أعمالهم الخبيثة ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي أحاط ونزل بهم جزاء استهزائهم وهو العذاب الأليم في دركات الجحيم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ أي قال أهل الكفر والإشراك وهم كفار قريش ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ أي لو شاء الله ما عبدنا الأصنام لا نحن ولا آباؤنا، ولا حرمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء لا على سبيل الاعتقاد، وغرضُهم أن إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة واقع بمشيئة الله، فهو راضٍ به وهو حقٌّ وصواب ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي مثل هذا التكذيب والاستهزاء فَعَل مَن قبلَهم من المجرمين، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل، وتناسَوْا كَسْبَهم لكفرهم ومعاصيهم، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم بعد أن أنذرتهم رسلهم عذاب النار وغضب الجبار ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي ليس على الرسل إلا التبليغ، وأمَّا أمر الهداية والإيمان فهو إلى الله جلَّ وعلا ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ أي أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق بأن اعبدوا الله ووحّدوه، واتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ أي فمنهم من أرشده الله إلى عبادته ودينه فآمن ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ أي ومنهم من وجبت له الشقاوة والضلالة فكفر، أعْلَمَ تعالى أنه أرسل الرسل لتبليغ الناس دعوة الله فمنهم من استجاب فهداه الله، ومنهم من كفر فأضلَّه الله ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي سيروا يا معشر قريش في أكناف الأرض ثم انظروا ماذا حلَّ بالأمم المكذبين لعلكم تعتبرون! ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أي إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء الكفار فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يخلق

(١) (ش): المعنى: ما ينتظر المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة؛ لتقبض أرواحهم وهم على الكفر، أو يأتي أمر الله بعذابٍ عاجلٍ يُهلِكهم.

فيه الضلالة بسوء اختياره ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من عذابه تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي حلف المشركون جاهدين في أيمانهم مبالغين في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت، استبعدوا البعث ورأوه أمراً عسيراً بعد البِلى وتفرق الأشلاء والذرات، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي بلى ليبعثنَّهم، وعد بذلك وعداً قاطعاً لا بدَّ منه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والنشور ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي سيبعثهم ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث، وليظهر لهم الحق فيما اختلفوا فيه، وليحقق العدل وهو التمييز بين المطيع والعاصي، وبين المُحِقّ والمُبْطِل، وبين الظالم والمظلوم ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ﴾ أي وليعلم الجاحدون للبعث، والمكذبون لوعد الله الحق أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء فإنا نقول للشيء كنْ فيكون قال المفسرون: هذا تقريبٌ للأذهان، والحقيقةُ أنه تعالى لو أراد شيئاً لكان بغير احتياج إلى لفظ ﴿كُن﴾[1] ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي تركوا الأوطان والأهل والقرابة في شأن الله وابتغاء رضوانه من بعد ما عُذِّبوا في الله قال «القرطبي»: هم صهيب وبلال وخبّاب وعمّار، عذّبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة[2] ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي لنسكننهم داراً حسنة خيراً مما فقدوا قال ابن عباس: بوأهم الله المدينة فجعلها لهم دار هجرة ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي ثواب الآخر أعظم وأشرف وأكبر لو كان الناس يعلمون ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي هم الذين صبروا على الشدائد والمكاره، فهجروا الأوطان، وفارقوا الإخوان، واعتمدوا على الله وحده يبتغون أجره ومثوبته ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية إلا بشراً نوحي إليهم كما أوحينا إليك قال المفسرون: أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلاّبعث إلينا ملكاً فنزلت[3] ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي اسألوا يا معشر قريش العلماء بالتوراة والإنجيل يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي أرسلناهم بالحجج والبراهين

(١) (ش): الله -سبحانه وتعالى- على كل شيءٍ قدير، لكن هذا القول يحتاج إلى دليل فإنه لا يقال في حق الله شيء إلا بدليل.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ١٠٧.

(٣) «زاد المسير» ٤/ ٤٤٩.

الساطعة الدالة على صدقهم وبالزُبر، أي: الكتب المقدسة ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن المذكّر الموقظ للقلوب الغافلة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي لتعرّف الناس الأحكام، والحلال والحرام ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ولعلهم يتفكرون في هذا القرآن فيتعظون ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي هل أمن هؤلاء الكفار الذين مكروا برسول الله ﷺ واحتالوا لقتله في دار الندوة، هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون؟ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي يأتيهم العذاب بغتةً في حال أمنهم واستقرارهم، من حيث لا يخطر ببالهم ومن جهةٍ لا يعلمون بها ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم للتجارة واشتغالهم بالبيع والشراء فإنهم على أي حال لا يعجزون الله ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقبين لنزول العذاب قال ابن كثير: فإنه يكون أبلغ وأشد فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديدٌ[1] ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي حيث لم يعاجِلْكم بالعقوبة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي أولم يعتبر هؤلاء الكافرون ويروا آثار قدرة الله وأنه ما من شيء من الجبال والأشجار والأحجار ومن سائر ما خلق الله ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ أي تميل ظلالها من جانب إلى جانب ساجدة لله سجودَ خضوعٍ لمشيئته تعالى وانقياد، لا تخرج عن إرادته ومشيئته ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي خاضعون صاغرون فكل هذه الأشياء منقادة لقدرة الله وتدبيره فكيف يتعالى ويتكبر على طاعته أولئك الكافرون؟ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي له تعالى وحده يخضع وينقاد جميع المخلوقات بما فيهم الملائكة فهم لا يستكبرون عن عبادته ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي يخافون جلال الله وعظمته[2]، ويمتثلون أوامره على الدوام.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الإيجاز بالحذف ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي قالوا: أنزل خيراً.

٢ - الإطناب في قوله ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ .. وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾.

٣ - الطباق في ﴿هَدَى ٱللَّهُ .. حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ وفي ﴿لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ وفي ﴿ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾.

٤ - صيغة المبالغة في ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لأن (فعول وفعيل) من صيغ المبالغة.

(١) «المختصر» ٢/ ٣٣٣.

(٢) (ش): هذا تفسير مُجمَل ليس فيه معنى الفوقية الحقيقي الذي هو عُلوُّ الذات الكريمة فوق عباده بل اقتصر على تفسيره بالجلالة والعظمة.

٥ – ذكر الخاص بعد العام في ﴿يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ.. وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ زيادةً في التعظيم والتكريم للملائكة الأطهار.

٦ – السجع في ﴿يَتَفَكَّرُونَ ، دَٰخِرُونَ ، يَشۡعُرُونَ﴾.

فَائِدَة: استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ أن النبوة لا تكون إلا في الرجال، وأما النساء فليس فيهن نبيَّة، وهو استنباط دقيق.

تنبيه: قال ابن تيمية في منهاج السنة: «والاحتجاج بالقدر حجةٌ باطلة داحضة، باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العالمين، ولهذا لما قال المشركون ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ردَّ الله عليهم بقوله ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة، فإنَّ أحدهم لو ظلم الآخر، أو أراد قتل ولده، أو الزنى بزوجته، أو كان مصرًّا على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال: لو شاء الله لم أفعل هذا، لم يقبلوا منه هذه الحجة ولا يقبلها هو من غيره، وإنما يحتج بها المحتج دفعًا للّوم عن نفسه بلا وجه...»[1].

قال الله تعالى:

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ
تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ
فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ
تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ
وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي
ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ وَتَصِفُ
أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ
إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَمَآ
أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ
لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ

---

(١) عن «محاسن التأويل» الجزء العاشر بإيجاز.

وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ
أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ
يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ
خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ
فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ
فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ
أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا
تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أن كل ما في الكون منقادٌ لأمر الله، خاضعٌ لسلطانه، أمر هنا بإفراده بالعبادة لأنه الخالق الرازق، ثم ضرب الأمثال في ضلالات أهل الجاهلية، وذكَّر الناس بنعمه الجليلة ليعبدوه ويشكروه.

اللغَة: ﴿وَاصِبًا﴾ دائماً ولازماً قال الجوهري: وصبَ الشيء وصوباً أي دام ومنه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩] أي دائم وقال الشاعر:

« وهَزِيمٌ رَعْدُهُ وَاصِبٌ»[1]

﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ الجؤار: رفع الصوت بالدعاء والتضرع يقال: جأر أي صاح قال الأعشى يصف بقرة:

فَطَافَتْ ثَلَاثًا بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ... وَكَانَ النَّكِيرُ أَنْ تُضِيفَ وَتَجْأَرَا[2]

﴿كَظِيمٌ﴾ ممتلئ غماً وغيظاً، والكظم أن يطبق الفم فلا يتكلم من الغيظ ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ يختفي ﴿هُونٍ﴾ هوانٍ وذُل ﴿فَرْثٍ﴾ الفرْث: الزبل الذي ينزل إلى الكَرش أو المِعَى[3] ﴿سَآئِغًا﴾ لذيذاً هيناً لا يعصُّ به من شربه ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول وهو المنقاد المسخَّر بلا عناء ﴿وَحَفَدَةً﴾ الحفدة: قال الأزهري أولاد الأولاد، والحفدة: الخدم والأعوان.

التفسير: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي لا تعبدوا إلهين فإن الإله الحق لا يتعدد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي إلهكم واحد أحد فردٌ صمد ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي خافون

---

(١) البيت لحسان، والهزيم: السحاب المتشقق بالمطر كذا في «الطبري» ١٤/ ١١٨. (ش): والمعنى أن ما يأتي به السحاب من مطر رعْدُه دائم.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ١١٥. (ش): تُضِيفَ: تشفق وتحذر. والنَّكِيرُ: الإنكار. والجؤار: الصياح. والمعنى: أن هذه البقرة فقدت ولدها فطافت تطلبه ثلاث ليال وأيامها، ولا إنكار عندها ولا انتصار مما عدَا على ولدها إلا أن تشفق وتحذر وتصيح.

(٣) (ش): مِعًى: ما ينتقل إليه الطّعامُ بعد المعدة. والجمع: أمعاء.

دون سواي ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي له الطاعة والانقياد واجباً ثابتاً فهو الإِله الحق، وله الطاعةُ خالصةً ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ الهمزة للإِنكار والتوبيخ أي كيف تتقون وتخافون غيره، ولا نفع ولا ضر إِلا بيده؟ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي ما تفضَّل عليكم أيها الناس من رزقٍ ونعمةٍ وعافيةٍ ونصر فمن فضل الله وإِحسانه ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي ثم إِذا أصابكم الضُّرُّ من فقرٍ ومرضٍ وبأساء فإِليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء، والغرض أنكم تلجئون إِليه وحده ساعة العسرة والضيق، ولا تتوجهون إِلا إِليه دون الشركاء ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي إِذا رفع عنكم البلاء رجع فريق منكم إِلى الإِشراك بالله قال «القرطبي»: ومعنى الكلام التعجيبُ من الإِشراك بعد النجاة من الهلاك[1] ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي ليجحدوا نعمته تعالى من كشف الضر والبلاء ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي تمتعوا بدار الفناء فسوف تعلمون عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب، وهو أمرٌ للتهديد والوعيد ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي يجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها ببرهان ولا بحجة[2] نصيباً من الزرع والأنعام تقرباً إِليها ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي والله أيها المشركون لتُسألنَّ عما كنتم تختلقونه من الكذب على الله، والمراد سؤال توبيخ وتقريع ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ أي ومِن جَهْل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إِلى الله البنات وجعلوا لهم البنين ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزَّه الله وتعظَّم عن هذا الإِفك والبهتان ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين مع كراهتهم أنهم يأنفون من البنات ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي إِذا أُخبر أحدهم بولادة بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي صار وجهه متغيراً من الغم والحزن قال «القرطبي»: وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد، والعربُ تقول لكل من لقي مكروهاً: قد اسودَّ وجهه[3] ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي مملوءٌ غيظاً وغمًّا ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي يختفي من قومه خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت، كأنها بليَّة وليست هبةً إِلهية، ثم يفكر فيما يصنع ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي أيمسك هذه الأنثى على ذلٍّ وهوان أم يدفنها في التراب حية؟ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء صنيعهم وساء حكمهم، حيث نسبوا لخالقهم البنات - وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة - وأضافوا البنين إِليهم، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي

(١) «تفسير القرطبي» ١٠/ ١١٥.
(٢) وقيل: المعنى يجعلون لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد نصيبًا مما أعطاهم الله.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٠/ ١١٦.

لهؤلاء الذين لم يصدقوا بالآخرة ونسبوا للهِ البنات سفهاً وجهلاً، صفةُ السوء القبيحة التي هي كالمثل في القبح، فالنقصُ إنما ينسب إليهم لا إلى الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي له جل وعلا الوصف العالي الشأن، والكمال المطلق، والتنزه عن صفات المخلوقين ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العزيزُ في ملكه، الحكيمُ في تدبيره. ثم أخبر تعالى عن حلمه بالعباد مع ظلمهم فقال ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أي لو يؤاخذهم بكفرهم ومعاصيهم ويعاجلهم بالعقوبة ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي ما ترك على الأرض أحداً يدبُّ على ظهرها من إنسانٍ وحيوان ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولكنْ يؤخرهم إلى وقتٍ معيَّن تقتضيه الحكمة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدَّد لهلاكهم لا يتأخرون برهةً يسيرةً من الزمن ولا يتقدمون عليها كقوله ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩] ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي يجعلون له تعالى البنات مع كراهتهم لهنَّ، وهو تأكيد لما سبق للتقريع والتوبيخ ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي يجعلون لله ما يجعلون ومع ذلك يزعمون أنَّ لهم العاقبة الحسنى عند الله وأنهم أهل الجنة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي حقاً إنَّ لهم مكان ما أمّلوا نار جهنم التي ليس وراء عذابها عذاب ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي معجَّلون إليها ومُقدَّمون[١]، ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل ليتأسى صلوات الله عليه بهم في الصبر على تحمل الأذى فقال ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي والله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم فحسَّن الشيطان أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل وردّوا عليهم ما جاءوهم به من البينات ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا وبئس الناصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي ما أنزلنا عليك القرآن يا محمد إلا لتبيِّن للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام لتقوم الحجة عليهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وأنزلنا القرآن هدايةً للقلوب، ورحمة وشفاءً لمن آمن به، ثم ذكر تعالى عظيم قدرته الدالة على وحدانيته فقال ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي أنزل بقدرته الماء من السحاب فأحيا بذلك الماء النبات والزرع بعد جدب الأرض ويُبسها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي إن في هذا الإحياء لَدلالةً باهرة على عظيم قدرته لقوم يسمعون التذكير فيتدبرونه ويعقلونه ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ أي وإنَّ لكم أيها الناس في هذه الأنعام «الإبل والبقر والضأن والمعز» لَعِظةً وعبرة يعتبر بها العقلاء، ففي خلقها

---

(١) هذا قول قتادة والحسن من الفرط وهو السابق إلى طلب الماء، وقال مجاهد: «مفرطون» متركون منسيون في النار.

وتسخيرها دلالة على قدرة الله وعظمته ووحدانيته ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أي نسقيكم من بعض الذي في بطون هذه الأنعام ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ أي من بين الروث والدم ذلك الحليب الخالص واللبن النافع[١] ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي سهل المرور في حلقهم، لذيذاً هنيئاً لا يغصُّ به من شربه ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ أي ولكم مما أنعم الله به عليكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تجعلون منه خمرًا يسكر، قال «الطبري»: وإنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حرمت بعد[٢] ﴿وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب قال ابن عباس: الرزق الحسن: ما أُحلَّ من ثمرتها، والسَّكر: ما حُرِّم من ثمرتها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي لآيةً باهرة، ودلالة قاهرة على وحدانيته سبحانه لقوم يتدبرون بعقولهم قال ابن كثير: وناسب ذكرُ العقل هنا لأنه أشرفُ ما في الإنسان، ولهذا حرَّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها[٣]، ولما ذكر تعالى ما يدل على باهر قدرته، وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرثٍ ودمٍ وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، ذكر إخراج العسل الذي جعله شفاءً للناس من النحل، وهي حشرةٌ ضعيفة وفيها عجائب بديعة وأمور غريبة، وكل هذا يدل على وحدانية الصانع وقدرته وعظمته فقال تعالى ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ المراد من الوحي: الإلهامُ والهدايةُ أي ألهمها مصالحها وأرشدها إلى بناء بيوتها المسدَّسة العجيبة تأوي إليها في ثلاثة أمكنة: الجبال، والشجر، والأكوار التي يبنيها الناس ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الحلو، والمر، والحامض، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗا﴾ أي ادخلي الطرق في طلب المرعى حال كونها مسخرةً لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ أي يخرج من بطون النحل عسلٌ متنوعٌ منه أحمر، وأبيض، وأصفر، فيه شفاءً للناس من كثيرٍ من الأمراض قال «الرازي» فإن قالوا: كيف يكون شفاءٌ للناس وهو يضر بالصفراء؟ فالجواب أنه تعالى لم يقل: إنه شفاءٌ لكل الناس، ولكل داء، وفي كل حال، بل لّما كان شفاء للبعض ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنَّ فيه شفاء[٤] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لعبرة لقومٍ يتفكرون في عظيم

(١) قال الزمخشري: والآية بيان للعبرة فإن الله سبحانه يخلق اللبن وسطًا بين الفرث والدم يَكْتَنِفَانِه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون، ولا طعم، ولا رائحة، فسبحان الله ما أعظم قدرته، وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل. «الكشاف» ٢/ ٦١٥. (ش): يَكْتَنِفَانِه: يُحيطان به.

(٢) «تفسير الطبري» ١٤/ ١٣٤.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٠/ ٧٢.

(٤) «المختصر» ٢/ ٣٣٦.

قدرة الله، وبديع صنعه ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ أي خلقكم بقدرته بعد أن لم تكونوا شيئاً ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أي يُردُّ إلى أردإ وأضعف العمر وهو الهَرم والخرف ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾ أي لينسى ما يعلم فيشبه الطفل في نقصان القوة والعقل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ أي عليمٌ بتدبير خلقه، قديرٌ على ما يريده، فكما قدر على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل، فإنه قادر على إحيائه بعد إماتته قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر[1] ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق فهذا غنيٌّ وذاك فقير، وهذا مالكٌ وذاك مملوك ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستووا في ذلك مع عبيدهم، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟[2] ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم؟ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي هو تعالى بقدرته خلق النساء من جنسكم وشكلكم ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ أي جعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد وأولاد الأولاد، سمّوا حفدة لأنهم يخدمون أجدادهم ويسارعون في طاعتهم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي رزقكم من أنواع اللذائذ من الثمار والحبوب والحيوان ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ أي أبَعْدَ تَحَقُّق ما ذُكِر مِن نعم الله يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ وهو استفهام للتوبيخ والتقريع ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون أوثاناً لا تقدر على إنزال مطر، ولا على إخراج زرع أو شجر، ولا تقدر أن ترزقهم قليلاً أو كثيراً ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي ليس لها ذلك ولا تقدر عليه لو أرادت ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ أي لا تُمَثِّلوا للهِ الأمثالَ، ولا تُشَبِّهوا له الأشباه؛ فإنه تعالى لا مِثْلَ له ولا نظير ولا شبيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي يعلم كل الحقائق، وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من صنوف البيان والبديع ما يلي:

١ - الالتفات من التكلم إلى الغيبة إلى المتكلم ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ لتربية المهابة والرهبة في القلوب مع إفادة القصر، أي: لا تخافوا غيري.

٢ - الطباق في ﴿يَسۡتَقۡدِمُونَ .. يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ وفي ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ وفي

---

(١) «زاد المسير» ٤/ ٤٦٨.

(٢) «المختصر» ٢/ ٣٣٨.

﴿يُؤْمِنُونَ ... يَكْفُرُونَ ﴾.

٣ - الجناس الناقص بين ﴿كُلِّ مِن كُلِّ ﴾.

٤ - الاعتراض ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ - سُبْحَٰنَهُۥ - وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ فلفظة (سبحانه) معترضة لتعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح.

٥ - صيغة المبالغة في ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ و ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

٦ - السجع ﴿يَعْقِلُونَ، يَعْرِشُونَ، يَجْحَدُونَ ، يَكْفُرُونَ ﴾.

٧ - التهديد والوعيد ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

٨ - قوله تعالى ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ قال الشهاب: هذا من بليغ الكلام وبديعه أي ألسنتهم كاذبة كقولهم «عينُها تصفُ السحر» أي ساحرة، وقدُّها يصف الهَيْفَ أي هَيْفاء[1].

قال الله تعالى:

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ
سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ
يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ
أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم
مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا
تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ
حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ
لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا
رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ
فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا

(١) (ش): هَيْفاء: ضامرة البطن، دقيقة الخَصْر. ضامرة البطن: قَلِيلة لَحْم البطن. خَصْر الإنسان والحيوان: وسطه، ما بين أسفل القفص الصدري والحوض. الدَّقِيق: (ضد الغليظ) وَمَا قل أَو صَغُر من الْأَشْيَاء.

كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟
يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ
ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ
يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى سفاهة المشركين في عبادتهم لغير الله، أعقبه بذكر مثلين توضيحاً لبطلان عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ولا تستجيب ولا تسمع، ثم ذكَّر الناس ببعض النِّعم التي أفاضها عليهم ليعبدوه ويشكروه، ويُخلصوا له العمل طائعين منيبين.

اللغَة: ﴿أَبْكَمُ﴾ الأبكم: الأخرس الذي لا ينطق ﴿كَلٌّ﴾ الكَلُّ: الثقيل الذي هو عيال على الغير وقد يسمى اليتيم كلاً لثقله على من يكفله قال الشاعر:

أَكُولٌ لِمَالِ الْكَلِّ قَبْلَ شَبَابِهِ ... إِذَا كَانَ عَظْمُ الْكَلِّ غَيْرَ شَدِيدِ [(١)]

﴿كَلَمْحِ﴾ اللَّمْح: النظر بسرعة مثل الخطفة يقال لَمحه لمحاً ولمحاناً ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ الظَّعْنُ: السفر والرحيل لطلب الكلأ، والظعينةُ المرأة المسافرة ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ الوبر للإِبل كالصوف للغنم ﴿ظِلَٰلًا﴾ الظلالُ: كل ما يُستظَلُّ به من البيوت والشجر ﴿أَكْنَٰنًا﴾ جمع كِنّ مثل حِمل وأحمال وهو كل ما يحفظ ويقي من الريح والمطر وغيرهما ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ جمع سربال قال الزجاج: كلُّ ما لبسته من قميصٍ أو درع فهو سربال[(٢)].

التفسير: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله جل وعلا، أي: مَثَلُ هؤلاء في إشراكهم مثلُ من سوَّى بين عبدٍ مملوكٍ عاجزٍ عن التصرف، وبين حرٍّ مالك يتصرف في أمره كيف يشاء، مع أنهما سِيّان[(٣)] في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى، فما الظنُّ

---

(١) «البحر المحيط» ٥/٥١٨.

(٢) قال الإمام ابن القيم: ذكر الله تعالى مثلين: فالمثل الأول ضربه لنفسه سبحانه والأوثان، فالله هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده سرًّا وجهرًا، وليلًا ونهارًا، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء إلي ويعبدونها من دوني مع التفاوت العظيم والفرق المبين؟ وأما المثل الثاني فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة، أينما أرسلته لا يأتك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر، متكلم، يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد. «إعلام الموقعين» لابن القيم.

(٣) (ش): سِيٌّ: مِثْلٌ ونظيرٌ (تستعمل مع المذكّر والمؤنّث) «هو سِيُّك– هي سِيُّك– هما سِيّان– هذا سِيّ ذاك– هم سِيٌّ عندي: متساوون». سيّان عندي كذا وكذا: لا فرق بينهما.

بربِّ العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات؟ ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي ينفق ماله في الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ ؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار الذين ضُرب لهم المثل، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والله تعالى له المُلك، وبيده الرزق، وهو المتصرف في الكون كيف يشاء، فكيف يُسوَّى بينه وبين الأصنام؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي شكراً للهِ على بيان هذا المثال ووضوح الحق فقد ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة، ولكنَّ المشركين بسفههم وجهلهم يسوّون بين الخالق والمخلوق، والمالك والمملوك ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ هذا هو المثل الثاني للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة قال مجاهد: هذا مثلٌ مضروبٌ للوثن وَلِلْحَقِّ تعالى[1]، فالوثنُ أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير، ولا يقدر على شيء بالكلية لأنه إما حجرٌ أو شجر، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ أي ثقيل عالة على وليِّه أو سيده ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي حيثما أرسله سيده لم ينجح في مسعاه لأنه أخرس، بليد، ضعيف ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي هل يتساوى هذا الأخرس، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان، وهو على طريق الحق والاستقامة، مستنيرٌ بنور القرآن؟ وإذا كان العاقل لا يسوّي بين هذين الرجلين، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر، وبيْن الله سبحانه وهو القادر العليم، الهادي إلى الصراط المستقيم؟ [2] ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو سبحانه المختص بعلم الغيب، يعلم ما غاب عن الأبصار في السماوات والأرض ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي ما شأن الساعة في سرعة المجيء إلا كنظرة سريعة بطرف العين، بل هو أقرب لأنه تعالى يقول للشيء: كن فيكون، وهذا تمثيل لسرعة مجيئها ولذلك قال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادرٌ على كل الأشياء ومن جملتها القيامة التي يكذِّب بها الكافرون ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي أخرجكم من أرحام الأمهات لا تعرفون شيئاً أصلاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمدوه على آلائه ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٣٤٠. تنبيه: في طبعاتٍ سابقة كان هذا الهامش مكان الذي بعده، والكلام بنصِّه في «تفسير ابن كثير» ومختصره للمؤلف، وليس في «تفسير الرازي».

(٢) «الرازي» ٢٠/ ٩٣. (ش): هذا الكلام ليس في «تفسير الرازي» . تنبيه: في طبعاتٍ سابقة كان هذا الهامش مكان الذي قبله.

جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ هـذا مـن الأدلـة على قـدرة الله تعالى ووحدانيتـه والمعنى: ألم يشـاهدوا الطيـور مذلّلات للطيـران في ذلك الفضاء الواسـع بين السـماء والأرض ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ أي ما يمسـكهن عن السـقوط عند قبض أجنحتهنَّ وبسـطها إلا هو سـبحانه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي إنَّ فيمـا ذُكر لآيات ظاهرة، وعلامات باهرة على وحدانيته تعالـى لقـوم يصدَّقون بمـا جاءت بـه رسـل الله[١] ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ هـذا تعداد لنعم الله علـى العباد أي جعل لكم هذه البيوت من الحجر والمَدَر[٢] لتسـكنوا فيهـا أيـام مُقامكـم في أوطانكـم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ أي وجعل لكـم بيوتـًا أُخـرى وهي الخيـام والقُباب المتخذة من الشـعر والصـوف والوبَر[٣] ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ أي تسـتخفون حملها ونقلها في أسـفاركم، وهـي خفيفةٌ عليكم في أوقات السـفر والحضَـر ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا﴾ أي وجعل لكم من صوف الغنم، ووبر الإبل، وشـعر المعز ما تلبسـون وتفرشون به بيوتكم ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي تنتفعـون وتتمتعـون بها إلى حين المـوت[٤] ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ أي جعل لكم من الشـجر والجبل مواضع تسكنون فيها كالكهوف والحصون قال «الرازي»: لمـا كانت بلادُ العرب شـديدة الحـر، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شـديدة، فلهذا ذكر تعالـى هـذه المعاني في معـرض النعمـة العظيمـة[٥] ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ أي جعل لكـم الثياب من القطن والصوف والكَتَّان لتحفظكـم مـن الحـر والـبرد ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ أي ودروعـًا تشـبه الثياب تتقـون بها شـر أعدائكم في الحـرب ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي مثل مـا خلق هذه الأشـياء لكم وأنعم بهـا عليكم فإنه يُتم نعمة الدنيـا والدين عليكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ أي لتخلصـوا للهِ الربوبيـة، وتعلموا أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحدٌ سـواه ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان ولم يؤمنوا بما جئتهم به يا محمد فلا ضـرر عليك لأن وظيفتـك التبليغ وقد بلَّغت الرسـالة وأديت الأمانة ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ

---

(١) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) (ش): المَدَر: طين لزج متماسك، القطعة منه مَدَرة.

(٣) (ش): القُبّة: خيْمة صغيرة أعلاها مستدير. وَبَر: صوف الإبل والأرانب ونحوها، زغب، شعر، فرو.

(٤) هذا قول ابن عباس ومجاهد، وقال مقاتل: تنتفعون بها إلى أن تبلَي. (ش): بلِي الثَّوبُ ونحوُه: رثَّ وتَلِف، صار قديمًا باليًا.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٠/ ٩٣.

﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي يعرف هؤلاء المشركون نِعَم الله التي أنعم بها عليهم، ويعترفون بأنها من عند الله ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم وقال السُّدي: نعمةُ الله هي محمد ﷺ عرفوا نبوته، ثم جحدوها وكذّبوه[1] ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي أكثرهم يموتون كفاراً وفيه إشارة إلى أن بعضهم يهتدي للإسلام وأما أكثرهم فمصرّون على الكفر والضلال ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي ويوم القيامة نحشر الخلائق للحساب ونبعث في كل أمة نبيَّها يشهد عليها بالإيمان والكفر ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا يُؤذن للذين كفروا في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يُطلب منهم أن يسترضوا ربَّهم بقولٍ أو عمل، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء، وجاء وقت الحساب والعقاب قال «القرطبي»: العُتبى هي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب، وأصل الكلمة من العَتْب وهي الموجدة فإذا وجد عليه يقال: عَتَب، وإذا رجع إلى مسرَّتك فقد أعتب[2] ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي وإذا رأى المشركون عذاب جهنم فلا يُفتَّر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يُؤخرون ولا يُمهلون ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي وإذا أبصر المشركون شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويزعمون أنهم شركاء الله في الألوهية ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ أي هؤلاء الذين عبدناهم من دونك قال «البيضاوي»: وهذا اعترافٌ بأنهم كانوا مخطئين في ذلك والتماس لتخفيف العذاب[3] ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب فيما قالوا في تقرير وتوكيد، وذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي استسلم أولئك الظالمون لحكم الله تعالى بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي بطل ما كانوا يؤملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، ثم أخبر تعالى عن مآلهم بعد أن أخبر عن حالهم فقال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي كفروا بالله ومنعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي زدناهم عذاباً في جهنم فوق عذاب الكفر، لأنهم ارتكبوا جريمة صدّ الناس عن الهدى فوق جريمة الكفر، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقاً ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ أي بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي اذكر للناس ذلك اليوم وهوْله حين نبعث في كل أمةٍ نبيَّها ليشهد علينا ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي وجئنا

(١) وهذا اختيار «الطبري».
(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ١٦٣.
(٣) «البيضاوي» ٢٩٦.

بك يا محمد شهيداً على أُمَّتِك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ونزَّلنا عليك القرآن المنير بيانـًا شافيـًا بليغـًا لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين فلا حجة لهم ولا معذرة قال ابن مسعود: قد بُيِّن لنا في هذا القرآن كلُّ علمٍ، وكل شيء[1] ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي هداية للقلوب، ورحمة للعباد، وبشارةً للمسلمين المهتدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أي يأمر بمكارم الأخلاق بالعدل بين الناس، والإِحسان إلى جميع الخلق ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي مواساة الأقرباء، وخصَّه بالذكر اهتمامـًا به ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ أي ينهى عن كل قبيح من قولٍ، أو فعلٍ، أو عملٍ قال ابن مسعود: هذه أجمعُ آيةٍ في القرآن لخيرٍ يُمتثل، ولشرٍ يُجتنب[2] والفحشاءُ كل ما تَنَاهَى قُبحُه كالزنَى والشرك، والمنكر كل ما تنكره الفطرة، والبغي هو الظلم وتجاوز الحق والعدل ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي يؤدبكم بما شرع من الأمر والنهي لتتعظوا بكلام الله.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهـًا من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الاستعارة التمثيلية في ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ الآية تمثيلٌ للوثن بالأبكم الذي لا يُنتَفَعُ منه بشيء أصلاً، مع القادر السميع البصير. وشتان بين الرب والصنم.

٢ - التشبيه المرسل المجمل في ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾.

٣ - الطباق بين ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ وبين ﴿يَعْرِفُونَ .. يُنكِرُونَهَا﴾ وبين ﴿ظَعْنِكُمْ .. إِقَامَتِكُمْ﴾.

٤ - الإِيجاز بالحذف في ﴿تَقِيكُمُ﴾ أي والبرد حذف الثاني استغناءً بذكر الأول.

٥ - المقابلة اللطيفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة وهو من المحسنات البديعية.

٦ - ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بشأنه ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بعد لفظ الإِحسان الذي هو عام.

لطيفَة: ذكر «أن» أكثم بن صيفي «لما بلغه خبر الرسول ﷺ انتدب رجلين فأتياه فقالا: من أنت؟ وما أنت؟ فقال أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسول الله ثم تلا علينا هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ...﴾ الآية فرجعا إلى أكثم فلما قرءا عليه الآية قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مساويها، فكونوا في هذا الأمر رؤساء، ولا تكونوا

---

(١) «المختصر» ٢/ ٣٤٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ١٦٥.

فيه أذنابـًا»[١].

قال الله تعالى:

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ
عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ
أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ
وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن
يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا
بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا
عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾
مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ
لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ
وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ
قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ
لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا
يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا
مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ
وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ
إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ
بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

المناسَبَة: لما استقصى تعالى في الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وذكر جملة المكارم والفضائل، حذَّر تعالى هنا من نقض العهود والمواثيق وعصيان أوامر الله تعالى، لأن العصيان سبب البلاء والحرمان، ثم ذكر تعالى ما أعده لأهل الإيمان من الحياة الطيبة الكريمة.

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٣٤٤. (ش): ضعيف، رواه أَبُو نُعَيم فِي "مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ".

اللغَـة: ﴿تَنقُضُواْ﴾ النقـض ضـدُّ الإبـرام، وهـو فـك أجزاء الشـيء بعضهـا من بعض ﴿تَوۡكِيدِهَا﴾ التوكيـد التثبيـتُ يقـال: توكيد وتأكيـد ﴿أَنكَٰثٗا﴾ أنقاضـاً والنكث: النقـضُ بعد الفتل ﴿دَخَلَۢا﴾ الدَّخـل: الدَّغل والخديعة والغش قال أبـو عبيدة: كل أمرٍ لم يكـن صحيحاً فهـو دخَل ﴿يَنفَدُ﴾ نفد الشـيء ينْفـد: فَنِـيَ ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾ الأعجمي الذي لا يتكلـم العربيـة، وقـال الفراء: الأعجم الـذي في لسـانه عُجْمَـة[1] وإن كان من العرب، والعجمي الذي أصله من العجم ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ الإلحاد: الميل يقال: لحد وألحد إذا مال عن القصد والاستقامة.

سَـبَبُ النّزول: أ- روي أن النبي ﷺ كان يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له: «جبْـر» وكان يقرأ الكتب فقال المشـركون: والله ما يعلّمه ما يـأتي به إلا جبرٌ الرومي فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ...﴾ الآية[2].

ب- عن ابن عباس أن المشركين أخذوا عمّار بن ياسر وأباه ياسراً وأمه سُميَّة وصهيباً وبـلالاً فعذبوهم، ورُبطت «سُـميَّة» بين بعيرين ووُجئ قُبُلها بحربـة فقُتلت، وقُتل زوجها ياسـر - وهمـا أول قتيلين في الإسـلام - وأمّـا عمّار فأعطاهـم ما أرادوا بلسـانه مُكرهـاً، فشـكا ذلك إلى رسـول الله ﷺ فقال له الرسول الكريم: «كيف تجد قلبك»؟ قال: مطمئنٌ بالإيمـان، فقال رسـول الله ﷺ: «فـإن عادوا فعُـدْ» وأنـزل الله ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ...﴾[3] الآية.

التفسير: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ أي حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها الرسـول أو النـاس وأدوها على الوفاء والتمـام ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ أي ولا تنقضـوا أيمان البيعة بعد توثيقها بذكـر الله تعالى ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ أي جعلتـم الله شـاهداً ورقيبـاً علـى تلـك البيعـة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ أي عليـم بأفعالكـم وسـيجازيكم عليهـا ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ هـذا مثلٌ ضربه الله لمن نكث عهده[4]، شَـبَّهت الآية الذي يحلـف ويعاهد ويُبرم عهده ثم

---

(١) (ش): عُجْمة: إبهام وخفاء في الكتابة، وعدم فصاحة في الكلام.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ١٧٧. (ش): عن عبد الله بن مسلم الحضرمي أنه كان لهم عبدان من أهل عين التمر وكانا طِفلين وكانا يقال لأحدهما يسار والآخر جبر فكانا يقرآن التوراة وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما يتعلم منهما، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾. صحيح، رواه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره».

(٣) تفسري «القرطبي» ١٠/ ١٨٠، و«أسباب النزول» ١٦٢. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول»وابن جرير «الطبري» في تفسيره.

(٤) هذا قول مجاهد وقتادة.

ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً ثم تحلُه أنكاثاً أي: أنقاضاً قال المفسرون: كان بمكة امرأة حمقاء تغزل غزلاً ثم تنقضه، وكان الناس يقولون: ما أحمق هذه! ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي تتخذون أيمانكم خديعة ومكراً تخدعون بها الناس ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وأوفر مالاً من غيرها قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزَّ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك[1] ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي إنما يختبركم الله بما أمَرَكم به مِن الوفاء بالعهد لينظر المطيع من العاصي ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي ليجازي كل عامل بعمله من خير وشرّ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي لو شاء الله لخلق الناسَ باستعداد واحد، وجعلهم أهل ملةٍ واحدة، لا يختلفون ولا يفترقون ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي ولكنْ اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم، ناسٌ للسعادة وناس للشقاوة، فيضلُّ من يشاء بخذلانه إياهم عدلاً، ويهدي من يشاء بتوفيقه إياهم فضلاً ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم على الفتيل والقطمير[2] ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ كرره تأكيداً ومبالغةً في تعظيم شأن العهود أي لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة ومكراً تَغُرُّون بها الناس لتحْصُلوا على بعض منافع الدنيا الفانية ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي فتزلَّ أقدامكم عن طريق الاستقامة وعن محجة الحق بعد رسوخها فيه قال ابن كثير: هذا مَثَلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيْمان الحانثة، المشتملة على الصدّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوقٌ بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام[3] ولهذا قال ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يصيبكم العقاب الدنيوي العاجل الذي يسوءكم لصدّكم غيركم عن اعتناق الإسلام بسبب نقض العهود ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولكم في الآخرة عذاب كبير في نار جهنم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تستبدلوا بعهد الله وعهد رسوله حطام الدنيا الفاني ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما عند الله من الأجر والثواب خير لكم من متاع الدنيا العاجل إذا كنتم تعلمون الحقيقة، ثم علَّل ذلك بقوله ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ أي ما عندكم أيها الناس فإنه فانٍ زائل، وما عند الله فإنه

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٠/ ١٧١.

(٢) (ش): القِطْمِير: القِشرَةُ الرَّقيقَةُ على النواة كاللفافة لَهَا، القِشرَةُ الرَّقيقَةُ بين النَّواةِ والتَّمْرَةِ. والنَّقِيرُ: حفرة مستديرة في ظهر نواة البلح. والفتيل: خَيْط فِي شقّ النواة أو قشرَة في بطنها.

(٣) «المختصر» ٢/ ٣٤٥.

باقٍ دائم، لا انقطاع له ولا نَفَاد، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي ولنثيبنَّ الصابرين بأفضل الجزاء، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال مع التجاوز عن السيئات، وهذا وعدٌ كريم بمنح أفضل الجزاء على أفضل العمل، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه، وكل ذلك بفضل الله ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مَن فَعَل الصالحات ذكراً كان أو أنثى بشرط الإِيمان ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ أي فلنحيينَّه في الدنيا حياة طيبة بالقناعة والرزق الحلال، والتوفيق لصالح الأعمال وقال الحسن: لا تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا سقم، وسعادة بلا شقاوة[1] ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي ولنجزينَّهم في الآخرة بجزاء أحسن أعمالهم، وما أكرمه من جزاء ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي إذا أردت تلاوة القرآن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان وخطراته، كيلا يوسوس لك عند القراءة فيصدَّك عن تدبر القرآن والعمل بما فيه ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ليس له تسلطٌ وقدرة على المؤمنين بالإِغواء والكفر لأنهم في كنف الرحمن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يعتمدون على الله فيما نابهم من شدائد ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي إنما تسلُّطه وسيطرته على الذين يطيعونه ويتخذونه لهم وليًّا ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي بسبب إغوائه أصبحوا مشركين في عبادتهم وذبائحهم، ومطاعمهم ومشاربهم ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي وإذا أنزلنا آية مكان آية وجعلناها بدلاً منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة اعتراضية سيقت للتوبيخ أي والله أعلم بما هو أصلح للعباد وبما فيه خيرهم، فإنَّ مثل آياتِ هذا الكتاب كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء، ثم يستبدل به ما يصلح له من أنواع أخرى من الأطعمة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي قال الكفرة الجاهلون إنما أنت يا محمد متقوِّلٌ كاذبٌ على الله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثرهم جهلة لا يعلمون حكمة الله فيقولون ذلك سفهاً وجهلاً قال ابن عباس: كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نسخت قال كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم غداً عنه، وإنه لا يقول ذلك إلا من عند نفسه فنزلت[2] ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢/ ٣٢٧، والقول الأول لابن عباس وهو الأظهر.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٠/ ١١٦. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد. وهو في ««التفسير الكبير»» للرازي بدون إسناد أيضًا.

﴿رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنما نزَّله جبريل الأمين من عند أحكم الحاكمين بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ليثبّت المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين فيزدادوا إيماناً ويقيناً ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وهداية وبشارة لأهل الإِسلام الذين انقادوا لحكمه تعالى، وفيه تعريضٌ بالكفار الذين لم يستسلموا لله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ أي قد علمنا مقالة المشركين الشنيعة ودعواهم أن هذا القرآن من تعليم «جبْر الرومي» وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ أي لسان الذي يزعمون أنه علَّمه وينسبون إليه التعليم أعجمي ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي وهذا القرآن عربيٌّ في غاية الفصاحة، فكيف يمكن لمن لسانُه أعجمي أن يُعلم محمداً هذا الكتاب العربيَّ المبين؟ ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه!! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ أي إن الذين لا يُصدّقون بهذا القرآن لا يوفقهم الله لإِصابة الحق، ولا يهديهم إلى طريق النجاة والسعادة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لهم في الآخرة عذابٌ موجع مؤلم، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد على كفرهم وافترائهم ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يكذب على الله إلا من لم يؤمن بالله ولا بآياته، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه، فالكذب جريمةٌ فاحشة لا يُقدم عليها مؤمن، وهذا ردٌّ لقولهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة لا محمد الرسول الأمين ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ أي من تلفَّظ بكلمة الكفر وارتد عن الدين بعد ما دخل فيه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي إلا من تلفَّظ بكلمة الكفر مُكْرَهاً والحال أن قلبه مملوءٌ إيماناً ويقيناً، والآيةُ تغليظٌ لجريمة المرتد لأنه عرف الإِيمان وذاقه ثم ارتدَّ إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة قال المفسرون: «نزلت في عمار بن ياسر أخذه المشركون فعذبوه حتى أعطاهم ما أرادوا مُكْرهاً فقال الناس: إنَّ عماراً كفر فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ عماراً ملئ إيماناً من فرقه إلى قدمه، واختلط الإِيمان بلحمه ودمه»، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ: «كيف تجد قلبك»؟ قال: مطمئناً بالإيمان قال: إن عادوا فعُدْ»[1] ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي طابت نفسه بالكفر وانشرح صدره له ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم غضبٌ شديد مع عذاب جهنم، إذْ لا جُرْمَ أعظم من جُرْمهم[2]

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٠/١٢١. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول»وابن جرير «الطبري» في «تفسيره».

(٢) (ش): جُرْم:ذنب، خطأ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم آثروا الدنيا واختاروها على الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا يوفقهم إلى الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ والضلال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فجعل عليها غِلَافاً[1] بحيث لا تُذعِن للحق ولا تسمعه ولا تبصره ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة إِذْ أغفلَتْهم الدنيا عن تدبر العواقب ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي حقًا ولا شك ولا ريب في أنهم الخاسرون في الآخرة لأنهم ضيَّعوا أعمارهم في غير منفعة تعود عليهم قال المفسرون[2]: وصفهم تعالى بست صفات هي: الغضب من الله، والعذاب العظيم، واختيارهم الدنيا على الآخرة، وحرمانهم من الهدى، والطبْع على قلوبهم، وجَعْلِهم من الغافلين: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا في سبيل الله بعد ما فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾ أي ثم جاهدوا في سبيل الله وصبروا على مشاقّ الجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن ربك بعد تلك الهجرة والجهاد والصبر سيغفر لهم ويرحمهم.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - التشبيه التمثيلي ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ الآية. شبه تعالى من يحلف ثم لا يفي بعهده بالمرأة التي تغزل غزلاً ثم تنقضه.

٢ - الاستعارة في ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ استعار القدم للرسوخ في الدين والتمكن فيه، لأن أصل الثبات يكون بالقدم ولما كان الزلل عن محجة الحق يشبه زلل القدم وانزلاقها عبَّر به عن الانزلاق الحسي بطريق الاستعارة.

٣ - الطباق بين ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وبين ﴿أَعْجَمِىٌّ .. عَرَبِىٌّ﴾ وبين ﴿يَنفَدُ... بَاقٍ﴾.

٤ - جناس الاشتقاق ﴿قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وفيه مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبَّب على السبب، أي: إذا أردت قراءة القرآن.

٥ - الاعتراض ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ الجملة اعتراضية لبيان الحكمة الإلهية في النسخ، وفيه التفات من المتكلم إلى الغائب، وذكر الاسم الجليل لتربية المهابة في النفس.

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ استعار اللسان للغة

---

(١) (ش): غِلاف: غشاء يغطِّي شيئًا آخر أو يحويه.

(٢) «حاشية الصاوي» ٢/ ٣٢٩.

والكلام كقول الشاعر:

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إِلَيْنَا ... وخُنْتَ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَخُونَا[1]

والعرب تستعمل اللسان بمعنى اللغة كقوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤].

لطيفة: السرُّ في الاستعاذة قبل قراءة القرآن أن القرآن هو الذكر الحكيم، والحق المبين، ولما كان الشيطان يثير الشبهات بوساوسه، ويفسد القلوب بدسائسه، أُمر ﷺ بأن يستعيذ بالله ويلتجئ إليه عند تلاوة القرآن، لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة فيحتاج إلى الاستعانة بالله العلي الكبير.

قال الله تعالى:
يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾
وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ
بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ
رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا
طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ
وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾
وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا
قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ
ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ
كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ
مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ
فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ
رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ
خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا
يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى حال من كفر بلسانه، وحال من كفر بلسانه وجَنانه، ذكر هنا

(١) «تفسير القرطبي» ١٠/ ١٧٩.

الجزاء العادل الذي يلقاه كل إِنسان في الآخرة، وما أعدَّه من العقاب العاجل في الدنيا لبعض المكذبين، ثم ذكر قصة إِبراهيم الأوَّاه المنيب، وأمر الرسول ﷺ باقتفاء آثاره المجيدة.

اللغَة: ﴿تُجَٰدِلُ﴾ تخاصم وتحاجُّ ﴿رَغَدٗا﴾ واسعًا هنيئًا بلا كلفةٍ ولا تعب ﴿بِأَنۡعُمِ﴾ جمع نعمة كالأشد جمع الشدَّة ﴿أُمَّةٗ﴾ إِمامًا جامعًا لخصال الخير ﴿قَانِتٗا﴾ مطيعًا خاضعًا من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾ اصطفاه واختاره ﴿حَنِيفٗا﴾ الحنيف: المائل عن الأديان الباطلة إِلى دين الإِسلام، من الحنف وهو الميل.

سَبَبُ النّزول: «لمَّا قُتل حمزة ومثَّل به المشركون في غزوة أُحد قال ﷺ حين رآه: والله لأُمثلنَّ بسبعين منهم مكانك» فنزلت الآية الكريمة ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ...﴾ الآية[1].

التفسير: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ أي ذكِّرهم يوم القيامة حين تخاصم كلُّ نفسٍ عن ذاتها سعيًا في خلاصها، لا يهمها شأنُ غيرها ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي تُعطى جزاءَ ما عملت من غير بخْسٍ ولا نقصان ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون أجورهم بل يُعطونها كاملة وافية ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لأهل مكة وغيرهم، بقوم أنعم الله عليهم فأبطَرَتْهُم النِّعمة فعصوا وتمردوا، فبدَّل الله بنعمتهم نقمة ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ أي كان أهلها في أمنٍ واستقرار، وسعادة ونعيم ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي تأتيها الخيرات والأرزاق بسعةٍ وكثرةٍ من كل الجهات ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي لم يشكروا الله على ما آتاهم من خير، وما وهبهم من رزق ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ أي سلبهم اللهُ نعمة الأمن والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ أي بسبب كفرهم ومعاصيهم، قال «الرازي»: وهذا مثلُ أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخِصْب، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إِيذائه، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجِيَف والعظام[2] ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ﴾

---

(١) «زاد المسير» ٤/ ٥٠٧. (ش): أخرجه ابن المنذر وابن مردويه والطبراني والبيهقي في «الدلائل». وإسناده ضعيف. وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنَ الأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلاً وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ فِيهِمْ حَمْزَةُ فَمَثَّلُوا بِهِمْ فَقَالَتِ الأَنْصَارُ لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [رواه الترمذي، وابن حبان، وصححه الألباني].

(٢) «التفسير الكبير» ٢٠/ ١٢٨. (ش): **الجيفة: جُثَّة الميّت إذا أنْتَنَتْ.** عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَأُوا عَنِ الإِسْلاَمِ فَدَعَا عَلَيْهِمِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ (وفي =

أي ولقد جاءهم محمد بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة وهو رسولٌ منهم يعرفون أصله ونسبه فلم يصدقوه ولم يؤمنوا برسالته، والآية دالة على أن المراد بهم أهل مكة وهو قول ابن عباس ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي فأصابتهم الشدائد والنكبات وهم ظالمون بارتكاب المعاصي والآثام ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا من نِعَم الله التي أباحها لكم حال كونها حلالاً طيباً ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي واشكروا الله على نعمه الجليلة إن كنتم مخلصين في إيمانكم لا تعبدون أحداً سواه، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فقال ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ أي لم يحرم ربكم عليكم أيها الناس إلا ما فيه أذى لكم كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي وما ذُبحَ على اسم غير الله تعالى[1] فإنَّ فيه أذى للنفس والعقيدة ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فمن اضطر لأكل ما حرَّم الله من المذكورات من غير بغيٍ ولا عدوان فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة لا يؤاخذ من كان مضطرًّا، ثم وبّخ تعالى المشركين الذين حلّلوا وحرّموا من تلقاء أنفسهم فقال ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ أي لا تقولوا أيها المشركون في شأن ما تصفه ألسنتكم من الكذب: هذا حلالٌ وهذا حرام من غير دليل ولا برهان ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي لتكذبوا على الله بنسبة ذلك إليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي إن الذين يختلقون الكذبَ على الله لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي انتفاعهم واستمتاعهم في الدنيا قليل لأنه زائل، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم، ثم ذكر تعالى ما حرَّم على اليهود فقال ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن

= روايةٍ: قَحطٌ وجَهْدٌ) حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وأكَلوا المَيْتَةَ والجِيَفَ، والجُلودَ والعِظامَ، ويرى الرَّجُلُ ما بينَ السَّماءِ والأرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخانِ مِنَ الجَهْدِ والجوعِ. فجاءَهُ أبو سُفْيانَ، فقالَ: «يا مُحَمَّدُ! إنَّكَ تَأْمُرُ بطَاعَةِ اللهِ، وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وإنَّ قومَكَ قدْ هَلَكوا؛ فادْعُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُم، فدعَا، ثمَّ قالَ: «تَعُودُونَ بَعْدَ هَذَا»، فقرَأ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فدعَوْا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ». قَالَ: «لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ!». فَاسْتَسْقَى، فَسُقُوا الْغَيْثَ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ الْمَطَرِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾، فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. (وَفِي رِوَايَةٍ: فَمُطِرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْ همُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَذَلِكَ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. (بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ): أَيْ بِسَبْعِ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ فِي الْقَحْطِ وَالْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ. (السَّنَة)، هيَ القحط والجَدْب. (حَصَّتْ): اسْتَأْصَلَتْ.

(١) (ش): ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ما ذُبِحَ على اسم غير الله تعالى، أو تُقُرِّبَ به إلى الأصنام ولو ذُكِر اسمُ الله عليه.

قَبۡلُ﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرمنا عليهم ما قصصنا عليك يا محمد مما سبق ذكره في سورة الأنعام عقوبة لهم وهي شحوم البقرة والغنم وكل ذي ظفر ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي وما ظلمناهم بذلك التحريم ولكنْ ظلموا أنفسهم فاستحقوا ذلك كقوله ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٠] ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين ارتكبوا تلك القبائح بجهل وسفه ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ أي ثم رجعوا إلى ربهم وأنابوا وأصلحوا العملَ بعد ذلك الزلل ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي إنه تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة، والآية تأنيسٌ لجميع الناس وفتحٌ لباب التوبة ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ أي إنَّ إبراهيم كان إماماً قدوةً جامعاً لخصال الخير ولذلك اختاره الله لخُلَّته[1] ﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾ أي مطيعاً لربه قائماً بأمره ﴿حَنِيفٗا﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الحق، دين الإسلام ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تأكيد لما سبق وردٌّ على اليهود والنصارى في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِ﴾ أي قائماً بشكر نعم الله ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي اختاره واصطفاه للنبوة وهداه إلى الإسلام وإلى عبادة الواحد الأحد ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ أي جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات الرفيعة، وفي أعلى مقامات الصالحين ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾[2] لما وصف تعالى إبراهيم بتلك الأوصاف الشريفة أمر نبيه محمداً ﷺ أن يتَّبع ملته. والمعنى ثم أمرناك يا محمد باتباع دين إبراهيم وملته الحنيفية السمحة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي وما كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، وإنما كان حنيفاً مسلماً، وهو تأكيد آخر لردّ مزاعم اليهود والنصارى أنهم على دينه ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي لم يكن تعظيم يوم السبت وتركُ العمل فيه من شريعة إبراهيم ولا من شعائر دينه، وإنما جعل تغليظاً على اليهود لاختلاطهم في الدين وعصيانهم أمر الله، حيث نهاهم عن الاصطياد فيه فاصطادوا فمسخهم قردةً وخنازير ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي وسيفْصِل الله تعالى بينهم يوم القيامة، فيجازي كلًّا بما يستحق من الثواب أو العقاب ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

---

(١) (ش): الخُلَّة: صفاء المودة، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ أي صفيًّا اصطفاه لمحبته وخلته وفي هذه الآية، إثبات صفة الخُلّة لله -تعالى- وهي أعلى مقامات المحبة، والاصطفاء.

(٢) قال المفسرون: العطف بـ «ثم»: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فيه تعظيم منزلة الرسول ﷺ وإجلال محلة فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال: وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدرًا، وأرفع رتبة، وهو أن النبي ﷺ الأمي الذي هو سيد البشر متبع لملة إبراهيم، مستمسك بشريعته. وكفى بذلك فخرًا.

﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي ادع يا محمد الناس إلى دين الله وشريعته القدسية بالأسلوب الحكيم، واللطف واللين، بما يؤثر فيهم وينجع[1]، لا بالزجر والتأنيب والقسوة والشدة ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن من طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين، والرفق واللين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي إن ربك يا محمد هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين. فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم، وليس عليك هدايتهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ أي وإن عاقبتم أيها المؤمنون مَن ظَلَمكم واعتدى عليكم فعامِلُوه بالمثل ولا تزيدوا قال المفسرون: نزلت في شأن «حمزة بن عبد المطلب» لما بقر المشركين بطنه يوم أُحد، فقال النبي ﷺ: «لئن أظفرني الله بهم لأمثلنَّ بسبعين منهم»[2] ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ أي ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل، وهذا ندبٌ إلى الصبر، وترك عقوبة من أساء، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي واصبر يا محمد على ما ينالك من الأذى في سبيل الله، فما تنال هذه المرتبة الرفيعة إلا بمعونة الله وتوفيقه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تحزن على الكفار إن لم يؤمنوا ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي ولا يضقْ صدرك بما يقولون من السَّفه والجهل، ولا بما يدبرون من المكر والكيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي مع المتقين بمعونته ونصره، ومع المحسنين بالحفظ والرعاية، ومن كان الله معه فلن يضرَّه كيد الكائدين.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات من صنوف البيان والبديع ما يلي:

١ - الاستعارة المكنية ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ شبَّه ذلك اللباس من حيث الكراهية بالطعم المُر المشبع وحذف المشبه به ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه وهو الإذاقة على طريق الاستعارة المكنية.

٢ - الطباق بين ﴿حَلَٰلٌ .. حَرَامٌ﴾.

٣ - الالتفات ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ التفت عن الغيبة إلى التكلم إشارة إلى زيادة

---

(١) (ش): نجَع الشّيءُ: نفَع، وظهر أثرُه.

(٢) (ش): أخرجه ابن المنذر وابن مردويه والطبراني والبيهقي في «الدلائل». وإسناده ضعيف. وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنَ الأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلاً وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ فِيهِمْ حَمْزَةُ فَمَثَّلُوا بِهِمْ فَقَالَتِ الأَنْصَارُ: لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [رواه الترمذي، وابن حبان، وصححه الألباني].

الاعتناء بشأنه وتفخيم أمره.

٤ – التشبيه البليغ ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي كان بمفرده كالأمة والجماعة الكثيرة لجمعه أوصاف الكمالات التي تفرقت في الخلق كما قال الشاعر:

وَلَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ

تنبيه: دل قوله تعالى ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ على الحث على الإنصاف في المناظرة، واتباع الحق، والرفق والمداراة، على وجهٍ يظهر منه أن القصد إثباتُ الحق وإزهاقُ الباطل، لا نصرة الرأي وهزيمة الرأي الآخر.

«انتهى تفسير سورة النحل»



سُورَةُ الإِسْرَاءِ ١٧ ١١١

مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة

بين يدي السورة

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة، شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين «الوحدانية، والرسالة، والبعث» ولكن العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو «شخصية الرسول ﷺ»، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة، الدالة على صدقه عليه السلام.

* تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء، التي كانت مظهرًا من مظاهر التكريم الإلهي، لخاتم الأنبياء والمرسلين، وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب.

وتحدثت عن بني إسرائيل، وما كتب الله عليهم من التشرد في الأرض مرتين، بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ...﴾ الآيات.

* وتحدثت عن بعض الآيات الكونية، التي تدل على العظمة والوحدانية، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار، ويسير وفق ناموسٍ ثابت لا يتبدل ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ...﴾ الآيات.

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية، والأخلاق الفاضلة الكريمة، فحثت عليها، ودعت إلى التحلي بها ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل بدءًا من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الآيات.

* وتحدثت عن ضلالات المشركين حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد، والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير، المنزه عن الشبيه والنظير ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ...﴾ الآيات.

* وتحدثت عن البعث والنشور، والمعاد والجزاء، الذي كثر حوله الجدل، وأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه، ثم تحدثت عن القرآن العظيم، معجزة محمد ﷺ الخالدة، وذكرت تَعَنُّتَ المشركين في اقتراحاتهم، حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن، أن يفجّر لهم الأنهار، ويجعل مكة حدائق وبساتين ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ...﴾ الآيات.

* ثم ختمت السورة بتنزيه الله عن الشركي والولد، وعن صفات النقص ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ

لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾.

التسمية: سميت السورة الكريمة «سورة الإسراء» لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التي خص الله تعالى بها نبيه الكريم.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ
لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴿٣﴾
وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ
وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴿٥﴾
ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ
أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ
ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ
عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ
يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا
﴿١٠﴾ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ
ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ
وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا
يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ
أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ
مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن
نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا
وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا
كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ
تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾

اللغة: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ اسمٌ للتسبيح ومعناه تنزيه الله تعالى عن كل سوء ونقصٍ وهو خاصٌّ به سبحانه ﴿أَسۡرَىٰ﴾ الإسراء: السيرُ ليلاً يقال: أسرى وسرى لغتان قال الشاعر:

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ(١)

﴿فَجَاسُواْ﴾ قال الزجاج: طافوا، والجَوْسُ: الطواف بالليل والتردُّد والطلب مع الاستقصاء وقال الواحدي: الجوسُ هو التردُّد والطلب ﴿ٱلْكَرَّةَ﴾ الدَّولة والغَلَبة ﴿تَتْبِيرًا﴾ هلاكًا ودماراً ﴿فَمَحَوْنَآ﴾ طمسنا قال علماء اللغة: المحوُ إذهاب الأثر يقال: محوتُه فانمحى أي ذهب أثره ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عمله المقدَّر عليه، سُمِّيَ الخير والشر بالطائر لأن العرب كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير إذا طار جهة اليمين أو الشمال ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ المُتْرفُ: المتنعِّمُ الذي أبطَرَتْه النعمةُ وسَعَة العيش ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلها ويذوق حرَّها ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً مبعداً من رحمة الله.

التفسير: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ أي تنزَّه وتقدَّس عما لا يليق بجلاله، اللهُ العليُّ الشأن، الذي انتقل بعبده ونبيه محمد ﷺ(٢) في جزءٍ من الليل ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أي من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام قال المفسرون: وإنما قال ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء، وأنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزءٍ من الليل(٣) كانت مسيرة أربعين ليلة، وذلك أبلَغُ في القدرة والإعجاز ولهذا كان بدء السورة بلفظ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ الدال على كمال القدرة، وبالغ الحكمة، ونهاية تنزُّهه تعالى عن صفات المخلوقين، وكان الإسراء بالروح والجسد، يقظة لا مناماً ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي الذي باركنا ما حوله بأنواع البركات الحسية والمعنوية، بالثمار والأنهار التي خصَّ الله بها بلاد الشام، وبكونه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة الأطهار ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي لنريَ محمداً ﷺ آياتنا العجيبة العظيمة، ونطلعه على ملكوت السماوات والأرض، فقد رأى صلوات الله عليه السماوات العُلى والجنة والنار، وسدرة المنتهى، والملائكة والأنبياء وغير ذلك من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي إنه تعالى هو السميع لأقوال محمد، البصير بأفعاله، فلهذا خصَّه بهذه الكرامات والمعجزات احتفاءً

---

(١) (ش): وصْفُ المسجد الأقصى المبارك بأنه حرمٌ لا يصح، لأنه ليس هناك حرمٌ إلا في مكة المشرفة حول البيت العتيق وحرم المدينة، والله لم يصف المسجد الأقصى بأنه حرم حيث يقول سبحانه: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ فلم يقل إلى المسجد الأقصى الحرام كما قال ذلك في مسجد مكة.

(٢) (ش): الأوْلَى أن يُقال: «سَيَّرَ عبده ونبيه محمدًا ﷺ»، كما في «تفسير الواحدي»؛ لأن «انتقل بعبده» قد يُفهَم منها المصاحَبة، كما يقال: «انتقل فلانٌ بأهله وماله من بلده يريد بلدًا آخر».

(٣) (ش): الأوْلَى أن يقال: «وأنه جعله يقطع المسافات الشاسعة البعيدة في جزءٍ من الليل لئلا يُفهَم من الكلام معنى المصاحَبة».

وتكريماً ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة هدايةً لبني إسرائيل يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي لا تتخذوا لكم ربًّا تكلون إليه أموركم سوى الله الذي خلقكم قال المفسرون: لما ذُكر المسجدُ الأقصى وهو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل جاء الحديث عنهم في مكانه المناسب من سياق السورة ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي يا ذرية ويا أبناء المؤمنين الذين كانوا مع نوح في السفينة، لقد نجينا آباءكم من الغرق فاشكروا الله على إنعامه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي إن نوحاً كان كثير الشكر يحمد الله على كل حال فاقتدوا به، وفي النداء لهم تلطفٌ وتذكير بنعمة الله ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أخبرناهم وأعلمناهم وأوحينا إليهم في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي ليحصلنَّ منكم الإفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين[1] قال ابن عباس: أول الفساد قتل زكريا والثاني قتل يحيى عليهما السلام ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تطغون في الأرض المقدسة طغياناً كبيراً بالظلم والعدوان وانتهاك محارم الله ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي أُولى المرتين من الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ أي سلَّطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبارين للانتقام منكم ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أصحاب قوةٍ وبطشٍ في الحرب شديدٍ. قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم وسفكوا الدماء سلَّط الله عليهم بُخْتُنَصَّر ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وذلك أول الفسادين ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي طافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي كان ذلك التسليط والانتقام قضاءً جزماً حتماً لا يقبل النقض والتبديل ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي ثمَّ لما تُبْتُم وأَنَبْتُم أهلكنا أعداءكم ورددْنا لكم الدَّوْلَة والغلبة عليهم بعد ذلك البلاء الشديد ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ أي أعطيناكم الأموال الكثيرة والذرية الوفيرة، بعد أن نُهبت أموالكم وسُبيت أولادكم

---

(١) قضاء الله على بني إسرائيل بالإفساد مرتين ليس قضاء قهر وإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم حسب ما وقع في علمه الإلهي الأزلي فتنبه. (ش): هذا التعبير خلاف تعبير الآية الكريمة، فالله تعالى يقول: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أعلَمْناهم وأخبرناهم في التوراة، ولم يقل: قضينا عليهم، إذ لو قال ذلك لاختلف المعنى، فالقضاء هنا معناه الإخبار فلا يُحتاج إلى هذا الاحتراز. وما حصل من بني إسرائيل لا يخرج عن قضاء الله الكوني وقدره، فليس هناك شيء يخرج عن قضاء الله الكوني وقدره، ولا يمنع هذا أن يكون لهم اختيار وقدرة ومشيئة لأفعالهم يستحقون بموجبها الثواب والعقاب كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ولا يكفي أن يقال: إن الله علم ذلك أزلًا وأخبر عنه، بل يُقال إن الله عَلِمَه وقضاه وقدَّره وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم لتستعيدوا قوتكم وتَبْنُوا دولتكم ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي إن أحسنتم يا بني إسرائيل فإحسانكم لأنفسكم ونفعه عائد عليكم لا ينتفع الله منها بشيء ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي وإن أسأتم فعليها لا يتضرر الله بشيء منها، فهو الغني عن العباد، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي فإذا جاء وعد المرة الأخيرة من إفسادكم بقتل يحيى وانتهاك محارم الله بعثنا عليكم أعداءكم مرة ثانية ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليهينوكم ويجعلوا آثار المساءة والكآبة باديةً على وجوهكم بالإذلال والقهر ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خربوه أول مرة ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ أي وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً، فقد سلَّط الله عليهم مجوس الفرس فشردوهم في الأرض وقتلوهم ودمَّروا مملكتهم تدميراً ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي لعل الله يرحمكم ويعفو عنكم إن تُبْتُم وأَنَبْتُم، وهذا وعدٌ منه تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى الله و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام عدنا إلى العقوبة والانتقام ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي وجعلنا جهنم محبساً وسجناً للكافرين، لا يقدرون على الخروج منها أَبَدَ الآبدين، ثم بيَّن تعالى مزية التنزيل الكريم الذي فاق بها سائر الكتب السماوية فقال ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي إنَّ هذا القرآن العظيم يهدي لأقوم الطرق وأوضح السُّبُل، ولما هو أعدل وأصوب ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي ويبشر المؤمنين الذين يعملون بمقتضاه بالأجر العظيم في جنات النعيم ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي ويبشرهم بأن لأعدائهم الذين لا يصدقون بالآخرة العقاب الأليم في دار الجحيم، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي يدعو بالشر على نفسه كدعائه لها بالخير، ولو استُجِيبَ له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك قال ابن عباس: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحبُّ أن يستجاب له: اللهمَّ أهلكه اللهمَّ دمِّره ونحوه[1] ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ أي ومن طبيعة الإنسان العجلة، يتعجل بالدعاء على نفسه ويسارع لكل ما يخطر بباله، دون النظر في عاقبته، ثم أشار تعالى إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود، التي كلٌّ منها برهانٌ نيِّر على وحدانية الله فقال ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي علامتين عظيمتين على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي طمسنا الليل فجعلناه مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلنا النهار مضيئاً مشرقاً بالنور ليحصل به الإبصار

(١) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٢٢٥.

﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي لتطلبوا في النهار أسباب معايشكم ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ أي ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام، بتعاقب الليل والنهار، فالليل للراحة والسكون، والنهار للكسب والسعي ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ أي وكلَّ أمر من أمور الدنيا والدين، بينَّاه أحسن تبيين، وليس شيء من أمر هذا الوجود متروكًا للمصادفة والجُزاف، وإنما هو بتقديرٍ وتدبيرٍ حكيم ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ أي إن الإنسان مرهون بعمله مجزي به، وعملُه ملازم له لزوم القلادة للعُنُق لا ينفك عنه أبداً ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أي نظهر له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحًا فيه حسناته وسيئاته فيرى عمله مكشوفًا لا يملك إخفاءه أو تجاهله ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ أي اقرأ كتاب عملك كفى أن تكون اليوم شهيداً بما عملت، لا تحتاج إلى شاهدٍ أو حسيبٍ ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ أي من اهتدى فثواب اهتدائه له، ومن ضلَّ فعقاب كفره وضلاله عليها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ أي وما كنا معذبين أحداً من الخلق حتى نبعث لهم الرسل مُذَكِّرين ومُنْذِرين فتقوم عليهم الحجة ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام أمرنا المتنعمِّين فيها والقادة والرؤساء بالطاعة على لسان رسلنا فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ أي فوجب عليهم العذاب بالفسق والطغيان فأهلكناهم إهلاكًا مُريعًا قال ابن عباس: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي سلَّطْنا[1] أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب[2] ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين للرسل أهلكناهم من بعد نوح كقوم عاد وثمود وفرعون قال ابن كثير: والآية إنذار لكفار قريش. والمعنى: إنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى[3] ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ أي كفى يا محمد أن يكون ربك رقيباً على أعمال العباد يدرك بواطنها وظواهرها ويجازي عليها ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي من كان يريد بعمله الدنيا فقط ولها يعمل ويسعى فليس لهُ هَمٌّ إلا الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء تعجيله

---

(١) (ش): هذا التفسير على قراءةِ (أمَّرْنا) بتشديد الميم، وهي من القراءات الشاذة إسنادًا لكنها مشتهرة بين العلماء، ويستأنسون بها في مواضع التفسير.

(٢) «المختصر» ٢/ ٣٧١.

(٣) «المختصر» ٢/ ٣٧١.

مـن نعيمها لا كلَّ ما يريـد ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ أي ثم جعلنا له في الآخـرة جهنم يدخلها مهانـًا حقيراً مطروداً من رحمـة الله ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي ومن أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم، وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات وهو مؤمن صادق الإيمان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ أي فأولئـك الجامعـون للخصـال الحميدة من الإخـلاص، والعمل الصالـح، والإيمان. كان عملهـم مقبولاً عند الله أحسـن القبول، مثابـًا عليـه ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ أي كل واحـدٍ مـن الفريقيـن الذين أرادوا الدنيـا، والذين أرادوا الآخـرة نعطيه من عطائنا الواسـع تفضلاً منا وإحسانـًا، فنعطي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أي مـا كان عطـاؤه تعالى محبوسـًا ممنوعـًا عـن أحد ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي انظر يا محمد كيف فاوَتْنَا بينهم في الأرزاق والأخلاق في هذه الحياة الدنيا فهذا غني وذاك فقير، وهذا شـريف وذاك حقير ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي ولتفاوتُهـم في الـدار الآخرة أعظم من التفاوت في هذا الدار لأن الآخرة دار القرار وفيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سـمعت، ولا خطر على قلب بشـر ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا تجعل مع الله شـريكـًا ولا تتخذ غيره إلهـًا تعبده ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ أي فتصير ملومـًا عند الله مخذولاً منه لا ناصر لك ولا معين.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهـًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – براعة الاسـتهلال ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾ لأنه لما كان أمراً خارقـًا للعادة بدأ بلفظ يشير إلى كمال القدرة وتنزه الله عن صفات النقص.

٢ – إضافة التكريم والتشريف ﴿بِعَبْدِهِۦ ﴾.

٣ – جناس الاشتقاق ﴿عُلُوًّا ﴾ ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾.

٤ – الطباق بين ﴿أَحْسَنتُمْ ... أَسَأْتُمْ﴾ وبين ﴿ضَلَّ ... ٱهْتَدَىٰ﴾.

٥ – إيجـاز بالحذف ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ أي يقال لـه يوم القيامة إقرأ كتابك ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أي أمرناهم بطاعة الله فعصوا وفسقوا فيها.

٦ – المجاز العقلي ﴿ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ لأن النهار لا يُبصر بل يُبْصر فيه فهو من إسناد الشيء إلى زمانه.

٧ – الاسـتعارة اللطيفـة ﴿طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ اسـتعير الطائـر لعمل الإنسـان، ولما كان العرب يتفاءلون ويتشاءمون بالطير سموا نفس الخير والشر بالطائر بطريق الاستعارة.

لطيفَة: الحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس ثم عروجه من بيت المقدس إلى السماوات العلـى أنه مجمـع أرواح الأنبياء، وموطن تنـزل الوحي الإلهي على الرسـل الكرام، ولما

كانت هـذه الرحلـة رحلة تكريـم أراد تعالى أن يشـرفهم بزيارته. ولهذا صلـى بهم إماماً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

تنبيـه: وصفه تعالى في هذه السـورة بالعبودية ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ لأنه أشـرف المقامات وأسـمى المراتـب العلية، كما وصفـه في مقام الوحي كذلـك ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وفي مقـام الدعـوة ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ولهـذا قـال القاضـي عياض:

وَمِـمَّـا زَادَنِـــي شَـرَفـًا وَتِـيـهـًا ... وَكِـدتُ بِـأَخْـمَـصِي أَطَـأُ الـثُّـرَيَّا
دُخُـولِي تَـحْـتَ قَـوْلِـكَ يَـا عِـبَـادِي ... وَأَنْ صَـيَّـرتَ أَحْـمَـدَ لِي نَـبِـيـًّا[1]

قال الله تعالى:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ
كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ
مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ
فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا
﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ
رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا
﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا
تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن
قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟
مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟
ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ
إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ
ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ
إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم
بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا
يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ
عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن

(١) (ش): تِيه: زهو، عُجْب. الثُّرَيَّا: مجموعة من النجوم. أَخْمَصُ: باطن القدم الذي يتجافى ويرتفع عن الأرض، ما دخل من باطن القدم فلا يلصق بالأرض عند الوَطْء.

﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

المناسَبَة: لما جعل تعالى الإيمان والعملَ الصالح أساساً للفوز بالسعادة الأبدية، وبيَّن حال المؤمن الذي أراد بعمله الدار الآخرة، ذكر هنا طائفةً من الأوامر والزواجر التي يقوم عليها بنيان المجتمع الفاضل، ثم ذكر تعالى موقف المشركين المكذبين من هذا القرآن العظيم.

اللغَة: ﴿أُفٍّ﴾ كلمة تضجُّر وتبرُّم قال ابن الأعرابي: الأفُّ: الضجر، وأصلها أنه إذا سقط تراب أو رماد فنفخ الإنسان ليزيله، فالصوت الحاصل هو أُفّ ثم توسعوا في الكلمة حتى أصبحت تقال لكل مكروه ﴿تَنْهَرْهُمَا﴾ النهْرُ: الزجرُ والغِلظة ﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾ جمع أوَّاب وهو كثير التوبة والإنابة من الأَوْب بمعنى الرجوع ﴿مَّحْسُورًا﴾ منقطعاً عن النفقة والتصرف قال الفراء: تقول العرب للبعير هو محسور إذا انقطع سيره، وحَسَرَت الدابة إذا انقطعت عن المسير لذهاب قوتها، فشبّه حال من أنفق كلّ ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته[(١)] ﴿إِمْلَاقٍ﴾ فَقْر وفَاقَة، أمْلَقَ الرجلُ إذا افْتقَر ﴿خِطْئًا﴾ قال الأزهري: خطي يَخْطَأُ خِطْأً إذا تعمَّد الخطأ، وأخطأ إذا لم يتعمد[(٢)] ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ الميزان مأخوذ من القِسْط وهو العدل ﴿تَقْفُ﴾ تتَّبعْ مأخوذ من قفوتُ أثر فلان إذا اتبعت أثَره وأصله البهتُ والقذف بالباطل ﴿مَرَحًا﴾ المَرَح: شدة الفرح والمراد به هنا التكبر والخيلاء ﴿صَرَّفْنَا﴾ بيَّنَّا ﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كِنان وهو الغطاء الذي يستر الشيء ﴿وَقْرًا﴾ صَمَماً وثِقَلاً.

التفسير: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي حكم تعالى وأمر بأن لا تعبدوا إلهاً غيره وقال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني وصَّى بعبادته وتوحيده ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وأمر بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً قال المفسرون: قرن تعالى بعبادته برَّ الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي قد أوصيناك بهما وبخاصة إذا كبرا أو كبر أحدهما، وإنما خصَّ حالة الكِبَر لأنهما حينئذٍ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما لضعفهما ومعنى

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٠/ ١٩٥.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٢٥٢.

﴿عِندَكَ﴾ أي في كَنَفِـك[١] وكفالتـك ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي لا تَقُـل للوالديـن أقلَّ كلمة تُظهِر الضجر ككلمة أفٍّ ولا تُسمِعهما قولاً سيئاً حتى ولو بكلمة التأفف ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تزجرهمـا بإغلاظٍ فيمـا لا يعجبك منهمـا ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي قل لهما قولاً حسـنـاً ليِّناً طيباً بـأدب ووقار وتعظيـم ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي أَلِـنْ جانبـك وتواضـعْ لهمـا بتذلّل وخضـوع من فـرط رحمتك وعطفـك عليهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أي ادع لهمـا بالرحمـة وقل في دعائك: يـا رب ارحم والديَّ برحمتك الواسـعة كما أحسـنا إليَّ في تربيتهما حالة الصغـر ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بما في نفوسـكم من إرادة البر أو العقوق ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ أي إن تكونوا قاصدين للبرّ والصلاح دون العقوق والفسـاد فإنه جـلَّ وعلا يتجاوز عن سـيئاتكم ويغفر للأوابين وهم الذين كلمـا أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين قال «الرازي»: والمقصود من هذه الآية أن الأولى لما دلَّت على وجوب تعظيم الوالدين ثم إنَّ الولد قد يظهر منه ما يخلُّ بتعظيمهما فإن كانت تلك الهفوة ليسـت لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلَّة البشـرية كانت في محل الغفران[٢]، وبمناسبة الإحسان إلـى الوالدين يأمر تعالى بالإحسـان إلى الأقارب والضعفاء والمسـاكين ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي أعـط كلَّ مـن له قرابة بك حقَّه من البر والإحسـان ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وأعط المسـكين المحتاج والغريبَ المنقطع في سفره حقَّه أيضـاً ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أي لا تنفـق مالكَ في غير طاعة الله فتكون مبـذّراً، والتبذير الإنفاق في غير حق قال مجاهد: لو أنفـق إنسـان ماله كلَّـه في الحق لم يكن مبذّراً، ولـو أنفق مُدّاً في غير حـق كان مبذّراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد[٣] ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ هـذا تعليل للنهـي وهو غاية في الـذم والتقبيح، أي: إن المبذريـن كانوا أمثال الشـياطين وأشـباههم في الإفساد، لأنهم ينفقون في الباطل وينفقون في الشر والمعصية فهم أمثالهـم ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي مبالغـاً في كفران نعمـة الله لا يؤدي حقَّ النعمة كذلـك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة، وحقُّهـا أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي إن أعرضتَ عن ذوي القربى والمسـاكين وابن السـبيل إذا لم تجد ما تعطيهم فقل لهم قولاً سـهلاً ليِّنـاً وعِدْهُم وَعْداً جميـلاً ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ تمثيلٌ للبخل أي

(١) (ش): في كنفك: أي في رعايتك.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٠/ ١٩٢.
(٣) «المختصر» ٢/ ٣٧٥.

لا تكنْ بخيلاً مَنُوعـاً لا تعطي أحداً شـيئاً كمن حبسـت يده عن الإنفاق وشدَّت إلى عنقه ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ تمثيل للتبذير أي ولا تتوسـع في الإنفاق توسـعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شـيء، والغرض من الآية لا تكن بخيلاً ولا مسرفاً ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ أي فتصيـر مذموماً من الخَلْـق والخالق، منقطعاً من المال كمن انقطع في سـفره بانقطاع مطيته ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء ويضيِّق على من يشـاء، وهو القابض، الباسـط المتصرف في خلقه، بما يشـاء حسـب الحكمة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي إنـه عالم بمصالح العبـاد، والتفاوتُ في الأرزاق ليس لأجل البخل بـل لأجـل رعايـة المصالح فهو تعالـى يعلم مـن مصالحهم ما يخفـى عليهم ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي لا تُقْدِمـوا علـى قَتْل أولادكم مخافـةَ الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي رزقُهـم علينـا لا عليكم فنحن نرزقهـم ونرزقكم فلا تخافوا الفقر بسـببهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي قتلُهم ذنبٌ عظيم وجرمٌ خطير قال المفسرون: كان أهل الجاهلية يَئِـدُون البنات[1] مخافةَ الفقـر أو العار فنهاهم الله عن ذلـك وضمن أرزاقهم ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أي لا تدنـوا مـن الزنى وهو أبلغ من «لا تزنوا» لأنه يفيـد النهي عن مقدمات الزنى كاللَّمـس، والقُبلة، والنظرة، والغمز وغير ذلك مما يجرُّ إلى الزنى فالنهْيُ عن القُرْب أبلغ مـن النهـي عن الفعـل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي إن الزنـى كان فعلة قبيحـة متناهية في القبح ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي سـاء طريقـاً موصـلاً إلـى جهنـم ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي لا تقتلوا نفسـاً حرَّم الله قتلها بغير حقٍ شرعي موجبٍ للقتل كالمرتد، والقاتل عمداً، والزاني المحصـن ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي ومن قُتل ظلمـاً بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لوارثه سلطةً على القاتل بالقصاص منه، أو أخذ الدِّيَة، أو العفْـو ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي فـلا يتجاوز الحدَّ المشـروع بأن يقتل غيـر القاتـل أو يُمثّل به أو يقتل اثنين بواحد كما كان أهل الجاهلية يفعلون، فحسـبُه أن الله قـد نصره على خصمـه فليكن عادلاً في قصاصـه ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي لا تتصرفـوا في مـال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسـن وهي حفظه واسـتثماره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى يبلغ اليتيم سـن الرشـد ويحسـن التصرف في ماله ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي وفّـوا بالعهـود سـواءٌ كانت مـع الله أو مع الناس لأنكم تُسـألون عنهـا يوم القيامة ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي أتموا الكيـل إذا كِلْتُم لِغَيركم من غير تطفيفٍ ولا بَخْـس[2] ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي زنـوا بالميزان العدل السـويّ بـلا احتيالٍ ولا

---

(١) (ش): وأد البنْتَ خشية الفقر والعار: دفنَها في التّراب حيَّةً.

(٢) (ش): طفَّف المكيالَ والميزانَ: نقَصَهما وبَخَسهما، لم يوفِّهما. بخَس الرَّجلُ الكيْلَ والميزانَ ونحوَهما: نَقَصَه.

خديعة ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خيرٌ في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ أي لا تتَّبعْ ما لا تعلم ولا يَعْنيك بل تثبَّتْ من كل خبر، قال قتادة: لا تقل: رأيتُ ولم ترَ، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله[١] ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ أي إن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن حواسه: عن سمعه، وبصره، وقلبه وعما اكتسبته جوارحه ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ أي لا تمش في الأرض مختالاً مشية المعجب المتكبر ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ هذا تعليل للنهي عن التكبر. والمعنى أنك أيها الإنسان ضئيل هزيل لا يليق بك التكبر؟ كيف تتكبر على الأرض ولن تجعل فيها خرقاً أو شقًّا؟ وكيف تتطاول وتتعظَّم على الجبال ولن تبلغها طولاً؟ فأنت أحقر وأضعف من كل واحدٍ من الجمادين فكيف تتكبر وتتعالى وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ أي كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه كان عمله قبيحاً ومحرماً عند الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي ذلك الذي تقدم من الآداب والقصص والأحكام بعضُ الذي أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة، والحِكَم الفريدة ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من وثنٍ أو بشر فتلقى في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك اللهُ والخلقُ مطروداً مُبعَداً من كل خير. قال الصاوي: ختم به الأحكام كما ابتدأها إشارةً إلى أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها، وهو رأس الأشياء وأساسُها، والأعمالُ بدونه باطلةٌ لا تفيد شيئاً[٢] ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ خطابٌ على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله. والمعنى أفَخَصَّكم ربُّكم وأخْلَصَكم بالذكور واختار لنفسه - على زعمكم - البنات؟ كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنى! ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾ أي إنكم لتقولون قولاً عظيماً في شناعته وبشاعته حيث تنسبون إليه البنات وتجعلون لله ما تكرهون ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي ولقد بيّنا للناس في هذا القرآن العظيم الأمثال والمواعظ، والوعد والوعيد، ليتذكروا بما فيه من الحجج النيِّرة والبراهين الساطعة، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والضلال ﴿وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ أي وما يزيدهم هذا البيان والتذكير إلا تباعداً عن الحق، وغفلةً عن النظر والاعتبار ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ أي لو فرضنا أن مع الله

(١) «المختصر» ٢/ ٣٧٧.
(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢/ ٣٥٠.

آلهة أخرى كما يزعم هؤلاء المشركون إذاً لطلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال[١] ليسلبوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض[٢] ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تنزَّه تعالى وتقدَّس عما يقول أولئك الظالمون، وتعالى ربنا عما نسبوه إليه من الزور والبهتان تعالياً كبيراً، فإن مثل هذه الفِرية مما يتنزّه عنه مقامه الأسمى قال الشهاب: وذكر العلُو بعد عنوانه بـ ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾ في أعلى مراتب البلاغة لأنه المناسب للعظمة والجلال ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي تسبح له الكائنات، وتنزهه وتقدسه الأرض والسماوات، ومن فيهن من المخلوقات ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي وما من شيء في هذا الوجود إلا ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته جلَّ وعلا، السماواتُ تسبّح الله في زُرقتها، والحقولُ في خُضرتها، والبساتينُ في نَضرتها، والأشجار في حفيفِها، والمياهُ في خريرها، والطيورُ في تغريدها[٣]، والشمسُ في شروقها وغروبها، والسحبُ في إمطارها، والكل شاهد بالوحدانية لله.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي ولكنْ لا تفهمون تسبيح هذه الأشياء لأنها ليست بلُغَاتكم ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي إنه تعالى حليم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، غفورٌ لمن تاب وأناب، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدّقون بالآخرة جعلنا بينك وبينهم حجاباً خفيًّا يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسراره وحِكمه ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي وجعلنا على قلوب هؤلاء الكفار أغطيةً لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً يمنعهم من استماعه ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ أي وإذا وحدّت الله وأنت تتلو القرآن فرَّ المشركون من ذلك هرباً من استماع التوحيد ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ

---

(١) (ش): الصواب أن يُقال: مغالبة الله ذي العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات. وقد فسره المؤلف بذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] حيث قال: «أي هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء، لكونه أعظم الأشياء؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى».

(٢) هذا أحد وجهين في تفسير الآية الكريمة. والوجه الآخر أن المعنى: لو كان كما تقولون لكان أولئك المعبودون يبتغون سبيلًا إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته ويطلبون الزلفى لديه، وهذا اختيار ابن جرير وابن كثير، والوجه الأول أظهر كما يقول العلامة «أبو السعود» وهو المناسب للآية؛ لقوله تعالى بعدها: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ فإنه صريح في الإنكار وأن قولهم فيه محذور عظيم.

(٣) (ش): حفَّ الشَّيءُ: سُمِع له صوتٌ كالذي يكون من أجنحة الطّيور أو تلَهُّب النّار أو مرور الرّيح في الشّجر. خرَّ الماءُ: أحدث صوتًا إذا سال أو سقط، أو اشتدّ جرْيُه. غرَّد الطَّائِرُ: غَنَّى، رفَع صوته بالغناء وطَرَّبَ به.

﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي نحن أعلم بالغاية التي يستمعون من أجلها للقرآن وهي الاستهزاء والسخرية قال المفسرون: كان المشركون يجلسون عند النبي ﷺ مُظهرِين الاستماع وفي الواقع قاصدين الاستهزاء؛ فنزلت الآية تسلية للرسول ﷺ وتهديداً للمشركين[1] ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي حين يستمعون إلى قراءتك يا محمد ثم يتناجون ويتحدثون بينهم سرًّا ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة ما تتبعون إلا رجلاً سُحِر فجُنَّ فاختلط كلامه ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟﴾ أي انظر يا محمد وتعجَّب كيف يقولون تارة عنك: إنك ساحر، وتارة: إنك شاعر، وتارة: إنك مجنون. وقد ضلوا بهذا البهتان والزور ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والحق المبين.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الاستعارة المكنية ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ شبَّه الذل بطائر له جناح، وحذف الطائر ورمز له بشيء من لوازمه وهو الجناح على سبيل الاستعارة المكنية.

٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ مثَّل للبخيل بالذي حُبِسَتْ يدُه عن الإعطاء وشُدَّتْ إلى عنقه بحيث لا يقدر على مَدِّها، وشبَّه السَرَف ببَسْط الكَفّ بحيث لا تحفظ شيئاً.

٣ - اللف والنشر المرتب ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ عاد لفظ ﴿مَلُومًا﴾ إلى البخل ولفظ ﴿مَّحْسُورًا﴾ إلى الإسراف، أي: يلومك الناس إن بخلت، وتصبح مقطوعاً إن أسرفت.

٤ - الطباق بين ﴿يَبْسُطُ .. وَيَقْدِرُ﴾.

٥ - جناس الاشتقاق ﴿قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

٦ - التوبيخ ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؟

٧ - الفرض والتقدير ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾.

لطيفَة: نقف هنا أمام مَثَل من دقائق التعبير القرآني العجيبة ففي هذه السورة قدَّم تعالى رزق الأبناء على رزق الآباء ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وفي سورة الأنعام قدَّم رزق الآباء ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] والسرُّ في ذلك أن قتل الأولاد هنا كان خشية وقوع الفقر بسببهم فقدَّم تعالى رزق الأولاد، وفي الأنعام كان قتلهم بسبب فقر الآباء فعلاً فقدم رزق الآباء، فلله در التنزيل ما أروع أسراره[2].

---

(١) (ش): ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» و«لباب النقول».

(٢) (ش): لله دَرُّ كذا: عبارة تعجّب ومدح.

قال الله تعالى:

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾
أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ
إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ
بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ
إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ
وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ
عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ
وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ
وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ
أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾
وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ
فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ
فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ
لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ
فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ
وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ
عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ
فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ
إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ
عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ
قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾

المناسَبة: لما ذكر تعالى موقف المشركين من القرآن العظيم، وذكر تعاميهم عن فهم آياته البينات، أردفه بذِكْر شبهاتهم في إنكار البعث والنشور وكَرَّ عليها بالإبطال والتفنيد، ثم ذكر قصة آدم وإبليس للعظة والاعتبار، وأعقبها بذكر نعمه العظيمة على العباد ثم بالوعيد والتهديد إن أصرُّوا على الكفر والجحود.

اللغة: ﴿وَرُفَٰتًا﴾ الرُّفات: ما تكسَّر وبَلِيَ من كل شيء كالفُتَات والحُطام والرُّضاض[1]

(١) (ش): رُضاض: دُقاقٌ وفُتاتٌ مما تكسَّر، ودُقاقُ الشَّيءِ: فُتاتُه النَّاتِجُ عن الدَّقّ.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ قال الفراء: يقال أنغض فلانٌ رأسه إذا حرّكه إلى فوق وأسفل كالمتعجب من الشيء[١] قال الراجز: «أَنْغَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا» ﴿يَنزَغُ﴾ يفسد ويهيِّج الشر والنزغُ: الإفسادُ والإغراء ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ الاحتناك الأخذ بالكليَّةِ والاستئصال يقال: احتنك الجرادُ الزرعَ إذا ذهب به كلِّه ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ اخدعْ واستخفَّ يقال: أفزَّه الخوف واستفزّه إذا أزعجه واستخفَّه ﴿وَأَجْلِبْ﴾ أصل الإجلاب السَّوْقُ بجلبَةٍ من السائق وهو الصياح، والجَلَب والجَلَبَةُ الأصوات ﴿وَرَجِلِكَ﴾ الرَّجِلُ جمع راجل وهو الذي يمشي على قدميه ﴿يُزْجِى﴾ يسوق ﴿حَاصِبًا﴾ الحاصب والحصباء هي الحَصَى الصغار ﴿قَاصِفًا﴾ القاصف ما يقصف الشيء أي يكسره والريح الشديدة التي تكسر بشدة من قَصَفَ الشيء يقصفه أي كسره بشدة، ورعد قاصف شديد الصوت ﴿تَبِيعًا﴾ طالبًا يقال: تابع وتبيع وهو النصير والمطالب.

سَبَبُ النّزول: أ - عن ابن عباس «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يُنحِّيَ عنهم الجبال فيزرعوا فقيل له: إن شئتَ أن تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئتَ نعطيهم الذي سألوا فإن كفروا أُهلكوا، فقال: لا بل أستأني بهم» فنزلت ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ...﴾[٢] الآية.

ب - لما ذكر تعالى شجرة الزقوم في القرآن قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً يخوّفكم بشجرة الزقوم، ألستم تعلمون أن النار تُحرق الشجر؟ ومحمد يزعم أن النار تُنْبِت الشجر، فهل تدرون ما الزقوم؟ هو التمر والزُّبد، يا جارية ابغينا تمراً وزُبداً، فجاءته به فقال: تزقّموا من هذا الذي يخوّفكم به محمد فأنزل الله تعالى ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾[٣].

التفسير: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ استفهام تعجب وإنكار، أي: قال المشركون المكذبون بالبعث: أئذا أصبحنا عظاماً نخرة، وذرات متفتتة كالتراب ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي هل سنُبعث ونُخْلق خلقاً جديداً بعد أن نبلى ونفنى؟ ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي قل لهم يا محمد لو كنتم حجارةً أو حديداً لَقَدَر الله على بعثكم وإحيائكم فضلاً عن أن تكونوا عظاماً ورفاتاً فإن الله لا يعجزه شيء، فالحجارة والحديد أبعد عن الحياة وهي أصلب الأشياء ولو كانت أجسامكم منها لأعادها الله فكيف لا يقدر على إعادتكم

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٠/٢٢٦.

(٢) «أسباب النزول» للواحدي ﷺ ١٦٦. (ش): أخرجه الإمام أحمد وابن جرير والحاكم والنسائي والبزار والطبراني، وإسناده صحيح.

(٣) «زاد المسير» ٥/ ٥٥. (ش): أخرجه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره»، وإسناده ضعيف.

إذا كنتم عظاماً ورفاتاً؟ ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي أو كونوا خلقاً آخر أوْغَلَ في البعد عن الحياة(١) من الحجارة والحديد مما يصعب في نفوسكم تصوُّرُ الحياة فيه فسيبعثكم الله قال مجاهد: المعنى كونوا ما شئتم فستُعادُون ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ ؟ أي من الذي يردنا إلى الحياة بعد فنائنا ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: قل لهم يعيدكم القادر العظيم الذي خلقكم وأنشأكم من العدم أول مرة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ ؟ أي يحركون رءوسهم متعجبين مستهزئين ويقولون استنكاراً واستبعاداً: متى يكون البعث والإعادة؟ ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي لعله يكون قريباً فإن كلَّ ما هو آتٍ قريب ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي سيكون بعثكم يوم الحشر الأكبر يوم يدعوكم الرب جل وعلا للاجتماع في المحشر فتُجيبُون لأمره، وتظنون لِهَوْل ما ترَوْن أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا زمناً قليلا ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي قل لعبادي المؤمنين يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة ويختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه وينطقوا دائماً بالحسنى ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن الشيطان يُفسد ويُهيج بين الناس الشرَّ ويُشعل نار الفتنة بالكلمة الخشنة يُفلت بها اللسان ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان يتلمس سقَطَات لسانه ليُحْدِث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بدخائل نفوسكم إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان، وإن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر والعصيان ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي وما جعلناك يا محمد حفيظاً على أعمال الكفار كفيلاً عنهم لتُقْسِرَهم على الإيمان(٢) إنما أرسلناك نذيراً فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ انتقالٌ من الخصوص إلى العموم أي ربك جلَّ وعلا أعلمُ بعباده بأحوالهم ومقاديرهم فيخص بالنبوة من شاء من خلقه، وهو أعلم بالسعداء والأشقياء، والآية ردٌّ على المشركين حيث استبعدوا النبوة على رسول الله وقالوا: كيف يكون يتيم أبي طالب نبيًّا؟ وكيف يكون هؤلاء الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء؟ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي فضلنا بعض الأنبياء على بعض حسب علمنا وحكمتنا وخصصناهم بمزايا فريدة، فاصطفينا إبراهيم بالخُلَّة(٣)، وموسى بالتكليم،

(١) (ش): أوْغَلَ: أشدَّ أو أكثر بُعْدًا عن الحياة.

(٢) (ش): قَسَره على الشيءِ: أكرهَه وأجْبره عليه.

(٣) (ش): الخُلَّة: صفاء المودة، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي صفيًّا اصطفاه لمحبته وخُلته، وفي هذه الآية إثبات صفة الخُلّة لله -تعالى- وهي أعلى مقامات المحبة، والاصطفاء.

وسليمان بالمُلْك العظيم، ومحمداً بالإِسراء والمعراج وجعلناه سيّد الأولين والآخرين، وكلُّ ذلك فِعْلُ الحكيم العليم الذي لا يصدر شيءٌ إلا عن حكمته ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ أي وأنزلنا الزبور على داود المشتمل على الحكمةِ وفصلِ الخطاب ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا الذينَ زعمتم أنهم آلهة من دونه تعالى قال الحسن: يعني الملائكة وعيسى وعزيراً فقد كانوا يقولون: إنهم يشفعون لنا عند الله ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ أي فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم ولا تحويله إلى غيركم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ أي أولئك الآلهة الذين يدعونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون القُرب إلى الله، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة، فكيف تعبدونهم معه؟ ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ أي يرجون بعبادتهم رحمته تعالى ويخافون عقابه ويتسابقون إلى رضاه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ أي عذابه تعالى شديد ينبغي أن يُحذَر منه ويُخاف من وقوعه وحصوله ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ أي ما من قريةٍ من القرى الكافرة التي عصتْ أمر الله وكذَّبتْ رسله إلا وسيهلكها الله إما بالاستئصال الكلي أو بالعذاب الشديد لأهلها ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ أي كان ذلك حكماً مسطراً في اللوح المحفوظ لا يتغيَّر ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ قال المفسرون: اقترح المشركون على رسول الله ﷺ معجزاتٍ عظيمة منها أن يقلب لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال فأخبره تعالى أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال، وقد اقتضت حكمته تعالى إمهالهم لأنه عَلِم أنَّ منهم من يؤمن وأن من أولادهم من يؤمن فلهذا السبب ما أجابهم إلى ما طلبوا[1] أو المعنى ما مَنَعَنا من إرسال المعجزات والخوارق التي اقترحها قومك إلاّ تكذيبُ مَنْ سبقهم من الأمم حيث اقترحوا ثم كذَّبوا فأهلكهم الله ودمَّرهم ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي وأعطينا قوم صالح الناقة آيةً بينة ومعجزةً ساطعة واضحة فكفروا بها وجحدوا بعد أن سألوها فأهلكهم الله ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية كالزلازل والرعد والخسوف والكسوف إلا تخويفاً للعباد من المعاصي قال قتادة: إن الله تعالى يخوّف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويرجعون[2] ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي واذكر يا محمد حين أخبرناك أن الله أحاط بالناس علماً في

(١) انظر سبب النزول المذكور سابقًا. (ش): أخرجه الإمام أحمد وابن جرير والحاكم والنسائي والبزار والطبراني، وإسناده صحيح.

(٢) «تفسير الطبري» ١٥/ ١٠٩.

الماضي والحاضر والمستقبل فهو تعالى لا يخفى عليه شيءٌ من أحوالهم وقد علم أنهم لن يؤمنوا ولو جئتهم بما طلبوا من الآيات والمعجزات ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عياناً ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء إلا امتحاناً وابتلاءً لأهل مكة حيث كذبوا وكفروا وارتد بعض الناس لما أخبرهم بها. قال البخاري عن ابن عباس: هي رؤيا عينٍ أُريها رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسريَ به وليست برؤيا منام[1] ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن وهي شجرة الزقوم إلا فتنةً أيضاً للناس قال ابن كثير: لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم كذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهكماً: هاتوا لنا تمراً وزُبْداً وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقّموا فلا نعلم الزقوم غير هذا[2] ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ أي ونخوّف هؤلاء المشركين بأنواع العذاب والآيات الزاجرة فما يزيدهم تخويفنا إلا تمادياً وغيا واستمراراً على الكفر والضلال، فماذا تنفع معهم الخوارق؟ ما زادتهم خارقة الإسراء والمعراج، ولا خارقة التخويف بشجرة الزقوم إلا استهزاءً وإمعاناً في الضلال، ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان سببه إغواء الشيطان ولهذا ذكر قصته عقب ذلك فقال ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أي أذكر يا محمد حين أمَرْنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى افتخاراً على آدم واحتقاراً له ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ استفهامٌ إنكاري أي أأسجد أنا العظيم الكبير لهذا الضعيف الحقير الذي خلقته من الطين؟ كيف يصح للعالي أن يسجد للداني؟ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي قال إبليس اللعين جراءةً على الربّ وكفراً به: أتُرى هذا المخلوق الذي فضَّلته عليَّ وجعلتَه أكرَم مني عندك؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لئن أنظرتني وأبقيتني حياً إلى يوم القيامة لأستأصلنَّ ذريته بالإغواء والإضلال قال «الطبري»: أقسم عدوُّ الله فقال لربه: لئن أخرتَ إهلاكي إلى يوم القيامة لأستأصلنَّهم ولأستميلنَّهم وأضلنَّهم إلا قليلاً منهم[3] ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي قال الرب جلَّ وعلا: اذهبْ فقد أنظرْتُك وابذل جهدك فيهم فمن أطاعك من ذرية آدم فإن جزاءك وجزاءهم

---

(١) «تفسير الطبري» ١٥/ ١١٠. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما – فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ، أُرِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ رواه البخاري والترمذي. والزيادة «وليست برؤيا منام» رواها «الطبري» في «تفسيره» والطبراني في «المعجم الكبير» بإسناد صحيح.

(٢) «المختصر» ٢/ ٣٨٦.

(٣) «تفسير الطبري» ١٥/ ١١٦، والمراد بالقليل: المخلصون الذين عصمهم الله.

نـارُ جهنم جزاء كاملاً وافراً لا ينقص لكم منه شـيء قال «القرطبي»: والأمر في ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ أمرُ إهانة. والمعنى اجهد جهدك فقد أنظرناك[١] ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ أي استخفف واستجهل وحرِّكْ من أردتَ أن تستفزَّه فتخدعه بدعائك إلى الفساد قال ابن عباس: صوتُه كلُّ داعٍ يدعو إلى معصية الله تعالى وقال مجاهد: صوته الغناء والمزامير واللهو[٢] ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي صِحْ عليهم بأعوانك وجنودك من كل راكبٍ وراجل قال «الطبري»: المعنى اجمع عليهم من ركبان جندك ومشاتهم من يصيح عليهم بالدعاء إلى طاعتك، والصرفِ عن طاعتي قال ابن عباس: خيلُه ورَجِله كلُّ راكبٍ وماشٍ في معصية الله تعالى[٣] وقال الزمخشري: الكلام واردٌ مورد التمثيل، مُثِّلَتْ حالُه في تسلطه على من يُغويه بفارسٍ مغوار أوقع على قوم فصوَّت بهم صوتاً يستفزهم عن أماكنهم، ويُقلقهم عن مراكزهم، وأجلبَ عليهم بجنده من خيَّالةٍ ورجَّالة حتى استأصلهم[٤] ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ أي اجعل لنفسك شركة في أموالهم وأولادهم، أما الأموال فبكسبها من الحرام وإنفاقها في المعاصي، وأما الأولاد فبتحسين اختلاط الرجال بالنساء حتى يكثر الفجور ويكثر أولاد الزنى ﴿وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي عِدْهم بالوعود المغرية الخادعة والأماني الكاذبة، كالوعد بشفاعة الأصنام، والوعد بالغِنى من المال الحرام، والوعد بالعفو والمغفرة وسَعَة رحمة الله، والوعد باللذة والسرور في ارتكاب الموبقات كقول الشاعر:

خُـذُوا بِنَصِيبٍ مِـنْ سُـرُورٍ وَلَـذَّةٍ ... فَكُلٌّ وَإِنْ طَالَ المَدَى يَتَصَرَّمُ[٥]

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞ﴾ أي إنَّ عبادي المخلصين ليس لك عليهم تسلطٌ بالإغواء لأنهم في حفظي وأماني ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ أي كفى بالله تعالى عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك، ثم ذكَّر تعالى العباد بإحسانه ونعمه عليهم وبآثار قدرته ووحدانيته فقال ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ أي ربكم أيها الناس هو الذي يُسيِّر لكم السفن في البحر لتطلبوا من رزقه في أسفاركم وتجاراتكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ أي هو تعالى رحيم بالعباد ولهذا سهَّل لهم أسباب ذلك ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي وإذا أصابتكم الشدة والكرب

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٢٨٨.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٢٨٨.
(٣) «تفسير الطبري» ١٥/ ١١٨.
(٤) «الكشاف» ٢/ ٦٧٨.
(٥) (ش): (يَتصَرَّمُ) يَتَقَطَّع.

في البحر وخشيتم من الغَرَق ذهب عن خاطركم من كنتم تعبدونه من الآلهة ولم تجدوا غير الله مغيثاً يغيثكم، فالإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والوثن، والمَلك والفَلَك وإنما يتضرع إلى الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي فلما نجاكم من الغرق وأخرجكم إلى البرِّ أعرضتم عن الإيمان والإخلاص ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي ومن طبيعة الإنسان جحود نعم الرحمن، ثم خوَّفهم تعالى بقدرته العظيمة فقال ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي أفأمنتم أيها الناس حين نجوتم من الغرق في البحر أن يخسف الله بكم الأرض فيخفيكم في باطنها؟ إنكم في قبضة الله في كل لحظة فكيف تأمنون بطش الله وانتقامه بزلزالٍ أو رجفةٍ أو بركان؟ ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي يمطركم بحجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي لا تجدوا من يقوم بأموركم ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي يعيدكم في البحر مرةً أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أي يرسل عليكم وأنتم في البحر ريحاً شديدة مدمِّرة، لا تَمرُّ بشيءٍ إلا كسرته ودمَّرته ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا أو يطالبنا بتَبِعَة إغراقِكم[1].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ وتكرير الهمزة في ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لتأكيد النكير وكذلك تأكيده بإنَّ واللام للإشارة إلى قوة الإنكار.

٢ - التعجيز والإهانة في الأمر ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

٣ - الطباق بين ﴿يَرْحَمْكُمْ.. يُعَذِّبْكُمْ﴾ وبين لفظ ﴿ٱلْبَرِّ.. ٱلْبَحْرِ﴾.

٤ - الإيجاز بالحذف ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي ولا تحويل الضر عنكم حُذف لدلالة ما سبق.

٥ - المقابلة اللطيفة بين الجملتين ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

٦ - الإسناد المجازي ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ المنع محالٌ في حقه تعالى لأن الله لا يمنعه عن إرادته شيء فالمنع مجاز عن الترك أي ما كان سبب ترك إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين.

٧ - المجاز العقلي ﴿ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ لما كانت الناقة سبباً في إبصار الحق والهدى نسب إليها الإبصار ففيه مجاز عقلي علاقته السببية.

---

(١) (ش): تَبِعة الأمر: عاقبته، وما ينشأ عنه من أثر.

٨ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ مُثِّلَتْ حال الشيطان في تسلطه على من يغويه بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداء لاستئصالهم.

٩ - التذييل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ لأنه كالتعليل لما سبق من تسيير السفن وتسخيرها في البحر.

تنبيه: الغالب في لفظ ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ أن تكون منامية وإذا كانت بالعين يقال «رؤية» بالتاء، وقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ جاءت على غير الغالب لأن المراد بها الرؤية البصرية التي رآها رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج وقد تقدم قول ابن عباس: «هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به» ولو كانت رؤيا منام لما كانت فتنةً للناس ولما ارتد بعضهم عن الإسلام.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ
مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ
سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ
خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ
ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ
لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ
وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ
ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا
﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾
وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ
ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ
كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ
كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى ما امتنَّ به على الناس من تسيير السفن في البحر، ومن تَنْجِيَتِهم

من الغرق، تمّم ذكر المنَّة بما أنعم به على النوع الإنساني من تكرمتهم، ورزقهم، وتفضيلهم على سائر المخلوقات، ثم ذكر أحوال الناس ودرجاتهم في الآخرة، ثم حذَّر الرسول ﷺ من اتباع أهواء المشركين.

اللغَة: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ الإمام في اللغة: كل من يأتم به غيره سواء كان على هدى أو ضلال ويطلق الإمام على كتاب الأعمال لأن الإنسان يكون تابعاً لكتاب أعماله يقوده إلى الجنة أو النار ﴿فَتِيلًا﴾ الفتيل: القشرة التي في شق النواة ويضرب مثلاً للشيء الحقير التافه ومثله القطمير والنقير[١] ﴿تَرْكَنُ﴾ تميل ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ الاستفزاز: الإزعاج بسبب من الأسباب للحمل على الخروج من الوطن وغيره ﴿تَحْوِيلًا﴾ تغييراً وتبديلاً ﴿لِدُلُوكِ﴾ الدلوك: الغروب يقال: دلكت الشمس، أي: غابت قال أبو عبيد وابن قتيبة: الدلوك الغروب وأنشد لذي الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا ... نُجُومٌ وَلَا بِالْآفِلَاتِ الدَّوَالِكِ[٢]

وقال الأزهري: أصل الدلوك الميل يقال: مالت الشمس للزوال، ومالت للغروب ﴿غَسَقِ﴾ غسقُ الليل: سواده وظلمته يقال: غسق الليل إذا اشتدت ظلمته ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ التهجد: صلاة الليل بعد الاستيقاظ من النوم، والهجودُ: النوم، قال الشاعر:

أَلَا طَرَقَتْنَا وَالرِّفَاقُ هُجُودُ ... فَبَاتَتْ بِعَلَّاتِ النَّوَالِ تَجُودُ[٣]

﴿وَزَهَقَ﴾ زال وبطل ﴿وَنَا﴾ تباعد والنأي: البُعد ﴿ظَهِيرًا﴾ مُعيناً ونَصيراً.

سَببُ النّزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلْيَهُودِ: أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ عَنْهُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَسَأَلُوهُ، فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي قَلِيلًا ..﴾[٤] الآية.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي لقد شرفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل،

---

(١) (ش): القِطْمِير: القِشرَةُ الرَّقِيقَةُ على النواة كاللفافة لَهَا، القِشرَةُ الرَّقِيقَةُ بين النَّواةِ والتَّمْرَةِ. والنَّقِيرُ: حفرة مستديرة في ظهر نواة البلح. والفتيل: خَيْط فِي شقّ النواة أو قشرَة في بطنها.

(٢) (ش): أفَلَ النَّجمُ: غابَ واستَترَ فَهُوَ آفِلٌ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٠/٣٠٨. (ش): طَرَقَ الْقَوْمَ: أَتَاهُم لَيْلاً. وَالرِّفَاقُ هُجُودُ: يعني: نيامًا. والعَلَّةُ: الشَّرْبَةُ الثانيةُ، أو الشُّرْبُ بَعْدَ الشُّرْبِ تِباعـًا. والعَلَّةُ: التَّعِلَّةُ: ما يُتَعَلَّلُ به. وتَعِلَّةُ الصبيِّ أي مَا يُعَلَّل بِهِ لِيَسْكُتَ. يقال: عَلَّلَ فُلَانًا بِطَعَام أَو غَيره: شغَله بِهِ ولهَّاه. والنَّوال: ما يعطيه الحبيب حبيبه من ثمرة الحب.

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ﷺ ١٦٨. (ش): صحيح، رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني.

وعَن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ بِالْمَدِينَةِ، وَهْوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ، فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ تَسْأَلُوهُ لاَ يُسْمِعْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ. فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَدِّثْنَا عَنِ الرُّوحِ. فَقَامَ سَاعَةً يَنْظُرُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوحى إِلَيْهِ، فَتَأَخَّرْتُ عَنْهُ حَتَّى صَعِدَ الْوَحْيُ، ثُمَّ قَالَ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. [رواه البخاري]. (العسيب): العصا من جريد النخل.

والعلم، والنطق، وتسخير جميع ما في الكون لهم ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي وحملناهم على ظهور الدواب والسفن ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من لذيذ المطاعم والمشارب قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى وجعلنا رزق الحيوان التبن والعظام وغيرها ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي وفضلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات من الجن والبهائم والدواب والوحش والطير وغير ذلك ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي اذكر يوم الحشر حين ننادي كل إنسان بكتاب عمله ليسلَّم له وينال جزاءه، والإمام الكتاب الذي سجل فيه عمل الإنسان ويقوّيه ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] قال ابن عباس: الإمام ما عُمل وأُملي فكتب عليه، فمن بُعث متقياً لله جُعل كتابُه بيمينه فقرأه واستبشر[1] ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي فمن أُعطي كتاب عمله بيمينه وهم السعداء أولو البصائر والنُّهى المتقون لله ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أي يقرءون حسناتهم بفرح واستبشار لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً ولو كان بمقدار الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾ أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي فهو في الآخرة أشدُّ عمًى وأشدُّ ضلالاً[2] عن طريق السعادة والنجاة قال قتادة: من كان في هذه الدنيا أعمى عمَّا عايَنَ من نعم الله وخلقه وعجائبه، فهو فيما يغيب عنه من أمر الآخرة أشد عمى وأضلُّ طريقاً ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحيناه إليك يا محمد من بعض الأوامر والنواهي ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي لتأتي بغير ما أوحاه إليك وتخالف تعاليمه ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك صاحباً وصديقاً قال المفسرون: حاول المشركون محاولات كثيرة ليثنوا رسول الله ﷺ عن المضي في دعوته منها: مساومتهم له أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم، ومنها مساومة بعضهم أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرَّمه الله، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء، فعصمه الله من شرّهم وأخبر

(١) «تفسير الطبري» ١٥/ ١٢٦، وهذا ما رجحه ابن كثير. وقيل: إمام هدى أو إمام ضلالة. وقيل: نبيهم.
(٢) هذا كله من عمى القلب. وقيل: المراد أنه يحشر يوم القيامة أعمى البصر لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ...﴾ الآية.

أنـه لا يَكِلُه إلى أحد من خلقه[(١)] بل هـو وَلِيُّه وحافظه وناصره[(٢)] ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ أي لـو لا أن ثبتناك على الحق بعصمتنا إيـاك ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـًٔا قَلِيلًا﴾ أي كدت تميـل إليهـم وتسـايرهم على مـا طلبـوا ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ أي لـو ركَنْـتَ إليهم لضاعفنا لـك عذاب الدنيا وعـذاب الآخرة، لأن الذنـب من العظيم جـرمٌ كبير يسـتحق مضاعفـة العذاب، والغرضُ مـن الآية بيانُ فضل الله على الرسـول في تثبيتـه على الحـق، وعصمته من الفتنة، ولـو تخلى عن عصمته لمال إليهم بعض الشـيء ﴿وَلَوۡلَآ﴾ حـرف امتناع لوجود، أي: امتنع الركـون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له، فليس في الآيـة ما يُنقص من قدر الرسـول ﷺ وإنما هي بيان لفضـل الله العظيم على نبيه الكريم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ أي لا تجـد مـن ينصـرك منـا أو يدفـع عنـك عذابنـا ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا﴾ أي وإن كاد المشـركون بمكرهـم وإزعاجهـم أن يخرجوك يـا محمد من أرض مكـة ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمنـًا يسيراً وفق سنة الله التي لا تتبدل مع الذين يُخْرِجون رسلهم من أوطانهم قال قتادة: همَّ أهلُ مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة ولو فعلوا ذلـك ما أمهلوا ولكنَّ الله تعالى منعهم من إخراجه حتى أمره بالخروج[(٣)] ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي هذه عادة الله مع رسله في إهلاك كل أمةٍ أخرجتْ رسولَها من بيـن أظهرهـم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ أي لن تجد لها تبديلاً أو تغييراً ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي حافظ يا محمد على الصلاة في أوقاتها من وقت زوال الشـمس عنـد الظهيـرة إلى وقت ظلمة الليـل ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي وأقم صلاة الفجـر، وإنما عبَّر عنها بقرآن الفجر لأنه تطلب إطالة القراءة فيها ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ أي تشـهده ملائكـة الليـل والنهار كما في الحديـث «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُـمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَـةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُـونَ فِـى صَـلاَةِ الْعَصْرِ وَصَـلاَةِ الْفَجْـرِ...» الحديث[(٤)]، قال المفسـرون: في الآية الكريمة إشـارة إلى الصلوات المفروضة، فدلوكُ الشـمس زوالُها وهو إشـارة إلى الظهر والعصر، وغَسَقُ الليل ظلمتُه وهو إشارة إلى المغرب والعشاء، وقرآن الفجر صلاة الفجر، فالآيـة رمزٌ إلى الصلوات الخمس[(٥)] ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أي وقم من الليل

---

(١) (ش): وكَل إليه الأمرَ: سلّمه وفوّضه إليه واعتمد عليه فيه.

(٢) قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصومًا، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه. «تفسير القرطبي» ١٠/ ٣٠٠.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢١/ ٢٣.

(٤) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٥) قال «القرطبي»: وهذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة بإجماع من المفسرين.

بعد النوم متهجداً بالقرآن فضيلةً وتطوعـًا لك ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي لعلَّ ربك يا محمد يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون وهو مقام «الشفاعة العظمى» قال المفسرون: ﴿عَسَىٰٓ﴾ في كلام الله للتحقيق لأنه وَعْدُ كريم وهو لا يتخلف ولهذا قال ابن عباس: «عسى» من الله واجبة أي تفيد القطع ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي قل: يا رب أدخلني قبري مُدْخل صدق أي إدخالاً حسنًا ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي أخرجني من قبري عند البعث إخراجًا حسنًا هذا قول ابن عباس، وقال الحسن والضحاك: المراد دخوله المدينة المنورة، وخروجه من مكة المكرمة وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تآمروا على قتله صلوات الله وسلامه عليه[1] ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أي اجعل لي من عندك قوةً ومَنَعة تنصرني بها على أعدائك وتُعزُّ بها دينك، وقد استجاب الله دعاءه فنصره على الأعداء، وأعلى دينه على سائر الأديان ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي سطع نور الحق وضياؤه وهو الإسلام، وزهق الباطل وأنصاره وهو الكفر وعبادةُ الأصنام، فلا شرك ولا وثنية بعد إشراق نور الإيمان[2] ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي إن الباطل لا بقاء له ولا ثبوت لأنه يضمحل ويتلاشى، وإن كانت له صولةٌ وجولة فسرعان ما تزول كشعلة الهشيم ترتفع عاليًا ثم تخبو سريعًا، روي «أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا فجعل يطعنها بعودٍ في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ فما بقي منها صنمٌ إلا خرَّ لوجهه ثم أمر بها فكُسِرَتْ»[3] ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وننزّل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والضلال، ويُذهب صدأ النفس من الهوى والدَّنس، والشُّح والحسد، وما هو رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان والحكمة والخير المبين ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي ولا يزيد هذا القرآن

(١) اختار هذا القول «الطبري» وهو المشهور، والمعنى الأول أظهر لأنه سبقه لفظ البعث والغرض الدعاء بالموت على الإيمان والبعث على الإيمان.

(٢) (ش): في هذا نظرٌ لأن الشرك والوثنية لا يزال كل منهما موجودًا، فيكون المراد أن حُجَّة الحق ظهرتْ وبطلتْ حُجَّة الباطل وليس المراد عدم وجود الباطل.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢١/ ٢٣، وأصل الحديث أخرجه البخاري. (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ كَانَ بِيَدِهِ وَيَقُولُ «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» «جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ» [رواه البخاري ومسلم]. وفي رواية لمسلم أن ذلك كان يَوْمَ الْفَتْحِ. وعَنْ جَابِرِ بْنِ عبد الله رضي الله عنهما، قَالَ: «دَخَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَكَّةَ فِي الْبَيْتِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ». قَالَ: فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكُبَّتْ كُلُّهَا لِوُجُوهِهَا؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] [رواه ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف»، وقال الحافظ ابن حجر: «إسناده حَسَنٌ».

الكافرين به عند سماعه إلا هلاكـًا ودماراً لأنهم لا يُصَدِّقون به فيزدادون كفراً وضلالاً ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من صحةٍ، وأمنٍ، وغِنىً، أعرض عن طاعة الله وعبادته، وابتعد عن ربه غروراً وكِبْراً ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي وإذا أصابته الشدائد والمصائب أصبح يائسـًا قانطـًا من رحمة الله، والآية تمثيلٌ لطغيان الإنسان فإن أصابته النعم بطر وتكبَّر، وإن أصابته الشدة أيس وقنط كقوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١] ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي كل واحدٍ يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال، فإن كانت نفس الإنسان مشرقةً صافية صدرت عنه أفعال كريمة فاضلة[١]، وإن كانت نفسه فاجرةً كافرة صدرت عنه أفعال سيئةٌ شرّيرة ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي ربكم أعلم بمن اهتدى إلى طريق الصواب وبمن ضلَّ عنه وسيجزي كل عامل بعمله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي يسألك يا محمد الكفار عن الرُّوح ما هي؟ وما حقيقتها؟ فقل لهم إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا ربُّ البرية ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا شيئـًا قليلاً لأن علمكم قليل بالنظر إلى علم الله ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي لو أردنا لمحونا هذا القرآن الذي هو مِنَّةُ الرحمن من صدرك يا محمد فإن ذلك في قدرتنا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي لا تجد من يتوكل علينا باسترداده، وردّه إليك بعد ذهابه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي لكنْ رحمةً من ربك تركناه محفوظـًا في صدرك وصدر أصحابك ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أي فضل الله عليك عظيم حيث أنزل عليك القرآن، وأعطاك المقام المحمود، وجعلك خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين، والمقصود بالآية الامتنان على الرسول بالقرآن والتحذير له عن التفريط فيه، والخطاب له عليه السلام والمراد أمته ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي لو اتفق واجتمع أرباب الفصاحة والبيان من الإنس والجان وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما أطاقوا ذلك ولو تعاونوا وتساعدوا على ذلك جميعـًا

---

(١) (ش): الصواب أن يقال: فمَن كُتب من أهل السعادة؛ فسيَعمل بعمل أهل السعادة، ومَن كُتب من أهل الشقاوة، فسيعمل بعمل أهل الشقاوة كما في الحديث الذي بيَّن سبب السعادة والشقاوة، وكما دل عليه القرآن، وإشراق النفس سببه أنها قد كُتبت من أهل السعادة. عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ قَالَ «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآيَةَ. رواه البخاري.

فإن هذا أمر لا يستطاع وليس بمقدور أحد ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي بيَّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحقَّ بالآياتِ والعِبَر، والترغيب والترهيب ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي ومع البراهين القائمة والحجج الواضحة أبَى أكثرُ الناس إلا جحوداً للحق وتكذيباً لله ورسوله.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الاستعارة ﴿كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ الإمام الذي يتقدم الناس في الصلاة وقد استعير هنا لكتاب الأعمال لأنه يرافق الإنسان ويتقدمه يوم القيامة.

٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ يضرب مثلاً للقِلَّة، أي: لا ينقصون من ثواب أجورهما ولا بمقدار الخيط الذي في شق النواة.

٣ - الطباق ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾.

٤ - المجاز المرسل ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أطلق الجزء على الكل أي قراءة الفجر والمراد بها الصلاة لأن القراءة جزء منها فالعلاقة الجزئية.

٥ - الإظهار في مقام الإضمار لمزيد الاهتمام والعناية ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ بعد قوله ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

٦ - التفصيل بعد الإجمال ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ.. وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ بعد ذكر كتاب الأعمال.

٧ - المقابلة اللطيفة بين ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ وبين ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾.

٨ - إسناد الخير إلى الله والشر لغيره ﴿أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ .. وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ لتعليم الأدب مع الله تعالى.

لطيفَـة: ذكر أن عالماً ممن ينكر المجاز والاستعارة في القرآن الكريم جاء إلى شيخ فاضل عالم منكراً عليه دعوى المجاز - وكان ذلك السائل المنكر أعمى - فقال له الشيخ ما تقول في قوله تعالى ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هل المراد بالعمى الحقيقة وهو عمى البصر، أم المراد به المجاز وهو عمى البصيرة؟ فبُهت السائل وانقطعت حجته[1].

---

(١) (ش): العَمَى منه عمَى البصر، ومنه عمَى القلب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾، وهذا العمى هو المراد في الآية، فليس العمى مقصورًا على عمى البصر حتى يصِحَّ الاحتجاجُ بتلك الحكاية.

قال الله تعالى:

وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ
وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ
بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ
حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن
يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ
يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ
فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ
كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا
أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ
مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ
رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ
فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ
أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن
يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا
جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾
وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ
مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾
وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ
ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ
يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾

المناسَبة: لما ذكر تعالى القرآن وما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صدق النبي الأُمِّيِّ، وتحداهم فظهر عجزهم بوضوح إعجازه، ذكر هنا نماذج عن تعنت الكفار وضلالهم باقتراح خوارق مادية غير القرآن العظيم، ثم ذكر قصة موسى وتكذيب فرعون له مع كثرة الخوارق والمعجزات التي ظهرت على يديه تسليةً لرسول الله ﷺ عن تكذيب المشركين، ثم ختم السورة الكريمة بدلائل القدرة والوحدانية.

اللغة: ﴿كِسَفًا﴾ قِطَعاً جمع كِسْفَة كدمنة ودِمَن يقال: كسَفتُ الثوبَ أكسِفُه كِسَفاً إذا

قطعْتُه قطعًا قال الفراء: سمعت أعرابيًّا يقول للبَزَّاز أعطني كِسْفةً يريد قطعة[١] ﴿قَبِيلًا ﴾ مُعايَنةً ﴿تَرْقَىٰ﴾ تصعد ﴿خَبَتْ﴾ خبت النار: سكنَ لهبها، وخمدتْ: سكن جمرها، وهَمَدت: طفئت جملة[٢] ﴿قَتُورًا﴾ بخيلًا ﴿مَثْبُورًا ﴾ الثبور: الهلاك يقال: ثَبَر اللهُ العدوَّ أهلكه ﴿لَفِيفًا ﴾ اللفيف: الجمع من القوم من أخلاطٍ شتى قال الجوهري: اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتّى يقال: جاء القوم بلَفِّهم ولفيفهم ﴿مُكْثٍ﴾ المُكْث: التطاول في المدة يقال: مكَثَ إذا أطال الإقامة ﴿تُخَافِتْ﴾ خافت في الكلام أَسَرَّه بحيث لا يكاد يسمع أحد ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ جمعُ ذَقَنٍ وهو مُجْتَمَعُ اللَّحْيَيْن[٣].

قال الشاعر:

فَخَرُّوا لِأَذْقَانِ الْوُجُوهِ تَنُوشُهُمْ ... سِبَاعٌ مِنَ الطَّيْرِ الْعَوَادِي وَتَنْتِفُ[٤]

سَبَبُ النّزول: أ - عن ابن عباس «أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة فقالوا: ابعثوا إلى محمد فكلِّموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه إنَّ أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فجاءهم سريعًا - وكان حريصًا على رُشدهم - فقالوا: يا محمد؛ إنّا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبتَ الدين، وسفَّهتَ الأحلام، وفرَّقت الجماعة، فإن كنتَ إنما جئت بهذا لتطلب مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشَّرَف فينا سوَّدناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيا - أي تابعًا من الجنّ - بذلنا أموالنا في طلب الطِبِّ حتى نبرئك منه أو نُعذَر فيك، فقال رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئتكم أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا المُلك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، فقالوا يا محمد إن كنت غير قابلٍ منا ما عرضنا فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيقَ بلاداً، ولا أشدَّ عيشًا منا، فسلِ ربكَ يُسيّر لنا هذه الجبال، ويجري لنا أنهاراً، ويبعث من مضى من آبائنا حتى نسألهم أحقٌّ ما تقول؟ وسلْه أن يجعل لك جنانًا وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عنا فأنزل الله ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ...﴾[٥]» الآية.

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢١/ ٥٦. (ش): البزَّاز: بائع الثياب والأقمشة.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٦٨.

(٣) (ش): لَحْي: مَنبتُ اللِّحية من الإنسان وغيره، وهما: لَحْيان.

(٤) (ش): ناشَ الشّيءَ: تناوَله وأخَذه. عدا الشَّخصُ: اعتدى، تجاوز، فهو عادٍ. نتَف الشَّعْرَ ونحوَه: نزَعه واستخرجه.

(٥) «زاد المسير» ٥/ ٨٥. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره» بإسناد ضعيف، والواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

ب- عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ مختفيًا بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله عز وجل لنبيه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١).

التفسير: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ لما تبيّن إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعلَّلون باقتراح الآيات والخوارق. والمعنى قال المشركون: لن نصدِّقك يا محمد حتى تشقّق لنا من أرض مكة عيناً غزيرة ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أي يكون لك بستانٌ فيه أنواع النخيل والأعناب ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي تجعل الأنهار تتفجّر فيها وتسير وسطها بقوةٍ وغزارة ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ هذا هو الاقتراح الثالث أي تجعل السماء تتساقط علينا قِطَعاً كما كنتَ تخوّفنا وتزعم أن الله سيعذبنا إن لم نؤمن بك قال المفسرون: أشاروا إلى قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩] ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي تُحضر لنا الله وملائكته مقابلةً وعياناً فنراهم ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي يكون لك قصرٌ مشيَّد عظيم من ذهبٍ لا من حجر أو طين ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ هذا هو الاقتراح السادس والأخير، وكلُّها تدل على سفهٍ وجهلٍ كبير، بسنة الله في خلقه وبحكمته وجلاله أي أو تصعد يا محمد إلى السماء بِسُلَّم ولن نصَدّقك لمجرد صعودك حتى تعود ومعك كتاب من الله تعالى منشور أنك عبده ورسولُه نقرؤه بأنفسنا ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي قل لهم يا محمد تعجباً من فرط كفرهم وعنادهم: سبحانَ الله هل أنا إله حتى تطلبوا مني أمثال هذه المقترحات؟ ما أنا إلا رسولٌ من البشر بعثني الله إليكم فلم هذا الجحود والعناد؟! ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ أي إن السبب الذي منع المشركين من الإيمان بعد وضوح المعجزات هو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق من البشر، فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الناس ساكنين في الأرض مستقرين فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ أي لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ولكنَّ أهل الأرض بشرٌ فالرسول إليهم بشرٌ من جنسهم، إذْ جرت حكمة الله أن يرسل إلى كل قوم رسولاً من جنسهم ليمكنهم الفهم عنه ومخاطبته، وهذا تسفيهٌ وتجهيل لمنطق المشركين ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي

---

(١) «أسباب النزول» ١٧٠. (ش): رواه البخاري ومسلم.

كفى اللهُ شاهداً على صدقي ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي هو تعالى العالم بأحوال العباد وسيجازيهم عليها ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي من يهده الله إلى الحق فهو السعيد الرشيد ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي ومن يضلله الله عن الحق بسبب سوء اختياره فلن تجد لهم أنصاراً يعصمونهم من عذاب الله ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي يُسحبون يوم القيامة على وجوههم تجرُّهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم كما يُفعل في الدنيا بمن يُبالَغ في هوانه وتعذيبه ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أي يُحشرون حال كونهم عمياً وبكماً وصمًّا يعني فاقدي الحواس لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ثم يردُّ الله إليهم أسماعهم وأبصارهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله عنهم، عن أنس « قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ»[1] ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي مستقرهم ومقامهم في جهنم كلما سكن لهبها وخمدت نارها زدناهم ناراً ملتهبة ووهجاً وجمراً[2] ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم بآيات الله وتكذيبهم بالبعث والنشور وقولهم: أئذا أصبحنا عظاماً نخرة، وذرات متفتتة سنُخلق ونبعث مرة ثانية؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي أولم ير هؤلاء المشركون أن الله العظيم الجليل الذي خلق هذا الكون الهائل بسماواته وأرضه قادرٌ على إعادة جسد الإنسان بعد فنائه؟ فإن القادر على الإحياء قادر على الإعادة بطريق الأحرى قال في البحر: نبَّههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكمته بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ وهو استفهام إنكارٍ وتوبيخ على استبعادهم الإعادة، واحتجاجٌ عليهم بأنهم قد رأوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيمة التي بعضُ ما تحويه البشرُ، فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم ثم ينكرون إعادته[3] ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جعل لهؤلاء المشركين موعداً محدَّداً لموتهم وبعثهم، لا شك ولا ريب في مجيئه ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي أبى هؤلاء الكافرون الظالمون - مع وضوح الحق وسطوعه - إلا جحوداً وتمادياً في الكفر والضلال ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أي: قل يا

---

(١) أخرجه الشيخان. (ش): عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِى أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِى الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. وما ذكره المؤلف هو رواية الإمام أحمد في «المُسنَد» بإسناد صحيح.

(٢) قال في «التسهيل»: المراد كلما أكلت لحومهم فسكن لهبها بُدلوا أجسادًا أخر، ثم صارت ملتهبة أكثر مما كانت.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٦٩٦.

محمد لهؤلاء المعاندين المكابرين، المقترحين للخوارق والمعجزات: لو كنتم تملكون خزائن رزق الله ونِعَمه التي أفاضها على العباد ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أي إذاً لبخلتم به وامتنعتم عن الإِنفاق خوفاً من نفادها ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي وكان الإِنسان شحيحاً مبالغاً في البخل قال ابن عباس ﴿قَتُورًا﴾ أي بخيلاً منوعاً وقال الزمخشري: ولقد بلغ هذا الوصف بالشُّحّ الغاية التي لا يبلغها الوهم[1]. ثم ذكر تعالى أن كثرة الخوارق لا تُنشئ الإِيمان في القلوب الجاحدة، وها هو ذا موسى قد أُوتي تسع آيات بينات ثم كذَّب بها فرعون وملؤه فحلَّ بهم الهلاك جميعاً ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى تسع آياتٍ واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهي «العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والسنين» خمسٌ منها في سورة الأعراف ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ أي فاسألْ يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون فإنهم يعلمونها مما لديهم في التوراة قال «الرازي»: وليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد[2] ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي إني لأظنك يا موسى قد سُحرت فتخبَّط عقلُك ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي قال له موسى توبيخاً وتبكيتاً: لقد تيَقَّنْتَ يا فرعون أن هذه الآيات التسع ما أنزلها إلا رب السماوات والأرض شاهدة على صدقي، تبصِّرُ الناس بقدرة الله وعظمته ولكنك مكابرٌ معاند ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي وإني لأعتقدك يا فرعون هالكاً خاسراً ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أراد فرعون أن يُخْرِجَ موسى وقومه من أرض مصر ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي فأغرقنا فرعون وجند: أجمعين في البحر ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي وقلنا لبني إسرائيل من بعد إغراق فرعون وجنده اسكنوا أرض مصر ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر مختلطين فيكم المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، ثم نفصل بينكم ونميّز السعداء من الأشقياء، ثم عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره فقال ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي وأنزلنا هذا القرآن متلبساً بالحقِّ، لا يعتريه شك أو ريب، فيه الحِكَمُ والمواعظ والأمثال التي اشتمل عليها القرآن وهكذا أُنزل من عند الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

(١) «التفسير الكبير» ٢١/ ٦٥.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٨٢.

أي وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة لمن أطاع، ومنذراً بالنار لمن عصى ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي وقرآناً نزّلناه مفرقاً منجماً لتقرأه على الناس على تُؤدةٍ ومهل، ليكون حفظه أسهل، والوقوف على دقائقه أيسر ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ أي نزّلناه شيئاً بعد شيء على حسب الأحوال والمصالح ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ خطاب للمشركين الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد، أي: آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وتكذيبكم له لا يورثه نقصاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا﴾ أي العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من صالحي أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا فخرّوا ساجدين للهِ رب العالمين، والجملة تعليل لما تقدم. والمعنى: إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم وأعلم ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ أي يقولون: تنزّه الله عن إخلاف وعده إنه كان وعده كائناً لا محالة ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ أي ويخرُّون لناحية الأذقان ساجدين على وجوههم باكين عند استماع القرآن ويَزيدُهم تواضعاً لله قال «الرازي»: والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهو خرورهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن[1] ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ أي نادوا ربكم الجليل باسم ﴿ٱللَّهَ﴾ أو باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي بأي هذين الاسمين ناديْتموه فهو حسن لأن أسماءه جميعها حسنى وهذان منها. قال المفسرون: سببها أن الكفار سمعوا النبي ﷺ يدعو (يا الله، يا رحمن) فقالوا: إن كان محمد ليأمرنا بدعاء إله واحدٍ وها هو يدعو إلهين فنزلت الآية مبينة أنهما لمسمًّى واحد[2] ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ أي لا تجهر يا محمد بقراءتك في الصلاة فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ولا تُسرَّ بقراءتك بحيث لا تسمع من خلفك ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ أي اقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله فنزلت[3] ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ أي الحمد لله الذي تنزَّه عن الولد ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي ليس له شريك في ألوهيته ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى الوليّ والنصير ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ أي عظِّمْ ربك عظمةً تامة بلا ولد ولا شريك، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير، وهو العلي الكبير.

---

(١) «التفسير الكبير» ٢١/ ٦٩.

(٢) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره» بإسناد ضعيف، والواحدي في «أسباب النزول»بدون إسناد.

(٣) «التفسير الكبير» ٢١/ ٧٠. (ش): رواه البخاري ومسلم.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهـًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ؟

٢ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اهتمامـًا بأمر الحشر.

٣ - الطباق بين ﴿وَمَن يَهْدِ .. وَمَن يُضْلِلْ﴾ وبين ﴿مُبَشِّرًا .. وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿تَجْهَرْ .. تُخَافِتْ﴾.

٤ - الجناس الناقص بين ﴿مَسْحُورًا﴾ و﴿مَثْبُورًا﴾ لتغير بعض الحروف.

٥ - المقابلة اللطيفة ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ مقابل قولة فرعون ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

٦ - السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب مثل ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا .. مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ومثل ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا .. وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

«انتهى تفسير سورة الإسراء»





مكية وآياتها عشر ومائة

بين يدي السورة

سورة الكهف من السور المكية، وهي إحدى سور خمس بُدئت بـ «الحمد لله» وهذه السور هي «الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر» وكلها تبتدئ بتمجيد الله جلَّ وعلا وتقديسه، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء، والجلال والكمال.

* تعرضت السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة، والإيمان بعظمة ذي الجلال. أما الأولى فهي قصة «أصحاب الكهف» وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فرارًا بدينهم، ولجئوا إلى غارٍ في الجبل، ثم مكثوا فيه نيامًا ثلاثمائة وتسع سنين، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة.

* والقصة الثانية: قصة موسى مع الخضر، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح «الخضر» ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر كقصة السفينة، وحادثة قتل الغلام، وبناء الجدار.

* والقصة الثالثة: قصة «ذي القرنين» وهو ملك مكن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها، وما كان من أمره في بناء السد العظيم.

* وكما استخدمت السورة – في سبيل هدفها– هذه القصص الثلاث، استخدمت أمثلة واقعية ثلاثة، لبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان، وإنما هو مرتبط بالعقيدة، المثل الأول: للغني المزهو بماله، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه، في قصة أصحاب الجنتين. والثاني: للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال، والثالث: مثل التكبر والغرور مصورًا في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم، وما ناله من الطرد والحرمان، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار.

التسمية: سميت «سورة الكهف» لما فيها من المعجزة الربانية، في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ
وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴿٣﴾
وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ
تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ
بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾
وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ
ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا
رَشَدٗا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ
أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ﴿١٢﴾ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ
هُدٗى ﴿١٣﴾ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن
دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ
عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ
إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى
ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي
فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا
﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ
بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ
لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا
لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم
بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ
يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ
ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ
بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ
وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا
تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن
يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُل

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾

اللغَة: ﴿بَٰخِعٞ﴾ قاتلٌ ومهلكٌ قال الليث: بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً وأصلُ البخع الجهد كما قال الفراء ﴿جُرُزًا﴾ الجُرُز: الأرض التي لا نبات عليها ﴿ٱلۡكَهۡفِ﴾ النقب المتسع في الجبل، وإذا لم يكن متسعاً فهو غار ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ اللوح الذي كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف ﴿شَطَطًا﴾ الشطط: الجَوْر والغُلو وتعَدِّي الحد. قال الفراء: اشتط في الأمر جاوز الحد، وشطَّ المنزل بعُدَ ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ تتنحَّى وتميل من الازورار بمعنى الميل قال عنترة « فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ »[١] ﴿بِٱلۡوَصِيدِ﴾ الفِناء أي فناء الكهف ﴿فَجۡوَةٖ﴾ متَّسع من المكان ﴿بِوَرِقِكُمۡ﴾ الوَرِق: اسمٌ للفضة سواء كانت مضروبةً أم لا ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾ أطْلَعْنا ﴿تُمَارِ﴾ تجادل والمراءُ: المجادلة.

التفسير: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الثناء الكامل مع التعظيم والإجلال لله الذي أنزل على رسوله محمد القرآن نعمةً عليه وعلى سائر الخلق ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي لم يجعل فيه شيئاً من العوج لا في ألفاظه ولا في معانيه، وليس فيه أي عيب أو تناقض ﴿قَيِّمٗا﴾ أي مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تناقض قال «الطبري»: هذا من المُقدَّم والمؤخر أي أنزل الكتاب قيّماً ولم يجعل له عِوَجاً يعني مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تفاوت، ولا اعوجاج ولا ميل عن الحق[٢] ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ أي لينذر بهذا القرآن الكافرين عذاباً شديداً من عنده تعالى ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ويبشّر المصدقين بالقرآن[٣] الذين يعملون الأعمال الصالحة ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾ أي أن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ أي ويخوّف أولئك الكافرين الذين نسبوا لله الولد عذابه الأليم قال «البيضاوي»: خصَّهم بالذكر وكرَّر الإنذار استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المُنْذَر به استغناءً بتقدم ذكره[٤] ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾ أي ما لهم بذلك الافتراء الشنيع شيءٌ من العلم أصلاً ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ أي ولا لأسلافهم الذين

---

(١) (ش): (الْقَنَا) الرِّمَاح. القناة:رُمْحٌ أجْوَفُ. اللَّبان: الصَّدْر. أي: فمال فرَسِي بسبب ما أصابتْ رماحُ الأعداء صدرَه ووقوعها به.

(٢) «تفسير الطبري» ١٥/ ١٩٠.

(٣) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصرٌ ومخالفٌ لما عليه أهلُ السُّنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٤) «البيضاوي» ٢/ ٢. (ش): وهُو البأسُ الشديدُ في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾.

قلَّدوهم فتاهُوا جميعـاً في بَيْداء الجهالة والضلالة[١] ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي عظُمَتْ تلك المقالة الشنيعة كلمَةً قبيحة ما أشنعها وأفظعها! خرجت من أفواه أولئك المجرمين، وهي في غاية الفساد والبطلان ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي يقولون إلا كذباً وسفهـاً وزوراً ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي فلعلك قاتلٌ نفسك يا محمد ومهلكها غمًّا وحزنـاً على فراقهم وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن حسرةً وأسفـاً عليهم، فما يستحق هؤلاء أن تحزن وتأسف عليهم، والآية تسليةٌ للنبي عليه السلام ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ أي جعلنا ما عليها من زخارف ورياش[٢] ومتاع وذهب وفضة وغيرها زينة للأرض كما زينا السماء بالكواكب ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لنختبر الخلق أيهم أطوع لله وأحسن عملاً لآخرته ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي سنجعل ما عليها من الزينة والنعيم حطامـاً وركامـاً حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة بعد أن كانت خضراء بَهِجَة[٣] قال «القرطبي»: الآية وردت لتسلية النبي ﷺ والمعنى: لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحانـاً واختباراً لأهلها، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم، فلا يعظُمَنَّ عليك كُفْرُهم فإنا سنجازيهم[٤] ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ؟ بَـدْءُ قصة أصحاب الكهف، والكهفُ الغار المتسع من الجبل، والرقيمُ اللوحُ الذي كُتب فيه أسماء أصحاب الكهف على المشهور. والمعنى: لا تظننَّ يا محمد أن قصة أهل الكهف - على غرابتها - هي أعجبُ آيات الله، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف قال مجاهد: أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا؟ قد كان في آياتنا أعجب[٥] منهم ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾[٦] أي اذكر حين التجأ الشبان إلى الغار في الجبل

(١) (ش): بَيْداءُ: فلاةٌ، صحراء.
(٢) (ش): رِياشٌ: لِباسٌ أو أثاثٌ فاخر.
(٣) (ش): بَهِجَ النَّباتُ: حسُن ونَضُر، فهو بهيج وبَهِجٌ.
(٤) «القرطبي» ١٠/ ٣٥٤.
(٥) «زاد المسير» ٥/ ١٠٨.
(٦) خلاصة قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون أن ملكًا جبارًا يسمى دقيانوس ظهر على بلدة من بلاد الروم تدعى «طرطوس» بعد زمن عيسى عليه السلام، وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزنًا شديدًا وبلغ خبرهم الملك الجبار فبعث في طلبهم فلما مثلوا عند الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ فقال لهم: إنكم فتيان حديثة أسنانكم وقد أخرتكم إلى الغد لتروا رأيكم فهربوا ليلًا ومروا براع معه كلب =

وجعلوه مأواهم ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة مغفرة ورزقاً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي أصلح لنا أمرنا كلَّه واجعلنا من الراشدين المهتدين ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي ألقينا عليهم النوم في الغار سنين عديدة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ أي ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل لنرى أيُّ الفريقين أدقُّ إحصاءً للمدة التي ناموها في الكهف؟ قال في «التسهيل»: والمراد بالحزبين: أصحابُ الكهف، والذين بعثهم الله إليهم حتى رأوهم[١] وقال مجاهد: الحزبان من أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا في المدة التي لبثوها في الكهف فقال بعضهم: يوماً أو بعض يوم وقال آخرون: ربكم أعلم بما لبثتم[٢]، والقول الأول مروي عن ابن عباس ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي نحن نقص عليك يا محمد خبرهم العجيب على وجه الصدق دون زيادةٍ ولا نقصان ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي إنهم جماعة من الشبان آمنوا بالله فثبتناهم على الدين وزدناهم يقيناً ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قوينا عزمهم وألهمناهم الصبر حتى أصبحت قلوبهم ثابتة راسخة، مطمئنة إلى الحق معتزة بالإيمان ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي حين قاموا بين يدي الملك الكافر الجبار من غير مبالاة فقالوا: ربنا هو خالق السماوات والأرض لا ما تدعونا إليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أي لن

= فتبعهم فلما كان الصباح أووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم فقال الملك: سدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعًا وعطشًا، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين وهم لا يدرون ثلاثمائة وتسع سنين ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يومًا أو بعض يوم، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعامًا وطلبوا منه التخفي والحذر فسار حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت ولم يعرف أحدًا من أهلها فقال في نفسه: لعلى أخطأت الطريق إلى البلدة ثم اشترى طعامًا ولما دفع النقود للبائع جعل يقلبها في يده ويقول: من أين حصلت على هذه النقود؟ اجتمع الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون، ثم قالوا من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزًا؟ فقال: لا والله ما وجدت كنزًا إنها دراهم قومي، قالوا له إنها من عهد بعيد ومن زمن الملك دقيانوس، قال: وما فعل دقيانوس؟ قالوا: مات من قرون عديدة، قال والله ما يصدقني أحد بما أقوله: لقد كنا فتية وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف فأرسلنى أصحابي اليوم لأشتري لهم طعامًا، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي، فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك، وكان مؤمنًا صالحًا، فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة وحين وصلوا إلى الغار سمعوا الأصوات وجلبة الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرآهم يصلون فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد وسمع كلامهم وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم فقال الناس: لنتخذن عليهم مسجدًا.

(١) «التسهيل» ٢/ ١٨٣.

(٢) «حاشية الجمل على الجلالين» ٣/ ٧.

نشرك معه غيره فهو واحد بلا شريك ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي لئن عبدنا غيره نكون قد تجاوزنا الحقَّ، وحدْنا عن الصواب[١]، وأفرطنا في الظلم والضلال ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي هؤلاء أهل بلدنا عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي هلّا يأتون على عبادتهم لها ببرهان ظاهر، والغرض من التحضيض ﴿لَّوْلَا﴾ التعجيز كأنهم قالوا: إنهم لا يستطيعون أن يأتوا بحجة ظاهرة على عبادتهم للأصنام فهم إذاً كَذَبَة على الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك إليه تعالى ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي وإذ اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان غير الله تعالى ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي التجئوا إلى الكهف ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي يبسط ربكم ويوسّعْ عليكم رحمته ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي يُسهّل عليكم أسباب الرزق وما ترتفقون به[٢] من غداء وعشاء في هذا الغار ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي وإذا غربت تقطعهم وتُبعد عنهم جهة الشمال والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها كرامةً لهم من الله لئلا تؤذيهم بحرها ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي في متّسع من الكهف وفي وسطه بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار، ولا في آخره ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الصنيع من دلائل قدرة الله الباهرة قال ابن عباس: لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا يُقلَّبون لأكلتهم الأرض[٣] ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي من يُوفقه الله للإيمان ويرشده إلى طريق السعادة فهو المهتدي حقًّا ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي ومن يضلله الله بسوء عمله فلن تجد له من يهديه ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي لو رأيتهم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لتفتح عيونهم وتقلبهم والحال أنهم نيام ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي ونقلبهم من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض أجسامهم ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ أي وكلبهم الذي تبعهم باسطٌ يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت منهم هارباً رعباً منهم، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، فرؤيتهم تثير

(١) (ش): حاد عن الشَّيء/ حاد من الشَّيء: مالَ وعدَل وجنَحَ عنه.
(٢) (ش): ارتفقَ بالشَّيء: انتفعَ واستعانَ به.
(٣) «تفسير الطبري» ١٥/ ٢١١.

الرعب إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقاظ، يتقلبون ولا يستيقظون ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ﴾ أي كما أنمناهم كذلك بعثناهم من لنوم وأيقظناهم بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أي قال أحدهم: كم مكثنا في هذا الكهف؟ فقالوا مكثنا فيه يوماً أو بعض يوم قال المفسرون: إنهم دخلوا في الكهف صباحاً وبعثهم الله في آخر النهار فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد غربت فقالوا لبثنا يوماً، ثم رأوها لم تغرب فقالوا أو بعض يوم، وما دروا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أي قال بعضهم، الله أعلم بمدة إقامتنا ولا طائل وراء البحث عنها فخذوا بما هو أهم وأنفع لكم فنحن الآن جياع ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي فأَرْسِلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ أي فلْيَخْتَرْ لنا أحلَّ وأطيب الطعام فليشتر لنا منه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي وليتلطف في دخول المدينة وشراء الطعام حتى لا يشعر بأمرنا أحد ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ أي إن يظفروا يقتلوكم بالحجارة أو يردوكم إلى دينهم الباطل ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ أي وإن عدتم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخيرٍ أبداً، وهكذا يتناجى الفتية فيما بينهم خائفين حذرين أن يظهر عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان فيوصون صاحبهم بالتلطف بالدخول والخروج وأخذ الحيطة والحذر ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ أي وكما بعثناهم من نومهم كذلك أطْلَعْنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا شك فيها، فتكون قصة أصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور فإن القادر على بعث أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة عام قادر على بعث الخلق بعد مماتهم ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أي حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن أطلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ﴾ أي قال بعض الناس: ابنوا على باب كهفهم بنياناً ليكون علَماً عليهم ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ أي قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة: لنتخذنَّ على باب الكهف مسجداً نصلي فيه ونعبد الله فيه[1] ﴿ سَيَقُولُونَ

(١) (ش): تشييد المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وآثارهم مما جاءت الشريعة الإسلامية الكاملة بالمنع منه والتحذير عنه، ولَعْنِ من فعله؛ لكونه من وسائل الشرك والغلو في الأنبياء والصالحين، والواقع شاهدٌ بصحة ما جاءت به الشريعة، ودليل على أنها من عند الله عز وجل، وبرهان ساطع وحجة قاطعة على صِدق =

ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ أي سيقول هؤلاء القوم الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب هم ثلاثة رجال يتبعهم كلبهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي ويقول البعض: إنهم خمسةٌ سادسهم الكلب قذفًا بالظنِّ من غير يقين ولا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعةٌ والثامن هو الكلب ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي الله أعلم بحقيقة عددهم ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ أي لا يعلم عدتهم إلا قليل من الناس قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعةً إن الله عدَّهم حتى انتهى إلى السبعة[1] قال المفسرون: إن الله تعالى لما ذكر القول الأول والثاني أردفه بقوله ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء فكأنه أقر قائله ثم نبَّه رسوله إلى الأفضل والأكمل وهو ردُّ العلم إلى علام الغيوب

= رسول الله ﷺ فيما جاء به عن الله وبلَّغه الأمة، وكلُّ مَن تأمل أحوال العالم الإسلامي وما حصل فيه من الشرك والغلو بسبب بناء المساجد على الأضرحة وتعظيمها وفرشها وتجميلها واتخاذ السدنة لها عَلِمَ يقينا أنها من وسائل الشرك، وأن من محاسن الشريعة الإسلامية المنع منها والتحذير من إشادتها. ومما ورد في ذلك ما رواه الشيخان البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِى لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». قَالَتْ عائشة: يُحَذِّرُ مِثْلَ مَا صَنَعُوا. قَالَتْ: فَلَوْلاَ ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. وفي الصحيحين أيضا أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وقَالَ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: «أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّى أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وقد نَصَّ الأئمة من علماء المسلمين من جميع المذاهب، الأربعة وغيرهم، على النهي عن اتخاذ المساجد على القبور وحذروا من ذلك، عملًا بسنة الرسول ﷺ، ونُصحًا للأمة وتحذيرًا لها أن تقع فيما وقع فيه من قبلها من غلاة اليهود والنصارى وأشباههم من ضلال هذه الأمة. وقد تعلق بعض الناس في هذا الباب بقوله عز وجل في قصة أهل الكهف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ الكهف/ ٢١. والجواب عن ذلك أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى أخبر عن الرؤساء وأهل السيطرة في ذلك الزمان أنهم قالوا هذه المقالة، وليس ذلك على سبيل الرضا والتقرير لهم وإنما هو على سبيل الذم والعيب والتنفير من صَنيعهم، ويدل على ذلك أن الرسول ﷺ الذي أُنزلَت عليه هذه الآية وهو أعلم الناس بتأويلها قد نهى أمَّتَه عن اتخاذ المساجد على القبور، وحذَّرهم من ذلك ولَعَن وذَمَّ مَن فَعَله. ولو كان ذلك جائزًا لما شدّد رسول الله ﷺ في ذلك التشديد العظيم وبالغ في ذلك حتى لَعَن من فعله، وأخبر أنه من شرار الخلق عند الله عز وجل، وهذا فيه كفاية ومقنع لطالب الحق. ولو فرضنا أن اتخاذ المساجد على القبور جائز لمن قبلنا لم يجُز لنا التأسي بهم في ذلك؛ لأن شريعتنا ناسخةٌ للشرائع قبلها ورسولنا عليه الصلاة والسلام هو خاتم الرسل وشريعته كاملة عامة وقد نهانا عن اتخاذ المساجد على القبور، فلم تجُز لنا مخالفته، ووجب علينا اتباعه والتمسك بما جاء به وترْك ما خالف ذلك من الشرائع القديمة، والعادات المستحسَنة عند من فعلها؛ لأنه لا أكمَلَ من شرع الله ولا هديَ أحسن من هدي رسول الله ﷺ.

(١) «زاد المسير» ٥/ ١٢٦.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب في عدتهم إلا جدال متيقنٍ عالم بحقيقة الخبر ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لا تسأل أحداً عن قصتهم فإنَّ فيما أوحي إليك الكفاية ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لا تقولنَّ لأمر عزمت عليه إني سأفعله غداً إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت إن شاء الله قال ابن كثير: سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال: (غداً أجيبكم) فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً[1] ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ إي إذا نسيت أن تقول: إن شاء الله ثم تذكَّرْتَ فقُلْها لتبقَى نفسُك مستشعرةً عظمة الله ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي لعلَّ الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر ديني ودنياي ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ أي مكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة وتسع سنين، وهذا بيانٌ لما أُجمل في قوله تعالى ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي الله أعلم بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى المختص بعلم الغيب وقد أخبرك بالخبر القاطع عن أمرهم الحكيمُ الخبير ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي ما أبصره بكل موجود، وما أسمعه لكل مسموع، يدرك الخفيات كما يدرك الجليات ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ أي ليس للخلق ناصرٌ ولا معين غيره تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي ليس له شريك ولا مثيل ولا نظير، ولا يقبل في قضائه وحكمه أحداً لأنه الغنيّ عما سواه.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿وَيُبَشِّرَ .. وَيُنذِرَ﴾ وبين ﴿يَهْدِ .. يُضْلِلْ﴾ وبين ﴿أَيْقَاظًا. رُقُودٌ﴾ وبين ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ .. وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

٢ - الطباق المعنوي بين ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ .. ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ لأن معنى الأول أنمناهم والثاني أيقظناهم.

٣ - الجناس الناقص بين ﴿قَامُوا۟ .. وَقَالُوا۟﴾.

٤ - الإطناب بذكر الخاص بعد العام ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ لشناعة دعوى الولد لله، وفيه من بديع الحذف وجليل الفصاحة حذف المفعول الأول أي لينذر الكافرين بأساً شديداً، ثم ذكر المفعول الأول وحذف الثاني في قوله ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ عذاباً شديداً فحذف العذاب لدلالة الأول عليه وحذف من الأول المنذرين لدلالة الثاني عليه، وهذا من ألطف الفصاحة.

٥ - صيغة التعجب ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾.

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٤١٥. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره».

٦ – الاستعارة التمثيلية ﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ شبَّه حاله عليه السلام مع المشركين بحال من فارقته الأحباب فهمَّ بقتل نفسه أو كاد يهلك نفسه حزناً ووجداً عليهم.

٧ – الاستعارة التبعية ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ شبّهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان كما تضرب الخيمة على السكان وكذلك يوجد استعارة في ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ لأن الربط هو الشد والمراد شددنا على قلوبهم كما نشد الأوعية بالأوكية.

قال الله تعالى:

وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾
وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ
تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ
ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ
وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا
عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ
أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا
خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾
وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ
وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي
خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾
وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾
فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾
أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا
وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا
كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا
﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ
صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى

ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ
أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟
إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ
بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ
ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة أهل الكهف وهي تُمثل صور التضحية والبطولة في سبيل العقيدة والإيمان، أعقبها بذكر قصة صاحب الجنتين وهي نموذج آخر للعقيدة ممثلة في قصة الآخوين من بني إسرائيل: المؤمن المغتز بإيمانه، والكافر وهو صاحب الجنتين، وما فيها من عبر وعظات، وفي ثنايا الآيات جاءت بعض التوجيهات القرآنية الكريمة.

اللغَة: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ وأصله من لحد إذا مال، ومن لجأت إليه فقد ملتَ إليه هكذا قال أهل اللغة ﴿فُرُطًا﴾ مجاوزاً للحد من قولهم: فرسٌ فُرُط إذا كان متقدمًا للخيل، قال الليث: الفُرُط: الأمر الذي يُفَرَّط فيه، قال الشاعر:

لَقَدْ كَلَّفْتَنِي شَطَطَا ... وَأَمْرًا خَائِبًا فُرُطَا[1]

﴿سُرَادِقُهَا﴾ السُّرادق: السور والحائط ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ كل ما أذيب من المعادن قال أبو عبيدة: كل شيءٍ أذبته من ذهب أو نحاسٍ أو فضة فهو المُهل ﴿سُندُسٍ﴾ السندس: الرقيق من الحرير ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الاستبرق: الغليظ من الحرير وهو الديباج قال الشاعر:

تَرَاهُنَّ يَلْبَسْنَ الْمَشَاعِرَ مَرَّةً ... وَإِسْتَبْرَقُ الدِّيبَاجِ طَوْرًا لِبَاسُهَا[2]

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة وهي السرير المزيَّن بالثياب والستور كسرير العروس ﴿حُسْبَانًا﴾ جمع حسبانة وهي الصاعقة ﴿هَشِيمًا﴾ الهشيم: اليابس المتكسر من النبات ﴿نُغَادِرْ﴾ نترك.

سَببُ النّزول: روى أن أشراف قريش اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقالوا له: إن أردت أن نؤمن بك فاطر وهؤلاء الفقراء من عندك يعنون «بلالاً، وخباباً، وصهيباً» وغيرهم فإنا نأنَفُ[3] أن نجتمع بهم، وتعيِّن لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك فأنزل الله ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ...﴾[4] الآية.

---

(١) «التفسير الكبير» ٢١/ ١١٨. (ش): الشطط: الجَوْر والغُلو وتعَدِّي الحَدِّ.

(٢) (ش): المشاعر: جمع مَشْعَر، وهو الشعار، أي ما يلي جسد الإنسان من الثياب.

(٣) (ش): أنِفَ من النَّاس: استكبَر.

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٩٤. (ش): رواه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره» وإسناده ضعيف. وعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَالَ جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ =

التفسير: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي إقرأ يا محمد ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يغيّر أو يبدّل كلام الله[1] ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي لن تجد ملجأ غير الله تعالى أبداً ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ أي احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والماء ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف قال المفسرون: كان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط، فأمِر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يُعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر قال ابن عباس: لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة[2] ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي لا تطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله، وقد شغلوا عن الدين وعبادةِ ربهم بالدنيا قال المفسرون: نزلت في عُيَيْنة بن حصن وأصحابه أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم «سلمان الفارسي» وعليه شملة صوف قد عرق فيها فقال عيينة للنبي ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ ونحن سادةُ مضر وأشرافها إن أسلمنا يسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحِّهمْ عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما

= وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فَوَجَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ وَبِلَالٍ وَعَمَّارٍ وَخَبَّابٍ، قَاعِدًا فِى نَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِىِّ ﷺ حقرُوهُمْ فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ وَقَالُوا: إنا نريدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الأَعْبُدِ فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ. قَالَ «نَعَمْ». قَالُوا فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا. قَالَ فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ وَنَحْنُ قُعُودٌ فِى نَاحِيَةٍ فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ فَقَالَ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾. ثُمَّ قَالَ ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾. قَالَ: فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْلِسُ مَعَنَا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ قَامَ وَتَرَكَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ وَلَا تُجَالِسِ الأَشْرَافَ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ - يَعْنِى عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعَ - ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ - قَالَ: هَلَاكًا - قَالَ أَمْرُ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ. ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. قَالَ خَبَّابٌ: فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِىِّ ﷺ فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِى يَقُومُ فِيهَا قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ.

[رواه ابن ماجه، وصححه الألباني].

(١) «التفسير الكبير» ٢١/ ١١٥.

(٢) «المختصر» ٢/ ٤١٦.

طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال «الحمد لله الذي جعل أُمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم»(١) ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي سار مع هواه وترك أمر الله ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أي كان أمره ضياعاً وهلاكاً ودماراً ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ ظاهره أمرٌ وحقيقته وعيدٌ وإنذار أي قل يا محمد لهؤلاء الغافلين: لقد ظهر الحق وبان بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا كقوله ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ أي هيأنا للكافرين بالله ورسوله ناراً حاميةً شديدة أحاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمِعصَم(٢) ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ أي وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أُغيثوا بماءٍ شديد الحرارة كالنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمى يشوي وجوههم إذا قَرُب منهم من شدة حره وفي الحديث «مَاءٌ كَعَكَرِ الزَّيْتِ، فَإِذَا قَـرُبَ إِلَيْهِ، سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ»(٣) أي سقطت جلدةُ وجهه فيه أعاذنا الله من جهنم ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ أي بئس ذلك الشراب الذي يُغاثون به وساءت جهنم منزلاً ومقيلاً يرتفق به أهل النار(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ لما ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر حال السعداء، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، أي إنا لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه بل نَزيدُه ونُنَمِّيه ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أي لهم جنات إقامة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ أي يُحلَّون في الجنة بأساوِر الذهب قال المفسرون: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور: سوارٌ من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ، لأن الله تعالى قال ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١]

---

(١) (ش): عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ،قَالَ:» نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ -،وَهُوَ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِهِ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف:٢٨]،خَرَجَ يَلْتَمِسُهُمْ،فَوَجَدَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْهُمْ ثَائِرُ الرَّأْسِ،وَجَافُّ الْجِلْدِ،وَذُو الثَّوْبِ الْوَاحِدِ،فَلَمَّا رَآهُمْ جَلَسَ مَعَهُمْ،فَقَالَ:» الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ « (رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» والطَّبَرَانِيُّ، وقال الهيثمي: «وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ»، وعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ذَكَرَهُ الطَّبَرَانِيُّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ فِي الصَّحَابَةِ. وذكره الصغاني فيمن في صُحبَته نظر، وقال ابن الأثير: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ الْأَنْصَارِيُّ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ فِي الصَّحَابَةِ، وَلَا يَصِحُّ». (ثائر الرأس): قائم شعره منتفش منتشر.

(٢) (ش): السُّوار؛ حِلية مستديرة كالحلقة تُلبَس حولَ المِعْصَم، وهو موضع السِّوار من اليد.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي. (ش): رواه الترمذي، وضعفه الألباني. (كَعَكَرِ الزَّيْتِ): الدَّنَسُ والدرن الذي تحت الزيت. (قَرُبَ): من التقريب. «فيه»، أي: في العَكَر.

(٤) (ش): (المَقيل): موضع القيلولة، مكان الراحة والتمتع وقت القيلولة، وهي الاستراحة نصف النهار، (ارتفقَ بالشَّيء): انتفعَ واستعانَ به.

وقال ﴿وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣] وفي الحديث « تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ»[١] ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي وهم رافلون في ألوانٍ من الحرير، برقيق الحرير وهو السندس، وبغليظه وهو الإستبرق[٢] قال «الطبري»: معنى الآية أنهم يلبسون من الحلي أساور من ذهب، ويلبسون من الثياب السندس وهو ما رقَّ من الديباج، والإستبرق وهو ما غلظ فيه وثَخُن[٣] ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي متكئين في الجنة على السُّرُر الذهبية المزيَّنة والستور قال ابن عباس: الآرائك الأَسِرَّة من ذهب وهي مُكَلَّلَة بالدُّر والياقوت عليها الحجال، الأريكةُ ما بين صنعاء إلى أيلة، وما بين عدن إلى الجابية[٤] ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي نعم ذلك جزاء المتقين، وحسنت الجنة منزلًا ومقيلاً لهم ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ أي اضرب لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء هذا المثل قال المفسرون: هما أخوان من بني إسرائيل، أحدهما مؤمن، والآخر كافر، وَرِثَا مالاً عن أبيهما فاشترى الكافر بماله حديقتين، وأنفق المؤمن ماله في مرضاة الله حتى نفد ماله فعيَّره الكافر بفقره، فأهلك الله مال الكافر، وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله، والكافر الذي أبطَرَتْه النعمة ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي جعلنا لأحدهما - وهو الكافر - بستانينِ من شجر العنب، مُثمِرَيْن بأنواع العنب اللذيذ ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي أحطناهما بسياجٍ من شجر النخيل ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي جعلنا وسط هذين البستانين زرعًا ويتفجر بينهما نهر، وإنه لمنظرٌ بهيجٌ يصوره القرآن أروع تصوير، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكَرْم[٥]، المحفوفتين بأشجار النخيل، تتوسطهما الزروع وتتفجر بينهما الأنهار ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي كلُّ واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها يانعًا في غاية الجودة والطيب ولم تنقص منه شيئًا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي جعلنا النهر يسير وسط الحديقتين ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي وكان للأخ الكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والثمار ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وهذا الحديث يدل على فضيلة الوضوء حيث تكون مواضعه يوم القيامة يُحَلَّى بها الإنسان في الجنة حيث يلبس الرجال والنساء حلْيَةً من ذهب وفضة ولؤلؤ، فتبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء، فكل الذراع يكون حلية مملوءًا حلية من ذهب وفضة ولؤلؤ.

(٢) (ش): رفَل الشَّخصُ في ثيابه/ رفَل الشَّخصُ في مشيه: جرَّ ثَوْبَه وتبختر في مشيه. رفَل الشَّخصُ في النِّعمة: تنعَّم وعاش مُترفًا.

(٣) «تفسير الطبري» ١٥/ ١٤٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٣٩٨. (ش): (الحَجَلَةُ): سَاتِر كالقُبَّة يُزَيَّنُ بالثياب والسُّتورِ للعَروس، وَستر يضْرب للعروس فِي جَوف الْبَيْت. (أَيْلَةُ): تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِاسْمِ «الْعَقَبَةِ» مِينَاءٌ بالْأُرْدُنّ. (الْجَابِيَةُ): قَرِيبَةٌ مِن الْجَوْلَانِ. وَ(بَابُ الْجَابِيَةِ): بِدِمَشْقَ.

(٥) (ش): الكَرْم: العِنَب.

مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهو يجادله ويخاصمه ويفتخرعليه ويتعالى: أنا أغنى منك وأشرف، وأكثر أنصاراً وخدماً ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار وهو ظالم لنفسه بالعُجب والكفر ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ أي ما أعتقد أن تفنى هذه الحديقة أبداً ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة، أنكر فناء جنته وأنكر البعث والنشور ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا ﴾ أي ولئن كان هناك بعثٌ - على سبيل الفرض والتقدير كما تزعمُ - فسوف يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل ﴿مُنقَلَبًا ﴾ أي مرجعاً وعاقبة فكما أعطاني هذا في الدنيا فسيعطيني في الآخرة لكرامتي عليه ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أي قال ذلك المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويجادله ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ أي أجحدت الله الذي خلق أصلك من تراب ثم مِن مَنِيٍّ ثم سوَّاك إنساناً سويًّا؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أي لكنْ أنا أعترف بوجود الله فهو ربي وخالقي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أي لا أشرك مع الله غيره، فهو المعبودُ وحده لا شريك له ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي فهلَّا حين دخلتَ حديقتك وأُعجبت بما فيها من الأشجار والثمار قلت: هذا من فضل الله، فما شاء الله كان وما لم يشأْ لم يكن ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ أي لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ أي قال المؤمن للكافر: إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعتزعليَّ بكثرة مالك وأولادك ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ جواب الشرط أي إني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني جنةً خيراً من جنتك لإيماني به، ويسلب عنك نعمته لِكُفرك به ويخرّب بستانك ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي يرسل عليها آفةً تجتاحها أو صواعق من السماء تدمّرها ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي تصبح الحديقة أرضاً ملساء لا تثبت عليها قدم، جرداء لا نبات فيها ولا شجر ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ أي يغور ماؤها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر، وحينئذٍ لا تستطيع طلبه فضلاً عن إعادته وردّه، وينتهي الحوار هنا وتكون المفاجأة المدهشة فيتحقَّق رجاءُ المؤمن بزوال النعيم عن الكافر وفجأة ينقلنا السياق من مشهد البهجة والازدهار إلى مشهد البوار والدمار ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ أي هلكت جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ أي يقلب كفيه ظهراً لبطن أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب قال «القرطبي»: أي يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً لأن هذا يصدر من النادم ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾

أي مهشـمة محطمة قد سقطت السـقوف على الجدران فأصبحت خرابـًا يبابـًا[(١)] ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ أي وهو نادم على إشراكه بالله يتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة، ندم حيـن لا ينفع النـدم قال تعالى ﴿ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي لم تكن له جماعة تنصـره وتدفـع عنه الهـلاك ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ أي ومـا كان بنفسـه ممتنعـًا عـن انتقام الله سـبحانه، فلم تنفعه العشـيرة والولد حين اعتزّ وافتخر بهم وما اسـتطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب ﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال تكون النصرة لله وحده لا يقـدر عليها أحد فهو الوليُّ الحق الـذي ينصر أولياءه ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴾ أي الله خير ثوابـًا في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وهو خيرٌ عاقبةً لمن اعتمد عليه ورجاه ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ هـذا مثـلٌ آخـر للدنيـا وبَهرَجها الخادع يشـبه مثـل الجنتين في الفناء والزوال. والمعنـى اضرب يا محمد للناس مثـل هـذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها بماءٍ نزل من السـماء فخـرج به النبات وافيـًا غزيـراً وخالط بعضه بعضـًا من كثرته وتكاثفه ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ أي صار النبات متكسـراً من اليُبْس[(٢)] متفتتـًا تنسـفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ أي قـادراً علـى الإفنـاء والإحيـاء لا يُعجِـزه شـيء في الأرض ولا في السـماء ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي الأموال والأولاد زينة هذه الحياة الفانية، ذاك مثلها وهذه زينتها والكل إلى فناء وزوال لا يغتر بها إلا الأحمق الجهُول[(٣)] ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ أي أعمـال الخيـر تبقـى ثمرتها أبد الآباد فهـي خير ما يؤملها الإنسان ويرجوه عند الله قال ابن عباس: الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس وعنه أيضـًا أنها كل عمل صالـح من قول أو فعل يبقـى للآخرة[(٤)] وفي الحديث: «سُـبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْـدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، هُـنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»[(٥)] ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ ﴾ لما ذكر الدنيا ومآلها ذكر القيامة وأهوالها أي واذكر يوم نزيل الجبال من أماكنها ونسيّرها كما نسـيّر السـحاب فنجعلها هبـاءً منبثـًا ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ ﴾ أي وتـرى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسـترها من جبل ولا شـجر ولا بنيان، قد قلعت جبالها وهُدم بنيانها

---

(١) (ش): يَباب: صحراء. خراب، خالٍ من أيِّ شيء.

(٢) (ش): يبِسَ الشَّيءُ، يُبْسًا ويُبوسةً: جَفَّ بعد رُطوبة.

(٣) جَهولٌ: صيغة مبالغة من جهِلَ، جهِل الشَّخْصُ: جفا وتسافَه وحمُق وأظهر الطيش.

(٤) هذا ما رجحه «الطبري»، قال «الطبري»: وهو الصحيح إن شاء الله.

(٥) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«خُذُوا جُنَّتَكُمْ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ: مِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: «لَا، جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فإنهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدِّمَاتٍ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» [رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الألباني].

فهي بارزة ظاهرة ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي جمعنا الأولين والآخرين لموقف الحساب فلم نترك أحداً منهم ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي عُرضوا على رب العالمين مصطفّين، لا يحجبُ أحدٌ أحداً وفي الحديث «يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ صفوفًا»[1] قال مقاتل: يُعرضون صفا بعد صف كالصفوف في الصلاة كل أمةٍ وزمرةٍ صفا[2] ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي يقال للكفار على وجه التوبيخ والتقريع: لقد جئتمونا حفاةً عراةً لا شيء معكم من المال والولد كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي زعمتم أن لا بعث ولا جزاء، ولا حساب ولا عقاب ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي وضعت صحائف أعمال البشر وعُرضت عليهم ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي فترى المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ أي يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها؟ قال تعالى ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ أي مكتوباً مثبتاً في الكتاب ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي يعاقب إنساناً بغير جرم، ولا يُنقص من ثواب المحسن ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي لا اذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي سجد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه، والآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة[3] ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أي أفتتخذونه يا بني آدم هو وأولاده الشياطين أولياء من دون الله وهم لكم أعداء ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بئست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما أشهدت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني خلق السماوات والأرض ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي وما كنت متخذ الشياطين أعواناً في الخلق فكيف تطيعونهم من دوني؟ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾

---

(١) (ش): قال ﷺ: «يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «يَصُفُّ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفُوفًا، فَيَمُرُّ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَى الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ اسْتَسْقَيْتَ فَسَقَيْتُكَ شَرْبَةً: قَالَ فَيَشْفَعُ لَهُ. وَيَمُرُّ الرَّجُلُ فَيَقُولُ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ نَاوَلْتُكَ طَهُورًا فَيَشْفَعُ لَهُ، وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَعَثْتَنِي فِي حَاجَةِ كَذَا وَكَذَا فَذَهَبْتُ لَكَ فَيَشْفَعُ لَهُ». [رواه ابن ماجه، وضعفه الألباني].

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٤١٧.

(٣) انظر التحقيق الذي ذكرناه في كتابنا «النبوة والأنبياء» على أن إبليس لم يكن من الملائكة ص ١٢٨.

أي ويوم يقول الله للمشركين: أدعوا شركائي ليمنعوكم من عذابي ويشفعوا لكم كما كنتم تزعمون ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي جعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكةً لا يجتازها هؤلاء وهي النار ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي عاينوها وهي تتغيظ حنقاً عليهم فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي لم يجدوا عنها معدلاً وذلك لأنها أحاطت بهم من كل جانب فلم يقدروا على الهرب منها.

البَلاَغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ .. وَٱلْعَشِيِّ﴾ وبين ﴿فَلْيُؤْمِن .. فَلْيَكْفُرْ﴾.

٢ - المقابلة البديعة بين الجنة ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ والنار ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

٣ - التشبيه ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ ويسمى مرسلاً مفصلاً لذكر الأداة ووجه الشبه.

٤ - التشبيه التمثيلي ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد التشبيه التمثيلي في ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ﴾.

٥ - المبالغة بإطلاق المصدر على اسم الفاعل ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً.

٦ - الكناية ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ كناية عن التحسر والندم لأن النادم يضرب بيمينه على شماله.

٧ - الإنكار والتعجيب ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ؟

تنبيه: الجمهور على أن الباقيات الصالحات هن الكلمات المأثور فضلها: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» وقد ورد بذلك حديث تقدم ذكره[1].

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«خُذُوا جُنَّتَكُمْ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ: مِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: «لَا، جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدَّمَاتٍ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» [رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الألباني]. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ». قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْمِلَّةُ»، قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْمِلَّةُ»، قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «التَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» [رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ، وحسنه الأرنؤوط]. ورواه ابن حبان، وضعفه الألباني. وقال الألباني: «لكن صح بدون [اسْتَكْثِرُوا]»، وأشار إلى «الصحيحة» (٣٢٦٤). [التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢/ ٢١٧)]. (المِلة): لغةً: ما شرع الله لعباده على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتستعمل في جملة الشرائع لا في آحادها، فالمراد هاهنا المبالغة بأن هذه الكلمات كأنها تمام الدين، أو المراد: كلمات الملة أو أذكارها، على تقدير المضاف، بمعنى أنها أذكار لها اختصاص =

وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ» رواه الترمذي(١).

قال الله تعالى:

وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا
مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ
ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ
لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا
وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ
فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ
بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا
لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ
أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا
قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي
نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا
نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن
لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ
صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ
أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا
فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ
مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا

= بالدين لا يعرفها إلا أصحاب الدين، ولا يخفى أن من رسخت معرفة هذه الكلمات في قلبه على وجهها فهو في الدين من الراسخين.

(١) (ش): رواه الترمذي، وحسّنه الألباني. (أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ) أَيْ بَلِّغْهُمْ مِنِّي السَّلَامَ. (طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ) هِيَ التُّرَابُ فَإِنَّ تُرَابَهَا الْمِسْكُ وَالزَّعْفَرَانُ وَلَا أَطْيَبَ مِنْهُمَا (عَذْبَةُ الْمَاءِ) أَيْ مَاؤُهَا طَيِّبٌ لَا مُلُوحَةَ فِيهِ. (وَأَنَّهَا) أَيْ الْجَنَّةَ (قِيعَانٌ) جَمْعُ قَاعٍ وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَةُ الْخَالِيَةُ مِنْ الشَّجَرِ، (غِرَاسَهَا) جَمْعُ غَرْسٍ بِالْفَتْحِ وَهُوَ مَا يُغْرَسُ أَيْ يَسْتُرُهُ تُرَابُ الْأَرْضِ مِنْ نَحْوِ الْبَذْرِ لِيَنْبُتَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ التُّرْبَةُ طَيِّبَةً وَمَاؤُهَا عَذْبًا كَانَ الْغِرَاسُ أَطْيَبَ لَا سِيَّمَا وَالْغَرْسُ الْكَلِمَاتُ الطَّيِّبَاتُ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَالْمَعْنَى أَعْلِمْهُمْ بِأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَنَحْوَهَا سَبَبٌ لِدُخُولِ قَائِلِهَا الْجَنَّةَ وَلِكَثْرَةِ أَشْجَارِ مَنْزِلِهِ فِيهَا لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَرَّرَهَا نَبَتَ لَهُ أَشْجَارٌ بِعَدَدِهَا. وَمَعْنَى كَوْنِهَا قِيعَانًا أَنَّ أَكْثَرَهَا مَغْرُوسٌ وَمَا عَدَاهُ مِنْهَا أَمْكِنَةٌ وَاسِعَةٌ بِلَا غَرْسٍ لِيَنْغَرِسَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ وَيَتَمَيَّزَ غَرْسُهَا الْأَصْلِيُّ الَّذِي بِلَا سَبَبٍ وَغَرْسُهَا الْمُسَبَّبُ عَنْ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ.

فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

المناسَبَة: لما ضرب تعالى المثل في قصة صاحب الجنتين، وضرب المثل للحياة الدنيا وما فيها من نعيم خادع ومتاع زائل، نبَّه تعالى إلى الغاية من ذكر هذه الأمثال وهي «العظةُ والاعتبار» ثم ذكر القصة الثالثة «قصة موسى مع الخضر» وما فيها من أمور غيبيَّة عجيبة.

اللغَة: ﴿قُبُلًا﴾ مقابلةً وعيانـاً[1] ﴿مَوْئِلًا﴾ ملجأ ومنجى. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: الْمَلْجَأُ يُقَالُ: وَأَلَ فُلَانٌ إِلَى كذا لَجَأَ إليه وَأْلًا وَوُءُولًا، والموئل: الملجأ، قَالَ الْأَعْشَى:

وَقَـدْ أُخَالِسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتَهُ ... وَقَـدْ يُحَـاذِرُ مِنِّي ثَـمَّ مَا يَئِلُ[2]

﴿حُقُبًا﴾ جمع حقبة وهي السنة والمراد بالحُقُب هنا الزمان الطويل ﴿سَرَبًا﴾ السَّرب: المسلك في جوف الأرض ﴿نَصَبًا﴾ النَّصب: التعب والمشقة ﴿إِمْرًا﴾ أمراً عظيماً يقال: أمِر الأمر إذا عظم ﴿نُّكْرًا﴾ منكراً فظيعاً جدًّا.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بيّنا في هذا القرآن الأمثال وكرَّرنا الحجج والمواعظ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي وطبيعة الإنسان الجدلُ والخصومة لا يُنيبُ لحقٍّ ولا ينزجر لموعظةٍ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي ما منع الناسَ من الإيمان حين جاءهم الهُدى من الله ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ أي ومن الاستغفار من الذنوب والآثام ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي يأتيهم عذاب الله عياناً ومقابلة. ومعنى الآية أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وُعدوا به عياناً ومواجهة كقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا

---

(١) (ش): عاينَ الشيْءَ، معاينةً وعِياناً: رآهُ أو شاهدَه بعيْنِه.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ١٣٢. (ش): خالسَ فلانًا: انتهز مِنْهُ فرْصَة فأعْجَله. مَا يَئِلُ: أَيْ لا يَنْجُو.

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[١] [الأنفال: ٣٢] ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لغرض التبشير والإنذار لا للإهلاك والدمار، مبشرين لأهل الإيمان ومنذرين لأهل العصيان ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ أي ومع وضوح الحق يجادل الكفار بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه فهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون العذاب لا يريدون الإيمان وإنما يستهزئون ويسخرون ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾ أي اتخذوا القرآن وما خُوّفوا به من العذاب سخرية واستهزاءً ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي لا أحد أظلمُ ممن وُعظ بآيات الله البينة، وحججه الساطعة، فتعامى عنها وتناساها ولم يُلقِ لها بالاً ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي نسي ما عمله من الجرائم الشنيعة، والأفعال القبيحة، ولم يتفكر في عاقبتها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تَحُول دون فقه هذا القرآن وإدراك أسراره[٢]، والانتفاع بما فيه من المواعظ والأحكام ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي وفي آذانهم صمماً معنويًّا يمنعهم أن يسمعوه سماعَ تَفَهُّم وانتفاع ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ أي وإن دعوْتهم إلى الإيمان والقرآن فلن يستجيبوا لك أبداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون، فللهدى قلوبٌ متفتحة مستعدة لقبول الإيمان وهؤلاء كالأنعام ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أي وربك يا محمد واسع المغفرة عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي لو يعاقبهم بما اقترفوا من المعاصي والإجرام لعجَّل لهم عذاب الدنيا، ولكنه تعالى يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب الذي يستعجلونه به رحمةً بهم، وقد جرت سنته بأن يُمْهِل الظالم ولكن لا يُهْمِله ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ أي لهم موعد آخر في القيامة يرون فيه الأهوال لن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أي تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكناهم حين ظلموا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي جعلنا لهلاكهم وقتاً محدَّداً معلوماً، أفلا يعتبر هؤلاء المكذبون المعاندون؟ والآية وعيد وتهديد لكفار قريش قال ابن كثير: والمعنى احذروا أيها المشركون أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أعظم نبيٍّ وأشرف رسول، ولستم بأعزَّ علينا منهم فخافوا عذابي ونُذري[٣] ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة. والمعنى اذكر حين قال موسى الكليم لفتاه «يوشع بن نون» لا أزال

(١) هذا خلاصة المعنى الذي اختاره ابن كثير، كذا في «المختصر» ٢/ ٤٢٥.
(٢) (ش): حالَ دونَ الشَّيء: منَعَ حدوثَه.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٤٢٦.

أسير وأتابع السير حتى أصل إلى ملتقى بحر فارس وبحر الروم مما يلي جهة المشرق وهو مجمع البحرين[١] ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أي أسير زماناً إلى أن أبلغ ذلك المكان ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين نسي «يوشع» أن يخبر موسى بأمر الحوت وما شاهده منه من الأمر العجيب، روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في مِكْتَل فحيثما فقد الحوت فهناك الرجل الصالح[٢] ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ أي اتخذ الحوت سبيله في البحر مسلكاً[٣] قال المفسرون: كان الحوت مشوياً فخرج من المِكْتل ودخل في البحر وأمسك الله جرية الماء فصار كالطاق عليه وجمد الماء حوله[٤] وكان ذلك آيةً من آيات الله الباهرة لموسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي فلما قطعا ذلك المكان وهو مجمع البحرين الذي جُعل موعداً للملاقاة قال موسى لفتاه: أعْطِنا طعام الغداء ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ لقينا في هذا السفر العناء والتعب، وكان قد سار ليلة وجزءاً من النهار بعد أن جاوز الصخرة ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ أي قال الفتى «يوشع بن نون» حين طلب موسى منه الحوت للغذاء: أرأيت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب؟ لقد خرج الحوتُ من المكتل ودخل البحر وأصبح عليه مثل الكوة[٥] وقد نسيتُ أن أذكر لك ذلك حين استيقظتُ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ أي وقد أنساني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ أي واتخذ الحوتُ طريقة في البحر وكان أمره عجباً، يتعجب الفتى من أمره لأنه كان حوتاً مشوياً فدبَّت فيه الحياة ودخل البحر ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾ أي قال موسى هذا الذي نطلبه ونريده لأنه علامة على غرضنا وهو لُقْيا الرجل الصالح ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ أي رجعا في طريقهما الذي جاءا منه يتتبعان أثرهما الأول لئلا يخرجا عن الطريق ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ وجدا الخضر عليه السلام عند الصخرة التي فقد عندها الحوت، وفي الحديث أن موسى وجد الخضر مسجًّى بثوبه مستلقياً على الأرض فقال له: السلام عليك فرفع رأسه وقال: وأنّى بأرضك السلام؟[٦] ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة

---

(١) هكذا نقل «الطبري» عن قتادة ١٥/ ٢٧١.

(٢) (ش): بعد صفحات سيذكر المؤلف القصة كاملةً كما وردت في الصحيحين. (مِكْتَل): وِعَاءٌ مِثْلَ الْقُفَّةِ: وِعَاءٌ مِنْ خُوصٍ أَوْ نَحْوِهِ لِحَمْلِ الْبَضَائِعِ وَغَيْرِهَا.

(٣) (ش): أَيْ أَخَذَ يَسْبَحُ فِيهِ، وَكَانَ يَشُقُّهُ شَقًّا، وَيَتْرُكُ وَرَاءَهُ مِثْلَ السَّرَبِ (النَّفَقِ).

(٤) (ش): (جَرْيَةَ الْمَاءِ) حَالَةَ جريانِهِ. (الطَّاقُ) الثَّقْبُ غَيْرُ النَّافِذِ.

(٥) (ش): (الْكُوَّة): (الطَّاقُ) الثقبُ غَيْرُ النَّافِذِ.

(٦) الحديث سيأتي مفصلاً إن شاء الله. (ش): (مُسَجًّى): مُغَطًّى. (أَنَّى) أَيْ كَيْفَ، أَوْ مِنْ أَيْنَ. (أَنَّى بِأَرْضِكَ =

وفضلاً كبيراً وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه[1] ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ أي علماً خاصاً بنا لا يُعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب قال العلماء: هذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى ويسمى «العلم اللدُنِّي» يورثه الله لمن أخلص العبودية له، ولا ينال بالكسب والمشقة وإنما هو هبة الرحمن لمن خصَّه الله بالقرب والولاية والكرامة ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ أي هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني في حياتي؟ قال المفسرون: هذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع من نبي الله الكريم وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ أي قال الخضر: إنك لا تستطيع الصبر على ما ترى قال ابن عباس: لن تصبر على

= السَّلَامُ؟) أَيْ كَيْفَ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ. أَوْ مِنْ أَيْنَ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ فِيهَا وَكَأَنَّهَا كَانَتْ بِلَادَ كُفْرٍ أَوْ كَانَتْ تَحِيَّتُهُمْ بِغَيْرِ السَّلَامِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَمَنْ دُونَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللهُ إِذْ لَوْ كَانَ الْخَضِرُ يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ لَعَرَفَ مُوسَى عليه السلام قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ.

(١) الصحيح أن الخضر عليه السلام ليس بنبي وإنما هو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليمًا للخلق فضل العبودية. (ش): رجَّح الحافظ ابنُ كثير أن الخَضِر عليه السلام كان نبيًّا وقال: إن سِيَاقَ الْقِصَّةِ قَدْ دَلَّ عَلَى نُبُوَّتِهِ مِنْ وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الْكَهْفِ: ٥٦]. الثَّانِي: قَوْلُ مُوسَى لَهُ: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ [الْكَهْفِ: ٦٦ - ٧٠]. فَلَوْ كَانَ وَلِيًّا وَلَيْسَ بِنَبِيٍّ، لَمْ يُخَاطِبْهُ مُوسَى بِهَذِهِ الْمُخَاطَبَةِ، وَلَمْ يَرُدَّ عَلَى مُوسَى هَذَا الرَّدَّ، بَلْ مُوسَى إِنَّمَا سَأَلَ صُحْبَتَهُ لِيَنَالَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ، الَّذِي اخْتَصَّهُ اللهُ بِهِ دُونَهُ، فَلَوْ كَانَ غَيْرَ نَبِيٍّ لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا، وَلَمْ تَكُنْ لِمُوسَى - وَهُوَ نَبِيٌّ عَظِيمٌ، وَرَسُولٌ كَرِيمٌ، وَاجِبُ الْعِصْمَةِ - كَبِيرُ رَغْبَةٍ، وَلَا عَظِيمُ طَلِبَةٍ فِي عِلْمِ وَلِيٍّ غَيْرِ وَاجِبِ الْعِصْمَةِ، وَلَمَّا عَزَمَ عَلَى الذَّهَابِ إِلَيْهِ، وَالتَّفْتِيشِ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّهُ يَمْضِي حُقُبًا مِنَ الزَّمَانِ. ثُمَّ لَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ تَوَاضَعَ لَهُ، وَعَظَّمَهُ، وَاتَّبَعَهُ فِي صُورَةِ مُسْتَفِيدٍ مِنْهُ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ نَبِيٌّ مِثْلُهُ يُوحَى إِلَيْهِ كَمَا يُوحَى إِلَيْهِ، وَقَدْ خُصَّ مِنَ الْعُلُومِ اللَّدُنِّيَّةِ، وَالْأَسْرَارِ النَّبَوِيَّةِ، بِمَا لَمْ يُطْلِعِ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى، الْكَلِيمَ، نَبِيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكَرِيمَ. الثَّالِثُ: أَنَّ الْخَضِرَ أَقْدَمَ عَلَى قَتْلِ ذَلِكَ الْغُلَامِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِلْوَحْيِ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ. وَهَذَا دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَبُرْهَانٌ ظَاهِرٌ عَلَى عِصْمَتِهِ؛ لِأَنَّ الْوَلِيَّ لَا يَجُوزُ لَهُ الْإِقْدَامُ عَلَى قَتْلِ النُّفُوسِ بِمُجَرَّدِ مَا يُلْقَى فِي خَلَدِهِ، لِأَنَّ خَاطِرَهُ لَيْسَ بِوَاجِبِ الْعِصْمَةِ؛ إِذْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْخَطَأُ بِالِاتِّفَاقِ. وَلَمَّا أَقْدَمَ الْخَضِرُ عَلَى قَتْلِ ذَلِكَ الْغُلَامِ، الَّذِي لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ، عِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ يَكْفُرُ، وَيَحْمِلُ أَبَوَيْهِ عَنِ الْكُفْرِ؛ لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِمَا لَهُ، فَيُتَابِعَانِهِ عَلَيْهِ، فَفِي قَتْلِهِ مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ تَرْبُو عَلَى بَقَاءِ مُهْجَتِهِ؛ صِيَانَةً لِأَبَوَيْهِ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْكُفْرِ وَعُقُوبَتِهِ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللهِ بِعِصْمَتِهِ. الرَّابِعُ: أَنَّهُ لَمَّا فَسَّرَ الْخَضِرُ تَأْوِيلَ تِلْكَ الْأَفَاعِيلِ لِمُوسَى، وَوَضَّحَ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ، وَجَلَّى، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ يَعْنِي: مَا فَعَلْتُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، بَلْ أُمِرْتُ بِهِ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ فِيهِ، فَدَلَّتْ هَذِهِ الْوُجُوهُ عَلَى نُبُوَّتِهِ. وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ حُصُولَ وِلَايَتِهِ، بَلْ وَلَا رِسَالَتَهُ، كَمَا قَالَ آخَرُونَ. [البداية والنهاية (٢/ ٨٤٢- ٩٤٢)].وقال الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ والرحمة وردت في القرآن بمعنى النبوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزخرف: ١٣ -٢٣]

صنعي لأني علمتُ من غيب علم ربي ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ أي كيف تصبر على أمرٍ ظاهره منكرٌ وأنت لا تعلم باطنه؟ ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أي قال موسى: ستراني صابراً ولا أعصي أمرك إن شاء الله ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها، فقبل موسى شرطه رعايةً لأدب المتعلم مع العالم. والمعنى لا تسألني عن شيء مما أفعله حتى أبيّنه لك بنفسي ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ أي انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فعرفوا الخضر فحملوهما بدون أجر فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحـًا من ألواح السفينة بعد أن أصبحت في لجة البحر ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ أي قال له موسى مستنكراً: أخرقت السفينة لتغرق الركاب؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ أي فعلت شيئًا عظيمـًا هائلاً، يروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فجعله مكان الخرق ثم قال للخضر: قومٌ حملونا بغير أجرٍ عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهل السفينة لقد فعلت أمراً منكراً عظيمـًا! ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أي ألم أخبرك من أول الأمر أنك لا تصبر على ما ترى من صنيعي؟ ذكَّره بلطفٍ في مخالفته الشرط ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ أي لا تؤاخذني بمخالفتي الشرط ونسياني العهد ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أي لا تكلفني مشقةً في صحبتي إياك وعاملني باليُسر لا بالعُسر ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ أي فقبل عذره وانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان فمرَّا بغلمانٍ يلعبون وفيهم غلام وضيء الوجه جميل الصورة فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي قال موسى: أقتلت نفسـًا طاهرةً لم ترتكب جرمـًا ولم تقتل نفسـًا حتى تقتل به ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ أي فعلت شيئـًا منكراً عظيمـًا لا يمكن السكوت عنه، لم يكن موسى ناسيـًا في هذه المرة ولا غافلاً ولكنه قاصدٌ أن يُنكر المنكر الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده، وقال هنا ﴿نُّكْرًا ﴾ أي منكراً فظيعـًا وهو أبلغ من قوله ﴿إِمْرًا ﴾ في الآية السابقة، ذكر «القرطبي» أن موسى عليه السلام لما قال للخضر ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ﴾ غضب واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فإذا مكتوب في عظم كتفه كافرٌ لا يؤمن بالله أبداً [١] ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أي ألم أقل

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٢. (ش): نقله الإمام «القرطبي» عن كتاب «عرائس المجالس» للثعلبي، ص١٣٤، عن قتادة بدون إسناد، ولو صح الإسناد إلى قتادة فبينه وبين موسى عليه السلام مئات أو آلاف السنين فقد كان مَوْلِدُه فِي سَنَةِ سِتِّيْنَ للهجرة. وكتاب «عرائس المجالس» فيه الكثير من الأخبار الواهية والإسرائيليات، فلا ينبغي الاعتماد عليه لمن لا يميز صحيح الحديث من ضعيفه، والثعلبي - رحمه الله- قد انتقده العلماء في رواياته للأحاديث والأخبار، حيث يروي كثيرًا من الأحاديث الموضوعة أي المكذوبة.

لك أنتَ على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى مني؟ قال المفسرون: وقَّره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطاب فلما خالف في الثاني واجهه بقوله ﴿لَّكَ﴾ لعدم العذر هنا، ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصةٍ أمامه[١] ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي إن أنكرت عليك بعد هذه المرة واعترضتُ على ما يصدر منك فلا تصحبني معك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي قد أعذَرْتَ إليَّ في تَرْكِ مصاحبتي فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي مشيا حتى وصلا إلى قرية قال ابن عباس: هي أنطاكية فطلبا طعاماً وكان أهلها لئاماً لا يطعمون جائعاً، ولا يستضيفون ضيفاً، فامتنعوا عن إضافتهما أو إطعامهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي وجدا في القرية حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط ويقع ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي مسحه الخضر بيده فاستقام، وقيل: إنه هدمه ثم بناه وكلاهما مرويٌّ عن ابن عباس[٢] ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي قال له موسى لو أخذت منهم أجراً نستعين به على شراء الطعام! أنكر عليه موسى صنيع المعروف مع غير أهله، روي أن موسى قال للخضر: «قومٌ استطعمناهم فلم يطعمونا، وضِفناهم فلم يضيّفونا ثم قعدت تبني لهم الجدار لو شئتَ لاتخذت عليه أجراً» ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي قال الخضر: هذا وقت الفراق بيننا حسب قولك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاث التي أنكرتها عليَّ ولم تستطع عليها وفي الحديث «رحم الله أخي موسى لوددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ولو لبث مع صاحبه لأبصر العجب»[٣] ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ هذا بيانٌ وتفصيل للأحداث العجيبة التي رآها موسى ولم يُطِقْ لها صبراً. والمعنى أما السفينة التي خرقتها فكانت لأناس ضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة يشتغلون بها في البحر بقصد التكسب ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أردتُ بخرقها

---

(١) (ش): يندفع: يتسرع.

(٢) (ش): في «البخاري» أن الخَضِرَ أَقَامَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ.

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان. (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْلَا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. (ذَمَامَةٌ): اسْتِحْيَاءٌ، وَقِيلَ: مَلَامَةٌ. (أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ):أَيْ أَصَابَ مُوسَى عليه السلام مِنْ صَاحِبِهِ الْخَضِرِ اسْتِحْيَاءٌ أَوْ مَلَامَةٌ لِتَكْرَارِ مُخَالَفَتِهِ. «وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ» [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. وفي رواية: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ الْعَجَبَ» [رواه النسائي في «السنن الكبرى» بإسناد صحيح]. ورواه أبو داود بلفظ: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى لَوْ صَبَرَ لَرَأَى مِنْ صَاحِبِهِ الْعَجَبَ» [وصححه الألباني].

أن أجعلها معيبة لئلا يغتصبها الملك الظالم ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي كان أمامهم ملك كافر ظالـمٌ ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا﴾ أي يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ﴾ أي وأما الغلام الذي قتلتُه فكان كافراً فاجراً وكان أبواه مؤمنين وفي الحديث «إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِى قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا»(١) ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ أي فخفنا أن يحملهما حبُّه على اتّباعه في الكفر والضلال ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ أي فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الكافر وأقربَ برًّا ورحمة بوالديه ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ أي وأما الجدار الذي بنَيْتُه دون أجر والذي كان يوشك أن يسقط فقد خُبِّئَ تحتَه كنزٌ من ذهب وفضة لغلامين يتيمين ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصلاح الوالد(٢) قال المفسرون: إن صلاح الآباء ينفع الأبناء، وتقوى الأصول تنفع الفروع ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي رحمةً من الله بهما لصلاح أبيهما ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾ أي ما فعلتُ ما رأيتَ من خَرْقِ السفينة، وقَتْل الغلام، وإقامة الجدارعن رأيي واجتهادي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ أي ذلك تفسير التي لم تستطع الصبر عليها وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الطباق بين ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وبين ﴿نَسِيتُ﴾.. ﴿وَٱذۡكُر﴾.

٢ - اللف والنشر المرتَّب ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ﴾ فقد جاء بها مرتبة بعد ذكر ركوب السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بطريق اللف والنشر المرتب وهو من المحسنات البديعية.

٣ - الحذف بالإيجاز ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي صالحةٍ حذف لدلالة لفظ «أعيبها» وكذلك حذف لفظ كافر من ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ﴾ لدلالة قوله تعالى ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ﴾.

٤ - التغليب ﴿أَبَوَاهُ﴾ المراد باللفظ أبوه وأمه.

٥ - الاستعارة ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ لأن الإرادة من صفات العقلاء وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة وبليغ المجاز كقول الشاعر:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) قيل: إنه الأب السابع، وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرة وهو الأرجح.

يُـرِيـدُ الـرُّمْـحُ صَـدْرَ أَبِـي بَـرَاءٍ وَيَـرْغَـبُ عَـنْ دِمَـاءِ بَنِي عَقِيلِ [(١)]

٦ – التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف ﴿عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾.

٧ – السجع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿نَصَبٗا.. سَرَبٗا.. عَجَبٗا﴾.

٨ – تعليم الأدب ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ وهناك قال ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ حيث أسند ما ظاهره شر لنفسه وأسند الخير إلى الله تعالى، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله جل وعلا.

«قصة موسى والخضر كما في الصحيحين»

عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: «أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟» فَقَالَ: «أَنَا»، فَعَتَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ، إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ [(٢)]، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَى: «يَا رَبِّ، فَكَيْفَ لِي بِهِ؟». قَالَ: «تَأْخُذُ حُوتًا [(٣)] فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ [(٤)] فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ» [(٥)].

فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ وَمَعَهُمَا الْحُوتُ حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَنَزَلَا عِنْدَهَا فَوَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا [(٦)]، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جَرْيَةَ الْمَاءِ [(٧)]، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ [(٨)]. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: «آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا» [(٩)]. قال وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللهُ بِهِ. فَقَالَ فَتَاهُ: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ قال: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا [(١٠)]. فَقَالَ

---

(١) «تفسير الطبري» ١٥/ ٢٨٩.

(٢) (ش): (مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ): مُلْتَقَى الْبَحْرَيْنِ. أَيْ حَيْثُ الْتَقَى الْبَحْرَانِ.

(٣) (ش): (حُوتٌ): سَمَكَةٌ صَغِيرَةً كَانَتْ أَوْ كَبِيرَةً.

(٤) (ش): (مِكْتَلٍ): وِعَاءٌ مِثْلَ الْقُفَّةِ: وِعَاءٌ مِنْ خُوصٍ أَوْ نَحْوِهِ لِحَمْلِ الْبَضَائِعِ وَغَيْرِهَا.

(٥) (ش): (ثَمَّ): هُنَاكَ.

(٦) (ش): (فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ) أَيْ طَرِيقَهُ (فِي الْبَحْرِ سَرَبًا): أَيْ طَرِيقًا كَالنَّفَقِ. أَيْ أَخَذَ يَسْبَحُ فِيهِ، وَكَانَ يَشُقُّهُ شَقًّا، وَيَتْرُكُ وَرَاءَهُ مِثْلَ السَّرَبِ (النَّفَقِ).

(٧) (ش): (جَرْيَةَ الْمَاءِ) حَالَةَ جَرَيَانِهِ.

(٨) (ش): (الطَّاقُ) الثَّقْبُ غَيْرُ النَّافِذِ.

(٩) (ش): (النَّصَبُ): التَّعَبُ.

(١٠) (ش): (فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا) أي: مسلكًا. (وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا) لَمَّا تَذَكَّرَا، فَرَجَعَا، تَعَجُّبًا مِنْ قُدْرَةِ اللهِ عَلَى إِحْيَاءِ الْحُوتِ، وَمِنْ إِمْسَاكِ جَرْيِ الْمَاءِ حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ يَسْلُكُ فِيهِ.

مُوسَى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ قال: رجعا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا (١)، حَتَّى انْتَهيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا هُوَ مُسَجًّى (٢) بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: «وأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ (٣) مَنْ أَنْتَ؟». قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: «مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟». قَالَ: «نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا». ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ، لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مَنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ»، فَقَالَ مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فمرَّت سفينةٌ، فكلَّمُوهُم أَنْ يَحْمِلُوهُم، فعرفُوا الخَضِرَ، فَقَالُوا: «عَبْدُ اللهِ الصَّالِحُ؟ لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ». فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ - أي بدون أجر -، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ، لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بِالْقَدُوم (٤)، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: «قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ (٥)، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾» (٦). قَالَ: «أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا». قَالَ: «لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا».

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا (٧) وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ (٨)، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ الْخَضِرُ: «مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ».

ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ، إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ (٩) ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ قَالَ سُفْيَانُ (١٠):

---

(١) (ش): أَيْ رَجَعَا مِن الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَاهُ يَتَّبِعَانِ آثَارَ سَيْرِهِمَا.

(٢) (ش): (مُسَجًّى): مُغَطًّى.

(٣) يعني من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام؟ (ش): وَكَأَنَّهَا كَانَتْ بِلَادَ كُفْرٍ أَوْ كَانَتْ تَحِيَّتُهُمْ بِغَيْرِ السَّلَامِ، وَفِي الحديث دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ هليخك تلسلتك وَمَنْ دُونَهِمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللهُ إِذْ لَوْ كَانَ الْخَضِرُ يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ لَعَرَفَ مُوسَى عليهم السلام قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ.

(٤) (ش): (الْقَدُومُ): آلَةٌ لِلنَّجْرِ وَالنَّحْتِ.

(٥) (ش): (بِغَيْرِ نَوْلٍ): بِغَيْرِ أُجْرَة.

(٦) (ش): (إِمْرًا): مُنْكَرًا.

(٧) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا وَالْوُسْطَى شَرْطًا، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ]. والشَّرْطِ قَوْلُ مُوسَى عليه السلام: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾.

(٨) (ش): فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ: أي غَمَسَ مِنْقَارَهُ فِي الْبَحْرِ مَرَّةً أو مرَّتين.

(٩) (ش): (نُكْرًا): مُنْكَرًا، وَقِيلَ: النُّكْرُ أَشَدُّ مِنَ الْإِمْرِ.

(١٠) (ش): الْقَائِلُ هُوَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، وَقَدْ بَيَّنَتْ ذَلِكَ رِوَايَةُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عن سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ عَمْرٌو: «وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى».

وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى[1]. ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ فَانْطَلَقَا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[2] فَقَامَ الْخَضِرُ فَأَقَامَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ. فَقَالَ مُوسَى: «قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا، وَلَمْ يُضَيِّفُونَا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. قَالَ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا» أخرجه الشيخان.

تنبيه: قال العلامة «القرطبي»: «كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ ثَابِتَةٌ، عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ الثَّابِتَةُ، وَالْآيَاتُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَلَا ينكرها إلا المبتدع الْجَاحِدُ، أَوِ الْفَاسِقُ الْحَائِدُ، فَالْآيَاتُ مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى فِي حَقِّ مَرْيَمَ مِنْ ظُهُورِ الْفَوَاكِهِ الشِّتْوِيَّةِ فِي الصَّيْفِ، وَالصَّيْفِيَّةِ فِي الشِّتَاءِ وَمَا ظَهَرَ عَلَى يَدِهَا حَيْثُ أَمَرَتِ النَّخْلَةَ وَكَانَتْ يَابِسَةً فَأَثْمَرَتْ، وَهِيَ لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ، عَلَى الْخِلَافِ. وَيَدُلُّ عَلَيْهَا مَا ظَهَرَ عَلَى يَدِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ خَرْقِ السَّفِينَةِ، وَقَتْلِ الْغُلَامِ، وَإِقَامَةِ الْجِدَارِ»[3] ا.هـ.

قال الله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ
مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا
قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ
رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾
كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا
لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن
تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ
ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا
ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ
وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ

(١) (ش): (وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى) أَيْ أَوْكَدُ مِنَ الْأُولَى، حَيْثُ زَادَ كَلِمَةَ (لَك).

(٢) (ش): أَيْ مَائِلٌ.

(٣) «القرطبي» ١١/ ٢٨ (ش): تقدم أن الحافظ ابن كثير رجَّح أن الخَضِر عليه السلام كان نبيًّا، وقال: إن سِيَاقَ الْقِصَّةِ قَدْ دَلَّ عَلَى نُبُوَّتِهِ مِنْ وُجُوهٍ.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ
أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي
وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ
عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾
قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة الخضر أعقبها بقصة ذي القرنين ورحلاته الثلاث إلى المغرب والشرق، وإلى السَّدين، وبنائه للسدّ في وجه «يأجوج ومأجوج» وهي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، وجميعها ترتبط بالعقيدة والإيمان، وهو الهدف الأصيل للسورة الكريمة.

اللغَة: (ذو القرنين) هو الإسكندر المقدوني[1] وهو ملِكٌ صالح أعطي العلم والحكمة، سمي بذي القرنين لأنه ملك مشارق الأرض ومغاربها وكان مسلمًا عادلاً قال الشاعر:

قَدْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ قَبْلِيَ مُسْلِمًا ... مَلِكًا عَلَا فِي الْأَرْضِ غَيْرَ مُفَنَّدِ
بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي ... أَسْبَابَ مُلْكٍ مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدِ[2]

﴿حَمِئَةٍ﴾ كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء ﴿سَدًّا﴾ السدُّ: الحاجز والحائل بين الشيئين ﴿رَدۡمًا﴾ الردْم. السدُّ المنيع وهو أكبر من السدّ لأن الرَّدم ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع فالردم الحاجز الحصين المتين ﴿زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ قطع الحديد مفرده زُبرة وهي القطعة ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ جانبا الجبل قال أبو عبيدة: الصَّدف كل بناء عظيم مرتفع ﴿قِطۡرٗا﴾ القِطر: النحاس المذاب ﴿نَقۡبٗا﴾ خرقًا وثقبًا ﴿دَكَّآءَ﴾ مدكوكًا مسوًّى بالأرض قال الأزهري: دككته أي دققته ﴿يَمُوجُ﴾ يختلط ويضطرب ﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾ قال الفراء: البستان الذي فيه العنب وقال ثعلب: كل بستان يُحَوَّط عليه فهو فردوس[3].

سَبَبُ النّزول: أ - قال قتادة: إن اليهود سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين فأنزل الله ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ ...﴾ الآية[4].

ب - قال مجاهد: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أتصدق، وأصلُ

---

(١) الراجح أن ذا القرنين ملك مسلم من ملوك اليمن.
(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢١/ ١٦٤. (ش): الْمُفَنَّد: الشيخ الذي كَثُر كلامُه من الخرَف، ضعيفُ الرَّأي.
(٣) «البحر المحيط» ٦/ ١٥٧.
(٤) «أسباب النزول» ١٧٢. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في ««أسباب النزول»».

الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى، فيُذكر ذلك مني وأُحمَد عليه فيسرني ذلك وأُعجب به، فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً فأنزل الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1].

التفسير: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ أي يسألك اليهود يا محمد عن ذي القرنين ما شأنه؟ وما قصته؟ ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ أي قل لهم سأقص عليكم من نبئه وخبره قرآناً ووحياً ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي يَسَّرْنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران، وأعطيناه كل ما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف قال المفسرون: ذو القرنين هو «الإسكندر اليوناني»[2] ملكَ المشرق والمغرب فسمي ذا القرنين، وكان ملكاً مؤمناً مكَّن الله له في الأرض فعدل في حكمه وأصلح، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما روي أن الذين ملكوا الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، أما المؤمنان فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران فنمرود وبُخْتُنَصَّر[3] ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي سلك طريقه الذي يسره الله له وسار جهة المغرب ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي وصل المغرب ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي وجد الشمس تغرب في ماء وطين - حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة - فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض قال «الرازي»: إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وَهْدَةٍ[4] مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشطَّ وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر[5] ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي وجد عند تلك العين الحارة ذات الطين قوماً من الأقوام ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي قلنا له بطريق الإلهام: إما أن تقتلهم أو تدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان قال المفسرون: كانوا كفاراً فخيَّره الله بين أن يعذبهم بالقتل، أو يدعوهم إلى الإسلام فيُحسن إليهم ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي من أصرَّ على الكفر فسوف نقتله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي ثم يرجع إلى ربه فيعذبه عذاباً منكراً فظيعاً في نار جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ أي وأمّا من آمن بالله وأحسن العمل في الدنيا وقدَّم الصالحات

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٧٠. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».
(٢) (ش): تقدم ترجيح المؤلف أن ذا القرنين ملك مسلم من ملوك اليمن.
(٣) «البحر المحيط» ٦/ ١٥٧.
(٤) (ش): وَهْدَة: أرضٌ منخفضة، هُوَّة في الأرض.
(٥) «التفسير الكبير» ٢١/ ١٦٦.

فجزاؤه الجنة يتنعَّم فيها ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ أي نيسر عليه في الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق بل بالسهل الميسَّر، اختار الملك العدل دعوتهم بالحسنى فمن آمن فله الجنة، والمعاملة الطيبة، والمعونة والتيسير، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي سلك طريقاً بجنده نحو المشرق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي حتى وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي ﴿وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ أي وجد الشمس تشرقُ على أقوامٍ ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حر الشمس فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض، وإذا غربتْ خرجوا لمكاسبهم قال قتادة: مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلاّ من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسراب عراة، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم، وذُكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ويقال إنهم الزنج[1] ﴿كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾ أي كذلك فعل بأهل المشرق من آمن تركه ومن كفر قتله كما فعل بأهل المغرب وقد أحطنا علماً بأحواله وأخباره، وعتاده وجنوده، فأمرُه من العظمة وكثرة المال بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ أي حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين، بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان قال «الطبري»: والسَّدُ: الحاجز بين الشيئين وهما هنا جبلان سُدَّ ما بينهما، فردَم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم[2] ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ أي وجد من وراء السدين قوماً متخلفين لا يكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعُسر قال المفسرون: إنما كانوا لا يفقهون القول لغرابة لغتهم، وبطء فهمهم، وبعدهم عن مخالطة غيرهم، وما فهم كلامهم إلا بواسطة ترجمان ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي قال القوم لذي القرنين: إن يأجوج ومأجوج - قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويهٌ، منهم مفرطٌ في الطول، ومنهم مفرطٌ في القِصر[3] - قوم مفسدون بالقتل والسلب والنهب وسائر وجوه الشر قال المفسرون: كانوا من أكلة لحوم البشر، يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ أي هل نفرض

(١) «زاد المسير» ٥/ ١٨٧، و«تفسير الطبري» ١٦/ ١٤.
(٢) «تفسير الطبري» ١٦/ ١٥.
(٣) روى ذلك عن علي وابن عباس.

لك جزءاً من أموالنا كضريبة وخراج ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ أي لتجعل سدًّا يحمينا من شر يأجوج ومأجوج قال في البحر: هذا استدعاءٌ منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب[1] ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ أي ما بسطه الله عليَّ من القُدرة والمُلك خيرٌ مما تبذلونه لي من المال ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي لا حاجة لي إلى المال فأعينوني بالأيدي والرجال ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ أي أجعل بينكم وبينهم سدا منيعاً، وحاجزاً حصيناً، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوَّع ببناء السد واكتفى بعون الرجال ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ أي أعطوني قطع الحديد واجعلوها لي في ذلك المكان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أي حتى إذا ساوى البناء بين جانبي الجبلين ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ أي انفخوا بالمنافيخ عليه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ أي جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإحماء ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ أي أعطوني أصبُّ عليه النحاس المذاب قال «الرازي»: لما أتوه بقطع الحديد وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسدُّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أي فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته[2] ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ أي وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته، وبهذا السد المنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ أي قال ذو القرنين: هذا السدُّ نعمةٌ من الله ورحمة على عباده ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ أي فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وذلك قرب قيام الساعة ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي جعله الله مستوياً بالأرض وعاد متهدماً كأن لم يكن بالأمس ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ أي كان وعده تعالى بخراب السدِّ وقيام الساعة كائناً لا محالة.

وهاهنا تنتهي قصة ذي القرنين، ثم يأتي الحديث عن أهوال الساعة وشدائد القيامة قال تعالى ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾ أي تركنا الناس يوم قيام الساعة يضطرب بعضهم ببعض - لكثرتهم - كاضطراب موج البحر ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ أي ونفخ في الصور النفخة الثانية فجمعناهم للحساب والجزاء في صعيد واحدٍ جمعاً لم يتخلف منهم أحد ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ أي أبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين يوم جمع الخلائق حتى شاهدوها بأهوالها عرضاً مخيفاً مفزعاً ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ أي هم الذين كانوا في الدنيا عُمياً عن دلائل قدرة الله ووحدانيته فلا ينظرون ولا يتفكرون ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى لظلمة قلوبهم قال

(١) «البحر المحيط» ٦/ ١٦٤.
(٢) «التفسير الكبير» ٢١/ ١٧٢.

«أبو السعود»: وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الأدلة السمعية، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عمْـيٌ صم[١] ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أفظنَّ الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح ابن مريم، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابي؟ قال «القرطبي»: جواب الاستفهام محذوف تقديره أفحسبوا أن ذلك ينفعهم، أو لا أعاقبهم[٢] ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي هيأنا جهنم وجعلناها ضيافةً لهم كالنُّزُل المُعَدِّ للضيف[٣] قال «البيضاوي»: وفيه تهكـمٌ بهـم وتنبيهٌ علـى أن لهم وراءها من العذاب ما تسـتحقر جهنم دونـه[٤] ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ أي قـل يـا محمد لهـؤلاء الكافرين هل نخبركم بأخسـر النـاس عند الله؟ ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بطـل عملهم وضاع في هـذه الحياة الدنيا لأن الكفر لا تنفع معه طاعة قال الضحاك: هم القسيسون والرهبان يتعبدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهـي لا تقبـل منهـم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي يظنـون أنهـم محسـنون بأفعالهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي كفـروا بالقرآن وبالبعث والنشـور فبطلـت أعمالهـم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي ليس لهم عند الله قيمةٌ ولا وزن، ولا قدرٌ ولا منزلة وفي الحديث «يُؤتى بالرجل الطويل الأكُول الشَّـرُوب فلا يزن جناح بعوضة»[٥] ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي ذلـك جزاؤهم وعقوبتهم نارُ جهنم بسـبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسـله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي آمنوا بالله وعملـوا بما يرضيـه ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ أي لهم أعلى درجـات الفردوس منزلاً ومسـتقرًّا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحولاً قال ابن رواحـة: في جنان الفردوس ليـسَ يخافون خُروجـاً عنهـا ولا تحويلاً ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ هذا تمثيلٌ لسعة علم الله[٦]. والمعنى لو كانت بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت بـه كلمات الله وحكمه وعجائبه[٧] ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ أي لفَنِيَ ماء البحر على

---

(١) «أبو السعود» ٣/ ٢٦٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ٦٥.

(٣) (ش): النُّزُل: مكان يُهَيَّأ للضَّيف يأكلُ وينام فيه.

(٤) «البيضاوي» ٢/ ١٣.

(٥) ذكره الحافظ في «الفتح» ٨/ ٣٢٤. (ش): رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، والبيهقي في «شعب الإيمان» وضعفه الألباني. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَءُوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ].

(٦) (ش): هذا تأويلٌ لكلمات الله سبحانه وتعالى بغير معناها الحقيقي، فكلامُ الله تعالى غيرُ عِلْمِه وكل منهما صفة مستقلة عن الأخرى، والمراد بكلمات الله كلماتُه الحقيقية التي بها يخلق ويرزق ويشَرِّع ويأمر وينهَى.

(٧) (ش): في الآية إثبات صفة الكلام لله -تعالى- حقيقةً كما يليقُ بجلاله وكماله سبحانه.

كثرته وانتهى، وكلامُ الله لا ينْفَدُ لأنه غيرُ مُتَنَاهٍ[1] كعلمه جل وعلا ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ أي ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه به حتى يكثر فإن كلام الله لا يتناهى ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنما أنا إنسان مثلكم أكرمني الله بالوحي، وأمرني أن أخبركم أنه واحدٌ أحد لا شريك له ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ أي فليخلص له العبادة ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ أي لا يرائ بعمله ولا يبتغ بما يعمل غير وجه الله، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿مَطۡلِعَ .. مَغۡرِبَ﴾.

٢ - التشبيه البليغ ﴿جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ أي كالنار في الحرارة وشدة الاحمرار حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٣ - الاستعارة ﴿يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ شبّههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعضٍ بموج البحر المتلاطم واستعار لفظ يموج لذلك ففيه استعارة تبعية.

٤ - الاستعارة أيضًا ﴿كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ أي كانوا ينظرون فلا يعتبرون وتُعرض عليهم الآيات الكونية فلا يؤمنون، ولم تكن أعينهم حقيقةً في غطاء وحجاب وإنما هو طريق التمثيل.

٥ - الجناس الناقص ﴿يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف، ويسمى أيضًا جناس التصحيف.

٦ - الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ؟

٧ - المقابلة اللطيفة ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ مقابل ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ الآية.

لطيفَة: كثيراً ما يرد في القرآن لفظ «حبط» وأصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تأكل نوعًا سامًّا من الكلأ ثم تَلْقَى حَتْفَها، وهذا اللفظُ أنْسَبُ شيءٍ لوصْف الأعمال فإنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف»



(١) (ش): لا ينْفَدُ: لا ينتهِي، غيرُ مُتَنَاهٍ: لا يُمكِنُ أن تكون له نهاية.



مكية وآياتها ثمان وتسعون

بين يدي السورة

سورة مريم مكية، وغرضها تقرير التوحيد، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، ومحور هذه السورة يدور حول التوحيد، والإيمان بوجود الله[١] ووحدانيته، وبيان منهج المهتدين، ومنهج الضالين.

* عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئة بقصة نبي الله «زكريا» وولده «يحيى» الذي وهبه على الكبر من امرأة عاقر لا تلد، ولكن الله قادر على كل شيء يسمع دعاء المكروب، ويستجيب لنداء الملهوف، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبيه.

* وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب، تلك هي قصة «مريم العذراء» وإنجابها لطفل من غير أب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلة أمام الأبصار، بعظمة الواحد القهار.

* وتحدثت كذلك عن قصة إبراهيم مع أبيه، ثم ذكرت بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام: «إسحاق، يعقوب، موسى، هارون، إسماعيل، إدريس، نوحًا» وقد استغرق الحديث عن هؤلاء الرسل الكرام حوالي ثلثي السورة، والهدف من ذلك إثبات «وحدة الرسالة» وأن الرسل جميعًا جاءوا لدعوة الناس إلى توحيد الله، ونبذ الشرك والأوثان.

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها، ويكونوا وقودًا لها.

* وختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد، والشريك، والنظير، وردت على ضلالات المشركين بأنصع بيان، وأقوى برهان.

التسمية: سميت «سورة مريم» تخليدًا لتلك المعجزة الباهرة، في خلق إنسانٍ بلا أب، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام.

---

(١) (ش): توحيد الربوبية الذي مِنه الإقرار بوجود الله يُذْكَر في القرآن للاستدلال به على توحيد العبادة لا لأجل إثباته لأنهم يُقِرُّون به، والشواهد على هذا كثيرة حتى إبليس مُقِرٌّ بوجود الله.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي
خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ
ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن
قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ
عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ
رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ
ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ
صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا
مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ
إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾
قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ
وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا
قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا
﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ
رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ
أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ
هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ
صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي
بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ
وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾
مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ
هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ
بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي
غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ

اللغَة: ﴿وَهَنَ﴾ ضَعُفَ، يقال وَهَن يهِنُ فهو وَاهِنٌ والوهْنُ ضعفُ القوة ﴿وَٱشۡتَعَلَ﴾

الاشتعال انتشار شعاع النار ﴿عَاقِرًا﴾ العاقر: التي لا تلد لكِبَر سنها ﴿عِتِيًّا﴾ العِتِيُّ: النهاية في الكِبَرِ واليُبْس والجفاف يقال: عتا الشيخ كَبُر وَوَلَّى، قال الشاعر:

إِنَّمَا يُعْذَرُ الْوَلِيدُ وَلَا يُعْذَرُ ... مَنْ كَانَ فِي الزَّمَانِ عِتِيّا(١)

﴿وَحَنَانًا﴾ الحنان: الشفقة والرحمةُ والمحبةُ، وأصله من حَنِينِ الناقة على ولدها(٢)، وحنانَيْك تريد رحمتك(٣) قال طرفة:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا ... حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ(٤)

﴿ٱنتَبَذَتْ﴾ ابتعدَت وتنحَّت ﴿سَوِيًّا﴾ مستوِيَ الخِلْقة ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ اشتداد وجَع الولادة والطَّلْق ﴿سَرِيًّا﴾ السَّرِيُّ: النهر والجدول(٥) لأن الماء يسرِي فيه ﴿فَرِيًّا﴾ الفَرِيُّ: العظيمُ من الأمر.

التفسير: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ حروفٌ مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن(٦) وتقرأ: «كافْ، هَا، يَا، عَيْنْ، صَادْ» ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي هذا ذكرُ رحمةِ ربِّك لعبدِهِ زكريا نقصُّه عليك يا محمد ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ أي حين ناجى ربه ودعاه بصوتٍ خفي لا يكاد يُسْمَع قال المفسرون: لأن الإخفاء في الدعاء أدخلُ في الإخلاص وأبعدُ من الرياء ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي دعا في ضراعة فقال يا رب: لقد ضعف عظمي، وذهبتْ قوتي من الكِبر ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي انتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي لم تخيّب دعائي في وقت من الأوقات بل عوَّدْتَني الإحسان والجميل فاستجب دعائي الآن كما كنت تستجيبه فيما مضى قال

---

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٨٣.

(٢) (ش): حَنَّتِ الناقةُ: مَدَّتْ صوتَها شَوقًا إلَى ولدها.

(٣) (ش): الذي فيتفسير «القرطبي» (١١/ ٨٧): وَالْعَرَبُ تَقُولُ: حَنَانَكَ يَا رَبِّ وَحَنَانَيْكَ يَا رَبِّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ، تُرِيدُ رَحْمَتَكَ.

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ١٧٧. (ش): أبو المنذر هو الحارث بن عباد من بني بكر بن وائل. شهد حرب البسوس بين قوم بكر بن وائل وتغلب بن وائل، وكان قد اعتزلها بقومه وأهل بيته ومَن أطاعه من قبائل بكر حتى أسرف المهلهل في القتل وقتل ولده جبيرًا فلما علم بذلك ثارت به الحمية ونادى في قومه للحرب، وقال قصيدة طويلة تزيد عن مائة بيت، وجمع الحارث بن عباد قومه وبكر بن وائل لمواجهة تغلب. وحلف الحارث ألا يصالح بني تغلب حتى تُكلِّمه الأرض، فلما كثرت وقائعه في تغلب ورأوا أنهم لا يستطيعون حرْبَه حفروا سربًا (أي نَفَقًا). تحت الأرض وأدخلوا فيه رجلاً وقالوا له: إذا مر بك الحارث فغَنِّ بهذا البيت:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا ... حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

فلما مر الحارث به قال الرجل هذا البيت، فأمسك الحارث عن حربهم واصطلحت قبيلتا بكر وتغلب وانتهت حرب البسوس.

(٥) (ش): الجَدْوَل: مجرَى صغير متفرِّعٌ من نهر، أو يُشَقّ في الأرض للسَّقْي.

(٦) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة.

«البيضاوي»: هذا توسلٌ بما سلف له من الاستجابة، وأنه تعالى عوَّده بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حقّ الكريم أن لا يخيِّب من أطمعه[1] ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ أي خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيّعوا الدين ولا يُحسنوا وراثة العلم والنبوة ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي لا تلد لكبر سنها أو لم تلدْ قطُّ ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً يتولاني ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي يرثني ويرث أجداده في العلم والنبوة قال «البيضاوي»: المراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورّثون المال[2] ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي اجعله يا رب مرضيًّا عندك قال «الرازي»: قدّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة: **أحدها**: كونه ضعيفاً، **والثاني**: أن الله ما ردَّ دعاءه البتة، **والثالث**: كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ثم صرَّح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة[3] ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ أي نبشرك بواسطة الملائكة بغلام يسمى يحيى كما في آل عمران ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩] ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم يسمَّ أحدٌ قبله بيحيى فهو اسم فذٌّ غير مسبوق سمّاه تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه وقال مجاهد: ليس له شبيه في الفضل والكمال ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ أي كيف يكون لي غلام؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابها فكيف وهي الآن عجوز! ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي بلغتُ في الكبر والشيخوخة نهاية العمر قال المفسرون: كان قد بلغ مائةً وعشرين سنة، وامرأتهُ ثمان وتسعين سنة، فأراد أن يطمئنَّ ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ أي قال الله لزكريا: هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين، وخلقه وإيجادُه سهلٌ يسيرٌ عليَّ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أي كما خلقتُك من العدم ولم تكُ شيئاً مذكوراً فأنا قادر على خلق يحيى منكما قال المفسرون: ليس في الخلق هينٌ وصعبٌ على الله، فوسيلة الخلق للصغير والكبير، والجليل والحقير واحدةٌ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وإنما هو أهونُ في اعتبار الناس، فإن القادر على الخلق من العدم قادرٌ على الخلق من شيخين هرمين ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي علامتك ألا

(١) «البيضاوي» ٢/ ١٤
(٢) «البيضاوي» ٢/ ١٤.
(٣) «التفسير الكبير» ٢١/ ١٨١.

تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويُّ الخلق ليس بك خرسٌ ولا علة قال ابن عباس: اعتُقِل لسانه من غير مرض وقال ابن زيد: حُبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة لم يكن الإنجيل ظهر بعد لأن هذا قبل ولادة عيسى عليه السلام فإذا أراد الناس لم يستطع أن يكلمهم[1] ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي أشرف عليهم من المصلّى وهو بتلك الصفة ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي أشار إلى قومه بأن سبِّحوا الله في أوائل النهار وأواخره، وكان كلامه مع الناس بالإشارة لقوله تعالى في آل عمران ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام حذفٌ والتقدير فلما ولد يحيى وكبر وبلغ السن الذي يؤمر فيه قال الله له: يا يحيى خذ التوراة بجد واجتهاد ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي أعطيناه الحكمة ورجاحة العقل منذ الصغر، روي أن الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعبُ فقال لهم: ما للَّعب خُلقت، وقيل: أعطي النبوة منذ الصغر، والأول أظهر قال «الطبري»: المعنى أعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال[2] ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ أي فعلنا ذلك رحمة منا بأبويه وعطفاً عليه وتزكيةً له من الخصال الذميمة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي عبداً صالحاً متقياً لله، لم يهمَّ بمعصيةٍ قط قال ابن عباس: طاهراً لم يعمل بذنب ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي جعلناه باراً بأبيه وأمه محسناً إليهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربه ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي سلام عليه من الله من حين مولده إلى حين مبعثه، في يوم ولادته وفي يوم موته ويوم يُبعث من قبره قال ابن عطية: حيَّاه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف، والحاجة، والافتقار إلى الله[3] ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة «ميلاد يحيى» لأنها ولادة عذراء من غير بعل، وهي أغرب من ولادة عاقرٍ من بعلها الكبير في السن. والمعنى اذكر يا محمد قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي حين تنحَّتْ واعتزلت أهلها في مكان شرقيّ بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي جعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي أرسلنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي تصوَّر لها في صورة البشر التام الخلقة قال ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعْدِ الشعر مستوى الخلقة قال المفسرون: إنما تمثل لها في

(١) «تفسير الطبري» ١٦/ ٥٢.
(٢) «تفسير الطبري» ١٦/ ٥٥.
(٣) «تفسير القرطبي» ١١/ ٨٨.

صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرتْ ولم تقدر على السماع لكلامه، ودلَّ على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة في الحسن ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أي فلما رأته فزعت وخشيتْ أن يكون إنما أرادها بسوء فقالت: إني أحتمي وألتجئ إلى الله منك، وجواب الشرط محذوفٌ تقديره إن كنت تقيًّا فاتركني ولا تؤذني ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ أي قال لها جبريل مزيلاً لما حصل عندها من الخوف: ما أنا إلا ملَكٌ مرسلٌ من عند الله إليك ليهبَ لك غلاماً طاهراً من الذنوب ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ أي كيف يكون لي غلام؟ وعلى أيّ صفةٍ يوجد هذا الغلام مني؟ ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ أي ولستُ بذاتِ زوج حتى يأتيني ولد ولستُ بزانية ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ أي كذلك الأمر حكم ربُّك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج، فإنَّ ذلك على الله سهل يسير ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ أي وليكون مجيئه دلالة للناس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثته نبيًّا يهتدون بإرشاده ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ أي وكان وجوده أمراً مفروغاً منه لا يتغير ولا يتبدل لأنه في سابق علم الله الأزلي ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء قال المفسرون: إن جبريل نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها فحملت به وتنحت إلى مكان بعيد. ومعنى الآية أنها حملت بالجنين فاعتزلت - وهو في بطنها - مكاناً بعيداً عن أهلها خشية أن يعيروها بالولادة من غير زوج ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي فألجأها ألم الطَّلق وشدة الولادة إلى ساق نخلةٍ يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي قالت: يا ليتني كنت قد مِتُّ قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يُعرف ولا يُذكر قال ابن كثير: عرفت أنها ستُبتلَى وتُمتحن بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ أي فناداها الملَكُ من تحت النخلة قائلاً لها: لا تحزني لهذا الأمر[1] ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ أي جعل لك جدولاً صغيراً يجري أمامك قال ابن عباس: ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت

(١) (ش): اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ مَنْ هُوَ؟ فَقِيلَ: جِبْرِيلُ، أَيْ: نَادَاهَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عِيسَى حَتَّى أَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا. وقيلَ: عِيسَى ابْنُهَا. أي نَادَاهَا الْمَوْلُودُ مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي يَا أُمَّهْ. قَالَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ [مَرْيَمَ: ٢٩]؟»، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ «الطبري» فِي «تَفْسِيرِهِ»، وقالَ: وَلَمْ تُشِرْ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّهُ نَاطِقٌ فِي حَالِهِ تِلْكَ، وَلِلَّذِي كَانَتْ قَدْ عَرَفَتْ وَوَثِقَتْ بِهِ مِنْهُ بِمُخَاطَبَتِهِ إِيَّاهَا بِقَوْلِهِ لَهَا: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾.

عين ماءٍ عذب فجرى جدولاً ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي حركي جذع النخلة اليابسة ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ أي يتساقط عليك الرُّطب الشهيُّ الطريُّ قال المفسرون: أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامة من الله لها ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾ أي كلي من هذا الرطب الشهي، واشربي من هذا الماء العذب السلسبيل ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ أي طيبي نفساً بهذا المولود ولا تحزني ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ أي فإن رأيتِ أحداً من الناس وسألك عن شأن المولود ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي نذرت السكوت والصمت لله تعالى ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ أي لن أكلّم أحداً من الناس.

أُمِرت بالكفّ عن الكلام ليكفيها ولدها ذلك فتكون آية باهرة ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥ﴾ أي أتتْ قومها بعد أن طهرت من النفاس تحمل ولدها عيسى على يديها ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ أي فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه وقالوا لها: لقد جئتِ شيئاً عظيماً مُنكراً ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾ أي يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة ما كان أبوك رجلاً فاجراً ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ أي وما كانت أمكِ زانية فكيف صدر هذا منك وأنت من بيت طاهر معروفٍ بالصلاح والعبادة؟ قال قتادة: كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبهوها[1] به، وليس بهارون أخي موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام وقال السهيلي: هارون رجل من عُباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تُشبّه به في اجتهادها وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهراً طويلاً[2] ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ أي لم تُجبْهم وأشارت إلى عيسى ليكلِّموه ويسألوه ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أي قالوا متعجبين: كيف نكلم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبان أمه؟ قال «الرازي»: روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان[3] ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أي قال عيسى في كلامه حين كلمهم: أنا عبدٌ لله خلقني بقدرته من دون أب، قدم ذكر العبودية، ليُبطل قول من ادّعى فيه الربوبية ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ أي قضى ربي أن يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبيًّا، وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادته تحققه فإن ما حكم به الله أزلاً لا بدَّ إلا أن يقع ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ أي جعل فيَّ البركة

(١) «تفسير الطبري» ١٦/ ٧٧.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٤٥٠.
(٣) «التفسير الكبير» ٢١/ ٢٠٨.

والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي أوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي وجعلني بارًّا بوالدتي محسنـًا لها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي ولم يجعلني متعظماً متكبراً على أحد شقيًّا في حياتي ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي سلام الله عليَّ في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، وفي يوم خروجي حياً من قبري، هذا ما نطق به المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع في المهد وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله، فليس هو إلهـًا، ولا ابن إله، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى، إنما عبدٌ ورسول، يحيا ويموت كسائر البشر، خلقه الله من أم دون أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة، ولهذا جاء التعقيب المباشر ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي ذلك هو القول الحقُّ في عيسى بن مريم لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله، أو اليهود من أنه ابن زنى ويشكّون في أمره ويمترون ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي ما ينبغي لله ولا يجوز له أن يتخذ ولداً ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أي تنزَّه الله عن الولد والشريك ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد شيئًا وحكم به قال له كنْ فكان، ولا يحتاج إلى معاناةٍ أو تعب، ومن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ قال المفسرون: وهذا كالدليل لما سبق كأنه قال: إن اتخاذ الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاج في اتخاذ الولد إلى إحبال الأنثى وحيث أوجده بقوله ﴿كُن﴾ لا يسمى ابناً له بل هو عبده، فهو تبكيتٌ وإلزام لهم بالحجج الباهرة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي وممّا أمرَ به عيسى قومَه وهو في المهد أن أخبرهم أن الله ربه وربهم فليفردوه بالعبادة هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلفت الفِرَقُ من أهل الكتاب في أمر عيسى وصاروا أحزابـًا متفرقين، فمنهم من يزعم أنه ابن الله، ومنهم من يزعم أنه ابن زنى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي ويلٌ لهم من المشهد الهائل ومن شهود هول الحساب والجزاء ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي لكن الظالمون في هذه الدنيا في بعدٍ وغفلة عن الحق واضح جلي ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أي أنذِر الخلائق وخَوِّفْهُم يوم القيامة يوم يتحسر المسيء إذ لم يُحسن، والمقصر إذ لم يزدد من الخير ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي قُضي أمرُ الله في الناس، فريقٌ في الجنة وفريق في السعير ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي وهم اليوم في غفلةٍ سادرون[1] ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بالبعث والنشور ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ

---

(١) (ش): سادِرٌ: مُستَهتِر، لا يهتمّ بما صَنع ولا يُبالي.

عَلَيْهَا﴾ أي نحن الوارثون للأرض وما عليها من الكنوز والبشر ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي مرجع الخلائق ومصيرهم إلينا للحساب والجزاء.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ – الكناية ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم.

٢ – الاستعارة ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبّه انتشار؛ الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب واستعير الاشتعال للانتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر ففيه استعارة تبعية.

٣ – الطباق بين ﴿وُلِدَ .. يَمُوتُ﴾.

٤ – جناس الاشتقاق ﴿نَادَىٰ .. نِدَآءً﴾.

٥ – الكناية اللطيفة ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع.

٦ – صيغة التعجب ﴿أَسْمِعْ .. وَأَبْصِرْ﴾.

٧ – السجع ﴿سَرِيًّا ، بَغِيًّا ، صَبِيًّا ، نَبِيًّا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: في يوم القيامة تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم ممحض للحسرة لا شيء فيه سواها، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون – أي يمدون أعناقهم – وينظرون ويقولون نعم هذا الموت، ثم يقال، يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، فيؤمر به فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ..﴾ الآية.

قال الله تعالى:

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ
وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾
يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ
ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ
وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ
لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ
صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي

ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن
ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ
خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ
غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ
ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً
وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا
وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ
لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا

المنَاسَبَة: لمَّا ذكر تعالى «قصة مريم» واختلاف النصارى في شأن عيسى حتى عبدوه من دون الله، أعقبها بذكر «قصة إبراهيم» وتحطيمه الأصنام لتذكير الناس بما كان عليه خليل الرحمن من توحيد الربّ الديّان، وسواء في الضلال من عبد بشراً أو عبد حجراً، فالنصارى عبدوا المسيح، ومشركو العرب عبدوا الأوثان.

اللغَة: ﴿صِدِّيقًا﴾ من أبنية المبالغة ومعناه كثير الصدق ﴿مَلِيًّا﴾ دهراً طويلاً من قولهم: أمليتُ لفلان في الأمر إذا أطَلْتُ له، قال الشاعر:

فَتَصَدَّعَتْ شُمُّ الْجِبَالِ لِمَوْتِهِ ... وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمُرْمَلَاتُ مَلِيًّا [(١)]

﴿حَفِيًّا﴾ الحفيُّ: المبالغ في البر واللطف به ﴿خَلْفٌ﴾ الخَلْف: بسكون اللام الذي يخلف سلفه بالشر، وبفتحها الذي يخلفه بالخير، يقال: جعلك الله خير خلَفٍ لخير سلَف، وقال الشاعر:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ ... وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ [(٢)]

﴿غَيًّا﴾: شرًّا وضلالاً قال أهل اللغة: كل شر عند العرب فهو غي، وكل خير فهو رشاد.

سَبَبُ النّزول: عَن ابْنِ عَبَّاس – رضى الله عنهما– قَالَ قال رسول الله ﷺ: «يَا جِبْرِيلُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» فنزَلَتْ الآيَةُ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية»[(٣)].

التفسِير: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب العزيز خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أي ملازماً للصدق مبالغاً فيه، جامعاً بين

---

(١) «البحر المحيط» ٦/ ١٩٥. (ش): شَمَّ الجبلُ ونحوُه: ارتفع أعلاه. أرملَتْ المرأةُ: مات زوجُها.
(٢) البيت للبيد كذا في «الرازي» ٢١/ ٢٣٥. (ش): كنف: رعاية. يتحسر الشاعر لِفَقْد ذوي المروءَة، والمصير إلى لئام لا خيرَ فيهم.
(٣) أخرجه البخاري.

الصّديقيـة والنبوة والغرضُ تنبيه العـرب إلى فضل إبراهيم الذي يزعمون الانتسـاب إليه ثـم يعبـدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء وقد جاء بالتوحيـد الصافي الذي دعاهم إليه خاتم المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي ناداه متلطفاً بخطابـه، مسـتميلاً له نحو الهدايـة والإيمان، يا أبـتِ لم تعبدُ حجراً لا يسـمع ولا يبصر، ولا يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك ضرًّا؟ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ كرّر النصح باللطف ولم يصف أباه بالجهل الشـنيع في عبادتـه للأصنام وإنما ترفق وتلطف في كلامـه أي جـاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسـية مـا لا تعلمه أنت ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي اقبل نصيحتي وأطعني أُرْشِـدْك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهو دين الله الذي لا عِوَجَ فيه ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي لا تُطِعْ أمرَ الشيطان في الكفر وعبـادة الأوثان ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي إن الشـيطان عاصٍ للرحمن، مسـتكبرٌ علـى عبادة ربه، فمن أطاعه أغواه، قـال «القرطبي»: وإنما عبّر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شـيئاً في معصية الله فقد عبـده[1] ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ تحذيرٌ من سـوء العاقبة. والمعنى أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قريناً للشيطان بالخلود في النيران قال الإمام الفخر: وإيراد الكلام بلفـظ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ في كل خطـاب دليـل على شـدة الحـب والرغبة في صونه عـن العقاب، وإرشاده إلى الصواب، وقد رتَّب إبراهيم الكلام في غاية الحسن، لأنه نبَّهه أولاً إلى بطلان عبـادة الأوثـان، ثم أمره باتباعه في الاسـتدلال وتـرك التقليد الأعمى، ثم ذكَّـره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفـق، وقولـه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ دليلٌ على شـدة تعلق قلبـه بمصالحه قضاءً لحـق الأبوَّة[2] ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي قـال لـه أبوه آزر: أتارك يـا إبراهيم عبادة آلهتي ومنصـرفٌ عنها؟ اسـتفهامٌ فيه معنى التعجـب والإنكار لإعراضه عن عبـادة الأوثان كأنَّ تَرْكَ عبادتِها لا يَصْدُر عن عاقل[3] قال «البيضاوي»: قابل أبوه استعطافَه ولُطفه في الإرشاد بالفظاظـة وغلظة العناد، فناداه باسـمه ولم يقابل قوله ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بـ «يـا ابني» وقدَّم الخبر وصـدَّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبـة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل، ثم هدَّده بقوله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لئـن لم تترك شـتم وعيب آلهتـي لأرجمنك بالحجارة ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أي اهجـرني دهـراً طويلاً قال السـديُّ: أبداً. بهـذه الجهالة تلقـى «آزرُ» الدعوة إلى

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ١١١.
(٢) «التفسير الكبير» ٢١/ ٢٢٦.
(٣) «البيضاوي» ٢/ ١٧.

الهدى، وبهذه القسوة قابل القول المؤدَّب المهذَّب، وكذلك شأن الكفر مع الإيمان، وشأن القلب الذي هذَّبه الإيمان، والقلب الذي أفسده الطغيان ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أي قال إبراهيم في جوابه: أمَّا أنا فلا ينالك مني أذى ولا مكروه، ولا أقول لك بَعْدُ ما يؤذيك لحُرمَة الأُبُوَّة، وسأسأل الله أن يهديك ويغفر لك ذنبك[١]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي مبالغاً في اللطف بي والاعتناء بشأني ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أترككم وما تعبدون من الأوثان وأرتحل عن دياركم ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي وأعبد ربي وحده مخلصاً له العبادة ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي راجياً بسبب إخلاصي العبادة له ألاَّ يجعلني شقيًّا، وفيه تعريضٌ بشقاوتهم بدعاء آلهتم. وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم للأوثان، وهجر الأهل والأوطان، فلم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذرية وعوَّضه خيراً ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال المفسرون: لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام، واعتزل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خيرٌ منهم، فوهب له إسحاق ويعقوبُ أولاداً أنبياء، فآنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار، ويعقوب ابن اسحاق، وهما شجرتا الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل قال ابن كثير: المعنى جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته بالنبوة[٢] ولهذا قال ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي كل واحدٍ منهما جعلناه نبيًّا ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ أي أعطينا الجميعَ - إبراهيم وإسحاق ويعقوب - كل الخير الديني والدنيوي، من المال والولد والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس، لأن جميع أهل الملل والأديان يثنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية، ويُصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة، قال «الطبري»: أي رزقناهم الثناء الحسن، والذكر الجميل في الناس[٣] ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك في القرآن العظيم خبر موسى الكليم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي استخلصه الله لنفسه، واصطفاه من بين الخلق لكلامه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أي من الرسل الكبار، والأنبياء الأطهار، جمع الله له بين الوصفين الجليلين، وإنما أعاد لفظ «كان» لتفخيم شأن النبي المذكور ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي نادينا موسى من جهة جبل الطور من ناحية

---

(١) (ش): قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

(٢) «المختصر» ٢/ ٤٥٤.

(٣) «تفسير الطبري» ١٦/ ٩٣.

اليمين حين كلمناه بلا واسطة ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي أدنَيْناه للمناجاة حين كلَّمْناه قال ابن عباس: أُدني موسى من الملكوت ورُفعت له الحُجب حتى سمع صريف الأقلام[1] قال الزمخشري: شبّهه بمن قرَّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلَّمه بغير واسطة ملك ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ أي وهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعائه حين قال ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه: ٢٩ - ٣٠] جعلناه له عضداً وناصراً ومعيناً ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ أي اذكر يا محمد في القرآن العظيم خبر جدّك «إسماعيل» الذبيح ابن إبراهيم، وهو أبو العرب جميعاً ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ أي كان صادقاً في وعده، لا يعد بوعدٍ إلا وفى به قال المفسرون: وذُكر بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً وإكراماً، ولأنه عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أي جمع الله له بين الرسالة والنبوة قال ابن كثير: وفي الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة[2]، ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين محمد ﷺ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي كان يحث أهله على طاعة الله، وبخاصة الصلاة التي هي عماد الدين، والزكاة التي بها تتحقق سعادة المجتمع ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ أي نال رضى الله قال «الرازي»: وهذا نهاية المدح لأن المرضيَّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات[3] ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب الجليل خبر إدريس إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله، مُوحًى إليه من الله قال المفسرون: إدريس هو جدُّ نوح، وأول مرسل بعد بعد آدم، وأول من خط بالقلم ولبس المخيط، وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي رفعنا ذكره وأعلينا قدره، بشرف النبوة والزلفى عند الله[4] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي أولئك المذكورون هم أنبياء الله ورسله الكرام، الذين قصصنا عليك خبرهم في هذه السورة - وهم عشرة أولهم زكريا وآخرهم إدريس - وهم الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ أي من نسل آدم كإدريس

---

(١) «البحر المحيط» ٦/ ١٩٩. (ش): صريف الأقلام: صوتُها. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] قَالَ: «سَمِعَ صَرِيفَ الْقَلَمِ حِينَ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ» [رواه الحاكم في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي].

(٢) «المختصر» ٢/ ٤٥٦.

(٣) «الفخر الرازي» ٢١/ ٢٣٢.

(٤) وقيل المراد رفعه إلى السماء الرابعة. (ش): قال ﷺ في حديث الإسراء: ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ» [رواه البخاري ومسلم].

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ كإبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل وهو «يعقوب» كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ أي وممن هديناهم للإيمان واصطفيناهم لرسالتنا ووحينا ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي إذا سمعوا كلام الله سجدوا وبكوا من خشية الله مع ما لهم من علو الرتبة، وسموِّ النفس، والزلفى من الله تعالى، قال «القرطبي»: وفي الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيراً في القلوب[1] ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ أي جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قومٌ أشقياء، تركوا الصلوات وسلكوا طريق الشهوات ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي سوف يلقون كل شرٍّ وخسارٍ ودمار، قال ابن عباس: غيٌّ وادٍ في جهنم، وإن أودية جهنم لَتستَعيذُ بالله مِن حَرِّه[2] ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح عمله ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي فأولئك يُسعدون في الجنة ولا يُنقصون من جزاء أعمالهم شيئاً ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي هي جنات إقامة التي وعدهم بها ربهم فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها تصديقاً بوعده تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي إن وعده تعالى بالجنة آتٍ وحاصلٌ لا يُخلف ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام، لكِنْ يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام، والاستثناء منقطع[3] ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب بدون كدٍّ ولا تعب، ولا تنغص ولا انقطاع ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها هي التي نورثها لعبادنا المتقين ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ هذا من كلام جبريل لرسول الله ﷺ حين احتبس عنه فترةً من الزمن. والمعنى: ما نتنزَّل إلى الدنيا إلا بأمر الله وإذنه ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي لله جل وعلا جميع الأمر، أمر الدنيا والآخرة، وهو المحيط بكل شيء لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل شيء إلا بأمره وإذنه؟ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي لا ينسى شيئاً من أعمال العباد ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ﴾ أي هو ربُّ العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي هل تعلم له شبيهاً ونظيراً؟

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ١٢٠.
(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ١٢٥.
(٣) (ش): الاستثناء المُنْقَطِعُ: هو ما كانَ المُسْتَثْنَى ليس مِنْ نَوْعِ المُسْتَثْنَى منه نحو: جَاء بَنُوكَ إلاَّ ابنَ خالد» يعني جاء بنوك لكنَّ ابنَ خالد لم يأتِ.

البَلَاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الكناية اللطيفة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ كنَّى عن الذكر الحسن والثناء الجميل باللسان، لأن الثناء يكون باللسان فلذلك قال ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ كما يكنى عن العطاء باليد.

٢ - الاستعارة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ شبَّه المكانة العظيمة والمنزلة السامية بالمكان العالي بطريق الاستعارة.

٣ - المبالغة ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أي مبالغاً في الصدق.

٤ - الإشارة بالبعيد لعلو المرتبة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ﴾ فما فيه من معنى البعد للإشادة بعلو رتبهم وبُعد منزلتهم في الفضل.

٥ - الجناس الناقص ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ لتغير الحركات والشكل.

٦ - الطباق ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً .. وَعَشِيًّا﴾.

٧ - السجع الحسن الرصين ﴿عَلِيًّا، حَفِيًّا، نَبِيًّا﴾.

فائِـدَة: في قول إبراهيم عليه السلام «يا أبتِ» تلطفٌ واستدعاء، والتاء عوضٌ عن ياء الإضافة لأن أصله «يا أبي» ولهذا لا يُجمع بينهما.

تنبيه: ذكر السيوطي في «التحبير» أن إبراهيم عليه السلام عاش من العمر مائة وخمساً وسبعين سنة، وبينه وبين آدم ألفا سنة، وبينه وبين نوح ألف سنة، ومنه تفرعت شجرة الأنبياء.

قال الله تعالى:

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ
شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ
مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ
إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا
رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ
اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي
كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ
سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ

تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ
نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ
إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾
لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ
وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا

المناسَبَة: لما ذكر تعالى طائفةً من قصص الأنبياء للعظة والاعتبار، وكان الغرضُ الأساسي للسورة الكريمة إثبات قدرة الله على الإحياء والإفناء، وإثباتَ يوم المعاد، ذكر تعالى هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور وردَّ عليها بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، وختم السورة الكريمة ببيان مآل السعداء والأشقياء.

اللغَة: ﴿جِثِيًّا﴾ جمع جاثٍ يقال: جثا إذا قعد على ركبتيه من شدة الهول وهي قعدة الخائف الذليل، قَالَ الْكُمَيْتُ:

هُمْ تَرَكُوا سَرَاتَهُمْ جِثِيًّا وَهُمْ دُونَ السَّرَاةِ مُقَرَّنِينَا [1]

﴿عِتِيًّا﴾ عصياناً وتمرداً عن الحق ﴿نَدِيًّا﴾ النَّدِيُّ والنادي: الذي يجتمع فيه القوم للتحدث والمشورة قال الجوهري: النَّدِيُّ مجلس القوم ومُتَحَدَّثُهم[2] وكذلك الندوة والنادي فإن تفرقوا فليس بنَدِيٍّ[3] ﴿أَثَٰثًا﴾ الأثاث: متاع البيت ﴿وَرِءْيًا﴾ منظراً حسناً ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ الأزُّ: التهييجُ والإغراء، قال أهل اللغة: الأزُ والهزُّ والاستفزاز متقاربة ومعناها التهييج وشدة الإزعاج، ومنه أزيز المِرجل وهو غليانه وحركته ﴿وَفْدًا﴾ جمع وافد وهو الذي يَقْدُمُ على سبيل التكرمة معزَّزاً مكرَّماً ﴿وِرْدًا﴾ مُشاةً عِطاشاً قال «الرازي»: والورد اسم للعطاش لأن مَن يَرِدُ الماء لا يَرِدُه إلا للعطش[4] ﴿إِدًّا﴾ منكراً عظيماً قال الجوهري: الإِدُّ: الداهية والأمر الفظيع ﴿رِكْزًا﴾ الركز: الصوت الخفي.

سَببُ النّزول: عن خباب بن الأرت قال: كنتُ رجلاً قيناً - أي حداداً - وكان لي على

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ١٣٣. (ش): سَراة: جمع سَرِيّ: شريف، كريم الحسب، صاحب مروءة وسخاء. (مُقرَّن): مُكبَّل: مُقيَّد بالسلاسل والحبال، ونحوها.
(٢) (ش): مُتَحَدَّثُهم: مكان تَحَدُّثِهِم.
(٣) «الصحاح» للجوهري.
(٤) «التفسير الكبير» ٢١/ ٢٥٢.

العاص بن وائل دينٌ فأتيتُه أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث - أي تموت الآن وتبعث أمامي وهذا من باب المستحيل - قال: فإني إذا متُّ ثم بُعثتُ جئتني ولي ثمَّ مالٌ فأعطيتك فأنزل الله ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[١].

التفسير: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي يقول الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت على وجه الإنكار والاستبعاد: أئذا متُّ وأصبحتُ تراباً ورفاتاً فسوف أخرج من القبر حيًّا؟ قال ابن كثير: يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته[٢]، واللام «لسوف» للمبالغة في الإنكار، وهو إنكار منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى، أين كان؟ وكيف كان؟ ولو تذكّر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي أولا يتذكر هذا المكذّب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداءة على الإعادة؟ ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادرٌ على أن يعيده بعد الفناء وتشتت الأجزاء؟ قال بعضُ العلماء: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجةٍ في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها، إذْ لا شكَّ أنَّ الإعادة ثانياً أهونُ من الإيجاد أولاً[٣]، ونظيره قوله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ أي فوربك يا محمد لنحشرنَّ هؤلاء المكذبين بالبعث مع الشياطين الذين أغووهم قال المفسرون: يُحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي نحضر هؤلاء المجرمين حول جهنم قعوداً على الرُّكَب من شدة الهول والفزع، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي لنأخذنَّ ولننتزعنَّ من كل فرقةٍ وجماعة ارتبطت بمذهب ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا﴾ أي من منهم أعصى لله وأشد تمرداً، والمراد أنه يؤخذ من هؤلاء المجرمين ليقذف في جهنم الأعتى فالأعتى قال ابن مسعود: يُبدأ بالأكابر جرماً ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي نحن أعلم بمن هم أحق بدخول النار والاصطلاء بحرها وبمن يستحق تضعيف العذاب فنبدأ بهم ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي ما منكم أحدٌ من برٍّ أو فاجر إلا وسيرد على النار، المؤمن للعبور والكافر للقرار ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي كان ذلك الوُرُود[٤] قضاءً لازماً لا يمكن خُلفه ﴿ثُمَّ

(١) البخاري ومسلم وانظر سبب النزول ١٧٣.

(٢) «المختصر» ٢/ ٤٦٠.

(٣) «الفخر الرازي» ٢١/ ٢٤١.

(٤) اختلف علماء السلف في معنى الورود فقال ابن عباس: الورود الدخول، لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخَلها فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، وقال ابن مسعود وقتادة: الورود: المرور عليها حين اجتياز الصراط، ولعل هذا أصح أجارنا الله من جهنم.

﴿نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي ننجّي من جهنم المتقين بعد مرور الجميع عليها ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي ونترك الظالمين في جهنم قعوداً على الرُّكَب قال «البيضاوي»: والآية دليلٌ على أن المراد بالورود الجثُوُّ حوالَيْها، وأن المؤمنين يفارقون الفجَرة إلى الجنة بعد نجاتهم[١]، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم[٢] ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين، واضحات الإعجاز، بينات المعاني ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين أيُّ الفريقين: - نحن أو أنتم - أحسنُ مسكناً، وأطيب عيشاً، وأكرم منتدى ومجلساً؟ قال «البيضاوي»: إن المشركين لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا، والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم لقصور نظرهم[٣]، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي وكثير من الأمم المكذبين بآياتنا أهلكناهم بكفرهم كانوا أكثر من هؤلاء متاعاً، وأجمل صورةً ومنظراً، فكما أهلكْنا السابقين نُهلِكِ اللاحقين، فلا يغترُّ هؤلاء بما لديهم من النعيم والمتاع ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أنهم على حق: من كان في الضلالة منا ومنكم فليُمْهِلْه الرحمن فيما هو فيه، ولْيَدَعْه في طغيانه، حتى يلقَى ربه وينقضِيَ أجلُه قال «القرطبي»: وهذا غايةٌ في التهديد والوعيد[٤] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي حتى يروا ما يحلُّ بهم من وعد الله ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي إمَّا عذاب الدنيا بالقتل والأسر، أو عذاب الآخرة بما ينالهم يوم القيامة من الشدائد والأهوال ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي فسيعلمون عندئذ حين تنكشف الحقائق أي الفريقين شرٌّ منزلة عند الله، وأقل فئة وأنصاراً، هل هم الكفار أم المؤمنون؟ وهذا في مقابلة قولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ أي ويزيد الله المؤمنين المهتدين، بصيرةً وإيماناً وهداية ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ذخراً في الآخرة خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض من حيث الأجر والثواب ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي وخير رجوعاً وعاقبة، فإن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ دائم ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١) (ش): الذي في تفسير «البيضاوي»: بعد تَجاثِيهِمْ. أي إن المؤمنين يفارقون الفجَرة بعد اشتراك المؤمنين في التجاثِي عَلَى الرُّكَب مع الفَجرة.

(٢) «البيضاوي» ٢/ ١٩.

(٣) «البيضاوي» ٢/ ٢٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ١١/ ١٤٤.

﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ نزلت في العاص بن وائل[١]، والاستفهام للتعجب أي تعجَّب يا محمد من قصة هذا الكافر الذي جحد بآيات الله وزعم أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ أي هل اطَّلع على الغيب الذي تفرَّد به علاّم الغيوب؟ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي أم أعطاه الله عهداً بذلك فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين؟ ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ردٌّ عليه، ولفظةُ «كلا» للردع والزجر أي ليرتدع ذلك الفاجر عن تلك المقالة الشنيعة فسنكتب ما يقول عليه ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه، ونضاعف له مدد العذاب مكان الإمداد بالمال والولد ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي ونرثه وما يخلفه من المال والولد بعد إهلاكه، ويأتينا وحيداً لا مال معه ولا ولد، ولا نصير له ولا سند ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ أي واتخذ المشركون أصناماً عبدوها من دون الله لينالوا بها العزَّ والشرف ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا فإن الآلهة التي عبدوها ستبرأ من عبادتهم ويكونون له أعداء يوم القيامة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي ألم تر يا محمد أنَّا سلَّطنا الشياطين على الكافرين تُغريهم إغراء بالشر، وتهيّجُهم تهييجاً حتى يركبوا المعاصي قال «الرازي»: أي تغريهم على المعاصي وتحثُّهم وتهيّجهم لها بالوساوس والتسويلات[٢] ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي لا تتعجل يا محمد في طلب هلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدُّها عليهم عدًّا ثم يصيرون إلى عذاب شديد قال ابن عباس: نعدُّ أنفاسهم في الدنيا كما نعدُّ عليهم سنيَّهم[٣] ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي يوم نحشر المتقين إلى ربهم معزَّزين مكرَّمين، راكبين على النوق كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي ونسوق المجرمين كما تُساق البهائم مشاةً عطاشاً كأنهم إبلٌ عطاش تُساق إلى الماء وفي الحديث «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلاثِ طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ وراهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ وتُحْشُرُ بَقِيَّتَهُمْ إلى النَّارِ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا»[٤] ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي لا يشفعون ولا يُشفع

---

(١) انظر سبب النزول المتقدم.

(٢) «التفسير الكبير» ٢١/ ٢٥٢. (ش): سوَّلَ له الشَّرَّ: أغْرَاه به، حبَّبه إليه وسهّله له.

(٣) «تفسير القرطبي» ١١/ ١٥٠.

(٤) أخرجه الشيخان. (ش): (ثلاثِ طَرَائِقَ): ثلاث فِرَقٍ. قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَهَذَا الْحَشْرُ فِي آخِرِ الدُّنْيَا قُبَيْلَ الْقِيَامَةِ قُبَيْلَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﷺ: «وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ تَبِيتُ مَعَهُمْ وَتَقِيلُ وَتُصْبِحُ وَتُمْسِي» وَهَذَا آخِرُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَمَا قال ﷺ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ». فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ =

لهم ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾ الاستثناء، منقطع أي: لكِنْ من تحلّى بالإيمان والعمل الصالح فإنه يملك الشفاعة قال ابن عباس: العهدُ «شهادة أن لا إله إلا الله» ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾ أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ أي لقد أتيتم أيها المشركون بقولٍ منكر عظيم تناهى في القُبْح والشناعة ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ أي تكاد السماوات تتشقّق من هول هذا القول ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ أي وتنشقُّ كذلك الأرض وتندكُّ الجبال وتُهدُّ هدًّا استعظامًا للكلمة الشنيعة ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ أي ما يليق به سبحانه اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضي المجانسة ويكون عن حاجة، وهو المنزَّه عن الشبيه والنظير، والغني عن المعين والنصير ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ أي ما من مخلوقٍ في هذا العالم العلوي والسفلي إلا وهو عبدٌ لله، ذليلٌ خاضعٌ بين يديه، منقادٌ مطيع له كما يفعل العبيد ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ أي علم عددهم وأحاط علمه بهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ أي وكل فردٍ يأتي يوم القيامة وحيداً فريداً، بلا مالٍ ولا نصير، ولا معين ولا خفير[(١)] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ لما ذكر أحوال المجرمين ذكر أحوال المؤمنين والمعنى سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودة قال الربيع: يحبُّهم ويحببهم إلى الناس ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ أي فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك العربي تقرؤه، وجعلناه سهلاً يسيراً لمن تدبره، لتبشّر به المؤمنين المتقين، وتخوّف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ أي كم من الأمم الماضية أهلكناهم بتكذيبهم الرسل، و «كم» للتكثير

= الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ. [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].
(رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ) هِيَ الطَّرِيقَةُ الْأُولَى. (وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ) هِيَ الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ...) هَذِهِ الطَّرِيقَةُ الثَّالِثَةُ. (تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى مُلَازَمَةِ النَّارِ لَهُمْ إِلَى أَنْ يَصِلُوا إِلَى مَكَانِ الْحَشْرِ.
(وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ إِلَخْ) يُرِيدُ أَنَّهُمْ يَعْتَقِبُونَ الْبَعِيرَ الْوَاحِدَ يَرْكَبُ بَعْضٌ وَيَمْشِي بَعْضٌ، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرِ الْخَمْسَةَ وَالسِّتَّةَ إِلَى الْعَشَرَةِ إِيجَازًا وَاكْتِفَاءً بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْأَعْدَادِ. وَالِاعْتِقَابُ لَيْسَ مَجْزُومًا بِهِ وَلَا مَانِعَ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ فِي الْبَعِيرِ مَا يَقْوَى بِهِ عَلَى حَمْلِ الْعَشَرَةِ [انظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٩٤- ١٩٥)، فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٧٩)].

(١) (ش): خفير: حارس.

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي هل ترى منهم أحداً؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي أو تسمع صوتاً خفيًّا؟ والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم الديار، وأوحشت منهم المنازل، فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - ذكر العام وإرادة الخاص ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ﴾ المراد به الكافر لأنه هو المنكر للبعث.

٢ - الطباق بين ﴿مِتُّ.. حَيًّا﴾ وبين ﴿لِتُبَشِّرَ.. وَتُنذِرَ﴾.

٣ - الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ﴾.

٤ - المقابلة اللطيفة بين المتقين والمجرمين وبين حال الأبرار والأشرار ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

٥ - الجناس غير التام ﴿وَفْدًا.. وِرْدًا﴾ لتغير الحرف الثاني.

٦ - اللف والنشر المرتب في ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ حيث رجع الأول إلى ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ والثاني إلى ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ كما يوجد بين ﴿خَيْرٌ.. شَرٌّ﴾ طباق.

٧ - المجاز العقلي ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي نأمر الملائكة بالكتابة فهو من إسناد الشيء إلى سببه.

٨ - السجع الرصين مثل ﴿عَبْدًا، عَدًّا، فَرْدًا، وُدًّا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

فَائِدَة: أخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال: إني أحبُّ فلاناً فأحبَّه فيحبُّه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء..» الحديث وهو مصداق قوله تعالى ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

لطيفَة: روي أن المأمون قرأ هذه الآية ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ وعنده جماعة من الفقهاء فيهم ابن السماك فأشار إليه المأمون أن يعظه فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد قال الشاعر:

حَيَاتُكَ أَنْفَاسٌ تُعَدُّ فَكُلَّمَا ... مَضَى نَفَسٌ مِنْكَ انْتَقَصْتَ بِهِ جُزْءَا

«تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم»





مكية وآياتها خمس وثلاثون ومائة

بين يدي السورة

سورة طه مكية، وهي تبحث عن نفس الأهداف للسور المكية، وغرضُها تركيز أصول الدين «التوحيد، والنبوة، والبعث والنشور».

* في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ، في شد أزره، وتقوية روحه، حتى لا يتأثر بما يُلقى إليه من الكيد والعناد، والاستهزاء والتكذيب، لإرشاده إلى وظيفته الأساسية، وهي التبليغ والتذكير، والإنذار والتبشير، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان.

* عرضت السورة لقصص الأنبياء، تسلية لرسول الله ﷺ وتطميناً لقلبه الشريف، فذكرت بالتفصيل قصة «موسى مع هارون» مع فرعون الطاغية الجبار ويكاد يكون معظم السورة في الحديث عنها وبالأخص موقف المناجاة بين موسى وربه، وموقف تكليفه بالرسالة، وموقف الجدال بين موسى وفرعون، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة، وتتجلى في ثنايا تلك القصة رعايةُ الله لموسى، نبيّه وكليمه، وإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين.

* وعرضت السورة لقصة آدم بشكل سريع خاطف، برزت فيه رحمة الله لآدم بعد الخطيئة، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر.

* وفي ثنايا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة، في عبارات يرتجف لها الكون، وتهتز لها القلوب هَلعًا وجزعًا، ويعتري الناس الذهولُ والسكون ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر، حيث يتم الحساب العادل، ويعود الطائعون إلى الجنة، ويذهب العصاة إلى النار، تصديقاً لوعد الله الذي لا يتخلف، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين.

* وختمت ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله.

التسمية: سمت «سورة طه» وهو اسم من أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام[١]، تطييبًا لقلبه، وتسلية لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد، ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ
وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا
تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ
﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم
مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ
بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا
يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ
عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾
فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ
يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ
فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾
يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ
نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا
عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ
بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ
فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ
ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ

اللغة: ﴿بِقَبَسٍ﴾ القَبسُ: شعلةٌ من نار ﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ المطهَّر والمبارك ﴿طُوٗى﴾ اسم للوادي ﴿فَتَرۡدَىٰ﴾ تهلك والردى: الهلاك ﴿وَأَهُشُّ﴾ أخبط بها الشجر ليسقط الورق ﴿مَـَٔارِبُ﴾ جمع مأربة وهي الحاجة ﴿جَنَاحِكَ﴾ الجناح: الجَنب وجناحا الإنسان جنباه لأن يدي الإنسان يشبهان جناحي الطائر ﴿أَزۡرِي﴾ الأزر: القوة يقال: آزره أي قوّاه ومنه

(١) (ش): لم يذكر المؤلف دليلاً على ذلك، مع أنه قال بعد ذلك في تفسيرها: إن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، فكيف يكون (طه) اسمًا للرسول ﷺ ويكون حروفًا مقطعة.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ [الفتح: ٢٩] قال الشاعر:

أَلَـيْـسَ أَبُـونَـا هَـاشِـمٌ شَـدَّ أَزْرَهُ وَأَوْصَى بَنِيهِ بِالطِّعَانِ وَبِالضَّرْبِ[١]

﴿ٱلۡيَمِّ﴾ البحر ﴿تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ تُسَرَّ بلقائك.

التفسير: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه إلى إعجاز القرآن وقال ابن عباس: معناها يا رجل، ومعنى الآية: ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن[٢] لتشقى به إنما أنزلناه رحمة وسعادة، رُوي أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلّى هو وأصحابه فأطال القيام فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فنزلت هذه الآية[٣] ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ أي ما أنزلناه إلا عظة وتذكيراً لمن يخشى الله ويخاف عقابه، وهو المؤمنُ المستنير بنور القرآن ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ أي أنزله خالقُ الأرض، ومبدعُ الكون، ورافع السماوات الواسعة العالية، والآية إخبارٌ عن عظمته وجبروته وجلاله قال في البحر: ووصفُ السماوات بالعُلى دليلٌ على عظمة قدرة من اخترعها إذ لا يمكن وجود مثلها في علُوِّها من غيره تعالى[٤] ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ أي ذلك الربُّ الموصوف بصفات الكمال والجمال هو الرحمن الذي استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تجسيم[٥]، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل كما هو مذهب السلف[٦] ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي له سبحانه ما في الوجود كلِّه: السماواتُ السبعُ، والأرضون وما بينهما من المخلوقات وما تحت التراب من معادن ومكنونات، الكلُّ ملكُه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ أي وإن تجهَرْ يا محمد بالقول أو تُخْفِه في نفسك فسواءٌ عند ربك، فإنه يعلم السرَّ وما هو أخفى منه كالوسوسة والهاجس والخاطر[٧]. والغرضُ من الآية طمأنينة قلبه عليه السلام بأن ربه معه يسمعه، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند فإذا كان يدعوه جهراً فإنه يعلم السرَّ وما هو أخفى، والقلب حين يستشعر قرب الله منه، وعلمه بسره ونجواه يطمئن ويرضى ويأنس بهذا القرب الكريم

---

(١) البيت لأبي طالب وانظر «القرطبي» ١١/ ١٩٣.

(٢) انظر أول سورة البقرة.

(٣) هذا قول الضحاك. وانظر «زاد المسير» ٥/ ٢٦٨. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في ««أسباب النزول»».

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٢٢٦.

(٥) (ش): الجسم لم يَرِدْ نَفْيُه ولا إثباتُه في حق الله تعالى فيجب التوقف فيه.

(٦) انظر أقوال السلف الصالح في سورة الأعراف والرعد.

(٧) (ش): خاطِر: هاجس: ما يَعْرِض أو يَرِدُ على القلب من تدابير، أو ما يمرُّ بالذِّهن من الأمور والآراء، كل ما يتصوّره الفكر. الوسوسة: حديثُ النَّفْسِ، وما يلقيه الشّيطان في القلب.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية، لا معبود بحق سواه، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحسن وفي الحديث « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ »[١] ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ الاستفهام للتقرير وغرضه التشويق لما يُلقى إليه أي هل بلغك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة الغريبة؟ ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أي حين رأى ناراً فقال لامرأته: أقيمي مكانك فإني أبصرتُ ناراً قال ابن عباس: هذا حين قضى الأجل وسار بأهله من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق وكانت ليلة مظلمة شاتية فجعل يقدح بالزناد[٢]. فلا يخرج منها شَررٌ فبينما هو كذلك إذْ بصر بنارٍ من على يسار الطريق، فلما رآها ظنها ناراً وكانت من نور الله ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ أي لعلي آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ أي أجد هادياً يدلني على الطريق ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ أي فلما أتى النار وجدها ناراً بيضاء تتّقد في شجرة خضراء وناداه ربُّه يا موسى: إني أنا ربُّك الذي أكلمك فاخلع النعلين من قدميك رعايةً للأدب وأَقْبل ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ أي فإنك بالوادي المطهَّر المبارك المسمّى طوى ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي اصطفيتك للنبوة فاستمع لما أُوحيه إليك قال «الرازي»: فيه نهايةُ الهيبة والجلالة فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهبْ له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه[٣] ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ أي أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيري فأَفْرِدْني بالعبادة والتوحيد ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي أقم الصلاة لتذكرني فيها قال مجاهد: إذا صلّى ذكر ربه لاشتمالها على الأذكار[٤] وقال الصاوي: خصَّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلةً في جملة العبادات لعظم شأنها، واحتوائها على الذكر، وشَغْل القلب واللسان والجوارح، فهي أفضل أركان الدين بعد التوحيد[٥] ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ أي إن الساعة قادمة وحاصلةٌ لا محالة أكاد أخفيها عن نفسي فكيف أطلعكم عليها؟[٦] قال المبرِّد: وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء:

---

(١) أخرجه الترمذي. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): (الزَّنْد) الْعود الأَعْلَى الَّذِي تُقْدح بِهِ النَّار والأسفل هُوَ الزَّنْدة، والجمع زناد وأزناد. قدَح النَّارَ/ قدَح النارَ من الزَّنْد: أخرجها منه، أشعلها بالاحتكاك.

(٣) «الرازي» ٢٢/ ١٩.

(٤) «الرازي» ٢٢/ ١٩.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٥٠.

(٦) هذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس واختاره «الطبري» وهو الأرجح في تفسير الآية. وهناك أقوال أخرى لا تخلو من ضعف وانظر «البحر المحيط» ٦/ ٢٣٢.

كتمته حتى من نفسي أي لم أطلع عليه أحداً ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي لتنال كلُّ نفس جزاء ما عملت من خير أو شر قال المفسرون: والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار، فلو عرف الناس وقت الساعة أو وقت الموت، لاشتغلوا بالمعاصي ثم تابوا قبل ذلك، فيتخلصون من العقاب، ولكنَّ الله عمَّى الأمر، ليظلَّ الناس على حذر دائم، وعلى استعداد دائم، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي لا يصرفنَّك يا موسى عن التأهب للساعة والتصديق بها من لا يوقن بها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي مالَ مع الهوى وأقبل على اللذائذ والشهوات ولم يحسب حساباً لآخرته ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي فتهلك فإن الغفلة عن الآخرة مستلزمة للهلاك ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي وما هذه التي بيمينك يا موسى؟ أليست عصا؟ والغرضُ من الاستفهام التقريرُ والإيقاظُ والتنبيهُ إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية، لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة قال ابن كثير: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي أمَا هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن؟[1] ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أي أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أي أهزُّ بها الشجرة وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات أُخر غير ذلك قال المفسرون: كان يكفي أن يقول هي عصاي ولكنه زاد في الجواب لأن المقام مباسطة وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب، وكلام الحبيب مريحٌ للنفس ومُذْهبٌ للعَناء ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي اطرح هذه العصا التي بيدك يا موسى لترى من شأنها ما ترى! ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي فلما ألقاها صارت في الحال حية عظيمة تنتقل وتتحرك في غاية السرعة قال ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خافه ونفر منه وولّى هارباً[2] قال المفسرون: لما رأى هذا الأمر العجيب الهائل، لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف، لا سيما هذا الأمر الذي يذهب بالعقول، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيساً له بهذه المعجزة الهائلة حتى لا يفزع إذا ألقاها عند فرعون لأنه يكون قد تدرَّب وتعوَّد ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي قال له ربه: خذْها يا موسى ولا تخفْ منها ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي سنعيدها إلى حالتها الأولى كما كانت عصا لا حيَّة، فأمسكها فعادت عصا ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي أدخل يدك تحت إِبطك ثم أخرجها تخرج نيِّرة مضيئة كضوء الشمس والقمر من غير عيب ولا برص قال

(١) «المختصر» ٢/ ٤٧٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ١٩٠.

ابن كثير: كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة القمر من غير برصٍ ولا أذى[١] ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أي معجزة ثانية غير العصا ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ أي لنريك بذلك بعض آياتنا العظيمة. أراه الله معجزتين «العصا، واليد» وهي بعض ما أيَّده الله به من المعجزات الباهرة، ثم أمره أن يتوجه إلى فرعون رأس الكفر والطغيان ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي اذهب بما معك من الآيات إلى فرعون إنه تكبَّر وتجبَّر وجاوز الحدَّ في الطغيان حتى ادَّعى الألوهية ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ أي وسِّعه ونوِّره بالإيمان والنُبوّة ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ أي سهِّل عليَّ القيام بما كلَّفْتني من أعباء الرسالة والدعوة ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ أي حلَّ هذه اللُّكنة الحاصلة في لساني حتى يفهموا كلامي قال المفسرون: عاش موسى في بيت فرعون فوضعه فرعون مرة في حِجْرِهِ وهو صغير فجرَّ لحية فرعون بيده فهمَّ بقتله، فقالت له آسية: إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك، قدّمْ إليه جمرتين ولؤلؤتين، فإن أخذ اللؤلؤة عرفت أنه يعقل، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل، فقدَّم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فكان في لسانه حَبْسة[٢] ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى﴾ أي اجعل لي معيناً يساعدني ويكون من أهلي وهو أخي هارون ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ أي لتقوّي به يا رب ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ أي أجعله شريكاً لي في النبوة وتبليغ الرسالة ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ أي كي نتعاون على تنزيهك عما لا يليق بك ونذكرك بالدعاء والثناء عليك ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأحوالنا لا يخفى عليك شيء من أفعالنا، طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه يشدُّ به أزره، لما يعلم منه من فصاحة اللسان[٣]، وثبات الجنَان، وأن يشركه معه في المهمة لما يعلم من طغيان فرعون وتكبره وجبروته ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي أُعطِيتَ ما سألْتَ وما طلبْتَ، ثم ذكّره تعالى بالمنن العظام عليه ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي أنعمنا عليك يا موسى بمنَّة أخرى غير هذه المنة ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ أي ألهمناها ما يُلهم ممّا كان سبباً في نجاتك ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي ألهمناها أن ألْقِ هذا الطفل في الصندوق ثم اطرحيه في نهر النيل، ثم ماذا؟ ومن يتسلمه؟ ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ أي يلقيه النهر على شاطئه ويأخذه فرعون عدوي وعدوُّه قال في البحر: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أمرٌ معناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إِذَ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها[٤] ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي زرعتُ في القلوب

---

(١) «المختصر» ٢/ ٤٧٣.

(٢) انظر «الطبري» ١٦/ ١٩٥، وقيل: كان ذلك خِلْقَةً فسأل الله تعالى إزالته.

(٣) (ش): قال موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٢٤١.

محبتك بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك حتى أحبَّك فرعون قال ابن عباس: أحبَّه الله وحبَّبه إلـى خلقـه ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ أي ولتربـى بعين الله بحفظي ورعايتـي(١) ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾ أي حيـن تمشـي أختـك وتتَّبـع أثرك فتقـول لآل فرعون حين طلبوا لك المراضع: هل أدلكم على من يضمن لكم حضانته ورضاعته؟ قال المفسـرون: لمّا التقطـه آل فرعـون جعل لا يقبل ثدي امرأة لأن الله حرَّم عليه المراضع وبقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته أن تتبّع خبره، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته قالت: هل أدلكم على امرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هذا الطفل؟ فطلبوا منها إحضارها فأتت بأم موسـى فلمـا أخرجـت ثديهـا التقمه ففرحت زوجـة فرعون فرحـاً شـديداً وقالت لهـا: كوني معي في القصر فقالت: لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي ولكنْ آخذه معي وآتي لك به كل حين فقالت نعم وأحسـنت إليها غاية الإحسان فذلك قوله تعالى ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ أي رددناك إلى أمك لكي تُسرَّ بلقائك وتطمئن بسلامتك ونجاتك، ولكيلا تحزن على فراقك ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ أي قتلـت القبطـي حين أصبحت شـابًّا فنجيناك من غمّ القتل

---

(١) (ش): فِي قَوْلِهُ تَعَالَى عَنْ سَفِيْنَةِ نُوْحٍ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القَمَر:١٤] وَقَوْلِهُ لِمُوْسَى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طَه:٣٩]. وقوله للنبي ﷺ ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المَعْنَى عَلَى ظَاهِرِ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتِهِ، لَكِنْ مَا ظَاهِرُ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتُهُ هُنَا؟ هَلْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ وَحَقِيْقَتَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي فِي عَيْنِ اللهِ؛ أَوْ أَنَّ مُوْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبَّى فَوْقَ عَيْنِ اللهِ تَعَالَى؟! أَوْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ تَعَالَى يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ القَوْلَ الأَوَّلَ بَاطِلٌ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

١- أَنَّهُ لَا يَقْتَضِيْهِ الكَلَامُ بِمُقْتَضَى الخِطَابِ العَرَبِيِّ، وَالقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ العَرَبِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾ [يُوْسُف:٢] وَلَا أَحَدَ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ يَسِيْرُ بِعَيْنِي أَنَّ المَعْنَى أَنَّهُ يَسِيْرُ دَاخِلَ عَيْنِهِ، وَلَا مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ تَخَرَّجَ عَلَى عَيْنِي؛ أَنَّ تَخَرُّجَهُ كَانَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى عَيْنِهِ، وَلَوِ ادَّعَى مُدَّعٍ أَنَّ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ فِي هَذَا الخِطَابِ لَضَحِكَ مِنْهُ السُّفَهَاءُ فَضْلًا عَنِ العُقَلَاءِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ: إِنَّكَ تَحْتَ عَيْنِي، وَفُلَانٌ تَخَرَّجَ مِنْ تَحْتِ يَدِي، وَفُلَانٌ يَدِي اليُمْنَى وَ... مِمَّا مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ مَفْهُوْمٌ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ.

٢- أَنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ غَايَةَ الامْتِنَاعِ، وَلَا يُمْكِنُ لِمَنْ عَرَفَ اللهَ وَقَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ أَنْ يَفْهَمَهُ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ لَا يَحُلُّ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ، وَلَا هُوَ حَالٌّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِذَا تَبَيَّنَ بُطْلَانُ هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُوْنَ ظَاهِرُ الكَلَامِ هُوَ القَوْلُ الثَّانِي؛ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ بِمَرْأًى مِنِّي، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَكْلَؤُهُ بِعَيْنِهِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَاهُ. وَوَجْهُ كَوْنِ العَيْنِ هِيَ الَّتِي تَرْعَاهُ دُوْنَ الوَجْهِ أَوِ اليَدِ أَوِ...هُوَ لِأَنَّ العَيْنَ تُفِيْدُ الاطِّلَاعَ وَالمُرَاقَبَةَ وَالإِحَاطَةَ مِمَّا يُنَاسِبُ الحِفْظَ. وَاللهُ أَعْلَمُ. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عَزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع (بِأَعْيُنِنَا) فإنما هو للتعظيم.

وصرفنا عنك شرَّ فرعون وزبانيته، وفي صحيح مسلم: وكان قتله خطأ[١] ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي ابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواع من المِحن ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي مكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي جئت على موعدٍ ووقت مقدر للرسالة والنبوة.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التشويق والحث على الإصغاء ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾.

٢ - الإطناب ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ وكان يكفي أن يقول: هي عصاي ولكنه توسّع في الجواب تلذذاً بالخطاب.

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أصل الجناح للطائر ثم استعير لجنب الإنسان لأن كل جنب في موضع الجناح للطائر فسميت الجهتان جناحين بطريق الاستعارة.

٤ - الاحتراس وهو عند علماء البيان أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد مثل قوله ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ فلو اقتصر على قوله ﴿بَيْضَآءَ﴾ لأَوْهَم أن ذلك من برص أو بهق ولذلك احترس بقوله ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

٥ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ تمثيل لشدة الرعاية وفرط الحفظ والكلاءة بمن يصنع بمرأى من الناظر؛ لأن الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه فمثَّل لذلك على عين الآخر[٢].

٦ - السجع الحسن الذي يزيد الكلام جمالاً وبهاءً في أواخر الآيات (فتشقى، يخشى، أخفى، تسعى) إلخ.

فَائِدَة: قال العلماء: ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هارون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبيًّا مرسلاً.

تنبيه: ذكر تعالى بعض المنن على موسى وعدَّد منها ستًّا:

المنة الأولى: إلهام أُمّه صُنْع الصندوق وإلقاءه في النيل ليُربَّى في بيت فرعون ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ

(١) (ش): قال ﷺ: «إِنَّمَا قَتَلَ مُوسَى الَّذِى قَتَلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ خَطَأً، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾. [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

(٢) (ش): في هذه الآية إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عَزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ ﴾.

الثانية: إلقاء المحبة عليه من الله تعالى بحيث لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

الثالثة: حفظ الله ورعايته له بالكلاءة والعناية ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾.

الرابعة: ردُّه إلى أمه مع الإنعام والإكرام ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾.

الخامسة: إنجاء موسى من القتل بعد قتله القبطي ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾.

السادسة: تكليم الله له بعد عودته من أرض مدين وتكليفه بالرسالة ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

قال الله تعالى:

وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ
﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ
لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا
تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ
مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾
قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾
كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ
تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا
سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ
﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾
فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم
بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ
﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ
إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾
وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ
فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَآ ﴿٧١﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٢﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ
رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٣﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ
ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٤﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٥﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى نعمته على موسى باستجابة دعائه وإعطائه سُؤْله، ذكر هنا ما خصَّه به من الاصطفاء والاجتباء، وأمره بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون لتبليغه دعوة الله، ثم ذكر ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وما كان من أمر السحرة وسجودهم لله ربِّ العالمين.

اللغَة: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾ اصطفيتك واخترتك، وأصل الاصطناع: اتخاذ الصَّنيعة وهو الخير تُسْديه إلى إنسان ﴿تَنِيَا﴾ الوَنْيُ: الضَّعف والفتور قال العجّاج:

فَمَا وَنَى مُحَمَّدٌ مُذْ أَنْ غَفَرْ ... لَهُ الإِلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبَرْ[1]

﴿يَفْرُطَ﴾ يتعجل ويبادر إلى عقوبتنا، ومنه الفارط الذي يتقدم القوم إلى الماء ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ يستأصلكم ويبيدكم وأصله استقصاء الحلق للشَّعْر قال الفرزدق:

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ ... مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتٌ أَوْ مُجَلَّفُ[2]

ثم استعمل في الإهلاك والإذهاب، والسُّحت: المال الحرام لأنه يهلك الإنسان ويدمّره ﴿ٱلنَّجْوَىٰ﴾ التناجي وهو الإسرار بالكلام ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أضمر واستشعر الخوف في نفسه.

التفسير: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ أي اخترتك لرسالتي ووحيي ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ أي اذهب مع هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي قال المفسرون: المراد بالآيات هنا اليد والعصا التي أيّد الله بها موسى ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ أي لا تفترا وتقصِّرا في ذكر الله وتسبيحه قال ابن كثير: والمراد ألاّ يفترا عن ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له[3] ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي تجبَّر وتكبَّر وبلغ النهاية في العتُو والطغيان ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي قولا لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي لعله يتذكر عظمة الله أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي قال موسى وهارون: يا ربنا إننا نخاف إن دعوناه إلى الإيمان أن يعجِّل علينا العقوبة، أو يجاوز الحدَّ في الإساءة إلينا ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي لا تخافا من سطوته إنني معكما بالنصرة والعون أسمع جوابه لكما، وأرى ما يفعل بكما ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي إنا رسولان

(١) «تفسير الطبري» ١٦/ ١٦٨. (ش): (مُذْ): مُنْذُ. (غَبَرْ): مضَى، ذهب.
(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢١٥. (ش): المُسْحَتُ: المستأصَل. والمُجَلَّفُ: الذي بقيَتْ منه بقيةٌ.
(٣) «المختصر» ٢/ ٤٨٢.

من عند ربك أُرسِلنا إليك، وتخصيصُ الذِكْر[١] بلفظ ﴿رَبِّكَ﴾ لإعلامه أنه مربوبٌ وعبدٌ مملـوك لله إذْ كان يدَّعي الربوبية ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي أطلقْ سـراح بني إسـرائيل ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشـاقة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي قد جئناك بمعجـزة تدل على صدقنا ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي والسـلامة مـن عذاب الله لمن اهتدى وآمن قال المفسـرون: لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب وإنما قصد به السـلام من عذاب الله وسـخطه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي قد أخبرنـا الله فيما أوحاه إلينا أن العذاب الأليم على من كذَّب أنبياء الله وأعرض عن الإيمان ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي قال فرعون: ومنْ هذا الربُّ الذي تدعوني إليه يا موسى؟ فإني لا أعرفـه؟ ولم يقل: «مَـن ربّي؟» لغاية عتوّه ونهاية طغيانه بل أضافه إلى موسـى وهارون ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي ربُّنا هو الذي أبدع كل شيءٍ خَلَقه ثم هـداه لمنافعه ومصالحه، وهذا جوابٌ في غاية البلاغة والبيان لاختصاره ودلالته علـى جميـع الموجودات بأسـرها، فقد أعطى العين الهيئـة التي تطابق الإبصـار، والأُذُن الشـكل الذي يوافق الاسـتماع، وكذلك اليد والرجل والأنف واللسـان قال الزمخشري: ولله درُّ هـذا الجواب[٢] ما أخْصَـرَه وأجمَعَه وأبْيَنَه لمن ألقَى الذهـن ونظَر بعين الإنصاف ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي مـا حـال من هلك مـن القرون الماضية؟ لِم لَـمْ يُبعثوا ولم يُحاسـبوا إن كان مـا تقـول حقـاً؟ قال ابن كثير: لما أخبر موسـى بأن ربه الذي أرسـله هو الذي خلق ورزق، وقدَّر فهدى، شـرع فرعون يحتج بالقـرون الأولى كأنه يقول: ما بالهم إذْ كان الأمـر كذلك لم يعبدوا ربَّك بـل عبدوا غيره؟[٣] ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ أي قال موسـى: عِلْمُ أحوالها وأعمالها عند ربي مسـطرٌ في اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يخطئ ربي ولا يغيب عن علمه شيء منها.

ثم شـرع موسـى يبيّن له الدلائل على وجود الله وآثار قدرته الباهرة فقال ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي جعـل الأرض كالمهـد تمتهدونها[٤] وتسـتقرون عليهـا رحمةً بكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي جعـل لكـم طُرقـاً تسـلكونها فيها لقضـاء مصالحكم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي أنـزل لكم من السـحاب المطرَ عذبـاً فراتـاً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي فأخـرج بذلك المـاء أنواعـاً من النباتـات المختلفة الطعم والشـكل والرائحة

---

(١) (ش): الذِكْر: التذكير. ذكَر فلانٌ الشَّيءَ لفلانٍ: أعْلَمه به وذكَّره إيّاه.

(٢) (ش): لله درُّ هذا الجواب: عبارة تعجّب ومدح.

(٣) «المختصر» ٢/ ٤٨٣.

(٤) (ش): أي جعلها كالفِراش ميسَّرةً للانتفاع بها.

كلُّ صنف منها زوج، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى المتكلم تنبيهاً على عظمة الله ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ أي كلوا من هذه النباتات والثمار واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ الذي أخرجه الله، والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنِّعم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعلامات واضحة لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي من الأرض خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون تراباً ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب.. ثم أخبر تعالى عن عتوِّ فرعون وعناده فقال ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي والله لقد بصَّرنْا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوّة موسى من العصا، واليد، والطوفان، والجراد، وسائر الآيات التسع ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ أي كذَّب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر، وأبى الإيمانَ والطاعة لعُتُوِّه[1] واستكباره ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ أي قال فرعون: أجئتنا يا موسى بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر؟ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فلنعارضنَّك بسحرٍ مثل الذي جئت به ليظهر للناس أنك ساحر ولستَ برسول ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي عيِّنْ لنا وقت اجتماع ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد لا من جهتنا ولا من جهتك ويكون بمكان معيَّن ووقت معَّين[2] ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي قال موسى: موعدنا للاجتماع يوم العيد - يومٌ من أيام أعيادهم - وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك النهار قال المفسرون: وإنما عيَّن ذلك اليوم للمبارزة ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد، ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزته للناس ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي انصرف فرعون فجمع السَّحرة ثم أتى الموعد ومعه السَّحرة وأدواتهم وما جمعه من كيد ليطفئ نور الله قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر منهم حبال وعصيّ[3] ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون: ويلكم لا تختلقوا على الله الكذب فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله قدَّم لهم النصح والإنذار لعلَّهم يثوبون إلى الهُدى، ولما سمع السَّحرة منه هذه المقالة هالهم ذلك ووقعتْ في نفوسهم مهابته ولذلك تنازعوا في أمره ﴿فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي اختلفوا في أمر موسى فقال بعضهم: ما هذا بقول ساحر وأخفوا ذلك عن الناس وأخذوا يتناجون سرًا ﴿قَالُوٓا۟

(١) (ش): عتا الظَّالمُ: استكبر وتجبَّر وجاوز الحدَّ، عصى وتمرَّد.
(٢) هذا ما اختاره ابن كثير في تفسير ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ واختار «الطبري» أن المراد مكانًا تستوي مسافته على الفريقين.
(٣) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢١٤.

﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ أي قالوا بعد التناظر والتشاور ما هذان إلاّ ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بهذا السحر ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي غرضُهما إفسادُ دينكم الذي أنتم عليه والذي هو أفضل المذاهب والأديان قال الزمخشري: والظاهر أنهم تشاوروا في السرِّ وتجاذبوا أهداب القول ثم قالوا ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفاً من غلبة موسى وهارون لهما وتثبيطاً للناس من اتباعهما[١] ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗا﴾ أي أحْكموا أمركم واعزموا عليه ولا تتنازعوا وارموا عن قوس واحدة، ثم ائتوا إلى الميدان مصطفين ليكون أَهْيَبَ[٢] في صدور الناظرين ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ أي فاز اليوم من علا وغلب قال المفسرون: أرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون من الإنعامات العظيمة والهدايا الجزيلة مع التقريب والتكريم كما قال تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ - ١١٤] ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ أي قال السحرة لموسى: إمَّا أن تبدأ أنتَ بالإلقاء أو نبدأ نحنُ؟ خيَّروه ثقةً منهم بالغلبة لموسى لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ أحداً لا يقاومهم في هذا الميدان ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ أي قال لهم موسى: بل ابدءوا أنتم بالإلقاء قال «أبو السعود»: قال ذلك مقابلةً للأدب بأحسنَ من أدبهم حيث بَتَّ القول[٣] بإلقائهم أولًا، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ليُبرزوا ما معهم، ويستفرغوا أقصى جهدهم وقصارى وسعهم، ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه[٤] ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ في الكلام حذفٌ دلَّ عليه المعنى أي فألقوا فإذا تلك الحبال والعصيُّ التي ألقوها يتخيلها موسى ونظنُّها - من عظمة السحر - أنها حيات تتحرك وتسعى على بطونها، والتعبيرُ يوحي بعظمة السحر حتى إن موسى فزع منها واضطرب ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ أي أحسَّ موسى الخوف في نفسه بمقتضى الطبيعة البشرية لأنه رأى شيئاً هائلاً ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي قلنا لموسى: لا تخفْ ممّا توهمت[٥] فإنك أنت الغالب المنتصر ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ أي ألقِ عصاك التي بيمينك تبتلعْ بفمها ما صنعوه من السحر ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖ﴾ أي إنَّ الذي اخترعوه وافتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ أي لا يسعد الساحر حيث كان ولا يفوز بمطلوبه لأنه كاذب

(١) «الكشاف» ٣.
(٢) (ش): أَهْيَبَ: أكثر هَيْبَةً، أكثر مهابةً.
(٣) (ش): أي لم يتردَّد فيه.
(٤) «أبو السعود» ٣/ ٣١٣.
(٥) أوحى الله تعالى له في تلك الساعة الراهنة بهذا القول.

مضلِّل ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أي فألقى موسى عصاه فابتلعت ما صنعوا فخرَّ السحرة حينئذٍ سجداً لله ربّ العالمين لما رأوا من الآية الباهرة قال ابن كثير: لما ألقى موسى العصا صارت ثعباناً عظيماً هائلاً، ذا قوائم وعُنق ورأس وأضراس، فجعلت تتَّبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق شيئاً إلا ابتلعته، والناس ينظرون إلى ذلك عياناً نهاراً، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوا علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حقٌّ لا مرية فيه، فعند ذلك وقعوا سجداً لله، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، قال ابن عباس: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة[(١)] ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي قال فرعون للسحرة: آمنتم بموسى وصدقتموه بما جاء به قبل أن أسمح لكم بذلك وقبل أن تستأذنوني؟ ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي إنه رئيسكم الذي علَّمكم السحر فاتفقتم معه لتذهبوا بملكي قال «القرطبي»: وإنما أراد فرعون بقوله أن يُلبِّس على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم[(٢)]، ثم توعَّدهم وهدَّدهم بالقتل والتعذيب فقال ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي فوالله لأقطعنَّ الأيدي والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى أو بالعكس ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي لَأُعَلِّقَنَّكُم على جذوع النخل وأقتلنكم شرَّ قِتْلة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي ولتعلمُنَّ أيها السحرة من هو أشدُّ منا عذاباً وأدْوَم، هل أنا أم ربُّ موسى الذي صدقتم به وآمنتم ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي قال السحرة: لن نختارك ونفضلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قَسَمٌ بالله أي مُقْسِمين بالله الِذي خلقنا[(٣)] ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي فاصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي إنما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا وهي فانية زائلة ورغبتنا في النعيم الخالد قال عكرمة: لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة فلذلك قالوا ما قالوا[(٤)] ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصي ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه لإطفاء نور الله ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي والله خيرٌ منك ثواباً وأبقى عذاباً، وهذا جوابُ قوله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ هذا

---

(١) «المختصر» ٢/ ٤٨٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٢٤.

(٣) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٣٠٤): ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الْبَيِّنَاتِ. يَعْنُونَ: لَا نَخْتَارُكَ عَلَى فَاطِرِنَا وَخَالِقِنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا مِنَ الْعَدَمِ، الْمُبْتَدِئِ خَلْقَنَا مِنَ الطِّينِ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ لَا أَنْتَ.

(٤) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٢٥.

من تتمة كلام السحرة عظةً لفرعون أي من يَلْقَ ربه يوم القيامة وهو مجرمٌ باقترافه المعاصي وموته على الكفر، فإن له نار جهنم ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يموت في جهنم فينقضي عذابه، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة[1] ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ومن يلق ربه مؤمناً موحّداً وقد عمل الطاعات وترك المنهيات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات لهم المنازل الرفيعة عند الله ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بيانٌ للدرجات العُلى أي جناتُ إقامة ذات الدرجات العاليات، والغُرف الآمنات، والمساكن الطيبات ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي تجري من تحت غرفها وسُرُرها أنهار الجنة من الخمر، والعسل، واللَّبن، والماء ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧] أي ماكثين في الجنة دوماً لا يخرجون منها أبداً ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي وذلك ثواب من تطهَّر من دنس الكفر والمعاصي، وفي الحديث «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ»[2].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ شبَّه ما خوَّله به من القرب والاصطفاء بحال من يراه الملك أهلاً للكرامة وقرب المنزلة لما فيه من الخلال الحميدة فيصطنعه لنفسه، ويختاره لخلَّته، ويصطفيه لأموره الجليلة، واستعار لفظ (اصطنع) لذلك، ففيه استعارةٌ تبعية.

٢ - المقابلة اللطيفة ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ حيث قابل بين ﴿وَمِنْهَا﴾ و ﴿وَفِيهَا﴾ وبين الخلق والإعادة وهذا من المحسنات البديعية.

٣ - إيجاز حذف ﴿بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾ أي فألقوا فإذا حبالهم، حذف لدلالة المعنى عليه ومثله ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ بعد قوله ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ حذف منه كلام طويل وهو فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا من السحر فأُلقي السحرة سجداً، وإنما حسن الحذف لدلالة المعنى عليه ويسمى إيجاز حذف.

٤ - الطباق بين ﴿يَمُوتُ.. يَحْيَىٰ﴾ وبين ﴿نُعِيدُ.. وَنُخْرِجُ﴾.

٥ - المقابلة بين ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ وبين ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلخ والمقابلة هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك.

٦ - السجع الحسن غير المتكلف في مثل ﴿سُوًى، ضُحًى، ٱفْتَرَىٰ، يَحْيَىٰ، تَزَكَّىٰ﴾ إلخ.

---

(١) أنشد ابن الأنباري في هذا المعنى:

أَلَا مَنْ لِنَفْسٍ لَا تَمُوتُ فَيَنْقَضِي ... شَقَاهَا وَلَا تَحْيَا حَيَاةً لَهَا طَعْمُ

(٢) رواه أحمد والترمذي. (ش): ورواه البخاري.

٧ - المؤكدات ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أكّد الخبر بعدة مؤكدات وهي ﴿إِنَّ﴾ المفيدة للتأكيد، وتكرير الضمير ﴿أَنتَ﴾ وتعريف الخبر ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ولفظ العلو الدال على الغلبة، وصيغة التفضيل ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ولله در التنزيل ما أبلغه وأروعه، وهذا من خصائص علم المعاني.

تنبيه: لم تذكر الآيات الكريمة أن فرعون فعل بالسحرة ما هدّدهم به، وقد ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم فماتوا على الإيمان ولهذا قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بَرَرة.

قال الله تعالى:

وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ
﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي
لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ
هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ
﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا
مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ
عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا
وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا
مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي
خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾
قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ
سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن
تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾
إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا

المناسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى وفرعون، وتشير الآيات هنا إلى عناية الله تعالى بموسى وقومه، وإنجائهم وإهلاك عدوهم، وتذكّرهم بنعم الله العظمى ومنته الكبرى على بني إسرائيل، وما وصّاهم به من المحافظة على شكرها وتحذيرهم من

التعرض لغضب الله بكفرها، ثم تذكر الآيات انتكاس بني إسرائيل بعبادتهم العجل، وقد طوى هنا ما فصَّل في آيات أخر.

اللغَـة: ﴿دَرَكًا﴾ لَحاقاً مصدر أدركه إذا لحقه ﴿تَطْغَوْا﴾ الطغيان: مجاوزة الحدِّ إلى ما لا ينبغي ﴿هَوَىٰ﴾ صار إلى الهاوية وهي قعر النار من هوى يهوي إذا سقط من علو إلى سفل ﴿بِمَلْكِنَا﴾ المَلْك: بفتح الميم وسكون اللام: الطاقةُ والقدرة ومعناه بأمرٍ كنا نملكه من جهتنا ﴿أَوْزَارًا﴾ أثقالاً ومنه سمي الذنب وزرًا لأنه يثقل الإنسان ﴿خُوَارٌ﴾ الخُوار: صوت البقر ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ أي يا ابن أمي واللفظة تدل على الاستعطاف ﴿سَوَّلَتْ﴾ حسَّنت وزيَّنت.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي أوحينا إلى موسى بعد أن تمادى فرعون في الطغيان أنْ سِرْ ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي اضرب البحر بعصاك ليصبح لهم طريقاً يابساً يمرون عليه ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي لا تخاف لحاقاً من فرعون وجنوده، ولا تخشى الغرق في البحر ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي فلحقهم فرعون مع جنوده ليقتلهم فأصابهم من البحر ما أصابهم، وغشيهم من الأهوال ما لا يعلم كُنهه إلا الله، والتعبير يفيد التهويل لما دهاهم عند الغرق ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خيرٍ ولا نجاة، وفيه تهكم بفرعون في قوله ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ خطابٌ لبني إسرائيل بعد خروجهم من البحر وإغراق فرعون وجنوده. والمعنى اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي العظيمة عليكم حين نجيتكم من فرعون وقومه الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ أي وعدنا موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه جانب طور سيناء الأيمن، وإنما نسبت المواعدة إليهم لكون منفعتها راجعة إليهم إذْ في نزول التوراة صلاحُ دينهم ودنياهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أي رزقناكم وأنتم في أرض التيه بالمنِّ وهو يشبه العسل، والسلوى وهو من أجود الطيور لحماً تفضلاً منا عليكم.. وفي هذا الترتيب غايةُ الحسن حيث بدأ بتذكيرهم بنعمة الإنجاء، ثم بالنعمة الدينية، ثم بالنعمة الدنيوية ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي وقلنا لكم: كلوا من الحلال اللذيذ الذي أنعمتُ به عليكم ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي لا تحملنكم السعة والعافية على العصيان لأمري فينزل بكم عذابي ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى﴾ أي ومن ينزل عليه غضبي وعقابي فقد هلك وشقي ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي وإني لعظيم المغفرة لمن تاب من الشرك وحسُن إيمانه وعمله، ثم استقام على الهدى والإيمان، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة

العصيان ببيان المخرج كيلا ييأس ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أيْ أيُّ شيء عجَّل بك عن قومك يا موسى؟ قال الزمخشري: كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه[1] ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي قومي قريبون مني لم أتقدمهم إلا بشيء يسير وهم يأتون بعدي ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي وعجلتُ إلى الموضع الذي أمرتني بالمجيء إليه لتزداد رضىً عني. أعتذر موسى أولاً ثم بيَّن السبب في إسراعه قبل قومه وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاءً لرضى الله ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي وأوقعهم السامريُّ في الضلالة بسبب تزيينه لهم عبادة العجل، وكان السامري ساحراً منافقاً من قوم يعبدون البقر قال المفسرون: كان موسى حين جاء لمناجاة ربه قد استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، وأمره أن يتعهدهم بالإقامة على طاعة الله، وفي أثناء غيبة موسى جمع السامريُّ الحليَّ ثم صنع منها عجلاً ودعاهم إلى عبادته فعكفوا عليه وكانت تلك الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ أي رجع موسى من الطور بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة غضبان شديد الحزن على ما صنع قومه من عبادة العجل[2] ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا﴾ أي ألم يعدْكم بإنزال التوراة فيها الهدى والنور؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ أي هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم وعدي؟ قال أبو حيان: وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنّة موسى عليه السلام، ولا يخالفوا أمر الله أبداً، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ أي ما أخلفنا العهد بطاقتنا وإرادتنا واختيارنا بل كنا مكرهين ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي حملنا أثقالاً وأحمالاً من حُليِّ آل فرعون فطرحناها في النار بأمر السامري قال مجاهد: أوزاراً: أثقالاً وهي الحلي التي استعاروها من آل فرعون ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي كذلك فعل السامري ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار قال المفسرون: كان بنو إسرائيل قد استعاروا من القبط الحُليّ قبل خروجهم من مصر، فلما أبطأ موسى في العودة إليهم قال لهم السامري: إنما احتُبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي فجمعوه ودفعوه إلى السامري، فرمى به في النار

(١) «الكشاف» ٣/ ٨٩.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٢٦٨.

وصاغ لهم منه عجلاً، ثم ألقى عليه قبضةً من أثر فرس جبريل عليه السلام فجعل يخور[1] فذلك قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي صاغ لهم السامري من تلك الحليّ المذابة عجلاً جسداً بلا روح له خوارٌ وهو صوت البقر[2] ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي هذا العجل إلهكم وإله موسى فنسي موسى إلهه هنا وذهب يطلبه في الطور، قال قتادة: نَسِيَ موسى ربه عندكم، فعكفوا عليه يعبدونه، قال تعالى ردًّا عليهم وبياناً لسخافة عقولهم في عبادة العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي أفلا يعلمون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم لا يردُّ لهم جواباً، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرًّا أو يجلب لهم نفعاً فكيف يكون إلهاً؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي قال لهم هارون ناصحاً ومذكراً من قبل رجوع موسى إليهم: إنما ابْتُليتُم وأُضللتم بهذا العجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾ أي وإنَّ ربكم المستحقَّ للعبادة هو الرحمن لا العجل، فاقتدوا بي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله، وأطيعوا أمري بترك عبادة العجل ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي قالوا: لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى فننظر في الأمر ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾؟ في الكلام حذفٌ أي فلما رجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل امتلأ غضباً لله وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه وقال له: أيُّ شيء منعك حين رأيتهم كفروا بالله أن لا تتبعني في الغضب لله والإنكار عليهم والزجر لهم عن ذلك الضلال؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أي أخالفتني وتركت أمري ووصيتي؟ قال المفسرون: وأمرهُ هو ما كان أوصاه به فيما حكاه تعالى عنه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ أي قال له هارون استعطافاً وترقيقاً: يا ابن أمي – أي يا أخي – لا تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي قال ابن عباس: أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لأن الغَيْرة في الله مَلَكَتْه[3] ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي إني خفت إن زجرتُهم بالقوة أن يقع قتالٌ بينهم فتلومني على ذلك وتقول لي: لقد أشعلتَ الفتنة بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أي لم تنتظرْ أمري فيهم، فمن أجل ذلك رأيتُ ألاّ أفعل شيئاً حتى ترجع إليهم لتتدارك الأمر بنفسك قال ابن عباس: وكان

---

(١) هذا خلاصة قول ابن عباس وقتادة ومجاهد كذا في «تفسير الطبري» ١٦/ ٢٠٠.

(٢) قال «الرازي»: قيل إنه صار حيًّا وخار، وقيل: لم تحله الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت العجل، «الرازي» ٢٢/ ١٠٣.

(٣) (ش): أي إن الغَيْرة في الله تمكّنت منه وسيطرت عليه.

هارون هائباً مطيعاً له[1] ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَامِرِيُّ﴾ أي ما شأنك فيما صنعت؟ وما الذي حملك عليه يا سامري؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي قال السامريُّ: رأيتُ ما لم يروه وهو أن جبريل جاءك على فرس الحياة فأُلقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فما ألقيتُه على شيءٍ إلا دبَّت فيه الحياة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أي قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل فطرحتها على العجل فكان له خوار ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أي وكذلك حسَّنتْ وزيَّنتْ لي نفسي ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي قال موسى للسامريّ: عقوبتك في الدنيا ألاّ تمسَّ أحداً ولا يمسَّك أحد قال الحسن: جعل الله عقوبة السامري ألا يماسَّ الناسَ ولا يمسّوه عقوبة له في الدنيا وكأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ شدَّد عليه المحنة ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي وإنَّ لك موعداً للعذاب في الآخرة لن يتخلَّف ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي انظر إلى هذا العجل الذي أقمت ملازماً على عبادته ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ أي لنحرقنَّه بالنار ثم لنطيرنَّه رماداً في البحر لا يبقى منه عين ولا أثر ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي يقول موسى لبني إسرائيل: إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله الذي لا ربَّ سواه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسع علمه كلَّ شيء فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - التهويل ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

٢ - الطباق بين ﴿وَأَضَلَّ.. وَمَا هَدَىٰ﴾.

٣ - الاستعارة ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ استعار لفظ الهوي وهو السقوط من عُلوٍ إلى سُفل للهلاك والدمار.

٤ - صيغة المبالغة ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ﴾ أي كثير المغفرة للذنوب.

٥ - الطباق ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

٦ - الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة بيناها في التفسير.

٧ - السجع الحسن غير المتكلف مثل ﴿أَمْرِى، قَوْلِى، نَفْسِى﴾ و ﴿نَفْعًا، عِلْمًا، نَسْفًا﴾ الخ.

تنبيه: إنما عبد بنو إسرائيل العجل بسبب فتنة السامريّ وقد كانت بذور الوثنية راسخة

---

(١) (ش): أي كان يعظِّمه ويوقِّره ويُجِلُّه ويطيعه. وقد نصحهم هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبل رجوع موسى إليهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠].

في قلوبهم ولذلك لما نجَّاهم الله من طغيان فرعون طلبوا من موسى أن يصنع لهم تمثالاً ليعبدوه كما قال تعالى ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فلا عجب إذاً أن يعكفوا على عبادة عجل من ذهب له خوار!

قال الله تعالى:

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ
يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ
طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا
﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ
فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ
أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ
ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ
قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا
تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ
مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ
إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ
لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ
قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا
وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ
﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ
فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ
تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ
كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ
مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ
وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ
أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ
لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا

﴿فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة موسى بالتفصيل، أعقبها بذكر أنَّ هذا القصص وحيٌ من الله، وأن محمداً ﷺ ما كان له علم بهذه الأخبار والأنباء العجيبة لولا أن الله تعالى أوحى إليه، وذلك من أكبر الدلائل والبراهين على صدق الرسالة.

اللغة: ﴿قَاعٗا﴾ القاع: الأرض الملساء التي لا نبات فيها ولا بناء ﴿صَفۡصَفٗا﴾ الصَّفصفُ: المستوي من الأرض كأنه على صفٍّ واحد في استوائه ﴿أَمۡتٗا﴾ الأمْت: المكان المرتفع كالتلّ والهضبة ﴿هَمۡسٗا﴾ صوتاً خفياً ﴿وَعَنَتِ﴾ ذلَّت وخضعت قال أميّة: «لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ» قال الجوهري: عنا يعنو خضع وذلَّ وأعناه غيره ومنه الآية ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ﴾ ﴿هَضۡمٗا﴾ الهضم: النقص يقال: هضمه حقه إذا أنقصه والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله، والهضمُ المنع من بعضه[1] ﴿تَضۡحَىٰ﴾ ضحى للشمس برز لها حتى يصيبه حرُّها قال ابن أبي ربيعة:

رَأَتْ رَجُلًا أَيما إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ[2]

﴿ضَنكٗا﴾ الضَّنْك: الضيق والشدة يقال: منزلٌ ضنْك وعيشٌ ضنْك إذا كان شديداً ضيقاً ﴿سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ عوراتهما ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ انتظروا ﴿ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ الطريق المستقيم.

التفسير: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد خبر موسى مع فرعون وما فيه من الأنباء الغريبة كذلك نقص عليك أخبار الأمم المتقدمين ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ أي أعطيناك من عندنا قرآناً يتلى منطوياً على المعجزات الباهرة قال في البحر: امتن تعالى عليه بإتيانه الذكر المشتمل على القصص والأخبار، الدال على معجزات أُوتيها عليه السلام[3] ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾ أي من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤمن به ولم يتَّبع ما فيه، فإنه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً، وذنباً عظيماً يثقله في جهنم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ أي مقيمين في ذلك العذاب بأوزارهم، وبئس ذلك الحمل الثقيل حملاً لهم، شُبِّه الوزرُ بالحمل لثقله ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية،

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٤٩.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٢٧١. (ش): أَيْمَا: أَمَّا. (عَارَضَتْ): ظهرت. (فَيَخْصَرُ): الخَصَر: البرد الشديد. تنبيه: في المطبوع: فينحصر، والتصحيح من تفسير «القرطبي» و«القاموس المحيط» و«لسان العرب» و«مجمع الأمثال» للميداني.

(٣) «البحر المحيط» ٦/ ٢٧٨.

ونحشر المجرمين إلى أرض المحشر زُرق العيون سود الوجوه قال «القرطبي»: تُشوه خلقتُهم بزرقة العيون وسواد الوجوه[١] ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي يتهامسون بينهم ويسرُّ بعضهم إلى بعض قائلين: ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال قال «أبو السعود»: استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأهوال[٢] ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون بينهم إذ يقول أعقلهم وأعدلهم قولاً: ما لبثتم إلا يوماً واحداً ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ أي ويسألونك عن حال الجبال يوم القيامة فقل لهم: إن ربي يفتِّتها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فيطيّرها ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي فيتركها أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ أي لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتَّبع الناس داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر يأتونه سراعاً لا يزيغون عنه ولا ينحرفون ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ذلت وسكنت أصوات الخلائق هيبةً من الرحمن جل وعلا ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي لا تسمع إلا صوتًا خفيًّا لا يكاد يُسمع وعن ابن عباس: هو همسُ الأقدام في مشيها نحو المحشر[٣] ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب لا تنفع الشفاعة أحداً إلاّ لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، ورضي لأجله شفاعة الشافع، وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلا الله[٤]، قاله ابن عباس ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم أحوال الخلائق فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا وأمور الآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جل وعلا[٥] ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي ذلت وخضعتْ وجوه الخلائق للواحد القهار جبار السماوات والأرض الذي لا يموت قال الزمخشري: المراد بالوجوه وجوهُ العصاة وأنهم إذا عاينوا يومَ القيامةِ الخيبةَ والشقوةَ وسوءَ الحساب، صارتْ وجوهُهم عانيةً أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العُناة وهم الأسارى كقوله ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧][٦] ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي خسر من أشرك بالله، ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾

---

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٤٤.
(٢) «أبو السعود» ٣/ ٣٢٤.
(٣) «تفسير الطبري» ١٦/ ٢١٤.
(٤) (ش): قوله: (لا تنفع الشفاعة أحدًا إلا لمن أذن له الرحمن أن يشفع له ورضي لأجله شفاعة الشافع)، الجملتان في معنى واحد، والصواب أن يقال في الثانية: ورضي قول المشفوع فيه وعمله بأن يكون من أهل لا إله إلا الله.
(٥) وقيل المراد لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله. واختاره في «التسهيل».
(٦) «الكشاف» ٣/ ٩٢.

أي من قدَّم الأعمال الصالحة بشرط الإيمان ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ أي فلا يخاف ظلماً بزيادة سيئاته، ولا بخساً ونقصاً لحسناته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة أنزلنا هذا الكتاب عليك يا محمد بلغة العرب ليعرفوا أنه في الفصاحة والبلاغة خارجٌ عن طوق البشر ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي كررنا فيه الإنذار والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي أو يحدث لهم موعظة في القلوب ينشأ عنها امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي جلَّ الله وتقدَّس الملك الحق الذي قهر سلطانه كل جبار عمّا يصفه به المشركون من خلقه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي إذا أقرأك جبريل القرآن فلا تتعجل بالقراءة معه، بل استمعْ إليهِ واصبر حتى يفرغَ من تلاوته وحينئذٍ تقرؤه أنت قال ابن عباس: كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على حفظ القرآن ومخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك قال «القرطبي»: وهذا كقوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[1] [القيامة: ١٦] ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي سلْ الله عَزَّ وَجَلَّ زيادة العلم النافع قال «الطبري»: أمره بمسألتِه من فوائد العلم ما لا يعلم[2] ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة من القديم ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي نسي أمرنا ولم نجد له حزماً وصبراً عمّا نهيناه عنه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير من الخلق أي واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحيةٍ وتكريم فامتثلوا الأمر إلا إبليس فإنه أبى السجود وعصى أمر ربه قال الصاوي: كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليماً للعباد امتثال الأوامر، واجتناب النواهي وتذكيراً لهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم[3] ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أي ونبهنا آدم فقلنا له: إن إبليس شديد العداوة لك ولحواء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي لا تطيعاه فيكون سبباً لإخراجكما من الجنة فتشقيان، وإنما اقتصر على شقائه مراعاة للفواصل ولاستلزام شقائه لشقائها قال ابن كثير: المعنى إيّاك أن تسعى في إخراجك من الجنة فتتعب وتشقى في طلب رزقك، فإنك هاهنا في عيشٍ رغيدٍ، بلا كلفةٍ ولا مشقة[4] ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ أي إنَّ لك يا آدم ألاَّ ينالك في الجنة الجوعُ ولا العريُ

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٥٠.
(٢) «تفسير الطبري» ١٦/ ٢٢٠. (ش): أي أمره أن يطلب من الله أن يُعطيَه مِن فوائد العلم ما لا يعلم.
(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٦٦.
(٤) «المختصر» ٢/ ٤٩٦.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي ولك أيضاً ألاّ يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس، لأن الجنة دار السرور والحبور، لا تعب فيها ولا نصب، ولا حر ولا ظمأ بخلاف دار الدنيا ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي حدَّثه خفيةً بطريق الوسوسة ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي قال له إبليس اللعين: هل أدلك يا آدم على شجرة من أكل منها خُلّد ولم يمت أصلاً، ونال المُلك الدائم الذي لا يزول أبداً؟ وهذه مكيدة ظاهرها النصيحة ومتى كان اللعين ناصحاً؟ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها فظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس: عريا عن النور الذي كان الله تعالى قد ألبسهما إياه حتى بدت فروجهما[1] ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي شرعا يأخذان من أوراق الجنة ويغطيان بها عوراتهما ليستترا بها ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ أي خالف آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة فضلَّ عن المطلوب الذي هو الخلود في الجنة حيث اغتر بقول العدوّ قال ابو السعود: وفي وصفه بالعصيان والغواية - مع صغر زلته - تعظيمٌ لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها[2] ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ أي ثم اصطفاه ربه فقرَّبه إليه وقبل توبته وهداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب الطاعة ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي قال الله لآدم وحواء: انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين بعضُ ذريتكما لبعض عدوٌّ بسبب الكسب والمعاش واختلاف الطبائع والرغبات قال الزمخشري: لما كان آدم وحواء أصلي البشر جُعلا كأنهما البشر في أنفسهما فخوطبا مخاطبتهم[3] ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي فإن جاءكم من جهتي الكتب والرسل لهدايتكم ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي فمن تمسَّك بشريعتي واتَّبع رسلي فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة قال ابن عباس: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألاّ يضلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة وتلا الآية[4] ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي ومن أعرض عن أمري وما أنزلته على رسلي من الشرائع والأحكام فإن له في الدنيا معيشة قاسيةً شديدة وإن تنعَّم ظاهره ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي ونحشره في الآخرة أعمى البصر قال ابن كثير: من أعرض عن أمر الله وتناساه فإن له حياة ضنكاً في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيِّقٌ حرج لضلاله وإن تنعَّم ظاهره ولبس ما شاء، وأكل ما شاء،

(١) «أبو السعود» ٣/ ٣٢٧.
(٢) «نفس المرجع السابق» والصفحة.
(٣) «الكشاف» ٣/ ٩٣.
(٤) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٥٨.

وسكن حيث شاء، فإن قلبه في قلقٍ وحيرة وشك، وقيل: يُضيَّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعة فيه[١] ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي قال الكافر: يا رب بأي ذنب عاقبتني بالعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً؟ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي قال الله تعالى له: لقد أتتك آياتنا واضحة جلية فتعاميتَ عنها وتركْتَها، وكذلك تُترَك اليوم في العذاب جزاءً وفاقاً ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للخيانة والتكذيب بآيات الله نعاقب من أسرف بالانهماك في الشهوات، ولم يصدّق بكلام ربه وآياته البينات ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي عذاب جهنم أشدُّ من عذاب الدنيا لأنَّ عذابها أدوَم وأثْبت لأنه لا ينقطع ولا ينقضي ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي أفلم يتبيَّن لكفار مكة الذين كذبوك كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية المكذبين لرسلهم ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي يرون مساكن عاد وثمود ويعانون آثار هلاكهم أفلا يتعظون ويعتبرون؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي إنَّ في آثار هذه الأمم البائدة لدلالات وعِبراً لذوي العقول السليمة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي لولا قضاءُ الله بتأخير العذاب عنهم ووقتٌ مسمى لهلاكهم لكان العذاب واقعاً بهم[٢] قال الفراء: في الآية تقديم وتأخيرٌ والمعنى: ولولا كلمةٌ وأجلٌ مسمًّى لكان لزاماً أي لكان العذاب لازماً لهم، وإنما أخَّره لتعتدل رءوس الآي[٣] ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون من قومك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي صَلِّ وأنت حامدٌ لربك قبل طلوع الشمس صلاةَ الصبح، وقبل غروبها صلاةَ العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي وصَلِّ لربك في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي لعلَّك تُعطَى ما يرضيك قال «القرطبي»: أكثر المفسرين أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ صلاة العشاء ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ صلاة المغرب والظهر، لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وغروب الشمس آخر طرف النهار الأخير[٤] ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به أصنافاً من الكفار من نعيم الدنيا وبَهْرَجِها[٥] الخادع ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي زينة الحياة الدنيا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي

(١) «المختصر» ٢/ ٤٩٧.

(٢) (ش): فالذي أخره عنهم كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، لعلهم يُراجِعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة.

(٣) «زاد المسير» ٥/ ٣٣٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٦١.

(٥) (ش): أي زَبْفها وزخرفها وزينتها الباطلة التافهة.

لنبْتَلِيَهم ونختبرهم بهذا النعيم حتى يستوجِبوا العذاب بكفرهم ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي ثواب الله خير من هذا النعيم الفاني وأدْوَمَ قال المفسرون: الخطاب للرسول ﷺ والمراد بـه أُمته لأنه عليه السلام كان أزهد الناس في الدنيا وأشدَّ رغبةً فيما عند الله ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي وأْمُرْ يا محمد أهلَك وأمَّتَك بالصلاة واصبر على أدائها بخشوعها وآدابها ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك بل نحن نتكفَّل برزقك وإياهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي العاقبة الحميدة لأهل التقوى قال ابن كثير: أي حسن العاقبة وهي الجنة لمن اتقى الله[1] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي قال المشركون هلاّ يأتينا بمعجزة تدل على صدقه؟ ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ أي أولم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى لمحمد عليه السلام المحتوي على أخبار الأمم الماضية؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع قال في البحر: اقترح المشركون ما يختارون على ديدنهم[2] في التعنت فأجيبوا بأن هذا القرآن الذي سبق التبشير به في الكتب الإلهية السابقة أعظم الآيات في الإعجاز وهو الآية الباقية إلى يوم القيامة[3] ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي لو أنا أهلكنا كفار مكة من قبل نزول القرآن وبعثة محمد عليه السلام ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي لقالوا: يا ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً حتى نؤمن به ونتَّبعه ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ أي فنتمسك بآياتك من قبل أن نذلّ بالعذاب ونفتضح على رءوس الأشهاد قال المفسرون: أراد تعالى أن يبيّن أنه لا حجةَ لأحد على الله بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يترك لهم حجة ولا عذراً ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين: كلٌّ منا ومنكم منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أمر تهديد أي فانتظروا العاقبة والنتيجة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي فستعلمون عن قريب من هم أصحاب الطريق المستقيم هل نحن أم أنتم؟ ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أي اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد ومن بقي على الضلال قال «القرطبي»: وفي هذا ضَربٌ[4] من الوعيد والتخويف والتهديد ختمت به السورة الكريمة[5].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي:

١ - التشبيه ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وهو تشبيه مرسل مجمل.

---

(١) «المختصر» ٢/ ٥٠٠.

(٢) (ش): دَيْدَن: عادَةٌ ودَأْبٌ، يقال: من دَيْدَنه أن يفعل كذا.

(٣) «البحر المحيط» ٦/ ٢٩٢.

(٤) (ش): ضَربٌ: نوعٌ.

(٥) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٦٥.

٢ – الاستعارة ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ شبَّه الوزر بالحمل الثقيل بطريق الاستعارة التصريحية.

٣ – الكناية ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ كناية عن أمر الدنيا وأمر الآخرة.

٤ – الطباق بين ﴿أَعْمَىٰ .. بَصِيرًا﴾.

٥ – التشبيه التمثيلي ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مثَّل لنعم الدنيا بالزهر وهو النوار لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل وكذلك نعيم الدنيا.

٦ – الوعيد والتهديد ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾.

٧ – جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

٨ – السجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ظُلْمًا ، هَضْمًا ، عِلْمًا ،﴾ ومثل ﴿فَتَشْقَىٰٓ ، تَعْرَىٰ ، تَرْضَىٰ﴾ الخ.

لطيفَة: قال الناصر: في الآية سرٌّ بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظر، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب، الغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلًّا بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة واحدة، على أن في الآية سراً آخر وهو قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظمأ بالجوع لانتثر سلك رءوس الآي[1].

فَائِـدَة: قال الشهاب: ليس المراد بحكاية قول من قال ﴿عَشْرًا﴾ أو ﴿يَوْمًا﴾ أو ﴿سَاعَةٍ﴾ حقيقة اختلافهم في مدة اللبث، ولا الشك في تعيينه، بل المراد أنه لسرعة زواله عبر عن قلته بما ذكر، فتفنن في الحكاية وأُتى في كل مقام بما يليق به[2].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة طه»



(١) حاشية «الكشاف» ٣/ ٩٤.

(٢) حاشية الشهاب على «البيضاوي».

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ ٢١ ١١٢

مكية وآياتها اثنتا عشرة ومائة

بين يدي السورة

هذه السورة مكية وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة «الرسالة، الوحدانية، البعث والجزاء» وتتحدث عن الساعة وشدائدها، والقيامة وأهوالها، وعن قصص الأنبياء والمرسلين.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة، وعن الحساب والجزاء، بينما القيامة تلوح لهم وهم في غفلة عن ذلك اليوم الرهيب، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن المكذبين، وهم يشهدون مصارع الغابرين، ولكنهم لا يعتبرون ولا يتعظون، حتى إذا ما فاجأهم العذاب، رفعوا أصواتهم بالتضرع والاستغاثة ولكن هيهات.

* وتناولت السورة دلال القدرة في الأنفس والآفاق لتنبه على عظمة الخالق المدبر الحكيم، فيما خلق وأبدع، ولتربط بين وحدة الكون، ووحدة الإله الكبير.

* وبعد عرض الأدلة والبراهين، الشاهدة على وحدانية رب العالمين، تذكر السورة حال المشركين وهم يتلقون الرسول عليه السلام بالاستهزاء والسخرية والتكذيب، وتعقب على بذلك بسنة الله الكونية في إهلاك الطغاة المجرمين.

* ثم تناول السورة الكريمة قصص بعض الرسل، وتتحدث بالإسهاب عن قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الوثنيين، في أسلوب مشوق، فيه من نصاعة البيان، وقوة الحجة والبرهان ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة في خنوع واستسلام، وفي قصته عبر وعظات.

* وتتابع السورة الحديث عن الرسل الكرام فتتحدث عن «إسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكريا، وعيسى» بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرضوا لها، وتختم ببيان رسالة سيد المرسلين محمد بن عبد الله المرسل رحمة للعالمين.

التسمية: سميت «سورة الأنبياء» لأن الله تعالى ذكر فيها جملة من الأنبياء الكرام في استعراض سريع، يطول أحيانًا ويقصر أحيانًا، وذكر جهادهم وصبرهم ونصيحتهم في سبيل الله، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشرية.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم
مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ
مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ
ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا
نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ
وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدۡ
أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا
بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ
أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ
حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ
أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا
هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ
عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ
ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا
يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ
وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ

اللغة: ﴿أَضۡغَٰثُ﴾ أخلاط جمع ضِغث وهي الأهاويل[1] التي يراها الإنسان من منامه ﴿قَصَمۡنَا﴾ القصْم: كسر الشيء الصلب يقال: قصمتُ ظهره وانقصمت سنُّه إذا انكسرت ﴿يَرۡكُضُونَ﴾ الركض: العَدْوُ بشدَّة[2]، والركْض ضرْب الدابة بالرِّجْل حثًّا على العَدْو ﴿خَٰمِدِينَ﴾ خمدت النار طفئت والخمود الهمود ويراد به الموت تشبيهاً بخمود النار ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ دَمَغَه: أصاب دماغه نحوُ كَبَده ورَأسَه أصاب كبده ورأسه ﴿يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ يَعْيَوْن

(١) (ش): الهَوْل: الإفزاع والتخويف. والجمع أهوال وجمع الجموع أهاويل. كَأَقَاوِيل جَمْع أَقْوَال وأَقْوَال جَمْع قَوْل. قَالَ ﷺ: «إِنَّ الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: مِنْهَا أَهَاوِيلُ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ بِهَا ابْنَ آدَمَ، وَمِنْهَا مَا يَهُمُّ بِهِ الرَّجُلُ فِي يَقَظَتِهِ فَيَرَاهُ فِي مَنَامِهِ، وَمِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني). وقال المؤلف في تفسير سورة يوسف: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ أي أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها.

(٢) (ش): العَدْوُ: الجَرْيُ.

مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب.

التفسير: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أي قرب ودنا وقت حساب الناس على أعمالهم ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ أي وهم مستغرقون في الشهوات، غافلون عن ذلك اليوم الرهيب، لا يعملون للآخرة ولا يستعدون لها كقول القائل:

الناس في غفلاتهم ... ورحا المنيّة تطحن [١]

وإنما وصف الآخرة بالاقتراب لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ أي ما يأتيهم شيءٌ من الوحي والقرآن من عند الله متجدّد في النزول فيه عظةٌ لهم وتذكير[٢] ﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ أي إلّا استمعوا القرآن مستهزئين قال الحسن: كلما جُدّد لهم الذكرُ استمروا على الجهل[٣] ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي ساهيةً قلوبهم عن كلام الله، غافلة عن تدبر معناه ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي تناجى المشركون فيما بينهم سرًّا ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي قالوا فيما بينهم خفيةً هل محمد الذي يدّعي الرسالة إلا شخص مثلكم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ أي أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ قال الألوسي: أرادوا أن ما أتى به محمد عليه السلام من قبيل السحر، وذلك بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكًا وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر وعنوا بالسحر القرآن[٤] ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي قال محمد ﷺ: إنَّ ربي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي السميع بأقوالكم، العليم بأحوالكم، وفي هذا تهديدٌ لهم ووعيد ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾ هذا إضرابٌ[٥] من جهته تعالى وانتقال إلى ما هو أشنع وأقبح حيث قالوا عن القرآن: إنه أخلاط منامات ﴿بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾ أي بل محمد شاعر وما أتى به شعر يخيل للسامع

---

(١) البيت لأبي العتاهية كذا في ابن كثير ٢/ ٥٠١. (ش): الرَّحَا: أداة يُطحَن بها، وهي حَجَران مستديران يُوضع أحدهما على الآخر ويُدار الأعلى على قُطب. المنيَّة: الموت، الوفاة.

(٢) (ش): (مُحْدَث) في الأصلِ من (الحُدوثِ) وهو كَونُ الشَّيءِ بعدَ أنْ لم يكنْ، والقرآن العَظيمُ حينَ كان يَنزِلُ، كان كُلَّما نزَلَ منه شيءٌ كانَ جَديداً على الناس، لَم يكونوا عَلِموه مِن قَبْلُ، فهو مُحْدَثٌ بالنسبة إلى الناس، ألا تراهُ قال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم﴾؟ فهو محدَثٌ إليهم حين يأتيهم. وأمرُ الله: قولُهُ وكلامُهُ، وهو غيرُ مخلوقٍ، مُحْدَثٌ بالنسْبَةِ إلى العبادِ، أي: جديدٌ عليهم، فليسَ المُحدَثُ هنا هو المخلوق، ولكنه الذي أنزلَ جَديداً، فإنَّ الله كانَ يُنْزِلُ القرآنَ شيئًا بعدَ شيْءٍ، فالمُنْزَلُ أوّلاً هو قديمٌ بالنسبةِ إلى المُنْزَلِ آخراً، وكلُّ ما تقدَّمَ على غيرِهِ فهو قديمٌ في لُغَةِ العرَب.

(٣) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٦٨.

(٤) الألوسي ١٧/ ٩.

(٥) (ش): الإضراب: الانْتِقَال من معنى إِلَى معنى آخر هُوَ فِي الْغَالِب أهم فِي تَقْدِير المُرَاد.

أنه كلام رائع مجيد قال في «التسهيل»: حكى عنهم هذه الأقوال الكثيرة ليظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم فهم متحيرون لا يستقرون على شيء[١] ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي فليأتنا محمدٌ بمعجزةٍ خارقة تدل على صدقه كما أُرسل موسى بالعصا وصالح بالناقة ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ما صدَّق قبل مشركي مكة أهل القرى الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات بل كذبوا فأهلكهم الله أفيصدّق هؤلاء بالآيات لو رأوها؟ كلا. قال أبو حيان: وهذا استبعادٌ وإنكار، أي: هؤلاء أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أضلَّ من أولئك واستحقوا عذاب الاستئصال ولكنَّ الله تعالى حكم بإبقائهم لعلمه أنه سيخرج منهم مؤمنون[٢] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رسلاً من البشر لا ملائكة فكيف ينكر هؤلاء المشركون رسالتك ويقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم؟ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي فاسألوا يا أهل مكة العلماء بالتوراة والإنجيل هل كان الرسل الذين جاءوهم بشراً أم ملائكة إن كنتم لا تعلمون ذلك؟ ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أي ما جعلنا الأنبياء أجساداً لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون، وينامون ويموتون ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي ما كانوا مخلَّدين في الدنيا لا يموتون ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أي ثم صدقنا الأنبياء ما وعدناهم به من نصرهم وإهلاك مكذبيهم وإنجائهم مع أتباعهم المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي وأهلكنا المكذبين للرسل، المجاوزين الحدَّ في الكفر والضلال، وهذا تخويفٌ لأهل مكة ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ اللام للقسم، أي: والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتاباً عظيماً مجيداً لا يماثله كتاب فيه شرفُكم وعزكُم لأنه بلغتكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون هذه النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد عليه السلام؟ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي وكثيراً أهلكنا من أهل القرى الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي فلما رأوا عذابنا بحاسة البصر وتيقنوا نزوله إذا هم يهربون فارين منهزمين قال أبو حيان: لما أدركَتْهم مقدمة العذاب ركبوا دوابّهم يركضونها هاربين منهزمين[٣] ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي تقول لهم الملائكة استهزاءً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما

(١) «التسهيل» ٣/ ٢٣.
(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٢٩٨.
(٣) «البحر المحيط» ٦/ ٣٠٢.

كنتم فيه من النعمة والسرور ولين العيش ﴿وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾ أي ارجعوا إلى مساكنكم الطيبة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ أي لعلكم تُسألون عما جرى عليكم، وهذا كله من باب الاستهزاء والتوبيخ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي قالوا: يا هلاكنا ودمارنا إنا كنا ظالمين بالإشراك وتكذيب الرسل، اعترفوا وندموا حين لا ينفعهم الندم ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي فما زالت تلك الكلمات التي قالوها يكررونها ويردّدونها ﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ أي حتى أهلكناهم بالعذاب وتركناهم مثل الحصيد موتى كالزرع المحصود بالمناجل ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي لم نخلق ذلك عبثاً وباطلاً وإنما خلقناهما دلالةً على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس ويستدلوا بالخلق على وجود الخالق المدبّر الحكيم ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوًا﴾ قال ابن عباس: هذا ردٌّ على من قال: اتخذ الله ولداً. والمعنى لو أردنا أن نتخذ ما يُتلهى به من زوجةٍ أو ولد ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي لاتخذناه من عندنا من الحور العين أو الملائكة ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي لو أردنا فعل ذلك لاتخذنا من لدنا ولكنه منافٍ للحكمة فلم نفعله ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ أي بل نرمي بالحق المبين على الباطل المتزعزع فيقمعه ويُبطله ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ أي هالك تالف ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي ولكم يا معشر الكفار العذاب والدمار مِن وَصْفِكم الله تعالى بما لا يجوز من الزوجة والولد ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وله جلَّ وعلا جميع المخلوقات ملْكاً وخَلْقاً وتصرفاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبدٌ ومخلوق له؟ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ أي والملائكة الذين عبدتموهم من دون الله لا يتكبرون عن عبادة مولاهم ولا يَعْيَون ولا يملُّون ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ أي هم في عبادة دائمة ينزّهون الله عما لا يليق به ويصلّون ويذكرون الله ليل نهارَ لا يضعفون ولا يسأمون ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ لما ذكر الدلائل على وحدانيته وأن من في السماوات والأرض ملْكٌ له وأن الملائكة المقربين في طاعته وخدمته عاد إلى ما كان عليه من توبيخ المشركين وذمهم وتسفيه أحلامهم، و ﴿أَمِ﴾ منقطع بمعنى بل والهمزة فيها استفهام معناه التعجب والإنكار. والمعنى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض قادرين على إحياء الموتى؟ كلا بل اتخذوا آلهة جماداً لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ هذا برهان على وحدانيته تعالى أي لو كان في الوجود آلهة غير الله لَفَسد نظام الكون كله لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع[1] في الخلق والتدبير

(١) قال المفسرون: في الآية دليل على التمانع الذي أورده الأصوليون وذلك أنا لو فرضنا إلهين فأراد أحدهما =

وقصد المغالبة، ألا ترى أنه لا يوجد مِلكان في مدينة واحدة، ولا رئيسان في دائرة واحدة؟ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزّه الله الواحد الأحد خالق العرش العظيم عما يصفه به أهل الجهل من الشريك والزوجة والولد ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي لا يسأل تعالى عمّا يفعل لأنه مالك كل شيء والمالك يفعل في ملكه ما يشاء، ولأنه حكيم فأفعاله كلُّها جارية على الحكمة، وهم يُسألون عن أعمالهم لأنهم عبيد ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ كرّر هذا الإنكار استعظاماً للشرك ومبالغة في التوبيخ أي هل اتخذوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم؟ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين ائتوني بالحجة والبرهان على ما تقولون ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ أي هذا الكتاب الذي معي والكتب التي من قبلي كالتوراة والإنجيل ليس فيها ما يقتضي الإشراك بالله، ففي أي كتابٍ نزل هذا؟ في القرآن أم في الكتب المنزّلة على سائر الأنبياء؟! فما زعمتموه من وجود الآلهة لا تقوم عليه حجة لا من جهة العقل ولا النقل، بل كتب الله السابقة شاهدة بتنزيهه عن الشركاء والأنداد ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي بل أكثر المشركين لا يعلمون التوحيد فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الإيمان.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير في ﴿غفلة﴾ للتعظيم والتفخيم ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾.

٢ - صيغة المبالغة ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٣ - الإضراب الترَقي ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وهذا الاضطراب في وصف القرآن يدل على التردُّد والتحير في تزويرهم للحق الساطع المنير فقولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثاني.

٤ - الإنكار التوبيخي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

٥ - التشبيه البليغ ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ أي جعلناهم كالزرع المحصود وكالنار الخامدة.

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ شُبّه الحق بشيء صلب والباطل بشيء رخو. واستعير لفظ القذف والدمغ لغلبة الحق على الباطل بطريق التمثيل فكأنه رمي بجرم صلب على رأس دماغ الباطل فشقّه وفي هذا التعبير مبالغة بديعة في إِزهاق الباطل.

٧ - طباق السلب ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

= شيئًا وأراد الآخر نقيضه، فإما أن تنفذ إرادة كل منهما وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر فيكون الأول الذي تنفذ إرادته هو الإله، والثاني عاجزٌ فلا يصح أن يكون إلهًا.

٨ - التبكيت وإلقام الحجر للخصم ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾.

فَائِدَة: سئل كعب عن الملائكة كيف يسبّحون الليل والنهار لا يفترون؟ أما يشغلهم شأن، أما تشغلهم حاجة؟ فقال للسائل: يا ابن أخي جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النَّفس، ألست تأكل وتشرب، وتقوم وتجلس، وتجيء وتذهب وأنت تتنفس؟ فكذلك جُعل لهم التسبيح[1].

قال الله تعالى:

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ
ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ
﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾
أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ
حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ
يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ
فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾
وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم
بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ
﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا
يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ
فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ
بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ
هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ
نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ
أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم
بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ
شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا

---

(١) «زاد المسير» ٥/ ٣٤٥.

﴿مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾

المناسبة: لما بيَّن تعالى أحوال المشركين وأقام الأدلة والبراهين على وحدانية الله وبطلان تعدد الالهة، ذكر هنا أن دعوة الرسل جميعاً إِنما جاءت لبيان التوحيد ثم ذكر بقية الأدلة على قدرة الله ووحدانيته في هذا الكون العجيب.

اللغة: ﴿رَتْقًا﴾ الرتق: الضمُّ والالتحام وهو ضد الفتق يقال: رتقتُ الشيء فارتق أي التأم ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ﴿تَمِيدَ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿فِجَاجًا﴾ جمع فجّ وهو المسلك والطريق الواسع ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تدهشهم وتحيرهم قال الجوهري: بهته بَهْتا أخذه بغتة وقال الفراء: بهَته إذا واجهه بشيء يحيّره[1] ﴿يَكْلَؤُكُم﴾ يحرسكم ويحفظكم والكلاءة: الحراسة والحفظ.

سَبَبُ النّزول: مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبيُّ بني عبد مناف!! فغضب أبو سفيان وقال: ما تنكر أن يكون لبني عبد منافٍ نبيٌّ؟ فرجع رسول الله ﷺ إلى أبي جهل وقال له: ما أَراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمَّك الوليد بن المغيرة فنزلت ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[2] الآية.

التفسير: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولاً من الرسل ﴿إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي إلا أوحينا إليه أنه لا ربَّ ولا معبود بحق سوى الله ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ أي فاعبدوني وحدي وخصوني بالعبادة ولا تشركوا معي أحداً ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ أي قال المشركون اتخذ الله من الملائكة ولداً قال المفسرون: هم حيٌّ من خزاعة قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عما يقول الظالمون ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي بل هم عبادٌ مبجَّلون اصطفاهم الله فهم مكرمون عنده في منازل عالية، ومقاماتٍ سامية وهم في غاية الطاعة والخضوع ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله شأنهم شأن العبيد المؤدبين وهم بطاعته وأوامره يعملون لا يخالفون ربهم في أمرٍ من الأوامر ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم لا يخفى عليه منهم خافية ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن رَضِيَ اللهُ عَنْه وهم أهل الإيمان كما قال ابن عباس: هم أهل

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٩٠.
(٢) «روح المعاني» ١٧/ ٤٨. (ش): ضعيف، ذكره السيوطي في ««الدر المنثور»» و«الباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم.

شهادة لا إله إلا الله ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ أي وهم من خوف الله ورهبته خائفون حذرون لأنهم يعرفون عظمة الله قال الحسن: يرتعدون من خشية الله ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي يقل من الملائكة: إني إلهٌ ومعبودٌ مع الله ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ أي فعقوبته جهنم قال المفسرون: هذا على وجه التهديد وعلى سبيل الفرض والتقدير لأن هذا شرط والشرطُ لا يلزم وقوعه والملائكة معصومون ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي من ظلم وتعدى حدود الله ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة وردٌّ على عبدة الأوثان، أي: أولم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السماوات والأرض كانتا شيئًا واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقرَّ الأرض كما هي؟ قال الحسن وقتادة: كانت السماوات والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء[1] وقال ابن عباس: كانت السماوات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تُنبت ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات[2] ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ أي جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسببًا للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي أفلا يصدّقون بقدرة الله[3]؟ ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ أي جعلنا في الأرض جبالًا ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي وجعلنا في هذه الجبال مسالك وطرقًا واسعة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار قال ابن كثير: جعل في الجبال ثُغراً يسلكون فيها طرقًا من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه فيجعل الله فيها فجوةً ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا[4] ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ أي جعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط وقال ابن عباس: حفظت بالنجوم من الشياطين ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ أي والكفار عن الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبر معرضون[5] لا يتفكرون فيما أبدعَتْه يد القدرة من الخلق العجيب والتنظيم الفريد الدال على الحكمة البالغة والقدرة

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٨٣.
(٢) «زاد المسير» ٥/ ٣٤٨.
(٣) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.
(٤) «المختصر» ٢/ ٥٠٧.
(٥) (ش): هذا التعبير غير سليم، لأن الكفار يُقِرُّون بوجود الله وإنما يشركون معه غيره في العبادة، فالآيات حجة عليهم في بطلان الشرك في العبادة، وهم مُعْرِضون عما تدل عليه من وجوب إفراد الله بالعبادة.

الباهـرة قـال القرطبي: بيَّـن تعالى أن المشـركين غفلوا عـن النظر في السـماوات وآياتها، مـن ليلها ونهارهـا، وشمسـها وقمرها، وأفلاكهـا ورياحها، ومـا فيها من القـدرة الباهرة إذ لـو نظـروا واعتبروا لعلمـوا أن لها صانعـًا قادراً واحداً يسـتحيل أن يكون له شـريك[١] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ أي وهـو تعالـى بقدرتـه نـوَّع الحيـاة فجعل فيهـا ليـلاً ونهاراً هـذا في ظلامه وسـكونه، وهذا بضيائه وأنسـه، يطول هذا تـارة ثم يقصر أُخـرى وبالعكس، وخلق الشـمس والقمر آيتيـن عظيمتين دالتين علـى وحدانيته ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾ أي كلٌّ مـن الشـمس والقمـر والنجوم والكواكب والليـل والنهار يجرون ويسـيرون بسرعة كالسـابح في الماء ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَ ﴾ أي وما جعلنا لأحدٍ من البشـر قبلك يا محمد البقاء الدائم والخلود في الدنيا ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الخالدون﴾ أي فهـل إذا متَّ يا محمد سـيخلَّدون بعدك في هذه الحياة؟ لا لـن يكون لهم ذلك بل كلٌّ إلى الفنـاء قال المفسـرون: هذا ردٌّ لقـول المشـركين ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] فأَعْلَـم تعالـى بأن الأنبياء قبله ماتوا وتولى الله دينه بالنصـر والحياطة، فهكذا تحفظ دينك وشـرعك ﴿ كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي كل مخلـوقٍ إلـى الفناء ولا يـدوم إلا الحيُّ القيوم ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً ﴾ أي ونختبركـم بالمصائـب والنِّعـم لنـرى الشـاكرين مـن الكافر، والصابر من القانط قال ابن عباس: نبتليكم بالشـدة والرخاء، ولاصحة والسَّـقم، والغنى والفقـر، والحلال والحـرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضـلال[٢] وقال ابن زيـد: نختبركم بمـا تحبون لنرى كيف شـكركم، وبمـا تكرهون لنرى كيـف صبركم[٣]!! ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ أي وإلينـا مرجعكم فنجازيكـم بأعمالكم ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي إذا رآك كفـار قريـش كأبـي جهل وأشـياعه مـا يتخذونك إلاّ مهـزُوءاً بـه يقولـون ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ اسـتفهام فيه إنـكار وتعجيب أي هذا الذي يسـب آلهتكم ويُسـفّه أحلامكـم؟ ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ أي وهـم كافـرون بـالله ومع ذلك يسـتهزئون برسـول الله قـال القرطبي: كان المشـركون يعيبـون مَن جَحَـد إلهية أصنامهم وهـم جاحدون لإلهيـة الرحمن، وهذا غايـة الجهل[٤] ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍ﴾ أي رُكِّـب الإنسـان علـى العجلـة فخُلق عجولاً يسـتعجل كثيراً من الأشـياء وإن كانت مُضِرَّة قال ابن كثير: والحكمة في ذكر عجلة الإنسـان هاهنا أنه لما

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٨٥.
(٢) «المختصر» ٢/ ٥٠٨.
(٣) «ابن الجوزي» ٥/ ٣٥٠.
(٤) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٨٨.

ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلوا ذلك[١] ولهذا قال ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي سأوريكم انتقامي واقتداري على من عصاني فلا تتعجلوا الأمر قبل أوانه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية: متى هذا العذاب الذي يعدنا به محمد إن كنتم يا معشر المؤمنين صادقين فيما أخبرتمونا به قال تعالى ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي لو عرف الكافرون فظاعة العذاب حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم وظهورهم لأنه محيط بهم من جميع جهاتهم لما استعجلوا الوعيد قال في البحر: وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف لأنه أبْلَغُ في الوعيد وأهْيَبُ[٢] وقدَّره الزمخشري بقوله: لَمَا كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكنَّ جهلهم هو الذي هوَّنه عندهم[٣] ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا ناصر لهم من عذاب الله ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي بل تأتيهم الساعة فجأة فتدهشهم وتحيرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي فلا يقدرون على صرفها عنهم ولا يُمهلون ويُؤخرون لتوبةٍ واعتذار ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء المشركين أي والله لقد استهزئ برسل أولي شأن خطير وذوي عدد كثير من قبلك يا محمد ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي فنزل وحَلَّ بالساخرين من الرسل العذابُ الذي كانوا يستهزئون به قال أبو حيان: سلّاه تعالى بأنَّ من تقدَّمه من الرسل وقع من أممهم الاستهزاء بهم، وأن ثمرة استهزائهم جَنَوْها هلاكًا وعقابًا في الدنيا والآخرة فكذلك حال هؤلاء المستهزئين.[٤] ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين: من يحفظكم من بأس الرحمن في أوقاتكم؟ ومن يدفع عنكم عذابه وانتقامه إن أراد إنزاله بكم؟ وهو سؤال تقريع وتنبيه كيلا يغْترُّوا بما نالهم من نعم الله ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظه لا يتفكرون ولا يعتبرون ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ أي ألهم آلهة تمنعهم من العذاب غيرنا؟ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي

(١) «المختصر» ٢/ ٥٠٨.

(٢) (ش): أي أشَدُّ في التحذير والتخويف.

(٣) «البحر المحيط» ٦/ ٣١٣. (ش): قال الزمخشري في «تفسيره» (٣/ ١١٨): «لو يعلمون الوقت الذي يستَعْلِمون عنه بقولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وهو وقتٌ صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدّام، فلا يقدرون على دفْعها ومنْعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصرًا ينصرهم، لَمَا كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم».

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٣١٤.

لا يقدرون على نصر أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم؟ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي وليست هذه الآلهة تستطيع أن تجير نفسها من عذاب الله لأنها في غاية العجز والضعف قال ابن عباس: يُصحبون: يُجارون أي لا يُجيرهم منا أحد لأن المجير صاحب لجاره[١] ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم من قبلهم بما رزقناهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة وحسبوا أن ذلك يدوم فاغتروا بذلك ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي أفلا ينظرون فيعْتبرون بأننا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بالفتح على النبي وتسليط المسلمين عليها[٢]؟ ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ استفهام بمعنى التقريع والإنكار أي أفهم الغالبون والحالة هذه أم المغلوبون؟ بل هم المغلوبون الأخسرون الأرذلون ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أُخوِّفكم وأحَذِّركم ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ من الله لا من تلقاء نفسي، فأنا مبلِّغٌ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي ولكنكم أيها المشركون لشدة جهلكم وعنادكم كالصُمّ الذين لا يسمعون الكلام والإنذار فلا يتعظون ولا ينزجرون ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي ولئن أصابهم شيء خفيف مما أُنذروا به من عذاب الله ولو كان يسيراً ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي ليعترفنَّ بجريمتهم ويقولون: يا هلاكنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ونقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي فلا يُنقص محسنٌ من إحسانه، ولا يُزاد مسيءٌ على إساءته ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي وإن كان العمل الذي عملته زنة حبةٍ من خردل جئنا بها وأحضرناها قال «أبو السعود»: أي وإن كان في غاية القلة والحقارة، فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر[٣] ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ أي كفى بربك أن يكون محصياً لأعمال العباد مجازياً عليها قال الخازن: والغرضُ منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون

---

(١) «زاد المسير» ٥/ ٣٥٣.

(٢) (ش): (أَتى): تَأتي بعدة معَان، مِنْهَا: بِمَعْنى الْمَجِيء، وَمِنْهَا بِمَعْنى الإِنْذَار، وَمِنْهَا بِمَعْنَى الْمُدَاهَمَةِ. وَيُقَالُ: أُتِيَ فُلَانٌ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ التَّاءِ إِذَا أَظَلَّ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: «مِن مَأمَنه يُؤْتَى الْحَذِرُ».
أَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ، فَإِنَّ سِيَاقَ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا السِّيَاقِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الصِّفَاتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، أَيْ هَدَمَهُ وَاقْتَلَعَهُ مِنَ قَوَاعِدِهِ، وَنَظِيرِهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أَي أَخَذَهُمْ وَدَهَاهُمْ وَبَاغَتَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا.[انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ١٨)].

(٣) «أبو السعود» ٣/ ١٢٤.

على أشـدّ الخوف منـه[١] ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾أي ولقد أعطينا موسـى وهـارون التوراة الفارقة بيـن الحق والباطل والهـدى والضلال نوراً وضياءً وتذكيراً للمؤمنيـن المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي هم الذين يخافون الله ولم يرَوْه لأنهم عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربًّا عظيماً قادراً يجازي على الأعمال فهم يخشونه وإن لم يرَوْه[٢] ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي وهم من أهوال يوم القيامة وشدائدها خائفون وجلون ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ أي وهذا القرآن العظيم كتاب عظيم الشـأن فيـه ذكرٌ لمن تذكّـر، وعظة لمن اتعـظ، كثير الخيـر أنزلناه عليكـم بلُغَتِكم ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي أفأنتـم يـا معشـر العرب منكرون له وهـو في غاية الجـلاء والظهور؟ قال الكرخـي: الاسـتفهام للتوبيخ والخطابُ لأهـل مكة فإنهم من أهل اللسـان يُدركون مزايا الكلام ولطائفه، ويفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيرهم مع أن فيه شرفَهم وصِيتَهم فلو أنكره غيرهم لكان لهم مناصبته وعداؤُه[٣].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ – جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا.. رَّسُولٍ ﴾.

٢ – الاستفهام الذي معناه التعجب والإنكار ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾.

٣ – الطباق بين الرتق والفتق في قوله ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ﴾.

٤ – التنكير للتعميم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ ﴾.

٥ – الالتفـات مـن المتكلـم إلـى الغائـب ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ بعـد قولـه

---

(١) «حاشية الجمل» ٣/ ١٣١.

(٢) (ش): إن المؤمنين المتقين يخافون الله ربهم – مع أنهم لم يرَوْه – لأنهم آمنوا به وبملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. إن معظم الناس عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربـًا عظيمـًا قادراً ومع ذلك لم يؤمنوا بالله الإيمان الصحيح، ولو كانوا يخشون ربهم لآمَنوا. قال عن المشركين: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]. إن دلائل معرفة الله متنوعة، منها الفطرية، والعقلية، والشرعية، والحسية.فوجود الله تعالى معروف بالعقل. وقد أمر الله تعالى بالتفكر في خلق السماء والأرض ، وهذا التفكر إنما يتم بالعقل، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الروم:٨] وكون الله تعالى موصوفـًا بكل كمال، ومنزهـًا عن كل نقص معروف أيضـًا بالعقل.ولكن هذه المعرفة معرفة إجمالية ، وأما المعرفة التفصيلية : فلا تتم إلا بالشرع، فبه تُعرف أسماؤه تعالى الحسنى، وصفاته العلى، إذ الإنسان لا يعرف ربه بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، على وجه التفصيل إلا بما جاءت به الرسل، ونزلتْ به الكتب.

(٣) انظر «البحر المحيط» ٦/ ٣١٢. (ش): صِيتٌ: سُمعة، ذِكْرٌ حَسَنٌ ينتشر في الناس. (فلو أنكره غيرهم لكان لهم مناصبته وعداؤُه): أي لو أن غيرَ أهل مكة أنكره لكان اللائق بأهل مكة أن يعادوهم؛ لأن فيه شرفَهم وصِيتَهم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ وذلك لتأكيد الاعتناء بالنعم الجليلة التي أنعم بها على العباد.

٦ - الطباق بين الشر والخير ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾.

٧ - المبالغة ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من نفس العَجَل كقول العرب لمن لازم اللعب: هو مِن لَعِب، وكوصف بعضهم قوماً بقوله «نساؤُهم لَعِبٌ ورجالُهم طَرَبٌ».

٨ - الاستعارة ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ استعار الصُمَّ للكفار لأنهم كالبهائم التي لا تسمع الدعاء ولا تفقه النداء.

٩ - الكناية ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ كناية عن العمل ولو كان في غاية القلة والحقارة.

١٠ - السجع اللطيف ﴿يَهْتَدُونَ ، يُسْحَبُونَ ، يُنصَرُونَ﴾ إلخ.

تنبيه: سئل ابن عباس: هل الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم إلى السماوات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار[1].

لطيفة: عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما فقال له: إذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرني بما قال لك - يريد ابن عباس - فذهب إليه فسأله فقال ابن عباس: كانت السماوات رتقاً لا تُمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تُنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل الى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس في تفسير القرآن، فالآن علمتُ بأنه قد أُوتي في القرآن علماً[2].

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ
ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا
فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٥٠٦.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا
لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ
كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن
قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى
ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا
ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ
صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى
بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ
وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ

المناسَبَة: لمّا ذكر تعالى الدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء، وما نال كثيراً منهم من الابتلاء تسليةً للرسول الأعظم ﷺ ليتأسّى بهم في الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى، وتوطين النفس على مجابهة المشركين أعداء الله.

اللغَة: ﴿رُشْدَهُۥ﴾ هُداه إلى وجوه الصلاح ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ جمع تمثال وهو الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى يقال: مثَّلت الشيء بالشيء أي شبهته به واسم ذلك الممثَّل تمثال ﴿جُذَٰذًا﴾ فُتاتاً والجَذُّ: الكَسْر والقَطْع قال الشاعر:

بَنُو الْمُهَلَّبِ جَذَّ اللهُ دَابِرَهُمْ أَمْسَوْا رَمَادًا فَلَا أَصْلٌ وَلَا طَرَفُ[1]

﴿نُكِسُواْ﴾ النَّكْسُ: قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفل ﴿نَافِلَةً﴾ زيادة، ومنه النفل لأنه زيادة على فرض الله ويقال لولد الولد: نافلة لأنه زيادة على الولد ﴿ٱلْكَرْبِ﴾ الغم الشديد ﴿نَفَشَتْ﴾ النَّفش: الرعيُ بالليل بلا راع يقال: نفشت بالليل، وهملت بالنهار إذا رعت بلا راع.

التفسِير: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أي والله لقد أعطينا إبراهيم هُداه وصلاحه إلى

(١) «البحر المحيط» ٦/٣١٨.

وجوه الخير في الدين والدنيا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من صغره حيث وفقناه للنظر والاستدلال إلى وحدانية ذي الجلال ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي عالمين بأنه أهلٌ لما آتيناه من الفضل والنبوة ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ هذا بيانٌ للرشد الذي أُوتيه إبراهيم من صغره أي حين قال لأبيه آزر وقومه المشركين: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟ وفي قوله ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تحقيرٌ لها وتصغيرٌ لشأنها وتجاهل بها مع علمه بتعظيمهم لها ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ أي نعبدها تقليداً لأسلافنا قال ابن كثير: لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضُلّال[1] ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي لقد كنتم وأسلافكم الذين عبدوا هذه الأصنام في خطأٍ بيّن بعبادتكم إياها إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي هل أنت جادٌّ فيما تقول أو لاعب؟ وهل قولك حقٌّ أم مزاح؟ استعظموا إنكاره عليهم، واستبعدوا أن يكون ما هم عليه ضلالاً، وجوَّزوا أن ما قاله على سبيل المزاح لا الجد، فأضرب عن قولهم وأخبر أنه جادٌّ فيما قال غير لاعب ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي ربكم الجدير بالعبادة هو ربُّ السماوات والأرض الذي خلقهنَّ وأبدعهنَّ لا هذه الأصنام المزعومة ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي وأنا شاهد لله بالوحدانية بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي تُقْطَع به الدَّعاوى ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أي وأقسمُ بالله لأمكرنَّ بآلهتكم وأحتالنَّ في وصول الضر إليها بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم قال المفسرون: كان لهم عيد يخرجون إليه في كل سنة ويجتمعون فيه فقال آزر لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا! فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم أشتكي رجلي فتركوه ومضوا ثم نادى في آخرهم ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فسمعها رجلٌ فحفظها[2] ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ أي كسَّر الأصنام حتى جعلها فتاتاً وحُطاماً ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره قال مجاهد: ترك الصنم الأكبر وعلَّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتجّ به عليهم[3] ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه عمن كسَّر الأصنام فيتبين لهم عجزه وتقوم الحجة عليهم ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في الكلام محذوفٌ تقديره: فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ورأَوْا ما فُعِل بها قالوا على جهة البحث والإنكار والتشنيع والتوبيخ: إنَّ من

(١) «المختصر» ٢/ ٥١١.
(٢) «تفسير الخازن» ٣/ ٢٤١.
(٣) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٩٨.

حطَّم هذه الآلهة لشديد الظلم عظيم الجُرْم[1] لجراءته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي قال من سمع إبراهيم يقول ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ سمعنا فتى يذكرهم بالذم ويسبُّهم ويعيبهم يسمى إبراهيم فلعله هو الذي حطَّم الآلهة ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي قال نمرود وأشراف قومه: أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه، والغرضُ أن تكون محاكمته على رءوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي لعلهم يحضرون عقابه ويرون ما يصنع به ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي هل أنتَ الذي حطَّمت هذه الآلهة يا إبراهيم؟ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي قال: إبراهيم بل حطَّمها الصنم الكبير لأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار فكسرها، والغرض تبكيتُهم وإقامة الحجة عليهم ولهذا قال ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ أي اسألوا هذه الأصنام من كسرها؟ إن كانوا يقدرون على النطق قال القرطبي: والكلام خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] فقال إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ليقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون فيقول لهم فلم تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجة منهم كما يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه فإنه أقربُ في الحجة وأقْطَعُ للشبهة[2] ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي رجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي انقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطغيان ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ أي قالوا في لجاجهم وعنادهم: لقد علمتَ يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تجيب فكيف تأمرنا بسؤالها؟ وهذا إقرار منهم بعجز الآلهة، وحينئذٍ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم فأخذ يوبخهم ويعنّفهم ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي أتعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع؟ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قبحاً لكم ونتناً لكم وللأصنام التي عبدتموها من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون قبح صنيعكم؟ ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ لمَّا لزمَتْهم الحجة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى البطش والتنكيل فقالوا: احرقوا إبراهيم بالنار انتقاماً لآلهتكم ونصرةً لها ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصريها حقّاً ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي ذات بردٍ وسلامة وجاءت العبارةُ هكذا للمبالغة قال

(١) (ش): جُرْمُ: ذنب، خطأ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٠٠.

المفسرون: لما أرادوا إِحراق إِبراهيم جمعوا له حطباً مدة شهر حتى كانت المرأة تمرض فتنذر إِن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إِبراهيم، ثم جعلوه في حفرة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها لهب عظيم حتى إِن الطائر ليمرُّ من فوقها فيحترق من شدة وهجها وحرها، ثم أوثقوا إِبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار، فجاء إِليه جبريل فقال: ألك حاجة؟ قال أمّا إِليك فلا، فقال جبريل: فاسأل ربك، فقال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» فقال الله: يا نار كوني برداً وسلاماً على إِبراهيم[1]، ولم تحرق النار منه سوى وثاقه وقال ابن عباس: لو لم يقل الله ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لآذى إِبراهيم بردها[2] ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ أي أرادوا تحريقه بالنار ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ أي أخسر الناس وأخسر من كل خاسر حيث كادوا لنبيّ اللهِ فردَّ الله كيدهم في نحورهم ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ونجينا إِبراهيم مع ابن أخيه لوط حيث هاجرا من العراق إلى الشام التي بارك الله فيها بالخِصب وكثرة الأنبياء ووفرة الأنهار والأشجار قال «ابن الجوزي»: وبركتُها أن الله عزَّ وجل بعث أكثرَ الأنبياء منها وأكثَرَ فيها الخِصب والأنهار[3] ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ﴾ أي أعطينا إِبراهيم - بعدما سأل ربه الولد - إِسحاق وأعطيناه كذلك يعقوب نافلةً أي زيادة وفضلاً من غير سؤال قال المفسرون: سأل إِبراهيم ربه ولداً فأعطاه الله إِسحاق وزاده يعقوب نافلة زيادة على ما سأل لأنَّ ولد الولد كالولد ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي وكلاًّ من إِبراهيم وإِسحاق ويعقوب جعلناه من أهل الخير والصلاح ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ أي جعلناهم قدوةٌ ورؤساء لغيرهم يرشدون الناس إِلى الدين بأمر الله ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي أوحينا إِليهم أن يفعلوا الخيرات ليجمعوا بين العلم والعمل ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي وأمرناهم بطريق الوحي بإِقامة الصلاة وإِيتاء الزكاة، وإِنما خصهما بالذكر لأن الصلاة أفضلُ العبادات البدنية، والزكاة أفضلُ العبادات المالية ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي موحدين مخلصين في العبادة ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ أي وأعطينا لوطًا النبوة والعلم والفَهْم السديد قال ابن كثير: كان لوط قد آمن بإِبراهيم عليه السلام واتَّبعه وهاجر معه كما قال تعالى ﴿فَـَٔامَنَ

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٠٣. (ش): قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٧٤): (حسبي من سؤالي علمه بحالي): «لا أصل له. أورده بعضهم من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع، وقد ذكره البغوي في تفسير سورة الأنبياء مشيرًا لضعفه فقال: رُوِيَ عن كعب الأحبار: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما رموا به في المنجنيق إلى النار استقبله جبريل. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: «حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». رواه البخاري.

(٢) «المختصر» ٢/ ٥١٤.

(٣) «زاد المسير» ٥/ ٣٦٨.

لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: ٢٦] فآتاه الله حُكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبيًّا وبعثه إلى «سدوم» فكذبوه فأهلكهم الله ودمَّر عليهم كما قصّ خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز[١] ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۚ﴾ أي خلَّصناه من أهل قرية سدوم الذين كانوا يعملون الأعمال الخبيثة كاللواط وقطع السبيل وغير ذلك ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٖ فَٰسِقِينَ﴾ أي كانوا أشراراً خارجين عن طاعة الله ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا لأنه من عبادنا الصالحين[٢] ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي واذكر قصة نوح حين دعا على قومه من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي استجبنا دعاءه فأنقذناه ومن معه من المؤمنين - ركاب السفينة - من الطوفان والغرق الذي كان كرباً وغمًّا شديداً يكاد يأخذ بالأنفاس ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ أي منعناه من شر قومه المكذبين فنجيناه وأهلكناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٖ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي كانوا منهمكين في الشرّ فأغرقناهم جميعاً ولم نُبْق منهم أحداً ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ أي واذكر قصة داود وسليمان حين يحكمان في شأن الزرع ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي وقت رعت فيه غنم القوم ليلاً فأفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ أي كنا مطَّلعين على حكم كل منهما عالمين به ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ أي علمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ أي وكلاًّ من داود وسليمان أعطيناه الحكمة والعلم الواسع مع النبوة قال المفسرون: تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تُبق منه شيئاً، فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم، فخرج الرجلان على سليمان وهو الباب فأخبراه بما حكم به أبوه فدخل عليه فقال: يا نبيَّ الله لو حكمتَ بغير هذا كان أرفق للجميع! قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا خرج الزرع رُدَّت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها فقال له داود: وُفّقت يا بُنيَّ وقضى بينهما بذلك فذلك قوله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ﴾ أي جعلنا الجبال والطير تسبّح مع داود إذا سبّح قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور فكان إذا ترنّم بها تقف الطير في الهواء

---

(١) «المختصر» ٢/ ٥١٥.

(٢) (ش): قال الإمام الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٧٣): «يقول تعالى ذكره: وأدخلْنا لوطًا في رحمتنا بإنجائنا إياه مما أحلَلْنا بقومه من العذاب والبلاء وإنقاذناه منه، إنه من الصالحين».

فتجاوبه وتردُّ عليه الجبال تأويبـًا[١] وإنما قدَّم ذِكْرَ الجبالِ على الطير لأن تسخيرَها وتسبيحَها أعجبُ وأغربُ وأدخَلُ في الإعجاز لأنها جماد ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي وكنا قادرين على فعل ذلك ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي علمنا داود صنع الدروع بإِلَانَةِ الحديد له قال قتادة: أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح فهو أول من سَرَدَها وحلَّقها[٢] ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي لتقيكم في القتال شر الأعداء ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ استفهامٌ يراد به الأمر، أي: اشكروا الله على ما أنعم به عليكم، ولما ذكر تعالى ما خصَّ به نبيه داود عليه السلام ذكر ما خصَّ به ابنه سليمان فقال ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفةً أي شديدة الهبوب ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي تسير بمشيئته وإرادته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والأنهار والثمار، وكانت مسكنه ومقر ملكه ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي وكنا عالمين بجميع الأمور فما أعطيناه تلك المكانة إلا لما نعلمه من الحكمة ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في الماء ويدخلون أعماق البحار ليستخرجوا له الجواهر واللآلئ ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي ويعملون أعمالاً أخرى سوى الغوص كبناء المدن والقصور الشاهقة والأمور التي يعجز عنها البشر ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي نحفظهم عن الزيغ عن أمره أو الخروج عن طاعته.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات من وجوه الفصاحة والبديع ما يلي:

١ - الاستعارة اللطيفة ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ شبه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة.

٢ - الطباق بين ﴿يَنفَعُكُمْ .. يَضُرُّكُمْ﴾.

٣ - المبالغة ﴿كُونِى بَرْدًا﴾ أطلق المصدر وأراد اسم الفاعل أي باردة أو ذات برد.

٤ - عطف الخاص على العام ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ لأن الصلاة والزكاة من فعل الخيرات وإنما خصهما بالذكر تنبيهـًا لعلو شأنهما وفضلهما.

٥ - الاحتراس ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دفعـًا لتوهم انتقاص مقام داود عليه السلام.

---

(١) «المختصر» ٢/ ٥١٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٢٠. (ش): قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سَبَأ: ١٠، ١١].

أي: ولقد آتينا داود نبوة، وكتابًا وعلمًا، وقلنا للجبال والطير: سبِّحي معه، وألنَّا له الحديد، فكان كالعجين يتصرف فيه كيف يشاء. أن اعمل دروعًا تامات واسعات وقدِّر المسامير في حِلَق الدروع، فلا تعمل الحلقة صغيرة فتَضْعُف، فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تجعلها كبيرة فتثقُل على لابسها.

٦ – المجاز المرسل ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة فالعلاقة المحلية(١).

٧ – السجع غير المتكلف ﴿ٱلْعَٰبِدِينَ، ٱلصَّٰبِرِينَ، ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إلخ.

تنبيه: وصف تعالى الريح هاهنا بقوله ﴿عَاصِفَةً﴾ ووصفها في مكان آخر بقوله ﴿رُخَآءً﴾ [ص: ٣٦] والعاصفة هي الشديدة، والرخاء هي اللَّينة، ولا تعارض بين الوصفين لأن الريح كانت ليّنة طيبة وكانت تسرع في جريها كالعاصف فجمعت الوصفين فتدبر.

قال الله تعالى:

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا
بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ
سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ
نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ
فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا
فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ
﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾
وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم
مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا
وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم
مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي
كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ
نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا

(١) (ش): الله سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين والجنة أثر من آثار رحمته سبحانه وتعالى.

عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن
تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ
مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ
ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى جملةً من الأنبياء «إبراهيم، نوح، لوط، داود، سليمان» وما نال كثيراً منهم من الابتلاء، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاء الله له بأنواع المحن ثم أعقبها بذكر محنة يونس وزكريا وعيسى وكلُّ ذلك بقصد التسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم.

اللغة: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ النون: الحوت وذا النون لقب ليونس بن متّى لابتلاع النون له ﴿أَحْصَنَتْ﴾ الإحصان: العفة يقال: رجل محصنٌ وامرأة محصنة، أي: عفيفة ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ الرغب: الرجاء، والرهب: الخوف ﴿كُفْرَانَ﴾ الكفر والكفران: الجحود وأصله الستر، لأن الكافر يستر نعمة الله ويجحدها ﴿حَدَبٍ﴾ الحدب: ما ارتفع من الأرض مأخوذ من حدبة الظهر قال عنترة:

فَمَا رَعِشَتْ يَدَايَ وَلَا ازْدَهَانِي ... تَوَاتُرُهُمْ إِلَيَّ مِنَ الْحِدَابِ[1]

﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسرِعون يقال: نسل الذئب ينسل نسلاناً أي أسرع ﴿حَصَبُ﴾ الحصب: ما توقد به النار كالحطب وغيره ﴿زَفِيرٌ﴾ أنين وتنفُّس شديد ﴿حَسِيسَهَا﴾ الحسيس: الصوتُ والحسُّ والحركة الذي يُحَسُّ به من حركة الأجرام ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ الصحيفة لأن بها يُسجل المطلوب.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ شقَّ ذلك على كفار قريش وقالوا: شتم آلهتنا وأتوا ابن الزِّبعري وأخبروه فقال: لو حضرتُه لرددتُ عليه قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، وهذا عزير تعبده اليهود؛ أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنَّ محمداً قد خصم فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[2].

التفسِير: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ﴾ أي واذكر قصة نبيّ الله أيوب حين دعا ربَّه بتضرع وخشوع

---

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٤١. (ش): ازدهى الشَّخصُ: أُعجِب بنفسه. ازدهى الشَّخصَ: حمله على العُجْب. تَوَاتُرُهُمْ: تتابعهم، ومجيء بعضهم في إثْرِ بعض.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٢٧. (ش): أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» وإسناده حسن، وأخرج نحوَهُ الحاكمُ في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي.

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ أي نالني البلاء والكرب والشدة قال المفسرون: كان أيوب نبيًّا من الروم، وكان له أولاد ومال كثير، فأذهب الله ماله فصبر، ثم أهلك الأولاد فصبر، ثم سلَّط البلاء والمرض على جسمه فصبر فمر عليه ملأ من قومه فقالوا: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعند ذلك تضرَّع إلى الله فكشف عنه ضره ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي أكثرهم رحمة فارحمني، ولم يصرّح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ أي أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ قال ابن مسعود: مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي أُحيوا له وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات[١]. والمعنى أعطيناه أهله في الدنيا ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ أي من أجل رحمتنا إيّاه ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ أي وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر قال القرطبي: أي وتذكيراً للعُبَّاد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحنته وصبره وَطَّنُوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا مثل ما فعل أيوب وهو أفضل أهل زمانه[٢]، يُروى أنَّ أيوب مكث في البلاء ثمان عشرة سنة فقالت له امرأته يوماً: لو دعوتَ الله عَزَّ وَجَلَّ فقال لها: كم لبثنا في الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة فقال: إني أستحيي من الله أن أدعوه وما مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي[٣] ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا

---

(١) هذا الأثر عن ابن مسعود أن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام والصحيح أن الله عوضه من زوجته أولادًا مثل من فقدهم.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٢٧.

(٣) «النسفي» ٣/ ٨٧. (ش): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللهِ لَبِثَ بِهِ بَلاَؤُهُ ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَةً فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، قَدْ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: «نَعْلَمُ وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ»، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: «مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفَ عَنْهُ مَا بِهِ». فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ أَيُّوبُ: «لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ يَذْكُرَانِ اللهَ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي، فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهُ إِلَّا فِي حَقٍّ». وَكَانَ يَخْرُجُ لِحَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا فَأَوْحَى اللهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ أَنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَتَلَقَّتْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: «أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ، هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا». قَالَ: «فَإِنِّي أَنَا هُوَ». وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ أَحَدُهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ حَتَّى فَاضَ». [رواه ابنُ حِبَّانَ وَصَححه، وأبو يعلى في (مسنده) وأبو نعيم في (الحلية) وصححه الألباني]. (كُنْتُ أَمُرُّ بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ يَذْكُرَانِ اللهَ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي، فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهُ إِلَّا فِي حَقٍّ): مَا كَانَ مِنْهُ عليه السلام فِي =

﴿ٱلۡكِفۡلِ﴾ أي واذكر لقومك قصة إسماعيل بن إبراهيم وإدريس بن شيث وذا الكفل ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي كل من هؤلاء الأنبياء من أهل الإحسان والصبر، جاهدوا في الله وصبروا على ما نالهم من الأذى ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآ﴾ أي أدخلناهم بصبرهم وصلاحهم الجنة دار الرحمة والنعيم[1] ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾أي لأنهم من أهل الفضل والصلاح ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾أي واذكر لقومك قصة يونس الذي ابتلعه الحوت، والنونُ هو الحوتُ نُسب إليه لأنه التقمه ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ أي حين خرج من بلده مغاضباً لقومه إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم ولذلك قال الله تعالى ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] ولا يصح قول من قال: مغاضبًا لربه قال أبو حيان: وقولُ من قال مغاضباً لربه يجب طرحه إذ لا يناسب منصب النبوة[2] وقال الرازي: لا يجوز صرف المغاضبة إلى الله تعالى لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكاً للأمر والنهي، والجاهل بالله لا يكون مؤمناً فضلاً عن أن يكون نبيًّا، ومغاضبتُه لقومه كانت غضباً لله، وأنفةً لدينه، وبغضاً للكفر وأهله[3] ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾أي ظنَّ يونس أنْ لن نضيّق عليه بالعقوبة كقوله ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضُيّق عليه فيه فهو من القَدْر لا من القُدْرة. قال الإمام الفخر: من ظنَّ عجز الله فهو كافر، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام! رُوي أنه دخل ابن عباس على معاوية فقال له معاوية: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقتُ فيها فلم أجدْ لي خلاصاً إلا بك، فقال: وما هي؟ قال: يظنُّ نبيُّ الله يونس أن لن يقدر الله عليه؟ فقال ابن عباس: هذا من القَدْر لا من القُدرة[4] ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي نادى ربه في ظلمة الليل وهو في بطن الحوت قال ابن عباس: جمعت الظلمات لأنها ظلمة الليل، وظلمةُ البحر، وظلمةُ بطن الحوت ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أي نادى بأن لا إله إلا أنت يا رب ﴿سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي تنزّهت يا ربّ عن النقص والظلم، وقد كنتُ من الظالمين لنفسي وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشفْ عني المحنة وفي الحديث

= ذَلِكَ كَفَّارَة عَنْ يَمِينٍ كَانَتْ مِنْهُمَا، أَوْ مِنْ أَحَدِهِمَا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ حَالِفٍ بِيَمِينٍ غَيْرِهِ بَعْدَ حَنْثِهِ فِيهَا، وَلَا قَبْلَ حَنْثِهِ فِيهَا وَهُوَ حَيٌّ، وَلَكِنَّهُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - كَفَّارَةٌ عَنِ الْكَلَامِ الَّذِي ذُكِرَ اللهُ فِيهِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَصْلُحُ أَنْ يُذْكَرَ. (الأَنْدَر): البَيْدَرُ: الجُرْن: الموضع الذي يُدْرَس فيه القمح ونحوه وتجفف فيه الثمار. (الْوَرِق): الفضة.

(١) (ش): الله سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين والجنة أثر من آثار رحمته تعالى سبحانه وتعالى.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٣٣٥.

(٣) «تفسير الفخر الرازي» ٢٢/ ٢١٤.

(٤) «الفخر الرازي» ٢٢/ ٢١٥.

«ما من مكروبٍ يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»[١] ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ أي استجبنا لتضرعه واستغاثته ونجيناه من الضيق والكرب الذي ناله حين التقمه الحوت ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي كما نجينا يونس من تلك المحنة ننجي المؤمنين من الشدائد والأهوال إذا استغاثوا بنا ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أي واذكر يا محمد خبر رسولنا زكريا حين دعا ربه دعاء مخلص منيب قائلاً: ربّ لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث قال ابن عباس: كان سنُّه مائة وسنُّ زوجته تسعًا وتسعين[٢] ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾أي وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت قال الألوسي: وفيه مدحٌ له تعالى بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، واستمطارٌ لسحائب لطفه عَزَّ وَجَلَّ[٣] ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾أي رزقناه ولداً اسمه يحيى على شيخوخته ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ أي جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً وقال ابن عباس: كانت سيئة الخُلُق طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى فجعلها حسَنة الخُلُق[٤] ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي إنما استجبنا دعاء من ذُكر من الأنبياء لأنهم كانوا صالحين يجدّون في طاعة الله ويتسابقون في فعل الطاعات وعمل الصالحات ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾ أي طمعًا ورجاءً في رحمتنا وخوفًا وفزعًا من عذابنا ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي كانوا متذللين خاضعين لله يخافونه في السر والعلن ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي واذكر مريم البتول[٥] التي أعفَّتْ نفسها عن الفاحشة وعن الحلال والحرام كقوله ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٠] قال ابن كثير: ذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى لأن تلك مربوطة بهذه فإنها إيجاد ولدٍ من شيخ كبير قد طعن في السن وامرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها، وهذه أعجب فإنها

(١) أصل الحديث في سنن أبي داود. (ش): قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ، أَوْ بَلاَءٌ مِنْ بَلاَيَا الدُّنْيَا دَعَا بِهِ يُفَرَّجُ عَنْهُ؟» فَقِيلَ لَهُ: بَلَى، فَقَالَ: «دُعَاءُ ذِي النُّونِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (رواه الحاكم وصححه الألباني). وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «دَعْوَةُ ذِى النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِى بَطْنِ الْحُوتِ لاَ إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِى شَىْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٢) «الرازي» ٢٢/ ٣١٧.

(٣) «روح المعاني» ١٧/ ٨٧.

(٤) القول الأول قول قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين كذا في «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٣٦. (ش): قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٧٠): «وَالأَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ الأَوَّلُ».

(٥) (ش): البَتول: العذراء، المُنقطِعة عن الزَّواج لعبادة الله.

إِيجاد ولدٍ من أنثى بلا ذَكَر ولذلك ذكر قصة مريم بعدها[(١)] ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي أمَرْنا جبريل فنفَخ في فتحة درعها - قميصها - فدخلت النفخة إِلى جوفها فحملت بعيسى، وأضاف الروح إِليه تعالى على جهة التشريف[(٢)] ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وجعلنا مريم مع ولدها عيسى علامةً وأعجوبة للخلق تدل على قدرتنا الباهرة ليعتبر بها الناس ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دينكم وملتكم التي يجب ان تكونوا عليها أيها الناس ملةٌ واحدة غير مختلفة وهي ملة الإِسلام، والأنبياء كلهم جاءوا برسالة التوحيد قال ابن عباس: معناه دينكم دينٌ واحد[(٣)] ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي وأنا إِلهكم لا ربَّ سواي فأفردوني بالعبادة ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي اختلفوا في الدين وأصبحوا فيه شيعاً وأحزاباً فمن مُوَحِّد، ومن يهودي، ونصراني ومجوسّي ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أي رجوعهم إِلينا وحسابهم علينا قال الرازي: معنى الآية جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قِطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه تمثيلاً لاختلافهم في الدين وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى[(٤)] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي من يعمل شيئاً من الطاعات وأعمال البرّ والخير بشرط الإِيمان ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا بُطلان لثواب عمله ولا يضيع شيء من جزائه ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أي نكتب عمله في صحيفته والمراد أمْرُ الملائكة بكتابة أعمال الخلق[(٥)] ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال ابن عباس: أي ممتنعٌ على أهل قرية أهلكناهم أن يرجعوا بعد الهلاك إِلى الدنيا مرة ثانية وفي رواية عنه ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يتوبون قال ابن كثير: والأول أظهر[(٦)] وقال في البحر: المعنى وممتنع على أهل قرية قدرنا إِهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدنيا إِلى الإِيمان إِلى أن تقوم الساعة فحينئذٍ يرجعون[(٧)] ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي حتى إذا فتح سدُّ يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ

---

(١) «المختصر» ٢/ ٥٢٠.

(٢) (ش): كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي من الأرواح التي خلقها الله سبحانه وتعالى.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٤) «تفسير الرازي» ٢٢/ ٢١٩.

(٥) (ش): قال الإمام ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٢٤): «﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ يقول: ونحن نكتب أعماله الصالحة كلها، فلا نترك منها شيئًا لنجزيه على صغير ذلك وكبيره وقليله وكثيره». وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٣٧٢): «﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أَيْ: يُكتب جميعُ عَمَلِهِ، فَلَا يَضيع عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ».

(٦) «المختصر» ٢/ ٥٢١.

(٧) «البحر المحيط» ٦/ ٣٣٨.

﴿يَنسِلُونَ﴾ أي وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض ومن كل أكمة[١] وناحية يسرعون النزول. والمرادُ أن يأجوج ومأجوج لكثرتهم يخرجون من كل طريق للفساد في الأرض ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي اقترب وقت القيامة قال المفسرون: جعل الله خروج يأجوج ومأجوج علماً على قرب الساعة قال ابن مسعود: الساعةُ من الناس بعد يأجوج ومأجوج كالحامل التمتّم لا يدري أهلُها متى تفْجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً[٢] ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الضمير للقصة والشأن أي فإذا شأن الكافرين أنَّ أبصارهم شاخصة من هول ذلك اليوم لا تكاد تطرف من الحيرة وشدة الفزع ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي ويقولون يا ويلنا أي يا حسرتنا وهلاكنا قد كنا في غفلةٍ تامة عن هذا المصير المشئوم واليوم الرهيب ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أضربوا عن القول السابق وأخبروا بالحقيقة المؤلمة والمعنى لم نكن في غفلةٍ حيث ذكَّرَتْنا الرسلُ ونبَّهَتْنا الآيات بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الإيمان ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي إنكم أيها المشركون وما تعبدونه من الأوثان والأصنام ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي حطب جهنم ووقودها قال أبو حيان: الحَصب ما يحصب به أي يُرمى بهْ في نار جهنم، وقبل أن يُرمى به لا يُطلق عليه حصبٌ إلا مجازاً[٣] ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي أنتم داخلوها مع الأصنام، وإنما جمع الله الكفار مع معبوداتهم في النار لزيادة غمّهم وحسرتهم برؤيتهم الآلهة التي عبدوها معهم في عذاب الجحيم ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي لو كانت هذه الأصنام التي عبدتموها آلهةً ما دخلوا جهنم ﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي العابدون والمعبدون كلهم في جهنم مخلَّدون ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾ أي لهؤلاء الكفرة في النار زفير وهو صوت النَّفس الذي يخرج من قلب المغموم وهو يشبه أنين المحزون والمَكْلوم[٤] ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ أي لا يسمعون في جهنم شيئاً لنهم يُحشرون صُمًّا كما قال تعالى ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ [الإسراء: ٩٧] قال القرطبي: وسماعُ الأشياء فيها رَوْحٌ وأُنْسٌ[٥]، فمنع الله الكفار ذلك في النار[٦] وقال ابن مسعود: إذا بقي من يُخلَّد في نار جهنم جُعِلوا في توابيت من نار، فيها مسامير من نار فلا

(١) (ش): أَكَمَة: تلّ صغير، أو موضع يكون أكثر ارتفاعًا ممّا حوله.
(٢) «زاد المسير» ٥/ ٣٨٩.
(٣) «البحر المحيط» ٦/ ٣٤٠.
(٤) (ش): المَكْلوم: المجروح، الجريح.
(٥) (ش): رَوْح: استراحة، راحة وطمأنينة. أَنَس إلى فلان/ أَنَس بفلان: سكن إليه وذهبت به وحشته، أَلِفَه وارتاح إليه.
(٦) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٤٥.

يسمعون شيئًا، ولا يرى أحد منهم أنه يُعذب في النار غيره ثم تلا الآية[١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ أي سبقت لهم السعادة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ أي هم عن النار مبعدون لا يَصْلَوْن حرَّها[٢] ولا يذوقون عذابها قال ابن عباس: أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرًّا أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثيًّا[٣] ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي لا يسمعون حسَّ النار ولا حركة لهبها وصوتها ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ أي وهم في الجنة دائمون، لهم فيها تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ أي لا تصيبهم أهوال يوم القيامة والبعث لأنهم في مأمنٍ منها ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم قائلين ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ أي هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به فأبشروا بالهناء والسرور ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ أي اذكر يوم نطوي السماء طيًّا مثل طيّ الصحيفة على ما فيها، فاللام بمعنى «على» ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي نحشرهم حفاةً عُراةً غُرْلاً على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها وفي الحديث «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلاَئِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام..»[٤] الحديث ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾ أي وعداً مؤكداً لا يُخلف ولا يبدّل لازم علينا إنجازه والوفاء به ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي قادرين على ما نشاء[٥]، وهو تأكيد لوقوع البعث ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ أي سجَّلْنا وسطَرْنا في الزبور المُنَزَّل على داود ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي من بعد ما سطَرْنا في اللوح المحفوظ أزلاً ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي إن الجنة يرثها المؤمنون الصالحون[٦] قال ابن كثير: أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ[٧] الأرض ويُدخلهم الجنة وهم الصالحون وقال القرطبي: أحسن ما قيل فيها أنه يراد به أرض الجنة لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم وهو قول ابن عباس ومجاهد ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الزمر: ٧٤] وأكثر المفسرين على أن

---

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٤٥.

(٢) (ش): (لا يَصْلَوْن حرَّها): لا يَذوقون حرَّها.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٥٢٣.

(٤) رواه مسلم عن ابن عباس. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٥) (ش): الصواب أن يُقال: قادرين على كل شيء كما قال الله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٥٢٤.

(٧) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٤٩.

المـراد بالعباد الصالحين أمة محمد ﷺ، وقال مجاهد: الزبور: الكُتُب المنزلة، والذكرُ أمُّ الكتـاب عنـد الله[١] ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي إنَّ في هـذا المذكـور في هذه السـورة من الأخبار والوعد والوعيد البالغة لكفايـةً لقوم خاضعين متذللين لله جل وعلا، المؤثريـن لطاعـة الله علـى طاعـة الشـيطان ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ومـا أرسـلناك يـا محمد إلا رحمة للخلق أجمعين وفي الحديث «إِنَّمَا أَنَـا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[٢] فمن قَبِلَ هذه الرحمة وشـكر هذه النعمة سـعد في الدنيا والآخـرة[٣] ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشـركين: إنما أوحى إليَّ ربي أنَّ إلهكم المسـتحق للعبادة إله واحد أحد فَرْد صمد ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ استفهام ومعناه الأمر أي فأسـلموا لـه وانقـادوا لحكمـه وأمـره ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي فـإن أعرضـوا عـن الإسـلام ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي فقـل لهـم أعلمتكـم بالحـق على اسـتواءٍ في الإعلام لم أخـصَّ أحداً دون أحـد ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي وما أدري متى يكون ذلك العذاب؟ ولا متى يكون أجلُ الساعة؟ فهو واقع لا محالة ولكنْ لا علم لي بقربه ولا ببعـده ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي اللهُ هـو العـلام الذي لا يخفى عليه شـيء، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السـرَّ وأخفى، وسـيجازي كلاًّ بعمله ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي ومـا أدري لعـلَ هذا الإمهال وتأخيـر عقوبتكم امتحانٌ لكم لنرى كيف صنيعكم ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي ولعلَّ هذا التأخير لتسـتمتعوا إلى زمنٍ معين ثـم يأتيكم عـذاب الله الأليـم ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي احكم بيني وبين هـؤلاء المكذبين وافصل بيننا بالحق ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي أسـتعين بالله على الصبر على تصفونـه مـن الكفر والتكذيب. ختم السـورة الكريمـة بأمر النبي ﷺ بتفويـض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده، فهو نعم الناصر ونعم المعين.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

---

(١) اختار هذا القول ابن جرير الطبري وهو قريب مما ذكرناه.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر. (ش): رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني. (مُهْدَاةٌ): من الهَدِيَّة وهي ما يُتْحَف به أي إن الله أتحَف البشر ببعثته ليدلهم على خير الدارين.

(٣) لم يقل الله تعالى: رحمة للمؤمنين وإنما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى رحم الخلق بإرسال سيد المرسلين ﷺ لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى، والنجاة من الشقاوة العظمى، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى، وعَلَّمهم بعد الجهالة، وهداهم بعد الضلالة فكان رحمةً للعالمين، حتى الكفار رُحموا به حيث أَخَّر عقوبتَهم ولم يستأصِلهم بالعذاب كالمَسخ والخَسف والغرَق. (ش): مسَخَه اللهُ: حوَّل صورتَه إلى أخرَى أقبح منها؛ شوَّه صورتَه، أفقَده طبيعتَه الخاصّة. خسَف اللهُ بهم الأرضَ: غيَّبهم فيها.

١ - التعرض للرحمة بطريق التلطف ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ولم يقل: ارحمني.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

٣ - الجناس الناقص ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ.. ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٤ - الطباق بين ﴿رَغَبٗا.. وَرَهَبٗا﴾ وبين ﴿بَدَأۡنَآ .. نُّعِيدُهُۥ﴾ وبين ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ﴾.

٥ - التشريف ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف كقوله ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾.

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ مثَّل اختلافهم في الدين وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب بالجماعة تتوزع الشيء لهذا نصيب، ولهذا نصيب، وهذا من لطيف الاستعارة.

٧ - الإيجاز بالحذف ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ أي ويقولون يا ويلنا، ومثلُه قوله ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

٨ - التشبيه المرسل المفصل ﴿نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾ أي طيًّا مثل طيّ الصحيفة على ما كتب فيها.

٩ - الاستفهام الذي يراد به الأمر ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: أسلموا.

١٠ - السجع ﴿فَٱعۡبُدُونِ ، كَٰتِبُونَ ، رَٰجِعُونَ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«انتهى تفسير سورة الأنبياء»





مدنية وآياتها ثمان وسبعون

بين يدي السورة

سورة الحج مدنية وهي تتناول جوانب التشريع، شأنها شأن سائر السور المدنية التي تُعنى بأمور التشريع، ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها جو السور المكية، فموضوع الإيمان، والتوحيد، والإنذار، والتخويف، وموضوع البعث والجزاء، ومشاهد القيامة وأهوالها، هو البارز في السورة الكريمة، حتى لَيَكاد يُخيَّل للقارئ أنها من السور المكية، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال، وأحكام الحج والهدى، والأمر بالجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السور المدنية، حتى لقد عدَّها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدني والمكي.

* ابتدأت السورة الكريمة بمطلع عنيف مخيف، ترتجف له القلوبُ، وتطيش لهوله العقول، ذلك هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، ويزيد في الهول على خيال الإنسان، لأنه لا يدك الدور والقصور فحسب، بل يصل هوله إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن، والحوامل المسقطات حملهن، والناس الذين يترنحون كأنهم سكرى من الخمر، وما بهم شيء من السكر والشراب، ولكنه الموقف المرهوب، الذي تتزلزل له القلوب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ الآيات.

* ومن أهوال الساعة إلى أدلة البعث والنشور، تنتقل السورة لتقيم الأدلة والبراهين على البعث بعد الفناء، ثم الانتقال إلى دار الجزاء، لينال الإنسان جزاءه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة، حيث يكون الأبرار في دار النعيم، والفجار في دار الجحيم.

* ثم انتقلت للحديث عن الحكمة من الإذن بقتال الكفار، وتناولت الحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلمها وطغيانها، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات، وتطمينًا للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين.

* وفي ختام السورة ضربت مثلًا لعبادة المشركين للأصنام، وبيَّنت أن هذه المعبودات أعجز وأحقر من أن تخلق ذبابة فضلًا عن أن تخلق إنسانًا سميعًا بصيرًا، ودعت إلى اتباع ملة الخليل إبراهيم كهف الإيمان، وركن التوحيد.

التسمية: سميت «سورة الحج» تخليدًا لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، حين انتهى من

بناء البيت العتيق ونادى الناس لحج بيت الله الحرام، فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع نداؤه من في الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء «لبيك اللهم لبيك»[1].

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ
كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم
بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ
شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ
مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا
ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ
مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ
حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ
﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) (ش): قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٤٠٩): «قَالَ ابنُ عَبْدِ الْبَرِّ: قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: مَعْنَى التَّلْبِيَةِ إِجَابَةُ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ انْتَهَى. وَهَذَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ بن حميد وابن جرير وابن أبي حَاتِم بأسانيدهم فِي تفاسيرهم عَن ابن عَبَّاس وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ وَالْأَسَانِيدُ إِلَيْهِمْ قَوِيَّةٌ. وَأَقْوَى مَا فِيهِ عَنِ ابن عَبَّاسٍ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ فِي مُسْنده وابن أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ قَابُوسِ بْنِ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا فَرَغَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ قِيلَ لَهُ: «أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ». قَالَ: «رَبِّ وَمَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟» قَالَ: «أَذِّنْ وَعَلَيَّ الْبَلَاغُ». قَالَ: فَنَادَى إِبْرَاهِيمُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ». فَسَمِعَهُ مَنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ النَّاسَ يَجِيئُونَ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ يُلَبُّونَ». وَمِنْ طَرِيقِ ابن جريج عَن عَطاء عَن ابن عَبَّاسٍ وَفِيهِ: فَأَجَابُوهُ بِالتَّلْبِيَةِ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ وَأَوَّلُ مَنْ أَجَابَهُ أَهْلُ الْيَمَنِ. فَلَيْسَ حَاجٌّ يَحُجُّ مِنْ يَوْمَئِذٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ إِلَّا مَنْ كَانَ أَجَابَ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَئِذٍ».

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن
يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ
﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ
وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ
وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن
مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ

اللغَة: ﴿زَلۡزَلَةَ﴾ الزلزلة: شدة الحركة وأصل الكلمة من زلَّ عن الموضع أي زال عنه وتحرك، وزلزل الله قدمه، أي: حركها، وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء ﴿تَذۡهَلُ﴾ ذهل عن الشيء اشتغل عنه بشاغل مِن هَمٍّ أو وجع أو غيره ﴿مُّضۡغَةٖ﴾ المضغة: اللحمة الصغيرة قدر ما يُمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾ تامة الخِلْقة ﴿بَهِيجٖ﴾ حسن سار للناظر ﴿عِطۡفِهِۦ﴾ العطف: الجانب، ومنه قولهم: فلان ينظر في أعطافه أي في جوانبه ويسمى الرداء العِطاف والمعطف لأنه يوضع على الجانبين ﴿ٱلۡعَشِيرُ﴾ الصاحب والخليل.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ خطاب لجميع البشر، أي: خافوا عذاب الله وأطيعوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وجماع القول في التقوى هو: طاعةُ الله واجتناب محارمه ولهذا قال بعض العلماء: التقوى أن لا يراك حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ تعليلٌ للأمر بالتقوى أي إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الذي تشاهدون فيه تلك الزلزلة وترون هول مطلعها ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ أي تغفل وتذهل – مع الدهشة وشدة الفزع – كل أنثى مرضعة عن رضيعها، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل – لهول ما ترى – عن أحب الناس إليها وهو طفلها الرضيع ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ أي تراهم كأنهم سكارى يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ أي وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ استدراك لما دهاهم أي ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من خوف عذاب الله مشفقون ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي وبعضٌ من الناس من يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته بغير دليل ولا برهان ويقول: ما لا خير فيه من الأباطيل قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول الملائكة

بناتُ الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت قال «أبو السعود»: والآية عامة له ولأضرابه من العُتَاة المتمردين[١] ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ أي يطيع ويقتدي بكل عاتٍ متمرد كرؤساء الكفر الصادّين عن الحق ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان واتخذه وليًا ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي فأن الشيطان يغويه ويسوقه إلى عذاب جهنم المستعرة، وعبر بلفظ ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ على سبيل التهكم، ولما ذكر تعالى المجادلين في قدرة الله، المنكرين للبعث والنشور ذكر دليلين واضحين على إمكان البعث أحدهما في الإنسان، والثاني في النبات فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم فانظروا في أصل خلقكم ليزولَ رَيْبُكم فقد خلقنا أصلكم «آدم» من التراب، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم ثاني مرة، والذي قدر على إخراج النبات من الأرض، بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم جعلنا نسله من المني الذي ينطف من صلب الرجل قال القرطبي: النَّطْفُ: الْقَطْرُ[٢]. سُمِّيَ نُطْفَةً لِقِلَّتِهِ[٣] ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي مستبينة الخلق مصورة وغير مصوة قال ابن زيد: المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبين لكم أسرار قدرتنا وحكمتنا قال الزمخشري: أي لنبين لكم بهذا التدريج قدرتنا، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا، ثم من نطفة ثانيًا، ولا تناسب بين التراب والماء، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظامًا، قادر على إعادة ما بدأه، بل هذا أدْخَلُ في القدرة وأهون في القياس[٤] ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ أي ونثبت من الحمل في أرحام الأمهات من أردنا أن نُقِرَّه فيها حتى يتكامل خلقه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى زمن معين هو وقت الوضع

---

(١) «إرشاد العقل السليم» ٤/ ٣. (ش): ذكره «أبو السعود» في تفسيره ««إرشاد العقل السليم» إلى مزايا الكتاب الكريم» (٦/ ٩٢) بدون إسناد. وعن مجاهد قال: «أنزلَتْ في النضر بن الحارث». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ونسبه لابن أبي حاتم). (ضَرْب): نَوْع وصنف والجمع أضراب. عَتِيّ: عاتٍ، جبَّار أو متكبِّر. والجمع عُتاة وعُتِيّ.

(٢) (ش): قطَر الماءُ ونحوُه: سال قطْرُهُ قَطْرَةً قَطْرَةً. والقَطْر: كلّ ما يَقْطُرُ من ماءٍ ودَمْع وغيرِهما. والقَطْر: المَطر.

(٣) (ش): أي المَنِيّ: قال القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٦): «(مِنْ نُطْفَةٍ) وَهُوَ الْمَنِيُّ، سُمِّيَ نُطْفَةً لِقِلَّتِهِ، وَهُوَ الْقَلِيلُ مِنَ الْمَاءِ».

(٤) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٦.

﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أي ثم نخرج هاذ الجنين طفلاً ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه، ثم نعطيه القوة شيئاً فشيئاً ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ أي كمال قوتكم وعقلكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي ومنكم من يموت في ريعان شبابه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أي ومنكم من يعمر حتى يصل إلأى الشيخوخة والهرم وضعف القوة والخرف ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه كما قال تعالى ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ [يس: ٦٨] ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث أي وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسةً ميتة لا نبات فيها ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحَيِيَتْ بعد موتها ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ﴾ أي وأخرجت من كل صنفٍ عجيب ما يسر الناظر ببهائه ورونقه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي ذلك المذكور من خلق الإنسان والنبات لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر وأن ما في الكون من آثار قدرته وشاهد بأن الله هو الحق ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بالنبات ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي وبأنه قادر على ما أراد ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ أي وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أي يحيي الأموات ويعيدهم بعدما صاروا رمماً، ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بعلمٍ صحيح يهدي إلى المعرفة ولا كتاب نير بيّن الحجة بل بمجرد الرأي والهوى قال ابن عطية: كرر هذه على وجه التوبيخ فكأنه يقول: هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل في الله بغير دليل ولا برهان[١] ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ أي معرضاً عن الحق لاوياً عنقه كفراً قال ابن عباس: مستكبراً عن الحق إذا دُعي إليه قال الزمخشري: وثَنْيُ العِطْف عبارة عن الكِبر والخيلاء فهو كتصعير الخد[٢] ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ليصُدَّ الناس عن دين الله وشرعه ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ أي له هوان وذل في الحياة الدنيا ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي ونذيقه في الآخرة النار المحرقة ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ أي ذلك الخزي والعذاب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي وأن الله عادل لا يظلم أحداً من خلقه[٣]

(١) «الكشاف» ٣/ ١٤٢.
(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٣٥٤.
(٣) «الكشاف» ٣/ ١٤٤.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ أي ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرفٍ من الدين، وهـذا تمثيلٌ للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذي يكون على طرف من الجيش فإن أحسَّ بظفر أو غنيمة استقر وإلا فر قال الحسن: هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه وقال ابن عباس: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خليه قال: هذا دين سوء[١] ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي فإن ناله خير في حياته من صحةٍ ورخاء أقام على دينه ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ أي وإن ناله شيء يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي أضاع دنياه وآخرته فشقي الشقاوة الأبدية ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي ذلك هو الخسران الواضح الذي لا خسران مثله ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ أي يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ أي ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده، شبه حالهم بحال مَن أُبعِدَ في التِّيه[٢] ضالاً عن الطريق ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ أي يعبد وثناً أو صنماً ضره في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة، وقيل: الآية على الفرض والتقدير: أي لو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه[٣]، والآية سيقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ أي بئس الناصر وبئس القريب والصاحب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين المذبذبين ذكر حال المؤمنين في الآخرة. والمعنى: إن الله يدخل المؤمنين الصادقين جنات تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار اللبن والخمر والعسل وهم في روضات الجنات يُحْبَرُون[٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي يثيب من يشاء ويعذب من يشاء لا معقب لحكمه، فللمؤمنين الجنة بفضله، وللكافرين النار بعدله ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة[٥] ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ١٧.
(٢) (ش): (التِّيهُ): الْصحراء لا عَلامَة فِيهَا يُهتدى بهَا.
(٣) «البحر المحيط» ٦/ ٣٥٦.
(٤) (ش): (يُحْبَرُون) يُكَرَّمون ويُسَرُّون وينَعَّمون.
(٥) للمفسرين في معنى الآية قولان: **الأول**: أن الضمير في «ينصره» للرسول ﷺ والمعنى على هذا: من كان من الكفار يظن أن لن ينصر الله محمداً فليختنق بحبل فإن الله ناصِرُه لابد، وهذا ما رجحه ابن كثير، **والثاني**: أن الضمير يعود على الإنسان نفسه والمعنى: من ظن بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله فليختنق وليمت بغيظه، وهذا ما رجحه صاحب «التسهيل».

أي فليمدد بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ أي فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ؟ قال ابن كثير: وهذا القول قول ابن عباس وهو أظهر في المعنى وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من كان يظنُّ أنَّ الله بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ليس ناصره لا محالة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة أنزلنا القرآن الكريم كله آيات واضحات الدلالة على معانيها الرائقة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي وأن الله هو الهادي لا هادي سواه يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي صَدَّقوا الله ورسوله[1] وهم أتباع محمد عليه السلام ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي اليهود وهم المنتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ هم قوم يعبدون النجوم ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام ﴿وَٱلۡمَجُوسَ﴾ هم عبدة النيران ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ هم العرب عبدة الأوثان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي يقضي بين المؤمنين وبين الفرق الخمسة الضالة فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد على أعمال خلقه عالم بكل ما يعملون ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، الملائكة في أقطار السماوات، والإنس والجن وسائر المخلوقات في العالم الأرضي ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ أي وهذه الأجرام العظمى مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع، قال ابن كثير: وخص الشمس والقمر والنجوم بالذكر لأنها قد عُبِدَت من دون الله، فبيّن أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مُسَخَّرة[2].

والغرض من الآية: بيان عظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمى له وجَرْيُها على وفق أمره وتدبيره ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستعصائه ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ أي من أهانه الله بالشقاء والكفر فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي يعذب ويرحم، ويعز ويذل، ويُغني ويُفقِر، ولا اعتراض لأحد عليه.

(١) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٥٣٤.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التشبيه البليغ المؤكد ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ أي كالسكارى من شدة الهول، حذفت أداة التشبيه والشبه.

٢ - الاستعارة ﴿شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ استعار لفظ الشيطان لكل طاغية متمرد على أمر الله.

٣ - الطباق بين ﴿يُضِلُّهُۥ.. وَيَهۡدِيهِ﴾.

٤ - أسلوب التهكم ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

٥ - طباق السلب ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾.

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ شبه الأرض بنائم لا حركة له ثم يتحرك وينتعش وتدب فيه الحياة بنزول المطر عليه ففيها استعارة تبعية.

٧ - الكناية ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ كناية عن التكبر والخيلاء.

٨ - المجاز المرسل ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ علاقته السببية لأن اليد هي التي تفعل الخير أو الشر.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ مثل للمنافقين وما هم فيه من قلق واضطراب في دينهم بمن يقف على شفا الهاوية يريد العبادة والصلاة، ويا له من تمثيل رائع!

١٠ - المقابلة البديعة بين ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ.. وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾.

١١ - الطباق بين ﴿يَضُرُّهُۥ.. يَنفَعُهُۥ﴾ وبين ﴿يُهِنِ.. فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾.

١٢ - السجع اللطيف بين كثير من الآيات.

فَائِدَة: المُرضع التي شأنها أن ترضع، والمرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها لطفلها ولهذا قال ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾ ولم يقل: مرضع ليكون ذلك أعظم في الذهول إذ تنزع ثديها من فم الصبي - أحب الناس إليها - وذلك غاية في شدة الهول والفزع.

تنبيه: روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي: «إن هاهنا رجلاً يتكلم في المشيئة فاستدعاه فقال له، يا عبد الله: خلقك كما يشاء أو كما تشاء؟ قال: بل كما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت، قل: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء، قال: والله لو قلت غير ذلك

لضربت الذي بين عينيك بالسيف»[١].

قال الله تعالى:

هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ
رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ
أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ
وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ
فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ
ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾
وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ
مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ
فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ
بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ
لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ
قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ
ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى
ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ
أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ
فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ
وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا
خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ
سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ
كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة، ذكر هنا ما دار بينهم من الخصومة في دينه وعبادته، ثم ذكر عظم حرمة البيت العتيق وبناء الخليل له، وعظم كفر هؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام.

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٥٣٥.

اللغَـة: ﴿يُصْهَـرُ﴾ الصهر: الإذابة صهرت الشـيء فانصهـر أي أذبته فذاب ﴿مَّقَـٰمِعُ﴾ المقامع: السياط جمع مقمعة سميت بذلك لأنها تقمع الفاجر ﴿ٱلْعَـٰكِفُ﴾ المقيم الملازم ﴿وَٱلْبَادِ﴾ القـادم من البادية ﴿بَوَّأْنَـا﴾ نزلنا وهيأنا وأرشـدنا ﴿رِجَـالًا﴾ جمع راجل وهو الماشـي علـى قدميه ﴿ضَـامِرٍ﴾ الضامـر: البعير المهزول الذي أتعبه السـفر ﴿تَفَـثَهُمْ﴾ التفث في اللغة: الوسخ والقذر قال الشاعر[1]:

حَفُّوا رُؤُوسَـهُـمْ لَـمْ يَحْلِقُوا تَفَثًا ... وَلَـمْ يَسُلُّوا لَهُمْ قَمْلًا وَصِئْبَانَا[2]

قـال الثعلبي: أصل التفث في اللغة الوسـخ، تقول العرب للرجل تسـتقذره: ما أتفثك، أي: ما أوسخك وأقذرك[3] ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ المخبت: المتواضع الخاشع لله.

التفسِـير: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي هذان فريقان مختصمان فريق المؤمنين المتقين، وفريق الكفرة المجرمين ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي اختلفوا وتنازعوا من أجل الله ودينه قال مجاهد: هم المؤمنون والكافرون، فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الله ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي فصلت لهم ثيابٌ من نار على قدر أجسادهم ليلبسـوها إذا صاروا إلى النار قال القرطبي: شـبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى ﴿قُطِّعَتْ﴾ خيطت وسويت، وذكر بلفظ الماضي لأن الموعود منه كالواقع المحقق[4] ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ أي يصب على رءوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ أي يـذاب بـه مـا في بطونهم من الأمعاء والأحشـاء مع الجلـود قال ابن عباس: لو سـقطت منـه قطرة على جبال الدنيا لأذابتهـا وفي **الحديث** «**إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَيَنْفُذُ الْحَمِيمُ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ فَيَسْلِتَ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ**»[5] قال الإمام الفخر: والغرض أن الحميم إذا صب على رءوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر، فيذيب أمعاءَهم وأحشاءَهم كمـا يذيـب جلودَهم وهـو أبلغ مـن قولـه ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[6] [محمد: ١٥] ﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي ولهـم مطـارق وسـياط مـن الحديـد يُضرَبـون بهـا ويُدفَعون

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في «تفسير القرطبي» ١٢/ ٥٠.

(٢) (ش): حَفَّ شعرَه أو رَأسَه: أبعد عَهده بالدهن فشعث من عدم الادّهان، أي تغبَّر وتلبَّد لقلَّة تعهُّده ورعايته بالتَّمشيط والتَّنظيف. صِئْبَانَ: بيض القمل.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٥٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٦.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب. (ش): ضعفه الألباني.

(٦) «تفسير الرازي» ٢٣/ ٢٢.

وفي الحديث «لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها»[(١)] ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي كلما أراد أهل النار الخروج من النار من شدة غمها ردوا إلى أماكنهم فيها قال الحسن: إن النار تضربهم بلهَبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً[(٢)] ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾أي ويقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي كنتم به تكذبون، ولما ذكر تعالى ما أعد للكفار من العذاب والدمار، ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب والنعيم فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي يدخل المؤمنين الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ أي تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية كحلية وزينة يتزينون بها ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ أي ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ أي ولباسهم في الجنة الحرير، ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا بكثير ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي أرشدوا إلى الكلام الطيب والقول النافع إذ ليس في الجنة لغوٌ ولا كذب ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين، ثم عدد تعالى بعض جرائم المشركين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي جحدوا بما جاء به محمد عليه السلام ويمنعون المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك فيه قال القرطبي: وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية[(٣)]، وإنما قال ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بصيغة المضارع ليدل على الاستمرار فكأن المعنى: إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِ﴾ أي الذي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس جميعاً سواء فيه المقيم والحاضر، والذي يأتيه من خارج البلاد ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾أي ومَن يُرد فيه سوءاً أو ميلاً عن القصد أو يَهُمّ فيه بمعصية ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي نذقه أشد أنواع العذاب الموجع قال ابن مسعود: لو أن رجلاً بعدَنَ همَّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً وقال مجاهد: تُضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات[(٤)] ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ

(١) أخرجه أحمد. (ش): ولفظه: «لَوْ أَنَّ مِقْمَعًا مِنْ حَدِيدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلَانِ مَا أَقَلُّوهُ مِنَ الْأَرْضِ» ورواه الحاكم في«المستدرك» وصححه، وسكت عليه الذهبي، وضعفه الألباني والأرنؤوط. (مَا أَقَلُّوهُ): ما رَفَعوه.

(٢) «تفسير الرازي» ٢٣/ ٢٢.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٣١.

(٤) «تفسير الرازي» ٢٣/ ٢٥.

﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي واذكر حين أرشدنا إبراهيم وألهمناه مكان البيت ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا﴾ أي أمرناه ببناء البيت العتيق خالصاً لله قال ابن كثير: أي ابنه على اسمي وحدي ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي طهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة قال القرطبي: والقائمون هم المصلون، ذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها وهو القيام والركوع والسجود[1] ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي ونادِ في الناس داعياً لهم لحج بيت الله العتيق قال ابن عباس: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له: أذن في الناس بالحج، قال يا رب: وما يبلغ صوتي؟[2] قال: أذن وعلي الإبلاغ فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح: يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحجوا، فأجابه من كان في أصلاب الرجال، وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك[3] ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي يأتوك مشاة على أقدامهم أو ركباناً على جمل هزيل قد أعتبه وأنهكه بعد المسافة ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد قال القرطبي: ورد الضمير إلى الإبل ﴿يَأْتِينَ﴾ تكرمةً لها لقصدها الحج مع أربابها كما قال ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١] في خيل الجهاد تكرمةً لها حين سعت في سبيل الله[4] ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي ليحضروا منافع لهم كثيرة دينية ودنيوية قال «الفخر الرازي»: وإنما نكَّر «المنافع» لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات[5] ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي ويذكروا عند ذبح الهدايا

(١) «المختصر» ٢/ ٥٣٩.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٣٧.
(٣) الرازي ٣٢/ ٢٧. (ش): قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٤٠٩): «قَالَ ابنُ عَبْدِ الْبَرِّ: قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: مَعْنَى التَّلْبِيَةِ إِجَابَةُ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ انْتَهَى. وَهَذَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم بأسانيدهم في تفاسيرهم عن ابن عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ وَالْأَسَانِيدُ إِلَيْهِمْ قَوِيَّةٌ. وَأَقْوَى مَا فِيهِ عَنِ ابن عَبَّاسٍ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ فِي مُسْنَده وابن أبي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ قَابُوسَ بْنِ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا فَرَغَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ قِيلَ لَهُ: «أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ». قَالَ: «رَبِّ وَمَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟» قَالَ: «أَذِّنْ وَعَلَيَّ الْبَلَاغُ». قَالَ: فَنَادَى إِبْرَاهِيمُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ». فَسَمِعَهُ مَنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ النَّاسَ يَجِيئُونَ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ يُلَبُّونَ». وَمِنْ طَرِيقِ ابن جريج عَن عَطاء عَن ابن عَبَّاسٍ وَفِيهِ: فَأَجَابُوهُ بِالتَّلْبِيَةِ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ وَأَوَّلُ مَنْ أَجَابَهُ أَهْلُ الْيَمَنِ. فَلَيْسَ حَاجٌّ يَحُجُّ مِنْ يَوْمَئِذٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ إِلَّا مَنْ كَانَ أَجَابَ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَئِذٍ».
(٤) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٣٩.
(٥) «تفسير الرازي» ٢٣/ ٢٩.

والضحايا اسم الله في أيام النحر شكراً لله على نعمائه وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام وهي: الإبل والبقر والغنم والمعز قال الرازي: وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي ذكر اسمه تعالى عند الذبح وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان[١] ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أي كلوا من لحوم الأضاحي ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ أي أطعموا منها البائس الذي أصابه بؤس وشدة، والفقير الذي أضعفه الإعسار قال ابن عباس: البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي لا يكون كذلك، ثيابه نقية ووجهه وجه غني ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ أي ثم بعد الذبح ليزيلوا وسخهم الذي أصابهم بالإحرام وذلك بالحلق والتقصير وإزالة الشعث وقص الشارب والأظافر ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ أي ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعةً لله ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي ليطوفوا حول البيت العتيق طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي به تمام التحلل، والعتيق: القديم سمي به لأنه أول بيت وضع للناس ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر والشأن ذلك قال الزمخشري: كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا[٢] ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي من يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين ويجتنب المعاصي والمحارم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي ذلك التعظيم خير له ثواباً في الآخرة ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام إلا ما استثني في الكتاب المجيد كالميتة والمنخنقة وما ذبح لغير الله وغير ذلك[٣]. ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس، وهو غاية المبالغة في النهي عن عبادتها وتعظيمها ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ أي واجتنبوا شهادة الزور ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي مائلين إلى الحق مسلمين لله غير مشركين به أحداً ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه أي ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال، ومن يعظم أمور الدين ومنها أعمالُ الحج والأضاحي والهدايا ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله قال القرطبي: أضاف

(١) الرازي ٢٣/ ٢٩.
(٢) «الكشاف» ٣.
(٣) (ش): أضافت السُنَّة إلى المُحَرَّم أكْله في القرآن تحريمَ أكْلِ كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي ناب من السباع، وأكل لحوم الحمر الأهلية.

التقوى إلى القلوب لأن التقوى في القلب وفي الحديث «التَّقْوَى هَا هُنَا». وَأَشَار إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[١] ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي لكم في الهدايا منافع كثيرة من الدَّرّ[٢] والنسل والركوب إلى وقت نحرها ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ أي ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة: ٩٥] ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ أي شرعنا لكل أُمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ أي أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجهه تعالى ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ أي شكراً لله على ما أنعم به عليهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم، بَيَّن تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى وعلى اسمه لأنه هو الخالق الرازق لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾أي فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي فأخلصوا له العبدة واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ أي بشر المطيعين المتواضعين الخاشعين بجنات النعيم، ثم وصف تعالى المخبتين بأربع صفات فقال ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم لإشراق أشعة جلاله عليها فكأنهم بين يديه واقفون، ولجلاله وعظمته مشاهدون ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ أي يصبرون في السراء والضراء على الأمراض والمصائب والمحن وسائر المكاره ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي الذين يؤدونها في أوقاتها مستقيمةً كاملة مع الخشوع والخضوع ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي ومن بعض الذي رزقناهم من فضلنا ينفقون في وجوه الخيرات ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أي والإبل السمينة – سميت بدناً لبدانتها وضخامة أجسامها – جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده قال ابن كثير: وكونها من شعائر الدين أنها تُهدى إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدى[٣] ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال ابن عباس: نفعٌ في الدنيا وأجرٌ في الآخرة ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ أي اذكروا عند ذبحها اسم الله الجليل عليها حال كونها صواف أي: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهم ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها، وهو كنايةٌ عن الموت ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ أي كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع، أي: المتعفف، والمعتر، أي:

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٥٦. (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) (ش): الدَّرُّ: اللَّبَنُ.

(٣) «المختصر» ٢/ ٥٤٤.

السائل قاله ابن عباس[١]، وقال الرازي: الأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال[٢] ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع جعلناها منقادة لكم مع ضخامة أجسامها لكي تشكروا الله على إنعامه ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ أي لن يصل إليه تعالى شيء من لحومها ولا دمائها ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أي ولكن يصل إليه التقوى منكم بامتثالكم أوامره وطلبكم رضوانه ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي كرره للتأكيد أي كذلك ذللها لكم وجعلها منقادة لرغبتكم لتكبروا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي بشر المحسنين في أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم.

البَلاَغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإيجاز ﴿ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ﴾ أي في دين ربهم فهو على حذف مضاف.

٢ - الاستعارة ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ استعارة عن إحاطة النار بهم كما يحيط الثوب بلابسه.

٣ - الطباق بين ﴿ٱلْعَٰكِفُ .. وَٱلْبَادِ﴾ لأن العاكف المقيم في المدينة والباد القدم من البادية.

٤ - التأكيد بإعادة الفصل ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ للعناية بشأن كل استقلالاً، ويسمى في علم البديع الإطناب.

٥ - التشبيه التمثيلي ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

٦ - الجناس الناقص ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾.

٧ - الطباق بين ﴿ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ لأن القانع المتعفف والمعتر السائل.

٨ - السجع اللطيف مثل ﴿عَمِيقٍ، سَحِيقٍ، ٱلْعَتِيقِ﴾ ومثل ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ، ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

تنبيه: لم يؤاخذ الله تعالى أحداً من خلقه على الهم بالمعصية إلا في المسجد الحرام ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأنه المكان المقدس الذي يجب أن يكون فيه الإنسان نقي القلب، طاهر النفس، صافي السريرة، خالصاً بكليته لله، فمن ينتهك حرمة الملك في حماه جدير بالجحيم والعذاب الأليم.

---

(١) وهو قول قتادة والنخعي ومجاهد وكثير من السلف.

(٢) الرازي ٢٣/ ٣٦.

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ
بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ
رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا
ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ
ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ
﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ
﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ
وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ
فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن
يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ
أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ
﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا
مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى
ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ
﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ
لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ
مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ
بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ
مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم
مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ
ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا
يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ

المناسَبة: لما بيَّن تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وذكر أن

الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة، بيَّن هنا أنه يدافع عن المؤمنين وذكر الحكمة من مشروعية القتال ومنها الدفاع عن المقدسات، وحماية المستضعفين، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى.

اللغة: ﴿صَوَٰمِعُ﴾ جمع صومعة وهي البناء المرتفع وهي مختصة بالرهبان ﴿وَبِيَعٌ﴾ جمع بيعة وهي كنيسة النصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ كنائس اليهود وقال الزجاج: وهي بالعبرانية صَلُوتا ﴿نَكِيرِ﴾ مصدر بمعنى الإنكار قال الجوهري: النكيرُ والإنكارُ تغيير المنكر ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ متروكة، وتعطيل الشيء إبطال منافعه ﴿مَّشِيدٍ﴾ مرفوع البنيان.

التفسير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشركين، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكفِّ كيدهم عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي إنه تعالى يبغض كل خائنٍ للأمانة جاحدٍ نعمة الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ فيه محذوف تقديره: أُذن لهم في القتال بسبب أنهم ظُلموا قال ابن عباس: هذه أول آيةٍ نزلت في الجهاد قال المفسرون: هم أصحابُ رسول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومسجوح ويتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أُومر بقتالهم حتى هاجروا فأُنزلت هذه الآية وهي أول آيةٍ أُذن فيها بالقتال بعدما نهي عنه في أكثر من سبعين آية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر الشهداء ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي أُخرجوا من أوطانهم ظلماً وعدواناً بغير سبب موجب للإخراج قال ابن عباس: يعني محمداً وأصحابه أُخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي ما كان لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله ولم يشركوا به أحداً ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي لولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وتعطلت الشعائر ولكنه تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ أي لتهدمت معابد الرهبان وكنائس النصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ أي كنائس اليهود ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي ومساجد المسلمين التي يعبد فيها الله بكرة وأصيلاً، ومعنى الآية أنه لولا كفُّه تعالى المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم فهدموا موضع عباداتهم، ولم يتركوا للنصارى بيعاً، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود كنائس، ولا للمسلمين مساجد، ولغلب المشركون أهل الأديان، وإنما خص المساجد بهذا الوصف

﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ﴾ تعظيمـًا لها وتشريفًا لأنها أماكن العبادة الحقة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ قسمٌ أي والله سينصر الله من ينصر دينه ورسوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، عزيزٌ لا يُقهر ولا يغلب قال ابن كثير: وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب[1] ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال ابن عباس: هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، والمعنى: هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطانًا في الأرض وتملكًا واستعلاء عبدوا الله وحافظوا على الصلاة وأداء الزكاة ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي دَعَوْا إلى الخير ونَهَوْا عن الشر ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ تسلية للرسول ﷺ ووعيد للمشركين، أي: إن كذبك أهل مكة فاعلم أنك لست أول رسول يكذبه قومه فقد كان قبلك أنبياء كُذبوا فصبروا إلى أنْ أهلكَ اللهُ المكذّبين، فاقْتَدِ بهم واصبِرْ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ أي وكذب قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي وكذب موسى أيضًا مع وضوح آياته، وعِظَم معجزاته فما ظنك بغيره؟ ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهام تقريري أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ألم يكن أليمًا؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالعمارة خرابًا؟ فكذلك أفعل بالمكذبين من أهل مكة ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي كم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وهي مشركة كافرة ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي مخربة مهدمة ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي وكم من بئر عطلت فتركت لا يُسْتَقَى منها لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي وكم من قصر مرفوع البنيان أصبح خاليًا بلا ساكن، أليس في ذلك عبرة للمعتبر؟ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ أي أفلم يسافر أهل مكة ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتَبِروا بما حل بهم من النكال والدمار! «وهّلا عقلوا ما يجب أن يُعقل من الإيمان والتوحيد» ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي أو تكون لهم آذانٌ يسمعون بها المواعظ والزواجر ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي ليس العمى على الحقيقة عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة فمن كان أعمى القلب لا يعْتَبِر ولا يتدبر، وذِكرُ الصدور للتأكيد ونفي توهم المجاز

(١) «المختصر» ٢/ ٥٤٨.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي ويستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب استهزاءً، وإن ذلك واقع لا محالة، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه لأنه تعالى لا يخلف الميعاد ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي هو تعالى حليم لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه فلم إذاً يستبعدونه ويستعجلون العذاب؟[1] ولهذا قال بعد ذلك ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مع استمرارهم على الظلم فاغتروا بذلك التأخير ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي ثم أخذتهم بالعذاب ذكر الآية تنبيهاً على أن السابقين أُمهلوا ثم أُهلكوا وأن قريشاً وإن أملي تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم[2] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستعجلين للعذاب: إنما أنا منذر لكم أخوفكم عذاب الله وأنذركم إنذاراً بيناً من غير أن يكون لي دخلٌ في تعجيل العذاب أو تأخيره ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي فالمؤمنون الصادقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم في جنان النعيم قال الرازي: بَيَّنَ سبحانه أنّ مَن جمَع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم[3] وقال القرطبي: إذا سمعت الله تعالى يقول ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فاعلم أنه الجنة[4] ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي كذبوا بآياتنا وسعوا في إبطالها مغالبين مشاقين يريدون إطفاء نور الله ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي فأولئك هم أصحاب النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، شبههم من حيث الدوام بالصاحب قال الرازي: فإن قيل: إنه عليه السلام بشر المؤمنين أولاً، وأنذر الكافرين ثانياً في هذه الآية فكان القياس أن يقال ﴿إنما أنا لكم بشير ونذير﴾ والجواب أن الكلام مسوق إلى المشركين وهم الذين استعجلوا العذاب

(١) (ش): ورد في سورة الحج قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة السجدة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة المعارج ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وقد كثرت أقوال أهل التفسير في تحديد هذه الأيام. وأحسن ما يقال فيها أن اليوم الذي ذُكِر في سورة الحج هو عبارة عن الزمان وتقديره عند الله، وأن آية السجدة هي في نزول الملائكة بالأمر وعروجهم به في الدنيا، وأن آية المعارج هي في يوم القيامة قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وآله وسلم -: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٣٧٩.

(٣) «الرازي» ٣٢/ ٤٧.

(٤) «المختصر» ٢/ ٥٥٠.

و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نـداءٌ لهم، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة لغيظهم وإيذائهم[١] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ أي وما أرسـلنا قبلك يا محمد رسولاً ولا نبيًّا ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي إلا إذا أحبَّ شـيئًا وهَوِيَتْه نفْسُه ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي ألقى الشيطان فيما يشتهيه ويتمناه بعض الوساوس التي توجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[٢].

قـال الفـراء: تمنى إذا حدَّث نفسـه، وفي البخاري: قال ابن عبـاس: «إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته» إلا إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياتـه، ويقـال: أمنيته: قراءته[٣] قال النحاس: وهذا من أحسـن ما قيـل في الآية وأجله، ومعنى الآية: وما أرسلنا رسولاً ولا نبيًّا فحدث نفسه بشيء وتمنَّى لأمته الهداية والإيمان إلا ألقى الشـيطان الوسـاوس والعقبات في طريقه بتزيين الكفر لقومه وإلقائه في نفوسـهم مخالفـةً لأمر الرسـول وكأنَّ الآية تسـلية للرسـول ﷺ تقـول له: لا تحزن يـا محمد على معاداة قومك لك فهذه سـنة المرسلين[٤] ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يثبت في نفس

(١) «الرازي» ٣٢/ ٤٧.

(٢) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الْغَيْنُ: مَا يَتَغَشَّى الْقَلْبَ، والْمُرَادُ بِالْغَيْنِ فَتَرَاتٌ عَنِ الذِّكْرِ الَّذِي شَأْنُهُ ﷺ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهِ فَإِذَا فَتَرَ عَنْهُ لِأَمْرٍ مَا عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا فَاسْتَغْفَرَ عَنْهُ، وَقِيلَ: هُوَ شَيْءٌ يَعْتَرِي الْقَلْبَ مِمَّا يَقَعُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَقِيلَ هُوَ السَّكِينَةُ الَّتِي تَغْشَى قَلْبَهُ. وَالِاسْتِغْفَارُ لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَالشُّكْرِ لِمَا أَوْلَاهُ، وَقِيلَ: هِيَ حَالَةُ خَشْيَةٍ وَإِعْظَامٍ وَالِاسْتِغْفَارُ شُكْرُهَا، [انظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ٢٣-٢٤)، فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠١)].

(٣) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير.

(٤) هذا أصح ما قيل في تفسير الآية وهو اختيار المحققين من المفسرين، وأما قصة الغرانيق التي أولع بذكرها بعض المفسرين فهي باطلة مردودة، وهي أن الرسول عليه السلام قرأ سورة: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ بمحضر من المشركين والمسلمين فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ألقى الشيطان على لسانه «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجي» ففرح بذلك المشركون ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون... إلخ. قال ابن العربي: إن جميع ما ورد في هذه القصة باطل لا أصل له. وقال ابن إسحاق: هي من وضع الزنادقة. وقال البيهقي: رُواتها مطعونٌ فيهم. وقال ابن كثير: ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق وهي روايات مرسلات ومنقطعات لا تصح: وقال القاضي عياض: هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون، المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم. أقول: مما يدل على بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه! سبحانك هذا بهتان عظيم وانظر الرد القاطع في «تفسير فخر الرازي». (ش): الصحيح في معنى الآية: وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ كتاب الله ألقى الشيطان في قراءته الوساوس والشبهات؛ ليصدَّ الناس عن اتباع ما يقرؤه ويتلوه، لكن الله يبطل كيد الشيطان، فيزيل وساوسه، ويثبت آياته الواضحات. والله عليم بما كان ويكون، لا تخفى عليه خافية، حكيم في تقديره وأمره.

الرسول آياته الدالة على الوحدانية والرسالة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي مبالغٌ في العلم حكيم يضع الأشياء في مواضعها قال «أبو السعود»: وفي الآية دلالة على جواز السهو من الأنبياء عليهم السلام، وتطرق الوسوسة إليهم[1] ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي ليجعل تلك الشبه والوساوس التي يلقيها الشيطان ﴿فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي فتنة للمنافقين الذين في قلوبهم شك وارتياب ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي وفتنةً لكلافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله، وهم خواص من الكفار عتاةٌ كأبي جهل، والنضر، وعتبه ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ أي وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله، ووصف الشقاق بلفظ ﴿بَعِيدٖ﴾ لأنه في غاية الضلال والبعدِ عن الخير ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي يؤمنوا بهذا القرآن ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي تخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من في قلبه مرض ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ومنقذهم من الضلالة والغواية ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ أي ولا يزال هؤلاء المشركون في شك وريب من هذا القرآن ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ أي حتى تأتيهم الساعة فجأة دون أن يشعروا قال قتادة: ما أخذ الله قوماً قطُّ إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله؛ إلا القوم الفاسقون ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ أي أو يأتيهم عذاب يوم القيمة وسمي عقيماً لأنه لا يوم بعده قال «أبو السعود»: كأنَّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيماً، والمراد به الساعة أيضاً كأ نه قيل: أو يأتيهم عذابها، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل[2] ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ أي الملك يوم القيامة لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي يفصل بين عباده بالعدل، فيُدْخِل المؤمنين الجنة والكافرين النار ولهذا قال ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي فالذين صدقوا الله ورسوله[3] وفعلوا صالح الأعمال لهم النعيم المقيم في جنات الخلد ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله لهم العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) «أبو السعود» ٤/ ١٨.

(٢) «أبو السعود» ٤/ ١٩.

(٣) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

﴿هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي تركوا الأوطان والديار ابتغاء مرضاة الله وجاهدوا لإعلاء كلمة الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ أي قتلوا في الجهاد أو ماتوا على فرشهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي ليعطينهم نعيماً خالداً لا ينقطع أبداً وهو نعيم الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي هو تعالى خير من أعطى فإنه يرزق بغير حساب ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ أي ليُدخِلَنهم مكاناً يرضونه وهو الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي عليم بدرجات العاملين حليم عن عقابهم ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي جازى الظالم بمثل ما ظلمه ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ أي ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً لينصرن الله ذلك المظلوم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والغفران، وفيه تعريض بالحث على العفو والصفح، فإنه تعالى مع كمال قدرته على الانتقام يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي ذلك النصر بسبب أن الله قادر، ومِن آياتِ قدرتِه إيلاجُ الليل في النهار أي إنه يُدْخِل كلًّا منهما في الآخر بأن ينقص من الليل فيزيد في النهار وبالعكس وهذا مُشاهَدٌ ملموس في الصيف والشتاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بأحوالهم لا تخفى عليه خافية ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك بأن الله هو الإله الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي وأن الذي يدعوة المشركون من الأصنام والأوثان هو الباطل الذي لا يقدر على شيء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي هو العالي على كل شيء ذو العظمة والكبرياء فلا أعلى منه ولا أكبر.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – صيغة المبالغة ﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ لأن (فعال وفعول) من صيغ المبالغة.

٢ – الحذف لدلالة السياق عليه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ أي أُذن بالقتال للذين يقاتلون.

٣ – تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي لا ذنب لهم إلا هذا.

٤ – المقابلة اللطيفة بين ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وبين ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

٥ – جناس الاشتقاق ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾.

٦ – الطباق بين ﴿فَيَنْسَخُ .. ثُمَّ يُحْكِمُ﴾.

٧ – الاستعارة البديعة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهذا من أحسن الاستعارات

لأن العقيم المرأة التي لا تلد، فكأنه سبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لا ليل بعده ولا نهار لأن الزمان قد مضى، والتكليف قد انقضى، فجعلت الأيام بمنزلة الولدان لليالي، وجعل ذلك اليوم من بينها عقيماً على طريق الاستعارة.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾
لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ
لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ
إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ
ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ
لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ
ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا
يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ
عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟
وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ
حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ
ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾

المناسبة: لمّا ذكر تعالى ما دلَّ على قدرته وحكمته، وجعلها كالمقدمة لإثبات البعث والمعاد، وختم السورة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد.

اللغة: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ حجة وبرهاناً ﴿يَسْطُونَ﴾ يبطشون، والسطوة: القهر وشدة البطش يقال: سطا يسطو إذا بطش به ﴿يَسْلُبْهُمُ﴾ سلب الشيء: اختطفه بسرعة ﴿قَدَرُوا۟﴾ عظموا ﴿يَصْطَفِى﴾ يجتبي ويختار ﴿حَرَجٍ﴾ ضيق ﴿مِّلَّةَ﴾ الملة: الدين.

التفسِـير: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استفهام تقريري، أي: ألـم تعلم أيها السامع أن الله بقدرته أنزل من السحاب المطر؟ ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يُبْسِها ومُحُولِها[١]، وجاء بصيغة المضارع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال ابن عباس: لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط، والغرض من الآية إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت ولهذا قال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في الكون ملكه جل وعلا، خلقاً وملكاً وتصرفاً، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي هو تعالى غني عن الأشياء كلها لا يحتاج لأحد، وهو المحمود في كل حال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تذكير بنعمة أُخرى أي ألم تر أيها العاقل أن الله سخر لعباده جميع ما يحتاجون إليه من الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي وسخر السفن العظيمة المثقلة بالأحمال والرجال تسير في البحر لمصالحكم بقدرته ومشيئته ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي إلا إذا شاء وذلك عند قيام الساعة[٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم حيث هيأ لكم أسباب المعاش فاشكروا آلاءه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي أحياكم بعد أن كنتم عدماً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي يميتكم عند انتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي بعد موتكم للحساب والثواب والعقاب ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي مبالغ في الجحود لنعم الله قال ابن عباس: المراد بالإنسان الكافر والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف! ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي لكل نبي من الأنبياء وأمةٍ من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومهاجاً[٣] كقوله ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي هم عاملون، به أي: بذلك الشرع ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي لا ينازعك أحدٌ من المشركين فيما شرعتُ لك

(١) (ش): يُبْسٌ: يبِسَ الشَّيءُ يُبْسًا ويُبوسةً: جَفّ بعد رُطوبة. المُحُول: انقطاع المطر ويُبس الأرض من النّبات، قحط، جدْب، جفاف. محِل المكانُ: محَل، مَحُلَ؛ أجدب ولم ينبت.

(٢) (ش): مِمَّن قال بأن ذلك يكون عند قيام الساعة: الشوكاني في «فتح القدير» (٣/ ٥٥١)، و«البيضاوي» في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٤/ ٧٨)، وابنُ عطية في «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٤/ ١٣١-١٣٢).

(٣) قال ابن عباس: المنْسك: الشريعةُ والمنهاج، قال الرازي: وهو الأقرب هنا.

ولأمتك فقد كانت الشرائع في كل عصر وزمان، وهو نهيٌ يراد به النفي، أي: لا ينبغي منازعةُ النبي ﷺ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي ادعُ الناس إلى عبادة ربك وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي فإنك على طريق واضح مستقيم، موصل إلى جنات النعيم ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وإن خاصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة عليهم فقل لهم: الله أعلم بأعمالكم القبيحة وبما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا وعيد وإنذار ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي الله يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين، فيعرفون حينئذٍ الحق من الباطل ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام تقريري أي لقد علمت يا محمد أنَّ الله أحاط عِلْمُه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ أي إن ذلك كله مسطر في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهلٌ عليه يسيرٌ لديه، ثم بيَّن سبحانه ما يقدم عليه الكفار مع عظيم نعمه، ووضوح دلائله فقال ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ويعبد كفار قريش غير الله تعالى أصناماً لا تنفع ولا تسمع ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي ما لم يَرِدْ به حجة ولا برهان من جهة الوحي والشرع ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي وما ليس عندهم به علم من جهة العقل وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للآباء ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة الساطعة وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكراهة ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي قل لهم: هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع من تخويفكم للمؤمنين وبطشكم بهم؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وعدها الله للكافرين المكذبين بآياته ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئس الموضع الذي يصيرون إليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي يا معشر المشركين ضرب الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر واعقلوا ما يقال لكم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي إنَّ هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك، فكيف يليق بالعاقل جَعْلُها آلهة وعبادتها من دون الله قال القرطبي: وخص الذباب لأربعة

أمور: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين؟ وهذا من أقوى الحجة وأوضح البرهان[1] ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي لو اختطف الذباب وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الصنم، فكل منهما حقير ضعيف[2] ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام - على حقارتها - شركاء للقوي العزيز ولهذا قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو تعالى قادر لا يعجزه شيء، غالب لا يغلب، فكيف يُسَوُّون بين القوي العزيز والعاجز الحقير؟! ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي الله يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده، والآية ردٌّ على من أنكر أن يكون الرسول من البشر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما قدموا وما أخَّروا من الأفعال والأقوال والأعمال ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إليه وحده جل وعلا تُردُّ أمور العباد فيجازيهم عليها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ أي صلوا لربكم خاشعين، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أشرف أركان الصلاة ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ أي افعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات والمبرات كصلة الأرحام، ومواساة الأيتام، والصلاة بالليل والناس نيام ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حقَّ الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة، ولا كلفكم مالا تطيقون بل هي الحنيفية السمحة ولهذا قال ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي دينكم الذي لا حرج فيه هو دين ابراهيم فالزموه لأنه الدين القيم كقوله ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٩٧.
(٢) قال ابن عباس: الطالب الصنمُ، والمطلوبُ الذباب، وقال السديُّ: الطالب العابد، والمطلوب الصنم نفسه، وهذا هو الراجح وهو الذي اخترناه.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ أي الله[1] سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن، ورضي لكم الإسلام ديناً قال الإمام الفخر: المعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن، بيَّن فضلكم على الأمم وسمَّاكم بهذا الاسم الأكرم، لأجل الشهادة المذكورة، فلما خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تَرُدُّوا تكاليفه ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي ليشهد عليكم الرسول بتبليغه الرسالة لكم وتشهدوا أنتم على الخلائق أنَّ رسلهم قد بلَّغتْهم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي وإذْ قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة فاشكروا الله على نعمته بأداء الصلاة ودفع الزكاة ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي استمسكوا بحبله المتين وثِقُوا واستعينوا بالله في جميع أموركم ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي نعم هو تعالى والمعين.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الامتنان بتَعْداد النعم ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي ...﴾ إلخ وكذلك الاستفهام الذي يفيد التقرير.

٢ - الطباق ﴿يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾.

٣ - صيغة المبالغة ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ أي مبالغ في الجحود.

٤ - النهي الذي يراد منه الشيء ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ أي لا ينبغي لهم منازعتك فقد ظهر الحق وبان.

٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَ﴾ أي تستدل من وجوههم على المكروه وإرادة الفعل القبيح مثل قولهم: عرفت في وجه فلان الشر.

٦ - التمثيل الرائع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ أي مثل الكفار في عبادتهم لغير الله كمثل الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة قال الزمخشري: سميت القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال.

٧ - المجاز المرسل ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ من إطلاق الجزء على الكل، أي: صلوا؛ لأن الركوع والسجود من أركان الصلاة.

٨ - ذكر العام بعد الخاص لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ بدأ بخاص، ثم بعام، ثم بأعم.

«تم بعونه تفسير سورة الحج»



(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد وهو الظاهر، وقال الحسن: الضمير يعود على إبراهيم، وهذا قولٌ مرجوح والله أعلم.



مكية وآياتها ثماني عشرة ومائة

بين يدي السورة

* سورة «المؤمنون» من السور المكية التي تعالج أصول الدين من «التوحيد والرسالة، والبعث» سميت بهذا الاسم الجليل «المؤمنون» تخليدًا لهم وإشادةً بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم.

* عرضت السورة الكريمة لدلائل القدرة والوحدانية مصورة في هذا الكون العجيب، في الإنسان، والحيوان، والنبات، ثم في خلق السماوات البديعة ذات الطرائق وفي الآيات الكونية المنبثة فيما يشاهده الناس في العالم المنظور من أنواع النخيل والأعناب، والزيتون والرمان، والفواكه والثمار، والسفن الكبيرة التي تمخر عباب البحر، وغير ذلك من الآيات الكونية الدالة على وجود الله جلا وعلا.

* وقد عرضت السورة لقصص بعض الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين، فذكرت قصة نوح، ثم قصة هود، ثم قصة موسى، ثم قصة مريم البتول وولدها عيسى، ثم عرضت لكفار مكة وعنادهم ومكابرتهم للحق بعدما سطع سطوع الشمس في رابعة النهار، وأقامت الحجج والبراهين على البعث والنشور، وهو المحور الذي تدور عليه السورة، وأهم ما يجادل فيه المبطلون، فقصمت ببيانها الساطع ظهر الباطل.

* وتحدثت السورة عن الأهوال والشدائد التي يلقاها الكفار وقت الاحتضار وهم في سكرات الموت، وقد تمنوا العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل، ولكن هيهات فقد انتهى الأجل، وضاع الأمل.

* وختمت السورة بالحديث عن يوم القيامة حيث ينقسم الناس إلى فريقين: سعداء، وأشقياء، وينقطع الحسب والنسب فلا ينفع إلا الإيمان والعمل الصالح، وسجلت المحاورة بين الملك الجبار وبين أهل النار وهم يصطرخون فيها فلا يغاثون ولا يجابون!.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

ﭐلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ
مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا
ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ
﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ

اللغَة: ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ السُّلالة: الخلاصة مشتقة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء، تقول: سللت الشَّعر من العجين، والسف من الغمد قال أمية:

خَلَقَ الْبَرِيَّةَ مِنْ سُلاَلَةِ مُنْتِنٍ وَإِلَى السُّلاَلَةِ كُلُّهَا سَتَعُودُ[1]

ويقال: الولد سلالة أبيه لأنه انسلَّ من ظهر أبيه ﴿مَّكِينٍ﴾ ثابت راسخ تقول: هذا شيء مكين أي متمكن في الثبوت والرسوخ ﴿طَرَآئِقَ﴾ جمع طريقة والمراد بالطرائق السماوات السبع؛ سُمِّيَت بذلك لكون بعضها فوق بعض، ومنه قولهم: طارَق النعلَ إذا جعل إحداهما على الأخرى ﴿وَصِبْغٍ﴾ الصبغ: الإدام وأصله الصباغ وهو الذي يُلَوَّن به الثوب قال الهروي: كل إدام يؤتدم به فهو صبغ[2] ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الحيوانات المأكولة «الإبل، والبقر، والغنم».

التفسِير: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فاز وسعد وحصل على البغية والمطلوب المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة، و ﴿قَدْ﴾ للتأكيد والتحقيق فكأنه يقول لقد تحقَّق ظفرهم ونجاحهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، ثم عدَّد تعالى مناقبهم فقال ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قال ابن عباس: خاشعون: خائفون ساكنون أي هم خائفون متذللون في صلاتهم لجلال الله وعظمته لاستيلاء الهيبة على قلوبهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الكذب والشتم والهزل قال ابن كثير: اللغو: الباطل وهو يشمل الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال[3] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ أي يؤدون زكاة أموالهم للفقراء والمساكين، طيبة بها نفوسهم طلباً لرضى الله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ هذا هو الوصف الرابع أي عَفُّوا عن الحرام وصانوا فروجهم عمَّا لا يحل من الزنا واللواط وكشف العورات ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: هم حافظون

(١) «البحر المحيط» ٦/ ٣٩٣.
(٢) (ش): الإدام: ما يُؤكَل بالخبز، أو ما يُخلَط معه لتطْيِيبه.
(٣) «ابن كثير المختصر» ٢/ ٥٥٩.

لفروجهم في جميع الأحوال إلا من زوجاتهم وإمائهم المملوكات ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أي فإنهم غير مؤاخذين ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ ﴾ أي فمن طلب غير الزوجات والمملوكات ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أي هم المعتدون المجاوزون الحدَّ في البغي والفساد ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أي قائمون عليها بحفظها وإصلاحها، لا يخونون إذا ائْتُمِنُوا، ولا ينقضون عهدهم إذا عاهدوا قال أبو حيان: والظاهر عموم الأمانات فيدخل فيها ما ائتمن الله تعالى عليه العبد من قولٍ وفعلٍ واعتقاد، وما ائتمنه الإنسان من الودائع والأمانات[١] ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ هذا هو الوصف السادس أي: يواظبون على الصلوات الخمس ويؤدونها في أوقاتها قال في التسهيل: فإن قيل كيف كرّر ذكر الصلوات أولاً وآخراً؟ فالجواب أنه ليس بتكرار، لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها، وذكر هنا المحافظة عليها فهما مختلفان[٢] ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ أي أولئك الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة هم الجديرون بوراثة جنة النعيم ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴾ اي الذين يرثون أعالي الجنة، التي تتفجر منها أنهار الجنة وفي الحديث « **إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**»[٣] ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي هم دائمون فيها لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً.. ثم ذكر تعالى الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته فقال ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ اللام جواب قسم، أي: والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة وخلاصة استلت من الطين قال ابن عباس: هو آدم لأنه انسلَّ من الطين ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ أي ثم جعلنا ذرية آدم وبنيه منيًّا ينطف من أصلاب الرجال ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ أي في مستقر متمكن هو الرحم ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي ثم صيَّرنا هذه النطفة - وهي الماء الدافق - دماً جامداً يشبه العلقة ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي: قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ أي صيَّرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة لتكون عموداً للبدن ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ أي سترنا تلك العظام باللحم وجعلناه كالكسوة لها ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ أي ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم قال الرازي: أي جعلناه خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرة، وغرائب حكمة لا يحيط بها

(١) «البحر المحيط» ٦/ ٣٩٧.
(٢) «التسهيل» ٣/ ٤٩.
(٣) أخرجه مسلم. (ش): ليس في صحيح مسلم، بل رواه البخاري، وفيه: «**وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ**».

وصف الواصفين[١] ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ أي فتعالى الله في قدرته وحكمته أحسن الصانعين صنعاً[٢] ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أي ثم إنكم أيها الناس بعد تلك النشأة والحياة لصائرون إلى الموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ أي تبعثون من قبوركم للحساب والمجازاة، ولما ذكر تعالى الأطوار في خلق الإنسان وبدايته ونهايته ذكر خلق السماوات والأرض وكلها أدلة ساطعة على وجود الله[٣] فقال ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ أي والله لقد خلقنا فوقكم سبع سماوات، سميت طرائق لأ ن بعضها فوق بعض ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي وما كنا مهملين أمر الخلق بل نحفظهم وندبر أمرهم ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ أي أنزلنا من السحاب القطر والمطر بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي جعلناه ثابتاً مستقراً في الأرض لتنتفعوا به وقت الحاجة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ أي ونحن قادرون على إِذهابه بالتغوير في الأرض فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم قال ابن كثير: لو شئنا لجعلناه إذا نزل يغور في الأرض إلى مدى لا تصلون إِليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه تعالى ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فراتاً، فيسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع فيها فيفتح العيون والأنهار، ويسقى الزروع والثمار، فتشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم[٤] ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ أي فأخرجنا لكم بذلك الماء حدائق وبساتين فيها

---

(١) الفخر الرازي ٢٣/ ٨٥.

(٢) (ش): عن مجاهد: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ قال: «يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين».

والعرب تسمي كل صانع خالقا، ومنه قول زهير بن أبي سلمى يمدح رجلًا:

وَلأنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ ... ـضُ القَوْمِ يخْلُقُ ثمَّ لا يَفْرِي

يقول: أنت إذا قدرت أمرًا قطعته وأمضيته، وغيرك يقدر ما لا يقطعه، لأنه ليس بماضي العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه. والخلق: التقدير، يقال: خلق الأديم يخلقه خلقًا: قدَّره لما يريد قبل القطع، وقاسه ليقطع منه مزادة أو قربة أو خفًّا. ولذلك سمت العرب كل صانع كالنجار والخياط ونحوهما خالقًا، لأنه يقيس الخشب ويقدّره على ما يريده له. والفَرْيُ: القطع بعد التقدير، وقد يكون قبله، بأن يقطع قطعة من جلد أو ثوب قطعًا مقاربًا، ثم يصلحها ويسويها بالحساب والتقدير، على ما يريده ولذلك جاءت رواية أخرى في البيت:

ولأنْتَ تخْلُقُ ما فَرَيْتَ وَبَعْـ ... ـضُ القَوْمِ يخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي

[انظر: تفسير الطبري، **بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر** (١٩/ ١٩)].

(٣) (ش): الصواب أن يقال: «وكلها أدلة ساطعة على وجوب إفراد الله بالعبادة»، لأنها سِيقَتْ لأجل هذا، أما وجود الله فالمخاطبون مُقِرُّون به كما في آخر السورة. ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٨٩].

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٦٣.

النخيل والأعناب ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي لكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والثمار تتفكهون بها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي ومن ثمر الجنات تأكلون صيفاً وشتاءً كالرطب والعنب والتمر والزبيب، وإنما خصَّ النخيل والأعناب بالذكر لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام، ومقام الإدام، ومقام الفواكه رطباً ويابساً وهما أكثر فواكه العرب ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي وممَّا أنشأنا لكم بالماء أيضاً شجرة الزيتون التي تخرج حول جبل الطور وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى ﴿تَنبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي تُنبت الدهن، أي: الزيت الذي فيه منافع عظيمة ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ أي وإدام للآكلين سمي صبغاً لأنه يلون الخبز إذا غُمس فيه[1]، جمع الله في هذه الشجرة بين الأُدم والدهن، وفي الحديث « **كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ** »[2] ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ أي وإن لكم أيها الناس فيما خلق لكم ربكم من الأنعام وهي «الإبل والبقر والغنم» لَعظةً بالغةً تعتبرون بها ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ أي نسقيكم من ألبانها من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ أي ولكم في هذه منافع عديدة: تشربونَ من ألبانها، وتلبسون من أصوافها، وتركبون ظهورها، وتحملون عليها الأحمال الثقال ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي وتأكلون لحومها كذلك ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي وتحملون على الإبل في البر كما تحملون على السُّفن في البحر، فإنَّ الإبل سفائن البر كما أن الفلك سفائن البحر.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإخبار بصيغة الماضي لإفادة الثبوت والتحقق ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كما أنَّ ﴿قَدْ﴾ لإفادة التحقق أيضاً.

٢ - التفصيل بعد الإجمال ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ..﴾ إلخ.

٣ - إنزال غير المنكر منزلة المنكر ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ الناس لا ينكرون الموت ولكنَّ غفلتهم عنه وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح يعدَّان من علامات الإنكار ولذلك نزلوا منزلة المنكرين وأُلقي الخبر مُؤكداً بمؤكدين «إنَّ واللام».

---

(١) (ش): **الإدام: ما يُؤكَل بالخبز، أو ما يُخلَط معه لتطْيِيبه.**

(٢) أخرجه أحمد. (ش): **ورواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني. (كُلُوا الزَّيْتَ) أَيْ مَعَ الْخُبْزِ وَاجْعَلُوهُ إِدَامًا. (وَادَّهِنُوا بِهِ) أَمْرٌ مِنَ الِادِّهَانِ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ، وَهُوَ اِسْتِعْمَالُ الدُّهْنِ. يقال ادَّهَنَ رأسَه: أي طلاه بالدهن وتولى ذلك بنفسه، ولا يخفى أنه لا يختص بالرأس ولا يشترط التولي بالنفس.** (فَإِنَّهُ) أَيِ الزَّيْتَ يَحْصُلُ (مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) يَعْنِي من زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا وَانْتِفَاعِ أَهْلِ الشَّامِ بِهَا كَذَا قِيلَ. وَالْأَظْهَرُ لِكَوْنِهَا تَنْبُتُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَيَلْزَمُ مِنْ بَرَكَةِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ بَرَكَةُ ثَمَرَتِهَا وَهِيَ الزَّيْتُونُ وَبَرَكَةُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهُوَ الزَّيْتُ.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ شبهت السماوات السبع بطرائق النعل التي يجعل بعضها فوق بعض بطريق الاستعارة.

٥ - التهديد ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾.

٦ - السجع غير المتكلف ﴿خَٰشِعُونَ، حَٰفِظُونَ، ٱلۡعَادُونَ﴾ وكذلك ﴿طِينٖ، مَّكِينٖ، ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: ذكر تعالى في هذه الآيات من قوله ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إلى قوله ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ أربعة أنواع من دلائل قدرته تعالى، الأول: تقلب الإنسان في أطوار الخلق وهي تسعة آخرها البعث بعد الموت، الثاني: خلق السماوات السبع، الثالث: إنزال الماء من السماء، الرابع: منافع الحيوانات وذكر منها أربعة أنواع «الانتفاع بالألبان، وبالصوف، وباللحوم، وبالركوب».

فَائِدَة: روى الإمام أحمد عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْوَحْيُ يُسْمَعُ عِنْدَ وَجْهِهِ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ يَوْمًا فَسَكَتْنَا سَاعَةً، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلاَ تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلاَ تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلاَ تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلاَ تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَارْضَ عَنَّا». ثُمَّ قَالَ ﷺ «لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ حَتَّى خَتَمَ الْعَشْرَ آيَاتٍ»[1].

قال الله تعالى:

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا
بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا
كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ
فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم
مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ
أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ
﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا
تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم
مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي. (ش): ورواه الحاكم، وصححه، وردَّه الذهبيُّ، وضعفه الألباني والأرنؤوط.

﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾
قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ
أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا
عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ
أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى دلائل التوحيد في خلق الإنسان، والحيوان، والنبات، وفي خلق السماوات والأرض، وعدَّد نعمة على عباده، ذكر هنا أمثالاً لكفار مكة من المكذبين من الأمم السابقة وما نالهم من العذاب، فابتدأ بقصة نوح، ثم بقصة موسى وفرعون، ثم بقصة عيسى ابن مريم، وكلُّها عبر وعظات للمكذبين بالرسل والآيات.

اللغَة: ﴿جِنَّةٌ﴾ بكسر الجيم أي جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ فانتظروا والتربص: الانتظار ﴿مُبْتَلِينَ﴾ مُخْتَبرين ﴿هَيْهَاتَ﴾ اسم فعل ماض بمعنى بَعُد قال الشاعر:

تَذَكَّرْتُ أَيَّامًا مَضَيْنَ مِنَ الصِّبَا ... وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتًا إِلَيْكَ رُجُوعُهَا[1]

﴿غُثَآءً﴾ الغثاء: العشب إذا يبس، وغُثاء السيل: ما يحمله من الحشيش والقصب اليابس ونحوه ﴿فَبُعْدًا﴾ هلاكاً قال الرازي: بعداً وسُحقاً ودماراً ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها قال سيبويه وهي منصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى ﴿فَبُعْدًا﴾ بعدوا بعداً أي هلكوا[2] ﴿قُرُونًا﴾ أمماً ﴿تَتْرَا﴾ تتابُعٌ، يأتي بعضهم إثر بعض ﴿أَحَادِيثَ﴾ جمْع أُحدوثة كأُعجوبة وهي ما يُتَحَدَّث به عجباً وتسلية ﴿مَعِينٍ﴾ ماء جار ظاهر للعيون ﴿رَبْوَةٍ﴾ الربوة: المكان المرتفع من الأرض.

التفسِير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي والله لقد أرسلنا رسولنا نوحاً إلى قومه داعياً لهم إلى الله قال المفسرون: هذه تعزية لرسول الله ﷺ بذكر هذا الرسول، ليتأسى به في صبره، وليعلم أنَّ الرسل قبله قد كُذبوا ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي اعبدوه وحده فليس لكم ربٌّ سواه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ زجرٌ ووعيد، أي: أفلا تخافون عقوبته بعبادتكم غيره؟ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي فقال أشراف قومه ورؤساؤهم

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ١٢٢.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٣/ ٩٩.

المُمْعِنُون في الكفر والضلال[١] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي ما هذا الذي يريد أن يطلب الرياسة والشرف عليكم بدعواه النبوة لتكونوا له أتباعاً.. واعجبْ بضلال هؤلاء استبعدوا أن تكون النبوة لبشر، وأثبتوا الربوبية لحجر ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعث ملكاً ولم يكن بشراً ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام في الأمم الماضية، والدهور الخالية ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ أي ما هو إلا رجلٌ به جنون ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي انتظروا واصبروا عليه مدة حتى يموت ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي قال نوح بعد ما يئس من إيمانهم: ربِّ انصرني عليهم بإهلاكهم عامةً بسبب تكذيبهم إياي ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي فأوحينا إليه عند ذلك أن اصنع السفينة بمرأى منا وحفظنا[٢] ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ أي بأمرنا وتعليمنا ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي فإذا جاء أمرنا بإنزال العذاب ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي فار الماء في التنور الذي يُخبَز فيه[٣] قال المفسرون: جعل الله ذلك

---

(١) **(ش): أمعن النَّظرَ في الأمر/ أمعن في الأمر: جدَّ وبالغ في استقصائه وأطال التفكيرَ فيه.**

(٢) (ش): في هذه الآية وفي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ سَفِيْنَةِ نُوحٍ ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] وَقَوْلِهُ لِمُوْسَى ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:٣٩]. وقوله للنبي ﷺ ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] **المَعْنَى عَلَى ظَاهِرِ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتِهِ، لَكِنْ مَا ظَاهِرُ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتُهُ هُنَا؟ هَلْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ وَحَقِيْقَتَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي فِي عَيْنِ اللهِ؛ أَوْ أَنَّ مُوْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبَّى فَوْقَ عَيْنِ اللهِ تَعَالَى؟!! أَوْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ تَعَالَى يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ القَوْلَ الأَوَّلَ بَاطِلٌ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: ١- أَنَّهُ لا يَقْتَضِيْهِ الكَلَامُ بِمُقْتَضَى الخِطَابِ العَرَبِيِّ، وَالقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ العَرَبِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ **[يُوْسُف:٢] وَلَا أَحَدَ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ يَسِيْرُ بِعَيْنِي أَنَّ المَعْنَى أَنَّهُ يَسِيْرُ دَاخِلَ عَيْنِهِ، وَلَا مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ تَخَرَّجَ عَلَى عَيْنِي؛ أَنَّ تَخَرُّجَهُ كَانَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى عَيْنِهِ، وَلَوْ ادَّعَى مُدَّعٍ أَنَّ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ فِي هَذَا الخِطَابِ لَضَحِكَ مِنْهُ السُّفَهَاءُ فَضْلًا عَنِ العُقَلَاءِ.** وَمِثْلُهُ قَوْلُ: إِنَّكَ تَحْتَ عَيْنِي، وَفُلَانٌ تَخَرَّجَ مِنْ تَحْتِ يَدِي، وَفُلَانٌ يَدِي اليُمْنَى وَ..... مِمَّا مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ مَفْهُوْمٌ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ.

٢- أَنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ غَايَةَ الامْتِنَاعِ، وَلَا يُمْكِنُ لِمَنْ عَرَفَ اللهَ وَقَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ أَنْ يَفْهَمَهُ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ لا يَحُلُّ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ، وَلَا هُوَ حَالٌّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِذَا تَبَيَّنَ بُطْلَانُ هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُوْنَ ظَاهِرُ الكَلَامِ هُوَ القَوْلُ الثَّانِي؛ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ بِمَرْأَى مِنِّي، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَكْلَؤُهُ بِعَيْنِهِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَاهُ. وَوَجْهُ كَوْنِ العَيْنِ هِيَ الَّتِي تَرْعَاهُ دُوْنَ الوَجْهِ أَوِ اليَدِ أَو.... هُوَ لِأَنَّ العَيْنَ تُفِيْدُ الاطِّلَاعَ وَالمُرَاقَبَةَ وَالإِحَاطَةَ مِمَّا يُنَاسِبُ الحِفْظَ. وَاللهُ أَعْلَمُ. **وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة،** فأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. **واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع (بِأَعْيُنِنَا) فإنما هو للتعظيم.**

(٣) (ش): التَّنُّور: فُرْنٌ يُخبز فيه.

علامة لنوح على هلاك قومه ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي فأدخل في السفينة من كل صنفٍ من الحيوان زوجين «ذكر وأنثى» لئلا ينقطع نسل ذلك الحيوان ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي واحمل أهلك أيضاً إلاّ من سبق عليه القول بالهلاك ممن لم يؤمن كزوجته وابنه ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي ولا تسألني الشفاعة للظالمين عند مشاهدة هلاكهم فقد قضيت أنهم مغرقون محكوم عليهم بالغرق ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ أي فإذا علوت أنت ومن معك من المؤمنين على السفينة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي احمدوا الله على تخليصه إياكم من الغرق وإنما قال ﴿فَقُلِ﴾ ولم يقل (فقولوا) لأن نوحاً كان نبيًّا لهم وإماماً فخطابه خطابٌ لهم ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي أنزلني إنزالاً مباركاً يحفظني من كل سوء وشر قال ابن عباس: هذا حين خرج من السفينة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي أنت يا رب خير المنزلين لأوليائك والحافظين لعبادك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي إنَّ فيما جرى على أمة نوح دلائل وعبراً يستدل بها أولو الأبصار ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي وإنَّ الحال والشأن كنا مختبرين للعباد بإرسال المرسلين ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي ثم أوجدنا من بعد قوم نوح قوماً آخرين يخلفونهم وهم قوم عاد ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي أرسلنا إليهم رسولاً من عشيرتهم هو هود عليه السلام ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي اعبدوه وحده ولا تشركوا به أحداً لأنه ليس لكم ربٌّ سواه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون عذابه وانتقامه إن كفرتم؟ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي قال أشراف قومه الكفرة المكذبون بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وسَّعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا ونعمناهم في هذه الحياة ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي قالوا لأتباعهم مضلين لهم: ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا إنسان مثلكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي يأكل مثلكم ويشرب مثلكم فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى الطعام والشراب ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي ولئن أطعتموه وصدقتموه فإنكم لخاسرون حقاً حيث أذللتم أنفسكم باتّباعه قال أبو السعود: انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها؟ قاتلهم الله أنّى يؤفكون[1] ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ استفهام على وجه الاستهزاء والاستبعاد أي أيعدكم بالحياة بعد الموت أن تصبحوا رفاتاً وعظاماً بالية؟ ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أي أنكم ستخرجون أحياء من قبوركم وكرَّر لفظ ﴿أَنَّكُمْ﴾ تأكيداً لأنه لمّا طال الكلام حسن التكرار ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي بَعُد بعُد هذا الذي توعدونه من الإخراج من القبور، وغرضهم بهذا الاستبعاد انه لا يكون أبداً ﴿إِنْ هِىَ

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٣١.

﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي لا حياة إلا هـذه الحياة الدنيا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموتُ بعضنا ويُولد بعضنا إلى انقراض العصر ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي لا بعث ولا نشور ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي مـا هو إلا رجل كاذب يكذب على الله فيما جاءكم به من الرسـالة، والإخبارِ بالمَعَاد(١) ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولسنا له بمصدقين(٢) فيما يقوله ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ لما يئس نبيُّهم من إيمانهم ورأى إصرارهم على الكفر دعا عليهم بالهلاك والمعنى ربِّ انصرني عليهم بسبب تكذيبهم إياي ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي قريب من الزمان سيصيرون نادمين على كفرهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب المدمر عدلاً من الله لا ظلماً ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي هَلْكَى كَغُثاء السَّيْل، قال المفسرون: صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم فصاروا لشدتها غثاءً كغثاء السيل وهو الشيء التافه الحقير الذي لا ينتفع منه بشيء ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي فسحقاً وهلاكاً لهمم وظلمهم، وهي جملة دعائية كأنه قال: بعداً لهم من رحمة الله وهلاكاً ودماراً لهم ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أي أوْجَدْنا من بعد هلاك هؤلاء أمماً وخلائق أخرين كقوم صالح وإبراهيم وقوم لوط وشعيب قال ابن عباس: هم بنو إسرائيل، وفي الكلام حذفٌ تقديره: فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم دلَّ عليه قوله ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي ما تتقدم أمةٌ من الأمم المهلكة عن الوقت الذي عُيّن لهلاكهم ولا تتأهر عنه ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي بعثنا الرسل متتالين واحداً بعد واحد قال ابن عباس: يتبع بعضهم بعضاً ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ تشنيع عليهم بكمال ضلالهم أي أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من سبقهم من المكذبين ولهذا قال ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي ألحقنا بعضهم في إثر بعض بالهلاك والدمار ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أخباراً تُروى وأحاديث تُذكر، يتحدث الناس بما جرى عليهم تعجباً وتسلية ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فهلاكاً ودماراً لقوم لا يصدّقون الله ورسله(٣)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ أي أرسلناهما بآياتنا البينات قال ابن عباس: هي الآيات التسع «العصا، اليد، الجراد» الخ ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي وحجة واضحة ملزمة للخصم ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أرسلناهما إلى فرعون الطاغية وأشراف قومه المتكبرين ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي عن الإيمان بالله وعبادته ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي متكبرين

(١) (ش): المَعاد: الآخرة، دار البقاء.

(٢) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

متمردين، بالظلم ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ أي أنصدق رجلين مثلنا ونتَّبعهما؟ ﴿وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي والحال أن قوم موسى وهارون منقادون لنا كالخدم والعبيد؟ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ أي فكذبوا رسولَيْنا فكانوا من المغرقين في البحر ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة بعد غرق فرعون ومَلَئِه ليهتدي بها بنو إسرائيل ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ أي وجعلنا قصة مريم وابنها عيسى معجزةً عظيمة تدل على كمال قدرتنا ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ أي وجعلنا منزلهما ومأواهما إلى مكانٍ مرتفع من أرض بيت المقدس قال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ أي مستوية يستقر عليها وماءٍ جارٍ ظاهر للعيون قال الرازي: القرار: المستقر كل أرض مستوية مبسوطة، والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وعن قتادة: ذات ثمارٍ وماء، يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي قلنا: يا أيها الرسل كلوا من الحلال وتقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة، والنداء لكل رسولٍ في زمانه وصى به كل رسول إرشاداً لأمته كما تقول تخاطب تاجراً: يا تجار اتقوا الربا ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ وعيدٌ وتحذير، أي: إني عالم بما تعملون لا يخفى عليَّ شيء من أمركم، قال القرطبي: شمل الكل في الوعيد وإذا كان هذا مع الرسل والأنبياء، فما ظنُّ كل الناس بأنفسهم؟[2] ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملتكم ملة واحدة وهي دين الإسلام ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ أي وأنا ربكم لا شريك لي فخافوا عذابي وعقابي.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الاستعارة البديعة ﴿ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ عبَّر عن المبالغة في الحفظ والرعاية بالصنع على الأعين؛ لأن الحافظ للشيء في الأغلب يُديمُ مراعاته بعينه؛ فلذلك جاء بذكر الأعين بدلاً من ذكر الحفظ والحراسة على طريق الاستعارة[3].

٢ – الكناية ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ كناية عن الشدة كقولهم: حمي الوطيس[4]، وأطلق بعض

(١) «التفسير الكبير» ٢٣/ ١٠٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ١٢٨.

(٣) (ش): في هذه الآية إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يُبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عَزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:١١]. واللفظ ورد هنا بصيغة الجمع للتعظيم.

(٤) (ش): حمِيتِ الشَّمسُ والنَّارُ والحديدةُ وغيرُها: سخنت واشتدّ حرُّها. والوَطيس: التَّنُّور وما أشبهه، حُفَيرَة يُختبز فيها ويُشوَى. والوطيس: المعركة. قال ص يَوْمَ حُنَيْنٍ: «هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). ويقال: حمِي الوطيسُ: أي اشتدّت الحربُ أو اضطرم الأمرُ. وَيُضْرَبُ مَثَلًا لِشِدَّةِ الْحَرْبِ الَّتِي يُشْبِهُ حَرُّهَا حَرَّ التَّنّور.

العلماء التنور على وجه الأرض مجازاً[١].

٣ - جناس الاشتقاق ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا﴾ و ﴿تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

٤ - الطباق بين ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وكذلك بين ﴿تَسْبِقُ .. يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

٥ - الجناس الناقص ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ لتغيير بعض الحروف مع الشكل.

٦ - التشبيه البليغ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي كالغثاء في سرعة زواله ومهانة حاله، حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً.

٧ - أسلوب الإطناب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا، وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ، وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ذماً لهم وتسجيلاً عليهم القبائح والشناعات.

٨ - السجع اللطيف مثل ﴿تَتَّقُونَ، تَشْرَبُونَ، مُخْرَجُونَ﴾ ومثل ﴿عَالِينَ، الْمُهْلَكِينَ، قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

فَائِدَة: لفظ البشر يطلق على الواحد والجمع، فمن إطلاقه على الواحد ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؟ ومن إطلاقه على الجمع ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦] ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] أفاده صاحب الكشاف.

قال الله تعالى:

فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾
أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ
رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ
مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ
نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ
ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا
تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ
﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾
أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ

---

(١) (ش): قال المؤلف في تفسير الآية: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي فار الماء في التنور الذي يُخبَز فيه، وفي تفسير سورة «هود» نقل عن ابن كثير أن التنور وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماءً، وأن هذا قول جمهور السلف والخلف. ثم قال في الهامش: «بعد أن ذكر الإمام الطبري أقوال السلف في المراد بالتنور، قال: وأولى هذه الأقوال عندنا قولُ من قال: «هو التنور الذي يخبز فيه» لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب وكلام الله يحمل على الأغلب الأشهر. انظر «الطبري» ١٢/ ٤٠.

﴿خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصص الأنبياء والمرسلين، أتبعه بذكر أخبار الكفرة المتمردين من أقوامهم واختلافهم وتفرقهم في الدين حتى أصبحوا فرقاً وأحزاباً، ليجتنب الإِنسان طرق أهل الضلال.

اللغَة: ﴿زُبُرًا﴾ قطعاً جمع زبور وهي القطعة من الفضة أو الحديد ﴿غَمْرَتِهِمْ﴾ الغمرة: الحيرة والضلالة وأصله في اللغة: الماء الذي يغمر القامة ﴿يَجْأَرُونَ﴾ يَضِجُّون ويستغيثون وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور ﴿تَنكِصُونَ﴾ النكوص: الرجوع إلى الوراء ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ نكب عن الطريق نكوباً إذا عدل عنه ومال إلى غيره.

التفسِير: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي تفرقت الأمم في أمر دينهم فرقاً عديدة وأدياناً مختلفة هذا مجوسي، وهذا يهودي، وهذا نصراني بعدما أُمِروا بالاجتماع ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه ديناً لنفسه معجب به، يرى أنه المحقُّ الرابح، وأنَّ غيره المبطل الخاسر ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والضمير لكفار مكة أي فاترُكْ يا محمد هؤلاء المشركين في غفلتهم وجهلهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى حين موتهم، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيدٌ للمشركين ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ أي أيظن هؤلاء الكفار أنَّ الذي نعطيهم في الدنيا من الأموال والأولاد ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي هو تعجيل ومسارعة لهم في الإِحسان؟ كلاَّ ليس الأمر كما يظنون بل هو استدراجٌ لهم، واستجرارٌ إلى زيادة الإِثم ولهذا قال ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي بل هم أشباه البهائم، لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في الأمر، أهو استدراج أم مسارعة في الخير؟ والآية ردٌّ على المشركين في زعمهم أن أموالهم وأولادهم دليلُ رضى الله عنهم كما حكى الله عنهم ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] وفي الحديث «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ**»[(١)] ، ولمّا ذمَّ المشركين وتوعَّدهم عقَّب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذابه حذرون ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدِّقون بآيات الله القرآنية، وآياته الكونية وهي والبراهين الدالة على وجوده سبحانه

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد. (ش): ورواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني، وأحمد شاكر، والأرنؤوط، وحسّنه **حسين سليم أسد** في تحقيقه لـ «**مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ وَمَنْبَعُ الفَوَائِدِ**».

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ أي لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه قال الإمام الفخر: وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة، بل المراد منه نفيُ الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه[١] ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين أي يعطون العطاء من زكاةٍ وصدقة، ويتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر وهم يخافون ألا تقبل منهم أعمالهم قال الحسن: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءةً وأمناً ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ أي لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة ولاعتقادهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب، روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ **أَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ وَهُوَ يَخَافُ اللهَ** عزَّ وجل؟ فقال لها: « **لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يُخَافُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ** »[٢] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين يسابقون في الطاعات لنيل أعلى الدرجات لا أولئك الكفرة المجرمون ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي هم الجديرون بها والسابقون إليه قال الإمام الفخر: واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن، فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي، والثانية: دلت على التصديق بوحدانية الله، والثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات، والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصدّيقين رزقنا الله الوصول إليها[٣] ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ أي لا نكلّف أحداً من العباد ما لا يطيق تفضلاً منّا ولطفاً. أتى بهذه الآية عقب أوصاف المؤمنين إشارةً إلى أن أولئك المخلصين لم يُكلفوا بما ليس في قدرتهم وأن جميع التكاليف في طاقة الإنسان ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي وعندنا صحائف أعمال العباد التي سُطِرَ فيها ما عملوا من خير أو شر نجازيهم في الآخرة عليها ولهذا قال ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي لا يُظْلَمون من أعمالهم شيئاً بنقص الثواب

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٣/ ١٠٧.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد. (ش): رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ، وضعفه الأرنؤوط. ورواه أيضًا بلفظ: «وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ»، ورواه ابن ماجه وصححه الألباني. ورواه الترمذي عن عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالَتْ عَائِشَةُ أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قَالَ « لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ». (وصححه الألباني).

(٣) «التفسير الكبير» ٢٣/ ١٠٧.

أو زيادة العقاب قال القرطبي: والآية تهديد وتأمين من الحيف والظلم[١] ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي بل قلوب الكفرة المجرمين في غطاءٍ وغفلةٍ وعمايةٍ عن هذا القرآن ﴿أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي ولهم أعمال سيئة كثيرة غير الكفر والإشراك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي سيعملونها في المستقبل لتحقَّ عليهم الشقاوة فقد جمعوا بين الكفر وسوء الأعمال فحقت عليهم كلمة العذاب ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ أي حتى إذا أخذنا أغنياءهم وكبراءهم المتنعمين في هذه الحياة بالعذاب العاجل كالجوع والقتل والأسر ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي إذا هم يصيحون ويرفعون أصواتهم بالاستغاثة قال ابن عباس: هو الجوع الذي عذبوا به سبع سنين ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي لا تمنعون من عذابنا فلا ينفعكم صراخ ولا استغاثة ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي لقد كنتم تسمعون آيات القرآن تقرأ عليكم ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي كنتم تنفرون عن تلك الآيات كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه، وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الحق بالراجع إلى الخلف ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي مستكبرين بسبب القرآن عن الإيمان قال ابن كثير: الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهُجْر من الكلام يقولون إنه سحر، شعر، كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة[٢] وقال ابن الجوزي: الضمير عائد إلى البيت الحرام وهي كناية عن غير مذكور لشهرة الأمر والمعنى: إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم لأمنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم، تقولون: نحن أهل الحرم فلا نخاف أحداً، ونحن أهل بيت الله وولاته، هذا مذهب ابن عباس وغيره[٣] ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي متحدثين ليلًا تسمرون تقولون في سمركم الهجر وهو القول الفاحش من الطعن في القرآن، وسبّ النبي عليه السلام ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي أفلم يتدبروا هذا القرآن العظيم ليَعْرِفوا بما فيه من إعجاز النظم أنه كلام الله فيصدقوا به[٤]؟ ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أم جاءهم من الله بشيء مبتدع لم يأت مثله في آبائهم السابقين؟ قال أبو السعود: يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل سنة قديمة لا يكاد يتسنى إنكاره، وأن مجيء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه؟ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ توبيخ آخر لهم أي أم لم يعرفوا محمداً ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ورابعًا اتهامهم له بالجنون وقد علموا أنه عليه السلام أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهنًا ولهذا قال بعده ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي أم يقولون

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ١٣٤.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٥٦٩.
(٣) «زاد المسير» ٥/ ٤٨٢.
(٤) «أبو السعود» ٤/ ٣٨.

إن محمداً مجنون، وهذا توبيخ آخر وتعجيبٌ من تفننهم في العناد، وتلونهم في الجحود ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل جاءهم محمد بالحقِّ الساطع الذي لا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه، وبالقرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي ومع وضوح الدعوة فإنَّ أكثر المشركين يكرهون الحقّ لما في قلوبهم من الزيغ والانحراف ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي لو كان ما كرهوه من الحق - الذي هو التوحيد والعدل - موافقاً لأهوائهم الفاسدة، ومتمشياً مع رغباتهم الزائغة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي لفسد نظامُ العالمِ أجمعُ عُلْوِيُّه وسُفْلِيُّه، وفسد من فيه من المخلوقات لفساد أهوائهم واختلافهم قال ابن كثير: وفي هذا كله تبيين عجز العباد، واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وتدبيره لخلقه[1] ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي بل أتيناهم بما فيه فخرهم وشرفهم، وهو هذا القرآن العظيم الذي أكرمهم الله تعالى به ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي فهم مُعرِضون عن هذا القرآن العظيم وكان اللائق بهم الانقياد له وتعظيمه لأنه شرفهم وعزُّهم، وأعاد لفظ «الذكر» تعظيماً للقرآن ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي أم تسألهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة فلأجل ذلك لا يؤمنون، وفي هذا تشنيعٌ عليهم لعدم الإيمان فمحمد لا يطلب منهم أجراً فلماذا إذاً يكذبونه ويعادونه؟ ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي رزق الله وعطاؤه خيرٌ لك يا محمد ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي هو تعالى أفضلُ من أعطى ورزق لأنه يعطي لا لحاجة، وغيره يعطي لحاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي وإنك يا محمد لَتَدْعُوهم إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام الموصل إلى جنات النعيم ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي وإنَّ الذين لا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب لعادلون عن الطريق المستقيم منحرفون عنه.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة اللطيفة ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ أصل الغمرة الماء الذي يغمر القامة، شبَّه ما هم فيه من الجهالة والضلالة بالماء الذي يغمر الإنسان من فَرْقِه إلى قَدمِه على سبيل الاستعارة.

٢ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾.

٣ - حذف الرابط في ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ حذف «به» أي نسارع لهم به في الخيرات، وحسن حذفه لاستطالة الكلام مع أمن اللبس.

٤ - الطباق بين ﴿يُؤْمِنُونَ .. يُشْرِكُونَ﴾.

٥ - الاستعارة البديعة ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ النطق لا يكون إلا ممن يتكلم بلسانه،

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٥٧٠. (ش): فَرْق: فاصلٌ بين صَفّين من شعر الرأس.

والكتاب ليس له لسان، فوصف سبحانه الكتاب بالنطق مبالغة في وصفه بإظهار البيان وإعلان البرهان، وتشبيهاً باللسان الناطق بطريق الاستعارة.

٦ - جناس الاشتقاق ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ ﴿أَعْمَٰلٌ.. هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾.

٧ - الاستعارة الفائقة ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ شبّه إعراضهم عن الحق بالراجع القهقرى إلى الخلف وهو من قبيل الاستعارة التمثيلية.

٨ - السجع الرصين ﴿مُّشْفِقُونَ، يُؤْمِنُونَ، يُشْرِكُونَ، سَٰبِقُونَ﴾ إلخ.

قال الله تعالى:

وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ
فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ
مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا
هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا
تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ
لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ
ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾
لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ
فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ
وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا
تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ
هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ

﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا
لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى إِعراض المشركين عن دعوة الإِيمان، ذكر هنا سبب الإِعراض وهو العناد والطغيان، ثم أردفه بإِقامة الأدلة على التوحيد، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إِلى سعداء وأشقياء، وختم السورة ببيان الحكمة من حشر الناس إِلى دار الجزاء وأنه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي ولا البرُّ من الفاجر.

اللغَة: ﴿مُبْلِسُونَ﴾ يائسون متحيرون، والإِبلاس: اليأس من كل خير ﴿يُجِيرُ﴾ يمنع ويحمي من استغاث به يقال: أجرت فلاناً على فلان إِذا أغثته ومنعته منه ﴿هَمَزَٰتِ﴾ جمع همزة وهي الدفع والتحريك الشديد وهو كالهز والأزّ، وهمزات الشيطان: كيده بالوسوسة ﴿بَرْزَخٌ﴾ حاجز ومانع قال الجوهري: البرزخ: الحاجز بين الشيئين[1] ﴿كَـٰلِحُونَ﴾ الكلوح: أن تتقلَّص الشفتان وتتباعد الأسنان، وذلك نهاية القبح لوجه الإِنسان.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: نزلت في قصة «ثمامة بن أُثال» لما أسرته السرية وأسلم وخلى رسول الله ﷺ سبيله، حال بين مكة وبين الميرة وقال: والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطة حتى يأذن رسول الله ﷺ، وأخذ اللهُ قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز قيل وما العلهز؟ قال: كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه فقال أبو سفيان: أنشدك الله والرَّحم، أليس تزعم أنَّ الله بعثك رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال فوالله ما أراك إِلا قتلت الآباء بالسيف، وقتلت الأبناء بالجوع فنزل قوله تعالى ﴿وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2] الآيات.

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ١٥٠.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٤١٥. (ش): عَن ابْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنه– قَالَ: جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْشُدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ لَقَدْ أَكَلْنَا الْعِلْهِزَ، – يَعْنِي الْوَبَرَ بِالدَّمِ – فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (رواه ابن جرير الطبري في تفسيره، والبيهقي في «الدلائل» وإسناده جيد. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أَتَى ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الْحَنَفِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَسْلَمَ وَهُوَ أَسِيرٌ فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَلَحِقَ بِالْيَمَامَةِ فَحَالَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ وَبَيْنَ الميرة من يمامة وَأَخَذَ اللهُ تَعَالَى قُرَيْشًا بِسِنِي الْجَدْبِ حَتَّى أَكَلُوا الْعِلْهِزَ، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ أَلَيْسَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟ قَالَ: «بَلَى»، فَقَالَ: قَدْ قَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. (رواه ابن جرير الطبري في تفسيره، والبيهقي في «الدلائل» وإسناده جيد. المِيرَةُ: الطَّعام من الحبِّ والقوت. وعَن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ –رضي الله عنه– قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا أبطئوا عَنِ الْإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِم النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ (وفي روايةٍ: قَحْطٌ وجَهْدٌ) حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وأكلوا المَيْتَةَ والجِيَفَ، وَالجُلودَ والعِظامَ، ويَرى =

التفسِير: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي لو رحمنا هؤلاء المشركين الذين كذبوك وعاندوك ورفعنا عنهم ما أصابهم من قحطٍ وجدب وكشفنا عنهم البلاء ﴿لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي لاستمروا وتمادوا في ضلالتهم وتجاوزهم الحدَّ يتردَّدون ويتخبطون حيارى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد، وبالقحط والجوع ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي ما خضعوا لله ولا تواضعوا لجلاله ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي وما دعوا ربهم لكشف البلاء بل استمروا على العتوّ والاستكبار، والغرضُ أنه لم يحصل منهم تواضع ورجوع إلى الله في الماضي، ولا التجاءٌ إلى الله في المستقبل لشدة جبروتهم وطغيانهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي حتى إذا جاءتهم أهوال الآخرة وأتاهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي إذا هم آيسون من كل خير قال أبو السعود: المراد بالعذاب عذاب الآخرة كما ينبئ عنه التهويل والوصف بالشدة. والمعنى: أنا مَحَنَّاهم[1] بكل محنة من القتل، والأسر، والجوع وغير ذلك فما رؤي منهم لين ولا توجهٌ إلى الإسلام إلى أن يروا عذاب الآخرة فحينئذٍ يبلسون وتخضع رقابهم[2] ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه ودلائل وحدانيته فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا، وفيه توبيخٌ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها، لأن السمع خلق ليسمع به ما يرشده، والبصر ليشاهد به الآيات على كمال أوصاف الله، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وخصَّ هذه الثلاثة بالذكر لعظم المنافع التي فيها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قليلاً تشكرون ربكم، و ﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة أي ما أقل شكركم لله على كثرة إفضاله وإنعامه عليكم! ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي خلقكم

= الرَّجُلُ ما بينَ السَّماءِ والأرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخانِ مِن الجَهْدِ والجوعِ. فجاءَهُ أبو سُفْيانَ، فقالَ: «يا مُحَمَّدُ! إنَّكَ تَأْمُرُ بطَاعَةِ اللهِ، وَبِصلَةِ الرَّحِمِ، وإنَّ قومَكَ قدْ هَلَكوا؛ فادْعُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُم، فدَعَا، ثمَّ قالَ: «تَعُودُونَ بَعْدَ هَذَا»، فقرَأَ: (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)، فدَعَوْا: (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ. أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ. ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ. إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ). فَأَتَى النَّبِيَّ ص رَجُلٌ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ». قَالَ: «لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ!». فَاسْتَسْقَى، فَسُقُوا الْغَيْثَ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ الْمَطَرِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)، فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. (وَفِي رِوَايَةٍ: فَمُطِرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ). (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ): أَيْ بِسَبْعِ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ فِي الْقَحْطِ وَالْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ. (السَّنَة)، هِيَ القحط والجدْب. (حَصَّتْ): اسْتَأْصَلَتْ.

(١) (ش): أي ابتلَيْناهم وامتحنَّاهم.

(٢) أبو السعود ٤/ ٤٠.

وبثكم في الأرض بطريق التناسل ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي وإليه وحده تجمعون للجزاء والحساب ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي يُحيي الرِّمم[١] ويميت الخلائق والأمم ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أي إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان بفعله سبحانه وحده ليقيم الدليل على وجوده وقدرته ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي أفليس لكم عقول تدركون بها دلائل قدرته، وآثار قهره، فتعلمون أن من قدر على ذلك ابتداءً، قادرٌ على إعادة الخلق بعد الفناء؟ ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ ﴿بَلۡ﴾ للإضراب أي ليس لهم عقل ولا نظر في هذه الآيات والعبر، بل قال هؤلاء المشركون - من كفار مكة - مثل ما قال الأمم المتقدمون ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾؟ أي أئذا بَلينا وصرنا ذراتٍ ناعمة، وعِظاماً نخرة[٢] أئِنَّا لَمَخلوقون ثانيةً؟ هذا لا يُتصوَّر ولا يكون ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ﴾ أي لقد وعدنا بهذا نحن ومَن سبَقنا فلم نَرَ له حقيقة ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلا أكاذيب وأباطيل المتقدِّمين. ولمَّا أنكروا البعث والنشور أمر تعالى رسوله أن يفحمهم بالحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل فقال ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ﴾؟ أي قل يا محمد جواباً لهم عما قالوه: لمن الأرض ومن فيها من المخلوقات؟ ومن مالكها والمتصرف فيها بالإيجاد والإفناء؟ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي إن كان عندكم علمٌ فأخبروني بذلك، وفيه استهانةٌ بهم وتقريرٌ لجهلهم قال القرطبي: يخبر تعالى في الآية بربوبيته ووحدانيته، وملكه الذي لا يزول، وقدرته التي لا تحول، ودلت هذه الآيات - وما بعدها - على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم، ونبَّهت على أنَّ من ابتدأ بالخلق والإيجاد، والإبداع، هو المستحقُّ للألوهية والعبادة[٣] ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ أي فسيقولون الله خالقها وموجدها ولا بدَّ لهم من الاعتراف بذلك ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تعتبرون فتعلمون أن من ابتدأ ذلك قادر على إعادته؟ ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؟ أي من هو خالق السماوات الطباق بما فيها الشموس، والكواكب والأقمار[٤]، ومن خالق العرش الكبير الذي تحمله الملائكة الأطهار؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ أي سيقولون: اللهُ خالقه وهو لله ﴿قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون من عذابه فتوحّدونه وتتركون عبادة غيره من الأوثان والأصنام ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الملكُوت من صفات المبالغة أي من بيده الملك الواسع التام؟ ومن

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾؟.

(٢) (ش): عِظاماً نخرة: **عِظامًا بالية**.

(٣) تفسير القرطبي.

(٤) (ش): لم يَرِدْ في القرآن ذِكْرُ الشمس والقمر إلا مفردَيْن والباقي سماه نجومًا وكواكب، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

بيده خزائن كل شيء؟ ومن هو المتصرف في هذه الأكوان بالخلق والإِيجاد والتدبير؟ ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي يحمي من استجار به والتجأ إِليه، ولا يغيث أحدٌ منه أحداً ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إِن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيقولون: الملك كله والتدبيرُ لله جلَّ وعلا ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي قل لهم: فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده مع اعترافكم وعلمكم بأنه وحده المتصرف المالك؟ قال أبو حيان: والسحر هنا مستعار وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط، ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للمسحور من التخبط والتخليط[١] رتَّب هذه التوبيخات الثلاثة بالتدريج فقال أولاً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ثم قال ثانياً ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ وذلك أبلغ لأن فيه زيادة تخويف، ثم قال ثالثاً ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ وفيه من التوبيخ ما ليس في غيره[٢] ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بل جئناهم بالقول الصدق في أمر التوحيد والبعث والجزاء ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي كاذبون فيما ينسبون لله من الشركاء والأولاد. لمَّا بالغ في الحِجاج عليه بالآيات السابقة أعقبها بهذه الآية كالوعيد والتهديد، ثم بيَّن بطلان الشريك والولد بالبرهان القاطع فقال ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ أي ما اتخذ الله ولداً مطلقاً لا من الملائكة ولا من البشر ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي وليس معه من يشاركه في الألوهية والربوبية ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لو كان معه إِله - كما زعم عَبَدَةُ الأوثان - لانفرد كل إِلهٍ بخلقه الذي خلق واستبدَّ به، وتميَّز ملك كلِّ واحد عن ملك الآخر ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي ولغلب بعضهم على بعض كحال ملوك الدنيا قال ابن كثير: المعنى لو قُدِّر تعدُّدُ الآلهة لَانفردَ كلٌ بما خلق، ثم لكان كلٌ منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض وما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظمٌ متَّسقٌ غاية الكمال فدل على تنزه الله عن الولد والشريك[٣] ولهذا قال ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزّه الله وتقدَّس عما يصفه به الظالمون ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب عن الأنظار، وبما تدركه الأبصار، لا تخفى عليه خافية من شؤون الخلق ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تقدَّس وتنزَّه عن الشريك والولد ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي قل يا ربِّ إِن كان ولا بدَّ من أن تُرِيَني ما تعدهم من العذاب في الدنيا ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هذا جواب الشرط ﴿إِمَّا﴾ وكرَّر قوله ﴿رَبِّ﴾ مبالغةً في الدعاء والتضرع أي ربِّ فلا تجعلني في جملة الظالمين فأهلَكَ بهلاكهم قال أبو حيان: ومعلوم أنه عليه السلام معصومٌ مما يكون سبباً لجعله مع الظالمين ولكنه أُمر أن يدعو بذلك إِظهاراً

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٤١٨.

(٢) نقلاً عن التسهيل ٣/ ٥٥.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٣.

للعبودية وتواضعاً لله[1] ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي ونحن قادرون على أن نريك العذاب الذي وعدناهم به ولكن نؤخره لحكمة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي ادفع إساءتهم بالصفح عنهم وتجمَّل بمكارم الأخلاق قال ابن كثير: أرشده إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقةً، وبغضه محبة[2] ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي نحن أعلم بحالهم وبما يكون منهم من التكذيب والاستهزاء وسنجازيهم عليه ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي أعتصم بك من نزغات الشياطين ووساوسهم المغرية على الباطل والمعاصي ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي وأعتصم وأحتمي بك يا رب من أن يصيبوني بسوء أو يكونوا معي في أموري، كرَّر ذلك للمبالغة والاعتناء بشأن الاستعاذة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ عاد الكلام عن المشركين، أي: حتى إذا حضر الموتُ أحدَهم وعاين أهواله وشدائده ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ أي قال تحسُّراً على ما فرط منه: ربِّ ردَّني إلى الدنيا، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي لكي أعمل صالحاً فيما ضيَّعت من عمري ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ﴿كَلَّآ﴾ كلمةُ ردع وزجر، أي: لا رجوع إلى الدنيافليرتدع عن ذلك فإن طلبه للرجعة كلام لا فائدة فيه ولا جدوى منه وهو ذاهبٌ أدراج الرياح ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي وأمامهم حاجزٌ يمنعهم عن الرجوع إلى الدنيا - هو عالم البرزخ - الذي يحول بينهم وبين الرجعة يلبثون فيه إلى يوم القيامة قال مجاهد: البرزخُ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي فلا قرابة ولا نسب ينفعهم يوم القيامة لزوال التراحم والتعاطف من شدة الهول والدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأُمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه لاشتغال كل واحد بنفسه، ولا تنافي بينها وبين قوله ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الطور: ٢٥] لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف ومواطن، ففي بعضها يتكلمون وفي بعضها لا ينطقون ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي فهم السعداء الذين فازوا فنجوا من النار وأُدخلوا الجنة ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي زادت سيئاته على حسناته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي فهم الأشقياء الذين خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم وتدنيسها بالكفر والمعاصي ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي هم مقيمون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تحرقها بشدة حرِّها، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ أي وهم في جهنم عابسون مشوَّهو المنظر

(١) البحر المحيط ٦/ ٤٢٠.

(٢) ابن كثير المختصر ٢/ ٥٧٤.

قال ابن مسعود: قد بدتْ أسنانهم وتقلَّصت شفاههم كالرأس المُشيَّط بالنار، وفي الحديث «**تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ**»(١) ﴿**أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً: ألم تكن آيات القرآن الساطع تقرأ عليكم في الدنيا؟ ﴿**فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ**﴾ أي فكنتم لا تصدّقون بها مع وضوحها ﴿**قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا**﴾ أي غلبت علينا شقاوتنا ﴿**وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ**﴾ أي وكنّا ضالين عن الهدى بسبب اتباعنا للملذّات والأهواء ﴿**رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا**﴾ أي أخرجنا من النار وردُنَّا إلى الدنيا ﴿**فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ**﴾ أي فإن رجعنا إلى الكفر والمعاصي بعد ذلك نكون قد تجاوزنا الحدَّ في الظلم العدوان. أقروا أولاً بالإجرام ثم تدرجوا من الإقرار إلى الرغبة والتضرع فجاء الجواب بالتيئيس والزجر ﴿**قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ أي ذلوا في النار وانزجروا كما تُزجر الكلاب ولا تكلموني في رفع العذاب قال في التسهيل: اخسئوا: كلمة تستعمل في زجر الكلاب ففيها إهانةٌ وإبعاد(٢) ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ**﴾ قال مجاهد: هم بلال، وخباب، وصهيب وغيرهم من ضعفاء المسلمين كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم(٣) ﴿**فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا**﴾ أي فسخرتم منهم واستهزأتم بهم ﴿**حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي**﴾ أي حتى نسيتم بتشاغلكم بهم واستهزائكم عليهم عن طاعتي وعبادتي ﴿**وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ**﴾ أي وكنتم تتضحكون عليهم في الدنيا ﴿**إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ**﴾ أي جزيتهم بسبب صبرهم على أذاكم أحسن الجزاء ﴿**أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ**﴾ أي إنهم هم الفائزون بالنعيم المقيم ﴿**قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ**﴾ أي قال تعالى للكفار على سبيل التبكيت والتوبيخ: كم مكثتم في الدنيا وعمَّرتم فيها من السنين؟ ﴿**قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ**﴾ أي مكثنا يوماً أو أقل من يوم ﴿**فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ**﴾ أي الحاسبين المتمكنين من العدِّ قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب المدة التي لبثوها ﴿**قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ أي ما أقمتم حقًّا في الدنيا إلا قليلاً قال الرازي: كأنه قيل لهم: صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلاً فقد انقضت ومضت، والغرضُ تعريفهم قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة(٤) ﴿**لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ أي لو كان لكم علمٌ وفهم لَعَرفْتم حقارة الدنيا ومتاعها الزائل(٥). ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ**

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب. (ش): ضعفه الألباني. (تَشْوِيهِ) أَيْ تُحْرِقُ الْكَافِرَ. (فَتَقَلَّصُ): فَتَتَقَلَّصُ: بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ أَيْ تَنْقَبِضُ (تَبْلُغَ) أَيْ تَصِلَ (وَتَسْتَرْخِي) أَيْ تَسْتَرْسِلُ (حَتَّى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ) أَيْ تَقْرُبَ شَفَتُهُ سُرَّتَهُ.

(٢) «التسهيل» ٣/ ٥٧.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٢/ ١٥٤.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٣/ ١٢٧.

(٥) (ش): قال الإمام ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٨٣): ما لبثتم في الأرض إلا قليلا يسيرا، ﴿لو أنكم =

﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي أظننتم - أيها الناس - أنما خلقناكم باطلاً وهملاً بلا ثواب ولا عقاب كما خلقت البهائم ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي وأنه لا رجوع لكم إلينا للجزاء؟ لا ليس الأمر كما تظنون وإنما خلقناكم للتكليف والعبادة ثم الرجوع إلى دار الجزاء ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي فتنزَّه وتقدَّس الله الكبير الجليل ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي صاحب السلطان، المتصرف في ملكه بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإفناء، تنزَّه عن العبث والنقائض وعن أن يخلق شيئاً سفهاً لأنه حكيم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا ربَّ سواه ولا خالق غيره[1] ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي خالق العرش العظيم وصفه بالكريم لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه، ولنسبته إلى أكرم الأكرمين ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي ومن يجعل لله شريكاً ويعبد معه سواه ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي لا حجة له به ولا دليل ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي جزاؤه وعقابه عند الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي لا يفوز ولا ينجح مَن جحَد وكذَّب بالله ورُسُله، افتتح السورة بقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وختمها بقوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ليظهر التفاوت بين الفريقين فشتان ما بين البدء والختام.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليماً للأمة طريق الثناء والدعاء، اللهم اغفر لنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، يا أرحم الراحمين، اللهم آمين.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الامتنان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

٢ - التفنن ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أفرد السمع وجمع الأبصار تفنناً.

٣ - التنكير للتقليل ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ و ﴿مَّا﴾ تأكيد للقلة المستفادة من التنكير والمعنى شكراً قليلاً وهو كناية عن عدم الشكر.

٤ - الاستفهام الذي غرضه الإنكار والتوبيخ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ؟ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ؟

٥ - الطباق بين ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

٦ - حذف جواب الشرط ثقةً بدلالة اللفظ عليه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون

= كنتم تعلمون﴾ «قدر لُبْثكم فيها». وقال الحافظ ابن كثير تفسيره (٥/ ٥٠٠): ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ: مُدَّةً يَسِيرَةً عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: لَمَا آثَرْتُمُ الْفَانِيَ عَلَى الْبَاقِي، وَلَمَا تَصَرَّفتم لِأَنْفُسِكُمْ هَذَا التَّصَرُّفَ السَّيِّئَ، وَلَا اسْتَحْقَقْتُمْ مِنَ اللهِ سُخْطَهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَبَرْتُمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ - كَمَا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ - لَفُزْتُمْ كَمَا فَازُوا.

(١) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]: أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا.

ذلك فأخبروني عنه.

٧ – طباق السلب ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ﴾.

٨ – تأكيد الكلام بذكر حرف الجر الزائد ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ أي ما اتخذ ولداً وكذلك ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ذكر ﴿مِنْ﴾ في الجملتين تأكيداً تثبيتاً للنفي.

٩ – الطباق في ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

١٠ – التأكيد بإِنَّ واللام ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ لإنكار المخاطبين لذلك.

١١ – الطباق المعنوي ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ لأنه المعنى ادفع بالحسنة السيئة فهو طباق بالمعنى لا باللفظ.

١٢ – واو الجمع للتعظيم ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ولم يقل ارجعني تعظيماً لله جل وعلا.

١٣ – المجاز المرسل ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أطلق الكلمة على الجملة وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

١٤ – المقابلة اللطيفة بين ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وبين ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ..﴾ الآيتان.

١٥ – القصر ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

١٦ – جناس الاشتقاق ﴿اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

١٧ – السجع الموزون الخالي من التكلف وهو كثير مشهور.

«انتهى تفسير سورة الحج»

❊ ❊ ❊ ❊



مدنية وآياتها أربع وستون

بين يدي السورة

سورة النور من السور المدنية، التي تتناول الأحكام التشريعية، وتُعنَى بأمور التشريع، والتوجيه والأخلاق، وتهتم بالقضايا العامة والخاصة التي ينبغي أن يُربَّى عليها المسلمون أفرادًا وجماعات، وقد اشتملت هذه السورة على أحكام هامة وتوجيهات عامة تتعلق بالأسرة، التي هي النواة الأولى لبناء المجتمع الأكبر.

* وضَّحت السورة الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة، كالاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء الأجنبيات، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة و«البيت المسلم» من العَفاف والستر، والنزاهة والطهر، والاستقامة على شريعة الله، صيانةً لحرمتها، وحفاظًا عليها من عوامل التفكك الداخلي، والانهيار الخلقي، الذي يهدم الأمم والشعوب.

* وقد ذكرت في هذه السورة الكريمة بعض الحدود الشرعية التي فرضها الله كحد الزنى(١)، وحد القذْف(٢)، وحَدّ اللعان(٣)، وكل هذه الحدود إنما شرعت تطهيرًا للمجتمع من الفساد والفوضى، واختلاط الأنساب، والانحلال الخلقي، وحفاظًا للأمة من عوامل التردي في بؤرة الإباحية والفساد، التي تُسبب ضياع الأنساب، وذهاب العرض والشرف.

*وباختصار فإن هذه السورة الكريمة عالجت ناحية من أخطر النواحي الاجتماعية هي

---

(١) (ش): مَا وَرَدَ مَقْصُورًا وَمَمْدُودًا بِلُغَتَيْنِ: كَالْحَلْوَى وَالْحَلْوَاءِ، وَالزِّنَى وَالزِّنَاءَ، يَصِحُّ أَنْ يُكْتَبَ: الْحَلْوَا، وَالزِّنَا بِالْأَلِفِ. [انظر: قواعد الإملاء لعبد السلام محمد هارون (ص ٣٠-٣١)].

(٢) (ش): قذَف المحصنةَ: رماها بالزِّنى واتّهمَها به.

(٣) (ش): اللعان شهادات مؤكدات بالأيْمان، مقرونة باللعن من جهة الزوج وبالغضب من جهة الزوجة، قائمة مقام حدّ القذف في حق الزوج، ومقام حدّ الزنى في حق الزوجة. وسُمِّي اللعان بذلك؛ لقول الرجل في الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ولأن أحدهما كاذب لا محالة، فيكون ملعونًا. فإذا رأى الرجل امرأته تزني ولم يُمْكِنْه إقامة البينة، أو قذفها بالزنى ولم تُقِر هي بذلك، وحتى لا يلحقه العار بزناها ويفسد فراشه، أو يلحقه ولدُ غيرِه، شرع الله عز وجل اللعان حلًّا لمشكلته، وإزالة للحرج عنه، ويستحب وعْظُهما وتخويفهما بالله قبل اللعان. وأيْمانُ اللعان لا تُعتَبر إلا بحضرة قاضٍ أو نائبه، أو رجل متصفٍ بشروط القضاء يتفق الزوجان على تحكيمه بينهما. وإذا تراجع الزوج وامتنع عن الأيْمان فعليه حد القذْف ثمانين جلدة، وإذا امتنعت الزوجة وأقرت بالزنى أقيم عليها حد الزنا وهو الرجم.

«مسـألة الأسـرة» وما يحفها من مخاطر، وما يعترض طريقها من عقبات ومشاكل، تؤدي بهـا إلى الانهيار ثم الدمار، هذا عدا عما فيها من آداب سـامية، وحكـم عالية، وتوجيهات رشـيدة، إلى أسـس الحياة الفاضلة الكريمة، ولهذا كتب أميـر المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة يقول لهم: علّموا نساءكم سورة النور.

التسـمية: سُميت سـورة النور لما فيها من إشاعات النور الرباني، بتشريع الأحكام والآداب، والفضائل الإنسـانية التي هي قبسٌ من نور الله على عبـاده، وفيضٌ من فيوضات رحمته وَجُودِه ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ اللهم نوِّر قلوبنا بنور كتابك المبين يارب العالمين.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ
مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ
مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ
عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ
شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ
إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ
وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ
لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ
ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ
لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ
لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ
وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ
هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا
وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ

اللغَة: ﴿سُورَةٌ﴾ السورة في اللغة: المنزلة السامية والمكانة الرفيعة قال النابغة:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَعْـطَـاكَ سُـورَةً   تَـرَى كُـلَّ مُـلْـكٍ دُونَـهَـا يَـتَـذَبْـذَبُ

وسميت المجموعة من الآيات لها بدءٌ ونهاية سورة لشرفها وارتفاعها كما يسمى السور للمرتفع من الجدار ﴿ٱلزَّانِي﴾ الزنى: الوطء المحرم ويسمى الفاحشة لتناهي قبحه وهو مقصور وقد يمد على لغة أهل نجد فيقال الزناء قال الفرزدق:

أَبَا حَاضِرٍ[1] مَنْ يَـزْنِ يُعْرَفْ زِنَـاؤُهُ وَمَنْ يَشْرَبِ الْخُرْطُومَ يُصْبِحْ مُسَكَّرَا

﴿رَأۡفَةٞ﴾ شفقة وعطف مأخوذ من رؤف إذا رق ورحم ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ العفيفات وأصل الإحصان المنع سميت العفيفة محصنة لأنها منعت نفسها عن القبيح، ومنه الحصن لأنه يمنع من الأعداء ﴿يَدۡرَؤُاْ﴾ يدفع والدرء: الدفع ﴿تَشِيعَ﴾ شاع الأمر شيوعاً إذا فشا وظهر وانتشر ﴿عُصۡبَةٞ﴾العصبة: الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض.

سَبَبُ النّزول: أ – روي أن امرأةً تُدعى «أم مهزول» كانت من البغايا فكانت تُسافح الرجل وتشرط أن تنفق عليه، فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾[2] الآية.

ب – عن ابن عباس أن «هلال بن أُمية» قذف امرأته عند النبي ﷺ «شريك بن سحماء» فقال النبي ﷺ: «البينةُ أو حدٌّ في ظهرك» فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ والذي بعثك بالحق إني لصادقٌ، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ..﴾[3] الآية.

التفسِـير: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن من جوامع سور القرآن أوحينا بها إليك يا محمد ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعيًّا ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي أنزلنا فيها آياتٍ تشريعية واضحات الدلالة على أحكامها، لتكون لكم – أيها المؤمنون – قبساً ونبراساً، وتكريرُ لفظ الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها فكأنه يقول: ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي تعتبروا وتتعظوا بهذه الأحكام وتعملوا بموجبها، ثم شرع تعالى بذكر الأحكام وبدأ بحد الزنى فقال ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ أي فيما شرعت لكم وفرضت

---

(١) (ش): في الأصل: أبا طاهر، والتصويب من تفسيرَي «القرطبي» و«البحر المحيط»وكتب اللغة. الخرطوم: الخَمْرُ السَّريعَةُ الإِسْكار. وَقِيلَ: هُوَ أول مَا ينزل من الخمر قبل أَنْ يُداسَ عِنَبُها. والمُسَكَّرُ: المَخمورُ.

(٢) رواه أحمد والنسائي. (ش): أخرجه النسائي في «التفسير»، وأحمد في «مسنده» وابن جرير الطبري في «تفسيره» والحاكم في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

وعَنْ مَرْثَدِ بْنِ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ –وكَانَ يَحْمِلُ الأُسَارَى بِمَكَّةَ وَكَانَ بِمَكَّةَ بَغِيٌّ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقُ وَكَانَتْ صَدِيقَتَهُ– قَالَ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ أَنْكِحُ عَنَاقًا». فَسَكَتَ عَنِّى فَنَزَلَتْ ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾ فَدَعَانِى فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ: «لاَ تَنْكِحْهَا». (رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وصححه الألباني).

(٣) رواه البخاري. وانظر تتمة القصة في كتابنا «روائع البيان» ٢/ ٨٠.

عليكم أن تجلدوا كل واحدٍ من الزانيين - غير المحصنين - مائة ضربة بالسوط عقوبة لهما على هذه الجريمة الشنيعة ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تأخذكم بهما رقة ورحمة في حكم الله تعالى فتخففوا الضرب أو تنقصوا العدد بل أوجعوهما ضرباً قال مجاهد: لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا إقامتها شفقة ورحمة[1] ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ هذا من باب الإلهاب والتهييج أي إن كنتم مؤمنين حقاً تصدقون بالله وباليوم الآخر، فلا تعطلوا الحدود ولا تأخذكم شفقة بالزناة، فإن جريمة الزنى أكبر من أن تستدر العطف أو تدفع إلى الرحمة ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليحضر عقوبة الزانيين جماعةٌ من المؤمنين، ليكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإنَّ الفضيحة قد تنكل أكثر مما ينكل التعذيب ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ أي الزاني لا يليق به أن يتزوج العفيفة الشريفة، إنما ينكح مثله أو أخسُّ منه كالبغيّ الفاجر، أو المشركة الوثنية ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي والزانية لا يليق أن يتزوج بها المؤمن العفيف، إنما يتزوجها من هو مثلها أو أخسَّ منها، كالزاني الخبيث أو المشرك الكافر، فإن النفوس الطاهرة تأبى الزواج بالفواجر الفاسقات، قال الإمام الفخر: «من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية: أنَّ الفاسقَ الخبيث - الذي من شأنه الزنى والفِسق - لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في فاسقةٍ خبيثةٍ مثله أو في مشركة، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين، وهذا على الأعم الأغلب كما يقال: لايفعل الخير إلا الرجل التقي، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقيٍّ فكذا هنا»[2] ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وحرم الزنى على المؤمنين لشناعته وقبحه، أو حرم نكاح الزواني على المؤمنين لما فيه من الأضرار الجسيمة[3]. ثم شرع تعالى في بيان حد القذف فقال ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات الشريفات ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي ثم لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهود عدول يشهدون عليهم بما نسبوا إليهم من الفاحشة ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ أي اضربوا كل واحدٍ من الرامين ثمانين ضربةً بالسوط ونحوه، لأنهم كذبة يتهمون البريئات، ويخوضون في أعراض الناس ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ أي وزيدوا لهم في العقوبة بإهدار كرامتهم الإنسانية فلا تقبلوا شهادة أي واحدٍ منهم ما دام مصراً على كذبه وبهتانه ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ لإتيانهم بالذنب الكبير، والجرم الشنيع قال ابن كثير:

(١) «التفسير الكبير» ٢٣/ ١٤٨.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٣/ ١٥٠.

(٣) قولان للمفسرين اختار الأول «صاحب التسهيل» واختار الثاني «أبو السعود» والقرطبي.

أوجب تعالى على القاذف إذا لم يُقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: **أحدها**: أن يجلد ثمانين جلدة **الثاني**: أن ترد شهادته أبداً **الثالث**: أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس[1] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي إلا الذين تابوا وأنابوا وندموا على ما فعلوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي أصلحوا أعمالهم فلم يعودوا إلى قذف المحصنات قال ابن عباس: أي أظهروا التوبة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فاعفوا عنهم واصفحوا وردُّوا إليهم اعتبارهم بقبول شهادتهم، فإن الله غفور رحيم يقبل توبة عبده إذا تاب وأناب وأصلح سيرته وحاله.

ثم ذكر تعالى حكم من قذف زوجته وهو المعروف باللعان فقال ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي وليس لهم شهود يشهدون بما رموهنَّ به من الزنى سوى شهادة أنفسهم ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ أي فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حدَّ القذف أربع شهادات بالله تقوم مقام الشهداء الأربعة ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي إنه صادقٌ فيما رمى به زوجته من الزنى ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي وعليه أيضاً أن يحلف في المرة الخامسة بأن لعنة الله عليه ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي إن كان كاذباً في قذفه لها بالزنى ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي ويدفع عن الزوجة المقذوفة حدَّ الزنى الذي ثبت بشهادة الزوج ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي وتحلف في المرة الخامسة بأنَّ غضب الله وسخطه عليها إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها بالزنى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بالستر في ذلك، وجوابُ ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف لتهويل الأمر تقديره: لهلكتم أو لفضحكم أو عاجلكم بالعقوبة، ورب مسكوتٍ عنه أبلغ من المنطوق ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في ما شرع من الأحكام ومن جملتها حكم اللعان. قال «أبو السعود»: وجواب «لولا» محذوف لتهويله كأنه قيل: ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته بكم لكان ما كان ممّا لا يحيط به نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حدُّ القذف مع أن الظاهر صدقه لاشتراكه في الفضيحة، ولو جعل شهاداته موجبةً لحد الزنى عليها لفات النظر لها، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له، فسبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع

---

(١) «المختصر» ٢/ ٥٨٣.

رحمتـه، وأدقَّ حكمته[١]. ثم بيَّـن تعالى «قصة الإفك»[٢] التي اتهمـت فيها العفيفة البريئة الطاهرة أم المؤمنين عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالكذب والبهتان فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي جاءوا بأسـوأ الكذب وأشنع صور البهتان وهو قذف عائشة بالفاحشـة قال الإمام الفخر: الإفك أبلـغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقد أجمع المسـلمون على أن المراد ما أُفك به على عائشـة وهي زوجة الرسـول المعصوم[٣] ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ أي جماعـة منكم أيها المؤمنون وعلى رأسـهم «ابن سـلول» رأس النفـاق[٤] ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾ أي لا تظنوا هذا القذف والاتهـام شـرًّا لكـم يا آل أبـي بكـر ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ لما فيه من الشـرف العظيـم بنزول الوحـي ببراءة أم المؤمنين، وهذا غاية الشـرف والفضل قال المفسـرون: والخير في ذلك مـن خمسـة أوجه: تبرئـة أم المؤمنيـن، وكرامـة الله لها بإنـزال الوحي في شـأنها، والأجر الجزيـل لها في الفِرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين[٥] ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٖٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ أي لـكل فـردٍ من العُصبة الكاذبة جزاء مـا اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أي والذي تولى معظمه وأشاع هذا البهتان وهو «ابن سـلول» رأس النفاق ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي له في الآخرة عذاب شـديد في نار جهنم ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ أي هلَّا حين سـمعتم يا معشـر المؤمنين هذا الافتراء وقذف الصديقة عائشـة ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ أي هـلّا ظنُّوا الخير ولم يسـرعوا إلـى التهمة فيمن عرفـوا فيها النزاهة والطهارة؟ فإن مقتضى الإيمان ألاّ يصدق مؤمنٌ على أخيه قولة عائب ولا طاعـن قال ابـن كثير: هذا تأديبٌ مـن الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشـة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السُّـوء، وهلا قاسـوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فـأمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى، وري أن امرأة «أبي أيوب» قالت لـه: أما تسـمع ما يقول الناسُ في عائشـة! قال: نعم وذلك الكذب، أكنـت فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله قال فعائشـة والله خير منـك[٦]، ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ أي قالوا في ذلـك الحين: هـذا كذبٌ ظاهر مبيـن ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ﴾ أي هـلاّ جاء أولئك المفترون بأربعة شـهود يشهدون على ما قالوا ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي فإن عجزوا ولم يأتـوا على دعواهم بالشـهود ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ أي فأولئك هم المفسـدون

(١) «إرشاد العقل السليم» ٤/ ٤٨.
(٢) انظر القصة مفصلة في كتابنا «روائع البيان» ٢/ ١١٧.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٣/ ١٧٢.
(٤) (ش): رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.
(٥) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ٦١.
(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٥٩١. (ش): رواه الطبري وابن أبي حاتم في تفسيرَيْهِما.

الكاذبون في حكم الله وشرعه، وفيه توبيخٌ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه أول وهلة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي لولا فضله تعالى عليكم - أيها الخائضون في شأن عائشة - ورحمته بكم في الدنيا والآخرة حيث أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي لأصابكم ونالكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي عذاب شديد هائل يُستحقر دونه الجلد والتعنيف قال القرطبي: هذا عتابٌ من الله بليغٌ لمن خاضوا في الإفك، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً[١] ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي وذلك حين تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه قال مجاهد: أي يرويه بعضُكم عن بعض، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلانٌ كذا[٢] ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع، وإنما هو محض كذبٍ وبهتان ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ أي وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم لأنه وقوع في أعراض المسلمين قال في «التسهيل»: عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء: **الأول**: تلقيه بالألسنة أي السؤال عنه **والثاني**: التكلم به **والثالث**: استصغاره حيث حسبوه هيناً وهو عند الله عظيم، وفائدة قوله «بألسنتكم وبأفواهكم» الإشارة إلى أنَّ ذلك الحديث كان باللسان دون القلب لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم[٣] ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له وتقولوا لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذبٌ واضح، عظيم قال الزمخشري: هو بمعنى العجب من عظيم الأمر والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يُسبَّح الله عند رؤية العجائب[٤] ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي يذكركم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكي لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبداً ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقًّا مؤمنين فإن الإيمان وازع عن مثل البهتان، وفيه حثٌّ لهم على الاتعاظ وتهييج ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب، لتتعظوا وتتأدبوا بها ﴿وَٱللَّهُ

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٠٣.
(٢) «المختصر» ٢/ ٥٩١.
(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ٦٢.
(٤) «الكشاف» ٣/ ٢٢٥. (ش): دلت عدة أحاديث رواها البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ كان يَقُوْلُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ والأَمْرِ السَّارِّ: «سُبْحَانَ اللهِ!» أو يقول: «الله أكبر».

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عالم بما يصلح العباد، حكيم في تدبيره وتشريعه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾ أي يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط في القبح كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي في المؤمنين الأطهار ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي لهم عذاب موجع مؤلم في الدنيا بإقامة الحدِّ، وفي الآخرة بعذاب جهنم قال الحسن: عنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا وقصدوا إذاية الرسول ﷺ وذلك كفرٌ وملعون صاحبه[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي هو تعالى عالمٌ بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك قال الإمام الفخر: وهذه الجملة فيها حسنُ الموقع بهذا الموضع، لأن محبة القلب كامنةٌ ونحن لا نعلمها إلّا بالأمارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء، فصار هذا الذكر نهايةً في الزجر، لأن من أحبَّ إشاعة الفاحشة وإن بالغَ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزاء عليه[2] ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ جواب ﴿ وَلَوْلَا ﴾ محذوف لتهويل الأمر أي لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذَّبهم، وكان ما كان مما لا يكاد يتصوره الإنسان لأنه فوق الوصف والبيان.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير للتفخيم ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن، جليلة القدر أنزلها الله.

٢ - الإطناب بتكرير لفظ ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ في قوله ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ لإبراز كمال العناية بشأنها، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام للعناية والاهتمام.

٣ - الاستعارة ﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أصل الرمي القذفُ بالحجارة أو بشيء صلب ثم استعير للقذف باللسان لأنه يشبه الأذى الحسّي ففيه استعارة لطيفة.

٤ - التهييج والإلهاب ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كقولهم: إن كنت رجلاً فاقدم.

٥ - صيغة المبالغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ و ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فإن «فعول، وفعّال، وفعيل» من صيغ المبالغة وكلها تفيد بلوغ النهاية في هذه الصفات.

٦ - الطباق بين ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ و ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

٧ - حذف جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ للتهويل في ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ وذلك حتى يذهب الوهم في تقديره كل مذهب فيكون أبلغ في البيان وأبعد في التهويل والزجر.

٨ - الطباق ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وكذلك ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ

(١) «البحر المحيط» ٦/ ٤٣٩.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٣/ ١٨٣.

عَظِيمٌ﴾ فقد طابق بين الشر والخير، وبين الهيّن والعظيم.

٩ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ والأصل أن يقال: ظننتم وإنما عدل عنه مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظنَّ الخير بالمؤمنين.

١٠ - التحضيض ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي هلاَّ جاءوا وغرضه التوبيخ واللوم.

١١ - التعجب ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ ففيه تعجب ممن يقول ذلك والأصل في ذكر هذه الكلمة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أن يُسبح الله تعالى عند رؤية العجيب من صنائعه، تنزيهًا له من أن يخرج مثله عن قدرته ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه[١].

فَائِدَة: لماذا بدأ الله في الزنى بالمرأة، وفي السرقة بالرجل؟ والجواب أن الزنى من المرأة أقبح، وجرمه أشنع فبدأ بها، وأما السرقة فالرجل عليها أجرأ وهو عليها أقدر ولذلك بدأ به ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾.

تنبيه: في التعبير بالإحصان ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ إشارة دقيقة إلى أنَّ قذف العفيف من الرجال أو النساء موجب لحدِّ القذف، وأما إذا كان الشخص معروفًا بفجوره أو اشتهر بالاستهتار والمجون فلا حدَّ على قاذفه، لأنه لا كرامة للفاسق الماجن. فتدبر السر الدقيق.

لطيفة: لماذا عدل عن قوله ﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى قوله ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ مع أن الرحمة تناسب التوبة؟ والجواب أن الله عَزَّ وَجَلَّ أراد الستر على العباد بتشريع اللعان بين الزوجين، فلو لم يكن اللعان مشروعًا لوجب على الزوج حدُّ القذف مع أن الظاهر صدقه، ولو اكتفى بلعانه لوجب على الزوجة حدُّ الزنى، فكان من الحكمة وحسن النظر لهما جميعًا أن شرع هذا الحكم، ودرأ عنهما العذاب بتلك الشهادات، فسبحانه ما أوسع رحمته، وأجل حكمته[٢]!.

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ

---

(١) «حاشية شيخ زاده على «البيضاوي»» ٣/ ٤١٩.

(٢) انظر الحكمة التشريعية في الحدود الإسلامية بالتفصيل في كتابنا «تفسير آيات الأحكام» ٢/ ٢٥.

أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ
أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا
غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ
تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ
أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا
لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ
أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي
الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا
يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ
مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ
﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى
الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ

المناسبة: لما ذكر تعالى حادثة الإفك، أتبعها بالتحذير من سلوك طريق الشيطان المتربص بالإنسان الذي يدعو إلى السوء والشر والفساد، ثم ذكر تعالى آداب الاستئذان والزيارة لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت طريقاً للتهمة(١)، فأوجب تعالى ألا يدخل إنسان بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام، ثم

(١) (ش): في قصة الإفك التي رواها البخاري ومسلم في «صحيحيهما» أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت قد خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة بني المصطلق وذلك بعدما شرع الله الحجاب للنساء، وفي طريق العودة، عندما اقترب المسلمون من المدينة نزلت من هودج البعير لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقداً لها، فرجعت تبحث عنه فحمل الرجال هودجها فوضعوه على البعير وهم يحسبونها فيه - إذ كانت صغيرة خفيفة - ومضى المسلمون إلى المدينة وتركوها في البيداء وقد وجدت عقدها وفقدت الركب، فمكثت في مكانها تنتظر أن يعرفوا بخبرها ويعودوا إليها، فمر بها صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه وهو من خيرة الصحابة فحملها على بعيره وانطلق بها إلى المدينة، فوصل إليها بعد دخول الرسول ﷺ، وقد استغل المنافقون هذا الحادث ونسجوا حوله، فاتُّهِمَت عائشة أم المؤمنين بالإفك.

أتبعها بآيات غضّ البصر.

اللغة: ﴿يَأۡتَلِ﴾ يحلف والألِيَّةُ: اليمين ومنه ﴿يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أي: يحلفون ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ العفائف الشريفات الطاهرات جمع محصنة وهي العفيفة ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ منزهون والبراءة: النزاهة مما نسب للإنسان من تهمة ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ تستأذنوا وأصله في **اللغة:** طلبُ الأنس بالشيء قال الشاعر:

عوى الذئب فاستأنستُ للذئب إذْ عوى وصوَّت إنسانٌ فكدت أطير

﴿يَغُضُّواْ﴾ غضَّ بصره: خفضه ونكّسه وأصله إطباق الجفن على الجفن قال جرير:

فغُضَّ الطّرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها، وخمّروا الآنية أي غطوها ﴿جُيُوبِهِنَّ﴾ جمع جيب وهو الصدر[١] ﴿ٱلۡإِرۡبَةِ﴾ الحاجة إلى النساء.

سَبَبُ النّزول: أ - كان أبو بكر الصدّيق ينفق على «مسطح بن أُثاثة» لمسكنته وقرابته، فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطحٌ ما قال، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعةٍ أبداً فأنزل الله ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ ..﴾ الآية فقال أبو بكر: واللهِ إني لأحبُ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً[٢].

ب - عن علي كرم الله وجهه[٣] قال: مرَّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريقٍ من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأةٍ ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به، فبينما الرجل يمشي إلى جانب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط «أي صدمه الحائط» فشقَّ أنفه فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأُعلمه أمري، فأتاه فقصَّ عليه قصته فقال النبي ﷺ: «هذا عقوبة ذنبك» فأنزل الله ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ..﴾[٤] الآيات.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي يا من صدَّقتم بالله ورسوله لا تتبعوا الآثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه بإشاعة الفاحشة، والإصغاء إلى الإفك والقول

---

(١) (ش): جَيْب القميص ونحوه: ما يُدخل منه الرَّأسُ عند لُبْسِه.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٠٧.

(٣) (ش): سُئِلَ الشيخ ابن باز - رحمه الله - عن تخصيص علي رضي الله عنه بلفظ عليه السلام فقال: «لا ينبغي تخصيص علي - رضي الله عنه - بهذا اللفظ بل المشروع أن يقال في حقه وحق غيره من الصحابة رضي الله عنه أو رحمه الله لعدم الدليل علَى تخصيصه بذلك، وهكذا قول بعضهم: «كرم الله وجهه» فإن ذلك لا دليل عليه ولا وجه لتخصيصه بذلك، والأفضل أن يعامل كغيره من الخلفاء الراشدين ولا يخص بشيء دونهم من الألفاظ التي لا دليل عليها». (مجموع الفتاوى ٦/ ٥٠١).

(٤) «الدر المنثور» للسيوطي ٥/ ٤٠. (ش): ذكره السيوطي في «الدر المنثور» بدون إسناد، ونسَبه لابنِ مَرْدَوَيْه.

به ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي ومن يتبع سيرة الشيطان وطريقته ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي فإن الشيطان يضل الإنسان ويغويه لأنه يأمر بالفحشاء وهي ما أفرط قبحه، والمنكر وهو ما ينكره الشرع وتنفر منه العقول السليمة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بالتوفيق للتوبة الماحية للذنوب، وبشرع الحدود المكفرة للخطايا ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي ما تطهر أحدٌ منكم من الأوزار أبد الدهر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ أي ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوفيقه للتوبة النصوح وقبولها منه قال القرطبي: والغرض أن تزكيته لكم، وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم[(١)] ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ أي لا يحلف أهل الفضل في الدين وأصحاب الغنى واليسار ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إيَّاه من الإحسان لذنب فعلوه ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ أي وليعفوا عمّا كان منهم من جرم، وليصفحوا عما بدر منهم من إساءة، وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنعام والإحسان ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم؟ روي أن أبا بكر لما سمع الآية قال: بلى أحب أن يغفر الله لي وأعاد النفقة إلى مسطح وكفَّر عن يمينه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً[(٢)]!! قال المفسرون: والآية دالة على فضل أبي بكر فإن الله تعالى امتدحه بقوله ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ﴾ وكفى به دليلاً على فضل الصدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْه وأرضاه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب، ثم توعَّد تعالى الذين يرمون العفائف الطاهرات فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات، السليمات الصدور، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾أي المتصفات بالإيمان مع طهارة القلب ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة قال ابن عباس: هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذْ ليس له توبة[(٣)]، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة وقال أبو حمزة: نزلت في مشركي مكة، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا: خرجت لتفجر[(٤)] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم مع اللعنة عذاب هائل لا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٠٧.
(٢) (ش): (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).
(٣) «حاشية شيخ زاده على «البيضاوي»» ٣/ ٤٣٠.
(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٤٤٠.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي وذلك العذاب الشديد في ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين تشهد على الإنسان جوارحه فتنطق الألسنة والأيدي والأرجل بما اقترف من سيئ الأعمال ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي يوم القيامة ينالهم حسابهم وجزاؤهم العادل من أحكم الحاكمين ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ويعلمون حينئذٍ أن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه.

ثم ذكر تعالى بالدليل القاطع، والبرهان الساطع براءة عائشة ونزاهتها، فهي زوجة رسول الله الطيب الطاهر وقد جرت سنة الله أن يسوق الجنس إلى جنسه، فلو لم تكن عائشة طيبة لما كانت زوجة لأفضل الخلق ﷺ وهذا قال ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، وكذلك الطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء[1]، ولهذا كالدليل على براءة عائشة لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحبِّ عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي أولئك الفضلاء منزهون ممَّا تقوَّله أهل الإفك في حقهم من الكذب والبهتان ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم على نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم، ورزقٌ كريم في جنات النعيم قال ابن كثير: وفيه وعدٌ بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ لما حذَّر تعالى من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء، ودخولهم عليهم في أوقات الخلوات أرشد تعالى إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول وبالتسليم بعده ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ أي لا تدخلوا بيوت الغير حتى تستأذنوا وتسلموا على أهل المنزل ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخول بغتة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لتتعظوا وتعملوا بموجب هذه الآداب الرشيدة قال القرطبي: المعنى: إن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بغير إذن ومن الدخول على الناس بغتة أو من تحية الجاهلية فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال: حُيِّيتم صباحاً، وحُيِّيتم مساءً ودخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحافٍ، وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ أأستأذن على أمي؟ قال: نعم، قال: ليس لها خادمٌ غيري، أأستأذن عليها كلما دخلتُ؟

---

(١) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر. وقال مجاهد: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال وبالعكس، ومراده أن كل كلام إنما يحسن في حق أهله فسيئ الكلام إنما يليق بالأشرار والفجار إلخ. وما ذكرناه أوضح بياناً، وأقرب منالاً.

قـال: أتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها[١] ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ أي فـإن لم تجـدوا في البيوت أحداً يأذن لكم بالدخول إليها ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي فاصبروا ولا تدخلوها حتى يسمح لكم بالدخول، لأن للبيوت حرمة ولا يحل دخولها إلا بـإذن أصحابهـا ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي وإن لـم يـؤذن لكـم وطلـب منكـم الرجـوع فارجعـوا ولا تلحُّـوا ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي الرجـوع أطهر وأكرم لنفوسـكم وهو خيـر لكم مـن اللجـاج والانتظار علـى الأبـواب ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي هو تعالى عالـم بالخفايا والنوايا وبجميع أعمالكم فيجازيكـم عليها قال القرطبي: وفيه توعدٌ لأهل التجسـس على البيوت، ثم إنه تعالى لما ذكر حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور غير المسـكونة فقال ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي ليـس عليكم إثمٌ وحرج ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي أن تدخلوا بغير اسـتئذان بيوتـاً لا تختص بسكنى أحد كالرباطات والفنادق والخانـات قال مجاهد: هي الفنادق التي في طرق السـابلة لا يسـكنها أحد بل هي موقوفة ليـأوي إليها كل ابن سـبيل[٢] ﴿فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ﴾ أي فيها منفعة لكـم أو حاجة من الحاجات كالاستظلال من الحر، وإيواء الأمتعة والرحال ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي يعلم ما تظهرون وما تُسـرون في نفوسكم فيجازيكم عليه قال ابو السعود: وهذا وعيدٌ لمن يدخـل مدخلاً لفسـادٍ أو اطلاع على عورات[٣]، ثم أرشـد تعالى إلـى الآداب الرفيعة من غـض البصر، وحفظ الفروج فقـال ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي قل يا محمد لأتباعك المؤمنين: يكفوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات من غير المحارم، فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة، ورُبَّ شهوة أورثت حزنـاً طويلاً

كم نظرةٍ فتكتْ في قلبِ صاحبِها ... فتـكَ السِّـهامِ بـلاَ قَـوْسٍ ولا وتـرِ

﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ أي يصونـوا فروجهـم عن الزنى وعن الإبداء والكشـف ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي ذلـك الغـضُّ والحفظ أطهـرُ للقلوب، وأتقى للديـن، وأحفظ من الوقوع في

(١) «البيضاوي» ٢/ ٥٧. (ش): رواه مالك في الموطأ، وإسناده ضعيف. ومعناه صحيح؛ فعن عَطَاءٍ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاس، فَقُلْتُ: أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُخْتِي؟ فَقَالَ: «نَعَمْ». فأعدتُ، فقلتُ: أُخْتَانِ فِي حِجْرِي، وَأَنَا أُمَوِّنُهُما، وَأُنْفِقُ عَلَيْهِمَا، أَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهُمَا عُرْيَانَتَيْنِ؟! ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ..﴾ إِلَى: ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [النور: ٥٨] قَالَ: فَلَمْ يُؤْمَرْ هَؤُلَاءِ بِالْإِذْنِ إِلَّا فِي هَذِهِ الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ». قَالَ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ [النور: ٥٩]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فالإذن واجب، [على الناس كلهم]». رواه البخاري في (الأدب المفرد)، وقال الألباني: «صحيح الإسناد». (موَّن ابنَه): أنفق عليه وزوَّده بما يحتاجه من مأكل وملبس وغيرهما، احتمل مئونَتَه وقام بكِفايته.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٢١. (ش): (الخان): الفندق والمتجر. السابِلَة: المارُّون على الطريق.

(٣) «أبو السعود» ٤/ ٥٥.

الفجور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ أي هو تعالى رقيبٌ عليهم، مطلعٌ على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم، فعليهم أن يتقوا الله في السر والعلن قال الإمام الفخر: فإن قيل: فلم قدم غضَّ الأبصار على حفظ الفروج؟ قلنا: لأن النظر بريد الزنى، ورائد الفجور[١]، والبلوى فيه أشدُّ وأكثر، ولا يكاد يُحترس منه[٢] ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي وقل أيضاً للمؤمنات: يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات، قال المفسرون: أكد تعالى الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج، وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم والأقرباء فقال ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ أي ولا يكشفن زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها بدون قصدٍ ولا نية سيئة قال ابن كثير: أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه، كما قال ابن مسعود: الزينة زينتان: فزينةٌ لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينةٌ يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب[٣]، وقيل: المراد به الوجه والكفان فإنهما ليسا بعورة قال «البيضاوي»: والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة[٤] ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على صدورهن لئلا يبدو شيء من النحر والصدر، وفي لفظ «الضر» بمبالغة في الصيانة والتستر، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا أنها قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأُول لما أنزل الله ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها[٥] قال المفسرون: كانت المرأة في الجاهلية - كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة[٦] - تمر بين الرجال مكشوفة الصدر، بادية النحر، حاسرة

---

(١) (ش): أي أن النظر يوصل إلى الزنى ويقود إلى الفجور. (الْبَرِيد): أَصله الدَّابَّة الَّتِي تحمل الرسائل، وَالرَّسُول. رائدُ القوم: مَن يقودهم ويتقدَّمهم.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٢/ ٢٠٥.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٠٠.

(٤) «البيضاوي» ٢/ ٥٨.

(٥) أخرجه البخاري. عن عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أَخَذْنَ أُزْرَهُنَّ فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الْحَوَاشِي فَاخْتَمَرْنَ بِهَا. [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ]. وروَاهُ أَبُو دَاوُدَ بلفظ: يَرْحَمُ اللهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ أَكْنَفَ - قَالَ ابْنُ صَالِحٍ أَكْثَفَ - مُرُوطِهِنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا. [وصححه الألباني]. (مروط): جمع مرط وهو الكساء من صوف وغيره.

(٦) (ش): هذه الكلمة لا تخلو من مبالغة في وصف واقع المسلمين العصر الحديث، فوجود الدِّين الإسلامي في هذا العصر، وإن كان قد دخل فيه ما ليس منه، يمنعُنا مِن القول بأن هذا العصر يمثل جاهليةً كالجاهلية الأُولى. فإن إطلاق الجاهلية على العصر الحديث قد يُوهِم الناس بأن الإسلام كله قد انحرف عن التوحيد وعن الإخلاص =

الذراعين، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب وشعرها(١) لتغري الرجال، وكنَّ يسدلن الخُمُر من ورائهن فتبقى صدورهن مكشوفة عارية، فأمرت المؤمنات بأن يلقينها من

= في عبادة الله عز وجل انحرافًا كليًّا، فصار هذا الزمان كزمان الجاهلية الذي بُعِثَ رسول الله ﷺ إلى إخراجه من الظلمات إلى النور حينئذ. يُطلق لفظ «الجاهلية» ويُراد به فترة ما قبل بعثة النبي ﷺ، لأن الناس كانوا فيها على جهل عظيم، فجهلهم شامل للجهل في حقوق الله، وحقوق عباده. وقد أرسل الله تعالى نبيَّه محمَّداً ﷺ بالهدى ودين الحق، فأنار الله تعالى به الكون، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، فبدَّد الله به ظلمات الجهل والكفر، وانتهى ببعثته ﷺ عهد الجاهلية، ولكن هل رُفعت الجاهلية عن الأمكنة كلها، وفي جميع الأزمنة؟! بالطبع لا، ولذا فإنه لا يجوز وصف جميع المجتمعات بالجاهلية بعد بعثته ﷺ، ولا نزْعُها عن جميع المجتمعات أيضا، فما تزال بعض المجتمعات تعيش في مستنقعات الجاهلية، فلا يُرفع عنها هذا الوصف، وأما من استنار بنور الإسلام من المجتمعات فلا يجوز وصفها بهذا اللفظ، ولو حصل تقصير في بعض جوانب الإسلام منها فهذا لا يبيح وصفها بالجاهلية، وعلى هذا التفصيل اتفقت كلمة العلماء المحققين. فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل. وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون من يهودية، ونصرانية: فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ فقد تكون في بلد دون بلد - كما هي في دار الكفار -، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم فإنه في جاهلية وإن كان في دار الإسلام. فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ؛ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة. والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاص المسلمين كما قَالَ ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُوم، وَالنِّيَاحَةُ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِي كَلاَمٌ وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَشَكَانِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَقِيتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. إن الجاهلية الأولى، إن كان المعنِيّ بها العرب فقط فهم كانوا وثنيين وكانوا في ضلال مبين، وإن كان المعنِيّ بها ما كان حول العرب من أديان كاليهودية والنصرانية فهي أديانٌ مُحرَّفة، فلم يبق في ذلك الزمان دين خالص منزَّه عن التغيير والتبديل، فلاشك في أن وَصْفَ الجاهلية على ذلك العهد وصفٌ صحيح. وليس الأمر كذلك في هذا العصر ما دام أن الله تبارك وتعالى قد منَّ على العرب أولاً، ثم على سائر الناس ثانياً، بأن أرسل إليهم محمداً - ﷺ - خاتم النبيين، وأنزل عليه دين الإسلام، وهو خاتم الأديان، وتعهد الله عز وجل بحفظ شريعته هذه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ونبيه ﷺ قد أخبر أن الأمة الإسلامية وإن كان سيصيبها شيء من الانحراف الذي أصاب الأُمم من قبلهم ويقلدون اليهود والنصارى في ذلك الانحراف، فإنه ﷺ في الوقت نفسه قد بشَّر أتباعَه بأن مِنهم مَن سيبقون على خطه الذي رسمه لهم، وأكد ذلك ﷺ في قوله: لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). فلا تزال في هذه الأُمة جماعة مباركة طيبة قائمة على هَدْيِ الكتاب والسنة، فهي أبعد ما تكون عن الجاهلية القديمة أو الحديثة. [انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم «لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٧٨، ٧٩)، معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ، للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص ٢٠٩- ٢١٢). عن كتاب «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه» لمحمد إبراهيم الشيباني ١/ ٣٩١ - ٣٩٤.

(١) (ش): النَّحْر: أعلَى الصدر، وموضع القِلادة منه. بادِية النحر: أي إنَّ نحرَها مكشوفٌ. حاسرة الذراعين: مكشوفة الذراعين (الذؤابة): شعر مُقَدَّم الرَّأْس.

قدامهن حتى يغطينها ويدفعن عنهن شر الأشرار ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي ولا يظهرن زينتهن الخفية التي حرم الله كشفها إلا لأزواجهن ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أي أو لآبائهن أو آباء أزواجهن وهو العم أبو الزوج فإنهما من المحارم، فإن الأب يصون عرض ابنته، ووالد الزوج يحفظ على ابنه ما يسوءه، ثم عدد بقية المحارم فقال ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فذكر تعالى الأبناء، وأبناء الأزواج، والإخوة، وأبناء الإخوة، وأبناء الأخوات، وكلُّهم من المحارم الذين يحرم الزواج بهم لما جبل الله في الطباع من النفرة من مماسة القريبات ونكاحهن ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي المسلمات وخرج بذلك النساء الكافرات قال مجاهد: المراد نساؤهن المسلمات، ليس المشركات من نسائهن، وليس يحل للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة وقال ابن عباس: هن المسلمات ولا تبدي زينتها أمام يهودية أو نصرانية[1] ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي من الإماء المشركات قال ابن جرير: يعني من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ أي الخدام غير أولي الميل والشهوة والحاجة إلى النساء كالبُلْهِ والحمقى والمغفلين الذين لا يدركون من أمور الجنس شيئاً قال مجاهد: هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء ولا يهمه إلا بطنه ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حدَّ الشهوة، ولا يعرفون أمور الجماع لصغرهم فلا حرج أن تظهر المرأة زينتها أمامهم ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي ولا يضربن بأرجلهن الأرض لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال[2] فيطمع الذي في قلبه مرض قال ابن عباس: كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع صوت خلخالها، فنهى الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي ارجعوا أيها المؤمنون إلى ربكم بامتثال الطاعات، والكفّ عن الشهوات، لتنالوا رضاه وتفوزوا بسعادة الدارين ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أي زوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من الرجال والنساء من أحرار رجالكم ونسائكم قال الطبري: الأَيامي جمع أَيِّم، يوصف به الذكر والأنثى يقال: رجل أَيِّم وامرأة أيمة إذا لم يكن لها زوج[3] ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أي وأنكحوا كذلك أهل التقى والصلاح من عبيدكم وجواريكم قال

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٦٠١، وهذا قول أكثر السلف أن المراد بالنساء المؤمنات. قال «الفخر الرازي»: وقيل: المراد بالنساء جميع النساء فإنهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض، وقول السلف محمول على الاستحباب.

(٢) (ش): خَلْخَال: حِلْية من فِضَّة كالسِّوار تحلِّي المرأة بها رِجْليها، تُلْبَس حولَ الكعب.

(٣) «تفسير الطبري» ١٨/ ٩٨.

«البيضاوي»: وتخصيص الصالحين لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهمُّ[١]، وفيه إشارة إلى مكانة التقى والصلاح في الإنسان ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي إن يكن هؤلاء الذين تزوجونهم أهل فاقةٍ وفقر فلا يمنعكم فقرهم من إنكاحهم، ففي فضل الله ما يغنيهم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل، جواد كريم، يعطي الرزق من يشاء وهو عليم بمصالح العباد قال القرطبي: وهذا وعدٌ بالغنى للمتزوجين طلباً لرضى الله، واعتصاماً من معاصيه وقال ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية[٢] وفي الحديث «ثَلاثَـةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمُ النَّاكِـحُ الَّذِى يُرِيدُ الْعَفَافَ، وَالْمُكَاتَـبُ يُرِيدُ الْأَدَاءَ، والْغَـازِى فِى سَبِيلِ اللهِ»[٣] ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي وليجتهد في العفة وقمع الشهوة الذين لا تتيسر لهم سبل الزواج لأسباب مادية ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي حتى يوسع الله عليهم ويسهل لهم أمر الزواج، فإن العبد إذا اتقى الله جعل له من أمره فرجاً ومخرجاً ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي والذين يريدون أن يتحرروا من رقِّ العبودية بمكاتبة أسيادهم من العبيد والأرقاء ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي فكاتبوهم على قدر من المال إن عرفتم منهم الأمانة والرشد ليصيروا أحراراً ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي أعطوهم مما أعطاكم الله من الرزق ليكون لهم عوناً على فكاك أنفسهم ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أي لا تجبروا إماءكم على الزنى ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي إن أردن التعفف عن مقارفة الفاحشة، وليس هذا للقيد أو الشرط وإنما هو لبيان فظاعة الأمر وشناعته، فالأصل في المملوكة أن يُحصنها سيدها أمّا أن يأمرها بالزنى وتمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة منه قال المفسرون: نزلت في «عبد الله بن سلول» المنافق كان له جاريتان إحداهما تسمى «مُسَيْكة» والثانية تسمى «أميمة» فكان يأمرهما بالزنى للكسب ويضربهما على ذلك فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية[٤] ﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لأجل أن تنالوا حطام هذه الحياة الزائل، وتحصلوا على المال بطريق الفاحشة والرذيلة ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ومن يجبرهن على الزنى فإن الله غفور لهن رحيم بهن لا يؤاخذهن بالزنى لأنهن

---

(١) ««البيضاوي»» ٢/ ٥٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٤١.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي. (ش): ورواه ابن ماجه، وحسنه الألباني. الكتابة والمكاتبة: هي إعتاق العبد نفسه من سيده بمال يكون في ذمته يُؤَدَّى مؤجلاً. فالمكاتَب -بفتح التاء-: هو العبد الذي عُلِّق عتقه بمال يدفعه لسيده، وبكسرها: من تقع منه. وسميت كتابة، لأن السيد يكتب بينه وبين عبده كتاباً بما اتفقا عليه.

(٤) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

أُكرهن عليه وسينتقم ممن أكرههن شر انتقام ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي والله لقد أنزلنا إليكم أيها المؤمنون آيات واضحات وأحكاماً مفصلات ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وضربنا لكم الأمثال بمن سبقكم من الأمم لتتعظوا وتعتبروا ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وعظة وذكرى للمتقين.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الاستعارة اللطيفة ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ شبَّه سلوك طريق الشيطان والسير في ركابه بمن يتتبع خطوات الآخر خطوة خطوة بطريق الاستعارة.

٢ – الإيجاز بالحذف ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟﴾[1] أي أن لا يؤتوا حذفت منه «لا» لدلالة المعنى وهو كثير في اللغة.

٣ – صيغة الجمع للتعظيم ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ والمراد به أبو بكر الصدّيق.

٤ – الجناس الناقص بين ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَعْلَمُونَ﴾.

٥ – المقابلة اللطيفة بين ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ.. وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾.

٦ – الطباق بين ﴿تُبْدُونَ.. تَكْتُمُونَ﴾.

٧ – الإيجاز بالحذف ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ لأن المراد غض البصر عما حرَّم الله لا عن كل شيء فحذف ذلك اكتفاءً بفهم المخاطبين.

٨ – المجاز المرسل ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ المراد مواقع الزينة وهو من باب إطلاق اسم الحالِّ على المحل قال الزمخشري: وذكرُ الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر والتصون.

فَائِدَة: قال بعض المحققين: إن يوسف لما رُمي بالفاحشة برّأه الله على لسان صبي في المهد، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برأها الله في كتابه العزيز، فما رضي الله لها ببراءة صبيٍّ ولا نبيّ حتى برّأها الله في القرآن من القذف والبهتان[2].

---

(١) (ش): في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

(٢) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢١٢. (ش): فائدة: سبّح الله سبحانه وتعالى نفسه في تنزيه عائشة رضي الله عنها كما سبّح نفسه لنفسه في تنزيهه سبحانه وتعالى: قال أبو الخطاب ابن دحية: «إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسبه إليه المشركون سَبّح لنفسه قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [الأنبياء:٢٦]، والله تعالى ذكَر عائشة رضي الله عنها فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦]، فسَبّحَ نفسه في تنزيه عائشة كما سَبَّحَ نفسه لنفسه في تنزيهه». [الإجابة فيما استدركته عائشة رضي الله عنها على الصحابة للزركشي (ص ٥٣)]. فائدة: من قذف عائشة رضي الله عنه فهو بمنزلة اليهود الذين قذفوا مريم عليها السلام=

تنبيه: السرُّ في تقديم غـض البصر على حفظ الفـروج ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ هـو أن النظـر بريـد الزنى ورائـد الفجور، وهو مقدمـة للوقـوع في الخطر كما الشاعر:

وكنـتَ إذا أَرسـلـتَ طرفك رائـدا ... لقلبك يومـًا أتعبتك المناظر
رأيــتَ الــذي لا كـلَّـه أنــت قــادرٌ ... عليه ولا عـن بعضه أنـت صابر

لطيفة: ذكر أن قسِّيسـًا أراد أن ينال من المسلمين بالطعن في أم المؤمنين السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقـال: إن الناس رموها بالإفـك ولا ندري أهي بريئة أم متهمـة؟ فأجابه بعض الحاضرين بقوله: إسـمعْ يا هذا، هناك امرأتان اتهمتا بالزنى وقد برأهما القرآن الكريم، إحداهما ليس لهـا زوج وقـد جـاءت بولد، والأخـرى لها زوج ولم يأتها ولد - يقصد مريم وعائشـة - فأيتهما أحرى بالتهمة؟ فخرس القسيس.

قال الله تعالى:

ﭐللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ
نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾
فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ
تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ
﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ
فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن
فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن
نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا
ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ

= قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء:١٥٥-١٥٦]. فإنه لما وَصفَ طَعْن اليَهُود في مَرْيم بأنَّه بُهْتانٌ عَظِيمٌ، ووصفَ طَعْن المُنَافِقِين في عَائِشَةَ بأَنَّهُ بُهْتانٌ عَظِيمٌ، حَيْثُ قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ [النور:١٦]؛ دلَّ ذلك على أنَّ الرَّوَافِض الَّذِين يَطْعَنُون في عَائِشَةَ، بمَنْزِلَة اليَهُودِ الَّذِين يَطْعَنُون في مَرْيم عليها السلام. [اللباب في علوم الكتاب لسراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي (٧/ ١١١)].

بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ
وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ
وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ
مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم
مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ
ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ
بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ

المناسَبَة: لما وصف تعالى نفسه بأنه أنزل آياتٍ مبينات، وأقام دلائل واضحات على وحدانيته، واختصاصه بتشريع الأحكام التي بها سعادة المجتمع، عقَّبه بذكر مثلين: أحدهما في بيان أنَّ دلائل والوحدانية والإيمان في غاية الظهور، والثاني: في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء، وبالمقارنة بين المثلين يتضح الصبح لذي عينين.

اللغَة: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ المشكاة: الكُوَّة في الحائط غير النافذة[1]، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء ﴿دُرِّيّٞ﴾ متلألئ وقَّاد يشبه الدر في صفائه ولمعانه «سَرَابٍ» السرابُ: ما يتراءى للعين وسط النهار عند اشتداد الحر يشبه الماء الجاري وليس بماء، سمي سراباً لأنه يسرب أي يجري كالماء قال الشاعر:

فلما كففنَا الحربَ كانت عهودُكم ... كلمعِ سرابٍ بالفَلا مُتألِّق[2]

«قِيعَةٍ» قال الفراء: هو جمع قاع مثل جار وجيرة، والقاعُ المنبسط المستوي من الأرض وقال الزمخشري: القيعةُ بمعنى القاع وليس جمعاً[3]، وهكذا قال أبو عبيدة ﴿لُّجِّيّٖ﴾ اللُّجيُّ: الذي لا يدرك قعره لعمقه، واللُّجةُ معظم الماء، والجمع لُجَج، والتجَّ البحر: تلاطمت أمواجه ﴿يُزۡجِي﴾ الإزجاء: سوقُ الشيء برفقٍ وسهولة ﴿رُكَامٗا﴾ مجتمعاً يركب بعضه بعضاً ﴿ٱلۡوَدۡقَ﴾: المطر قال الليث: الودقُ المطر كله شديده وهينه[4] ﴿سَنَا﴾: السنا الضوء واللمعان قال الشماخ:

---

(١) (ش): كُوَّة: فتحة أو نافذة. المِشْكاة: تجويف أو فتحة في الحائط غير نافذة يُوضع عليها مصباح.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٨٢.
(٣) «الفخر الرازي» ٢٤/ ٧.
(٤) «زاد المسير» ٥/ ٥٢.

ومـا كـادت إذا رفـعـتْ سناها ليبصر ضـوءَهـا إلاّ البـصـيـرُ[١]

﴿مُذۡعِنِينَ﴾ خاضعين منقادين، أذعن للأمر خضع له ﴿يَحِيفَ﴾ يجور ويظلم.

التفسـير: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي الله جلَّ وعلا مُنَوِّر السماوات والأرض[٢]، أنار السماواتِ بالكواكب المضيئة، والأرض بالشرائع والأحكام وبعثة الرسل الكرام قال الطبري: أي هادي أهل السماوات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون[٣] وقال القرطبي: النور عند العرب: الضوء المدرك بالبصر واستعمل

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٩٠.

(٢) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]: أي وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تجلى الباري جل وعلا لفصل القضاء بين العباد» اهـ. إن من الاعتقاد الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة الاعتقاد بأن الله تعالى نور، وأن النور اسمٌ من أسمائه الحسنى وصفةٌ من صفاته تعالى العليا، وهي صفةُ ذاتٍ لازمةٌ له تعالى على ما يليق به، فلم يزل ولا يزال سبحانه وتعالى مُتَّصِفاً بها. وقد جاء عن بعض السلف تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بأنه هادي أهل السموات والأرض وفسر أيضاً بأنه مُنَوِّر السموات والأرض، وهذا لا يتنافى أبداً مع كونه تعالى نوراً. فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسَّر من الأسماء أو بعض أنواعه، ولا ينافي ذلك ثبوتُ بقية الصفات للمسمَّى، بل قد يكونان متلازمَيْن ولا دخول لبقية الأنواع فيه. فمن قال مُنَوِّر السموات والأرض لا يُنافي أنه نورٌ فهما متلازمان. فاللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ الحِسّي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نورٌ، وحجابه نور، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة. وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات. وقول من قال الله نور السموات والأرض، أي: هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح، فإن من معاني كونه نور السموات والأرض أن يكون هادياً لهم، وقد أخبر الله في كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨ - ٧٠] فإذا كانت تشرق من نوره فكيف لا يكون هو نوراً. فالله تعالى نورٌ بذاته، وهذا النور الذي هو اسمه وصفته تعالى لا يشبه نور المخلوقين وإنما هو نورٌ يليق بعظمته وكبريائه وجلاله تعالى ولا يعلم كيفيته إلا هو سبحانه وهو القائل جل وعلا: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]. قال ص: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. وقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. قال النبي عليه الصلاة والسلام (حِجَابُهُ) يعني حجاب الله (النُّورُ)، (لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)، يعني لو كشف هذا الحجاب والحجب أيضاً من نور، لكنها نور دون نور الله عز وجل. لو كشف الله هذا النور (لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ). أي نُورُهُ وَجَلَالُهُ وَبَهَاؤُهُ وعظمته، (مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)، وبصره ينتهي إلى كل شيء. والمعنى لو كشفه لأحرق هذا النور كل شيء.

(٣) «تفسير الطبري» ١٨/ ١٠٥، وهذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري.

مجازاً في المعاني فيقال: كلامٌ له نور قال الشاعر:

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَا ... نُورًا وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودَا

وقال جرير «وَأَنْتَ لَنَا نُور وَغَيْث وَعِصْمَة»[١] والناس يقولون: فلانٌ نور البلد، وشمسُ العصر وقمره، فيجوز أن يقال: الله نور على جهة المدح لأن جميع الأشياء منه ابتداؤها، وعنه صدورها، وبقدرته استقامت أمورها[٢]، وقال ابن عطاء الله: «الكون كله ظلمة أناره ظهور الحق فيه، إذ لولا وجود الله ما وجد شيء من العالم»[٣] وفي الحديث «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ»[٤] وقال ابن مسعود: «ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار، نور السماوات والأرض نور وجهه» وقال ابن القيم: سمَّى الله سبحانه نفسه نوراً، وجعل كتابه نوراً، ورسوله نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور، وقد فسرت الآية بأنه منور السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، وما قاله ابن مسعود أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السماوات والأرض، وأما من فسرها بأنه منور السماوات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود[٥] ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي مثل نور الله سبحانه في قلب عبده المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي ككوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء وضع فيها سراج ثاقب ساطع قال في «التسهيل»: المعنى صفةُ نور الله في وضوحه كصفة مشكاةٍ فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة - وإن كان نورُ الله أعظم - لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار ضرب لهم به المثل[٦] ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي في قنديل من الزجاج الصافي ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾ أي يشعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٖ﴾ أي هي من شجر الزيتون الذي خصه الله بمنافع عديدة ﴿لَّا شَرْقِيَّةٖ وَلَا غَرْبِيَّةٖ﴾ أي ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب، وإنما هي في صحراء منكشفة تصيبها الشمس طول النهار لتكون ثمرتها أن أنضج، وزيتُها أصفى قال ابن عباس: هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر، ولا جبلٌ، ولا

---

(١) (ش): (غَيْث): أَي مُغِيث، أغاثه: أعانه ونصره، قدّم له المساعدةَ. (عِصْمَة): مَنَعَة: عزَّة وقوّة وحصانة ووجاهة.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢١/ ٢٥٦.

(٣) «الحكم» لابن عطاء الله السكندري.

(٤) (ش): (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٥) نقلاً عن «محاسن التأويل».

(٦) «التسهيل» ٣/ ٦٧.

كهف، ولا يواريها شيء وهو أجود لزيتها[١] ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ مبالغة في وصف صفاء الزيت وحسنه وجودته أي يكاد زيتُ هذه الزيتونة يضيء من صفاته وحسن ضيائه ولو لم تمسَّه نار، فكيف إذا مسته النار؟ ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي نور فوق نور فقد اجتمع نور السراج، وحسن الزجاجة، وصفاء الزيت، فاكتمل النور الممثل به ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يوفق الله لاتباع نوره - وهو القرآن - من يشاء من عباده ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي يبين لهم الأمثال تقريباً لأفهامهم ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو سبحانه واسع العلم لا يخفى عليه شيء من أمر الخلق، وفيه وعدٌ ووعيد قال الطبري: ذلك مثلٌ ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد مثل كوة في الحائط لا منفذ لها فيها مصباح أي سراج، وجعل السراج مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات ثم قال ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ وذلك مثلٌ للقرآن في قلب المؤمن الذي أنار الله صدره فخلص من الكفر والشك، ثم قال ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي كأن الزجاجة في صفائها وضيائها كوكب يشبه الدر في الصفاء والضياء والحسن ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي تَوَقَّد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هي شجرة الزيتون، ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب فيكون زيتها أجود وأصفى وأضوأ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه وحسن ضيائه وعنى بها أن حجج الله على خلقه تكاد من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر ولو لم يزدها الله بياناً ووضوحاً بنزول هذا القرآن، فكيف وقد نبههم به وذكرهم بآياته فزادهم به حجة! وذلك بيانٌ من الله ونور على البيان[٢]. ثم لما ذكر تعالى هدايته لمن يشاء من عباده، ذكر مواطن هذه العبادة وهي المساجد أحبُّ البقاع إلى الله فقال ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي أمر تعالى أن تبنى وتشاد على اسمه خاصة، وأن تعظَّم ويرفع شأنها لتكون مناراتٍ للهدى ومراكز للإشعاع الروحي قال ابن عباس: المساجد بيوتُ الله في الأرض، تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض[٣] ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي يعبد فيها الله بتوحيده، وذكره، وتلاوة آياته ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ أي يصلي لله تعالى في هذه المساجد في الصباح والمساء المؤمنون قال

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٠٦.

(٢) «تفسير الطبري» ١٨/ ١١٠ بشيء من الاختصار.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٣.

ابن عباس: كلُّ تسبيح في القرآن فهو صلاة[١] ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها عن ذكر ربهم، ولا يلهيهم البيع والشراء عن طاعة الله قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق من الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا إذا سمعوا النداء تركوا كل شغل وبادروا لطاعة الله[٢] ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي ولا تشغلهم الدنيا عن إقامة الصلاة في أوقاتها، ودفع الزكاة للفقراء والمستحقين بحدودها وشروطها ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي يخافون يوماً رهيباً تضطرب من شدة هوله وفزعه قلوب الناس وأبصارهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي ليكافئهم على أعمالهم في الدنيا بأحسن الجزاء، ويجزيهم على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة عفواً وغفراناً ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يتفضل عليهم فوق ذلك الجزاء بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يعطي من شاء من خلقه عطاءً واسعاً بدون حدٍّ ولا عدٍّ يقال: فلان ينفق بغير حساب أي يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه قال الإمام الفخر: نبه به على كمال قدرته، وكمال جوده، وسعة إحسانه، فإنه سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم[٣]، ولما ذكر تعالى حال المؤمن وسعادته، ذكر حال الكافر وخسارته، وضرب لذلك مثلين: الأول لعمله، والثاني لاعتقاده وتخبطه في الظلمات فقال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ أي إن أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم في الآخرة كالسراب الذي يرى في القيعان وهو ما يرى في الفَلَوات[٤] من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه الأرض ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جارياً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي حتى إذا وصل إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ أي لم ير ماءً ولا شراباً، وإنما رأى سراباً فعظمت حسرته ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي وجدَ الله له بالمرصاد فوفّاه جزاء عمله، فكذلك الكافر يحسب أن عمله ينفعه حتى إذا مات وقدم على ربه لم يجد شيئاً من الأعمال لأنها ذهبت هباءً منثوراً ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي يعجل الحساب لأنه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ هذا المثل الثاني لضلال الكفار. والمعنى أو مثلهم كظلماتٍ متكاثفة في بحرٍ عميقٍ لا يدرك قعره ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي يغطي ذلك البحر

(١) «تفسير الطبري» ١٨/ ١١٣.
(٢) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره».
(٣) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٦.
(٤) (ش): فَلاة: أرض واسعة مُقْفِرة خالية من الماء والعُشْب والنّاس.

ويعلوه موجٌ متلاطمٌ بعضه فوق بعض ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌۚ﴾ أي من فوق ذلك الموج الثاني سحاب كثيف ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ أي هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض قال قتادة: الكافر يتقلب في خمسٍ من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار[1] ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ هذا من تتمة التمثيل، أي: إذا أخرج ذلك الإنسان الواقع في هذه الظلمات يده لم يقارب رؤيتها فإن ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب قد تكاثفت حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه من شدة الظلمة فكذلك شأن الكافر يتخبط في ظلمات الكفر والضلال ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي ومن لم يهده الله للإيمان وينور قلبه بنور الإسلام لم يهتد أبد الدهر، ذكر تعالى لعمل الكافر مثالين: الأول لعمله الصالح ومثَّل له بالسراب الخادع، والثاني لاعتقاده السيئ ومثَّل له بالظلمات المتراكم بعضُها فوق بعض ثم ختم الآية الكريمة ذلك الختام الرائع ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ مقابل قوله في المؤمن ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فكان هذا التمثيل والبيان في غاية الحسن والجمال، فلله ما أروع تعبير القرآن! ولما وصف سبحانه أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد فقال ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ألم تعلم يا محمد علماً يقيناً أنَّ الله العظيم الكبير يسبح له كل من في الكون من ملك، وإنس، وجن، ينزهه ويقدسه ساكنوها؟ ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ أي والطير باسطاتٍ أجنحتهن حال الطيران تسبح ربها وتعبده كذلك بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه تعالى ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ أي كلٌّ من الملائكة والإنس والجن والطير قد أرشد وهدي إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله، وما كلف به من الصلاة والتسبيح ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي هو المالك والمتصرف في الكون، وجميعُ المخلوقات تحت ملكه يتصرف فيهم تصرف القاهر الغالب ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي وإليه مرجع الخلائق فيجازيهم على أعمالهم وهو تذكير يتضمن الوعيد، ثم أشار تعالى إلى ظاهرة كونية تدل على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ أي يسوق بقدرته السحاب إلى حيث يشاء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ أي يجمعه بعد تفرقه ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ أي يجعله كثيفاً متراكمًا بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي فترى المطر يخرج من بين السحاب الكثيف ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ أي وينزل من السحاب الذي هو كأمثال الجبال برداً ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي فيصيب بذلك البرد من

---

(١) «تفسير الطبري» ١٨/ ١١٦.

شاء من العباد فيضره في زرعه وثمرته وماشيته ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أي ويدفعه عمن يشاء فلا يضره قال الصاوي: كما ينزل المطر من السماء وهو نفعٌ للعباد كذلك ينزل منها البرد وهو ضرر للعباد، فسبحان من جعل السماء منشأ للخير والشر[1] ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ أي يقرب ضوء برق السحاب ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي يخطف أبصار الناظرين من شدة إضاءته وقوة لمعانه ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي يتصرف فيهما بالطول والقصر، والظلمة والنور، والحر والبرد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ﴾ أي إن فيما تقدم ذكره لدلالة واضحة، وعظة بليغة على وجود الصانع المبدع[2] ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي لذوي البصائر المستنيرة، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون حيث يتأملون فيجدون الماء والبرد، والظلمة والنور تخرج من شيء واحد، فسبحان القادر على كل شيء ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ استدل على وحدانيته بتسبيح أهل السماء والأرض، ثم بتصريف السحاب وإنزال المطر، ثم بأحوال الحيوانات قال ابن كثير: يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد[3] ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ أي فمنهم من يزحف على بطنه كالحية والزواحف ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾ كالأنعام وسائر الدواب قال أبو حيان: قدم ما هو أظهر في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع[4] ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي يخلق تعالى بقدرته ما يشاء من المخلوقات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أو هو قادر على ما يشاء لا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع قال الفخر: واعلم أنَّ العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال، والاستدلال بها على الصانع ظاهرٌ، لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع لكان في الكل على السويّة، فاختصاص كل واحدٍ من هذه الحيوانات بأعضائها وأعمارها ومقادير أبدانها لا بدَّ وأن يكون بتدبير قاهرٍ حكيم، سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون[5] ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ أي لقد أنزلنا إليكم أيها الناس آياتٍ واضحاتٍ، دالات على طريق الحق والرشاد ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي يرشد من يشاء من خلقه إلى الدين

---

(١) «الصاوي على الجلالين» ٣/ ١٣٤.

(٢) (ش): ليس المراد من سياق الآيات مجرد الاستدلال على وجوده سبحانه لأن المخاطَبين مُقِرُّون بذلك، وإنما المراد الاستدلال على وجوب إفراده بالعبادة وهو الذي يخالف فيه المخاطَبون.

(٣) «المختصر» ٢/ ٦١٣.

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٤٦٦.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٩.

الحق وهو الإسلام، ولما ذكر دلائل التوحيد حذَّر من النفاق والمنافقين فقال ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ أي يقول المنافقون: صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الله ورسوله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي ثم يعرض جماعة منهم عن قبول حكمه ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعدما صدر منهم ما صدر من دعوى الإيمان ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليس أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة بمؤمنين على الحقيقة قال الحسن: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي وإذا دعوا إلى حكم حكم الله أو حكم رسوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي استنكفوا وأعرضوا عن الحضور إلى مجلس الرسول ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي وإن كان الحقُّ بجانبهم جاءوا إلى رسول الله طائعين منقادين لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحقِّ قال الفخر: نبّه تعالى على أنهم إنما يُعرضون متى عَرفوا أن الحق لغيرهم؛ أما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض وأذعنوا ببذل الرضا[1] ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ ﴾ أي أفي قلوبهم نفاقٌ؟ أم شكوا في نبوته عليه السلام؟ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي أم يخافون أن يظلمهم رسول الله في الحكم، والاستفهام للمبالغة في التوبيخ والذم كقول الشاعر:

أَلَسْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ تَعَاهَدُوا عَلَى اللُّؤْمِ وَالْفَحْشَاءِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ

﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي بل هم الكاملون في الظلم والعناد لإعراضهم عن حكم رسول الله ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: كان الواجب عليهم عندما يُدعون إلى رسول الله للفصل بينهم وبين خصومهم أن يسرعوا ويقولوا: سمعاً وطاعة، فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك قال الطبري: ولم يقصد به الخبر ولكنه تأنيبٌ من الله للمنافقين وتأديب منه لآخرين[2] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي وأولئك المسارعون إلى مرضاة الله هم الفائزون بسعادة الدارين ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله في كل فعلٍ وعمل ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ أي ويخف الله تعالى لما فرط منه الذنوب، ويمتثل أوامره ويجتنب زواجره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي هم السعداء الناجون من عذاب الله الفائزون برضوانه. ذكر أن بعض بطارقة الروم سمع هذه الآية فأسلم وقال: إنها جمعت كل ما في التوراة والإنجيل.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٢١.

(٢) «تفسير الطبري» ١٨/ ١٢٠.

١ - إطلاق المصدر على اسم الفاعل للمبالغة ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى منوِّر لكل بحيث كأنه عين نوره قال الشريف الرضي: وفي الآية استعارة - على تفسير بعض العلماء - والمراد عندهم أنه هادي أهل السماوات والأرض بصوادع برهانه، ونواصع بيانه كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة.

٢ - التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ شبَّه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهّاج في كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في الصفاء والحسن إلخ سمي تمثيليًّا لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، وهو من روائع التشبيه.

٣ - الإطناب بذكر الخاص بعد العام تنويهًا بشأنه ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لأن الصلاة من ذكر الله.

٤ - جناس الاشتقاق ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

٥ - التشبيه التمثيلي الرائع ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾ إلخ وكذلك في قوله ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ وهذا من روائع التشبيه وبدائع التمثيل.

٦ - الطباق بين ﴿يُصِيبُ.. وَيَصْرِفُهُۥ﴾.

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ إذ ليس المراد التقليب المادي للأشياء الذاتية وإنما استعير لتعاقب الليل والنهار.

٨ - الجناس التام ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ المراد بالأولى العيون وبالثانية الألباب.

لطيفة: سمع بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين هذه الآية ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ..﴾ الآية فسأل هل ركب محمد البحر؟ فقالوا: لا فقال أشهد أنه رسول الله قالوا: وكيف عرفت؟ فقال: إنَّ هذا الوصف للبحر لا يعرفه إلا من عاش عمره في البحار، ورأى الأهوال والأخطار، فلما أخبرت أنه لم يركب البحر عرفت أنه كلام الله تعالى.

قال الله تعالى:

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن
تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ
ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ
ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ
عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ
مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن
يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۢ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾
لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ
بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ
أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا
مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ
فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ
إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ

المناسَبة: لما ذكر تعالى المنافقين وما هم عليه من صفاتٍ قبيحة، أعقبه بذكر ما انطوت عليه نفوسهم من المكر والإحتيال والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان، وختم السورة الكريمة بالتحذير من سلوك طريق المنافقين.

اللغَة: ﴿ٱلۡحُلُمَ﴾ : الاحتلام في المنام قال في «القاموس»: الحلم: الرؤيا جمعه أحلام، والحُلم والاحتلام: الجماع في النوم[1] وقال الراغب: هو زمان البلوغ سمي به لكون صاحبه جديراً بالحلم أي الأناة وضبط النفس[2] ﴿ٱلۡقَوَٰعِدِ﴾ جمع قاعد بغير تاء لأنه خاصٌّ بالنساء كحائض وطامث وهي المرأة التي قعدت عن الزواج وعن الولد

(١) «القاموس المحيط».
(٢) «المفردات» للراغب الأصفهاني.

﴿أَشۡتَاتٗا﴾ متفرقين جمع شتّ وهو الافتراق، والشتاتُ: الفرقة ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ التسلل: الخروج خفية يقال: انسلَّ وتسلل إذا خرج مستتراً بطريق الخفية ﴿لِوَاذٗا﴾ اللواذ: أن يستتر بشيء مخافة من يراه.

سَبَبُ النّزول: روي أن رسول الله ﷺ بعث غلامـاً من الأنصار يقال له: مُدْلج إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فوجده نائمـاً، فدقَّ عليه الغلام الباب ودخل، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء فقال: وددت أنَّ الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية قد أنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ مَّا.﴾ فخرَّ ساجداً شكراً لله تعالى[1].

التفسير: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلَّظة ﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّ﴾ أي لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن معك قال مقاتل: لما بيَّن الله إعراض المنافقين وامتناعهم عن قبول حكمه عليه السلام أتوه فقالوا: لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا، وإن أمرتنا بالجهاد لجاهدنا فنزلت[2] ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْ﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ أي طاعتكم لله ورسوله معروفة فإنها باللسان دون القلب، وبالقول دون العمل[3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي بصير لا يخفى عليه شيء من خفاياكم ونواياكم ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا الله بإخلاص النية وترك النفاق، وأطيعوا الرسول بالاستجابة لأمره والتمسّك بهديه ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي فإن تتولَّوْا وتعرضوا عن طاعته ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي على الرسول ما كلف به من تبليغ الرسالة ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡ﴾ أي وعليكم ما كلفتم به من السمع والطاعة واتباع أمره عليه السلام ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ أي وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق السعادة والفلاح ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي ليس عليه إلا التبليغ الواضح للأمة، ولا ضرر عليه إن خالفتم وعصيتم فإنه قد بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وعد الله المؤمنين المخلصين الذين جمعوا بين

---

(١) «تفسير الألوسي» ١٨/ ٢٠٩. (ش): موضوع. رواه ابْنُ مَنْدَه في «معرفة الصحابة» بإسناد فيه كذابون، ورواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٢) «حاشية شيخ زاده على «البيضاوي»» ٣/ ٤٣٥.

(٣) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٧٦): وَقَوْلُهُ: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ طَاعَتُكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ، أَيْ: قَدْ عُلمت طَاعَتُكُمْ، إِنَّمَا هِيَ قَوْلٌ لَا فِعْلَ مَعَهُ، وَكُلَّمَا حَلَفْتُمْ كَذَبْتُمْ... وَقِيلَ: الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ أَيْ: لِيَكُنْ أَمْرُكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً، أَيْ: بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ حَلف وَلَا إِقْسَامٍ، كَمَا يُطِيعُ اللهَ وَرَسُولَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ حَلِفٍ، فَكُونُوا أَنْتُمْ مِثْلَهُمْ.

الإيمان والعمل الصالح ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي وعدهم بميراث الأرض وأن يجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم، كما استخلف المؤمنين قبلهم فملكهم ديار الكفار قال المفسرون: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة، فكانوا لا يبتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلاّ في لأمتهم - أي سلاحهم - فقالوا: أترون أنّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلاّ الله عَزَّ وَجَلَّ! فنزلت الآية[١]، وهذا وعدٌ ظهر صدقُه بفتح مشارق الأض ومغاربها لهذه الأمة وفي الحديث بشارة كذلك فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[٢] ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ أي وليجعلنَّ دينهم - الإسلام - الذي ارتضاه لهم عزيزاً مكيناً عالياً على كل الأديان ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أي وليغيرن حالهم التي كانوا عليها من الخوف والفزع إلى الأمن والاستقرار كقوله ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ استئنافٌ بطريق الثناء عليهم كالتعليل للاستخلاف في الأرض أي يوحدونني ويلصون لي العبادة، لا يعبدون إلهاً غيري ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي فمن جحد شكر النعم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هم الخارجون عن طاعة الله، العاصون أمر الله قال أبو العالية: أي من كفر بهذه النعمة وليس يعني الكفرَ بالله قال الطبري: وهو أشبه بتأويل الآية لأن اللهَ وعد الإنعام على هذه الأمة بما أخبر في هذه الآية بأنه منعم به عليهم ثم قال ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي كفر هذه النعمة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٣] ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي أقيموا أيها المؤمنون الصلاة وأدوا الزكاة على الوجه الأكمل الذي يُرضي الله ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أطيعوا الرسول في سائر ما أمركم به رجاء الرحمة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ تسليةٌ للنبي ﷺ ووعدٌ له بالنُّصرة أي: لا تظننَّ يا محمد الكافرين الذين عاندوك وكذبوك معجزين لله في هذه الحياة بل الله قادرٌ عليهم في كل حين وآن ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي مرجعهم نار جهنم ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي بئس المرجع والمآل الذي يصيرون إليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) «زاد المسير» ٦/ ٥٧. (ش): رواه الحاكم في المستدرك، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم. (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (زُوِيَ): جُمِعَ. وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مُلْكَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَكُونُ مُعْظَمُ امْتِدَادِهِ فِي جِهَتَي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَهَكَذَا وَقَعَ. وَأَمَّا فِي جِهَتَي الْجَنُوبِ وَالشِّمَالِ فَقَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وصَلَوَاتُ اللهِ وسلامه على رسوله الصادق الذى لاينطق عن الهوى إن هو الإوحْيٌ يُوحَى. [انظر: شرح النووي على مسلم (١٨/ ١٣)].

(٣) «تفسير الطبري» ١٨/ ١٤٢.

﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدَّقوا الله ورسوله وأيقنوا بشريعة الإسلام نظامًا وحكمًا ومنهاجًا[١] ليستأذنكم في الدخول عليكم العبيدُ والإماء الذين تملكونهم ملك اليمين ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي والأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الأحرار ليستأذنوا أيضًا ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي في ثلاثة أوقات ﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ أي في الليل وقت نومكم وخلودكم إلى الراحة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أي وقت الظهر حين تخلعون ثيابكم للقيلولة ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ أي ووقت إرادتكم النوم واستعدادكم له ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ أي هي ثلاثة أوقات يختل فيها تستركم، العوراتُ فيها بادية والتكشف فيها غالب، فعلِّموا عبيدكم وخدمكم وصبيانكم ألاّ يدخلوا عليكم في هذه الأوقات إلا بعد الاستئذان ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي ليس عليكم ولا على المماليك والصبيان حرجٌ في الدخول عليكم بغير استئذان بعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لأنهم خدمكم يطوفون عليكم للخدمة وغير ذلك قال أبو حيان: أي يمضون ويجيئون ويدخلون عليكم في المنازل غدوةً وعشية بغير إذن إلا في تلك الأوقات[٢] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي مثل ذلك التوضيح والبيان يبيّن الله لكم الأحكام الشرعية لتتأدبوا بها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عالمٌ بأمور خلقه، حكيمٌ في تدبيره لهم ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ﴾ أي وإذا بلغ هؤلاء الأطفال الصغار مبلغ الرجال وأصبحوا في سنّ التكليف ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي فعلموهم الأدب السامي أن يستأذنوا في كل الأوقات كما يستأذن الرجال البالغون ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي يفصّل لكم أمور الشريعة والدين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بخلقه حكيم في تشريعه قال «البيضاوي»: كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان[٣] ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي والنساء العجائز اللواتي قعدن عن التصرف وطلب الزواج لكبر سنهن ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي لا يطمعن في الزواج ولا يرغبن فيه لانعدام دوافع الشهوة فيهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليهنَّ في أن يضعن بعض ثيابهم كالرداء والجلباب[٤]، ويظهرن أمام

---

(١) (ش): الإيمان ليس هو مجرد التصديق والرضا بالشريعة نظامًا ومنهاجًا، وإنما هو قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، هكذا عرَّفه أهل السنة والجماعة، ويدخل في ذلك ما ذكره المؤلف.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٤٧٢.

(٣) ««البيضاوي»» ٢/ ٦٢.

(٤) (ش): الذي يكون فوق الثياب. ومن أوضح الأدلة على وجوب ستر المرأة المسلمة لوجهها وكفيها عند الرجال الأجانب: الرخصة للقواعد من لنساء بوضع الحجاب، وأن يستعففن خير لهن؛ فقد رخَّص الله سبحانه =

الرجال بملابسهن المعتادة التي لا تلفت انتباهاً، ولا تثير شهوة ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾ أي غير متظاهرات بالزينة لينظر إليهن قال أبو حيان: وحقيقة التبرج إظهار ما يجب إخفاؤُه، وربَّ عجوزٍ شمطاء يبدو منها الحرصُ على أن يظهر بها جمال[1] ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي وأن يستترن بارتداء الجلباب ولبس الثياب كما تلبسه الشابات من النساء، مبالغةً في التستر والتعفف خيرٌ لهنَّ وأكرم، وأزكى عند الله وأطهر ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم خفايا النفوس ويجازي كل إنسان بعمله، وفيه وعدٌ وتحذير ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على أهل الأعذار «الأعمى، والأعرج، والمريض» حرج ولا إثم في القعود عن الغزو لضعفهم وعجزهم[2] ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي وليس عليكم أيها الناس إثم أن تأكلوا من بيوت أزواجكم وعيالكم قال «البيضاوي»: فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه السلام: «إِنَّ مِنْ أَطْيَبِ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ»[3] ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ

= للقواعد من النساء، أي: العجائز، اللائي تقدم بهن السنّ، فقعدن عن الحيض والحمل ويئِسْنَ من الولد أن يضعن ثيابهن الظاهرة من الجلباب والخمار، التي ذكرها الله سبحانه في آيات ضرب الحجاب على نساء المؤمنين، فيكشفن عن الوجه والكفين، ورفع تعالى الإثم والجناح عنهن في ذلك بشرطين: الشرط الأول: أن يَكُنَّ من اللاتي لم يبق فيهن زينة ولا هن محل للشهوة، وهن اللائي لا يرجون نكاحًا، فلا يَطْمَعْنَ فيه، ولا يُطْمَع فيهن أن يُنكحن؛ لأنهن عجائز لا يَشتَهِين ولا يُشتَهَيْن، أما من بقيت فيها بقية من جمال ومحل للشهوة، فلا يجوز لها ذلك. الشرط الثاني: أن يكُنَّ غير متبرجات بزينة، وهذا يتكون من أمرين: أحدهما: أن يَكُنَّ غير قاصدات بوضع الثياب التبرج، ولكن التخفيف إذا احتجن إليه. وثانيهما: أن يكن غير متبرجات بزينة من حلي وكحل وأصباغ وتجمل بثياب ظاهرة، إلى غير ذلك من الزينة التي يفتن بها. فلتحذر المؤمنة التعسف في استعمال هذه الرخصة، بأن تدعي بأنها من القواعد، وليست كذلك، أو تبرز متزينة بأيٍّ من أنواع الزينة. ثم قال ربنا جل وعلا: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾، وهذا تحريض للقواعد على الاستعفاف وأنه خير لهن وأفضل، وإن لم يحصل تبرج منهن بزينة. فدلَّت هذه الآية على فرض الحجاب على نساء المؤمنين لوجوههن وسائر أبدانهن وزينتهن؛ لأن هذه الرخصة للقواعد، اللاتي رُفع الإثم والجناح عنهن، إذ التهمة في حقهن مرتفعة، وقد بلغن هذا المبلغ من السن والإياس، والرخصة لا تكون إلا من عزيمة، والعزيمة فرض الحجاب في الآيات السابقة. وبدلالة أن استعفاف القواعد خير لهن من الترخص بوضع الثياب عن الوجه والكفين، فوجب ذلك في حق من لم تبلغ سن القواعد من نساء المؤمنين، وهو أوْلَى في حقهن، وأبعَدُ لهن عن أسباب الفتنة والوقوع في الفاحشة، وإن فعلن فالإثم والحرج والجناح. ولذا فإن هذه الآية من أقوى الأدلة على فرض الحجاب للوجه والكفين وسائر البدن، والزينة بالجلباب والخمار. [انظر: الاختلاط بين الرجال والنساء (١/ ٧٥ -٧٧) للمؤلف، عن حراسة الفضيلة للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص ٥٤ – ٥٦)].

(١) «البحر المحيط» ٦/ ٤٧٣.

(٢) هذا قول الحسن وابن زيد وهو الظاهر واختاره صاحب «البحر» و«الكشاف»». وقيل: المراد نفي الحرج عن أهل الأعذار أن يأكلوا مع الأصحاء واختاره الطبري والرازي.

(٣) «البيضاوي» ٢/ ٦٣. (ش): (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، والنَّسَائِيُّ، وابْنُ مَاجَهْ، وصحّحه الألباني).

﴿أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ﴾ أي لا حرج في الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب قال الرازي: والظاهر أن إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان لأن العادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل الأقارب[١] ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ أي البيوت التي توكّلون عليه وتملكون مفاتيحها في غياب أهلها قالت عائشة: كان المسلمون يذهبون مع رسول الله في الغزو ويدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون: قد أحللنا لكم الأكل منها فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم وإنما نحن أمناء فأنزل الله[٢] ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ[٣]﴾ ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡ﴾ أي أو بيوت أصدقائكم وأصحابكم قال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾ أي ليس عليكم إثم أو حرج أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين قال المفسرون: نزلت في حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده، يمكث يومه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً: وربما كان معه الإبل الحُفَّل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فأخبرهم تعالى بأن الرجل إذا أكل وحده فلا حرج عليه[٤] ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي إذا دخلتم بيوتاً مسكونة فسلموا على من فيها من الناس[٥] ﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ أي حيُّوهم بتحية الإسلام «السلام عليكم» وهي التحية المباركة الطيبة التي شرعها الله لعباده المؤمنين قال القرطبي: وصفها بالبركة لأنه فيها الدعاء واستجلاب المودة، ووصفها بالطيب لأن سامعها يستطيبها[٦] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ قال ابن كثير: لما ذكر تعالى في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة، والشرائع المُبْرمة، نبَّه عباده على أنه يبين لهم الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون[٧]

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٣٦.

(٢) (ش): صحيح، رواه البزار في «مسنده» وابن ابي حاتم في «تفسيره».

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦١٩.

(٤) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره». (الحُفَّل): جَمْعُ حافِلٍ، وَهِيَ الَّتِي امتلأ ضَرْعُهَا لَبَناً.

(٥) (ش): قال الشيخ السعدي: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ **نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا فإذا دخلها الإنسان** ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ **أي: فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت، من غير فرق بين بيت وبيت.**

(٦) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٣١٩.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٢٠.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله تصديقاً جازماً لا يخالجه شك ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي وإذا كانوا مع الرسول في أمرٍ هام فيه مصلحة للمسلمين ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي لم يتركوا مجلسه حتى يستأذنوه فيأذن لهم قال المفسرون: نزلت هذه الآية في وقت حفر الخندق، فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون في الانصراف لضرورة، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان فنزلت تمدح المؤمنين الخالصين، وتعُرِّض بذم المنافقين[١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا توكيدٌ لما تقدم ذكره تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ، أي: إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك هم المؤمنون حقًّا قال «البيضاوي»: أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فإن جعل المستأذنين هم المؤمنين عكس الأسلوب الأول وفيه تأكيد للأول بذكر لفظ الله ورسوله فيكون مصداقاً ودليلاً على صحة الإيمان[٢] ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي فإذا استأذنك هؤلاء المؤمنون لبعض شئونهم ومهامهم[٣] ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أي فاسمح لمن أحببت بالانصراف إن كان فيه حكمه ومصلحة ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ أي وادع الله له بالعفو والمغفرة فإن الاستئذان ولو لعذرٍ قصورٌ لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم العفو واسع الرحمة ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي لا تنادوا الرسول باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه بل قولوا: يا نبيَّ الله ويا رسول الله تفخيماً لمقامه وتعظيماً لشأنه قال أبو حيان: لمّا كان التداعي بالأسماء على عادة البداوة أُمروا بتوقير رسول الله ﷺ ودعائه بأحسن ما يدعى به نحو: يا رسول الله، يا نبيَّ الله، ألا ترى إلى بعض جفاةٍ من أسلم كان يقول: يا محمد فنهوا عن ذلك[٤] قال قتادة: أمرهم تعالى أن يفخموه ويشرّفوه ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي قد علم الله الذين ينسلُّون قليلاً ويخرجون من الجماعة في خفية يستتر بعضهم ببعض قال الطبري: واللواذ هو أن يلوذ القوم بعضُهم ببعض، يستتر هذا بهذا وهذا بهذا[٥] ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي فليخف الذين يخالفون أمر الرسول ويتركون

---

(١) (ش): ضعيف، رَوَاهُ ابن اسحاق في «المغازي» والبيهقي في «الدلائل».

(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٠.

(٣) قال ابن عباس: إن عمر استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له ثم قال: «يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك».
(ش): عَنْ عُمَرَ - رضى الله عنه - قَالَ: اسْتَأْذَنْتُ النَّبِىَّ ﷺ فِى الْعُمْرَةِ فَأَذِنَ لِى وَقَالَ: «لاَ تَنْسَنَا يَا أُخَىَّ مِنْ دُعَائِكَ». فَقَالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِى أَنَّ لِى بِهَا الدُّنْيَا (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وضعفه الألباني).

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٤٧٦.

(٥) «تفسير الطبري» ١٨/ ١٣٥.

سبيله ومنهجه وسنته ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له جل وعلا ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي قد علم ما في نفوسكم من الإيمان أو النفاق، والإخلاص أو الرياء ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي ويوم القيامة يرجعون إليه فيخبرهم بما فعلوا في لدينا من صغيرٍ وكبير، وجليل وحقير ويجازي كلًّا بعمله ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ أي لا يخفى عليه خافية لأن الكل خلقه وملكه.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ – الاستعارة اللطيفة ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ شبَّه الأيمان التي يحلف بها المنافقون بالغين فيها أقصى المراتب في الشدة والتوكيد بمن يجهد نفسه في أمر شاقّ لا يستطيعه ويبذل أقصى وسعه وطاقته بطريق الاستعارة.

٢ – المشاكلة ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي عليه أمرُ التبليغ وعليكم وزر التكذيب.

٣ – الطباق بين الخوف والأمن ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وكذلك بين الجميع والأشتات ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ لأن المعنى مجتمعين ومتفرقين.

٤ – الإطناب بتكرير لفظ الحرج لترسيخ الحكم في الأذهان ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

٥ – صيغة المبالغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فَائِدَة: قال بعض السلف: من أمَّر السُنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لقوله تعالى ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[1].

لطيفَة: قيل لبعضهم: من أحبُّ إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: لا أحب أخي إذا لم يكن صديقي. وقال ابن عباس: «الصديق أوكد من القريب ألا ترى استغاثة الجهنميِّن حين قالوا ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠ – ١٠١] ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات»[2].

(١) «زاد المسير» ٦/ ٥٧.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٤٧٤.

(ش): الْجَهَنَّمِيُّونَ: جمع جَهَنَّمِيّ، نسبةً إلى جهنم. ولم أجد كلام ابن عباس رضي الله عنهما إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد. وسياق الآيات يدل على أن من يقولون هذا القول مخلَّدون في النار لعدم إيمانهم. قال الله تعالى: =

تنبيـه: كان بعض العـرب يرى أحدهم أن عاراً وخزيـًا عليه أن يأكل وحده ويبقى جائعًا حتى يجد من يؤاكله ويشاربه واشتهر هذا عن حاتم فكان يقول:

إذا مـا صنعتِ الـزاد فالتمسي له ... أكـيـلاً فـإني لسـت آكـلـه وحـدي

وهذا من مآثر العرب ومفاخرهم، فقد اشتهروا بالجود والكرم، وقرى الضيف(١).

«انتهى تفسير سورة النور»



= ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠ – ١٠٢]. أمَّا الجَهَنَّمِيُّون الذين يعذَّبون في النار ثم يخرجون منها ويدخلون الجنة فهم من عصاة المسلمين وقد جاء ذكْرُهم في الأحاديث الصحيحة، قَالَ ﷺ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ» رواه البخاري. وفي حديث الشفاعة الطويل: فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلَاءِ الْجَهَنَّمِيُّونَ. فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَلْ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الْجَبَّارِ». أخرجه أحمد والدارمي وابن خزيمة في التوحيد، وقال الألباني: «وسندهم صحيح على شرط الشيخين». قال ﷺ: «يُخْرِجُ اللهُ أُنَاسًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا يَأْخُذُ نِقْمَتَهُ مِنْهُمْ، قَالَ: لَمَّا أَدْخَلَهُمُ اللهُ النَّارَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَلَيْسَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ فَمَا لَكُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ، فَإِذَا سَمِعَ اللهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ، فَيَتَشَفَّعُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ حَتَّى يَخْرُجُوا بِإِذْنِ اللهِ، فَلَمَّا أُخْرِجُوا، قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مِثْلَهُمْ، فَتُدْرِكُنَا الشَّفَاعَةُ، فَنُخْرَجُ مِنَ النَّارِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[الحجر: ٢]، قَالَ: فَيُسَمَّوْنَ فِي الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ مِنْ أَجْلِ سَوَادٍ فِي وُجُوهِهِمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَذْهِبْ عَنَّا هَذَا الِاسْمَ، قَالَ: فَيَأْمُرُهُمْ فَيَغْتَسِلُونَ فِي نَهَرٍ فِي الْجَنَّةِ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ مِنْهُمْ» (رواه ابن حبان وصححه الألباني).

(١) (ش): قَرَى الضيفَ قِرًى وقَرْيًا: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

٢٥ سُورَةُ الفُرْقَانِ ٧٧

مكية وآياتها سبع وسبعون

بين يدي السورة

سورة الفرقان مكية وهي تعنى بشئون العقيدة، وتعالج شبهات المشركين حول رسالة محمد ﷺ وحول القرآن العظيم، ومحور السورة يدور حول إثبات صدق القرآن، وصحة الرسالة المحمدية، وحول عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، وفيها بعض القصص للعظة والاعتبار.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الذي تفنَّن المشركون بالطعن فيه، والتكذيب بآياته، فتارة زعموا أنه أساطير الأولين، وأخرى زعموا أنه من اختلاق محمد أعانه عليه بعض أهل الكتاب، وثالثة زعموا أنه سحرٌ مبين، فردَّ الله تعالى عليهم هذه المزاعم الكاذبة، والأوهام الباطلة، وأقام الأدلة والبراهين على أنه تنزيل رب العالمين، ثم تحدثت عن موضوع الرسالة التي طالما خاض فيها المشركون المعاندون، واقترحوا أن يكون الرسول ملكًا لا بشرًا، وأن تكون الرسالة -على فرض تسليم الرسول من البشر- خاصة بذوي الجاه والثراء، فتكون لإنسان غني عظيم، لا لفقير يتيم، وقد ردَّ الله تعالى شبهتهم بالبرهان القاطع، والحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل.

* ثم ذكرت الآيات فريقًا من المشركين عرفوا الحق وأقروا به، ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال، وذكرت منهم «عقبة بن أبي معيط» الذي أسلم ثم ارتد عن الدين بسبب صديقه الشقي «أبي بن خلف» وقد سماه القرآن الكريم بالظالم ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الآية وسمى صديقه بالشيطان[1].

---

(١) (ش): قصة إسلام عقبة موضوعة، أخرجها أبو نعيم في «دلائل النبوة» بإسناد فيه كذابون.
ولكن صح أن الآية نزلت فيه فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ [الْفُرْقَانِ: ٢٧]. قَالَ: نَزَلَتْ فِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، كَانَ يَجْلِسُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ لَا يُؤْذِيهِ، وَكَانَ رَجُلًا حَلِيمًا، وَكَانَ بَقِيَّةُ قُرَيْشٍ إِذَا جَلَسُوا مَعَهُ آذَوْهُ، وَكَانَ لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ خَلِيلٌ غَائِبٌ عَنْهُ بِالشَّامِ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: «صَبَأَ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ». وَقَدِمَ خَلِيلُهُ مِنَ الشَّامِ لَيْلًا، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: «مَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ؟»، فَقَالَتْ: «أَشَدَّ مَا كَانَ أَمْرًا»، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ خَلِيلِي ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ؟»، فَقَالَتْ: «صَبَأَ». فَبَاتَ بِلَيْلَةِ سُوءٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَاهُ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَحَيَّاهُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ، فَقَالَ: «مَا لَكَ لَا تَرُدُّ عَلَيَّ تَحِيَّتِي؟»، فَقَالَ: «كَيْفَ أَرُدُّ عَلَيْكَ تَحِيَّتَكَ وَقَدْ صَبَوْتَ؟»، قَالَ: «أَوَقَدْ فَعَلَتْهَا قُرَيْشٌ؟»، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «فَمَا يُبْرِئُ صُدُورَهُمْ إِنْ أَنَا فَعَلْتُهُ؟»، قَالَ: «تَأْتِيهِ فِي مَجْلِسِهِ، فَتَبْزُقُ فِي وَجْهِهِ، وَتَشْتُمُهُ بِأَخْبَثِ مَا تَعْلَمُ مِنَ الشَّتْمِ». فَفَعَلَ، فَلَمْ يَزِدْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ مَسَحَ وَجْهَهُ مِنَ الْبُزَاقِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «إِنْ وَجَدْتُكَ خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ، أَضْرِبُ عُنُقَكَ =

* وفي ثنايا السـورة الكريمة جاء ذكر بعض الأنبياء إجمالًا وجاء الحديث عن أقوامهم المكذبيـن، ومـا حلَّ بهم من النـكال والدمار نتيجـة لطغيانهم وتكذيبهم لرسـل الله كقوم نـوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرسّ وقوم لـوط، وغيرهـم من الكافرين الجاحدين، كما تحدثت السـورة عن دلائل قـدرة الله ووحدانيته، وعن عجائب صنعـه وآثار خلقه في هذا الكون البديع، الذي هو أثر من آثار قدرة الله، وشاهد من شواهد العظمة والجلال.

وختمت السـورة ببيان صفات عباد الرحمن، وما أكرمهم الله به من الأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم.

التسـمية: سميت السورة الكريمة «سـورة الفرقان» لأن الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيـد الـذي أنزله على عبده محمـد ﷺ وكان النعمة الكبرى على الإنسـانية لأنه النور السـاطع والضيـاء المبين، الذي فرق الله به بيـن الحق والباطل، والنـور والظلام، والكفر والإيمان، ولهذا كان جديرًا بأن يسمى الفرقان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا
حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو
ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾
قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ

= صَبْرًا»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، وَخَرَجَ أَصْحَابُهُ، أَبَى أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: «اخْرُجْ مَعَنَا»، قَالَ: تَوَعَّدَنِي هَذَا الرَّجُلُ إِنْ وَجَدَنِي خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقِي صَبْرًا، فَقَالُوا: «لَكَ جَمَلٌ أَحْمَرُ لَا يُدْرَكُ، فَلَوْ كَانَتِ الْهَزِيمَةُ، طِرْتَ عَلَيْهِ». فَخَرَجَ مَعَهُمْ. فَلَمَّا هَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ، وَحَلَ بِهِ جَمَلُهُ فِي جُدَدٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَسِيرًا فِي سَبْعِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ: مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ أُقْتَلُ؟»، قَالَ: «نَعَمْ». فَقَالَ: «لِمَ؟»، قَالَ: «بِمَا بَزَقْتَ فِي وَجْهِي»، قَالَ: «فَمَنْ لِلصِّبْيَةِ؟»، قَالَ: «النَّارُ»، فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فَضَرَبَ عُنُقَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الْفُرْقَانِ: ٢٧]. (رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ بسندٍ صححه الألباني، وروى بعضه أبو داود، وصححه الألباني). أَضْرِبُ عُنُقَكَ صَبْرًا: كُلُّ مَنْ قُتِلَ فِي غَيْرِ مَعْرَكَةٍ وَلَا حَرْبٍ وَلَا خَطَأٍ، فَإِنَّهُ مَقْتُولٌ صَبْرًا. (وَحَّلَ بِهِ جَمَلُهُ فِي جُدَدٍ مِنَ الْأَرْضِ): الْوَحَلُ/ الْوَحْلُ: الطِّينُ الرَّقِيقُ، (وَحِلَ): أَيْ وَقَعَ فِي الْوَحْلِ. (الْجُدَدُ): مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ.

يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ
كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا
﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن
شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ
وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ
أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا
﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا
مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى
لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا
﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ
نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ
وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا

اللغَة: ﴿تَبَارَكَ﴾ من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ويأتي بمعنى التمجيد والتعظيم قال الشاعر:

تَبَارَكْتَ لَا مُعْطٍ لِشَيْءٍ مَنَعْتَهُ ... وَلَيْسَ لِمَا أَعْطَيْتَ يَا رَبِّ مَانِعُ (١)

﴿نَذِيرًا﴾ النذير: المحذِّر من الهلاك ﴿نُشُورًا﴾ النشور: الإِحياء بعد الموت ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مربوطين بالسلاسل قال عمرو بن كلثوم:

فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا ... وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُقَرَّنِينَا (٢)

﴿ثُبُورًا﴾ هلاكًا ودمارًا ﴿بُورًا﴾ مأخوذ من البوار وهو الهلاك، قال أبو عبيدة: يقال رجلٌ بور ورجال بور ومعناه هالك، والبوار الهلاك(٣).

التفسير: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أي تمجَّد وتعظَّم وتكاثر خير الله الذي نـزَّل القرآن العظيم الفارق بين الحق والباطل على عبده محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي ليكون محمد نبيًّا للخلق أجمعين مخوفاً لهم من عذاب الله ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى المالك لجميع ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وعبيداً ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي وليس له ولدٌ كما زعم اليهود والنصارى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ

(١) البيت للطرماح وانظر «البحر المحيط» ٦/ ٤٨٠.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٨. (ش): آبَ: رجع وعاد. النِّهاب: جمع نَهْب، وهو المنهوب، أي ما يؤخذ قهرًا.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٦٣.

﴿فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي وليس معه إله كما قال عبدة الأوثان ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ أي أوجد كل شيء بقدرته مع الإتقان والإحكام قال في «التسهيل»: الخلق عبارة عن الإيجاد بعد العدم، والتقدير عبارةٌ عن إتقان الصنعة وتخصيص كل مخلوق بمقداره، وصنعته، وزمانه ومكانه، ومصلحته وأجله وغير ذلك[1] وقال الرازي: وصف سبحانه ذاته بأربعة أنواع من صفات الكبرياء: **الأول**: أنه المالك للسماوات والأرض وهذا كالتنبيه على وجوده **والثاني**: أنه هو المعبود أبداً **والثالث**: أنه المنفرد بالألوهية. **والرابع**: أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير[2] ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ أي عبد المشركون غير الله من الأوثان والأصنام ﴿لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء أصلاً بل هم مصنوعون بالنحت والتصوير فكيف يكونون آلهة مع الله؟ ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ أي لا يستطيعون دفع ضرٍ عنهم ولا جلب نفع لهم ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ أي لا تملك أن تُميت أحداً، ولا أن تُحيي أحدًا ولا أن تبعث أحداً من الأموات قال الزمخشري: المعنى أنهم آثروا على عبادة الله عبادة آلهة لا يقدرون على شيء، وإذا عجزوا عن دفع الضرر وجلب النفع الذي يقدر عليه العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور الذي لا يقدر عليها إلا الله أعجز[3] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي وقال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي وساعده على الاختلاق قومٌ من أهل الكتاب ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ أي جاءوا بالظلم والبهتان حيث جعلوا العربي يتلقَّنُ من العجمي كلاماً عربيًّا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب فكان كلامهم فيه محض الكذب والزور ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً: إنه خرافات الأمم السابقين أمر أن تكتب له ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي فهي تُلقى وتُقرأ عليه ليحفظها صباحاً ومساءً قال ابن عباس: والقائل هو «النضر بن الحارث» وأتباعه. والإفكُ أسوأ الكذب[4] ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا ردٌّ عليهم في تلك المزاعم أي قل لهم يا محمد: أنزله الله العليم القدير الذي لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي إنه تعالى لم يعجّل لكم العقوبة بل أمهلكم رحمة بكم لأنه واسع المغفرة رحيم بالعباد ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي

(١) «التسهيل» ٣/ ٧٤.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٤٦.
(٣) «الكشاف» ٣/ ١١٥.
(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٤٨١.

﴿ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي وقال المشركون: ما لهذا الذي يزعم الرسالة يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش كما نمشي؟ إنه ليس بمَلَك ولا مَلِك، لأن الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبذّل في الأسواق، وفي قولهم ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ مع إنكارهم لرسالته تهكم واستهزاء ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ أي هلّا بعث الله معه ملكاً ليكون له شاهداً على صدق ما يدعيه ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي يأتيه كنزٌ من السماء فيستعين به ويستغني عن طلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي يكون له بستان يأكل من ثماره ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي وقال الكافرون ما تتبعون أيها المؤمنون إلا إنساناً سحر فغلب على عقله فهو يزعم أنه رسول الله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟﴾ أي انظر كيف قالوا في حقك يا محمد تلك الأقاويل العجيبة، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال وكيف اخترعوا تلك الصفات والأحوال الشاذة فضلُّوا بذلك عن الهدى! ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي فلا يجدون طريقاً إلى الحق بعد أن ضلوا عنه بتكذيبك وإنكار رسالتك، ذكروا له عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ خمس صفات وزعموا أنها تخلُّ بالرسالة زعماً منهم أنَّ فضيلة الرسول على غيره تكون بأمورٍ جسمانية وهي غاية الجهالة والسفاهة فردَّ الله عليهم بأمرين: **الأول**: تعجيب الرسول ﷺ من تناقضهم فتارة يقولون عنه شاعر، وتارة ساحر، وأُخرى يقولون إنه مجنون حتى أصبحت تلك الأقوال الغريبة الشاذة، والأمور العجيبة جارية مجرى الأمثال **والثاني**: أن الله تعالى لو أراد لأعطى نبيَّه خيراً مما اقترحوا وأفضل مما يتصورون وهو المراد بقوله ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي تمدَّد وتعظّم الله الكبير الجليل الذي لو أراد لجعل لك خيراً منذلك الذي ذكروه من نعيم الدنيا ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي لو شاء لأعطاك بساتين وحدائق تسير فيها الأنهار لا جنةً واحدة كما قالوا ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ أي ويجعل لك مع الحدائق القصور الرفيعة المشيدة كما هو حال الملوك قال الضحاك: لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة حزن عليه السلام فنزل جبريل معزياً له فبينما النبي وجبريل يتحدثان إذ فُتح باب من السماء فقال جبريل: أبشرْ يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربك فسلَّم عليه وقال: ربك يخيّرك بين أن تكون نبيًّا ملكاً، وبين أن تكون نبيًّا عبداً - ومعه سفط من نور يتلألأ - ثم قال: هذه مفاتيح خزائن الأرض فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ «بل نبيًّا عبداً» فكان عليه السلام بعد ذلك لا يأكل متكأ حتى فارق الدنيا[1] ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٤. (ش): رواه الواحدي «فِي أَسبَاب النُّزُول»، بإسناد ضعيف جدًّا. =

﴿بِٱلسَّاعَةِ﴾ أي بل كذبوا بالقيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي وهيأنا لمن كذَّب بالآخرة ناراً شديدة الاستعار قال الطبري: المعنى ما كذب هؤلاء المشركون بالله وأنكروا ما جئتهم به من الحق من أجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ولكنْ من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد تكذيباً منهم بالقيامة وأعددنا لمن كذَّب بالبعث ناراً تُسعَّر عليهم وتتَّقد[١] ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي إذا رأت جهنم هؤلاء المشركين من مسافة بعيدة وهي خمسمائة عام[٢] ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي سمعوا صوت لهيبها وغليانها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ وسمعوا لها صوتاً كصوت الحمار وهو الزفير قال ابن عباس: «إن الرجل ليُجرُّ إلى النَّارِ، فَتَشْهَقُ إِلَيْهِ النَّارُ شُهُوقَ الْبَغْلَةِ إِلَى الشَّعِيرِ، وَتَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا خَافَ»[٣]، وتقييد الرؤية بالبعد ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ أي وإذا أُلقوا في جهنم في مكان ضيّق قال ابن عباس: تضيق عليهم ضيق الزُّجّ في الرُّمح[٤] - الزُّجّ: الحديدة التي في أسفل الرُّمْح[٥] - ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي دعوا في ذلك المكان على أنفسهم بالويل والهلاك يقولون: يا هلاكنا، نادوه نداء المتمني للهلاك ليسلموا مما هو أشدُّ منه كما قيل: أشدُّ من الموت ما يُتمنَّى معه الموت ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي يقال لهم: لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة بل ادعوا مراتٍ ومراتٍ، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد يستوجب تكرير الدعاء في كل حين وآن، وفيه إقناطٌ لهم من استجابة الدعاء وتخفيف العذاب ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؟ أي قل لهم يا محمد على سبيل التقريع والتهكم:

= ورواه الطبراني، والبيهقي، بنحوه، وضعفه الألباني. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْم خُلِقَ، قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا ؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: «بَلْ عَبْدًا رَسُولًا» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ وصححه الألباني وأحمد شاكر والأرنؤوط). وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: مَا رُئِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ مُتَّكِئًا قَطُّ» [رواه أبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني].

(١) «تفسير الطبري» ١٨/ ١٤٠.

(٢) (ش): لم أجد نصًّا ثابتًا يدل على ذلك.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٢٦. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» وصحح إسناده الحافظ ابن كثير.

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٤٨٥.

(٥) (ش): أي إنها تضيق عليهم كالضيق الذي بين الزُّجِّ والرُّمْح والذي يحدث بسبب تركيب الزُّجِّ فِي أسفل الرُّمْح.

ذلك السعير خيرٌ أم جنة الخلود التي وعدها المتقون؟ قال ابن كثير: يقول الله تعالى يا محمد: هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين تتلقاهم جهنم بوجهٍ عبوسٍ وتغيظٍ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرّنين لا يستطيعون حراكاً ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خيرٌ أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده[1] قال الإمام الفخر: فإن قيل كيف يقال: العذاب خيرٌ أم جنة الخلد؟ وهل يجوز أن يقول العاقل: السُكر أحلى أم الصبر؟ قلنا: هذا يحسن في معرض التقريع كما إذا أعطى السيد عبده مالاً فتمرَّد وأبى واستكبر فيضربه ضرباً وجيعاً ويقول على سبيل التوبيخ: أهذا أطيب أم ذاك؟[2] ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ أي كانت لهم ثواباً ومرجعاً ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي لهم في الجنة ما يشاءون من النعيم ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أي ماكثين فيها أبداً سرمداً بلا زوال ولا انقضاء ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي كان ذلك الجزاء وعداً على ذي الجلال حقيقاً بأن يُسأل ويُطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون، وهو وعدٌ واجب ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين يجمع الله الكفار والأصنام وكل من عُبد من دون الله كالملائكة والمسيح قال مجاهد: هو عيسى وعزير والملائكة ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي فيقول تعالى للمعبودين تقريعاً لعبَدَتِهم: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم؟ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي أم هم ضلوا الطريق فعبدوكم من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي قال المعبودون تعجباً مما قيل لهم: تنزَّهت يا الله عن الأنداد ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ما يحقُّ لنا ولا لأحدٍ من الخلق أن يعبد غيرك، ولا أن يشرك معك سواك ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي ولكن أكثرت عليهم وعلى آبائهم النعمة - وكان يجب عليهم شكرها والإيمان بما جاءت به الرسل - فكان ذلك سبباً للإعراض عن ذكرك وشكرك ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي وكانوا قوماً هالكين، قال تعالى توبيخاً للكفرة ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي فقد كذبكم هؤلاء المعبودون في قولكم: إنهم آلهة ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي فما تستطيعون أيها الكفار دفعاً للعذاب عنكم ولا نصراً لأنفسكم من هذا البلاء ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي ومن يشرك منكم بالله فيظلم نفسه نذقه عذاباً شديداً في الآخرة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من الرسل إلا وهم

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٢٦.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٥٧.

يأكلون ويشربون ويتجولون في الأسواق للتكسب والتجارة، فتلك هي سنة المرسلين من قبلك فلم ينكرون ذلك عليك؟ وهو جواب عن قولهم ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ ؟ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي جعلنا بعض الناس بلاءً لبعض ومحنة، ابتلى الله الغنيَّ بالفقير، والشريف بالوضيع، والصحيح بالمريض ليختبر صبركم وإيمانكم أتشكرون أم تكفرون؟ قال الحسن: يقول الأعمى لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنيًّا مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان[1] ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي عالماً بمن يصبر أو يجزع، وبمن يشكر أو يكفر.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتشريف ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ ولم يذكره باسمه تشريفاً له وتكريماً.

٢ - الاكتفاء بأحد الوصفين ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي ليكون بشيراً ونذيراً واكتفى بالإنذار لمناسبته للكفار.

٣ - الجناس الناقص ﴿يَخلقون.. يُخْلَقُونَ﴾ سمي ناقصاً لتغايره في الشكل.

٤ - الطباق بين ﴿ضَرًّا .. نَفْعًا﴾ وبين ﴿مَوْتًا.. حَيَوٰةً﴾.

٥ - الاستفهام للتهكم والتحقير ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ ؟

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ شبَّه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه وهو تمثيل وصف النار بالاهتياج والاضطرام على عدة المغيظ والغضبان.

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا .. ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٨ - الجناس غير التام ﴿أَتَصْبِرُونَ .. بَصِيرًا﴾ لتقديم بعض الحروف وتأخير البعض.

لطيفَة: نبّه تعالى بقوله ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ على أنه تعالى يعطي العباد على حسب المصالح، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا، ويفتح على آخر أبواب الرزق ويحرمه لذة الفهم والعلم، ولا اعتراض عليه لأنه فعال لما يريده.

قال الله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا

(١) «تفسير الطبري» ١٨/ ١٤٤.

وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ
وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ
سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ
ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾
وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا
نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ
إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ
مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾
فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿٣٦﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ
أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ
ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴿٣٨﴾ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى
ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا

المناسَبَة: لما حكى تعالى إِنكار المشركين لنبوة محمد عليه السلام وتكذيبهم للقرآن، أعقبه بذكر بعض جرائمهم الأخرى، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء وما حلَّ بأقوامهم المكذبين تسلية لرسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام.

اللغَة: ﴿حِجۡرٗا﴾ بكسر الحاء حراماً من حَجره إِذا منعه قال الشاعر: «أَلَا أَصْبَحَتْ أَسْمَاءُ حِجْرًا مُحَرَّمًا»... أي حراماً محرماً[1]

﴿هَبَآءٗ﴾ قال أبو عبيدة: الهباء مثل الغبار يدخل من الكُوَّة[2] مع ضوء الشمس ﴿مَّنثُورًا﴾ المنثور: المتفرق ﴿مَقِيلٗا﴾ المقيل: زمان القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار إِذا اشتدَّ الحر[3] ﴿تَبَّرۡنَا﴾ التتبير: التدمير والتكسير قال الزجاج: كلُّ شيء كسّرته وفتّته فقد تبرته.

سَببُ النّزول: روي أن «عقبة بن أبي معيط» وكان صديقاً لأُبَيّ بن خلف صنع وليمة فدعا إِليها قريشاً ودعا رسول الله ﷺ فلما قُدم الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أني رسول الله» ففعل فأكل رسول الله من طعامه فلما بلغ «أُبي بن خلف» ذلك قال لصديقه عقبة: صبأت. قال: لا ولكن دخل عليَّ رجل عظيم فأبى أن يأكل

---

(١) (ش):

أَلَا أَصْبَحَتْ أَسْمَاءُ حِجْرًا مُحَرَّمًا ... وَأَصْبَحْتُ مِنْ أَدْنَى حُمُوَّتِهَا حَمَا.

هذا البيت قاله رجل كانت له امرأة فطلقها وتزوجها أخوه، أَيْ أَصبحتُ أَخا زَوْجِهَا بَعْدَ مَا كُنْتُ زَوْجَهَا.

(٢) (ش): كَوَّة/ كُوَّة: فتحة أو نافذة للتهوية والإضاءة ونحوهما.

(٣) (ش): مَقِيل: موضع القيلولة، مكان الراحة وقت القيلولة. وقد قال المؤلف ذلك في تفسير الآية.

طعامي حتى أشهد له بالرسالة فقال له أُبَيّ: وجهي من وجهك حرام إن رأيت محمداً حتى تبزق في وجهه وتطأ على عنقه وتقول كيت وكيت، ففعل عدوُّ الله ما أمره به خليله فأنزل الله ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ .. ﴾ الآية[1].

التفسِير: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي قال المشركون الذين لا يرجون لقاء الله، ولا يخشون عقابه لتكذيبهم بالبعث والنشور: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي هلاّ نزلت الملائكة علينا فأخبرونا بصدق محمد ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي أو نرى الله عياناً فيخبرنا أنك رسوله قال أبو حيان: وهذا كله على سبيل التعنت وإِلا فما جاءهم به من المعجزات كافٍ لو وُفّقوا[2] ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي تكبروا في شأن أنفسهم حين تفوهوا بمثل هذه العظيمة، وطلبوا ما لا ينبغي ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تجاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيان، حتى بلغوا أقصى العتو وغاية الاستكبار ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي يوم يرى المشركون الملائكة حين تنزل لقبض أرواحهم وقت الاحتضار لن يكون

(١) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٧٥. (ش) **(ش):** قصة إسلام عقبة موضوعة، أخرجها أبو نعيم في «دلائل النبوة» بإسناد فيه كذابون. ولكن صح أن الآية نزلت فيه فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ ﴾ [الْفُرْقَانِ: ٢٧]. قَالَ: نَزَلَتْ فِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، كَانَ يَجْلِسُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ لَا يُؤْذِيهِ، وَكَانَ رَجُلًا حَلِيمًا، وَكَانَ بَقِيَّةُ قُرَيْشٍ إِذَا جَلَسُوا مَعَهُ آذَوْهُ، وَكَانَ لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ خَلِيلٌ غَائِبٌ عَنْهُ بِالشَّامِ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: «صَبَأَ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ». وَقَدِمَ خَلِيلُهُ مِنَ الشَّامِ لَيْلًا، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: «مَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ؟»، فَقَالَتْ: «أَشَدَّ مَا كَانَ أَمْرًا»، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ خَلِيلِي ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ؟»، فَقَالَتْ: «صَبَأَ». فَبَاتَ بِلَيْلَةِ سُوءٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَاهُ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَحَيَّاهُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ، فَقَالَ: «مَالَكَ لَا تَرُدُّ عَلَيَّ تَحِيَّتِي؟»، فَقَالَ: «كَيْفَ أَرُدُّ عَلَيْكَ تَحِيَّتَكَ وَقَدْ صَبَوْتَ؟»، قَالَ: «أَوَقَدْ فَعَلَتْهَا قُرَيْشٌ؟»، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «فَمَا يُبْرِئُ صُدُورَهُمْ إِنْ أَنَا فَعَلْتُهُ؟»، قَالَ: «تَأْتِيهِ فِي مَجْلِسِهِ، فَتَبْزُقُ فِي وَجْهِهِ، وَتَشْتُمُهُ بِأَخْبَثِ مَا تَعْلَمُ مِنَ الشَّتْمِ». فَفَعَلَ، فَلَمْ يَزِدْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ مَسَحَ وَجْهَهُ مِنَ الْبُزَاقِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «إِنْ وَجَدْتُكَ خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ، أَضْرِبُ عُنُقَكَ صَبْرًا»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، وَخَرَجَ أَصْحَابُهُ، أَبَى أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: «اخْرُجْ مَعَنَا»، قَالَ: تَوَعَّدَنِي هَذَا الرَّجُلُ إِنْ وَجَدَنِي خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقِي صَبْرًا، فَقَالُوا: «لَكَ جَمَلٌ أَحْمَرُ لَا يُدْرَكُ، فَلَوْ كَانَتِ الْهَزِيمَةُ، طِرْتَ عَلَيْهِ». فَخَرَجَ مَعَهُمْ، فَلَمَّا هَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ، وَحَلَ بِهِ جَمَلُهُ فِي جُدَدٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَسِيرًا فِي سَبْعِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ: مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ أُقْتَلُ؟»، قَالَ: «نَعَمْ». فَقَالَ: «لِمَ؟»، قَالَ: «بِمَا بَزَقْتَ فِي وَجْهِي»، قَالَ: «فَمَنْ لِلصِّبْيَةِ؟»، قَالَ: «النَّارُ»، فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فَضَرَبَ عُنُقَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الْفُرْقَانِ: ٢٧]. (رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ بسندٍ صححه الألباني، وروى بعضه أبو داود، وصححه الألباني). أَضْرِبُ عُنُقَكَ صَبْرًا: كُلُّ مَنْ قُتِلَ فِي غَيْرِ مَعْرَكَةٍ وَلَا حَرْبٍ وَلَا خَطَأٍ، فَإِنَّهُ مَقْتُولٌ صَبْرًا. (وَحَلَ بِهِ جَمَلُهُ فِي جُدَدٍ مِنَ الْأَرْضِ): الْوَحْلُ/ الْوَحَلُ: الطِّينُ الرَّقِيقُ، (وَحِلَ): أَيْ وَقَعَ فِي الْوَحَلِ. (الْجُدَدُ): مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٤٩١.

للمجرمين يومئذٍ بشارة تسرهم بل لهم الخيبة والخسران ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي تقول الملائكة لهم: حرام ومحرم عليكم الجنة والبُشرى والغفران قال ابن كثير: وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، فتقول للكافر عند خروج روحه: أخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، أخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه بمقامع الحديد، بخلاف المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يُبشرون بالخيرات وحصول المسرات ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1] [فصلت: ٣٠] ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أي عمدنا إلى أعمال الكفار التي يعتقدونها برًّا كإطعام المساكين وصلة الأرحام ويظنون أنها تقربهم إلى الله ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ أي جعلناه مثل الغبار المنثور في الجو، لأنه لا يعتمد على أساس ولا يستند على إيمان قال الطبري: أي جعلناه باطلاً لأنهم لم يعملوه لله، وإنما عملوه للشيطان، والهباء هو الذي يُرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة[2]، والمنثور المتفرق[3] وقال القرطبي: إن الله أحبط أعمالهم بسبب الكفر حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور[4] ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ لما بيَّن تعالى حال الكفار وأنهم في الخسران الكلي والخيبة التامة، شرح وصف أهل الجنة وأنهم في غاية السرور والحبور، تنبيهاً على أن السعادة كل السعادة في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، ومعنى الآية: أصحابُ الجنة يوم القيامة خيرٌ من الكفار مستقرًّا ومنزلاً ومأوى[5] ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي وأحسنُ منهم مكاناً للتمتع وقت القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم قال ابن مسعود: «لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار»[6] ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب يوم تتشقَّق السماء وتنفطر عن الغمام الذي يُسود الجو ويُظلمه ويَغُمّ القلوبَ مَرْآهُ[7] لكثرته وشدة ظلمته ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي ونزلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي الملك في ذلك

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٢٨.

(٢) (ش): كَوَّة/ كُوَّة: فتحة أو نافذة للتهوية والإضاءة ونحوهما.

(٣) «تفسير الطبري» ١٩/ ٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٢.

(٥) كلمة «خير» ليست على بابها للمفاضلة وإنما هي لبيان حال أهل الجنة وأنهم في أحسن حال وخير مكان، ولا ضرورة للتأويل بأنهم خير من الكافرين المترفين في الدنيا.

(٦) (ش): رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري في «تفسيرَيْهما».

(٧) (ش): أي إن منظره يَغُمّ القلوبَ.

اليوم لله الواحد القهار، الذي تخضع له الملوك، وتعنو له الوجوه، وتذل له الجبابرة، لا مالك يومئذٍ سواه كقوله ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[غافر: ١٦] ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي وكان ذلك اليوم صعباً شديداً على الكفار قال أبو حيان: ودل قوله ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على تيسيره على المؤمنين ففي الحديث «إنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاةٍ مكتوبة صلاها في الدنيا»[١] ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أي واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرَّط في جنب الله، وعضُّ اليدين كنايةٌ عن الندم والحسرة، والمراد بالظالم «عُقبة بن أبي معيط» كما في سبب النزول، وهي تعمُّ كل ظالم قال ابن كثير: يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وسلك سبيلاً غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعضَّ على يديه حسرةً وأسفاً، وسواءٌ كان نزولها في «عقبة بن معيط» أو غيره من الأشقياء فإنها عامةٌ في كل ظالم[٢] ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي يقول الظالم يا ليتني اتبعتُ الرسول فاتخذت معه طريقاً إلى الهدى ينجيني من العذاب ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ أي يا هلاكي وحسرتي يا ليتني لم أصاحب فلاناً وأجعله صديقاً لي، ولفظ ﴿فُلَانًا﴾ كناية عن الشخص الذي أضلَّه وهو «أُبي بن خلف» قال القرطبي: وكنى عنه ولم يصرّح باسمه ليتناول جميع من فعل مثل فعله[٣] ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أي لقد أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت، ثم قال تعالى ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي يُضله ويُغويه ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ لما أكثر المشركون الطعن في القرآن ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله والمعنى: قال محمد يا رب إنَّ قريشاً كذبت بالقرآن ولم تؤمن به وجعلته وراء ظهورها متروكاً وأعرضوا عن استماعه قال المفسرون: وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون بل المقصود منها تعظيم شكايته، وتخويف قومه، لأن الأنبياء إذا التجأوا إلى الله وشكوا قومهم حل بهم العذاب ولم يمهلوا[٤] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك جعلنا لكل نبي عدوًّا من كفار قومه، والمراد تسلية النبي ﷺ بالتأسي

---

(١) «البحر المحيط» ٦/ ٤٩٥، والحديث أخرجه أحمد بلفظ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن» الحديث. (ش):ضعفه ابن كثير والألباني والأرنؤوط.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٣٠.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٦.
(٤) نقلاً عن حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٥١.

بغيره من الأنبياء ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي وكفى أن يكون ربك يا محمد هادياً لك وناصراً لك على أعدائك فلا تُبَالِ بمن عاداك ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي وقال كفار مكة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي هلاَّ نزل هذا القرآن على محمد دفعة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل؟ قال تعالى ردًّا على شبهتهم التافهة ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً لنُقَوِّي قلبك على تَحَمُّله فتحفظه وتعمل بمقتضى ما فيه ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي فصَّلْناه تفصيلاً بديعًا قال قتادة: أي بَيَّنّاه وقال الرازي: الترتيلُ في الكلام أن يأتي بعضه على إثر بعض على تُؤَدَة وتَمَهُّل[1]، وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفلجها[2] وقال الطبري: الترتيلُ في القراءة الترسُّلُ والتثبتُ يقول: علمناكه شيئاً بعد شيء حتى تحفظه[3] ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ولا يأتيك هؤلاء الكفار بحجةٍ أو شبهةٍ للقدح فيك أو في القرآن إلا أتيناك يا محمد بالحق الواضح، والنور الساطع لندمغ به باطلهم ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي أحسن بياناً وتفصيلاً، ثم ذكر تعالى حال هؤلاء المشركين المكذبين للقرآن فقال ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي يُسْحبون ويجرُّون إلى النار على وجوههم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي هم شر منزلاً ومصيراً، وأخطأ ديناً وطريقاً وفي الحديث قيل: يا رسول الله كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالَ «أَلَيْسَ الَّذِى أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِى الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[4]، ثم ذكر تعالى قصص الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ وإرهاباً للمكذبين فقال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ أي وأعنّاه بأخيه هارون فجعلناه وزيراً له يناصره ويُؤازره ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي اذهبا إلى فرعون وقومه بالآيات الباهرات، والمعجزات الساطعات ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي فأهلكناهم إهلاكاً لما كذبوا رسلنا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان لمّا كذبوا نوحاً وحده لأن تكذيبه تكذيبٌ للجميع لاتفاقهم على التوحيد والإسلام[5] ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأعددنا لهم في الآخرة عذاباً شديداً مؤلماً سوى ما حلَّ بهم في الدنيا ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود

(١) (ش): التُّؤَدَة: الرزانة والتَّأَنِّي والتَمَهُّل.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٩٧.
(٣) «تفسير الطبري» ١٩/ ٨.
(٤) أخرجه أصحاب السنن. (ش): ورواه البخاري ومسلم.
(٥) «أبو السعود» ٤/ ٩.

وأصحاب البئر الذين انهارت بهم قال «البيضاوي»: وأصحابُ الرس قومٌ كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فكذبوه فبينما هم حول الرَّسّ - وهي البئر غير المَطْوِيَّة - انهارت فخسفت بهم وبديارهم[1] ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي وأمماً وخلائق كثيرين لا يعلمهم إلا الله بين أولئك المكذبين أهلكناهم أيضاً ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي وكلًّا من هؤلاء بيّنا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة إعذاراً وإنذاراً ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهلكناه إهلاكاً، ودمرناه تدميراً، لمّا لم تنجع فيهم المواعظ ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ أي ولقد مرَّت قريش مراراً في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أُهلكت بالحجارة من السماء وهي قرية «سدوم» عُظمى قرى قوم لوط ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ ؟ توبيخٌ لهم على تركهم الاتعاظ والاعتبار أي أفلم يكونوا في أسفارهم يرونها فيعتبروا بما حلَّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم لرسولهم ومخالفتهم لأوامر الله؟ قال ابن عباس: كانت قريشٌ في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كقوله تعالى ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧] ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي إنهم لا يعتبرون لأنهم لا يرجون معاداً يوم القيامة.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الترجِّي ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ لأن لولا بمعنى هَلَّا للترجِّي.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَعَتَوْ .. عُتُوًّا﴾ و ﴿حِجْرًا .. مَّحْجُورًا﴾.

٣ - المبالغة بنفي الجنس ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ومعناها لا يبشر يومئذٍ المجرمون وإنما عدل عنه للمبالغة.

٤ - التشبيه البليغ ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ أي كالغبار المنثور في الجو في حقارته وعدم نفعه، حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٥ - الكناية اللطيفة ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ كناية عن الندم والحسرة، كما أن لفظه ﴿فُلَانًا﴾ كناية عن الصديق الذي أضله.

٦ - الإسناد المجازي ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأن الضلال لا ينسب إلى المكان ولكن إلى أهله.

لطيفَة: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: هجر القرآن أنواع: **أحدها**: هجر سماعه والإيمان به. **والثاني**: هجر العمل به وإن قرأه وآمن به. **والثالث**: هجر تحكيمه والتحاكم

---

(١) «البيضاوي» ٢/ ٦٨. (ش): الرَّسُّ: بئر قديمة متهدِّمة الجوانب. البئر المَطْوِيَّة: مَبْنِيَّة الجوانب، يقال. طوَيْتَ البئر إذا بنَيْتَها بالحجارة.

إليه. **والرابع**: هجر تدبره وتفهم معانيه. **والخامس**: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وكلُّ هذا داخل في قوله تعالى ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ وإن كان بعض الهجْر أهون من بعض(١).

قال الله تعالى:

وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا
عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾
أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ
أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ
لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ
رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ
كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا
فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ
ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي
خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا
يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ
وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ
ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ
أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا

المناسَبة: لما ذكر تعالى شبهات المشركين حول القرآن والرسول، وردَّ عليهم بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، ذكر هنا طرفاً من استهزائهم وسخريتهم بالرسول فلم يقتصروا على تكذيبه بل زادوا عليه بالاستهزاء والاحتقار، ثم ذكر الأدلة على وحدانيته تعالى وقدرته.

اللغَة: ﴿سُبَاتٗا﴾ السُّبات: الراحة جعل النوم سُباتاً لأنه راحة للأبدان وأصل السبت: القطع، ومنه السبت لليهود لانقطاعهم فيه عن الأعمال ﴿نُشُورٗا﴾ النشور: الانتشار والحركة، والنهار سببٌ للانتشار من أجل طلب المعاش ﴿وَأَنَاسِيَّ﴾ جمع إِنسي مثل

(١) نقلاً عن تفسير «محاسن التأويل» ١٢/ ٥٧٥.

كراسي وكرسي قال الفراء: الإنسي والأناسي اسم للبشر وأصله انسان ثم أُبدلت من النون ياء فصار إنسي ﴿مَرَجَ﴾ خلَّى وأرسل وخلط يقال: مرجته إذا خلطته و﴿أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] أي مضطرب مختلط ﴿فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة ﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة ﴿بَرْزَخًا﴾ حاجزاً.

التفسِير: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك المشركون يا محمد ما يتخذونك إلا موضع هزء وسخرية ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي قائلين بطريق التهكم والاستهزاء: أهذا الذي بعثه الله إلينا رسولاً؟ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي إن كان ليصرفنا عن عبادة آلهتنا لو لا أن ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وعيد وتهديد أي سوف يعلمون في الآخرة عند مشاهدة العذاب من أخطأُ طريقاً وأضلُّ ديناً أَهُمْ أم محمد؟ ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ تعجيبٌ من ضلال المشركين أي أرأيت من جعل هواه إلهاً كيف يكون حاله؟ قال ابن عباس: كان الرجل من المشركين يعبد حجراً فإذا رأى حجراً أحسن منه رماه وأخذ الثاني فعبده ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً تحفظه من اتباع هواه؟ ليس الأمر لك قال أبو حيان: وهذا تيئيسٌ من إيمانهم، وإشارةٌ للرسول عليه السلام ألا يتأسف عليهم، وإعلامٌ أنهم في الجهل بالمنافع وقلة النظر في العواقب مثل البهائم[1] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾؟ أي أتظن أن هؤلاء المشركين يسمعون ما تقول لهم سماع قبول؟ أو يعقلون ما تورده عليهم من الحجج والبراهين الدالة على الوحدانية فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم؟ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي ما هم إلا كالبهائم بل هم أبشع حالاً، وأسوأ مآلاً من الأنعام السارحة، لأن البهائم تهتدي لمراعيها، وتنقاد لأربابها وتعرف من يحسن إليها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم، ثم ذكر تعالى أنواعاً من الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي ألم تنظر إلى بديع صنع الله وقدرته كيف بسط تعالى الظلَّ لأحرقت الشمس الإنسان وكدَّرت حياته ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي لو أراد سبحانه لجعله دائماً ثابتاً في مكانٍ لا يزول ولا يتحول عنه، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، ومن جهةٍ إلى جهة، فتارة يكون جهة المشرق، وتارة جهة المغرب، وأُخرى من أمام أو خلف ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي جعلنا طلوع الشمس دليلاً على وجود الظل ومدّه وقت النهار حتى يستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس المتوهجة؟ إذا لولا الظلِّ، فلولا وقوع ضوئها على الأجرام لَما عرف أن للظل وجوداً،

---

(١) «البحر المحيط» ١٦/ ٥٠١.

ولما ظهرت آثار هذه النعمة الجليلة للعباد، والأشياء إِنما تُعرف بأضدادها فلولا الظلمة ما عُرف النور، ولولا الشمسُ ما عرف الظل «وبضدها تتميز الأشياء» ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أي أزلنا هذا الظلَّ شيئًا فشيئًا، وقليلاً قليلاً لا دفعة واحدة لئلا تختل المصالح قال ابن عباس: الظلُّ من وقت طلوع الفجر إِلى وقت طلوع الشمس[١] قال المفسرون: الظلُّ هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهو يحدث على وجه الأرض منبسطًا فيما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، ثم إِن الشمس تنسخه وتزيله شيئًا فشيئًا، إلى الزوال، ثم هو ينسخ ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب ويسمى فَيْئًا، ووجه الاستدلال به على وجود الصانع الحكيم أن وجوده بعد العدم، وعدمه بعد الوجود، وتغير أحواله بالزيادة والنقصان، والانبساط والتقلص، على الوجه النافع للعباد لا بدَّ له من صانع قادر، مدبر حكيم، يقدر على تحريك الأجرام العلوية، وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن، والترتيب الأكمل وما هو إِلا الله رب العالمين[٢].

ثم أشار تعالى إِلى آثار قدرته، وجليل نعمته الفائضة على الخلق فقال ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي هو سبحانه الذي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس بزينته قال الطبري: وصف الليل باللباس تشبيهًا من حيث يستر الأشياء فصار لهم ستراً يستترون به كما يستترون بالثياب التي يكسونها[٣] ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ أي وجعل النوم راحةٌ لأبدانكم بانقطاعكم عن أعمالكم ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أي وقتًا لانتشار الناس فيه لمعايشهم، ومكاسبهم، وأسباب رزقهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أي أرسل الرياح مُبَشِّرةً بنزول الغَيْث والمطر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ أي أنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح ماءً طاهرًا مطهّرًا تشربون وتتطهرون به قال القرطبي: وصيغة ﴿طَهُورًا ﴾ بناء مبالغة في «طاهر» فاقتضى أن يكون طاهراً مطهّراً[٤] ﴿ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي لنحيي بهذا المطر أرضًا ميتةً لا زرع فيها ولا نبات ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ أي وليشرب منه الحيوان والإِنسان لأن الماء حياة كل حيّ، والناس محتاجون إِليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وسقي مواشيهم قال الإِمام الفخر: وتنكير الأنعام والأناسي لأن حياة البشر بحياة أرضهم وأنعامهم، وأكثر الناس

---

(١) «تفسير الطبري» ١٩/ ١٢، وهذا القول منقول عن مجاهد وإليه ذهب كثير من المفسرين، وقالوا: إنه أطيب الأحوال ولذلك وصف به الجنة: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ وما أثبتناه هو الراجح لأنه الظل المعروف ولفظ الشمس يرجحه وهو اختيار العلامة أبي السعود.

(٢) انظر «تفسير الرازي» ٢٤/ ٨٨ ففيه كلام جيد نفيس.

(٣) «تفسير الطبري» ١٩/ ١٤.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٩.

يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار، فهم في غنية عن شرب مياه المطر، وكثيرٌ منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر ولهذا قال ﴿أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي بشراً كثيرين لأن «فعيل» يراد به الكثرة[1] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي ضربنا الأمثال في هذا القرآن[2] للناس وبيَّنا فيه الحجج والبراهين ليتفكروا ويتدبروا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي أبى الكثير من البشر إلا الجحود والتكذيب ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ أي لو أردنا لخففنا عنك أعباء النبوة فبعثنا في كل أهل قرية نبياً ينذرهم، ولكنا خصصناك بالبعثة إلى جميع أهل الأرض إجلالاً لك، وتعظيماً لشأنك، فقابل هذا الإجلال بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي لا تطع الكفار فيما يدعونك إليه من الكفّ عن آلهتهم، وجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً بالغاً نهايته لا يصاحبه فتور ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي هو تعالى بقدرته خلى وأرسل البحرين متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي شديد العذوبة قاطع للعطش من فرط عذوبته ﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي بليغ الملوحة، مرٌّ شديد المرارة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي جعل بينهما حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على الآخر ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وهذا اختيار ابن جرير[3] وقال الرازي: ووجه الاستدلال هاهنا بيّن لأن الحلاوة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء فلا بدَّ من الاستواء، وإن لم يكن كذلك فلا بدَّ من قادر حكيم يخص كل واحد بصفة معينة[4] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ أي خلق من النطفة إنساناً سميعاً بصيراً ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي قسمهم من نطفةٍ واحدة قسمين: ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم لأن النسب إلى الآباء كما قال الشاعر:

وَإِنَّمَا أُمَّهَاتُ النَّاسِ أَوْعِيَةٌ ... مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلْآبَاءِ أَبْنَاءُ

وإناثاً يُصاهر بهن، فبالنسب يتعارفون ويتواصلون، وبالمصاهرة تكون المحبة والمودة واجتماع الغريب بالقريب ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي مبالغاً في القدرة حيث خلق من النطفة الواحدة ذكراً وأنثى. ولما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرة المشركين في عبادة الأوثان فقال ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي يعبدون الأصنام

(١) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٩١.

(٢) الضمير في ﴿صَرَّفْنَـٰهُ﴾ عائد على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر ويؤيده قوله: ﴿وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ وقيل: إنه عائد على المطر وهو - كما قال في «التسهيل» - بعيدٌ.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٣٥.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٠١.

التـي لا تنفع ولا تضر لأنها جمادات لا تُحسُّ ولا تُبصـر ولا تعقل ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي معيناً للشيطان علـى معصية الرحمن، لأنَّ عبادته للأصنام معونة للشـيطان قـال مجاهد: يظاهر الشـيطان على معصية الله ويُعينـه[1] ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي مبشـراً للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أي قل لهم يا يمحمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ أي لكـن من شـاء أن يتخـذ طريقـاً يقربه إلى الله بالإيمـان والعمل الصالح فليفعل كأنه يقول: لا أسـألكم مالاً ولا أجراً وإنما أسـألكم الإيمـان بالله وطاعته وأجري على الله ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي اعتمد في جميع أمورك على الواحد الأحد، الدائـم الباقي الذي لا يموت أبـداً، فإنه كافِيك وناصرُك ومُظْهِرٌ دينَك على سـائر الأديان ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي نـزّه الله تعالـى عمّا يصفـه هؤلاء الكفار مما لا يليق به من الشـركاء والأولاد ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي حسـبك أن الله مطَّلـع علـى أعمـال العباد لا يخفى عليه شـيء منها قـال الإمام الفخر: وهذه الكلمة يراد بهـا المبالغة كقولهم: كفى بالعلم جمالاً، وكفى بالأدب مالاً، وهي بمعنى حسـبك، أي: لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبيرٌ بأحوالهـم، قادر على مجازاتهم، وذلك وعيدٌ شـديد[2] ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أي هذا الإله العظيم الذي ينبغي أن تتوكل عليه هو القادر على كل شيء، الذي خلق السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين في كثافتها وامتدادها في مقـدار سـتة أيام مـن أيام الدنيا قال ابـن جبير: الله قادر على أن يخلقهـا في لحظة ولكن علَّـم خلقه الرفق والتثبت[3] ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ اسـتواءً يليق بجلاله من غير تشـبيه ولا تعطيـل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي هـو الرحمـن ذو الجود والإحسـان ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ أي فسَـلْ عنه من هـو خبيرٌ عارف بجلالـه ورحمته، وقيـل: الضمير يعود إلى الله أي فاسـأل اللهَ الخبيرَ بالأشـياء، العالـم بحقائقها يُطْلِعْك على جَلِيَّـة الأمر[4] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي وإذا قيل للمشـركين: اسـجدوا لربكم الرحمن الذي وسعت رحمته الأكوان ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ؟ أي من هو الرحمن؟ اسـتفهموا عنه اسـتفهام من يجهله وهم عالمون به ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه؟ ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ أي وزادهم هذا القول بعداً عن الدين ونفوراً منه.

---

(١) «تفسير الطبري» ١٩/ ١٧.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٠٣.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٠٤.

(٤) القول الأول أظهر، والثاني روى عن مجاهد. (ش): جَلِيّةُ الأمر: حقيقتُه.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام للتهكم والاستهزاء ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ ؟

٢ - التعجيب ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وفيه تقديم المفعول الثاني على الأول اعتناءً بالأمر المُتَعَجَّب منه والأصل «اتخذ هواه إلهاً له».

٣ - التشبيه البليغ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي كاللباس الذي يغطي البدن ويستره حذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

٤ - المقابلة اللطيفة بين الليل والنهار والنوم والانتشار ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

٥ - الاستعارة البديعة ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ استعار اليدين لما يكون أمام الشيء وقدّامه كما تقول: بين يدي الموضوع أو السورة.

٦ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم للتعظيم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعد قوله ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾.

٧ - المقابلة اللطيفة ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي نهاية في الحلاوة ونهاية في الملوحة.

تنبيه: الفرق بين ﴿مَيْتٍ﴾ بالتخفيف و ﴿مَيِّتٍ﴾ بالتشديد أن الأول لمن مات حقيقة والثاني لمن سيموت قال الشاعر:

أَيَـا سَائِلِي تَفْسِيرَ مَيْتٍ وَمَيِّتٍ ... فَدُونَكَ[١] قَدْ فَسَّرْتُ مَا عَنْهُ تَسْأَلُ
فَمَا كَانَ ذَا رُوحٍ فَذَلِكَ مَيِّتٌ ... وَمَا الْمَيْتُ إِلَّا مَنْ إِلَى الْقَبْرِ يُحْمَلُ[٢]

قال الله تعالى:

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ
هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾
وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾
وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ

---

(١) (ش): دُونَكَ: اسم فعل أمر بمعنى (خُذْ)، منقول عن الظرف (دون) وكاف الخطاب المتصرِّفة بحسب أحوال المخاطب «دونكَ الكتابَ- دونكم الكتابَ».

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ١٦١.

وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا
﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ
بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾
وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾
أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا
حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ
لِزَامًۢا

اللغَة: ﴿بُرُوجًا﴾ البروج: منازل الكواكب السيارة سميت بالبروج لأنها تشبه القصور العالية وهي للكواكب كالمنازل للسكان وقيل: هي الكواكب العظيمة ﴿غَرَامًا﴾ لازمًا دائمـًا غير مفارق ومنه الغريم[1] لملازمته ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ الدرجة الرفيعة في الجنة وهي في اللغة: **العَلِيَّةُ**[2]، وكل بناءٍ عالٍ فهو غرفة ﴿يَعْبَؤُاْ﴾ يبالي ويهتمُّ قال أبو عبيدة: ما أعبأ به أي وجودُه وعدمه عندي سواء، والعبء في اللغة الثقل ﴿لِزَامًۢا﴾ ملازمـًا لكم.

التفسِير: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي تمجَّد وتعظَّم الله الذي جعل في السماء تلك الكواكب العِظام المنيرة[3] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ أي وجعل فيها الشمس المتوهجة في النهار، والقمر المضيء بالليل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي يخلف كلٌّ منهما الآخر ويتعاقبان، فيأتي النهار بضيائه ثم يعقبه الليل بظلامه ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي لمن أراد أن يتذكَّر آلاء الله، ويتفكر في بدائع صنعه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي أراد شكر الله على إفضاله ونعمائه قال الطبري: جعل الله الليل والنهار يخلف كل واحدٍ منهما الآخر، فمن فاته شيء من الليل أدركه بالنهار، ومن فاته شيء من النهار أدركه بالليل[4] ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الإضافة للتشريف أي العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب إليه هم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار، لا يضربون بأقدامهم أشراً ولا بطراً، ولا يتبخترون في مشيتهم[5] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ

(١) (ش): الغَرِيمُ: الدائِن.

(٢) (ش): الْعَلِيَّةُ: بيت مرتفع عن الأرض.

(٣) قال مجاهد والحسن: البروج هي الكواكب العظام. وقال ابن عباس وعلي: هي منازل الكواكب، قال ابن كثير: والقول الأول أظهر.

(٤) «تفسير الطبري» ١٩/ ٢٠.

(٥) (ش): أَشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرح ونشِط. بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرَحِه وزَهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا.بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا. تبختر الشَّخصُ: تكبَّر، واختال. تبختر الشَّخصُ: تمايل وتثنّى معجبًا بنفسِه.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي وإذا خاطبهم السفهاء بغلظةٍ وجفاء قالوا قولاً يسْلمون فيه من الإثم قال الحسن: لا يجهلون على أحد، وإن جُهل عليهم حَلُموا ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ أي يُحيْون الليل بالصلاة ساجدين لله على جباههم، أو قائمين على أقدامهم كقوله ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] قال الرازي: لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين: ترك الإيذاء، وتحمل الأذى بيَّن هنا سيرتهم في الليالي وهو اشتغالهم بخدمة الخالق[1] ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي يدعون ربهم أن ينجيهم من عذاب النار، ويبتهلون إليه أن يدفع عنهم عذابها ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي لازماً دائماً غير مفارق ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي بئست جهنم منزلاً ومكان إقامة قال القرطبي: المعنى بئس المستقر وبئس المقام، فهم مع طاعتهم مشفقون خائفون من عذاب الله[2]، وقال الحسن: خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقاً من عذاب جهنم ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ هذا هو الوصف الخامس من أوصاف عباد الرحمن والمعنى: ليسوا مبذرين في إنفاقهم في المطاعم والمشارب والملابس، ولا مقصِّرين ومضيّقين بحيث يصبحون بخلاء ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي وكان إنفاقُهم وسطاً معتدلاً بين الإسراف والتقتير كقوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] الآية وقال مجاهد: «لو أنفقتَ مثل جبل أبي قُبيس ذهباً في طاعة الله ما كان سرفاً»[3] ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلهاً آخر، بل يوحّدونه مخلصين له الدين ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي لا يقتلون النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بما يحقُّ أن تُقتل به النفوس من كفرٍ بعد إيمان، أو زنىً بعد إحصان، أو القتل قِصاصاً ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي لا يرتكبون جريمة الزنى التي هي من أفحش الجرائم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي ومن يقترف تلك الموبقات العظيمة من الشرك والقتل والزنى يجد في الآخرة النكال والعقوبة ثم فسَّرها بقوله ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يُضاعف عقابُه ويُغلَّظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أي يُخلد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً أبد الآبدين ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي إلاّ من تاب في الدنيا التوبة النصوح وأحسن عمله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ أي يكرمهم الله في الآخرة فيجعل مكان السيئات حسنات، وفي الحديث «إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٤/١٠٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/٧٢.

(٣) «تفسير الطبري» ١٩/٢٣، وهذا على قول من فسر الإسراف بأنه الإنفاق في معصية الله، وإليه ذهب بعض المفسرين وهو منقول عن ابن عباس أيضًا والقول الأول أظهر.

الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا. رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا. فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ. فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ. لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ. فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لاَ أَرَاهَا هَا هُنَا». فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»[1] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة كثير الرحمة ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي ومن تاب عن المعاصي وأصلح سيرته فإن الله يتقبل توبته ويكون مرضيًا عند الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ هذا هو الوصف السابع من أوصاف عباد الرحمن أي لا يشهدون الشهادة الباطلة - شهادة الزور - التي فيها تضييعٌ لحقوق الناس ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أي وإذا مرُّوا بمجالس اللغو - وهي الأماكن التي يكون فيها العمل القبيح كمجالس اللهو، والسينما، والقمار، والغناء المحرَّم - مرُّوا معرضين مكرمين أنفسهم عن أمثال تلك المجالس قال الطبري: واللغوُ كلُّ كلام أو فعل باطل وكلُّ ما يُستقبَح كسَبِّ الإنسان، وذكر النكاح باسمه في بعض الأماكن، وسماع الغناءِ مما هو قبيح، كلُّ ذلك يدخل في معنى اللغو الذي يجب أن يجتنبه المؤمن[2] ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي إذا وُعظوا بآيات القرآن وخُوِّفوا بها ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يُعرضوا عنها بل سمعوها بآذانٍ واعية وقلوبٍ وجلة ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي اجعل لنا في الأزواج والبنين مسرةً وفرحًا بالتمسك بطاعتك، والعمل بمرضاتك ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي اجعلنا قُدوة يقتدي بنا المتقون، دعاةً إلى الخير هُداة مهتدين قال ابن عباس: أي أئمة يقتدى بنا في الخير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي أولئك المتصفون بالأوصاف الجليلة السامية ينالون الدرجات العالية، بصبرهم على أمر الله وطاعتهم له سبحانه ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي ويُتَلَقَّوْن بالتحية والسلام من الملائكة الكرام كقوله تعالى ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣] الآية[3] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم لا يموتون ولا يُخْرجون من الجنَّة لأنها دار الخلود ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

(١) أخرجه مسلم.
(٢) «تفسير الطبري» ١٩/ ٣٢.
(٣) (ش): قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢ - ٢٤].

أي ما أحسنها مقرًّا وأطيبها منزلاً لمن اتقى الله ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا يكترثُ ولا يحفلُ بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إيّاه في الشدائد ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي فقد كذبتم أيها الكافرون بالرسول والقرآن فسوف يكون العذاب ملازمـًا لكم في الآخرة.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات وجوهـًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٢ - الطباق بين السجود والقيام ﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ وكذلك بين الإسراف والتقتير ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾.

٣ - المقابلة اللطيفة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ مقابل قوله عن أهل النار ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

٤ - الاستعارة البديعة ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي لم يتغافلوا عن قوارع النذر حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر وهذا من أحسن الاستعارات.

٥ - الكناية ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ كناية عن الفرحة والمسرَّة كما أن ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ كناية عن الدرجات العالية في الجنة.

تنبيه: قال القرطبي: وصف تعالى «عباد الرحمن» بإحدى عشرة خصلة هي أوصافهم الحميدة من التحلِّي، والتخلِّي وهي «التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والبعد عن الشرك، والنزاهة عن الزنى والقتل، والتوبة، وتجنب الكذب، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله» ثم بين جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان»





مكية وآياتها سبع وعشرون ومائتان

بين يدي السورة

سورة الشعراء مكية وقد عالجت أصول الدين من «التوحيد والرسالة، والبعث» شأنها شأن سائر السور المكية، التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هداية للخلق، وبلْسمًا شافيًا لأمراض الإنسانية، وذكرت موقف المشركين منه، فقد كذبوا به مع وضوح آياته، وسطوع براهينه، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم عنادًا واستكبارًا.

* ثم تحدثت السورة عن طائفةٍ من الرسل الكرام، الذين بعثهم الله لهداية البشرية، فبدأت بقصة الكليم «موسى» مع فرعون الطاغية الجبار، وما جرى من المحاورة والمداورة بينهما في شأن الإله جلَّ وعلا، وما أيد الله به موسى من الحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل، وقد ذكرت في القصة حلقات جديدة، انتهت ببيان العظة والعبرة من الفارق الهائل، بين الإيمان والطغيان.

* ثم تناولت قصة الخليل إبراهيم عليه السلام، وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام، وقد أظهر لهم بقوة حجته، ونصاعة بيانه، بطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يسمع ولا ينفع، وأقام لهم الأدلة القاطعة على وحدانية رب العالمين، الذي بيده النفع والضر، والإحياء والإماتة.

* ثم تحدثت السورة عن المتقين والغاوين، والسعداء والأشقياء، ومصير كل من الفريقين يوم الدين.

* وبعد أن تابعت السورة في ذكر قصص الأنبياء «نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب» عليهم الصلاة والسلام، وبيَّنت سنة الله في معاملة المكذبين لرسله، عادت للتنويه بشأن الكتاب العزيز، تفخيمًا لشأنه، وبيانًا لمصدره ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

* ثم ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين، في زعمهم أن القرآن من تنزيل الشيطان، ليتناسق البدء مع الختام في أروع تناسق والتئام!

التسمية: سميت «سورة الشعراء» لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمدًا كان شاعرًا، وأن ما جاء به من قبيل الشعر، فردَّ الله

عليهم ذلك الكذب والبهتان بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ
وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾؟ وبذلك ظهر الحق وبان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ
عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ
مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن
كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٩) وَإِذْ
نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ
(١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ
(١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
(١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ
فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ
لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٢)
قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ
حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ
(٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ
فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨)
وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟
لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ
أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ
مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧)
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ
(٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

اللغة: ﴿بَٰخِعٌ﴾ مهلك وقال وأصل البخع: أن يبلغ بالمذبوح البخاع وهو الخرم النافذ

في ثقب الفقرات وهو أقصى حدِّ الذبح ﴿فَعَلْتَكَ﴾ الفَعْلة بفتح الفاء المرة من الفعل ﴿تَلْقَفُ﴾ تبتلع ﴿يَأْفِكُونَ﴾ من الإفك وهو الكذب ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر، والضرُّ والضير بمعنى واحد قال الجوهري: ضارَهُ يَضُورُه ضَيْراً، أي ضَرَّه قال الشاعر:

فَإِنَّكَ لَا يَضُورُكَ بَعْدَ حَوْلٍ أَظَبْيٌ كَانَ أُمَّكَ أَمْ حِمَارُ[١]

﴿مُنقَلِبُونَ﴾ راجعون ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي يخالف بين الأعضاء فيقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

التفسير: ﴿طسٓمٓ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية[٢] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي، الظاهر إعجازه لمن تأمله ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لعلك يا محمد مهلكٌ نفسك لعدم إيمان هؤلاء الكفار، فيه تسلية للرسول عليه السلام حتى لا يحزن ولا يتأثر على عدم إيمانهم ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي لو شئنا لأنزلنا آية من السماء تضطرهم إلى الإيمان قهراً ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي فتظل أعناقهم منقادةً خاضعة للإيمان قسراً وقهراً، ولكنْ لا نفعل لأنا نريد أن يكون الإيمان اختياراً لا اضطراراً قال الصاوي: المعنى لا تحزن على عدم إيمانهم فلو شئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهراً عليهم، ولكنْ سبق في علمنا شقاؤهم فأرحْ نفسك من التعب[٣] ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ما يأتي هؤلاء الكفار شيء من القرآن أو الوحي منزل من عند الرحمن ﴿مُحْدَثٍ﴾ جديد في النزول[٤]،

---

(١) البيت لخداش بن زهير ضرب مثلاً لمن ينتسب إليه الإنسان من شريف أو وضيع. (ش): ضَارَهُ الأَمْرُ يَضُورُه ويَضِيرهُ ضَوْراً وضَيْراً: ضَرَّهُ. والمعنى: لا تُبالِ بعد قيامك بنفسك واستغنائك عن أبوَيك مَن انتسبتَ إليه من شريف أو وضيع، وضُرب المثل بالظبي أو الحمار.

(٢) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة ففيه الغُنْيَة والكفاية.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ١٦٧.

(٤) معنى «محدث» أي محدث في نزوله وإلا فكلام الله قديم لا يوصف بالحدوث كما لا يوصف بأنه مخلوق. (ش): (محْدَث) في الأصْلِ من (الحُدوثِ) وهو كَونُ الشَّيءِ بعدَ أنْ لم يكنْ، والقرآن العَظيمُ حينَ كان يَنزِلُ، كان كُلَّما نزَلَ مه شيءٌ كانَ جَديداً على الناس، لَم يكونوا عَلِموه مِن قَبْلُ، فهو مُحْدَثٌ بالنسبة إلى الناسِ، ألا تراهُ قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾؟ فهو محدثٌ إليهم حين يأتيهم. وأمرُ الله عز وجل: قولُهُ وكلامُهُ، وهو غيرُ مخلوقٍ، مُحْدَثٌ بالنسْبَةِ إلى العبادِ، أي: جديدٌ عليهم، فليسَ المُحدَثُ هنا هو المخلوق، ولكنه الذي أنزلَ جَديداً، فإنَّ الله كانَ يُنْزِلُ القرآنَ شيئاً بعدَ شيْءٍ، فالمُنْزَلُ أوّلاً هو قديمٌ بالنسبةِ إلى المُنْزَلِ آخراً، وكلُّ ما تقدَّمَ على غيرِه فهو قديمٌ في لُغَةِ العرَب. ومن الخطأ وصْفُ كلام الله بأنه قديم مطلقاً، فأهلُ السنة والجماعة يقولون: إن كلام الله لأ قديم النوع حادث الآحاد، لأن الله يتكلم متى شاء، فيعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يتكلم ويقول ويتحدث وينادي، وأنَّ كلامه بصوت وحرف، وأنَّ القرآن كلامه، مُنَزَّلٌ غير مخلوق، وكلام الله من صفاته القائمة بنفسه ليس من مخلوقاته، فكلام الله صفةٌ ذاتيةٌ فعليةٌ (ذاتيةٌ باعتبار أصله وفعليةٌ باعتبار آحاده). =

ينزل وقتاً بعد وقت ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي إلاّ كذبوا به واستهزءوا ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعِبر ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي فقد بلغوا النهاية في الإعراض والتكذيب فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا واستهزءوا به، ثم نبّه تعالى على عظمة سلطانه، وجلاله قدره في مخلوقاته ومصنوعاته، الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض كم أخرجنا فيها من كل صنفٍ حسنٍ محمود، كثير الخير والمنفعة؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم الاعتبار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي إنَّ في ذلك الإنبات لآيةً باهرة تدل على وحدانية الله وقدرته ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وما كان أكثرهم يؤمن في علم الله تعالى، فمع ظهور الدلائل الساطعة يستمر أكثرهم على كفرهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي هو سبحانه الغالب القاهر، القادر على الانتقام ممن عصاه، الرحيم بخلقه حيث أمهلهم ولم يعجّل لهم العقوبة مع قدرته عليهم قال أبو العالية: العزيز في نقمته ممن خالف أمره وعبَد غيره، الرحيم بمن تاب إليه وأناب وقال «الفخر الرازي»: إنما قدم ذكر ﴿الْعَزِيزُ﴾ على ﴿الرَّحِيمُ﴾ لأنه ربما قيل: إنه رحيم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده، فإن الرحمة إذا كانت مع المقدرة الكاملة كانت أعظم وقعاً[1] ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ أي واذكر يا محمد لأولئك المعرضين المكذبين من قومك حين نادى ربك نبيَّه موسى من جانب الطور الأيمن آمراً له أن يذهب إلى فرعون وملئه ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي بأن ائت هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، واستعباد الضعفاء من بني إسرائيل ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي هم قوم فرعون، وهو عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون شيء واحد ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ؟ أي ألا يخافون عقاب الله؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم وإفراطهم في العدوان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي قال موسى: يا ربّ إني أخاف أن يكذبوني في أمر الرسالة ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ أي ويضيق صدري من تكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي ولا ينطلق لساني بأداء الرسالة على الوجه الكامل ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ فأرسلْ إلى هارون ليعينني على تبليغ رسالتك قال المفسرون: التمس موسى العذر بطلب المعين بثلاثة أعذار كلٌّ واحدٍ منها مرتب على ما

= فصفات الله عَزَّ وجَلَّ يمكن تقسيمها من حيث تعلقها بذات الله وأفعاله إلى: أ – صفات ذاتيَّة: وهي التي لم يزل ولا يزال الله متصفاً بها؛ كالعلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والوجه، واليدين... ونحو ذلك.
ب – صفات فعليَّة: وهي الصفات المتعلقة بمشيئة الله وقدرته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها؛ كالمجيء، والنُّزول، والغضب، والفرح، والضحك... ونحو ذلك، وتسمى (الصفات الاختيارية).

(١) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٢٠.

قبله وهي: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وعدم انطلاق اللسـان، فالتكذيبُ سببٌ لضيق القلب، وضيقُ القلب سـببٌ لتعسـر الكلام، وبالأخص على من كان في لسانه حُبْسة كما في قولـه ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طـه: ٢٧ - ٢٨] ثـم زاد اعتذاراً آخر بقوله ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ أي ولفرعـون وقومـه علـيَّ دعـوى ذنب وهـو أني قتلت منهم قبطيًّـا فأخاف أن يقتلـوني به ﴿قَالَ كَلَّاۖ﴾ أي قال الله تعالى له: كلاّ لـن يقتلوك قال القرطبي: وهـو ردعٌ وزجـر عن هذا الظن، وأمرٌ بالثقة بالله تعالى أي ثِقْ بالله وانزجر عن خوفك منهم فإنهـم لا يقـدرون علـى قتلـك[1] ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾ أي اذهـب أنـت وهـارون بالبراهين والمعجزات الباهرة ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ أي فأنا معكما بالعون والنصرة أسمع ما تقولان وما يجيبكما به، وصيغةُ الجمع «معكم» أريد به التثنية فكأنهما لشرفهما عند الله عامَلَهما في الخطاب معاملة الجمع تشريفـاً لهما وتعظيمـاً[2] ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي فأتيـا فرعـون الطاغية وقولا له: إنا مرسـلان مـن عند رب العالمين إليـك لندعوك إلى الهـدى ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي أطلـقْ بنـي إسـرائيل من إسـارك واسـتعبادك وخلِّ سـبيلهم حتـى يذهبوا معنا إلى الشـام ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ في الـكلام حذف يدل عليه المعنى تقديره: فأتياه فبلَّغاه الرسـالة فقال فرعون لموسى عندئذٍ: ألم نُربِّك في منازلنا صبيًّا صغيـراً؟ قصد فرعون بهذا الكلام المنَّ على موسـى والاحتقار له كأنه يقول: ألسـت أنت الـذي ربيناك صغيراً وأحسـنّا إليك فمتى كان هذا الأمـر الذي تدّعيه؟ ﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي ومكثت بين ظهرانينا سنين عديدة نحسن إليك ونرعاك؟ قال مقاتل: ثلاثين سنة ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ أي فجازيتنـا علـى أن ربينـاك أن كفـرت نعمتنـا وقتلتَ منا نفسـاً؟ والتعبيرُ بالفعلـة لتهويل الواقعة وتعظيـم الأمر، ومرادُه قتـل القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي وأنـت مـن الجاحديـن لإنعامنـا الكافرين بإحسـاننا قال ابـن عباس: من الكافريـن لنعمتي إذ لم يكن فرعون يعلم ما الكفر[3] ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي قال موسـى: فعلتُ تلك الفعلة وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله ولكنْ أردت تأديبه، ولم يقصد عليه السـلام الضلال عن الهدى لأنه معصوم منذ الصغر وقال ابن عباس: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الجاهليـن ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ أي فهربتُ إلى أرض مدين حين خفت على نفسـي أن تقتلـوني وتؤاخذوني بمـا لا أسـتحقه ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا﴾ أي فأعطاني الله

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٩٢.

(٢) هذا ما خرج به سيبويه رحمه الله الآية نقلاً عن «البحر المحيط» ٧/ ٨. (ش): وقيل: إن الاثنين أقل الجمع. أو إن المراد موسى وهارون عليهما السلام ومَن أُرسِلا إليْه.

(٣) وقال الحسن: يريد أنك من الكافرين بألوهيتي. ورجح الطبري قول ابن عباس وهو الأظهر.

النبوة والحكمة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي واختارني رسولاً إليك، فإن آمنتَ سلمتَ، وإن جحدتَ هلكتَ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي كيف تمنُّ عليَّ بإحسانك إليَّ وقد استعبدتَ قومي؟[1] فما تعدُّه نعمة ما هو إلّا نقمة قال ابن كثير: المعنى ما أحسنتَ إليَّ وربَّيْتَني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟[2] وقال الطبري: أي أتمنُّ عليَّ أن اتخذت بني إسرائيل عبيداً؟[3] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي قال فرعون متعالياً متكبراً: من هو هذا الذي تزعم أنه ربُّ العالمين؟ هل هناك إلهٌ غيري؟ لأنه كان يجحد الصانع ويقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي قال موسى: هو خالق السماوات والأرض، والمتصرف فيهما بالإحياء والإعدام، وهو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار، وجبالٍ وأشجار، ونباتٍ وثمار، وغير ذلك من المخلوقات البديعة ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصارٌ نافذة، فهذا أمر ظاهر جلي ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي قال فرعون لمن حوله من أشراف قومه على سبيل التهكم والاستهزاء: ألا تسمعون جوابه وتعجبون من أمره؟ أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته، فأجاب موسى وزاد في البيان والحجة ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم، فوجودكم دليل على وجود القادر الحكيم، عدلٌ عن التعريف العام إلى التعريف الخاص لأنَّ الأنفس أقرب من دليل الآفاق، وأوضح عند التأمل ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] فعند ذلك غضب فرعون ونسب موسى إلى الجنون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ سمَّاه رسولاً استهزاءً وأضافه إلى المخاطبين استنكافاً من نسبته له أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له، أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء، فلم يحفل موسى بسخرية فرعون وعاد إلى تأكيد الحجة بتعريفٍ ثالث أوضح من الثاني ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي هو تعالى الذي يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب، وهذا مشاهد كل يوم يبصره العاقل والجاهل ولهذا قال ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كان لكم عقول أدركتم أن هذا لا يقدر عليه إلا ربُّ العالمين، وهذا من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل كقول إبراهيم في مناظرة **النُّمْرُود**: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ولما انقطع فرعون وأُبلس في الحجة رجع إلى الاستعلاء متوعداً

(١) هذا معنى ما قاله مقاتل.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٤٥.
(٣) «تفسير الطبري» ١٩/ ٤٣.

بالبطش ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أي لئن اتخذت ربًّا غيري لَأُلْقِيَنَّكَ في غياهب السجن[١] قال المفسرون: وكان سجنه شديداً يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده لا يبصر ولا يسمع فيه أحداً حتى يموت ولهذا لم يقل «لأسجننَّك» وإنما قال لأجعلنك من المسجونين؛ لأن سجنه كان أشدَّ من القتل قال في «التسهيل»: لما أظهر فرعونُ الجهل بالله فقال ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أجابه موسى بقوله ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ تعجباً من جوابه، فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لأن وجود الإنسان وآبائه أظهرُ الأدلة عند العقلاء، وأعظم البراهين، فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم فيستدلون بها وجود خالقهم، فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطةً منه، وأيّده بالازدراء والتهكم في قوله ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يُمْكِنُ أحداً[٢] جحْدُها ولا أن يدَّعِيها لغير الله، فلما انقطع فرعون بالحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فهدَّده بالسجن، فأقام موسى عليه الحجة بالمعجزة وذكرها له بتلطف طمعًا في إيمانه[٣] ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي أتسجنني ولو جئتك بأمرٍ ظاهرٍ، وبرهان قاطع تعرف به صدقي؟ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فائت بما تقول إن كنت صادقًا في دعواك ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي رمى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة في غاية الجلاء والوضوح، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي وأخرج يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كالشمس الساطعة، لها شعاع يكادُ يغشي الأبصار ويسدُّ الأفق ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي قال فرعون لأشراف قومه الذين كانوا حوله: إن هذا لساحرٌ عظيم بارعٌ في فنِّ السحر. أراد أن يُعمِّي على قومه تلك المعجزة برميه بالسحر خشية أن يتأثروا بما رأوا ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ أي يريد أن يستولي على بلادكم بسحره العظيم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي فأي شيء تأمروني وبما تشيرون عليَّ أن أصنع به؟ لما رأى فرعون تلك الآيات الباهرة خاف على قومه أن يتبعوه، فتنزَّل إلى مشاورتهم بعد أن كان مستبدًا بالرأي والتدبير ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخِّرْ أمرهما ﴿وَٱبْعَثْ

---

(١) (ش): الغَيْهَبُ: الظُّلْمة.

(٢) (ش): أي لا يُمكِن لأحدٍ، «أحداً» منصوبة على نزع الخافض، أي: بتقدير حرف جر نُزِع من مكانه وحُذِف، فنُصِبَ الاسم المجرور بعده – مفعولاً به – ليكون نصْبُه بغير عامل نصبٍ دليلًا على المحذوف، وهي كقول المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ أي اختار موسى من قومِهِ سبعين رجلًا.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٤٦.

﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أي وأرسل في أطراف مملكتك من يجمع لك السحرة من كل مكان ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي يجيئوك بكل ساحر ماهرٍ، عليم بضروب السحر قال ابن كثير: وكان هذا من تسخير الله تعالى ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة[1] ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي فاجتمع السحرة للموعد المحدَّد وهو وقت الضحى من يوم الزينة، وهو الوقت الذي حدَّده موسى، ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد كما قال تعالى ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩][2] ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ أي قيل للناس: بادروا إلى الإجتماع لكي نتبع السحرة في دينهم إن غلبوا موسى ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ أي إن غلبنا بسحرنا موسى فهل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل؟ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي قال لهم فرعون: نعم أعطيكم ما تريدون وأجعلكم من المقربين عندي ومن خاصة جلسائي ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ في الكلام إيجاز دلَّ عليه السياق تقديره: فقالوا لموسى عند ذلك إمَّا أن تُلقي وإما أن نكون نحن الملقين كما ذكر في الأعراف فأجابهم موسى بقوله ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي ابدءوا بإلقاء ما تريدون فأنا لا أخشاكم، قاله ثقةً بنصرة الله له وتوسلاً لإظهار الحقِّ ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ أي فألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي وقالوا عند الإلقاء: نقسم بعظمة فرعون وسلطانه إنّا الغالبون لموسى ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي فألقى موسى العصى فانقلبت حية عظيمة فإذا هي تبتلع وتَزْدَرِدُ[3] الحبال والعِصيّ التي اختلقوها باسم السحر حيث خيلوها للناس حياتٍ تسعى، وسمّى تلك الأشياء إفكاً مبالغةً ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي سجدوا لله رب العالمين، بعدما شاهدوا البرهان الساطع، والمعجزة الباهرة ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ أي وقالوا عند سجودهم: آمنا بالله العزيز الكبير الذي يدعونا إليه موسى وهارون قال الطبري: لما تبيّن للسحرة أن الذي جاءهم موسى حقٌّ لا سحر، وأنه مما لا يقدر عليه غيرُ الله الذي فطر السماوات والأرض، خرّوا لوجوههم سجداً لله مذعنين له بالطاعة قائلين: آمنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته، دون فرعون وملئه[4] ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي قال فرعون للسحرة: آمنتم لموسى

---

(١) «تفسير الطبري» ١٩/ ٤٦.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٤٧.

(٣) (ش): ازْدَرَدَ اللُّقمةَ: التَهَمَها، ابتلعها بسرعةٍ.

(٤) «تفسير الطبري» ١٩/ ٤٦.

قبل أن تستأذنوني؟ ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي إنه رئيسكم الذي تعلمتم منه السحر وتواطأتم معه ليظهر أمره، أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق قال ابن كثير: وهذه مكابرة يعلم كل أحدٍ بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل[1]، ثم توعَّدهم بقوله ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون عند عقابي وَبالَ ما صنعتُم من الإيمان به[2] ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي لأقطعنَّ يد كل واحد منكم اليمنى ورجله اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولأصلبنَّ كل واحد منكم على جذع شجرة وأتركه حتى الموت ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي لا ضرر علينا في وقوع ما أوعدتنا به، ولا نبالي به لأننا نرجع إلى ربنا مؤملين غفرانه ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أي إنا نرجو أن يغفر لنا الله ذنوبنا التي سلفت منا قبل إيماننا به فلا يعاقبنا بها ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بسبب أن بادرنا قومنا إلى الإيمان وكنا أول من آمن بموسى.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الكناية اللطيفة ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ كنّى به عن الذل والهوان الذي يلحقهم بعد العز والكبرياء.

٢ - الوعيد والتهديد ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٣ - التوبيخ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام للتوبيخ على تركهم النظر بعين الاعتبار.

٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾.

٥ - جناس الاشتقاق ﴿رَسُولُ.. أَرْسِلْ﴾.

٦ - الجناس الناقص ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ فقد اتفقت الحروف بين (فعلتَ وبين فعْلة) واختلف الشكل فأصبح جناساً غير تام.

٧ - الإيجاز بالحذف ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ دلَّ على هذا الحذف السياق تقديره فأتيا فرعون فقالا له ذلك فقال لموسى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ وكذلك هناك إيجاز في ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ قال الزمخشري: أصلُه أرسلْ جبريل إلى هارون واجعله نبياً وآزرني به واشدد به عضدي فأحسن في الاختصار غاية الإحسان[3].

---

(١) «الكشاف» ٣/ ٢٣٨. (ش): الصواب: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٦)؛ فالقائل ابن كثير وليس الزمخشري.

(٢) (ش): الوَبال: سُوءُ العاقبة.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٢٣٨.

٨ – صيغة التعجيب ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾.
٩ – التأكيد بإِنَّ واللام لأن السامع متشكك ومتردد ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ومثله قول السحرة في بدء المناظرة ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وهذا من خصائص علم البيان.
١٠ – الطباق بين ﴿ٱلْمَشْرِقِ .. وَٱلْمَغْرِبِ﴾ ثم توافق الفواصل وهو من السجع البديع.

لطيفة: إن قيل كيف قال موسى في بدء مناظرته لفرعون وقومه ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ ثم قال آخراً ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فالجواب أنه تلطَّف ولايَنَ أولاً طمعاً في إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ .. لَمَجْنُونٌ﴾ فسلك موسى طريق الحكمة.

قال الله تعالى:

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧)
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ
قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن
مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨) وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا۟ نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ
وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦)
فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا
مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ
ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ
(٨٤) وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا
يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ
(٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ
(٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ
نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ
أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

المناسَبَة: ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة سبع قصص: أولها قصة موسى

وهـارون، وثانيها قصـة إبراهيـم، وثالثها قصة نـوح، ورابعها قصة هود، وخامسـها قصة صالح وسادسـها قصة لوط وسابعها قصة شعيب، وكل تلك القصص لتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من المشركين، ولا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى عليه السلام.

اللغَة: ﴿أَسْرِ﴾ من الإسراء وهو السير ليلًا فلا يقال لمن سار نهاراً أسرى وإنما هو خاصٌّ بالليل ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ الشرذمة: الجمع القليل الحقير والجمع شراذم قال الجوهري: الشرذمة الطائفةُ من الناس، والقطعةُ من الشـيء، وثوبٌ شـراذم أي قطـع[١] ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ قرَّبنا ومنه ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قُرِّبت قال الشاعر:

وَكُـلّ يَـوْم مَضَى أَوْ لَيْلَة سَلَفَتْ ... فِيهَا النُّفُوس إِلَى الْآجَال تَزْدَلِف[٢]

﴿فَكُبْكِبُوا﴾ كَبْكَبَ الشـيء: قلبَ بعضه على بعض قال ابـن عطية: وهو مضاعف من كـبَّ وهو قول الجمهـور مثل صرّ، وصَرْصَر، وقال الزمخشـري: الكبكبـة: تكرير الكبِّ جُعـل التكريـر في اللفـظ دليلاً علـى التكرير في المعنى كأنـه إذا أُلقي في جهنـم ينكبُّ مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها[٣] ﴿حَمِيمٍ﴾ الحميـم: الصديق الخالص الذي يهمه ما أهمَّك ﴿كَرَّةً﴾ الكرة: العودة والرجوع مرة أُخرى.

التفسِـير: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي أمَرْنا موسـى بطريق الوحي أن يسير ليلاً إلـى جهة البحر ببني إسـرائيل قال القرطبي: أمر الله موسـى أن يخرج ببني إسـرائيل ليلاً، وسـمّاهم عباده لأنهم آمنوا بموسـى[٤] ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم إلـى أرض مصر ويقتلوكـم ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أي أرسـل فرعون في طلبهم حين أَخبر بمسـيرهم وأمر أن يُجمع له الجيش مـن كل المُدُن قائلاً لهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي طائفـة قليلـة قـال الطبري: كان بنو إسـرائيل سـتمائة وسـبعين ألفـاً[٥] ولكنه قلَّلهم بالنسـبة إلى كثرة جيشـه ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ أي وإنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنـا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي ونحن قوم متيقظون منتبهون، من عادتنا التيقظ والحذر، واسـتعمالُ الحـزم في الأمور قال الزمخشـري: وهذه معاذير اعتذر بهـا إلى قومه لئلا يظن بـه ما يكسـر من قهـره وسـلطانه[٦]، قـال تعالـى ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي أخرجنا

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٠١.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٤٠.
(٣) «الكشاف» ٣/ ٢٥٣.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٠٠.
(٥) «تفسير الطبري» ١٩/ ٤٦. (ش): رواه ابن جرير الطبري عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عامر بن عبد الله بن مسعود، وعامر بينه وبين موسى عليه السلام مئات أو آلاف السنين.
(٦) «الكشاف» ٣/ ٢٤٨.

فرعـون وقومه من بسـاتين كانت لهم وأنهـار جاريـة ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أي وأخرجناهم مـن الأمـوال التي كنزوها من الذهـب والفضة، ومـن المنازل الحسـنة والمجالس البهية ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي مثـل ذلك الإخراج الذي وضعناه فعلنا بهم، وأورثنا بني إسـرائيل ديارهم وأموالهم بعد إغراق فرعون وقومه ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أي فلحقوهم وقت شـروق الشـمس ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أي فلما رأى كلٌّ منهما اللآخر، والمراد جمعُ موسـى وجمـع فرعـون ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي: مُلحقـون يلحقنـا فرعـون وجنـوده فيقتلوننا، قالوا ذلك حين رأوا فرعون الجبار وجنـوده وراءهم، والبحر أمامهم، وساءت ظنُونُهم ﴿ قَالَ كَلَّآ ﴾ أي قال موسى كلاَّ لن يدركوكم فارتدعوا عن مثل هذا الكلام وانزجـروا ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ إنَّ ربـي معي بالحفـظ والنصرة، وسـيهديني إلى طريق النجـاة والخـلاص قال الرازي: قوَّى نفوسـهم بأمريـن: **أحدهما** أن ربه معـه وهذا دلالة النصـرة والتكفـل بالمعونة، **والثاني** قولـه ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ أي إلأى طريـق النجاة والخلاص، وإذا دلَّـه علـى طريـق نجاته وهـلاك أعدائه فقـد بلغ النهايـة في النصـرة[1] ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ أي أمرنـا موسـى بطريـق الوحـي أن يضرب البحـر بعصاه ﴿ فَٱنفَلَقَ ﴾ أي فضربه فانشق وانفلق ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي فكان كل جزء منه كالجبل الشـامخ الثابت قال ابن عباس: صار فيه اثنا عشـر طريقـاً لكل سبطٍ منهم طريق[2] ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ أي وقربنـا هناك فرعون وجماعتـه حتى دخلوا البحر على إثر دخول بنـي إسـرائيل ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أنجينـا موسـى والمؤمنين معـه جميعـاً ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ أي أغرقنـا فرعـون وقومه قال المفسـرون: لما انفلـق البحر جعله الله يبَسـاً لموسـى وقومه، وصار فيه اثنا عشـر طريقـاً ووقف الماء بينهـا كالطود العظيم، فلما خرج أصحاب موسـى وتكامل دخول أصحاب فرعون أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقـوا فيـه، فقال بعض أصحاب موسـى: ما غرق فرعون! فنبذ على سـاحل البحر حتى نظـروا إليـه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ أي إنَّ في إغراق فرعون وقومه لعبرة عظيمة على إنجاء الله لأوليائـه، وإهلاكه لأعدائه ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي ومع مشـاهدة هذه الآية العظمى لـم يؤمن أكثر البشر، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيدٌ لمن عصاه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقـم من أعدائه الرحيـم بأوليائه ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ هذه بدايـة قصة إبراهيم

(١) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٣٨.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٤٩.

أي اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم الهام وشأنه العظيم[١] ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي حين قال لأبيه وعشيرته: أيَّ شيءٍ تعبدون؟ سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبيّن لهم سفاهة عقولهم في عبادة ما لا ينفع، ويقيم عليهم الحجة ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي نعبد أصناماً فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار، وكان يكفيهم أن يقولوا: نعبد الأصنام ولكنهم زادوا في الوصف كالمفتخر بما يصنع ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ أي قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ: هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء؟ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي وهل يبذلون لكم منفعة، أو يدفعون عنكم مضرة؟ ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم قال «أبو السعود»: اعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر بالمرَّة، واضطروا إلى إظهار الحقيقة وهي أنه لا سند لهم سوى التقليد[٢]، وهذا من علامات انقطاع الحجة ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ أي قال إبراهيم: أفرأيتم هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله أنتم وآباؤكم الأولون؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فإن هذه الأصنام أعداء لي لا أعبدهم، ولكن أعبد الله ربَّ العالمين فهو وليي في الدنيا والآخرة، أسند العداوة لنفسه تعريضاً به وهو أبلغ في النصيحة من التصريح ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي اللهُ الذي خلقني هو الذي يهديني إلى طريق الرشاد لا هذه الأصنام ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ أي هو تعالى الذي يرزقني الطعام والشراب فهو الخالق الرازق الذي ساق المُزْن، وأنزل المطر، وأخرج به أنواع الثمرات رزقاً للعباد ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي وإذا أصابني المرض فإنه لا يقدر على شفائي أحدٌ غيره، وإنما أسند المرض إلى نفسه ﴿مَرِضْتُ﴾ وأسند الشفاء إلى الله رعايةً للأدب، وإلاّ فالمرض والشفاء من الله جل وعلا فاستعمل في كلامه حسن الأدب ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي وهو تعالى المحيي المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء حيث يُجازى العباد بأعمالهم، وفيه تعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم ويقرُّوا بخطاياهم ﴿رَبِّ هَبْ

---

(١) قال «الفخر الرازي»: ذكر تعالى في أول السورة حزن النبي ﷺ بسبب كفر قومه، ثم ذكر قصة موسى ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم ليعرف محمد أيضًا أن حزن إبراهيم بهذا السبب كان أشد من حزنه، لأن من عظيم المحنة على إبراهيم أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بالدعاء والتنبيه. «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٤٢.

(٢) «أبو السعود» ٤/ ١٠٩.

لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي هب لي الفهم والعلم والحقني في زمرة عبادك الصالحين ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أي اجعلْ لي ذكراً حسناً وثناءً عاطراً ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أي فيمن يأتي بعدي إلى يوم القيامة، أُذكَر به ويُقتَدَى بي[١] قال ابن عباس: هو اجتماعُ الأمم عليه، فكلُّ أمةٍ تتمسك به وتُعظّمه ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي من السعداء في الآخرة الذين يستحقون ميراث جناتِ الخُلد ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ ﴾أي اصفح عنه واهده إلى الإيمان ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي ممن ضلَّ عن سبيل الهدى قال الصاوي: وقد أجابه الله تعالى في جميع دعواته سوى الدعاء بالغفران لأبيه[٢] وقال القرطبي: كان أبوه وعده أن يؤمن به فلذلك استغفر له، فلما بان له أنه لا يَفِي تبرأ منه[٣] ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا تُذلَني ولا تُهِنِّي يومَ تبعثُ الخلائق للحساب، وهذا تواضعٌ منه أمام عظمة الله وجلاله وإلا فقد أثنى الله عليه بقوله ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠] الآية ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب لا ينفع أحداً فيه مالٌ ولا ولد ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ﴾أي: إلا من جاء ربَّه في الآخرة ﴿ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي بقلب نقيٍّ طاهر، سليم من الشرك والنفاق، والحسد والبغضاء، وإلى هنا تنتهي دعوات الخليل إبراهيم ثم قال تعالى ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قُرِّبت الجنة للمتقين لربهم ليدخلوها قال الطبري: وهم الذين اتقوا عقابَ الله بطاعتهم إيّاه في الدنيا[٤] ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي وأُظهِرَتِ النارُ للمجرمين الضالين حتى رأوها بارزة أمامهم مكشوفة للعيان، فالمؤمنون يرون الجنة فتحصل لهم البهجة والسرور، والغاوون يرون جهنم فتحصل لهم المساءة والأحزان ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي قيل للمجرمين على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أين آلهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأنداد؟ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي هل ينقذونكم من عذاب الله، أو يستطيعون أن يدفعوه عن أنفسهم؟ وهذا كله توبيخ ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾أي أُلقُوا على رُءُوسهم في جهنم قال مجاهد: «دُهْوِرُوا

---

(١) قال بعض العلماء: في الآية دليل على استحباب كسْب الذكر الجميل إذ هو الحياة الثانية وأنشدوا: «قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ».

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ١٧٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١١٤. (ش): الذي في «تفسير القرطبي»: «... لَكِنَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، إِنَّمَا جَرَى لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ أَسْلَمَ، فَلَمَّا بَانَ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يُسْلِمْ تَبَرَّأَ مِنْهُ». اهـ. وقد ردَّ أبو حيان الأندلسي على من قال إن آزر قد وعد إبراهيم عليه السلام أن يؤمن به فقال في «البحر المحيط» في التفسير» (٧/ ٢٧٢): «وَقَوْلُ مَنْ قَالَ إِنَّمَا اسْتَغْفَرَ لَهُ لِأَنَّهُ وَعَدَهُ أَنْ يُؤْمِنَ مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِهِ ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ فَجَعَلَ الْوَاعِدَ آزَرَ وَالْمَوْعُودَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ بِجَيِّدٍ؛ لِاعْتِقَابِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْوَعْدَ بِالِاسْتِغْفَارِ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَوْلِ الجافي في قَوْلِهِ ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ الْآيَةَ. فَكَيْفَ يَكُونُ وَعْدُهُ بِالْإِيمَانِ؟ وَلِأَنَّ الْوَاعِدَ هُوَ إِبْرَاهِيمُ.

(٤) «تفسير الطبري» ١٩/ ٥٥.

في جهنم»[١]. وقال الطبري: رُمي بعضُهم على بعض، وطُرح بعضُهم على بعض مُنكَبِّين على وجوههم[٢] ﴿هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ أي الأصنامُ والمشركون والعابدون والمعبودون كقوله: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ أي وأتباعُ إبليس قاطبة من الإنس والجن ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾ أي قال العابدون لمعبوديهم وهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي نقسم بالله لقد كنا في ضلالٍ واضح وبعدٍ عن الحق ظاهر ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي حين عبدناكم مع رب العالمين وجعلناكم مثله في استحقاق العبادة ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي وما أضلنا عن الهدى إلاّ الرؤساء والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ أي ليس لنا من يشفع لنا من هول هذا اليوم ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ أي ولا صديقٍ خالص الود ينقذنا من عذاب الله ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ أي لو أن لنا رجعةً إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي فنؤمن بالله ونحسن عملنا ونطيع ربنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ أي إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم وقومه لعبرةً يعتبر بها أولو الأبصار ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: وما كان أكثر هؤلاء المشركين الذين تدعوهم إلى الإسلام بمؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإيجاز بالحذفِ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي فضرب البحر فانفلق.

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي كالجبل في رسوخه وثباته ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

٣ - الطباق بين ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ وكذلك بين ﴿يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾.

٤ - مراعاة الأدب ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ لم يقل: وإذا أمرضني بل أسند المرض لنفسه تأدباً مع الله لأنَّ الشرَّ لا يُنسب إليه تعالى أدباً، وإن كان المرضُ والشفاء كلاهما من الله.

٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ﴾ استعار اللسان للذكر الجميل والثناء الحسن وهو من ألطف الاستعارات.

٦ - المقابلة البديعة ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ مقابل قوله عن السعداء ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) (ش): دَهْوَرَ الشَّيءَ: جمَعه وقذف به من أعلى إلى أسفل.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩/ ٥٥.

٧ - مراعاة الفواصل في أواخر الآيات مثل ﴿لِلْمُتَّقِينَ، لِلْغَاوِينَ، ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهو من السجع الحسن الذي يزيد في جمال البيان.

تنبيه: «روي أن إِبْرَاهِيمَ يَلْقَى أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؛ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ انظر تَحْتَ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ - ذكر من الضباع - تلطخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ» رواه البخاري.

قال الله تعالى:

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾
۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ
بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا
أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا
إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ
نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا
فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ

رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾
قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾
وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

المناسَبة: لما قصَّ تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى وإبراهيم أتبعه بذكر قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وكلُّ ذلك تسليةٌ لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من قومه، وبيانٌ لسنة في الله عقاب المكذبين.

اللغة: ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء يقال: شحنَ السفينةَ أي ملأها بالناس والدواب والطعام ﴿رِيعٍ﴾ الرِّيع: ما ارتفع من الأرض، والرِّيعُ: الطريق ﴿مَصَانِعَ﴾ المراد بها الحصون المشيَّدة وهو قول ابن عباس؛ قال الشاعر:

تَرَكْنَا دِيَارَهُمْ مِنْهُمْ قِفَارًا ... وَهَدَّمْنَا الْمَصَانِعَ وَالْبُرُوجَا (١)

﴿بَطَشْتُم﴾ البطش: السطوةُ والأخذ بالعنف يقال: بطَش يبطِشُ إذا أخذه بشدة وعنف ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ الخليقة قال الهروي: الجبلَّة والجِبلُّ: الجمع ذو العدد الكثير من الناس ومنه قوله ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] أي ناساً كثيرين ويقال: جُبل فلانٌ على كذا أي خُلق ﴿كِسَفًا﴾ جمع كِسْفة وهي القطعة من الشيء.

التفسير: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذَّب قوم نوح رسولهم نوحاً، وإنما قال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي أخوهم في النسب لا في الدين لأنه كان منهم قال الزمخشري: وهذا من قول العرب: يا أخا بني

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٢٣. (ش): تَرَكْنَا دِيَارَهُمْ مِنْهُمْ قِفَارًا: تَرَكْنَا دِيَارَهُمْ خالية مِنْهُمْ. بُرُوجٍ: حصون.

تميم يريدون يا واحداً منهم ومنه بيت الحماسة: «**لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ**»[١] ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون عقاب الله في عبادة الأصنام؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني لكم ناصح، أمينٌ في نصحي لا أخون ولا أكذب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي خافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ما أطلب ثوابي وأجري إلا من الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرره تأكيداً وتنبيهاً على أهمية الأمر الذي دعاهم إليه ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أي أنصدّقك يا نوح فيما تقول ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي والحال أن أتباعك هم السفلة والفقراء والضعفاء؟ قال «البيضاوي»: وهذا من سخافة عقلهم، وقصور رأيهم فقد قصروا الأمر على حطام الدنيا حتى جعلوا اتّباع الفقراء له مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بدعوة نوح[٢] ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ليس عليَّ أن أبحث عن خفايا ضمائرهم، وأن أُنقّب عن أعمالهم هل اتبعوني إخلاصاً أو طمعاً؟ قال القرطبي: كأنهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء طمعًا في العزة والمال فقال في جوابهم: إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليَّ ظاهرهم[٣] ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي ما حسابهم وجزاؤهم إلا على الله فإنه المطّلع على السرائر والضمائر لو تعلمون ذلك ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عني، ولا بطاردهم عن مجلسي قال أبو حيان: وهذا مشعرٌ بأنهم طلبوا منه ذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد من آمن من الضعفاء[٤] ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما أنا إلا نذير لكم من عذاب الله، أخوفكم بأسه وسطوته فمن أطاعني نجا سواءٌ كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي لئن لم تنته عن دعوى الرسالة وتقبيح ما نحن عليه لتكونَنَّ من المرجومين بالحجارة، خَوَّفوه بالقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوحٍ من فلاحهم فدعا عليهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ أي قال نوح: يا ربّ إن قومي كذّبوني ولم يؤمنوا بي ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي فاحكم بيني وبينهم بما تشاء، واقض بيننا بحكمك العادل

---

(١) «الكشاف» ٣/ ٢٥٤. (ش):

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا.

نائِبَة: مصيبة شديدة، ما ينزل بالمرء من الكوارث والحوادث المؤلمة. أي لا يسألون صاحبهم دليلًا على ما قاله حين يناديهم برَفْع صوته في المصائب الشديدة.

(٢) «البيضاوي» ٢/ ٧٦.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٢٠.

(٤) «البحر المحيط» ٧/ ٣٢.

﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنقذني والمؤمنين معي من مكرهم وكيدهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي فأنجينا نوحاً ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بالرجال والنساء والحيوان ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي لعبرة عظيمة لمن تفكر وتدبَّر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي وما أكثر الناس بمؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وإن ربك يا محمد لهو الغالب الذي لا يُقهر، الرحيم بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة، ثم شرع تعالى في ذكر قصة «هود» فقال ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذبت قبيلة عاد رسولهم هوداً، ومن كذَّب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم لغيره! ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي أمينٌ على الوحي ناصح لكم في الدين ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فخافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لا أطلب منكم على تبليغ الدعوة شيئاً من المال إنما أطلب أجري من الله، كررت الآيات للتنبيه إلى أنَّ دعوةَ الرسل واحدة ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾؟ استفهامٌ إنكاري أي أتبنون بكل موضع مرتفع من الطريق بناءً شامخاً كالعَلَم لمجرد اللهو والعبث؟ قال ابن كثير: الريع المكان المرتفع كانوا يبنون عند الطرق المشهرة بنياناً محكماً هائلاً باهراً لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيُهم عليه السلام ذلك لأنه تضييعٌ للزمان، وإتعابٌ للأبدان، واشتغال بما لا يُجدي في الدنيا ولا في الآخرة[١] ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي وتتخذون قصوراً مشيَّدة محكمة ترجون الخلود في الدنيا كأنكم لا تموتون؟ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي وإذا اعتديتم على أحد فعلتم فعل الجبارين من البطش دون رأفةٍ أو رحمة، وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صادر عن ظلم عادة الجبابرة المتسلطين[٢] قال الفخر: وصفَهم بثلاثة أمور: اتخاذ الأبنية العالية وهو يدل على السرف وحب العلو، واتخاذ المصانع - القصور المشيَّدة والحصون - وهو يدل على حب البقاء والخلود، والجَبَّارية وهي تدل على حب التفرد بالعلو، وكلُّ ذلك يشير على أن حبَّ الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه حتى خرجوا عن حَدّ العبودية، وحاموا حول ادعاء الربوبية، وحبُّ الدنيا رأسُ كل خطيئة[٣] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي خافوا الله واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمري، ثم شرع يُذَكِّرهم

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٥٣.
(٢) (ش): لعل الصواب: وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صادر عن ظلمٍ وهو عادةُ الجبابرة المتسلطين.
(٣) «التفسير الكبير» بشيء من الاختصار ٢٤/ ١٥٧.

نِعَمَ الله فقال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي أنعم عليكم بأنواع النعم والخيرات ﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ أي أعطاكم أصول الخيرات من المواشي والبنين، والبساتين، والنهار، وأغدق عليكم النعم فهو الذي يجب أن يُعْبد ويُشْكر ولا يُكفر ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي أخشى عليكم إن لم تشكروا هذه النعم واشركتم وكفرتم عذاب يوم هائل تشيب لهوله الولدان.

دعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، وبلغ في دعائهم بالوعظِ والتخويفِ النهاية القصوى في البيان فكان جوابهم ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أي يستوي عندنا تذكيرك لنا وعدُمه، فلا نبالي بما تقول، ولا نَرْعَوِي عمّا نحن عليه [1] قال أبو حيان: جعلوا قولهوعْظًا على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوَّفهم به إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به، وأنه كاذبٌ فيما ادَّعاه[2] ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به إلا كذبُ وخرافاتُ الأولين ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ أي فكذبوا رسولهم هوداً فأهلكناهم بريحِ صرصرٍ عاتية قال ابن كثير: وكان إهلاكهم بالريح الشديدة الهبوب، ذاتِ البرد الشديد وهي الريح الصرصر العاتية، وكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيءٍ وأجبره، فسلَّط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد، فحصبت الريح كل شيء حتى كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه، وترفعه في الهواء ثم تنكّسه على أم رأسه، فتشدخ رأسه ودماغه[3] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ أي إن في إهلاكهم لَعِظَةً وعِبرةً ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي وما آمن أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات الباهرة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وإن ربك يا محمد لهو العزيزُ في انتقامه من أعدائه، الرحيمُ بعباده المؤمنين، ثم شرع تعالى في ذكر قصة «صالح» فقال ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي كذبت قبيلة ثمود نبيَّهم «صالحاً» ومن كذَّب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره! ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كررت الآيات للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة، فكل رسولٍ يذكِّر قومه بالغاية من بعثته ورسالته، وأنها لصالح البشر ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ أي أيتركم ربكم في هذه الدنيا آمنين، مخلّدين في النعيم، كأنكم باقون في الدنيا بلا موت؟ قال ابن عباس: كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم، قال القرطبي: ودل على هذا قولُه تعالى

(١) (ش): ارعوى الشَّخصُ عن غيِّه: كفَّ عنه وارتدَع.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٣٣.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٥٤ بشيء من الإيجاز

﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] فقرَّعهم صالح ووبَّخهم وقال: أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت[١] ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ أي في بساتين وأنهار جاريات ﴿وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ أي وسهولٍ فسيحة فيها من أنواع الزروع والنخيل الرطب اللين؟ أتتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء قال المفسرون: كانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل فذكّرهم صالحٌ بنعم الله الجليلة من إنبات البساتين والجنات، وتفجير العيون الجاريات، وإِخراج الزروع والثمرات، ومعنى «الهضيم» اللطيف الدقيق وهو قول عكرمة، وقال ابن عباس معناه: اليانع النضيج[٢] ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ أي وتبنون بيوتاً في الجبال أَشِرين بطِرِين[٣] من غير حاجةٍ لسكناها قال الرازي: وظاهر هذه الآيات يدل على أنَّ الغالب على قوم «هود» هو اللذاتُ الخيالية وهي الاستعلاء، والبقاء، والتجبر، والغالب على قوم «صالح» هو اللذاتُ الحسية وهي طلب المأكول، والمشروب، والمساكن الطيبة[٤] وقال الصاوي: كانت أعمارهم طويلة فإِن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم، لأن الواحد منهم كان يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف[٥] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فاتقوا عقاب الله وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي ولا تطيعوا أمر الكبراء المجرمين ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ أي الذين عادتهم الفساد في الأرض لا الإِصلاح قال الطبري: وهم الرهط التسعة الذين وصفهم الله بقوله ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾[٦] [النمل: ٤٨] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي من المسحورين سُحِرْتَ حتى غُلبَ على عقلك. قال المفسرون: والمُسَحَّر مبالغةٌ من المسحور ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أي لستَ يا صالح إلا رجلاً مثلنا، فكيف تزعم أنك رسول الله ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فأتنا بمعجزة تدل على صدقك ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ أي هذه معجزتي إليكم وهي الناقة التي تخرج من الصخر الأصم بقدرة الله قال المفسرون: روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عُشراء - حامل - تخرج من

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٢٧.

(٢) حكى القرطبي في معنى «الهضيم» اثني عشر قولاً كذا في «تفسيره» ١٣/ ١٢٨. (ش): ينَع الثَّمرُ: نضج، طاب وحان قِطافه. نضيج: ناضجٌ جيِّد النُّضج.

(٣) (ش): أشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرِح ونشِط. بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٥٩.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ١٧٩.

(٦) «تفسير الطبري» ١٩/ ٦٣.

صخرة معينة وتلد أمامهم، فعد صالح عليه السلام يتفكر فجاءه جبريل فقال: صلِّ ركعتين وسل ربك الناقة ففعل، فخرجت الناقة وولدت أمامهم وبركت بين أيديهم فقال لهم هذه ناقة يا قوم[١] ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي تشرب ماءكم يوماً، ويوماً تشربون أنتم الماء قال قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كلَّه، وشرْبُهم في اليوم الذي لا تشرب هي فيه[٢]، وتلك آيةٌ أخرى ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي لا تنالوها بأيِّ ضرر بالعقر أو بالضرب ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي فيصيبكم عذاب من الله هائل لا يكاد يوصف قال ابن كثير: حذَّرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، تَرِدُ الماء وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً وريًّا، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالئوا على قتلها وعقرها[٣] ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ أي فقتلوها رمياً بالسهام، رماها أشقاهم - قُدار بن سالف - بأمرهم ورضاهم فأصبحوا نادمين على قتلها خوف العذاب قال الفخر: لم يكن ندمهم ندم التائبين، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل[٤] ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي العذاب الموعود، وكان صيحةً خمدت لها أبدانهم، وانشقت لها قلوبهم، وزُلزلت الأرض تحتهم زلزالاً شديداً، وصُبَّت عليهم حجارة من السماء فماتوا عن آخرهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي لعظة وعبرة لمن عقل وتدبَّر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيرها فيما سبق، ثم شرع تعالى في ذكر قصة «لوط» فقال ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذبوا رسولهم لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون عقاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره! ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نفسُ الكلمات والألفاظ التي قالها من قبلُ صالحٌ، وهودٌ، ونوح مما يؤكد أن دعوة الرسل واحدة، وغايتها واحدة، وأن منشأها هو الوحي السماوي، ثم قال لهم لوط ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخ وتقريع أي أتنكحون الذكور في أدبارهم، وتنفردون بهذا الفعل الشنيع من بين سائر الخلق؟ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ قال لمجاهد: تركتم فروج النساء إلى أدبار الرجال[٥] ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي بل أنتم قوم مجاوزون الحدَّ في الإجرام والفساد، وبَّخهم على إتيانهم الذكور، ثم أضرب

(١) انظر حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٧.
(٢) (ش): أي ويشربوا هم في اليوم الذي لا تشرب هي فيه.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٥٦. (ش): تَمَالأَ الْقَوْم على كَذَا: اجْتَمعُوا وتعاونوا عَلَيْهِ.
(٤) «تفسير الرازي» ٢٤/ ٦٠.
(٥) «زاد المسير» ٦/ ١٤٠.

عنه إلى ما هو أبلغ في التوبيخ كأنه يقول: خرجتم عن حدود الإنسانية إلى مرتبة البهيمية بعدوانكم وارتكابكم هذه الجريمة الشنيعة، فالذكر من الحيوان يأنف عن إتيان الذكر، وأنتم فعلتم ما يتورع عنه الحيوان ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي لئن لم تترك تقبيحَ ما نحن عليه لنُخْرِجَنَّك مِن بين أظهرنا وننْفِيك من بلدنا كما فعلنا بمن قبلك، توعدوه بالنفي والطرد ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي إني لعملكم القبيح من المبغضين غاية البغض وأنا بريء منكم ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ اي نجني من العذاب الذي يستحقونه بعملهم القبيح أنا وأهلي. قال تعالى ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي نجيناه مع أهله جميعاً إلا امرأته كانت من الهالكين الباقين في العذاب قال ابن كثير: والمراد بالعجوز امرأته فقد كانت عجوز سوء، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها حين أمره الله أن يسريَ بأهله إلا امرأته[1] ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي أهلكناهم أشَدَّ إهلاكٍ وأفظعه بالخَسْف والحَصْب[2] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي أمطرنا عليهم حجارة من السماء كالمطر الزاخر ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي بئس هذا المطر مطر القوم المُنْذرين الذين أنذرهم نبيهم فكذبوه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي إنَّ في ذلك لعبرة وعظة لأولي البصائر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيره، ثم شرع تعالى في ذكر قصة «شعيب» فقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذَّب أصحاب مدين نبيهم شعيباً قال الطبري: والأيكةُ: الشجرُ الملتف وهم أهل مدين[3] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سبق تفسيره ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ أي أوفوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٥٧.

(٢) (ش): الخَسْف: الْخَسْفُ: أَنْ تَنْهَارَ الأَرْضُ بِالشَّيْءِ، خسَف اللهُ بهم الأرضَ: غيَّبهم فيها. الحَصْب: أن يُمْطرهم الله بحجارة من السماء فتقتلهم. والقول بأن عذاب قوم لوط كان بالخَسْف والحَصْب قاله الشوكاني في «فتح القدير» (٤/ ١٣٢)، (٤/ ٢٣٣). وذكره البغوي في «تفسيره» (٥/ ٧٢٤). وقال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]: «﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي فكلاً من هؤلاء المجرمين أهلكناه بسبب ذنبه وعاقبناه بجنايته قال ابن كثير: أي وكانت عقوبته بما يناسبه ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً عاصفة مدمرة فيها حصباء «حجارة» كقوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي ومنهم من أخذته صيحةُ العذاب مع الرجفة كثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي خسفنا به وبأملاكه الأرض حتى غاب فيها كقارون وأصحابه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ أي أهلكناه بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنده.

(٣) «تفسير الطبري» ١٩/ ٦٥.

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ أي من المُنْقِصين المُطَفِّفين في المكيال والميزان ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي زنوا بالميزان العدل السويّ ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تُنقصوا حقوق الناس بأي طريق كان بالهضم أو الغبن أو الغصب ونحو ذلك[١] ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تُفسدوا في الأرض بأنواع الفساد من قطع الطريق، والغارة، والسلب والنهب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي خافوا الله الذي خلقكم وخلق الخليقة المتقدمين قال مجاهد: الجِبلَّة: الخليقة ويعني بها الأمم السابقين[٢] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي ما أنت إلا من المسحورين، سُحِرت كثيراً حتى غُلب على عقلك ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي أنت إنسانٌ مثلنا ولست برسول ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي ما نظنك يا شعيب إلاّ كاذباً، تكذب علينا فتقول: أنا رسول الله ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أنزلْ علينا العذاب قِطعًا من السماء، وهو مبالغة في التكذيب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي إن كنت صادقًا فيما تقول قال الرازي: وإنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهرَ كذبه[٣] فعندها أجابهم شعيب ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي الله أعلم بأعمالكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم، وإن كنتم تستحقون عقابًا آخر فإليه الحكم والمشيئة، قال تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ أي فكذبوا شعيباً فأخذهم ذلك العذاب الرهيب عذاب يوم الظلة وهي السحابة التي أظلتهم، قال المفسرون: بعث الله عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هربًا إلى البَرِيَّة[٤]، فبعث الله عليهم سحابةً أظلَّتْهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ونادى بعضهم بعضًا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً فاحترقوا جميعًا، وكان ذلك من أعظم العذاب ولهذا قال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي كان عذاب يوم هائل، عظيم في الشدة والهول ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وإلى هنا ينتهي آخر القصص السبع التي أوحيت لرسول الله ﷺ لصرفه عن الحرص على إسلام قومه، وقطع رجائه ودفع تحسره عليهم كما قال في أول السورة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ففيها تسلية لرسول الله وتخفيفٌ عن أحزانه وآلامه، وإنما كرر في نهاية كل قصة

(١) (ش): هضَم فلانًا: ظلمه، قهره. هضَمه حقَّه: نقصه. غبَنه في البيع والشِّراء: غلَبه ونقَصه وخدعه. غبَن شخصًا: حرَمه بعض حقّه. غصَبه مالَه: أخذه منه قهرًا وظلمًا وعَنوةً.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩/ ٦٦.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٦٤.

(٤) (ش): الْبَرِيَّة: الصَّحرَاء، البادية.

قولـه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ليكون ذلك أبلغ في الاعتبار، وأشدَّ تنبيهـًا لذوي القلوب والأبصار.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات وجوهـًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - إطـلاق الـكل وإرادة البعـض ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ أراد بالمرسـلين نوحـًا وإنمـا ذكره بصيغة الجمـع تعظيمـًا له وتنبيهـًا على أن من كذب رسـولاً فقد كذب جميع المرسلين.

٢ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ؟

٣ - الاستعارة اللطيفة ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل، استعار الفتاح للحاكم والفتح للحكم لأنه يفتح المنغلق من الأمر ففيه استعارة تبعية.

٤ - الطباق ﴿يُفْسِدُونَ .. وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

٥ - الجناس غير التام ﴿قَالَ .. الْقَالِينَ﴾ الأول من القول والثاني من قلى إذا أبغض.

٦ - الإطناب ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ لأن وفاء الكيل هو في نفسـه نهي عن الخسران، وفائدته زيادة التحذير من العدوان.

٧ - المبالغة ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ والمسحَّر مبالغة عن المسحور.

٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿يُفْسِدُونَ، يُصْلِحُونَ، الْأَرْذَلُونَ﴾.

قال الله تعالى:

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ
عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ
عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾
فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم
مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾
ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾
إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ
الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ
وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصص الأنبياء لرسوله ﷺ أتبعه بذكر ما يدل على نبوته من تنزيل هذا القرآن المعجز على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين.

اللغة: ﴿زُبُرِ﴾ الزُّبُر: الكُتُب جمع زَبور كرسول ورُسُل ﴿الْأَعْجَمِينَ﴾ جمع أعجمي وهو الذي لا يُحسن العربية، يقال: رجل أعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربيًّا، ورجلٌ عجمي أي غير عربي وإن كان فصيح اللسان ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿مُنظَرُونَ﴾ مُؤَخَّرون ومُمْهِلون يقال: أنْظَره أي أمْهَله ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذَّاب ﴿مُنقَلَبٍ﴾ مصير.

التفسير: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن المعجز لتنزيلُ رب الأرباب ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ أي نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي أنزله على قلبك يا محمد لتحفظه وتُنذر بآياته المكذبين ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي بلسانٍ عربي فصيح هو لسان قريش، لئلا يبقى لهم عذر فيقولوا: ما فائدة كلامٍ لا نفهمه؟ قال ابن كثير: أنزلناه باللسان العربي الفصيح، الكامل الشامل، ليكون بَيِّنًا واضحًا، قاطعًا للعذر مقيمًا للحجة، دليلاً إلى المحجة[(١)] ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره لموجودٌ في كتب الأنبياء السابقين ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أولم يكن لكفار مكة علامة على صحة القرآن ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أن يعلم ذلك علماء بني إسرائيل الذين يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ أي لو نزلنا هذا القرآن بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي فقرأه على كفار مكة قراءة صحيحة فصيحة، وانضم إعجاز القرآن إلى إعجاز المقروء ما آمنوا بالقرآن لفرط عنادهم واستكبارهم[(٢)] ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلك أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، فسمعوا به وفهموه، وعرفوا فصاحته وبلاغته، وتحققوا من إعجازه ثم لم يؤمنوا به وجحدوه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي لا يصدّقون بالقرآن مع ظهور إعجازه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي حتى يشاهدوا عذاب الله المؤلم فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فيأتيهم عذاب الله فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٥٩.

(٢) قال في «التسهيل» ومعنى الآية: أن القرآن لو نزل على من لا يتكلم، ثم قرأه عليهم لم يؤمنوا لفرط عنادهم، ففي ذلك تسلية للنبي ﷺ على كفرهم به مع وضوح برهانه. اهـ. «التسهيل» ٣/ ٩٠.

أي وهم لا يعلمون بمجيئه ولا يدرون ﴿ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴾ أي فيقولوا حين يَفْجَأُهم العذاب - تحسراً على ما فاتهم من الإيمان وتمنياً للإمهال -: هل نحن مؤخرون لنؤمن ونصدّق ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ إنكارٌ وتوبيخ، أي: كيف يستعجل العذاب هؤلاء المشركون ويقولون ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الأنفال: ٣٢] وحالُهم عند نزول العذاب أنهم يطلبون الإمهال والنَّظِرة[١]؟ ﴿ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴾ أي أخبرني يا محمد إن متعناهم سنين طويلة، مع وفور الصحة ورغد العيش ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ أي ثم جاءهم العذاب الذي وُعدوا به ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ ؟ أي ماذا ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معاشهم؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن، أو دفع العذاب؟ ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ ﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى، ولا أُمةً من الأمم ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ أي إلاّ بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ﴿ ذِكۡرَىٰ ﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكرةً وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم، لأننا أقمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم.

ثم إنه تعالى بعد أن نبّه على إعجاز القرآن وصدق نبوة محمد عليه السلام ردَّ على قول من زعم من الكفار أن القرآن من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة فقال ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ أي وما تنزَّلت بهذا القرآن الشياطين، بل نزل به الروح الأمين ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾ أي وما يصح ولا يستقيم أن يتنزل بهذا القرآن الشياطين، ولا يستطيعون ذلك أصلاً ﴿ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴾ أي إنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد عليه السلام، وحيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشهب، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به؟ قال ابن كثير: ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنه ما ينبغي لهم لأن سجاياهم الفساد، وإضلال العباد، وهذا فيه نورٌ وهدى وبرهان عظيم، **الثاني**: أنه لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، وهذا من حفظ الله لكتابه وتأييده لشرعه **الثالث**: أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزلٍ عن استماع القرآن، لأن السماء مُلئت حرساً شديداً وشهباً، فلم يخلص أحد من الشياطين لاستماع حرفٍ واحد منه لئلا يشتبه الأمر[٢] ﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد غيره أي لا تعبد يا محمد مع الله معبوداً آخر ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴾ أي فيعذبك الله بنار جهنم قال ابن عباس: يُحذّر به غيره يقول: أنتَ أكرمُ الخلق

---

(١) (ش): النَظِرة: الإنظار: الإمهال: أنظرَ الشَّيءَ: أخّره، أجَّلَه وأمهله. النظِرة: الانتظار، التمهُّل والتأني والتأخير.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٦٠.

علـيَّ، ولو اتخـذت من دوني إلهـًا لعذبتـك(١)، ثم أمر تعالى رسـوله بتبليغ الرسـالة فقال ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أي خـوِّف أقاربـك الأقرب منهم فالأقـرب من عذاب الله إن لـم يؤمنوا، روي أنه ﷺ قام حين نزلت عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فقال: «يَا مَعْشَـرَ قُرَيْشٍ اشْـتَرُوا أَنْفُسَـكُمْ مِـنَ اللهِ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَـيْئًا، يَا بَنِي عَبْـدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكُـمْ مِنَ اللهِ شَـيْئًا، يَا عَبَّاس بْـنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَـيْئًا، يَـا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُـولِ اللهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَـيْئًا يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَـلِينِي مَا شِـئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَـيْئًا»(٢) قال المفسـرون: وإنما أُمر ﷺ بإنذار أقاربه أولًا لئلا يظن أحدٌ به المحاباة واللطف معهم فإذا تشـدَّد على نفسـه وعلى أقاربه كان قوله أنفع، وكلامه أنجع ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي تواضعْ وأَلِنْ جانبك لأتباعك المؤمنين ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي فإن لم يطيعوك وخالفوا أمرك فتبرأ منهم ومن أعمالهم قال أبو حيان: لما كان الإنذار يترتب عليه الطاعة أو العصيان جاء التقسـيم عليهما فكأن المعنى: مـن اتبعك مؤمنـًا فتواضع لـه، ومن عصاك فتبرأ منهم ومـن أعمالهم(٣) ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي فـوّض جميـع أمورك إلـى الله العزيز، الـذي يقهر أعـداءك بعزته، وينصرك عليهـم برحمتـه ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي يراك حيـن تكون وحدك تقوم من فراشـك أو مجلسـك وقال ابن عباس: حين تقوم إلى الصلاة ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي ويرى تقلُّبك مـع المصليـن في الركوع والسـجود والقيـام(٤)، والمعنى يراك وحدك ويـراك في الجماعة ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي إنـه تعالى السـميع لما تقوله، العليـم بما تخفيه ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ ؟ أي قـل يا محمد لكفار مكة: هل أخبركم على من تتنزَّل الشـياطين؟ وهـذا ردٌّ عليهـم حين قالوا إنما يأتيـه بالقرآن الشـياطين ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي تتنزَّل على كل كذَّاب فاجر، مبالغ في الكذب والعدوان، لا على سـيّد ولد عدنان ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ أي تُلقِّـي الشـياطين مـا اسـترقوه من السـمع إلى أوليائهـم الكهنة، وأكثرهـم يكذبـون فيما يوحون به إليهـم وفي الحديث: «تِلْـكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَـقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّـيُّ فَيُقَرْقِرُهَا – أي يلقيها – فِي أُذُنِ وَلِيِّـهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ»(٥) ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ هم الشـياطين كانوا قبل أن يُحجبوا بالرجم يسـمَّعون إلى الملأ

---

(١) «زاد المسير» ٦/ ١٤٧.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٦.

(٤) وهذا اختيار ابن جرير الطبري وقيل: المراد تقلبه في أصلاب الأنبياء.

(٥) رواه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم. (فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ) مَعْنَاهُ أَنَّ الْجِنِّيَّ يَقْذِفُ الْكَلِمَةَ إِلَى وَلِيِّهِ الْكَاهِنِ فَتَسْمَعُهَا الشَّيَاطِينُ كَمَا تُؤْذِنُ الدَّجَاجَةُ بِصَوْتِهَا صَوَاحِبَهَا فَتَتَجَاوَبُ.

الأعلى، فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم من الكهنة والمتنبئة «وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم، لأنهم يُسمعونهم ما لم يسمعوا»[١]، ثم ردَّ تعالى على من زعم أن محمداً شاعر فقال ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أي يتبعهم الضالون لا أهل البصيرة والرشاد ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي ألم تر أيها السامع العاقل أنهم يسلكون في المديح والهجاء كل طريق، يمدحون الشيء بعد أن ذمّوه، ويعظّمون الشخص بعد أن احتقروه قال الطبري: وهذا مثلٌ ضربه الله لهم في افتتانهم في الوجوه التي يُفتنون فيها بغير حق، فيمدحون بالباطل قوماً ويهجون آخرين[٢] ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي يكذبون فينسبون لأنفسهم ما لم يعملوه قال أبو حيان: أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التي تخالف حال النبوة، إذْ أمرهُم كما ذُكر من اتّباع الغُواة لهم، وسلوكهم أفانين الكلام من مدح الشيء وذمّه، ونسبة ما لا يقع منهم إليهم، وهذا مخالف لحال النبوة فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون[٣]، ثم استثنى تعالى فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي صَدَقوا في إيمانهم وأخلصوا في أعمالهم ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي لم يشغلهم الشعرُ عن ذكر الله ولم يجعلوه همَّهم وديدنهم ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي هجوا المشركين دفاعاً عن الحق ونصرةً للإسلام ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وعيدٌ عام في كل ظالم، تتفتت له القلوب وتتصدع لهوله الأكباد أي وسيعلم الظالمون والمعادون لدعوة الله ومعهم الشعراء الغاوون ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾؟ أي أيَّ مرجع يرجعون إليه؟ وأي مصير يصيرون إليه؟ فإنَّ مرجعهم إلى العقاب وهو شرُّ مرجع، ومصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بإِنَّ واللام ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأن الكلام مع المتشككين في صحة القرآن فناسب تأكيده بأنواع من المؤكدات.

٢ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟

٣ - جناس الاشتقاق ﴿يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ﴾.

٤ - المجاز المرسل ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ المراد به أهلها.

٥ - أسلوب التهييج والإلهاب ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطابُ للرسول بطريق التهييج لزيادة إخلاصه وتقواه.

---

(١) «الكشاف» ٣/ ٢٦٩.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩/ ٧٨.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٩.

٦ - الاستعارة التصريحية ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ شبه التواضع ولين الجانب بخفض الطائر جناحه عند إرادة الانحطاط فأطلق على المشبّه اسم الخفض بطريق الاستعارة المكنيَّة.

٧ - صيغتا المبالغة ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ لأن (فعّال وفعيل) من صيغ المبالغة أي كثير الكذب كثير الفجور.

٨ - الطباق بين ﴿يَقُولُونَ .. يَفۡعَلُونَ﴾ وبين ﴿وَٱنتَصَرُواْ .. ظُلِمُواْ﴾.

٩ - الاستعارة التمثيلية البديعة ﴿فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾ مثَّل لذهابهم عن سنن الهدى وإفراطهم في المديح والهداء بالتائه في الصحراء الذي هام على وجهه فهو لا يدري أين يسير، وهذا من ألطف الاستعارات، ومن أرشقها وأبدعها.

١٠ - جناس الاشتقاق ﴿مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾.

١١ - مراعاة الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه مثل ﴿يَهِيمُونَ، يَنقَلِبُونَ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ الخ.

لطيفَة: ذُكر أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ قوله تعالى ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ ثم يبكي ويُنشِد:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَازِمُ
تُسَرُّ بِمَا يَفْنَى وَتَفْرَحُ بِالْمُنَى ... كَمَا سُرَّ بِاللَّذَّاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمُ
وَتَسْعَى إِلَى مَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ ... كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ [1]

تنبيه: الشعر بابٌ من الكلام حسنُه حسنٌ، وقبيحُه قبيحٌ، وإنما ذمَّ تعالى الشعر لما فيه من المغالاة والإفراط في المديح أو الهجاء، ومجاوزة حدِّ القصد فيه حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحَّهم على حاتم، ويبهتوا البريء ويفسّقوا التقي، وربما رفعوا شخصاً إلى الأَوْج ثم إذا غضبوا عليه أنزلوه إلى الحضيض [2]، وهذا مشاهد ملموس في أكثر الشعراء إلا من استثناهم الله عَزَّ وَجَلَّ، والشاعر قد يمدح الشيء ويذمه بحلاوة لسانه وقوة بيانه، ومن ألطف ما سمعتُ من بعض شيوخي ما قاله بعض الشعراء في العسل:

---

(١) «الكشاف» ٣/ ٢٧١. (ش): الغِبُّ: عاقبةُ الشّيء وآخرُه. وهذه القصة ليست في «الكشاف» بل في «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٤١). وفيه بعد البيت الأول:

فَلَا أَنْتَ فِي الْأَيْقَاظِ يَقْظَانُ حَازِمُ ... وَلَا أَنْتَ فِي النُّوَّامِ نَاجٍ فَسَالِمُ

(٢) (ش): أَوْج: قمَّة، ذروة أو علوّ وارتفاع. حَضيض: قرار قاع الأرض أو قرارها، وتطلق مجازاً على كلِّ ما سفَل.

تَقُولُ هَـذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحَهُ — وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَـيْءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا — سِحْرُ الْبَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ[(١)]

لطيفَة: ذُكر أن الفرزدق أنشـد أبياتـًا عند «سليمان بن عبد الملك» وكان في ضمنها قوله في النساء العذارى:

فَـبِـتْـنَ كَـأَنَّـهُـنَّ مُـصَـرَّعَـات — وَبِـتُّ أَفُـضُّ أَغْـلَاقَ الْـخِـتَـامِ[(٢)]

فقال له سليمان: قد وجب عليك الحدّ، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قد درأ عني الحدَّ بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فعفا عنه[(٣)].

«انتهى تفسير سورة الشعراء»



(١) (ش): الْمُجَاجُ وَالْقَيْءُ لاَ يَكُونَانِ إِلاَّ مِنَ الْفَمِ. مُجاج: بصاق، ما يَمُجّه الشَّخصُ من فمه. والمُجاج من كلّ شيء: ما يلفظه كلّ بحسب طبيعته» مُجاج العنب: ما سال من عصيره، خمره- مُجاج النّحل: العسَل - مُجاج المُزْن: المطر- مُجاج الفَمِ: الرِّيق». القَيْء: ما تقذفه المعدة بسبب سُوء هضم أو غيره. زَنابيرُ: جمع زُنْبُور:حشرة أليمة اللّسع. وهناك بيتٌ قبل هذين البيتين:

فِــي زُخْــــرُفِ الْــقَــوْلِ تَـزْيِــيــنٌ — لِبَاطِلِهِ والْـحَـقُّ قَـدْ يَعتريهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤١): «كل أهل نِحلةٍ ومقالة يكسُون نِحلتهم ومقالتهم أحسنَ مَا يقدرُونَ عَلَيْهِ من الألفاظ ومقالة مخالفيهم أقبح مَا يقدرُونَ عَلَيْهِ من الألفاظ، وَمَن رزقه الله بَصِيرَةً فَهُوَ يكْشف بهَا حَقِيقَة مَا تَحت تِلْكَ الألفاظ من الحق وَالْبَاطِل وَلَا يغتر بِاللَّفْظِ».

(٢) (ش): أي فبِتْن مطروحاتٍ عن يميني وشمالي، وبِتُّ أزيل بكارتهن.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٢٧١.



مكية وآياتها ثلاث وتسعون

بين يدي السورة

* سورة النمل من السور المكية التي تهتم بالحديث عن أصول العقيدة «التوحيد، والرسالة، والبعث»(١) وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية، ووضعت في المصحف متتالية، وهي «الشعراء، والنمل، والقصص» ويكاد يكون منهاجها واحدًا، في سلوك مسلك العظة والعبرة، عن طريق قصص الغابرين.

* تناولت السورة الكريمة القرآن العظيم، معجزة محمد الكبرى، وحجته البالغة إلى يوم الدين، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم، ثم تحدثت عن قصص الأنبياء بإيجاز في البعض، وإسهاب في البعض، فذكرت بالإجمال قصة «موسى»، وقصة «صالح» وقصة «لوط»، وما نال أقوامهم من العذاب والنكال، بسبب إعراضهم عن دعوة الله، وتكذيبهم لرسله الكرام.

* وتحدثت بالتفصيل عن قصة «داود» وولده «سليمان» وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة، وما خصهما به من الفضل الكبير بالجمع بين النبوة والملك الواسع، ثم ذكرت قصة «سليمان مع بلقيس» ملكة سبأ.

وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان، والعظماء والملوك، فقد اتخذ سليمان المُلْك وسيلةً للدعوة إلى الله، فلم يترك حاكمًا جائرًا ولا ملكًا كافرًا إلا دعاه إلى الله، وهكذا كان شأنه مع «بلقيس» حتى تركت عبادة الأوثان، وأتت مع جندها خاضعة مسلمةً، مستجيبةً لدعوة الرحمن.

* وتناولت السورة الكريمة الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته، ومن آثار مخلوقاته وبدائع صنعه، وساقت بعض الأهوال والمشاهد الرهيبة، التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر، حيث يفزعون ويرهبون، وينقسمون إلى قسمين: السعداء والأبرار، والذين يكبون على وجوههم في النار.

التسمية: سميت سورة النمل، لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة، التي وعظت بني

(١) (ش): أصول العقيدة ستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، كما في حديث جبريل عليه السلام حين قَالَ للنبي ﷺ: فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِيمَانِ. فقَالَ ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

جنسها وذكرت ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده، ففهم نبيُّ الله كلامها وتبسم من قولها، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان، وأن ذلك من إلهام الواحد الديان(١).

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ
يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ
مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ
تَصۡطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ
إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي
جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا
مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ
وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ
أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ

اللغة: ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يترددون ويتحيرون، والعَمَهُ: التحير والتردُّد كما هو حال الضال عن الطريق قال الزاجر: «أعْمَى الْهُدَى بِالْحَائِرِينَ الْعُمَّهِ» ﴿قَبَسٖ﴾ القَبس: النار المقبوسة من جمر وغيره ﴿تَصۡطَلُونَ﴾ اصطلى يصطلي إذا استدفأ من البرد قال الشاعر:

النَّارُ فَاكِهَةُ الشِّتَاءِ فَمَنْ يُرِدْ ... أَكْلَ الْفَوَاكِهِ شَاتِيًا فَلْيَصْطَلِ(٢)

﴿بُورِكَ﴾ من البركة وهي زيادة الخير والنماء قال الثعلبي: العرب تقول: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، أربعُ لغات قال الشاعر:

---

(١) (ش): قبَس النَّارَ: أخذ منها شُعلة.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٥٧.

فَبُورِكْتَ مَوْلُودًا وَبُورِكْتَ نَاشِئًا وَبُورِكْتَ عِنْدَ الشَّيْبِ إِذْ أَنْتَ أَشْيَبُ[١]

﴿يُوزَعُونَ﴾ أصل الوزع الكفُّ والمنع يقال: وزَعه يزعه إذا كفَّه عن الشيء ومنعه ومنه قول عثمان «إن الله ليزَع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[٢]

قال النابغة:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ

التفسِير: ﴿طسٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم الكلام عليها[٣] ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي هذه الآيات المنزَّلة عليك يا محمد هي آياتُ القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه ﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ أي وآياتُ كتابٍ واضح مبين لمن تفكر فيه وتدبَّر، أبان اللهُ فيه الأحكام، وهدى به الأنام ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي تلك آيات القرآن الهادي للمؤمنين إلى صراطٍ مستقيم، والمبشر لهم بجنات النعيم، خصَّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم به ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بخشوعها، وآدابها، وأركانها ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي يدفعون زكاة أموالهم طيبةً بها نفوسهم ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ أي يصدقون بالآخرة تصديقاً جازماً لا يخالجه شك أو ارتياب قال الإمام الفخر: والجملة اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فما يوقن بالآخرة حقَّ الإيقان إلاّ هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق[٤] وقال أبو حيان: ولما كان ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ما يتجدَّد ولا يستغرق الأزمان جاءت الصلة فعلاً، ولما كان الإيمان بالآخرة بما هو ثابت ومستقر جاءت الجملة اسمية وأُكِّدَتْ بتكرار الضمير ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ وجاء خبر المبتدأ فعلاً ليدل على الديمومة[٥]، ولما ذكر تعالى المؤمنين الموقنين بالبعث، ذكر بعدها المنكرين المكذبين بالآخرة فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي لا يصدّقون بالبعث ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي زَيَّنَّا لهم أعمالهم القبيحة حتى رأوها حسنة قال الرازي: والمراد من التزيين هو أن يخلق في قلبه العلم بما فيها من

---

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٥٥. (ش): شابَ شعرُه/ شابَ رأسُه: ابْيَضّ، انتشر فيه الشَّيْبُ.

(٢) (ش): أي يمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن مع ما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد.

(٣) انظر تفصيل القول والتحقيق الدقيق في أول سورة البقرة.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٧٨.

(٥) «البحر المحيط» ٧/ ٥٣.

المنافع واللذات، ولا يخلق في قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات[١] ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي فهم في ضلال أعمالهم القبيحة يترددون حيارى لا يميزون بين الحسن والقبيح ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي لهم أشد العذاب في الدنيا بالقتل والأسر والتشريد ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي وخسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا لمصيرهم إلى النار المؤبدة والجحيم والأغلال ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي وإنك يا محمد لتتلقى هذا القرآن العظيم وتُعطاه ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي من عند الله الحكيم بتدبير خلقه، العليم بما فيه صلاحهم وسعادتهم قال الزمخشري: وهذه الآية بسطٌ وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه[٢] ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لأهله -: أي زوجته - إني أبصرتُ ورأيت ناراً قال المفسرون: وهذا عندما سار من مدين إلى مصر، وكان في ليلة مظلمة باردة، وقد ضلَّ عن الطريق وأخذ زوْجتَه الطَّلْقُ ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي سآتيكم بخبر عن الطريق إذا وصلتُ إليها ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي أو آتيكم بشعلةٍ مقتبسة من النار ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي لكي تستدفئوا بها ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار رأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث رأى النار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً ولا تزداد الشجرةُ إلا خضرةً ونُضْرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصلٌ بعنان السماء قال ابن عباس: لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج[٣] فوقف موسى متعجباً ممّا رأى وجاءه النداء العلوي ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي نودي من جانب الطور بأن بوركتَ يا موسى وبورك من حولك وهم الملائكة قال ابن عباس: معنى ﴿بُورِكَ﴾ تقدَّس ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكةُ قال أبو حيان: وبدؤه بالنداء تبشير لموسى وتأنيس له ومقدمة لمناجاته، وجدير أن يبارك من في النار ومن حواليها إذ قد حدث أمرٌ عظيم وهو تكليم الله لموسى وتنبيئه[٤] ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تقدّس وتنزَّه ربُّ العزة، العليُّ الشأن، الذي لا يشبهه شيء من مخلوقاته لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٩٧. (ش): هذا لا يصح، ولو كان كذلك لم يؤاخَذوا وعذروا بالجهل. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ١٧٨): ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أَيْ: حَسَّنَّا لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، وَمَدَدْنَا لَهُمْ فِي غيهم فَهُمْ يتيهون فِي ضَلَالِهِمْ. وَكَانَ هَذَا جَزَاءً عَلَى مَا كَذَّبُوا بِهِ مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الْأَنْعَامِ: ١١٠].

(٢) «الكشاف» ٣/ ٢٧٥.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٦٦.

(٤) «البحر المحيط» ٧/ ٥٦.

﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي أنا الله القويُّ القادر، العزيز الذي لا يُقهر، الحكيم الذي يفعل كل شيء بحكمةٍ وتدبير ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على السابق أي ونودي أن ألق عصاك لترى معجزتك بنفسك فتأنس بها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ أي فلما رآها تتحرك حركة سريعة كأنها ثعبان خفيف سريع الجري ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ أي ولّى الأدبار منهزماً ولم يرجع لِمَا دَهَاه من الخوف والفزع[1] قال مجاهد: «لم يُعقّب» لم يرجع، وقال قتادة: لم يلتفت، لحقه ما لحق طبع البشر إذ رأى أمراً هائلاً جداً وهو انقلاب العصا حيةً تسعى ولهذا ناداه ربه ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ أي أقبل ولا تخف لأنك بحضرتي ومن كان فيها فهو آمنٌ ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي فأنت رسولي ورسلي الذين اصطفيتهم للنبوة لا يخافون غيري قال «ابن الجوزي»: نبَّهه على أن من آمنَه الله بالنبوة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حيَّة[2] ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ من ظلم من سائر الناس لا من المرسلين فإنه يخاف إلا إذا تاب وبدَّل عمله السيئ إلى العمل الحسن ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن كثير: وفيه بشارة عظيمةٌ للبشر وذلك أن من كان على عمل سيء، ثم أقلع ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه كقوله ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢][3] ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ هذه معجزة أُخرى لموسى تدل على باهر قدرة الله، والمعنى أدخل يا موسى يدك في فتحة ثوبك ثم أخرجها تخرج مضيئة ساطعة بيضاء تتلألأ كالبرق الخاطف دون مرضٍ أو برص ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ أي هاتان المعجزتان «العصا واليد» ضمن تسع معجزاتٍ أيدتك بها وجعلتُها برهاناً على صدقك لتذهب بها إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعتنا، ممعنين في الكفر والضلال ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات الباهرة، واضحةً بينةً ظاهرة ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي أنكروها وزعموا أنها سحرٌ واضح ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي كفروا وكذبوا بتلك الخوارق ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي وقد أيقنوا بقلوبهم أنها من عند الله وليست من قبيل السحر ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ أي جحدوا بها ظلماً من أنفسهم، واستكباراً عن اتباع الحق، وأيُّ ظلم أفحش ممن يعتقد ويستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله، ثم يكابر بتسميتها سحراً؟ ولهذا قال ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي انظر أيها السامع وتدبر بعين الفكر والبصيرة ماذا كان مآلُ

---

(١) (ش): أي بسبب مَا أصابه من الخوف والفزع.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ١٥٦.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٦٧.

أمر الطاغين، من الإغراق في الدنيا، والإحراق في الآخرة؟ قال ابن كثير: وفحوى الخطاب كأنه يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى، فإن محمداً ﷺ أشرفُ وأعظمُ من موسى، وبرهانُه أدلُّ وأقوى من برهان موسى، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم[١] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ هذه هي القصة الثانية في السورة الكريمة وهي قصة «داود وسليمان» والمعنى واللهِ لقد أعطينا داود وابنه سليمان علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، وجمعنا لهما بين سعادة الدنيا والآخرة قال الطبري: وذلك علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصَّهم الله بعلمه[٢] ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وقالا شكراً لله: الحمد لله الذي فضلنا بما آتانا من النبوة، والعلم، وتسخير الإنس والجن والشياطين، على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي ورث سليمانُ أباه في النبوة، والعلم والمُلْك دون سائر أولاده قال الكلبي: كان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمانُ من بينهم نبوته وملكه، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء[٣] ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي وقال تحدثاً بنعمة الله: يا أيها الناسُ لقد أكرمنا اللهُ فعلَّمنا منطق الطير وأصوات جميع الحيوانات ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي وأعطانا الله من كل شيء من خيرات الدنيا يُعطَاها العظماء والملوك[٤] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي إن ما أُعطيناه وما خصَّنا الله به من أنواع النعم لهو الفضل الواضح الجلي، قاله على سبيل الشكر والمحمدة لا على سبيل العلوّ والكبرياء ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ أي جمعت له جيوشه وعساكره وأُحضرت له في مسيرةٍ كبيرة فيها طوائف الجن والإنسِ والطير، يتقدمهم سليمان في أُبّهة وعظمةٍ كبيرة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي فهم يُكَفُّون ويمنعون عن التقدم بين يديه قال ابن عباس: جعل كل صنفٍ من يردُّ أولاها على أُخراها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ أي حتى إذا وصلوا إلى وادٍ بالشام كثير النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ أي قالت إحدى النملات لرفيقاتها: ادخلوا بيوتكم، خاطبتهم مخاطبة العقلاء لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ﴾ أي لا يَكْسِرَنَّكم سليمانُ وجيوشه بأقدامهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بكم ولا يريدون حَطْمَكم عن عمد، حذَّرت ثم اعتذرت لأنها علمت أنه نبيٌّ رحيم، فسمع سليمان

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٦٧.
(٢) «تفسير الطبري» ١٩/ ٨٧.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٦٤.
(٤) «تفسير الطبري» ١٩/ ٨٨.

كلامَها وفَهِم مَرامِيَها[١] ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ أي فتبسَّم سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده، فإن قولها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وصفٌ لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أي ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها عليَّ وعلى أبويَّ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ أي ووفقني لعمل الخير الذي يقربني منك والذي تحبه وترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وأدخلني الجنة دار الرحمة مع عبادك الصالحين[٢].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف.

٢ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي كتاب عظيم الشأن رفيع القدر.

٣ - ذكر المصدر بدل اسم الفاعل للمبالغة ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ أي هادياً ومبشراً.

٤ - تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ومثله ﴿وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وفيه المقابلة اللطيفة بين الجملتين.

٥ - التأكيد بإنَّ واللام ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ لوجود المتشككين في القرآن.

٦ - إيجاز الحذف ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ حذفت جملة فألقاها فانقلبت إلى حية إلخ وذلك لدلالة السياق عليه.

٧ - الطباق ﴿حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾. وبين ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا.. وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

٨ - الاستعارة ﴿ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ استعار لفظ الإبصار للوضوح والبيان لأن بالعينين يبصر الإنسان الأشياء.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فصار مرسلاً مجملاً.

١٠ - حسن الاعتذار ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

لطيفَة: قال بعض العلماء هذه الآية ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ..﴾

---

(١) (ش): مَرْمَى: ما يقصده الإنسان مِن فِعْله أو كلامه. والجمع: مَرَام.

(٢) (ش): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ». قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). قال الإمام الطبري في تفسيره: (١٩/ ٤٤٠): (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) يقول: وأدخلني برحمتك مع عبادك الصالحين، الذين اخترْتَهم لرسالتك وانتخَبْتَهم لوَحْيِك، يقول: أدخلني من الجنة مَداخِلَهم.

مـن عجائب القرآن لأنها بلفظة «يا» نـادَتْ «أيها» نبَّهَت ﴿ٱلنَّمْلُ﴾ عيَّنَت ﴿ٱدْخُلُواْ﴾ أمرَت «مَسَٰكِنَكُمْ» نَصَّـتْ(١) ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ حـذَّرَت ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾ خَصَّـت ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ عمَّتْ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ اعتذرت، فيا لها من نملة ذكية!

قال الله تعالى:

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا
شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ
بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ
إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي
مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ
قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ
﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾
ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ
يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي
عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا
عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ
كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ
قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ
﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

المناسَـبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن «سـليمان بن داود» الذي جمع الله له بين «النبوة والمُلْك» فكان نبيًّا ملكـًا، وسـخر له الإنس والجن وعلمه منطق الطير، وتذكر الآيات هنا قصته مع «بلقيس» ملكة سبأ وما كان من الأمور العجيبة التي حدثت في زمانه.

---

(١) (ش): أي حدَّدَت وعيَّنَت.

اللغَة: ﴿وَتَفَقَّدَ﴾ التفقُّد: طلَبُ ما غاب عن الإنسان ﴿ٱلْخَبْءَ﴾ الشيءُ المخبوء من خبأتُ الشيء أخبؤه خبأً إذا سترته ﴿صَٰغِرُونَ﴾ أذلاء مهانون من الصَّغار وهو الذل ﴿عِفْرِيتٌ﴾ العفريب: القويُ المارد من الشياطين ومن الإنس، والخبيث الماكر ﴿ٱلصَّرْحَ﴾ القصر، وكلُّ بناءٍ عال مرتفع يسمى صرحاً ومنه قول فرعون ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ ﴿مُّمَرَّدٌ﴾ الممرَّد: المملَّس، والأمرد الذي لم تخرج لحيته بعد إدراكه، وشجرةٌ مرداء: لا ورقَ عليها ﴿قَوَارِيرَ﴾ جمع قارورة وهي الزجاجة.

التفسير: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي بحث سليمان وفتش عن جماعة الطير ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ أي لم لا أرى الهُدهد هاهنا؟ قال المفسرون: كانت الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها، فلما فصل سليمان عن وادي النمل ونزل في قَفْرٍ من الأرض عطش الجيش فسألوه الماء، وكان الهدهد يدله على الماء فإذا قال: هاهنا الماء شقَّت الشياطين وفجَّرت العيون، فطلبه في ذلك اليوم فلم يجده فقال ما لي لا أراه[1] ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أمْ منقطعة بمعنى «بل» أي بل هو غائب، ذهب دون إذنٍ مني ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي لأعاقبنه عقاباً أليماً بالسجن أو

(١) (ش): قال الشيخ السعدي: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر وهو تفقد الطيور والنظر: هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله على بعد الماء وقُربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك لذكره الله لأنه من أكبر الآيات. وأما الدليل اللفظي فلو أريد هذا المعنى لقال: «وطلب الهدهد لينظر له الماء فلما فقده قال ما قال» أو «فتش عن الهدهد» أو: «بحث عنه» ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضا فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف -مع ذلك- يحتاج إلى الهدهد؟ وهذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلِّمًا للمتقدم حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، واللبيب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالِمَهم وجاهلَهم وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالًا منقولة عن غير رسول الله ﷺ ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقته قبلها لكون اللفظ دالًا عليها، وإن خالفته لفظًا ومعنى أو لفظًا أو معنى ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلًا معلومًا مناقضًا لها وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

نتف الريش أو الذبح أو ليأتيني بحجة واضحة تبيّن عذره ﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ ﴾ أي فأقام الهدهد زماناً يسيراً ثم جاء إلى سليمان ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أي اطلعت على ما لم تطّلع عليه وعرفت ما لم تعرفه ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ أي وأتيتك من مدينة سبأ -باليمن- بخبر هام، وأمر صادقٍ وخطير ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ أي من عجائب ما رأيت أن امرأةً -تسمى بلقيس- هي ملكة لهم، وهم يدينون بالطاعة لها[1] ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي وأُعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من أسباب الدنيا من سعة المال وكثرة الرجال ووفرة السلاح والعتاد ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ أي ولها سرير كبير مكلَّل بالدر والياقوت قال قتادة: كان عرشُها من ذهب، قوائمُه من جوهر، مكلَّل باللؤلؤ قال الطبري: وعنى بالعظيم في هذا الموضع العظيم في قدرة وخطره، لا عِظمه في الكبر والسعة، ولهذا قال ابن عباس: ﴿عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ أي سرير كريم حسن الصنعة، وعرشُها سريرٌ من ذهب قوائمُه من جوهرٍ ولؤلؤ[2]، ثم أخذ يحدثه عما هو أعظم وأخطر فقال ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وجدتهم جميعاً مجوساً يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي حسَّن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها من دون الله ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي منعهم بسبب هذا الضلال عن طريق الحق والصواب ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده، ثم قال الهدهد متعجباً: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أيسجدون للشمس ولا يسجدون للهِ الخالق العظيم، الذي يعلم الخفايا ويعلم كل مخبوء في العالم العلوي والسفلي؟[3] قال ابن عباس: يعلم كل خبيئةٍ في السماء والأرض ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ أي ويعلم السرَّ والعلن، ما ظهر وما بطن ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال، ربُّ العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود، وخصَّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات، وإلى

(١) وجه العجب أن الملوك عادة من الرجال وأن النساء لا يصلحن لإدارة الممالك ويؤيده حديث: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» هذا هو منطق الفطرة. (ش): الحديث رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩/ ٩٢.

(٣) هذا ما انقدح في ذهني من معنى الآية الكريمة، ولعله هو الأقرب إلى فهم روح النص القرآني فإن المجال مجال تعجب وإنكار، لا مجال حديث وإخبار، فما ذهب إليه بعض المفسرين من أن «لا» زائدة وأن المعنى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، أو أن المعنى ألا يا هؤلاء فاسجدوا.. إلخ. غير ظاهر والله أعلم. (ش): الآراء التي ذكرها المؤلف ولم يَرْضَها ذكرها ابن جرير الطبري وابن كثير وغيرهما. وقال الشيخ السعدي: ﴿أَلَّا﴾أي: هلَّا.

هنا انتهى كلام الهُدهد ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي قال سليمان: سننظر في قولك ونتثبت هل أنت صادقٌ أم كاذب فيه؟ قال «ابن الجوزي»: وإنما شكَّ في خبره لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان، ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهُدهد وقال ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي اذهب بهذا الكتاب وأوصلْه إلى ملكة سبأ وجندها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنحَّ إلى مكان قريب مستتراً عنهم ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي فانظر ماذا يردون من الجواب؟ قال المفسرون: أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى بلقيس وقومها، فرفرف فوق رأسها ثم ألقى الكتاب في حجرها ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ أي قالت لأشراف قومها: إنه أتاني كتاب عظيم جليل ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي إن هذا الكتاب مرسل من سليمان ثم فتحته فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم وهو استفتاح شريفٌ بارع فيه إعلان الربوبية لله ثم الدعوة إلى توحيد الله والانقياد لأمره ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي لا تتكبروا عليَّ كما يفعل الملوك وجيئوني مؤمنين قال ابن عباس: أي موحدين، وقال سفيان: طائعين ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أي أشيروا عليَّ في الأمر ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي ما كنتُ لأقضي أمراً بدون حضوركم ومشورتكم ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي نحن أصحابُ كثرةٍ في الرجال والعتاد، وأصحابُ شدةٍ في الحرب ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؟ أي وأمرنا إليكِ فمُرِينَا بما شئتِ نمتثلْ أمرَك، وقولهم هذا دليلٌ على الطاعة المفرطة قال القرطبي: أخذتْ في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها في كل ما يعرض لها، فراجعها الملأ بما يُقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع[1] قال الحسن البصري: فوَّضوا أمرهم إلى عِلجةٍ[2] يضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم منهم رأياً وأعلم[3] ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي إن عادة الملوك أنهم إذا استولَوْا على بلدةٍ عنوةً وقهراً خربوها ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي أهانوا أشرافها وأذلوهم بالقتل والأسر والتشريد ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي وهذه عادتهم وطريقتهم في كل بلدٍ يدخلونها قهراً، ثم عدلت إلى المهادنة والمسالمة فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي وإني سأبعث إليه بهدية عظيمة تليقُ بمثله، فأنظر هل يقبلها أن يردُّها؟ قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها! علمتْ أن

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٩٤.

(٢) (ش): أي امرأة من كفّار العجم.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٧١.

الهدية تقع موقعاً من الناس، وقال ابن عباس: قالت لقومها: إن قبِلَ الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبيٌّ صادق فاتبعوه[١] ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾؟ أي فلما جاء رسل بلقيس إلى سليمان بالهدية العظيمة قال منكراً عليهم: أتصانعونني بالمال والهدايا لأترككم على كفركم وملككم؟ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي فما أعطاني الله من النبوة والمُلك والواسع خيرٌ مما أعطاكم من زينة الحياة فلا حاجة لي بهديتكم ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرةٍ ومكاثرة في الدنيا، ثم قال لرئيس الوفد: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾[٢] أي ارجع إليهم بهديتهم فوالله لنأتينَّهم بجنودٍ لا طاقة لهم بمقابلتها، ولا قدرة لهم على مقاتلتها ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي ولنخرجنهم من أرضهم ومملكتهم أذلاء حقيرين إن لم يأتوني مسلمين قال ابن عباس: لما رجعت رسُلُ بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت: قد عرفتُ ما هذا بملِك، وما لنا به طاقة، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك ثم ارتحلْت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد[٣] ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾؟ أي قال سليمان لأشراف من حضره من جنده: أيكم يأتيني بسريرها المرصَّع بالجواهر قبل أن تصل إليَّ مع قومها مسلمين؟ قال «البيضاوي»: أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله به من العجائب، الدالة على عظيم القدرة، وصدقه في دعوى النبوة، ويختبر عقلها بأن ينكّر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره[٤]؟ ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي قال ماردٌ من مردة الجنِّ: أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس الحكم - وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم - وغرضُه أنه يأتيه به في أقل من نصف نهار ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ أي وإني على حمله لقادرٌ، وأمينٌ على ما فيه من الجواهر والدُّر وغير ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ قال المفسرون: هو «آصف بن برخيا» كان من الصِّديقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وهو الذي أتى بعرش بلقيس وقال لسليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك، أي: آتيك به بلمح البصر فدعا الله فحضر العرشُ حالاً ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ أي فلما نظر سليمان ورأى العرش - السرير - حاضراً لديه قال: هذا من فضل الله عليَّ، وإحسانه إليَّ ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٧١.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٧١.
(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٩٣.
(٤) ««البيضاوي»» ٢/ ٨٣.

﴿أَمۡ أَكۡفُرُ﴾؟ أي ليختبرني أأشكر إنعامه، أم أجحد فضله وإِحسانه؟ ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ أي ومن شكر فمنفعة الشكر لنفسه، لأنه يستزيد من فضل الله ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧] ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ أي ومن لم يشكر وجحَد فضل الله فإِن الله مُستغنٍ عنه وعن شكره، كريمٌ بالإِنعام على مَن كفَر نعمتَه.. ولما قرُب وصولُ ملكة سبأ إلى بلاده أمر بأن تُغيَّر بعضُ معالم عرشها امتحاناً لها ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ أي غيّروا بعض أوصافه وهيئته كما يتنكر الإِنسان حتى لا يُعرف ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ أي لننظر إذا رأته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾؟ أي أَمِثْلُ هذا العرش الذي رأيْتِيه عرشُك؟ ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها ﴿قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ أي يشبهه ويقاربه ولم تقل: نعم هو، ولا ليس هو. قال ابن كثير: وهذا غاية في الذكاء والحزم[1] ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾هذا من قول سليمان أي قال سليمان تحدُّثاً بنعمة الله: لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها، فنحن أسبقُ منها علماً وإِسلاماً[2] ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي منعها عن الإِيمان بالله عبادتُها القديمة للشمس والقمر ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ أي بسبب كفرها ونشوئها بين قوم مشركين ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾ أي ادخلي القصر العظيم الفَخْم ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَا﴾ أي فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنته لجة ماء - أي ماءً غمراً كثيراً - وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي قال سليمان: إنه قصر مملّس من الزجاج الصافي ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ أي قالت بلقيس حينئذٍ: ربِّ إني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي وتابعتُ سليمان على دينه فدخلت في الإِسلام مؤمنةً برب العالمين، قال ابن كثير: والغرضُ أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة، ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبيٌّ كريم، ومِلِكٌ عظيم، وأسلمت لله عَزَّ وَجَلَّ[3].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) «ابن كثير» ٢/ ٦٧٣.

(٢) (ش): قال الشيخ السعدي: ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: «وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه وزيادة اقتداره من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة فأذعَنَّا له وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانه.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٧٤.

١ - أسلوب التعجب ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾[١]؟

٢ - التأكيد المكرر ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ.. أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ.. أَوْ لَيَأْتِيَنِّى﴾ لتأكيد الأمر.

٣ - طباق السلب ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وكذلك ﴿تهتدي.. لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٤ - الجناس اللطيف ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ﴾ ويسمى الجناس الناقص لتبدل بعض الحروف[٢].

٥ - الطباق في اللفظ ﴿تُخْفُونَ .. تُعْلِنُونَ﴾ وكذلك ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

٦ - الطباق في المعنى ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

قال علماء البيان: والمطابقة هنا بالمعنى أبلغ من اللفظ لأنه عدول عن الفعل إلى الإسم فيفيد الثبات فلو قال: «أصدقت أم كذبت» لما أدّى هذا المعنى لأنه قد يكذب في هذا الأمر ولا يكذب في غيره، وأما قوله ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فإنه يفيد أنه إذا كان معروفًا بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذبًا لا محالة فلا يوثق به أبداً.

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وكذلك ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾.

٨ - التشبيه ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ أي كأنه عرشي في الشكل والوصف ويسمى «مرسلاً مجملاً».

٩ - الاستعارة البديعة ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ شبَّه سرعة مجيئه بالعرش برجوع الطرف للإنسان، وارتدادُ الطرف معناه التقاء الجفنين وهو أبلغ ما يمكن أن يوصف به في السرعْة ومثله ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ فاستعار للسرعة الفائقة ارتداد الطرف[٣].

١٠ - توافق الفواصل في كثير من الآيات، ولها وقعٌ في النفس رائع مثل ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إلى آخر ما هنالك.

لطيفَة: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية، وكذلك تفقد الأصدقاء، والإخوان، والخلان وأنشد بعضهم:

سَنَّ سُلَيْمَانُ لَنَا سُنَّةً ... وَكَانَ فِيمَا سَنَّهُ مُقْتَدَى
تَفَقَّدَ الطَّيْرَ عَلَى مُلْكِهِ ... فَقَالَ: مَالِيَ لَا أَرَى الهُدْهُدَا؟

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٧١.

(٢) قال صاحب «الكشاف»: وهذا من محاسن الكلام يشترط بشرط أن يجيء مطبوعًا غير متكلف أو يصنعه عالم بجوهر الكلام، ولقد حسن في الآية وبدع لفظًا ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان «بنبأ» لفظه «بخبر» لكان المعنى صحيحًا ولكن يفوت ما في النبأ من الزيادة التي معناها الخبر الهام والتي يطابقها وصف الحال.

(٣) انظر «تلخيص البيان» ٢٦١.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟
ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا
شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ
خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ
أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ
عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ
بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ
بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن
يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى
ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى في أول السورة قصة موسى، ثم أعقبها بقصة داود وسليمان وما فيها من العجائب والغرائب، ذكر هنا قصة «صالح» ثم قصة «لوط» وكلُّ هذه القصص غرضُها التذكير والاعتبار، وبيانُ سنة الله في إهلاك المكذبين، ثم أتبعها بذكر البراهين الدالة على الوحدانية، والعلم، والقدرة.

اللغة: ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ من التطير وهو التشاؤم قال الزجاج: أصلُها تطيَّرنا فأُدغمت التاء في الطاء واجْتُلبت الألف لسكون الطاء ﴿خَاوِيَةً﴾ خالية من خوى البطنُ إذا خلى، وخوى النجم إذا سقط ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة ﴿حَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة وهي البستان

الذي عليه سور قال الفراء: الحديقةُ البستانُ الذي عليه حائط فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان[١] ﴿قَرَارًا﴾ مستقرًّا يثبت عليه الشيء ﴿حَاجِزًا﴾ الحاجز: الفاصل بين الشيئين.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم - في النسب لا في الدين - صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي فإذا هم جماعتان: مؤمنون وكافرون يتنازعون في شأن الدين قال مجاهد: «فريقان: مؤمنٌ، وكافر» واختصامُهم: اختلافهم وجدالهم في الدين، وجاء الفعل بالجمع ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ حملاً على المعنى ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي قال لهم صالح بطريق التلطف والرفق: يا قوم لم تطلبون العذاب قبل الرحمة؟ ولأي شيء تستعجلون بالعذاب ولا تطلبون الرحمة؟ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي هلا تتوبون إلى الله من الشرك لكي يتوب الله عليكم ويرحمكم؟ قال المفسرون: كان الكفار يقولون لفرط الإنكار: يا صالح ائتنا بعذاب الله فقال لهم: هلاّ تستغفرون الله قبل نزول العذاب، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر! ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي تشاءمنا بك يا صالح وبأتباعك المؤمنين فإنكم سبب ما حلَّ بنا من بلاء، وكانوا قد أصابهم القحط وجاعوا ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي حظكم في الحقيقة من خيرٍ أو شر هو عند الله وبقضائه، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم.. لمّا لاطفهم في الخطاب أغلظوا له في الجواب وقالوا تشاءَمنا بك وبمن معك، فأخبرهم أن شؤمهم بسبب عملهم لا بسبب صالح والمؤمنين ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي بل الحقيقةُ أنكم جماعة يفتنكم الشيطان بوسوسته وإغوائه ولذلك تقولون ما تقولون ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي وكان في مدينة صالح - وهي الحِجْر - تسعةُ رجالٍ من أبناء أشرافهم قال الضحاك: كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي شأنهم الإفساد، وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة قال ابن عباس: وهم الذين عقروا الناقة ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي قال بعضُهم لبعض: احلفوا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي لنقتلنَّ صالحاً وأهله ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي ثم نقول لوليّ دمه ما حضرنا مكان هلاكه ولا عرفنا قاتله ولا قاتل أهله ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي ونحلف لهم إنا لصادقون قال ابن عباس: أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم[٢] قال تعالى ﴿وَمَكَرُوا۟

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٢١.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ١٨٢.

مَكۡرٗا﴾ أي دبَّروا مكيدةً لقتل صالح ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ أي جازَيْناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم، سمَّاه مكراً بطريق المشاكلة(١)

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي من حيث لا يدرون ولا يعلمون قال أبو حيان: ومكرُهم ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله، ومكرُ الله إهلاكُهم من حيث لا يشعرون(٢) ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي فتأملْ وتفكرْ في عاقبة أمرهم ونتيجة كيدهم، كيف أنَّا أهلكناهم أجمعين وكان مآلهم الخراب والدمار ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي فتلك مساكنهم ودورهم خاليةً بسبب ظلمهم وكفرهم لأن أهلها هلكوا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي إن في هذا التدمير العجيب لعبرة عظيمة لقوم يعلمون قدرة الله فيتعظون ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي وأنجينا

---

(١) المشاكلة هي الاتفاق في اللفظ دون المعنى. (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع:الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة... إلخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة.. إلخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، ويمكن أن تكون نقصاً، على حسب الحال التي تُذكر فيها. فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء. فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان.. ونحو ذلك.أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كمالاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة:١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالاً في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه... ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخادع وصفاً مطلقاً. لأنه حينئذٍ لا يكون كمالاً. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾. وقوله: وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ. وقوله: اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾. وقوله: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحا سيئا لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٨٥.

مـن العذاب المؤمنين المتقيـن الذين آمنوا مع صالـح ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ أي واذكـر رسـولنا «لوطـًا» حين قال لقومه أهـل سـدوم ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ أي أتفعلون الفعلة القبيحة الشـنيعة وهي اللواطـة[1] ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أي وأنتم تعلمون علمـًا يقينـًا أنها فاحشـة وأنها عملٌ قبيح؟ ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ تكريرٌ للتوبيخ أي أئنكم أيها القوم لفرط سفهكم تشتهون الرجال وتتركون النساء؟ ويكتفي الرجال بالرجال بطريق الفاحشـة القبيحة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون ولذلك تفضلون العمل الشـنيع على ما أباح الله لكم من النسـاء ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ أي فما كان جواب أولئك المجرمين إلا أن قالوا أخرجوا لوطـًا وأهله من بلدتكـم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي إنهم قوم يتنزهـون عن القاذورات ويعـدّون فعلنـا قذراً، وهو تعليلٌ لوجـوب الطرد والإخراج قال قتـادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السـوء. وقال ابن عباس: هو اسـتهزاء يستهزئون بهم بأنهم يتطهـرون عن أدبار الرجـال[2] ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ أي فخلصناه هو وأهله من العذاب الواقع بالقوم إلا زوجته ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي جعلناها بقضائنا وتقديرنا من المهلكين، الباقين في العذاب ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السـماء كالمطر فأهلكتْهُم ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي بئس العذاب الذي أُمطروا به وهو الحجارة من سـجيل منضود، ولمـا ذكر تعالى قصص الأنبياء أتبعه بذكر دلائـل القدرة والوحدانية فقـال ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ أي قل يا محمد: الحمدُ للهِ على إفضاله وإنعامه، وسـلامٌ على عباده المرسـلين الذين اصطفاهم لرسالته، واختارهم لتبليغ دعوته قـال الزمخشـري: أمر الله رسـوله ﷺ أن يتلو هذه الآيـات الدالة علـى وحدانيته، الناطقة بالبراهيـن على قدرته وحكمته، وأن يسـتفتح بتحميده والسـلام على أنبيائـه، وفيه تعليمٌ حسن، وتوقيفٌ على أدبٍ جميل، وهو حمد الله والصلاة على رسله، ولقد توارث العلماء والخطبـاء والوعاظ كابـراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسـوله أمام كل عِلْم، وقبل كل عِظَة وتذكِرة[3] ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تبكيتٌ للمشركين وتهكمٌ بهم أي

(١) (ش): لِواط: شـذوذ جنسـيّ بين رجلين. اللِّوَاطُ لُغَةً: إِتْيَانُ الذُّكُورِ فِي الدُّبُرِ، وَهُوَ عَمَل قَوْم نَبِيِّ اللهِ لُوط عَلَيْهِ السَّـلَامُ. يُقَال: لاَطَ الرَّجُـل لِوَاطًا وَلاَوَطَ، أَيْ عَمِلَ عَمَل قَوْم لُوطٍ. وَاصْطِلاَحًا: إِدْخَال الْحَشَـفَةِ فِي دُبُرِ ذَكَرٍ. وَحُكْمُهُ حُكْمُ الزِّنَى عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ. (الحَشَفَة): ما يكشف عنه الختان في عضو التَّذكير، (رأس الذَّكر وما فوق الختان).

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢١٩.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٢٩٥.

هل الخالق المبدع الحكيم خيرٌ أم الأصنام التي عبدوها وهي لا تسمع ولا تستجيب؟ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ برهان آخر على وحدانية الله أي أمَّن أبدع الكائنات فخلق تلك السماواتِ في ارتفاعها وصفائها، وجعل فيها الكواكب المنيرة، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول والأنهار والبحار، خيرٌ أمّا يشركون؟ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي وأنزل لكم بقدرته المطر من السحاب فأخرج به الحدائق والبساتين، ذات الجمال والخضرة والنَّضْرة، والمنظر الحسنِ البهيج[1] ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم، وليس بمقدورهم ومستطاعهم أن يُنبتوا شجرها فضلاً عن ثمرها ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استفهام إنكار أي هل معه معبود سواه[2] حتى تسوّوا بينهما وهو المتفرد بالخلق والتكوين؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي بل هم قوم يشركون بالله فيجعلون له عديلاً ومثيلاً، ويسوّون بين الخالق الرازق والوثن ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ برهان آخر أي جعل الأرض مستقرًّا للإنسان والحيوان، بحيث يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي وجعل في شعابها وأوديتها الأنهار العذبة الطيبة، تسير خلالها شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي وجعل جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد وتضطرب بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي وجعل بين المياه العذبة والمالحة فاصلاً ومانعًا يمنعها من الاختلاط، لئلا يُفسد ماء البحار المياهَ العذبة[3] ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي أَمَعَ الله معبودٌ سواه[4]؟

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر المشركين لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ برهانٌ ثالث أي أمّن يجيب المكروب المجهود الذي مسَّه الضر فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه؟ ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي ويكشف عنه الضُّرَّ والبأساء؟ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل، وأُمةً بعد أُمة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ؟ أي أإله مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه؟ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما أقلَّ تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون؟ ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ

(١) (ش): نضَرَ لونُه/ نضَرَ وجهُه: كان ذا حُسْنٍ وإشْراقٍ وبَهْجَة.

(٢) (ش): الأنسب أن يقال: «هل معه من يستحق العبادة سواه؟»؛ لأن المعبود معه موجود، وإنما السؤال عن الاستحقاق وعدمه لا عن وجود المعبود معه.

(٣) هذا قول الحسن واختاره ابن كثير وهو الأظهر. وقيل: المراد بحر فارس والروم.

(٤) (ش): الأنسب أن يقال: «أَمَعَ الله من يستحق العبادة سواه؟»؛ لأن المعبود معه موجود، وإنما السؤال عن الاستحقاق وعدمه لا عن وجود المعبود معه.

﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ؟ برهان رابع أي: أم من يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس، في البراري، والقفار، والبحار؟ والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار؟ ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ ؟ أي: ومن الذي يسوق الرياح مبشرةً بنزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ؟ أي أإلهٌ مع الله يقدر على شيءٍ من ذلك؟ ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعظَّم وتمجَّد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ برهانٌ خامس، أي: أَمَّنْ يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده بعد فنائه؟ قال الزمخشري: كيف قال لهم ذلك وهم منكرون للإعادة؟ والجواب أنه قد أُزيحت علَّتُهم بالتمكين من المعرفة والإقرار، فلم يبق لهم عذرٌ في الإنكار[١] ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن يُنزل عليكم من مطر السماء، ويُنبتُ لكم من بركات الأرض الزروع والثمار؟ قال أبو حيان: لما كان إيجاد بني آدم إنعامًا إليهم وإحسانًا عليهم، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بالنبات[٢] ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ؟ أي أإله مع الله يفعل ذلك؟ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تزعمون إن كنتم صادقين في أنَّ مع الله إلهًا آخر[٣] ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي هو سبحانه وحده المختص بعلم الغيب، فلايعلم أحدٌ من ملك أو بشر الغيب إلا اللهُ علامُ الغيوب قال القرطبي: نزلت في المشركين حين سألوا النبي ﷺ عن قيام الساعة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ؟ أي وما يدري ولا يشعر الخلائق متى يُبعثون بعد موتهم؟ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي هل تتابع وتلاحق علمُ المشركين بالآخرة وأحوالها حتى يسألوا عن الساعة وقيامها؟ إنهم لا يصدقون بالآخرة فلماذا يسألون عن قيام الساعة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ إضراب عن السابق، أي: هم شاكون في الآخرة لا يصدّقون بها ولذلك يعاندون ويكابرون ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي بل هم في عمَى عنها، ليس لهم بصيرةٌ يدركون بها دلائل وقوعها لأن

---

(١) «الكشاف» ٣/ ٢٩٧.

(٢) «البحر» ٧/ ٩٠.

(٣) قال في البحر: وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه، فلما ذكر خلق العالم العلوي والسفلي وما امتن به من إنزال المطر ختمه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي يعدلون به غيره مما هو مخلوق ولما ذكر جعل الأرض مستقرًّا وتفجير الأنهار، وكان فيه التنبيه على التفكر والتعقل ختمه بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولما ذكر إجابة المضطر وكشف السوء ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لأن الإنسان يتوالى عليه النسيان عندما يزول عنه اضطراره، ولما ذكر الهداية في الظلمات وإرساله الرياح مبشرات، ومعبوداتهم لا تهدي ولا تسعف وهم يشركون بها ختمه بقوله: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ «البحر المحيط» ٧/ ٩١.

اشتغالهم باللذات النفسانية من شهوة البطن والفرج صيّرهم كالبهائم والأنعام لا يتدبرون ولا يبصرون قال ابن كثير: هم شَاكُّون في وقوعها ووجودها، بل هم في عِمايَة وجهلٍ كبير في أمرها[1].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿يُفۡسِدُونَ.. وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾.

٢ - التحضيض ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: هلّا تستغفرون الله.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿ٱطَّيَّرۡنَا.. طَـٰٓئِرُكُمۡ﴾.

٤ - المشاكلة ﴿وَمَكَرُواْ.. وَمَكَرۡنَا﴾ سمَّى تعالى إهلاكهم وتدميرهم مكراً على سبيل المشاكلة.

٥ - الطباق ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ ؟

٦ - الاستفهام التوبيخي ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ ؟

٧ - أسلوب التبكيت والتهكم ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ؟

٨ - الاستعارة اللطيفة ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ أي أمام نزول المطر فاستعار اليدين للأمام.

٩ - الطباق ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

١٠ - الاستعارة ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ استعار العمى للتعامي عن الحق وعدم التفكر والتدبر في آلاء الله.

١١ - مراعاة الفواصل مما يزيد في رونق الكلام وجماله، وله على السمع وقع خاص مثل ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرًا﴾ ومثل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾. وأمثاله كثير، وفي القرآن روائع بيانية يعجز عن التعبير عنها اللسان، فسبحان من خصَّ نبيَّه الأمي بهذا الكتاب المعجز!

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾

---

(١) (ش): عَماية: ضلال، غَوايَة ولَجاجَة في الباطل.

قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ
لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا
فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ
لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ
إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ
بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ
عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ
أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا
عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ
لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ
تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ
مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ
أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، ذكر هنا شبهات المشركين في الإيمان بالآخرة والبعث والنشور، وأردفها بذكر الدلائل القاطعة، وذكر بعض الأهوال التي تكون بين يدي الساعة.

اللغَة: ﴿رَدِفَ﴾ اقترب ودنا ﴿تُكِنُّ﴾ تُسِرُّ وتخفي ﴿دَٰخِرِينَ﴾ ذليلن صاغرين ﴿فَوۡجٗا﴾ الفوج: الجماعة ﴿جَامِدَةٗ﴾ الجمود: سكون الشيء وعدم حركته ﴿أَتۡقَنَ﴾ الإتقان: الإتيانُ بالشيء على أحسن حالاته من التمام والكمال والإحكام ﴿كُبَّتۡ﴾ الكبُّ: الطرح والإلقاء يقال: كببتُ الرجل ألقَيْتُه على وجهه، وكَبَبْتُ الإناء قلَبْتُه.

التفسِير: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ أي قال مشركو مكة المنكرون للبعث: أئذا متنا وأصبحنا رفاتًا وعظامًا بالية، فهل سنخرج من قبورنا ونحيا مرة ثانية؟ ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي لقد وَعدنا محمدٌ بالبعث كما وعَدَ من قبله آباءنا الأولين، فلو كان حقًّا لحصل ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلا خرافات وأباطيل السابقين. ينكرون البعث وينسون أنهم خُلقوا من العدم، وأن الذي خلقهم أولاً

قادر على أن يعيدهم ثانياً! ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي قل لهؤلاء الكفار: سيروا في أرجاء الأرض ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي فانظروا - نظر اعتبار - كيف كان مآل المكذبين للرسل؟ ألم يهلكهم الله ويدمّرهم؟ فما حدث للمجرمين من قبل، يحدث للمجرمين من بعد، والآيةُ وعيدٌ وتهديد ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ تسلية للرسول عليه السلام أي لا تحزن يا محمد ولا تأسف على هؤلاء المكذبين إنْ لم يؤمنوا، ولا يضيقْ صدرك من مكرهم فإن الله يعصمك منهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي يقولون استهزاءً: متى يجيئنا العذاب إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ والخطابُ للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي لعلَّ الذي تستعجلون به من العذاب قد دنا وقرُب منكم بعضه قال المفسرون: هو ما أصابهم من القتل والأسر يوم بدر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لذو إفضالٍ وإنعام على الناس بترك تعجيل عقوبتهم على معاصيهم وكفرهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثرهم لا يعرفون حقَّ النعمة، ولا يشكرون ربهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي وإنه تعالى ليعلم ما يُخْفون وما يعلنون من عداوة الرسول وكيدهم له وسيجازيهم عليه ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي ليس من شيء في غاية الخفاء على الناس والغيبوبة عنهم إلا وقد علمه الله وأحاط به، وأثبته في اللوح المحفوظ عنده، فلا تخفى عليه سبحانه خافية قال ابن عباس: معناه ما من شيءٍ سرٌّ في السماوات والأرض أو علانية إلا وعند الله علمه[1] ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ لما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد والنبوة، وكان القرآن من أعظم الدلائل والبراهين على صدق محمد وصدق ما جاء به، أعقبه هنا بذكر القرآن المجيد وذكر أوصافه والمعنى: إن هذا القرآن المنزَّل على خاتم الرسل لهو الكتاب الحق الذي يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من أمر الدين، ومن جملته اختلافهم في أمر المسيح وتفرقُهم فيه فرقاً كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً، فلو كانوا منصفين لأسلموا، لأن القرآن جاءهم بالرأي الساطع، والخبر القاطع ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وإنه لهداية لقلوب المؤمنين من الضلالة، ورحمة لهم من العذاب، قال القرطبي: وإنما خصَّ المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به[2] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ﴾ أي إن ربك يا محمد يفصل بين بني إسرائيل يوم القيامة بحكمه العادل، وقضائه المبرم، فيجازي المحقَّ والمبطل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي المنيع

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٩٥.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٣١.

الغالب الذي لا يُردُّ أمره ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أي العليم بأفعال العباد فلا يخفى عليه شيء منهم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فوِّض إليه أمرك، واعتمد عليه في جميع شئونك فإنه ناصرك ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق، الواضح المنير، فالعاقبة لك بالنصر على الكفار ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي لا تُسمع الكفار لتركهم التدبر والاعتبار، فهم كالموتى لا حسَّ لهم ولا عقل ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ أي ولا تُسمعهم دعاءَك ونداءك إذا ذكَّرْتَهم بالله أو دعوْتَهم إلى الإيمان، لأنهم كالصُّم الذين في آذانهم وقرٌ، فلا يستجيبون الدعاء، لا سيما إذا تولَّوا عنك معرضين، فإن الأصمَّ إذا تولى مدبراً ثم ناديته كان أبعد عن السماع حيث انضمَّ إلى صممه بُعدُ المسافة ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي وليس بوسعك يا محمد أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي ما تُسمع - سماع تدبر وإفهام - إلا المؤمنين، ولا يستجيب لدعوتك إلاّ أهل الإيمان، وهم الذين انقادوا وأسلموا وجوههَم للرحمن. شبَّه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء، ثم شبههم ثانياً بالصم وبالعُمي وإن كانوا سليمي الحواس، وأكَّد عدم سماعهم بقوله ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ لأن الأصمَّ إذا أدبر زاد صممه أو عدم سماعه بالكلية، والغرض من الآية كالموت وكالصُّمِّ وكالعُمي، لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون، ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل الكونية، أو الآيات القرآنية ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا بيان لما يكون بين يدي الساعة أي وإذا قَرُبَ نزول العذاب وقيام الساعة، وحان وقت عذاب الكفار ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي أخرجنا للكفار هذه الآية الكبيرة «دابة الأرض» تكلم الناس وتناظرهم وتقول من جملة كلامها: ألا لعنةُ الله على الظالمين، الذين لا يصدّقون ولا يؤمنون بآيات الله، وخروجُ الدابة من أشراط الساعة وفي الحديث «إِنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ...» وعدَّ منها طُلُوع الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وخُرُوجَ الدَّابَّةِ»[1] الحديث قال ابن كثير: هذه الدابة تخرج في آخر الزمان، عند فساد الناس وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق، فتكلم الناس وتخاطبهم مخاطبة قال ابن عباس: تكلمهم كلاماً فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون[2]، وروي أن خروجها حين ينقطع الخير، ولا يُؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى منيبٌ ولا

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وفي صحيح مسلم: «إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا».
(ش): الحديث الأول رواه أيضًا أبو داود وصححه الألباني.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٨٢.

تائب، وهي آية خاصة خارقة للعادة، ثم ذكر تعالى بعض مشاهد القيامة فقال ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أي واذكر يوم نجمع للحساب والعقاب من كل أمةٍ من الأمم جماعة وزمرة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي فهم يُجمعون ثم يُساقون بعنف ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا ﴾ أي حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال قال لهم تعالى مُوَبِّخًا ومُقَرِّعًا[1]: أكذبتم بآياتي المنزلة على رسلي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها، أو معرفة صدقها؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقريع وتوبيخ آخر، أيْ: أيَّ شيء كنتم تعملون في الدنيا؟ وبَّخهم أولاً بقوله ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ ثم أضرب عنه إلى استفهام تقرير وتبكيت كأنه قيل: دَعُوا ما نسبتُه إليكم من التكذيب وقولوا لي: أيَّ شيءٍ كنتم تعملونه في الدنيا غير التكذيب؟ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي بُهِتوا فلم يكن لهم جواب، وقامت عليهم الحجة وحقَّ عليهم العذاب، بسبب ظلمهم وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي فهم لا يتكلمون لأنه ليس لهم عذر ولا حجة، وقد شُغلوا بالعذاب عن الجواب.. ثم لما ذكر تعالى أهوال القيامة ذكر الأدلة والبراهين على التوحيد والحشر والنشر مبالغةً في الإرشاد إلى الإيمان فقال: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي ألم يروا قدرة الله فيعتبروا أنه تعالى جعل الليل مظلماًليناموا ويستريحوا من تعب الحياة، وجعل النهار منيراً مشرقاً ليتصرفوا فيه في طلب المعاش والرزق؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي إن في تقليب الليل والنهار من نور إلى ظلمة، ومن ظلمةٍ إلى نور لآيات باهرة، ودلائل قاطعة على قدرة الله لقوم يُصَدِّقون[2] فيعتبرون، ثم أشار تعالى إلى أحوال الناس في الآخرة فقال ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور «نفخة الفزع» فلا يبقى أحدٌ من أهل السماوات والأرض إلا خاف وفزع إلا من شاء الله من الملائكة والأنبياء والشهداء قال المفسرون: هذه نفخة الفزع، ثم تتلوها نفخة الصَّعق - وهو الموت - ثم بعد ذلك نفخة النشور من القبور وهي نفخة القيام لرب العالمين، قال أبو هريرة: إن الملك له في الصور ثلاثُ نفخات: نفخةُ الفزع - وهو فزع الحياة الدنيا - وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصَّعْق، ونفخة القيام من القبور[3] ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ أي وكلٌّ من الأموات الذين أُحيوا

(١) (ش): قرَّع الشخص: عَنَّفه.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٩٩.

أتَوْا ربَّهم صاغرين مطيعين لم يتخلف منهم أحد ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي وترى أيها المخاطب الجبال وقت النفخة الأولى تظنها ثابتة في مكانها وواقفة ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب قال الإمام الفخر: ووجه حسبانهم أنها جامدة أن الأجسام الكبار إذا تحركت سريعة على نهج واحد ظنَّ الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مرًّا سريعاً(١) ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي ذلك صنعُ الله البديع، الذي أحكَمَ كل شيءٍ خَلَقَه، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي هو عليم بما يفعل العباد من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

ثم بيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنةٍ من الحسنات، فإن الله يضاعفها له إلى عشر حسنات، ويعطيه بالعمل القليل الثواب الأبدي ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ أي وهم من خوف ذلك اليوم العصيب آمنون كما قال تعالى ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ قال ابن عباس: السيئة: الإشراك بالله أي ومن جاء يوم القيامة مسيئاً لا حسنة له أو مشركاً بالله فإنه يكبُّ في جهنم على وجهه منكوساً، ويُلقى فيها مقلوباً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم توبيخاً: هل تُجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من سيئ الأعمال؟ ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي قل لهم يا محمد: لقد أُمرت أن أخصَّ الله وحده بالعبادة ربَّ البلد الأمين الذي جعل مكة حرماً آمناً لا يُسفك فيها دم، ولا يُظلم فيها أحد، ولا يصاد صيدها ولا **يُخْتَلَى خلاَهَا**(٢) كما جاء في الحديث الصحيح(٣) ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ أي هو تعالى الخالق والمالك لكل شيء فهو رب كل شيء ومليكه ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأُمرتُ أن أكون من المخلصين لله بالتوحيد، المنقادين لأمره، المستسلمين لحكمه ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٣٤.

(٢) لَا يُخْتَلَى خَلاَهَا: أي لا يقطع حشيشها الرطب.

(٣) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما – أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِى، وَلَا لأَحَدٍ بَعْدِى، وَإِنَّمَا حَلَّتْ لِى سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا، وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلاَ يُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلاَّ لِمُعَرِّفٍ». وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلاَّ الإِذْخِرَ لِصَاغَتِنَا وَلِسُقُفِ بُيُوتِنَا. فَقَالَ «إِلاَّ الإِذْخِرَ». رواه البخاري ومسلم. (لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ): لاَ يُقْطَعُ شَوْكُهُ. (الإِذْخِرِ): حشيشٌ مَعْرُوفٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ. (وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا): أي: لا يطرده من الظل ويقعد مكانه. وقوله ﷺ: «وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا» حجة على تحريم اصطياده؛ لأنه إن نهى عن تنفيره فاصطيادُه آكَدُ في التحريم. وَلاَ يُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلاَّ لِمُعَرِّفٍ: ولا يجوز أن تؤخذ لقطتها إلا لمن أراد أن ينشدها ويعرِّف بها.

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أُمرتُ أيضـاً بتلاوة القرآن لتنكشف لي حقائقه الرائعة، وأن أقرأه على الناس ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فمن اهتدى بالقرآن، واسـتنار قلبه بالإيمان، فإن ثمرة هدايتـه راجعـة إليـه ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي ومن ضلَّ عـن طريق الهدى، فوبالُ ضلاله مختص به، إذْ ما على الرسـول إلا البلاغ وقد بَلَّغْتُكم رسـالة الله ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي قل يا محمد: الحمد لله على ما خصني به من شـرف النبوة والرسالة، وما أكرمني من رفيع المنزلة والمقام ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ تهديد ووعيد أي سـيريكم آياته الباهرة الدالـة على عظيم قدرته وسـلطانه في الأنفس والآفاق فتعرفونها حيـن لا تنفعكم المعرفة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ومـا ربـك بغافـل عن أعمـال العباد بل هو على كل شـيء شهيد، وفيه وعدٌ ووعيد.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات وجوهـاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاسـتفهام الإنـكاري ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وتكريـر الهمـزة ﴿أَئِنَّا﴾ للمبالغة في التعجب والإنكار.

٢ - الوعيد والتهديد ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٣ - التأكيد بإن واللام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾.

٤ - الطباق ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لأن معنى ﴿تُكِنُّ﴾ تخفي.

٥ - الاسـتعارة البديعـة ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ لأن القصص لا يوصـف به إلا الناطق المميـز، ولكـنَّ القـرآن لما تضمَّن نبـأ الأولين، كان كالشـخص الذي يقـصُّ على الناس الأخبار ففيه استعارةٌ تبعية.

٦ - المبالغة ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لأن صيغة (فعيل) من صيغ المبالغة.

٧ - الاسـتعارة التمثيلية ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ التعبير بالموتى، والصُمّ، والعُمْي، جاء كله بطريق الاستعارة، وهو تمثيل لأحوال الكفار في عدم انتفاعهم بالإيمان بأنهم كالموتى والصُّمّ والعُمْي.

٨ - أسلوب التوبيخ والتأنيب ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟

٩ - الطباق ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ . ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾.

١٠ - التشـبيه البليغ ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي تمرُّ كمرِّ السـحاب في السـرعة، حذفت الأداة ووجه الشبه فأصبح تشبيهـاً بليغـاً مثل محمد قمر.

١١ - الإحتباك ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ حُذف من أوله ما أُثبت في آخره وبالعكس، أصله جعلنا الليل مظلمـاً لتسـكنوا فيه، والنهار مبصراً لتتصرفوا

فيه فحذف «مظلماً» لدلالة «مبصراً» عليه، وحذف «لتتصرفوا فيه» لدلالة ﴿لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ وهذا النوع يسمى الإحتباك وهو من المحسنات البديعية.

«انتهى تفسير سورة النمل»





مكية وآياتها ثمان وثمانون

بين يدي السورة

* سورة القصص من السور المكية التي تهتم بجانب العقيدة «التوحيد، والرسالة، والبعث» وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي «النمل، والشعراء» كما اتفقت في جو النزول، فهي تكمِّل أو تُفصل ما أُجمل في السورتين قبلها.

* محور السورة الكريمة يدور حول فكرة الحق والباطل، ومنطق الإذعان والطغيان، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن، وجند الشيطان، وقد ساقت في سبيل ذلك قصتين: **أولاهما**: قصة الطغيان بالحكم والسلطان، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب، فذبح الأبناء، واستحيا النساء، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، **والثانية**: قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال ممثلة في «قارون مع قومه» وكلتا القصتين رمزٌ إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة، سواء بالمال، أو الجاه، أو السلطان.

* ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون وعلوه وفساده في الأرض، ومنطق الطغيان في كل زمان ومكان.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وخوف أُمه عليه من بطش فرعون، وإلهام الله تعالى لها بإلقائه في البحر ليعيش معززًا مكرمًا في حجر فرعون كريحانةٍ زكية تنبتُ وسط الأشواك والأوحال.

* ثم تحدثت عن بلوغ موسى سن الرشد، وعنقتله للقبطي، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب[1]، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله، وتحدثت عن كفار مكة ووقوفهم في وجه الرسالة المحمدية، وبيَّنت أن مسلك أهل الضلال واحد.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قارون، وبينت الفارق العظيم بين منطق الإيمان، ومنطق الطغيان.

* وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة وهو طريق الإيمان الذي دعى إليه الرسل الكرام.

---

(١) (ش): ليس هناك دليلٌ على أن الذي زوَّج بنتَه لموسى هو شعيب عليه السلام.

التسمية: سميت سورة «القصص» لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من حين ولادته إلى حين رسالته، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلى فيها بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ
وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ
وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ
لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ
قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن
قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ
عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ
وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ
فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ
لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾
فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾
فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ
إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ

اللغة: ﴿شِيَعٗا﴾ فِرَقاً وأصنافاً ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ﴾ يتركه حيًّا ولا يقتله ﴿نَّمُنَّ﴾ نتفضل ونُنْعم ﴿ٱلۡيَمِّ﴾ البحر ﴿فَٰرِغًا﴾ خالياً ﴿ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ جمع مُرضِع، وأما المرضعة فجمعها مرضعات وهي التي ترضع الطفل اللبن ﴿عَن جُنُبٖ﴾ عن بعد ومنه الأجنبي للبعيد غير القريب ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ الوكز: الضرب بجُمْع الكف أي بكفِّه مجموعةً قال أهل اللغة: الوكزُ واللكز كلاهما بمعنى واحد وهو الضرب بجُمع الكفّ على الصدر، وقيل: الوكز في

الصدر، واللكزُ في الظهر، وجمع الكف: الكف المقوضةُ الأصابع[١] ﴿ظَهِيرًا﴾ عونًا ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيثه والاستصراخ الاستغاثة وهو من الصراخ لأن المستغيث يصرخ ويرفع صوته طلبًا للغوث قال الشاعر:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ ... كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَابِيبِ[٢]

﴿يَبْطِشَ﴾ البطش: الأخذ بالشدة والعنف، بطش ويبطش ويبطش بالكسر والضم.

التفسير: ﴿طسٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركبٌ من أمثال هذه الحروف الهجائية[٣] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي، الظاهر في إعجازه، الواضح في تشريعه وأحكامه ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نقرأ عليك يا محمد بواسطةالروح الأمين من الأخبار الهامة عن موسى وفرعون من الحق الذي لا يأتيه الباطل، والصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لقوم يصدقون بالقرآن فينتفعون.. ثم بدأ بذكر قصة فرعون الطاغية فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي استكبر وتجبَّر، وجاوز الحد في الطغيان في أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي جعل أهلها فرقًا وأصنافًا في استخدامه وطاعته ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي يستعبد ويستذل فريقًا منهم وهم بنو إسرائيل فيسومهم سوء العذاب ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي يقتّل أبناءهم الذكور ويترك الإناث على قيد الحياة لخدمته وخدمة الأقباط قال المفسرون: سبب تقتيله الذكور أن فرعون رأى في منامه أن ناراً عظيمةً أقبلت من بيت المقدس وجاءت إلى أرض مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل، فسأل عن ذلك المنجمين والكهنة، فقالوا له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يديه، ويكون هلاكك بسببه فأمر أن يقتل كل ذكر من أولاد بني إسرائيل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي من الراسخين في الفساد، المتجبرين في الأرض، ولذلك ادعى الربوبية وأمعن في القتل وإذلال العباد ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ونريد برحمتنا أن نتفضل ونُنْعِم على المستضعفين من بني إسرائيل فننجيهم من بأس فرعون وطغيانه ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي ونجعلهم أئمة يُقتدَى بهم في الخير بعد أن كانوا أذلاء مسخرين قال

---

(١) «حاشية شيخ زاده على «البيضاوي»» ٣/ ٥٠٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٦٤. (ش): الصارخ: المستغيث. والظنابيب جمع (الظُّنْبُوبُ): وهو حرف العظم اليابس من الساق. وَمِنْ أَمثالهم: قَرَعَ فُلانٌ لأَمْرِه ظُنْبوبَه إِذا جَدَّ فِيهِ. والمراد سرعة الإجابة لنداء المستغيث والاجتهاد في نصرته. وقرْعُ الظنبوب كناية عن ذلك.

(٣) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول أوائل السور.

ابـن عباس: ﴿أَئِمَّةً﴾ قادة في الخير، وقال قتادة: ولاةً وملوكـًا ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي ونجعل هؤلاء الضعفاء وارثين لملك فرعون وقومه، يرثون ملكهم ويسـكنون مسـاكنهم بعـد أن كان القبط أسـياد مصـر وأعزتهـا ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ونملكهـم بلاد مصر والشـام يتصرفون فيها كيف يشـاءون قـال «البيضاوي»: أصل التمكين أن تجعل للشـيء مكانـًا يتمكن فيه ثم اسـتعير للتسـليط وإطلاق الأمر[1] ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ أي ونـري فرعـون الطاغيـة، ووزيره «هامـان» والأقباط من أولئـك المسـتضعفين مـا كانوا يخافونـه من ذهاب ملكهـم وهلاكهم على يـد مولودٍ من بني إسـرائيل ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي قذفنا في قلبها بواسـطة الإلهام قال ابن عباس: هو وحيُ إلهام وقال مقاتل: أخبرها جبريل بذلك. قال القرطبي: فعلى قول مقاتل هـو وحيُ إعـلام لا إلهام، وأجمع الكل علـى أنها لم تكن نبية، وإنما إرسـال الملك إليها على نحو تكليم المَلَك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث المشـهور[2]، وكذلك تكليم الملائكة للناس من غير نبوة، وقد سلَّمت على «عمران بن حصين» فلم يكن نبيًّا[3] ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي فـإذا خفت عليه مـن فرعون فاجعليه في صندوق وألقيه في البحر - بحر النيل - ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ أي لا تخافي عليه الهلاك ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي فإنا سـنرده إليك ونجعله رسـولاً نرسله إلى هـذا الطاغية لننجّـي بني إسـرائيل على يديـه ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي فأخـذه وأصابه أعوان فرعـون لتكون عاقبة الأمر أن يصبح لهم عدوًّا ومصدر حـزن وبلاءٍ وهلاك قال القرطبي: اللام في «ليكون» لام العاقبة ولام الصيرورة، لأنهم إنما أخـذوه ليكـون لهم قرة عين، فـكان عاقبة ذلك أن صـار لهم عدوًّا وحزنـًا، فذكر الحال بالمآل كما قال الشاعر:

وَلِلْمَنَايَا تُرَبِّي كُلُّ مُرْضِعَةٍ ... وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا[4]

---

(١) «البيضاوي» ٢/ ٨٨.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٥٠. (ش): قَالَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: «قَدْ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ حَتَّى اكْتَوَيْتُ فَتُرِكْتُ ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَيَّ فَعَادَ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). ورواه الحاكم بلفظ: «لَمْ تُسَلِّمْ عَلَيَّ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى ذَهَبَ عَنِّي أَثَرُ النَّارِ» (صححه الحاكم ووافقه الذهبي). عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قال: أرسل إليَّ عمرانُ بنُ حصين في مرضه فقال: إنه كانت تُسَلّم عليَّ - يعني: الملائكة - ؛ فإن عشْتُ فاكْتُمْ عليَّ، وإن متُّ ؛ فحَدِّثْ به إن شِئتَ». قال الألباني: «إسناده صحيح».

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٥٢. (ش): أي: إن التربية المقصود بها العافية والسعادة عاقبتُها الموتُ يومًا ما، وكذلك ما نبْنيه للاستمتاع به مصيرُه الخراب يومًا ما.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ أي كانوا عاصين مشركين آثمين، قال العلماء: الخاطئ من تعمد الذنب والإِثم، والمخطئ من فعل الذنب عن غير تعمد ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ أي قالت زوجة فرعون لفرعون: هذا الغلام فرحة ومَسَرَّة لي ولك لعلنا نُسَرُّ به فيكون قرة عين لنا قال الطبري: ذُكِر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون قال لها: أمَّا لك فنعم، وأما لي فليس بقرة عين[1]، وقال ابن عباس: لو قال قرة عين لي لهداه الله به ولآمن ولكنه أبى ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أي: لا تَقْتُلْه يا فرعون، خاطَبَتْه بلفظ الجمع كما يُخاطب الجبارون تعظيماً له ليساعدها فيما تريد ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ «عسى» أن ينفعنا في الكبر، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقرُّ به عيوننا قال المفسرون: وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها قال تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يديه وبسببه ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا﴾ أي صار قلبها خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى[2]، وقيل المعنى: طار عقلها من فرط الجزع والغم حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي إنها كادت أن تكشف أمره وتظهر أنه ابنها من شدة الوجد والحزن قال ابن عباس: كادت تصيح وابناه، وذلك حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي لولا أن ثبتناها وألهمناها الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لتكون من المصدقين بوعد الله بِرَدِّهِ عليها ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي قالت أم موسى لأخت موسى: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره قال مجاهد: قصي أثره وانظري ماذا يفعلون به؟ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي فأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته، لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهي ترقبه مستخفيةً عنهم ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي ومنعنا موسى أن يقبل ثدي أي مرضعة من المرضعات اللاتي أحضروهن لإِرضاعه من قبل مجيء أُمه قال المفسرون: بقي أياماً كلما أُتي بمرضع لم يقبل ثديها، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر فخرجوا به يبحثون له عن مرضعة خارج القصر فرأوا أخته ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه؟ ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ﴾ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته قال السدي: فدلتهم على أم موسى فانطلقت إليها بأمرهم

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٠/ ٢٢.

(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وجمهور المفسرين، والقول الثاني ذكره القرطبي عن ابن القاسم عن مالك، ولعله الأظهر.

فجاءت بها، والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعه إليها فلما وجد ريح أُمه قبل ثديها، فقال فرعون: من أنت منه فقد أبى كل هديٍ إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها، فرجعت إلى بيتها من يومها ولم يبق أحدٌ من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر فذلك قوله تعالى ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي أعدناه إليها تحقيقاً للوعد كي تسعد وتهنأ بلقائه ولا تحزن على فراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي ولتتحقق من صدق وعد الله بِرَدِّهِ عليها وحِفْظِه من شر فرعون ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس يرتابون ويشكون في وعد الله القاطع ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي ولما بلغ كمال الرشد، ونهاية القوة، وتمام العقل والاعتدال قال مجاهد: هو سنُّ الأربعين ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي أعطيناه الفهم والعلم والتفقه في الدين مع النبُوَّة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء الكريم نجازي المحسنين على إحسانهم ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي دخل مصر وقت الظهيرة والناس يخلدون للراحة عند القيلولة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي فوجد شخصين يتقاتلان: أحدهما من بني إسرائيل من جماعة موسى، والآخر قبطي من جماعة فرعون ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي فاستنجد الإسرائيلي بموسى وطلب غوثه ليدفع عنه شر القبطي ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي ضربه موسى بجمع كفه فقتله، قال القرطبي: فعل موسى ذلك وهو لا يريد قَتْله إنما قصد دَفْعَه فكانت فيه نَفْسُه وكانت القاضية[1] ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي هذا من إغواء الشيطان فهو الذي هيَّج غضبي حتى ضربت هذا ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي إن الشيطان عدوٌ لابن آدم فصل له عن سبيل الرشاد، ظاهر العداوة، قال الصاوي: نسبه إلى الشيطان من حيث إنه لم يؤمر بقتله القبطي وظهر له أن قتله خلاف الأولى لما يترتب عليه من الفتن، والشيطان تفرحه الفتن، ولذلك ندم على فِعْله[2] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ أي إني ظلمت نفسي بقَتْل النفس فاعف عني ولا تؤاخذني بخطيئتي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إنه تعالى المبالغ في المغفرة للعباد، الواسع الرحمة لهم ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي بسبب إنعامك عليَّ بالقوة وبحق ما أكرمتني به من الجاه والعز، فلن أكون عوناً لأحد من المجرمين[3]، وهذه معاهدة عاهد

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٦١.
(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ١١٢.
(٣) قال الرازي: وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة.

موسى ربه عليها وقيل: هو قَسَمٌ، وهو ضعيف ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي فأصبح موسى في المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً على نفسه يتوقع وينتظر المكروه، ويخاف أن يؤخذ بجريرته ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلَّصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر فلما رأى موسى أخذ يصيح به مستغيثاً لينصره من عدوه ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي قال موسى للإسرائيلي: إنك لبيِّنُ الغواية والضلال، فإني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه من قتل رجل بسببك وتريد أن توقعني اليوم في ورطةٍ أخرى؟ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي فحين أراد موسى أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدوٌ له وللإسرائيلي ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ أي قال القبطي: أتريد قتلي كما قتلت غيري بالأمس[1]؟ ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما تريد يا موسى إلا أن تكون من الجبابرة المفسدين في الأرض ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي وما تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الإشارة بالبعيد عن القريب لبعد مرتبته في الكمال ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

٢ - حكاية الحالة الماضية ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الذهن.

٣ - إيثار الجملة الإسمية على الفعلية ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقل سنرده ونجعله رسولاً وذلك للاعتناء بالبشارة؛ لأن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والإستمرار.

٤ - الاستعارة ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ شبه ما قذف الله في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع واستعار لفظ الربط للصبر.

٥ - صيغة التعظيم ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ تخاطب فرعون ولم تقل لا تقتله تعظيماً له.

٦ - صيغة المبالغة ﴿جَبَّارٍ، غويّ، مُّبِينٌ﴾ لأن (فعال وفعيل) من صيغ المبالغة.

٧ - الطباق المعنوي ﴿جَبَّارًا .. وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ لأن الجبار المفسد المخرّب، المكثر للقتل وسفك الدماء ففيه طباق في المعنى.

٨ - الاستعطاف ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

٩ - توافق الفواصل في كثير من الآيات مثل ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

---

(١) هذا هو الظاهر أن القائل هو القبطي لا الإسرائيلي لأن قوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ لا يصدر من المؤمن وإنما من الكافر.

لطيفة: «حكى العلاَّمة القرطبي عن الأصمعي أنه قال سمعت جارية أعرابية تنشد:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ لِذَنْبِي كُلِّهِ ... قَبَّلْتُ إِنْسَانًا بِغَيْرِ حِلِّهِ
مِثْلَ الْغَزَالِ نَاعِمًا فِي دَلِّهِ ... فَانْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أُصَلِّهِ(١)

فقلت: قاتلكِ اللهُ ما أفصَحَكِ؟ فقالت: أَوَيُعَدّ هَذَا فَصَاحَة مع قول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فقد جمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين وبشارتين»(٢).

قال الله تعالى:

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ
مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ
مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ
الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ
لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا
يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ
هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ
سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا
عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن
جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ
الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ
وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾

(١) (ش): في الأصل: «قَتَلْتُ»، والتصحيح من القرطبي.
دلَّت الفتاةُ، دَلاًّ ودَلالاً: اتَّصفت بالسَّكينة والوقار، وحسُنتْ هيئتُها وطريقتُها، ويوصَف به الرجُل كذلك.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٥٢.

وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾
قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا
ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا
فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ
ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى
فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ
ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ
﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ
ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ

المناسَبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى، وقد تناولت الآيات السابقة قصة ولادته وإرضاعه، وتربيته في بيت فرعون إلى أن شبَّ وبلغ سنَّ الرشد والكمال، ثم قَتْله للفرعوني، وتتحدث الآيات هنا عن هجرته إلى أرض مدين وتزوُّجه بابنة شعيب[1]، ثم عودته إلى مصر، ونزول النبوة عليه، وهلاك فرعون على يديه.

اللغَة: ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ يتشاورون قال الأزهري: ائتمر القوم وتآمروا أي أمَر بعضهم بعضاً ﴿تَذُودَانِ﴾ ذاد يذود إذا حبس ومنع، وذاد طرد قال الشاعر:

لَقَدْ سَلَبَتْ عَصَاكَ بَنُو تَمِيمٍ ... فَمَا تَدْرِي بِأَيِّ عَصًا تَذُودُ[2]

﴿خَطْبُكُمَا﴾ الخطْب: الشأن قال رؤبة: «يَا عَجَبًا مَا خَطْبُهُ وَخَطْبِي» ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ جمع راعٍ، مثل صاحب وصِحاب، وهو الذي يرعى الغنم ﴿حِجَجٍ﴾ جمع حجة بكسر الحاء وهي السنة ﴿جَذْوَةٍ﴾ الجذوة: الجمرة الملتهبة ﴿رِدْءًا﴾ عوناً قال الجوهري: أردأْتُه أعَنْتُه، وكنتُ له رِدءاً أي عوناً ﴿المقبوحين﴾ الهالكين المبعدين أو القبيحين في الصورة يقال: قَبَّحه إذا جعله قبيحاً.

التفسِير: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ أي وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه من أبعد أطراف المدينة يشتد ويسرع في مشيه قال ابن عباس: هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي قال له موسى: إن أشراف فرعون، ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلك ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ أي

(١) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليلٌ على أن الذي زوَّج بنتَه لموسى هو شعيب عليه السلام.
(٢) البيت لجرير يهجو الفرزدق كذا في «القرطبي» ١٣/ ٢٦٨.

فاخـرج قبـل أن يدركوك فأنا ناصحٌ لك من الناصحيـن ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي فخرج مـن مصـر خائفـاً على نفسـه يترقـب وينتظر الطلـب أن يدركـه فيأخذه، ثم التجـأ إلى الله سـبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سـواه ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي خلصني من الكافريـن واحفظني من شـرهم - والمراد بهم فرعـون وملؤه - ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي قصـد بوجهـه ناحية مدين وهي بلدة شـعيب عليه السـلام ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي لعل الله يرشـدني إلى الطريق السـوي الـذي يوصلني إلى مقصودي قال المفسرون: خرج خائفـاً بغير زاد ولا ظهر - مركب - وكان بين مصر ومدين مسيرةُ ثمانية أيـام، ولـم يكن له علمٌ بالطريق سـوى حسـن ظنه بربـه، فبعث الله إليه ملكـاً فأرشـده إلى الطريـق، ويروى أنه لمـا وصل مدين كانت خُضـرةُ البَقْل[1] تتراءى مـن بطنه من الهزال، لأنـه كان في الطريـق يتقوت ورق الشـجر ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي ولما وصل إلى مدين بلدة شـعيب وجد على البئر الذي يسـتقي منه الرعاة جمعـاً كثيفـاً من الناس يسـقون مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي ووجد سوى الجماعة الرعاة امرأتين تكفَّان غنمهما عن الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ؟ أي ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء؟ ولم لا تسقيان مع السقاة؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي مـن عادتنا التأني حتى ينصرف الرعاةُ مع أغنامهم عن الماء، ولا طاقـة لنـا على مزاحمة الأقوياء، ولا نريد مخالطة الرجال، وأبونا رجل مُسِـنٌّ لا يسـتطيع لضعفه أن يباشـر سـقاية الغنم، ولذلك اضطررنا إلى أن نسـقي بأنفسـنا قال أبو حيان: فيه اعتذار لموسـى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، وتنبيهٌ على أن أباهما لا يقدر على السَّقْي لشـيخوخته وكبره، واستعطافٌ لموسـى في إعانتهما[2] ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي فسـقى لهما غنمهما رحمة بهما، ثم تنحى جانبـاً فجلس تحت ظل شـجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي إني يـا ربّ محتـاجٌ إلـى فضلـك وإحسـانك، وإلى الطعام الـذي أسُـدُّ به جوعـي، طلب من الله مـا يأكله وكان قد اشـتد عليه الجوع قـال الضحاك: مكث سـبعة أيام لم يذق فيها طعامـاً إلا بقل الأرض[3] وقال ابن عباس: سـار موسـى من مصـر إلى «مديـن» ليس له طعـام إلا البقل وورق الشـجر، وكان حافيـاً فَمَـا وَصَلَ مَدْيَن حَتَّـى سَـقَطَتْ نَعْلُ قَدَمِهِ، وجلس في الظل - وهو صفـوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصقٌ

(١) (ش): البَقْل: كلّ نباتٍ عُشبيّ يغتذي الإنسان به أو بجزء منه كالخسّ والخيار والجزر، ويكثر إطلاقه الآن على الحبوب الجافّة لبعض الخضروات كالفاصوليا واللُّوبيا والفول والعدس.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ١١٣.

(٣) «الرازي» ٢٤/ ٢٤٠.

بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل(١) لتُرى من داخل جوفه، وإنه لمحتاجٌ إلى شق تمرة(٢) ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ في الكلام اختصار تقديره: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكان من عادتهما الإبطاء فحدثتاه بما كان من أمر الرجل، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته تمشي.. الخ أي جاءته حالَ كوْنها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل قد سترت وجهها بثوبها قال عمر: لم تكن بسلفع من النساء خرَّاجة ولاَّجة(٣) ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ أي إنَّ أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنمنا قال ابن كثير: وهذا تأدبٌ في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة(٤) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فلما جاءه موسى وذكر له ما كان من أمره وسبب هربه من مصر قال له شعيب(٥): لا تخف فأنت في بلدٍ آمن لا سلطان لفرعون عليه وقد نجاك الله من كيد المجرمين ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ أي استأجره لرعي أغنامنا وسقايتها ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ أي إنَّ أفضل من تستأجره من كان قويًّا أميناً قال أبو حيان: وقولها كلام حكيم جامع لأنه إذ اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمرٍ من الأمور فقد تمَّ المقصود(٦)، روي أن شعيباً(٧) قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فقالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال(٨)، وإني لما جئتُ معه تقدمتُ أمامه فقال لي: كوني من ورائي ودليني على الطريق، ولما أتيته خفض بصره فلم ينظر إليَّ، فرغب شعيب(٩) في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ أي إني أريد أن أزوجك إحدى بنتيَّ هاتين الصغرى

---

(١) (ش): البَقْل: كلّ نباتٍ عُشبيّ يغتذي الإنسان به أو بجزء منه كالخسّ والخيار والجزر، ويكثر إطلاقه الآن على الحبوب الجافّة لبعض الخضروات كالفاصوليا واللُّوبيا والفول والعدس.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٠.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٠/ ٣٩، والسلفع: الجريئة السليطة الجَسُور أفاده الجوهري. (ش): خرَّاجة: صيغة مبالغة من الخروج، وكذلك الولاَّجة صيغة مبالغة من الولوج أي الدخول، والمعنى أنها كثيرة الدخول كثيرة الخروج.

(٤) «ابن كثير» ٣/ ١١.

(٥) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليلٌ على أن الذي زوّج بنتَه لموسى هو شعيب.

(٦) «البحر» ٧/ ١١٤.

(٧) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليلٌ على أن الذي زوّج بنتَه لموسى هو شعيب عليه السلام.

(٨) (ش): عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلاَمُ، لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ، وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ، فَلَمَّا فَرَغُوا أَعَادُوا الصَّخْرَةَ عَلَى الْبِئْرِ، وَلاَ يُطِيقُ رَفْعَهَا إِلَّا عَشَرَةُ رِجَالٍ، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ، قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ فَحَدَّثَتَاهُ، فَأَتَى الْحَجَرَ فَرَفَعَهُ، ثُمَّ لَمْ يَسْتَقِ إِلَّا ذَنُوبًا وَاحِدًا حَتَّى رَوِيَتِ الْغَنَمُ. (رواه ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ في «المصنَّف» وصحح إسناده الحافظ ابن كثير).

(٩) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليلٌ على أن الذي زوّج بنتَه لموسى هو شعيب عليه السلام.

أو الكبرى ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ أي بشرط أن تكون أجيراً لي ثماني سنين ترعى فيها غنمي ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾ أي فإن أكملتها عشر سنين فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ أي وما أُريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة، ليِّن الجانب، وفيًّا بالعهد قال القرطبي: في الآية عرضُ الوليّ ابنته على الرجل، وهذه سُنة قائمة، عرض شعيب[1] ابنته على موسى، وعرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ فمن الحُسْن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح، اقتداءً بالسلف الصالح[2] ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ أي قال موسى: إنَّ ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه، وأيَّ المدتين الثماني أو العشر أديتها لك فلا إثم ولا حرج عليَّ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ أي والله شاهد على ما تعاهدنا وتواثقنا عليه ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ أي فلما أتم موسى المدة التي اتفقا عليها قال ابن عباس: قضى أتم الأجلين وأكملهما وأوفاهما وهو عشر سنين ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ أي ومشى بزوجته مسافراً بها إلى مصر ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾ أي أبصر من بعيد ناراً تتوهج من جانب جبل الطور ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أي قال لزوجته: امكثي هنا فقد أبصرت نارًا عن بعد قال المفسرون: كانت ليلةً باردة وقد أضلوا الطريق، وهبَّت ريح شديدة فرقت ماشيته، وأخذ أهله الطلق فعند ذلك أبصر ناراً بعيدة فسار إليها لعله يجد من يدله على الطريق فذلك قوله تعالى ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ أي لعلي آتيكم بخبير الطريق وأرى من يدلني عليه ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أي أو آتيكم بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار لم يجدها ناراً وإنما وجدها نوراً، وجاءه النداء من جانب الوادي الأيمن في ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: نودي يا موسى إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الكبير، المنزه عن صفات النقص، ربُّ الإنس والجن والخلائق أجمعين ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ﴾ أي ونودي بأن اطرح عصاك التي في يدك ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ أي فألقاها فانقلبت إلى حيّة فلما رآها تتحرك كأنها ثعبان خفيف سريع الحركة انهزم هارباً منها ولم يلتفتَّ

(١) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليلٌ على أن الذي زوَّج بنتَه لموسى هو شعيب عليه السلام.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٧١.

إليها قال ابن كثير: انقلبت العصى إلى حية وكانت كأنها جانٌّ في حركتها السَريعة مع عِظم خلقتها، واتساع فمها، واصطكاك أنيابها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها تنحدر في فمها تتعقع كأنها حادرة في واد، فعند ذلك ولَّى مدبراً ولم يلتفت، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ أي فنودي يا موسى: ارجع إلى حيث كنت ولا تخف فأنت آمنٌ من المخاوف، فرجع وأدخل يده في فم الحية فعادت عصا ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أي أَدخِلْ يدك في جيب قميصك - وهو فتحة الثوب مكان دخول الرأس - ثم أَخرِجْها تخرجْ مضيئةً منيرةً تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق من غير أذى ولا برص ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ قال ابن عباس: اضمم يدك إلى صدرك من الخوف يذهب عنك الرعب قال المفسرون: المراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناح الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه وبذلك يذهب عنه الخوف من الحية ومن كل شيء ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي فهذان - العصا واليد - دليلان قاطعان، وحجتان نيِّرَتان واضحتان من الله تعالى تدُلان على صدقك[١]، وهما آيتان إلى فرعون وأشراف قومه الطُغاة المتجبرين ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعتنا، مخالفين لأمرنا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ أي قال موسى يا رب إني قتلت قبطياً من آل فرعون وأخشى إن أتيتهم أن يقتلوني به قال المفسرون: هو القبطي الذي وكزه فمات، فطلب من ربه ما يزداد به قوة على مجابهة فرعون بإرسال أخيه هارون معه فقال ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ أي هو أوضح بياناً، وأطلق لساناً، لأن موسى كان في لسانه حُبْسة من أثر الجمرة التي تناولها في صغره ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ أي فأرسلْهُ معي معيناً يبيّن لهم عني ما أكلمهم به بتوضيح الحجج والبراهين ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي أخاف إن لم يكن لي وزير ولا معين أن يكذبوني لأنهم لا يكادون يفقهون عني، قال الرازي: والمعنى أرسل معي أخي هارون حتى يعاضدني على إِظهار الحجة والبيان، وليس الغرض بتصديق هارون أن يقول ل: صدقتَ، أو يقول للناس: صدقَ موسى، وإنما هو أن يُلخّص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل، ويجيب عن الشبهات، ويجادل به الكفار[٢] ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ أي أجابه تعالى إلى طلبه وقال له: سنقوّيك بأخيك ونعينك به، ونجعل لكما غلبةً وتسلطاً

(١) (ش): نيِّر: منيرٌ حسنٌ مُشرِقٌ. النَّيِّران: الشَّمسُ والقمر.
(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٤/ ٣٤٩.

على فرعون وقومه ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب ما أيدتكما به من المعجزات الباهرات ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أي العاقبة لكما ولأتباعكما في الدنيا والآخرة، وأنتم الغالبون على القوم المجرمين كقوله تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي فلما جاءهم موسى بالبراهين الساطعة، والمعجزات القاطعة، الدالة على صدقه وأنه رسولٌ من عند الله ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به من العصا واليد إلا سحرٌ مكذوب مختلق، افتريْتَه مِن قِبَل نفْسِك وتنسبه إلى الله ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي وما سمعنا بمثل هذه الدعوى -التوحيد- في آبائنا وأجدادنا السابقين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أجمل موسى في جوابهم تلطفاً في الخطاب، وإيثاراً لأحسن الوجوه في المجادلة معهم. والمعنى: إن ما جئتكم به حقٌّ وهدى وليس بسحر، وربي عالمٌ بذلك يعلم أني مُحِقٌّ وأنتم مُبطِلون، ويعلم من تكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يسعد ولا ينجح من كان ظالماً فاجراً، كاذباً على الله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ أي قال فرعون لأشراف قومه وسادتهم: ما علمتُ لكم إلهاً غيري قال ابن عباس: كان بين هذه القولة الفاجرة وبين قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] أربعون سنة، وكذب عدوُّ الله بل علم أن له ربًّا هو خالقه وخالق قومه[1] ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ أي فاطبخ لي يا هامان الآجُرّ[2] فاجعل لي منه قصراً شامخاً رفيعاً ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي لعلي أرى وأشاهد إله موسى الذي زعم أنه أرسله، قال ذلك على سبيل التهكم ولهذا قال بعده ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي وإني لأظن موسى كاذباً في يادعائه أن في السماء ربًّا قال تعالى ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي وتكبر وتعظم فرعون وقومه عن الإيمان بموسى في أرض مصر بالباطل والظلم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي واعتقدوا أن لا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي فأخذناه مع جنوده فطرحناهم في البحر، وأغرقناهم فلم يبق منهم أحد

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٨٨.

(٢) (ش): الآجُرُّ: جمع آجُرَّة: طوب: لبِنٌ محروق مُعَدٌّ للبناء، وتتكوَّن المادّة المحرقة من الطِّين أو أي مخلوط آخر كالجير والرَّمل أو الأسمنت والرَّمل. واللَّبِن: قوالب مربَّعة أو مستطيلة مضروبة من الطِّين تستعمل في البناء.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فانظر يا محمد بعين قلبك نظر اعتبار كيف كان مآل هؤلاء الظالمين الذين بلغوا من الكفر والطغيان أقصى الغايات؟ ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي وجعلناهم في الدنيا قادة وزعماء في الكفر يقتدي بهم أهلُ الضلال ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ويوم القيامة ليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ أي جعلنا اللعنة تلحقهم في هذه الحياة الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ أي وفي الآخرة هم من المبعدين المطرودين من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بإنَّ واللام ﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ مناسبةً لمقتضى الحال.

٢ - الاستعطاف والترحم ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ حذف وجه الشبه فأصبح مجملاً.

٥ - الطباق بين ﴿يُصَدِّقُنِيٓ.. يُكَذِّبُونِ﴾.

٦ - الكناية ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ كنى عن اليد بالجناح، لأنها للإنسان كالجناح للطائر.

٧ - المجاز المرسل ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ من إطلاق السبب وإرادة المسبب؛ لأن شد العضد يستلزم شد اليد، وشد اليد مستلزم للقوة، قال الشهاب، ويمكن أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية، شبه حال موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بيد شديدة.

لطيفَة: قال الزمخشري: إنما قال ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي أوقد لي النار فأتخذ منه آجراً ولم يقل «أطبخ لي الآجر» لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته، وأشبه بكلام الجبابرة، وهامان وزيره ومدبّر رعيته.

قال الله تعالى:

وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ
تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ
مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم
مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ
بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ
ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ
أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾
۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ
بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ
وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ
نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ
وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ
وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ
مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ
تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ
مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ
يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا
يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ
يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ
يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ
ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ

المناسَبة: بعد أن ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل بإهلاك فرعون رأس الطغيان وتخليصهم من شره، ذكر هنا ما أنعم عليهم من إنزال التوراة التي فيها الهدى والنور، كما ذكر نعمته على العرب بإنزال القرآن العظيم خاتمة الكتب السماوية.

اللغَة: ﴿ثَاوِيًا﴾ مقيماً وثوى بالمكان أقام به قال الشاعر:

«لَقَدْ كَانَ فِي حَوْلٍ ثَوَاءٍ ثَوَيْتُهُ»[1]...

---

(١) «البحر المحيط» ٧/ ١٠٣. (ش): حَوْل: سنة كاملة. والثّواء: الإقامة مع الاستقرار. أي: إنه أقام سنة كاملة.

﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾ يدفعون، والدرءُ: الدفع وفي الحديث «ادرءوا الحدود بالشبهات»[١] ﴿يُجۡبَىٰٓ﴾ يجمع، جبى الماء في الحوض جمعه، والجابية: الحوض العظيم ﴿بَطِرَتۡ﴾ البطر: الطغيان في النعمة ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ الأخبار جمع نبأ وهو الخبر الهام.

سَبَبُ النّزول: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قَالَ: لَوْلاَ أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[٢].

التفسِير: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ اللامُ مُوَطِّئَةٌ للقَسَمِ[٣] أي والله لقد أعطينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله كقوم نوح وعادٍ وثمود وقوم لوطٍ وغيرهم من المكذبين لرسلهم ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي ضياءً لبني إسرائيل ونوراً لقلوبهم يتبصرون بها الحقائق، ويميزون بها بين الحق والباطل ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي وهدى من الضلالة، ورحمة لمن آمن بها ليتعظوا بما فيها من المواعظ والإرشادات الإلهية ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي، وهو المكان الذي كلّم الله تعالى به موسى ﴿إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ أي حين أوحينا إلى موسى بالنبوة وأرسلناه إلى فرعون وقومه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي وما كنت من الحاضرين في ذلك المكان، ولكن الله أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على صدقك قال ابن كثير: يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأنَّ سامِعه شاهدٌ وراءٍ[٤] لما تقدَّم، وهو رجل أُميّ لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، والمعنى ما كنتَ حاضراً

---

(١) (ش): رواه ابن عساكر فى «تاريخ دمشق»، وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم، وانظر «زاد المسير» ٦/ ٢٣١. (ش): عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِى أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِى أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾. وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِى أَبِى طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾. [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

(٣) (ش): مُوَطِّئَةٌ للقَسَم: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفته.

(٤) (ش): اسم فاعل مِن رأَى، رُؤيةً، فهو راءٍ، والمفعول مَرئيّ.

لذلك ولكنَّ الله أوحاه إليك لتخبرهم بتلك المُغَيَّبات[١] ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾ أي ولكنَّا خلقنا أُممًا وأجيالاً من بعد موسى، فتطاول عليهم الزمان، وطالت الفترة فنسوا ذكر الله، وبدّلوا وحرفوا الشرائع فأرسلناك يا محمد لتجدّد أمر الدين قال «أبو السعود»: المعنى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة، فتمادى عليهم الأمر، فتغيرت الشرائع والأحكام، وعميت عليهم الأنباء فأوحينا إليك، فحذَف المستدرَك اكتفاءً بذكر المُوجِب[٢] ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي وما كنتَ يا محمد مقيمًا في أهل مدين فتعلم خبر موسى وشعيب[٣] وابنتيه فتتلو ذلك على أهل مكة ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ أي ولكنا أرسلناك في أهل مكة وأخبرناك بتلك الأخبار، ولولا ذلك لَمَا عَلِمْتَها ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ أي وما كنتَ أيضًا بجانب جبل الطور وقت ندائنا لموسى وتكليمنا إياه ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي لم تشاهد شيئًا من أخبار وقَصص الأنبياء، ولكنّا أوحيناها إليك، وقصصناها عليك، رحمةً من ربك لتخوّف قومًا ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتَّعِظون بما جِئْتَهم به من الآيات البيِّنات، فيدخلوا في دينك قال المفسرون: المراد بالقوم الذي نكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وهي نحوٌ من ستمائة سنة ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي ولولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي فيقولوا عند ذلك: ربنا هلّا أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين بها! قال القرطبي: وجواب ﴿لَوۡلَآ﴾ محذوف وتقديره لما بعثنا الرسل[٤]، وقال في «التسهيل»: ﴿لَوۡلَآ﴾ الأولى حرف امتناع، و ﴿لَوۡلَآ﴾ الثانية عرضٌ وتخضيض، والمعنى: لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل، وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار وإقامة الحجة

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٥.

(٢) تفسير «أبو السعود» ٤/ ١٥٥. (ش): المستَدرَك: التشريع الجديد الذي أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى النبي ﷺ. المُوجِب: الباعِثُ والسَبَبُ: وهو تبديل أهل الكتاب للشرائع والأحكام. في تفسير «أبي السعود»: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ أي ولكنَّا خلقْنا بين زمانِك وزمانِ مُوسى قُرونًا كثيرةً ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾ وتمادَى الأمدُ فتغيَّرتِ الشَّرائعُ والأحكامُ وعَمِيتْ عليهم الأنباءُ لا سيما على آخرهم فاقتضى الحالُ التَّشريعَ الجديدَ فأوحينَا إليكَ، فحذَفَ المستدرَكَ اكتفاءً بذكرِ ما يُوجبه ويدلُّ عليه.

(٣) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليلٌ على أن الذي زوَّج بنتَه لموسى هو شعيب عليه السلام.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٩٣.

عليهم لئلا يقولوا: ربَّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتَّبع آياتك ونكون من المؤمنين[١]، ثم أخبر تعالى عن عناد المشركين وتعنتهم في ردِّ الحق فقال ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ أي فلما جاء أهلَ مكة الحقُّ المبين وهو محمد بالقرآن المعجز من عندنا قالوا - على وجه التعنت والعناد - هلّا أُعطي محمد من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة مثل ما أُعطي موسى من العصا واليد قال تعالى ردًّا عليهم ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أُوتي موسى من تلك الآيات الباهرة؟ قال مجاهد: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد: ائتنا بمثل ما جاء به موسى من المعجزات، فردَّ الله عليهم بأنهم كفروا بآيات موسى[٢]، فالضمير في ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ﴾ لليهود، وهذا اختيار ابن جرير وقال أبو حيان: ويظهر عندي أن الضمير عائد على قريش الذين قالوا: لولا أُوتي محمد مثل ما أُوتي موسى، وذلك أن تكذيبهم لمحمد ﷺ تكذيبٌ لموسى، ونسبتهم السحر للرسول نسبة السحر لموسى، إذ الأنبياء من وادٍ واحدٍ فمن نسب إلى أحدٍ من الأنبياء ما لا يليق كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياء، وتتناسق حينئذٍ الضمائر كلُّها[٣] ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي وقال المشركون. ما التوراة والقرآن إلا من قبيل السحر، فهما سحران تعاونا بتصديق كل واحدٍ منهما الآخر قال السُدّي: صدَّق كل واحدٍ منهما الآخر ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ أي إنّا بكل من الكتابين كافرون قال «أبو السعود»: وهذا تصريحٌ بكفرهم بهما وذلك لغاية عتوهم وتماديهم في الكفر والطغيان[٤] ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ﴾ أمرٌ على وجه التعجيز أي قل لهم يا محمد إنكم إذْ كفرتم بهذين الكتابين مع ما تضمنا من الرائع والأحكام ومكارم الأخلاق فأتوني بكتابٍ منزلٍ من عند الله أهدَى منهما وأصلحَ أَتمسَّكُ به ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي في انهما سحران قال ابن كثير: وقد عُلم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم من الكتاب الذي أنزله على محمد ﷺ وهو القرآن، وبَعدَه في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى، وهو الكتاب الذي قال فيه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة: ٤٤] والإنجيلُ إنما أُنزل متمماً للتوراة ومُحلاً لبعض ما حُرم على بني إسرائيل[٥] ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا

(١) «التسهيل» ٣/ ١٠٧.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧.
(٣) «البحر المحيط» ٧/ ١٢٣.
(٤) «تفسير أبو السعود» ٤/ ١٥٦.
(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧.

﴿يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي فإن لم يجيبوك إلى ما طلَبْته منهم فاعلم أن كفرهم عنادٌ واتباع للأهواء لا بحجةٍ وبرهان ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد أضلُّ ممن اتبع هواه بغير رشادٍ ولا بيانٍ من الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفق للحق من كان معانداً ظالماً، بالانهماك في اتباع الهوى، والإعراض عن سبيل الهدى ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ولقد تابعنا ووالينا لقريش القرآن يتبع بعضُه بعضاً، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً، ونصائح ومواعظ ليتعظوا ويتذكروا بما فيه قال «ابن الجوزي»: المعنى أنزلنا القرآن يتبع بعضُه بعضاً، ويخبر عن الأمم الخالية كيف عُذبوا لعلهم يتعظون[1] ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من قبل هذا القرآن -من مسلمي أهل الكتاب- هم بهذا القرآن يصدِّقون قال ابن عباس: يعني من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب[2] ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي وإذا قرئ عليهم القرآن قالوا: صدقنا بما فيه ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي كنا من قبل نزوله موحدين لله، مستسلمين لأمره، مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن قال تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الجميلة يعطون ثوابهم مضاعفاً، مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرةً على إيمانهم بالقرآن وفي الحديث «ثلاَثَـةٌ يُؤْتَـوْنَ أَجْرَهُـمْ مَرَّتَيْن رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِي..»[3] الحديث ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي بسبب صبرهم على اتباع الحقِّ، وتحملهم الأذى في سبيل الله قال قتادة: نزلت في أناسٍ من أهل الكتاب، كانوا على شريعةٍ من الحق يأخذون بها وينتهون إليها، حتى بعث الله محمداً ﷺ فآمنوا به وصدَّقوه، فأعطاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا، وذُكر أن منهم سلمان وعبد الله بن سلام[4] ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي ويدفعون الكلام القبيح كالسب والشتم بالحسنة، أي: الكلمة الطيبة الجميلة قال ابن كثير: لا

(١) «زاد المسير» ٦/ ٢٨٨.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٠/ ٥٦.

(٣) أخرجه مسلم. (ش): قال ﷺ: «ثَلاَثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ» رواه مسلم، ورواه البخاري بلفظ: «ثَلاَثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِى كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ - ﷺ - فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالْعَبْدُ الَّذِى يُؤَدِّى حَقَّ اللهِ وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ».

(٤) «تفسير الطبري» ٢٠/ ٦٥.

يقابلون السيئ بمثله ولكن يَعْفُون ويَصْفَحُون[١] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ومن الذين رزقناهم من الحلال ينفقون في سبيل الخير ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي وإذا سمعوا الشتم والأذى من الكفار وسمعوا ساقط الكلام، لم يلتفتوا إليه ولم يردُّوا على أصحابه ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا طريقنا ولكم طريقكم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي سلام متاركة ومباعدة. قال الزجاج: لم يريدوا التحية وإنما أرادوا بيننا وبينكم المتاركة ﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم قال الصاوي: كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون: تبًّا لك أعرضتم عن دينكم وتركتموه! فيعرضون عنهم ويقولون: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم[٢]. مدحهم تعالى بالإيمان، ثم مدحهم بالإحسان، ثم مدحهم بالعفو والصفح عن أهل العدوان، ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر على هداية أحد، مهما بذلت فيه من مجهود، وجاوزت في السعي كل حدٍّ معهود ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي ولكنه تعالى بقدرته يهدي من قدر له الهداية، فسلم أمرك إليه فإنه أعلم بأهل السعادة والشقاوة ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو تعالى العالم بمن فيه استعداد للهداية والإيمان فيهديه قال المفسرون: نزلت في عمه «أبي طالب»[٣] حين عرض عليه الإسلام عند موته فأبَى قال أبو حيان: ومعنى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي لا تقدر على خلق الهداية فيه، ثم قال: ولا تنافي بين هذا وبين قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] لأن معنى هذا: وإنك لترشد، وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في «أبي طالب» ثم ذكر تعالى شبهةً من شبهات المسركين وردَّ عليها بالبيان الواضح فقال ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ أي وقال كفار قريش: إن اتبعناك يا محمد على دينك وتركنا ديننا نخاف أن تتخطفنا العرب فيجتمعون على محاربتنا، ويخرجوننا من أرضنا، قال المبرد: والتخطُّف الانتزاع بسرعة، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي أولم نعصمْ دماءهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن، بحرمة البيت العتيق؟ فكيف يكون الحرم آمناً لهم في حال كفرهم، ولا يكون آمناً لهم في حال إسلامهم؟ ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي تُجْلَب إليه الأرزاق من كل مكان مع أنه بوادٍ غير ذي زرع رزقاً لهم من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة لا يتفكرون في ذلك ولا يتفطنون

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٨.
(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٢١.
(٣) «البحر المحيط» ٧/ ١٢٦، وانظر سبب النزول الذي ذكرناه سابقًا.

قال أبو حيان: قطع الله حجتهم بهذا البيان الناصع إذْ كانوا وهم كفارٌ بالله، عباد أصنام قد أمِنوا في حرمهم، والناسُ في غيره يتقاتلون وهم مقيمون في بلدٍ غير ذي زرع، يجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات، فكيف إذا آمنوا واهتدوا؟[١] ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي وكثيرمن أهل قريةٍ طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فدمَّر الله عليهم وخرب ديارهم ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي فتلك مساكنهم خاويةً بما ظلموا لم تسكن من بعد تدميرهم إلاَّ زماناً قليلاً إذْ لا يسكنها إلا المارَّةُ والمسافرون يوماً أو بعض يوم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ أي وكنا نحن الوارثين لأملاكهم وديارهم قال في البحر: والآية تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم، من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن، وخفض العيش، فكفروا النعمة وقابلوها بالأَشَر والبطَر[٢] فدمرهم الله وخرب ديارهم[٣] ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أي ما جرت عادة الله جل شأنه أن يهلك أهل القرى الكافرة ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي حتى يبعث في أصلها وعاصمتها رسولاً يبلغهم رسالة الله لقطع الحجج والمعاذير ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ أي وما كنا لنهلك القرى إلا وقد استحق أهلها الإهلاك، لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم ببعثة المرسلين قال القرطبي: أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم، وفي هذا بيانٌ لعدله وتقدّسه عن الظلم، ولا يهلكهم - مع كونهم ظالمين - إلاّ بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه تعالى بأحوالهم حجة عليهم[٤] ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي وما أُعطِيتُم أيها الناس من مالٍ وخيرٍ فهو متاعٌ قليل تتمتعون به في حياتكم ثم ينقضي ويفنى قال ابن كثير: يخبر تعالى عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة، والزهرة الفانية، بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، من النعيم العظيم المقيم[٥] ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي وما عنده من الأجر والثواب، والنعيم الدائم الباقي خير وأفضل من هذا النعيم الزائل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ توبيخٌ لهم أي أفلا تعقلون أن

---

(١) «البحر المحيط» ٧/ ١٢٦.

(٢) (ش): أشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرح ونشط. بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرحِه وزهْوه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٠٢.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٠.

الباقي أفضل من الفاني؟ قال الإمام الفخر: بيَّن تعالى أن منافع الدنيا مشوبةٌ بالمضارِّ، بل المضارُّ فيها أكثر، ومنافع الآخرة غير منقطعة، بينما منافع الدنيا منقطعة، ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً، فكيف ونصيب كل أحدٍ من الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر، فمن لم يرجِّح منافع الآخرة على منافع الدنيا يكون كأنه خارجٌ عن حدّ العقل[١] ﴿ أَفَمَن وَعَدۡنَـٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَـٰقِيهِ ﴾ أي أفمن وعدناه وعداً قاطعاً بالجنة وما فيها من النعيم المقيم الخالد، فهو لا محالة مدركه لأن وعد الله لا يتخلف ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ؟ أي كمن متعناه بمتاع زائل، مشوب بالأكدار، مملوءٍ بالمتاعب، مستتبع للحسرة على انقطاعه؟ ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أي ثم هو في الآخرة من المحضرين للعذاب، فهل يساوي العاقل بينهما؟ قال ابن جزي: والآية إيضاحٌ لما قبلها من البَوْن الشاسِع بين الدنيا والآخرة[٢]، والمراد بمن وعدناه المؤمنين، وبمن متعناه الكافرين[٣] ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ أي واذكر حال المشركين يوم يناديهم الله فيقول لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: أين هؤلاء الشركاء والآلهة من الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من دوني، وزعمتم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم؟ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي قال رؤساؤهم وكبراؤهم الذين وجب عليهم العذاب لضلالهم وطغيانهم ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ ﴾ أي هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم عن سبيلك ﴿أَغۡوَيۡنَـٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا ﴾ أي أضللناهم كما ضللنا، لا بالقسر والإكراه ولكن بطريق الوسوسة وتزيين القبيح فضلّوا كما ضللنا نحن ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴾ أي تبرأنا إليك يا الله مِن عبادتهم إِيَّانَا، فما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم ﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي وقيل للكفار استغيثوا بآلهتكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم عذاب الله، وهذا على سبيل التهكم بهم ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم، وهذا من سخافة عقولهم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾ أي وتمنَّوا حين شاهدوا العذاب لو كانوا مهتدين قال الطبري: أي فودُّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق[٤] ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ توبيخٌ آخر للمشركين أي ويوم يناديهم الله ويسألهم: ماذا أجبتم رسلي؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم؟

(١) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٢٦.
(٢) (ش): بَون/ بُون: بُعْد، مسافة ما بين الشيئين. شاسِع: كبير.
(٣) «التسهيل» ٣/ ١٠٩.
(٤) «تفسير الطبري» ٢٠/ ٦٣، وهذا على أن: ﴿لَوۡ﴾ للتمني، وهو الذي أثبتناه وهو اختيار الطبري، وقال الزجاج: جواب: ﴿لَوۡ﴾ محذوف تقديره: لو كانوا يهتدون لما اتبعوهم ولما رأوا العذاب.

﴿ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي فخَفِيت عليهم الحُجَجُ، وأظلمت عليهم الأمور، فلم يعرفوا ما يقولون، فهم حيارى واجِمُون[١]، لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والحيرة ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴾ أي فأمّا من تاب من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فعسى أن يكون من الفائزين بجنات النعيم قال الصاوي: والترجي في القرآن بمنزلة التحقق، لأنه وعد كريم من ربٍّ رحيم، ومن شأنه تعالى أنه لا يخلف وعده[٢] ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ أي هو تعالى الخالق المتصرف، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، فلا اعتراض لأحدٍ على حكمه قال مقاتل: نزلت في «الوليد بن المغيرة» حين قال ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] [٣]﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ أي ما كان لأحد من العباد اختيار، إنما الاختيار والإرادة لله وحده ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ أي تنزَّه الله العظيم الجليل وتقدس أن ينازعه أحدٌ في ملكه، أو يشاركه في اختياره وحكمته قال القرطبي: المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه، ويختار من يشاء لنبوته، والخيرة له تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة، فليس لأحدٍ من خلقه أن يختار عليه[٤] ﴿ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ أي هو تعالى العالم بما تخفيه قلوبهم من الكفر والعداوة للرسول والمؤمنين، وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن في شخص رسوله الكريم حيث يقولون: ما أنزل الله الوحي إلا على يتيم أبي طالب! ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو جل وعلا اللهُ المستحقُّ للعبادة، لا أحد يستحقها إلا هو ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي له الثناء الكامل في الدنيا والفصل بين العباد ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي وله القضاء النافذ والفصل بين العباد ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

البَلَاغَة: تضمنتِ الآياتُ الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التشبيه البليغ ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب الناس، حذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً قال في حاشية «البيضاوي»: أي مشبهاً بأنوار القلوب من حيث إن القلوب لو كانت خالية عن أنوار التوراة وعلومها لكانت عمياء

---

(١) (ش): وَجَم الشّخصُ: سكت وعجز عن الكلام من شِدّة الغيظ أو الخَوف أو الهمّ أو التّعجّب. وَجَم الشّخصُ: عبَس وجهُه لشِدّة الحُزن.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٢٣.

(٣) (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٠٥ بشيء من الاختصار.

لا تستبصر، ولا تعرف حقاً من باطل[١].

٢ - المجاز العقلي ﴿أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ المراد به الأمم لأنهم يخلقون في تلك الأزمنة فنسب إلى القرون بطريق المجاز العقلي.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾.

٤ - المجاز المرسل ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ والمراد بما كسبوا وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل قال الزمخشري: ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي[٢].

٥ - حذف الجواب لدلالة السياق ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ حذف منه الجواب وتقديره: ما أرسلناك يا محمد رسولاً إليهم. وهو من باب الإيجاز بالحذف.

٦ - التحضيض ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ أي هلاَّ أُوتي فهي للتحضيض وليست حرف امتناع لوجود.

٧ - التعجيز ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ﴾ فالأمر خرج عن حقيقته إلى معنى التعجيز.

٨ - طباق السلب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي .. وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾.

٩ - المجاز العقلي ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ نسب الأمن إلى الحرم وهو لأهله.

١٠ - أسلوب السخرية والتهكم ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ؟.

١١ - التشبيه المرسل ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾.

١٢ - الاستعارة التصريحية التبعية ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ﴾ قال الشهاب: استعير العمى لعدم الاهتداء، فهم لا يهتدون للأنباء، ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم وأصله «فعموا عن الأنباء» وضُمّن معنى الخفاء فعدي بـ ﴿عَلَى﴾ ففيه أنواعٌ من البلاغة: الاستعارة، والقلب، والتضمين[٣].

١٣ - الطباق بين ﴿تُكِنُّ.. يُعْلِنُونَ﴾ وبين ﴿الْأُولَىٰ.. وَالْآخِرَةِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: ما ذُكر أن «أبا طالب» مات على غير الإيمان هو الصحيح الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، ونقل عن بعض شيوخ الصوفية أنه أسلم قبل موته، وهو معارضٌ للنصوص الكريمة ولعلهم أخذوه من بعض أشعار أبي طالب حيث يقول:

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٥١٥.

(٢) «الكشاف» ٣/ ٣٢٠.

(٣) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي.

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا

أقول: ماذا يعني هذا الكلام بعد امتناعه عن الدخول في الإسلام والنطق بالشهادة[1]؟

قال الله تعالى:

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا
تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟
فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ
مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ
ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا
تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ
قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ
إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ

---

(١) (ش): نحو هذين البيتين والأبيات التالية رواها ابن إسحاق في «المغازي» بدون إسناد، وعنه البيهقي في «دلائل النبوة» والبيت الأخير فيها يدل على رفض أبي طالب الدخولَ في الإسلام، وهذه الأبيات - مع أنها لا تثبت سندًا - توافق الأحاديث الصحيحة الواردة في أن أبا طالب مات على الكفر.

وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... أَبْشِرْ وَقِرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيونَا
وَدَعَوتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحِي ... فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَبْلُ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارِيَ سُبَّةً ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا: أي أُدفَن في التراب. توسَّد الأرضَ: نام عليها وجعلها وسادة له «توسَّد الترابَ». غَضاضة: عيبٌ، منقصة، ذلّ. وَقِرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيونَا: قرَّت عينُه: بَرد دمعُها، ضدّ سخُنت، ويُكنَّى به عن السرور والابتهاج، وقيل لأنَّ للسّرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارّة. سُبّة: عارٌ. لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا: سَمُحَ الشَّخصُ، سماحةً، فهو سَمْح: صار متساهلاً كريمًا. أبانَ الشَّخصُ إبانةً، فهو مُبِينٌ: أفصح عما يريد، أظهر الكلامَ.

مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ
ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ
هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

المناسَبة: لما ذكر تعالى أنه هو الخالق المختار، وسفَّه المشركين في عبادتهم لغير الله، عقَّبه بذكر بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه، تذكيراً للعباد بوجوب شكر المنعم، ثم ذكر قصة «قارون» وهي قصة الطغيان بالمال، وما كان من نهايته المشئومة حيث خسف الله به وبكنوزه الأرض، وهذه نتيجة الاستعلاء والغرور والطغيان.

اللغة: ﴿سَرْمَدًا﴾ السرمد: الدائم الذي لا ينقطع ومنه قول طرفة:

لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغُمَّةٍ ... نَهَارِي وَلَا لَيْلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ (١)

﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾ جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به، وأما المفتاح فجمعه مفاتيح. ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله قال ذو الرمَّة:

تَنُوء بِأُخْرَاهَا فَلَأْيًا قِيَامهَا ... وَتَمْشِي الْهُوَيْنَا عَنْ قَرِيب فَتَبْهَرُ (٢)

﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ الجماعة الكثيرة ومثلها العصابة ومنه قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:٨] سميت الجماعة عُصبة لأن بعضهم يتعصب لبعض ويتقوى به ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ قال الجوهري: «ويْ» كلمةُ تعجب وقد تدخل على «كأن» فتقول: ويكأنَّ، وقيل: إنها كلمة تستعمل عند التنبه للخطأ وإظهار الندم قال الخليل: إن القوم تنبهوا وقالوا نادمين على ما

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٠٧. (ش): (لَعَمْرُكَ): كلام أهل العلم أن هذه الكلمة ليست يمينًا، بل تُذكَر لتأكيد مضمون الكلام فقط؛ لأنها أقوى من سائر المؤكِّدات، وأسْلَمُ من التأكيد بالقسم بالله لوجوب البر به.[انظر: المدونة الكبرى رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن عبد الرحمن بن القاسم وغيره عن الإمام مالك (٢/ ٣٣٨)].مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغُمَّةٍ: أي ليس أمري مبهمـًا أو ملتبسًا عَلَيَّ.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ١٣٢. (ش): تَنُوء بِأُخْرَاهَا: مَعْنَاهُ: أَنَّ أُخْراها، وَهِيَ عَجِيزَتُها، تُنِيئُها إِلَى الأَرضِ لِضخَامَتِها وكَثْرةِ لَحْمِهَا فِي أَرْدافِها. وَيُقَالُ: نَاءَ يَنُوءُ، إِذَا نَهَضَ بِثِقَل. فَلَأْيًا قِيَامها: اللأْيُ: البُطْءُ، أي إنها عند القيام تقوم ببطءٍ وصعوبة. تَمْشِي الْهُوَيْنَا: تمشي باتِّئاد وتمهّل. فَتَبْهَرُ: فينْقَطِع نَفَسُها من الإعياء.

سلف منهم وَيْ[١] ﴿ظَهِيرًا﴾ معيناً ومساعداً.

التفسِير: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين من كفار مكة: أخبروني لو جعل الله عليكم الليل دائماً مستمرًّا بلا انقطاع إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور الذي تستضيئون به في حياتكم غيرُ الله تعالى؟ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أي أفلا تسمعون سماع فهم وقبول فتستدلوا بذلك على وحدانية الله تعالى؟ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي أخبروني لو جعل الله عليكم النهار دائماً مستمرًّا بلا انقطاع ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي من هو الإله القادر على أن يأتيكم بليلٍ تستريحون فيه من الحركة والنَّصَب[٢] غير الله تعالى؟ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال؟ ثم نبه تعالى إلى كمال رحمته بالعباد فقال ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي ومن آثار قدرته، ومظاهر رحمته أن خلق لكم الليل والنهار يتعاقبان بدقةٍ وإحكام ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي لتستريحوا بالليل من نصب الحياة وهمومها وأكدارها، ولتلتمسوا من رزقه بالمعاش والكسب في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا ربكم على نعمه الجليلة التي لا تُحصى، ومنها نعمةُ الليل والنهار قال الإمام الفخر: نبه تعالى بهذه الآية على أن الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان، لأن المرء في الدنيا مضطر إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار، ولولا الراحة والسكون بالليل، فلا بدَّ منهما في الدنيا، وأما في الجنة فلا نَصَبَ ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل، فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات[٣] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قال ابن كثير: هذا نداءٌ ثانٍ على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب على رءوس الأشهاد: أين شركائي الذين زعمتموهم في الدنيا؟[٤] ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي أخرجنا من كل أمةٍ شهيداً منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهو نبيُّهم ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر، هذا إعذار لهم وتوبيخٌ وتعجيز ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي فلموا حينئذٍ أن الحقَّ لله ولرسله، وأنه لا إله إلا هو ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يتخرصونه في

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٥/ ١٩.
(٢) (ش): نصِبَ الشخصُ نَصَبًا: أعيَا وتَعِب.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٥/ ١١.
(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٢.

الدنيا من الشركاء والأنداد، ثم ذكر تعالى قصة «قارون» ونتيجة الغرور والطغيان فقال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ أي من عشيرته وجماعته قال ابن عباس: كان ابن عم موسى ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي تجبر وتكبر على قومه، واستعلى عليهم بسبب ما منحه الله من الكنوز والأموال قال الطبري: أي تجاوز حدَّه في الكبر والتجبر عليهم[1] ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ أي أعطيناه من الأموال الوفيرة، والكنوز الكثيرة ما يثْقُل على الجماعة أصحاب القوة حَمْلُ مفاتيح خزائنه لكثرتها وثِقَلِها فضلاً عن حمل الخزائن والأموال. والآية تصويرٌ لما كان عليه قارون من كثرة المال والغِنَى والثراء ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ﴾ أي لا تأشر ولا تبطر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ أي لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه، ويتكبرون بأموالهم على عباد الله ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله، وذلك بفعل الحسنات والصدقات والإنفاق من الطاعات ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ قال الحسن: أي لا تضيّع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إيّاه[2] ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ أي أحسن إلى عبادِ الله كما أحسن الله إليك ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لا تطلب بهذا المال البغي والتطاول على الناس، والإفساد في الأرض بالمعاصي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي لا يحب من كان مجرماً باغياً مفسداً في الأرض ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ لمَّا وعظه قومه أجابهم بهذا على وجه الرد عليهم والتكبر عن قبول الموعظة والمعنى: إنما أُعطيت هذا المال على علمٍ عندي بوجوه المكاسب، ولولا رضى الله عني ومعرفته بفضلي واستحقاقي له ما أعطاني هذا المال قال تعالى ردًّا عليه ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗا﴾ أي أولم يعلم هذا الأحمق المغرور أنَّ الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدناً وأكثر مالاً؟ قال «البيضاوي»: والآية تعجبٌ وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة، وسمعه من حفاظ التواريخ[3] ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم لأنه عالمٌ بكل شيء، ولا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤالهم بل متى حقَّ عليهم العذاب أهلكهم بغتة، ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بنصيحة

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٠/ ٦٨.

(٢) وقيل معناه: لا تضيِّعْ عمرك بترك الأعمال الصالحات وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد، وما قاله الحسن وقتادة أظهر وهو اختيار ابن كثير.

(٣) «البيضاوي» ٣/ ٩٥.

قومه، بل تمادَى في غَطرسته وغَيِّه[١] فقال تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ أي فخرج قارون على قومه في أظهر زينةٍ وأكملها قال المفسرون: خرج ذات يوم في زينةٍ عظيمة بأتباعه الكثيرين، ركباناً متحلين بملابس الذهب والحرير، على خيولٍ موشحةٍ بالذهب، ومعها الجواري والغلمان في موكبٍ حافلٍ باهر ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ أي فلما رآه ضعفاء الإيمان ممن تخدعهم الدنيا ببريقها وزخرفها وزينتها قالوا: يا ليت لنا مثل هذا والغنى الذي أُعْطِيه قارون ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو نصيب وافرٍ من الدنيا ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي وقال لهم العقلاء من أهل العلم والفهم والاستقامة ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا الكلام فإن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين خيرٌ مما ترون وتتمنَّون من حال قارون قال الزمخشري: أصل ﴿وَيْلَكَ﴾ الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع، والبعث على ترك ما لا يُرتضَى[٢] ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ أي ولا يُعطى هذه المرتبة والمنزلة في الآخرة إلا الصابرون على أمر الله قال تعالى تنبيهاً لنهايته المشئومة: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه، جزاءً على عتوه وبطره ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ﴾ أي ما كان من له أحد من الأنصار والأعوان يدفعون عنه عذاب الله ﴿ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي وما كان المنتصرين بنفسه بل كان من الهالكين ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أي وصار الذين تمنوا منزلتُه وغناه بالأمس القريب بعد أن شاهدوا ما نزل به من الخسف ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي يقولون ندماً وأسفاً على ما صدر منهم من التمني: اعجَبُوا أيها القوم مِن صُنْع الله، كيف أن الله يوسّع الرزق لمن يشاء من عباده - بحسب مشيئته وحكمته - لا لكرامته عليه، ويضيّق الرزق على من يشاء من عباده - لحكمته وقضائه ابتلاءً - لا لهوانه عليه! قال الزمخشري: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ كلمتان «وَيْ» مفصولة عن «كأنَّ» وهي كلمة تنبيه على الخطأ وتندم، ومعناه أن القوم تنبهوا على خطئهم في تمنيهم منزلة قارون وتندموا[٣] وقالوا ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: لولا أنَّ الله لطف بنا، وتفضَّل علينا بالإيمان والرحمة،

---

(١) (ش): غَطْرَسة: استعلاء وترفُّع على الآخرين، تكبُّر. غوَى فلانٌ، غَيًّا: أمعن في الضّلال، حاد عن الحَقّ ومال إلى هواه.

(٢) «الكشاف» ٣/ ٣٤١.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٢٤٢، وهذا الذي قاله الزمخشري هو مذنب الخليل وسيبويه واختاره الجمهور، قال في «الجلالين» «وي» اسم فعل بمعنى أعجب أنا، والكاف بمعنى اللام، والمعنَى: أعجَبُ لِأنَّ الله يبسط، ونقل الطبري عن قتادة أن معنى ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ ألم تر أن، وأنها كلمة واحدة، وهو اختيار الطبري، والله أعلم.

ولم يعطنا ما تمنيناه ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي لكان مصيرنا مصير قارون، وخسف بنا الأرض كما خسفها به ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي أعجبُ من فعل الله حيث لا ينجح ولا يفوز بالسعادة الكافرون لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

وإلى هنا تنتهي «قصة قارون» وهي قصة الطغيان بالمال، بعد أن ذكر تعالى قصة الطغيان بالجاه والسلطان في قصة فرعون وموسى، ثم يأتي التعقيب المباشر في قوله تعالى ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ الإشارة للتفخيم والتعظيم أي تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها هي دار النعيم الخالد السرمدي، التي فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر والطغيان، ولا الظلم والعدوان في هذه الحياة الدنيا ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي العاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويراقبونه، ويبتغون رضوانه ويحذرون عقابه ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنةٍ من الحسنات فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ومن جاء يوم القيامة بالسيئات فلا يجزى إلا بمثلها، وهذا من فضل الله على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي إن الذي أنزل عليك يا محمد القرآن وفرض عليك العمل به ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي لرادُّك إلى مكة كما أخرجك منها، وهذا وعدٌ من الله بفتح مكة ورجوعه عليه السلام إليها بعد أن هاجر منها قال ابن عباس: معناه لرادك إلى مكة، وقال الضحاك: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجُحْفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه هذه الآية[1] ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ربي أعلم بالمهتدي والضال هل أنا أو أنتم؟ فهو جلَّ وعلا الذي يعلم المحسن من المسيء، ويجازي كلًّا بعمله، وهو جواب لقول كفار مكة: إنك يا محمد في ضلالٍ مبين ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي وما كنت تتطمع أن تنال النبوة، ولا أن ينزل عليك الكتابُ ولكن رحمك الله بذلك ورحم العباد ببعثتك قال الفراء: وهذا استثناء منقطع. والمعنى إلا أنّ ربك رحِمَكَ فأنزله عليك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا تكُن عوناً لهم على دينهم، ومساعداً لهم على ضلالهم، بالمداراة والمجاملة ولكن نابِذْهُم وخالِفْهم قال المفسرون: دعا المشركون

(١) تفسير «ابن الجوزي» ٦/ ٩٤٢، و«مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٦. (ش): سنده ضعيف جدًّا، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره».

الرسـول إلـى دين آبائه، فأُمر بالتحـرز منهم وأن يصدع بالحق، والخطـابُ بهذا وأمثاله له عليه السلام، والمراد أمته لئلا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي ولا تلتفت إلى هؤلاء المشـركين، ولا تركن إلى قولهم فيصدوك عن اتبـاع ما أنـزل الله إليك من الآيات البينـات ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي وادع الناس إلى توحيد ربـك وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي بمسـايرتهم علـى أهوائهم، فإن من رضي بطريقتهـم كان منهـم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا تعبـد إلهـًا سـوى الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍ إلا الله تعالى قال «البيضاوي»: وهذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشـركين عن مسـاعدته لهم ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي كل شـيء يفنى وتبقى ذاتُه المقدسـة، أطلـق الوجه وأراد ذات الله جـلَّ وعلا[(١)] قال ابن كثير: وهـذا إخبار بأنه تعالى الدائـم الباقي، الحـيُّ القيوم، الذي تمـوت الخلائق ولا يموت، فعبَّـر بالوجه عن الذات كقوله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧][(٢)].

---

(١) (ش): الصواب أن يُقَالُ: إِنَّهُ أَسْنَدَ الْبَقَاءَ إِلَى الْوَجْهِ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ بَقَاءُ الذَّاتِ؛ بَدَلاً مِنْ أَنْ يُقَالَ: أَطْلَقَ الْوَجْهَ وَأَرَادَ الذَّاتَ. قال الإمام ابن خزيمة (١/ ٢٤): «بَابُ ذِكْرِ إِثْبَاتِ وَجْهِ اللهِ الَّذِي وَصَفَهُ بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَنَفَى عَنْهُ الْهَلَاكَ إِذَا أَهْلَكَ اللهُ مَا قَدْ قَضَى عَلَيْهِ الْهَلَاكَ مِمَّا قَدْ خَلَقَهُ اللهُ لِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، جَلَّ رَبُّنَا، عَنْ أَنْ يَهْلِكَ شَيْءٌ مِنْهُ مِمَّا هُوَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَقَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]» [التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٤)]. إن تأويل الوجهِ بالذاتِ تأويلٌ باطلٌ؛ لأنه نَفْيٌ لصفةٍ ثابتةٍ لله تعالى. وَالنُّصُوصُ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا تُحصَى كَثْرَةً، وَكُلُّهَا تَنْفِي تَأْوِيلَ الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ الْوَجْهَ بِالْجِهَةِ أَوِ الثَّوَابِ أَوِ الذَّاتِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَقِّ أَنَّ الْوَجْهَ صفةٌ غيرُ الذَّاتِ، وَلَا يَقْتَضِي إِثْبَاتُهُ كَوْنَهُ تَعَالَى مُرَكَّبًا مِنْ أَعْضَاءٍ، كَمَا يَقُولُهُ المجسِّمة، بَلْ هُوَ صِفَةٌ لِلَّهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، فَلَا يُشْبِهُ وَجْهًا وَلَا يُشْبِهُهُ وَجْهٌ.

(٢) (ش): تَضَمَّنَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ إِثْبَاتَ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ولايصح قول من استدلَّ بهما عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ؛ قائلًا إنه لَا خُصُوصَ لِلْوَجْهِ فِي الْبَقَاءِ وَعَدَمِ الْهَلَاكِ، وأنه لو كان المراد به صفة زائدة على الذات لكان المعنى المراد في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أن ذاته تهلك إلا وجهه. والجواب عن هذه الشبهة من وجهين: مجمل ومفصَّل: أما المجمل، فإنه يقال: قد دلَّ الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها على أن لله تعالى وجهًا كما أن له يدَيْن وسمعًا وبصرًا وعلمًا وحياةً، وغير ذلك ممَّا وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله محمد ﷺ، فيجب إثبات الوجه لله تعالى إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل؛ لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية١١]؛ فكما أننا نثبت لله تعالى ذاتًا لا تُشبه الذوات، فكذلك نثبت لله تعالى وجهًا لا شبيه له ولا نظير. وأمَّا الجواب المفصَّل؛ فمن وجوه: ١- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ «أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني). فقوله ص: «وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ»: دليل على إثبات الوجه لله تعالى. وفي هذا رَدٌّ على من زعم أن الوجه هو الذات؛ فالنبي ﷺ استعاذ أولاً بالله العظيم، ثم استعاذ ثانيًا بوجهه الكريم، والعطف يدل على أن الوجه غير الذات. ٢- إننا لو سلَّمنا أن المراد بقول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: إلا ذاته، أو: إلا هو، لم يكن في ذلك دليل على نفي الوجه عن الله تعالى؛ لأن النصوص =

﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي لـه القضـاء النافـذ في الخلـق، وإليـه مرجعهـم جميعـًا يوم المعاد لا إلى أحدٍ سواه[1].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهـًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – التبكيت والتوبخ ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ ؟ ومثله ﴿يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ﴾ ؟.

٢ – اللَّف والنشر المرتب ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ جمع الليل والنهار ثم قال ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فأعاد السكن إلى الليـل، والابتغاء لطلب الرزق إلى النهار، ويسـمى هذا عند علماء البديع اللف والنشـر المرتب، لأن الأول عاد على الأول، والثاني عاد على الثاني وهو من المحسنات البديعية.

٣ – جناس الاشتقاق ﴿لَا تَفۡرَحۡ .. ٱلۡفَرِحِينَ﴾ ومثله ﴿ٱلۡفَسَادَ .. ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

٤ – تأكيد الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ و (اللام) ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لأن السامع شاك ومتردّد.

٥ – الكناية ﴿تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ كنَّى عن الزمن الماضي القريب بلفظ الأمس.

٦ – الطباق ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن . وَيَقۡدِرُ﴾.

٧ – المقابلة اللطيفة ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى﴾ لآية.

٨ – المجـاز المرسـل ﴿إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ أطلق الجـزء وأراد الكل أي ذاته المقدسـة ففيه مجاز مرسل[2].

= كثيرة في إثبات الوجه لله تعالى. ٣- إن تأويل الوجه بالذات باطل؛ لأنه أضاف الوجه إلى نفسه فقال: ﴿وَجۡهُ رَبِّكَ﴾، والمضاف ليس كالمضاف إليه؛ لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه. فقد ورد الوجه مضافًا إلى الذات الإلهية وأضاف النعت إلى الوجه في قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ﴾ فدل على أن الجلال والإكرام من صفات الوجه وأن الوجه من صفة الذات اللائقة بجلال الله تعالى وعظمته فإضافته إلى الله تعالى من إضافة الصفة إلى موصوفها. ١- إن في هاتين الآيتين دلالة أن وجه الله صفة من صفات الله، صفات الذات، لا أن وجه الله هو الله؛ لأن وجه الله لو كان هو الله لقُرِئَ: (ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام)! ففي قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ (٢٦) وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أضاف الله تبارك وتعالى الوجه إلى الذات ﴿وَجۡهُ رَبِّكَ﴾، ثم وجَّه النعتَ ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ إلى الوجه. ولو كان الأمر كما قال هؤلاء المؤولون من أن الوجه هو الذات لقال بعد ذلك (ذي الجلال والإكرام) فتكون وصفًا لكلمة ﴿رَبِّكَ﴾ إلا أنَّ رفْعه لكلمة ﴿ذُو﴾ يدل على أنه نعتٌ للوجه وأن الوجه صفة لله تبارك وتعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ فأضاف الوجه إلى الذات ﴿وَجۡهُ رَبِّكَ﴾، وأضاف النعت إلى الوجه، فقال ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ فلما قال: ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ علِمْنا أنه نعْتٌ للوجه، وهو صفةٌ للذات. وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن النعت في الآية للوجه فقال في «تفسيره» (٧/ ٤٩٤): «وَقَدْ نَعَتَ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أَيْ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفُ.

(١) «البيضاوي» ٢/ ٩٦.

(٢) (ش): تَضَمَّنَتْ هذه الْآيَةُ إِثْبَاتَ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالنُّصُوصُ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لاَ تُحْصَى كَثْرَةً.(راجع التعليقات السابقة).

لطيفَة: قال بعض العلماء: من لم تُشبِعْه القناعة لم يَكْفِه ملكُ قارون وأنشدوا:

هِـيَ الْقَنَاعَةُ لا تَبْغِي بِهَا بَدَلاً فِيهَا النَّعِيمُ وَفِيهَا رَاحَـةُ الْبَدَنِ
انْظُرْ لِمَـنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْقُطْنِ والْكَفَنِ

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص»





مكية وآياتها تسع وستون

بين يدي السورة

* سورة العنكبوت مكية وموضوعها العقيدة في أصولها الكبرى «الوحدانية، والرسالة، والبعث، والجزاء» ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان و«سنة الابتلاء» في هذه الحياة لأن المسلمين في مكة كانوا في أقسى أنواع المحنة والشدة، ولهذا جاء الحديث عن موضوع الفتنة والابتلاء في هذه السورة مطولًا مفصلًا وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء.

* تبتدئ السورة الكريمة بهذا البدء الصريح ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؟ وتمضي السورة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون الإيمان كلمةً تقال باللسان، فإذا نزلت بهم المحنة والشدة انتكسوا إلى جحيم الضلال، وارتدوا عن الإسلام تخلصًا من عذاب الدنيا، كأن عذاب الآخرة أهون من عذاب الدنيا ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيات.

* وتمضي السورة تتحدث عن «محنة الأنبياء» وما لاقَوْه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله، بدءًا بقصة نوح، ثم إبراهيم، ثم لوط، ثم شعيب، وتتحدث عن بعض الأمم الطغاة المتجبرين كعاد وثمود، وقارون، وهامان وغيرهم وتذْكُر ما حلَّ بهم من الهلاك والدمار ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبًا﴾ الآيات.

* وفي قصص الأنبياء دروسٌ من المحن والابتلاء، تتمثل في ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة، فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله فما يؤمن معه إلا قليل ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ وهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاول هداية قومه بكل وسيلة، ويجادلهم بالحجة والبرهان فما تكون النتيجة إلا العلو والطغيان ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ..﴾ الآيات.

* وفي قصة لوط يظهر التبجح بالرذيلة دون خجل أو حياء ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الآيات، وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء، تمضي السورة الكريمة تبين صدق رسالة محمد ﷺ فهو رجل أميٌّ لم يقرأ ولم يكتب ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز، وهذا من أعظم البراهين

على أنه كلام رب العالمين ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ وتنتقل السورة للحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية منبثقة من هذا الكون الفسيح، ثم تختم ببيان جزاء الذين صبروا أمام المحن والشدائد.

وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي والمالي، ووقفوا في وجه المحنة والابتلاء ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

التسمية: سميت «سورة العنكبوت» لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلًا للأصنام المنحوتة، والآلهة المزعومة ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا ...﴾ الآيات.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ
فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ
سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ
فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ
سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ
بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ
ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ
﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ
﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا
وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ
وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى
ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ
فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا
ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ
لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا
فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ

اللغَة: ﴿فِتْنَةَ﴾ الفتنة: الابتلاء والاختبار ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ جمع ثقل وهو الحمل الثقيل الذي ينوء به الإنسان، والمراد بالأثقال هنا الذنوب والأوزار ﴿لَبِثَ﴾ أقام ومكث ﴿إِفْكًا﴾ كذبًا وزوراً ﴿تُقْلَبُونَ﴾ تُرجعون وتُردون.

سَبَبُ النزول: عن سعد بن أبي وقاص قال: «كنت رجلاً بارًّا بأمي فلما أسلمتُ، قالت: ما هذا الدين الذي أحدثت يا سعد؟ لتدَعن دينك هذا أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموت فتعيَّر بي فيقال: يا قاتل أمه، قلتُ: لا تفعلي يا أماه، فإني لا أدع ديني هذا لشيءٍ أبداً، قال: فمكثتْ يومًا وليلةً لا تأكل، فأصبحت قد جُهدت، ثم مكثت يومًا آخر وليلةً لا تأكل فلما رأيتُ ذلك قلت: تعلمين واللهِ يا أُمَّاه لو كانت لكِ مائةُ نفسٍ فخرجت نفسًا نفسًا ما تركتُ ديني هذا لشيءٍ أبداً، فإن شئت فكلي، وإن شئتِ فدعي، فلما رأتْ ذلك أكلت فأنزل الله هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ..﴾ الآية[1].

(١) أسباب النزول للواحدى ١٩٥، وفي بعض الروايات كان أولادها إذا أرادوا أن يطعموها شجَروا فاها أي أدخلوا فيه عودًا ليفْتَحوه. (ش): إسناده حسن. وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ – قَالَ – حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لاَ تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ وَلاَ تَأْكُلَ وَلاَ تَشْرَبَ. قَالَتْ زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ وَأَنَا أُمُّكَ وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا. قَالَ مَكَثَتْ ثَلاَثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ: عُمَارَةُ. فَسَقَاهَا فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ وَفِيهَا ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. وفي رواية أن أُمَّ سَعْدٍ قَالَتْ: «أَلَيْسَ اللهُ قَدِ أَمَرَهُمْ بِالْبِرِّ؟ فَوَاللهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا، وَلا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ، أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. قَالَ: فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا بِعَصًا ثُمَّ أَوْجَرُوهَا، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآيَةَ [العنكبوت: ٨]. [رواه الإمام أحمد في «المُسنَد»، والترمذي، وصححه الألباني]. (شَجَرُوا فَاهَا بِعَصًا) أَي جعلُوا فِي شَجْرها عودًا حَتَّى فتحوه. والشَّجْر: ما بين الحنكين، وهو مخرجُ الفَم، وما انفتح من منطبق الفَمِ وملتقى اللّهْزِمَتَيْن. واللِهْزِمة: عظم ناتئ في اللَّحْي تحت الحنك وهما لِهْزِمتان. (أَوْجَرُوهَا) أي صَبُّوا الطعام فِي فَمها.

التفسِـير: ﴿الٓمٓ﴾ الحـروف المقطعـة للتنبيه علـى إِعجاز القـرآن[١] ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ الهمزة للاسـتفهام الإِنكاري أي أظنَّ الناسُ أن يُتركوا مـن غير افتتنان لمجرد قولهم باللسـان: «آمنـا؟» لا ليس كما ظنوا بل لا بـدَّ من امتحانهم ليتميـز الصـادق مـن المنافـق قـال ابن جـزي: نزلـت في قـومٍ مـن المؤمنين كانـوا بمكة مسـتضعفين، منهم «عمار بن ياسـر» وغيـره، وكان كفار قريش يؤذونهـم ويعذبونهم على الإِسـلام، فضاقـت صدورهم بذلك فآنسـهم الله بهـذه الآية ووعظهـم وأخبرهم أن ذلك اختبار، ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى، والثبات على الإِيمان، وأَعْلَمَهم أن تلك سيرته في عباده يسلّط الكفار على المؤمنين ليمَحِّصهم بذلك، ويظهر الصادق في إِيمانه من الكاذب[٢] ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي ولقد اختبَرْنا وامتحَنَّا مَن سبقَهم بأنواع التكاليف والمصائب والمحن قال «البيضاوي»: والمعنى أن ذلك سنة قديمة، جارية في الأمم كلها، فلا ينبغـي أن يُتوَّقَّع خلافُه[٣] ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي فليميزنَّ الله بيـن الصادقيـن في دعـوى الإِيمان، وبيـن الكاذبين فيـه، وعبَّر عن الصادقيـن بلفظ الفعل ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ وعـن الكاذبيـن باسـم الفاعل ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ للإِشـارة إِلـى أن الكاذبين وَصْفُهم مسـتمر وأن الكذب راسـخ فيهم بخلاف الصادقين فـإِن الفعل يفيد التجدد، قال الإِمام الفخر: إِن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر ورسوخه فيه، والفعـل الماضـي لايدل عليـه كما يقال: فلانٌ شـرب الخمر، وفلانٌ شـاربُ الخمر، فإِنه لايفهم من صيغة الفعل الثبوتُ والرسـوخ[٤] ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾ أي أيظـن المجرمـون الذيـن يرتكبـون المعاصـي والموبقـات أنهـم يفوتـون مـن عقابنا ويُعْجِزوننا؟ ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي بئس ما يظنون قال الصاوي: والآية انتقال من توبيخ إِلى توبيخ أشـد، فـالأول توبيخ للناس على ظنهم أنهم يفوتون عـذاب الله ويفرون منه مع دوامهـم على كفرهـم[٥] ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ لما بيَّـن تعالى أن العبد لا يُتْرَك في الدنيا سُـدًى، بيَّن هنا أن من اعترف بالآخرة وعمل لها لا يضيع عمله، ولا يخيب أملـه. والمعنى من كان يرجو ثواب الله فليصبـر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقى الله فيجازيه، فإِن لقاء الله قريب الإِتيان، وكلُّ ما هو آتٍ قريب، والآية تسلية للمؤمنين

---

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

(٢) «التسهيل» ٣/ ١١٣.

(٣) «البيضاوي» ٢/ ٩٧.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٢٩.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٣٠.

ووعدٌ لهم بالخير في دار النعيم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو تعالى السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم الظاهرة والباطنة ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ أي ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعات، والكف عن الشهوات، فمنفعة جهاده إنما هي لنفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي مستغنٍ عن العباد، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي لَنَمْحُوَنَّ عنهم سيئاتهم التي سلفت منهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي ونجزيهم بأحسن أعمالهم الصالحة وهو الطاعات ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي أمرناه أمراً مؤكداً بالإحسان إلى والديه غاية الإحسان، لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان، الوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق قال الصاوي: وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون العكس، لأن الأولاد جُبلوا على القسوة وعدم طاعة الوالدين، فكلَّفهم الله بما يخالف طبعهم، والآباء مَجْبولون على الرحمة والشفقة بالأولاد فوَكَلَهم لما جُبِلوا عليه[1] ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أي وإن بذلا كلَّ ما في وسعهما، وحَرَصا كلَّ الحرص على أن تكفر بالله وتشرك به شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم، فلا تطعهما في ذلك لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الله ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إليَّ مرجع الخلائق جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، بَرِّهم وفاجِرهم، فأجازي كلًّا بما عمل، وفيه وعدٌ حسن لمن برَّ والديه واتبع الهدى، ووعيدٌ لمن عقَّ والديه واتبع سبيل الرَّدى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي لندخلنَّهم في زمرة الصالحين في الجنة قال القرطبي: كرَّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحريك النفوس إلى نيل مراتبهم، وفي ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مبالغة أي الذين هم نهاية الصلاح وأبعد غاياته[2]، ولما ذكر تعالى ما أعده للمؤمنين الخُلَّص ذكر حال المنافقين المذبذبين فقال ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي ومن الناس فريقٌ يقولون بألسنتهم: آمنا بالله، فإذا أُوذي أحدهم بسبب إيمانه ارتد عن الدين وجعل ما يصيبه من أذى الناس سبباً صارفاً له عن الإيمان كعذاب الله الشديد الذي يصرف الإنسان عن الكفر قال المفسرون: والتشبيه ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ من حيث إن عذاب الله مانع للمؤمنين من الكفر، فكذلك المنافقون جعلوا أذاهم مانعاً لهم من الإيمان، وكان مقتضى إيمانهم أن يصبروا ويتشجعوا، ويروا في العذاب عذوبة، وفي المحنة منحة، فإن العاقبة للمتقين قال الإمام الفخر: أقسام المكلفين

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٣١.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٢٩.

ثلاثـة: مؤمنٌ ظاهر بحسـن اعتقاده، وكافرٌ مجاهـر بكفره وعناده، ومذبـذبٌ بينهما يظهر الإيمان بلسـانه ويضمر الكفر في فؤاده، فلما ذكر تعالى القسمين بقوله ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ذكر القسم الثالث هنا ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ واللطيفة في الآية أن الله أراد بيان شـرف المؤمن الصابر، وخسَّـة المنافق الكافر، فقال هناك: أُوذي المؤمن في سـبيل الله ليترك سـبيله ولم يتركه، وأوذي المنافق الكافر فترك الله بنفسه، وكان يمكنـه أن يظهـر موافقتهم ويكون قلبـه مطمئنـاً بالإيمـان، ومع هذا لم يفعلـه بل ترك الله بالكليـة[1] ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي ولئـن جـاء نصـر قريـب للمؤمنيـن، وفتـح ومغانم قـال أولئك المذبذبون: إنـا كنا معكم ننصركـم على أعدائكم، فقاسـمونا فيما حصل لكم من الغنائم قال تعالـى رداً عليهم ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ؟ اسـتفهام تقريـر أي أوليـس الله هو العالـم بما انطوت عليـه الضمائر من خير وشـر، وبما في قلوب الناس من إيمان ونفاق؟ بلى إنه بكل شيء عليم، ثم أكد تعالى ذلك بقولـه ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي وليُظْهِـرنَّ الله لعبـاده حـال المؤمنيـن وحال المنافقين حتى يتميزوا فيفتضح المنافق، ويظهر شـرف المؤمن الصادق قال المفسـرون: والمراد ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ إظهار علمه للناس حتى يصبح معلومـاً لديهم، وإلا فـالله عالم بما كان، وما يكـون، وما هو كائن لا تخفى عليه خافية، فهو إذاً علم إظهار وإبداء، لا علمُ غيب وخفاء بالنسـبة لله تعالى، وقد فسَّـر ابن عباس العلم بمعنى الرؤية[2] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي قـال الكفـار للمؤمنين اكفروا كما كفرنا، واتَّبعوا ديننا ونحن نحمل عنكم الإثم والعقاب، إن كان هناك عقـاب قـال ابن كثيـر: كما يقـول القائـل: افعـلْ هـذا وخطيئتك في عنقـي[3]، فـإن قيل: ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ صيغة أمر، فكيف يصح أمر النفس من الشخص؟ فنقول: الصيغةُ أمرٌ والمعنى شـرطٌ وجزاء، أي إن اتبعتمونا حمَلْنـا خطاياكم ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي وما هم حاملين شـيئـاً من خطاياهم، لأنه لا يحمل أحدٌ وزر أحد ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي وإنهـم لكاذبـون في ذلـك، ثـم قـال تعالـى ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي

(١) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٣٧.

(٢) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير في هذا الشأن ٣/ ٢٨. (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٢٦٣): «وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ. وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ فِي مِثْلِ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٤٣]: إِلَّا لِنَرَى؛ وَذَلِكَ أَنَّ الرُّؤْيَةَ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَوْجُودِ، وَالْعِلْمُ أَعَمُّ مِنَ الرُّؤْيَةِ، فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْدُومِ وَالْمَوْجُودِ».

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٠.

وليحملُنَّ أوزارهم وأوزار من أضلوهم دون أن ينقص من أزوار أولئك شيء كما في الحديث «وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَام مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»[1] ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي وليسألنَّ سؤال توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي عما كانوا يختلقونه من الكذب على الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم ذكر تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قصة نوح تسليةً له عما يلقاه من أذى المشركين فقال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أي ولقد بعثنا نوحاً إلى قومه فمكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى توحيد الله جلَّ وعلا، وكانوا عبدة أصنام فكذبوه ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ أي فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرّون على الكفر والضلال قال «أبو السعود»: والطوفان: كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة، من السيل والريح والظلام، وقد غلب على طوفان الماء[2] قال الرازي: وفي قوله ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ إشارة إلى لطيفة، وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم ولهذا قال ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ يعني أهلكهم وهم على ظلمهم[3] ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي فأنجينا نوحاً من الغرق ومن ركب معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه المؤمنين ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي وجعلنا تلك الحادثة الهائلة عظة وعبرة للناس بعدهم يتعظون بها ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله «إبراهيم» إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مُسدي لها غيره[4] ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي عبادة الله وتقواه خير لكم من عبادة الأوثان إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتفرقون بينهما ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ أي أنتم لا تعبدون شيئاً ينفع أو يضر، وإنما تعبدون أصناماً من حجارة صنعتموها بأيديكم ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي وتصنعون كذباً وباطلاً قال ابن عباس: تنحتون وتصورون إفكاً[5] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ

(١) الحديث في الصحيحين. (ش): قَالَ ص: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ، والحديث ليس في البخاري).

(٢) «أبو السعود» ٤/ ١٦٦.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٤٢.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٢. (ش): أَسْدَى إليه معروفًا/ أَسْدَى له معروفًا: قدَّمه له، أدَّاه له، أحسنَ إليه.

(٥) هذا هو الظاهر أنها من الخلق وهو قول مجاهد والحسن واختاره ابن جرير، وقيل أنه من الاختلاق أي تختلقون وتقولون الكذب.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ أي إن هؤلاء الذين تعبدونهم لا يقدرون على أن يرزقوكم ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أي فاطلبوا الرزق من الله وحده، فإنه القادر على ذلك ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ أي وخصوه وحده بالعبادة واخشعوا واخضعوا له، واشكروه على نعمة التي أنعم بها عليكم ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد أي وإن تكذبوني فلن تضروني بتكذيبكم وإنما تضرون بأنفسكم فقد سبق قبلكم أمم كذبوا رسلهم فحلَّ بهم عذاب الله، وسيحل بكم ما حلَّ بهم[1] ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، وليس عليه هداية الناس قال الطبري: ومعنى ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي **الَّذي يُبيِّنُ لِمَنْ سَمِعَهُ مَا يُرَادُ بِهِ، وَيَفْهَمُ بِهِ مَا يَعْنِي بِهِ**[2] ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ الاستفهام التوبيخ لمنكري الحشر أي أولم ير المكذبون بالدلائل الساطعة كيف خلق تعالى الخلق ابتداءً من العدم، فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر؟ قال قتادة: المعنى أولم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله الأجسام بعد الموت؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي سهل عليه تعالى فكيف ينكرون البعث والنشور؟ فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة، قال القرطبي: ومعنى الآية على ما قاله البعض: أولم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولد ولداً، وكذلك سائر الحيوان، فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد، فهو القادر على الإعادة لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون[3] ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي قل لهؤلاء المنكرين للبعث: سيروا في أرجاء الأرض فانظروا كيف أن الله العظيم القدير خلق الخلق على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم الله، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ! ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي ثم هو تعالى يُنشِئُهم عند البعث نشأةً أخرى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ومنه البدء والإعادة ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل

(١) قال ابن كثير: والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام، يحتج به عليهم لإثبات المعاد، لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ وذهب الإمام الطبري إلى أن هذا من كلام الله تعالى لكفار مكة ومُرادُه به تسليةُ النبي ﷺ وليس من كلام إبراهيم، وما ذهب إليه ابن كثير أظهر والله أعلم.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٠/ ٨٩.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٣٦.

ما يشاء ويحكم ما يريد، فله الخلق والأمر، لا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألون ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي وإليه تُرجعون يوم القيامة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا تفوتون من عذاب الله، وليس لكم مهربٌ في الأرض ولا في السماء قال القرطبي: والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله كقوله ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] (١) ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لكم غير الله وليٌّ يحميكم من بلائه، ولا نصير ينصركم من عذابه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي كفروا بالقرآن والبعث(٢) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِى﴾ أي أولئك المنكرون الجاحدون قنطوا من رحمتي قال ابن جرير: وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لهم عذاب موجع مؤلم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أي فما كان ردُّ قومه عليه حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام إلا أن قال كبراؤهم المجرمون: اقتلوه لتستريحوا منه أو حرّقوه بالنار ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي فألقَوْهُ في النار فجعلها برداً وسلاماً عليه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إنَّ في إنجائنا لإبراهيم من النار لَدلائلَ وبراهينَ ساطعةً على قدرة الله لقوم يصدقون بوجود الله وكمال قدرته وجلاله(٣) ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي قال إبراهيم لقومه توبيخاً لهم وتقريعاً: إنما عبدتم هذه الأوثان والأصنام وجعلتموها آلهة مع الله ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة باجتماعكم على عبادتها ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي ثم في الآخرة ينقلب الحال فتصبح هذه الصداقة والمودة عداوةً وبغضاء حيث يقع التناكر ويتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة، لأن صداقتهم في الدنيا لم تكن من أجل الله ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ومصيركم جميعاً جهنم وليس لكم ناصر أو معين يخلصكم منها ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي فآمن معه لوط وصدَّقه وهو ابن أخيه وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي وقال الخليل إبراهيم، إني تاركٌ وطني ومهاجرٌ من بلدي رغبةً في رضى الله قال المفسرون: هاجر من سَوَاد العراق(٤) إلى فلسطين

(١) نفس المرجع السابق ١٣/ ٣٣٧.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٠/ ٩٠.
(٣) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.
(٤) (ش): سَوَاد المدينة: ما حولَها من القُرى والرّيف. وَسَوَادُ الْعِرَاق: ما بين الْبَصْرَة والكوفة وَمَا حولهما من الْقرى.

والشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي هو العزيز الذي لا يذل من اعتمد عليه، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي وهبنا لإبراهيم - لما فارق قومه في الله - ولداً صالحاً هو إسحاق وولد ولدٍ وهو يعقوب بن إسحاق ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي خصصناه بهذا الفضل العظيم حيث جعلنا كل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، وجعلنا الكتب السماوية نازلةً على الأنبياء من بنيه قال ابن كثير: وهذه خصلة سَنِيَّة[1] عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجَعْلِه إماماً للناس، أن جعَل اللهُ في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده «يعقوب» ولم يوجد نبي من سلالة «إسماعيل» سوى النبي العربي عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي وتركنا له الثناء الحسن في جميع الأديان ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وهو في الآخرة في عداد الكاملين في الصلاح، وهذا ثناءٌ عظيم على أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع فيما يلي:

١ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾.

٢ - الطباق بين ﴿صَدَقُوا۟ .. ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وبين ﴿ءَامَنُوا۟ .. ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وبين ﴿يُعَذِّبُ .. وَيَرْحَمُ﴾ وبين ﴿يُبْدِئُ .. يُعِيدُهُۥٓ﴾.

٣ - التأكيد بإنَّ واللام ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ لأن المُخاطَب مُنكِرٌ.

٤ - صيغة المبالغة ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٥ - الجناس غير التام ﴿يَسِيرٌ .. سِيرُوا۟﴾.

٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

٧ - التفنن في التعبير ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ لم يقل إلا خمسين سنة تفنناً لأن التكرار في الكلام الواحد مخالف للبلاغة إلا إذا كان لغرضٍ من تفخيم أو تهويل مثل ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

٨ - أسلوب الإطناب ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا .. إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لغرض التشنيع عليهم في عبادة الأوثان.

---

(١) (ش): سنِيَ/ سنِيَ إلى: يَسْنَى، سَنًا وسَنَاءً، فهو سَنِيٌّ: سَنِيَ البرقُ: سَنَا؛ أضاء. سَنِيَ إلى المعالي: سنا؛ علا وارتفع وارتقى.

٩ - أسلوب الإيجاز ﴿ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ أي حرقوه في النار ثم قال ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي ففعلوا فأنجاه الله من النار.

١٠ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ شبّه الذنوب بالأثقال، لأنها تثقل كاهل الإنسان.

قال الله تعالى:

وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ
إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ
نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ
رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا
ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ
مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا
وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ
عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ
أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم
مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ
لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ
وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ
﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ
إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ
أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة نوح وإبراهيم، وما فيهما من مواطن العظة والعبرة، ذكر

هنا قصص الأنبياء «لوط، شعيب، هود، صالح» على سبيل الاختصار لبيان عاقبة الله في المكذبين.. وكلُّ ذلك لتأكيد ما ورد في صدر السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة، وأنه من السنن الكونية على مر العصور والدهور.

اللغَة: ﴿ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ الفعلة المتناهية في القبح قال أهل اللغة: الفاحشةُ: القبيح الظاهر قُبْحُه، وكل فعلٍ زاد في القبح والشناعة فهو فاحشة ﴿نَادِيكُمُ﴾ النادي: المجلس الذي يجتمع فيه القومُ للسَّمر أو المشورة أو غيرهما ﴿تَعْثَوْا۟﴾ العُثُوُّ والعُثيُّ أشدُّ الفساد يقال: عثي يعثى، وعثا يعثو بمعنى واحد[1] ﴿رِجْزًا﴾ عذاباً ﴿جَـٰثِمِينَ﴾ جثم: إذا قعد على ركبتيه ﴿سَـٰبِقِينَ﴾ فائتين من عذابنا ﴿أَوْهَنَ﴾ أضعف، والوهنُ: الضعف.

التفسِير: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي واذكر رسولنا لوطاً عليه السلام حين قال لقومه ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ أي إنكم يا معشر القوم لترتكبون الفعلة المتناهية في القبح ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي لم يسبقْكم بهذه الشنيعة، والفعلة القبيحة - وهي اللواطة - أحدٌ من الخلق، ثم فسر تلك الشنيعة فقال ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي إنكم لتأتون الذكور في الأدبار وذلك منتهى القذارة والخسَّة قال المفسرون: لم يُقْدِم أحدٌ قبلهم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لإفراط قُبحها حتى أقدم عليها قوم لوط، ولم يَنْزُ ذكَرٌ على ذكَر قبل قوم لوط[2] ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي وتقطعون الطريق على المارة بالقتل وأخذ المال، وكانوا قطاع الطريق قال ابن كثير: كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم[3] ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي وتفعلون في مجلسكم ومنتداكم ما لا يليق من أنواع المنكرات علناً وجهاراً، أمَا كفاكم قُبحُ فِعْلكم حتى ضمَمْتُم إليه قُبحَ الإظهار!؟ قال مجاهد: كانوا يأتون الذكور أمام الملأ يرى بعضهم بعضاً، وقال ابن عباس: كانوا يَحذِفُون بالحصَى مَن مرَّ بهم مع الفُحش في المزاح، وحَلّ الإزار، والصَّفِير وغير ذلك من القبائح[4] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي فما كان ردُّ قومه عليه حين نصحهم وذكرهم وحذَّرهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء: ائتنا يا لوط بالعذاب الذي تَعِدُنا به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أي كنت صادقاً فيما تهددنا به من نزول العذاب قال الإمام الفخر: فإن قيل إن الله تعالى قال هاهنا ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا﴾ وقال في موضع آخر ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل:٥٦]

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٤٣.

(٢) نقلاً عن «البحر المحيط» ٧/ ١٤٩. (ش): نزا الثَّوْرُ: وثَب على أُنْثاه.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٥.

(٤) (ش): (يَحذِفُون بالحصَى): يَرمُون بالحصَى. صَفَرَ الشَّخصُ، صَفِيرًا: صَوَّت بالنَّفخ من شفتَيْه أو مِن أداةٍ.

فكيف وجه الجمع بينهما؟ فنقول: إن لوطـًا كان ثابتـًا على الإرشـاد، مكـرراً عليهم النهي والوعيد، فقالوا أولاً: ائتنا بعذاب الله، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوا آل لوط[1]، ثم إن لوطـًا لما يئس منهم طلب النصرة من الله ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي قال لوط: رَبّ أَهۡلِكۡهُم وانصُرني عليهم فإنهم سفهاء مفسدون لا يُرجَى منهم صلاح وقد أغرقوا في الغيّ والفساد قال الرازي: واعلم أن نبيًّا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ [نوح: ٢٧] فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال، ولا يرجى منهم صلاح في المآل طلب لهم العذاب[2] ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ المراد بالرسل هنا «الملائكة» والبشرى هي تبشير إبراهيم بالولد، أي لما جاءت الملائكة تبشّر إبراهيم بغلام حليم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي جئنا لنهلك قرية قوم لوط ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي لأنَّ أهلها مُمْعِنُون في الظلم والفساد[3]، طبيعتُهم البَغْيُ والعناد قال المفسرون: لما دعا لوط على قومه، استجاب الله دعاءه، وأرسل ملائكته لإهلاكهم، فمروا بطريقهم على إبراهيم أولاً فبشروه بغلام وذرية صالحة، ثم أخبروه بما أُرسلوا من أجله، فجادلهم بشأن ابن أخيه لوط ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أي كيف تهلكون أهل القرية وفيهم هذا النبي الصالح «لوط»؟ ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَا﴾[4] أي نحن أعلم به وبمن فيها من المؤمنين قال الصاوي: وهذا بعد المجادلة التي تقدمت في سورة هود ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] حيث قال لهم: أتهلكون قريةً فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. فقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فأجابوه بقولهم: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ ثم بشروه فإنجاء لوط والمؤمنين ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي سوف ننجيه مع أهله من العذاب، إلا امرأته فستكون من الهالكين لأنها كانت تُمَالِئُهم على الكفر[5]، ثم ساروا من عنده فدخلوا على «لوط» في صورة شُبَّان حسان ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا﴾ أي ولما دخلوا على لوط حزن بسببهم، وضاق صدره من مجيئهم لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف، فخاف عليهم

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٥٩.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٥٩.

(٣) (ش): أمْعَنَ في الأمر: جَدَّ وبالغ في استقصائه وأطال التفكيرَ فيه.

(٤) حاشية الصاوي ٣/ ٢٣٦.

(٥) (ش): أي تساعدهم على الكفر. يقال: مالأَ صديقَه على الأمر/ مالأَ صديقَه في الأمر: ناصره، ماشاه وساعده وعاونه.

من قومه، فأعلموه أنهم رسل ربه ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي لا تخف علينا ولا تحزن بسببنا، فلن يصل هؤلاء المجرمون إلينا ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي كانت من الهالكين الباقين في العذاب ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي منزلون عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم المستمر قال ابن كثير: وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود، وجعل مكانها بحيرةً خبيثةً منتنة، وجعلهم عبرةً إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد[1] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي ولقد تركنا من هذه القرية علامةً بينةً واضحة، هي آثار منازلهم الخربة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لقوم يتفكرون ويتدبرون ويستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، ثم أخبر تعالى عن قصة شعيب فقال ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم مدين أخاهم شعيباً ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ﴾ أي فقال لقومه ناصحاً ومذكراً: يا قوم وحّدوا الله وخافوا عقابه الشديد في اليوم الآخر ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تسعوا بالإفساد في الأرض بأنواع البغي والعدوان ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي فكذبوا رسولهم شعيباً فأهلكهم الله برجفةٍ عظيمة مدمرة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة هائلة أخرجت القلوب من حناجرها ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي فأصبحوا هلكَى باركين على الرُّكب ميِّتين ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود، وقد ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجاز واليمن آيتنا في هلاكهم أفلا يعتبرون؟ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي وحسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصي حتى رأوها حسنة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي فمنعهم عن طريق الحق، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال، لكنهم لم يفعلوا تكبراً وعناداً ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي وأهلكنا كذلك الجبابرة الظالمين، ﴿وَقَٰرُونَ﴾ صاحب الكنوز الكثيرة ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ صاحب الملك والسلطان، ووزيره ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ الذي كان يُعينه على الظلم والطغيان ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ولقد جاءهم موسى بالحجج الباهرة، والآيات الظاهرة ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي فاستكبروا عن عبادة الله وطاعة رسوله ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ أي وما كانوا ليُفلتوا من عذابنا قال الطبري: أي ما كانوا ليَفُوتونا بل كنا مقتدرين عليهم[2] ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي فكلاً من

(١) «مختصر تفسير ابن كثير».

(٢) «تفسير الطبري» ٢٠/ ٩٦.

هؤلاء المجرمين أهلكناه بسبب ذنبه وعاقبناه بجنايته قال ابن كثير: أي وكانت عقوبته بما يناسبه[١] ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً عاصفة مدمرة فيها حصباء «حجارة» كقوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي ومنهم من أخذته صيحةُ العذاب مع الرجفة كثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي خسفنا به وبأملاكه الأرض حتى غاب فيها كقارون وأصحابه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ أي أهلكناه بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنده ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي وما كان الله ليعذبهم من غير ذنب فيكون لهم ظالماً ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب والدمار، ثم ضرب تعالى مثلاً للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله فقال ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائِهم نَفْعَها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغني عنها في حر ولا برد، ولا مطر ولا أذى قال القرطبي: هذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرًّا ولا برداً[٢] ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن أضعف البيوت لبيتُ العنكبوت لتفاهته وحقارته، لو كانوا يعلمون أن هذا مَثَلُهم ما عبدوها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي هو تعالى عالم بما عبدوه من دونه لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وهو جل وعلا العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي وتلك الأمثال نبينها للناس في القرآن لتقريبها إلى أذهانهم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي وما يدركها ويفهمها إلا العالمون الراسخون، الذين يعقلون عن الله عَزَّ وَجَلَّ مُراده ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالحق الثابت لا على وجه العبث واللعب ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن في خلقهما بذلك الشكل البديع، والصنع المحكم لعلامة ودلالة للمصدقين بوجود الله ووحدانيته[٣] ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اقرأ يا محمد هذا القرآن المجيد الذي أوحاه إليك ربك، وتقرّبْ إليه بتلاوته وتَرْدَاده[٤]، لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي دُمْ على إقامتها بأركانها

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٤٥ نقلاً عن الفراء.

(٣) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٤) (ش): تَرْداد: تَكْرار وإعادة.

وشروطها وآدابها فإنها عماد الدين ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي إنَّ الصلاة الجامعة لشروطها وآدابها، المستوفية لخشوعها وأحكامها، إذا أداها المصلي كما ينبغي، وكان خاشعاً في صلاته، لعظمة ربه، متدبراً لما يتلو، نَهَتْهُ عن الفواحش والمنكرات ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ولذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا، وهو أن تتذكر عظمته وجلاله، وتذكره في صلاتك وفي بيعك وشرائك، وفي أمور حياتك ولا تغفل عنه في جميع شؤونك ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأفعالكم فيجازيكم عليها أحسن المجازاة، قال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال: الإخلاص، والخشية، وذكر الله؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله - القرآن - يأمره وينهاه فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة[1].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بعده مؤكدات والإطناب بتكرار الفعل تهجيناً لعملهم القبيح وتوبيخاً ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ٱلنَّارِ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ الآية.

٢ - الاستهزاء والسخرية ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وجواب الشرط محذوف دل عليه السابق أن إن كنت صادقاً فأتنا به.

٣ - التنكير لإفادة التهويل ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي رجزاً عظيماً هائلاً.

٤ - تقديم المفعول للعناية والاهتمام، والإجمال ثم التفصيل ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ إلخ.

٥ - التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ شبَّه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيفاً واهياً يتهاوى من هبة نسيم أو من نفخة فم، وسمي تمثيليًّا لأن وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد.

٦ - توافق الفواصل في الحرف الأخير وما فيه من جرس عذب بديع مثل ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ .. إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ ومثل ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ ومثل ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ أَهْلَهَا . ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إلخ وهو من خصائص القرآن.

تنبيه: أفادت الآية أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٨.

لما قيل له: إن فلانـًا يصلي الليل سـرق فقال: «سَـتَمْنَعُهُ صَلاَتُـهُ» رواه البزار[1]، يريد عليه السـلام أن الصلاة إذا كانـت على الوجه الأكمل، تنهى صاحبها عن الفحشـاء، ولا تزيده بعداً بل تزيده قربـًا.

قال الله تعالى:

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ
أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ
﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾
وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ
وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ
ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن
دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ
وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ
مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ
إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي
ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ
وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ قَالَ: «إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ» [رَوَاهُ أَحْمَدُ، وصححه الألباني]. أما حديث: «مَن لم تَنْهَهُ صلاتُه عَن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعدًا» أو «فلا صلاة له»، فحديث لا يثبت، قال الألباني: وهو مع اشتهاره على الألسنة لا يصح مِن قِبَل إسنادِه، ولا من جهة مَتْنه.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

المناسَبَة: لما بيَّن تعالى ضلال من اتخذ أولياء من دون الله، وضرب المثل ببيت العنكبوت، أمر هنا بالتلطف في دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان، ثم ذكر البراهين القاطعة على صدق محمد ﷺ وصحة القرآن، وختم السورة الكريمة ببيان المانع من التوحيد وهو اغترار الناس بالحياة الدنيا الفانية، وبيَّن أن المشركين يوحدون الله وقت الشدة، وينسونه وقت الرخاء.

اللغَة: ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة يقال: بَغَتَه إذا دهمه على حين غفلة ﴿يَغْشَاهُمُ﴾ يجللهم ويغطيهم من فوقهم، والغشاء: الغطاء ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ بوَّأه: أنزله في المكان على وجه الإقامة ﴿غُرَفًا﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرفون عن الحق إلى الباطل ﴿يَبْسُطُ﴾ يوسّع ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق ﴿مَثْوًى﴾ المكان الذي يقيم فيه الإنسان.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشركون فقال لهم: اخرجوا إلى المدينة وهاجروا، ولا تُجَاوِرُوا الظلمة، قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا ولا من يسقينا فنزلت ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ..﴾ الآية[1].

التفسِير: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي لا تدعوا أهل الكتاب إلى الإسلام وتناقشوهم في أمر الدين إلا بالطريقة الحسنى كالدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه وبيناته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي إلا من كان ظالمًا، محاربًا لكم، مجاهداً في عداوتكم، فجادلوهم بالغلظة والشدة قال الإمام الفخر: إن المشرك لما جاء بالمكر الفظيع كان اللائق أن يُجادل بالأخشن، ويُبالغ في توهين شبهه وتهجين مذهبه، وأما أهل الكتاب فإنهم آمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل إلا الاعتراف بالنبي عليه السلام، فلمقابلة إحسانهم يُجادلون بالأحسن إلا الذين ظلموا منهم بإثبات الولد لله، والقول بثالث ثلاثة فإنهم يُجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم، وتبيين جهالتهم[2] ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي وقولوا لهم: آمنا بالقرآن الذي أُنزل إلينا وبالتوراة

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٦٠. (ش): ذكره القرطبي عن ابن عباس بدون إسناد. وذكره «ابن الجوزي» في «زاد المسير» عن أبي صالح عن ابن عباس، وأبو صالح ضعيف.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٧٥.

والإنجيل التي أنزلت إليكم، قال أبو هريرة: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾[1] ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي ربنا وربكم واحد لا شريك له في الألوهية، ونحن له مطيعون، مستسلمون لحكمه وأمره ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي وكما أنزلنا الكتاب على مَن قبلَك يا محمد أنزلناه عليك ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي فالذين أعطيناهم الكتاب كعبد الله ابن سلام وأمثاله ممن أسلم من اليهود والنصارى يؤمنون بالقرآن ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي ومن أهل مكة من يؤمن بالقرآن كذلك ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي وما يكذب بآياتنا وينكرها مع ظهورها وقيام الحجة عليها إلا المتوغلون في الكفر، المصرّون على العناد قال قتادة: وإنما يكون الجحود بعد المعرفة[2] ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي وما كنتَ يا محمد تعرف القراءة ولا الكتابة قبل نزول هذا القرآن لأنك أمي قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ أميًّا لا يقرأ شيئًا ولا يكتب[3] ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي لو كنت تقرأ أو تكتب إذاً لشك الكفار في القرآن وقالوا: لعله التقطه من كتب الأوائل ونسبه إلى الله، والآيةُ احتجاجٌ على أن القرآن من عند الله، لأن النبي أميّ وجاءهم بهذا الكتاب المعجز، المتضمن لأخبار الأمم السابقة، والأمور الغيبية، وذلك أكبر برهان على صدقه ﷺ قال ابن كثير: المعنى قد لبثت في قومك يا محمد – من قبل أن تأتي بهذا القرآن – عمراً لا تقرأ كتاباً، ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائمًا إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة، ولا يخط حرفًا ولا سطراً بيده، بل كان له كتَّاب يكتبون له الوحي[4] ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ ﴿بَلْ﴾ لِلإضراب أي ليس الأمر كما حسب الظالمون والمبطلون بل هو آيات واضحاتُ الإعجاز، ساطعات الدلالة على أنها من عند الله، محفوظة في صدور العلماء، قال المفسرون: من خصائص القرآن العظيم أنَّ الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقين: الأول: الحفظُ في السطور، والثاني: الحفظُ في الصدور، بخلاف غيره من الكتب فإنها مسطْرة لديهم غير محفوظة في صدورهم ولهذا دخلها التحريف، وقد جاء في صفة هذه الأمة «أناجِيلُهم في صُدُورِهِم»[5]

---

(١) أخرجه البخاري كذا في القرطبي ١٣/ ٣٥١.

(٢) «تفسير الطبري» ٢١/ ٤.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٠.

(٥) (ش): رواه الطبراني وضعفه الألباني.

وقال الحسن: أُعطيَتْ هذه الأمةُ الحفظَ، وكان مَن قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظ ما فيه إلا النبيّون[1] ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي وما يكذب بها إلا المتجاوزون الحد في الكفر والعناد ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي وقال كفار مكة: هلاَّ أُنزل على محمد آيات خارقة من ربه تدل على صدقه مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى! ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنما أمر هذه الخوارق والمعجزات لله وليست بيدي، إن شاء أرسلها، وإن شاء منعها، وليس لأحدٍ دخلٌ فيها ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي وإنما أنا منذر أخوفكم عذاب الله، وليس من شأني أن آتي بالآيات ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾؟ الاستفهام للتوبيخ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي لا يزال يقرع أسماعهم؟ وكيف يطلبون آيةً والقرآن أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صحة نبوتك؟ قال ابن كثير: بيَّن تعالى كثرة جهلهم، وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آياتٍ تدل على صدق محمد ﷺ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة سورة منه، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجلٌ أمي لا تقرأ ولا تكتب، وجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى[2]؟ ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي إن في إنزال هذا القرآن لنعمةً عظيمة على العباد بإنقاذهم من الضلالة، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان لا التعَنُّت ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا﴾ أي قل لهم: كفى أن يكون الله جلَّ وعلا شاهداً على صدقي، يشهد لي أني رسولُه ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد، فلو كنتُ كاذباً عليه لانْتقَمَ مني ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي والذين آمنوا بالأوثان وكفروا بالرحمن، أولئك هم الكاملون في الخسران حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ أي يستعجلك يا محمد المشركون بالعذاب يقولون ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وهو استعجال على جهة التكذيب والاستهزاء ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي لولا أن الله قدَّر لعذابهم وهلاكهم وقتاً محدوداً لجاءهم العذاب حين طلبوه ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي وليأتينهم فجأة وهم ساهون لاهون لا يشعرون بوقت مجيئه ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٥٤.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١.

﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تعجبٌ من قلة فِطْنتهم ومن تَعَنُّتهم وعنادهم. والمعنى: كيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطةٌ بهم يوم القيامة كإحاطة السوار بالمعصم، لا مفرَّ لهم منها؟ ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم بهم فقال ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي يوم يُجَلِّلُهم[1] العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، ومن جميع جهاتهم ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ لهم: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا من الاستهزاء والإجرام، وسيئ الأعمال، ثم لما بيَّن تعالى حال المكذبين الجاحدين، أعقبه بذكر حال الأبرار المتقين فقال ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ خطابُ تشريفٍ للتحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أي: يا من شرفكم الله بالعبودية له هاجِرُوا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها، ولا تُجاوِرُوا الظلمة فأرضُ الله واسعة قال مقاتل: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة[2] ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي فخُصُّوني بالعبادة ولا تعبدوا أحداً سواي ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي أينما كنتم يُدْرِكْكُم الموتُ، فكونوا دائماً وأبداً في طاعة الله، وحيث أُمِرتُم فهاجروا فإن الموت لا بدَّ منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي لننزلنَّهم أعالي الجنة ولنسكننهم منازل رفيعة فيها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها إلى غير نهاية لا يخرجون منها أبداً ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي نعمت تلك المساكن العالية في جناتِ النعيم أجراً للعاملين ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذا بيانٌ للعاملين أي هم الذين صبروا على تحمل المشاقّ من الهجرة والأذى في سبيل الله، وعلى ربهم يعتمدون في جميع أمورهم قال في البحر: وهذان جماع الخير كله: الصبر، وتفويض الأمر إليه تعالى[3] ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي كم من دابة ضعيفة لا تقدر على كسب رزقها ولكنَّ الله يرزقها مع ضعفها ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي الله تعالى يرزقها كما يرزقكم، وقد تكفل برزق جميع الخلق، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم، فالرازق هو الله قال في «التسهيل»: والقصدُ بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم، فكما يرزق الله

(١) (ش): يُجَلِّلُهم: يُغَطِّيهم.
(٢) «زاد المسير» ٦/ ٢٨١. (ش): مقاتل نسبوه للكذب. وهذا الأثر ذكره القرطبي عن ابن عباس بدون إسناد. وذكره «ابن الجوزي» في «زاد المسير» عن أبي صالح عن ابن عباس، وأبو صالح ضعيف.
(٣) «البحر المحيط» ٧/ ١٥٧.

الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم[١] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو السميع لأقوالكم، العليمُ بأحوالكم، ثم عاد الحديث إلى توبيخ المشركين في عبادة غير الله فقال ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي ولئن سألت المشركين من خلق العالم العلوي والسفلي وما فيهما من العجائب والغرائب؟ ومن ذلَّل الشمس والقمر وسخرهما لمصالح العباد يجريان بنظام دقيق؟ ليقولن: الله خالق ذلك ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف يُصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك؟ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي هو جلَّ وعلا الخالق وهو الرازق، يوسّع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً، ويضيّق الرزق على من يشاء ابتلاءً، ليظهر الشاكر والصابر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إنه تعالى واسع العلم يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ توبيخٌ آخر وإقامة حجة أخرى عليهم، أي: ولئن سألت المشركين من الذي أنزل المطر من السماء فأخرج به أنواع الزروع والثمار بعد جدب الأرض ويبسها؟ ليقولن: الله فاعلُ ذلك ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي قل يا محمد: حمداً لله على ظهور الحجة، بل أكثرهم لا يعقلون، حيث يُقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون غيره ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي وما الحياة في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي سريعاً ويزول، كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي وإن الآخرة لهي الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان عندهم علم لم يُؤْثروا دار الفناء على دار البقاء، لأن الدنيا حقيرة لا تزن عند الله جناح بعوضة[٢]، ولقد أحسن من قال:

تَأَمَّلْ فِي الْوُجُودِ بِعَيْنِ فِكْرٍ ... تَرَى الدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ كَالْخَيَالِ
وَمَنْ فِيهَا جَمِيعًا سَوْفَ يَفْنَى ... وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ إقامة حجة ثالثة على المشركين في دعائهم الله عند الشدائد، ثم يشركون به في حال الرخاء. والمعنى: إذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدعاء، لعلمهم أنه لا يكشف الشدائد عنهم إلاّ هو، وفي لفظ ﴿مُخْلِصِينَ﴾ ضربٌ من التهكم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي فلما

(١) «التسهيل» ٣/ ١١٩.
(٢) في الحديث الشريف: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ».
(ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني.

خلَّصهم من أهوال البحر، ونجاهم إلى جانب البر إذا هم يعودون إلى كفرهم وإشراكهم، ناسين ربهم الذي أنقذهم من الشدائد والأهوال ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أمرٌ على وجه التهديد أي فليكفروا بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء من البحر، وليتمتعوا في هذه الحياة الدنيا بباقي أعمارهم، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي أولم ير هؤلاء الكفار، رؤية تفكر واعتبار، أنا جعلنا بلدهم «مكة» حرماً مصوناً عن السلب والنهب، آمنًا أهله من القتل والسبي، والناسُ حولهم يُسْبَوْن ويُقْتَلون[1]؟

قال الضحاك: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي يقتل بعضُهم بعضاً، ويسبي بعضُهم بعضاً[2] ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي أفبَعْد هذه النعم الجليلة يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾ أي لا أحد أظلم ممن عبد غير الله وكذَّب بالقرآن حين جاءه ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ أي أليس في جهنم مأوى وموضع إقامة للكافرين بآيات الله جزاء افترائهم وكفرهم؟ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي والذين جاهدوا النفس والشيطان والهوى ولكفرة أعداء الدين ابتغاء مرضاتنا لنهدينهم طريق السير إلينا ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي مع المؤمنين بالنصر والعون.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التحضيض ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٢ - الطباق ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾.

٣ - إفادة القصر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي لا غيرهم.

٤ - الإطناب بذكر العذاب مراتٍ للتشنيع على المشركين ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إلخ.

٥ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

٦ - الطباق ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ .. وَيَقْدِرُ﴾ ومثله ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

٧ - المجاز العقلي ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي آمنا أهله.

٨ - التشبيه البليغ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي كاللهو وكاللعب حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم: «زيدٌ أسد».

---

(١) (ش): سَبَى عدُوَّه: أسَره.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٦٣.

٩ - الإيجاز بحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولا الفانية على الباقية.

١٠ - مراعاة الفواصل لما لها من وقع عظيم على السمع يزيد الكلام رونقاً وجمالاً مثل ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ إلخ.

تنْبيه: لا ينبغي لمسلمٍ أن يبقى بأرض لا يتيسر له فيها عبادة الله، فأرض الله واسعة، وقد أشارت الآيات إلى وجوب الهجرة إلى دار الإسلام وكما قيل: «وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيِّبُ».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت»





مكية وآياتها ستون

بين يدي السورة

* سورة الروم مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، التي تعالج قضايا العقيدة الإسلامية في إطارها العام وميدانها الفسيح «الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث».

* ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدثٍ غيبي هام، أخبر عنه القرآن الكريم قبل حدوثه، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في الحرب التي ستقع قريبًا بينهما، وقد حدث كما أخبر عنه القرآن وبذلك تحققت النبوءة، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي، ومن أعظم معجزات القرآن.

* ثم تحدثت السورة عن حقيقة المعركة بين حزب الرحمن، وحزب الشيطان، وأنها معركة قديمة قدم هذه الحياة، فالحرب لا تهدأ ما دام هناك حق وباطل، وخير وشر، وما دام الشيطان يحشد أعوانه وأنصاره لإطفاء نور الله، ومحاربة دعوة الرسل الكرام، وقد ساقت الآيات دلائل وشواهد على انتصار الحق على الباطل، في شتى العصور والدهور وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

* ثم تناولت السورة الحديث عن الساعة والقيامة، وعن المصير المشئوم لأهل الكفر والضلال في ذلك اليوم العصيب، حيث يكون المؤمنون في روضات يحبرون، ويكون المجرمون في العذاب محضرين، وتلك نهاية المطاف للأبرار والفجار، والعاقبة المؤكدة للمحسنين والمجرمين.

* وتناولت السورة بعد ذلك في بعض المشاهد الكونية، والدلائل الغيبية، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان، الذي تخضع له الرقاب، وتعنو له الوجوه، وضربت بعض الأمثلة للتفريق والتمييز بين من يعبد الرحمن، وبين من يعبد الأوثان.

* وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش، إذ لم تنفعهم الآيات والنذر ومهما رأوا من الآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، لا يعتبرون ولا يتعظون، لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين، والصبر حتى يأتي النصر.

التسمية: سميت «سورة الروم» لذكر تلك المعجزة الباهرة، التي تدل على صدق أنباء

القرآن العظيم: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ
﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ وتلك هي بعض معجزات القرآن.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ
سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ
مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ
﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ
﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ
ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ
وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ
﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ
فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ
مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ
مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ

اللغَة: ﴿يَغۡلِبُونَ﴾ يُهزَمون ويُقهَرون ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزراعة ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيث الأسوء وهو الأقبح كما أن الحُسنى تأنيث الأحسن، والسُّوءى: العقوبة المتناهية في السوء ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ يُسرون يقال: حبره إِذا سرَّه سروراً تهلَّل له وجهه وظهر عليه أثره قال الجوهري: الحبور: السرور، ويحبرون: يُنَعَّمون ويُسَرُّون ﴿وَعَشِيّٗا﴾ العشي: من صلاة المغرب إِلى العَتَمَة[1] ﴿تُظۡهِرُونَ﴾ تدخلون وقت الظهيرة.

---

(١) (ش): العَتَمَة: ظُلْمة اللَّيل. العَتَمَة: وقت صلاة العشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل. قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١] ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ من حين زوال الشمس إلى غروبها. وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥] أي نزّه الله عن صفات النقص بقولك: سبحان الله، في آخر النهار وأوله.

التفسِـير: ﴿الٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إِعجاز القرآن(١) ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي هُـزم جيش الروم في أقـرب أرضهم إلى فـارس ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ أي وهـم من بعـد انهزامهم وغلبة فارس لهم سـيغلبون الفرس وينتصرون عليهـم ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ أي في فـترة لا تتجاوز بضعة أعوام، والبضـع: ما بين الثلاث إلى التسـع قال المفسـرون: كان بين فارس والروم حربٌ، فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك رسـول الله ﷺ وأصحابه فشـقَّ ذلك عليهم، وفرح المشركون بذلك لأن أهل فارس كانوا مجوسـًا ولم يكن لهم كتاب، والرومُ أصحاب كتاب فقال المشـركون لأصحاب رسول الله ﷺ: إنكـم أهل كتـاب، والروم أهل كتـاب، ونحن أُميون، وقد ظهـر إِخواننا من أهل فارس على إِخوانكم من الروم، فلَنَظْهَرَنَّ عليكم فقال أبو بكر: لا يقرُّ الله أعينكم فأنزل الله ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ وقد التقى الجيشـان في السـنة السابعة من الحرب، وغلبت الرومُ فارس وهزمتهم، وفرح المسلمون بذلك(٢).

قال «أبو السـعود»: وهـذه الآياتُ من البينات الباهرة، الشـاهدة بصحـة النبوة، وكون القـرآن مـن عنـد الله عَزَّ وَجَـلَّ حيث أخبر عـن الغيب الـذي لا يعلمه إلا العليـم الخبير، ووقـع كما أخـبر(٣)، وقال «البيضـاوي»: والآية من دلائل النبوة لأنها إِخبارٌ عن الغيب(٤)

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من كتابنا هذا.

(٢) (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بإسناد ضعيف.عَنْ نِيَارِ بْنِ مُكْرَمٍ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الرُّوم: ١ - ٤]، فَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَاهِرِينَ لِلرُّومِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَفِى ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تعالى ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤- ٥]. فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ وَلاَ إِيمَانٍ بِبَعْثٍ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَصِيحُ فِى نَوَاحِى مَكَّةَ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الرُّوم: ١ - ٤].قَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لأَبِى بَكْرٍ: «فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ زَعَمَ صَاحِبُكُمْ أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسًا فِى بِضْعِ سِنِينَ أَفَلاَ نُرَاهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ؟». قَالَ: «بَلَى». وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ. فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ وَقَالُوا لأَبِى بَكْرٍ كَمْ تَجْعَلُ الْبِضْعُ ثَلاَثُ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهِى إِلَيْهِ. فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ، فَمَضَتِ السِّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِى بَكْرٍ فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾.وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ. (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وحسّنه الألباني).الرِّهَانُ: الْمُخَاطَرَةُ: أَنْ يَتَرَاهَنَ شَخْصَانِ أَوْ حِزْبَانِ عَلَى شَيْءٍ يُمْكِنُ حُصُولُهُ كَمَا يُمْكِنُ عَدَمُ حُصُولِهِ بِدُونِهِ، كَأَنْ يَقُولاَ مَثَلًا: إِنْ لَمْ تُمْطِرِ السَّمَاءُ غَدًا فَلَكَ عَلَيَّ كَذَا مِنَ الْمَالِ، وَإِلاَّ فَلِي عَلَيْكَ مِثْلُهُ مِنَ الْمَالِ، وَالرِّهَانُ بِهَذَا الْمَعْنَى حَرَامٌ وَهُوَ صُورَةُ الْقِمَارِ الْمُحَرَّمِ.

(٣) «أبو السعود» ٤/ ١٧٦.

(٤) «البيضاوي» ٢/ ١٠٣.

﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ أي لله عَزَّ وَجَلَّ الأمر أولاً وآخراً، من قبل الغلبة ومن بعد الغلبة، فكل ذلك بأمر الله وإرادته، ليس شيء منهما إلا بقضائه قال «ابن الجوزي»: المعنى: إن غلبة الغالب، وخذلان المغلوب، بأمر الله وقضائه[1] ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي ويوم يهزم الرومُ الفُرسَ ويتغلّبون عليهم، ويحِلّ ما وعده الله من غلَبَتهم، يفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس، لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس، وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر قال ابن عباس: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان، وعبدة النيران ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ينصر من يشاء من عباده، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه وأحبابه ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ أي ذلك وعدٌ مؤكد وعد الله به فلا يمكن أن يتخلف، لأن وعده حق وكلامه صدق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون ذلك لجهلهم وعدم تفكرهم ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي يعلمون أمور الدنيا ومصالحها وما يحتاجون إليه فيها من أمور الحياة كالزراعة والتجارة والبناء ونحو ذلك قال ابن عباس: يعلمون أمر معايشهم متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرسون، وكيف يبنون[2] ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أي وهم عُمْيٌ عن أمر الآخرة، ساهون غافلون عن التفكر فيها والعمل لها قال الإمام الفخر: ومعنى الآية أن علمهم منحصرٌ في الدنيا، وهم مع ذلك لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها، وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارُّها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها وهم عن الآخرة غافلون[3]، ولعل في التعبير بقوله ﴿ظَٰهِرٗا﴾ إشارة إلى أنهم عرفوا القشور، ولم يعرفوا اللباب فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي أولم يتفكروا بعقولهم فيعلموا أن الله العظيم الجليل ما خلق السماوات والأرض عبثاً، وإنما خلقهما بالحكمة البالغة لإقامة الحق لوقتٍ ينتهيان إليه وهو يوم القيامة؟ قال القرطبي: وفي هذا تنبيه على الفناء، وعلى أن لكل مخلوقٍ أجلاً، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء[4] ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ أي وأكثر الناس منكرون جاحدون للبعث والجزاء ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي أولم يسافروا فينظروا مصارع الأمم قبلهم كيف أُهلكوا بتكذيبهم

---

(١) «زاد المسير» ٦/ ٢٨٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٧.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٩٧.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٩.

رسلهم فيعتبروا!! ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ أي كانوا أقوى منهم أجساداً، وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي وحرثوا الأرضَ للزراعة، وحفروها لاستخراج المعادن، وعمروها بالأبنية المشيدة، والصناعات الفريدة أكثر مما عمرها هؤلاء قال «البيضاوي»: وفي الآية تهكم بأهل مكة من حيث إنهم مغترون بالدنيا، مفتخرون بها، وهم أضعف حالاً فيها، إذ مدار أمرها على السعة في البلاد، والتسلط على العباد، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة، وهم ضعفاءُ مُلجَئون إلى دارٍ لا نَفْع فيها[1] ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي وجاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات والآيات البينات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ أي فما كان الله ليهلكهم بغير جُرم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب فاستحقوا الهلاك والدمار ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي ثم كان عاقبة المجرمين العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وهي نار جهنم ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي لأجل أنهم كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا واستهزءوا بها ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي الله جل وعلا بقدرته ينشئ خلق الناس ثم يعيد خلقهم بعد موتهم ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي ثم إليه مرجعكم للحساب والجزاء ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويُحْشر الناس للحساب يسكت المجرمون وتنقطع حجتهم، فلا يستطيعون أن ينبسوا ببنت شفة قال ابن عباس: ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ييأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون قال القرطبي: والمعروف في اللغة: أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته[2] ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ أي ولم يكن لهم من الأصنام التي عبدوها شفعاء يشفعون لهم ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي تبرءوا منها وتبرأت منهم ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ كرر لفظ قيام الساعة للتهويل والتخويف لأن قيام الساعة أمر هائل أي ويوم تقوم القيامة يومئذٍ يتفرق المؤمنون والكافرون، ويصبحون فريقين: فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير، ولهذا قال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي فأما المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ أي فهم في رياض الجنة يُسَرُّون ويُنعَّمون ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي وأما الذين جحدوا بالقرآن وكذبوا بالبعث بعد الموت ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي

---

(١) «البيضاوي» ٢/ ١٠٣. (ش): هذا الوصفُ لا يليق بمكة المشرفة، التي فيها بيت الله الحرام وزمزم وما فيهما من منافع دينية ودنيوية.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٠.

﴿ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ أي فأولئك في عذاب جهنم مقيمون على الدوام ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ أي سبِّحوا الله ونزِّهُوه عما لا يليق به من صفات النقص، حين تدخلون في المساء، وحين تدخلون في الصباح ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ أي وهو جل وعلا المحمود في السماوات والأرض قال ابن عباس: يحمده أهل السماوات وأهلُ الأرض ويُصَلون له[1]، قال المفسرون: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جملة اعتراضية وأصل الكلام: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ٱللَّهِ.. وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ والحكمة في ذلك الإشارة إلى أن التوفيق للعبادة نعمةٌ ينبغي أن يحمد عليها، والعشي: من صلاة المغرب إلى العَتَمَة[2]، ﴿تُظۡهِرُونَ﴾ أي تدخلون وقت الظهر ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والنبات من الحَبّ، والحَبَّ من النبات، والحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ أي ويحيي الأرض بالنبات بعد يبسها وجدبها ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ أي كما يخرج الله النبات من الأرض كذلك يخرجكم من قبوركم للبعث يوم القيامة، قال القرطبي: بيَّن تعالى كمال قدرته، فكما يحيي الأرض بإخراج النبات بعد هُمُودها كذلك يحييكم بالبعث[3].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الطباق بين ﴿غُلِبَتِ.. يُغۡلَبُونَ﴾ وبين ﴿قَبۡلُ.. بَعۡدَ﴾.

٢ – طباق السلب ﴿لَا يَعۡلَمُونَ.. يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

٣ – صيغة المبالغة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي المبالغ في العز، والمبالغ في الرحمة.

٤ – تكرير الضمير لإفادة الحصر ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ وورودها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها.

٥ – الإنكار والتوبيخ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ الآية.

٦ – جناس الاشتقاق ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾.

(١) «زاد المسير» ٦/ ٢٩٤. (ش): قال الإمام الطبري في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن» (٢٠/ ٨٣): يقول تعالى ذكره: فسبحوا الله أيها الناس: أي صَلُّوا له (حِينَ تُمْسُونَ)، وذلك صلاة المغرب، (وَحِينَ تُصْبِحُونَ)، وذلك صلاة الصبح (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) يقول: وله الحمد من جميع خلقه دون غيره (فِي السَّمَوَاتِ) من سكانها من الملائكة، (وَالأَرْض) من أهلها، من جميع أصناف خلقه فيها، (وَعَشِيًّا) يقول: وسَبِّحوه أيضا عشًيا، وذلك صلاة العصر (وَحِينَ تُظْهِرُونَ) يقول: وحين تَدْخلون في وقت الظهر.

(٢) (ش): العَتَمَة: ظُلْمة اللَّيل. العَتَمَة: وقت صلاة العشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٦. (ش): همَدَتِ الأرضُ، هُمُودًا: أجدبَتْ، لم يكن بها حياةٌ ولا نَبْتٌ ولا مطرٌ.

٧ - الطباق بين ﴿يَبْدَؤُاْ .. يُعِيدُهُۥ﴾ وبين ﴿تُمْسُونَ ٱللَّهِ .. تُصْبِحُونَ﴾.

٨ - المقابلة بين حال السعداء والأشقياء ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

٩ - الاستعارة اللطيفة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ استعار الحيَّ للمؤمن، والميت للكافر، وهي استعارة في غاية الحسن والإبداع والجمال.

١٠ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير لما له من أجمل الوقع على السمع مثل ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

لطيفة: قال الزمخشري: دلَّ قوله تعالى ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ على أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيقتها أنها معبرٌ للآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة[1]. ولقد أحسن من قال:

أَبُنَيَّ إِنَّ مِنَ الرِّجَالِ بَهِيمَةً ... فِي صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ
فَطِنٍ بِكُلِّ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ ... فَإِذَا أُصِيبَ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرِ

قال الله تعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ
لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ
ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ
ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن
مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ
عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ

(١) «الكشاف» ٣/ ٣٦٨.

ﭐلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ
ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ
رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ
فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ
أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ
يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ
وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا
لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ
﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن
ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال الناس في الآخرة، وقدرته على البدء والإِعادة، ذكر هنا الأدلة على الربوبية والوحدانية، في خلق البشر، واختلاف الألسنة والصور، وإِحياء الأرض بالمطر، وفي قيام الناس ومنامهم، ثم ضرب الأمثال للمشركين في عبادتهم لغير الله مع أنه وحده الخالق الرازق.

اللغَة: ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ جمع آية وهي العلامة على الربوبية والوحدانية ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ تتصرفون في شئون معايشكم ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ لتميلوا إِليها وتألفوها ﴿قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون منقادون لإِرادته ﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الوصف الأعلى في الكمال والجلال ﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿مُنِيبِينَ﴾ الإِنابة: الرجوع بالتوبة والإِخلاص.

التفسير: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ أي ومن آياته الباهر الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أصلكم «آدم» من تراب، وإِنما أضاف الخلق إِلى الناس ﴿خَلَقَكُم﴾ لأن آدم أصل البشر ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾ أي ثم أنتم تتطورون من نطفة إِلى علقة إِلى مضغة إِلى بشر عقلاء، تتصرفون فيما هو قوام معايشكم قال ابن كثير: فسبحانَ مَن خلَقَهم وسَيَّرهم وسَخّرهم وصَرَّفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة[1]!! ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق لكم من صنفكم وجنسكم نساءً آدميات مثلكم، ولم يجعلهن من جنسٍ آخر قال ابن كثير: ولو

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥١.

أنـه تعالـى جعل الإناث من جنسٍ آخر، من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبيـن الأزواج، بـل كانت تحصـل النفرة، وذلك مـن تمام رحمته ببنـي آدم[١] ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ أي لتميلـوا إليهـن وتألفوهـن ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعـل بيـن الأزواج والزوجـات محبة وشـفقة قال ابن عباس: المودة: حـب الرجلِ امرأته، والرحمةُ شـفقته عليهـا أن يصيبهـا بسـوء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إنَّ فيمـا ذُكِـر لَعِبَراً عظيمـة لقوم يتفكرون في قـدرة الله وعظمته، فيُدركون حكمتـه العلية ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على كمال قدرتـه خلـقُ السـماوات في ارتفاعها واتسـاعها، وخلـق الأرض في كثافتهـا وانخفاضها، واختـلاف اللغـات من عربيـةٍ وعجميـة، وتركية، ورومية، واختلاف الألـوان من أبيض وأسود وأحمر، حتى لا يشتبه شخص بشخص، ولا إنسان بإنسان، مع أنهم جميعًا من ذرية آدم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي لمـن كان مـن ذوي العلـم والفهـم والبصيرة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي ومـن آياتـه الدالة على كمال قدرته نومكم في ظلمة الليل، ووقت الظهيرة بالنهار راحةً لأبدانكم ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي وطلبكم للرزق بالنهار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يسـمعون سـماع تفهم واستبصار ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي ومـن آياته العظيمة الدالـة على قدرته ووحدانيته أنه يريكم البرق خوفـًا من الصواعق، وطمعـًا في الغيث والمطر قال قتادة: خوفـًا للمسافر، وطمعـًا للمقيـم[٢] ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي وينزل المطر من السـماء فينبت بـه الأرض بعد أن كانت هامدة جامدة لا نبـات فيها ولا زرع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في ذلك المذكور لعبراً وعظاتٍ لقوم يتدبرون بعقولهم آلاء الله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي ومـن آياتـه الباهـرة الدالـة علـى عظمته أن تستمسـك السـماواتُ بقدرته بلا عمد، وأن تثبت الأرض بتدبيره وحكمته فلا تنكفـئ بسـكانها ولا تنقلـب بأهلهـا ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي إذا دُعيتـم إلـى الخـروج مـن القبـور، إذا أنتم فـوراً تخرجون للجـزاء والحسـاب، لا يتأخر خروجكم طرفة عين. قال المفسـرون: وذلك حين ينفخ إسـرافيل في الصور النفخة الثانية ويقـول: يـا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسـمةٌ مـن الأولين والآخريـن، إلا قامت تنظر[٣]

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة.

(٢) «تفسير الطبري» ٢١/ ٢٢.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ١٦٨. (ش): هكذا ذكره الزمخشري بدون إسناد، ونقله عنه صاحب «البحر المحيط» وغيره من المفسرين. وجاء في «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (١١/ ٤٤٠): أي يناديكم المنادي مِن قِبَله بالنفخة أو بغيرها كأَنْ يقول: «يا أهل القبور! قوموا إلى الجزاء»، أو نحوَ ذلك.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ أي وله جل وعلا كل من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن ملْكًا وخلْقًا وتصرفًا لا يشاركه فيها أحد ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي جميعهم خاشعون خاضعون منقادون لأمره تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أي وهو تعالى يُنشِئ الخلق من العدم، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ ﴾ أي إعادة الخلق أهونُ عليه من بدئه قال ابن عباس: يعني أيسر عليه، وقال مجاهد: الإعادة أهون من البداءة، والبداءة عليه هيّنة[(١)] قال المفسرون: خاطب تعالى العباد بما يعقلون، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء في تقديركم وحُكمِكُم، فإن مَن قَدَر على الإنشاء كان البعث أهونَ عليه حسب منطقكم وأصولكم[(٢)] ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ أي له الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيه من الجلال والكمال، والعظمة والسلطان ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ أي يَصِفه به مَن فيهما وهو أنه الذي ليس كمثله شيء ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي القاهر لكل شيء الحكيم الذي كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة، ثم وضّح تعالى بطلان عبادتهم للأوثان بمَثَل فقال: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ ﴾ أي ضرب لكم أيها القوم ربُّكم مَثَلاً واقعيًا من أنفسكم ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ أي هل يرضى أحدكم أن يكون عبده ومملوكه شريكًا له في ماله الذي رزقه الله تعالى؟ فإذا لم يرض أحدكم لنفسه ذلك فكيف ترضون لله شريكًا له وهو في الأصل مخلوق وعبدٌ لله؟ ﴿فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ هذا من تتمة المثل أي لستم وعبيدكم سواء في أموالكم، ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم، وأنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم، فكيف رضيتم لله شريكًا في خلقه وملكه؟ ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح نبيّن الآيات لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ ﴾ بلْ للإضراب أي ليس لهم حجة ولا معذرة في إشراكهم بالله بل ذلك بمجرد هوى النفس بغير علم ولا برهان قال القرطبي: لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها، وتقليد الأسلاف في ذلك[(٣)] ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ ﴾ أي لا أحد يستطيع أن يهدي من أراد اللهُ إضلالَه ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ أي ليس لهم من عذاب الله منقذٌ ولا ناصر ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ﴾

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٢.

(٢) هذا قول، وذهب بعض المفسرين إلى أن أفعل التفضيل ليس على بابه فيكون معنى «أهون» أي وهو هين عليه.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٣.

أي أخلص دينك لله وأقبل على الإسلام بهمة ونشاط ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق وهو الإسلام ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي هذا الدين الحق الذي أمرناك بالاستقامة عليه هو خلقة الله التي خلق الناس عليها وهو فطرة التوحيد كما الحديث «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ»[١] الحديث ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تغيير لتلك الفطرة السليمة من جهته تعالى قال «ابن الجوزي»: لَفْظُهُ لَفْظُ النفي ومعناه النهي أي لا تُبَدِّلوا خلْق الله فتغيّروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها[٢] ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي ذلك هو الدين المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر الناس جهلة لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقاً معبوداً ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أقيموا وجوهكم أيها الناس على الدين الحق حال كونكم منيبين إلى ربكم أي راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل، وخافوه وراقبوه في أقوالكم وأفعالكم، وأقيموا الصلاة على الوجه الذي يُرضي الله ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تكونوا ممن أشرك بالله وعبد غيره ثم فسَّرهم بقوله ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي من الذين اختلفوا في دينهم وغيّروه وبدَّلوا فأصبحوا شيعاً وأحزاباً، كلٌ يتعصب لدينه، وكلٌ يعبد هواه ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل جماعة وفرقة متمسكون بما أحدثوه، مسرورون بما هم عليه من الدين المُعْوَج، يحسبون باطلهم حقًّا قال ابن كثير: أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم، أي: بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة - مما عدا أهل الإسلام - فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومذاهب باطلة، وكل فرقة تزعم أنهم على شيء[٣] ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي إذا أصاب الناس شدةٌ وفقر ومرض وغير ذلك من أنواع البلاء ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي أفردوه تعالى بالتضرع والدعاء لينجوا من ذلك الضر، وتركوا أصنامهم لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله تعالى، فلهم في ذلك الوقت إنابة وخضوع ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي ثم إذا أعطاهم السعة والرخاء والصحة وخلّصهم من ذلك الضر والشدة، إذا جماعة منهم يشركون بالله ويعبدون معه غيره، والغرض من الآية التشنيعُ على المشركين، فإنهم يدعون الله في الشدائد، ويشركون به في الرخاء ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان. (ش): قال ﷺ:«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» رواه البخاري ومسلم.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٣٠٢.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٥.

﴿تَعۡلَمُونَ﴾ أمرٌ على وجه التهديد أي ليكفروا بنعم الله، وليتمتعوا في هذا الدنيا فسوف تعلمون أيها المشركون عاقبة تمتعكم بزينة الحياة ونعيمها الفاني ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ. والمعنى: هل أنزلنا على هؤلاء المشركين حجة واضحة قاهرة على شركهم، أو كتاباً من السماء فهو ينطق ويشهد بشركهم وبصحة ما هم عليه؟ ليس الأمر كما يتصورون، والمراد ليس لهم حجة بذلك ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَا﴾ أي وإذا أنعمنا على الناس بالخصب والسعة والعافية استبشروا وسُرُّوا بها ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ أي وإن أصابهم بلاء وعقوبة بسبب معاصيهم إذا هم ييأسون من الرحمة والفرج قال ابن كثير: وهذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمة الله، إذا أصابَتْه نعمةٌ بَطِر، وإذا أصابته شدة قَنط وأيِسَ[1] ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ أي أولم يروا قدرة الله في البسط والقبض، وأنه تعالى يوسّع الخير في الدنيا لمن يشاء ويضيّق على من يشاء؟ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط من رحمته تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي إن في المذكور لدلالة واضحة على قدرة الله لقوم يصدقون بحكمة الخالق الرازق[2] ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي فأَعط القريب حقّه من البر والصلة وكذلك المسكين والمسافر الذي انقطع في سفره اعطه من الصَّدقة والإحسان قال القرطبي: لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق ويقدر، أمر من وسَّع عليه الرزق أن يعطي الفقير كفايته، ليمتحن شكر الغني، والخطاب للنبي عليه السلام والمراد هو وأُمته[3] ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ أي ذلك الإيتاء والإحسان خيرٌ للذين يبتغون بعملهم وجه الله ويريدون ثوابه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي وما أَعطيْتم من أموالكم يا معشر الأغنياء على وجه الربا ليزيد مالكم ويكثر به، فلا يزيد ولا يزكو ولا يضاعف عند الله لأنه كسبٌ خبيثٌ لا يبارك الله فيه قال الزمخشري: هذه الآية كقوله تعالى ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]

---

(١) المصدر السابق. (ش): بطِرَ الشَّخصُ: طغَى وغالى في مَرحِه وزهْوِه واستخفافه. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أَنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا. أيِسَ من الأمر: يَئِس منه، انقطع أملُه منه وانتفى طمعُه فيه، وانقطع رجاؤُه. قنَطَ/ قنُط الشَّخصُ: يَئِسَ أشد اليأس وسخِط.

(٢) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٥.

سواء بسواء[1] ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ أي وما أعطيتم من صدقةٍ أو إِحسان خالصاً لوجه الله الكريم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي فأولئك هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب، الذين تضاعف لهم الحسنات ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ أي الله جل وعلا هو الخالق الرازق للعباد، يُخرج الإِنسان من بطن أمه عُرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر، ثم يرزقه بعد ذلك المال والمتاع والأملاك ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ أي ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم يوم القيامة، ليجازيكم على أعمالكم ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖ﴾؟ أي هل يستطيع أحد ممن تعبدونهم من دون الله أن يفعل شيئاً من ذلك؟ بل الله تعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإِحياء والإِماتة ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي تنزَّه جل وعلا وتقدس عن أن يكون له شريك أو مثيل وتعالى عما يقول المشركون علوًّا كبيراً.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين قوله ﴿خَوۡفٗا .. وَطَمَعٗا﴾ وبين ﴿يَبۡسُطُ .. وَيَقۡدِرُ﴾ وبين ﴿يُمِيتُكُمۡ .. يُحۡيِيكُمۡ﴾ وبين ﴿يَبۡدَؤُاْ .. وَيُعِيدُ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ﴾ ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ﴾.

٣ - المقابلة بين قوله ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَا﴾ وبين ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾.

٤ - المجاز المرسل ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل، أي: توجه إِلى الله بكُلّيَّتِك.

٥ - السجع المرصَّع كأنه الدرُّ المنظوم مثل ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ..﴾ إلخ.

قال الله تعالى:

ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ
﴿٤١﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمۡ
وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ
وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ
مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ

(١) «الكشاف» ٣/ ٣٧٩.

ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي
ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ
إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ
رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ
ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا
فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ
بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ
مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ
ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ
وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ

المناسَبَة: لما شنَّع على المشركين في عبادتهم لغير الله، ذكر في هذه الآيات الأسباب الموجبة للمحنة والابتلاء وهي الكفر، وانتشار المعاصي، وكثرة الفجور والموبقات، التي بسببها تقِلّ الخيرات وترتفع البركات، وضَرَب الأمثال بهلاك الأمم السابقة، تنبيهاً لقريش وأمراً لهم بالاعتبار بمن سبقهم من المشركين المكذبين كيف أهلكهم الله بسبب طغيانهم وإجرامهم.

اللغَة: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ يتفرقون يقال: تصدَّع القوم إذا تفرقوا ومنه الصداع لأنه يُفرِّق شعب الرأس ﴿يَمۡهَدُونَ﴾ يجعلون لهم مهداً ويوطئون لهم مسكناً، والمهاد: الفراش ﴿كِسَفٗا﴾ جمع كسفة وهي القطعة ﴿ٱلۡوَدۡقَ﴾ المطر ﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾ يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم من شدة اليأس ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ يصرفون، والإفك: الكذب ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ يقال: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني.

التفسِير: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ أي ظهرت البلايا والنكبات في بر الأرض وبحرها بسبب معاصي الناس وذنوبهم قال «البيضاوي»: المراد بالفساد الجدب وكثرة الحرق والغرق، ومحق البركات، وكثرةُ المضار بشؤم معاصي الناس أو بكسبهم إياه[1] وقال ابن كثير: أي بانَ النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي؛ لأن

---

(١) «البيضاوي» ٢/ ١٠٦.

صلاح الأرض والسماء بالطاعة[1] ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بها جميعاً في الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يتوبون ويرجعون عمّا هم عليه من المعاصي والآثام ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: سيروا في البلاد فانظروا إلى مساكن الذين ظلموا كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم للرسل، ألم يخرب الله ديارهم ويجعلهم عبرةً لمن يعتبر ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي كانوا كافرين بالله فأُهلكوا ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي فتوجَّه بكُلِّيَّتك إلى الدين المستقيم دين الإِسلام، واستقم عليه في حياتك قال القرطبي: أي أقم قصدك واجعلْ جهتك اتباع الدين القيم يعني الإِسلام[2] ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب، الذي لا يقدر أحدٌ على ردِّه، لأن الله قضى به وهو يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يومئذٍ يتفرقون، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي من كفر بالله فعليه أوزار كفره مع خلوده في النار المؤبدة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي ومن فعل خيراً وأطاع الله فلأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح، ومهَّدت الفراش أي بسطته ووطأته[3] ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله الذي وعد به عباده المتقين ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي لا يحب الكافرين بل يمقتهم ويبغضهم، يجازي المؤمنين بفضله، والكافرين بعدله ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته أن يرسل الرياح تسوق السحاب مبشرة بنزول المطر والإِنبات والرزق ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي ولينزل عليكم من رحمته الغيث الذي يحيي به البلاد والعباد ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي ولتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بإِذنه وإِرادته ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي ولتطلبوا الرزق بالتجارة في البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ تسلية للرسول وتأنيس له بقرب النصر أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً كثيرين إلى قومهم المكذبين كما أرسلناك رسولاً إلى قومك ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الواضحات والحجج الساطعات الدالة على صدقهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٤٢.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

أي كان حقًّا واجباً علينا أن ننصر المؤمنين على الكافرين، والآية اعتراضية جاءت بين الآيات المفصّلة لأحكام الرياح تسليةً للنبي عليه السلام قال أبو حيان: والآية اعتراضٌ بين قوله ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ وبين قوله ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ جاءت تأنيساً للرسول ﷺ وتسلية له، ووعداً له بالنصر، ووعيداً لأهل الكفر[1] ثم ذكر تعالى الحكمة من هبوب الرياح وهي إثارة السحب وإخراج الماء منه فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ أي يبعث الرياح فتحرك السحاب وتسوقه أمامها ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أي فينشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفاً أو كثيفاً، مُطْبقاً أو غير مُطْبق[2] ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾ أي ويجعله أحياناً قطعاً متفرقة ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ أي فترى المطر يخرج من بين السحاب ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي فإذا أنزل ذلك الغيث على من يشاء من خلقه إذا هم يسرون ويفرحون بالمطر ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي وإن كانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين قانطين، قال «البيضاوي»: والتكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم[3] ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أي فانظر أيها العاقل نظر تدبر واستبصار إلى ما ينشأ عن آثار نعمة الله بالمطر من خضرة الأشجار، وتفتح الأزهار، وكثرة الثمار، وكيف أن الله يجعل الأرض تنبت بعد أن كانت هامدة جامدة؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي إنَّ ذلك القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء، لا يعجزه شيء ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع بعد خضرته ونموه ريحاً ضارة مفسدة فرأوا الزرع مصفراً من أثر تلك الريح ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي لمكثوا بعد اصفراره يجحدون النعمة، فشأنهم أنهم يفرحون عند الخصب، فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا سابق نعمة الله عليهم، ثم نبه تعالى إلى هؤلاء الكفار كالأموات لا ينفع معهم نصح ولا تذكير فقال ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ أي فإنك يا محمد لا تسمع الأموات ولا تسمع من كان في أذنيه صممٌ تلك المواعظ المؤثرة، ولو أن أصمَّ ولّى عنك مدبراً ثم ناديته لم يسمع فكذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع قال المفسرون: هذا مثلٌ ضربه الله للكفار فشبههم بالموتى

(١) «البحر المحيط» ٧/ ١٧٨.

(٢) (ش): طَبَقَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ: غَطَّاه، يُقَال: أطبق السَّحَابُ السَّمَاءَ وأطبق الثلجُ الأَرْضَ.

(٣) «البيضاوي» ٢/ ١٠٧.

وبالصم والعمي ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي ولست بمرشد من أعماه الله عن الهدى ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي ما تسمع إلا من يُصدّق بآياتنا فهم الذين ينتفعون بالموعظة لخضوعهم وانقيادهم لطاعة الله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي الله الذي خلقكم أيها الناس من أصل ضعيف وهو النطفة، وجعلكم تتقلبون في أطوار «الجنين، الوليد، الرضيع، المفطوم» وهي أحوال في غاية الضعف، فصار كأن الضعف مادة خلقتكم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي ثم جعل من بعد ضعف الطفولة الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ أي ثم جعل مِن بعدِ قوة الشباب ضعْفَ الهَرَم[1] والشيخوخة، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي يخلق ما يشاء من ضعف وقوة، وشبابٍ وشيب ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ أي وهو العليم بتدبير الخلق، القدير على ما يشاء قال أبو حيان: وجعل الخلق من ضعف لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته وطفولته، ثم حال الشيخوخة والهرم، والترداد في هذه الهيئات شاهد بقدرة الصانع وعلمه[2] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويُبعث الناس للحساب يحلف الكافرون المجرمون بأنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعة قال «البيضاوي»: وإنما استقلوا مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً منهم[3] ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كذلك كانوا في الدنيا يصرفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أي وقال العقلاء من أهل الإيمان والعلم ردًّا عليهم وتكذيباً لهم: لقد مكثتم فيم كتبه الله في سابق علمه إلى يوم البعث الموعود ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه، ولكنكم لم تصدقوا به لتفريطكم في طلب الحق واتباعه، قال تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي ففي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين اعتذارهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يقال لهم: أرْضُوا ربّكم بتوبة أو طاعة، لأنه قد ذهب أوانُ التوبة ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد بيّنّا في هذا القرآن العظيم ما يحتاج الناس إليه من المواعظ والأمثال والأخبار والعبر مما يوضّح الحقَّ ويزيل اللبس ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي ووالله لئن جئتهم يا محمد بما اقترحوا من الآيات كالعصا والناقة واليد ليقولنَّ المشركون من قومك لفرط

(١) (ش): هَرِمَ فلانٌ يهرَم، هَرَمًا، فهو هَرِمٌ: بلَغ منتهى الكِبَر، كبِر وضعُف.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ١٨٠.
(٣) «البيضاوي» ٢/ ١٠٨.

عنادهم: ما أنت وأصحابك إلا قوم مبطلون، تُدجلون علينا وتكذبون ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل ذلك الطبع على قلوب الجهلة المجرمين، يختم الله على قلوب الكفرة الذين لا يعلمون توحيد الله ولا صفاته ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيبهم وأذاهم؛ فإن وعد الله بنصرتك وإظهار دينك حق لا بدَّ من إنجازه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقوله أولئك الضالون الشاكون، ولا تترك الصبر بسبب تكذيبهم وإيذائهم.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿ٱلْبَرِّ.. وَٱلْبَحْرِ﴾.

٢ - المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ شبَّه من قدَّم الأعمال الصالحة بمن يمهد فراشه ويوطئه للنوم عليه لئلا يصيبه في مضجعه ما يؤذيه وينغص عليه مرقده.

٥ - أسلوب الإطناب ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ..﴾ الآية وذلك لتعداد النعم الكثيرة وكان يكفي أن يقول: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ولكنه أسهب تذكيراً للعباد بالنعم.

٦ - جناس الاشتقاق ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾.

٧ - الإيجاز بالحذف ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا﴾ حذف منه «فكذبوهم واستهزءوا بهم».

٨ - الاستعارة التصريحية ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ شبه الكفار بالموتى وبالصم في عدم إحساسهم وسماعهم للمواعظ والبراهين بطريق الاستعارة التصريحية.

٩ - الطباق بين ﴿ضَعْفٍ.. قُوَّةً﴾.

١٠ - صيغة المبالغة ﴿ٱلْعَلِيمُ..ٱلْقَدِيرُ﴾ لأن معناه المبالغ في العلم والقدرة.

١١ - الجناس التام ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ المراد بالساعة أولاً القيامة وبالثانية المدة الزمنية؛ فبينهما جناس كامل، وهذا من المحسنات البديعية.

تنبيه: الصحيح أن الميت يسمع، لقوله ﷺ: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ**»(١) وقوله «وإن

---

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم. قال ﷺ مخاطبًا قتلى المشركين الذين جُعِلُوا فِي بِئْرٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ: «يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ وَيَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقًّا؟». فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لاَ أَرْوَاحَ فِيهَا؟». قَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

الميت **لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**»[١] وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ المراد منه سماع التدَبُّر والاتعاظ، والله أعلم[٢].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم»



(١) (ش): قَالَ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) (ش): اختلف العلماء في مسألة سماع الأموات كلام الأحياء، فمنهم من قال بأنهم يسمعون كلام الأحياء، ومنهم من نَفَى ذلك. وجاء في «فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء(١/ ١٥١-١٥٢)، (٩/ ٨٢)»: «الأصلُ عدم سماع الأموات كلام الأحياء، إلا ما ورد فيه النَّصُّ؛ لقول الله سبحانه يخاطب نبيَّه ﷺ: فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى الآية، وقوله سبحانه: وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ. فالأصل أن الأموات صالحين كانوا أو غير صالحين لا يسمعون كلام البشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ سورة فاطر الآية ١٤ ولكن قد يُسمِع الله الموتى صوتَ رسول من رسله لحكمة من الحكم، كما أسمع سبحانه قتلى بدر من الكفار صوت رسوله ﷺ؛ إهانةً وتبكيتًا لهم، وتكريمًا لرسوله ﷺ؛ وأما سماع الميت حيث يوضع في قبره قرع نعال المشيعين فهو إسماع خاص ثبت في النص فلا يُزاد عليه لاستثنائه من الأدلة العامة الدالة على عدم سماع الموتى. (وراجع كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات» للألوسي، بتحقيق الألباني.



مكية وآياتها أربع وثلاثون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة «سورة لقمان» من السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة، وتُعنَى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان، وهي: «الوحدانية، والنبوة، والبعث والنشور» كما هو الحال في السور المكية.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم، معجزة محمد الخالدة، الباقية الدائمة على مدى الزمان، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية رب العالمين، وذكرت دلائل القدرة الباهرة، والإبداع العجيب في هذا الكون الفسيح، المحكم النظام المتناسق في التكوين، في سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، ونهاره وليله، وفي جباله وبحاره، وأمواجه وأمطاره، ونباته وأشجاره، وفي سائر ما يشاهده المرء من دلائل القدرة والوحدانية، مما يأخذ بالقلب ويبهر العقل، ويواجه الإنسان مواجهة جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم.

* كما لفتت أنظار المشركين إلى دلائل القدرة والوحدانية منبثة في هذا الكون البديع، وهزت كيانهم هزًّا ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

* وخُتِمَت السورة الكريمة بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ... ﴾ الآية.

التسمية: سميت سورة لقمان لاشتمالها على قصة «لقمان الحكيم» التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته، وذم الشرك، والأمر بمكارم الأخلاق، والنهي عن القبائح، والمنكرات وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان!!.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ
وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ
فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

اللغَة: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ المحكم الذي لا خلل فيه ولا تناقض ﴿يُوقِنُونَ﴾ اليقين: التصديق الجازم ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الباطل الملهي عن الخير والعبادة ﴿وَقْرًا﴾ ثِقلاً وصمماً يمنع من السماع ﴿عَمَدٍ﴾ جمع عِماد وهو الدعامة التي يرتكز عليها الشيء ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً وثوابت، ورست السفينة: إذا ثبتت واستقرت ﴿تَمِيدَ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿وَبَثَّ﴾ نشر وفرّق.

سَبَبُ النّزول: روي أن «النضر بن الحارث» كان يشتري المغنّيات، فلا يظفر بأحدٍ يريد الإِسلام إِلا انطلق به إِلى قينته «المغنية» فيقول لها: أطعميه، واسقيه الخمر، وغنّيه، ويقول: هذا خيرٌ مما يدعوك إِليه محمد، من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه فأنزل الله ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ..﴾ [1] الآية.

التفسِير: ﴿الٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إِعجاز القرآن، وللإِشارة إِلى أن هذا الكتاب المعجز الذي أفحم العلماء والأدباء والفصحاء والبلغاء منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية «ألف، لام، ميم» وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية، وهم عاجزون ان يؤلفوا منها كتاباً مثل هذا الكتاب بعد التحدي والإِفحام، وهذا من أظهر الدلائل وأوضح البراهين على أنه تنزيل الحكيم العليم ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات الكتاب البديع، الذي فاق كل كتاب في بيانه، وتشريعه، وأحكامه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي ذي الحكمة الفائقة، والعجائب الرائقة، الناطق بالحكمة والبيان، والإِشارة بالبعيد عن القريب «تلك» للإِيذان ببُعْد منزلته في الفضل والشرف ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي هداية ورحمة للمحسنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا، وإِنما خُصوا بالذكر لأنهم هم المنتفعون بما فيه، ثم وضح تعالى صفاتهم فقال ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بأركانها وخشوعها وآدابها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي يدفعونها إِلى مستحقيها

---

(١) انظر «أسباب النزول للواحدي»، و«تفسير القرطبي» و«البحر المحيط». (ش): ضعيف جدًّا. رواه الواحدي في «أسباب النزول».

طيبةً بها نفوسهم ابتغاءَ مرضاة الله ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ أي يصدّقون بالدار الآخرة ويعتقدون بها اعتقاداً جازماً لا يخالطه شك ولا ارتياب، وكرَّر الضمير «هم» للتأكيد وإفادة الحصر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة على نور وبصيرة ومنهج واضح سديد، من الله العزيز الحميد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون السعداء في الدنيا والآخرة قال أبو حيان: وكرر الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنبيهاً على عِظَم قدرهم وفضلهم[1]، ولما ذكر تعالى حال السعداء، الذين اهتدوا بكتاب الله وانتفعوا بسماعه، عطف عليهم بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع الغناء والمزامير فقال ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي ومن الناس من يشتري ما يُلهي عن طاعة الله، ويَصُد عن سبيله، مما لا خير ولا فائدة فيه قال الزمخشري: واللهو كل باطل ألهى عن الخير، نحو السمر بالأساطير، والتحدث بالخرافات المضحكة، وفضول الكلام وما لا ينبغي[2]، وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْه أنه سئل عن الآية فقال: والله الذي لا إله إلا هو - يكررها ثلاثاً - إنما هو الغناء[3]، وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير[4] ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي ليُضل الناس عن طريق الهدى، ويُبعدهم عن دينه القويم، بغير حجة ولا برهان ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي ويتخذ آيات الكتاب المجيد سخرية واستهزاءً، وهذا أدخل في القبح، وأعرقُ في الضلال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي وإذا قرئت عليه آيات القرآن ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ أي أعرض وأدبر متكبراً عنها كأنه لم يسمعها، شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام، ويجعل نفسه كأنها غافلة ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ أي كأن في أذنيه ثقلاً وصمماً يمنعانه عن استماع آيات الله ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أنذره يا محمد بعذاب مؤلم، مُفْرِطٍ في الشدة والإيلام، ووَضْعُ البشارة مكان الإنذار تهكم وسخرية، قال في البحر: تضمنت هذه الآية ذم المشترى من وجوه: التولية عن الحكمة، ثم الاستكبار عن الحق، ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات، ثم الإيغال في الإعراض مشبهًا حال من لم يسمعها، لكونه لا يلقي لها بالًا ولا يلتفت إليها، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب[5].

---

(١) «البحر المحيط» ٧/ ١٨٣.

(٢) «الكشاف».

(٣) «تفسير الطبري» ٢١/ ٣٩.

(٤) ابن كثير ٣/ ١٦٣، «المختصر» وانظر أسباب النزول في بدء السورة الكريمة.

(٥) «البحر المحيط» ٧/ ١٨٤.

ولما ذكر ما وعد به الكفار من العذاب الأليم، ذكر ما وعد به المؤمنين من جنات النعيم فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وبين حسن النيّة وإخلاص العمل ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي لهم على إيمانهم واستقامتهم على شريعة الله جناتُ الخلد يتنعمون فيها بأنواع الملاذّ، من المآكل والمشارب والملابس، والنساء والحور العين، وسائر ما أكرمهم الله به من الفضل والإنعام، مما لا عينٌ رأتْ ولا أذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين في تلك الجنات، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعداً من الله قاطعاً، كائناً لا محالة، لا خُلْفَ فيه[1] لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي هو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء ليمنعه عن إنجاز وعده، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.. ثم نبّه تعالى إلى دلائل قدرته، وآثار عظمته وجلاله لإقامة البراهين على وحدانيته فقال ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي خلق السماوات في سعتها وعظمتها وإحكامها بدون دعائم ترتكز عليها، حال كونكم تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن تستند على شيء، ولا تمسكها إلا قدرة الله العليّ الكبير ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي جعل فيها جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب بكم فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها، أو تهدم بيوتكم بتزلزلها قال الإمام الفخر: واعلم أن الأرض ثباتُها بسبب ثقلها، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح، ولو خلقها تعالى مثل الرمل لما كانت تثبتُ للزراعة، كما نرى الأراضي الرملية ينتقل الرمل الذي فيها من موضع إلى موضع، فهذه هي حكمة إرسائها بالجبال[2]، فسبحان الكبير المتعال ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي ونشر وفرّق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب من مأكول ومركوب، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي وأنزلنا لحفظكم وحفظ دوابكم المطر من السحاب ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي فأنبتنا في الأرض من كل نوع من النبات، ومن كل صنفٍ من الأغذية والأدوية ﴿كَرِيمٍ﴾ أي كثير المنافع، بديع الخلق والتكوين ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الذي تشاهدونه وتعاينونه أيها المشركون هو من مخلوقات الله، فانظروا في السماوات والأض، والإنسان، والنبات، والحيوان، وسائر ما خلق الله ثم تفكروا في آثار قدرته، وبديع صنعته ﴿فَأَرُونِى﴾ ثم أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي أيَّ شيءٍ خلقَتْه آلهتكم التي

(١) (ش): خُلْف الوعد: عدم إنجازه.
(٢) «التفسير الكبير» للفخر الرازي ٢٥/ ١٤٣.

عبدتموها من دون الله من الأوثان والأصنام؟ وهو سؤال على جهة التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المزعومة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الواضح فقال ﴿بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي بل المشركون في خسران ظاهر، وضلالٍ واضح ما بعده ضلال، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، فهم أضل من الحيوان الأعجم، لأن من عبد صنماً جامداً، وترك خالقاً عظيماً مدبراً، يكون أحطَّ شأناً من الحيوان.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - وضع المصدر للمبالغة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢ - الإشارة بالبعيد ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ﴾ عن القريب ﴿هَـٰذِهِۦ﴾لبيان علو الرتبة ورفعة القدر والشأن.

٣ - الإطناب بتكرار الضمير واسم الإشارة ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ﴾ لزيادة الثناء عليهم والتكريم لهم، كما أن الجملة تفيد الحصر أي: هم المفلحون لا غيرهم.

٤ - الاستعارة التصريحية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾شبّه حالهم بحال من يشتري سلعة وهو خاسر فيها، واستعار لفظ يشتري لمعنى يستبدل بطريق الاستعارة التصريحية.

٥ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف الشبه فهو تشبيه «مرسل مجمل».

٦ - أسلوب التهكم ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن البشارة إنما تكون في الخير، واستعمالها في الشر سخرية وتهكم.

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعد قوله ﴿خَلَقَ، وَأَلْقَىٰ، وَبَثَّ﴾ وكلها بضمير الغائب، ثم التفت فقال ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ لشأن الرحمن، وتوفيةً لمقام الامتنان، وهذا من المحسنات البديعية[1].

٨ - إطلاق المصدر على اسم المفعول مبالغةً ﴿هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي مخلوقه.

---

(١) قال «الفخر الرازي»: وفي هذا الالتفات فصاحة وحكمة، أما الفصاحة فهي أن السامع إذا سمع كلامًا طويلاً من نمطٍ واحد، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه، ألا ترى أنك إذا قلت: قال زيد كذا، وقال خالد كذا، وقال عمرو كذا، ثم إن بكرًا قال قولًا حسنًا.. يستطاب لما قد تكرر القول مرارًا، وأما الحكمة فهو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ومكان، فأسند الإنزال إلى نفسه صريحًا ليتنبه الإنسان لشكر النعمة، فيزيد له في الرحمة، «التفسير الكبير» ٢٥/ ١٤٤.

٩ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ ؟

١٠ - وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التوبيخ، وللتسجيل عليهم بغاية الظلم والجهل ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وكان الأصل أن يقال: بل هم في ضلالٍ مبين.

١١ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ويسمى هذا النوع في علم البديع «سجعاً» وأفضله ما تساوت فقره، وكان سليماً من التكلف، خالياً من التكرار، وهو كثير في القرآن الكريم في نهاية الآيات الكريمة.

فَائِـدَة: وصفُ الكتاب بالحكمة في هذه السورة ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مناسبٌ لجو السورة الكريمة لأن موضوع الحكمة قد تكرر فيها ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب المجيد، على طريقة القرآن في التنسيق بين الألفاظ والمواضيع.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾
وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ
إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا
فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾
يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا
ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ
أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ
مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ

المنَاسَبَة: لمّا بيّن تعالى فساد اعتقاد المشركين، بسبب عنادهم وإشراكهم من لا يخلق شيئًا بمن هو خالق كل شيء، ذكر هنا وصايا «لقمان» الحكيم، وهي وصايا ثمينة في غاية الحكمة والدعوة إلى طريق الرشاد، وقد جاءت هذه الوصايا مبدوءةً بالتحذير من الشرك الذي هو أقبح الذنوب، وأعظم الجرائم عند الله.

اللغَـة: ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ الإصابة في القول والعمل، وأصلها وضع الشيء في موضعه قال في اللسان: أحكم الأمر أتقنه ويُقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمته التجارب، والحكيم: المتقن للأمور[1] ﴿يَعِظُهُۥ﴾ ينصحه ويذكِّره، والعظةُ والموعظة: النصح والإرشاد

(١) «لسان العرب» مادة حكم.

﴿وَهْنًا﴾ الوهن: الضعف ومنه ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم: ٤] أي ضعُفَ ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ الفصال: الفطام وهو لفظ يستعمل في الرضاع خاصة، وأما الفصل فهو أعم، وفصلت المرأة ولدها، أي: فطمته وتركت إرضاعه ﴿أَنَابَ﴾ رجع، والمنيب الراجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار ﴿تُصَعِّرْ﴾ الصَّعَر: بفتحتين في الأصل داءٌ يصيب البعير فيلوي منه عنقه ثم استعمل في ميل العنق كبراً وافتخاراً قال عمرو التغلبي:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ … أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا[1]

﴿مَرَحًا﴾ فرحاً وبطراً وخيلاء ﴿مُخْتَالٍ﴾ متبختر في مشيته ﴿وَٱقْصِدْ﴾ توسَّط، والقصد: التوسط بين الإسراع والبطء ﴿وَٱغْضُضْ﴾ عضَّ الصوت خفضه قال جرير:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ … فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابًا

التفسِير: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي والله لقد أعطينا لقمان الحكمة وهي الإصابة في القول، والسَّداد في الرأي، والنطق بما يوافق الحق، قال مجاهد: الحكمة: الفقه والعقل، والإصابة في القول، ولم يكن نبيًّا إنما كان حكيماً[2] ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي وقلنا له: اشكر الله على إنعامه وإفضاله عليك حيث خصَّك بالحكمة وجعلها على لسانك قال القرطبي: والصحيح الذي عليه الجمهور أن «لقمان» كان حكيماً ولم يكن نبياً وفي الحديث «لم يكن لقمان نبيًا، ولكن كان عبداً كثير التفكر، حسن اليقين، أحبَّ الله تعالى فأحبَّه، فمَنَّ عليه بالحكمة»[3] ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي ومن يشكر ربه فثواب شكره راجع لنفسه، وفائدته إنما تعود عليه، لأن الله تعالى لا ينفعه شُكْرُ مَن شَكَرَ، ولا يضره كُفْرُ مَن كَفَر ولهذا قال بعده ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي ومن جحد نعمة الله فإنما أساء إلى نفسه، لأن الله مستغنٍ عن العباد، محمودٌ على كل حال، مستحق للحمد لذاته وصفاته قال الرازي: المعنى أن الله غير محتاج إلى شُكْر حتى يتضرَّر بكُفْر الكافر، فهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أم لم يشكروه[4]، ثم ذكر تعالى بعض نصائح لقمان لابنه وبدأ بالتحذير له من الشرك، الذي هو نهاية القبح والشناعة فقال ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي واذكر لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده، حين قال له واعظًا ناصحًا مرشداً: يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحداً، بشراً أو صنماً أو ولداً

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٦٩. (ش): أي إذا أَمال متكبِّرٌ خدَّه أَذْلَلْناهُ حَتَّى يتقوَّم مَيْلُه.
(٢) «تفسير الطبري» ٢١/ ٤٣.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٥٩. (ش): رواه ابن عساكر، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، وضعَّفه الحافظ ابن كثير، وذكره ابن عراق الكناني في «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة» (١/ ٢٤٤).
(٤) «التفسير الكبير» ٢٥/ ١٤٥.

﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ أي إن الشرك قبيح، وظلم صارخ لأنه وَضْعٌ للشيء في غير موضعه، فمن سوَّى بين الخالق والمخلوق، وبين الإله والصنم[1] فهو - بلا شك - أحمقُ الناس، وأبعدُهم عن منطق العقل والحكمة، وحَرِيٌّ به أن يُوصف بالظلم ويُجعَل في عداد البهائم[2] ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما لا سيما الوالدة ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ أي حملته جنيناً في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، من حين الحمل إلى حين الولادة، لأن الحمل كلما ازداد وعظم، إزدادت به ثقلاً وضعفاً ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ أي وفطامه في تمام عامين ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ أي وقلنا له: اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان، واشكر والديك على نعمة التربية ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي إليَّ المرجع والمآب فأُجازِي المُحسِن على إحسانه، والمسيءَ على إساءَتِه قال ابن جزي: وقوله ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ﴾ تفسيرٌ للوصية، واعترض بينها وبين تفسيرها بقوله ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ ليبيّن ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب[3] ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ أي وإن بذلا جهدهما، وأقصى ما في وسعهما، ليحملاك على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف والإحسان إليهما - ولو كانا مشركين - لأن كفرهما بالله لا يستدعي ضياع المتاعب التي تحمَّلاها في تربية الولد، ولا التنكر بالجميل ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي واسلك طريق من رجع إلى الله بالتوحيد والطاعة والعمل الصالح ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي مرجع الخلق إلى الله فيجازيهم على أعمالهم، والحكمةُ من ذكر الوصية بالوالدين - ضمن وصايا لقمان - تأكيد ما أفادته الآية الأولى من تقبيح أمر الشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ فكأنه تعالى يقول: مع أننا وصينا الإنسان بوالديه، وأمرناه بالإحسان إليهما والعطف عليهما، وألزمناه طاعتهما بسبب حقهما العظيم عليه، مع كل هذا فقد نهيناه عن طاعتهما في حالة الشرك والعصيان، لأن الإشراك بالله من أعظم الذنوب، وهو في نهاية القبح والشناعة. ثم رجع الكلام إلى وصايا لقمان فقال تعالى ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ أي يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة

(١) (ش): الصواب أن يقال: وبين الإله الحق والصنم، فهناك آلهةٌ كثيرة تُعْبَدُ بالباطل.
(٢) (ش): حَرِيٌّ: جديرٌ.
(٣) «التسهيل» ٣/ ١٢٦.

الخَـرْدَل في الصِغـر[١] ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي فتكـن تلك السيئة - مع كونها في أقصى غايات الصغر - في أخفى مكان أحرزه، كجوف الصخرة الصماء، أو في أعلى مكان في السـماء أو في الأرض يحضرها الله سـبحانه ويحاسب عليه، والغـرض التمثيـلُ بـأن الله لا تخفى عليه خافيـة من أعمال العبـاد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي هو سـبحانه لطيـف بالعباد خبير، أي: عالم ببواطـن الأمور ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي حافـظ على الصـلاة في أوقاتها وبخشـوعها وآدابهـا ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي وأمـر الناس بكل وفضيلة، وأنههم عن كل شـر ورذيلـة ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ أي اصبر علـى المحن والبلايـا، لأنَّ الداعي إلى الحـق معرَّض لإيصال الأذى إليـه قال أبو حيان: لما نهاه أولاً عن الشـرك، وأخبره ثانيـاً بعلمه تعالى وباهر قدرته، أمره با يتوسـل به إلى الله مـن الطاعات، فبدأ بأشـرفها وهي الصلاة، ثـم بالأمر بالمعروف والنهي عـن المنكر، ثم بالصـبر على ما يصيبه من المحن بسـبب الأمر بالمعروف، فكثيراً مـا يُؤذَى فاعلُ ذلك[٢] ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي إن ذلك المذكور مما عزمه الله وأمر به قال ابن عباس: من حقيقة الإيمـان الصـبر على المكاره وقال الـرازي: معناه إن ذلك من الأمـور الواجبة المعزومة، أي: المقطوعـة، فالمصدر بمعنـى المفعول[٣] ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لاَ تُمِلْ وجهك عنهـم تكـبراً عليهم قال القرطبي: أي لَا تُمِلْ خَدَّكَ لِلنَّـاسِ كِبْرًا عليهم وإعجابـاً، وتحقيراً لهـم، وهو قول ابن عبـاس[٤] ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي لا تمش متبختراً متكبراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تعليـلٌ للنهي أي لأن الله يكره المتكبر الذي يرى العظمة لنفسـه، ويتكبر على عباد الله، المتبختر في مشـيته، والفخور الذي يفتخر على غيره، ثم لما نهاه عن الخُلُق الذميم، أمره بالخُلُق الكريم فقال ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي توسَّط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي اخفض من صوتك فلا ترفعه عاليـاً فإنه قبيح لا يجمـل بالعاقل ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي إن أوحش الأصوات صوتُ الحمير فمن رفع صوته كان مماثلاً لهم، وأتى بالمنكر القبيح قال الحسن: كان المشركون يتفاخـرون برفع الأصوات فـرَدَّ عليهم بأنه لو كان خيراً لَفَضَّلَتْهم بـه الحمير، وقال قتادة:

(١) (ش): خَرْدَل، جمع خَرْدلة: نبات عشبيّ ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق، بذوره لاذعة تُستعمل في الطبِّ، ويُتَبَّل بها الطعام، وبِحَبِّه يُضرب المثل في الصِّغَر.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ١٨٨.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٥/ ١٤٩.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٧٠.

أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿شَكَرَ.. وَكَفَرَ﴾.

٢ - صيغة المبالغة ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وكذلك ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ و ﴿فَخُورٍ﴾ لأن فعيل وفعول من صيغ المبالغة ومعناه كثير الحمد وكثير الفخر.

٣ - ذكر الخاص بعد العام ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ وذلك لزيادة العناية والاهتمام بالخاص.

٤ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر مثل ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي لا إلى غيري.

٥ - التمثيل ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ ...﴾ مَثَّل ذلك لِسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة.

٦ - التتميم ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ تَمَّمَ خفاءَها في نفسها بخفاء مكانها، وهذا من البديع.

٧ - المقابلة ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ثم قال ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فقابل بين اللفظين.

٨ - الاستعارة التمثيلية ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ شبَّه الرافعين أصواتهم بالحمير، وأصواتهم بالنهيق، ولم يذكر أداة التشبيه بل أخرجه مخرج الاستعارة للمبالغة في الذم، والتنفير عن رفع الصوت.

تنبيه: حين أمر تعالى بشكر الوالدين قدَّم شكره تعالى على شكرهما فقال ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ ثم أردفه بقوله ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ وذلك لإشعارنا بأن حق الله أعظم من حق الوالدين، لأنه سبحانه هو السبب الحقيقي في خلق الإنسان، والوالدان سبب في الصورة والظاهر، ولهذا حرَّم تعالى طاعتهما على الإنسان إذا أرادا إجباره على الكفر.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن
يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن
كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ
قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ

قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ
﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى
ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ
يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا
فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ

المناسَبَة: لما حذَّر تعالى من الشرك، وأكده بوصايا لقمان الحكيم في الإيمان ومكارم الأخلاق، ذكر هنا الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة على وحدانيته تعالى، ونبّه بالصنعة على الصانع، وما له من نعمٍ لا تُحصى من تسخير السماوات بما فيها من الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، وتسخير الأرض وما فيها من الحيوان، والنبات، والمعادن، والبحار، وغير ذلك من الأدلة الشاهدة بوحدانيته، وختم السورة الكريمة ببيان «المغيبات الخمس».

اللغَة: ﴿وَأَسۡبَغَ﴾ أتم وأكمل يقال: سبغت النعمة سبوغاً إذا تمت ﴿ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ تمسك وتعلق واعتصم ﴿نَفِدَتۡ﴾ فنيت وفرغت ﴿يُولِجُ﴾ يُدْخِل والإيلاج: الإدخال ومنه ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفن ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ الظلل: جمع ظلَّة وهي كل ما أظلَّك من جبل أو سحاب ﴿خَتَّارٖ﴾ الختَّار: الغدار، والختر: أسوأ الغدر قال الشاعر:

وَإِنَّــكَ لَــوْ رَأَيْــتَ أَبَــا عُمَيْــرٍ مَــلَأْتَ يَدَيْكَ مِـنْ غَـدْرٍ وَخَتْـرِ (١)

﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ ما يَغُرُّ ويَخدع من شيطان وغيره، وغرَّه الأملُ: خدعه.

التفسِير: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ألم تعلموا أيها الناس أن الله العظيم الجليل سخر لكم ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بها، وسخَّر لكم ما في الأرض من جبالٍ وأشجار وثمارٍ وأنهار وغير ذلك مما لا يحصى ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ أي وأتمَّ عليكم أيها الناس نعمه العديدة، الظاهرة

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٨٠.

المرئية كنعمة السمع والبصر والصحة والإسلام، والباطنة الخفية كالقلب والعقل والفهم والمعرفة وما أشبه ذلك قال «البيضاوي»: أي أسبغ عليكم نعمه المحسوسة والمعقولة، ما تعرفونه وما لا تعرفونه[١] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي ومن الناس فريق جاحدون يخاصمون ويجادلون في توحيد الله وصفاته بغير علم ولا فهم، ولا حجة ولا برهان، ولا كتاب منزل من عند الله قال القرطبي: نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال يا محمد: أخبرني عن ربك من أيّ شيء هو؟ فجاءت صاعقةٌ فأخذته[٢]، والمنيرُ: الواضح البيّن المنقذ من ظلمة الجهل والضلال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل: اتَّبعوا ما أنزل الله على رسوله، وصَدِّقوا به فإنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي قالوا: نسير على طريقة آبائنا ونقتدي بهم في عبادة الأوثان والأصنام ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أيتبعونهم ولو كانوا ضالين، حتى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار المُسْتَعِرَة[٣] ذات العذاب الشديد؟ ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ومَن يُقبل على طاعة الله ويَنقاد لأوامره، ويخلص قصده وعبادته لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مؤمن موحد قال القرطبي: لِأَنَّ الْعِبَادَةَ مِنْ غَيْرِ إِحْسَانٍ وَلَا مَعْرِفَةِ الْقَلْبِ لَا تَنْفَعُ[٤]، ونظير الآية ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢]

(١) «البيضاوي» ٢/ ١٠٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٧٤، وقيل: نزلت في «النضر بن الحارث» و «أبي بن خلف» وأشباههما الذين كانوا يجادلون النبي ﷺ في وحدانيته تعالى وصفاته، من غير علم عقلي ولا دليل شرعي. (ش): عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: «جَاءَ يَهُودِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ رَبِّكَ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ، مِنْ لُؤْلُؤٍ أَوْ مِنْ يَاقُوتٍ؟ فَجَاءَتْ صَاعِقَةٌ فَأَخَذَتْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣] [ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره»]. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - بَعَثَ رَجُلًا مَرَّةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ فَرَاعِنَةِ الْعَرَبِ، فَقَالَ: «اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي»، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَدْعُوكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: وَمَا اللهُ أَمِنْ ذَهَبٍ هُوَ أَوْ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ مِنْ نُحَاسٍ؟ قَالَ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ - ﷺ - فَأَخْبَرَهُ، وَقَالَ: قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ فَادْعُهُ»، فرجع إليه، فعاد عَلَيْهِ مِثْلَ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ»، فَرَجَعَ الثَّالِثَةَ فَأَعَادَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْكَلَامَ، فَبَيْنَا هُوَ يُكَلِّمُنِي إِذْ بُعِثَتْ إِلَيْهِ سَحَابَةٌ حِيَالَ رَأْسِهِ فَرَعَدَتْ فَوَقَعَتْ مِنْهَا صَاعِقَةٌ فَذَهَبَتْ بِقِحْفِ رَأْسِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [صحيح، رواه النسائي والبزار وأبو يعلى].

(٣) (ش): استعرتِ النَّارُ: التهبتْ، اشتعلَتْ وتوقّدَتْ.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٧٤.

فلا بدَّ من الإيمان والإحسان ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي تَمَسَّك بحبلٍ لا انقطاعَ له، وتعَلَّقَ بأوثق ما يُتَعَلَّقُ به من الأسباب. قال صاحب «الكشاف»: هذا من بابِ التمثيل، مُثِّلَتْ حال المتوكل بحال من تَدَلَّى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثقِ عُروةٍ، من حبلٍ متينٍ مأمونٍ انقطاعُه[1] وقال الرازي: أوثق العُرَى جانِبُ الله، لأن كل ما عداه هالك منقطع، وهو باقٍ لا انقطاع له[2] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي إلى الله وحده - لا إلى أحد سواه - مرجع ومصير الأمور كلها فيجازي العامل عليها أحسن الجزاء ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ أي لا يهمَّنَّك يا محمد كُفْرُ مَن كَفَر، ولا ضلالُ مَن ضَلَّ، ولا تذهب نفسُك عليهم حسرات، فإنا سننتقم منهم إنْ عاجلاً أو آجلاً ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ أي إلينا رجوعهم، فنخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عليم بما في قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليها ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ أي نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ أي ثم نلجئهم في الآخرة إلى عذاب شديد هو عذاب النار، الفظيع الشاق على النفس، ثم لما بَيَّنَ تعالى استحقاقهم للعذاب، بَيَّن تناقضَهم في الدنيا وهو اعترافهم بأن الله خالق السماوات والأرض، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها ملْكٌ له وأنها مخلوقاته فقال ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من كفار مكة من خلق السماوات والأرض؟ ليقولن - لغاية وضوح الأمر - الله خلقهن فقد اضطُرُّوا إلى الاعتراف به ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ أي قل لهم: الحمد لله على ظهور الحُجَّة عليكم، وعلى أن دلائل الإيمان ظاهرة للعيَان ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يفكّرون ولا يتدبرون فلذلك لا يعلمون، ثم قال تعالى ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي له جلَّ وعلا ما في الكائنات ملكاً وخلقاً وتدبيراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي المستغني عن خلقه وعن عبادتهم، المحمود في صنعه وآلائه ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ أي ولو أنَّ جميع أشجار الأرض جُعِلَتْ أقلاماً ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ أي وجعل البحر بسعته حبراً ومداداً وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ أي لَانتهت وفَنِيَتْ تلك الأقلامُ والبحارُ وما انتهَتْ كلماتُ الله، لأن الأشجار والبحار متناهية، وكلمات الله غير متناهية[3] قال القرطبي: لما ذكر تعالى

(١) «الكشاف» ٣/ ٣٩٥.

(٢) «التفسير الكبير» للفخر الرازي ٢٥/ ١٥٤.

(٣) (ش): أي لا يمكن أن تكونَ لها نهاية.

أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأنه أسبغ النعم، نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار لو كانت مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله، الدالّة على قدرته ووحدانيته لم تنفَدْ تلك العجائب[١] وقال «ابن الجوزي»: وفي الكلام محذوف تقديره: فكتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله، لتكسرت الأقلام ونفدت البحور ولم تنفد كلمات الله أي لم تنقطع[٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب لا يعجزه شيء، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمْرٌ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي ما خَلْقُكم أيها الناس ابتداءً، ولا بعثكم بعد الموت انتهاءً إلا كخلق نفس واحدة وبعْثِها، لأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، قال الصاوي: المعنى أن الله لا يصعب عليه شيء، بل خلق العلم وبعثه برُمته كخلق نفسٍ واحدةٍ وبعثها[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد، بصير بأعمالهم، ثم أشار تعالى إلى دلائل قدرته في الآفاق فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ٢٨ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطَب علماً قويـاً جارياً مجرى الرؤية، أن الله العظيم الجليل يُدخِل ظلمة الليل على ضوء النهار، ويُدخِل ضوء النهار على ظلمة الليل، ويزيد في هذا ويُنقص من هذا حسب الحكمة الأزلية ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذلّلهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال، وإتماماً للمنافع، كلٌّ منهما يسير في فلكه إلى غاية محدودة هي يوم القيامة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي وأنه تعالى عالم بأحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه خافية، فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق، والتدبير الفائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه جل وعلا محيطاً بكل أعماله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلك الذي شاهدتموه من عجائب الصنع وباهر القدرة، لتتأكدوا أن الله هو الإله الحق الذي يجب أن يُعبَد وحده ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي وأن كل ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام باطل لا حقيقة له كما قال لَبيدٌ «**أَلاَ كُلُّ شَىْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلٌ**»[٤] فالجميع خلْقُه وعبيدُه، ولا يملك أحدٌ منهم تحريك ذرةٍ إلا بإذنه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي وأنه تعالى هو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ تذكيرٌ بنعمة أُخرى أي ألم تر أيها

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٧٦. (ش): تفسير كلمات الله بعجائب صنع الله، تفسيرٌ باطل، لأن كلمات الله المراد بها كلامه الذي به يأمر وينهى ويشرع، وهو صفة من صفاته العلية التي لا تتناهى كسائر صفاته سبحانه.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٣٢٦.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٥٩.

(٤) (ش): قَالَ قَالَ النَّبِىُّ ﷺ «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَىْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

العاقل أن السفن العظيمة تسير في البحر بقدرة الله، وبتسخيره ولطفه بالناس وإِحسانه إِليهم، لتهيئة أسباب الحياة قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه هو الذي سخَّر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره، فإِنه لولا ما جعل في الماء من قوةٍ يحمل بها السفن ما جرت[١]، ولهذا قال بعده ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ أي ليريكم عجائب صنعه، ودلائل قدرته ووحدانيته ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إِن في تسخير هذه السفن وما تحمله من الطعام والأرزاق والتجارات، لآياتٍ باهرة، وعبراً جليلة لكل عبد منيب، صبَّار في الضراء، شكور في الرخاء. ولفظة «صبَّار» و «شكور» مبالغة في الصبر والشكر ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي وإِذا علا المشركين وغطّاهم وهم في البحر موج كثيف كالجبال ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي أخلصوا دعاءهم لله حين علموا أنه لا منجي لهم غيره فلا يدعون لخلاصهم سواه ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾أي فلما أنقذهم من شدائد البحر، وأخرجهم إِلى شاطئ النجاة في البر ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ في الآية حذف تقديره فمنهم مقتصد، ومنهم جاحد، ودلَّ عليه قوله ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ والمقتصد: المتوسط في العمل قال ابن كثير: وهذا من باب الإِنكار على من شاهد تلك الأهوال، والأمور العظام، ورأى الآيات الباهرة في البحر، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والمبادرة إِلى الخيرات، والدُّءوب في العبادات[٢]، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصْراً[٣] ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي وما يكذب بآياتنا إلا كل غدَّار، مبالغ في كفران نعم الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي اتقوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي وخافوا يوماً رهيباً عصيباً لا ينفع والدٌ فيه ولَدَه، ولا يدفع عنه مضرةً، أو يقضي عنه شيئًا مما تحمَّله ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي ولا وَلدٌ يُغْنِي أو يدفع عن والده شيئًا، أو يقضي عنه شيئًا من جنايته ومظالمه قال الطبري: المعنى لا يُغْنِي ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل، إلا وسليمة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا[٤] ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعده بالثواب والعقاب، والبعث والجزاء حق لا يتخلف ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تخدعكم الحياة الدنيا بمفاتنها ولذاتها فتركنوا إِليها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي ولا يخدعنكم الشيطان الماكر الذي يَغُرّ الخلْق

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٩.
(٢) (ش): دأَبَ فلانٌ الشَّيءَ/ دأَبَ فلانٌ على الشَّيءِ دَأْبًا ودَأَبًا ودُءوبًا، فهو دائِبٌ ودَئِبٌ ودَءوبٌ: لازَمه واعتاده دون فتور، استمرّ وواظب عليه.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٧٠.
(٤) «تفسير الطبري» ٢١/ ٥٥.

ويُمَنِّيهم بأباطيله ويُلْهيهم عن الآخرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ هذه هي مفاتح الغيب التي اختص الله بعلمها وهي خمس كما جاء في الحديث الصحيح «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللهُ»، وتلا الآية[1] أي عنده تعالى معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي وعنده معرفة وقت نزول المطر ومحل نزوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي من ذكرٍ أو أنثى، شقي أو سعيد[2] ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي

(١) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): كيف نوفِّق بين الآية، وبين ما نراه من علم الأطباء بذكورة الجنين من أنوثته؟ لا يمكن أن يتعارض صريح القرآن الكريم مع الواقع أبداً، وإذا ظهر في الواقع ما ظاهرُه المعارضة فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لا حقيقةَ له، وإما أن يكون القرآن الكريم غير صريح في معارضته؛ لأن صريح القرآن الكريم، وحقيقة الواقع كلاهما قطعي، ولا يمكن تعارض القطعيين أبداً. وقد صرح بذلك كثير من الكتاب الغربيين المنصفين، ومنهم الكاتب الفرنسي(موريس بوكاي) كما في كتابه (التوراة والإنجيل والقرآنُ والعلم)؛ حيث بَيَّن في هذا الكتاب أن التوراة المحرفة، والإنجيل المحرَّف الموجودَيْن اليوم يتعارضان مع الحقائق العلمية، في الوقت الذي سجل فيه هذا الكاتب شهادات تَفَوُّق للقرآن الكريم سبق بها القرآنُ العلمَ الحديث. وأثبت من خلال ذلك أن القرآن لا يتعارض أبداً مع الحقائق العلمية، بل إنه يتفق معها تمام الاتفاق. أما اختصاص علم الله تعالى بما في الأرحام فإنه لا يقتصر على علمه بما فيها من ذكر أو أنثى فحسب، بل هو أعم من ذلك؛ فيشمل ما في الرحم من ذكر أو أنثى منذ اللحظة الأولى قبل التخليق، ويشمل ماذا في الرحم في كل لحظة وفي كل طور، ويشمل العلم بملامح الجنين، وخواصه، واستعداداته. ويشمل أيضـًا العلم برزقه هل هو قليل أو كثير؟ وصفة ذلك الرزق هل هو حرام أو حلال؟ ويشمل العلم بأجله أقصير هو أم طويل؟ ويشمل العلم بعمله هل هو صحيح أو فاسد؟ ويشمل العلم بشقاوته من سعادته. فهذا من علم ما في الأرحام، وهو مما اختص الله تبارك وتعالى بعلمه، فلا يُظْهِر عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول أو ملَك أو غيرهما. وليس في الآية تصريح بذِكْر العلم بالذكورة والأنوثة، وكذلك لم تأتِ السنة بذلك. ومعرفة ما في الرحم هل هو ذكر أو أنثى لا يُعلم إلا بعد تخليق الجنين. أما المدة التي لم يُخَلَّق فيها الجنين فلا يعلم أحد فيها ذكورة الجنين من أنوثته؛ لأن ذلك من علم الغيب. وقد اتفق العلماء على أن نفخ الروح لا يكون إلا بعد أربعة أشهر. ونفخ الروح في الجنين لا يكون إلا بعد تمام صورته، أي بعد تخليقه. وبعد تخليقه لا يكون العلم بذكورته أو أنوثته من علم الغيب؛ لأنه بتخليقه صار من علم الشهادة، إلا أنه مستتر في الظلمات التي لو أزيلَت لتَبَيَّن أمرُه .ولا يبعُد أن يكون فيما خلق الله تعالى من الأشعة أشعة قوية تخترق الظلمات حتى يتبيَّن الجنين ذكراً أو أنثى. ولذلك فلا غرابة أن يُعرف الجنين بعد أن يتخلق من خلال الأشعة؛ فهذا من علم الشهادة، ومن العلم بظاهر من الحياة الدنيا، والله ـ عز وجل ـ لم ينْفِ ذلك عن البشر، بل أثبته لهم كما في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧.] فالمقصود من تفرُّد الله عز وجل بعلْم ما في الأرحام أمران: الأمر الأول: أنه يعلم ذلك علمـًا ذاتيـًا، أما الناس فيعلمون بوسيلة من الوسائل التي يخلقها الله لمن يشاء من عباده. ومن أمثلة ذلك التنبؤ بالكسوف أو الخسوف قبل وقوعه بفترة طويلة عن طريق ما سخره الله لهم من العلوم. الأمر الثاني : أن الله تعالى حينما قال : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان ٢٤] فمعنى ذلك أنه هو وحده فقط يعلم تفصيليـًا ما في الأرحام، من حيث كونه ذكراً أو أنثى، وكونه تام الخلقة أم لا، وكونه شقيً أو سعيدًا وغير ذلك من التفاصيل التي يستحيل على العلم مهما علا أن يحيط بها علمـًا.

مـا يدري أحد ماذا يحدث لـه في غد، وماذا يفعل من خير أو شـر ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي ما يدري أحدٌ أين يموت، ولا في أي مكانٍ يُقبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم، يعلم كل الأمور، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهـاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين قوله ﴿ظَاهِرَةً .. وَبَاطِنَةً﴾ وكذلك بين لفظ ﴿ٱلْحَقُّ ٱلشَّمْسَ. ٱلْبَاطِلُ﴾.

٢ - الإنـكار والتوبيخ مـع الحـذف ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان إلخ.

٣ - المجاز المرسل ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل ففيه مجاز مرسل.

٤ - التشبيه التمثيلي ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ شبه من تمسك بالإسلام بمن أراد أن يرقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق جبل، وحذف أداة التشبيه للمبالغة.

٥ - المقابلة بين ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وبين ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ الآية.

٦ - الاسـتعارة ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ اسـتعار الغلـظ للشـدة لأنـه إنمـا يكـون للإجرام فاستعير للمعنى.

٧ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي إليه لا إلى غيره.

٨ - صيـغ المبالغة في التالي ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ و ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ و ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ و ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ كمـا أنَّ فيهـا توافـق الفواصـل وهـو من المحسـنات البديعية ويسـمى بالسجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة لقمان»





مكية وآياتها ثلاثون

بين يدي السورة

سورة السجدة مكية، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الإيمان بالله، واليوم الآخر، والكتب والرسل، والبعث والجزاء»[1]، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع «البعث بعد الفناء» الذي طالما جادل المشركون حوله، واتخذوه ذريعة لتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام.

* تبتدئ السورة الكريمة بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم، المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل، ومع وضوح إعجازه، وسطوع آياته، وإشراقة بيانه، وسمو أحكامه، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن، واختلقه من تلقاء نفسه، فجاءت السورة الكريمة ترد هذا البهتان، بروائع الحجة والبرهان.

* ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية، ببيان آثار قدرة الله في الكائنات العلوية والسفلية، على طريقة القرآن في لفت الأنظار إلى إبداع الواحد القهار.

* ثم ذكر القرآن شبهة المشركين السخيفة في إنكارهم للبعث والنشور، ورد عليها بالحجج القاطعة، والأدلة الساطعة، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة أمام قوارع القرآن، وروائع الحجة والبيان.

* وخُتِمَت السورة بالحديث عن يوم الحساب، وما أعد الله فيه للمؤمنين المتقين من النعيم الدائم في جنات الخلد، وما أعده للمجرمين من العذاب والنكال في دار الجحيم.

التسمية: سميت «سورة السجدة» لما ذكر تعالى فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا

---

(١) (ش): أصول العقيدة ستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم، الآخر، وبالقدر خيره وشره، كما في حديث جبريل عليه السلام حين قَالَ للنبي ص: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. فقَالَ ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا
تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ
خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن
رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى
ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا
وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ
ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ
عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم
مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

اللغَة: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلق القرآن من تلقاء نفسه ﴿يَعْرُجُ﴾ يصعد ويرتفع إِليه ﴿يُدَبِّرُ﴾ التدبير: رعايةُ شئون الغير ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ خلاصة[1] ﴿مَّهِينٍ﴾ ضعيف حقير ﴿سَوَّىٰهُ﴾ قوَّمه بتصوير أعضائه وتكميلها ﴿ضَلَلْنَا﴾ ضعنا وهلكنا وأصله من قول العرب: ضلَّ اللبن في الماء إِذا ذهب وضاع ﴿نَاكِسُوا۟﴾ مُطرِقُو، يقال: نكَّس رأسه إِذا أطرقه[2] ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ الجن.

التفسير: ﴿الٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إِعجاز القرآن[3] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هذا الكتاب المُوحَى به إِليك يا محمد هو القرآن الذي لا شك أنه من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، تنزيلٌ من رب العالمين ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الضمير يعود لكفار قريش و ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة أي بل أيقول المشركون اختلق محمد القرآن وافتراه من تلقاء نفسه؟ لا ليس الأمر كما يدَّعون ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي بل هو القول الحق، والكلام الصدق المنزل من ربك قال «البيضاوي»: أشار أولاً إِلى إِعجازه، ثم رتَّب عليه أنه تنزيلٌ من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إِلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك، إِنكاراً له وتعجباً منه، ثم بَيَّنَ المقصودَ من إِنزاله بقوله

(١) انظر معنى السلالة بالتوضيح في سورة المؤمنون.
(٢) (ش): أَطْرَقَ رأسَه/ أطْرَقَ برأسِه: أمال رأسَه إلى صدره وسكَت، أو أرخَى عَيْنَيْه إلى الأرض وأمسك عن الكلام.
(٣) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة ففيه غنية وكفاية.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي أنزله إليك لتنذر به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد[١]، قال المفسرون: هم أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وقد جاء الرسل قبل ذلك كإبراهيم وهو وصالح، ولكنْ لما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله إليهم محمداً ﷺ لينذرهم عذاب الله، ويقيم عليهم الحجة بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي كي يهتدوا إلى الحق ويؤمنوا بالله العزيز الحميد، ثم شرع تعالى في ذكر أدلة التوحيد فقال ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي الله جلَّ وعلا هو الذي خلق السماوات في ارتفاعها وإحكامها، والأرض في عجائبها وإبداعها، وما بينهما من المخلوقات في مقدار ستة أيام قال الحسن: من أيام الدنيا ولو شاء لخلقها بلمح البصر ولكن أراد أن يعَلِّم عباده التأني في الأمور قال القرطبي: عرَّفهم تعالى كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه، ومعنى ﴿خَلَقَ﴾ أبدع وأوجد بعد العدم، وبعد أن لم تكن شيئاً[٢] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل[٣] ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ليس لكم أيها الناسُ من غير الله ناصرٌ يمنعكم من عذابه، ولا شفيع يشفع لكم عنده إلا بإذنه، بل هو الذي يتولى مصالحكم ويدبر أموركم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتدبرون هذا فتؤمنون؟ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يدبّر أمر الخلائق جميعاً في العالم العلوي والسفلي، لا يُهمل شأن أحد قال ابن عباس: أي ينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض، ويُنزل ما دبره وقضاه ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي ثم يصعد إليه ذلك الأمر كله يوم القيامة ليفصل فيه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي في يوم عظيم - هو يوم القيامة - طوله ألف سنة من أيام الدنيا لشدة أهواله[٤] ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ذلك المدبر لأمور الخلق هو العالم بكل شيء، يعلم ما هو غائب عن المخلوقين،

---

(١) «البيضاوي» ٢/ ١١١.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٨٦.

(٣) انظر تفصيل معنى الاستواء وأقوال السلف في سورة الأعراف.

(٤) (ش): ورد في سورة الحج قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة السجدة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة المعارج ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وقد كثرت أقوال أهل التفسير في تحديد هذه الأيام وأحسن ما يقال فيها أن اليوم الذي ذُكِر في سورة الحج هو عبارة عن الزمان وتقديره عند الله، وأن آية السجدة هي في نزول الملائكة بالأمر وعروجهم به في الدنيا، وأن آية المعارج هي في يوم القيامة. قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وآله وسلم -: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وما هو مشاهد لهم قال القرطبي: وفي الآية معنى التهديد والوعيد، كأنه يقول: أخلصوا أعمالكم وأقوالكم فإني مجازيكم عليها، ومعنى «الغيب والشهادة» ما غاب عن الخلق وما حضرهم[١] ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي الغالب على أمره، الرحيم بعباده في تدبيره لشئونهم ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي أتقن وأحكم كل شيءٍ أوجده وخلقه قال أبو حيان: وهذا أبلغ في الامتنان. ومعناه أنه وضع كل شيء في موضعه، ولهذا قال ابن عباس: ليست القردة بحسنة، ولكنها متقنةٌ محكمة[٢] قال بعض العلماء: لو تصورتَ مثلًا أن للفيل مثل رأس الجمل، وأنَّ للأرنب مثل رأس الأسد، وأنَّ للإنسان مثل رأسِ الحمار، لوجدت في ذلك نقصاً كبيراً، وعدم تناسب وانسجام، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل، وشَقَّ شَفَتِهِ لِيُسَهِّل تناولَه الكلأ عليه أثناء السير، وأن الفيل لولا خرطومه الطويل لَمَا استطاع أن يبرك بجسمه الكبير لتناول طعامه وشرابه، لو علمتَ كل هذا لتيقنتَ أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولقُلتَ: تبارك الله أحسن الخالقين[٣].

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ أي خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي جعل ذريته يتناسلون من خلاصة من ماءٍ ضعيف حقير هو المنيُّ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي قوَّم أعضاءه، وعدَّل خلقته في رحم أُمه، ونفخ بعد ذلك فيه الروح، فإذا هو في أكمل صورةٍ وأحسن تقويم قال «أبو السعود»: وأضاف الروح إليه تعالى تشريفاً للإنسان، وإيذاناً بأنه خلقٌ عجيب، وصنعٌ بديع، وأن له شأناً جليلةً مناسبةً إلى حضرة الربوبية[٤] ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي وخلق لكم هذه الحواس: السمع لتسمعوا به الأصوات، والبصر لتبصروا به الأشخاص، والعقل لتدركوا به الحق والهدى ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قليلاً شُكْرُكم لربكم و ﴿مَّا﴾ لتأكيد القِلّة ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وقال كفار مكة المنكرون للبعث والنشور: أئذا هلكنا وصارت عظامنا ولحومنا تراباً مختلطاً بتراب الأرض حتى غابت فيه ولم تتميز عنه ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي سوف نخلق بعد ذلك خلقاً جديداً، ونعود إلى الحياة مرةً ثانية؟ وهو استبعادٌ للبعث مع الاستهزاء ولهذا قال تعالى ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي بل هناك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء، وهو كفرهم وجحودهم بلقاء الله في دار الجزاء ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي قل لهم رداً على مزاعمهم الباطلة: يتوفاكم ملك الموت

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٨٩.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ١٩٩.
(٣) نقلاً عن أوضح التفاسير.
(٤) «أبو السعود» ٤/ ١٩٦. (ش): في تفسير أبي السعود (٧/ ٨١): «وأنَّ له شأناً لهُ مناسبةٌ إلى حضرةِ الرُّبوبيةِ».

الذي وكّل بقبض أرواحكم هو وأعوانه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله يوم القيامة للحساب والجزاء قال ابن كثير: والظاهر أنَّ ملَك الموت شخص معين، وقد سُمي في بعض الآثار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «عزرائيل» وهو المشهور[١]، وله أعوان - كما ورد في الحديث- ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت[٢] وقال مجاهد: جُمِعت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء[٣]، ثم أخبر تعالى بحال المجرمين يوم القيامة وما هم فيه من الذل والهوان فقال ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ولو ترى أيها المخاطب حال المجرمين يوم القيامة وهم مُطْرِقُو رءوسهم أمام ربهم من الخجل والحياء لرأيت العجب العجاب[٤]. قال «أبو السعود»: وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوفٌ تقديره لرأيت أمراً فظيعًا لا يُقَادَرُ قَدْرُه[٥] مِن هَوْله وفظاعته[٦] ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي يقولون ربنا أبصرنا حقيقة الأمر وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل، وكنا عُمياً وصماً ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي فَرُدَّنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي فنحن الآن مصدّقون تصديقاً جازماً، وموقنون أن وعدك حق، ولقاءك حق قال الطبري: أي أيقنا الآن بوحدانيتك، وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك، ولا ينبغي أن يكون رب سواك، وأنك تحيي وتميت وتفعل ما تشاء[٧]، قال تعالى رداً عليهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا ولكنَّ ذلك ينافي حكمتنا، لأنا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإكراه والإجبار ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ أي ولكن ثبت ووجب قولي بعذاب المجرمين، وتقرر وعيدي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأملأنَّ جهنم بالعصاة من الجِنّ والإنس جميعاً ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ:

---

(١) (ش): اشتهر أن اسم ملك الموت عزرائيل، إلا أنه لم ترد تسمية ملك الموت بهذا الاسم في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة، وإنما ورد ذلك في بعض الآثار والتي قد تكون من الإسرائيليات.

وعلى هذا، لا ينبغي الجزم بالنفي ولا بالإثبات، فلا نثبت أن اسم ملك الموت عزرائيل، ولا ننفي ذلك، بل نفوِّض الأمر إلى الله تعالى ونسميه بما سماه الله تعالى به «ملك الموت».

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٧٣. (ش): ثبت ذلك في حديث رواه أحمد وأبوداود وصححه الألباني.

(٣) «تفسير الطبري» ٢١/ ٦٢.

(٤) (ش): أطرق رأسَه/ أطرق برأسِه: أمال رأسَه إلى صدره وسكَت، أو أرخَى عَيْنَيْه إلى الأرض وأمسك عن الكلام.

(٥) (ش): لا يُقَادَرُ قَدْرُه: لا يمكن وصْفه أو تحديد هيئتِه وكيفيّته.

(٦) «أبو السعود» ٤/ ١٩٧.

(٧) «تفسير الطبري» ٢١/ ٦٢.

ذوقوا - بسبب نسيانكم الدار الآخرة وانهماككم في الشهوات - هذا العذاب المخزي الأليم ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي نترككم اليوم في العذاب كما تركتم العمل بآياتنا[1] ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وذوقوا العذاب الدائم الخالد في جهنم بسبب كفركم وتكذيبكم، ثم لما ذكر حال الأشقياء وعاقبتهم الوخيمة، أتبعه بذكر حال السعداء وما أعدَّه لهم من النعيم المقيم في دار الجزاء، ليظل العبد بين الرهبة والرغبة فقال ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ أي إنما يصدّق بآياتنا المؤمنون المتقون الذين إذا وعظوا بآياتنا سقطوا على وجوههم ساجدين لله تعظيماً لآياته ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي وسبحوا ربهم على نعمائه وهم لا يستكبرون عن طاعته وعبادته ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي تتنحى وتتباعد أطرافهم عن الفُرُش ومواضع النوم، والغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة كقوله ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨] قال مجاهد: يعني بذلك قيام الليل ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي يدعون ربهم خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته وثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ومما أعطيناهم من الرزق ينفقون في وجوه البر والحسنات ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي فلا يعلم أحد من الخلق مقدار ما يعطيهم الله من النعيم، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي ثواباً لما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال.

---

(١) (ش): للنسيان معنيان:

أحدهما: الذهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]. وهذا المعنى للنسيان مُنْتَفٍ عن الله عز وجل بالدليلين السمعي، والعقلي. أما السمعي: فقوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]. وأما العقلي: فإن النسيان نقص، والله تعالى منزه عن النقص، موصوف بالكمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]. وعلى هذا فلا يجوز وصف الله بالنسيان بهذا المعنى على كل حال. والمعنى الثاني للنسيان: التَرْك عن علم وعمد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤] وهذا المعنى من النسيان ثابت لله تعالى عز وجل قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة:١٤]. وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧]. وفي صحيح مسلم أن الله لأ يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ له: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. وتَرْكُه للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وقال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت:٣٥]. والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه. وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى، كما هو معلوم عند أهل السنة. [باختصار من «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١/ ١٧٢-١٧٤).

قال الله تعالى:

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ
جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا
أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ
الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ
مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ
وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ
أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ
أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم
مُّنتَظِرُونَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حال المجرمين في الآخرة، وحال المؤمنين المتقين، وما أعدَّه لهم من الكرامة في دار النعيم، ذكر هنا أنه لا يتساوى الفريقان: فريق الأبرار، وفريق الفجار لأن عدالة الله تقتضي التميز بين المؤمن الصالح، والفاسق الفاجر.

اللغَة: ﴿فَاسِقًا﴾ الفاسقُ: الخارج عن طاعة الله ﴿نُزُلًا﴾ ضيافةً وعطاءً، والنُّزل ما يهيأ للنازل والضيف قال الشاعر:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا ... جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزُلَا [(١)]

﴿الْجُرُزِ﴾ اليابسة الجرداء التي لا نبات فيها، والجرزُ: القطع قال الزمخشري: الجرُز: الأرضُ التي جرز نباتها أي قطع، إمّا لعدم الماء أو لأنه رُعي وأُزيل، ولا يقال للتي لا تنبتُ كالسباخ: جُرز[(٢)] ﴿الْفَتْحُ﴾ الحكم ويقال للحاكم: فاتح وفتاح لأنه يفصل بين الناس بحكمه ﴿يُنظَرُونَ﴾ يُمْهَلون ويُؤَخَّرون.

سَبَبُ النّزول: رُوِيَ أنه كان بين «علي بن أبي طالب» و «الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط» تنازع وخصومة، فقال الوليد بن عُقبة لعلي: اسْكُتْ فإنك صبي، وأنا والله أَبْسَطُ مِنْكَ

---

(١) (ش): ضَافَ شخصًا، ضِيافَةً: أضافَه؛ ضيَّفه؛ أنزله ضَيْفًا عنده. ضافَ شخصًا: نزل عنده ضيفًا. ضافَه ضيفٌ: نزل في ضيافته. الْقَنَا: الرماح. الْمُرْهَفَاتِ: السيوف.

(٢) «الكشاف» ٣/ ٤٠٨.

لِسَانًا، وأشجع منك جنانًا، وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال له علي: اسْكُتْ فإنك فَاسِقٌ فنزلت ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾[١].

التفسير: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ ﴾؟ أي أفمن كان في الحياة الدنيا مؤمناً متقياً لله، كمن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الله؟ ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ أي لا يستوون في الآخرة بالثواب والكرامة، كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]؟ قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عدله وكرمه، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله، بمن كان فاسقاً أي خارجاً عن طاعة ربه، مكذباً رسل الله[٢]، ثم فصَّل تعالى جزاء الفريقين فقال ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي أما المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح[٣] ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي لهم الجنات التي فيها المساكن والدور والغرف العالية يأوون إليها ويستمتعون بها قال «البيضاوي»: فالجنة هي المأوى الحقيقي، والدنيا منزلٌ مُرْتَحَلٌ عنه لا محالة[٤] ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ضيافةً مهيأةً ومعدةً لإكرامهم كما تُهَيَّأُ التُحَف للضيف[٥] وذلك بسبب ما قدموه من صالح الأعمال ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي وأمّا الذين خرجوا عن طاعة الله فملْجَؤُهم ومنزِلُهم نار جهنم ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ أي إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردُّوا إلى موضعهم فيها قال الفُضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإنَّ الأرجل لمقيَّدة، وإنَّ اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم[٦] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي وتقول لهم خزنة جهنم تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزءون منه، ثم توعدهم بعذاب عاجلٍ في الدنيا فقال ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٦٥، وانظر «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٠٥، و«زاد المسير» ٦/ ٣٤٠.
(ش): أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» وإسناده ضعيف. والمِحَشُّ: مَا تُحَرّكُ بِهِ النَّارُ مِنْ حَدِيدٍ، وَكَذَلِكَ المِحَشَّة؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِلرَّجُلِ الشُّجَاعِ: نِعْم مِحَشُّ الكَتِيبة. والوليد بن عقبة صحابي، وكم من قصص مكذوبة تسيء إلى الصحابة الكرام تذكرُها كتب التاريخ بلا تثبُّت.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٧٦.

(٣) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخل في حقيقته وعطفه على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، مثل قوله تعالى. ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ. ﴾

(٤) «البيضاوي» ٢/ ١١٢.

(٥) (ش): أي الإكرام الزائد عن المعتاد: ما يُقَدَّم للضيف مما هو ليس مطابقاً لعادة المُضيف التي كان قد اعتادها، فيتكلف إذا نزل به الضيف ويزيد في البِرِّ على ما يُحضِره في سائر الأيام.

(٦) «المختصر» ٣/ ٧٦.

﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ أي ولنذيقنَّهم من العذاب الأقرب وهو عذاب الدنيا من القتل والأسر والبلايا والمحن قال الحسن: العذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبتلى به العبيد حتى يتوبوا وقال مجاهد[١]: القتل والجوع[٢] ﴿دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ أي قبل العذاب الأكبر الذي ينتظرهم وهو عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي، ثُمّ بعد أن توعَّدهم وهددهم بيَّنَ استحقاقَهم للعذاب فقال ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾ أي لا أحدَ أظلمُ لنفسه ممَّن وُعِظ وذُكِّر بآيات الرحمن، ثم ترك الإيمان وتناساها؟ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي سأنتقم ممن كذَّب بآياتي أشدَّ الانتقام، ووضع الاسم الظاهر مكان الضمير[٣] لتسجيل الإجرام عليهم ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي فلا تكن

---

(١) (ش): في أكثر من طبعة: وقال أبو مجاهد، والتصحيح من «تفسير الطبري» وغيره.

(٢) قال المفسرون: أصاب أهل مكة القحط والجدب سبع سنين حتى أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب.
(ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْشُدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ لَقَدْ أَكَلْنَا الْعِلْهِزَ، - يَعْنِي الْوَبَرَ بِالدَّمِ - فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، والبيهقي في «الدلائل» وإسناده جيد. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أَتَى ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الْحَنَفِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَسْلَمَ وَهُوَ أَسِيرٌ فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَلَحِقَ بِالْيَمَامَةِ فَحَالَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ وَبَيْنَ المِيرة من يمامة وَأَخَذَ اللهُ تَعَالَى قُرَيْشًا بِسِنِي الْجَدْبِ حَتَّى أَكَلُوا الْعِلْهِزَ، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ أَلَيْسَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟ قَالَ: «بَلَى»، فَقَالَ: قَدْ قَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، والبيهقي في «الدلائل» وإسناده جيد. المِيرَةُ: الطَّعام من الحبِّ والقوت. وعَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَئُوا عَنِ الْإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِم النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ (وفي روايةٍ: قَحْطٌ وَجَهْدٌ) حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وأكَلوا المَيْتَةَ والجِيَفَ، وَالجُلودَ والعِظامَ، ويَرى الرَّجُلُ ما بينَ السَّماءِ والأرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخانِ مِن الجَهْدِ والجوعِ. فجاءَهُ أَبو سُفْيانَ، فقالَ: «يا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ تَأْمُرُ بطاعَةِ اللهِ، وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وإِنَّ قومَكَ قدْ هَلكوا؛ فادْعُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُم، فدَعَا، ثمَّ قالَ: «تَعُودُونَ بَعْدَ هَذَا»، فقرَأَ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، فدعَوْا: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾. فأَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ». قَالَ: «لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ!». فَاسْتَسْقَى، فَسُقُوا الْغَيْثَ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ الْمَطَرِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾، فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ.(وَفِي رِوَايَةٍ: فَمُطِرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ): أَيْ بِسَبْعِ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ فِي الْقَحْطِ وَالْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ. (السَّنَة)، هِيَ القحط والجَدْب. (حَصَّتْ): اسْتَأْصَلَتْ.

(٣) (ش): الاسم الظاهر ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، الضمير: هم. أي إن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، ولم يقُل سبحانه وتعالى: إنا منهم منتقمون.

يا محمد في شكٍ من تلقي القرآن(١) كما تلقَّى موسى التوراة، والمقصود تقرير رسالته عليه السلام، وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحيٌ سماويٌ وكتابٌ إلهي ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي جعلنا التوراة هدايةً لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي جعلنا منهم قادةً وقدوة يُقتَدَى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا ويرشدونهم إلى الدين بأمرنا وتكليفنا ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي حين صبروا على تحمل المشاق في سبيل الله، وكانوا يصدقون بآياتنا أشد التصديق وأبلغه قال «ابن الجوزي»: وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطَعتُم وآمنتم جعلْتُ منكم أئمة(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن ربك يا محمد يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيميز بين المحقِّ والمبطل يوم القيامة، ويجازي كلاً بما يستحق، فيما اختلفوا فيه من أمور الدين قال الطبري: فيما كانوا فيه يختلفون من أمور الدين، والبعث، والثواب والعقاب(٣)، ثم نبه تعالى على آثار قدرته في مخلوقاته، وأقام الحجة على الكفار بالأمم السالفة الذين كفروا فأُهلكوا فقال ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون ولم يتبيَّن لهم كثرة من أهلكناهم من الأمم الماضية الذين كذبوا رسل الله؟ ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي حال كون أهل مكة يسيرون في دورهم، ويشاهدون في أسفارهم منازل هؤلاء المُهلَكين أفلا يعتبرون؟ قال ابن كثير: أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك الظالمين، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها(٤) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي إن في إهلاكهم لَدلالاتٍ عظيمة على قدرتنا، أفلا يسمعون سماع تدبر واتعاظ؟ ثم ذكر تعالى دلائل الوحدانية فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي أولم يشاهدوا كمال قدرتنا في سَوْقِنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها من شدة العطش لنحييها؟ ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ أي فنخرج بذلك الماء أنواع الزروع والثمار، تأكل منه دوابُّهم من الكلأ والحشيش، وأنفُسهم من الحَبّ والخضر والفواكه والبُقول ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي أفلا يبصرون ذلك فيستدلون به على كمال قدرته تعالى وفضله، ويعلمون أن الذي أحيا الأرض الميتة قادر على إعادتهم بعد وفاتهم؟ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير يعود إلى موسى أي فلا تكن في شك من لقاء موسى، وما ذكرناه أرجح وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود.
(٢) «زاد المسير» ٦/ ٣٤٤.
(٣) «تفسير الطبري» ٢١/ ٧١.
(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٧٧.

أي ويقول كفار مكة للمسلمين على سبيل السخرية والتهكم: متى ستنصرون علينا ويكون لكم الغلبة والفتح علينا؟ إن كنتم صادقين في دعواكم قال الصاوي: كان المسلمون يقولون: إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكة إذا سمعوهم يقولون: -بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاءً- متى هذا الفتح فنزلت[١] ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وتبكيتاً: إن يوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي الذي يفصل تعالى فيه بيننا وبينكم، ولا ينفع فيه الإيمان ولا الاعتذار فلماذا تستعجلون؟ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ولا هم يُؤخَّرون ويُمْهَلُون للتوبة قال «البيضاوي»: ويوم الفتح هو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكافرين والفصل بينهم، وقيل: هو يوم بدر[٢] ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء الكفار ولا تُبَالِ بهم ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي وانتظر ما يحِلُّ بهم من عذاب الله، إنهم منتظرون كذلك ما يحل بكم قال القرطبي: أي ينتظرون بكم حوادث الزمان[٣].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - جناس الاشتقاق مثل ﴿نُنذِرُ.. وَنَذِيرٌ﴾ وكذلك مثل ﴿وَٱنتَظِرْ.. إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

٢ - الطباق بين ﴿ٱلْغَيْبِ.. وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ وبين ﴿خَوْفًا .. وَطَمَعًا﴾.

٣ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ والأصل «وجعل له» والنكتة أن الخطاب إنما يكون مع الحيّ فلما نفخ تعالى الروح فيه حسن خطابه مع ذريته.

٤ - الاستفهام الإنكاري وغرضه الاستهزاء ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟

٥ - الإضمار ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا.

٦ - الاختصاص ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة.

٧ - حذف جواب «لو» للتهويل ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ أي لرأيت أمراً مهولاً.

٨ - المُشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ﴿نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ..

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٢٦. (ش): ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره». بالَى الأمرَ/ بالَى بالأمر/ بالَى للأمر مُبالاةً، فهو مُبالٍ: اكْتَرَثَ له، واهتمّ به، ويغلُب استعماله في سياق النَّفي «لا يُبالي كثير من النَّاس بقيمة الوقت».

(٢) «البيضاوي» ٢/ ١١٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١١٢.

﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ فإن الله تعالى لا ينسى وإنما المراد نترككم في العذاب ترك الشيء المنسِيّ.

٩ - المقابلة اللطيفة بين جزاء الأبرار وجزاء الفجار ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ..﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ...﴾ وهو من المحسنات البديعية.

١٠ - الكناية عن كثرة العبادة والتبتل ليلاً ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

١١ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾؟ ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؟ ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ وكلها بقصد الزجر والتوبيخ.

١٢ - السجع مراعاةً للفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ وهذا من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن الكريم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة»





مدنية وآياتها ثلاث وسبعون

بين يدي السورة

* سورة الأحزاب من السور المدنية، التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية، شأن سائر السور المدنية، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة، وبالأخص أمر الأسرة فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والهناء، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل: «التبني، والظهار، واعتقاد وجود قلبين لإنسان» وطهرت من رواسب المجتمع الجاهلي، ومن تلك الخرافات والأساطير الموهومة التي كانت متفشية في ذلك الزمان.

* ويمكن أن نلخص المواضيع الكبرى لهذه السورة الكريمة في نقاط ثلاثة:

أولًا: التوجيهات والآداب الإسلامية.

ثانيًا: الأحكام والتشريعات الإلهية.

ثالثًا: الحديث عن غزوتي «الأحزاب، وبني قريظة».

* **أما الأولى:** فقد جاء الحديث عن بعض الآداب الاجتماعية كآداب الوليمة، وآداب الستر والحجاب وعدم التبرج، وآداب معاملة الرسول ﷺ واحترامه إلى آخر ما هنالك من آداب اجتماعية.

* **وأما الثانية:** فقد جاء الحديث عنها في بعض الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار والتبني، والإرث، وزواج مطلقة الابن من التبني، وتعدد زوجات الرسول الطاهرات والحكمة منه، وحكم الصلاة على الرسول ﷺ وحكم الحجاب الشرعي، والأحكام المتعلقة بأمور الدعوة إلى الوليمة إلى غير ما هنالك من أحكام تشريعية.

* **وأما الثالثة:** فقد تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الخندق التي تسمى «غزوة الأحزاب» وصورتها تصويرًا دقيقًا بتقليب قوى البغي والشر على المنؤمنين، وكشفت عن خفايا المنافقين، وحذرت من طرقهم في الكيد والتخذيل والتثبيط، وأطالت الحديث عنهم في بدء السورة وفي ختمها، حتى لم تُبْقِ لهم سترًا، ولم تُخْفِ لهم مكرًا، وذكَّرت المؤمنين بنعمة الله العظمى عليهم في ردّ كيد أعدائهم بإرسال الملائكة والريح، كما تحدثت عن غزوة بني قريظة ونقض اليهود عهدهم مع الرسول ﷺ.

التسمية: سميت سورة الأحزاب؛ لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب على حرب المسلمين، ولكن

الله ردهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ
وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾
ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ
وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا
﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ
فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ
ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ
لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا
﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ
إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ
لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ
ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾
قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾
أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا
ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى
ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا

اللغة: ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ جمع دعيٍّ وهو الولد المتبنَّى من أبناء الغير قال في اللسان: والدَّعِيُّ: المنسوب إلى غير أبيه، قال الشاعر:

دَعِيُّ الْقَوْمِ يَنْصُرُ مُدَّعِيهِ لِيُلْحِقَهُ بِذِي النَّسَبِ الصَّمِيمْ
أَبِي الْإِسْلامُ لا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمْ[١]

﴿أَقۡسَطُ﴾ أعدلُ يقال: أقسط الرجلُ إذا عدل، وقسطَ إذا ظلم، والقسطُ: العدلُ. ﴿مَسۡطُورٗا﴾ أي مُسَطَّراً مكتوباً لا يُمحَى ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾ الميثاقُ: العهد المؤكد بيمين أو نحوه. ﴿ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ جمع حنْجرة وهي نهاية الحلقوم مدخل الطعام والشراب. ﴿يَثۡرِبَ﴾ اسم المدينة المنورة وسماها رسول الله ﷺ طيبة. ﴿عَوۡرَةٞ﴾ خالية من الرجال غير محصَّنة يقال: دار مُعْورة إذا كان يسهل دخولها، قال الجوهري: العَوْرة كلُّ خلل يُتخوف منه في ثغر أو حرب[٢]. ﴿أَقۡطَارِهَا﴾ جمع قُطْر وهو الناحية والجانب. ﴿يَعۡصِمُكُم﴾ يمنعكم. ﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾ المُثَبِّطين مُشتقٌّ مِن عاقهُ إذا صرفه[٣].

سَبَبَ النّزول: أ - روي أن رجلاً من قريش يُدعى «جميل بن مَعْمر» كان لبيباً حافظاً لما يسمع فقالت قريش: ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان في جوفه فأنزل الله ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ ..﴾[٤] الآية.

ب - وروي أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك أمر الناس بالتجهز والخروج لها، فقال

---

(١) (ش):

أَبِي الْإِسْلامُ لا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا هَتَفُوا بِبَكْرٍ أَوْ تَمِيمْ
دَعِيُّ الْقَوْمِ يَنْصُرُ مُدَّعِيهِ فَيُلْحِقُهُ بِذِي النَّسَبِ الصَّمِيمْ
وما كَرَمٌ وَلَو شَرُفَتْ جُدُودٌ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ الكَرِيمْ

جاء في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة الدينوري (١/ ٥٢٨)] أن قائل الأبيات الثلاثة هو نهار بن توسعة بن أبي عتبان، وكان أشعر بكر بن وائل بخراسان.

والأبيات في «معجم الشعراء» للمرزباني (ص: ٢٥٨) منسوبةً لعيسى بن حدير أحد شعراء بني بكر بن وائل بلفظ آخر:

أَبِي الْإِسْلامُ لا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا فَخَرُوا بِبَكْرٍ أَوْ تَمِيمْ
كِلَا الْحَيَّيْنِ يَنْصُرُ مُدَّعِيهِ لِيُلْحِقَهُ بِذِي النَّسَبِ الصَّمِيمْ
وَمَا حَسَبٌ وَلَوْ كَرُمَتْ عُرُوقٌ ولكنَّ التَّقِيَّ هُوَ الكَرِيمْ

(٢) الصحاح مادة: عور.

(٣) (ش): ثبَّطَ، تثبيطًا، فهو مُثبِّط. ثبَّطَ هِمَّتَه: أوْهَنَها، أضْعَفَها وحملها على التراخي. ثبَّطه عن سعيه: عوَّقه عنه وبطَّأه، شغله ومنعه عن المُضيّ فيه.

(٤) «زاد المسير» ٦/ ٣٤٩. (ش): ضعيف، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري في «تفسيرَيْهما» والواحدي في «أسباب النزول».

أناس: نستأذن آباءنا وأمهاتنا فأنزل الله ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ..﴾ [١] الآية.

التفسِـير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ النداء على سبيل التشريف والتكرمة لأن لفظ النبوة مُشعر بالتعظيم والتكريم أي اثبتْ على تقوى الله ودُمْ عليها، قال «أبو السعود»: في ندائه ﷺ بعنوان النبوة تنويهٌ بشأنه، وتنبيهٌ على سمو مكانه، والمراد بالتقوى: المأمورُ به الثباتُ عليه والازديادُ منه، فإنَّ له باباً واسعاً ومكاناً عريضاً لا يُنالُ مَداه[٢] ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أي ولا تطع أهل الكفر والنفاق فيما يدعونك إليه من اللين والتساهل، وعدم التعرض لآلهتهم بسوء، ولا تقبل أقوالهم وإن أظهروا أنها نصيحة، قال المفسرون: دعا المشركون رسول الله ﷺ أن يرفض ذكر آلهتهم بسوء، وأن يقول إن لها شفاعة، فكره ﷺ ذلك ونزلت الآية[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي إنه تعالى عالم بأعمال العباد وما يضمرونه في نفوسهم، حكيم في تدبير شئونهم ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي واعمل بما يوحيه إليك ربك من الشرع القويم، والدين الحكيم، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي خبيرًا بأعمالكم لا تخفى عليه خافية من شؤونكم، وهو مجازيكم عليها ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اعتمد عليه، والجأ في أمورك إليه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي حسبك أن يكون الله حافظاً وناصرًا لك ولأصحابك، ثم ردَّ تعالى مزاعم الجاهليين ببيان الحق الساطع فقال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾ أي ما خلق الله لأحدٍ من الناس أيًّا كان قلبين في صدره، قال مجاهد: نزلت في رجل من قريش كان يُدعى «ذا القلبين» من دهائه وكان يقول: إنَّ في جوفي قلبين أعقل بكل واحدٍ منهما أفضل من عقل محمد[٤] ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ أي وما جعل زوجاتكم اللواتي تظاهرون منهنَّ أمهاتكم، قال «ابن الجوزي»: أعْلَمَ تعالى أن الزوجة لا تكونُ أُمًّا، وكانت الجاهلية تُطلّق بهذا الكلام وهو أن يقول لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي[٥] ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ أي وما جعل الأبناء من التبني الذين ليسوا من

(١) الألوسي ١٢/ ١٥١. (ش): ذكره الألوسي في «تفسيره» بدون إسناد وبصيغة التمريض فقال: «وسبب نزول الآية على ما قِيلَ ما رُوِيَ من أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أناس منهم: نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت».

(٢) «أبو السعود» ٤/ ٢٠١.

(٣) انظر «تفسير القرطبي» ١٤/ ١١٥، و«زاد المسير» ٦/ ٣٤٧. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١١٦. (ش): ضعيف، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري في «تفسيرَيْهما» والواحدي في «أسباب النزول».

(٥) «زاد المسير» ٦/ ٣٥٠.

أصلابكم أبناءً لكم حقيقةً ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾ أي دعاؤهم أبناء مجرد قول بالفم لا حقيقة له من الواقع ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ أي والله تعالى يقول الحقَّ الموافق للواقع، والمطابق له من كل الوجوه ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ أي يرشد إلى الصراط المستقيم، والغرضُ من الآية التنبيهُ على بطلان مزاعم الجاهلية، فكما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، فكذلك لا يمكن أن تصبح الزوجة المُظاهر منها أمًا، ولا الولد المتبنَّى ابنًا، لأن الأم الحقيقية هي التي ولدته، والابن الحقيقي هو الذي وُلد من صلب الرجل، فكيف يجعلون الزوجات المظاهر منهن أمهات؟ وكيف يجعلون أبناء الآخرين أبناءً لهم مع أنهم ليسوا من أصلابهم؟ ثم أمر تعالى بردّ نسب هؤلاء إلى آبائهم فقال: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي انسبوا هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناء لآبائهم الأصلاء ﴿هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي هو أعدلُ وأقسط في حكم الله وشرعه[(١)] قال ابن جرير: أي دعاؤكم إياهم لآبائهم هو أعدل عند الله وأصدقُ وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم[(٢)] ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي فإن لم تعرفوا آباءهم الأصلاء فتنسبوهم إليهم فهم إخوانكم في الإسلام ﴿وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ أي أولياؤكم في الدين، فليقل أحدكم: يا أخي ويا مولاي يقصد أخوَّة الدين وولايته، قال ابن كثير: أمر تعالى بردّ أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عُرفوا، فإن لم يُعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، عوضًا عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»[(٣)] وقال ابنُ عمر: مَا كُنَّا نَدْعُو زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ إِلاَّ زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَت ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(٤)] ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ أي وليس عليكم أيها المؤمنون ذنبٌ أو إثم فيمن نسبتموهم إلى غير آبائهم خطأً ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ أي ولكنَّ الإثم فيما تقصدتم وتعمدتم نسبته إلى غير أبيه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة يعفو عن المخطئ ويرحم المؤمن التائب، ثم بيَّن تعالى شفقة الرسول ﷺ على أمته ونصحه لهم فقال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي هو عليه السلام أرأف بهم وأعطف عليهم، وأحقُّ بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ وطاعته أوجب ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أي وزوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين في وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهنَّ، قال «أبو السعود»: أي منزّلات منزلة الأمهات،

(١) نقلاً عن كتابنا «تفسير آيات الأحكام» ٢/ ٢٥٤.

(٢) «تفسير الطبري» ٢١/ ٧٦.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٧٩، «ابن كثير» ٣/ ٨١. (ش): رواه البخاري.

(٤) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

في التحريم واستحقاق التعظيم، وأما فيما عدا ذلك فهنَّ كالأجنبيات[١] ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي أهل القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي أحقُّ بالإرث من المهاجرين والأنصار في شرع الله ودينه ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي إلاّ أن تحسنوا إلى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين في حياتكم، أو توصوا إليهم عند الموت فإن ذلك جائز، وبسط اليد بالمعروف مما حثَّ الله عباده عليه، قال المفسرون: وهذا نسخٌ لما كان في صدر الإسلام من توارث المسلمين من بعضهم بالأخوة الإيمانية وبالهجرة ونحوها[٢] ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي كان حكم التوارث بين ذوي الأرحام مكتوباً مسطراً في الكتاب العزيز لا يبدل ولا يُغير، قال قتادة: أي مكتوباً عند الله عَزَّ وَجَلَّ ألاَّ يرث كافر مسلماً[٣] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي اذكر وقت أخذنا من النبيين عهدهم المؤكد باليمين، أن يَفُوا[٤] بما التزموا، وأن يصدِّق بعضهم بعضاً وأن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ورسالاتهم ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي وأخذنا منك يا محمد الميثاق ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء هم أولو العزم ومشاهير الرسل، وإنما قدَّمه ﷺ في الذكر لبيان مزيد شرفه وتعظيمه، قال «البيضاوي»: خصَّهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع، وقدَّم نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ تعظيماً له وتكريماً لشأنه[٥] وقال ابن كثير: بدأ بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، وبياناً لعِظَم مكانته، ثم رتبهم بحسب وجودهم في الزمان[٦] ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي وأخذنا من الأنبياء عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا به من تبليغ الرسالة ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم، قال الصاوي: والحكمة في سؤال الرسل مع علمه تعالى بصدقهم هو التقبيح على الكفار يوم القيامة وتبكيتهم[٧] وقال القرطبي: وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء إذا كانوا يُسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم؟ وفائدة سؤالهم توبيخ الكفار كما قال تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦][٨]؟

(١) «أبو السعود» ٤/ ٢٠٣.
(٢) انظر «زاد المسير» «لابن الجوزي» ٦/ ٣٥٤.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٢٦.
(٤) (ش): وفَى الشَّخصُ الوَعْدَ/ وفَى الشَّخْصُ بالوَعْد: حافظ عليه وعمل به، أتمّه وأنجزه، ضدّ غدر.
(٥) «البيضاوي» ١/ ١١٤.
(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٨٣.
(٧) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٢٦٩.
(٨) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٢٨.

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأعد الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً، بسبب كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق، ثم شرع تعالى في ذكر «غزوة الأحزاب» وما فيها من نِعَم فائضة، وآيات باهرة للمؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا فضله وإنعامه عليكم ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي وقت مجيء جنود الأحزاب وتألُّبُهم عليكم[1]، قال «أبو السعود»: والمراد بالجنود الأحزاب وهم قريش، وغطفان، ويهود قريظة وبني النضير، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة «سلمان الفارسي»[2] ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب معسكره والخندقُ بينه وبين المشركين، واشتد الخوف وظنَّ المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق في المنافقين حتى قال «معتب بن قشير»: يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط[3] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي فأرسلنا على الأحزاب ريحاً شديدة وجنوداً من الملائكة لم تروهم وكانوا قرابة ألف، قال المفسرون: بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً وهي ريح الصبا في ليلة شديدة البرد والظلمة، فقلعت بيوتهم، وكفأت قدورهم، وصارت تلقي الرجل على الأرض، وأرسل الله الملائكة فزلزلتهم ولم تقاتل بل ألقت في قلوبهم الرعب[4] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي وهو تعالى مطلع على ما تعملون من حفر الخندق، والثبات على معاونة النبي ﷺ في ذلك الوقت ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادي يعني من أعلاه قِبَلَ المشرق، ومنه جاءت أسد وغطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي ومن أسفل الوادي يعني أدناه قِبل المغرب، ومنه جاء قريش وكنانة وأوباش العرب، والغرض أن المشركين جاءوهم من جهة المشرق والمغرب، وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم، وأعانهم يهود بني قريظة فنقضوا العهد مع الرسول وانضموا إلى المشركين، فاشتد الخوف، وعظُم البلاء ولهذا قال تعالى ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي وحين مالت

---

(١) (ش): تألَّبَ/ تألَّبَ على، تألُّبًا. تألَّبَ النَّاسُ: تجمَّعوا واحتشدوا. تألَّبوا على الأمر: تعاونوا وتضافروا عليه.

(٢) (ش): لم يثبت أن سلمان الفارسي رضي الله عنه هو الذي أشار بحفر الخندق.

اشتهر في كتب السيرة أن الرسول ﷺ لما سمع بقدوم الأحزاب لغزو المدينة، شاور أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي – رضي الله عنه – بقوله: «إنا كنا بفارس إذا حُوصرنا خَنْدَقْنا علينا»، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة. [انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية للدكتور محمد عبد الله العوشن (ص: ١٦٢)].

(٣) «أبو السعود» ٤/ ٣٠٤.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٢٧١.

الأَبصار عن سَنَنَها ومستوى نظرها حيرةً وشخوصاً لشدة الهول والرعب[١] ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى كادت تبلغ الحناجر، وهذا تمثيلٌ لشدة الرعب والفزع الذي دهاهم، حتى كأن أحدهم قد وصل قلبه إلى حنجرته من شدة ما يلاقي من الهول[٢] ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي وكنتم في تلك الحالة الشديدة تظنون الظنون المختلفة، قال الحسن البصري: ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون، وظنَّ المؤمنون أنهم يُنصرون[٣]، فالمؤمنون ظنوا خيراً، والمنافقون ظنوا شراً، وقال ابن عطية: كاد المؤمنون يضطربون ويقولون: ما هذا الخُلف للوعد؟ وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها، وأما المنافقون فتعجلوا ونطقوا وقالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً[٤] ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في ذلك الزمان والمكان امتحن المؤمنون واختبروا، ليتميز المخلص الصادق من المنافق، قال القرطبي: وكان هذا الإبتلاءُ بالخوف والقتال، والجوع والحصر والنزال[٥] ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي وحُرِّكوا تحريكاً عنيفاً من شدة ما دهاهم، حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم وتضطرب تحت أقدامهم، قال ابن جزي: وأصل الزلزلة شدةُ التحريك وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب وتزعزعها[٦] ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي واذكر حين يقول المنافقون، والذين في قلوبهم مرض النفاق، لأن الإيمان لم يخالط قلوبهم ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي ما وعدنا الله ورسوله إلا باطلاً وخداعاً، قال الصاوي: والقائل هو «معتب بن قشير» الذي قال: بعدنا محمدٌ بفتح فارس والروم، وأحدُنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً، ما هذا إلا وعد غرور[٧] يغُرُّنا به محمد ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي واذكر حين قالت جماعة من المنافقين وهم: أوس بن قيظي وأتباعه، وأُبيُّ بن سلول وأشياعه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي يا أهل المدينة لا قرار لكم ههنا ولا إقامة ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي فارجعوا إلى منازلكم

---

(١) تفسير الكشاف ٣/ ٤٢٦. (ش): سَنَن: سُنَّة، طريقة. حين مالت الأَبصار عن سَنَنَها: أي حين اختلفت طبيعتها. شخَص البَصرُ: اتّسع دون أن يطرف. شخَص بصرَه/ شخَص ببصرِه: أطال النظر فاتحًا عينيه بدون أن يطرف بهما. أي بدون أن يحرِّك جفون العينين.

(٢) قال القرطبي: وهذا القول منقول معناه عن عكرمة، والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته حتى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة. اهـ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٤٥.

(٤) نقلاً عن «البحر المحيط» ٧/ ٢١٧.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٤٦.

(٦) «التسهيل» ٣/ ١٣٤.

(٧) «حاشية الصاوي» ٣/ ٢٧٢.

واتركـوا محمداً وأصحابه ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ ويستأذن جماعـة من المنافقين النبي ﷺ في الإنصراف متعللين بعلل واهية ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي غير حصينة فنخاف عليهـا العـدوَّ والسُّـرّاق ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ تكذيـب مـن الله تعالـى لهم أي ليـس الأمر كما يزعمـون ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي مـا يريـدون بما طلبوا مـن الرسـول ﷺ إلا الهرب من القتـال، والفـرار من الجهـاد، والتعبير بالمضـارع ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾ لاسـتحضار الصورة في النفس، فكأن السامع يبصرهم الآن وهم يستأذنون، ثم فضحهم تعالى وبيَّن كذبهم ونفاقهم فقال: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي ولو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين من جميع نواحـي المدينـة وجوانبهـا ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا﴾ أي ثم طلب إليهـم أن يكفروا وأن يقاتلـوا المسـلمين لأعطوهـا مـن أنفسـهم ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي لفعلـوا ذلـك مسـرعين، ولـم يتأخروا عنه لشدة فسـادهم، وذهاب الحق من نفوسهم، فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع[1]، وهذا ذم لهم في غاية الذم ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ أي ولقـد كان هـؤلاء المنافقـون أعطـوا ربهـم العهـود والمواثيـق من قبـل غزوة الخندق وبعد بـدر ألاَّ يفروا مـن القتال ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي وكان هذا العهد منهم جديراً بالوفاء لأنهم سيسألون عنه، وفيه تهديدٌ ووعيد، قـال قتادة: لما غاب المنافقون عن بـدر، ورأوا ما أعطى الله أهل بدرٍ من الكرامة والنصر، قالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن[2] ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ أي قـل يا أيها النبي لهـؤلاء المنافقين، الذين يفرون من القتال طمعـاً في البقاء وحرصاً على الحيـاة، إن فراركـم لن يطوّل أعماركـم ولن يؤخر آجالكم، ولن يدفـع الموت عنكم أبداً ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولئن هربتم وفررتم فإذاً لا تمتعون بعده إلا زمنـاً يسـيراً، لأن الموت مآلُ كل حي، ومن لم يَمُتْ بالسـيف مـات بغيره ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من يستطيع أن يمنعكم منه تعالى ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي إن قدَّر هلاككم ودماركـم، أو قدَّر بقاءكم ونصركـم؟ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي وليس لهم من دون الله مُجير ولا مغيث، فلا قريب ينفعهم ولا ناصر ينصرهـم ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي لقـد علم الله تعالى ما كان من أمر أولئـك المنافقين، والمثبطين للعزائم، الذين يعوقون الناس عن الجهاد، ويصُدُّونهم عن القتال ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي والذين

---

(١) هذا قول قتادة وابن زيد واختاره ابن جرير. قال القرطبي: وقال السدى والحسن والفراء المعنى: ما لبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلًا حتى يهلكوا، والأول وقول أكثر المفسرين، وذلك لضعف نياتهم وفرط نفاقهم، فلو اختلط بهم الأعداء لأظهروا الكفر. اهـ. «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٥٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٥٠.

يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق: تعالَوا إلينا واتركوا محمداً وصحبه يهلكوا ولا تقاتلوا معهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولا يحضرون القتال إلا قليلاً منهم رياءً وسمعة، قال الصاوي: لأن شأن من يثبّط غيره عن الحرب ألاّ يفعله إلا قليلاً لغرضٍ خبيث[١] وقال في البحر: المعنى: لا يأتون القتال إلا إتيانـاً قليلًا، يخرجون مع المؤمنين يُوهِمُونهم أنهم معهم، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه، فقتالُهم رياء ليس بحقيقة[٢] ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بخلاء عليكم بالمودة والشفقة والنصح لأنهم لا يريدون لكم الخير ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي فإذا حضر القتال رأيت أولئك المنافقين في شدة رغب لا مثيل لها، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم كحال المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حَذراً وخَوراً، قال القرطبي: وصفهم بالجبن، وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محدّداً بصره، وربما غُشي عليه من شدة الخوف[٣] ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي فإذا ذهب الخوف عنهم وانجلت المعركة آذَوْكُم بالكلام بألسنة سَليطة، وبالغوا فيكم طعناً وذمًا، قال قتادة: إذا كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم يقولون: أعطونا أعطونا فإنا قد شهدنا معكم، ولستم أحقَّ بها منا، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وأمّا عند الغنيمة فأشح قوم وأبسطهم لسانـاً[٤] ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي خاطبوكم بما خاطبوكم به حال كونهم أشحة أي بخلاء على المال والغنيمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من صفات السوء، لم يؤمنوا حقيقةً بقلوبهم وإن أسلموا ظاهراً ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم، لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي وكان الإحباط سهلاً هيناً على الله، ثم أخبر تعالى عنهم بما يدل على جبنهم فقال: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجبنهم أن الأحزاب وهم كفار قريش ومن تحزب معهم بعد انهزامهم لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد انصرفوا ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي وإن يرجع إليهم الكفار كرة ثانية للقتال يتمنوا لشدة جزعهم أن يكونوا في البادية من الأعراب لا في المدينة معكم حذراً من القتل وتربصاً للدوائر ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي يسألون عن أخباركم وما وقع لكم فيقولون: أهَلَك المؤمنون؟ أغَلَب أبو سفيان؟ ليعرفوا حالكم بالإستخبار لا

(١) «حاشية الصاوي» ٣/ ٢٧٣.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٢٢٠.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٥٣.
(٤) «زاد المسير» ٦/ ٣٦٦، و«تفسير القرطبي» ١٤/ ١٥٤.

بالمشاهدة ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو أنهم كانوا بينكم وقت القتال واحتدام المعركة ما قاتلوا معكم إلا قتالاً قليلاً، لجبنهم وذلتهم وحرصهم على الحياة.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير لإفادة الإستغراق والشمول ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ وإدخال حرف الجر الزائد لتأكيد الإستغراق، وذكر الجوف ﴿فِي جَوْفِهِ﴾ لزيادة التصوير في الإنكار.

٢ - جناس الإشتقاق ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

٣ - الطباق بين ﴿أَخْطَأْتُم بِهِ .. تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وبين ﴿سُوءًا .. رَحْمَةً﴾ لأن المراد بالسوء الشر، وبالرحمة الخير.

٤ - التشبيه البليغ ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ حُذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً، وأصل الكلام: وأزواجه مثل أمهاتهم في وجوب الإحترام والتعظيم، والإجلال والتكريم.

٥ - المجاز بالحذف ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي أولى بميراث بعض.

٦ - ذكر الخاص بعد العام للتشريف ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين ولكنه خصهم بالذكر تنويهاً بشأنهم وتشريفاً لهم.

٧ - الاستعارة ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ استعار الشيء الحسي وهو الغلظُ الخاص بالأجسام للشيء المعنوي وهو بيان حرمة الميثاق وعظمه وثقل حمله.

٨ - الالتفات ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ﴾ وغرضه التبكيت والتقبيح للمشركين.

٩ - الطباق بين ﴿مِّن فَوْقِكُمْ .. أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

١٠ - التشبيه التمثيلي ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

١١ - المبالغة في التمثيل ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ صوَّر القلوب في خفقاتها واضطرابها كأنها وصلت إلى الحلقوم.

١٢ - الكناية ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ كناية عن الفرار من الزحف.

١٣ - الاستعارة المكنية ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ شبَّه اللسان بالسيف المصلت وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق بمعنى الضرب على طريق الاستعارة المكنية، ولفظ ﴿حِدَادٍ﴾ ترشيح[1].

(١) (ش): ترشيح الاستعارة أن يُذكَر فيها ما يلائم المشبَّه به، تقويةً لها. مثل: خُلُقُ فلانٍ أَرَقُّ مِن أنفاسِ الصَّبَا إذا غازلَتْ أزهارَ الرُّبَي.الصَّبَا: ريحٌ مَهَبُّها جهة الشَّرق، والرُّبَي جمع رَبْوَة: وهي ما ارتفع من الأرض بين سهلين نهريين. (غازلَتْ أزهار الرُّبَي) ذُكِرَت لتلائم المشبه به وهو الإنسان في نفس تصوير عمل الصَّبَا في الرُّبَى.

١٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا .. مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ونحوه وهو يزيد في رونق الكلام وجماله، لما له من وقع رائع[1]، وجرْس عذب.

تنبيه: خاطب الله تعالى الأنبياء بأسمائهم فقال ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]، ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤،١٠٥]، ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[الأعراف: ١٤٤] ولم يخاطب الرسول إلا بلفظ النبوة والرسالة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[المائدة: ٦٧] إلخ ولا نجد في القرآن العظيم كله نداء له باسمه، وإنما النداء بلفظ النبوة والرسالة، وفي هذا تفخيم لشأنه، وتعظيم لمقامه، وإشارة إلى أنه سيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين، وتعليم لنا الأدب معه ﷺ، فلا نذكره إلا مع الإجلال والإكرام، ولا نصفه إلا بالوصف الأكمل ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣][2] الآية.

لطيفة: إن قيل: ما الفائدة بأمر الله رسوله بالتقوى وهو سيد المتقين؟ فالجواب أنه أمرٌ بالثبات والاستدامة على التقوى كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] أي اثبتوا على الإيمان وكقول المسلم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وهو مهتد إليه وغرضه ثبتنا على الصراط المستقيم، أو نقول: الخطاب للرسول ﷺ والمراد أمته.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا
وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ
وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ

(١) ذكرنا الأمثلة البلاغية بإيجاز على سبيل المثال لا الحصر، ليتذوق القارئ بعض الروائع البيانية وإلا فكلام الله معجز وفيه من الصور البلاغية والأسرار البيانية ما يتذوقها الإنسان ويعجز عن وصفها اللسان.

(٢) انظر ما كتبه أبو حيان في «البحر المحيط» ٧/ ٢١٠، وما كتبه القاضي عياض في كتابه «الشفا» فقد أجاد كل منهما وأفاد.

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى
قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ
تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ
ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ
لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ
كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا
﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا
﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ
وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ
وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا

المناسَبَة: لما ذكر تعالى غزوة الأحزاب، وموقف المنافقين المذبذبين منها، بالقعود عن الجهاد، وتثبيط العزائم، أمَرَ المؤمنين في هذه الآيات بالاقتداء بالرسول الكريم في صبره وثباته، وتضحيته وجهاده، ثم جاء الحديث عن زوجات رسول الله الطاهرات، وأمرهنَّ بالاقتداء برسول الله ﷺ في زهده، وعدم التطلع إلى زهرة الدنيا لأنهن قدوة لسائر نساء المؤمنين.

اللغَة: ﴿أُسْوَةٌ﴾ الأسوة: القدوة وفيها لغتان كسر الهمزة وضمها يقال: ائتسى فلان بفلان أي اقتدى به. ﴿نَحْبَهُۥ﴾ النَّحب: النذرُ والعهد يقال: نَحَبَ ينحب من باب قَتل نَذر، ومن باب ضَرب بَكى، قال لبيد:

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ ... أَنَحْبٌ فَيُقْضَى أَمْ ضَلَالٌ وَبَاطِلُ[1]

ويقال: قضَى نحْبَه إذا مات، وعبَّر به عن الموت لأن كل حي لا بدَّ أن يموت، فكأنه نَذْرٌ لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نحبه أي نذره[2]. ﴿صَيَاصِيهِمْ﴾ حصونهم جمع

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٥٨.
(٢) تفسير «الكشاف» ٣/ ٤٢١.

صيصية وهو ما يُتحصن به، قال الشاعر:

فَأَصْبَحَتِ الثِّيرَانُ صَرْعَى وَأَصْبَحَتْ نِسَاءُ تَمِيمٍ يَبْتَدِرْنَ الصَّيَاصِيَا[١]

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ متعة الطلاق، وأصل المتاع ما يُتبلَّغ به من الزاد، ومنه متعة المطلقة لأنها تنتفع وتتمتع به[٢]. ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أُطَلِّقكنَّ، وأصل التسريح في اللغة: الإرسال والإطلاق[٣]. ﴿تَبَرُّجَ﴾ تبرجت المرأة: أظهرت زينتها ومحاسنها للأجانب[٤]، وأصله من الظهور ومنه سمي البرج لسعته وظهوره. ﴿وَقَرْنَ﴾ الزمن بيوتكن من قولهم: قررتُ بالمكان أقرُّ به إذا بقيت فيه ولزمته، والقرار: مصدر، وأصل «قرن» قررن حذفت الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها، واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف[٥]. ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ في اللغة: القذر والنجاسة، وعُبِّر به هنا عن الآثام لأن عرض المقترف للقبائح يتلوث بها ويتندس، كما يتلوث بدنه بالنجاسات[٦].

سَبَبُ النّزول: أخرج ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك قال: عَاب عمي «أنس بن النضر» عن قتال يوم بدر، فقال: غبتُ عن أول قتالٍ مع رسول الله ﷺ؟ لئن أشهدني الله قتالاً ليرينَّ الله ما أصنع؟ فلما كان يوم أُحُد انكشف المسلمون انهزموا فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء يعني المشركين وأعتذر إليك ممَّا صنع هؤلاء يعني المسلمين، ثم مشى بسيفه فلقيه «سعد بن معاذ» فقال: أي سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أُحد! ثم قاتل حتى قتل، فقال سعد: يارسول الله: ما استطعت أن أصنع ما صنع، قال أنس بن مالك: فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربةٍ بسيف، أو طعنةٍ برمح، أو رمية بسهم، فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته ببنانه رءوس الأصابع قال أنس: فكنا نتحدث أن هذه الآية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ نزلت فيه وفي أصحابه[٧]. ب- وروى الإمام أحمد عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «أقبل أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْه يستأذن رسول الله ﷺ والناسُ ببابه جلوس فلم يُؤذن له، ثم أقبل عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه فاستأذن فلم يُؤذن له، ثم أُذن لأبي بكرٍ وعمر فدخلا والنبي ﷺ جالسٌ وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٦١. (ش): ابتدرَ القومُ أمرًا: تَسارَعُوا إليه.

(٢) «المصباح المنير» ٢/ ٢٢٦.

(٣) «المعجم الوسيط» ١/ ٤٢٧.

(٤) «المصباح المنير» ١/ ٤٨.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٧٨.

(٦) «الكشاف» ٣/ ٤٢٥.

(٧) تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/ ٨٥، وأسباب النزول للواحدى ٢٣٧. (ش): رواه البخاري ومسلم.

فقال يا رسول الله: لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفاً فوجَأْتُ عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدتْ نواجذه، وقال: «هُنَّ حَوْلِي يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ» فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصه كلاهما يقولان: تسألانِ رسول الله ما ليس عنده؟ فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، وأنزل الله آية الخيار ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فبدأ بعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فقال لها: «إِنِّي أَذْكُرُ لَكَ أَمْراً ما أُحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيه حَتَّى تَسْتَأْمِري أَبَوَيْكِ»، قالت: ما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية فقالت: أَفيك أستأمرُ أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألاّ تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال: «إِنَّ الله لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّفَاً وَلكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمَاً وَمُيَسِّراً، لا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إلا أَخْبَرْتُهَا»[1].

ج- عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت للنبي ﷺ يا نبيُّ الله: ما لي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن، والنساء لا يُذكرن ؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ..﴾[2] الآية.

التفسير: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقد كان لكم أيها المؤمنون في هذا الرسول العظيم قدوةٌ حسنة، تقتدون به ﷺ في إخلاصه، وجهاده، وصبره، فهو المثل الأعلى الذي يجب أن يُقتدى به، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوى، بل عن وحي وتنزيل، فلذلك وجب عليكم تتبع نهجه، وسلوك طريقه ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ أي لمن كان مؤمناً مخلصاً يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي وأكثر من ذكر ربه، بلسانه وقلبه، قال ابن كثير: أمر تبارك وتعالى الناسَ بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته، ومجاهدته ومرابطته، ولهذا قال للذين تضجَّروا وتزلزلوا، واضطربوا يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ والمعنى: هَلَّا اقتديْتُم به وتأَسَّيْتُم بشمائله ﷺ[3]! ثم حكى تعالى موقف المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب أثناء رؤيتهم جنود قريش ومن تحزَّب معهم، وما صدر عن المؤمنين من إخلاصٍ ويقين، تظهر بوضوح روح الإيمان والتضحية فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد كذا في «ابن كثير» ٣/ ٩٢. (ش): ورَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قوله: «وَجَأْتُ عُنقَها»، أي: ضرَبْتُه. والناجذ: آخر الأضراس، وللإنسان أربعة نواجذ، وهو الذي يقال له: ضِرْس العَقْل، (فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَا نَاجِذُهُ): كناية عن شدة الضحك وبلوغه فيه الغاية.

(٢) رواه النسائي في«سننه» عن أم سلمة. (ش): أخرجه النسائي في «تفسيره» ورواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٨٨.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ولمَّا رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم وقد أحاطوا بهم من كل جانب إِحاطة السوار بالمعصم، قالوا: هذا ما وعدنا به الله ورسولُه، من المحنة والابتلاء، ثم النصر على الأعداء ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي صدق الله في وعده، ورسولُه في، بشرنا به، قال المفسرون: «لما كان المسلمون يحفرون الخندق اعترضتهم صخرة عظيمة عجزوا عن تكسيرها، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء وأخذ المعول وضربها ثلاث ضربات أضاءت له منها مدائن كسرى، وقصور الروم، فقال: «أَبْشِرُوا بِالنَّصْرِ»، فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[1] ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي وما زادهم ما رأوه من كثرة جند الأحزاب، ومن شدة الضيق والحصار، إِلا إِيماناً قوياً عميقاً بالله، واستسلاماً وانقياداً لأوامره ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي ولقد كان من أولئك المؤمنين رجالٌ صادقون، نذروا أنهم إِذا أدركوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي فمنهم من وفّى بنذره وعهده حتى استشهد في سبيل الله كأنس بن النضر وحمزة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ أي ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي وما غيَّروا عهدهم الذي عاهدوا عليه ربهم أبداً ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي ليجزي الله الصادقين بسبب صدقهم وحُسن صنيعهم أحسن الجزاء في الآخرة ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي ويعذّب المنافقين الناقضين للعهود بأن يُميتَهم على النفاق فيعذبهم، أو يتوب عليهم فيرحمهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة رحيماً بالعباد، قال ابن كثير: ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى هي الغالبة لغضبه ختم بها الآية الكريمة[2] ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ أي وردَّ الله الأحزاب الذين تألبوا على غزو المدينة خائبين خاسرين، مَغيظين مُحْنَقين[3]، لم يَشْفِ صدورهم بنَيْل ما

---

(١) انظر حاشية الصاوي ٣/ ٢٧٠. (ش): عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ – رضي الله عنه – قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم – بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم – فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم –، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: «بِسْمِ اللهِ» فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ» وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ»، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا» (إسناده حسن رواه الإمام أحمد).

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٨٩.

(٣) (ش): غاظه: أغضبه أشدَّ الغضب. أحنَق فلانًا: غاظه غيظًا شديدًا.

أرادوا ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ أي حال كونهم لم ينالوا أيَّ خير لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل قد اكتسبوا الآثام في مبارزة الرسول عليه السلام وهمّهم بقتله ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي كفاهم شرَّ أعدائهم بأن أرسل عليهم الريح والملائكة حتى ولّوا الأدبار منهزمين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي قادراً على الانتقام من أعدائه، عزيزاً غالباً لا يُقهر، ولهذا كان عليه السلام يقول: «لا إِلهَ إِلا الله وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الأحزاب وَحْدَهُ»[١]. ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي وأنزل اليهود وهم بنو قريظة الذين أعانوا المشركين ونقضوا عهدهم وانقلبوا على النبي وأصحابه، أنزلهم من حصونهم وقلاعهم التي كانوا يتحصّنون فيها ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي ألقى الله في قلوبهم الخوف الشديد حتى فتحوا الحصون واستسلموا، قال ابن جزي: نزلت الآية في يهود «بني قريظة» وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله ﷺ فنقضوا عهده وصاروا مع قريش[٢]، فلما انهزم المشركون وانصرفت قريش عن المدينة حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة حتى نزلوا على حكم «سعد بن معاذ» فحكم بأن يُقتل رجالهم، ويُسبى نساؤهم وذريتهم[٣] فذلك قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني الرجال وقتل منهم يومئذٍ مابين الثمانمائة والتسعمائة ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ يعني النساء والذرية ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي وأورثكم يا معشر المؤمنين أرضي بني قريظة وعقارهم وخيلهم ومنازلهم وأموالهم التي تركوها ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ أي وأرضاً أخرى لم تطؤوها بعدُ بأقدامكم، وهي خيبر لأنها أُخذت بعد قريظة، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على كل ما أراد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال أبو حيان: ختم تعالى هذه الآية ببيان قدرته على كل شيء، وكأن في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة، فكما ملَّكهم هذه الأراضي فكذلك هو قادر على أن يملّكهم غيرها من البلاد[٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ أي قل لزوجاتك اللاتي تأذيتَ منهن بسبب سؤالهن إياك الزيادة في النفقة ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي إن رغبتُنَّ في سعة الدنيا ونعيمها، ويهرجها الزائل ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي فتعالينَ حتى أدفع لكنَّ متعة الطلاق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي وأطلقكُنَّ طلاقاً من غير ضرار ﴿وَإِن كُنتُنَّ

(١) أخرجه الشيخان.
(٢) (ش): ضعيف، أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى".
(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٣٦، وانظر تفصيل القصة في «زاد المسير» ٦/ ٣٣٧. (ش): روى البخاري ومسلم قصة حكم «سعد بن معاذ» بأن يُقتل رجال بني قريظة، ويُسبى نساءهم وذريتهم.
(٤) «البحر المحيط» ٧/ ٢٢٥.

﴿تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي وإن كنتُـنَّ ترغبـن في رضوان الله ورسـوله، والفوز بالنعيم الوفير في الدار الآخرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ جواب الشـرط أي فإن الله تعالى قد هيأ للمحسـنات منكنَّ بمقابلة إحسـانهن ثواباً كبيراً لا يوصف، وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سـمت، ولا خطر على قلب بشـر، قال في البحر: لمـا نصر الله نبيه، وفرّق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظنَّ أزواجه أنه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله بناتُ كسرى وقيصر في الحُليّ والحُلَل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق! وآلَمْنَ قلبه بمطالبتهن له بتوسـعة الحال، وأن يعاملهـنَّ بما يعامل به الملوك والأكابـر أزواجهم، فأمره الله أن يتلو عليهن ما أنزل في أمرهنَّ، وأزواجه إذ ذاك تسع زوجات[1] ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي مـن تفعل منكـن كبيرةً من الكبائـر، أو ذنباً تجاوز الحـدَّ في القبح، قال ابـن عباس: يعني النشـوز وسـوء الخلق[2] ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي يكـن جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النسـاء، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة[3] ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي كان ذلك العقاب سـهلاً يسـيراً على الله، لا يمنعه منه كونهنَّ أزواج ونساء النبي ﷺ، وفي الآية تلوين للخطاب، فبعد أن كانت المخاطبة لهن على لسـان رسـول الله ﷺ وجّـه الخطاب إليهنَّ هنا مباشـرةً لإظهار الاعتناء بأمرهـن ونصحهن، قال الصاوي: وهـذه الآيات خطاب مـن الله لأزواج النبي ﷺ إظهاراً لفضلهـن، وعِظم قدرهن عند الله تعالى، لأن العتاب والتشـديد في الخطاب مُشْعِرٌ برفعة رُتبتهن، لشدة قربهن من رسول الله ﷺ ولأنهـن أزواجه في الجنة، فبقدر القرب من رسـول الله يكـون القرب من الله[4] ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ومـن تواظـب منكنَّ على طاعة الله وطاعة رسـوله ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي وتتقـرب إليه بفعل الخيـر وعمل الصالحات ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي نعطها الثـواب مضاعفاً ونثيبهـا مرتين: مرة على الطاعـة والتقوى، وأخرى علـى طلبهنَّ رضاء رسـول الله ﷺ بالقناعة وحسـن المعاشـرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي وهيأنا لها في

---

(١) نفس المرجع السابق ٧/ ٢٢٧. (ش): ذكره القسطلاني في «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (٢/ ٣١٩) بدون إسناد. ولكن قصة تخيير النبي ﷺ لنسائه – رضي الله عنهن – رواها مسلم، انظر ما ورد في سبب النزول، رقم ب.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٣٨٧.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٤٢٤.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٧٦.

الجنة زيادة على ما لها من أجر رزقاً حسناً مرضياً لا ينقطع، ثم أظهر فضيلتهنَّ على النساء فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي أنتن تختلفن عن سائر النساء من جهة أنكنَّ أفضل وأشرف من غيركن، لكونكن زوجات خاتم الرسل، وأفضل الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، فليست الواحدة منكنَّ كالواحدة من آحاد النساء ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ شرطٌ حذف جوابه لدلالة ما قبله أي إن اتقيتنَّ الله فأنتُنَّ بأعلى المراتب، قال القرطبي: بيَّن تعالى أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى، لما منحنَّ الله من صحبة رسوله سيد الأولين والآخرين[١]، وقال ابن عباس: يريد في هذه الآية: ليس قدركنَّ عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتُنَّ أكرمُ عليَّ وثوابكنَّ أعظم إن اتقيتُن، فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ[٢] ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي فلا ترققن الكلام عند مخاطبة الرجال ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أي فيطمع مَن كان في قلبه فجور وريبة، وحب لمحادثة النساء ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبة فيه، ولا لِين ولا تكَسُّر عند مخاطبتكنَّ للرجال[٣] قال ابن كثير: ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلامٍ ليس فيه ترخيم[٤]، ولا تخاطب الأجنبيَّ كما تخاطب زوجها ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزَمْنَ بيوتكنَّ ولا تخرجن لغير حاجة، ولا تفعلن كما تفعل الغافلات، المتسكعات في الطرقات لغير ضرورة ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي لا تظهرن زينتكن ومحاسنكنَّ للأجانب مثل ما كان نساء الجاهلية يفعَلْن، حيث كانت تخرج المرأة إلى الأسوق مظهرةً لمحاسنها، كاشفةً ما لا يليقُ كَشْفُه من بدنها، قال قتادة: كانت لهن مشية فيها تكسُّرٌ وتغنُّجٌ[٥] فنهى الله تعالى عن ذلك ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي حافِظْنَ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال ابن كثير: نهاهنَّ أولاً عن الشر، ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين[٦] ﴿وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي أطعن الله

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٧٧.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٣٧٨.

(٣) أقول: إذا كان القرآن يمنع المرأة أن تتلاين في كلامها مع الرجال الأجانب لئلا يطمع بها الفساق والفجار، فكيف بمن تثير الكوامن والشجون بالغناء الماجن الذي كله ميوعة وانحلال، وتختلط فيه أصوات المغنين مع المغنيات في الحفلات الساهرة الداعرة وتنقله الإذاعات، ثم نسمع بعض أدعياء العلم يُحَبِّذُون هذا بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة؟ اللهم إنا نعوذ بك من شر هذا الزمان الذي فسق فيه الشبان، وطغت فيه النساء وأصبح المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٤) (ش): تَرْخِيمُ الصَّوْتِ: جَعْلُهُ رَقِيقًا لَيِّنًا.

(٥) (ش): تغنَّجتِ المرأةُ: غنِجت؛ تدلَّلَت على زوجها بمَلاحَة (أي بظرافة) كأنّها تخالِفه وليس بها خلاف.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٩.

ورسوله في جميع الأوامر والنواهي لِتَنَلْنَ مرتبة المُتَّقِيَات ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي إنما يريد الله أن يخلصكنَّ من دنس المعاصي، ويطهركنَّ من الآثام، التي يتندس بها عِرض الإنسان كما يتلوث بدنه بالنجاسات ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي يا أهل بيت النبوة ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي ويطهركم من أوضار الذنوب المعاصي تطهيراً بليغاً ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي واقرأن آيات القرآن، وسنة النبي ﷺ، فإن فيهما الفلاح والنجاح، قال الزمخشري: ذكّرهن أن بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهنَّ ألاّ ينسين ما يُتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين: آيات بينات تدل على صدق النبوة، وحكمة وعلوم وشرائع سماوية[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي عالماً بما يصلح لأمر العباد، خبيراً بمصالحهم ولذلك شرع للنا ما يُسعدهم في دنياهم وآخرتهم، ثم أخبر تعالى أن المرأة والرجل في الجزاء والثواب سواء فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ هم المتمسكون بأوامر الإسلام المتخلقون بأخلاقه رجالاً ونساءً ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي المصدِّقين بالله وآياته، وما أُنزل على رسله وأنبيائه[2] ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ أي العابدين الطائعين، المداومين على الطاعة ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ أي الصادقين في إيمانهم، ونياتهم، وأقوالهم، وأعمالهم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ أي الصابرين على الطاعات وعن الشهوات في المكره والمنشط ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ أي الخاضعين الخائفين من الله جل وعلا، المتواضعين له بقلوبهم وجوارحهم ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أي المتصدقين بأموالهم على الفقراء، بالإحسان وأداء الزكوات ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ أي الصائمين لوجه الله شهر رمضان وغيره من الأيام، فالصوم زكاة البدن يزكيه ويطهّره ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي عن المحارم والآثام، وعما لا يحل من الزنى وكشف العورات ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ أي المديمين ذكر الله بألسنتهم وقلوبهم في كل الأوقات والأمكنة ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي أعدَّ لهؤلاء المتقين الأبرار، المتصفين بالصفات الجليلة أعظم الأجر والثواب وهو الجنة، مع تكفير الذنوب بسبب ما فعلوه من الأعمال الحسنة.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) «الكشاف» ٣/ ٤٢٥.

(٢) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصرٌ ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

١ - الإطناب بتكرار الاسم الظاهر ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ كرر الإسم الكريم للتشريف والتعظيم.

٢ - الاستعارة ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ النحبُ، النَّذْر، واستعير للموت، لأنه نهاية كل حي، فكأنه نَذْرٌ لازم في رقبة الإنسان(١).

٣ - الجملة الاعتراضية ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ للتنبيه على أن أمر العذاب أو الرحمة موكول لمشيئته تعالى.

٤ - المقابلة بين ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وبين ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

٥ - التشبيه البليغ ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي كتبرج أهل الجاهلية حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فصار بليغاً.

٦ - عطف العام على الخاص ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فإن إطاعة الله ورسوله تشمل كل ما تقدم من الأوامر والنواهي.

٧ - الإستعارة ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ.. أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ استعار الرجس للذنوب، الطهر للتقوى لأن عِرْض المرتكب للمعاصي يتدنس، وأما الطاعة فالعِرض معها نقيٌّ مَصُونٌ كالثوب الطاهر.

٨ - الإيجاز بالحذف ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ حذف المفعول لدلالة السابق عليه أي والحافظات فروجهن.

٩ - التغليب ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ غلَّب الذكور وجمع الإناث معهم ثم أدرجهم في الضمير.

١٠ - توافق الفواصل مثل ﴿يَسِيرًا، قَدِيرًا، كَثِيرًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

قال الله تعالى:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ
زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ
زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ
وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟
مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا
ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ

(١) انظر «البيضاوي» ٢/ ١١٦، و«الكشاف» ٣/ ٤٢١.

وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا
﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ
رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ
فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ
مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ
ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ
خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن
يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِي
مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ
أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا
مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا

المناسَبَة: لما ذكر تعالى صفات المؤمنين وما نالوه من الدرجات الرفيعة، أعقبها ببيان أن طاعة الرسول من طاعة الله، وأمْر الرسول من أمْرِ الله، ثم ذكّرهم تعالى بالنعمة العظمى وهي بعثة السراج المنير، المبعوث رحمة للعالمين ﷺ.

اللغَـة: ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ مصدر بمعنى الاختيار من تخيَّر على غير قياس مثل الطيرة من تطيَّر[1]. ﴿مُبْدِيهِ﴾ أبدى الشيء: أظهره. ﴿وَطَرًا﴾ الوطر: الحاجة التي هي في النفس، قال الزجاج: الوطر الحاجةُ التي لك فيها هِمَّة فإذا بلغها الإِنسان يقال: قضى وطره، وقال المبرّد: الوطرُ الشهوةُ يقال: ما قضيتُ من لقائك وَطَراً أي ما استمتعتُ بك كما تشتهي نفسي وأنشد:

وَكَيْفَ ثَوَائِي بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ مَا ... قَضَى وَطَرًا مِنْهَا جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرِ[2]

﴿حَرَجٌ﴾ ضيق وإثم. ﴿خَلَوْا﴾ مضوا وذهبوا. ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ قضاءً مقضياً في الأزل ﴿بُكْرَةً﴾ البُكرة: هي أول النهار. ﴿وَأَصِيلًا﴾ الأصيل: آخر النهار. ﴿تُرْجِي﴾ تؤخر يقال:

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٢٣٣.
(٢) نفس المرجع ٧/ ٢٠٩. (ش): ثَوَى بِالْمَكَانِ/ ثَوَى فِي الْمَكَانِ، ثَواءً: أَقَامَ وَاسْتَقَرّ.

أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخرته[١]. ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ تضم ومنه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩].

سَبَبُ النّـزول: عن ابن عباس قال: «خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لمولاه «زيد بن حارثة» فاستنكفت منه وكرهت وأبت فنزلت الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ..﴾ الآية فأذعنت زينب حينئذٍ وتزوجته.. وفي رواية «فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش فلما نزلت الآية جاء أخوها فقال يا رسول الله مُرْني بما شئت قال: «فَزَوِّجْهَا مِنْ زَيْدٍ»، فرضي وزوَّجها»[٢].

التفسير: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾ أي لا ينبغي ولا يصح ولا يليق بأي واحدٍ من المؤمنين والمؤمنات ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا﴾ أي إذا أمر الله عَزَّ وَجَلَّ وأمر رسوله بشيءٍ من الأشياء، قال الصاوي: ذِكْرُ اسم الله للتعظيم وللإشارة إلى أن قضاء رسول الله هو قضاء الله لكونه لا ينطق عن الهوى[٣] ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ أي أن يكون لهم رأيٌ أو اختيار، بل عليهم الانقياد والتسليم، قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسولُه بشيء فليس لأحدٍ مخالفته، ولا اختيار لأحدٍ ولا رأي ولا قول[٤]، ولهذا شدَّد النكير فقال: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله فقد حاد عن الطريق السوي، وأخطأ طريق الصواب، وضلَّ ضلالاً بيّناً واضحاً ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ أي اذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ بالتحرير من العبودية والإعتاق، قال المفسرون: هو زيد بن حارثة كان من سبي الجاهلية اشترته خديجة «ووهبته لرسول الله ﷺ فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه وتبنّاه[٥]، وزوَّجه ابنة عمته

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢١٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٨٧. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وفي البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه نزل في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾. قال الدكتور أكرم ضياء العمري: «وقد يتصور البعض أن زيداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكن كُفئًا للقرشيات، فالحق خلاف ذلك فهو من أوائل المسلمين السابقين، زوَّجه رسول الله بعد طلاقه زينب من عقيلات قريش أم كلثوم بنت عقبة وأروى بنت كريزة ودرة بنت أبي لهب وهند بنت العوام أخت الزبير. [السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (٢/ ٦٥٧)].

(٣) حاشية الصاوي ٣/ ٢٧٨.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٩٧.

(٥) انظر قصة زيد في كتابنا روائع البيان ٢/ ٣٤٤.

زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أي أمسكْ زوجتك زينب في عصمتك ولا تطلّقها، واتّقِ الله في أمرها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [١] أي وتضمر يا محمد في نفسك ما سيُظهره الله وهو إرادة الزواج بها [٢] قال في «التسهيل»: الذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائزٌ مباح لا إثم فيه ولا عتب، ولكنه خاف أن يقول الناس تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبنّاه، فأخفاه حياءً وحشمة وصيانة لعِرْضه من ألسنتهم، فالذي أخفاه ﷺ هو إرادة تزوُّجها[٣] ليُبطِل حكم التبني فأبدَى الله ذلك بأن قضى له بتزوُّجها ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ أي تهاب أن يقول الناسُ: تزوج محمد حليلة ابنه، والله أحقُّ أن تخشاه وحده، وأن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستتزوج بها بعد أن يطلقها زيدٌ، قال ابن عباس: خشي أن يقول المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ أي فلما قضى زيدٌ حاجته من نكاحها وطلَّقها زوجناك إياها يا محمد، وهذا نصٌّ قاطع صريح على أن الذي أخفاه رسول الله ﷺ هو إرادة الزواج بها بعد تطليق زيدٍ لها تنفيذاً لأمر الوحي، لا حبُّه لها كما زعم الأفَّاكون، ومعنى ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ جعلناها زوجةً لك، قال المفسرون: إنَّ الذي تولَّى تزويجها هو الله جل وعلا، فلما انقضت عدتها

---

(١) (ش): عَنْ أَنَسٍ قَالَ جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو فَجَعَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَقُولُ «اتَّقِ اللهَ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ». قَالَتْ عَائِشَةُ لَوْ كَانَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ. رواه البخاري

(٢) يتشبث بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية، لا زمام لها ولا خطام، للطعن في الرسول الكريم والنيل من مقامه العظيم، وجدت في بعض كتب التفسير!! من هذه الروايات الباطلة التي تلقفها «المستشرقون» وخبوا فيها وأوضعوا، أن الرسول ﷺ رأى «زينب» وهي متزوجة بزيد بن حارثة فأحبها ووقعت في قلبه فقال: «سبحان مقلب القلوب» فسمعتها زينب فأخبرت بها زيدًا، فأراد أن يطلقها فقال له الرسول: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك.. إلخ. وهذه روايات باطلة لم يصح فيها شيء كما قال العلامة: «أبو بكر بن العربي» رحمه الله، والآية صريحة في الرد على هذا البهتان، فإن الله سبحانه أخبر بأنه سيُظْهِر ما أخفاه الرسول: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فماذا أظهر الله تعالى؟ هل أظهر حب الرسول وعشقه لزينب، أمْ أن الذي أظهره هو أمْرُه عليه السلام بالزواج بها لحكمة عظيمة جليلة هي إبطال «حكم التبني» الذي كان شائعًا في الجاهلية ولهذا صرح تعالى بذلك وأبداه علنًا وجهارًا: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ يا قوم اعقلوا وفكروا، وتفهموا الحق لوجه الحق بلا تلبيس ولا تشويش وتبَصَّروا فيما تقولون فمن غير المعقول أن يعاتَب الشخص لأنه لم يُجاهِر بحبه لزوجة جاره؟ وحاشا الرسول الطاهر الكريم أن يتعلق قلبه بامرأة هي في عصمة رجل، وأن يُخفي هذا الحب حتى ينزل القرآن يعاتبه على إخفائه، فإن مثل هذا لا يليق بأي رجل عادي، فضلًا عن أشرف الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم، وغاية ما في الأمر - كما نقل في «البحر»- عن علي بن الحسين أنه قال: «أعْلَم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه قال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، عاتبه الله وقال له: أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مُبديه»!! انظر رد الفرية في كتابنا النبوة والأنبياء ٩٩.

(٣) (ش): أي بعد أن يطلقها زيدٌ رضي الله عنه امتثالاً لأمر الله له بذلك.

دخل عليها رسول الله ﷺ بلا إذنٍ ولا عقدٍ ولا مهرٍ ولا شهود، وكان ذلك خصوصية للرسول ﷺ(١). روى البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «**كَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ**» ثم ذكر تعالى الحكمة من هذا الزواج فقال: ﴿**لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا**﴾ أي لئلا يكون في تشريع الله على المؤمنين ضيق ومشقة وتَأَثُّم في حق تزوج مطلقات الأبناء من التبَنِّي، إذا لم يبق لأزواجهن حاجة فيهن، قال «ابن الجوزي»: المعنى زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي تبنَّيْتَه لكيلا يُظَنَّ أن امرأة المتبَنَّى لا يحل نكاحها ﴿**وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا**﴾ أي وكان أمر الله لك، ووحيه إليك بتزوج زينب مقَّدراً محتماً كائناً لا محالة، ولما نفى الحرج عن المؤمنين، نفى الحرج عن سيد المرسلين بخصوصه على سبيل التكريم والتشريف فقال: ﴿**مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ**﴾ أي لا حرج ولا إثم ولا عتاب على النبي فيما أباح الله له وقسم من الزوجات، قال الضحاك: كان اليهود عابوه بكثرة النكاح، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿**سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ**﴾ أي هذه سنة الله في جميع الأنبياء السابقين حيث وسَّع عليهم فيما أباحلهم، قال القرطبي: أي سُنَّ لمحمد ﷺ في التوسعة عليه في النكاح، سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان، فكان لداود مائة امرأة ولسليمان ثلاثمائة امرأة، عدا السُّريات(٢) ﴿**وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**﴾ أي قضاءً مقضياً، وحكماً مقطوعاً به من الأزل، لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، ثم أثنى تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين بقوله: ﴿**ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ**﴾ أي هؤلاء الذين أخبرْتُك عنهم يا محمد وجعلْتُ لك قدوة بهم، هم الذين يبلِّغون رسالات الله إلى من أُرسلوا إليه ﴿**وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ**﴾ أي يخافون الله وحده ولا يخافون

---

(١) (ش): ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ. وروى الطبراني في «المعجم الكبير»، والدارقطني في «سننه»، والبيهقي في «السنن الكبرى»، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» بسند ضعيف جداً عن زينب بنت جحش قالت: «... فلما انقضَتْ عدتي؛ لم أعلم إلا رسول الله ﷺ قد دخل عليَّ ببيتي وأنا مكشوفة الشعر، فقلتُ: إنه أمرٌ من السماء، فقلت: يا رسول الله! بلا خطبة ولا إشهاد؟! فقال: «الله المزوِّج، وجبريلُ الشاهد».

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٩٥. (ش): السُّرِّيَّةُ: الجاريةُ المملوكَةُ. سُرِّيّة: الجمع: سَرَارِيّ. والذي في "القرطبي": سُنَّ لِمُحَمَّدٍ ﷺ التَّوْسِعَة عَلَيْهِ فِي النِّكَاح سُنَّة الْأَنْبِيَاء الْمَاضِيَة، كَدَاوُد وَسُلَيْمَان. فَكَانَ لِدَاوُد مِائَة اِمْرَأَة وَثَلَاثمِائَةِ سُرِّيَّة. وَلِسُلَيْمَان ثَلَاثمِائَةِ اِمْرَأَة وَسَبْعمِائَةِ سُرِّيَّة. اهـ. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ - لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ بِمِائَةِ امْرَأَةٍ، تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ غُلاَمًا، يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ قُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ. فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَأَطَافَ بِهِنَّ، وَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ. قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - «لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ أَرْجَى لِحَاجَتِهِ». رواه البخاري.

أحداً سواه، فاقتد يا محمد بهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي يكفي أن يكون الله محاسباً على جميع الأعمال والأفعال، فينبغي أن لا يُخْشى غيره، ثم أبطل تعالى حكم التبني الذي كان شائعاً في الجاهلية فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ قال المفسرون: لما تزوج رسول الله ﷺ قال الناس: إن محمداً قد تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية[1] قال الزمخشري: أي لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح[2] ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي ولكنّه عليه السلام آخر الأنبياء والمرسلين، ختم الله به الرسالات السماوية، فلا نبيَّ بعده، قال ابن عباس: يريد: لو لم أختم به النبيّين لجعلتُ له ولداً يكون بعده نبياً[3] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أو هو العالم بأقوالكم وأفعالكم، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي اذكروا الله بالتهليل والتحميد، والتمجيد والتقديس ذكراً كثيراً، بالليل والنهار، والسفر والحضر ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي وسبحوا ربكم في الصباح والمساء، قال العلماء: خصّهما بالذكر لأنهما أفضل الأوقات بسبب تنزل الملائكة فيهما[4] ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ أي هو جل وعلا يرحمكم على الدوام، ويعتني بأمركم، وبكل ما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أي وملائكته يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة، قال ابن كثير: والصلاةُ من الله سبحانه ثناؤه على العبد عند الملائكة، وقيل: الصلاة من الله الرحمةُ، ومن الملائكة: الدعاءُ والاستغفار[5] ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي لينقذكم من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمات العصيان إلى نور الطاعة والإيمان ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي واسع الرحمة بالمؤمنين، حيث يقبل القليل من أعمالهم، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم، لإخلاصهم في إيمانهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾ أي تحية هؤلاء المؤمنين يوم يلقون ربهم السلامُ والإكرام في الجنة من الملك العلاّم كقوله تعالى ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي وهيأ لهم أجراً حسناً وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم، قال ابن كثير: والمراد بالأجر الكريم الجنةُ وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والملاذِّ والمناظر، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر[6]، ثم لما بيَّن تعالى أنه أخرج

---

(١) رواه الترمذي عن عائشة. (ش): رواه الترمذي، وضعفه الألباني.

(٢) «الكشاف» ٣/ ٤٣٠.

(٣) «زاد المسير» ٦/ ٣٩٣.

(٤) «حاشية الصاوي» ٣/ ٢٨١.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٠١.

(٦) رواه الترمذي عن عائشة.

المؤمنين من ظلمات الكفر والضلال إلى أنوار الهداية والإيمان، عقَّبه بذكر أوصاف السراج المنير الذي أضاء الله به الأكوان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ أي شاهداً على أمتك وعلى جميع الأمم بأن أنبياءَهم قد بلغوهم رسالة ربهم ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ﴿وَنَذِيرٗا﴾ أي ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي وداعياً للخلق إلى توحيد الله وطاعته وعبادته، بأمره جل وعلا لَا مِن تلقاء نفسك ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ أي وأنت يا محمد كالسراح الوهَّاج المضيء للناس[1]، يُهْتدَى بك في الدَّهْمَاء[2]، كما يُهْتدى بالشهاب في الظلماء، قال ابن كثير: أي أنت يا محمد كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند[3] وقال الزمخشري: شبَّهه بالسراج المنير لأن الله جلى به ظلمات الشركِ، واهتدى به الضالون، كما يُجلى ظلامُ الليل بالسراج المنير ويُهْتدى به[4]، وصفه تعالى بخمسة أوصاف كلُّها كمالٌ وجمال، وثناءٌ وجلال، وختمها بأنه صلوات الله عليه هو السراج الوضاء الذي بدَّد الله به ظلمات الضلال، فصلواتُ ربي وسلامه عليه في كل حين وآن ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين خاصة بأنَّ لهم من الله العطاء الواسع الكبير في جنات النعيم ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أي لا تطعهم فيما يطلبونه منك من المساهلة والملاينة في أمر الدين، بل اثبت على ما أُوحي إليك ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ أي ولا تكترث بإذايتهم لك، وصدّهم الناس عنك ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: واعتمد في جميع أمورك وأحوالك على الله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أي: إن الله يكفي من توكل عليه في أمور الدنيا والآخرة، قال الصاوي: وفي الآية إشارة إلى أن التوكل أمره عظيم، فمن توكل على الله كفاه ما أهمَّه من أمور الدنيا والدين[5]، ولما كان الحديث عن نساء النبي ﷺ وقصة زيد وتطليقه لزينب، جاء الحديث عن نساء المؤمنين والطريقة المثلى في تطليقهن فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدَّقوا بالله ورسوله[6] إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٠٢.
(٢) (ش): الدَّهْماء: عامَّةُ الناس وجماعَتُهُم.
(٣) نفس المرجع السابق ٣/ ١٠٣.
(٤) «الكشاف» ٣/ ٤٣٢.
(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٨٢.
(٦) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصرٌ ومخالفٌ لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

أي ثم طلقتموهنَّ من قبل أن تجامعوهنَّ، وإنما خصَّ المؤمنات بالذكر مع أن الكتابيات يدخلن في الحكم، للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخيَّر لنطفته، وألاّ ينكح إلاّ مؤمنة عفيفة[١] ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي فليس لكم عليهن حق في العدة تستوفون عددها عليهن، لأنكم لم تعاشروهن فليس هناك احتمال للحمل حتى تحتسبوا المرأة من أجل صيانة نسبكم ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي فالواجب عليكم إكرامهن بدفع المتعة بما تطيب نفوسكم به من مالٍ أو كسوةٍ، تطييباً لخاطرهن، وتخفيفاً لشدة وقع الطلاق عليهن ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي وخلّوا سبيلهنَّ تخليةً بالمعروف[٢]، من غير إضرار ولا إيذاء، ولا هضم لحقوقهن، قال أبو حيان: والسراحُ الجميلُ هو كلمة طيبة دون أذى ولا منع واجب[٣]، ثم ذكر تعالى ما يتعلق بأحوال زوجات الرسول ﷺ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي إنا قد أبَحْنا لك يا محمد أنواعاً من النساء، توسعةً عليك وتيسيراً لك في تبليغ الدعوة، فمن ذلك أننا أبَحْنا لك زوجاتك اللاتي تزوجتهن بصداقٍ مُسمًّى، وهنَّ في عصمتك[٤] ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي وأبحنا لك أيضاً النساء اللاتي تملكهن في الحرب بطريق الانتصار على الكفار، وإنما قيَّدهن بطريق الغنائم لأنهم أفضلُ من اللائي يُمْلَكْن بالشراء، فقد بذل في إحرازهنَّ جهدٌ ومشقة لم يكُن في الصنف الثاني ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي وأبحنا لك قريباتك من بنات الأعمام والعمات، والأخوال والخالات بشرط الهجرة معك ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أي وأحللنا لك النساء المؤمنات الصالحات اللواتي وهبن أنفسهن لك، حبًّا في الله ورسوله وتقرباً لك ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي إن أردت يا محمد أن تتزوج مَن شئت منهن بدون مهر ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي خاصة لك يا محمد من دون سائر المؤمنين، فإنه لا يحل لهم التزوج بدون مهر، ولا تصح الهبة، بل يجب مهر المثل ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين من نفقةٍ، ومهر، وشهود في العقد، وعدم تجاوز أربع من النساء، وما أبحنا لهم من مِلْك اليمين

---

(١) انظر «الكشاف» ٣/ ٤٣٣.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٢/ ١٤.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٢٤٠.

(٤) هذا أحد قولين للمفسرين، والآخر أن المراد جميع النساء فقد أباح الله لرسوله ﷺ أن يتزوج كل امرأة يعطيها مهرها، وهذا أوسع من الأول واختاره القرطبي واستدل بحديث عائشة: «ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء» انظر «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٠٧. (ش): ضعيف. ضعفه ابن العربي في «أحكام القرآن» والأرنؤوط في تعليقه على «المُسنَد».

عدا الحرائر، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيراً لك ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي لئلا يكون عليك مشقة أو ضيق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي ولك أيها النبي الخيار في أن تطلق من تشاء من زوجاتك، وتُمسك من تشاء منهن[١] ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي وإذا أحببتَ أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتَ من القسمة فلا إثم عليك ولا عتب ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي ذلك التخيير الذي خيرناك في أمرهنَّ أقرب أن ترتاح قلوبهن فلا يحزنَّ، ويرضين بصنيعك، لأنهن إذا علمن أن هذا أمرٌ من الله، كان أطيب لأنفسهن فلا يشعرن بالحزن والألم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ خطابٌ للنبي على جهة التعظيم أي يعلم ما في قلبك يا محمد وما في قلب كل إنسان، من عدل أو ميل، ومن حب أو كراهية، وإنما خيرناك فيهن تيسيراً عليك فيما أردت ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي واسع العلم يعلم جميع ما تظهرون وما تخفون، حليماً يضع الأمور في نصابها ولا يعاجل بالعقوبة، بل يُؤخر ويمهل لكنه لا يُهْمل، روى البخاري عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: «كنتُ أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهبُ المرأة نفسها؟ فلما نزلت ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى ربك إلاّ يسارع في هواك»[٢] ثم قال تعالى ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي لا يحل لك أيها النبي النساء من بعد هؤلاء التسع اللائي في عصمتك ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ أي ولا يحل لك أن تطلّق واحدة منهن وتنكح مكانها أُخرى ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي ولو أعجبك جمال غيرهن من النساء ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي إلا ما كان من الجواري والإماء فلا بأس في ذلك لأنهن لسن زوجات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي مطلعاً على أعمالكم شاهداً عليها، وفيه تحذير من مجاوزة حدوده، وتخطي حلاله وحرامه. قال المفسرون: أباح الله لرسوله أصنافاً أربعة «المهورات، المملوكات، المهاجرات، الواهبات أنفسهن» توسعة عليه ﷺ وتيسيراً له في نشر الرسالة وتبليغ الدعوة، ولما نزلت آية التخيير ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ..﴾ [الأحزاب: ٢٨] الآية، وخيَّرهن عليه السلام، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أكرمهن الله تعالى بأن قصره عليهن، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن.

---

(١) هذا قول ابن عباس، وقال مجاهد والضحاك: تقسم لمن شئت وتؤخر عنك من شئت، وتقلل لمن شئت وتكثر لمن شئت، لا حرج عليك في ذلك، كذا في «البحر المحيط» ٧/ ٢٤٧.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهـاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – التنكير لإفادة العموم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي ليس لواحدٍ منهم أن يريد غير ما أراد الله ورسوله.

٢ – الطباق بين ﴿تُخْفِي.. مُبْدِيهِ﴾ وبين ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ .. و.. ٱلنُّورِ﴾ وبين ﴿مُبَشِّرًا .. و.. وَنَذِيرًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٣ – جناس الاشتقاق ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

٤ – طباق السلب ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾.

٥ – التشبيه البليغ ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أصل التشبيه: أنت يا محمد كالسراج الوضاء في الهداية والإرشاد، حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم: علي أسدٌ، ومحمدٌ قمر.

٦ – الكناية ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ كنَّى عن الجماع بالمسِّ وهي من الكنايات المشهورة ومن الآداب القرآنية الحميدة لأن القرآن يتحاشى الألفاظ البذيئة. ٧ – الطباق بين ﴿بُكْرَةً .. و.. وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿تُرْجِي .. و.. وَتُـْٔوِيٓ﴾ وبين ﴿ٱبْتَغَيْتَ عَزَلْتَ . و.. عَزَلْتَ﴾.

٨ – توافق الفواصل ممّا يزيد في الجمال والإيقاع عليل سمع مثل ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا .. وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ ومثل ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا .. عَلِيمًا حَلِيمًا .. غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهذا من خصائص القرآن العظيم، وهو من المحسنات البديعية.

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ
وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى
ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ
حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ
أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ
وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ
تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا
﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن

يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ
وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ
أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ
ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا
﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾ يَوۡمَ
تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا
وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ
فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ
مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ
وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا

المناسَبَة: لمّا ذكر تعالى أحوال النبي ﷺ مع أزواجه، ذكر هنا الآدب التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون عند دخلوهم بيوت النبي ﷺ من الاستئذان وعدم الإيقال، ثم بيَّن شرف الرسول بصلاة الله والملائكة عليه، وختم السورة الكريمة بالحديث عن الساعة وما يعقبها من أهوالٍ لأهل الكفر والضلال، وحال الأشقياء والسعداء في دار البقاء.

اللغَة: ﴿إِنَىٰهُ﴾ نضجه قال في «اللسان»: إنَى الشيءِ بلوغُه وإدراكُه والإنى بكسر الهمزة والقصر: النُّضجُ[١]. ﴿مُسۡتَـْٔنِسِينَ﴾ الاستئناس: طلبُ الأنس بالحديث، تقول: استأنست بحديثه أي طلبت الأنس والسرور به، وما بالدار من أنيس، أي: ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك. ﴿مَتَٰعٗا﴾ المتاعُ: الغرض والحاجة كالماعون وغيره[٢].

﴿بُهۡتَٰنٗا﴾ البهتانُ: الافتراء والكذب الواضح، وأصله من البَهْت وهو القذف بالباطل[٣]. ﴿جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ جمع جلباب وهو الثوب الذي يستر جميع البدن وهو يشبه الملاءة «الملحفة» في زماننا، قال الشاعر:

تَمْشِي النُّسُورُ إِلَيْهِ، وَهِيَ لَاهِيَةٌ ... مَشْيَ العَذَارَى، عَلَيْهِنَّ الجَلَابِيبُ[٤]

﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ﴾ جمع مرجف وهو الذي يشيع الكذب والباطل لإخافة الناس به،

(١) انظر «لسان العرب».
(٢) (ش): ماعون (والجمع مَوَاعينُ): اسمٌ جامعٌ لمنافع البيت كالقِدْر والفأس والقصعة ونحو ذلك، ممَّا تعوّد النَّاسُ إعارتَه، والعامّة تخصّصه فلا تطلقه إلاّ على الإناء الذي يُؤكل به الطَّعام.
(٣) «المصباح المنير» ١/ ٧١.
(٤) «لسان العرب» لابن منظور.

قال الشاعر:

فَـإِنّـا وَإِنْ عَـيّـرْتُـمُـونَـا بِـقَـتْـلِـهِ وَأَرْجَـفَ بِـالْإِسْلَامِ بَاغٍ وَحَـاسِدُ[1]

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ أغراه به: حثه وسلّطه عليه. ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الاستعار.

سَبَبُ النّزول: روي عن أنس أن النبي ﷺ لما تزوّج «زينب بنت جحش» أَوْلَمَ عليها، فدعا الناس فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجتُه مولّيةٌ وجهها إلى الحائط، فثقُلوا على رسول الله ﷺ قال أنس: فما أدري أأنا أخبرت النبي ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني، قال: فانطلق حتى دخل البيتَ فذهبتُ أدخلُ معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجابُ، ووُعظ الناسُ بما وُعظوا به وأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ ..﴾ [2].

ب- وقال ابن عباس: كان ناسٌ من المؤمنين يتحيَّنون طعام النبي ﷺ فيدخلون قبل أن يُدرك الطعام، ويقعدون إلى أن يُدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون فنزلت[3].

ج- وعن عائشة أنَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: يا رسول الله، إنَّ نساءَكَ يدخلُ عليهنَّ البرُّ والفاجرُ، فلو أمرتهنَّ أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] [4] الآية.

د- عن السُّدّي أن الفُسَّاق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها وقالوا: هذه حرة، وإذا رأوها بغير قناع قالوا: أمةٌ فآذوها فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ..﴾ [5] الآية.

التفسِير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم، والآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامي العظيم والمعنى: لا تدخلوا بيوت النبي في حالٍ من الأحوال إلا في حال الإذن لكم منه عليه السلام، مراعاةً لحقوق نسائه، وحرصاً على عدم إيذائه والإثقال عليه ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي إلا حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين نُضْجه ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ أي ولكنْ إذا دُعيتم

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٤٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٢٤، وانظر كمال القصة في الصحيحين، وفيها معجزة لرسول الله ﷺ باهرة.

(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٤٢، قال ابن جزي: والقول الأول المنقول عن أنس أشهر، وقول ابن عباس أَلْيَق بما في الآية من النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم. (ش): (أَلْيَق) غير موجودة في أكثر من طبعة، والتصحيح من تفسير ابن جزي «التسهيل في علوم التنزيل». (ش): لم أجِدْه إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٤) أخرجه البخاري. (ش): ضعيف، أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» والواحدي في «أسباب النزول».

(٥) «زاد المسير» «لابن الجوزي» ٦/ ٤٢٢.

وأُذن لكـم في الدخول فادخلوا ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ أي فإذا انتهيتم من الطعام فتفرقوا إلـى دوركـم ولا تمكثـوا ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ معطـوف علـى ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ أي لا الجلوسَ يسـتأنس بعضهم ببعض لحديثٍ يحدثه به[1] ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ أي إن صنيعكم هذا يؤذي الرسـول، ويضايقه ويثقل عليه، ويمنعه من قضاءِ كثيرٍ من مصالحه وأمـوره ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ﴾ أي فيستحيي من إخراجكـم، ويمنعه حيـاؤه أن يأمركم بالانصراف، لخُلقه الرفيع، وقلبه الرحيم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي والله جل وعلا لا يترك بيان الحق، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبيانه لكم، قال القرطبي: هذا أدبٌ أدَّب الله بـه الثقـلاء، وفي كتـاب الثعلبـي: حسـبك مـن الثقـلاء أن الشـرع لـم يحتملهـم[2] ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾ أي وإذا أردتـم حاجـةً مـن أزواجـه الطاهـرات فاطلبوهـا مـن وراء حاجزٍ وحجـاب ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي سؤالكم إياهنَّ المتاع من وراء حجاب أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأطهر، وأنْفَى للريبة وسوء الظـن ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي ومـا ينبغي لكم ولا يليق بكم أن تؤذوا رسـولكم الذي هداكـم الله به في حياتـه ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي ولا أن تتزوجـوا زوجاته من بعد وفاته أبداً، لأنهن كالأمهات لكم، وهو كالوالد فهل يليق بكم أن تـؤذوه في نفسـه أو أهله؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي إن إيـذاءه ونكاح أزواجه من بعده أمر عظيم، وذنب كبير لا يغفره الله لكم، قال «أبو السعود»: وفيه من تعظيمه تعالى لشـأن رسـوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً ما لا يخفى[3] ثم قال الله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ أي إن تظهـروا أمراً مـن الأمور أو تخفوه في صدوركم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ أي فإن الله عالم به وسـيجازيكم عليه، قال «البيضاوي»: وفي هذا التعميم مع البرهـان على المقصـود مزيد تهويـلٍ ومبالغة في الوعيـد[4]، ثم لما أنـزل تعالى الحجاب اسـتثنى المحارم فقـال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ أي لا حرج ولا إثم على النسـاء في ترك الحجـاب أمـام المحارم مـن الرجال، قـال القرطبي: لما نزلـت آية الحجاب قـال الآباء والأبنـاء لرسـول الله ﷺ: ونحـنُ أيضـاً نكلمهنَّ مـن وراء حجاب؟ فنزلت هـذه الآية[5]،

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٢٤٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٢٤.

(٣) «أبو السعود» ٤/ ٢١٨.

(٤) «البيضاوي» ٢/ ١٢٠.

(٥) «القرطبي» ١٤/ ٢٣١. (ش): ذكره القرطبي وغيرُه بدون إسناد.

والمراد بـ ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ نساءُ المؤمنين، قال ابن عباس: لأن نساء اليهود والنصارى يَصفن لأزواجهن النساء المسلمات، فلا يحل للمسلمة أن تُبدي شيئًا منها لئلا تصفها لزوجها الكافر[١] ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أي اتَّقين يا معشر النساء الله، واخشينه في الخلوة والعلانية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أموركن، يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح، قال الرازي: وهذا في غاية الحسن في هذا الموضع، لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم، فختمها بأن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض، فالخلوة عنده مثل الجلْوة[٢] فعليهم أن يتقوا الله[٣]، ثم بيَّن تعالى قدر الرسول العظيم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي إن الله جل وعلا يرحم نبيَّه، ويعظّم شأنه، ويرفع مقامه، وملائكتُه الأبرار يدعون للنبي ويستغفرون له، ويطلبون من الله أن يمجّد عبده ورسوله ويُنيله أعلى المراتب، قال القرطبي: والصلاةُ من الله رحمتُه ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والإستغفار، ومن الأمة الدعاءُ والتعظيمُ لأمره[٤] وقال الصاوي: وهذه الآية فيها أعظم الدليل على أنه ﷺ مهبط الرحمات[٥]، وأفضل الأولين والآخرين على الإطلاق، إذ الصلاة من الله على نبيه رحمتُه المقرونة بالتعظيم، ومن الله على غير النبي مطلقُ الرحمة كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] فانظر الفرق بين الصلاتين، والفضل بين المقامين، وبذلك صار منبع الرحمات، ومنبعَ التجليات[٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي فأنتم أيها المؤمنون أكثروا من الصلاة عليه والتسليم، فحقه عليكم عظيم، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى، والمخرج لكم من الظلمات إلى النور، فقولوا كلما ذُكر اسمه الشريف «اللهم

(١) انظر حاشية الصاوي ٣/ ٢٨٧.
(٢) (ش): أي إن السر عنده مثل العلانية، فلا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٢٢٧.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٣٢.
(٥) (ش): هذا من الغلو في حقه ﷺ وإطراء قد نهى عنه ﷺ بقوله: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». رواه البخاري. (تُطْرُونِي): تمْدحوني، والإطراء هو الإفراط في المديح ومجاوزة الحد فيه. وقيل: هو المديح بالباطل والكذب فيه. (كما أطرت النصارى ابن مريم) أي بدعواهم فيه الألوهية وغير ذلك.
(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٨٧. (ش): هذا من الغلو في حقه ﷺ وإطراء قد نهى عنه ﷺ بقوله: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». رواه البخاري. (تُطْرُونِي): تمْدحوني، والإطراء هو الإفراط الإفراط في المديح ومجاوزة الحد. فيه وقيل: هو المديح بالباطل والكذب فيه. (كما أطرت النصارى ابن مريم) أي بدعواهم فيه الألوهية وغير ذلك.

صلّ على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً» عن كعب بن عُجرة قلنا: «يا رسول الله، قد عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك؟ فقال:» قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(١)..» الحديث، قال الصاوي: وحكمةُ صلاةِ الملائكةِ والمؤمنين على النبي ﷺ تشريفُهم بذلك، حيث اقتدوا بالله جل وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه، ومكافأةٌ لبعض حقوقه على الخلق، لأنه الواسطة العظمى في كل نعمةٍ وصَلَتْ لهم(٢)، وحقٌ على مَن وصل له نعمة من شخص أن يكافئه، ولما كان الخلق عاجزين عن مكافأته ﷺ طلبوا من القادر الملك أن يكافئه، وهذا هو السر في قولهم: «اللهم صل على محمد(٣)» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يؤذون الله بالكفر ونسبة الصاحبة والولد له، ووصفه بما لا يليق به جل وعلا كقول اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وقول النصارى ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ويؤذُون الرسول بالتكذيب برسالته، والطعن في شريعته، والاستهزاء بدعوته، قال ابن عباس: نزلت في الذين طعنوا على الرسول ﷺ حين

---

(١) المصدر السابق.

(٢) (ش): هذا من الغلو في حقه - ﷺ - وإطراء قد نَهَى عنه ﷺ بقوله: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». رواه البخاري. (تُطْرُونِي): تمْدحوني، والإطراء هو الإفراط في المديح ومجاوزة الحد فيه وقيل هو المديح بالباطل والكذب فيه. (كما أطرت النصارى ابن مريم) أي بدعواهم فيه الألوهية وغير ذلك. ليس النبي ﷺ هو الواسطة في كل نعمةٍ من الله وصلت للخلق، ولكنه الواسطة في أعظم النعم وأنفعها نعمة الإيمان، وأداء حقه ﷺ في إيصال هذه النعمة لا يكون بمخالفة أمره والمبالغة في مدحه، بل يكون بمحبته واتباعه ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما السبب في وجوب محبته ﷺ وتعظيمه أكثر من أي شخص فلأنَّ أعظم الخير في الدنيا والآخرة لا يحصل لنا إلا على يد النبي ﷺ بالإيمان به واتباعه، وذلك أنه لا نجاة لأحد من عذاب الله، ولا وصول له إلى رحمة الله إلا بواسطة الرسول؛ بالإيمان به ومحبته وموالاته واتباعه، وهو الذى ينجيه الله به من عذاب الدنيا والآخرة، وهو الذى يوصله إلى خير الدنيا والآخرة. فأعظم النعم وأنفعها نعمة الإيمان، ولا تحصل إلا به وهو أنصح وأنفع لكل أحد من نفسه وماله؛ فإنه الذى يخرج الله به من الظلمات إلى النور، لا طريق له إلا هو، وأما نفسه وأهله فلا يغنون عنه من الله شيئا..) اهـ «مجموع الفتاوى» ٢٧/ ٢٤٦. وقال بعض أهل العلم: إِذَا تَأَمَّل العبدُ النَّفْع الْحَاصِل لَهُ مِنْ جِهَة الرَّسُول ﷺ الَّذِي أَخْرَجَهُ الله به مِنْ ظُلُمَات الْكُفْر إِلَى نُور الْإِيمَان، عَلِمَ أَنَّهُ سَبَب بَقَاء نَفْسه الْبَقَاء الْأَبَدِيّ فِي النَّعِيم السَّرْمَدِيّ ، وَعَلِمَ أَنَّ نَفْعه بِذَلِكَ أَعْظَم مِنْ جَمِيع وُجُوه الانْتِفَاعَات ، فَاسْتَحَقَّ لِذَلِكَ أَنْ يَكُون حَظّه مِنْ مَحَبَّته أَوْفَر مِنْ غَيْره ، وَلَكِنَّ النَّاس يَتَفَاوَتُونَ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ اِسْتِحْضَار ذَلِكَ وَالْغَفْلَة عَنْهُ، وكلّ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِيمَانًا صَحِيحًا لا يَخْلُو عَنْ وِجْدَان شَيْء مِنْ تِلْكَ الْمَحَبَّة الرَّاجِحَة، غَيْر أَنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ. فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَة بِالْحَظِّ الْأَوْفَى ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْهَا بِالْحَظِّ الْأَدْنَى، كَمَنْ كَانَ مُسْتَغْرِقًا فِي الشَّهَوَات مَحْجُوبًا فِي الْغَفَلات فِي أَكْثَر الْأَوْقَات ، لَكِنَّ الْكَثِير مِنْهُمْ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيّ ﷺ اِشْتَاقَ إِلَى رُؤْيَته ، بِحَيْثُ يُؤْثِرهَا عَلَى أَهْله وَوَلَده وَمَاله وَوَالِده، غَيْر أَنَّ ذَلِكَ سَرِيع الزَّوَال بِتَوَالِي الْغَفَلَات، وَاَللَّه الْمُسْتَعَان». [انظر فتح الباري (١/ ٥٩)].

(٣) المصدر السابق.

اتخذ صفية بن حيي[١] ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي طردهم من رحمته، وأحلَّ عليهم سخطه وغضبه في الدنيا بالهوان والصَّغار، وفي الآخرة بالخلود في عذاب النار ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي وهيأ لهم عذاباً شديداً، بالغَ الغاية في الإهانة والتحقير ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ أي يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه، وبغير جنايةٍ واستحقاق للأذى ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ أي فقد حمَّلوا أنفسهم البهتان والكذب، والزور، والذنب الواضح الجلي، قال القرطبي: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيَّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه[٢] ولما حرَّم تعالى الإيذاء، أمر نبيه الكريم أن يوجه النداء إلى الأمة جمعاء، للتمسك بالإسلام وتعاليمه الرشيدة، وبالأخص في أمرٍ اجتماعي خطير وهو «الحجاب» الذي يصون للمرأة كرامتها، ويحفظ عليها عفافها، ويحميها من النظرات الجارحة، والكلمات اللاذعة، والنوايا الخبيثة لئلا تتعرض لأذى الفساق فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي قل يا محمد لزوجاتك الطاهرات أمهات المؤمنين وبناتك الفُضْلَيات الكريمات، وسائر نساء المؤمنين، قل لهنَّ يلبسن الجلباب الواسع، الذي يستر محاسنهن وزينتهن، ويدفع عنهم ألسنة السوء، ويميزهن عن صفاتِ نساء الجاهلية، روى الطبري عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة[٣]، وروى ابن كثير عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن قول الله عزَّ وجَلَّ: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾

(١) «زاد المسير» ٦/ ٤٢٠. (ش): ضعيف جدًا، أخرجه ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم في «تفسيرَيْهما».

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٣٨.

(٣) هذا النص عن ابن عباس صريح في وجوب سَتْر الوجه، وكذا رواية ابن كثير عن محمد بن سيرين، وغيرهما من الروايات الصحيحة والصريحة بوجوب ستر المرأة للوجه، فأين أقوال السلف الصالح وأئمة علماء التفسير الأجلاء، من أقوال أدعياء العلم في هذا العصر والزمان، الذين يبيحون للمرأة أن تكشف وجهها أمام الأجانب!! وانظر أقوال المفسرين في كتابنا «روائع البيان» ٢/ ٣٨٢. (ش): ليس من الصواب وصْف العلماء المجيزين لكشف الوجه بأدعياء العلم. ولا شك أن الراجح هو وجوب ستر المرأة لوجهها أمام الرجال الأجانب، خاصةً في هذا الزمان، فإن ممن قال بجواز كشف المرأة لوجهها وكفيها اشترط أمنَ الفتنة، وأوجب سترهما لا لأنهما عورة عنده، لكن لانتشار الفساد، وغلبة الظن بحصول الفتنة، فضلًا عن تحققها. ولمعرفة الأدلة التفصيلية من الكتاب والسُّنة على وجوب ستر الوجه وكلام المذاهب الفقهية في ذلك، والرد على شبهات مَن أجاز كشف الوجه- انظر: «حراسة الفضيلة» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، "عودة الحجاب" للدكتور محمد إسماعيل المقدَّم (المجلد الثالث)، «الدلالة المحكمة لآية الجلباب على وجوب غطاء الوجه»، للدكتور لطف الله بن ملا عبد العظيم خوجه.

فغطّى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى[١] ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ أي ذلك التستر أقرب بأن يُعْرفن بالعفة والتستر والصيانة، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد، وقيل: أقرب بأن يُعرفن أنهن حرائر، ويتميزن عن الإماء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي إنه تعالى غفورٌ لما سلف منهم من تفريط، رحيمٌ بالعباد حيث راعى مصالحهم وشئونهم تلك الجزيئات[٢]. ثم هدَّد المولى جلّ وعلا كل المؤذين من جميع الأصناف بأنواع العقاب فقال: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي لئن لم يترك هؤلاء المنافقون -الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر- نفاقهم، والزناةُ الذين في قلوبهم مرض فجور فجورهم ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي الذين ينشرون الأراجيف والأكاذيب لبلبلة الأفكار، وخلخلة الصفوف، ونشر أخبار السوء ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾ أي لنسلطنك عليهم يا محمد ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي ثم يخرجون من المدينة فلا يعودون إلى مجاروتك فيها إلا زمناً قليلاً، ريثما يتأهبون للخروج، قال الرازي: وعد الله نبيه أن يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده، إظهاراً لشوكته[٣] ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾ أي مبعدين عن رحمته تعالى ﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ أي أينما وجدوا وأُدركوا أُخذوا على وجه الغلبة والقهر ثم قُتِّلوا لكفرهم بالله تقتيلاً ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي هذه سنة الله في المنافقين وعادتُه فيمن سبق منهم أن يُفعل بهم ذلك، قال القرطبي: أي سَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ فيمن أرجف بالأنبياء وأظهرَ نفاقه أن يُؤخذ ويُقتل[٤] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ أي ولن تتغير أو تتبدل سنة الله، لكونها بُنيت على أساسٍ متين، قال الصاوي: وفي الآية تسلية للنبي ﷺ أي فلا تحزن على وجود المنافقين يا محمد، فإن ذلك سنة قديمة لم يَخْلُ منهم زمن من الأزمان[٥] ثم ذكر تعالى الساعة وأهوالها فقال: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ أي يسألك يا محمد المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية عن وقت قيام الساعة ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي قل لهم: لست أعرف وقتها وإنما يعلم ذلك علاّم الغيوب، فإن الله أخفاها لحكمة ولم يُطلع عليها مَلكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي وما يُعلمك أن الساعة تكون في وقت قريب؟ قال «أبو السعود»: وفيه تهديدٌ للمستعجلين، وتبكيتٌ للمتعنّتين، والإظهارُ في موضع الإضمار

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١١٤.

(٢) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: راعى مصالحهم وشئونهم حتى تلك الجزئيات، (كما في «تفسيرَيْ البيضاوي» والقاسمي وغيرهما عند تفسير هذه الآية).

(٣) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٢٣١.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٤٧.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٨٨.

للتهويل وزيادة التقرير[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي وهَيَّأ لهم ناراً شديدة مُستَعِرة[٢] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي مقيمين في السعير أبد الآبدين ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا يجدون لهم مَن ينجيهم وينقذهم من عذاب الله ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي يوم تتقلب وجوههم من جهة إلى جهة كاللحم يُشوى بالنار ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ أي يقولون متحسرين على ما فاتهم: يا ليتنا أطعنا الله ورسوله حتى لا نبتلى بهذا العذاب المهين ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي أطعنا القادة والأشراف فينا فأضلونا طريق الهدى والإيمان ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي اجعل عذابهم ضعفي عذابنا، لأنهم كانوا سبب ضلالنا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ أي والعنهم أشد أنواع اللعن وأعظمه، ثم حذر تعالى من إيذاء الرسول كما آذى اليهود نبيهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ أي لا تكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبيهم موسى واتهموه ببرصٍ في جسمه أو أُدْرة لفرط تستره وحيائه، فأظهر الله براءته وأكذبهم فيما اتهموه به، روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا، لاَ يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ، اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلاَّ مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ - انتفاخ الخصية - وَإِمَّا آفَة. وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلاَ يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ»[٣] الحديث. ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي وكان موسى ذا وجاهة ورفعة ومكانة عند ربه، قال ابن كثير: أي له وجاهة وجاه عند ربه، لم يسأل شيئاً إلا أعطاه[٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وقولوا قولاً مستقيماً مرضياً لله، قال الطبري: أي قولاً قاصداً غير جائر، حقاً غير باطل[٥] ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي يوفقكم لصالح الأعمال ويتقبلها منكم، قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يمح عنكم الذنوب والأوزار ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٠.
(٢) (ش): استعرتِ النَّارُ: التهبَتْ، وتوقّدت.
(٣) البخاري ٦/ ٣١٢، وانظر «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١١٦.
(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١١٦.
(٥) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٣٨.

﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ومن أطاع الله والرسول فقد نال غاية مطلوبه، ثم لما أرشدهم إلى مكارم الأخلاق، نبّههم على قدر التكاليف الشرعية التي كلّف الله بها البشرية فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي عرضنا الفرائض والتكاليف الشرعية على السموات والأرض والجبالِ الراسيات فأعرضن عن حملها وخِفْن من ثِقَلها وشِدَّتها، والغرض تصوير عِظَم الأمانة وثِقَل حمْلها[1]، قال «ابن الجوزي»: لم يُرد بقوله ﴿فَأَبَيْنَ﴾ المخالفة، وإنما أبَيْنَ للخشية والمخافة، لأن العَرض كان تخييراً لا إلزاماً[2] قال «أبو السعود»: والمعنى أن تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التي هي مثل في القوة والشدة وكانت ذات شعور وإدراك على مراعاتها لَأَبَيْنَ قبولَها وأشفقن منها[3] وقال ابن جزي: الأمانةُ هي التكاليف الشرعية مـن التزام الطاعات، وترك المعاصي، وقيل: هي الأمانةُ في الأموال، والصحيحُ العموم في التكاليف، وعرضُها يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون الله خلق لها إدراكاً فعرضت عليها الأمانة حقيقةً فأشفقت منها وامتنعت من حَمْلها[4]، والثاني: أن يكون المراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثِّقَل بحيث لو عُرضت على السموات والأرضِ والجبال، لأبين من حملها وأشفقن منها[5]، فهذا ضربٌ من المجاز كقولك: عرضتُ الحملِ العظيم على الدابة فأبَتْ أن تحمله، والمراد أنها لا تقدر على حَمْله[6] ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي وتحمَّلها الإنسان إنه كان شديد الظلم لنفسه، مبالغاً في الجهل بعواقب الأمور، قال «ابن الجوزي»: لم يُرِدْ بقوله ﴿فَأَبَيْنَ﴾ المخالفة، وإنما أبَيْن للخشية والمخافة، لأن العَرض كان تخييراً لا إلزاماً[7] ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ قال ابن كثير: أي إنما حمَّل بني آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين الذين يُظهِرون الإيمان ويُبطِنون الكفر، والمشركين الذين ظاهرهم

(١) (ش): إن كان المقصود من تصوير عِظمها أن العرض المذكور غير حقيقي، فهذا خطأ، لأنه خلاف ظاهر الآية الكريمة من غير دليل، والأصل الحقيقة في كلام الله ورسوله ﷺ، وقد نقل المؤلف عن «ابن الجوزي» ما يدل على أن العرْضَ حقيقي.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٤٢٨.

(٣) (ش): هذا خطأ، لأنه خلاف ظاهر الآية الكريمة من غير دليل، والأصل الحقيقة في كلام الله ورسوله ﷺ.

(٤) (ش): وهذا هو الصواب في تفسيرالآية أنه عرضٌ حقيقي، انظر: «تفسير الطبري» و «تفسير ابن كثير».

(٥) «أبو السعود» ٤/ ٢٢١.

(٦) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٤٥. (ش): هذا خطأ، لأنه خلاف ظاهر الآية الكريمة من غير دليل، والأصل الحقيقة في كلام الله ورسوله ﷺ.

(٧) «زاد المسير» ٦/ ٤٢٨.

وباطنهم على الكفر ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي ويرحم أهل الإيمان، ويعود عليهم بالتوبة والمغفرة والرضوان ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة للمؤمنين حيث عفا عما سلف منهم، ورحيماً بهم حيث أثابهم وأكرمهم بأنواع الكرامات.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتشريف ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ لأنها لمّا نسب للنبي تشرفت.

٢ - الطباق بين ﴿ٱدْخُلُوا۟ .. و.. فَٱنتَشِرُوا۟﴾ وبين ﴿تُبْدُوا۟ .. تُخْفُوهُ﴾ وبين ﴿ثُقِفُوٓا۟ .. و.. أُخِذُوا۟﴾.

٣ - طباق السلب ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ .. وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾ والمرجفون هم المنافقين، فعمَّم ثم خصَّص زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم.

٥ - ذكر اللفظ بصيغة «فعول» و «فعيل» للمبالغة مثل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ إلخ.

٦ - الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

٧ - التحسر والتفجع بطريق التمني ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

٨ - التشبيه ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ مَثَّل للأمانة في ضخامتها وعظمها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال وهي من القوة والشدة بأعلى المنازل لأبت عن حَمْلها وأشفقت منها، وهو تمثيل رائع لتهويل شأن الأمانة[1].

١٠ - المقابلة اللطيفة بين ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ وبين ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وفي ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع «رد العجز على الصدر» لأن بدء السورة كان في ذم المنافقين، وختامها كان في بيان سوء عاقبة المنافقين، فحسن الكلام في البدء والختام.

١١ - الثناء على الرسول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ ورد بهذه الصيغة وفيه دقائق بيانية:

أ- جاء الخبر مؤكداً بـ «إنَّ» اهتماماً به.

ب- وجيء بالجملة اسمية لإفادة الدوام.

(١) (ش): تقدم أن الصواب في تفسير الآية أنه عرضَ الأمانة حقيقي.

ج- وكانت الجملة اسمية في صدرها «إن الله» فعلية في عجزها «يصلون» للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى على رسوله يتجدد وقتاً فوقتاً على الدوام، فتدبر هذا السر الدقيق.

١٢ - مراعاة الفواصل لما له من الوقع الحسن على السمع مثل ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا .. لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .. وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية.

لطيفة: أشارت الآية الكريمة ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى لطيفة وهي أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله، وهذا هو السر في البدء بالحجاب الشرعي بنساء الرسول وبناته.

«الردُّ على من أباح كشف الوجه، وطائفة من أقوال المفسرين في وجوب ستره»

١ - قال ابن كثير: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من وفق رؤوسهن بالجلابيب.

٢ - وقال «ابن الجوزي»: في قوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي يغطين رؤوسهن ووجوههن ليُعلم أنهن حرائر.

٣ - وقال «أبو السعود»: ومعنى الآية أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعي.

٤ - وقال «الطبري»: أي لا تتشبهن بالإماء في لباسهن إذا خرجن لحاجتهن فكشفن شعورهن ووجوههن لئلا يعرض لهن فاسق.

٥ - وقال في «البحر»: والمراد بقوله: ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي على وجوههن، لأن الذي كان يبدو منهم في الجاهلية هو الوجه.

٦ - وقال الجصاص: وفي الآية دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجانب لئلا يطمع فيها أهل الريب. فهذه جملة من أقوال أئمة التفسير في وجوب ستر وجه المرأة، والله يقول الحق ويهدي السبيل[1].

«تم بعونه تعالىً تفسير سورة الأحزاب»



(١) انظر شروط الحجاب الشرعي وكيفيته والحكمة التشريعية منه في كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن» ٢/ ٣٨٧.



مكية وآياتها أربع وخمسون

بين يدي السورة

* سورة سبأ من السور المكية، التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية، وتتناول أصول الدين، من إثبات الوحدانية، والنبوة، والبعث والنشور.

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد الله جل وعلا، الذي أبدع الخلق، وأحكم شئون العالم، ودبر الكون بحكمته، فهو الخالق المبدع الحكيم، الذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وهذا من أعظم البراهين على وحدانيته رب العالمين.

* وتحدثت السورة عن قضية هامة، هي إنكار المشركين للآخرة، وتكذيبهم بالبعث بعد الموت، فأمرت الرسول ﷺ أن يقسم بربه العظيم، على وقوع المعاد، بعد فناء الأجساد ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ...﴾ الآية.

* وتناولت السورة قصص بعض الرسل، فذكرت «داود» وولده «سليمان» عليهما السلام، وما سخر الله لهما من أنواع النعم، كتسخير الريح لسليمان، وتسخير الطير والجبال تسبح مع «داود» إظهارًا لفضل الله عليهما في ذلك العطاء الواسع.

* وتناولت السورة بعض شبهات المشركين، حول رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، ففندتها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، كما أقامت الأدلة والبراهين على وجود الله ووحدانيته.

* وختمت السورة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالواحد القهار، الذي بيده تدبير أمور الخلق أجمعين.

التسمية: سميت سورة «سبأ» لأن الله تعالى ذكر فيها قصة سبأ، وهم ملوك اليمن، وقد كان أهلها في نعمة ورخاء، وسرور وهناء، وكانت مساكنهم حدائق وجنات، فلما كفروا النعمة دمَّرهم الله بالسيل العرم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ
مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ
يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ
عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ
ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا
شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ
أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ
رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ
مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي
ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ

اللغَة: ﴿يَلِجُ﴾ يدخل، الولوج الدخول ومنه ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] يصعد، ومنه المعراج لأنه صعودٌ إلى السموات. ﴿يَعۡزُبُ﴾ يغيب يقال: عزب عن عينه أي غاب عنها. ﴿مِثۡقَالُ﴾ وزن ومقدار. ﴿جِنَّةُۢ﴾ بكسر الجيم بمعنى الجنون وبضمها بمعنى الوقاية والحجاب. ﴿كِسَفٗا﴾ قطعًا. ﴿أَوِّبِي﴾ سبحي والتأويب: التسبيح. ﴿سَٰبِغَٰتٖ﴾ واسعات كاملات يقال: سبغ الدرعُ والثوبُ إذا غطَّى كل البدن وفضل منه شيء قال أبو حيان: السابغات: الدروع وأصله الوصف بالسبوغ وهو التمام والكمال، وغلب على الدروع فصار كالأبطح[1]، قال الشاعر:

عَلَيْهَا أُسُودٌ ضَارِيَاتٌ لَبُوسُهُمْ ... سَوَابِغُ بِيضٌ لا يَخْرِقُهَا النَّبْلُ[2]

﴿ٱلسَّرۡدِ﴾ النسج، وهو نسج حلق الدروع قال القرطبي: وأصله من الإِحكام، قال لبيد:

صَنَعَ الْحَدِيدَ مُضَاعِفًا أَسْرَادَهُ ... لِيَنَالَ طُولَ الْعَيْشِ غَيْرَ مَرُوم[3]

﴿ٱلۡقِطۡرِ﴾ النحاس المذاب. ﴿وَجِفَانٖ﴾ جمع جَفْنة وهي القصعة الكبيرة. ﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾

---

(١) (ش): أَيْ أنها صِفَةٌ غَالِبَةٌ مُسْتَعْمَلَةً اسْتِعْمَالَ الأَسْمَاءِ، مثل كلمة «الأَبْطَح». بطَح المكانَ: بسطه وسوّاه. والأَبْطَحُ: سَهْل، أرض مُنْبسطة فسيحة الأرجاء، يسيل فيها الماء تاركًا فيها الرّملَ وصغارَ الحَصَى، ومِنْه أبطح مَكَّة.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٢٥٥. (ش): رام الشَّيءَ، رَوْمًا، فهو رائم، والمفعول مَرُوم: طلَبه، رغِب فيه، أراده ورجاه، يقال: كُلُّ شيء على ما يُرام: أي على أحسن ما يُرجى ويُتوقع ويُنتظر.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٦٩.

جمع جابية وهي الحوض الكبير يجمع فيه الماء، قال الأعشى:

نَفَى الذَّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةٌ كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ (١)

﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾ المنسأة: العصا سُمِّيَت بذلك لأنه يُنسأُ بها أي يُطَرد ويُزْجَر، قال الشاعر:

إِذَا دَبَبْتَ عَلَى الْمِنْسَاةِ مِنْ كِبَرٍ فَقَدْ تَبَاعَدَ عَنْكَ اللَّهْوُ وَالْغَزَلُ (٢)

التفسير: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الثناء الكامل على جهة التعظيم والتبجيل لله الذي له كل ما في الكمون خلقاً وملكاً وتصرفاً، الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، فله الحمد في الدنيا لكمال، قدرته، وفي الآخرة لواسع رحمته ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي وله الحمد بأجمعه لا يستحقه أحد سواه، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي الحكيم في صنعه، الخبير بخلقه، فلا اعتراض عليه من فعل من أفعاله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ تفصيل لبعض معلوماته جلَّ وعلا أيٍ يعلم ما يدخل في جوف الأرض من المطر والكنوز والأموات، وما يخرج من الأرض من الزروع والنباتات وماء العيون والأبار ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي وما ينزل من السماء من المطر والملائكة والرحمة، ما يصعد إليها من الأعمال الصالحات، والدعوات الزاكيات ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي الرحيم بعباده، الغفور عن ذنوب التائبين حيث لا يعالجهم بالعقوبة، ثم حكى تعالى مقالة المنكرين للعبث والقيامة فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي وقال المشركون من قومك لا قيامة أبداً ولا بعث ولا نشور، قال «البيضاوي»: وهو إنكارٌ لمجيئها أو استبطاءٌ استهزاءً بالوعد به(٣) ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قل لهم يا محمد: أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة، فإنها واقعة لا محالة، قال ابن كثير: هذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر الله رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوعها، والثانية في يونس ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [يونس: ٥٣](٤)، والثالثة في التغابن ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا العالمُ بما خفي عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، لا يغيب عنه مقدار وزن الذرة في العالم العلوي أو السفلي

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٧٥. (ش): الفَهْق: الامتلاءُ. فَهِقَ الإِناءُ والحوض: امْتَلأَ. وخص العراقي لجهله بالمياه لأنه حضري فإذا وجدها ملأ جابيته وأعدها ولم يَدْر متى يجد المياه، وأما البدوي فهو عالم بالمياه فهو لا يُبالى ألا يُعِدّها.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٢٥٥.

(٣) تفسير «البيضاوي» ٢/ ١٢٢.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٢١.

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أي إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ، والغرضُ أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم؟ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو تعالى عالمٌ أين ذهبت وتفرقت، ثم يعيدها يوم القيامة ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي أثبت ذلك في الكتاب المبين لكي يثيب المؤمنين الذين أحسنوا في الدار الدنيا بأحسن الجزاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق حسن كريم في دار النعيم ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي وأما الذين بذلوا جهدهم وجدّوا لإبطال القرآن مغالبين لرسولنا، يظنون أنهم يعجزونه بما يثيرونه من شبهات حول رسالته والقرآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ أي فهؤلاء المجرمون لهم عذاب من أسوأ العذاب، شديد الإيلام، قال قتادة: الرجزُ: سوء العذاب ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي ويعلم أولو العلم من أصحاب النبي عليه السلام ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ أي يعلمون أن هذا القرآن الذي أُنزل عليك يا محمد هو الحق الذي لا يأتيه الباطل ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي ويرشد من تمسك به إلى طريق الله الغالب الذي لا يُقهر، الحميد أي المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله، ثم ذكر تعالى أساليب المشركين في الصدِّ عن دين الله، والسخرية برسول الله فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي وقال الكافرون من مشركي مكة المنكرون للبعث والجزاء ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ﴾ أي هل نرشدكم إلى رجل يحدثكم بأعجب الأعاجيب؟ يعنون محمداً ﷺ ﴿إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي إذا بليتم في القبور، وتفرقت أجسادكم في الأرض، وذهبت كل مذهب بحيث صرتم تراباً ورفاتاً ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾؟ أي إنكم ستخلقون خلقاً جديداً بعد ذلك التمزق والتفريق؟ والغرضُ من هذا المقال هو السخرية والاستهزاء، قال أبو حيان: والقائلون هم كفار قريش قالوه على جهة التعجب والاستهزاء، كما يقول الرجل لمن يريد أن يعجبه: هل أدلك على قصة غريبة نادرة؟ ولما كان البعث عندهم من المحال جعلوا من يخبر عن وقوعه في حيز من يتعجب منه، ونكّروا اسمه عليه ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ مع أن اسمه أشهر علم في قريش بطريق الاستهزاء[1] ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ أي هل اختلق الكذب على الله، أم به جنون فهو يتكلم بما لا يدري؟ قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ﴿بَلِ﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما يزعمون من الكذب والجنون، بل الذين يجحدون البعث

(١) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٢٥٩.

ولا يصدقـون بالآخـرة ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي بل هـؤلاء الكفار في ضلال وحيرة عـن الحـق توجب لهم عذاب النار، فهم واقعون في الضلال وهم لا يشـعرون وذلك غاية الجنـون والحماقـة، ولما ذكـر تعالى ما يدل على إثبات السـاعة، ذكر دليـلاً آخر يتضمن التوحيـد مع التهديد فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ألم يشاهدوا ما هو محيط بهم من جميع جوانبهم من السماء والأرض؟ فإن الإنسان أينما توجـه وحيثما نظر رأى السـماء والأرض أمامه وخلفه، وعن يمينه وشـماله، وهما يدلان على وحدانية الصانع، أفلا يتدبرون ذلك فيعلمون أن الذي خلقهما قادر على بعث الناس بعـد موتهـم؟ ثـم هددهـم بقولـه: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لو شـئنا لخسـفنا بهم الأرض كما فعلنا بقارون، أو أسـقطنا عليهم قطعـاً من السـماء كمـا فعلنا بأصحاب الأيكة، فمن أين لهم المهرب؟ قـال «ابن الجوزي»: المعنى أنهـم أيـن كانوا فأرضي وسـمائي محيطـة بهم، وأنا القادر عليهم، إن شـئتُ خسـفتُ بهم الأرض، وإن شئتُ أسقطت عليهم قطعة من السماء[1] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي إنَّ فيمـا يشـاهدون من آثار القدرة والوحدانية لَدلالةً وعـبرةً لكل عبد تائب رجّاع إلى الله، متأمل فيما يرى، قال ابن كثير: يريد أن من قدر على خلق هذه السـموات في ارتفاعها واتسـاعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، قادر على إعادة الأجسـام، ونشـر الرميـم من العظام[2]، ثم ذكـر تعالى قصة داود وما خصَّه الله بـه من الفضل العظيم فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ اللام موطئة لقسم محذوف تقديره وعزة الله وجلاله لقد أعطينا داود منا فضلاً عظيمـاً واسعـاً لا يُقدر، قال المفسرون: الفضل هو النبوة، والزبور، وتسخير الجبال، والطير وإلانة الحديد، وتعليمه صنع الدروع إلى غير ذلك ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي وقلنـا: يـا جبال سـبحي معه ورجّعي التسـبيح إذا سـبَّح وكذلك أنت يا طيور، قال ابن عباس: كانت الطير تسبح معه إذا سبَّح، وكان إذا قرأ لم تبقَ دابةٌ إلا استمعت لقراءتـه وبكـت لبكائـه[3] ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي جعلنا الحديـد لينـاً بين يديـه حتى كان كالعجين، قال قتادة: سخر الله له الحديد فكان لا يحتاج أن يُدخله ناراً، ولا يضربه بمطرقة، وكان بين يديه كالشمع والعجين ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي اعمل منه الدروع السابغة التي تقي الإنسان شر الحرب، قال المفسرون: كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجين يعمل

(١) «زاد المسير» ٦/ ٤٣٥.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٢٢.
(٣) «زاد المسير» ٦/ ٤٣٦.

به ما يشاء، ويصنع الدرع في بعض يوم يساوي ألف درهم فيأكل ويتصدق[١]، والسابغات صفة لموصوف محذوف تقديره دروعاتٍ سابغات، وفي الدروع الكوامل التي تغطي لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي وقدر في نسج الدروع بحيث تتناسب حلقاتها، قال الصاوي: أي جعل كل حلقة مساوية لأختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها، ولا تثقل حاملها واجعل الكل بنسبةٍ واحدة[٢] ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي واعملوا يا آل داود عملاً صالحاً ولا تتكلوا على عز أبيكم وجاهه ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إني مطلع على أعمالكم مراقب لها وسأجازيكم بها، قال الإمام الفخر: ألاَن الله لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير، فإنه يَلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذي يكتب به، فأي عاقل يستبعد ذلك على قدرة الله[٣] وهو أول من صنع الدروع حلقاً وكانت قبل ذلك صفائح ثقالاً كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ثم ذكر تعالى ما أنعم به على ولده «سليمان» من النبوة والملك والجاه العظيم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره، وسيرها من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر للسائر المُجِدّ[٤]، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر، قال المفسرون: سخّر الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات، تحمله مع جنده فتنتقل به من بلدٍ إلى بلد، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار، وترجع به مسيرة شهر إلى آخر النهار، فتقطع به مسيرة شهرين في نهار واحد ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي وأذبنا له النحاس حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض، قال المفسرون: أجرى الله لسليمان النحاس، كما ألاَن لداود الحديد، آية باهرة، ومعجزة ظاهرة ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي وسخرنا له الجن تعمل بأمره وإرادته ما شاء مما يعجز عنه البشر، وكل ذلك بأمر الله وتسخيره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يَعدِل منهم عمّا أمَرْناه به من طاعة سليمان[٥] ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي نذقه النار المستعرة في الآخرة، ثم أخبر تعالى عما كلف به الجنُّ من الأعمال فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أي يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يريد من القصور الشامخة ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج، قال الحسن: ولم تكن

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٦٦.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٢٩٤.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٥/ ٢٤٥.

(٤) (ش): جدَّ في السير فهو جادّ: أسرَعَ، عجَّل فيه. أجدَّ السَّيرَ/ أجدَّ في السَّيرِ فهو مُجِدّ: أسرع فيه.

(٥) (ش): أي يحيد ويميل عن أمر الله فلا يطيع سُلَيْمَانَ عليه السلام.

يومئذٍ محرمة، وقد حرمت من شريعتنا سداً للذريعة لئلا تُعبد من دون الله ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أي وقصاع ضخمة تشبه الأحواض، قال ابن عباس: «كالجواب» أي كالحياض ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ أي وقدورٍ كبيرة ثابتات لا تتحرك لكبرها وضخامتها، قال ابن كثير: والقدور الراسياتُ أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعِظَمِها[1] ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض، واعملوا بطاعة الله شكراً له جل وعلا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه، قال ابن عطية: وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله، ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان بالموت ونزل به الموت ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي ما دلَّ الجن على موته إلا تلك الحشرة وهي الأَرَضة السوسة التي تأكل الخشب تأكل عصا سليمان ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ أي فلما سقط سليمان عن عصاه ظهر للجن واتضح لهم أنهم لو كانوا يعرفون الغيب كما زعموا ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي ما مكثوا في الأعمال الشاقة تلك المدة الطويلة، قال المفسرون: كانت الإنس تقول: إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في المستقبل، فوقف سليمان في محرابه يصلي متوكئًا على عصاه، فمات ومكث على ذلك سنةً والجنّ تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته، حتى أكلت الأَرَضةُ عصا سليمان فسقط على الأرض فعلموا موته، وعلم الإنس أن الجنَّ لا تعلم الغيب لأنهم لو علموه لَمَا أقاموا هذه المدة الطويلة في الأعمال الشاقة وهم يظنون أنه حي وهو عليه السلام ميت.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان نوجزها فيما يلي:

١ - تعريف الطرفين لإفادة الحصر ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ومعناه لا يستحق الحمد الكامل إلا الله.

٢ - الطباق بين ﴿يَلِجُ.. و.. يَخْرُجُ﴾ وبين ﴿يُنَزِّلُ.. و.. يَعْرُجُ﴾ وبين ﴿أَصْغَرَ.. و.. أَكْبَرَ﴾.

٣ - صيغة فعيل وفعول للمبالغة ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

٤ - المقابلة بين ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ رِجْلٍ.﴾ الآية وبَيْن ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾ فقد جعل المغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين، وجعل العذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين.

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٢٤.

٥ - الاستفهام للسخرية والاستهزاء ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ وغرضهم الاستهزاء بالرسول ولم يذكروا اسمه إمعاناً في التجهيل كأنه إنسان مجهول.

٦ - التنكير للتفخيم ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي فضلاً عظيماً، وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر.

٧ - الإيجاز بالحذف ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر.

٨ - التشبيه ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

قال الله تعالى:

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ
بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ
أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ
﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا
لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ
وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ
فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ
مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن
ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ
قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ
إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم
بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ
﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن
نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ
﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم

مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ

المناسَبَة: لمّا بيَّن تعالى حال الشاكرين لنعمه بذِكْر «داود» و «سليمان» بيَّن حال الكافرين لأنعمه بقصة سبأ، موعظةً لقريش وتحذيراً وتنبيهاً على ما جرى من المصائب والنكبات على من كفر بأنعم الله، ثم ذكَّر كفار مكة بنعمه ليعبدوه ويشكروه.

اللغَة: ﴿سَبَإٖ﴾ قبيلة من العرب سكنت اليمن سميت باسم جدهم «سبأ بن يشجب بن قحطان». ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ الحاجز بين الشيئين، قال النحاس: وما يجتمع من مطر بين جبلين، وفي وجهه مُسنَّاة أي حاجز فهو العرم[1]. ﴿خَمۡطٖ﴾ الخمط: المرُّ البشع، قال الزجاج: كل نبتٍ فيه مرارةٌ لا يمكن أكْلُه فهو خمط، وقال المبرد: هو كل ما تغيَّر إلى ما لا يُشتهى، واللبنُ إذا حمض فهو خمط. ﴿وَأَثۡلٖ﴾ الأثل: شجر لا ثمر له، قال الفراء: وهو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً ومنه اتخذ منبر رسول الله ﷺ والواحدة أثلة. ﴿سِدۡرٖ﴾ قال الفراء: هو السَّرو، وقال الأزهري: السدر نوعان: سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمرة عصفة لا تؤكل، وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول[2]. ﴿ظَهِيرٖ﴾ معين. ﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾ القاضي والحاكم بالحق.

التفسِير: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد كان لقوم سبأ في موضع سكناهم باليمن آية عظيمة دالة على الله جل وعلا وعلى قدرته على مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فإن قوم سبأ لما كفروا نعمة الله خرَّ الله ملكهم، وشتَّت شملهم، ومزَّقهم شرَّ ممزَّق، وجعلهم عبرةً لمن يعتبر، ثم بيَّن تعالى وجه تلك النعمة فقال: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾ أي حديقتان عظيمتان فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار عن يمين الوادي بساتين ناضرة، وعن شماله كذلك، قال قتادة: كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار، تسرُّ الناس بظلالها، وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مِكْتل أو زنبيل، فيتساقط من الأشجار ما يملؤه من غير كلفةٍ ولا قطاف لكثرته ونضجه[3] وقال «البيضاوي»: ولم يُرِدْ بستانين اثنين فحسب، بل أراد جماعتين من البساتين، جماعة عن يمين بلدهم، وجماعة عن شماله سميت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٨٦.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٢٥٦.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٢٦.

وتضامها كأنها جنة واحدة[١] ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ أي وقلنا لهم على لسان الرسل: كلوا من فضل الله وإنعامه واشكروا ربكم على هذه النعم ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي هذه بلدتكم التي تسكنونها بلدةٌ طيبة، كريمة التربة، حسنة الهواء، كثيرة الخيرات، وربكم الذي رزقكم وأمركم بشكره ربٌّ غفورٌ لمن شكره ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي فأعرضوا عن طاعة الله وشكره، واتباع أوامر رسله، فأرسلنا عليهم السيل المدمّر المخرب الذي لا يطاق لشدته وكثرته، فغرَّق بساتينهم ودورهم، قال الطبري: وحين أعرضوا عن تصديق الرسل، ثُقب ذلك السدُّ الذي كان يحبس عنهم السيول، ثم فاض الماء على جناتهم فغرَّقها، وخرَّب أرضهم وديارهم[٢] ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي وأبدلناهم بتلك البساتين الغناء، بساتين قاحلة جرداء، ذات أُكل مرٍّ بشع ﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها كشجر الأثل والسِّدر، قال الرازي: أرسل الله عليهم سيلاً غرَّق أموالهم، وخرَّب دورهم، والخمطُ كلُّ شجرة لها شوك وثمرتها مرة، والأثلُ نوع من الطرفاء، ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات، يكونه عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه، والسدر معروف وقال فيه: ﴿قَلِيلٍ﴾ لأنه كان أحسن أشجارهم، وقد بيَّن تعالى بالآية طريقة الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس تكون فيها الفواكة الطيبة بسبب العمارة، فإذا تركت سنين تصبح كالغيضة والأجمة تلتفُّ الأشجار بعضها ببعض وتنبتُ المفسدات فيها، فتقل الثمار وتكثر الأشجار[٣] قال المفسرون: وتسمية البدل «جنتين» فيه ضربٌ من التهكم، لأن الأثل والسدر وما كان فيه خمط لا يسمى جنة، لأنها أشجار لا يكاد ينتفع بها، وإنما جاء التعبير على سبيل المشاكلة ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي ذلك الجزاء الفظيع الذي عاقبناهم به إنما كان بسبب كفرهم ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ ؟ أي وما نجازي بمثل هذا الجزاء الشديد إلا الكافر المبالغ في كفره، قال مجاهد: أي ولا يعاقَبُ إلا الكفور، لأن المؤمن يكفِّر الله عنه سيئاته، والكافرُ يجازَى بكل سوءٍ عمله[٤] ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ هذا من تَتِمَّة[٥] ذِكْر ما أنعم الله به عليهم أي وجعلنا بين بلاد سبأ وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين قرى متواصلة من اليمين إلى الشام،

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٨٥ و«الكشاف» ٣/ ٤٥٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٨٨.

(٤) تفسير «الكشاف» ٣/ ٤٥٥.

(٥) (ش): تَتِمَّة: ما يكون به تَمامُ الشيء وتَكْمِلَتُه.

يُرى بعضها من بعض لتقاربها، ظاهرة لأبناء السبيل ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي جعلنا السير بين قراهم وبين قرى الشام سيراً مقدراً من منزل إلى منزل ومن قرية إلى قرية ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي وقلنا لهم سيروا بين هذه القرى متى شئتم لا تخافون في ليل ولا في نهار، قال الزمخشري: كان الغادي منهم يقيل في قرية، والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، وكانوا يسيرون آمنين لا يخفاون شيئاً[١] ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ إخبارٌ بما قابلوا به النعم من الكفران أي أنهم حين بطروا النعمة، ومَلُّوا العافية، وسئموا الراحة طلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار، فعجَّل الله إجابتهم، بتخريب تلك القرى وجعلها مفاوز قفاراً ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي وظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم النعمة ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي جعلناهم أخباراً تُروى اللناس بعدهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي وفرقناهم في البلاد شذر مذر[٢] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي إن فيما ذكر من قصتهم لَعِبَراً وعِظاتٍ لكل عبد صابرٍ على البلاء، شاكر في النعماء، والمقصود من ذكر قصة سبأ تحذير الناس من كفران النعمة لئلا يحل بهم ما حلّ بمن قبلهم، ولهذا أصبحت قصتهم يُضْرَبُ بها المثل فيُقال: «ذهبوا أيدي سبأ»[٣] ثم ذكر تعالى سبب ضلال المشركين فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي تحقق ظن إبليس اللعين في هؤلاء الضالين، حين ظنَّ أنه يستطيع أن يغويهم بتزيين الباطل لهم، وأقسم بقوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] فتحقق ما كان يظنه، قال مجاهد: ظنَّ ظناً فكان كما ظن فصدَّق ظنَّه[٤] ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فاتبعه الناس فيما دعاهم إليه من الضلالة إلا فريقاً هم المؤمنون فإنهم لم يتبعوه، قال القرطبي: أي ما سلم من المؤمنين إلا فريق، وعن ابن عباس أنهم المؤمنون كلُّهم فتكون ﴿مِن﴾ على هذا للتَّبْيين لا للتَبْعيض، وإنما علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب، لأنه لمَّا نفذ له في آدم ما نفذ، غلب على

---

(١) تفسير «الكشاف» ٣/ ٤٥٥.

(٢) (ش): شَذَرَ مَذَرَ: تركيبٌ يفيد التفرُّق والتشتُّت، وَلاَ يُقَال ذَلِك فِي الإقبال. تفرَّقوا شَذَرَ مَذَرَ: ذَهَبُوا مَذَاهِب شَتَّى مُخْتَلفين، ذهبوا في كل اتجاه.

(٣) (ش): ذهبوا أيدِي سبأ/ تَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَأ/ تَفَرَّقُوا أَيَادِي سَبَأ: أي تفرقوا في كل طريق ووجهة كما تفرّقت قبائل اليمن في البلاد عندما غرقت أرضهم وذهبت جنّاتهم. إما على أنَّ اليد بمعنى الجارحة، لأنهم كانوا، إذ كانوا مجتمعين، يدًا واحدة. فلما تفرقوا صارت اليد أيادي كثيرة؛ أو بمعنى النعمة، أي تفرقوا تفرُّق نِعَم سبأ، أو كائنين كَنِعَم أهل سبأ، أو بمعنى الطريق، أي تفرقوا في كل طريق أهل سبأ، حيث تمزقوا.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٦٠.

ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته وقد وقع له تحقيق ما ظنّ[١] ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي وما كان لإبليس تسلط واستيلاء عليهم بالوسوسة والإغواء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي إلا لحكمة جليلة وهي أن نُظهِر علمنا للعباد بمن هو مؤمن مصدِّق بالآخرة، ومن هو شاك مرتاب في أمرها، فنجازي كلاً بعمله، قال القرطبي: أي لم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين[٢] وقال الحسن: والله ما ضربهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه[٣] ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي وربك يا محمد على كل شيء رقيب، لا تخفى عليه خافية من أفعال العباد، فهو الذي يحفظ عليهم أعمالهم، ويعلم نياتهم وأحوالهم، قال الصاوي: الشيطان سبب الإغواء لا خالق الإغواء، فمن أراد الله حفظه منع الشيطان عنه، ومن أراد إغواءه سلَّط عليه الشيطان، والكُلُّ فعل الله تعالى[٤]، وإنما سبقت حكمته بتسليط الشيطان على الإنسان ابتلاءً وامتحاناً ليميز الله الخبيث من الطيب، والمراد بقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي لنُظْهر للخلق علمنا، وإلا فالله تعالى عالم بما كان وما يكون ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا شركاءكم الذين عبدتموهم من الأصنام، وزعمتم أنهم آلهة من دون الله، ادعوهم ليجلبوا لكم الخير، ويدفعوا عنكم الضر، قال أبو حيان: والأمر بدعاء الآلهة للتعجيز وإقامة الحجة عليهم[٥] ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي لا يملكون وزن ذرة من خيرٍ أو نفع أو ضر ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في العالم العلوي أو السفلي، وليسوا بقادرين على أمرٍ من الأمور في الكون بأجمعه ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي وليس لتلك الآلهة شركة مع الله لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي وليس له تعالى من الآلهة معينٌ يُعينه في تدبير أمرهما، بل هو وحده الخالق لكل شيء، المنفرد بالإيجاد والإعدام، ثم لما نفى عنها الخلق والملك، نفى عنها الشفاعة أيضاً فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي لا تكون الشفاعة لأحدٍ عند الله من مَلَكٍ أو نبي، حتى يُؤذن له في الشفاعة،

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٩٢.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٩٣.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٢٨.
(٤) حاشية الصاوي ٣/ ٢٩٨. (ش): إن تجريد الشيطان من الفعل ونِسْبَتُه إلى الله يتمشى مع مذهب الجبرية. والحق أن الشيطان وغيره من المخلوقين لهم أفعالٌ حقيقية وهي لا تخرج عن خلق الله وتقديره: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فأثبتت الآية لنا عملاً مع أنه سبحانه وتعالى الخالق لكل شيء.
(٥) «البحر المحيط» ٣/ ١٢٩.

فكيف يزعمون أن آلهتهم يشفعون لهم؟ قال ابن كثير: أي أنه تعالى لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحدٌ أن يشفع عنده في شيءٍ إلا بعد إذنه له في الشفاعة كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وإنما كانت الشفاعة لسيد ولد آدم إظهاراً لمقامه الشريف، فهو أكبر شفيع عند الله، وذلك حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم[١] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي حتى إذا زال الفزع والخوف عن قلوب الشفعاء، من الملائكة والأنبياء[٢] ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة؟ فأجابوهم بقولهم: قد أذن فيها للمؤمنين، قال القرطبي: إن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة، وهم على غاية الفزع من الله، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل، والخوف الشديد أن يقع منهم تقصير، فإذا سُرِّي عنهم قالوا للملائكة فوقهم: ماذا قال ربكم؟ أي بماذا أمر الله؟ قالوا: الحقَّ أي إنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين[٣] ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعلو والكبرياء، العظيم في سلطانه وجلاله، قال «أبو السعود»: وهذا من تمام كلام الشفعاء، قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب الله عز وجل، فليس لأحدٍ أن يتكلم إلا بإذنه[٤]، ثم وبَّخ تعالى المشركين في عبادتهم غير الخالق الرازق فقال: ﴿قُلْ مَن

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٢٩.

(٢) (ش): هذا تفسير للآية بغير ما ورد عن الرسول ﷺ والتفسير إذا جاء عنه ﷺ فلا يجوز العدول عنه إلى غيره، والمؤلف قد فسرها بما يحصل يوم القيامة عند طلب الشفاعة، وكلام النبي ﷺ يدل على أن هذا الفزع يحصل عندما يتكلم الله بالوحي فتأخذ السموات منه رجفة وتصعق الملائكة عند ذلك. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا فَيُصْعَقُونَ فَلاَ يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ». قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ فَيَقُولُ: الْحَقَّ فَيَقُولُونَ: الْحَقَّ الْحَقَّ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني). وقَالَ ﷺ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ رواه البخاري. (صَلْصَلَة) هِيَ صَوْت وُقُوع الْحَدِيد بَعْضه عَلَى بَعْض (كَجَرِّ السِّلْسِلَة عَلَى الصَّفَا) جَمْع صَفَاة وَهِيَ الصَّخْرَة وَالْحَجَر الْأَمْلَس (إِذَا قَضَى اللهُ فِي السَّمَاءِ أَمْرًا) أَيْ إِذَا حَكَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَمْرٍ مِنْ الْأُمُورِ (ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا) بِفَتْحَتَيْنِ مِنْ الْخُضُوع وَبِضَمٍّ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ (خُضْعَانًا) وَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى خَاضِعِينَ (لِقَوْلِهِ) أَيْ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى (كَأَنَّهُ) أَيْ الْقَوْلَ الْمَسْمُوعَ (سِلْسِلَةٌ) أَيْ مِنْ الْحَدِيدِ (عَلَى صَفْوَانٍ) هُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ. وليس المراد تشبيه صوت الله تعالى بهذا؛ لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلامه بفزع مَن يسمع سلسلة على صفوان. (فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) أَيْ كُشِفَ عَنْهُمْ الْفَزَعُ وَأُزِيلَ (قَالُوا) أَيْ سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَالُوا الْحَقَّ) أَيْ قَالَ اللهُ الْقَوْلَ الْحَقَّ. (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) أَيْ ذُو الْعُلُوِّ وَالْكِبْرِيَاءِ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٩٥.

(٤) «أبو السعود» ٤/ ٢٣١.

﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي قل لهم يا محمد من الذي يرزقكم من السموات بإنزال المطر، ومن الأرض بإخراج النبات والثمرات؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي قل لهم: الله الرازق لا آلهتكم، قال «ابن الجوزي»: وإنما أُمِر عليه السلام أن يسأل الكفار عن هذا احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة، وهم لا يثبتون رازقاً سواه، ولهذا جاء الجواب ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ لأنهم لا يجيبون بغير هذا[1] ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي وأحد الفريقين منا أو منكم لعلى هدى أو ضلال بيِّن، وهذا نهاية الإنصاف مع الخصم، قال أبو حيان: أخرج الكلام مخرج الشك، ومعلوم أن من عبد الله وحده كان مهتدياً، ومن عبد غيره من جماد كان ضالًّا، وفي هذا إنصافٌ وتلطفٌ في الدعوى، وفيه تعريضٌ بضلالهم وهو أبلغ من الردّ بالتصريح، ونحوه قول العرب: أخزى الله الكاذب[2] مني ومنك، مع تيقن أن صاحبه هو الكاذب ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي لا تُؤاخَذُون على ما ارتكَبْنا من إجرام، ولا نؤاخَذ نحن بما اقترفتم، وإنما يعاقب كل إنسان بجريرته، وهذا ملاطفة وتَنَزُّلٌ[3] في المجادلة إلى غاية الإنصاف، قال الزمخشري: وهذا أدخل في الإنصاف وأبلغ من الأول، حيث أسند الإجرام لأنفسهم والعمل إلى المخاطبين[4] ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يجمع الله بيننا وبينكم يوم القيامة ثم يحكم بيننا ويفصل بالحقِّ ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي وهو الحاكم العادل الذي لا يظلم أحداً، العالم بأحوال الخلق، فيدخل المحقَّ الجنة، والمبطل النار ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ توبيخٌ آخر على إشراكهم وإظهارٌ لخطئهم العظيم أي أروني هذه الأصنام التي ألحقتموها بالله وجعلتموها شركاء معه في الألوهية، لأنظر بأي صفةٍ استحقت العبادة مع الذي ليس كمثله شيء؟ قال «أبو السعود»: وفيه مزيد تبكيتٍ لهم بعد إلزام الحجة عليهم[5] ﴿كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ردعٌ لهجر وزجر أي ليس الأمر كما زعمتم من اعتقاد شريك له، بل هو الإله الواحد الأحد، الغالب على أمره، الحكيم في تدبيره لخلقه، فلا يكون له شريك في ملكه أبداً ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي وما أرسلناك يا محمد للعرب خاصة وإنما أرسلناك لعموم الخلق، مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وَلَٰكِنَّ

---

(١) تفسير «ابن الجوزي» ٦/ ٤٥٤.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٢٧٩.
(٣) (ش): تَنَزُّل: تنازُلٌ.
(٤) «الكشاف» ٣.
(٥) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣١.

﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ هؤلاء الكافرين لا يعلمون ذلك فيحملهم جهلهم على ما هم عليه من الغيّ والضلال ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية: متى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ والخطاب للنبي والمؤمنين ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لكم زمان معيَّن للعذاب يجيء في أجله الذي قدَّره الله له، لا يستأخر لرغبة أحد، ولا يتقدم لرجاء أحد، فلا تستعجلوا عذاب الله فهو آتٍ لا محالة، ثم أخبر تعالى عن تمادي المشركين في العناد والتكذيب فقال ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لن نصدِّق بالقرآن ولا بما سبقه من الكتب السماوية الدالة على البعث والنشور ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ولو شاهدت يا محمد حال الظالمين المنكرين للبعث والنشور في موقف الحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً ويؤنب بعضهم بعضاً، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف للتهويل تقديره لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي يقول الأتباع للرؤساء: لولا إضلالكم لنا لكنا مؤمنين مهتدين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ ؟ أي قال الرؤساء جواباً للمستضعفين: أنحن منعناكم عن الإيمان بعد أن جاءكم؟ لا، ليس الأمر كما تقولون ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي بل أنتم كفرتم من ذات أنفسكم، بسبب أنكم كنتم مجرمين راسخين في الإجرام ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي وقال الأتباع للرؤساء: بل مكركم بنا في الليل والنهار هو الذي صدَّنا عن الإيمان ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي وقت دعوتكم لنا إلى الكفر بالله، وأن نجعل له شركاء، ولولا تزيينكم لنا الباطل ما كفرنا ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي أخفى كل من الفريقين الندامة على ترك الإيمان حين رأوا العذاب، أخفوها مخافة التعيير ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وجعلنا السلاسل في رقاب الكفار زيادةً على تعذيبهم بالنار ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يجزون إلا بأعمالهم التي عملوها ولا يعاقبون إلا بكفرهم وإجرامهم.

البَلاَغَة: تضمنت الآية الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين لفظ ﴿يَمِينٍ﴾ .. و.. ﴿وَشِمَالٍ﴾ وبين ﴿بَشِيرًا﴾ .. و.. ﴿وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ .. ﴿تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ وبين ﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ .. و.. ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟﴾ فإن كلمة ﴿سِيرُوا۟﴾ مشتقة من السير.

٣ - التعجيز بدعاء الجماد الذي لا يسمع ولا يحس ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٤ - التوبيخ والتبكيت ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؟

٥ - حذف الخبر لدلالة السياق عليه ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي قل الله الخالق الرازق للعباد ودل على المحذوف سياق الآية.

٦ - المبالغة بذكر صيغ المبالغة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإن، فعَّال وفعيل وفعول، من صيغ المبالغة ومثلها ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٧ - حذف الجواب للتهويل والتفزيع ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حذف الجواب للتهويل أي لو ترى حالهم لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً.

٨ - المجاز العقلي ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أسند المكر إلى الليل والمراد مكر المشركين بهم في الليل ففيه مجاز عقلي.

٩ - الاستعارة ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ليس للقرآن يدان ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من عند الله.

١ - مراعاة الفواصل لما لها من وقع حسن على السمع مثل ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إلخ.

قال الله تعالى:

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ
أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ
أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ
أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ
أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟
عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن
يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ

هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴿٤٤﴾
وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞
قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ
إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى
ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ
وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ
﴿٥٠﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ
مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ
بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ

المناسَبَة: لمّا ذكر تعالى قصة أهل سبأ وكفرهم بنعم الله، وما أعقب ذلك من تبديل النعمة إلى النقمة، ذكر هنا اغترار المشركين بالمال والبنين، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ، وختم السورة الكريمة ببيان مصرع الغابرين، تسليةً لرسول الله ﷺ وتخويفاً وتحذيراً للمشركين.

اللغَة: ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾ المترف: المُنَعَّم المتقلِّب في الغِنَى والعِزِّ والجاه. ﴿يَبۡسُطُ﴾ يوسّع. ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ يُقتّر. ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ قُربَى. ﴿إِفۡكٞ﴾ كذب مختلق. ﴿مِعۡشَارَ﴾ المعشار: العُشر، قال الجوهري: ومعشار الشيء عشره[1]، فهما لغتان. ﴿نَكِيرِ﴾ أصلها نكيري حذفت الياء لمراعاة الفواصل، قال الزجاج: النكير: اسم بمعنى الإنكار. ﴿جِنَّةٍ﴾ بكسر الجيم أي جنون. ﴿فَوۡتَ﴾ نجاة ومهرب. ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ التناول، قال الزمخشري: والتناوش والتناول أخوان، إلا أن التناوش تناولٌ سهلٌ لشيء قريب[2]، ومنه المناوشة في القتال وذلك عند تداني الفريقين، قال ابن السكِّيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذه: ناشه.

التفسير: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي لم نبعث في أهل قريةٍ رسولاً من الرسل ينذرهم عذابنا ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ إي إلا قال أهل الغِنَى والتنعم في الدنيا ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي لا نؤمن برسالتكم ولا نصدقكم بما جئتم به، قال قتادة: المترفون هم جبابرتهم وقادتهم ورؤساؤهم في الشر[3]، وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء، والقصد بالآية تسلية النبي ﷺ على تكذيب أكابر قريش له ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ أي

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣١٠.
(٢) «الكشاف» ٣/ ٤٦٨.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٠٥.

وقال مشركو مكة: نحن أكثر أموالاً وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي إن الله لا يعذبنا لأنه راضٍ عنا، ولو لم يكن راضياً عنا لما بسط لنا من الرزق، قاسوا أمر الدنيا على الآخرة، وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة، قال أبو حيان: نصَّ تعالى على المترفين لأنهم أول المكذبين للرسل، لِما شُغلوا به من زخرف الدنيا، وما غلب على عقولهم منها، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة، بخلاف الفقراء فإنهم خَالُون من مستلذات الدنيا[١]، فقلوبهُم أقْبَلُ للخير[٢] ولذلك كانوا أكثر أتباع الأنبياء[٣] ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن توسعة الرزق وتضييقه ليس دليلاً على رضى الله، فقد يوسّع الله على الكافر والعاصي، ويضيق على المؤمن والمطيع ابتلاءً وامتحاناً، فلا تظنوا أن كثرة الأموال والأولاد دليل على المحبة والسعادة، بل هي تابعة للحكمة والمشيئة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون الحقيقة، فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة، وكثيرًا ما يكون للاستدراج[٤] كما قال تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] ولهذا أكَّد ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ أي ليست أموالكم ولا أولادكم التي تفتخرون بها وتكاثرون هي التي تقربكم من الله قربى، وإنما يقرّب الإيمان والعمل الصالح، قال الطبري: الزلفى: القربى، ولا يعتبر الناس بكثرة المال والولد[٥]، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله، ويعلّم ولده الخير ويربيه على الصلاح فإن هذا الذي يقرّب من الله[٦] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي تُضاعَف حسناتُهم، الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي وهم في منازل الجنة العالية آمِنون من كل عذاب ومكروه، ولما ذكر جزاء المؤمنين، ذكر عقاب الكافرين، ليظهر التباين بين الجزاءين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي يسعون في الصدِّ عن سبيل الله، واتباع آياته ورسله، معاندين لنا يظنون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ أي فهم مقيمون في العذاب، محضرون يوم

---

(١) (ش): الخالِي من مستلذات الدنيا: الذي ليس عنده شيءٌ منها.

(٢) (ش): أقْبَلُ للخير: أي أكثرُ قبولاً للخير.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٢٨٥.

(٤) «البيضاوي» ٢/ ١٢٦.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٦٨.

(٦) «البيضاوي» ٢/ ١٢٦.

القيامة للحساب ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي قل يا محمد: إن ربي يوسّع الرزق لمن يشاء من خلقه، ويقتّر على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال التي رزقكم الله إيَّاها، قال في «التسهيل»: كررت الآية لاختلاف القصد، فإنَّ القصد بالأول الكفار، والقصد هنا ترغيب المؤمنين بالإنفاق[١] ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي وما أنفقتم في سبيل الله قليلاً أو كثيراً فإن الله تعالى يعوّضه عليكم إما عاجلاً أو آجلاً ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي هو تعالى خير المُعْطِين[٢]، فإنَّ عطاءَ غيرِه بحساب، وعطاؤُه تعالى بغير حساب، قال المفسرون: لما بيَّن أنَّ الإيمان والعمل الصالح هو الذي يقرّب العبد إلى ربه، ويكون مؤدياً إلى تضعيف حسناته، بيَّن أن نعيم الآخرة لا ينافي سعة الرزق في الدنيا، بل الصالحون قد يبسط لهم الرزق في الدنيا مع ما لهم في الآخرة من الجزاء الأَوْفَى والمثوبة الحسنى بمقتضى الوعد الإلهي[٣] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي واذكر يوم يحشر الله المشركين جميعاً مَن تقدَّم ومَن تأخَّر للحساب والجزاء ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين أي هؤلاء عبدوكم من دوني وأنتم أمرتموهم بذلك؟ قال الزمخشري: هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار، وارد على المثل السائر «إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة» ونحوه قوله تعالى ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]؟ وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى منزهون عما نُسب إليهم، والغرض من السؤال والجواب أن يكون تقريع للمشركين أشدّ، وخجلهم أعظم[٤] ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي تعاليت وتقدست يا ربنا عن أن يكون معك إله، أنت ربنا ومعبودنا الذي نتولاه ونعبده ونخلص له العبادة، ونحن نتبرأ إليك منهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي بل كانوا يعبدون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة غير الله فأطاعوهم ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ قال الطبري: أي أكثرهم بالجنّ مصدقون يزعمون أنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً[٥] قال تعالى ردًّا على مزاعم المشركين ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي في هذا اليوم يوم الحساب لا ينفع العابدون ولا المعبودون بعضهم لبعض، لا بشفاعة ونجاة، ولا بدَفْع عذاب وهلاك، قال «أبو السعود»: يخاطَبون بذلك على رؤوس الأشهاد إظهاراً

(١) «التسهيل» ٣/ ١٥٢.
(٢) «زاد المسير» ٦/ ٦٤٢.
(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٩٣.
(٤) «الكشاف» ٣/ ٤٦٣.
(٥) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٦٩.

لعجزهم وقصورهم عن نفع عابديهم، وإظهاراً لخيبة رجائهم بالكلية، ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض للمبالغة في المقصود، كأنّ نفْعَ الملائكة لعبَدَتهم في الاستحالة كنفْع العبَدة لهم[1] ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي ونقول للظالمين الذين عبدوا غير الله ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي ذوقوا عذاب جهنم التي كذبتم بها في الدنيا فها قد وردتموها، ثم بيَّن تعالى لوناً آخر من كفرهم وضلالهم فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا تُليت على هؤلاء المشركين آياتُ القرآن واضحاتِ المعاني، بينات الإعجاز، وسمعوها غضة طريةً من لسان رسولنا محمد ﷺ ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي ما هذا الذي يزعم الرسالة إلا رجلٌ مثلكم يريد أن يمنعكم عمَّا كان يعبد أسلافكم من الأوثان والأصنام ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي ما هذا القرآن إلا كذبٌ مختلق على الله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم للحقِّ النيِّر: ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح ظاهر لا يخفى على لبيب، وقال الزمخشري: وفيه تعجيبٌ من أمرهم بليغٌ، حيث بَتُّوا القضاء على أنه سحرٌ[2]، ثم بتّوه على أنه بيِّن ظاهر، كل عاقل تأمله سمَّاه سحراً وفي قوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ المبادهة[3] بالكفر من غير تأمل[4]، ثم بيَّن تعالى أنهم لم يقولوا ذلك عن بيِّنة، ولم يكذِّبوا محمداً عن يقين، بل عن ظنٍّ وتخمين فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي وما أنزلنا على أهل مكة كتاباً قبل القرآن يقرؤون فيه ويتدارسونه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي وما بعثنا إليهم قبلك يا محمد رسولاً ينذرهم عذابالله، فمن أين كذبوك؟ قال الطبريك أي ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبيًّا قبل محمد ﷺ[5] ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي وكذَّب قبلهم أقوام من الأمم السابقين وما بلغ كفار مكة عشر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوة والمال وطول العمر، قال ابن عباس: ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي من القوة في الدنيا[6] ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي وحيث كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يُغن عنهم ما كانوا فيه من القوة، فكيف

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٤.

(٢) (ش): أي إنهم بلا تردُّد حكموا على القرآن بأنه سحرٌ.

(٣) (ش): بادهَ الشَّخصَ بالأمر: فاجأه به.

(٤) «الكشاف» ٣/ ٤٦٤.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٢/ ١٠، وهذه رواية قتادة.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٣٥.

حـال هؤلاء إذا جاءهم العذاب والهلاك؟ وفيه تهديدٌ لقريش ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ أي قـل يـا محمد لهؤلاء المشـركين إنما أنصحكـم وأوصيكم بخصلةٍ واحدة ثم فسـرها بقولـه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي هـي أن تتحـرَّوا الحـق لوجـه الله والتقرب له مجتمعيـن ووحدانـًا، أو اثنين اثنين وواحداً وواحداً، قال القرطبي: وهذا القيام إلى طلب الحـق، لا القيام الذي هـو ضدُّ القعـود[1] ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ أي ثم تتفكروا في أمر محمد لتعلموا أن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون به مسٌّ من الجنون أو يكون مجنونـًا، قال أبو حيان: ومعنى الآية: إنما أعظكم بواحدة فيها إصابتكـم الحقَّ وهي أن تقوموا لوجه الله متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، ثم تتفكروا في أمـر محمد ومـا جاء به، وإنما قال ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ لأن الجماعة يكون من اجتماعهم تشـويش الخاطر والمنع من التفكر، كما يكون في الدروس التي يجتمع بها الجماعة، وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصاف وعرض كل واحدٍ منهما على صاحبه ما ظهر له فلا يكاد الحقُّ أن يعدوهمـا، وإذا كان الواحـد جيّد الفكر عرف الحق، فإذا تفكروا عرفوا أن نِسْـبَتَه عليه السـلام للجنـون لا تمكـن[2]، ولا يذهب إلى ذلك عاقـل[3] ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ أي ما هو إلا رسـول منذر لكم إن كفرتم من عذاب شـديدٍ في الآخرة ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ أي لا أسـألكم على تبليغ الرسالة أجراً، قال الطبري: المعنى إني لم أسألكم على ذلك جُعْلاً[4] فتَتَّهِمُوني وتظنوا أني إنما دعَوْتُكم إلى اتباعي لمالٍ آخذه منكـم[5] ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي ما أجري وثوابـي إلا على الله رب العالمين ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ أي هـو تعالـى رقيـب وحاضر على أعمالـي وأعمالكم، لا يخفى عليه شـيء وسـيجازي الجميع، قال «أبو السـعود»: أي هو مُطَّلِعٌ يعلم صدقي وخُلوصَ نِيَّتِي[6] ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يبيِّن الحجة ويظهرها، قال ابن عباس: يقذف الباطل بالحق كقوله: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ١٨][7] ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ أي هو تعالى الذي أحاط علمـاً بجميع الغيوب التي غابت وخَفِيَتْ عن الخلق ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣١١.
(٢) (ش): أي لا يمكن أن يُنْسَبَ النبي عليه السلام للجنون ويُوصَف به.
(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٢٠١، بشيء من الاختصار.
(٤) (ش): الجُعْلُ: مَا جُعِلَ على الْعَمَل مِن أجرٍ.
(٥) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٧١.
(٦) «أبو السعود» ٤/ ٢٣٥.
(٧) «الكشاف» ٣/ ٤٦٧.

جاء نور الحق وسطع ضاؤه وهو الإسلام ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي ذهب الباطل بالمرَّة فليس له بدءٌ ولا عودٌ، قال الزمخشري: إذا هلك الإنسان لم يبقَ له إبداءٌ ولا إعادة، فجعلوا قولهم: لا يبدئ ولا يعيد مثلاً في الهلاك والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن حصل لي ضلالٌ كما زعمتم فإن إثم ضلالي على نفسي لا يضر غيري ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ أي وإن اهتديتُ إلى الحق فبهداية الله وتوفيقه ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي سميعٌ لمن دعاه، قريب الإجابة لمن رجاه، قال «أبو السعود»: يعلم قول كل من المهتديِّ والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما[1] ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ ﴾ أي ولو ترى يا محمد حال المشركين عند فزعهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿فَلَا فَوْتَ ﴾ أي فلا مخلص لهم ولا مهرب ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي أخذوا من الموقف أرض المحشر إلى النار، وجواب ﴿ وَلَوْ ﴾ محذوف تقديره: لرأيت أمراً عظيمًا وخطباً جسيماً ترتعد له الفرائص ﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أي وقالوا عندما عاينوا العذاب: آمنا بالقرآن وبالرسول ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي ومن أين لهم تناول الإيمان وهم الآن في الآخرة ومحل الإيمان في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد؟ قال أبو حيان: مثَّل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بُعدٍ كما يتناوله الآخر من قرب[2] ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أي والحال أنهم قد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل ذلك في الدنيا، فكيف يحصل لهم الإيمان بهما في الآخرة ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي يرمون بظنونهم في الأمور المغيبة فيقولون: لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار، قال القرطبي: والعربُ تقول لكل من تكلم بما لا يعرف هو يقذف ويرجم بالغيب، وعلى جهة التمثيل لمن يرمي ولا يصيب[3] ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي وحيل بينهم وبين الإيمان ودخول الجنان ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أي كما فُعِل بأشباههم في الكفر من الأمم السابقة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وارتياب من أمر الحساب والعذاب وقوله: ﴿مُّرِيبٍۭ﴾ من باب التأكيد كقولهم: عجبٌ عجيب.

---

(١) «أبو السعود» ٤/ ٢٣٥.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٢٩٣.

(٣) المصدر السابق.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يَبْسُطُ .. و.. وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿نَّفْعًا .. و.. ضَرًّا﴾ وبين ﴿مَثْنَىٰ .. وَفُرَٰدَىٰ﴾.

٢ - المقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾.

٣ - الالتفات من الغائب إلى المخاطب ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ والغرض المبالغة في تحقيق الحق.

٤ - أسلوب التقريع والتوبيخ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ ؟ الخطاب للملائكة تقريعاً للمشركين.

٥ - وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل جريمة الكفر عليهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ والأصل (وقالوا).

٦ - الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه، أي: ما أموالكم بالتي تقربكم ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا.

٧ - الاستعارة ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال والشدائد أمام الإنسان.

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره.

٩ - الاستعارة التصريحية ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ شبّه الذي يقول بغير علم، ويظن ولا يتحقق، بالإنسان يرمي غرضاً وبينه وبينه مسافة بعيدة فلا يكون سهمه صائباً، واستعار لفظ القذف للقول.

١٠ - توافق الفواصل لما له من جميل الوقع على السمع مثل ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة سبأ»





مكية وآياتها خمس وأربعون

بين يدي السورة

* سورة فاطر مكية نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ، فهي تسير في الغرض العام الذي نزلت من أجله الآيات المكية، والتي يرجع أغلبها إلى المقصد الأول من رسالة كل رسول، وهو قضايا العقيدة الكبرى «الدعوة إلى توحيد الله، وإقامة البراهين على وجوده، وهدم قواعد الشرك، والحث على تطهير القلوب من الرذائل، والتحلي بمكارم الأخلاق».

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع، الذي فطر الأكوان، وخلق الملائكة والإنس والجان، وإقامة الأدلة والبراهين، على البعث والنشور، في صفحات هذا الكون المنظور، بالأرض تحيا بعد موتها، بنزول الغيث، وبخروج الزروع والفواكه والثمار، وبتعاقب الليل والنهار، وفي خلق الإنسان في أطوار، وفي إيلاج الليل في النهار، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية.

* وتحدثت عن الفارق الكبير بين المؤمن والكافر، وضربت لهما الأمثال بالأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور.

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة في اختلاف أنواع الثمار، وفي سائر المخلوقات من البشر والدواب والأنعام، وفي اختلاف أشكال الجبال والأحجار، وتنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار.

* وتحدثت بعد ذلك عن ميراث هذه الأمة المحمدية للأشرف الرسالات السماوية، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائل كتاب الله، ثم انقسام الأمة إلى ثلاث أنواع: «المقصر، والمحسن، والسابق بالخيرات».

* وختمت السورة بتقريع المشركين في عبادتهم للأوثان والاصنام والأحجار.

التسمية: سميت «سورة فاطر» لذكر هذا الاسم الجليل، والنعت الجميل في طليعتها، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثالٍ سابق، ولما فيه من التصوير الدقيق المشير إلى عظمة ذي الجلال، وباهر قدرتهن وعجيب صنعه، فهو الذي خلق الملائكة وابدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي

ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا
مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ
مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم
بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ
سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ
يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن
تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا
يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ
شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا
ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

اللغَة: ﴿فَاطِرِ﴾ الفاطر: الخالق، وأصل الفطر الشَّق يقال: فاطره فانفطر أي انشق، ومنه ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨] وفطر اللهُ الخلق: خلقهم وبرأهم. ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون من الإفك بمعنى الكذب سمى إفكًا لأنه مصروف عن الحق والصواب. ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ جمع حسرة وهي الغم الذي يلحق النفس على فوات الأمر، وفي المختار: الحسرةُ أشدُّ التلهف على الشيء الفاقد[1]. ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ مصدر نَشَرَ الميتُ إذا حَيِّي، قال الأعشى:

حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا … يَا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

﴿يَبُورُ﴾ يهلك يقال: بار يبور أي هلك وبطل، والبوار: الهلاك. ﴿فُرَاتٌ﴾ حلو شديد الحلاوة. ﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة قال في القاموس: أَجَّ الماء أُجوجًا إذا اشتدت ملوحته[2]. ﴿قِطْمِيرٍ﴾ القطمير: القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة.

(١) «مختار الصحاح» مادة جسر.
(٢) «القاموس المحيط» مادة أجج.

التفسير: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي الثناء الكامل، والذكر الحسن، مع التعظيم والتبجيل لله جلَّ وعلا، خالق السموات والأرض ومنشئها ومخترعها من غير مثل سبق، قال «البيضاوي»: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي مبدعهما وموجدهما على غير مثال[١] ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي جاعل الملائكة وسائط بين الله وأنبيائه لتبليغهم أوامر الله، قال «ابن الجوزي»: يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور[٢] ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: أصحاب أجنحة، قال قتادة: بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها إلى السماء[٣] ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ اي يزيد في خلق الملائكة كيف يشاء، من ضخامة الأجسام، وتفاوت الأشكال، وتعدد الأجنحة، وقد رأى رسول الله ﷺ جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب[٤] وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ المَلَاحةُ[٥] في العينين، والحُسنُ في الأنف، والحَلاوة في الفم[٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي هو تعالى قادر على ما يريد، له الأمر والقوة والسلطان، لا يمتنعُ عليه فِعْلُ شيءٍ أراده، ولا يتأبَّى عليه خَلْقُ شيء أراده، وصف تعالى نفسه في هذه الآيات بصفتين جليلتين تحمل كل منهما صفة القدرة وكمال الإنعام الأولى: أنه فاطر السموات الأرض أي خالقهما ومبدعهما من غير مثالٍ يحتذيه، ولا قانون ينتحيه، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته، وشمول نعمته، فهو الذي رفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية من غير أَوَد[٧]، وزيَّنَها

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٩٨.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٤٧٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣١٩.

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن ابن مسعود قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح».
(ش): في أكثر من طبعة: «عن ابن مسعود قال الزمخشري: «رأى رسول الله»، وهو خطأٌ طباعي ظاهر. وكلام ابن مسعود رواه البخاري ومسلم، وليس فيهما: بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب. وهذه الزيادة ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسير الآية ولكن بدون إسناد. وروى أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب «العظمة» بإسناد ضعيف عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «إِنَّ جِبْرِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَقَائِمٌ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبَّارِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، تَرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَرَقًا مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى، يَقُولُ: سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِنَّ مَا بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

(٥) (ش): المَلَاحَةُ: حُسْنُ المنظر.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٢٠، والآية عامة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة، واعتدال صورة، وحصافة في العقل، وذلاقة في اللسان، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف. (ش): الحصافة في العقل: استحكامه وجَوْدة الرأي. الذلاقة في اللسان: الفصاحة والبلاغة.

(٧) (ش): أَوَد: اعْوِجاج، مَيْل، انحناء.

بالكواكب والنجوم، وهو الذي بسط الأرض، وأودعها الأرزاق والأقوات، وبثَّ فيها البحار والأنهار، وفجَّر فيها العيون والآبار، إلى غير ما هنالك من آثار قدرته العظيمة، وآثار صنعته البديعة، وعبَّر عن ذلك كله بقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والثانية: اختيار الملائكة ليكونوا رسلاً بينه وبين أنبيائه، وقد أشار إلى طرفٍ من عظمته وكمال قدرته جل وعلا بأن خلق الملائكة بأشكال عجيبة، وصور غريبة، وأجنحة عديدة، فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له ستمائة جناح، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، كما هو وصف جبريل عليه السلام، ومنهم من لا يعلم حقيقة خِلقته وضخامة صورته إلا الله جل وعلا، فقد روى الزهري أن جبريل قال للنبي ﷺ: «يا محمد كيف رأيت إسرافيل إنَّ له لاثني عشر ألف جناح، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، وإن العرش لَعَلَى كَاهِله»[1] ولو كشف لنا الحجاب لرأينا العجب العجاب، فسبحان الله ما أعظم خلقه، وما أبدع صنعه! ثم بيَّن تعالى نفاذَ مشيئته، ونُفُوذَ أمره في هذا العالم الذي فطره ومَن فيه، وأخضعه لإرادته وتصرفه فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أيْ أيُّ شيء يمنحه الله لعباده ويتفضل به عليهم من خزائن رحمته، من نعمةٍ، وصحةٍ، وأمنٍ، وعلمٍ وحكمةٍ، ورزقٍ، وإرسال رسلٍ لهداية الخلق، وغير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحيط بها عدٌّ، فلا يقدر أحدٌ على إمساكه وحرمان خلق الله منه، فهو الملك الوهاب الذي لا مانع لما أعطى، ولا مُعطِيَ لما منع ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أيْ وأيُّ شيء يمسكه ويحبسه عن خلقه من خيري الدنيا والآخرة، فلا أحد يقدر على منحه للعباد بعد أن أمسكه جل علا ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي هو تعالى الغالب على كل شيء، الحكيم في صنعه، الذي يفعل ما يريد على مقتضى الحكمة والمصلحة، قال المفسرون: والفتحُ والإمساك عبارة عن العطاء والمنع، فهو الذي يضر وينفع، ويعطي ويمنع، وفي الحديث: «أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ: اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»[2] ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة عليهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اشكروا ربكم على نعمه التي

(١) «الكشاف» ٣/ ٤٧٠. (ش): رَوَاهُ ابن الْمُبَارك فِي «كتاب الزّهْد» والثَّعْلَبِيّ فِي «تَفْسِيره» بإسناد ضعيف. والكاهِل، ما بين الظَّهر والعنُق.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه. (ش): (أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ: اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ): أي أَحَقُّ قَوْلِ الْعَبْدِ أن يقول: لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ... إِلَى آخِرِه، وَاعْتَرَضَ بَيْنَهُمَا: وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ. (وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ): الجَدُّ: الحَظُّ والسعادة والغِنَى. وَمَعْنَاهُ لَا يَنْفَعُ ذَا الْغِنَى وَالْحَظِّ مِنْكَ غِنَاهُ.

لا تُعدُّ ولا تُحْصى التي أنعم بها عليكم، قال الزمخشري: ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط، ولكن المراد حفظها من الكفران، وشكرها بمعرفة حقها، والاعتراف بها، وإطاعة مُولِيهَا[١]، ومنه قولُ الرجل لمن أنعمَ عليه: اذكرْ أيادِي عندك[٢] ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا خالقَ غيرُه تعالى، لا ما تعبدون من الأصنام ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي حال كونه تعالى هو المنعم على العباد بالرزق والعطاء، فهو الذي ينزل المطر من السماء، ويخرج النبات من الأرض، فكيف تشركون معه ما لا يخلق ولا يرزق من الأوثان والأصنام؟ ولهذا قال تعالى بعده: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا ربَّ ولا معبود إلا الله الواحد الأحد[٣] ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون بعد هذا البيان، ووضوح البرهان، إلى عبادة الأوثان؟ والغرض: تذكير الناس بنعم الله، وإقامة الحجة على المشركين، قال ابن كثير: نبّه تعالى عباده وأرشدهم إلى الاستدلال على توحيده، بوجوب إفراد العبادة له، فكما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك يجب أن يُفْرَد بالعبادة، ولا يُشْرَك به غيرُه من الأصنام والأوثان[٤] ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية للنبي ﷺ على تكذيب قومه له: والمعنى: وإن يكذِّبْكَ يا محمد هؤلاء المشركون فلا تحزَنْ لتكذيبهم، فهذه سنة الله في الأنبياء من قبلك، فقد كُذِّبوا وأُوذُوا حتى أتاهم نصرنا، فلَكَ بهم أُسوةٌ، ولا بدَّ أن ينصرك الله عليهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى الله تعالى وحدَه مرجعُ أمرِك وأمرِهم، وسيجازي كُلًّا بعمله، وفيه وعيد وتهديد للمكذبين. ثم ذكَّرهم تعالى بذلك الموعد المحقَّق فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إن وعده لكم بالبعث والجزاء حقٌّ ثابتٌ لا محالة لا خُلْف فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فلا تُلْهِكم الحياة الدنيا بزخرفها ونعيمها عن الحياة الآخرة، قال ابن كثير: أي لا تَتَلَهَّوا عن تلك الحياة الباقية، بهذه الزهرة الفانية[٥] ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي ولا يخدعَنَّكم الشيطان المبالغ في الغرور فيُطمِعَكم في عفو الله وكرمه، ويُمَنِّيكم بالمغفرة مع الإصرار على المعاصي. ثم بيَّن تعالى عداوة الشيطان للإنسان فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي إن الشيطان لكم أيها الناس عدوٌّ لدود، وعداوته قديمة لا تكاد تزول فعادوه كما عاداكم ولا تطيعوه، وكونوا على حذرٍ منه، قال بعض العارفين: يا عجبًا لمن عصى

(١) (ش): الإطاعة: إتيان الطاعة واستعمالها. مُولِي النِّعَم: مانِحُها ومُعْطيها.

(٢) «الكشاف» ٣/ ٤٧١.

(٣) (ش): الصواب أن يقال: «لا معبود بحقٍّ إلا الله»؛ لأن هناك معبودات كثيرة بالباطل لا تستحق العبادة.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٣٩.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٣٩.

المُحسِن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي إنما غرضه أن يقذف بأتباعه في نار جهنم المستَعِرة(١) التي تشوي الوجوه والجلود، لا غرض له إلا هذا، فهل يليق بالعاقل أن يستجيب لنداء الشيطان اللعين؟ قال الطبري: أي إنما يدعو شيعته ليكونوا من المخلدين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها(٢) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي الذين جحدوا بالله ورسله لهم عذاب دائم شديد لا يُقَادَر قَدْرُه(٣)، ولا يُوصَفُ هَوْلُه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي لهم عند ربهم مغفرةٌ لذنوبهم، وأجر كبير وهو الجنة، وإنما قرن الإيمان بالعمل الصالح ليشير إلى أنهما لا يفترقان، فالإيمان تصديقٌ، وقولٌ، وعملٌ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ الاستفهام للإنكار وجوابه محذوف والتقدير: أفمن زيَّن له الشيطان عمله السيئ حتى رآه حسناً(٤) واستحسن ما هو عليه من الكفر والضلال، كمن استقبحه واجتنبه واختار طريق الإيمان؟ ودلَّ على هذا الحذف قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي الكلُّ بمشيئة الله، فهو تعالى الذي يصرف من يشاء عن طريق الهدى، ويهدي من يشاء بتوفيقه للعمل الصالح والإيمان ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي فلا تَغْتَمّ يا محمد ولا تُهْلِك نفسك حسرةً على تَرْكِهم الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي هو جل وعلا العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح ومجازيهم عليها، وفيه وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ أي والله تعالى بقدرته هو الذي أرسل الرياح مبشرة بنزول المطر ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي فحركت السحاب وأهاجته، والتعبيرُ بالمضارع عن الماضي ﴿فَتُثِيرُ﴾ لاستحضار تلك الصورة البديعة، الدالة على كمال القدرة والحكمة(٥) ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي فسقنا السحاب الذي يحمل الغيث إلى بلدٍ مجدب قاحل ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فيه حذفٌ تقديره: فأنزلنا به الماء فأحيينا به الأرض بعد جدبها ويبسها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء، كذلك يحيي الموتى من قبورهم، روى الإمام أحمد **عَنْ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى ؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ ؟ قَالَ: «أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مُمْحِلًا ؟» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «أَمَا مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا ؟» قَالَ:**

---

(١) (ش): استعرتِ النَّارُ: التهبت، وتوقّدت.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٧٨.
(٣) (ش): لا يُقَادَرُ قَدْرُه: لا يمكن وصْفه أو تحديد هيئتِه وكيفيّته.
(٤) انظر «الكشاف» ٣/ ٤٧٤.
(٥) «أبو السعود» ٤/ ٢٣٩.

قُلْـتُ: بَلَى قَالَ: «ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ مُمْحِلًا ؟» قَالَ: بَلَى قَـالَ: «فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَذَلِكَ آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ»[١] قال ابن كثير: كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، فـإن الأرض تكـون ميتة هامدة لا نبـات فيها، فإذا أرسـلَ الله إليها السـحاب تحملُ الماءَ وأنزلَـه عليها ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥] كذلك الأجسـاد إذا أراد الله بعثهـا ونشـورها[٢]، ثـمَّ نبَّـه تعالـى عباده إلى السـبيل الـذي تُنال به العـزة فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي مـن كان يطلـب العزة الكاملة، والسـعادة الشـاملة، فليطلبها من الله تعالى وحده، فإن العزة كلَّها لله جلَّ وعلا قال بعض العارفين: من أراد عزَّ الدارين فليطع العزيز[٣] ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي إليه جلا وعلا يرتفع كل كلام طيب من ذكر، ودعاءٍ، وتلاوة قرآن، وتسـبيح وتمجيـد ونحوه، قال الطبري: إلى الله يصعد ذكرُ العبـد إيَّـاه وثنـاؤه عليـه ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ أي والعمل الصالح يتقبلـه الله تعالى ويُثِيبُ صاحبَه عليه، قال قتادة: لا يقبل الله قولاً إلاَّ بعمل، من قال وأحسـن العمل قبل الله منه، نقله الطبري ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ هذا بيانٌ للكلم الخبيث، بعد بيـان حال الـكلام الطيب أي والذين يحتالـون بالمكر والخديعة لإطفاء نـور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، لهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي ومكر أولئك المجرمين هالكٌ وباطل، لأنه ما أسرَّ أحَدٌ سوءاً ودَبَّره إلا أبْداه الله وأظْهَره[٤]

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه. (ش): وحسَّنه الألباني.
مَحَل المكانُ: أجدَب ولم يُنْبِت. مُمْحِل: مُجْدِب: أي أصابه المَحْلُ، وهو القحْط والشدة.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٤٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٢٩.

(٤) (ش): قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِي: ثَلَاثٌ مِنْ فَعَلَهُنَّ لَمْ ينجُ حَتَّى يَنْزِلَ بِهِ مَنْ مَكر أو بَغَى أو نَكَث، وَتَصْدِيقُهَا فِي كِتَابِ اللهِ: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ﴾. ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يُونُس: ٢٣]، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الْفَتْح: ١٠]. [تفسير ابن كثير (٦/ ٥٥٩)]. أما ذنوب المؤمن فقد يسترها الله عليه في الدنيا والآخرة، فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ قَالَ: رَجُلٌ لابْنِ عُمَرَ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِى النَّجْوَى؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِى الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ: نَعَمْ أَىْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِى نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِى الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). النَّجْوَى هِيَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الْمَرْءُ يُسْمِعُ نَفْسَهُ وَلَا يُسْمِعُ غَيْرَهُ أَوْ يُسْمِعُ غَيْرَهُ سِرًّا دُونَ مَنْ يَلِيهِ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا الْمُنَاجَاةُ الَّتِي تَقَعُ مِنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ. (إِنَّ اللهَ يُدْنِى الْمُؤْمِنَ) الحديث على ظاهره، وهو أن المؤمن يُدنَى ويُقَرَّب من خالقه، وهذا معلوم في لغة العرب، أما الكيفية فلم يُطلِعْنا الله عليها وهو سبحانه أعلم بها. (كَنَفَهُ) جاء الكَنَفُ مفسراً في الحديث بأنه السِّتر، والمعنى: أنه تعالى يستر عبده عن رؤية =

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] قال المفسرون: والإشارة هنا إلى مكر قريش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة وأرادوا أن يقتلوه، أو يحبسوه، أو يخرجوه كما حكى القرآن الكريم ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] (١) ثم ذكَّرهم تعالى بدلائل التوحيد والبعث، بعد أن ذكَّرهم بآيات قدرته وعزته فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي ثم خلق ذريته من ماءٍ مهين وهو المنيُّ الذي يُصبُّ في الرحم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي خلقكم ذكوراً وإناثًا، وزوَّد بعضكم من بعضٍ ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضائها(٢) قال الطبري: أي زوَّج منهم الأنثى من الذكر(٣) ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي وما تحمل أنثى في بطنها من جنين، ولا تلد إلاَّ بعلمه تعالى، يعلم أذكر هو أو أنثى، ويعلم أطوار هذا الجنين في بطن أمه، لا يخفى عليه شيء من أحواله ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي وما يطول عُمر أحدٍ من الخلق فيصبح هرمـًا، ولا يُنقص من عُمر أحد فيموت وهو صغير أو شاب إلا وهو مسجَّل في اللوح المحفوظ، لا يُزاد فيما كتب الله ولا يُنقص ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي سهلٌ هيّن، لأن الله قد أحاط بكل شيء علمـًا، ثم ضرب تعالى مثلاً للمؤمن والكافر فقال: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ أي وما يستوي ماء البحر وماء النهر(٤) ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ﴾ أي هذا ماء حلوٌ شديد الحلاوة يكسر وهج العطش، ويسهل انحداره في الحلق لعذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ أي وهذا ماءٌ شديد الملوحة، يُحرق حلق الشارب لمرارته وشدة ملوحته، فكما لا يتساوى البحران: العذبُ، والملح، فكذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البرُّ مع الفاجر، قال «أبو السعود»: هذا مثلٌ ضُرب للمؤمن والكافر، والفراتُ الذي يكسر العطش، والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته، والأُجاج الذي يُحرق بملوحته(٥) ﴿وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ أي ومن كل واحدٍ منهما تأكلون سمكًا غضًّا طريـًا، مختلف الأنواع والطعوم والأشكال ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ أي وتستخرجون منهما اللؤلؤ والمرجان للزينة والتحلي

= الخلق له؛ لئلا يفتضح أمامهم فيخزى؛ لأنه حين السؤال والتقرير بذنوبه تتغير حاله، ويظهر على وجهه الخوف الشديد، ويتبين فيه الكرب والشدة.

(١) انظر «الكشاف» ٣/ ٤٧٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٣٢.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٨١.

(٤) سمي النهر بحرًا من باب التغليب.

(٥) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤١.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي وترى أيها المخاطب السفن العظيمة، تمخرُ عُباب البحر مقبلة ومدبرة، تحمل على ظهرها الأثقال والبضائع والرجال، وهي لا تغرق فيه لأنها بتسخير الله جل وعلا[1] ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي لتطلبوا بركوبكم هذه السفن العظيمة من فضل الله بأنواع التجارات، والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي ولكي تشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله في تسخيره ذلك لكم، ثم انتقل إلى آية آخرى من آيات قدرته وسلطانه في الآفاق فقال: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي يدخل الليلَ في النهار، ويدخل النهار في الليل، فيضيف من هذا إلى هذا وبالعكس، فيتفاوت بذلك طول الليل والنهار بالزيادة والنقصان، حسب الفصول والأمصار، حتى يصل النهار صيفاً في بعض البلدان إلى ست عشرة ساعة، وينقص الليل حتى يصل إلى ثمان ساعات، آيةٌ من آيات الله تُشاهد لا يستطيع إنكارها جاحد أو مؤمن، ويحس بآثارها الأعمى والبصير.

آيةٌ شاهدة على قدرة الله، ودقة تصرفه في خلقه، وهذه الظاهرة الكونية دستور لا يتغيَّر، ونظام محكم لا يأتي بطريق الصدفة، وإنما هو من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه، فسبحان المدبر الحكيم العليم! ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذلَّلَهما لمصالح العباد، كل منهما يسير ويدور في مداره الذي قـدَّره الله له لا يتعداه، إلى أجل معلوم هو يوم القيامة[2] ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأمور البديعة، هو ربكم العظيم الشأن، الذي له المُلك والسلطان والتصرف الكامل في الخلق ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي والذين تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير، وهو القشرة الرقيقة التي بين التمرة والنواة، قال المفسرون: وهو مثلٌ يضرب في القلة والحقارة، والأصنامُ لضَعْفها، وَهَوان شأنها وعجزها عن أي تصرف صارت مضرب المثل في حقارتها بأنها لا تملك فتيلاً ولا قطميرًا[3]، ثم أكد تعالى ذلك بقوله: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ أي

---

(١) راجع نظرية طفو الأجسام والإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

(٢) كان المَظنون أن الشمس ثابتة في موضعها ولكن أثبت العلم الحديث انها تجري في اتجاه واحد في القضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلًا في الثانية، والله الخبير العليم يخبر بسيرها وجريانها: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا هذه، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء إلا هو، ندرك طرفًا من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم. «تفسير الجوهري».

(٣) (ش): القِطْمِير: القِشرَةُ الرَّقيقَةُ على النواة كاللفافة لَهَا، القِشرَةُ الرَّقيقَةُ بين النَّواةِ والتَّمْرَةِ. والنَقِيرُ: حفرة مستديرة في ظهر نواة البلح. والفتيل: خَيْط فِي شقّ النواة أو قشرَة في بطنها.

إن دعوتم هذه الأصنام لم يسمعوا دعاءكم ولم يستجيبوا لندائكم، لأنها جمادات لا تسمع ولا تفهم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ أي ولو سمعوا لدعائكم على الفرض والتسليم ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة فتجيب ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي وفي الآخرة حين يُنْطِقهم الله يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا يخبرك يا محمد على وجه اليقين أحدٌ إلا أنا الله الخالق العليم الخبير، قال قتادة: يعني نفسه عَزَّ وَجَلَّ.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة التمثيلية ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ شبَّه فيه إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء وكذلك حبس النعم بالإمساك، واستعير الفتح للإطلاق والإمساك للمنع.

٢ - الطباق بين ﴿يَفْتَحِ .. يُمْسِكْ﴾ وكذلك بين ﴿يُضِلُّ .. وَيَهْدِى﴾ وبين ﴿تَحْمِلُ .. و.. تَضَعُ﴾ وبين ﴿يُعَمَّرُ .. يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾.

٣ - المقابلة بين جزاء الأبرار والفجار ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وكذلك بين قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾.. ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وكل من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية إلا أن الأول يكون بين شيئين والثاني بين أكثر.

٤ - حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؟ حذف منه ما يقابله أي كمن لم يُزَيَّن له سوءُ عمله؟ ودّل على هذا المحذوف قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٥ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ثم قال ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

٦ - الكناية ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ كناية عن الهلاك لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان.

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم للإشعار بالعظمة ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾.

٨ - السجع لما له من وقع حسن على السمع مثل ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وأمثال ذلك وهو من المحسنات البديعية.

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ

جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ
مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ
فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا
ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا
خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ
وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ
سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم
مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ

المناسَبَة: لمَّا عدَّد تعالى نِعَمَه على العباد، وأقام الأدلة والبراهين على قدرته وعزته وسلطانه، ذكَّرهم هنا بحاجتهم إليه، واستغنائه جل وعلا عن جميع الخلق، وضرب الأمثال للتفريق بين المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، بالأعمى والبصير، والظلام والنور، «فبضدّها تتميز الأشياء».

اللغَة: ﴿وِزْرَ﴾ الوزرُ: الجبل المنيع الذي يعتصم به ومنه ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١] ثم قيل للتثقيل: وِزْرٌ تشبيهاً له بالجبل، ثم استعير للذنب لما فيه من إثقال كاهل الإنسان. ﴿تُنذِرُ﴾ تُخوِّف، والإنذار التخويف. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الإنسان ولم تدركه حواسه، قال الشاعر:

وَبِالْغَيْبِ آمَنَّا وَقَدْ كَانَ قَوْمُنَا ... يُصَلُّونَ لِلْأَوْثَانِ قَبْلَ مُحَمَّدِ

﴿ٱلْحَرُورُ﴾ شدة حر الشمس، قال في «المصباح»: الحرُّ خلاف البرد والاسم الحرارة، وحرَّت النار: توقَّدت واستعرت، والحَرور: الريح الحارة[1]. ﴿جُدَدٌ﴾ جمع جُدَّة بالضم وهي الطريقة والعلامة، قال الجوهري: والجُدَّة: الخُطَّة التي في ظهر الحمار تخالف لونه، والجُدة الطريقة والجمع جُدَد وهي الطرائق المختلفة الألوان[2]، قال القرطبي: قال

(١) المصباح المنير.
(٢) الصحاح للجوهري.

الأخفش: لو كان جمع جديد لقال ﴿جُدُدٌ﴾ بضم الجيم والدال نحو سُرُر. ﴿غَرَابِيبُ﴾ جمع غربيب وهو الشديد السواد، يقال: أسود غربيب أي شديد السواد، قال امرؤ القيس:

الْعَيْنُ طَامِحَةٌ وَالْيَدُ سَابِحَةٌ... وَالرِّجْلُ لَافِحَةٌ وَالْوَجْهُ غِرْبِيبُ[١] التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الخطاب لجميع البشر لتذكيرهم بنعم الله الجليلة عليهم أي أنتم المحتاجون إليه تعالى في بقائكم وكل أحوالكم، وفي الحركات والسكنات ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي وهو جل وعلا الغنيُّ عن العالم على الإطلاق، المحمودُ على نعمه التي لا تُحْصى، قال أبو حيان: هذه آيةُ موعظةٍ وتذكير، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه، في جميع أحوالهم، لا يستغنى أحدٌ عنه طرفة عين، وهو الغنيُّ عن العالم على الإطلاق، المحمود على ما يُسْدِيه[٢] من النِّعَم، المستحق للحمد والثناء[٣]، ثم قرر استغناءه عن الخلق بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي لو شاء تعالى لأهلككم وأفناكم وأتى بقوم آخرين غيركم، وفي هذا وعيدٌ وتهديد ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي وليس ذلك بصعب أو ممتنع على الله، بل هو سهل يسير عليه سبحانه، لأنه يقول للشيء: كنْ فيكون ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفسٌ آثمةٌ إثم نفسٍ أخرى، ولا تعاقب بذنب غيرها كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بالجار، والقريب بالقريب[٤] ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي وإن تدع نفس مثقلةٌ بالأوزار أحداً ليحمل عنها بعض أوزارها لا يتحمل عنها ولو كان المدعو قريباً لها كالأب والابن، فلا غياث يومئذٍ لمن استغاث، وهو تأكيد لما سبق في أن الإنسان لا يتحمل ذنب غيره، قال الزمخشري: فإن قلت فما الفرق بين الآيتين؟ قلت: الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها، والثاني في أنه لا غياث يومئذٍ لمن استغاث[٥] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي إنما تنذر يا محمد بهذا القرآن الذين يخافون عقاب ربهم يوم القيامة ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي وأدَّوْا الصلاة على الوجه الأكمل، فضموا إلى طهارة نفوسهم طهارة أبدانهم بالصلاة المفروضة

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٤٣. (ش): (الْعَيْنُ طَامِحَةٌ): طَمَحَ بَصَرُه إليه: ارْتَفَعَ. (وَالْيَدُ سَابِحَةٌ) يعنى إذا جرَى فرسُه مَدَّ يديه فكأنه سابحٌ في الماء. والْيَدُ: الطرف الأماميّ للحيوان. (وَالرِّجْلُ لَافِحَةٌ): لَفَحَتْ النَّارُ: أحرقتْ. حرّ لافح: مُحْرِقٌ، شديدُ اللّهب.

(٢) (ش): يُسْدِيه: يُعطِيه.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٣٠٧.

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٥) «الكشاف» ٣/ ٤٩.

في أوقاتها ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي ومن طهَّر نفسه من أدناس المعاصي فإنما ثمرة ذلك التطهر عائدة عليه، فصلاحه وتقواه مختص به ولنفسه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي إليه تعالى وحده مرجع الخلائق يوم القيامة فيجازي كلا بعمله، وهو إخبار متضمنٌ معنى الوعيد ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر[1] أي كما لا يتساوى الأعمى مع البصير فكذلك لا يتساوى المؤمن المستنير بنور القرآن، والكافر الذي يتخبط في الظلام، ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي لا يتساوى كذلك الكفر والإيمان، كما لا يتساوى النور الظلام ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ أي وكذلك لا يستوي الحقُّ والباطل، والهدى والضلال كما لا يستوي الظل الظليل مع شدة حر الشمس والمتوهجة، قال المفسرون: ضرب الله الظل مثلاً للجنة وظلها الظليل، وأشجارها اليانعة تجري من تحت الأنهار، كماجعل الحرور مثلاً للنار وسعيرها، وشدة أوارها وحرها، وجعل الجنة مستقراً للأبرار، والنار مستقراً للفجار كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠] ثم أكد ذلك فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ أي كما لا يستوي العقلاء والجهلاء، قال أبو حيان: وترتيب هذه الأشياء في بيان عدم الاستواء جاء في غاية الفصاحة، فقد ذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر، وما عليه المؤمن من نور الإيمان، ثم ذكر مآلهما وهو الظلُ والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حر وتعب، ثم ذكر مثلاً آخر على أبلغ وجه وهو الحيُّ والميت، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع بخلاف الميت، وجمع الظلمات لأن طرق الكفر متعددة، وأفرد النور لأن التوحيد والحق واحدٌ لا يتعدد، وقدَّم الأشرف في المَثَلَيْن الأخيرين وهما «الظل، والحيُّ» وقدَّم الأوضح في المثلين الأولين وهما «الأعمى، والظلمات» ليظهر الفرق جلياً، ولا يقال ذلك لأجل السجع لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ، بل في المعنى أيضاً، فلله سرُّ القرآن[2]، ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي إن الله يُسْمِع مَن يشاء إسماعه دعوة الحق، فيحبِّبه بالإيمان ويشرح صدره للإسلام، وما أنت يا محمد بمُسْمِعٍ هؤلاء الكفار، لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون، قال «ابن الجوزي»: أراد بمن في القبور الكفار، وشبههم بالموتى[3]، أي فكما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٣٠٨.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٣٠٩، بشيء من الإيجاز والتصرف.

(٣) تفسير «ابن الجوزي» ٦/ ٤٨٤.

وينتفع بمواعظه، فكذلك من كان ميّت القلب لا ينتفع بما يسمع[١] ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي ما أنتَ إلا رسول منذر، تخوّف هؤلاء الكفار من عذاب النار ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي بعثناك بالهدى ودين الحق، بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ أي ما من أمةٍ من الأمم في العصور والأزمنة الخالية إلا وقد جاءها رسول ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ تسلية للنبي ﷺ للتأسي بالأنبياء في الصبر على تحمل الأذى والبلاء، قال الطبري: أي وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة رسلهم ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي جاءتهم الرسل بالمعجزات البينات، والحجج الواضحات فكذبوهم وأنكروا ما جاؤوا به من عند الله[٢] ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ أي وجاءوهم بالزُّبُر، أي: الصحف المنزلة على الأنبياء، وبالكتب السماوية المقدسة المنيرة الموضحة وهي أربعة: «التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان» ومع ذلك كذبوهم وردّوا عليهم رسالتهم فاصبر كما صبروا ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ثم بعد إمهالهم أخذتُ هؤلاء الكفار بالهلاك والدمار ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كانت عقوبتي لهم وإنكاري عليهم؟ ألم آخذْهم أخذ عزيز مقتدر؟ ألم أبدِّل نعمتهم نقمة، وسعادتهم شقاوة، وعمارتهم خرابًا؟ وهكذا أفعل بمن كذَّب رسلي، ثم عاد إلى تقرير وحدانية الله بالأدلة السماوية والأرضية فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي ألم ترَ أيها المخاطَب أن الله العظيم الكبير الجليل أنزل من السحاب المطر بقدرته؟[٣] ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ أي فأخرجنا بذلك الماء أنواع النباتات والفواكه والثمار، المختلفات الأشكال والألوان والطعوم، قال الزمخشري: أي مختلف أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها ما لا يُحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها[٤] ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ أي وخلق الجبال كذلك فيها الطرائق[٥] المختلفة الألوان وإن كان الجميع حجراً أو ترابًا، فمن الجبال جُدَد، أي: طرائق مختلفة الألوان، بِيضٌ مختلفة البياض، وحُمْرٌ مختلفة في حمرتها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ أي وجبال سودٌ غرابيب أي شديدة السواد، قال ابن جزي: قدَّم

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٨٥.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٨٦.

(٣) الآية سِيقت للحث والتحريض على النظر في عجائب صنعه تعالى، وآثار قدرته ليؤدي ذلك إلى العلم بعظمة الله وجلاله، ويؤدي العلم إلى خشيته ولذلك ختمها بقوله: فتدبر سر القرآن.

(٤) تفسير «الكشاف» ٣/ ٤٨١.

(٥) (ش): أي الطُّرُقُ في الجبال.

الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر، وذلك لقصد التأكيد وكثيراً ما يأتي مثلُ هذا في كلام العرب[١]، والغرضُ بيان قدرته تعالى، فليس اختلاف الألوان قاصراً على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ما هو أيضاً مختلِفُ الألوان، حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوانٍ عجيبة، وفيه عروق تشبه المرجان، ولا سيما في صخور «المرمر» فسبحان القادر على كل شيء ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ أي وخلق من الناس، والدواب، والأنعام، خلقاً مختلفاً ألوانه كاختلاف الثمار والجبال، فهذا أبيض، وهذا أحمر، وهذا أسود، والكلُّ خلق الله فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم لما عدَّد آياتِ الله، وأعلام قدرته، وآثار صنعه، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي إنما يخشاه تعالى العلماء لأنهم عرفوه حقَّ معرفته، قال ابن كثير: أي إنما يخشاه حقَّ خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتَمَّ، والعلمُ به أكمَلَ، كانت الخشيةُ له أعظمَ وأكثر[٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي غالب على كل شيء بعظمته، غفور لمن تاب وأناب من عباده، ثم أخبر عن صفات هؤلاء الذين يخافون الله ويرجون رحمته فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي يداومون على تلاوة القرآن آناء الليل وآطراف النهار ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدوها على الوجه الأكمل في أوقاتها، بخشوعها وآدابها، وشروطها وأركانها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي وأنفقوا بعض أموالهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه في السر والعلن ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي يرجون بعملهم هذا تجارة رابحة، لن تكسد ولن تهلك بالخسران أبداً ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي ليوفيهم الله جزاء أعمالهم، وثواب ما فعلوا من صالح الأعمال، ويزيدهم فوق أجورهم من فضله وإنعامه وإحسانه، قال في «التسهيل»: توفية الأجور هو ما يستحقه المطيع من الثواب، والزيادة: التضعيف فوق ذلك أو النظر إلى وجه الله[٣] ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي مبالغ في الغفران لأهل القرآن، شاكر لطاعتهم، قال ابن كثير: كان مطرف إذا قرأ هذه الآية قال: هذه آية القراء[٤] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي والذي أوحيناه إليك يا محمد من الكتاب المنزَّل القرآن العظيم هو الحق الذي لا شك فيه، ولا ريب في صدقه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي حال كونه مصدقاً لما سبقه من الكتب

---

(١) «التسهيل» ٣/ ١٥٨.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٤٦.
(٣) «التسهيل» ٣/ ١٥٨.
(٤) «المختصر» ٣/ ١٤٦.

الإلهية المنزلة كالتوارة والإنجيل والزبور، قال أبو حيان: وفي الآية إشارة إلى كونه وحياً، لأنه عليه السلام لم يكن قارئاً ولا كاتباً وأتى ببيان ما في كتب الله، ولا يكون ذلك إلا من الله[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ أي هو جل وعلا خبير بعباده محيط ببواطن أمورهم وظواهرها، بصيرٌ بهم لا خفى عليه خافية من شئونهم.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزوها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يُذْهِبْ.. و.. يَأْتِ﴾ وبين ﴿ٱلْأَعْمَىٰ.. و.. وَٱلْبَصِيرُ﴾ و ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ.. و.. ٱلنُّورُ﴾ و ﴿ٱلظِّلُّ ٱلْحَرُورُ.. و.. ٱلْحَرُورُ﴾ و ﴿ٱلْأَحْيَآءُ ٱلْحَرُورُ.. و.. ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ وبين ﴿وَنَذِيرًا.. بَشِيرًا﴾ وبين ﴿سِرًّا.. وَعَلَانِيَةً﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ ﴿حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ..﴾ الآية. شبه الكافر بالأعمى، والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق وعدم الاهتداء على الكفار، ووضوح الرؤية والاهتداء للمؤمن، ثم استعار المشبه به ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ للكافر، واستعار ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ للمؤمن بطريق الاستعارة التصريحية.

٤ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾ بدل (فأخرج) لما في ذلك من الفخامة ولبيان كمال العناية بالفعل، لما فيه من الصنع البديع، المُنْبِئ عن كمال قدرة الله وحكمته.

٥ - قصر صفة على موصوف ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فقد قصر الخشية على العلماء.

٦ - الإستفهام التقريري وفيه معنى التعجب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الآية.

٧ - الاستعارة ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ استعار التجارة للمعاملة مع الله تعالى لنيل ثوابه، وشبهها بالتجارة الدنيوية وهي معالمة الخلق بالبيع والشراء لنيل الربح ثم رشحها بقوله: ﴿لَّن تَبُورَ﴾.

٨ - توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه ووقعه في النفس مثل ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ومثل ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وهكذا.

قال الله تعالى:

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ

---

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٣١٣.

سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ
فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ
إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا
لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ
كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا
نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ
﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ
خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ
كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ
شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا
﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا
جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ
فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ
مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا

المناسَبَة: لما أثنى تعالى على الذين يتلون كتاب الله، ذكر هنا انقسام الأمة الإسلامية أمام هذا الكنز الثمين إلى ثلاثة أقسام: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، ثم ذكر مآل الأبرار والفجار، ليظل العبد بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة.

اللغَة: ﴿نَصَبٌ﴾ تعب ومشقة جسمانية. ﴿لُغُوبٌ﴾ اللُّغُوب: الإعياء والضعف والفتور ومنه ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]. ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ من الصراخ وهو الصياح بصوت عال، والصارخ: المستغيث، والمُصْرِخ: المغيث، قال سلامة بن جندب:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ ... كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعُ الظَّنَابِيبِ[1]

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٥٢. (ش): الصارخ: المستغيث. والظَّنابيب جمع (الظُّنْبُوبُ): وهو حرف العظم اليابس من الساق. وَمِنْ أَمثالهم: قَرَعَ فُلانٌ لأَمْرِه ظُنْبوبَه إِذا جَدَّ فِيهِ. والمراد سرعة الإجابة لنداء المستغيث والاجتهاد في نصرته. وقرْعُ الظنبوب كناية عن ذلك.

﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ المنذر الذي يخوّف الناس من عذاب الله. ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غايره في أمرٍ من الأمور. ﴿مَقۡتٗا﴾ المقت: أشد البغض والغضب. ﴿خَسَارٗا﴾ هلاكـًا وضلالاً. ﴿يَحِيقُ﴾ حاق به الشيء: نزل وأحاط.

التفسِير: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أي ثُم أورثنا هذا القرآن العظيم لأفضل الأمم وهم أمة محمد عليه السلام الذين اختارهم على سائر الأمم، وخصصناهم بهذا الفضل العظيم، القرآن المعجز خاتمة الكتب السماوية، قال الزمخشري: والذين اصطفاهم الله هم أمة محمد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة[١].. ثم قسمهم إلى ثلاثة أصناف فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي فمِن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب مَن هو مقَصِّرٌ في عمل الخير، يتلو القرآن ولا يعمل به وهو الظالم لنفسه، ومنهم مَن هو متوسط في فعل الخيرات والصالحات، يعمل بالقرآن في أغلب الأوقات، ويقصِّر في بعض الفترات وهو المقتصد، ومنهم مَن هو سبَّاق في العمل بكتاب الله، يستبق الخيرات وقد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات بتوفيق الله وتيسيره وهو السابق بالخيرات بإذن الله، قال ابن جزي: وأكثر المفسرين أن هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ فالظالم لنفسه: العاصي، والسابق: التقيُّ، والمقتصد: بينهما[٢] وقال الحسن البصري: السابقُ مَن رجحت حسناته على سيئاته، والظالم لنفسه مَن رجحت سيئاته، والمقتصد مَن استوت حسناته وسيئاته، وجميعهم يدخلون الجنة[٣] ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي ذلك الإرث والاصطفاء لأمة محمد عليه السلام لحمل أشرف الرسالات والكتب السماوية هو الفضل العظيم الذي لا يدانيه فضل ولا شرف، فقد تفضل الله عليهم بهذا القرآن المجيد، الباقي مدى الدهر، وأنْعِمْ به من فضل! ثم أخبر تعالى عما أعده للمؤمنين في جنات النعيم فقال: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ أي جنات إقامة ينعَّمون فيها بأنواع النعيم، وهي مراتب ودرجات متفاوتة حسب تفاوت الأعمال، وإنما جمع ﴿ جَنَّٰتُ﴾ لأنها جنات كثيرة وليست جنة واحدة، فهناك جنة الفردوس، جنة عدن، وجنة النعيم، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة السلام، وجنة عليين، وفي كل جنة مراتبُ ونُزلٌ بحسب مراتب العاملين ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾ أي يزينون في الجنة بأساور من ذهب مرصَّعة باللؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُمۡ

---

(١) «الكشاف» ٣/ ٤٨٤.

(٢) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٥٨.

(٣) «زاد المسير» ٦/ ٤٩٠، والقول بأن هذه الأصناف الثلاثة من أمة محمد ﷺ هو الأرجح وهو اختيار ابن جرير وقد أورد العلامة ابن كثير أحاديث تدل على ذلك.

﴿فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي وجميع ما يلبسونه في الجنة من الجرير، بل فرشهم وستورهم كذلك، قال القرطبي: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده ثلاثة أسورة: سوارٌ من ذهب، وساور من فضة، وسوار من لؤلؤ[١] ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة الحمدُ لله الذي أذهب عنا جميع الهموم والأكدار والأحزان، قال المفسرون: عبَّر بالماضي ﴿وَقَالُوا۟﴾ لتحقق وقوعه، والحَزَنُ يَعُمُّ كل ما يُكَدِّر صَفْوَ الإنسان مِن خوف المرض، والفقر، والموت، وأهوال القيامة، وعذاب النار وغير ذلك[٢] ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: واسع المغفرة للمذنبين، شكور لطاعة المطيعين، وكلت اللفظتين للمبالغة أي واسع لغفران عظيم الشكر والإحسان ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي أنزلنا الجنة: وأسكننا فيها، وجعلها مقرًّا لنا وسكنًا، لا نتحول عنها أبداً، وكل ذلك من إنعامه وتَفَضُّله علينا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي ولا يصيبنا فيها إعياءٌ ولا فتور، قال ابن جزي: وإنما سميت الجنة ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ لأنهم يقومون فيها ويمكثون ولا يُخرجون منها، والنَّصبُ تعبُ البدن، واللغوبُ تعب النفس الناشئ عن تعب البدن[٣]. ولما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار، ذكر حال الأشقياء الفجار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله فإنَّ لهم نار جهنم المستعرة جزاءً وفاقاً على كفرهم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت فيها حتى يستريحوا من عذاب النار ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أي ولا يخفف عنهم شيء من العذاب، بل هم في عذاب دائم مستمر لا ينقطع كقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي مثل ذلك العذاب الشديد الفظيع، نجازي ونعاقب كل مبالغ في الكفر والعصيان ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾ أي وهم يتصارخون في جهنم ويستغيثون برَفْع أصواتهم قائلين: ربنا أخْرِجْنا من النار ورُدَّنَا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً يقربنا منك، غير الذي كنا نعمله، قال القرطبي: أي نؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، ونمتثل أمر الرسل[٤].. وفي قولهم: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ اعترافٌ بسوء عملهم، وتندُّمٌ عليه

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٥٢.
(٢) انظر «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٤٥، و«تفسير الطبري» ٢٢/ ٩١.
(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٥٩.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٥٢.

وتحسر[١]، قال تعالى ردًّا عليهم وموبخـًا لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي أولـم نترككـم ونمهلكـم في الدنيـا عمراً مديـداً يكفـي لأن يتذكر فيه من يريـد التذكر والتفكـر؟ فمـاذا صنعتم في هذه المدة التي عشـتموها؟ وما لكم تطلبـون عُمراً آخر؟ وفي الحديث «أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»[٢] ومعنى «أعذر» أي بلغ به أقصى العُـذْر ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ أي وجاءكـم الرسـول المنـذر وهـو محمـد ﷺ الـذي بُعث بين يدي السـاعة، وقيل: ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ هو الشـيبُ والأول أظهر[٣] ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي فذوقـوا العذاب يا معشـر الكافرين، فليس لكـم اليوم ناصر ولا معيـن يدفع عنكم عـذاب الله، قال الإمام الفخر: والأمرُ أمرُ إهانة ﴿فَذُوقُواْ﴾ وفيه إشـارة إلـى الدوام[٤]، وإنمـا وضعَ الظاهـر ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ موضع الضمير «لكم» لتسـجيل الظلم عليهـم، وأنهـم بكفرهم وظلمهم ليس لهم نصيرٌ أصلاً لا من الله ولا من العباد، ثم قال الله تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى العالم الذي أحاط علمه بـكل مـا خفي في الكون من غيب السـموات والأرض، لا يخفى عليه شـأن من شـئونهما ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي يعلـم جـل وعـلا مضمـرات الصـدرو، ومـا تخفيه من الهواجس والوساوس، فكيف لا يعلم أعمالهم الظاهرة؟ قال المفسرون: والجملة لتأكيد مـا سـبق من دوام عذاب الكفار في النار، لأن الله تعالـى يعلمُ مِن الكافر أنه تمكَّن الكفر في قلبه بحيث لو دام في الدنيا إلى الأبد ما آمن بالله ولا عبَده، فالعذابُ الأبديُّ مساوٍ لكفرهم الأبدي، فـلا ظلم ولا زيادة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، قال القرطبي: والمعنى في الآية: علم أنه لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحـًا كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعـام: ٢٨][٥] ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي هـو تعالـى جعلكـم أيهـا النـاس خلائـف في الأرض، بعد عـاد وثمود ومن مضـى قبلكم من الأمـم، تخلفونهم في مسـاكنهم جيلاً بعـد جيل، وقرنـًا بعد قـرن ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي فمن كفـر بالله فعليه

---

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٥٩.

(٢) أخرجه البخاري وترجم له بقوله: «باب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ» وذكر الآية، قال ابن كثير: «وهذا هو الصحيح في مقدا رالعمر». (ش): وَفِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اسْتِكْمَالَ السِّتِّينَ مَظِنَّةٌ لِانْقِضَاءِ الْأَجَلِ. وقال ص: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ». (رواه الترمذي (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

(٣) ترجم الإمام البخاري: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ يعني الشيب وروى هذا عن ابن عباس وعكرمة قال ابن كثير: وما روى عن قتادة أ نالنذير هو رسول الله ﷺ هو الصحيح وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٣٠.

(٥) «تفسير القرطبي» ٢٢/ ٣٥٥.

وبال كفره، لا يضر بذلك إلا نفسه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا طرداً من رحمة الله وبعداً وبغضاً شديداً من الله ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا هلاكاً وضلالاً وخسران العمر الذي ما بعده شر وخسار!، قال أبو حيان: وفي الآية تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم، فلم يتعظوا بحال مَن تقدمهم من المكذبين للرسل وما حلَّ بهم من الهلاك، ولا اعتبروا بمن كفر، ولا اتعظوا بمن تقدم، والمقتُ أشد الاحتقار والبغض، والخسارُ خسارُ العمر، كأنَّ العمر رأس مال الإنسان فإذا انقضى في غير طاعة الله فقد خسره، واستعاض به بدل الربح سخط الله وغضبه، بحيث صار إلى النار المؤبدة[1]، ثم وبخ تعالى المشركين في عبادتهم ما لا يسمع ولا ينفع فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ؟، قال الزمخشري: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ معناها أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة[2]، ومعنى الآية: قل يا محمد تبكيتاً لهؤلاء المشركين: أخبروني عن شأن آلهتكم الأوثان والأصنام، الذين عبدتموهم من دون الله، وأشركتموهم معه في العبادة، بأي شيء استحقوا هذه العبادة؟ ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أروني أيَّ شيء خلقوه في هذه الدنيا من المخلوقات حتى عبدتموهم من دون الله؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي أم شاركوا الله في خلق السموات فاستحقوا بذلك الشركة معه في الألوهية؟ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً ينطق بأنهم شركاء الله فهم على بصيرة وحجة وبرهان في عبادة الأوثان ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ إضرابٌ عن السابق وبيانٌ للسبب الحقيقي أي إنما اتخذوهم آلهة بتضليل الرؤساء للأتباع بقولهم: الأصنام تشفع لهم، وهو غرور باطل وزور، قال «أبو السعود»: لما نفى أنواع الحُجج أضرب عنه بذِكْر ما حمَلهم عليه، وهو تغرير الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم يشفعون لهم عند الله[3]. ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي هو جل وعلا بقدرته وبديع حكمته، يمنع السموات والأرض من الزوال، والسقوط، والوقوع كما قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥] قال القرطبي: لما بيَّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض، بيَّن أن خالقهما وممسكهما هو الله، فلا يوجد حادث إلا

(١) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣١٧.

(٢) تفسير «الكشاف» ٣/ ٤٨٧.

(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٦.

بإيجاده، ولا يبقى إلا ببقائه[١] ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي ولئن زالتا عن أماكنهما -فرضاً- ما أمسكهما أحدٌ بعد الله، بمعنى أنه لا يستطيع أحدٌ على إمساكهما[٢]، إنما هما قائمَتان بقدرة الواحد القهار ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي إنه تعالى حليم لا يعجل العقوبة للكفار مع استحقاقهم لها، وواسع المغفرة والرحمة لمن تاب منهم وأناب ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي حلف المشركون بالله أشدَّ الأيمان وأبلغها، قال الصاوي: كانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم فإذا أرادوا التأكيد والتشديد حلفوا بالله[٣] ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي لئن جاءهم رسول منذر ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي ليكونُنَّ أهدى من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من أهل الكتاب، قال «أبو السعود»: بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أنَّ أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهودَ والنصارى، أتتهم الرسلُ فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننَّ أهدى من اليهود والنصارى وغيرهم[٤] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي فلما جاءهم محمد ﷺ أشرف المرسلين ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى والحق وهرباً منه ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي نفروا منه بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وعتوهم وطغيانهم في الأرض، ومن أجل المكر السيىء بالرسول وبالمؤمنين، ليفتنوا ضعفاء الإيمان عن دين الله، قال أبو حيان: أي سبب النفور هو الاستكبار والمكر السيئ يعني أن الحامل لهم على الابتعاد عن الحق هو الاستكبار، والمكرُ السيئ وهو الخداع الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له[٥]، قال تعالى رداً عليهم: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي ولا يحيط وبال المكر السيىء إلا بمن مكره ودبَّره كقولهم: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا عادة الله وسنته في الأمم المتقدمة، من تعذيبهم وإهلاكهم بتكذيبهم للرسل؟ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي لن تتغير ولن تتبدل سنته تعالى في خلقه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي ولا يستطيع أحد أن يحوّل العذاب عنهم إلى غيرهم، قال القرطبي: أجرى الله العذاب على الكفار، فلا يقدر أحد أن يُبدّل ذلك، ولا أن يُحوّل العذاب عن نفسه إلى غيره، والسُّنة هي الطريقة[٦].. ثم

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٥٦.
(٢) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، والصواب: لا يستطيع أحدٌ إمساكَهما.
(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين»٣/ ٣١٥.
(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٦.
(٥) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣١٩.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٦٠.

حثهم تعالى على مشاهدة آثار من قبلهم من المكذبين ليعتبروا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ؟ أولم يسافروا ويمروا على القرى المهلكة فيروا آثار دمار الأمم الماضية حين كذبوا رسلهم ماذا صنع الله بهم؟ ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي وكانوا أقوى من أهل مكة أجساداً، وأكثر منهم أموالاً وأولاداً ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي إنه سبحانه لا يفوته شيء، ولا يصعب عليه أمر في هذا الكون ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي بالغ العلم والقدرة، عالمٌ بشئون الخلق، قادرٌ على الانتقام ممن عصاه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ بيانٌ لحلم الله ورحمته بعباده، أي: لو آخذهم بجميع ذنوبهم ما ترك على ظهر الأرض أحداً يدب عليها من إنسان أو حيوان، قال ابن مسعود: يريد جميع الحيوان مما دبَّ ودَرَج[1] ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولكنه تعالى من رحمته بعباده، ولطفه بهم، يمهلهم إلى زمن معلوم وهو يوم القيامة فلا يعجل لهم العذاب ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي فإذا جاء ذلك الوقت جازاهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لأنه تعالى العالم بشئونهم المطلع على أحوالهم، قال ابن جرير: بصيراً بمن يستحق العقوبة، وبمن يستوجب الكرامة[2]، وفي الآية وعيدٌ للمجرمين ووعد للمتقين.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرير الفعل ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ للمبالغة في انتفاء كل منهما استقلالاً، وكذلك الإطناب في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ لزيادة التشنيع والتقبيح على مَن كفر بالله.

٢ - التهكم في صغبة الأمر ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ مثل ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

٣ - المبالغة مثل ﴿غَفُورٌ، شَكُورٌ، كَفُورٍ﴾ ومثل ﴿حَلِيمًا، عَلِيمًا، قَدِيرًا﴾ فإنها من صيغ المبالغة.

٤ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ؟ وكذلك ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ؟

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٦١. (ش): دَبَّ الإنسانُ أو الحيوانُ على الأرض: مشَى مع إحداثِ صوتٍ بقدميه. دبَّ: مشَى مَشيًا بطيئًا متمهّلاً. درَج: دَبَّ، مَشَى ببطءٍ وتَمَهُّل. درَج القومُ: ماتوا، انْقَرَضُوا وفَنُوا. درَج فلانٌ: مات وما ترك نسلاً. أكذبُ مَنْ دَبَّ ودرَج: أكذبُ الأحياءِ والأموات.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٩٦.

٥ - الاستعارة المكنية ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ شبَّه الأرض بدابة تحمل على ظهرها أنواع المخلوقات ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الظهر بطريق الاستعارة المكنية.

٦ - السجع غير المتكلف، البالغ نهاية الروعة والجمال مثل ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر»

تم بحمد الله المجلد الثاني



فهرس أحاديث المجلد الثاني

❊ ❊ ❊

فهرس موضوعات المجلد الثاني

١١-سورة هود

١٢- سورة يوسف

١٣ - سورة الرعد

١٤- سورة إبراهيم

١٥- سورة الحجر

١٦- سورة النحل

١٧- سورة الإسراء

١٨- سورة الكهف

١٩- سورة مريم

٢٠- سورة طه

٢١- سورة الأنبياء

٢٢- سورة الحج

٢٣- سورة المؤمنون

٢٤- سورة النور

٢٥- سورة الفرقان

٢٦- سورة الشعراء

٢٧- سورة النمل

٣٣- سورة الأحزاب

٣٤- سورة سبأ

٣٥- سورة فاطر

صفوة التفاسير

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع
٢٠١٣ / ٨٣٣٧

الترقيم الدولي
978 - 977 - 6354 - 22 - 7



الدار العالمية للنشر والتجليد
جاكرتا - أندونيسيا

هاتف: 081310218626 - 087889324793
085218824802 - 087880176606
email: darul_aalamiyyah@yahoo.com
abdallaelnady@gmail.com

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول
مستمدة من أوثق الكتب التفسيرية
بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

نسخة محققة ومخرجة الأحاديث

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

المجلد الثالث




بسم الله الرحمن الرحيم



مكية وآياتها ثلاث وثمانون

بين يدي السورة

* سورة يس مكية وقد تناولت مواضيع أساسية ثلاثة وهي: «الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين».

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش، الذين تمادوا في الغي والضلال، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبد الله، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه.

* ثم ساقت قصة أهل «إنطاكية» الذين كذبوا الرسل، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار.

* وذكرت موقف الداعية المؤمن «حبيب النجار» الذي نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة، ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار.

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية، في هذا الكون العجيب، بدءًا من مشهد الأرض الجرداء تدب فيها الحياة، ثم مشهد الليل ينسلخ عنه النهار، فإذا هو ظلام دامسٌ، ثم مشهد الشمس الساطعة تدور بقدرة الله في فلكٍ لا تتخطاه، ثم مشهد القمر يتدرج في منازله، ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا.

* وتحدثت عن القيامة وأهوالها، وعن نفخة البعث والنشور، التي يقوم الناس فيها من القبور، وعن أهل الجنة وأهل النار، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب، حتى يستقر السعداء في روضات النعيم، والأشقياء في دركات الجحيم.

* وختمت السورة بالحديث عن الموضوع الأساسي، وهو موضوع «البعث والجزاء» وأقامت الأدلة والبراهين على حدوثه.

* **التسمية:** سميت السورة «سورة يس» لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

* **فضلها:** قال ﷺ: «إن لكل شئ قلبًا وقلب القرآن يس، وددت أنها في قلب كل إنسانٍ مِنْ أُمتِي»[1].

---

(١) أخرجه البزار. (ش): ضعيف، رواه الترمذي، والبزار.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ
﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾
وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا
بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟
إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن
ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾
قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ
أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا
هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ

اللغَة: ﴿أَغْلَٰلًا﴾ جمع غُلّ وهو القيد الذي يوضع في اليد، وقد تشدُّ به اليد مع العنق ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ رافعوا الرءوس مع غض البصر، قال أهل اللغة: الإقماح: رفع الرأس وغض البصر يقال: أقمح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب[1]، قال بشر يصف سفينة:

وَنَحْنُ عَلَى جَوَانِبِهَا قُعُودٌ ... نَغُضُّ الطَّرْفَ كَالإِبِلِ القِمَاحِ [2]

﴿سَدًّا﴾ السَّد: الحاجز والمانع بين الشيئين ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ عززه قوَّاه وشدَّ من أزره ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ تشاءمنا، والتطير التشاؤم، وأصله من الطير إذا طار الى جهة اليسار تشاءموا به ﴿خَٰمِدُونَ﴾ ميتون

(١) انظر «القاموس المحيط» مادة قمح.
(٢) «تفسير الطبري» ١٥/ ٨.

لا حراك بهم كما تخمد النار.

التفسِـير: ﴿يسٓ﴾ الحـروف المقطعـة في أوائل بعض السـور الكريمة للتنبيـه على إعجاز القـرآن، وأنـه مصوغ من جنس هـذه الحروف الهجائية التـي يعرفونها ويتكلمـون بها، ولكنَّ نظمـه البديع المعجـز آيةٌ على كونه من عنـد الله[١] وقال ابن عباس: معنى «يس» يا إنسـان في لغـة طـيِّء، وقيل: هو اسـم من أسـماء النبي ﷺ بدليـل قوله بعـده ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقيل معنـاه: يا سـيد البشـر قاله أبو بكر الوراق[٢] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قسـم مـن الله تعالى بالقرآن، والحكيـم معنـاه المحكـم، الـذي لا يلحقـه تغييـر ولا تبديـل، ولا يعتريه تناقـض أو بطلان قـال القرطبـي: أُحكـم في نظمه ومعانيه فـلا يلحقه خلل[٣] وقـال أبو السـعود: أي المتضمن للحكمـة أو الناطـق بالحكمـة من حيـث نظُمه المعجـز، المنطوي علـى بدائـع الحكم[٤].. والخلاصـة فقد أقسـم تعالى بهذا الكتـاب المحكم، المعجز نظمه، وبديـع معانيه، المتقن في تشـريعه وأحكامـه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة، على أن محمدًا رسـوله، وفي هذا القسـم من التعظيم والتفخيم لشـأن الرسـول ما فيه ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسـم إنك يا محمد لمـن المرسـلين مـن رب العالمين لهدايـة الخلق قال ابن عبـاس: قالت كفار قريش: لسـت يا محمد مرسـلًا، وما أرسـلك الله إلينا، فأقسـم الله بالقـرآن العظيم المحكـم أن محمدًا ﷺ مـن المرسـلين[٥] ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي علـى طريـق ونهج مسـتقيم، لا انحـراف فيه ولا اعوجـاج، وهو الإسـلام دين الرسـل قبلـك، الذين جاءوا بالإيمـان والتوحيد قـال الطبري: أي علـى طريق لا اعوجـاج فيه من الهدى وهو الإسـلام كما قال قتـادة[٦]، والتنكير للتفخيم والتعظيم[٧] ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي هذا القرآن الهادي المنير، تنزيلٌ من ربّ العزة جلّ وعلا، والعزيـز في ملكه، الرحيم بخلقـه ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي لتنذر يا محمد بهـذ القرآن العرب، الذين ما جاءهم رسـولٌ ولا كتـاب، لتطاول زمن الفـترة عليهم، والمراد بالإنـذار تخويفهـم مـن عـذاب الله ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي فهم بسـبب ذلك غافلـون عن الهدى والإيمان، يتخبطون في ظلمات الشـرك وعبـادة الأوثان.. ثم بيَّن تعالى اسـتحقاقهم للعذاب بإصرارهـم على الكفر والتكذيب فقال ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اللام مُوطِّئةٌ

---

(١) انظر تفصيل البحث حول الحروف المقطعة في أوائل البقرة من هذا التفسير.
(٢) القرطبي ١٥/ ٥.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٥.
(٤) ««تفسير أبي السعود»» ٤/ ٢٤٧.
(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٥ وقد نقله القرطبي عن القشيري.
(٦) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٩٧.
(٧) «الانتصاف على الكشاف» ٤/ ٢.

للقَسَمِ[١] أي والله لقد وجب عذاب النار على أكثر هؤلاء المشركين، بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم بالتذكير والإنذار، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتَهُم به يا محمد. ثم بيَّن تعالى سبب تركهم الإيمان فقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ تمثيلٌ وتصوير لحال المشركين في ضلالهم بحال الذي جعل في يده غلٌّ وجمعت يده إلى عنقه، فبقي رافعًا رأسه لا يخفضه قال في «الجلالين»: وهذا تمثيل ولمراد أنهم لا يُذعنون للإيمان،ولا يخفضون رؤوسهم[٢] له قال ابن كثير: ومعنى الآية: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، كمن جُعل في عُنقه غلٌّ، وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه[٣]، فارتفع رأسه فصار مُقمحًا، والمُقمح هو الرافع رأسه، واكتفى بذكر الغُلِّ في العنق عن ذكر اليدين، لأن الغُلَّ إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق[٤] وقال أبو السعود: مثل حالهم بحال الذين غُلَّت أعناقهم ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يُطأطئون رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحقَّ، أو ينظرون إلى جهته[٥] ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال أبو السعود: وهذا تتمةٌ للتمثيل وتكميلٌ له أي وجعلنا من أمامهم سدًّا عظيمًا، ومن ورائهم سدًا كذلك ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئًا أصلًا، لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيِّ والجهالات[٦]، محرومين من النظر في الأدلة والآيات[٧]، قال المفسرون: وهذا كله تمثيل لسدِّ طرق الإيمان عليهم، بمد سُدَّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده[٨] ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي يستوي عندهم إنذارك يا محمد وتخويفك لهم وعدمه، لأن من خيَّم على عقله ظلام الضلال، وعَشْعَشَتْ[٩] في قلبه شهوات الطغيان، لا تنفعه القوارع والزواجر[١٠] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك لا يؤمنون، لأنَّ الإنذار

---

(١) (ش): مُوَطِّئَةٌ للقَسَم: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفَته.
(٢) «تفسير الجلالين» ٣/ ٣١٨.
(٣) الذَقَنُ: مفرد الأذْقان قال الطبري: والذَّقَنُ مَجْمَعُ اللَّحْيَيْنِ. (ش): اللَحْيُ: منبتُ اللِّحية من الإنسان وغيره، وهما: لَحْيَان.
(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٥٥.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٤٨.
(٦) (ش): المَطْمُورة: حُفرة تحت الأرض تُخبَّأ فيها الحبوب ونحوها.
(٧) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٤٩.
(٨) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣١٩.
(٩) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، والصواب أن يقال: «عشَّشَت». يقال: عشَّش الطَّائرُ: اتَّخذ بيتًا من قشٍّ وغيره ليضع فيه بيضَه. وتعشَّش الطَّائرُ في المكان: استقرَّ فيه. والعَشْعَش، والعُشْعُش: العُشُّ المُتَراكِبُ بعضُهُ في بعضٍ.
(١٠) (ش): قارِعَة: مصيبة. زجَر الشَّخصَ: انتهره وردعه. زاجِر: مانِع، مُعاقِب، رادع. المؤنث: زاجرة، جمع المؤنث: زواجرُ.

لا يَخْلُق القلوب الميتة، إنما يُوقِظ القلب الحيَّ المستعد لتَلَقِّي الإيمان، وهذا تسلية له ﷺ وكَشْفٌ لحقيقةِ ما انْطَوَتْ عليه قلوبُهم من الطغيان ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي إنما ينفع إنذارك يا محمد مَن آمن بالقرآن وعمل بما فيه ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وخاف الله دون أن يراه قال أبو حيان: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي المتصف بالرحمة، والرحمةُ تدعو إلى الرجاء، لكنه مع علمه برحمته يخشاه جلّ وعلا، خوفًا من أن يسلبه ما أنعم به عليه ومعنى «بالغيب» أي بالخلوة عن مغيب الإنسان عن عيون البشر [١] ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لما انتفع بالإنذار كان جديرًا بالبشارة، أي: فبشره يا محمد بمغفرة عظيمة من الله لذنوبه، وأجر كريم في الآخرة في جنات النعيم قال ابن كثير: الأجر الكريم هو الكثير الواسع، الحسن الجميل وذلك إنما يكون في الجنة[٢].

ولما ذكر تعالى أمر الرسالة ذكر بعدها أمر البعث والنشور فقال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي نبعهم من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قال الطبري: أي ونكتب ما قدَّموا في الدنيا من خير وشر، ومن صالح الأعمال وسيئها ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي وآثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد[٣]، وفي الحديث **عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ. - وَالْبِقَاعُ خَالِيَةٌ - فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ». فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا.**[٤] ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي وكل شيء من الأشياء أوامر من الأمور جمعناه وضبطناه في كتاب مسطور هو صحائف الأعمال كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١] أي: بكتاب أعمالهم، الشاهد عليهم بما عملوه من خيرْ أو شرٍ، وقال مجاهد وقتادة: هو اللوح المحفوظ[٥] وقال أبو حيان: «نكتب ما قدَّموا» أي ونُحصِي، فعبَّر عن إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تُضبَط بها الأشياء[٦] ..

(١) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٢٥.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٥٦.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٩٩. (ش): وقيل: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونُصحِه، أو أمْرِه بالمعروف، أو نَهْيِه عن المنكر، أو عِلمٍ أوْدعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيرًا، من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجدًا، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه. (ش): (دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ): مَعْنَاهُ الْزَمُوا دِيَارَكُمْ فَإِنَّكُمْ إِذَا لَزِمْتُمُوهَا كُتِبَتْ آثَارُكُمْ وَخُطَاكُمُ الْكَثِيرَةُ إِلَى الْمَسْجِدِ. وَبَنُو سَلِمَةَ -بِكَسْرِ اللَّامِ- قَبِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. (فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا): لأن القرب من المسجد يفوّت عليهم نقص الآثار بقلة الخُطَا لقُرب المكان.

(٥) الأرجح ما ذكرناه أنه صحائف الأعمال وهو اختيار ابن كثير.

(٦) «البحر المحيط» ٧/ ٣٢٥.

ثم ذكر تعالى للمشركين قصة أهل القرية الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله بصيحةٍ من السماء فقال ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك الذين كذبوك قصة أصحاب القرية «أنطاكية» التي هي في الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي حين جاءهم رسلنا الذين أرسلناهم لهدايتهم قال القرطبي: وهذه القرية هي «إنطاكية» في قول جميع المفسرين أرسل الله إليهم ثلاثة رسل وهم «صادق» و«مصدوق» و«شمعون» أُمر ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حلَّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله، وقيل: هم رسل عيسى[١] ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي حين بعثنا إليهم رسولين فبادروهما بالتكذيب ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ أي قوَّيناهما وشددنا أزرهما برسولٍ ثالث ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ أين نحن رسل الله مُرسَلون لهدايتكم ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أي ليس لكم فضلٌ علينا وما أنتم إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا؟ ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ أي لم ينزل الله شيئًا من الوحي والرسالة ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ أي ما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم: الله يعلم أننا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبَة لَانتقَمَ منا أشدَّ الانتقام قال ابن جزي: أكدوا الخبر هنا باللام ﴿لَمُرۡسَلُونَ﴾ لأنه جواب المنكرين، بخلاف الموضع الأول فإنه إخبارٌ مجرد[٢] ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغًا واضحًا جليًّا لا غموض فيه، فإن آمنتم فلكم السعادة، وإن كذبتم فلكم الشقاوة قال أبو حيان: وفي هذا وعيدٌ لهم، ووصف البلاغ بـ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال، **كَمَا رُوِيَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ مِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ الْمَيِّتِ**[٣] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي قال لهم أهل القرية: إنّا تَشَاءَمْنا بكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان قال المفسرون: ووجه تشاءمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دينٍ غير ما يدينون به، فاستغربوه واستقبحوه ونفرت منه عنه طبيعتهم المعوجة، فتشاءموا بمن دعا إليه كأنهم قالوا: أعاذنا الله مما تدعوننا إليه[٤]، ثم توعَّدُوا الرسل بقولهم ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ أي والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم، ودعوتكم لنا إلى التوحيد، ورفض ديننا ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٤ وما ذكره من أنهم رسل عيسى قول مرجوح، لأن قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله كذا في التسهيل.

(٢) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٦١. (ش): الموضع الأول إخبار فقط بِغَيْرِ لَامٍ التوكيد ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٢٧. (ش): هكذا ذكره صاحب «البحر المحيط» بدون إسناد. أَكْمَهُ: أعمى بالولادة. (أبْرَص) أصاب جسَدَه مرضُ البَرَص، ظهر في جسده بياضٌ لعِلَّة.

(٤) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ١٢٥.

﴿أَلِيمٌ﴾ أي لنرجمنَّكم بالحجارة حتى تموتوا، ولنقتلنَّكم شرَّ قِتلة ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي قالت الرسل لهم: ليس شؤمكم بسببنا، وإنما شؤمكم بسببكم، وبكفركم، وعصيانكم، وسوء أعمالكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾؟ شرطٌ جوابه محذوف لدلالة السياق عليه أي أئن ذكرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله، تشاءمتم بنا وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب؟ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم بل أنتم قومٌ عادتكم الإسرافُ في العصيان والإجرام، وهو توبيخٌ لهم مع الزجر والتقريع ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ أي وجاء من أبعد أطراف المدينة رجل يعدو، يسرع في مشيه وهو «حبيب النجار» قال ابن كثير: إن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، وهو حبيب النجار كان يعمل الحرير وهو الحباك[1]، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه[2] وقال القرطبي: كان حبيب مجذومًا ومنزله عند أقصى أبواب المدينة، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرَّه، فما استجابوا له، فلما أبصر الرسل ودعوه إلى الله قال: هل من آية؟ قالوا: نعم نحن ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك! فقال إن هذا لعجيبٌ، إني إدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني فلم تستطع فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئًا ولا تضر، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، فلمَّا هَمَّ قومُه بقتل الرسل جاءهم مسرعًا وقال ما قصه القرآن[3] ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي اتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله، وإنما قال ﴿يَا قَوْمِ﴾ تأليفًا لقلوبهم واستمالة لها لقبول النصيحة، ثم كرر القول تأكيدًا وبيانًا للسبب فقال ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي اتبعوا هؤلاء الرسل الصادقين المخلصين، الذين لا يسألونكم أُجرة على الإيمان، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تلطف في الإرشاد لهم كأنه ينصح نفسه، ويختار لهم ما يختار لنفسه، ونفيه نوع تقريع على ترك عبادة خالقهم. والمعنى أيُّ شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع خلقي؟ وإليه مرجعكم بعد الموت فيجازي كلًاّ بعمله؟ ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ استفهام إنكاري أي كيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئًا؟ ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي هي في المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن يُنزل بي شيئًا من الضر والأذى وشفعت لي

---

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولم أجده هكذا في أيٍّ من التفاسير إلا في «مختصر تفسير ابن كثير» للمؤلف، ولعله خطأ طباعي، فقد جاء في تفسير ابن كثير (الأصل) (٦/ ٥٧٠): «وَكَانَ يَعْمَلُ الْجَرِيرَ وَهُوَ الْحِبَالُ». اهـ. وجاء في «لسان العرب» (٤/ ١٢٧): الجَرِيرُ الحَبْلُ، وجَمْعُه أَجِرَّةٌ.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٥٩، والقول بأن اسم الرجل: «حبيب النجار» مروي عن ابن عباس.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٨، وهذه رواية وهب، ذكرها القرطبي.

لم تنفع شفاعتهم ولم يقدروا على إنقاذي، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع؟ ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي ولا يقدرون على إنقاذي من عذاب الله ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي. وبعد النصح والتذكير أعلن إسلامه، وأشهر إيمانه فقال ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم، فاسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي قال المفسرون: لما قال لهم ذلك ونصحهم وأعلن إيمانه[١]، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم قال الطبري: وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهم حتّى مات[٢]، وقيل: رموه بالحجارة حتى مات ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي فلما مات قال الله له: ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار، جزاءً على صدق إيمانك وفوزك بالشهادة قال ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره، وقال الله له ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ فدخلها فهو يُرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحُزنها ونَصَبها[٣] ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أي فلما دخل الجنة وعاين ما أكرمه الله بها لإيمانه وصبره تمنى أن يعلم قومه بحاله، ليعلموا حسن مآله أي يا ليتهم يعلمون بالسبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي، وأكرمني بدخول جنات النعيم قال ابن عباس: نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته[٤] قال أبو السعود: وإنما تمنّى عِلم قومه بحاله ليحملهم ذلك عى اكتساب الثواب والأجر، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان، جريًا على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء[٥] ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هذا تحقيرٌ لهم وتصغيرٌ لشأنهم ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ أي ما كانت عقوبتهم إلا صيحةً واحدة صاح بها جبريل، فإذا هم ميتون لا حراك بهم، قد أخمدت أنفاسهم حتّى صاروا كالنار الخامدة قال المفسرون: وفي الآية استحقار لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم، وقد روي أنه لما قُتل «حبيب النجار» غضب الله تعالى له، فعجَّل لهم النقمة فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، فجعل طريق استئصالهم بالصيحة، ثم قال تعالى ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي

---

(١) انظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٥٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٢/ ١٠٤.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦٠.

(٤) هذا قول ابن عباس وقال الكشاف: وفي حديث مرفوع: «نصح قومه حيًّا وميتًا» أقول: والمشهور أنه من كلام ابن عباس. (ش): المرفوع (أي المنسوب للنبي ﷺ) رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه بإسناد ضعيف. وكلام ابن عباس نقله ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٥٧٢) عن «ابْن أَبِي حَاتِم»: قَالَ ابْنُ عَبَّاس: نَصَحَ قَوْمَهُ فِي حَيَاتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٥٢. (ش): أما الاستغفار للمشركين فلا يجوز.

يا أسفًا على هؤلاء المكذبين لرسل الله المنكرين لآياته ويا حسرةً عليهم، ما جاءهم رسولٌ إلا كذبوه واستهزءوا به، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان قال في حاشية البيضاوي: إنهم أحِقَّاء[١] بأن يتَحَسَّروا على أنفسهم أو يُتَحَسَّر عليهم، فإن الأمر لفخامته وشدته، بلغ إلى حيث إن كل من يتأتى منه التلهف إذا نظر إلى حال استهزائهم بالرسل تحسَّر عليهم، وقال: يا لها من حسرةٍ وخيبة على هؤلاء المحرومين، حيث بدَّلوا بالإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة[٢]، وفي الآية تعريضٌ بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين.

ولمّا مثل حال كفار مكة بحال أصحاب القرية وبَّخ المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ألم يتعظ هؤلاء المشركين بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم؟[٣] ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها؟ قال أبو حيان: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبيينًا إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب[٤].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بأكثر من مُؤكِّد لأن المخاطَب منكرٌ مثل ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ فقد أُكِّد كل منها بـ «إنَّ» و «اللام» ويسمى هذا الضَّرْب إنكاريًّا[٥].

٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا .. ﴾ الآية شبَّه حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بمن غُلَّتْ يَدُه إلى عنقه بالسلاسل والأغلال فأصبح رأسه مرفوعًا لا يستطيع خفاضًا له ولا التفاتًا، وبمن سُدَّت الطرقُ في وجهه فلم يهتد لمقصوده، وذلك بطريق الاستعارة التمثيلية.

٣ - الطباق ﴿ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ... وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾.

٤ - طباق السلب ﴿ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾.

٥ - الجناس الناقص ﴿ نَحْنُ نُحْىِ ﴾ لتغيير بعض الحروف.

٦ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾.

---

(١) (ش): حقيقٌ: جديرٌ، حرِيٌّ، خليقٌ.

(٢) «حاشية ذاده على البيضاوي» ٣/ ١٢٨.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦١.

(٤) «البحر المحيط» ٧/ ٣٣٥.

(٥) (ش): الضَّرْب: النوع.

٧ – الاستفهام للتوبيخ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؟

٨ – الحذف لدلالة السياق عليه ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي فلما أشهر إيمانه قتلوه فقيل له: ادخل الجنة.

٩ – جناس الاشتقاق بين ﴿تَطَيَّرْنَا ... طَٰٓئِرُكُم﴾ وبين ﴿أَرْسَلْنَآ ... ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

١٠ – مراعاة الفواصل وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان، وحسن الوقع على السمع، وهو كثير.

تنبيه: من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة، هو الإيجاز في القصص والأنباء، والإشارة إلى روحها وسرّها، لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار، ولهذا لم يذكر في القصة اسم البلدة، ولا اسم الشخص الذي دعاهم إلى الله، ولا اسم الرسل الكرام، لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة، وقس على هذا سائر قصص القرآن.

قال الله تعالى:

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن
نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ
﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ
ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ
﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا
وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ
مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ
بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً
فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾
لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة أهل القرية، وإهلاك الله لهم بالصيحة بسبب تكذيبهم المرسلين، ذكر هنا الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية، في إخراج الزروع والثمار،

وتعاقب الليل والنهار، وفي الشمس والقمر يجريان بقدرة الواحد القهار، ثم ذكر شبهات المشركين حول البعث وردَّ عليها بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

اللغَة: ﴿وَءَايَةٌ﴾ علامة لأنها دالة على وجود الله قال أبو العتاهية:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ؟
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف والأنواع ﴿نَسْلَخُ﴾ السَّلْخ: الكَشْط والنَّزْع قال تعالى ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] ويقال سَلَخ الجزارُ جلدَةَ الشاةِ أي نزع الجلد عن اللحم ﴿كَٱلْعُرْجُونِ﴾ من الانعراج وهو الانعطاف، والعرجون: عود عِذْق النخلة الذي فيه عناقيد الرطب قال الجوهري: هو أصل العِذْق الذي يَعْوَجُّ وتُقتطَع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسًا[١]

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء الموقر بالأشياء الثقيلة ﴿صَرِيخَ﴾ مغيث ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ يختصمون في أمورهم غافلين عما حولهم ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جَدَث وهو القبر ﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسرعون في الخروج، يقال: عَسَل الذئبُ ونَسَل أي أسرع في المشي[٢].

التفسِير: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ أي ومن الآيات الباهرة، والعلامات الظاهرة الدالة على كمال قدرة الله ووحدانيته هذه الآية العظيمة، وهي الأرض اليابسة الهامدة التي لا نبات فيها ولا زرع، أحييناها بالمطر قال المفسرون: موتُ الأرض جدبها، وإحياؤها بالغيث، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزْت وربَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج[٣] ولهذا قال تعالى بعده ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي وأخرجنا بهذا الماء أنواع الحبوب ليتغذوا به ويعيشوا قال القرطبي: نبَّههم تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكَّرهم على توحيده وكمال قدرته، بالأرض الميتة أحياها بالنبات، وإخراج الحب منها، فمن الحبِّ يأكلون وبه يتغذون[٤] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي وجعلنا في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي وجعلنا فيها ينابيع من الماء العذب، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذُكر من الجنات والنخيل التي أنشأها لهم، ومما عملته أيديهم مما غرسوه وزرعوه بأنفسهم قال

---

(١) انظر «القرطبي» ١٥/ ٣١، و«القاموس المحيط» و«الصحاح». (ش): عِذْق: سُبَاطة، غُصن نخلة بما عليه من الرُّطَب.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٤٠.
(٣) (ش): أي فإذا أنزل الله عليها الماء تحركت بالنبات تتفتح عنه، وارتفعت وزادت لارتوائها، وأنبتت من كل نوع من أنواع النبات الحسن الذي يَسُرُّ الناظرين.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٥.

ابـن كثير: لما امتنَّ على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها، وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسَعْيِهم وكَدِّهم، ولا بحَوْلهم وقوتهم ولهذا قال ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي أفـلا يشـكرونه على ما أنعم بـه عليهم؟ واختار ابن جريـر أنَّ «ما» بمعنى الذي أي ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أي من الذي غرسـوه ونصبوه [١] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي، تنـزَّه وتقـدَّس الله العلـي الجليـل الـذي خلـق الأصنـاف كلها، والمختلفة الألوان والطعوم والأشكال من جميع الأشياء ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ممَّا تُخرج الأرضُ من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن أنفسهم من الذكور والإناث، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء [٢] الغريبة كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي وعلامـةً أخـرى لهم علـى كمال قدرتنا الليلُ نزيل عنـه الضوء ونفصله عن النهار فإذا هم داخلون في الظلام، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويكشف ويزول فيظهر الأصل وهو الظلمة ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي وآيـة أخـرى لهم الشـمس تسـير بقدرة الله في فَلَـك لا تتجاوزه ولا تتخطاه لزمنٍ تسـتقر فيه، ولوقت تنتهي إليه وهو يـوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالـم قال ابن كثيـر: وفي قوله تعالى ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قولان: أحدهما: أن المراد مسـتقرها المـكاني وهو تحـت العرش مما يلي الأرض لحديـث البخاري أن النبي ﷺ قـال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِى أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّـمْسُ؟**». **قُلْتُ اللهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ** «**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْـجُدَ تَحْتَ الْعَـرْشِ**» الحديث[٣]. والثاني: أن المراد بمسـتقرها هو منتهى سـيرها وهو يوم القيامة، حيث يبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتُكوَّر وينتهي هذا العالـم إلى غايته، وقرىء (لا مُستَقرَّ لها) [٤] أي لا قرار لها ولا سـكون، بل هي سـائرة ليلًا ونهارًا، لا تَفْتُرُ ولا تقِفُ [٥] ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦٢.

(٢) سبحان الله ما أعظم قدرة الله لقد كان السائد أن الزوجية إنما تكون بين الإنسان والحيوان فقط، وجاء القرآن بالمعجزة الباهرة المثبتة لما اكتشفه العلم الحديث منذ قريب وهي أن الزوجية بين الإنسان والحيوان والنبات والذرة وسائر الكائنات، فقد ثبت أن الذرة –وهى أصغر أجزاء المادة– مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي «سالب وموجب» يتزاوجان ويتحدان، وأن بين النبات أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة، فيبحان العلي القدير القائل ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٣) (ش): عَنْ أَبِى ذَرٍّ – رضى الله عنه – قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِىِّ ﷺ فِى الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَقَالَ «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِى أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾».

(٤) (ش): وهي قراءة شاذة.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٦٢. (ش): لا تَفْتُرُ: لا تَضْعُف.

﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلك الجرْي والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي والقمرَ قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلًا في ثمانٍ وعشرين ليلة، ينزل كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعادها، فإذا كان في آخر ليلة دقَّ واستَقْوَس[1] ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي حتى صار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويَصْفَرّ ويتقوَّس قال ابن كثير: جعل الله القمر لمعرفة الشهور، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب آخره، وتنتقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدَّره منازل يطلع في أول ليلةٍ من الشهر ضئيلًا قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم قال مجاهد: أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، ثم يبدأ جديدًا في أول الشهر الآخر[2] ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي لا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، لأن ذلك يُخلُّ بتلوين النبات، ومصلحة العباد قال الطبري: أي لا الشمس يصلح لها إدراك القمر، فيُذهب ضوءها نوره فتكون الأوقات كلها نهارًا لا ليل فيها ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلًا[3] ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي وكل من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فَلك بين السماء والأرض، وغير ملصقة بشيء ولو كانت ملصقة ما جرت[4] والغرضُ من الآية: بيانُ قدرة الله في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر كما قال قتادة: «لكل حدٌّ وعلمٌ لا يعدوه، ولا يقصر دونه» حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم، فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] فيختل نظام الكون، وتقوم القيامة، وتنتهي حياة البشرية عن سطح هذا الكوكب الأرضي[5] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي وعلامة

---

(١) (ش): دقَّ الشَّيءُ: صَغُرَ، صار دقيقًا، خلاف غَلُظ، أي كبُر حجمُه. استقوس الشَّيْءُ: تَقَوَّس: صار منحنيًا كالقَوْس.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦٣.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٦.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٣.

(٥) (ش): تسمية الأرض كوكبًا إطلاقٌ غريب عن نصوص الوحيين الشريفين، فالكواكب في السماء، والأرض في السُّفْل، ولم يطلق على الكواكب اسم: الأرض، ومن لازم هذا الإطلاق أن تكون الأرض زينة للسماء الدنيا، =

أخرى واضحة للناس على كمال قدرتنا أننا حملنا آباءهم الأقدمين وهم ذرية آدم في سفينة نوح عليه السلام التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين قال في التسهيل: وإنما خصَّ ذريتهم بالذكر، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة[١] ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان، وإنما نسب الخلق إليه لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسان وقال ابن عباس: هي الإبل وسائر المركوبات، فهي في البر مثل السفن في البحر[٢] ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي لا ينقذهم أحد إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم، وتمتيعنا لهم إلى انقضاء آجالهم.. بيَّن تعالى أن ركوبهم السفن في البحر من الآيات العظيمة، فإن سير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهرة فقد حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه بحكم خواص السفن، وخواص الماء، وخواص الريح، وكلُّها من أمر الله وخلقه وتقديره، والسفينة في البحر الخضم كالريشة في مهبِّ الهواء، وإلاّ تدركها رحمة الله فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار، والذين ركبوا البحار، وشاهدوا الأخطار، يدركون هول البحر المخيف، ويحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها هي المنجي لهم من بين العواصف والتيارات، في هذا الخضم الهائل الذي تمسكه يد الرحمة ويعرفون معنى قوله تعالى ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فسبحان الله القدير الرحيم! ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لما ذكَّرهم تعالى بدلائل قدرته، وآثار رحمته، أخبرنا هنا عن تعاميهم عن الحق، واعراضهم عن الهدى والإيمان، مع كثرة الآيات الواضحات، والشواهد الباهرات. والمعنى: وإذا قيل للمشركين احذروا سخط الله وغضبه، واعتَبِرُوا بما حلَّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا، وجواب الشرط محذوف تقديره أعرضوا واستكبروا ودلّ عليه قوله تعالى ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ قال القرطبي: والجواب محذوب والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، ودليله الآية التي بعدها ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك[٣] ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي وما تأتي هؤلاء

= وجعلها رجومًا للشياطين، وهذا باطل. انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص: ١١٨)].

(ش): السَّفين: السُّفُن: جمع سَفِينة. الخِضَمّ: البحر الواسع.

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٦٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٥، وهناك قول آخر عن ابن عباس أن المراد بقوله: (من مثله) السفن أي خلق لهم سفنًا أمثال سفينة نوح يركبونها وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٦.

المشركين علامة من العلامات الواضحة الدالة على صدق الرسول كالمعجزات الباهرة التي أيده الله بها إلا أعرضوا عنها على وجه التكذيب والاستهزاء قال أبو السعود: وإضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها، المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه في حقها، والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية التي من جملتها الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه، أو الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات، التي من جملتها ما ذُكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى، وتفرده بالألوهية[١] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾ أي قال الكفار للمؤمنين تهكمًا بهم: أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله؟ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله قال ابن عباس: كان بمكة زنادقة فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله لا نفعل، أيفقره الله ونطعمه نحن[٢] وغرضهم الرد على المؤمنين فكأنهم يقولون: لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر، وأن الله رازق لَأَطعَمَ هؤلاء الفقراء، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا؟ وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً، لينظر كيف عطف الغني، وكيف صبر الفقير، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلًا، وأمر الغنيَّ بالإنفاق عليه لا حاجة إلى ماله، ولكن للإبتلاء والله يفعل ما يشاء، لا اعتراض لأحدٍ في مشيئته ولا في حكمه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ثم أخبر عن إنكار المشركين للآخرة، واستبعادهم لقيام الساعة فقال ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي متى يوم القيامة الذي تتوعدوننا به؟ ومتى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم أن هناك بعثًا ونشورًا وحسابًا وعذابًا؟ قال تعالى ردًّا عليهم ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم، فيموتون في أماكنهم قال ابن كثير: وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ إسرافيل في الصور والناسُ في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذْ أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخةً يطوّلها ويمدُّها، فلا يبقى أحدٌ على وجه الأرض إلا حنى عنقه يتسمع الصوت من قبل السماء[٣] فذلك قوله

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٥٥.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٧، قال القرطبي: وإنما أخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦٥، وهذا الذي قاله ابن كثير هو اختيار الطبري وهو أن المراد بها نفخة الفزع، وقال القرطبي: هى نفخة الصعق التي يموت بها جميع الأحياء.

تعالى ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي فلا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضًا بأمر من الأمور، ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم ومنازلهم لأن الأمر أسرع منه ذلك وفي الحديث: « **لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهْوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ** – أي يصلحه بالطين – **فَلاَ يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا** »[١] ثم تكون هناك نفخة ثانية وهي «نفخة الصَّعق» التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحيّ القيوم[٢]، ثم تكون النفخة الثالثة وهي «نفخة البعث والنشور» التي يخرج الناسُ بها من القبور، وهي التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ أي ونفخ في الصور فإذا هؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم يسرعون المشي قال الطبري: ﴿يَنسِلُونَ ﴾ يخرجون سراعًا، والنَّسَلان: الإسراع في المشي[٣] ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾؟ أي يقولون يا هلاكنا من الذي أخرجنا من قبورنا التي كنا فيها؟ قال ابن كثير: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد، فإذا قالوا ذلك أجابتهم الملائكة أو المؤمنون[٤] ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء، وصدق رسله الكرام فيما أخبرونا به عن الله ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي ما كان أمر بعثهم إلا صيحةً واحدة يصيح بهم فيها إسرافيل فإذا هم جميع عندنا حاضرون قال الصَّاوي: وهذه الصيحة هي قول إسرافيل: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة، والشعور المتمزقة، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ثم ينفخ في الصور فإذا هم مجموعون في موقف الحساب[٥] ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي ففي هذا اليوم يوم القيامة لا تُظلم نفس شيئًا، سواءً كانت هذه النفس برَّة أو فاجرة، ولا يُحمَّل الإنسان وزر غيره وإنما يُجازى كل بعمله قال أبو السعود: هذه حكاية لما سيقال لهم في الآخرة، حين يرون العذاب المُعدَّ لهم تحقيقًا للحق، وتقريعًا لهم[٦].

ولما أخبر عن مآل المجرمين أخبر عن حال الأبرار المتقين فقال ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) (ش): هذا يخالف قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فهناك من استثناهم الله سبحانه، فثبَّتهم عند النفخة، فلم يُصعَقوا، قيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وقيل: هم الشهداء أو بعضهم.

(٣) «الطبري» ٢٣/ ١١.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦٦.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٢٨.

(٦) «أبو السعود» ٤/ ٢٥٧.

شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ أي إن أصحاب الجنة في ذلك اليوم يوم الجزاء مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير بأهل النار، يتفكهون ويتلذذون بالحور العين، وبالأكل والشرب والسماع للأوتار قال أبو حيان: والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال وقال ابن عباس: شُغلوا بافتضاض الأبكار، وسماع الأوتار عن أهاليهم من أهل النار، لا يذكرونهم لئلا يتنغصوا [1]، ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير، متكئون على السُّرُر المزيَّنة بالثياب والستور ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ أي لهم في الجنة، فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ أي لهم سلام كريم من ربهم الرحيم، وفي الحديث «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رءوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم» [2].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير والتفخيم والتعظيم ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ﴾ أي آية عظيمة باهرة على قدرة الله.

٢ - الطباق بين الموت والإحياء ﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ وبين الليل والنهار.

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ شبَّه إزالة ضوء النهار وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة، واستعار اسم السلخ للإزالة والإخراج، واشتق منه نسلخ بمعنى نخرج منه النهار بطريق الاستعارة التصريحية، وهذا من بليغ الاستعارة، وبين الليل والنهار طباق.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ وجه الشبه مركب من ثلاثة أشياء: الرقة، والانحناء، والصفرة، ولمَّا لم يُذْكَر سُمي مُجملًا[3].

٥ - تقديم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ فإنه أبلغ من أن يقول (لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر) وأكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها فإنَّ قولك «أنت لا تكذب» بتقديم المسند إليه أبلغ من قولك «لا تكذب» فإنه أشدُّ

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٣٤٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم قال ابن كثير: وفي إسناده نظر كذا في «المختصر» لابن كثير ٣/ ١٦٧، ورواه ابن ماجه في سننه. (ش): وضعفه الألباني.

(٣) (ش): أي ولمَّا لم يُذْكَر وجه الشبه سُمي تشبيهًا مُجملاً.

لنفي الكذب من العبارة الثانية فتدبر أسرار القرآن [١].

٦ – تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بدل (يَسْبح)، فقد عبر عن الشمس والقمر والكواكب بضمير جمع المذكر، والذي سوَّغ ذلك وصْفُهم بالسباحة لأنها من صفات العقلاء [٢].

٧ – الاستعارة اللطيفة ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ المرقد هنا عبارة عن الممات، فشبهوا حال موتهم بحال نومهم لأنها أشبه الأشياء بها وأبلغ من قوله: من بعثنا من مماتنا.

٨ – الإيجاز بالحذف ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا ما وعدكم به الرحمن.

٩ – الطباق ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والاستفهام الذي يراد منه التهكم ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

١٠ – السجع غير المتكلف في ختام الآيات الكريمة مثل ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ ومثل ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ و﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وهو من المحسنات البديعية [٣].

قال الله تعالى:

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ
نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا
عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا
اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ
الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ
﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ
وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا
يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ

(١) انظر «حاشية الشيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ١٣٢.
(٢) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٢٦.
(٣) ذكرنا بعض الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر، حتى يتذوق الإنسان بعض روائع القرآن، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ما يعجز وصفه اللسان، فسبحان منزل القرآن.

خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم في الجنة من النعيم المقيم، أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار وما لهم من الخزي والدمار، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، وختم السورة الكريمة ببيان أدلة البعث بعد الموت، والحساب والجزاء.

اللغَة: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟﴾ تميزوا وانفصلوا، والتمييزُ: الفرق بين أمرين ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم خَلْقًا جمع جِبلَّة ومنه ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مشتق من جبل اللهُ الخلق أي خلقهم ﴿لَطَمَسْنَا﴾ الطمسُ: إذهابُ الشيء وأثره جملةً كأنه لم يوجد ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ ادخلوها وذوقوا سعيرها ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ المسخ: التَحْويل من صورة إلى صورة منكرة ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾ التعمير: إطالة العمر حتى يبلغ سن الشيخوخة ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ التنكيس: قلب الشيء رأسًا على عقب يقال: نكستُ الشيء نكسًا إذا قلبته على رأسه ومنه ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥] ﴿رَمِيمٌ﴾ الرميم: البالي المفتَّت يقال رمَّ العظم أي بلى فهو رميم.

سَبَبُ النّزول: رُوِيَ أن «أُبَيَّ بن خلَف» من صناديد كفار قريش جاء بعظمٍ بَالٍ إلى النبي ﷺ ففتَّه بيده ثم قال: أتزعم يا محمد أن الله يُحيي هذا بعدما رمَّ؟ فقال له النبي ﷺ نعم يحييه، ثم يبعثك ويدخلك النار فأنزل الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [(1)].

التفسير: بعد أن بيَّن تعالى حال السعداء ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي تميزوا وانفصلوا يا معشر الكفرة المجرمين عن عبادي المؤمنين، انفردوا عنهم وكونوا جانبًا قال القرطبي: يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة [(2)] ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، وهو تبويخٌ للكفرة المجرمين أي: أَلَمْ أوصِكُم وآمُركم يا بني آدم على ألسنة رسلي ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾،

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» ١٥/٥٨، و«البحر المحيط» ٧/٣٤٨. **(ش): ضعيف جدًا.** أخرجه الطبري في «تفسيره».وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره»، والحاكم في «المستدرك» بإسناد صحيح عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَظْمٍ حَائِلٍ فَفَتَّهُ فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ أَيَبْعَثُ اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَّ؟» قَالَ: «نَعَمْ، يَبْعَثُ اللهُ هَذَا، يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ» قَالَ: فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. (قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ»، ووافقه الذهبي). (بِعَظْمٍ حَائِلٍ): حالَ الشَّيءُ: تغيّر وتحوّل. فَتَّهُ: دقَّه وكسَره بالأصابع كِسَرًا صغيرة. أرَمَّ العَظْمُ: بَلِيَ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/٤٦.

أي: ألا تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من معصيتي؟ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليلٌ للنهي أي لأنه عدو لكم ظاهر العداوة، فكيف يطيع الإِنسان عدوه؟ ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ أي وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي، بتوحيدي وطاعتي وامتثال أمري ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي: هذا هو الدين الصحيح، والطريق الحقُّ المستقيم ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ تأكيد للتعليل، أي: ولقد أضلَّ الشيطان خلقًا منكم كثيرين، وأغواهم عن سلوك طريق الحقِّ قال الطبري: أي صدَّ الشيطان منكم خلقًا كثيرًا عن طاعتي حتى عبدوه[1] ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم؟ وهو توبيخ آخر للكفرة الفجار.. ثم بشرهم بما ينتظرهم من العذاب فقال ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ أي هذه نار جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها قال الصاوي: هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع[2] ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا، وهو أمر إهانةٍ وتحقير مثل قوله ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد فقال ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾[3] أي في هذا اليوم يوم القيامة نختم على أفواه الكفار ختمًا يمنعها عن الكلام ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي تنطق عليهم جوارحهم أيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة روى ابن جرير الطبري عن أبي موسى الأشعري أنه قال: «يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول: أي ربِّ وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول الملك: أما عملت كذا في كذا في مكان كذا فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك خُتم على فيه وتكلمت أعضاؤه ثم تلا ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وفي الحديث: «يَقُولُ الْعَبْدُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا - قَالَ - فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ - قَالَ - ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ - قَالَ - فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[4]. ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ أي لو شئنا لأعميناهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذٍ؟ قال ابن عباس: المعنى لو نشاء لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبدًا إلى طريق الحقِّ[5]،

(١) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١٦.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٢٩.

(٣) «الطبري» ٢٣/ ١٧.

(٤) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٤٩.

وهو تهديد لقريش ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ أي لو نشاء لمسخناهم مسخًا يقعدهم في مكانهم ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا وأن يذهبوا ولا أن يرجعوا، وهو تهديد آخر للكفرة المجرمين، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار يتطاول الأعمار فقال ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ أي ومن نُطِل عمره نُقَلِّبْه في أطوار منتكسًا في الخلق فيصير كالطفل لا يعلم شيئًا قال قتادة: يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا، فطولُ العمر يصيِّر الشباب هَرَمًا، والقوة ضعفًا، والزيادة نقصًا ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إعمائهم أو مسخهم؟ قال ابن جزي: والقصدُ من ذلك الاستدلالُ على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم [1] ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ أي وما علمنا محمدًا الشعر، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعرًا قال القرطبي: هذا رَدٌّ على الكفار في قولهم: إنه شاعر، وإن ما أتى به من قبيل الشعر، فالرسول ﷺ ليس بشاعر، والقرآن ليس بشعر، لأن الشعر كلام مزخرف موزون، مبني على خيالات وأوهام واهية، حتى قيل: «أَعْذَبُه أَكْذَبُه»[2]. فأين ذلك

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٦٦.

(٢) (ش): هل أَعْذَبُ الشعر أَكْذَبُه؟ يرى المؤيدون لذلك أن الشعر لا يُبهِر ويُبهِج إلا إذا ترَصَّع بالكذب، وسافر مع الخيال. أما المعارضون فيرون أن هذه المقولة أخطأت الصواب، ولم تُصب الحقيقة ولا قاربت، بل عَدُّوها دعوى فارغة من البَيِّنة، زائغة عن الصواب. وقالوا: إن أحسنَ الشعر أَصْدَقُه، وإن فضيلة الشاعر ليست في معرفته بوجوه الإغراق والغلو؛ ومخالفته الحقيقة، وخروجه عن الواجب والمتعارف، فخير الكلام الحقائق، فإن لم يكن فما قاربها وناسبها. أما المُفَصِّلون في المسألة فقالوا إن أحسن الشعر أَقْصَدُه، إذ لا تعارض بين الصدق من جهة، والغلوّ والمبالغة من جهة أخرى، فالشعرُ أساسُه التأثير بواسطة التخييلات البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ونحو ذلك، ولما كان الخيال صورةٌ من صُور الكذِب قيل: إن أعذب الشعر أَكْذَبُه، ولكن ليس ذلك على إطلاقه؛ فإن العمدة في حُسْن الشعر وجودته على صدق الشعور، وجمال التعبير، وكم من أبيات اعتُبرت من عيون الشعر بينما هي لا تعتمد على أي صورة كاذبة، وإنما تتجلى بلاغتها في حُسن إصابتها للمعنى الصحيح، وحُسن صياغتها في تعبير جميل، إلا أن الذي غلب على الشعراء المبالغة في الصور البيانية إلى حد التخييل الكاذب الصريح، وخاصة في مقاصد الوصف والمدح والهجاء، فتسابقوا إلى الإغراب في ذلك، وإلى ابتداع المعاني الموغلة في الاستحالة، زاعمين أنه بذلك يحلو الشعر ويستعذب. ربّما يكون تضخيم الحقّ وتجسيمه في الصورة الأدبيّة عملًا أدبيًّا جميلًا؛ لأنّ التضخيم والتجسيم في مفاهيم النّاس لونٌ من ألوان البيان والشرح للحقيقة، وبعد الشرح ترجع الحقيقة في تَصَوُّرِ النّاس إلَى حجمها الطبيعي. فيكون الكلَامُ أقرب إلى حيِّز الصحة كما قال أبو عبادة:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا ... مِنَ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَا

فهذا البيت قد تضمن غلوًّا لكن لما جاءت فيه كلمة (كَادَ) قرَّبَتْه إلى الصحة. ولكن الفكرة المشتملة على كذِبٍ سخيفٍ ممجوج قد يستعذِبها الذهن لطرافتها، ولكن يمجّها الذَّوق والحسُّ المرهف العارف بألوان الجمال لسخافتها، ومجافاتها للحقيقة مجافاةً واسعة المسافة، في قول المتنبّي:

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَنَّنِي رَجُلٌ ... لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

وفي قول القائل:

=

من القرآن العزيز الذي تنزَّه عن مماثلة كلام البشر!! وقد أكثر الناسُ في ذم الشعر ومدحه، وإنما الإنصاف ما قاله الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «الشعر كلامٌ، والكلام منه حسنٌ، ومنه قبيح»[١]. ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما هـذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكيرٌ مـن الله جل وعلا لعباده، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحالٍ من الأحوال ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ أي لينذر بهذا القـرآن من كان حي القلب مستنير البصيرة، وهو المؤمنـون لأنهم المنتفعون به ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي وتجـب كلمـة العذاب علـى الكافرين[٢] لأنهم كالأمـوات لا يعقلون ما يخاطبـون به قال البيضاوي: وجعلهم في مقابلة من كان حيًّا إشـعارًا بأنهم لكفرهم، وسـقوط حجتهم، وعدم تأملهم، أمواتٌ في الحقيقة[٣]. ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليسـتدلوا على وجوده جلَّ وعلا مـن آثاره فقال ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ الهمزة للإنـكار والتعجيب، أي: أولم ينظروا نظر اعتبار، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا من غير واسـطة، وبلا شريك ولا معين مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام وهي الإبل والبقـر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمـال قدرتنا؟ ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أي فهم متصرفـون فيها كيف يشـاءون تصـرف المالك بمالـه ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ﴾ قال ابن كثيـر: المعنى جعلهـم يقهرونها وهي ذليلـةٌ لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعيرٍ لَأَناخه، ولو شـاء لَأقامَه وسـاقَه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير لسـار الجميع بسير الصغير، فسـبحان من سـخر هذا لعباده![٤] ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ أي فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسـفار، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سـفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنـم ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ أي ولهم فيها منافع عديدة غيـر الأكل والركوب كالجلود والأصواف والأوبار، ولهم فيها مشـارب أيضًا يشـربون من ألبانها ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ أي أفـلا يشـكرون ربهـم علـى هـذه النعم الجليلة؟ والغرضُ من الآيات تعديدُ النعم وإقامةُ الحجة عليهم.. ثم وَبَّخَهم وعَنَّفَهم في عبادة

= بَـكَـتْ لُـؤْلُـؤًا رَطْـبًـا فَـسَـالَـتْ مَـدَامِـعِـي عَـقِـيـقًـا فَـصَـارَ الْـكُـلُّ فِـي جِـيـدِهَـا عُـقْـدًا

وما دام باستطاعة الإنسان أنْ ينتقي من الحقّ والصدق عناصر جماليّة لأدبه فما أوفر الحقّ والصدق في بيانات الإسلام، أما الدّعاة إلى الله فما عليهم إلاّ أنْ يغترفوا.

(١) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الشِّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ، حَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ، وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ».(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ في «الأدب المفرد» وصححه الألباني).

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٦١.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٣٦.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٠. (ش): أَنَاخَ الجمَلَ: أبرَكَهُ. القِطَارُ من الإبل: عددٌ منها بعضُهُ خَلْفَ بعض على نَسَقٍ واحدٍ.

ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام، وذلك نهاية الغيّ والضلال فقال ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي وعبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن يُنصروا بها وهي صماء بكماء، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي لا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم بحالٍ من الأحوال، لا بشفاعة ولا بنصرةٍ أو إعانة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي وهؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم، والذبِّ عنهم، وفدائهم بالروح والمال، مع أنهم لا ينفعونهم أيَّ نفع قال قتادة: المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليه خيرًا ولا تدفع عنهم شرًّا، إنما هي أصنام والمشركون كأنهم خدام[1] وقال القرطبي: المعنى إنهم قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلًا، والكفار يمنعون منهم ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم[2]. ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، واتهامهم بأنك شاعرٌ أو ساحر، وهذه تسليةٌ للنبي عليه السلام، وهنا تمَّ الكلام. ثم قال تعالى ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي نحن أعلم بما يخفونه في صدورهم، وما يظهرونه من أقوالهم وأفعالهم، فنجازيهم عليه، وكفى بربك أنه على كل شيء شهيد.. ثم أقام الدليل القاطع، والبرهان الساطع، على البعث والنشور فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ استفهامٌ إنكاريٌ للتوبيخ والتقريع، أي: أولم ينظر هذا الإنسان الكافر نظر اعتبار، ويتفكر في قدرة الله فيعلم أنّا خلقناه من شيءٍ مهينٍ حقير هو النطفة «المني» الخارج من مخرج النجاسة؟ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل، يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور، أفليس الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة، بقادر على أن يخلقه مرة أُخرى عند البعث؟ قال المفسرون: نزلت في «أُبي بن خلف» «جاء بعظم رميم، وفتَّته في وجه النبي الكريم وقال ساخرًا: أتزعم يا محمد أنَّ الله يُحيينا بعد أن نصبح رفاتًا مثل هذا؟ فقال ﷺ له: «نعم يبعثك ويدخلك النار»[3] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي وضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم، مستبعدًا على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه، ونسي أنا أنشأناه من نطفةٍ ميتة وركبنا فيه الحياة، نسي خلْقَه العجيب وبَدْأَه الغريب، وجوابُه من نفسه حاضر ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي وقال هذا الكافر: من يحيي العظام وهي بالية أشدَّ البِلَى، متفتتةٌ متلاشية؟ قال الصاوي: أي أورد كلامًا عجيبًا في

(١) وهذا القول هو الذي اختاره الطبري ورجحه انظر «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٥٦ بشيء من الاختصار.

(٣) قال في البحر: وقيل: إنها نزلت في «العاص بن وائل» والأصح أنها في «أُبَيِّ بْنِ خَلَف» وانظر سبب النزول المتقدم في هذا التفسير. (ش): تقدم أن الصحيح أنها نزلت في «العاص بن وائل»، رواه الحاكم في «المستدرك» بإسناد صحيح. أما ما رُوِيَ أنها نزلت في « أُبَيِّ بْنِ خَلَف» فضعيف جدًّا. أخرجه الطبري في «تفسيره».

الغرابة هو كالمثل، حيث قاسَ قدرتنا على قدرة الخلق [١] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قل يا محمد تخريسًا وتبكيتًا لهذا الكافر وأمثاله: يخلقها ويحييها الذي أوجدها من العدم، وأبدع خلقها أول مرة من غير شيء، فالذي قدر على البداءة، قادر على الإعادة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق ويُبدع، فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد الفناء ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر نارًا تُحرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يُعجِزه إحياء العظام البالية وإعادتها خلقًا جديدًا [٢] وقال أبو حيان: ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفىء النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء، والأعراب تُوري النار من المَرْخ والعُفار، وفي أمثالِهم «لِكُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار» [٣].

ولقد أحسن القائل:

جَمْعُ النَّقِيضَيْنِ مِنْ أَسْرَارِ قُدْرَتِهِ ... هَـذَا السَّحَابُ بِهِ مَاءٌ بِهِ نَارُ

﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي فإذا أنتم تقدحون النار من هذا الشجر الأخضر ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾؟ أي أوَليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما، وعظم شأنهما قادرًا على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها؟ ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي بلى هو القادر على ذلك، فهو الخلاَّق المبدع في الخلق والتكوين، العليم بكل شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يصعب عليه جل وعلا شيء، لأن أمره بين الكاف والنون، فمتى أراد تعالى شيئًا وُجِدَ، بدون تعب ولا جهد، ولا كُلْفَة ولا عناء[٤] ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي تنزَّه وتمجد عن صفات النقص الإلهُ العظيم الجليل، الذي بيده المُلك الواسع، والقدرة التامة على كل الأشياء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء.. ختم تعالى السورة الكريمة بهذا الختم الرائع، الدال على كمال القدرة، وعظمةِ الملك والسلطان، الذي تفرد به خالق الأكوان.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - طباق السلب ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ... وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ فالأول سلب، والآخر إيجاب.

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٣١.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢١.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٣٤٨. (ش): المَرْخُ والعَفَار هما شجرتان من أسرع الشجر خروجَ نار، والاستِمجَادُ الاستكثار من المجد وهو كثْرةُ الشرف، وقيل: معناه أنهما أخذا الفضل وذهبا بالمجد، يُضربُ هذا المَثَل في تفضيل القوم على بعض إذا كانوا كلهم ذوى خير ولبعضهم مزية وتقدم ليس للآخرين.

(٤) (ش): كُلْفَة: مَشَقَّة.

٢ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ والتقرير ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾؟ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟

٣ - الطباق بين مُضِيًّا .. يَرْجِعُونَ ﴿يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٤ - التشبيه البليغ ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي كالجند في الخدمة والدفاع، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ بعد قوله ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ الآية وفائدته تفخيم النعمة، وتعظيم المنة.

٦ - المقابلة ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ الآية قابل بين الإنذار والإعذار، وبين المؤمنين والكفار ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهو من ألطف التعبير.

٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ الأنعام تُخلَق ولا تُعمَل، ولكنه شَبَّه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمرًا بيديه ويصنعه بنفسه، واستعار لفظ العمل للخلق بطريق الاستعارة التمثيلية [١].

٨ - صيغة المبالغة ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.. ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ شبه سرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر المطاع من غير توقف ولا امتناع، فإذا أراد شيئًا وُجِد من غير إبطاءٍ ولا تأخير، وهو من لطائف الاستعارة [٢].

فَائِـدَة: الملكوت صيغة مبالغة من المُلك، ومعناه الملك الواقع التام مثل الجبروت والرحموت للمبالغة.

تنبيـه: قال العلامة ابن كثير: «ما ثبت عنه ﷺ أنه تمثل يوم الخندق بأبيات ابن رواحة: **«اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا»**[٣] . وما ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب على بغلته: **«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»**[٤] وقوله: **«هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ»**[٥] إلخ إنما وقع اتفاقًا من غير قصد إلى قول الشعر، بل جرى هذا على لسانه ﷺ عفوًا وكل هذا لدينا في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [٦] ا. هـ. فتدبَّره فإنه نفيس.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يس»

---

(١) انظر «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ١٤٠.

(٢) انظر تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ١/ ١٩٢.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٥) (ش): عَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَمْشِي إِذْ أَصَابَهُ حَجَرٌ فَعَثَرَ فَدَمِيَتْ إِصْبَعُهُ. فَقَالَ: «هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ» رواه البخاري ومسلم. دمِيَ الجُرحُ: خرجَ منه الدّمُ.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٦.



مكية وآياتها ثنتان وثمانون ومائة

بين يدي السورة

سورة الصافات من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية «التوحيد، الوحي، البعث، الجزاء» شأنها كشأن السور المكية التي تهدف إلى تثبيت دعائم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار، الصافات قوائمها في الصلاة أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله، الزاجرين للسحاب يسوقونه حيث شاء الله.. ثم تحدثت عن الجن وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة، ردًّا على أساطير أهل الجاهلية في اعتقادهم بأن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن، وتحدثت السورة عن البعث والجزاء وإنكار المشركين له، واستبعادهم للحياة مرة ثانية بعد أن يصبحوا عظامًا ورفاتًا.

* وتأكيدًا لعقيدة الإيمان بالبعث ذكرت السورة قصة «المؤمن والكافر» والحوار الذي دار بينهما في الدنيا، ثم النتيجة التي آل إليها أمر كل منهما بخلود المؤمن في الجنة، وخلود الكافر في النار.

* واستعرضت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء، بَدْءًا من نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم قصة موسى وهارون، ثم إلياس ولوط، وذكرت بالتفصيل قصة «الإيمان والابتلاء» في حادثة الذبيح إسماعيل، وما جرى من أمر الرؤيا للخليل إبراهيم حين أمر بذبح ولده ثم جاء الفداء، تعليمًا للمؤمنين كيف يكون أمر الانقياد والاستسلام لأمر احكم الحاكمين.

* **التسمية:** سميت السورة «سورة الصافات» تذكيرًا للعباد بالملأ الأعلى من الملائكة الأطهار، الذين لا ينفكون عن عبادة الله ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وبيان وظائفهم التي كلفوا بها.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ
﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ
ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾
بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ

مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا
هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ
﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾
وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ
﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى
ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾
وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ
ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ
لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ
مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ
ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ
﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ

اللغة: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ الزجر: الدفع عن الشيء بقوةٍ أو صياح، والزجرة: الصيحةُ من قولك: زجر الراعي الغنم إذا صاح عليها فرجعت لصوته ﴿مَّارِدٍ﴾ عاتي متمرد ﴿ثَاقِبٌ﴾ محرق شديد النفاذ ﴿وَاصِبٌ﴾ دائم لا ينقطع ﴿لَّازِبٍ﴾ ملتزق بعضه ببعض ﴿مَّعِينٍ﴾ شراب نابع من العيون ﴿غَوْلٌ﴾ الغول: كل ما يغتال العقل ويفسده قال أبو عبيدة: الغَوْل ما يغتال العقل ويُذهِبه وأنشد قول ابن إياس:

وَمَـا زَالَـتِ الْـخَـمْـرُ تَـغْـتَـالُـنَـا ... وَتَـذْهَـبُ بِـالْأَوَّلِ فَـالْأَوَّلِ (١)

﴿بِكَأْسٍ﴾ قال أهل اللغة: العرب تقول للإِناء إِذا كان فيه خمر: كأس، فإِذا لم يكن فيه خمرا قالوا: إِناء وقدح قال الشاعر:

وَكَـأْسٍ شَـرِبْـتُ عَـلَـى لَـذَّةٍ ... وَأُخْـرَى تَـدَاوَيْـتُ مِنْهَا بِهَا (٢)

﴿يُنزَفُونَ﴾ يسكرون يقال: نُزِف الرجل فهو نزيف ومنزوف إذا سكَر قال الشاعر:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أَوْ صَحَوْتُمُ ... لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمُ آلَ أَبْجَرَا (٣)

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٣٥٠.
(٢) «تفسير الفخر الرازي» ٢٦/ ١٣٧.
(٣) «البحر» ٧/ ٣٥٠. (ش): نديم: مُجالِسٌ على الشّراب وعلى المائدة عامَّةً. نديم: رفيق وصاحب. وأبجر هو أبجر بن جابر العجلي وكان نصرانيا.

التفسِـير: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ افتتـح تعالى هذه السـورة بالقسـم ببعض مخلوقاتـه، إظهارًا لعِظَم شأنها، وكِبَر فوائدها، وتنبيهًا للعباد على جلاله قدرها[١].

والمعنى: أقسـم بهذه الطوائف من الملائكة، الصافات قوائمها في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله قال ابن مسـعود: هم الملائكة تصفُّ في السـماء في العبادة والذكر صفوفًا، وفي الحديث: «أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ»؟ قلنا: وَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُقَدَّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»[٢]. أقسم تعالى بالملائكة تنبيهًا على جلالة قدرهم، وكثرة عبادتهم، فهم مع عظيم خلقهم ورفعة شأنهم لا ينفكون عن عبادة الله، يصطفون للعبادة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة، مع الخشوع والخضوع للعزيز الجبار، الذي دانت له الخلائق، وخضعـت لجلال هيبته الرقاب، بما فيهم حَمَلة العرش والملائكة الأطهار ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا﴾ أي الملائكة التي تزجر السحاب، يسُوقُونه إلى حيث شاء الله، من الزجر بمعنى السَّوْق والحَثّ ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ وصفٌ ثالث للملائكة الأبرار، إشـادةً بذكر محاسـنهم ومناقبهم العلوية أي وأقسمُ بالملائكة التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه، مع التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ هـذا هو المُقسَـم عليـه، أي: إن إلهكم الذي تعبدونه أيهـا الناس إله واحدٌ لا شريك له، قال مقاتل: إن الكفار بمكة قالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ وكيف يسع هذا الخلق إله فرد؟ فأقسم الله بهؤلاء تشريفًا[٣]، ثم بَيَّن تعالى معنى وحدانيته وألوهيته فقال ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي هو تعالى خالق السموات والأرض ومالكهما وما بينهما من المخلوقات والموجودات، فإن وجودهما وانتظامهما على هذا النمط البديع، من أوضح الدلائل على وجود الله ووحدانيته ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ أي وهو رب مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف قال الطبري: واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالة الكلام عليه[٤] ثم أخبر عن قدرته بتزيين السـماء بالكواكب، بعد أن أخبر عن وحدانيته فقال ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ أي زينا السـماء القريبـة منكم بالكواكـب المنيرة المضيئـة، التي تبدو وكأنهـا جواهر تتلألأ ﴿وَحِفۡظٗا

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه وانظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٤. (ش): هذا لفظ أبي داود، أما لفظ مسلم فهو: «أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٦٢.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢٤.

﴿مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ أي وللحفظ من كل شيطان عاتٍ متمرد، خارج عن طاعة الله قال قتادة: خلقت النجومُ لثلاث: رجومًا للشياطين، ونورًا يُهتدى بها، وزينةً للسماء الدنيا[1] وقال أبو حيان: خصَّ السماء الدنيا بالذكر لأنها هي التي تُشاهَد بالأبصار، وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين[2] ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي لا يقدرون أن يستمعوا إلى الملائكة الذين هم في العالم العلوي، وقيل، المعنى: لئلا يتسمَّعوا إلى الملأ الأعلى ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ أي ويُرجمون بالشهب من كل جهةٍ يقصدون السماء منها ﴿دُحُورٗا﴾ أي طردًا لهم عن السماع لأخبار السماء قال الطبري: أي مطرودين، من الدحر وهو الدَّفعُ والإبعاد[3] ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب موصول لا ينقطع ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ أي إلاَّ من اختلس شيئًا مسارقةً ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ أي فلحقه شهاب مضيءٌ، نافذ بضوئه وشعاعه فأحرقه قال المفسرون: قد يخطف الشيطان المارد خطفةً سريعة مما يدور في الملأ الأعلى، فيتبعه شهابٌ يلاحقه في هبوطه فيصيبه ويحرقه حرقًا قال القرطبي: وليست الشهب التي يرجم بها الشياطين من الكواكب الثوابت، لأن الثابتة تجري ولا تُرى حركتها، وهذه الشهب تُرى حركاتها[4] ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ أي فسَلْ يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ أي أيهم أقوى بُنيةً وأشد خلْقًا هل هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة العجيبة؟ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۢ﴾ أي من طينٍ رخوٍ لا قوة فيه قال الطبري: وإنما وصفه باللزوب لأنه ترابٌ مخلوطٌ بماء، وكذلك خُلِق ابنُ آدم من ترابٍ وماء، ونار وهواء، والتراب إذا خُلط بماءٍ صار طينًا لازبًا[5]، والغرضُ من الآية إقامةُ البرهان على إعادة الإنسان، فالذي خلقه من العدم وخلق هذه الخلائق، قادرٌ على إعادة الأجسام بعد الفناء ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ أي بل عجبتَ يا محمد من تكذيبهم للبعث مع رؤيتهم آثار قدرة الله الباهرة، وهم يسخرون منك ومما تقول لهم في ذلك قال أبو السعود: المعنى عجبتَ من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث[6] ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ﴾ أي وإذا وُعِظوا بالقرآن وخُوِّفوا به، لا يتَّعظون ولا يتدبرون ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾ أي وإذا رأوا آية باهرة، أو معجزة قاهرة تدل على صدقك كانشقاق القمر، وتكليم الشجر والحجر، يبالغون في السخرية أو يدعون غيرهم للسخرية والاستهزاء

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٦٤.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٣٥٢.
(٣) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢٧.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٦٨.
(٥) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢٨.
(٦) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٦٦.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به يا محمد إلا سحر واضح بيِّن قال في البحر: والإشارة بـ«هذا» إلى ما ظهر على يديه عليه السلام من الخارق المعجز[1] ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ الاستفهام للإنكار والاستهزاء أي أئذا أصبحت أجسادنا بالية، وتفتَّت أجزاؤها إلى تراب وعظام سوف نبعث؟ ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ أي أو آباؤنا الأولون كذلك سيُبعثون؟ قال الزمخشري: أي أيبعث أيضًا آباؤنا؟ وهذا زيادة في استبعاد الأمر، يعنون أنهم أقدم، فبعثُهم أبعدُ وأبطل[2] ﴿ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴾ أي قل لهم: نعم تُبعثون وأنتم صاغرون ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴾ أي وما هي إلا صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور ﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ أي فإذا هم قيامٌ في أرض المحشر ينظر بعضهم إلى بعض قال القرطبي: الزجرةُ: الصيحةُ وهي النفخةُ الثانية، وسميت زجرة لأن مقصودها الزجر، كزجر الإبل، والخيل عند السَّوْق[3].

ثم أخبر تعالى عن حسرتهم وندامتهم عند معاينتهم أهوالَ القيامة فقال ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ أي يا هلاكنا وخسارتنا هذا يوم الجزاء والحساب! فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تنكرونه وتكذبون به قال البيضاوي: الفصلُ: القضاءُ والتفريق بين المحسن والمسيء[4] ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ أي اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين، كل إنسان مع نظرائه قال القرطبي: الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، والسارق مع السارق[5] وقال ابن عباس: اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات، وعنه: المراد به أشباههم من العصاة[6] ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي وما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام، وذلك زيادةً في تحسيرهم وتخجيلهم ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي فعرفوهم طريق الجحيم ووجهوهم إليها، وفي لفظ ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ ﴾ تهكم وسخرية، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾ أي احبسوهم عند الصراط لأنهم سيُسألون عن جميع أقوالهم وأفعالهم، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا وأنتم هنا جميعًا؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر والمعين؟ قال المفسرون: هذا إشارة إلى قول أبي جهل يوم

(١) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٥٥.
(٢) «تفسير الكشاف» ٤/ ٣٠.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٧٢
(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٣٨
(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٧٣ ، وعزاه إلي عمر بن الخطاب
(٦) نقلهما عنه صاحب «البحر المحيط» ٧/ ٣٥٦

بدر «نحن جميعٌ منتصر»[١] وأصل ﴿ تَنَاصَرُونَ ﴾ تتناصرون حذفت إحدى التاءين تخفيفًا، قال تعالى ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أي بل هم اليوم أذِلَّاء مُنقَادون، عاجزون عن الانتصار، سواء منهم العابِدون والمعبُودون ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي أقبل الرؤساء والأتباع يتلاومون ويتخاصمون قال أبو السعود: وسؤالهم إنما هو سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال[٢] ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي قال الأتباع منهم للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا من قبل الحقِّ، وتزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن اتباع طريق الهدى[٣] قال الطبري: أي كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق، فتخدعوننا بأقوى الوجوه، قال: واليمين في كلام العرب: القوه والقدرة كقول الشاعر:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِالْيَمِينِ[٤]

وقيل: المراد تأتوننا بطريق الوسوسة عن يميننا كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالإسرار غالبًا ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي يقول لهم الرؤساء: لم نحملكم نحن على الضلال ولم نمنعكم من الإيمان، بل كفرتم ولم تؤمنوا باختياركم قال ابن كثير: أي ليس الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم مُنكِرةً للإيمان، قابلةً للكفر والعصيان[٥] ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ﴾ أي ما كان لنا عليكم من قوة وقدرة نقهركم بها عن متابعتنا ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ أي بل كان فيكم فجور وطغيان واستعداد للعصيان، فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ﴾ أي فوجب علينا جميعًا وعيد الله لنا بالعذاب ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ أي فإنا لذائقو هذا العذاب لا محالة ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ أي فزينا لكم الباطل، ودعوناكم إلى الغيّ لأننا كنا على غيٍّ وضلال، قال تعالى مخبرًا عن حالهم ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي فإنهم يوم القيامة مشتركون في العذاب، كما كانوا مشتركين في الغواية، ولكنْ كما قال تعالى ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩] ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي مثل هذا الفعل بهؤلاء نفعل بالأشقياء المجرمين، ثم بيَّن تعالى السبب فقال ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي إذا قيل لهم قولوا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ يتكبَّرون ويتعظَّمون ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾؟ أي ويقولون عندما يُدعون إلى التوحيد: أنترك عبادة الأوثان لقول شاعرٍ مجنون؟ يعنون بذلك رسول الله ﷺ قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿ بَلْ جَآءَ

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٧٤

(٢) تفسير أبو سعود ٤/ ٢٦٨

(٣) هذا قول حكاه ابن كثير عن السدي وهو لا الأظهر.

(٤) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٢ (ش): البيت للشماخ، يمدح عُرَابَةَ الأَوْسِيَّ. وقبلَه:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ الْأَوْسِيَّ يَسْمُو ... إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٧

﴿بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي ليس الأمر كما يفترون بل جاءهم محمد بالتوحيد والإسلام الذي هو الحقُّ الأبْلَج(١)، وجاء بمثل ما جاء به الرسل قبله قال أبو حيان: جمع المشركون بين إنكار الوحدانية، وإنكار الرسالة، ثم خلطوا في كلامهم بقولهم: «شاعر مجنون» فإن الشاعر عنده من الفهم والحذق ماينظم به المعاني الغريبة، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنونًا لا يصل إلى شيء من ذلك، فكلامهم تخليط وهذيان(٢) ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ أي إنكم أيها المجرمون لمُعَذَّبون أشد العذاب ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي لا تُعاقبون إلا جزاء مثل عملكم قال الصاوي: لأن الشريكون جزاؤه بقدره، بخلاف الخير فجزاؤه بأضعاف مضاعفة(٣).. ولمّا ذكر شيئًا من أحوال الكفار وعذابهم، ذكر شيئًا من أحوال المؤمنين ونعيمهم، على طريقة القرآن في الموازنة بين الفريقين ترغيبًا وترهيبًا فقال ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ عباد الله المُخلَصين الموحدين، فإنهم لا يذوقون العذاب، ولا يناقَشُون الحساب(٤)، بل يتجاوز الله عن سيئاتهم، يُجزَون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

ثم أخبر عن جزائهم فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أي أولئك الأخيار الأبرار لهم رزقهم في الجنة صباحًا ومساءً كما قال تعالى ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ٦٢] وقال أبو السعود: معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة(٥)، ثم فسر الرزق بقوله: ﴿فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ أي فواكهُ متنوعة من جميع ما يشتهون، وهم في الجنة معزَّزون مكرَّمون، وخصَّ الفواكه بالذكر لأن كل ما يؤُكل في الجنة إنما هو على سبيل التفكه والتلذذ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي في رياضٍ وبساتين يتنعمون فيها ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي على أسرَّة مكلَّلة بالدر والياقوت، تدور بهم كيف شاءوا قال مجاهد: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي لا ينظر بعضُهم إلى قفا بعض تواصُلًا وتحابيًا(٦) ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾ لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب، أي: يطوف عليهم خدم الجنة بكأسٍ من الخمر من نهر جارٍ خارج من عيون الجنة قال الصاوي: وصف به خمر الجنة لأنه يجري كالماء النابع(٧) وقال ابن عباس: كل كأسٍ في القرآن فهي الخمر،

(١) (ش): بلَج الحقُّ: وضَح وظهَر.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٣٥٧

(٣) ««حاشيه الصاوي» علي الجلالين» ٣/ ٣٣٧

(٤) (ش): قال ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَالْمُرَادُ بِالْمُنَاقَشَةِ الِاسْتِقْصَاءُ فِي الْمُحَاسَبَةِ وَالْمُطَالَبَةُ بِالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ وَتَرْكِ الْمُسَامَحَةِ. (عُذِّبَ): أَيْ فِي النَّارِ جَزَاءً عَلَى السَّيِّئَاتِ الَّتِي أَظْهَرَهَا حِسَابُهُ.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٦٨

(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٧٧

(٧) «حاشيه الصاوي» ٣/ ٣٣٧

والمعين هي الجارية[١] ﴿ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي هذه الخمر بيضاء ذات لذة للشاربين، يلتذ بها من شربها قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضًا من اللبن ﴿ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي ليس فيها ما يغتال عقولهم فيفسدها، ولا هم يسكرون بشربها كما تفعل خمر الدنيا قال ابن كثير: نزَّه الله سبحانه خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل، فخمر الجنة طعمها طيب كلونها، والمراد بالغَوْل هنا صُداع الرأس قاله ابن عباس، وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن[٢] وتلك أجمل أوصاف الشراب، التي تحقق لذة الشُّرَّاب، وتنفي أكداره وأضراره، فلا خُمار يصدر الرءوس، ولا سكر ولا عربدة يُذهب لذة الاستمتاع كما هي الحال في خمرة الدنيا ﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ أي وعندهم الحور العين، العفيفات اللواتي قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم حياءً وعفةً، قال ابن عباس: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن[٣] ﴿عِينٞ ﴾ أي وهُنَّ مع العفة واسعات جميلاتُ العيونِ قال الطبري: أي نُجْل العيون[٤] جمع عيناء وهي المرأة الواسعة العين مع الحسن والجمال، وهي أحسن ما تكون من العيون[٥] ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه قاله ابن عباس واستشهد بقوله تعالى ﴿ وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴾[٦] [الواقعة: ٢٢-٢٣] وقال الحسن: ﴿ٱلۡمَكۡنُونِ ﴾ المصون الذي لم تمسَّه الأيدي.. والغرضُ أنهنَّ مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالدُّر في أصدافه، مع رقةٍ لطفٍ ونعومة ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴾ لا تبتذله الأيدي ولا العيون، والعربُ تشبّه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها قال أبو حيان: ذكر تعالى في هذه الآيات أولًا الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام، وثانيًا الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس، ثم ذكر المحل وهو جنات النعيم، ثم لذة التآنس والاجتماع ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ وهو أتَمُّ للسرور وآنَس، ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكئوس ولا يتناولونها بأنفسهم، ثم ختم باللذة الجسدية أبلغ الملاذ وهي التآنس بالنساء[٧] ثم أخبر تعالى عما يتحدث به أهل الجنة للأنس والسرور، وهم على موائد الشراب يتلذذون بكل ممتع، وينعمون بتجاذب أطراف الحديث فقال ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي جلسوا يتحدثون عما جرى لهم في الدنيا، يتذاكرون نعيمهم وحال

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٣٤

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٩

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٩٧

(٤) (ش): نجلَتِ العينُ: اتّسَعَت، وحَسُنت. نَجْلاء: واسعة العينين.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٦

(٦) «تفسير الطبري» ١٥/ ٨١

(٧) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٥٩

الدنيا وثمرة الإيمان ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ﴾ أي قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي في الدنيا صديق وجليس ينكر البعث ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ أي يقول لي: أتصدِّق بالبعث والجزاء؟ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟ أي هل إذا متنا وأصبحنا ذرَّاتٍ من التراب وعظامًا نَخِرة[1]، أئنا لمحاسَبون ومَجْزِيُّون بأعمالنا؟ يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؟ أي قال ذلك المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطَّلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين؟ قال تعالى ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي فنظر فأبصر صاحبه الكافر في وسط الجحيم يتلظى سعيرها ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ أي فخاطبه المؤمن شامتًا وقال له: واللهِ لقد قاربت أن تهلكني بإغوائك ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أي ولولا فضلُ الله عليَّ بتَثْبيتي على الإيمان، لكُنتُ معك في النار محضرًا ومعذبًا في الجحيم، ثم يخاطبه مستهزئًا ساخرًا كما كان ذلك الكافر يستهزئ به في الدنيا ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؟ أي هل لا تزال على اعتقادك بأننا لن نموت إلا موتةً واحدة، وأنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب؟ وهو أسلوب ساخر لاذع يظهر فيه التشفي من ذلك القرين الكافر، والتحدث بنعمة الله عليه قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي إن هذا النعيم الذي ناله أهل الجنة لهو الفوز العظيم ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ أي لمثل هذا الجزاء الكريم يجب أن يعمل العاملون ويجتهد المجتهدون.

قال المفسرون: أشارت الآيات الكريمة إلى قصة شريكين كان لهما ثمانية آلاف درهم، فكان أحدهما يعبد الله ويقصِّر في التجارة والنظر إلى أمور الدنيا، وكان الآخر مقبلًا على تكثير ماله، فانفصل من شريكه لتقصيره، وكان كلما اشترى دارًا أو جارية أو بستانًا أو نحو ذلك عرضه على المؤمن وفخر عليه بكثرة ماله، وكان المؤمن إذا سمع ذلك يتصدَّق بنحوٍ من ذلك ليشتري له به قصرًا في الجنة، فإذا لقيه صديقه قال ما صنعت بمالك؟ قال: تصدقت به لله! فكان يسخر منه ويقول: أئنك لمن المصدِّقين؟ فكان أمرهما ما قصَّ الله علينا في كتابه العزيز[2].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ لأن السخرية في مقابلة التعجب.

٢ - التأكيد بإِن واللام ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ ومقتضى الكلام يقتضيه لإنكار المخاطبين للوحدانية.

٣ - الأسلوب التهكمي ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وردت الهداية بطريق التهكم، لأن الهداية تكون إلى طريق النعيم لا الجحيم.

---

(١) (ش): أي عظامًا بالية.

(٢) أنظر «الطبري» ٢٣/ ٣٨، و«مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨١ ففيهما تفصيل للقصة.

٤ – الإيجـاز بالحذف ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي قولوا: لا إله إلا الله، وحذف لدلالة السياق عليه.

٥ – الالتفات من الغيبـة إلى الخطاب ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ والأصل: إنهم لذائقو وإنما التفت لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم.

٦ – الكنايـة ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ كنَّى بذلك عن الحـور العين؛ لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

٧ – التشبيه المرسل والمجمل ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ حذف منه وجه الشبه فأصبح مجملًا.

٨ – مراعاة الفواصل وهو المحسـنات البديعية مثل ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ إلى آخره.

قال الله تعالى:

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ
يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾
وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾
۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾
أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ
﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا
بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ
لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ
﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ
فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾
فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾
وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ

المناسَبة: لما ذكر تعالى ما أعده للأبرار في دار النعيم، ذكر ما أعده للأشرار في دار الجحيم،

ليظهر التمييز بين الفريقين، ثم ذكر قصة «نوح» وقصة «إبراهيم» وما فيهما من العظات والعبر للمعتبرين.

اللغَـة: ﴿نُزُلًا﴾ النُّزُل: الضيافـة والتكرمة، وأصله ما يُعد للأضياف من الطعام والشـراب وغيرهمـا ﴿طَلْعُهَا﴾ ثمرها، سُـمي طلعًا لطلوعـه ﴿لَشَوْبًا﴾ خلطًا ومزاجًا من شـاب الطعام يشوبه إذا خلطه بشيء آخر ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يُسْرِعون قال الفراء: الإهراع: الإسراع مع رِعدة[1]، وقال المبرّد: المُهرع: المستحَثّ يقال: جاء فلان يُهرَع إلى النار، إذا استَحَثَّه البرد إليها[2] ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ شيعة الرجل أعوانه وأنصاره، ومن سار على طريقته ومنهاجه ﴿أَئِفْكًا﴾ كذبًا وباطلًا ﴿سَقِيمٌ﴾ مريض وعليل ﴿فَرَاغَ﴾ راغ إليه: أقبل عليه ومال نحوه خفيةً وأصله من الميل قال الشاعر:

وَيُرِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً ... وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ[3]

﴿يَزِفُّونَ﴾ يُسرعون في مشيهم ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ صرعه وكبَّه على وجهه.

التفسِـير: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أي أنعيـم الجنـة خيرٌ ضيافةً وعطاءً أم شـجرة الزقوم التي في جهنم؟ أيهما خيرٌ وأفضل؟ فالفواكه والثمار طعام أهل الجنة، وشـجرة الزقوم طعـام أهل النار، والغرض منه توبيخ الكفار ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إنا جعلنا شـجرة الزقوم فتنةً وابتلاءً لأهل الضلالة قال المفسـرون: لما سـمع الكفارُ ذكر شـجرة الزقوم قالوا: كيف يكون في النار شـجرة، والنار تُحرق الشـجر؟ وكان أبو جهل يقول لأصحابه: أتدرون ما الزقـوم؟ إنه الزُّبـد والتمر، ثم يأتيهم به ويقول: تزقَّموا، هذا الـذي يخوفنا به محمد[4] ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي تنبت في قعر جهنم ثم هي متفرعة فيها ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي ثمرهـا وحملها كأنه رءوس الشـياطين في تناهي القبح والبشـاعة قال ابن كثير: وإنما شبهها برءوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين، لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر[5] ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي فإن هؤلاء الكفار لشدة جوعهم مضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلئ منها بطونهم، فهي طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهـل الجنـة، وفي الحديث «لَوْ أَنَّ قَطْـرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي بِحَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَـدَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مَعَايِشَـهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُـونُ طَعَامَهُ؟»[6] ﴿إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي ثم إن لهم

---

(١) (ش): رِعْدَة: هيئة الجسم إذا أصابه فزع أو خوف أو حُمَّى أو غيرها.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٨٨. (ش): استَحَثَّه البرد إليها: أي جعله يُسرع إليها.

(٣) نفس المرجع السابق ١٥/ ٩٤.

(٤) أنظر «تفسير الطبري» ٢٣/ ٤١. (ش): ضعيف جدًا، أخرجه ابن جرير االطبري في «تفسيره».

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٢.

(٦) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. (ش): «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِى دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ» (رواه الترمذي، وصححه، ورواه أحمد وصححه أحمد شاكر والأرنؤوط). =

بعدما شبعوا منها وغلبهم العطش لمزاجًا من ماء حار قد انتهت حرارته يشاب به الطعام أي يخلط ليجمع لهم بين مرارة الزقوم، وحرارة الحميم، تغليظًا لعذابهم ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي ثم مصيرهم ومرجعهم إلى دركات الجحيم قال مقاتل: الحميم خارج الجحيم، فهم يُورَدُون الحميم لشُرْبه[١] ثم يُرَدُّون إلى الجحيم وقال أبو السعود: الزقوم والحميم نُزُلٌ يُقدَّم إليهم قبل دخولها[٢] ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي وجدوهم على الضلالة فاقتدوا بهم ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي فهم يُسرعون في اتباع خُطاهم من غير دليل ولا برهان قال مجاهد: شبَّهه بالهرولة كمن يُسرع إسراعًا نحو الشيء ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ضلَّ قبل قومك أكثر الأمم الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي أرسلنا فيهم رسلًا كثيرين يُخَوِّفونهم من عذاب الله ولكنهم تمادوا في الغيّ والضلال ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي فانظر يا محمد كيف كان مصير أمر هؤلاء المكذبين؟ ألم نهلكهم فنُصَيِّرهم عبرةً للعباد؟ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي لكنْ عبادَ الله المؤمنين الذين أخلصهم تعالى لطاعته فإنهم نجوا من العذاب.

ثم شرع في بيان قصة نوح فقال ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ اللام مُوطِّئَةٌ للقَسَم[٣] أي: وبالله لقد استغاث بنا نوحٌ لما كذبه قومه فلنعم المجيبون نحن له، وصيغة الجمع ﴿ٱلْمُجِيبُونَ﴾ للعظمة والكبرياء قال الصاوي: ذكر تعالى في هذه السورة سبع قصص: قصة نوح، وقصة إبراهيم، وقصة الذبيح إسماعيل، وقصة موسى وهارون، وقصة إلياس، وقصة لوط، وقصة يونس، وكل ذلك تسلية له ﷺ وتحذيرًا لمن كفر من أمته[٤] ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي ونجيناه ومن آمن معه من أهله وأتباعُه من الغرق قال المفسرون: وكانوا ثمانين ما بين رجل وامرأة ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد هلاك قومه قال ابن عباس: أهل الأرض كلُّهم من ذرية نوح[٥] قال في التسهيل: وذلك لأنه لما غرق الناس في الطوفان، ونجا نوح ومن كان معه في السفينة، تناسل الناسُ من أولاده الثلاثة

= «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي بِحَارِ الْأَرْضِ لَفَسَدَتْ» وفي رواية: «لَأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُونُ طَعَامَهُ؟» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي). « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي الْأَرْضِ لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مَعِيشَتَهُمْ» رواه ابن حبان. والحديث صححه الألباني، ثم تراجع وضعفه لأنه تبيَّن له أن فيه عنعنة الأعمش وأن بينه وبين مجاهد أبا يحيى القتات وهو ضعيف.

(١) (ش): أورد الفَرَسَ الماءَ: جعله يَرِدُه، أي يذهبَ إليه ليشرب.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٧١

(٣) (ش): مُوَطِّئَةٌ للقَسَم: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفَته.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٢٤٠

(٥) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٦٤

«سام، وحام، ويافث»(١) ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي تركنا عليه ثناءً حسنًا في كل أمة إلى يوم القيامة ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي سلام عَاطِر من الله تعالى والخلائق على نوح باقٍ على الدوام بدون انقطاع ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد، نبقي له الذكر الجميل إلى آخر الدهر ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي كان مخلصًا في العبودية لله، كامل الإيمان واليقين قال في حاشية البيضاوي: علَّل هذه التكرمة السَّنِيَّة بكَوْنه من أُولِي الإحسان، ثم علَّل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا، إظهارًا لجلالة قدر الإيمان وأصالة أمره، وجعل الدنيا مملوءةً من ذريته تبقية لذكره الجميل في ألسنة العالمين(٢) ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أي أغرقنا الكافرين الذين لم يؤمنوا بنوح عن آخرهم، فلم تبق منهم عينٌ تطْرف(٣) ولا ذِكْرٌ ولا أثر.. ثم شرع تعالى في بيان قصة إبراهيم فقال ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي وإن من من أنصار نوح واعوانه وممن كان على منهاجه وسنته إبراهيم الخليل، قال البيضاوي: وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة، وكان بينهما نبيان هما «هود» و «صالح» صلوات الله عليهم أجمعين(٤) ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ أي حين جاء ربه بقلب نقي طاهر، مُخلص من الشك والشرك ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي حين قال لأبيه آزر وقومه موبخًا لهم: ما الذي تعبدونه من الأوثان والأصنام؟ وهو إنكار لهم وتوبيخ ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؟ أي أتعبدون آلهة من دون الله من أجل الإفك والكذب والزور؟ وإنما قدَّم المفعول لأجله ﴿أَئِفۡكًا﴾ على المفعول به لأجل التقبيح عليهم بأنهم على إفكٍ وباطل في شركهم والأصل: أتريدون آلهة من دون الله إفكًا؟ قال القرطبي: والإِفكُ أسوأ الكذب وهو الذي لا يثبتُ ويضطرب(٥) ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استفهام توبيخ وتحذير، أيْ: أيَّ شيءٍ تظنون بربِّ العالمين؟ هل تظنون أنه يترككم بلا عقاب وقد عبدتم غيره؟ قال الطبري: المعنى أيَّ شيءٍ تظنون أيها القوم أنه يصنع بكم إن لقيتموه وقد عبدتم غيره(٦)؟ ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ لما وبَّخهم على عبادة غير الله أراد أن يُرِيَهم أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع، وأراد أن يخلو بها حتى يكسرها، فاحتال للبقاء وعدم الخروج معهم إلى العيد، فنظر في السماء على عادتهم حيث كانوا نَجّامين وأوْهَمهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غدًا(٧) فقال: إني

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٥٧
(٢) حاشية الشيخ زاده علي البيضاوي ٣/ ١٥٧
(٣) (ش): طَرَفت العينُ: تحرَّك جفناها.
(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ١٥٧
(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٩٢
(٦) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٤٥
(٧) (ش): الصواب أن يقال إنه عليه السلام نَظَرَ إِلَى النُّجُومِ، وَأَطَالَ الفِكْرَ فِيما يعتذر به عن الخروج مَعَ قَوْمِهِ عَبَدَةِ =

سقيم: أي سأمْرَض إن خرجتُ معكم(١)، وهذا ليس بكذب وإنما هو من المعاريض الجائزة لمقصد شرعي كما ورد «إِنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكَذب»(٢) أو أراد أنه سقيم القلب من عبادتهم للأوثان(٣) ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي فتركوه إعراضًا عنه وخرجوا إلى عيدهم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ أي فلما ذهبوا وتركوه توجه إلى الأصنام ومال إليها في خفية قال ابن كثير: أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعةٍ واختفاء(٤) ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ أي ألا تأكلون من هذا الطعام؟ قال ابن كثير: وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديهما طعامًا قربانًا لتُبارك لهم فيه(٥) ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾؟ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي قال أبو حيان: وعرضُ الأكل عليها واستفهامها عن النطق إنما هو على سبيل الهزء، لأنها منحطةٌ عن رتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها(٦) ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ أي فأقبل على الأصنام مستخفيًا يحطمها بيمينه بفأسٍ كان معه قال البيضاوي: وتقييدُه باليمين للدلالة على قوته وقوة الآلة تستدعي قوة الفعل(٧) وقال القرطبي: خصَّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضربُ بها أشد(٨) ﴿ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ أي أقبلوا نحوه مسرعين كأن بعضهم يدفع بعضًا، فلما أدركوه قالوا: ويحكَ نحن نعبدها وأنت تكسرها؟ فأجابهم موبخًا ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾؟ أي أتعبدون أصنامًا نَحَتُّموها بأيديكم، وصنَعْتموها بأنفسكم؟ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي واللهُ جل وعلا خلقكم وخلق عملكم، وكلُّ الأشياء مخلوقة له، فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق، أليس لكم عقل أيها الناسُ؟ قال ابن جزي: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ما﴾ مصدرية والمعنى:

= الأَصْنَامِ إِلى أعيادهم، فقال لهم: إني مريض. وهذا تعريض منه. فتركوه وراء ظهورهم. قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٢٤): « قَالَ قَتَادَةُ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ تَفَكَّرَ: نَظَرَ فِي النُّجُومِ: يَعْنِي قَتَادَةُ: أَنَّهُ نَظَّرَ فِي السَّمَاءِ مُتَفَكِّرًا فِيمَا يُلْهِيهِمْ بِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

(١) (ش): وَقِيلَ: فَقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يُسْتَقْبَلُ، يَعْنِي: مَرَضَ الْمَوْتِ. وَقِيلَ: أَرَادَ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أَيْ: مَرِيضُ الْقَلْبِ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(٢) (ش): رواه البيهقي وغيره مرفوعًا (أي منسوبًا إلى النبي ﷺ)، وضعفه الألباني. ورواه البخاري في «الأدب المفرد» من كلام عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «إن في المعاريض لمَنْدُوحَة عَنِ الكَذِبِ»، وصححه الألباني.
(المعاريض) جمع المِعرَاض، وهو التورية: أن يكون للفظ معنيان، أحدهما قريب، ظاهر الكلام يدلُّ عليه، والآخر بعيد، وهو الذي يقصده القائل. (مَنْدُوحَةٌ عَنِ الكَذِبِ): أي سَعَة وفُسحة عَنِ الكَذِبِ، يُقَال: أَرض مندوحة وَاسِعَة بعيدَة. ويقال: لَكَ عَن هَذَا الأمر مَندُوحَة: أي سَعَة وفُسحة.

(٣) انظر أقوال المفسرين في القرطبي ١٥/ ٩٣

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٥

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٥

(٦) «البحر المحيط» ٧/ ٣٦٦

(٧) «البيضاوي» ٢/ ١٤٢

(٨) «القرطبي» ١٥/ ٩٤

اللهُ خلقكم وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد، وذهب بعضهم إلى أن ﴿ما﴾ موصولة بمعنى الذي والمعنى: خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها، وهذا أليَق بسياق الكلام، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام[١]. ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي ابنوا له مكانًا وأضرموه نارًا ثم ألقوه في تلك النار المتأججة المستعرة قال المفسرون: لما غلبهم إبراهيم عليه السلام في الحجة، مالوا إلى الغلبة بقوة البطش والشدة، وتشاوروا فيما بينهم ثم قرروا أن يطرحوه في النار انتصارًا لأصنامهم وآلهتهم ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي أرادوا المكر بإبراهيم واحتالوا لإهلاكه، فنجيناه من النار وجعلناها بردًا وسلامًا عليه، وجعلناهم الأذلين المقهورين لأنه لم ينفذ فيه مكرهم، ولا كيدهم ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ لما نجاه الله من النار، وخلّصه من كيد الفجار، هجر قومه واعتزلهم. والمعنى: إني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أمرني ربي قال مقاتل: هو أول من هاجر من الخلق مع سارة إلى أرض الشام[٢] ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ارزقني ولدًا من الصالحين يؤنسني في غُربتي قال ابن كثير: يريد أولادًا مطيعين يكونون عوضًا عن قومه وعشيرته الذين فارقهم[٣] ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أي فاستجبنا دعاءه وبشرناه بغلام يكون حليمًا في كبره قال أبو السعود: جمع الله له فيه بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وأنه يبلغ أوان الحُلم، وأنه يكون حليمًا، لأن الصغير لا يوصف بذلك، وأيُّ حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤]! وجمهور المفسرين على أن هذا الغلام المبشر به هو «اسماعيل» لأن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح

---

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٧٣ (ش): الإيمان بالقدر يقوم على أربع مراتب، من أقرَّ بها جميعًا فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملًا، ومن انتقص واحدةً منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر، وهذه المراتب هي: الأول: الإيمان بعلم الله الشامل المحيط. فعلم الله محيط بكل شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن والمستحيل. وهو عالم بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ويخلق السماوات والأرض. الثاني: الإيمان بكتابة الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة. الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. الرابع: خلقه تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك له في خلقه. فالله تعالى خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا يقع في هذا الكون شيء إلا وهو خالقه. روى البخاري في «خلق أفعال العباد» بإسناد صحيح عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ» وَتَلَا بَعْضُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. قال البخاري: «فَأَخْبَرَ أَنَّ الصِّنَاعَاتِ وَأَهْلَهَا مَخْلُوقَةٌ».

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٩٧.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٦.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٨٧٣.

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل[(١)] ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أي فلما ترعرع وشبَّ وبلغ السنَّ الذي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه قال المفسرون: وهو سن الثالثة عشرة ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ أي إني أُمرت في المنام أنْ أذبحك، قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحيٌ وتلا الآية[(٢)] وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا، لأن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم[(٣)] ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾؟ أي فانظر في الأمر، ما رأيك فيه؟ قال ابن كثير: وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلَده وعزمه على طاعة الله وطاعة أبيه[(٤)]. فإن قيل: لِمَ شاوره في أمرٍ هو حتمٌ من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكنْ ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطِّن نفسه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي امض لما أمرك الله به مِن ذَبْحي، فستجدني صابرًا إن شاء الله، وهو جواب من أُوتي الحلم والصبر وامتثال الأمر، والرضا بقضاء الله ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي فلما استسلما الأب والابن لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه قال ابن عباس: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أكبَّه على وجهه[(٥)] ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ هذه جواب «لمَّا» والواو مُقْحَمَة، أي: ناديناه يا إبراهيم قد نفَّذْتَ ما أُمِرتَ به، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح[(٦)]، روي أنه أمَرَّ السكين بقوته على حلقه مرارًا فلم يقطع قال الصاوي: والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذه الله تعالى خليلًا، فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شُعبةٌ من قلبه بمحبة ولده، فأُمِر بذبح المحبوب ليظهر صفاء الخُلَّة، فامتثل أمر ربه وقدَّم محبته على محبة ولده، قال ابن عباس: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه قال الابن: يا أبتِ اشدُدْ رباطي حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيءٌ من دمي فتراه أمي فتحزن، وأحِدَّ شفرتك وأسرعْ بها على حلقي ليكون الموت أهونَ عليَّ، وإذا أتيتَ أمي فاقْرئْها مني السلام، وإن رأيتَ أن تردَّ قميصي عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسْلى

---

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتابنا «النبوه والأنبياء» والأدلة علي ذلك ص ١٧٣ ، وانظر «ابن كثير» ٣/ ١٨٦ ففيه بحث لطيف ونفيس.

(٢) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي). وروى البخاري عن عُبَيْد بْن عُمَيْرٍ قال: «رُؤْيَا الأَنبِيَاءِ وَحْيٌ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٠٢.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٦.

(٥) (ش): ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي وضع إبراهيم عليه السلام ابنه على جبينه على الأرض؛ ليذبحه. والجبين جانب الجبهة، ولكل إنسان جَبِينَان أيمن وأيسر والجبهة بينهما.

(٦) (ش): لَفْظَة مُقْحَمَة أي زَائِدَة. وَقِيل: جَوَابِ «لَمَّا» مَحْذُوفٌ، وَتَقْدِيرُهُ: ظَهَرَ صَبْرُهُمَا، أَوْ أَجْزَلْنَا لَهُمَا أَجْرَهُمَا، أَوْ فَدَيْنَاهُ بِكَبْشٍ. [«فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٤٦٤)].

لهـا عني، فقال له إبراهيم: نعـم العونُ أنت يا بُنَيَّ على أمـر الله [١] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لتفريج الكربة، أي: كما فرجنا شـدتك كذلك نجازي المحسـنين بتفريج الشـدة عنهم ونجعـل لهم من أمرهـم فرجًا ومخرجـًا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾ أي إن هـذا لهو الابتلاء والامتحـان الشـاق الواضـح، الذي يتميز فيـه المخلص من المنافـق ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي وفدينـاه بكبـشٍ عظيم من الجنـة فداءً عنه قال ابـن عباس: كبش عظيم قـد رعى في الجنة أربعيـن خريفًـا [٢] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي وأبقينا عليه ثناءً حسـنًا إلـى يوم الدين ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي سـلام منـا على إبراهيـم عاطرٌ كريـم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كرَّر ذكر الجزاء مبالغة في الثناء ثم علَّل ذلك بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع الإيقان والاطمئنان ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وبشرناه بغلام آخر بعد تلك الحادثة هو إسحاق الذي سيكون نبيًّا قال ابن عباس: بُشِّرَ بنبوته حين وُلد، وحينَ نُبِّئَ [٣]، وتكاد تكون الآية صريحةً في أن الذبيح هو «إسماعيل» لا «إسحاق» [٤] ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي أفَضْنَا على إبراهيم وإسحاق بركات الدنيا والدين ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ أي ومن ذريتهما محسـنٌ ومسيء قال الطبري: المحسنُ هو المؤمن، والظالم لنفسه هو الكافر [٥] وقـال أبو حيان: وفي الآية وعيدٌ لليهود ومن كان من ذريتهما ممن لم يؤمن بمحمد ﷺ وفيها دليل على أن البرَّ قد يلد الفاجر ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة [٦].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الأسلوب التهكمي ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟ التعبير بـ«خيرٌ» تهكم بهم.

٢ - الجناس الناقص ﴿ٱلْمُنذِرِينَ .. ٱلْمُنذَرِينَ﴾ لأن المراد بالأول الرسل، وبالثاني الأمم.

٣ - التشبيه ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي في الهول والشناعة ويسمى تشبيهًا مرسلًا مجملًا.

٤ - الاستعارة التبعية ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ شبَّه إقباله على ربه مخلصًا بقلبه بمن قدم على الملك بتحفةٍ ثمينة جميلة ففاز بالرضى والقبول ففيه استعارة تبعية.

---

(١) «حاشية الصاوي» علي الجلالين ٣/ ٣٤٣.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٧.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٧.

(٤) (ش): وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ حِينَ فَرَغَ مِنْ قِصَّةِ الْمَذْبُوحِ مِنِ ابْنَيْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ومن الأدلة على أن الذبيح هو «إسماعيل» لا «إسحاق» أيضًا قوله تعَالَى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، فبشرها الله بِابْنٍ وَابْنِ ابْنٍ، فَلَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرَهُ بِذَبْحِ إِسْحَاقَ وَقد وَعَدَهُ بأن زوجته ستلد منه ولدًا يسمى إسحاق، وسيعيش ولدهما، وسيكون لهما بعد إسحاق حفيد منه، وهو يعقوب.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٥٧.

(٦) «البحر المحيط» ٧/ ٣٧٢.

٥ - الطباق بين ﴿مُحْسِنٌ .. وَظَالِمٌ﴾.
٦ - جناس الاشتقاق بين ﴿ٱبْنُوا۟ .. بُنْيَٰنًا﴾.
٧ - الكناية اللطيفة ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ كنَّى به عن الثناء الحسن الجميل.
٨ - مراعاة الفواصل مثل ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية، وهو من خصائص القرآن وفيه من الروعة والجمال، وحسن الوقع على السمع ما يزيده روعةً وجمالًا.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ
فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾
أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ
﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ
﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ
يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ
خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ
﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾
إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن
كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾
وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ
﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ
عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

المناسَبَة: لما ذكر قصة الخليل إبراهيم، وقصة الذبيح والفداء، أعقبها بذكر قصص بعض الأنبياء، كموسى وهارون، ويونس ولوط، وما في هذه القصص من العظات والعبر، وختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسل وأتباعهم المؤمنين.

اللغَة: ﴿أَبَقَ﴾ هرب ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء ﴿فَسَاهَمَ﴾ قَارَعَ، أي: ضرب القُرعة، قَالَ الْمُبَرِّد: وَأَصْله مِن السِّهَام الَّتِي تُجَالُ[1].

﴿ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين، وأصله من الزلق، يُقال: دَحضت حجته وأدحضها اللهُ، أي: غُلب وهُزم قال الشاعر:

قَتَلْنَا الْمُدْحَضِينَ بِكُلِّ فَجٍّ ... فَقَدْ قَرَّتْ بِقَتْلِهِمُ الْعُيُونُ[2]

﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بمايُلامُ عليه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ الأرض الفيحاء لا شجَر فيها، ولا مَعْلَم، قال الفراء، العراءُ المكانُ الخالي ﴿يَقْطِينٍ﴾ القَرْعُ المعروف والمسمَّى بالدُّبَّاء، قال الجوهري: اليقطين ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه[3] ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ الساحةُ: الفناء.

التفسِير: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ اللام مُوطِّئَةٌ للقَسَم[4] أي وعزتنا وجلالنا لقد أنعمنا على موسى وهارون بأنواع النعم والمنافع الدينية والدنيوية، ومنها نعمة النبوة والرسالة ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي ونجيناهما وقومهما بني إسرائيل من الغم والمكروه العظيم، وهو استعباد فرعون إياهم مع التعذيب بقتل الأبناء، واستحياء النساء ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وبني إسرائيل، أي: ونصرناهم على أعدائهم الأقباط فكانوا الغالبين عليهم بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ أي أعطيناهما الكتاب البليغ في بيانه، الكامل في حدوده وأحكامه، وهو التوراة ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي وهديناهما الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه قال الطبري: وهو الإسلام دينُ الله الذي ابتعث به أنبياءه[5] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي تركنا عليهما الثناء الجميل، والذكر الحسن ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي سلام منا على موسى وهارون ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي كذلك نفعل بمن أحسن وأخلص العبودية لله ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإنَّ إلياس -أحد أنبياء بني إسرائيل- لمن الرسل الكرام الذين أرسلتُهم لهداية الخلق قال أبو السعود: هو إلياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى[6] ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي حين قال لقومه من بني إسرائيل ألا

---

(١) (ش): أَجَالَ السِّهَامَ بَيْنَ الْقَوْمِ: حَرَّكها وأَفْضَى بِهَا فِي القِسْمة.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٢٣.

(٣) انظر «الصحاح» للجوهري و«القاموس المحيط».

(٤) (ش): مُوَطِّئَةٌ للقَسَم: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفته.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٨٥.

(٦) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣٤٦.

تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ أتعبدون هذا الصنم المسمَّى بعلًا وتتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين؟ ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي تتركون عبادة أحسن الخالقين، الذي هو ربكم وربُّ آبائكم السابقين قال القرطبي: و «بعل» اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعلبك، والمعنى: أتدعون ربًّا اختلقتموه وهو هذا الصنم، وتتركون أحسن من يقال له خالق وهو «الله» ربكم ورب آبائكم الأولين[1]؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي فكذبوا نبيَّهم فإنهم لمحضرون في العذاب ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي لكنْ عباد الله المؤمنين فإنهم نجَوْا من العذاب ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أي تركنا على إلياس الثناء الحسن الجميل إلى يوم الدين ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ أي سلام منا عليه وعلى آل ياسين قال المفسرون: المراد بـ ﴿إِلْ يَاسِينَ ﴾ هو إلياس ومن آمن معه جمعوا معه تغليبًا كما قالوا للمهلَّب وقومه المهلَّبون[2]، واختار الطبري أنه اسم لإلياس فيقال: إلياس، وإل ياسين مثل ميكال وميكائيل، وأن له اسمين فيسمى «إلياس» و ﴿إِلْ يَاسِينَ ﴾[3] ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدم تفسيره، وإنما ختم الآيات بعد ذكر كل رسول بالسلام عليه، وبهاتين الآيتين الكريمتين لبيان فضل الإحسان والإيمان، وأن هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعًا من المتصفين بهذه الصفات، فلذلك استحقوا التحية والسلام، والذكر الحسن بين الأنام، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وإنَّ لوطًا لَأَحَدُ رُسلنا لهداية قومه ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: ذكر حين خلصناه من العذاب هو ومن آمن معه من أهله وأولاده ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي إلا امرأته الكافرة فإنها لم تؤمن فكانت من الباقين في العذاب ومن الهالكين ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ أي ثم أهلكنا المكذبين من قومه أشدَّ إهلاك وأفظعه، وذلك بقلب قراهم حيث جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، ولهذا عبَّر بـ ﴿دَمَّرْنَا ﴾ ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ أي وإنكم يا أهل مكة لَتَمُرُّونَ على منازلهم في أسفاركم وتشاهدون آثار هلاكهم صباحًا ومساءً، وليلًا ونهارًا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أتشاهدون ذلك ثم لا تعتبرون؟ ألا تخافون أن يصيبكم مِثْلُ ما أصابهم؟ ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وإن يونس لَأَحَدُ رُسلنا المرسلين لهداية قومه ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ أي اذكر حين هرب إلى السفينة المملوءة بالرجال ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ أي فقارع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر قال المفسرون: إن يونس ضاق صدرًا بتكذيب قومه، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغضبًا

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١١٦.
(٢) انظر «تفسير الجلالين» ٣/ ٣٤٦.
(٣) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٦١.

لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة، فناوأتها الرياح والأمواج، فقال الملاحون: ههنا عبدٌ أبق من سيده، ولا بدَّ لنجاة السفينة من إلقائه في الماء لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القُرعة على يونس فألقوه في البحر ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي فابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يُلام عليه من تخليه عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضبًا لهم، وخروجه بغير إذنٍ من ربه ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيرًا في حياته ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وأصبح بطنه قبرًا له فلم ينج أبدًا، ولكنه سبَّح اللهَ واستغفره وناداه في بطن الحوت بقوله ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فاستجاب الله تضرعه ونداءه ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي فألقيناه من بطن الحوت على الساحل، بالأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل، وهو سقيم مريض مما ناله من الكرب قال عطاء: أوحى الله تعالى إلى الحوت إني قد جعلت بطنك له سجنًا، ولم أجعله لك طعامًا، فلذلك بقي سالمًا لم يتغير منه شيء[١] ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ أي وأنبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حرَّ الشمس، وهي شجرة القرع ذات الأوراق العريضة قال ابن جزي: وإنما خصَّ القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق، وبرد الظل، والذبابُ[٢] لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب، وكان هذا من تدبير الله ولطفه، فلما استكمل قُوَّتَه وعافيته ردَّه الله إلى قومه ولهذا قال ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ أي وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذين هرب منهم وهم مائة ألفٍ بل يزيدون قال المفسرون: كانوا مائة وعشرين ألفًا وقيل: وسبعين ألفًا، وهم أهل نَيْنَوَى بجهة الموصل، و «أو» بمعنى «بل» أي بل يزيدون ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي فآمنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وُعدوا به فأبقيناهم مُمَتَّعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم قال في التسهيل: روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم، وفرقوا بينهم وبين الأمهات، وناحوا وتضرعوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم[٣].. ولما انتهى من الحديث عن الرسل رجع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة فقال ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾؟ أي اسأل يا محمد واستخبر كفار مكة على سبيل التوبيخ والتقريع لهم كيف زعموا أن الملائكة بنات الله، فجعلوا للهِ الإناث ولأنفسهم الذكور؟ إنهم يكرهون البنات ولا يرضون نسبتهنَّ لأنفسهم، فكيف يرضونها لله عَزَّ وَجَلَّ ويختصون بالبنين؟ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ توبيخٌ آخر على بهتانهم واستهزاء بهم وتجهيل أي بل أخلقنا الملائكة الأطهار حين خلقناهم، وجعلناهم إناثًا وهم شاهدون لذلك

(١) تفسير «أبو السعود» ٤/ ٢٧٧.
(٢) التهسيل في علوم التنزيل ٣/ ١٧٦.
(٣) تفسير «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٧٦.

حتى يقولوا مثل هذا البهتان؟ ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء المشركين من كذبهم وافترائهم ينسبون إلى الله الذرية والولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي وهم كاذبون قطعًا[1] في قولهم: الملائكة بناتُ الله قال أبو السعود: والآية استئناف مَسُوقٌ لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح، من غير أن يكون لهم دليلٌ قطعًا ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾؟ توبيخٌ وتقريع أي هل اختار جل وعلا البناتِ وفضلهن عن البنين؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾؟ تسفيهٌ لهم وتجهيل، أيْ: أيُّ شيء حصل لكم حتى حكمتم بهذا الحكم الجائر؟ كيف يختار لنفسه أخسَّ الجنسين على زعمكم؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفليس لكم تمييز وإدراك تعرفون به خطأ هذا الكلام؟ قال أبو السعود: أي أفلا تتذكرون بطلان هذا ببديهة العقل، فإنه مركوزٌ في عقل كل ذكي وغبي[2] ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ توبيخ آخر أي أم لكم برهان بَيِّنٌ وحجة وا ضحة على أن الله اتخذ الملائكة بناتٍ له؟ ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي فأتوا بهذا الكتاب الذي يشهد بصحة دعواكم فيما تزعمون. والغرضُ تعجيزهم وبيان أنهم لا يستندون في أقوالهم الباطلة على دليل شرعي، ولا منطق عقلي.. وينتقل إلى أسطورةٍ أُخرى لفَّقها المشركون، حيث زعموا أن هناك صلة بين الله سبحانه وبين الجنِّ، وأنه من التزاوج بين الله تعالى والجِنَّة وُلِدَت الملائكة فيقول: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ أي جعل المشركون بين الله وبين الجنِّ قرابة ونسبًا، حيث قالوا: إنه نكح من الجنِّ فوُلِدَت له الملائكة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] ثم زعموا أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي لقد علمت الشياطين أنهم محضرون في العذاب قال الصاوي: وهذا زيادة في تبكيتهم وتكذيبهم كأنه قيل: هؤلاء الذين عظمتموهم وجعلتموهم بنات الله، أعلمُ بحالكم وما يئول إليه أمركم[3] ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله عما يصفه به هؤلاء الظالمون ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع، أي: لكنْ عباد الله المخلصين فإنهم يُنَزِّهون الله تعالى عما يصفه به هؤلاء ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي فإنكم أيها الكفار وكل ما تعبدونه من الأصنام والشياطين لستم بقادرين على أن تُضلوا أحدًا من عباد الله، إلاَّ من قضى الله عليه الشقاوة، وقدَّر أنه يدخل النار ويصلاها، ثم ذكر تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية لله فقال ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أي وما منا ملك إلا له مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها، فمنا الموكَّل بالأرزاق، ومنا الموكَّل بالآجال، ومنَّا من يتنزل بالوحي، ولكُلٍّ منزلته

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٦٧٨.
(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٦٧٨.
(٣) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣/ ٣٤٨.

من العبادة، والتقريب، والتشريف ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي الواقفون في العبادة صفوفًا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المنزهون الله سبحانه عن كلا ما يليق بعظمته وكبريائه، نسبّح الله في كل وقتٍ وحين قال في التسهيل: وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة ردٌّ على من قال: إنهم بناتُ الله، وشركاء الله، لأنه اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله، والتنزيه له جل وعلا ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الضمير لكفار قريش و﴿وَإِن﴾ هي المخففة من «إنَّ» الثقيلة، أي: وإن كان الحال والشأن أن كفار مكة كانوا قبل أن ينزل عليهم القرآن يقولون لو نزل علينا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل لَكُنَّا أعظم إيمانًا منهم، وأكثر عبادةً وإخلاصًا للهِ منهم، فلما جاءهم القرآن كفروا به ولهذا قال ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي فكفروا وكذبوا بالقرآن أشرف الكتب السماوية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يرون عاقبة كفرهم بآيات الله، وهو وعيد وتهديد ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي سبق وعدنا وقضاؤنا للرسل الكرام ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ أي إنهم هم المنصورون على أعدائهم، والإشارة إلى قوله تعالى ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي وإن جندنا المؤمنين لهم الغالبون في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالحجة والبرهان، وفي الآخرة بدخول الجنان قال المفسرون: نصرُ الله للمؤمنين محقق، ولا يقدح في ذلك انهزامهم في بعض المعارك، فإن القاعدة هي بالظفر والنصرة، وإنما يُغلبون في بعض الأحيان بسبب تقصيرٍ منهم أو ابتلاءً ومحنة ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي أعرض عنه يا محمد إلى مدة يسيرة، إلى أن تؤمر بقتالهم ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي وأبصرهم حين ينزل بهم العذاب، فسوف يبصرون عاقبة كفرهم ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ استفهام إنكاري للتهديد أي أيستعجلون بعذاب الله؟ روي أنه لما نزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ استهزءوا وقالوا: متى هذا يكون؟ فنزلت الآية[1] ثم قال تعالى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي لا يستبعدوا ذلك فإن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين فبئس هذا الصباح صباحهم، شبهه بجيشٍ هجم عليهم وقت الصباح فقطع دابرهم ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كرره تأكيدًا للتهديد وتسلية للرسول ﷺ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه وتقدس ذو العزة والجبروت عما يصفه به المشركون ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وسلامٌ منا على الرسل الكرام، والحمد لله في البدء والختام لله ربِّ الخلائق أجمعين. نزَّه تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به سبحانه، فإنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالًا كثيرة شنيعة، وختم بتعميم السلام على الرسل الكرام وبحمده سبحانه، وهو تعليم للعباد.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

(١) (ش): لم أجده إلا في «روح البيان» (٧/ ٤٩٨) بدون إسناد.

١ - الطباق ﴿تَدْعُونَ .. وَتَذَرُونَ﴾ وبين ﴿ٱلْبَنَاتِ .. ٱلْبَنِينَ﴾.

٢ - تتابع التوبيخ وتكراره مثل ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾؟ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾؟ وكلها للتوبيخ والتبكيت.

٣ - التأكيد بعدة مؤكِّدات لتحقيق المعنى وتقريره مثل ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فقد أُكدت كل من الجملتين بإن واللام.

٤ - الاستعارة التصريحية ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ شبه خروجه بغير إذن ربه بإِباق العبد من سيّده.

٥ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ الأصل وتجعلون، والالتفاتُ للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلًا للخطاب، وهم بعيدون من رحمة ربِّ الأرباب.

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ مثل للعذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم فأناخ بفنائهم بغتة، ونصحهم بعض النصاح فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم، حتى اجتاحهم الجيش. قال الزمخشري: وما فصحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التي يروقك موردها إلا لمجيئها على طريقة التمثيل[1].

فَائِدَة: روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال قال: رسول الله ﷺ: «**من سَرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم** ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات»



(١) الكشاف ٤/ ٥٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلا ، وروي موقوفا عن علي رضي الله عنه (ش): ضعفه الألباني.



مكية وآياتها ثمان وثمانون

بين يدي السورة

* سورة ص مكية، وهدفها نفس هدف السور المكية، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية. ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن المعجز المنزل على النبي الأمي، والمشتمل على المواعظ البليغة والأخبار العجيبة -على أن القرآن حق وأن محمدًا نبي مرسل.

* ثم تحدثت عن الوحدانية وإنكار المشركين لها، ومبالغتهم في العجب من دعوة الرسول ﷺ لهم إلى توحيد الله ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾.

* وانتقلت السورة لتضرب الأمثال لكفار مكة بمن سبقهم من الطغاة المتجبرين، الذين أسرفوا بالتكذيب والضلال، وما حل بهم من العذاب والنكال، بسبب إفسادهم وإجرامهم.

* ثم تناولت قصص بعض الرسل الكرام، تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، عما يلقاه من كفار مكة من الاستهزاء والتكذيب، وتخفيفًا لآلامه وأحزانه، فذكرت قصة نبي الله داود، وولده سليمان، الذي جمع الله له بين النبوة والملك، وما نال كلًّا منهما من الفتنة والابتلاء، ثم أعقبتها، بذكر فتنة أيوب وإسحاق ويعقوب، وإسماعيل وذي الكفل، هكذا في عرض سريع لبيان سنة الله في ابتلاء أنبيائه وأصفيائه.

* وأشارت السورة الكريمة إلى دلائل القدرة والوحدانية، في هذا الكون المنظور وما فيه من بدائع الصنعة، للتنبيه على أن هذا الكون لم يخلق عبثًا، وأنه لا بد من دار ثانية يجازى فيها المحسن والمسيء.

* وختمت السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول ومهمته الأساسية التي هي مهمة جميع الرسل الكرام.

التسمية: تسمى السورة الكريمة «سورة ص» وهو حرف من حروف الهجاء للإشادة بالكتاب المعجز الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ
حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ
إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا
بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟

عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟
فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ
﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ
﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾
ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ
﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ
نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ
بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ
وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ
لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ
وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ
خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ

اللغَـة: ﴿عِزَّةٍ﴾ تكبر وامتناع عـن قبول الحق، وأصلها الغلبة والقهـرُ ومنه قولهم «من عَزَّ بَـزَّ» يعنـي من غلب سـلَب ﴿وَشِقَاقٍ﴾ مخالفـة ومباينـة ﴿مَنَاصٍ﴾ المناص: الملجـأ والغوث والخـلاص ﴿عُجَابٌ﴾ بالغ الغاية في العجب قال الخليـل: العجيب: العجب، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدَّ العجب[1] ﴿اختلاق﴾ كذب وافتراء ﴿فَوَاقٍ﴾ الفَوَاق: الاستراحة، والإفاقة قال الجوهـري: الفواق والفُواق: مابين الحلبتين من الوقت، لأنها تحلب ثم تترك سـاعة يرضعها الفصيـل لتـدرَّ ثم تُحلب وقولـه تعالـى ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي ما لها من نظرة وراحـة وإفاقة[2] ﴿قِطَّنَا﴾ القِـطُّ: الحظُّ والنصيـب ﴿ٱلْأَيْدِ﴾ القوة في العبادة والطاعة ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ تسـور الحائط عـلا أعلاه وتسـلقه، والسـور: الحائط ﴿تُشْطِطْ﴾ قـال علماء اللغة: الشَّـطط: مجـاوزة الحد وتخطـي الحق، يقال: شـطَّ في الحكم أي جـار فيه ولم يعدل، والأصل فيه: البعدُ من شَـطَّت الدار بمعنى بَعُدَت.

التفسـير: ﴿صٓ﴾ تقدم الكلام علـى الحروف الهجائية، وبينا أن فيها الإشـارة إلى إعجاز القرآن[3] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قسـمٌ أقسم به الباري جل وعلا أي والقرآن ذي الشرف الرفيع، وذي الشـأن والمكانـة، وجواب القسـم محذوف تقديـره إن هذا القرآن لمعجـز وإن محمدًا

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٥٠.
(٢) انظر «الصحاح للجوهري».
(٣) انظر أول سورة البقرة من هذا التفسير .

لصادق قال ابن عباس: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أي ذي الشرف[١] ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ أي بل الكافرون في حميةٍ وتكبر عن الإيمان، وفي خلافٍ وعداوة للرسول عليه السلام قال البيضاوي: أي ما كفر من كفر بالقرآن لخلَل وجده فيه بل الذين كفروا به ﴿فِي عِزَّةٖ﴾ أي استكبار عن الحق ﴿وَشِقَاقٖ﴾ أي خلاف لله ولرسوله ولذلك كفروا به[٢] ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ أي كم أهلكنا قبل أهل مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية، لكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسلهم، قال أبو السعود: والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب مَن قبلَهم من المستكبرين[٣] ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ أي فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلبًا للنجاة، وليس الحينُ حينَ فرارٍ ومهرب ونجاة قال ابن جزي: المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك، إذ ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص، أي: مفر ونجاة من (ناص ينوص إذا فرَّ)، ولات بمعنى ليس -وأصلها لا النافية زيدت عليها علامة التأنيث[٤]- ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي وعجب المشركون من بعثة محمد ﷺ واستبعدوا أن يبعث الله رسولًا من البشر ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ أي وقال كفار مكة: إن محمدًا ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات ﴿كَذَّابٌ﴾ أي مبالغ في الكذب في دعوى أنه رسول الله، وإنما وضع الاسم الظاهر ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مكان الضمير «وقالوا» غضبًا عليهم، وذمّا لهم وتسجيلًا لجريمة الكفر عليهم، فإن هذا الاتهام لا يقوله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾؟ أي أزعم أن الربَّ المعبود واحد لا إله إلا هو؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ أي إنَّ هذا الذي يقوله محمد: إنَّ الإله واحد شيء بليغٌ في العجب قال ابن كثير: أنكر المشركون ذلك قبَّحهم الله وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربته قلوبهم، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾[٥] قال المفسرون: «إن قريشًا اجتمعوا وقالوا لأبي طالب: كُفَّ ابنَ أخيك عنا، فإنه يعيب ديننا، ويذم آلهتنا، ويسفِّه أحلامنا، فدعاه أبو طالب وكلَّمه في ذلك، فقال ﷺ: «**يا عم: إنما أُريد منهم كلمةً واحدة، يملكون بها العجم، وتدين لهم بها العرب**»، فقال أبو جهل والمشركون: نعم نعطيكها وعشر كلماتٍ معها!! فقال قولوا: «**لا إله إلا الله**» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ويقولون ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٩٦.
(٢) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٤٦.
(٣) «أبو السعود» ٤/ ٢٨١.
(٤) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٧٩.
(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٩٧.

وَٰحِدًا ...﴾؟» فنزلت الآيات[1] ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي وانطلق أشراف قريش ورؤساء الضلال فيهم، وخرجوا من عند الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم، ولا تطيعوا محمدًا فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي هذا أمرٌ مدبَّر، يريد من ورائه محمد أن يصرفكم عن دين آبائكم لتكون له العزة والسيادة عليكم، فاحذروا أن تطيعوه[2] ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا القول في ملة النصرانية التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، فكيف يزعم محمد أنَّ الله واحد؟ قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دينَ النصرانية. وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آبائنا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي ما هذا الذي يدعيه محمد إلا كذب وافتراء، ثم أنكروا اختصاصه عليه السلام بالوحي من بينهم فقالوا ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟ الاستفهام للإنكار، أي: هل تنزَّل القرآن على محمد دوننا، مع أن فينا من هو أكثر منه مالًا، وأعلى رياسةً؟ قال الزمخشري: أنكروا أن يختص ﷺ بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم[3] ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ إضرابٌ عن مقدر تقديره: إنكارهم للذكر ليس عن علم بل هم في شك منه فلذلك كفروا ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ إضراب انتقالي وغرضه التهديد. والمعنى: سبب شكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾؟ هذا ردٌّ على المشركين فيما أنكروا من اختصاص محمد ﷺ بالنبوة. والمعنى: هل عندهم خزائن رحمته تعالى حتى يعطوا النبوة من شاءوا، ويمنعوها من شاءوا؟ قال البيضاوي: يريد أن النبوة عطيةٌ من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده، فإنه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي لا يغلب ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ أي الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء[4] ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟ أي هل لهم شيء من ملك السموات والأرض؟ وهو إنكار وتوبيخ ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي إن كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء، وليدبروا شئون الكون؟ وهو تهكم بهم واستهزاء قال الزمخشري: تَهَكَّم بهم غاية التهكُّم فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق، والتصرف في قسمة الرحمة، وكان عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هو حقيقٌ بالنبوة من غيره فليصعدوا في المعارج التي يتوصلون بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم، وينزلوا الوحي على من يختارون، هو

(١) انظر «تفسير الطبري» ٢٣/ ٧٩، و«البحر المحيط» ٧/ ٣٨٢. (ش): رواه الترمذي وغيره، وضعفه الألباني.
(٢) هذا معنى ما قاله ابن جرير وهو الأظهر، وهناك اقوال أخرى انظر في «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٨٣.
(٣) «تفسير الكشاف» ٤/ ٥٦.
(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٦.

غاية التهكم بهم [1] ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ التنكير للتقليل والتحقير، ﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة أي ما هم إلا جندٌ من الكفار، المتحزبين على رسل الله، هم عما قليل يُهزَمون ويُولُّون الأدبار، فلا تُبَالِ بما يقولون، ولا تكترث بما يهذون[2]. ثم أخبر تعالىً عما نالَ أسلافهم الكفار من العذاب والدمار فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أي كذب قبل كفار قريش أممٌ كثيرون منهم قوم نوح، وقوم هود وهم قبيلة «عاد» وفرعون الجبار ذو الملك الثابت بالأوتاد أو ذو الجموع الكثيرة، قال بعض المفسرين: سمي بذي الأوتاد، لأنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت، وقيل: لأنه صاحب الأهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد[3] ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾ أي وكذبت ثمود وهم قوم صالح وقوم لوط، وأصحاب الأيكة أي الشجر الملتف وهم قوم شعيب ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي أولئك هم الكفار الذين تحزبوا على رسلهم فأهلكهم الله، فليحذر هؤلاء المكذبون لرسول الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذَّب رسوله الذي أُرسل إليه ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي فثبت ووجب عليهم عقابي، وحذفت الياء مراعاة لرءوس الآيات ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي ليس لها من توقف ولا تكرار، قال ابن عباس: أي ما لها من رجوع[4] قال المفسرون: أي إن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة وهي المسافة بين الحلبتين؛ لأنها تجيء في موعدها المحدد، الذي لا يتقدم ولا يتأخر قال الزمخشري: يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تُثَنَّى ولا تُرَدَّد[5] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي وقال كفار مكة على سبيل الاستهزاء والسخرية: عجّلْ لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذي وعدته لنا، قبل أن يجيء يوم القيامة إن كان الأمر كما يقول محمد قال المفسرون: وإنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء كقوله تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيبهم فإن الله ناصرك عليهم قال الصاوي: وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار[6] ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ أي

---

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ٥٧.

(٢) (ش): بالى الأمرَ/ بالى بالأمر/ بالى للأمر: اكْتَرَثَ له، واهتمّ به، ويغلب استعماله في سياق النَّفي «لا يُبالي كثير من النَّاس بقيمة الوقت- لا أُبالي له». هذَى الشَّخصُ: تكلَّم بكلام غير معقول لمرض أو غيره.

(٣) نقل عن الضحاك أن المراد بالأوتاد المباني العظيمة الثابتة ورجحه ابن عطية ، وقال الزمخشري: إن ذلك استعارة في ثبات الملك كقول الأسود: في ظل مُلكِ ثابت الأوتاد.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٨٤

(٥) «الكشاف» ٤/ ٥٩.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٥٣.

وتذَكَّرْ عبدنا داود ذلك النبي الشاكر الصابر، ذا القوة في الدين، والقوة في البدن، فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان يقوم نصف الليل[١] ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الرجوع والإنابة إلى الله، والاوَّابُ: الرَّجَّاع إلى الله قال أبو حيان: لما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصًا للأنبياء «داود، وسليمان، وأيوب» وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم، وصارت عاقبتُهم أحسن عاقبة، فكذلك أنت تصبر ويئول أمرك إلى أحسن مآل[٢] ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح، وتسبيحُ الجبال حقيقةٌ وكان معجزةً لداود عليه السلام كما قال تعالى ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبّح بتسبيحه وترجّع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف في الهواء ويسبّح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت تُرجّع معه وتسبّح تبعًا له، قال قتادة: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي مطيع[٣] ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قَوَّينا مُلْكه وثَبَّتْناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي أعطيناه النبوَّة والفهم والإصابة في الأمور ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي الكلام البيِّن الذي يفهمه من يُخاطَب به[٤] قال مجاهد: يعني إصابة القضاء وفهمه وقال القرطبي: البيان الفاصل بين الحق والباطل[٥] قال المفسرون: كان مُلْك داود قويًّا عزيزًا، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معًا، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ هذا الاستفهام للتعجب وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه كما تقول لجليسك: هل تعلم ما وقع اليوم؟ تريد تشويقه لسماع كلامك. والمعنى: هل أتاك يا محمد خبر الجماعة المتنازعين الذين تسوَّروا على داود مسجده في وقت اشتغاله بالعبادة والطاعة؟ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي حين دخلوا عليه من أعلى السور فخاف وارتعد منهم قال المفسرون: وإنما فزع داود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن، ودخلوا من غير الباب، في وقت كان قد خصصه للعبادة ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا﴾ أي لا تخف منا فنحن فوجان مختصمان تعدَّى بعضنا على بعض ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي فاحكم بيننا بالعدل،

---

(١) (ش): الصواب أن داود عليه السلام كان يقوم ثلث الليل، قال ﷺ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٣٩٠.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣.

(٤) هذا قول الزمخشري واختاره ابن عطية واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، واختار الطبري أنه الفصل في الكلام والحكم والمحاورة والخطب.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٦٢.

ولا تَجُرْ[١] ولا تظلم في الحكم ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي وأرشدنا إلى وسط الطريق يعني إلى الطريق الحق الواضح ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هذه بداية قصة الخصمين[٢] أي قال أحدهما: إن صاحبي هذا يملك تسعًا وتسعين نعجة وهي أنثى الضأن وأملك أنا نعجة واحدة قال المفسرون: وقد يُكَنّى بها عن المرأة فيكون الغرض أن عنده تسعًا وتسعين امرأةً وعندي امرأة واحدة ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي ملكنها واجعلها تحت كفالتي ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي غلبني في الخصومة، وشدَّد عليَّ في القول وأغلظ ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أي قال له داود: لقد ظلمك بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ أي وإن الكثيرين من الشركاء

(١) (ش): جَارَ في حُكْمِه: ظَلَم، مَالَ عن الحقّ وخالفَ العدلَ.

(٢) وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش حين نقلوا بعض الأقوال الواهية في تفسيرهم اعتمادًا على ما جاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص، مما لم يصح سنده ولا يجوز اعتماده، لأنه من القصص الإسرائيليه التي تتنافي مع العقيدة الإسلامية في (عصمه الأنبياء). من هذه الأباطيل المدسوسة ما رُوي من أمر عشقه لزوجة قائد جيشه وخلاصتها: (أن داود كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحم فأعجبته وعشقها، وكانت زوجة أحد قواده ويسمي (أوريا) فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدي المعارك وحمله الراية وأمره بالتقدم فانتصر، فأرسله مرارًا ليتخلص منه حتي قُتِل فتزوجها...) إلى آخر ما هنالك من الكذب والبهتان، قال ابن كثير: وقد ذكركثير من المفسرين ههنا قصصًا وأخبارًا أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا ايرادها في كتابنا قصدًا، اكتفاء بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم، والله يهدي من يشاء الى الصراط المستقيم، وقال البيضاوي: ما قيل: إنه أرسل (أوريا) مرارًا الى الحرب، وأمره أن يتقدم حتى قُتل فتزوجها داود، فزُورٌ وافتراء، ولذلك قال علي رضي الله عنه: «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جَلَدتُه مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء. والصحيح في موضوع هذه القصة ما ذكره المحققون من أئمة التفسير وعلمائه الأعلام، وبيان هذة القصه أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصريف شئون الملك، وللقضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعباده وترتيل الزبور تسبيحا لله في المحراب، وكان اذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه، ففزع منهما وأضمر في نفسه أن يبطش بهما، فبادرا يُطَمْئِنَانه أنهما خصمان اختلفا في أمر بينهما، وبدأ أحدهما فعرض خصومته. كما قصها القرآن الكريم في آياته البينات. والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يتحمل التأويل ومن ثم اندفع داود على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب إليه بيانا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم بقوله ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ إلى آخر الآيات فعاتبه الله على ذلك ونبهه إلى ضروره تثبت القاضي على حكمه وسماعه للخصم الآخر... أما ما قاله البعض اعتمادًا علي بعض الرويات الإسرائيلية مما ذكرناه وحذرناه منه، فإنه لا يصلح بالنسبة إلى عوام المسلمين وجهلة الفساق، فما بالك بالأنبياء بل بخواص الأنبياء. فليتدبَّر هذا مَن له عقل سليم ودين قوي.

(ش): قول علي رضي الله عنه: « من حدث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جَلَدتُه مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء. لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وقد قال الألوسي في تفسيره «روح المعاني»(٢٣/ ١٨٥) أن الزين العراقي ذكر أن هذه القول لم يصح عن علي رضي الله عنه.

ليتعدى بعضُهم على بعض ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات فإنهم لا يبغون وهم قليل ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي علم وأيقن أنما اختبرناه بهذه الحادثة وتلك الحكومة[1] ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي طلب المغفرة من الله وخرَّ ساجدًا لله تعالى، ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط منه قال أبو حيان: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحًا، والذي يدل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظنًا منه أنهم يغتالونه إذا كان منفردًا في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قصَّ الله تعالى فاستغفر من ذلك الظن، وخرَّ ساجدًا لله عَزَّ وَجَلَّ، ونحن نعلم قطعًا أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جوزنا عليهم شيئًا من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أراده الله، وما حكى القُصَّاص مما فيه غَضٌّ من منصب النبوة طرَحْناه[2] ثم قال تعالى ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي فسامحناه وعفونا عنه ذلك الظن السيئ بالرجلين قال ابن كثير: أي غفرنا له ما كان منه مما يقال فيه: «حسناتُ الأبرار سيئات المقربين» ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ وإنَّ له لقربةً وكرامة بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي وحسن مرجع في الآخرة ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ اي فاحكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التي أنزلها عليك ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تتَّبع هوى النفس في الحكومات وغيرها فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ أي إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه لهم عذاب شديد يوم القيامة ﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي بسبب نسيانهم وتركهم سلوك سبيل الله، وعدم إيمانهم بيوم الحساب، لأنهم لو آمنوا به لَأَعَدُّوا الزاد ليوم المعاد، قال أبو حيان: وجعلُه تعالى داود خليفةً في الأرض يدل على مكانته عليه السلام واصطفائه له، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئًا مما لا يليق بمنصب النبوة.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) (ش): الْحُكُومَةِ مِنْ مَعَانِيهَا رَدُّ الظَّالِمِ عَنِ الظُّلْمِ، ومن معانيها الِاجْتِهَادُ وَإِعْمَال الْفِكْرِ فِيمَا يَسْتَحِقُّهُ الْمَجْنِيُّ عَلَيْهِ مِنَ الْجَانِي.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٩٣ بشيء من الاختصار ، هذا هوا الحق الأبلج الذي ندين لله عز وجل به والذي يجب أن يعتقده المسلم في الأنبياء والمرسلين ، وانظر كتابنا «النبوة والأنبياء» ففيه بيان أوسع لهذه القصة وانظر «التفسير الكبير» للإمام الفخر الرازي فقد رد تلك الفرية من عشرة وجوه فأجاد وأفاد... «التفسير الكبير» ٢٦/ ١٨٩.

١ - المجاز المرسل ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ القرن مائة عام والهلاك لأهله ففيه مجاز.
٢ - وضع الظاهر مكان الضمير ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ بدل «وقالوا» لتسجيل جريمة الكفر عليهم.
٣ - صيغة المبالغة في كل من ﴿كَذَّابٌ، الْعَزِيزِ، الْوَهَّابِ، أَوَّابٌ﴾.
٤ - التنوين للتقليل والتحقير وزيادة ﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾.
٥ - تأكيد الجملة الخبرية بإن واللام لزيادة التعجب والإنكار ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.
٦ - الاستعارة البليغة ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ شبَّه المُلْك بخيمةٍ عظيمة شُدَّت أطنابها بالأوتاد لتثبت وترسخ ولا تقتلعها الرياح ففيه استعارة مكنيَّة، وذكرُ الأوتاد تخييل.
٧ - الطباق ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ لأن المراد المساء والصباح.
٨ - أسلوب التشويق ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ ورد الأسلوب بطريق التشويق.
٩ - أسلوب الإطناب ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلخ.
١٠ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ.. فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ.. جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ مما يزيد في روعة الكلام وجماله.

لطيفة: روى ابن كثير أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد: أخبرني أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت القرآن وفقهت! فقال يا أمير المؤمنين: أقول؟ قال: قل في أمان الله، قال: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام؟ إن الله تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة ثم توعده في كتابه فقال ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية، فكانت موعظة بليغة.

قال الله تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ
عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ
﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ
﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي
بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا
فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ
الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً
مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ
﴿٤٤﴾ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٦﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾
هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ
كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا
لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر والنشر، وأعقبها بذكر قصة داود تسلية للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور، ثم بيَّن الحكمة من نزول القرآن، ثم تابع الحديث عن قصة سليمان بن داود تتميمًا وتكميلًا للهدف السامي من ذكر قصص القرآن.

اللغة: ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقول واحدها لبٌّ، ولبُّ الشيء صفوته وخلاصته؛ ولذلك سُمي العقل لُبًّا ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الخيول الواقفة على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابعة جمع صافن قال الفراء: الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها قال الشاعر:

تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ ... مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُفُونَا[1]

﴿ٱلْجِيَادُ﴾ السِّراع السَّوابق في العدو قال المبرد: الجياد جمع جواد وهو الشديد الجري كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل[2] ﴿تَوَارَتْ﴾ اختفت ﴿رُخَآءً﴾ لينة أو منقادة حيث أراد ﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾ سلاسل الحديد والأغلال واحدها صَفَد وفي الحديث: «صُفدت الشياطين» أي ربطت بالسلاسل[3] قال الشاعر:

فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا ... وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا[4]

﴿ضِغْثًا﴾ الضغث: حزمة من الحشيش أو غيره مختلطة الرطب باليابس، وأصله: الشيء المختلط ومنه «أضغاث أحلام» للرؤيا المختلطة.

التفسير: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي ما خلقنا هذا الكون البديع بما فيه من المخلوقات العجيبة عبثًا وسُدى ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: خَلْقُ ما ذُكِر لا لحكمةٍ هو ظنُّ الكفار الفجار الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي فويلٌ للكفار من عذاب النار، ثم وبَّخهم تعالى على هذا الظنِّ السيِّء فقال ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ

---

(١) «تفسير الطبري» ١٥/ . (ش): أي قتلْناه، وحبسنا خَيْلنا عليه، وقد قلدناها أعِنَّتَها في حال صُفُونِها عنده. والأعِنَّة: جمع عِنان: وهو سَيْرُ اللِّجام الذي يُمْسَك به الفَرَسُ ونحوُه كي يُتحكّم في سيره. مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا: قلدناها أعِنَّتَها: أي وضَعْنا أَعِنَّتَها في أعناقها.
(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٦/ ٢٠٤.
(٣) (ش): قال ﷺ: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).
(٤) (ش): آبَ: رجع وعاد. النِّهاب: جمع نَهْب، وهو المنهوب، أي ما يؤخذ قهرًا.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ أي هـل نجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسـدين؟ ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ أي أم نجعـل الأخيـار الأبـرار كالأشـرار الفجـار؟ والغرض: أنه لا يتساوى في حكمته تعالى المحسنُ مع المسيء، ولا البَرُّ مع الفاجر، ففي الآية استدلال على الحشـر والجزاء، وفيها أيضًا وعدٌ ووعيد قال ابن كثير: بيَّن تعالى أنه ليس من عدلـه وحكمته أن يسـاوي بين المؤمنين والكافريـن، وإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ من جزاء[١] يُثـاب فيها المطيـع، ويعاقب فيها الفاجر، وقد دلت العقول السـليمة على أنـه لا بدَّ من جزاء ومعـاد، فإنا نرى الظالـم الباغي يزداد مالُه وولدُه ونعيمُه ويمـوت دون عقاب، ونرى المطيع المظلـوم يموت بكمده، فلا بدَّ في حكمة الحكيم العليم إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعيَّن أن هناك دارًا أُخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة[٢].. ثم بيَّن تعالـى الغاية من نزول القرآن وهي العمل والتفكيـر فقال ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ أي هذا الكتـاب الـذي أنزلنـاه عليك يا محمـد كتابٌ عظيـم جليل، كثيـر الخيرات والمنافـع الدينية والدنيويـة ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي أنزلنـاه ليتدبروا آياته ويتفكروا بما فيها من الأسـرار العجيبة، والحِكَـم الجليلـة ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السـليمة قال الحسـن البصـري: واللهِ ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حـدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: واللهِ لقد قرأتُ القرآن فما أسـقطتُ منه حرفًا، وقد أسقطه واللهِ كلَّه، ما يُرى للقرآن عليه أثرٌ في خُلُـق ولا عمـل[٣]. اللهم اجعلنـا ممن قرأه وتدبَّـره وعمل بما فيـه ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ شـروعٌ في بيـان قصة سـليمان بـن داود عليهما السـلام أي رزقنا عبدنـا داود بالولـد الصالح المسـمَّى سـليمان وأعطيناه النبوة قال المفسـرون: المراد بالهبة هنا هبة النبوة كما قال تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] أي في النبوة، وإلا فقد كان له أولاد كثيرون غيره ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي نعم العبدُ سليمان فإنه كان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ أي اذكـر حيـن عُرض على سـليمان عشـية يوم من الأيـام -أي بعد العصر- الخيل الواقفة على طرف الحافر، السـريعة الجري قال الرازي: وُصفت تلك الخيل بوصفيـن: **الأول**: الصفـون وهو صفة دالة على فضيلة الفرس، **والثاني**: الجياد وهي الشـديدة الجـري، والمـراد وصفهـا بالفضيلة والكمال في حالـي الوقوف والحركة، فـإذا وقفت كانت سـاكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سـراعًا في جريها[٤] ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ

---

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، والذي في «تفسير ابن كثير» (٧/ ٦٣) و«مختصره» للمؤلف (٢/ ٢٠٢): «وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَى».

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٢٠٢.

(٣) «تفسير الكاشف» ٤/ ٧٠.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٦/ ٢٠٤.

عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي آثرت حبَّ الخيل حتى شغلتني عن ذكر الله قال المفسرون: عُرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه، فأُجريت بين يديه عشيًّا فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكرٍ له خاص حتى غابت الشمس ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار ﴿رُدُّوهَا﴾ أي قال سليمان: ردُّوا هذه الخيل عليَّ ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي فشرع يذبحها ويقطع أرجلها تقربًا إلى الله، لتكون طعامًا للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله قال الحسن: لما رُدَّت عليه قال: لا والله لا تشغليني عن طاعة ربي ثم أمر بها فعُقِرَت[1] وكذلك قال السدي[2]، وأما قول من قال: إنها شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس فضعيف، لأنه لا يتصور من نبي أن يترك صلاة العصر من أجل اشتغاله بالدنيا، والنصُّ صريح ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ﴾ هذه إشارة إلى ابتلاء آخر لسليمان ابتلي به، ثم تاب وأناب من تلك الهفوة والزلة، ولعلَّ هذه الفتنة ما روي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « قَالَ سُلَيْمَانُ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ. فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللهُ. لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»[3] قال ابن كثير: «وقد أورد بعض المفسرين آثارًا كثيرة عن جماعةٍ من السلف، وأكثرها أو كلُّها مُتلقَّاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة[4]» واختار الإمام الفخر أن الفتنة المذكورة في الآية الكريمة يقصد بها فتنته في جسده، حيث إن سليمان ابتلي بمرضٍ شديد نحل منه وضعف، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ملقى على كرسي، قال والعرب تقول في الضعيف: إنه لحمٌ على وَضَم[5]، وجسم بلا روح، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾

(١) (ش): عقَر الحيوانَ: ذبَحه.

(٢) روي عن ابن عباس أنه قال: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها وتكرمة ، وهذا القول اختاره ابن جرير ، وأظهر قول الحسن البصري والسدي أنه ضرب أعناقها بالسيف ونحرها لأنها شغلته عن طاعة ، ولهذا عوضه الله ما هو خير منها الريح التي هي أسرع من الخيل.

(٣) الحديث أخرجه البخاري ولكنه لم يذكر فيه أنه تفسير للآية فيحتمل أن يكون تفسيرًا ويحتمل غيره.

(٤) أشار ابن كثير إلى ما ذكره ، بعض المغرمين بالروايات الضعيفة، والحكايات الإسرائيلية المصطنعة ، حول فتنة سليمان التي أشار اليها القرآن الكريم هذه الإشاره الخاطفة ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ ومن أغربها وأنكرها ما رواه ابن أبي حاتم أن سليمان عليه السلام أراد أن يدخل الخلاء ، فأعطى الجرادة. زوجته. خاتمه ، وكانت احب نسائه إليه فجاءها الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فظنَّتْه سليمان فأعطته إياه ، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين... ، إلخ ، وكل هذه الروايات خرافات وأباطيل ردَّها المحققون من العلماء كابن كثير ، والفخر الرازي ، والبيضاوي والنسفي وغيرهم.

(٥) (ش): الوَضَم: خشبة الجزَّار التي يَقْطَع عليها اللَّحم.

أي رجع إلى حالة الصحة [١] ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ أي اغفر لي ما صدر مني وأعطني ملكًا واسعًا لا يكون لأحدٍ غيري ليكون دلالة على نبوتي ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ أي واسع الفضل كثير العطاء ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ أي فذلّلنا الريح لطاعته إجابةً لدعوته ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي تسير بأمره لينةً طيبة حيث قصد وأراد ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أي وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره، منهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة، ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أي وآخرين من الشياطين وهم المردة موثوقون في الأغلال، مربوطون بالقيود والسلاسل لكُفْرهم وتمردهم عن طاعة سليمان ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي وقلنا له: هذا عطاؤنا الواسع لك، فأعط من شئت وامنعْ من شئت، لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي وإنّ له عندنا لَمكانةً رفيعة في الدنيا، وحسن مرجع في الآخرة ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة، والإضافة للتشريف، أي: اذكر يا محمد عبدنا الصالح أيوب عليه السلام، الذي ابتلي بأنواع البلاء فصبر. ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ أي حين نادى ربه متضرعًا إليه قائلًا: إني مسني الشيطان بتعبٍ ومشقة، وألم شديد في بدني قال المفسرون: وإنما نسبَ ذلك إلى الشيطان تأدبًا مع الله تعالى، وإنْ كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى، وكان أيوب قد أُصيب في ماله وأهله وبدنه، وبقي في البلاء ثمان عشرة سنة، وقد تقدمت قصته [٢] ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أي وقلنا له اضرب برجلك الأرض فضربها فنبعت له عين ماءٍ صافية ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أي وقلنا له: هذا ماءٌ تغتسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده، وشرب منها فذهب كل مرضٍ كان داخل جسده قال أبو حيان: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ ﴾ أي ما يُغتسل به ﴿وَشَرَابٌ ﴾ أي ما يشرب منه، فباغتسالك يبرأ ظاهرك، وبشربك يبرأ باطنك، والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداهما واغتسل من الأُخرى فشفي [٣] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ أي أحيا الله من مات من أولاده ورزقه مثله. قال الرازي: الأقرب أن الله تعالى متَّعه بصحته وبماله وقوَّاه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك. وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا [٤] وقال أبو حيان: الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شُتِّت منهم [٥] ﴿رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي رحمة منَّا

(١) انظر «تفسير الكبير» للرازي ٢٦/ ٢٠٨ فقد أجاد فيه وأفاد، وكتابنا «النبوه والأنبياء».
(٢) انظر قصته في سورة الأنبياء من هذا التفسير.
(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٠١.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢١٥.
(٥) «البحر المحيط» ٧/ ٤٠١.

به لصبره وإخلاصه ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وعبرة لذوي العقول المستنيرة قال ابن كثير: أي وذكرى لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج [(١)]﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ أي وقلنا له: خذْ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة فاضرب بها زوجتك لتبرَّ بيمينك ولا تحنث قال المفسرون: كان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوطٍ إذا برئ من مرضه، وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء وطالت به المدة وسوس إليها الشيطان: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب من هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمةً من قضبانٍ خفيفة فيها مائة عود ويضربها بها ضربة واحدةً ويبرَّ في يمينه، ورحمةً من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ أي ابتليناه فوجدناه صابرًا على الضراء ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي نعم العبد أيوب إنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والعبادة ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي اذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الأخيار وتأسَّ بهم، الذين جمعوا بين القوة في العبادة، والبصائر في الدين قال الطبري: أي أهل القوة في عبادة الله، وأهل العقول المبصرة [(٢)]﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي خصصناهم بخصلةٍ خالصة عظيمة الشأن، هي عدم التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم للدار الباقية قال مجاهد: جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمٌّ غيرها[(٣)] ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي وهم عندنا المختارون المجتبَون على سائر الناس لأنهم أخيار أبرار ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي واذكر يا محمد هؤلاء الرسل أيضًا وكُلٌّ من خيرة الله فاقتدِ بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من سيرة الرسل الكرام ذكرٌ جميلٌ لهم في الدنيا، وشرفٌ يذكرون به أبدًا ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي وإن لكل مُتَّقٍ لله مطيع لِرسُله لَحُسنَ مَرجع ومنقلب، ثم فسره بقوله ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم قد فتحت لهم أبوابها انتظارًا لقدومهم قال الرازي: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها، وحيوهم بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعزِّ حال، وأجمل هيئة[(٤)] ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي متكئين في الجنة على الأرائك وهي السرر الوثيرة [(٥)]. ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٠٥.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١٠٩.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٠٦.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٢١.
(٥) (ش): وَثير: ليِّنٌ ناعمٌ.

وهم متكئون على الأسرَّة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا قال ابن كثير: أي مهما طلبوا وجدوا، ومن أي أنواع شاءوا أتتهم به الخدام قال الصاوي: والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي لأنه لا جوع في الجنة(١) ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ أي وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن أتراب، أي: في سنٍّ واحدة ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي هذا جزاؤكم الذي وُعِدتُم به في الدنيا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي هذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع ولا انتهاءَ أبدًا.

قال الله تعالى:

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ
﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا
فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ
ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم
مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ
أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ
﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ
﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا
مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ
مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ

المنَاسَبَة: لمّا ذكر تعالى مآل السعداء المتقين، ثنَّى بذكر حال الأشقياء المجرمين، ثم ذكر الأدلة على صدق رسالة محمد ﷺ وختم السورة الكريمة بذكر قصة آدم وإبليس وامتناعه عن السجود لآدم، تحذيرًا للبشر من عدوهم الأكبر ومن وساوسه وإغوائه.

اللغَة: ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ الغسَّاق: ما يخرج من لحوم الكفرة من الصديد والقيح والنتن ﴿زَاغَتْ﴾ مالت ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكسر السين وهو الهزء والسخرية ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ الاقتحام: ركوب الشدة والدخول فيها ومنه اقتحام المخاطر ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ أتممت خلقه على أكمل الوجوه ﴿ٱلْعَالِينَ﴾ المتكبرين،

---

(١) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٦١.

وعلا في الأرض: تكبر وتجبر ﴿رَجِيمٌ﴾ مرجوم بالكواكب والشهب.

التفسِير: ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ ﴿ هَٰذَا﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره الأمرُ هذا وهي بمنزلة أما بعد، ثم قال ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ أي وإنَّ للكافرين الذين كذبوا الرسل، لشرَّ منقلب يصيرون إليه في الآخرة ثم فسَّر هذا المصير بقوله ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي جهنم يذوقونها ويصلون سعيرها، وبئست جهنم فراشًا ومهادًا لهم قال ابن جزي: لما تمَّ ذكر أهل الجنة ختمه بقوله ﴿ هَٰذَا﴾ ثم ابتدأ بذكر وصف أهل النار، وعنى بالطاغين الكفار[1] ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أي هذا هو العذاب الأليم فليذوقوه وهو الحميم، أي: الماء الحار المحرق، والغسَّاق وهو ما يسيل من صديد أهل النار قال الطبري: في الآية تقديم وتأخير، أي: هذا حميم وغساق فليذوقوه، والحميمُ الذين أُغلي حتى انتهى حره، والغسَّاق ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم[2] ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ أي وعذابٌ آخر من هذا العذاب المذكور كالزمهرير، والسموم، وأكل الزقوم لهم منه أنواع وأصناف.. ثم حكى ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار فقال ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم: هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، ودخلوها بصحبتكم كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال، لا أهلًا ولا مرحبًا بهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ أي إنهم ذائقو النار، وداخلوها كما دخلتموها أنتم قال الرازي: والاقتحامُ ركوبُ الشدة والدخولُ فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم، والعرب تقول لمن يدعون له: مرحبًا، أي: أتيتَ رحبًا في البلاد لا ضيِّقًا، ثم يدخلون عليها كلمة «لا» في دعاء السوء[3] ﴿قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلوهم: بل أنتم لا أهلًا بكم ولا مرحبًا قال المفسرون: عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي تلقون هنا رحبًا ولا خيرًا وهذه تحية أهل النار كما قال تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨] فعند ذلك يقول لهم الداخلون ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ وهذا على حدِّ قولِ القائل: « تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ »[4]. فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم باللعنات والشتائم بدل التحايا والسلام، ثم يعلِّل الأتباع ذلك بقولهم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب وكنتم السبب في ضلالنا، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ هذا أيضًا من كلام الأتباع دعوا الله أن يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين

---

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٨٧.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١١٣.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢٦/ ٢٢٢.

(٤) (ش): أَي: الْقَائِمُ مَقَامَ التَّحِيَّةِ هُوَ الضَّرْبُ الْوَجِيعُ.

أوجبوا لهم العذاب فهو كقولهم. ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨] والضعفُ زيادة المثل[١] قال البيضاوي: وقال الأتباع أيضًا ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفًا وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين[٢] ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾؟ أي وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال: ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار؟ يعنون بهم المؤمنين قال ابن عباس: يريدون أصحاب محمد ﷺ يقول أبو جهل: أين بلال، أين صهيب، أين عمار؟ أولئك في الفردوس (واعجبًا لأبي جهل) مسكين، أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أُمه، وأسلم أخوه وكفر هو[٣] قال ابن كثير: هذا إخبار عن الكفار في النار، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون، يقول أبو جهل: ما لي لا أرى بلالًا وعمارًا وصهيبًا وفلانًا وفلانًا؟ وهذا ضربُ مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم[٤]، ثم قالوا ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؟ أي يؤنبون أنفسهم قائلين: أجعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءًا وسخرية؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم؟ قال البيضاوي: إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار من المؤمنين، كأنهم قالوا: ليسوا ههنا في النار؟ أم مالت عنهم أبصارنا فلا نراهم[٥]؟ قال تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أقوال أهل النار وتخاصمهم، لهو الحقُّ الذي لا بدَّ وأن يتكلموا به، فنحن نخبرك عن قول الرؤساء ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ وقول الأتباع ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ من باب الخصومة[٦] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ هذا شروع في بيان مهمة الرسول ﷺ وفي إثبات الوحدانية، والمعاد، والجزاء، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أنا رسولٌ من رب العالمين، أُنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا، ولستُ بساحرٍ ولا شاعر ولا كاهن ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي وليس لكم ربٌّ ولا معبود إلا الواحد الأحد، الغالب على خلقه، القاهر لكل شيء ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب، والمتصرف فيها بالإيجاد والإعدام ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي الغالب على أمره الذي لا يُغلب، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد قال الرازي: لما ذكر أنه ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ وهذا مشعر بالترهيب والتخويف، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٨٨.
(٢) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥١.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٢٤.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٠٧.
(٥) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥١.
(٦) «التفسير» ٢٦/ ٢٣٣.

وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة، والفضل والكرم وهي: «الرب، العزيز، الغفار» فكونه ربًّا مشعر بالتربية والإحسان، وكونه عزيزًا مشعرٌ بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وكونه غفارًا مشعر بالترغيب وأنه يرجى فضله وثوابه، فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب فإن الله سبحانه يغفر له برحمته جميع ذنوبه، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصله إلى درجات الأبرار[1] ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ هام وأمر عظيم الشأن، أنتم عنه غافلون لا تلتفون إليه ولا تعلمون قدره ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم لولا الوحي المنزل عليَّ؟ قال ابن جزي: والقصدُ الاحتجاج على نبوة محمد ﷺ لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك، والإشارة إلى اختصام الملائكة هو ما جاء في قصة آدم حين قال تعالى لهم ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن[2] ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يوحى إليَّ إلا لأني رسولٌ مرسل إليكم لأنذركم عذاب الله، ومعنى النذير المنذر المخوّف من عذاب الله، ثم شرع تعالى في ذكر قصة آدم فقال ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ أي اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنسانًا من طين وهو آدم عليه السلام ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي فإذا أتمَمْتُ خلقه ونفَخْتُ فيه الروح فاسجدوا إكرامًا له وإعظامًا قال القرطبي: وهذا سجود تحية لا سجود عبادة[3] ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي فسجد جميع الملائكة خضوعًا له وتعظيمًا لأمر الله بالسجود له ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين قال ابن كثير: امتثل الملائكة كلهم سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسًا كان من الجن[4]، فخانه طبعُه وجبلَّتُه فاستَنْكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عَزَّ وَجَلَّ فيه، وادعى أنه خيرٌ من آدم، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾؟ أي: قال له ربه: ما الذي صرفك وصدَّك عن السجود لمن خلقْتُه بذاتي[5]. من غير واسطة أب

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٢٤.

(٢) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٨٩.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٢٧.

(٤) هذا هوا الرأي الصحيح أن أبليس من الجن وليس من الملائكة، وقد تقدم قول الحسن البصري: «لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين»! وهذا هو الرأي الذي تطمئن إليه النفس وترتاح، وتدل عليه النصوص الكريمه كقوله تعالي ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، وانظر الأدلة في كتابنا «النبوة والأنبياء» ١/ ١٢٨.

(٥) (ش): تفسير اليدين بالذات تعطيل للصفات وجحد ليدَي الله الكريمتين. فاليدان صفةٌ ذاتيةٌ خبريَّةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، نثبتها كما نثبت باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهي ثابتةٌ بالكتاب والسنة.

وأم؟ قال القرطبي: أضاف خلقه إلى نفسه تكريمًا لآدم وإن كان خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، المساجد، فخاطب الناس بما يعرفونه ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؟ أي استكبرتَ الآن عن السجود أم كنت قديمًا من المتكبرين على ربك؟ وهذا على جهة التوبيخ له لاستنكافه عن السجود ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي قال اللعينُ: أنا خير من آدم وأشرف وأفضل ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ أي لأنني مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار خيرٌ من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي اخرج من الجنة فإنك لعين مطرود من كل خيرٍ وكرامة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي وأنت مبعدٌ عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ثم تلقى ما هو أفظع وأشنع من اللعنة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي أخرني وأمهلني إلى اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من القبور قال أبو السعود: أراد بذلك أن يجد فسحةً لإغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موتَ بعد البعث فأجابه الله بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي طلبه[1] ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ أي إنك من الممهلين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهمتك ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي قال اللعين: أُقسم بعزتك لأُضلنَّ بني آدم أجمعين، إلا الذين أخلصتهم لعبادتك وعصمتهم مني ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قال تعالى: أقسم بالحقِّ ولا أقول إلا الحقَّ لأملأن جهنم منك ومن أتباعك قال السُّدي: هو قسم أقسم الله به[2]، وجملة «والحقَّ أقول» اعتراضية لتأكيد القسم ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى انتحل النبوة وأتقوَّل القرآن ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى للإنس والجن والعقلاء ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أي لتعلمنَّ خبره وصدقه عن قريب، وهذا وعيدٌ وتهديد قال الحسن البصري: يا بن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المقابلة بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وهذا من ألطف أنواع البديع.

٢ - الكناية ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] كنَّى عن العقر والذبح بالمسح

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٩٨.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٠٩.

وهي كناية بليغة.

٣ – الطباق بين ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ [ص: ٣٩] لأنها بمعنى أعط من شئت، وامنع من شئت.

٤ – مراعاة الأدب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [ص: ٤١] أسند الضرر إلى الشيطان أدبًا، والخير والشر بيد الله تعالى.

٥ – الاستعارة التصريحية ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥] استعار الأيدي للقوة في العبادة والأبصار للبصيرة في الدين.

٦ – المقابلة الرائعة ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص: ٤٩–٥٠] ثم قابل ذلك بقوله ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ ويا له من تصوير رائع!

٧ – التأكيد بمؤكدين ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ فقد أكده أولًا بلفظ (كل) ثم بلفظ (أجمعون).

٨ – مراعاة الفواصل وهي من خصائص القرآن ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ فمثل هذا البيان الرائع والجرس العذب، يسري في النفس سريان الروح في الجسد، وأقسم بالله أنني أشعر بهزة في نفسي كلما قرأتُ القرآن، لما له من وقع عذب على السمع، وأحيانًا أجدني أتمايل طربًا بدون شعور، أكثر مما يتمايل المُغرَمون بالأنغام، وما ذلك إلا لروعة البيان في هذا القرآن[1]، وصدق رسول الله حين قال « **إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا** »[2].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ص ولله الحمد والمنة»



---

(١) (ش): المطلوب عند تلاوة القرآن الخشوع لا الطرب والتمايل، ويجب أن ينزه القرآن عن مثل هذا الكلام، ولو كان هذا الفعل خيرًا لَسَبَقنا إليه مَن هم خير منا النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.



مكية وآياتها خمس وسبعون

بين يدي السورة

* سورة الزمر مكية، وقد تحدثت، عن «عقيدة التوحيد» بالإسهاب، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيسي للسورة الكريمة لأنها أصل الإيمان، وأساس العقيدة السليمة، وأصل كل عمل صالح.

* ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن «المعجزة الكبرى» الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله، وأمرت الرسول بإخلاص الدين لله وتنزيهه جل وعلا من مشابهة المخلوقين، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان واتخاذهم شفعاء، وردت على ذلك بالدليل القاطع.

* ثم ذكرت الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، في إبداعه لخلق السماوات والأرض وفي ظاهرة الليل والنهار، وفي تسييره للشموس والأقمار، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام، وكلها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته.

* وتناولت السورة موضوع العقيدة بوضوح وجلاء، وكشفت عن مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين في دار الجزاء، حيث يذوقون ألوان العذاب، وتغشاهم ظلل من النار من فوقهم ومن تحتهم.

* وذكرت السورة مثلًا يوضح الفارق الكبير بين من يعبد إلهًا واحدًا، ومن يعبد آلهة متعددة لا تسمع ولا تستجيب، وهو مثل للعبد الذي يملكه شركاء متخاصمون، والعبد الذي يملكه سيد واحد، ثم ذكرت حالة المشركين النفسية عندما يسمعون توحيد الله تنقبض قلوبهم، وإذا سمعوا ذكر الطواغيت هشوا وبشوا.

* ثم جاءت الآيات طرية ندية تدعو العباد إلى الإنابة لربهم، والرجوع إليه، قبل أن يداهمهم الموت بغتة، أو يفاجئهم العذاب من حيث لا يشعرون، وحينئذٍ يتوبون ويندمون في وقت لا ينفع فيه توبة ولا ندم.

* وختمت السورة الكريمة بذكر نفخة الصعق، ثم نفخة البعث والنشور، وما يعقبهما من أهوال الآخرة وشدائدها، وتحدثت عن يوم الحشر الأكبر، حيث يساق المتقون الأبرار إلى الجنة زمرًا، ويساق المجرمون الأشرار إلى جهنم زمرًا، في مشهد هائل يحضره الأنبياء والصديقون والشهداء الأبرار، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد والثناء في خشوع واستسلام.

التسمية: سميت «سورة الزمر» لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة، وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ
الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ
أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ
ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ
لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ
نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ
مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ
عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ
عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ

اللغة: ﴿زُلْفَىٰ﴾ قربى، ومنه ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] أي قرّبت لهم ﴿يُكَوِّرُ﴾ التكوير: اللَّفُ واللَيُّ يقال: كوَّر العمامة، أي: لَفَّها ﴿خَوَّلَهُ﴾ أعطاه وملَّكه ﴿قَانِتٌ﴾ مطيع خاضع عابد ﴿أَندَادًا﴾ أوثانًا وأصنامًا ﴿ظُلَلٌ﴾ جمع ظُلَّة وهي ما يُظل الإنسان من سقف ونحوه ﴿الطَّاغُوتَ﴾ من الطغيان وهو مجاوزة الحدِّ، والمراد بالطاغوت كل ما عُبد من دون الله من وثن أو بشر أو حجر ﴿وَأَنَابُوا﴾ رجعوا ﴿غُرَفٌ﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة، والغرفة:

المنزلة والمكانة السامية ومنه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

التفسير: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله جل وعلا ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي القادر الذي لا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمةٍ وتقدير وتدبير ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم متضمنًا الحق الذي لا مرية فيه، والصدق الذي لا يشوبه باطل أو هزل ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي فاعبد الله وحده مخلصًا له في عبادتك، ولا تقصد بعملك ونيتك غير ربك ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس: إن الله تعالى لا يقبل إلا ماكان خالصًا لوجهه الكريم لأنه المتفرد بصفات الألوهية، المطَّلع على السرائر والضمائر، ومعنى «الخالص» الصافي من شوائب الشرك والرياء ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي وهؤلاء المشركون الذين عبدوا من دونه الأوثان يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي ما نعبد هذه الآلهة والأصنام إلا ليقربونا إلى الله قربى ويشفعوا لنا عنده قال الصاوي: كان المشركون إذا قيل لهم: من خلقكم؟ ومن خلق السمواتِ والأرض؟ من ربكم ورب آبائكم الأولين؟ فيقولون: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأصنام؟ فيقولون: لتقربنا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يحكم بين الخلائق يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، فيُدخِل المؤمنين الجنة، والكافرين النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي لا يوفق للهدى، ولا يرشد للدين الحق من كان كاذبًا على ربه، مبالغًا في كفره، وفي الآية إشارة إلى كذبهم في تلك الدعوى ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي لو شاء الله اتخاذ ولد على سبيل الفرض والتقدير ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي لاختار من مخلوقاته ما يشاء ولدًا على سبيل التبني إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف ولكنه لم يشأ ذلك لقوله ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢] وقوله ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي من المخلوقات التي أنشأها واخترعها ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي تنزه جل وعلا وتقدس عن الشريك والولد، لأنه هو الإله الواحد الأحد، المنزَّه عن النظير والمثيل، القاهر لعباده بعظمته وجلاله قال في التسهيل: نزَّه تعالى نفسه من اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، لأنه لو كان له ولدٌ لكان من جنسه ولا جنس له لأنه واحد، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد، لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكًا له[2]؟ ثم ذكر تعالى دلائل قدرته وحدانيته وعظمته، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق

(١) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣/ ٣٦٦.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٣/ ١٩١.

الواضح والبرهان الساطع ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ أي يُغشِي الليل على النهار، ويُغشِي النهار على الليل، وكأنه يلفُّ عليه لفَّ اللباس على اللابس قال القرطبي: وتكويرُ الليل على النهار تغشيتُه إياه حتى يُذهب ضوءه، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته وهذا منقول عن قتادة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [(١)] ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ أي ذلَّلهما لمصالح العباد ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ أي كلٌّ منهما يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة حين تُكوَّر الشمسُ وتنكَدِر النجوم[(٢)] ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ أي هو جل وعلا كامل القدرة لا يغلبه شيء، عظيم الرحمة والمغفرة والإحسان قال الصاوي: صُدِّرت الجملة بحرف التنبيه «ألا» للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها كأنه قال: تنبهوا يا عبادي فإني أنا الغالب على أمري، والستَّار لذنوب خلقي فأخلصوا عبادتكم ولا تشركوا بي أحدًا.[(٣)] ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ أي خلقكم أيها الناس من نفسٍ واحدة هي آدم، وهذا من جملة أدلة وحدانيته، وانفراده بالعزة والقهر، وجميع صفات الألوهية ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ أي ثم خلق من آدم وحواء ليحصل التجانس والتناسل قال الطبري: المعنى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ يعني آدم (ثم خلق منها زوجها) يعني حواء خلقها من ضلع من أضلاعه[(٤)] ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي وأوْجَد لكم من الأنعام المأكولة وهي الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، ثمانية أزواج من كل نوعٍ ذكرًا وأنثى قال قتادة: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، كلٌّ واحدٍ زوج[(٥)]، وسميت أزواجًا لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر قال المفسرون: والإنزالُ عبارةٌ عن نزول أمره وقضائه[(٦)] ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ أي يخلقكم في بطون أمهاتكم أطوارًا، فإن الإنسان يكون نطفة، ثم علقة، ثم مضغة إلى أن يتم خلقه، ثم ينفخ فيه الروح فيصير خلقًا آخر ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ هي البطن، والرحم، والمَشِيمَة، وهو الكيس الذي يغلفُ الجنين ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ أي ذلكم الخالق المبدع المصوّر هو الله ربُّ العالمين، ربكم وربُّ آبائكم الأولين ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ أي له الملك والتصرف التام، في الإيجاد والإعدام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا الله ولا ربَّ لكم سواه ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾؟ أي فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ثم بعد أن ذكَّرهم بآياته ونعمه، حذَّرهم من الكفر

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٣٥.

(٢) (ش): فتُلَفُّ الشمس ويذهب ضَوْءُها، وتتناثر النجوم ويذهب نورها.

(٣) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٦٦.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١٢٤. (ش): قال ﷺ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ» (رواه البخاري ومسلم).

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٣٥.

(٦) (ش): قال السعدي: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي: خلقها بقدرٍ نازل منه، رحمةً بكم.

والجحود لفضله وإحسانه فقال ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ أي إن تكفروا أيها الناس بعد ما شاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه، فإن الله مستغنٍ عنكم وعن إيمانكم وشكركم وعبادتكم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي لا يرضى الكفر لأحدٍ من البشر قال الرازي: أشار تعالى إلى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان، ولا يضره كفران، إلا أنه لا يرضى بالكفر بمعنى أنه لا يمدح صاحبه ولا يثيبه عليه وإن كان واقعًا بمشيئته وقضائه[١] ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي وإن تشكروا ربكم يرض هذا الشكر منكم، لأجلكم ومنفعتكم لا لانتفاعه بطاعتكم قال أبو السعود: عدم رضائه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرَّتهم، رحمة بهم لا لتضرره تعالى بذلك، ورضاه بشكرهم لأجلهم ومنفعتهم لأنه سبب فوزهم بسعادة الدارين، ولهذا فرَّق بين اللفظين فقال «ولا يرضى لعباده الكفر» وقال هنا «يرضه لكم» لأن المراد بالأول تعميم الحكم ثم تعليله بكونهم عباده[٢] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي ولا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى، بل كُلٌّ يؤاخَذُ بذنْبه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي ثم مرجعكم ومصيركم إليه تعالى ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تُكِنُّه السرائر وتُخفِيه الضمائر، وفيه تهديدٌ وبشارة للمطيع ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الكافر شدة من فقر ومرضٍ وبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة، مقبلًا إليه مخبتًا مطيعًا ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي ثم إذا أعطاه نعمةً منه وفرَّج عنه كربته ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه وتمرَّد وطغى ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي وجعل لله شركاء في العبادة ليصد عن دين الله وطاعته ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمرٌ للتهديد أي تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذَّذ فيها وأنت على كفرك، عمرًا قليلًا وزمنًا يسيرًا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي فمصيرك إلى نار جهنم، وأنت من المخلدين فيها ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه، أي: أم من هو مطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجدًا وقائمًا كمن أشرك بالله وجعل له أندادًا؟ قال القرطبي: بيَّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره[٣] ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي حال كونه خائفًا من عذاب الآخرة، راجيًا رحمة ربه وهي الجنة، هل يستوي هذا المؤمن التقي مع ذلك الكافر الفاجر؟ لا يستوون عند الله، ثم ضرب مثلًا فقال ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ أي هل يتساوى العالم والجاهل؟ فكما لا يتسوي هذان كذلك لا يستوي المطيع والعاصي[٤]

---

(١) التفسير ٢٦/ ٢٤٦. (ش): تفسير معنى رضا الله بالمدح والإثابة، تأويلٌ للصفة عن معناها الصحيح، الذي هو الرضا الحقيقي اللائق به ﷻ.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣٠٢.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٣٨.

(٤) أنظر حاشيه زاده علي البيضاوي ٣/ ١٩٢.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة قال الإمام الفخر: واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام، وأما العلم ففي قوله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصورٌ في هذين المقصودين، فالعمل هو البداية، والعلم والمكاشفة هو النهاية[(١)]، وفي الكلام حذف تقديره أمَّن هو قانتٌ كغيره؟ وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر، ثم مثَّل بالذين يعلمون، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم[(٢)] ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين يجمعوا بين الإيمان وتقوى الله وهي البعدُ عن محارم الله قال المفسرون: نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض

---

(١) (ش): هذا خلاف ما يدل عليه قوله تعالى ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل. موقف أهل السنة من الكشف: الكشف في الاصطلاح عند أهل السنة نوع من الخوارق، وذلك بأن يسمع الشخص ما لا يسمعه غيره، أو يرى ما لا يراه غيره، أو أن يعلم ما لا يعلمه غيره، إما من طريق الوحي والإلهام وهذا للمؤمن، وقد يكون كرامة من الله لعبده، وقد يحصل للنفس نوع من الكشف، إما يقظة وإما منامًا بسبب قلة علاقتها مع البدن، إما برياضة أو بغيرها، وهذا هو الكشف النفساني، وهو مشترك بين المؤمن والكافر. والكشف الصحيح أن يعرف الحق الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، معاينةً لقلبه، فينكشف له من غوامض علوم الدين ما لا ينكشف لغيره، ويكون مع علمه عاملًا، فهذا من كشف الأولياء، وهو كشفٌ ظاهرُ المنفعة. ومن الكشف ما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، كالاطلاع على سيئات العباد. ولابد أن يقترن الدين بالكشف، وإلا هلك صاحبُه في الدنيا والآخرة، أما في الآخرة فلعدم الدين الذي هو أداء الواجبات وترك المحرمات، وأما في الدنيا فإن الخوارق هي من الأمور الخطرة، التي لا تنالها النفوس إلا بمخاطرات في القلب والجسم والأهل والمال. وما يحصل بالزهد والعبادة والرياضة والتصفية والخلوة، وغير ذلك، من المعارف، متى خالف الكتاب والسنة، أو خالف العقل الصريح، فهو باطل، ومن زعم أنه يجد في الكشف ما يناقض صريح العقل، أو يَرِدُ عليه أمر يخالف الكتاب والسنة بحيث يكون خارجًا عن طاعة الرسول - ﷺ - وأمْرِه، أو أنه يحصل له علم مفصل بجميع ما أخبر به الرسول - ﷺ - وأمَرَ به، فهو ضال مُبْطِل، بل زنديق منافق. وما يُعلم بالكشف قد يكون صحيحًا وقد يكون خاطئًا، فأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة، ويخطئون أخرى، كأهل النظر والاستدلال في موارد الاجتهاد، ولهذا وجب عليهم جميعهم أن يعتصموا بكتاب الله، وسنة رسوله - ﷺ -، وأن يَزِنُوا كشفهم، ومشاهدتهم، وآراءهم، ومعقولاتهم، بكتاب الله، وسنة رسوله، ولا يكتفوا بمجرد ذلك، فإن سيد المحدَّثين والمخاطَبين المُلهَمين من هذه الأمة هو عمر بن الخطاب، وقد كانت تقع له وقائع، فيردها عليه رسول الله، أو صديقه أبو بكر، ولهذا وجب على جميع الخلق اتباع الرسول ﷺ كما أن ما يدَّعيه كثير من الصوفية، من الكشف والمشاهدة، عامته خيالات في أنفسهم، ويسمونها حقيقة، وقد تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بأشياء، وتأمرهم بأشياء، وهذا غاية كشفهم الذي يحكمون به على الكتاب والسنة. لذا يجب ربط ما يحصل بالكشف بالكتاب والسنة، فنجعلهما حاكمَيْن على الكشف، وَنَرَدُّ ما خالفهما. (الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، لآمال بنت عبد العزيز العمرو، ص٤٦١-٤٦٦).

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٥٠.

الحبشة[١] والغرضُ منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة [٢] ومعنى التقوى: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وكأن العبد بذلك يجعل بينه وبين النار وقاية[٣] ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة وهي الجنة دار الأبرار ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أي وأرض الله فسيحة فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولا تقيموا في أرضٍ لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي إنما يعطى الصابرون جزاءهم بغير حصر، وبدون عدد أو وزن قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال إنما يغرف غرفًا [٤]﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي قل يا محمد: أُمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له قال المفسرون: وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أنَّ غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأُمرت أيضًا بأن أكون أولَ المسلمين من هذه الأمة قال القرطبي: وكذلك كان، فإنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحكمها، وأسلم وجهه لله وآمن به ودعا إليه [٥]﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي وأخاف إن عصيت أمره أن يعذبني يوم القيامة بنار جهنم قال الصاوي: والمقصود منها زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ إذا كان خائفًا مع كمال طهارته وعصمته فغيره أولى، وذلك سنة الأنبياء والصالحين حيث يخبرون غيرهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم[٦] ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أعبد إلا الله وحده، مخلصًا له طاعتي وعبادتي من كل شائبة، وليس هذا بتكرار لأن الأول إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة، والثاني إخبار بخوفه من عذاب الله إن عصى أمره، والثالث إخبار بامتثاله الأمر مع إفادة الحصر كأنه يقول: أعبد الله ولا أعبد أحدًا سواه ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ صيغة أمر على جهة التهديد والوعيد، أي: اعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام فسوف ترون عاقبة كفركم كقوله ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي حقيقة الخسران الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، حيث صاروا إلى نار مؤبدة يصْلَوْن سعيرَها يوم القيامة، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران[٧] قال ابن عباس: إنَّ لكل رجلٍ منزلاً وأهلاً

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٣/ ١٩٢.
(٣) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٦٨.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٥.
(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٤٢.
(٦) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٦٩.
(٧) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٩٠): «﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَيْ: تَفَارَقُوا فَلَا الْتِقَاءَ لَهُمْ أَبَدًا، سَوَاءٌ ذَهَبَ أَهْلُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ ذَهَبُوا هُمْ إِلَى النَّارِ، أَوْ أَنَّ الْجَمِيعَ أُسْكِنُوا النَّارَ، وَلَكِنْ لَا اجْتِمَاعَ لَهُمْ وَلَا سُرُور».

وخدمًا في الجنة، فإن أطاع اللهَ أُعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حُرم ذلك، فخسر نفسه وأهله ومنزله[١] ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي ألاَ فانتبهوا أيُّها القوم ذلك هو الخسرانُ الواضح الذي ليس بعده خسرانٌ! قال أبو حيان: بالغ في بيان الخسران بأداة التنبيه «ألَا» وبالإشارة إليه «ذلك» وتأكيده بأداة الحصر «هو» وتعريفه بأل ووصفه بأنه بيّن ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي الواضح لمن تأمله أدنى تأمل[٢]، ثم لمَّا ذكر خسرانهم في الدنيا ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة فقال ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ أي تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم، ومعنى الظُلل أطباقٌ من نار جنهم[٣]، وتسميتها ظُللًا تهكمٌ بهم، لأنها مُحرِقة والظُّلةُ تَقِي من الحر ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أي ذلك العذاب الشديد الفظيع، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي يا أوليائي خافوا عذابي ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي، قال الزمخشري: وهذه عظة من الله تعالى لعباده ونصيحة بالغة[٤].. والحكمة من ذكر أحوال النار تخويف المؤمنين منها ليتَّقوها بطاعة ربهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ لما ذكر وعيد عبدة الأوثان، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان، ممن احترز عن الشرك والعصيان، ليكون الوعد مقرونًا بالوعيد، فيحصل كمال الترغيب والترهيب والمعنى: والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، وتباعدوا عنها كل البعد قال أبو السعود: «الطاغوت» البالغ أقصى غاية الطغيان كالرحموت والعظموت، والمراد به الشيطان وصف به للمبالغة[٥] ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي رجعوا إلى طاعة الله وعبادته ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي لهم البشرى السارة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ أي فبشِّر عبادي المتقين الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح، فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به[٦]. وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن من الكلام، فإذا سمعوا قولًا تبصَّروه وعملوا بما فيه، وأحسنُ الكلام كلام الله وخير الهدي هديُ محمد ﷺ وإنما وضع الظاهر ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ بدل الضمير (فبشرهم) تشريفًا لهم وتكريمًا بالإضافة إليه سبحانه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووفقهم لنيل

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٥٦.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٢٠.
(٣) (ش): أي طبقات من نار جهنم، الطَّبَقَةِ تَكُونُ أَسْفَلَ مِنَ الْأُخْرَى.
(٤) «تفسير الكشاف» ٤/ ٩٣.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣٠٥.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٤٤.

رضاه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي أولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفِطَر المستقيمة ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي أفمن وجبت له الشقاوة من الله تعالى، وجوابه محذوفٌ دلَّ عليه ما بعده أي هل تقدر على هدايته؟ لا. ثم قال تعالى ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾؟ أي هل تستطيع يا محمد أن تنقذ من هو في الضلال والهلاك؟ قال القرطبي: كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قومه وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت الآية، وقال ابن عباس: يريد «أبا لهب» وولده ومن تخلَّف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان، وكرر الاستفهام «أفأنت» تأكيدًا لطول الكلام والمعنى: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه[1]؟ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ أي لكنْ المؤمنون الأبرار، المتقون لله في الدنيا، المتمسكون بشريعته وطاعته ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ أي لهم في الجنة درجات عالية وقصورٌ شاهقة بعضها فوق بعض مبنية من زبرجدٍ وياقوت[2] ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة من غير أخدود ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي وعدهم الله بذلك وعدًا مؤكدًا لا يمكن أن يتخلف لأنه وعد العزيز القدير.

تنبيه: قال الزمخشري: أفاد قوله تعالى ﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ أن المؤمنين ينبغي أن يكونوا نُقَّادًا في الدين، يميِّزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثْبتها دليلًا، وأبْيَنها أمارة، وألا يكونوا في مذهبهم كما قال القائل «ولا تكن مثل عيرٍ قِيدَ فانقادَا»[3].

قال الله تعالى:

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٤٤، وهذا القول الثاني رجحه صاحب «التسهيل».

(٢) هذا قول ابن عباس.

(٣) «تفسير الكشاف» ٤/ ٩٣. (ش): وهذا التمييز يكون باتباع الدليل من القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة بفهم سلف الأمة، الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان.

عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال المشركين وضلالاتهم في عبادة غير الله، أردفه بذكر دلائل الوحدانية، ثم ذكر القرآن العظيم أشرف الكتب السماوية المنزَّلة، ومع إقرارهم بفصاحته وإعجازه كذَّب به المكذبون، ثم ضرب للمشرك والموحّد مثلًا في غاية الوضوح.

اللغَـة: ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أدخله ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ جمع ينبوع وهو عين الماء من الأرض ﴿يَهِيجُ﴾ ييبس قال الأصمعي: هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتُها وولَّى[1] وقال الجوهري: هاج النَّبْت هياجًا إذا يبس، وأرضٌ هائجة إذا يبس بقْلُها أو اصفرَّ[2] ﴿حُطَٰمًا﴾ فُتاتًا وهشيمًا، من تحطَّم العود إذا تفتَّت من اليبس ﴿شَرَحَ﴾ فتحَ ووسَّع ﴿قَٰسِيَةٌ﴾ قسا القلب إذا صلُب، وكذلك عتا وعسا، وقلبٌ قاسٍ أي صلب لا يرِقُّ ولا يلين ﴿مَّثَانِيَ﴾ مكررًا فيه الحكم والمواعظ والأمثال ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك من الخوف ﴿الخزي﴾ الذل والهوان ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ متنازعون ومختلفون، ورجلٌ شكس: شرس الخُلق والطباع.

التفسِـير: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي ألم تر أيها الإِنسان العاقل أنَّ الله بقدرته أنزل المطر من السحاب ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أدخله مسالك وعيونًا في الأرض وأجراه فيها قال المفسرون: وهذا دليلٌ على أن ماء العيون من المطر، تحبسه الأرض ثم ينبع شيئًا فشيئًا قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكنْ عروق الأرض تغيِّره[3] ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي ثم يُخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الزروع، المختلفة الأشكال والألوان، من أحمر وأبيض وأصفر، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك قال البيضاوي: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي أصنافه من بُرٍّ وشعير وغيرهما، أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما[4] ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ثم ييبس فتراه بعد خضرته مصفرًا ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي ثم يصبح فتاتًا وهشيمًا متكسرًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعظة وعبرة، ودلالةً على قدرة الله ووحدانيته لذوي العقول المستنيرة.. والآية فيها تمثيلٌ لحياة الإِنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإِنسان فلا بدَّ من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسرًا كالزرع بعد نضرته، ثم تكون عاقبته الموت قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزًا

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٤٦.
(٢) انظر الصحاح و«القاموس المحيط».
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٧.
(٤) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥٤.

شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخًا هرمًا، كبيرًا ضعيفًا، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير[١] ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي وسَّع صدره للإسلام، واستضاء قلبه بنوره حتى ثبت ورسخ فيه ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي فهو على بصيرة ويقين من أمر دينه، وعلى هدًى من ربه بتنوير الحق في قلبه، وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه سياق الكلام تقديره كمن هو أعمى القلب، معرضٌ عن الإسلام؟ قال الطبري: وتُرك الجوابُ اجتزاءً بمعرفة السامعين وبدلالة ما بعده وتقديره: كمن أقسى اللهُ قلبه وأخلاه من ذكره حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى[٢] ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي فويلٌ للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله، بـ «ذكر الله» القرآن الذي أنزله الله تذكرة لعباده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي أولئك الذين قست قلوبهم في بُعْدٍ عن الحق ظاهر. ولما بيَّن تعالى ذلك أردفه بما يدل على أنَّ القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء فقال ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي اللهُ نزَّل القرآن العظيم أحسن الكلام قال أبو حيان: والابتداءُ باسم «اللهُ» وإسناد «نـزَّل» لضميره، فيه تفخيمٌ للمُنزل، ورفعٌ من قدره كما تقول: الملكُ أكرم فلانًا، فإنه أفخم من أكرم الملك فلانًا، وحكمةُ ذلك البداءةُ بالأشرف[٣] ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي قرآنًا متشابهًا يشبه بعضه بعضًا في الفصاحة، والبلاغة، والتناسب، بدون تعارضٍ ولا تناقض ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي تُثنَّى وتكرر فيه المواعظ والأحكام، والحلال والحرام، وتُردَّد فيه القصص والأخبار دون سأم أو ملل قال الطبري: تُثنَّى أي تكرر فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج[٤] ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي تعتري هؤلاء المؤمنين خشيةٌ، وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات القرآن، هيبةً من الرحمن وإجلالًا لكلامه ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي تطمئن وتسكن قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله قال المفسرون: إنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان تلين جلودهم وقلوبهم وقال العارفون: إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثرٌ من عالَم الجمال عاشوا[٥] قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، إذا قرءوا آيات الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر جلودهم من الخشية والخوف وإذا قرءوا آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، لما يرجُون ويؤَمِّلون من رحمته ولطفه[٦] ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي ذلك القرآن الذي تلك صفتُه

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٧.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١٣٤.
(٣) «البحر المحيط» ٤/ ٤٢٢.
(٤) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١٣٥.
(٥) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٧٢.
(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٧.

هـو هدى الله يهدي به من شـاء من خلقـه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يخذلْه اللهُ فيجعل قلبه قاسـيًا مظلمًا، فليس له مرشـدٌ ولا هاد بعد الله ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي فمـن يجعـل وجهه وقايةً من عذاب جهنم الشـديد، وخـبره محذوف تقديره كمن هو آمِنٌ من العذاب؟ قال المفسـرون: الوجه أشـرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء مـن المخاوف فإنـه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيـدي الكفار مغلولة يوم القيامـة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شـيئًا يتقونها به إلا وجوههـم ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وتقول خزنـة جهنم للكافرين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسـبونه في الدنيا مـن الكفر والمعاصي ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي كـذَّب مَـن قبلهم من الأمم السـالفة فأتاهـم العذاب من جهةٍ لا تخطـر ببالهـم ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فأذاقهم الله الـذُّلَّ والصغـار والهوان في الدنيـا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي ولعذاب الآخرة الـذي أُعدَّ لهم أعظـم بكثير من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان عندهم علمٌ وفهم ما كذَّبوا ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقـد بَيَّنَّا ووضحنـا للناس في هذا القرآن من كل الأمثـال النافعة، والأخبـار الواضحة ما يحتاجون إليـه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون ويعتـبرون بتلـك الأمثـال والزواجـر ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي حال كونه قرآنـا عربيًّا لا اختـلاف فيه بوجه مـن الوجوه، ولا تعـارض ولا تناقـض ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يتقوا الله ويجتنبـوا محارمه. ثـم ذكر تعالى مثلًا لمن يشـرك بالله ولمن يُوَحِّـده فقال ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي ضـرب الله لكـم أيهـا الناس هـذا المثل: رجلٌ مـن المماليك اشـترك فيه مُلَّاكٌ سَـيِّئُو الأخلاق، بينهـم اختلاف وتنازع، يتجاذبونـه في حوائجهم، هذا يأمره بأمـرٍ وذاك يأمره بمخالفته، وهو متحيِّر مـوزَّع القلب، لا يدري لِمَن يُرضِي[1]؟ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ هـذا مـن تَتِمَّة المثَل أي رجلًا آخر لا يملكه إلا شـخص واحد، حسـن الأخلاق، فهو عبد مملوك لسـيد واحد، يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سـيده إلا إحسـانًا ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي هـل يسـتوي هذا وهذا في حسـن الحال، وراحة البـال؟ فكذلك لا يتسـاوى المؤمن الموحِّد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى. قال ابن عباس: هذه الآية ضربت مثلًا للمشـرك والمخلص[2] وقال الرازي: وهذا مثلٌ ضُرب في غاية الحُسـن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد[3] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما كان المثل بَيِّنًا واضحًا في غاية الجلاء والوضوح ختم به الآية والمعنى: الحمد لله على إقامة الحجة عليهم بل أكثر هؤلاء المشركين

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: لا يدرِي مَن يُرضِي؟

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٩.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٧٧.

لا يعلمون الحق فهم لفَرْط جهْلهم[1] يشركون بالله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي إنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء، ولا يخلَّد أحد في هذه الدار ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين ويفصل بينكم أحكم الحاكمين.

قال الله تعالى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ
﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ
بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ
يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ
فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى
الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ
كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ
الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ
نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

المناسَبَة: لما ذكر أن الخلق صائرون إلى الموت، وأن المؤمنين والكافرين سيختصمون

---

(١) (ش): أي لشدّته، وكثرته.

عند ربهم في أمر التوحيد والشرك، وأنه تعالى يفصل بينهم، ذكر هنا جزاء كلٍّ من الفريقين، ثم أتبعه بذكر قبائح المشركين واعتدادهم بشفاعة الأوثان والأصنام.

اللغَـة: ﴿مَثْوَى﴾ مأوى ومقام، مشتق من ثَوى بالمكان إذا أقام به ﴿يُخْزِيهِ﴾ يُهينه ويُذلّه ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نفرتْ وانقبضتْ ﴿فَاطِرَ﴾ خالق ومبدع ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾ يظنون ويُؤمِّلون يقال: جاءه الأمر من حيث لا يحتسب، أي: من حيث لا يظن ﴿وَحَاقَ﴾ نزل وأحاط بهم من كل جانب ﴿خَوَّلْنَٰهُ﴾ منَحْناه وأعطيناه تفضُّلًا وكرمًا ﴿مُعْجِزِينَ﴾ فائتين من العذاب ﴿يَقْدِرُ﴾ يُضيِّق ويُقتِّر.

التفسِير: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولد ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي وكذَّب بالقرآن والشريعة وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمل؟ أي لا أحد أظلم ممن حاله ذلك، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ أي أليس في جهنم مقام ومأوى لهؤلاء الكافرين المكذبين؟ والاستفهام هنا تقريري، أي: بلى لهم مأوى ومكان ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي وأما الذين جاءوا بالصدق وهم الأنبياء، والذين صدَّقوا به وهم المؤمنون أتباعُ الرسل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي فأولئك الموصوفون بالصفات الحميدة هم أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إحسان وإكرام ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم كل ما يشتهون في الجنة من الحور، والقصور، والملاذِّ، والنعيم ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ذلك الذي ينالونه هو ثواب كل محسن أحسن في هذه الحياة قال بعض المفسرين: «الذي جاء بالصدق» هو محمد ﷺ «وصدَّق به» هو أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْه[1]، والاختيارُ أن يكون على العموم حتى يشترك في هذه الصفة كل الرسل الكرام، وكل من دعا إلى هذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل، ويدل عليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بصيغة الجمع، وهذا اختيار ابن عطية ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي هؤلاء الذين صدَّقوا الأنبياء سيغفر الله لهم ما أسلفوا من الأعمال السيئة فلا يعاقبهم بها ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ويثيبهم على طاعاتهم في الدنيا بحساب الأحسن الذي عملوه فضلًا منه وكرمًا قال المفسرون: العدلُ أن تُحسب الحسنات وتُحسب السيئات، ثم يكون الجزاء، والفضلُ هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم، فلا يبقى لها حساب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال، فتزيد حسناتُهم وتعلو وترجّح كفة الميزان، وهذا من زيادة الكرم والإحسان ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؟ الهمزة للتقرير، أي: أليس الله كافيًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ من شر من

---

(١) روي هذا عن مجاهد وقتادة، والراجح أن الآيه على العموم في الرسل والمؤمنين.

يريده بسوء؟ قال أبو السعود: تسليةٌ لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش: لتكفنَّ عن شتم آلهتنا، أو ليصيبنَّك منها خبل أو جنون[١] وقال أبو حيان: قالت قريش: لئن لم ينته محمد عن سبِّ آلهتنا وتعييبنا لنسلِّطنها عليه فتصيبه بخبَل وتعتريه بسوء، فأنزل الله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أي هو كافٍ عبده، وإضافته إليه تشريفٌ عظيمٌ لنبيّه[٢] ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي ويخوفونك يا محمد بهذه الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن أشقاه الله وأضلَّه فلن يهديه أحدٌ كائنًا من كان ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي ومن أراد الله سعادته فهداه إلى الحق، ووفقه لسلوك طريق المهتدين، فلن يقدر أحدٌ على إضلاله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾؟ أي هو تعالى مَنيعُ الجَناب[٣] لا يُضَامُ مَن لجأ إلى بابه[٤]، وهو القادر على أن ينتقم من أعدائه لأوليائه، لأنه غالبٌ لا يُغلَب، ذو انتقام من أعدائه، وفي الآية وعيدٌ للمشركين، ووعدٌ للمؤمنين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ هذه الآية إقامة برهان على تزييف طريقة عبدة الأوثان، أي: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين عمَّن خلق السموات والأرض ليقولُنَّ اللهُ خالقهما، لوضوح الدليل على تفرده تعالى بالخالقية قال الرازي: إنَّ العلم بوجود الإله القادر الحكيم، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق، وفطرة العقل شاهدةٌ بصحة هذا العالم، فإنَّ من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان، وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحِكَم الغريبة، والمصالح العجيبة، علم أنه لا بدَّ من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم، ولهذا أقر المشركون بوجود الله[٥] ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخًا وتبكيتًا: أخبروني بعد أن تحققتم أن خالق العالم هو الله عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؟ أخبروني لو أراد الله أن يصيبني بشدة أو بلاء، هل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك السوء والضُّرَّ؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟ أي ولو أراد الله نفعًا من نعمة ورخاء هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة؟ والجواب محذوفٌ لدلالة الكلام عليه يعني فسيقولون: لا، لا تكشف السوء، ولا تمنع الرحمة[٦] ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي الله

(١) «تفسير ابي السعود» ٤/ ١٣٠.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٢٩.
(٣) (ش): أي عزيزٌ، مرهوبٌ، يُخْشى بأسُه.
(٤) (ش): الضَيْم: فِعْل يُسبِّب الظلمَ والإذلالَ. يقال: ضَامَ الشخصَ: قهره، ظلمه وأضرَّ به. ضَامَ عدوَّه: أذلَّه. ضامَه حقَّه: انتقصه.
(٥) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٨٢.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٥٩.

كافيني فلا ألتفت إلى غيره، عليه وحده يعتمد المعتمدون، والغرضُ الاحتجاجُ على المشركين في عبادة ما لا يضرُّ ولا ينفع، وإقامة البرهان على الوحدانية ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي اعملوا على طريقتكم من المكر والكيد والخداع ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي إني عاملٌ على طريقتي، من الدعوة إلى الله وإظهار دينه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي فسوف تعلمون لمن سيكون العذاب الذي يذل ويخزي الإنسان ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي وينزل عليه عذاب دائمٌ لا ينقطع وهو عذاب النار، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم؟ والغرض التهديد والتخويف قال أبو السعود: وفي الآية مبالغة في الوعيد، وإشعارٌ بأن حاله عليه السلام لا تزال تزداد قوةً بنصر الله وتأييده، وفي خزي أعدائه دليل غلبته عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، وقد عذبهم الله وأخزاهم يوم بدر [١]﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه، لجميع الخلق، بالحقِّ الواضح الذي لا يلتبس به الباطل ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي: فمن اهتدى فنفعه يعود عليه، ومن ضلَّ فضرر ضلاله لا يعود إلا عليه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي لستَ بموكَّل عليهم حتى تجبرهم على الإيمان قال الصاوي: وفي هذا تسلية له ﷺ. والمعنى: ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه، وإنما هو بيدنا، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال[٢] ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي يقبضها من الأبدان عند فناء آجالها وهي الوفاة الكبرى ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي الوفاة الصغرى قال في التسهيل: هذه الآية للاعتبار. ومعناها: أن الله يتوفى النفوس على وجهين: أحدهما: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت، والآخر: وفاة النوم لأن النائم كالميت، في كونه لا يُبصر ولا يسمع، ومنه قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ [الأنعام: ٦٠] وفي الآية عطف والتقدير: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها[٣] وقال ابن كثير: أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الملائكة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام[٤] ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ أي فيمسك الروح التي قضى على صاحبها الموتَ فلا يردها إلى البدن ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود، هو أجل موتها الحقيقي قال ابن عباس: إنَّ أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام،

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣١٠.
(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٧٤.
(٣) «التسهيل» ٣/ ١٩٦.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٢.

فتتعارف ما شاء الله لها، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها[١] قال القرطبي: وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى، وانفراده بالألوهية، وأنه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، لا يقدر على ذلك سواه[٢]، ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في هذه الأفعال العجيبة لعلامات واضحة قاطعة، على كمال قدرة الله وعلمه، لقوم يُجيلُون أفكارهم فيها[٣] فيعتبِرون ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أمْ للإضراب، أي: لم يتفكروا بل اتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام، فانظر إلى فرط جهالتهم حيث اتخذوا من لا يملك شيئًا أصلًا شفعاء لهم عند الله قال ابن كثير: هذا ذمٌّ للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله وهي الأصنام والأوثان التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم، بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئًا من الأمر، وليس لها عقل تعقل به، ولا سمعٌ تسمع به، ولا بصرٌ تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالًا بكثير من الحيوانات[٤] ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام توبيخي، أي: قل لهم يا محمد: أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا على هذه الصفة جمادات لا تقدر على شيء، ولا عقل لها ولا شعور؟ ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي قل لهم: الشفاعةُ للهِ وحده، لا يملكها أحدٌ إلا الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو المتصرف في المُلك والملكوت قال البيضاوي: أي هو تعالى مالك المُلكِ كله، لا يملك أحدٌ أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه[٥] ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مصيركم إليه يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلاًّ بعمله. ثم ذكر تعالى نوعًا آخر من أفعالهم القبيحة فقال ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي وإذا أفرد الله بالذكر، ولم يذكر معه آلهتهم وقيل أمام المشركين: لا إله إلا اللهُ ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي نفرت وانقبضت من شدة الكراهة قلوب هؤلاء المشركين ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي وإذا ذكرت الأوثان والأصنام إذا هم يفرحون ويُسَرُّون قال الإمام الفخر: هذا نوع آخر من قبائح المشركين، فإنك إذا ذكرتَ الأصنام وقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ظهرتْ آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرتَ الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم، وذلك يدل على الجهل والحماقة، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات، وذكر الأصنام الجمادات رأسُ الجهالات والحماقات، فنفرتُهم عن ذكر الله، واستبشارهم بذكر

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٦٠.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٦٣.
(٣) (ش): أَجَالَ القومُ الرَّأيَ فيما بينهم: تداولوا البحثَ فيه. أجال الرَّأيَ في الموضوع: فكّر فيه.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٢.
(٥) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥٤.

الأصنام، من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ، والحُمق الشديد[١] ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قـل: يا الله يا خالق ومبدع السموات والأرض ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي يا عالم السرِّ والعلانية، يا من لا تخفى عليه خافية، مما هو غائب عن الأعين أو مُشاهَدٌ بالأبصار ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي أنـت تفصـل بيـن الخلائـق بعدلـك وقضائـك، فافصـل بيني وبين هؤلاء المشـركين قال في البحر: لما أخبر عن سـخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله، واستبشارهم بذكر الأصنام أمر رسوله أن يدعوه بأسمائه العظمى من القـدرة والعلـم ليفصل بينـه وبين أعدائه، وفي ذلك وعيد للمشـركين وتسـلية للرسـول عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّـلَامُ وقال الصاوي[٢]: أي التجئ إلى ربك بالدعاء والتضرع فإنه القادر على كل شيء[٣] ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي ولو أنَّ لهؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب القـرآن والرسـول ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي لـو ملكوا كل مـا في الأرض من أموال، وملكـوا مثل ذلـك معـه ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لجعلوا كل مـا لديهم من أمـوال وذخائر، فديةً لأنفسـهم من ذلك العقاب الشـديد يوم القيامـة ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي وظهـر لهـم من أنواع العقوبات ما لـم يكن في حسـابهم قال أبو السـعود: وهـذا غاية مـن الوعيد لا غاية وراءهـا، ونظيرها في الوعـد ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][٤] ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي وظهـر لهـم في ذلك اليوم المفزع سـيئات أعمالهم التي اكتسبوها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وأحاط ونزل بهم من كل الجوانـب جزاء ما كانوا يسـتهزئون به قال ابن كثيـر: أي أحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يسـتهزئون به في الدنيا[٥] ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي فإذا أصاب هذا الإنسـان الكافر شيءٌ من الشدة والبلاء، تضرَّع إلى الله وأناب إليه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي ثم إذا أعطيناه نعمة منا تفضلا عليه وكرمًا ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي قال ذلك الإنسان الكافر الجاحد: إنمـا أُعْطيتُـه على علمٍ مني بوجوه المكاسـب والمتاجـر ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي ليس الأمر كما زعـم بل هي اختبـارٌ وامتحانٌ له، لنختبره فيما أنعمنا عليـه أيطيع أم يعصي؟ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكـنَّ أكثـر الناس لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبـار وابتلاء فلذلك يبطرون ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قـال تلـك الكلمة والمقالة الكفـار قبلهم كقارون وغيره حيث قـال ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي فما نَفَعهم

(١) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٨٦.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٣٢.
(٣) «حاشيه الصاوي» ٣/ ٣٥٧.
(٤) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣١١.
(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٤.

ما جمعوه من الأموال، ولا ما كسبوه من الحُطام ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓاْ﴾ أي فنالهم جزاء أعمالهم السيئة ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي والذين ظلموا من هؤلاء المشركين كفار قريش ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك قال البيضاوي: وقد أصابهم ذلك فإنهم قد قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف وقُتل ببدرٍ صناديدهم[1] ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي وليسوا بفائتين من عذابنا، لا يعجزوننا هربًا ولا يفوتوننا طلبًا.. ثم ردَّ عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الحال فقال ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾؟ أي أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسِّع الرزق على قوم، ويضيّقه على آخرين؟ فليس أمر الرزق تابعًا لذكاء الإِنسان أو غبائه، إنما هو تابعٌ للقسمة والحكمة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في الذي ذكر لعبرًا وحججًا لقوم يصدِّقون بآيات الله قال القرطبي: وخصَّ المؤمن بالذكر، لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدراجًا، وأن تقتيره قد يكون إعظامًا[2].

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ
﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ
لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾
أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى
كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ
ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾
ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ
إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن
مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ
مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن
فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا
وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ

(١) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥٦.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٦٧.

مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ
أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ
يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ
لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ وَقَالُواْ
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ
﴿٧٤﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال الفجرة المشركين، وذكر ما يكونون عليه في الآخرة من الذل والهوان، دعا المؤمنين إلى الإنابة والتوبة قبل فوات الأوان، وختم السورة بذكر عظمة الله وجلاله يوم الحشر الأكبر، حيث يكون العدل الإلهي والقسطاسُ المستقيم، ويساق السعداء إلى الجنة زمرًا، والأشقياء إلى النار زمرًا ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا..﴾ الآية.

اللغة: ﴿بَغۡتَةً﴾ فجأة ﴿مَثۡوَى﴾ مكان إقامة يقال: ثوى بالمكان أقام فيه ﴿مَقَالِيدُ﴾ خزائن ومفاتيح ﴿زُمَرًا﴾ جماعات جماعات جمع زُمرة وهي الجماعة ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ حُرَّاسها الموكلون عليها ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ تبوأ المكانَ حلَّ ونزل فيه ﴿حَآفِّينَ﴾ محيطين به من أطرافه وجهاته.

التفسير: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أخبر يا محمد عبادي المؤمنين الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن شاء، وإن كانت مثل زبد البحر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة، وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ وقال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت[1] ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ من قبل حلول نقمته تعالى بكم ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[2] أي ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه[3] ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم، بامتثال أوامره

(١) «حاشيه الصاوي» ٣/ ٣٧٦.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٧.
(٣) «الكشاف» ٤/ ١٠٥.

واجتناب نواهيه[١]، والزموا أحسن كتاب أنزل إليكم فيه سعادتُكم وفلاحُكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي من قبل أن ينزل بكم[٢] العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أي لئلا تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي يا حسرتي وندامتي على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقِّه قال مجاهد: يا حسرتا على ماضيعت من أمر الله[٣] ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي وإِنَّ الحال والشأن أنني كنت من المستهزئين بشريعة الله ودينه قال قتادة: لم يكفه أن ضيَّع طاعة الله حتى سَخِرَ من أهلها ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ «أو» للتنويع أي يقول الكافر والفاجر هذا أو هذا. والمعنى: لو أن الله هداني لاهتديت إلى الحق، وأطعت الله، وكنت من عباده الصالحين قال ابن كثير: يتحسر المجرم ويودُّ لو كان من المحسنين المخلصين، المطيعين لله عزَّ وجل[٤] ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشاهدتها العذاب لو أنَّ لي رجعةً إلى الدنيا لأعمل بطاعة الله، وأُحسن سيرتي وعملي ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾ هو جواب قوله ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ والمعنى بلى قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل، وإنزاله الكتب ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي فكذبت بالآيات، وتكبرت عن الإيمان، وكنت من الجاحدين قال الصاوي: إن الكافر أولًا يتحسر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا[٥]، ولو رُدَّ لَعَادَ إلى ضلاله كما قال تعالى ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي ويوم القيامة ترى أيها المخاطب الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد وجوههم سوداء مظلمة بكذبهم وافترائهم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ استفهام تقريري، أي: أليس في جهنم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان، وعن طاعة الرحمن؟ بلى إنَّ لهم منزلًا ومأوى في دار الجحيم.. ولما ذكر حال الكاذبين على الله، ذكر حال المتقين لله فقال ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي وينجي الله المتقين بسبب سعادتهم وفوزهم بمطلوبهم وهو الجنة دار الأبرار ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا ينالهم هلعٌ ولا جزع، ولا هم يحزنون في الآخرة، بل هم آمنون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] ثم عاد إلى دلائل الألوهية والتوحيد، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد فقال ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٨٣.
(٢) نفس المرجع السابق ١٥/ ٢٦٨.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٧١.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٧.
(٥) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣/ ٣٧٧.

شَىْءٍ﴾ أي الله جل وعلا خالقُ جميع الأشياء ومُوجِدُ المخلوقات، والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره ولا ربَّ سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي هو القائم بتدبير كل شيء ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائن كل الأشياء، لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره قال ابن عباس: «مقاليد» مفاتيح، وقال السدي: خزائن السمواتِ والأرض بيده[1] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي والذين كذَّبوا بآيات القرآن الظاهرة، والمعجزات الباهرة، أولئك هم الخاسرون أشدَّ الخسران ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؟ أي قل يا محمد: أتأمرونني أن أعبد غير الله بعد سطوع الآيات والدلائل على وحدانيته يا أيها الجاهلون؟ قال ابن كثير: إن المشركين من جهلهم دعوا رسولَ الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه فنزلت الآية[2] ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ اللام مُوَطِّئَةٌ للقَسَم[3] أي واللهِ لقد أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي لئن أشركت يا محمد ليبطلنَّ ويفسدنَّ عملك الصالح ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي ولتكونَنَّ في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك. وهذا على سبيل الفرض والتقدير، وإلاّ فالرسول ﷺ قد عصمه الله، وحاشا له أن يشرك بالله، وهو الذي جاء لإقامة صرح الإيمان والتوحيد قال أبو السعود: والكلام واردٌ على طريقة الفرض لتهييج الرسول، وإقناط الكفرة، والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه[4] ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده، ولا تعبد أحدًا سواه. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي وكن من الشاكرين لإنعام ربك ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي وما عرفوا الله حق معرفته، إذ أشركوا معه غيره، وساووا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة[5].. ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه فقال ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الجملة حالية والمعنى ما عظَّموه حقَّ تعظيمه والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة، التي هي غاية العظمة والجلال[6]، فالأرضُ مع سعتها وبسطتها يوم القيامة تحت قبضته وسلطانه ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي والسموات مضمومات ومجموعات بقدرته تعالى قال الزمخشري: والغرضُ من هذا الكلام تصويرُ عظمته والتوقيف على كُنْه جلاله لا غير[7]، من غير ذهابٍ بالقبضة واليمين إلى جهة[8] وفي الحديث «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٧٤.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٨. (ش): ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره».
(٣) (ش): مُوَطِّئَةٌ للقَسَم: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرِفته.
(٤) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣١٤.
(٥) «البحر المحيط» ٧/ ٤٣٩.
(٦) «الكشاف» ٤/ ١١٠.
(٧) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري.
(٨) (ش): تُوصَفُ يَدُ الله عزَّ وجَلَّ بأنها يَمِين، وهذا ثابتٌ بالكتاب والسنة. وتفسير اليمين بالقدرة، تأويلٌ باطل =

بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟ »[(١)] ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدس عما يصفه به المشركون من صفاتِ العجز والنقص، ثم ذكر تعالى أهوال الآخرة فقال ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هو قَرْنٌ يَنفُخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله[(٢)]، والمراد بالنفخة هنا «نفخة الصَّعق» التي تكون بعد نفخة الفزع قال ابن كثير: وهي النفخة الثانية التي يموت بها الأحياء من أهل السمواتِ والأرض ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي فخَّر ميتًا كل من في السموات والأرض ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي إلاَّ من شاء الله بقاءه كحملة العرش، والحور العين والولدان ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ أي نُفخ فيه نفخةٌ أخرى وهي نفخةُ الإحياء ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور ينظرون ماذا يُؤمرون ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تَجَلِّي الباري جلّ وعلا لفصل القضاء بين العباد ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي أحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي وجيء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أممهم، وبالشهداء وهم الحَفَظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم[(٣)]، وقال السدي: هم الذين استشهدوا في سبيل الله ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي وقضي بين العباد جميعًا بالقسط والعدل ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي وهم في الآخرة لا يظلمون شيئًا من أعمالهم، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب قال ابن جبير: لا يُنقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي جوزي كل إنسان بما عمل من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي هو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك تشهد الكتب إلزامًا للحجة. ثم فصَّل تعالى مآل كل من الأشقياء والسعداء فقال ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي وسيق الكفرة المجرمون إلى نار جهنم جماعاتٍ جماعات، كما يساق الأشقياء في الدنيا إلى السجون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي حتى إذا وصلوا إليها فتحت أبواب جهنم فجأة لتستقبلهم ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾؟ أي وقال لهم خزنة جهنم تقريعًا وتوبيخًا: ألم يأتكم رسلٌ من البشر يتلون عليكم الكتب المنزلة من السماء؟ ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾؟ أي ويخوفونكم من شر هذا اليوم العصيب؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي قالوا: بلى قد جاءونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ولكننا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من

= ليمين الرحمن جل وعلا. والحديث الذي ذكره المؤلف بعدُ يَرُدُّ هذا التأويل.

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٩. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): قَرْنٌ: بُوقٌ.

(٣) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ فالسائق يسُوقها إلي الحساب، والشاهد يشهد عليها وهو المَلَك الموكل بالإنسان.

الشقاوة قال القرطبي: وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، والمراد بكلمة العذاب قوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[١] [هود: ١١٩] ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي قيل لهم: ادخلوا جهنَّم لتصلوا سعيرها ماكثين فيها أبدًا، بلا زوال ولا انتقال ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعاتٍ جماعات راكبين على النجائب[٢] قال القرطبي: سَوْقُ أهل النار طَرْدُهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسَوْقُ أهل الجنان سَوْقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان، لأنه لا يُذهَب بهم إلا راكبين، كما يُفعَل بالوافدين على الملوك، فشتَّان ما بين السَّوْقين[٣] ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابُها كقوله تعالى ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠] قال الصاوي: والحكمةُ في زيادة الواو هنا «فُتحت» دون التي قبلها، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم، فتفتح لهم ثم تُغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظارًا لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها[٤] ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي وقال لهم حراس الجنة: سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي والذنوب، فادخلوا الجنة دار الخلود، قال البيضاوي: وجواب «إذا» محذوف، للدلالة على أنَّ لهم من الكرامة والتعظيم، ما لا يحيط به الوصف والبيان[٥] قال ابن كثير: وتقديره إذا كان هذا سُعِدوا، وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم[٦] ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها: الحمد لله الذي حقَّق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة قال المفسرون: والإشارة إلى وعده تعالى لهم بقوله ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي وملَّكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه وننزل فيها حيث نشاء، ولا ينازعنا فيها أحد ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي فنعم أجر العاملين بطاعة الله الجنة ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي وترى يا محمد الملائكة محيطين بعرش الرحمن، محدقين به من كل جانب ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٨٤.
(٢) (ش): النَّجيب من الإبل: القويّ، الخفيف، السَّريع؛ نجائبُ الإبل: خيارُها.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٨٥.
(٤) «حاشية الصاوي» ١٣/ ٣٨١.
(٥) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٤٧.
(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٢.

يسبحون الله ويمجدونه تلذذًا لا تعبدًا [(١)] ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي وقُضي بين العباد بالعدل ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وقيل: الحمد لله على عدله وقضائه قال المفسرون: القائل هم المؤمنون والكافرون، المؤمنون يحمدون الله على فضله، والكافرون يحمدونه على عدله قال ابن كثير: نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد [(٢)].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿تَكْفُرُواْ.. تَشْكُرُواْ﴾ وبين ﴿يَرْجُواْ.. وَيَحْذَرُ﴾ وبين ﴿فَوْقِهِمْ.. تَحْتِهِمْ﴾ وبين ﴿ضُرٌّ.. وَرَحْمَةً﴾ وبين ﴿ٱلْغَيْبِ.. وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ.. وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿ٱهْتَدَىٰ.. وَضَلَّ﴾ إلخ.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] وكذلك في قوله ﴿أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

٣ - الأسلوب التهكمي ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٦] إطلاق الظلة عليها تهكم لأنها مُحرِقَة، والظلة تقي من الحر.

٤ - المقابلة الرائعة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ..﴾ [الزمر: ٤٥] الآية فقد قابل بين الله والأصنام، وبين السرور والاشمئزاز، وكذلك توجد مقابلة بين آيتي السعداء والأشقياء ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وقابل ذلك بقوله ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا.﴾ والمقابلةُ أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يُؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب وهو من المحسنات البديعية.

٥ - الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]؟ حذف خبره وتقديره كمن طبع الله على قلبه؟ ومثله ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩]؟ أي كمن هو كافرٌ جاحد لربه؟

٦ - الأمر الذي يراد منه التهديد ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ [الزمر: ٨] ومثله ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الزمر: ٣٩] للمبالغة في الوعيد.

٧ - المجاز المرسل ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]؟ أطلق المسبب وأراد السبب، لأن الضلال سبب لدخول النار.

---

(١) (ش): هذا فيه نظر لأنه لا دليلَ عليه والله وصَف الملائكة بأنهم عِبادٌ، فلو قال المؤلف: «تلذذًا وتعبدًا»، لَكَان أحسن.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٣.

٨ - الاستعارة ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي مفاتيح خيراتهما، ومعادن بركاتها فشبَّه الخيرات والبركات بخزائن واستعار لها لفظ المقاليد، بمعنى المفاتيح، ومعنى الآية خزائن رحمته وفضله بيده تعالى.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ مثَّل لعظمته وكمال قدرته، وحقارة الأجرام العظام التي تتحير فيها الأوهام بالنسبة لقدرته تعالى بمن قبض شيئًا عظيمًا بكفه، وطوى السموات بيمينه بطريق الاستعارة التمثيلية، قال في «تلخيص البيان»: وفي الآية استعارة. ومعنى ذلك: أن الأرض في مقدوره كالذي يقبض عليه القابض، فتستولي عليه كفه، ويحوزه ملكه، ولا يشاركه غيره، والسموات مجموعات في ملكه ومضمومات بقدرته وقال الزمخشري: والآية لتصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة، لأن الغرض الدلالة على القدرة الباهرة، ولا ترى بابًا في علم البيان أدق ولا أرقَّ ولا ألطف من هذا الباب[1].

١٠ - الكناية ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ﴾ جنبُ الله كنايةٌ عن حقِّ الله وطاعته، وهذا من لطيف الكنايات.

١١ - الالتفات من التكلم إلى الغيبة ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ والأصل: (لا تقطنوا من رحمتي) قال علماء البيان: وفي الآية الكريمة ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الآية من أنواع المعاني والبيان أمور حسان: منها إقباله تعالى على خلقه ونداؤه لهم، ومنها إضافة الرحمة للفظ الجلالة الجامع لجميع الأسماء والصفات، ومنها الإتيان بالجملة المعرَّفة الطرفين المؤكدة بإن وضمير الفصل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٢ - توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو نهاية في الروعة والجمال اقرأ مثلًا قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ ألا تأخذك روعة هذا البيان برونقه، وجماله، وأدائه، فينطلق لسانك بذكر الرحمن؟!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمر»



(١) (ش): توصف يَدُ الله عزَّ وجَلَّ بأنها يَمِين، وهذا ثابتٌ بالكتاب والسنة. وتفسير اليمين بالقدرة، تأويل باطل ليمين الرحمن جل وعلا.



مكية وآياتها خمس وثمانون

بين يدي السورة

* سورة غافر مكية، وهي تعنى بأمور العقيدة كشأن سائر السورة المكية، ويكاد يكون موضوع السورة البارز هو المعركة بين «الحق والباطل» و«الهدى والضلال» ولهذا جاء جو السورة مشحونًا بطابع العنف والشدة، وكأنه جو معركة رهيبة يكون فيها الطعن والنزال، ثم تسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حطام وركام.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنى، وآياته العظمى، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله، فمع وضوح الحق وسطوعه، جادل فيه المجادلون، وكابر فيه المكابرون.

* وعرضت السورة لمصارع الغابرين وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم يفلت منهم إنسان.

* وفي ثنايا هذا الجو الرهيب، يأتي مشهد حملة العرش في دعائهم الخاشع المنيب.

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها، فإذا العباد واقفون للحساب، بارزون أمام الملك الديان، يغمرهم رهبة وخشوع، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع، وفي ذلك الموقف الرهيب، واليوم العصيب، يلقى الإنسان جزاءه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

* ثم يأتي الحديث عن قصة الإيمان والطغيان، ممثلة في دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار، ففرعون يريد -بكبريائه وجبروته- أن يقضي على موسى وأتباعه خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام، وتبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة، لم تعرض في قصة موسى من قبل، ألا وهي ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يخفي إيمانه، يصدع بكلمة الحق في تلطف وحذر، ثم في صراحة ووضوح، وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية الجبال بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره وبنجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين.

* ثم تعرضت السورة إلى بعض الآيات الكونية، والشاهدة بعظمة الله، الناطقة بوحدانيته وجلاله، الذي يشركون به ويكفرون بآياته، وتضرب مثلًا للمؤمن والكافر بالبصير والأعمى، فالمؤمن على نور من الله وبصيرة، والكافر يتخبط في الظلام. * وتختم السورة الكريمة بالحديث عن مصارع المكذبين، والطغاة المتجبرين، ومشهد العذاب يأخذهم وهم في غفلتهم سادرون.

التسـمية: سـميت «سـورة غافر» لأن الله تعالى ذكـر هذا الوصف الجليـل – الذي هو من صفات الله الحسـنى – في مطلع السورة الكريمة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ وتسـمى سورة المؤمن لذكر قصة مؤمن آل فرعون.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي
ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ
﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ
بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ
إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ
مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ
ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ
﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ
مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ
ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ
﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾
يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ
بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن
قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ

اللغَة: ﴿غَافِرِ﴾ الغفر: السـترُ والمحو والتكفير ﴿ٱلطَّوۡلِ﴾ الإنعام والتفضل ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ يبطلـوا ويزيلـوا، يقال: الباطلُ داحضٌ، لأنه يزلق ويزل فلا يسـتقر ﴿حَقَّتۡ﴾ وجبت ولزمت

﴿لَمَقْتُ﴾ المقت: شدة البغض ﴿ٱلرُّوحَ﴾ الوحيُ والنبوة سمي رُوحًا لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأبدان بالأرواح ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ الاجتماع في الحشر ﴿بَٰرِزُونَ﴾ ظاهرون لا يسترهم شيء ﴿ٱلْآزِفَةِ﴾ اسم للقيامة سميت آزفة لقربها، يقال أزف الشيء إذا اقترب ﴿وَاقٍ﴾ دافع يدفع عنهم العذاب.

التفسِير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطَّعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإرشاد على أن هذا القرآن المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[1] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي العزيز في ملكه، العليم في خلقه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي الذي يعفو عن ذنوب العباد، ويقبل توبة العصاة لمن تاب منهم وأناب ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي شديد العقاب لمن تكبر وطغى، وأعرض عن طاعة المولى ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي ذي الفضل والإنعام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا الله، ولا ربَّ في الوجود سواه ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق فيجازيهم بأعمالهم، وإنما قدَّم المغفرة والتوبة على العقاب، للإشارة إلى سعة الفضل وأن رحمته سبقت عذابه، ثم لما ذكر أن القرآن هداية الله للعالمين، أعقبه بذكر المجادلين المعاندين فقال ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ما يدفع الحق ويجادل في هذا القرآن بعد وضوح آياته وظهور إعجازه إلا الجاحدون لآياتِ الله، المعاندون لرسله ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي فلا تغترَّ أيها العاقل بتصرفهم وتقلبهم في هذه الدنيا، بالمساكن والمزارع، والممالك والتجارات، فإنهم أشقى الناس، وما هم عليه من النعيم متاعٌ قليل، وظلٌّ زائل، فإني وإن أمهلتهم لا أهملُهم، بل آخذهم بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر قال في التسهيل: والآية تسليةٌ للنبي ﷺ ووعيدٌ شديد للكفار[2] ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي كذَّب قبل كفار مكة أقوام كثيرون، منهم قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله كقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي وهمت كل أمةٍ من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به قال ابن كثير: أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم مَن قتَل رسوله[3] ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي جادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق الواضح الجلي ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي فأهلكتهم إهلاكًا مريعًا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ استفهام

(١) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقره، وهذه السورة واحدة من سبع سور كلها كلها تبدأ بالحرفين (حا ميم) وتسمى السبع آل حا ميم. (ش): وفي طبعة أخرى: وتسمى الحواميم السبع أو ال حا ميم. اهـ. وفي «لسان العرب» (١/ ١٢): «قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: قَالَت الْعَامَّة فِي جمع حم وطس: طواسين وحواميم. قَالَ: وَالصَّوَاب ذَوَات طس وَذَوَات حم وَذَوَات الم».

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٥.

تعجيب أي فكيف كان عقابي لهم؟ ألم يكن شديدًا فظيعًا؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي وكذلك وجبت كلمة العذاب على هؤلاء المكذبين من قومك، كما وجبت لمن سبقهم من الكفار ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي لأنهم أهل النار، قال القرطبي: أي كما حقَّ على الأمم التي كذبت رسلها وحلَّ بها عقابي، كذلك وجبت كلمة العذاب على الذين كفروا بالله من قومك لأنهم أصحاب النار[١].

ثم ذكر تعالى حال الملائكة الأطهار، والمؤمنين الأبرار، بعد أن ذكر الكفار والفجار فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي هؤلاء العباد المقربون حملةُ العرش ومن حول العرش من أشراف الملائكة وأكابرهم، ممن لا يُحصي عددهم إلا الله، هم في عبادة دائبة لله، ينزهونه عن صفات النقص، ويثنون عليه بصفات الكمال ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي ويصدقون بوجوده تعالى، وبأنه لا إله لهم سواه، ولا يستكبرون عن عبادته قال الزمخشري: فإن قالت: ما فائدة قوله ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش وجميع الملائكة يؤمنون بالله؟ فالجواب أن ذلك إظهار لفضيلة الإيمان وشرفه والترغيب فيه[٢] ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي وهم مع عباداتهم واستغراقهم في تسبيح الله وتمجيده، يطلبون من الله المغفرة للمؤمنين قائلين ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي يا ربنا وسعَتْ رحمتُك وعلمُك كل شيء قال المفسرون: وفي وصف الله تعالى بالرحمة والعلم -وهو ثناءٌ قبل الدعاء- تعليمُ العباد أدب السؤال والدعاء، فهم يبدءون دعاءهم بأدبٍ ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه[٣] ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي فاصفح عن المسيئين المذنبين، التائبين عن الشرك والمعاصي، المتبعين لسبيل الحق الذي جاء به أنبياؤك ورسلك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي واحفظهم من عذاب جهنم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ أي أدخلهم جنات النعيم والإقامة التي وعدتهم إياها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي وأدخل الصالحين من الآباء والأزواج والأولاد في جنات النعيم أيضًا ليتم سرورهم بهم قال ابن كثير: أي اجمع بينهم وبينهم لتَقرَّ بذلك أعينُهم[٤] بالاجتماع في الجنة بمنازل متجاورة[٥] ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العزيز الذي لا يُغلب ولا يَمتنع عليه شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا من

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٤/ ٤٣.

(٢) «تفسير الكشاف» ٤/ ١١٨.

(٣) انظر «البحر المحيط» ٧/ ٤٥١.

(٤) (ش): قرَّت عينُه: بَرد دمعُها، ضدّ سخُنت، ويُكنَّى به عن السرور والابتهاج، وقيل: لأنَّه للسّرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارّة.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٦.

تمام دعاء الملائكة، أي: احفظهم يا ربّ من فعل المنكرات والفواحش التي توبق أصحابها ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ أي ومَن حفظْتَه من نتائجها وعواقبها يوم القيامة، فقد لطفت به ونجَّيْتَه من العقوبة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي وذلك الغفران ودخول الجنان، هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله.. ولما تحدث عن أحوال المؤمنين، ذكر شيئًا من أحوال الكافرين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي تناديهم الملائكة يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع: لَبُغْضُ اللهِ الشديدُ لكم في الدنيا أعظم من بُغضكم اليوم لأنفسكم ﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾ أي حين كنتم تُدعون إلى الإيمان فتكفرون كبرًا وعتوًّا قال قتادة: بغضُ الله لأهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا فأبوا أن يقبلوه، أكبرُ مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله[1] ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أي قال الكفار لما رأوا الشدائد والأهوال: ربَّنا أمتَّنا مرتين، وأحييتنا مرتين ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أي فاعترفنا بما جنيناه من الذنوب في الدنيا ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي فهل تردنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ وهل تخرجنا من النار لنسلك طريق الأبرار؟ قال المفسرون: الموتةُ الأولى حين كانوا في العدم، والموتة الثانية حين ماتوا في الدنيا، والحياة الأولى حياة الدنيا، والحياة الثانية حياةُ البعث يوم القيامة، فهاتان موتتان وحياتان[2]، وإنما قالوا ذلك على سبيل التعطف والتوسل إلى رضى الله، بعد أن عاينوا العذاب، وقد كانوا يكفرون وينكرون، ولهذا جاء الجواب ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ أي ذلكم العذاب والخلود في جهنم بسبب كفركم وعدم إيمانكم بالله، فإذا دعيتم إلى التوحيد كفرتم ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ وإن دعيتم إلى اللات والعزَّى وأمثالهما من الأصنام، آمنتم وصدَّقتم بألوهيتها ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ أي فالقضاء لله وحده، لا للأوثان والأصنام، ولا سبيل إلى نجاتكم، لأن الله هو المتعالي على خلقه، العظيم في ملكه الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد للمشركين، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير بمنزلة البرهان على عدم جواز عبادة الأوثان فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي الله جل وعلا هو الذي يريكم أيها الناس العلامات الدالة على قدرته الباهرة في مخلوقاته، في العالم العلوي والسفلي الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾ أي وينزِّل لكم من السماء المطر الذي هو سبب للرزق، وبه تخرج الزروع والثمار ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي وما يعتبر ويتَّعظ بهذه

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٧١.

(٢) هذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ، قالوا: وهذه مثل قوله تعالي: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ الآيه.

الآيات الباهرة، إلا من يرجع إلى الله بالتوبة والإنابة، والعمل الصالح البعيد عن الرياء والنفاق ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي فاعبدوا الله أيها المؤمنون مخلصين له العبادة والطاعة ولا تعبدوا معه غيره ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ هذا للمبالغة، أي: اعبدوه وأَخلِصوا له قلوبكم، حتى ولو كره الكافرون ذلك، وغاظَهم إخلاصُكم وقاتَلُوكم عليه ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي صاحبُ العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات، ولا شيء يشبهه من مخلوقات الله. قال ابن كثير: أخبر تعالى عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، وقد ذُكِر أن العرش من ياقوتةٍ حمراء[١] ولا يعلم سعته إلا الله[٢] وقال أبو السعود: وكونُ العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي، تحت ملكوته وقبضة قدرته، مما يقضي بكون علو شأنه وعظم سلطانه، في غايةٍ لا غاية وراءها[٣] ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي ينزل الوحي على من يشاء من خلقه، ويختص بالرسالة والنبوة من أراد من عباده، وإنما سمَّى الوحي روحًا لأنه يسري في القلوب كسريان الروح في الجسد قال القرطبي: سمَّاه روحًا لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح[٤] ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي ليخوِّفَ الرسولُ الموحَى إليه يومَ القيامة الكبرى، حيث يلتقي العباد جميعًا ليحاسَبوا على أعمالهم، ويلتقي الخلق بالخالق في ساعة الحساب قال قتادة: يلتقي فيه أهل السماء بأهل الأرض، والخالق والخلق[٥] ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي يوم هم ظاهرون بادون للعيان، لا شيء يكُنُّهم ولا يُظِلّهم ولا يسترهم من جبلٍ أو أكمةٍ أو بناء[٦]، لأنهم في أرض مستوية هي أرض المحشر ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾ أي لا يخفى على الله شيء من أحوالهم وأعمالهم ولا من سرائرهم وبواطنهم قال الصاوي: والحكمة في تخصيص ذلك اليوم مع أن الله لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان مثلًا لا يراهم الله، وفي هذا اليوم لا يتوهمون هذا التوهم[٧] ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؟ أي ينادي الله

(١) (ش): رواه أبو الشيخ في «العظمة»، وضعفه الألباني.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٢.
(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٥ (ش): وكذلك علو ذاته، كما قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف ٥٤]: «﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ الاستواء: العلوّ والاستقرار». وقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيلٍ ولا تحريف كما هو مذهب السلف.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٩٩.
(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٨.
(٦) (ش): كَنَّ الشَّيءَ: أخفاه وستَره وصانه. أَكَمَة: تلٌّ صغيرٌ، أو موضع يكون أكثر ارتفاعًا ممّا حوله.
(٧) «حاشيه الصاوي» علي الجلالين ٤/ ٥.

سبحانه والناسُ بارزون في أرض المحشر: لمن المُلكُ اليوم؟ ويسكت الخلائق هيبةً لله تعالى وفزعًا، فيجيب تعالى نفسه قائلًا ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي لله المتفرد بالملك، الذي قهر بالغلبة كل ما سواه قال الحسن: هو تعالى السائل والمجيب، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه[1] ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي في ذلك اليوم يوم القضاء والفصل بين العباد تُجازى كل نفسٍ بما عملت من خيرٍ أو شر ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا يُظلَم أحدٌ شيئًا، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي سريعٌ حسابه، لا يشغله شأنٌ عن شأن، فيحاسب الخلائق جميعًا في وقتٍ واحد قال القرطبي: كما يرزقهم في ساعةٍ واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعةٍ واحدة، وفي الخبر: «لا ينتصف النهارُ حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار»[2] ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي خوِّفهم ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة قال ابن كثير: «الآزفة» اسم من أسماء القيامة، سميت بذلك لقربها كقوله تعالى ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧][3] ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ أي تكاد قلوبهم لشدة الخوف والجزع تبلغ الحناجر وهي الحلوق مكان البلعوم ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي ممتلئين غمًا وحسرةً شأن المكروب قال في التسهيل: معنى الآية أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر، ويحتمل أن يكون ذلك حقيقةً أو مجازًا عبَّر به عن شدة الخوف والحنجرة هي الحلق[4] ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي ليس للظالمين صديقٌ ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم لينقذهم من شدة العذاب ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي يعلم جلَّ وعلا العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى محرم قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسًا مع الناس، فتمرُّ المرأة فيسارقهم النظر إليها ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي ويعلم السرَّ المستور تخفيه الصدور ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي يقضي ويحكم بالعدل ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ أي لا حكم لهم أصلًا فكيف يكونون شركاء لله؟ قال أبو السعود: وهذا تهكمٌ بهم لأن الجماد لا يقال في حقه: يقضي أو لا يقضي[5] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ أي أولم يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار المكذبين ﴿فَيَنظُرُوا۟

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٠٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٠١، ومعنى «يقيل» من القيلولة وهي الاستراحة وقت الظهيرة. (ش): رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري في «تفسيرَيهما» من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بإسناد ضعيف. ورواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» من كلام ابن جريج بإسناد ضعيف.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٩.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٧.

﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي فينظروا ما حَلَّ بالمكذبين من العذاب والنكال؟ فإنَّ العاقل من اعتبر بغيره ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ أي كانوا أشدَّ قوةً من هؤلاء الكفار من قومك ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وأقوى آثارًا في الأرض من الحصون والقصور والجند الأشداء، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أهلكهم الله لما كذبوا الرسل ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي أهلكهم الله إهلاكًا فضيعًا بسبب إجرامهم وتكذيبهم رسل الله ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ أي وما كان لهم أحد يدفع عنهم عذاب الله، ولا يقيهم من عقابه. ثم ذكر تعالى سبب عقابه لهم فقال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الواضحات ﴿فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي فكفروا مع هذا البيان والبرهان فأهلكهم الله ودمَّرهم ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ﴾ أي إنه تعالى قوي لا يُقهَر، ذو قوة عظيمة وبأسٍ شديد ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي عقابه شديد لمن عصاه، وعذابه أليم وجيع، أعاذنا الله من عقابه وأجارنا من عذابه.

قال الله تعالى:

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ
كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ
نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ
رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ
إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ
كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾
يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ
إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ
ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن
يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ
وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ

ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ
سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ
ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ۞وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾
تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا
جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ
﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا
غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى ما حلَّ بالكفار من العذاب والدمار، أردفه بذكر قصة موسى مع فرعون تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من الأذى والتكذيب، وبيانًا لسنة الله تعالى في إهلاك الظالمين، ثم ذكر موقف مؤمن آل فرعون ونصيحته لقومه، وهي مواقف بطولية مشرِّفة في وجه الطغيان.

اللغَة: ﴿وَٱسۡتَحۡيُواْ﴾[1] استبْقوا بناتهم على قيد الحياة ﴿ضَلَٰلٖ﴾ ضياع وبطلان ﴿عُذۡتُ﴾ اعتصَمْتُ وتحصَّنْتُ والتجأْتُ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين مستعْلين ﴿بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ عذابه وانتقامه ﴿دَأۡبِ﴾ عادة وشأن ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة للنداء فيه إلى المحشر، أو لمناداة الناس بعضهم بعضًا قال أمية بن الصَّلت:

وَبَثَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاهَا ... فَهُمْ سُكَّانُهَا حَتَّى التَّنَادِ[2]

﴿عَاصِمٖ﴾ مانع ودافع ﴿صَرۡحٗا﴾ قصرًا وبناءً عظيمًا عاليًا ﴿تَبَابٖ﴾ خسران وهلاك ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا ولا محالة ﴿وَحَاقَ﴾ نزل وأحاط.

التفسِير: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ اللام مُوطِّئة للقسم[3] أي والله لقد بعثنا رسولنا موسى بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، وبالبرهان البيّن الظاهر وهو معجزة اليد والعصا ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ أي إلى فرعون الطاغية الجبار، ووزيره هامان، وقارون صاحب الكنوز والأموال قال في البحر: وخصَّ قارون وهامان بالذكر لمكانتهما في الكفر، ولأنهما أشهر أتباع فرعون[4] ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ أي فقالوا عن موسى: إنه ساحر فيما أظهر من المعجزات، كذَّاب فيما ادعاه أنه من عند الله، وصيغة كذَّاب للمبالغة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا﴾ أي فلما جاءهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على

---

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة والصواب: ﴿وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ﴾، ولعله خطأ طباعي.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣١٠.
(٣) (ش): مُوَطِّئَةٌ للقَسَم: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفته.
(٤) «البحر المحيط» ٧/ ٤٥٩.

صدقه، والتي أيَّده الله بها ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾ أي اقتلوا الذكور لئلا يتناسلوا، واستبقوا الإناث للخدمة قال الصاوي: وهذا القتلُ غيرُ الأول، لأن فرعون بعد ولادة موسى أمسَكَ عن قتْل الأولاد، فلما بُعث موسى وعجز عن معارضته أعاد القتل في الأولاد ليمتنع الناس من الإيمان، ولئلا يكثر جمعهم فيكيدوه، فأرسل الله عليهم أنواع العذاب كالضفادع والقُمَّل والدم والطوفان، إلى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم[1] ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي وما تدبيرهم ومكرهم إلا في خسرانٍ وهلاك، لأن الله لا يُنجِحَ سعْيَهم ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ أي قال فرعون الجبار: اتركوني حتى أقتل لكم موسى ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي وليناد ربه حتى يخلصه مني، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء وكأنه يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرضُه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعايةً لقلوب أصحابه قال أبو حيان: والظاهر أن فرعون -لعنه الله- كان قد استيقن أنه نبيٌّ، وأن ما جاء به آياتٌ باهرة وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خبثٌ وجبروت وكان قَتَّالًا سفَّاكًا للدماء لأهون شيء، فكيف لا يقتل من أحسَّ منه بأنه يَثُلُّ عَرْشَهُ[2]، وَيَهْدِمُ مُلْكَهُ، ولكنه يخاف إنْ همَّ بقَتْله أن يُعاجل بالهلاك، وكان كلامه للتمويه على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يَكُفُّونه، وما كان يَكُفُّه إلا شدةُ الخوف والفزع[3] ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ أي إني أخشى أن يغيّر ما أنتم عليه من عبادتكم لي إلى عبادة ربه ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ أي أو أن يثير الفتن والقلاقل في بلدكم، ويكون بسببه الهرْجُ، وهذا كما قال المثل «صار فرعون واعظًا» ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي إني استجرتُ بالله واعتصمتُ به ليحفظني ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي من شر كل جبارٍ عنيد متكبر عن الإيمان بالله، لا يصدِّق بالآخرة قال في التسهيل: وإنما قال ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره، وليكون فيه وصفٌ لغير فرعون بذلك الوصف القبيح[4] ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قال المفسرون: كان هذا الرجل ابن عم فرعون وكان قبطيًّا يخفي إيمانه عن فرعون، فلما سمع قول الجبار متوعدًا موسى بالقتل نصحهم بقوله ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ استفهام إنكاري للتبكيت عليهم، أي: أتقتلون رجلًا لا ذنب له إلا لأجل أن قال: ربيَ الله من غير تفكرٍ ولا تأملٍ في أمره؟ ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أي والحال أنه قد أتاكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها من عند ربكم ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾

(١) «حاشيه الصاوي» ٤/ ٦.
(٢) (ش): ثَلَّ عرشَه: أذهَب سُلطانَه، هدم مُلكَه وأزالَه.
(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٥٩.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥.

أي إن كان كاذبًا في دعوى الرسالة فضرر كذبه لا يتعداه قاله القرطبي: ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه، ولكنْ تلطفًا في الاستكفاف، واستنزالًا عن الأذى[1] ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي وإن كان صادقًا في دعواه أصابكم بعضُ ما وعدكم به من العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي لا يوفق للهداية والإيمان من هو مسرفٌ في الضلال، مبالغ في الكذب على الله قال الإمام الفخر: وفي هذا إشارة إلى رفع شأن موسى لأن الله هداه وأيده بالمعجزات، وتعريضٌ بفرعون في أنه مسرفٌ في عزمه على قتل موسى، كذَّاب في إقدامه على ادعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يبطله ويهدم أمره[2] وقال في البحر: هذا نوعٌ من أنواع علم البيان يسميه علماؤنا «استدراج المخاطب» وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى، وقومه على تكذيبه؛ أراد الانتصار له بطريق يَخْفي عليهم بها أنه متعصبٌ له، وأنه من أتباعه، فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يذكر اسمه بل قال رجلًا ليوهمهم أنه لا يعرفه، ثم قال ﴿أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل رجلًا مؤمنًا بالله أو هو نبي الله، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله، ثم أتبعه بقوله ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ فقدَّم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه ثم تلاه بقوله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ ولم يقل هو صادق وكذلك قال ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ولم يقل كلُّ ما يعدكم، ولو قال ذلك؛ لعلموا أنه متعصب له، وأنه يزعم نبوته وأنه يصدّقه، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدِّق له وهو قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وفيه تعريضٌ بفرعون، إذ هو في غاية الإسراف والكذب على الله، إذْ ادعى الألوهية والربوبية[3] ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كرر النصح مع التلطف، والمعنى: أنتم غالبون على بني إسرائيل في أرض مصر قد قهرتموهم واستعبدتموهم اليوم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي فمن ينقذنا من عذاب الله وينجينا منه إن قتلتم رسوله قال الرازي: وإنما قال ﴿يَنصُرُنَا﴾ و ﴿جَآءَنَا﴾ لأنه كان يُظهر لهم أنه منهم، وأنَّ الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه[4]. وهنا تأخذ فرعون العزةُ بالإثم، ويستبدُّ به الجبروت والطغيان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أشير عليكم برأي سوى ما ذكرتُه من قتل موسى حسمًا لمادة الفتنة ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي وما أُهديكم بهذا الرأي إلا طريق الصواب والصلاح ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي أخشى عليكم مثل أيام العذاب التي عُذِّب بها المتحزبون على الأنبياء ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ هذا تفسير للأحزاب أي مثل عادة

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٠٧.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٥٩.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٦١.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٤/ ١٢٨.

قوم نوح وعاد وثمود وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم لرسلهم ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي والمكذبين بعد أولئك كقوم لوط ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي لا يعاقب العباد بدون ذنب قال الزمخشري: أي إن تدميرهم كان عدلًا وقسطًا لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وفيه مبالغة حيث جعل المنفي إرادة الظلم، ومن كان بعيدًا عن إرادة الظلم، كان عن الظلم أبعد[1] ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوَّفهم بعذاب الآخرة بعد أن خوفهم بعذاب الدنيا. والمعنى: إني أخاف عليكم من ذلك اليوم الرهيب يوم الحشر الأكبر، حيث ينادي المجرمون بالويل والثبور ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣] ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أي تولون منهزمين من هول عذاب جهنم قال المفسرون: إن الكفار إذا سمعوا زفير النار أدبروا هاربين، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة يتلقونهم يضربون وجوههم، فيرجعون إلى مكانهم فتتلقَّفهم جهنم ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ أي ليس لكم مانع ولا دافع يصرف عنكم عذاب الله ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ أي ومن يضلله اللهُ فليس له من يهديه إلى طريق النجاة ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي والله لقد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالمعجزات الظاهرات ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي فلم تزالوا شاكين في رسالته كافرين بما جاء به من عند الله قال المفسرون: المراد آباؤكم وأصولكم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ أي حتى إذا مات قلتم على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان: لن يأتي أحد يدعي الرسالة بعد يوسف قال أبو حيان: وليس هذا تصديقًا لرسالة يوسف، كيف وما زالوا في شك منه، وإنما المعنى لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق، ففيه نفي الرسول ونفي بعثته[2] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أي مثل ذلك الضلال الفظيع يُضلُّ الله كل مسرفٍ في العصيان، شاكٍّ في الدين، بعد وضوح الحجج والبراهين ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ هذا من تتمة كلام الرجل المؤمن. والمعنى الذين يجادلون في شريعة الله بغير حجة وبرهان جاءهم من عند الله ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي عظُم بغضًا عند الله وعند المؤمنين جدالُهم بغير برهان قال في البحر: عدل الواعظ عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب، لحُسنِ محاورته لهم واستجلاب قلوبهم، لئلا يَفْجَأهم بالخطاب، وفي قوله ﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾ ضربٌ من التعجب والاستعظام لجدالهم، كأنه خارج عن حدِّ أمثاله من الكبائر[3] ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ أي كما ختم على قلوب هؤلاء المجادلين كذلك يختم بالضلال على قلب كل متكبر

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ١٢٨.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٦٤.

(٣) نفس المرجع السابق ٧/ ٤٦٥.

عـن الإيمان، متجبر على العباد، حتى لا يعقل الرشـاد، ولا يقبـل الحق، وإنما وصف القلب بالتكـبر والجبروت لكونـه مركزهما ومنبعهما، وهو سـلطان الأعضاء، فمتى فسـد فسـدت ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي قـال فرعـون لوزيـره هامان ابن لـي قصرًا عاليًـا، وبناءً شامخًا منيفًا قال القرطبي: لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلامه في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح[1] ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي لعلي أصل وأنتهي إلى طرق السـموات وما يؤدي إليها، وكررها للتفخيم والبيان[2] ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي فأنظر إلى إله موسـى نظر عيان ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي وإني لأعتقد موسـى كاذبًا في ادعائه أن له إلهًا غيري قال أبو حيان: وبلوغُ أسـباب السموات غير ممكن، لكنَّ فرعون أبرزه في صورة الممكن تمويهًا على سامعيه، ولما قال ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كان ذلك إقرارًا بالإله فلذلك استدرك هذا الإقرار بقوله ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾[3] ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي ومثل ذلك التزيين زُيّـن لفرعـون عمله السـيئ حتى رآه حسـنًا ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ومُنـع بضلاله عن طريق الهـدى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي ومـا تدبيـر فرعـون ومكـره إلا في خسـار وهلاك، خسـر ملكه في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالخلود في النار ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ كـرَّر مؤمن آل فرعون نصحه لهـم بعد تلك المراوغة التي لقيهـا مـن فرعون، ودعا قومـه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وكشـف لهم عـن قيمة الحياة الزائلة، وشـوَّقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذَّرهم من عذاب الله ومعنى الآية: امتثلوا يا قوم أمري واسـلكوا طريقي أرشـدكم إلى طريق الفوز والنجاة -طريق الجنة- ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي ليسـت الدنيا إلا متاعًا زائـلًا، لا ثبات له ولا دوام ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي وإن الـدار الآخرة هي دار الاسـتقرار والخلـود، التي لا زوال لها ولا انتقال منهـا، فإمـا خلود في النعيم، أو خلـود في الجحيم قـال القرطبي: ومراده بالـدار الآخرة الجنة والنـار لأنهمـا لا يفنيـان[4] ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي من عمـل في هذه الدنيا سيئةً فلا يعاقب في الآخرة إلا بمقدارها دون زيادة، رحمة منه تعالى بالعباد ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومـن فعـل في الدنيا العمل الصالح سـواء كان ذكرًا أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي فأولئك المحسنون

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣١٤.

(٢) قال صاحب الكشاف: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيمًا لشأنه ، فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها. اهـ. «الكشاف» ٤/ ٦٦.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٦٥.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣١٧.

يدخلون جنات النعيم، ويعطون جزاءهم بغير تقدير، بل أضعافًا مضاعفة فضلًا من الله وكرمًا، فقد اقتضى فضله تعالى أن تضاعف الحسناتُ دون السيئات قال ابن كثير: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يُتَقَدَّر بجزاء، بل يثيبه الله ثوابًا كثيرًا عظيمًا، لا انقضاء له ولا نفاد[1] ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؟ أي ما لي أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان، وتدعونني إلى الكفر الموصل إلى النار؟ والاستفهام للتعجب كأنه يقول: أنا أتعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والخير، وتدعونني إلى النار والشر؟ ثم وضَّح ذلك بقوله ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي تدعونني للكفر بالله، وأن أعبد ما ليس لي علمٌ بربوبيته، وما ليس بإلهٍ كفرعون ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد، العزيز الذي لا يُغلب، الغفَّار لذنوب العباد ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أي حقًّا إن ما تدعونني لعبادته ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي لا يصلح أن يُعبد لأنه لا يسْتجيب لنداء داعيه، ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي وأن المسرفين في الضلال والطغيان سيخلَّدون في النار ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب، وهو تهديد ووعيد ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أتوكل على الله، وأسلِّم أمري إليه قال القرطبي: وهذا يدل على أنهم هدَّدوه وأرادوا قتله[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي مطلع على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي فنجاه الله من شدائد مكرهم، ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ونزل بفرعون وجماعته أسوأ العذاب، وهو الغرق في الدنيا، والحرق في الآخرة، ثم فسَّره بقوله ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي النار يُحرقون بها صباحًا ومساء قال المفسرون: المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور بدليل قوله بعده ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٤٥ .

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣١٨.

ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟
ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ
﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ
وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ
جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

المناسَبة: لما ذكر تعالى ما حلَّ بآل فرعون من العذاب والدمار، ذكر بعده النزاع والخصام الذي يكون بين أهل النار، واستغاثة المجرمين، وهم في عذاب الجحيم يصلون سعيرها فلا يجابون، ثم ذكر الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته، لإقامة الحجة على المشركين.

اللغَة: ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾ يختصمون ﴿لِخَزَنَةِ﴾ جمع خازن وهو المتكفل بحفظ الشيء وحراسته ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جمع شاهد وهو الذي يشهد بالحجة على غيره ﴿دَاخِرِينَ﴾ أذلاء صاغرين ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون عن الإيمان إلى الكفر ﴿قَرَارًا﴾ مستقرًّا ﴿أُسْلِمَ﴾ أذِلَّ وأخْضَعَ.

التفسير: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي واذكر حين يختصم الرؤساء والأتباع في نار جهنم ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي فيقول الأتباع الضعفاء للرؤساء المستكبرين عن الإيمان واتباع الرسل: إنا كنا لكم في الدنيا أتباعًا كالخدم ننقاد لأوامركم، ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟ أي فهل أنتم دافعون عنا جزءًا من هذا العذاب الذي نحن فيه؟ قال الرازي: علموا أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودهم من هذا الكلام

المبالغة في تخجيل الرؤساء، وإيلام قلوبهم، لأنهم سعوا في إيقاعهم في أنواع الضلالات[١] ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ أي قال الرؤساء جوابًا لهم: إنَّا جميعًا في نار جهنم، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ أي قضى قضاءً مُبرمًا[٢] لا مَرَدَّ له، بدخول المؤمنين الجنة، والكافرين النار، فلا نستطيع أن نفعل لكم شيئًا ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ لما يئس أهل النار بعضهم من بعض التجئوا إلى حراس جهنم يطلبون منهم التخفيف قال البيضاوي: وإنما وضع جهنم موضع الضمير ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ بدلًا من «لخزنتها» للتهويل والتفظيع[٣] ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي ادعوا لنا الله أن يخفف عنا ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾؟ أي أجابتهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات فكفرتم بهم وكذبتموهم؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي قال الكفار: بلى جاءونا ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ أي: قالت لهم الملائكة: فادعوا اللهَ أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك قال الرازي: وليس قولهم ﴿فَٱدْعُواْ﴾ لرجاء المنفعة، ولكنْ للدلالة على الخيبة، فإن الملائكة المقربين إذا لم يُسمع دعاؤهم، فكيف يسمع دعاء الكفار[٤]؟ ثم يصرّحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يجدي لأن دعاء الكافرين ما هو إلا خسار وتبار ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ننصر الرسل والمؤمنين بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ أي وفي الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد، مِن مَلَك ونبي ومؤمن قال الرازي: الآية وعدٌ من الله تعالى لرسوله بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة[٥] ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي لا ينفع المجرمين اعتذارهم قال ابن جرير: لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم، لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل [٦]﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ أي الطردُ من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ أي ولهم جهنم أسوأ مرجع ومصير قال ابن عباس: ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ سوء العاقبة ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي والله لقد أعطينا «موسى بن عمران» ما يُهتدى به في الدين، من المعجزات والصحف والشرائع[٧] ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٧٤.
(٢) (ش): مُبرم: قاطع.
(٣) «تفسير البيضاوي» ٣/ ١٥٤.
(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٧٤.
(٥) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٧٥.
(٦) «تفسير الطبري» ٢٤/ ٥٢.
(٧) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٢.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أورثناهم العلم النافع والكتاب الهادي وهو «التوراة» ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي هاديًا وتذكرةً لأصحاب العقول السليمة ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين، فإن وعد الله لك ولأتباعك بالنصر على الأعداء، حق لا يمكن أن يتخلف، لأن الله لا يخلف الميعاد قال الإمام الفخر: لما بيَّن تعالى أنه ينصر رسله، وضرب المثال في ذلك بحال موسى، خاطب بعده رسوله بقوله ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ والمراد أنَّ الله ناصرك كما نصرهم، ومنجزٌ وعده لك كما أنجزه في حقهم[(١)] ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي واطلب المغفرة من ربك على ما فرط منك من ترك الأَوْلَى والأفضل، قال الصاوي: والمقصودُ من هذا الأمر تعليم الأمة ذلك، وإلا فرسول الله ﷺ معصومٌ من الذنوب جميعًا، صغائر وكبائر قبل النبوة وبعدها على التحقيق[(٢)] وقال ابن كثير: وهذا تهييجٌ للأمة على الاستغفار[(٣)] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي ودُمْ على تسبيح ربك في المساء والصباح قال الرازي: والمرادُ منه الأمرُ بالمواظبة على ذكر الله، وألَّا يفتر اللسان عنه، حتى يصبح في زمرة الملائكة الأبرار، الذين ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] والمرادُ بالتسبيح تنزيهُ اللهِ عن كل ما لا يليق به[(٤)]، ثم نبه تعالى إلى السبب الدافع للكفار إلى المجادلة بالباطل فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي يخاصمون في الآيات المنزلة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي بلا برهانٍ ولا حجةٍ من الله ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبرٌ وتعاظم يمنعهم من اتباعك والانقياد إليك ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي ما هم بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله، ولا بمؤملين مقصودهم بالعلو عليك ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي فالتجئ وتحصَّنْ بالله من كيدهم، فإن الله يدفع عنك شَرَّهم، لأنه هو السميعُ لأقوالهم العليمُ بأحوالهم.. ثم ذكر تعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ اللام لام الابتداء، أي: لخلقُ الله للسمواتِ والأرضِ وإنشاؤُهما وابتداعهما من غير شيء أعظم من خلق البشر، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما كيف يعجز عن خلق ما هو أحقر وأهون؟ قال في التسهيل: والغرض الاستدلال على البعث، لأن الإله الذي خلقَ السمواتِ والأرض على كبرها، قادرٌ على إعادة الأجسام بعد فنائها[(٥)] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك، لأنهم لا يتأملون لغلبة الجهل عليهم، وفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم ﴿وَمَا

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٧٧.
(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ١١.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٤٨.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٧٨.
(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٨.

﴿يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي لا يتساوى المؤمن والكافر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ أي ولا البرُّ والفاجر ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لا تتعظون بهذه الأمثال إلا قليلًا قال ابن كثير: والمراد أنه كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئًا، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار، ما أقلَّ ما يتذكر كثيرٌ من الناس[1]؟ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ أي إن القيامة آتيةٌ لا محالة، لا شك في ذلك ولا مرية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يصدقون بمجيئها، ولذلك ينكرون البعث والجزاء قال الرازي: والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة[2] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ أي ادعوني أجبْكم فيما طلبتم، وأعطم ما سألتم قال ابن كثير: نَدَب تعالى عباده[3] إلى دعائه، وتكفَّل لهم بالإِجابة فضلاً منه وكرمًا[4] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي إنَّ الذين يتكبرون عن دعاء الله سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين. ثم ذكر تعالى من آثار قدرته ووحدانيته، ما يلزم منه إفراده بالعبادة والشكر فقال ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ أي الله جل وعلا بقدرته وحكمته هو الذي جعل لكم الليل مظلمًا لتستريحوا فيه من تعب وعناء العمل بالنهار، وجعل النهار مضيئًا لتتصرفوا فيه بأسباب الرزق وطلب المعاش ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي إنه تعالى متفضل على العباد، وهو صاحب الجود والإِحسان إليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون الله على إحسانه، ويجحدون فضله وإنعامه ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي ذلكم المتفرد بالخلق والإِنعام هو الله ربكم، خالق كل الأشياء ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي لا معبود في الوجود سواه[5] ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادة الخالق المالك إلى عبادة الأوثان؟ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أي كذلك يُصرف عن الهدى والحق الذين جحدوا بآيات الله وأنكروها قال الصاوي: وهذه تسلية للنبي ﷺ. والمعنى: لا تحزن يا محمد على إنكار قومك فإن من قبلهم فعل ذلك[6]، ثم زاد في البيان ودلائل القدرة فقال ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ أي جعلها مستقرًّا لكم في حياتكم وبعد مماتكم قال ابن عباس: جعلها

(١) ابن كثير ٣/ ٢٤٩ من «المختصر».

(٢) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٠٨٠.

(٣) (ش): نَدَب تعالى عباده: أي دعاهم.

(٤) ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالدعاء العبادة قال القرطبي: والمعني: وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفرلكم... إلخ. ما أثبتناه هو اختيار ابن كثير وهو الأظهر وكذلك قال الشهاب ورجحه الرازي.

(٥) (ش): الصواب أن يقال: لا معبود بحق في الوجود سواه، لأن هناك معبودات كثيرة لكنها تعبد بالباطل.

(٦) حاشية الصاوي ٤/ ١٣.

منزلًا لكم في حال الحياة وبعد الموت[١] ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي وجعل السماء سقفًا محفوظًا، كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ أي صوَّركم أحسن تصوير، وخلقكم في أحسن الأشكال، متناسب الأعضاء، ولم يجعلكم كالبهائم منكوسين تمشون على أربع قال الزمخشري: لم يخلق تعالى حيوانًا أحسن صورةً من الإنسان[٢]، وهذه مثل قوله تعالى ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤] ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي ورزقكم من أنواع اللذائذ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأشياء والمنعم بهذه النعم هو ربكم لا إله إلا هو ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي فتعالى وتمجَّد وتقدس ربُّ جميع المخلوقات الذي لا تصلح الربوبية إلَّا له ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو تعالى المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية، الباقي الذي لا يموت، لا إله سواه ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي فاعبدوه وحده مخلصين له العبادة والطاعة ظاهرًا وباطنًا قائلين ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي الثناء والشكر لله مالك جميع المخلوقات، لا للأوثان التي لا تملك شيئًا، ولما بَيَّن صفات الجلال والعظمة، نهى عن عبادة غير الله فقال ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد: إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الآلهة التي تعبدونها من الأوثان والأصنام قال الصاوي: أمر تعالى نبيه أن يخاطب قومه بذلك زجرًا لهم، حيث استمروا على عبادة غير الله، بعد ظهور الأدلة العقلية والنقلية[٣] ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ أي حين جاءتني الآيات الواضحات من عنده، الدالة على وحدانيته قال الرازي: والبيناتُ هي أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفًا بصفات الجلال والعظمة، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به، وأن جعل الحجارة المنحوتة والأخشاب المصورة، شركاء له في المعبودية مُستَنْكرٌ في بديهة العقل[٤] ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي وأمرت أن أذل وأخضع لله وحده، وأن أخلص له ديني، وأطهّر نفسي من عبادة غيره.

قال الله تعالى:

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٨٤.
(٢) «الكشاف» ٤/ ١٣٧.
(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٣ .
(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٨٥.

أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى
نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم
مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾
وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ
إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ

المناسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية، فبعد أن ذكر تعالى دلائل القدرة في الآفاق أردفها بدلائل القدرة في الأنفس، ثم تحدث عن أحوال المشركين يوم القيامة، وختم السورة الكريمة بالوعيد والتهديد لأهل الكفر والضلال.

اللغَة: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ القيود جمع غُلّ وهو القيد يجمع اليد إلى العنق ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ الماء الحار البالغ نهاية الحرارة ﴿يُسْجَرُونَ﴾ توقد بهم النار يقال: سجر التنور أوقده ﴿تَمْرَحُونَ﴾ تَبْطَرون وتأْشَرُون[1] ﴿مَثْوَى﴾ مأوى ومكان إقامة، من ثَوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿خَلَتْ﴾ مضت.

التفسِير: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هذا بيانٌ للأطوار التي مرَّ بها خلق الإنسان، أي: هو جل وعلا بقدرته الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من النطفة وهي المنيُّ، ثم من علقة وهي الدم الغليظ، إلى آخر تلك الأطوار ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي ثم بعد أن ينفصل الجنين من بطن الأم يكون طفلاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل، وهو سنُّ الأربعين ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ أي ثم لتصبحوا في سنِّ الهرَم والشيخوخة قال الإمام الفخر: رتَّب تعالى عمر الإنسان على ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد، والشخوخة، وهذا ترتيب مطابق للعقل، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النَّماء والنشوء وهو المسمى بالطفولة، إلى أن

(١) (ش): أَشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرح ونشِط. بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفَّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.

يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف، وهذا بلوغ الأشد، ثم يبدأ بالتراجع ويبدأ فيه الضعف والنقص، وهذه مرتبة الشيخوخة[١] ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي ومنكم من يُتوفى قبل أن يخرج إلى العالم وهو السِّقطُ وقال مجاهد: من قبلِ سنِّ الشيخوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي ولتصلوا إلى الزمان الذي حُدِّد لكل شخصٍ وهو الموت ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ولكي تعقلوا دلائل قدرته تعالى وتؤمنوا بأنه الواحد الأحد ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي هو القادر جل وعلا على الإحياء والإماتة ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فإذا أراد أمرًا من الأمور فلا يحتاج إلى تعب وعناء، وإنما يوجد فورًا دون تأخير قال أبو السعود: وهذا تمثيلٌ لكمال قدرته، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن يكون هناك أمرٌ ومأمور[٢]. ثم عاد إلى ذم المجادلين في آيات الله بالباطل فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ الاستفهام للتعجيب، أي: ألا ترى أيها السامع -وتعجب من حال هؤلاء المكابرين، الذين يجادلون في آيات الله الواضحة، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ ثم بَيَّنَهم بقوله ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي الذين كذبوا بالقرآن، وبسائر الكتب والشرائع السماوية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ وتهديد، أي: سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ أي حين يدخلون النار، وتربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يسحبون بتلك السلاسل في الماء الحارِّ المسخَّن بنار جهنم، ثم يُوقدون ويحرقون فيها قال ابن كثير: ومعنى الآية: أن السلاسل متصلة بالأغلال وهي بأيدي الزبانية، يسحبونهم على وجوههم تارةً إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم كما قال تعالى ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤][٣] ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ثم قيل لهم تبكيتًا: أين الأوثان والأصنام التي كنتم تعبدونها وتجعلونها شركاء لله؟ ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي فيقولون: غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي بل لم نكن نعبد شيئًا قال المفسرون: جحدوا عبادتهم، وإنما فعلوا ذلك لحيرتهم واضطرابهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضلُّ الله كل كافر ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي ذلكم العذاب بما كنتم تُظْهِرونه في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال وإنفاقه في المحرمات ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي وبسبب بطركم وأشركم وخيلائكم قال الصاوي: وهذا وإن كان ذمًّا في الكفار، إلا أنه يجرُّ بذيله على كل من توسَّع في معاصي

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٨٥.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٤. (ش): هذا كلامٌ فاسد لأنه خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى يقول للشيءِ قولاً حقيقيًّا «كن»، وهذا فيه نفيٌ لكلام الله.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٥١.

الله، فلـه مـن هذا الوعيد نصيـب[١] ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ادخلـوا من أبواب جهنم السـبعة المقسـومة لكم ماكثين فيها أبدًا ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي بئسـت جهنم مقراً وسـكنًا للمسـتكبرين عن آيات الله، المعرضين عن دلائل الإيمـان والتوحيد، وإنما قال ﴿مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ولـم يقل (فبئس مدخل المتكبرين) وهو مقتضى النظم، لأن الدخول لا يـدوم، وإنما يـدوم المثوى ولذا خصه بالـذمِّ ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، فإن وعد الله بتعذيبهم كائنٌ لا محالة قال الصاوي: هذا تسلية من الله لنبيه ﷺ ووعدٌ حسن بالنصر له على أعدائه[٢] ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾ أي إنْ أَرَيْناك بعـض الـذي نعدهم من العذاب، وجواب الشـرط محذوفٌ تقديره فذلك هـو المطلوب، أو لتقرَّ به عينُك[٣] ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ أي أو نتوفينَّك يا محمد قبل إنزال العذاب عليهم، فإلينـا مرجعهم يوم القيامة فننتقم منهم أشـدَّ الانتقام، ثم أخبره تعالى بأنباء الرسـل تسـليةً له عليـه السـلام فقـال ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ ﴾ أي والله لقد بعثنا يا محمد رسـلًا كثيرين قبلـك، وأيدناهم بالمعجـزات الباهرة فجادلهم قومهم وكذبوهم فتَـأَسَّ بهم[٤] في الصبر على مـا ينالك [٥] قال القرطبي: عزَّاه تعالى بما لقِيَت الرسـلُ مـن قبله[٦] ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ ﴾ أي مـن هـؤلاء الرسـل من أخبرناك عن قصصهـم مع قومهم، ومنهـم من لم نخبرك عن قصصهم وأخبارهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي وما صحَّ ولا اسـتقام لرسولٍ من الرسـل أن يأتي قومه بشيء من المعجزات إلا بأمر الله، وهذا رَدٌّ علـى قريش حيـث قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا الصَّفَا ذهبًـا وغير ذلك من مقترحاتهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي فإذا جاء الوقت المسـمّى لعذابهم أهلكهم الله ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ أي خسـر في ذلـك الحين المعانـدون الذين يجادلون في آيـات الله، ويقترحون المعجزات على سـبيل التعنت، ثم ذكَّرهم تعالـى بنِعمه فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ ﴾ أي الله جلَّ وعلا الذي لا تصلح الألوهية إلا له، هو الذي سخَّر لكم هذه الأنعام «الإبل والبقر والغنم» خلقها لكم ولمصلحتكم ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ أي لتركبوا على ظهور بعض هذه الحيوانات، وتأكلوا من لحومها وألبانها، ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أي ولكم في هذه

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٤.

(٢) «حاشيه الصاوي» ٤/ ١٥.

(٣) (ش): قرَّت عينُه: بَرد دمعُها، ضدّ سخُنت، ويُكنَّى به عن السرور والابتهاج، وقيل: لأنَّه للسّرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارّة.

(٤) (ش): أي اقتَدِ بهم.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٣٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٤١.

الأنعام منافع عديدة في الوبر والصوف والشعر، واللبن والزبد والسمن ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ أي بِحَمْل الأثقال في الأسفار البعيدة ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تُحملون، وإنما قرن بين الإبل والسفن لما بينهما من شدة المناسبة حتى سميت الإبل سفن البر ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي ويريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته في الآفاق والأنفس ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ توبيخٌ لهم على إنكارهم لوحدانيته مع ظهور آياته الكثيرة. والمعنى: أيَّ آية من تلك الآيات الباهرة والدلائل الكثيرة الساطعة تنكرون مع وضوحها وجلائها وكثرتها؟ فإن هذه الدلائل لظهورها لا تقبل الإنكار ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الاستفهام إنكاري، أي: أفلم يَسِرْ هؤلاء المشركون في أطراف الأرض ليعرفوا عاقبة المتكبرين المتمردين، وآثار الأمم السالفة قبلهم، ماذا حلَّ بهم من العذاب والدمار بسبب كفرهم وتكذيبهم؟ ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي كانوا أكثر عددًا من أهل مكة، وأقوى منهم قوة، وآثارهم لا تزال باقية بعدهم من الأبنية والقصور والمباني الضخمة ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي فلم ينفعهم ما كانوا يكسبونه من الأبنية والأموال شيئًا، ولا دَفَع عنهم العذاب ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي فلما جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرات، والآيات الواضحات ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي فرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوي، الخالي عن نور الهداية والوحي، فرح بطَرٍ وأشر[1]، واغتروا بذلك العلم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي نزل بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ أي فلما رأوا شدة العذاب وعاينوا أهواله وشدائده قالوا: آمنا بالله الواحد الأحد ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ أي كفرنا بالأصنام والأوثان التي أشركناها في العبادة مع الله ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أي فلم يكن ينفعهم ذلك الإيمان حين شاهدوا العذاب لأنه إيمانٌ عن قَسْر وإلْجاء[2] ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ أي سنَّ الله ذلك سنةً ماضيةً في العباد، أنه لا ينفع الإيمان إذا رأوا العذاب ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي وخسر في ذلك الوقت الكافرون بربهم، الجاحدون لتوحيد خالقهم.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) (ش): أشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرح ونشِط. بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.

(٢) (ش): أي عن إكراه واضطرار.

١ - الطباق بين ﴿ٱلذَّنۢبِ.. ٱلتَّوۡبِ﴾ وبين ﴿أَمَتَّنَا.. وَأَحۡيَيۡتَنَا﴾ وبين ﴿صَادِقٗا.. كَذَّابٌ﴾ وبين ﴿غُدُوّٗا.. وَعَشِيّٗا﴾ وبين ﴿يُحۡيِۦ.. وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ.. وَٱلۡبَصِيرُ﴾.

٢ - المقابلة ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ [غافر: ١٢] فقد قابل بين التوحيد والإشراك، والكفر والإيمان وكذلك توجد المقابلة بين قوله تعالى ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] وهذه من المحسنات البديعية.

٣ - المجاز المرسل ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾ [غافر: ١٣] أطلق الرزق وأراد المطر؛ لأن الماء سبب في جميع الأرزاق، فهو من إطلاق المسبَّب وإرادة السبب.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٨] استعار الأعمى للكافر، والبصير للمؤمن.

٥ - المجاز العقلي ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [غافر: ٦١] من إسناد الشيء إلى زمانه، لأن النهار زمنٌ للإبصار.

٦ - الكناية ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] الروحُ هنا كناية عن الوحي، لأنه كالروح للجسد.

٧ - صيغ المبالغة مثل: «كذَّاب، جبَّار، سميع، بصير، عليم» إلخ.

٨ - الجناس الناقص ﴿تَفۡرَحُونَ.. تَمۡرَحُونَ﴾ وكذلك ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤].

٩ - التأكيد بإن واللام ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾ [غافر: ٥٩].

١٠ - صيغة الحصر ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤].

١١ - جناس الاشتقاق ﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا﴾.

١٢ - طباق السلب ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾.

١٣ - توافق رءوس الآيات مع السجع البديع، والكلام الذي يأخذ بالألباب، انظر روعة البيان، وتمَعَّنْ قَوْل القرآن وهو يتحدث عن مؤمن آل فرعون بذلك البيان الإلهي المعجز ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤١-٤٢] إلخ الآيات الكريمة التي هي أجلى من عقود الجُمَان[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر»



(١) (ش): جُمَان: لُؤلُؤ.



مكية وآياتها ٥٤ نزلت بعد غافر

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وهي تتناول جوانب العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث، والجزاء» وهي الأهداف الأساسية لسائر السورة المكية التي تهتم بأركان الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن، المنزل من عند الرحمن، بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، الدالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم.

* وتحدثت السورة عن أمر «الوحى والرسالة» فقررت حقيقة الرسول، وأنه بشر خصه الله تعالى بالوحي، وأكرمه بالنبوة، واختاره من بين سائر الخلق ليكون داعيًا إلى الله، مرشدًا إلى دينه المستقيم.

* ثم انتقلت السورة للحديث عن مشهد الخلق الأول للحياة، خلق السماوات والأرض، بذلك الشكل الدقيق المحكم، الذي يلفت أنظار المعرضين عن آيات الله، للنظر والتفكير والتدبر، ولكن ظلمات الكفر هي التي تحول بينهم وبين الإيمان، فالكون كله ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته جل وعلا.

* وعرضت السورة للتذكير بمصارع المكذبين، وضربت على ذلك الأمثلة بأقوى الأمم وأعتاها قوم عاد الذين بلغ من جبروتهم أن يقولوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ وذكرت ما حل بهم وبثمود من الدمار الشامل، والهلاك المبين، حين تمادوا في الطغيان وكذبوا برسل الله.

* وبعد الحديث عن المجرمين يأتي الحديث عن المؤمنين المتقين، الذين استقاموا على شريعة الله ودينه، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان، مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين.

* ثم تحدثت السورة عن الآيات الكونية المعروضة للأنظار، في هذا الكون الفسيح، الزاخر بالحكم والعجائب، وموقف الملحدين بآيات الله، المتعامين عن كل تلك الآيات الظاهرة الباهرة.

* وختمت السورة بوعد الله للبشرية، بأن يطلعهم على بعض أسرار هذا الكون في آخر الزمان، ليستدلوا على صدق ما أخبر عنه القرآن ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

التسمية: سميت «سورة فصلت» لأن الله تعالى فصل فيها الآيات، ووضح فيها الدلائل

على قدرته ووحدانيته، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته، وخلقه لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا
وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ
إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ
هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ
بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ
فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ
ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً
مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ
شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا
مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا
يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

اللغَة: ﴿فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنت ووُضِّحت ﴿أَكِنَّةٍ﴾ جمع كنان وهو الغطاء ﴿وَقْرٌ﴾ صَمَمٌ وثِقَلٌ يمنع سماع الكلام ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع من مننْت الحبل إذا قطعته قال الشاعر:

إِنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ ... عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا خَيْرِي بِمَمْنُونِ [1]

﴿صَرْصَرًا﴾ الصَّرصر: الريح الباردة العاصفة مع الصوت الشديد ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ مشئومات من النَّحس بمعنى الشؤم وهو ضدُّ السَّعد قال الشاعر:

سَوَاءٌ عَلَيْهِ أَيَّ حِينٍ أَتَيْتُهُ ... أَسَاعَةَ نَحْسٍ تُتَّقَى أَمْ بِأَسْعدِ [2]

﴿أَخْزَىٰ﴾ أشد إهانةً وإذلالًا من الخزي بمعنى الإهانة ﴿الْهُونِ﴾ الإهانة والذل.

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٤١. (ش): مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ عَلَى الصَّدِيقِ: أي أنا كريمٌ لا أُغلق بابي في وجه الصديق.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٨١. (ش): يريد بساعتي النحس والسعد أوقات القلة والكثرة في المال. والبيت منسوب لزهير بن أبي سلمى، من قصيدة له يصور فيها كرمه وشجاعته وفصاحته.

التفسِـير: ﴿حمٓ ﴾ الحـروف المقطعـة للتنبيه علـى إعجاز القـرآن[١] ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي هـذا القـرآن المجيد مُنَزَّل من الرحمـن الرحيم، أنزله جل وعـلا رحمةً بعباده، وإنما خصَّ هذين الاسـمين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إشـارة إلى أن نزوله من أكبر النعم، ولا شـك أن القـرآن نعمـة باقيـة إلى يـوم القيامـة ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي كتـابٌ جامع للمصالـح الدينيـة والدنيويـة، بُيِّنَت معانيه، ووُضِّحـت أحكامُه، بطريـق القصص والمواعظ والأحـكام والأمثـال، في غاية البيـان والكمـال ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي في حال كونـه قرآنًا عربيًّا، واضحًـا جليًّا نزل بلسـان العـرب ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴾ أي لقـوم يفهمون تفاصيـل آياته، ودلائل إعجـازه، فإنـه في أعلـى طبقـات البلاغة، ولا يتذوق أسـراره إلا مـن كان عالمًـا بلغة العرب ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي مبشـرًا للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذرًا للكافرين بعذاب الجحيم ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ أي فأعـرض أكثر المشـركين عن تدبر آياته مـع كونه نزل بلُغَتهم، فهم لا يسمعون سماع تفكر وتأمل قال أبو حيان: المعنى: أعرض أكثر أولئك القوم مع كونهم من أهل العلم، ولكن لم ينظروا النظر التام بل أعرضوا، فهم لإعراضهم لا يسمعون ما احتوى عليه من الحجج والبراهين[٢] وقال القرطبي: السـورةُ نزلت تقريعًا وتوبيخًا لقريش في إعجاز القـرآن، فهم لا يسـمعون سـماعًا ينتفعـون به[٣]، ثم أخـبر تعالى عن عتوهـم وضلالهم فقال ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ أي وقالـوا للرسـول ﷺ حيـن دعاهـم إلى الإيمان: قلوبنا في أغطية متكاثفة، لا يصل إليها شيءٌ مما تدعونا إليه من التوحيد والإيمان ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ ﴾ أي وفي آذاننا صَمَمٌ وثِقَلٌ يمنعنا من فهم ما تقول قال الصاوي: شـبَّهوا أسـماعهم بآذانٍ فيها صمَمٌ، من حيث إنها تمجُّ[٤] الحقَّ ولا تميل إلى اسـتماعه[٥] ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ أي وبيننا وبينك يا محمد حاجز يمنع أن يصل إلينا شـيء مما تقول، فنحن معذورون في عدم اتباعك، لوجود المانع من جهتنا وجهتك ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ أي اعملْ أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا، واستمرَّ على دينك فإنا مستمرون على ديننا ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشـركين: لسـتُ إلا بشرًا مثلكم خصّني الله بالرسالة والوحي، وأنا داعٍ لكم إلى توحيد خالقكم ومُوجدكم، الذي قامت الأدلة العقلية والشـرعية على وحدانيته ووجوده، فـلا داعي إلى تكذيبي ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ﴾ أي توجهوا إليه بالاسـتقامة على التوحيـد والإيمان، والإخلاص في الأعمال، واسـألوه المغفرة

(١) انظر أول سوره البقرة.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٨٣.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٣٨.
(٤) (ش): مجَّ الشّرابَ ونحوَه من فمه: لفَظه، رمى به وألقى.
(٥) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٧.

لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي دمارٌ وهلاك للمشركين الذين لا يفعلون الخير، ولا يتصدقون ولا ينفقون في طاعة الله قال القرطبي: قرَّعهم[١] بالشح الذي يأنف منه الفضلاء، وفي الآية دلالة على أن الكافر يُعذَّب بمَنْع الزكاة مع عذابه على كفْره[٢] وقال ابن عباس: المراد زكاة الأنفس. والمعنى: لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد، ولا يقولون: لا إله إلا الله[٣] ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي كفروا بالبعث والنشور، وكذَّبوا بالحساب والجزاء قال الصاوي: وإنما خصَّ منع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة، لأن المال شقيق الروح فإذا بذله الإنسان في سبيل الله كان دليلًا على قوته وثباته في الدين[٤] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لما ذكر حال الكفار ووعيدهم، أردفه بذكر حال المؤمنين وما لهم من الوعد الكريم. والمعنى: الذين صدَّقوا الله ورسوله[٥]، وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح[٦]، لهم في الآخرة أجرٌ غير مقطوع عند ربهم، بل هو دائم مستمر بدوام الجنة، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب، أي: كيف تكفرون بالله وهو الإلهُ العليُّ الشأن، القادر على كل شيء، خالقُ الأرض في يومين؟ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي تجعلون له شركاء وأمثالًا تعبدونها معه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ذلك الخالق المبدع هو ربُّ العالمين كلهم، فكيف يجوز جَعْلُ الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية؟ قال الصاوي: الاستفهام ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ للإنكار والتشنيع عليهم والمعنى: أنتم تعلمون أنه لا شريك له في العالم العلوي والسفلي، فكيف تجعلون له شريكًا[٧]؟ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي جعل في الأرض جبالًا ثوابت لئلا تَميدَ بالبشر[٨] ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه، والزروع، والضروع ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ﴾ أي قدَّر أرزاق أهلها ومعاشهم قال مجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: في تمام أربعة أيام كاملة

(١) (ش): قرَّعَهُ: عَنَّفه.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٤٠.
(٣) هذا القول ذكره ابن كثير ونسبه لابن عباس أن المراد به طهارة النفس من الشرك وهو قول مرجوح، والصحيح ما ذكره المفسرون أن المراد زكاة المال وهو اختيار ابن جرير.
(٤) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٧.
(٥) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.
(٦) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخل في حقيقته وعطفه على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، مثل قوله تعالى. ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.
(٧) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٨.
(٨) (ش): مَادَ الشَّيءُ: تحرَّكَ واضطربَ.

مستوية بلا زيادة ولا نقصان[١]، للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي عمد إلى خلقها وقصد إلى تسويتها وهي بهيئة الدخان قال ابن كثير: والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض[٢] ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي استجيبا لأمري طائعتَيْن أو مكرهتَيْن ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي قالت السموات والأرض أتينا أمرَك طائعين. قال الزمخشري: وهذا على التمثيل أي إنه تعالى أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المُطاع، والغرضُ تصوير أثر قدرته في المقدورات من غير أن يكون هناك خطاب وجواب، ومثله قول القائل: قال الحائطُ للمسمار لم تَشُقُّني؟ قال: سَلْ مَن يدُقُّني[٣]، وروي عن ابن عباس قال قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين «قالتا أتينا أمرك طائعتين»[٤] واختاره ابن جرير ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي صنعهنَّ وأبدع خلقهن سبع سمواتٍ في وقت مقدَّر بيومين، فتمَّ خلق السموات والأرض في ستة أيام، ولو شاء لخلقهنَّ بلمح البصر، ولكنْ أراد أن يعلّم عباده الحلم والأناة ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي أوحى في كل سماء ما أراده، وما أمر به فيها قال ابن كثير: أي رتَّب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ أي وزينَّا السماءَ الأولى القريبة منكم، بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، وحرسًا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلك المذكور من الخلق والإبداع هو صنع الله، العزيز في ملكه، العليم بمصالح خلقه ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي حين جاءتهم الرسلُ من كل جوانبهم، واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة، وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا العتوَّ والإعراض ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلاّ اللهَ وحده ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان، فقل لهم: إني أخوفكم عذابًا هائلًا مثل هلاك عاد وثمود[٥]، وعبَّر بالماضي إشارةً إلى تحققه وحصوله ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي ولو شاء ربُّنا إرسالَ رسولٍ لجعله ملكًا لا بشرًا ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ

(١) «الكشاف» ٤/ ١٤٧.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٥٧.

(٣) «الكشاف» ٤/ ١٤٨. (ش): هذا تأويل باطل، يريد الزمخشري المعتزلي من ورائه نَفْيَ وَصْف الله بأنه يتكلم. وهذا الكلام الفاسد خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى قال للسماء والأرض قولًا حقيقيًّا: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ وأنهما قالتا قولًا حقيقيًّا ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٤٣.

(٥) قال في «الكشاف»: أي عذابًا شديد الوقع كأنه صاعقة.

﴿كَٰفِرُونَ﴾ أي: فإنا كافرون برسالتكم، لا نتبعكم وأنتم بشرٌ مثلُنا، وفي قولهم: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم﴾ ضربٌ من التهكم والسخرية بهم ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ هذا تفصيلٌ لما حلَّ بعاد وثمود من العذاب، أي فأما عاد فبغَوْا وعتَوْا وعصَوْا، وتكبروا على عباد الله «هود» ومن آمن معه، بغير استحقاقٍ للتعظيم والاستعلاء ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ أي وقالوا اغترارًا بقوتهم لمّا خُوّفوا بالعذاب: لا أحد أقوى منا فنحن نستطيع أن ندفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا قال أبو السعود: كانوا ذوي أجسام طوال، وخلق عظيم، وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده[1] ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ جملة اعتراضية للتعجيب من مقالتهم الشنيعة، والمعنى: أغفلُوا عن قدرة الله ولم يعلموا أن الله العظيم الجليل الذي خلقهم وخلق الكائنات، هو أعظم منهم قوةً وقدرة؟ ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي وكانوا بمعجزاتنا يجحدون قال الرازي: إنهم كانوا يعرفون أنها حقٌّ ولكنهم جحدوا كما يجحد المودَعُ الوديعة[2] ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ أي فأرسلنا على عاد ريحًا باردة شديدة البرد، وشديدة الصوت والهبوب، تُهلك بشدة صوتها وبردها ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ أي في أيام مشئومات غير مباركات ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي لكي نذيقهم العذاب المخزي المذل في الدنيا قال الرازي: ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ أي عذاب الهوان والذل، والسبب أنهم استكبروا عن الإيمان، نقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الذل والهوان إليهم[3] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أعظم وأشدُّ إهانة وخزيًا من عذاب الدنيا، وليس لهم ناصر يدفع عنهم ذلك العذاب ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي وأمّا ثمود فبيَّنّا لهم طريق الهدى، ودللناهم على سبيل السعادة، فاختاروا الضلالة على الهداية، والكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾ أي فأخذتهم قارعة العذاب الموقع في الإهانة والذل ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي بسبب إجرامهم وطغيانهم وتكذيبهم لنبيّ الله «صالح» قال ابن كثير: بعث الله عليهم صيحةً ورجفة وذلاًّ وهوانًا، وعذابًا ونكالًا، بتكذيبهم صالحًا وعقْرِهم الناقة[4] ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي ونجينا صالحًا ومن آمن به من ذلك العذاب.

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢١.

(٢) «التفسير الكبير» ١٢٧/ ١١٢. (ش): المودَعُ: الشخص الذي تعطيه النقود وغيرها لتكون عنده وَديعة، أي: أمانة. والمعنى: أنهم أنكروا الحق كما يُنكر الشخص المودَعُ ما أعطاه الناس إياه من أموال وغيرها كوديعة -أي أمانة- ليستردّوها فيما بعد.

(٣) نفس المرجع السابق ٢٧/ ١١٣.

(٤) «المختصر» ٣/ ٢٥٩.

قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا
جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ
فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾
۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ
اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ
الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾
نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا
تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ
كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ
اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة عاد وثمود، وما أصابهم من العقوبة في الدنيا بطغيانهم وإجرامهم، ذكر هنا ما يصيب الكفار عامةً في الآخرة من العذاب والدمار، ليحصل منه تمام الاعتبار، في الزجر والتحذير عن ارتكاب المعاصي والكفر بنعم الله.

اللغَة: ﴿يُوزَعُونَ﴾ يُحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ تستَخْفُون، من الاستتار بمعنى الاختفاء عن الأعين ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ أهلككم وأوقعكم في المهالك ﴿يَسْتَعْتِبُوا﴾ يطلبوا رضاء الله ﴿الْمُعْتَبِينَ﴾ جمع معتب وهو المقبول عتابه قال النابغة:

فَإِنْ أَكُ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ ... وَإِنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ [1]

﴿وَقَيَّضْنَا﴾ هيأنا ﴿نُزُلًا﴾ ضيافة وكرامةً ﴿يَسْأَمُونَ﴾ يملُّون.

سَبَبُ النّزول: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٤٥٣.

وَقُرَشِيٌّ قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: «أَتَرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟». وَقَالَ الآخَرُ: «يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا». وَقَالَ الآخَرُ: «إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا». فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [1]الآية.

التفسِير: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي واذكر يوم يُجمَع أعداء الله المجرمون في أرض المحشر لسَوْقهم إلى النار ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا قال ابن كثير: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا[2] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي حتى إذا وقفوا للحساب ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي نطقت جوارحهم وشهدت عليهم بما اقترفوه من إجرام وآثام، وفي الحديث «فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ – أي فَمِه – فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ – قَالَ – ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[3] ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أي وقالوا لأعضائهم وجلودهم توبيخًا وتعجبًا من هذا الأمر الغريب: لِمَ أقررتم علينا وشهدتم بما فعَلْنا وإنما كنا نجادل وندافع عنكم؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي قالوا معتذرين: ليس الأمر بيدنا وإنما أنطقنا الله بقدرته، الذي يُنطِق الجماد والإنسان والحيوان، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي هو أوجدكم من العدم، وأحياكم بعد أن لم تكونوا شيئًا، فمن قدر على هذا قدر على إنطاقنا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه وحده تُرَدُّون بالبعث قال أبو السعود: المعنى: ليس نطقنا بعجبٍ من قدرة الله، الذي أنطق كل حي، فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولًا، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ثانيًا، لا يُتعجب من إنطاقه لجوارحكم[4] ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي وما كنتم تستخفون من هؤلاء الشهود في الدنيا حين مباشرتكم الفواحش، لأنكم لم تظنوا أنها تشهد عليكم قال البيضاوي: أي كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضيحة، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم فما استخفيتم منها، وفيه تنبيهٌ على أن المؤمن ينبغي ألاَّ يمر عليه حالٌ إلا وعليه رقيب[5] ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ولكنْ ظننتم أن الله تعالى لا يعلم كثيرًا من القبائح المخفية، ولذلك اجترأتم على المعاصي

---

(١) الحديث أخرجه مسلم كذا في القرطبي ١٥/ ٣٥١. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦٠.

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم ، وفيه دلالة على أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة، والله على كل شئ قدير.

(٤) «تفسير أبي السعود»٥/ ٢٢.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥٦

والآثام ﴿ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ ﴾ أي وذلكم الظنُّ القبيح برب العالمين أنه لا يعلم كثيرًا من الخفايا هو الذي أوقعكم في الهلاك والدمار فأوردكم النار ﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ أي فخسرتم سعادتكم وأنفسكم وأهليكم، وهذا تمام الخسران والشقاء ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ أي فإن يصبروا على العذاب فالنارُ مقامهم ومنزلهم، لا محيد ولا محيص لهم عنها ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾ أي وإن يطلبوا إرضاء الله، فما هم من المرضي عليهم، قال القرطبي: والعُتبى: رجوعُ المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب، تقول: استعتبتُه فأعْتبني أي استرضيتُه فأرضاني[١] ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ ﴾ أي هيَّأنا للمشركين ويَسَّرْنا لهم قرناء سُوءٍ من الشياطين، ومن غُواةِ الإنس[٢] ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ أي حسَّنوا لهم أعمالهم القبيحة، الحاضرة والمستقبَلة. قال ابن كثير: حَسَّنُوا لهم أعمالهم فلم يروا أنفسهم إلا محسنين [٣] ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ ﴾ أي ثبت وتحقق عليهم كلمة العذاب، وهو القضاء المحتَّم بشقائهم ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أي في جملة أمم من الأشقياء المجرمين قد مضت من قبلهم، ممن فعلوا كفعلهم من الجنِّ والإنس ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقهم العذاب أي لأنهم كانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، فلذلك استحقوا العذاب الأبدي ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر عاد وثمود وغيرهم، أخبر عن مشركي قريش وأنهم كذبوا القرآن. والمعنى: قال الكافرون بعضهم لبعض: لا تستمعوا لمحمد إذا قرأ القرآن، وتشاغلوا عنه. ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ أي ارفعوا أصواتكم عند قراءته حتى لا يسمعه أحد لكي تغلبوه على دينه قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول[٤] ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا ﴾ أي فوالله لنذيقنَّ هؤلاء المستهزئين عذابًا شديدًا لا يخفّ ولا ينقطع ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي ولنجازِيَنَّهم بِشَرِّ أعمالهم، وسَيِّئ أفعالهم، أسوأ وأقبح الجزاء ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد الذي هو أسوأُ الجزاء هو نار جهنم جزاء المجرمين، أعداء الله ورسوله ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي لهم في جهنم دار الإقامة، لا يخرجون منها أبدًا ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي جزاءً لهم على كفرهم بالقرآن، واستهزائهم بآيات الرحمن قال الرازي: وسمَّى لغوهم بالقرآن جحودًا لأنهم لما علموا أن القرآن بالغٌ إلى حد الإعجاز، خافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة، وذلك يدل على أنهم

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٥١
(٢) (ش): غوَى فلانٌ: أمعن في الضّلال، فهو غاوٍ وغويّ.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦١.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٥٦.

علموا كونه معجزًا إلا أنهم جحدوه حسدًا[١] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي ويقول الكفار إذا دخلوا جهنم: ربنا أرنا كل من أغوانا وأضلنا من الجن والإنس، وإنما جاء بلفظ الماضي «وقال» لتحققه ومعناه المستقبل قال أبو حيان: والظاهر أن المراد بـ ﴿ٱلَّذَيْنِ﴾ يراد بهما الجنس أي كل مُغْوٍ[٢] من هذه النوعين[٣] ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أن نطأْهُما بأقدامنا انتقامًا وتشفيًا ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي ليكونا في الدرك الأسفل من النار، وهي أشد عذاب جهنم لأنها درك المنافقين، ولما ذكر تعالى حال الأشقياء المجرمين، أردفه بذكر حال السعداء المؤمنين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي آمنوا بالله إيمانًا صادقًا وأخلصوا العمل له، ثم استقاموا على توحيد الله وطاعته، وثبتوا على ذلك حتى الممات، عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه أنه قال على المنبر بعد أن تلا الآية الكريمه: «استقاموا واللهِ على الطريقة لطاعته، ثم لم يروغوا روغان الثعالب»[٤] والغرضُ أنهم استقاموا على شريعة الله، في سلوكهم، وأخلاقهم وأقوالهم، وأفعالهم، فكانوا مؤمنين حقًّا، مسلمين صدقًا، وقد سئل بعض العارفين عن تعريف الكرامة فقال: الاستقامةُ عينُ الكرامة، وعن الحسن أنه كان يقول: اللهمَ أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ أي تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت بأن لا تخافوا ممَّا تقْدُمون عليه من أحوال القيامة، ولا تحزنوا على ما خلَّفْتُموه في الدنيا من أهل ومالٍ وولد فنحن نخلفكم فيه ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي وأبشروا بجنة الخُلد التي وعدكم الله بها على لسان الرسل قال شيخ زاده: إن الملائكة تتنزل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة أن لا تخافوا من هول الموت، ولا من هول القبر، وشدائد يوم القيامة، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان: لا تخف اليوم ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت توعد، وإنك سترى اليوم أمورًا لم تر مثلها فلا تَهُولَنَّك فإنما يراد بها غيرك[٥] ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي تقول لهم الملائكة: نحن أنصاركم وأعوانكم في الدنيا والآخرة، نرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم في الدارين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ولكم في الجنة ما تشتهيه نفوسكم، وتقرُّ به عيونُكم[٦] من أنواع اللذائذ والشهوات، ولكم

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٢٠.
(٢) (ش): أغواه: غواه؛ أضَلّه وأغراه بالفَساد، فهو مُغْوٍ.
(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٩٥.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٥٨.
(٥) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٢٦١.
(٦) (ش): قرَّت عينُه: بَرد دمعُها، ضدّ سخُنت، ويُكنَّى به عن السرور والابتهاج، وقيل لأنَّه للسّرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارّة.

فيها ما تطلبون وتتمنون ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب واسع المغفرة، عظيم الرحمة لعباده المتقين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي دعا إلى توحيد الله وطاعته، بقوله وفعله وحاله، وفعل الصالحات، وجعل الإسلام دينه ومذهبه قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير وهو نفسه مهتدٍ، وقال الزمخشري[1]: والآية عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون مؤمنًا معتقدًا لدين الإسلام، عاملًا بالخير، داعيًا إليه، وما هم إلا طبقة العلماء العاملين[2] ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي لا يتساوى فعل الحسنة مع فعل السيئة، بل بينهما فرقٌ عظيم في الجزاء وحسن العاقبة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، مثل أن تدفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو قال ابن عباس: ادفع بحلمك جهل من جهل عليك[3] ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب، الخالص الصداقة في مودته ومحبته لك ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي وما ينال هذه المنزلة الرفيعة، والخصلة الحميدة، إلاّ من جاهد نفسه بكظم الغيظ واحتمال الأذى ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي وما يصل إليها وينالها إلا ذو نصيب وافر من السعادة واحتمال الأذى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي وإن وسوس إليك الشيطان بتَرْك ما أُمرتَ به من الدَّفْع بالتي هي أحسن، وأراد أن يَحْملك على البطش والانتقام، فاستعذ بالله من كيده وشره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته الباهرة، وحكمته البالغة فقال ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي ومن علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته تعاقب الليل والنهار، وتذليل الشمس والقمر، مسخَّرَيْن لمصالح البشر ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أي لا تسجدوا للمخلوق واسجدوا للخالق، الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم تفردونه بالعبادة فلا تسجدوا لأحدٍ سواه ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي فإن استكبر الكفار عن السجود لله ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي فالملائكة الأبرار يعبدونه بالليل والنهار ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي لا يملّون عبادته.

قال الله تعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦٤.

(٢) «الكشاف» ٤/ ١٥٦.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٦١.

ءَامِنًا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ
عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ
ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ
وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ
وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا
فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ
مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا
مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن
دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ
هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا
عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ
فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي
شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ
بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ

المناسَبَة: لما ذكر صفات المؤمنين الأبرار، وأردفها بذكر الدلائل الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته[1]، وكمال علمه وحكمته، ذكر هنا ما يدل على البعث والنشور، من صفحات هذا الكون المنظور، ثم أعقبه بذكر الملحدين في آياته، المكذبين برسله وأنبيائه، وختم السورة الكريمة بيان حال الأشقياء المجرمين، المنكرين للقرآن العظيم.

اللغَة: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ يميلون عن الحق والاستقامة، والإِلحادُ: الميلُ والعدول يقال: ألحد في دين الله أي: حاد عنه وعَدَل[2] ﴿أَعۡجَمِيّٗا﴾ بلغة العجم ﴿وَقۡرٞ﴾ صممٌ مانع من سماعه ﴿أَكۡمَامِهَا﴾ جمع كُمّ وهو وعاء الثمرة بضم الكاف وكسرها ﴿مَّحِيصٖ﴾ فرار ومهرب من حاص يحيصُ حيصًا إذا هرب ﴿وَنَـَٔا﴾ تباعد وأعرض ﴿ٱلۡأٓفَاقِ﴾ أقطار السموات والأرض ﴿مِرۡيَةٖ﴾ شك وارتياب عظيم.

---

(١) (ش): ليس القصد مِن ذِكر الآيات الكونية الاستدلال على وجود الله وانفراده بالخلق الذي هو عبارة عن توحيد الربوبية، لأن هذا يُقِرّ به جمهور العالم أو كل العالم ومنهم المخاطَبون بالقرآن بالذات، ومَن أقر بهذا فقط لم يكن مسلمًا، وإنما المقصود بسياق الآيات الكونية دائمًا الاستدلال بذلك على توحيد العبادة الذي ينكره المشركون.

(٢) (ش): عدَلَ عن الشيءِ، عُدولاً، فهو عادِلٌ: مَالَ.

التفسير: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾ أي ومن البراهين والعلامات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، أنك ترى الأرض يابسة جرداء لا نبات فيها، تشبه الرجل الخاضع الذليل ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت حركة شديدة وانتفخت وعلت بالنبات، وأخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ أي إن الإلـه الذي أحيا الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الأموات ويبعثهم من القبور ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه جل وعلا شيءٌ، فكما أخرج الزروع والثمار من الأرض المجدبة، فإنه قادر على إحياء الموتى.. ثم توعَّد تعالى من يلحد في آياته بعد ظهور الأدلة والبراهين على وجوده[١] فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي إن الذين يطعنون في آياتنا، بالتحريف والتكذيب والإنكار لها لا يغيب أمرهم عنا فنحن لهم بالمرصاد، وفيه وعيد وتهديد قال قتادة: الإلحادُ الكفر والعناد وقال ابن عباس: هو تبديلُ الكلام ووضعه في غير موضعه[٢] ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي أفمن يُطرح في جهنم مع الخوف والفزع أفضل أم من يكون في الجنة آمنًا من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الرازي: والغرضُ التنبيهُ على أن الملحدين في آيات الله يُلقون في النار، وأن المؤمنين بآيات الله يكونون آمنين يوم القيامة، وشتَّان ما بينهما[٣] ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ أي افعلوا ما تشاءون في هذه الحياة، وهو تهديدٌ لا إباحة ملفَّع بظل الوعيد، بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي هو تعالى مطّلع على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، من أحوالكم، وسيجازيكم عليها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي إن الذين كذبوا بالقرآن حين جاءهم من عند الله، وخبر «إنَّ» محذوفٌ لتهويل الأمر كأنه قيل: سيجازون بكفرهم جزاءً لا يكاد يوصف لشدة بشاعته وفظاعته[٤] ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي وإنه لكتاب غالب بقوة الحجة، لا نظير له لما احتوى عليه من الإعجاز، يدفع كل جاحد، ويقمع كلَّ معاند ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهةٍ من الجهات، ولا مجال للطعن فيه قال ابن كثير: أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزَّل من رب العالمين[٥] ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هو تنزيلٌ من إله حكيم في

---

(١) (ش): ليس القصد مِن ذِكر الآيات الكونية الاستدلال على وجود الله وانفراده بالخلق الذي هو عبارة عن توحيد الربوبية، لأن هذا يُقِرّ به جمهور العالم أو كل العالم ومنهم المخاطَبون بالقرآن بالذات، ومن أقر بهذا فقط لم يكن مسلمًا، وإنما المقصود بسياق الآيات الكونية دائمًا الاستدلال بذلك على توحيد العبادة الذي ينكره المشركون.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٦٦.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٣١.

(٤) هذا رأي أكثر المفسرين. واختار أبو حيان في «البحر المحيط» أن الخبر مذكور وهو: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ولكنه حذف منه العائد، والأول أظهر.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦٥.

تشريعه وأحواله وأفعاله، محمود من خلقه بسبب كثرة نعمه.

ثم سَلَّى تعالى نبيَّه على ما يصيبه من أذى الكفار فقال ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك، إلاّ ما قد قال الكفار للرسل قبلهم من الكلام المؤذي، والطعن فيما أنزل الله قال القرطبي: يُعزّي نبيه ويُسلّيه من أذى وتكذيب قومه [١] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ إي إن ربك يا محمد لهو الغفور لذنوب المؤمنين، ذو العقاب الشديد للكافرين، ففَوِّضْ أمرك إليه فإنه ينتقم من أعدائك، ثم ذكر تعالى تعنُّت الكافرين ومكابرتهم للحقِّ بعد سطوعه وظهوره فقال ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم ﴿لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي لقال المشركون: هَلا بُيِّنَتْ آياتُه بلسانٍ نفهمه وهَلا نزل بلُغتنا ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؟ استفهام إنكاري، أي: أقُرآن أعجميٌّ ونبيٌّ عربي؟ قال الرازي: ذكروا أن الكفار كانوا يقولون لتعنتهم: هلَّا نزل القرآن بلغة العجم؟ (فأجيبوا بأن الأمر لو كان كما تقترحون لم تتركوا الاعتراض، ثم قال: والحقُّ عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحدٌ متعلق بعضُه ببعض، وقد حكى تعالى عنهم في أول السورة أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] فَردَّ تعالى عليهم هنا بأنه لو أنزل هذا القرآن بلُغَة العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب) (ولصحَّ لهم أن يقولوا ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه)! أما وقد نزل بلغة العرب، وهم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنهم أن يقولوا ذلك؟ فظهر أن الآية على أحسن وجوه النظم [٢] ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة، وشفاء لهم من الجهل والشك والرَّيْب ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي والذين لا يصدّقون بهذا القرآن، في آذانهم صممٌ عن سماعه، ولذلك تواصوا باللغو فيه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي كما أن هذا القرآن رحمة للمؤمنين، هو شقاء وتعاسة على الكافرين كقوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] قال في «حاشية البيضاوي»: إن القرآن لوضوح آياته، وسطوع براهينه، هادٍ إلى الحق، ومُزيلٌ للرَّيْب والشك، وشفاءٌ من داء الجهل والكفر والارتياب، ومن ارتاب فيه ولم يؤمن به، فارتيابه إنما نشأ عن توغله في اتباع الشهوات، وتقاعده عن تفقد ما يُسعده

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٦٧.

(٢) «التفسبير الكبير» وهذا الذي ذكره الإمام الفخر الأظهر، فإنهم لم يقترحوا أن ينزل بلغه العجم وإنما هو على الفرض بدليل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ﴾ وهذا الذي رجحناه هو ما ذهب إليه العلامة القرطبي حيث قال في تفسير الآية: المعنى لو جعلنا هذا القرآن بلغة غير العرب لقالوا: لولا بُيِّنت آياته بلغتنا فإنا عرب لا نفهم الأعجمية، فبيَّن تعالى أنه أُنزل بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز، إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظمًا ونثرًا وإذا عجزوا عن معارضته؛ فذلك أدل دليل على أنه من عند الله.

وينجيه [١] ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ أي أولئك الكافرون بالقرآن، كمن يُنادَى من مكان بعيد، فإنه لا يسمع ولا يفهم ما يُنادَى به، وهذا على سبيل التمثيل قال ابن عباس: يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً[٢] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة فاختلف فيها قومه ما بين مصدِّق لها ومكذب، هكذا حال قومك بالنسبة للقرآن قال القرطبي: وهذا تسلية للنبي ﷺ أي لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك، فقد اختلف مَن قبلَهم في كتابهم، فآمن به قوم وكذَّب به قوم[٣] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولولا أن الله حكم بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة لَعَذَّبهم وأهلكهم في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن هؤلاء الكفار لفي شكٍّ من القرآن، لتبلد عقولهم وعمى بصائرهم، مُوقِع لهم في أشد الريبة والاضطراب ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من عمل شيئًا من الصالحات في هذه الدنيا فإنما يعود نفع ذلك على نفسه، ومن أساء في الدنيا فإنما يرجع وبال ذلك وضرره عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي وليس الله منسوبًا إلى الظلم حتى يعذِّب بغير إساءة، فهو تعالى لا يعاقب أحدًا إلا بذنبه، ولا يعاقبه إلا بجُرْمه قال المفسرون: ليست صيغة «ظلاَّم» هنا للمبالغة، وإنما هي صيغة نسبة مثل عطَّار، ونجَّار، وتمَّار، ولو كانت للمبالغة لأوهم أنه تعالى ليس كثير الظلم ولكنه يظلم أحيانًا، وهذا المعنى فاسد لأنه يستحيل عليه الظلم جل وعلا ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي إليه تعالى وحده علم وقت الساعة لا يعلمه غيره قال الإمام الفخر: أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا اللهُ، ومناسبتُها لما قبلها أنه تعالى لما هدَّد الكفار بقوله ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ومعناه أن جزاء كل أحدٍ يصل إليه في يوم القيامة، فكأن سائلاً قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟ فبيَّن تعالى أن معرفة ذلك اليوم لا يعلمه إلا الله[٤] ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي وما تخرج ثمرةٌ من الثمرات من غلافها ووعائها ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي ولا تحمل أنثى جنينًا في بطنها، ولا تلده إلا ملتبسًا بعلمه تعالى، لا يعزبُ عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾؟ أي ويوم القيامة ينادي الله المشركين: أين شركائي الذين زعمتم أنهم آلهة؟ وفيه تقريعٌ وتهكمٌ بهم ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي قال المشركون: أعلمناك وأخبرناك الآن بالحقيقة ما منا من يشهد اليوم بأنَّ لك شريكًا قال المفسرون: لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم، أي: وأعلنوا إيمانهم وتوحيدهم في وقت لا ينفع فيه إيمان ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ

(١) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٢٦٥.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٣٤.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٧٠.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٣٦.

﴿يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُ﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من الآلهة المزعومة ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي وأيقنوا أنه لا مهرب ولا مخلص لهم من عذاب الله ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي لا يملُّ الإنسان من سؤاله ودعائه بالخير لنفسه، كالمال والصحة العز والسلطان ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ أي وإن أصابه فقر أو مرض فهو عظيم اليأس، قانطٌ من رَوْح الله ورحمته[١] ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ أي ولئن أعطيناه غِنًى وصحة من بعد شدة وبلاء ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي ليقولنَّ هذا بسعْيي واجتهادي قال أبو حيان: سمَّى النعمة رحمة إذ هي من آثار رحمة الله[٢] ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ أي وما أعتقد أن القيامة ستكون ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي وعلى فرض أن القيامة حاصلة، فلَيُحْسِنَنَّ إليَّ ربِّي كما أحسن إليَّ في هذه الدنيا قال ابن كثير: يتمنى على الله عَزَّ وَجَلَّ مع إساءته العمل وعدم اليقين[٣] ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي فوالله لنُعْلِمَنَّ هؤلاء الكافرين بحقيقة أعمالهم، ولنبصِّرَنَّهم بإجرامهم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ أي ولَنُعَذِّبَنَّهم أشد العذاب، وهو الخلود في نار جهنم ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض عن شكر ربه، واستكبر عن الانقياد لأوامره، وشمخ بأنفه تكبرًا وترفعًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ أي وإذا أصابه المكروه فهو ذو دعاء كثير، يديم التضرع ويكثر من الابتهال، وهكذا طبيعة الإنسان الجُحُود والنُّكْران، يعرف ربه في البلاء وينساه في الرخاء قال الرازي: استعير العرض لكثرة الدعاء، كما استعير الغلظ لشدة العذاب[٤] ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ أي قل لهم يا محمد: أخبروني يا معشر المشركين، إن كان هذا القرآن من عند الله، وكفرتم به من غير تأمل ولا نظر، كيف يكون حالكم؟ ﴿مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا أحد أضل منكم لفرط شِقاقِكم وعداوتِكم، قال أبو السعود: وضع الموصول «من أضلُّ» موضع الضمير «منكم» شرحًا لحالهم، وتعليلًا لمزيد ضلالهم[٥] ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي سنُظهر لهؤلاء المشركين دلالاتِنا وحُجَجنا على أن القرآن حق منزَّل من عند الله ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ أي في أقطار السمواتِ والأرض من الشمس والقمر والنجوم، والأشجار والنبات وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي وفي عجائب قدرة الله في خلقهم وتكوينهم قال القرطبي: المراد

(١) (ش): رَوْح الله: رحمة الله.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٥٠٤.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦٧.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٣٨.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٧.

ما في أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة، حتى سبيل الغائط والبول، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحدٍ، ويتميز ذلك من مكانين، ومن بديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء، ينظر بهما من الأرض إلى السماء، مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه[1] ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي حتى يظهر لهم أن هذا القرآن حق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي أولم يكفهم برهانًا على صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؟ وأنه مطَّلع على كل شيء لا تخفى عليه خافية؟ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ ألا استفتاحٌ لتنبيه السامع إلى ما يقال، أي: ألا فانتبهوا أيها القوم إن هؤلاء المشركين في شكٍّ من الحساب والبعث والجزاء، ولهذا لا يتفكرون ولا يؤمنون ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي ألا فانتهوا فإنه تعالى قد أحاط علمه بكل الأشياء جملة وتفصيلًا، فهو يجازيهم على كفرهم.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿بَشِيرًا.. وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿طَوْعًا.. كَرْهًا﴾ وبين ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ.. وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وبين ﴿الْحَسَنَةُ.. السَّيِّئَةُ﴾ وبين ﴿مَغْفِرَةٍ.. عِقَابٍ﴾ وبين ﴿أَأَعْجَمِيٌّ.. وَعَرَبِيٌّ﴾ وبين ﴿تَحْمِلُ.. تَضَعُ﴾ وبين ﴿الْخَيْرِ.. الشَّرُّ﴾.

٢ - طباق السلب ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ.. وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ وكذلك ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٣ - الالتفات ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ [فصلت: ١٣] بعد قوله ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ [فصلت: ٩] وهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، وناسب الإعراض عن مخاطبتهم لكونهم أعرضوا عن الحق، وهو تناسب حسن.

٤ - الاستعارة التمثيلية ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] مثَّل تأثير قدرته تعالى في السموات والأرض بأمر السلطان لأحد رعيته أو عبيده بأمر من الأمور وامتثال الأمر سريعًا[2].

٥ - الاستعارة التصريحية ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] ليس هناك على الحقيقة شيء مما قالوه، وإنما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن، وجوامع البيان، فكأنهم من شدة الكراهية له قد صُمَّت أسماعهم عن فهمه، وقلوبهم عن علمه.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٧٥.

(٢) (ش): هذا الكلام خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى قال للسماء والأرض قولاً حقيقيًّا: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ وأنهما قالتا قولًا حقيقيًّا ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

٦ - الاستعارة أيضًا ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ شبّه حالهم في عدم قبول المواعظ، وإعراضهم عن القرآن وما فيه بحال من يُنادى من مكان بعيد، فلا يسمع ولا يفهم ما يُنادى به، والجامع عدم الفهم في كلٍّ.

٨ - الأمر التهديدي ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ خرج الأمر عن صيغته الأصلية إلى معنى الوعيد والتهديد.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤] ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو مرسل مجمل.

١٠ - إن اللسان عاجز عن تصوير البلاغة في جمال الأسلوب القرآني، فتأمل الروعة البيانية في قوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٖ قَدِيرٌ﴾ وتصور التناسق الفني في التعبير والأداء، وتأمل لفظ الخشوع والاهتزاز والانتفاخ للأرض الميتة يبعثها الله كما يبعث الموتى من القبور، إنه جو بعث وإخراج وإحياء، ويا له من تصوير رائع يأخذ بالألباب.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فصلت»





مكية وآياتها ثلاث وخمسون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وموضوعها نفس موضوع السور المكية التي تعالج أمور العقيدة «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» والمحور الذي تدور عليه السورة هو «الوحي والرسالة» وهو الهدف الأساسي للسورة الكريمة.

* تبتدئ السورة بتقرير مصدر الوحي، ومصدر الرسالة، فالله رب العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال إلى نور الهداية والإيمان.

* ثم تعرض لحالة بعض المشركين، ونسبتهم لله الذرية والولد، حتى إن السماوات ليكدن يتفطرن من هول تلك المقالة الشنيعة، وبينما هؤلاء المشركون في ضلالهم يتخبطون، إذا بالملأ الأعلى في تسبيحهم وتمجيدهم لله يستغرقون، وذلك للمقارنة بين كفر أهل الأرض وطغيانهم وإيمان أهل السماء وإذعانهم.

* ثم تعود السورة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة، فتقرر أن الدين واحد أرسل الله تعالى به جميع المرسلين، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلا أن دينهم واحد، وهو الإسلام الذي بعث به نوحًا وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾.

* وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين بالقرآن، المنكرين للبعث والجزاء، وتنذرهم بالعذاب الشديد في يوم تشيب له الرءوس وتطير لهوله الأفئدة، بينما هم في الدنيا يهزءون ويسخرون، ويستعجلون قيام الساعة.

* وبعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته، تدعو الناس إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد والاستسلام لحكمه قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾.

* وتختم السورة بالحديث عن الوحي وعن القرآن، كما بدأت به في مطلع السورة الكريمة، ليتناسق الكلام في البدء والختام ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ...﴾.

التسمية: سميت «سورة الشورى» تنويهًا بمكانة الشورى في الإسلام، وتعليمًا للمؤمنين

أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل «منهج الشـورى» لما له من أثر عظيم جليل
في حياة الفرد والمجتمع كما قال تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ
ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ
ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ
نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ
عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ
بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ
فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ

اللغـة: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشـققن، والفطـور: الشـقوق ومنـه ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] ﴿فَاطِرُ﴾ خالق ومبدع ومخترع ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يقوم القيامة لاجتماع الخلائق فيه ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكـة المكرمة ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ ينشـئكم ويكثركم ﴿مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح جمع إقليـد على غير قياس ﴿شَرَعَ﴾ بيَّن وسنَّ وأوْضحَ ﴿كَبُرَ﴾ عظُمَ وشَقَّ ﴿يُنِيبُ﴾ يرجع ويتوب من ذنبه ﴿مُرِيبٍ﴾

مُوقِـع في الريبة والقلـق ﴿دَاحِضَةٌ﴾ باطلة وزائلة يقال: دحضت حجتـه أي بطلت، ودَحضت رجله أي زلقت.

التفسِـير: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[١]، وإثارة انتباه الإنسـان بحروف أولية، وبدءٍ غير مألوف ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي مثـل مـا أوحى إليك ربـك يا محمد هـذا القرآن، أوحى إلى الرسـل من قبلـك في الكتب المنزلـة، اللهُ العزيـز في ملكه، الحكيـم في صنعـه ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي له ما في الكـون ملكًا وخلقًا وعبيدًا ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي هو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالكبرياء والعظمـة ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ أي تكاد السـمواتُ يتشـققن مـن عظمة الله وجلالـه، ومن شـناعة ما يقوله المشـركون مـن اتخاذ الله الولـد ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي والملائكةُ الأبرار دائبون في تسبيح الله، ينزهونه عما لا يليق به ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ويطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين قال في التسـهيل: والآية عمومٌ يراد به الخصوص؛ لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، فهي كقوله تعالـى ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧][٢] ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ألَا فانتبهـوا -أيهـا القـوم- إن الله هـو الغفور لذنوب عبـاده، الرحيم بهـم حيث لا يعاجلهـم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم قال القرطبي: هَيَّب وعَظَّم جل وعلا في الابتداء، وألْطَفَ وبَشَّر في الانتهاء[٣] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي جعلـوا لـه شـركاء وأنـدادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي اللهُ تعالـى رقيـبٌ على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شـيءٌ، وهو محاسـبُهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ أي ومـا أنت يا محمد بموكَّل على أعمالهم حتى تقسـرهم على الإيمان، إنما أنت منذرٌ فحسـب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أي وكما أوحينا إلى الرسـل قبلك أوحينا إليك يا محمد قرآنًا عربيًّا معجزًا، بلسان العرب لا لبس فيه ولا غموض ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي لتنـذر بهـذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان قـال الإمام الفخر: وأمُّ القُرى أصـلُ القـرى وهي مكة، وسـميت بهذا الاسـم إجـلالًا لها، لأن فيهـا البيت ومقـام إبراهيم، والعـربُ تسـمي أصل كل شـيءٍ أمـه، حتى يقال: هـذه القصيدة مـن أمهات قصائـد فلان[٤] ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ أي وتخوّف الناس ذلك اليوم الرهيب، يوم اجتماع الخلائق للحسـاب في صعيدٍ واحد ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في وقوعه، ولا محالة من حدوثه ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ أي فريـقٌ منهم في جنـات النعيم وهم المؤمنون، وفريـق منهم في دركات الجحيم

(١) انظر التفصيل القول في أول سورة البقرة.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٥.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٤٧.

وهم الكافرون، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء كقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم مهتدين، أهل دينٍ واحدٍ وملةٍ واحدة وهي الإِسلام قال الضحاك: أهل دينٍ واحد، أهل ضلالةٍ أو أهل هُدى[١] ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ أي ولكنَّه تعالى حكيمٌ لا يفعل إلاَّ ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال يضلُّه فيدخله بذلك السعير ولهذا قال ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي والكافرون ليس لهم وليٌّ يتولاهم يوم القيامة، ولا نصيرٌ ينصرهم من عذاب الله قال أبو حيان: والآية تسليةٌ للرسول ﷺ عمَّا كان يقاسيه من كفر قومه، وتوقيفٌ على أنَّ ذلك راجعٌ إلى مشيئته جلَّ وعلا، ولكنْ من سبقت له السعادة أدخله في رحمته يعني دين الإِسلام[٢] ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ استفهامٌ على سبيل الإنكار، أي: بل اتخذ المشركون من دون الله آلهة، يستعينون بهم، ويطلبون نصرهم وشفاعتهم ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ أي فاللهُ وحده هو الوليُّ الحقُّ، الناصرُ للمؤمنين، لا وليَّ سواه ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي هو تعالى القادر على إحياء الموتى، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي لا يعجزه شيء فهو الحقيق بأن يُتخذوليًّا دون من سواه ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون من شيء من أمر الدنيا أو الدين، فالحكم فيه إلى الله جل وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بسنة نبيه عليه السلام ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أي الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده، وَلِيِّي ومالكُ أمري قال القرطبي: وفيه إضمارٌ، أي: قل لهم يا محمد: ذلك الذي يُحيي الموتى، ويحكم بين المختلفين هو ربّي[٣] ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي عليه وحده اعتمدت في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي وإليه وحده أرجع في كل ما يعرض عليَّ من مشكلاتٍ ومعضلات، لا إلى أحدٍ سواه قال الرازي: والعبارة تفيد الحصر، أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه، وهو إشارة إلى تزييفِ طريقةِ مَن اتخذ غير الله وليًّا[٤].. ثم بيَّن تعالى صفاته الجليلة القدسية، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية فقال ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي هو جل وعلا خالقهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابق ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي أوْجَد لكم بقدرته من جنسكم نساءً من الآدميَّات ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ أي وخلق لكم كذلك من الإِبل والبقر والضأن والمعز أصنافًا، ذكورًا وإناثًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يكثّركم بسببه بالتوالد، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى لما كان ثَمة تناسلٌ ولا توالدٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ أي ليس له تعالى مثيلٌ ولا نظير، لا في

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٦.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٥٠٩.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٧.
(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ١٤٩.

ذاتـه ولا في صفاتـه ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفردُ الصمـد والغرضُ: تنزيهُ الله تعالى عن مشـابهة المخلوقين، والكاف هنا لتأكيد النفي، أي: ليس مثله شيءٌ، قال ابن قتيبة: العربُ تقيم المثل مقام النفس فتقول: مثلي لا يُقال له هذا، أي: أنا لا يُقال لي هذا، ومعنى الآية ليس كالله جل وعلا شـيءٌ[١] قال القرطبي: والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله جلَّ اسـمُه في عظمته وكبريائه، وملكوته وحُسـنى أسمائه، لا يشبه شـيئًا من مخلوقاته، ولا يُشبَّه به أحد، وما أطلقه الشـرع علـى الخالق والمخلوق فلا تشـابه بينهمـا في المعنى الحقيقي، إذْ صفـاتُ القديم عزَّ وجـلَّ بخلاف صفات المخلوق، إذْ صفِاتُهـم لا تنفك عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى منـزَّه عن ذلك[٢]، وقد قـال بعض المحققين: التوحيـدُ إثباتُ ذاتٍ غير مُشْـبِهةٍ للذوات، ولا مُعطَّلة من الصفات، وزاد الواسطيُّ فقال: ليس كَذاتِه ذاتٌ، ولا كاسمِه اسمٌ، ولا كفِعله فِعلٌ، وهـذا مذهب أهـل الحق، أهـل السـنة والجماعـة[٣] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي وهو تعالى السـميع لأقوال العبـاد، البصيـر بأفعالهـم ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيـح خزائنهما من المطر والنبات وسـائر الحاجـات ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ أي يوسِّـعُ الرزق على من يشـاء، ويضيّق على من يشاء، حسـب الحكمة الإلهية ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تعليل لما سبق أي: لأن علمه تعالى محيط بكل الأشياء، فهو واسع العلم، يعلم إذا كان الغِنَى خيرًا للعبد أو الفقر ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي سَـنَّ وبيَّن لكم أيها المؤمنون من الشـريعة السـمحة والدين الحنيف، ما وصَّى به الرسـل، وأرباب الشرائع من مشاهير الأنبياء، كنوح ومحمد عليه السلام ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي ومـا أمرنـا به بطريق الإلزام إبراهيم وموسـى وعيسـى من أصول الشـرائع والأحكام قال الصـاوي: خصَّ هـؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء، وأولو العـزم، وأصحاب المعظمة، فلكل واحد من هؤلاء الرسـل شـرعٌ جديد، وأمَّا مَن عَدَاهم، فإنما كان يُبعث بتبليغ شـرع من قبله، ولم يزل الأمر يتأكد بالرسـل، ويتناصر بالأنبياء، واحدًا بعد واحد، وشـريعةً إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملةِ أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ، فتبيَّن أن شرعنا معشَر الأمة المحمدية قد جمع جميع الشـرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات، وأصول الأحكام[٤] ولهذا قال تعالى ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ أي وصيناهـم بـأن أقيموا الدين الحق دين الإسـلام الذي هو توحيـدُ الله وطاعتُـه، والإيمان بكتبه ورسـله، وبالبعث والجزاء قال القرطبـي: المراد اجعلوا

---

(١) انظر «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ٥٥.

(٢) (ش): مثل هذا النفي مبتدع، لأنه مما سكت الله عنه وسكت عنه رسوله ﷺ، ولأنه يُراد بنَفْي الأغراض نفي الحكمة، وبنفي الأعراض نفي أفعاله المتجددة مثل الكلام والخلق والرزق.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٨.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢.

الدين قائمًا مستمرًّا محفوظًا من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي: التوحيد، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وغيرها فهذا كله مشروع دينًا واحدًا وملة متحدة[1]. ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عظمُ وشقَّ على الكفار ما تدعوهم إليه من عبادة الله، وتوحيد الواحد القهار ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي اللهُ يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد من يشاء من عباده، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته، فيوفقه له ويقربه إليه رحمةً وإكرامًا ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي وما تفرَّق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم إلاّ من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبي المرسل إليهم ﴿بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي ظلمًا وتعديًا، وحسدًا وعنادًا ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لَعَجَّل لهم العقوبة في الدنيا سريعًا باستئصالهم قال ابن كثير: أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة سريعًا[2] ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي وإن بقيَّة أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي لفي شك من التوراة والإنجيل، مُوقِع لهم في أشد الحيرة والريبة، لأنهم ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان قال البيضاوي: لا يعلمون كتابهم كما هو ولا يؤمنون به حق الإيمان، فهم في شك مقلق[3] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي فلأجل الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، فادع يا محمد إليه والزم النهج القويم مع الاستقامة كما أمرك ربك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ولا تتبع أهواء المشركين الباطلة فيما يدعونك إليه مِن تَرْك دعوة التوحيد ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي صدَّقت بكل كتابٍ أنزله الله تعالى قال الرازي: يعني الإيمان بجميع الكتب السماوية، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض[4] ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي وأمرني ربي بأن أعدل بينكم في الحكم قال ابن جزي: يعني العدل في الأحكام إذا تخاصموا إليه[5] ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي الله خالقنا جميعًا ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم، من خير أو شرٍّ، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم قال ابن كثير: هذا تبرؤٌ منهم، أي: نحن برآء منكم كقوله

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١١.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٢.
(٣) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٣.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٥٨.
(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩.

تعالى ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١][1] ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم، فإن الحقَّ قد ظهر وبَانَ كالشمس في رابعة النهار، وأنتم تعاندون وتكابرون ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الله يجمع بيننا يوم القيامة لفصل القضاء، وإليه المرجع والمآب فيجازي كل أحدٍ بعمله من خير وشر قال الصاوي: والغرضُ أن الحقَّ قد ظهر، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد العناد لا حجة ولا جدل، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد، ويجازي كلًّا بعمله [2] ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه لصدِّ الناس عن الإيمان ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي من بعد ما استجاب الناسُ له ودخلوا في دينه ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي حجتهم باطلة لا ثبوت لها عند الله قال ابن عباس: نزلت في طائفةٍ من بني إسرائيل همَّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجتهم بالباطل[3] ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وعليهم غضب عظيم في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نزَّل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبسًا بالصدق القاطع، والحقِّ الساطع، في أحكامه وتشريعاته وأخباره ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي ونزَّل الميزان أي العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي وما ينبئك أيها المخاطب لعلَّ وقت الساعة قريب؟ فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها، ويستعدَّ لها. قال أبو حيان: ووجه اتصال الآية بما سبق أن الساعة يوم الحساب فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم[4] ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يُصدِّقون بها فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى تكون؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي والمؤمنون المصدِّقون بها خائفون وجلون من قيامها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي الذين يُجادلون في أمر القيامة في ضلالٍ بعيد عن الحق، لإنكارهم عدل الله وحكمته.

قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٣.
(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٣.
(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٥١٣. (ش): ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره». وذكره صاحب ««البحر المحيط»» بدون إسناد.
(٤) نفس المرجع ٧/ ٥١٣.

شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ
﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن
يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ
قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ
وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن
فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ
مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ
ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ
﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي
ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الساعة وما يلقاه عند قيامها المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار من الحساب والجزاء، ذكر هنا أنه لطيف بالعباد لا يعاجل العقوبة للعصاة مع استحقاقهم للعذاب، ثم ذكر مآل المتقين، ومآل المجرمين في الآخرة، دار العدل والجزاء.

اللغَة: ﴿لَطِيفُۢ﴾ برٌّ رفيقٌ رحيم ﴿حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الحرثُ في الأصل: إلقاء البذور في الأرض، ويطلق على الزرع الحاصل منه، ثم استُعمِل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ القضاء السابق ﴿يَقۡتَرِفۡ﴾ يكتسب ﴿رَوۡضَاتِ﴾ جمع روضة وهو الموضع الكثير الأزهار والأشجار والثمار كالمنتزه وغيره ﴿يَقۡتَرِفۡ﴾ يكتسب ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾ المطر سمي غيثًا لأنه يغيث الخلق ﴿قَنَطُواْ﴾ يئسوا ﴿بَثَّ﴾ فرّق ونشر ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ فائتين من عذاب الله بالهرب.

التفسير: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ خَبِيرٌ﴾ أي بارٌّ رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم قال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعًا بمعاصيهم[1] ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء قال القرطبي: وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، ليحتاج البعضُ إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضًا ليمتحن الغنيَّ بالفقير، والفقير بالغني كقوله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠]؟[2] ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي الغالبُ الذي لا يُغالَب ولا يُدافع

---

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٥١٤.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٨.

ثم لما بيَّن كونه لطيفًا بالعباد، كثير الإحسان إليهم، أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي من كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، نزِدْ له في أجره وثوابه، بمضاعفة حسناته ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط، نُعْطه بعض ما يطلبه من المتاع العاجل ممَّا قُدِّر له ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي وليس له في الآخرة حظٌّ من الثواب والنعيم قال الزمخشري: سمَّى ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثًا على سبيل المجاز، وفرَّق بينهما بأن من عمل للآخرة ضُوعِفَت حسناته، ومن عمل للدنيا أُعطي شيئًا منها لا ما يريده ويبتغيه[1] وقال في التسهيل: حرثُ الآخرة عبارة عن العمل لها، وكذلك حرث الدنيا، وهو مستعارٌ من حرث الأرض، لأن الحرَّاث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل[2]، ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله، مع أنه الخالق المتفضل على العباد فقال ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: ألهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله؟ قال شيخ زاده: وإسناد الشرع إلى الأوثان، وهي جمادات إسناد مجازي، ومن إسناد الفعل إلى السبب، وسمَّاه دينًا للمشاكلة والتهكم[3] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لولا أنَّ الله حكم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة لَحُكِم بين الكفار والمؤمنين، بتعجيل العقوبة للظالم، وإثابة المؤمن ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذابٌ موجع مؤلم. ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي ترى أيها المخاطب الكافرين يوم القيامة خائفين خوفًا شديدًا من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي والجزاء عليها نازلٌ بهم يوم القيامة لا محالة، سواءٌ خافوا أو لم يخافوا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ أي والمؤمنون الصالحون في رياض الجنة يتمتعون، في أطيب بقاعها، وفي أعلى منازلها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم في الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم عند رب كريم قال ابن كثير: فأين هذا من هذا؟ أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذّ[4]؟ ولهذا قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي ذلك النعيم والجزاء هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء قال القرطبي: أي الفضل الذي لا يوصف، ولا

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ٤٧١.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧١.

(٣) «حاشية البيضاوي» ٣/ ٢٧٥.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٥.

تهتدي العقول إلى حقيقة صفته، لأن الحقَّ جلّ وعلا إذا قال «كبير» فمن ذا الذي يقدر قدره[١] ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ذلك الإكرام والإنعام هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين المتقين، ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقًا إلى لقائه ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئًا من الأجر والمال، إلاَّ أن تحفظوا حقَّ القربى ولا تؤذوني حتى أبلغ رسالة ربي قال ابن كثير: أي لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالًا، وإنما أطلب أن تذروني حتى أبلغ رسالات ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة قال ابن عباس: يقول إلا أن تصلوا ما بين وبينكم من القرابة[٢]، وتودُّوني في نفسي لقرابتي منكم ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يكتسب ويفعل طاعةً من الطاعات نضاعف له ثوابها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي غفور للذنوب شاكر لإحسان المحسن، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويُكَثِّر القليل من الحسنات ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؟ أي بل أيقول كفار قريش: إن محمدًا اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه؟ قال أبو حيان: وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة، أي: مثله لا يُنسَب إلى الكذب على الله مع اعترافكم له قبْلُ[٣] بالصدق والأمانة[٤] ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي لو افتريت على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لختم على قلبك فأنساك هذا القرآن، وسلبه من صدرك، ولكنك لم تَفْتَرِ على الله كذبًا ولهذا أيّدك وسدَّدك قال ابن كثير: وهذه كقوله جل وعلا ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦] وقال أبو السعود: والآيةُ استشهادٌ على بطلان ما قالوا ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لَمَنَعه من ذلك قطعًا، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرفٍ من حروفه[٥] ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي يزيل الله الباطل بالكلية ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي ويثبتُ اللهُ الحق ويوضّحه بكلامه المنزل، وقضائه المبرم وقال ابن كثير: بكلماته، أي: بحُجَجِه وبراهينه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في القلوب، يعلم ما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر وقال القرطبي: والمراد أنك لو حدثت نفسك أن تفتري الكذب لعلمه الله وطبع على قلبك[٦] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هذا امتنانٌ من الرحمن على العباد، أي: هو جل وعلا بفضله وكرمه يتقبل التوبة

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٠.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٥.

(٣) (ش): أي قبل ذلك.

(٤) «البحر المحيط» ١٧/ ٥١٦.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٣٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٥.

من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي وأنابوا بصدقٍ وإخلاص نيّة ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي يصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يعلم جميع ما تصنعون من خيرٍ أو شر ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ويستجيب الله دعاء المؤمنين الصالحين قال الرازي: أي ويستجيبُ اللهُ للمؤمنين إلاَّ أنه حذف اللام كما حذف في قوله ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] أي كالُوا لهم[١] ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي ويزيدهم من جوده وكرمه فوق ما سألوا واستحقوا لأنه الجواد الكريم، البرُّ الرحيم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجع الأليم في دار الجحيم ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ولو وسَّع الله الرزق على عباده لطغوا وبغَوْا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، لأن الغنى يوجب الطغيان. قال ابن كثير: أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا، وقال قتادة: خير العيش ما لا يُلهيك ولا يُطغيك[٢] ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي ولكنه تعالى يُنزّل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة كما جاء في الحديث القدسي «إنَّ من عبادي من لا يصلُحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه»[٣] ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ تعديدٌ لنعمه على العباد أي هو تعالى الذي ينزّل المطر، الذي يغيثهم من الجدب، من بعد ما يئسوا من نزوله ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي ويبسط خيراته وبركاته على العباد ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي وهو الوليُّ الذي يتولى عباده، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلقُ السموات والأرض بهذا الشكل البديع ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي وما نشر وفرّق في السماوات والأرض من مخلوقات قال ابن كثير: وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم[٤] وقال

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٦٩. (ش): قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٠٥- ٢٠٦): «قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ يَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ لَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأَصْحَابِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ. وَحَكَاهُ عَنْ بَعْضِ النُّحَاةِ، وَأَنَّهُ جَعَلَهَا كَقَوْلِهِ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٥]. وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ جَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ [الزُّمَر:١٨] أَيْ: هُمُ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِلْحَقِّ وَيَتَّبِعُونَهُ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الْأَنْعَام:٣٦] وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أَيْ: يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ».

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٧.

(٣) كذا ذكره ابن كثير عن أنس مرفوعًا. (ش): أخرجه الخطيب في «التاريخ»، وضعفه الألباني.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٨.

مجاهد: هم الناسُ والملائكة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أي وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أيِّ وقتٍ شاء ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي وما أصابكم أيها الناس مصيبة من المصائب في النفس أو المال فإنما هي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها قال الجلال: وعبَّر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها[1] ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها، ولو آخذكم بكل ما كسبتم لهلكتم وفي الحديث «لا يصيب ابن آدم خدش عود، أو عثرة قدم، ولا اختلاجُ عرقٍ إلا بذنبٍ، وما يعفو عنه أكثر»[2]﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ولستم أيها المشركون فائتين من عذاب الله، ولا هاربين من قضائه، وإِن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي وليس لكم غير الله وليٌّ يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم، ولا نصير يدفع عنكم عذابه وانتقامه.

فَائِدَة: المصائب التي تُصيب الناس لتكفير السيئات، وأما الأنبياء فإِنما هي لرفع الدرجات لأنهم معصومون عن الذنوب والآثام.

تنبيه: قال بعض العلماء: لا يستبعد أن يكون في الكواكب السيارة، والعوالم العلوية مخلوقات غير الملائكة تشبه مخلوقات الأرض، وأن يكون فيها حيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا كما تدل الدلائل الفلكية على وجود حياةٍ في المريخ، واستدلوا بهذه الآية ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الآية[3]، أقول: يحتمل أن يوجد في هذا الفضاء الواسع، مخلوقات حيَّة غير الإنسان، أمَّا الإنسان فإننا نقطع بأنه لا يوجد إلا فوق سطح الكوكب الأرضي[4] لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

---

(١) «تفسير الجلالين» ٤/ ٣٨.

(٢) كذا في «البحر المحيط» ٧/ ٨١٥، وذكر ابن كثير أن الحديث من رواية ابن أبي حاتم عن الحسن مرسلاً.
(ش): أي إنه حديث ضعيف لانقطاعه، فالحسن البصري رحمه الله لم يدرك النبي ﷺ. وقال ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ). وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلاَّ حَطَّ اللهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) (ش): لا تطابق بين ما ذُكِر ومدلول الآية الكريمة، لأنها خصت السموات والأرض دون الكواكب ببَثِّ الدواب فيها.

(٤) (ش): تسمية الأرض كوكبًا إطلاقٌ غريبٌ عن نصوص الوحيين الشريفين، فالكواكب في السماء، والأرض في السُّفْل، ولم يطلق على الكواكب اسم: الأرض، ومن لازم هذا الإطلاق أن تكون الأرض زينة للسماء الدنيا، وجعلها رجومًا للشياطين، وهذا باطل. [انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص: ١١٨)].

قال الله تعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن
مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ
سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا
عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى
ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ
مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن
مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ
وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ
ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ
أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ
﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن
نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ
أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى بعض الدلائل على وحدانيته في خلق السموات والأرض، وما بثَّ فيهما من مخلوقات لا تُحصى، أتبعه بذكر آية أخرى تدل على وجود الإله القادر الحكيم[1]، وهي السفن الضخمة التي تشبه الجبال تسير بقدرته تعالى فوق سطح البحر، محمَّلة بالأقوات والأرزاق، وختم السورة الكريمة ببيان إثبات الوحي وصدق القرآن.

اللغة: ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تجري في الماء ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ جمع عَلَم وهو الجبل العظيم الشاهق قالت الخنساء:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

(١) (ش): وجود الله يعرفه كل أحد، وإنما المقصود الاستدلال على وجوب إفراده بالعبادة.

﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت ساكنة لا تسير، من ركدَ الماء إذا سكن ووقف عن الجري ﴿مَّحِيصٍ﴾ مهرب ومخلص من العذاب ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهنَّ يقال: أوبقه أي أهلكه ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحه كالزنى والقتل والشرك وغيرها ﴿نَّكِيرٍ﴾ مُنكِر يُنكِر ما ينزل بكم من العذاب ﴿عَقِيمًا﴾ لا تلد.

التفسِير: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة، وسلطانه العظيم، السفنُ الجارية في البحر كأنها الجبال من عظمها وضخامتها ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في تسييرها لعبرًا وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاكر في الرخاء قال الصاوي: أي كثير الصبر على البلايا، عظيم الشكر على العطايا [1] وقال أبو حيان: وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سببًا لسيرها فإذا أراد أن ترسوا أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها[2]، ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيغرق هذه السفن وأهلها بسبب ما اقترفوا من جرائم ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، أنه لا ملجأ لهم ولا مهرب من عذاب الله قال القرطبي: أي ليعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخصلون له العبادة[3] ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فما أُعطِيتُم أيها الناس من شيءٍ من نعيم الدنيا وزهرتها الفانية، فإنما هو نعيم زائل، تتمتعون به مدة حياتكم ثم يزول ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي وما عند الله من الثواب والنعيم، خيرٌ من الدنيا وما فيها لأنَّ نعيم الآخرة دائم مستمر، فلا تُقدِّموا الفاني على الباقي ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي للذين صدَّقوا الله ورسوله وصبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي واعتمدوا على الله وحده في جميع أمورهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ قال ابن عباس: يعني الزنى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي إذا غضبوا على أحدٍ ممَّن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا قال الصاوي:

(١) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٩.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٥٢٠.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٣٣.

من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخل بالمروءة، ولا واجبًا كما إذا انتهكت حرماتُ الله فالواجب حنيئذٍ الغضب لا الحلم، وعليه قول الشافعي «من استُغضِب ولم يغضب فهو حمار» وقال الشاعر «وحِلْمُ الْفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ»[١] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أي أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة قال البيضاوي: نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا[٢] ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدوها بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي يتشاورون في الأمور ولا يعجلون، ولا يُبرمون أمرًا من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون مما أعطاهم الله في سبيل الله بالإحسان إلى خلق الله ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، ولا يستسلمون لظلم المعتدي قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يُذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق[٣] قال أبو السعود: وهو وصفٌ لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كلاًّ في موضعه محمود[٤] ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أي وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة قال الإمام الفخر: لما قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيدًا بالمثل دون زيادة، وإنما سمَّى ذلك سيئة لأنها تسوء من تنزل به[٥] ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين عدوه، فإن الله يُثيبُه على ذلك الأجر الجزيل قال ابن كثير: شرع تعالى العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك كما جاء في الحديث: « وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا »[٦] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إنه جل وعلا يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي انتصر ممن ظلمه دون عدوان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي إنما العقوبة والمؤاخذة

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٤٠.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٥. (ش): ذكره البيضاوي بدون إسناد.

(٣) «القرطبي» ١٦/ ٣٩.

(٤) «أبو السعود» ٥/ ٣٦.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٨٠.

(٦) «حاشية الصاوي» ٤/ ٤١. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ. والعَفْوُ نوعان:

١- نوعٌ يكون فيه العفو سببًا لتسكين الفتنة، وتهدئة النفوس، ومنع استفحال الشر، وهذا محمودٌ.

٢- نوعٌ يكون فيه العفو سببًا لجراءة الظالم وتماديه فى غيّه، وهذا مذموم.

فالعفو عن العاجز المعترف بجُرمه محمود، والانتصار من المخاصِم المُصِرّ على جرمه والمتمادى فى غيّه محمود. [انظر: تفسير المراغي (٢٥/ ٥٣- ٥٤)].

على المعتدين الذين يظلمون الناس بعدوانهم ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي ويتكبرون في الأرض تجبرًا وفسادًا بالمعاصي والاعتداء على الناس في النفوس والأموال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي ولمن صبر على الأذى، وترك الانتصار لوجه الله تعالى، فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها قال الصاوي: كرَّر الصبر اهتمامًا به وترغيبًا فيه وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة[(١)] ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ أي ومن يضلله اللهُ فليس له ناصر ولا هادٍ يهديه إلى الحق ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي وترى الكافرين حين شاهدوا عذاب جهنم ﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي يطلبون الرجوع إلى الدنيا لهول ما يشاهدون من العذاب ويقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا؟ قال القرطبي: يطلبون أن يُردُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يجابون[(٢)] ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ أي وتراهم أيها المخاطب يُعرضون على النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي متضائلين صاغرين مما يلحقهم من الذل والهوان ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ أي يسارقون النظر خوفًا منها وفزعًا كما ينظر من قُدِّم ليقتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه قال ابن عباس: ينظرون بطرفٍ ذابلٍ ذليل وقال قتادة والسدي: يُسارقون النظر من شدة الخوف[(٣)] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ أي ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ أي وما كان لهم من أعوان ونُصَراء ينصرونهم من عذاب الله كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ومن يضلله اللهُ فليس له طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، لأنه قد سُدَّت عليه طريق النجاة قال ابن كثير: من يضلله الله فليس له خلاص[(٤)] ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ أي استجيبوا أيها الناسُ إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب الذي لا يقدر أحدٌ على ردِّه، لأنه ليس له دافع ولا مانع ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي ليس لكم مفر تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ أي وليس لكم مُنكِرٌ يُنكِر ما ينزل بكم من العذاب وقال أبو السعود: أي ما لكم إنكار لما اقترفتموه لأنه مدوَّن في

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٤٥.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٤٦.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٧٨.
(٤) «مختصر ابن كثير» ١٣/ ١٨٢.

صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم[١] ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ أي فإن أعرض المشركون عن الإيمان ولم يقبلوا هداية الرحمن ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ أي فما أرسلناك يا محمدًا رقيبًا على أعمالهم ولا محاسبًا لهم ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أي ما عليك إلاَّ أن تبلغهم رسالة ربك وقد فعلت قال أبو حيان: والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيسٌ له، وإزالةٌ لهَمِّه[٢]، ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الكفران لنعم الله فقال ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾ وأراد بالإنسان الجنس بدليل قوله ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾ والمعنى: إنا إذا أكرمنا الإنسان بنعمةٍ من النعم من صحة وغنى وأمنٍ وغيرها بطر وتكبَّر ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ أي وإن أصاب الناسَ جدبٌ ونقمة، وبلاءٌ وشدة، بسبب ما اقترفوه من آثام فإن الإنسان مبالغٌ في الجحود والكفران، ينسَى النعمة ويَذْكُر البليَّة[٣] قال الصاوي: والحكمةُ في تصدير النعمة ب «إذا» والبلاء بـ «إنْ» هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه[٤] وقال الإمام الفخر: نِعمُ اللهِ في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمَّاها ذوقًا، فبيَّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير في الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المُنى، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة[٥] ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي هو تعالى المالك للكون كلِّه، علويه وسفليّه، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد، كيفما يشاء، والمقصودُ من الآية أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك الله وحده، وبيده مقاليد التصرف في السموات والأرض، يعطي ويمنع، لا رادَّ لقضائه ولا معقّب لحكمه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ أي يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي ويخص من شاء بالذكور دون الإناث ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ أي يجعلهم إن شاء من النوعين فيجمع للإنسان بين البنين والبنات ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ أي ويجعل بعض الرجال عقيمًا فلا يولد له، وبعض النساء عقيمًا فلا تلد قال البيضاوي: والمعنى: يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة، على مقتضى المشيئة، فيهب لبعضٍ إمّا صنفًا واحدًا من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جمعًا، ويُعقم آخرين[٦]، والمراد من الآية بيان نفاذ قدرته تعالى في الكائنات كيف يشاء، ولهذا

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٣٧.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٥٢٥.
(٣) (ش): بَليّة: بَلاء، مُصيبة ومِحْنَة.
(٤) «حاشية الصاوي» ٤/ ٤١.
(٥) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ١٨٤.
(٦) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٦.

قال ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم والقدرة، يفعل ما فيه مصلحة وحكمة قال ابن كثير: جعل تعالى الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه النوعين الذكر والإناث، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيمًا لا نسل له ولا ولد، فسبحان العليم القدير(١).

ثم ذكر تعالى الوحي وأقسامه وأنواعه فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ أي وما صحَّ لأحدٍ من البشر أيًّا كان أن يكلمه الله إلا بطريق الوحي في الناس أو بالإلهام، لأن رؤيا الأنبياء حقٌّ كما وقع للخليل إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢] ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ أي أو يكلمه من وراء حجاب كما كلَّم موسى عليه السلام ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أي أو يرسل ملكًا فيبلغ الوحي إلى الرسل بأمره تعالى ما يشاء تبليغه كما نزل جبريل بالوحي على الأنبياء قال في التسهيل: بيَّن تعالى في الآية أن كلامه لعباده على ثلاثة أوجه: **أحدها**: الوحي بطريق الإلهام أو المنام، **والآخر**: أن يُسمعه كلامه من وراء حجاب، **والثالث**: الوحي بواسطة الملك، وهذا خاص بالأنبياء، والثاني خاص بموسى وبمحمد إذ كلمه الله ليلة الإسراء، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء(٢) وقال الصاوي: وقد يقع الإلهام لغير الأنبياء كالأولياء، غير أن إلهام الأولياء قد يختلط به الشيطان لأنهم غير معصومين، بخلاف الأنبياء فإلهامُهم محفوظ منه(٣) ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ أي إنه تعالى متعالٍ عن صفات المخلوقين، حكيم في أفعاله وصنعه، تجري أفعاله على موجب الحكمة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ أي وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن، وسمَّاه روحًا لأن فيه حياة النفوس من موت الجهل، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض(٤) ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالمه على وجه التفصيل ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أي ولكن جعلنا هذا القرآن نورًا وضياءً نهدي به عبادنا المتقين ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي وإنك يا محمد لتُرشِد إلى دين قيِّم مستقيم هو الإسلام ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه هو دينُ الله الذي له كل

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٨٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٤. (ش): أي الوحي بطريق الإلهام أو المنام يكون للأنبياء والأولياء كما حدث مع أم موسى عليها السلام. كما قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ٢٤.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٥٥.

ما في الكون ملكًا وخلقًا وعبيدًا ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي ألا إلى الله وحده ترجع الأمور فيفصل فيها بين العباد بحكمه العادل وقضائه المبرم.

البَلَاغَة: تصمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز المرسل ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [الشورى: ٧] أي لتنذر أهل مكة لأن الإنذار لأهل القرية لا لها[1].

٢ - توالي المؤكدات مع صيغة المبالغة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥] وهي ألا، وإن، وضمير الفصل.

٣ - الطباق بين ﴿ٱلۡجَنَّةِ .. ٱلسَّعِيرِ﴾ وبين ﴿يَبۡسُطُ .. وَيَقۡدِرُ﴾ وبين ﴿ذُكۡرَانٗا .. وَإِنَٰثٗا﴾.

٤ - طباق السلب ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ [الشورى: ١٨].

٥ - الاستعارة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠] الآية شبه العمل للآخرة بالزارع يزرع الزرع ليجني منه الثمرة والحب، بطريق الاستعارة التمثيلية وهي من لطائف الاستعارة.

٦ - المقابلة ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٢٤].

٧ - عطف العام على الخاص ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] فالغيث خاص والرحمة عام.

٨ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ أي كالجبال في الضخامة والعظم.

٩ - التقسيم ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾.

١٠ - جناس الاشتقاق ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

١١ - صيغة المبالغة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ أي عظيم الصبر، كبير الشكر.

١٢ - المشاكلة ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ سميت الثانية سيئة لمشابهتها للأولى في الصورة.

١٣ - توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن العظيم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى»



(١) وفي الآية: أي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ احتباك حيث حذف من كل نظير ما أثبته في الآخر وتقديره: لتنذر أم القرى العذاب، وتنذر الناس يوم الجمع. (ش): الاحتباك: هو أن يُحْذَفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويُحْذَفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل.

٤٣ سُورَةُ الزُّخْرُفِ ٨٩

مكية وآياتها تسع وثمانون

بين يدي السورة

* سـورة الزخرف مكية، وقد تناولت أسس العقيدة الإسـلامية وأصول الإيمان «الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء» كشأن سائر السور المكية.

* عرضت السـورة لإثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القـرآن، الذي أنزله الله على النبي الأمي بأفصح لسان، وأنصع بيان، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي.

* ثم عرضت إلى دلائل قدرته تعالى ووحدانيته، منبثة في هذا الكون الفسـيح، في السـماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السـماء، والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها.

* ثـم تناولت السـورة ما كان عليه المجتمع الجاهلي من الخرافـات والوثنيات فقد كانوا يكرهـون البنات، ومع ذلك اختاروا لله البنات سـفهًا وجهلًا، فزعمـوا أن الملائكة بنات الله، فجـاءت الآيات لتصحيح تلك الانحرافات، ورد النفوس إلـى الفطرة، وإلى الحقائق الأولى القطعية.

* وتحدثت السـورة بإيجاز عن دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم المشركون أنهم من سـلالته وعلى ملته، فكذبتهم في تلك الدعوى، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان.

* ثم انتقلت إلى تفنيد تلك الشـبهة السـقيمة، التي أثارها المشـركون حول رسالة محمد عليه السلام، فقد اقترحوا أن تتنزل الرسالة على رجل من أهل الجاه والثراء، لا على يتيم فقير كمحمد ﷺ فجاءت الآيات لتقرير أن الجاه والثراء ليسـا ميزانًا لكرامة الإنسـان واسـتحقاقه المناصـب الرفيعة، وأن الدنيا من الحقارة والمهانة بحيث لو شـاء الله لأغدقها على الكافرين ومنعها عباده المؤمنين.

* وذكرت السـورة قصة «موسـى وفرعون» لتأكيد تلك الحقيقة السـابقة، فها هو فرعون الجبار يعتز ويفخر على موسـى بملكه وسـلطانه، كما يعتز الجاهلون من رؤسـاء قريش على النبي ﷺ ثم تكون نتيجته الغرق والدمار.

* وختمت السـورة الكريمة ببيـان بعض أحوال الآخرة وشـدائدها وأهوالها، وبيان حال الأشقياء المجرمين، وهم يتقلبون في غمرات الجحيم.

* **التسـمية:** سـميت «سـورة الزخرف» لمـا فيها من التمثيـل الرائع – لمتـاع الدنيا الزائل

وبريقها الخادع - بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ
ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ
﴿٥﴾ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ
مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠﴾
وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ
كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا
ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾
وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم
بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن
يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ
أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ
مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا
وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا
قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا
وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ

اللغة: ﴿صَفۡحًا﴾ إعراضًا يقال: ضربت عنه صفحًا إذا أعرضت عنه وتركته ﴿بَطۡشٗا﴾ قوة وانتقامًا، وبطش به أخذه بشدة وعنف ﴿مَهۡدٗا﴾ فراشًا وبساطًا ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾ أحيينا، والنشور، الإحياء بعد الموت ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ﴾ تستقروا وتركبوا ﴿مُقۡرِنِينَ﴾ مطيقين ﴿كَظِيمٌ﴾ مملوء غمًّا وغيظًا ﴿يَخۡرُصُونَ﴾ يكذبون ﴿أُمَّةٖ﴾ دين وطريقة ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾ المترف: المتنعم المنغمس في الشهوات.

التفسير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾

(١) انظر تفصيل القول في أول سورة البقرة.

قسمٌ أقسم الله به، أي: أُقْسمُ بالقرآن البيّن الواضح الجلي، المظهر طريق الهدى من طريق الضلال، المبيِّن للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: أنزلناه بلغة العرب، مشتملًا على كمال الفصاحة والبلاغة، بأسلوب محكم، وبيانٍ معجز ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا أحكامه، وتتدبروا معانيه، وتعقلوا أن أسلوبه الحكيم خارج عن طوق البشر قال البيضاوي: أقسم تعالى بالقرآن على أنه جعله قرآنًا عربيًّا، وهو من البدائع البلاغية لتناسب القسم والمُقْسم عليه، تنبيهًا على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجهٍ وأدقه[(١)] ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ أي وإنه في اللوح المحفوظ عندنا ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي رفيع الشأن عظيم القدر، ذو حكمةٍ بالغةٍ ومكانةٍ فائقة قال ابن كثير: بيَّن شرفَ القرآن في الملأ الأعلى، ليشرِّفه ويعظِّمه أهل الأرض، أي: وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانةٍ عظيمة، وشرف وفضل[(٢)] ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الاستفهام إنكاري، أي: أنترك تذكيركم إعراضًا عنكم، ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن؟ ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان؟ لا، بل نذكّركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع حين ردَّه الأوائل لهلكوا، ولكنَّ الله برحمته كرَّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة[(٣)] قال ابن كثير: وقول قتادة لطيف المعنى جدًا، وحاصله أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي به مَن قدَّر هدايته، وتقوم الحجة على مَن كتَب شقاوَته[(٤)] ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ تسلية للنبي عليه السلام أي ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم الأولين! ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ولم يكن يأتيهم نبي إلا سخروا منه واستهزءوا به قال الصاوي: وهذا تسلية له ﷺ والمعنى تَسَلَّ[(٥)] يا محمد ولا تحزن فإنه وقع للرسل قبلك ما وقع لك[(٦)] ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي فأهلكنا قومًا كانوا أشد قوة من كفار مكة وأعتى منهم وأطغى ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وسبق في القرآن أحاديثُ إهلاكهم، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين قال الإمام الفخر: إن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل

(١) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٢٨٨.
(٢) «مختصر ابن الكثير» ٣/ ٢٨٤.
(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ١٩٥.
(٤) «المختصر ٣/ ٢٨٥.
(٥) (ش): تسلَّى الشَّخصُ: طابت نفسُه وذهب ما بها من تعب أو همٍّ.
(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٤٤٠.

بأولئك فقد ضربنا لهم مثلَهم[١] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من خلق السمواتِ والأرض بهذا الشكل البديع ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي ليقولُنَّ خلقهنَّ اللهُ وحده، العزيزُ في ملكه، العليمُ بخلقه قال القرطبي: أقروا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلًا منهم وسفهًا[٢]. ثم بيَّن تعالى لهم صفاته الجليلة، الدالة على كمال القدرة والحكمة فقال ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي بسط الأرض وجعلها كالفراش لكم، تستقرون عليها وتقومون وتنامون ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي وجعل لكم فيها طُرُقًا تسلكونها في أسفاركم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم، مُودِع هذا النظام العجيب[٣] ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي نزَّل بقدرته الماء من السماء بمقدارٍ ووزنٍ معلوم، بحسب الحاجة والكفاية قال القرطبي: أي بمقدار ينفع ولا يضر[٤] ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي فأحيينا به أرضًا ميتةً مقفرةً من النبات ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي كذلك نخرجكم من قبوركم كما نُخرج النبات من الأرض الميتة ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي خلق جميع الأصناف من الحيوان والنبات وغير ذلك قال ابن عباس: «الأزواج» الأصناف والأنواع كلها كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى[٥] ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي وسخَّر لكم من السفن في البحر، والإبل في البر ما تركبونه في أسفاركم قال ابن كثير أي ذلَّلها وسخَّرها ويسَّرها لكم، لتأكلوا لحومها وتركبوا ظهورها[٦] ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ أي لتستقروا على ظهور هذا المركوب، سفينةً كانت أو جملًا ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي وتتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها فتشكروه بقلوبكم ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾ أي وتقولوا بألسنتكم عند ركوبكم: سبحان الله الذي ذلَّل ويسَّر لنا ركوب هذا المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ أو وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه لولا تسخيره تعالى لنا ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي وإنا إلى ربنا لراجعون، وصائرون إليه بعد الموت قال في «حاشية البيضاوي»: وليس المراد من ذِكْر النِّعمة تصوُّرها وإخطارها في البال، بل المراد تَذَكُّر أنها نعمةٌ حاصلةٌ بتدبير القادر العليم الحكيم، مُستَدْعِيَة لطاعته وشُكره، فإن من تفكر في أنَّ ما يركبه الإنسان من الفُلك والأنعام، أكثر قوةً وأكبر جثةً من راكبه، ومع ذلك كان مسخرًا لراكبه

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ١٩٥.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٦٤.
(٣) (ش): أي الذي أوْدَعَ هذا النظام العجيب في هذا الكون.
(٤) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٧.
(٥) «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ٧٧.
(٦) «مختصر ابن كثير» للصابوني ٣/ ٢٨٥.

يتمكن من تصريفه إلى أيّ جانب شاء، وتفكر أيضًا في خلق البحر والريح وفي كونهما مُسخَّرَيْن للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال، استغرَق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه، وكمال قدرته وحكمته، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجبًا من عظمة الله[١] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾. ولما ذكر تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السموات والأرض هو رب العالمين، ذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله فقال ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي جعل المشركون لله ولدًا حيث قالوا: الملائكةُ بنات الله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن القائل لهذا لَمُبالغٌ في الكفر، عظيم الجحود والطغيان قال البيضاوي: أي ظاهر الكفران لأن نسبة الولد إليه تعالى من فرط الجهل به والتحقير لشأنه[٢] ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ إنكار وتعجب من حالهم أي هل اتخذ تعالى لنفسه البنات، وخصَّكم واختار لكم البنين؟ قال ابن كثير: وهذا إنكار[٣] عليهم غاية الإنكار، ثم ذكر تعالى تمام الإنكار فقال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي وإذا بُشِّر أحد المشركين بالأنثى التي جعلها مثلًا لله بنسبة البنات له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي صار وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن، وهو ممتلئ غيظًا وغمًّا من سوء ما بُشّر به قال الإمام الفاخر: والمقصودُ من الآية التنبيهُ على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحدِّ كيف يجوز للعاقل إثباتُه لله تعالى؟ وقد روي عن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة[٤] ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي أيجعلون لله من يُربَّى في الزينة وينشأ ويكبر عليها وهنَّ الإناث؟ ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي ومن هو في الجدال غيرُ مظهرٍ لحجته لضعف رأيه؟ أوَمَنْ يكونُ هكذا يُنْسب إلى جناب الله العظيم؟ قال في التسهيل: والمقصد الرد على الذين قالوا: الملائكةُ بنات الله، كأنه قال: أجعلتم لله من ينشأ في الحلية؟ يعني يكبر وينبت في استعمالها، وذلك صفةُ النقص، ثم أتبعها بصفة نقصٍ أُخرى فقال ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبيّن حجتها لنقص عقلها، وقلّما تجد امرأة إلا تفسد الكلام، وتخلط المعاني، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص[٥]؟ وقال ابن كثير: المرأة ناقصة في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض الشعراء:

---

(١) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٢٩١.
(٢) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٧.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٨٦.
(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٢٧/ ٢٠١.
(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٦.

وَمَا الْحَلْيُ إِلَّا زِينَةٌ مِنْ نَقِيصَةٍ يُتَمِّمُ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصَّرا[1]

وأما نقصُ معناها فإنها صعيفةٌ عاجزةٌ عن الانتصار، كما قال بعض العرب وقد بُشِّر ببنت «ما هي بنعم الولد، نصرُها بكاءٌ، وبِرُّها سرقة»[2] ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ كفرٌ آخر تضمنه قولهم الشنيع، أي واعتقد كفار العرب بأن الملائكة الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله إناثٌ وحكموا عليهم بذلك ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ أي أَحَضرُوا وقت خلق الله لهم حتى عرفوا أنهم إناث؟ وهذا تجهيلٌ وتهكمٌ بهم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي سنأمر الملائكة بكتابة شهادتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم ويُسألون عنها يوم القيامة، وهو وعيدٌ شديدٌ مع التهديد قال المفسرون: حكى تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة: الأول: أنهم نسبوا إلى الله الولد، الثاني: أنهم نسبوا إليه البناتِ دون البنين، الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذَّبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال، ثم زادوا ضلالًا وبهتانًا فزعموا أنَّ ذلك برضى الله ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم﴾ أي قالوا على سبيل السخرية والاستهزاء: لو شاء اللهُ ما عبدنا هؤلاء الملائكة ولا الأصنام، ولمَّا كانت عبادتنا واقعة بمشيئته فهو راضٍ بها قال القرطبي: وهذا منهم كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل، فكل شيءٍ بإرادة الله، والمشيئةُ غير الرضى، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة، فإنهم لو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أنَّ الله أراد منهم ذلك[3]، وقد كذبهم الله بقوله ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بذلك القول حجة ولا برهان ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هم إلا يكذبون ويتَقَوَّلون على الله كذبًا وزورًا ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ردٌّ آخر عليهم، أي: أم أنزلنا على هؤلاء المشركين كتابًا من قبل القرآن فهم بذلك الكتاب متمسكون يعملون بتوجيهاته؟ قال الإمام الفخر: والمعنى: هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزَّل قبل القرآن حتى يعوِّلوا عليه ويتمسكوا به[4]﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ (بل) للإضراب وهو الانتقال من كلام إلى آخر أي لم يأتوا بحجةٍ عقلية أو نقلية على ما زعموا بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهَلة قال أبو السعود: والأُمَّةُ: الدينُ والطريقةُ سميت أمةً لأنها

---

(١) (ش): الحَلْيُ: الحِلْيَة: ما يُتزيّن به من المصوغات أو الأحجار الثَّمينة.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٨٧. (ش): المعنى أنه إذا كانت هناك محنة يحتاج أحدٌ فيها لمن ينصُره فهي لا تملك أمامها – لعجزها – إلا البكاء، كما أنها في الغالب عاجزة عن كسب دخل مادي تبر به من تريد برَّهم وإذا أرادت أن تبرهم فهي تسرق من مال زوجها لتبرهم به لأن الزوج غالبًا لا يسمح بأن تنفق ماله على أهلها. وكلام هذا العربي ليس صحيحًا بإطلاق فقد تكون البنت أفضل أولاد الأب والأم إن كانت صالحةً تبرُّهما في حياتهما بالإحسان إليهما والإنفاق عليهما إن كانت ذات مال، وبعد مماتهما تبرُّهما بالدعاء لهما. وفي ذات الوقت قد يكون مِن إخوانها مَن هم على النقيض من ذلك.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٧٣.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٠٦.

تُؤَمُّ وتُقصَد [١]﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي ونحن ماشُون على طريقتهم مهتدون بآثارهم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي وكما تبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة ولا برهان كذلك فَعَل مَن قبلهم من المكذبين، فما بعثنا قبلك رسولًا في أمةٍ من الأمم ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ أي إلا قال المتنعمون فيها الذين أبطَرَتْهُم النعمة، وأعمتهم الشهواتُ والملاهي عن تحمل المشاق في طلب الحق: إنا وجدنا أسلافنا على ملةٍ ودين، وإنا مقتدون بهم في طريقتهم قال البيضاوي: والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ ودلالةٌ على أن التقليد في نحو هذا ضلالٌ قديم، وأسلافُهم لم يكن لهم سندٌ منظور يُعتَدُّ به، وإنما خصَّص المترفين بالذكر للإشعار بأن التنعم وحبَّ البطالة صَرَفَهم عن النظر إلى التقليد الأعمى[٢]، وذكر هنا ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ وهناك ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ تفننًا لأن معناهما واحد ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾؟ أي قال كل نبيٍّ لقومه حين أنذرهم عذاب الله: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم بدينٍ أهدى وأرشد مما كانوا عليه؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قالوا: إنا كافرون بكل ما أُرسلتم به من التوحيد والإيمان والبعث والنشور ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب فانظر كيف صار حالهم ومآلهم؟!

قال الله تعالى:

وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾
وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ
﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ
عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ
دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ
وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ
أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ
رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ
عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ
فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٢/ ١٧٨.
(٢) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٨

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾

المناسَبَة: لما حكى عن المشركين تقليدهم الأعمى للآباء، ذكر هنا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه، وتبرؤه من قومه ومن عبادة الأوثان، للمقارنة بين الهدى والضلال، وبين منطق العقل السديد، ومنطق الهوى والتقليد.

اللغَة: ﴿بَرَآءٌ﴾ مصدر بمعنى بريء أي متبرئ يقال: تبرأتُ من الأمر أي تخليت عنه بالكلية ﴿عَقِبِهِۦ﴾ ذريته ونسله قال ابن شهاب: العقب: الولدُ وولد الولد ﴿سُخْرِيًّا﴾ أي مسخرًا في العمل مستخدمًا فيه ﴿وَمَعَارِجَ﴾ مصاعد ومراقي جمع مِعْراج وهو ما يصعد عليه الإنسان كالدَّرج ونحوه[1] ﴿يَظْهَرُونَ﴾ يرتقون ويصعدون ﴿وَزُخْرُفًا﴾ زينة من ذهب وفضة وغيرهما ﴿يَعْشُ﴾ يُعرض وأصله من عشيَ البصرُ إذا ضعف قال الخليل: العشو هو النظر ببصر ضعيف.

التفسِير: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي واذكر يا محمد حين قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه المشركين: إنني بريءٌ من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي لكنْ ربي الذي خلقني وأنشأني من العدم فإنه يرشدني إلى الدين الحق، ويهديني إلى طريق السعادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي وجعل إبراهيم هذه الكلمة كلمة التوحيد باقيةً في ذريته فلا يزال فيهم من يوحّد الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي رجاء أن يرجع إلى الإيمان من أشرك منهم قال مجاهد: «وجعلها كلمة» يعني «لا إله إلا الله» لا يزال في ذريته من يقولها إلى يوم الدين[2] ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي بل متعتُ أهل مكة وآباءهم وهم من عقب إبراهيم بالإمداد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي حتى جاءهم القرآن ورسولٌ ظاهر الرسالة، مؤيدٌ بالمعجزات الباهرة من عند الله قال الإمام الفخر: وجه نظم الآية أنهم لما عوَّلوا على تقليد الآباء، ولم يتفكروا في الحجة، اغتروا بطول الإمهال وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق[3] ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ أي ولمَّا جاءهم القرآن لينبههم من غفلتهم، ويرشدهم إلى التوحيد، ازدادوا عتوًّا وضلالًا فقالوا عن القرآن: إنه سحر ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي ونحن كافرون به، لا نصدّق أنه كلام الله قال أبو السعود:

(١) (ش): الدَّرَج: جمع دَرَجَة: مراقِي السُّلَّم، أو ما يُتَخَطَّى عليه من الأدْنى إلى الأعلى في الصُّعود أو في النُّزول.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٨٨.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٠٨.

سمَّوا القرآن سحرًا وكفروا به واستحقروا الرسول عليه السلام، فضمُّوا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به[١] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي وقال المشركون: هلاَّ أُنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير في مكة أو الطائف!! قال المفسرون: يعنون «الوليد بن المغيرة» في مكة أو «عُروة بن مسعود الثقفي» في الطائف. استبعدت قريش نزول القرآن على محمد وهو فقير يتيم، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء، ظنًّا منهم أن العظيم هو الذي يكون له مال وجاه، وفاتهم أن العظيم هو الذي يكون عند الله عظيمًا، وهم يعتبرون مقياس العظمة: الجاه والمال، وهذا رأي الجاهلين في كل زمانٍ ومكان، أما مقياسُ العظمة الحقيقية عند الله تعالى وعند العقلاء، فإنما هو عظمة النفس، وسُموُّ الروح، ومَنْ أعظمُ نفسًا وأسمى روحًا من محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام ُ! ولهذا ردَّ تبارك وتعالى عليهم بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أي أهم يمنحون النبوة ويخصون بها من شاءوا من العباد، حتى يقترحوا أن تكون لفلانٍ الغنيِّ، أو فلانٍ الكبير في الناس؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي نحن بحِكمَتنا جعلنا هذا غنيًّا وهذا فقيرًا، وفاوَتْنَا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة وهو تافه حقير لم نتركه لهم بل تولَّيْنا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة وهو عظيم وخطير لأهوائهم ومشتهياتهم! قال في التسهيل: كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الفانية، فأولى وأحرى ألا نُهمل الحظوظ الشريفة الباقية[٢] ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي فضلنا بين الخلق في الرزق والعيش، وجعلناهم مراتب: هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط الحال ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي ليكون كلٌّ منهم مسخرًا للآخر، ويخدم بعضهم بعضًا، لينتظم أمر الحياة قال الصاوي: إن القصد مِن جَعْل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواءً في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحدًا، فيُفضِي إلى خراب العالم وفسادِ نظامه[٣] وقال أبو حيان: وقوله تعالى: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الهزء، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعضٍ[٤]، ويصلوا إلى منافعهم، ولو تولَّى كل واحدٍ جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك، وضاع وهلك، وفي قوله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ تزهيدٌ في الإكباب على طلب الدنيا، وعونٌ على التوكل على الله، وقال قتادة[٥]: تلقَى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عيِيَّ اللسان وهو موسَّع عليه في الرزق، وتلقى

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٨.

(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ٤٨.

(٤) (ش): ارتفق بالشَّيء: انتفع واستعان به.

(٥) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٣.

شديد الحيلة، بسيط اللسان وهو مقتَّر عليه في الرزق، وقال الشافعي:

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى الْقَضَاءِ وَكَوْنِهِ ... بُؤْسُ اللَّبِيبِ وَطِيبُ عَيْشِ الْأَحْمَقِ[١]

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي وإنعامه تعالى عليك بالنبوة خيرٌ مما يجمع الناسُ من حطام الدنيا الفاني، ثم بيَّن تعالى حقارة الدنيا ودناءة قدرها عند الله فقال ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي ولولا أن يرغب الناسُ في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق، ويصيروا أمةً واحدة في الكفر، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار، وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش، سقفها من الفضة الخالصة ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي وجعلنا لهم مصاعدَ وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ أي ولبيوتهم أبوابًا من فضة وسررًا من فضة، زيادةً في الرفاهية والنعيم ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أي على تلك الأسرَّة الفضيَّة يتكئون ويجلسون ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي وجعلنا لهم زينةً من ستور ونمارق ونقوش. قال ابن عباس: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ ذهبًا، أي: جعلنا لهم سقفًا وأبوابًا وسررًا من فضة وذهب[٢] ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نعطيه للكفار، إلاّ شيء يُتمتع به في الحياة الدنيا الزائلة الحقيرة ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي والجنةُ وما فيها من أنواع الملاذ والنعم التي يقصر عنها البيان، هي خاصة بالمتقين لا يشاركهم فيها أحد قال المفسرون: والآياتُ سِيقتْ لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها، وأنها من الهوان بحيث لولا الفتنة لخصَّ بها الكافرين، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة، ولكنه تعالى رحيم بالعباد فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم وفي الحديث «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»[٣] قال الزمخشري: فإن قلت: فحين لم يوسّع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم، من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلاَّ وسَّع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلتُ: التوسعةُ عليهم مفسدة أيضًا لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأَجل الدنيا وذلك من دين المنافقين، فكانت الحكمة فيما دبَّر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلَّب الفقر على الغِنَى[٤] ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ومن يعرض ويتعَامَ[٥] ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٨٧.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. (ش): وصححه الألباني.

(٤) «تفسير الكشاف» ٤/ ١٩٧.

(٥) (ش): يتعامَى: يتظاهر بالعمى، يدّعي أنّه لا يرى. يتعامَى عن الحقيقة: يُخفيها عن نفسه ويتظاهر أنّه يجهلها ولا يراها، يتغافل عنها، يتجاهلها.

أي نهيئ ونيسّر له شيطانًا لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء كقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ فهو له ملازم ومصاحب له لا يفارقه ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الكفار الضالين عن طريق الهدى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي ويحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة وهدايةٍ من أمرهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي حتى إذا جاء الكافر مع قرينه وقد ربط بلسلسةٍ واحدة ﴿قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي قال الكافر لقرينه: يا ليت بيني وبينك مثل ما بين المشرق والمغرب قال الطبري: وهذا من التغليب كما يقال: القمران، والعمران، والأبوان، فغلَّب ههنا المشرق على المغرب[١] ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي فبئس الصاحب أنت لأنك كنت سببًا في شقائي بتَزْيينِكَ الباطلَ لي قال أبو سعيد الخدري: إذا بُعث الكافر زُوّد بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي ولن ينفعكم ويفيدكم اشتراككم في العذاب، ولن يخفف ذلك عنكم شيئًا بسبب ظلمكم، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه قال في التسهيل: المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب، ولا يجدون راحة التأسِّي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه[٢] لأن المصيبة إذا عمَّت هانت، فدفع تعالى ذلك التوهم بأن اشتراكهم في العذاب، لا يخفِّف عنهم البلاء ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي فأنت يا محمد تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالصُّم والعُمْي، ومن كان في ضلالٍ واضح؟ ليس لك ذلك فلا يَضِقْ صدرك إن كفروا قال المفسرون: والآية تسلية للنبي ﷺ فقد كان يجتهد في دعائهم إلى الإيمان، ولا يزدادون إلاَّ تعاميًا عن الحق وطغيانًا وضلالًا ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي إن عجَّلْنا وفاتَك قبل الانتقام منهم، فإنا سننتقم منهم بعد وفاتك ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي أو نرينَّك يا محمد العذاب الذي وعدناهم به في حياتك فإنا قادرون عليهم فهم في قبضتنا لا يفوتوننا قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر وقال ابن كثير: المعنى: لا بدَّ أن ننتقم منهم ونعاقبهم في حياتك أو بعد وفاتك، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقرَّ عَيْنَه من أعدائه[٣]، وحَكَّمه في نواصيهم[٤] ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أي فتمسكْ يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه لك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي فإنك على الحق الواضح والطريق المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ

(١) «تفسير الطبري».
(٢) «التسهيل لعلوم النزيل» ٤/ ٢٩.
(٣) (ش): قرَّت عينُه: بَرد دمعُها، ضدّ سخُنت، ويُكنَّى به عن السرور والابتهاج، وقيل: لأنَّه للسّرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارّة.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٠.

تُسْـَٔلُونَ ﴾ أي وإن هذا القرآن لشرفٌ عظيم لك ولقومك من قريش، إذ أُنزل بلغتهم وعلى رجل منهم وسوف تسألون عن شكر هذه النعمة قال في التسهيل: والذكرُ هنا بمعنى الشرف، وقومُ النبي ﷺ هم قريشٌ وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الدنيا ومغاربها وصارت فيهم الخلافة والملك[١]، وهذا القرآن شرفٌ لكل من تبعه، وهذه الآية نظير قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]؟ ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ هذا على سبيل الفرض، وفي الكلام محذوف، أي: إن كنت يا محمد شاكًّا في أمر التوحيد فسلْ من سبقك من الرسل ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؟ أي هل هناك أحدٌ من الرسل دعا لعبادة غير الله؟ والآية كقوله تعالى ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] قال أبو السعود: والمراد بالآية الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يُكذَّب ويُعادَى[٢] وقال أبو حيان: ويظهر أن الخطاب للسامع، والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء، هل جاءت عبادة الأوثان في ملةٍ من مللهم؟ وهذا كما يسائل الشعراء الديار والأطلال، ومنه قولهم: سل الأرض من شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا، وهذا كله من باب المجاز[٣].

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٩.
(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٥.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٩.

﴿مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

المناسَبة: لما طغت قريش على الرسول ﷺ في أمر النبوة، بسبب أنه فقيرٌ عديم المال والجاه، واختاروا أن يتنزَّل القرآن على رجل كثير المال عظيم الجاه، ذكر تعالى قصة «موسى مع فرعون» ليشير إلى أن منطق العناد والطُّغيان واحد، فقد سبقهم فرعون إلى التجبر بماله وسلطانه، ورفض قبول دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالًا وجاهًا من موسى، فردت الآيات الكريمة هذه الشبهة السقيمة بالحجة والبرهان.

اللغة: ﴿يَنكُثُونَ﴾ نكث العهد: نقضه ﴿مَهِينٌ﴾ حقير لا قدر له ولا مكانة ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا وغاظونا ﴿سَلَفًا﴾ قُدْوة ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد بمعنى يَضِجّون ويصِيحون، وبضمها بمعنى الإعراض ومنع الناس عن الإيمان قال الجوهري: صدَّ يصِدُّ صديدًا أي ضجَّ، وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج[1]، وقال الفراء: هما سواء ﴿تَمْتَرُنَّ﴾ الامتراء: الشك، امترى في الأمر شكَّ فيه، والمريةُ: الشك.

سَبَبُ النّزول: عن مجاهد قال: إن قريشًا قالت: إن محمدًا يريد أن نعبده كما عبد النصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[2].

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي والله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه إلى فرعون وقومه الأقباط ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فقال له موسى: إني رسول الله إليك، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخريةً واستهزاءً به قال القرطبي: إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآياتِ سحرٌ، وأنهم قادرون عليها[3]، قال تعالى ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي وما نريهم آية من آيات العذاب كالطوفان، والجراد، والقُمَّل إلا وهي في غاية الكبر والظهور، بحيث تكون أوضح من سابقتها قال الصاوي: والمعنى إلا وهي بالغة الغاية

(١) انظر «الصحاح» و«لسان العرب» و«القاموس المحيط».

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٠٢. (ش): ضعيف لانقطاعه، إن كان مسندًا، فكيف وقد ذكره القرطبي بدون إسناد.
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِقُرَيْشٍ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ فِيهِ خَيْرٌ»، وَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ النَّصَارَى تَعْبُدُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى كَانَ نَبِيًّا وَعَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ صَالِحًا، فَلَئِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَإِنَّ آلِهَتَهُمْ لَكَمَا تَقُولُونَ. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]. (رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ،، وحسنه الألباني، وأحمد شاكر والأرنؤوط).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٩٧.

في الإعجاز، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها[١] ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي وقالوا لما عاينوا العذاب: ياأيها الساحرُ ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي لنؤمنن بك إن كشف عنا العذاب بدعائك -قال المفسرون: ليس قولهم ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ على سبيل الانتقاص، وإنما هو تعظيم في زعمهم، لأن السحر كان عِلم زمانهم، ولم يكن مذمومًا، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم- قال ابن عباس: معناه يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيمًا يوقرونه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى، إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر والعصيان ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ أي نادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾؟ أي قال مفتخرًا متبجحًا: أليست بلادُ مصرَ الواسعة الشاسعة ملكًا لي؟ وهذه الخُلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحت قصوري؟ قال القرطبي: ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تينس وكلها من النيل[٢] وقال قتادة: كانت جنانها وأنهارها تجري من تحت قصره[٣] ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي، وقلة موسى وذلته؟ ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي بل أنا خيرٌ من هذا الضعيف الحقير الذي لا عزَّ له ولا جاه ولا سلطان، فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه؟ يعني بذلك موسى عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي لا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضّح مقصوده، فكيف يصلح للرسالة؟ قال أبو السعود: قال فرعون ذلك افتراءً على موسى، وتنقيصًا له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من عُقدة، ولكنَّ الله أذهبها عنه بدعائه ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧-٢٨][٤] ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي فهلاَّ ألقى الله إليه أسورةً من ذهب كرامةً له ودلالة على نبوَّته! قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلًا رئيسًا عليهم سوروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهبٍ علامة لسيادته[٥] ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي أو جاءت معه الملائكةُ يكتنفونه خدمةً له وشهادة بصدقه قال أبو حيان: لما وصف فرعون نفسه بالعزة والمُلك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام، ووصفه بالضعف

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٥١.
(٢) نفس المرجع السابق ١٦/ ٩٨.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢.
(٤) تفسير «أبي السعود» ٥/ ٤٦.
(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٠٠.

وقلة الأعوان، اعترض فقال: إن كان صادقًا فهلاَّ ملَّكه ربُه وسوَّره وجعل الملائكة أنصاره[١] ! ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي فاستخفَّ بعقول قومه واستجهلهم لخفة أحلامهم، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴾ لأي إنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ أي فلما أغضبونا وغاظونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ أي فأغرقنا فرعون وقومه في البحر أجمعين فلم نُبْقِ منهم أحدًا قال المفسرون: اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه وذلك بالغرق بماء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزَّز بشيء أهلكه الله به ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾ أي جعلنا قوم فرعون قُدوةً لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلًا يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك قال مجاهد: سلفًا لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار، وعظة وعبرةً لمن يأتي بعدهم[٢] ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾ أي ولمَّا ذُكر عيسى ابن مريم في القرآن وضُرب المثلُ بالآلهة التي عُبدت من دون الله إذا مشركو قريش يضجون وترتفع أصواتُهم بالصياح.

قال المفسرون: «لما قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال ابن الزبعري: أهذا لنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» فقال: قد خصمتك وربِّ الكعبة؟ أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود يعبدون عزيرًا؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة!! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام انتظارًا للوحي، فظنوا أنه أُلزم الحجة فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾[٣] [الأنبياء: ١٠١] » قال القرطبي: ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها، لأنه تعالى قال ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴾ ولم يقل «ومنْ تعبدون» وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين[٤] ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾ أي أآلهتنا خيرٌ أم عيسى؟ فإن كان عيسى في النار فلتكنْ آلهتنا

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٠٢.

(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ٥٢ ، وانظر «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٧. (ش): عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزل قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ شقَّ ذلك على كفار قريش وقالوا: شتم آلهتنا وأتوا ابن الزِّبعري وأخبروه فقال: لو حضرتُه لرددتُ عليه قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، وهذا عزير تعبده اليهود؛ أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته ورَأَوْا أنَّ محمدًا قد خصم فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» وإسناده حسن، وأخرج نحوَهُ الحاكمُ في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٠٣.

معه ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما قالوا هذا القول لك إلاَّ على وجه الجدل والمكابرة لا لطلب الحقِّ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي بل هم قوم شديدو الخصومة واللجاج بالباطل قال في التسهيل: أي ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره، سواء غلبه بحق أو بباطل، فإن ابن الزبعري وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة فوصفهم الله بأنهم قوم خَصِمون [(١)] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة، وليس هو إلهًا ولا ابن إله كما زعم النصارى ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي وجعلناه آيةً وعبرةً لبني إسرائيل، يستدلون بها على قدرة الله تعالى، حيث خُلق من أم بلا أب قال الرازي: أي صيرناه عبرةً عجيبة كالمثل السائر حيث خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي ولو أردنا لجعلنا بدلًا منكم ملائكةً يسكنون في الأرض يكونون خلفًا عنكم قال مجاهد: ملائكة يعمرون الأرض بدلًا منكم ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي وإن عيسى علامة على قرب الساعة قال ابن عباس وقتادة: إن خروج عيسى عليه السلام من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي فلا تشكُّوا في أمر الساعة فإنها آتية لا محالة وفي الحديث «لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا...» الحديث[(٢)] ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي وقل لهم يا محمد: اتبعوا هُداي وشرعي، فإن هذا الذي أدعوكم إليه دينٌ قيّم وطريق مستقيم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي لا تغتروا بوساوس الشيطان، واحذروا أن يصدكم عن اتباع الحق، فإنه لكم عدوٌ ظاهر العداوة، حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور[(٣)] ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي ولما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات، قال: قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٢.

(٢) (ش): قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ» رواه البخاري. وفي رواية: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ» رواه البخاري. (يَضَعَ الْجِزْيَةَ)، أي لا يقبلها من اليهود والنصارى، بل لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل.

(٣) (ش): هكذا في بعض التفاسير ولم أجد من الأحاديث الصحيحة ما يدل عليه. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وتفسيرها: يا بني آدم لا يخدعنَّكم الشيطان، فيزين لكم المعصية، كما زيَّنها لأبوَيْكم آدم وحواء، فأخرجهما بسببها من الجنة، ينزع عنهما لباسهما الذي سترهما الله به؛ لتنكشف لهما عوراتهما. إن الشيطان يراكم هو وذريته وجنسه وأنتم لا ترونهم فاحذروهم. إنَّا جعلنا الشياطين أولياء للكفار الذين لا يوحدون الله، ولا يصدقون رسله، ولا يعملون بهديه.

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي جئتكم لأبين لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين قال ابن جزي: وإنما قال ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ دون الكل، لأن الأنبياء إنما يبيّنون أمور الدين لا أمور الدنيا وقال الطبري: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية[1] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوا أمري فيما أبلغه إليكم من التكاليف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي إن الله جلّ وعلا هو الربُّ المعبود لا ربَّ سواه فأخلصوا له الطاعة والعبادة قال ابن كثير: أي أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده[2] ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا التوحيد والتعبد بالشرائع، طريق مستقيم موصلٌ إلى جنات النعيم.

قال الله تعالى:

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا
ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ
﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا
مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾
لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ
قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ
﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ
ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ
﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أمر عيسى ودعوته إلى الدين الحق، أَتْبَعَه بِذِكْر ضلال أهل الكتاب حيث تفرقوا شيعًا وأحزابًا في شأنه، فقال بعضهم: إنه إله، وقال بعضهم: إنه ابن الإله، وقال آخرون: إنه ثالث ثلاثة، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة وأهوالها، وختم السورة الكريمة ببيان صفات المعبود الحق، الواحد الأحد جلَّ وعلا.

اللغَة: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ جمع خليل وهو الصديق الحميم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تُسرون وتفرحون،

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٥ قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن جرير حسن جيد.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٥.

والحبورُ: السرور والفرح ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب وهو القدح الذي لا عُرْوةَ له[١] ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من الرحمة، وحزينون من شدة اليأس ﴿أَبْرَمُوٓا۟﴾ أحكموا الشيء يقال: أبرم القوم أمرهم أحكموه، والإِبرام: الإِحكام ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُقلبون ويُصرفون، أَفكه أَفْكًا أي قلبه وصرفه عن الشيء.

سَبَبُ النّزول: عن مقاتل قال: مكر المشركون بالنبي ﷺ في دار الندوة، وتآمروا على قتله حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم، وهو أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله وتضعف المطالبة بدمه فنزلت: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾[٢].

التفسِير: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلفت فرق النصارى في شأن عيسى وصاروا شيعًا وأحزابًا فيه قال ابن كثير: صاروا شيعًا فيه، منهم من يُقرُّ بأنه عبدُ الله ورسولُه وهو الحقُّ، ومنهم من يدّعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا[٣] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي فهلاكٌ ودمارٌ لهؤلاء الكفرة الظالمين من عذاب يوم مؤلم وهو يوم القيامة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا إتيانَ الساعة ومجيئها فجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم غافلون عنها مشتغلون بأمور الدنيا، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفعهم الندم، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة فقال ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداء «إلَّا من كانت صداقته ومحبته لله قال ابن كثير: كلُّ خلةٍ وصداقة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عَزَّ وَجَلَّ فإنه دائم بدوامه»[٤] قال ابن عباس: صارت كل خلَّةٍ عداوةً يوم القيامة إلا المتقين تشريفًا وتطييبًا لقلوبهم فيقول: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يا عباد الله المؤمنين الذين تحققتم في العبودية لرب العالمين، لا خوفٌ عليكم في هذا اليوم العصيب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا، ثم وضَّحهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ أي هم الذين صدَّقوا بالقرآن، واستسلموا لحكم الله وأمره، وانقادوا لطاعته ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات، تُنعَّمون فيها وتُسَرُّون سرورًا يظهر أثره على وجوهكم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي يُطاف على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها طعام، وأقداح

---

(١) (ش): العُرْوَةُ من الدَّلْو أو الكوب: مقْبضُه.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٩٥. (ش): هكذا في أكثر من طبعة. وليس في «تفسير ابن كثير» ولا في «مختصره» للمؤلف. إنما وجدتُه في تفسير «القرطبي» وهو ضعيف لانقطاعه، إن كان مسندًا، فكيف وقد ذكره القرطبي بدون إسناد. وأيضًا مقاتل متهم بالكذب.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٩٥.

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.

من ذهب فيها الشراب قال المفسرون: آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام، والكئوس التي يشربون فيها الشراب كلُّها من ذهب وفضة كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ [الإنسان: ١٥] وفي الحديث: «لاَ تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلاَ الدِّيبَاجَ وَلاَ تَشْرَبُوا فِى آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلاَ تَأْكُلُوا فِى صِحَافِهَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَنَا فِى الآخِرَةِ»[1]. ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وتُسرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبدًا قال أبو السعود: وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمال للسرور، فإنَّ كل نعيمٍ زائلٍ موجبٌ لخوف الزوال[2].. لمَّا ذكر الجنة وأنها موضع الحبور، ذكر ما فيها من النعم، فذكر أولًا المطاعم، ثم ذكر المشارب، ثم بعد ذلك التفصيل ذكر بيانًا كليًّا بقوله ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ ثم ذكر تمام النعمة بالخلود في دار النعيم، وهذا حصرٌ لأنواع النعم، لأنها إمّا مشتهاة في القلوب، أو مستلذةٌ في العيون[3] ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أُعطِيتُمُوها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا قال ابن كثير: أي أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، ولكنْ برحمة الله وفضله، وإنما الدرجاتُ يُنال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات[4] وفي الحديث «ما من أحدٍ إلاّ وله منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، الكافر يرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرثُ الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»[5] ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في الجنة من أنواع الفواكة والثمار الشيء الكثير سوى الطعام والشراب من هذه الفواكه تأكلون تفكهًا وتلذذًا قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرة تخلو عن ثمرها لحظة، فهي مزينةٌ بالثمار أبدًا، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله وفي الحديث: «لا ينزع رجلٌ

---

(١) الحديث من رواية الشيخين. (ش): الصِّحَاف: الأواني.
(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٩.
(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٣٠٤.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٦.
(٥) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم. (ش): إسناده ضعيف. وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ لَهُ مَنْزِلاَنِ مَنْزِلٌ فِى الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِى النَّارِ فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني. عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِىُّ ﷺ «لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلاَّ أُرِىَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، لَوْ أَسَاءَ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلاَّ أُرِىَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً» رواه البخاري.

في الجنة من ثمرها إلا نبَت مِثلاها مكانها »[١]. ولما ذكر حال السعداء الأبرار أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد في جهنم دائمون فيها أبدًا قال الصاوي: والمراد بالمجرمين الكفار لأنهم ذكروا في مقابلة المؤمنين[٢] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ أي لا يخفَّف عنهم العذاب لحظة ﴿وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ أي وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكنْ كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ أي ونادى الكفار مالكًا خازن النار قائلين: لِيُمِتْنا اللهُ حتى نستريح من العذاب قال ابن كثير: أي ليقبْض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه قال ابن عباس: فلم يجبهم إلا بعد ألف سنة[٣] ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ أي أجابهم إنكم مقيمون في العذاب أبدًا، لا خلاص لكم منه بموتٍ ولا بغيره ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ خطاب توبيخ وتقريع أي لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله مشمئزين منه لكونه مخالفًا لأهوائكم وشهواتكم قال الرازي: هذا كالعلة لما ذُكِر والمرادُ نفرتهم عن محمد وعن القرآن، وشدة بُغْضهم لقبول الدين الحق[٤] ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ الكلام عن كفار قريش، أي: أم أحكم هؤلاء المشركون أمرًا في كيد محمد ﷺ فإنا مُحْكِمون أمرنا في نصرته وحمايته، وإهلاكهم وتدميرهم قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة[٥] ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ أي أم يظنون أنَّا لا نسمع ما حدَّثوا به أنفسهم، وما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي قال في التسهيل: السرُّ ما يحدث به الإنسان نفسه أو غيره في خفية، والنجوى ما تكلموا به بينهم[٦] ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ أي بلى إنا نسمع سرَّهم وعلانيتهم، وملائكتنا الحفظة يكتبون عليهم أعمالهم، روي أنها نزلت في «الأخنس بن شُريق» و «الأسود بن عبد يغوث» اجتمعا فقال الأخنس: أترى الله يسمع سرَّنا؟! فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا[٧] ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٩. (ش): رواه أبو نعيم الأصبهاني في «صفة الجنة» بإسناد ضعيف.
(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٥٤.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٦.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٢٧.
(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١١٨
(٦) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٣.
(٧) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٣. (ش): ذكره بدون إسناد. وعَن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: «أَتَرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟». وَقَالَ الآخَرُ: «يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا». وَقَالَ الآخَرُ: «إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا». فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ الآية.

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو فُرِض أنَّ لله ولدًا لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد، ولكنه جلّ وعلا منزَّه عن الزوجة والولد قال القرطبي: وهذا كما تقول لمن تناظره: إن ثبتَ ما قلت بالدليل فأنا أوَّلُ من يعتقده، وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد، وترقيقٌ في الكلام[1] وقال الطبري: هو ملاطفةٌ في الخطاب وقال البيضاوي: ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء، بل لو كان لكان أَوْلَى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح[2] ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس اللهُ العظيمُ الجليل، ربُّ السمواتِ والأرضِ، وربُّ العرشِ العظيم، عمَّا يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ أي اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم، يخوضوا في باطلهم ويلعبوا بدنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي إلى ذلك اليوم الرهيب الذي وُعدوه وهو يوم القيامة فسوف يعلمون حينئذٍ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي هو جل وعلا معبودٌ في السماء ومعبود في الأرض، لأنه هو الإله الحق، المستحق للعبادة في السماء والأرض قال في التسهيل: أي هو الإله لأهل الأرض وأهل السماء وقال ابن كثير: أي هو إله من في السَّماء وإلهُ من في الأرض، يعبده أهلهما وكلُّهم خاضعون له أذلاء بين يديه[3] ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو الحكيم في تدبير خلقه، العليمُ بمصالحهم، وهذا كالدليل على وحدانيته تعالى ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي تمجَّد وتعظَّم الله الذي له مُلك السمواتِ والأرض وما بينهما من المخلوقات، من الإنس والجن والملائكة، فهو الخالق والمالك والمتصرف في الكائنات بلا ممانعةٍ ولا مدافعة ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي وعنده وحده علم زمان قيام الساعة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه لا إلى غيره مرجع الخلائق للجزاء، فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي ولا يملك أحدٌ ممن يعبدونهم من دون الله أن يشفع عند الله لأحد، لأنه شفاعته إلا بإذنه ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي إلا لمن شهد بالحق، وآمن عن علم وبصيرة، فإنه تنفع شفاعته عند الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وهم يعلمون أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه قال المفسرون: والمرادُ بـ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ عيسى وعزير والملائكة، فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله، فهؤلاء تنفع شفاعتهم للمؤمنين وإن كانوا قد عُبدوا من دون الله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي ولئن سألت يا محمد كفار مكة من الذي خلقهم وأوجدهم؟ ليقولُنَّ اللهُ خلقنا، فهم يعترفون

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١١٩.

(٢) هذا قول جيد وهو الصحيح في معنى الآية. وقيل: «إن» بمعنى «ما» أي ما كان للرحمن ولد. وتم الكلام ثم ابتدأ فقال: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾، وهذا قول ضعيف.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٣.

بأنه خالق ثم يعبدون غيره ممن لا يقدر على شيء ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان؟ فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقول ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وقول محمد في شكواه لربه يا ربِّ إن هؤلاء قوم معاندون جبارون لا يصدقون برسالتي ولا بالقرآن قال قتادة: هذا قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عَزَّ وَجَلّ[١] ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد وسامحهم ولا تقابلهم بمثل ما يقابلونك به قال الصاوي: وهو تباعدٌ وتبرؤٌ منهم، وليس في الآية مشروعية السلام على الكفار[٢] وقال قتادة: أمر بالصفح عنهم ثم أُمر بقتالهم، فصار الصفح منسوخًا بالسيف[٣] ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وهو وعدٌ وتهديد للمشركين، وتسلية لرسول الله ﷺ[٤].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ –التشبيه البليغ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠] أي كالمهد والفراش حذفت منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٢ – الاستعارة التبعية ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الزخرف: ١١] شبَّه الأرض قبل نزول المطر بالإنسان الميت ثم أنشرها الله أي أحياها بالمطر ففيه استعارة تبعية[٥].

٣ – التأكيد بإنَّ واللام مع صيغة المبالغة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] لأن (فعول وفعيل) من صيغ المبالغة.

٤ – الأسلوب التهكمي للتوبيخ والتقريع ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦]؟ وبين لفظ البنات والبنين طباقٌ.

٥ – المجاز المرسل ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] المراد بالكلمة الجملة التي قالها ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦] ففي اللفظ مجاز.

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٥٦. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني). وعَنْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ والمُشرِكين عَبَدَةِ الأوثَانِ وَالْيَهُودِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِم النَّبِيُّ ﷺ رواه البخاري ومسلم. [انظر:«رياض الصالحين للنووي» باب تحريم ابتداء الكافر بالسلام وكيفية الرد عليهم واستحباب السلام على أهل مجلسٍ فيهم مسلمون وكفار].

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٢٤.

(٤) «أبو السعود» ٥/ ٥١.

(٥) (ش): الاستعارة التبعية: هي ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً، أو اسمًا مشتقًا، أو حرفًا، والأسماء المشتقة هي: اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وأفعل التفضيل، واسما الزمان والمكان، واسم الآلة، وما إلى ذلك.

٦ - الاستعارة ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [الزخرف: ٤٠] شبه الكفار بالصم والعمي بطريق الاستعارة التمثيلية.

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥] لتغير الشكل وبعض الحروف بينهما.

٨ - حذف الإيجاز ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي أكواب من ذهب وحذف لدلالة السابق عليه.

٩ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ بعد قوله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ الآية.

١٠ - الطباق ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ لأن المراد سرُّهم وعلانيتهم.

١١ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١] ﴿مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٤] وغير ذلك وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف»



سُورَةُ الدُّخَانِ ٤٤ ٥٩

مكية وآياتها تسع وخمسون

بين يدي السورة

* سورة الدخان مكية وهي تتناول أهداف السور المكية «التوحيد، الرسالة، البعث» لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم - المعجزة الخالدة-[1] الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون، وقد تحدثت عن إنزال الله تعالى له في ليلة مباركة من أفضل ليالي العمر هي «ليلة القدر» وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تفصل وتدبر فيها أمور الخلق، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

* ثم تحدثت عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأنهم في شك وارتياب من أمره، مع وضوح آياته، وسطوع براهينه، وأنذرتهم بالعذاب الشديد.

* ثم تحدثت عن قوم فرعون، وما حل بهم من العذاب والنكال نتيجة الطغيان والإجرام، وعن الآثار التي تركوها بعد هلاكهم، من قصور ودور، وحدائق وبساتين، وأنهار وعيون، وعن ميراث بني إسرائيل لهم، ثم ما حدث لهم من تشرد وضياع بسبب عصيانهم لأوامر الله.

* وتناولت السورة الكريمة مشركي قريش، وإنكارهم للبعث والنشور، واستبعادهم للحياة مرة أخرى ولذلك كذبوا الرسل، وبينت أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية، وأن سنة الله لا تتخلف في إهلاك الطغاة المجرمين.

---

(١) (ش): مِن أشراط الساعة أن يُرفع القُرْآن من الصدور والمصاحف فلا يبقى منه آية لا في الصدور ولا في المصاحف، فعَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وآله وسلم: «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: «أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا»، فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: «مَا تُغْنِي عَنْهُمْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ، وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟»، فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: «يَا صِلَةُ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ» ثَلَاثًا. (رواه ابن ماجه، والحاكم في المستدرك، وصححه الحاكم، والذهبي، وابن تيمية، وابن حجر العسقلاني، والألباني).
(يَدْرُسُ) دَرَسَ الرَّسْمُ: عفا وهلك، دَرَسَ الثوب: صار عتيقًا. والمعنى: يُمْحَى قليلًا قليلًا، أي يذهب نسجه قليلًا قليلًا حتى يُمحى. (وَشْيُ الثَّوْبِ): نَقْشُه. (حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ) أي يأتي قوم لا يَدْرُون عن هذه الأمور وعن هذه الأحكام شيئًا، (وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ) فيُرفع القُرْآن من المصاحف ومن الصدور.

* وختمت السورة الكريمة ببيان مصير الأبرار ومصير الفجار، بطريق الجمع بين الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار.

* **التسمية**: سميت «سورة الدخان» لأن الله تعالى جعله آية لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكون، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ
كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى
النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ
الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ
أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا
إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ
وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ
السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ

اللغة: ﴿يُفْرَقُ﴾ يُبيَّن ويُفصَّل ﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظِر ﴿يَغْشَى﴾ يغطِّي ويحيط ﴿نَبْطِشُ﴾ نأخذ بشدة وعنف ﴿فَتَنَّا﴾ ابتلينا وامتحنا ﴿تَعْلُوا﴾ تتكبروا وتتطاولوا ﴿عُذْتُ﴾ استجرْتُ والتجأْتُ إلى الله ﴿فَأَسْرِ﴾ سِرْ ليلًا ﴿رَهْوًا﴾ ساكنًا، والرهو عند العرب الساكن قال الشاعر:

وَالْخَيْلُ تَمْزَعُ رَهْوًا فِي أَعِنَّتِهَا ... كَالطَّيْرِ تَنْجُو مِنَ الشُّؤْبُوبِ ذِي الْبَرَدِ(١)

قال الجوهري: رها البحر أي سكن، وجاءت الخيل رهوًا أي برفق وسكينة ﴿مُنظَرِينَ﴾ مؤخرين ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ النَّعمة بفتح النون من التنعيم وهو سعة العيش والراحة، وبالكسر من المنة وهي العطية والإفضال.

(١) البيت للنابغة الذبياني كذا في «القرطبي» ١٦/ ١٣٧، ومعنى الشؤبوب: السحاب العظيم القطر. (ش): تَمْزَعُ: تمرُّ مرًّا سريعًا. عِنان: سَيْرُ اللِّجام الذي يُمْسَك به الفَرَسُ ونحوُه كي يُتحكّم في سيره. والجمع أعِنَّة. والبَرَد: ماء جامد ينزلُ من السَّحاب قِطَعًا صغيرة شِبه شفَّافة، ويُسمَّى حَبَّ الغمام وحَبَّ المُزْن. والقَطْر: المطر.

سَبَبُ النّزول: عن ابن مسعود قال: إن قريشًا لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسِنِي يوسف، فأصابهم قحط وجهدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى مابينه وبينها كهيئة الدخان من الجهْد، فأنزل الله تعالى ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأتي رسولُ الله ﷺ فقيل: يا رسول الله) استسق لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى فُسقُوا فنزلت ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[١].

التفسير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم[٢] ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي أُقسم بالقرآن البيِّن الواضح، الفارق بين طريق الهدى والضلال، البَيِّن في إعجازه، الواضح في أحكامه، وجوابه ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي أنزلنا القرآن في ليلةٍ فاضلة كريمة هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] قال ابن جزي: وكيفيةُ إنزاله فيها أنه أُنزل الى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ شيئًا بعد شيء[٣]، وقيل: المعنى: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، قال القرطبي: ووصف الليلة بالبركة لما يُنزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب[٤] ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي لننذر به الخلق، لأن من شأننا وعادتنا ألاَّ نترك الناس دون إنذار وتحذيرٍ من العقاب، لتقوم الحجة عليهم ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي في ليلة القدر يُفصل ويُبيَّن كلُّ أمرٍ محكم من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم فلا يُبدَّل ولا يُغيَّر قال ابن عباس:

---

(١) الحديث أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود. رضي الله عنه قَالَ: إنَّ قُرَيْشًا أَبْطَأُوا عَنِ الإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِم النَّبيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمِ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ (وفي روايةٍ: قَحْطٌ وَجَهْدٌ) حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وأَكَلوا المَيْتَةَ والجِيَفَ، وَالجُلودَ والعِظامَ، ويرى الرَّجُلُ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ كَهَيْئَةِ الدُّخانِ مِنَ الجَهْدِ والجوعِ. فجاءَهُ أبو سُفْيانَ، فقالَ: «يا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ تَأْمُرُ بطَاعَةِ اللهِ، وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وإنَّ قومَكَ قدْ هَلَكوا؛ فادْعُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُم، فدَعا، ثمَّ قالَ: «تَعُودُونَ بَعْدَ هَذَا»، فقرأ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فدَعَوْا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾. فَأَتَى النَّبيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ». قَالَ: «لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ!». فَاسْتَسْقَى، فَسُقُوا الْغَيْثَ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ الْمَطَرِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾، فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. (وَفِي رِوَايةٍ: فَمُطِرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ): أَيْ بِسَبْعِ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ فِي الْقَحْطِ وَالْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ. (السَّنَة)، هِيَ القحْط والجَدْب. (حَصَّتْ): اسْتَأْصَلَتْ.

(٢) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٢٦.

يحكم الله أمر الدنيا إلى السنة القابلة ما كان من حياةٍ، أو موت، أو رزقٍ قال المفسرون: إن الله تعالى ينسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر، ما يكون في تلك السنة من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من خير وشر، وصالح وطالح، حتى إن الرجل ليمشي في الأسواق وينكحُ ويُولد له وقد وقع اسمه في الموتى[١] ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي جميع ما نقدِّره في تلك الليلة وما نوحي به إلى الملائكة من شئون العباد، هو أمرٌ حاصل من جهتنا، بعلمنا وتدبيرنا ﴿مُرْسِلِينَ﴾ أي نرسل الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي من أجل الرأفة والرحمة بالعباد قال في البحر: وضع الظاهر ﴿رَّبِّكَ﴾ موضع الضمير «رحمةً منا» إيذانًا بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين[٢] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد، العليمُ بأفعالهم وأحوالهم ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو ربُّ السمواتِ والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيهما، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال، يُحيي الأموات، ويميت الأحياء ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هو خالقكم وخالق من سبقكم من الأمم الماضِين قال الرازي: والمقصودُ من الآية أن المُنَزَّل إذا كان موصوفًا بهذه الجلالة والكبرياء، كان المُنْزِل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة[٣] ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي ليسوا موقنين فيما يظهرونه من الإيمان في قولهم: اللهُ خالقنا[٤]، بل هم في شكٍّ من أمر البعث، فهم يلعبون ويسخرون ويهزءون قال شيخ زاده: التفت من الخطاب للغيبة فقال ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ تحقيرًا لشأنهم، وإبعادًا لهم عن موقف الخطاب، لكونهم من أهل الشك والامتراء، وكونُ أفعالهم الهزء واللعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة، وعدم تمييزهم بين الحق والباطل، والضار والنافع[٥]، ثم لما بيَّن أن شأنهم الحماقة والطغيان التفت إلى حبيبه ﷺ تسليةً له، وإقناطًا من إيمانهم فقال ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي فانتظر يا محمد عذابهم يوم تأتي

---

(١) «حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣١٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣.

(٣) «التفسير الكبير».

(٤) (ش): ليس الإيمان مجرد الاعتراف بأن الله هو الخالق، فالإيمان هو: «الاعتراف المستلزم للقبول والإذعان» أما مجرد أن يؤمن الإنسان بالشيء بدون أن يكون لديه قبول وإذعان، فهذا ليس بإيمان، بدليل أن المشركين مؤمنون بوجود الله ومؤمنون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر للأمور، وكذلك أيضًا فإن الواحد منهم قد يقر برسالة النبي ﷺ ولا يكون مؤمنًا، فهذا أبو طالب عم النبي ﷺ كان يقرُّ بأن النبي ﷺ صادق وأن دينه حق، لكن لم ينفعه ذلك؛ لأنه لم يقْبله ولم يُذعِن له فكان - والعياذ بالله - بعد شفاعة النبي ﷺ في النَّارِ مُنْتَعِلًا بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ. (رواه مسلم).

(٥) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٣١١.

السماءُ بدخانٍ كثيف، بَيِّن واضح يراه كل أحد قال ابن مسعود: إن قريشًا لما عصت الرسول ﷺ دعا عليهم فقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ» فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجِيَف، وكان الرجل يُحدِّث أخاه فيسمع صوته ولا يراه لشدة الدخان المنتشر بين السماء والأرض، ثم قال ابن مسعود: «خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ الدُّخَانُ وَاللِّزَامُ وَالرُّومُ وَالْبَطْشَةُ وَالْقَمَرُ»[(١)] وقال ابن عباس: لم يمض الدخان بل هو من أمارات الساعة، وهو يأتي قُبيل القيامة، يصيبُ المؤمن منه مثلُ الزكام، ويُنضجُ رءوس الكافرين والمنافقين، حتى يصبح رأس الواحد كالرأس المشوي، ويغدو كالسكران فيملأ الدخان جوفه ويخرج من منخريه وأُذنيه ودبره[(٢)] ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يشمل كفار قريش ويعمهم من كل جانب ويقولون حين يصيبهم الدخان: هذا عذاب أليم ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي ويقولون مستغيثين: ربَّنا ارفع عنا العذاب فإننا مؤمنون بمحمد وبالقرآن إن كشفته عنا قال البيضاوي: وهذا وعدٌ بالإيمان إن كشف العذاب عنهم[(٣)] ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؟ استبعادًا لإيمانهم أي من أين يتذكرون ويتعظون عند كشف العذاب؟ ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي والحال أنه قد أتاهم رسولٌ بيّن الرسالة، مؤيَّدٌ بالبَيِّنَات الباهرة، والمعجزات القاهرة، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه؟ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي ثم أعرضوا عنه وبهتوه، ونسبوه إلى الجنون وحاشاه فهل يُتَوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟! قال الإمام الفخر: إن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد ﷺ قولان: منهم من يقول: إن محمدًا يتعلم هذا الكلام من بعض الناس، ومنهم من كان يقول: إنه مجنون والجنُّ تلقي عليه

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٤. (ش): راجع سبب النزول السابق، وكلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه مسلم. وَالْمُرَادُ بِاللِّزَام: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أَيْ يَكُونُ عَذَابُهُمْ لَازِمًا، وَهُوَ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَهِيَ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى. فَالْبَطْشَةُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدْ مَضَتْ آيَةُ الدُّخَانِ، وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ، وَآيَةُ الرُّوم. فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان يرى أن هذه خمس آيات مضت، يعني: حصلت وانتهت، فالدخان حصل وأن الآيات التي من سورة الدخان ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ – ١١] فيقول: إن الدخان الذي ذكره الله عز وجل في هذه السورة، هو الذي حصل لقريش لما أعرضوا عن الإسلام، صار أحدهم إذا رفع بصره إلى السماء يرى كأن هناك دخانًا بينه وبين السماء، بسبب الجهد والجوع. واللزام الذي هو العذاب الذي لزمهم حصل لهم في غزوة بدر، وكذلك البطشة وآية الروم، والقمر يعني انشقاق القمر الذي حصل على عهد النبي ﷺ، فانشق القمر فرقتين، وانشقاق القمر من علامات الساعة التي مضت. وآية الروم أي: التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في أول سورة الروم، وأنها من أشراط الساعة.

(٢) قول ابن مسعود هو الأظهر وقد اختاره «أبو السعود». وقال: هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم، وذكر ابن كثير الرأيين ثم رجح رأي ابن عباس. وقال: إنَّ ما أورده فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن. اهـ. «ابن كثير» ٣/ ٣٠٠.

(٣) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣١٢.

هـذا الكلام حال تخبطـه(١) ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ أي سنكشـف عنكم العذاب زمنًـا قليلًا ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشـرك والعصيان قال الـرازي: والمقصودُ التنبيه علـى أنهم لا يوفون بعهدهم، وأنهـم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف(٢) قال ابن مسعود: لما كشف عنهم العذاب باستسقاء النبي ﷺ عـادوا إلى تكذيبـه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ نَبْطِشُ، أي: واذكر يوم نبطش بالكفار بطشـتنا الكبرى انتقامًا منهم، والبطشُ: الأخذُ بقوة وشـدة قال ابن مسـعود: «البطشة الكبرى» يوم «بدر» وقال ابن عباس: هي يوم القيامة. قال ابن كثير: الظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يـومُ بدر يومَ بطشـةٍ أيضًا(٣) وقال الرازي: القـول الثاني أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف به هذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة، ولمّا وصـف بكونها «كبرى» وجب أنتكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق، وذلك إنما يكون في القيامـة(٤)، ثـم ذكَّر كفارَ قريش بما حَلَّ بالطاغين من قوم فرعون فقال ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي ولقد اختبَرْنا قبل هؤلاء المشركين قومَ فرعون وهم أقباط مصر ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي وجاءهم رسـولٌ شريف الحسب والنسب، من أكرم عباد الله وهو موسى الكليم عليه أفضل الصلاة والتسـليم ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي فقال لهم موسـى: ادفَعُوا إليَّ عبادَ الله وأَطْلِقُوهم من العذاب، يريد بني إسرائيل(٥) كقوله تعالى ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طـه: ٤٧] ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني رسـولٌ مؤتمنٌ على الوحي غيـرُ مُتَّهَم، وأنا لكم ناصح فاقبلوا نصحي ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا تتكبروا على الله ولا ترفَّعوا عن طاعته ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي قد جئتكم بحجةٍ واضحة، وبرهانٍ ساطع، يعترف بهما كل عاقل ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أي التجأت إليه تعالى واسـتجرت به من أن تقتلوني قال القرطبي: كأنهم توعَّدوه بالقتل فاسـتجار بالله(٦) ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي وإن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتَيْتُكم به من الحجة، فكُفُّوا عن أذاي وخَلُّوا سبيلي قال ابن كثير: أي لا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسالمةً إلى أنْ يقضيَ الله بيننا(٧) ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي فدعا عليهم لَمَّا كذبوه قائلًا: يا ربِّ إن هؤلاء قوم مجرمون فانتقم منهم ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٤٤.
(٢) نفس المرجع السابق.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٢.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٤٤.
(٥) هذا قول مجاهد واختاره في «التسهيل»، وروي عن ابن عباس أن معناه: أن أدّوا إليَّ الطاعة والإيمان يا عباد الله
(٦) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٣٥.
(٧) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٢.

في الكلام حذف تقديره فأوحينا إليه وقلنا له: أسرِ بعبادي، أي: اخرج ببني إسرائيل ليلًا فإن فرعون وقومه يتبعونكم، ويكون ذلك سببًا لهلاكهم ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي واترك البحر ساكنًا منفرجًا على هيئته بعد أن تجاوزه ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي إنَّ فرعون وقومه سيغرقون فيه قال في التسهيل: لمَّا جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق، فأمره الله بأن يتركه ساكنًا كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه[١]، وإنما أخبره تعالى بذلك ليبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم، مطمئنًا إلى أنهم لن يدركوا بني إسرئيل، ثم أخبر تعالى عن هلاكهم فقال ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ كم للتكثير، أي: لقد تركوا كثيرًا من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي ومزارع عديدة فيها أنواع المزروعات ومجالس ومنازل حسنة قال قتادة: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ هي المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها[٢] ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ أي وتنعم بالعيش مع الحسن والنضارة كانوا فيها ناعمين بالرفاهية وكمال السرور قال الإمام الفخر: بيَّن تعالى أنهم بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة وهي: الجنات، والعيون، والزروع، والمقام الكريم -وهو المجالس- والمنازل الحسنة، ونعمة العيش بفتح النون هي حسنُه ونضارته[٣] ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي كذلك فعلنا بهم حيث أهلكناهم وأورثنا ملكهم وديارهم لقوم آخرين، كانوا مُستَعبَدين في يد القبط وهم بنو إسرائيل قال ابن كثير: والمراد بهم بنو إسرائيل فقد استولوا بعد غرق فرعون وقومه على الممالك القبطية، والبلاد المصرية كما قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى في مكان آخر ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩][٤] ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي فما حزن على فَقْدهم أحدٌ، ولا تأثر بموتهم كائن من الخلق ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي ما كانوا مُؤَخَّرين ومُمْهَلين إلى وقت آخر. بل عُجّل عقابهم في الدنيا قال القرطبي: تقول العرب عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي عمَّت مصيبتُه الأشياء حتى بكته الأرض والسماء، والريح والبرق قال الشاعر:

فَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لكَ مُورِقًا ... كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ لِمَوْتِ طَرِيفِ[٥]

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةٌ في وجوب الجزع والبكاء عليه. والمعنى: أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فقد، وقيل: هو على حذف مضاف أي ما بكى

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٥.
(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٦.
(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٤٦.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٣.
(٥) (ش): البيت لامرأة ترثي أخاها.

عليهم أهل السماء وأهل الأرض[١].

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ
ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾
ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾
فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ
عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ
وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى إهلاك فرعون وقومه، أردفه بذكر إحسانه لبني إسرائيل، ليشكروا ربهم على إنعامه وإحسانه، ثم حذَّر كفار مكة من بطش الله وانتقامه، وختم السورة الكريمة ببيان حال الأشقياء والسعداء في يوم الفصل والجزاء.

اللغَة: ﴿عَالِيًا﴾ متكبراً جبارًا ﴿بَلَٰٓؤٌا۟﴾ اختبار وامتحان ﴿بِمُنشَرِينَ﴾ مبعوثين بعد الموت، وأنشر الله الموتى أحياهم ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ملوك اليمن، وكانوا يسمون ملوكهم التبابعة قال الجوهري: التبَابِعة ملوك اليمن، واحدهم تُبَّع[٢]، وقال أهل اللغة: تُبَّع لقب للملك منهم كالقياصرة للروم، والأكاسرة للفرس، والخلفاء للمسلمين[٣] ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة ﴿مَوْلًى﴾ قريب وناصر ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ النحاس المذاب ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ الفاجر من أثِمَ الرجل يأثم إذا وقع في الإثم والفجور ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ جرُّوه وسوقوه بعنفٍ وشدَّة ﴿سُندُسٍ﴾ رقيق الديباج ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ غليظ الديباج[٤] ﴿عِينٍ﴾ واسعات الأعين جمع عَيْناء ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ انتظِر.

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٣٩. (ش): هذا التعبير لا يتناسب مع كلام الله عز وجل، وهو خلاف ما يدل عليه من بكائهما حقيقةً، والأصل حَمْلُ كلام الله على الحقيقة، فلهما بكاء حقيقي يناسبهما.

(٢) «الصحاح» للجوهري مادة تبع.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٤٤.

(٤) (ش): الدِّيباج: الحرير.

التفسِـير: ﴿ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴾ أي والله لقد أنقذنا بني إسرائيل من العذاب الشديد، المفرط في الإذلال والإهانة، وهو قتل أبنائهم واستخدام نسائهم، وإرهاقهم في الأعمال الشاقة ﴿ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ أي من طغيان فرعون وجبروته إنه كان متكبرًا جبارًا، متجاوزًا الحد في الطغيان والإجرام قال الصاوي: هذه من جملة تعداد النعم على بني إسرائيل، والمقصود من ذلك تسليته ﷺ وتبشيره بأنه سينجيه وقومه المؤمنين من أيدي المشركين، فإنهم لم يبلغوا في التجبر مثل فرعون وقومه[1] ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي اصطفيناهم وشرفناهم على علمٍ منا باستحقاقهم لذلك الشرف على جميع الناس في زمانهم قال قتادة: على أهل زمانهم، لا على أمة محمد لقوله تعالى ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴾ أي وآتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار وامتحان ظاهرٌ جَلِيٌّ لمن تدبَّر وتَبَصَّر قال الرازي: والآياتُ مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى وغيرها من الآيات الباهرة، التي ما أظهر الله مثلها على أحدٍ سواهم[2] ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ٣٤ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ أي إن كفار قريش ليقولون: لن نموت إلا موتةً واحدةً وهي موتتنا الأولى في الدنيا، وفي قوله تعالى ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تحقيرٌ لهم وازدراءٌ بهم قال المفسرون: لمَّا كان الحديث في أول السورة عن كفار مكة، وجاءت قصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والكفر، رجع إلى الحديث عن كفار قريش، والغرضُ من قولهم ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ إنكار البعث كأنهم قالوا: إذا متنا فلا بعث ولا حياة ولا نشور، ثم صرحوا بذلك بقولهم ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي وما نحن بمبعوثين ﴿ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ خطابٌ للرسول ﷺ والمؤمنين على وجه التعجيز، أي: أحْيُوا لنا آباءنا ليُخبرونا بصدقكم إن كنتم صادقين في أن هناك حياةً بعد هذه الحياة قال الإمام الفخر: إن الكفار احتجوا على نَفْي الحشر والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشور ممكنًا معقولًا فعَجِّلُوا لنا إحياء مَن مات من آبائنا ليصير ذلك دليلًا عندنا على صِدْق دعواكم في البعث يوم القيامة[3] وقال القرطبي: قال هذا أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنتَ صادقًا في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما: قُصَيّ بن كلاب فإنه كان رجلًا صادقًا، لنسأله عما يكون بعد الموت[4] ﴿ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ ﴾ استفهام إنكار مع التهديد، أي: أهؤلاء المشركون أقوى وأشدُّ أم أهل سبأ ملوك اليمن؟ الذين كانوا أكثر أموالًا، وأعظم نعيمًا من كفار مكة؟ ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ أي والذين

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٦٠.
(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٤٨.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٤٩.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٤٤.

سبقوهم من الأمم العاتية أهلكناهم، وخربنا بلادهم، وفرقناهم شذر مذر[١] قال أبو السعود: والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد، أُولِي بأسٍ شديد، فأولئك كانوا أقوى من هؤلاء، وقد أهلكهم الله مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة، فإهلاك هؤلاء أَوْلَى[٢] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك أي أهلكناهم ودمرناهم بسبب إجرامهم، وفيه وعيد وتهديد لقريش أن يفعل الله بهم ما فعل بقوم تُبَّع والمكذبين.

ثم نبه تعالى إلى دلائل البعث وهو خلق العالم بالحقِّ فقال ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي ما خلقنا هذا الكون وما فيه من المخلوقات البديعة لعبًا وعبثًا ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا بالعدل والحقِّ المبين، لنجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك فينكرون البعث والجزاء قال المفسرون: إن الله تعالى خلق النوع الإنساني، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم، من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع المخلوقات، ثم كلَّفهم بالإيمان والطاعة، فآمن البعض وكفر البعض، فلا بدَّ إذًا من دار جزاء يثاب فيها المحسن، ويعاقب فيها المسيء، لتجزى كل نفسٍ بما كسبت، ولو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهوًا وعبثًا، وتنزَّه الله عن ذلك، ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إن يوم القيامة موعد حساب الخلائق أجمعين، سُمي ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلق كما قال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣] ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، لا يدفع قريب عن قريبه، ولا صديقٌ عن صديقه، ولا ينفع أحدٌ أحدًا ولا ينصره ولو كان قريبه كقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ استثناء متصل أي لا يغني قريبٌ عن قريب إلا المؤمنين فإنه يُؤذَن لهم في شفاعة بعضهم لبعض[٣] وقيل: منقطع أي لكنْ من رَحِمَهُ اللهُ فإنه يشفع وينفع قال ابن عباس: يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة[٤] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو المنتقم من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه.. ولما ذكر الأدلة على القيامة، أردفه بوصف ذلك اليوم العصيب، فذَكَر وعيدَ الكفار أولًا ثم وَعْد الأَبرار ثانيًا للجمع بين الترهيب والترغيب فقال ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي إن هذه الشجرة

---

(١) (ش): شَذَرَ مَذَرَ: تركيبٌ يفيد التفرُّق والتشتُّت، وَلاَ يُقَال ذَلِك فِي الإقبال. تفرَّقوا شَذَرَ مَذَرَ: ذَهَبُوا مَذَاهِب شَتَّى مُخْتَلفين، ذهبوا في كل اتجاه.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٥٥.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٣٩.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٥١.

الخبيثة شجرة الزقوم التي تنبتُ في أصل الجحيم، طعامُ كل فاجر، ليس له طعام غيرها قال أبو حيان: الأثيمُ صفة مبالغة وهو الكثير الآثام، وفُسِّر بالمشرك[١] ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ﴾ أي هي في شناعتها وفظاعتها إذا أكلها الإِنسان كالنحاس المذاب الذي تناهى حرُّه، فهو يُجرجر في البطن ﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ أي كغليان الماء الشديد الحرارة قال القرطبي: وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسمَّاها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها، فغلبت في بطونهم كما يغلي الماء الحار، وشبَّه تعالى ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهل وهو النحاس المذاب، والمرادُ بالأثيم الفاجر ذو الإِثم وهو أبو جهل، وذلك أنه كان يقول: يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، وإنما هو الثَّريد بالزبد والتمر[٢]، ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه: تزقموا، سخريةً واستهزاءً بكلام الله، قال تعالى ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي يُقال للزبانية: خذوا هذا الفاجر اللئيم فسُوقُوه وجُرُّوه من تَلابيبه[٣] بعنف وشدة إلى وسط الجحيم ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ أي ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر عذاب ذلك الحميم الذي تناهى حرُّه ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ أي يقال له على سبيل الاستهزاء والإِهانة: ذقْ هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرَّم قال عكرمة: التقى النبي ﷺ بأبي جهل فقال النبي ﷺ: «إنَّ الله أمرني أن أقول لك ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ [القيامة:٣٤]» فقال: بأي شيءٍ تهددني! واللهِ ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذلَّه ونزلت هذه الآية[٤] ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي إنَّ هذا العذاب هو ما كنتم تشُكُّون به في الدنيا، فذوقوه اليوم ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥] والجمعُ في الآية باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم.. ولما ذكر تعالى أحوال أهل النار أتبعه بذكر أحوال أهل الجنة فقال ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ أي الذين اتقوا اللهَ في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره، وهو الجنة ولهذا قال بعده ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيونٍ جارية ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ أي يلبسون ثياب الحرير، الرقيق منه وهو السندس، والسميك منه وهو الإستبرق ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ أي كذلك أكرمناهم بأنواع الإِكرام، وزوَّجناهم أيضًا بالحور الحسان في الجنان قال البيضاوي: أي قَرَنَّاهم بالحور

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٩.
(٢) «تفسير القرطبي١٦/ ١٤٩».
(٣) (ش): تَلْبيب: طَوْقُ الثَّوب والجمع تلابيبُ. أخذ بتلابيبه: أمسكه مِن أعلى ثوبه.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٥١. (ش): ضعيف، أخرجه الطبري في «تفسيره»، والواحدي في «أسباب النزول».

العين، والحوراءُ: البيضاء، والعيناءُ عظيمة العينين[1]، وإنما وصف تعالى نعيمهم بذلك لأن الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر، وانفراجه عن الغم، ثم ذكر الحور الحِسان لأن بها اكتمال سعادة الإنسان كما قيل: «ثلاثةٌ تنفي عن القلب الحزن: الماء، والخضرةُ، والوجهُ الحسن» ثم زاد في بيان النعيم فقال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة، لأجل أنهم آمنون من التُّخَم والأمراض، فلا تعب في الجنة ولا وَصَب[2] ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ استثناء منقطع أي لا يذوقون في الجنة الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد ثَمَّةَ موت، بل خلود أبد الآبدين ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي خلَّصهم ونجَّاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فعل ذلك بهم تفضلًا منه تعالى عليهم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الذي أُعطُوه من النعيم، هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي فإنما سَهَّلْنا القرآن بلغتكم وهي لسان العرب لعلهم يتعظون وينزجرون ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي فانتظر يا محمد ما يحل بهم، إنهم منتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة، وفيه وعد للرسول ﷺ ووعيد للمشركين.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - صيغة المبالغة ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

٢ - الطباق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الدخان: ٨] وكذلك ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

٣ - تحريك الهمة للإيمان والتبصر ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٧].

٤ - الإيجاز بحذف بعض الكلام ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي وقلنا له بأن أسر.

٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩] أي لم يتغير بهلاكهم شيء ولم تحزن عليهم السماء والأرض بعد انقطاع آثارهم، والعرب يقولون في التعظيم: بكت عليه السماء والأرض، وأظلمت له الدنيا ويقولون في التحقير: مات فلان فلم تخشع له الجبال.

٦ - أسلوب التعجيز ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٧ - أسلوب التهكم والسخرية ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

٨ - التفجع وإظهار الأسى والحسرة ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٦]؟

(١) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٨٢.

(٢) (ش): تُخْمَة: داءٌ يصيب الإنسان من أكل الطعام الثقيل أو من كثرة الأكل أو من عُسر الهضم. والجمع تُخُمَات وتُخْمات وتُخَم. وَصَب: تعب وفتور في البدن.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾.

١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في رونق الكلام وجماله اقرأ مثلًا قوله تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»





مكية إلا آية ١٤ فمدنية وآياتها ٣٧ بعد الدخان

بين يدي السورة

* سورة الجاثية مكية، وقد تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع «الإيمان بالله تعالى ووحدانيته، الإيمان بالقرآن ونبوة محمد عليه السلام، الإيمان بالآخرة، والبعث والجزاء» ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

* تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره، وهو الله العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه، الذي أنزل كتابه المجيد رحمة بعباده، ليكون نبراسًا مضيئًا ينير للبشرية طريق السعادة والخير.

* ثم ذكرت الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح، ففي السماوات البديعة آيات، وفي الأرض الفسيحة آيات، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آيات، وفي تعاقب الليل والنهار، وتسخير الرياح والأمطار آيات، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله، وقدرته ووحدانيته، ثم تحدثت عن المجرمين المكذبين بالقرآن الذين يسمعون آياته المنيرة، فلا يزدادون إلا استكبارًا وطغيانًا، وأنذرتهم بالعذاب الأليم في دركات الجحيم.

* وتحدثت السورة عن نعم الله الجليلة على عباده ليشكروه، ويتفكروا في آلائه التي أسبغها عليهم، ويعلموا أن الله وحده هو مصدر هذه النعم، الظاهرة والباطنة، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله[1].

* وتحدثت عن إكرام الله لبني إسرائيل بأنواع التكريم، ومقابلتهم ذلك الفضل والإحسان بالجحود والعصيان، وذكرت موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام، وبينت أنه لا يتساوى في عدل الله وحكمته أن يجعل المجرمين كالمحسنين، ولا أن يجعل الأشرار

---

(١) (ش): المقصود من ذكر النعم الاستدلال بها على وجوب إفراد الله بالعبادة. ليس الإيمان مجرد الاعتراف بأن الله هو الخالق والرازق، فالإيمان هو: «الاعتراف المستلزم للقبول والإذعان» أما مجرد أن يؤمن الإنسان بالشيء بدون أن يكون لديه قبول وإذعان، فهذا ليس بإيمان، بدليل أن المشركين مؤمنون بوجود الله ومؤمنون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر للأمور، وكذلك أيضًا فإن الواحد منهم قد يقر برسالة النبي، ﷺ، ولا يكون مؤمنًا، فهذا أبو طالب عم النبي، ﷺ، كان يقرُّ بأن النبي، ﷺ، صادق وأن دينه حق، لكن لم ينفعه ذلك؛ لأنه لم يقْبله ولم يُذعِن له فكان - والعياذ بالله - بعد شفاعة النبي، ﷺ، في النَّارِ مُنْتَعِلًا بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ. (رواه مسلم).

كالأبرار، ثم بينت سبب ضلال المشركين، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى إلهًا ومعبودًا حتى طمست بصيرتهم فلم يهتدوا إلى الحق أبدًا.

* وختمت السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين، حيث تنقسم الإنسانية إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

التسمية: سميت «سورة الجاثية» للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحقًا إنه ليوم رهيب يشيب له الولدان!!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا
يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ
﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾
وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا
شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ
مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا
يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ
وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ
شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

اللغة: ﴿يَبُثُّ﴾ ينشر ويفرّق ﴿وَتَصْرِيفِ﴾ تقليب، صرَّف الله الريح قلَّبها من جهة إلى جهة ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة تستعمل في العذاب والدمار ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذّاب، والإفك: الكذب ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم والإجرام ﴿رِّجْزٍ﴾ أشد العذاب ﴿يُصِرُّ﴾ أصرَّ على الشي: عزم على البقاء عليه بقوة وشدة ﴿يُغْنِي﴾ ينفع أو يدفع ومنه ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨] ﴿بَصَائِرُ﴾ دلائل ومعالم.

التفسير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطَّعة للتنبيه على إعجاز القرآن[١] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمةٌ ومصلحة للعباد، ثم أخبر تعالى عن دلائل الوحدانية والقدرة فقال ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إنَّ في خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات العجيبة، والأحوال الغريبة، والأمور البديعة، لَعلاماتٍ باهرة على كمال قدرة الله وحكمته، لقوم يُصدِّقون بوجود الله ووحدانيته[٢] ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي وفي خلقكم أيها الناسُ من نطفةٍ ثم من علقة متقلبة في أطوارٍ مختلفة إلى تمام الخلق، وفيما ينشره تعالى ويُفرِّقه من أنواع المخلوقات التي تدبّ على وجه الأرض، آياتٌ باهرةٌ أيضًا لقوم يصدّقون عن إذعانٍ ويقين بقدرة ربِّ العالمين ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي وفي تعاقب الليل والنهار، دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وذاك بضيائه، بنظام محكم دقيق ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أي وفيما أنزله الله تبارك وتعالى من السحاب، من المطر الذي به حياة البشر في معاشهم وأرزاقهم قال ابن كثير: وسمَّى تعالى المطر رزقًا لأنه به يحصل الرزق[٣] ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي فأحيا بالمطر الأرض بعدما كانت هامدةً يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فأخرج فيها من أنواع الزروع والثمرات والنبات ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي وفي تقليب الرياح جنوبًا وشمالًا، باردة وحارة ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي علامات ساطعة واضحة على وجود الله ووحدانيته، لقوم لهم عقول نيّرة وبصائر مشرقة قال الصاوي: ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستةً في ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثانية بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ والثالثة بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ووجه التغاير بينها في التعبير أن الإنسان إذا تأمل في السمواتِ والأرض، وأنه لا بدَّ لهما من صانع آمن، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيمانًا فأيقن، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه[٤] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبراهينه، الدالة على وحدانيته وقدرته، نقُصُّها عليك يا محمد بالحق المبين الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي وإذا لم يصدِّق كفار مكة بكلام الله، ولم يؤمنوا بحججه وبراهينه، فبأي كلام يؤمنون ويصدِّقون؟ والغرضُ استعظام تكذيبهم للقرآن بعد وضوح بيانه وإعجازه ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي هلاك ودمارٌ لكل كذَّاب مبالغٍ في اقتراف

---

(١) انظر تفصيل البحث في الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من هذا التفسير.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح. وليس المقصود من الآيات الاستدلال على وجود الله؛ لأن معظم الناس لا ينكرون هذا خصوصًا المخاطَبين بالقرآن.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٨.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٦٣.

الآثـام قال الرازي: وهذا وعيدٌ عظيـم، والأَفاك الكذَّاب، والأثيمُ المبالـغ في اقتراف الآثام[١] ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي يسـمع آيـات القرآن تُقـرأ عليه، وهي في غايـة الوضوح والبيان ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي ثـم يـدوم على حاله مـن الكفر، ويتمـادى في غيّه وضلاله، مسـتكبراً عن الإيمان بالآيات كأنه لم يسـمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشّره يا محمد بعذاب شـديد مؤلـم، وسـمَّاه «بشارة» تهكمًا بهم، لأن البشـارة هي الخبر السارُّ قال في التسهيل: وإِنما عطفه ب «ثم» لاسـتعظام الإِصرار على الكفر بعد سـماعه آيات الله، واستبعاد ذلك في العقل والطبع[٢] قال المفسرون: نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري أحاديث الأعاجم ويشغل بهـا الناس عن استماع القرآن، والآيـةُ عامةٌ في كل من كان موصوفًـا بالصفة المذكورة ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أي إِذا بلغه شـيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد، سـخر واسـتهزأ بهـا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي أولئك الأفاكون المسـتهزئون بالقـرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإِهانة ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي أمامهم جهنم تنتظرهم لِما كانوا فيه من التعزُّز في الدنيـا والتكبر عن الحق ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من المال والولد ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ولا تنفعهم الأصنام التي عبدوها من دون الله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي ولهم عذاب دائم مؤلـم قال أبو السعود: وتوسيط النفي ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ ﴾ مـع أن عدم إِغناء الأصنـام أظهر وأجلى من عدم إِغناء الأمـوال والأولاد، مبنيٌ على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم بهم[٣] ﴿ هَٰذَا هُدًى﴾ أي هذا القرآن كامل في الهدايـة لمن آمن به واتَّبعه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي جحدوا بالقرآن مع سـطوعه، وفيه زيادة تشـنيع على كفرهم به، وتفظيع حالهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أي لهم عذاب من أشدِّ أنواع العذاب مؤلمٌ موجعٌ قال الزمخشـري: والرجزُ أشـدُّ العذاب، والمراد بـ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ القرآن[٤]. ثم لمَّا توعَّدهم بأنواع العذاب ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة ليشكروه ويوحّدوه فقال ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي الله تعالى بقدرته وحكمته هو الذي ذلَّل لكم البحر على ضخامته وعظمه ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي لتسير السفنُ على سطحه بمشيئته وإِرادته، دون أن تغوص في أعماقه قال الإِمام الفخر: خلَق وجه الماء على الملاسـة التي تجري عليها السـفن، وخلق الخشـبة علـى وجه تبقى طافيةً علـى وجه الماء دون أن تغوص فيه، وذلـك لا يقدر عليه أحد إِلا الله[٥] ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي ولتطلبـوا من فضل الله بسـبب التجارة، والغوص على اللؤلؤ

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٦١.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل»٤/ ٣٨.
(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٥٨.
(٤) «الكشاف» ٤/ ٢٢٧.
(٥) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٦٢.

والمرجان، وصيد الأسماك وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولأجل أن تشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم وتفضَّل قال القرطبي: ذكر تعالى كمال قدرته، وتمام نعمته على عباده، وبيَّن أنه خلقَ ما خلق لمنافعهم، وكلُّ ذلك من فعله وخلقه، وإحسانٌ منه وإنعام[1] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي وخلق لكم كل ما في هذا الكون، من كواكب، وجبال، وبحار، وأنهار، ونباتٍ، وأشجار، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، من عنده وحده جلَّ وعلا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعبرًا وعظاتٍ لقوم يتأملون في بدائع صنع الله فيستدلون على قدرته ووحدانيته ويؤمنون، ثم لما بيَّن تعالى دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، أردفه بتعليم فضائل الأخلاق، ومحاسن الأفعال فقال ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد للمؤمنين يصفحوا عن الكفار، ويتجاوزوا عمَّا يصدر عنهم من الأذى والأفعال الموحشة. قال مقاتل: شتم رجلٌ من الكفار عمر بمكة فهمَّ أن يبطش به، فأمر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية[2]، والمرادُ من قوله ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يخافون من بأسِ الله وعقابه لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بلقاء الله قال ابن كثير: أُمر المسلمون أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك تأليفًا لهم، ثم لما أصرُّوا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد[3] ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ وعيدٌ وتهديد أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الإثم والإجرام، والتنكيرُ للتحقير ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من فعل خيرًا في الدنيا فنفعُه لنفسه، ومن ارتكب سوءًا وشرًّا فضرره عائد عليها، ولا يكاد يسري عملٌ إلى غير عامله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم يوم القيامة إلى الله وحده، فيجازي كُلًّا بعمله، المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

ولما ذكَّر بالنعم العامة أردفه بذكر النعم الخاصة على بني إسرائيل فقال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي والله لقد أعطينا بني إسرائيل التوراة، وفصل الحكومات

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٦٠.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٦٣. (ش): ذكره الرازي بدون إسناد. وهو ضعيف لانقطاعه، إن كان مسندًا، فكيف وقد ذكره الرازي بدون إسناد. وأيضًا مقاتل متهم بالكذب. وروى الواحدي في «أسباب النزول» بإسناد ضعيف عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قَالَ يَهُودِيٌّ بِالْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ: فِنْحَاصُ-: «احْتَاجَ رَبُّ مُحَمَّدٍ».فَلَمَّا سَمِعَ عُمَرُ بِذَلِكَ اشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ وَخَرَجَ فِي طَلَبِهِ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السلام إلى رسول الله ﷺ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ لَكَ: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾، وَاعْلَمْ أَنَّ عُمَرَ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ وَخَرَجَ فِي طَلَبِ الْيَهُودِيِّ. فَبَعَثَ رسول الله ﷺ فِي طَلَبِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: يَا عُمَرُ ضَعْ سَيْفَكَ، قَالَ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللهِ أَشْهَدُ أَنَّكَ أُرْسِلْتَ بِالْحَقِّ، قَالَ: فإن ربك عز وجل يَقُولُ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ قَالَ: لَا جَرَمَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا يُرَى الْغَضَبُ فِي وَجْهِي.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٩ (ش): جالَدَ، مُجالدةً وجِلادًا، فهو مُجالِد. جالده بالسَّيف: ضارَبه به.

بين النـاس، وجعلنا فيهم الأنبيـاء والمرسـلين ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي ورزقناهم من أنواع النعـم الكثيـرة مـن المـآكل والمشـارب، والأقـوات والثمـار ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وفضلناهـم على سـائر الأمـم في زمانهم قال الصـاوي: والمقصود من ذلك تسـليته ﷺ كأنه قـال: لا تحزن يا محمد على كفر قومك، فإننا آتينا بني إسـرائيل الكتاب والنعم العظيمة، فلم يشـكروا بـل أصـرُّوا على الكفـر، فكذلـك قومـك[1] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي وبيَّنَّا لهـم في التوراة أمر الشـريعة وأمر محمد ﷺ على أكمل وجه قال ابـن عباس: يعني أمر النبي ﷺ وشـواهد نبوته بأنه يُهاجر من تهامة إلى يثـرب وينصره أهلها[2] ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي فمـا اختلفـوا في ذلـك الأمر، إلا مـن بعد ما جاءتهم الحجـج والبراهين والأدلة القاطعة على صدقه ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسدًا وعنادًا وطلبًا للرياسة قال الإمام الفخر: والمقصودُ من الآية التعجبُ من هذه الحالة، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وههنا صار العلم سـببًا لحصول الاختلاف، لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسـة والتقدم، فلذلك علموا وعانـدوا[3] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي هـو جل وعلا الذي يفصل بيـن العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، وفي الآية زجرٌ للمشركين أن يسلكوا مسلك مَن سبقهم من الأمم العاتية الطاغية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ أي ثـم جعلناك يا محمد علـى طريقة واضحة، ومنهاج سـديد رشيد من أمر الدين، فاتبع ما أوحى إليك ربُّك من الدين القيِّم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي تتَّبع ضلالال المشـركين قال البيضاوي: لا تتبع آراء الجهال التابعة للشـهوات، وهم رؤساء قريش حيث قالوا: ارجع إلى دين آبائك[4] ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لن يدفعوا عنك شيئًا من العذاب إن سايَرْتَهم على ضلالهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي وإن الظالميـن يتولـى بعضهم بعضًا في الدنيا ولا وَلِـيَّ لهم في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي وهـو تعالى ناصر ومعيـن المؤمنين المتقين في الدنيـا والآخرة ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي هـذا القـرآن نور وضيـاء للناس بمنزلة البصائـر في القلوب، وهو رحمة لمن آمن به وأيقن.

قال الله تعالى:

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٦٥.
(٢) «حاشية الجمل» ٤/ ١١٦.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٦٥.
(٤) «البيضاوي على زاده» ٣/ ٣٢٣.

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ
عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ
إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟
ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ
جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ
﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ

المناسَبَة: لما حكى تعالى ضلالات بني إسرائيل، وبيَّن أن القرآن نور وهداية لمن تمسَّك به، أعقبه ببيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم ذكر الأدلة على البعث والنشور.

اللغة: ﴿ٱجْتَرَحُوا۟﴾ اكتسبوا والاجتراحُ الاكتساب ومنه الجوارح ﴿غِشَٰوَةً﴾ غطاء وغشَّى الشيءَ غطَّاه ﴿جَاثِيَةً﴾ باركةً على الركب لشدة الهول جثا يجثو إذا قعد على ركبتيه ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ استنسخ الشيء أمر بكتابته وتدوينه ﴿وَحَاقَ﴾ نزل وأحاط ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُطلب منهم إرضاء ربهم يقال: استعتبتهُ فأعتبني أي استرضيتُه فقبل مني عذري ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ العظمة والمُلك والجلال.

سَبَبُ النّزول: رُوِيَ أن أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل: واللهِ إني لَأعلم إنه لصادق، فقال له: مهْ، وما دلَّك على ذلك؟ فقال يا أبا عبد شمس: كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تمَّ عقلهُ وكمُل رشده نسميه الكذاب الخائن! والله إني لأعلم إنه لصادق، قال: فما يمنعك أن تصدِّقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كِسْرة؛ واللاتِ والعُزَّى لا أتَّبعه أبدًا فنزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ..﴾ الآية[1].

---

(١) رواه مقاتل كذا في «القرطبي» ١٦/ ١٧٠. (ش): هو ضعيف لانقطاعه، إن كان مسندًا، فكيف وقد ذكره القرطبي بدون إسناد. وأيضًا مقاتل متهم بالكذب.

التفسِير: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الاستفهام للإِنكار، والمعنى: هل يظنُّ الكفار الفجـار الذين اكتسـبوا المعاصـي والآثـام ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي نجعلهم كالمؤمنين الأبرار ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي نسـاوي بينهم في المحيا والممات؟ لا يمكـن أن نسـاوي بين المؤمنيـن والكفار، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن المؤمنين عاشـوا علـى التقوى والطاعة، والكفار عاشـوا علـى الكفر والمعصية، وشـتان بيـن الفريقين كقوله ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]؟ قـال مجاهـد: المؤمـنُ يموت مؤمنًـا ويُبعـث مؤمنًـا، والكافر يمـوت كافرًا[١] ويُبعـث كافرًا ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي سـاء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين قال ابن كثير: ساء ما ظَنّوا بنا وبعَدْلِنا أن نساوي بين الأَبرار والفجار، فكما لا يُجتنى من الشوك العنبُ، كذلك لا ينال الفُجَّار منازل الأبرار[٢] ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي وخلق الله السـموات والأرض بالعدل والأمر الحقِّ ليدل بهما على قدرته ووحدانيته ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولكي يُجزى كل إِنسـان بعمله، وبما اكتسـب من خير أو شر، دون أن يُنقص في ثوب المؤمن أو يُزاد في عذاب الكافر قال شيخ زاده: لمّا خلق تعالى السموات والأرض لأجل إِظهار الحق، وكان خلقهمـا مـن جملة حكمته وعدلـه، لزم من ذلـك أن ينتقم من الظالم لأجـل المظلوم، فثبت بذلك حشـر الخلائق للحسـاب[٣] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي أخـبرني يا محمد عن حال من ترك عبادة الله وعبد هواه! قال في البحر: أي هو مِطْواعٌ لهوى نفسـه[٤] يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إِلَهه[٥] قال ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شـيئًا إلاّ ركبـه ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي وأضلَّ الله ذلك الشـقي في حال كونـه عالمًا بالحق غير جاهل به، فهو أشـدُّ قبحًا وشـناعةً ممن يضل عن جهل، لأنه يُعرض عن الحقِّ والهُدى عنادًا كقوله تعالى ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي وطبـع علـى سـمعه وقلبه بحيـث لا يتأثر بالمواعـظ، ولا يتفكر في الآيـات والنُّذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي وجعـل علـى بصـره غطاء حتى لا يبصر الرشـد، ولا يرى حجة يسـتضيء بهـا ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾؟ أي فمن الذي يسـتطيع أن يهديه بعـد أن أضله الله؟ لا أحد يقدر على ذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تعتبرون أيها الناس وتتعظون؟ قال الصاوي: وصف تعالى الكفـار بأربعة أوصاف: الأول: عبادة الهوى، والثـاني: ضلالهم على علم الثالث: الطبع على

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٦٦.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٣١١.
(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٣٢٥.
(٤) (ش): مِطْوَاع: صيغة مبالغة من طاعَ: مسرعٌ إلى الطّاعةِ، مكثِرٌ منها.
(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٤٨.

أسـماعهم وقلوبهم، الرابع: جعل الغشاوة على أبصارهم، وكل وصفٍ منها مقتضٍ للضلالة، فلا يمكن إِيصال الهدى إليهم بوجهٍ من الوجوه[١].. ثم حكى تعالى عن المشركين شبهتهم في إنكار القيامة، وفي إِنكار الإِله القادر العليم فقال ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي وقال المشـركون: لا حياة إلا هـذه الحياة الدنيا، يموت بعضنا ويحيـا بعضنا، ولا آخرة، ولا بعث، ولا نشور قال ابن كثير: هذا قول الدهرية من الكفار ومَن وافقهم من مشركي العرب في إِنكار المعاد، ومرادهم ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وليس هناك مَعَادٌ ولا قيامة، وهذا قول الفلاسفة الدهريين، المنكرين للصانع، المعتقدين أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه[٢] ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي وما يهلكنا إلا مرورُ الزمان، وتعاقبُ الأيـام قال الرازي: يريدون أن الموجب للحياة والمـوت تأثيراتُ الطبائع وحركاتُ الأفلاك، ولا حاجـة إلى إثبـات الخالق المختار، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإِله وبين إِنكار البعث والقيامة[٣]، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي وليس لهم مستندٌ من عقل أو نقل، ولذلـك أنكروا وجود الله من غير حجةٍ ولا بَيِّنـة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا قوم يتوهمون ويتخيلـون، يتكلمـون بالظن من غيـر يقيـن ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا قرئت آياتُ القرآن على المشـركين، واضحات الدلالة على البعث والنشـور ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي مـا كان متمسكهم في دفـع الحق الصريح إلا أن يقولـوا: أحيْوا لنا آباءنا الأولين، إن كان ما تقولونه حقًّا، سُـمِّيَ قولهم الباطل حجةً على سـبيل التهكم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: اللهُ الذي خلقكم ابتداءً حين كنتم نُطَفًا هو الذي يميتكم عند انقضاء آجالكم، لا كما زعمتم أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ثـم بعـد الموت يبعثكم للحسـاب والجزاء كما أحياكـم في الدنيا، فإِنَّ من قدر علـى البدء قدر على الإِعـادة، والحكمةُ اقتضت الجمع للجزاء في يوم القيامة، الذي لا شـك فيه ولا ارتياب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكـر، لا يعلمـون قدرة الله فينكرون البعث والجزاء. ثم بيَّن إمكان الحشـر والنشـر وذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة فقال ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا المالك لجميع الكائنـات العلويـة والسـفلية ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي ويوم القيامة يخسـر الكافرون الجاحدون بآيات الله ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي وترى أيها المخاطب كل أمةٍ من الأمم جالسةً على الركب من شدة الهول والفزع، كما يجثو الخصوم بين يدي الحاكم بهيئة الخائف

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٦٧.
(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣١١.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٧٥.

الذليل قال ابن كثير: وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا جثا على رُكبتيه[١] ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي كلُّ أمةٍ من تلك الأمم تُدعى إلى صحائف أعمالها ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: في هذا اليوم الرهيب تنالون جزاء أعمالكم من خيرٍ أو شر ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي هذا كتابُ أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير زيادةٍ ولا نقصان قال في التسهيل: فإن قيل: كيف أضاف الكتاب تارةً إليهم وتارةً إلى الله تعالى؟ فالجواب أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتةٌ فيه، وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكه وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه[٢] ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي كنَّا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم، وإثباتها عليكم قال المفسرون: تنسخ هنا بمعنى تكتب، وحقيقة النسخ هو النقل من أصل آخر، وقال ابن عباس: تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكةُ الموكلون بديوان الأعمال ما كتبه الحفظة، مما قد أُبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلةِ قَدْر، ما كتبه الله في القِدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفًا ولا ينقص حرفًا، فذلك هو الاستنساخ، وكان ابن عباس يقول: ألستم عربًا، هل يكون الاستنساخ إلا من أصل[٣]؟ ثم بيَّن تعالى أحوال كل من المطيعين والعاصين فقال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أيٍ فأما المؤمنون الصالحون المتقون لله في الحياة الدنيا، فيدخلهم الله في الجنة، سُميت الجنة رحمةً لأنها مكان تنزل رحمةِ الله[٤] ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ذلك هو الفوز العظيم، البيّن الظاهر الذي لا فوز وراءه ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي وأمَّا الكافرون فيقال لهم توبيخًا وتقريعًا: أفلم تكن الرسل تتلو عليكم آيات الله؟ ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي فتكَبَّرْتُم عن الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قومًا مغرقين في الإجرام ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وإذا قيل لكم: إن البعث كائن لا محالة ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي والقيامة آتيةٌ لا شك فيها ولا ريب ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي قلتم لِغاية عُتُوِّكم[٥]، أيُّ شيء هي؟ أحقٌّ أم باطل؟ قال البيضاوي: قالوا هذا استغرابًا واستبعادًا وإنكارًا لها[٦] ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي لا نصدِّق بها ولكن نسمع الناس يقولون: إنَّ هناك آخرة فنتوهم بها توهُّمًا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي ولسنا مصدِّقين بالآخرة يقينًا، وهذا تأكيد منهم لإنكار القيامة ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي وظهر لهم في الآخرة قبائح أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣١٢.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٠.
(٣) انظر «البحر المحيط» ١٨/ ٥١، و«مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٣.
(٤) (ش): الرحمن والرحيم من أسماء الله الحسنى، والجنة أثر من آثار رحمته تعالى.
(٥) (ش): أي بسبب شدة عُتُوِّكم واستكباركم عن قبول الحق.
(٦) «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ١٢٢.

أي ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي ويقال لهم: اليوم نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي، كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد فلم تعملوا لآخرتكم[1] ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي ومستقركم في نار جهنم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي وليس لكم مَن ينصركم ويخلِّصكم من عذاب الله ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء، بسبب أنكم سخرتم من كلام الله واستهزأتم به ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي خدعَتْكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها، حتى ظننتم أن لا حياة سواها، وأنْ لا بعث ولا نشور ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي فاليوم لا يُخْرجون من النار، ولا يُطلبُ منهم أن يُرضوا ربَّهُم بالتوبة والطاعة لعدم نَفْعها يومئذٍ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فلله الحمد خاصة لا يستحق الحمد أحدٌ سواه لأنه الخالق والمالك لجميع المخلوقات والكائنات ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وله العظمة والجلال، والبقاء والكمال في السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغْلب، الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بأنَّ واللام ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ [الجاثية: ٣] لأن المخاطبين منكرون لوحدانية الله.

٢ - صيغة المبالغة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧].

---

(١) (ش): للنسيان معنيان:

أحدهما: الذهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وهذا المعنى للنسيان مُنْتفٍ عن الله عز وجل بالدليلين السمعي، والعقلي. أما السمعي: فقوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]. وأما العقلي: فإن النسيان نقص، والله تعالى منزه عن النقص، موصوف بالكمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]. وعلى هذا فلا يجوز وصف الله بالنسيان بهذا المعنى على كل حال. والمعنى الثاني للنسيان: التَرْك عن علم وعمد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤]. وهذا المعنى من النسيان ثابت لله تعالى عز وجل قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة:١٤]. وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧]. وفي صحيح مسلم أن الله ﷻ يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ له: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. وتَرْكُه للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧]. وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ [الكهف:٩٩]. وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت:٣٥]. والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه. وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى، كما هو معلوم عند أهل السنة. [باختصار من «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١/ ١٧٢-١٧٤).

٣ – الأسلوب التهكمي ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٨].
٤ – المجاز المرسل ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ [الجاثية: ٥] أي مطر، مجاز مرسل علاقته المسببية لأن الرزق لا ينزل من السماء، ولكن ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات والرزق.
٥ – التشبيه المرسل ﴿يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨] أي كأنه لم يسمع آيات القرآن.
٦ – المبالغة بذكر المصدر ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١] كأن القرآن لوضوح حجته عين الهُدى.
٧ – الإطناب بتكرار اللفظ ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ.. وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣] لإظهار الامتنان.
٨ – طباق السلب ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].
٩ – المجاز المرسل ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل رحمة الله.
١٠ – الطباق بين ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية: ١٥] وبين ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وبين ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾.
١١ – الاستعارة التصريحية ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي يشهد عليكم، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.
١٢ – الالتفات ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة لإسقاطهم من رتبة الخطاب.
١٣ – الاستعارة التمثيلية ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ مَثَّل تركهم في العذاب بمن حُبس في مكانٍ ثم نسيه السَّجان من الطعام والشراب حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية، والمراد من الآية نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي، لأن الله تعالى لا ينسى ولا يَعرِض عليه النسيان.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية»



سُورَةُ الأَحْقَافِ ٤٦ ٣٥

مكية وآياتها خمس وثلاثون

بين يدي السورة

* هـذه السـورة مكية وأهدافها نفس أهداف السـور المكية، العقيـدة في أصولها الكبرى «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحور السورة الكريمة يدور حول «الرسالة والرسول» لإثبات صحة رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن.

* تحدثت السورة في البدء عن القرآن العظيم المنزل من عند الله بالحق، ثم تناولت الأوثان التي عبدها المشـركون وزعموا أنها آلهة مع الله تشـفع لهم عنده، فبينت ضلالهم وخطأهم في عبادة ما لا يسـمع ولا ينفع، ثم تحدثت عن شـبهة المشـركين حول القرآن، فردت على ذلك بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع.

* ثـم تناولـت نموذجين مـن نماذج البشـرية في هدايتها وضلالها، فذكـرت نموذج الولد الصالح، المسـتقيم في فطرتـه، البار بوالديه، الذي كلما زادت سـنه وتقدم في العمر ازداد تقى وصلاحًا وإحسـانًا لوالديـه.. ونموذج الولد الشـقي، المنحرف عن الفطـرة، العاق لوالديه، الذي يهزأ ويسخر من الإيمان والبعث والنشور ومآل كل منهما[1].

* ثم تحدثت السـورة عن قصة «هود» عليه السـلام مع قومه الطاغيـن «عاد» الذين طغوا في البـلاد واغتروا بمـا كانوا عليه من القوة والجـبروت، وما كان من نتيجتهـم حيث أهلكهم الله بالريـح العقيـم، تحذيـرًا لكفار قريش في طغيانهم واسـتكبارهم على أوامـر الله وتكذيبهم للرسول ﷺ.

* وختمت السـورة الكريمة بقصة النفر من الجن الذين اسـتمعوا إلى القرآن وآمنوا به ثم رجعوا منذرين إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان، تذكيرًا للمعاندين من الإنس بسبق الجن لهم إلى الإسلام.

التسمية: سميت «سورة الأحقاف» لأنها مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم، وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ الآية.

(١) (ش): أي مآل كُلٍّ من الولد الصالح والولد الشقي.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ
أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ
أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ
ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ
هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ
بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ
أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ
ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ
﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ
وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ

اللغَة: ﴿شِرْكٌ﴾ شركة ونصيب ﴿أَثَٰرَةٍ﴾ بقية من الشيء ﴿تُفِيضُونَ﴾ الإفاضة في الشيء: الخوضُ فيه والاندفاع يقال: أفاضوا في الحديث اندفعوا فيه، وأفاض الناس من عرفات أي دفعوا منها ﴿بِدْعًا﴾ البدع بالكسر الشيء المبتدع قال الرازي: والبدعُ والبديع من كل شيء المبدع، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودًا قبله بحكم السُنَّة[1] ﴿إِفْكٌ﴾ كذب ﴿كُرْهًا﴾ بكره

(١) «التفسير الكبير» ٢٨/٧. (ش): لا يقبل الله ﷻ من العمل إلا ما كان خالصًا أُرِيدَ به وجهه، وكان صوابًا موافقًا لمراده الشرعي. والاعتصام بالسُنَّة نجاة والبُعدُ عنها هلاك وضلال، وأهل السنة هم الطائفة الناجية المنصورة. وليس في البدع ما هو حسَنٌ أبدًا، بل كل بدعة في دين الله بالزيادة أو النقصان فهي ضلالة، ولا يُستثْنَى شيءٌ من =

ومشقة ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ فطامه ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ ألهمني ﴿أُفّٖ﴾ كلمة تضجّر وتبرم ﴿خَلَتِ﴾ مضت.

التفسير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[١] ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي هذا الكتاب المجيد منزَّل من عند الإله العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثًا، وإنما خلقناهما خلقًا متلبسًا بالحكمة، لندل على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي وإلى زمنٍ معيَّن هو زمن فنائهما يوم القيامة ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[إبراهيم:٤٨] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ أي وهؤلاء الكفار معرضون عما خُوِّفوه من العذاب ومن أهوال الآخرة، لا يتفكرون فيه لا يستعدون له.. ثم لما بيَّن وجود الإله العزيز الحكيم ردَّ على عبَدة الأصنام فقال ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني عن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها آلهة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ أي أرشدوني وأخبروني أيَّ شيءٍ خلقوا من أرجاء الأرض، وممَّا على سطحها من إنسان أو حيوان؟ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟ أي أمْ لهم مشاركة ونصيب مع الله في خلق السموات؟ ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ أي هاتوا كتابًا من الكتب المنزلة من عند الله قبل هذا القرآن يأمركم بعبادة هذه الأصنام؟ وهو أمر تعجيز لأنهم ليس لهم كتابٌ يدل على الإشراك بالله، بل الكتب كلُّها ناطقة بالتوحيد ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ أي أو بقية من علم من علوم الأولين شاهدة بذلك ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شركاء مع الله قال في البحر: طلب منهم أن يأتوا بكتاب يشهد بصحة ما هم عليه من عبادة غير الله، أو بقيةٍ من علوم الأولين، والغرضُ توبيخهم؛ لأن كل كتب الله المنزَّلة ناطقة بالتوحيد وإبطال الشرك، فليس لهم مستند من نقل أو عقل[٢].. ثم أخبر تعالى عن ضلال المشركين فقال ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؟ أي لا أحدَ أضلُّ وأجهلُ ممن يعبد أصنامًا لا تسمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجاتِ المحتاجين، ولا تستجيب لمن ناداها أبدًا لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل[٣] ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أي وهم لا يسمعون ولا

= هذه العموم. والْبِدْعَةُ كما عَرَّفها الإمام الشاطبي في «الاعتصام»: « طَرِيقَة فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَة، تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ للهِ ». تُضَاهِي: تُشَابِه.انظر: «الاعتصام» للإمام الشاطبي، و«حقيقة البدعة وأحكامها» للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي. و«تهذيب كتاب الاعتصام» لمحقق هذا الكتاب.

(١) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٥٥.

(٣) (ش): كلمة «مَنْ» مِن صيغ العموم؛ فالآية عامة في كل ما عُبِدَ من دون الله من الأصنام والأنبياء والملائكة والأولياء والصالحين والقبور والأضرحة وغيرهم.

يفهمون دعاء العابدين، وفيه تهكم بها وبعَبَدتها، وإنما ذكر الأصنام بضمير العقلاء، لأنهم لما عبدوها ونزَّلوها منزلة من يضر وينفع، صحَّ أن توصف بعدم الاستجابة وبعدم السمع والنفع، مجاراة لزعم الكفار ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي وإذا جمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الأصنام أعداءً لعابديها يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي وتتبرأ الأصنام من الذين عبدوها قال المفسرون: إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة فتتبرأ من عابديها وتقول ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] وهذه الآية كقوله تعالى ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] والله على كل شيء قدير(١) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات ظاهرات أنها من كلام الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي قال الكافرون عن القرآن الحق لما جاءهم من عند الله ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي هذا سحرٌ لا شبهة فيه ظاهر كونه سحرًا، وإنما وضع الظاهر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ موضع الضمير تسجيلًا عليهم بكمال الكفر والضلالة قال في البحر: وفي قوله ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ تنبيه على أنهم لم يتأملوا ما يُتلى عليهم، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عنادًا وظلمًا، ووصفوه بأنه ﴿مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه(٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي أيقولون: اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من تلقاء نفسه؟ وهو إنكار توبيخي ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي قل إن افتريتُه على سبيل الفرض فالله حسبي في ذلك ،وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه، ولا تقتدرون أنتم على أن تردُّوا عني عذاب الله، فكيف أفتريه من أجلكم وأتعرض لعقابه؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي هو جل وعلا أعلمُ بما تخوضون في القرآن وتقدحون به من قولكم: هو شعر، هو سحر، هو افتراء، وغير ذلك من وجوه الطعن ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كفى أن يكون تعالى شاهدًا بيني وبينكم، يشهد لي بالصدق والتبليغ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وهو الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين قال أبو حيان: وفيه وعدٌ لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر، وإشعارٌ بحلمه تعالى عليهم إذْ لم يعالجهم بالعقوبة(٣) ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي لست أول رسول طرق العالم، ولا جئت بأمرٍ لم يجئ به أحدٌ قبلي، بل جئت بما جاء به ناسٌ كثيرون قبلي، فلأيّ شيءٍ تنكرون ذلك عليَّ؟ والبدْعُ والبديعُ من الأشياء هو الذي لم يُر مثله قال ابن كثير: أي ما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، فقد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أي ولا أدري بما يقضي الله

(١) انظر «التفسير الكبير» ٢٨/ ٦.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٥٦.

(٣) «البحر المحيط»٥/ ٥٦.

علَـيَّ وعليكـم، فإن قدر الله مُغيَّـب ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي لا أتبع إلا ما ينزله اللهُ علَيَّ من الوحـي، ولا أبتدع شـيئًا من عنـدي ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[١] أي وما أنا إلا رسـولٌ مُنذرٌ لكم من عذاب الله، بَيّن الإنذار بالشـواهد الظاهرة، والمعجزات الباهرة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أي قل يا محمد: أخبروني يا معشـر المشـركين إن كان هذا القرآن كلام الله حقًّا وقـد كذبتم به وجحتموه، وجوابـه محذوف تقديره: كيف يكـون حالكم؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي وقد شـهد رجل من علماء بني إسـرائيل على صدق القرآن، فآمن به واسـتكبرتم أنتم عن الإيمان، كيف يكون حالكم، ألسـتم أضل الناس وأظلم الناس؟ قال الزمخشري: وجوابُ الشرط محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين؟ ودلَّ على هذا المحذوف قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] أي لا يوفق للخير والإيمان من كان فاجرًا ظالمًا قال المفسـرون: والشـاهدُ من بني إسـرائيل هو «عبد الله بن سـلام» وذلك حين قدم رسـول الله ﷺ المدينة جاء إليه ابن سـلام ليمتحنه، فلما نظـر إلى وجهـه علم أنه ليس بوجـه كاذب، وتأمله فتحقق أنه هو النبـي المنتظر، فقال له: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومـا بـال الولد ينزع إلى أبيـه أو إلى أُمه؟ فلما أجابه ﷺ قال: أشـهد أنك رسـول الله حقًّا[٣]. الخ، ثم ردَّ تعالى على شـبهةٍ أخرى من شـبه المشركين فقال ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي:وقال كفار مكة في حق المؤمنين: لو كان هذا القرآن والدين خيرًا ما سبقنا إليه هـؤلاء الفقراء الضعفاء!! وقال ابـن كثير: يعنون «بلالًا» و «عمـارًا» و «صهيبًا» و«خبابًا» وأشباههم من المستضعَفين والعبيد والإماء ممن أسلم وآمن بالنبي[٤] ﷺ ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: ولمّا لم يهتدوا بالقرآن مع وضوح إعجازه، قالوا: هذا كذبٌ قديم مأثور عن الأقدمين، أتى به محمد ونسبه إلى الله تعالى ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي ومن قبل القرآن التوراة التي أنزلها الله على موسى قدوةً يُؤْتَم بها في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، ورحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها قال الإمام الفخر: ووجه تعلق الآية بما قبلها أن المشـركين طعنوا في صحة القرآن، وقالوا: لو كان خيرًا ما سـبقنا إليه هؤلاء الضعفـاء الصعاليك، فردَّ الله عليهم بأنكم لاتنازعون أن الله أنزل التوراة على موسـى، وجعل هذا الكتاب التوراة إمامًا يقتدى به، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمحمد ﷺ فإذا سلمتم

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣١٦.
(٢) «تفسير الكشاف» ٤/ ٢٣٦.
(٣) قصة إسلام عبد الله بن سلام مفصلة في صحيح البخاري.
(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣١٨.

كونها من عند الله، فاقبلوا حكمها بأن محمدًا ﷺ رسولٌ حقًّا من عند الله[1] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن، مصدِّقٌ للكتب قبله بلسانٍ عربي فصيح، فكيف ينكرونه وهو أفصح بيانًا، وأظهر برهانًا، وأبلغ إعجازًا من التوراة؟ ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ليخوِّف كفار مكة الظالمين من عذاب الجحيم، ويبشر المؤمنين المحسنين بجنات النعيم.

ولما بيَّن تعالى أحوال المشركين المكذبين بالقرآن، أردفه بذكر أحوال المؤمنين المستقيمين على شريعة الله فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والتوحيد والاستقامة على شريعة الله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي فلا يلحقهم مكروهٌ في الآخرة يخافون منه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا في الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي أولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبدًا ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي نالوا ذلك النعيم جزاءً لهم على أعمالهم الصالحة ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ لمَّا كان رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما حثَّ تعالى العباد عليه. والمعنى: أمَرْنا الإنسان أمرًا جازمًا مؤكدًا بالإحسان إلى الوالدين، ثم بيَّن السبب فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي حملته بكرهٍ ومشقة ووضعته بكرهٍ ومشقة ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي ومدة حمله ورضاعه عامان ونصف، فهي لا تزال تعاني التعب والمشقة طيلة هذه المدة قال ابن كثير: أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبًا من وحَم، وغثيان، وثقل، وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ووضعته بمشقة أيضًا من الطَّلق وشدته، وقد استدل العلماء بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قويٌّ صحيح[2] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى إذا عاش هذا الطفل وبلغ كما قوته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي واستمر في الشباب والقوة حتى بلغ أربعين سنة وهو نهاية اكتمال العقل والرشد[3] ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أي قال: ربِّ ألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ حتى ربياني صغيرًا ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي ووفقني لكي أعمل عملًا صالحًا يرضيك عني ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي اجعل ذريتي ونسلي صالحين قال شيخ زاده: طلب هذا الداعي من الله ثلاثة أشياء: الأول: أن يوفقه الله للشكر على النعمة، والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله، والثالث: أن يصلح له في ذريته، وهذه

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٨/ ١٢.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٩١.

(٣) قال العلماء: ولذلك لم يبعث نبي قبل أربعين.

كمال السعادة البشرية [(١)] ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب، وإني من المستمسكين بالإسلام قال ابن كثير: وفي الآية إرشادٌ لمن بلغ الأربعين أن يجدِّد التوبة والإنابة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ويعزم عليها [(٢)] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر نتقبل منهم طاعاتهم ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم، في جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على ألسنة الرسل، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم.

ولما مثَّل تعالى لحال الإنسان البار بوالديه وما آل إليه حاله من الخير والسعادة، مثَّل لحال الإنسان العاقِّ لوالديه وما يئول إليه أمره من الشقاوة والتعاسة فقال ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ أي وأمَّا الوالد الفاجر الذي يقول لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان أفٍ لكما، أي: قبحًا لكما على هذه الدعوة ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾؟ أي أتعدانني أن أُبعث بعد الموت وقد مضت قرونٌ من الناس قبلي ولم يُبعث منهم أحد؟ ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي وأبواه يسألان الله أن يغيثه ويهديه للإسلام قائلين له: ويْلك آمنْ بالله وصَدِّقْ بالبعث والنشور وإلاَّ هلكت ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعد الله صدقٌ لا خُلف فيه ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي فيقول ذلك الشقي: ما هذا الذي تقولان من أمر البعث إلا خرافات وأباطيل سطَّرها الأولون في الكتب مما لا أصل له قال تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي أولئك المجرمون هم الذين حقَّ عليهم قول الله بأنهم أهل النار قال القرطبي: أي وجب عليهم العذاب وهي كلمة الله كما في الحديث «هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي» [(٣)] ﴿فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي في جملة أمم من أصحاب النار قد مضت قبلهم من الكفرة الفجار من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي كانوا كافرين لذلك ضاع سَعْيُهم وخسروا آخرتهم، وهو تعليل لدخولهم جهنم قال الإمام الفخر: قال بعضهم: إن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّديق قبل إسلامه، والصحيحُ أنه لا يراد بالآية شخص معيَّن، بل المراد منها كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحقِّ فأباه وأنكره، ويدل عليه أن الله تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ بأنه من الذين حقَّ عليهم

---

(١) «حاشية البيضاوي» ٣/ ٣٣٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٢٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٩٨. (ش): عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي»، قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: «يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟». قَالَ: «عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ» (رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ، وصححه الألباني).

القول بالعذاب، ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه وكان من سادات المسلمين فبطل حمل الآية عليه[1] ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي لكلٍّ من المؤمنين والكافرين مراتب ومنازل بحسب أعمالهم، فمراتب المؤمنين في الجنة عالية، ومراتب الكافرين في جهنم سافلة ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي وليعطيهم جزاء أعمالهم وافيه كاملة، المؤمنون بحسب الدرجات، والكافرون بحسب الدركات، من غير نقصان بالثواب، ولا زيادة في العقاب.

قال الله تعالى:

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ
وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ
أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ
بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً
فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا
نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾
وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ
وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟
ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا
يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال بعض الأشقياء، أعقبه بذكر حال الكفار والفجار في الآخرة، ثم ذكر قصة عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم مع ما كانوا عليه من القوة والشدة، تذكيرًا لكفار قريش بعاقبة التكذيب والطغيان، وختم السورة الكريمة بقصة النفر من الجنِّ

(١) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٢٣، وهذا اختيار المحققين من المفسرين كابن كثير والقرطبي وأبي السعود وصاحب «البحر المحيط».

الذين آمنوا بالقرآن حين سمعوه ودعوا قومهم إِلى الإِيمان.

اللغَة: ﴿ٱلْهُونِ﴾ الهوان والذل ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ الرمال العظيمة جمع حِقْف وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوجَّ، والأحقاف ديار عاد[1] ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصْرِفَنا وتُزيلَنا، والإِفك: الكذب ﴿عَارِضٌ﴾ سحاب يعرض في الأفق ﴿تُدَمِّرُ﴾ تُهلك، والتدميرُ الهلاكُ وكذلك الدَّمار ﴿صَرَفْنَآ﴾ بعثْنا ووَجَّهْنا ﴿يَعْىَ﴾ يضعف ويعجز من الإِعياء وهو التعب والعجز.

التفسِير: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي وذكّرهم يا محمد يوم يُكشف الغطاء عن نار جهنم، وتبرز للكافرين فيقرَّبون منها وينظرون إِليها ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ في الكلام حذف، أي: ويقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: أذهبتم طيباتكم، أي: لقد نلتم وأصبتم لذائد الدنيا وشهواتها فلم يبق لكم نصيب اليوم في الآخرة قال في البحر: والطيبات هنا المستلذات من المآكل والمشارب، والملابس والمفارش. والمراكب والمواطئ، وغير ذلك مما يتنعَّم به أهل الرفاهية[2] ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أي وتمتعتم بتلك اللذائذ والطيبات في الدنيا قال المفسرون: المراد بالآية إِنكم لم تؤمنوا حتى تنالوا نعيم الآخرة، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها عن الإِيمان والطاعة، وأفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي، وآثرتم الفاني على الباقي، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من النعيم، ولهذا قال بعده ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي ففي هذا اليوم يوم الجزاء تنالون عذاب الذُّلِّ والهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بسبب استكباركم في الدنيا عن الإِيمان وعن الطاعة ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي وبسبب فسقكم وخروجكم عن طاعة الله، وارتكاب الفجور والآثام قال الإِمام الفخر: وهذه الآية تدل على المنع من التنعم، لأن هذه الآية وردت في حق الكافر، وإِنما وبَّخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولا يؤدي شكر المنعم بطاعته والإِيمان به، وأما المؤمن فإِنه يؤدي بإِيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ودليله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] ! نعم لا يُنكر أن الاحتراز عن التنعيم أولى، وعليه يُحمل قول عمر «لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعامًا، وأحسنكم لباسًا، ولكني أستبقي طيباتي لحياتي الآخرة»[3] وقال في التسهيل: الآية في الكفار بدليل قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهي مع ذلك واعظةٌ لأهل التقوى من المؤمنين، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله وقد رآه اشترى لحمًا: «أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا جعله في بطنه» أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ممن قال الله فيهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[4] !! ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٠٣.
(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٦٣.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٢٥.
(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٤.

عادٍ ليعتبروا بها ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي حين حذَّر قومه من عذاب الله إِن لم يؤمنوا وهم مقيمـون بالأحقاف وهي تـلالٌ عظيمة من الرمل في بلاد اليمن قـال ابن كثير: الأحقاف جمع حِقْف وهو الجبل من الرمل، قال قتادة: كانوا حيًّا باليمن أهل رملٍ مشرفين على البحر بأرضٍ يُقـال لها: الشَّـحْر[١] ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي وقد مضت الرسـلُ بالإِنذار من قبل هودٍ ومن بعده، والجملة اعتراضية وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلًا متقدمين قبل هودٍ وبعده ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي حذَّرهم هود عليه السلام قائلا لهم: بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إِني أخـاف عليكـم إِن عبدتم غير الله عذاب يوم هائل وهو يوم القيامة ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي قالوا جوابًا لإِنذاره: أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ وهو اسـتفهام، يراد منه التسـفيه والتجهيل لِمَـا دعاهم إليه ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقًا فيما تقول، قال ابن كثير: اسـتعجلوا عذاب الله وعقوبته اسـتبعادًا منهـم لوقوعـه[٢] ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قال لهم هـود: ليس علم وقت العذاب عندي إنما علمـه عند الله ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ أي وإِنما أنا مبلّغٌ ما أرسـلني به الله إليكم ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي ولكنني أجدكم قومًا جهلة في سؤالكم استعجال العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي فلما رأوا السحاب معترضًا في أفق السماء متجهًا نحو أوديتهم استبشروا به ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي وقالوا هذا السحاب يأتينا بالمطر قال المفسـرون: كانت عاد قد أبطـأ عنهم المطر، وقُحطوا مدةً طويلةً من الزمن، فلمـا رأوا ذلك السـحاب العـارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به واستبشـروا وقالـوا: هذا عارضٌ ممطرنـا ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ أي قال لهـم هود: ليس الأمر كما زعمتم أنه مطر، بل هو ما اسـتعجلتم به من العذاب ثم فسَّره بقوله ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هو ريحٌ عاصفة مدمّرة فيها عذابٌ فظيع مؤلم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي تُخرِّب وتُهلك كل شـيء أتت عليه من رجالٍ ومـواشٍ وأمـوال، بأمره تعالى وإِذنه قال ابن عباس: أول ما جاءت الريح على قوم عاد، كانت تأتي على الرجال والمواشـي فترفعهم من الأرض وتطير بهم إلى السـماء حتى يصبح الواحد منهـم كالريشـة، ثم تضربهم علـى الأرض، فدخلـوا بيوتهم وأغلقـوا أبوابهـم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، فهي التي قال الله فيها ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي تدمِّر كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها، والتدميرُ الهلاك[٣]، وفي الحديث عن عائشة قالت: «كَانَ ﷺ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا، رَجَاءَ

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٢٢.
(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.
(٣) انظر «تفسر القرطبي» ١٦/ ٢٠٦.

أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةُ؟ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؛ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[1] ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي فأصبحوا هلكى لا تُرى إلا مساكنهم، لأن الريح لم تبق منهم إلا الآثار والديار خاوية ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي بمثل هذه العقوبة الشديدة نعاقب من كان عاصيًا مجرمًا قال الرازي: والمقصود منه تخويف أهل مكة[2]، ولهذا قال بعده ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ «إِنْ» نافية بمعنى «ما» أي ولقد مكَّنَّا عادًا في الذي لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من القوة، والسَّعة، وطول الأعمار[3]، وهو خطاب لكفار مكة على وجه التهديد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أي وأعطيناهم الأسماع والأبصار والقلوب، ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على الخالق المنعم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي فما نفعتهم تلك الحواس أي نفع، ولا دفعت عنهم شيئًا من عذاب الله قال الإمام الفخر: المعنى أنّا فتحنا عليهم أبواب النعم: أعطيناهم سمعًا فما استعملوه في سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصارًا فما استعملوها في تأمل العِبَر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم أنها لم تُغْنِ عنهم من عذاب الله شيئًا ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تعليلٌ لما سبق أي لأنهم كانوا يكفرون وينكرون آيات الله المنزَّلة على رسله ويكذبون رسله ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ونزل وأحاطبهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به بطريق الاستهزاء ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ تخويفٌ آخر لكفار مكة، أي: ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة والمحيطة بكم، كقرى عاد وثمود وسبأ وقوم لوط، والمراد بإهلاك القرى إهلاكُ أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وكررنا الحجج والدلالات، والمواعظ والبينات، أوضحناها وبيَّناها لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم وضلالهم ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي فهلاَّ نصرتهم آلهتهم التي ترقبوا بها إلى الله بزعمهم، وجعلوها شفعاءهم لتدفع عنهم العذاب؟! و «لولا» تحضيضية بمعنى هلَّا ومعناها النفي، أي: لم تنصرهم آلهتهم ولم تدفع عنهم عذاب الله ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عن نصرتهم وهم أحوج ما يكونون إليهم، فإن الصديق وقت الضيق قال أبو السعود: وفي الآية تهكمٌ بهم كأنَّ

(١) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٨/ ٢٩.

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ«إنْ» زائدة، والمعنى: ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه أي في مثل الذي مكناكم فيه، والأول أرجح لأن المقصود أنهم كانوا أقوى منكم ومع ذلك ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم؟ وإنما لم يُؤْتَ بـ«ما» فيقال: فيما مكناكم فيه، دفعًا لثقل التكرار؟ (ش): هكذا في أكثر من طبعة والصواب أن يقال: وإنما لم يُؤْتَ بـ«ما» فيقال: فيما ما مكناكم فيه، دفعًا لثقل التكرار؟

عدم نصرهم كان لغيبتهم[1] ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي وذلك الذي أصابهم هو كذبهم وافتراؤهم على الله، حيث زعموا أن الأصنام شركاء الله وشفعاء لهم عند الله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي واذكر يا محمد حين وجَّهْنا إليك وبعَثْنا جماعةً من الجن ليستمعوا القرآن قال البيضاوي: والنفر دون العشرة، روي أنهم وافَوْا رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده القرآن[2] ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ أي فلما حضروا القرآن عند تلاوته قال بعضهم لبعضٍ: اسكتوا لاستماع القرآن قال القرطبي: هذا توبيخٌ لمشركي قريش، أي إن الجنَّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله، وأنتم مُعْرِضُون مُصرُّون على الكفر[3] ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي فلما فُرِغَ من قراءة القرآن رجعوا إلى قومهم مُخوِّفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا قال الرازي: وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلاّ وقد آمنوا[4] ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي سمعنا كتابًا رائعًا مجيدًا منزَّلًا على رسولٍ من بعد موسى قال ابن عباس: إن الجنَّ لم تكن قد سمعت بأمر عيسى عليه السلام[5] ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدِّقًا لما قبله من التوراة ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي هذا القرآن يرشد إلى الحقِّ المبين، وإلى دين الله القويم ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي أجيبوا محمدًا ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإيمان وصدِّقوا برسالته ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يمحو الله عنكم الذنوب والآثام ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي ويخلِّصكم وينجكم من عذاب شديد مؤلم ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا ترهيبٌ بعد الترغيب أي ومن لم يؤمن بالله ويستجب لدعوة رسوله، فإنه لا يفوت الله طلبًا، ولا يعجزه

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٦٩.

(٢) حاشية البيضاوي ٣/ ٣٤١. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا: «مَا لَكُمْ؟». فَقَالُوا: «حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ». قَالُوا: «مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَدَثَ». فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ - ﷺ - بِنَخْلَةَ، وَهْوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهْوَ يُصَلِّى بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا: «هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ». فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: «يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا». وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وَإِنَّمَا أُوحِىَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢١٠.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٣٢.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٧٠.

هربًا ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي وليس له أنصار يمنعونه من عذاب الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي أولئك الذين لا يستجيبون لدعوة الله في خسرانٍ واضح، وإلى هنا آخر كلام الجن الذين سمعوا القرآن، ثم ذكر تعالى الأدلة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أولم يعلم هؤلاء الكفار المنكرون للبعث والنشور أن الله العظيم القدير الذي خلق السمواتِ والأرض ابتداءً من غير مثال سابق ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي ولم يضعف ولم يتعب بخلقهنَّ ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ أي قادرٌ على أن يعيد الموتى بعد الفناء، ويحييهم بعد تمزق الأشلاء؟ ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ أي بلى إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الأهوال والشدائد التي يرونها في الآخرة، وذَكِّرْهم يوم يُعرضون على النار فيقال لهم ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟ أي أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حقًّا؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥] ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي قالوا: بلى وعزة ربنا، أكَّدوا كلامهم بالقسم طمعًا في الخلاص قال الفخر الرازي: والمقصود بالآية التهكمُ بهم، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1] [الشعراء: ١٣٨] ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي فيقال لهم: ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين كما صبر مشاهير الرسل الكرام وهم «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى» ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي ولا تدع على كفار قريش تعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارٍ﴾ أي كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً واحدة من النهار، لما يشاهدون من شدة العذاب وطوله ﴿بَلَٰغٞ﴾ أي هذا بلاغ وإنذار ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن طاعة الله.

تنبيه: قال المفسرون: «إن الجنَّ كانوا يسترقون السمع، فلما حُرست السماء بالشهب، قال إبليس: إن هذا الذي حدث بالسماء من أمر حدث في الأرض، فبعث سراياه ليعرف الخبر، فذهب ركبٌ من نصيبين وهم أشراف الجن إلى تهامة، فلما بلغوا باطن نخلة سمعوا النبي ﷺ يصلي ويتلو القرآن، فاستمعوا له وقالوا: أنصتوا ثم لما انتهى ﷺ من القراءة آمنوا ثم رجعوا إلى قومهم منذرين فدعوهم إلى الإيمان، وجاءوا بعد ذلك جماعات جماعات إلى النبي ﷺ فذلك سبب قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[2].

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٣٤.

(٢) (ش): راجع حديث البخاري ومسلم الذي سبق ذكره في التعليق السابق.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التعجيز ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [الأحقاف: ٤] أمرٌ يراد منه التعجيز.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿يَدْعُوا .. وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ ومثله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ [الأحقاف: ١٠].

٣ - الطباق بين ﴿وَكَفَرْتُمْ .. فَآمَنَ﴾ وبين ﴿وَيُنْذِرَ .. وَبُشْرَى﴾.

٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ ثم قال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥] فذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بشأن الأم لحقها العظيم.

٥ - الطباق بين ﴿حَمَلَتْهُ .. وَوَضَعَتْهُ﴾.

٦ - صيغة الحصر ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

٧ - الاستعارة ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] استعار الدرجات للمراتب، للسعداء والأشقياء.

٨ - الإيجاز بالحذف مع التوبيخ والتقريع ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ أي يقال لهم: أذهبتم.

٩ - الإطناب بتكرار اللفظ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ ثم قال ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ﴾ لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم.

١٠ - توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام وحسن تناسقه وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية: ٣٣] ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف»





مدنية وآياتها ثمان وثلاثون

بين يدي السورة

* سورة محمد من السور المدنية، وهي تعنى بالأحكام التشريعية، شأن سائر السور المدنية، وقد تناولت السورة أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو موضوع «الجهاد في سبيل الله».

* ابتدأت السورة الكريمة بدءًا عجيبًا بإعلان حرب سافرة على الكفار أعداء الله، وأعداء رسوله، الذين حاربوا الإسلام، وكذبوا الرسول ﷺ، ووقفوا في وجه الدعوة المحمدية، ليصدوا الناس عن دين الله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الآيات..

* ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين، وحصدهم بسيوف المجاهدين، لتطهير الأرض من رجسهم، حتى لا تبقى لهم شوكة ولا قوة، ثم دعت إلى أسرهم بعد إكثار القتل فيهم والجراحات ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ...﴾ الآيات.

* ثم بينت طريق العزة والنصر، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين، وذلك بالتمسك بشريعته، ونصرة دينه ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

*وتحدثت السورة بإسهاب عن صفات المنافقين، باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين، فكشفت عن مساويهم ومخازيهم ليحذر الناس مكرهم وخبثهم ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بدعوة المؤمنين إلى سلوك طريق العزة والنصر، بالجهاد في سبيل الله وعدم الوهن والضعف أمام قوى الشر والبغي، وحذرتهم من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء، حرصًا على الحياة والبقاء، فإن الحياة الدنيا زائلة فانية، وما عند الله خير للأبرار ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ...﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

* وهكذا ختمت السورة بالدعوة إلى الجهاد، كما بدأت بالدعوة إليه، حفزًا لعزائم المؤمنين، وليتناسق البدء مع الختام ألطف التئام!!

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ
مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ
فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم
بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا
تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ
لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ
أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا
مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ
إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ
أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ
جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ

اللغة: ﴿كَفَّرَ﴾ أزال ومحا ﴿أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح والأسر قال في المصباح: أثخن في الأرض إثخانًا، سار إلى العدو وأوسعهم قتلًا، وأثخنته الجراحة أوهنته وأضعفته[1] ﴿ٱلۡوَثَاقَ﴾ القيد والحبل الذي يربط به ﴿مَنَّۢا﴾ إطلاق الأسير من غير فدية ﴿أَوۡزَارَهَا﴾ آلاتها وأثقالها وهي الأسلحة والعتاد يقال: وضعت الحرب أوزارها أي انقضت الحرب وانتهت، وأصل الأوزار الأثقال من السلاح والخيل قال الشاعر:

وَأَعۡدَدۡتُ لِلۡحَرۡبِ أَوۡزَارَهَا ... رِمَاحًا طِوَالًا وَخَيۡلًا ذُكُورًا[2]

﴿فَتَعۡسٗا﴾ شقاءً وهلاكًا ﴿ءَاسِنٖ﴾ متغيّر ومنتن ﴿حَمِيمٗا﴾ حارًّا شديد الحرارة ﴿ءَانِفًا﴾ الآن، من قولهم: استأنف الأمر إذا ابتدأ به ﴿أَشۡرَاطُ﴾ أمارات وعلامات.

(١) «المصباح المنير» مادة ثخن.

(٢) البيت للأعشى كذا في «القرطبي» ١٦/ ٢٢٩.

التفسير: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هـذا إعـلان حـربٍ مـن الله تعالى علـى أعدائه وأعـداء دينـه. والمعنى: الذين جحـدوا بآيات الله وأعرضوا عن الإسـلام، ومنعوا الناس عن الدخـول فيـه ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا ثـواب لها لأنها لم تكن لله فبطلـت، والمراد أعمالهم الصالحـة كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وقرى الضيف[1] قال الزمخشـري: وحقيقة إضلال الأعمال جَعْلُها ضالـةً ضائعة، ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالـة من الإبـل، التي لا ربَّ لها يحفظهـا ويعتني بأمرها، والمـراد أعمالهم التي عملوها في كفرهـم بمـا كانوا يسـمونه «مكارم الأخلاق»، مـن صلة الأرحام، وفك الأسـارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار[2] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان الصادق، والعمل الصالح[3] ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي صدَّقوا بما أنزل الله على رسـوله محمد ﷺ تصديقـًا جازمًا لا يخالجه شـك ولا ارتيـاب وهوعطف خاص على عـام، والنكتةُ فيه تعظيم أمره والاعتناء بشـأنه، إشـارةً إلـى أن الإيمان لا يتـمُّ بدونه[4]، ولذا أكَّـده بقوله ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي وهـو الثابـت المؤكد المقطوع بأنـه كلام الله ووحيهُ المنزَّل من عنـد الله، والجملة اعتراضية لتأكيد السابق ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي أزال ومحا عنهم ما مضى من الذنوب والأوزار ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي أصلـح شـأنهم وحالهـم، في دينهـم ودنياهم، ثـم بيَّن تعالى سـبب ضلال الكفـار، واهتداء المؤمنين فقـال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي ذلك الإضلال لأعمال الكفار بسـبب أنهم سـلكوا طريق الضلال، واختاروا الباطـل على الحق ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي وأن المؤمنين سـلكوا طريق الهدى، وتمسَّـكوا بالحق والإيمان المنزل من عنـد الرحمن ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي مثـل ذلك البيان الواضح، بيَّن الله أمر كلٍّ من الفريقين المؤمنين والكافرين بأوضح بيانٍ وأجلى برهان ليعتبر الناس ويتعظوا.. وبعد إعلان هـذه الحرب السـافرة على الكافرين أمر تعالى المؤمنيـن بجهادهم فقال ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي فإذا أدركتم الكفار في الحرب فاحصدوهم حصْدًا بالسيوف قال في التسهيل: وأصلـه فاضربوا الرقاب ضربًا ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه والمراد: اقتلوهم، ولكنْ

---

(١) (ش): قرَى الضيفَ، قِرًى: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

(٢) «الكشاف» ٤/ ٢٥٠.

(٣) (ش): هذا التعبير يعطي التفريق بين الإيمان والعمل، وأنه يمكن أن يكون إيمان صادق بدون عمل، والصواب: أن العمل جزء من الإيمان فلا يكون إيمان بدون عمل، وعطْفُ العمل علي الإيمان من عطْف الخاص على العام اهتمامًا به.

(٤) «حاشية الصاوي» ٤/ ٨١. (ش): والصواب أن الإيمان لا يصح بدون التصديق بما أنزل على النبي محمد ﷺ لأن التمام غير الصحة، فتمام الأمر كمالُه.

عبَّـر عنه بضرب الرقاب، لأنه الغالب في صفة القتل[١] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي حتى إذا هزمتموهـم وأكثرتـم فيهم القتل والجراحات ولـم تبق لهم قوة للمقاومة فأْسِـروهم وكُفُّوا عـن قتلهم قال الزمخشـري: وفي هذه العبـارة ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ من الغلظة والشـدة ما ليس في لفـظ القتل، لما فيها من تصوير القتل بأشـنع صورة، وهو حزُّ العنق وإطارة رأس البدن، ولقد زاد في هـذه الغلظـة في قولـه ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] ومعنـى ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتُم قتْلهم وأغلظتموه ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي فأْسِـروهم، والوثاقَ اسـم لما يربط من حبلٍ وغيره[٢] ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي ثم أنتم مخيَّرون بعد أسْرهم إمَّا أن تمُنُّوا عليهم وتطلقوا سَراحهم بلا مقابل من مال، أو تأخذوا منهم مالًا فداءً لأنفسهم، ولكنْ بعد أن تكونوا قد كسـرتم شـوكتهم، وأعجزتموهم بكثرة القتل والجراح ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي حتى تنقضي الحرب وتنتهي بوضع آلاتها وأثقالها، وتنتهي الحرب بين المسلمين والمناوئين لهم، وذلك بعزة الإِسـلام واندحار المشـركين ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي الأمر فيهم مـا ذُكـر، ولـو أراد الله لانتصـر منهم وأهلكهـم بقدرتـه، دون أن يكلفكم أيهـا المؤمنون إلى قتالهم قال ابن كثير: أي لو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبةٍ ونكالٍ من عنده[٣] ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي ولكنَّـه أمركم بجهادهم ليختبر إيمانكم وثباتكم، فيظهر حال الصادق في الإِيمـان من غيره كما قـال تعالـى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] وليبتلـي المؤمنين بالكافرين والكافريـن بالمؤمنين، فيصير من قُتل مـن المؤمنين إلى الجنة، ومن قتل مـن الكافرين إلى النار ولهذا قال ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي والذين استشـهدوا في سـبيل الله فلن يُبطـل الله عملهم، بل يكثِّـره ويضاعفه وينمِّيـه ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي سـيهديهم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، بتوفيقهم إلى العمل الصالح وإرشادهم إلى الجنة دار الأبرار ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي ويُصلح حالهم وشأنهم ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي ويدخلهم الجنـة دار النعيم بيَّنَها لهم بحيث يعلم كل واحدٍ منزله ويهتدي إليه قال مجاهد: يهتدي أهلُها إلـى بيوتهم ومسـاكنهم لا يخطئون كأنهم سـكنوها منذ خُلقوا[٤] وفي الحديـث « وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّـدٍ بِيَـدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِى الْجَنَّةِ مِنْـهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِى الدُّنْيَا »[٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ أي إن تنصروا دينه ينصركم على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي ويثبتكم في مواطـن الحـرب ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أي والذين كفروا بالله وآياته فهلاكًا وشـقاءً لهم،

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٦.
(٢) «الكشاف» ٤/ ٢٥١.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٣٠.
(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٧٥.
(٥) جزء من حديث رواه البخاري.

وهو دعاءٌ عليهم بالتعاسة والخيبة والخذلان ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها وأحبطها لأنها كانت في طاعة الشيطان ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي ذلك التَّعْسُ والإضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من الكتب والشرائع قال الزمخشري: أي كرهوا القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام، لأنهم قد أَلِفُوا الإهمال وإطلاق العِنان في الشهوات والملاذِّ[1] فشقَّ عليهم ذلك وتعاظمهم[2] ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أذهبها وأضاعها لأن الإيمان شرط لقبول الأعمال، والشرك محبط للعمل، ثم خوَّفهم تعالى عاقبة الكفر فقال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي أفلم يسافر هؤلاء ليروا ما حلَّ بمن سبقهم من الأمم الطاغية كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من المجرمين، كيف كان مآلهم؟ وماذا حلَّ بهم من العذاب؟ فإنَّ آثار ديارهم تُنْبِئ عن أخبارهم ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أهلكهم الله، واستأصل كل ما يخصهم من مالٍ وبنين ومتاع، فإذا هو أنقاض متراكمة وإذا هم تحت هذه الأنقاض «ودمَّر عليهم» أبلغ من دمَّرهم لأن معناها أهلكهم مع أموالهم ودورهم وأولادهم وأطبق عليهم الهلاك إطباقًا فلم يبق شيء إلا شمله الدمار ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أي ولكفار مكة أمثال تلك العاقبة الوخيمة والعذاب المدمّر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي وليُّهم وناصرهم ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي لا ناصر لهم ولا معين ولا مغيث، ثم بيَّن تعالى مآل كلٍّ من الفريقين المؤمنين والكافرين في الآخرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي يدخل المؤمنين جناتِ النعيم، التي فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي والكافرون في الدنيا ينتفعون بشهواتها ولذائذها، ويأكلون كما تأكل البهائم، ليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم وفروجهم ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي وجهنم مقامهم ومنزلهم في الآخرة قال الزمخشري: المراد أنهم يتنفعون بمتاع الدنيا أيامًا قلائل، ويأكلون غافلين غير مفكرين في العاقبة كما تأكل الأنعام في مسارحها ومعالفها غافلةً عما هي بصدده من النحر والذبح، والنار منزل ومقام لهم في الآخرة.[3]

ثم سلَّى تعالى رسوله ﷺ فقال ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي وكم من أهل قرية[4] عاتية ظالمة كانوا أقوى من أهل مكة الذين أخرجوك منها ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي أهلكناهم بأنواع العذاب فلم ينصرهم أحد فكذلك نفعل بهؤلاء قال ابن عباس: لما خرج النبي ﷺ من مكة واختفى بالغار ثم خرج مهاجرًا إلى المدينة، التفت إلى مكة ثم قال «إنك لأحبُّ البلاد إلى الله، وأحبُّ البلاد إليَّ، ولولا أنَّ قومك أخرجوني منك

(١) (ش): أطلق له العِنانَ: تَرَكه يفعل ما يشاء.
(٢) «الكشاف» ٤/ ٢٥٣.
(٣) «تفسير الكشاف» ٤/ ٢٥٣.
(٤) الكلام على حذف مضاف أي من أهل قرية وهو مجازٌ مشهور.

ما خرجت فنزلت الآية[١] ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي هل من كان على حجة وبصيرة، وثبات ويقين من أمر دينه ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؟ أي كمن زُيّن له عمله القبيح فرآه حسنًا؟ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ أي أنهمكوا في الضلال حتى عبدوا الهوى؟ ليس هذا كهذا، وإنما جاء بصيغة الجمع مراعاةً للمعنى قال المفسرون: يريد بـ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ رسول الله ﷺ وبمن ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أبا جهل وكفار قريش. واللفظ أعمُّ لأن الغرض المباينة بين من يعبد الله، وبين من يعبد هواه، ولذلك مثَّل بعده بالفارق الكبير بين الجنة والنار فقال ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي صفة الجنة الغريبة العجيبة الشأن، التي وعد الله بها عباده الأبرار وأعدَّها للمتقين الأخيار ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي فيها أنهار جاريات من ماءٍ غير متغير الرائحة قال ابن مسعود: أنهار الجنة تفجَّر من جبل من مسكٍ[٢] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي وأنهار جاريات من حليبٍ في غاية البياض والحلاوة والدسامة، لم يحمض بطول المقام ولم يفسد كما تفسد ألبان الدنيا وفي حديث مرفوع «لم يخرج من ضروع الماشية»[٣] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي وأنهار جاريات من خمرٍ لذيذة الطعم يتلذذ بها الشاربون لأنه ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] وإنما قيَّدها بأنها لذة للشاربين، لأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا لا يلتذ بها إلاَّ فاسد المزاج، وأما خمر الآخرة فهي طيبة الطعم والرائحة، يشربها أهل الجنة لمجرد الالتذاذ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي وأنهارٌ جارياتٌ من عسل في غاية الصفاء وحسن اللون والريح، لم يخرج من بطون النحل قال أبو السعود: ﴿عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي لم يخالطه الشمع وفضلات النحل[٤] ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ولهم في الجنة أنواعٌ متعددة من جميع أصناف الفواكه والثمار قال في حاشية البيضاوي: وفي ذكر الثمرات بعد المشروب إشارة إلى أنَّ مأكول أهل الجنة للَّذَّة لا للحاجة[٥] ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ولهم فوق ذلك النعيم الحسن نعيمٌ روحي وهو المغفرة من الله مع الرحمة والرضوان وفي الحديث « أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى

---

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ١٤٥. (ش): ضعيف جدًّا، رواه أبو يعلَى في «المسند»، والطبري وابن أبي حاتم في «تفسيرَيْهما». وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ حَمْرَاءَ الزُّهْرِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاقِفًا عَلَى الْحَزْوَرَةِ فَقَالَ: « وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ وَلَوْلاَ أَنِّى أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ ». (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وغيره، وصحّحه الألباني). (الْحَزْوَرَةُ): كَانَ سُوقَ مَكَّةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَدْ أُدْخِلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَام. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَكَّةَ « مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِى أَخْرَجُونِى مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٢.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة. (ش): أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، وضعفه الألباني.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٧٤.

(٥) «حاشية زاده على البيضاوي»٣/ ٣٤٨.

فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا »[١] قال الصاوي: في الجنة ترفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه[٢] ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي كمن هو مخلَّدٌ في الجحيم؟ والاستفهام للإنكار، أي: لا يستوي من هو في ذلك النعيم المقيم، بمن هو خالد في الجحيم؟ ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ أي وسُقوا مكان تلك الأشربة ماءً حارًّا شديد الغليان، فقطَّع أحشاءهم من فرط حرارته؟ قال المفسرون: بلغ الماء الغاية في الحرارة، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم[٣] ولمّا بيَّن تعالى حال الكافرين، ذكر حال المنافقين فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين جماعة يستمعون إلى حديثك يا محمد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أي حتى إذا خرجوا من مجلسك ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي قالوا علماء الصحابة كابن عباس وابن مسعود: ماذا قال محمدٌ قريبًا في تلك الساعة؟ قال ابن كثير: أخبر تعالى عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده قالوا لأهل العلم من الصحابة: ماذا قال محمد ﴿ءَانِفًا﴾ أي الساعة، لا يعقلون ما قال ولا يكترثون به[٤] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم بالكفر ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ساروا وراء أهوائهم الباطلة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي وأما المؤمنون المتقون فقد زادهم الله هدى وألهمهم رشدهم قال الإمام الفخر: لما بيَّن تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد، بيَّن أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، وفيه فائدة وهو قطع عذر المنافق، فإنه لو قال ما فهمت كلامه لغموضه، يُردُّ عليه بأن المؤمن فهم واستنبط، فذلك لِعَماءِ القلوب لا لِخفاء المطلوب[٥] ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فهل ينتظرون إلا قيام الساعة فجأةً فتبغتهم وهم سادِرُون غارُّون غافلون[٦]؟ ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي فقد جاءت أماراتها وعلاماتها، ومنها بعثة خاتم الرسل ﷺ ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي فمن أين لهم التذكر

---

(١) (ش): عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: « إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ». فَيَقُولُونَ: «لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِى يَدَيْكَ». فَيَقُولُ: «هَلْ رَضِيتُمْ؟». فَيَقُولُونَ: «وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟». فَيَقُولُ: «أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟». فَيَقُولُونَ: «يَا رَبِّ وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟». فَيَقُولُ: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٨٤.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٣٧.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٣.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٥٨.

(٦) (ش): سدِرَ الشَّخصُ: استهتَر، لم يهتمّ بما صنع ولم يُبالِ. غَرَّ الرَّجُلُ، فَهُوَ غَارٌّ: غَفَلَ.

إذا جاءتهم الساعة، حيث لا ينفع ندم ولا توبة؟ ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي فدُمْ يا محمد على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي اطلب من الله المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي يعلم تصرفكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة، فأعدوا الزاد ليوم الميعاد.

قال الله تعالى:

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا
عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ
أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ
قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ
وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ
وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ
فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ
﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا
وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ
ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ
أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمۡ
هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ
ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم

المناسَبَة: كان بدء السورة في الحديث عن الكافرين، ثم جاء عن المؤمنين، وهنا يأتي الحديث عن المنافقين، وقد استغرق الجانب الأكبر من السورة باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين، والآيات الكريمة تتحدث عن الجهاد وعن موقف المنافقين منه.

اللغَة: ﴿سَوَّلَ﴾ زيَّن وسهَّل ﴿أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ أحقادهم الدفينة قال الجوهري: الضغنُ والضغينة: الحقد، وتضاغن القوم أبطَنُوا على الأحقاد[1] ﴿سِيمَٰهُمۡ﴾ علامتهم ﴿ٱلسَّلۡمِ﴾ الصلح والموادعة ﴿فَيُحۡفِكُمۡ﴾ يلحّ عليكم يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألحَّ بمعنى

(١) «الصحاح» للجوهري مادة ضغن.

واحد ﴿يَتِرَكُمۡ﴾ يُنقِصكم يقال: وتره حقه أي نقصه.

التفسِير: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ أي ويقول المؤمنون المخصلون شوقًا إلى الجهاد وحرصًا على ثوابه: هلَّا أنزلت سورة فيها الأمر بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ أي فإذا أنزلت سورة صريحةٌ ظاهرة الدلالة على الأمر بالقتال قال القرطبي: ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ أي لم تنسخ وقد قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين[1] ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي رأيت المنافقين الذين في قلوبهم شك ونفاق ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ أي ينظرون إليك يا محمد تشخص أبصارهم جبنًا وهلعًا، كما ينظر من أصابته الغشية من حلول الموت ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أي فويلٌ لهم قال في التسهيل: وهي كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم كقوله تعالى ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٥][2] ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾ مبتدأٌ محذوف الخبر أي طاعةٌ لك يا محمد، وقولٌ جميلٌ طيبٌ خيرٌ لهم وأفضل وأحسن، قال الرازي: وهو كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره خيرٌ لهم أي أحسن وأمثل، وإنما جاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة ويدل عليه قوله ﴿وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾ كأنه قال: طاعة مخلصة، وقولٌ معروفٌ خيرٌ لهم[3] ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي فإذا جدَّ الجِد وفُرض القتال ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ أي فلو أخلصوا نياتهم وجاهدوا بصدقٍ ويقين لكان ذلك خيرًا لهم من التقاعس والعصيان، والجملةُ جواب الشرط ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ أي فلعلَّكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام! قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟ قال أبو حيان: يريد ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول ﷺ[4] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ أي فأصمهم عن استماع الحق، وأعمى قلوبهم عن طريق الهدى فلا يهتدون إلى سبي الرشاد قال القرطبي: أخبر تعالى أن من فعل ذلك حقت عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل[5] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؟ الاستفهام توبيخي، أي: أفلا يتفهمون القرآن ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر،

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٤٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٩، وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ معنى ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أي أحق وأجدر بهم وخبره ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾ وما ذكرناه أظهر وهو اختيار القرطبي.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٦٢.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٨٢.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٤٦.

حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟! ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ «أم» بمعنى «بل» وهو انتقالٌ من توبيخهم على عدم التدبر إلى توبيخهم على ظلمة القلوب وقسوتها حتى لا تقبل التفكر والتدبر والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة كأنها مكبَّلة بالأقفال الحديدية فلا ينفذ إليها نور ولا إيمان قال الرازي: إن القلب خُلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه غير موجود، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان هذا وحش، وهذا ليس بقلب هذا حجر[١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، وبعد أن وضح لهم طريق الهدى بالدلائل الظاهرة والمعجزات الواضحة ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي الشيطان زيَّن لهم ذلك الأمر، وغرَّهم وخدعهم بالأمل، وطول الأجل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي ذلك الإضلال بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا القرآن الذي نزَّله الله حسدًا وبغيًا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي سنطيعكم في بعض ما تأمروننا به كالقعود عن الجهاد، وتثبيط المسلمين عنه وغير ذلك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي وهو جل وعلا يعلم خفاياهم، وما يبطنونه من الكيد والدسّ والتآمر على الإسلام والمسلمين قال المفسرون: قال المنافقون لليهود ذلك سرًّا فأظهره الله تعالى وفضحهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي فكيف يكون حالهم حين تحضرهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم معهم مقامع من حديد يضربون بها وجوههم وظهورهم؟ قال القرطبي: المعنى على التخويف والتهديد، أي: إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر[٢] قال ابن عباس: لا يُتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره[٣] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق وكرهوا ما يرضي الله من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطل ما عملوه حال إيمانهم من أعمال البر ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾؟ أي أيعتقد المنافقون الذين في قلوبهم شك ونفاق أن الله لن يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ وأنه لن يُظهر بغضهم وأحقادهم على الإسلام والمسلمين؟ لا بدَّ أن يفضحهم ويكشف أمرهم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي لو أردنا لأريناك يا محمد أشخاصهم فعرفتهم عيانًا بعلاماتهم ولكنَّ الله ستر عليهم إبقاءً عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين لعلهم يتوبون ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي ولتعرفنَّ يا محمد المنافقين من فحوى كلامهم وأسلوبه، فيما يعرضونه بك من القول الذي

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٨/ ٦٦.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٥٠.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٨٤.

ظاهره إيمان وإسلام وباطنه كفر ومسبّة قال الكلبي: لم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافقٌ إلا عرفه[(١)] ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسب قصدكم، ففيه وعدٌ ووعيد ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي ولنَخْتبِرَنَّكُم أيها الناسُ بالجهاد وغيره من التكاليف الشاقة حتى نعلم علم ظهور المجاهدين في سبيل الله، والصابرين على مشاقِّ الجهاد ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ أي ونختبر أعمالكم حَسَنَها وقبيحَها قال في التسهيل: المراد بقوله ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ أي نعلمه علمًا ظاهرًا في الوجود تقوم به الحجة عليكم، وقد علم الله الأشياء قبل كونها، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تَبْتَلِنَا فإنك إذا ابتليتنا فضَحْتَنا وهتكْتَ أستارَنا[(٢)] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جحدوا بآيات الله ومنعوا الناس على الدخول في الإسلام ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي عادَوا الرسول وخرجوا عن طاعته من بعد ما ظهر لهم صدقُه وأنه رسول الله بالحجج والآيات ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي لن يضروا الله بكُفرهم وصَدِّهم شيئًا من الضرر، وسيبطل أعمالهم من صدقة ونحوها فلا يرون لها في الآخرة ثوابًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي امتثلوا أوامر الله وأوامر رسوله ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي ولا تُبطلوا أعمالكم بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق، والعُجْب والرياء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جحدوا بآيات الله وصدُّوا الناس عن طريق الهدى والإيمان ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ أي وماتوا على الكفر ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ أي فلن يغفر الله لهم بحالٍ من الأحوال، وهذا قطع بأن من مات على الكفر لا يغفر اللهُ له لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] قال أبو السعود: وهذا حكم يَعُمُّ كلَّ من مات على الكفر، وإن صحَّ نزوله في أصحاب[(٣)] القليب[(٤)] ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾ أي فلا تضعفوا وتدعوا إلى المهادنة والصلح مع الكفار إذا لقيتموهم ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ أي وأنتم الأعزة الغالبون لأنكم مؤمنون ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ أي والله معكم بالعونِ والنصر ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي لن يُنقِصَكم شيئًا من ثواب أعمالكم قال ابن كثير:

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٥٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٠.

(٣) (ش): أي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾

(٤) «أبو السعود» ٥/ ٧٨. لم أجد ما يدل على أن الآية نزلت في أصحاب القليب. والقليب: البئر المفتوحة. وأصحاب القليب: هم قتلى مشركي مكة الذين ألقاهم المسلمون في قليب بدر. وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -؛ قال: نزلت في أهل مكة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ (ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره»).

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء[١] ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلا زائلة فانية، لا قرار لها ولا ثبات، كاللعب واللهو الذي يتلهى به الأولاد قال شيخ زاده: بيَّن تعالى أن الدنيا وما فيها من الحظوظ العاجلة، لا يصلح مانعًا من الإقدام إلى الجهاد، وما يؤدي إلى ثواب الآخرة، لكونها بمنزلة اللهو اللعب في سرعة زوالها، وأن الآخرة هي الحياة الباقية، فلا ينبغي أن يكون حبُّ الدنيا والحرص على ما فيها من اللذات والشهوات سببًا للجبن عن الغزو والتخلف عن الجهاد[٢] ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ أي وإن تؤمنوا بالله وتتقوه حقَّ تقواه، يُعْطِكم ثواب أعمالكم كاملًا ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ أي ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم، بل الزكاة المفروضة فيها قال ابن كثير: أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئًا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك وثوابه عليكم[٣] ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾ أي إن يسألكم جميع أموالكم ويبالغ في طلبها، ويلح عليكم في إنفاقها تبخلوا ﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ أي ويخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق قال في التسهيل: وذلك لأن الإنسان جبل على محبة الأموال، ومن نوزع في حبيبه ظهرت سرائره، فمن رحمته تعالى على عباده عدم التشديد عليهم في التكاليف[٤] ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ها أنتم معشر المخاطبين تُدعَوْن للإنفاق في سبيل الله، وقد كلفتم ما تطيقون ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾ أي فمنكم من يشح عن الإنفاق ويمسك عنه ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ أي ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله فإنما يعود ضرر بخله على نفسه، لأنه يمنعها الأجر والثواب قال الصاوي: وبخل يتعدى بـ«على» إذا ضُمِّن معنى شح، وبـ«عن» إذا ضُمِّن معنى أمسك[٥] ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ أي واللهُ مستغن عن إنفاقكم ليس بمحتاج إلى أموالكم، وأنتم محتاجون إليه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي وإن تعرضوا عن طاعته واتباع أوامره، يخلف مكانكم قومًا آخرين يكونون أطوع لله منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ أي لا يكونوا مثلكم في البخل عن الإنفاق بل يكونوا كرماء أسخياء.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المقابلة بين الآية الأولى والثانية ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:١] وبين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [محمد: ٢] الآية. وهو من المحسنات البديعية.

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٨.

(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٥٢.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٨.

(٤) «التسهيل» ٤/ ٥٠.

(٥) «حاشية الصاوي» ٤/ ٨٩.

٢ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾[1] [محمد: ٢] والنكتة تعظيمه والاعتناء بشأنه.

٣ - الاستعارة التبعية ﴿تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤] شبَّه ترك القتال بوضع آلته، واشتق من الوضع «تضع» بمعنى تنتهي وتترك بطريق الاستعارة التبعية.

٤ - المجاز المرسل ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] أطلق الجزء وأراد الكل أي يثبتكم، وعبَّر بالأقدام لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها وهو مثل ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

٥ - الطباق بين ﴿مَنًّۢا.. فِدَآءً﴾ وبين ﴿ءَامَنُوا۟.. وَكَفَرُوا۟﴾ وبين ﴿ٱلْغَنِىُّ.. ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

٦ - المجاز العقلي ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ نسب العزم إلى الأمر وهو لأهله مثل نهاره صائم.

٧ - الالتفات ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع.

٩ - الاستعارة التصريحية ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ شبَّه قلوبهم بالأبواب المقفلة، فإنها لا تنفتح لوعظ واعظ، ولا يفيد فيها عذل عاذل، وهي من لطائف الاستعارات.

١٠ - الإطناب بتكرار ذكر الأنهار ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ..﴾ [محمد: ١٥] الآية وذلك لزيادة التشويق إلى نعيم الجنة.

١١ - الكناية ﴿ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ كناية عن الكفر بعد الإيمان.

١٢ - السجع الرصين غير المتكلف ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ.. وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم.. وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد»



---

(١) (ش): في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾.



مدنية وآياتها تسع وعشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية، وهي تعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات، والعبادات، والأخلاق، والتوجيه.

* تحدثت السورة الكريمة عن «صلح الحديبية» الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية للفتح الأعظم «فتح مكة» وبه تم العز والنصر والتمكين للمؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ...﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن جهاد المؤمنين، وعن «بيعة الرضوان» التي بايع فيها الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ على الجهاد في سبيل الله حتى الموت، وكانت بيعة جليلة الشأن ولذلك باركها الله، ورضي عن أصحابها، وسجلها في كتابه العظيم في سطور من نور ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ...﴾ الآية.

* وتحدثت عن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب الذين في قلوبهم مرض، ومن المنافقين الذين ظنوا الظنون السيئة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين فلم يخرجوا معهم، فجاءت الآيات تفضحهم وتكشف سرائرهم ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ...﴾.

* وتحدثت السورة عن الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في منامه – في المدينة المنورة – وحدث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، وهي دخول الرسول ﷺ والمسلمين مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة فدخلها المؤمنون معتمرين مع الأمن والطمأنينة ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالثناء على الرسول ﷺ وأصحابه الأطهار الأخيار ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية.

التسمية: سميت سورة الفتح لأن الله تعالى بشر المؤمنين بالفتح المبين ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ..﴾ الآيات.

فضلها: نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هذه السورة قال صلوات الله عليه: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما

فيها ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ..﴾» أخرجه الإمام أحمد[1].

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ
صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا
مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ
وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ
فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ
مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ
الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا
﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ
مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ
مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ
قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن
قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا

اللغة: ﴿السَّكِينَةَ﴾ السكونُ والطمأنينة والثبات ﴿السَّوْءِ﴾ المساءة والحزن والألم قال الجوهري: ساءَه سَوْءًا بالفتح ومساءةً نقيضُ سَرَّه، والاسمُ السُّوءُ بالضم، ودائرة السُّوء يعني الهزيمة والشر، ومن فتح فهو من المَسَاءة[2] ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تعظّموه وتنصروه وتمنعوا الأذى

---

(١) (ش): وصححه أحمد شاكر والأرنؤوط. ورواه البخاري بلفظ: « لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: نَزَلَتْ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَهُ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «الصحاح للجوهري». (ش): ساء فلانًا: فعَلَ به مَا يكْره. والمَسَاءَة: الضرر، العيب، النقص، ما يُلحق سوءًا، أو ضررًا، أو إجحافًا. والجمع مساوِي.

عنه، وسمي التعزيرُ في الحدود تعزيرًا لأنه مانع من فعل القبيح ﴿نَّكَثَ﴾ نقض البيعة والعهد ﴿بُورًا﴾ هلكى قال الجوهري: البورُ: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه، و «قومًا بورًا» جمع بائر، وبار فلان أي هلك[١] ﴿حَرَجٌ﴾ إثم وذنب.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: تخلف عن رسول الله ﷺ أعراب المدينة حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح، بعد أن كان استنفرهم معه حذرًا من قريش، وأحرم بعمرةٍ وساق معه الهَدْي ليعلم الناسُ أنه لا يريد حربًا، فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشغل فنزلت ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ..﴾ الآية[٢].

التفسِير: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي قد فتحنا لك يا محمد مكة فتحًا بينًا ظاهرًا، وحكمنا لك بالفتح المبين على أعدائك، والمراد بالفتح فتح مكة، وعده الله به قبل أن يكون، وذكره بلفظ الماضي لتحققه، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين قال الزمخشري: هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية، وهو وعدٌ له بالفتح، وجيء به بلفظ الماضي على عادة ربّ العزّة سبحانه في أخباره، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن الفتح ما لا يخْفَى[٣] ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي ليغفر لك ربك يا محمد جميع ما فرط منك من ترك الأولى قال أبو السعود: وتسميتُه ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل[٤] وقال ابن كثير: هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وفيه تشريفٌ عظيم لرسول الله ﷺ إذ هو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم يَنَلْها بشرٌ سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، ولما كان أطوع خلق الله بشره الله بالفتح المبين، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[٥] ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي وكمّل نعمته عليك بإعلاء الدين ورفع مناره ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويرشدك إلى الطريق القويم، المُوصِل إلى جنات النعيم[٦]؛ بما يشرعه لك من الدين العظيم ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي

(١) نفس المرجع السابق.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٦٨. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير عن مجاهد وابن عباس ولكن بدون إسناد.
(٣) «الكشاف» ٤/ ٢٦٢، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح « صلح الحديبية» لما ترتب عليه من الآثار العظيمة، من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع قريش، ومن دخول كثير في الإسلام، إلى غير ما هنالك، وإلى هذا ذهب ابن كثير. (ش): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قَالَ الْحُدَيْبِيَةُ. رواه البخاري: وعَنِ الْبَرَاءِ - رضي الله عنه - قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ. رواه البخاري.
(٤) «أبو السعود» ٥/ ٨٠.
(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٤٠.
(٦) (ش): مُوصِل: اسم فاعل من أَوْصَلَ. أَوْصَلَ الطَّرِيقُ إِلَى الدَّارِ: أَدَّى. يقال: هذا طريقٌ يُوصِلُ إلى المدينة. مُوَصِّل: اسم فاعل من وَصَّلَ.

وينصرك الله على أعدائك نصرًا قويًا منيعًا، فيه عزةٌ وغلبة، يجمع لك به بين عز الدنيا والآخرة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هو جل وعلا الذي جعل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي ليزدادوا يقينًا مع يقينهم، وتصديقًا مع تصديقهم، برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علَّام الغيوب ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ولله جلَّت عظمته كل جنود السموات والأرض، من الملائكة والجن، والحيوانات، والصواعق المدمّرة، والزلازل، والخسف والغرق، جنودٌ لا تُحصى ولا تُغلب، يسلطها على من يشاء قال ابن كثير: ولو أرسل عليهم ملكًا واحدًا لأباد خضراءهم(١)، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد، لما له في ذلك من الحجة القاطعة والحكمة البالغة(٢) ولذلك قال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليمًا بأحوال خلقه، حكيمًا في تقديره وتدبيره قال المفسرون: أراد بإنزال السكينة في قلوب المؤمنين «أهل الحديبية» حين بايعوا رسول الله ﷺ على مناجزة الحرب مع أهل مكة(٣)، بعد أن حصل لهم ما يُزعج النفوس ويُزيغ القلوب، مِن صَدّ الكفار لهم عن دخول مكة، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصود، فلم يرجع منهم أحدٌ عن الإيمان، بعد أن هاج الناس وماجوا(٤)، وزُلزلوا حتى جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ وقال: «أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟» قَالَ «بَلَى». قَالَ: «أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟». قَالَ: «بَلَى». قَالَ: «فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟». قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي»(٥).. الخ.

---

(١) (ش): أباد اللهُ خضراءَهم: أفْنَاهم، أذهَب خِصبهم ونعيمهم.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٤١.

(٣) (ش): ناجزه الحربَ: نازَلَه، وقاتَلَه.

(٤) (ش): هاج القومُ: ثاروا وغضبوا لضررٍ أو عُسرٍ. ماج القومُ: اختلفت أمورُهم واضطربت، وازدحموا لكثرتهم.

(٥) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري وفي سيرة ابن هشام. (ش): لم يكن ذلك من عمر رضي الله عنه شكًّا، ولا معارضةً، بل كان استكشافًا لما خفي عنه، وحثًّا على قتال أهل الكفر، وإذلالهم، وحرصًا على ظهور المسلمين على عدوهم، وهذا على مقتضى ما كان عنده من القوة في دين الله، والجرأة، والشجاعة التي خصَّه الله بها. فليس في قصة صلح الحديبية ما ادعاه الشيعة من أن الصحابة رضي الله عنهم - ومنهم عمر رضي الله عنه - أرادوا مخالفة نبيهم ﷺ، ولكن الأمر أنهم فعلوا ما فعلوه حبًّا لدينهم وعقيدتهم وحنقًا على الكافرين، وظنوا كما يظن أي إنسان تعتريه الأعراض البشرية أن ما جاء في المعاهدة التي أُبْرِمَت من الشروط ما يعتبر إجحافًا في حق المسلمين وهذا ما كان ظاهرًا وجليًّا في هذه المعاهدة، وهم ليسوا معصومين ويوحَى إليهم مثل نبيهم ﷺ ويقال للشيعة: كيف يخالف الصحابة نبيهم ولا يمتثلون أمره كما زعمتم ثم ينزل فيهم قوله تعالى ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] فهذه الآية نزلت في صلح الحديبية، فكيف يخبر الله الذي يعلم السر وأخفى برضاه عن الصحابة لعلمه ما في قلوبهم من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ويبشرهم بالفتح القريب ثم يأتي الشيعة ليشككوا في نيات الصحابة تجاه نبيهم ﷺ؟ وزعْمُ الشيعة أن عمر رضي الله عنه كان يشكك في نبوة ﷺ، فيه اتهام للنبي ﷺ لو كانوا يفقهون! فإذا كان الأمر كما يدَّعون فلماذا لم يأمر النبي ﷺ بقتله، أو حتى على الأقل يبين أن ما فعله عمر كان شَكًّا في نبوته ﷺ كما فهم الشيعة النابهون؟!

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ليدخلهم على طاعتهم وجهادهم حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحتها أنهار الجنة ماكثين فيها أبدًا ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي يمحو عنهم خطاياهم وذنوبهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ أي وكان ذلك الإدخال في الجنات والتكفير عن السيئات، فوزًا كبيرًا وسعادةً لا مزيد عليها، إذ ليس بعد نعيم الجنة نعيم ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ أي وليعذِّب الله أهل النفاق والإشراك، وقدَّمهم على المشركين لأنهم أعظم خطرًا وأشد ضررًا من الكفار المجاهرين بالكفر ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ أي الظانين بربهم أسوأ الظنون، ظنوا أن الله تعالى لن ينصر رسله والمؤمنين، وأن المشركين يستأصلونهم جميعًا كما قال تعالى ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾ قال القرطبي: ظنوا أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية[1] ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ دعاءٌ عليهم، أي: عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين من الهلاك والدمار ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ﴾ أي سخط تعالى عليهم بكفرهم ونفاقهم، وأبعَدهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ أي وهيأ لهم في الآخرة نارًا مستعرة هي نار جهنم، وساءت مرجعًا ومنقلبًا لأهل النفاق والضلال ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تأكيد للانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكَفَرة والمنافقين قال الرازي: كرر اللفظ لأن جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولًا لبيان الرحمة للمؤمنين وثانيًا لبيان إنزال العذاب على الكافرين[2] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزًا في ملكه وسلطانه، حكيمًا في صنعه وتدبيره قال الصاوي: ذكر هذه الآية أولًا في معرض الخلق والتدبير فذَيَّلها بقوله ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[3] وذكرها ثانيًا في معرض الانتقام فذيلها بقوله ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وهو في منتهى الترتيب الحسن، لأنه تعالى ينزل جنود الرحمة لنصرة المؤمنين، وجنود العذاب لإهلاك الكافرين.. ثم امتن تعالى على رسوله الكريم بتشريفه بالرسالة، وبعثه إلى كافة الخلق فقال ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: إنا أرسلناك يا محمد شاهدًا على الخلق يوم القيامة، ومبشرًا للمؤمنين بالجنة، ومنذرًا للكافرين من عذاب النار ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أرسلنا الرسول لتؤمنوا أيها الناس بربكم ورسولكم حقَّ الإيمان، إيمانًا عن اعتقاد ويقين، لا يخالطه شك ولا ارتياب ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تُفخِّموه وتُعظِّموه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تحترموا وتجلُّوا أمره مع التعظيم والتكريم، والضمير فيهما للنبي ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ أي تسبحوا ربكم في

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٦٥.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٨٤.

(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ٩٢.

الصباح والمساء[١]، ليكون القلب متصلاً بالله في كل آن، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي إن الذين يبايعونك يا محمد في الحديبية «بيعة الرضوان» إنما يبايعون في الحقيقة اللهَ، وهذا تشريفٌ للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزل مبايعة الله، لأن الرسول ﷺ سفيرٌ ومعبِّر عن الله قال المفسرون: المراد بالبيعة هنا بيعة الرضوان بالحديبية، حين بايع الصحابة رسول الله ﷺ على الموت كما روى الشيخان عن سلمة ابن الأكوع أنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على الموت»[٢] وسميت «بيعة الرضوان» لقول الله فيها ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن كثير: أي هو تعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظاهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسول ﷺ وسلم[٣] وقال الزمخشري: يريد أن يد رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين هي يدُ الله، والمعنى أن من بايع الرسول فقد بايع الله كقوله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] [٤] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي فمن نقض البيعة فإنما يعود ضرر نكثه عليه، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب بنقضه العهد والميثاق الذي عاهد به ربه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أو ومنْ وفَّى بعهده ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي فسيعطيه الله ثوابًا جزيلًا، وهو الجنة دار الأبرار ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي سيقول لك يا محمد المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج معك عام الحديبية من أعراب المدينة: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي شُغلنا عن الخروج معك بالأموال والأولاد، فاطلب لنا من الله المغفرة، لأن تخلفنا لم يكن باختيار بل عن اضطرار قال في التسهيل: سمَّاهم تعالى بالمخلَّفين لأنهم تخلَّفوا عن غزوة الحديبية، والأعراب هم أهل البوادي من العرب. لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة يعتمر، رأوا أنه يستقبل عدوًّا كثيرًا من قريش وغيرهم فقعدوا عن الخروج معه، ولم يكن إيمانهم متمكنًا فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر، ففضحهم الله في هذه السورة وأعلمَ تعالى رسوله ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم، وأعلمه أنهم كاذبون في اعتذارهم[٥] ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ اي يقولون خلاف

(١) الضمير هنا عائد على الله تعالى، وقيل: إنَّ الضمائر كلها راجعة على الله سبحانه وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود، وما ذكرناه منقول عن الضحاك وهو اختيار القرطبي.

(٢) (ش): في روايات صحيحة أن البيعة كانت على الموت. وفي روايات صحيحة أخرى أنهم بايعوه على ألا يفروا وليس على الموت. أو أنهم بايعوه على الصبر. ولا تعارض في ذلك لأن المراد بالمبايعة على الموت ألا يفروا. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة، محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (٢/ ٤٤٠)].

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٤٢.

(٤) «الكشاف» ٤/ ٢٦٥.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٢.

مـا يبطنون وهـذا هو النفاق المحض، فهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار، لأنهم قالوه رياءً من غير صدقٍ ولا توبـة ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾؟ أي قل لهم: مَن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه، إن أراد أن يُلحق بكم أمرًا يضركم كالهزيمة، أو أمـرًا ينفعكـم كالنصر والغنيمة؟ قـال القرطبي: وهذا رَدٌّ عليهم حيـن ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضرَّ، ويُعجل لهم النفع[1] ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي ليس الأمر كمـا زعمتم بل الله مطلـع على ما في قلوبكم من الكذب والنفاق، ثم أظهر تعالى ما يخفونه في نفوسـهم فقـال ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي بـل ظننتـم أيهـا المنافقون أن محمدًا وأصحابه لن يرجعوا إلى المدينة أبدًا ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي وزُيّن ذلك الضلال في قلوبكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي ظننتم أنهم يُسْـتأصَلون بالقتل، ولا يرجع منهم أحد ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي وكنتم قومًا هالكين عند الله، مسـتوجبين لسـخطه وعقابه ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لما بيَّن حال المتخلفين عن رسول الله، وبيَّن حال ظنهم الفاسد، وأنـه يفضي بصاحبه إلى الكفر، حرَّضهم على الإيمان والتوبة على سـبيل العموم. والمعنى: مـن لم يؤمن بالله ورسـوله بطريق الإخلاص والصـدق ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي فإنَّا هيأنا للكافرين نارًا شـديدة مستعرة، وهو وعيدٌ شديد للمنافقين ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لـه جـل وعلا جميـع ما في السـموات والأرض، يتصرف في الكل كيف يشـاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يرحم من يشـاء من عباده ويُعذب من يشـاء، وهذا قطع لطمعهم في اسـتغفار رسـول الله ﷺ لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي سـيقول الذيـن تخلَّفـوا عن الخروج مع رسول الله في عمرة الحديبية، عند ذهابكم إلى مغانم خيبر لتحصلوا عليها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي اتركونا نخرج معكم إلى خيبر لنقاتل معكم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي يريـدون أن يُغيّـروا وعد الله الذي وعده لأهل الحديبية[2] مِـن جَعْل غنائم خيبر لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد قال القرطبي: إن الله تعالى جعل لأهل الحديبية غنائم خيبر عوضًا عن فتح مكـة إذ رجعوا من الحديبية على صلـح[3] ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي قل لهم: لا تتبعونا فلن يكون لكـم فيها نصيب ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي كذلكم حكم الله تعالى بأن غنيمة خيبر لمن شـهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب قبل رجوعنا منها ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي فسـيقولون: ليس هذا من الله بل هو حسـد منكم لنا على مشاركتكم في الغنيمة، قال تعالى ردًّا

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٦٩.
(٢) (ش): أي كلام الله الذي وعد به أهل الحديبية.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٧١.

عليهم ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يفهمون إلا فهمًا قليلًا وهو حرصهم على الغنائم وأمور الدنيا ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية كرَّر وصفهم بهذا الإسم إظهارًا لشناعتة ومبالغةً في ذمهم: ستُدعون إلى حرب قوم أشداء، هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب أصحاب الردة ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي إما أن تقتلوهم أو يدخلوا في دينكم بلا قتال ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي فإن تستجيبوا وتخرجوا لقتالهم يعطكم الله الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وإن تتخلفوا عن الخروج كما تخلفتم زمن الحديبية، يعذبكم اللهُ عذابًا شديدًا مؤلمًا في نار جهنم. ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فقال ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على هؤلاء إثم أو ذنب في ترك الخروج للجهاد لما بهم من الأعذار الظاهرة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من يطع أمر الله وأمر الرسول يُدخِلْه جنات النعيم خالدًا فيها ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي ومن ينكل عن الجهاد لغير عذر يعذبه الله عذابًا شديدًا، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار.

قال الله تعالى:

لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ
وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ
كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ
أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم
مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ
صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ
أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ

﴿أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾

المناسَبَة: لمَّا ذكر تعالى حال المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، ذكر تعالى حال المؤمنين المجاهدين الذين بايعوا الرسول «بيعة الرضوان» تسجيلًا لرضى الله تعالى عنهم، وتخليدًا لمآثرهم الكريمة، وختم السورة الكريمة بالثناء على الصحابة الأبرار، بأبلغ ثناء وأكرم تمجيد.

اللغة: ﴿أَظۡفَرَكُمۡ﴾ أظهركم وأعلاكم، ظفر بالشيء غلب عليه، وأظفره غلبه[١] ﴿مَعۡكُوفًا﴾ محبوسًا ومنه الاعتكاف ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ المعرَّة: العيب والمشقة اللاصقة بالإنسان من العُرِّ وهو الجرَب[٢] ﴿تَزَيَّلُواْ﴾ تميَّزوا ﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والغضب الشديد ﴿سِيمَاهُمۡ﴾ علامتهم ﴿شَطۡـَٔهُۥ﴾ الشطء: الفراخ قال الجوهري: شطءُ الزرع والنبات فراخُه والجمع أشطاء[٣] ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ قوَّاه وأعانه وشدَّه.

سَبَبُ النّزول: عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْه أن ثمانين من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من التنعيم متسَلّحين يريدون الغدر به وبأصحابه فأخذناهم أسرى فأنزل الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ ...﴾ الآية[٤].

التفسير: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ اللام مُوطِّئةٌ لِقَسَمٍ محذوف[٥] أي والله لقد رَضِيَ اللهُ عَن المؤمنين حين بايعوك يا محمد «بيعة الرضوان» تحت ظل الشجرة بالحديبية قال المفسرون: كان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمرًا، وأنه لا يريد حربًا، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة على أن يدخلوا مكة حربًا، وبايعوه على الموت، فكانت بيعة الرضوان، فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب وأطلقوا عثمان وطلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على أن يأتي في العام القابل، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام، وكانت هذه البيعة تحت شجرة سمرة بالحديبية وقد سميت «بيعة الرضوان» ولما رجع المسلمون يعلوهم الحزنُ والكآبة، أراد الله تسليتهم وإذهاب الحزن عنهم فأنزل الله هذه السورة على رسوله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: ١] وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفًا وأربعمائة رجل،

(١) «البحر» ٨/ ٨٨.
(٢) (ش): العَرُّ والعُرُّ والعُرَّةُ: الجَرَبُ.
(٣) «الصحاح» للجوهري. (ش): أي فُروعهُ.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٨٠. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ وغيره.
(٥) (ش): أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفَته.

وفيهم نزلت الآية الكريمة ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ ولم يتخلف عن البيعة إلا «الجد بن قيس» من المنافقين[١]، وحضر هذه البيعة روح القدس جبريل الأمين، ولهذا سُطرت في الكتاب المبين[٢] ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي فعلم تعالى ما في قلوبهم من الصدق والوفاء، عند مبايعتهم لك على حرب الأعداء ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي رزقهم الطمأنينة وسكون النفس عند البيعة ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ أي وجازاهم على بيعة الرضوان بفتح خيبر، وما فيها من النصر والغنائم، زيادةً على ثواب الآخرة ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَا﴾ أي وجعل لهم الغنائم الكثيرة التي غنموها من خيبر قال ابن كثير: هو ما أجرى الله عَزَّ وَجَلَّ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العامِّ بفَتْح خيبر، ثم فَتْح سائر البلاد والأقاليم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة[٣]، ولهذا قال تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ أي غالبًا على أمره، حكيمًا في تدبيره وصنعه، ولهذا نصركم عليهم وغَنَّمكم أرضهم وديارهم وأموالهم[٤] ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾ أي وعدكم الله معشر المؤمنين على جهادكم وصبركم الفتوحات الكثيرة، والغنائم الوفيرة تأخذونها من أعدائكم، قال ابن عباس: هي المغانم التي تكون إلى يوم القيامة[٥] قال في البحر: ولقد اتَّسع نطاق الإسلام، وفتح المسلمون فتوحًا لا تُحصى، وغنموا مغانم لا تُعدُّ وذلك في شرق البلاد وغربها، حتى في الهند والسودان تصديقًا لوعده تعالى وقدم علينا أحد ملوك غانة من بلاد التكرور[٦]، وقد فتح أكثر من خمس وعشرين مملكة من بلاد السودان، وأسلموا معه

(١) (ش): أي بايعوه جميعًا سوى الجد بن قيس لم يبايع لأنه كان من المنافقين. عن جَابِرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً فَبَايَعْنَاهُ وَعُمَرُ آخِذٌ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَهِيَ سَمُرَةٌ فَبَايَعْنَاهُ غَيْرَ جَدِّ بْنِ قَيْسٍ الأَنْصَارِيِّ اخْتَبَأَ تَحْتَ بَطْنِ بَعِيرِهِ. (رواه مسلم). والسَّمُرَةُ: من شجر الطَّلْح، والجمع سَمُرٌ.

(٢) انظر تفصيل القصة في «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٧٤. (ش): لم أجد ما يدل على حضور جبريل عليه السلام بيعة الرضوان.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٤٥.

(٤) (ش): أي جعلها لكم غنيمة.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٧٨.

(٦) (ش): مملكة التكرور هو اسم لشعب كبير أسس مملكة إفريقية قديمة جدًّا امتدت من غرب السودان إلى سواحل المحيط الأطلسي في أراضٍ شاسعة تزيد عن مساحة الجزيرة العربية والعراق والشام معًا. ضمت تلك المملكة أراضي المناطق المعروفة اليوم سياسيا بموريتانيا والسنغال ومالي ونيجيريا والنيجر وتشاد وصولا إلى حدود دارفور في السودان. دخل الإسلام مملكة التكرورو، على الأرجح، بداية القرن الخامس الهجري، أي قبل سنة ١٠٣٠م بعدة سنوات بإسلام أفراد وجماعات صغيرة على يد التجار المسلمين القادمين من شمال أفريقيا.ورغم قوة المملكة آنذاك، فقد دخل الإسلام مملكة التكرور طواعيةً دون قتال وباختيار أهلها. ففي حوالي سنة ١٠٣٠م أسلم ملك مملكة التكرور القوي «وارديابي» وأسلم معه رجال الدولة والعلماء ثم عَمَّ الإسلام كافة أرجاء المملكة. (وانظر كتاب: «سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور، رحلة في مالي وحديث عن ماضيها المجيد، وحاضرها الجديد»، لمحمد بن ناصر العبودي).

وقدم علينا ببعض ملوكهم يحُجّ معه[١] ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي فعجَّل لكم غنائم خيبر بدون جهد وقتال ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي ومنع أيدي الناس أن تمتد إِليكم بسوء فقال المفسرون: المراد أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان، حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولتكون الغنائم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام علامة واضحة تعرفون بها صدق الرسول فيما أخبركم به عن الله ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويهديكم تعالى إلى الطريق القويم، الموصل إلى جنات النعيم بجهادكم وإِخلاصكم قال الإمام الفخر: والآية للإِشارة إلى أنَّ ما أعطاهم من الفتح والمغانم، ليس هو كل الثواب، بل الجزاء أمامهم، وإِنما هو شيء عاجل عجَّله لهم لينتفعوا به، ولتكون آية لمن بعدهم من المؤمنين، تدل على صدق وعد الله في وصول ما وعدهم به كما وصل إِليكم[٢] ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ أي وغنيمةً أخرى يسَّرها لكم، لم تكونوا بقدرتكم تستطيعون عليها، ولكنَّ الله بفضله وكرمه فتحها لكم، والمراد بها فتح مكة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي قد استولى الله عليها بقدرته ووهبها لكم، فهي كالشيء المحاط به من جوانبه محبوسٌ لكم لا يفوتكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادرًا على كل شيء، لا يعجزه شيء أبدًا، فهو القادر على نصرة أوليائه، وهزم أعدائه قال ابن كثير: المعنى أي وغنيمةً أخرى وفتحًا آخر معينًا، لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسَّرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون والمرادُ بها في هذه الآية «فتح مكة» وهو اختيار الطبري[٣] ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ تذكيرٌ لهم بنعمةٍ أخرى أي ولو قاتلكم أهل مكة ولم يقع الصلح بينكم وبينهم، لغلبوا وانهزموا أمامكم ولم يثبتوا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ثم لا يجدون من يتولّى أمرهم بالحفظ والرعاية، ولا من ينصرهم من عذاب الله ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي تلك طريقة الله وعادتُه التي سنَّها فيمن مضى من الأمم، من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين قال في البحر: أي سنَّ الله لأنبيائه ورسله سنة قديمة وهي قوله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[٤] [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي وسنته تعالى لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي وهو تعالى بقدرته

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٩٩٦. (ش): ما أثبتناه في هذا الهامش واثنين بعده هو الصواب، والمُثبَت في أكثر من طبعة غيرُ ذلك، وهي أخطاء طباعية واضحة.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٩٦.

(٣) ما ذكره ابن كثير هو الراجح وهو اختيار الطبري وأبي حيان، وهو منقول عن قتادة والحسن، ويؤيده أن الله تعالى قال: ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾، وهذا يدل على تقَدُّم محاولة لفَتْحها وهو منطبقٌ على «فتح مكة»، وقيل: إن المراد فتح فارس والروم، وقيل: هوازن في حُنَين، وما ذكرناه أرجح.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٩٧.

وتدبيره صرف أيدي كفار مكة عنكم كما صرف عنهم أيديكم بالحديبية التي هي قريبة من البلد الحرام قال ابن كثير: هذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلًّا من الفريقين وأوجد بينهم صلحًا، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة[١] ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي من بعد ما أخذتموهم أسارى وتمكَّنْتُم منهم قال الجلال: وذلك أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين ليصيبوا منهم، فأخذوا وأُتي بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلَّى سبيلهم، فكان ذلك سبب الصلح[٢] وقال في التسهيل: وروي في سببها أن جماعةً من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية، ليصيبوا من عسكر رسول الله ﷺ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في جماعةٍ من المسلمين فهزموهم وأسروا منهم قومًا، وساقوهم إلى رسول الله ﷺ فأطلقهم[٣]، فكَفُّ أيدِي الكفارِ هو هزيمتُهم وأسْرُهم، وكفُّ أيدي المؤمنين عن الكفار هو إطلاقهم من الأسْر وسلامتُهم من القتل[٤] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي هو تعالى بصير بأعمالكم وأحوالكم، يعلم ما فيه مصلحة لكم، ولذلك حجزكم عن الكافرين رحمةً بكم، وحرمةً لبيته العتيق لئلا تسفك فيه الدماء.. ثم ذكر تعالى استحقاق المشركين للعذاب والدمار فقال ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي هم كفار قريش المعتدون الذين كفروا بالله والرسول، ومنعوا المؤمنين عن دخول المسجد الحرام لأداء مناسك العمرة عام الحديبية ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي وصدُّوا الهدي أيضًا وهو ما يُهدى لبيت الله لفقراء الحرم معكوفًا، أي: محبوسًا عن أن يبلغ مكانه الذي يُذبَح فيه وهو الحرم قال القرطبي: يعني قريشًا منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية، حين أحرم رسول الله ﷺ مع أصحابه بالعمرة، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ محله، وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنه حمَلَتْهم الأنَفَة ودعَتْهم الحَمِيَّة الجاهلية على أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دينًا، فوبخهم الله على ذلك وتوعَّدهم عليه، وأدخل الأُنْس على رسول الله ببيانه ووعده[٥] ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ أي ولولا أن في مكة رجالًا ونساءً من المؤمنين المستضعفين، الذين يُخْفُون إيمانهم خوفًا من المشركين ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي كراهة أن تُوقِعُوا بهم وتقتلوا منهم دون علم منكم

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٤٦.
(٢) «تفسير الجلالين» ٤/ ٩٧. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.
(٣) (ش): ضعيف جدًّا رواه الطبري في «تفسيره».
(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٤.
(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٨٣.

بإيمانهم، فينالكم بقَتْلهم إثم وعيب وجواب «لولا» محذوفٌ تقديره: لَأَذِنَ لكم في دخول مكة، ولسلَّطكم على المشركين قال الصاوي: والجواب محذوف قدَّره الجلال بقوله: لأذِنَ لكم في الفتح، ومعنى الآية: لولا كراهة أن تُهلكوا أناسًا مؤمنين بين أظهر الكفار، حال كونكم جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كفَّ أيديكم عنهم، ولأذن لكم في فتح مكة[١] ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي إنما فعل ذلك ليخلّص المؤمنين من بين أظهر المشركين، وليرجع كثيرٌ منهم إلى الإسلام قال القرطبي: أي لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، ليُسْلم بعد الصلح مَن قضى أن يُسْلم من أهل مكة، وكذلك كان، أسلم كثير منهم وحسن إسلامُه، ودخلوا في رحمته وجنته[٢] ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لو تفرقوا وتميَّز بعضهم عن بعض، وانفصل المؤمنون عن الكفار، لعذبنا الكافرين منهم أشدَّ العذاب، بالقتل والسبي والتشريد من الأوطان ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ أي حين دخل إلى قلوب الكفار الأنفة والكبرياء بالباطل، فرفضوا أن يكتبوا في كتاب الصلح «بسم الله الرحمن الرحيم» ورفضوا أن يكتبوا «محمد رسولُ الله» وقولهم: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ولكنْ اكتبْ اسمك واسم أبيك[٣] ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي أَنَفةً وغطرسةً وعصبيةً جاهلية ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي جعل الطمأنينة والوقار في قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي اختار لهم كلمة التقوى إلزام تكريم وتشريف وهي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هذا قول الجمهور، والظاهر: أن المراد بكلمة التقوى هي إخلاصهم وطاعتهم لله ورسوله، وعدم شقّ صف الطاعة عندما كُتبت بنود الصلح، وكانت مجحفةً بحقوق المسلمين في الظاهر، فثبَّت الله المؤمنين على طاعة رسول الله ﷺ وكان في هذا الصلح كل الخير للمسلمين[٤] ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي وكانوا أحقَّ بهذه الفضيلة من كفار مكة، لأن الله اختارهم لدينه وصحبة نبيه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي عالمًا بمن هو أهل للفضل، فيخصه بمزيد من الخير والتكريم. ثم أخبر تعالى عن رؤيا رسول الله ﷺ في المنام وهي رؤيا حق لأنها جزء من الوحي فقال ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ اللام موطئة للقسم، و «قد» للتحقيق، أي: والله لقد جعل الله رؤيا رسوله صادقة محققة لم يدخلها الشيطان لأنها رؤيا حق قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت، ثم حلق بعضهم وقصَّر بعضهم، فحدَّث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، فلما

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٩٨.
(٢) تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٨٦.
(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٤) هذا ما ألهمني الله إياه عند تفسير الآيات الكريمة من واقعة صلح الحديبية ولعله واضح لمن تمعَّن فيه.

خـرج إلـى الحديبية مع الصحابة، وصدَّه المشـركون عن دخول مكة، وقـع ما وقع من قضية الصلـح، ارتاب المنافقون وقالوا: واللهِ ما حلقنـا ولا قصَّرنا ولا رأينا البيت، فأين هي الرؤيا؟ ووقـع في نفوس بعض المسـلمين شـيء فنزلت الآيـة ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأعلـم تعالى أن رؤيا رسـوله حقٌّ، وأنه لم يكذب فيما رأى، ولكنـه ليس في الرؤيا أنه يدخلها عام سـتة من الهجـرة، وإنما أراه مجرد صورة الدخول، وقد حقـق الله له ذلك بعد عام فذلك قولـه تعالـى ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لتدخلـن يـا محمـد أنـت وأصحابك المسـجد الحـرام بمشـيئة الله ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي تدخلونـهـا آمنيـن من العدو، تؤدون مناسـك العمرة ثم يحلق بعضكم رأسه، ويقصِّر بعض ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أي غير خائفيـن، وليس فيه تكـرارٌ لأن المراد (آمنين) وقت دخولكم، وحال المكث، وحال الخروج ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أي فعلـم تعالـى ما في الصلح من الحكمة والخيـر والمصلحة لكم ما لم تعلموه أنتم قال ابن جزي: يريد ما قدَّره تعالى من ظهور الإسلام في تلك المدة، فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت الحرب، رغب الناس في الإسلام، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية في ألـف وأربعمائـة، وغـزا «غزوة الفتـح» بعدها بعاميـن ومعه عشـرة آلاف[1] ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي فجعل قبل ذلك فتحًا عاجلًا لكم وهو «صلح الحديبية» وسُمي فتحًا لمـا ترتَّب عليه من الآثار الجليلـة، والعواقب الحميدة، ولهذا روى البخاري عن البراء رَضِيَ اللهُ عَنْـه قَـالَ: تَعُـدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْـحَ مَكَّةَ، وَقَـدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًـا، وَنَحْنُ نَعُـدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْـوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ»[2] الحديث ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي أرسل محمدًا بالهداية التامة الشاملة الكاملة، والدين الحق المستقيم دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي لعيله على جميع الأديان، ويرفعه على سـائر الشـرائع السـماوية ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفـى بـالله شـاهدًا على أن محمدًا رسـوله. ثم أثنـى تعالى على أصحاب رسـول الله بالثناء العاطر، وشهد لرسـوله بصدق الرسالة فقال ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الرسول المسمَّى محمدًا هو رسولُ الله حقًّا لا كما يقول المشركون ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي وأصحابـه الأبرار الأخيـار غلاظٌ على الكفار متراحمـون فيما بينهم كقولـه تعالـى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائـدة: ٥٤] قال أبو السـعود: أي يظهرون

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٦.

(٢) الحديث أخرجه البخاري وتتمته: « كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَالْحُدَيْبِيَةُ بِئْرٌ فَنَزَحْنَاهَا، فَلَمْ نَتْرُكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ - ﷺ - فَأَتَاهَا، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ مَضْمَضَ وَدَعَا، ثُمَّ صَبَّهُ فِيهَا فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرَتْنَا مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرِكَابَنَا». (ش): (فَنَزَحْنَاهَا) أخذنا ماءها شيئا فشيئا. (فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ) تركناها مدة من الزمن قليلة. (أَصْدَرَتْنَا) أخرجَت لنا وأرجعَت ماء عوضًا عن الذي نُزحَ منها. (مَا شِئْنَا) القدْر الذي نرغبه ونريده لشُرب وغيره. (وَرِكَابَنَا) هي الإبل التي يُسَارُ عليها ونحوها.

لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة[١] قال المفسرون: وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمسَّ أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم وعبادتهم، رهبان بالليل أسودٌ بالنهار ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه قال ابن كثير: وصفه بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ والاحتساب عنده بجزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ورضاه[٢] ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي علامتهم وسمتُهم كائنة في جباههم من كثرة السجود والصلاة قال القرطبي: لاحت في وجوههم علامات التهجد بالليل وأمارات السهر، قال ابن جريج: هو الوقار والبهاء، وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع، قال منصور: سألت مجاهدًا عن قوله تعالى ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ أهو أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عَيْنَي الرَّجُل مثل رُكْبة العَنْز[٣] وهو أقسى قلبًا من الحجارة، ولكنه نورٌ في وجوههم من الخشوع[٤] ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي ذلك وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وفروعه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي فقوَّاه حتى صار غليظًا ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي فقام الزرع واستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي يعجب هذا الزرع الزراع، بقوته وكثافته وحسن منظره، ليغتاظ بهم الكفار قال الضحّاك: هذا مثل في غاية البيان، فالزرع محمد ﷺ، والشطءُ أصحابُه، كانوا قليلًا فكثروا، وضعفاء فقووا، وقال القرطبي: وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ يعني أنهم يكونون قليلًا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعوة ضعيفًا، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا فيقوى حالًا بعد حال حتى يغلظ نباته، وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان[٥] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) «أبو السعود» ٥/ ٨٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٥٥.

(٣) (ش): (رُكْبَة): مَوْصِل أسفل الفخذ بأعلى الساق. والجمع رُكُبات ورُكْبات ورُكَب. (الماعز): واحد من المَعْز، ذو الشَّعَر من الغنم، خلاف الضَّأن، يُطلق على الذَّكر والأنثى، وقد يقال للذَّكر: تَيْسٌ، وللأنثى: عَنْزٌ وماعزةٌ ومِعْزَاة.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٩٣.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٩٥. (ش): في أكثر من طبعة هذا الهامش في نفس مكان الهامش السابق، وهو خطأ طباعي واضح.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ أي وعدهم تعالى بالآخرة بالمغفرة التامة والأجر العظيم والرزق الكريم في جنات النعيم، اللهم ارزقنا محبتهم يا رب العالمين.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿مَا تَقَدَّمَ.. وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وبين ﴿وَمُبَشِّرٗا.. وَنَذِيرٗا﴾ وبين ﴿بُكۡرَةٗ.. وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿نَّكَثَ.. أَوۡفَىٰ﴾ وبين ﴿أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾ [الفتح: ١١] وبين ﴿يَغۡفِرُ.. وَيُعَذِّبُ﴾ وبين ﴿مُحَلِّقِينَ.. وَمُقَصِّرِينَ﴾ وبين ﴿أَشِدَّآءُ.. رُحَمَآءُ﴾.

٢ - المقابلة بين ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ..﴾ [الفتح: ٥] الآية وبين ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾ [الفتح: ٦] الآية.

٣ - الاستعارة التصريحية المكنية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: ١٠] شبَّه المعاهدة على التضحية بالأنفس في سبيل الله طلبًا لمرضاته بدفع السِّلع في نظير الأموال، واستعير اسم المشَّبه به للمشبه واشتق من البيع يبايعون بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، والمكنية في قوله ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ شبَّه اطلاع الله على مبايعتهم ومجازاته على طاعتهم بملكٍ وضع يده على يد أميره ورعيته، وطوى ذكر المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو اليد على طريق الاستعارة المكنية، ففي الآية استعارتان[1].

٤ - الكناية ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ كناية عن الهزيمة لأن المنهزم يدير ظهره لعدوه للهرب.

٥ - التعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ..﴾.

٦ - الالتفات من ضمير الغائب إلى الخطاب ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ﴾ بعد قوله تعالى ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وذلك لتشريف المؤمنين في مقام الامتنان.

٧ - الإطناب بتكرار الحرج ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [الفتح: ١٧] لتأكيد نفي الإثم عن أصحاب الأعذار.

٨ - التشبيه التمثيلي ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ..﴾ الآية لأن وجه الشبه منتزعٌ من متعدد.

٩ - مراعاة الفواصل في نهاية الآيات وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح»



(١) (ش): اليدان صفةٌ ذاتيةٌ لله عزَّ وجَلَّ، نُثبتها كما نُثبت باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهي ثابتةٌ بالكتاب والسنة.



مدنية وآياتها ثماني عشرة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية، وهي على وجازتها سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة وأسس المدنية الفاضلة، حتى سماها بعض المفسرين «سورة الأخلاق».

* ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله وأمر رسوله وهو ألا يبرموا أمرًا، أو يبدوا رأيًا، أو يقضوا حكمًا في حضرة الرسول ﷺ حتى يستشيروه ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

* ثم انتقلت إلى أدب آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول ﷺ تعظيمًا لقدره الشريف، واحترامًا لمقامه السامي، فإنه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

* ومن الأدب الخاص إلى الأدب العام تنتقل السورة لتقرير دعائم المجتمع الفاضل، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات، وتأمر بالتثبت من الأنباء والأخبار، لاسيما إن كان الخبر صادرًا عن شخص غير عدل أو شخص متهم، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق سببت كارثة من الكوارث، وكم من خبر لم يتثبت منه سامعه جر وبالًا، وأحدث انقسامًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

* ودعت السورة إلى الإصلاح بين المتخاصمين، ودفع عدوان الباغين ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ الآيات.

* وحذرت السورة من السخرية والهمز واللمز، ونفرت من الغيبة والتجسس والظن السيئ بالمؤمنين، ودعت إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، وحين حذرت من الغيبة جاء النهي في تعبير رائع عجيب، أبدعه القرآن غاية الإبداع، صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ الآية. ويا له من تنفير عجيب!!

* وختمت السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان، وجاءوا يمنون على الرسول إيمانهم، فتبين حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل وهو الذي جمع الإيمان والإخلاص والجهاد والعمل الصالح ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

التسمية: سميت «سورة الحجرات» لأن الله تعالى ذكر فيها حرمة بيوت النبي ﷺ وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين الطاهرات رضوان الله عليهن.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ
وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ② إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ
لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ③ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ
أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ
بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ⑥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ
يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ
وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ⑦ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑧ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن
فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ⑨ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ
أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ⑩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ
وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ
ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ⑪ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ
وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

اللغة: ﴿يَغُضُّونَ﴾ غضَّ صوتَه خفضه وخافَت به ﴿فَاسِقٌ﴾ الفاسق: الخارج من حدود الشرع، وهو في أصل الاشتقاق موضوع لما يدل على معنى الخروج، مأخوذ من قولهم: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، وسمي فاسقًا لخروجه عن الطاعة ﴿بِنَبَإٍ﴾ النبأ: الخبر الهام قال الراغب: لا يقال للخبر في الأصل: نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن[1] ﴿عَنِتُّمْ﴾ وقعتم في العَنت وهو المشقة والهلاك قال في اللسان: العنت: الهلاك وأعْنَته أوْقعه في الهلكة[2] ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ جمع راشد وهو المهتدي إلى محاسن الأمور

(١) مفردات القرآن للراغب.

(٢) «لسان العرب» مادة عنت.

﴿تفيء﴾ ترجع ﴿بَغَتۡ﴾ اعتدت واستطالت وأصله مجاوزة الحد في الظلم والطغيان ﴿تَلۡمِزُوٓاْ﴾ تعيبوا.

سَبَبُ النّزول: أ- روي أن بعض الأعراب الجفاة جاءوا إلى حجرات أزواج النبي ﷺ فجعلوا ينادونه: يا محمد أخرج إلينا، يا محمد اخرج إلينا فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[١].

ب- وروي أن النبي بعث «الوليد بن عقبة» إلى الحارث بن ضرار ليقبض ما كان عنده من الزكاة التي جمعها من قومه، فلما سار الوليد واقترب منهم خاف وفزع، فرجع إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فهمَّ بعض الصحابة بالخروج إليهم وقتالهم فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية[٢].

ج – عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت «عبد الله بن أُبيٍّ» وهو رأس المنافقين فانطلق إليه وركب حمارًا، وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما أتاه النبي ﷺ قال له: إليك عني أي تنحَّ وابتعد عني فوالله لقد آذاني نتنُ حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، وغضب للأنصاري آخرون من قومه، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنعال، فأنزل الله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا..﴾[٣] الآية.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أيها المؤمنون، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدَّقتم بكتاب الله، لا تُقدموا أمرًا أو فعلًا بين يدي الله ورسوله، وحُذِف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قولٍ أو فعل، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه ونحو ذلك قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ﷺ وقال الضحاك: لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم[٤] وقال البيضاوي: المعنى لا تقطعوا أمرًا قبل أن يحكم الله ورسوله به، وقيل: المراد بين يدي رسول الله، وذُكر اللهُ تعظيمًا له وإشعارًا بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله[٥] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي واتقوا الله فيما

---

(١) (ش): حسن، رواه أحمد والترمذي، وابن جرير، والطبراني.

(٢) انظر تفصيل الرواية في «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٥٨. (ش): ضعيف، رواه أحمد وغيره. وانظر في الدفاع عن الصحابي الجليل «الوليد بن عقبة» تعليقَ الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله على كتاب «العواصم من القواصم» للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي (ص: ١٠٢-١٠٥).

(٣) أخرجه الشيخان.

(٤) «مختصرابن كثير» ٣/ ٣٥٧.

(٥) «البيضاوي» ٣/ ٣٦٥ من الحاشية.

أمركم به، إن الله سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنِيَّاتكم وأحوالكم، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والروعة في النفوس .. ثم أرشد تعالى المؤمنين إلى وجوب توقير الرسول وإجلاله واحترامه فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي إذا كلمتم رسولَ الله ﷺ فاخفضوا أصواتكم ولا ترفعوها على صوتِ النبي ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي ولا تبلغوا حدَّ الجهر

عند مخاطبته ﷺ كما يجهر بعضكم في الحديث مع البعض، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضًا فتقولوا: يا محمد، ولكنْ قولوا يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، تعظيمًا لقدره، ومراعاةً للأدب قال المفسرون: نزلت في بعض الأعراب الجفاة الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه، ولا يعرفون توقير الرسول الكريم(١) ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون ولا تدرون، فإن في رفع الصوت والجهر بالكلام في حضرته ﷺ استخفافًا قد يؤدي إلى الكفر المحبط للعمل قال ابن كثير: روي «أن ثابت بن قيس كان رفيع الصوت، فلما نزلت الآية قال: أنا الذي كنتُ أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار، حبط عملي، وجلس في أهله حزينًا، فافتقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقَّدك رسول الله ﷺ ما لك؟ فقال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ: «لا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(٢)

وفي رواية «أترضى أنَ تعيش حميدًا، وتُقتَل شهيدًا، وتدخل الجنة؟» فقال: رضيتُ ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي أبدًا على صوت رسول الله ﷺ.(٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أي إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ومرَّنها عليها وجعلها صفة راسخةً راسخة فيها قال ابن كثير: أي أَخلَصَها للتقوى وجعلَها أهلًا ومحلًّا ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهم في الآخرة صفحٌ عن ذنوبهم، وثواب عظيم في جنات النعيم.. ثم ذمَّ تعالى الأعراب الجفاة الذين ما كانوا يتأدبون في ندائهم للرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ أي يدعونك من وراء الحجرات، منازل أزواجك الطاهرات ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي أكثر هؤلاء غير عقلاء، إذ العقل يقتضي حسن الأب، ومراعاة العظماء عند خطابهم، سيّما لمن كان بهذا المنصب الخطير قال البيضاوي: قيل إن الذي ناداه «عُيَيْنَة بن

(١) (ش): حسن، رواه أحمد والترمذي، وابن جرير، والطبراني.
(٢) الحديث أخرجه أحمد. (ش): ورواه البخاري ومسلم.
(٣) ذكر هذه الرواية ابن جرير الطبري. (ش): ضعفه الألباني.

حُصَين»(١) و «الأقرع بن حابس» وفَدَا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا: يا محمد اخرج إلينا(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي ولو أنَّ هؤلاء المُنَادين لم يزعجوا الرسول ﷺ بمناداتهم وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيرًا لهم وأفضل عند الله وعند الناس، لما فيه من مراعاة الأدب في مقام النبوة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي الغفور لذنوب العباد، الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحهم وتقريعهم، ولم يُنزل العقاب بهم. ثم حذَّر تعالى من الاستماع للأخبار بغير تثبت فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ أي إذا أتاكم رجل فاسق غير موثوق بصدقه وعدالته بخبر من الأخبار ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي فتثبتوا من صحة الخبر ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي لئلا تصيبوا قومًا وأنتم جاهلون حقيقة الأمر ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي فتصيروا نادمين أشد الندم على صنيعكم(٣) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي واعلموا أيها المؤمنون أنَّ بينكم الرسول المعظَّم، والنبيَّ المكرم، المعصوم عن اتباع الهوى ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لو يسمع وشاياتكم، ويصغي بسمعه لآرائكم، ويطيعكم في غالب ما تشيرون عليه من الأمور، لوقعتم في الجهد والهلاك قال ابن كثير: أي اعلموا أنَّ بين أظهركم رسو ل الله فعظّموه ووقروه، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدَّى ذلك إلى عنتكم وحرجكم(٤) ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ أي ولكنه تعالى بمَنّه وفضْله نوَّر بصائركم فحبَّب إلى نفوسكم الإيمان ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وحسَّنه في قلوبكم، حتى أصبح أغلى عندكم من كل شيء ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي وبغَّض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من الكفر والمعاصي والخروج عن طاعة الله قال ابن كثير: والمراد بالفسوق الذنوبُ الكبار، وبالعصيان جميع المعاصي(٥) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي أولئك المتصفون بالنعوت الجليلة هم المهتدون، الراشدون في سيرتهم وسلوكهم، والجملة تفيد الحصر أي هم الراشدون لا غيرهم ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي هذا العطاء تفضُّلٌ منه تعالى عليكم وإِنعام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليمٌ بمن يستحق الهداية، حكيم في خلقه وصنعه وتدبيره.. ثم عقَّب تعالى ما يترتب على سماع الأنباء المكذوبة من تخاصم وتباغضٍ وتقاتل

---

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، والصواب: «عُيَيْنَة بن حِصْن».

(٢) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣٦٧. (ش): رواه البيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد ضعيف.

وروى أحمد بإسناد ضعيف أنها نزلت في الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ. وقد قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٦٩): «وَقَدْ ذُكر أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ التَّمِيمِيِّ».

(٣) انظر سبب النزول.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٦١.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير»

فقال ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ أي وإنْ حدث أنَّ فئتين وجماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال فأصلحا بينهما، واسعوا جهدكم للإصلاح بينهما، والجمعُ ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ باعتبار المعنى، والتثنية ﴿بَيْنَهُمَا﴾ باعتبار اللفظ ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي فإن بغت إحداهما على الأخرى، وتجاوزت حدَّها بالظلم والطغيان، ولم تقبل الصلح وصمَّمت على البغي ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه، وتُقلع عن البغي والعدوان، وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ أي فإن رجعت وكَفَّتْ عن القتال فأصلحوا بينهما بالعدل، دون حيفٍ على إحدى الفئتين، واعدلوا في جميع أموركم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي يحبُّ العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم قال البيضاوي: والآية نزلت في قتالٍ حدث بين «الأوس» و «الخزرج» في عهده ﷺ كان فيه ضربٌ بالسَّعَف والنعال[1]، وهي تدلُّ على أن الباغي مؤمن، وأنه إذا كفَّ عن الحرب تُرك، وأنه يجب تقديم النصح والسعي في المصالحة[2] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي ليس المؤمنون إلا اخوة، جمعتهم رابطة الإيمان، لا ينبغي أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء، ولا تباغُض ولا تقاتل قال المفسرون: ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر فكأنه يقول: لا أخوَّة إلا بين المؤمنين، ولا أخوة بين مؤمن وكافر، وفي الآية إشارة إلى أن أخوة الإسلام أقوى من أخوَّة النسب، بحيث لا تعتبر أخوَّة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين، ولا تتركوا الفرقة تدبُّ، والبغضاء تعمل عملها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي اتقوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لتنالكم رحمته، وتسعدوا بجنته ومرضاته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدَّقتم بكتاب الله وبرسوله، لا يهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد، فقد يكون المسخور منه خيرًا عند الله من الساخر، و«رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»[3] ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي ولا يسخر نساء من نساء فعسى أن تكون المحتقر منها خيرًا عند الله وأفضل من الساخرة

(١) (ش): السَّعَف: جريدُ النّخل وورقُه. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وآله وسلم -: «لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ؟»، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وَرَكِبَ حِمَارًا فَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - فَقَالَ: «إِلَيْكَ عَنِّي وَاللهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِك». فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ مِنْهُم: وَاللهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - أَطْيَبُ رِيحًا مِنْك. فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَشَتَمَه، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالأَيْدِي وَالنِّعَالِ فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾» رواه البخاري ومسلم. (سَبِخَةٌ): أَيْ ذَات سِبَاخ، وَهِيَ الْأَرْض الَّتِي لَا تُنْبِت لملوحتها.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣٧١.

(٣) هذا حديث صحيح. (ش): رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني. الطِمْرُ: الثوب البَالى.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أي ولا يَعِب بعضكم بعضًا، ولا يَدْعُ بعضكم بعضًا بلقب السوء، وإنما قال ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ لأن المسلمين كأنهم نفسٌ واحدة ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي بئس أن يسمى الإنسان فاسقًا بعد أن صار مؤمنًا قال البيضاوي: وفي الآية دلالة على أن التنابز فسقٌ، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح[1] ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي ومن لم يتبْ عن اللَّمز والتنابز فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة والتخون وإساءة الظنِّ بالأهل والناس، وعبَّر بالكثير ليحتاط الإنسان في كل ظنٍّ ولا يسارع فيه بل يتأملُ ويتحقَّق ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي إنَّ بعض الظنِّ إثم وذنب يستحق صاحبه العقوبة عليه قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه: «لا تظُنَّنَّ بكلمةٍ خرجت من أخيكَ المؤمنِ إلا خيرًا، وأنت تجدُ لها في الخير مَحْملًا»[2] ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معايبَهم[3] ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضًا بالسوء في غيبته بما يكرهه ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيلٌ لشناعة الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من التقبيح أي هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت؟ ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي فكما تكرهون هذا طبعًا فاكرهوا الغيبة شرعًا، فإن عقوبتها أشدُّ من هذا. شبَّه تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتًا، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان فضلًا عن كونه أخًا، وفضلًا عن كونه ميتًا وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إنه تعالى كثير التوبة، عظيم الرحمة، لمن اتقى اللهَ وتاب وأناب، وفيه حثٌّ على التوبة، وترغيبٌ بالمسارعة إلى الندم والاعتراف بالخطأ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله.

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ

---

(١) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣٧٣.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٦٤.

(٣) وفي الحديث: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ». أخرجه الحافظ أبو يعلى. (ش): ورواه أحمد وأبو داود والترمذي وابنُ حبان، وصححه الألباني.

عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ

المناسَبَة: لمَّا دعا تعالى إلى مكارم الأخلاق ونهى عن مساويها، وحذَّر المؤمنين من بعض الأفعال القبيحة، دعا الناس هنا جميعًا للتعارف والتآلف ونهاهم عن التفاخر بالأنساب، ثم بَيَّن صفات المؤمن الكامل.

اللغَة: ﴿يَلِتْكُم﴾ ينقصكم ﴿وَقَبَآئِلَ﴾ جمع قبيلة وهي الجماعة التي يربطها حسبٌ أو نسبٌ، وهي أخصُّ من الشعب، لأن الشعب الجمع العظيم المتسبون إلى أصل واحد، فالشعب يجمع القبيلة، والقبيلة تجمع البطون والأفخاذ ﴿يَرْتَابُوا۟﴾ يشكُّوا والريب: الشكُّ ﴿يَمُنُّونَ﴾ المنُّ: الامتنان على الشخص والاعتداد عليه بفعل المعروف، وأصله في اللغة القطع ومنه ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: جاءت بنو أسدٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، أخذوا يمنون عليه فنزلت الآية الكريمة ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟..﴾ [١] الآية.

التفسِير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الخطاب لجميع البشر أي نحن بقدرتنا خلقناكم من أصل واحد، وأوجدناكم من أب وأم فلا تفاخر بالآباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلكم لآدم وآدمُ من تراب ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ أي وجعلناكم شعوبًا شتى وقبائل متعددة، ليحصل بينكم التعارف والتآلف، لا التناحر والتخالف قال مجاهد: ليعرف الإنسان نسبه فيقال: فلان ابن فلان من قبيلة كذا[٢]، وأصل تعارفوا (تتعارفوا) حُذِفتْ إحدى التاءين تخفيفًا قال شيخ زاده: والمعنى: إن الحكمة التي من أجلها جعلكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ولا ينسبه إلى غير آبائه، لا أن نتفاخر بالآباء والأجداد، والنسبُ وإن كان يُعتبر عرفًا وشرعًا، حتى لا تُزوَّج الشريفَة بالنَّبَطيّ[٣]، إلا أنه لا عبرة به عند ظهور ما هو أعظم قدرًا منه وأعز، وهو الإيمان والتقوى، كما لا تظهر الكواكب عند طلوع الشمس[٤] ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي إنما يتفاضل الناس بالتقوى

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٦٩. (ش): حسن، أخرجه أبو يعلى والبزار في «مسندَيهما».

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٦٧.

(٣) (ش): النَبَطيّ: مِنْ أَهْلِ النَّبَطِ: قَوْمٌ كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالْأُرْدُنِ، كَانَتْ لِدَوْلَتِهِمْ حَضَارَةٌ، عَاصِمَتُهَا الْبَتْرَاءُ، وَتُطْلَقُ الآنَ كَلِمَةُ أَنْبَاطٍ عَلَى أَخْلَاطِ النَّاسِ وَعَوَامِّهِمْ.

(٤) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٣٧٥. اتفق أهل العلم على أن الكفاءة في الدين معتبرة فلا تُزَوَّج المسلمة بكافر، ولا يَتزوج المسلمُ الكافرةَ إلا الكتابية بشرط الإحصان، وهو أن تكون عفيفة عن الزنا، أو تابت بعد زناها واستبرأ رحِمَها. والفاسق المشهور بِفسقه يُمنع من الزواج بالمرأة ذات الدين حيث لا يُؤمَن =

لا بالأحساب والأنساب، فمن أراد شرفًا في الدنيا ومنزلة في الآخرة فليتق الله[١] كما قال ﷺ: «من سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتَّق الله»[٢] وفي الحديث «النَّاسُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ»[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليمٌ بالعباد، مطلع على ظواهرهم وبواطنهم، يعلم التقي والشقي، والصالح والطالح ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]. ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أي زعم الأعراب أنهم آمنوا قل لهم يا محمد: إنكم لم تؤمنوا بعد، لأن الإيمان تصديقٌ مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لَمَا مَنَنْتُم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة، ولكنْ قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي قال المفسرون: نزلت في نفرٍ من بني أسد، قدموا المدينة في سنةٍ مجدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، يريدون الصَّدقة ويمنّون على الرسول[٤]، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبةٌ أعلَى من الإسلام، الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر ولهذا قال تعالى ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعدُ[٥]، ولفظةُ «لمَّا» تفيد التوقع كأنه يقول: وسيحصل لكم الإيمان عند اطِّلاعكم على محاسن الإسلام، وتذوُّقكم لحلاوة الإيمان قال ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادَّعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه فأُدِّبوا في ذلك، ولو كانوا منافقين كما ذهب إليه البخاري لعُنِّفوا وفُضِحوا[٦] ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي وإن أطعتم الله ورسوله بالإخلاص الصادق، والإيمان الكامل، وعدم المنِّ على الرسول لا ينقصكم من أجوركم شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم

= عليها منه فقد يمنعها حقوقها أو يضطرها إلى ارتكاب ما حرم الله عليها. وأما الكفاءة في النسب فقد اختلف أهل العلم في اشتراطها على قولين: الأول أنها معتبرة، والقول الثاني أن المعتبر في الكفاءة الدين، وأنه لا يثبت في اعتبار الكفاءة بالنسب حديث. وهذا القول هو الذي تشهد له الأدلة. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] وثبت عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ» رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

(١) «البيضاوي» ٣/ ٣٧٥.

(٢) (ش): «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدِهِ» (رواه الحاكم وغيره بإسناد ضعيف).

(٣) جزء من خطبة قالها ﷺ عند فتح مكة وخطب الناس بها. (ش): رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

(٤) (ش): انظر سبب النزول السابق.

(٥) (ش): لمَّا: حرف نفي يجزم المضارع، ويقلبه إلى ماضٍ ممتدٍّ حتّى وقت الحديث مع توقّع حدوثه في المستقبل القريب «لمَّا يذاكر درسَه» لم يفعله إلى وقت الحديث- ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾: لم يدخل حتّى الآن.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٦٩.

المغفرة، واسع الرحمة، لأن صيغة «فعول» و«فعيل» تفيد المبالغة. ثم ذكر تعالى صفات المؤمنين الكُمَّل الصادقين في إيمانهم فقال ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إنما المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، الذين صدَّقوا الله ورسوله، فأقروا لله بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، عن يقين راسخ وإيمان كامل ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي ثم لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم بل ثبتوا على التصديق واليقين ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وبذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي أولئك الذين صدقوا في ادعاء الإيمان.. وصف تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف: الأول: التصديق الجازم بالله ورسوله، الثاني: عدم الشك والارتياب، الثالث: الجهاد بالمال والنفس، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: قل يا محمد، أتخبرون الله بما في ضمائركم وقلوبكم؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وهو جل وعلا العليم بأحوال جميع العباد، لا تخفى عليه خافية لا في السموات ولا في الأرض ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي واسع العلم رقيب على كل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ أي يعدون إسلامهم عليك يا محمد منَّة، يستوجبون عليها الحمد والثناء ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي قل لهم لا تمتنوا عليَّ بإسلامكم، فإنّ نفْعَ ذلك عائدٌ عليكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي بل للهِ المنةُ العظيمة عليكم، بالهداية للإيمان والتثبيت عليه إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطَّلع على أعمال العباد، لا تخفى عليه خافية. كرَّر تعالى الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وإحاطته بجميع المخلوقات، ليدل على سعة علمه، وشموله لكل صغيرة وكبيرة، في السر والعلن، والظاهر والباطن.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة التمثيلية ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] شبَّه حالهم في إبداء الرأي وقطع الأمر في حضرة الرسول بحال ملكٍ عظيم تقدَّم للسير أمامه بعض الناس وكان الأدب يقضي أن يسيروا خلفه لا أمامه، وهذا بطريق الاستعارة التمثيلية.

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] لوجود أداة التشبيه.

٣ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ بعد قوله ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات: ٧] وهذا من المحسنات البديعية.

٤ - المقابلة بين ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وبين ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ

﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

٥ - الطباق ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

٦ - جناس الاشتقاق ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

٧ - التشبيه التمثيلي ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] مثَّل للغيبة بمن يأكل لحم الميت، وفيه مبالغات عديدة لتصوير الاغتياب بأقبح الصور وأفحشها في الذهن.

٨ - طباق السلب ﴿ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾.

٩ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾.

١٠ - التشبيه البليغ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] أصل الكلام المؤمنون كالإخوة في وجوب التراحم والتناصر، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه فأصبح بليغًا مع إفادة الجملة الحصر.

تنبيه: سورة الحجرات تسمى سورة «الأخلاق والآداب» فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان خمس مراتٍ، وفي كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم وفضيلة من الفضائل، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها في فقرات:

أولًا: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله وعدم التقدم عليه بقول أو رأي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

ثانيًا: احترام الرسول وتعظيم شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ..﴾ [الحجرات: ٢].

ثالثًا: وجوب التثبت من الأخبار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴿٥﴾﴾. [الحجرات: ٦].

رابعًا: النهي عن السخرية بالناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ..﴾ [الحجرات: ١١].

خامسًا: النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] الآية.

لطيفَة: سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة من قتال؟ فقال: «تلك دماءٌ قد طهَّر الله منها أيدينا فلا نلوّث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»





مكية وآياتها خمس وأربعون

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث» ولكن المحور الذي تدور حوله هو موضوع «البعث والنشور» حتى ليكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة الكريمة، وقد عالجه القرآن بالبرهان الناصع، والحجة الدامغة، وهذه السورة رهيبة، شديدة الوقع على الحس، تهز القلب هزًّا، وترج النفس رجًّا، وتثير فيها روعة الإعجاب، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب.

* ابتدأت السورة بالقضية الأساسية التي أنكرها كفار قريش، وتعجبوا منها غاية العجب، وهي قضية الحياة بعد الموت، والبعث بعد الفناء ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ الآيات.

* ثم لفتت السورة أنظار المشركين -المنكرين للبعث- إلى قدرة الله العظيمة، المتجلية في صفحات هذا الكون المنظور، في السماء والأرض، والماء والنبات، والثمر والطلع، والنخيل والزرع وكلها براهين قاطعة على قدرة العلي الكبير ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا ...﴾ الآيات.

* وانتقلت السورة الكريمة للحديث عن المكذبين من الأمم السالفة، وما حل بهم من الكوارث وأنواع العذاب، تحذيرًا لكفار مكة أن يحل بهم ما حل بالسابقين ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ...﴾ الآيات.

* ثم انتقلت السورة للحديث عن سكرة الموت، ووهلة الحشر، وهول الحساب، وما يلقاه المجرم في ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد تنتهي به بإلقائه في الجحيم ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن «صيحة الحق» وهي الصيحة التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ويساقون للحساب والجزاء لا يخفى على الله منهم أحد، وفيه إثبات للبعث والنشور الذي كذب به المشركون ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن «صيحة الحق» وهي الصيحة التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ويساقون للحساب والجزاء لا يخفى على الله منهم أحد، وفيه إثبات للبعث والنشور الذي كذب به المشركون ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١

يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ الآيات.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟
بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا
مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا
طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ
وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا
بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ
﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ
نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ

اللغَة: ﴿مَّرِيجٍ﴾ مختلط قال ابن قيبة: مرج الأمر ومرج الدين اختلط، وأصله أن يقلق الشيء ولا يستقر يقال: مرج الخاتم في يدي إذا قلق للهزال ﴿فُرُوجٍ﴾ شقوق وصدوع جمع فرج وهو الشقُّ ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ طوال بسق الشيء بُسوقًا إذا طال ﴿نَّضِيدٌ﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿لَبْسٍ﴾ حيرة وشك واضطراب ﴿أَفَعَيِينَا﴾ عجزنا يقال: عيي به يعيا أي عجز عنه ﴿رَقِيبٌ﴾ حافظ شاهد على أعمال الإنسان ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر مهيأ قال الجوهري: العتيد الشيء الحاضر المهيأ ومنه ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١] وفرسٌ عَتَدٌ: مُعَدٌّ للجري[١] ﴿حَدِيدٌ﴾ حَادٌّ نافذٌ.

التفسِير: ﴿قٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[٢] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ قسمٌ حذف جوابه أي أقسم بالقرآن الكريم، ذي المجد والشرف على سائر الكتب السماوية لتبعثنَّ بعد الموت قال ابن كثير: وجواب القسم محذوف وهو مضمون الكلام بعده وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد وتقديره إنك يا محمد لرسول و إنَّ البعث لحق[٣]، وهذا كثير في القرآن. وقال

(١) «الصحاح» مادة عتد.
(٢) انظر أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة.
(٣) هذا خلاصة قول ابن كثير وانظر «المختصر» ٣/ ٣٧١.

أبو حيان: والقرآنُ مقسم به، والمجيد صفته وهو الشريف على غيره من الكتب، والجواب محذوفٌ يدل عليه ما بعده تقديره: لقد جئتهم منذرًا بالبعث فلم يقبلوا[1] ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي تعجب المشركون من إرسال رسول إليهم من البشر يخوفهم من عذاب الله ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي فقال كفار مكة: هذا شيءٌ في منتهى الغرابة والعَجَب، والإظهار في موضع الإضمار لتسجيل جريمة الكفر عليهم، والآية إنكارٌ لتعجُّبهم مما ليس بعجب، فإنهم قد عرفوا صدق الرسول وأمانته ونصحه، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يعجبوا ويستهزئوا، ثم أخبر تعالى عن وجه تعجبهم فقال ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ أي أئذا متنا واستحالت أجسادنا إلى تراب هل سنحيا ونرجع كما كنَّا؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ أي ذلك رجوع بعيد غاية البعد، مستحيل حصوله ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي قد علمنا ما تنقصه الأرض من أجسادهم، وما تأكله من لحومهم وأشعارهم ودمائهم إذا ماتوا، فلا يضل عنا شيءٌ حتى تتعذَّر علينا الإعادة ﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ أي ومع علمنا الواسع عندنا كتاب حافظ لعددهم وأسمائهم وما تأكله الأرض، وهو اللوح المحفوظ الذي يحصي تفصيل كل شيء ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ إضراب إلى ما هو أفظع وأشنع من التعجب وهو التكذيب بالقرآن العظيم أي كذبوا بالقرآن حين جاءهم، مع سطوع آياته، ووضوح بيانه ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي فهم في أمرٍ مختلط مضطرب، فتارة يقولون عن الرسول: إنه ساحر، وتارةً يقولون: إنه شاعر، وتارة يقولون: إنه كاهن، وهكذا قالوا أيضًا عن القرآن: إنه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين إلى غير ذلك.

ثُم ذَكَر تعالى دلائل القدرة والوحدانية الدالة على عظمة رب العالمين فقال ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ أي أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار، إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادر على إعادة الإنسان بعد موته؟ ﴿كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا ﴾ أي كيف رفعناها بلا عمد وزيناها بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ أي ما لها من شقوق وصدوع ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ أي والأرض بسطناها ووسعناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أي وجعلنا فيها جبالًا ثوابت تمنعها من الاضطراب بسكانها ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي وأنبتنا فيها من كل نوع من النبات حسن المنظر، يبهج ويسر الناظر إليه ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي فعلنا ذلك تبصيرًا منا وتذكيرًا عن كمال قدرتنا، لكل عبد راجع إلى الله متفكر في بديع مخلوقاته ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا ﴾ أي ونزلنا من السحاب ماءً كثير المنافع والبركة ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ أي فأخرجنا بهذا الماء البساتين الناضرة، والأشجار المثمرة، وحبَّ الزرع المحصود، كالحنطة والشعير وسائر الحبوب التي تحصد ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ ﴾

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٢٠.

أي وأخرجنا شجر النخيل طوالًا مستويات ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ أي لها طلعٌ منضود، منظمٌ بعضه فوق بعض. قال أبو حيان: يريد كثرة الطلع وتراكمه وكثرة ما فيه من الثمر، وأول ظهور الثمر يكون منضَّدًا كحب الرمان، فما دام ملتصقًا بعضه ببعض فهو نضيد، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد(١) ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي أنبتنا كل ذلك رزقًا للخلق لينتفعوا به ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي وأحيينا بذلك الماء أرضًا جدبة لا ماء فيها ولا زرع فأنبتنا فيها الكلأ والعشب ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ أي كما أحييناها بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء بعد موتكم قال ابن كثير: وهذه الأرض الميتة كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله الموتى..(٢) ثم ذكَّر تعالى كفار مكة بما حلَّ بمن سبقهم من المكذبين إنذارًا لهم وإعذارًا فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أي كذَّب قبل هؤلاء الكفار قوم نوح ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ ﴾ أي وأصحاب البئر وهم بقية من ثمود رسُّوا نبيَّهم فيها أي دسُّوه فيها(٣) ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾ سمَّاهم إخوانه لأنه صاهرهم وتزوج منهم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾ أي وأصحاب الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب، نُسبوا إلى الأيكة لأنهم كانت تحيط بهم البساتين والأشجار الكثيرة، الملتف بعضُها على بعض ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ قال المفسرون: هو ملكٌ كان باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه وهو تُبَّع اليماني(٤) ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ أي جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسلهم قال ابن كثير: وإنما جمع الرسل لأن من كذب رسولًا فإنما كذب جميع الرسل كقوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعرا: ١٠٥] (٥) ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فوجب عليهم وعيدي وعقابي، والآية تسليةٌ للنبي ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ أي أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت؟ قال القرطبي: وهو توبيخٌ لمنكري البعث، وجوابٌ لقولهم ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾(٦) ومراده

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٢٢.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٧٢.

(٣) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ [الفرقان: ٣٨]: أي وأهلكنا عادًا وثمود وأصحاب البئر الذين انهارت بهم قال البيضاوي: وأصحابُ الرس قومٌ كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيبًا فكذبوه فبينما هم حول الرَّسّ – وهي البئر غير المَطْويَّة – انهارت فخسفت بهم وبديارهم» انتهى كلام المؤلف وأحال إلى «تفسير البيضاوي» ٢/ ٦٨. والرَّسُّ: بئر قديمة متهدِّمة الجوانب. البئر المَطْوِيَّة: مَبْنِيَّة الجوانب، يقال: طوَيْتَ البئر إذا بنَيْتَها بالحجارة.

(٤) انظر «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ٩١.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٧٢.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٨.

أن ابتـداء الخلـق لم يعجزنا، والإعادةُ أسـهلُ منه فكيـف يُتوهم عجزنا عـن البعث والإعادة ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ أي بـل هـم في خلـطٍ وشـبهةٍ وحيـرة مـن البعث والنشـور قال الألوسـي: وإنمـا نكّـر الخلق ووُصِف بـ «جديـد»، ولم يقُل: «مـن الخلق الثـاني» تنبيهًا على اسـتبعادهم لـه وأنـه خلْقٌ عظيم يجب أن يُهتَمَّ بشـأنه فلـه نبأ عظيم[١] ثم نبه تعالى على سـعة علمه وكمال قدرته فقال ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ أي خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول في قلبه وخاطره، لا يخفى علينا شـيء من خفايا ونواياه ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ أي ونحـن أقـرب إليه مـن حبل وريده، وهو عـرق كبير في العنق متصـل بالقلب قال أبـو حيـان: ونحن أقرب إليه قـرب علم، نعلم بـه وبأحواله لا يخفى علينا شـيء من خفياته، فـكأن ذاتـه تعالى قريبة منـه، وهو تمثيل لفرط القُـرْب كقول العرب: هو منـي معقدَ الإزار[٢] وقـال ابن كثيـر: المراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسـان من حبل وريده إليـه، والحلول والاتحاد منفيـان بالإجماع تعالى الله وتقـدَّس، وهذا كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يريـد به الملائكة[٣]، ويدل عليه قولـه بعده ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ أي حين يتلقى الملَكان الموَكَّلان بالإنسـان، ملك عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن شـماله يكتب السيئات، وفي الكلام حـذفٌ تقديره عن اليمين قعيد وعن الشـمال قعيـد فحـذف الأول لدلالـة الثاني عليه قال مجاهد: وكل الله -بالإنسـان مـع علمه- بأحواله ملكيـن بالليل وملكين بالنهار يحفظـان عمله ويكتبان أثره إلزامًا للحجـة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسـنات، والآخر عن شـماله يكتب السـيئات فذلك قوله تعالى ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾[٤] وقال الألوسـي: والمراد أنه سـبحانه أعلم بحال الإنسـان من كل رقيب، حين يتلقى المتلقيـان الحفيظـان ما يتلفظ به، وفيـه إيذانٌ بأنه عَزَّ وَجَلَّ غنيٌّ عن اسـتحفاظ الملكين، فإنه تعالى أعلـم منهما ومطَّلع على ما يخفى عليهما، لكن الحكمة اقتضت كتابة الملكين لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد، فإذا علم العبد ذلك مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه ازداد رغبة في الحسنات، وانتهاءً عن السيئات[٥] ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ﴾ أي ما يتلفظ كلمة من خيرٍ أو شـر[٦]، إلا وعنده ملك يرقب قوله ويكتبه ﴿عَتِيدٞ﴾ أي حاضر معه أينما كان مهيأٌ لكتابة ما

---

(١) «تفسير روح المعاني» ٢٦/ ١٧٨.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٢٣. (ش): هو مِنِّي مَعْقِد الإزارِ، أي: قَرِيبُ المَنْزِلَةِ كَقُرْب مكان عَقْد الإزار. والإزار: ثوبٌ يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٧٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٩.

(٥) «تفسير روح المعاني» ٢٦/ ١٧٩.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٧٤.

أُمر بـه قال ابن عباس: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر وقال الحسن: فإذا مات ابن آدم طويت صحيفته وقيل له يوم القيامة: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾(١) [الإسراء: ١٤] ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي وجاءت غمرة الموت وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، بالأمر الحق من أهوال الآخرة حتى يراها المنكر لها عيانًا ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه وتهرب منه وتفزع، وفي الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ لمّا تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله إنَّ للموت لسكرات»(٢) ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ أي ونفخ في الصور نفخة البعث ذلك هو اليوم الذي وعد الله الكفار به بالعذاب ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أي وجاء كل إنسان براً كان أو فاجرًا ومعه ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله قال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم وهي الأيدي والأرجل ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤] وقال مجاهد: السائق والشيهد ملكان، ملكٌ يسوقه وملك يشهد عليه(٣) ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ ﴾ أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلةٍ من هذا اليوم العصيب ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ أي فأزلنا عنك الحجاب الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي بصرك اليوم قويٌّ نافذ، ترى به ما كان محجوبًا لزوال الموانع بالكلية.

قال الله تعالى:

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى
جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ
﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ
نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ
أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا
يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن
مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾
وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٢٤.

(٢) رواه البخاري. (ش): ليس في البخاري بهذا اللفظ ولم أجده في غيره، لكن فيه عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ ».

(٣) اخترنا قول مجاهد هنا، لأنه الظاهر من الآية الكريمة، وهو ما رجحه الطبري وابن كثير.

﴿نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾

المنَاسَبَة: لمّا حكى تعالى في الآيات السابقة إنكار المشركين للبعث، وأقام الأدلة والبراهين على البعث والنشور، ذكر هنا الأهوال والشدائد التي يلقاها الكافر في الآخرة، والنعيم الذي أعدَّه للمؤمنين الأبرار في الجنة، وختم السورة الكريمة ببيان دلائل البعث وأحواله وأطواره.

اللغَـة: ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ قُربت يقال: زلف يزلف أي قرب، وأزلفه قرَّبه ﴿أَوَّابٍ﴾ رجّاع إلى الله من آب يئوب أوبًا إذا رجع ﴿بَطۡشٗا﴾ البطش: الأخذ بالشدة والعنف ﴿فَنَقَّبُواْ﴾ طوَّفوا وساروا وأصل التنقيب التنقير عن الشيء والبحث عنه قال الشاعر:

نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الموت وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ [(١)]

﴿مَّحِيصٍ﴾ مفر ومهرب من حاص يحيص حيصًا إذا أراد الهرب ﴿لُّغُوبٖ﴾ تعب.

سَبَبُ النّزول: عن قتادة أن اليهود قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وأنه تعب فاستراح يوم السبت وسمَّوه يوم الراحة فكذبهم تعالى فيما قالوا فنزلت ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾[(٢)].

التفسِـير: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي وقال الملك الموكَّل به، هذا الذي وكَّلتني به من بني آدم قد أحضَرْتُه وأحضَرْتُ ديوان عمله ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ﴾ أي يقول تعالى للملكين «السائق والشهيد»: اقذفا في جهنم كلَّ كافر معاند للحقِّ لا يؤمن بيوم الحساب ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ أي مبالغ في المنع لكل حقٍّ واجب عليه في ماله ﴿مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ﴾ أي ظالم غاشم شاكٍّ في الدين ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي أشرك بالله ولم يؤمن بوحدانيته ﴿فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ أي فألقياه في نار جهنم -وكرر اللفظ ﴿فَأَلۡقِيَاهُ﴾ للتوكيد- ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ أي قال قرينه وهو الشيطان المقيَّض له: ربنا ما أضللتُه ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ أي ولكنَّه ضلَّ باختياره، وآثر العمى على الهدى من غير إكراهٍ أو إجبار، وفي الآية محذوفٌ دل عليه السياق كأن الكافر قال: يا رب إن شيطاني هو الذي أطغاني فيقول قرينه: ربنا ما أطغيتُه بل كان هو نفسه ضالاًّ معاندًا للحق فأعنتُه عليه ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ أي فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ للكافرين وقرنائهم من الشياطين: لا تتخاصموا هنا فما ينفع الخصام ولا الجدال، وقد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابي، وحذرتكم شديد عقابي، فلم تنفعكم الآياتُ والنُّذر ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ أي ما يُغيَّر كلامي، ولا يُبدَّل حكمي بعقاب الكفرة المجرمين قال

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٢. (ش): جَالَ فِي الْأَرْضِ: طاف ودَارَ وتجوّل غير مستقرّ فيها.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٧٨. (ش): ضعيف، أخرجه الحاكم في «المستدرك»، والطبري في «تفسيره».

المفسرون: المراد وعدُه تعالى بعذاب الكافر وتخليده في النار بقوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[(١)] [هود: ١١٩] ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ولست ظالمًا حتى أعذب أحدًا بدون استحقاق، وأعاقبه بدون جرم ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب يوم يقول الله تعالى لجهنم هل امتلأت، وتقول هل هناك من زيادة؟ وفي الحديث «لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ - أي قد اكتفيتُ - وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ»[(٢)].

والظاهر أن السؤال والجواب على حقيقتهما[(٣)]، والله على كل شيء قدير، فإن إنطاق الجماد والشجر والحجر جائز عقلًا، وحاصلٌ شرعًا، وقد أخبر القرآن الكريم أنَّ نملة تكلمت، وأن كل شيء يسبح بحمد الله، وورد في «صحيح مسلم» أن المسلمين في آخر الزمان يقاتلون اليهود، حتى يختبئ اليهودي وراء الشجر والحجر، فيُنطِقُ الله الشجر والحجر.. إلخ وقيل: إن الآية على التمثيل وإنما تصويرٌ لسعة جهنم وتباعد أقطارها بحيث لو ألقى فيها جميع الكفرة والمجرمين فإنها تتسع لهم[(٤)]، وهو كقولهم «قال الحائطُ للمسمار لم تَشُقُّني؟ قال: سَلْ مَن يدُقُّني»[(٥)] ثم أخبر تعالى عن حال السعداء بعد أن ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قُرِّبت وأدنيت الجنة من المؤمنين المتقين مكانًا غير بعيد، بحيث تكون بمرأى منهم مبالغة في إكرامهم ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي يقال لهم: هذا الذي ترونه من النعيم هو ما وعده الله لكل عبدٍ أوَّاب، أي: رجَّاع إلى الله، حافظٍ لعهده وأمره ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي خاف الرحمن فأطاعه دون أن يراه لقوة يقينه، وجاء بقلبٍ تائب خاضع خاشع ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة

---

(١) «انظر حاشية الجمل» ٤/ ٩٦، و«القرطبي» ١٧/ ١٧.

(٢) الحديث من رواية البخاري ومسلم. (ش): يُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ: يُجْمَع ويُضَم.

(٣) (ش): بل هو الصواب الذي لا يصح غيره.

(٤) هذا القول: أنه ليس ثمة قول وإنما هو على طريق التمثيل قول الخلف، ونقل القرطبي أن هذا هو تفسير مجاهد، والقول الأول قول السلف. (ش): وكلُّ خيرٍ في اتباع مَن سلَف وكلُّ شرٍّ في ابتداع مَن خلَف. وما رُوي عن مجاهد رحمه الله ذكره القرطبي عنه بدون إسناد، وما أظن هذا القول يثبت عنه رحمه الله، فقد جاء في كثير من التفاسير عن مجاهد في تفسير الآية أن كلام الله وكلام النار كلام حقيقي، انظر «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٠)، «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٩)، «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي (٧/ ٦٠٢)، «فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٩٢). وقد قال القرطبي في تفسيره بعد ذلك (١٧/ ١٨): «وَقِيلَ: يُنْطِقُ اللهُ النَّارَ حَتَّى تَقُولَ هَذَا كَمَا تَنْطِقُ الْجَوَارِحُ. وَهَذَا أَصَحُّ». ثم ذكر الحديث الذي أورده المؤلف.

(٥) (ش): هذا تأويل باطل، وهذا الكلام الفاسد خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى قال لجهنم قولاً حقيقيًّا: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وأنها تقول قولًا حقيقيًّا ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. وكيف يقال ذلك وقد فسرها رسول الله ﷺ بغيره كما ورد في الحديث السابق؟

بسلامة من العذاب والهموم والأكدار، ذلك هو يوم البقاء الذي لا انتهاء له أبدًا، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم، وتلذ به أعينهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي وعندنا زيادة على ذلك الإنعام والإكرام، وهو النظر إلى وجه الله الكريم[١].. ثـمَّ خـوَّف تعالى كفار مكة بما حدث للمكذبين قبلهـم فقال ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي وأهلكنـا قبل كفار قريش أممًا كثيرين من الكفار المجرمين ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي هم أقوى من كفار قريش قوة، وأعظم منهم فتكًا وبطشًـا ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي فساروا في البلاد، وطوَّفوا فيها وجالوا في أقطارها، فهل كان لهم من الموت مهرب؟ وهـل كان لهم من عذاب الله مخلص؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي إن فيمـا ذُكـر من إهلاك القرى الظالمة، لتذكرة وموعظة لمن كان له عقل يتدبر به، أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر القلب ليتذكَّر ويعتَبِر قال سـفيان: لا يكون حاضرًا وقلبه غائب[٢] وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سـمعه إذا استمع بأذنيه وهو شـاهد بقلـب غير غائب، وعبَّر عـن العقل بالقلـب لأنه موضعه كما قـال تعالى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ هـذه الآية ردٌّ على اليهود حيث زعموا أن الله خلق السـموات والأرض في ستة أيام، أوَّلُها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وأنه تعب فاستراح يوم السبت واستلقى على ظهره فوق العرش، فكذبهم الله تعالى[٣]. والمعنى: والله خلق السموات السـبع في ارتفاعها وعظمتها، والأرض في كثافتها وسعتها، وما بينهما من المخلوقات البديعة في سـتة أيام، وما مسَّـنا من إعياء وتعب ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي فاصبرْ يا محمد على ما يقوله اليهود وغيرهم مـن كفار قريش، واهجرهم هجرًا جميلًا ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي ونَـزِّهْ ربَّك عمـا لا يليق به، وصلِّ له واعبدْه وقتي الفجر والعصر، وخصَّهما بالذكر لزيادة فضلهما وشـرفهما ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ أي ومن الليل فصـلِّ لله تهجـدًا وأعقـاب الصلوات المفروضة قال ابـن كثير: كانت الصـلاة المفروضة قبل

(١) هذا القول مروى عن أنس وجابر بن عبد الله قالا: المزيد هو أن يتجلى الله تعالى لهم حتى يروه وذلك في كل جمعة، انظر «روح المعاني» ٢٦/ ١٩٠. (ش): رَوَى الْبَزَّارُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، بإسناد ضعيف عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قَالَ: «يَظْهَرُ لَهُمُ الرَّبُّ، عَزَّ وَجَلَّ، فِي كُلِّ جُمُعَةٍ». وروى في ذلك الإمامُ الشافعي في «مُسنَده» حديثًا عن النبي ﷺ بإسنادٍ ضعيف جدًّا. وعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟"، فَيَقُولُونَ: "أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟" فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٧٨.

(٣) هذا قول قتادة والكلبي كذا في «القرطبي» ١٧/ ٢٤.

الإسراء (ثنتان قبل طلوع الشمس، وثنتان قبل الغروب)، وكان قيام الليل واجبًا على النبي ﷺ وعلى أُمته حولًا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ كل ذلك ليلة الإسراء بخمس صلواتٍ، وبقي منهم صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب[1] ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي واستمع يا محمد النداء والصوت حين ينادي إسرافيل بالحشر من موضع قريب يصل صوته إلى الكل على السواء قال أبو السعود: وفيه تهويلٌ وتفظيع لشأن المخبر به، والمنادي هو إسرافيل عليه السلام يقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء[2] ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي يسمعون صيحة البعث التي تأتي بالحقِّ وهي النفخة الثانية في الصور ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ ذلك هو يوم الخروج من القبور ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي نُحيي الخلائق ونميتُهم في الدنيا، وإلينا رجوعهم للجزاء في الآخرة، لا إلى غيرنا ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي يوم تنشقُّ الأرضُ عنهم فيخرجون من القبور مسرعين إلى موقف الحساب استجابةً لنداء المنادي ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي ذلك جمع وبعث سهلٌ هيّنٌ علينا لا يحتاج إلى عناء ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي نحن أعلم بما يقول كفار قريش من إنكار البعث والسخرية والاستهزاء بك وبرسالتك، وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديدٌ لهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي وما أنت يا محمد بمسلَّط عليهم تجبرهم على الإسلام، إنما بُعِثْتَ مذكِّرًا ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي عِظْ بهذا القرآن من يخاف وعيدي.

ختم السورة الكريمة بالتذكير بالقرآن كما افتتحها بالقسم بالقرآن ليتناسق البدء مع الختام:

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإظهار في موطن الإضمار ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [ق: ٢] بدل فقالوا؛ للتسجيل عليهم بالكفر.

٢ - الاستفهام الإنكاري لاستبعاد البعث ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [ق: ٢]؟

٣ - الإضراب عن السابق لبيان ما هو أفظع وأشنع من التعجب ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ٥] وهو التكذيب بآيات الله وبرسوله المؤيد بالمعجزات.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] شَبَّه إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة.

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٧٨.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٩٦. (ش): رواه البيهقي «شعب الإيمان» بإسناد ضعيف. وقد ذكره «أبو السعود» وغيره من المفسرين بدون إسناد.

٥ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] مَثَّل علمه تعالى بأحوال العبد، وبخطرات النفس، بحبل الوريد القريب من القلب، وهو تمثيلٌ للقرب بطريق الاستعارة كقول العرب: هو مني مقعد القابلة، وهو مني معقد الإزار[1].

٦ - الحذف بالإيجاز ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] أصله عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، وبين اليمين والشمال طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

٧ - الاستعارة التصريحية ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [ق: ١٩] استعار لفظ السَّكرة للهول والشدة التي يلقاها المحتضر عند وفاته.

٨ - الجناس الناقص بين ﴿عَنِيدٍ﴾ و ﴿عَتِيدٌ﴾ لتغاير حرفي النون والتاء.

٩ - الطباق بين ﴿نُحْيِۦ﴾ و ﴿وَنُمِيتُ﴾.

١٠ - توافق الفواصل والسجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠] ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ومثل ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ .. ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية، لما فيه من جميل الوقع على السمع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ق»



(١) (ش): هو مِنِّي مَقْعَد القابلة: شديدُ القُرْب كَقُرْب مكان القابِلة (الداية) من المرأة الحامِل التي تُساعدها عند الولادة. هو مِنِّي مَعْقِد الإزارِ، أي: قَريبُ المَنْزِلَةِ كَقُرْب مكان عَقْد الإزار. والإزار: ثوبٌ يحيط بالنصف الأسفل من البدن.



مكية وآياتها ستون

بين يدي السورة

* هذه السـورة الكريمة من السـور المكية التي تقوم على تشـييد دعائم الإيمان، وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان.

* ابتـدأت السـورة الكريمة بالحديث عـن الرياح التي تـذرو الغبار، وتسـير المراكب في البحار، وعن السـحب التي تحمل مياه الأمطار، وعن السـفن الجارية على سطح الماء بقدرة الواحد الأحد، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شـئون الخلق، وأقسـمت بهذه الأمور الأربعة على أن الحشر كائن لا محالة، وأنه لابد من البعث والجزاء.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن كفار مكة، المكذبين بالقرآن وبالدار الآخرة، فبينت حالهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة، حيث يعرضون على نار جهنم فيصلون عذابها ونكالها[1].

* ثم تحدثت عن المؤمنين المتقين، وما أعد الله لهم من النعيم والكرامة في الآخرة، لأنهم كانوا في الدنيا محسنين، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، والإعذار والإنذار.

* ثـم تحدثت عـن دلائل القـدرة والوحدانية في هذا الكون الفسـيح، في سـمائه وأرضه، وجبالـه ووهاده، وفي خلق الإنسـان في أبدع صـورة وأجمل تكوين، وكلهـا دلائل على قدرة رب العالمين.

* ثم انتقلت للحديث عن قصص الرسـل الكرام، وعن موقف الأمم الطاغية من أنبيائهم ومـا حل بهم من العذاب والدمار، فذكرت قصة إبراهيم ولوط، وقصة موسـى، وقصة الطغاة المتكبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح، وفي ذكر القصص وتكراره في القرآن تسـلية للرسـل الكرام، وعبرة لأولي الأبصار، يعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* وختمت السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنسان والجن، وهي معرفة الله جل وعلا، وعبادته وتوحيده، وإفراده بالإخلاص والتوجه لوجهه الكريم بأنواع القربات والعبادات.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾
وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾

(١) (ش): النَّكال: العقاب.

ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ

اللغة: ﴿ٱلۡحُبُكِ﴾ الطرائق جمع حبيكة كطريقة وزنًا ومعنى قال الزجاج: الحُبك الطرائق الحسنة، والمحبوك في اللغة ما أُجيد عمله[1] وقال ابن الأعرابي: كلُّ شيءٍ أحكمته وأحسنت عمله فقد حبكته[2] ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ جمع خرَّاص وهو الكذَّاب ﴿غَمۡرَةٖ﴾ الغمرة ما ستر الشيء وغطَّاه ومنه نهر غمر ﴿يَهۡجَعُونَ﴾ ينامون والهجوع النومُ ليلًا ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ أحسَّ وشعر ﴿صَرَّةٖ﴾ صيحة وضجة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلَّمة.

التفسير: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ هذا قسمٌ أقسم تعالى به أي أُقسم بالرياح التي تذرو التراب فتفرّقه، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ أي وأقسم بالسحب التي تحمل أثقال الأمطار، وهي محمَّلة بالماء الذي فيه حياة البشر ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ أي وأقسم بالسفن التي تجري على وجه الماء جريًا سهلًا بيسر وهي تحمل ذرية بني آدم ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد، وكل ملك مخصَّص بأمر، فجبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب الصور، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح[3] قال المفسرون: أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرفها ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه وقدرته، ثم ذكر جواب القسم فقال ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾

---

(١) «زاد المسير» ٨/ ٢٩.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ١٣٢.

(٣) «حاشية الجمل» ٤/ ٢٠١. (ش): اشتهر أن اسم ملك الموت عزرائيل، إلا أنه لم ترد تسمية ملك الموت بهذا الاسم في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة، وإنما ورد ذلك في بعض الآثار والتي قد تكون من الإسرائيليات. وعلى هذا، لا ينبغي الجزم بالنفي ولا بالإثبات، فلا نثبت أن اسم ملك الموت عزرائيل، ولا ننفي ذلك، بل نفوِّض الأمر إلى الله تعالى ونسميه بما سماه الله تعالى به «ملك الموت».

إي إن الـذي توعدونـه من الثواب والعقاب، والحشـر والنشـر، لَأَمْر صِـدْق محقَّق لا كذبَ فيـه ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي وإنَّ الجـزاء لكائـنٌ لا محالة، ثم ذكر تعالى قسـمًا آخر فقال ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أي وأقسـم بالسـماء ذات الطرائق المحكمة والبُنيان المُتقَن قال ابن عباس: ذات الخلْق الحَسَـن المستوِي[1] ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ جواب القسم أي إنكم أيها الكفار لفي قول مضطرب في أمر محمد، فمنكم من يقول: إنه سـاحر، ومنكم من يقول: إنه شـاعر، وبعضكم يقـول: إنـه مجنون إلـى غير ما هنالك من أقـوال مختلفـة ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي يُصرف عن الإيمان بالقرآن وبمحمد عليه السلام، من صُرف عن الهداية في علم الله تعالى وحُرم السعادة ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ أي لُعن الكذابون الذين قالوا: إن النبي ﷺ سـاحر وكذاب وشـاعر قال ابن الأنبـاري: والقتـلُ إذا أُخبر عـن الله به فهو بمعنى اللعنة، لأن من لعنـه الله فهو بمنزلة المقتول الهالـك[2] ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ أي الذين هم غافلـون لاهون عن أمر الآخرة ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يقولون تكذيبًا واسـتهزاءً: متى يوم الحساب والجزاء؟ قال تعالى ردًّا عليهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي هذا الجزاء كائن يوم يدخلون جهنم ويُحرقون بها ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي تقول لهم خزنة النار: ذوقوا تعذيبكم وجزاءكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي هذا الذي كنتم تسـتعجلونه في الدنيا اسـتهزاءً.. ولمـا ذكر حال الكفار ذكر المؤمنيـن الأبرار فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي هـم في بسـاتين فيها عيون جاريةٌ، تجري فيها علـى نهاية ما يُتنَزَّه به ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي راضيـن بما أعطاهـم ربهم من الكرامة والنعيم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي كانوا في دار الدنيا محسـنين في الأعمال، ثم ذكر طرفًا من إحسـانهم فقال ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي كانوا ينامون قليلًا من الليل ويصلُّون أكثره قال الحسن: كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلًا[3] ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وفي أواخر الليل يسـتغفرون الله من تقصيرهم، فهم مع إحسانهم يعدُّون أنفسهم مذنبين، ولذلك يكثرون الاستغفار بالأسحار قال أبو السـعود: أي هم مع قلة نومهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاسـتغفار بالأسحار، كأنهم أسْلَفوا ليلَهم باقتراف الجرائم[4]، وهو مدح ثانٍ للمحسنين ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ مـدحٌ ثالـث أي وفي أموالهـم نصيب معلوم قد أوجبوه على أنفسـهم بمقتضى الكرم للسـائل المحتـاج، وللمتعفـف الـذي لا يسـأل لتعففـه[5] ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي وفي الأرض

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٠.
(٢) «زاد المسير لابن الجوزي» ٨/ ٣٠.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٣٥.
(٤) «إرشاد العقل السليم» ٥/ ٢٤٠.
(٥) هو المشهور عن ابن عباس أنه حق سوى الزكاة، يقرى به ضيفًا، ويصل به رحمًا، ويحمل به كلاًّ، وقيل: إنه الزكاة وهو قول قتادة وابن سيرين.

دلائل واضحة على قدرة الله سبحانه ووحدانيته للموقنين بالله وعظمته، الذين يعرفونه بصنعه قال ابن كثير: أي وفي الأرض من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما فيها من صنوف النباتات والحيوانات، والجبال والقفار، والبحار والأنهار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الخلق البديع[١]، ولهذا قال بعده ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي وفي أنفسكم آياتٌ وعبرٌ من مبدأ خلقكم إلى منتهاه، أفلا تبصرون قدرة الله في خلقكم لتعرفوا قدرته على البعث؟ قال ابن عباس: يريد اختلاف الصور، والألسنة، والألوان، والطبائع، والسمع والبصر والعقل[٢] إلى غير ذلك من العجائب المُودَعة في ابن آدم وقال قتادة: من تفكَّر في خلق نفسه عرف أنه إنما خُلِق ولُيِّنَتْ مفاصلُه للعبادة ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي وفي السماء أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد، وما توعدون به من الثواب والعقاب مكتوب كذلك في السماء قال الصاوي: والآيةُ قُصد بها الامتنان والوعد والوعيد[٣] ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ أي أقسم بربِّ السماءِ والأرضِ إن ما توعدون به من الرزق والبعث والنشور لحقٌّ كائن لا محالة مثل نطقكم، فكما لا تَشُكُّون في نطقكم حين تنطقون فكذلك يجب ألا تَشُكُّوا في الرزق والبعث قال المفسرون: وهذا على سبيل التشبيه والتمثيل أي رزقكم مقسوم في السماء كنطقكم فلا تشكوا في ذلك، وهذا كقول القائل: هذا حق كما أنك ههنا، وهذا حق كما أنك ترى وتسمع[٤]، فالرزق مثل النطق لا يفارق الشخص في حالٍ من الأحوال وفي الحديث «لَوْ فَرَّ أَحَدُكُمْ مِنْ رِزْقِهِ لَأَدْرَكَهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ»[٥]. ثم ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبي الكريم فقال ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾؟ الاستفهام للتشويق ولتفخيم شأن تلك القصة كما يقول القائل: هل بلغك الخبر الفلاني؟ يريد تشويقه إلى استماعه. والمعنى: هل وصل إلى سمعك يا محمد خبر ضيوف إبراهيم المعظَّمين؟ قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام[٦]، سُمُّوا مكرمين لكرامتهم عند الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فقالوا: نسلِّم عليك سلامًا ﴿قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أي قال: علكيم سلامٌ أنتم قومٌ غرباء لا نعرفكم فمن أنتم؟ قال ابن كثير: وإنما أنكرهم لأنهم قدموا عليه

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٨٤.
(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٣.
(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٢٥.
(٤) انظر «البحر المحيط» ٨/ ١٣٧.
(٥) ذكر القرطبي في «تفسيره» ١٧/ ٤٣ وأسنده إلى الثعلبي. (ش): رواه الطبراني، وحسنه الألباني.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٤٤.

في صورة شبانٍ حسانٍ عليهم مهابة عظيمة ولهذا أنكرهم[١] وقال أبو حيان: والذي يناسب حال إبراهيم عليه السلام أنه لا يخاطبهم بذلك، إذْ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، وإنما قال ذلك في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي فمضى إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه، لأن من أدب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه في التأخير قال ابن قتيبة: عدل إليهم في خفية ولا يكون الرَّواغُ إلا أن تُخفي ذهابك ومجيئك ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي فجاءهم بعجل سمينٍ مشوي، والعجلُ ولدُ البقرة وكان عامة ماله البقر، واختاره لهم سمينًا زيادة في إكرامهم ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي فأدْناه منهم ووضعه بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم في تلطف وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام. قال ابن كثير: وفي الآية تلطف في العبارة وعرض حسن، وقد انتظمت الآية آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يتمنَّ عليهم أولًا فقال: نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعةٍ وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فَتِيٌّ سمين مشوي، فقرَّبه إليه ولم يضَعْه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ألا تأكلون؟ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي فأضمر في نفسه الخوف منهم لما رأى إعراضهم عن الطعام ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ أي قالوا له: لا تخف إنا رُسُلُ ربِّك ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي وبشروه بولدٍ يولد له من زوجته سارة يكون عالمًا عند بلوغه قال أبو حيان: وفيه تبشيرٌ بحياته حتى يكون من العلماء، والجمهور على أن المبشر به هو إسحاق لقوله تعالى في سورة هود ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي فأقبلت سارة نحوهم حيث سمعت البشارة في صيحةٍ وضجة قال المفسرون: لما سمعت بالبشارة وكانت في زاوية من زوايا البيت جاءت نحوهم في صيحة عظيمة تريد أن تستفر الخبر ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي فلطمت وجهها على عادة النساء عند التعجب قال ابن عباس: لطمت وجهها تعجبًا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي قالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ والعقيم هي التي لم تلد قطّ لانقطاع حَبَلِها. قال الإمام الجلال: كان عمرها تسعًا وتسعين سنة، وعمر إبراهيم مائة وعشرين ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي الأمر كما أخبرناك هكذا حكم وقضى ربك من الأزل فلا تعجبي ولا تشكّي فيه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي الحكيم في صنعه، العليم بمصالح خلقه ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي ما شأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم أيها الملائكة الأبرار؟ قال البيضاوي: لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٨٥.

إلا لأمرٍ عظيم سأل عنه[١] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ أي قالوا: إن الله أرسلنا لإهلاك قوم لوط الذين ارتكبوا أفحش الجرائم «اللواط» وكانوا ذوي جرائم متعددة، وهي كبار المعاصي من كفر وعصيان ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ أي لنهلكهم بحجارةٍ من طين متحجر مطبوخ بالنار وهو السجيل قال أبو حيان: والسجيلُ طينٌ يطبخ كما يطبخ الآجُرُّ[٢] حتى يصبح في صلابة الحجارة[٣] ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي معلَّمة من عند الله بعلامة، على كل واحدةٍ منها اسم صاحبها الذي يهلك بها ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحدَّ في الفجور قال الصاوي: كان في قرى لوط ستمائة ألف فأدخل جبريل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم، ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم ثم قلبها، ثم أرسل الحجارة على من كان خارجًا عنها[٤] ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي فأخرجنا من كان في قرى أهل لوط من المؤمنين لئلا يهلكوا ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي فما كان فيها بعد البحث والتفتيش غير أهل بيت واحد من المسلمين قال: مجاهد هم لوطٌ وابنتاه، والغرضُ من الآية بيان قلة المؤمنين الناجين من العذاب، وكثرة الكافرين المستحقين للهلاك قال الإمام الجلال: وصفوا بالإيمان والإسلام أي هم مصدقون بقلوبهم، عاملون بجوارحهم الطاعات[٥] ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ﴾ أي أبقينا في تلك القرى المهلكة بعد إهلاك الظالمين علامةً على هلاكهم بجعل عاليها سافلها ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ أي للذين يخافون عذاب الله فإنهم المعتبرون به قال ابن كثير: ومعنى الآية ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ﴾ أي جعلناها عبرةً بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال، وجعلنا محلتهم بحيرةً منتنة خبيثة ففي ذلك عبرةٌ للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم[٦].

تنبيه: قال الإمام الرازي: في قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبي الكريم ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله، واختار تعالى إبراهيم لكونه شيخ المرسلين، وكون النبي ﷺ على سنته في بعض الأشياء، وفيها إنذار لقومه بما أجرى من الضَّيْفِ[٧].

---

(١) «تفسير البيضاوي» ٤/ ١٦٧.

(٢) (ش): الآجُرُّ: طوب لبِنٌ محروق مُعَدٌّ للبناء، وتتكوَّن المادّة المحرقة من الطِّين أو أي مخلوط آخر كالجير والرَّمل أو الأسمنت والرَّمل. واللَّبن: قوالب مربَّعة أو مستطيلة مضروبة من الطِّين تستعمل في البناء.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٤٠.

(٤) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٢٦.

(٥) «تفسير الجلالين» ٤/ ٢٠٥.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٨٥.

(٧) (ش): قال الرازي: إِذَا كَانَ الْمُرَادُ مَا ذَكَرْتَ مِنَ التَّسْلِيَةِ وَالإِنْذَارِ فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي حِكَايَةِ الضِّيَافَةِ؟ نقول: ليكونَ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى الْفَرَجِ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْبَلَاءِ عَلَى الْجَهَلَةِ وَالْأَغْبِيَاءِ، إِذَا جَاءَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يُحْتَسَبُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الْحَشْر: ٢] فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَبَرٌ مِنْ إِنْزَالِ الْعَذَابِ مَعَ ارْتِفَاعِ مَكَانَتِهِ. ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين.

قال الله تعالى:
﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا
جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ
يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ
﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا
زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم
مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ
قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ
ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ
ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ
ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم الذين أُرسلوا لهلاك قوم لوط أتبعه بذكر قصص الأمم الطاغية، فذكر منهم فرعون وجنوده، وعادًا، وثمود، وقوم نوح، تسليةً للنبي عليه السلام، وتذكيرًا للأنام بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، ثم ذكر دلائل القدرة والوحدانية، وختم السورة الكريمة بإنكار المكذبين الضالين.

اللغَة: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ طرَحْناهم ﴿ٱلۡيَمِّ﴾ البحر ﴿مُلِيمٞ﴾ آتٍ بما يُلَام عليه ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ الشيء الهالك البالي قال الزجاج: الرميمُ: الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم[1]، ورَمَّ العظمُ إِذا بلِيَ فهو رِمَّة ورميم قال جرير يرثي ابنه:

تَرَكْتَنِي حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِي ... وَإِذْ بَقِيتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبَالِي[2]

﴿ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ مهدتُ الفراش مهدًا بسَطتُه ووطَّأْتُه، والتمهيد تسوية الشيء وإِصلاحه ﴿ذَنُوبٗا﴾ الذَّنوب: بفتح الذال النصيب من العذاب.

التفسير: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي وجعلنا في قصة موسى أيضًا آيةً وعبرة وقت إرسالنا له إِلى فرعون ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي بحجة واضحة ودليل باهر ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ أي فأعرض عن الإِيمان بموسى بجموعه وأجناده، وقوته وسلطانه قال مجاهد: تعزَّز عدوُّ الله بأصحابه[3] والغرض أن فرعون أعرض عن الإيمان بسبب ما كان يتقوى به من جنوده

(١) «زاد المسير» ٨/ ٣٩.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٥١.
(٣) «المختصر» ٣/ ٣٨٦، ونقل عن ابن عباس أن المراد «بركنه» أي بقوته وسلطانه، وقد جمعنا بين القولين في التفسير.

لأنهم كانوا له كالركن الذي يعتمد عليه البنيان ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي وقال اللعين في شأن موسى: إنه ساحرٌ ولذلك أتى بهذه الخوارق، أو مجنون ولذلك ادَّعى الرسالة، وإنما قال ذلك تمويهًا على قومه لا شكًّا منه في صدق موسى[١] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أي فأخذنا فرعون مع أصحابه وجنوده ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي فطرحناهم في البحر لما أغضبونا وكذبوا رسولنا ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي وهو آتٍ بما يُلامُ عليه من الكفر والطغيان.. ثم لما انتهى من قصة فرعون أعقبها بذكر قصة عاد فقال ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أي وجعلنا في قصة عاد كذلك آية لمن تأمل حين أرسلنا عليهم الريح المدمرة، التي لا خير فيها ولا بركة، لأنها لا تحمل المطر ولا تلقّح الشجر[٢]، وإنما هي لِلإهلاك، وهي الريح التي تسمَّى الدبور وفي الصحيح «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[٣]. قال المفسرون: سميت ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ تشبيهًا لهم بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد، ولما كانت هذه الريح لا تلقح سحابًا ولا شجرًا، ولا خير فيها ولا بركة لأنها لا تحمل المطر شبهت بالمرأة العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي ما تترك شيئًا مرَّت عليه في طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي إلا جعلته كالهشيم المتفتت البالي قال ابن عباس: ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ الشيء الهالك البالي وقال السدي: هو التراب والرماد المدقوق[٤] كقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] قال المفسرون: كانت الريح التي أرسلها الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، استمرت عليهم ثمانية أيام متتابعة، فكانت تهدم البنيان وتنتزع الرجال فترفعهم إلى السماء حتى يرى الواحد منهم كالطير ثم ترمي به إلى الأرض جثة هامدة ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]. ثم أخبر تعالى عن هلاك ثمود فقال ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ أي وجعلنا في ثمود أيضًا آية وعبرة ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي حين قيل لهم: عيشوا متمتعين بالدنيا إلى وقت الهلاك بعد عقرهم للناقة، وهو ثلاثة أيام كما في هود ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي فاستكبروا عن امتثال أمر الله، وعصوا رسولهم فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي

---

(١) لفظه «أو» للشك، وذهب بعض المفسرين إلى أنها بمعنى الواو أي ساحر ومجنون لأن اللعين قال الأمرين معًا فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وهو اختيار القرطبي، وقال الألوسي: لا ضرورة إلى ذلك التأويل لأن اللعين كان يتلوَّن تَلَوُّن الحرباء.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٥. (ش): في الهوامش من هنا حتى نهاية السورة أخطاء طباعية كثيرة في أكثر من طبعة، والمُثْبَت هنا هو الصواب.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم. (نُصِرْتُ بِالصَّبَا) الصَّبَا: هي الريح الشرقية، الريح التي تهب من مشرق الشمس ونُصرَتُه بها ﷺ كانت يوم الخندق أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. (وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ) الدَّبُورِ: هي الريح الغربية، الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

(٤) «حاشية الجمل» ٤/ ٢٠٧.

فأخذتهم الصيحة المهلكة صيحة العذاب ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي وهم يشاهدونها ويعاينونها لأنها جاءت في وضح النهار قال ابن كثير: وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار(١) وقال الألوسي: إن صالحًا عليه السلام وعدهم بالهلاك بعد ثلاثة أيام وقال لهم: تصبح وجوهكم غدًا مصفرة، وبعد غد محمرة، وفي اليوم الثالث مسودَّة، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا الآيات التي بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله، وفي اليوم الرابع أتتهم الصاعقة وهي نار من السماء، وقيل: صيحة؛ فهلكوا(٢) ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ﴾ أي ما قدروا على الهرب والنهوض من شدة الصيحة، بل أصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أي وما كانوا ممن ينتصر لنفسه فيدفع عنها العذاب.. ثم أخبر تعالى عن هلاك قوم نوح فقال: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح بالطوفان من قبل إهلاك هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تعليلٌ للهلاك، أي: لأنهم كانوا فسقةً خارجين عن طاعة الرحمن بارتكابهم الكفر والعصيان.. ولما انتهى من أخبار هلاك الأمم الطاغية المكذبة، شرع في بيان دلال القدرة والوحدانية فقال ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ أي وشيدنا السماء وأحكَمْنا خلْقها بقوةٍ وقدرة قال ابن عباس: ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ بقوة(٣) ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي وإنا لمُوسعون في خلق السماء، فإن الأرض وما يحيط بها من الهواء والماء بالنسبة لها كحلقة صغيرة في فلاة كما ورد في الأحاديث(٤) وقال ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة(٥) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ أي والأرض مهدناها لتستقروا عليها، وبسطناها لكم ومددنا فيها لتنتفعوا بها بالطرقات وأنواع المزروعات، ولا ينافي ذلك كرويتها، فذلك أمرٌ مقطوع به، فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة، فيها السهول الفسيحة، والبقاع الواسعة، مع الجبال والهضاب ولهذا قال تعالى ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ أي فنعم الباسطون الموسعون لها نحن، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ أي ومن كل شيء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكرًا وأنثى، وحلوًا وحامضًا ونحو ذلك(٦) ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكَّروا عظمة الله فتؤمنوا به، وتعلموا

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٨٦.
(٢) «روح المعاني» ٢٧/ ١٦.
(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٤٠.
(٤) (ش): قال ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلاَّ كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلَقَةِ» (رواه ابن حبان والبيهقي، وصححه الألباني).
(٥) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق الكبير المتعال، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها ما هي إلا ذرة أو نقطة تسبح في هذا الكون الفسيح، الذي لا يعلم سعته وعظمته إلا الله رب العالمين، مُنشئ الأكوان وخالق الإنسان، وتمعَّنْ وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ عظمة الكون لتسبح الله مع المسبحين بقلبك ولسانك.
(٦) هذا قول ابن زيد، وقال مجاهد: يعني به المتقابلات كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، =

أن خالق الأزواج واحدٌ أحَدٌ ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي الجئوا إلى الله، واهرعوا إلى توحيده وطاعته قال أبو حيان: والأمر بالفرار إلى الله أمرٌ بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن، وإنما ذكر بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقابًا وعذابًا، وأمرٌ حَقُّه أن يُفَرَّ منه، فقد جمعت اللفظة بين التحذير والاستدعاء، ومثله قول النبي ﷺ: « لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ »[1] وقال ابن الجوزي: المعنى اهربوا مما يُوجِب العقاب من الكفر والعصيان، إلى ما يُوجِب الثواب من الطاعة والإيمان[2] ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ﴾ أي إني أنذركم عذاب الله وأخوفكم انتقامه ﴿مُّبِينٞ﴾ أي واضحٌ أمري فقد أيدني الله بالمعجزات الباهرات ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا تشركوا مع الله أحدًا من بشر أو حجر ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ كرر اللفظ للتأكيد والتنبيه إلى خطر الإشراك بالله. قال الخازن: وإنما كرر اللفظ عند الأمر بالطاعة، والنهي عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلاّ مع العمل، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز وينجو عند الله إلاّ الجامع بينهما[3] ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ أي كما كذبك قومك يا محمد، وقالوا عنك: إنك ساحرٌ أو مجنون، كذلك قال المكَذِّبون الأوَّلون لرسلهم، فلا تحزن لما يقول المجرمون ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾ أي هل أوصَى أولُهُم آخرَهم بالتكذيب؟ وهو استفهام للتعجب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، ثم أضرب عن هذا النفي والتوبيخ فقال ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أي لم يوص بعضهم بعضًا بذلك، بل حملهم الطغيان على التكذيب والعصيان فلذلك قالوا ما قالوا ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ فأعرض يا محمد عنهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ أي فلا لوم عليك ولا عتاب، لأنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، وبذلت الجهد في النصح والإرشاد ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي لا تدع التذكير والموعظة فإن القلوب المؤمنة تنتفع وتتأثر بالموعظة الحسنة.. ثم ذكر تعالى الغاية من خلق الخلق فقال ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ أي وما خلقت الثقلين الإنس والجن إلا لعبادتي وتوحيدي، لا لطلب الدنيا والانهماك بها قال ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ إلا ليُقِرُّوا لي بالعبادة طوعًا أو كرهًا وقال مجاهد: إلا ليعرفوني[4] قال الرازي: لما بَيَّن تعالى حال المكذبين ذكر هذه الآية ليبيّن سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله مع أن خلقهم لم يكن

= والليل والنهار، والنور والظلام، والخير والشر وأمثال ذلك. كذا في «القرطبي» ١٧/ ٥٣، وهو اختيار الطبري لأنه أَدَلُّ على العظمة والقدرة.

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٢٤. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٤١.

(٣)«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٦).

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٥٥.

إلا للعبادة[١] ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ أي لا أريد منهم أن يرزقوني أو يرزقوا أنفسهم أو غيرهم بل أنا الرزَّاق المعطي ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ أي ولا أُريد منهم أن يطعموا خلقي ولا أن يطعموني فأنا الغني الحميد قال البيضاوي: والمراد أن يبيّن أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم[٢]، فكأنه سبحانه يقول: ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين السادة بعبيدهم، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ أي إنه جل وعلا هو الرزاق، المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهم، أتى باسم الجلالة الظاهر للتفخيم والتعظيم، وأكد الجملة بإن والضمير المنفصل لقطع أوهام الخلق في أمور الرزق، وليقوي اعتمادهم على الله ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾ أي ذو القدرة الباهرة ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ أي شديد القوة لا يطرأ عليه عجزٌ ولا ضعف قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إلى الله في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم، وفي الحديث القدسي «يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»[٣] ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ أي فإن لهؤلاء الكفار الذين كذبوا الرسول ﷺ نصيبًا من العذاب مثل نصيب أسلافهم الذين أُهلكوا كقوم نوح وعاد وثمود ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ أي فلا يتعجلوا عذابي فإنه واقع لا محالة إن عاجلًا أو آجلًا ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب لهؤلاء الكفار في يوم القيامة الذي وعدهم الله به.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] لأن السائل الطالب، والمحروم المتعفف.

٢ - تأكيد الخبر بالقسم وإنَّ واللام ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [الذاريات: ٢٣] ويسمى هذا الضرب إنكاريًّا، لأن المخاطب منكر لذلك.

٣ - أسلوب التشويق والتفخيم ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]؟

٤ - الاستعارة ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ استعار الركن للجنود والجموع لأنه يحصل بهم التقوِّي والاعتماد كما يعتمد على الركن في البناء أو استعاره للقوة والشدة.

٥ - المجاز العقلي ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ أطلق اسم الفاعل على اسم المفعول، أي: ملام على طغيانه.

٦ - الاستعارة التبعية ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم

(١) «تفسير الفخر الرازي» ٧/ ٦٨٥.
(٢) «تفسير البيضاوي» ٤/ ١٦٨.
(٣) أخرجه الترمذي وأحمد وانظر «المختصر» ٣/ ٣٨٧. (ش): صححه الألباني وأحمد شاكر.

حملهن ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم بطريق الاستعارة.

٧ - حذف الإِيجاز ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] أي: أنتم قوم منكرون ومثلها ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ [الذاريات: ٢٩] أي: أنا عجوز.

٨ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ أي نصيبًا من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين في الشدة والغلظة، حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

٩ - الإِطناب بتكرار الفعل ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ للمبالغة والتأكيد.

١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في جمال الأسلوب ورونقه مثل ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ .. وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

لطيفة: ذكر أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣] فقال: يا سبحان الله من الذي أغضب الجليل حتى حلف (ألم يصدقوه في قوله حتى ألجئوه إلى اليمين؟ يا ويح الناس)!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات»





مكية وآياتها تسع وأربعون

بين يدي السورة

* سورة الطور من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية، وتبحث في أصول العقيدة وهي «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء».

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن أهوال الآخرة وشدائدها، وعما يلقاه الكافرون في ذلك الموقف الرهيب «موقف الحساب» وأقسمت على أن العذاب نازل بالكفار لا محالة، لا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع، وكان القسم بأمور خمسة تنبيهًا على أهمية الموضوع.

* ثم تناولت الحديث عن المتقين، وهم في جنات النعيم، على سرر متقابلين، وقد جمع الله لهم أنواع السعادة «الحور العين، واجتماع الشمل بالذرية والبنين، والتنعم والتلذذ بأنواع المآكل والمشارب من فواكه وثمار، ولحوم متنوعة مما يشتهى ويستطاب» إلى غير ما هنالك من أنواع النعيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

* ثم تحدثت عن رسالة محمد بن عبدالله صلوات الله عليه، وأمرته بالتذكير والإنذار للكفرة الفجار، غير عابئ بما يقوله المشركون وما يفتريه المفترون حول الرسالة والرسول، فليس محمد ﷺ بإنعام الله عليه بالنبوة وإكرامه بالرسالة بكاهن ولا مجنون كما زعم المجرمون.

* ثم أنكرت السورة على المشركين مزاعمهم الباطلة في شأن نبوة محمد ﷺ، وردت عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وأقامت الدلائل على صدق رسالة محمد عليه السلام.

* وختمت السورة الكريمة بالتهكم بالكافرين وأوثانهم بطريق التوبيخ والتقريع، وبينت شدة عنادهم، وفرط طغيانهم، وأمرت الرسول ﷺ بالصبر على تحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله.

التسمية: سميت «سورة الطور» لأن الله تعالى بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، ونال ذلك الجبل من الأنوار والتجليات والفيوضات الإلهية ما جعله مكانًا وبقعة مشرفة على سائر الجبال في بقاع الأرض.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾

اللغَة: ﴿رَقٍّ﴾ الرَّق بالفتح والكسر جلد رقيق يكتب فيه وقال أبو عبيدة: الرقُّ الورق وفي الصحاح: الرقُّ بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق[1] ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ الموقد نارًا يقال: سجرت النار أي أوقدتها ﴿تَمُورُ﴾ مار الشيء يمور مورًا إذا تحرك واضطرب، وجاء وذهب، قال جرير:

فَمَا زَالَتِ الْقَتْلَى تَمُجُّ دِمَاءَهَا ... بِدِجْلَةَ حَتَّى مَاءُ دِجْلَةَ أَشْكَلُ[2]

﴿يُدَعُّونَ﴾ يدفعون بشدة وعنف، والدَّع: الدفع بشدة وإهانة ﴿أَلَتْنَٰهُم﴾ أنقصناهم ﴿رَهِينٌ﴾ محبوس ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ الريح الحارة النافذة في المسَامّ.

التفسِير: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ أقسم تعالى بجبل الطور الذي كلَّم الله عليه موسى، وأقسم بالكتاب الذي أنزله على خاتم رسله وهو القرآن العظيم المكتوب ﴿فِى رَقٍّ﴾ أي في أديمٍ من الجلد الرقيق ﴿مَّنشُورٍ﴾ أي مبسوط غير مطوي وغير مختوم عليه قال القرطبي: أقسم الله تعالى بالكتاب المسطور، أي: المكتوب وهو القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ، وقيل: يعني بالكتاب سائر الكتب المنزلة على الأنبياء لأن كل كتاب في رقٍّ ينشره أهله لقراءته، والرقُّ ما رقّق من الجلد ليكتب فيه[3] ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ أي وأُقسم بالبيت المعمور الذي تطوف به الملائكة الأبرار، وهو لأهل السماء

---

(١) «الصحاح» مادة رقَّ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٦٣. (ش): الأَشْكَلُ: ما فيه بياضٌ وحُمرة.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٥٨.

كالكعبة المشرفة لأهل الأرض، وفي حديث الإسراء «ثُمَّ رُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ»(١) وقال ابن عباس: هو بيتٌ في السماء السابعة حيال الكعبة أي مقابلها وحذاءها تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة ثم لا يعودون إليه(٢) ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ أي والسماء العالية المرتفعة، الواقفة بقدرة الله بلا عمد، سمَّى السماء سقفًا لأنها للأرض كالسقف للبيت ودليله ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء:٣٢] وقال ابن عباس: هو العرش وهو سقف الجنة(٣) قال ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» رواه البخاري. ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي والبحر المسجور الموقد نارًا يوم القيامة كقوله ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير:٦] أي أضرمت حتى تصير نارًا ملتهبة تتأجج تحيط بأهل الموقف ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ هذا جواب القسم، أي: إن عذاب الله لنازل بالكافرين لا محالة قال ابن الجوزي: أقسم تعالى بهذه الأشياء الخمسة للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته على أن عذاب المشركين حق(٤) ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم قال أبو حيان: والواو الأولى للقسم وما بعدها للعطف(٥)، والجملة المقسم عليها هي ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ وفي إضافته إلى الرب وإضافته لكاف الخطاب أمانٌ له ﷺ وأن العذاب واقع بمن كذبه -ولفظ (واقع) أشد من كائن، كأنه مهيأ في مكان مرتفع فيقع على مَن حَلَّ به-(٦) ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ أي تتحرك السماء

---

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه. (ش): ورواه البخاري. (آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ) أي دخولُهم الأول ذلك هو آخر دخولٍ لهم لكَثْرتهم.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٨٨.

(٣) (ش): أي إن السقف المرفوع هو العرش وهو سقف الجنة.

(٤)«زاد المسير» ٨/ ٤٨.

(٥) (ش): الواو الأولى للقسم، أي قوله تعالى: (وَٱلطُّورِ).وما بعدها للعطف، أي قوله تعالى: (وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ)، (وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ) (وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ)، (وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ).

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ١٤٧، والآية فيها أهوال وشدائد ينخلع لها قلب المؤمن، روى عن جبير بن مطعم أنه قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب: ﴿وَٱلطُّورِ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ....﴾ إلى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ فكأنما صدع قلبي، فأسلمت خوفًا من نزول العذاب، وما كنتُ أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب. (ش): عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ - رضي الله عنه - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. رواه البخاري.وعَنْ جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه أَنَّهُ جَاءَ فِي فِدَاءِ أُسَارَى أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ: فَوَافَقْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقْرَأُ فِي صَلاةِ الْمَغْرِبِ ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ [الطور: ١ ٣]، قَالَ: فَأَخَذَنِي مِنْ قِرَاءَتِهِ كَالْكَرْبِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُ مِنْ أَمْرِ الإِسْلامِ. فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ [الطور: ٨]، وَقَدْ خَرَجَ صَوْتُهُ مِنَ الْمَسْجِدِ =

وتضطرب اضطرابًا شديدًا من هول ذلك اليوم ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي تنسف نسفًا عن وجه الأرض فتكون هباءً منثورًا كقوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] قال الخازن: والحكمة في مور السماء وسير الجبال، الإنذارُ والإعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا، وذلك لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بني آدم بذلك، فلما لم يبق لهم عودٌ إليها أزالها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة[(١)] ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب للمكذبين أرسلَ الله في ذلك اليوم الرهيب ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي الذين هم في الدنيا يخوضون في الباطل غافلون ساهون عما يراد بهم ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي يوم يُدْفعون إلى نار جهنم دفعًا بشدة وعنف قال في البحر: وذلك أن خزنة جهنم يغلّون أيدي الكفار إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعون بهم دفعًا إلى النار على وجوههم وزجًّا في أقفيتهم حتى يردُّوا إلى النار،[(٢)] فإذا دنَوْا منها قال لهم خزنتها ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي هذه نار جهنم التي كنتم تهزءون وتكذبون بها في الدنيا ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي وتقول لهم الزبانية تقريعًا وتوبيخًا: هل هذا الذي ترونه بأعينكم من لعذاب سحرٌ، أم أنتم اليوم عُمْيٌ كما كنتم في الدنيا عُمْيًا عن الخير والإيمان؟ قال أبو السعود: وقوله تعالى ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ توبيخ لهم وتقريع حيث كانوا يسمون القرآن الناطق بالحق سحرًا فكأنه قيل لهم: كنتم تقولون عن القرآن: إنه سحر. أفهذا العذاب أيضًا سحر أم سُدَّت أبصاركم كما سُدَّت في الدنيا؟[(٣)] ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ أي قاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، وهو توبيخ آخر ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي يتساوى عليكم الصبر والجزع لأنكم مخلدون في جهنم أبدًا ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة من الكفر والتكذيب، ولا يظلم ربك أحدًا.. ولما ذكر حال الكفرة الأشقياء ذكر حال المؤمنين السعداء على عادة القرآن الكريم في الجمع بين الترهيب والترغيب فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم في الآخرة في بساتين عظيمة ونعيم مقيم خالد ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي متنعمين ومتلذذين بما أعطاهم ربهم

= ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨]، فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي (رواه الطبراني بإسناد حسن). قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٣٧): «وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأُسَارَى، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا، وَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ».

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٠٧.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ١٤٧.

(٣) «تفسير أبي السعود على هامش الرازي» ٧/ ٦٩٧.

مـن الخير والكرامة وأصناف الملاذ من مآكل ومشـارب، وملابـس ومراكب، وغير ذلك من مـلاذ الجنـة ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وقـد نجاهـم ربهم من عـذاب جهنم وصرف فيها من السـرور ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطر على قلب بشـر [١] ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: كلوا واشـربوا أكلًا وشـربًا هنيًّا، لا تنغيص فيه ولا كدر، بسـبب مـا قدمتم من صالـح الأعمال. ثم أخـبر تعالى عن حالهـم عند أكلهم وشـربهم فقال ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي جالسين على هيئة المضطجع على سرر من ذهب مكلَّلة بالدر والياقـوت، مصطفـة بعضها إلى جانـب بعض، قال ابن كثيـر: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي وجوه بعضهم إلـى بعض كقوله ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] [٢] وفي الحديث «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَّكِئُ الْمُتَّكَأَ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ سَـنَةً مَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ وَلَا يَمَلُّهُ، يَأْتِيهِ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ وَلَذَّتْ عَيْنُهُ» [٣] ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حسـانًا من الحور العين، وهنَّ نسـاء بيض واسـعات العيون -من الحَوَر وهو شـدة البياض- والعِينُ جمع عيناء وهي كبيرة العين -والبياضُ مع سـعة العين نهاية الحسـن والجمـال- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾ أي كانـوا مؤمنين وشـاركهم أولادهـم في الإيمـان ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي ألحقنا الأبنـاء بالآباء لتقـرَّ بهـم أعينهم وإن لم يبلغوا أعمالهـم قال ابن عباس: إن الله عز وجـل ليرفع ذرية المؤمن معـه في درجتـه في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقرَّ بهم عينه وتلا الآية [٤] قال الزمخشـري: فيجمع الله لأهل الجنة أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسـلهم بهم [٥] ﴿وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي وما نقصنا الآباء من ثواب عملهم شـيئًا قال في البحر: المعنى أنه تعالى يُلحق المقصِّر بالمحسـن ولا ينقص المحسـن من أجره شـيئًا [٦] ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي كل إنسـان مرتهن بعمله لا يُحمل عليه ذنب غيره سواء كان أبًا أو ابنًا وقال ابن عباس: ارتهن أهل جهنم بأعمالهم، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم [٧] وقال الخازن: المراد بالآية الكافر أي كل كافر بما عمل من الشـرك مرتهـن بعمله في النـار، والمؤمن لا يكون مرتهنًا بعمله لقولـه تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٩٠.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة. (ش): رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٦٦.

(٥) «تفسير الكشاف» ٤/ ٢٧٢.

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ١٤٩، وهذا تأويل ابن عباس.

(٧) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٦٨.

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ [١] [المدثر: ٣٨-٣٩].. ثم ذكر ما وعدهم به من الفضل والنعمة فقال ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي وزدناهم فوق ما لهم من النعيم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويُشتهى ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي يتعاطون في الجنة كأسًا من الخمر، يتجاذبها بعضهم من بعض تلذُّذًا وتأنُّسًا قال الألوسي: أي يتجاذبونها تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك النَّدامَى في الدنيا لشدة سرورهم[٢] ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ أي لا يقع بينهم بسبب شربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام، ولا يلحقهم إثم كما يلحق شارب الخمر في الدنيا قال قتادة: نزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات الكلام الفارغ الذي لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفحش، ووصفها بحسن منظرها وطيب طعمها، فقال ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [٣] [الصافات: ٤٦-٤٧] ثم قال تعالى ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي ويطوف عليهم للخدمة غلمان مماليك خصصهم تعالى لخدمتهم ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ أي كأنهم في الحسن، والبياض، والصفاء اللؤلؤ المصون في الصدف قال القرطبي: وهؤلاء الغلمان قيل: هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة[٤]، وليس في الجنة نَصَبٌ ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على غاية النعيم[٥] ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي أقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضًا عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، تلذذًا بالحديث، واعترافًا بالنعمة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أي قال المسئولون: إنا كنا في دار الدنيا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي فأكرمنا الله بالمغفرة والجنة، وأجارنا مما نخاف، وحمانا من عذاب جهنم النافذة في المسام نفوذ الريح الحارة الشديدة وهي التي تسمى ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ قال الفخر الرازي: والآية إشارة إلى أن أهل الجنة يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا، فتزداد لذة المؤمن

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٨.

(٢) «روح المعاني» ٢٧/ ٣٤. (ش): نَدامَى: جمع نَديم: مُجالِسٌ على الشّراب وعلى المائدة عامَّةً. والنديم: الرفيق والصاحب.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٩١.

(٤) (ش): أطفال المسلمين لا خلاف بين العلماء أنهم من أهل الجنة.

أما أطفال الكفار فقد اختلف العلماء فيه إلى أقوال:

١- أنَّهم في الجنَّة. ٢- أنَّهم مع آبائهم في النار. ٣- التوقف فيهم.

٤- أنَّهم خدم أهل الجنَّة. قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولا أصل لهذا القول». «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٧٩).

وقد ورد ذلك في حديث عند الطبراني والبزار، لكن ضعفه الأئمة ومنهم الحافظ ابن حجر.

٥- أنَّهم يُمتَحَنون في الآخرة، فمن أطاع الله دخل الجنة، ومن عصى دخل النار. وهو قول طائفة من المحققين، وهو الذي مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الذي رجحه الحافظ ابن كثير، وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٦٩.

حيث يرى نفسه انتقلت من الضيق إلى السعة، ومن السجن إلى الجنة، ويزداد الكفار ألمًا حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم[١] ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي قال أهل الجنة: إنا كنا في الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه، فاستجاب الله لنا فأعطانا سُؤْلنا[٢] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إنه تعالى هو المُحْسِن، والمتفضِّل على عباده بالرحمة والغفران، وهو كالتعليل لما سبق، عن مسروق أن عائشة رضي الله تعالى عنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقِنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم[٣].

قال الله تعالى:

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ

المناسَبة: لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب بالكافرين، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين، أمر تعالى رسوله بالتذكير، إنذارًا للكافرين وتبشيرًا للمؤمنين، وختم السورة الكريمة ببيان عاقبة المكذبين، وحفظ الله ورعايته لرسوله الكريم ﷺ.

اللغَة: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر وصروفه، والمنون هو الدهر قال أبو ذؤيب:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[٤]

والمنون أيضًا الموتُ من المَنِّ بمعنى القطع لأنه يقطع الأعمار ﴿أَحْلَٰمُهُم﴾ عقولهم جمع حُلم وهو العقل ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ المسيطر: المتسلط على الشيء ﴿كِسْفًا﴾ قطعة يقال: كسف

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٧٠٥.
(٢) (ش): سُؤْل: طَلَب، حاجة.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٩٢.
(٤) «زاد المسير» ٨/ ٥٤، وانظر «الصحاح» للجوهري. (ش): وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ: أي: ليس بمراجعٍ مَن يجزعُ منه.

بسكون السين وكسفة أي قطعة وجمعه كسف بفتح السين ﴿مَّرْكُومٌ﴾ متجمع ومتراكم بعضه فوق بعض.

التفسير: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي فذكر يا محمد بالقرآن قومك وعِظْهُم به، فما أنت بإنعام الله عليك بالنبوة وإكرامه لك بالرسالة ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي لست كاهنًا تخبر بالأمور الغيبية من غير وحي، ولا مجنونًا كما زعم المشركون، إنما تنطق بالوحي.. ثم أنكر عليهم مزاعمهم الباطلة في شأن الرسول فقال ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي بل أيقول المشركون هو شاعر ننتظر به حوادث الدهر وصروفه حتى يهلك فنستريح منه؟ قال الخازن: وريبُ المنون حوادث الدهر وصروفه، وغرضهم أنه يهلك ويموت كما هلك من كان قبله من الشعراء، والمنون اسم الموت وللدهر وأصله القطع، سُمِّيَا بذلك لأنهما يقطعان الأجل[1] ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: انتظروا بي الموت فإني منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي، وهو تهكم بهم مع التهديد والوعيد ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾؟ أي أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ قال الخازن: وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول، فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل[2]، وهو تهكم آخر بالمشركين ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي بل هم قوم مجاوزون الحد في الكفر والطغيان، والمكابرة والعناد ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي أم يقولون: إن محمدًا اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه قال القرطبي: والتَقَوُّل تكلُّف القول، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر، يقال: قوَّلْتني ما لم أقُل أي ادعيتَه عليَّ، وتقوَّل عليه، أي: كذب عليه[3] ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل لا يصدقون بالقرآن استكبارًا وعنادًا ثم ألزمهم تعالى الحجة فقال ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أي فليأتوا بكلام مماثل للقرآن في نظمه وحسنه وبيانه، إن كانوا صادقين في قولهم: إن محمدًا افتراه، وهو تعجيزٌ لهم مع التوبيخ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي هل خُلقوا من غير ربٍّ ولا خالق؟ قال ابن عباس: من غير ربٍّ خلقهم وقدَّرهم[4] ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي أم هم الخالقون لأنفسهم، حتى تجرءوا فأنكروا وجود الله جل وعلا[5]؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أم هم خلقوا السموات والأرض؟ وإنما خصَّ السمواتِ والأرض بالذكر من بين سائر المخلوقات لعِظَمها وشرفها، ثم بيَّن

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٩.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٧٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٧٤.

(٥) (ش): إن المشركين لم ينكروا وجود الله الخالق، وإنما ينكرون إفراده بالعبادة، والمراد بالآيات إثبات ما أنكروه لا إثبات ما يُقرون به؛ لأنه تحصيل حاصل ولأنه لا يكفي.

تعالى السبب في إنكارهم لوحدانية الله فقال ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي بل لا يصدقون ولا يؤمنون بوحدانية الله وقدرته على البعث ولذلك ينكرون الخالق قال الخازن: ومعنى الآية هل خُلِقوا من غير شيءٍ خَلَقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون، لأن تعلق الخلق بالخالق ضروري، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق، أم هم الخالقون لأنفسهم؟ وذلك في البطلان أشدُّ، لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا فليؤمنوا به، وليوحدوه، وليَعْبدوه، ولْيوقنوا أنه ربهم وخالقهم[1] ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؟ أي أعندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يعطوا النبوة من شاءوا ويمنعوها عمن شاءوا؟ قال ابن عباس: ﴿خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ المطر والرزقُ وقال عكرمة: النبوة[2] ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾؟ أي أم هم الغالبون القاهرون حتى يتصرفوا في الخلق كما يشاءون؟ لا بل الله عَزَّ وَجَلَّ هو الخالق المالك المتصرف وقال عطاء ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أم هم الأرباب فيفعلون ما يشاءون ولا يكونون تحت أمر ولا نهي؟[3] ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾؟ أي أم لهم مرقى ومصعد إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة والوحي فيعلمون أنهم على حقٍّ فهم به مستمسكون؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي فليأت من يزعم ذلك بحجة بينة واضحة على صدق استماعه كما أتى محمد بالبرهان القاطع.

ثم وبخهم تعالى على ما هو أشنع وأقبح من تلك المزاعم الباطلة وهو نسبتهم إلى الله البنات، وجعلهم لله جل وعلا ما يكرهون لأنفسهم فقال ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؟ أي كيف تجعلون لله البنات مع كراهتكم لهن وتجعلون لأنفسكم البنين؟ أهذا هو المنطق والإنصاف؟ وقال القرطبي: سفَّه أحلامهم توبيخًا لهم وتقريعًا. والمعنى: أتضيفون إلى الله البنات مع أنَفَتِكم منهن، ومن كان عقله هكذا لا يُستبعد منه إنكار البعث[4] وقال أبو السعود: تسفيةٌ لهم وتركيكٌ لعقولهم، وإيذانٌ بأن من هذا رأيه لا يكاد يُعد من العقلاء، فضلًا عن الترقي إلى عالم الملكوت، والاطلاع على الأسرار الغيبية، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ[5] ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي هل تسألهم يا محمد أجرًا على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الدين؟ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك الأجر والغُرْم الثقيل الذي أوجبته عليهم مجهدون ومتعبون؛ فلذلك يزهدون في اتّباعك، ولا يدخلون في الإسلام؟ فإن العادة أن مَن كلف إنسانًا مالًا وضربَ عليه جُعْلًا يَصير مُثْقَلًا وغارمًا بسببه فيكرهه ولا يسمع قوله ولا يمتثله

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢٠.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٧٤.
(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٥٧.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٧٦.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٥.

﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾؟ أي أعندهم علم الغيب حتى يعلموا أنَّ ما يخبرهم به الرسول ﷺ من أمور الآخرة والحشر والنشر باطلٌ فلذلك يكتبون هذه المعلومات عن معرفةٍ ويقين؟ قال قتادة: هو ردٌّ لقولهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ والمعنى: أعلموا أن محمدًا يموتُ قبلهم حتى يحكموا بذلك؟[1] وقال ابن عباس: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيهن، ويُخبرون الناس بما فيه؟[2] ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾؟ أي أيريد هؤلاء المجرمون أن يتآمروا عليك يا محمد؟ قال المفسرون: والآية إشارة إلى كيدهم في دار الندوة وتآمرهم على قتل الرسول ﷺ كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ أي فالذين جحدوا رسالة محمد هم المجزيون بكيدهم لأن ضرر ذلك عائد عليهم، ووباله راجع على أنفسهم كقوله ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣] قال الصاوي: وأوقع الظاهر ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ موقع المضمر تشنيعًا وتقبيحًا عليهم بتسجيل وصف الكفر[3] ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾؟ أي أَلَهُم إله خالق رازق غير الله تعالى حتى يلجئوا إليه وقت الضيق والشدة؟ ويستنجدوا به لدفع الضُّرِّ والعذاب عنهم؟ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام قال الإمام الجلال: والاستفهام بـ «أم» في مواضعها الخمسة عشر للتوبيخ والتقريع والإنكار[4].. ثم أخبر تعالى عن شدة طغيانهم وفرط عنادهم فقال ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾ أي لو عذبناهم بسقوط قطع من السماء نزلت عليهم لم ينتهوا ولم يرجعوا، ولقالوا في هذا النازل عنادًا واستهزاءً: إنه سحاب مركوم ﴿ يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ أي إنه سحاب متراكم بعضُه فوق بعض قد سقط علينا قال أبو حيان: كانت قريشٌ قد اقترحت على رسول الله ﷺ فيما اقترحت من قولهم ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢] فأخبر تعالى أنهم لو رأوا ذلك عيانًا حسب اقتراحهم لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما عاينوه ويقولوا: هو سحابٌ مركوم، أي: سحاب تراكم بعضه فوق بعض مُمْطِرُنا، وليس بكسْفٍ ساقطٍ للعذاب[5] ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ أي اتركهم يا محمد يتمادون في غيهم وضلالهم، حتى يلاقوا ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة الذي يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ويسلب ألبابهم ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ولا يدفع

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٥٨.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٧٦.
(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٣٤.
(٤) «تفسير الجلالين» ٤/ ٢٢١.
(٥) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٥٣.

عنهم شيئًا من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ولا هم يُمنعون من عذاب الله في الآخرة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي وإن للذين كفروا عذابًا شديدًا في الدنيا قبل عذاب الآخرة قال ابن عباس: هو عذاب القبر وقال مجاهد: هو الجوع والقحط سبع سنين[1] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن العذاب نازل بهم ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبرْ يا محمد على قضاء ربك وحكمه، فيما حمَّلك به من أعباء الرسالة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي فإنك بحفظنا وكلاءتنا نحرسك ونرعاك[2] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي ونزِّه ربك عما لا يليق به من صفات النقص حين تقوم من منامك ومن كل مجلس بأن تقول: سبحان الله وبحمده قال ابن عباس: أي صلِّ لله حين تقومُ من منامك[3] ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي ومن الليل فاذكره واعبده بالتلاوة والصلاة والناسُ نيام كقوله ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي وصلِّ له في آخر الليل حين تُدْبر وتغيب النجوم بضوء الصبح قال ابن عباس: هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر وفي الحديث «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »[4].

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٣.

(٢) (ش): فِي قَوْلِه تَعَالَى عَنْ سَفِينَةِ نُوْح ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القَمَر:١٤) وَقَوْلِه لِمُوْسَى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طَه:٣٩). وقوله للنبي ﷺ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المَعْنَى عَلَى ظَاهِرِ الكَلَام وَحَقِيْقَتِهِ، لَكِنْ مَا ظَاهِرُ الكَلَام وَحَقِيْقَتُهُ هُنا؟ هَلْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ وَحَقِيْقَتَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي فِي عَيْنِ اللهِ؛ أَوْ أَنَّ مُوْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبَّى فَوْقَ عَيْنِ اللهِ تَعَالَى؟! أَوْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ تَعَالَى يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ القَوْلَ الأَوَّلَ بَاطِلٌ، وَذَلِك مِنْ وَجْهَيْنِ: ١- أَنَّهُ لَا يَقْتَضِيْهِ الكَلَامُ بِمُقْتَضَى الخِطَابِ العَرَبِيِّ، وَالقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ العَرَبِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يُوْسُف:٢) وَلَا أَحَدَ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ يَسِيْرُ بِعَيْنِي أَنَّ المَعْنَى أَنَّهُ يَسِيْرُ دَاخِلَ عَيْنِه، وَلَا مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ تَخَرَّجَ عَلَى عَيْنِي؛ أَنَّ تَخَرُّجَهُ كَانَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى عَيْنِه، وَلَوْ ادَّعَى مُدَّعٍ أَنَّ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ فِي هَذَا الخِطَابِ لَضَحِكَ مِنْهُ السُّفَهَاءُ فَضْلًا عَنِ العُقَلَاءِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ: إِنَّكَ تَحْتَ عَيْنِي، وَفُلَانٌ تَخَرَّجَ مِنْ تَحْتِ يَدِي، وَفُلَانٌ يَدِي اليُمْنَى وَ... مِمَّا مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ مَفْهُوْمٌ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ. ٢- أَنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ غَايَةَ الامْتِنَاع، وَلَا يُمْكِنُ لِمَنْ عَرَفَ اللهَ وَقَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ أَنْ يَفْهَمَهُ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ لَا يَحُلُّ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوْقَاتِه، وَلَا هُوَ حَالٌّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِذَا تَبَيَّنَ بُطْلَانُ هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُوْنَ ظَاهِرُ الكَلَام هُوَ القَوْلُ الثَّانِي؛ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ بِمَرْأًى مِنِّي، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَكْلَؤُهُ بِعَيْنِهِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَاهُ. وَوَجْهُ كَوْنِ العَيْنِ هِيَ الَّتِي تَرْعَاهُ دُوْنَ الوَجْهِ أَوِ اليَدِ أَو.... هُوَ لِأَنَّ العَيْنَ تُفِيْدُ الاطِّلَاعَ وَالمُرَاقَبَةَ وَالإِحَاطَةَ مِمَّا يُنَاسِبُ الحِفْظَ. وَاللهُ أَعْلَمُ. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع (بِأَعْيُنِنَا) فإنما هو للتعظيم.

(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٦١.

(٤) «المختصر» ٣/ ٣٩٥. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – جناس الاشتقاق ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور:٩] و ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور:١٠].

٢ – الإهانـة والتوبيـخ ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ [الطور: ١٦] وبين قوله ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ﴾ وقوله ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ طباق السلب وهو من المحسنات البديعية.

٣ – التشـبيه المرسـل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤] حذف منه وجه الشـبه فهو مجمل.

٤ – الاستعارة التبعية ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ شبهت حوادث الدهر بالريب الذي هو الشك بجامع التحير وعدم البقاء على حالة واحدة في كلٍ منهما واستعير لفظ الريب لصروف الدهر ونوائبه بطريق الاستعارة التبعية.

٥ – الأسلوب التهكمي ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾؟ هذا بطريق التهكم والسخرية بعقولهم.

٦ – الالتفـات مـن الغيبـة إلى الخطـاب لزيادة التوبيـخ والتقريع لهـم ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؟

٧ –أسلوب الفرض والتقدير ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ أي لو رأوا ذلك لقالوا ما قالوا.

٨ – السـجع الرصيـن غيـر المتكلـف مثـل ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ١٣] ومثل ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧٨] وهلم جرًّا.

فَائِدَة: عن جبير بن مطعم قال: قدمتُ المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيتُه يقرأ في صـلاة المغرب ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١٢] فلما قرأ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطـور: ٧٨] فكأنمـا صُدع قلبي، فأسـلمتُ خوفًا من نـزول العذاب، فلما انتهـى إلى هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور»

---

(١) **(ش):** عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ – رضى الله عنه – قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – يَقْرَأُ فِى الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. رواه البخاري. وعَنْ مُحَمَّدِ بن جُبَيْر بن مُطْعِم، عَنْ أَبِيه، أَنَّهُ جَاءَ فِي فِدَاءِ أُسَارَى أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ: فَوَافَقْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ١ ٣]، قَالَ: فَأَخَذَنِي مِنْ قِرَاءَتِهِ كَالْكَرْبِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُ مِنْ أَمْرِ الإِسْلَامِ. فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨]، وَقَدْ خَرَجَ صَوْتُهُ مِنَ الْمَسْجِدِ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨]، فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي (رواه الطبراني بإسناد حسن). قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٣٧): «وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأُسَارَى، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا، وَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ».



مكية وآياتها ثنتان وستون

بين يدي السورة

* سورة النجم: مكية وهي تبحث عن موضوع الرسالة في إطارها العام، وعن موضوع الإيمان بالبعث والنشور شأن سائر السور المكية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن موضوع «المعراج» الذي كان معجزة لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، والذي رأى فيه الرسول الكريم عجائب وغرائب في ملكوت الله الواسع مما يدهش العقول ويحير الألباب، وذكرت الناس بما يجب عليهم من الإيمان والتصديق، وعدم المجادلة والمماراة في مواضيع الغيب والوحي.

* ثم تلاها الحديث عن الأوثان والأصنام التي عبدها المشركون من دون الله، وبينت بطلان تلك الآلهة المزعومة، وبطلان عبادة غير الله، سواء في ذلك عبادة الأصنام أو عبادة الملائكة الكرام.

* ثم تحدثت عن الجزاء العادل يوم الدين، حيث تجزى كل نفس بما كسبت، فينال المحسن جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته، ويتفرق الناس إلى فريقين: أبرار وفجار.

* وقد ذكرت برهانًا على الجزاء العادل بأن كل إنسان ليس له إلا عمله وسعيه، وأنه لا تحمل نفس وزر أخرى، لأن العقوبة لا تتعدى غير المجرم، وهو شرع الله المستقيم، وحكمه العادل الذي بينه في القرآن العظيم، وفي الكتب السماوية السابقة.

* وذكرت السورة الكريمة آثار قدرة الله جل وعلا في الإحياء والإماتة، والبعث بعد الفناء، والإغناء والإفقار، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى.

* وختمت السورة الكريمة بما حل بالأمم الطاغية كقوم عاد، وثمود، وقوم نوح ولوط، من أنواع العذاب والدمار، تذكيرًا لكفار مكة بالعذاب الذي ينتظرهم بتكذيبهم لرسول الله ﷺ، وزجرًا لأهل البغي والطغيان عن الاستمرار في التمرد والعصيان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾
عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ
أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ

نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا
طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ
ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا
مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ
﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ
ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ
كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ
فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ

اللغة: ﴿هَوَىٰ﴾ هوى يهوي إذا سقط إلى أسفل ﴿مِرَّةٍ﴾ المِرَّة بكسر الميم القوة قال قطرب: تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل: ذو مرَّة[1] ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ التدلي: الامتداد من أعلى إلى أسفل يقال: تدلّى الغصن إذا امتد نحو الأسفل ﴿قَابَ﴾ قدر قال في البحر: القابُ والقاد والقيد: المقدار[2] ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ جائرة مائلة عن الحق يقال: ضاز في الحكم أي جار، وضازه حقه أي بخسه قال الشاعر:

ضَـازَتْ بَنُو أَسَـدٍ بِحُكْمِهِمْ ... إِذْ يَجْعَلُونَ الـرَّأْسَ كَالـذَّنَبِ

﴿ٱللَّمَمَ﴾ الصغائر من الذنوب قال الزجاج: أصل اللَّمم ما يعمله الإنسان المرَّة بعد المرة ولا يقيم عليه يقال: ما فعلتُه إلا لممًا ولِمامًا ﴿أَجِنَّةٌ﴾ جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن سمي جنينًا لاستتاره.

التفسير: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أي أقسمُ بالنجم وقت سقوطه من علو قال ابن عباس: أقسم سبحانه بالنجوم إذا انقضَّت في إثر الشياطين حين استراقها السمع[3] وقال الحسن: المراد في الآية النجوم إذا انتثرت يوم القيامة كقوله ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الإنفطار: ٢] قال ابن كثير: الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يُقسم إلا بالخالق[4] ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي ما ضلَّ محمدٌ عن طريق الهداية، ولا حاد عن نهج الاستقامة ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي وما اعتقد باطلًا قط بل هو في غاية الهدى والرشد قال أبو السعود: والخطاب لكفار قريش، والتعبير

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٨٦.
(٢) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٤.
(٣) هذه إحدى الروايات عن ابن عباس، وعنه أن المراد بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر.
(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣/ ٣٩٦.

بلفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله، فإن طول صحبتهم له، ومشاهدتهم لمحاسن أوصافه العظيمة مقتضيةٌ ذلك[١] ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي لا يتكلم ﷺ عن هوى نفسي ورأي شخصي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي لا يتكلم إلا عن وحي من الله عزَّ وجل قال البيضاوي: أي ما القرآن إلا وحيٌ يوحيه الله إليه[٢] ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي علَّمه القرآنَ ملَكٌ شديدٌ قُواه وهو جبريل الأمين قال المفسرون: ومما يدل على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين، وكان هبوطه بالوحي على الأنبياء أو صعوده في أسرع من رجع الطرف ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي ذو حصافة في العقل، وقوةٍ في الجسم، فاستقرَّ جبريل على صورته الحقيقية ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي وهو بأفق السماء حيث تطلع الشمس جهة المشرق قال ابن عباس: المراد بالأفق الأعلى مطلع الشمس[٣] قال الخازن: كان جبريل يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي الأنبياء قبله، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض ومرة في السماء، فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى أي جانب المشرق حيث كان رسول الله ﷺ بحراء فطلع عليه جبريل من ناحية المشرق وفتح جناحيه فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، فخرَّ رسول الله ﷺ مغشيًّا عليه، فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمَّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحدٌ من الأنبياء على صورته الملكية التي خُلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ[٤] ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي ثم اقترب جبريل من محمد وزاد في القرب منه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي فكان منه على مقدار قوسين أو أقل قال الألوسي: والمراد إفادة شدة القرب فكأنه قيل: فكان قريبًا منه[٥] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥.
(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧١.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٨٨.
(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٣. (ش): عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلاَّ مَرَّتَيْنِ، أَمَّا مَرَّةٌ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ نَفْسَهُ فِي صُورَتِهِ، فَأَرَاهُ صُورَتَهُ فَسَدَّ الْأُفُقَ، وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَإِنَّهُ صَعِدَ مَعَهُ حِينَ صَعِدَ بِهِ». وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:٧-١٠] قَالَ: فَلَمَّا أَحَسَّ جِبْرِيلُ رَبَّهُ، عَادَ فِي صُورَتِهِ، وَسَجَدَ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٨]، قَالَ: خَلَقَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (رواه أحمد، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح). فَلَمَّا أَحَسَّ جِبْرِيلُ رَبَّهُ: أي: ظهر له آثار تجلّيه. عَادَ فِي صُورَتِهِ: أي صار في صورته الأصلية، فلذلك رآه النبي ﷺ في تلك الصورة. ولم أجد ما يدل على أن جبريل عليه السلام لم يره أحدٌ من الأنبياء على صورته المَلَكية التي خُلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ.
(٥) تفسير الألوسي ٢٧/ ٤٨.

محمد ﷺ ما أوحى إليه من أوامر الله عز وجل ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي ما كذب قلب محمد ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية قال ابن مسعود: رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ[١] ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾؟ أي أفتجادلونه يا معشر المشركين على ما رأى ليلة الإسراء والمعراج؟ قال في البحر: كانت قريش حين أخبرهم ﷺ بأمره في الإسراء كذَّبوا واستخفُّوا حتى وصف لهم ﷺ بيت المقدس، والجمهور على أن المرئي مرتين هو جبريل، وعن ابن عباس وعكرمة أن الرسول ﷺ رأى ربه بعيني رأسه[٢]، وأنكرت ذلك عائشة وقالت إنه رأى جبريل في صورته مرتين[٣] ثم قال أبو حيان: والصحيح أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فإنه يقتضي مرةً متقدمة[٤]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد. (ش): إسناده ضعيف ومعظم فقراته ثابتة في أحاديث أخرى. (التَّهَاوِيل): الأشياء المختلفة الألوان. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، يَنْفُضُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلَ الدُّرَّ وَالْيَاقُوتَ» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وحسنه الألباني). وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعَنْه رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، قَالَ: «رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ مِنْ رَفْرَفٍ، قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين) (مِنْ رَفْرَفٍ): نوع من عالي الثياب. عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾. فَقَالَ: « إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ: فَأَيْنَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾؛ قَالَتْ: إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ عليه السلام كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرِّجَالِ وَإِنَّهُ أَتَاهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ فَسَدَّ أُفُقَ السَّمَاءِ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) (ش): لم يثبت ذلك عنه رضي الله عنه بل الثابت عنه أنه قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قَالَ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٨، أقول: ما ذكره صاحب «البحر» قوي من حيث الدلالة، ومذهب أهل السنة أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج في السماوات العلى رؤية بصرية، ولهم أدلة من السنة النبوية، أما الآيات الكريمة فالراجح ما قاله الجمهور، والله أعلم. (ش): ثبت بالنصوص الصحيحة واتفاق سلف الأمة أنه لا يرى اللهَ أحدٌ فى الدنيا بعينه إلا ما نازع فيه بعضهم من رؤية نبينا محمد خاصة واتفقوا على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة عياناً. وقد ذهب أغلب الصحابة إلى أن النبي ﷺ لم يَرَ الله عز وجل بعينه ليلة المعراج، فقد ثبت عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ وَهُوَ يَقُولُ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ...) (رواه البخاري). وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وفي رواية أنه ﷺ قَالَ: « رَأَيْتُ نُورًا ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قَالَ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وقد حكى الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب «الرؤية» إجماع الصحابة على أنه ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك، وليس ذلك بخلافٍ في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه بل قال: رَآهُ بِفُؤَادِهِ. فعائشة رضي الله عنها =

﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾ أي رأى الرسولُ جبريلَ في صورته الملكية مرةً أُخرى ﴿ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ أي عند سدرة المنتهى التي هي في السماء السابعة قُرب العرش قال المفسرون: والسدرة شجرة النَّبق تنبع من أصلها الأنهار، وهي عن يمين العرش، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها علم الخلائق وجميع الملائكة، ولا يعلم أحدٌ ما وراءها إلا الله جل وعلا وفي الحديث « صَعِدَ بِى إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَرُفِعَتْ لِى سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا - أي ثمرها - مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيلَةِ »(١) ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴾ أي عند سدرة المنتهى الجنة التي تأوِي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين ﴿ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴾ أي رآه وقت ما يغشى السدرة ما يغشى من العجائب قال الحسن: غشِيَها نور رب العالمين فاستنارت. وقال ابن مسعود: غشيها فراش من ذهب(٢) وفي الحديث« فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا »(٣) قال المفسرون: رأى عليه السلام شجرة سدرة المنتهى وقد غشيتها سُبُحات أنوار الله عَزَّ وَجَلَّ، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها، وغشيتها الملائكة أمثال الطيور يعبدون الله عندها، يجتمعون حولها مسبِّحين وزائرين كما يزور الناس الكعبة(٤) وفي الحديث « رأيتُ السِّدْرَةَ يَغْشَاهَا فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَرَأَيْتُ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِهَا مَلَكًا قَائِمًا يُسَبِّحُ لله تعالى »(٥) ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ ﴾ أي ما مال بصر النبي ﷺ في المقام وفي تلك الحضرة يميناً وشمالاً ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي وما جاوز الحدَّ الذي رأى قال القرطبي: أي لم يمدَّ بصره إلى غير ما رأى من الآيات، وهذا وصف أدب النبي ﷺ في ذلك المقام إذ لم يلتفت يمينًا ولا شمالًا(٦) وقال الخازن: لما تجلَّى رب العزة وظهر نوره، ثبت ﷺ في ذلك

= أنكرت رؤية العين وابن عباس رضي الله عنهما أثبت رؤية الفؤاد.وقال ﷺ: « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). القِسطَ: الميزان. سُبُحَاتُ وَجْهِهِ: نوره تعالى وجلاله وبهاؤه وعظمته وهى جمع سُبْحَة فهذا النور هو - والله أعلم - النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه « رَأَيْتُ نُورًا ». وليس فى الأدلة ما يقتضى أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولا فى الكتاب والسنة ما يدل على ذلك بل النصوص الصحيحة على نفْيه أدل كما تقدم. وقد قال تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ ﴾ ولو كان قد أراه نفْسه بعينه لكان ذِكْرُ ذلك أولَى، وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾﴿ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴾. ولو كان رآه بعينه لكان ذِكْرُ ذلك أولى.

(١) جزء من حديث أخرجه الشيخان.

(٢) الحديث رواه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم أيضًا.

(٤) (ش): لم يذكر المؤلف دليلاً على هذا، ومعلوم أن مثل هذا لا يُقبَل إلا بدليل.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٧ . (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٩٨.

المقام العظيم الذي تحار فيه العقول، وتزلُّ فيه الأقدام، وتميل فيه الأبصار(١) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي والله لقد رأى محمد ليلة المعراج عجائب ملكوت الله، رأى سدرة المنتهى، والبيت المعمور، والجنة والنار، ورأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السموات له ستمائة جناح، ورأى رفرفًا أخضر من الجنة قد سدَّ الأفق(٢)، وغير ذلك من الآيات العظام قال الفخر: وفي الآية دليلٌ على أن النبي ﷺ رأى ليلة المعراج آياتِ الله ولم يرَ الله كما قال البعض، ووجهه أن الله ختم قصة المعراج برؤية الآيات، وقال في الإسراء ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن ولأخبر تعالى به(٣) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي أخبرونا يا معشر الكفار عن هذه الآلهة التي تعبدونها «اللات والعزة ومناة» هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها رب العزة شيء حتى زعمتم أنها آلهة؟ قال الخازن: هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ فقالوا من الله اللات، ومن العزيز: العُزَّى، وكانت اللات بالطائف، والعُزَّى بغطفان وقد حطمها خالد بن الوليد، ومناة صنم لخزاعة يعبده أهل مكة(٤) ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾؟ توبيخٌ وتقريع أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو الذكر، وله تعالى النوع المذموم بزعمكم وهو الأنثى؟ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي تلك القسمة قسمة جائرة غير عادلة حيث جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم قال الرازي: إنهم ما قالوا: لنا البنون وله البنات، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائرة(٥) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي ما هذه الأوثان إلا أسماء مجردة لا معنى تحتها لأنها لا تضر ولا تنفع، سميتموها آلهة أنتم وآباؤكم وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي ما يتبعون في عبادتها إلا الظنون والأوهام، وما تشتهيه أنفسهم مما زينه لهم الشيطان ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي والحال أنه قد جاءهم من ربهم البيان الساطع، والبرهان القاطع على أن الأصنام ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٦.
(٢) رؤيته ﷺ للرفرف الأخضر الذي سد الأفق أخرجها البخاري عن ابن مسعود. (ش): ما رآه النبي ﷺ مما ذكره المؤلف ثابت في البخاري ومسلم ومسند أحمد وغيرهم.
(رفرفًا أخضر) ثيابًا خُضرًا مبسوطة. (أفق السماء) أطرافها.
(٣) «التفسير الكبير» ٧/ ٧٤٠.
(٤) «التفسير الخازن» ٤/ ٢١٨.
(٥) «التفسير الكبيير» ٧/ ٧٤٣.

الواحد القهار قال ابن الجوزي: وفيه تعجيبٌ من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان[١] ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي ليس لِلإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة الأصنام قال الصاوي: والمراد بالإنسان الكافر، وهذه الآية تجر بذيلها على من يلتجئ لغير الله طلبًا للفاني، ويتبع هوى نفسه فيما تطلبه فليس له ما يشتهي، واتباعُ الهوى هوان[٢] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْأٓخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي فالمُلْكُ كله لله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، لأنه مالك الدنيا والآخرة، وليس الأمر كما يشتهي الإنسان، بل هو تعالى يعطي من اتبع هداه وترك هواه. ثم أكَّد هذا المعنى بقوله ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المُنْبَثِّين في السموات[٣] ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي إن الملائكة مع علو منزلتهم ورفعة شأنهم لا تنفع شفاعتهم أحدًا إلا بإذن الله، فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها؟! ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ أي إلا من بعد أن يأذن تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] قال ابن كثير: فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة الأصنام والأنداد عند الله تعالى؟[٤] ثم أخبر تعالى عن ضلالات المشركين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي لا يصدقون بالبعث والحساب ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي ليزعمون أنهم إناثٌ وأنهم بناتُ الله ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي لا علم لهم بما يقولون أصلا، لأنهم لم يشاهدوا خلق الملائكة، ولا جاءهم عن الله حجة أو برهان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون في هذه الأقوال الباطلة إلا الظنون والأوهام ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي وإن الظنَّ لا يجدي شيئًا، ولا يقوم أبدًا مقام الحق ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين الذين استنكفوا عن الإيمان والقرآن ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وليس له هَمٌّ إلا الدنيا وما فيها من النعيم الزائل، والمتعة الفانية قال أبو السعود: والمراد النهيُّ عن دعوة المعرض عن كلام الله وعدم الاعتناء بشأنه، فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا بحيث صارت منتهى همته وقصارى سعيه، لا تزيده الدعوة إلا عنادًا وإصرارًا على الباطل[٥] ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي ذلك نهاية علمهم وغاية إدراكهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي هو عالم بالفريقين: الضالين والمهتدين ويجازيهم بأعمالهم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي له كل ما في الكون خلقًا وملكًا وتصرفًا ليس لأحدٍ من ذلك شيء

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٧٤.
(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٣٩.
(٣) (ش): انبثَّ: انتشر.
(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٠١.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٠.

أصلًا ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي ليجازي المسيء بإساءته ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أي وليجازي المحسن بالجنة جزاء إحسانه قال ابن الجوزي: والآية إخبارٌ عن قدرته وسعة ملكه، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ لأنه إذا كان أعلم بالمسيء وبالمحسن جازى كلًّا بما يستحقه، وإنما يقدر على مجازاة الفريقين إذا كان واسع الملك[(١)].

ثم ذكر تعالى صفات المتقين المحسنين فقال ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ أي يبتعدون عن كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي ويبتعدون عن الفواحش -جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحها عقلًا وشرعًا- كالزنى ونكاح زوجة الأب لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] وقوله ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ أي إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب قال القرطبي: وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله كالقبلة والغمزة والنظرة[(٢)] وفي الحديث « إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[(٣)] فإذا اجتنب العبد كبائر الذنوب غفر الله بفضله وكرمه الصغائر لقوله تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] يعني الصغائر[(٤)] ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو تعالى غفار الذنوب ستار العيوب، يغفر لمن فعل ذلك ثم تاب قال ابن كثير: أي رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها[(٥)] قال البيضاوي: ولعله عقَّب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين، لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى[(٦)] ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم، ومن حين أن خلق أباكم آدم من التراب ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي ومن حين أن كنتم مستترين في أرحام أُمهاتكم، فهو تعالى يعلم التقيَّ والشقي، والمؤمن والكافر، والبرَّ والفاجر، علم ما

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٥/ ١٦٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٠٦.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): تَمَنَّى: تتَمَنَّى.

(٤) قال الخازن: روى عن عمر وابن عباس أنهما قالا: لا كبيرة في الإسلام ومعناه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، فالكبيرة تمحى بالاستغفار والتوبة، والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار عليها. (ش): عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: « كَمِ الْكَبَائِرُ؟ أَسَبْعٌ هِيَ؟ »، قَالَ: « إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ » (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وإسناده صحيح).

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٠٣.

(٦) «تفسير البيضاوي» ٤/ ١٧٣.

تفعلون وإلى ماذا تصيرون ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تمدحوها على سبيل الإعجاب، ولا تشهدوا لها بالكمال والتُّقى، فإن النفس خسيسة إذا مُدِحَت اغترَّتْ وتكبَّرت قال أبو حيان: أي لا تنسبوها إلى الطهارة عن المعاصي، ولا تُثْنُوا عليها، فقد علم الله منكم الزكيَّ والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم، وقبل إخراجكم من بطون أُمهاتكم[1] ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي هو تعالى العالم بمن أخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن.

قال الله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى
صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ
﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ
أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾
وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾
وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ
﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ
كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة سفاهات المشركين وضلالاتهم في عبادتهم للأصنام، ومَيَّز بين المؤمنين والمجرمين، ذكر هنا نوعًا خاصًّا من أهل الإجرام، وختم السورة الكريمة ببيان ما حلَّ بالمكذبين من أنواع العذاب والدمار، تذكيرًا للمشركين بانتقام الله من أعدائه المكذبين لرسوله.

اللغَة: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ قطع العطاء مأخوذ من الكُدْية يقال لمن حفر بئرًا ثم وجد صخرة تمنعه من إتمام الحفر: قد أكدى، ثم استعمله العرب لمن أعطى ولم يتمم، ولمن طلب شيئًا فلم يبلغ آخره قال الحُطيئة:

فَأَعْطَى قَلِيلًا ثُمَّ أَكْدَى عَطَاءَهُ ... وَمَنْ يَبْذُلِ الْمَعْرُوفَ فِي النَّاسِ يُحْمَدِ[2]

﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أعطاه الكفاية من المال ورضَّاه بما أعطاه قال الجوهري: قَنِي الرجل يقْنِى مثل غَنِيَ يَغْنَى أي أعطاه الله ما يُقتَنى من المال والنَّشَب[3]، وأقناه الله رضَّاه[4] ﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾ الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر ﴿أَزِفَتِ﴾ قربت قال كعب بن زهير:

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٦٥.
(٢) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٥.
(٣) (ش): النَّشَب: المَال وَالْعقار.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١١٩.

بَانَ الشَّبَابُ وَهَذَا الشَّيبُ قَدْ أَزِفَا وَلَا أَرَى لِشَبَابٍ بَائِنٍ خَلَفَا [(١)]

والآزفة القيامة سميت بذلك لقُربها ودُنُوّها ﴿سَٰمِدُونَ﴾ لاهون ولاعبون، والسمودُ اللهو.

سَبَبُ النّزول: روي أن «الوليد بن المغيرة» جلس عند النبي ﷺ وسمع وعظه، فتأثر قلبه بما سمع وكاد أن يُسلم، فعيَّره رجلٌ من المشركين وقال: تركت دين آبائك وضلَّلتهم وزعمت أنهم في النار؟! فقال الوليد: إني خشيت عذاب الله، فضمن له الرجل إن هو أعطاه شيئًا من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ، فأعطاه بعض الذي ضمن له ثم بخل ومنعه الباقي فأنزل الله ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾[(٢)] الآيات.

التفسير: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي أخبرني يا محمد عن هذا الفاجر الأثيم الذي أعرض عن الإيمان واتباع الهدى؟ ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي وأعطى لصاحبه الذي عَيَّره قليلًا من المال المشروط ثم بخل بالباقي قال مجاهد: نزلت في الوليد بن المغيرة[(٣)] ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي أعنده علمٌ بالأمور الغيبية حتى يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب؟ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أي لم يُخبر بما في التوراة المنزلة على موسى ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي وبما في صحف إبراهيم الذي تَمَّم ما أُمِر به من طاعة الله وتبليغ رسالته، على وجه الكمال والتمام قال الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وَفَّى به كقوله تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي ألا تحمل نفسٌ ذنب غيرها، ولا يؤاخذ أحدٌ بجريرة غيره، والآية ردٌّ على من زعم أنه يتحمل العذاب عن غيره كقوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي وأنه ليس للإنسان إلا عمله وسعيه قال ابن كثير: أي كما لا يُحمل عليه وزرُ غيره، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه[(٤)] ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي وأن عمله سيُعرض عليه يوم القيامة، ويراه في ميزانه قال الخازن: وفي الآية بشارة للمؤمن، وذلك أن الله تعالى يُريه أعمالَه الصالحة ليفرح بها ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غمًّا[(٥)] ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أي ثم يُجزى بعمله الجزاء الأتم الأكمل، وهو وعيدٌ للكافر ووعدٌ للمؤمن ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي إليه جل وعلا المرجع والمآب والمصير

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٥.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٧٦٤. (ش): ضعيف جدًّا، أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وإنما فيه أنه «رجُل أسلم فلقيه بعض من يُعَيِّره...». وما ذكره المؤلف هو في تفسير «الرازي» بدون إسناد هكذا: قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ...

(٣) انظر سبب النزول السابق.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٠٤.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٣.

فيعاقِب ويُثِيب.. ثم شرع تعالى في بيان آثار قدرته فقال ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أي هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى قال مجاهد: أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار[١] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي خلق الموت والحياة فهو جل وعلا القادر على الإماتة والإحياء لا غيره، ولهذا كرر الإسناد «هو» لبيان أن هذا من خصائص فعل الله ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي أوجد الصنفين الذكر والأنثى من أولاد آدم ومن كل حيوان قال الخازن: والغرض أنه تعالى هو القادر على إيجاد الضدين في محل واحد: الضحك والبكاء، والإحياء والإماتة، والذكر والأنثى، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء ولا يعلمونه، وإنما هو بقدرة الله تعالى وخلقه لا بفعل الطبيعة، وفيه تنبيه على كمال قدرته، لأن النطفة شيء واحد خلق الله منها أعضاء مختلفة، وطباعًا متباينة، وخلق منها الذكر والأنثى، وهذا من عجيب صنعته وكمال قدرته[٢]، ولهذا قال ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي خلق الذكر والأنثى من نطفة إذا تدفقت من صلب الرجل، وصُبّت في رحم المرأة ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي وأن عليه جل وعلا إعادة خلق النَّاس للحساب والجزاء، وإحياءهم بعد موتهم قال في البحر: لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ فيها بقوله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه[٣] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي أغنى مَن شاء[٤]، وأفقَر مَن شاء وقال ابن عباس: أعطى فأرضى، أغنى الإنسان ثم رَضَّاه بما أعطاه ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ أي هو ربُّ الكوكب المضيء المسمَّى بالشعرى الذي كانوا يعبدونه قال أبو السعود: أي هو رب معبودهم وكانت خزاعة تعبدها سَنَّ لهم ذلك رجلٌ من أشرافهم هو «أبو كبشة»[٥] ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي أهلك قوم عاد القدماء الذين بُعث لهم نبيُّ الله «هود» عليه السلام، وكانوا من أشد الناس وأقواهم، وأعتاهم على الله وأطغاهم، فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية قال البيضاوي: سميت عادًا الأولى أي القدماء لأنهم أُولى الأمم هلاكًا بعد قوم نوح عليه السلام[٦] ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ أي وثمود دمَّرهم فلم يُبْقِ منهم أحدًا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي وقوم نوح قبل عادٍ وثمود أهلكناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي كانوا أظلم من الفريقين، وأشد تمردًا وطغيانًا ممن سبقهم، قال في البحر: كانوا في غاية العتو والإيذاء لنوح عليه السلام، يضربونه حتى لا يكاد يتحرك، ولا يتأثرون بشيء مما يدعوهم إليه قال قتادة: دعاهم ألف سنة

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٦٨.
(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٤.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٦٨.
(٤) هذا قول ابن زيد ثم قرأ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٣.
(٦) «تفسير البيضاوي» ٤/ ١٧٤.

إلا خمسين عامًا، كلما هلك قرن نشأ قرن، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يتمشى به إلى نوح ليحذره منه ويقول له: يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذٍ فإياك أن تصدقه، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على بغض نوح[1] ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ أي وقرى قوم لوط أهواها فأسقطها على الأرض بعد أن انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾[2] أي فغطَّاها من فنون العذاب ما غطَّى، وفيه تهويلٌ للعذاب وتعميمٌ لما أصابهم منه قال في البحر: والمؤتفكة هي مدائن قوم لوط، سميت بذلك لأنها انقلبت بأهلها، رفعها جبريل عليه السلام ثم أهوى بها إلى الأرض، ثم أمطرت عليهم حجارة من سجيل منضود فذلك قوله ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي فبأي نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها الإنسان وتكذب!! ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي هذا هو محمد رسول الله منذر كسائر الرسل ومن جنس المنذرين الأولين وقد علمتم ما حلَّ بالمكذبين ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ أي دنت الساعة واقتربت القيامة قال القرطبي: سميت آزفة لدُنُوِّها وقُرْب قيامها[3] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي لا يقدر على كَشْفها وردِّها إذا غَشيَتْ الخلق بأهوالها وشدائدها إلا الله تعالى ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾؟ استفهامٌ للتوبيخ أي أفمن هذا القرآن تعجبون يا معشر المشركين سخرية واستهزاءً؟ ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي وتضحكون عند سماعه، ولا تبكون من زواجره وآياته؟ وقد كان حقكم أن تبكوا الدم بدل الدمع حزنًا على ما فرطتم ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي وأنتم لاهون غافلون؟ ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ أي فاسجدوا لله الذي خلقكم وأَفْرِدُوه بالعبادة، ولا تعبدوا اللات والعزى، ومناة والشعرى، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا يليق السجود والعبادة إلاَّ له جلّ وعلا.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإبهام للتعظيم والتهويل ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ومثله ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] وكذلك ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

٢ - الجناس ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ... ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣] فالأول هو بمعنى خرَّ وسقط والثاني بمعنى هوى النفس.

٣ - الطباق بين ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وبين ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ وبين ﴿ضَلَّ﴾ و ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ وبين ﴿ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥] وبين ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ وهي من المحسنات البديعية.

٤ - المقابلة ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] كما فيه

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٧٠.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٢٢.

إطناب في تكرار لفظ (يجزي) وكلاهما من المحسنات البديعية.

٥ - الاستفهام التوبيخي مع الإزراء بعقولهم ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

٦ - الجناس الناقص بين ﴿أَغْنَىٰ.. وَأَقْنَىٰ﴾ لتغير بعض الحروف.

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَازِفَةُ﴾.

٩ - عطف العام على الخاص ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾.

١٠ - مراعاة الفواصل ورءوس الآيات، مما له أجمل الوقع على السمع مثل ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]؟ ومثله ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾؟ ويسمى بالسجع.

تنبيه: كانت الأصنام التي عبدها المشركون كثيرة تقرب من ثلاثمائة وستين صنمًا ومعظمها حول الكعبة وقد حطمها ﷺ عند فتحه لمكة، وأشهر هذه الأصنام «اللات، والعُزَّى، ومناة» وقد أرسل ﷺ عام الفتح خالد بن الوليد ليحطم العزَّى فحطّمها وهو يقول:

يَا عُزُّ كُفْرَانَكِ لَا سُبْحَانَكِ ... إِنِّي رَأَيْتُ اللهَ قَدْ أَهَانَكِ(١)

وانتهت بفتح مكة عبادة الأوثان والأصنام، ودخل الناس في دين الإسلام أفواجًا أفواجًا.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم»



(١) (ش): رواه النسائي، وأبو نعيم، والبيهقي في «الدلائل» وابن أبي شيبة في «التاريخ» وابن سعد في «الطبقات». ولم تثبت في القصص التي تدور حول هدمها رواية صحيحة. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، للدكتور أكرم ضياء العمري (٢/ ٤٨٤)].

سُورَةُ القَمَرِ ٥٤ ٥٥

مكية وآياتها خمس وخمسون

بين يدي السورة

* سورة القمر من السور المكية، وقد عالجت أصول العقيدة الإسلامية، وهي من بدايتها إلى نهايتها حملة عنيفة مفزعة[1] على المكذبين بآيات القرآن، وطابع السورة الخاص، هو طابع التهديد والوعيد، والإعذار والإنذار، مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك «المعجزة الكونية» معجزة انشقاق القمر، التي هي إحدى المعجزة العديدة لسيد البشر ﷺ، وذلك حين طلب المشركون منه معجزة جلية تدل على صدقه، وخصصوا بالذكر أن يشق لهم القمر ليشهدوا له بالرسالة، ومع ذلك عاندوا وكابروا ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ...﴾ الآيات.

* ثم انتقلت للحديث عن أهوال القيامة وشدائدها، بأسلوب مخيف يهز المشاعر هزًّا، ويحرك في النفس الرعب والفزع من هول ذلك اليوم العصيب ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

* وبعد الحديث عن كفار مكة، يأتي الحديث من مصارع المكذبين، وما نالهم في الدنيا من ضروب العذاب والدمار بدءًا بقوم نوح ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ...﴾.

* ثم تلاه الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة، الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله إهلاكًا فظيعًا، ودمرهم عن بكرة أبيهم، وقد تحدثت الآيات عن قوم «عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون» وغيرهم من الطغاة المتجبرين بشيء من الإسهاب، مع تصوير أنواع العذاب.

* وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة -مشاهد العذاب والنكال- الذي حل بالمكذبين لرسل الله ﷺ توجهت السورة إلى مخاطبة قريش، وحذرتهم مصرعًا كهذه المصارع بل ما هو أشد وأنكى ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ فعقر..﴾ الآيات.

---

(١) (ش): هذا التعبير لا يليق بكلام الله عز وجل.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ
وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾
حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا
أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾
۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ
أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ
وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ
أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ
إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ
﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ
صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾
وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ

اللغة: ﴿ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ جمع جَدَث وهو القبر ﴿مُّهۡطِعِينَ﴾ مسرعين يقال: أهطع في سيره أي أسرع ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ انهمر الماء نزل بقوة عزيرًا ﴿وَدُسُرٖ﴾ الدُّسُر: المسامير التي تُشدُّ بها السفينة جمع دِسار ككتاب وكُتب قال في الصحاح: الدِّسار واحد الدُسر وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة ويقال هي المسامير[1] ﴿مُّدَّكِرٖ﴾ مُتَّعِظ خائف وأصله مذتكر قلبت التاء دالاً ثم أدغمت الذال فيها فصارت مدّكر ﴿صَرۡصَرٗا﴾ الصرصر: الشديدة الصوت مع البرد مأخوذ من صرير الباب وهو تصويته ﴿أَعۡجَازُ﴾ جمع عجز وهو مؤخر الشيء ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ المنقعر: المنقلع من أصله يقال: قعرت الشجرة قعرًا قلعتها من أصلها فانقعرت ﴿وَسُعُرٍ﴾ جنون من قولهم ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة قال الشاعر:

تَخَالُ بِهَا سُعْرًا إِذَا السَّفْرُ هَزَّهَا[2]

﴿أَشِرٞ﴾ الأشر: البطر ورجل أشر، أي بطر أبطرته النعمة[3].

(١) «الصحاح» مادة دسر.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٣٨.

(٣) (ش): أَشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرحِ ونشِط. بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى =

التفسِير: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي دنت القيامة وقد انشق القمر ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ أي وإن يـر كفـار قريش علامة واضحة ومعجزة سـاطعة، تدل على صدق محمد ﷺ يُعرِضـوا عـن الإيمـان ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولوا هذا سِـحْرٌ دائم، سَـحَر به محمد أعيننا قال المفسرون: إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ: إن كانت صادقًا فشقَّ لنا القمر فرقتين، ووعـدوه بالإيمـان إن فعـل، وكانت ليلة بدر، فسـأل رسـول الله ﷺ ربَّه أن يعطيـه ما طلبوا، فانشـقَّ القمر: نصف على جبل الصفا، ونصفٌ على جبل قيقعان المقابل له، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم! فقـال أبـو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهـل البوادي فإن أخبروا بانشـقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سـحر محمد أعيننا، فجاءوا فأخبروا بانشـقاق القمر فقال أبو جهل والمشـركون: هذا سـحرٌ مسـتمر أي دائم فأنزل الله ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[1] قال الخازن: وانشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ الظاهرة، ومعجزاته الباهرة، يدل عليه ما أخرجه الشيخان عن أنس «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية، فأراهم انشـقاق القمـر مرتين» وما روي عن ابن مسـعود قال: انشـق القمر على عهد رسـول الله ﷺ شقتين فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[2] وما روي عن جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد رسـول الله ﷺ فصار فرقتين، فقالت قريش: سـحر محمد أعيننا فقال بعضهم: لئن كان

= في مَرحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أَنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.

(١) هذا قول جمهور المفسرين وهو مروي عن ابن عباس وأنس وابن عمر، وذهب بعضهم إلى أن القمر سينشق يوم القيامة قال ابن الجوزي: وهوقول شاذ لا يقاوم الإجماع. (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا سِحْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ سَحَرَكُمْ، فَاسْأَلُوا السُّفَّارَ فَسَأَلُوهُمْ فَقَالُوا: نَعَمْ قَدْ رَأَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» والبيهقي في «دلائل النبوة»، وإسناده صحيح). (ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ): قِيلَ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ كَانَ يَعْبُدُ الشِّعْرَى وَلَمْ يُوَافِقْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ فِي عِبَادَتِهَا فَشَبَّهُوا النَّبِيَّ ﷺ بِهِ لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُمْ فِي دِينِهِمْ كَمَا خَالَفَهُمْ أَبُو كَبْشَةَ. وَقِيلَ: إِنَّ أَبَا كَبْشَةَ جَدُّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قِبَلِ أُمِّهِ. وَقِيلَ: هُوَ أَبُوهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ. وَقِيلَ: نَسَبُوهُ إِلَى نَسَبٍ لَهُ غَيْرِ نَسَبِهِ الْمَشْهُورِ إِذْ لَمْ يُمْكِنْهُمُ الطَّعْنُ فِي نَسَبِهِ الْمَعْلُومِ الْمَشْهُورِ، وَقَدْ كَانَ وَهْبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ جَدُّهُ أَبُو آمِنَةَ يُكَنَّى أَبَا كَبْشَةَ. (السُّفَّار): الْمُسَافِرِينَ. وحديث انشقاق القمر أصله في الصحيحين لكن ليس عندهما التصريح بنزول الآيات. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ شِقَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اشْهَدُوا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِلْقَتَيْنِ، فَسَتَرَ الْجَبَلُ فِلْقَةً، وَكَانَتْ فِلْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُمَّ اشْهَدْ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). أَمَّا مَا يَذْكُرُهُ بَعْضُ الْقُصَّاصِ مِنْ أَنَّ الْقَمَرَ سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، حَتَّى دَخَلَ فِي كُمِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَخَرَجَ مِنَ الْكُمِّ الْآخَرِ، فَلَا أَصْلَ لَهُ، وَهُوَ كَذِبٌ مُفْتَرًى، لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم»[١] فهذه الأحاديث الصحيحة، قد وردت بهذه المعجزة العظيمة، مع شهادة القرآن العظيم بذلك، فإنه أدل دليل وأقوى مثبتٍ له وإمكانه لا يشك فيه مؤمن، وقيل في معنى الآية ينشق القمر يوم القيامة، وهذا قول باطل لا يصح، وشاذ لا يثبت، لإجماع المفسرين على خلافه، ولأن الله ذكره بلفظ الماضي ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وحمل الماضي على المستقبل بعيد[٢] ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي وكذبوا النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة الله تعالى في انشقاق القمر، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي وكل أمرٍ من الأمور مُنْتَهٍ إلى غاية يستقر عليها لا محالة إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر قال مقاتل: لكل حديثٍ منتهى وحقيقة ينتهي إليها وقال قتادة: إن الخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر، وكل أمرٍ مستقر بأهله[٣] ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ولقد جاء هؤلاء الكفار من أخبار الأمم الماضية المكذبين للرسل، ما فيه واعظ لهم عن التمادي في الكفر والضلال ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي هذا القرآن حكمة بالغة، بلغت النهاية في الهداية والبيان ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي أيَّ شيءٍ تُغني النُّذُر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على سمعه وقلبه؟! قال المفسرون: المعنى: لقد جاءهم القرآن وهو حكمة تامة قد بلغت الغاية، فماذا تنفع الإنذارات والمواعيد لقوم أصموا آذانهم عن سماع كلام الله؟ كقوله تعالى ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس: ١٠١] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المجرمين وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي يوم يدعو إسرافيل إلى شيءٍ منكر فظيع، تنكره النفوس لشدته وهوله، وهو يوم القيامة وما فيه من البلاء والأهوال ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي ذليلةً أبصارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة إجابتهم للداعي جرادٌ منتشر في الآفاق، لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة قال ابن الجوزي: وإنما شبههم بالجراد المنتشر، لأن الجراد لا جهة له يقصدها، فهم يخرجون من القبور فَزِعِين ليس لأحدٍ منهم جهة يقصدها، والداعي هو إسرافيل[٤] ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ أي مسرعين مَادِّي أعناقهم إلى الداعي لا يتلكئون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي يقول الكافرون: هذا يوم صعبٌ شديد قال الخازن: وفيه إشارة إلى أنَّ ذلك اليوم يومٌ شديد على الكافرين لا

(١) أخرجه الترمذي وغيره.
(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٦.
(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٨٩.
(٤) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٩١.

على المؤمنين[١] كقوله تعالى ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠].. ثم ذكر تعالى وقائع الأمم المكذبين وما حلَّ بهم من العذاب والنكال تسلية لرسول الله ﷺ تحذيرًا لكفار مكة فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي كذب قبل قومك يا محمد قومُ نوح ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ أي فكذبوا عبدنا نوحًا وقالوا: إنه مجنون، وانتهروه وزجروه عن دعوى النبوة بالسب والتخويف والوعيد بقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] قال في البحر: لم يقنعوا بتكذيبه حتى نسبوه إلى الجنون أي إنه يقول ما لا يقبله عاقل وذلك مبالغة في تكذيبهم، وإنما قال ﴿عَبْدَنَا﴾ تشريفًا له وخصوصية بالعبودية[٢] ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ أي فدعا نوح ربه وقال: يا ربِّ إني ضعيف عن مقاومة هؤلاء المجرمين، فانتقم لي منهم وانتصر لدينك قال أبو حيان: وإنما دعا عليهم بعدما يئس منهم وتفاقم أمرهم، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشيًّا عليه وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[٣] ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أي فأرسلنا المطر من السماء منصبًّا بقوة وغزارة قال أبو السعود: وهو تمثيلٌ لكثرة الأمطار وشدة انصبابها[٤] ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي جعلنا الأرض كلها عيونًا متفجرة بالماء ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي فالتقى ماء السماء وماء الأرض على حالٍ قد قدَّرها الله في الأزل وقضاها بإهلاك المكذبين غرقًا قال قتادة: قضي عليهم في أم الكتاب إذا كفروا أن يُغرقوا ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي وحملنا نوحًا على السفينة ذات الألواح الخشبية العريضة المشدودة بالمسامير قال في البحر: وذات الألواح والدُّسر هي السفينة التي أنشأها نوح عليه السلام، ويفهم من هذين الوصفين أنها «السفينة» فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنو بعنه ونحوه: قميصي مسرودة من حديد، أي: درع، وهذا من فصيح الكلام وبديعه، ولو جمعت بين الصفة والموصوف لم يكن بالفصيح، والدُّسُر: المسامير[٥] ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي تسير على وجه الماء بحفظنا وكلاءتنا وتحت رعايتنا[٦] ﴿جَزَآءً

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٨.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٧٦.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٧٦.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٧/ ٧٨٦.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ١٧٧.

(٦) (ش): في قَوْلِهُ تَعَالَى عَنْ سَفِيْنَةِ نُوْحٍ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القَمَر: ١٤) وَقَوْلِهُ لِمُوْسَى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طَه: ٣٩). وقوله للنبي ﷺ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المَعْنَى عَلَى ظَاهِرِ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتِهِ، لَكِنْ مَا ظَاهِرُ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتُهُ هُنَا؟ هَلْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ وَحَقِيْقَتَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي فِي عَيْنِ اللهِ؛ أَوْ أَنَّ مُوْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبَّى فَوْقَ عَيْنِ اللهِ تَعَالَى؟!! أَوْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ تَعَالَى يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بها، وَلَا رَيْبَ أَنَّ القَوْلَ الأَوَّلَ بَاطِلٌ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: ١ - أَنَّهُ لَا يَقْتَضِيْهِ الكَلَامُ بِمُقْتَضَى الخِطَابِ العَرَبِيِّ، وَالقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ العَرَبِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: =

﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي أغرقنا قوم نوح انتصارًا لعبدنا نوح لأنه كان قد كُذِّب وجُحِد فضلُه قال الألوسي: أي فعلنا ذلك جزاء لنوح لأنه كان نعمة أنعمها الله على قومه فكفروها، وكذلك كلُ نبي نعمةٌ من الله تعالى على أمته[١] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ أي تركنا تلك الحادثة «الطوفان» عبرة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من معتبر ومتعظ؟ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ استفهام تهويل وتعجيب أي فكيف كان عذابي وإنذاري لمن كذب رسلي، ولم يتعظ بآياتي؟ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي والله لقد سهلنا القرآن للحفظ والتدبر والاتعاظ، لما اشتمل عليه من أنواع المواعظ والعبر ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من متعظٍ بمواعظه، معتبرٍ بقصصه وزواجره؟ قال الخازن: وفيه الحث على تعلم القرآن والاشتغال به، لأنه قد يسره اللهُ وسهله على من يشاء من عباده، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي قال سعيد بن جبير: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كُتب الله تعالى يُقرأ كلُّه ظاهرًا إلا القرآن[٢]، وبالجملة فقد جعل الله القرآن مهيئًا ومسهلًا لمن أراد حفظه وفهمه أو الاتعاظ به، فهو رأس سعادة الدنيا والآخرة ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي كذبت عادٌ رسولهم هودًا فكيف كان إنذاري لهم بالعذاب؟ ثم شرع في بيان ما حلَّ بهم من العذاب الفظيع المدمر فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي أرسلنا عليهم ريحًا عاصفة باردة شديدة الهبوب والصوت قال ابن عباس: الصرصر: الشديدة البرد وقال السدي: الشديدة الصوت[٣] ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي في يوم

= ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يُوسُف:٢) وَلَا أَحَدَ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ يَسِيرُ بِعَيْنِي أَنَّ المَعْنَى أَنَّهُ يَسِيرُ دَاخِلَ عَيْنِهِ، وَلَا مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ تَخَرَّجَ عَلَى عَيْنِي؛ أَنَّ تَخَرُّجَهُ كَانَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى عَيْنِهِ، وَلَوْ ادَّعَى مُدَّعٍ أَنَّ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ فِي هَذَا الخِطَابِ لَضَحِكَ مِنْهُ السُّفَهَاءُ فَضْلًا عَنِ العُقَلَاءِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ: إِنَّكَ تَحْتَ عَيْنِي، وَفُلَانٌ تَخَرَّجَ مِنْ تَحْتِ يَدِي، وَفُلَانٌ يَدِي اليُمْنَى وَ... مِمَّا مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ مَفْهُومٌ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ.
٢- أَنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ غَايَةَ الامْتِنَاعِ، وَلَا يُمْكِنُ لِمَنْ عَرَفَ اللهَ وَقَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ أَنْ يَفْهَمَهُ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ لَا يَحُلُّ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ، وَلَا هُوَ حَالٌّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِذَا تَبَيَّنَ بُطْلَانُ هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُوْنَ ظَاهِرُ الكَلَامِ هُوَ القَوْلُ الثَّانِي؛ أَنَّ السَّفِينَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ بِمَرْأًى مِنِّي، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَكْلَؤُهُ بِعَيْنِهِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَاهُ. وَوَجْهُ كَوْنِ العَيْنِ هِيَ الَّتِيْ تَرْعَاهُ دُوْنَ الوَجْهِ أَوِ اليَدِ أَوِ.... هُوَ لِأَنَّ العَيْنَ تُفِيْدُ الاطِّلَاعَ وَالمُرَاقَبَةَ وَالإِحَاطَةَ مِمَّا يُنَاسِبُ الحِفْظَ. وَاللهُ أَعْلَمُ. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عَزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:١١]. واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع (بِأَعْيُنِنَا) فإنما هو للتعظيم.

(١) روح المعاني ٢٧/ ٨٣.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٨.

(٣) قال ابن كثير بعد أن نقل الأقوال: والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فقد كانت ريحًا شديدة قوية، وكانت باردة شديدة البرد، وكانت ذات صوت مزعج.اهـ. وهذا القول هو الذي اخترناه.

مشئوم دائم الشؤم، استمر عليهم بشؤمه فلم يبق منهم أحدٌ إلا هلك فيه قال ابن كثير: استمر عليهم نحسه ودماره، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي تقلع الريح القوم ثم ترمي بهم على رءوسهم فتدقُّ رقابهم وتتركهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أي كأنهم أُصول نخلٍ قد انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض، شبهوا بالنخل لطولهم وضخامة أجسامهم فتبقى أجسامهم بلا رءوس كعجز النخلة الملقاة على الأرض[1] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تهويلٌ لما حلَّ بهم من العذاب وتعجبٌ من أمره أي كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن هائلًا فظيعًا؟ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ كرره للتنبيه على فضل الله على المؤمنين بتيسير حفظ القرآن، أي: ولقد سهلنا القرآن للحفظ والفهم، فهل من متعظٍ ومعتبر بزواجر القرآن؟ ثم أخبر تعالى عن قوم ثمود المكذبين لرسولهم صالح عليه السلام فقال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التي أنذرهم بها نبيهم صالح ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ أي أنتَّبع إنسانًا مثلنا من آحاد الناس، ليس من الأشراف ولا العظماء، ونحن جماعة كثيرون؟ قال في البحر: قالوا ذلك حسدًا منهم واستبعادًا أن يكون نوع البشر يفضل بعضُه بعضًا هذا الفضل، فقالوا: أنكون جمعًا ونتبع واحدًا منا؟ ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ويفيض نور الهدى على مَن رَضِيَه[2] ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي إنا إذا اتبعناه لفي خطأ وذهابٍ عن الحقِّ واضح، وجنون دائم قال ابن عباس: سُعُر، أي: جنون من قولهم ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة[3] ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ استفهام إنكاري، أي: هل خصَّ بالوحي والرسالة وحده دوننا، وفينا من هو أكثر منه مالًا وأحسن حالًا؟ قال الإمام الفخر: وفي الآية إشارة إلى ما كانوا ينكرونه بطريق المبالغة، وذلك لأن الإلقاء إنزالٌ بسرعة، فكأنهم قالوا: الملَك جِسمٌ والسماء بعيدة فكيف ينزل عليه الوحي في لحظة؟ وقولهم «عليه» إنكارٌ آخر كأنهم قالوا: ما أُلقي عليه ذكرٌ أصلًا، وعلى فرض نزوله فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء؟ وقولهم ﴿أَءُلْقِىَ﴾ بدلًا من قولهم «أألقى الله» إشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلًا عن أن يكون من الله تعالى[4] ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي بل هو كاذب في دعوى النبوة، متجاوز في حد الكذب، متكبرٌ بطِرٌ يريد العُلو علينا، وإنما وصفوه بأنه ﴿أَشِرٌ﴾ مبالغة منهم في رفض دعواه كأنهم قالوا: إنه كَذَبَ لا لضرورةٍ وحاجةٍ إلى الخلاص كما يكذب الضعيف، وإنما تكبَّر وبطر وطلب الرياسة عليكم

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٩.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٨٠. (ش): هذا التعبير بالفيض قد يُفهَم منه التوافق مع قول الفلاسفة أن النبوة فيْض وليست وحْيًا. والمؤلف لا يقصد ذلك طبعًا، يتضح ذلك من كلامه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٣٨.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٧٩٩.

وأراد أن تتبعوه فكذب على الله، فلا يلتفت إلى كلامه لأنه جمع بين رذيلتين: الكذب والتكبر، وكلٌّ منهما مانع من اتباعه، قال تعالى تهديدًا لهم وردًّا لبهتانهم ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ أي سيعلمون في الآخرة من هو الكذَّاب الأشر، هل هو صالح عليه السلام أم قومه المكذبون المجرمون؟ قال الألوسي: المراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشِرُون، لكنْ أورد ذلك مورد الإبهام إيماءً إلى أنه مما لا يكاد يخفى[1] ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ أي مخرجو الناقة من الصخرة الصماء محنة لهم واختبارًا كما شاءوا وطلبوا قال ابن كثير: أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء طبق ما سألوا لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به[2] ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾ أي فانتظرهم وتبصَّرْ ما يَصنعون وما يُصنَع بهم، واصبر على أذاهم فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي وأَعْلِمْهم أنَّ الماء الذي يمرُّ بواديهم مقسومٌ بين ثمود وبين الناقة كقوله تعالى ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥] قال ابن عباس: إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقةُ شيئًا من الماء وتسقيهم لبنًا وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تُبق لهم شيئًا[3]، وإنما قال تعالى ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ تغليبًا للعقلاء ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ أي كل نصيب وحصة من الماء يحضرها من كانت نوبته، فإذا كان يوم الناقة حضرت القوم شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أي فنادت قبيلة ثمود أشقى القوم واسمه «قدار بن سالف» لقتل الناقة فتناول الناقة بسيفه فقتلها غير مكترث بالأمر العظيم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فكيف كان عقابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن فظيعًا شديدًا؟! ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي أهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل عليه السلام فلم تَبْقَ منه عينٌ تطْرف[4] ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي فصاروا هشيمًا متفتتًا كيابسِ الشجر إذا بَلِيَ وتحطَّم وداسَتْه الأقدام قال الإمام الجلال: المحتظر هو الذي يجعل لغنمه حظيرةً من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته فهو الهشيم ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أي يسرناه للحفظ والاتعاظ فهل من معتبر؟

قال الله تعالى:

كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٨٨.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١١.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٤٠.

(٤) (ش): طَرَفت العينُ: تحرَّك جفناها. ما بقِيَتْ منهم عينٌ تَطرِف: هلكوا جميعًا.

فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ
ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى
ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ
وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ

المناسبة: لما ذكر تعالى المكذبين من قوم «عاد وثمود» ذكر هنا قوم لوط وقوم فرعون وما حل بهم من العذاب والدمار، تذكيرًا لكفار مكة بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، وختم السورة الكريمة ببيان سنة الله في عقاب الكفرة المجرمين.

اللغة: ﴿حَاصِبًا﴾ الحاصب: الحجارة وقيل: هي الريح الشديدة التي تثير الحصباء وهي الحصى ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقابنا الشديد ﴿ٱلزُّبُرِ﴾ الكتب السماوية جمع زبور وهو الكتاب الإلهي ﴿أَدْهَىٰ﴾ أفظع من الداهية وهي الأمر المنكر العظيم ﴿وَسُعُرٍ﴾ خسرانٍ وجنون ﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء جهنم أعاذنا الله منها.

سَبَبُ النّزول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْقَدَرِ فَنَزَلَتْ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

التفسير: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم لوط عليه السلام ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي أرسلنا عليهم حجارة قذفوا بها من السماء قال ابن كثير: أمر تعالى جبريل فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأُتبعت بحجارةٍ من سجيل منضود، والحاصب هي الحجارة[2] ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي غير لوطٍ وأتباعه المؤمنين ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ أي نجيناهم من الهلاك قُبَيْل الصبح وقت السَّحر[3] ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي إنعامًا منَّا عليهم نجيناهم من العذاب ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم، نجزي من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أي ولقد خوفهم لوط عقوبتنا الشديدة، وانتقامنا منهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي فتشككوا وكذبوا بالإنذار والوعيد ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي طلبوا منه أن يُسلِّم لهم أضيافه وهم الملائكة ليفجروا بهم بطريق اللواطة ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي أعمينا أعينهم وأزلنا أثرها حتى فقدوا

(١) أخرجه مسلم والترمذي.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٢.
(٣) (ش): قُبَيْل: تصغير قَبْل: قبل الشّيء بقليل، يقال: جاء قُبَيْل الظُّهر، أي قبله بزمن قليل– تحطّمت الطّائرة قُبَيْل المطار».

أبصارهم قال المفسرون: لما جاءت الملائكة إلى لوط في صورة شباب مردٍ حسان، أضافهم لوط عليه السلام، فجاء قومه يُهرعون إليه لقصد الفاحشة بهم، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، فخرج عليهم جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم وعموا[١] ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فذوقوا عذابي وإنذاري الذي أنذركم به لوط ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي جاءهم وقت الصبح عذابٌ دائم متصل بعذاب الآخرة قال الصاوي: وذلك أن جبريل قلع بلادهم فرفعها ثم قلبها بهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل، واتصل عذاب الدنيا بعذاب الآخرة فلا يزول عنهم حتى يصلوا إلى النار[٢] ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فذوقوا أيها المجرمون عذابي الأليم، وإنذاري لكم على لسان رسولي ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي ولقد يسرنا القرآن للحفظ والتدبير فهل من متعظٍ ومعتبر؟ قال المفسرون: حكمة تكرار ذلك في كل قصة، التنبيهُ على الاتعاظ والتدبير في أنباء الغابرين، وللإشارة إلى أن تكذيب كل رسولٍ مقتضٍ لنزول العذاب كما كرر قوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] تقريرًا للنعم المختلفة المعدودة، فكلما ذكر نعمةً وبَّخ على التكذيب بها[٣] ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ أي جاء فرعون وقومه الإنذارات المتكررة فلم يعتبروا قال أبو السعود: صُدِّرَتْ قصتُهم بالقسم المؤكد لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لغاية عِظَم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهو ما لاقَوْه من العذاب[٤]، وفرعون رأس الطغيان ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ أي كذَّبوا بالمعجزات التسع التي أُعطيها موسى[٥] ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي فانتقمنا منهم بإغراقهم في البحر، وأخذناهم بالعذاب أخذ إلهٍ غالب في انتقامه، قادرٍ على إهلاكهم لا يعجزه شيء.. ثم خَوَّف تعالى كفار مكة فقال ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾؟ الاستفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ، أي: أكفاركم يا معشر العرب خيرٌ من أولئكم الكفار الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون، حتَّى لا أعذبهم؟ قال القرطبي: استفهام إنكار ومعناه النفي، أي: ليس كفاركم خيرًا من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم[٦] ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي أم لكم يا كفار قريش براءة من العذاب في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي بل أيقولون نحن جمعٌ كثير،

---

(١) انظر «تفسير الخازن» ٤/ ٢٣٠، و «تفسير الرازي» ٧/ ٨٠٨.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٥٠.

(٣) «انظر التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٨١٠..

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٨.

(٥) قال القرطبي: المراد المعجزات الدالة على توحيد الله ونبوة موسى وهي: «العصا، واليد، والسنون، والطمس، والطوفان، والجراد، والقُمل، والضفادع، والدم».

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٤٥.

واثقون بكثرتنا وقوتنا، منتصرون على محمد؟ قال تعالى ردًّا عليهم ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أي سيهزم جمع المشركين ويولون الأدبار منهزمين قال ابن الجوزي: وهذا مما أخبر الله به نَبِيَّه من علم الغيب، فكانت الهزيمةُ يوم بدر[1] ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي ليس هذا تمام عقابهم بل القيامة موعد عذابهم ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ أي أعظم داهيةً وأشدُّ مرارةً من القتل والأسر ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ أي إن المجرمين في حيرةٍ وتخبطٍ في الدنيا، وفي نيرانٍ مسعَّرة في الآخرة قال ابن عباس: في خسرانٍ وجنون[2] ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ أي يوم يُجرُّون في النار على وجوههم عقابًا وإذلالًا لهم ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي يقال لهم: ذوقوا أيها المكذبون عذاب جهنم قال أبو السعود: وسقر عَلَمٌ لجهنم ولذلك لم يُصرف[3] ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي إنا خلقنا كل شيءٍ مقدَّرًا مكتوبًا في اللوح المحفوظ من الأزل ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ أي وما شأننا في الخلق والإيجاد إلا مرة واحدة كلمح البصر في السرعة نقول للشيء: كن فيكون قال ابن كثير: أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيدٍ بثانية، فيكون ذلك موجودًا كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين[4] ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أي ووالله لقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر والضلال من الأمم السالفة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ؟ ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي وجميع ما فعلته الأمم المكذبة من خير وشر مكتوب عليهم، مسجل في كتب الحفظة التي بأيدي الملائكة قال ابن زيد: ﴿فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي في دواوين الحفظة ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أي وكل صغيرٍ وكبيرٍ من الأعمال مسطورٌ في اللوح المحفوظ، مُثْبَتٌ فيه ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في جنات وأنهار قال القرطبي: يعني أنهار الماء، والخمر، والعسل، واللبن ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مكانٍ مرضِيٍّ، ومقامٍ حسَن ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ أي عند ربٍّ عظيم جليل، قادرٍ في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء، وهو الله رب العالمين.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة التمثيلية ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [القمر: ١١] شبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء، وانشق بها أديم الخضراء بطريق الاستعارة التمثيلية.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾.

---

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ١٠٠.

(٢) «روح المعاني» ٢٧/ ٩٣.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٩. (ش): أي ممنوع من الصرف لأنه اسم علَم لـ «جهنم» و«جهنم» علَمٌ مؤنث، فصار مجرورًا بالفتحة نيابةً عن الكسرة لأنه مضاف إليه: ﴿سَقَرَ﴾ وليس (سَقَرٍ).

(٤) «المختصر» ٣/ ٤١٤.

٣ - الكناية ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] كناية عن السفينة التي تحوي الأخشاب والمسامير.

٤ - التشبيه المرسل والمجمل ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ومثله ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

٥ - صيغة المبالغة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] أي كثير الكذب عظيم البطر؛ لأن (فعَّال وفعل) للمبالغة.

٦ - الإطناب بتكرار اللفظ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ لزيادة التخويف والتهويل.

٧ - المقابلة بين المجرمين والمتقين ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ و ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾.

٨ - الطباق بين ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾.

٩ - السجع المرصَّع غير المتكلف الذي يزيد في جمال اللفظ وموسيقاه، اقرأ مثلًا قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر»





مدنية وآياتها ثمان وسبعون

بين يدي السورة

* سورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة، ولهذا ورد في الحديث الشريف: «لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن»[1].

* ابتدأت السورة بتعديد آلاء الله الباهرة، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد، التي لا يحصيها عد، وفي مقدمتها نعمة «تعليم القرآن» بوصفه المنة الكبرى على الإنسان، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾.

* ثم فتحت السورة صحائف الوجود، الناطقة بآلاء الله الجليلة، وآثاره العظيمة التي لا تحصى، الشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عجائب القدرة وغرائب الصنعة، والأرض التي بث فيها من أنواع الفواكه، والزروع، والثمار، رزقًا للبشر ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة الباهرة في تسيير الأفلاك، وتسخير السفن الكبيرة تمخر عباب البحار[2] وكأنها الجبال الشاهقة عظمة وضخامة، وهي تجري فوق سطح الماء ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ الآيات.

* ثم بعد ذلك الاستعراض السريع لصفحة الكون المنظور، تطوى صفحات الوجود، وتتلاشى الخلائق بأسرها، فيلفها شبح الموت الرهيب، ويطويها الفناء، ولا يبقى إلا الحي القيوم متفردًا بالبقاء ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾.

* وتناولت السورة أهوال القيامة، فتحدثت عن حال الأشقياء المجرمين، وما يلاقونه من الفزع والشدائد في ذلك اليوم العصيب ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ...﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن مشهد العذاب للمجرمين، تناولت السورة مشهد النعيم للمتقين في شيء من الإسهاب والتفصيل، حيث يكونون في الجنان مع الحور والولدان ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ..﴾ الآيات.

---

(١) (ش): «لكل شَيْء عروس وعروس الْقُرْآن الرَّحْمَن». (رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان، وضعفه الألباني).

(٢) (ش): مخَرتِ السَّفينةُ: جرت في البحر بدفع الماء، جرت تشقّ الماءَ مندفعة مع إحداث صوت. عُباب البحر: مَوْجُه.

* وختمت السورة بتمجيد الله جل وعلا والثناء عليه، على ما أنعم على عباده من فنون النعم والإكرام، وهو أنسب ختام لسورة الرحمن ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أروع صور البيان!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ
﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ
ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ
مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ
﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ
الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو
الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا
انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ
وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ
﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

اللغَة: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ الحُسبان بضم الحاء مصدر مثل الغُفران والكُفران ومعناه الحساب ﴿الْأَنَامِ﴾ الخلق وكلُّ ما دبَّ على وجه الأرض ﴿الْعَصْفِ﴾ ورق الزرع الأخضر إذا يبس ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ كل نبات طيب الريح، سمي ريحانًا لرائحته الطيبة ﴿مَّارِجٍ﴾ المارج: اللهب الذي يعلو النار قال الليث: هو الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد[1] ﴿الْجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تمشي على سطح الماء ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ الجبال جمع عَلَم وهو الجبل الطويل قال الشاعر:

إِذَا قَطَعْنَ عَلَمًا بَدَا عَلَمُ

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٦١.

﴿تَنفُذُوا﴾ النفوذ: الخروج من الشي بسرعة ﴿شُوَاظٌ﴾: اللهب الذي لا دخان له ﴿كَالدِّهَانِ﴾ الجلد الأحمر ﴿ءَانٍ﴾ نهاية في الحرارة.

التفسِير: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ﴾ أي الله الرحمنُ علَّم القرآن، ويسَّره للحفظ والفهم قال مقاتل: لما نزل قوله تعالى ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] قال كفار مكة: وما الرحمن؟ فأنكروه وقالوا: لا نعرف الرحمن[١] فقال تعالى ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ الذي أنكروه هو الذي ﴿عَلَّمَ الْقُرْءَانَ﴾[٢] وقال الخازن: إن الله عَزَّ وَجَلَّ عدَّد نِعَمَه على عباده، فقدَّم أعظمها نعمة، وأعلاها رتبة، وهو القرآن العزيز لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه، وأكثره ذكرًا، وأحسنه في أبواب الدين أثرًا، وهو سنام الكتب السماوية المنزَّلة على أفضل البرية[٣] ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ أي خلق الإنسان السميع البصير الناطق، والمرادُ بالإِنسان الجنسُ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يُبين عن مقاصده ورغباته ويتميَّز به عن سائر الحيوان قال البيضاوي: والمقصودُ تعداد ما أنعم الله به على الإِنسان، حثًا على شكره، وتنبيهًا على تقصيرهم فيه، وإنما قدَّم تعليم القرآن على خلق الإنسان، لأنه أصل النعم الدينية فقدَّم الأهم[٤] ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي الشمس والقمر يجريان بحساب معلوم في بروجهما، ويتنقلان في منازلهما لمصالح العباد قال ابن كثير: أي يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب[٥] ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي والنجم والشجر ينقادان للرحمن فيما يريده منهما هذا بالتنقل بالبروج وذاك بإخراج الثمار[٦] ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي والسماء خلقها عالية محكمة البناء رفيعة القدر والشأن، وأمر بالميزان عند الأخذ والإِعطاء لينال الإنسان حقه وافيًا ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي لئلا تبخسوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي اجعلوا الوزن مستقيمًا بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تطففوا الوزن ولا تُنقصوه كقوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي والأرض بسطها لأجل الخلق، ليستقروا عليها، وينتفعوا بما خلق الله على ظهرها قال ابن كثير: أي أرساها بالجبال الشامخات لتستقر بما على وَجْهِها من

(١) (ش): قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

(٢) «زاد المسير» ٨/ ١٠٥.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٦.

(٤) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٢٧.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٥.

(٦) (ش): هذا تأويل للسجود عن حقيقته من غير دليل. وكل شيء يسجد سجودًا حقيقيًا بكيفية يعلمها الله، كالتسبيح، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

الأنام وهم الخلائق، المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم في سائر أرجائها[١] ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي فيها من أنواع الفواكه المختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي وفيها النخل التي يطلع فيها أوعية الثمر قال ابن كثير: أفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه رطبًا ويابسًا، والأكمام هي أوعية الطلع كما قال ابن عباس، وهو الذي يطلع فيه القنو، ثم ينشق عنه العنقود فيكون بُسرًا ثم رُطبًا، ثم ينضج ويتناهى يَنْعُه واستواؤه[٢] ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ أي والنجمُ والشجر ينقادان للرحمن فيما يريده منهما، هذا بالتنقل بالبروج، وذاك بإخراج الثمار ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي وفيها أنواع الحب كالحنطة[٣] والشعير وسائر ما يُتغذى به، ذو التبن الذي هو غذاء الحيوان ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ أي وفيها كل مشموم طيب الريح من النبات كالورد، والفُل، والياسمين وما شاكلها قال في البحر: ذكر تعالى الفاكهة أولًا ونكَّر لفظها لأن الانتفاع بها نفسها، ثم ثنَّى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر، لكثرة الانتفاع بها من ليفٍ، وسَعَف، وجريدٍ، وجذوع، وجُمَّار، وثمر[٤]، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان وهو البر والشعير وكل ما له سنبل وأوراق، ووصفه بقوله ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ تنبيهًا على إنعامه عليهم بما يقوتهم به من الحب، وما يَقُوتُ بهائمَهم مِن ورقه وهو التبنُ، وبدأ بالفاكهة وختم بالمَشْمُوم ليحصل ما به يُتفكَّه، وما به يُتقوَّت، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة[٥]، ولما عدَّد نعمه خاطب الإنس والجن بقوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ أليست نعم الله عليكم كثيرة لا تُحصى؟ عن ابن عمر «أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فَقَالَ: «مَا لِي أَسْمَعُ الْجِنَّ أَحْسَنَ جَوَابًا لِرَبِّهَا مِنْكُمْ؟ مَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِ اللهِ تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلَّا قَالُوا: لاَ بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ »[٦].

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٦.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٦. قال مُحَقِّقُهُ: قُنْو/ قِنْو: سُباطة، عِذْق بما فيه من الرُّطب، وهو من النَّخل كالعنقود من العنب. البُسْرُ: تمرُ النَّخل إذا تلوّن ولم ينضِج. يَنَعَ الثَّمرُ، يَنْعًا ويُنوعًا: نَضِج، طاب وحَانَ قِطافُه. نضِجَتِ الفاكهةُ: طابَتْ، بلغَتْ ما يرادُ منها من اكتمال الطّراوة والرّائحة والطّعم واللّون.

(٣) (ش): الحِنْطَةُ: القَمْح والبُرُّ.

(٤) (ش): سَعَف: جريدُ النّخل وورقُه، ورق النّخل اليابس. جُمّار: قلب النخل.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٠. (ش): تفكَّه الشَّخصُ: أكل الفاكهة. تفكَّه بالشَّيء: تمتَّع به وتلذَّذ. تقوَّت بالشَّيء: اقتات به؛ أكله. قاتَ الشَّخصَ قَوْتًا: أطْعَمَهُ قُوتًا يَسُدُّ الرَّمَقَ.

(٦) أخرجه الترمذي وصححه الحاكم. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن ابن عمر بهذا اللفظ. والترمذي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني. ولفظ الترمذي: عَنْ جَابِرٍ رضى الله عنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا فَقَالَ: « لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالُوا لاَ بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ ».

ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾ أي خلق أباكم آدم من طين يابسٍ يُسمع له صلصلة أي صوتٌ إذا نُقِر قال المفسرون: ذكر تعالى في هذه السورة أنه خلق آدم ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾ وفي سورة الحجر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] أي من طين أسود متغير، وفي الصافات ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] أي يلتصق باليد، وفي آل عمران ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ولا تنافي بينها، وذلك لأن الله تعالى أخذه من تراب الأرض، فعجنه بالماء فصار طينًا لازبًا، أي: متلاصقًا يلصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأً مسنونًا، أي: طينًا أسود منتنًا، ثم صوَّره كما تُصوَّر الأواني ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نُقر صوَّت، فالمذكور هنا آخر الأطوار[١] ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي وخلق الجنَّ من لهبٍ خالص لا دخان فيه من النار[٢] قال ابن عباس: ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ أي لهب خالص لا دخان فيه وقال مجاهد: هو اللهب المختلط بسواد النار، وفي الحديث «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»[٣] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله يا مشعر الإنس والجن تكذبان؟ قال أبو حيان: والتكرار في هذه الفواصل للتأكيد والتنبيه والتحريك، وقال ابن قتيبة: إن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم، فكلما ذكر نعمةً كرر قوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤] وقد ذُكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، والاستفهام فيها للتَّقْريع والتوبيخ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي هو جل وعلا ربُّ مشرق الشمس والقمر، وربُّ مغربهما، ولمّا ذكر الشمس والقمر في قوله ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ذكر هنا أنه رب مشرقهما ومغربهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله التي لا تحصى تكذبان؟ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي أرسل البحر المِلْح والبحر العذب[٥] يتجاوران يلتقيان ولا يمتزجان ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي بينهما حاجزٌ من قدرة الله تعالى لا يطغى أحدهما على الآخر بالممازجة قال ابن كثير: والمراد بالبحرين: الملح والحلو، فالملح هذه البحار، والحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس، وجعل الله بينهما برزخًا وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر[٦] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان؟ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي يُخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من

(١) انظر «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٣٠ و«حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٥٤.
(٢) «روح المعاني» ٢٧/ ١٠٥.
(٣) أخرجه مسلم وأحمد.
(٤) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٠.
(٥) (ش): مَلُح الماءُ: صار مِلْحًا، عكسه عَذُبَ.
(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٧.

التراب الحب والعصف والريحان، قال الألوسي: واللؤلؤ صغار الدُّر، والمرجان كباره قاله ابن عباس، وعن ابن مسعود أن المرجان الخرز الأحمر[١]، والآية بيانٌ لعجائب صنع الله حيث يخرج من الماء الملح أنواع الحلية كالدر والياقوت والمرجان، فسبحان الواحد المنَّان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تكذبان؟ ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي وله جل وعلا السفن المرفوعات الجارياتُ في البحر كالجبال في العِظَم والضخامة قال القرطبي: ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي كالجبال، والعلمُ الجبل الطويل، فالسفن في البحر كالجبال في البر[٢]، ووجه الامتنان بها أن الله تعالى سيَّر هذه السفن الضخمة التي تشبه الجبال على وجه الماء، وهو جسم لطيف مائع يحمل فوقه هذه السفن الكبار المحمَّلة بالأرزاق والمكاسب والمتاجر من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم قال شيخ زاده: واعلم أن أصول الأشياء أربعة: الترابُ، والماءُ والهواءُ، والنارُ، فبيَّن تعالى بقوله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ أن التراب أصلٌ لمخلوق شريف مكرَّم، وبيَّن قوله ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أن النار أيضًا أصلٌ لمخلوق آخر عجيب الشأن، وبيَّن بقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أن الماء أيضًا أصل لمخلوق له قدرٌ وقيمة، ثم ذكر أن الهواء له تأثير عظيم في جري السفن المشابهة للجبال فقال ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ وخصَّ السفن بالذكر لأن جريها في البحر لا صنع للبشر فيه، هم معترفون بذلك حيث يقولون: «لك الفُلك ولك المُلك» وإذا خافوا الغرق دعوا الله تعالى خاصة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٣] [العنكبوت: ٦٥] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمةٍ من نعم الله تكذبان؟ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي كل من على وجه الأرض من الإنسان والحيوان هالك وسيموت ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي ويبقى ذات الله الواحد الأحد، ذو العظمة والكبرياء والإنعام والإكرام كقوله ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] قال ابن عباس: الوجهُ عبارة عن الله جل وعلا الباقي الدائم[٤]. قال

---

(١) «روح المعاني» ٢٧/ ١٠٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٦٤.

(٣) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٣٠.

(٤) (ش): لم يذكر المؤلف المصدر الذي نقل منه قول ابن عباس ﭭ، وقد بحثت عنه كثيرًا في كتب التفاسير فلم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد بلفظ: «الْوَجْهُ عِبَارَةٌ عَنْهُ». انتهى. وما أظنه يثبت عنه ﭬ، فالوارد عن ابن عباس ﭭ إثبات الوجه لله تعالى. [انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٥٨)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٢)، «تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي» (٢/ ١٢٧)].

إن تأويل الوجهِ بالذاتِ تأويلٌ باطلٌ؛ لأنه نَفيٌ لصفةٍ ثابتةٍ لله تعالى. وَالنُّصُوصُ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا تُحْصَى كَثْرَةً، وَكُلُّهَا تَنْفِي تَأْوِيلَ الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ الْوَجْهَ بِالْجِهَةِ أَوِ الثَّوَابِ أَوِ الذَّاتِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَقِّ أَنَّ الْوَجْهَ صفةٌ غيرُ الذَّاتِ، وَلَا يَقْتَضِي إِثْبَاتُهُ كَوْنَهُ تَعَالَى مُرَكَّبًا مِنْ أَعْضَاءٍ، كَمَا يَقُولُهُ المجسِّمة، بَلْ هُوَ صِفَةٌ لِلَّهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، فَلَا يُشْبِهُ وَجْهًا وَلَا يُشْبِهُهُ وَجْهٌ. قال الإمام ابن خزيمة: «بَابُ ذِكْرِ إِثْبَاتِ وَجْهِ اللهِ =

القرطبي: ووجه النعمة في فناء الخلق التسـويةُ بينهم في الموت ومع الموت تسـتوي الأقدام، والموتُ سـبب النقلة من دار الفناء إلى دار الثـواب والجزاء[1] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي

= الَّذِي وَصَفَهُ بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَنَفَى عَنْهُ الْهَلَاكَ إِذَا أَهْلَكَ اللهُ مَا قَدْ قَضَى عَلَيْهِ الْهَلَاكَ مِمَّا قَدْ خَلَقَهُ اللهُ لِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، جَلَّ رَبُّنَا، عَنْ أَنْ يَهْلِكَ شَيْءٌ مِنْهُ مِمَّا هُوَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَقَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]» [التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٤)]. وقد تَضَمَّنَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ إِثْبَاتَ صِفَةَ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ولايصح قول من استدلَّ بهما عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ؛ قائلًا: إنه لَا خُصُوصَ لِلْوَجْهِ فِي الْبَقَاءِ وَعَدَمِ الْهَلَاكِ، وأنه لو كان المراد به صفة زائدة على الذات لكان المعنى المراد في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أن ذاته تهلك إلا وجهه. والجواب عن هذه الشبهة من وجهين: مجمل ومفصَّل: أما المجمل، فإنه يقال: قد دلَّ الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها على أن لله تعالى وجهًا كما أن له يدَيْن وسمعًا وبصرًا وعلمًا وحياةً، وغير ذلك ممَّا وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله محمد ﷺ، فيجب إثبات الوجه لله تعالى إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل؛ لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية١١]؛ فكما أننا نثبت لله تعالى ذاتًا لا تُشبه الذوات، فكذلك نثبت لله تعالى وجهًا لا شبيه له ولا نظير. وأمَّا الجواب المفصَّل؛ فمن وجوه:

١- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ «أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني). فقوله ﷺ: «وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ»: دليل على إثبات الوجه لله تعالى. وفي هذا رَدٌّ على من زعم أن الوجه هو الذات؛ فالنبي ﷺ استعاذ أولًا بالله العظيم، ثم استعاذ ثانيًا بوجهه الكريم، والعطف يدل على أن الوجه غير الذات.

٢- إننا لو سلَّمنا أن المراد بقول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: إلا ذاته، أو: إلا هو، لم يكن في ذلك دليل على نفي الوجه عن الله تعالى؛ لأن النصوص كثيرة في إثبات الوجه لله تعالى.

٣- إن تأويل الوجه بالذات باطل؛ لأنه أضاف الوجه إلى نفسه فقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ والمضاف ليس كالمضاف إليه؛ لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه. فقد ورد الوجه مضافًا إلى الذات الإلهية وأضاف النعت إلى الوجه في قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فدل على أن الجلال والإكرام من صفات الوجه وأن الوجه من صفة الذات اللائقة بجلال الله تعالى وعظمته فإضافته إلى الله تعالى من إضافة الصفة إلى موصوفها.

٤- إن في هاتين الآيتين دلالة أن وجه الله صفة من صفات الله، صفات الذات، لا أن وجه الله هو الله؛ لأن وجه الله لو كان هو الله لقُرِئَ: (ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام)! ففي قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أضاف الله تبارك وتعالى الوجه إلى الذات ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ثم وجَّه النعْتَ ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إلى الوجه. ولو كان الأمر كما قال هؤلاء المؤولون من أن الوجه هو الذات لقال بعد ذلك ﴿ذي الجلال والإكرام﴾ فتكون وصفًا لكلمة ﴿رَبِّكَ﴾ إلا أنّ رفْعه لكلمة ﴿ذُو﴾ يدل على أنه نعتٌ للوجه وأن الوجه صفة لله تبارك وتعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فأضاف الوجه إلى الذات ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وأضاف النعت إلى الوجه، فقال ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فلما قال: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ علِمْنا أنه نعتٌ للوجه، وهو صفةٌ للذات. وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن النعت في الآية للوجه فقال في «تفسيره» (٧/ ٤٩٤): «وَقَدْ نَعَتَ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ أَيْ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفُ.

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٦٥.

فبأي نعمةٍ من نعم الله تكذبان ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يفتقر إليه تعالى من السموات والأرض، ويطلبون منه العون والرزق بلسان المقال أو بلسان الحال ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي كل ساعة ولحظة هو تعالى في شأن من شئون الخلق، يغفر ذنبًا، ويفرّج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين قال المفسرون: هي شئونٌ يُبديها ولا يَبتَديها أي يُظهِرها للخلق ولا يُنشِئُها من جديد لأن القلم جَفَّ على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، فهو تعالى يرفع من يشاء ويضع من يشاء، ويشفي سقيمًا ويُمرِض سليمًا، ويعز ذليلًا ويذل عزيزًا، ويفقر غنيًّا ويغني فقيرًا قال مقاتل: إن الآية نزلت في اليهود قالوا: إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئًا، فردَّ الله عليهم بذلك[١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان أيها الإنس والجان؟ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي سنحاسبكم على أعمالكم يا معشر الإنس والجنِّ قال ابن عباس: هذا وعيدٌ من الله تعالى للعباد، وليس بالله تعالى شغل وهو فارغ[٢] قال في البحر: أي ننظر في أموركم يوم القيامة، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ فيه، وجرى هذا على كلام العرب يقول الرجل لمن يتهدده: سأفرغ لك، أي: سأتجرد للانتقام منك من كل ما شغلني[٣] وقال البيضاوي: أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة، وفيه تهديد مستعارٌ من قولك لمن تهدده: سأفرغ لك، فإن المتجرد للشيء يكون أقوى عليه، وأجَدَّ فيه، والثقلان: الإنسُ والجنُّ سُمِّيَا بذلك لثقلهما على الأرض[٤] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السمواتِ والأرض هاربين من الله، فارين من قضائه فاخرجوا منها، وخلصوا أنفسكم من عقابه، والأمر للتعجيز ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي لا تقدرون على الخروج إلا بقوةٍ وقهر وغلبة، وأنَّى لكم ذلك؟ قال ابن كثير: معنى الآية أنكم لا تستطيعون هربًا من أمر الله وقدره، بل هو محيطٌ بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر حيث الملائكة مُحْدِقةٌ بالخلائق سبعة صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان أي إلا بأمر الله وإرادته[٥] ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ١٠]؟[٦]

---

(١) تفسير الألوسي ٢٧/ ١١١. (ش): ذكره الألوسي بدون إسناد. وإن ثبت عنه فمقاتل مُتَّهم بالكذب، وهناك انقطاع بينه وبين النبي ﷺ فمقاتل توفي بعد عام ١٥٠ هـ.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٩. (ش): فَإِن سُبْحَانَهُ كل يَوْم هُوَ فِي شَأْن وَلاَ يشْغلهُ شأن عَن شَأْن، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله إن هذا وعيد، وليس المعنى أن الله عز وجل مشغول الآن، وسيخلفه الفراغ فيما بعد. [القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣١٨)].

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٤.

(٤) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٣٢.

(٥) (ش): أحدَقَ به: أحاط به من كُلِّ جهة.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٩.

وهـذا إنما يكون في القيامـة لا في الدنيا بدليل قوله تعالى بعـده ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾[١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ تقدم تفسيره ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي يرسـل عليكما يوم القيامة لهب النار الحامية ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي ونحاسٌ مذاب يصبُّ فوق رءوسكم قال مجاهد: هو الصُّفْر المعروف يصب على رءوسـهم يوم القيامة[٢] وقال ابن عباس: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ هو الدخان الـذي لا لهـب فيه، وقـول مجاهد أظهر ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي فلا ينصر بعضكم بعضًا، ولا يخلصه من عذاب الله قال ابن كثير: ومعنى الآية لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لَرَدَّتْكم الملائكةُ وزبانيةُ جهنم، بإرسـال اللهب مـن النار والنحاس المذاب عليكـم لترجعوا فلا تجدون لكم ناصرًا[٣]﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسـيره ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي فإذا انصدعت يـوم القيامة لِتَنْزل الملائكـة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ أي فكانـت مثـل الورد الأحمر من حرارة النـار، ومثل الأديم الأحمر أي الجلـد الأحمر قاله ابن عباس: وذلك من شـدة الهول، ومن رهبة ذلك اليوم العظيم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسـيره ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي ففي ذلك اليوم الرهيب يوم تنشـق السماء، لا يُسـأل أحد من المذنبين مـن الإنس والجن عن ذنبه، لأن للمذنـب علامات تدل على ذنبه كاسـوداد الوجـوه، وزرقة العيون قال الإمام الفخر: لا يُسـأل أحد عن ذنبه فـلا يقال له: أنتَ المذنب أو غيرك؟ ولا يقال: من المذنب منكم؟ بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره[٤] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسـيره ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي يُعرف يوم القيامة أهل الإجرام بعلامات تظهر عليهم وهي ما يغشـاهم من الكآبة والحزن قال الحسـن: سواد الوجه وزرقـة الأعين كقوله تعالـى ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وقوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

(١) جنح بعض المتأخرين في هذه إلى تفسير الآية تفسيرًا خطأ فزعموا أن الإنسان يُمكنه الصعود إلى السماوات وإلى الكواكب وفسروا «السلطان» بالعلم وهو مخالف لأقول المفسرين، ويردُّه سياق الآية وسباقها، فإن الآية سيقت لبيان أهوال الآخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى قبلها: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وقوله بعدها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ وقد اتفق المفسرون على أنها في الآخرة، ونحن لانستنكر إمكان وصول الإنسان. بالصواريخ والمخترعات الحديثة. إلى القمر أو بعض الكواكب، فإن ذلك مقدور الإنسان ويستطيع بواسطة العلم أن يدور حول الأرض ويعلو في الأجواء ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى السماء، فقد جعلها الله سقفًا محفوظًا، أما القمر وسائر الكواكب فهي دون السماء الدنيا ويمكن الوصول إليها. ولكننا نستنكر ونتعجب ممن يتهجم على القرآن بدون علم ولا فهم، ويقول في كتاب الله برأيه دون الرجوع إلى أقوال المفسرين المعتمدين، وانظر ما كتبناه في مجلة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٧ حول الوصول إلى القمر. (ش): تُفهم الكلمة أو الجملة مِن السباق (ما قبلها من الكلام) و السياق (ما حولها) و اللحاق (ما بعدها).

(٢) (ش): الصُفْر: خليط من النُّحاس والزّنك (الخارصين) ويُسمَّى النُّحاس الأصفر.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٩.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٩/ ١١٨.

وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[1] [آل عمران: ١٠٦] ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي فتأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدَّم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في جهنم قال ابن عباس: يُؤخذ بناصية المجرم وقدميه فيُكسر كما يُكسَر الحطب ثم يُلقى في النار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: هذه النار التي أُخْبِرتُم بها فكذَّبتم قال ابن كثير: أي هذه النار التي كنتم تكذّبون بوجودها، ها هي حاضرةٌ تشاهدونها عيانًا[2] ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي يترددون بين نار جهنم وبين ماءٍ حار بلغ النهاية في الحرارة قال قتادة: يطوفون مرةً بين الحميم، ومرة بين الجحيم، والجحيم النارُ، والحميم الشراب الذي انتهى حره ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الإنس والجان؟

قال الله تعالى:

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال أهل النار، ذكر ما أعدَّه للمؤمنين الأبرار من الجنان والولدان والحور الحسان، ليتميز الفارق الهائل بين منازل المجرمين ومراتب المتقين، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب.

اللغَة: ﴿أَفْنَانٍ﴾ جمع فَنَن وهو الغُصْن قال الشاعر يصف حمامة:

رُبَّ وَرْقَـاءَ هَتُـوفٍ فِي الضُّحَى ... ذَاتِ شَـدْوٍ صَدَحَتْ فِي فَنَنِ
ذَكَـرَتْ إِلْفًـا وَدَهْـرًا خَالِيًا ... فَبَكَتْ شَوْقًا فَهَاجَتْ حَزَنِي[3]

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٧٥.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٢١.

(٣) (ش): هتَف الشَّخصُ: صاح مادًّا صوتَه، يُقَال: هتَفت الحمامةُ.هَتوف: هتّاف: صيغة مبالغة من هتَفَ، كثير الصّياح والنّواح (يستوي فيها المذكَّر والمؤنّث) يُقَال رجل هتوف وحمامةٌ هَتوف.شَدْو: غناء. صدَح الطَّائرُ: =

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلُظَ من الديباج وخشُن ﴿وَجَنَى﴾ الجنى: ما يُحتنَى من الشجر ويُقطف ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾ الطمثُ: الجماع المؤدي إلى خروج دم البِكْر ثم أُطلِق على كل جماع، ومعنى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد قال الفراء: الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتَّدْمِيَة[1] ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ سوداوان من شدة الخضرة، والدهمةُ في اللغة السواد ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ فوَّارَتان بالماء لا تنقطعان ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ طَنَافس جمع، عبقرية أي طنفَسةُ ثخينة فيها أنواع النقوش[2] قال الفراء: العبقري الطنافس الثخان منها وقال أبو عبيد: كل ثوبٍ وُشِيَ عند العرب فهو عبقري منسوب إلى أرضٍ يُعمَل فيها الوشْيُ[3] قال ذو الرمة:

حَتَّى كَأَنَّ رِيَاض الْقُفِّ أَلْبَسَهَا ... مِنْ وَشْي عَبْقَر تَجْلِيل وَتَنْجِيدُ[4]

التفسير: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أي وللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب[5] جنتان: جنةٌ لسكنه، وجنةٌ لأزواجه وخدمة، كما هي حال ملوك الدنيا حيث يكون له قصرٌ ولأزواجه قصر[6] قال القرطبي: وإنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من وجهة إلى جهة وقال الزمخشري: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي وفي الحديث «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[7] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثم وصف تعالى

= صاح، غرَّد ورفع صَوْتَهَ فأطرب. إِلْف: صديق ودود، حبيب، أنيس. فَبَكَتْ شَوْقًا فَهَاجَتْ حَزَنِي: أي إن بكاءها أثار في نفسه الحزَن، يقال: حزِن الرَّجلُ حَزَنًا وحُزْنًا: اغتمَّ.

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٨.

(٢) (ش): الطَّنْفَسَةُ: البِساطُ.

(٣) (ش): وشَى/ وشَّى الثَّوبَ ونحوَه: زخرفه، حَسَّنَهُ بالألوان ونقشه. والوَشْي: التطريز، والنَّقْش يكون في الثَّوب ونحوه.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ١٨٦. (ش): القُفّ ما ارتفع من الأرض وصلُبَت حجارتُه. جلَّل الشيءَ تجليلاً: غطَّاه، كساه بغطاء. النَّجْدُ: ما يُنجَّدُ به البيتُ من المتاع، أي يزيَّنُ؛ والجمع نُجودٌ. والتَّنْجيدُ: التزيين. والشاعر يشبه الزهر في هذا المكان المرتفع في اختلاف ألوانه بوَشْيٍ مصنوع في عبقر، ويشبهه بنجود الْبَيْت التي يُكْسَى بها ويُزَيَّن.

(٥) (ش): قال المؤلف في تفسير سورة النازعات: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي وأمَّا من خاف عظمة ربه وجلاله، وخاف مقامه بين يديْ ربه يوم الحساب، لعلمه ويقينه بالمبدأ والمعاد.

(٦) قال الفخر الرازي: «لما قال تعالى في حق المجرم: إنه يطوف بين نار، وبين حميم آن، قال في حق المؤمن الخائف: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ وقد ذكر تعالى الجنة، والجنتين، والجنات فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾ وقال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ فهي لاتِّصَالِ أشجارِها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينها كمَهَامِهِ وقِفَار صارت كجنة واحدة ولسعتها وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات، ولاشتمالها على ما تلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان» انتهى من «التفسير الكبير» ٢٩/ ١٢٣. (ش): مَهْمَهُ، ومَهْمَهَةٌ: مفازةٌ بَعِيدَةٌ لَا ماءَ بِهَا وَلَا أَنِيسَ، وَالْجَمْعُ مَهامِهُ. القَفْر: الْخَلَاء من الأَرْض لَا مَاء فِيهِ وَلَا نَاس، وَالْجَمْعُ قِفار.

(٧) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

الجنتين فقال ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ أي ذواتا أغصان متفرعة وثمار متنوعة قال في البحر: وخصَّ الأفنان وهي الغصون بالذكر لأنها لا تُورِق وتُثْمِر، ومنها تمتد الظلال وتُجنَى الثمار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ أي في كل واحدة من الجنتين عين جارية، تجري بالماء الزلال كقوله تعالى ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ [الغاشية: ١٢] قال ابن كثير: أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان، فتثمر من جميع الألوان[١] قال الحسن: تجريان بالماء الزُّلَال[٢] إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: معروفٌ، وغريب لم يعرفوه في الدنيا قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرةٌ حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، إلا أنه حلو، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلَّا لأسماء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره قال الفخر الرازي: إن قوله تعالى ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ و ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ و ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ كلها أوصافٌ للجنتين المذكورتين، وإنما فصَل بين الأغصان والفواكه بذكر العينين الجاريتين على عادة المتنعمين، فإنهم إذا دخلوا البستان لا يبادرون إلى أكل الثمار، بل يقدِّمون التفرج على الأكل، مع أن الإنسان في بستان الدنيا لا يأكل حتى يجوع ويشتهي شهوة شديدة فكيف في الجنة! فذكر تعالى ما يتم به النزهة وهو خضرة الأشجار، وجريان الأنهار، ثم ذكر ما يكون بعد النزهة وهو أكل الثمار، فسبحان من يأتي بالآيات بأحسن المعاني في أبيَنِ المَباني[٣] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد على فرشٍ وثيرة بطائنها من ديباج وهو الحرير السميك المزين بالذهب، وهذا يدل على نهاية شرفها لأن البطانة إذا كانت بهذا الوصف فما بالك بالظهارة؟ قال ابن مسعود: هذه البطائن فيكف لو رأيتم الظواهر؟ وقال ابن عباس: لما سئل عن الآية: ذلك مما قال الله تعالى ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧][٤] ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ أي ثمرها قريب يناله القاعد والقائم والنائم، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدٍ وتعب قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُّ الله إن شاء قائمًا، وإن شاء قاعدًا، وإن شاء مضطجعًا[٥] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي في تلك الجنان نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يَرَيْن غيرهم،

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ / ٤٢٢.

(٢) (ش): زُلال: ماء عذب بارد صافٍ سهل المرور في الحلق. والزلال: الصافي من كُل شَيْءٍ، يقال: ذهب زُلال/ فضّة زُلال.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٩/ ١٢٥.

(٤) «روح المعاني» ٢٧/ ١١٨.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ١٠.

كما هو حال المخدَّرات العفائف(١) ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي لم يمسهنَّ ولم يجامعهن أحدٌ قبل أزواجهنَّ لا من الإنس ولا من الجن، بل هنَّ أبكار عذارَى قال الألوسي: وأصلُ الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض: طمثٌ، ثم أُطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم، ثم على كل جماع وإن لم يكن فيه خروج دم(٢) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي كأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحُمْرتهن قال قتادة: كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان، لو أدخلت في الياقوت سلكًا ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه(٣) وفي الحديث: «إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُرَى بَيَاضُ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً حَتَّى يُرَى مُخُّهَا»(٤) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسن إليه في الآخرة قال أبو السعود: أي ما جزاء الإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب(٥) والغرضُ أنَّ من قدم المعروف والإحسان استحق الإنعام والإكرام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي ومن دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتان أخريان قال المفسرون: الجنتان الأوليان للسابقين، والأخريان لأصحاب اليمين ولا شك أن مقام السابقين أعظم وأرفع لقوله تعالى ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨-١١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟ ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة والريّ قال الألوسي: والمراد أنهما شَديدتَا الخضرة، والخضرةُ إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من كثرة الريّ بالماء(٦) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوَّارتان بالماء لا تنقطعان وقال ابن مسعود وابن عباس: تَنْضَخُ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كرَخِّ المطر(٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أي في الجنتين من أنواع الفواكه كلها وأنواع النخل والرمان، وإنما ذكر النخل والرمان

(١) (ش): خدَّر المرأةَ: ألزمها الخِدْرَ، والخِدْر: ستارة، سِترٌ يُمَدّ للمرأة في ناحية البيت ليحجبَ ما وراءَه. العفيفة: المتصفة بالعِفَّة، والجمع عفائف.
(٢) «تفسير الألوسي» ٢٧/ ١١٩.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٨.
(٤) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا، قال ابن كثير: والموقوف أصح. (ش): ضعفه الألباني.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٢٧.
(٦) «روح المعاني» ٢٧/ ١٢١.
(٧) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٨٥. (ش): رخَّ المطرُ: اشتدّ نزولُه.

تنبيهًا على فضلهما وشرفهما على سائر الفواكه ولأنهما غالب فاكهة العرب قال الألوسي: ثم إن نخل الجنة ورمانها وراءَ ما نعرفه[1] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي في تلك الجنان نساء صالحات كريمات الأخلاق، حِسان الوجوه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أي هنَّ الحورُ العين المخدرات المستورات لا يخرجن لكرامتهن وشرفهن، قد قُصِرْنَ في خدورهن في خيام اللؤلؤ المجوَّف، قال أبو حيان: والنساء تُمدَح بذلك إذ ملازمتهن البيوت تدل على صيانتهن قال الحسن: لسن بطوَّافات في الطرق، وخيامُ الجنة بيوت اللؤلؤ[2]، وفي الحديث «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ»[3] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يُجامِعْهُن ولم يَغْشَهُنَّ أحدٌ قبل أزواجهم لا من الإنس ولا من الجن قال في التسهيل: الجنتان المذكورتان أولًا للسابقين، والجنتان المذكورتان ثانيًا لأصحاب اليمين، وانظر كيف جعل أوصاف الجنتين الأوليين أعلى من أوصاف الجنتين اللتين بعدهما، فقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ والجريُ أشدُّ من النضح، وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وقال هنا ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ والأول أعم وأشمل، وقال في صفة الحور هناك: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ وليس كل حُسْنٍ كحسن الياقوت والمرجان فالوصف هناك أبلغ، وقال هناك في وصف الفرش: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو الديباج وقال هنا: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ ولا شك أن الفرش المُعَدَّة للاتِّكاء أفضل من فضل الخباء[4] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا مشعر الإنس والجن؟ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أي مُستَندين على وسائد خضر من وسائد الجنة[5] ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ أي وطنافس ثخينة مزخرفة، محلاَّة بأنواع الصور والزينة

---

(١) «روح المعاني» ٢٧/ ١٢٢.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٨.

(٣) أخرجه البخاري. (ش): ورواه مسلم بلفظ: «فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلاً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ».

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٨٦، والقرطبي ١٧/ ١٨٣. (ش): جاء في «تفسير القرطبي»: وَقَالَ فِي الْأُولَيَيْنِ: « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُش بَطَائِنهَا مِنْ إِسْتَبْرَق » [الرَّحْمَن: ٥٤] وَهُوَ الدِّيبَاج ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَف خُضْر وَعَبْقَرِيّ حِسَان » [الرَّحْمَن: ٧٦] وَالْعَبْقَرِيّ الْوَشْي ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الدِّيبَاج أَعْلَى مِنْ الْوَشْي ، وَالرَّفْرَف كِسَر الْخِبَاء ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْفُرُش الْمُعَدَّة لِلِاتِّكَاءِ عَلَيْهَا أَفْضَل مِنْ فَضْل الْخِبَاء». اهـ. الخِباء: خيمة تُنصَب على عمودَين أو ثلاثة. والرفرف ما فضل عن الشيء وعُطِف، أي ما زاد عن الشيء وثُنِي ومنه كسر الخباء. وكِسَر الخِباء جانبُه. وهو الجزء الذي يُرفع عند دخول الخباء والخروج منه ونحوهما.

(٥) هذا قول الحسن وقال ابن عباس: الرفرف: فضول المحابس وهي ما يُطرَح على ظهر الفراش للنوم عليه.

قال الصاوي: وهي نسبة إلى «عبقر» قرية بناحية اليمن، يُنسج فيها بسط منقوشة بلغت النهاية في الحسن، فقرَّب الله لنا فرش الجنتين بتلك البسط المنقوشة[١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمةٍ من نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ أي تنزه وتقدَّس الله العظيم الجليل، وكثرت خيراته وفاضت بركاته ﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أي صاحب العظمة والكبرياء، والفضل والإنعام قال في البحر: لما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] ختم نعم الآخرة بقوله ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ وناسب هناك ذكر البقاء والديمومة له تعالى بعد ذكر فناء العالم، وناسب هنا ذكر البركة وهي النماء والزيادة عقب امتنانه على المؤمنين في دار كرامته وما آتاهم من الخير والفضل في دار النعيم[٢].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيا يلي:

١ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] وبين ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ [الرحمن: ١٠] وكذلك المقابلة بين ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٍ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤] أي كالجبال في العظم.

٣ - المجاز المرسل ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي ذاته المقدسة وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل[٣].

٤ - الاستعارة التمثيلية ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] شبَّه انتهاء الدنيا وما فيها من تدبير شئون الخلق ومجيء الآخرة وبقاء شأن واحد وهو محاسبة الإنس والجن بفراغ من يشغله أمور فتفرَّغ لأمرٍ واحد، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن وإنما هو على سبيل التمثيل.

٥ - الأمر التعجيزي ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ .. فَٱنفُذُواْ﴾ [الرحمن: ٣٣] فالأمر هنا للتعجيز.

٦ - التشبيه البليغ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً﴾ [الرحمن: ٣٧] أي كالوردة في الحمرة حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغًا.

٧ - الجناس الناقص ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾ لتغير الشكل والحروف، ويسمَّى جناس الاشتقاق.

٨ - الإيجاز بحذف الموصوف وإبقاء الصفة ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي نساءٌ قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم.

٩ - السجع المرصَّع غير المتكلف كأنه حبات در منظومة في سلكٍ واحد اقرأ قوله تعالى

---

(١) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٦٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٢٠٠.

(٣) (ش): تَضَمَّنَتْ هذه الآيَة إِثْبَاتَ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالنُّصُوصُ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لاَ تُحْصَى كَثْرَةً.(راجع التعليق على كلام المؤلف عند تفسير هذه الآية).

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١٤] وأمثاله في السورة كثير.

فَائِدَة: تسمى سورة الرحمن «عروس القرآن» لما ورد «لكل شيء عروسٌ، وعروسُ القرآنِ سورةُ الرحمن»[1].

«انتهى تفسير سورة الرحمن»



(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٥٢. (ش): «لكل شَيْء عروس وعروس الْقُرْآن الرَّحْمَن». (رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان، وضعفه الألباني).



مكية وآياتها ست وتسعون

بين يدي السورة

* تشتمل هذه السورة الكريمة على أحوال يوم القيامة، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال، وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف (أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، السابقون).

* وقد تحدثت السورة عن مآل كل فريق، وما أعده الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه، في خلق الإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله من القوة في النار... ثم نوهت بذكر القرآن العظيم، وأنه تنزيل رب العالمين، وما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال.

* وختمت السورة بذكر الطوائف الثلاث وهم أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم، وبينت عاقبة كل منهم، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من إجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام.

فضلها: أ- عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»[(١)].

ب- وأخرج الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن مسعود) بسنده عن أبي ظبية قال: «مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»[(٢)] فكان أبو ظبية لا يدعها[(٣)].

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى وابن عساكر.
(٢) (ش): رواه البيهقي وضعفه الألباني. فاقة: فَقْر؛ حاجة؛ ضيق الحال.
(٣) «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢٨١.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ
ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ
﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ
﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾
وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ
بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾
لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾
لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾
فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ
يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا
ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ
ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ
ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

اللغَة: ﴿رُجَّتِ﴾ زُلزِلَت وحُرِّكت تحريكًا شديدًا ﴿وَبُسَّتِ﴾ فُتِّتَتْ حتى صارت كالدقيق المبسوس[1] ﴿هَبَآءً﴾ الهباء ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ﴿ثُلَّةٌ﴾ جماعة من ثَلَلْتُ الشيء، أي: قطَّعْتُه قاله الزجاج، فمعنى ثُلة كمعنى فِرْقة وزنًا ومعنًى ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ منسوجة مُحكمَة النَّسْج كأنّ بعضَها أُدخِلَ في بعض قال الأعشى:

وَمِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٌ ... تَسِيرُ مَعَ الْحَيِّ عِيرًا فَعِيرَا[2]

﴿يُصَدَّعُونَ﴾ صُدِّعَ القومُ بالخمر لحقهم الصُداع في رءوسهم منها ﴿يُنزِفُونَ﴾ يسكرون

(١) (ش): أي المبلول. بسَّ الدَّقيقَ: بلّه بالماءِ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠١. (ش): الموضونة: الدرع المنسوجة.
قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٢]. (اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ): أي اعمل دروعًا تامات واسعات وقدِّر المسامير في حِلَق الدروع، فلا تعمل الحلقة صغيرة فتَضْعُف، فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تجعلها كبيرة فتثقُل على لابسها.

فتذهب عقولهم ﴿مَّخۡضُودٖ﴾ خُضِّد شَوكُه، أي: قُطِع قال أمية بن أبي الصلت:

إِنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجِنَانِ ظَلِيلَةٌ فِيهَا الْكَوَاعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودُ[(١)]

﴿وَطَلۡحٖ﴾ الطلحُ: شَجَرُ الْمَوْزِ ﴿مَّنضُودٖ﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب وهي المتحَبِّبة إلى زوجها ﴿سَمُومٖ﴾ ريح حارة تدخل في مَسَامّ البدن ﴿يَحۡمُومٖ﴾ اليحموم الشديد السواد ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ الماء المغلي ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها.

التفسِـير: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ أي إذا قامت القيامة التي لا بد من وقوعها، وحدثت الداهية الطامة التي ينخلع لها قلب الإنسان، كان من الأهوال ما لا يصفه الخيال قال البيضاوي: سميت واقعة لتحقق وقوعها[(٢)] وقال ابن عباس: الواقعة اسم من أسماء القيامة كالصاخة والآزفة والطامة، وهذه الأشياء تقتضي عِظَم شأنها[(٣)] ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون عند وقوعها نفس كاذبة تكذِّب بوقوعها كحال المكذبين اليوم، لأن كل نفس تؤمن حينئذٍ لأنها ترى العذاب عيانًا كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ أي هي خافضة لأقوام رافعةٌ لآخرين، تخفض أعداء الله في النار، وترفع أولياء الله في الجنة قال الحسن: تخفض أقوامًا إلى الجحيم وإن كانوا في الدنيا أعزة، وترفع آخرين إلى أعلى عليين وإن كانوا في الدنيا وضعاء[(٤)].. ثم بيَّن تعالى متى يكون ذلك فقال ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ أي زُلزلت زلزالًا عنيفًا، واضطربَت اضطرابًا شديدًا، بحيث ينهدم كل ما فوقها من بناء شامِخ، وطَوْدٍ راسخ[(٥)] قال المفسرون: تُرجُّ كما يرجُّ الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها من بناء، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون[(٦)] ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ أي فُتِّتَتْ تفتيتًا حتى صارت كالدقيق المبسوس وهو المبلول بعد أن كانت شامخة ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ أي فصارت غبارًا متفرقًا متطايرًا في الهواء، كالذي يُرَى في شعاع الشمس إذا دخل النافذة فهذا هو الهباء[(٧)]، والمنبثُّ المتفرق، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقوله ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠] ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٠١. (ش): البيت في وصْف الْجَنَّة، والمعنى أنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجَنَّةِ ظَلِيلَةٌ وفيها أشجار النبق الذي قُطِع شوْكُه، وفِيهَا الْكَوَاعِبُ: نساء عذارى نواهد قد برزت أَثْداؤهنَّ.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٣٧.

(٣) «تفسير المحيط» ٨/ ٢٠٢.

(٤) هذا القول هو الأرجح في تفسير الآية الكريمة وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود والألوسي، واختيار ابن كثير أن المعنى ليس لوقوعها -إذا أراد الله- صارفٌ يصْرِفها ولا دافعٌ يدْفعها، ورُوي نحو هذا عن الحسن وقتادة: والأول أدق وأظهر والله أعلم.

(٥) (ش): شامِخ: مرتفع. طَوْد: جبل. راسخ: ثابت.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٢٨.

(٧) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٩٦.

أي وكنتم أيها الناس أصنافًا وفرقًا ثلاث «أهل اليمين، وأهل الشمال، وأهل السبق» فأما السابقون فهم أهل الدرجات العُلى في الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار[١]، وهذه مراتب الناس في الآخرة قال ميمون بن مهران: اثنان في الجنة وواحد في النار، ثم فصَّلهم تعالى بقوله ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾؟ استفهام للتفخيم والتعظيم أي هل تدري أيُّ شيء أصحاب الميمنة؟ من هم وما حالهم وصِفَتُهم؟ إنهم الذين يُؤْتَوْن صحائفهم في أيمانهم، فهو تعجيبٌ لحالهم، وتعظيم لشأنهم في دخولهم الجنة وتنعمهم بها ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؟ أي هل تدري من هم؟ وما حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم، ففيه تعجيب لحالهم في دخولهم النار وشقائهم[٢] قال القرطبي: والتكرير في ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ و ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ للتفخيم والتعجيب كقوله ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١٢] وقوله ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١٢][٣] وقال الألوسي: والمقصود التفخيم في الأول، والتفظيع في الثاني، وتعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة كأنه قيل: فأصحاب الميمنة في غاية حُسْن الحال، وأصحاب المشأمة في غاية سوء الحال[٤] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هذا هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، أي: والسابقون إلى الخيرات والحسنات، هم السابقون إلى النعيم والجنات، ثم أثنى عليهم بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي أولئك هم المقربون من الله، في جواره، وفي ظل عرشه، ودار كرامته ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي هم في جنات الخلد يتنعمون فيها قال الخازن: فإن قلت: لم أخَّر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين؟ قلت: فيه لطيفة وذلك أنَّ الله ذكر في أول السورة الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفًا لعباده، فإما محسنٌ فيزداد رغبةً في الثواب، وإمّا مسيء فيرجع عن إساءته خوفًا من العقاب، فلذلك قدَّم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليَجِدُّوا ويجتهدوا[٥] ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي السابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي وهم قليلٌ من هذه الأمة قال القرطبي: وسمُّوا قليلًا بالإضافة إلى من كان قبلهم، لأن الأنبياء المتقدمين كانوا كثرة، فكثر السابقون إلى الإيمان منهم فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا، قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا ثم تلا الآية[٦] وقيل: إن المراد بقوله ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أول هذه

(١) هذا قول ابن عباس.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٢٨.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٩٩.
(٤) «تفسير الألوسي» ٢٧/ ١٣١.
(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ١٥.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠٠.

الأمة، والآخرون والمتأخرون من هذه الأمة، فيكون كلا الفريقين من أمة محمد ﷺ[١] ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أي جالسين على أسِرَّة منسوجة بقضبان الذهب، مُرَصَّعَة بالدر والياقوت[٢] قال ابن عباس: ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به[٣] ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ أي حال كونهم مضطجعين على تلك الأسرَّة شأن المنعَّمين المترفين ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد، وهذا أدْخَلُ في السرور، وأكْملُ في أدب الجلوس ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي يدور عليهم للخدمة أطفال في نضارة الصبا، لا يموتون ولا يهرمون قال أبو حيان: وُصفوا بالخلد وإن كان كل من في الجنة مخلدًا ليدل على أنهم يبقون دائمًا في سنِّ الولدان، لا يتحولون ولا يكبرون كما وصفهم جل وعلا[٤] ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أي بأقداح كبيرة مستديرة لا عُرى لها[٥] ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق أي وبأباريق لها عُرى تبرق من صفاء لونها ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي وكأسٍ من خمرٍ لذة جارية من العيون قال ابن عباس: لم تعصر كخمر الدنيا بل هي من عيون سارحة قال القرطبي: والمعين الجاري من ماء أو خمر، غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون، ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصرٍ وتكلف ومعالجة[٦] ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا تنصدع رءوسهم من شربها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي ولا يسكرون فتذهب بعقولهم كخمر الدنيا قال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السُّكرُ والصُّداع، والقيءُ، والبول، وقد ذكر تعالى خمر الجنة ونزَّهها عن هذه الخصال الذميمة[٧] ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي ولهم فيها فاكهة كثيرة يختارون ما تشتهيه نفوسهم لكثرتها وتنوُّعها ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ولحم طيرٍ مما يحبون ويشتهون قال ابن عباس: يخطر على قلب أحدهم لحم الطير فيطير حتى يقع بين يديه على ما اشتهى مقليًّا أو مشويًّا وفي الحديث « إِنَّكَ لَتَنْظُرُ

(١) القول الأول الذي أسلفناه هو اختيار جمهور المفسرين، كابن جرير، وأبي السعود، والقرطبي، والبيضاوي، والألوسي، واختار ابن كثير القول الثاني فقال: القول الذي اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو ضعيف، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها.. إلخ، أقول: قد علمت أن الأنبياء كثرة كثيرة وكلهم من السابقين، فإذا انضم إليهم أتباعهم من الخواص كانوا أكثر من خواص هذه الأمة، وتبقى أمة محمد ﷺ أكثر الأمم دخولًا الجنة وأفضل الأمم بمجموعها لا بخواصها، فيندفع بذلك الإشكال والله أعلم.

(٢) (ش): رصَّع الشيءَ: حَلاَّه بالرصائع. والرصيعة: كل حلية يرصع بهَا أَو كل حلية مستديرة يحَلَّى بهَا التَّاج وَغيره، يُقَال: رصع التَّاج أَو السَّيْف بالجواهر.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٣٠.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٠٥.

(٥) (ش): العُرْوَةُ من الدَّلْو أَو الكوب: مقْبضُه.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠٣.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٣٠.

إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا »[١] قال الرازي: وقدَّم الفاكهة على اللحم لأن أهل الجنة يأكلون لا عن جوع بل للتفكُّه، فميلهم إلى الفاكهة أكثر كحال الشبعان في الدنيا فلذلك قدَّمها[٢] ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم نساء من الحور العين، الواسعات العيون، في غاية الجمال والبهاء، كأنهن اللؤلؤ في الصفاء والنقاء، الذي لم تمسه الأيدي قال في التسهيل: شبَّهَهُن باللؤلؤ في البياض، ووصفه بالمكنون لأنه أبعد عن تغيير حسنه، وحين سألت أم سلمة رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه قال: « صَفَاؤُهُنَّ صفاءُ الدُّرِّ الَّذِي فِي الْأَصْدَافِ، الَّذِي لَمْ تَمَسّه الْأَيْدِي »[٣] ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي جعلنا لهم ذلك كله جزاءً لعملهم الصالح في الدنيا.. ثم أخبر تعالى عن كمال نعيمهم في الجنة فقال ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ أي لا يطرق آذانهم فاحشُ الكلام، ولا يلحقهم إثمُ ممّا يسمعون قال ابن عباس: لا يسمعون باطلًا ولا كذبًا[٤] ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ أي إلا قول بعضهم لبعضٍ: سلامًا سلامًا، يُحيي به بعضهم بعضًا ويفشون السلام فيما بينهم قال في البحر: والظاهر أنه استثناء منقطع لأنه لم يندرج في اللغو ولا التأثيم[٥] وقال أبو السعود: والمعنى: أنهم يفشون السلام فيسلمون سلامًا بعد سلام، أو لا يسمع كلٌ منهم إلا سلام الآخر بدءًا أو ردًّا[٦]. ثم شرع في تفصيل أحوال الصنف الثاني وهم أصحاب اليمين فقال ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾؟ استفهام للتعظيم والتعجيب من حالهم، أي: ما أدراك من هم، وما حالهم؟ ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ أي هم تحت أشجار النبق الذي قطع شوكه قال المفسرون: والسِّدرُ: شجر النبق، والمخضود الذي خُضد، أي: قُطع شوكه، وفي الحديث أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ فِي الْقُرْآنِ شَجَرَةً مُؤْذِيَةً وَمَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَة تُؤْذِي صَاحِبَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا هِيَ؟» قَالَ: السِّدْرُ، فَإِنَّ لَهَا شَوْكًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ يَخْضِدُ اللهُ شَوْكَهُ فَيُجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةٌ، فَإِنَّهَا تُنْبِتُ ثَمَرًا تُفْتَقُ الثَّمَرَةُ مَعَهَا عَنِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا مِنْ طَعَامٍ مَا مِنْهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ الْآخَرَ »[٧] ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ هو شجر الموز ومعنى ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أي متراكم قدْ نُضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في ابن كثير ٣/ ٤٣١. (ش): ضعيف جدًّا.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٩/ ١٥٣.
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٨٩. (ش): رواه الطبراني بسند ضعيف.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠٦.
(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٢٠٦.
(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٣٠.
(٧) أخرجه الحاكم والبيهقي وانظر روح المعاني ٢٧/ ١٤٠. (ش): رواه ابن أبي الدنيا والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي والألباني. تُفْتَقُ: تَنْشَقّ.

أي وظل دائم باقٍ لا يزول ولا تنسخه الشمس، لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] وفي الحديث «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[1] » وقال الرازي: ومعنى ﴿مَّمْدُودٍ﴾ أي لا زوال له فهو دائم ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] أي: دائم، والظلُّ ليس ظل الأشجار، بل ظِل يخلقه الله تعالى[2] ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي وماءٍ جارٍ دائمًا لا ينقطع يجري في غير أخدود قال القرطبي: كانت العرب أصحاب بادية، والأنهار في بلادهم عزيزة، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء، فوُعِدوا بالجنة بأسباب النزهة وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار وجريانها[3] ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي وفاكهةٍ كثيرة متنوعة، ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم، لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء، وليست ممنوعة عن أحد، قال ابن عباس: لا تنقطع إذا جُنِيَت، ولا تمتَنِع من أحدٍ إذا أراد أَخْذَها[4] وفي الحديث «ما قُطعت ثمرةٌ من ثمار الجنة إلا عاد مكانها أخرى»[5] ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة وفي الحديث «ارتفاعُها كما بين السماءِ والأرض، ومسيرةُ ما بينهما خَمْسُمائة عام»[6] قال الألوسي: ولا تستبعد هذا من حيث العروجُ والنزولُ، فالعالم عالم آخر فوق طور عقلك[7] تنخفض للمؤمن إذا أراد الجلوس عليها ثم ترتفع به، والله على كل شيء قدير ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي خلقنا نساء الجنة خلقًا جديدًا، وأبدعناهن إبداعًا عجيبًا، قال في التسهيل: ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقًا آخر في غاية الحسن بخلاف الدنيا، فالعجوز ترجع شابة، والقبيحة ترجع جميلة[8] قال ابن عباس: يعني الآدميات العجائز الشمط خلقهن الله بعد الكبر والهرم خلقًا آخر[9] ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي فجعلناهن عذارى، كلما أتاهنَّ أزواجهن وجدوهنَّ أبكارًا ﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب وهي المتحببة لزوجها العاشقة له قال

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ١٦٤. (ش): كيف يستقيم هذا الكلام مع قوله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ». (رواه البخاري) وقد أورده المؤلف، وهذا الحديث يُثبت للأشجار ظِلًّا: «شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠٩.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨.

(٥) أخرجه الطبراني. (ش): أخرجه البزار، والطبراني، وضعفه الألباني.

(٦) أخرجه النسائي والترمذي. (ش): ضعفه الألباني.

(٧) «روح المعاني» ٢٧/ ١٤١.

(٨) «التسهيل» ٤/ ٩٠.

(٩) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨.

مجاهد: هنَّ العاشقات لأزواجهن المتحببات لهن اللواتي يشتهين أزواجهن[١] ﴿أَتْرَابًا﴾ أي مستويات في السنِّ مع أزواجهن، في سنّ أبناء ثلاث وثلاثين، عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْها قالت: سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ فقال: «يا أم سلمة هنَّ اللواتي قُبضن في الدنيا عجائز، شُمطًا عُمْشًا، رُمْصًا، جعلهن الله بعد الكبر أترابًا على ميلادٍ واحد في الاستواء»[٢] وفي الحديث أن امرأة عجوزًا جاءت النبي ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ، إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ» قَالَ: فَوَلَّتْ تَبْكِي فَقَالَ: «أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ» إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾[٣] ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي أنشأنا هؤلاء النساء الأبكار لأصحاب اليمين ليستمتعوا بهنَّ في الجنة، ثم قال تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي هم جماعة من الأولين من الأمم الماضية، وجماعة من المتأخرين من أُمة محمد ﷺ، قال في البحر: ولا تنافي بين هذه الآية ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وبين الآية التي سبقَتْها وهي قوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ لأن الثانية في السابقين فلذلك قال ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهذه في أصحاب اليمين ولذلك قال ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾[٤].. ثم شرع تعالى في بيان الصنف الثالث وهم أهل النار فقال ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ استفهام بمعنى التهويل والتفظيع والتعجيب من حالهم، أي: وأصحابُ الشمال وهم الذين يُعْطَوْن كتبَهم بشمائلهم ما أصحاب الشمال؟ أي ما حالهم وكيف مآلهم؟ ثم فصَّل تعالى حالهم فقال ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ أي في ريح حارة من النار تنفذ في المسام، وماءٍ شديد الحرارة ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي وفي ظل من دخان أسود شديد السواد ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ أي ليس هذا الظل باردًا يستروح به الإنسان من شدة الحر ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي وليس حسن المنظر يُسرُّ به من يستفيء بظله قال الخازن: إن فائدة الظل ترجع إلى أمرين: أحدهما: دفع الحر، والثاني: حسن المنظر وكون الإنسان فيه مكرمًا، وظلُّ أهل النار بخلاف هذا لأنهم في ظل من دخان أسود حار[٥].. ثم بيَّن تعالى سبب استحقاقهم ذلك فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي لأنهم كانوا في الدنيا مُنَعَّمين، مُقبِلين على الشهوات والملذات ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى

(١) «تفسير الألوسي» ٢٧/ ١٤٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢١٠، والحديث أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعًا. (ش): بهذا اللفظ رواه الطبراني بسند ضعيف، وروى بعضَه الترمذي وضعفه الألباني. (شُمْطًا): الشَمْطَاءُ: من اختلط سوادُ شعرها ببياض. (عُمْشًا): جَمْعُ عَمْشَاءَ مِنْ الْعَمَشِ فِي الْعَيْنِ، وَهُوَ ضَعْفُ الرُّؤْيَةِ مَعَ سَيَلَانِ دَمْعِهَا فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهَا. (رُمْصًا): جَمْعُ رَمْصَاءَ مِنَ الرَّمَصِ مُحَرَّكَةٌ وَهُوَ وَسَخٌ أَبْيَضُ يَجْتَمِعُ فِي الْمُوقِ، وهي مجاري الدُّموع من العين، أي: من طرفها ممّا يلي الأنف.

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل. (ش): حسنه الألباني.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٠٧.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١.

﴿ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله قال المفسرون: لفظ الإَصرار يدل على المداومة على المعصية، والحنثُ هو الذنب الكبير والمراد به هنا الكفر بالله كما قاله ابن عباس ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ أي هل سنبعث بعد أن تصبح أجسادنا ترابًا وعظامًا نخرة؟ وهذا استبعادٌ منهم لأمر البعث وتكذيب له ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؟ تأكيدٌ للإنكار ومبالغة فيه، أي: وهل سيبعث آباؤنا الأوائل بعد أن بليت أجسامهم وتفتَّتت عظامهم؟ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن الخلائق جميعًا السابقين منهم واللاحقين، سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدَّده الله بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ أي ثم إنكم يا معشر كفار مكة، الضالون عن الهدى، المكذبون بالبعث والنشور، لآكلون من شجر الزقوم الذي ينبت في أصل الجحيم ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ أي فمالئون بطونكم من تلك الشجرة الخبيثة لغلبة الجوع عليكم ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ أي فشاربون عليه الماء الحار الذي اشتد غليانه ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ أي فشاربون شرب الإبل العطاش قال ابن عباس: الهيمُ الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها[٦] وقال أبو السعود: إنه يسلط على أهل النار من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمُهل، فإذا ملئوا منه بطونهم- وهو في غاية الحرارة والمرارة- سُلِّط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم -وهي الإبل التي بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى-[٧] ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ أي هذه ضيافتهم وكرامتهم يوم القيامة، وفيه تهكم بهم قال الصاوي: والنُزُل في الأصل ما يُهَيَّأ للضيف أوَّلَ قدومه من التُّحَف والكرامة[٨]، فتسميةُ الزقوم نُزلاً تهكمٌ بهم.

قال الله تعالى:

﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ﴿٦٨﴾

---

(٦) «تفسير القرطبي» ٧/ ٢١٥.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٣٢.

(٨) (ش): أي الإكرام الزائد عن المعتاد: ما يُقدَّم للضيف مما هو ليس مطابقًا لعادة المُضيف التي كان قد اعتادها، فيتكلف إذا نزل به الضيف ويزيد في البِرِّ على ما يُحضِره في سائر الأيام.

ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي
تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ
بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾
إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ
حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ
ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾
وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الأشقياء المجرمين وأحوالهم في نار جهنم، ذكر هنا الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته في بديع خلقه وصنعه، لتقوم الحجة على المُنكِر المكذب بوجود الله، وختم السورة الكريمة بالتنويه بذكر أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقين إلى الخيرات، ليكون ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من الإجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والمآل.

اللغَة: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تفكَّه بالشيء تمتَّع به، ورجلٌ فكِهٌ منبسط النفس غيرُ مكترث بشيء ﴿ٱلۡمُزۡنِ﴾ السحاب جمع مُزْنة قال الشاعر:

فَنَحْنُ كَمَاءِ الْمُزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ[1]

﴿تُورُونَ﴾ أورى النار من الزناد قدَحها ﴿لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ المسافرين يقال: أقْوى الرجل إذا دخل القَواء وهو القَفْر[2]، والقوى الجوع، قال الشاعر:

وَإِنِّي لَأَخْتَارُ الْقَوَى طَاوِيَ الْحَشَى مُحَافَظَةً مِنْ أَنْ يُقَالَ: لَئِيمُ[3]

﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ المدهن: الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شُبِّه بالدهن في سهولة ظاهره ومنه المداهنة ﴿مَدِينِينَ﴾ مجْزِيِّين ومحاسَبين من الدِّينِ بمعنى الجزاء ﴿فَرَوۡحٞ﴾ الرُّوح بفتح الراء الاستراحة ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ الريحان: كل مشموم طيب الريح من النبات.

التفسِير: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي نحن خلقناكم أيها الناسُ من العدم، فهَلَّا تُصَدِّقون بالبعث؟ فإن من قدر على البدء قادرٌ على الإعادة ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾ أي أخبروني

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٢٠. (ش): نِصابُ كل شي: أصلُه. ورجل كَهَامٌ وكَهِيمٌ: ثقيل، بطيءٌ عَن النُّصْرَة وَالْحَرب، لا غَنَاءَ عنده.

(٢) (ش): القَوَاء: الأَرض الْخَالِيَةُ.

(٣) نفس المرجع السابق ١٧/ ٢٢٢. (ش): المُقْوِي الَّذِي لاَ زَادَ مَعَهُ، ويُقَالُ: أَقْوَى الرجلُ إذا نَفِد زَادُهُ. طَاوِيَ الْحَشَى: جوعان.

عمَّا تصبُّونه من المنيّ في أرحام النساء ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؟ أي هل أنتم تخلقون هذا المنيَّ بشرًا سويًّا، أم نحن بقدرتنا خلقناه وصوَّرناه؟ قال القرطبي: وهذا احتجاج على المشركين وبيانٌ للآية الأولى والمعنى: إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث[١] ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي نحن قضينا وحكمنا عليكم بالموت وساوينا بينكم فيه قال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض[٢]، سواء فيه الشريف والوضيع، والأمير والصُّعلُوك[٣] ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ أي على أن نهلككم ونستبدل قومًا غيركم يكونون أطوع لله منكم كقوله تعالى ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [إبراهيم: ١٩] ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي ولسنا بعاجزين أيضًا أن نعيدكم يوم القيامة في خِلْقَةٍ لا تعلمونها ولا تصل إليها عقولكم، والغرضُ أن الله قادر على أن يهلكهم وأن يعيدهم وأن يبعثهم يوم القيامة، ففي الآية تهديد واحتجاج على البعث[٤] ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي ولقد عرفتم أن الله أنشأكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، فخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم كما قدر على خلقكم أول مرة؟ ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٦٧]؟ ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته، أي: أخبروني عن البذر الذي تلقونه في الطين ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾؟ أي أأنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحبُّ أم نحن الفاعلون لذلك؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذي يخرج الحبَّ وينبت الزرع، فكيف تنكرون إخراجه الأموات من الأرض؟ ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ أي لو أردنا لجعلنا هذا الزرع هشيمًا متكسرًا لا ينتفع به في طعام ولا غيره قال القرطبي: والحُطام الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء، فنبَّههم بذلك على أمرين: أحدهما: ما أَوْلَاهم به من النعم في زرعهم ليشكروه. الثاني: ليعتبِروا في أنفسهم فكما أنه تعالى يجعل الزرع حُطامًا إذا شاء، كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا[٥] ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ أي فظللتم وبقيتم تتفجعون وتحزنون على الزرع مما حلَّ به وتقولون ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ﴾ أي إنا لمُحمَّلون الغرم[٦] في إنفاقِنا حيث ذهب زرعُنا وغُرِمْنا الحبَّ الذي

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢١٦.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٣٦.

(٣) (ش): صُعلُوك: فَقِير.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩١.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢١٨.

(٦) قال الضحاك «مغْرَمون» من الغرم، والمُغْرَم الذي ذهب ماله بغير عوض، وقال ابن عباس: معذَّبُون، والغرام العذاب.

بذرْناه ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أي بل نحن محرومون الرزقَ، غُرِمْنا قيمة البذر، وحُرِمْنا خروج الزرع ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ﴾ أي أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذبًا فراتًا لتدفعوا عنكم شدة العطش ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ أي هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا؟ قال الخازن: ذكَّرهم تعالى نعمتَه عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ[1] ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ أي لو شئنا لجعلناه ماء مالحًا شديد الملوحة لا يصلح لشرب ولا لزرع قال ابن عباس: ﴿أُجَاجٗا﴾ شديد الملوحة وقال الحسن: مُرًّا زُعافًا لا يمكن شُرْبه[2] ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ أي فهلاَّ تشكرون ربكم على نعمه الجليلة عليكم؟! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَقَانَا عَذْبًا فُرَاتًا بِرَحْمَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أُجَاجًا بِذُنُوبِنَا »[3] ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي أخبروني عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ أي هل أنتم خلقتم شجرها أم نحن الخالقون المخترعون؟ قال ابن كثير: وللعرب شجرتان: إحداهما المرخُ، والأُخرى العُفار، إذا أُخذ منهما غصنان أخضران، فحُكَّ أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار[4]، وقيل: أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار، لما روي عن ابن عباس أنه قال: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُنَّاب[5] ﴿جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ﴾ أي جعلنا نار الدنيا تذكيرًا للنار الكبرى «نار جهنم» إذا رآها الرائي ذكر بها نار جهنم، فيخشى اللهَ ويخاف عقابه وفي الحديث: « نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ ». قَالُوا: «وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ». قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»[6] ﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ أي ومنفعةً للمسافرين قال ابن عباس: ﴿لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ المسافرين، وقال مجاهد: للحاضر والمسافر، المستمتعين بالنار من الناس أجمعين[7] قال الخازن: والمُقوِي النازلُ في الأرض القَواء وهي الأرض الخالية البعيدة عن العمران. والمعنى: أنه ينتفع بها أهل البوادي والسُفَّار، فإن منفعتهم أكثر من المقيم، فإنهم يوقدون النار بالليل لتهرب السباع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع وهو قول أكثر المفسرين[8].

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٣.
(٢) (ش): سمٌّ زُعافٌ: سريع القَتْل، قاتِلٌ في حِينه.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم. (ش): ورواه أبو نعيم في «الحلية». وضعفه الألباني.
(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٣٨.
(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٦٦. (ش): العُنَّاب: شجرٌ شائك.
(٦) أخرجه الشيخان ومالك.
(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٣٨.
(٨) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤.

ولما ذكر دلائل القدرة والوحدانية في الإنسان، والنبات، والماء، والنار، أمر رسوله بتسبيح الله الواحد القهار فقال ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ أي فنَزِّهْ يا محمد ربك عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص وقل: سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخَّرها لنا بحكمته، سبحانه ما أعظم شأنه، وأكبر سلطانه! (عدَّد سبحانه وتعالى نعمه على عباده، فبدأ بذكر خلق الإنسان فقال ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴾ ثم بما به قوامه ومعيشته وهو الزرع فقال ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴾ ثم بما به حياته وبقاؤُه وهو الماء فقال ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ﴾ ثم بما يصنع به طعامه، ويصلح به اللحوم والخضار وهو النار فقال ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴾ فيا له من إله كريم، ومنعم عظيم) ! ثم شرع بالقسم على جلال القرآن ورفعته، وعلو شأنه ومنزلته، وأنه تنزيل العزيز الحكيم فقال ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ اللام لتأكيد الكلام وتقويته، وزيادة «لا» كثير في كلام العرب ومشهور قال الشاعر:

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى فَاعْتَرَتْنِي صَبَابَةٌ وَكَادَ نِيَاطُ الْقَلْبِ لا يَتَقَطَّعُ[1]

أَيْ كاد يَتَقَطَّعُ قال القرطبي: «لا» صلة في قول أكثر المفسرين. والمعنى: «فأقسم»[2] بدليل قوه بعده ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ ﴾[3] أي فأقسم بمنازل النجوم وأماكن دورانها في أفلاكها وبروجها ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أي وإن هذا القسم العظيم جليل، لو عرفتم عظمته لآمَنْتم وانتفعْتم به[4]، لما في المُقسَم به من الدلالة على عظيم القدرة، وكمال الحكمة، وفرط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن لا يترك عباده سُدى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾ هذا هو المُقسَم عليه. والمعنى: أقسم بمواقع النجوم أن هذا القرآن وقرآن كريم، ليس بسحرٍ ولا كهانة وليس بمفترى، بل هو قرآن كريم مجيد، جعله الله معجزة لنبيه محمد ﷺ وهو كثير المنافع والخيرات والبركات ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾ أي في كتاب مصونٍ عند الله تعالى، محفوظ عن الباطل وعن التبديل والتغيير قال ابن عباس: هو اللوح المحفوظ، وقال مجاهد: هو

(١) (ش): صَبَابَةٌ: عِشق وحُبٌّ. نِيَاطُ الْقَلْبِ: عِرقٌ غليظٌ ممتدٌّ من الرِّئتين ومتّصل بالقلب، فإذا قُطِعَ مات صاحبُه.

(٢) (ش): أي «لا» صِلَة زَائِدَة مُؤَكِّدَة، أي توصل للمعنى الأساسي لتأكيده وتقويته.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٢٣، وانظر تفصيل الأقوال وأرجحها في كتابنا «تفسير آيات الأحكام» الجزء الثاني ص ٥٠٥.

(٤) لم يكن المخاطبون يعلمون عن مواقع النجوم إلا القليل، أما في هذا العصر فقد ظهرت معجزة القرآن يقول الفلكيون: إن مجموعة واحدة من المجموعات التي لا تحصى في الفضاء الهائل، الذي لا ينعرف له حدودًا مجموعة واحدة هي «المجرة» التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية تبلغ ألف مليون نجم، وإن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة «بلايين» نجم منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب نجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض بآخر في المحيط الهادي، ويسيران باتجاه واحد وبسرعة واحدة وهو احتمال بعيد جدًّا إن لم يكن مستحيلًا، نقلًا عن كتاب «الله والعلم الحديث ص ٣٣».

المصحف الذي بأيدينا[١] ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أي لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث، أو لا يمسُّه إلا من كان متوضئًا طاهرًا قال القرطبي: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا وهو الأظهر لقول ابن عمر «لا تمسَّ القرآن إلا وأنت طاهر» ولكتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم «أَلَّا يَمَس الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ»[٢] ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي منزَّل من عند الله جل وعلا.. ثم لمَّا عظم أمر القرآن ومجَّد شأنه وبخ الكفار فقال ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ أي أفبهذا القرآن يا معشر الكفار تكذبون وتكفرون؟ ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ أي وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون برازقكم، وهو المُنعِم المتفضل عليكم؟ ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ أي فهلاَّ إذا بلغت الروح الحلقوم عند معالجة سكرات الموت ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ أي وأنتم في ذلك الوقت تنظرون إلى المحتضر وما يكابده من شدائد وأهوال ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ أي ونحن بعلمنا واطلاعنا أقرب إلى الميت منكم ولكنْ لا تعلمون ذلك، ولا تبصرون ملائكتنا الذين حضروه لقبض روحه قال ابن كثير: ومعنى الآية ملائكتنا أقرب إليه منكم ولكن لا ترونهم كما قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١][٣] ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ أي فهلاَّ إن كنتم غير مجزيين بأعمالكم كما تزعمون ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم قال ابن عباس: ﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير محاسبين ولا مجزيين قال الخازن: أجاب عن قوله ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ وعن قوله ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ بجواب واحد وهو قوله ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ومعنى الآية: إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب، ولا إله يجازي، فهلاّ تردُّون نفس من يعزُّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به[٤].. ثم ذكر تعالى طبقات الناس عند الموت وعند البعث، وبيَّن درجاتهم في الآخرة فقال ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ أي فأما إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلا، فله عند ربه استراحة ورزق حسن وجنة واسعة يتنعم فيها قال القرطبي: والمراد بالمقربين السابقون المذكورون في أول السورة[٥] ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من السعداء أهل الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي فسلامٌ لك يا محمد منهم،

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٢٥.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة. (ش): رواه الطبراني وصححه الألباني.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٤٠.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٧.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩٤.

لأنهم في راحةٍ وسعادة ونعيم ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المنكرين للبعث، الضالين عن الهدى والحق ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي فضيافتهم التي يُكرمون بها أول قدومهم، الحميمُ الذي يصهر البطون لشدة حرارته قال في التسهيل: النُزل أول شيءٍ يُقدم للضيف[1] ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي ولهم إصلاءٌ بنار جهنم وإذاقة لهم من حرها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي إن هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من جزاء السابقين، والسعداء، والأشقياء لهو الحقُّ الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب، وهو عين اليقين الذي لا يمكن إنكاره ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي فنزِّه ربك عن النقص والسوء، وعمَّا يصفه به الظالمون، لما نزلت هذه الآية الكريمة قال النبي ﷺ: « اجْعَلُوهَا فِى رُكُوعِكُمْ»، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] قال ﷺ: « اجْعَلُوهَا فِى سُجُودِكُمْ »[2].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – جناس الاشتقاق ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١] والجناس الناقص في قوله ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

٢ – الطباق بين ﴿ٱلْمَيْمَنَةِ .. ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ وبين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ .. وَٱلْآخِرِينَ﴾ وبين ﴿خَافِضَةٌ .. رَّافِعَةٌ﴾ وفي إسناد الخفض والرفع إلى القيامة مجاز عقلي، لأن الخافض والرافع على الحقيقة هو الله وحده، يرفع أولياءه ويخفض أعداءه، ونُسب إلى القيامة مجازًا كقولهم «نهاره صائم».

٣ – التشبيه المرسل المجمل ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣] أي كأمثال اللؤلؤ في بياضه وصفائه، حذف منه وجه الشبه فهو مرسل مجمل.

٤ – التفخيم والتعظيم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] كرره بطريق الاستفهام تفخيمًا.

٥ – التفنن بذكر أصحاب الميمنة ثم بذكر أصحاب اليمين، وكذلك بذكر المشأمة وذكر أصحاب الشمال ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧].

٦ – تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦] لأن السلام ليس من جنس اللغو والتأثيم، فهو مدح لهم بإفشاء السلام، وهذا كقول القائل «لا ذنب لي إلا محبتُك».

٧ – التهكم والاستهزاء ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦] أي: هذا العذاب أول ضيافتهم

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩٤.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم. (ش): ضعفه الألباني.

يوم القيامة ففيه سخرية وتهكم بهم؛ لأن النزل هو أول ما يقدم للضيف من الكرامة.

٨ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١] ثم قال بعد ذلك ملتفتًا عن خطابهم ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦] وذلك للتحقير من شأنهم، والأصل هذا نزلكم.

٩ - الجملة الاعتراضية وفائدتها لفت الأنظار إلى أهمية القسم ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ جاءت الجملة الاعتراضية ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ بين الصفة والموصوف للتهويل من شأن القسم.

١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مما يزيد في رونق الكلام وجماله مثل ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨-٣٠] ومثل ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٥] ويسمى هذا بالسجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية.

لطيفة: المناسبة بين المقسم به وهو النجوم وبين المقسم عليه وهو القرآن ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أن النجوم جعلها الله ليهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات الجهل والضلالة، وتلك ظلمات حسية، وهذه ظلمات معنوية، فالقسم جاء جامعًا بين الهدايتين: الحسية للنجوم، والمعنوية للقرآن، فهذا وجه المناسبة والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة»



سُورَةُ الحَدِيدِ ٥٧ ٢٩

مدنية وآياتها تسع وعشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تعني بالتشريع التربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية، والخلق الكريم، والتشريع الحكيم.

* وقد تناولت السورة الكريمة «سورة الحديد» ثلاثة مواضيع رئيسة وهي:

* **أولًا:** أن الكون كله لله جل وعلا، هو خالقه ومبدعه، والمتصرف فيه بما يشاء.

* **ثانيًا:** وجوب التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله، ورفع منار الإسلام.

* **ثالثًا:** تصوير حقيقة الدنيا بما فيها من بهرج ومتاع خادع حتى لا يغتبر بها الإنسان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق جل وعلا الذي سبح له كل ما في الكون من شجر وحجر، ومدر، وإنسان، وحيوان، وجماد، فالكل ناطق بعظمته شاهد بوحدانيته.

* ثم ذكرت صفات الله الحسنى، وأسماءه العليا، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بآثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يعرف كنه حقيقته أحد[1]، وهو الخالق للإنسان والمدبر للأكوان.

* ثم تلتها الآيات وهي تدعو المسلمين إلى البذل والسخاء والإنفاق في سبيل الله بما يحقق عز الإسلام ورفعة شانه، فلا بد للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال لينال السعادة في الدنيا والمثوبة في الآخرة.

* وتحدثت السورة عن أهل الإيمان، وأهل النفاق، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، والمنافقون يتخبطون في الظلمات، كما كانوا في الدنيا يعيشون كالبهائم في ظلمات الجهل والغي والضلال.

* وتحدثت السورة عن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، وصورتهما أدق تصوير، فالدنيا دار الفناء، فهي زائلة فانية، كمثل الزرع الخصيب الذي ينبت بقوة بنزول الغيث، ثم يصفر ويذبل

---

(١) (ش): فسر المؤلف اسم الله الظاهر والباطن تفسيرًا يخالف ما فسرهما به رسول الله ﷺ وقد ساق المؤلف تفسير الرسول ﷺ لهذين الاسمين الكريمين بما يُبطِل تفسيره هذا. قال ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). فقد فسر ﷺ الظهور بظهور ذاته وعلوها فوق مخلوقاته، وفسر البطون بقُربه من عباده. فكان يجب على المؤلف أن يلتزم بتفسير النبي ﷺ لا سيما أنه قد نقل في تفسير «سورة الكوثر» عن أبي حيان في «البحر المحيط» قوله: إن فِي الْكَوْثَرِ سِتَّةً وَعِشْرِينَ قَوْلًا، وَأن الصَّحِيحُ هُوَ مَا فَسَّرَهُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

حتى يصير هشيمًا وحطامًا تذروه الرياح، بينما الآخرة دار الخلود والبقاء، التي لا نصب فيها ولا تعب، ولا هم ولا شقاء.

* وختمت السورة الكريمة بالغاية من بعثة الرسل الكرام، والأمر بتقوى الله عز وجل، والاقتداء بهدى رسله وأنبيائه.

التسمية: سميت السورة «سورة الحديد» لذكر الحديد فيها، وهو قوة الإنسان في السلم والحرب، وعدته في البنيان والعمران، فمن الحديد تبنى الجسور الضخمة، وتشاد العمائر، وتصنع الدروع والسيوف والرماح، وتكون الدبابات والغواصات والمدافع الثقيلة إلى غير ما هنالك من منافع.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا
جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا
وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ
﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ
ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ
نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ
الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

اللغة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ نزَّهَ الله ومجَّده وقدَّسه ﴿الْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب على كل شيء ﴿الْأَوَّلُ﴾ السابق على جميع الموجودات ﴿وَالْآخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها ﴿يَلِجُ﴾ يدخل ﴿يَعْرُجُ﴾ يصعد ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بوجوده ومصنوعاته وآثاره ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ بكُنْه ذاته عن إدراك الأبصار له[1]

(١) (ش): فسر المؤلف اسم الله الظاهر والباطن تفسيرًا يخالف ما فسرهما به رسول الله ﷺ وقد ساق المؤلف =

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ المثوبة الحسنة والمراد بها الجنة ﴿ٱنظُرُونَا﴾ انتظرونا ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾ نستضئ ونهتد بنوركم ﴿سُورٍ﴾ حاجز بين الجنة والنار ﴿ٱلۡغَرُورِ﴾ الشيطان وكل من خدع غيره فهو غَارٌّ وغَرُور.

التفسِير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي مجَّد الله ونزَّهه عن السوء كلُّ ما في الكون من إنسان، وحيوان، ونبات قال الصاوي: والتسبيحُ تنزيهُ المولى عن كل ما لا يليق به قولًا، وفعلًا، واعتقادًا، من سبح في الأرض والماءِ إذا ذهب وأبعد فيهما، وتسبيحُ العقلاء بلسان المقال، وتسبيح الجماد بلسان الحال، أي إن ذاتها دالة على تنزيه صانعها عن كل نقص، وقيل بلسان المقال أيضًا ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤][1] وقال الخازن: تسبيحُ العقلاء تنزيهُ الله عَزَّ وَجَلَّ عن كل سوء، وعما لا يليق بجلاله، وتسبيحُ غير العقلاء من ناطق وجماد اختلفوا فيه، فقيل: تسبيحه دلالته على صانعه، فكأنه ناطق بتسبيحه، وقيل: تسبيحه بالقول يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي قولهم، والحقُّ أن التسبيح هو القولُ الذي لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى[2]، وما سوى العاقل ففي تسبيحه وجهان: **أحدهما**: أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه **والثاني**: أن جميع الموجودات بأسرها منقادةٌ له يتصرف فيها كيف يشاء[3]، فإن حمَلْنا التسبيح على القول كان المراد بقوله ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الملائكةُ والمؤمنون العارفون بالله، وإن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي، فجميع أجزاء السموات وما فيها من شمس، وقمر، ونجوم وغير ذلك وجميع ذرات الأرضين وما فيها من جبالٍ، وبحار، وشجر، ودواب وغير ذلك كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله، منقادةٌ له يتصرف فيها كيف يشاء، فإن قيل: قد جاء في بعض فواتح السور ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ بلفظ الماضي، وفي بعضها ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ بلفظ المضارع فما المراد؟ قلت: فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحًا لله أبدًا، غير مختص بوقت دون وقت، بل هي كانت مسبحة أبدًا في الماضي، وستكون مسبحة أبدًا في المستقبل[4] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي وهو الغالب على أمره الذي لا يمانعه ولا ينازعه شيء، الحكيمُ في أفعاله الذي لا

= تفسير الرسول ﷺ لهذين الاسمين الكريمين بما يُبطِل تفسيره هذا. قال ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). فقد فسر ﷺ الظهور بظهور ذاته وعلوها فوق مخلوقاته، وفسر البطون بقربه من عباده.

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٦٨.

(٢) (ش): هذا الترجيح خلاف ظاهر الآية ولا دليل عليه.

(٣) (ش): قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ والله قادر على أن يجعل للكائنات نطقًا يناسبها لا نفهمه نحن.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٩.

يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.. ثم ذكر تعالى عظمته وقدرته فقال ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ أي هو جلّ وعلا المالك المتصرف في خلقه، يحيي من يشاء، ويُميت من يشاء قال القرطبي: يميتُ الأحياء في الدنيا، ويحيي الأموات للبعث والنشور[١] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي لا يُعْجِزُه شيء في الأرض ولا في السماء، ولفظُ ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغة في القادر لأن «فعيل» من صيغ المبالغة ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ أي ليس لوجوده بداية، ولا لبقائه نهاية ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ أي الظاهرُ للعقول بالأدلة والبراهين الدالة على وجوده، الباطنُ الذي لا تدركه الأبصار، ولا تصلُ العقول إلى معرفة كنه ذاته[٢] وفي الحديث «أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»[٣] قال شيخ زاده: وقد فسَّر صاحب الكشاف «الباطن» بأنه غير المدرك بالحواسِ وهو تفسير بحسب التشهي يؤيد مذهبه من استحالة رؤية الله في الآخرة، والحقُّ أنه تعالى ظاهرٌ بوجوده، باطنٌ بكنهه، وأنه تعالى جامعٌ بين الوصفين أزلًا وأبدًا[٤] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو تعالى عالمٌ بكل ذرةٍ في الكون، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أي خلقهما في مقدار ستة أيام ولو شاء لخلقهما بلمح البصر، وهو تحقيقٌ لعزته، وكمال قدرته، كما أن قوله ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تحقيق لحكمته، وكمال علمه ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تمثيلٍ ولا تكييفٍ[٥]

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٣٦.

(٢) هذا أرجح الأقوال في تفسير «الظاهر والباطن» وقد اختاره «أبو السعود» والألوسي.

(ش): فسر المؤلف اسم الله الظاهر والباطن تفسيرًا يخالف ما فسرهما به رسول الله ﷺ وقد ساق المؤلف تفسير الرسول ﷺ لهذين الاسمين الكريمين بما يُبطِل تفسيره هذا. قال ﷺ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ" (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). فقد فسر ﷺ الظهور بظهور ذاته وعلوها فوق مخلوقاته، وفسر البطون بقربه من عباده.

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم وأحمد.

(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٨.

(٥) انظر تفصيل معنى الاستواء في سورة الأعراف. (ش): فسر المؤلف الاستواء بالعلو في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الرعد: ٣] فقال: «أي علا فوق العرش علوًّا يليق بجلاله». وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: «﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ الاستواء: العلوّ والاستقرار». وقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: الاستواء معلوم، والكَيْف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: أخبارُ الصفات تُمَرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال: كيف؟ ولِمَ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء، وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلغها واصف أو يحدها حادٌّ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونَكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم الله عَزَّ وَجَلَّ وقال القرطبي: لم ينكر أحدٌ من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلم حقيقته.

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض من مطر وأموات، وما يخرج منها من معادن ونبات وغير ذلك ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾ أي وما ينزل من السماء من الأرزاق، والملائكة، والرحمة، والعذاب، وما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة كقوله ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ أي هو جل وعلا حاضرٌ مع كل أحدٍ بعلمه وإحاطته قال ابن عباس: هو عالمٌ بكم أينما كنتم قال ابن كثير: أي هو رقيبٌ عليكم، شهيدٌ على أعمالكم، حيث كنتم وأين كنتم، من برٍّ وبحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار[١]، الجميع في علمه على السواء، يسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سرَّكم ونجواكم[٢] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب على أعمال العباد، مُطَّلع على كل صغيرة وكبيرة

---

(١) (ش): أقفر المكانُ: خلا من الماء والعُشْب والنّاس. قِفار: جمع قَفْر: خالٍ من الماء والعُشب والناس.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٤٥، قال في البحر: أجمعت الأمة على تأويل هذه الآية وأنها لا تُحمَل على ظاهرها من المعية بالذات ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ أي بالعلم والقدرة. اهـ. وقال القرطبي: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ أي بقدرته وسلطانه وعلمه وقال البيضاوي: أي لا ينفك علمه وقدرته عنكم. وقال الألوسي: والآية تمثيل لإحاطة علم الله بهم، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا. اهـ. أقول: وهذه الأقوال عن السلف والخلف ترد على منع التأويل في كتاب الله تعالى مطلقًا إذ كيف يمكن أن نفهم قوله تعالى عن سفينة نوح: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾، وقوله لموسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، وقوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾، وقوله عليه السلام: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»!! (ش): تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ بالعلم ليس بتأويل ولكنه هو معنى آيات المعية عند أهل السنة والجماعة. كما حكى الإمام أبو عمر بن عبد البر وأبو عمر الطلمنكي إجماع أهل السنة على ذلك، وذلك لأن النصوص من الكتاب والسنة الدالة على علوه وفوقيته وتنزيهه سبحانه عن الحلول والاتحاد تقتضي ذلك، ومن تأمل الآيات الواردة في ذلك علم أنها تدل على أن المراد بالمعية العلم بأحوال عباده واطلاعه على شئونهم مع دلالة المعية الخاصة على كلاءته ورعايته وحفظه ونصره لأنبيائه وأوليائه. مع علمه واطلاعه على أحوالهم، والعرب الذين نزل عليهم الكتاب وجاءت السُنّة بلغتهم يعلمون ذلك ولا يشتبه عليهم، ولهذا لم يسألوا النبي ﷺ عن معاني هذه الآيات لظهورها لهم. أما النصوص الأخرى فلا تحتاج إلى تأويل لأن المعنى فيها ظاهر مثل قوله سبحانه: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ فلا يدور بخَلَد أحد أن السفينة تجري بعين الله ولا أن محمدا عليه الصلاة والسلام في عين الله وإنما المراد بذلك أن السفينة تجري برعاية الله وعنايته وتسخيره لها وحفظه لها، وأن محمدًا ﷺ تحت رعاية مولاه وعنايته وحفظه وكلاءته، وهكذا قوله في حق موسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ أي تحت رعايتي وحفظي. وأما قوله سبحانه: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ وقوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ فقد فسره جماعة بقرب الملائكة لأن قربهم من العبد حين يتلقى المتلقيان وحين الموت كان بأمره سبحانه وتقديره ورعايته لعباده، وفسره آخرون بأنه قربه سبحانه بعلمه وقدرته وإحاطته بعباده كالمعية وكقربه من عابديه وسائليه مع علوه وفوقيته سبحانه وليس المراد الحلول ولا الاتحاد، تعالى الله عن ذلك وتقدس لأن الأدلة القطعية من الكتاب والسنة تدل على أنه سبحانه فوق العرش بائن من خلقه عالٍ عليهم وعِلْمُه في كل مكان. فمن تدبر النصوص من الكتاب والسنة وفسر بعضها ببعض اتضح له المعنى ولم يحتج إلى التأويل، وقد اختار أبو جعفر بن جرير – رحمه الله – في تفسيره القول الثاني في سورة (ق) والقول الأول في سورة الواقعة. وأما حديث (الحجر الأسود يمين الله في الأرض) فهو حديث قال الألباني عنه: إنه موضوع. وقد أنكر أهل السنة على من تأول نصوص الصفات وبدَّعوه لما يترتب على تأويلها من أنواع الباطل وتحريف الكلم عن مواضعه وتجريد الرب سبحانه من صفات الكمال وسوء الظن به، وأنه خاطب عباده بما ظاهره تشبيه وتمثيل وأن المراد غيره. وهذا هو التأويل المذموم وهذا =

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كرره للتأكيد والتمهيد لإثبات الحشر والنشر أي هو المعبود على الحقيقة[١]، المتصرف في الخلق كيف يشاء ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إليه وحده مرجع أمور الخلائق في الآخرة فيجازيهم على أعمالهم ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي هو المتصرف في الكون كيف يشاء، يقلِّب الليل والنهار بحكمته وتقديره، ويُدْخِل كلًّا منهما في الآخر، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وأُخرى بالعكس ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي هو العالم بالسرائر والضمائر، وما فيها من النوايا والخفايا، ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُعبد سواه ثم لما ذكر دلائل عظمته وقدرته، أمر بتوحيده وطاعته فقال ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي صدِّقوا بأن الله واحد[٢] وأن محمدًا عبده ورسوله ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي وتصدّقوا من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها، فهي في الحقيقة لله لا لكم قال في التسهيل: يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله لأنه خلقها، ولكنه مَتَّعكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكها أن تنفقوها فيه[٣]، والمقصود التحريضُ على الإنفاق والتزهيد في الدنيا ولهذا قال بعده: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي فالذين جمعوا بين الإيمان الصادق والإنفاق في سبيل الله[٤] ابتغاء وجهه الكريم لهم أجر عظيم وهو الجنة قال أبو السعود: وفي الآية من المبالغات ما لا يخفى، حيث جعل الجملة اسمية ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وأعيد ذكرُ الإيمان والإنفاق ﴿ءَامَنُوا۟ وَأَنفَقُوا۟﴾ وكرر الإسناد ﴿لَهُمْ﴾ وفَخَّم الأجر بالتنكير ووصفه بالكبير ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ أي أيُّ عذرٍ لكم في ترك الإيمان بالله؟ ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ أي والحالُ أن الرسول ﷺ يدعوكم للإيمان بربكم وخالقكم،

= هو الذي سلكه أهل الكلام وأنكره عليهم أهل السنة وضلَّلوهم في ذلك، لكَوْنهم أوَّلوا النصوص عن ظاهرها وصرفوها عن الحق الذي دلت عليه بلا حجة ولا برهان من كتاب ولا سنة، بل بمقتضى عقولهم وآرائهم التي لم يُنزل الله بها مِن حجة ولا قام عليها برهان. وقد ألزموهم فيما أثبتوا نظير ما فروا منه فيما تأولوه وهو لازم لهم بلا شك. ولا يسلم من التناقض واللوازم الباطلة إلا من أثبت ما أثبته الله ورسوله ونفى ما نفاه الله ورسوله وهم أهل السنة والجماعة، والله المستعان.

(١) (ش): في الواقع معبوداتٌ كثيرة بالباطل، فالصواب أن يقال: «هو الذي يجب أن يُعبَدَ على الحقيقة». وسيأتي بعد قليل قول المؤلف عن الله: «ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُعبَد سواه».

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩٥ وقيل المعنى: مما جعلكم خلفاء عمن كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم بالإرث وسيخلفكم فيه من بعدكم، والأول أظهر.

(٤) (ش): هذا التعبير يعطي التفريق بين الإيمان والعمل، وأنه يمكن أن يكون إيمان صادق بدون عمل، والصواب: أن العمل جزء من الإيمان فلا يكون إيمان بدون عمل، وعطْفُ العمل على الإيمان من عطْف الخاص على العام اهتمامًا به.

بالبراهين القاطعة، والحجج الدامغة ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم وهو العهد المؤكد بما رُكِز في العقول من الأدلة الدالة على وجود الله[1] قال أبو السعود: وذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر[2] وقال الخازن: أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم وأعلمكم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه، وقيل: أخذ ميثاقكم حيث ركب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول[3] ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرطٌ حذف جوابه أي إن كنتم مؤمنين في وقت من الأوقات فالآن أحرى الأوقات لقيام الحجج والبراهين عليكم.. ثم ذكر تعالى بعض الأدلة الدالة على وجوب الإيمان فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي هو تعالى الذي ينزّل على محمد القرآن العظيم، المُعْجِز في بيانه، الواضح في أحكامه قال القرطبي: يريد بالآيات البينات القرآن -وقيل: المعجزات- أي لزمكم الإيمان بمحمد ﷺ لما معه من المعجزات، والقرآنُ أكبرها وأعظمها[4] ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة بكم، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم، ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ أي أيْ أيُّ شيءٍ يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقربكم من ربكم، وأنتم تموتون وتخلّفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى؟ قال الإمام الفخر: المعنى: إنكم ستموتون فتورَثُون، فهلَّا قدمتموه في الإنفاق في طاعة الله[5]!! وهذا من أبلغ الحث على الإنفاق في سبيل الله ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أي لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل الأعداء مع رسول الله قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة قال المفسرون: وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم، لأن حاجة الإسلام إلى الجهاد والإنفاق كانت أشد، ثم أعز الله الإسلام بعد الفتح وكثَّر ناصريه، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ أي أعظم أجرًا، وأرفع منزلة من الذين أنفقوا من بعد فتح مكة وقاتلوا لإعلاء كلمة

(١) (ش): في هذا التعبير نظر، والأولَى أن يقال: بما رُكِز في العقول من معرفة الله بالأدلة. وليس المقصود من الأدلة مجرد معرفة وجود الله فقط، لأن لفظ الوجود ليس فيه مدح لأنه يشترك فيه كل موجود، وإنما المقصود من الأدلة معرفة استحقاقه للعبادة وحده.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٣٧.

(٣) ««تفسير الخازن»» ٤/ ٣١. (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١١): «وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [الْمَائِدَة:٧]. وَيَعْنِي بِذَلِكَ: بَيْعَةَ الرَّسُولِ ﷺ. وَزَعَمَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْمِيثَاقُ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ، وَهُوَ مَذْهَبُ مُجَاهِدٍ، فَاللهُ أَعْلَمُ».

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٣٩.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢١٨.

الله قال الكلبي: نزلت في «أبي بكر» لأنه أول من أسلم، وأول من أنفق ماله في سبيل الله، وذبَّ عن رسول الله ﷺ[١] ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكلاًّ ممن آمن وأنفق قبل الفتح، ومن آمن وأنفق بعد الفتح، وعده الله الجنة مع تفاوت الدرجات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عالمٌ بأعمالكم، مُطَّلِعٌ على خفاياكم ونواياكم، ومجازيكم عليه، وفي الآية وعدٌ ووعيد ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء رضوانه ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفًا ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وله مع المضاعفة ثواب عظيم كريم وهو الجنة قال ابن كثير: أي جزاء جميل ورزق باهر وهو الجنة، ولما نزلت هذه الآية قال «أبو الدحداح الأنصاري»: يا رسول الله، وإنَّ الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح»، قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي -أي بستاني- وله فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه هي وعيالها، فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح قالت: لبيك، قال اخرجي فقد أقرضته ربي عَزَّ وَجَلَّ، فقالت: «ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها[٢]. ثم أخبر تعالى عن المؤمنين الأبرار، وما يتقدمهم من الأنوار وهم على الصراط فقال ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي اذكر يوم ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تتلألأ من أمامهم ومن جميع جهاتهم ليستضيئوا بها على الصراط، وتكون وجوههم مضيئة كإضاءة القمر في سواد الليل ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي ويقال لهم: أبشروا اليوم بجنات الخلد والنعيم، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي الفوز الذي لا فوز بعده لأنه سبب السعادة الأبدية، رُوِيَ أن نور كل أحدٍ على قدر إيمانه، وأنهم متفاوتون في النور، فمنهم من يضيء نوره ما قرب من قدميه، ومنهم من يُطفأ نوره مرة ويظهر مرة[٣] قال الزمخشري: وإنما قال ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٣٢. (ش): ذكره الخازن بدون إسناد. والكلبي محمد بن السائب مُتهَم بالكذب، أضف إلى ذلك الانقطاع بينه وبين النبي ﷺ فالكلبي من الذين عاصروا صغار التابعين وقد توفي عام ١٤٦ هـ.

(٢) تفسير ابن كثير المختصر ٣/ ٤٤٨. (ش): ضعَّفه البوصيري والألباني. عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي. فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي. قَالَ: «فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ» قَالَهَا مِرَارًا. قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ. أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا. (رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ والحاكم وصححه، والألباني).
«عذق» قيل: بالكسر الغصن، وبالفتح النخلة أو الحائط، والظاهر أن المراد ها هنا النخلة. «رداح»: ثقيل لكثرة ما فيه من الثمار.

(٣) (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف.

الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم[١]. . ولما شرح حال المؤمنين يوم القيامة، أتبع ذلك بشرح حال المنافقين فقال ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي انتظرونا لنستضيء من نوركم قال المفسرون: إن الله تعالى يعطي المؤمنين نورًا يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويترك الكافرين والمنافقين بلا نور، فيستضيء المنافقون بنور المؤمنين، فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحًا وظلمة، فبقوا في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم فيقولون للمؤمنين: انتظرونا لنستضيء بنوركم ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي فيقول لهم المؤمنون سخريةً واستهزاءً بهم: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هناك قال أبو حيان: وقد علموا أن لا نور وراءهم، وإنما هو إقناطٌ لهم[٢] ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ أي فضرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجزٍ له باب، يحجز بين أهل الجنة وأهل النار ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين الرحمةُ وهي الجنة، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذاب وهو النارُ قال ابن كثير: هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب[٣] ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الدنيا، نصلي كما تصلون، ونصوم كما تصومون، ونحضر الجمعة والجماعات، ونقاتل معكم في الغزوات؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي قال لهم المؤمنون: نعم كنتم معنا في الظاهر ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ انتظرتم بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي شَكَكْتم في أمر الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي خدَعتكم الأمانيُّ الفارغة بسعة رحمة الله ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي حتى جاءكم الموتُ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي وخدعكم الشيطان الماكر بقوله: إن الله عفو كريم لا يعذبكم قال قتادة: ما زالوا على خُدعةٍ من الشيطان حتى قذفهم الله في نار جهنم[٤] قال المفسرون: الغرور بفتح الغين الشيطان؛ لأنه يغر ويخدع الإنسان قال تعالى ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٥٦] ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ففي هذا اليوم العصيب لا يقبل منكم بدلٌ ولا عوضٌ يا معشر المنافقين، ولا من الكافرين الجاحدين بالله وآيات. وفي الحديث «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَىْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِى بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِى صُلْبِ آدَمَ أَنْ لاَ

---

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ٣٤٢.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢١. (ش): أقنط الشَّخْصَ إقناطًا: جعله يَيْأس.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٠.

(٤) ««تفسير الخازن»» ٤/ ٣٤.

تُشْرِكَ بِي. فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ»[١] ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مقامكم ومنزلكم نار جهنم ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي هو عونكم وسندكم وناصركم لا ناصر لكم غيرها، وهو تهكم بهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المرجع والمنقلب نار جهنم. قال بعض العلماء: «السَّعِيدُ مَنْ لَا يَغْتَرُّ بِالطَّمَعِ، وَلَا يَرْكَنُ إِلَى الْخُدَعِ، وَمَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ نَسِيَ الْعَمَلَ، وَغَفَلَ عَنِ الْأَجَلِ»[٢].

قال الله تعالى:

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن
قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ
ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ
مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ
ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا
ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا
وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً
ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ
أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن
رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا
يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى اغترار المنافقين والكافرين بالحياة الدنيا، نبَّه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم، أو مثل أهل الكتاب بالاغترار بدار الفناء، ثم ضرب مثلًا للحياة الدنيا وبهرجها الخادع

(١) «تفسير الألوسي» ٢٧/ ١٨٧، والحديث في الصحاح. (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٤٧.

الكاذب[١]، وختم السورة الكريمة ببيان فضيلة التقوى والعمل الصالح، وأرشد المؤمنين إلى مضاعفة الأجر والنور باتباعهم هدي الرسول ﷺ .

اللغَة: ﴿يَأْنِ﴾ يحن يقال: أَني يأْني مثل رمَى يرمِي أي حانَ، قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الْجَهْلَا وَأَنْ يُحْدِثَ الشَّيْبُ الْمُبِينُ لَنَا عَقْلَا[٢]

﴿تَخْشَعَ﴾ تذل وتلين ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ الأجل أو الزمان ﴿يَهِيجُ﴾ هاج الزرع إذا جف ويبس بعد خضرتـه ونضارته ﴿حُطَٰمًا﴾ فُتاتًا يتلاشـى بالرياح ﴿قَفَّيْنَا﴾ ألحقنـا وأتبعنا ﴿كِفْلَيْنِ﴾ مثنى كفل وهو النصيب.

سَـبَبُ النّـزول: لما قـدم المؤمنون المدينة، أصابـوا من لين العيش ورفاهيتـه، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزلت هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٣] قال ابن مسعود: « مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلاَمِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الآيَةِ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إِلاَّ أَرْبَعُ سِنِينَ »[٤].

التفسير: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي أما حان للمؤمنين أن ترقَّ قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي ولما نزل من آيات القرآن المبين؟ ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ أي ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيـل ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فطال عليهم الزمن الـذي بينهم وبين أنبيائهم، حتى صلُبَتْ قلوبُهم فهي كالحجارة أو أشـد قسـوة قال ابن عباس: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن وقال أبو حيان: أي صلُبَت بحيث لا تنفعل للخير والطاعة[٥] والغرض أن الله يحذِّر المؤمنين أن يكونوا مع القرآن كاليهود والنصارى حين قست قلوبهم لما طـال عليهم الزمان ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي وكثير من أهـل الكتاب خارجون عن طاعة الله، رافضون لتعليم دينهم، من فرط قسوة القلب قال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذيـن حُمِّلُـوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطـاول عليهم الزمن بدَّلوا كتاب الله الـذي بأيديهـم، ونبـذوه وراء ظهورهم، واتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًـا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوَعْدٍ ولا وَعيد[٦] ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي اعلموا يا معشـر المؤمنين أن الله يُحيِـي الأرض القاحلة المجدبة[٧]

---

(١) (ش): بَهْرَج: باطل.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٤٨.

(٣) (ش): ضعيف، أخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» وعبد الرزاق في «تفسيره».

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٢٣. (ش): انفعل بأمرٍ: تأثَّر به؛ أثار الأمرُ مشاعرَه أو عواطفه.

(٦) «تفسير مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٥١.

(٧) (ش): قحَلتِ الأرضُ: يَبِسَت. جدِبت/ جدَبت/ جدُبت الأرضُ: يبِسَتْ لاحتباس الماء عنها.

بالمطر، ويخرج منها النبات بعد يُبْسِها، وهو تمثيل لإِحياء القلوب القاسية بالذكر وتلاوة القرآن، كما تحيا الأرض المجدبة بالغيث الهَتَّان(١) قال ابن عباس: يلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها مخبتةً منيبة، وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة(٢) قال في البحر: ويظهر أنه تمثيلٌ لتليين القلوب بعد قسوتها، ولتأثير ذكر الله فيها، فكما يؤثر الغيث في الأرض فتعود بعد إجدابها مُخصِبةً(٣)، كذلك تعود القلوب النافرة مقبلةً يظهر فيها أثر الخشوع والطاعات(٤) ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي وضَّحْنا لكم الحُجَج والبراهين الدالة على كمال قدرتنا ووحدانيتنا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تعقلوا وتتدبروا ما أنزل الله في القرآن ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي الذين تصدقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله، والذين أنفقوا في سبيل الله وفي وجوه البر والإِحسان طيِّبةً بها نفوسُهم ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي يضاعَف لهم ثوابهم بأن تكتب الحسنة بعشر أمثالها، ولهم فوق ذلك ثواب حسن جزيل وهو الجنة -قال المفسرون: أصل ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ المتصدقين أدغمت التاء في الصاد فصارت المصدّقين- ومعنى القرض الحسن هو التصدق عن طيب النفس، وخلوص النية للفقير، فكأن الإِنسان بإحسانه إلى الفقير قد أقرض اللهَ قرضًا يستحق عليه الوفاء في دار الجزاء ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ أي صدَّقوا بوحدانية الله ووجوده، وآمنوا برسله إِيمانًا راسخًا كاملًا، لا يخالجه شك ولا ارتياب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك الموصوفون بالإِيمان بالله ورسله، هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصديقية والشهادة في سبيل الله قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صدِّيقٌ وشهيد(٥) ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي لهم في الآخرة الثواب الجزيل، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وكذبوا بآياته أولئك هم المخلدون في دار الجحيم قال البيضاوي: فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار، من حيث إن الصيغة تُشعِر بالاختصاص ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ والصحبة تدل على الملازمة(٦). ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين، ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي اعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هي إِلا لعبٌ يُتعب الناس فيها أنفسهم كإِتعاب الصبيان

(١) (ش): هَتَنتِ السَّماءُ: تتابعت أمطارُها وانصبّت.
(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٣٥.
(٣) (ش): مُخصِبةً: كثر فيها العشبُ والكلأُ والخيرُ.
(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٢٣.
(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/ ٢٣٢.
(٦) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٥٣.

أنفسهم باللعب ﴿وَلَهۡوٞ﴾ أي وشغل للإِنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله ﴿وَزِينَةٞ﴾ أي وزينة يتزين بها الجهلاء كالملابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد كما قال القائل:

أَرَى أَهْـلَ الْـقُـصُـورِ إِذَا أُمِـيتُـوا ... بَـنَـوْا فَـوْقَ الْـمَـقَـابِـرِ بِـالصُّـخُـورِ
أَبَــوْا إِلَّا مُـبَـاهَـاةً وَفَـخْـرًا ... عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ[1]

﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد قال ابن عباس: يجمع المال من سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلماتٌ بعضها فوق بعض[2] ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي كمثل مطرٍ غزير أصاب أرضًا، فأعجب الزُرَّاع نباتُه الناشئ عنه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أي ثم ييبس بعد خضرته ونُضرته فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهيًا ناضرًا ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ أي ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشيمًا تذروه الرياح كذلك حال الدنيا قال القرطبي: والمراد بالكفار هنا الزُرَّاع لأنهم يُغطُّون البذر، ومعنى الآية أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيمًا كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو في غاية الحسن[3] ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ﴾ أي والجزاء في الآخرة إما عذاب شديد للفجار، وإما مغفرة من الله ورضوانٌ للأبرار ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ أي وليست الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة انقضائها إلا متاعٌ زائل، ينخدع بها الغافل، ويغتر بها الجاهل قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغُرور إنْ ألْهَتْك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعَتْك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة[4]. ولما حقَّر الدنيا وصغَّر أمرها، وعظَّم الآخرة وفخَّم شأنها، حثَّ على المسارعة إلى نيل مرضاة الله، التي هي سبب للسعادة الأبدية في دار الخلود والجزاء فقال ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي تسابَقُوا أيها الناس وسارِعوا بالأعمال الصالحة التي تُوجِبُ المغفرة لكم من ربكم قال أبو حيان: وجاء التعبير بلفظ ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ كأنهم في ميدان سباق يجْرُون إلى غايةٍ مُسابقين إليها، والمعنى: سابقوا إلى سبب المغفرة وهو الإيمانُ، وعملُ الطاعات[5] ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وسارعوا إلى جنةٍ واسعة فسيحة، عرضها كعرض السموات السبع من الأرض مجتمعة قال السدي: إن الله تعالى شَبَّه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طولها أزيد

(١) كنت سمعت هذين البيتين من شيخنا الجليل فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عالم الشهباء أمدَّ الله في عمره.
(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/ ٢٣٣.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٥٥.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٣٤.
(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢٥.

مـن عرضهـا، فذكر العرض تنبيهًـا على أن طولها أضعـاف ذلك[١] وقال البيضـاوي: إذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول[٢]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي هيَّأها الله وأعدَّها للمؤمنيـن المصَدِّقيـن بالله ورسـله قال المفسـرون: وفي الآيـة دلالة على أن الجنـة مخلوقة وموجـودة لأن ما لم يُخلق بعد لا يوصف بأنـه أُعدَّ وهُيِّئ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسـع، يتفضل به على من يشـاء من عباده من غير إيجاب ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي ذو العطاء الواسـع والإحسان الجليل ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مـا يحدث في الأرض مصيبـةً من المصائب كقحطٍ، وزلزلةٍ، وعاهة في الـزروع، ونقـصٍ في الثمـار ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من الأمراض، والأوصـاب[٣]، والفقر، وذهـاب الأولاد ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي إلاَّ وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلُقَها ونُوجِدَها قال في التسـهيل: المعنى أن الأمور كلها مقدَّرة في الأزل، مكتوبة في اللـوح المحفـوظ من قبل أن تكون، وفي الحديث «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيـرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِـينَ أَلْفَ سَـنَةٍ - قَالَ - وَعَرْشُـهُ عَلَى الْمَاءِ»[٤] ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن إثبات ذلك على كثرته سهلٌ هيّنٌ على الله عَزَّ وَجَلَّ وإن كان عسيرًا على العباد..

ثم بيَّن تعالى لنا الحكمة في إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر فقال ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي أثبـت وكتـب ذلك كي لا تحزنوا على ما فاتكـم من نعيم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي ولكـي لا تبطروا بمـا أعطاكم الله من زهـرة الدنيا ونعيمها قال المفسـرون: والمراد بالحزن الحزنُ الذي يوجب القنوط، وبالفرح الفرحُ الذي يورث الأشـر والبطـر، ولهـذا قال ابن عباس: «ليس من أحـدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكـنَّ المؤمن يجعل مصيبتـه صـبرًا، وغنيمتـه شـكرًا»[٥] ومعنى الآيـة: لا تحزنوا حزنًـا يخرجكم إلـى أن تُهلِكوا أنفسـكم، ولا تفرحـوا فرحًـا شـديدًا يطغيكـم حتى تأشـروا فيه وتبطـروا، ولهـذا قال بعض العارفين: «من عرف سـرَّ الله في القدر هانت عليه المصائـب»[٦] وقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه: «ما أصابتنـي مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعـم: **الأولى**: أنها لم تكن في ديني، **الثانية**: أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة: أن الله يعطي عليها الثواب العظيم والأجر الكبير». ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٣٤.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩٩.
(٣) (ش): وَصَب: تعبٌ وفتور في البدن.
(٤) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٥٤. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.
(٥) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٥٨.
(٦) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٣٩.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي لا يحب كل متكبِّرٍ مُعجَبٍ بما أعطاه الله من حظوظ الدنيا، فخور به على الناس.. ثم بيَّن تعالى أوصاف هؤلاء المذمومين فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أي يبخلون بالإنفاق في سبيل الله، ولا يكفيهم ذلك حتى يأمروا الناس بالبخل ويُرَغِّبُوهم في الإمساك ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يعرض عن الإنفاق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي فإن الله مُسْتَغْنٍ عنه وعن إنفاقه، محمودٌ في ذاته وصفاته، لا يضُرُّه الإعراض عن شكره، ولا تنفعه طاعة الطائعين، وفيه وعيدٌ وتهديدٌ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ اللام مُوطِّئةٌ لِقَسَمٍ محذوف[1] أي والله لقد بعثنا رسلنا بالحجج القواطع والمعجزات البينات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي وأنزلنا معهم الكتب السماوية التي فيها سعادة البشرية، وأنزلنا القانون الذي يُحكَم به بين الناس[2]، وفسَّر بعضهم الميزان بأنه العدلُ وقال ابن زيد: وهو ما يُوزن به ويُتعامل ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي ليقوم الناس بالحق والعدل في معاملاتهم ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس شديد، لأن آلات الحرب تُتخذ منه، كالدروع، والرماح، والتروس، والدبابات وغاير ذلك ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي وفيه منافع كثيرة للناس كسِكَك الحراثة[3]، والسكِّين، والفأس وغير ذلك وما من صناعةٍ إلا والحديدُ آلةٌ فيها قال أبو حيان: وعبَّر تعالى عن إيجاده بالإنزال كما قال ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] لأن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تُلقى من السماء جعل الكل نزولًا منها، وأراد بالحديد جنسه من المعادن قاله الجمهور[4] ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ عطفٌ على محذوف مقدر، أي: وأنزلنا الحديد ليقاتل به المؤمنون أعداءهم ويجاهدوا لإعلاء كلمة الله، وليعلم الله من ينصر دينه ورسله باستعمال السيوف والرماح وسائر الأسلحة مؤمنًا بالغيب قال ابن عباس: ينصُرونه ولا يُبصِرونه[5]، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قادر على الانتقام من أعدائه بنفسه، عزيزٌ، أي: غالب لا يُغالَب، فهو غني بقدرته وعزته عن كل أحد قال البيضاوي: أي قوي على إهلاك مَن أراد إهلاكه، عزيزٌ لا يفتقر إلى نُصرة أحد، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به ويستوجبوا الثواب[6] وقال ابن كثير: معنى الآية أنه جعل الحديد رادعًا لمن أبى الحقَّ وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة

(١) (ش): أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرِفَته.
(٢) (ش): أي القرآن والسنة فهما يجب أن يكونا مصدر القوانين.
(٣) (ش): سِكّة الحراثة: حديدة المحراث التي تشقّ الأرض.
(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢٦.
(٥) «تفسير الجلالين» ٤/ ١٧٦. (ش): أي ينصرون الله وهم لا يرونه.
(٦) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٥٦.

تُوحى إليه السور، ويقارعهم بالحجة والبرهان، فلما قامت الحجة على من خالف أمر الله، شرع الله الهجرة وأمر المؤمنين بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب، ولهذا قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(١) ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من شاء من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليَبْلُوَ بعضهم ببعض(٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ لما ذكر بعثة الرسل ذكر هنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبيَّن أنه جعل في نسلهما النبوة والكتب السماوية، أي: وبالله لقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا النبوة في نسلهما، كما أنزلنا الكتب الأربعة وهي «التوراة والزبور والإنجيل والقرآن» على ذريتهما، وإنما خصَّ نوحًا وإبراهيم بالذكر تشريفًا لهما وتخليدًا لمآثرهما الحميدة ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي فمن ذرية نوح وإبراهيم أناس مهتدون، وكثيرٌ منهم عصاة خارجون عن الطاعة وعن الطريق المستقيم ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي ثم أتبعنا بعدهم برسلنا الكرام، أرسلناهم رسولًا بعد رسول، موسى، وإلياس، وداود، وسليمان، ويونس وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي وجعلناه بعد أولئك الرسل لأن كان آخر الأنبياء من بني إسرائيل ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي وأنزلنا عليه الإنجيل الذي فيه البشارة بمحمد ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعلنا في قلوب أتباعه الحواريين الشفقة واللين قال في التسهيل: هذا ثناء من الله عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف تعالى أصحاب سيدنا محمد ﷺ بأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(٣) [الفتح: ٢٩] ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ورهبانيةً ابتدعها القسسُ والرهبان وأحدثوها من تلقاء أنفسهم، ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها قال أبو حيان: والرهبانيةُ رفضُ النساء وشهوات الدنيا، واتخاذ الصوامع ومعنى ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها من عند أنفسهم(٤) ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي ما أمرناهم إلا بما يرضي الله -والاستثناء منقطع- والمعنى: ماكتبنا عليهم الرهبانية، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي فما قاموا بها حقَّ القيام، ولا حافظوا عليها كما ينبغي قال ابن كثير: وهذا ذمٌّ لهم من وجهين: **أحدهما**: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به اللهُ. **والثاني**: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ(٥)، وفي الحديث «لكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتي

(١) أخرجه أحمد وأبو داود. (ش): صححه الألباني وأحمد شاكر.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٥.
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٠٠.
(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٢٨.
(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٦.

الجهاد في سبيل الله»[١] ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡ﴾ أي فأعطينا الصالحين من أتباع عيسى الذين ثبتوا على العهد وآمنوا بمحمد ﷺ ثوابهم مضاعفًا ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة منتهكون لمحارم الله كقوله تعالى ﴿إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي يا من صدقتم بالله[٢] اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ودوموا واثبتوا على الإيمان ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي يعطكم ضعفين من رحمته ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أي ويجعل لكم في الآخرة نورًا تمشون به على الصراط ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ أي ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصي ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي إنما بالغنا في هذا البيان ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة فيهم، فـ«لا» في قوله ﴿لِّئَلَّا﴾ زائدة والمعنى: ليعلم[٣]. قال المفسرون: إن أهل الكتاب كانوا يقولون الوحي والرسالة فينا، والكتابُ والشرع ليس إلا لنا، والله خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين، فردَّ الله عليهم بهذه الآية الكريمة ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي وأن أمر النبوة والهداية والإيمان بيد الرحمن يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي والله واسع الفضل والإحسان.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ وبين ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾.

٢ - المقابلة بين ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ وبين ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾[الحديد: ٤].

٣ - رَدُّ العجز على الصدر ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحديد: ٦] وهو وما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد. (ش): إنما رواه الإمام أحمد بلفظ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» وضعفه الألباني. واللفظ الذي ذكره المؤلف: «لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» (رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى والطبراني وضعفه الألباني). وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: أَوْصِنِي. فَقَالَ: سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ، «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وذِكْرٌ لكَ فِي الْأَرْضِ» (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وحسنه الألباني). (رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ) أي: الانقطاع إليه تعالى في هذا الدين. (رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ): أي: سبب حياتك عند الله، قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. (وذِكْرٌ لكَ): أي: شرفٌ لك. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالفٌ لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) (ش): أي «لا» صِلَة زَائِدَة مُؤَكِّدَة، أي توصل للمعنى الأساسي لتأكيده وتقويته.

سبقه من المحسنات البديعية(١).

٤ – حذف الإيجاز ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] حذف منه جملة «ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل» وذلك لدلالة الكلام عليه ويسمى هذا الحذف بالإيجاز.

٥ – الاستعارة اللطيفة ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩] أي ليخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، فاستعار لفظ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ للكفر والضلالة ولفظ ﴿النُّورِ﴾ للإيمان والهداية وقد تقدم.

٦ – الاستعارة التمثيلية ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١] مثَّل لمن ينفق ماله ابتغاء وجه الله مخلصًا في عمله بمن يُقرض ربه قرضًا واجب الوفاء بطريق الاستعارة التمثيلية.

٧ – الأسلوب التهكمي ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحديد: ١٥] أي لا ولي لكم ولا ناصر إلا نار جهنم وهو تهكم بهم.

٨ – المقابلة اللطيفة بين قوله ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وقوله ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣].

٩ – التشبيه التمثيلي ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ..﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

١٠ – الجناس الناقص ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.

١١ – السجع المرصَّع كأنه الدر المنظوم ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وقوله تعالى ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وهو كثير في القرآن.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد»



(١) (ش): رَدُّ العجُز على الصدر: أنْ يَجْعَلَ المتكلِّمُ أحَدَ اللّفْظَيْنِ المكرَّرين أو المتجانسين، أو مَا هو مُلْحَقٌ بالمتجانِسَيْن في أوّل الفقرَة، والآخر في آخِرِها مثل ما يلي: (١) قول الله عزَّ وجلَّ خطابًا لرسوله ﷺ بشأن تزوجِّه من زينبَ مُطَلَّقة متبَنَّاه زَيْد بن حارثة رضي الله عنه: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ...﴾ هذا مثال اللفظين والمكرّرَيْن. (٢) قول الله –عزَّ وجلَّ– في حكاية ما قال نوحٌ –عليه السلام– لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾. هذا مثال للّفظَيْن المتلاقِيَيْن في الاشتقاق. (٣) قول الله –عزَّ وجلَّ– حكاية لما قال لوطٌ –عليه السلام– لقومه: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾. هذا مثال للّفظَيْنِ المتلاقِيَيْنِ فيما يشبه الاشتقاق.

(٥٨) سُورَةُ المُجَادَلَةِ (٢٢)

مدنية وآياتها ثنتان وعشرون

بين يدي السورة

* سورة المجادلة مدنية، وقد تناولت أحكامًا تشريعية كثيرة كأحكام الظهار، والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وعدم مودة أعداء الله، إلى غير ذلك، كما تحدثت عن المنافقين وعن اليهود.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قصة المجادلة «خولة بنت ثعلبة» التي ظاهر منها زوجها - على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار - وقد جاءت تلك المرأة رسول الله تشكو ظلم زوجها لها وقالت: يا رسول الله: «أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني» ورسول الله ﷺ يقول لها: «ما أراك إلا قد حرمت عليه»، فكانت تجادله وتقول يا رسول الله: ما طلقني ولكنه ظاهر مني، فيرد عليها قوله السابق، ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك، فاستجاب الله دعاءها وفرج كربتها وشكواها ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ..﴾(١) الآيات.

* ثم تناولت حكم كفارة الظهار ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن موضوع التناجي، وهو الكلام سرًّا بين اثنين فأكثر، وقد كان هذا من

---

(١) (ش): عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ [المجادلة: ١] «(رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). نَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي: أكثَرْتُ له الأولاد، تريد أنها كانت شابة تلد الأولاد عنده. وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: كَانَتْ خَوْلَةُ ابْنَةُ ثَعْلَبَةَ تَحْتَ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ، وَكَانَ رَجُلًا بِهِ لَمَمٌ، فَقَالَ فِي بَعْضِ هِجْرَاتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، ثُمَّ نَدِمَ عَلَى مَا قَالَ، فَقَالَ لَهَا: مَا أَظُنُّكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيَّ. قَالَتْ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ، فَوَاللهِ مَا أَحَبَّ اللهُ طَلَاقًا. قَالَتِ: ائْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَلْهُ. فَقَالَ: إِنِّي أَجِدُنِي أَسْتَحِي مِنْهُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا، فَقَالَتْ: فَدَعْنِي أَنْ أَسْأَلَهُ، فَقَالَ لَهَا: سَلِيهِ؛ فَجَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ إِنَّ أَوْسَ بْنَ الصَّامِتِ أَبُو وَلَدِي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، قَدْ قَالَ كَلِمَةً، وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا ذَكَرَ طَلَاقًا، قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَرَاكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ». قَالَتْ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللهِ، وَاللهِ مَا ذَكَرَ طَلَاقًا؛ فَرَادَّتِ النَّبِيَّ ﷺ مِرَارًا، ثُمَّ قَالَتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو الْيَوْمَ شِدَّةَ حَالِي وَوَحْدَتِي، وَمَا يَشُقُّ عَلَيَّ مِنْ فِرَاقِهِ، اللَّهُمَّ فَأَنْزِلْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكَ. فَلَمْ تَرِمْ مَكَانَهَا حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ [المجادلة: ١] (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف). لَمْ تَرِمْ مَكَانَهَا: لم تبرَحه.

دأب اليهود والمنافقين لإيذاء المؤمنين، فبينت حكمه وحذرت المؤمنين من عواقبه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن اليهود اللعناء، الذين كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ فيحيونه بتحية ملغوزة، ظاهرها نحية التحية والسلام، وباطنها الشتيمة والمسبة كقولهم: السام عليك يا محمد –يعنون الموت– ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

* وتناولت السورة الحديث عن المنافقين بشيء من الإسهاب، فقد اتخذوا اليهود بخاصة أصدقاء، يحبونهم ويوالونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، فكشفت الستار عن هؤلاء المذبذبين وفضحتهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان حقيقة الحب في الله، والبغض في الله، الذي هو أصل الإيمان وأوثق عرى الدين، ولابد من في اكتمال الإيمان من معاداة أعداء الله ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾
الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا
مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ
رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ
بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا
اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ
لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

اللغة: ﴿تَحَاوُرَكُمَا﴾ المحاورة: المراجعة في الكلام من حار الشيء يحور إذا رجع يرجع

ومنه الدعاء المأثور «نَعُوذُ باللهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ»(١).

قال عنترة في فرسه:

لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي

﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ الظهار مشتق من الظهر يقال: ظاهر من امرأته إذا حرمها على نفسه بقوله: أنتِ عليَّ كظهْر أُمِّي ﴿مُنكَرًا﴾ المنكر: كل ما قبّحه الشرع وحرَّمه ونفَّر منه، وهو خلاف المعروف ﴿يُحَآدُّونَ﴾ المحادَّة: المعاداة والمخالفة في الحدود والأحكام وهي مثل المشاقة قال الزجاج: المُحَادَّة أن تكون في حدٍّ يخالف حَدَّ صاحبك، وأصلها المُمَانَعة ﴿كُبِتُوا۟﴾ الكبتُ: القهر والإذلال والخزي يقال: كبته أي قهره وأخزاه ﴿نَّجْوَىٰ﴾ النجوى: الكلام بين اثنين فأكثر سرًّا، تناجى القوم تحدثوا فيما بينهم سرًّا ﴿حَسْبُهُمْ﴾ كافِيهم.

سَبَبُ النّزول: أ- روي أن خولة بن ثعلبة امرأة أوس بن الصامت «أراد زوجها مواقعتها يومًا فأبت، فغضب وظاهر منها، فأتت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر مني بعد أن كبرت سني، ورقَّ عظمي، وإنَّ لي منه صبيةً صغارًا، إن ضممتُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا فما ترى؟! فقال لها: «ما أراكِ إلا قد حرمت عليه»، فقالتْ يا رسول الله: والله ما ذكر طلاقًا وهو أبو ولدي وأحبُّ الناس إليَّ، فجعل رسول الله ﷺ يعيد قوله: ما أراك إلا قد حرمتِ عليه، هي تكرر قولها، فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزل قول الله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ تَحَاوُرَكُمَآ﴾» الآيات(٢).

ب- وروى البخاري «عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي وسع سمعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادلة خولة بنت ثعلبة فكلمت رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت أسمع كلامها ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها وتقول: يا رسول الله: أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهَرَ مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات»(٣).

---

(١) (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الْحَوْرِ: النقصان. الْكَوْرِ: الزيادة. الوَعْثَاءِ: الشدة والمشقة.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٧٩. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» والواحدي في «أسباب النزول». رَقَّ عظمي: أي كبُر وضعُف. وانظر التعليق السابق على مقدمة السورة والتعليق التالي.

(٣) أخرجه البخاري وابن ماجه والبيهقي. (ش): عَنْ عَائِشَةَ قَالَتِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ رواه البخاري. وعَنْ عَائِشَةُ رضي الله عنها قَالَتْ: «تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]». (رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني).

التفسير: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ «قد» لا تدخل إلا على الأفعال، وإذا دخلت على الماضي أفادت التحقيق، وإذا دخلت على المضارع أفادت التقليل كقولك: قد يجودُ البخيلُ، وقد ينزل المطر والمعنى: حقًا لقد سمع الله قول المرأة التي تراجعك وتحاورك في شأن زوجها قال الزمخشري: ومعنى سماعه تعالى لقولها إجابة دعائها، لا مجرد علمه تعالى بذلك، وهو كقول المصلي: سمع اللهُ لمن حمده[1] ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وتتضرع إلى الله في تفريج كربتها ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي واللهُ جلَّ وعلا يسمع حديثكما ومراجعتكما الكلام، ماذا قالتْ لك، وماذا رددْتَ عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ أي سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه، بصير بأعمال العباد، وهو كالتعليل لما قبله، وكلاهما من صِيَغ المبالغة، أي: مبالِغٌ في العلم بالمسموعات والمبصرات[2]. ثم ذمَّ تعالى الظهار وبيَّن حكمه وجزاء فاعله فقال ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ أي الذين يقولون لنسائهم: أنتن كظهور أمهاتنا يقصدون بذلك تحريمهن عليهم كتحريم أمهاتهن، لَسْنَ في الحقيقة أمهاتهم وإنما هنَّ زوجاتهم قال الإمام الفخر: الظهار هو عبارة عن قول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، يقصد عُلُوِّي عليك حرامٌ كعُلُوِّي على أمي، والعربُ تقول في الطلاق: نزلتُ عن امرأتي، أي: طلقتها، فغرضهم من هذه اللفظة تحريم معاشرتها تشبيهًا بالأم وقوله ﴿مِنكُم﴾ توبيخٌ للعرب وتهجينٌ لعادتهم في الظهار لأنه كان من أيمان أهل الجاهلية خاصةً دون سائر الأمم[3] ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ أي ما أمهاتهم في الحقيقة إلاَّ الوالدات اللاتي ولَدْنهم من بطونهم وفي المثل «وُلْدُكِ مَنْ دَمَّي عِقَبَيْك»[4] وهو تأكيد لقوله ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ زيادة في التوضيح والبيان[5] ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا﴾ أي والحال إن هؤلاء المظاهرين ليقولون

---

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ١٥٠. (ش): تفسير الزمخشري هذا تفسيرٌ باطل، لأن معناه نفْيُ صفة السمع عن الله وتأويلها بإجابة الدعاء. وتشبيه السمع بقول المصلي: «سمع الله لمن حمده» تشبيه مع الفارق بينهما لأن «سمع الله» هنا مُعَدَّى بنفسه، ومعناه السماع الحقيقي، و(سمع الله لمن حمده) مُعَدَّى باللام ومعناه الإجابة.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٤٣. (ش): السمع والبصر صفتان ذاتيَّتان ثابتتان لله عَزَّ وجَلَّ بالكتاب والسنة، و(السميع) و(البصير): من أسمائه تعالى. و«تفسير أبي السعود» لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ بأن معناها مبالِغٌ في العلم بالمسموعات والمبصرات، معناه نفي صفتي السمع والبصر عن الله تعالى وتأويلهما بالعلم، وهو تأويل باطل.

(٣) «تفسير الكبير» بشيء من الإيجاز ٢٩/ ٢٥١.

(٤) (ش): الوُلْد: الوَلَد، أي ابْنُكِ مَنْ دَمَّي عَقِبَيْكِ. يُحكى أنَّ امرأة الطُّفَيل بن مالك بن جَعْفر بن كِلَاب ولدت له عَقِيل بن الطُّفيل فَتبَنَّته كَبْشَة بنت عُرْوَة بن جعفر بن كلاَب فقَدِم عَقِيلٌ على أمِّه يومًا فضربَتْه فجاءتها كبشة حتى منعَتْها وقالَت: «ابنى ابنى» فَقالَت امرأة الطُّفَيل: «وُلْدُكِ مَنْ دَمَّي عِقَبَيْك»، يعني الذي نُفِسْتِ به فأدْمَى النفاسُ عَقِبَيْكِ أي من ولَدْتِه فهو ابنك لَا هذا.

(٥) (ش): أي قوله تعالى ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ تأكيد لقوله ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾.

كلامًا منكرًا تنكره الحقيقة وينكره الشرع، وهو كذبٌ وزورٌ وبهتان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة لمن تاب وأناب قال في التسهيل: أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور، فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة، والزور هو الكذب، وإنما جعله كذبًا لأن المظاهر يجعل امرأته كأمه. وهي لا تصير كذلك أبدًا والظهار محرم ويدل على تحريمه أربعة أشياء: أحدها قوله ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ فإن ذلك تكذيب للمظاهر والثاني أنه سمَّاه منكرًا والثالث أنه سماه زورًا والرابع قوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فإنَّ العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب، والذنب مع ذلك لازمٌ للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة[1].. ثم بَيَّن تعالى طريق الكفارة عن هذا القول الشنيع فقال ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ أي يظاهرون من زوجاتهم بتشبيههنَّ بالأمهات ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي يعودون عمَّا قالوا، ويندمون على ما فرط منهم، ويرغبون في إعادة أزواجهم إليهم ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي فعليهم إعتاقُ رقبةٍ عبدًا كان أو أمةً من مقبل أن يعاشر زوجته التي ظاهر منها أو يجامعها -والتَّمَاسُّ كنايةٌ عن الجماع ودواعيه من التقبيل واللمس عند الجمهور- قال الخازن: المرادُ من التماسِّ المجامعةُ فلا يحل للمظاهر وطءُ امرأته التي ظاهر منها ما لم يُكَفِّر[2] وقال القرطبي: لا يجوز للمظاهر الوطءُ قبل التكفير، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير، وعن مجاهد: تلزمه كفارتان[3] ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي ذلكم هو حكم الله فيمن ظاهر ليتعظ به المؤمنون، حتى تتركوا الظهار ولا تعودوا إليه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي عالم بظواهر الأمور وبواطنها ومُجازيكُم بها، فحافِظوا على حدود ما شرع لكم من الأحكام ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي فمن لم يجد الرقبة التي يعتقها فعليه صيام شهرين متواليين من قبل الجماع قال المفسرون: لو أفطر يومًا منها انقطع التتابع ووجب عليه أن يستأْنِفَها[4]. ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ أي فمن لم يستطع الصيام لكِبَرٍ أو مرضٍ، فعليه أن يُطعم ستين مسكينًا ما يشبعهم ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ذلك الذي بَيَّنَّاه من أحكام الظهار من أجل أن تصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه، ولا تستمروا على أحكام الجاهلية ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي وتلك هي أوامرُ الله وحدوده فلا تعتدوها ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وللجاحدين والمكذبين

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٠٢.

(٢) ««تفسير الخازن»» ٤/ ٤٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٨٣.

(٤) (ش): لو أفطر يومًا منها بغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه أن يبدأ صيام شهرين آخرين. أما إن تخلل صومَ الكفارة صومُ شهر رمضان أو فطرٌ واجب كفطر العيد أو الفطر لمرضٍ لم ينقطع التتابع. فإذا تخلل صوم الظهار زمان لا يصح صومه عن الكفارة مثل أن يبدأ الصوم من أول شعبان فيتخلله رمضان ويوم الفطر، أو يبتدئ من ذي الحجة فيتخلله يوم النحر وأيام التشريق، فإن التتابع لا ينقطع بهذا، ويبني على ما مضى من صيامه.

بهذه الحدود عذاب مؤلم مُوجِع قال الألوسي: أطلق الكافر على مُتَعَدِّي الحدود تغليظًا وزجرًا[١]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾ ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده، ذكر المُحَادِّين المخالفين لها فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يخالفون أمر الله ورسوله، ويعادون الله ورسوله قال أبو السعود: أي يُعادُونهما ويشاقُّونهما لأن كلًّا من المتعادِيَيْن في حدٍّ وجِهَةٍ غير حدِّ الآخر وجِهَته، وإنما ذُكِرَت المُحادَّة هنا دون المعاداة والمشاقّة لمناسبة ذكر «حدود الله» فكان بينهما من حسن الموقع ما لا غايةَ وراءه[٢] ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي خُذلوا وأهينوا كما خُذل من قبلهم من المنافقين والكفار الذين حادُّوا الله ورسله وأُذِلوا وأُهِينوا ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي والحال أنا قد أنزلنا آياتٍ واضحات، فيها الحلال والحرام، والفرائض والأحكام ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي وللكافرين الذين جحدوها ولم يعملوا بها عذاب شديد يُهِينهم ويُذهِب عزَّهم قال الصاوي: وقد نزلت هذه الآية في كفار مكة يوم الأحزاب حين أرادوا التحزب على رسول الله ﷺ والمقصودُ بها تسلية رسول الله ﷺ وبشارته مع المؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين سيُذَلُّون ويُخذَلون ويُفَرَّق جمعُهم فلا تخشَوا بأسهم[٣] ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب حين يحشر الله المجرمين كلهم في صعيد واحد ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ أي فيخبرهم بما ارتكبوا في الدنيا من جرائم وآثام ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، بينما هم نسوا تلك الجرائم لاعتقادهم أن لا حساب ولا جزاء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي وهو جل وعلا مُطَّلعٌ وناظرٌ لا يغيب عنه شيء، ولا يخفَى عليه شيء.. ثم بيَّن تعالى سعة علمه، وإحاطته بجميع الأشياء، وأنه تعالى يرى الخلق ويسمع كلامهم ويرى مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ أي ألم تعلم أيها السامع العاقل أن الله مُطَّلِعٌ على كل ذرةٍ في الكون، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية، ما يقع من حديثٍ وسرٍّ بين ثلاثة أشخاص إلا كان الله رابعهم بعلمه ومشاركًا لهم فيما يتحدثون ويتهامسون به في خفية عن الناس. ﴿وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ أي ولا يقع مناجاةٌ وحديث بالسر بين خمسة أشخاص إلا كان الله معهم بعلمه حتى يكون هو سادسهم ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ أي ولا أقلَّ من ذلك العدد ولا أكثر منه إلاّ واللهُ معهم يعلم ما يجري بينهم من حديثٍ ونجوى، والغرض: أنه تعالى حاضر عباده، مطَّلع على أحوالهم وأعمالهم، وما تَهجِس به أفئدتهم[٤]،

(١) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٢٠.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٤٤.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٨١. (ش): لم أعثر على سبب النزول مُسندًا.

(٤) (ش): أي ما يخطر ببالهم.

لا يخفى عليه شيء من أمور العباد، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ثم يخبرهم تعالى بما عملوا من حَسَنٍ وسيِّئ ويجازيهم عليه يوم القيامة، لأنه عالم بكل شيء من الأشياء قال المفسرون: ابتدأ الله هذه الآيات بالعلم بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ واختتمها بالعلم بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لينبه إلى إحاطة علمه جل وعلا بالجزئيات والكليات، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات لأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، قال ابن كثير: وقد حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بالمعية في هذه الآية ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، فسمعه مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطَّلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء[1].. ثم أخبر تعالى عن أحوال اليهود والمنافقين فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ قال القرطبي: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت[2] ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي ثم يرجعون إلى المناجاة التي نُهُوا عنها قال أبو السعود: والهمزة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجيب من حالهم، وصيغة المضارع ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للدلالة على تكرُّر عَوْدِهم وتجدُّده واستحضار صورته العجيبة[3] ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي ويتحدثون فيما بينهم بما هو إثم وعدوان ومخالفة لأمر الرسول ﷺ لأن حديثهم يدور حول المكر والكيد بالمسلمين، قال أبو حيان: بدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعُدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظُلامات العباد[4]، ثم ترقَّى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، وفي هذا طعنٌ على المنافقين إذ كان تَناجِيهم في ذلك[5] ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي وإذا أحضروا عندك يا محمد حيَّوْك بتحيةٍ ظالمةٍ لم يشرعها الله ولم يأذن فيها، وهي قولهم «السامُ عليكم» أي الموت عليكم قال المفسرون: «كان اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: السامُ علكيم بدلًا من السلام عليكم، والسامُ الموتُ وهو ما أرادوه بقولهم، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم: وعلكيم لا يزيد عليها، فسمعتهم عائشة يومًا فقالت: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فلما انصرفوا قال لها رسول الله ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ» فقالت: يَا رَسُولَ اللهِ أَمَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا؟. فقال لها: «أَوَمَا سَمِعْتِ مَا رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ يُسْتَجَابُ لِي

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦١.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩١. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد. وهو في «القرطبي» أيضًا بدون إسناد.
(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٤٥.
(٤) (ش): الظُّلامة: مَا يَطْلُبُهُ الْمَظْلُوم وَهُوَ اسْم مَا أُخِذَ مِنْهُ ظلمًا.
(٥) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٣٦.

فِيهِمْ وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ»[١] ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ اي ويقولون فيما بينهم: هَلَّا يعذبنا الله بهذا القول لو كان محمد نبيًّا؟ فلو كان نبيًّا حقًّا لعذبنا الله على هذا الكلام قال تعالى ردًا عليهم ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَا﴾ أي يكفيهم عذابًا أن يدخلوا نار جهنم ويصلوا حرها ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي بئست جهنم مرجعًا ومستقرًا لهم قال ابن العربي: كانوا يقولون: لو كان محمد نبيًّا لما أمهلنا الله بسبِّه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليمٌ لا يعاجل العقوبة لمن سبَّه فكيف من سبَّ نبيه؟! وقد ثبت في الصحيح «لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»[٢] فأنزل الله تعالى هذا كشفًا لسرائرهم، وفضحًا لبواطنهم وتكريمًا لرسوله ﷺ[٣]، وأما إمهالهم في الدنيا فمن كراماته ﷺ على ربه لكونه بعث رحمةً للعالمين.. ثم نهى تعالى المؤمنين عن التناجي بما هو إثم ومعصية فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي إذا تحدثتم فيما بينكم سرًّا فلا تتحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول، أو بما هو عدوان على الغير، أو مخالفة ومعصية لأمر الرسول ﷺ ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أي وتحدثوا بما فيه خيرٌ وطاعة وإحسان قال القرطبي: نهى تعالى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفِعْل المنافقين واليهود، وأمرهم أن يتناجوا بالطاعة والتقوى والعفاف عما نهى الله عنه[٤] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي وخافوا الله بامتثالكم أوامره واجتنابكم نواهيه، الذي سيجمعكم للحساب، ويجازي كُلًّا بعمله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ليست النجوى بالإثم والعدوان إلا من تزيين الشيطان، ليُدْخِل بها الحزن على المؤمنين قال ابن كثير: أي إنما يصدر هذا من المتناجين عن تزيين الشيطان وتسويله[٥] ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي وليس هذا التناجي بضارٍّ المؤمنين شيئًا إلا بمشيئة الله وإرادته ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي وعلى الله وحده فليعتمد ولْيثق المؤمنون، ولا يُبالُوا بنجوى المنافقين فإن الله يعصمهم من شرهم وكيدهم، وفي الحديث «إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»[٦].

---

(١) (ش): انظر: البخاري ومسلم ومسند أحمد، ومسند إسحق بن راهوَيْه. وفي رواية لمسلم «وَإِنَّا نُجَابُ عَلَيْهِمْ وَلاَ يُجَابُونَ عَلَيْنَا». وفي رواية للبخاري ومسلم: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ». السَّامُ: الْمَوْتُ، وَالذَّامُ: الذَّمُّ. [وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، للألباني (٦/ ٤٩١-٤٩٣)].

(٢) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٣) نقلاً عن «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩٢.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩٤.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٣.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم.

قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

المناسَبَة: لما نهى تعالى عباده المؤمنين عمَّا يكون سببًا للتباغض والتنافر، أمرهم بما يصير سببًا لزيادة المحبة والمودَّة، وهو التوسع في المجالس بأن يفسح بعضهم لبعض، ثم حذَّر من موالاة أعداء الله، وختم السورة الكريمة ببيان أوصاف المؤمنين الكاملين.

اللغَة: ﴿تَفَسَّحُواْ﴾ توسَّعوا يقال: فسح له في المجلس، أي: وسَّع له، ومنه مكان فسيح أي: واسع ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ انهضوا وارتفعوا يقال: نشز ينشُز إذا تنَحَّى من مجلسه وارتفع منه، وأصله من النَّشز وهو ما ارتفع من الأرض ﴿جُنَّةً﴾ بضم الجيم وقاية ﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ استولى وغلب على عقولهم ﴿ٱلْأَذَلِّينَ﴾ الأذلاء المغمورين في الذل والهوان.

سَبَبُ النّزول: أ- عن مقاتل قال: «كان النبي ﷺ يُكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناسٌ من أهل بدر فيهم «ثابت بن قيس» وقد سُبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسَّع لهم فلم يفسحوا لهم، فشقَّ ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر قم يا فلان، قم يا فلان، بعدد الواقفين من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وطعن المنافقون في ذلك وقالوا: ما عدل هؤلاء، قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه!! فأنزل الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ

لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ..﴾»[1] الآية.

عن ابن عباس قال: «إن الناس سألوا رسول الله ﷺ وأكثروا عليه حتى شقَّ ذلك عليه ﷺ فأراد الله أن يخفّف عن نبيه ويثبِّطهم عن ذلك فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ..﴾ الآية. فلما نزلت جبن كثير من المسلمين وكفُّوا عن المسألة[2].

قال السدي: «كان «عبد الله بن نبتل» المنافق يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود، فبينا رسول الله ﷺ في حجرةٍ من حجراته إذ قال يدخل عليكم الآن رجلٌ قلبه قلبُ جبار وينظر بعيني شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق العينين فقال له النبي ﷺ: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله ما فعل ذلك، فقال له النبي ﷺ: بل فعلت، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾»[3].

التفسِير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ نداءٌ من الله تعالى للمؤمنين بأكرم وصفٍ وألطف عبارة أي: يا من صدَّقتم الله ورسوله وتحلَّيتم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ ﴾ أي إذا قال لكم أحد توسعوا في المجالس سواءٌ كان مجلس الرسول ﷺ أو غيره من المجالس فتوسعوا وافسحوا له ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي يوسِّع لكم ربكم في رحمته وجنته قال مجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ فأُمِرُوا أن يفسح بعضهم لبعض[4] قال الخازن: أمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي ﷺ ليتساوى الناس في الأخذ من حظهم من رسول الله ﷺ[5] وفي الحديث: « لاَ يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ[6] ». قال الإمام الفخر: وقوله ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ مطلَقٌ في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه في المكان، والرزق، والصدر، والقبر، والجنة، واعلم أن الآية دلت على أن كل من وسَّع على

---

(١) انظر «القرطبي» ١٧/ ٢٩٧، و«التفسير الكبير للرازي» ٢٨/ ٢٦٨. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٥، و««تفسير الخازن»» ٤/ ٥٢. (ش): رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيرَيْهما» بإسناد حسن.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٣٠٤. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩٦.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٥٠.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): «لاَ يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا» (رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني). «لاَ يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَقْعَدِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). «لاَ يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ افْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ» (صحيح، رواه أحمد).

عباد الله أبواب الخير والراحة وسَّع عليه خيرات الدنيا والآخرة وفي الحديث «لايزال الله في عون العبد ما زال العبد في عون أخيه»(١) ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ أي وإذا قيل لكم أيها المؤمنون: انهضوا من المجلس وقوموا لتوسّعوا لغيركم فارتفِعوا منه وقوموا (٢) قال ابن عباس: معناه إذا قيل لكم: ارتفعوا فارتفعوا قال في البحر: أُمِروا أولًا بالتفسُّح في المجلس، ثم ثانيًا بامتثال الأمر فيه إذا أُمروا(٣)، وألا يجدوا في ذلك غضاضة ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أي يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله، والعالمين منهم خاصة أعلى المراتب، ويمنحهم أعلى الدرجات الرفيعة في الجنة قال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية ثم قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولْتُرَغِّبْكم في العلم؛ فإن الله يقول: يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذي ليس بعالم درجات. وقال القرطبي: بَيّن في هذه الآية أن الرِّفعة عند الله بالعلم والإيمان، لا بالسبق إلى صدور المجالس، وفي الحديث «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»(٤) وعنه ﷺ «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»(٥) فأعظِمْ بمنزلةٍ هي واسطةٌ بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ(٦) ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي خبير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي إذا أردتم محادثته سرًا ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أي فقدموا قبلها صدقة تصدَّقوا بها على الفقراء قال الألوسي: وفي هذا الأمر تعظيم لمقام الرسول ﷺ، ونفعٌ للفقراء، وتمييزٌ بين المخلص والمنافق، وبين محب الدنيا ومحب الآخرة(٧) ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي تقديم الصدقات، قبل مناجاته

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٦٩. (ش): قال ﷺ: وَالآخِرَةِ وَاللهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) أورد العلامة ابن كثير عند هذه الآية الكريمة: «حكم القيام للقادم» فقال رحمه الله: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فمنهم من رخص في ذلك محتجًا بحديث: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» ومنهم من منع ذلك محتجًا بحديث: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبوَّأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّار» ومنهم من فصَّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في ولايته لقصة سعد بن معاذ لما استدمه النبي ﷺ ليحكم في بني قريظة فلما أقبل قال: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحُكمه.. ثم قال: وأما اتخاذه دينًا فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك وفي السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس ﷺ يكون هو صدر المجلس. اهـ. (ش): «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» رواه البخاري ومسلم. «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٢٣٧.

(٤) (ش): رواه أبو داود وصححه الألباني.

(٥) (ش): رواه ابن ماجه، وقال الألباني: موضوع.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٣٠٠.

(٧) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٣٠.

أفضل لكم عند الله لما فيه من امتثال أمر الله، وأطهر لذنوبكم ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن لم تجدوا ما تتصدقون به فإن الله يسامحكم ويعفو عنكم، لأنه لم يكلف بذلك إلا القادر منكم ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ عتابٌ للمؤمنين رقيقٌ رفيق أي أخِفْتُم أيها المؤمنون الفقر إذا تصدقتم قبل مناجاتكم للرسول ﷺ؟ والغرضُ: لا تخافوا فإن الله يرزقكم لأنه غني بيده خزائن السموات والأرض، وهو عتاب لطيف كما بيَّنَّا، ثم نسخ تعالى الحكم تيسيرًا على المؤمنين فقال ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به وشقَّ ذلك عليكم، وعفا الله عنكم بأن رخَّص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة ﴿فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي فاكتفوا بالمحافظة على الصلاة ودفع الزكاة المفروضة ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في جميع أحوالكم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي محيطٌ بأعمالكم ونيَّاتكم قال المفسرون: نسخ الله ذلك تخفيفًا على العباد حتى قال ابن عباس: ما كان ذلك إلا ساعةً من نهار ثم نُسِخ[1] قال القرطبي: نَسَخَتْ فرضيةُ الزكاة هذه الصدقةَ، وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْه أنه قال: «آية في كتاب الله لم يعمل بها على أحد قبلي ولا بعدي، كان عندي دينار فتصدقت به ثم ناجيت الرسول ﷺ» إلخفضعيفٌ لأن الله تعالى قال ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وهذا يدل على أن أحدًا لم يتصدق بشيء[2] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ تعجيبٌ للرسول ﷺ من أمر المنافقين الذين اتخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء، يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين!! قال الإمام الفخر: كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وكانوا ينقلون إليهم أسرار المؤمنين[3] ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي ليس هؤلاء المنافقون من المسلمين ولا من اليهود، بل هم مُذَبذَبون بين ذلك كقوله تعالى ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ٤٣] قال الصاوي: أي ليسوا من المؤمنين الخلَّص، ولا من الكافرين الخُلَّص، لا ينتسبون إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء[4] ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي ويحلفون بالله كاذبين يقولون: والله إنا لمسلمون، وهم يعملون أنهم كذبة فجرة قال أبو السعود: والصيغةُ مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا، فإن الحلف على ما يُعلم أنه كذبٌ في غاية القبح[5] ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيأ لهم تعالى بسبب نفاقهم عذابًا في نهاية الشدة والألم، وهو الدرك الأسفل في جهنم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٥٣.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٣٠٣.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٧٣.
(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٨٤.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٤٧.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس ما فعلوا وبئس ما صنعوا ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي جعلوا أيمانهم الكاذبة الفاجرة وقايةً لأنفسهم وسترةً لها من القتل قال في التسهيل: أصل الجُنَّة ما يُستتَر به ويُتَّقَى به المحذور كالتُّرْس[1]، ثم استُعمِل هنا بطريق الاستعارة؛ لأنهم كانوا يُظهِرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم[2] ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء، والمكر والخداع بالمسلمين ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي فلهم عذاب شديد في غاية الشدة والإهانة ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في الآخرة، ولن تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي هم أهل النار لا يخرجون منها أبدًا ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي يحشرهم يوم القيامة جميعًا للحساب والجزاء ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي فيحلفون لله تعالى كما يحلفون لكم اليوم في الدنيا كذبًا أنهم مسلمون قال ابن عباس: هو قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[3] [الأنعام: ٢٣] ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي يظنون أن حلفهم في الآخرة ينفعهم وينجيهم من عذابها كما نفعهم في الدنيا بدَفْع القتل عنهم قال أبو حيان: والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على عَلَّام الغيوب، ويُجْرونه مَجرَى المؤمنين في عدم اطِّلاعهم على كُفْرهم ونفاقهم، والمقصود أنهم تعَوَّدوا الكذب حتى كان على ألسنتهم في الآخرة كما كان في الدنيا[4] ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء هم البالغون في الكذب الغاية القصوى حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي استولى على قلوبهم الشيطان وغلب عليهم تملَّك نفوسهم حتى أنساهم أن يذكروا ربهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي أولئك هم أتباع الشيطان وأعوانه وأنصاره ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي أتباع الشيطان وجنوده هم الكاملون في الخسران والضلالة، لأنهم فوَّتوا على أنفسهم النعيم الدائم وعرَّضوها للعذاب المقيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي يعادون الله ورسوله ويخالفون أمرهما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي أولئك في جملة الأذلاء المبعدين من رحمة الله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ أي قضى الله وحكم أن الغلبة لدينه ورسله وعباده المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو تعالى قويٌّ على نصر رسله وأوليائه، غالبٌ على أعدائه، لا يُقهر ولا يغلب قال مقاتل: لما فتح الله مكة والطائف وخيبر للمؤمنين قالوا: نرجو أن يُظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن سلول: «أتظنون أن الروم وفارس كبعض القرى التي غُلِبتُم عليها؟!

---

(١) (ش): التُرْس: صفحة من الفولاذ مستديرة أو بيضية الشكل تُحمل لوقاية الوجه والرأس من الضربات.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٠٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٣٠٥.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٣٨.

والله إنهم لأكثر عددًا، وأشد بطشًا من أن تظنوا فيهم ذلك» فنزلت ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[١] ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي لا يمكن أن ترى أيها السامع جماعة يُصدِّقُون بالله وباليوم الآخر يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما، لأن من أحبَّ الله عادى أعداءه، ولا يجتمع في قلب واحد حبُّ الله وحبُّ أعدائه، كما لا يجتمع النور والظلام قال المفسرون: غرضُ الآية النهي عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين، ولكنها جاءت بصورة إخبارٍ مبالغةً في النهي والتحذير قال الإمام الفخر: المعنى: أنه لا يجتمع الإيمان مع حبِّ أعداء الله، وذلك لأن من أحبَّ أحدًا امتنع أن يحب عدوه، لأنهما لا يجتمعان في القلب، فإذا حصل في القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان[٢] ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ أي ولو كان هؤلاء المُحَادُّون لله ورسوله أقربَ الناس إليهم، كالآباء، والأبناء، والإخوان، والعشيرة، فإن قضية الإيمان بالله تقتضي معاداة أعداء الله قال في البحر: بدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان لأنهم بهم التعاضد[٣]، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء كما قال القائل:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا[٤]

قال ابن كثير: نزلت ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ في «أبي عبيدة» قتل أباه «الجراح» يوم بدر[٥]، ﴿أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ في الصِّديق هَمَّ بقَتْل ابنه «عبد الرحمن بن أبي بكر» ﴿أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ﴾ في مُصعب بن عمير قتل أخاه عُبيد بن عمير يومئذٍ ﴿أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ في حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، قتلوا عُتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة يوم بدر[٦] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي أثبت الإيمان ومكَّنه في قلوبهم، فهي مؤمنةٌ مُوقِنةٌ مُخلِصة ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي وقوَّاهم بنصره وتأييده قال ابن عباس: نصرهم على عدوهم، سمى ذلك النصر رُوحًا لأن به يحيا أمرهم[٧] ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي ويدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أي ماكثين فيها أبد

(١) انظر «البحر المحيط» ٨/ ٢٣٨، و«تفسير الألوسي» ٢٨/ ٣٤. (ش): هو فيهما بدون إسناد، ومقاتل متهم بالكذب.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٧٦.

(٣) (ش): التعاضد: التعاون والتناصر والمساعدة.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٣٩. (ش): نائِبَة: مصيبة شديدة، ما ينزل بالمرء من الكوارث والحوادث المؤلمة. أي لا يسألون صاحبَهم دليلًا على ما قاله حين يناديهم برَفْع صوته في المصائب الشديدة.

(٥) (ش): ضعيف، رواه الطبراني والحاكم. ورواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٧. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٧) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٧٧.

الآبدين ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي قبل الله أعمالهم فرضي عنهم، ونالوا ثوابه فرضوا بما أعطاهم، وإنما ذكر رضوانه عليهم بعدد دخولهم الجنة لأنه أعظم النعم، وأجلّ المراتب قال ابن كثير: وفي الآية سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى، عَوَّضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم[1] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ أي أولئك جماعة الله وخاصته وأولياؤه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة، وهذا في مقابلة قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - صيغة المبالغة في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] وفي ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وفي ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

٢ - الإطناب بذكر الأمهات ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ [المجادلة: ٢] زيادة في التقرير والبيان.

٣ - الطباق ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ [المجادلة: ٧] لأن معنى أدنى (أقل) فصار الطباق بينها وبين «أكثر».

٤ - عطف الخاص على العام تنبيهًا على شرفه ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ فإن ﴿والذين أُوتُواْ العلم﴾ دخلوا في المؤمنين أولًا ثم خُصُّوا بالذكر ثانيًا تعظيمًا لهم.

٥ - الاستعارة ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ استعار اليدين لمعنى قبل، أي: قبل نجواكم.

٦ - الاستفهام والمراد منه التعجيب ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم..﴾.

٧ - الجناس الناقص بين ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ و ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ لتغير الرسم.

٨ - المقابلة بين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ وبين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ..﴾ الآية.

٩ - تحلية الجملة بفنون المؤكدات مثل: «ألا، وإنَّ، وهم» في قوله ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ، ٱلۡكَٰذِبُونَ، خَٰلِدُونَ، يَعۡمَلُونَ﴾.

لطيفة: روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل أن «نافع بن عبد الحارث» لقي عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر استعمله على مكة فقال عمر: من استخلفت على أهل البوادي؟ فقال: استخلفت عليهم «ابن أبزى» فقال: ومن ابن أبزى؟ فقال: رجلٌ من موالينا فقال عمر:

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٨.

استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه: أما إن نبيكم ﷺ قال: « إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ »[1].

«انتهى تفسير سورة المجادلة»



(١) (ش): ورواه مسلم.



مدنية وآياتها أربع وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الحشر مدنية وهي تعني بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية، والمحور الرئيس الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن «غزوة بني النضير» وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة، ولهذا كان ابن عباس يسمى هذه السورة «سورة بني النضير» وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود، وبإيجاز هي السورة «الغزوات، والجهاد؛ والفيء، والغنائم».

* ابتدأت سورة الكريمة بتنزيه الله وتمجيده، فالكون كله بما فيه من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، شاهد بوحدانية الله وقدرته وجلاله، ناطق بعظمته وسلطانه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

* ثم ذكرت السورة بعض آثار قدرته، ومظاهر عزته بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم[1]، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ...﴾ الآيات.

* ثم تناولت السورة موضوع الفيء والغنيمة، فبينت شروطه وأحكامه، ووضحت الحكمة من تخصيص الفيء بالفقراء، لئلا يستأثر به الأغنياء، وليكون هناك بعض التعادل بين طبقات المجتمع، بما فيه خير الفريقين، وبما يحقق المصلحة العامة ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ...﴾ الآيات.

* وتناولت السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر، فنوهت بفضائل المهاجرين ومآثر الأنصار، فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حبًّا في الله، والأنصار نصروا دين الله، وآثروا إخوانهم –المهاجرين– بالأموال والديار على أنفهسم مع فقرهم وحاجتهم ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ..﴾ الآيات.

* وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار، ذكرت السورة المنافقين الأشرار، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام، وضربت لهم أسوأ الأمثال، فمثلتهم بالشيطان الذي يغري الإنسان

---

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: «لا يستطيع أحدٌ الدخول عليهم» أو «لا يستطيع أحدٌ التغلب عليهم».

بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذله، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ الآيات.

* ووعظت السورة المؤمنين بتذكير ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب، ولا يفيد فيه جاه ولا مال، وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار، ومصير السعداء ومصير الأشقاء في دار العدل والجزاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الآيات.

* وختمت السورة بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبتنزيهه عن صفات النقص ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا
قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ
مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ
ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ
﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا
يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ
نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا
وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

اللغة: ﴿ٱلْحَشْرِ﴾ الجمع، وسمي يوم القيامة يوم الحشر لأنه يوم اجتماع الناس للحساب والجزاء ومنه ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٧] أي جمع له الجنود ﴿وَقَذَفَ﴾ ألقى وأنزل بشدة ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿شَآقُّوا۟﴾ عادَوْا وخالَفوا ﴿لِّينَةٍ﴾ بكسر اللام

النخلة القريبة من الأرض، الكريمة الطيبة، سميت لِينَة لجودة ثمرها وأنشد الأخفش:

قَدْ شَجَانِي الْحَمَامُ حِينَ تَغَنَّى بِفِرَاقِ الْأَحْبَابِ مِنْ فَوْقِ لِينَةْ[1]

﴿أَوْجَفْتُمْ﴾ الوجيف: سرعة السير يقال: أوجف البعيرَ إذا حثَّه وحمَله على السير السريع ﴿دُولَةً﴾ بضم الدال الشيء الذي يتداول من الأموال، وينتقل من يد إلى يد ﴿خَصَاصَةٌ﴾ فقر واحتياج ﴿غِلًّا﴾ حِقدًا وضغينة.

سَبَبُ النّزول: لما نقض اليهود «بنو النضير» العهد مع رسول الله ﷺ حاصرهم ﷺ وأمر بقطع نخيلهم وإحراقه إهانةً لهم وإرعابًا لقلوبهم، فقالوا يا محمد: ألست تزعم أنك نبيٌّ؟ وأنك تنهى عن الفساد؟ فما بالك تأمر بقطع الأشجار وتحريقها؟ فأنزل الله تعالى ﴿مَاقَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ..﴾[2] الآية.

التفسير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي نزَّه الله تعالى ومجَّده وقدَّسه جميع ما في السموات والأرض مِن ملَكٍ، وإنسان، وجماد، وشجر كقوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] قال ابن كثير: يخبر تعالى أن جميع ما في السموات والأرض يسبح له ويُمجده ويقدِّسه ويُوحِّده[3] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وهو العزيز في ملكه، الحكيمُ في صنعه ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ بيانٌ لبعض آثار قدرته تعالى الباهرة وعزته الظاهرة أي هو جلَّ وعلا الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة المنورة ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي في أول مرة حُشروا وأخرجوا فيها من جزيرة العرب، إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك قال البيضاوي: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صالح «بني النضير» على ألاَّ يكونوا معه ولا عليه، فلما ظهر يوم بدر قالوا: إنه النبي المنعوتُ في التوراة بالنصرة لا تُردُّ له راية، فلما هُزم المسلمون يوم أُحد ارتابوا ونكثوا، وخرج «كعب بن الأشرف» في أربعين راكبًا إلى مكة وحالفوا «أبا سفيان» فأمر رسول الله ﷺ «محمد بن مسلمة» أخا كعبٍ من الرضاعة فقتَله غيلةً[4]، ثم صبَّحهم بالكتائب وحاصرهم، حتى صالحوه على الجلاء، فجلا أكثرهم إلى الشام، ولحقت طائفة بخيبر، فذلك قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ قال الألوسي: ومعنى ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾[5] أن هذا أول حشرهم إلى الشام

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٩. (ش): شجِيَ المُحِبُّ: اهتمَّ وحزن وأهاجَتْه الذّكرى.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٨٣. (ش): ضعيف جدًا، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ حَرَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ فَنَزَلَتْ ﴿مَاقَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٩.

(٤) (ش): قتَله غِيلَةً: قتَله على غفلةٍ منه، قتَله بواسطة خُدْعة. وقصة مقتل كعب بن الأشرف رواها البخاري.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٦٩.

-أي اول ما حُشروا وأُخرجوا-ونبَّه بلفظ ﴿لِأَوَّلِ﴾ على أنهم لم يصبهم جلاءٌ قبله[١] ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ أي ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرجوا من أوطانهم وديارهم بهذا الذل والهوان، لعزتهم ومنعتهم، وشدة بأسهم، حيث كانوا أصحاب حصون وعقار، ونخيلٍ وثمار ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي وظنوا أن حصونهم الحصينة تمنعهم من بأس الله، وتدفع عنهم عذابه وانتقامه قال البيضاوي: والأصل أن يُقال: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله، وتغييرُ النظم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بكونها حصينة، بحيث ظنوا أنه لا يخرجهم منها أحد لأنهم في عزة ومنعة[٢] ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي فجاءهم بأسُ الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم، ولم يخطر ببالهم[٣] ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي وألقى في قلوب بني النضير الخوف الشديد، مما أضعف قوتهم، وسلبهم الأمن والطمأنينة، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ وفي الحديث « وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ »[٤] ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يهدمون بيوتهم بأيديهم من الداخل، وأيدي المؤمنين من الخارج قال المفسرون: كانوا بنو النضير قبل إجلائهم عن ديارهم يخربون بيوتهم فيقلعون العَمَد، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران[٥]، لئلا يسكنها المؤمنون حسدًا منهم وبغضًا، وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب من ظاهرها ليقتحموا حصونهم ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي فاتعظوا بما جرى عليهم يا ذوي العقول والألباب ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي ولولا أن الله تعالى قضى عليهم بالخروج من أوطانهم مع الأهل والأولاد ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ أي ولهم مع عذاب الدنيا عذاب جهنم المؤبد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ذلك الجلاء والعذاب بسبب أنهم خالفوا الله وعادَوْه وعصَوْا أمره، وارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم، ونقضٍ للعهود في حق

(١) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٣٩.

(٢) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٧٠.

(٣) (ش): ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي أَخَذَهُمْ وَدَهَاهُمْ وَبَاغَتَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا. (أَتى): تَأتي بعدة معَان، مِنْهَا: بِمَعْنى الْمَجِيء، وَمِنْهَا بِمَعْنى الْإِنْذَار، وَمِنْهَا بِمَعْنى الْمُدَاهَمَة. وَيُقَالُ: أُتِيَ فُلَانٌ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ التَّاءِ إِذَا أَظَلَّ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: «مِنْ مَأْمَنِهِ يُؤْتَى الْحَذِرُ»، أَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ، فَإِنَّ سِيَاقَ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا السِّيَاقِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الصِّفَاتِ كَمَا فِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، أَيْ هَدَمَهُ وَاقْتَلَعَهُ مِنَ قَوَاعِدِهِ، [انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ١٨)].

(٤) (ش): رواه أحمد بهذا اللفظ، ورواه البخاري بلفظ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ». الرعب: الخوف والفزع، كأن أعداءه قد أوقع الله في قلوبهم الخوف منه ﷺ وبينَهم وبينَه مسيرة شهر فإذا كان كذلك فزعوا منه ورهبوه.

(٥) (ش): عَمَدٌ وعُمُدٌ: أعمدة: جمع عمود. نقَب البناءَ أو نقَب الحائطَ: ثقَبَه، وفتح فيه ثُغرَةً.

رسوله ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي ومن يخالف أمر الله، ويُعَادِ دينَه فاللهُ ينتقم منه لأن عذابه شديد، وعقابه أليم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].. ثم أخبر تعالى أن كل ما جرى من المؤمنين من قطع النخيل، وإحراق بعض الأشجار المثمرة، فإنما كان بأمر الله وإرادته فقال ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ما قطعتم أيها المؤمنون من شجرة نخيل، أو تركتموها كما كانت قائمة على سوقها فبأمر الله وإرادته ورضاه ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي وليغيظَ اليهود ويُذِلَّهم، بقَطْع أشجارهم ونخيلهم قال الرازي: المعنى إنما أَذِنَ تعالى في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار، وتتضاعف حسرتهم، بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعزِّ أموالهم[1] قال المفسرون: لما حصار رسول الله ﷺ بني النضير، كان بعض الصحابة قد شرع يقطع ويحرق في نخيلهم، إهانةً لهم وإرعابًا لقلوبهم، فقالوا: ما هذا الإفساد يا محمد؟ إنك كنت تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة[2] ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ أي وما أعاد الله وردَّه غنيمة على رسوله من أموال يهود بني النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي لم تسيروا إليه خيلكم ولا ركابكم، ولا تعبتم في تحصيله -قال القرطبي-: يقال: وجَفَ البعير وجيفًا إذا أسرع السير، وأوجفه صاحبه إذا حمَلَه على السير السريع، والرِّكاب، ما يُركَبُ من الإبل- والمعنى: لم تَقْطعوا إليها شُقةً، ولا لقِيتُم بها حربًا ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فافتتحها رسول الله ﷺ صلحًا، وأجلاهم عنها وأخذ أموالهم، فجعلها الله لرسوله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء[3] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي ولكنه تعالى من سنته أن ينصر رسله بقذف الرعب في قلوب أعدائه، من غير أن يقاسوا شدائد الحروب ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادرٌ على كل شيء، لا يُغالَب ولا يُمانَع ولا يُعجِزُه شيء ثم بَيَّن تعالى حكم الفيء عامةً وهو ما يغنمه المسلمون بدون حرب فقال ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي ما جعله الله غنيمةً لرسوله بدون قتال من أموال الكفار قال ابن عباس: هي قريظة، والنضير، وفَدَك، وخَيْبر[4] ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي فحكمها أنها لله تعالى يضعها حيث يشاء، ولرسوله يصرفها على نفسه وعلى مصالح المسلمين ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي ولأقرباء الرسول من بني هاشم وعبد المطلب، ولليتامى الذين مات آباؤهم، وللمساكين ذوي الحاجة والفقر ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وللغريب المنقطع في سفره قال في التسهيل: لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي

(١) أخرجه الشيخان.
(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/ ٢٨٣.
(٣) انظر «مختصر ابن كثير» ٣٨/ ٤٧١، و«البحر المحيط» ٨/ ٢٤٤، وانظر سبب النزول السابق.
(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٦٠.

تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب، فتلك يؤخذ منها الخمس ويقسم الباقي على الغانمين، وأما هذه ففي «حكم الفيء» وهو ما يؤخذ من الكفار من غير قتال فلا تعارض بينهما ولا نسخ، وقد قرر الفقهاء الفرق بين الغنيمة والفيء، وأنَّ حكمهما مختلف، فالغنيمة ما أُخذت بالقتال، والفيءُ ما أُخذ صلحًا، وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وذكر في الأنفال لفظ الغنيمة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾[1] [الأنفال: ٤١] ! ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي لئلا ينتفع بهذا المال ويستأثر به الأغنياء دون الفقراء، مع شدة حاجة الفقراء للمال قال القرطبي: أي فعلنا ذلك كيلا يتقاسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه وهو المرباعُ ثم يصطفي منها أيضًا ما يشاء[2] قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حنيئذٍ فقراء، ولم يُعط الأنصار منها شيئًا فإنهم كانوا أغنياء، فقال بعض الأنصار: لنا سهمنا من هذا الفيء فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أي ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شرٍّ وفساد قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء، إلا أنها عامة في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجب، أو مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفيء وغيره[3]، عن ابن مسعود أنه قال: «لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُوتَشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ. فَقَالَ وَمَا لِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ فَقَالَتْ لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ. قَالَ لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾»[4]؟ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا ربكم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد، لمن عصاه وخالف ما أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذا متعلقٌ بما سبق من حكم الفيء كأنه يقول: الفيءُ والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين أَلْجَأَهُم كفارُ مكة إلى الهجرة من أوطانهم، فتركوا الديار والأموال، ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي قاصدين بالهجرة إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٠٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٦.

(٣) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/ ٢٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم، قال العلماء: الوشم هو غرْز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يُحشَى بكحل، والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك، والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه، والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين أسنانها من أجل الحُسْن، وكل ذلك مَنْهِيٌّ عنه لأن فيه تغييرًا لخلق الله.

الحميـدة هم الصادقون في إيمانهم قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال، والأهليـن والأوطـان، حبًا لله ورسـوله، حتـى إن الرجل منهم كان يعصـب الحجر على بطنه ليُقيم به صُلبه من الجوع[١] ثم مدح تعالى الأنصار وبيَّن فضلهم وشرفهم فقال ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي والذين اتخذوا المدينة منزلًا وسكنًا وآمنوا قبل كثيرٍ من المهاجرين وهم الأنصار قال القرطبي: أي تبوءوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه، والتبوؤ: التمكن والاستقرار، وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم[٢] ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي يحبون إخوانهم المهاجرين ويواسـونهم بأموالهـم قال الخـازن: وذلك أنهم أنزلـوا المهاجرين في منازلهم، وأشـركوهم في أموالهم[٣] ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾ أي ولا يجد الأنصار حزازةً[٤] وغيظًا وحسدًا مما أُعطِيَ المهاجِرون من الغنيمة دُونَهم قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يُعْطِ الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثة منهم، فطبت أنفس الأنصار بتلك القسمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يفضلـون غيرهـم بالمال على أنفسـهم ولو كانوا في غاية الحاجة والفاقة إليه[٥]، فإيثارهم ليس عن غِنًى عن المال، ولكنّه عن حاجة وفقر، وذلك غاية الإيثار ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي ومن حماه الله وسـلم مـن البخل فقد أفلح ونجَح، والشُّحُّ هو البخل الشـديد مع الجشـع والطمـع، وهو غريزة في النفس ولذلك أضيف إليها، قال ابن عمر: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشحُّ أن تطمع عينه فيما ليس له[٦] وفي الحديث «وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[٧] ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هذا هو الصنف الثالـث من المؤمنين المسـتحقين للإحسـان والفضل، وهـم التابعون لهم بإحسـان إلى يوم القيامـة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي يدعون لهم قائلين: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سـبقونا بالإيمان قال أبو السـعود: وصفهم بالسـبق بالإيمـان اعترافًا بفضلهم، لأن أخوة الدين عندهم أعزُّ وأشـرف من النسـب[٨] ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٩.
(٢) «تفيسر القرطبي» ١٨/ ٢٠.
(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٦٢.
(٤) (ش): حَزَازة: عداوة أو ضغينة.
(٥) (ش): فاقَةٌ: فَقْرٌ؛ حاجة؛ ضيقُ الحال.
(٦) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٩٠.
(٧) أخرجه مسلم.
(٨) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٢.

قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ولا تجعل في قلوبنا بغضًا وحسدًا لأحدٍ من المؤمنين ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغٌ في الرأفة والرحمة فاستجب دعاءنا، قال ابن كثير: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الغنيمة شيء لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين(١)، وقال شيخ زادة: بيَّن تعالى أن مِن شأنِ مَن جاء مِن بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء فقد كان خارجًا عن جملة أقسام المؤمنين بمقتضى هذه الآيات، وقد روي عن الشعبي أنه قال: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى فقالوا: أصحاب عيسى، وسئلت الرافضة من شرُّ أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحابُ محمد ﷺ أُمِرُوا بالاستغفار لهم فسَبُّوهُم، فالسيفُ عليهم مسلول إلى يوم القيامة(٢).. اللهم ارزقنا محبة أصحاب نبيك الكريم.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ
مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ
مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً
فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ
مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾
كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ
فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ
فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ
﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ
عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين الصادقين، أعقبه بذكر أوصاف المنافقين

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٧٥.
(٢) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٧٧.

المخادعين، الذين تركوا نصرة المؤمنين وصادقوا اليهود وحالفوهم على حرب المسلمين، ثم ذكر البون الشاسع بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، وأنهم لا يستوون في الحال ولا المآل، وختم السورة الكريمة بذكر بعض أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا.

اللغَة: ﴿شَتَّىٰ﴾ متفرقة تشتَّتَ جمعُهم أي تفرق ﴿خَٰشِعًا﴾ ذليلًا خاضعًا ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ متشققًا، تصدَّع البنيان، أي: تشقق ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المنزَّه عن كل نقص وعيب ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ المصدّق لرسله بالمعجزات ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب على كل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ العظيم القاهر، صاحب العظمة والجبروت ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ المبالغ في الكبرياء والعظمة ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ المبدع المخترع ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ خالق الصور.

التفسِير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ تعجيبٌ من الله تعالى لرسوله من حال المنافقين أي ألا تعجب يا محمد من شأن هؤلاء المنافقين الذين أظهروا خلاف ما أضمروا؟ ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي يقولون ليهود بني قريظة والنضير الذين كفروا برسالة محمد ﷺ: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ أي لئن أخرجتم من المدينة لنخرجنَّ معكم منها قال في التسهيل: نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول وقوم من المنافقين، بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم: اثبتوا في حصونكم فإنا معكم كيف ما تقلبت حالكم[1]، وإنما جعل المنافقين إخوانهم لأنهم كفار مثلهم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي ولا نطيع أمر محمد في قتالكم، ولا نسمع من أحدٍ إذا أمرنا بخذلانكم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي ولئن قاتلكم أحد لنعاوننكم على عدوكم ونكون بجانبكم ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما قالوه ووعدوهم به.. ثم أخبر الله عن حال المنافقين بالتفصيل فقال ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي لئن أخرج اليهود لا يخرج المنافقون معهم ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي ولئن قوتل اليهود لا ينصرهم المنافقون ولا يقاتلون معهم قال القرطبي: وفي هذا دليل على صحة نبوّة محمد ﷺ من جهة أمر الغيب، لأنهم أُخرجوا فلم يخرجوا معهم، وقوتلوا فلم ينصروهم كما أخبر عنهم القرآن[2] ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ولئن جاءوا لنصرتهم وقاتلوا معهم على سبيل الفرض والتقدير فسوف ينهزمون، ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين قال الإمام الفخر: أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا فإن المنافقين لا يخرجون معهم وقد كان الأمر كذلك، فإن بني النضير لما أُخرجوا لم يخرج معهم المنافقون وقُوتلوا كذلك فما نصروهم وأما قوله تعالى ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ فهذا على سبيل الفرض والتقدير أي بتقدير أنهم أرادوا نصرتهم لا بدّ وأن، يتركوا تلك النصرة

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٠. (ش): ذكره بدون إسناد.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٣٤.

وينهزموا[١] ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي لأنتم يا معشر المسلمين أشدُّ خوفًا وخشيةً في قلوب المنافقين من الله، فإنهم يرهبون ويخافون منكم أشدَّ من رهبتهم من الله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي ذلك الخوف منكم بسبب أنهم لا يعلمون عظمة الله تعالى حتى يخشوه حقَّ خشيته قال القرطبي: أي لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته[٢] ثم أخبر تعالى عن اليهود والمنافقين بأنهم جبناء من شدة الهلع، وأنهم لا يقدرون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصِّنين في قلاعهم وحصونهم فقال ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصَّنة بالأسوار والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي أو يكونوا من وراء الحيطان ليتستروا بها، لفرط جبنهم وهلعهم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي تظنهم مجتمعين على أمرٍ ورأي في الصورة ذوي ألفةٍ واتحاد، وهم مختلفون غاية الاختلاف لأن أراءهم مختلفة، وقلوبهم متفرقة قال قتادة: أهل الباطل مختلفةٌ آراؤهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفةٌ شهادتهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق[٣] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك التفرق والشتات بسبب أنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله. قال في البحر: وموجب ذلك التفرق والشتات هو انتفاء عقولهم، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة[٤] ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ أي صفةُ بني النضير فيما وقع لهم من الجلاء والذل، كصفةِ كفار مكة فيما وقع لهم يوم بدر من الهزيمة والأسر قال البيضاوي: أي مثل اليهود كمثل أهل بدر، أو المهلكين من الأمم الماضية في زمان قريب[٥] ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة إجرامهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم عذاب شديد موجعٌ في الآخرة ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال، كمثل الشيطان الذي أغرى الإنسان بالكفر ثم تخلى عنه وخذله ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ أي فلما كفر الإنسان تبرأ منه الشيطان وقال ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخاف عذاب الله وانتقامه إن كفرتُ به قال في التسهيل: هذا مثلٌ، مثَّل اللهُ المنافقين الذين أغووا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك بالشيطان الذي يُغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه، والمراد بالشيطان والإنسان هنا الجنس[٦]، وقولُ الشيطان ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ كذبٌ منه ورياءٌ لأنه لو خاف الله لامتثل أمره وما عصاه[٧] ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٨٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٣٥.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٦٦.

(٤) تفسير البحر ٨/ ٢٤٩.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٧٨.

(٦) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١١٠.

(٧) قال ابن كثير: أي مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، كمثل الشيطان إذ سول للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل وقال: إني أخاف الله رب العالمين. المختصر ٣/ ٤٧٦.

﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي فكان عاقبة المنافقين واليهود، مثل عاقبة الشيطان والإِنسان، حيث صارا إِلى المؤبدة ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وذلك عقاب كل ظالم فاجر، منتهكٍ لحرمات الله والدين.. ولمَّا ذكر صفات كل من المنافقين واليهود وضرب لهم الأمثال، وعظ المؤمنين بموعظةٍ حسنة، تحذيرًا من أن يكونوا مثل من تقدم ذكرهم فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي ولتنظر كلُّ نفسٍ ما قدَّمت من الأعمال الصالحة ليوم القيامة قال ابن كثير: انظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعَرْضكم على ربكم[1]، وسُمي يوم القيامة غدًا لقرب مجيئه ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] والتنكير فيه للتفخيم والتهويل[2] ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ كرَّره للتأكيد ولبيان منزلة التقوى التي هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تركوا ذكر الله ومراقبته وطاعته، فأنساهم حقوق أنفسهم والنظر لها بما يصلحها قال أبو حيان: وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب، تركوا عبادة الله وامتثال أوامره، فعوقبوا على ذلك بأن أنساهم حظَّ أنفسهم[3]، حتى لم يقدموا لهما خيرًا ينفعها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي أولئك هم الفجرة الخارجون عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي لا يتساوى يوم القيامة الأشقياء والسعداء، أهل النار وأهل الجنة في الفضل والرتبة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي أصحاب الجنة هم الفائزون بالسعادة الأبدية في دار النعيم، وذلك هو الفوز العظيم.. ثم ذكر تعالى روعة القرآن، وتأثيره في الصُمِّ الراسيات من الجبال[4] فقال ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لو خلقنا في الجبل عقلًا وتمييزًا كما خلقنا للإِنسان، وأنزلنا عليه هذا القرآن، بوعده ووعيده، لخشع وخضع وتشقق، خوفًا من الله تعالى، ومهابةً له وهذا تصويرٌ لعظمة قدر القرآن، وقوة تأثيره، وأنه بحيث لو خوطب به جبلٌ على شدته وصلابته لرأيته ذليلًا متصدعًا من خشية الله، والمراد منه توبيخ الإِنسان بأنه لا يتخشع عند تلاوة القرآن، بل يُعرِض عما فيه من عجائب وعظائم، فهذه الآية في بيان عظمة القرآن، ودناءة حال الإِنسان[5] وقال في البحر: والغرضُ توبيخ

(١) «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٧٧.
(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٤.
(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٥١.
(٤) (ش): صُمّ: جمع أصمُّ: مُصْمَت، صُلْب متين.
(٥) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٩.

الإنسـان على قسـوة قلبه، وعدم تأثـره بهذا الذي لو أُنـزل على الجبلُ لتخشَّـع وتصدَّع، وإذا كان الجبل على عظمته وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع، فابن آدم كان أولى بذلك، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثـر[١] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وتلك الأمثـال نفصّلها ونوضحهـا للناس لعلهم يتفكرون في آثار قـدرة الله ووحدانيته فيؤمنون.. ثم لما وصف القرآن بالرفعة والعظمة، أَتْبَعَه بشـرح عظمة الله وجلاله فقال ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هـو جـلَّ وعلا الإله المعبود بحق لا إله ولا رب سـواه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي عالـم السـر والعلن، يعلم ما غـاب عن العباد مما لم يبصروه، وما شـاهدوه وعلموه ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو تعالى ذو الرحمة الواسـعة في الدنيا والآخرة ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر اللفظ اعتناءً بأمر التوحيد، أي: لا معبود ولا رب سواه[٢] ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي المالك لجميـع المخلوقات، المتصرف في خلقه بالأمر والنهي، والإيجاد والإعدام ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي المُنَزَّه عن القبائح وصفات الحوادث قال في التسهيل: القُدُّوسُ مشتقٌ من التقديس وهو التنزه عـن صفات المخلوقين، وعن كل نقص وعيب، والصيغة للمبالغة كالسـبُّوح[٣]، وقد ورد أن الملائكة تقول في تسـبيحها: «سـبُّوح قدُّوس، ربُّ الملائكة والروح»[٤] ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي الذي سـلِمَ الخلقُ من عقابه، وأمِنُوا من جَوْرِه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال البيضاوي: أي ذو السلامة من كل نقص وآفة، وهو مصدر وُصِفَ به للمبالغة[٥] ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي المصدِّق لرسـله بإظهار المعجزات على أيديهم ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي الرقيبُ الحافظ لكل شـيء وقال ابـن عباس: الشـهيد على عبـاده بأعمالهم الـذي لا يغيب عنه شـيء[٦] ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي القادر القاهر الذي لا يُغلب ولا يناله ذل ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ أي القهار العالي الجناب الذي يذلّ له مَن دُونه قـال ابن عبـاس: هو العظيم الذي إذا أراد أمرًا فعلـه، وجبروتُ الله عظمته[٧] ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي الـذي له الكبريـاء حقًا ولا تليق إلا بـه وفي الحديث القدسـي: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِـي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَـنْ نَازَعَنِـي فِي وَاحِـدٍ مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ ثُمَّ قَذَفْتُهُ فِي النَّـارِ»[٨] قال الإمام الفخر: واعلم

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٥١.
(٢) (ش): أي لا معبود بحقٍّ إلا الله.
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١١١.
(٤) (ش): لم أجد ما يدل على ذلك. وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِى رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ « سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).
(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٧٢.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٤٧.
(٧) «تفسير الخازن» ٤/ ٧٢.
(٨) «تفسـير القرطبي» ١٨/ ٤٧. (ش): الذي في الأصل في أكثر من طبعة: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي، والْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ وَلَا أُبَالِي»، والمُثبت هنا منقول من «تفسـير القرطبي». قَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ «الْعِزُّ إِزَارُهُ =

أن المتكبر في صفة الناس صفة ذم، لأن المتكبر هو الذي يُظهر من نفسه الكِبْر، وذلك نقصٌ في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس له إلا الذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذبًا فكان مذمومًا في حق الناس، وأما الحقُّ سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهر فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعظمته وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه جل وعلا[1]، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس في جلاله وعظمته، عمَّا يلحقون به من الشركاء والأنداد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ﴾ أي هو جل وعلا الإله الخالق لجميع الأشياء، المُوجِد لها من العدم، المُنشِئ لها بطريق الاختراع ﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ أي المبدع للأشكال على حسب إرادته ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦] قال الخازن: أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريده[2] ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي له الأسماء الرفيعة الدالة على محاسن المعاني ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ينزهه تعالى عن صفات العجز والنقص جميع ما في الكون بلسان الحال أو المقال قال الصاوي: ختم السورة كما ابتدأها به إشارة إلى أنها المقصود الأعظم، والمبدأ والنهاية، وأن غاية المعرفة بالله تنزيه عظمته عما صَوَّرَتْه العقول[3] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه وصنعه.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – طباق السلب ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢].

٢ – المقابلة اللطيفة بين ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وبين ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

٣ – وضع الضمير بين المبتدأ والخبر لإفادة الحصر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

٤ – الاستعارة اللطيفة ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحشر: ٩] شبَّه الإيمان المتمكن في نفوسهم، بمنزلٍ ومستقر للإنسان نزل فيه وتمكَّن منه حتى صار منزلًا له، وهو من لطيف الاستعارة.

٥ – الاستفهام الذي يراد به الإنكار والتعجيب ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ..﴾ الآية.

٦ – الطباق بين جميعًا وشتى في قولهم ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾.

٧ – التشبيه التمثيلي ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ ..﴾ وجه الشبه منتزع من متعدد.

= وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» (رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني). «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي رِدَائِي قَصَمْتُهُ». (رواه الحاكم وصححه).

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٩٤.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٧٣.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٩٤.

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ كَنَّى عن القيامة بالغد لقربها.

٩ - الطباق بين ﴿ٱلْغَيْبِ.. وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ وبين ﴿ٱلْجَنَّةِ.. ٱلنَّارِ﴾ إلخ.

لطيفة: أخرج الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله، إني مجهود - أي اشتد بي الجوع والفاقة - فأرسلَ إلى بعض نسائه يسألها هل عندك شيء؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء، ثم أرسل إلى أُخرى فقالت مثل ذلك، وقلن كلهن مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ». فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو طَلْحَةَ، فقال: أنا يا رسول الله! فانطلق به إلى رحله -أي إلى منزله- فقال لها: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخري عنه شيئًا وأكرميه، فقالت: ما عندي إلا قوتُ الصبيان، فقال، عَلِّلِيهِم بشيء ونوِّميهم، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل ثم قومي إلى السراج كي تصلحيه فأطْفِئيه، ففعلَت فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويَيْن، فلما أصبح غَدَا على رسول الله ﷺ فلما نظر إليه رسول الله ﷺ تبسم، ثم قال: «لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ» وأنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ..﴾ »[الحشر: ٩] الآية[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحشر»



(١) (ش): ليس في هذا الحديث دليل على الاختلاط بين الرجال والنساء، فقد كان هذا قبل نزول آيات الحجاب، وما ورد من الأحاديث مِمَّا ظاهرُه عدم الحجاب، فإنه يُحمَل على أن ذلك كان قبل نزول آيات الحجاب. وبيان ذلك أن هذه القصة كانت سببًا في نزول قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩)، وهي آية من سورة الحشر وقد نزلت سورة الحشر كلها في إثْر إجلاء بني النضير، ولذلك كان يسميها عبد الله بن عباس سورة بني النضير، كما أخرج ذلك البخاري في صحيحه عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «سُورَةُ التَّوْبَةِ؟»، قَالَ: «التَّوْبَةُ هِيَ الْفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَمْ تُبْقِ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا». قُلْتُ: «سُورَةُ الأَنْفَالِ؟». قَالَ: «نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ». قُلْتُ: «سُورَةُ الْحَشْرِ؟». قَالَ: «نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ». وقد أجلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بني النضير على أكثر الأقوال في سنة أربع، وباتفاق أهل العلم أن الأحزاب كانت بعد إجلاء بني النضير؛ فهذا يعني أن الآية الكريمة نزلت قبل الحجاب بالإجماع، وأن القصة التي نزلت الآية بشأنها، وجاءت متقدمة على نزول الآية كانت قبل سورة الأحزاب المتضمنة لآيات الحجاب؛ فيكون أمر هذه القصة كله قبل نزول أحكام الحجاب. (إِلَّا قُوت صِبْيَانِي) يَحْتَمِل أَنْ يَكُون هُوَ وَامْرَأَته تَعَشَّيَا وَكَانَ صِبْيَانهمْ حِينَئِذٍ فِي شُغْلهمْ أَوْ نِيَامًا فَأَخَّرُوا لَهُمْ مَا يَكْفِيهِمْ، أَوْ نَسَبُوا الْعَشَاء إِلَى الصِّبْيَة لِأَنَّهُمْ إِلَيْهِ أَشَدّ طَلَبًا. (طَاوِيَيْنِ) أَيْ بِغَيْرِ عَشَاء. (فَانْطَلَقَ بِهِ إلى رَحْلِهِ) إلى مَنْزِلِه. (فَعَلِّلِيهِمْ): علَّلَه بكذا: شَغَلَه به وأَلْهَاهُ وَصَبَّرَهُ. وفِعْلُهُمَا هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّ الصِّبْيَانَ لَمْ يَكُونُوا مُحْتَاجِينَ إِلَى الْأَكْلِ وَإِنَّمَا تَطْلُبُهُ أَنْفُسُهُمْ عَلَى عَادَةِ الصِّبْيَانِ مِنْ غَيْرِ جُوعٍ يَضُرُّهُمْ فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا عَلَى حَاجَةٍ بِحَيْثُ يَضُرُّهُمْ تَرْكُ الْأَكْلِ لَكَانَ إِطْعَامُهُمْ وَاجِبًا وَيَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَى الضِّيَافَةِ وَقَدْ أَثْنَى اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ وَامْرَأَتِهِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا لَمْ يَتْرُكَا وَاجِبًا بَلْ أَحْسَنَا وَأَجْمَلَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وَأَمَّا هُوَ وَامْرَأَتُهُ فَآثَرَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِرِضَاهُمَا مَعَ حَاجَتِهِمَا وَخَصَاصَتِهِمَا فَمَدَحَهُمَا اللهُ تَعَالَى وَأَنْزَلَ فِيهِمَا ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. [انظر: شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٢)، فتح الباري لابن حجر (٧/ ١١٩)، الاختلاط بين الرجال والنساء (٢/ ٤١٩ -٤٢٠) لمحقق هذا الكتاب].

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ ٦٠ ١٣

مدنية وآياتها ثلاث عشرة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تهتم بجانب التشريع، ومحور السورة يدور حول فكرة «الحب والبغض في الله» الذي هو أوثق عرى الإيمان، وقد نزل صدر السورة عتابًا لحاطب بن أبي بلتعة حين كتب كتابًا لأهل مكة يخبرهم أن الرسول ﷺ قد تجهز لغزوهم، كما ذكر تعالى حكم موالاة أعداء الله، وضرب الأمثال في إبراهيم والمؤمنين في تبرئهم من المشركين، وبين حكم الذين لم يقاتلوا المسلمين، وحكم المؤمنات المهاجرات وضرورة امتحانهن، وغير ذلك من الأحكام التشريعية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالتحذير من موالاة أعداء الله، الذين آذوا المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك الديار والأوطان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ...﴾ الآيات. ثم بينت السورة أن القرابة والنسب والصداقة في هذه الحياة لن تنفع الإنسان أبدًا يوم القيامة، حيث لا ينفع الإنسان إلا الإيمان والعمل الصالح ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ...﴾ الآيات.

* ثم ضربت المثل في إيمان إبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين، حين تبرءوا من قومهم المشركين، ليكون ذلك حافزًا لكل مؤمن على الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن حكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وآذوهم ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ...﴾ الآيات.

* وبينت السورة وجوب امتحان المؤمنات عند الهجرة، وعدم ردهن إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكافر، ثم حكم مبايعة النساء للرسول ﷺ وشروط هذه البيعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ...﴾ الآيات وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ الآيات.

* وختمت السورة بتحذير المؤمنين من موالاة أعداء الله الكافرين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ وهكذا ختمت السورة بمثل ما بدأت به من التحذير من موالاة أعداء الله، ليتناسق الكلام في البدء والختام.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ
يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم
بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ
لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣﴾ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ
قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ
تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ
أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ
فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ
بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ
وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ
فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ
إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا
تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن
فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم
بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ
وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ
وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ
ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ

اللغة: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ أصدقاء وأحبّاء جمع وليّ وهو الصديق والناصر والمعين ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ يظفروا بكم ويتمكّنوا منكم، وأصل الثقف الحذقُ في إدراك الشيء وفعله، ومنه قولهم! «رجلٌ ثَقِفٌ لَقِفٌ»(١) ثم استُعمِل في الظفر والإدراك مطلقًا(٢) ﴿أُسۡوَةٌ﴾ قدوة يقتدى به

(١) (ش): يقال: «إنه ثَقِفٌ لَقِفٌ»، إذا كان جيد الحَذر في القتال، بصيرًا بمواقع القتل. ويقال:«إنه ثَقِفٌ لَقِفٌ»، إذا كان سريع الْأَخْذ لما يُرْمَى إِلَيْهِ بِالْيَدِ وسريع الْفَهم لما يُرْمَى إِلَيْهِ من كَلَامٍ بِاللِّسَانِ. ويقال: «إنه ثَقِفٌ لَقِفٌ» إِذَا كَانَ مُحْكِمًا لِمَا يَتَنَاوَلُهُ مِنَ الْأُمُورِ.

(٢) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٦٨.

﴿أَرْحَامُكُمْ﴾ جمع رحم وهو في الأصل رحم المرأة، واشتهر في القرابة حتى صار كالحقيقة فيها ﴿وَظَاهَرُوا﴾ أعانوا ﴿عِصَمِ﴾ جمع عِصْمة وهي ما يعتصم ويتمسك به الإنسان من حبلٍ أو عقد والمراد به هنا عقد النكاح ﴿الْكَوَافِرِ﴾ جمع كافرة وهي التي لا تؤمن بالله.

سَبَبُ النّزول: «لما تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة، كتب «حاطب بن أبي بلتعة» إلى أهل مكة يخبرهم بذلك وقال لهم: إن رسول الله ﷺ يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم، ثم أرسل الكتاب مع ظعينةٍ -أي امرأةٍ- مسافرة فنزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بذلك، فبعث رسول الله ﷺ عليًّا، والزبير، والمقداد وقال: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخ[1]، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً[2] وَمَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا». فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقال لها: لتخرجنَّ الكتاب أو لنُلْقِيَنَّ الثياب. فأخرجته من عِقاصها[3]، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟» فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ، يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي. قَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فقال عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ..﴾» الآية[4].

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي يا معشر المؤمنين، يا من صدقتم بالله ورسوله[5]، لا تتخذوا الكفار الذين هم أعدائي وأعداؤكم أصدقاء وأحباء، فإنَّ من علامة الإيمان بغض أعداء الله لا مودتهم وصداقتهم قال في التسهيل: نزلت عتابًا لحاطب وزجرًا عن أن يفعل أحد مثل فعله، وفيها مع ذلك تشريفٌ له لأن الله شهد له بالإيمان في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[6] ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي تحبُّونهم وتودُّونهم وتُصادِقونهم مع أنهم

(١) روضة خاخ: مكان على بعد قليل من المدينة.
(٢) (ش): الظَّعِينَةً: المرأة في الهودج. والهودج، مقعد ذو قُبّة يوضع على ظَهر الجمل لتركب فيه النِّساء، كانت فيه المرأة أو لم تكن.
(٣) عقاصها: ضفائر شعرها.
(٤) أخرجه الشيخان وانظر روح المعاني ٢٨/ ٦٥، والقرطبي ١٨/ ٥٠.
(٥) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.
(٦) «التسهيل» ٤/ ١١٢.

أعداء ألِدَّاء لكم[١] قال القرطبي: أي تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم[٢] ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم﴾ أي والحال أنهم كافرون بدينكم وبقرآنكم الذي أنزله الله عليكم بالحق الواضح ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي يُخرِجون محمدًا من مكة ظلمًا وعدوانًا كما يُخرِجون أيضًا منها المؤمنين قال في البحر: وقدَّم الرسول تشريفًا له ولأنه الأصلُ للمؤمنين[٣]، ومعنى إخراجهم أنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا منها مهاجرين إلى المدينة ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي من أجل أنكم آمنتم بالله الواحد الأحد كقوله ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ شرطٌ حذف جوابه، أي: إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله طلبًا لرضوانه فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء قال الألوسي: وجوابُ الشرط محذوف دلَّ عليه ما تقدم كأنه قيل: لا تَتَوَلَّوْا أعدائي إنْ كُنتم أوليائي[٤] ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي تسرون إليهم بالنصيحة وأنا العالم بسريرتكم وعلانيتكم، لا يخفى عَلَيَّ شيءٌ من أحوالكم؟ والغرض منه التوبيخُ والعتاب ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ومن يصادِق أعداءَ الله، ويُفْشِ أسرار الرسول[٥]، فقد حاد عن طريق الحق والصواب.. ثم أخبر تعالى المؤمنين بعداوة الكفار الشديدة لهم، المستحكمة في قلوبهم فقال ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم، يُظهِروا ما في قلوبهم من العداوة الشديدة لكم ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي يمدوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل، وألسنتهم بالشتم والسب ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي وقد تمنوا أن تكفروا لتكونوا مثلهم قال الزمخشري: وإنما أورده بذكر الماضي ﴿وَوَدُّوا۟﴾ بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ لأنهم أرادوا كفرهم قبل كل شيء[٦] كقوله تعالى ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩] ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي لن تفيدكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون الكفار من أجلهم يوم القيامة شيئًا، فلن يجلبوا لكم نفعًا، ولن يدفعوا عنكم ضُرًّا قال الصاوي: هذه تخطئةٌ لحاطب في رأيه كأنه قال: لا تحْمِلْكم قراباتُكم وأولادُكم الذين بمكة، على خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين، ونَقْل

---

(١) (ش): لدَّ الشَّخصَ: خاصَمَه خُصُومةً شديدة. ألدّاءُ: جمع أَلَدُّ: شديد الخصومة. أَلِدَّة: جمع لَدود: صيغة مبالغة من لدَّ: شديد الخصومة.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٥٢.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٥٣.

(٤) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٦٧. (ش): في أكثر من طبعة: «لا تتخذوا أعدائي إن كنتم أوليائي»، وهو خطأ طباعي واضح، والمُثبَت من «تفسير الألوسي».

(٥) (ش): أفشى السِّرَّ/ أفشى بالسِّرِّ: نشَره، أذاعَه، أعطَى معلوماتٍ عنه، كشفه.

(٦) «الكشاف» ٤/ ٢٩٥.

أخبارهم وموالاة أعدائهم، فإنه لا تنفعكم الأرحام ولا الأولاد الذين عصيتم الله من أجلهم[١] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب، يحكم الله بين المؤمنين والكافرين، فيُدخِل المؤمنين جنات النعيم، ويُدخِل المجرمين دركات الجحيم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مطلَّع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي قد كان لكم يا معشر المؤمنين قُدوة حسنةٌ في الخليل إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي حين قالوا للكفار: إننا متبرءون منكم ومن الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي كفرنا بدينكم وطريقتكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي وظهرت بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء إلى الأَبد ما دمتم على هذه الحالة ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده، وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك والأوثان قال المفسرون: أمر الله المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالذين معه في عداوة المشركين والتبرؤ منهم، لأن الإيمان يقتضي مقاطعة أعداء الله وبغضهم ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فلا تقتدوا به، فإنه إنما استغفر لأبيه المشرك رجاء إسلامة ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ هذا من تتمة كلام إبراهيم لأبيه، أي: ما أدفع عنك من عذاب الله شيئًا إن أشركت به، ولا أملك لك شيئًا غير الاستغفار ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي عليك اعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي وإليك رجعنا وتبنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وإليك المرجع والمعاد في الدار الآخرة قال المفسرون: إن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار كما في سورة مريم قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] واستغفر له بالقول فعلًا كما في سورة الشعراء ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] وكلُّ هذا كان رجاء إسلامه، ثم رجع عن ذلك لمَّا تيقَّن كفره كما في سورة التوبة ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا بعذاب لا نطيقه[٢] وقال مجاهد: أي لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذابٍ من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي اغفر لنا ما فرط من الذنوب[٣] ﴿رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي أنت يا الله الغالب الذي لا يَذِلّ من التجأ إليه، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة، وتكرار النداء للمبالغة في التضرُّع

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٩٥.

(٢) القول الأول مروي عن ابن عباس، والثاني قول مجاهد. والأول هو الأرجح لأنه دعاءٌ لأنفسهم بعدم تمكين الكفار من رقابهم، وهو اختيار ابن عطية.

(٣) (ش): أي اغفر لنا ما سبق من الذنوب.

والجُـؤَار[١] ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقـد كان لكم في إبراهيـم ومن معه من المؤمنين قدوةٌ حسـنة في التبرُّؤ من الكفار قال أبو السـعود: والتكريرُ للمبالغة في الحثِّ على الاقتداء به عليه السـلام ولذلك صُدِّر بالقسـم[٢] ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي لمن كان يرجو ثواب الله تعالـى، ويخـاف عقابـه في الآخـرة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي ومـن يُعـرض عن الإيمـان وطاعة الرحمن، فإن الله مُسـتَغْنٍ عن أمثاله وعن الخلـق أجمعين، وهو المحمود في ذاتـه وصفاتـه ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةً﴾ أي لعـلَّ الله جل وعلا يجعل بينكم وبين الذين عاديتموهم من أقاربكم المشـركين محبةً ومودة، محبةً بعد البغضاء، وأُلفَةً بعد الشـحناء قال في التسـهيل: لما أمر الله المسـلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم، على ما كان بينهـم وبيـن الكفار من القرابـة والمودة، وعلم الله صدقهم آنسـهم بهذه الآيـة، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة، أي: محبة، وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذٍ سائر قريش[٣]، وجمع الله الشـمل بعد التفرق وقال الرازي: و(عسـى) وعدٌ من الله تعالى وقد حقق تعالى ما وعدهم به من اجتماع كفار مكة بالمسـلمين، ومخالطتهـم لهم حين فتح مكة[٤] ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء، يقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة، لمن تاب إليه وأناب ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ أي لا ينهاكم عن البر بهؤلاء الذين لم يحاربوكم لأجل دينكم، ولم يخرجوكم من أوطانكم كالنساء والصبيان، ولفظة ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ في موضع جر بـ «عن» أي لا ينهاكم جلَّ وعلا عن البر والإحسـان لهؤلاء ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي تعدلـوا معهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي يحـب العادليـن في جميع أمورهم وأحكامهم قال ابن عباس: نزلت في خزاعة، وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدًا، فرخَّص الله في برهم والإحسان إليهـم[٥]. وروي «عن أسـماء بنت أبي بكر أنها قالـت: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهْيَ مُشْـرِكَةٌ في عهد قريـش حيـن عاهدوا رسـول الله ﷺ تعني في صلح الحديبية فأتيتُ رسـول الله ﷺ فقلت: يا رسـول الله، إِنَّ أُمِّـي قَدِمَـتْ وَهْـيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِـلُ أُمِّي؟» قـال: «نَعَمْ صِلِي أُمَّـكِ» فأنزل الله

---

(١) (ش): تضرَّع فلانٌ إلى الله/ تضرَّع فلانٌ لله: تذلَّل وخضع له، تقرَّب وتوسَّل إليه، ابتَهَل إليه ودعاه. جأَر فلانٌ إلى الله جَأْرًا وجُؤَارًا: رفع صوتَه بالدعاء وتضرّع إلى الله.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٧.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٤.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣٠٣.

(٥) «التفسر الكبير» للرازي ٢٩/ ٣٤. (ش): ذكره الرازي بدون إسناد، فقال: «اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ: فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعَهْدِ الَّذِينَ عَاهَدُوا رَسُولَ الله ﷺ عَلَى تَرْكِ الْقِتَالِ، وَالْمُظَاهَرَةِ فِي الْعَدَاوَةِ، وَهُمْ خُزَاعَةُ كَانُوا عَاهَدُوا الرَّسُولَ عَلَى أَنْ لَا يُقَاتِلُوهُ وَلَا يُخْرِجُوهُ، فَأَمَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبِرِّ وَالْوَفَاءِ إِلَى مُدَّةِ أَجَلِهِمْ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ».

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [١]الآيـة ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي إنما ينهاكم الله عن صداقة ومودة الذين ناصبوكـم العداوة، وقاتلوكم لأجل دينكم، وأعانوا أعداءكم على إخراجكم من دياريكم، أن تتولَّوهـم فتتخذوهـم أولياء وأنصارًا وأحبابًا ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويجعلهم أنصارًا وأحبابًا، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي اختبروهـنَّ لتعلموا صدق إيمانهنَّ قال المفسـرن: «كان صلح الحديبية الذي جرى بين رسـول الله ﷺ وكفار مكة قد تضمن أن مَن أتى أهل مكة من المسلمين لم يُردَّ إليهم، ومن أتى المسلمين من أهل مكة يعني المشركين رُدَّ إليهم، فجاءت «أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط» مهاجِرةً إلى رسول الله ﷺ، فخرج في أثرها أخواها «عُمارة» و«الوليد» فقالوا للنبي ﷺ: رُدَّها علينا بالشـرط، فقال ﷺ: «كان الشـرطُ في الرجال لا في النساء» فأنزل الله الآية[٢]، قال ابن عباس: كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بغضًـا لزوجهـا، ولا طمعًـا في الدنيـا، وأنهـا ما خرجـت إلا حبًّا لله ورسـوله، ورغبـةً في دين الإسلام[٣] ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ أي الله أعلم بصدقهن في دعوى الإيمان، لأنه تعالى المطّلع على قلوبهن، والجملة اعتراضية لبيان أن هذا الامتحان بالنسـبة للمؤمنين، وإلا فالله عالمٌ بالسرائر لا تخفـى عليه خافيـة ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي فـإن تحققتم بإيمانهن بعد امتحانهـن فلا تردوهنَّ إلى أزواجهـن الكفار ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي لا تحل المؤمنة للمشـرك، ولا يحـل للمؤمن نكاح المشـركة قـال الألوسـي: والتكرير للتأكيـد والمبالغة في الحرمة وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشـرك[٤] ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ أي أعطوا أزواجهن الكفار مـا أنفقوا عليهن من المهور قال في البحر: أمـر أن يُعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسـلمَتْ، فَلَا يُجْمَعُ عَلَيْهِ خُسْـرَانُ الزَّوْجِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ[٥] ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي ولا حـرج ولا إثم عليكم أن تتزوجـوا هؤلاء المهاجرات إذا دفعتم لهن مهورهنَّ قال الخازن: أباح الله للمسـلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسـلام وإن كان لهن أزواج كفار لأن الإسلام فرّق بينهن وبين أزواجهنَّ الكفار، وتقع الفرقة بانقضاء عدتها[٦]

(١) أخرجه الشيخان وأحمد.
(٢) (ش): ضعيف، أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى».
(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٥٦.
(٤) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٧٦.
(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٢٥٧. (ش): في أكثر من طبعة: «فلا يُجمع عليه خُسران الزوجة والمالية»، والمُثبَت هنا من «البحر المحيط».
(٦) «تفسير الخازن» ٤/ ٧٩.

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ أي ولا تتمسكوا بعقود زوجاتكم الكافرات، فليس بينكم وبينهن عصمة ولا علاقة زوجية قال القرطبي: المراد بالعصمة هنا النكاحُ، يقول: من كانت له امرأةٌ كافرة بمكة فلا يعتد بها فليست امرأته، فقد انقطعت عصمتُها لاختلاف الدارين[١] ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي اطلبوا يا أيها المؤمنون ما أنفقتم من المهر إذا لحقتْ أزواجكم بالكفار، وليطلبوا هم أي المشركون ما أنفقوا على أزواجهم المهاجرات قال ابن العربي: كان من ذهب من المسلمات مرتداتٍ إلى الكفار يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت إحدى الكافرات مسلمةً مهاجرة: ردُّوا إلى الكفار مهرها، وكان ذلك نَصَفًا وعدلًا بين الحالتين[٢] ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي ذلك هو شرعُ الله وحكمه العادل بينكم وبين أعدائكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمصالح العباد، حكيم في تشريعه لهم، يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٌ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ أي وإن فرَّتْ زوجةُ أحدٍ من المسلمين ولحقَتْ بالكفار ﴿فَعَاقَبۡتُمۡ﴾ أي فغزوتم وغَنِمتُم وأصبتم من الكفار غنيمة ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي فأعطوا لمن فرَّت زوجته، مثل ما أنفق عليها من المهر، من الغنيمة التي بأيديكم قال ابن عباس: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمرَ لَهُ رسولُ الله ﷺ أن يُعطى مثل ما أنفق من الغنيمة[٣] قال القرطبي: لما نزلت الآية السابقة ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ قال المسلمون: رضينا بما حكم اللهُ، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت هذه الآية[٤] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي وراقبوا اللهَ في أقوالكم وأفعالكم، واحذروا عذابه وانتقامه إن خالفتم أوامره ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي الذي آمنتم وصدقتم بوجوده[٥]، فإن من مستلزمات الإيمان تقوى الرحمن.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٦٥. (ش): لاختلاف الدارين: أي دار الإسلام ودار الكفر. ودار الإسلام: هي البلاد التي غالب أهلها مسلمون، وهم فيها آمنون وتقام فيها شعائر الإسلام كالأذان والصلاة جماعة والجُمَع والأعياد الشرعية والصوم والحج وما أشبه ذلك على وجه عام شامل. ودار الكفر: هي البلاد التي تقام فيها شعائر الكفر ولا تقام فيه شعائر الإسلام كالأذان والصلاة جماعة، والأعياد، والجمعة على وجه عام شامل. أما البلاد التي تقام فيه هذه الشعائر على وجه محصور كبلاد الكفار التي فيها أقليات مسلمة فإنها لا تكون بلاد إسلام بما تُقيمه الأقليات المسلمة فيها من شعائر الإسلام.

ودار الكفر تنقسم إلى قسمين:

١- دار الحرب: وهي أراضي الدولة الكافرة التي أعلنت الحرب على المسلمين.

٢- دار العهد: وهي أراضي الدولة الكافرة التي ارتبطت بمعاهدات عدم اعتداء مع المسلمين.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٦٨.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٨٦. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٦٨ ثم نقل القرطبي عن قتادة أن هذا الحكم قد نسخ بسورة براءة.

(٥) (ش): ليس الإيمان مجرد التصديق بوجود الله. وتفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يُبايِعْنَه على الإسلام، كما بايعه الرجال فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾(١) أي إذا جاء إليك النساء المؤمنات للبيعة فبايِعْهُنَّ على هذه الأمور الستة الهامة، وفي مقدمتها عدم الإشراك بالله جلَّ وعلا ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي ولا يرتكبن جريمة السرقة ولا جريمة الزنى، التي هي من أفحش الفواحش ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ أي ولا يئدن البنات كما كان يفعله أهل الجاهلية خوف العار أو خشية الفقر، قال ابن كثير: وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار، ويعمُّ قتله وهو جنينٌ كما يفعله بعض النساء الجاهلات، تُطرح نفسها لئلا تحبل، إمّا لغرضٍ فاسد أو ما أشبهه(٢) ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي لا تنسب إلى زوجها ولدًا لقيطًا ليس منه تقول له: هذا ولدي منك قال المفسرون: كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل، التقطت ولدًا ونسبته له ليبقيها عنده، فالمراد بالآية اللقيط، وليس المراد الزنى لتقدمه في النهي صريحًا(٣) قال ابن عباس: لا تُلحق بزوجها ولدًا ليس منه، وقال الفراء: كانت المرأة تلتقطُ المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، وإنما قال ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها(٤) ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ أي ولا يخالِفْن أمْرَك فيما أمَرْتَهُنَّ به من معروف، أو نَهَيْتَهُن عن منكر، بل يسمَعْن ويُطِعْن ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ أي فبايعهن يا محمد على ما تقدم من الشروط، واطلب لهنَّ من الله الصفح والغفران لما سلف من الذنوب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة وعظيم الرحمة قال أبو حيان: «كانت» بيعة النساء «في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، بعدما فرغ من بيعة الرجال، وكان رسول الله ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه، يبايعهنَّ بأمره ويبلغهنَّ عنه(٥)، وما مست يده عليه السلام يد امرأةٍ أجنبيةٍ قطُّ(٦)، وقالت «أسماء بنتُ السكن»: كنتُ في النسوة المبايعات،

---

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٨٩.

(٣) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٠٠، و«تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٨، وتفسير الرازي ٢٩/ ٣٠٨.

(٤) روح المعاني للألوسي ٢٨/ ٨٠.

(٥) (ش): رواه بن أبي حاتم بإسناد ضعيف.

(٦) (ش): عن عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَتِ الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُمْتَحَنَّ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِحْنَةِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَقْرَرْنَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ قَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ «انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ». وَلاَ وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ. غَيْرَ أَنَّهُ يُبَايِعُهُنَّ بِالْكَلاَمِ – قَالَتْ عَائِشَةُ وَاللهِ مَا أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى النِّسَاءِ قَطُّ إِلاَّ بِمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى وَمَا مَسَّتْ كَفُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَفَّ امْرَأَةٍ قَطُّ وَكَانَ يَقُولُ لَهُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ «قَدْ بَايَعْتُكُنَّ». كَلاَمًا. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

فقلت: يا رسول الله ابسط، يدك نبايعك، فقال لي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ: «إني لا أصافح النساء، لكنْ آخُذُ عليهنَّ ما أخذ اللهُ عليهنَّ»[1] وكانت «هند بنت عُتبة» - وهي التي شقت بطن حمزة يوم أحد[2] - متنكرة في النساء، فلما قرأ عليهن الآية ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالت وهي متنكرة: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وإني لأصيب الهَنَة أي القليل وبعض الشيء من ماله، لا أدري أيحل لي ذلك أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيءٍ فيما مضَى وفيما غبَر فهو لك حلال[3]، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها: «وإنك لهند بنتُ عتبة»؟ قالت: نعم فاعفُ عما سلف يا نبيَّ الله، عفا الله عنك، فلما قرأ ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ قالت: أو تزني الحُرة؟ فلما قرأ ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ قالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا فلأنتم وهم أعلم -وكان ابنها حنظلة قد قُتل يوم بدر- فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فلما قرأ ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ قالت هند: والله إن البهتان لأمرٌ قبيح، ولا يأمر اللهُ إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فلما قرأ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ قالت: واللهِ ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء»[4] وأخرج الإمام أحمد عَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ، «أخت السيدة خديجة وخالة فاطمة الزهراء قَالَتْ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فِي نِسَاءٍ نُبَايِعُهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا مَا فِي الْقُرْآنِ: أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا: الْآيَةَ، قَالَ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ». قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تُصَافِحُنَا؟ قَالَ: «إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، كَقَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ»[5] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تصادقوا يا معشر المؤمنين الكفرة أعداء الدين، ولا

---

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ، قَالَتْ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فِي نِسَاءٍ نُبَايِعُهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا مَا فِي الْقُرْآنِ: أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا الْآيَةَ، قَالَ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ». قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا. قُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تُصَافِحُنَا؟». قَالَ: «إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، كَقَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ» (رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني).

(٢) (ش): ثبت في الأحاديث الصحيحة التمثيلُ بجثة حمزة رضي الله عنه وشَقُّ بطنِه بعد استشهاده. أما ما ورد من استخراج كبده وتناول هند بنت عتبة رضي الله عنها منها وعدم استساغتها إياها فلا يثبت فيه شَيء. فهند بريئة من هذا الفعل المشين. وإن صح ذلك فقد كان هذا قبل إسلامهما، ثم بعد ذلك أسلمت وحَسُن إسلامها. والإِسْلَامُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ كما قال النبي ﷺ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) (ش): عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهْوَ لَا يَعْلَمُ فَقَالَ: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٥٨، وانظر «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/ ٣٠٧. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف. وروَى بعضَه ابن أبي حاتم في «تفسيره» بإسناد ضعيف. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٩٩): «وَهَذَا أَثَرٌ غَرِيبٌ، وَفِي بَعْضِهِ نَكَارَةٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ؛ فَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ وَامْرَأَتَهُ لَمَّا أَسْلَمَا لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخِيفُهُمَا، بَلْ أَظْهَرَ الصَّفَاءَ وَالْوُدَّ لَهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ مِنْ جَانِبِهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَهُمَا».

(٥) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي. (ش): صححه الألباني.

تتخذوهم أحباء وأصدقاء توالونهم وتأخذون بآرائهم، فإنهم قوم غضب الله عليهم ولعنهم قال الحسن البصري: هم اليهود لقوله تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وقال ابن عباس: هم كفار قريش لأن كلكافر عليه غضبٌ من الله[١]، والظاهر أن الآية عامة كما قال ابن كثير: يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه[٢] ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي أولئك الفجار الذين يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور، من أمواتهم أن يعودوا إلى الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا، فقد كانوا يقولون: إذا مات لهم قريب أو صديق: هذا آخر العهد به، ولن يبعث أبدًا[٣].

ختم تعالى السورة الكريمة بمثل ما فتحها به وهو النهي عن موالاة الكفار أعداء الله، وهو بمثابة التأكيد للكلام، وتناسق الآيات في البدء والختام، وهو من البلاغة في مكان.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق في قوله ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ لأن الإخفاء يطابق الإعلان.

٢ - العتاب والتوبيخ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ الآية.

٣ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الصيغة للحصر ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، والأصل توكلنا عليك، وانبنا إليك.. الخ.

٤ - صيغة المبالغة ﴿قَدِيرٌ﴾، ﴿غَفُورٌ﴾، ﴿رَّحِيمٌ﴾ وهو كثير في القرآن ومثله ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٥ - طباق السلب ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية.

٦ - الجملة الاعتراضية ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ للإشارة إلى أن للإنسان الظاهر والله يتولى السرائر.

٧ - العكسُ والتبديلُ ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وهو من أنواع البديع.

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كنّى بذلك عن اللقيط، وهي من لطائف الكنايات.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ كما أنه فيه من المحسنات البديعية ما يسمى رد العجز على الصدر، حيث ختم السورة بمثل ما ابتدأها ليتناسق البدء مع الختام.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الممتحنة»



(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٥٩.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٩٠.

(٣) هذا هو الراجح من تفسير الآية الكريمة وهو خلاصة قول ابن عباس وقتادة والحسن، وقال مجاهد معناه أنهم يئسوا من نعيم الآخرة كما يئس الكفار الذين هم في القبول من كل خير، والأول أظهر والله أعلم.

سُورَةُ الصَّفِّ (٦١) (١٤)

مدنية وآياتها أربع عشرة

بين يدي السورة

* سورة الصف هي إحدى السور المدنية، التي تعنى بالأحكام التشريعية، وهذه السورة تتحدث عن موضوع «القتال» وجهاد أعداء الله، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعن التجارة الرابحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو «القتال»، ولهذا سميت سورة الصف.

* ابتدأت السورة الكريمة -بعد تسبيح الله وتمجيده- بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد، وعدم الوفاء بما التزموا به ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

* ثم تحدثت عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته، لأنه يقاتل من أجل غرض نبيل، وهو رفع منار الحق، وإعلاء كلمة الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

* وتناولت السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام، وما أصابهما من الأذى في سبيل الله، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما ناله من كفار مكة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن سنة الله في نصرة دينه، وأنبيائه، وأوليائه، وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله، بمن يريد إطفاء نور الشمس بفمه الحقير ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

* ودعت السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة، وحرضتهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والنفيس، لينالوا السعادة الدائمة الكبيرة مع النصرة العاجلة في الدنيا، وخاطبتهم بأسلوب الترغيب والتشويق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الرحمن، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى حين دعاهم إلى نصرة دين الله فاستجابوا ونصروا الحق والرسول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبدع بيان وإحكام.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ
فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد
تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ
قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ
أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

اللغة: ﴿سَبَّحَ﴾ التسبيح تمجيد الله وتنزيهه عما لا يليق به من صفات النقص ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء في مواضعها ويفعل ما تقتضيه الحكمة ﴿مَقْتًا﴾ بُغضًا قال الزمخشري: المقتُ: أشدُّ البغض وأبلغه وأفحشه[1] ﴿مَّرْصُوصٌ﴾ المتماسك المتلاصق بعضه ببعض قال الفراء: رصصتُ البناء إذا لائمتُ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة[2] ﴿زَاغُوٓا۟﴾ مالوا عن الهدى والحق ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات.

سَبَبُ النّزول: روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا! فلما فرض الله الجهاد كرهه بعضهم فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[3].

التفسير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نزَّه اللهَ وقدَّسه ومجَّده جميعُ ما في السمواتِ والأرض من مَلَك، وإنسان، ونبات، وجماد ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] قال الإمام الفخر: أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السموات والأرض[4] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وهو الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله[5] لم تقولون بألسنتكم شيئًا ولا

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ٣١٤.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١١.
(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٩. (ش): رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١٠.
(٥) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

تفعلونه؟ ولأي شيءٍ تقولون نفعل ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ قال ابن كثير: هذا إنكارٌ لعى من يَعِد وعدًا، أو يقول قولًا لا يفي به، وفي الصحيحين «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[(١)] ثم أكَّد الإنكار عليهم بقوله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي عَظُم فِعْلُكم هذا بغضًا عند ربكم ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي أن تقولوا شيئًا ثم لا تفعلونه، وأن تَعِدوا بشيء ثم لا تَفُون به[(٢)] قال ابن عباس: كان ناسٌ من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ دلنا على أحبِّ الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره فنزلت الآية[(٣)] وقيل: هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا يأتمر به، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه كقوله تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]؟ ثم أخبرهم تعالى بفضيلة الجهاد في سبيل الله فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي يحب المجاهدين الذين يصفُّون أنفسهم عند القتال صفًا، ويثْبُتُون في أماكنهم عند لقاء العدو ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي كأنهم في تراصِّهم وثبوتهم في المعركة، بناءٌ قد رُصَّ بعضُه ببعض، وأُلصِق وأُحكِم حتى صار شيئًا واحدًا قال القرطبي: ومعنى الآية: أنه تعالى يحب منثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء، وهذا تعليمٌ من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم[(٤)] ولما ذكر تعالى أمر الجهاد، بيَّن أنَّ موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله وأوذيا بسبب ذلك فقال ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾؟ أي واذكر يا محمد لقومك قصة عبده وكليمه «موسى بن عمران» حين قال لقومه بني إسرائيل: لِمَ تفعلون ما يؤذيني؟[(٥)] ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي والحال

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٩٤.

(٢) (ش): وفَى الشَّخصُ الوَعْدَ/ وفَى الشَّخْصُ بالوَعْد: حافظ عليه وعمل به، أتمّه وأنجزه.

(٣) المختصر ٣/ ٤٩٢، وهذا القول هو اختيار الطبري. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف. وعن عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَعَدْنَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْنَا: «لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، لَعَمِلْنَاهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. (رواه الترمذي والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي والألباني).

(٤) «تفسير الطبري» ١٨/ ٨٢.

(٥) قال القرطبي: وإذايتُه عليه السلام حين رموه بالأُدْرَة. وهو انتفاخ الخصية. ومن الأذى أنهم دسوا امرأة تدعي عليه الفجور، ومن الأذى قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾. (ش): قصة رميهم موسى عليه السلام بالأُدْرَة رَوَاها الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

أنكم تعلمون علمًا قطعيًا بما شاهدتموه من المعجزات الباهرة أني رسولُ اللهِ إليكم، وتعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ فيما أصابه من كفار مكة ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي فلما مالوا عن الحقِّ، أمال الله قلوبهم عن الهدى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي واللهُ لا يوفق للخير والهدى من كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الله قال الرازي: وفي هذا تنبيهٌ على عِظَم إيذاء الرسل، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى[١].. ثم ذكر تعالى قصة عيسى عليه السلام فقال ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أي واذكر يا محمد لقومك هذه القصة أيضًا حين قال عيسى لبني إسرائيل: إني رسول اللهِ أُرسِلْتُ إليكم بالوصف المذكور في التوراة قال القرطبي: ولم يقل «يا قوم» كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه[٢] فإنه لم يكن له فيهم أب ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي حال كوني مصدِّقًا ومعترفًا بأحكام التوراة، وكُتُب الله وأنبيائه جميعًا، ولم آتِكُم بشيء يخالف التوراة حتى تَنفِروا عني ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ أي وجئت لأبشركم ببعثة رسولٍ يأتي بعدي يسمى «أحمد» قال الألوسي: وهذا الاسم الكريم علمٌ لنبينا محمد ﷺ كما قال حسان:

صَلَّى الْإِلَـهُ وَمَـنْ يَحِفُّ بِعَرْشِهِ ... وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدَ[٣]

وفي الحديث «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ»[٤] ومعنى العاقب الذي لا نبيَّ بعده، وروي أن الصحابة قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ: «دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةِ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ»[٥] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي فلما جاءهم عيسى بالمعجزات الواضحات، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من المعجزات الدالة على صدقه في دعوى الرسالة[٦] ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قالوا عن عيسى: هذا ساحرٌ جاءنا بهذا السحر الواضح، والإشارة بقولهم «سحر» إلى المعجزات التي ظهرت على يديه عليه السلام، قال المفسرون: بشَّر كلُّ نبي قومه بنبيِّنا

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٨٣.

(٣) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

(٥) سيرة ابن إسحاق قال ابن كثير: إسناده جيد. (ش): ورواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني والأرنؤوط. (وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ): أي الرُّؤْيَا التي رَأَتْها في المنام.

(٦) هذا هو الظاهر أن الضمير يعود على «عيسى» لأنه المحدَّث عنه، وقيل: يعود على «أحمد» الذي بُشِّرُوا به، والأول اختيار البيضاوي والألوسي وصاحب «البحر المحيط»، وهوالأظهر.

محمد ﷺ، وإنما أفرد تعالى ذكر عيسى بالبشارة في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا ﷺ، فبيَّن تعالى أن البشارة به عمَّت جميع الأنبياء واحدًا بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ استفهامٌ بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن يدعوه ربه إلى الإسلام على لسان نبيه، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله بتسمية نبيه ساحرًا، وتسمية آيات الله المنزلة سحرًا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق ولا يرشد إلى الفلاح والهدى من كان فاجرًا ظالمًا ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يريد المشركون بأن يطفئوا دين الله وشرعه المنير بأفواههم قال الفخر الرازي: وإطفاء نور الله تعالى تهكمٌ بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: إنه ساحر، شُبِّهَتْ حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بِفِيهِ ليطفئه[1]، وفيه تهكم وسخريةٌ بهم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ أي والله مُظْهِرٌ لدينه، بنشْره في الآفاق، وإعلائه على الأديان، كما جاء في الحديث «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[2] الحديث والمراد أنَّ هذا الدين سينتشر في مشارق الدنيا ومغاربها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي ولو كره ذلك الكافرون المجرمون، فإنَّ الله سيُعِزُّ شأن هذا الدين رغم أنف الكافرين قال في حاشية البيضاوي: كان كفار مكة يكرهون هذا الدين الحق، من أجل توغلهم في الشرك والضلال، فكان المناسب إذلالهم وإرغامهم بإظهار ما يكرهونه من الحق، وليس المراد من إظهاره ألا يبقى في العالم من يكفر بهذا الدين، بل المرادُ أن يكون أهلهُ عالين غالبين على سائر أهل الأديان بالحجة والبرهان، والسيف واللسان، إلى آخر الزمان[3] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته وحكمته بعث رسوله محمدًا ﷺ بالقرآن الواضح، والدين الساطع ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي ليُعْلِيَه على سائر الأديان المخالفة له، من يهودية ونصرانية وغيرهما ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أي ولو كره ذلك أعداءُ الله، المشركون بالله غيره قال أبو السعود: ولقد أنجز الله وعده بإعزاز دين الإسلام، حيث جعله بحيث لم يبق دينٌ من الأديان، إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام[4].

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١٤. (ش): بفِيهِ: بفَمِهِ.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، ومعنى: «زوي الأرض» أي جمعها حتى رآها صلى الله عليه.

(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٩٠.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦١.

﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾

المناسَبَة: لما بيَّن تعالى أن المشركين يريدون إطفاء نور الله، أمر المؤمنين بمجاهدة أعداء الدين، ودعاهم إلى التضحية بالمال والنفس والجهاد في سبيل الله، وبيَّن لهم أنها التجارة الرابحة لمن أراد سعادة الدارين.

اللغَة: ﴿تُنجِيكُم﴾ تُخلِّصكم وتُنقِذكم ﴿لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الأصفياء والخواص من أتباع عيسى، وهم الذين ناصروا المسيح عليه السلام ﴿فَأَيَّدۡنَا﴾ قوَّينا وساندنا ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين بالحجة والبرهان.

سَبَبُ النّزول: روي أن بعض الصحابة قالوا: يا نبيِّ الله، لوددنا أن نعلم أي التجارات أحب إلى الله فنتجر فيها!! فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾؟[1]

التفسِير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله وآمنتم بربكم حقَّ الإيمان، هل أدلكم على تجارة رابحة جليلة الشأن؟ والاستفهام للتشويق ﴿تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي تخلِّصكم وتنقذكم من عذاب شديد مؤلم.. ثم بيَّن تلك التجارة ووضحها فقال ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيمانًا صادقًا، لا يشوبه شكٌّ ولا نفاق ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ أي وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس، لإعلاء كلمة الله قال المفسرون: جعل الإيمان والجهاد في سبيله «تجارة» تشبيهًا لهما بالتجارة، فإنها عبارة عن مبادلة شيء بشيء، طمعًا في الربح، ومن آمن وجاهد بماله ونفسه فقد بذل ما عنده وما في وُسْعه، لنَيْل ما عند ربه من جزيل ثوابه، والنجاة من أليم عقابه، فشبَّه هذا الثواب والنجاة من العذاب بالتجارة؛ لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] قال الإمام الفخر: والجهاد ثلاثةُ أنواع:

١- جهادٌ فيما بينه وبين نفسه، وهو قهرُ النفس ومنعُها عن اللذات والشهوات.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٨٧. (ش): عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: لَوْ عَلِمْنَا مَا هَذِهِ التِّجَارَةُ، لأعْطَيْنَا فِيهَا الْأَمْوَالَ، وَالْأَهْلِينَ، فَبَيَّنَ لَهُمُ التِّجَارَةَ، فَقَالَ: «تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم. وعن عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَعَدْنَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْنَا: «لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، لَعَمِلْنَاهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. (رواه الترمذي والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي والألباني). قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١١٢): «تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، أَرَادُوا أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِيَفْعَلُوهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السورة، ومن جملتها هذا الآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾]».

٢ – وجهادٌ فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يَدَع الطمعَ منهم ويُشفقَ عليهم ويرحمَهم.

٣– وجهادُ أعداء الله بالنفس والمال نُصرةً لدين الله[١] ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي ما أمَرْتُكم به من الإيمان والجهاد في سبيل الله، خيرٌ لكم من كل شيء في هذه الحياة، إن كان عندكم فهمٌ وعلم ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ هذا جواب الجملة الخبرية ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأن معناها معنى الأمر أي آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله فإذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم، أي: يسترها عليكم، ويَمْحُها بفضله عنكم ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي ويدخلكم حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ أي ويسكنكم في قصور رفيعة في جنات الإقامة ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه، والسعادة الدائمة الكبيرة التي لا سعادة بعدها ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي ويَمُنُّ عليكم بخصلةٍ أُخرى تحبونها وهي ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ أي ان ينصركم على أعدائكم، ويفتح لكم مكة وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وبشِّر يا محمد المؤمنين، بهذا الفضل المبين قال في البحر: لما ذكر تعالى ما يمنحهم من الثواب في الآخرة، ذكر لهم ما يَسُرُّهم في العاجلة، وهي ما يفتح الله عليهم من البلاد[٢]، فهذه هي خير الدنيا موصولٌ بنعيم الآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي انصروا دين الله وأعلوا مناره ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أي كما نصر الحواريون دين الله حين قال لهم عيسى بن مريم ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي من ينصرني ويكون عوني لتبليغ دعوة الله، ونصرة دينه؟ ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي قال أتباع عيسى وهم المؤمنون الخُلَّص من خاصته المستجيبون لدعوته: نحن أنصار دين الله قال البيضاوي: والحواريون أصفِياؤه وهم أوَّلُ مَن آمن به، مُشتق من الحَوَر وهو البياض، وكانوا اثني عشر رجلاً[٣] وقال الرازي: والتشبيه في الآية محمول على المعنى أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله[٤]﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾ أي فانقسم بنو إسرائيل إلى جماعتين: جماعةٌ آمنت به وصدَّقته، وجماعةٌ كفرت وكذبت برسالة عيسى ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ أي فقوَّينا المؤمنين على أعدائهم الكافرين ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي حتى صاروا غالبين عليهم بالحجة والبرهان قال ابن كثير: لما بلَّغ عيسى بن مريم رسالة ربه، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلَّت طائفة فجحدوا نبوته، ورموه وأُمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعنة الله، وغلت فيه طائفةٌ من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فيه فرقًا وشيعًا، فمنهم من زعم أن ابنُ

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١٦.
(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٦٣.
(٣) حاشية البيضاوي ٣/ ٤٩٢.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١٩.

الله، ومنهم من قال إِنه ثالث ثلاثة «الأب والابن وروح القدس» ومنهم من قال: إِنه اللهُ -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى(١).

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي:

١ - أسلوب التوبيخ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]؟ وهي «ما» الاستفهامية حذفت ألفها تخفيفًا، والغرض من الاستفهام التوبيخ.

٢ - الإِطناب بتكرار ذكر اللفظ لبيان غاية قبح ما فعلوه ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] وبين ﴿تَقُولُوا۟ .. تَفْعَلُوا۟﴾ طباقٌ.

٣ - التشبيه المرسل المفصَّل ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] أي في المتانة والتراص.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨] استعار نور الله لدينه وشرعه المنير، وشبَّه من أراد إِبطال الدين بمن أراد إِطفاء الشمس بفمه الحقير، على طريق الاستعارة التمثيلية، وهذا من لطيف الاستعارات.

٥ - الاستفهام للترغيب والتشويق ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾؟

٦ - الطباق ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ .. وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾.

٧ - السجع المرصَّع كأنه حبات در منظومة في سلك واحد مثل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦] ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: إِنما قرنت قصة موسى وعيسى في هذه السورة لأنهما من أنبياء بني إِسرائيل، وهما من أعظم أنبيائهم ومن أولي العزم الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز بالثناء والتبجيل.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف»



(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٩٥.



مدنية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* هـذه السـورة الكريمة مدنية وهـي تتناول جانب التشـريع، والمحور الـذي تدور عليه السورة بيان أحكام صلاة الجمعة التي فرضها الله على المؤمنين.

* تناولـت السـورة الكريمة بعثة خاتم الرسـل محمد بـن عبد الله ﷺ وبينـت أنه الرحمة المهـداة، أنقذ الله به العرب من ظلام الشـرك والضلال، وأكرم به الإنسـانية، فكانت رسـالته بلسمًا لأمراض المجتمع البشري، بعد أن كان يتخبط في الظلام.

* ثم تحدثت السـورة عن اليهود، وانحرافهم عن شـريعة الله، حيث كلفوا بالعمل بأحكام التـوراة، ولكنهم أعرضـوا عنها ونبذوهـا وراء ظهورهم، وضربت مثلًا لهـم بالحمار، الذي يحمـل علـى ظهره الكتب الكبيـرة النافعة، ولكنه لا يناله منها إلا العنـاء والتعب، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة.

* ثـم تناولـت أحـكام صـلاة الجمعة، فدعـت المؤمنيـن إلـى المسـارعة لأداء الصلاة، وحرمـت عليهم البيـع وقت الأذان ووقـت النداء لهـا، وختمت بالتحذير من الانشـغال عن الصلاة بالتجارة واللهو كحال المنافقين، الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متثاقلين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا
مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ
مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ
الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ
فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ
الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

اللغَـة: ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ العرب المعاصرين للنبي ﷺ سُـمُّوا بذلك لاشـتهارهم بالأمية وهي عـدم القراءة والكتابـة ﴿يُزَكِّيهِمۡ﴾ من التزكية وهـي التطهير من دنس الشـرك والمعاصي ﴿أَسۡفَارَۢا﴾ جمع سِفْر وهو الكتاب الكبير قال الشاعر:

زَوَامِـلُ لِلْأَسْفَارِ لاَ عِلْمَ عِنْدَهُمْ ... بِـجَـيِّـدِهَـا إِلاَّ كَـعِـلْـمِ الْأَبَـاعِـرِ
لَعَمْرُكَ مَا يَـدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَـدَا ... بِأَوْسَاقِهِ أَوَ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ [١]

﴿هَادُوٓاْ﴾ تدينوا باليهودية ﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾ تفرقوا وانصرفوا.

سَـبَبُ النّزول: عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائمًا، إذْ قدمت عيرٌ من المدينة، فابتدرها أصحابُ رسول الله ﷺ حتى لم يَبْقَ منهم إلا اثنا عشر رجلًا أنـا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله تعالـى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾[٢] الآية.

التفسـير: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ينـزِّه الله ويمجـده ويقدِّسـه كلُّ شـيء في الكـوم، من إنسـان، وحيوان، ونبات، وجمـاد، وصيغةُ المضـارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، فهو تسبيحٌ دائم على الدوام ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ أي هو الإله المالك لكل شيء، والمتصرف في خلقـه بالإيجاد والإعدام ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ أي المقدَّس والمنزَّه عن النقائص، المتصف بصفات الكمـال ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي العزيز في ملْكِه، الحكيم في صُنْعه ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي هـو جـل وعـلا برحمته وحكمتـه الذي بعث في العرب رسـولًا مـن جملتهم، أميًّا مثلهـم لا يقرأ ولا يكتب قال المفسـرون: سُـمي العـرب أميّين لأنهم لا يقـرأون ولا يكتبون، فقد اشـتهرت فيهم الأمِّية كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّـلَام: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُـبُ»[٣] الحديث والحكمةُ في اقتصاره على ذكر الأميين، مع أنه رسـولٌ إلى كافة الخلق، تشـريفُ العـرب حيـث أُضيف صلـوات الله عليهـم إليهم، وكفى بذلك شـرفًا للعـرب ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يقـرأ عليهم آيات القـرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ أي ويطهرهـم من دنس الكفر والذنوب قال ابـن عباس: أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمـان[٤] ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي ويعلمهم مـا يتلى مـن الآيات والسـنة النبويـة المطهـرة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي وإنَّ الحال

---

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٦٦. (ش): البيتان في قوم يجمعون الكتب، ولا يستفيدون منها. زَوَامِلُ: جمع زاملة: مَا يُحمَل عَلَيْهِ من الْإِبِل وَغَيرهَا. الوَسْق: حِمْل البعير. أباعِرُ: جمع بَعير: ما صلَح للركوب والحَمْل من الجِمال، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، يُطلَق على الجمل والنَّاقة. الغَرائر: جمع الغِرَارة: كيس من الخَيْش ونحوه تُوضع فيه الحبوبُ. والخَيْش: نسيج غليظ خشن يُتَّخذ من الكتان وغيره، تصنع منه الأكياس.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وانظر تفسير «روح المعاني» للألوسي ٢٨/ ١٠٤.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٩٢.

والشأن أنهم كانوا من قبل إرسال محمد ﷺ إليهم لفي ضلالٍ واضح، عن النهج القويم، والصراط المستقيم قال ابن كثير: بعث الله محمدًا ﷺ على حين فترةٍ من الرسل، وطموسٍ من السُّبُل[١]، وقد اشتدت الحاجة إليه، فقد كان العرب متمسكين بدين إبراهيم الخليل فبدلوه وغيَّروه، واستبدلوا بالتوحيد شركًا، وباليقين شكًا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها اللهُ، وكذلك كان أهل الكتاب قد بدَّلوا كتبهم وحرفوها، فبعث الله محمدًا ﷺ بشرع عظيم، شامل كامل، فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاج الناس إليه من أمر معاشهم ومعادهم، وجمع له تعالى جميع المحاسن، وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين والآخرين[٢] ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ أي وبعث الرسول إلى قوم آخرين، لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم، وهم جميع من أسلم إلى يوم القيامة[٣]، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ فَلَمَّا قَرَأَ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قَالَ رَجُلٌ: «مَنْ هَؤُلاَءِ يَا رَسُولَ اللهِ؟». فَلَمْ يُرَاجِعْهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى سَأَلَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ. فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلاَءِ».[٤] قال مجاهد: في تفسير الآية: هم الأعاجم وكلُّ من صدَّق النبي ﷺ من غير العرب[٥] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي القويُّ الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي ذلك الشرف الذي امتاز به سيد البشر، وهو كونه معبوثًا إلى كافة الناس، وما شرَّف الله به العرب من نزول القرآن بلغتهم، وإرسال خاتم الرسل إليهم، هو فضلُ اللهِ يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي هو جل وعلا ذو الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.. ثم شرع تعالى في ذم اليهود الذين أكرمهم الله بالتوراة، فلم ينتفعوا بها ولم يطبقوها، وشَبههم بالحمار الذي يحمل الأسفار فقال ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي مثل اليهود الذين أُعطوا التوراة، وكُلِّفوا العمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي ثم لم يعملوا بها، ولم ينتفعوا بهديها ونورها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ أي مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل الكتب النافعة الضخمة، ولا يناله منها إلا التعب والعناء قال القرطبي: شبههم تعالى والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بالحمار يحمل كتبًا، وليس له إلاّ ثقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها[٦] وقال في حاشية البيضاوي: ذمَّ تعالى اليهود بأنهم قُرَّاءُ

(١) (ش): الفترة: زمن انقطاع الوحي ما بين الرسولين لعدم إرسال الله تعالى رسولاً. إذ انقطع الوحي منذ رفْع عيسى عليه السلام إلى السماء. طمَسَ الشَّيءُ، طُمُوسًا: تغيَّرت صورتُه، درَس وامَّحى أثرُه.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٩٧.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٠٤.

(٤) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٩٨.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٩٥.

التوراة، عالمون بما فيها، وفيها آياتٌ دالة على صحة نبوة محمد ﷺ ووجوب الإيمان به، ولكنهم لم ينتفعوا بها، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء في الانتفاع، مع الكَدِّ والتعب[١] ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بئس هذا المثل الذي ضربناه لليهود، مثلًا للقوم الذين كذبوا بآيات الله، الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام[٢] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفق للخير، ولا يرشد للإيمان من كان ظالمًا فاسقًا قال عطاء: هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم للأنبياء[٣]، ثم كذَّب تعالى اليهود في دعوى أنهم أحباء الله فقال ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين تهودوا وتمسكوا بملة اليهودية ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي إن كنتم أولياء الله وأحباءه حقًّا كما تدَّعون ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي فتمنوا من الله أن يميتكم، لتنقلوا سريعًا إلى دار كرامته المعدَّة لأوليائه، إن كنتم صادقين في هذه الدعوة قال أبو السعود: كان اليهود يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] ويدَّعون أن الدار الآخرة لم عند الله، خالصة، ويقولون ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١] فأمر الله رسوله أن يقول لهم إظهارًا لكَذِبهم: إن زعمتم ذلك فتمنوا الموت، لتنقلوا من دار البلاء إلى دار الكرامة، فإنَّ من أيقن بأنه من أهل الجنة، أحبَّ أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي مقرُّ الأكدار[٤]، قال تعالى فاضحًا لهم، ومبينًا كَذِبهم: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ولا يتمنون الموت بحالٍ من الأحوال، بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد عليه السلام وفي الحديث «والذي نفسي بيده، لو تمنوا الموتَ ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات»[٥] قال الألوسي: لم يتمَنَّ أحدٌ الموت منهم، لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه السلام، فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم، وهذه إحدى المعجزات، وجاء في سورة البقرة نفْيُ هذا التمنِّي بلفظ ﴿وَلَن﴾ وهو من باب التفنن على القول المشهور[٦] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي عالمٌ بهم وما صدر عنهم من فنون الظلم

---

(١) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٩٤.

(٢) أقول: هذه الآية الكريمة فيها تعريض بنا معشر المسلمين إن لم نطبق أحكام القرآن ونعمل بمقتضاه وهو على حد قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٥/ ٢٩.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٣.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٩٦. (ش): لم أجده بهذا اللفظ، ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أنه قَالَ: «لَوْ تَمَنَّوْهُ يَوْمَ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ، مَا بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَهُودِيٌّ إِلَّا مَاتَ» رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيرَيْهما» بإسناد ضعيف. وقال ﷺ: «لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ، لَمَاتُوا، وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ» (رواه أحمد، وصححه الألباني، وأحمد شاكر، والأرنؤوط). وقال ﷺ: «لَوْ تَابَعَنِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلاَّ أَسْلَمَ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٦) روح المعاني ٢٨/ ٩٦. (ش): التفنُّن: التنويع.

والمعاصي، وإنما وضع الظاهر موضع الضمير «عليمٌ بهم» ذمًّا لهم، وتسجيلًا عليهم بأنهم ظالمون[١] ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا الموت الذي تهربون منه، وتخافون أن تتمنوه حتى بلسانكم ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ أي فإنه آتيكم لا محالة، لا ينفعكم الفرار منه كقوله تعالى ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] لأنه قدرٌ محتوم، ولا يغني حذرٌ عن قدر ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي ثم ترجعون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم، وفيه وعيدٌ وتهديد.. ثم شرع تعالى في بيان أحكام الجمعة فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي يا معشر المؤمنين المصدّقين بالله ورسوله، إذا سمعتم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة ويُؤذن لها ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾ أي فامضوا إلى سماع خطبة الجمعة وأداء الصلاة، واتركوا البيع والشراء، اتركوا التجارة الخاسرة واسعوا إلى التجارة الرابحة قال في التسهيل: والسعيُ في الآية بمعنى المشْي لا بمعنى الجَرْي[٢] لحديث « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ تَأْتُوهَا وَأَنْتُم تَسْعَوْنَ وَلَكِنِ ائْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ»[٣]. وقال الحسن: واللهِ ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهُوا أن يأتوا الصلاة إلا عليهم السكينة والوقار، ولكنه سعيٌ بالقلوب، والنية، والخشوع[٤] ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي ذلك السعي إلى مرضاة الله، وتركُ البيع والشراء، خيرٌ لكم وأنفع من تجارة الدنيا، فإن نفع الآخرة أجَلُّ وأبْقى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم القويم، والفهم السليم ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ أي فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي فتفرقوا في الأرض وانْبَثُّوا فيها للتجارة وقضاء مصالحكم ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي واطلبوا من فضل الله وإنعامه، فإن الرزق بيده جلَّ وعلا هو المُنعم المتفضل، الذي لا يُضِيع عمَل العامل، ولا يخيِّب أملَ السائل ﴿

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٣.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١١٩.
(٣) أخرجه الستة. (ش): في اصطلاح أهل العلم:
١- الصحيحان: صحيح البخاري، وصحيح مسلم.
٢- رواه الشيخان: البخاري ومسلم.
٣- رواه الثلاثة: أبو داود والترمذي والنسائي.
٤- رواه الأربعة: أصحاب السنن الأربعة: أبوداود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.
٥- رواه الخمسة: أحمد وأصحاب السنن الأربعة: أبوداود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.
٦- رواه الستة: البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة: أبوداود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.
٧- رواه السبعة: رواه الجماعة: الصحيحان: (البخاري ومسلم) والخمسة: أحمد وأصحاب السنن الأربعة: أبوداود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٠٣.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي واذكروا ربكم ذكرًا كثيرًا، باللسان والجَنَان[١]، لا وقتَ الصلاة فحسب ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي كي تفوزوا بخير الدارين قال سعيد بن جبير: ذكرُ الله طاعته، فمن أطاع اللهَ فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكرٍ ولو كان كثير التسبيح[٢]. . ثم أخبر تعالى أنَّ فريقًا من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، ويفضلون العاجل على الآجل فقال ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ هذا عتابٌ لبعض الصحابة الذين انصرفوا عن رسول الله ﷺ وتركوه قائمًا يخطب يوم الجمعة، والمعنى: إذا سمعوا بتجارة رابحة، أو صفقةٍ قادمة، أو شيء من لهو الدنيا وزينتها، تفرقوا عنك يا محمد وانصرفوا إليها، وأعاد الضمير إلى التجارة دون اللهو ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ لأنها الأهم المقصود ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ أي وتركوا الرسول قائمًا على المنبر يخطب قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت عيرٌ من الشام بطعام قدم بها «دحية الكلبي» وكان أصاب أهل المدنية جوعٌ وغلاء سعر وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سرورًا بها[٣]، فلما دخلت العير كذلك انفضَّ أهلُ المسجد إليها، وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر، ولم يبق معه إلا اثنى عشر رجلًا قال جابر بن عبد الله: أنا أحدهم فنزلت الآية[٤] قال ابن كثير: وينبغي أن يُعلم أن هذه القصة كانت لمَّا كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة كما هو الحال في العيدين، كما روى ذلك أبو داود[٥] ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنَّ ما عند الله من الثواب والنعيم، خير مما أصبتموه من اللهو والتجارة ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير من رزق وأعطى، فاطلبوا منه الرزق، وبه استعينوا لنيل فضله وإنعامه.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) (ش): الجَنَان: القلب.

(٢) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٩٦.

(٣) (ش): ما رُوِيَ من أَنَّ التِّجَارَةَ كَانَتْ لِدَحْيَةَ الكلبي، ضعيف، رواه أبو داود في «المراسيل»، وَما رُوِيَ من أنه كَانَ مَعَهَا طَبْلٌ، ضعيفٌ أيضًا ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عن مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، ومقاتل لم يدرك الصحابة ﷺ، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١٢٣): «وَزَعَمَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: أَنَّ التِّجَارَةَ كَانَتْ لِدَحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، وَكَانَ مَعَهَا طَبْلٌ».

(٤) انظر سبب النزول المتقدم.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ (ش): أشار الحافظ ابن كثير في «تفسيره «(٨/ ١٢٤) إلى ضعْف هذا الحديث فقال: «ولكن هاهنا شَيْءٌ يَنْبَغِي أَنْ يُعلَم وَهُوَ: أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ قَدْ قِيلَ: إِنَّهَا كَانَتْ لَمَّا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقَدِّمُ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْخُطْبَةِ، كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «الْمَرَاسِيل»... اهـ. فالحديث ليس في «سنن أبي داود» الذي فيه الصحيح والحسَن والضعيف، ولكن رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «الْمَرَاسِيل» وهو كتاب جمع فيه الأحاديث المرفوعة من التابعين إلى رسول الله، أي التي فيها انقطاع بين النبي ﷺ والتابعين الذين لم يروْه، والحديث المُرسَل من أنواع من الضعيف.٥٠٢.

١ - التشبيه التمثيلي ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، أي: مثلهم في عدم الانتفاع بالتوراة، كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب العظيمة ولا يكون له منها إلا التعب والعناء.

٢ - طباق السلب ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ .. وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾.

٣ - الطباق بين ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٤ - التفنن بتقديم الأهم في الذكر ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ﴾ لأن المقصود الأساسي هو التجارة فقدمها ثم قال ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فقدَّم اللهو على التجارة لأن الخسارة بما لا نفع فيه أعظم، فقدَّم ما هو أهم في الموضعين.

٥ - المجاز المرسل ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أطلق البيع وقصد جميع أنواع المعاملة من بيع وشراء وإِجارة وغيرها.

تنبيه: يوم الجمعة سمي بذلك لاجتماع المسلمين فيه للصلاة، وقد كان يسمى في الجاهلية «يوم العروبة» ومعناه الرحمة كما قال السهيلي، وأول من سمَّاه جمعة «كعب بن لؤي» وأول من صلى بالمسلمين الجمعة «أسعد بن زرارة» صلى بهم ركعتين وذكَّرهم، فسميت الجمعة حين اجتمعوا إِليه، فهي أول جمعة في الإِسلام[٦].

فَائِدَة: كان «عراك بن مالك» إِذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهم إني أجبتُ دعوتك، وصليتُ فريضَتك، وانتشَرْتُ كما أمَرْتَني، فارزُقْني من فضلك وأنت خيرُ الرازقين»[٧].

لطيفَة: التعبير بقوله تعالى ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فيه لطيفة، وهي أنه ينبغي للمسلم أن يقوم إِلى صلاة الجمعة بعزيمة وهمة، وجِدّ ونشاط، لأن لفظ السعي يفيد الجد والعزم، ولهذا قال الحسن البصري: «والله ما هو سعيٌ على الأقدام، ولكنه سعيٌ بالنية والقلوب».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة»



(٦) روح المعاني ٢٨/ ١٠٠. (ش): رواه أبو داود، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني.
(٧) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٠٣.

٦٣ سُورَةُ المُنَافِقُونَ ١١

مدنية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة (المنافقون) مدنية، شأنها شأن سائر السور المدنية، التي تعالج «التشريعات والأحكام» وتتحدث عن الإسلام من زاويته العملية، وهي القضايا التشريعية.

* والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين، حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح، الكاشف لأستار النفاق «سورة المنافقون».

* تناولت السورة الكريمة في البدء أخلاق المنافقين، وصفاتهم الذميمة التي من أظهرها الكذب، ومخالفة الظاهر للباطن، فإنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم، ثم تآمرهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين، وقد فضحتهم السورة وكشفت عن مخازيهم وإجرامهم، فهم تظاهرهم بالإسلام يصدون الناس عن دين الله وينالون من دعوة الإسلام ما لا يناله الكافر المعلن لكفره، ولذلك خطرهم أعظم، وضررهم أكبر وأجسم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

* كما تحدثت السورة الكريمة عن مقالاتهم الشنيعة في حق الرسول ﷺ، واعتقادهم بأن دعوته ستضمحل وتتلاشى، وأنهم بعد عودتهم من «غزوة بني المصطلق» سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة المنورة، إلى غير ما هنالك من أقوال شنيعة.

* وختمت السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من أن ينشغلوا بزينة الدنيا ولهوها ومتاعها عن طاعة الله وعبادته شأن المنافقين، وبينت أن ذلك طريق الخسران، وأمرت بالإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل، فيتحسر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الحسرة والندم.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟
تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

اللغَة: ﴿جُنَّةً﴾ وقاية وسُترة يحفظون بها أنفسهم وأموالهم وفي الحديث «الصوم جُنَّة» أي: وقاية من عذاب الله ﴿فَطُبِعَ﴾ ختم عليها بالكفر، والطَّبْعُ: الخَتْم ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفون عن الحق إلى الضلال، من الإفك وهو الصَّرْف ﴿لَوَّوْا﴾ عطفوا وحرَّكوا يقال: لوَّى رأسه إذا حرَّكه وأداره ﴿يَنفَضُّوا﴾ يتفرقوا ﴿تُلْهِكُمْ﴾ تشغلكم، واللهو: ما لا خير فيه ولا فائدة من القول أو العمل.

سَبَبُ النّزول: روي أن النبيَّ ﷺ غزا «بني المُصطلق» فازدحم الناسُ على ماءٍ فيه، فكان ممن ازدحم عليه «جهجاه بن سعيد: أجير لعمر بن الخطاب، و«سنان الجُهني» حليفٌ لعبد الله بن سلول رأس المنافقين فلطم الجهجاهُ سناناً، فغضب سنان وصرخ ياللأنصار، وصرخ جهجاه يا للمهاجرين، فقال» عبد الله بن سلول «أو قد فعلوها! (والله ما مثلنا ومثل هؤلاء يعني المهاجرين إلا كما قال الأول «سمِّنْ كلبك يأكلك»، أما واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل يعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ وصحبه ثم قال لقومه: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم، ولو قطعتم ذلك عنهم لفروا عن بلدكم، فسمعه «زيد بن أرقم» فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، وبلغ ذلك ابن سلول فحلف أنه ما قال من ذلك شيئًا وكذَّب زيدًا، فنزلت السورة إلى قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ..﴾[1] الآيات.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٢٢، وانظر البخاري. (ش): ضعيف بهذا السياق، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ – رضى الله عنه – قَالَ. كُنْتُ مَعَ عَمِّى فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَىٍّ ابْنَ سَلُولَ يَقُولُ: «لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا. وَقَالَ أَيْضًا لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّى فَذَكَرَ عَمِّى لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَىٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَذَّبَنِى، فَأَصَابَنِى هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِى مِثْلُهُ، فَجَلَسْتُ فِى بَيْتِى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ) إِلَى قَوْلِهِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَىَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَىَّ ثُمَّ قَالَ «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعَنْ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ مَعَنَا نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ، وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبِقُونَا فَيَسْبِقُ الْأَعْرَابِيُّ أَصْحَابَهُ فَيَمْلَأُ الْحَوْضَ، وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً، وَيَجْعَلُ النِّطْعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ، فَأَتَى =

التفسِير: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ أي إذا أتاك يا محمد المنافقون وحضروا مجلسك كعبد الله بن سلول وأصحابه ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي قالوا بألسنتهم نفاقًا ورياءً: نشهد بأنك يا محمد رسولُ الله، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قال أبو السعود: أكَّدوا كلامهم بإنَّ واللام ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للإيذان بأنَّ شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم، وخلوص اعتقادهم، ووفور رغبتهم ونشاطهم(١) ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أي واللهُ جل وعلا يعلم أنك يا محمد رسولُه حقًا، لأنه هو الذي أرسلك، والجملةُ اعتراضية جيء بها لدفع توهم تكذيبهم في دعوة رسالته ﷺ لئلا يتوهم السامع أن قولهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ كذبٌ في حدِّ ذاته قال في التسهيل: وقوله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ليس من كلام المنافقين، وإنما هو من كلام الله تعالى، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إبطالٌ للرسالة، فوسَّطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة(٢) ثم قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي يشهد بكَذِب المنافقين فيما أظهروه من شهادتهم وحَلِفهم بألسنتهم، لأنَّ من قال بلسانه شيئًا واعتقد خلافه فهو كاذب، والإظهار في موضع الإضمار ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ لذمهم وتسجيل هذه الصفة القبيحة عليهم، كما جاءت الصيغة مؤكدة بإنَّ واللام زيادةً في التقرير والبيان ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ أي اتخذوا أيمانهم الفاجرة وقاية وسُترةً يستترون بها من القتل قال الضحاك: هي حَلِفُهم بالله إنهم مسلمون ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

= رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَعْرَابِيَّ فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَتِهِ لِتَشْرَبَ، فَأَبَى أَنْ يَدَعَهُ فَانْتَزَعَ حَجَرًا فَفَاضَ فَرَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ خَشَبَةً، فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الْأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ، فَأَتَى عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ فَأَخْبَرَهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَغَضِبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ يَعْنِي الْأَعْرَابَ، وَكَانُوا يُحَدِّثُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ الطَّعَامِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا انْفَضُّوا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، فَأْتُوا مُحَمَّدًا لِلطَّعَامِ فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلْيُخْرِجِ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ زَيْدٌ: وَأَنَا رِدْفُ عَمِّي، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ وَكُنَّا أَخْوَالَهُ فَأَخْبَرْتُ عَمِّي، فَانْطَلَقَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَلَفَ وَجَحَدَ وَاعْتَذَرَ، فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي، فَجَاءَ إِلَيَّ عَمِّي، فَقَالَ: مَا أَرَدْتَ إِنْ مَقَتَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَذَّبَكَ، وَكَذَّبَكَ الْمُسْلِمُونَ. فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الْغَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ قَطُّ، فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ وَقَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنَ الْهَمِّ، فَأَتَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ «فَعَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي» فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الْخُلْدَ أَوِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَحِقَنِي، فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قُلْتُ: مَا قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ «عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي» فَقَالَ: أَبْشِرْ. ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا « قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُورَةَ الْمُنَافِقُونَ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] حَتَّى بَلَغَ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: ٧] حَتَّى بَلَغَ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي).

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٤. (ش): وفَرَ المالُ وغيرُه، وَفْرًا ووُفورًا: كَثُر واتَّسع.

(٢) «التسهيل» ٤/ ٢١٢.

أي فمنعوا الناسَ عن الجهادِ، وعن الإيمان بمحمد ﷺ قال الطبري: أي أعرضوا عن دين الله الذي بعث به نبيه ﷺ وشريعته التي شرعها لخلقه[١] وقال ابن كثير: إن المنافقين اتقوا الناس بالإيمان الكاذبة، فاغترَّ بهم من لا يعرف جليَّة أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، وهم في الباطن لا يأْلُون الإسلام وأهله خبالًا[٢]، فحصل بذلك ضررٌ كبير على كثير من الناس[٣] ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي قبح عملهم وصنيعهم لأنهم يظهرون بمظهر الإيمان، وهم من أهل النفاق والعصيان، فبئست أعمالهم الخبيثة من نفاقهم وأيمانهم الكاذبة قال الصاوي: وساءَ كـ (بئس) في إرادة الذم، وفيها معنى التعجب[٤] وتعظيم أمرهم عند السامعين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي ذلك الحلف الكاذب والصدُّ عن سبيل الله، بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم قال أبو السعود: أي نطقوا بكلمة الشهادة عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم المجرمين، وما فيه من الإشارة بالبعيد «ذلك» للإشعار ببعد منزلته في الشر[٥] ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم فلا يصل إليها هدى ولا نور ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي فهم لا يعرفون الخير والإيمان، ولا يفرقون بين الحَسَن والقبيح، لَختَم الله على قلوبهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي وإذا رأيتَ هؤلاء المنافقين، أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم، لحُسْنها ونضَارتها وضخامتها ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي وإن يتكلموا تُصْغِ لكلامهم، لفصاحتهم وذلاقة لسانهم[٦] قال ابن عباس: كان ابن سلول رأس المنافقين جسيمًا، وفصيحًا، ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله، وكذلك كان أصحابه إذا حضروا مجلس النبي ﷺ يعجب الناس بهياكلهم[٧] ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي يشبهون الأخشاب المسنَّدة إلى الحائط، في كونهم صورًا خالية عن العلم والنظر، فهم أشباحٌ بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام قال أبو حيان: شُبّهوا بالخشب لعزوب أفهامهم، وفراغ قلوبهم من الإيمان، والجملة التشبيهية وصْفٌ لهم بالجُبْن والخور[٨]، ولهذا قال ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي يظنون لجُبنِهم وهَلَعهم كلَّ نداءٍ وكل صوت، أنهم يُرادون بذلك، فهم دائمًا في خوفٍ ووجل من أن يهتك الله أستارهم، ويكشف أسرارهم قال ابن كثير: كلما وقع أمر أو خوفٌ يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم[٩] قال

(١) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٦٩.
(٢) (ش): لَا يَأْلُونَ جُهْدًا، وَلَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْ عَمَلٍ فِيهِ إِيْذَاءٌ وَإِضْرَارٌ بالإسلام وأهله.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٠٣.
(٤) «حاشية الصاوي» / ٢٠٨.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٥.
(٦) (ش): ذلَق اللِّسانُ، ذَلاقةً: كان حادًّا طَلْقًا.
(٧) «حاشية الصاوي» ٤/ ٢٠٨.
(٨) «البحر المحيط» ٨/ ٢٧٢. (ش): خوِرَ الشخصُ خَوَرًا: خارَ، ضعُف وانكسر.
(٩) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٠٤.

مقاتل: إذا سمعوا نشدان ضالة(١)، أو صياحًا بأي وجه كان، طارت عقولهم، وظنوا ذلك إيقاعًا بهم(٢) ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ أي هم الأعداء الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين وإن أظهروا الإسلام، فاحذَرْهم ولا تأمَنْهم على سرّ، فإنهم عيونٌ لأعدائك ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ جملة دُعَائية أي أخزاهم الله ولعنهم وأبعدهم عن رحمته ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال؟ وكيف تضل عقولهم مع وضوح الدلائل والبراهين؟ وفيه تعجيب من جهلهم وضلالهم، وانصرافهم عن الإيمان بعد قيام البرهان، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا: تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةٌ، وَطَعَامُهُمْ نُهْبَةٌ، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُولٌ، وَلَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دَبْرًا، مُسْتَكْبِرِينَ، لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ، خُشُبٌ بِاللَّيْلِ، صُخُبٌ بِالنَّهَارِ»(٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: هلُمُّوا إلى رسول الله حتى يطلب لكم المغفرة من الله ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ أي حركوها وهزوها استهزاء واستكبارًا ﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي وتراهم يُعرِضون عمَّا دُعوا إليه، وهم متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم، وجيء بصيغة المضارع ليدل على استمرارهم على الإعراض والعناد(٤) قال المفسرون: لمَّا نزلت الآيات تفضح المنافقين وتكشف الأستار عنهم، مشى إليهم أقرباؤهم من المؤمنين، وقالوا لهم: ويلكم لقد افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم، فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه يستغفر لكم، فأبوا وحركوا رءوسهم سخريةً واستهزاءً فنزلت الآية، ثم جاءوا إلى «ابن سلول» وقالوا له: امض إلى رسول الله ﷺ واعترفْ بذنبك يستغفر لك، فلوَّى رأسه إنكارًا لهذا الرأي ثم قال لهم: لقد أشرتم عليَّ بالإيمان فآمنتُ، وأشرتم عليَّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلتُ، ولم يبق لكم إلاَّ أن تأمروني بالسجود لمحمد! ثم بيَّن تعالى عدم فائدة الاستغفار لهم، لأنهم مردوا على النفاق فقال ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ أي يتساوى الأمر بالنسبة لهم، فإنه لا ينفع استغفارك لهم شيئًا، لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله قال الصاوي: والآية للتيئيس من إيمانهم، أي: إن استغفارك يا محمد وعدمه سواء،

---

(١) (ش): نشَدَ الشّيءَ، نَشْدًا ونِشْدانًا: طلَبه وسأَل عنه. والضالة: كلّ ما ضاع وفُقِد.

(٢) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ١١١.

(٣) أخرجه أحمد كذا في ابن كثير ٣/ ٥٠٤. (ش): ضعفه الألباني والأرنؤوط، وحسنه أحمد شاكر. نُهبَة: شيءٌ منهوب. انتهبَ مالَ غيره: نهبه؛ أخذَه قهرًا. (لَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا): إلا تركًا له وإعراضًا عنه. أي لا يقربون المساجد، بل يهجرونها. (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دَبْرًا): دَبْرًا و دُبُرًا: أي: آخرًا، حين كاد الإمام أن يفرغ. (خُشُبٌ بِاللَّيْلِ): أي ينامون الليل لا يصلون. شبههم في تمددهم نيامًا بالخشب المطرّحة. (صُخُبٌ بِالنَّهَارِ): والصخب: الضَجة واضطراب الأصوات للخصام. والمراد رفع أصواتهم وضجيجهم في المجادلات والخصومات وغير ذلك.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٧٣.

فهم لا يؤمنون لسبق الشقاوة لهم[1] ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي لن يصفح الله عنهم لرسوخهم في الكفر، وإصرارهم على العصيان، ثم علَّله بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يُوَفق للإيمان، من كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الرحمن.. ثم زاد تعالى في بيان قبائحهم وجرائمهم فقال ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ أي هم الفجرة الذين قالوا: لا تنفقوا على المهاجرين حتى يتفرقوا عن محمد قال في البحر: والإِشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه، سفَّه أحلامهم في أنهم ظنوا أن رزق المهاجرين بأيديهم، ما علموا أن ذلك بيد الله تعالى، وقولهم ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ هو على سبيل الهزء، إذ لو كانوا مقرين برسالته ما صدر منهم ما صدر، والظاهر أنهم لم ينطقوا بنفس ذلك اللفظ، ولكنه تعالى عبَّر به عن رسوله إكرامًا له وإِجلالًا[2] ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى بيده مفاتيح الرزق يعطي من يشاء ويمنع عن من يشاء، ولا يملك أحدٌ أن يمنع فضل الله عن عباده ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي ولكنَّ المنافقين لا يفهمون حكمة الله وتدبيره، فلذلك يقولون ما يقولون من مقالات الكفر والضلال. ثم عدَّد تعالى بعض قبائحهم وأقوالهم الشنيعة فقال ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي يقولون لئن رجعنا من هذه الغزوة غزوة بني المصطلق وعدنا إلى بلدنا «المدينة المنورة» ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ أي لنخرجنَّ منها محمدًا وصحبه، والقائل هو ابن سلول، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه[3] قال المفسرون: لما قال ابن سلول ما قال ورجع إلى المدينة، وقف له ولده «عبد الله» على باب المدينة واستلَّ سيفه، فجعل الناسُ يمرون به، فلما جاء أبوه قال له ابنه: وراءك، والله لا تدخل المدينة أبدًا حتى تقول: إنَّ رسول الله هو الأعزُّ، وأنا الأذل فقالها، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فإن كنت فاعلًا فمرني فأنا أحمل إليك رأسه! فقال له رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[4] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لله جل وعلا القوة والغلبة ولمن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم، والصيغة تفيد الحصر قال القرطبي: توهموا أن العزة بكثرة الأموال والأتباع، فبيَّن الله أن العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين[5] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ المنافقين لفَرْط جهلهم وغُرورهم لا يعلمون أن العزة والغلبة لأوليائه دون أعدائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما ذكر

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٩.
(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٧٤.
(٣) انظر سبب النزول والمتقدم.
(٤) يستحسن الرجوع إلى سيرة ابن إسحاق ففيها تفصيل للقصة وتوضيح.
(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٢٩. (ش): رواه ابن إسحاق في «السيرة» والبيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد ضعيف.

قبائح المنافقين، نهى المؤمنين عن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد والمعنى: لا تشغلكم أيها المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته، وعن أداء ما افترضته عليكم من الصلاة، والزكاة، والحج، كما شغلت المنافقين قال أبو حيان: أي لا تشغلكم أموالكم بالسعي في نمائها، والتلذذ بجمعها، ولا أولادكم بسروركم بهم، وبالنظر في مصالحهم، عن ذكر الله وهو عام في الصلاة، والتسبيح، والتحميد، وسائر الطاعات[1] ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي ومن تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته، فأولئك هم الكاملون في الخسران، حيث آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي، وفضلوا العاجل على الآجل ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ أي وأنفقوا في مرضاة الله، من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي قبل أن يحلَّ الموتُ بالإنسان، ويصبح في حالة الاحتضار ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي فيقول عند تَيَقُّنِه الموت: يا ربِّ هَلَّا أمْهَلْتَني وأخَّرْتَ موتي إلى زمنٍ قليل! ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي فأتصدق وأحسن عملي، وأصبح تقيًّا صالحًا قال ابن كثير: كلُّ مفرطٍ يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات، ولكن هيهات[2] ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ أي ولن يمهل الله أحدًا أيًّا كان إذا انتهى أجله، ولن يزيد في عمره، وفيه تحريضٌ على المبادرة بأعمال الطاعات، حذرًا أن يجيء الأجل وقد فرَّط ولم يستعد للقاء ربه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مُطَّلِعٌ وعالِمٌ بأعمالكم من خير أو شر، ومجازيكم عليها.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بالقسم وإنَّ واللام ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

٢ - الجملة الاعتراضية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ جاءت معترضة بين الشرط وجوابه لبيان أنهم ما قالوا ذلك عن اعتقاد، ولدَفْع توهُّم تكذيبهم في دعواهم الشهادة بالرسالة، والأصلُ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فجاءت الجملة اعتراضية بينهما.

٣ - الاستعارة ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ فإن أصل الجنَّة ما يُستتر به ويُتقى به المحذور كالترس، ثم استعمل هنا استعارة لأنهم كانوا يُظهرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم.

٤ - الطباق بين ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وبين ﴿الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٥ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ وهو من روائع التشبيه.

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٧٤.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٠٦.

٦ – طباق السلب ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾.
٧ – الجملة الدُّعَائية ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهي دعاءٌ عليهم باللعنة والخزي والهلاك.
٨ – توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهو كثير في القرآن يزيد في رونق الكلام.

تنبيه: النفاق لم يكن بمكة وإنما كان بها الكفر، ولم يظهر النفاق إلا بالمدينة المنورة حين عزَّ الإسـلام وكثر أنصاره، وقد كان المنافقون يظهرون الإسـلام لصون دمائهم وأموالهم كما قال الشاعر:

وَمَـا انْتَسَبُوا إِلَـى الْإِسْـلَامِ إِلَّا ... لِـصَـوْنِ دِمَـائِـهِـمْ أَن لَا تُـسَـالَا

فَائِـدَة: العـزةُ غير الكبر، ولا يحلّ للمسـلم أن يُذِلَّ نفسـه، فالعزة معرفة الإنسـان بحقيقة نفسـه، والكبر جهل الإنسـان بنفسه، قيل للحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهما: إن الناس يزعمون أن فيـك كـبرًا وتيهًا فقال: ليس بتيه[1] ولكنه عزة المسـلم ثـم تلا الآية ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

لطيفَـة: عن ابن عباس رَضِـيَ اللهُ عَنْهما قال: «من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاةٌ فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجلٌ يا ابن عباس: اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار!! فقال: سـأتلو عليكم بذلـك قرآنًا ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ ..﴾ الآية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المنافقون»



(١) (ش): تاه الشَّخصُ في مشيه تَيْهًا وتِيهًا وتَيهانًا: تكبَّر.

سُورَةُ التَّغَابُنِ ٦٤ — ١٨

مدنية وآياتها ثماني عشرة

بين يدي السورة

* سورة التغابن من السور المدنية التي تعنى بالتشريع، ولكن جوها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.
* تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته، ثم تناولت موضوع الإنسان المعترف بربه، والإنسان الكافر الجاحد بآلاء الله.
* وضربت الأمثال بالقرون الماضية، والأمم الخالية، التي كذبت رسل الله، وما حل بهم من العذاب والدمار، نتيجة لكفرهم وعنادهم وضلالهم.
* وأقسمت السورة على أن البعث حق لابد منه، أقر به المشركون أو أنكروه.
* وأمرت بطاعة الله وطاعة رسوله، وحذرت من الإعراض عن دعوة الله.
* كما حذرت من عداوة بعض الزوجات والأولاد، فإنهم كثيرًا ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة.
* وختمت السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه، وحذرت من الشح والبخل، فإن من صفات المؤمن الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وهو شطر الجهاد في سبيل الله.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ
فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ
بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ
وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

اللغَة: ﴿صُوَرَكُمْ﴾ التصوير: التخطيط والتشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يتميز بها عن غيره ﴿نَبَؤُاْ﴾ النبأ: الخبر الهام ﴿وَبَالَ﴾ الوبال: العقوبة والنكال ﴿زَعَمَ﴾ ظنَّ، والزعمُ هو القول بالظن ومنه قولهم «زعموا مطيةُ الكذب» قال شريح: «لكل شيءٍ كُنيةٌ، وكُنيةُ الكذب زعموا»[1] ﴿ٱلتَّغَابُنِ﴾ الغَبْنُ ومعناه: النقص يقال: غَبَنه غَبْنًا إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته، وسمي يوم القيامة يوم التغابن، لأنه يظهر فيه غَبْن الكافر بتركه الإيمان، وغَبْن المؤمن بتقصيره في الإحسان.

سبب النزول: روى أن رجالًا من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يهاجروا إلى النبي ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا: صبرنا على إسلامكم ولا صبر لنا على فراقكم! فأطاعوهم وتركوا الهجرة فأنزل الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ...﴾[2] الآية.

التفسير: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ينزه الله تعالى ويمجده جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات، تنزيهًا دائمًا مستمرًّا بدون انقطاع، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي له جل وعلا المُلك التام والتصرف الكامل في خلقه، وهو المستحق للثناء وحده، لأن جميع النعم منه سبحانه وتعالى، وقدَّم

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٣٥. (ش): قال ﷺ: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا». (رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني). (بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ) الْمَطِيَّةُ بِمَعْنَى الْمَرْكُوبِ (زَعَمُوا) الزَّعْمُ - بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ - قَرِيبٌ مِنَ الظَّنِّ أَيْ أَسْوَأُ عَادَةٍ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَّخِذَ لَفْظَ زَعَمُوا مَرْكَبًا إِلَى مَقَاصِدِهِ فَيُخْبِرَ عَنْ أَمْرٍ تَقْلِيدًا مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ فَيُخْطِئَ وَيُجَرَّبَ عَلَيْهِ الْكَذِبُ. فالرَّجُلَ إِذَا أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى بَلَدٍ رَكِبَ مَطِيَّةً وَسَارَ حَتَّى يَبْلُغَ حَاجَتَهُ فَشَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ مَا يُقَدِّمُهُ الرَّجُلُ أَمَامَ كَلَامِهِ وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ زَعَمُوا كَذَا وَكَذَا بِالْمَطِيَّةِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَقْصِدُهُ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْإِخْبَارَ بِخَبَرٍ مَبْنَاهُ عَلَى الشَّكِّ وَالتَّخْمِينِ دُونَ الْجَزْمِ وَالْيَقِينِ قَبِيحٌ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِخَبَرِهِ سَنَدٌ وَثُبُوتٌ وَيَكُونَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ ذَلِكَ لَا مُجَرَّدَ حِكَايَةٍ عَلَى ظَنٍّ وَحُسْبَانٍ.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢١٢. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قَالَ: هَؤُلَاءِ رِجَالٌ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَبَى أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ أَنْ يَدَعُوهُمْ أَنْ يَأْتُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَوُا النَّاسَ قَدْ فَقِهُوا فِي الدِّينِ هَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ الآيَةَ. (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

الجار والمجرور فيهما لإفادة حصر الملك والحمد فيه سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل شيء، يُغْنِي ويُفْقِر، ويُعِزّ ويُذِلّ، وإذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، وهو كالدليل لما تقدم من أنَّ الملك والحمد له سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ هذا تفصيلٌ لبعض آثار قدرته، أي: هو الذي خلقكم أيها الناس بهذا الشكل البديع المحكم، فكان يجب على كل واحدٍ منكم الإيمان به، لكنْ منكم من كفر بربه، ومنكم من آمن وصدَّق بخالقه قال الطبري: أي منكم كافرٌ بخالقه وأنه هو الذي خلقه، ومنكم مصدِّق به موقنٌ أنه خالقه وبارئه[1]، وقدَّم الكافر على المؤمن، لكثر الكفار وقلة المؤمنين ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عالمٌ بأحوالكم، مطَّلعٌ على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من شئونكم وسيجازيكم عليها،.. ثم فصَّل تعالى آثار قدرته ودلائل وحدانيته فقال ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالحكمة البالغة، المتضمنة لمصالح الدنيا والدين، لا عبثًا ولا لهوًا ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة وأجمل شكل، فأتقَنَ وأحكَمَ خَلْقَكم وتصويرَكم كقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] فإن من نظر في شكل الإنسان وهيئته وتناسُب أعضائه، علم أن صورته أحسن صورة بالنسبة لسائر أنواع الحيوان، ومن حسن صورته أنه خُلِق مُنتصبًا غير مُنْكَبٍّ على وجهه[2] ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وإليه تعالى وحده المرجع والمآب، فيجازي كلًا بعمله ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يعلم ما في الكائنات من أجرام ومخلوقات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي ويعلم ما تُخْفُونه وما تُظهِرونه من نواياكم وأعمالكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في الصدور من الأسرار والخفايا، فكيف تخفى عليه أعمالكم الظاهرة؟ قال في البحر: نبَّه تعالى بعلمه بما في السمواتِ والأرض، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه بما أَكَنَّته الصدور، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء، لا من الكليات ولا من الجزئيات، فابتدأ بالعلم الشامل، ثم بسرِّ العباد وعلانيتهم، ثم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا كله في معنى الوعيد، إذ هو تعالى المجازي عليه بالثواب والعقاب[3].

ثم ذكَّرهم تعالى بما حلَّ بالكفار قبلهم فقال ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي ألم يأتكم يا معشر قريش خبر كفار الأمم الماضية كقوم عاد وثمود، ماذا حَلَّ بهم من العذاب والنكال! ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي فذاقوا العقوبة الوخيمة على كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ

(١) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٧٨.

(٢) فإن قيل: إن بعض الناس قبيح المنظر والشكل، فالجواب أن ذلك لا يُخرِجه عن حسن الصورة الإنسانية، وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٧٧.

﴿أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديد موجع ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة، بسبب أنه جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات، والبراهين الساطعات، الدالة على صدقهم ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ أي فقالوا على سبيل الاستغراب والتعجب: أرسلٌ من البشر يصيرون هداةً لنا قال الرازي: أنكروا أن يكون الرسول بشرًا، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجرًا[1]، وذلك لقلة عقولهم وسخافة أحلامهم ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾ أي فكفروا بالرسول، وأعرضوا عن الإيمان واتباع هدى الرحمن ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أي استغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم قال الطبري: أي استغنى اللهُ عنهم، وعن إيمانهم به وبرسله[2] ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي غنيٌّ عن خلقه، محمودٌ في ذاته وصفاته، لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، لأنه مُستَغْنٍ عن العالمين.. ثم أخبر تعالى عن إنكارهم للبعث بعد تكذيبهم للرسالة فقال ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ أي ادَّعى كفار مكة وظنوا أن الله لن يبعثهم من قبورهم بعد موتهم أبدًا ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس الأمر كما زعمتم، وأقسم بربي لتخرجن من قبوركم أحياء ولتبعثنَّ ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي ثم لَتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وتُجْزَوْن بها ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي وذلك البعث والجزاء، سَهْلٌ هَيِّنٌ على الله، لأن الإعادة أسهل من الابتداء قال الرازي: أنكروا البعث بعد أن صاروا ترابًا، فأخبر تعالى أن إعادتهم أهونُ في العقول من إنشائهم[3].. ولما بالغ في الإخبار عن البعث، وذكر أحوال الأمم المكذبة، أمر بالاعتصام بالإيمان والتمسك بالقرآن فقال ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ أي فصدِّقوا بالله وبرسوله وبهذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ فإنه النور الوضاء، المبدّد للشبهات، كما يبدد النور الظلمات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ أي واذكروا ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الخلائق كلها في صعيد واحد للحساب والجزاء قال ابن كثير: سمُي «يوم الجمع» لأن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمِعهم الداعي ويَنْفُذُهم البصر، كقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣][4] ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي ذلك هو اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافر وخسارته بتركه الإيمان، وذلك أن المؤمنين اشتروا الجنة بترك الدنيا، واشترى الكفار النار بترك الآخرة، فظهر غبن الكافرين قال الخازن: وأصله من الغبن وهو أخذ الشيء بدون قيمته، والمغبونُ من غُبن

(١) «تفسير الفخر الرازي» ٣٠/ ٢٣.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٧٨.
(٣) «تفسير الفخر الرازي» ٣٠/ ٢٣.
(٤) تفسير «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٠٩.

أهلـه ومنازلـه في الجنة، وذلك لأن كل كافر له أهلٌ ومنزل في الجنة لو أسـلم[١]، فيظهر يومئذٍ غبن كل كافر بتَرْكه الإيمان، ويظهر غبْن كل مؤمن بتقصيره في الإحسـان[٢] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ أي ومـن يُصَـدِّق بالله ويعمل عملًا صالحًـا، يَمْحُ الله تعالى عنه ذنوبـه ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويُدْخِلْه جنـات النعيم، التي تجري من تحت أشـجارها وقصورها أنهارُ الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي مقيمين في تلك الجنات أبد الحياة، لا يموتون لا يُخرجون منها ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه، والسـعادة التي لا سـعادة بعدها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وقدرته، وكذبوا بالدلائل الدالة على البعث وبآيات القرآن الكريم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي أولئك مآلهم جهنم، ما كثين فيها أبدًا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبئسـت النار مرجعًا ومسـتقرًّا لأهل الكفر والضلال.. ثم أخبر تعالى بـأن كل ما يحدث في الكون بقضائه وإرادته فقـال ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ما أصاب أحدًا مصيبةٌ في نفسـه أو مالـه أو ولده، إلا بقضاء الله وقدره ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أي ومـن يُصَـدِّق بالله ويعلم أن كل حادثة بقضائه وقدره، يَهْدِ قلبـه للصبر والرضا ويُثَبِّتْه على الإيمـان قـال ابن عباس: يهدِ قلبه لليقين، حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، ما أخطأه لم يكن ليصيبه[٣] وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضَى بها ويُسَلِّم لقضاء الله[٤] ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو الله تعالى عالمٌ بكل الأشـياء، لا يخفى عليه شـيء في الأرض ولا في السـماء قال القرطبي: أي لا يخفى عليه تسـليمُ مَن انقادَ وسَـلَّم لأمره، ولا كراهـة من كرهه[٥] ولم يرض بقضائـه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسـوله في كل ما شرع لكم من الأوامر والنواهي، وكرَّر الأمر للتأكيد ولبيان أن طاعة الرسول واجبة كطاعـة الله ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فـإن أعرضتم عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه من الهداية والإيمان، فليس عليه ضرر إنما ضرر ذلك عليكم، إذ ليس على الرسـول إلا تبليغ الرسالة وقد أدى ما عليه، والله ينتقم ممن عصاه وخالف أمره ﴿اللَّهُ لَا

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ لَهُ مَنْزِلَانِ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، لَوْ أَسَاءَ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً» رواه البخاري.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ١٠٤. (ش): قَالَ: «لَوْ أَنَّ عَبْدًا خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ، إِلَى أَنْ يَمُوتَ هَرَمًا فِي طَاعَةِ اللهِ، لَحَقَّرَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَلَوَدَّ أَنَّهُ رُدَّ إِلَى الدُّنْيَا كَيْمَا يَزْدَادَ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ» (رواه أحمد، وصححه الألباني).

(٣) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٨٠.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥١٠.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٤٠.

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي اللهُ جـل وعلا لا معبود سـواه[١]، ولا خالق غيـره، عليه الاعتماد وإليه المرجع والمآب ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي فعليه وحده توكلوا أيها المؤمنون في جميع أموركـم قال الصاوي: وهو تحريضٌ وحَثٌّ للنبي ﷺ علـى التوكل على الله، والالتجاء إليه، وفيـه تعليمٌ للأمة ذلـك[٢]، بأن يلتجئوا إلـى الله ويثقوا بنصـره وتأييده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ أي يـا معشـر المؤمنيـن، إن بعـض الزوجات والأولاد أعداء لكم، يصدونكم عن سـبيل الله، ويثبطونكم عن طاعة الله، فاحذروا أن تستجيبوا لهم وتطيعوهم قال المفسرون: إن قومًا أسلموا وأرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فندموا وأسـفوا وهمُّوا بمعاقبة أزواجهم وأولادهـم فنزلت الآية الكريمة[٣]، والآية نعم كلَّ من انشغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾ أي وإن عفوتم عنهـم في تثبيطكم عن الخير، وصَفَحْتم عما صدر منهم، وغفرتم لهم زلاتهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن الله واسـع المغفرة عظيم الرحمـة، يعاملكم بمثل ما عاملتم ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ أي ليسـت الأموالُ والأولادُ إلا اختبارًا وابتلاءً من الله تعالى لخلقه، ليعلـم مـن يطيعه ومن يعصيه، وقدَّم المـال لأن فتنته أشـدُّ ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي وما عند الله من الأجر والثواب أعظم من متاع الدنيا، فلا تشغلكم الأموال والأولاد عن طاعة الله، والآيـة ترغيـبٌ في الآخرة وتزهيدٌ في الدنيا، وفي الأمـوال والأولاد التي فتن الناسُ بها ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي ابذلوا أيها المؤمنون في طاعة الله جهدكم وطاقتكم، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون قال المفسرون: هذا في المأمورات وفضائل الأعمال يأتي الإنسان منها بقدر طاقته، وأمـا في المحظـورات فلا بدَّ مـن اجتنابها بالكلية ويـدل عليه ما روي عن النبـي ﷺ أنه قال: «مَـا نَهَيْتُكُـمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْـتَطَعْتُمْ»[٤] ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ أي واسمعوا ما توعظون به، وأطيعوا فيما تُؤمرون به وتُنهون عنه ﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ أي وأنفقـوا في سـبيل الله من أموالكم، يكنْ خيرًا لأنفسـكم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي ومَـن سَـلِمَ من البخـل والطمع الذي تدعو إليه النفس، فقـد فاز بكل مطلوب ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ أي إذا تصدقتـم في سـبيل الله عـن طيب نفـس، فإن الله يضاعف لكم الأجر والثـواب، وفي تصوير الصدقة بصورة القرض تلطفٌ بليغ في الإحسـان إلى الفقـراء ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ أي ويمحُ عنكم سـيئاتكم ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي

---

(١) (ش): الصواب: لا معبود بحق سواه، لأن هناك معبودات بغير حق.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢١٢.

(٣) انظر سبب النزول المتقدم.

(٤) أخرجه الشيخان.

شاكرٌ للمحسن إحسانه، حليمٌ بالعباد حيث لا يُعاجِلُهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب وحضر، لا تخفى عليه خافية ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب في ملكه الحكيم في صنعه.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق في الاسم مثل ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ وكذلك بين ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ والطباق في الفعل مثل ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٢ - تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي له وحده الملك والحمد.

٣ - الإستعارة اللطيفة ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ أطلق على القرآن النور بطريق الاستعارة، فإن القرآن يزيل الشبهات، كما يزيل النور الظلمات.

٤ - المقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا ..﴾ الآية وبين ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الآية.

٥ - الجناس الناقص ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لاختلاف الحركات في الشكل.

٦ - جناس الاشتقاق ﴿أَصَابَ .. مُّصِيبَةٍ﴾ و ﴿يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾.

٧ - الإطناب بتكرار الفعل زيادة في التأكيد واعتناءً بشأن الطاعة ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

٨ - صيغة المبالغة ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ لأن (فعل وفعيل) من صيغ المبالغة.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ شبَّه الإنفاق في سبيل الله والتصدق على الفقراء، بمن يُقرض الله قرضًا واجب الوفاء وذلك بطريق التمثيل، وهو من لطيف الاستعارة وبديع العبارة.

١٠ - السجع المرصَّع لتوافق الفواصل مثل ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التغابن»



سُورَةُ الطَّلَاقِ

٦٥ — ١٢

مدنية وآياتها اثنتا عشرة

بين يدي السورة

* سورة الطلاق مدنية وقد تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين، كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته، وما يترتب على الطلاق من العدة، والنفقة، والسكنى، وأجر المرضع إلى غير ما هنالك من أحكام.

* وتناولت السورة الكريمة في البدء أحكام الطلاق -الطلاق السني، والطلاق البدعي- فأمرت المؤمنين بسلوك أفضل الطرق، عند تعذر استمرار الحياة الزوجية، ودعت إلى تطليق الزوجة في الوقت المناسب وعلى الوجه المشروع، وهو أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، ثم يتركها إلى انقضاء عدتها.

* وفي هذا التوجيه الإلهي دعوة للرجال أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية، فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله[1]، ولولا الضرورات القسرية لما أبيح الطلاق لأنه هدم للأسرة.

* ودعت السورة إلى إحصاء العدة لضبط انتهائها، لئلا تختلط الأنساب، ولئلا يطول الأمد على المطلقة فيلحقها الضرر، ودعت إلى الوقوف عند حدود الله، وعدم عصيان أوامره.

* وتناولت السورة أحكام العدة، فبينت عدة اليائس التي انقطع عنها دم الحيض لكبر أو مرض، وكذلك عدة الصغيرة، وعدة الحامل فبينته أوضح بيان مع التوجيه والإرشاد.

* وفي خلال تلك الأحكام التشريعية تكررت الدعوة إلى «تقوى الله» بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين، كما وضحت أحكام السكنى والنفقة.

* وختمت السورة بالتحذير من تعدي حدود الله، وضربت الأمثلة بالأمم الباغية التي عتت عن أمر الله، وما ذاقت من الوبال والدمار، ثم أشارت إلى قدرة الله في خلق سبع سماوات طباق، وخلق الأرضين، وكلها براهين على وحدانية رب العالمين.

---

(١) (ش): حديث «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللهِ الطَّلَاقُ» (رواه أبو داود، وابن ماجه، وضعفه الألباني). وعَنِ الأَعْمَش عَنْ أَبِى سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِىءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِىءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ قَالَ فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ». قَالَ الأَعْمَشُ أُرَاهُ قَالَ «فَيَلْتَزِمُهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

اللغة: ﴿ٱلْعِدَّةَ﴾ المدة التي تُحْتَبَس فيها المرأةُ لمعرفة براءة رحِمِها ﴿وَأَحْصُواْ﴾ اضبطوا بطريق العَدَد ﴿حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه ﴿وُجْدِكُمْ﴾ طاقتكم ووُسْعكم ﴿ٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتُم ﴿وَكَأَيِّن﴾ كثير ﴿عَتَتْ﴾ تكبرَتْ وتجبرَتْ وأعرضَتْ ﴿نُّكْرًا﴾ منكرًا شنيعًا وفظيعًا ﴿خُسْرًا﴾ خسارًا وهلاكًا.

سَبَبُ النّزول: أ- روى البخاري أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ - رضي الله عنهما - طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَغَيَّظَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «لِيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فَتِلْكَ الْعِدَّةُ والتي أمرَ بها اللهُ عز وجل»[1].

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

ب- وروي عن أنس قال طلّق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: راجعْها فإنها صوَّامة قوَّامة، وهي من أزواجِك ونسَائِك في الجنة[١].

ج - ورُوِي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ﴾ [البقرة:٢٢٨] قال جماعة من الصحابة يا رسول الله: فما عدةُ مَن لا قُرء لها من صغر أو كِبَر فنزلت ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾ الآية[٢].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الخطابُ للنبي ﷺ والحكم عام له ولأمته، وخصَّ هو بالنداء ﷺ تعظيمًا له، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا أي افعل أنت وقومك، فهو نداء على سبيل التكريم والتعظيم قال القرطبي: الخطابُ للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجماعة ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ تعظيمًا وتفخيمًا[٣] والمعنى: يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي فطلقوهن مستقبلاتٍ لعدتهن، وذلك في الطهر، ولا تطلقوهن في الحيض قال مجاهد: أي طاهرًا من غير جماع لقوله ﷺ: «فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فَتِلْكَ الْعِدَّةُ والتي أمرَ بها اللهُ عز وجل»[٤] قال المفسرون: وإنما نُهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتتضرر، ولأن حالة الحيض منفِّرة للزوج، تجعله يتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهرًا، وكونه لم يجامعها في ذلك الطهر، لئلا يحصل من ذلك الوطء حملٌ، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وفي ذلك ضرر ظاهر[٥] ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ أي اضبطُوها وأكمِلوها ثلاثة أقراء كاملة لئَلَّا تختلط الأنساب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ أي خافوا الله ربَّ العالمين، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي لا تُخرجُوهن من مساكنهم، بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضِي عدتُهن ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ أي ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضي عدتهن، إلا إذا قارفت المطلقة عملًا قبيحًا كالزنى فتخرج لإقامة الحد عليها قال في التسهيل: نهى الله سبحانه وتعالى أن يُخرج الرجلُ المرأة المطلّقة من المسكن الذي طلقها فيه، ونهاها

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥١٢. (ش): ضعيف، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٢) روح المعاني ٢٨/ ١٣٧. (ش): رُوِيَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: « لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي عَدَدٍ مِنْ عَدَدِ النِّسَاءِ قَالُوا: قَدْ بَقِيَ عَدَدٌ مِنَ النِّسَاءِ لَمْ يُذْكَرْنَ الصِّغَارُ وَالْكُبَّارُ، وَلَا مَنِ انْقَطَعَتْ عَنْهُنَّ الْحَيْضُ، وَذَوَاتُ الْأَحْمَالِ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْآيَةَ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] (ضعيف، رواه الحاكم والبيهقي).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٤٨.

(٤) الحديث في الصحيحين وانظر سبب النزول المتقدم.

(٥) انظر حكمة التشريع في كتابنا «روائع البيان» ٢/ ٦٠٤.

هـي أن تخـرج باختيارها، فلا يجوز لها المبيـت خارجًا عن بيتها، ولا أن تغيـب عنه نهارًا إلا لضرورة التصرف، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة، واختلف في الفاحشة التي تبيح خروج المعتـدة فقيل: إنها الزنى فتخرج لإقامة الحد عليها[1]، وقيل: إنه سـوء الكلام مع الأصهار[2] وبذاءة اللسـان فتخرج ويسـقط حقها من السـكنى، ويؤيده قراءة «إلا أن يَفْحُشْـن عليكم»[3] ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي وهذه الأحكام هي شرائع الله ومحارمه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي ومن يخرج عن هذه الأحكام، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، فقد ظلم نفسه بتعريضهـا للعقـاب، وأضرَّ بها حيث فوَّت على نفسـه إمكانَ إرجاع زوجتـه إليه قال الرازي: وهذا تشـديدٌ فيمن يتعدى طلاق السـنة، ومن يطلق لغيـر العدة ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي لا تعـرف أيها السـامع ماذا يُحـدِث اللهُ بعد ذلك الطلاق مـن الأمر؟ فلعل الله يقلّـب قلبـه مِن بُغْضِها إلى محبَّتها، ومن الرغبة عنها إلـى الرغبة فيها، فيجعله راغبًا في زوجته بعدمـا كان كارهًـا لها قال ابن عباس: يريـد الندم على طلاقها، والمحبـة لرجعتها في العدة[4] ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي فـإذا شَـارَفْن علـى انقضاء العدة وقارَبْـنَ ذلك[5] ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فراجِعُوهـنَّ إلـى عصمـة النكاح مع الإحسـان في صحبتهن كما أمر الله، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسـهن قال المفسـرون: الإمسـاك بالمعروف هو إحسـان العشـرة وتَوْفِيـة النفَقَة[6]، من غير قصـد المضارة في الرجعة لتطـول عليها العدة، والفراق بالمعروف هو أداء الصَّداق، والمتعة عند الطلاق، والوفاء بالشـروط مع تَوْفِيَة جميع حقوقها ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي وأَشـهِدوا عند الطلاق أو الرجعة، شخصين من أهل العدالة والاسـتقامة ممن تثقون في دينهما وأمانتهما قال في البحر: وهذا الإشـهاد مندوبٌ إليه

(١) تفسير الفاحشة بالزنى هو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة، وروى عن ابن عباس أيضًا أنه البذاء باللسان على الأحماء وهو قول أبي بن كعب.

(٢) (ش): صِهْر: قريب بالزَّواج.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٢٦. (ش): ليست بقراءة متواترة، ولم أجدها في كتب القراءات الشاذة، كـ«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» لابن جني الموصلي.

(٤) قال ابن القيم: «إن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق، لما فيه من انفصام عُرَى الزوجية، وموافقة عدوه إبليس حيث يفرح بافتراق الزوجين، وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة، شرعه على وجه تحصل به المصلحة، وتندفع به المفسدة وحرمه على غير ذلك الوجه، فشرع له أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، طلقةً واحدة، ثم يتركها حتى تنقضي عدتُها، فإن زالت أسباب الخلاف وحصلت الموافقة كان له سبيل إلى إعادتها، وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار، فهذا هو الذي شرعه وأذن فيه»! نقلًا عن «محاسن التأويل» ١٦/ ٥٨٣٢. (ش): راجع أول تعليق في السورة.

(٥) (ش): شارَف الشيءَ: قارَبَه، دنَا منه.

(٦) (ش): وفَّى الشّخصَ حقَّه، تَوْفِيةً: أوفَاه؛ أعطاه إيّاه تامًّا، أتمَّ ما وعده به.

عند أبي حنيفة كقوله تعالى ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وعند الشافعية واجبٌ في الرجعة، مندوبٌ إليه في الفرقة[١] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أي اشهدوا بالحق دون تحيز لأحد، خالصًا لوجه الله تعالى من غير تبديل ولا تغيير، ودون مراعاةٍ للمشهود له أو المشهود عليه ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي هذا الذي شرعناه من الأحكام، إنما ينتفع ويتعظ به المؤمن الذي يخشى الله، ويخاف الحساب والعقاب في الدار الآخرة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي ومن يراقب الله ويقف عند حدوده، يجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيقٍ مخرجًا، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يعلمه قال مجاهد: كنت عند ابن عباس فجاءه رجلٌ فقال: إنه طلَّق امرأته ثلاثًا، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب أحموقته[٢] ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس!! والله تعالى يقول ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجًا، عصيت ربك وبانت منك امرأتك[٣] وقال المفسرون: الآية عامة وقد «نزلت في «عوف بن مالك الأشجعي» أسر المشركون ابنه، فأتى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال: إن العدوَّ أسر ابني وجزعتْ أمه فما تأمرني؟ فقال ﷺ له: «اتق الله واصبر، وآمرك وإياها أن تستكثروا من قول» لا حول ولا قوة إلا بالله «ففعل هو وامرأته، فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها» فنزلت ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٤] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي ومن يعتمد على الله، ويثق به فيما أصابه ونَابَه[٥]، فإن الله كافيه قال الصاوي: أي من فوَّض إليه أمره كفاه ما أهَمَّه، والأخذُ بالأسباب لا يُنافي التوكل، لأنه مأمور به ولكنْ لا يعتمد على تلك الأسباب[٦]، وفي الحديث « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا »[٧] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي نافذُ أمْره في جميع خلقه، يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء قال في التسهيل: وهذا حضٌّ على التوكل وتأكيدٌ له، لأن العبد إذا خلقه، يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء قال في التسهيل: وهذا حضٌّ على التوكل وتأكيدٌ له، لأ، العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله، توكَّل على الله

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٨٢.
(٢) (ش): الأحموقة: مَا يصدر عَن الشَّخْص فيُوصَم بالحماقة.
(٣) عن محاسن التأويل ١٦/ ٥٨٣٨.
(٤) انظر «القرطبي» ١٨/ ١٦٠، و«الطبري» ٢٨/ ٩٠. (ش): ضعيف جدًّا، رواه الحاكم، والواحدي في «أسباب النزول».
(٥) (ش): نابَه أمرٌ: أصابه، نزل به.
(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢١٥.
(٧) أخرجه الترمذي. (ش): صححه الألباني. تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا: تغدو بكرةً وهي جِياعٌ، وتروتح عِشاءً وهي ممتلئةُ الأجواف.

وحده ولم يُعَوِّل على سواه(١) ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي قد جعل الله لكل أمرٍ من الأمور، مقدارًا معلومًا ووقتًا محدودًا، حسب الحكمة الأزلية قال القرطبي: أي جعل لكل شيءٍ من الشدة والرخاء أجلًا ينتهي إليه(٢).. ثم بيَّن سبحانه حكم المطلَّقة التي لا تحيض لصغرها أو لكبر سنها فقال ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي والنسوة اللواتي انقطع حيضهن لكبر سنهنَّ، إن شككتم وجهلتم كيف عدتهن؟ فهذا حكمهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي فعدةُ الواحدة منهن ثلاثة أشهر، كل شهرٍ يقوم مقام حيضة ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي وكذلك اللواتي لم يحضن لصغرهن عدتهن ثلاثة أشهر ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي والمرأة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل، سواءً كانت مطلقة، أو متوفى عنها زوجها ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي ومن يخش الله في أقواله وأفعاله، ويجتنب ما حرَّم الله عليه، يسهِّل عليه أمره ويوفقه لكل خير ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتأتمروا به، وتعملوا بمقتضاه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي ومن يتَّق ربَّه يَمْحُ عنه ذنوبه، ويضاعِف له الأجر والثواب قال الصاوي: كرر التقوى لعلمه سبحانه وتعالى أن النساء ناقصات عقلٍ ودين، فلا يصبر على أمورهن إلا أهل التقوى(٣) وقال في البحر: لمَّا كان الكلام في أمر المطلقات، وكنَّ لا يُطَلَّقْن إلا عن بُغضٍ أزواجهنَّ لهنَّ، وقد ينسب الزوج إليها ما يشينُها وينفِّر الخُطَّاب عنها، فلذلك تكرر الأمر بالتقوى، وجاء مُبرَّزًا(٤) في صورة شرط وجزاء ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل﴾(٥) الآية ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها، على قدر طاقتكم ومقدرتكم، فإن كان موسرًا وسَّع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيرًا فعلى قدر الطاقة ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ أي ولا تضيقوا عليهن في السكنى والنفقة، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ﴾ أي وإن كانت المطلَّقة حاملًا ﴿فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي فعلى الزوج أن ينفق عليها ولو طالت مدة الحمل حتى تضع حملها ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي فإذا ولدت ورضيت أن ترضع له ولده ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة، لأن الأولاد ينسبون إلى الآباء قال في التسهيل: والمعنى: إن أرضع هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم، فآتوهنَّ أجرة الرضاع وهي النفقة

(١) «التسهيل» ٤/ ١٢٨.
(٢) «القرطبي» ١٨/ ١٦٨.
(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ٢١٧.
(٤) (ش): مُبَرَّزًا: مُمَيَّزًا ظاهرًا.
(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٢٨٤.

وسائر المؤن[(١)] ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي وليأمر كلٌّ منهما صاحبه بالخير، من المسامحة والرفق والإِحسان، قال القرطبي: أي وليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل، والمعروف منها: إِرضاعُ الولد من غير أجرة، والمعروف منه: توفيرُ الأجرة عليها للإِرضاع[(٢)] ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي تضايقتم وتشددتم، وعسر الاتفاق بين الزوجين، فأبى الزوج أن يدفع لها ما تطلب، وأبت الزوجة أن ترضعه بأنقص من ذلك الأجر ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي فليستأجر لولده مرضعةً غيرها وهو خبرٌ بمعنى الأمر أي فليسْتَرضِعْ لولده مُرضِعةً أُخرى قال أبو حيان: وفيه عتابٌ للأم لطيف كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها: سيقضيها غيرك، تريد أنها لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم[(٣)] قال الضحاك: إِن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإِن لم يقبل أُجبرت أمه على الرضاع بالأجر[(٤)] ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ هذا بيانٌ لقدر الإِنفاق. والمعنى: لينفقْ الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير، على قدر وُسْعه وطاقته، قال في التسهيل: وهو أمرٌ بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله، فلا يُكلَّف الزوج ما لا يطيق، ولا تُضيَّع الزوجة بل يكون الحال معتدلًا، وفي الآية دليلٌ على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس يسرًا وعسرًا[(٥)] ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي ومن ضُيّق عليه رزقه فكان دون الكفاية ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي فلينفق على مقدار طاقته، وعلى قدر ما آتاه الله من المال ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي لا يكلِّف الله أحدًا إِلا قدر طاقته واستطاعته، فلا يكلِّف الفقير مثل ما يكلِّف الغنِي قال أبو السعود: وفيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده[(٦)]، وقد أكد ذلك الوعد بقوله ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي سيجعل الله بعد الضيق الغنى، وبعد الشدة السعة والرخاء، وفيه بشارة للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم.

ثم حذَّر تعالى من عصيانه وتعَدِّي حدودِه، وضرَبَ الأمثال بالأمم السابقة فقال ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكثير من أهل قرية من الأمم السالفة ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي طغت وتمردت على أوامر الله وأوامر رسله ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي فجازيناها على عصيانها وطغيانها بأنواع العذاب الأليم، من الجوع والقحط وعذاب الاستئصال ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي عذابًا منكرًا عظيمًا يفوق التصور ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي فذاقت عاقبة كفرها وطغيانها وتمردها على أوامر الله ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي وكانت نتيجة بَغْيِها الهلاك والدمار،

(١) «التسهيل» ٤/ ١٢٩.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٦٩.
(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٨٥.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٦٩.
(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٢٩.
(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٢.

والخسران الذي ما بعده خسران.. ولما ذكر ما حلَّ بالأمم الطاغية، أمر المؤمنين بتقوى الله، تحذيرًا من عقابه لئلا يصيبهم ما أصاب أولئك المجرمين فقال ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيأ الله لهم في الآخرة عذاب جهنم الشديد المؤبد ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي فخافوا الله واحذروا بطشه وانتقامه يا أصحاب العقول السليمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي أنتم يا معشر المؤمنين الذين صدقتم بالله ورسوله ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي قد أنزل الله إليكم وحيًا يتلى وهو القرآنُ الحكيم[(١)] ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً وهو محمد ﷺ يقرأ عليكم آياتِ الله، واضحات جليات، تبيِّن الحلال والحرام وما تحتاجون إليه من الأحكام قال في البحر: والظاهر أن الذكر هو القرآن، وأن الرسول هو محمد ﷺ[(٢)] ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي ليخرج المؤمنين المتقين، من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي ومن يُصدق بالله ويعمل بطاعته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي يدخله في الآخرة جنات النعيم، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين في تلك الجنات -جنات الخلد- أبدًا لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أي قد طيَّب الله رزقهم في الجنة ووسَّعه لهم، لأن نعيمها دائم لا ينقطع قال الطبري: أي وسَّع لهم في الجنات الرزق، وهو ما رزقهم من المطاعم والمشارب وسائر ما أعدَّ لأوليائه فيها فطيَّبه لهم[(٣)]، وفي الآية معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب.

ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته، وعظيم سلطانه وجلاله فقال ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي اللهُ العظيم الكبير هو الذي خلق بقدرته سبع سمواتٍ طباقًا، ومن الأرض كذلك خلق سبع أرضين بعضها فوق بعض بدون فتوق بخلاف السموات[(٤)] ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يتنزل وحيُ الله ويجري أمره وقضاؤه بين السموات والأرضين ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لتعلموا أن من قدر على خلق ذلك قادر على كل شيءٍ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ

---

(١) اختار بعض المفسرين أن المراد بالذِّكْر هو الرسول ﷺ بدليل أنه أبدل منه قوله ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ﴾ وإليه ذهب الطبري، و«أبو السعود»، وما ذكرناه هو أرجح الأقوال أن المراد بالذكر «القرآن» وبالرسول محمد ﷺ وهو منصوب بفعل محذوف تقديره: وأرسل رسولًا، وهو اختيار ابن عطية وصاحب «البحر المحيط».

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٢٨٦.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٩٨.

(٤) لا خلاف بين العلماء أن السماوات سبع، وأما الأرض فاختلِفَ فيها فقيل: إنها سبع أرضين لظاهر الآية وللحديث الصحيح: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» وقيل: إنها أرض واحدة وإن المماثلة ليست في العدد وإنما هي في الخلق والإبداع أي مثلهن في الإبداع والإحكام، والأول أظهر والله أعلم. (ش): القول الأول هو الصحيح، والقول الثاني يخالف الحديث الصحيح وظاهر الآية. والحديث رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

﴿شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ أي ولتعلموا أنه تعالى عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ وكذلك ﴿بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾.

٢ - الإظهار في موضع الإضمار للتهويل ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

٣ - الالتفات لمزيد الاهتما ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ ورد بطريق الخطاب والأصل أن يكون بطريق الغائب «لا يدري».

٤ - إيجاز الحذف ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ حذف منه الخبر، أي: فعدتهن ثلاثة أشهر أيضًا.

٥ - تكرار الوعيد للتفظيع والترهيب ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا﴾ الآية.

٦ - المجاز المرسل ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ يراد بها أهل القرية من باب تسمية الحال باسم المحل.

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استعار الظلمات للضلال والكفر، واستعار النور للهدى والإيمان، وهو من روائع البيان، وجلال تعبير القرآن.

٨ - السجع المرصَّع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا.. يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا. وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا . وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطلاق»



سُورَةُ التَّحْرِيمِ (٦٦) ١٢

مدنية وآياتها اثنتا عشرة

بين يدي السورة

* سورة التحريم من السور المدنية التي تتناول الشئون التشريعية، وهي هنا تعالج قضايا وأحكامًا تتعلق «ببيت النبوة» وبأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات، وذلك في إطار تهيئة البيت المسلم، والنموذج الأكمل للأسرة السعيدة.

* تناولت السورة الكريمة في البدء الحديث عن تحريم الرسول ﷺ لجاريته ومملوكته «مارية القبطية» على نفسه، وامتناعه عن معاشرتها إرضاء لرغبة بعض زوجاته الطاهرات[1]، وجاء العتاب له لطيفًا رقيقًا، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يضيق على نفسه ما وسعه الله له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ الآية.

* ثم تناولت السورة أمرًا على جانب كبير من الخطورة ألا وهو «إفشاء السر» الذي يكون بين الزوجين، والذي يهدد الحياة الزوجية، وضرب المثل على ذلك برسول الله ﷺ حين أسر إلى حفصة بسر واستكتمها إياه، فأفشته إلى عائشة حتى شاع الأمر وذاع، مما أغضب الرسول حتى هم بتطليق أزواجه ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ الآية.

* وحملت السورة الكريمة حملة شديدة عنيفة، على أزواج النبي ﷺ حين حدث ما حدث بينهن من التنافس، وغيرة بعضهن من بعض لأمور يسيرة وتوعدتهن بإبدال الله لرسوله عليه السلام بنساء خير منهن، انتصارًا لرسول الله ﷺ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ الآية.

* وختمت السورة بضرب مثلين: مثلًا للزوجة الكافرة في عصمة الرجل الصالح المؤمن، ومثلًا للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الفاجر الكافر، تنبيهًا للعباد على أنه لا يغني في الآخرة أحد عن أحد، ولا ينفع حسب ولا نسب، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحًا ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ - أي كفرتا بالله ولم تؤمنا - ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ...﴾ الآيات. وهو ختم رائع يتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان.

---

(١) (ش): عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَفْصَةَ: «لاَ تُحَدِّثِي أَحَدًا وَإِنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ حَرَامٌ». فَقَالَتْ: «أَتُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ؟». قَالَ: «فَوَاللهِ لاَ أَقْرَبُهَا». قَالَ: فَلَمْ يَقْرَبْهَا نَفْسَهَا حَتَّى أَخْبَرَتْ عَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ رواه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» بإسناد صححه ابن كثير، ورواه الحاكم والنسائي دون تسمية الأمَة، وصححه ابن كثير وابن حجر. وأُمَّ إِبْرَاهِيمَ هي مارية القبطية رضي الله عنها.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ
أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ
عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى
اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ
ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ
سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا
مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا
الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ
فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ
وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا
وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ

اللغة: ﴿تَحِلَّةَ﴾ تحليل اليمين بالكفارة ﴿صَغَتْ﴾ مالت عن الحقِّ وزاغت، وأصغى الإناء أماله ﴿قَانِتَاتٍ﴾ مطيعات من القنوت وهو ملازمة الطاعة مع الخضوع ﴿نَصُوحًا﴾ خالصة صادقة، والتوبةُ النَّصوح هي التي لا عودة بعدها إلى الذنب، سميت نصوحًا لما فيها من الصدق والإخلاص يقال: هذا عسلٌ ناصح إذا خلص من الشمع[1] ﴿غِلَاظٌ﴾ من الغلظة وهي الشدة ﴿أَحْصَنَتْ﴾ عفَّت وصانت نفسها عن مقارفة الفاحشة.

سَبَبُ النّزول: أ- روي «أنَّ النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها فأذن لها، فلما خرجت أرسل إلى جاريته «مارية القبطية» فعاشرها في بيت حفصة، فرجعت فوجدتها في بيتها، فغارت غيرةً شديدة، وقالت: أدخلتها بيتي في غيابي وعاشرتها على فراشي؟ (ما أراك فعلت هذا إلا لهواني عليك) فقال لها رسول الله ﷺ

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٩٩.

مسترضيًا لها: «إني حرمتها عليَّ ولا تخبري بذلك أحدًا»، فلما خرج من عندها قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة وكانتا متصافيتين وأخبرتها بسرِّ النبي ﷺ فغضب رسول الله وحلف ألا يدخل على نسائه شهرًا واعتزلهن» فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ..﴾ الآية[1].

ب- وروي «أن رسول الله ﷺ كان يدخل على زوجه «زينب» رَضِيَ اللهُ عَنْها فيشرب عندها عسلًا، فاتفقت عائشة وحفصة على أن تقول له كل واحدة إذا دنا منها: أكلتَ معافير -وهو طعام حلو كريه الريح- فلما مرَّ على حفصة قالت له ذلك، ثم دخل على عائشة فقالت له مثل ذلك وكان ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريهة فقال عليه السلام: «لاَ بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ وَلَنْ أَعُودَ لَهُ» فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ..﴾»[2] الآيات.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الخطاب بلفظ النبوة مشعرٌ بالتوقير والتعظيم،

---

(١) انظر «تفسير الطبري» ١٨/ ١٠١، وحاشية الصاوي ٤/ ٢١٩. (ش): ضعيف جدًا، رواه الطبري في «تفسيره». وعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَفْصَةَ: «لَا تُحَدِّثِي أَحَدًا وَإِنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ حَرَامٌ». فَقَالَتْ: «أَتُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ؟». قَالَ: «فَوَاللهِ لَا أَقْرَبُهَا». قَالَ: فَلَمْ يَقْرَبْهَا نَفْسَهَا حَتَّى أَخْبَرَتْ عَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ (رواه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» بإسناد صححه ابن كثير، ورواه الحاكم والنسائي دون تسمية الأَمَة، وصححه ابن كثير وابن حجر. وأُمُّ إِبْرَاهِيمَ هي مارية القبطية رضي الله عنها.

(٢) الرواية الأولى عند المفسرين أشهر في سبب النزول، وهي أن الرسول ﷺ حرّم عليه «مارية القبطية» وقد أخرجها الدارقطني عن ابن عباس، والرواية الثانية ذُكِرَت في «الصحيحين» بأوسع من هذا وهي أصح إسنادًا من الأولى، ولكن لكونها سببًا للنزول مستبعد، والذي يرجح الرواية الأولى أمور: أن مثل تحريم بعض النساء مما يبتغي به مرضاة بعض الزوجات لا شرب العسل أو عدمه، ثانيًا: أن الاهتمام بإنزال سورة فيها الوعيد والتهديد لأزواج رسول الله بالطلاق واستبدالهن بنساء خير منهم، وأن الله وملائكته وصالح المؤمنين عونٌ لرسول الله ﷺ، يدل على وجود تنافس بينهن وغيرة بعضهن من بعض، مما أدى إلى إيذاء رسول الله ﷺ فعلًا حتى حرَّم بعض جواريه إرضاءً لهن، واستكتم البعض منهن الأمر فأفشَين السر. وهذا يرجح ما ذكرناه وقد قال العلامة ابن كثير: وكون قضية شرب العسل سببًا للنزول فيه نظر والله أعلم. (ش): الحديث رواه البخاري ومسلم. وقال الحافظ في الفتح ١٠ / ٢٨٣): «يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معًا» ا. هـ. أي بسبب تحريمه العسل وتحريمه جاريته. وقال الشوكاني في تفسيره (٥ / ٢٥٢): «فهذا سببان صحيحان لنزول الآية، والجمعُ ممكنٌ بوقوع القصتين: قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعًا وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه». أما قول المؤلف: «وقد قال العلامة ابن كثير: وكون قضية شرب العسل سببًا للنزول فيه نظر والله أعلم». فلم أجده بهذا اللفظ، بل قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» بعد أن ذكر رواية ضعيفة في سبب النزول (٨/ ١٦٠): «وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي تَحْرِيمِهِ العَسَل». ثم قال بعد أن ذكر روايات البخاري ومسلم في تحريمه ﷺ العسل وأن في بعضها أَنَّ حَفْصَةَ هِيَ السَّاقِيَةُ لِلْعَسَل، وفي أخرى أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْش هِيَ الَّتِي سَقَتِ الْعَسَلَ، وَأَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ تَوَاطَأَتَا وَتَظَاهَرَتَا عَلَيْهِ (٨/ ١٦٢) قال: «فَاللهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُمَا وَاقِعَتَانِ، وَلَا بُعْدَ فِي ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ كونهما سَبَبًا لِنُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ نَظَرٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ». فالذي يبدو أن الحافظ ابن كثير يستبعد أن تكون الواقعتان في تحريمه ﷺ للعسل -الواقعتان معًا- سببًا لنزول الآية، فقد قال: إن الصَّحِيح أَنَّ سبب النزول كَانَ فِي تَحْرِيمِهِ ﷺ العَسَل.

والتنويه بمقامه الرفيع الشريف، فلم يخاطبه باسمه العلم كما خاطب سائر الرسل بقوله «يا إبراهيم، يا نوح، يا عيسى بن مريم» وإنما خاطبه بلفظ النبوة أو الرسالة، وذلك أعظم دليل وبرهانٍ على أنه صلوات الله عليه أفضل الأنبياء والمرسلين ومعنى الآية: يا أيها الموحَى إليهِ من السماء، المُنبَّأ بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، لما تمنَع نفسَك ما أحلَّ الله لك من النساء؟! قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ خلا بأم ولده «مارية» في بيت حفصة وعلمت بذلك فقال لها: اكتمي عليَّ، وقد حرمت مارية على نفسي؛ فنزلت الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[1] وفي افتتاح العتاب من حسن التلطف ما لا يخفى، فقد عاتبه على إتعاب نفسه والتضييق عليها من أجل مرضاة أزواجه، كأنه يقول: لا تتعب نفسك في سبيل أزواجك، وأزواجك يسعين في مرضاتك، فأَرِحْ نفسَك من هذا العناء ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾؟ أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحلَّ الله لك؟ قال في التسهيل: يعني تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة، وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية، وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته[2] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، حيث سامحك في امتناعك عن مارية، وإنما عاتبك رحمة بك، وفي هذه إشارة إلى أن عتابه في ذلك إنما كان كرامةً له، وإنما وقع العتاب لتضييقه –عليه السلام– على نفسه، وامتناعه مما كان له فيه أُنسٌ ومتعة، وبئس ما قاله الزمخشري في أن هذا كان منه ﷺ زلة لأنه حرَّم ما أحل الله له.. إلخ. فإن هذا القول قلة أدب مع مقام النبوة، وجهل بصفات المعصوم، فلم يكن منه صلوات الله عليه تحريمٌ للحلال كما زعم حتى تعتبر مخالفة ومعصية، وإنما امتنع عن بعض إمائه تطييبًا لخاطر بعض أزواجه، فعاتبه الله تعالى عليه رفقًا به، وتنويهًا بقدره، وإجلالًا لمنصبه عليه السلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جريًا على ما أُلف من لطف الله تعالى به[3] ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي قد شرع الله لكم يا معشر المؤمنين ما تتحللون به من أيمانكم وذلك بالكفارة ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي واللهُ وليّكم وناصركم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وهو العليم بخلقه الحكيم في صنعه، فلا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

ثم شرع تعالى في بيان القصة التي حدثت لرسول الله ﷺ مع بعض زوجته فقال ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ أي واذكر حين أسرَّ النبي محمد ﷺ إلى زوجاته حفصة خبرًا واستكتمها إياه قال ابن عباس: هو ما أسرَّ إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه، كما

(١) انظر سبب النزول المتقدم ففيه توضيح للقصة.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٣٠.
(٣) شنَّ صاحب «الإنصاف على الكشاف» الغارة على الزمخشري وشنع عليه وهو مُحِقٌّ في ذلك، لأن من نظر إلى لطف العتاب عرف حقيقة الأمر والصواب.

أخبرها بأن الخلافة بعده تكون في أبي بكر وعمر[١]، وطلب منها ألا تخبر بذلك أحدًا ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ أي فلما أخبرت بذلك السرِّ عائشة وأفْشَتْه لها ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي وأطلع الله نبيه بواسطة جبريل الأمين على إفشائها للسرِّ ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ أي أعلمها وأخبرها رسول الله ﷺ ببعض الحديث الذي أفْشَتْه معاتبًا لها، ولم يخبرها بجميع ما حصل منها حياءً منه وكرمًا، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات، والتقصير في اللوم والعتاب قال الحسن: «ما استقصى كريمٌ قط»، وقال سفيان: «ما زال التغافل من شِيَم الكرام»[٢] قال الخازن: المعنى: أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم مارية على نفسه، وأعرض عن ذكر الخلافة لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس[٣] ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي فلما أخبر الرسول حفصة بأنها قد أفشت سرَّه ﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ أي قالت: من أخبرك يا رسول الله بأني أفشيتُ سرك؟ قال أبو حيان: ظنت حفصة أن عائشة فضحتها وكانت قد استكْتَمَتْها فقالت: من أنبأك هذا على سبيل التثبيت، فأخبرها أن الله جل وعلا هو الذي نبأه به فسكتت وسلَّمت[٤] ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أي فقال عليه السلام: أخبرني بذلك ربُّ العزة، العليم بسرائر العباد، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الخطاب لحفصة وعائشة، خاطبهما بطريق الالتفات ليكون أبلغ من معاتبتهما وحملهما على التوبة مما بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء، وجوابه محذوف تقديره أي إن تبتما كان خيرًا لكما من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ أي فقد زاغت ومالَت قلوبكما عما يجب عليكما من الإخلاص لرسول الله، بحُبِّ ما يُحِبه، وكراهة ما يكرهه[٥] ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ أي وإن تتعاونا على النبي ﷺ بما يسوءه، من الوقيعة بينه وبين سائر نسائه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي فإنَّ الله تعالى هو وليُّه وناصره، فلا يضره ذلك التظاهر منكما ﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ أي وجبريل كذلك وليه وناصره، والصالحون من المؤمنين قال ابن عباس: أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر فقد كانا عونًا له عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام عليهما قال في التسهيل: معنى الآية: إن تعاونتما عليه ﷺ بما يسوءه من إفراط الغيرة، وإفشاء سره ونحو ذلك، فإنَّ له من ينصره ويتولاه، وقد ورد في الصحيح أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال:

(١) قال الرازي: لما رأى النبي ﷺ الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها، فأسر إليها بشيئين: تحريم الأمة على نفسه، والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وعمر. اهـ. «التفسير الكبير» ٣٠/ ٤٣.
(ش): ضعيف جدًا، رواه الطبراني وغيره.
(٢) «روح المعاني» ٢٨/ ١٥٠. (ش): شِيمَة: خُلُق، طبيعة، غريزة، خِصْلة. والجمع شِيمات وشِيَم.
(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١١٧.
(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٩٠.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٤.

يـا رسـول الله: ما يشقُّ عليك من شـأن النسـاء؟ فـإن كنت طلقتهـنَّ فإنَّ الله معـك وملائكته وجبريل، وأبو بكر وعمر معك فنزلت الآية موافقة لقول عمر[١] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي والملائكة الأبرار بعد حضرة الله، وجبريل، وصالح المؤمنين أعوانٌ لرسـول الله ﷺ علَى مَن عَاداه، فماذا يُفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء أعوانه وأنصارهُ؟! أفرد ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ بالذكر تعظيمًا له، وإظهارًا لمكانته عند الله تعالى فيكون قد ذُكر مرتين: مرةً بالإفراد، ومرةً في العموم، ووسَّـط ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيـن جبريل والملائكة تشـريفًا لهم، واعتناءً بهم، وإشـادةً بفضل الصـلاح، وختـم الآية بذكـر ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أعظم المخلوقـات وجعلهم ظُهَـرَاء للنبي عليه السلام ليكون أفخم بالنبي صلوات الله عليه، وعِظَم مكانته، والانتصار له، إذ هم بمثابة جيشٍ جـرار، يملأ القفـار، نُصرةً للنبي المختار، فمن ذا الذي يسـتطيع أن يُناوئ الرسـول ﷺ بعد ذلك؟[٢] ثم خوَّف تعالى نسـاء النبي بقوله ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ قال المفسـرون: ﴿عَسَىٰ﴾ مـن الله واجبٌ أي حـقٌّ واجب على الله إن طلقكنَّ رسـوله ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ أي أن يعطيه عليه السـلام بدلكُنَّ زوجاتٍ صالحاتٍ خيرًا وأفضل منكنَّ قال القرطبي: هذا وعدٌ من الله تعالى لرسـوله لو طلقهن في الدنيا أن يزوجه نسـاءً خيرًا منهـن، والله عالم بأنه لا يطلقهن، ولكـنْ أخـبر عن قدرته، على أن رسـوله لو طلقهـن، لَأَبْدَله خيـرًا منهن، تخويفًـا لهنَّ[٣]. ثم وصف تعالى هؤلاء الزوجات اللواتي سيبدله بهنَّ فقال ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ أي خاضعات مستسلماتٍ لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ أي مُصدِّقاتٍ بالله وبرسوله[٤] ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ أي مطيعات لمـا يُؤمـرن به، مواظباتٍ علـى الطاعة ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أي تائبـاتٍ من الذنـوب، ولا يُصْرِرْن على معصيـة ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أي متعبداتٍ لله تعالى يكثرن العبـادة، كأنَّ العدباة امتزجت بقلوبهن حتى صارت سَـجِيَّةً لهن[٥] ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي مسافراتٍ مهاجراتٍ إلى الله ورسوله[٦] ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٣١. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٢) لا يخفى أن الكلام في الآية مسوق للمبالغة: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ وإلا فكفى بالله وليًّا، وكفى بالله نصيرًا.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٩٣.

(٤) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٥) (ش): سَجِيّة: طبيعة، خُلُق، صفة فطريّة في الإنسان.

(٦) قال ابن عباس: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي صائمات واستدل بحديث: «سياحة هذه الأمة الصيام» وقال زيد بن أسلم: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي مهاجرات وتلا قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي المهاجرون، ولعل هذا الرأي أرجح لأنه يتفق مع المعنى اللغوي للسياحة وهي السفر في الأرض للاعتبار، وقد رجح ابن كثير الرأي الأول والله أعلم. (ش): روى ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سياحةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الصِّيَامُ. ورُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنه قَالَ: «السَّائِحُونَ هُمُ الصَّائِمُونَ» (رواه الحاكم، وابن جرير الطبري في «تفسيره» وضعفه الألباني).

أي منهنَّ ثيبات، ومنهم أبكارا قال ابن كثير: قسمهن إلى نوعين ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإنَّ التنوع يبسط النفس(١)، وإنما دخلت واو العطف على هنا ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارٗا﴾ للتنويع والتقسيم، ولو سقطت لاختل المعنى، لأن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان، فتدبر سرَّ القرآن.. ولما وعظ نساء الرسول موعظةً خاصة، أتبع ذلك بموعظةٍ للمؤمنين فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله وأسْلَمْتم وجوهكم لله(٢)، احفظوا أنفسكم، وصونوا أزواجكم وأولادكم، من نارٍ حامية مستعرة، وذلك بتَرْك المعاصي وفِعْل الطاعات، وبتأديبهم وتعليمهم قال مجاهد: أي اتقوا الله، وأَوْصُوا أهليكم بتقوى الله. وقال الخازن: أي مُرُوهم بالخير، وانهَوْهم عن الشر، وعَلِّموهم وأَدِّبُوهم حتى تَقُوهم بذلك من النار(٣)، والمراد بالأهل النساءُ والأولاد وما أُلْحِقَ بهما ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أي حطبها الذي تُسعَّر به نار جهنم هو الخلائق والحجارة قال المفسرون: أراد بالحجارة حجارة الكبريت، لأنها أشد الأشياء حرًّا، وأسرع اتِّقادًا، وعنى بذلك أنها مفرطة الحرارة، تتقد بما ذكر، لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه قال ابن مسعود: حطبها الذي يلقى فيها بنو آدم، وحجارةٌ من كبريت أنتن من الجيفة(٤) ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ أي على هذه النار زبانيةٌ غلاظ القلوب، لا يَرْحَمون أحدًا، مكلَّفون بتعذيب الكفار قال القرطبي: المراد بالملائكة الزبانية، وهم غلاظ القلوب لا يَرحَمُون إذا استُرْحِموا، لأنهم خُلِقُوا من الغضب(٥)، وحُبِّبَ إليهم عذاب الخلق كما حُبِّب لبني آدم أكل الطعام والشراب(٦) ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ أي لا يعصون أمر الله بحالٍ من الأحوال ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ أي وينفِّذون الأوامر بدون إمهال ولا تأخير ثم يقال للكفار عند دخولهم النار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي لا تعتذروا عن ذنوبكم وإجرامكم، فلا ينفعكم اليوم الاعتذار، لأنه قد قُدّم إليكم الإنذار والإعذار ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة، ولا تظلمون شيئًا كقوله تعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] ثم دعا المؤمنين إلى التوبة الصادقة الناصحة فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ أي

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٢٢.

(٢) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢١.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٢٣.

(٥) (ش): أي أن الغضب لهم خُلُقٌ وطبيعة، لا أن الغضب مادَّة خلْقِهم، فالملائكة مخلوقون من نور كما أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ فقال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٦) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٩٦.

توبوا إِلى الله من ذنوبكم توبةً صادقةً خالصة، بالغةً في النصح الغاية القصوى، سئل عمر عن التوبة النصوح فقال: هي أن يتوب ثم لا يعود إِلى الذنب، كما لا يعود اللبن إِلى الضَّرْع(١) قال العلماء: التوبة النصوح هي التي جمعت ثلاثة شروط: الإِقلاع عن الذنب، والندم على ما حدث، والعزم على عدم العودة إِليه، وإِن كان الحق لآدمي زِيدَ شرطٌ رابع وهو: رَدُّ المظالم لأصحابها ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي لعل الله يرحمكم فيمحو عنكم ذنوبكم قال المفسرون: «عسى» من الله واجبة بمنزلة التحقيق، وهذا إِطماعٌ من الله لعباده في قبول التوبة، تفضلًا منه وتكرمًا، لأن العظيم إِذا وعَد وَفَّى، وعادةُ الملوك أنهم إِذا أرادوا فعْلًا قالوا «عسى» فهو بمنزلة المحقَّق(٢) ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي ويدخلكم في الآخرة حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي يوم لا يفضح الله النبي وأتباعه المؤمنين أمام الكفار، بل يُعِزُّهم ويُكْرِمهم قال أبو السعود: وفيه تعريضٌ بمن أخزاهم اللهُ تعالى من أهل الكفر والفسوق(٣) ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم على الصراط، ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم، كإِضاءة القمر في سواد الليل(٤) ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ أي يدعون الله قائلين: يا ربنا أكْمِل علينا هذا النور وأَدِمْه لنا، ولا تتركنا نتخبط في الظلمات قال ابن عباس: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين(٥)، يدعون ربهم به إِشفاقًا حتى يصلوا إِلى الجنة ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ أي وامح عنا ما فرط من الذنوب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إِنك أنت القادر على كل شيء، من المغفرة والعقاب، والرحمة والعذاب.. ثم أمر تعالى بجهاد أعداء الله من الكفرة والمنافقين فقال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ أي جاهد الكفار بالسيف والسِّنان، والمنافقين بالحجة والبرهان، لأن المنافقين يُظهِرون الإِيمان، فهم مسلمون ظاهرًا فلذلك لم يُؤمَر عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام ُبقتالهم ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي وشَدِّدْ عليهم في الخطاب، ولا تعاملهم بالرأفة واللين، إِرعابًا وإِذلالًا لهم، لتنكسر صلابتهم وتلِين شكيمَتُهم(٦) ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي ومستقرهم في الآخرة جهنم

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢٢.

(٢) «انظر روح المعاني للألوسي» ٢٨/ ١٦٠.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٥.

(٤) وفي الحديث أن النبي ﷺ سئل: كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم؟ فقال: «إِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ آثَارِ الْوُضُوءِ» أي تسطع جباههم وأيديهم بالنور من آثار الطهور فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ.
(ش): الحديث رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٠١.

(٦) (ش): شَكِيمة: عِزّة وشدّة وعزيمة.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي وبئست جهنم مستقرا ومصيرا للمجرمين.. ثم ضرب الله تعالى مثلًا للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح فقال ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾ أي مَثَّل تعالى للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، بحال امرأة نوح وامرأة لوط ﴿كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ أي كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما «نوح» ولوط «عليهما السلام، وإنما وصفهما بالعبودية تشريفًا وتكريمًا لهما بإضافتهما إليه تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ أي فخانت كل واحدة زوجها بالكفر وعدم الإيمان[1]، فلم يدفعا عن امرأتيهما مع نُبُوَّتِهما شيئًا من عذاب الله ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي وتقول لهما خزنة النار يوم القيامة: ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين، من الكفرة المجرمين قال القرطبي: ضرب تعالى هذا المثل تنبيهًا على أنه لا يُغْنِي في الآخرة أحدٌ عن قريبٍ ولا نسيب، إذا فرَّق بينهما الدين، كما لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما لما عصتا شيئًا من عذاب الله[2] ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ وهذا مثلٌ آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان هو مؤمنًا قال أبو السعود: أي جعل حالها مثلًا لحال المؤمنين في أن وصلة الكفر لا تضرهم، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله «فرعون» وهي في أعلى غرف الجنة[3] قال المفسرون: واسمها «آسية بنت مزاحم» آمنت بموسى عليه السلام، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها، فنجَّاها الله من شره، فلم يضر امرأةَ فرعون اتصالُها به وهو مِن أكْفر الكافرين، ولم ينفع امرأةَ نوح ولوط اتصالُهما بهما وهما رسولا ربِّ العالمين ﴿إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي حين دعت ربها قائلةً: يا ربِّ اجعل لي قصرًا مشيدًا بجوار رحمتك في جنة النعيم قال بعض العلماء: ما أحسن هذا الكلام فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت ﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور، وفي الآية دليل على إيمانها وتصديقها بالبعث

---

(١) الخيانة هنا يراد بها الخيانة في الدين لا في العرض، وقد أخطأ بعض المفسرين حيث نسب لهما فاحشة الزنى، وهذا لا يجوز لأن الله تعالى أكرم أنبياءه أن تتعاطى واحدة منهن الفجور، بل هن شريفات مصونات لحرمة الأنبياء، وقد قال ابن عباس: «ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، وكانتا مشركتين»، فتدبره فإنه دقيق.

(٢) «تفسر القرطبي» ١٨/ ٢٠١.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٦. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ فِرْعَوْنَ، أَوْتَدَ لِامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا، فَكَانَ إِذَا تَفَرَّقُوا عَنْهَا ظَلَّلَتْهَا الْمَلَائِكَةُ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، فَكَشَفَ لَهَا عَنْ بَيْتِهَا فِي الْجَنَّةِ. (رواه أبو يعلى الموصلي في مُسنده، وصححه الألباني). وعَنْ سَلْمَانَ ﷺ قَالَ: « كَانَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تُعَذَّبُ بِالشَّمْسِ، فَإِذَا انْصَرَفُوا عَنْهَا أَظَلَّتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا، وَكَانَتْ تَرَى بَيْتَهَا فِي الْجَنَّةِ » (رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي وأنقذني من كفر فرعون وطغيانه ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي وأنقذني من الأقباط، أتباع فرعون الطاغين، قال الحسن: لما دعت بالنجاة نجَّاها الله تعالى أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة تأكل وتشرب وتتنعم[١] ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ﴾ أي ومريم ابنة عمران مَثَلٌ آخر في الإيمان ﴿ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي حفظت فرجها وصانته عن مقارنة الفواحش، فهي عفيفةٌ شريفة طاهرة، لا كما زعم اليهود عليهم لعنة الله، أنها زنت وأن ولدها عيسى ابن زنى ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي فنفخ رسولنا جبريل في فتحة جيبها، فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى قال ابن كثير: إن الله بعث جبريل فتمثل لها في صورة بشر، وأمره أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام[٢] ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي وآمنت بشرائع الله القدسية، وكتبه السماوية ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ أي وكانت من القوم المطيعين، العابدين لله عَزَّ وَجَلَّ، وهو ثناءٌ عليها بكثرة العبادة والطاعة، والخشوع، وفي الحديث «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[٣].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين حرَّم وأحَلَّ ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ﴾ وبين ﴿عَرَّفَ .. وَأَعۡرَضَ﴾ وبين ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ وكلها من المحسنات البديعية التي تزيد في جمال الكلام.

٢ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ زيادةً في اللوم والعتاب.

٣ - صيغ المبالغة ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ ﴿نَّصُوحًا﴾ ﴿ظَهِيرٌ﴾ ﴿قَدِيرٌ﴾ إلخ.

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٩٥.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٢٥.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): رواه البخاري ومسلم بلفظ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». ورواه ابْنُ مَرْدَوَيْهِ بلفظ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلا ثَلاث: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» (وصحح إسناده ابن كثير والألباني). الثَّرِيد: طعام من خبز مفتوت ولَحْم ومَرَق. قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث من صحيح مسلم: « قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ أَنَّ الثَّرِيدَ من كل طعام أَفْضَلُ مِنَ الْـمَرَقِ، فَثَرِيدُ اللَّحْمِ أَفْضَلُ مِنْ مَرَقِهِ بِلَا ثَرِيد، وثَرِيد مَا لَا لَحْمَ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ مَرَقِهِ، وَالْـمُرَادُ بِالْفَضِيلَةِ نَفْعُهُ وَالشِّبَعُ مِنْهُ وَسُهُولَةُ مَسَاغِهِ وَالِالْتِذَاذُ بِهِ وَتَيَسُّرُ تَنَاوُلِهِ وَتَمَكُّنُ الْإِنْسَانِ مِنْ أَخْذِ كِفَايَتِهِ مِنْهُ بِسُرْعَةٍ وَغَيْرُ ذَلِكَ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرَقِ كُلِّهِ وَمِنْ سَائِرِ الْأَطْعِمَةِ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ زَائِدٌ كَزِيَادَةِ فَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ » [شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٩٩)].

٤ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فقد خصَّ جبريل بالذكر تشريفًا، ثم ذكره ثانية مع العموم اعتناءً بشأن الرسول ﷺ ووسَّط صالح المؤمنين بين الملائكة المقربين.

٥ - المجاز المرسل ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ذكر المسبَّب وأراد السبب أي لازموا على الطاعة لتقوا أنفسكم وأهليكم من عذاب الله.

٦ - المقابلة بين مصير أهل الإيمان ومصير أهل الطغيان ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ و﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٧ - التغليب ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ غلَّب الذكور على الإناث.

٨ - السجع المرصَّع كأنه اللؤلؤ والمرجان، وهو كثير في القرآن فتدبره بإِمعان.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التحريم»



سُورَةُ المُلْك ٦٧ - ٣٠

مكية وآياتها ثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الملك من السور المكية، شأنها شأن سائر السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى، وقد تناولت هذه السورة أهدافًا رئيسة ثلاثة وهي «إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة.. وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.. ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور».

* ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول، فذكرت أن الله جل وعلا بيده الملك والسلطان، وهو المهيمن على الأكوان، الذي تخضع لعظمته الرقاب وتعنو له الجباه[1]، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن خلق السماوات السبع، وما زين الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة، والنجوم اللامعة، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ...﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب، وهم يرون جهنم تتلظى وتكاد تتقطع من شدة الغضب والغيظ على أعداء الله، وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ..﴾.

* وبعد أن ساقت بعض الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته، حذرت من عذابه وسخطه أن يحل بأولئك الكفرة الجاحدين ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ..﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالإنذار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول، من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول ﷺ وهلاك المؤمنين ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟ الآيات ويا له من وعيد شديد، ترتعد له الفرائص!

فضلها: تسمى هذه السورة «الواقية» و «المنجية» لأنها تقي قارئها من عذاب القبر فقد قال ﷺ: «هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر» أخرجه الترمذي[2].

---

(١) (ش): تَعنُو: تَخضع. الجِبَاه: جمع جَبْهَة: ما بين الحاجبين ومقدّم الرأس موضع السجود من الوجه.

(٢) (ش): ضعفه الألباني. وقال: «وإنما يصح منه قوله: «هِيَ الْمَانِعَةُ». وقد صححه بلفظ: «سُورَةَ تَبَارك هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». (رواه الحاكم وغيره). وقَالَ ﷺ: « إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ» (رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني).

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ
مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ
وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ
يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ
كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ
مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ
ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ
فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم
مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ
﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ
ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ

اللغَة: ﴿طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض، من طابَقَ النَّعْلَ بالنعْلِ إذا قطعه بقدره وجعله فوقه ﴿فُطُورٍ﴾ شقوق وخروق، من فَطَر بمعنى شَقَّ قال الشاعر:

بَنَى لَكُمُو بِلَا عَمَدٍ سَمَاءً ... وَسَوَّاهَا فَمَا فِيهَا فُطُورُ [1]

﴿حَسِيرٌ﴾ كليل من الحسور وهو الإعياء يقال: حسر البعير إذا كَلَّ وانقطع قال الشاعر:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى ... فَعَادَ إِلَيَّ الطَّرْفُ وَهُوَ حَسِير [2]

﴿شَهِيقًا﴾ صوتًا منكرًا كصوت الحمير ﴿تَمَيَّزُ﴾ تتقطع وينفصل بعضها من بعض،

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٩٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢١٠. (ش): المُحَصَّب: موضع رمي الجِمار بمنًى.

وأصلها تتميَّز حذفت إحدى التاءين تخفيفًا ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ أطرافها ونواحيها، وأصل المِنكَب: الجانب ومنه مِنكَب الرجل ﴿لَّجُّواْ﴾ تمادَوْا وأصَرُّوا ﴿تَمُورُ﴾ ترتج وتضطرب ﴿زُلْفَةً﴾ قريبًا منهم ﴿غَوْرًا﴾ غائرًا ذاهبًا في الأرض.

التفسير: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي تمجَّد وتعالى اللهُ العلي الكبير، المفيض على المخلوقات من فنون الخيرات، الذي بقبضة قدرته ملك السموات والأرض، يتصرف فيهما كيف يشاء قال ابن عباس: بيده الملك، يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويُغنِي ويُفقِر، ويعطي ويمنع[١] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو القادر على كل شيء له القدرة التامة، والتصرف الكامل في كل الأمور، من غير مُنازع ولا مُدافِع.. ثم بيَّن تعالى آثار قدرته، وجليل حكمته فقال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي أوجد في الدنيا الحياة والموت، فأحيا من شاء وأمات من شاء، وهو الواحد القهار، وإنما قدم الموت لأنه أهيب في النفوس وأفزع قال العلماء: ليس الموت فناءً وانقطاعًا بالكلية عن الحياة، وإنما هو انتقال من دار إلى دار، ولهذا ثبت في الصحيح أن الميت يسمع، ويرى، ويُحسُّ وهو في قبره كما قال عليه السلام «إنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِى قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ»[٢] الحديث وقال ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لاَ يُجِيبُونَ»[٣].

فالموتُ هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقتها للجسد ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليَمْتَحِنكم ويختَبِركم أيها الناس فيرى المحسن منكم من المسيء قال القرطبي: أي يعاملكم

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٠٦.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) (ش): قال ﷺ مخاطبًا قتلى المشركين الذين جُعِلُوا فِى بِئْرٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ:« يَا فُلاَنَ بْنَ فُلاَنٍ وَيَا فُلاَنَ بْنَ فُلاَنٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا فَإِنِّى قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِى اللهُ حَقًّا». فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لاَ أَرْوَاحَ فِيهَا؟». قَالَ «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لاَ يُجِيبُونَ ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وقد اختلف العلماء في مسألة سماع الأموات كلام الأحياء، فمنهم من قال بأنهم يسمعون كلام الأحياء، ومنهم من نَفَى ذلك. وجاء في «فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء(١/ ١٥١-١٥٢)، (٩/ ٨٢): «الأصلُ عدم سماع الأموات كلام الأحياء، إلا ما ورد فيه النَّصُّ؛ لقول الله سبحانه يخاطب نبيَّه ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾. فالأصل أن الأموات صالحين كانوا أو غير صالحين لا يسمعون كلام البشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولكن قد يُسمِع الله الموتى صوتَ رسول من رسله لحكمة من الحكم، كما أسمع سبحانه قتلى بدر من الكفار صوت رسوله ﷺ؛ إهانةً وتبكيتًا لهم، وتكريمًا لرسوله ﷺ؛ وأما سماع الميت حيث يوضع في قبره قرع نعال المشيعين فهو إسماع خاص ثبت في النص فلا يُزاد عليه لاستثنائه من الأدلة العامة الدالة على عدم سماع الموتى. (وراجع كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات» للآلوسي، بتحقيق الألباني.

معاملـة المختبر، فإن الله تعالـى عالم بالمطيع والعاصـي أزلًا[١] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالبُ في انتقامـه ممن عصـاه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب من تاب وأناب إليـه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي خلق سبع سـماوات بعضها فوق بعض، كل سـماء كالقبة للأخرى ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي لسـت ترى أيها السـامع في خلق الرحمن البديع من نقص أو خلل، أو اختلاف أو تنافـر، بل هي في غايـة الإحكام والإتقان، وإنما قـال ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ولم يقل «فيهن» تعظيمًـا لخلقهن، وتنبيهًـا على باهر قـدرة الله ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾؟ أي فكرّر النظر في السـموات وردّده في خلقهن المحكم، هل ترى من شـقوق وصدوع؟ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي ثم ردِّد النظر مرةً بعد أُخرى، وانظر بعين الاعتبار في هذه السـموات العجيبة، مرةً بعد مرة ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي يرجع إليك بصرك خاشعًا ذليلًا، لم ير ما تريد ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي وهـو كليـلٌ مُتعَب[٢] قد بلغ الغاية في الإعياء قال الإمـام الفخر: المعنى: إنك إذا كررت نظرك لـم يرجع إليـك بصرك بما طلبْتَه مـن وجود الخلل والعيب، بل رجع خاسـئًا مُبعَـدًا لم يرَ ما يهوَى مع الكَلال والإعياء[٣] وقال القرطبي: أي اردد طرفك وقلّب البصر في السماء ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي مرةً بعد أخرى، يرجع إليك البصر خاشعًا صاغرًا، متباعدًا عن أن يرى شيئًا من ذلك العيب والخلل، وإنما أمر بالنظر كرتين، لأن الإنسـان إذا نظر في الشـيء مرة لا يرى عيبه، ما لم ينظر إليه مرة أخرى، والمراد بالكرتين التكثير بدليل قوله ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ وهو دليلٌ على كثرة النظر[٤].

ثـم بيَّن تعالى ما زين به السـماء من النجوم الزاهرة والكواكب السـاطعة فقال ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي خلق سـبع سـمواتٍ متطابقـة، بعضها فوق بعض، كل سـماء كالقبة للأُخـرى ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ الـلام لام القسـم و ﴿قَدْ﴾ للتحقيـق والمعنى: والله لقـد زينا السـماء القريبـة منكم أيها الناس بكواكب مضيئة سـاطعة، هي السـماء الأولى أقرب السـموات إلى الأرض قال المفسـرون: سـميت الكواكـب مصابيـح لإضاءتها بالليل إضـاءة السـراج ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي وجعلنـا لها فائـدةً أُخرى وهي رجـم أعدائكم الشـياطين، الذين يسـترقون السـمع قال قتادة: خلـق الله تعالى النجوم لثلاثٍ: زينةً للسـماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر[٥] وقال الخازن: فإن قيل: كيف تكون زينةً للسـماء، ورجومًا للشـياطين، وكونها زينة يقتضي بقاءها، وكونها رجومًا يقتضي زوالها،

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٠٧.
(٢) (ش): كلِيلٌ: ضعيفٌ.
(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٥٨.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٠٩.
(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٢٩٩.

فكيف الجمع بين هاتين الحالتين؟ فالجواب أنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة وتُرمى الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب، ومثلها كمثل قبس يؤخذ من النار وهي على حالها[1]، أقول: ويؤيده قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ١٠] فعلى هذا، الكواكب لا يرجم بها؛ وإنما يكون الرجم بالشهب ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي وهيَّأْنا وأعْدَدْنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا العذاب المستعر، وهو النار الموقدة ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي وللكافرين بربهم عذاب جهنم أيضًا، فليس العذاب مختصًّا بالشياطين بل هو لكل كافر بالله من الإنس والجن ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئست النار مرجعًا ومصيرًا للكافرين.. ثم وصف تعالى جهنم وما فيها من العذاب والأهوال والأغلال فقال ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا ﴾ أي إذا قُذِفوا وطُرِحُوا في جهنم كما يطرح الحطبُ في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ أي سمعوا لجهنم صوتًا منكرًا فظيعًا كصوت الحمار، لشدة توَقُّدها وغليانها[2] قال ابن عباس: الشهيقُ لجهنم عند إلقاء الكفار فيها، تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تزفرُ زفرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف[3] ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي وهي تغلي بهم كما يغْلِي المِرْجَل - القِدْر - من شدة الغضب ومن شدة اللهب قال مجاهد: تفور بهم كما يفور الحبُّ القليل في الماء الكثير ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أي تكاد جهنم تتقطع وينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها وحنقها على أعداء الله ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي كلما طُرِح فيها جماعةٌ من الكفرة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ أي سألتهم الملائكة الموَكَّلُون على جهنم وهم الزبانية سؤال توبيخ وتقريع ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي ألم يأتكم رسولٌ ينذركم ويخوفكم من هذا اليوم الرهيب؟ قال المفسرون: وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام، ليزدادوا حسرةً فوق حسرتهم، وعذابًا فوق عذابهم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ أي أجابوا نعم لقد جاءنا رسول منذر، وتلا علينا آيات الله، ولكننا كذبناه وأنكرنا رسالته ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي وقلنا إمعانًا في التكذيب وتماديًا في النكير: ما أنزل الله شيئًا من الوحي على أحدٍ قال الرازي: هذا اعترافٌ منهم بعدل الله، وإقرار بأن الله أزاح عِلَلَهم ببعثة الرسل الكرام، ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا ما نزَّل الله من شيء[4] ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ هذا من تتمة كلام الكفار أي ما أنتم يا معشر الرسل إلا في بُعْدٍ عن الحق، وضلال واضح عميق ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ أي وقال الكفار: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو كنا نسمع سماع طالب للحق، ملتمسٍ للهدى ﴿مَا كُنَّا

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢٥.

(٢) قال في التسهيل: الشهيق أقبح ما يكون من صوت الحمار، ويعني به ما يسمع من صوت جهنم لشدة غليانه وهولها.

(٣) التسهيل ٤/ ١٣٤، و«تفسير القرطبي» ١٨/ ٢١١.

(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٦٤.

﴿فِىٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي ما كنا نستوجب الخلود في جهنم ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ أي فأقروا بإجرامهم وتكذيبهم للرسل ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي فبعدًا وهلاكًا لأهل النار قال ابن كثير: عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة[١]، والجملة دُعائية أي أبعَدَهم الله من رحمته وسَحَقهم سحْقًا. ثم لما ذكر حال الأشقياء الكفار أتبعه بذكر حال السعداء الأبرار فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي يخافون ربهم ولم يَرَوْه، ويَكُفُّون عن المعاصي طلبًا لمرضاة الله ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ أي لهم عند الله مغفرةٌ عظيمة لذنوبهم، وثواب جزيل لا يعلم قدره غير الله تعالى ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ الخطاب لجميع الخلق أي أخفوْا قولكم وكلامكم أيها الناس أو أعلنوا وأظهروه، فسواءٌ أخفيتموه أو أظهرتموه فإنَّ الله يعلمه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي لأنه تعالى العالم بالخفايا والنوايا، يعلم ما يخطر في القلوب، وما توسوس به الصدور قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسرُّوا قولكم حتى لا يسمع إله محمد[٢]، فأخبره الله أنه لا تخفى عليه خافية[٣] ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾؟ أي ألا يعلم الخالق مخلوقاته؟ كيف لا يعلم من خلق الأشياء وأوجدها سِرَّ المخلوق وجهرَه؟ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أي والحال أنه اللطيف بالعباد، الذي يعلم دقائق الأمور وغوامضها، الخبير الذي لا يعزب عن علمه شيء، فلا تتحرك ذرة، ولا تسكن أو تضطرب نفْسٌ إلا وعنده خبرها ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته، وآثار فضله وامتنانه على العباد فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ أي الله جل وعلا جعل لكم الأرض ليِّنةً سهْلة المسالك ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي فاسلكوا أيها الناس في جوانبها وأطرافها قال ابن كثير: أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وتردّدوا في أقاليمها وأرجائها للمكاسب والتجارات[٤] ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أي وانتفعوا بما أنعم به جل وعلا عليكم من أنواع الكسب والرزق قال الألوسي: كثيرًا ما يُعبر عن وجوه الانتفاع بالأكل لأنه الأهم الأعم، وفي الآية دليل على ندب التسبب والكسب، وهو لا ينافي التوكل، فقد مرَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه بقوم فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون فقال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكل رجلٌ ألقى حبه في بطن الأرض وتوكل على ربه عَزَّ وَجَلَّ[٥] ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي وإليه تعالى المرجع بعد الموت والفناء، للحساب والجزاء.. ثم توعّد تعالى كفار مكة المكذبين لرسول الله ﷺ فقال ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي هل أمِنْتُم يا معشر الكفار ربّكم العَليَّ الكبير

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٨.
(٢) (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.
(٣) «الخازن» ٤/ ١٢٦، «والألوسي» ٢٩/ ١٣.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٢٨.
(٥) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٥.

أن يخسف بكم الأرض فيُغَيِّبَكم في مجاهلها[١]، بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها؟ ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي فإذا بها تضطرب وتهتز بكم هزًّا شديدًا عنيفًا قال الرازي: والمراد أنَّ الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها فيذهبون، والأرضُ فوقهم تمور فتلقيهم إلى أسفل سافلين[٢] ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي أم أمنتم الله العليَّ الكبير أن يرسل عليكم حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوطٍ وأصحاب الفيل؟ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي فستعلمون عند معاينة العذاب، كيف يكون إنذاري وعقابي للمكذبين!! وفيه وعيد وتهديدٌ شديد، وأصلها (نذيري) و (نكيري) حذفت الياء مراعاةً لرءوس الآيات ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ولقد كذب كفار الأمم السابقة رسلهم، كقوم نوح وعادٍ وثمود وأمثالهم، وهذا تسلية للرسول ﷺ وتهديد لقومه المشركين ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم بنزول العذاب؟ ألم يكن في غاية الهول والفظاعة؟ ثم لما حذَّرهم ما عسى أن يحل بهم من الخسف وإرسال الحاصب، نبَّههم على الاعتبار بالطير، وما أحكم الله من خلقها، وعن عجز آلهتهم المزعومة عن خلق شيءٍ من ذلك فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ أي أولم ينظروا نظر اعتبار الى الطيور فوقهم، باسطاتٍ أجنحتهن في الجو عند طيرانها وتحليقها، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي ويَضْمُمْنَها إذا ضربن بها جنوبهن وقتًا بعد وقت؟ ولما كان الغالب هو فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبَّر عنه بالإسم ﴿صَافَّاتٍ﴾ وكان القبض متجددًا عبَّر عنه بالفعل ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ قال في التسهيل: فإن قيل: لِمَ لم يقل «قابضات» على طريقة ﴿صَافَّاتٍ﴾؟ فالجواب أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مدَّ الأطراف هو الأصل في السباحة، فذكره بصيغة اسم الفاعل ﴿صَافَّاتٍ﴾ لدوامه وكثرته، وأما قبضُ الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلًا للاستراحة والاستعانة، فلذلك ذكره بلفظ الفعل لقلته[٣] ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ أي ما يمسكهن في الجو عن السقوط في حال البسط والقبض، إلا الخالق الرحمن الذي وسعت رحمته كل ما في الأكوان قال الرازي: وذلك أنها مع ثقلها وضخامة أجسامها، لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه، وإلهامها الى كيفية البسط والقبض المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن[٤] ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق، وكيف يبدع العجائب، بمقتضى علمه وحكمته.

ثم وبَّخ تعالى المشركين في عبادتهم لما لا ينفع ولا يسمع فقال ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾؟ أي من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله من الأنصار

---

(١) (ش): غيَّبَ فلانًا: دفنَه. مَجاهِلُ: جمع مَجْهَل ومَجهلة: أرض يضلّ فيها الإنسان ولا يهتدي.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٧٠.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٣٦.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٧١.

والأعوان؟! قال ابن عباس: أي من ينصركم مِني إن أردتُ عذابكم؟[١] ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي ما الكافرون في اعتقادهم أن آلهتهم تنفع أو تضرُّ إلا في جهل عظيم، وضلال مبين، حيث ظنوا الأوهام حقائق، فاعتزوا بالأوثان والأصنام ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾؟ أي من هذا الذي يرزقكم غير الله إن منع الله عنكم رزقه؟ والخطاب في الآيتين للكفار على وجه التوبيخ والتهديد، وإقامة الحجة عليهم[٢] ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي بل تمادوا في الطغيان، وأصرّوا على العصيان، ونفروا عن الحق والإيمان.. ثم ضرب تعالى مثلًا للكافر والمؤمن فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ أي هل من يمشي منكسًا رأسه، لا يرى طريقه فهو يَخبِط خَبْطَ عَشْواء[٣]، مثل الأعمى الذي يتعثر كل ساعة فيخرّ لوَجْهه، هل هذا أهْدى أم مَن يمشي منتصب القامة، ويرى طريقه ولا يتعثر في خطواته، لأنه يسير على طريق بَيّنٍ واضح؟ قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر كالأعمى الماشي على غير هدى وبصيرة، لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكَبّ على وجْهه، والمؤمن كالرجل السويّ الصحيح البصَر، الماشي على الطريق المستقيم فهو آمِنٌ من الخَبْط والعِثَار[٤]، هذا مَثَلهما في الدنيا، وكذلك يكون حالهما في الآخرة، المؤمن يُحشَر يمشي سويًّا على صراطٍ مستقيم، والكافر يُحشَر يمشي على وجهه إلى دركات الجحيم قال قتادة: الكافر أكبَّ على معاصي الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله على الطريق السويّ يوم القيامة. وقال ابن عباس: هو مَثَلٌ لمن سلك طريق الضلالة ولمن سلك طريق الهدى[٥] ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة، ليعرفوا قبح ما هم عليه من الكفر والإشراك فقال ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله جل وعلا هو الذي أوجدكم من العدم، وأنعم عليكم بهذه النعم «السمع والبصر والعقل» وخصَّ هذه الجوارح بالذكر لأنها أداة العلم والفهم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قلَّما تشكرون ربكم على نعمه التي لا تُحصى[٦] قال الطبري: أي قليلاً ما تشكرون ربكم على

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢٦.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٧٣.

(٣) (ش): يَخبِط خَبْطَ عَشْواء: يتصرَّف على غير هدًى، يُخطِئ ويصيب.

(٤) (ش): خبط: سار على غير هدى. عثَرَ: زلّ، تعرقَل في شيءٍ.

(٥) قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه من الضلالة كمثل من يمشي مُكِبًا على وجهه أي منحنيًا لا مستويًا، لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، فهو تائه حائر ضال، والمؤمن يمشي منتصب القامة على طريق واضح بين، أيهما أهدي سبيلًا أهذا أم ذاك!! «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠.

(٦) قال ابن عطية: المراد نفي الشكر، فعبر بالقِلة كما تقول العرب: هذه أرضٌ قَلَّ ما تُنبِت كذا وهي لا تُنبته البتة. اهـ. نقلًا عن «البحر» ٨/ ٣٠٣.

هـذه النعم التـي أنعمها عليكـم[(١)] ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي خلقكم وكثَّركم في الأرض ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإليـه وحـده مرجعكم للحسـاب والجـزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي متـى يكون الحشـر والجزاء الذي تَعِدُوننا بـه؟ إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة الحشر، وهذا استهزاء منهم ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: علم وقت قيام الساعة ووقت العذاب عند الله تعالى لا يعلمه غيره ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وما أنا إلا رسـولٌ مُنذِرٌ أُخَوِّفُكم عذاب الله امتثالًا لأمره.. ثم أخبر تعالى عن حال المشركين في ذلك اليـوم العصيب فقال ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي فلما رأوا العذاب قريبًا منهم، وعاينوا أهوال القيامة ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ظهـرت علـى وجوههم آثار الاسـتياء، فعَلَتْهـا الكآبة والغم والحزن، وغَشِـيَها الذُل والانكسار، قال في البحر: أي سـاءتْ رؤيةُ العذاب وُجوهَهم، وظهر فيها السـوء والكآبة، كمن يُساقُ إلى القتل[(٢)] ﴿وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ أي وقالت لهم الملائكة توبيخًا وتبكيتًا: هذا الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه استهزاءً وتكذيبًا ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتمنون هلاكك: أخبروني إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، أو رحمنا بتأخير آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فمـن يحميكـم من عـذاب الله الأليم، ووضع لفـظ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ عوضًا عن الضمير «يجيركم» تشـنيعًا وتسجيلًا عليهم بالكفر قال المفسـرون: كان الكفار يتمنون هلاك النبي ﷺ والمسـلمين، فأمره الله أن يقول لهم: إن أهلكني الله بالإماتة وأهلك من معي، فأي راحـةٍ وأي منفعـة لكم فيـه، ومن الـذي يجيركم من عـذاب الله إذا نزل بكم؟ هـل تظنون أن الأصنـام تخلصكم وتنقذكم مـن العذاب الأليـم[(٣)]؟ ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي قـل لهم: آمنـا بالله الواحد الأحد، وعليـه اعتمدنا في جميع أمورنا، لا علـى الأموال والرجال ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي فسوف تعلمون عن قريب من هو في الضلالة نحن أم أنتم؟ وفيـه تهديد للمشـركين ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي قل لهم يـا محمد: أخبروني إذا صار المـاء غائـرًا ذاهبًا في أعماق الأرض، بحيث لا تسـتطيعون إخراجـه ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ أي فمـن الذي يُخرِجُه لكم حتـى يكون ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض؟ هـل يأتيكم غير الله به؟ فلِمَ تُشركون مع الخالق الرازق غيره من الأصنام والأوثان؟

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿الْمَوْتَ.. وَالْحَيَاةَ﴾ وبين ﴿وَأَسِرُّوا.. أَوِ اجْهَرُوا﴾ وبين ﴿صَافَّاتٍ.. وَيَقْبِضْنَ﴾ لأن المعنى صافات وقابضات.

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧.

(٢) البحر ٨/ ٣٠٧.

(٣) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٧٦.

٢ - وضع الموصول للتفخيم والتعظيم ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي له الملك السلطان، والتصرف في الأكوان.

٣ - الإطناب بتكرار الجملة مرتين زيادة في التذكير والتنبيه ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ.. ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ وكذلك ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ.. فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

٤ - الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟

٥ - المقابلة ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ قابله بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٦ - الاستعارة المكنية ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ شبَّه جهنم في شدة غليانها ولهبها بإنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه يكاد يتقطع من شدة الغيظ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الغيظ الشديد بطريق الاستعارة المكنية.

٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا بطريق التمثيل للمؤمن والكافر، فالمؤمن من يمشي سويًا على صراط مستقيم، والكافر يمشي مكبًا على وجهه إلى طريق الجحيم، ويا لها من استعارة رائعة!!

٨ - السجع المرصَّع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ ومثل ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ ﴿فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك»



سُورَةُ القَلَمِ ٦٨ ٥٢

مكية وآياتها ثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* سورة القلم من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة والإيمان، وقد تناولت هذه السورة ثلاثة مواضيع أساسية وهي:

أ- موضوع الرسالة، والشبه التي أثارها كفار مكة حول دعوة محمد بن عبد الله ﷺ.

ب- قصة أصحاب الجنة «البستان»، لبيان نتيجة الكفر بنعم الله تعالى.

ج- الآخرة وأهوالها وشدائدها، وما أعدَّ الله للفريقين: المسلمين والمجرمين.

* ولكن المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع إثبات نبوة محمد ﷺ.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه -وحاشاه- بالجنون، وبينت أخلاقه العظيمة، ومناقبه السامية ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ الآيات.

* ثم تناولت موقف المجرمين من دعوة رسول الله ﷺ، وما أعد الله لهم من العذاب والنكال ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ...﴾ الآيات.

* ثم ضربت مثلاً لكفار مكة في كفرانهم نعمة الله العظمى ببعثة خاتم الرسل ﷺ إليهم وتكذيبهم به بقصة أصحاب الجنة «الحديقة» ذات الأشجار والزروع والثمار، حيث جحدوا نعمة الله ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين، فأحرق الله حديقتهم وجعل قصتهم عبرة للمعتبرين ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ الآيات.

* ثم قارنت السورة بين المؤمنين والمجرمين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ...﴾ الآيات.

* وتناولت السورة الكريمة القيامة وأحوالها وأهوالها، وموقف المجرمين من ذلك اليوم العصيب، الذي يكلفون فيه بالسجود لرب العالمين فلا يقدرون ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين، وعدم التبرم والضجر بما يلقاه في سبيل تبليغ دعوة الله كما حدث من يونس عليه السلام حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ الآيات.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ
خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ
﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ
﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ
ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ
﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ
عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ
تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ
أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا
ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ
﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن
تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ
بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

اللغَة: ﴿يَسْطُرُونَ﴾ يكتبون، سَطَر العلمَ كتبه بالقلم ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع يقال: مننْتُ الحبل إذا قطَعْتُه ﴿عُتُلٍّ﴾ العُتُل: الغليظ الجافي، السريع إلى الشر، مأخوذ من العَتْل وهو الجَرُّ ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ [الدخان: ٤٧] قال في الصحاح: عَتَلْتُ الرجُلَ إذا جذبْتُه جذبًا عنيفًا[1] ﴿زَنِيمٍ﴾ الزنيمُ: الملصق بالقوم وليس منهم، وهو الدَّعِيُّ الذي لا يعرف أبوه قال الشاعر:

زَنِيمٌ لَيْسَ يُعْرَفُ مَنْ أَبُوهُ ... بَغِيُّ الأُمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمِ[2]

﴿صَٰرِمِينَ﴾ صرم الشيء قطعه، وصرم النخلة قطع ثمرها ﴿حَرْدٍ﴾ قصد وعزم ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل وضمين ﴿مَكْظُومٌ﴾ مملوءٌ غيظًا وغما.

(١) الصحاح للجوهري مادة عتل.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٣٤.

التفسير: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ نون حرف من الحروف المقطعة، ذكر للتنبيه على إعجاز القرآن[١].. أقسم تعالى بالقلم الذي يكتب الناس به العلوم والمعارف، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الرحمن على عباده والمعنى: أُقسِم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على صدق محمد وسلامته مما نسبه إليه المجرمون من السفه والجنون، وفي القسم بالقلم والكتابة إشادة بفضل الكتابة والقراءة، فالإنسان من بين سائر المخلوقات خصه الله بمعرفة الكتابة ليفصح عما في ضميره ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٤٥] وحسبك دليلًا على شرف القلم أن الله أقسم به في هذه السورة تمجيدًا لشأن الكاتبين، ورفعًا من قدر أهل العلم، ففي القلم البيان كما في اللسان، وبه قوام العلوم والمعارف قال ابن كثير: والظاهر من قوله تعالى ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ أنه جنس من القلم الذي يكتب به، وهو قسم منه تعالى لتنبيه خلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تُنال العلوم[٢] ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ أي لست -يا محمد- بفضل الله وإنعامه عليك بالنبوة بمجنون، كما يقول الجهلة المجرمون[٣]، فأنت بحمد الله عاقل لا كما قالوا ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر:٦] قال ابن عطية: هذا جواب القسم، وقوله ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ اعتراض كما تقول للإنسان: أنت بحمد الله فاضل[٤] ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ أي وإنّ لك لثوابًا على ما تحملت من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله غير مقطوع ولا منقوص ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ أي وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات.. يا له من شرف عظيم، لم يُدرِك شأْوَه بَشَرٌ[٥]، فربُّ العزة جل علا يصف محمدًا بهذا الوصف الجليل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ وقد كان من خلقه ﷺ العلم والحلم، وشدة الحياء، وكثرة العبادة والسخاء، والصبر والشكر، والتواضع والزهد، والرحمة والشفقة، وحسن المعاشرة والأدب، إلى غير ذلك من الخلال العلية، والأخلاق المَرْضِية[٦] ولقد أحسن القائل:

---

(١) انظر التحقيق العلمي الذي كتبناه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٣٢.

(٣) (ش): رُوِيَ أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: إنه لمجنون به شيطان؛ فنزلت: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن المنذر.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٠٧.، قال أبو حيان: والآية كالدليل القاطع على صحة الدعوى لأن النعمة كانت ظاهرة في حقه عليه السلام من كمال الفصاحة والعقل والسيرة المَرْضيَّة والاتِّصاف بكل مَكرمة مما يكذِّب التهمة.

(٥) (ش): شَأْو: أَمَد، غاية.

(٦) أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لي لشيء فعلته: لمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خُلقًا، وما مسست خزًا ولا حريرًا، ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرَق رسول الله ﷺ» أخرجه البخاري ومسلم، وفي البخاري عن عائشة لما سئلت عن خُلُقه ﷺ قالت: «كان خُلقه القرآن» تعني =

إِذَا اللهُ أَثْنَى بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ عَلَيْكَ فَما مِقْدارُ ما يَمْدَحُ الوَرَى؟

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي فسوف ترى يا محمد، ويرى قومك ومخالفوك كفار مكة إذا نزل بهم العذاب ﴿بِأَيِيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي أيكم الذي فتن بالجنون؟ هل أنت كما يفترون، أم هم بكفرهم وانصرافهم على الهدى؟ قال القرطبي: والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان، ومعظم السورة نزل في «الوليد بن المغيرة» و «أبي جهل»[١] وقد كان المشركون يقولون: إن بمحمد شيطانًا، وعَنَوا بالمجنون هذا، فقال الله تعالى سيعلمون غدًا بأيهم المجنون أي الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل[٢] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي هو سبحانه العالم بالشقي المنحرف عن دين الله وطريق الهدى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي وهو العالم بالتقي المهتدي إلى الدين الحق، وهو تعليل لما قبله وتأكيد للوعد والوعيد كأنه يقول: إنهم هم المجانين على الحقيقة لا أنت، حيث كانت لهم عقول لم ينتفعوا بها، ولا استعملوها فيما ينجيهم ويسعدهم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي فلا تطع رؤساء الكفر والضلال الذين كذبوا برسالتك وبالقرآن، فيما يدعونك إليه قال الرازي: دعاه رؤساء أهل مكة إلى دين آبائه، فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله إلهاب وتهييج للتشدد في مخالفتهم[٣] ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وتترك بعض ما لا يرضونه مصانعة لهم، فيلينوا لك ويفعلوا مثل ذلك في التسهيل: المداهنة: هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي، روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت الآية[٤] ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي ولا تطع يا محمد كثير الحلق بالحف والباطل، الذي يكثر من الحلف مستهينًا بعظمة الله ﴿مَّهِينٍ﴾ أي فاجر حقير ﴿هَمَّازٍ﴾ أي مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي يمشي بالنميمة بين الناس، وينقل حديثهم ليوقع بينهم وهو الفتان، وفي الحديث الصحيح «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»[٥] ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي بخيل ممسك عن الإنفاق في سبيل الله ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي ظالم متجاوز في الظلم والعدوان، كثير الآثام والإجرام، وجاءت الأوصاف ﴿حَلَّافٍ، هَمَّازٍ، مَّشَّآءٍ، مَّنَّاعٍ﴾ بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة ﴿عُتُلٍّ﴾ أي جاف غليظ،

= التأدب بآدابه. (ش): الخَزّ: نسيج من حرير خالص. وكلام عائشة رضي الله عنها ليس في صحيح البخاري بل في صحيح مسلم.

(١) (ش): قيل: إنها نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في الأسود بن عبد يغوث، وقيل: في الأخنس بن شريق. وكلها أقوال في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٢٩.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٨٣.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٣٨. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٥) أخرجه مسلم.

قاسي القلب عديم الفهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد تلك الأوصاف الذميمة التي تقدمت ﴿زَنِيمٍ﴾ أي ابن زنا، وهو أشدُّ معايبه وأقبَحُها، أنه لصِيق دَعِيٌّ ليس له نسبٌ صحيح قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» فقد كان دعِيًا في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة، أي: تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يُعرف له أب. قال ابن عباس: لا نعلم أحدًا وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عارًا لا يفارقه أبدًا، وإنما ذُمَّ بذلك لأن النطفة إذا خبثت خبث الولد، وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها: إن محمدًا وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيَّ أعرفها غير التاسع منها يريد أنه ﴿زَنِيمٍ﴾ فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عِنِّينًا أي لا يستطيع معاشرة النساء فخِفْتُ على المال فمكَّنْت راعيًا من نفسي فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية[1] ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي لأنْ كان ذا مال وبنين قال في القرآن ما قال، وزعم أنه أساطير الأولين؟[2] وكان ينبغي أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا قرئت آيات القرآن على ذلك الفاجر قال مستهزئًا ساخرًا: إنها خرفات وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ونسبها إلى الله، قال تعالى ردًا عليه متوعدًا له بالعذاب ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه يعرف بها إلى موته، وكنى بالخرطوم عن أنفه على سبيل الاستخفاف به، لأن الخرطوم للفيل والخنزير، فإذا شبه أنف الإنسان به كان ذلك غاية في الإذلال والإهانة كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر[3]، قال ابن عباس: سنخْطم أنْفه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش، وقد خطم يوم بدر بالسيف[4]. قال الإمام الفخر: لما كان الوجه

(١) انظر «تفسير الجلالين» وحاشية الصاوي عليه ٤/ ٢٣٣. (ش): لم أجدْ هذه القصة إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما–: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾؛ قال: «رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنَمَةٌ مِثْلُ زَنَمَةِ الشَّاةِ». (رواه البخاري). (زنمة) قطعة جلد أو لحم زائدة، كالأصبع الزائدة مثلًا. (زنمة الشاة) هي ما يقطع من أذنها ويترك معلَّقًا. وَقيل: هِي لحْمَة معلقَة فِي عُنُقهَا. وفي رواية عنه ﷺ قال: نزل على النبي ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾، قال: فلم نعرِفْه حتى نزل على النبي ﷺ: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾، فعرفناه له زنمة كزَنَمَة الشاة. (حسن، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»).

(٢) اختار الطبري وابن كثير هذا المعنى أن الآية متعلقة بما بعدها أي لأنه ذو مال وبنين يتكبر بماله وبَنِيه ويقول: إن القرآن خرافات وأباطيل. واختار غيرهما أن الآية متعلقة بما سبق أي لا تطعه بسبب كثرة ماله وولده، «تفسير الطبري»٢٩/ ١٨.

(٣) (ش): مِشْفَر: شفة البعير الغليظة. والجمع مَشافِرُ. ظِلْف: ظفر مشقوق، للبقرة والشّاة والظبي ونحوهم، وهو بمنزلة الحافر للفرس والظفر للإنسان. حافِر الدَّابَّة: ما يقابل القدمَ من الإنسان، والجمع حوافِرُ.

(٤) «تفسير الطبري»٢٩/ ١٨. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسنادٍ ضعيف. والْخَطْمُ: الأَثَرُ عَلَى الْأَنْفِ.

أكرم موضع الجسـد، والأنف أكرم موضع في الوجه لارتفاعه عليه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأَنَفَة، وقالوا في الذليل: رغِمَ أنفه، فعبّر بالوسْم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانـة، لأن السـمة على الوجه شَـيْن[١]، فكيف على أكرم موضـع من الوجه[٢]!!

ثـم ذكر تعالى قصة أصحـاب الحديقة وما ابتلاهم تعالى به من إتلاف الزروع والثمار وضربه مثـلًا لكفار مكة فقـال ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي إنا اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع بدعـوة رسـول الله ﷺ كما اختبرنا أصحاب البسـتان المشـتمل على أنواع الثمـار والفواكه، وكلفنـا أهل مكة أن يشـكروا ربهم علـى النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة أن يشـكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم قال المفسـرون: كان لرجل مسـلم بقرب صنعاء بسـتان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار، وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء فأعطاهم نصيبًا وافرًا منه وأكرمهم غايـة الإكرام. فلما مات الأب ورثـه أبناؤه الثلاثة فقالوا: عيالنا كثيـر والمال قليل ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على ألا يعطوا أحدًا من الفقراء شيئًا، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح خفية عنهم، وحلفوا على ذلك، فأرسل الله تعالى نـارًا علـى الحديقة ليلًا أحرقت الأشـجار وأتلفت الثمار، فلما أصبحوا ذهبـوا إلى حديقتهم فلم يروا فيها شـجرًا ولا ثمرًا، فظنوا أنهم أخطئوا الطريق، ثم تبين لهم أنه بسـتانهم وحديقتهم وعرفـوا أن الله تعالى عاقبهم فيها بنيتهم السـيئة، فندموا وتابوا بعد أن فات الأوان[٣] ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي حيـن حلفوا ليقطعن ثمرها وقت الصباح، قبل أن يخرج إليهم المسـاكين ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي ولم يقولوا إن شـاء الله حين حلفوا، كأنهم واثقون من الأمر ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أي فطرَقَهـا طـارقٌ مـن عـذاب الله[٤]، وهم في غفلةٍ عمَّا حـدث لأنهم كانوا نيامًا، قال الكلبي: أرسـل الله عليها نارًا من السـماء فاحترقت وهم نائمون ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي فأصبحـت كالـزرع المحصود إذا أصبح هشـيمًا يابسًـا قال ابن عبـاس: أصبحت كالرماد الأسود، قد حُرِمُوا خيرَ جنتهم بذنبهم ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴾ أي نادى بعضهم بعضًا حين أصبحوا ليمضـوا علـى الميعاد إلـى بسـتانهم ﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ أي اذهبـوا مبكرين إلى ثماركم وزروعكـم وأعنابكم إن كنتم حاصدين للثمار تريدون قطعها ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أي فانطلقـوا نحـو البسـتان وهم يخفـون كلامهم خوفًـا من أن يشـعر بهم المسـاكين قائلين ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي لا تدخلـوا في هـذا اليـوم أحـدًا من الفقراء إلى البسـتان ولا تُمَكِّنـوه مـن الدخـول ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي ومضـوا على قصـد وقدرة في أنفسـهم يظنون

(١) (ش): شَيْن: عَيْب.

(٢) «تفسير الفخر الرازي» ٣٠/ ٨٦.

(٣) انظر «التفسير الكبير» للفخر الرازي ٣٠/ ٨٧، و«البحر المحيط» لأبي حيان ٨/ ٣١١.

(٤) (ش): طرَقَ فلانٌ القومَ: أتَاهم ليلاً.

أنـه تمكنـوا من مرادهم قـال ابن عبـاس: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على قـدرة وقصد، وقال السـدي: على حنـق وغضب، وقال الحسـن: على فاقة وحاجـة[١]، وقول ابن عبـاس أظهر ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي فلما رأوا حديقتهم سوداء محترقة، قد استحالت من النضارة والبهجة إلى السواد والظلمة، قالوا: لقد ضللنا الطريق إليها وليست هذه حديقتنا قال أبو حيان: كان قولهم ذلك في أول وصولهم إليها، أنكروا أنها هي واعتقدوا أنهم أخطئوا الطريق، ثم وضح لهم أنها هي وأنه أصابهـا من عذاب الله مـا أذهب خيرها فقالوا عند ذلك[٢] ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي لسـنا مخطئين للطريق بل نحن محرومون، حُرِمْنا ثمرَها وخيرَها بجِنايَتِنا على أنفسـنا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؟ أي قال أعقَلُهم وأفضلُهم رأيًا: هلا تسـبحون الله فتقولوا «سـبحان الله» أو «إن شاء الله» قـال في البحـر: نبههم ووبخهم على تركهـم ما حضهم عليه من التسـبيح، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامتثلوا ما أمر به من مواساة المساكين، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك، فلما غفلوا عـن ذكـر الله وعزموا على منع المسـاكين ابتلاهـم الله[٣] وقال الرازي: إن القـوم حين عزموا علـى منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم، قال الأوسـط لهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العـذاب، فلما رأوا حالة البسـتان ذكرهم بالكلام الأول، فاشـتغلوا بالتوبـة ولكن بعد خراب البصـرة[٤] ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي فقالـوا حينئـذٍ: تنزه الله ربنا عـن الظلم فيما فعل، بل نحن كنا الظالمين لأنفسـنا في منعنا حق المسـاكين ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا يقول هذا أنت أشـرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذاك: بل أنت، ويقول آخر: أنت الذي خوفتنا الفقر ورغبتنا في جمع المال، فهذا هو التلاوم[٥] ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي قالوا يـا هلاكنا وتعاسـتنا إن لم يغفر لنا ربنا، فقد كنا عاصين وباغيـن في منعنا الفقراء، وعد التوكل على الله، فقال الرازي: والمراد أنهم اسـتعظموا جرمهم[٦] ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ أي لعل الله يعطينـا أفضل منها بسـبب توبتنا واعترافنـا بخطيئتنـا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي فنحن راجون

---

(١) قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال معناه: وَغَدَوْا عَلَى أَمْرٍ قَدْ قَصَدُوهُ وَاعْتَمَدُوهُ، وَاسْتَسَرُّوهُ بَيْنَهُمْ، قَادِرِينَ عَلَيْهِ، وهو ترجيح لقول ابن عباس وهو الذي اخترناه.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣١٣.

(٣) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٠.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٠. (ش): بعد خراب البصرة: أحد الأمثال المشهورة، ويُضرب للذي يقوم بعمل ولكن بعد فوات الأوان، وأصل المثل ربما يعود إلى زمان الدولة العباسية عندما قاد أحد الزنوج ثورة على الخليفة العباسي «المعتمِد على الله»، فهاجم البصرة وأحرقها يوم ١٤ شوال سنة ٢٥٧هـ، وقُتل في هذه الواقعة عشرات آلاف من المسلمين،وبعد أربع عشرة سنة استرد الخليفة «الموفق» المدينة من الثوار الزنوج ولكن (بعد خراب البصرة).

(٥) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩١.

(٦) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩١.

لعفوه، طالبون لإِحسانه وفضله.

ساق تعالى هذه القصة ليُعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إِلى التلف، وأنه يضن ببعض ماله في سبيل الله فيهلك كل ماله مصحوبًا بغضب الله، ولذلك عقب تعالى بعد ذكر هذه القصة بقوله ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل هذا العذاب الذي نزل بأهل الجنة ينزل بقريش، ولعذاب الآخرة أعظم وأشد من عذاب الدنيا لو كان عندهم فهم وعلم، قال ابن عباس: هذا مَثَل لأهل مكة حين خرجوا إِلى بدر، وحلفوا ألا يرجعوا إلى مكة حتى يقتلوا محمدًا ﷺ وأصحابه، ويشربوا الخمور، وتضرب القينات - المغنيات - على رءوسهم، فأخلف الله ظنهم، فقُتِلوا وأُسِروا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا[١].. ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين المتقين بعد أن ذكر حال المجرمين من كفار مكة فقال ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي إن للمتقين في الآخرة حدائق وبساتين ليس فيها إلا النعيم الخالص، الذي لا يشوبه كدر ولا منغص كما هو حال الدنيا ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ الاستفهام للإِنكار والتوبيخ أي أفنُسَاوي بين المطيع والعاصي، والمحسن والمجرم؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ تعجب منهم حيث إنهم يسوُّون المطيع بالعاصي، والمؤمن بالكافر، فإن مثل هذه لا يصدر عن عاقل ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ أي هل عندكم كتاب منزل من السماء تقرءون وتدرسون فيه ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ هذه الجملة مفعول لتدرسون أي تدرسون في هذا الكتاب أن لكم ما تشتهون وتطلبون؟ وهذا توبيخ آخر للمشركين فيما كانوا يزعمونه من الباطل حيث قالوا: إن كان ثمة بعث وجزاء، فسنعطى خيرًا من المؤمنين كما أعطينا في الدنيا قال الطبري: وهذا توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأماني الكاذبة[٢] ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي هل لكم عهود ومواثيق مؤكدة من جهتنا ثابتة إلى يوم القيامة؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ هذا جوابه أي إن لكم الذي تريدونه وتحكمون به؟ قال ابن كثير: المعنى أمعكم عهود ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون[٣] ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي سل يا محمد هؤلاء المكابرين أيهم كفيل وضامن بهذا الذي يزعمون؟ وفيه نوع من السخرية والتهكم بهم، حيث يحكمون بأمور خارجة عن العقول، يرفضها المنطق وتأباها العدالة ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أي أم لهم شركاء وأرباب يكلفون لهم بذلك، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم قال في التسهيل: وهذا تعجيز للكفار والمراد إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء، فأتوا بهم

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٤٦.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٢٣.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٣٧.

وأحضروهم حتى نرى حالهم[١]. ولما أبطل مزاعمهم وسفه أحلامهم، شرع في بيان أهوال الآخرة وشدائدها فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك ذلك اليوم العصيب الذي يكشف فيه عن أمر فظيع شديد في غاية الهول والشدة، قال ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة[٢]

قال القرطبي: والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجدّ شَمَّر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها موضع الشدة[٣] كقول الراجز:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا ... وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ويدعى الكفار للسجود لرب العالمين فلا يستطيعون

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٤٠.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٣٨. (ش): هذا أحد القولين في تفسير الآية: أن المراد بها شدة الهول يوم القيامة، وعليه فليست من آيات الصفات. والقول الثاني: أن المراد في الآية هنا أن الله يكشف عن ساقِه، ويدل على هذا قولُ النبي ﷺ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» (رواه البخاري ومسلم).

وسبب الخلاف في تفسير الآية أنه ليس في ظاهرها أنَّ ذلك صفة لله تعالى؛ لأنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، ولم يَقُل: عن ساق الله، ولا قال: يكشف الرب عن ساقه، وإنما ذكر ساقًا نكرة غير مُعَرَّفة ولا مضافة، وهذا اللفظ بمجرده لا يدل على أنها ساق الله، والذين جعلوا ذلك من صفات الله تعالى أثبتوه بالحديث الصحيح المفَسِّر للقرآن. واستدلوا أيضًا بما يلي:

١- إن تنكير الساق في الآية للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يُكشَف عن ساقٍ عظيمة؛ جلَّتْ عظمتُها، وتعالَى شأنُها أن يكون لها نظير أو مثيل أو شبيه.

٢- إن حمل الآية على الشِّدَّة لا يصح، لأن اللغة في مثل ذلك أن يقال: كُشِفَتِ الشِّدَّة عن القوم، لا كُشِف عنها، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ [المؤمنون: ٧٥]؛ فالعذاب والشِّدَّة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضًا يوم القيامة تحدث الشِّدَّة وتشتد، ولا تُزال إلا بدخول الجنة، وهناك - أي في الجنة - لا يُدعَون إلى السجود، وإنما يدعون إليه أشدَّ ما كانت الشِّدَّة.

٣- أنه أخبر أنه يُكشَف عن ساق ويدعون إلى السجود، والسجود لا يصلح إلا لله، فعُلِم أنه هُو الكاشف عن ساقه، وهذا لا يظهر من مجرد لفظة سَاقٍ، بل بالتركيب والسياق وتدبُّر المعنى المقصود. وممَّا يجب أن يُعْلَم أن الذين فسَّروا الآية بالتفسير الأول- أي شدة الهول يوم القيامة - لم ينْفُوا عن الله تعالى صفة الساق التي ثبتَتْ بها السُّنة، لكنهم لم يرَوْا أن الآية دالَّةٌ عليها ولم يعُدُّوها من آيات الصفات، إنما أثبتوا صفة الساق بالسُّنَّة ولا منافاةَ بين القولين، فالله يكشف عن ساقه يوم شدة الهول، وذلك بخلاف المعَطِّلة الذين ينفون صفة الساق، ولا يُثبِتونها لا بالقرآن ولا بالسُّنَّة، بل حمَلُوا الآية والحديث على شدة الأمر. وهذا وإن كان محتملًا في الآية لكنه لا يحتَمَل في تفسير الحديث، لورود الساق مضافة إلى الضمير العائد على الله تعالى: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ». [انظر: «الصواعق المُرسَلة في الرد على الجهْمية والمعطِّلة»، لابن قيم الجوزية (١/ ٢٥٣). «أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين» للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس، (ص: ٣٢-٣٤)].

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٤٩.

لأن ظهر أحدهم يصبح طبقًا واحدًا، وفي الحديث «يَسْجُدُ لِلهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»[١] ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي ذليلة متواضعة أبصارهم لا يستطيعون رفعها ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم وتلحقهم الذلة والهوان ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي والحال أنهم كانوا في الدنيا يُدعَوْن إلى السجود وهم أصِحَّاء الجسم مُعَافَوْن فيأبَوْن. قال الإمام الفخر: لا يُدْعَون إلى السجود تعبُّدًا وتكليفًا، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود ويَحُول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه، حين دُعُوا إليه في الدنيا وهم سالمو الأطراف والمفاصل[٢] ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي اتركني يا محمد ومن يكذب بهذا القرآن لأكفيك شره وأنتقم لك منه!! وهذا منتهى الوعيد ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي سنأخذهم بطريق الاستدراج بالنعم، إلى الهلاك والدمار، من حيث لا يشعرون قال الحسن: كم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه[٣] قال الرازي: الاستدراج أن يستنزله إليه درجة درجة حتى يورطه فيه، فكلما أذنبوا ذنبًا جدَّد الله لهم نعمة وأنساهم الاستغفار، فالاستدراج إنما حصل لهم من الإنعام عليهم، لأنهم يحسبونه تفضيلًا لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم[٤] ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي أُمهلهم وأُطيل في أعمارهم ليزدادوا إثمًا ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي إن انتقامي من الكافرين قوي شديد وفي الحديث «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٥] وإنما سمي إحسانه كيدًا كما سماه استدراجًا لكونه في صورة الكيد، فما وقع لهم من سعة الأرزاق، وطول الأعمار، وعافية الأبدان، إحسانٌ في الظاهر، وبلاء في الباطن، لأن المقصود معاقبتهم وتعذيبهم به ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي أتسألهم يا محمد غرامة مالية على تبليغ الرسالة، فهم مُعرِضون عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل ببذلهم المال؟ والغرض توبيخهم في عدم الإيمان فإن الرسول لا يطلب منهم شيئًا من الأجر قال الخازن: المعنى أتطلب منهم أجرًا فيثقل عليهم

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم. (ش): (فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا): أي يصبح عظامًا بلا مفاصل لا ينثني عند الرفع والخفض. ساق المؤلف آخِر هذا الحديث: (يَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ) ولم يذكر أوَّلَه (يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ) الذي فيه بيان المراد بالساق. (راجع التعليق السابق).

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٦.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٥١.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٦.

(٥) أخرجه الشيخان.

محمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم عن الإيمان[١] ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي أم هل عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب، فهم ينقلون منه أنهم خير من أهل الإيمان، فلذلك أصروا على الكفر والطغيان؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذاهم، وامض لما أُمرت به من تبليغ رسالة ربك ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي ولا تكن في الضجر والعجلة، كيونس بن متى عليه السلام، لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا فتركهم وركب البحر ثم التقمه الحوت، وكان من أمره ما كان ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت وهو مملوء غمًا وغيظًا بقوله ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي لولا أن تداركته رحمة الله ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال، وهو مُلامٌ على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذمومًا ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي فاصطفاه ربه واختاره لنفسه فجعله من المقربين قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه[٢] ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي ولقد كاد الكفار من شدة عداوتهم لك يا محمد أن يصرعوك بأعينهم ويهلكوك، من قولهم نظر إلي نظرًا كاد يصرعني قال ابن كثير: وفي الآية دليل على أن العين وإصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ، ويؤيده حديث «لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»[٣] ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي حين سمعوك تقرأ القرآن، ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك إن محمدًا مجنون، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وما هذا القرآن المعجز إلا موعظة وتذكير للإنس والجن، فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون؟! ختم تعالى السورة ببيان عظمة القرآن، كما بدأها ببيان عظمة الرسول، ليتناسق البدء مع الختام في أروع بيان وأجمل ختام.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ – الجناس الناقص بين لفظي ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ و ﴿مَمْنُونٍ﴾ لا ختلاف الحرف الثاني.

٢ – الوعيد والتهديد ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ وحذف المفعول للتهويل.

٣ – صيغ المبالغة في ﴿حَلَّافٍ، هَمَّازٍ، مَّشَّآءٍ، مَّنَّاعٍ﴾ وكذلك في ﴿أَثِيمٍ.. زَنِيمٍ﴾.

٤ – الاستعارة القائمة ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ استعار الخرطوم للأنف لأن أصل الخرطوم للفيل، واستعارته لأنف الإنسان تجعله في غاية الإبداع لأن الغرض الاستهانة به والاستخفاف.

٥ – الطباق بين ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وبين ﴿ضَلَّ.. بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٤٠.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٩.

(٣) الحديث رواه أحمد والترمذي قال الترمذي: حسن صحيح. (ش): ورَوَاهُ مُسْلِمٌ.

٦ – جناس الاشتقاق ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

٧ – التقريع والتوبيخ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ والجُمَل التي بعدها.

٨ – التشـبيه المقلوب بجعل المشـبه به مشـبهًا والعكس ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ لأن الأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والمثوبة؟ فقلب التشبيه ليكون أبلغ وأروع.

٩ – الكنايـة الرائقة الفائقة ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ كناية عن شـدة الهـول، وتفاقم الخطب يوم القيامة[1].

١٠– السـجع المرصع المحبوك، كأنه الدر المنظوم اقـرأ الآيات الكريمة ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ إلخ وتدبر روعة القرآن!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»



(١) (ش): تقدم أن هناك قولين في تفسير الآية: القول الأول: أن المراد بها شدة الهول يوم القيامة، وعليه فليست من آيات الصفات. والقول الثاني: أن المراد في الآية هنا أن الله يكشف عن ساقِه، ويدل على هذا قولُ النبي ﷺ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» (رواه البخاري ومسلم).

سُورَةُ الحَاقَّةِ ٦٩ ٥٢

مكية وآياتها ثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* سورة الحاقة من السور المكية، شأنها شأن سائر السور المكية في تثبيت العقيدة والإيمان، وقد تناولت أمورًا عديدة كالحديث عن القيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، والحديث عن المكذبين وما جرى لهم، مثل قوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون، وقوم نوح، وغيرهم من الطغاة المفسدين في الأرض، كما تناولت ذكر السعداء والأشقياء، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو «إثبات صدق» القرآن وأنه كلام الحكيم العليم، وبراءة الرسول ﷺ مما اتهم به أهل الضلال.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ..﴾ الآيات.

* ثم تناولت الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور، من خراب العالم، واندكاك الجبال، وانشقاق السماوات إلخ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ الآيات.

* ثم ذكرت حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم المفزع، حيث يعطى المؤمن كتابه بيمينه، ويلقى الإكرام والإنعام، ويعطى الكافر كتابه بشماله ويلقى الذل والهوان ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ.. وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ..﴾ الآيات.

* وبعد هذا العرض لأحوال الأبرار والفجار، جاء القسم البليغ بصدق الرسول، وصدق ما جاء به من الله، ورد افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر أو كهانة ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾.

* ثم ذكرت البرهان القاطع على صدق القرآن، وأمانة الرسول ﷺ في تبليغه الوحي كما نزل عليه، بذلك التصوير الذي يهز القلب هزًا، ويثير في النفس الخوف والفزع من هول الموضوع ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة بتمجيد القرآن وبيان أنه رحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ
بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ
حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ
وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي
ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ
فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ
وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ
بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ
بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾
هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾
إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ
غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا
هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ
ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ
لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ
ٱلۡعَظِيمِ

اللغَة: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ القيامة سُمِّيت حاقة لأنها حَقٌّ، مقطوعٌ بوقوعها ﴿صَرۡصَرٍ﴾ شديدة الصوت والبرد ﴿حُسُومٗا﴾ متتابعة لا تنقطع من الحسم وهو القطع قال الشاعر:

فَدَارَتْ عَلَيْهِمْ فَكَانَتْ حُسُومًا[1]

﴿رَّابِيَةً﴾ زائدة في الشِّدة والعذاب ﴿وَاهِيَةٞ﴾ ساقطة القوة، ضعيفة متراخية من قولهم: وهي البناء اذا ضعف وتداعى للسقوط ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل أمر بمعنى خذوا ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قِطْف وهو ما يُجتَنَى من الثمر ويُقطَف ﴿غِسۡلِينٖ﴾ صديد أهل النار قال الكلبي: هو ما يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عُذِّبوا فهو ﴿غِسۡلِينٖ﴾ فِعْلِين[2] من الغَسْل[3]

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣١٩.
(٢) (ش): أي على وزن فِعْلِين.
(٣) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١٦.

﴿ٱلْوَتِينَ﴾ عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه ويسمى الأبهر وفي الحديث «مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي»(١) ﴿حَسْرَةٌ﴾ ندامة عظيمة.

التفسير: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ اسم للقيامة سميت بذلك لتحقق وقوعها، فهي حقٌّ قاطع، وأمر واقع، لا شك فيه ولا جدال ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ التكرار لتفخيم شأنها، وتعظيم أمرها، وكان الأصل أن يقال: ما هي؟ ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير زيادة في التعظيم والتهويل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ وما أعلمك يا محمد ما القيامة؟ إنك لا تعلمها إذ لم تعاينها، ولم تَرَ ما فيها من الأهوال، فإنها من العظم والشدة بحيث لا يحيط بها وصف ولا خيال(٢)، وهذا على طريقة العرب فإنهم إذا أرادوا تشويق المخاطب لأمرٍ أتوا بصيغة الاستفهام يقول: أتدري ماذا حدث؟ والآية من هذا القبيل زيادة في التعظيم والتهويل كأنه قال: إنها شيء مُريع وخَطْبٌ فظيع.. ثم بعد أن عَظَّم أمرَها وفخَّم شأنَها، ذكر مَن كذَّب بها وما حلَّ بهم بسبب التكذيب، تذكيرًا لكفار مكة وتخويفًا لهم فقال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي كذب قوم صالح، وقوم هود بالقيامة، التي تقرع القلوب بأهوالها ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي فأمَّا ثمود قوم صالح فأُهلكوا بالصيحة المدمرة، التي جاوزت الحدَّ في الشدة قال قتادة: هي الصيحة التي خرجت عن حدِّ كل صيحة(٣) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي وأما قوم هود فأُهلكوا بالريح العاصفة ذات الصوت الشديد وهي الدَّبور وفي الحديث «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»(٤) ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي متجاوزة الحدَّ في الهبوب والبرودة، كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها(٥)، قال ابن عباس: ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قطُّ إلا بمكيال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على الخُزَّان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(٦) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي سلَّطها الله عليهم

(١) نفس المرجع السابق ٣٠/ ١١٩. (ش): بهذا اللفظ رواه البزار، وابنُ السنِّي، وأبو نعيم في «الطب النبوي»، وصححه الألباني. ورواه البخاري بلفظ: «مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِى أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِى مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ».

(٢) قال «أبو السعود»: والتكرار تأكيد لهولها وفظاعتها، ببيان خروجها عن دائرة علم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها ومدى هولها لا تكاد تبلغه دراية أحدٍ ولا وهمه.اهـ.

(٣) روي عن مجاهد أن معنى الآية أهلكوا بطغيانهم، والأول أرجح لمقابلته بعذاب عاد، «أبو السعود» ٥/ ١٨٨.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): (نُصِرْتُ بِالصَّبَا) الصَّبَا: هي الريح الشرقية، الريح التي تهب من مشرق الشمس ونُصرَتُه بها ﷺ كانت يوم الخندق إذا أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعَتْ خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. (وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ) الدَّبُور: هي الريح الغربية، الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

(٥) هذا قول علي وهو مروي عن الكلبي وابن عباس.

(٦) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٣٢، وقد رفعه القرطبي والصحيح أنه موقوف على ابن عباس. (ش): (رفعه القرطبي): =

سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة لا تفتر ولا تنقطع ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي فترى أيها المخاطب القوم في منازلهم موتى، لا حراك بهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي كأنهم أصول نخل متآكلة الأجواف قال المفسرون: كانت الريح تقطع رءوسهم كما تقطع رءوس النخل، وتدخُل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؟ أي فهل ترى أحدًا من بقاياهم؟ أو تجد لهم أثرًا؟ لقد هلكوا عن آخرهم كقوله تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي وجاء فرعون الجبار، ومن تقدَّمه من الأمم الطاغية التي كفرت برسلها ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي والأمم الذين انقلبت بهم ديارهم قرى قوم لوط حيث جعل الله عاليها سافلها قال الصاوي: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط، التي اقتلعها جبريل ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها، وكانت خمس قرى[1] ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالفَعْلة الخاطئة المنكرة، وهي الكفر والعصيان[2] ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصى فرعون رسول الله موسى، وعصى قوم لوطٍ رسولهم لوطًا ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي فأخذهم الله أخذةً زائدةً في الشدة، على عقوبات مَن سَبَقهم، كما أن جرائمهم زادت في القُبح والشناعة على سائر الكفار ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي لما تجاوز الماء حدَّه حتى علا كل شيء وارتفع فوقه حملناكم في السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي لنجعل تلك الحادثة عظةً للناس وعبرة، تدل على انتقام الله ممن كذَّب رسله ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي وتحفظها وتذكرها أذن واعية للمواعظ، تنتفع بما تسمع قال القرطبي: والمقصود من قصص هذه الأمم وذِكْر ما حَلَّ بهم من العذاب، زجْرُ هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول ﷺ[3]، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال قتادة: الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عزّ وجّل[4]. ولما ذَكر قصصَ المكذبين، أَتْبَعه بذِكْر أهوال القيامة وشدائدها فقال ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخةً واحدة لخراب العالم قال ابن عباس: هي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب الدنيا ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي ورفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فضُرِب بعضُها

= أي ذكره منسوبًا إلى النبي ص. وما ذكره القرطبي رواه أبو الشيخ الأصبهاني في «العظمة» بإسناد ضعيف. والكلام المنسوب لابن عباس رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف أيضًا.

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٢٤٠.

(٢) وقال مجاهد: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالذنوب والخطايا التي كانوا يفعلونها. (ش): فَعْلَة: اسم مرَّة من فعَلَ: كلمة يُشار بها إلى العمل المُستَنكَر.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٦٣.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٢٢.

بعضٍ حتى تندقَّ وتتفتَّت وتصير كثيبًا مهيلًا [١] ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي ففي ذلك الحين قامت القيامة الكبرى، وحدثت الداهية العظمى ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي وانصدعت السماء فهي يومئذٍ ضعيفة مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ أي والملائكة على أطرافها وجوانبها قال المفسرون: وذلك لأن السماء مسكن الملائكة، فاذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعًا مما داخلَهم من هوْلِ ذلك اليوم[٢]، ومن عظمة ذي الجلال، الكبير المتعال ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي ويحمل عرش الرحمن ثمانية من الملائكة العظام فوق رءوسهم وقال ابن عباس: ثمانية صفوفٍ من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله[٣] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، تعرضون على ملك الملوك ذي الجلال للحساب والجزاء، لا يخفى عليه منكم أحدٌ، ولا يغيب عنه سرٌّ من أسراركم، لأنه العالم بالظواهر والسرائر والضمائر ثم بَيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي فأما من أُعطي كتاب أعماله بيمينه لأنه من السعداء ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي فيقول ابتهاجًا وسرورًا: خذوا اقرءوا كتابي، والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ هاء السكت[٤] وكذلك في ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و ﴿مَالِيَهْ﴾ و ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ قال الرازي: ويدل قوله ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ على أنه بلغ الغاية في السرور، لأنه لما أُعطي كتابه بيمينه، علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله[٥] ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي إني أيقنت وتحققت بأني سألقى حسابي وجزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإيمان، والعمل الصالح قال الحسن: إن المؤمن أحسن الظنَّ بربه فأحسن العمل، وإنَّ المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل[٦] وقال الضحاك: كل ظنٍ في القرآن من المؤمن فهو

---

(١) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: أي وتصبح الجبال على صلابتها تَلًّا من الرَّمل سائلًا متناثرًا، بعد أن كانت صلبة جامدة.

(٢) (ش): داخَلَ الأمرُ فُلانًا: تَسَرَّبَ إلى نفسه ووقَع فيها.

(٣) القول الأول قول ابن زيد وهو الأظهر، ويؤيده حديث «حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة قَوَاهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية» وانظر «تفسير الطبري» ٢٩/ ٣٨. (ش): هذا الحديث رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسنادٍ ضعيف.

(٤) (ش): هاءُ السَّكْت – وتسمى: هاء الاستراحة: هاءٌ تُضاف في نهاية الكلمة بعد حركةٍ طويلة أو قصيرة عند الوقف مثل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].
(اقْتَدِهْ): اقْتَدِ. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠] (مَا هِيَهْ): مَا هِيَ. فنادَيتُ القبور فلَم يُجِبْنَهْ، (فلم يُجِبْنَهْ): فلَم يُجِبْنَ. غَامَتِ السَّماءُ وَلَمْ تَصْفُهْ. (وَلَمْ تصْفُهْ): لم تَصْفُ.
(عَمَّهْ؟): عَمَّ؟ (لِمَهْ؟): لِمَ؟ (فِيمَهْ؟): فِيمَ؟

(٥) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١١.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٧٠.

يقين، ومن الكافر فهو شك[١].. قال تعالى مبينًا جزاءه ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي فهو في عيشة هنيئة مرضية، يرضى بها صاحبها، لما ورد في الصحيح «أنهم يعيشون فلا يموتون أبدًا، ويصحون فلا يمرضون أبدًا، وينعمون فلا يرون بؤسًا أبدًا»[٢] ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي في جنةٍ رفيعة القدر، وقصور عالية شاهقة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي ثمارها قريبة، يتناولها القائم، والقاعد، والمضطجع قال في التسهيل: القطوف جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف كالعنقود، روي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع[٣] ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي يقال لهم تفضلًا وإنعامًا: كلوا واشربوا أكلًا وشربًا هنيئًا، بعيدًا عن كل أذى، سالمًا من كل مكروه ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني أيام الدنيا.. ولما ذكر حال السعداء أعقبه بذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ أي وأما من أعطي كتابه بشماله وهذه علامة الشقاوة والخسران ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ أي فيقول إذا رأى قبائح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي قال المفسرون: وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذٍ أنه لم يعط كتاب أعماله، ويندم أشد الندم ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي ولم أعرف عظم حسابي وشدته، والاستفهام للتعظيم والتهويل ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي يا ليت الموتة الأولى التي مِتُّها في الدنيا، كانت القاطعة لحياتي، فلم أبعث بعدها ولم أُعذب قال قتادة: تمنى الموت[٤] ولم يكن شيء عنده أكره من الموت، لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمرَّ ممَّا ذاقه من الموت ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي ما نفعني مالي الذي جمعته ولا دفع عني من عذاب الله شيئًا ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ أي زال عني ملكي وسلطاني، ونسبي وجاهي، فلا معين لي ولا مجير، ولا صديق ولا نصير ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي يقول تعالى لزبانية جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم فشدوه بالأغلال قال القرطبي: فيبتدره مائة ألف ملك، ثم تجمع يده الى عنقه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَغُلُّوهُ﴾[٥] ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي ثم أَدْخِلوه النار العظيمة المتأجِّجة، ليَصْلَى حرَّها ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ أي ثم أدخلوه في سلسلةٍ حديدية طولها سبعون ذراعًا قال ابن عباس: بذراع الملَك، تدخل السلسلة من دبره،

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٢) (ش): عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: «لَبِنَةٌ ذَهَبٍ وَلَبِنَةٌ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» (رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني). (مِلاط): طينٌ يُجعل بين حجرين في البناء، مؤنة البناء. (أَذْفَر): أي: طيِّب الريح.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٤٣. (ش): قال البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه في هذه الآية قطوفها دانية: «يتناول الرجل من فواكهها وهو نائم» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد صحيح).

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٣٩.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٧٢.

وتخرج من حلْقه، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه(١) والسلسلة هي حلق منتظمة، كل حلقة منها في حلقة، يلف بها حتى لا يستطيع حراكًا. لمّا بيَّن العذاب الشديد بيَّن سببه فقال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي كان لا يصدِّق بوحدانية الله وعظمته(٢) قال في البحر: بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله، وهو تعليلٌ مستأنف كأن قائلًا قال: لم يعذَّب هذا العذاب البليغ؟ فأجيب إنه كان لا يؤمن بالله(٣) ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي ولا يحُثُّ نفسه ولا غيره على إطعام المسكين قال المفسرون: ذكر الحضَّ دون الفعل للتنبيه على أن تارك الحض بهذه المنزلة، فكيف بتارك الإحسان والصدقة؟ ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي فليس له في الآخرة صديق يدفع عنه العذاب، لأن الأصدقاء يتحاشَوْنه، ويفرُّون منه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي وليس له طعام إلا صديد أهل النار، الذي يسيل من جراحاتهم(٤) ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أي لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المرتكبون للخطايا والآثام قال المفسرون: ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يتعمَّد الذنب، والمخطئ الذي يفعل الشيء خطأً دون قصد، ولهذا قال ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ ولم يقل المخطئون.. ولما ذكر أحوال السعداء من أهل الجنة، ثم أحوال الأشقياء من أهل النار، ختم الكلام بتعظيم القرآن فقال ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي فأقسم بالمشاهدات والمغيبات، أُقسم بما ترونه وما لا ترونه، مما هو واقعٌ تحت الأبصار، وما غاب وخفي عن الأنظار(٥)، و ﴿لَآ﴾ في قوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لتأكيد القسم وليست نافية(٦) قال الإمام الفخر: والآية تدل على العموم والشمول، لأنها لا تخرج عن قسمين: مبصرٍ وغير مبصر، فشملت الخالق والخلق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة(٧) قال قتادة: هو عام في جميع مخلوقاته جلَّ وعلا، وقال عطاء: ما تبصرون

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١٤، وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو؟.

(٢) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٣٢٦.

(٤) نقله الطبري عن ابن عباس، وقال قتادة: شرُّ الطعام وأخبثه وأبشعه.

(٥) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِم إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٦) هذا هو القول الراجح بدليل ذكر جواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وقيل: إنها نافية كأنه قال: لا يحتاج الأمر إلى قسم لوضوح الحق وسطوعه.

(٧) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١١٦.

مـن آثار القدرة، وما لا تبصرون من أسـرار القـدرة[١] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ أي إن هذا القرآن لـكلام الرحمـن، يتْلوه ويقرؤه رسـولٌ كريم، هـو محمد عليـه أفضل الصلاة والتسـليم قال القرطبي: والرسول ههنا محمد ﷺ ونسب القول إليه لأنه تَاليه ومُبَلِّغُه عن الله تعالى[٢] ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٖ﴾ أي وليـس القرآن كلام شـاعر كما تزعمون، لأنه مُبَايِنٌ لأوزان الشـعر كلها[٣]، فليس شعرًا ولا نثرًا ﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ أي قلَّما تؤمنون بهذا القرآن قال مقاتل: يعني بالقليل أنهم لا يصدقـون بأن القرآن من الله، بمعنى لا يؤمنون بـه أصلًا، والعرب تقول: قلَّما يأتينا يريدون لا يأتينـا[٤] ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٖ﴾ أي وليـس هو بقول كاهـنٍ يدعي معرفة الغيـب، لأن القرآن يُغَاير بأسـلوبه سـجع الكهان[٥] ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي قلَّما تتذكرون وتتعظون ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هـو تنزيـلٌ من ربِّ العزة جل وعـلا كقوله تعالـى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء] والغـرض من الآية تبرئة الرسـول ﷺ مما نسـبه إليه المشركون من دعوى السحر والكهانة، ثم أكَّد ذلك بأعظم برهان علـى أن القـرآن من عنـد الله فقـال ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ أي لو اختلقَ محمـد الأقوال، ونسبَ إلينا ما لم نَقُلْه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي لانتقَمْنا منه بقُوَّتنا وقُدرتنا[٦] ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾

---

(١) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ٥٢.

(٢) القرطبي ١٨/ ٢٧٤.

(٣) (ش): مُبَايِنٌ: مُخَالِفٌ.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١٧.

(٥) (ش): يُغَايِر: يُخَالِف.

(٦) هذا قول ابن عباس ومجاهد. (ش): قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٩٢ -٥٩٣): ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ يقول: لأخَذْنا منه بالقوة منا والقدرة، ثم لَقطعنا منه نِيَاط القلب، وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة، ولا يؤخره بها. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾: لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه؛ قالوا: وإنما ذلك مَثَلٌ، ومعناه: إنا كنا نذله ونهينه، ثم نقطع منه بعد ذلك الوتين، قالوا: وإنما ذلك كقول ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه، خذ بيده فأَقِمْه، وافعل به كذا وكذا، قالوا: وكذلك معنى قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي لَأَهَنَّاه كالذي يُفعَل بالذي وصَفْنا حالَه» اهـ. والنِياط: عِرقٌ غليظٌ ممتدٌّ من الرِّئتين ومتّصل بالقلب، فإذا قُطِعَ مات صاحبُه. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢١٨): ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَانْتَقَمْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ فِي الْبَطْشِ، وَقِيلَ: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِيَمِينِهِ» اهـ. إذن في تفسير الآية قولان: ١- قول ينسب اليمين لله. ٢- قول يقول: إن معنى الآية: لأخذنا بيده اليمنى، والأخذ في الآية معناه الإهانة والإذلال. وليس في أحد القولين تأويل بمعناه الاصطلاحي أي: إخراج النص عن ظاهره، إذ كِلا القولين في تفسير الآية محتمَل من غير مرجِّح لأحدهما، فيمكن أن يكون المعنى لأخذنا بيمينه أي بيمين العبد، ويمكن أن يقال لأخذنا منه باليمين، أي: بأيماننا، ويمكن أن يقال أن المراد بأيماننا أي: بأيدينا، ويمكن أن يكون المعنى مجازيًا بمعنى القوة والقدرة، وهذه الآراء سائغة في تفسير الآية، والقول بأنَّ هذه التفاسير تأويلٌ للنصِّ غيرُ صحيح، فإن دلالة النص غير قطعية ولا ظاهرة في معنى خاص، وإنما النص بذاته محتمَل، فالقول بأحد القولين السابقين في تفسير الآية ليس تأويلًا بالمعنى الإصطلاحي، وإنما هو من خلاف التنوع في التفسير. =

أي ثم لقطعنا نِيَاطَ قلبه[١] حتى يموت قال القرطبي: والوتين عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه[٢] والغرض أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله، لو نسب إلى الله شيئًا ولو قليلاً، فإن تسمية الأقوال بالأقاويل للتصغير والتحقير ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه، لو أردنا حينئذٍ عقوبته، ولا أن يدفع عنه عذابنا قال الخازن: المعنى: إن محمدًا لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلم لَعَاقَبناه، ولا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه[٣] ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن لعظةٌ للمؤمنين والمتقين الذين يخشون الله، وخصَّ المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي ونحن نعلم أن منكم من يكذب بهذا القرآن مع وضوح آياته، ويزعم أنه أساطير الأولين، وفي الآية وعيدٌ لمن كذب بالقرآن[٤] ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وإنه لحسرة عليهم في الآخرة، لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثواب من آمن به ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي وإنه لَحَقٌّ يقينيٌّ لا يحوم حوله ريب، ولا يشك عاقل أنه كلام رب العالمين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فنزِّه ربك العظيم عن السوء والنقائص، واشكره على ما أعطاك من النعم العظيمة، التي من أعظمها نعمة القرآن.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرار الاسم للتهويل والتعظيم ﴿الْحَاقَّةُ﴾ إلخ.

٢ - التفصيل بعد الإجمال زيادة في البيان ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ثم فصله بقوله ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۞ وَأَمَّا عَادٌ﴾ الآية وفيه لف ونشر مرتب.

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ الطغيان من صفات الإنسان، فشبه ارتفاع الماء وكثرته، بطغيان الإنسان على الإنسان بطريق الاستعارة.

٥ - جناس الاشتقاق مثل ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ومثل ﴿لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

٦ - المقابلة البديعة ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ قابلها بقوله ﴿وَأَمَّا

= وقد ثبتت صفة اليد اليمنى لله بنصوص أخرى دالة على حقيقة اليد من القرآن والسُّنَّة الصحيحة. فقد وردت صفة اليد مضافة لله في آياتٍ كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فأثبتت هذه الآية صفة اليدين لله تعالى، ووصفتهما بالبسط دلالة على سعة الكرم والعطاء. وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. والمسلم عند إثباته صفة اليد لله وغيرها يجب عليه تجنب كل سبيل لتخيُّل هذه الصفة أو تلك، فالله ليس كمثله شيء، وصفاته ليست كصفات المخلوقين.

(١) (ش): النِياط: عِرقٌ غليظٌ ممتدٌّ من الرِّئتين ومتّصل بالقلب، فإذا قُطِعَ مات صاحبُه.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٧٦.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٤٨.

(٤) الظاهر أن الضمير يعود إلى القرآن. وقال الطبري: وإن التكذيب لحسرة وندامة على الكافرين، وهوقول مقاتل.

مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ..﴾ الخ وهي من المحسنات البديعية.

٧ – طباق السلب ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

٨ – الكناية ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ لفظ اليمين كناية عن القوة والقدرة[1].

٩ – توافق الفواصل مراعاةً لرءوس الآيات مثل ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ومثل ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ ويسمى في علم البديع السجع المرصَّع والله أعلم.

تنبيه: روى الحافظ ابن كثير عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: خرجت أعترض سول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال فقلت في نفسي: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ فقلت: كاهن، فقرأ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الخ السورة، قال: فوقع في قلبي الإسلام كل موقع، حتى هداني الله تعالى له.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة»



(١) (ش): راجع التعليق على تفسير الآية.

سُورَةُ المَعَارِج ٧٠ ٤٤

مكية وآياتها أربع وأربعون

بين يدي السورة

* سورة المعارج من السور المكية، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وقد تناولت الحديث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاوة، وراحة ونصب، وعن أحوال المؤمنين والمجرمين، في دار الجزاء والخلود، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور، واستهزاؤهم بدعوة الرسول ﷺ.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن طغيان أهل مكة، وعن تمردهم على طاعة الرسول ﷺ، واستهزائهم بالإنذار والعذاب الذي خُوفوا به، وذكرت مثلًا لطغيانهم بما طلبه بعض صناديدهم وهو «النضر بن الحارث» حين دعا أن ينزل الله عليه وعلى قومه العذاب العاجل، ليستمتعوا به في الدنيا قبل الآخرة، وذلك مكابرة في الجحود والعناد ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تنفطر فيه السماوات، وتتطاير فيه الجبال فتصير كالصوف الملون ألوانًا غريبة ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

* ثم استطردت السورة إلى ذكر طبيعة الإنسان، فإنه يجزع عند الشدة، ويبطر عند النعمة، فيمنع حق الفقير والمسكين ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾.

* ثم تحدثت عن المؤمنين وما اتصفوا به من جلائل الصفات، وفضائل الأخلاق، وبينت ما أعد الله لهم من عظيم الأجر في جنات الخلد والنعيم ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ الآيات.

* ثم تناولت الكفرة المستهزئين بالرسول، الطامعين في دخول جنات النعيم ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالقسم الجليل برب العالمين على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه، وعلى أن الله تعالى قادر على أن يخلق خيرًا منهم ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ
قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ
ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ
ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ
صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾
وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ
أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ
وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾
فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ
﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ
بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ
يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ

اللغة: ﴿ٱلۡمَعَارِجِ﴾ المصاعد والمدارج التي يرتقي بها الإنسان جمع مِعْرَج وهو المصعد، والعروج الارتفاع إلى السماء ومنه معراج النبي ﷺ ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ النحاس المذاب ﴿كَٱلۡعِهۡنِ﴾ الصوف المنفوش ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ الفصيلة: العشيرة الذين فُصِل عنهم وتولَّد منهم ﴿لَظَىٰ﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأن نيرانها تتلظى؛ أي: تلتهب ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ جمع شواة وهي جلدة الرأس قال الأعشى:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَا لَهُ ... قَدْ جُلِّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهْ[1]

﴿هَلُوعًا﴾ كثير الجزع والضجر، قال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مسَّه الخير لم يشكر، وإذا مسَّه الضر لم يصبر[2] ﴿عِزِينَ﴾ جماعات متفرقين جمع عِزَة وهي الجماعة المتفرقة قال الشاعر:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى ... يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا[3]

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٢٨. (ش): جُلِّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهُ: أي غَطَّى الشَّيْبُ جلدةَ رأسه.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٠.
(٣) روح المعاني ٢٩/ ٦٤. (ش): يُهْرَعُونَ: يُسرِعون.

﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون يقال: أوفض البعير اذا أسرع السير[١].

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس أن النضر بن الحارث قال حين خوَّفهم رسول الله ﷺ من عذاب الله ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأنزل الله ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾[٢].

التفسِيْر: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داع من كفار مكة لنفسه ولقومه عذاب واقع لا محالة قال المفسرون: السائل هو «النضر بن الحارث» من صناديد قريش وطواغيتها، لمَّا خوفهم رسول الله عذاب الله قال ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأهلكه الله يوم بدر، ومات شر ميتة، ونزلت الآية بذمه ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي دعا بهذا العذاب على الكافرين ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ أي لا رادَّ له إذا أراد الله وقوعه، وهو نازل بهم لا محالة، سواءً طلبوه أو لم يطلبوه، وإذا نزل العذاب فلن يرفع أو يُدفع ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي هو صادر من الله العظيم الجليل، صاحب المصاعد التي تصعد بها الملائكة، وتنزل بأمره ووحيه، ثم فصَّل ذلك بقوله ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي تصعد الملائكة الأبرار وجبريل الأمين[٣] الذي خصه الله بالوحي إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي في يوم طوله خمسون ألف سنة من سِنِي الدنيا[٤] قال ابن عباس: هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ثم يدخلون النار للاستقرار[٥] قال المفسرون: الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة السجدة ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] أن القيامة مواقف ومواطن، فيها خمسون موطنًا كل موطن ألف سنة، وأن هذه المدة الطويلة تخف على المؤمن حتى تكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة[٦] ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي فاصبر يا محمد على استهزاء قومك وأذاهم ولا

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣٢.

(٢) (ش): عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما–؛ قال في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾: «هو النضر بن الحارث بن كلدة». (حسن، رواه النسائي في «تفسيره»، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي).

(٣) إنما أفرد جبريل بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفه وفضل منزلته، وهو المسمى بالروح لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾.

(٤) (ش): حُذفت النون للإضافة. فكلمة «سنون» تُرفع بالواو، وتنصب وتجر بالياء، لأنها ملحقة بجمع المذكر السالم، وذهب قومٌ منهم الفراء إلى أنه يجوز في سنين أن تلزمها الياء ويكون الإعراب على النون فتقول: هذه سنينٌ، ورأيت سنينًا، ومررت بسنينٍ. وهي لغة غير مشهورة.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٢.

(٦) أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله ما أطول هذا اليوم! فقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا». (ش): رواه أحمد وابن حبان بإسناد ضعيف. (ش): ورد في سورة الحج قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة السجدة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة المعارج =

تضجر، فإن الله ناصرك عليهم، وهذا تسليةٌ له عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام، لأن استعجال العذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ فأمره الله بالصبر قال القرطبي: والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله[١] ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ أي إن هؤلاء المستهزئين يستبعدون العذاب ويعتقدون أنه غير نازل، لإنكارهم للبعث والحساب ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي ونحن نراه قريبًا لأن كل ما هو آتٍ قريب. ثم أخبر تعالى عن هول العذاب وشدته وعن أهوال يوم القيامة فقال ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ أي تكون السماء سائلة غير متماسكة، كالرصاص المذاب قال ابن عباس: كَدُرْدِيِّ الزَّيْتِ أي كَعَكَرِ الزَّيْتِ[٢] ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي وتكون الجبال متناثرة متطايرة، كالصوف المنفوش إذا طَيَّرَتْهُ الريح قال القرطبي: العهن الصوف الأحمر أو ذو الألوان، شبَّه الجبال به في تلونها ألوانًا، وأول ما تتغير الجبال تصير رملًا مهيلًا، ثم عهنًا منفوشًا، ثم هباءً منثورًا[٣].. هذه حال السماء والأرض في ذلك اليوم المفزع، أما حال الخلائق فهي كما قال تعالى ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل صديق صديقه، ولا قريب قريبه عن شأنه، لشغل كل إنسانٍ بنفسه، وذلك لشدة ما يحيط بهم من الهول والفزع ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يرونهم ويعرفونهم، حتى يرى الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته، فلا يسأله ولا يكلمه بل يفر منه كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] قال ابن عباس: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم، ثم يفرُّ بعضهم من بعض[٤] ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ أي يتمنى الكافر مرتكب جريمة الجحود والتكذيب لو يفدي نفسه من عذاب الله، بأعز من كان عليه في الدنيا من ابنٍ، وزوجةٍ، وأخٍ ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي وعشيرته التي كانت تضمه إليها،

= ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وقد كثرت أقوال أهل التفسير في تحديد هذه الأيام وأحسن ما يقال فيها إن اليوم الذي ذُكِر في سورة الحج هو عبارة عن الزمان وتقديره عند الله، وأن آية السجدة هي في نزول الملائكة بالأمر وعروجهم به في الدنيا، وإن آية المعارج هي في يوم القيامة. قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم –: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٤.

(٢) وهذا قول مجاهد كذا في «الطبري» ٢٦/ ٤٦. (ش): (عَكَرُ الزَّيْتِ): الدَّنَسُ والدرن الذي تحت الزيت.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٥. (ش): قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] أي رملًا سائلا متناثرًا. وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] أي كالصوف متعدد الألوان الذي يُنْفَش باليد، فيصير هبَاء ويزُول. وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦] وفُتِّتَتْ الجبال تفتيتًا دقيقًا، فصارت غبارًا متطايرًا في الجو قد ذرَته الريح.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٦/ ٤٦.

ويتكل في نوائبه عليها، وليس هذا فحسب بل يتمنى لو يفتدي بجميع أهل الأرض ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي وبجميع من في الأرض من البشر وغيرهم ثم ينجو من عذاب الله، ولكن هيهات أن ينجو المجرم من العذاب، أو ينقذه ذلك من شدة الكرب، وفادح الخطب، قال الإمام الفخر: ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه[١] ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ أداة زجر وتعنيف أي لينزجر هذا الكافر الأثيم وليرتدع عن هذه الأماني، فليس ينجيه من عذاب الله فداء، بل أمامه جهنم، تتلظَّى نيرانها وتلتهب ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي تنزع بشدة حرها جلدة الرأس[٢] من الإنسان كلما قلعت عادت كما كانت زيادة في التنكيل والعذاب، وخصَّها بالذكر لأنها أشد الجسم حساسيةً وتأثرًا بالنار ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي تنادي جهنم وتهتف بمن كذب بالرحمن، وأعرض عن الإيمان، قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح تقول: إليَّ يا كافر، إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب[٣] ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي وتدعو من جمع المال وخبأه وكنزه في الخزائن والصناديق، ولم يؤد منه حقَّ الله وحق المساكين قال المفسرون: والآية وعيدٌ شديد لمن يبخل بالمال، ويحرص على جمعه، فلا ينفقه في سبيل الخير، ولا يخرج منه حق الله وحقَّ المسكين، وقد كان الحسن البصري يقول: يا ابن آدم سمعتَ وعيدَ الله ثم وعيت الدنيا جمعتها من حلالٍ وحرام!! ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، وما جبل عليه من الحرص الشديد على جمع حطام الدنيا فقال ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي إن الإنسان جبل على الضجر، لا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء قال المفسرون: الهلع: شدة الحرص وقلة الصبر، يقال: جاعَ فهَلَعَ[٤]، والمراد بالإنسان العموم بدليل الاستثناء، والاستثناء معيار العموم، ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي إذا نزل به مكروه من فقر، أو مرضٍ، أو خوف، كان مبالغًا في الجزع مكثرًا منه، واستولى عليه اليأس والقنوط ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي وإذا أصابه خيرٌ من غنى، وصحة وسعة رزق كان مبالغًا في المنع والإمساك، فهو إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أغناه الله لم ينفق قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره، ويهرب مما يكرهه، ثم تعبَّده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره[٥] ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناهم من أفراد البشر الموصوفين بالهلع، لأن صلاتهم تحملهم

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٢٧.
(٢) هذا قول ابن عباس وقال مقاتل: تنزع النَّارُ الهامَة والأطراف فلا تترك لحمًا ولا جِلدًا إلا أحرقَتْه.
(ش): الهامة: الرَّأس.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٩.
(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٢٨.
(٥) «تفسير البغوي» ٤/ ١٥١.

على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شرها ولا يبخلون بخيرها ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي مواظبون على أداء الصلاة، لا يشغلهم عنها شاغل، لأن نفوسهم صَفَتْ من أكدار الحياة، بتعرضهم لنفحات الله ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي في أموالهم نصيبٌ معيَّن فرضه الله عليهم وهو الزكاة ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي للفقير الذي يسأل ويتكفف الناس، والمحروم الذي يتعفف عن السؤال، فيُظَنُّ أنه غني فيُحرَم كقوله تعالى ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، ويصدِّقون بمجيئه تصديقًا جازمًا لا يشوبه شك أو ارتياب، فيستعدون له بالأعمال الصالحة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي خائفون على أنفسهم من عذاب الله، يرجون الثواب ويخافون العقاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي لأن عذاب الله لا ينبغي أن يأمنه إنسان، إلاَّ من أمنَّه الرحمن والأمور بخواتيمها.. إنَّ هؤلاء المصدقين المشفقين قلَّما تزدَهِيهم الدنيا، أو يُبْطِرهم نعيمها[١]، أو يجزعون على ما فاتهم من حطامها، فسواءٌ عليهم أخسروا حظوظ الدنيا أم غنموا، إذ إن لديهم من الفكر في جلال ربهم، وذِكْر مَعادهم، ما يشغلهم عن الجزع إذا مسَّهم الشر، ويربأُ بهم عن المنع[٢] إذا مسهم الخير، ثم ذكر تعالى الفريق الخامس من الموفقين للخيرات وفعل الطاعات فقال ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ أي أعِفَّاء[٣] لا يرتكبون المحارم، ولا يتلوثون بالمآثم، قد صانوا أنفسهم عن الزنَى والفواحش ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي يقتصرون على ما أحلَّ الله لهم من الزوجات المنكوحات، والرقيقات المملوكات ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي فإنهم غير مؤاخَذين لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات، حلالٌ يُؤْجَر عليه الإنسان، لما فيه من تكثير النسل والذرية[٤]

(١) (ش): ازدهَى الشَّخصَ: حَمَلَه على العُجْب. أبطرهُ المالُ ونحوُه: جعله متكبِّرًا طاغيًا، جعله يغالي في زهْوه واستخفافِه ويتغطرس.

(٢) (ش): أي يرفعُهم ويُنزِّهُهم عن المنع.

(٣) (ش): جمع عفيف.

(٤) (ش): عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الدُّثُورُ: جَمْعُ دَثْرٍ، وَهُوَ الْمَالُ الْكَثِيرُ. (وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ) الْبُضْعُ يُطْلَقُ عَلَى الْجِمَاعِ وَيُطْلَقُ عَلَى الْفَرْجِ نَفْسِهِ وَكِلَاهُمَا تَصِحُّ إِرَادَتُهُ هُنَا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ فَالْجِمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ أَوْ إِعْفَافَ نَفْسِهِ أَوْ إِعْفَافَ الزَّوْجَةِ وَمَنْعَهُمَا جَمِيعًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ أَوَ الْفِكْرِ فِيهِ أَوِ الْهَمِّ بِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ. [انظر: شرح النووي على مسلم (٧/ ٩١- ٩٢)].

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أي فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات، فقد تعدَّى حدود الله وعرَّض نفسه لعذاب الله قال الطبري: من التمس لفرجه منكحًا سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلوا ذلك هم العادون، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم، إلى ما حرَّمه عليهم، فهم المَلُومون[١] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود، فإذا ائتُمِنوا لم يخونوا، وإذا عاهَدوا لم يغْدُروا ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ أي يشهدون بالحق على القريب والبعيد، ولا يكتمون الشهادة ولا يغيرونها، بل يؤدونها على وجهها الكامل، بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحه، وخصَّها بالذكر مع اندراجها في الأمانات، تنبيهًا على فضلها لأن في إقامتها إحياء للحقوق، وفي تركها تضييع للحقوق ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ هذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم مِن خُلُق الهَلَع المذموم أي يراعون شرائط الصلاة ويلتزمون آدابها، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها، وإلاَّ كانت حركات صورية لا يجنِي العبدُ ثمرتَها، فإن فائدة الصلاة أن تَكُفَّ عن المحارم ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [٢] [العنكبوت:٤٥]
ولما كانت الصلاة عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها، فذكرت في أول الخصال الحميدة وفي آخرها، ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني عليها الإسلام[٣]، قال القرطبي: ذكر تعالى من أوصافهم في البدء ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ ثم قال في الختم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ والدوام غير المحافظة، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها، لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيءٍ من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة ترجع إلى أحوالها[٤]، وبعد أن ذكر تعالى أوصاف المؤمنين المتقين، ذكر مآلهم وعاقبتهم فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٥٣.

(٢) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ قَالَ: «إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ» (رواه أحمد،، وصححه الألباني).
أما حديث: «مَن لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعدًا» أو «فلا صلاة له»، فحديث لا يثبت، وقد رواه الطبراني، وابن أبي حاتم، قال الألباني: «وهو مع اشتهاره على الألسنة لا يصح مِن قِبَل إسنادِه، ولا من جهة مَتْنه... فأنت ترى أن النبي ﷺ أخبر أن هذا الرجل سينتهي عن السرقة بسبب صلاته - إذا كانت على الوجه الأكمل طبعًا كالخشوع فيها والتدبر في قراءتها - ولم يقل: إنه « لا يزداد بها إلا بعدًا «مع أنه لَمَّا ينتَهِ عن السرقة». [انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١/ ٥٤، ٥٨)].

(٣) قال ابن كثير: افتتح تعالى الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها. اهـ. «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٥٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٢.

الأوصاف الجليلة، والمناقب الرفيعة، مستقرون في جنات النعيم، التي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات، مع الإنعام والتكريم بأنواع المَلاذّ والمشتَهيات، لاتِّصَافهم بمكارم الأخلاق ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾؟ أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين، مسرعين نحوك يا محمد، مادِّين أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك؟ قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ حلقًا حلقًا، يسمعون كلامه ويستهزئون به وبأصحابه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت الآية[1] ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي جالسين عن يمينك وعن شمالك فرقًا فرقًا، وجماعات جماعاتٍ يتحدثون ويتعجبون؟ قال أبو عبيدة: عزين أي جماعاتٍ جماعاتٍ في تفرقة، ومنه « مَا لِى أَرَاكُمْ عِزِينَ، أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا »[2] ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ استفهام إنكاري مع التقريع والتوبيخ، أي: أيطمع كل واحد من هؤلاء الكفار، أن يدخله الله جنات النعيم، وقد كَذَّب خاتمَ المرسلين؟ ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر أي ليس الأمر كما يطمعون، فإنهم لا يدخلونها أبدًا ثم قال ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي خلقناهم من الأشياء المستقذرة، من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، فمن أين يتشرفون بدخول جنات النعيم قبل المؤمنين، وليس لهم فضل يستوجبون به دخول الجنة؟ وإنما يستوجب دخول الجنة من أطاع الله قال القرطبي: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من القذر فلا يليق بهم هذا التكبر[3] ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي قادرون على إهلاكهم، واستبدالهم بقوم أفضل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ أي اتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم، واشتغِلْ أنت بما أُمِرْتَ به، وهو أمرٌ على جهة الوعيد والتهديد للمشركين ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب، الذي لا ينفعهم فيه توبة ولا ندم ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ ويوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي كأنهم يسعَون ويستبِقُون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها، شبَّه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب، بحالة إسراعهم وتسابقهم في الدنيا، إلى آلهتهم وطواغيتهم، وفي هذا التشبيه تهكُّمٌ بهم،

---

(١) انظر «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٩٥، و«تفسير الخازن» ٤/ ١٥٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٨/ ٢٩٣ والحديث أخرجه مسلم. (ش): عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَآنَا حِلَقًا فَقَالَ « مَا لِى أَرَاكُمْ عِزِينَ ». قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: « أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ». فَقُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟». قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِى الصَّفِّ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (فَرَآنَا حِلَقًا) - بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا- جَمْعُ حَلْقَةٍ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٤.

وتعريض بسخافة عقولهم، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة، وتركوا عبادة الواحد الأحد ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أي خاضعة منكسرة أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها خجلًا من الله ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ﴾ أي يغشاهم الذل والهوان من كل مكان، وعلى وجوههم آثار الذلة والانكسار ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي هذا هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا وكانوا يهزءون ويكذبون، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم!!

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿بَعِيدٗا.. قَرِيبٗا﴾ وبين ﴿ٱلۡيَمِينِ.. ٱلشِّمَالِ﴾ وبين ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ وكذلك ﴿ٱلۡمَعَارِجِ.. تَعۡرُجُ﴾.

٣ - ذكر الخاص بعد العام تنبيهًا لفضله وتشريفًا له ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ الورح هو جبريل.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ لحذف وجه الشبه.

٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ.. وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ جاء بالعموم بعد الخصوص لبيان هول الموقف.

٦ - المقابلة اللطيفة ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ قابله بقوله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾.

٧ - الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾؟

٨ - الكناية الفائقة الرائقة ﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ كناية عن المني القذر، مع النزاهة التامة في التعبير، وحسن الإيقاظ والتذكير، بألطف عبارة وأبلغ إشارة.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ وفي تشبيههم بذلك تهكم بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، وتسجيل عليهم بالجهل المشين بالإسراع في عبادة غير من يستحق العبادة.

١٠ - السجع المرصَّع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ الخ.

تنبيه: نبَّه تعالى بقوله ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الآيات. إلى طبائع البشر، فبيَّن أنَّ الإنسان يتسرع إلى مشتهاه، اتباعًا لهواه، وأنه مفرط في الهلع والجزع، فإن مسه خير شحت به نفسه، وإن نزل به شر اشتد له قلقه، ثم استثنى من ذلك الخُلُق الذميم أصنافًا من البشر، وهم الذين جمعوا مع الإيمان صالحَ الأعمال[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج»



---

(١) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخلٌ في حقيقته، وعطفُه على الإيمان من عطفِ الخاص على العام اهتمامًا به، مثل قوله تعالى. ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾.

سُورَةُ نُوحٍ ٧١ ٢٨

مكية وآياتها ثمان وعشرون

بين يدي السورة

* سورة نوح مكية، شأنها شان سائر السور المكية التي تعني بأصول العقيدة، وتثبيت قواعد الإيمان، وقد تناولت السورة تفصيلًا قصة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، من بدء دعوته حتى نهاية حادثة الطوفان، التي أغرق الله بها المكذبين من قومه، وهذا سميت «سورة نوح»، وفي السورة بيان لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله، وبيان لعاقبة المرسلين، وعاقبة المجرمين، في شتى العصور والأزمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بإرسال الله تعالى لنوح عليه السلام، وتكليفه بتبليغ الدعوة وإنذار قومه من عذاب الله ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* ثم ذكرت السورة جهاد نوح، وصبره، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوى، فقد دعا قومه ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، فلم يزدهم ذلك إلا إمعانًا في الضلال والعصيان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾.

* ثم تابعت السورة تذكرهم بإنعام الله وإفضاله على لسان نوح عليه السلام، ليجدوا في طاعة الله، ويروا آثار قدرته ورحمته في هذا الكون ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾!!

* ومع كل هذا التذكير والنصح والإرشاد، فقد تمادى قومه في الكفر والضلال والعناد، واستخفوا بدعوة نبيهم نوح عليه السلام حتى أهلكهم الله بالطوفان ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار، بعد أن مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله، فما لانت قلوبهم، ولا انتفعت بالتذكير والإنذار ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ
﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا
جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى
كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾
ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾
مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ
ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا
﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ
يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا
يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟
نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن
تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا

اللغة: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟﴾ غطوا غشَّاه أي غطاه، والغشاء الغطاء ﴿مِّدْرَارًا﴾ غزيرًا متتابعًا ﴿أَطْوَارًا﴾ أحوالًا مختلفة طورًا بعد طور قال الشاعر:

وَالْمَرْءُ يُخْلَقُ طَوْرًا بَعْدَ أَطْوَارِ (١)

﴿فِجَاجًا﴾ واسعات جمع فج وهو الطريق الواسعة ﴿كُبَّارًا﴾ كبيرًا بالغ الغاية في الكِبَر ﴿دَيَّارًا﴾ أحدًا يدور أو يتحرك على ظهر الأرض ﴿تَبَارًا﴾ هلاكًا ودمارًا.

التفسير: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي بعثنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام إلى سكان جزيرة العرب قال الألوسي: واشتهر أنه عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة وهناك أرسل(٢) ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بأن خوِّفْ قومك وحَذِّرْهم إن لم يؤمنوا من عذاب شديد مؤلم، وهو عذاب الطوفان في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي فدعاهم إلى الله وقال لهم: إني لكم منذر، موضح لحقيقة الأمر، أُنذركم وأُخوفكم عذاب الله، فأمري واضح ودعوتي ظاهرة قال المفسرون: نوح عليه السلام أول نبي أرسل،

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣٧.
(٢) روح المعاني ٢٩/ ٦٩.

ويقال له: شيخ المرسلين، لأنه أطولهم عمرًا فقد مكث في قومه كما قص القرآن الكريم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] يدعوهم إلى الله، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل، وقد أفرد القرآن قصته في هذه السورة الكريمة التي تسمى «سورة نوح» من بدء الدعوة إلى نهايتها، حيث أهلك الله قومه بالطوفان، وهو أحد الرسل الكبار من أولي العزم وهم خمسة «نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد شاع الكفر في زمانه وذاع، واشتهر قومه بعبادة الأوثان، واكثروا من البغي والظلم والعصيان، فبعث الله لهم نوحًا عليه السلام وكان من خبرهم مع نبيهم ما قصه الله علينا في القرآن ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فقال لهم: اعبدوا الله وحده، واتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه، وأطيعوني فيما أمرتكم به من طاعة الله، وترك عبادة الأوثان والأصنام ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي إنكم إن فعلتم ما أمرتكم به، يمح الله عنكم ذنوبكم التي اقترفتموها، وإنما قال ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعض ذنوبكم التي حصلت قبل الإسلام، لأن الإيمان يجب ما قبله من الذنوب لا ما بعده[1] ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ويمدّ في أعماركم إن أطعتم ربكم، إلى وقت مقدر ومقرر في علم الله تعالى، مع التمتع بالحياة السعيدة، والعيش الرغيد قال المفسرون: المراد بتأخير الأجل هو التأخير بلا عذاب، أي يمهلهم في الدنيا بدون عذاب إلى انتهاء آجالهم، وأما العمر فهو محدود لا يتقدم ولا يتأخر ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي إن عمر الإنسان عند الله محدود، لا يزيد ولا ينقص، وإنما أضيف الأجل إلى الله سبحانه لأنه هو الذي كتبه وأثبته[2] ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي قال نوح بعد أن بذل غاية الجهد، وضاقت عليه الحيل: يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة، في الليل والنهار، من غير فتور ولا توانٍ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلى الإيمان إلا هربًا، وشرودًا عن الحق، وإعراضًا عنه.

ثم وَصَف نفورَهم وصَوَّر إعراضَهم أبلغَ تصوير فقال ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي ك لما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانية الله والعمل بطاعته، ليكون سببًا في مغفرة ذنوبهم قال في التسهيل: ذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان، والعمل بطاعته، ليكون سببًا في مغفرة ذنوبهم قال في التسهيل: ذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان، ليظهر قبح إعراضهم عنه، فإنهم أعرضوا عن سعادتهم[3] ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي

(١) هذا ما رجحه أبو حيان في البحر، واختار الطبري أن «من» ليست للتبعيض وإنما هي بمعنى «عن» أي يغفر لكم عن ذنوبكم بمعنى لكم جميع الذنوب، والأول أرجح.
(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٤٩.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٤٩.

﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي غطوا رءوسهم ووجوههم بثيابهم، لئلا يسمعوا كلامي أو يروني قال في البحر: والظاهر أن ذلك حقيقة، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغطَّوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه، كراهة وبغضًا من سماع النصح ورؤية الناصح، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عمَّا دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سد سمعه، ومنع بصره[1] ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارًا﴾ أي واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكبارًا عظيمًا، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم، وغلوهم في الضلال ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارًا﴾ أي دعوتهم علنًا على رءوس الأشهاد، مجاهرًا بدعوتي لهم دون خوف أو تحفظ ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارًا﴾ أي أخبرتهم سرًا وعلنًا، خيفةً وجهرًا، وسلكت معهم كل طريق في الدعوة إليك قال المفسرون: والعطف بثُمَّ يشعر بأن الإعلان والإسرار الأخيرين، كانا طريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة، غير طريقة السر المحضة، وغير طريقة الجهر المحضة، فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الإسرار، ثم وضح ما وعظهم به سرًا وعلانية فقال ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي آمِنوا بالله وتوبُوا عن الكفر والمعاصي، فإن ربكم تواب رحيم، يغفر الذنب ويقبل التوب ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا﴾ أي ينزل المطر عليكم غزيرًا متتابعًا، شديد الانسكاب[2] ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ أي ويجعل لكم الحدائق الفسيحة، ذات الأشجار المظلة المثمرة، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها.. أطمعهم نوح عليه السلام بالحصول على بركات السماء وبركات الأرض، إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن، وأتاهم من طريق القلب لتحريك العواطف، ولبيان أن ما هم فيه من انحباس الأمطار، وما حرموه من الرزق والذرية، إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده إرسال المطر، وإغداق الرزق، والإمداد بالأموال والبنين، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا الإله القادر، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها، لا تضر ولا تنفع، ثم عاد فهزَّ نفوسهم هزًا، وعطفها نحو الإيمان بأسلوب آخر من أساليب البيان فقال ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ أي ما لكم أيها القوم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، ولا ترهبون له جانبًا! قال ابن عباس: أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته[3] ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ أي وقد خلقكم في أطوار مختلفة، وأدوار متباينة، طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، إلى سائر الأحوال العجيبة، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم نبههم إلى دلائل القدرة والوحدانية، المنبثة في هذا الكون الفسيح فقال

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣٨.
(٢) (ش): انسَكَب الماءُ ونحوُه: انصَبَّ وسالَ.
(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٥٩.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ أي ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته، وتنظروا نظر اعتبار وتفكر وتدبر، كيف أن الله العظيم الجليل خلق سبع سموات سماء فوق سماء، متطابقة بعضها فوق بعض، وهي في غاية الإبداع والإتقان! ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي وجعل القمر في السماء الدنيا، منورًا لوجه الأرض في ظلمة الليل قال الإمام الفخر: القمر في السماء الدنيا وليس في السموات بأسرها، وهذا كما يقال: السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في كل أنحائها، بل إن ذاته في حيز من جملة أنحاء العراق، فكذا ههنا[1] وقال في البحر: والقمر في السماء الدنيا، وصح كون السموات ظرفًا للقمر لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، تقول زيد في المدينة وهو في جزء منها[2] ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي وجعل الشمس مصباحًا مضيئًا يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم، ولما كان نور الشمس أشدّ، وأتم، وأكمل في الانتفاع من نور القمر، عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره، ويؤيده ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها، ونور القمر عرضي مكتسب من نورها، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ بعد أن ذكر دليل الآفاق، ذكر هنا دليل الأنفس، وذلك لأن في ذِكْر هذه الأمور، دلالة واضحة على عظمة الله، وقدرته وباهر مصنوعاته. والمعنى: خلقكم وأنشأكم من الأرض كما يَخرج النبات، وسَلَّكم من تراب الأرض كما يُسَلُّ النبات منها[3] قال المفسرون: لما كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض، كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض، فلذا سمى خلقهم وإنشاءهم إنباتًا، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم حيث خلق من تراب الأرض، ثم جاءت منه ذريته، فصح نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض[4]

---

(١) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٤٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٠. أقول: ليس ثَمَّةَ نَصٌّ صريح على أن القمر داخل السماوات إلا هذا النص، وقد عرفتَ تأويله، وإذا كان القمر أقرب الكواكب إلى الأرض، وثبت بالنص القاطع أن الله تعالى جعل الكواكب زينة للسماء، وجعلها في السماء الدنيا: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ فإنه لا يُستبعد أن يصل الناس إلى القمر، لأنه دون السماء الأولى، كما وصلت إليه المركبة الفضائية في زماننا وكما أثبت العلم الحديث إمكان ذلك، فليس ثَمَّةَ محظورٌ ديني على غزو الكواكب والفضاء، وأما الوصول إلى السماء واختراقها فذلك أمر مستحيل ودونه خرط القتاد لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾.
(ش): القَتاد: شجر صلب له شوك كالإبَر. والخرْط: التقطيع. دونه خَرْط القَتَاد: مَثَلٌ يُضرب للشّيء لا يُنال إلاّ بمشقّة عظيمة.

(٣) (ش): سلَّ الشَّيءَ من الشَّيءِ: انتزعَه وأخرجَه برفق.

(٤) انظر ما كتبه العلامة أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٠، وتفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص ١٣١.

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أي يرجعكم إلى الأرض بعد موتكم فتدفنون فيها، ثم يخرجكم منها يوم البعث والحشر للحساب والجزاء، وأكده بالمصدر ﴿إِخْرَاجًا﴾ لبيان أن ذلك واقع لا محالة، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥] ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أي جعلها فسيحة ممتدة ممهدة لكم، تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه قال في التسهيل: شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها، وأخذ بعضهم من الآية أنها غير كروية، وفي ذلك نظر[١] وقال الألوسي: وليس في الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحًا، ثم إن اعتقاد الكرية أو عدمها ليس بلازم في الشريعة، لكن كريتها كالأمر اليقيني، ومعنى جعلها بساطًا أي تتقلبون عليها كالبساط[٢] ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ أي لتسلكوا في الأرض طرقًا واسعة في أسفاركم، وتنقُّلكم في أرجائها؟ ولما أصروا على العصيان، وقابلوه بأقبح الأقوال والأفعال، حكى عنهم ما قصه القرآن ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ أي إنهم بالغوا في تكذيبي وعصيان أمري ﴿ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي واتَّبعوا أغنياءهم ورؤساءهم، الذين أَبْطَرَتْهم الأموال والأولاد[٣]، فهلكوا وخسروا سعادة الدارين، فصاروا أسوة لهم في الخسار ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أي ومكر بهم الرؤساء مكرًا عظيمًا مُتَنَاهيًا في الكِبَر[٤] قال الألوسي: ﴿كُبَّارًا﴾ مبالغة في الكبر، أي: كبيرًا في الغاية، وذلك احتيالهم في الدين، وصدهم الناس عنه، وإغراؤهم وتحريضهم على أذية نوح عليه السلام[٥] ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي لاتتركوا عبادة الأوثان والأصنام، وتعبدوا رب نوح ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ أي ولا تتركوا على وجه الخصوص هذه الأصنام الخمسة ودًّا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا قال الصاوي: وهذه أسماء أصنام كانوا يعبدونها[٦]، وكانت أكبر أصنامهم وأعظمهم عندهم، ولذا خصوها بالذكر[٧]، وهذا من شدة كفرهم، وفرط تعنتهم في المكر والاحتيال، فقد كانوا يلبسون ثوب المتنصح المخلص، ويسلكون في تثبيت الضعفاء على عبادة الآباء شتى الأساليب في المكر والخداع ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ أي وقد

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٥١.

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٧٦، وانظر ما كتبناه حول كروية الأرض في سورة لقمان من هذا التفسير.

(٣) (ش): أبطَرَهُ المالُ ونحوُه: جعله متكبِّرًا طاغيًا، جعله يُغالِي في زهْوه واستخفافِه ويتغطرس.

(٤) (ش): تَنَاهَى، تناهيًا، فهو مُتَنَاهٍ: بلغ نهايته. يُقَال: « مُتَنَاهٍ في الدِّقَّة/ مُتَنَاهٍ في الصِّغر».

(٥) «روح المعاني» ٢٩/ ٧٦.

(٦) (ش): هذه العبارة تخالف ما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن هذه أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ.

(٧) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٥١.

أضـل كبراؤهم خلقًا وناسًـا كثيرين، بما زينوا لهم من طرق الغوايـة والضلال، ثم دعا عليهم بالضـلال فقـال ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾ أي ولا تزدهـم يـا رب على طغيانهـم وعدوانهم، إلا ضـلالًا فوق ضلالهم قال المفسـرون: دعا عليهم لما يئس مـن إيمانهم بإخبار الله له بقوله ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فاستجاب الله دعاءه وأغرقهم، ولهذا قال تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي مـن أجل ذنوبهـم وإجرامهم، وإصرارهـم على الكفر والطغيان، أُغرِقوا بالطوفان وأُدخِلوا النيران، قال في التسهيل: وهذا من كلام الله تعالى إخبارًا عن أمرهم، و ﴿مَا﴾ في ﴿مِّمَّا﴾ زائدة للتأكيد[١]، وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضًا، ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النار إنما كان بسـبب خطاياهم وهي الكفر وسائر المعاصي[٢] ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لـم يجـدوا من ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله قال أبو السـعود: وفيـه تعريض باتخاذهـم آلهة من دون الله تعالى، وأنها غير قـادرة على نصرهم، وتهكم بهم[٣] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي لا تترك أحدًا على وجه الأرض من الكافرين قال في التسهيل: و ﴿دَيَّارًا﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال: ما في الدار دَيَّار أي ما فيهـا أحد[٤] ثـم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحدًا، أضلـوا عبادك عن طريق الهـدى ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي ولا يأتي من أصلابهم إلا كل فاجر وكافر قال الإمام الفخر: فإن قيل: كيف عرف نوح ذلك؟ قلنا بالاستقراء، فإنه لبث فيهم ألف سـنة إلا خمسـين عامًا، فعرف طباعهم وجربهم، وكان الرجل ينطلق بابنه إليه ويقول: يا بني احذر فإنه كذاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشـأ الصغير على ذلك، فلذلك قال ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.. ولما دعا على الكفار أعقبه بالدعاء للمؤمنين فقال ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ بدأ بنفسه ثم بأبويه، ثـم عمَّم لجميع المؤمنيـن والمؤمنات، ليكون ذلك أبلغ وأجمع ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ أي ولا تزد يا رب من جحد بآياتك وكذب رسلك، إلا هلاكًا وخسارًا في الدنيا والآخرة.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿أَعْلَنتُ.. وَأَسْرَرْتُ﴾ وبين ﴿جِهَارًا.. وإِسْرَارًا﴾ وبين ﴿لَيْلًا.. وَنَهَارًا﴾ وبين ﴿يُعِيدُكُمْ.. وَيُخْرِجُكُمْ﴾.

٢ - المجـاز المرسـل ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ المـراد رءوس الأصابـع فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء.

---

(١) (ش): مِمَّا: من ما.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٥١.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٩٩.

(٤) «التسهيل» ٤/ ١٥١. (ش): الديَّار: ساكِن المنزل.

٣ - الاستعارة التبعية ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ شبه إنشاءهم وخلقهم في أدوار بالنبات الذي تخرجه الأرض، واشتق من لفظ النبات أنبتكم على طريق الاستعارة التعبية.

٤ - ذكر المصدر للتأكيد مثل ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ و﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ و﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ ويسمى هذا في علم البديع بالإطناب.

٥ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا﴾ الآية وعكسه ذكر العام بعد الخاص ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ وكلاهما من باب الإطناب، وهو من المحسنات البديعية.

٦ - السجع المرصع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿مِّدۡرَارٗا، أَنۡهَٰرٗا، وَقَارٗا، أَطۡوَارًا﴾ إلخ.

فَائِدَة: استدل العلماء على عذاب القبر بقوله تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ قالوا: المراد بها نار القبر وعذابه، لأنه تعالى عطف بالفاء، والفاء تفيد الترتيب مع التعقيب، ونار الآخرة لم يذوقوها بعد، فدل على أن المراد عذاب القبر، وهو استدلال لطيف.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح»





مكية وآياتها ثمان وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الجن مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول الجن، وما يتعلق بهم من أمور خاصة، بدءًا من استماعهم للقرآن، إلى دخولهم في الإيمان، وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم، كاستراقهم للسمع، ورميهم بالشهب المحرقة، واطلاعهم على بعض الأسرار الغيبية، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن استماع فريق من الجن للقرآن، وتأثرهم بما فيه من روعة البيان، حتى آمنوا به فور استماعه(١) ودعوا قومهم إلى الإيمان ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ الآيات.

* ثم انتقلت للحديث عن تمجيدهم وتنزيههم لله جل وعلا، وإفرادهم له بالعبادة، وتسفيههم لمن جعل لله ولدًا ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن استراق الجن للسمع، وإحاطة السماء بالحرس من الملائكة، وإرسال الشهب على الجن بعد بعثة رسول الله ﷺ، وتعجبهم من هذا الحديث الغريب ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن انقسام الجن إلى فريقين: مؤمنين، وكافرين ومآل كل من الفريقين ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾.

* ثم انتقلت للحديث عن دعوة رسول الله ﷺ، وعن التفاف الجن حوله حين سمعوه يتلو القرآن ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾.

* ثم أمرت الرسول عليه السلام بأن يعلن استسلامه وخضوعه لله، ويفرده جل وعلا بإخلاص العمل، وأن يتبرأ من الحول والطول ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٠﴾ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾.

* وختمت السورة ببيان اختصاص الله جل وعلا بمعرفة الغيب، وإحاطته بعلم جميع ما

(١) (ش): آمنوا به فَوْرَ استماعِه: آمنوا به بعد استماعِه مُباشرةً.

في الكائنات ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا...﴾ الآيات إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ
بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا
﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا
وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ
أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا
ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا
يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾
وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ
وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ
عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن
يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ
نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ
أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا

اللغَة: ﴿ٱلرُّشْدِ﴾ الحق والصواب ﴿جَدُّ﴾ الجَد لغةً: العظمة والجلال والسلطان يقال: جَدَّ فلانٌ في عيني، أي: عَظُم وجَلَّ، والجَد: الحظُّ، وأبو الأب ﴿حَرَسًا﴾ جمع حارس أو اسم جمع كخدم يقال: حرس وحُراس، والحارس: الحافظ للشيء يرعاه ويرقبه ﴿قِدَدًا﴾ متفرقة مختلفة جمع قِدَّة قال الشاعر:

إِذْ هُمْ طَرَائِقُ فِي أَهْوَائِهِمْ قِدَدُ[1]

﴿غَدَقًا﴾ كثيرًا واسعًا ﴿ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحق، يقال قسط الرجل إذا جار ﴿صَعَدًا﴾ شاقًا يعلو الإنسان ويغلبه فلا يطيقه يقال: فلان في صعد من أمره أي في مشقة

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٤. (ش): أي فِرَقٌ شتى من الناس تختلف آراؤهم وأهواؤهم.

﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ يُدْخِلْه ﴿لِبَدًا﴾ متراكمين بعضهم فوق بعض يقال: تلبد الشيء أي تراكم بعضه فوق بعض ﴿مُلۡتَحَدًا﴾ ملجأ وحرزًا يتحصن به الإنسان.

التفسير: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي قل يا محمد لقومك: إن ربي أوحى إلي جماعة من الجن استمعوا لتلاوتي للقرآن، فآمنوا به وصدقوه وأسلموا ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ أي فقالوا لقومهم حين رجعوا إليهم: إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا، مؤثرًا في حُسْن نَظْمه، وبلاغة أسلوبه، وما حَواه من بديع الحِكَم والعظات و ﴿عَجَبٗا﴾ مصدر وُصِف به للمبالغة قال المفسرون: استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاة الفجر، ولم يشعر بهم ولا باستماعهم، وإنما أخبر به الرسول بواسطة الوحي[1] بدليل قوله ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ ويؤيده ما قصه الله على نبيه في سورة الأحقاف من خبرهم ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] والغرض من الإخبار عن استماع الجن، توبيخ وتقريع قريش والعرب في كونهم تباطئوا عن الإيمان، إذ كانت الجن خيرًا منهم وأسرع إلى الإيمان، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا

---

(١) هذا قول ابن عباس ويدل عليه ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس: « مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ» الحديث، ورُوِيَ عن ابن مسعود خلافُه. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا: «مَا لَكُمْ؟». فَقَالُوا: «حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ». قَالُوا: «مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَدَثَ». فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِنَخْلَةَ، وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّى بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا: «هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ». فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: «يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا». وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وَإِنَّمَا أُوحِىَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِى الأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ فَقُلْنَا اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: « أَتَانِى دَاعِى الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ». قَالَ فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِى أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعَرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). الأودية: جمع الوادي وهو منفرَج بين جبال أو تِلال يكون منفذًا للسيل. والشعاب: جمع الشِعب وهو فجوة أو انفراج بين جبلين، طريق أو ممرّ جبليّ. اسْتُطِيرَ: طَارَتْ بِهِ الْجِنُّ. اغْتِيلَ: قُتِلَ سِرًّا، وَالْغِيلَةُ هِيَ الْقَتْلُ فِي خُفْيَةٍ. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٩١): «قَالَ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ: «وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، إِنَّمَا هُوَ فِي أَوَّلِ مَا سَمِعَتِ الْجِنُّ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلِمَتْ حَالَهُ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يَقْرَأْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَرَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَاهُ دَاعِي الْجِنِّ فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ».

ورجعوا إلى قومهم منذرين، بخلاف العرب الذين نزل بلسانهم، فإنهم كذبوا واستهزءوا وهم يعلمون أنه كلام مُعجِز، وأن محمدًا أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وشتَّان ما بين موقف الإنس والجن! ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي يهدي هذا القرآن إلى الحق والرشاد والصواب فصدَّقْنا به ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك، ولن نجعل لله شريكًا بعد اليوم من خلقه قال الخازن: وفي الآية دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين[1] ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالت عظمة ربنا وجلاله ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي ليس له زوجة ولا ولد، لأن الزوجةَ تُتَّخذُ للحاجة، والولدَ للاستئناس، والله تعالى مُنَزَّه عن النقائص ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي وأن الأحمق الجاهل فينا كان ينسب إلى الله ما لا يليق بجلاله وقدسيته ويقول قولًا شططًا بعيدًا عن الحق وحَدِّ الاعتدال قال مجاهد: السفيه هو إبليس دعاهم إلى عبادة غير الله[2] ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي كنا نظن أن أحدًا لن يكْذب على الله تعالى لا من الإنس ولا من الجن في نِسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكْذبون على الله في ذلك[3] قال الطبري: وإنما أنكر هؤلاء النفر من الجن أن تكون علمَتْ أن أحدًا يجترئ على الكذب على الله لما سمعت القرآن، لأنهم قبل أن يسمعوه وقبل أن يعلموا تكذيب الله للزاعمين لله الصاحبة والولد كانوا يحسبون أن إبليس صادق، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذبًا في ذلك فسموه سفيهًا[4] ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي كان خلائق من الإنس يستجيرون برجال من الجن ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم إثمًا وطغيانًا، وعتوًا وضلالًا قال أبو السعود: كان الرجل إذا أمسى في واد قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه يريد الجن وكبيرهم، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سُدْنا الإنس والجن، فزاد الرجال الجن تكبرًا وعتوًا، فذلك قوله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[5] ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي وأن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن، أن الله لن يبعث أحدًا بعد الموت، فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم[6] ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٥٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٩.

(٣) هذا خلاصة رأي ابن كثير نقلناه مع شيء من التصرف.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٦٨.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٠٠.

(٦) هذا هو ظاهر من سياق الآيات أنه من كلام الجن لقومهم وهو اختيار الطبري، واختار بعض المفسرين أنه من الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله وأن المعنى: وأن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم يا معشر قريش، فلما سمعوا القرآن اهتدوا، فهَلَّا اهتديتم؟

﴿شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ يقول الجن: وأنا طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها، فوجدناها قد ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي تقذف من يحاول الاقتراب منها ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي كنا قبل بعثة محمد نطرق السماء لنستمع إلى أخبارها ونلقيها إلى الكهان ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي فمن يحاول الآن استراق السمع، يجد شهابًا ينتظره بالمرصاد يحرقه ويُهلكه ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا نعلم نحن معشر الجن ما الله فاعل بسكان الأرض، ولا نعلم هل امتلاء السماء بالحرس والشهب لعذاب يريد الله أن يُنْزِلَه بأهل الأرض؟ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي أم لخير يريده الله بهم، بأن يبعث فيهم رسولًا مرشدًا يرشدهم إلى الحق؟ وهذا من أدب الجن حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه فقالوا ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ قال ابن كثير: وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، وهذا هو الذي حملهم على تطلب السبب، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فرأوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفِظَتْ من أجله السماء، فدنوا منه حرصًا على سماع القرآن ثم أسلموا[١] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي منا قوم صالحون أبرار، عاملون بما يرضي الله، ومنا قوم ليسوا صلحاء قال في التسهيل: وأرادوا بقولهم ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي الذي ليس صلاحهم كاملًا، أو الذين ليس لهم صلاح[٢] ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي كنا فرقًا شتى، ومذاهب مختلفة، فمنا الصالح ومنا الطالح، وفينا التقي والشقي ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي علِمْنا وأَيْقَنَّا أن الله قادر علينا، وأننا في قبضته وسلطانه أينما كنا، لن نعجزه بهرب، ولن نتفلت من عقابه إذا أراد بنا سوءًا قال القرطبي: أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله، أنا في قبضته وسلطانه لن نفُوته بهرب ولا غيره[٣] ثم عادوا إلى شكر الله تعالى على نعمة الإيمان واهتدائهم بسماع آيات القرآن فقالوا ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي لما سمعنا القرآن العظيم آمنا به وبمن أنزله، وصدقنا محمدًا ﷺ في رسالته ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي فمن يؤمن بالله تعالى فلا يخشى نقصانًا من حسناته ولا ظلمًا بزيادة سيئاته قال ابن عباس: لا يخاف أن ينقص من حسناته، ولا أن يزاد في سيئاته، لأن البخس النقصان، والرهق العدوان[٤] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي وأنا بعد سماعنا القرآن منا من أسلم، وصدق برسالة محمد ﷺ، ومنا من جار عن الحق وكفر قال المفسرون: يقال: قسط الرجل إذا جَارَ، وأقسط إذ عَدَلَ، اسم الفاعل من الأول قاسط، ومن الثاني مُقْسِط ومنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٥٧. (ش): راجع حديث ابن عباس في التعليق السابق.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٥٣.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٥.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٦.

وأما القاسط فهو الظالم الجائر ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ أي فمن اعتنق الإسلام واتبع الرسول عليه السلام، فأولئك الذين قصدوا الرشد، واهتدَوْا إلى طريق السعادة والنجاة ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وأما الكافرون الجائرون عن طريق الحق والإيمان، فسيكونون وقودًا لجهنم، توقد بهم كما توقد بكفار الإنس.. وإلى هنا انتهى كلام الجن[١]، مما يدل على قوة إيمانهم، وصدقهم وإخلاصهم، ثم قال تعالى مخبراً عن أهل مكة ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي لو آمن هؤلاء الكفار، واستقاموا على شريعة الله ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي لبسطنا لهم في الرزق، ووسعنا عليهم في الدنيا، زيادة على ما يحصل لهم في الآخرة من النعيم الدائم، وبذلك يحوزون عز الدنيا والآخرة قال في التسهيل: الماء الغدق: الكثير، وذلك استعارة في توسيع الرزق، والطريقة هي الإسلام وطاعة الله والمعنى: لو استقاموا على ذلك لوسع الله أرزاقهم فهو كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦][٢] ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم به أيشركون أم يكفرون؟ ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي ومن يعرض عن طاعة الله وعبادته، يدخله ربه عذابًا شديدًا شاقًا لا راحة فيه قال قتادة: ﴿صَعَدًا﴾ عذابًا لا راحة فيه[٣] وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم[٤] ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا من جملة الموحى به للرسول ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ والمعنى وأوحي إلي أن المساجد وبيوت العبادة هي مختصة بالله، فلا تعبدوا فيها غيره وأخلصوا له العبادة فيها قال مجاهد: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله فيها، فأمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه والمؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها[٥] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي وأنه لما قام محمد ﷺ يعبد ربه ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي كاد الجن يركب بعضهم بعضًا من شدة الازدحام، حرصًا على سماع القرآن قال ابن عباس: كادوا ينقضون عليه لاستماع القرآن[٦]، وإنما وصفه تعالى بالعبودية، ولم يذكره باسمه زيادة في تشريفه وتكريمه عليه السلام ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن ترجع عن دينك: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك مع الله غيره بشرًا ولا صنمًا قال الصاوي: سبب نزولها أن كفار قريش قالوا له: إنك جئتَ بأمر عظيم، وقد عاديْتَ الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نُجيرك وننصرك فنزلت[٧] ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي قل يا محمد في

(١) هذا هو قول الجمهور، وأن الكلام بعده من كلام الله تعالى الذي أوحاه لرسوله لا من كلام الجن.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٥٤.
(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧٣.
(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٥٢.
(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢١.
(٦) «البحر المحيط» ٨/ ٣٥٣.
(٧) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٥٧. (ش): ضعيف، رواه البغوي في «تفسيره».

محاجَّة هؤلاء: إني لا أقدر أن أدفع عنكم ضرًا، ولا أجلب لكم نفعًا، وإنما الذي يملك هذا هو الله رب العالمين ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي قل لهم أيضًا: إنه لن ينقذني من عذاب الله أحدٌ إن عصَيْتُه، ولن أجد لي نصيرًا ولا ملجأً منه، فكيف أجيبكم إلى ما طلبتم؟ قال قتادة: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأً ونصيرًا[1] ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي لا أجد ملجأً إلا إذا بلغت رسالة ربي، ونصحتكم وأرشدتكم كما أمرني الله فحينئذ يجيرني ربي من العذاب كقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] قال ابن كثير: أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عَلَيَّ[2] ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ومن كذب الله ورسوله، ولم يؤمن بلقاء الله، وأعرض عن سماع الآيات وتدبر الرسالات، فإن جزاءه جهنم لا يخرج منها أبدًا -وإنما جمع ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حملًا على معنى ﴿وَمَن﴾ لأن لفظها مفرد ومعناها جمع- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي حتى إذا رأى المشركون ما يوعدون من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أي فسيعلمون حينئذٍ من هم أضعف ناصرًا ومعينًا، وأقل نفرًا وجندًا؟ هل هم؟ أم المؤمنون الموحدون؟ ولا شك أن الله ناصِر عباده المؤمنين، فهم الأقوى ناصرًا والأكثر عددًا، لأن اللهَ معهم وملائكتَه الأبرار ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟ أي قل لهم يا محمد: ما أدري هل هذا العذاب الذي وُعِدتُم به قريبٌ زمنُه ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أي أم هو بعيد له مدة طويلة وأجل محدود؟ قال المفسرون: كان ﷺ كلما خوف المكذبين نار جهنم، وحذرهم أهوال الساعة، أظهروا الاستخفاف بقوله، وسألوه متى هذا العذاب؟ ومتى تقوم هذه الساعة؟ فأمره تعالى أن يقول لهم: لا أدري وقت ذلك، هل هو قريب أم بعيد؟ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي هو جل وعلا عالمٌ بما غاب عن الأبصار، وخفِيَ عن الأنظار، فلا يُطْلِع على غيبه أحدًا من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي إلا من اختاره الله وارتضاه لرسالته ونبوته، فيُظْهِره الله على ما يشاء من الغيب قال المفسرون: لا يُطْلِع الله على غيبه أحدًا إلا بعض الرسل، فإنه يُطْلِعُهم على بعض الغيب، ليكون معجزةً لهم، فإن الرسل مؤيَّدُون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض المغيَّبات، كما قال عن عيسى ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي فإنه تعالى يرسل من أمام الرسول ومن خلفه، ملائكة وحرسًا يحفظونه من الجن، ويحرسونه في ضبط ما يلقيه تعالى إليه من علم الغيب قال الطبري: أي فإنه تعالى يرسل من أمامه ومن خلفه حرسًا وحفظةً يحفظونه من الجن[3] ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي ليعلم الله علم

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧٦.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٦٠.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧٧.

ظهور[1] فإنه تعالى عالم بما كان وما يكون أن رسله الكرام قد بلَّغُوا عنه وَحْيَه كما أوحاه إليهم محفوظًا من الزيادة والنقصان قال ابن كثير: المعنى أن الله يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعًا لا محالة[2] ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاط عِلْمُه بما عند الرسل، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي علم تعالى علم ضبط واستقصاء جميع الأشياء، المُنبَثَّة في الأرضين والسموات من القَطْر[3]، والرمْل، وورق الشجر، وزبد البحار، فلا يغيب عنه شيء، ولا يخفَى عليه أمر، فكيف لا يحيط علمًا بما عند رسله من رسالاته ووحيه، التي أمرهم بتبليغها إلى خلقه؟ وكيف يمكن لرسله أن يفرطوا في تلك الرسالات، أو يزيدوا أو ينقصوا أو يحرفوا فيها أو يغيروا، وهو تعالى محيط بها، مُحْصٍ لجميع الأشياء جليلها وحقيرها؟

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الوصف بالمصدر للمبالغة ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي عجيبًا في حسن إيجازه، وروعة إعجازه.

٢ - طباق السلب ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ لأن الإيمان نفي للشرك.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لما بين اللفظتين من الاشتقاق اللطيف.

٤ - الأسلوب الرفيع بنسبة الخير إلى الله، دون الشر أدبًا مع الخالق ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؟ وبين لفظ «الشر» و «الرشد» طباقٌ في المعنى.

٥ - الطباق بين ﴿ٱلْإِنسِ.. وَٱلْجِنُّ﴾ وبين ﴿ضَرًّا.. رَشَدًا﴾ وبين ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾.

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ استعارة الطرائق للمذاهب المختلفة، وهو من لطيف الاستعارة.

٧ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿أَحَدًا، وَلَدًا، رَصَدًا، رَشَدًا، صَعَدًا، عَدَدًا﴾ إلخ وهو ما يسمى في علم البديع بالسجع المرصع والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن»



(١) قال المفسرون: ما جاء في القرآن من تعليل لعلم الله كقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ فإنما هو علمُ ظهور لا علم بَدَاء، فإنه تعالى عالم بالأشياء أزلًا وإنما يُظهِر علمه لعباده.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦١.

(٣) (ش): المُنبَثَّة: المنتشرة. القَطْر: المطر.

سُورَةُ المُزَّمِّل ٧٣ ٢٠

مكية وآياتها عشرون

بين يدي السورة

* سـورة المزمل مكية، وهي تتناول جانبًا من حياة الرسول الأعظم ﷺ في تبتله، وطاعته، وقيامه الليل، وتلاوته لكتاب الله عز وجل، ومحور السـورة يدور حول الرسـول عليه الصلاة والسلام، ولهذا سميت «سورة المزمل».

* ابتدأت السـورة الكريمة بنداء الرسول ﷺ نداء شفيفًا لطيفًا، ينم عن لطف الله عز وجل ورحمته بعبده ورسـوله محمد ﷺ الذي كان يجهد نفسـه في عبـادة الله ابتغاء مرضاته ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.

* ثم تناولت السـورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسـوله، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

* وأمرت السـورة الرسـول عليه السـلام بالصبر علـى أذى المشـركين، وهجرهم هجرًا جميـلًا، إلـى أن ينتقـم الله منهـم ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا...﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم، ليتفرغ الرسـول وأصحابه لبعض شئون الحياة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ...﴾ إلـى قولـه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا
سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ
ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ
رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦ فَكَيْفَ
تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾

اللغة: ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ المتلفِّف بثيابه يقال: تزمَّل بثوبه، أي: التفَّ به وتغطَّى، وزمَّلَ غيرَه إذا غطَّاه قال امرؤ القيس:

كَبِيرُ أُناسٍ فِي بِجَادٍ مُزَّمَّلِ[1]

﴿سَبْحًا﴾ تصرفًا وتقلبًا في مهماتك، وأصلُ السَّبْح العومُ على وجه الماء، واستعير للتصرف والتقلب في شئون الحياة ﴿أَنكَالًا﴾ جمع نِكْل وهو القيد الثقيل الذي يقيد به المجرم ﴿كَثِيبًا﴾ الكثيب: الرمل المجتمع ﴿مَّهِيلًا﴾ سائلًا متناثرًا منهارًا قال أهل اللغة: المهيل الذي إذا وطئته بالقدم زلَّ من تحتِها، وإذا أخذ أسفله انهال، وأصله مهيول كمكيل أصله مكيول ﴿وَبِيلًا﴾ شديدًا وخيم العاقبة.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي يا أيها المتلفف بثيابه، وأصله المتزمل وهو الذي تلفف وتغطى، وخطابه ﷺ بهذا الوصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطفة له عليه السلام قال السهيلي: إن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطَب وترْك معاتبته سَمُّوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلي حين غاضبَ فاطمة وقد نام ولصق بجنبه التراب: « قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ »، إشعارًا بأنه ملاطفٌ له، وغير عاتب عليه[2]، والفائدة الثانية، التنبيهُ لكل متزمل راقد ليله، ليتنبَّه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى، لأنه الاسم المشتق من الفعل، يشترك فيه المخاطَب، وكل من اتصف بتلك الصفة[3]، وسبب هذا التزمل ما روي في الصحيح «أن رسول الله ﷺ لما جاءه جبريل وهو في غار حراء في ابتداء الوحي رجع إلى خديجة يرجف فؤاده فقال: « زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِى»، وأخبرها بما جرى[4]، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ » أي يا أيها الذي تلفَّفَ بقطيفته، واضطجع في زاويةِ بيته، وقد أشْبَه من يُؤْثِر

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٥٨. (ش): البِجَاد: الكساء المخطط.

(٢) (ش): عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ت قَالَ: جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِى الْبَيْتِ فَقَالَ: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ». قَالَتْ: «كَانَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ شَىْءٌ، فَغَاضَبَنِى فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِى». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لإِنْسَانٍ: «انْظُرْ أَيْنَ هُوَ». فَجَاءَ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ فِى الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ»، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ «قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ». (رواه البخاري ومسلم).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٣٣.

(٤) راجع صحيح البخاري «باب أول نزول الوحي». (ش): رواه البخاري ومسلم.

الراحة والسكون، ويحاول التخلص مما كُلِّف به من مهمات الأمور [(١)] ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي دع التزمل والتلفف، وانشط لصلاة الليل، والقيام فيه ساعات في عبادة ربك، لتستعد للأمر الجليل، والمهمة الشاقة، ألا وهي تبليغ دعوة ربك للناس، وتبصيرهم بالدين الجديد.. ثم وضَّح المقدار الذي ينبغي أن يصرفه في عبادة الله فقال ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي قم للصلاة والعبادة نصف الليل، أو أقل من النصف قليلًا، أو أكثر من النصف، والمراد أن تكون هذه الساعات طويلة بحيث لا تقل عن ثلث الليل، ولا تزيد على الثلثين قال ابن عباس: إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ﷺ لقوله ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ثم نسخ بقوله تعالى ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ وكان بين أول هذا الوجوب ونسخِه سَنَةٌ [(٢)]، وهذه هي السورة التي نسخ آخرُها أوَّلَها، حيث رحِم الله المؤمنين فأنزل التخفيف عليهم بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ الآية ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي اقرأ القرآن أثناء قيامك في الليل قراءة تثبت وتُؤَدَة وتَمَهُّل، ليكون عونًا لك على فهم القرآن وتدبُّره، قال الخازن: لما أمره تعالى بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن، حتى يتمكن المصلي من حضور القلب، والتفكر والتأمل في حقائق الآيات ومعانيها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر بقلبه عظمة الله وجلاله، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل له الرجاء والخوف، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل له الاعتبار، فيستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل، إنما هو حضور القلب عند القراءة [(٣)]، وقد كان رسول الله ﷺ يقطِّع القراءة حرفًا حرفًا أي يقرأ القرآن بتمهل، ويخرج الحروف واضحة

---

(١) (ش): هذه الألفاظ لا تليق بمقام النبي ﷺ.

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٧١، وإنما كلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل، ليكون ذلك حافزًا لهم على الاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة، وتربيتهم التربية «الجسمية والروحية» على أكمل الوجوه، حتى يصبروا على تحمل المشاق والمصاعب، وتَجَشُّم الأهوال والأخطار، ويستفيدوا من هذه التربية الكريمة ما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعْرِض لهم، وقد كان من أثر هذه «التربية الروحية» أنْ مَلَك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله. عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ أنه سأل قَالَ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها: «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ حَدِّثِينِى عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ». قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ». قَالَ: «حَدِّثِينِي عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ». قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾؟». قَالَ: «بَلَى». قَالَتْ: «فَإِنَّ أَوَّلَ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَتْ فَقَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ حُبِسَ خَاتِمَتُهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَىْ عَشَرَ شَهْرًا ثُمَّ نَزَلَ آخِرُهَا فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وعن عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما–؛ قال: «لما نزلت أول المزمل؛ كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

(ش): تَجَشُّم الأهوال والأخطار: تحَمُّلُها عن كُرهٍ ومشقَّة.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٦٥.

لا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذابٍ إلا وقف وتعوَّذ[١] ثم بعد أن أمره تعالى باطراح النوم، وقيام الليل، وتدبر القرآن وتفهمه، انتقل إلى بيان السبب في هذه الأوامر الثلاثة، ذات التكليف الصعب الشاق فقال ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي سننزل عليك يا محمد كلامًا عظيمًا جليلًا، له هيبة وروعةٌ وجلال، لأنه كلام الملِك العلاَّم قال الإمام الفخر: والمراد من كونه ثقيلًا هو عِظَم قَدْره، وجلالة خطره، وكل شيء نفس وعظم خطره فهو ثقيل، وهذا معنى قول ابن عباس: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني كلامًا عظيمًا، وقيل: المراد ما في القرآن من الأوامر والنواهي، التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، ووجه النظم عندي أنه لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمَرْتُك بصلاة الليل، لأنا سنُلقي عليك قولًا عظيمًا، ولا بد أن تصيّر نفسك مستعدَّة لذلك القول العظيم، وذلك بصلاة الليل، فإن الإنسان إذا اشتغل بعبادة الله في الليلة الظلماء، وأقبل على ذكره والتضرع بين يديه، استعدت نفسه لإشراق وجلال الله فيها[٢] أقول: وهذا المعنى لطيف في الربط بين قيام الليل، وتلاوة القرآن، فإن الله تعالى كلَّف رسوله أن يدعو الناس إلى دين جديد، فيه تكاليف شاقة على النفس، وأن يكلفهم العمل بشرائعه وأحكامه، ولا شك أن مثل هذا التكليف، يحتاج إلى مجاهدة للنفس ومصابرة، لما فيه من حملهم على ترك ما ألفوه من العقائد، ونبذ ما ورثوه من أسلافهم من العادات، فأنت يا محمد مُعَرَّضٌ لمتاعب كثيرة، وأخطار جَمَّة في سبيل هذه الدعوة، وحَمْل الناس على قبولها، فكيف يمكنك أن تقوم بهذه المهمة الكبيرة، وأنت على ما أنت عليه من التزمُّل والتلفُّف، والخلود إلى الراحة والسكون[٣]، والبعد عن المشاقِّ، ومجاهدة النفس بطول العبادة وكثرة التهجد، ودراسة آيات القرآن دراسة تفهم وتدبر؟ فانشط من مضجعك إذًا، واسهر معظم ليلك في مناجاة ربك، استعدادًا لتحمل مشاق الدعوة، والتبشير بهذا الدين الجديد، ويا لها من لفتةٍ كريمة، تيَقَّظَ لها قلبُ النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، فشمَّر عن ساعد الجد والعمل، وقام بين يدي ربه حتى تشققت قدماه ثم بيَّن تعالى فضل إحياء الليل بالعبادة فقال ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي إن ساعات الليل وأوقاته التي فيها التفرغ والصفاء، وما يُنشِئه المرء ويُحْدِثه من طاعةٍ وعبادة، يقوم لها من مضجعه بعد هدأةٍ من الليل[٤] ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي هي أشد على المصلي

---

(١) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير عن تلاوة الرسول عليه السلام وعن فضائل تلاوة القرآن ٣/ ٥٦٢. (ش): عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». وَفِي سُجُودِهِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى». وَمَا أَتَى عَلَى آيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ وَقَفَ وَسَأَلَ وَمَا أَتَى عَلَى آيَةِ عَذَابٍ إِلاَّ وَقَفَ وَتَعَوَّذَ. (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩.

(٣) (ش): هذه الألفاظ لا تليق بمقام النبي ﷺ.

(٤) (ش): هدأةٍ من الليل: جزء من اللَّيل.

وأثقـل من صلاة النهار، لأن الليل جعل للنوم والراحة، فقيامه على النفس أشـد وأثقل، ومن شـأن هذه الممارسـة الصعبة أن تقوّي النفوس، وتشد العزائم، وتصلب الأبدان، ولا ريب أن مصاولـة الجاحدين أعـداء الله تحتاج إلى نفوس قويـة، وأبدان صلبـة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أَثْبَتُ وأَبْيَـنُ قـولًا، لأن الليل تهـدأ فيه الأصـوات، وتنقطع فيه الحـركات، فتكـون النفس أصفى، والذهـن أجمـع، فإن هدوَّ الصوت في الليل، وسـكون البشـر فيـه، أعون للنفـس على التدبر والتفطن، والتأمل في أسـرار القرآن ومقاصده ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي إن لك في النهار تصرفًـا وتقلبًـا، واشـتغالًا طويلًا في شـئونك، فاجعل ناشـئة الليل لتهجـدك وعبادتك قال في التسهيل: السبحُ هنا عبارة عن التصرف في الأعمال والأشغل والمعنى: يكفيك النهار للتصرف في أشـغالك، وتفرغ بالليل لعبادة ربك[1].. وبعد أن قرر الخطاب الإلهي هذه المقدمات التي هـي بمثابة تمهيدٍ وبسـاطٍ للدعوة، انتقل إلى أمر الرسـول ﷺ بتبليغ الدعـوة، وتعليمه كيفية السـير فيها عملًا، بعد أن مهدها له نظرًا فقال ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي اسـتعن على دعوتك بذكر الله ليلًا ونهارًا، وانقطع إليه انقطاعًا تامًا في عبادتك وتوكلك عليه، ولا تعتمد في شأنٍ من شئونك على غيره تعالى قال ابن كثير: أي أَكْثِر من ذِكْره وانقطِع إليه جلّ وعلا، وتفرَّغْ لعبادته إذا فرغتَ من أشـغالك مع إخلاص العبادة له[2] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي هو جل وعلا الخالق المتصرف بتدبير شئون الخلق، وهو المالك لمشارق الأرض ومغاربها، لا إله غيره ولا ربَّ سـواه، فاعتمِدْ عليه وفوِّض أمورَك إليه ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر على أذى هؤلاء السـفهاء المكذبين فيما يتقولونه عليك من قولهم: «سـاحر، شاعر، مجنون» فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أي اتركهم ولا تتعرض لهم بأذى ولا شـتيمة، قال المفسـرون: الهجر الجميل هو الذي لا عتاب معه[3]، ولا يشـوبه أذى ولا شتم، وقـد كان هـذا قبـل أن يؤمر بالقتال كمـا قال سـبحانه ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] ثم أُمر ﷺ بقتالهـم وقتلهم، والحكمة في هذا أن المؤمنين كانوا بمكة قلة مستضعفين، فأُمِرُوا بالصبر وبالمجاهدة الليلية، حتى يُعِدُّوا أنفسهم بهذه التربية الروحية على مناجزة الأعداء، وحتى يكثر عددهم فيقفوا في وجه الطغيان، أما قبل الوصول إلى هذه المرحلة فينبغـي الصبر والاقتصار على الدعوة باللسـان ثم قال تعالى متوعـدًا ومتهددًا صناديد قريش ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي دعنـي يا محمـد وهؤلاء المكذبين بآيـاتي، أصحاب الغِنَى، والتنَعُّم في الدنيا، والترف والبطر فأنا أكفيك شـرهم قال الصاوي: المعنى اتركني أنتقم منهم،

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٥٧.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٦٤.
(٣) كذا قال ابن كثير ٣/ ٥٦٤.

ولا تشفع لهم[١]، وهذا من مزيد التعظيم له ﷺ، وإجلال قدره[٢] ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي وأمْهِلهمْ زمنًا يسيرًا حتى ينالوا العذاب الشديد قال المفسرون: أمهلهم الله تعالى إلى أن هاجر رسول الله ﷺ من مكة، فلما خرج منها سلَّط عليهم السنين المجدبة وهو العذاب العام، ثم قتل صناديدهم ببدر وهو العذاب الخاص[٣].. ثم وصف تعالى ما أعده لهم من العذاب في الآخرة فقال ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ أي إنَّ لهم عندنا في الآخرة قيودًا عظيمة ثقيلة يقيدون بها، ونارًا مستعرة هي نار الجحيم يحرقون بها قال في التسهيل: الأنكال جمع نِكْل وهو القيد من الحديد، وروي أنها قيود سُودٌ من نار[٤] ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي وطعامًا كريهًا غير سائغ، يغصُّ به الإنسان[٥] وهو الزقوم والضريع قال ابن عباس: شوك من نار يعترض في حلوقهم لا يخرج ولا ينزل[٦] ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وعذابًا وجيعًا مؤلمًا، زيادة على ما ذكر من النكال والأغلال.. ثم ذكر تعالى وقت هذا العذاب فقال ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي يوم تتزلزل الأرض وتهتز بمن عليها اهتزازًا عنيفًا شديدًا هي وسائر الجبال، وذلك يوم القيامة ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي وتصبح الجبال على صلابتها تَلًّا من الرمل سائلًا متناثرًا، بعد أن كانت صلبة جامدة قال ابن كثير: أي تصير الجبال ككثبان الرمال، بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تُنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب[٧] كقوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] أي لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.. ذكر تعالى العذاب المؤلم الذي أعده للمشركين، ومكانه وهو الجحيم، وآلاته وهي القيود وطعام الزقوم، ووقته وهو عند اضطراب الأرض وتزلزلها بمن عليها، وأراد بذلك تخويف المكذبين وتهديدهم بأنه تعالى سيعاقبهم بذلك كله، إن بَقُوا مُستمرّين في تكذيبهم لرسول الله عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلامُ، ثم أعقبه بتذكيرهم بما حلَّ بالأمم الباغية التي قد خلت من قبلهم، وكيف عصت وتمردت فأنزل بها من أمره ما أنزل، وضرب لهم المثل بفرعون الجبار فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي بعثنا لكم يا أهل مكة محمدًا ﷺ شاهدًا على أعمالكم، يشهد عليكم بما صدر منكم من الكفر والعصيان ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ

---

(١) (ش): تعبير الصاوي غير سليم؛ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا مِن بعدِ إذنه، فكيف يليق بالرسول ﷺ أن يشفع قبل الإذن حتى يُنهَى عن ذلك. وأيضًا النبي ﷺ لا يشفع للمشركين.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٦٠.

(٣) حاشية الصاوي ٤/ ٢٦٠.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٥٨. (ش): روى ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن حماد بن أبي سليمان أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ قال: «قيودا سوداء من نار جهنم». وحماد بن أبي سليمان من صغار التابعين.

(٥) (ش): غصَّ بالطَّعام أو الماءِ ونحوِهما: اعترض في حلقه فمنعه التَّنفّس والبلع.

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ٣٦٤.

(٧) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦٥.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ أي كما بعثنا إلى ذلك الطاغية فرعون الجبار، رسولًا من أولئك الرسل العظام «أولي العزم» وهو موسى بن عمران قال الخازن: وإنما خصَّ فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الأمم والرسل، لأن محمدًا ﷺ آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه وُلد فيهم، كما أن فرعون ازدرى بموسى وآذاه لأنه ربّاه[1] ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أي فكذب فرعون بموسى ولم يؤمن به، وعصى أمره كما عصيتم يا معشر قريش محمدًا ﷺ وكذبتم برسالته ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي فأهلكناه إهلاكًا شديدًا فظيعًا، خارجًا عن حدود التصور، وذلك بإغراقه في البحر مع قومه قال أبو السعود: وفي الآية التنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة، و «الوبيلُ» الثقيل الغليظ من قولهم كَلأٌ وبيلٌ أي وخيم لا يُستَمْرَأُ لثِقَله[2] وبعد أن ذكر الله أَخْذَه لفرعون، وأن مُلكه وجبروته لم يدفعا عنه العذاب، عاد فذكَّر كفار مكة بالقيامة وأهوالها ليبيّن لهم أنهم لن يفلتوا من العذاب كما لم يفلت فرعون مما حدث له فقال ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ أي كيف لا تحذرون وتخافون يا معشر قريش عذاب يوم هائل إن كفرتم بالله ولم تؤمنوا به؟ وكيف تأمنون ذلك اليوم الرهيب الذي يشيب فيه الوليد من شدة هوله، وفظاعة أمره؟ قال الطبري: وإنما تشيب الولدان من شدة هوله وكربه، وذلك حين يقول الله لآدم: أخرج من ذريتك بعث النار، من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون، فيشيب هنالك كل وليد[3] ثم زاد في وصفه وهوْله فقال ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ أي السماء متشققة ومتصدّعة من هول ذلك اليوم الرهيب العصيب ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي كان وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم واقعًا لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن هذه الآيات المخوّفة، التي فيها القوارع والزواجر، عظةٌ وعبرةٌ للناس ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي فمن شاء من الغافلين الناسين، أن يستفيد من هذه التذكرة قبل فوات الأوان، فليسلك طريقًا موصلًا إلى الرحمن، بالإيمان والطاعة، فالأسبابُ ميسرة، والسُبُل مُعَبَّدة[4]، قال المفسرون: والغرض

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٦٩.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٠٥. (ش): وخُم الطَّعامُ: ثَقُل وكان فاسدًا. استمرأ الطَّعامَ وغيرَه: وجده مقبولاً مُستساغًا، استطَابَه.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٨٦، و«مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦٥. (ش): عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِى يَدَيْكَ. فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ قَالَ «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ». ثُمَّ قَالَ «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، إِنِّى أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «مَا أَنْتُمْ فِى النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِى جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِى جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ». رواه البخاري ومسلم.

(٤) (ش): عبَّد الطَّريقَ ونحوَه: ذلَّله ومهَّده.

الحضُّ على الإيمان وطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، والترغيب في الأعمال الصالحة، لتبقى ذخرًا في الآخرة.. ثم عادت الآيات الكريمة للحديث عمَّا بدأته في أول السورة من قيام الليل فقال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم مع أصحابك[1] للتهجد والعبادة أقل من ثلثي الليل، وتارة تقومون نصفه، وتارة ثلثه كقوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧-١٨] ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي والله جلّ وعلا هو العالم بمقادير الليل والنهار، وأجزائهما وساعاتهما، لا يفوته علم ما تفعلون من قيام هذه الساعات في غلس الظلام ابتغاء رضوانه، وهو تعالى المدبّر لأمر الليل والنهار ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي علم تعالى أنكم لن تطيقوا قيام الليل كله ولا معظمه، فرحمكم ورجع عليكم بالتخفيف قال الطبري: أي علم ربكم أن لن تطيقوا قيامه، فتاب عليكم بالتخفيف عنكم[2] ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، وإنما عبَّر عن الصلاة بالقراءة، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة قال ابن عباس: سقط عن أصحاب رسول الله قيام الليل وصارت تطوعًا، وبقي ذلك فرضًا على رسول الله ﷺ[3] ثم بين تعالى الحكمة في هذا التخفيف فقال ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أي علم تعالى أنه سيوجد فيكم مَن يُعجِزه المرضُ عن قيام الليل، فخفف عنكم رحمة بكم ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي وقوم آخرون يسافرون في البلاد للتجارة، يطلبون الرزق وكسب المال الحلال ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ﴾ أي وقوم آخرون وهم الغزاة المجاهدون، يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه، وكل من هذه الفرق الثلاثة يشقُّ عليهم قيام الليل، فلذلك خفف الله عنهم، ذكر تعالى في هذه الآية الأعذار التي

(١) الآية نص صريح على أن قيام الليل كان واجبًا على الرسول وعلى أصحابه، وقد كُلفوا أن يقوموا ساعات من الليل طويلة، لا تقل على ثلثه، ولا تزيد على ثلثيه، فإن قيام الليل وإحياءه بأنواع الطاعات المختلفة من ذكر، وصلاة، وتلاوة قرآن، يُقَوِّي أبدانهم، ويزكِّي أرواحهم، ويعَوِّدهم الخشونة في العيش، واجتناب ما عليه المُترَفون من الراحة والرخاوة والانغماس في الملذات، كلفهم الله تعالى بذلك ليُعِدَّهم إعدادًا روحيًّا وجسميًا للقيام بأعباء الدعوة الجديدة، وتحمُّل المَشاقّ في سبيل نشر هذا الدين، ويالها من تربية كريمة مجيدة، تُنشِئ الرجال والأبطال.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٨٨.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٨٧. (ش): لم أجده بهذا اللفظ إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.
ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ يعني بالنافلة أنها للنبيّ ﷺ خاصة، أُمر بقيام الليل وكُتب عليه. (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف). وقد اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، هَل كَانَ فَرْضًا عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَرْضًا، مَعَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى عَدَمِ فَرْضِيَّتِهِ عَلَى الأُمَّةِ. [انظر: الموسوعة الفقهية (٢/ ٢٥٧-٢٥٨)، (٣٤/ ١١٨)]. أما حديث: «ثَلاثٌ هُنَّ عَلَيَّ فَرَائِض، وَهُنَّ لَكُمْ تَطَوُّعٌ: الْوَتْرُ، وَالنَّحْرُ، وَصَلاةُ الضُّحَى» فقد رواه أحمد وضعفه أحمد شاكر والأرنؤوط. ورواه الحاكم بلفظ: «ثَلاثٌ هُنَّ عَلَيَّ فَرَائِض وَلَكُمْ تَطَوُّعٌ: النَّحْرُ، وَالْوِتْرُ، وَرَكْعَتَا الْفَجْرِ»، وضعفه الذهبي والألباني.

تكـون للعباد تمنعهـم من قيام الليل، فمنها المرض، ومنها السـفر للتجـارة، ومنها الجهاد في سبيل الله، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن تأكيدًا للتخفيف عنهم قال الإمام الفخر: أما المرضَـى فإنهم لا يمكنهم الاشـتغال بالتهجد لمرضهم، وأما المسـافرون والمجاهدون فهم مشـغولون في النهار بالأعمال الشـاقة، فلو لم يناموا في الليل لتواليت أسـباب المشقة عليهم، فلذلـك خفف الله عنهم وصار وجوب التهجد منسـوخًا في حقهم[1] ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي فصلوا ما تيسَّـر لكم من صلاة الليل، واقرءوا في صلاتكم ما تيسـر من القرآن ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي وأدوا الصـلاة المفروضـة على الوجه الأكمل، والـزكاة الواجبة عليكم إلى مسـتحقيها قال المفسـرون: قلَّما يُذكر الأمر بالصلاة في القرآن، إلا ويُقرن معه الأمر بالزكاة، فـإن الصلاة عماد الدين بين العبد وربه، والزكاة عماد الدين بينه وبين إخوانه، والصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي تصدقوا في وجوه الـبر والإحسـان ابتغاء وجه الله قال ابن عباس: يريد سـائر الصدقات سـوى الـزكاة، من صلة الرحم، وقِرَى الضيف وغيرهما[2] ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أيَّ شيء تفعلوه أيهـا الناس من وجوه البر والخيـر تلقوا أجره وثوابه عند ربكم ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي تجدوا ذلـك الأجـر والثواب يوم القيامة خيرًا لكم مما قدمتـم في الدنيا من صلح الأعمال، فإن الدنيا فانيـة والآخـرة باقية، وما عند الله خيـرٌ للأبرار ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي اطلبـوا مغفرة الله في جميع أحوالكم، فإن الإنسـان قَلَّما يخلو من تقصير أو تفريط ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة، واسـع الرحمة ختم تعالى السـورة بإرشاد المنفقين المحسـنين، إلى أن يطلبوا من الله الصفح والعفو، إذ ربما كانوا لم يخلصوا النية في الإنفاق، أو لم يحسـنوا العمل في الإقراض، فيضعوا النفقة في غير مواضعها، أو ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة، وهو ختم يتناسق مع موضوع الإنفاق، فسبحان منزل القرآن بأوضح بيان!!

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿انْقُصْ مِنْهُ.. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ وبين ﴿الْمَشْرِقِ.. وَالْمَغْرِبِ﴾ وبين ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾.

٣ - تأكيـد الفعـل بالمصـدر مثـل ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ زيادة في البيان والإيضاح.

٤ - الالتفـات مـن الغيبـة إلى الخطـاب ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ ولو جـرى على الأصل لقال: إنا أرسلنا إليهم، والغرض من الالتفات التقريع والتوبيخ على عدم الإيمان.

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٨٧.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ١٧١. (ش): قَرى الضيفَ: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

٥ - المجاز المرسل ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ أراد به الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة.

٦ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ عمَّم بعد ذكر الصلاة، والزكاة، والإنفاق ليعم جميع الصالحات.

٧ - الاستعارة التبعية ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ شبَّه الإحسان إلى الفقراء والمساكين بإقراض رب العالمين، وهو من لطيف الاستعارة.

٨ - السجع المُرَصَّع مثل ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ الخ.

«انتهى تفسير سورة المزمل»



سُورَةُ المُدَّثِّر ٧٤ ٥٦

مكية وآياتها ست وخمسون

بين يدي السورة

* سورة المدثر مكية، شأنها كسابقتها -سورة المزمل- تتحدث عن بعض جوانب من شخصية الرسول الأعظم ﷺ، ولهذا سميت سورة المدثر.

* ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة، والقيام بمهمة التبليغ بجد ونشاط، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

* ثم توالت السورة تنذر وتهدد أولئك المجرمين بيوم، عصيب شديد لا راحة لهم فيه، لما فيه من الأهوال والشدائد ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

* وبعد ذلك البيان الذي يرتعد له الإنسان، تحدثت السورة عن قصة ذلك الشقي الفاجر «الوليد بن المغيرة» الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرئاسة زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[1].

* ثم تحدثت السورة عن النار التي أوعد الله بها الكفار، وعن خزنتها الأشداء، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها، وعددهم والحكمة من تخصيص ذلك العدد ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ الآيات.

---

(١) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا». قَالَ: «لِمَ؟». قَالَ: «لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ». قَالَ: «قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا». قَالَ: «فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ». قَالَ: «وَمَاذَا أَقُولُ؛ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ». قَالَ: «لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ». قَالَ: «فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ»، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: «هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾. (رواه الحاكم في المستدرك، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، والألباني). (الرجز): إنشاد الشعر، وهو بحر من بحوره عند العروضيين. (أثر الحديث): ذكَره ونَقَله عن غيره. (طَلَاوَة/ طُلَاوَة/ طِلَاوَة): حُسْن، ورَوْنَق. (مُغْدِق): كثير المياه.

* وأقسمت السورة بالقمر وضيائه[1]، والصبح وبهائه، على أن جهنم إحدى البلايا العظام ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

* ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين، في سبب دخولهم الجحيم ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ الآيات.

* وختم السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)
وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ
خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ
(١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ
(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)
سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ
النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا
أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)
إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ
(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ
(٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ
قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا ۖ بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ
تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).
وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيه، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

اللغَة: ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ المتغطي بثيابه، تدثر: لبس الدثار وهو الثوب الذي فوق الشعار، والشعار الثوب الذي يلي الجسد، ومنه حديث « الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ »(١)

﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ الصور الذي ينفخ فيه، والنقر في كلام العرب الصوت، سمي ناقورًا لأنه يخرج منه صوت عظيم رهيب، يَفزَع الناس منه ويموتون(٢) ﴿عَبَسَ﴾ قَطَّب بين عينيه(٣) ﴿وَبَسَرَ﴾ كلح وجهه وتغير لونه(٤) قال الليث: عَبَس إذا قَطَّب ما بين عينيه، فإن أبدَى عن أسنانه في عبوسِه قيل: كَلَح، فإن اهتم في الأمر وفكر فيه قيل: بَسَر، فإن غضب مع ذلك قيل: بَسَل(٥) ﴿أَسۡفَرَ﴾ أضاء وانكشف ﴿ٱلۡكُبَرِ﴾ الدواهي وعظائم المصائب والعقوبات قال الراجز:

يَا ابْنَ الْمُعَلَّى نَزَلَتْ إِحْدَى الْكُبَرِ ... دَاهِيَةُ الدَّهْرِ وَصَمَّاءُ الغَبَرْ(٦)

﴿قَسۡوَرَةِۭ﴾ أسد، من القسر وهو القهر، سمي بذلك لأنه يقهر السباع، وقيل: هم جماعة الرماة الذين يتصيدون، قال الأزهري: هو اسم جمع للرماة لا واحد له من جنسه قال لبيد:

إِذَا مَا هَتَفْنَا هَتْفَةً فِي نَدِيِّنَا ... أَتَانَا الرِّجَالُ الصَّائِدُونَ الْقَسَاوِرُ(٧)

سَبَبُ النّزول: روي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة -يعني محمدًا ﷺ- يتوعدنا ويخوفنا بجهنم، ويخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الجمع العظيم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم!! فقال «أبو الأشد الجمحي»: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، واكفوني اثنين، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ الآية(٨).

التفسِير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أي يا أيها المتغطي بقطيفته يريد النوم والراحة، قم من

---

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم. (الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ): أي: انهم بمنزلة ذلك الثوب، وإنهم الخاصة والبطانة وألْصَق الناس بي،، والناس هم العامة.

(٢) (ش): الصور: بوقٌ يُنفخ فيه.

(٣) (ش): أي ضَمَّ جِلد مَا بَين عَيْنَيْهِ وَجِلد جَبهته، وصَار كريه الْوَجْه.

(٤) (ش): كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٠١.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٨٣.

(٧) «البحر المحيط» ٨/ ٣٦٩. (ش): هتَف الشَّخصُ: صاح مادًّا صوتَه. النَدِيّ: النَادِي: المُنتدَى: مجلس القوم ومتحدَّثُهم، مكان يجلس القوم فيه ويتبادلون الحديث.

(٨) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٠٣، و«تفسير الخازن» ٤/ ١٧٧. (ش): دَاهِيَةُ الدَّهْرِ وَصَمَّاءُ الغَبَرْ: أي بَلِيَّةٌ لاَ تَكَادُ تَذْهَبُ، إِن ذُكِرتْ يَقُولُونَ لَا تَسْمَعُوهَا فإنها عَظِيمَةٌ. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن السدي؛ قال: لما نزلت: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾؛ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشدين: يا معشر قريش! لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة؛ فأنزل الله -تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ (ضعيف جدًا، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم).

مضجعك قيام عزم وتصميم، وحذر الناس من عذاب الله إن لم يؤمنوا، خوطب ﷺ بهذا اللفظ «المدثر» مؤانسة له ﷺ وتلطفًا، كما خوطب بلفظ ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ في السورة السابقة قال المفسرون: كان ﷺ يتعبد في غار حراء فجاءه جبريل بالآيات الكريمة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ..﴾ [العلق: ١] الآيات وهي أول ما نزل عليه من القرآن، فرجع يرجف فؤاده فقال لخديجة: زملوني، زملوني فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ » [المزمل: ١٢] الآيات ثم فتر الوحي فحزن ﷺ فبينا هو يمشي سمع صوتًا من السماء، فرفع رأسه فإذا الملك الذي جاءه بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فعَرَاهُ ﷺ من رؤيته الرعب والفزع[1]، فجاء إلى أهله فقال: دثروني، دثروني فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[2] قال القرطبي: وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب، من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بوصفه ولم يقل «يا محمد» ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله قول النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان يوم الخندق: «قم يا نومان»[3]

---

(١) (ش): عَرَاهُ: أصابه، غَشِيَه، أَلَمَّ به.

(٢) هذه الرواية ذكرها الطبري عن جابر بن عبد الله كذا في الطبري ٢٩/ ٩٠. (ش): عن جابر بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيَّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ – قَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَدَثَّرُونِي فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ وَهِيَ الأَوْثَانُ قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ. (رواه البخاري ومسلم). فَجُئِثْتُ: ففزعتُ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٦٠. (ش): عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ فَقَالَ « قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ». فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ. قَالَ: « اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ ». فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ « وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ ». وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). قَوْلُهُ (كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ مَا قَالَ) مَعْنَاهُ أَنَّ حُذَيْفَةَ فَهِمَ مِنْهُ أَنَّهُ لَوْ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ لَبَالَغَ فِي نُصْرَتِهِ وَلَزَادَ عَلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِهِ فِي لَيْلَةِ الأَحْزَابِ وَقَصَدَ زَجْرَهُ عَنْ ظَنِّهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِ الصَّحَابَةِ. (قُرٌّ): بَرْدٌ. (قُرِرْتُ): أَيْ بَرَدْتُ. (وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ) لَا تُفْزِعْهُمْ عَلَيَّ وَلَا تُحَرِّكْهُمْ عَلَيَّ وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا تُنَفِّرْهُمْ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ وَالْمُرَادُ لَا تُحَرِّكْهُمْ عَلَيْكَ فَإِنَّهُمْ إِنْ أَخَذُوكَ كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيَّ لِأَنَّكَ رَسُولِي وَصَاحِبِي. (كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ) يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَجِدِ الْبَرْدَ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ وَلَا مِنْ تِلْكَ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ شَيْئًا بَلْ عَافَاهُ اللهُ مِنْهُ بِبَرَكَةِ إِجَابَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَذَهَابِهِ فِيمَا وَجَّهَهُ لَهُ وَدُعَائِهِ ﷺ لَهُ وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ اللُّطْفُ بِهِ وَمُعَافَاتُهُ مِنَ الْبَرْدِ حَتَّى عَادَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَجَعَ وَوَصَلَ =

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظِّمْ ربك، وخُصَّه بالتمجيد والتقديس، وأَفْرِدْه بالعظمة والكبرياء، فليس هناك من هو أكبر من الله قال الألوسي: أي اخصص ربك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء والعظمة، اعتقادًا وقولًا[١]، وإنما ذكرت هذه الجملة بعد الأمر بالإنذار، تنبيهًا للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار، فإن نواصي الخلائق بيد الجبار، فلا ينبغي أن يبالي الرسول بأحد من الخلق، ولا أن يرهب سوى الله، فإن كل كبير مقهور تحت عظمته تعالى وكبريائه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي وثيابك فطهرها من النجاسات والمستقذَرات، فإن المؤمن طيبٌ طاهر، لا يليق منه أن يحمل الخبيث، قال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه[٢] وقال ابن عباس: كنَّى بالثياب عن القلب. والمعنى: وقلبك فطهر من الإِثم والمعاصي واستشهد بقول غيلان:

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ[٣]

يقول العرب: فلان طاهر الثياب أو نقي الثياب، يريدون وصفه بالنقاء من المعايب وذميم الصفات، ويقولون: فلان دنس الثياب إذا كان موصوفًا بالأخلاق الذميمة قال الرازي: والسبب في حسن هذه الكناية، أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان، فقالوا: المجدُ في ثوبه، والعفة في إزاره[٤] ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي اترك عبادة الأصنام والأوثان ولا تقربها[٥] قال ابن زيد: الرجز: الآلهة التي كانوا يعبدونها، فأمره أن يهجرها فلا يأتيها ولا يقربها وقال الإمام الفخر: الرجز: اسم للقبيح المستقذر كالرجس قال تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ كلام جامع لمكارم الأخلاق، كأنه قيل له: اهجُر الجفاء، والسفَه، وكُلَّ قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين، والمراد بالهجر الأمر بالمداومة على ذلك الهجران، كما يقول المسلم: ﴿ اهْدِنَا

= عَادَ إِلَيْهِ الْبَرْدُ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ وَهَذِهِ مِنْ مُعْجِزَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَلَفْظَةُ الْحَمَّام عَرَبِيَّةٌ وَهُوَ مُذَكَّرٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَمِيمِ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ. (يَصْلِي ظَهْرَهُ) أَيْ يُدْفِئُهُ وَيُدْنِيهِ مِنْهَا. (كَبِدِ الْقَوْسِ) هُوَ مِقْبَضُهَا وَكَبِدُ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ. (أَصْبَحْتُ) أَيْ طَلَعَ الْفَجْرُ. (قُمْ يَا نَوْمَانُ) النَوْمَانُ: كَثِيرُ النَّوْمِ وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي النِّدَاءِ. [باختصار من شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/ ١٤٥-١٤٦).

(١) روح المعاني ٢٩/ ١١٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٩١، واختار ابن جرير القول الأول وقال: هو أظهر. (ش): بِحَمْدِ اللهِ: والحَمْدُ للهِ. لاَ ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبِسْتُ: لم أَلبِسْ ثَوْبَ فَاجِرٍ، أي لم أفعلِ فِعْل الفُجَّار. أَتَقَنَّعُ: أستُر وجهي. غدَر فلانًا/ غدَر بفلان: خانه، نقَض عهدَه وترَك الوفاء به. وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ: أي لم أغدر بأحد فأستتر من الناس من عار ذلك الفعل.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٢.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٩٣.

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ليس معناه أنه ليس على الهداية، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية[١] ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ أي ولا تعط الناس عطاء وتستكثره، لأن الكريم يستقِلّ ما يعطِي وإن كان كثيرًا[٢]، وأَعْطِ عطاءَ من لا يخاف الفقر وقال ابن عباس: لا تُعطِ عطيَّةً تلتمس بها أفضل منها[٣] بمعنى: لا تعطِ شيئًا لتُعطَى أكثر منه، وسر النهي أن يكون العطاء خاليًا عن انتظار العوض تعفُّفًا وكمالًا، فإن النبي ﷺ مأمور بأشرف الآداب وأجَلّ الأخلاق ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ أي اصبر على أذى قومك، ابتغاء وجه ربك.. ثم أخبر تعالى عن أهوال القيامة وشدائدها فقال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ أي فإذا نفخ في الصور، نفخة البعث والنشور، وعبر عن النفخ وعن الصور، بالنقر في الناقور لبيان هول الأمر وشدته، فإن النفر في كلام العرب معناه الصوت وإذا اشتد الصوت أصبح مفزعًا، فكأنه يقول: إصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك، ولهذا قال بعده ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد هائل، يشتد فيه الهول ويعسر الأمر عليهم، والإشارة بالبعيد ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للإيذان ببعد منزلته في الهول والفظاعة[٤] ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ أي هو عسير على الكافرين، غير هَيِّنٍ ولا يسير عليهم، لأنهم يُناقَشُون الحساب[٥]، وتَسْوَدُّ وجوههم، ويُحشرون زرقًا، ويفتضحون على رءوس الأشهاد، قال الصاوي: ودلت الآية على أنه يسير على المؤمنين، لأنه قيد عسره بالكافرين، وفيها زيادة وعيد وغيظ للكافرين، وبشرى وتسلية للمؤمنين[٦]. ثم أخبر عن قصة ذلك الشقي الكافر «الوليد بن المغيرة» وقوله الشنيع في القرآن فقال ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٣.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٦٠.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٦٨.
(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٠٨.
(٥) (ش): عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ». فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ فَقَالَ «لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ». وفي رواية: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ » (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ): نُوقِشَ: اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ. (عُذِّبَ): أي أَنَّهُ مُفْضٍ إِلَى الْعَذَابِ بِالنَّارِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّقْصِيرَ غَالِبٌ فِي الْعِبَادِ فَمَنِ اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَامَحْ هَلَكَ وَدَخَلَ النَّارَ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْفُو وَيَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ لِمَنْ يَشَاءُ. (إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ) أي تُعرَض الأعمال على الشخص حتى يُقِرّ؛ فإذا أقَرَّ بها قال الله تعالى له: «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». (رواه البخاري ومسلم). فمن يشأ الله أن يعفوَ عنه يحاسبه الحسابَ اليسير الذي فسره النبي ﷺ بالعرض. أما الذين يدخلون النار بذنوبهم فهم ممن يُناقَش الحساب.
(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٦٥.

أي دعني يا محمد وهذا الشقي، الذي خلقته في بطن أُمه وحيدًا فريدًا، لا مال ولا ولد، ولا حول له ولا مدد، ثم كفر بي وكذب بآياتي قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» كان من أكابر قريش، ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش، وقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا من المال والبنين، وأغدق عليه الرزق فكان ماله كالنهر الدافق، وكان للوليد بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفًا ولا شتاء، فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وفيه نزل ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وهو أسلوب بليغ في التهديد، كما نزلت فيه الآيات المتقدمة في سورة نون[١]، ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ..﴾ إلى ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم] وهو الذي آذى رسول الله ﷺ وكاد له، فإن صناديد قريشٍ لما بَرِمُوا برسول الله[٢]، وضاقت عليهم الحيل في إسكاته، وإطفاء نور دعوته، لجئوا إلى الوليد فأشار عليهم بأن يلقبوه ﷺ بالساحر، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم أن ينادوا بذلك في مكة، فجعلوا ينادون: إن محمدًا ساحر، فحزن لذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآيات الكريمة في معرض تهديده وتخويفه، ليكون ذلك أدعى للكسر من كبريائه ثم قال تعالى ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي جعلت له المال الواسع المبسوط، من الإبل، والخيل، والغنم، والبساتين النضرة قال البيضاوي: ﴿مَّمْدُودًا﴾ أي مبسوطًا كثيرًا، وكان له الزرع والضرع والتجارة[٣] قال ابن عباس: كان ماله ممدودًا ما بين مكة والطائف وقال مقاتل: كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفًا[٤] ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي وأولادًا مقيمين معه في بلده، يحضرون معه المحافل والمجامع، يستأنس بهم ولا يتنغَّص عيشه لفراقهم قال المفسرون: كان له عشرة بنين لا يفارقونه سفرًا ولا حضرًا، وكان مستأنسًا بهم وله بهم عز ومنعة، أسلم منهم ثلاثة: «خالد، وهشام، والوليد»[٥] وبعد أن ذكر من مظاهر النعم

---

(١) انظر ما كتبناه في سورة «ن» حول قصة الوليد بن المغيرة من هذا التفسير. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا». قَالَ: «لِمَ؟». قَالَ: «لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ». قَالَ: «قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا». قَالَ: «فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ». قَالَ: «وَمَاذَا أَقُولُ؛ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ». قَالَ: «لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ». قَالَ: «فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ»، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: «هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾. (رواه الحاكم في المستدرك، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، والألباني). (الرجز): إنشاد الشعر، وهو بحر من بحوره عند العروضيين. (أثر الحديث): ذكَرَه ونَقَله عن غيره. (طَلَاوة/ طُلَاوة/ طِلَاوة): حُسْن، ورَوْنق. (مُغْدِق): كثير المياه.

(٢) (ش): بَرِمُوا: مَلُّوا وضَجِروا.

(٣) «تفسير البيضاوي» ٢/ ٤٩٢.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٨.

(٥) ذكر بعض المفسرين تبعًا للزمخشري أن الذين أسلموا «خالد، وعمارة، وهشام» والصحيح أنه الوليد فأما عمارة فإنه مات كافرًا، وانظر حاشية الشهاب ٨/ ٢٧٤.

المال والبنين عاد فعمم الخيرات الدنيوية التي أنعم بها الله عليه فقال ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أي بسطت بين يديه الدنيا بسطًا، ويسرت له تكاليف الحياة، ومظاهر الجاه والعز والسيادة، فكان في قريش عزيزًا منيعًا، وسيدًا مطاعًا ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ أي ثم بعد هذا العطاء الجزيل يطمع أن أزيد له في ماله وولده وقد كفر بي قال الفخر الرازي: لفظ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للإنكار والتعجب، كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري، وأطعمتك وأكرمتك ثم أنت تشتمني[١]! (أي ومع كل هذا الإنعام والإكرام فقد كفر وجحد، وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان، ويقابله بالطاعة والإيمان، عكس الأمر وقابله بالجحود والكفران ﴿كَلَّآۖ﴾ ردع وزجر أي ليرتدع هذا الفاجر الأثيم عن ذلك الطمع الفاسد، ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ أي لأنه معاند للحق، جاحد بآيات الله، مكذب لرسوله، فكيف يطمع بالزيادة هذا الشقي العنيد؟ ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي سأكَلِّفه وأُلْجِئُه إلى عذاب صعب شاق لا يُطاق، تَضعُف عنه قوتُه كما تضعف قوة من يصعد في الجبل قال القرطبي: ﴿صَعُودًا﴾ صخرة ملساء يُكلَّف صعودها، فإذا صار في أعلاها حدر في جهنم، فيهوي ألف عام قبل أن يبلغ قرارها[٢] وفي الحديث « الصَّعُودُ: جَبَلٌ مِنْ نَارٍ، يَصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ يَهْوِي بِهِ كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا »[٣] ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي إنه فكر في شأن النبي والقرآن، وأجال رأية وذهنه الثاقب، ثم رتب وهيأ كلامًا في نفسه، ماذا يقول في القرآن؟ وبماذا يطعن فيه؟ قال تعالى دعاء عليه: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ أي قاتله الله وأخزاه على تلك الكلمة الحمقاء التي أجالها في نفسه، حيث قال عن القرآن، إنه سحر، وقال عن محمد إنه ساحر، وفي الآية استهزاء به وتَهَكُّم، حيث قَدَّر ما لا يصح تقديرُه، ولا يسُوغُ أن يقوله عاقل[٤] قال في البحر: يقول العرب عند استعظام الأمر والتعجب منه: قاتله الله، ومرادهم أنه قد بلغ المبلغ الذي يُحسد عليه ويُدعَي عليه من حُسَّاده، والاستفهام في قوله ﴿كَيۡفَ قَدَّرَ﴾؟ في معنى ما أعجب تقديره وما أغربه به؟ كقولهم أي رجل هذا؟ أي ما أعظمه![٥] ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ كرر العبارة تأكيدًا لذمه وتقبيحًا لحاله، ولغاية التهكم به، كأنه قال: قاتله الله ما أروع تفكيره، وأبدع رأيه الحصيف![٦] حيث قال عن القرآن إنه سحر يؤثر؟ قال المفسرون: مر الوليد بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته وتأثر بها، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٩.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٧٢.
(٣) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه. (ش): رواه أحمد والترمذي، وضعفه الألباني.
(٤) (ش): لا يسُوغُ: لا يجوز ولا يُبَاح.
(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٣٧٤.
(٦) هذا كما قال الزمخشري: ثناء عليه بطريق الاستهزاء والتهكم بمعنى أن ما أتى به في غاية الركاكة والسقوط.

الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثمِر، وإن أسفله لمُغدِق، وإنه ليعلُو وما يُعلَى عليه، ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: لقد صبأ والله الوليد، ولتصبأن قريش كلها. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق حتى جلس إلى جانب الوليد حزينًا، فقال له الوليد: ما لي أراك حزينًا يا ابن أخي؟ فقال: كيف لا أحزن وهذه قريش تجمع لك مالًا ليعينوك به على كبر سنك، ويزعمون أنك زيَّنْت كلام محمد وصبأتَ لتصيب من فضل طعامه، وتنال من ماله، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالًا وولدًا؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمدًا مجنون. فهل رأيتموه، يُخنَق؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن. فهل رأيتموه تكهن قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر: فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذبًا قط؟ قالوا اللهم لا، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده، وما هذا الذي يقوله إلا سحر يؤثر، فذلك قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآيات[1] تركنا الوليد يفكر ويقدر، ولنرجع إليه لنرى ماذا فعل بعد، قال تعالى ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي أجَالَ النظر مرة أُخرى متفكرًا في شأن القرآن ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي ثم قَطَّب وجهه وكَلَّحُه ضِيقًا بما يقول ﴿وَبَسَرَ﴾ أي وزاد في القبض والكُلُوح، كالمهتم المتفكر في أمر يدبِّره قال في التسهيل: البُسُور تقطيب الوجه وهو أشد من العُبُوس[2] ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي ثم أعرض عن الإيمان، وتكبر عن اتباع الهدى والحق ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي فقال: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر ينقله ويرويه عن السحرة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي ليس هذا كلام الله، وما هو إلا كلام المخلوقين، يخدع به محمد القلوب، ويؤثر فيها كما يؤثر السحر بالمسحور قال الألوسي: هذا كالتأكيد للجملة الأولى، لأن المقصود منهما نفي كونه قرآنا أو من كلام الله تعالى، ولذلك لم يعطف عليها بالواو، وفي وصف إشكاله واستنباطه هذا القول السخيف استهزاء به، وإشارة إلى أنه عن الحق بمعزل، ويظهر من تتبع أحوال الوليد، أنه إنما قال ذلك عنادًا وحمية جاهلية، لا جهلًا بحقيقة الحال[3]، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون!! ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي سأدخله جهنم يتلظَّى حرها، ويذوق عذابها ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؟ استفهام للتهويل والتفظيع، أي: وما أعلمك أي شيء هي سقر؟ ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تبقي على شيء فيها إلا أهلكته، ولا تترك أحدًا من الفجار إلا أحرقته قال

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» ١٩/ ٧٣ و«الخازن» ٤/ ١٧٦ و«التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٠١ وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام. (ش): وانظر التعليق في مقدمة السورة.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٦١.

(٣) «روح المعاني» ٢٩/ ١٢٤.

ابن عباس: لا تبقي من الدم والعظم واللحم شيئًا، فإذا أعيد خلقهم من جديد تعاود إحراقهم بأشد مما كانت وهكذا أبدًا[(١)] ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهو لها كقوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] قال الحسن: تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام حتى يروها عيانًا[(٢)] فهي بارزة إلى أنظارهم، يرونها من غير استشراف ولا مدِّ أعناق ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي خزنتها الموكلون عليها تسعة عشر ملكًا من الزبانية الأشداء كقوله تعالى ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] قال ابن عباس: «ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمَع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم»[(٣)] قال الألوسي: روي عن ابن عباس أنها لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أُمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة -يعني محمدًا- يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهم أي العدد الشجعان، أفيعجز كل عشرةٍ منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد الجمحي: وكان شديد البطش أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾[(٤)] أي وما جعلنا خزنة النار إلا من الملائكة الغلاظ الشداد، ولم نجعلهم من البشر حتى يصارعوهم ويغالبوهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لم نجعل ذلك العدد إلاَّ سببًا لفتنة وضلال المشركين، حين استقلوا بعددهم واستهزءوا حتى قال أبو جهل: أفيعجز كل مائةٍ منكم أن يبطشوا بواحدٍ منهم ثم تخرجون من النار؟[(٥)] قال الطبري: وإنما جعل الله الخبر عن عدة خزنة جهنم فتنةً للكافرين، لتكذيبهم بذلك وقول بعضهم لأصحابه على سبيل الاستهزاء أنا أكفيكموهم[(٦)] ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليتيقن أهل الكتاب من صدق

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٠٢.

(٢) اختار بعض المفسرين أن معنى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي محرقة للجلود مسودة لها، تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل وإن: «البشر» جمع بشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة، والظاهر ما ذكرناه لأن الله تعالى ذكر من وصفها بتسويد البشرة بعد ذلك، وما اخترناه هو ما رجحه القرطبي ونسبه إلى ابن عباس وكذلك ما رجحه الإمام الفخر ارازي والله أعلم.

(٣) (ش): ذكره القرطبي في «تفسيره» بدون إسناد.

مِقْمع: مِقْمعة:، خشبة أو حديدة معوجَّة الرَّأس يُضرب بها رأسُ الإنسان أو الحيوان لإهانته وإذلاله. والجمع مَقامِعُ. وَقِيلَ: الْمَقامِعُ: الْمَطارِقُ.

(٤) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٢٦. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن السدي؛ قال: لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾؛ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشدين: يا معشر قريش! لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة؛ فأنزل الله -تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ (ضعيف جدًا، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم).

(٥) تفيسر القرطبي ١٩/ ٧٩.

(٦) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٠١.

محمد، وأن هذا القرآن من عند الله، إذ يجدون هذا العدد في كتبهم المنزَّلة ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ أي ويزداد المؤمنون تصديقًا لله ورسوله، بما يشهدان من صدق أخبار نبيهم ﷺ وتسليم أهل الكتاب لما جاء في القرآن موافقًا للتوراة والإنجيل ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في عددهم، وهذا تأكيدٌ لما قبله لأنه لما ذكر اليقين نفى عنهم الشك، فكان قوله ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ مبالغة وتأكيدًا[1]، وهو ما يسميه علماء البلاغة الإطناب ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي وليقول الذين في قلوبهم شك ونفاق والكافرون من أهل مكة: أيَّ شيء أراد الله بهذا القول العجيب، الذي هو مثل في الغرابة والبداعة؟ ولماذا يخوفنا بواسطته من سقر وخزنتها التسعة عشر؟ قال الرازي: إثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي حصول الارتياب بعد ذلك، فالمقصود من إعادة هذا الكلام هو أنه حصل لهم يقين جازم بحيث لا يحصل عقيبه البتة شك ولا ريب، وقد كان ﷺ يعلم من حال قريش أنه متى أخبرهم بهذا العدد العجيب فإنهم يستهزئون به ويضحكون منه، ولذلك بيَّن تعالى الغاية من ذكر هذا الخبر أوضح بيان[2] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي مثل ما أضلَّ الله أبا جهل وأصحابه، يضلُّ الله عن الهداية والإيمان من أراد إضلاله، ويهدي من أراد هدايته[3]، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي وما يعلم عدد الملائكة، وقوتهم وضخامة خلقهم، وكثرتهم إلا الله رب العالمين، وفي الآية ردٌّ على أبي جهل حين قال: أما لربِّ محمد أعوان إلاّ تسعة عشر؟ ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي وما هذه النار التي وصفها لكم الجبار، إلا موعظة وتذكرة للخلق ليخافوا ويطيعوا ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر ثم أقسم الله تعالى بالقمر على أن سقر حق[4]، ونشر ضياءه على الأرجاء

---

(١) نقل هذا القول صاحب التسهيل عن الزمخشري.

(٢) «التفسير الكبير» بشيء من التصرف ٣٠/ ٢٠٦.

(٣) قال علماء التوحيد: ليس معنى إضلال الله لفريق وهدايته لفريق أنه تعالى يجبر كلا منهما على الضلالة والهدى، ولا أنه تعالى يكرههم على سلوك سبيلي الخير والشر، كلا فإن هذا الإكراه مُنافٍ للعدل الإلهي بل مُنافٍ لحكمة التشريع السماوي، ولا يتفق مع نصوص الشريعة المتواترة القاطعة، الدالة على أن العبد له إرادة واختيار، هما مناط التكليف والمؤاخذة وكذلك فهم الصحابة والسلف الصالح سأل رجلٌ عليا رضي الله عنه فقال: أكان مسيرك إلى الشام - يعني لقتال أهلها- بقضاء الله وقدره؟! فقال له: ويحك، لعلك ظننت قضاء لازمًا، وقدرًا حاتمًا، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد إن الله سبحانه أمر عباده تخييرًا، ونهاهم تحذيرًا وكلف يسيرًا ولم يكلف عسيرًا، ولم ينزل الكتب للعباد عبثًا، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ اهـ، وعلى ضوء هذا يفهم معنى الهداية والإضلال.

(٤) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ =

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ أي إِن جهنم لإِحدى الدواهي الكبيرة، والبلايا الخطيرة، فكيف يستهزئون بها ويكذبون؟ قال أبو حيان: أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفًا لها، وتنبيهًا على ما يظهر فيها من عجائب الله وقدرته، وقوام الوجود بإِيجادها، أقسم على أن جهنم إِحدى الدواهي العظيمة الي تلا نظضير لها[١] وفي الآية إِيماء إلى أن الشمس والقمر مخلوقان لله، وأنهما في حركاتهما وإِدبارهما وإِسفارهما، ونشوء الليل والنهار عنهما، مسخران لأمره تعالى، ساجدان بين يدي قدرته وقهره، فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوهما ويكفروا بالإِله الذي خلقهما؟ ثم قال تعالى عن جهنم ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ أي هي إِنذار للخلق ليتقوا ربهم ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي لمن أراد من العباد أن يتقرب الى ربه بفِعْل الخيرات أو يتأخر بفعل الموبقات قال في البحر: والمراد بالتقدم والتأخر: السبق الى الخير والتخلف عنه كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٢] [الكهف: ٢٩] قال ابن عباس: من شاء اتبع طاعة الله، ومن شاء تأخر عنها بمعصيته[٣] ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي كل نفس محبوسة بعملها، مرهونةٌ عند الله بكَسْبها، ولا تُفَكّ حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي إِلا فريق السعداء المؤمنين، فإِنهم فكوا رقابهم وخلَّصوها من السجن والعذاب، بالإِيمان وطاعة الرحمن ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي هم في جناتٍ وبساتين لا يُدرَك وصفُها، يسأل بعضهم بعضًا عن حال المجرمين الذين في النار، والسؤال لزيادة تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم، وإِدخال الألم والحسرة على نفوسهم، يقولون لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟ ما الذي أدخلكم جهنم، وجعلكم تذوقون سعيرها؟ قال في البحر: وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير، وإِلاّ فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار[٤] ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي قال المجرمون مجيبين للسائلين: لم نكن من المصلين في الدنيا لرب العالمين ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي ولم نكن نتصدق ونحسن إِلى الفقراء والمساكين قال ابن كثير: مرادهم في الآيتين: ما عبدنا ربنا، ولا أحسنا إِلى خلقه من جنسنا[٥] ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلالة، ونقع معهم فيما لا ينبغي من الأباطيل قال في التسهيل: والخوض هو كثرة الكلام

= تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم). والمعنى لِيرتدعْ أولئك المستهزئون بالوحي والقرآن عن فعلهم وسوء صنيعهم، وأُقسم بالقمر ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي وأُقسم بالليل حين ولَّى بظلمته ذاهبًا ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي وبالصبح إِذا تبلَّج وأضاء. (ش): تبلَّج الصُّبحُ: أشرق وأضاء.

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٧٨.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٧٩.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٠٣.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٠.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٧٣.

بما لا ينبغي من الباطل وشبهه[(١)] ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي نكذب بيوم القيامة، وبالجزاء والمعاد، وإِنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيمًا له، لأنه أعظم جرائمهم وأفحشها ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي حتى جاءنا الموت ونحن في تلك المنكرات والضلالات، قال تعالى معقبًا على اعترافهم بتلك الجرائم ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي ليس لهم شافع ينقذهم من عذاب الله، ولو شفع لهم أهل الأرض ما قُبِلَتْ شفاعتهم فيهم قال ابن كثير: من كان متصفًا بمثل هذه الصفات، فإِنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، لأن الشفاعة إنما تنجع إِذا كان المحل قابلًا، فأما من وافى الله كافرًا فإِنه مخلد في النار أبدًا[(٢)] ولما ذكر تعالى قبائحهم وشنائعهم عاد بالتوبيخ والتقريع عليهم فقال ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟ فما لهؤلاء المشركين معرضين عن القرآن وآياته، وما فيه من المواعظ البليغة والنصائح والإِرشادات؟ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع قال في البحر: شبههم تعالى بالحُمُر النافرة مذمَّةً لهم وتهجينًا[(٣)] وقال ابن عباس: الحمر الوحشية إِذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إِذا رأوا محمدًا ﷺ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد ثم قال: والقسورة: الأسد[(٤)] ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أي بل يطمع كل واحد من هؤلاء المجرمين أن ينزل عليه كتاب من الله كما أُنزل على محمد ﷺ، ويريد أن يتنزَّل عليه الوحي كما تنزَّل على الرسل والأنبياء، والغرض من الآية بيان إمعانهم في الضلالة وكأنه يقول: دع عنك ذكر إِعراضهم وغباوتهم ونفارهم نفار العجماوات مما فيه خيرهم وسعادتهم، واستمع لما هو أعجب وأغرب، وذلك طمع كل فردٍ منهم أن يكون رسولًا يوحى إِليه، وهيهات أن يصل الأشقياء إِلى مراتب الأنبياء، ثم قال تعالى ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي ليرتدعوا وينزجروا عن مثل ذلك الطمع، بل الحقيقة أنهم قوم لا يصدقون بالبعث والحساب، ولا يؤمنون بالنعيم والعذاب، وهذا هو الذي أفسدهم وجعلهم يعرضون عن مواعظ القرآن ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ كرَّر الردع والزجر لهم بقوله ﴿كَلَّآ﴾ ثم قال ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إِنَّ هذا القرآن موعِظةٌ بليغةٌ، كافية لاتِّعاظهم لو أرادوا لأنفسهم السعادة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء اتعظ بما فيه، وانتفع بهداه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي وما يتعظون به إِلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكروا ويتعظوا، وفيه تسلية للنبي ﷺ وترويح عن قلبه الشريف، مما كان يخامره من إِعراضهم وتكذيبهم له ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو جل وعلا أهلٌ لِأن يُتَّقَى لشدة عقابه، وأهل لأن يَغفِر الذنوب لكرمه

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٦٢.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٧٣.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٠. (ش): هجَّن الأمرَ، تهجينًا: قبَّحه وعابَه.
(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢١٢.

وسعة رحمته، قال الألوسي: حقيق بأن يُتَّقى عذابُه ويؤمَن به ويُطاع وحقيقٌ بأن يَغفِر لمن آمن بـه وأطاعـه»[(١)]. وفي الحديث عن أنس «أن رسـول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ ثـم قـالَ: «قَالَ رَبُّكُمْ: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَلَا يُجْعَلْ مَعِـي إِلَهٌ، فَمَن اتَّقى أَنْ يَجْعَلَ مَعِي إِلَهًا، كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ »[(٢)].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿عَسِيرٌ.. يَسِيرٍ﴾ كما أن بين اللفظتين جناس الاشتقاق.

٢ - المقابلة بين ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وبين ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾.

٣ - الإطناب بتكرار الجملة ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ زيادة في التوبيخ والتشنيع.

٤ - جناس الاشتقاق ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾.

٥ - تقديم المفعول لإفادة الاختصاص ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.

٦ - الطباق بين ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ وبين ﴿يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

٧ - أسلوب التقريع والتوبيخ بطريق الاستفهام ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟

٨ - التشبيه التمثيلي ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ لأن وجه الشـبه منتزع من متعدد.

٩ - الإيجـاز بحذف بعـض الجمـل ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ أي قائلين لهم: ما سلككم في سقر، فحذف اعتمادًا على فهم المخاطبين.

١٠ - الاستفهام للتهويل والتفخيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؟

١١ - ذكـر الخاص بعد العام ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ خصَّه بالذكر مع أنه داخل في الخوض بالباطل مع الخائضين لبيان تعظيم هذا الذنب[(٣)].

١٢ - السجع المرصَّع مثل ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ ومثل ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المدثر»



(١) ٢٩/ ١٣٥.

(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه. (ش): ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وأشار الحافظ ابن كثير إلى ضعفه، وضعفه الألباني والأرنؤوط.

(٣) (ش): قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٥، ٤٦].

سُورَةُ القِيَامَةِ ٧٥ ٤٠

مكية وآياتها أربعون

بين يدي السورة

* سورة القيامة مكية، وهي تعالج موضوع «البعث والجزاء» الذي هو أحد أركان الإيمان، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، وعن حالة الإنسان عند الاحتضار، وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب، ولذلك سميت سورة القيامة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، على أن البعث حق لا ريب فيه ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

* ثم ذكرت طرفًا من علامات ذلك اليوم المهول، الذي يخسف فيه القمر، ويتحير البصر، ويجمع فيه الخلائق والبشر للحساب والجزاء ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾.

* وتحدثت السورة عن اهتمام الرسول بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه، فقد كان عليه السلام يجهد نفسه في متابعة جبريل، ويحرك لسانه معه ليسرع في حفظ ما يتلوه، فأمره تعالى أن يستمع للتلاوة ولا يحرك لسانه به ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾.

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فالسعداء وجوههم مضيئة تتلألأ بالأنوار، ينظرون إلى الرب جل وعلا، والأشقياء وجوههم مظلمة قاتمة يعلوها الذل والقترة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾.

* ثم تحدثت السورة عن حال المرء وقت الاحتضار، حيث تكون الأهوال والشدائد، ويلقى الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية ﴿أَيَحۡسَبُ

ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ
(٣٩) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾؟.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن
نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ
ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ
وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ (١٤) وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيۡنَا
جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ (١٩) كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ (٢١)
وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ (٢٣) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ (٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ
مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ (٣٥) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى
(٣٦) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ
عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ (٤٠)

اللغَة: ﴿بَنَانَهُۥ﴾ البَنان: أطراف الأصابع أو الأصابع نفسها جمع بنانة قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ ... عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ [(١)]

﴿بَرِقَ﴾ فزِع وبُهِت وتَحيَّر، وأصله النظر إلى البرق فيدهش البصر قال ذو الرمة:

وَلَوْ أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ تَعَرَّضَتْ ... لِعَيْنَيْهِ مَيٌّ سَافِرًا كَادَ يَبْرُقُ [(٢)]

﴿وَزَرَ﴾ ملجأ وحصن يتلجىء إليه ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حَسَنةٌ مُشرِقة متهلّلة، والنُضرة: النعمة وجمال البشرة والإشراقة الجميلة ﴿بَاسِرَةٞ﴾ شديدة الكلوحة والعبوس يقال: بَسرَ وجهه إذا اشتد في عبوسه وكلاحته[(٣)] ﴿فَاقِرَةٞ﴾ الفاقرة: الداهية والأمر العظيم يقال: فَقَرته المصيبة، أي: كسرت

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٩٢. (ش): النابغة الذبياني شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. سَقَطَ النصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتناوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنا بِالْيَدِ بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَطافَةِ يُعْقَدُ النصيف: الخمار: ما تغطي به المرأة رأسها ووجهها وعنقها وجيبها. وَاتَّقَتْنا بِاليَدِ: احترست بيدها. أي إنها عندما سقط خمارها عن وجهها، التقطَتْه بيدها، وغطَّت وجهها بيدها الأخرى. بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ: رَخْص: رطِب. يقصد يدها الليِّنة الملساء المخضَّبة، أي التي تغير لونُها بالحِنّاء. كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكادُ مِنَ اللَطافَةِ يُعقَدِ: شبَّه أصابع يدها بشجر لين الأغصان. وفي البيت إقواء: وهو اختلاف حركة الرَوِيّ (الحَرْفُ الذي تُبنَى عليه القصيدة). فحركة الرويّ في البيت الأول الكسرة (بِالْيَدِ). وفي البيت الثاني تغيرت حركة الرَوِيّ من الكسرة إلى الضمة (يُعقَدُ).

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٢. (ش): سَافِرًا: بارزة الوجه قد ألقت عنها نقابها. يَبْرُقُ: يبقى مفتوح العين كالمتحير.

(٣) (ش): كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

فَقَار ظهره[١] ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر في مشيته اختيالاً وكِبْرًا.

التفسِـير: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي أقسم بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي وأقسم بالنفس المؤمنة التقية، التي تلوم صاحبها على ترْك الطاعات، وفعل الموبقات قال المفسرون: ﴿لَآ﴾ لتأكيد القسم، وقد اشتهر في كلام العرب زيادة ﴿لَآ﴾ قبل القسم لتأكيد الكلام، كأنه من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى قسم، وجوابُ القسم محذوف تقديره «لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ» دل عليه قوله ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟[٢].. أقسم تعالى بيوم القيامة لِعِظَمِه وهوْله، وأقسم بالنفس التي تلوم صاحبها على التقصير في جنب الله، وتستغفر وتنيب مع طاعتها وإحسانها قال الحسن البصري: هي نفس المؤمن، إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه: ماذا أردتُ بكلامي؟ وماذا أردتُ بعملي؟ وإن الكافر يمضي ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها[٣] ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي أيظن هذا الإنسان الكافر، المكَذِّب للبعث والنشور، أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها؟ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في «عدي بن ربيعة» جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، حدثني عن يوم القيامة، متى يكون؟ وكيف أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال: لو عايَنْتُ ذلك اليوم لم أصدِّقْك يا محمد ولم أومن بك، كيف يجمع الله العظام؟ فنزلت هذه الآية[٤]، قال تعالى ردًّا عليه[٥] ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نعيد أطراف أصابعه، التي هي أصغر أعضائه، وأدقها أجزاءً وألطفها التئامًا، فكيف بكبار العظام؟ وإنما ذكر تعالى البنان، وهي رءوس الأصابع لما فيها من غرابة الوضع، ودقة الصنع، لأن الخطوط والتجاويف الدقيقة التي في أطراف أصابع إنسان، لا تماثلها خطوطٌ أُخرى في أصابع شخص آخر على وجه الأرض، ولذلك يعتمدون على بصمات الأصابع في تحقيق شخصية الإنسان في هذا العصر ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي بل يريد الإنسان بهذا الإنكار أن يستمر على الفجور، ويقدم على الشهوات والآثام، دون وازع من خُلُق أو دين، وينطلق كالحيوان ليس له هَمٌّ إلا نَيْل شهواته البهيمية، ولذلك ينكر القيامة ويكذب بها ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي

(١) (ش): فَقارة: واحدة من عظام السِّلسلة العظميَّة الظهريّة الممتدّة من الرأس إلى العُصْعُص، وهي خرزات منضَّدَة بعضها فوق بعض وفيها النّخاع الشَّوكي وتتفرَّع خلالها الأعصاب الشَّوكيَّة. والجمع فَقَار.

(٢) انظر التسهيل ٤/ ١٦٣، والألوسي ٢٩/ ١٣٥، وحاشية الصاوي ٤/ ٢٧٠.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨٢.

(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٧١. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٥) ثبت علميًا أن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة متناهية في الدقة، منها ما هو على كل بشكل «أقواس، أو عراوٍ، أو دوَّامات» وهذه الخطوط لا يمكن أن يشابه إنسان فيها آخر، ولهذا اعتمدَتْها الدول رسميًا وأصبحت تميز الإنسان ببصمة الإبهام، فتبارك الله أحسن الخالقين. انظر ما كتبناه في كتابنا «التبيان في علوم القرآن» حول هذه المعجزة العلمية ص ١٣٦.

يسأل هذا الكافر الفاجر على سبيل الاستهزاء والتكذيب متى يكون هذا اليوم يوم القيامة؟[١] قال الرازي: والسؤال هنا سؤال مُتعنِّتٍ ومُستبعِدٍ لقيام الساعة، ونظيره ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس: ٤٨]؟ ولذلك ينكر المعاد ويكذب بالبعث والنشور، والغرض من الآية ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات، والاستكثار من اللذات، لا يكاد يُقر بالحشر والنشر، وبعث الأموات، لئلا تتنغص عليه اللذات الجسمانية، فيكون أبدًا منكرًا لذلك، قائلًا على سبيل الهزء والسخرية: أيّان يومُ القيامة، قال تعالى ردًا على هؤلاء المنكرين: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي فإذا زاغ البصر وتحيَّر، وانبهر من شدة الأهوال والمخاطر ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوءه وأظلم ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي جمع بينهما يوم القيامة، وأُلْقِيَا في النار ليكونا عذابًا على الكفار قال عطاء: يُجمَعان يوم القيامة ثم يُقذَفان في البحر، فيكون نار الله الكبرى[٢] ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي يقول الفاجر الكافر في ذلك اليوم: أين المهرب؟ وأين الفرار والمنجى من هذه الكارثة الداهية؟ يقول قول الآيس، لعلْمه بأنه لا فرار حينئذٍ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ردعٌ له عن طلب الفرار، أي ليرْتَدِع وينزَجِر عن ذلك القول، فلا ملجأ له، ولا مُغِيث من عذاب الله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي إلى الله وحده مصير ومرجع الخلائق قال الألوسي: إليه جل وعلا وحده استقرار العباد، لا ملجأ ولا منجى لهم غيره[٣]... والمقصود من الآيات بيان أهوال الآخرة، فالأبصار تنبهر يوم القيامة، وتخشع وتحَارُ من شدة الأهوال[٤]؛ ومن عِظَم ما تشاهده من الأمور العظيمة، والإنسان يطيش عقله، ويذهب رشده، ويبحث عن النجاة والمخلص، ولكن هيهات فقد جاءت القيامة وانتهت الحياة ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي يُخبر الإنسان في ذلك اليوم بجميع أعماله، صغيرها وكبيرها، عظيمها وحقيرها، ما قدَّمه منها في حياته، ما أخره بعد مماته، من سنةٍ حسنة أو سيئة، ومن سمعة طيبةٍ أو قبيحة[٥] وفي الحديث «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[٦] ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ أي بل هو شاهد على نفسه،

---

(١) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢١٨.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١١٣، وروى عن مجاهد أن المراد كُوِّرَا كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وقيل: المراد جُمِعا فطلعَا من المغرب، ولا يناسبه لأن الكلام عن القيامة.

(٣) «روح المعاني» ٢٩/ ١٤٠.

(٤) (ش): حار بصرُه: ارتدَّ بعد أن عجز عن مواصلة النَّظر إلى الشَّيء.

(٥) هذا معنى ما روى عن ابن عباس وابن مسعود وهو الأرجح. وقيل: بما قدم في أول عمره وما أخر في آخره.

(٦) الحديث في الصحاح. (ش): عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ =

وسوء عمله، وقُبْح صَنيعه، لا يحتاج إلى شاهد آخر كقوله ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] والهاءُ في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ للمبالغة كراوِيَة وعلاَّمَة قال ابن عباس: الإنسان شاهد على نفسه وحده، يشهد عليه سمعُه، وبصرُه، ورجْلاه، وجوارحُه[١] ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي ولو جاء بكل معذرة ليبرِّر إجرامه وفجوره، فإنه لا ينفعه ذلك، لأنه شاهدٌ على نفسه، وحُجةٌ بَيِّنَةٌ عليها قال الفخر: المعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه، وجادل عنها، وأتى بكل عذر وحجة، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه بما جَنَت واقترفَتْ من الموبقات[٢]. وبعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل فقال تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي عليك بواسطة جبريل، لأجل أن تتعجل بحفظه مخافة أن يتفلَّت منك ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي إن علينا أن نجمعه في صدرك يا محمد وأن تحفظه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي فإذا قرأه عليك جبريل، فأنصِتْ

= «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ وَالآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ - ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). المجتاب: اللابس. المذهبة: الشيء المموه بالذهب. النمار: جمع نمرة وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب قال الإمام الشاطبي ﵀: «لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ الِاسْتِنَانَ بِمَعْنَى الِاخْتِرَاعِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَذَلِكَ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي جَاءَ لِأَجْلِهِ الْحَدِيثُ هُوَ الصَّدَقَةُ الْمَشْرُوعَةُ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ هَاهُنَا مِثْلُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ الصَّحَابِيُّ، وَهُوَ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ كَوْنُهُ سُنَّةً، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ سُنَّةً أَيْقَظَهَا رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِفِعْلِهِ، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ: مَنِ اخْتَرَعَ سُنَّةً وَابْتَدَعَهَا وَلَمْ تَكُنْ ثَابِتَةً. فَإِذًا؛ قَوْلُهُ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً»، مَعْنَاهُ: مَنْ عَمِلَ بِسُنَّةٍ، لَا مَنِ اخْتَرَعَ سُنَّةً. وَالْوَجْهُ الثَّانِي مِنْ وَجْهَيِ الْجَوَابِ: أَنَّ قَوْلَهُ: مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً؛ لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ مِنْ أَصْلٍ، لِأَنَّ كَوْنَهَا حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً لَا يُعْرَفُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، فَلَزِمَ أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ فِي الْحَدِيثِ إِمَّا حَسَنَةً فِي الشَّرْعِ وَإِمَّا قَبِيحَةً بِالشَّرْعِ، فَلَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى مِثْلِ الصَّدَقَةِ الْمَذْكُورَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ السُّنَنِ الْمَشْرُوعَةِ، وَتَبْقَى السُّنَّةُ السَّيِّئَةُ مُنَزَّلَةً عَلَى الْمَعَاصِي الَّتِي ثَبَتَ بِالشَّرْعِ كَوْنُهَا مَعَاصِيَ، كَالْقَتْلِ الْمُنَبَّهِ عَلَيْهِ فِي حَدِيثِ ابْنِ آدَمَ، حَيْثُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، (رواه البخاري). وَعَلَى الْبِدَعِ، لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ ذَمُّهَا وَالنَّهْيُ عَنْهَا بِالشَّرْعِ، (انظر: الاعتصام (١/ ١٧٩ - ١٨١). فالحديث لا يُثبت الابتداع الحسن في الإسلام، فقد قال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً»، ولم يقل: «من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة». وقد ردّ النبي ﷺ قول الثلاثة الذين قال أحدهم: «أما أنا فأنا أصلي الليل أبدًا»، وقال آخر: «أنا أصوم الدهر ولا أفطر» وقال آخر: «أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا»، وقال لهم: «من رغب عن سنتي فليس مني» (رواه البخاري). مع أن لفعلهم هذا أصلًا في الشرع من الصلاة والصيام؟

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١١٥.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٢٢.

لاستماعه حتى يفرغ، ولا تحرِّك شفتَيْك أثناء قراءته ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي ثم إن علينا بيان ما أشكل عليك فهمه يا محمد من معانيه وأحكامه، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعالِج من التنزيل شدةً، فكان يحرك به لسانه وشفتيه، مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ..﴾ الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق[1] واستمع، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عَزَّ وَجَلَّ[2] قال ابن عباس ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: فاستمعْ وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ قال: أن نبينه بلسانك[3] وقال ابن كثير: كان ﷺ يبادِر إلى أخْذ القرآن، ويُسابِق الملك في قراءته، فأمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن يبينه له ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوتُه، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه[4] ثم عاد الحديث عن المكذبين بيوم الدين فقال تعالى مخاطبًا كفار مكة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي ارتَدِعوا يا معشر المشركين، فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم قومٌ تحبون الدنيا الفانية، وتَتْركون الآخرة الباقية، ولذلك لا تفكرون في العمل للآخرة مع أنها خيرٌ وأبقى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ لما ذكر تعالى أن الناس يُؤْثِرون الدنيا ولذائذها الفانية على الآخرة ومسَرَّاتها الباقية، وَصَف ما يكون يوم القيامة من انقسام الخلق إلى فريقين: أبرار، وفُجَّار، والمعنى وجوه أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة مضيئة، من أثر النعيم، وبشاشة السرور عليها، كقوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنظر إلى جلال ربها، وتهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى جلَّ وعلا والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب. قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحُقَّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق[5]، وبذلك وردت النصوص الصحيحة[6] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ أي ووجوهٌ يوم القيامة عابسة كالحة، شديدة العبوس والكلوح، وهي وجوه الأشقياء أهل الجحيم ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي تتوقع أن

---

(١) (ش): (أَطْرَقَ): سكت وأرخى عينيه ينظر إلى الأرض منصِتا متفهِّمًا.

(٢) أخرجه الشيخان وأحمد.

(٣) هذه الرواية عن ابن عباس ثابتة في الصحيحين.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٧٦.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٠.

(٦) هذا هو مذهب أهل السنة، ويؤيده ما ورد في الصحيحين: « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ » الحديث وفي صحيح مسلم: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ » وأنكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة وأوَّلوا الآية: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة تنتظر ثواب ربها، وهذا باطل لأن «نظر» بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف الجر، وانظر الأدلة وافية في «تفسير الخازن» ٤/ ١٨٦.

(ش): المعنى أن «نظر» بمعنى «انتظر» يتعدى بغير حرف الجر، فلا يقال: نظر إلى الثواب، بمعنى انتظر الثواب.بل يقال: نظر الثواب – بدون حرف الجر «إلى».

تنـزل بهـا داهية عظمى، تقصِم فَقَار الظهر، قال ابن كثير: هـذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة كالحة عابسـة، تسـتيقن أنها هالكة(١)، وتتوقع أن تَحِلَّ بها داهيةٌ تكسـر فَقَار الظهر ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزَجْـر عـن إيثـار العاجلـة، أي: ارتدعوا يا معشـر المشـركين عن ذلك، وتنبهوا لما بين أيديكم من الأهوال والمخاطر، فإن الدنيا دار الفناء، ولا بد أن تتجرعوا كأس المَنِيَّة(٢)، وإذا بلغت الروح ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أعالي الصدر(٣)، وشارف الإنسان على الموت ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ أي وقـال أهلـه وأقربـاؤه: من يَرقِيه ويشـفِيه ممَّا هو فيـه؟ قال في البحـر: ذكَّرهم تعالى بصعوبـة الموت، وهـو أول مراحل الآخرة، حين تبلغ الروح التراقي وهي عظام أعلى الصدر فقال أهله: من يرقي ويَطُبُّ ويشـفي هذا المريض؟(٤) ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ أي وأيْقَن المحتضِر أنه سـيفارق الدنيـا والأهل والمـال، لمعاينته ملائكـة المـوت ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي والتفَّت إحدى ساقي المحتضر على الأخرى، من شدة كرب الموت وسكراته قال الحسن: هما ساقاه إذا التفَّتـا في الكفـن(٥)، وروي عـن ابن عباس أن المراد اجتمعت عليه شـدة مفارقة الدنيا، مع شـدة كرب الآخرة، كما يقال: شـمَّرت الحرب عن ساق، اسـتعارةً لشدتها(٦) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ أي إلـى الله جل وعلا مسـاق العباد، يجتمـع عنده الأبرار والفجار، ثم يُسَـاقُون إلى الجنـة أو النار قـال الخازن: أي مرجع العباد إلى الله تعالى، يُسَـاقُون إليه يـوم القيامة ليفصل بينهـم ثـم أخبر تعالى عـن حال الجاحـد المكـذب فقـال ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾(٧) أي لم يصدق بالقـرآن، ولـم يصلِّ للرحمن قال أبو حيـان: والجمهور على أنها نزلت في «أبي جهل» وكادت أن تصرح به في قوله ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ فإنها كانت مشـيته ومشـية قومه بني مخزوم، وكان يكثر منها(٨) ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي ولكـن كذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي ذهب يتبختر في مشـيته، وذلـك عبارة عن التكبر والخيـلاء ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ أي ويلٌ لك يا أيها الشقي ثم ويلٌ لك قال المفسرون: هذه العبارة في لغة العرب ذهبت مذهب المثل في التخويف والتحذيـر والتهديـد وأصلها أنها أفْعَلُ تفضيل من وَلِيَه الشـيء إذا قاربه ودنـا منه، أي: ولِيَك الشـر وأوشـك أن يصيبك، فاحذر وانتبه لأمركذ... روي أن النبي ﷺ أخذ بيد أبي جهل ثم

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٧٨.

(٢) (ش): المَنِيَّة: الموت.

(٣) قال الفخر الرازي: واعلم أنه يكنى ببلوغ النفس التراقي عن القرب من الموت، ومنه قول ابن الصِّمَّةِ:

وَرُبَّ عَـظِـيـمَـةٍ دَافَـعْـتُ عَـنْـهَـا ... وَقَـدْ بَـلَـغَـتْ نُـفُـوسُـهُـمُ الـتَّـرَاقِـي.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٣. (ش): يَطُبُّ: يداوي ويعالج.

(٥) انظر البحر المخيط ٨/ ٣٩٠.

(٦) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨٧.

(٧) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٩.

(٨) البحر المخيط ٨/ ٣٩١. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف جدًا.

قال له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ فقال أبو جهل: أتتوعدني يا محمد وتهددني؟ والله لا تستطيع أنتَ وربُك أن تفعلا بي شيئًا، والله إني لأعزُّ أهل الوادي، ثم لم يلبث أن قُتل ببدر شر قتلة[1] ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ كرره مبالغة في التهديد والوعيد، كأنه يقول: إني أكرر عليك التحذير والتخويف، فاحذر وانتبه لنفسك، قبل نزول العقوبة بك. . ولما ذكر في أول السورة إمكان البعث، ذكر في آخر السورة الأدلة على البعث والنشور فقال ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ أي أفيظن الإنسان أن يُترك هملًا، من غير بعثٍ ولا حساب ولا جزاءٍ؟ وبدون تكليف بحيث يبقى كالبهائم المرسلة؟ لا ينبغي له ولا يليق به هذا الحسبان ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ الاستفهام للتقرير أي أمَا كان هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يُراقُ ويُصَبُّ في الأرحام؟ والغرض بيان حقارة حاله كأنه يقول: إنه مخلوق من المني الذي يجري مجرى البول ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي ثم أصبح بعد ذلك قطعة من دم غليظ متجمد يشبه العلقة، فخلقه الله بقدرته في أجمل صورة، وسَوَّى صُورتَه وأتقنها في أحسن تقويم ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي فجعل من هذا الإنسان صنفين، ذكرًا وأنثى بقدرته تعالى، هذا هو أصل الإنسان وتركيبه، فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله؟ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أليس ذلك الإله الخالق الحكيم، الذي أنشأ هذه الأشياء العجيبة، وأوجد الإنسان من ماءٍ مهين، بقادرٍ على إعادة الخلق بعد فنائهم؟ بلى إنه على كل شيء قدير. روي أن النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم بلى»[2].

---

(١) (ش): عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] إلى قوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، فلما سمع أبو جهل بذلك؛ قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسْمَعُ ابن أبي كبشة يخبركم: أن خزَنة النار تسعة عشر وأنتم الدُّهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحي إلى رسول الله ﷺ أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة، فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾، فلما فعل ذلك به رسول الله ﷺ؛ قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئًا، فأخزاه الله يوم بدر» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف جدًا). وعن قتادة؛ قال: في قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ وعيد على وعيد كما تسمعون، زعم أن هذا أنزل في عدو الله أبي جهل، ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ بمجامع ثيابه، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾، فقال عدو الله أبو جهل: أيوعدني محمد؟! والله ما تستطيع لي أنت ولا ربك شيئًا؛ والله لأنا أعزُّ مَن مشى بين جبليها» (رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيرَيهما» بإسناد ضعيف).

(٢) (ش): عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ وَكَانَ إِذَا قَرَأَ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قَالَ: «سُبْحَانَكَ فَبَلَى»، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ -ﷺ.(رواه أبو داود، وصححه الألباني). ويُرْوَى عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَمَنْ قَرَأَ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فَلْيَقُلْ بَلَى وَمَنْ قَرَأَ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فَبَلَغَ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فَلْيَقُلْ آمَنَّا بِاللهِ». (رواه أبو داود والترمذي، وضعفه الألباني).

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:
١ - الطباق بين ﴿قَدَّمَ .. وَأَخَّرَ﴾ وكذلك بين ﴿صَدَّقَ .. وَكَذَّبَ﴾[1].
٢ - الاستفهام الإنكاري بغرض التوبيخ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟ ومثله ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ لأن الغاية التوبيخ والتقريع.
٣ - استبعاد تحقق الأمر ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فالغرض من الاستفهام الاستبعاد والإنكار.
٤ - الجناس غير التام بين ﴿بَنَانَهُۥ﴾ و ﴿بَيَانَهُۥ﴾ لاختلاف بعض الحروف.
٥ - المقابلة اللطيفة بين نضارة وجوه المؤمنين، وكلاحة وجوه المجرمين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وبين ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ..﴾ الخ.
٦ - الجناس الناقص بين لفظ ﴿ٱلسَّاقُ﴾ و ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾.
٧ - المجاز المرسل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ عبر بالوجه عن الجملة فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.
٨ - الالتفات ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى المخاطب تقبيحًا له وتشنيعًا.
٩ - توافق الفواصل ويسمى في علم البديع السجع المرصَّع مثل ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ وهذا من خصائص القرآن، معجزة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القيامة»



(١) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٣٣، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٣.

سُورَةُ الإِنسَانِ (٧٦) (٣١)

مدنية وآياتها إحدى وثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الدهر من السور المدنية، وهي تعالج أمورًا تتعلق بالآخرة، وبوجه خاص تتحدث عن نعيم المتقين الأبرار، في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم، ويكاد يكون جو السورة هو جو السور المكية لإيحاءاتها وأسلوبها ومواضيعها المتنوعة.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار، وتهيئته ليقوم بما كلف به من أنواع العبادة، حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

* ثم تحدثت عن النعيم الذي أعده الله في الآخرة لأهل الجنة ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

*ثم ذكرت أوصاف هؤلاء السعداء بشيء من الإسهاب، فوصفتهم بالوفاء بالنذر، وإطعام الفقراء الذي تكلح فيه الوجوه[1] ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ الآيات.

* وأشادت -بعد ذكر أوصافهم- بما لهم عند الله من الأجر والكرامة في دار الإقامة، وبما حباهم الله من الفضل والنعيم يوم الدين ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

* وتتابعت السورة في سرد أهل الجنة في مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي، أو فكر ثاقب يستضيء بنوره ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

---

(١) (ش): كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ
نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا
﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ
عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا
قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا
عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن
فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا
تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا
كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا
كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ
ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا
بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

اللغَة: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط جمع مَشْج ومَشِيج مثل شريف و أشراف، يقال للشيء إذا خُلط بغيره: مشيجٌ كخَلِيط لفظًا ومعنى ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشرًا غاية الانتشار يقال: استطار الشيء انتشر ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ القمطرير: الشديد العصيب الذي يطول بلاؤه قال الأخفش: القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء[1] ﴿وَدَانِيَةً﴾ قريبة ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ سُخِّرَت وقُرِّبَتْ ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ السلسبيل: الشراب اللذيذ الذي هو غاية في السلالة، والذي يسهل في الحلق لعذوبته وصفائه ﴿سُندُسٍ﴾ السندس: الرقيق من ثياب الحرير ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ ثياب الحرير الغليظة ويسمى الديباج ﴿أَسْرَهُمْ﴾ الأسر في الاصل: الشَّدّ والربْط، ثم أطلق على الخلق يقال: شدَّ أَسْره، أي: أحسنَ خلْقه وأحكم تكوينه، قال الأخطل:

مِنْ كُلِّ مُجْتَنِبٍ شَدِيدٍ أَسْرُهُ ... سَلِسِ الْقِيَادِ تَخَالُهُ مُخْتَالا[2]

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٣٣.

(٢) نفس المرجع السابق ١٩/ ١٤٩. (ش): مُجْتَنِب: على وزن مُفْتَعِل، من الجَنِيبَة: وهي الفرس تُقاد ولا تركب وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل. وكلُّ طائعٍ مُنْقادٍ جَنِيبٌ. =

التفسير: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أي كان من العدم، لم يكن له ذكر ولا وجود قال ابن كثير: يخبر تعالى عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئًا يُذْكَر لحقارته وضَعْفه[١] قال المفسرون: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ بمعنى قد أتى كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، وتقول: هل أكرمتك، هل وعظتك؟ ومقصودك أن تقرره بأنك قد أكرمته ووعظته، والمرادُ بالإنسان الجنس، وبالحين مدة لبثه في بطن أمه[٢]، والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان شيئًا مَنسِيًّا لا يُفْطَن له، وكان في العدم جرثومة في صلب أبيه، وماءً مهينًا لا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه، ومرَّ عليه حينٌ من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه، ثم خلقه الله، وأبدع تكوينه وإنشاءه، بعد أن كان مغمورًا ومنسيًّا لا يعلم به أحد.. وبعد أن قرر أن الإنسان مرَّ عليه وقت لم يكن موجودًا، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متَّعه بنعمة العقل والحواس فقال ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماءٍ مهين وهو المنيُّ الذي ينطف من صلب الرجل، ويختلط بماء المرأة «البويضة الأنثوية» فيتكون منهما هذا المخلوق العجيب قال ابن عباس: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ يعني أخلاط، وهو ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، ومن حال إلى حال[٣] ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي لنختبره بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلهية، لننظر أيَشْكُر أم يكفُر؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ؟ ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي فجعلناه من أجل ذلك عاقلًا مميزًا، ذا سمع وبصر، ليسمع الآيات التنزيلية، ويبصر الدلائل الكونية، على وجود الخالق الحكيم قال الإمام الفخر: أعطاه تعالى ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز، كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيم: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾[٤] [مريم: ٤٢]؟ وقد يراد بهما الحاستان المعروفتان، وخصَّهما بالذكر لأنهما أعظم الحواسِّ وأشرفها[٥] ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بيَّنَّا للإنسان

= سَلِسِ الْقِيَادِ: طيِّع: سهل الانقياد. تَخَالُهُ: تظُنُّه. اختالَ الشَّخصُ: تكبّر، تصرَّف بطريقة تدل على التَّباهي. اختال في مَشْيه: تبختر، تمايل كِبْرًا.

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٨٠.

(٢) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٣٥.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٨٠.

(٤) (ش): أنكر إبراهيم عليه السلام على أبيه عندما عبَد ما لا يبصر ولا يسمع، ﴿قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم:٤٢]. فدل هذا على أن الذي لا يسمع ولا يبصر لا يغني شيئًا، وأنه لا يستحق العبادة، والله عز وجل مستحقٌّ للعبادة، وهو الخالق سبحانه وتعالى، فلزم من ذلك: أنه سميع بصير.

(٥) «تفسير الفخر الرازي» ٣٠/ ٢٣٧.

وعرَّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، ببعثة الرسل، وإِنزال الكتب.. أخبر تعالى أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة، بيَّن له سبيل الهدى والضلال، ومنحه العقل وترك له حرية الاختيار، ثم هو بعد ذلك إما أن يشكر، أو يكفر، ولهذا قال بعده: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي إما أن يكون مؤمنًا شاكرًا لنعمة الله، فيسلك سبيل الخير والطاعة، وإِما أن يكون شقيًّا فاجرًا، فيكفر بنعمة الله ويسلك سبيل الشر والفجور قال المفسرون: المراد هديناه السبيل ليكون إمَّا شاكرًا وإِمّا كفورًا، فالله تعالى دلَّ الإِنسان على سبيل الشكر والكفر، وعلى الإِنسان أن يختار سلوك هذا أو ذاك، وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للإِنسان إِرادةً واختيارًا هما مناط التكليف، كقوله تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ [الإسراء: ١٨] إلى ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾[1] [الإسراء: ١٩]. وكقوله ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فلا إكراه لأحدٍ ولا إِجبار، وإِنما هو بمحض الإِرادة والاختيار[2].. ثم بعد هذا البيان الواضح، بيَّن ما أعدَّه للأبرار والفجار في دار القرار فقال ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أي هيأنا للكافرين المجرمين قيودًا تُشَدُّ بها أرجلهم، وأغلالًا تُغَلُّ بها أيدِيهم إلى أعناقهم، وسعيرًا، أي: نارًا موقَدَة مستَعِرة يُحرقون بها كقوله تعالى ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر] ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي الذين كانوا في الدنيا أبرارًا بطاعتهم الجبار، فإِنهم يشربون كأسًا من الخمر، ممزوجة بأنفس أنواع الطيب وهو الكافور، قال المفسرون: الكافور طيبٌ معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين، وهو من أنفس الطيب عند العرب، والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها في طيب رائحتها، وفوحان شذاها كالكافور[3]. قال ابن عباس: الكافور اسم عين ماءٍ في الجنة يقال له: عين الكافور تمتزج الكأس بماء هذه العين وتختم بالمسك فتكون ألذَّ شراب، ولهذا قال تعالى ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الكافور يتدفق من عينٍ جارية من عيون الجنة يشرب منها عباد الله الأبرار، وصفهم بالعبودية تكريمًا لهم وتشريفًا بإِضافتهم إِليه تعالى ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ والمراد بهم المؤمنون المتقون ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرو لها حيث شاءوا من الدور والقصور قال الصاوي: المراد أنها سهلة لا تمتنع عليهم، وَرَدَ أن الرجل منهم يمشي في بيوته، ويصعد إلى قصوره وبيده قضيب يشير به إلى الماء، فيجري معه حيثما دار في منازله،

---

(١) (ش): قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]

(٢) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٣٨.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٣. (ش): فاحَ الشيءُ، فَوْحًا وفَوَحانًا: انتشرت رائحته. الشَّذا: قوّة الرّائحة.

ويتبعه حيثما صعد إلى أعلَى قصوره[١] ولما ذكر ثواب الأبرار، بيَّن صفاتهم الجليلة التي استحقوا بها ذلك الأجر الجزيل فقال ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ أي يوفون بما قطعوه على أنفسهم مِن نَذْرٍ في طاعة الله[٢]، إذا نذروا طاعةً فعلوها قال الطبري: النذرُ كلُّ ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل، فإذا نذروا بَرُّوا بوفائهم لله بالنذور التي في طاعة الله، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة قال المفسرون: وهذا مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات، لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه، كان بما أوجبه الله عليه أوفى[٣] ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ أي ويخافون هول يوم عظيم كانت أهوالُه وشدائدُه - من تفطُّر السموات، وتناثُر الكواكب، وتَطايُر الجبال، وغير ذلك من الأهوال - ممتدةً منتشرةً فاشيةً، بالغةً أقصى حدود الشدة والفزع، قال قتادة: استطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى بلغ السموات السبع والأرض[٤] ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي ويطعمون الطعام مع شهوتهم له، وحاجتهم إليه ﴿مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ أي فقيرًا لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، ويتيمًا مات أبوه وهو صغير، فعدم الناصر والكفيل، وأسيرًا وهو من أُسر في الحرب من المشركين قال الحسن البصري: كان رسول الله ﷺ يُؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له: أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيُؤْثِره على نفسه[٥].. نبَّه تعالى إلى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام، في سدِّ جَوْعتهم وجَوْعة عيالهم، يطيبون نفسًا عنه للبؤساء، ويُؤْثِرونهم به على أنفسهم كقوله تعالى ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ [الحشر: ٩] ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ أي إنما نحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله وطلب ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ أي لا نبتغي من وراء هذا الإحسان مكافأةً، ولا نقصد الحمد والثناء منكم قال مجاهد: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به في قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب[٦] ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ أي إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يوم شديد، تعبس فيه الوجوه من فظاعة أمره، وشدة هوله، وهو يومٌ قمطرير أي شديد عصيب[٧] ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ أي حماهم الله ودفع عنهم شرَّ ذلك اليوم وشدته ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ أي وأعطاهم نضرةً في الوجه، وسرورًا في القلب، والتنكير في ﴿وَسُرُورٗا﴾ للتعظيم

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٢٧٤. (ش): روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» عن عبد الله بن شوذب (وهو من أتباع التابعين) أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾: « معهم قضبان الذهب يفجرون ما ينبع بقضبانهم، حيث مالوا مالت معهم ».

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٩.

(٣) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٤١.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٩.

(٥) «روح المعاني» ٢٩/ ١٥٥. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٢.

(٧) قال الطبري: ﴿قمطرير﴾ شديد يقال: يوم قمطرير أي شديد عصيب. اهـ. ٢٩/ ١٣١.

والتفخيم ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي وأثابهم بسبب صبرهم على مرارة الطاعة والإيثار بالمال، جنةً واسعة وألبسهم فيها الحرير كما قال تعالى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣].. وفي الآية إيجازٌ، آخِذٌ بأطراف الإعجاز، فقد أشار تعالى بقوله ﴿جَنَّةً﴾ إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار في دار الكرامة من أصناف الفواكه والثمار، والمطاعم والمشارب الهنية، فإن الجنة لا تسمَّى جنة إلا وفيها كل أسباب الراحة كما قال تعالى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وأشار بقوله ﴿وَحَرِيرًا﴾ إلى ما يتمتعون به من أنواع الزينة واللباس، التي من أنفسها وأغلاها عند العرب الحرير، فقد جمع لهم أنواع الطعام والشراب واللباس، وهو قُصارَى ما تتطلع له نفوس الناس.. ولما ذكر طعامهم ولباسهم وصف نعيمهم ومساكنهم فقال ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي مضطجعين في الجنة على الأسِرَّة المُزَيَّنة بفاخر الثياب والسُّتور قال المفسرون: الأرائك جمع أريكة وهي السرير ترخى عليه الحجلة -والحجلة هي ما يُسدَل على السرير من فاخر الثياب والستور- وإنما خصَّهم بهذه الحالة لأنها أتَمّ حالات المتنَعِّم ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي لا يجدون فيها حرًا ولا بردًا، لأن هواءها معتدل فلا حرَّ ولا قرَّ[1]، وإنما هي نسمات تهبُّ من العرش تُحْيي الأنفاس ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ أي ظلال الأشجار في الجنة قريبةٌ من الأبرار ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي أُدْنِيَت ثمارُها منهم، وسَهل عليهم تناولُها قال ابن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تدلَّت إليه حتى يتناول منها ما يريد[2].. ولما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم، وصف بعد ذلك شرابهم فقال ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي يدور عليهم الخدم بالأواني الفضية فيها الطعام والشراب على عادة أهل الترف والنعيم في الدنيا فيتناول كل واحدٍ منهم حاجته، وهذه الأواني هي الصّحاف بعضها من فضة وبعضها من ذهب كما قال تعالى ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١] قال الرازي: ولا منافاة بين الآيتين، فتارةً يسقون بهذا، وتارة بذاك[3] ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ أي وأكواب وهي كالأقداح رقيقة شفافة كالزجاج في صفائه قال في البحر: ومعنى ﴿كَانَتْ﴾ أن الله تعالى أوجدها بقدرته، فيكون تفخيمًا لتلك الخلقة العجيبة الشأن، الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها، وشفيف القوارير وصفائها[4] ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ أي هي جامعة بين صفاء الزجاج، وحسن الفضة قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء يعني أن ما في الجنة أسمى وأشرف وأعلى ولو أخذت فضةً من فضة الدنيا، فضربتها حتى جعلتها مثل

(١) (ش): القَرُّ: البرد.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٣٧.
(٣) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٤٩.
(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٩٧.

جناح الذباب، لم يُرَ الماء من ورائها، ولكنَّ قوارير الجنة ببياض الفضة، مع صفاء القوارير[١] ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدَّرها السُّقاة على مقدار حاجتهم، لا تزيد ولا تنقص، وذلك ألذُّ وأشهى قال ابن عباس: أتوابها على قدر الحاجة لا يفضلون شيئًا، ولا يشتهون بعدها شيئًا[٢] ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي يسقى هؤلاء الأبرار في الجنة كأسًا من الخمر ممزوجةً بالزنجبيل، والعرب تستلذ من الشراب ما مزج بالزنجبيل لطيب رائحته قال القرطبي: فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة الطيب[٣] قال قتادة: الزنجبيل اسمٌ لِعَيْنٍ في الجنة يشرب منها المقربون صِرْفًا، وتُمزَج لسائر أهل الجنة[٤] ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي يشربون من عين في الجنة تسمى السلسبيل، لسهولة مساغها وانحدارها في الحلق قال المفسرون: السلسبيل: الماء العذب، السهل الجريان في الحلق لعذوبته وصفائه، وإنما وصف بأنه سلسبيل، لأن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل، ولكن ليس فيه لذعته، فيشعر الشاربون بطعمه، لكنهم لا يشعرون بحَرَافَته[٥]، فيبقى الشراب سلسبيلاً، سهل المَسَاغ في الحلق ثم وصف بعد ذلك خدم أهل الجنة فقال ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي ويدور على هؤلاء الأبرار، غلمانٌ يُنشِئُهم الله تعالى لخدمة المؤمنين ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء قال القرطبي: أي باقون على ما هم عليه من الشباب، والنضارة، والغضاضة، والحسن، لا يهرمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مَرِّ الأزمنة[٦] ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي إذا نظرتهم منتشرين في الجنة لخدمة أهلها، خلتهم لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوهم، كأنهم اللؤلؤ المنثور قال الرازي: هذا من التشبيه العجيب، لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقًا يكون أحسن في المنظر، لوقوع شعاع بعضه على بعض فيكون أرْوَع وأبْدَع[٧]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي وإذا رأيت هناك ما في الجنة من مظاهر الأنس والسرور، رأيت نعيمًا لا يكاد يُوصَف، وملكًا واسعًا عظيمًا لا غاية له، كما في الحديث القدسي «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْن رَأَتْ، وَلاَ أُذُن سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر»[٨] قال ابن كثير: وثبت في الصحيح أن «أقل أهل الجنة منزلةً من له قَدْر الدنيا وعشرة أمثالها»[٩] فإذا كان هذا عطاءه تعالى لأدنى

---

(١) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٥٩.
(٢) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٦٠.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٤٠.
(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٣٩٨.
(٥) (ش): الحَرافَة: حِدَّة في الطَّعم تحرِق اللِّسانَ والفمَ وتلذعهما كأثر الفلفل وغيره.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٤١.
(٧) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٥١.
(٨) (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٩) (ش): رواه البخاري ومسلم.

من يكون في الجنة، فما ظنك بمن هو أعلى منزلةً وأحْظَى عنده تعالى؟[(١)] ثم زاد تعالى في بيان وصف نعيمهم فقال ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي تعلوهم الثياب الفاخرة الخضراء، المزينة بأنواع الزينة، من الحرير الرقيق وهو السندس والحرير الثخين وهو الإستبرق فلباسهم في الجنة الحرير كما قال تعالى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] قال المفسرون: السندس ما رَقَّ من الحرير، والإستبرق ما غَلُظ من الحرير، وهذا لباس الأبرار في الجنة، وإنما قال ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ لِيُنَبِّه على أن لهم عِدَّةً من الثياب، ولكنَّ الذي يعلوها هي هذه، فتكون أفضلها ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي وألبسوا في الجنة أساور فضية للزينة والحلية وعبَّر بالماضي إشارةً لتحقق وقوعه قال الصاوي: فإن قيل: كيف قال هنا ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وفي سورة الكهف ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]وفي سورة فاطر ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣]؟ فالجواب أنهم تارةً يلبسون الذهب فقط، وتارةً يلبسون الفضة، وتارةً يلبسون اللؤلؤ فقط على حسب ما يشتهون، ويمكن أن يجمع في يد أحدهم أسورة الذهب والفضة واللؤلؤ[(٢)] ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي سقاهم الله فوق ذلك النعيم شرابًا طاهرًا لم تدنسه الأيدي، وليس بنجس كخمر الدنيا قال الطبري: سُقي هؤلاء الأبرار شرابًا طهورًا، ومن طُهْره أنه لا يصير بولًا نجسًا، بل رشحًا من أبدانهم كرشح المسك، روي أن الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا، فإذا أكل سقي شرابًا طهورًا، فيصير رشحًا يخرج من جلده أطيب ريحًا من المسك الأذْفَر[(٣)] ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي يقال لهم بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم نعيمها: هذا مقابل أعمالكم الصالحة في الدنيا ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي وكان عملكم مقبولًا مرضيًّا، جوزيتم عليه أحسن الجزاء، مع الشكر والثناء.. مرَّ في الآيات السابقة أن الله تعالى أعدَّ للكافرين السلاسل والأغلال، كما هيأ للأبرار أرائك يتكئون عليها، وعليهم ثياب السندس والإستبرق، وفي معاصمهم أساور الفضة، وبين أيديهم ولدانٌ مخلدون كأنهم اللؤلؤ المنثور، يطوفون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية النقية، وقد مُلِئَتْ شرابًا ممزوجًا بالزنجبيل والكافور، وكل ذلك للترغيب والترهيب، على

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٤. (ش): حظِيَ فلانٌ عند النَّاس: علا شأنُه عندهم وأحبّوه، فهو حَظِيّ.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٧٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٣٧. (ش): في أكثر من طبعة: «أطيبُ ريحًا من المسك الإِذخر»، والتصحيح من «تفسير الطبري». المسك الأذْفَر: المسك شديد الرائحة. والإِذْخِر: جمع إذخرة: نبات طيب الرائحة. وما ذكره المؤلف رواه الطبري عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ في تفسيره للآية. وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالشَّهْوَةِ وَالْجِمَاعِ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ: «فَإِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حَاجَةُ أَحَدِهِمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جِلْدِهِ، فَإِذَا بَطْنُهُ قَدْ ضَمُرَ» (رواه أحمد، وصححه الألباني والأرنؤوط). ضمُر الشَّيءُ: انكمش وانضمَّ بعضُه إلى بعض.

طريقة القرآن في المقارنة بين أحوال الأبرار والفجار.. وبعد هذا الوضوح والبيان، كان المشركون يقابلون كل هذه الآيات بالصَّدِّ والإعراض، والاستهزاء بالقرآن وبمحمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكان الرسول يتألم ويحزن لموقف المعاندين، لذلك جاءت الآيات تشدُّ من عزيمته، وتُسَلِّيه وتخفف عن قلبه الشريفِ آثارَ الهَمِّ والضجر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي نحن الذين أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن مُفَرَّقًا، لتُذَكِّرهم بما فيه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فلا تبتَئِسْ ولا تحزَنْ ولا تَضْجَر[١]، فالقرآن حقٌّ ووعده صدقٌ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد وانتظر لحكم ربك وقضائه، فلا بدَّ أن ينتقم منهم، ويُقِرَّ عينَك بإهلاكهم، إنْ عاجلًا أو آجلًا[٢] ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ أي ولا تطع من هؤلاء الفجرة من كان ﴿ءَاثِمًا﴾ منغمسًا في الشهوات، غارقًا في الموبقات ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أي ولا تطع من كان مبالغًا في الكفر والضلال، لا ينزجر ولا يرعوي[٣]، وصيغة ﴿كَفُورًا﴾ من صيغ المبالغة ومعناها المبالِغ في الكفر والجحود قال المفسرون: نزلت في «عتبة بن ربيعة» و«الوليد بن المغيرة» قالا للنبي ﷺ: إن كنت تريد النساء والمال فارجع عن هذا الأمر ونحن نكفيك ذلك، فقال عتبة: أنا أُزوجك ابنتي وأسوقها لك من غير مهر، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى فنزلت[٤]، والأحسنُ أنها على العموم لأن لفظها عام فهي تشمل كل فاسق وكافر ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي صَلِّ لربك وأَكْثِرْ من عبادته وطاعته ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي في أول النهار وآخره، في الصباح والمساء ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ أي ومن الليل فصَلِّ له، متهجدًا مستغرقًا في مناجاته ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي وأَكْثِرْ من التهجد والقيام لربك في جناح الظلام[٥] والناس نيام كقوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] والمقصود أن يكون عابدًا لله ذاكرًا له في جميع الأوقات، في الليل والنهار، والصباح والمساء، بقلبه ولسانه، ليتقوى على مجابهة أعدائه.. وبعد تسلية النبي الكريم، عاد إلى شرح أحوال الكفرة المجرمين فقال ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي إن هؤلاء المشركين يفضلون الدنيا على الآخرة، وينهمكون في لذائذها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي ويتركون أمامهم يومًا عسيرًا شديدًا، عظيم الأهوال والشدائد، وهو يوم القيامة ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: نحن بقدرتنا أوجَدْناهم من العدم، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق، حتى كانوا أقوياء أشِدَّاء ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي ولو أردنا أهلكناهم، ثم

(١) (ش): ضجِرَ: تبرَّمَ وقَلِقَ، ضاقَ، اغتمَّ.

(٢) (ش): أقرَّ اللهُ عينَه: أعطاه ما يشتهيه ويرضاه.

(٣) (ش): يرعوي: يرتَدِع.

(٤) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٥٨، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ١٤٧، وحاشية الصاوي ٤/ ٢٧٨. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٥) (ش): جَناح: جانب. جُنْح اللَّيْل/ جِنْح اللَّيْل: ظلامه.

بدلنا خيرًا منهم يكونون أعْبَدَ لله وأطْوَعَ، وفي الآية تهديدٌ ووعيد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي هذه الآيات الكريمة بمعناها الدقيق، ولفظها الرشيق، موعظة وذكرى، يتذكر بها العاقل، وينزجر بها الجاهل ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي فمن أراد الانتفاع والاعتبار وسلوك طريق السعادة، فليعتَبِر بآيات القرآن، وليستَنِر بنوره وضيائه، وليتَّخِذْ طريقًا موصلًا إلى ربه، بطاعته وطلب مرضاته، فأسباب السعادة ميسورة، وسبل النجاة ممهدة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي وما تشاءون أمرًا من الأمور، إلا بتقدير الله ومشيئته، ولا يحصل شيء من الطاعة والاستقامة إلا بإذنه تعالى وإرادته، قال ابن كثير: أي لا يقدر أحدٌ أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه نفعًا، إلا بمشيئة الله تعالى[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عالمًا بأحوال خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه، يعلم من يستحق الهداية فييسِّرها له، ومن يستحق الضلالة فيسهل له أسبابها، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي يدخل من شاء من عباده جنَّته ورضوانه حسب مشيئته وحكمته وهم المؤمنون ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأما المشركون الظالمون فقد هيأ لهم عذابًا شديدًا مؤلمًا في دار الجحيم، ختم السورة الكريمة ببيان مآل المتقين، ومآل الكفرة المجرمين.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿شَاكِرًا .. كَفُورًا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً .. وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿شَمْسًا .. زَمْهَرِيرًا﴾.

٢ - اللف والنشر المشوش ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟﴾ فإنه قدَّم أولًا ذكر الشاكر ثم الكافر ﴿شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ثم عاد بالذكر على الثاني دون الأول ففيه لف ونشر غير مرتب.

٣ - المجاز العقلي ﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ إسناد العبوس إلى اليوم من إسناد الشيء إلى زمانه كـ (نهاره صائم).

٤ - الجناس غير التام ﴿فَوَقَىٰهُمُ .. وَلَقَّىٰهُمْ﴾ فبين وقاهم ولقاهم جناس.

٥ - جناس الاشتقاق ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

٦ - الطباق ﴿يُحِبُّونَ .. وَيَذَرُونَ﴾.

٧ - الإيجاز بالحذف ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي يقال لهم: إن هذا.. إلخ.

٨ - التشبيه البديع الرائع ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي كاللؤلؤ المنتثر.

٩ - المقابلة اللطيفة ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ قابل بين المحبة والترك وبين العاجلة والباقية.

١٠ - السجع المرصَّع مثل ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا .. شَرَابًا طَهُورًا .. وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا .. ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدهر»



(١) ٤٥٨/١٤.

سُورَةُ المُرسَلَات (٧٧) (٥٠)

مكية وآياتها خمسون

بين يدي السورة

* سورة المرسلات مكية، وهي كسائر السور المكية، تعالج أمور العقيدة، وتبحث عن شئون الآخرة، ودلائل القدرة والوحدانية، وسائر الأمور الغيبية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بأنواع الملائكة[1]، المكلفين بتدبير شئون الكون، على أن القيامة حق، وأن العذاب والهلاك واقع على الكافرين ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾.

* ثم تحدثت عن وقت ذلك العذاب الذي وُعد به المجرمون ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾.

* وتناولت السورة بعد ذلك دلائل قدرة الله الباهرة على إعادة الإنسان بعد الموت، وإحيائه بعد الفناء ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الآيات. * ثم تحدثت عن مآل المجرمين في الآخرة وما يلقون فيه من نكال وعقاب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن المجرمين، تحدثت السورة عن المؤمنين المتقين، وذكرت ما أعده الله تعالى لهم من أنواع الإفضال والإكرام ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان سبب امتناع الكفار، عن عبادة الله الواحد القهار، وهو الطغيان والإجرام ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ
نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾
أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ
نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا
﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا
ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ
﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا
يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾
كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ

اللغَة: ﴿فُرِجَتْ﴾ فُتِحَت وشُـقَّتْ يقال: فَرَجْت الشيءَ فانفرجَ، أي: فتَحْته فانفتحَ ﴿كِفَاتًا﴾ الكفت في اللغة: الضَّمُّ والجمعَ قال الشاعر:

فَأَنْـتَ الْـيَـوْمَ فَـوْقَ الْأَرْضِ حَيٌّ ... وَأَنْـتَ غَـدًا تَضُمُّكَ فِي كِـفَـاتِ[1]

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ عاليـات مرتفعـات، يقـال: شَـمَخ بأنفـه إذا رفعَـه كِبْرًا ﴿فُرَاتًا﴾ عذبًا شـديد الحلاوة ﴿بِشَرَرٍ﴾ الشَّرر: ما تطايَر من النار وتفرَّق، جمع شرَرَة.

التفسير: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ أي أُقسم بالرياح حين تهب متتابعة، يقفو بعضها أثَر بعض[2]، قـال المفسـرون: هي ريـاح العذاب التـي يهلك الله بهـا الظالميـن ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ أي

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٥٩.

(٢) اختلف المفسرون اختلافًا كبيرًا في تفسير هذه الآيات الخمس فبعضهم حمَلها جميعًا على الرياح وبعضهم حملها جميعًا على الملائكة وبعضهم فصَّل، وتوقف الإمام ابن جرير. وقد اخترنا ما ذهب إليه ابن كثير وما رجحه صاحب التسهيل حيث قال: «والأظهر في: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ و﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ أنها الرياح لأن وصف الريح بالعصف حقيقة والأظهر في: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ و ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ﴾ أنها الملائكة لأن قوله: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ المذكورة بعدها هي الملائكة ولم يقل أحد إنها الرياح ولذلك عطف المتجانسين بالفاء فقال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ ثم عطف بالفاء»، وهو قول جيد. (ش): قفَا الأثَر: تتبَّعه.

وأُقسِم بالملائكة الموكَّلين بالسحُب يسُوقُونها حيث شاء الله، لتنشر رحمةَ الله - المطر - فتُحيِي به البلاد والعباد ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ أي وأُقْسِم بالملائكة التي تفرِّق بين الحق والباطل، والحلال والحرام[1] ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أي وأُقْسم بالملائكة تَنزل بالوحي، وتُلقِي كتب الله تبارك وتعالى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[2] ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ أي تلقي الوحي إعذارًا من الله للعباد لئلا يبقى لهم حجة عند الله، أو إنذارًا من الله للخلق بالنقمة والعذاب ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ أي وأُقسم بالرياح الشديدة الهبوب، إذا أُرسلت عاصفة شديدة، قلعت الأشجار، وخربت الديار، وغيَّرت الآثار ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ هذا هو جواب القسم، أي: إنَّ ما توعدون به من أمر القيامة، وأمر الحساب والجزاء، كائن لا محالة قال المفسرون: أقسم تعالى بخمسة أشياء، تنبيهًا على جلالة قدر المقسم به، وتعظيمًا لشأن المقسم عليه، فأقسم بالرياح التي تحمل الرحمة والعذاب، وتسوق للعباد الخير أو الشر، وبالملائكة الأبرار، الذي يتنزلون بالوحي للإعذار والإنذار، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه، وأن ما أوعد الله تعالى به المكذبين، من مجيء الساعة والثواب والعقاب، كائن لا محالة، فلا ينبغي الشك والامتراء[3].. ثم بَيَّن تعالى وفَصَّل وقت وقوع ذلك فقال ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ أي مُحِيَت النجوم وذهب نورُها وضياؤها ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ أي شقت السماء وتصدَّعت ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ أي تطايرت الجبال وتناثرت حتى أصبحت هباءً تذروه الرياح كقوله تعالى ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ [طه: ١٠٥] ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ أي جُعِل للرسل وقتٌ وأجَلٌ، للفصل بينهم وبين الأمم، وهو يوم القيامة[4] كقوله تعالى ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾[المائدة:١٠٩]؟ وأصل ﴿أُقِّتَتۡ﴾ وُقِّتَتْ من الوقت أي يُجعَل لها وقتٌ محدد، قال الطبري: أي أُجِّلَتْ للاجتماع لوقتها يوم القيامة وقال مجاهد: هو الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم[5] ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾؟ استفهامٌ لتعظيم ذلك اليوم، والتعجيب لما يقع فيه من الهول والشدة، أي: لأي يوم عظيم أُخرت الرسل؟ ثم قال ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي ليوم القضاء والفصل بين الخلائق، يوم يفصل الله بين الأنبياء وأممهم المكذبين بحكمه العادل ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾؟ استفهام

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٠٤.

(٢) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٣) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٦٥.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٤٣.

(٥) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٦٩.

للتعظيم والتهويل، أي: وما أعلمك أيها الإنسان بيوم الفصل وشدته وهوله؟ فإن ذلك اليوم أعظم من أن يعرف أمره إنسان، أو يحيط به عقل أو وجدان، ووضع الظاهر ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ مكان الضمير «ما هو» لزيادة تفظيع وتهويل أمره قال الإمام الفخر: عَجَّب العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال: لأي يوم أُجِّلت الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل، وهي تعذيب من كذَّبهم، وتعظيم من آمن بهم، وظهورما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به، من الأهوال والعرض والحساب، ثم إنه تعالى بين ذلك فقال ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو يوم يفصل الرحمن بين الخلائق، ثم أتبع ذلك تعظيمًا ثانيًا فقال ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي وما أعْلَمك ما يوم الفصل وشدته ومهابته؟[1] وجواب الشرط ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ إلخ محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره: وقع ما توعدون به، وجرى ما أخبركم به الرسل من مجيء القيامة، والحذف على هذه الصورة من أساليب الإيجاز البياني الذي امتاز به القرآن ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك عظيم وخسار كبير في ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود قال المفسرون: كرَّر هذه الجملة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السورة عشر مرات لمزيد الترغيب والترهيب، وفي كل جملة وَرَدَتْ إخبارٌ عن أشياء عن أحوال الآخرة، وتذكيرٌ بأحوال الدنيا، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كل جملة منها بالويل والدمار للكفرة الفجار، ولما كان في سورة الإنسان السابقة ذكر بعضًا من أحوال الكفار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين هناك، جاء في هذه السورة بالإطناب في وصف الكفار، والإيجاز في وصف المؤمنين. . ثم بعد أن أكد الخبر بيوم القيامة، وأنه حق كائن لا محالة، وبعد أن خوَّف المكذبين من شدة هول ذلك اليوم، وفظاعة ما يقع فيه، عاد فخوَّفهم من بطش الله وانتقامه بأسلوب آخر فقال ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ أي ألم نهلك السابقين بتكذيبهم للرسل، كقوم نوح وعادٍ وثمود؟ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ﴾؟ أي ثم ألحقنا بهم المتأخرين ممن كانوا مثلهم في التكذيب والعصيان، كقوم لوط وشعيب وقوم موسى «فرعون وأتباعه» ومن على شاكلتهم ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الإهلاك الفظيع نفعل بهؤلاء المجرمين «كفار مكة» لتكذيبهم لسيد المرسلين ﷺ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار لكل مكذب بالتوحيد والنبوة، والبعث والحساب ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تذكير للمكذبين وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أبسط الأمور المشاهَدة، وهي أن مَن خلَقهم من النطفة الحقيرة الضعيفة كان قادرًا على إعادة خلقهم للبعث والحساب والمعنى: ألم نخلقكم يا معشر الكفار من ماءٍ ضعيف حقير هو منيُّ الرجل؟ وفي الحديث القدسي يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ» الحديث[2] ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٧٠.

(٢) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، ورواه ابن ماجه في سننه، وتمامه أن رسول الله ﷺ بصق يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «قَالَ اللهُ: ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ =

فجعلنا هذا الماء المهين في مكان حريز[١] وهو رحم المرأة ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلى مقدار من الزمن محدَّد معيَّن، معلوم عند الله تعالى وهو وقت الولادة ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ أي فقَدَرْنا على خلقه من النطفة، فنعم القادرون نحن حيث خلقناه في أحسن الصور، وأجمل الإشكال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بقدرتنا قال الصاوي: هذه الآية تذكير من الله تعالى للكفار بعظيم إنعامه عليهم، وقدرته على ابتداء خلقهم، والقادرُ على الابتداء قادر على الإعادة، ففيها رَدٌّ على المُنكرين للبعث[٢].. ثم ذكَّرهم بنعمة إيجادهم على الأرض حال الحياة، ومُوارَاتهم في باطنها بعد الموت[٣] فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾؟ إلى ألم نجعل هذه الأرض التي تعيشون عليها كالأم لكم، تجمع الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها؟ قال المفسرون: الكَفْت: الجَمع والضَّمُّ، فالأرض تجمع وتضُمُّ إليها جميعَ البشر، فهي كالأم لهم، الأحياء يسكنون فوق ظهرها في المنازل والدور، والأموات يسكنون في بطنها في القبور ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] قال الشعبي: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم[٤] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي وجعلنا في الأرض جبالاً راسخات عاليات مرتفعات لئلا تضطرب بكم[٥] ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي وأسقيناكم ماءً عذبًا حلوًا بالغ العذوبة، أنزلناه لكم من السحاب، وأخرجناه لكم من العيون والأنهار، لتشربوا منه أنتم ودوابُّكم، وتَسقُوا منه زَرعكم وأشجاركم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي انطلقوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم تكذبون به في دار الدنيا، وهذا الكلام تقوله لهم خزنة النار تقريعًا وتوبيخًا.. ثم وضَّح ذلك العذاب وفصَّله فقال ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ

= وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ» (ش): صححه الألباني. (البُرْد): كساء مُخطّط أو مُزخرف يُلتحف به. (الوَئيد): المشي بتُؤَدَة، أي بتأَنٍّ وتمهُّل.

(١) (ش): حَريز: حَصين، مَنيع.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٨٠.

(٣) (ش): وارَى الشيءَ: أخفاه، ستره. وارَى الميِّتَ: دفنَه.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٨.

(٥) لقد كشف القرآن عن حكمة وجود الجبال قبل أن يكتشفها العلم الحديث، فالجبال كالأوتاد للأرض تثبِّتها وتقيها الاضطرابَ والمَيَدانَ كما تقي أوتاد الخيمةُ الخيمةَ، وقد كشف الوحيُ عن هذا المعنى فقال في سورة النحل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض بما في جوفها من الغازات والأبخرة والمواد المتراكمة المشتعلة دائمة الاضطراب والخفقان، ولكانت كالريشة في مهب الهواء، فسبحان الحكيم العليم على أن في خلق الجبال الشوامخ نعمة أخرى هي نشوء السحب فوقها، وهطول الأمطار والثلوج عليها، فتتكون بسبب ذلك الأنهار والعيون، ثم تكثر الأشجار والزروع، فالجبال مخازن للثلوج والأمطار، ومستودعات عامة لبركات السماء، ولهذا قرن تعالى بها نعمة الماء فقال: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ فلله ما أبدع أسرار القرآن! (ش): ماد الشَّيءُ، مَيْدًا ومَيَدَانًا: تحرَّك واضطرب.

شُعَبٍ﴾ أي اذهبوا فاستظلوا بدخانٍ كثيف من دخان جهنم، يتفرع منه ثلاث شعب ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي لا يُظِلّ مَن يكون تحته، ولا يَقيه حر الشمس كما هو حال الظل الممدود، ولا هو يدفع عنه أيضًا ألسنة النار المندلعة من كل جانب قال الطبري: لا هو يُظِلّهم من حرها، ولا يَكُنُّهم من لهبها[1]، وذلك أنه يرتفع من وقود جهنم الدخان، فإذا تصاعد تفرَّق شعبًا ثلاثة[2] قال المفسرون: سمَّى العذاب ظلاًّ تهكمًا واستهزاءً بالمعذبين، فالمؤمنون في ظلال وعيون، والمجرمون في سموم وحميم، وظل من يحموم، واليحموم دخانٌ أسود قاتم، فكيف يصح أن يسمى ما هم فيه ظلًا إلا على طريق التهكم والاستهزاء؟ ثم زاد تعالى في وصف جهنم وأهوالها فقال ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ أي إن جهنم تقذف بشرر عظيم من النار، كلُّ شرارةٍ منه كأنها القصر العظيم قال ابن كثير: يتطاير الشرر من لهبها كالحصون[3] ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ أي كأن شرر جهنم المتطاير منها الإبل الصفر في لونها وسرعة حركتها قال الرازي: شبَّه تعالى الشرر في العظم بالقصر، وفي اللون والكثرة وسرعة الحركة بالجمالات الصفر[4]، وهذا التشبيه من روائع صور التشبيه، لأن الشرارة إذا كانت مثل القصر الضخم، فكيف تكون حال تلك النار الملتهبة؟ أجارنا الله من نار جهنم بفضله ورحمته ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بآيات الله ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي هذا اليوم الرهيب، الذي لا ينطق فيه أولئك المكذبون ولا يكتمون كلامًا ينفعهم، فهم في ذلك اليوم خُرْسٌ بُكْمٌ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي ولا يقبل لهم عذرٌ ولا حجة فيما أتوا به من القبائح والجرائم، بل لا يؤذن لهم في أن يعتذروا، لأنه لا تسمع منهم تلك الحجج والأعذار ولا تقبل كقوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي يقال لهم: هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي يفصل الله فيه بحكمه العادل بين السعداء والأشقياء، جمعناكم فيه مع مَن تَقدَّمكم من الأمم لنحكم بينكم جميعًا ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ أي فإن كان لكم حيلة في الخلاص من العذاب فاحتالُوا، وأَنقِذوا أنفسكم من بطش الله وانتقامه إن قدرتم، وهذا تعجيزٌ لهم وتوبيخ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك يومئذٍ للمكذبين بيوم الدين.. وبعد أن ذكر أحوال الأشقياء المجرمين، أعقبه بذكر أحوال السعداء المتقين فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ أي الذين خافوا ربهم في الدنيا، واتقوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم يوم

---

(١) (ش): كَنَّ الشَّيءَ: أخفاه وستَره وصَانه.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٤٦.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٨.
(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٥٧٧.

القيامة في ظلال الأشجار الوارقة، وعيون الماء الجارية، يتنعمون في دار الخلد، والكرامة، على عكس أولئك المجرمين المكذبين، الذين هم في ظل من يحموم وهو دخان جهنم الأسود الذي لا يقي حرًّا، ولا يدفع عطشًا، ولا يجد المستظِّل به مما يشتهيه لراحته سوى شرر النار الهائل ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي وفواكه كثيرة متنوعة مما يستلذون ويستطيبون ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي ويقال لهم على سبيل الأُنس والتكريم: كلوا أكلًا لذيذًا واشربوا شربًا هنيئًا، بسبب ما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي إنا مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من أحسن عمله، وأخلص نيته، واتقى ربه ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بيوم الدين ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ أي يقال للكفار على سبيل التهديد والوعيد: كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية، كما هو شأن البهائم التي هَمُّها مَلْءُ بطونها ونَيْل شهواتها زمانًا قليلًا إلى منتهى آجالكم، فإنكم مجرمون لا تستحقون الإنعام والتكريم ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بنعم الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المشركين صلُّوا لله، واخشعوا في صلاتكم لعظمته وجلاله، لا يخشعون ولا يصلون، بل يظلون على استكبارهم يصرون قال مقاتل: نزلت هذه الآية في ثقيف، امتنعوا عن الصلاة وقالوا لرسول الله ﷺ: حطَّ عنا الصلاة فإنا لا ننحني، إنها مَسَبَّة علينا، فأبى وقال: «لا خير في دينٍ لا صلاة فيه»[1] ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاكٌ ودمار يوم القيامة للمكذبين بأوامر الله ونواهيه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾؟ أي فبأي كتابٍ وكلام بعد هذا القرآن المعجز الواضح يصدّقون إن لم يؤمنوا بالقرآن؟ فإذا كذبوا بالقرآن ولم يؤمنوا به، مع بلوغه الغاية في الإعجاز، ونصوع الحجة، وروعة البيان، فبأي شيءٍ بعد ذلك يؤمنون؟ قال القرطبي: كرر قوله ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مراتٍ للتخويف والوعيد، وقيل: إنه ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قولٍ منه غير الذي أراده بالآخر، كأنه ذكر شيئًا فقال: ويلٌ لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئًا آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، وهكذا إلى آخر السورة الكريمة[2].

---

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٠٨. (ش): بهذا اللفظ رواه الثعلبي في «تفسيره» عن مقاتل بدون إسناد، ومقاتل متروكٌ ومتهمٌ بالكذب. ورواه أحمد وأبو داود بلفظ: «لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ» في قصة وَفْدِ ثَقِيفٍ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وضعفه الألباني.
والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وقد أمر الله بالمحافظة عليها في السفر، والحضر، والسلم، والحرب، وفي حال الصحة، والمرض. وقد قال ﷺ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ» (رواه مسلم). وقال – صلى الله عليه وآله وسلم –: «الْعَهْدُ الذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» (رواه أحمد والترمذي والنسائي، وصححه الألباني).
(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٦٧.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بذكر المصدر زيادة في البيان وتقوية للكلام مثل ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ وهو من المحسنات اللفظية.

٢ - الطباق بين ﴿عُذْرًا .. نُذْرًا﴾ وبين ﴿أَحْيَآءً .. وَأَمْوَٰتًا﴾ وبين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ مَرْقُومٌ. وَٱلْآخِرِينَ﴾ وكلها من المحسنات البديعية.

٣ - وضع الظاهر مكان الضمير، والمجيء بصيغة الاستفهام ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾؟ لزيادة تفظيع الأمر وتهويله.

٤ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ ومثله ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؟

٥ - الجناس غير التام بين لفظتي ﴿مَّهِينٍ﴾ و ﴿مَّكِينٍ﴾.

٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ والمرسل المفصل ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾.

٧ - المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قابل ذلك بقوله ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾.

٨ - أسلوب التهكم ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ﴾ سمَّى العذاب ظلًا تهكمًا وسخرية بهم.

٩ - المجاز المرسل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أطلق الركوع وأراد به الصلاة فهو من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، أي: وإذا قيل لهم: صلوا لا يصلون.

١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ .. إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إلخ ويسمى بالسجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المرسلات»



سُورَةُ النَّبَإِ ٧٨ - ٤٠

مكية وآياتها أربعون

بين يدي السورة

* سورة عم مكية وتسمى (سورة النبأ) لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور، ومحور السورة يدور حول إثبات «عقيدة البعث» التي طالما أنكرها المشركون.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة، والبعث والجزاء، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة، حتى صاروا فيه ما بين مصدق ومكذب ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ..﴾ الآيات.

* ثم أقامت الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين، فإن الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فنائه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ الآيات.

* ثم أعقبت ذلك بذكر البعث، وحددت وقته وميعاده، وهو يوم الفصل بين العباد، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن جهنم التي أعدها الله للكافرين، وما فيها من ألوان العذاب المهين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن الكافرين، تحدثت عن المتقين، وما أعد الله تعالى لهم من ضروب النعيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة، حيث يتمنى الكافر أن يكون ترابًا فلا يحشر ولا يحاسب ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ
الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾
وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ

فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا
﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾
جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ
كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾
وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ
صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا
قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا

اللغـة: ﴿سُبَاتًا﴾ السَّبْتُ في اللغة: القطعُ، سمي الليل سُباتًا لأنه يقطع العمل والحركة ﴿وَهَّاجًا﴾ الوهَّاج: المتقد المتلألئ من قولهم: وَهجت النار إذا أضاءت ﴿ثَجَّاجًا﴾ شديد الانصباب يقال: ثجَّ إذا سال بكثرة وفي الحديث «أَفْضَلُ الحَجِّ: الْعَجُّ والثَّجُّ»[1] العجُّ: رفع الصوت بالتلبية، والثجُّ: إراقة الدماء وذبحُ الهدايا ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب وهي التي برز نَهْدُها[2] مع ارتفاع يسير ﴿دِهَاقًا﴾ مملوءة يقال: أدهقتُ الكأسَ أي ملأتها قال الشاعر:

أَتَـانَـا عَـامِـرٌ يَـبْـغِـي قِـرَانَـا ... فَـأَتْـرَعْـنَـا لَـهُ كَـأْسًـا دِهَـاقَـا[3]

التفسير: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ أي: عن أيِّ شيءٍ يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضًا؟ وأصل ﴿عَمَّ﴾ عنْ ما، أدغمت الميم في النون وحذفت ألف ﴿مَا﴾ الاستفهامية، وليس المراد هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه، وقد كان المشركون يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكارًا واستهزاءً فجاء اللفظ بصيغة الاستفهام للتفخيم والتهويل وتعجيب السامعين من أمر المشركين، ثم ذكر تعالى ذلك الأمر الخطير فقال ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم الهام وهو أمر البعث[4] ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي الذي اختلفوا فيه ما بين شاكٍّ في وقوعه، ومكذب منكرٍ لحصوله ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردعٌ وزجر، أي: ليرتدعْ أولئك المكذبون عن التساؤل عن البعث، فسيعلمون حقيقة الحال، حين يرون البعث أمرًا واقعًا، ويرون عاقبة استهزائهم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للوعيد مع التهويل أي سيعلمون

(١) (ش): عَنْ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ سُئِلَ أَىُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ « الْعَجُّ وَالثَّجُّ ». (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

(٢) (ش): نَهْد: ثدْي.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٠٩، والقرطبي ١٩/ ١٨١. (ش): أتْرَعَ الإناءَ: مَلأه.

(٤) هذا هو الراجح أن المراد بالنبأ العظيم أمر البعث لأنه ذكر بعده دلائل القدرة على إمكان البعث من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا..﴾ إلخ. وذكر منها تسعة أمور، وقيل: المراد بالنبأ القرآن أو النبوة وما ذكرناه هو الراجح وهو اختيار العلامة أبي السعود.

مـا يحـل بهم من العذاب والنكال.. ثم أشـار تعالى إلى الأدلة الدالة علـى قدرته تعالى، ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من أمر البعث، وكأنه يقول: إن الإله الذي قدر على إيجاد هذه المخلوقـات العظـام، قادرٌ على إحيـاء الناس بعد موتهم فقـال ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ أي ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي وجعلنـا الجبـال كالأوتاد لـلأرض تثبتها لئلا تميد بكم كمـا يثبت البيت بالأوتاد قال في التسهيل: شبَّهها بالأوتاد لأنها تمسكُ الأرض أن تميد(١) ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي وجعلناكم أيها الناس أصنافًا ذكورًا وإناثًا، لينتظم أمر النكاح والتناسـل، ولا تنقطع الحياة عن ظهـر هذا الكوكب الأرضـي(٢) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي وجعلنا النوم راحة لأبدانكم، قاطعًا لأشغالكم، تتخلصون به من مشاق العمل بالنهار ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي جعلنا الليل كاللباس يغشاكم ويستركم بظلامه، كما يستركم اللباس، وتُغطّيكم ظلمته كما يغطى الثوبُ لابسه قال في التسـهيل: شبهه بالثياب التي تُلبس لأنه سَترٌ عن العيون(٣) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي وجعلنا النهـار سـببًا لتحصيل المعاش، تتصرفون فيـه لقضاء حوائجكم قال ابن كثير: جعلناه مشـرقًا مضيئًـا ليتمكن الناس من التصـرف فيه، بالذهاب والمجيء للمعاش والتكسـب والتجارات وغير ذلك(٤) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي وبنينا فوقكم أيها الناس سـبع سـمواتٍ محكمة الخلـق بديعـة الصنع، متينةً في إحكامهـا وإتقانها، لا تتأثر بمرور العصـور والأزمان، خلقناها بقدرتنا لتكون كالسـقف للأرض كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقوله ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي وأنشـأنا لكم شمسًـا منيرة سـاطعة، يتوهج ضوءها ويتوقد لأهل الأرض كلهم، دائمة الحرارة والتوقد قال المفسـرون: الوهَّاج المتوقد الشـديد الإضاءة، الذي يضطرم ويلتهب من شدة لهبه وقال ابـن عبـاس: المنير المتلألـئ(٥) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي وأنزلنا من السـحب التي حان وقت إمطارها ماءً دافقًا منهمرًا بشـدةٍ وقوة قال في التسـهيل: المعصرات هي السـحب،

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧٣. (ش): مَادَ الشَّيءُ: تحرَّك واضطرب.

(٢) (ش): تسمية الأرض كوكبًا إطلاقٌ غريبٌ عن نصوص الوحيين الشريفين، فالكواكب في السماء، والأرض في السُّفْل، ولم يطلق على الكواكب اسم: الأرض، ومن لازم هذا الإطلاق أن تكون الأرض زينة للسماء الدنيا، وجعلها رجومًا للشياطين، وهذا باطل. [انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص: ١١٨)].

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧٣.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٩٠.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٧٠.

مأخوذةٌ من العصر لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء[(١)]، شبهت السحابة التي حان وقت إمطارها بالجارية التي قد دنا حيضها ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ أي لنخرج بهذا الماء أنواع الحبوب والزروع، التي تنبت في الأرض غذاءً للإنسان والحيوان ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أي وحدائق وبساتين كثيرة الأشجار والأغصان، ملتفةً بعضها على بعض لكثرة أغصانها وتقارب أشجارها.. ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى، كبرهانٍ واضح على إمكان البعث والنشور[(٢)]، فإن من قدر على هذه الأشياء قادرٌ على البعث والإحياء ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ أي إن يوم الحساب والجزاء، ويوم الفصل بين الخلائق، له وقت محدودٌ معلوم في علمه تعالى وقضائه، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤] قال القرطبي: سمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، وقد جعله وقتًا وميعادًا للأولين والآخرين[(٣)] ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي يكون ذلك يوم أن ينفخ في الصور نفخة القيام من القبور، فتحضرون جماعات جماعات، وزمرًا زمرًا للحساب والجزاء، ثم ذكر تعالى أوصاف ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي تشققت السماء من كل جانب، حتى كان فيها صدوعٌ وفتوحٌ كالأبواب في الجدران، من هول ذلك اليوم كقوله تعالى ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الإنشقاق: ١] وعبَّر بالماضي ﴿وَفُتِحَتِ﴾ لتحقق الوقوع ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي ونسفت الجبال وقلعت من أماكنها، حتى أصبح يخيَّل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، كالسراب يظنه الرائي ماءً وليس بماء قال القرطبي: صارت الجبال بعد نسفها هباءً منبثًا[(٤)]، لعين الناظر كالسراب الذي يظنه من يراه ماءً وهو في الحقيقة هباء[(٥)] ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي إن جهنم تنتظر وتترقب نزلاءها الكفار، كما يترصد الإنسان ويترقب عدوه ليأخذه على حين غرة قال المفسرون: المرصاد المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو، وجهنم تترصَّد أعداء الله لتعذبهم بسعيرها، وهي مترقبة ومتطلعة لمن يمرُّ عليها من الكفار الفجار لتلتقطهم إليها ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ أي هي مرجع ومأوى ومنزل للطغاة المجرمين ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي ماكثين في النار دهورًا متتابعةً لا نهاية

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧٣.
(٢) (ش): قول المؤلف: «ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى، كبرهان واضح على إمكان البعث والنشور»، تعبير غير سليم، لأنه يعطي معنى التشبيه بمعنى أنها تشبه البرهان وليست برهانًا، وهذا تعبير صحفي دارج لا يليق بأسلوب التفسير.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٧٣.
(٤) (ش): أي صارت غبارًا متطايرًا في الجو قد ذَرَتْه الريح.
(٥) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٧.

لهـا(١) قال القرطبي: أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب أي: الدهور -وهي لا تنقطع، كلما مضى حُقْب جاء حُقْبٌ، لأن أحقاب الآخرة لا نهاية لها(٢) قال الربيع وقتادة: هذه الأحقاب لا انقضـاء لها ولا انقطـاع(٣) ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي لا يذوقون في جهنم برودة تخفف عنهم حرَّ النار، ولا شـرابًا يسكِّنُ عطشهم فيها ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ أي إلا ماءً حارًّا بالغًا الغاية في الحـرارة، وغسـاقًا -أي صديدًا يسـيل من جلـود أهل النـار- ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي يعاقبهم الله بذلك جزاءً موافقًا لأعمالهم السـيئة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لم يكونوا يتوقعون الحسـاب والجـزاء، ولا يؤمنون بلقاء الله، فجازاهم الله بذلـك الجزاء العادل ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي وكانوا يكذبون بآيات الله الدالة على البعث وبالآيات القرآنية تكذيبًا شديدًا ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ أي وكل مـا فعلـوه من جرائم وآثام ضبطنـاه في كتاب لنجازيهم عليه ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي فذوقـوا يـا معشـر الكفار فلن نزيدكم على اسـتغاثتكم إلاَّ عذابًا فوق عذابكم قال المفسـرون: ليس في القرآن على أهل النار آية هي أشـد من هذه الآية، كلما اسـتغاثوا بنوعٍ من العذاب أغيثوا بأشـد منه(٤) ولما ذكر تعالى أحوال الأشقياء أهل النار، ذكر بعدها أحوال السعداء الأبرار فقال ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي إن للمؤمنين الأبرار الذين أطاعوا ربهـم في الدنيا، موضع ظفر وفـوز بجنات النعيم، وخلاص من عذاب الجحيم، ثم فسَّـر هذا الفوز فقال ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا﴾ أي بسـاتين ناضرة فيها من جميع الأشـجار والأزهار، وفيها كروم الأعناب الطيبة المتنوعة من كل ما تشتهيه النفوس ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي ونساءً عذارى نواهد قد برزت أَثْداؤهنَّ، وهنَّ في سنٍ واحدة قال في التسهيل: الكواعب جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها(٥) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي وكأسًـا من الخمر ممتلئةً صافية قال القرطبي: المرادُ بالكأس الخمـرُ كأنه قال: وخمـرًا ذات دِهاقٍ، أي: مملوءة قد عُصِـرَت وصُفِّيَت(٦) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي لا يسـمعون في الجنة كلامًا فارغًا لا فائدة فيه، ولا كذبًا من القول لأن الجنة دار السلام، وكل ما فيها سالمٌ من الباطل والنقص ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي جازاهم الله بذلك الجزاء العظيم، تفضلًا منه وإحسانًا كافيًا على حسب أعمالهم ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

(١) ليس في الآية الكريمة ما يدل على تناهي تلك الأحقاب، لأن الحقب في كلام العرب لا يكاد يستعمل إلا فيما هو متتابع متلاحق، وهو كناية التأبيد، فخاطبهم بما تذهب إليه أوهامهم وما يعرفون، وقيل: إنها في عصاة المؤمنين وهذا خطأ لأنها في الكفار لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩/ ١٧٥.

(٣) «انظر القرطبي» ١٩/ ١٨٠،و «حاشية الصاوي» ٤/ ٢٨٥.

(٤) انظر «القرطبي» ١٩/ ١٨٠، و«حاشية الصاوي» ٤/ ٢٨٥.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٨١.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي هذا الجزاء صادرٌ من الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يخاطبه في دفع بلاء، أو رفع عذاب في ذلك اليوم، هيبةً وجلالًا ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يقف جبريل والملائكة مصطفين خاشعين ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ أي لا يتكلم أحد منهم إلاّ من أذن الله له بالكلام والشفاعة ونطق بالصواب قال الصاوي: وإذا كان الملائكة الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله لا يقدرون أن يشفعوا إلا بإذنه، فكيف يملك غيرهم؟[1] ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي ذلك هو اليوم الكائن الواقع لا محالة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي فمن شاء أن يسلك إلى ربه مرجعًا كريمًا بالإيمان والعمل الصالح فلْيفعلْ، وهو حث وترغيب ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث أي إنا حذَّرْناكم وخَوَّفْناكم عذابًا قريبًا وقوعه هو عذاب الآخرة، سمَّاه قريبًا لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ أي يوم يرى كل إنسان ما قدَّم من خير أو شر مثبتًا في صحيفته كقوله تعالى ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ أي ويتمنى الكافر أنه لم يخلق ولم يُكلَّف ويقول: يا ليتني كنت ترابًا حتى لا أحاسَب ولا أعاقَب قال المفسرون: وذلك حين يحشر الله الحيوان يوم القيامة فيقتصُّ للجَمّاء من القَرْناء، وبعد ذلك يصيّرها ترابًا، فيتمنى الكافر أن لو كان كذلك حتى لا يعذب[2].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرار الجملة للوعيد والتهديد ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾.

٢ - الإيجاز بحذف الفعل لدلالة المتقدم عليه ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن النبأ العظيم.

٣ - التشبيه البليغ ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾؟ أصل الكلام جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم، فحذف أداة التشبيه ووجه الشبه؛ فأصبح بليغًا، ومثله ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ أي كاللباس في الستر والخفاء.

٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ وبين ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ قابل بين الليل والنهار، والراحة والعمل، وهو من المحسنات البديعية.

٥ - التشبيه البليغ ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ أي كالأبواب في التشقق والانصداع، فحذفت الأداة

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٨٦.

(٢) (ش): قال ﷺ: «يَقْضِي اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، وَإِنَّهُ لَيَقِيدُ يَوْمَئِذٍ الْجَمَّاءَ مِنَ الْقَرْنَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ تَبِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدَةٍ لِأُخْرَى، قَالَ اللهُ: كُونُوا تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وصححه الألباني). تَبِعَةٌ: ظُلامة، مَظْلَمة. الجَمّاء: التي ليس لها قرون. القَرْناء: التي لها قرون.

ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٦ - الأمر الذي يراد به الإهانة والتحقير ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وفيه أيضًا التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والإهانة.

٧ - الطباق بين ﴿بَرْدًا..حَمِيمًا﴾.

٨ - ذكر العام بعد الخاص ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ الروح وهو «جبريل» داخل في الملائكة، فقد ذكر مرتين مرة استقلالًا، ومرة ضمن الملائكة، تنبيهًا على جلالة قدره.

٩ - السجع المرصَّع مثل ﴿أَلْفَافًا، أَفْوَاجًا، أَبْوَٰبًا، مَـَٔابًا، أَحْقَابًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ»



سُورَةُ النَّازِعَاتِ ٧٩ ٤٦

مكية وآياتها ست وأربعون

بين يدي السورة

* سورة النازعات مكية، شأنها كشأن سائر السور المكية، التي تُعنى بأصول العقيدة «الوحدانية الرسالة، البعث والجزاء»، ومحور السورة يدور حول القيامة وأحوالها، والساعة وأهوالها، وعن مآل المتقين، ومآل المجرمين.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار(١) التي تنزع أرواح المؤمنين بلطف ولين، وتنزع أرواح المجرمين بشدة وغلظة، والتي تدبر شئون الخلائق بأمر الله جل وعلا ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن المشركين، المنكرين للبعث والنشور، فصورت حالتهم في ذلك اليوم الفظيع ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ الآيات.

* ثم تناولت السورة «فرعون» الطاغية، الذي ادعى الربوبية وتمادى في الجبروت والطغيان، فقصمه الله وأهلكه بالغرق هو وقومه الأقباط ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله ﷺ، وذكرتهم بأنهم أضعف من كثير من مخلوقات الله ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ الآيات.

* وختم السورة الكريمة ببيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون وأنكروه وكذبوا بحدوثه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ۝٤٤ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا
﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا
لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾
فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ
﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ
أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن
يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ
بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ
ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ
ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن
يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

اللغة: ﴿وَاجِفَةٌ﴾ خائفة فزعة يقال: وجف القلبُ وجيفًا إِذا خفق واضطرب من شدة الفزع ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾ الرجوع إِلى الحالة التي كان عليها يقال: رجع فلان في حافرته، أي: رجع من حيث جاء قال الشاعر:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ … مَعَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارِ (١)

﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ وجه الأرض، والعربُ تسمي وجه الأرض والفلاة ساهرة لأنه يُسهر عليها ﴿سَمْكَهَا﴾ السَّمك: العلُوُّ والارتفاع، وبناءٌ ممسوك أي عال مرتفع ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أظلم يقال: غطش الليلُ وأغْطَشه اللهُ أي صار مظلمًا وأظلمه الله ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بسطها وسوَّاها قال زيد بن عمرو:

دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا … بِأَيْدٍ وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَا (٢)

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ الداهية العظمى التي لا تُستطاع، قال الشاعر:

---

(١) أنشده ابن الأعرابي والمراد: أأرجع إِلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن شِبْتُ وصَلِعْتُ؟ (ش): الصَّبا: الحنين والشوق. الصِبا:صِغَرُ سِنّ وحداثةُ. شاب الرّجلُ: تقدّم في السنِّ. صلِع الشَّخصُ: سقط شعرُ مُقدَّم رأسه أو وسطه.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤١٨. (ش): بِأَيْدٍ: بقوة وقدرة عظيمة.

إنَّ بَعْضَ الْحُبِّ يُعْمِي وَيُصِمُّ وَكَذَاكَ الْبُغْضُ أَدْهَى وأَطَمُّ[(١)]

التفسير: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرۡقٗا﴾ أي أُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعًا بالغًا أقصى الغاية في الشدة والعسر[(٢)] ﴿وَٱلنَّـٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ أي وأُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح المؤمنين بسهولةٍ ويسر، وتَسلُّها سلًّا رفيقًا قال ابن مسعود: إن ملكَ الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السَّفود - سيخ الحديد - الكثير الشُّعب من الصوف المبتّل، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء، وينزع روح المؤمن برفق ولين، ويقبضها كما ينشط العِقال من يد البعير[(٣)] قال ابن كثير: أقسم سبحانه بالملائكة حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ رُوحه بسهولة وكأنما حَلَّتْه مِن نشَاط[(٤)] ﴿وَٱلسَّـٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تنزل بأمر الله ووحيه من السماء كالذي يسبح في الماء، مسرعين لتنفيذ أمر الله ﴿فَٱلسَّـٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ أي الملائكة تدبّر شئون الكون بأمره تعالى، في الرياح، والأمطار، والأرزاق، والأعمار، وغير ذلك من شئون الدنيا، أقسم سبحانه بهذه الأصناف الخمسة على أن القيامة حق، وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ، وقد دل عليه قوله ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي يوم ينفخ في الصُّور النفخة الأولى التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، تتبعها النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور قال ابن عباس: الراجفة والرادفة هما النفختان الأولى والثانية، أما الأولى فتُميت كلَّ شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى[(٥)].. ثم ذكر تعالى حالة المكذبين وما يَلقَوْنه من الشدائد والأهوال فقال ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ أي قلوب الكفار في ذلك اليوم خائفة وجلة مضطربة ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ أي يقولون في الدنيا استهزاءً واستبعادًا للبعث: أنرد بعد الموت فنيصر أحياء بعد فنائنا ونرجع كما كنا أول مرة؟ قال القرطبي: إذا قيل لهم: إنكم تبعثون بعد والعرب تقول:

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٠٤.

(٢) (ش): تقدَّم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يجوز أن يُقْسِمَ إلاَّ بِالْخَالِقِ.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٤. (ش): السَّفُّودُ: عُودٌ من حديد له شُعَب، أي أسنان، يُغْرَز فيها اللّحم لِيُشْوَى. وقد صح عن النبي ﷺ أنّ رُوحَ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، وأنّ رُوحَ الْعَبْدِ الْكَافِرِ يَنْتَزِعُهَا مَلَكُ الْمَوْتِ كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ. (رواه أحمد، وصححه الألباني). أنْشَطَ العُقْدَة: حلهَا وَفك أنشوطتها، وهي عقدة يسهل انحلالها إذا أخذ بأحد طرفيها. وأنشط الدَّابَّة عَن عقالها: أطلقها مِنْهُ. والعِقال: الحبل الذي يُشَدُّ به البعير.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٩٥ ثم قال: وهذا هو الصحيح وعليه الأكثرون. (ش): وكأنما حَلَّتْه مِن نشَاط: أي: كأنما كان مربوطًا فحَلّتْ رباطه.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٩٣.

رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء[١] ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ أي هل إذا صرنا عظامًا بالية متفتتة سَنُرَدُّ ونُبعَث من جديد؟ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي إن كان البعث حقًّا، وبُعِثْنا بعد موتنا فسوف نكون من الخاسرين لأننا من أهل النار، قال تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي فإنما هي يحة واحدة، يُنفخ فيها في الصور للقيام من القبور ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي فإذا الخلائق جميعًا على وجه الأرض بعدما كانوا في بطنها. ثم ذكر تعالى قصة موسى مع فرعون تسليةً لرسول الله ﷺ وتحذيرًا لقومه أن يحل بهم ما حلَّ بالطغاة المكذبين من قوم فرعون فقال ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ أسلوب تشويق وترغيب لسماع القصة، أي: هل جاءك يا محمد خبر موسى الكليم؟ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي حين ناجاه ربه بالوادي المطهَّر المبارك المسمَّى ﴿طُوًى﴾ في أسفل جبل طور سيناء، قائلًا له ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي إذهب إلى فرعون الطاغية الجبار، الذي جاوز الحدَّ في الظلم والطغيان ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾؟ أي هل لك رغبةٌ وميلٌ إلى أن تتطهر من الذنوب والآثام؟ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي وأرشدك إلى معرفة ربك وطاعته فتتقيه وتخشاه؟ قال الزمخشري: ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر، من خشي الله أتى منه كل خير، وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العَرْض كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرفيق الرقيق ليستدعيه بالتلطف، ويستنزله بالمداراة من عتوه كما في قوله تعالى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤][٢] ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ في الكلام محذوف، أي: فذهب موسى إليه ودعاه وكلَّمه، فلما امتنع عن الإيمان أراه المعجزة الكبرى، وهي قلب العصا حيةً تسعى قال القرطبي: أراه العلامة العظمى وهي المعجزة قال ابن عباس: هي العصا[٣] ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي فكذب فرعون نبيَّ الله موسى، وعصى أمر الله بعد ظهور تلك المعجزة الباهرة ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي ولّى مدبرًا هاربًا من الحية، يُسرع في مشيه من هول ما رأى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أي فجمع السحرة والجنود والأتباع، ووقف خطيبًا في الناس ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي فقال لهم بصوت عال: أنا ربكم المعبود العظيم الذي لا ربَّ فوقي ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي فأهلكه الله عقوبةً له على مقالته الأخيرة ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ والأولى هي قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[٤] [القصص: ٣٨] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي إن فيما ذكر من قصة فرعون وطغيانه، وما حلَّ به من العذاب والنكال، لَعِظَةً واعتبارًا لمن يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ ويخشى عقابه.. ولما انتهى الحديث عن قصة الطاغية فرعون، رجع إلى

---

(١) نفس المرجع السابق ١٩/ ١٩٤.
(٢) «تفسير الكشاف» ٤/ ٦٩٥.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٠٢.
(٤) هذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة، قال ابن عباس: كان بين كلمتيه الفاجرتين أربعون سنة، فأمهله الله ثم أخذه.

منكري البعث من كفار قريش فنبههم إلى آثار قدرته، ومظاهر عظمته وجلاله فقال ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ. والمعنى هل أنتم يا معشر المشركين أشَقُّ وأصعَبُ خلقًا أم خَلْق السماء العظيمة البديعة؟ فإن مَن رفَع السماء على عِظَمها، هيِّنٌ عليه خَلْقكم وإِحياؤكم بعد مماتكم، فكيف تنكرون البعث؟ قال الرازي: نبههم على أمرٍ يُعلم بالمشاهدة، وذلك لأن خلق الإنسان على صِغره وضَعْفه، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها يسير، وإذا كان كذلك فإعادتهم سهلة فكيف ينكرون ذلك؟[1] كقوله تعالى ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي رفعها عاليةً فوقكم محكمة البناء، بلا عمد ولا أوتاد، ثم زاد في التوضيح والبيان فقال ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ أي رفع جرمها وأعلى سقفها فوقكم فجعلها مستويةً لا تفاوت فيها ولا شقوق ولا فُطور[2] قال ابن كثير: أي جعلها عاليةَ البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكلَّلة بالكواكب في الليلة الظلماء[3] ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي جعل ليلها مظلمًا حالكًا، ونهارها مشرقًا مضيئًا قال ابن عباس: أظلم ليلها وأنار نهارها[4] ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي والأرض بعد خلق السماء بسَطَها ومهَّدها لسكنى أهلها[5] ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلأ والمرعى مما يأكله الناس والأنعام ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي والجبال أثبتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي فعل ذلك كله، فأنبع العيون، وأجرى الأنهار، وأنبت الزرع والأشجار، كل ذلك منفعةً للعباد وتحقيقًا لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم، قال الرازي: أراد بمرعاها ما يأكله الناسُ والأنعام، بدليل قوله ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ وانظر كيف دلَّ بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام والأنعام من العشب، والشجر، والحب، والثمر، والعصف، والحطب، واللباس والدواء، حتى الملح والنار، فالملح متولد من الماء، والنارُ من الأشجار[6].. ولما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، وما أبدع فيهما من عجائب الخلق والتكوين، ليقيم الدليل على إمكان الحشر عقلًا، أخبر

---

(١) «التفسير الكبير للرازي» ١٣/ ٤٣.

(٢) (ش): فُطُور: شُقوق.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير».

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٥) لا ينافي هذا القول بكروية الأرض، فإن ذلك مقطوع به حتى قال الإمام الفخر ما نصه: «كانت الأرض أولاً كالكرة المجتمعة، ثم إن الله تعالى مدها وبسطها، وليس معنى: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ مجرد البسط، بل المراد أنه بسطها بسطًا مهيأ لنبات الأقوات، يدل عليه قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ والجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي..» اهـ. «التفسير الكبير» ٣١/ ٤٨.

(٦) «التفسير الكبير» ٣١/ ٤٩.

بعـد ذلك عن وقوعه فعـلًا فقال ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ أي فإِذا جاءت القيامة وهي الداهية العظمى، التي تعمُّ بأهوالها كل شـيء، وتعلو على سـائر الدواهي قال ابن عباس: هي القيامة سـميت بذلـك لأنها تَطُمّ على كل أمـرٍ هائل مُفظِـع[1] ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي في ذلك اليوم يتذكر الإِنسـان ما عمله من خير أو شـر، ويراه مدوَّنًا في صحيفة أعماله ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي أُظهِرت جهنم للناظرين فرآها الناسُ عيانًا، باديةً لكل ذي بصر.. وبعد أن وصف حال القيامة وأهوالها، ذكر انقسـام الناس إِلى فريقين: أشقياء وسعداء فقال ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي جاوز الحدَّ في الكفر والعصيان ﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي فضَّل الحياة الفانية على الآخرة الباقية، وانهمك في شهوات الحياة المحرَّمة، ولم يستعد لآخرته بالعمل الصالح ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ أي فـإِنَّ جهنم المتأجِّجة[2] هي منزله ومأواه، لا منزل له سـواها ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي وأمَّـا من خـاف عظمة ربه وجلاله، وخـاف مقامه بين يـديْ ربه يوم الحسـاب، لعلمه ويقينه بالمبدأ والمعاد ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ أي وزجر نفسـه عن المعاصي والمحارم، وكَفَّها عن الشهوات التي تؤدي بها إِلى المعاطب ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ أي فإِن منزله ومصيره هي الجنة دار النعيـم، ليس لـه منزل غيرها[3].. ثـم ذكر تعالى موقـف المكذبين بالقيامة، المسـتهزئين بأخبار السـاعة فقال ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ أي يسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن القيامة متى وقوعُها وقيامُها؟ قال المفسـرون: كان المشركون يسمعون أنباء القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل «طامة، وصاخة، وقارعة» فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى يوجدها الله ويقيمهـا، ومتى تحـدُث وتقَع؟ فنزلت الآيـة[4] ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ أي ليـس علمها إِليك حتـى تذكرها لهـم، لأنها من الغيوب التي اسـتأثر الله بعلمها، فلماذا يسـألونك عنها ويُلحّون في السـؤال؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي مردُّهـا ومراجعهـا إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فهـو الذي يعلم وقتها على التعيين، لا يعلمه أحد سـواه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ أي ما واجبك يا محمد إِلا إِنذار مـن يخاف القيامة، لا الإِعلام بوقتها، وخصَّ الإِنذار بمن يخشـى، لأنه هو الذي ينتفع بذلك

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٩٨.

(٢) (ش): تأجَّجتِ النَّارُ: اشتعلت، التهبت وتوقّدت.

(٣) هذه الآيات الكريمة هي «الميزان الدقيق» لمعرفة الإنسان نفسه، هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟ وهل هو من السعداء أم من الأشقياء؟ فمن طغى وبغى، وآثر شهوات الحياة على طاعة ربه فهو الشقي المعذب بالجحيم، ومن أطاع الله واتقاه، وسارع إلى مرضاة مولاه، ونهى النفس عما تهواه فهو السعيد المكرم في دار النعيم، فليضع الإنسان نفسه في هذا الميزان.

(٤) (ش): عن عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– قال: إن مشركي أهل مكة سألوا النبي ﷺ، فقالوا: متى تقوم الساعة –استهزاء منهم–؟ فنزلت: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾؛ (ضعيف جدًا، ذكره السيوطي في «لباب النقول»، ونسبه لابن أبي حاتم. وعَنْ عَائِشَةَ –رضي الله عنها– قَالَتْ: « لَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنِ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾. (صحيح، رواه الحاكم وابن جرير الطبري في «تفسيره»).

الإنذار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي كأن هؤلاء الكفار يوم يشاهدون القيامة وما فيها من الأهوال، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار، بمقدار عشيةٍ أو ضحاها(١). قال ابن كثير: يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشية يوم، أو ضحى يوم.. ختم تعالى السورة الكريمة، بما أقسم عليه في أولها من إثبات «الحشر، والبعث» فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة والساعة(٢)، وليتناسق البدء مع الختام.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين الآخرة والأولى في قوله ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ لأن المراد كلمتيه الشنيعتين الأولى والأخيرة، والطباق كذلك بين ﴿عَشِيَّةً .. ضُحَىٰهَا﴾.

٢ - جناس الاشتقاق في قوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾.

٣ - المقابلة بين قوله ﴿ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ وبين ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ الآيات.

٤ - أسلوب التشويق ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؟ فإن المراد منه التشويق الى معرفة القصة.

٥ - الطباق بين ﴿ٱلْجَنَّةَ .. ٱلْجَحِيمِ﴾ وبين ﴿ٱلسَّمَآءُ .. ٱلْأَرْضَ﴾ الوارد في الآيات.

٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

٧ - الاستعارة التصريحية ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ شبَّه أكل الناس برعْي الأنعام، واستعير الرعي للإنسان بجامع أكل الإنسان والحيوان من النبات، ففيه استعارة لطيفة.

٨ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ضُحَىٰهَا، دَحَىٰهَآ، وَمَرْعَىٰهَا، أَرْسَىٰهَا﴾ وهو من المحسنات البديعية وسمى السجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات»



(١) (ش): العَشِيّ: الْوَقْت من بَعْدِ الظُّهْرِ إِلَى الْمغرب، أَو من صَلَاة الْمغرب إِلَى الْعَتَمَة، والعَتَمَة: ظُلْمة اللَّيل. والعَتَمَة: وقت صلاة العشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل. الضُّحَى: الْوَقْت من طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ.

(٢) (ش): قول المؤلف: « فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة والساعة »، تعبير غير سليم، لأنه يعطي معنى التشبيه بمعنى أنها تشبه الدليل والبرهان وليست دليلًا ولا برهانًا، وهذا تعبير صحفي دارج لا يليق بأسلوب التفسير.



مكية وآياتها ثنتان وأربعون

بين يدي السورة

* سورة عبس من السور المكية، وهي تتناول شئونًا تتعلق بالعقيدة وأمر الرسالة، كما أنها تتحدث عن دلائل القدرة، والوحدانية في خلق الإنسان، والنبات، والطعام، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها، وشدة ذلك اليوم العصيب.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، ورسول الله ﷺ مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام فعبس ﷺ وجهه وأعرض عنه، فنزلت القرآن بالعتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ الآيات.

* ثم تناولت دلائل القدرة في هذا الكون، حيث يسر الله للإنسان سبل العيش فوق سطح هذه المعمورة ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة الهول والفزع، وبينت حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم العصيب ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۝٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ
۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ
إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ
مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا
شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ
شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ

﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾

اللغَة: ﴿عَبَسَ﴾ كلح وجهه وقطَّب ﴿تَصَدَّىٰ﴾ تتعرض له وتصغي لكلامه ﴿سَفَرَةٍ﴾ السفرة: الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد جمع سافر مثل كاتب كَتَبة ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ جعل له قبرًا وأمر أن يُقْبر ﴿وَقَضْبًا﴾ القضبُ: كل ما يقطع من البقول فينبت أصلهُ مثل البرسيم «الفصة» والباقِلَاء، والكُرَّاث وغيرها(١) ﴿غُلْبًا﴾ كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان جمع غلباء ﴿وَأَبًّا﴾ الأَبُّ: المرعى وكل ما أنبتت الأرض مما تأكله البهائم كالكلأ والعشب ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ الصيحة التي تُصِمُّ الآذان لشدتها ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ مشرقة مضيئة ﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار ودخان ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد وظلمة.

سَبَبُ النّزول: روي أن النبي ﷺ كان مشغولًا مع صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، وكان يطمع في إسلامهم رجاء أن يسلم أتباعهم، فبينما رسول الله ﷺ مشتغل بمن عنده من وجوه قريش، جاء إليه «عبد الله بن أُم مكتوم» وهو أعمى، فقال: يا رسول الله، علمني مما علَّمك الله، وكرَّر ذلك وهو لا يعلم أن الرسول مشغول مع هؤلاء المشركين؛ فكره رسول الله ﷺ قطعة لكلامه وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه: «يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسَّفلة والعبيد، فعبس وجهه وأقبل على القوم يكلمهم فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الآيات(٢).

التفسِير: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ أي كلَّح وجهه وقطَّبه(٣) وأعرض عنه كارهًا، لأنْ جاءه الأعمى يسأل عن أمور دينه قال الصاوي: إنما أتى بضمائر الغيبة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ تلطفًا به ﷺ وإجلالًا له، لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة(٤) واسم الأعمى «عبد الله بن أُم مكتوم» وكان بعد نزول آيات العتاب إذا جاءه يقول له: «مرحبًا بمن

---

(١) (ش): باقِلاَّءُ: نبات عُشبيّ حَوْليّ تؤكل قُرونُه مطبوخة وكذلك بذورُه، مثل الفول واللوبيا. وقيل: القَضْبُ هو عَلَف الدَّوَابِّ.

(٢) حاشية الصاوي ٤/ ٢٩٢، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ٢١٠. (ش): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أُنْزِلَتْ عَبَسَ وَتَوَلَّى فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَى فَقَالَتْ: أَتَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَرْشِدْنِي، قَالَتْ: وَعِنْدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ وَيَقُولُ: «أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا» فَيَقُولُ: «لَا» فَفِي هَذَا أُنْزِلَتْ عَبَسَ وَتَوَلَّى» (صحيح، رواه الترمذي، والحاكم، والطبري في «تفسيره»).

(أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا): أي هل ترى في كلامي خطأً؟ أليس كلامي صوابًا؟، أليس ما أقوله حقًّا؟

(٣) (ش): أي ضَمَّ جِلد مَا بَين عَيْنَيْهِ وَجِلد جَبهته، وَظهَرَ أَثَرُ التَّغيُّرِ عَلَى وجهه.

(٤) (ش): فلم يقل: عبسْتَ وتولَّيْتَ، ولما انتهى العتاب وجه إليه الخطاب بصيغة المخاطب، قال- تعالى-: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣]... إلى آخر الآيات.

عاتبني فيه ربي، ويبسط له رداءه»[١] ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي وما يُعلمك ويخبرك يا محمد لعلَّ هذا الأعمى الذي عبستَ في وجهه، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة! ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ أي أويتعظ بما يسمع فتنفعه موعظتك ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي أما من استغنى عن اللهِ وعن الإيمان، بما له من الثروة والمال ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي فأنت تتعرَّض له وتصغي لكلامه، وتهتم بتبليغه دعوتك ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان، ولست بمطالب بهدايته، إنما عليك البلاغ قال الألوسي: وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المُدْبر مُخِلٌّ بالمرُوءة كما قال القائل:

وَاللهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتِي ... يَوْمًا لَقُلْتُ لَهَا عَنْ صُحْبَتِي بِينِي [٢]

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾ أي وأمَّا من جاءك يسرع ويمشي في طلب العلم للهِ ويحرص على طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ أي وهو يخاف الله تعالى ويتقي محارمه ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي فأنت يا محمد تتشاغل عنه، وتتلهى بالانصراف عنه إلى رؤساء الكفر والضلال ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي لا تفعل بعدم اليوم مثل ذلك، فهذه الآيات موعظة وتبصرة للخلق، يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها العقلاء ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن، واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته، قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبدًا، وكان الفقراء في مجلسه أمراء[٣]، وكان إذا دخل عليه «ابن أم مكتوم» يبسط له رداءه ويقول: مرحبًا بما عاتبني فيه ربي[٤]. ثم بعد هذا البيان أخبر عن جلالة قدر

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» / ٢٩١. (ش): عن قتادة؛ قال: نزلت في ابن أم مكتوم أربع آيات: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾، ونزل فيه: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾، ونزل فيه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، ونزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]؛ فدعا به النبي ﷺ، فأدناه وقربه، وقال: «أنت الذي عاتبني فيك ربي». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، ونسبه لابن المنذر). وعن أنس بن مالك قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أُبيّ بن خلف؛ فأعرض عنه؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه». (صحيح، رواه ابن جرير الطبري «تفسيره»).

(٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٤٠. (ش): أي لَوْ كَرَهَتْنِي يَدِي ما صَحِبَتْنِي. بِينِي: أي انفصلي. بان الشَّخصُ عنه/ بان الشَّخصُ منه: بَعُد وانفصل، انقطع عنه وفارقه.
يُنسب لذي الإصبع العدواني قوله:

لَا أَبْتَغِي وَصْلًا لِمَنْ لَا يَبْتَغِي صِلَتِي ... وَلَا أَلِينُ لِمَنْ لَا يَبْتَغِي لِينِي
وَاللهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتِي ... لَقُلْتُ لِلْكَفِّ بِينِي إِذْ كَرِهْتِينِي

(٣) (ش): ما رُوِيَ من أنه ﷺ كان بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبدًا، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٤) عن قتادة؛ قال: نزلت في ابن أم مكتوم أربع آيات: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾، ونزل فيه: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾، ونزل فيه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، ونزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]؛ فدعا به النبي ﷺ، فأدناه وقربه، وقال: «أنت الذي عاتبني فيك ربي». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، =

القرآن فقال ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ أي هو في صحفٍ مكرمة عند الله ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾ أي عالية القدر والمكانة، منزهة عن أيدي الشياطين، وعن كل دنسٍ ونقص ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي مكرمين معظمين عند الله، أتقياء صُلَحاء ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ثم ذَكَر تعالى قُبْحَ جريمة الكافر، وإفراطِه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه فقال ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ أي لُعِن الكافر وطُرِد من رحمة الله، ما أشدَّ كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأيَادِيه عنده![1] قال الألوسي: والآية دعاءٌ عليه بأشنع الدعوات وأفظعها، وتعجيبٌ من إفراطه في الكفر والعصيان، وهذا في غاية الإيجاز والبيان[2] ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه؟ ثم وضَّح ذلك فقال ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ أي من ماءٍ مهين حقير بدأ خلقه، فقدَّره في بطن أمه أطوارًا من نطفة ثم من علقة إلى أن تمَّ خَلْقُه قال ابن كثير: قدَّر رزقه، وأجله، وعمله، وشقيّ أو سعيد[3] ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي ثم سهَّل له طريق الخروج من بطن أمه[4] قال الحسن البصري: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين؟[5] يعني الذَّكَر والفَرْج ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي ثم أماته وجعل له قبرًا يُوارَى فيه إكرامًا له، ولم يجعله مُلقًى للسباع والوحوش والطيور. قال الخازن: وهذه تكرمة لبني آدم على سائر الحيوانات ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي ثم حين يشاء الله إحياءه، يُحْيِيه بعد موته للبعث والحساب والجزاء[6]، وإنما قال ﴿إِذَا شَاءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله تعالى، متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي ليرتدع وينزجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره، فإنه لم يؤد ما فرض عليه، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة.. ولما ذكر خلق الإنسان، ذكر بعده رزقه، ليعتبر بما أغدق الله عليه من أنواع النعم، فيشكر ربه ويطيعه فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد نظر تفكر واعتبار، إلى أمر حياته، كيف خلقه بقدرته، ويسره برحمته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، وخلق له الطعام الذي به قوام حياته؟! ثم فصَّل ذلك فقال

= ونسبه لابن المنذر). وعن أنس بن مالك قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أُبيّ بن خلف؛ فأعرض عنه؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾؛ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه». (صحيح، رواه ابن جرير الطبري «تفسيره»).

(١) (ش): أي مع كثرة إحسانه إليه ونعمه عنده.

(٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٤٣.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٠٠.

(٤) (ش): وقيل: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي ثم بَيَّنَ له طريق الخير والشر.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢١٦.

(٦) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٠.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ أي أنا بقدرتنا أنزلنا الماء من السحاب على الأرض إنزالًا عجيبًا ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي شققنا الأرض بخروج النبات منها شقًّا بديعًا ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواع الحبوب والنباتات: حبًّا يقتات الناس به ويدخرونه، وعنبًا شهيًا لذيذًا، وسائر البقول مما يؤكل رَطِبًا ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ أي وأخرجنا كذلك أشجار الزيتون والنخيل، يخرج منها الزيت والرطَب والتَمْر[1] ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أي وبساتين كثيرة الأشجار، ملتفة الأغصان ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ أي وأنواع الفواكه والثمار، كما أخرجنا ما تراعاه البهائم قال القرطبي: الأبُّ ما تأكله البهائم من العشب[2] ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي أخرجنا ذلك وأنبتناه ليكون منفعة ومعاشًا لكم أيها الناس ولأنعامكم قال ابن كثير: وفي هذه الآيات امتنانٌ على العباد وفيها استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظامًا باليةً وأوصالًا متفرقة[3] ثم ذكر تعالى بعد ذلك أهوال القيامة فقال ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي فإذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ الآذان حتى تكاد تصمها ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يهرب الإنسان من أحبابه، من أخيه، وأمه، وأبيه، وزوجته، وأولاده لاشتغاله بنفسه قال في التسهيل: ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه، ورتبهم على مراتبهم في الحُنُوّ والشفقة[4]، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر، لأن الإنسان أشدُّ شفقةً على بنيه من كل من تقدم ذكره[5] ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي لكل إنسان منهم في ذلك اليوم العصيب، شأنٌ يشغله عن شأن غيره، فإنه لا يفكر في سِوَى نفسه، حتى إن الأنبياء صلوات الله عليهم ليقول الواحد منهم يومئذٍ «نَفْسِي نَفْسِي»[6].. ولما بيَّن تعالى حال القيامة وأهوالها، بيَّن بعدها حال الناس وانقسامهم في ذلك اليوم إلى سعداء وأشقياء، فقال في وصف السعداء: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي وجوه في ذلك اليوم مضيئة مشرقة من البهجة والسرور ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي فَرِحَةٌ مسرورة بما رأَتْه من كرامة الله ورضوانه، ومستبشرة بذلك النعيم الدائم ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي ووجوه في ذلك اليوم عليها غبارٌ ودخان ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي تغشاها وتعلوها ظلمةٌ وسواد ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي أولئك الموصوفون بسواد الوجوه، هم الجامعون بين الكفر والفجور، قال الصاوي: جمع الله تعالى إلى سواد وجوههم

---

(١) (ش): التَمْر: ما يَبِسَ من البلح (ثمر النخل)، أي جَفَّ بعد رُطوبة، وهو كالزّبيب من العنب. الرطَب: ما نضج من البلح قبل أن يصير تَمْرًا. أي ما صار ليِّنًا حُلوًا قبل أن يصير تَمْرًا.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٢٠.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٠١.
(٤) (ش): حَنَا على فلانٍ: عطف وأشفق عليه.
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٠.
(٦) هذا جزء من حديث في الشفاعة أخرجه البخاري ومسلم.

الغَبرة كما جمعوا الكفر إلى الفجور(١).

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في العتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.
. ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؟ فالتفت تنبيهًا للرسول ﷺ إلى العناية بشأن الأعمى.

٢ - جناس الاشتقاق بين ﴿يَذَّكَّرُ .. ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾.

٣ - الكناية الرائقة ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ كنَّى بالسبيل عن خروجه من فرج الأم.

٤ - أسلوب التعجب ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؟ تعجبٌ من إفراط كفره، مع كثرة إحسان الله إليه.

٥ - الطباق بين ﴿تَصَدَّىٰ﴾ وبين ﴿تَلَهَّىٰ﴾ لأن المراد بهما تتعرض وتنشغل.

٦ - التفصيل بعد الإجمال ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ثم فصَّل ذلك وبيَّنه بقوله ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾.

٧ - المقابلة اللطيفة بين السعداء والأشقياء ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ قابلها بقوله ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.

٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهو من المحسنات البديعية ويسمى السجع مثل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ ومثل ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ يَذَّكَّرُ .﴾ إلخ.

لطيفَة: اقتبس بعض الأدباء من قوله تعالى ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؟ هذين البيتين:

يَتَمَنَّى الْمَرْءُ فِي الصَّيْفِ الشِّتَا ... فَإِذَا جَاءَ الشِّتَا أَنْكَرَهْ
فَهُوَ لاَ يَرْضَى بِحَالٍ وَاحِدٍ ... قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهْ(٢)

«انتهى تفسير سورة عبس»



(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٩٤.
(٢) (ش): الشِّتَا: الشِّتَاء.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ (٨١) (٢٩ آية)

مكية وآياتها تسع وعشرون

بين يدي السورة

* سورة التكوير من السور المكية، وهي تعالج حقيقتين هامتين هما: «حقيقة القيامة» وحقيقة «الوحي والرسالة» وكلاهما من لوازم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بيان القيامة وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل، يشمل الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، كما يشمل البشر، ويهز الكون هزًّا عنيفًا طويلًا، ينتثر فيه كل ما في الوجود، ولا يبقى شيء إلا وقد تبدل وتغير من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ الآيات.

* ثم تناولت حقيقة الوحي، وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور العلم والإيمان ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن العظيم، وذكرت أنه موعظة من الله تعالى لعباده ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾
وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾
بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ
﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا
تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ
﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ

اللغَة: ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ تناثرت ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ جمع عُشَراء وهي الناقة التي مرَّ على حملها عشرة أشهر ﴿كُشِطَتْ﴾ نُزِعَت وقُلِعَت يقال: كَشَطْت جلدَ الشاة أي نزعته وسلَختُه عنها ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ الكواكب المضيئة التي تخنس نهارًا وتختفي عن البصر جمع خانس ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ النجوم التي

تغيب يقال: كنس إذا دخل الكناس وهو المكان الذي تأوي إليه الظِّباء ﴿عَسْعَسَ﴾ أقبل بظلامه. قال الخليل: عسعس الليلُ: إذا أقبل أو أدبر فهو من الأضداد قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا (١)

التفسير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هذه الآيات بيانٌ لأهوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغيير والتخريب. والمعنى: إذا الشمس لُفَّتْ ومُحِيَ ضَوْءُها ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت من مواضعها وتناثرت ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي وإذا الجبال حُرِّكت من أماكنها، وسُيِّرت في الهواء حتى صارت كالهَبَاء(٢) كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي وإذا النوق(٣) الحوامل تُرِكت هَمَلاً بلا راعٍ ولا طالب، وخصَّ النوق بالذكر لأنها كرائم أموال العرب(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي وإذا الوحوش جُمِعَت من أوْكارها وأجحارها ذاهلةً من شدة الفزع(٥) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار تأججت نارًا، وصارت نيرانًا تضطرم وتلتهب ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي وإذا النفوس قُرِنَت بأشباهها، فقُرِن الفاجرُ مع الفاجر، والصالحُ مع الصالح، قال الطبري: يُقرَن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء مع الرجل السُّوء في النار(٦)

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ أي وإذا البنت التي دفنت وهي حية سئلت توبيخًا لقاتلها: ما ذنبها حتى قتلت؟ قال في التسهيل: الموءودة هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حيَّةً من كراهته لها أو غَيْرته عليها، فتُسْأل يوم القيامة ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾؟ على وجه التوبيخ لقاتلها(٧) ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي وإذا صحف الأعمال نُشِرت وبُسِطَت عند الحساب ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي وإذا السماء أُزيلَت ونُزِعَت من مكانها كما يُنزَع الجلد عن الشاة ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي وإذا نار جهنم أُوقِدَت وأُضْرِمَت لأعداء الله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي وإذا الجنة أُدْنِيَت

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٣٠.

(٢) (ش): الهَبَاء: ما يُرى في ضوء الشمس من الغبار الخفيف.

(٣) (ش): النوق: جمع ناقَة: وهي الأنثى من الإِبل، أنثَى الجمل.

(٤) (ش): كرائمُ الأموال: نفائسها وخيارها.

(٥) (ش): أَوْكار: جمع وَكْر: عُشُّ الطائر الذي يبيض فيه ويُفرِّخ، سواء أكان ذلك في جبل أم شجر أم غيرهما. أجْحَار: جمع جُحْر: حُفْرة تأوي إليها وصغار الحيوانات والهوامّ. والهوامّ جمع هامَّة: ما كان له سمٌّ قاتل، كالحيَّة.

(٦) هذه رواية الطبري عن عمر بن الخطاب، وقيل المراد: قَرْنُ الأجساد بالأرواح، والأول أرجح والله أعلم. (ش): هكذا في «تفسير الطبري»، ولعل الصواب: يُقرَن الرجلُ الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، والرجلُ السوء مع الرجل السُّوء في النار، أو: يُقرَن بين الرجل الصالح والرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء والرجل السُّوء في النار.

(٧) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٨١.

وقُرِّبَت من المتقين ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ أي علمت كل نفسٍ ما أحضرتْ من خيرٍ أو شـر، وهذه الجملة ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾ هي جواب ما تقدم من أول السـورة ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ إلى هنا. والمعنـى إذا حدثـت تلك الأمور العجيبة الغريبة، علمت حينئـذٍ كل نفسٍ ما قدَّمَتْه من صالح أو طالح.. ثم أقسـم تعالى على صدق القرآن، وصحة رسـالة محمد عليه السـلام فقال ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ أي فأقسـم قسـمًا مؤكدًا بالنجوم المضيئة التي تختفي بالنهـار، وتظهر بالليل[١] ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ أي التي تجري وتسير مع الشـمس والقمر ثم تستتر وقت غروبها، كما تستتر الظباء في كناسها -مغاراتها- قال القرطبي: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وتنكس وقت غروبها أي تسـتتر، كما تنكس الظباء في المغار وهو الكناس[٢] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي وأقسـم بالليـل إذا أقبل بظلامه حتى غطَّى الكـون[٣] ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي وبالصبح إذا أضاء وتبلَّج، واتَّسع ضياؤه حتى صار نهارًا واضحًا ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هذا هو المُقْسَم عليه، أي: إن هذا القرآن الكريم، لَكلامُ الله المنزَّل بواسـطة ملك عزيز على الله هو جبريل كقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤] قال المفسرون: أراد بالرسول «جبريل» وأضاف القـرآن إليـه لأنه جاء به، وهو في الحقيقـة قول الله تعالى، ومما يدل علـى أن المراد به جبريل قولـه بعده ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ أي شـديد القوة، صاحب مكانة رفيعة، ومنزلة سـامية عنـد الله جـلّ وعلا ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ أي مطـاع هناك في الملأ الأعلى، تطيعـه الملائكة الأبرار، مؤتمـن على الوحي الذي ينزل به علـى الأنبياء ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ أي وليس محمد الذي صاحبتموه يا معشـر قريش، وعرفتـم صدقه ونزاهته ورجاحة عقله بمجنـون كما زعمتم قال الخازن: أقسـم تعالـى على أن القرآن نزل بـه جبريل الأمين، وأن محمـدًا ﷺ ليس بمجنون كمـا يزعم أهل مكة، فنفى تعالى عنه الجنون، وكون القرآن من عند نفسـه[٤] ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي وأقسـمُ لقـد رأى محمد ﷺ جبريل في صورتـه الملكية التي خلقه الله عليها بجهة الأفق الأعلى البيِّن من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس قال في البحر: وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء، حين رأى جبريل على كرسـي بين السـماء والأرض، في صورته له ستمائة جناح قد سـدَّ ما بين المشـرق والمغرب[٥] ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ أي وما محمد على الوحي ببخيل

---

(١) هذا قول علي وابن عباس ومجاهد والحسن، كذا في «الطبري» ٣٠/ ٤٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٣٥.

(٣) هذا القول أرجح لمقابلته بالصبح فكأنه يقول: أقسم بالليل حين يقبل بظلامه، وبالنهار حين يقبل بضيائه، وهو اختيار ابن كثير.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٥.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٤٣٤. (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ =

يقصِّر في تبليغه وتعليمه، بل يبلغ رسالة ربه بكل أمانةٍ وصدق ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان ملعون كما يقول المشركون ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أيْ فأيَّ طريقٍ تسلكون في تكذيبكم للقرآن، واتهامكم له بالسحر والكهانة والشعر، مع وضوح آياته وسطوع براهينه؟ وهذا كما تقول لمن ترك الطريق المستقيم: هذا الطريق الواضح فأين تذهب؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا موعظة وتذكرة للخلق أجمعين ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي لمن شاء منكم أن يتبع الحق، ويستقيم على شريعة الله، ويسلك طريق الأبرار ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وما تقدرون على شيء إلا بتوفيق الله ولُطْفه، فاطلبوا من الله التوفيق إلى أفضل طريق.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ و ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾.

٢ - الاستعارة التصريحية ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ شبَّه إقبال النهار وسطوع الضياء بنسمات الهواء العليل التي تحيي القلب، واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس، وهذا من لطيف الاستعارة وأبلغها تصويرًا حيث عبر عنه بتنفس الصبح[1].

٣ - الكناية اللطيفة ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ كنى عن محمد ﷺ بلفظ ﴿صَاحِبُكُم﴾.

٤ - الطباق بين لفظ ﴿ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ.. ٱلْجَنَّةُ﴾.

٥ - الجناس غير التام بين ﴿أَمِينٍ.. مَكِينٍ﴾.

٦ - توافق الفواصل رعاية لرءوس الآيات مثل ﴿كُوِّرَتْ، سُيِّرَتْ، سُجِّرَتْ، سُعِّرَتْ﴾ ومثل ﴿بِٱلْخُنَّسِ، ٱلْكُنَّسِ، عَسْعَسَ، تَنَفَّسَ﴾ الخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير»



= جَنَاحٍ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: « إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، أَمَّا مَرَّةٌ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ نَفْسَهُ فِي صُورَتِهِ، فَأَرَاهُ صُورَتَهُ فَسَدَّ الْأُفُقَ، وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَإِنَّهُ صَعِدَ مَعَهُ حِينَ صَعِدَ بِهِ. (رواه أحمد، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح). وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِي رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ - قَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَدَثَّرُونِي فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ وَهِيَ الأَوْثَانُ قَالَ ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ. (رواه البخاري ومسلم). فَجُئِثْتُ: ففزعتُ.

(١) (ش): النَّسيم: ريح خفيفة لا تُحرِّك شجرًا ولا تُعَفِّي أثرًا. الهواء العليل: نسيمٌ رقيق ليِّنُ الهبوبِ، مُنعشٌ لطيف. دمَسَ الظَّلامُ: اشتدَّ سوادُه.



مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة الانفطار من السور المكية، وهي تعالج - كسابقتها سورة التكوير - الانقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام[1]، ثم بيان حال الأبرار، وحال الفجار، يوم البعث والنشور.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون، من انفطار السماء وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؟!

* ثم ذكر علة هذا الجحود والإنكار، ووضحت أن الله تعالى وكل بكل إنسان ملائكة يسجلون عليه أعماله، ويتعقبون أفعاله ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين: أبرار، وفجار، وبينت مآل كل من الفريقين ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله، وتجرد النفوس يومئذٍ من كل حول وقوة، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ
نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ

---

(١) (ش): أحداثٌ جِسَام: أحداث عظيمة.

أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ

اللغة: ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ انشقت، والفَطْرُ: الشقُّ ومنه فطر نابُ البعير ﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾ تساقطت وتهاوت ﴿بُعۡثِرَتۡ﴾ قُلبت يقال: بعثرت المتاع قَلَبْته ظهرًا لبطن ﴿غَرَّكَ﴾ خدعك ﴿سَوَّىٰكَ﴾ جعل أعضاءك سليمة سويّة ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ يدخلونها ويذوقون لهبها وحرَّها.

التفسير: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ أي إذا السماء انشقت بأمر الله لنزول الملائكة كقوله تعالى ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت وتناثرت، وزالت عن بروجها وأماكنها ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ أي وإذا البحار فُتِح بعضُها إلى بعض، فاختلط عذْبُها بمالحها، وأصبحت بحرًا واحدًا ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ أي وإذا القبور قُلبَت، ونُبِشَ ما فيها من الموتى[1]، وصار ما في بطنها ظاهرًا على وجهها ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ هذا هو الجواب أي علمت عندئذٍ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر، وما قدمت من صالح أو طالح قال الطبري: ما قدمت من عمل صالح، وما أخرت من شيء سَنَّه فعُمِل به بعده[2] ثم بعد ذِكْر أحوال الآخرة وأهوالها، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال وشدائد فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ خدعك بربك الحليم الكريم، حتى عصيته وتجرأت على مخالفة أمره، مع إحسانه إليك وعطفه عليك؟[3] وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال: كيف قابلتَ إحسان ربك بالعصيان، ورأفته بك بالتمرد والطغيان ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]؟ ثم عدَّد نعمه عليه فقال ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ أي الذي أوجدك من العدم، فجعلك سويًّا سالم الأعضاء، تسمع وتعقل وتبصر ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي جعلك معتدل القامة منتصبًا في أحسن الهيئات والأشكال ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي ركَّبك في أي صورة شاءها واختارها لك من الصور الحسنة العجيبة ولم يجعل في الشكل كالبهيمة كقوله تعالى ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].. ثم وبَّخ المشركين على تكذيبهم بيوم الدين فقال ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أي ارتدعوا يا أهل مكة، ولا تغتروا بحلم الله، بل أنتم تكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي والحالُ أن عليكم ملائكة حفظة يضبطون أعمالكم ويراقبون تصرفاتكم قال القرطبي: أي

(١) (ش): أي قُلِبَ تُرَابُهَا، وَخَرَجَ الْأَمْوَاتُ مِنْهَا.

(٢) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٥٤.

(٣) هذه الآية واردة على سبيل التوبيخ والتعجب من حال الإنسان الجاحد لنعم ربه، وليست واردة على سبيل تلقين الحجة كما قال البعض حتى قالوا: يُلَقِّنه أن يقول: غَرَّني كرمُك، ويؤيد ما ذكرناه قول عمر: «غره حُمقُه وجَهلُه».

عليكـم رقباء من الملائكـة[١] ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ أي كرامًا على الله، يكتبـون أقوالكم وأعمالكم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يعلمون ما يصدر منكم من خير وشر، ويسجلونه في صحائف أعمالكم، لتُجـازَوْا به يوم القيامة.. ثم بَيَّن تعالى انقسـام الخلق يوم القيامـة إلى أبرار وفجار، وذكر مآل كلٍّ مـن الفريقيـن فقـال ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي إن المؤمنين الذين اتقوا ربهـم في الدنيا، لَفِي بهجـة وسـرور لا يُوصَـف، يتنعمـون في رياض الجنة بمـا لا عينٌ رأتْ ولا أذن سـمعت، ولا خطـر على قلب بشـر، وهم مخلدون في الجنـة ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي وإن الكفرة الفجار، الذيـن عصوا ربهم في الدنيا، لفـي نار محرقةٍ، وعذاب دائم مقيـم في دار الجحيم ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يدخلونها ويقاسـون حرها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي وليسـوا بغائبين عن جهنـم، بعيدين عنها لا يرونها، بل هي أمامهم يَصْلَونَ ويذوقون سـعيرها ولا يخرجـون منها أبدًا ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعظيمٌ له وتهويل أي ما أعلمك ما يوم الدين؟ وأيُّ شيءٍ هو في شدته وهوله؟ ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟ كرر ذكره تعظيمًا لشأنه، وتهويلًا لأمـره كقوله ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١٣]؟ كأنه يقول: إن يوم الجزاء من شـدته بحيث لا يدري أحدٌ مقدار هوله وعظمتـه، فهو فوق الوصف والبيان ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي هـو ذلـك اليـوم الرهيب الذي لا يسـتطيع أحد أن ينفع أحدًا بشـيء من الأشياء، ولا أن يدفع عنه ضرًّا ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي والأمر في ذلك اليوم لله وحده لا ينازعه فيه أحد.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿قَدَّمَتْ﴾ و ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٢ - المقابلـة اللطيفة بين الأبرار والفجـار ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ فقد قابل الأبرار بالفجار، والنعيم بالجحيم وفيه أيضًا من المحسنات البديعية ما يسمى بالترصيع.

٣ - الاسـتعارة المكنيـة ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ شـبَّه الكواكـب بجواهـر قُطِـع سِـلْكُها[٢] فتناثـرت متفرقة، وطوى ذكر المشـبه به ورمز له بشـيء مـن لوازمه وهو الانتثـار على طريق الاستعارة المكنية.

٤ - الاستفهام للتوبيخ والإنكار ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟

٥ - التنكير في كل من لفظة ﴿نَعِيمٍ﴾ و ﴿جَحِيمٍ﴾ للتعظيم والتهويل.

٦ - الإطناب بإعادة الجملة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟ لتعظيم

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٤٥.

(٢) (ش): سِلْك: خيط يُنظم فيه الخرز ونحوه أو يخاط به.

هول ذلك اليوم وبيان شدته كأنه فوق الوصف والخيال.

٧ - السجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ ومثل ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ ومثل ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾.

لطيفَة: روي أن الخليفة «سليمان بن عبد الملك» قال لأبي حازم المزني: ليت شعري أين مصيرنا يوم القيامة؟ وما لنا عند الله؟ فقال له: اعرضْ عملك على كتاب الله تجد ما لك عند الله (فقال: وأين أجد ذلك في كتاب الله؟ قال: عند قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ قال سليمان: فإين إذًا هي رحمة الله؟ فأجابه بقوله ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار»



سُورَةُ المُطَفِّفِين (٨٣) (٣٦)

مكية وآياتها ست وثلاثون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، تعالج أمور العقيدة وتتحدث عن الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها الألداء.

* ابتدأت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين في الكيل والوزن، الذين لا يخافون الآخرة ولا يحسبون حسابًا للوقفة الرهيبة بين يدي أحكم الحاكمين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

* ثم تحدثت عن الأشقياء الفجار، وصورت جزاءهم يوم القيامة، حيث يساقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الآيات.

* ثم عرضت لصفحة المتقين الأبرار، وما لهم من النعيم الخالد الدائم، في دار العز والكرامة، وذلك في مقابلة ما أعده الله للأشقياء الأشرار، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بمواقف أهل الشقاء والضلال، من عباد الله الأخيار، حيث كانوا يهزءون بهم في الدنيا ويسخرون عليهم لإيمانهم وصلاحهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا
يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ
۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ
إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا
إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢
عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ

وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟
فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ

اللغَة: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ جمع مُطفّف وهو الذي يُنقِص في الكيل والوزن، والتطفيف: النقصان وأصله من الطفيف وهو الشيء اليسير، لأن المطفّف لا يكاد يسرق في الكيل والوزن إلا الشيء اليسير ﴿رَانَ﴾ غطّى وغشّى كالصدأ يغشى السيف، وأصله الغلبة يقال: رانَت الخمرُ على عقل شاربها أي غلبَتْه قال الشاعر:

وَكَـمْ رَانَ مِنْ ذَنْـبٍ عَلَى قَلْبِ فَاجِرِ[١]

﴿رَّحِيقٍ﴾ أجود الخمر وأصفاه وفي الصحاح: الرحيق صفوة الخمر وقال الأخفش: هو الشراب الذي لا غش فيه قال الحسن:

بَـرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ [٢]

﴿فَكِهِينَ﴾ معجبين متلذذين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً ﴿ثُوِّبَ﴾ جُوزِيَ ﴿تَسْنِيمٍ﴾ عَينٌ عالية شرابها أشرف شراب، وأصل التسنيم الارتفاع ومنه سَنَام البعير[٣].

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسَنوا الكيل بعد ذلك»[٤].

التفسير: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي هلاك وعذاب ودمار، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بيَّن أوصافهم القبيحة بقوله ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيًا كاملًا لأنفسهم ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، يُنقِصون الكيل والوزن قال المفسرون: نزلت في رجل يُعرف بـ «أبي جهينة» كان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر[٥]، وهو وعيدٌ لكل من طفَّف الكيل والوزن، وقد أهلك الله قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان، وفي الحديث «ولا

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٣٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٤. (ش): البيت يُنسَب لحسان بن ثابت، يمدح الغساسنة في الجاهلية. بَرَدَى: أي مَاءَ بَرَدَى، نهر بدمشق. يُصَفَّقُ: يُمزَج. سَلْسَل: عذْبٌ صافٍ سَلِس سهل.

(٣) (ش): سَنَام البعير: سَنَام الجمل: كتلة كبيرة من الشَّحْم مُحدَّبة على ظهره.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦١٣. (ش): حسن، رواه الحاكم، وابن ماجه، وابن حبان، وابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٥) (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

طففوا الكيل إلاّ منعوا النبات وأُخذوا بالسنين»[١] ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي ألاَ يَعْلم ويستَيْقين أولئك المطففون أنهم سيبعثون ليوم عصيب، شديد الهول، كثير الفزع؟! ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي يوم يقفون في المحشر حفاةً عراةً، خاشعين خاضعين لرب العالمين [٢] قال في البحر: وفي هذا الإنكار والتعجيب، ووصف اليوم بالعِظَم، وقيام الناس لله خاضعين، ووصفهُ برب العالمين، دليلٌ على عِظَم هذا الذنب وهو التطفيف[٣]، وفي الحديث عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ[٤].. ثم ذكر تعالى مآل الفجار، ومآل الأبرار فقال ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ أي لِيرتدِعْ هؤلاء المطففون عن الغفلة عن البعث والجزاء، فإن كتاب أعمال الأشقياء الفجار، لفي مكان ضيّق في أسفل سافلين ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أي هل تعلم ما سجين؟ ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي هو كتاب مكتوبٌ كالرَّقْم في الثوب[٥]، لا يُنسَى ولا يُمحَى، أُثبِتَتْ فيه أعمالهم الشريرة قال ابن كثير: ﴿سِجِّينٍ﴾ مأخوذ من السجن وهو الضيق، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل سافلين، وهي تجمع الضيق والسفول، أخبر تعالى أنه كتاب مرقوم، أي: مكتوبٌ مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد[٦] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي وما يكذب بيوم الحساب والجزاء ألا كل متجاوز الحد في الكفر والضلال، مُبالِغ في العصيان والطغيان، كثير الآثام، ثم وضّح من إجرامه فقال ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا تُلِيَتْ عليه آيات القرآن، الناطقة بحصول البعث والجزاء، قال

---

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس مرفوعًا، وانظر الألوسي ٣٠/ ٧١. (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما – قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم – فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ» (حسن رواه ابن ماجه). (الْفَاحِشَةُ) أي الزنا. (الْأَوْجَاعُ) أي الأمراض. (السِّنِين) أي الفقر. (الْقَطْرَ) أي المطر. (بَأْسَهُمْ) أي حربهم.

(٢) (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما– عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وآله وسلم – قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (رواه البخاري). (غُرْلًا):غير مَخْتُونِينَ.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٠.

(٤) أخرجه الشيخان ومالك. (ش): الرشح: العرق.

(٥) (ش): رقَم الثَّوبَ ونحوَه: طرّزه وخطّطه.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦١٤.

عنها: هذه حكايات وخرافات الأوائل، سطروها وزخرفوها في كتبهم ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر عن ذلك القول الباطل، فليس القرآن أساطير الأولين، بل غَطَّى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب، فطمَسَ بصائرَهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي قال المفسرون: الرَّان هو الذنب على الذنب حتى يَسْوَدَّ القلب(١) ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ أي لِيرتدِعْ هؤلاء المكذبون عن غَيِّهم وضلالهم، فهم في الآخرة محجوبون عن رؤية المولى جل وعلا فلا يرَوْنه قال الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرَوْنه عَزَّ وَجَلَّ -وقال مالك: لما حجب أعداءَه فلم يرَوْه، تجلَّى لأوليائه حتى رَأَوْه(٢)- ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي ثم إنهم مع الحرمان عن رؤية الرحمن، لداخلو الجحيم وذائقو عذابها الأليم ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي ثم تقول لهم خزنة جهنم على وجه التقريع والتوبيخ: هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ﴿ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الطور: ١٥]؟.. وبعد الحديث عن حال الفجار، ذكر تعالى نعيم الأبرار فقال ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ ﴿ كَلَّآ ﴾ ردعٌ وزجر، أي: ليس الأمر كما يزعمون من مساواة الفجار بالأبرار، بل كتابه في سجين، وكتاب الأبرار في عليين، وهو مكان عالٍ مشرَّف في أعلى الجنة، قال في التسهيل: ولفظ ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ للمبالغة، وهو مشتق من العلو لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة، أو لأنه في مكان عليٍّ رفيع فقد رُوِي أنه تحت العرش(٣) ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ تفخيمٌ وتعظيم لشأنه أي وما أعلمك يا محمد ما عليون؟ ﴿ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ أي كتابُ الأبرار كتاب مُسَطَّر، مكتوب فيه أعمالهم، وهو في عليين في أعلى درجات الجنة، يشهده المقربون من الملائكة قال المفسرون: إن روح المؤمن إذا قُبضت صُعد بها إلى العرش، فيخرج لهم رقٌّ فيكتب فيه ويختم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب ويشهده المقربون(٤) ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾

(١) وفي الحديث: « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ؛ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ ». رواه الترمذي. (ش): ورواه أحمد وحسنه الألباني. (نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ) أَيْ جُعِلَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ أَيْ أَثَرٌ قَلِيلٌ كَالنُّقْطَةِ شَبَهُ الْوَسَخِ فِي الْمِرْآةِ وَالسَّيْفِ وَنَحْوِهِمَا. (نَزَعَ) أَيْ كفَّ نَفْسَهُ وانتهى عَن ارْتكَابِ الْمَعَاصِي. (صُقِلَ قَلْبُهُ) أي نُظِّفَ، وَصُفِّيَتْ مِرْآةُ قَلْبِهِ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ بِمَنْزِلَةِ الْمِصْقَلَةِ تَمْحُو وَسَخَ الْقَلْبِ. (وَإِنْ عَادَ) أَيْ الْعَبْدُ فِي الذَّنْبِ وَالْخَطِيئَةِ (زِيدَ فِيهَا) أَيْ فِي النُّكْتَةِ السَّوْدَاءِ (حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ) أَيْ تَعْلُوَ النُّكت قَلْبَهُ، أَيْ تُطْفِئَ نُورَ قَلْبِهِ فَتُعْمِي بَصِيرَتَهُ (وَهُوَ) أي الْأَثَرُ الْمُسْتَقْبَحُ الْمُسْتَعْلِي (الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ) أَيْ فِي كِتَابِهِ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٥٩.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٥. (ش): رواه الطبري من كلام قتادة في تفسير الآية.

(٤) ذكره القرطبي عن كعب ١٩/ ٢٦٠. (ش): هو كعب بن ماتع الحميرى، المعروف بكعب الأحبار، من كبار التابعين، كان من أهل اليمن، وكان على دين اليهود، فأسلم فى خلافة أبى بكر رضي الله عنه، وتوفِّي فى آخر خلافة عثمان رضي الله عنه. وعَنْ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ بُدَيْلٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ =

أي إن المطيعين لله في الجنات الوارفة، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي هم على السُّرُر المُزَيَّنة بفاخِر الثياب والسُّتور، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة، لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورَوْنَقه[1] ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي يُسقون من خمرٍ في الجنة، بيضاء طيبة صافية، لم تُكدِّرْها الأيدي، قد خُتْم على تلك الأواني فلا يفُكّ خَتْمها إلا الأبرار ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي وفي هذا النعيم والشراب الهنيء، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله، وليتسابق المتسابقون قال الطبري: التنافسُ مأخوذ من الشيء النفيس الذي يحرص عليه الناس، وتشتهيه وتطلبه نفوسهم. والمعنى: فليستبقوا في طلب هذا النعيم، ولتحرص عليه نفوسهم[2] ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي يمزج ذلك الرحيق من عينٍ عالية رفيعة، هي أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه تسمى «التسنيم» ولهذا قال بعده ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي هي عينٌ في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لسائر أهل الجنة قال في التسهيل: تسنيم أسمٌ لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا، ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار، فدل ذلك على إن درجة المقربين فوق درجة الأبرار[3] ولما ذكر تعالى نعيم الأبرار، أعقبه بذكر مآل الفجار، تسليةً للمؤمنين وتقويةً لقلوبهم فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ أي: إن المجرمين الذين من طبيعتهم الإجرام وارتكاب الآثام، كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين استهزاءً بهم قال في التسهيل: نزلت هذه الآية في صناديد قريش كأبي جهل وغيره، مرَّ بهم علي بن أبي طالب وجماعة من المؤمنون، فضحكوا

= الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا». قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ. قَالَ: «وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: «رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ صَلَّى اللهُ عَلَيْكِ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ». فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَقُولُ: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ». قَالَ: « وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ – قَالَ حَمَّادٌ: وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا وَذَكَرَ لَعْنًا – وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: «رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ». قَالَ: فَيُقَالُ: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ هَكَذَا. (رواه مسلم). قال النووي: «قَوْلُهُ فِي رُوحِ الْمُؤْمِنِ (ثُمَّ يَقُولُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ ثُمَّ قَالَ فِي رُوحِ الْكَافِرِ فَيُقَالُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ) قَالَ الْقَاضِي الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ انْطَلِقُوا بِرُوحِ الْمُؤْمِنِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَالْمُرَادُ بِالثَّانِي انْطَلِقُوا بِرُوحِ الْكَافِرِ إِلَى سِجِّينٍ فَهِيَ مُنْتَهَى الْأَجَلِ وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ إِلَى انْقِضَاءِ أَجَلِ الدُّنْيَا. قَوْلُهُ (فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ) الرَّيْطَةُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَإِسْكَانِ الْيَاءِ وَهُوَ ثَوْبٌ رَقِيقٌ وَقِيلَ هِيَ الْمُلَاءَةُ وَكَانَ سَبَبُ رَدِّهَا عَلَى الْأَنْفِ بِسَبَبِ مَا ذَكَرَ مِنْ نَتْنِ رِيحِ رُوحِ الْكَافِرِ» [شرح النووي على مسلم (١٧/ ٢٠٥)].

(١) (ش): رَوْنَق: حُسْن وبهاء وإشراق.

(٢) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٦٨.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٥.

منهم واستخفوا بهم(١) ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي وإذا مرَّ هؤلاء المؤمنين بالكفار، غمز بعضهم بعضًا بأعينهم سخرية واستهزاءً بهم قال المفسرون: كان المشركون إذا مرَّ بهم أصحاب رسول الله، تغامزوا بأعينهم عليهم احتقارًا لهم وازدراءً يقولون: جاءكم ملوك الدنيا، يسخرون منهم لإيمانهم واستمساكهم بالدين ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ أي وإذا انصرف المشركون ورجعوا إلى منازلهم وأهليهم، رجعوا متلذيين يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم قال في البحر: أي رجعوا متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم استخفافًا بأهل الإيمان(٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا: إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد، وتَرْكهم شهوات الحياة قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي وما أُرسل الكفار حافظين على المؤمنين، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول: أنا ما أرسلْتُهم رُقَباء(٣)، ولا وَكَّلْتُهم بحفظ أعمال عبادي المؤمنين، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم، فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعنيهم؟ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم يوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، جزاءً وفاقًا ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي والمؤمنون على أسِرَّة الدر والياقوت، ينظرون إلى الكفار ويضحكون عليهم قال القرطبي: يقال لأهل النار وهم في النار: اخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها أغلقت دونهم، فيضحك منهم المؤمنون(٤) ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي هل جوزي الكفار في الآخرة بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من السخرية والاستهزاء؟ نعم.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير للتهويل والتفخيم ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

٢ - الطباق بين ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ و ﴿يُخْسِرُونَ﴾.

٣ - المقابلة بين حال الفجار والأبرار ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ مَّرْقُومٌ.﴾ إلخ و ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ مَّرْقُومٌ.﴾ إلخ. ٤ - التفخيم والتعظيم لمراتب الأبرار ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؟

٥ - جناس الاشتقاق ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

٦ - الإطناب بذكر أوصاف ونعيم المتقين ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٦. (ش): لم أجِدْه إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٣.

(٣) (ش): رُقَبَاءُ: جمع رقيب.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٨.

٧ – التشـبيه البليـغ ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ أي كالمسـك في الطيب والبهجـة، فحذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٨ – توافـق الفواصـل مراعاةً لرءوس الآيات مثـل ﴿يَضۡحَكُونَ، يَنظُرُونَ، يَكۡسِبُونَ، يَفۡعَلُونَ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين»



٨٤ سُورَةُ الانْشِقَاقِ ٢٥

مكية وآياتها خمس وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الانشقاق مكية، وقد تناولت الحديث عن أهوال القيامة، كشأن سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر بعض مشاهد الآخرة، وصورت الانقلاب الذي يحدث في الكون عند قيام الساعة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾.

* ثم تحدثت عن خلق الإنسان الذي يكد ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه؛ ليقدم لآخرته ما يشتهي من صالح أو طالح[1]، ومن خير أو شر، ثم هناك الجزاء العادل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ الآيات.

* ثم تناولت موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأقسمت بأنهم سيلقون الأهوال والشدائد ويركبون الأخطار والأهوال في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا ولد ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله، مع وضوح آياته وسطوع براهينه، وبشرتهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا
وَحُقَّتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ
يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا
١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ١٥
فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ

---

(١) (ش): طَالِح: شرِّير، فاسد، خلاف صالح.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

اللغَة: ﴿كَدْحًا﴾ الكدح: الجد والاجتهاد وجهد النفس في العمل قال الشاعر:

وَمَضَتْ بَشَاشَةُ كُلِّ عَيْشٍ صَالِحٍ ... وَبَقِيتُ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ (١)

﴿يَحُورَ﴾ يرجع يقال: حار يحور إذا رجع؛ ومنه حديث «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ» أي الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة(٢) ﴿بِالشَّفَقِ﴾ الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس ﴿وَسَقَ﴾ جمع وضم ولف ﴿اتَّسَقَ﴾ اجتمع وتكامل وتم نوره ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع.

التفسير: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ هذه الآيات بيان لأهوال القيامة، وتصويرٌ لما يحدث بين يدي الساعة من كوارث وأهوال يفزع لها الخيال. والمعنى: إذا تشققت السماء وتصدَّعت مُؤْذِنَةً بخراب الكون(٣) قال الألوسي: تنشق لهول يوم القيامة(٤) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع، وأن تنشق من أهوال القيامة ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وآكامها، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي رمَتْ ما في جوفها من الموتى والكنوز والمعادن وتخلت عنهم قال القرطبي: أخرجت أمواتها وتخلت عنهم، وألقت ما في بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقى الحامل ما في بطنها من الحمل، وذلك يُؤْذِنُ بعظم الهول(٥) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع.. وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف ليكون أبلغ في التهويل أي إذا حدث كل ما تقدم، لقي الإنسان من الشدائد والأهوال، ما لا يحيط به الخيال.. ثم أخبر تعالى عن كدِّ الإنسان وتعبه في هذه الحياة، وأنه يلقى جزاءه عند الله فقال ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ الخطاب عام لكل إنسان، أي: أنت يا ابن آدم جاهدٌ ومُجِدٌّ بأعمالك التي عاقِبَتُها الموت، والزمانُ يطير وأنت في كل لحظة تقطع شوطًا من عمرك القصير، فكأنك سائر مسرعٌ إلى الموت، ثم تلاقي ربك فيكافئك على عملك، إن كان خيرًا فخيرٌ، وإن كان شرًّا فشرٌّ قال في البحر: كادحٌ أي جاهد في عملك من خير وشر

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٤. (ش): أَنْصَبُ: أتعَب.

(٢) (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الْحَوْرِ: النقصان. الْكَوْرِ: الزيادة. الوَعْثَاءِ: الشدة والمشقة.

(٣) (ش): أي مُعْلِمَةً بقُرب خراب الكون. يقال: آذن بالأمر: نادَى وأعلَمَ به. آذَنَت الشَّمسُ بالغروب: أوشكت أن تغرُب.

(٤) «روح المعاني» ٣٠/ ٧٨.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٨. (ش): يُؤْذِنُ: يُعْلِم، يُخبر، يدل على.

طول حياتك إلى لقاء ربك، فملاقٍ جزاء كدحك من ثوابٍ وعقاب[١].. ثم ذكر تعالى انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء وإلى من يأخذ كتابه بيمينه، ومن يأخذ كتابه بشماله فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه، وهذه علامة السعادة ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي فسوف يكون حسابه سهلًا هينًا، يُجازى على حسناته، ويُتجاوز عن سيئاته، وهذا هو العرضُ كما جاء في الحديث الصحيح[٢] ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة مبتهجًا مسرورًا بما أعطاه الله من الفضل والكرامة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ أي وأمَّا من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره، وهذه علامة الشقاوة ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ أي يصيح بالويل والثبور، ويتمنى الهلاك والموت ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي ويدخل نارًا مستعرة، يقاسي عذابها وحرَّها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي لأنه كان في الدنيا مسرورًا مع أهله، غافلًا لاهيًا، لا يفكر في العواقب، ولا تخطر بباله الآخرة قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور بالدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل[٣] ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي إنه ظنَّ أن لن يرجع إلى ربه، ولن يحييه الله بعد موته للحساب والجزاء، فلذلك كفر وفجر ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي بلى سيعيده الله بعد موته، ويجازيه على أعماله كلها خيرها وشرها، فإنه تعالى مُطَّلِع على العباد، لا تخفى عليه خافية من شئونهم ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ ﴿فَلَآ﴾ لتأكيد القسم أي فأقسم قسمًا مؤكدًا بحمرة الأفق بعد غروب الشمس ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي وبالليل وما جمع وضمَّ إليه، وما لفَّ في ظلمته من الناس والدواب والأنعام، فكل يأوي إلى مكانه وسربه، ولهذا امتن تعالى على العباد فقال ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] فإذا جاء النهار انتشروا،

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٦.

(٢) المراد بالحساب اليسير في الآية هو «العرض» لما روى أن النبي ﷺ قال: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فَقَالَ ﷺ « إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ » رواه البخاري ومسلم. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَىْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِى نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِى الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ « فهذا» هو المراد من الحساب اليسير. (ش): حديث «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ» رواه البخاري ومسلم. (مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ): نُوقِشَ: اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ. (عُذِّبَ): أي إنه مُفْضٍ إِلَى الْعَذَابِ بِالنَّارِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّقْصِيرَ غَالِبٌ فِي الْعِبَادِ فَمَنِ اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَامَحْ هَلَكَ وَدَخَلَ النَّارَ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْفُو وَيَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ لِمَنْ يَشَاءُ. (إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ) أي تُعرَض الأعمال على الشخص حتى يُقِرّ؛ فإذا أقَرَّ بها قال الله تعالى له: « سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِى الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». فمن يشأِ الله أن يعفوَ عنه يحاسبه الحسابَ اليسير الذي فسره النبي ﷺ بالعرض. أما الذين يدخلون النار بذنوبهم فهم ممن يُناقَش الحساب.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٧١.

وإذا جاء الليل أوَى كلُّ شيء إلى مأواه ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي وأقسمُ بالقمر إذا تكامل ضوؤه ونوره، وصار بدرًا ساطعًا مضيئًا ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم أي لتلاقُنَّ يا مشعر الناس أهوالًا وشدائد في الآخرة عصيبة قال الألوسي: يعني لتركبن أحوالًا بعد أحوال، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموتُ وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها[1] وقال الطبري: المراد أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالًا[2] ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استفهام يقصد به التوبيخ، أي: فيما لهؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله، ولا يصدّقون بالبعث بعد الموت، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على وقوعه؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي وإذا سمعوا آيات القرآن، لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن؟ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ أي بل طبيعة هؤلاء الكفار التكذيب والعناد والجحود، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي والله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب قال ابن عباس: ﴿يُوعُونَ﴾ أي يُضْمِرون من عداوة الرسول ﷺ والمؤمنين[3] ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشرهم على كفرهم وضلالهم بعذاب مؤلم موجع، واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم قال في التسهيل: ووَضْع البشارة في موضع الإنذار تهكُّمٌ بالكفار[4] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي لكن الذين صدَّقوا الله ورسوله[5]، وجمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال[6] ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ أي لهم ثوابٌ في الآخرة غير منقوص ولا مقطوع، بل هو دائم مستمر.

ختم تعالى السورة الكريمة ببيان نعيم الأبرار، بعد أن ذكر مآل الفجار، وهو توضيح لما أجمله في أول السورة من ملاقاة كل عامل لجزائه في قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و ﴿ٱلْأَرْضِ﴾.

٢ - المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾.

٣ - الكناية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ كنَّى به عن الشدة والأهوال التي يلقاها الإنسان.

---

(١) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ٨٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٣٠/ ٨٠.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٨. (ش): يُضْمِرون: يُخْفون.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٨.

(٥) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصرٌ ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٦) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخل في حقيقته وعطفُه على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، مثل قوله تعالى. ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

٤ – الجناس الناقص بين كلمتي ﴿وَسَقَ﴾ و ﴿ٱتَّسَقَ﴾.

٥ – الأسلوب التهكمي ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكم وسخرية بالكفار.

٦ – توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ومثل ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ويسمى بالسجع وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق»



سُورَةُ البُرُوجِ ٨٥ ٢٢

مكية وآياتها ثنتان وعشرون

بين يدي السورة

* هـذه السـورة الكريمـة من السـور المكية، وهـي تعرض لحقائـق العقيدة الإسـلامية، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هي حادثة «أصحاب الأخدود» وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان.

* ابتدأت السـورة الكريمة بالقسـم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها تلك الأفلاك، وباليوم العظيم المشـهود وهو يوم القيامة، وبالرسـل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين، الذين طرحوا المؤمنين في النار ليفتنوهم عند دينهم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ الآيات.

* ثم تلاها الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشـنيعة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

* وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأولياءه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾.

* وختمت السـورة الكريمة بقصة الطاغية الجبار «فرعـون» وما أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ وهـو ختم رائع يناسـب موضوع السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ
الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ
فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ
وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ
وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ

اللغَة: ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ الشَّـقّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد ﴿قُتِلَ﴾ لُعن أشـدَّ اللعن ﴿نَقَمُواْ﴾ عابوا وكرهوا ﴿بَطۡشَ﴾ البطش: الأخذ بشدة ﴿يُبۡدِئُ﴾ يخلق ابتداءً بقدرته ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ العظيم الجليل المتعالي.

التفسِـير: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ أي وأُقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة، التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها قال المفسرون: سميت هذه المنازل بروجًا لظهورها، وشبهت بالقصور لعلوها وارتفاعها لأنها منازل للكواكب السـيارة ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ أي وأُقسـم باليوم الموعود وهـو يوم القيامة، الـذي وعد الله به الخلائق بقولـه ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ أي وأُقسـم بمحمـد والأنبياء الذين يشـهدون على أممهم يوم القيامـة، وبجميع الأمم والخلائق الذين يجتمعون في أرض المحشـر للحسـاب كقوله تعالى ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١] وقيـل: الشـاهد هذه الأمة، المشـهود سـائر الأمم ودليله ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣][(١)] ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ هذا هو جواب القسم، والجملة دُعَائية أي قاتل الله ولعن أصحاب الأخدود، الذين شـقوا الأرض طولًا وجعلوها أخاديد، وأضرموا فيهـا النار ليحرقـوا بها المؤمنين قال القرطبي: الأخدودُ الشـقُّ العظيم المسـتطيل في الأرض كالخنـدق وجمعـه أخاديـد، ومعنـى ﴿قُتِلَ﴾ أي لعـن، قال ابن عبـاس: كل شـيءٍ في القرآن ﴿قُتِلَ﴾ فهُـو لَعْـن[(٢)].. ثم فصَّـل تعالى المراد مـن الأخدود فقـال ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ أي النار العظيمـة المتأججة، ذات الحطب[(٣)] واللهـب، التي أضرمها الكفار في تلك الأخاديد لِإحراق المؤمنيـن قال أبو السـعود: وهذا وصف لهـا بغاية العظم، وارتفاع اللهـب، وكثرة ما فيها من الحطـب، والقصـدُ وصف النار بالشـدة والهول.. ثم بالـغ تعالى في وصـف المجرمين فقال ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ أي حين هم جلوس حول النار؛ يتشـفون بِإحراق المؤمنين فيها، ويشـهدون ذلك الفعل الشـنيع[(٤)] والغرضُ تخويف كفار قريش، فقد

---

(١) اختلف المفسرون في تفسير: «الشاهد» و «المشهود» اختلافًا كبيرًا حتى ذكر بعضهم فيها ستة عشر قولاً، فقيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وقيل: الشاهد هو محمد والمشهود هو يوم القيامة، وقيل: الشاهد هو جوارح الإنسان والمشهود عليه هو ابن آدم.. إلخ. قال الصاوي: والأحسن أن يراد ما هو أعم؛ ولذلك نكرهما ليعم كل شاهد ومشهود.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٨٤.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٥٢.

(٤) خلاصة القصة: «أن ملكًا ظالمًا كافرًا أسلم أهل بلده، فأمر بالأخدود فشُق في أفواه السكك، وأضرم فيها النيران، ثم أمر زبانيته وجنوده أن يأتوا بكل مؤمن ومؤمنة ويعرضوه على النار، فمن لم يرجع عن دينه فلْيُلقوه فيها ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّاه اصبري فإنك على الحق» «انظر تفصيل القصة في صحيح مسلم». (ش): (السِّكَك): الطُّرُق، وَأَفْوَاهُهَا: أَبْوَابهَا. (تَقَاعَسَتْ): تَوَقَّفَتْ وَلَزِمَتْ مَوْضِعهَا، وَكَرِهَتْ الدُّخُول فِي النَّار.

كانوا يعذبون من أسلم من قومهم، ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله تعالى قصة «أصحاب الأخدود» وعيدًا للكفار، وتسليةً للمؤمنين المعذبين، ثم قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي وما كان لهم ذنب ولا انتقموا منهم، إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد الغالب الذي لا يُضَام مَن لاذَ بجنابه[١]، الحميد في جميع أقواله وأفعاله، والغرضُ أن سبب البطش بهم، وتحريقهم بالنار، لم يكن إلا إيمانهم بالله الواحد الأحد، وهذا ليس بذنب يستحقون به العقوبة، ولكنه الطغيان والإجرام[٢] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هذا الإله الجليل المالك لجميع الكائنات، المستحق للمجد والثناء قال في البحر: وإنما ذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به، وهي كونه تعالى ﴿عَزِيزًا﴾ أي غالبًا قادرًا يُخشَى عقابُه ﴿حَمِيدًا﴾ أي مُنعِمًا يجب له الحمد على نِعَمه ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له، إنما ذكر ذلك تقريرًا لأن ما نقموه منهم هو الحقُّ الذي لا ينقمه إلا مُبطِلٌ مُنْهَمِكٌ في الغَيِّ[٣] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي هو تعالى مطلَّع على أعمال عباده، لا تخفى عليه خافية من شئونهم، وفيه وعدٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للمجرمين ثم شدَّد تعالى النكير على المجرمين الذين عذبوا المؤمنين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ليفتنوهم عن دينهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ أي ثم لم يرجعوا عن كفرهم وطغيانهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي فلهم عذاب جهنم المخزي بكفرهم، ولهم العذاب المحرق بإحراقهم المؤمنين.. ولما ذكر مصير المجرمين أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي لهم البساتين والحدائق الزاهرة، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة قال الطبري: هي أنهار الخمر واللبن والعسل[٤] ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم بغاية المطلوب، الذي لا سعادة ولا فوز بعده.. ثم أخبر تعالى عن انتقامه الشديد من أعداء رسله وأوليائه فقال ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي إن انتقام الله وأخذه الجبابرة والظلمة، بالغ الغاية في الشدة قال أبو السعود: البطش الأخذ بعنف، وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم، وهو بطشه بالجبابرة والظلمة وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام[٥] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي هو جل وعلا الخالق القادر، الذي يبدأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾

---

(١) (ش): أي لا يُذَلُّ مَن لجأ إليه واستعانَ به.

(٢) (ش): الطغيان والإجرام من هؤلاء المشركين.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٥١.

(٤) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٨٨.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٥٣.

أي وهو الساتر لذنوب عباده المؤمنين، اللطيف المحسن إلى أوليائه، المحبُّ لهم قال ابن عباس: يَوَدُّ أولياءَه كما يَوَدُّ أحدكم أخاه بالبشرَى والمحبة[١] ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي صاحب العرش العظيم، وإنما أضاف العرش إلى الله وخصَّه بالذكر، لأن العرش أعظم المخلوقات، وأوسعُ من السمواتِ السبع، وخلقُه بهذا الوصف يدل على عظمة خالقه ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ أي هو تعالى المجيدُ، العالي على جميع الخلائق، المتصف بجميع صفات الجلال والكمال ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه قال القرطبي: أي لا يمتنع عليه شيء يريده[٢]. روي أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيبُ؟ قال: نعم، قالوا: فماذا قال لك؟ قال قال لي: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[٣] ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾؟ استفهامٌ للتشويق أي هل بلغك يا محمد خبر الجموع الكافرة، الذين تجنَّدوا لحرب الرسل والأنبياء؟ هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وما أنزل عليهم من النقمة والعذاب؟ قال القرطبي: يُؤْنِسُه بذلك ويُسَلِّيه، ثم بَيَّن تعالى مَن هم فقال ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي هم فرعون وثمود، أولي البأس والشدة، فقد كانوا أشد بأسًا، وأقوى مراسًا من قومك، ومع ذلك فقد أخذهم الله تعالى بذنوبهم ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ أي لم يعتبر كفار قريش بما حلَّ بأولئك الكفرة المكذبين، بل هم مستمرون في التكذيب فهم أشد منهم كفرًا وطغيانًا ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ أي والله تعالى قادرٌ عليهم، لا يفُوتُونه ولا يُعجِزونه، لأنهم في قبضته في كل حينٍ وزمان ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي بل هذا الذي كذبوا به، كتابٌ عظيم شريف، متناهٍ في الشرف والمكانة، قد سما على سائر الكتب السماوية، في إعجازه ونَظْمِه وصحة معانيه ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ أي هو في اللوح المحفوظ الذي في السماء، محفوظٍ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل.

البَلاَغَة: تضمنت السورة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يُبْدِئُ.. وَيُعِيدُ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿شَاهِدٌ.. وَمَشْهُودٍ﴾.

٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ كأنه يقول: ليس لهم جريمة إلا إيمانهم بالله، وهذا من أعظم المفاخر والمآثر.

٤ - المقابلة بين مصير المؤمنين ومصير المجرمين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية قابله قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ..﴾ إلخ.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٩٤.

(٢) «القرطبي» ١٩/ ٢٩٥.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٢٥.

٥ – أسلوب التشويق لاستماع القصة ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾؟
٦ – صيغة المبالغة مثل ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وأمثال ذلك.
٧ – توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٤﴾.﴾ إلخ. وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج»



سُورَةُ الطَّارِقِ ٨٦ ١٧

مكية وآياتها سبع عشرة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية، وهي تعالج بعض الأمور المتعلقة بالعقيدة الإسلامية، ومحور السورة يدور حول الإيمان بالبعث والنشور، وقد أقامت البرهان الساطع والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث، فإن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة(١)، التي تطلع ليلاً لتضيء للناس سُبلهم، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، على أن كل إنسان قد وُكل به من يحرسه، ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

* ثم ساقت الأدلة والبراهين، على قدرة رب العالمين، على إعادة الإنسان بعد فنائه ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.

* ثم أخبرت عن كشف الأسرار، وهتك الأستار في الآخرة، حيث لا معين للإنسان ولا نصير ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم، معجزة محمد ﷺ الخالدة، وحجته البالغة إلى الناس أجمعين، وبينت صدق هذا القرآن، وأوعدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ
(٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

﴿قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾

اللغـة: ﴿ٱلطَّارِقُ﴾ مأخوذ من الطرق بمعنى الضرب بشدة، ومنه المِطْرقة، وكل ما جاء بليل يسمى طارقًا ﴿دَافِقٖ﴾ مصبوب بقوة وشدة يقال: دفق الماء دفقًا إذا انصبَّ بدفع وشدة ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ عظام الصدر جمع تَرِيبَة مثل فَصِيلة وفصائل قال امرؤ القيس:

تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ [١]

﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ المطر سمي به لرجوعه إلى الأرض مرارًا ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾ النبات الذي تنشق عنه الأرض ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ قليلًا أو قريبًا.

التفسير: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ أي أقسم بالسماء وبالكواكب النيرة، التي تظهر ليلًا وتختفي نهارًا قال المفسرون: سُمي النجم طارقًا لأنه إنما يظهر بالليل ويختفي بالنهار، وكلُّ ما يجيء ليلًا فهو طارق ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم أي وما الذي أعلمك يا محمد ما حقيقة هذا النجم؟ ثم فسره بقوله ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ أي النجم المضيء الذي يثقب الظلام بضيائه قال الصاوي: قد كثر منه تعالى في كتابه المجيد ذكرُ الشمس والقمر والنجوم، لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها، ومغاربها عجيبة دالة على انفراد خالقها بالكمالات، لأن الصّنعة تدل على الصانع[٢] ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ هذا جواب القسم أي ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خيرٍ وشر كقوله ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١] قال ابن كثير: أي كلُّ نفسٍ عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات[٣].. ثم أمر تعالى بالنظر والتفكر في خلق الإنسان، تنبيهًا على إمكان البعث والحشر فقال ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾؟ أي فلينظر الإنسان في أول نشأته نظرة تكفرٍ واعتبار، من أي شيءٍ خلقه الله؟ ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ أي خلق من المنيّ المتدفق، الذي ينصب بقوةٍ وشدة، يتدفق من الرجل والمرأة فيتكون منه الولد بإذن الله ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي يخرج هذا الماء من بين الصلب وعظم الصدر، من الرجل والمرأة[٤] ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ أي إن الله تعالى الذي خلق الإنسان ابتداءً، قادر على إعادته بعد موته قال ابن كثير: نبه تعالى الإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وأرشده إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر على البداءة، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي يوم تُمتَحَن القلوب

(١) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ٩٧. (ش): السَّجَنْجَلُ: المرآةُ. و السَّجَنْجَلُ: الذهَبُ. والسَّجَنْجَلُ: سبائِكُ الفضَّةِ.
(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٠٩.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٢٩.
(٤) الصلب: فقار الظهر ويسمى سلسلة الظهر، والترائب: عظام الصدر، وكنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة.

وتُختبَر، ويُعرَف ما بها من العقائد والنيَّات، ويُميَّز بين ما طاب منها وما خبُث ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي فليس للإِنسان في ذلك الوقت قوة تدفع عنه العذاب، ولا ناصر ينصره ويجيره، قال في التسهيل: لما كان دفع المكاره في الدنيا إما بقوة الإِنسان، أو بنصرة غيره له، أخبره الله تعالى أنه يعدمهما يوم القيامة[1]، فلا قوة له في نفسه، ولا أحد ينصره من الله. ولما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد، عاد فأقسم على صدق هذا الكتاب المعجز فقال ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي أُقسم بالسماء ذات المطر، الذي يرجع على العباد حينًا بعد حين قال ابن عباس: الرَّجع المطرُ ولولاه لهلك الناس وهلكت مواشيهم[2] ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ أي وأُقسم بالأرض التي تتصدع وتنشق، فيخرج منها النبات والأشجار والأزهار قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات والثمار[3].. أقسم سبحانه وتعالى بالسماء التي تفيض علينا الماء، والأرض التي تخرج لنا الثمار والنبات، والسماء للخلق كالأب، والأرض لهم كالأم، ومن بينهما تتولد النعم العظيمة، والخيرات العميمة، التي بها بقاء الإِنسان والحيوان ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي إِن هذا القرآن لقولٌ فاصل بين الحق والباطل، قد بلغ الغاية في بيانه وتشريعه وإِعجازه ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ أي ليس فيه شيءٌ من اللهو والباطل والعبث، بل هو جدٌّ كله، لأنه كلام أحكم الحاكمين، فجديرٌ بقارئه أن يتعظ بآياته، ويستنير بتوجيهاته وإِرشاداته ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي إِن هؤلاء المشركين كفار مكة يعملون المكايد لإِطفاء نور الله، وإِبطال شريعة محمد ﷺ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي وأجازيهم على كيدهم بالإِمهال ثم النَّكال[4]، حيث آخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر كقوله تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] قال أبو السعود: أي أُقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون[5] ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ أي لا تستعجل في هلاكهم والانتقام منهم، وأمهلهم قليلًا فسوف ترى ما أصنع بهم، وهذا منتهى الوعيد والتهديد.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام للتفخيم والتعظيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾؟

٢ - الطباق بين ﴿ٱلسَّمَآءِ.. وَٱلْأَرْضِ﴾ وبين ﴿ٱلْفَصْلِ.. بِٱلْهَزْلِ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿يَكِيدُونَ.. كَيْدًا﴾.

٤ - الإِطناب بتكرار الفعل مبالغة في الوعيد ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾.

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩٢.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٢٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٩٥.

(٤) (ش): النَّكال: العقاب.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٨/ ٤٣٨.

٥ - الكنايـة اللطيفـة ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ كنَّى بالصلب عـن الرجل، وبالترائب عن المرأة، وهذا من لطيف الكنايات.

٦ - السـجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسـلوب ورشاقته ونضارته مثل ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ ومثل ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق»



سُورَةُ الأَعْلَى ٨٧ — ١٩

مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة الأعلى من السور المكية، وهي تعالج باختصار المواضيع الآتية:
١- الذات العلية وبعض صفات الله جل وعلا، والدلائل على القدرة والوحدانية.
٢- الوحي والقرآن المنزل على خاتم الرسل ﷺ وتيسير حفظه عليه ﷺ.
٣- الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحيَّة، ويستفيد منها أهل السعادة والإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله جلّ وعلا، الذي خلق فأبدع، وصور فأحسن وأخرجا العشب، والنبات، رحمة بالعباد ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن الوحي والقرآن، وآنست الرسول ﷺ بالبشارة بتحفيظه هذا الكتاب المجيد، وتيسير حفظه عليه، بحيث لا ينساه أبدًا ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾.

* ثم أمرت بالتذكير بهذا القرآن، الذي سيفيد من نوره المؤمنون، ويتعظ بهديه المتقون، ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ الآيات.

* وختمت السورة ببيان فوز من طهَّر نفسه من الذنوب والآثام، وزكاها بصالح الأعمال ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً
أَحۡوَىٰ ۝٥ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ
ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ
۝١٣ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧
إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ

اللغَة: ﴿غُثَآءً﴾ الغُثاء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات ﴿أَحۡوَىٰ﴾ أسود مأخوذ من الْحُوَّةُ وهي السواد أو السُّمرة ﴿يَصۡلَى﴾ يدخل ويقاسي حرّها يقال: أصليتُه نارًا وجعلته يذوق حرها.

التفسِـير: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أي نـزِّه يا محمـد ربك العلي الكبير عـن صفات النقص، وعمـا يقوله الظالمـون، مما لا يليق به سـبحانه وتعالى من النقائـص والقبائح، وفي الحديث أنـه ﷺ كان إذا قـرأ هذه الآية قال: «سـبحان ربـي الأعلى»[1]. ثم ذكر مـن أوصافه الجليلة، ومظاهـر قدرته الباهرة، ودلائل وحدانيته وكماله فقال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي خلق المخلوقات جميعهـا، فأتقن خلقها، وأبدع صنعها، في أجمل الأشـكال، وأحسـن الهيئـات قال في البحر: أي خلق كل شـيء فسـواه، بحيث لـم يأت متفاوتًا، بل متناسـبًا على إحـكام وإتقان، للدلالة علـى أنه صـادر من عالم حكيم[2] ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي قدَّر في كل شـيء خواصه ومزاياه بما تجـلُّ عنه العقـول والأفهام، وهدى الإنسـان لوجه الانتفـاع بما أودعه فيهـا، وهدى الأنعام إلـى مراعيهـا، ولو تأملت ما في النباتات مـن الخواص، وما في المعادن مـن المزايا والمنافع، واهتداء الإنسـان لاسـتخراج الأدويـة والعقاقير النافعـة من النباتات، واسـتخدام المعادن في صنـع المدافـع والطائرات، لعلمتَ حكمةَ العلي القدير، الذي لـولا تقديره وهدايته لكنا نهيم في دياجير الظلام كسـائر الأنعام قال المفسـرون: إنما حذف المفعول لإفـادة العموم أي قدَّر لـكل مخلوق وحيوان ما يصلحه، فهداه إليه وعرَّفه وجه الانتفاع به[3] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب، من الحشائش والأعشاب ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ أي فصيَّره بعد الخضرة أسود باليًا، بعد أن كان ناضرًا زاهيًا، ولا يخفى ما في المرعى من المنفعة بعد صيرورته هشيمًا يابسًـا، فإنه يكون طعامًا جيدًا لكثير من الحيوانات، فسبحان من أحكم كل شيء و﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] !! وبعد أن ذكر دلائل قدرته ووحدانيته، ذكر فضله وإنعامه على رسـوله فقال ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي سـنقرئك يا محمد هذا القرآن العظيم فتحفظه في صدرك ولا تنسـاه ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لكن ما أراد الله نسـخه فإنك تنسـاه.. وفي هذه الآية معجزة لـه عَلَيْـهِ الصَّلَاة وَالسَّـلَامُ، لأنه كان أميًّا لا يقـرأ ولا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسـى ما أقرأه جبريـل عليه السـلام، وكونـه يحفظ هذا الكتاب العظيم من غير دراسـة ولا تكرار ولا ينسـاه أبـدًا، مـن أعظم البراهين على صـدق نبوته ﷺ قال ابن كثير: هذا إخبـار من الله تعالى ووعدٌ لرسوله ﷺ بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها[4] ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي هو تعالى عالم بما يجهر بـه العبـاد وما يخفونه من الأقـوال والأفعال، لا تخفـى عليه خافية في الأرض ولا في السـماء ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي ونوفقك للشـريعة السمحة البالغة اليسر، التي هي أيسر وأسهل الشرائع السـماوية، وهي شريعة الإسـلام ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي فذكر يا محمد بهذا القرآن حيث

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس. (ش): ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني.
(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٥٨.
(٣) «انظر روح المعاني» ٣٠/ ١٠٤، و«التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩٣.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٠.

تنفع الموعظة والتذكرة كقوله ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥] قال ابن كثير: ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْه « مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً» وقال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[١]؟ ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي سينتفع بهذه الذكرى والموعظة من يخاف الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ أي ويرفضها ويبتعد عن قبول الموعظة الكافر المبالغ في الشقاوة ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي الذي يدخل نار جهنم المستعرة، العظيمة الفظيعة قال الحسن: النار الكبرى نارُ الآخرة، والصغرى نارُ الدنيا[٢] ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة، بل هو دائم في العذاب والشقاء[٣] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي قد فاز من طهَّر نفسه بالإيمان، وأخلص عمله للرحمن ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي وذكر عظمة ربه وجلاله، فصلى خشوعًا وامتثالا لأمره ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية، فتشتغلون لها وتنسون الآخرة ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي والحال أن الآخرة خيرٌ من الدنيا وأبقى، لأن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خيرٌ من الفاني، فكيف يؤثر عاقلٌ ما يفنى على ما يبقى؟ وكيف يهتم بالغرور، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود؟ قرأ ابن مسعود هذه الآية فقال لأصحابه: أتدرون لم آثَرْنا الحياةَ الدنيا على الآخرة؟ قالوا: لا، قال: لأن الدنيا أُحضِرَت وعُجِّلَت لنا بطعامها، وشرابها، ونسائها، ولذَّاتها، وبهجتها، وإن الآخرة غُيِّبَتْ وزُوِيَت عنا[٤]، فأحبَبْنا العاجلَ، وتركنا الآجَلَ[٥] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة، مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهي مما توافقت فيه الشرائع، وسطرته الكتب السماوية، كما سطره هذا الكتاب المجيد.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿لَا يَمُوتُ .. وَلَا يَحْيَىٰ﴾ وكذلك ﴿ٱلْجَهْرَ.. وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ و ﴿فَذَكِّرْ.. ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

٣ - المقابلة بين ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ وبين ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾.

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة. (ش): كلام علي رضي الله عنه رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وكلام ابن مسعود رضي الله عنه رواه البخاري تعليقًا.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٥٩.

(٣) قال الطبري: العرب إذا وصفَت الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا: لا هو حي ولا هو ميت فخاطبهم الله بما يعرفون «الطبري» ٣/ ٥٩.

(٤) (ش): زُوِيَت: أُخْفِيَتْ.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٣٦.

٤ – حـذف المفعول ليفيـد العموم في قوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ وفي ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ لأن المراد خلق كل شيء فسواه، وقدر كل شيء فهداه.

٥ – السـجع غير المتكلـف وهو كثير في القرآن مثـل ﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: صحف موسـى غير التوراة، وقد رود أنه أعطي عشـر صحف وكانت كلها عبرًا، قال أبو ذر: سـألت رسـول الله ﷺ عن صحف موسـى ما كانت؟ قال: «كانت عبرًا كلها: عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبهـا بأهلهـا كيف يطمئـن إليها، عجبت لمـن أيقن بالقَـدَر ثم ينْصَب، عجبـت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل»[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى»



(١) **(ش)**: رواه ابن حبان وضعفه الألباني. النصَب: التعَب.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ ٨٨ — ٢٦

مكية وآياتها ست وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الغاشية مكية، وقد تناولت موضوعين أساسين وهما:

١- القيامة وأحوالها وأهوالها، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء، وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء.

٢- الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وقدرته الباهرة، في خلق الإبل العجيبة، والسماء البديعة، والجبال المرتفعة، والأرض الممتدة الواسعة، وكلها شواهد على وحدانية الله وجلال سلطانه، وختمت السورة الكريمة بالتذكير برجوع الناس جميعًا إلى الله سبحانه للحساب والجزاء.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ
مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا
رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ
﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾
لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم

اللغة: ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ القيامة تغشى الناس بأهوالها ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة خاضعة ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ من النصب وهو التعب ﴿ضَرِيعٍ﴾ شيء في النار كالشوك مرٌّ مُنْتِنٌ ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ ذات حُسْن وبهجة ونضارة ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وَسَائد ومرَافِق[1] يُتّكأ عليها جمع نمرقة، قال زهير:

كُهُولًا وَشُبَّانًا حِسَانًا وُجُوهُهُمْ ... عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَنَمَارِقِ[2]

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بُسُط فاخرة جمع زَرْبِيَّة وقال الفراء: هي الطنافس التي لها خمَلٌ رقيق[3]،

(١) (ش): الْمِرْفَق: مِخَدَّةٌ أَوْ أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ مِمَّا يُتَّكَأُ عَلَيْهِ.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/ ١١٥.

(٣) (ش): بُسُط: فُرُش تُبسَط للجلوس عليها. الطنفسة: البِسَاط. (الخَمَل) الخَمْلُ: هُدْبُ القطِيفَة وَنَحْوهَا (أي حاشيتها، أطرافها) مِمَّا يُنْسَجُ وتَفضُلُ لَهُ فُضولٌ.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مفرَّقة في المجالس ﴿إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم.

التفسير: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الاستفهام للتشويق الى استماع الخبر، وللتنبيه والتفخيم لشأنها، أي: هل جاءك يا محمد خبرُ الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتعمُّهم بشدائدها وأهوالها، وهي القيامة؟ قال المفسرون: سميت غاشية لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وشدائدها، وتعمُّهم بما فيها من المكاره والكوارث العظيمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي وجوهٌ في ذلك اليوم ذليلة خاضعةٌ مهينة ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي دائبة العمل فيما يُتعِبها ويُشقيها في النار قال المفسرون: هذه الآية في الكفار، يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال، وخوضهم في النار خوض الإبل في الوَحل، والصعود والهبوط في تلالها ودركاتها كما قال تعالى ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر] وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله، وانهماكهم في اللذات والشهوات ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي تدخل نارًا مسعَّرة شديدة الحر قال ابن عباس: قد حَمِيَت فهي تتلَظَّى على أعداء الله[1] ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي تُسقَى من عين متناهية الحرارة، وصل حَرُّها وغليانها درجة النهاية ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ أي ليس لأهل النار طعام إلا الضريع وهو نبتٌ ذو شوك تسميه قريش «الشِّبْرِق» وهو أخبث طعام وأبشعه وهو سُمٌّ قاتل قال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه وأخبثه[2].. ذكر تعالى هنا أن طعامهم الضريع ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وقال في الحاقة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] ولا تَنافِيَ بينهما[3]، لأن العقاب ألوان، والمعذَّبون أنواع، فمنهم من يكون طعامه الزقوم، ومنهم من يكون طعامه الضريع، ومنهم من يكون طعامه الغسلين، وهكذا يتنوع العذاب ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ أي لا يفيد القوة والسِّمَن[4] في البدن، ولا يدفع الجوع عن آكِلِه قال أبو السعود: أي ليس من شأنه الإِسْمَانُ والإشباع، كما هو شأن طعام الدنيا، وقد روي أنه يُسلَّط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يُسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم، فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم[5]

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٣٧.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٣٢.

(٣) (ش): التَنَافي: التَعَارُض.

(٤) (ش): سمِن/ سمُن الإنسانُ أو الحيوانُ: كثر لحمُه وشحمُه.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٥٩. (ش): رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعُ فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ فَيَسْتَغِيثُونَ؛ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ؛ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ؛ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ؛ فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ الْغُصَصَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّرَابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشَّرَابِ، فَيُرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْحَمِيمُ بِكَلاَلِيبِ الْحَدِيدِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ فَإِذَا دَخَلَتْ بُطُونَهُمْ قَطَّعَتْ مَا فِي بُطُونِهِمْ (رواه الترمذي، وضعفه الألباني).

﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥].. ولما ذكر حال الأشقياء أهل النار، أتْبَعَه بذكر حال السعداء أهل الجنة فقال ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ أي وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة ذات بهجةٍ وحُسْن، وإشراق ونضارة كقوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٣٤] ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا وطاعتها لله راضية مطمئنة، لأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ أي في حدائق وبساتين مرتفعة مكانًا وقدرًا، وهم في الغرفات آمنون ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ أي لا تسمع في الجنة شتمًا، أو سَبًّا، أو فُحشًا قال ابن عباس: لا تسمع أذى ولا باطلًا [(١)] ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ أي فيها عيونٌ تجري بالماء السلسبيل لا تنقطع أبدًا قال الزمخشري: التنوين في ﴿عَيۡنٞ﴾ للتكثير أي عيونٌ كثيرة تجري مياهها[(٢)] ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾ أي في الجنة أَسِرَّة مرتفعة، مُكلَّلة بالزبرجَد والياقوت، عليها الحور العين، فإذا أراد وليُّ الله أن يجلس على تلك السُّرُر العالية تواضَعَتْ له[(٣)] ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾ أي وأقداح موضوعة على حافات العيون، معدة لشرابهم لا تحتاج إلى من يملؤها ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ﴾ أي ووسائد - مِخَدَّات -[(٤)] قد صُفَّ بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها ﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ أي وفيها طنافس فاخرة لها خمل رقيق مبسوطة في أنحاء الجنة[(٥)]. ثم ذكر تعالى الدلائل والبراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ أي أفلا ينظر هؤلاء الناس نظر تفكر واعتبار، إلى الإبل - الجِمال - كيف خلقها الله خلقًا عجيبًا بديعًا يدل على قدرة خالقها؟ قال في التسهيل: في الآية حض على النظر في خلقتها، لما فيها من العجائب في قوتها، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف، وصبرها على العطش، وكثرة المنافع التي فيها، من الركوب والحمل عليها، وأَكْل لحومها، وشُرْب ألبانها وغير ذلك[(٦)] ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾

(١) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٠٤.
(٢) روح المعاني ٣٠/ ١١٥.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٣.
(٤) (ش): مِخَدَّة: وسادة يُوضع عليها الخدّ أو الرأس عند النَّوم.
(٥) (ش): الطنفسة: الْبِسَاط. البُسُط: فُرُش تُبسَط للجلوس عليها. (الخَمَل) الخَمْلُ : هُدْبُ القطِيفَة وَنَحْوهَا (أي حاشيتها، أطرافها) مِمَّا يُنْسَجُ وتَفضُلُ لَهُ فُضولٌ.
(٦) «التسهيل» ٤/ ١٩٦ إنما خص تعالى الإبل بالذكر، لأنها أفضل دواب العرب، وأكثرها نفعًا ولهذا تسمى «سفينة الصحراء» فانظر إلى خلقها العجيب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد مع الطفل الضعيف، وهي تجلس لتضع عليها حمولتها عن قرب، ثم تقوم بما تحمله بما ينوء عنه العصبة أولو القوة، ثم صَبْرها على الجوع والعطش الأيام المعدودة، ثم بلوغها المسافات الطويلة، ورعْيها بكل نبات في البرارِي، =

أي وإلى السماء البديعة المحكمة، كيف رفع الله بناءها، وأَعْلَى سَمْكَها بلا عمد ولا دعائم[(١)]؟ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي إلى الجبال الشاهقة كيف نُصِبَت على الأرض نصبًا ثابتًا راسخًا لا يتزلزل؟ ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي وإلى الأرض التي يعيشون عليها، كيف بُسِطت ومُهدَت حتى صارت شاسعة واسعة يستقرون عليها، ويزرعون فيها أنواع المزروعات؟! قال الألوسي: ولا ينافي هذا، القول بأنها كرة أو قريبة من الكرة لمكان عِظَمِها[(٢)] والحكمةُ في تخصيص هذه الأشياء بالذِّكْر، أن القرآن نزل على العرب وكانوا يسافرون كثيرًا في الأودية والبراري منفردين عن الناس، والإنسان إذا ابتعد عن المدينة أقبل على التفكر، فأول ما يقع بصره على البعير الذي يركبه فيرى نظرًا عجيبًا، وإن نظر فوقَ لم يَرَ غير السماء، وإن نظر يمينًا وشمالًا لم يَرَ غير الجبال، وإن نظر تحتَ لم يَرَ غير الأرض، فلذلك ذكر هذه الأشياء قال ابن كثير: نبه تعالى البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكبٌ عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، الذي لا يستحق العبادة سواه[(٣)]. ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد ولم يَعتَبِر بذلك الكفار، أمر نبيه ﷺ بوعظهم وتذكيرهم فقال ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي فعِظْهُم يا محمد وخَوِّفهم، ولا يُهِمَّنَّك أنهم لا ينظرون ولا يتفكرون، فإنما أنت واعظ ومرشد ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي لست بمُتَسَلِّطٍ عليهم ولا قاهرٍ لهم حتى تُجبرهم على الإيمان ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي لكن من أعرض عن الوعظ والتذكير، وكفر بالله العلي القدير ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ أي فيعذبه الله بنار جهنم الدائم عذابها قال القرطبي: وإنما قال ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾ لأنهم عُذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر[(٤)] ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي ثم إن علينا وحدنا حسابهم وجزاءهم.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - أسلوب التشويق ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾؟

= وغير ذلك من عجائب الخلق والتكوين، فسبحان الحكيم العليم!. (ش): بما ينوء عنه العصبة أولو القوة: أي لا يستطيعون حمْلَه. البراري: الصحاري.

(١) (ش): سَمْكَهَا: سَقْفَهَا.

(٢) أثبت علماؤنا أن الأرض كروية كالإمام الفخر الرازي، وأبي السعود، والألوسي، كما نقلنا بعض ذلك في سورة لقمان، وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فإنما هي بالنسبة لعظمها وسمتها، أو بالنسبة للناظرين، فليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٤.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٣٧.

٢ - المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ المراد أصحابها.
٣ - الطباق في الحرف بين ﴿إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ .. عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.
٤ - جناس الاشتقاق ﴿فَذَكِّرْ .. مُذَكِّرٌ﴾ وبين ﴿فَيُعَذِّبُهُ .. ٱلْعَذَابَ﴾.
٥ - المقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ قابل بينها وبين سابقتها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.
٦ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾.. إلخ.

تنبيه: روي أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْه لما قدم الشام، أتاه راهب شيخ كبير عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين إنه نصراني؟ فقال: ذكرتُ قول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فبكيتُ رحمةً عليه[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية»



(١) انظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٢.

سُورَةُ الفَجْرِ ٨٩ ٣٠

مكية وآياتها ثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الفجر مكية، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسة وهي:

١- ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسل الله، كقوم عاد، وثمود، وقوم فرعون، وبيان ما حل بهم من العذاب والدمار، بسبب طغيانهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ...﴾ الآيات.

٢- بيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر، والغنى والفقر، وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ...﴾ الآيات.

٣- الآخرة وأهوالها وشدائدها، وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء، وبيان مآل النفس الشريرة، والنفس الكريمة الخيرة ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ
بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ
﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ
عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا
إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ
الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَىٰ

اللغة: ﴿حِجْرٍ﴾ عقل ولُبٌّ قال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، وأصل الحَجْر المنع، وسمي العقل حجرًا؛ لأنه يمنع عن السفه قال الشاعر:

وَكَيْفَ يُرْجَى أَنْ تَتُوبَ وَإِنَّمَا ... يُرْجَى مِنَ الْفِتْيَانِ مَنْ كَانَ ذَا حِجْرِ [1]

﴿جَابُوا﴾ قطعوا ومنه قولهم: فلان يجوب البلاد أي يقطعها ﴿التُّرَاثَ﴾ الميراث ﴿لَّمًّا﴾

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٤٣.

شديدًا وأصله الجمع ومنه قولهم: لَمَّ اللهُ شَعْثَه [١]

﴿جَمًّا﴾ كثيرًا عظيمًا كبيرًا قال الشاعر:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا [٢]

التفسير: ﴿والفجر وَلَيالٍ عَشْرٍ﴾ هذا قَسَمٌ [٣] أي أُقسم بضوء الصبح عند مطاردته ظلمة الليل، وبالليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة، لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج [٤] قال المفسرون: أقسم تعالى بالفجر لما فيه من خشوع القلب في حضرة الرب، وبالليالي الفاضلة المباركة وهي عشر ذي الحجة، لأنها أفضل أيام السنة، كما ثبت في صحيح البخاري: «مَا مِنْ أَيَّام الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّام - يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ -» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلا الْجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ» [٥].

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ أي وأقسم بالزوج والفرد من كل شيء فكأنه تعالى أقسم بكل شيء، لأن الأشياء إما زوجٌ وإما فردٌ، أو هو قسمٌ بالخلق والخالق، فإن الله تعالى واحد «وتر» والمخلوقات ذكرٌ وأنثى «شفع» [٦] ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي وأقسم بالليل إذا يمضي بحركة الكون العجيبة، والتقييد بسريانه لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة، ووفور النعمة ﴿هَلْ فِي

---

(١) (ش): لَمَّ اللهُ شَعْثَه: أَيْ جَمَعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أُمُورِه. لمَّ اللهُ شعثَهم: جمع شملَهم وضمّ شتاتَهم بعد تفرُّق.

(٢) (ش): الْبَيْتُ لِأُمَيَّةَ بْنِ الصَّلْتِ، وقد أَنْشَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا» (رواه الترمذي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). (الْكَبَائِرُ) كُلُّ ذَنْبٍ تَوَعَّدَ اللهُ عَلَيْهِ بِالنَّارِ أَوْ مَا عَيَّنَ لَهُ حَدًّا أَوْ ذَمَّ فَاعِلَهُ ذَمًّا شَدِيدًا. وَالْفَوَاحِشُ جَمْعُ فَاحِشَةٍ وَهِيَ كُلُّ ذَنْبٍ فِيهِ وَعِيدٌ أَوْ مُخْتَصٌّ بِالزِّنَا. (اللَّمَمَ) أَيْ الصَّغَائِرَ. (إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا) أَيْ كَثِيرًا كَبِيرًا. وَ(إِنْ تَغْفِرْ) لَيْسَ لِلشَّكِّ بَلْ لِلتَّعْلِيلِ نَحْو إِنْ كُنْت سُلْطَانًا فَأَعْطِ الْجَزِيلَ، أَيْ لِأَجْلِ أَنَّك غَفَّارٌ اِغْفِرْ جَمًّا. (وَأَيُّ عَبْدٍ لَك لَا أَلَمَّا) أَيْ لَمْ يُلِمَّ بِمَعْصِيَةٍ يُقَالُ أَلَمَّ إِذَا فَعَلَ اللَّمَمَ. أَيْ مِنْ شَأْنِك غُفْرَانٌ كَثِيرٍ مِنْ ذُنُوبٍ عِظَامٍ. وَأَمَّا الْجَرَائِمُ الصَّغِيرَةُ فَلَا تُنْسَبُ إِلَيْك لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَخْلُو عَنْهَا وَأَنَّهَا مُكَفَّرَةٌ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ.

(٣) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِم إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٤) هذا قول الجمهور وهو مروي عن ابن عباس، وقيل هي العشر الأخير من رمضان؟ لأن فيها ليلة القدر، وهي رواية أيضًا عن ابن عباس، والأول أرجح.

(٥) (ش): (لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ): أي ذهب مالُه واستُشهِد.

(٦) هذا القول روي عن مجاهد وابن عباس، وروي عن ابن عباس أيضًا أن الشفع يوم النحر لكونه العاشر، والوتر يوم عرفة لكونه التاسع، وذكرت أقوال أخرى كثيرة غير هذه.

﴿ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ أي هل فيما ذُكِر من الأشياء قسمٌ مُقنِع لذي لُبٍّ وعقل؟ والاستفهام تقريريٌ لفخامة شأن الأمور المقسَم بها، كأنه يقول: إن هذا لقسمٌ عظيمٌ عند ذوي العقول والألباب، فمن كان ذا لُب وعقل عَلِم أن ما أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ به من هذه الأشياء فيها عجائب ودلائل تدل على توحيده وربوبيته، فهو حقيق بأن يُقسم له لدلالته على الإله الخالق العظيم قال القرطبي: قد يُقسم الله بأسمائه وصفاته لعلمه، ويُقسم بأفعاله لقدرته كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣] ويُقسم بمفعولاته لعجائب صنعه كما قال ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [1] وجواب القسم محذوب تقديره: ورب هذه الأشياء ليعذبنَّ الكفار[2]، ويدل عليه قوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟ أي ألم يبلغك يا محمد ويصل إلى علمك، ماذا فعل الله بعاد قوم هود؟ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ أي عادٍ الأولى أهل إرَم ذات البناء الرفيع، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عُمان وحضرموت ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم، وشدتهم، وضخامة أجسامهم، والمقصود من ذلك تخويف أهل مكة بما صنع تعالى بعاد، وكيف أهلكهم وكانوا أطول أعمارًا، وأشَدَّ قوة من كفار مكة!؟ قال ابن كثير: وهؤلاء «عاد الأولى» وهم الذين بعث الله فيهم رسوله «هودًا» عليه السلام فكذبوه وخالفوه، وكانوا عتاة متمردين جبارين، خارجين عن طاعة الله مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمَّرهم، وجعلهم أحاديث وعِبرًا[3] ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي وكذلك ثمود الذين قطعوا صخر الجبال، ونحتوا بيوتًا بوادي القُرى ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] وكانت مساكنهم في الحجر بين الحجاز وتبوك قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصخور والرخام قبيلة ثمود وكانوا لِقُوتِهم يُخرِجون الصخور، ويَنْقُبون الجبال[4] فيجعلونها بيوتًا لأنفسهم، وقد بنوا ألفًا وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة بوادي القرى[5] ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي وكذلك فرعون الطاغية الجبار، ذي الجنود والجموع والجيوش التي تشد ملكه قال أبو السعود: وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم أو لتعذيبه بالأوتاد[6] ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي أولئك المتجبرين «عادًا، وثمود، وفرعون» الذين تمردوا وعتوا عن أمر الله، وجاوزوا

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٤١.
(٢) انظر «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ١٢٢.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٣٦.
(٤) (ش): نقَب البنَاءَ أو نقَب الحائِطَ: ثقبَه، وفتح فيه ثُغرَةً.
(٥) انظر القرطبي ١٩/ ٤٨، والبحر المحيط» ٨/ ٤٧٠.
(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٦٢.

الحدَّ في الظلم والطغيان ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي فأكثروا في البلاد الظلم والجَوْر[١] والقتل، وسائر المعاصي والآثام ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي فأنزل عليهم ربك ألوانًا شديدة من العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم قال المفسرون: استعمل لفظ الصبّ لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب، كما قال القائل «صَبَبْنَا عَلَيْهِمْ ظَالِمِينَ سِيَاطَنَا» والمراد أنه تعالى أنزل على كل طائفة نوعًا من العذاب، فأُهلكت عادٌ بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون وجنوده بالغرق كما قال تعالى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠][٢] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ أي إن ربك يا محمد لَيَرْقُب عمل الناس، ويُحصيه عليهم، ويجازيهم به. قال في التسهيل: المرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصَد[٣]، والمراد أنه تعالى رقيبٌ على كل إنسان، وأنه لا يفُوته أحد من الجبابرة والكفار، وفي ذلك تهديدٌ لكفار قريش[٤].. ولما ذكر تعالى ما حلَّ بالطغاة المتجبرين، ذكر هنا طبيعة الإنسان الكافر، الذي يبطر عند الرخاء، ويقنط عند الضراء فقال ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي إذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ أي فأكرمه بالغِنَى واليسار[٥]، وجعله مُنَعَّمًا في الدنيا بالبنين والجاه والسلطان ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أي فيقول: ربي أحسن إليَّ بما أعطاني من النعم التي أستحقها، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر؟ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي وأما إذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر وتضييق الرزق ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي فيقول غافلًا عن الحكمة: إن ربي أهانني بتضييقه الرزق عليَّ قال القرطبي: وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظّ في الدنيا وقلّته، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسَّع عليه في الدنيا حمده وشكره[٦]، وإنما أنكر تعالى على الإنسان قوله ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وقوله ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ لأنه إنما قال ذلك على وجه الفخر والكبر، لا على وجه الشكر، وقال: أهانن على وجه التشكي من الله وقلة الصبر، وكان الواجب عليه أن يشكر على الخير، ويصبر على الشر، ولهذا ردعه وزجره بقوله ﴿كَلَّا﴾[٧] أي ليس الإكرام بالغنى، والإهانة بالفقر كما تظنون، بل الإكرام والإهانة بطاعة الله ومعصيته

---

(١) (ش): الجَوْر: الظلم.
(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٠، وانظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣١٧.
(٣) (ش): رَصَد: راصِدٌ، مُراقِب.
(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩٧.
(٥) (ش): يَسار: غِنًى وثَرْوة، رخاء، سِعَة.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٥١.
(٧) (ش): في أكثر من طبعة: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾، والمُثْبَت هنا هو الصواب ويدل عليه ما بعده.

ولكنكم لا تعلمون، ثم قال ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي بل أنتم تفعلون ماهو شرٌّ من ذلك، وهو أنكم لا تكرمون اليتيم مع إكرام الله لكم بكثرة المال! ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي ولا يحض بعضكم بعضًا ولا يحثه على إطعام المحتاج وعون المسكين ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي وتأكلون الميراث أكلًا شديدًا، لا تسألون أمن حلالٍ هو أم من حرام؟ قال في التسهيل: هو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره، لأن العرب كانوا لا يُعطون من الميراث أنثى ولا صغيرًا، بل ينفرد به الرجال[(١)] ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي وتحبون المال حبًّا كثيرًا مع الحرص والشرَهِ[(٢)]، وهذا ذمٌّ لهم لتكالبهم على المال، وبخلهم بإنفاقه ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿كَلَّآ﴾ للردع أي: ارتدعوا أيها الغافلون وانزجروا عن ذلك، فأمامكم أهوال عظيمة في ذلك اليوم العصيب، وذلك حين تُزَلزَل الأرضُ وتُحَرَّكُ تَحريكًا متتابعًا، قال الجلال: أي زُلْزِلَتْ حَتَّى يَنْهَدِم كُلّ بِناء عَلَيْهَا وَيَنْعَدِم[(٣)] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد، وجاء الملائكة صفوفًا متتابعة صفًا بعد صف، قال في التسهيل: قال المنذر بن سعيد: معناه ظهوره للخلق هنالك، وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييفٍ ولا تمثيل[(٤)] وقال ابن كثير: قام الخلائق من قبورهم لربهم، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم محمد ﷺ، فيجيء الربُّ تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا[(٥)] ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي وأحضرت جهنم ليراها المجرمون كقوله ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧] وفي الحديث «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٨.

(٢) (ش): الشَّرَه: شدة الحرص.

(٣) «تفسير الجلالين» ٤/ ٣١٨.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٨. (ش): ما ذكره المؤلف في بداية تفسير الآية هو الصواب، فالمجيء صفة من صفات الله على الحقيقة على ما هو لائق بالله بلا معرفة الكَيْف. وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ لا يصح تأويله بظهور الله للخلق. بل هذا مع مخالفته لظاهر القرآن يخالف نص السنة الصحيحة، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَجْمَعُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُوم، قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ، وَيَنْزِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ» (رواه ابن أبي الدنيا والطبراني، والحاكم وصححه، وحسنه الذهبي، وصححه الألباني). وبذلك قال أئمة التفسير. قال الإمام الطبري في تفسيره (٢٤/ ٤١٧): «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَإِذَا جَاءَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَمْلَاكُهُ صُفُوفًا صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ». اهـ. ثم أورد من الأحاديث والآثار ما يدل لقوله ويثبت مجيء الله تعالى. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٩٩): ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي: لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَيْهِ بِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ،... فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ فَيُشَفِّعُهُ اللهُ فِي ذَلِكَ،... فَيَجِيءُ الرَّبُّ تَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا».

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٨.

سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا »[(١)] ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، والموقف العصيب، يتذكر الإنسان علمه، ويندم على تفريطه وعصيانه، ويريد أن يُقْلِع[(٢)] ويتوب ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أي ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها؟! ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي يقول نادمًا متحسرًا: يا ليتني قدمت عملًا صالحًا ينفعني في آخرتي، لحياتي الباقية قال تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ أي ففي ذلك اليوم ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله من عصاه ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أي ولا يُقَيِّد أحدٌ بالسلاسل والأغلال مثلَ تقييدِ الله للكافر الفاجر، وهذا في حق المجرمين من الخلائق، فأما النفس الزكية المطمئنة فيقال لها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي يا أيتها النفس الطاهرة الزكية، المطمئنة بوعد الله التي لا يلحقها اليوم خوفٌ ولا فزع ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي ارجعي إلى رضوان ربك وجنته، راضيةً بما أعطاك الله من النعم، مرضيةً عنده بما قدمت من عمل قال المفسرون: هذا الخطاب والنداء يكون عند الموت، فيقال للمؤمن عند احتضاره تلك المقالة: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي فادخلي في زمرة عبادي الصالحين ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ أي وادخلي جنتي دار الأبرار الصالحين.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يليك

١ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟

٢ - الطباق بين ﴿وَالشَّفْعِ .. وَالْوَتْرِ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿يَتَذَكَّرُ .. الذِّكْرَىٰ﴾.

٤ - المقابلة ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ الآية فقد قابل بين ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و ﴿أَهَانَنِ﴾ وبين توسعة الرزق[(٣)].

٥ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ شبه العذاب الشديد الذي نزل عليهم بسياطٍ لاذعة تكوي جسد المعذَّب واستعمل الصبَّ للإنزال.

٦ - الالتفات ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب، والأصل ﴿بل لا يكرمون﴾.

٧ - الإضافة للتشريف ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾.

٨ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ ومثل ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفجر»



(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا.

(٢) (ش): أي يُقْلِع عن الذنوب، أقلع عن الشَّيءِ: كَفَّ عنه وتركه، امتنع وتوَقَّف عنه.

(٣) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: وبين توسعة الرزق وتضييق الرزق.

سُورَةُ البَلَدِ ٩٠ ٢٠

مكية وآياتها عشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، من تثبيت العقيدة والإيمان، والتركيز على الإيمان بالحساب والجزاء، والتمييز بين الأبرار والفجار.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام، الذي هو سكنُ النبي عليه الصلاة والسلام، تعظيمًا لشأنه، وتكريمًا لمقامه الرفيع عند ربه، ولفتًا لأنظار الكفار إلى أن إيذاء الرسول في البلد الأمين من أكبر الكبائر عند الله تعالى.

* ثم تحدثت عن بعض كفار مكة، الذين اغتروا بقوتهم، فعاندوا الحقَّ، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنفقوا أموالهم في المباهاة والمفاخرة، ظنًا منها أن إنفاق الأموال يدفع عنهم عذاب الله، وقد ردت عليهم الآيات بالحجة القاطعة والبرهان الساطع.

* ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة من مصاعب ومتاعب وعقباتٍ لا يستطيع أن يقطعها يجتازها إلا بالإيمان والعمل الصالح.

* وختمت السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العصيب، وبينت مآل السعداء، ومآل الأشقياء، في دار الجزاء.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾
أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ
﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ
﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾
عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ

اللغَة: ﴿كَبَدٍ﴾ الكبَدُ: الشدة والمشقة، وأصله من كَبِد الرجل كبَدًا إذا وجعَتْه كبِدُه ثم استعمل في كل تعَب ومشقة، ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ الاقتحامُ: الدخول بسرعة وشدة يقال: اقتحم الأمر، واقتحم الحصن إذا رمى نفسه فيه بدون رَوِيَّة[1] ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾

(١) (ش): رَوِيَّة: نَظَرٌ وتفكيرٌ في الأمور.

الطريق الوَعْر في الجبل(١) ﴿فَكُّ﴾ الفكُّ تخليص الشيء من الشيء يقال: فككت الحبل، وفككت الأسير، أي: خلصته من الأسر ﴿مَسْغَبَةٍ﴾ مجاعة يقال: سَغِبَ الرجل إذا جاع وقال الراغب: هو الجوع مع التعب(٢)﴿مَتْرَبَةٍ﴾ افتقار يقال: تربَ الرجل إذا افتقر ولصق بالتراب، وأترب إذا استغنى وكذلك أثرى(٣) ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ مُطْبَقَة من أوْصَد البابَ إذا أغلقه وأطبَقه(٤).

التفسير: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ هذا قسمٌ، أقسم سبحانه بالبلد الحرام «مكة»(٥) التي شرَّفها الله تعالى بالبيت العتيق قبلة أهل الشرق والغرب، وجعَلَها مهبِط الرحَمات(٦)، وإليها تُجبَى ثمراتُ كل شيء، وجعلها حرمًا آمنًا، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض(٧)، فلما استجمعت تلك المزايا والفضائل أقسم الله تعالى بها قال في التسهيل: أراد بالبلد «مكة» باتفاق، وأقسم بها تشريفًا لها(٨) ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي وأنت يا محمد ساكنٌ ومقيم بمكة بلد الله الأمين قال البيضاوي: أقسم بالبلد الحرام وقيَّده بحلوله عليه السلام فيه أي إقامته فيه إظهارًا لمزيد فضله، وإشعارًا بأن شرف المكان بشرف أهله(٩) ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أي وأُقسم بآدم وذريته الصالحين قال مجاهد: الوالد آدم عليه السلام ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ جميع ذريته قال ابن كثير: وما ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأُم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالساكن وهو «آدم» أبو البشر وولده(١٠). وقال الخازن: أقسم الله تعالى بمكة لشرفها وحرمتها، وبآدم وبالأنبياء والصالحين من ذريته، لأن الكافر وإن كان من ذريته لا حرمة له

(١) (ش): طريق وَعْر: طريق صلْب، والسَّيرُ فيه صعبٌ، مخيف، مُوحِش.
(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٣٨.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٧٣.
(٤) (ش): أطبقَ: أغلق.
(٥) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).
(٦) (ش): أي مكان نزول الرحَمات. مَهْبَط/ مَهْبِط: مكان النُّزول.
(٧) في الحديث الذي رواه الشيخان: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهْيَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ». الحديث. (ش): أي يَسَّرَ الله وصُولَ الثَّمَرَاتِ والأَمتِعَةِ والأَرْزَاقِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ إلى أهلِ الحَرَم.
(٨) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٩.
(٩) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٦٦٠.
(١٠) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٠.

حتى يقسم به[١] ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ هذا هو المقْسَم عليه أي لقد خلقنا الِإنسان في تعب ومشقة، فإنه لا يزال يقاسي أنواع الشدائد، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه قال ابن عباس: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي في مشقة وشدة، من حمله، وولادته، ورضاعه، وفطامه، ومعاشه، وحياته، وموته[٢]، وأصل الكبد: الشدة، وقيل: لم يخلق الله خلقًا يكابد ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق[٣] قال أبو السعود: والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار مكة[٤].. ثم أخبر تعالى عن طبيعة الِإنسان الجاحد بقدرة الله، والمكذب للبعث والنشور فقال ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ أي أيظن هذا الشقي الفاجر، المغتر بقوته، أنَّ الله تعالى لا يقدر عليه لشدته وقوته؟ قال المفسرون: نزلت في «أبي الأشد بن كلدة» كان شديدًا مغترًّا بقوته، وكان يبسط له الأديم الجلد فيوضع تحت قدميه، ويقول: «مَن أزالني عنه فله كذا»، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعًا ولا تَزِلّ قدماه[٥]، ومعنى الآية: أيظن هذا القوي المارد، المستضعف للمؤمنين، أنه لن يقدر على الانتقام منه أحد؟ ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أي يقول هذا الكافر: أنفقت مالًا كثيرًا في عداوة محمد ﷺ قال الألوسي: أي يقول فخرًا ومباهاة على المؤمنين: أنفقت مالًا كثيرًا، وأراد بذلك ما أنفقه «رياءً وسمعةً» وعبر عن الإنفاق بالإهلاك، إظهارًا لعدم الاكتراث، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع، فكأنه جعل المال الكثير ضائعًا، وقيل: يقول ذلك إظهارًا لشدة عداوته لرسول الله ﷺ[٦] ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؟ أي أيظن أنَّ الله تعالى لم يره حين كان ينفق، ويظن أن أعماله تخفى على رب العباد؟ ليس الأمر كما يظن، بل إن الله رقيب مطلعٌ عليه، سيسأله يوم القيامة ويجازيه عليه. ثم ذكَّره تعالى بنعمه عليه ليعتبر ويتعظ فقال ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ أي ألم نجعل له عينين يُبصِر بهما؟ ﴿وَلِسَانٗا﴾ أي ولسانًا ينطق به فيعبر عما في ضميره؟ ﴿وَشَفَتَيۡنِ﴾ أي وشفتين يُطْبِقهُما[٧] على فمه، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك، قال الخازن: يريد أنَّ نِعم الله على عبده مُتظاهرة، يقرره بها كي يشكره[٨] ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أي وبيَّنَّا له طريقَي الخير والشر، والهدى والضلال، ليسلك طريق السعادة، ويتجنب طريق الشقاوة قال ابن مسعود: ﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ الخير والشر كقوله تعالى

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٨.
(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٨.
(٣) نفس المرجع السابق.
(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٦٥.
(٥) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وفيه مبالغة ظاهرة في قوة هذا الرجل.
(٦) «تفسير الألوسي» ٣٠/ ١٣٦.
(٧) (ش): يُطْبِقهُما: يُغلِقهما.
(٨) «تفيسر الخازن» ٤/ ٢٤٩.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣](١) ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي فهلا أنفق ماله في اجتياز العقبة الكئود(٢)، بدل أن ينفقه في عداوة محمد ﷺ؟! قال في البحر: والعقبةُ استعارةٌ للعمل الشاق على النفس، من حيث فيه بذل المال، تشبيهًا لها بعقبة الجبل وهو ما صعب منه وقت الصعود، فإنه يلحقه مشقة في سلوكها، ومعنى اقتحمها دخلها بسرعة وشدة(٣)، وهو مثلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، حتى ينال رِضَى الرحمن ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾(٤) أي وما أعلمك ما اقتحام العقبة؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل.. ثم فسرها تعالى بقوله ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي هي عتق الرقبة في سبيل الله، وتخليص صاحبها من الأَسْر والرِّقّ، فمن أعتق رقبة كانت له فداءً من النار(٥) ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي أو أن يطعم الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة. قال الصاوي: وقيد الإطعام بيوم المجاعة، لأن إخراج المال فيه أشد على النفس(٦) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي أطعم اليتيم الذي بينه وبينه قرابة ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أو المسكين الفقير البائس الذي قد لصق بالتراب مِن فَقْره وضُرِّه، وهو كناية عن شدة الفقر والبؤس قال ابن عباس: هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شيء ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي عمل هذه القربات لوجه الله تعالى، وكان مع ذلك مؤمنًا صادق الإيمان قال المفسرون: وفي الآية إشارة أن هذه القُرَب والطاعات لا تنفع إلا مع الإيمان ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على الإيمان وطاعة الرحمن، وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة، هم أصحاب الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جنات النعيم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ قرن بين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، لبيان المفارقة الهائلة بين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشرار، أي: والذين جحدوا نبوة محمد وكذبوا بالقرآن هم أهل الشمال أهل النار لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، وعبر عنهم بضمير الغائب إشارة إلى أنهم غائبون عن حضرة قُدْسه، وكرامَة أُنسِه ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ أي عليهم نارٌ مُطْبَقَة مُغلَقة، لا يدخل فيها رَوْحٌ ولا رَيْحان(٧)، ولا يخرجون

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤١.
(٢) (ش): كأَد الأمرُ عليه: اشتدّ وصعُب. عقبة كئود: صعبة، يصعب صعودها وتجاوزها.
(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٧٦.
(٤) (ش): في أكثر من طبعة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، والمُثبَت هنا هو الصواب ويدل عليه ما بعده.
(٥) (ش): قال ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى يُعْتِقَ فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).
(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢٢.
(٧) (ش): رَوْحٌ: رَاحَةٌ أَوْ رَحْمَةٌ.

منها أَبَدَ الزمان[١]. اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا من ذلك يا رب.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - زيـادة ﴿لَآ﴾ لتأكيـد الكلام، وهو مسـتفيض في كلام العرب ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي أُقسـم بهذا البلد، وفائدتها تأكيد القسـم كقولك: لا والله ما ذاك كما تقول، أي: والله. قال امرؤ القيس: « لَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ... »[٢].

٢ جناس الاشتقاق ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ فكل من الوالد والولد مشتق من الولادة.

٣ - الاسـتفهام الإنكاري للتوبيـخ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾؟ ومثله ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؟

٤ - الاستفهام التقريري للتذكير بالنعم ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾؟

٥ - الاستفهام للتهويل والتعظيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾؟ لأن الغرض تعظيم شأنها.

٦ - الاسـتعارة اللطيفة ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي طريقَي الخير والشـر، وأصل النجد الطريق المرتفع، استُعِير كلٌّ منهما لسلوك طريق السعادة، وسلوك طريق الشقاوة.

٧ - الاستعارة كذلك في قوله ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ لأن أصل العقبة الطريق الوَعْر في الجبل، واستُعِيرت هنا للأعمال الصالحة لأنها لا تصعب وتشق على النفوس، ففيه استعارة تبعية.

٨ - الجناس الناقص بين ﴿مَقْرَبَةٍ﴾ و﴿مَتْرَبَةٍ﴾ لتغير بعض الحروف.

٩ - المقابلة اللطيفة بين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ وبين ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾.

١٠ - مراعاة الفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ.. وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ ومثل ﴿عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد»



---

(١) اقتبسنا هذا التفسير من الطبري والقرطبي و«البحر المحيط» وتفسير ابن كثير وغيرها من أمهات كتب التفسير.
(ش): رَوْحٌ: رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَاسْتِرَاحَةٌ، وَفَرَحٌ. رَيْحان: رِزْقٌ حَسَنٌ، وَرَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، وَجَمِيعُ مَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ.

(٢) (ش):

لَا وَأَبِيـــكِ ابْـنَـــةَ الْـعَــامِـرِيِّ ... لَا يَـدَّعِـي الْـقَــوْمُ إِنِّــي أَفِـرُّ

(ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

سورة الشمس ٩١ ١٥

مكية وآياتها خمس عشرة

بين يدي السورة

* سورة الشمس مكية، وقد تناولت موضوعين اثنين وهما:

١- موضوع النفس الإنسانية، وما جبلها الله عليه من الخير والشر، والهدى والضلال.

٢- وموضوع الطغيان ممثلًا في ﴿ثَمُودُ﴾ الذين عقروا الناقة فأهلكهم الله ودمرهم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله جل وعلا، فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع، ثم بالنهار إذا جلى ظلمة الليل بضيائه، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد، وبالأرض الذي بسطها على ماء جمد، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات، وأقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد.

* ثم ذكر تعالى قصة ﴿ثَمُودُ﴾ قوم صالح حين كذبوا رسولهم، وطغوا وبغوا في الأرض، وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر أصم[1]

معجزة لرسوله صالح عليه السلام، وما كان من أمر هلاكهم الفظيع الذي بقي عبرة لمن يعتبر، وهو نموذج لكل كافرٍ فاجر مكذب لرسل الله.

* وقد ختمت السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، لأنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾
وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ
خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ
وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا

اللغَة: ﴿وَضُحَاهَا﴾ ضوءها، والضحى وقت ارتفاع الشمس أول النهار قال المبرد: الضحى مشتقٌّ من الضِّحِّ وهو نور الشمس[2] ﴿طَحَاهَا﴾ بسَطَها ومَدَّها قال الجوهري: طَحَوتُه مثل

(١) (ش): صخر أصمُّ: صُلْب متين، مُصْمَت لا فراغ فيه.

(٢) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ١٤٠.

دَحَوْته أي بسَطْتُه(١) ﴿دَسَّىٰهَا﴾ أخفاها وأصل الكلمة دسَّسَها أُبدِلَت السين الثانية أَلِفًا تخفيفًا ﴿فَدَمْدَمَ﴾ الدمْدمة: إِطباقُ الشيء على الشيء(٢) يقال: دمدم عليه القبر، أي: أطبَقَه، والمراد به هنا إِطباقُ العذاب عليهم بمعنى إِهلاكهم بطريق الاستئصال ﴿عُقْبَٰهَا﴾ عاقِبَتها وتَبِعَتها.

التفسير: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي أُقسم بالشمس وضوئها الساطع إِذا أنار الكون وبدَّد الظلام(٣) ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي وأُقسم بالقمر إِذا سطع مضيئًا، وتبع الشمس طالعًا بعد غروبها قال المفسرون: وذلك في النصف الأول من الشهر، إِذا غربت الشمس تلاها القمر في الإِضاءة وخَلَفها في النور، وحكمةُ القسم بالشمس أن العالم في وقت غيبة الشمس عنهم كالأموات، فإِذا ظهر الصبح وبزغت الشمس دبت فيهم الحياة، وصار الأموات أحياء فانتشروا لأعمالهم وقت الضحوة، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقتُ الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها، والشمسُ والقمر مخلوقان لمصالح البشر، والقسم بهما للتنبيه على مافيهما من المنافع العظيمة(٤) ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي وأُقسم بالنهار إِذا جلا ظلمة الله بضيائه، وكشفها بنوره وقال ابن كثير: إذا جلَّى البسيطة وأضاء الكون بنوره(٥) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ أي وأقسمُ بالليل إِذا غطَّى الكون بظلامه، ولفَّه بشَبَحه، فالنهار يُجَلِّي المعمورة ويُظهِرها، والليل يغطّيها ويَستُرها، قال الصاوي: وأتى بالفعل مضارعًا ﴿يَغْشَىٰهَا﴾ ولم يقل ﴿غشاها﴾ مراعاةً للفواصل(٦) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي وأقسم بالقادر العظيم الذي بنى السماء، وأحكم بناءها بلا عمد قال المفسرون: ﴿وَمَا﴾ اسم موصول بمعنى «منْ» أي والسماء ومن بناها والمراد به الله رب العالمين، بدليل قوله بعده ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ كأنه قال: والقادر العظيم الشأن الذي بناها، فدلَّ بناؤها وإِحكامها على وجوده، وكمال قدرته(٧) ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي وأُقسمُ بالأرض ومن بسطها من كل جانب، وجعلها ممتدة ممهَّدة، صالحة لسُكْنَى الإِنسان والحيوان(٨)، وهذا لا ينافي كرويتها كما

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٤.

(٢) (ش): أطبقَ الشيءُ الشيءَ: غطّاه.

(٣) (ش): تقدَّم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يجوز أَنْ يُقْسِمَ إِلا بِالْخَالِقِ.

(٤) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢٣.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٤.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢١.

(٧) (ش): ليس المراد من ذكر الآيات الكونية مجرد الاستدلال على وجود الله؛ لأن المخاطَبين يُقِرُّون بذلك وإنما المراد الاستدلال على إفراده بالعبادة وهو الذي يجحده المخاطَبون. ومما يؤيد أن المراد الاستدلال على إفراده بالعبادة أن المؤلف قد قال بعد قليل: إن الله أقسم بسبعة أشياء «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهارًا لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية.

(٨) (ش): سكَن المكانَ/ سكَن بالمكانِ/ سكَن في المكانِ: أقام به واستوطنه.

قال المفسرون،(١) لأن الغرض من الآية الامتنان بجعل الأرض ممتدة واسعة، ميسَّرة للزراعة والفِلاحة(٢) وسُكْنَى الإِنسان ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي وأُقسمُ بالنفس البشرية وبالذي أنشأها وأبدعها، وجعلها مستعدة لكمالها، وذلك بتعديل أعضائها، وقواها الظاهرة والباطنة، ومن تمام تسويتها أن وهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر، والتقوى والفجور، ولهذا قال ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي وعرَّفها الفجور والتقوى وما تميز به بين رشدها وضلالها قال ابن عباس: بيَّن لها الخير والشر، والطاعة والمعصية، وعرَّفها ما تأتِي وما تتَّقِي(٣)، قال المفسرون: أقسم سبحانه بسبعة أشياء «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهارًا لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية، وإشارةً إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعِظَم نفعها وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها وقال الإمام الفخر: لما كانت الشمس أعظم المحسوسات، ذكرها تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عِظَمِها، ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة، ووصفها جلَّ وعلا بصفاتٍ ثلاث(٤) ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته، كما يليق به جلَّ جلاله، فكان ذلك طريقًا إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات، إلى بيداء أَوْج كبريائه جلَّ شأنه(٥) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا هو جواب القسم، أي: لقد فاز وأفلحَ من زكَّى نفسه بطاعة الله، وطهَّرها من دنس المعاصي والآثام ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي وقد خسر وخاب من حقَّر نفسه بالكفر والمعاصي، وأوْرَدها موارد الهلكة، فإنَّ من طاوع هواه، وعصى أمر مولاه، فقد نقَص من عِداد العقلاء(٦)، والتحق بالجهلة الأغبياء ثم ضرب تعالى مثلًا لمن طغَى وبغَى، ولم يطهر نفسه من دنس الكفر والعصيان، فذكر ﴿ثَمُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام فقال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أي كذَّبت ثمودُ نبيَّها بسبب طغيانها ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أي حين انطلق أشقى القوم بسرعةٍ ونشاط يعقر الناقة قال ابن كثير: وهو «قدار بن سالف» الذي قال الله فيه ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] وكان عزيزًا شريفًا في قومه، ورئيسًا مطاعًا فيهم، وهو أشقى القبيلة(٧) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي فقال لهم صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء،

(١) انظر أقوال المفسرين في إثبات كروية الأرض في سورة لقمان.

(٢) (ش): الفِلاحة: الزراعة؛ القيام بشئون الأرض الزراعيّة مِن حَرْث وزَرع وريّ وغيرِ ذلك.

(٣) (ش): أي عرَّفها ما يجب عليها أن تفعله، وما يجب عليها ألا تفعله.

(٤) (ش): هذه الصفات الثلاث في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٥ – ٧]، قال الرازي: «ثُمَّ ذَكَرَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ بَعْدَ ذَلِكَ وَوَصَفَهَا بِصِفَاتٍ ثَلَاثَةٍ وَهِيَ تَدْبِيرُهُ سُبْحَانَهُ لِلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلِلْمُرَكَّبَاتِ، وَنَبَّهَ عَلَى الْمُرَكَّبَاتِ بِذِكْرِ أَشْرَفِهَا وَهِيَ النَّفْسُ» [«التفسير الكبير» (٣١/ ١٧٥)].

(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠. (ش): أَوْج: قمَّة، ذروة أو علوّ وارتفاع.

(٦) (ش): أي لم يَعُدْ منهم. يقال: فلان في عِداد الصَّالحين: أي من بينهم، في جملتهم، معدودٌ منهم.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٥.

واحذروا أيضًا أن تمنعوها من سُقياها، أي: شربها ونصيبها من الماء كما قال تعالى ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي فكذبوا نبيه صالحًا وقتلوا الناقة، ولم يلتفتوا إلى تحذيره ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ أي فأهلكهم اللهُ ودمَّرهم عن آخرهم بسبب إجرامهم وطغيانهم قال الخازن: والدمْدَمة: هلاكٌ باستئصال. والمعنى: أطبق عليهم العذاب طبقًا فلم ينفلت منهم أحد[1] ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي فسوَّى بين القبيلة في العقوبة فلم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا غنيٌ ولا فقير ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ أي ولا يخاف تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون، لأنه تعالى لا يُسأل عما يفعل.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَٱلۡقَمَرِ﴾ و ﴿وَٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وبين ﴿فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾.

٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ وبين ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ وبين ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ وبين ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ وكلٌ من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية.

٣ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ نسبت إلى الله تشريفًا لأنها خرجت من حجرٍ أصم معجزةً لصالح عليه السلام.

٤ - التهويل والتفظيع ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ فإن التعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب.

٥ - السجع المرصَّع مراعاة للفواصل ورءوس الآيات وهو ظاهرٌ جَلِيٌّ في السورة الكريمة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس»



(١) «الخازن» ٤/ ٤٣٣.

سُورَةُ اللَّيْلِ ٩٢ ٢١

مكية وآياتها إحدى وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الليل مكية، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة، ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل[١] إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضيائه، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى، أقسم على أن عمل الخلائق مختلف، وطريقهم متباين ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾.

* ثم وضحت سبيل السعادة، وسبيل الشقاء، ورسمت الخط الباني لطالب النجاة، وبينت أوصاف الأبرار والفجار، وأهل الجنة وأهل النار ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾.

* ثم نبهت إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها، وثرواتهم التي كدسوها، وهي لا تنفعهم في القيامة شيئًا، وذكرتهم بحكمة الله في توضيحه لعباده طريق الهداية وطريق الضلالة ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾.

* وختمت السورة بذكر نموذج للمؤمن الصالح، الذي ينفق ماله في وجوه الخير، ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله، وضربت المثل بابي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى بلالًا وأعتقه في سبيل الله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾[٢].

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾
وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٢) (ش): انظر التعليق التالي.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ

اللغَة: ﴿تَجَلَّىٰ﴾ انكشف وظهر ﴿لَشَتَّىٰ﴾ متفرِّق ومختلِف ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾ الكلمة الحسنى وهي كلمة التوحيد ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ الخصلة المؤدية إلى اليسر والراحة وهي الجنة ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ الخصلة المؤدية إلى العسر والشدة وهي جهنم ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ هلكَ وسقَط في الهاوية ﴿تَلَظَّىٰ﴾ أصلها تَتَلظى أي تتلهَّب وتتوقَّد ﴿يَصْلَىٰهَآ﴾ يدخلها ويقاسي حرها.

المنَاسَبَة: روي أن بلالًا رَضِيَ اللهُ عَنْه كان عبدًا مملوكًا ل «أُمية بن خلف» وكان سيده يعذبه لإسلامه، ويخرجه إذا حميت الشمسُ فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد! (فيقول وهو في تلك الحالة: أحدٌ، أحدٌ، فمرَّ به أبو بكر الصديق وهم يصنعون به ذلك، فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين) ! فقال له: أنت أفسدته عليَّ فأنقذه مما ترى، فاشتراه أبو بكر منه وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما أعتقه ليدٍ كانت له عنده فنزلت ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1].

التفسِير: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي أُقسمُ بالليل إذا غطَّى بظلمته الكون، وستر بشبحه الوجود ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي وأُقسمُ بالنهار إذا تجلَّى وانكشف، وأنار العالم وأضاء الكون قال المفسرون: أقسم تعالى بالليل لأنه سكنٌ لكافة الخلق، يأوي فيه الإنسان والحيوان إلى مأواه، ويسكن عن الاضطراب والحركة، ثم أقسم بالنهار لأن فيه حركة الخلق وسعيهم إلى اكتساب

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢٦، و«تفسير الخازن» ٤/ ٢٥٦. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد. وهناك رواية أخرى أن سبب نزولها إعتاق أبي بكر لبلال رضي الله عنهما خصوصًا، رواها الآجريُّ في «الشريعة» وأبو الشيخ، والواحدي في «أسباب النزول» بإسناد ضعيف. وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: « نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ٢٠] فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «. (حسن، رواه البزار). عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: قَالَ أَبُو قُحَافَةَ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَابًا ضِعَافًا فَلَوْ أَنَّكَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ أَعْتَقْتَ رِجَالًا جُلْدًا يَمْنَعُونَكَ وَيَقُومُونَ دُونَكَ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «يَا أَبَتِ إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ مَا أُرِيدُ»، قَالَ: فَيُتَحَدَّثُ مَا نَزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ إِلَّا فِيهِ، وَفِيمَا قَالَ أَبُوهُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٦].(رواه أحمد في فضائل الصحابة، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي). جُلْدًا: جمع جَلْد: قوي، شديد البأس. قَالَ: فَيُتَحَدَّثُ مَا نَزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ إِلَّا فِيهِ،... هذا من كلام عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ. وقد ثبت أن أبا بكر أعتق بلالًا رضي الله عنهما، فعَنْ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: « أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا». يَعْنِي بِلاَلًا. رواه البخاري.

الـرزق، والحكمة في هذا القسـم ما في تعاقب الليل والنهار مـن مصالح لا تُحصى فإنه لو كان العمـر كله ليلًا لتعذر المعاش، ولو كان كله نهارًا لما سـكن الإنسـان إلـى الراحة، ولَاخْتَلَّتْ مصالحُ البشر ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي وأُقسمُ بالقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى، من نطفةٍ إذا تُمْنَى.. أقسم تعالى بذاته على خلق النوْعَيْن ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ للتنبيه على أنه الخالق المبـدع الحكيـم، إذْ لا يُعقل أن هذا التخالف بين الذكـر والأنثى يحصل بمحض الصدفة من طبيعـة بلهاء لا شـعور لها فإن الأجزاء الأصلية في المَنِيّ متسـاوية، فتكويـنُ الولد من عناصر واحدة تارةً ذكرًا، وتارة أنثى، دليلٌ على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل، مُحكِمٌ لما يصنع ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هـذا هو جواب القسـم أي إن عملكـم لمختلف، فمنكم تقِيٌّ ومنكم شـقِيٌّ، ومنكـم صالـحٌ ومنكم طالِحٌ[1]، ثم فسَّـره بقولـه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ أي فأما مـن أعطى ماله وأنفـق ابتغاء وجه الله، واتقـى ربه فكف عن محارم الله قال ابن كثيـر: أعطى ما أُمِرَ بإخراجه، واتقـى الله في أمـوره[2] ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وصدَّق بالجنة التي أعدَّهـا الله للأبرار ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي فسـنُهَيِّئُه لعمَل الخير، ونسـهِّل عليه الخصلة المؤدية لليسـر، وهي فعل الطاعات وتـرك المحرمـات ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي وأمَّا من بخل بإنفاق المال، واسـتغنى عن عبادة ذي الجلال قال ابن عباس: بخل بماله، واستغنى عن ربه عزَّ وجل ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكذَّب بالجنة ونعيمها ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي فسـنهيئه للخصلة المؤدية للعسر، وهي الحياة السيئة في الدنيا والآخرة وهي طريق الشـر قال المفسرون: سمَّى طريقة الخير يسرى؛ لأن عاقبتها اليسر وهـي دخول الجنة دار النعيم، وسـمَّى طريقة الشـرِّ عسـرى؛ لأن عاقبتها العسـر وهو دخول الجحيـم ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ اسـتفهام إنكاري أيْ أيُّ شـيء ينفعه مالـه إذا هلك وهو في نـار جهنم؟ هـل نفعه المال، ويدفع عنه الوبـال؟ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي إنَّ علينـا أن نُبيِّن للناس طريق الهدى من طريق الضلالة، ونوضِّح سـبيل الرشـد من سبيل الغَيِّ كقوله ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهـف: ٢٩] ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي لنـا مـا في الدنيا والآخـرة، فمن طلبهما من غير الله فقد أخطأ الطريق ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي فحذَّرْتُكم يا أهل مكة نارًا تتوقَّد وتتوهج من شـدة حرارتها ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ أي لا يدخلها للخلود فيها ولا يذوق سـعيرها، إلاّ الكافر الشـقي.. ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي كذَّب الرسل وأعرض عن الإيمان ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ أي وسيُبعَد عن النار التَّقِيُّ النَّقِيُّ، المبالغ في اجتناب الشرك والمعاصي.. ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليزكي نفسه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي وليس لأحدٍ عنده نعمة حتى يكافئه عليها،

(١) (ش): طَالِح: شِرِّير، فاسد، خلاف صالح.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٦.

وإنما ينفق لوجه الله قال المفسرون: نزلت الآيات في حقِّ «أبي بكر الصديق» حين اشترى بلالًا وأعتقه في سبيل الله فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فنزلت ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾(١) قال أي ليس له غاية إلا مرضاة الله ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ أي ولسوف يعطيه الله في الآخرة ما يرضيه وهو وعدٌ كريم من رب رحيم.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الطباق بين لفظة ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ و ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾ وبين ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ و ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾.

٢ – المقابلة اللطيفة ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الآيات.

٣ – جناس الاشتقاق ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ لأن اليسرى من التيسير فبينهما مجانسة.

٤ – حذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع كل مذهب ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ..﴾ الآيات.

٥ – السجع الرصين غير المتكلف كقوله ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى.. وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ إلخ.

كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه يقول: أعتق سيدُنا سيدَنا يريد أعتق سيدنا أبو بكر سيدنا بلالًا، فما أروع هذه النفوس! اللهم ارزقنا محبة أصحاب الرسول جميعًا(٢).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل»



(١) مُحَقِّقُهُ: انظر التعليق التالي.

(٢) (ش): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا». يَعْنِي بِلَالاً. (رواه البخاري).

سُورَةُ الضُّحَىٰ ٩٣ ١١

مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة الضحى مكية، وهي تتناول شخصية النبي الأعظم ﷺ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة[1]، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم المشركون، بل هو عند الله رفيع القدر، عظيم الشأن والمكانة ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

* ثم بشرته بالعطاء الجزيل في الآخرة، وما أداه الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات، ومنها الشفاعة العظمى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

* ثم ذكرته بما كان عليه في الصغر، من اليتيم، والفقر، والفاقة، والضياع، فآواه ربه وأغناه وأحاطه بكلئه وعنايته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

* وختمت السورة بتوصيته ﷺ بوصايا ثلاث، مقابل تلك النعم الثلاث، ليعطف على اليتيم ويرحم المحتاج، ويمسح دمعة البائس المسكين ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وهو ختم يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

اللغَة: ﴿سَجَىٰ﴾ سجى الليلُ: اشتد ظلامُه ﴿قَلَىٰ﴾ أبغض قال الراغب: القَلْيُ: شدةُ البُغض، يقال: قلاه ويقليه أي أبغضه[2] ﴿فَآوَىٰ﴾ ضمَّه إلى من يرعاه ﴿عَائِلًا﴾ فقيرًا معدمًا وهو من اشتد به الفقر قال جرير:

اللهُ نَـزَّلَ فِـي الْـكِـتَـابِ فَـرِيـضَـةً ... لِابْـنِ السَّبِيلِ وَلِلْفَقِيرِ الْعَائِلِ[3]

(١) (ش): يقال: حباه اللهُ الخيرَ: أي أعطاه بلا جزاء.
(٢) «مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٨٦.

﴿نَقۡهَرۡ﴾ تذلّه وتحْقِره ﴿تَنۡهَرۡ﴾ تزْجُره وتُغلِظ عليه في الكلام.

سَبَبُ النّزول: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا فجاءت امرأةٌ وهي أم جميل امرأة أبي لهب فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك! لم أره قربك ليلتين أو ثلاثًا فأنزل اله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (١).

التفسِير: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أقسم تعالى بوقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمسُ، وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه، وغطّى كل شيء في الوجود قال ابن عباس: ﴿سَجَىٰ﴾ أقبل بظلامه(٢) قال ابن كثير: هذا قسمٌ منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، وبالليل إذا سكن فأظلم وادْلَهَمَّ(٣)، وذلك دليلٌ ظاهر على قدرته تعالى(٤) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبك، وهذا ردٌّ على المشركين حين قالوا: هجره ربه، وهو جواب القسم ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي وللدارُ الآخرة خيرٌ لك يا محمد من هذه الحياة الدنيا، لأن الآخرة باقية، والدنيا فانية، ولهذا كان عليه السلام يقول: «اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَهْ»(٥) ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ أي سوف يعطيك ربك في الآخرة من الثواب، والكرامة، والشفاعة، وغير ذلك إلى أن ترضى قال ابن عباس: هي الشفاعة في أُمته حتى يرضى، لما روي أن النبي ﷺ ذكر أمته فقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي. وَبَكَى فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ - فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ. وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ: اللهُ يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِى أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ»(٦)، وفي الحديث «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّى اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِى شَفَاعَةً لأُمَّتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٧) الحديث

---

(١) الحديث في الصحيحين بدون ذكر اسم المرأة. (ش): وقد ورد ذِكرُ اسم المرأة في حديث ضعيف رواه الحاكم عن زيد بن أرقم -رضي الله عنه-؛ قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ [المسد: ٤- ٥]؛ قال: فقيل لامرأة أبي لهب: إن محمدًا قد هجاك؛ فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس في الملأ، فقالت: يا محمد! على ما تهجوني؟ قال: فقال: «والله ما هجوتك، ما هجاك إلا الله»، قال: فقالت: هل رأيتني أحمل حطبًا أو رأيت في جيدي حبلًا من مسد، ثم انطلقت فمكث رسول الله ﷺ أيامًا لا ينزل عليه؛ فأتته فقالت: يا محمد! ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٨٥٢.

(٣) (ش): ادلهمَّ اللَّيلُ/ ادلهمَّ الظَّلامُ: كَثُف واسْوَدَّ، اشتدّ سوادُه.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٦) أخرجه مسلم.

(٧) أخرجه الشيخان.

قال الخازن: والأولى حملُ الآية على ظاهرها ليشمل خيري الدنيا والآخرة معًا، فقد أعطاه الله تعالى في الدنيا النصر والظفر على الأعداء، وكثرة الأتباع والفتوح، وأعلى دينه، وجعل أمته خير الأمم، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة، والمقام المحمود، وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة[١].. ثم لما وعده بهذا الوعد الجليل، ذكَّره بنعمه عليه في حال صغره ليشكر ربه فقال ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي ألم تكنْ يا محمد يتيمًا في صغرك، فآواك الله إلى عمك أبي طالب وضمَّك إليه؟ قال ابن كثير: وذلك أن أباه توفي وهو حملٌ في بطن أمه، ثم توفيت أُمه وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده «عبد المطلب» إلى أن تُوفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه «أبو طالب» ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين وأبو طالب على عبادة الأوثان مثل قومه ومع ذلك كان يدفع الأذى عن رسول الله ﷺ، وكلُّ هذا من حفظ الله له، وكلاءته وعنايته به[٢] ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ أي ووجدك تائهًا عن معرفة الشريعة والدين فهداك إليها كقوله تعالى ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] قال الإمام الجلال: أي وجدك ضالًّا عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك إليها[٣]، وقيل: ضلَّ في بعض شعاب مكة وهو صغير فردَّه الله إلى جده[٤] قال أبو حيان: لا يمكن حَمْله على الضلال الذي يقابله الهدى، لأن الأنبياء معصومون من ذلك قال ابن عباس: هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة، وقيل: ضلَّ وهو مع عمه طريق الشام[٥] ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ أي ووجدك فقيرًا محتاجًا فأغناك عن الخلق، بما يسَّر لك من أسباب التجارة.. ولمَّا عدَّد عليه هذه النعم الثلاث، وصَّاه بثلاث وصايا مقابله فقال ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ أي فأما اليتيم فلا تحتقره ولا تغلبه على ماله قال مجاهد: أي لا تحتقره وقال سفيان: لا تظلمه بتضييع ماله، والمراد كن لليتيم كالأب الرحيم، فقد كنت يتيمًا فآواك الله ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ أي وأمَّا السائل المُستَجْدِي[٦] الذي يَسأل عن حاجةٍ وفقرٍ، فلا تزجُرْه إذا سألك ولا تُغلِظ له القول بل أعْطِه أو رُدَّه ردًّا جميلًا قال قتادة: ردَّ المسكين برفقٍ ولين ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ أي حدِّث الناس بفضل الله وإنعامه عليك، فإن التحدث بالنعمة شكر لها قال الألوسي: كنت يتيمًا وضالًّا وعائلًا، فآواك الله وهداك وأغناك، فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، فتعطَّفْ على اليتيم، وترحَّمْ على السائق، فقد ذُقْتَ اليُتْم والفقر، وأَرْشِد العباد

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٥٨.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٠.
(٣) «تفسير الجلالين» ٤/ ٣٣٠.
(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٦٠.
(٥) «البحر المحيط» في التفسير ٨/ ٤٨١.
(٦) (ش): المُستَجْدِي: مَن يستَجْدي الناسَ، أي يطلب منهم العَطِيّة مُستَرحِمًا مُتوسِّلاً.

إلى طريق الرشاد، كما هداك ربُّك[1].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الطباق بين ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ و ﴿الْأُولَىٰ﴾ لأن المراد بالأولى الدنيا وهي تطابق الآخرة.

٢ – المقابلة اللطيفة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ .. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ قابلها بقوله ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وهي من لطائف علم البديع.

٣ – الجناس الناقص بين ﴿تَقْهَرْ﴾ و ﴿تَنْهَرْ﴾ لتغير الحرف الثاني من الكلمتين.

٤ – السجع المرصَّع كأنه الدر المنظوم في عقد كريم ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ إلخ.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة الضحى»



(١) «تفسير الألوسي» ٣٠/ ١٦٤.

سُورَةُ الشَّرْح ٩٤ - ٨

مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سـورة الانشـراح مكية، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجلية، ومقامه الرفيع عند الله تعالى، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ، وذلك بشرح صـدره بالإيمان، وتنويـر قلبه بالحكمة والعرفان، وتطهيره من الذنـوب والأوزار، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه من أذى الفجار، وتطييب خاطره الشريف بما منحه الله من الأنوار ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

* ثـم تحدثـت عن إعلاء منزلة الرسـول، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة، وقرن اسـمه ﷺ باسم الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

* وتناولت السـورة دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسـى مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين، فآنسـه بقرب الفرج وقرب النصر على الأعداء ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

* وختمت بالتذكير للمصطفى ﷺ بواجب التفرغ لعبادة الله، بعد انتهائه من تبليغ الرسالة، شكرًا لله على ما أولاه من النعم الجلية ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب

التفسير: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير، أي: قد شرحنا لك صدرك يا محمد بالهـدى والإيمان، ونـور القرآن كقوله تعالـى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] قال ابن كثير: أي نورناه وجعلناه فسـيحًا، رحيبًا، واسـعًا، وكما شـرح الله صدره كذلك جعل شـرعه فسيحًا، سمحًا، سـهلًا، لا حرج فيه ولا إصرْ ولا ضيق[1] وقال أبو حيان: شـرحُ الصدر تنْويرُه بالحكمة، وتوسـيعه لتَلَقِّي ما يُوحَى إليه وهو قـول الجمهور، وقيل: هو شَـقُّ جبريل لصدره في صغره وهو مرويٌ عن ابن عباس[2] ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي حطَطْنا

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٥٦.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٨٧، والرواية التي أشار إليها ذكرت في صحيح مسلم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ =

عنك حملك الثقيل ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ أي الذي أثقل وأوهن ظهرك قال المفسرون: المراد بالوزر الأمور التي فعلها ﷺ، وَوَضْعُها عنه هو غفرانها له كقوله تعالى ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام، فإن الرسل معصومون من مقارفة الجرائم، ولكن ما فعله عليه السلام عن اجتهاد وعوتب عليه، كإذنه ﷺ للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا، وأخذه الفداء من أسرى بدر، وعبسه في وجه الأعمى ونحو ذلك، قال في التسهيل: وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل، وهي صغائر مغفورة لهم، لهمِّهم بها وتحسرهم عليها؛ فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله وهذا كما ورد في الأثر: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»[(١)] والنقيضُ هوَ الصوتُ الذي يسمع من المَحْمَل فوق ظهر البعير من شدة الحمل ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ أي رفعنا شأنك، وأعلينا مقامك في الدنيا والآخرة، وجعلنا اسمك مقرونًا باسمي قال مجاهد: لا أُذكَر إلا ذُكِرْتَ معي وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا مُتشهّد، ولا صاحب صلاة إلا ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وفي الحديث «أتاني جبريل فقال لي يا محمد: إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله تعالى أعلم، قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي»[(٢)]

قال في البحر: قرن الله ذكر الرسول بذكره جل وعلا في كلمة الشهادة، والأذان والإقامة، والتشهد، والخطب، وفي غير موضع من القرآن، وأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به[(٣)]

= عَلَقَةً فَقَالَ: «هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ». ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ المُرضِعة - فَقَالُوا: «إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ». فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (ش): العَلَقَة: الدَّمُ الغَليظُ المُنعَقِد. (الطَّسْتُ): الطَّسْتُ: إِنَاءٌ مَعْرُوفٌ: إناء كبير مستدير من نُحاس أو نحوه يُستعمل للغسيل. (لَأَمَهُ): جَمَعَهُ وَضَمَّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ. (ظِئْرَهُ) وَهِيَ الْمُرْضِعَةُ غَيْرَ وَلَدِهَا، وَيُقَالُ أَيْضًا لِزَوْجِ الْمُرْضِعَةِ: ظِئْرٌ. (مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ) أَيْ مُتَغَيِّرُ اللَّوْنِ. (الْمِخْيَطِ) الإِبْرَةُ.

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٠٦. (ش): رواه البخاري من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ) السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مُنَوَّرٌ فَإِذَا رَأَى مِنْ نَفْسِهِ مَا يُخَالِفُ مَا يُنَوَّرُ بِهِ قَلْبَهُ عَظُمَ الأَمْرُ عَلَيْهِ وَالْحِكْمَةُ فِي التَّمْثِيلِ بِالْجَبَلِ أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ قَدْ يَحْصُلُ التَّسَبُّبُ إِلَى النَّجَاةِ مِنْهُ بِخِلَافِ الْجَبَلِ إِذَا سَقَطَ عَلَى الشَّخْصِ لَا يَنْجُو مِنْهُ عَادَةً وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ لِقُوَّةِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الإِيمَانِ فَلَا يَأْمَنُ الْعُقُوبَةَ بِسَبَبِهَا وَهَذَا شَأْنُ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ دَائِمُ الْخَوْفِ وَالْمُرَاقَبَةِ يَسْتَصْغِرُ عَمَلَهُ الصَّالح ويخشى من صَغير عمله السيئ (وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ) أَيْ ذَنْبُهُ سَهْلٌ عِنْدَهُ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِهِ كَبِيرُ ضَرَرٍ كَمَا أَنَّ ضَرَرَ الذُّبَابِ عِنْدَهُ سَهْلٌ وَكَذَا دَفْعُهُ عَنْهُ. (فَقَالَ بِهِ هَكَذَا) أَيْ نَحَّاهُ بِيَدِهِ أَوْ دَفَعَهُ هُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ. [فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠٥)].

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٢. (ش): رواه ابن حبان، وابْنُ جَرِيرٍ الطبري وابْنُ أَبِي حَاتِمٍ في «تفسيريهما» وضعفه الألباني.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٨٨.

كما قال حسان بن ثابت:

وَضَـمَّ الْإِلَـهُ اسْـمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَـقَّ لَـهُ مِـنِ اسْـمِـهِ لِيُـجِلَّـهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ[1]

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي بعد الضيق يأتي الفرج، وبعد الشدة يكون المخرج قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ كما عدَّد عليه النعم في أول السورة تسلية وتأنيسًا له، لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه، وكأن الله تعالى يقول: إنَّ الذي أنعم عليك بهذه النعم الجليلة، سينصُرك عليهم، ويُظهِر أمرك، ويبدّل لك هذا العُسر بيُسرٍ قريب، ولذلك كرره مبالغةً فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي سيأتي الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر فلا تحزن ولا تضجر وفي الحديث « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ »[2] ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي فإذا فرغت يا محمد من دعوة الخلق، فاجتهد في عبادة الخالق، وإذا انتهيت من أمور الدنيا، فأتعِبْ نفسك في طلب الآخرة ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أي اجعل همَّك ورغبتك فيما عند الله، لا في هذه الدنيا الفانية قال ابن كثير: المعنى إذا فرغْتَ من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعْتَ علائقها، فانصَبْ إلى العبادة، وقم إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلِصْ لربِّك النيةَ والرغبة[3].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الاستفهام التقريري للامتنان والتذكير بنعم الرحمن ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ..﴾ إلخ.

٢ – الاستعارة التمثيلية ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ شبَّه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل الإنسان ويعجز عن حمله بطريق الاستعارة التمثيلية.

٣ – التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ نكر اليسر للتعظيم كأنه قال يسرًا كبيرًا.

٤ – الجناس الناقص بين لفظ ﴿يُسْرًا﴾ و ﴿ٱلْعُسْرِ﴾.

٥ – تكرير الجملة لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ويسمى هذا بالإطناب.

٦ – السجع المرصَّع مراعاة لرءوس الآيات ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ ومثلها ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشرح»



(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٢.

(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي. (ش): ضعفه الذهبي والألباني.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٣

سُورَةُ التِّين ٩٥ ٨

مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة التين مكية، وهي تعالج موضوعين بارزين هما:

الأول: تكريم الله جل وعلا للنوع البشري.

الثاني: موضوع الإيمان بالحساب والجزاء.

* ابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله، وهي «بيت المقدس» و «جبل الطور» و «مكة المكرمة» على أن الله تعالى كرم الإنسان، فخلقه في أجمل صورة، وأبدع شكل، وإذا لم يشكر نعمة ربه فسيرد إلى أسفل دركات الجحيم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾.

* ووبخت الكافر على إنكاره للبعث والنشور، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة رب العالمين، في خلقه للإنسان في أحسن شكل، وأجمل صورة ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾.

* وختمت ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؟ وفيها تقرير للجزاء، وإثبات للمعاد.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ
رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ
٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾

اللغــة: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى ومعنى ﴿سِينِينَ﴾ المبارك ﴿تَقۡوِيمٖ﴾ تعديل يقال: قوَّم العودَ أي عدَّله وجعله مستقيمًا، وقوَّمه الدهرُ جعله متزنًا حصيف الرأي والعقل[1] ﴿مَمۡنُونٖ﴾ مقطوع ﴿بِٱلدِّينِ﴾ الجزاء مأخوذ من دان بمعنى جازى، ومنه الحديث الشريف « كَمَا تَدِينُ تُدَانُ »[2] أي كما تفعل تُجازَى.

التفسير: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ هذا قسمٌ أي أُقسمُ بالتين والزيتون لبركتِهما وعظيم منفعتِهما[3].

---

(١) (ش): حَصيف: ذكيّ حكيم. رأيٌ حصيف: رأيٌ مُحكَمٌ لا خلَل فيه.

(٢) (ش): رواه البيهقي وغيره، وضعفه الألباني.

(٣) (ش): تقدم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يُقْسِمَ إلاَّ بِالْخَالِقِ.

قال ابن عباس: هو تِينُكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت[١] وقال عكرمة: أقسم الله تعالى بمنابت التين والزيتون، فإِن التين ينبتُ كثيرًا بدمشق، والزيتون ببيت المقدس[٢].. وهو الأظهر، ويدل عليه أن الله تعالى عطَف عليه الأماكن «جبل الطور» و «البلد الأمين» فيكون قسَمًا بالبقاع المقدسة التي شرَّفها الله تعالى بالوحي والرسالات السماوية ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي وأُقسم بالجبل المبارك الذي كلَّم الله عليه موسى وهو «طور سيناء» ذو الشجر الكثير، الحسن المبارك قال الخازن: سمي «سينين» و «سيناء» لحسنه ولكونه مباركًا، وكلُّ جبلٍ فيه أشجارٌ مثمرة يسمى سينين وسيناء[٣] ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أي وأقسم بالبلد الأمين «مكة المكرمة» التي يأمن فيها من دخلها على نفسه وماله كقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ! قال الألوسي: هذه أقْسامٌ[٤] ببقاع مباركة شريفة على ما ذهب إِليه الكثيرون، فأما البلد الأمين فمكة المكرمة حماها الله بلا خوف، وأما طور سينين فالجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه، ويقال له: طور سيناء، وأما التين والزيتون فروي عن قتادة أن المراد بهما جبلان: أحدهما بدمشق، والثاني ببيت المقدس، وعنى بالتين والزيتون منبتيهما، وقيل: المراد بهما الشجران المعروفان وهو قول ابن عباس ومجاهد، والغرض من القسم بتلك الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة ببعثة الأنبياء والمرسلين[٥] وقال ابن كثير: ذهب بعض الأئمة إِلى أن هذه محال ثلاث، بعث الله في كلٍ منها نبيًا مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول: محلة التين والزيتون وهي «بيت المقدس» التي بعث الله فيها عيسى عليه السلام. والثاني: طور سينين وهو «طور سيناء» الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: البلد الأمين الذي من دخله كان آمنًا، وهو الذي أرسل الله فيه محمدًا ﷺ، وقد ذكر في آخر التوراة هذه الأماكن الثلاثة «جاء اللهُ من طور سيناء الجبل الذي كلم الله عليه موسى وأشرق من ساعير يعني جبل المقدس الذي بعث الله منه عيسى واستعلن من جبال فاران يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمدًا ﷺ» فذكرهم بحسب ترتيبهم بالزمان، وأقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما[٦]، وجواب القسم هو قوله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي خلقنا جنس الإِنسان في أحسن شكل، متصفًا بأجمل وأكمل الصفات، من حُسْن الصورة،

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٠.
(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٨٩.
(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٦٦.
(٤) (ش): أقْسامٌ: جمع قَسَم.
(٥) «روح المعاني» ٣٠/ ١٧٣ بشيء من الإيجاز.
(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٤.

وانتصاب القامة، وتناسب الأعضاء، مُزَيَّنًا بالعلم والفهم، والعقل والتمييز، والنطق والأدب، قال مجاهد: ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أحسن صورة، وأبدع خلق[١] ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي ثم أنزلنا درجته إلى أسفل سافلين، لعدم قيامه بموجب ما خلقناه عليه، حين لم يشكر نِعمةَ خلْقِنا له في أحسن صورة، ولم يستعمِل ما خصصناه به من المزايا في طاعتنا، فلذلك سنرده إلى أسفل سافلين وهي جهنم قال مجاهد والحسن: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أسفل دركات النار وقال الضحاك: أي رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة[٢] قال الألوسي: والمتبادرُ من السياقِ الإشارة إلى حالة الكافر يوم القيامة، وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها[٣] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إلا المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح[٤] ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي فلهم ثواب دائم غير مقطوع عنهم، وهو الجنة دار المتقين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ الخطاب للإنسان على طريقة الالتفات أي فما سبب تكذيبك أيها الانسان، بعد هذا البيان وبعد وضوح الدلائل والبراهين؟ فإن خلق الإنسان من نطفة، وإيجاده في أجمل شكل وأبدع صورة، من أوضح الدلائل على قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ على البعث والجزاء، فما الذي يدعوك إلى التكذيب بيوم الدين بعد هذه البراهين؟ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي أليس الله الذي خلق وأبدع، بأعدل العادلين حكمًا وقضاءً وفصلًا بين العباد؟ وفي الحديث «أن النبي ﷺ كان إذا قرأها قال: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين». ويُرْوَى عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»[٥].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز العقلي بإطلاق الحَالّ وإرادة المحلّ[٦].

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ أراد موضِعهما الشام وبيت المقدس على القول الراجح.

٢ - الطباق بين ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وبين ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

---

(١) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٥٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٥. (ش): قد استَثْنَت الآياتُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات من أن يُرَدُّوا أَسْفَلَ سَافِلِينَ، ومِنهم مَن يصيبه الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة.

(٣) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٧٦.

(٤) (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطْف العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٥) (ش): المحلّ: المكان، والحالّ: الموجود بالمكان.

(٦) رواه أبو داود والترمذي، وضعفه الألباني.

٣ – جناس الاشتقاق ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.
٤ – الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾؟
٥ – الاستفهام التقريري ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟
٦ – السجع المرصَّع ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ.. أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ.. بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ والله أعلم.

لطيفَة: ذكر الإمام القرطبي: أن «عيسى الهاشمي» كان يحب زوجته حبا شديدًا، فقال لها يومًا: أنت طالقٌ ثلاثًا إن لم تكوني أحسن من القمر! فاحتجبت عنه وقالت: طلقتني، فحزن حزنًا شديدًا وذهب إلى الخليفة «المنصور» وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلّقت، إلا رجلًا واحدًا من أصحاب أبي حنيفة فقد بقي ساكتًا فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل يا أمير المؤمنين: يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان، فقال: صدقت، ورَدَّها إلى زوجها.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التين»



سُورَةُ العَلَق ٩٦ ١٩

مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة العلق وتسمى «سورة اقرأ» مكية، وهي تعالج القضايا الآتية:

أولًا: موضوع بدء نزول الوحي على خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ثانيًا: موضوع طغيان الإنسان بالمال وتمرده على أوامر الله.

ثالثًا: قصة الشقي «أبي جهل» ونهيه الرسول ﷺ عن الصلاة[1].

* ابتدأت السورة ببيان فضل الله على رسوله الكريم ﷺ بإنزاله هذا القرآن «المعجزة الخالدة» وتذكيره بأول النعماء[2] وهو يتعبد ربه بغار حراء، حيث تنزَّل عليه الوحي بآيات الذكر الحكيم ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

* ثم تحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء، وتمرده على أوامر الله بسبب نعمة الغنى، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه على إفضاله[3]، لا أن يجحد النعماء، وذكرته بالعودة إلى ربه لينال الجزاء ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾.

* ثم تناولت قصة «أبي جهل» فرعون هذه الأمة، الذي كان يتوعد الرسول ويتهدده، وينهاه عن الصلاة، انتصارًا للأوثان والأصنام ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ الآيات.

* وختمت السورة بوعيد ذلك الشقي الكافر، بأشد العقاب إذا استمر على ضلاله وطغيانه، كما أمرت الرسول الكريم ﷺ بعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ إلى ختام السورة ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾.

* وقد بدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعلم، وختمت بالصلاة والعبادة، ليقترن العلم بالعمل، ويتناسق البدء مع الختام.

---

(١) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رضى الله عنهما– قَالَ: «مَرَّ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ، أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْتَهَرَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: «لِمَ تَنْتَهِرُنِي يَا مُحَمَّدُ؟ فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَاللهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللهِ». (صحيح، رواه أحمد والترمذي).

انْتَهَرَهُ: زجره بعُنف وأغضبه.

(٢) النَّعْماء: النعمة.

(٣) (ش): الإفضال: الإنعام.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾

اللغَة: ﴿عَلَقٍ﴾ جمع عَلَقة وهي الدَّمُ الجامد، سُمِّيَت علقة لأنها تَعْلَق بالرحم [(١)] ﴿لَنَسْفَعًا﴾ السَّفع: الجذب بشدة وقوة قال أهل اللغة: سفعت بالشيء إذا قبضتُ عليه وجذبته جذبًا شديدًا، وسفع بناصية فرسه جذبها قال الشاعر:

قَوْمٌ إِذَا كَثُرَ الصِّيَاحُ رَأَيْتَهُمْ ... مِنْ بَيْنِ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعِ [(٢)]

﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ شَعر مُقدَّم الرأس ﴿الزَّبَانِيَةَ﴾ مأخوذ من الزَّبن وهو الدفع، والمراد بهم ملائكة العذاب، الغلاظ الشداد، والعرب يطلقون هذا الاسم على من اشتد بطشه قال الشاعر:

مَطَاعِيمُ فِي الْقُصْوَى

مَطَاعِينُ فِي الْوَغَى ... زَبَانِيَةٌ غُلْبٌ عِظَامٌ حُلُومُهَا [(٣)]

رُوِي «أن أبا جهل قال لأصحابه يومًا: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ - يريد هل يصلي ويسجد أمامكم - قالوا: نعم، فقال: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فجاء يومًا فوجد رسول الله ﷺ يصلي، فأقبل يريد أن يطأ على رقبته، فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا». فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿أَرَأَيْتَ الذي ينهى عَبْدًا إِذَا صلى﴾ إلى آخر السورة»[(٤)].

---

(١) (ش): علِق: تعلَّق. يقال: علِق الشَّوكُ بثوبه.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٩١. (ش): لجَم/ ألجم الفرسَ: ألبسه اللِّجام. وضَع في فمها حديدةً لقيادتها. المُهْر: ولد الفرس. والسافع: المُمْسك برأس فرسه ليركبه بسرعة من غير لجام.

(٣) «روح المعاني» ٣٠/ ١٨٨. (ش): مَطاعِيمُ: جمع مِطعام: كثير الإطعام، كثير الأضياف. القُصْوَى: الغايَةُ البعيدةُ، غاية ما يمكن بلوغه من الشَّيء. مَطاعين: جَمْعُ مِطْعانٍ: كَثِير الطَّعْن. غُلْب: جمع أغْلَب وهو الغليظ الرقبة. والعرب تصف السادة بغلظ الرقبة وطولها. والحُلوم: جمع الحِلم وهو العقْل.

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، وانظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٥٨، والخازن ٤/ ٢٧٠. (ش): وروى البخاري بعضه.

(هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ) أَيْ يَسْجُدُ وَيُلْصِقُ وَجْهَهُ بِالْعَفَرِ وَهُوَ التُّرَابُ. (فَجِئَهُمْ) فَجَأَهُمْ، أي إن ذلك حدث في وقت لم يتوقَّعوه فيه. (يَنْكِصُ): يرجِعُ عَلَى عَقِبَيْهِ، يَمْشِي عَلَى وَرَائِهِ. (الهَوْل): فَزَع ورهبة. والجمع أهوال.

التفسير: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ هذا أول خطاب إلهي إلى النبي ﷺ وفيه دعوةٌ إلى القراءة والكتابة والعلم، لأنه شعار دين الإسلام، أي: اقرأ يا محمد القرآن مُبتَدِئًا ومستعينًا باسم ربك الجليل، الذي خلق المخلوقات، وأَوْجَد جميع العوالم، ثم فسَّر الخلق تفخيمًا لشأن الإنسان فقال ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي خلق هذا الإنسان البديع الشكل، الذي هو أشرف المخلوقات من العلقة - وهي الدودة الصغيرة[١]- وقد أثبت الطبُّ الحديث أن المنيّ الذي خلق منه الإنسان مُحتوٍ على حيواناتٍ وديدان صغيرة لا تُرى بالعين، وإنما ترى بالمجهر الدقيق (الميكرسكوب) وأن لها رأسًا وذنبًا، فتبارك الله أحسن الخالقين[٢] قال القرطبي: خصَّ الإنسان بالذكر تشريفًا له، والعلقةُ قطعة من دم رَطْب، سُميت بذلك لأنها تَعْلق لرطوبتها بما تمرُّ عليه[٣] ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ أي اقرأ يا محمد وربك العظيم الكريم، الذي لا يساويه ولا يدانيه كريم، وقد دلَّ على كمال كرمه أنه علَّم العباد ما لم يعلموا ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي الذي علَّم الخطَّ والكتابة بالقلم، وعلَّم البشر ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم والمعارف، فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، فكما علَّم سبحانه بواسطة الكتابة بالقلم، فإنه يعَلِّمك بلا واسطة وإن كنت أميًّا لا تقرأ ولا تكتب قال القرطبي: نبَّه تعالى على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسان، وما دُوِّنَت العلوم ولا قُيِّدَت الحِكَم، ولا ضُبِطَت أخبارُ الأولين ومقالاتهم، ولا كتبُ الله المنزَّلة إلا بالكتابة، ولولاها ما استقامت أمور الدنيا والدين[٤]. وهذه الآيات الخمس هي أول ما تنزَّل من القرآن، كما ثبت في الصحاح أن النبي ﷺ نزل عليه الملك وهو يتعبَّد بغار حِراء، فَقَالَ: «اقْرَأْ». فَقَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»[٥].. إلخ. قال ابن كثير: أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات المباركات، وهنَّ أول رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها

(١) (ش): أي خُلِقَ من شيء يُشبه الدودة الصغيرة، والعَلَقة في اللغة: واحدة العلق، وتُطلق على الدم الغليظ والجامد، وعلى دودة في المياه الراكدة تعْلَق بالجسد فتمتص دمه، وعلى كل ما يعْلَق بغيره أو يُعَلَّق عليه، ويبدأُ طور العلقة بعد أَربعين يومًا من بدءِ الحمل، كما جاءَ في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم. وفي طور العلقة يصبح الجنين كالدودة العالقة بالرحم. وهذه العلقة جامدة في طبيعتها، لونها أحمر بسواد، تتعلق بجدار الرحم، تمتص منه غذاءها كما يمتص العَلَقُ من الدابة غذاءَه.فالعلق في لغة العرب على ثلاثة معانٍ: الدم، والشيء الذي يعْلَق بغيره، وما يقوم على غيره، وهذه المعاني غير متناقضة ويشملها كلها حال الجنين.

(٢) اقرأ كتاب «الطب محرابُ الإيمان» ٢/ ٥٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٩.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٠.

(٥) أخرج الشيخان عن عائشة قالت: « أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، فَكَانَ يَأْتِي غَارَ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ- أَي يَتَعَبَّدُ- فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ» الحديث.

التنبيـه على ابتداء خلق الإنسـان من علقـة، وأن من كرمه تعالى أنْ علَّم الإنسـان ما لم يعلم، فشـرفه وكرَّمـه بالعلم، وهو القدر الـذي امتاز به «آدم» على الملائكـة[1].. ثم أخبر تعالى عن سبب بَطَر الإنسان وطغيانه[2] فقال ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ أي حقًّا إن الإنسان ليتجاوز الحد في الطغيان، واتباع هوى النفس، ويستكبر على ربه عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ أي من أجل أن رأى نفسـه غنيًّا، وأصبح ذا ثروة ومال أَشِـر وبَطِرَ[3]، ثم تَوَعَّده وتَهَدَّده بقوله ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ أي إنَّ إلى ربك أيها الإنسـانُ المرجع والمصير فيجازيك على أعمالك، وفي الآية تهديدٌ وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان، ثم هو عام لكل طَاغٍ متكبر قال المفسرون: نزلت هذه الآيات إلـى آخـر السـورة في «أبي جهل»[4] بعد نزول صدرِ السـورة بمدة طويلـة، وذلك أن أبا جهل كان يطغـى بكثـرة ماله، ويبالـغ في عداوة الرسـول ﷺ -والعبرةُ بعمـوم اللفظ لا بخصوص السـبب-[5] ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تعَجُّبٌ من حال ذلك الشـقي الفاجر أي أَخْبِرني يا محمد عن ذلك المجرم الأثيم، الذي ينهى عبدًا من عباد الله عن الصلاة، ما أسـخفَ عقله، وما أشنع فعله! قال أبو السعود: هذه الآية تقبيحٌ وتشنيعٌ لحال الطاغي وتعجيب منها، وإيذان بأنها من الشـناعة والغرابة بحيث يقضى منها العَجَب[6]، وقد أجمع المفسـرون على أن العبد المصلـي هو محمـد ﷺ، وأن الذي نهاه هو اللعين «أبو جهل» حيـث قال: لئن رأيتُ محمدًا يصلـي لأطأن على عنقـه[7] ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي أخبرني إن كان هـذا العبد المصلي وهو النبـي ﷺ الـذي تنهـاه عن الصـلاة صالحًا مهتديًـا، على الطريقـة المسـتقيمة في قوله وفعله ﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ أي أو كان آمرًا بالإخلاص والتوحيد، داعيًا إلى الهدى والرشـاد، كيف تزجره وتنهاه[8] فمـا أبْلَهـك[9] أيها الغَبِيُّ الذي تنهى من هذه أوصافه: عبـدٌ لله مطيعٌ مُهتدٍ منيبٌ، داعٍ إلـى الهـدى والرشـاد؟ وما أعجب هـذا! ثم عاد لخطاب الرسـول ﷺ فقـال ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي أخـبرني يـا محمـد إن كذَّب بالقـرآن، وأعرض عـن الإيمـان ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٦.
(٢) (ش): بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.
(٣) (ش): أشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرحِ ونشِط.
(٤) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.
(٥) انظر «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٣٦، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٣.
(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٧٤.
(٧) انظر سبب النزول المتقدم.
(٨) هذا هو الظاهر أن الذي هو على الهدى، أو أمر بالتقوى هو محمد ﷺ، وهو اختيار ابن عطية والجمهور، وذهب الزمخشري إلى أنها في الناهي، وهو ضعيف.
(٩) (ش): بلِهَ الشَّخصُ، بَلَهًا وبَلاهَةً، فهو أَبْلَه: ضَعُفَ عَقْلُه وغلبت عليه الغَفْلَةُ وقلَّ تمييزُه.

ألـم يعلم ذلك الشـقي أن الله مُطَّلع علـى أحواله، مُراقِب لأفعاله، وسـيجازيه عليها﴾ ويْلَه ما أجْهَلَـه وأغْبَـاه! ثم ردَعه وزجَره فقـال ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجـر «أبو جهل» عن غيـه وضلاله، فوالله لئـن لم ينته عن أذى الرسـول، ويكف عمَّا هو عليه مـن الكفر والضلال ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي لنأخذنه بناصيته مقدم شعر الرأس فلنجرنه إلى النار بعنفٍ وشدة ونقذفه فيهـا ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي صاحب هذه الناصية كاذبٌ، فاجـرٌ، كثير الذنوب والإجرام قال في التسـهيل: ووصفهـا بالكـذب والخطيئة مجازٌ، والـكاذب الخاطـىء في الحقيقة صاحبها، والخاطئ الذي يفعل الذنب متعمدًا، والمخطئ الذي يفعله بدون قصد[1] ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي فلْيَدْع أهلَ ناديه[2] ولْيَسـتنْصِر بهم ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي سـندعو خَزَنة جهنم، الملائكة الغلاظ الشـداد، روي «أن أبا جهل مرَّ على النبي ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال: ألم أنهك عن هذا يا محمد، فأغلظ له رسول الله ﷺ القول، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد؛ والله إني لأكثر أهل الوادي هذا ناديًا فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ » قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب مِن ساعته[3]

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي ليرتـدع هـذا الفاجر، ولا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ وأي وواظب على سجودك وصلاتك، وتقرَّب بذلك إلى ربك وفي الحديث « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ »[4].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطنـاب بتكرار الفعل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾ ثم قـال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ لمزيد الاهتمام بشأن القراءة والعلم.

٢ - الجناس الناقص بين ﴿خَلَقَ﴾ و ﴿عَلَقٍ﴾.

٣ - طباق السلب ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

٤ - الكنايـة ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا﴾ كنَّـى بالعبـد عن رسـول الله ﷺ ولـم يقل: ينهاك تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا لقدره.

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٠٩.

(٢) (ش): قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٣٨): « ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أَيْ: قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٧. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضى الله عنهما- قَالَ: « مَرَّ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ، أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ -ﷺ- فَانْتَهَرَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: «لِمَ تَنْتَهِرُنِي يَا مُحَمَّدُ؟ فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَاللهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللهِ». (صحيح، رواه أحمد والترمذي). انْتَهَرَهُ: زجره بعُنف وأغضبه.

(٤) رواه مسلم في «صحيحه».

٥ - الاستفهام للتعجيب من شأن الناهي ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾؟ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾؟

٦ - المجاز العقلي ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي كاذب صاحبها خاطئ فأسند الكذب إليها مجازًا.

٧ - السجع المرصَّع مثل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة العلق»



سُورَةُ القَدْرِ ٩٧ - ٥

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة القدر مكية، وقد تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والشهور، لما فيها من الأنوار والتجليات القدسية، والنفحات الربانية، التي يفيضها الباري جل وعلا على عباده المؤمنين، تكريمًا لنزول القرآن المبين، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأبرار حتى طلوع الفجر، فيا لها من ليلة عظيمة القدر، هي خير عند الله من ألف شهر!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

التفسير: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي نحن أنزلنا هذا القرآن المعجز في ليلة القدر والشرف قال المفسرون: سميت ليلة القدر لِعظَمِها وقدرها وشرفها، والمرادُ بإنزال القرآن إنزالهُ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل إلى الأرض في مدة ثلاث وعشرين سنة كما قال ابن عباس: أنزل الله القرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفَصَّلًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ[(١)] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تعظيمٌ وتفخيمٌ لأمرها أي وما أعلمك يا محمد ما ليلة القدر والشرف؟ قال الخازن: وهذا على سبيل التعظيم لها والتشويق لخبرها كأنه قال: أي شيء يبلغ علمك بقدرها ومبلغ فضلها؟[(٢)] ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه فقال تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي ليلة القدر في الشرف والفضل خيرٌ من ألف شهر، لما اختصت به من شرف إنزال القرآن الكريم فيها قال المفسرون: العمل الصالح في ليلة القدر خيرٌ من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وقد روي أن رجلًا لبس السلاح وجاهد في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله والمسلمون من ذلك، وتمنى رسول الله ﷺ لأُمته فقال « يا رب،

(١) انظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٥٩، والقرطبي ١٩/ ١٣٠. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: « نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وابن كثير).

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٧٥.

جعلت أُمتي أقصر الأمم أعمارًا، وأقلها أعمالًا فأعطاه الله ليلة القدر، وقال: ليلةُ القدر خيرٌ لك ولأمتك من ألف شهر، جاهد فيها ذلك الرجل»[١] قال مجاهد: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر، وهذا هو الوجه الأول من فضلها ثم قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾ أي تَنَـزَّل الملائكةُ[٢] وجبريل إلى الأرض في تلك الليلة بأمر ربهم من أجل كل أمرٍ قدَّره الله وقضاه لتلك السنة إلى السنة القابلة، وهذا هو الوجه الثاني من فضلها، والوجه الثالث قوله تعالى ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي هي سلام من أول يومها إلى طلوع الفجر، تسلّم فيها الملائكة على المؤمنين، ولا يُقدّر الله فيها إلا الخير والسلامة لبني الإنسان.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بذكر ليلة القدر ثلاث مرات، زيادة في الاعتناء بشأنها، وتفخيمًا لأمرها.

٢ - الاستفهام بغرض التفخيم والتعظيم ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾؟

٣ - ذكر الخاص بعد العام ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ فذكر جبريل بعد الملائكة لِيُنَبِّه على جلالة قدره.

٤ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿ٱلۡقَدۡرِ، شَهۡرٖ، أَمۡرٍ، ٱلۡفَجۡرِ﴾ وهو من المحسنات البديعية اللفظية والله أعلم.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة القدر»



(١) روى هذا عن ابن عباس ومجاهد. (ش): لم أجده بهذا السياق إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.
وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إسرائيل لَبس السلاح في سَبِيلِ اللهِ أَلْفَ شَهْرٍ، فَعَجِبَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ الَّتِي لَبِسَ ذَلِكَ الرَّجُلُ السِّلَاحَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَلْفَ شَهْرٍ (رواه ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بإسناد ضعيف).
وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُرِيَ أَعْمَارَ النَّاسِ قَبْلَهُ فتقالها، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَكَأَنَّهُ تَقَاصَرَ أَعْمَارَ أُمَّتِهِ، أَنْ لَا يَبْلُغُوا مِنَ الْعَمَلِ مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ غَيْرُهُمْ فِي طُولِ الْعُمْرِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. (رواه مالك في الموطأ بإسناد ضعيف).
(٢) (ش): أي تتنزَّل.

سُورَةُ البَيِّنَةِ ٩٨ ٨

مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة البينة وتسمى ﴿سورة لم يكن﴾ مدنية، وهي تعالج القضايا الآتية:

١- موقف أهل الكتاب من رسالة محمد ﷺ.

٢- موضوع إخلاص العبادة لله جل وعلا.

٣- مصير كل من السعداء والأشقياء في الآخرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن «اليهود والنصارى» وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ، بعد أن بان لهم الحقُّ وسطعت أنوارهن وبعد أن عرفوا أوصاف النبي المبعوث آخر الزمان، وكانوا ينتظرون بعثته ومجيئه، فلما بعث خاتم الرسل كذبوا برسالته، وكفروا وعاندوا.

* ثم تحدثت السورة عن عنصر هام من عناصر الإيمان، وهو «إخلاص العبادة» لله العلي الكبير، الذي أمر به جميع أهل الأديان، وإفراده جلَّ وعلا بالذكر، والقصد، والتوجه في جميع الأقوال والأفعال والأعمال، خالصة لوجهه الكريم.

* كما تحدثت عن مصير أهل الإجرام -شر البرية- من أهل الكتاب والمشركين، وخلودهم في نار الجحيم، وعن مصير المؤمنين، أصحاب المنازل العالية -خير البرية- وخلودهم في جنات النعيم، من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لرب العالمين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟
صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ
أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ

اللغَة: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مُنتَهين زائلين، وأصلُ الفَكّ: الفَتحُ ومنه فَكُّ الكتاب، وفَكُّ الخَلْخَال[١]

(١) (ش): الخَلْخال: حِلْية من فِضَّة كالسِّوار تُحَلِّي المرأة بها رِجْليها، تُلْبس حول الكعب.

﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة، والدلالة القاطعة ﴿مُّطَهَّرَةٗ﴾ مُنَزَّهة عن الباطل والشبهات ﴿قَيِّمَةٞ﴾ مستقيمة عادلة ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن الباطل إلى الدين الحق، وأصل الحَنَف: الميلُ ﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ الخلق من قولهم: برأ اللهُ الخلق، ومنه البارئ أي الخالق.

التفسِير: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي لم يكن أهل الكفر والجحود، الذين كفروا بالله وبرسوله، ثم بيَّنهم بقوله ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي من اليهود والنصارى أهل الكتاب، ومن المشركين عَبَدةِ الأوثان والأصنام ﴿مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أي مُنفَصلين ومُنتَهين عما هم عليه من الكفر، حتى تأتيهم الحجة الواضحة[1]، وهي بعثة محمد ﷺ ولهذا فسَّرها بقوله ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي هذه البيّنة هي رسالة محمد ﷺ المرسل من عند الله تعالى ﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ أي يقرأ عليهم صحفًا منزَّهة عن الباطل عن ظهر قلب، لأن النبي ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب قال القرطبي: أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب، لأنه عليه السلام كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ[2] قال ابن عباس: ﴿مُّطَهَّرَةٗ﴾ من الزور، والشك والنفاق، والضلالة وقال قتادة: مطهَّرة عن الباطل[3] ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ أي فيها أحكام قيِّمة لا عِوَج فيها، تُبيِّن الحق من الباطل قال الصاوي: المراد بالصحف القَراطيس[4] التي يكتب فيها القرآن، والمراد بالكتب الأحكام المكتوبة فيها، وإنما قال ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ لأن القرآن جمع ثمرة كتب الله المتقدمة[5].. ثم ذكر تعالى من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، الدالة على صدق رسالته، وأنه الرسول الموعود به في كتبهم قال أبو السعود: والآية مَسُوقَةٌ لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة[6]، وتغليظ جناياتهم، ببيان أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق، وتبيّن الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾[7]

---

(١) لم تذكر السورة أنهم منفكون عن ماذا؟ لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر والضلالة التي كانوا عليها فقد أتاهم رسول الله ﷺ بالقرآن المبين فبيَّن لهم ضلالتهم وشِرْكَهم وما كانوا عليه من الجاهلية ودعاهم إلى الإيمان فآمن مِنهم مَن آمن، واهتدى مِنهم مَن اهتدى، فأنقذهم الله من الجهالة والضلالة ولم يكونوا منفصلين عن كُفرهم قبل بعثه ﷺ إليهم، والآية فيمن آمن من الفريقين: المشركين وأهل الكتاب.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٩/ ١٤٢.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٤) (ش): قُرْطاس/ قِرْطاس: صحيفة، ما يُكتَب فيه من ورق وغيره مُفرَّقًا.

(٥) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٤٢.

(٦) (ش): أي إن الغرض منها التشنيع على أهل الكتاب خاصة. يُقال ساقَ الحديثَ: سردَه، أورده بسهولة وسلاسة. ساق القصّةَ: قصّها.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٧٧.

[آل عمران: ١٩] وقال في التسهيل: أي ما اختلفوا في نبوة سيدنا محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا أنه حق، وإنما خصَّ أهل الكتاب هنا بالذكر، لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوته، بما يجدون في كتبهم من ذكره[1] ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي والحال أنهم ما أُمروا في التوراة والإنجيل إلا بأن يعبدوا الله وحده، مخلصين العبادة جلَّ وعلا، ولكنهم حرَّفوا وبدَّلوا، فعبدوا أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:٣١] ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، مستقيمين على دين إبراهيم، دين الحنيفية السمحة، الذي جاء به خاتم المرسلين ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي وأُمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل، في أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها، ويعطوا الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس قال الصاوي: وخصَّ الصلاة والزكاة لشرفهما[2] ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي وذلك المذكور من العبادة والإخلاص، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، هو دين الملة المستقيمة دين الإسلام فلماذا لا يدخلون فيه؟ ثم ذكر تعالى مآل كل من الآبرار والأشرار، في دار الجزاء والقرار فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي إنَّ الذين كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد عليه السلام، من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، هؤلاء جميعهم يوم القيامة في نار جهنم، ماكثين فيها أبدًا لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أي أولئك هم شر الخلق على الإطلاق قال الإمام الفخر: فإن قيل: لم ذكر ﴿كَفَرُواْ﴾ بلفظ الفعل، ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ باسم الفاعل؟ فالجواب تنبيهًا على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر، لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل، ومقرين بمبعث محمد ﷺ ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام، بخلاف المشركين فإنهم وُلِدوا على عبادة الأوثان، وإنكار الحشر والقيامة[3]، وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ لإفادة الحصر أي شرٌّ من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ وشرٌّ من قطاع الطريق، لأنهم قطعوا طريق الحق عن الخلق[4]، ولما ذكر مَقَرَّ الأشقياء، ذكر بعده مَقَرَّ السُّعداء فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال[5] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢١٢.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٤٣.

(٣) (ش): هم وُلِدوا على الفطرة ولكن آباءهم هم الذين أضلوهم. قال ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٣١/ ٤٩.

(٥) (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطْف العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، كما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي هم خير الخليقة التي خلقها الله وبرأها[1] ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم في الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي جنات إقامة تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا، لا يموتون ولا يخرجون منها، وهم في نعيم دائم لا ينقطع ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي رَضِيَ اللهُ عَنْهم بما قدموا في الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي ذلك الجزاء والثواب الحسن لمن خاف الله واتقاه، وانتهى عن معصية مولاه.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإجمال ثم التفصيل ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ثم فصلها بقوله ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

٢ - الطباق بين ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ و ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ لفظة مطهرة فيها استعارة حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الأنجاس.

٤ - المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ..﴾ الآية وبين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

٥ - توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿ٱلْبَيِّنَةُ، قَيِّمَةٌ، خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ، شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ونحو ذلك.

تنبيه: الإخلاص هو لبُّ العبادة وقد جاء في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[2] وقد قسم العلماء الأعمال إلى ثلاثة أقسام: «مأمورات، ومنهيات، ومباحات» فأما المأمورات فالإخلاص فيها بأن يقصد بعمله وجه الله، وإن كانت النية لغير وجه الله، فالعمل رياءٌ محْضٌ مردود، وأما المنهيات فإن ترَكها بدون نية خرَج عن عهدتها، ولم يكن له أجر في ترْكها، وإن ترَكها ابتغاء وجه الله كان مأجورًا على ترْكها، وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك، فإنْ فَعَلها بغير نية لم يكن بها أجر، وإنْ فَعَلها بنية وجه الله فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قُربَةً إذا قصد به وجه الله، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة ويقصد بالجماع التعفُّف عن الحرام[3].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البينة»



---

(١) (ش): برَأ اللهُ الخلقَ: خَلَقَهم؛ أوجدهم من العدم.

(٢) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٣) (ش): قال ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). فِي فِي امْرَأَتِكَ: فِي فَمِ امْرَأَتِكَ.

سُورَةُ الزَّلزَلَةِ ٩٩ ٨

مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة الزلزلة مدنية، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية، لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ[(١)]، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ما يندهش له الإنسان كإخراج الأرض ما فيها من موتى، وإلقائها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهب وفضة، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها، تقول: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو النار، وانقسامهم إلى أصناف ما بين شقي وسعيد.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ
تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾
فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ

اللغة: ﴿زُلْزِلَتِ﴾ حُرِّكَتْ تحريكًا عنيفًا ﴿أَثْقَالَهَا﴾ الموتى الذين في جوفها، جمع ثقل وهو الشيء الثقيل ومنه ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٧] قال الأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها، وإن كان فوقها فهو ثقل عليها[(٢)] ﴿يَصْدُرُ﴾ ينصرف ويخرج، والصُّدور ضد الوُرُود، فالواردُ الآتِي، والصادِر المُنصَرِف ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين جمع شَتّ يقال: ذهبوا أشتاتًا، أي: متفرقين.

التفسير: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي إذا حُرِّكَت الأرض تحريكًا عنيفًا، واضطربت اضطرابًا شديدًا، واهتزت بِمَن عليها اهتزازًا يقطع القلوب ويُفزع الألباب كقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] قال المفسرون: إنما أضاف الزلزلة إليها ﴿زِلْزَالَهَا﴾ تهويلًا كأنه يقول: الزلزلة التي تليق بها على عظم جرمها، وذلك عند قيام الساعة تتزلزل وتتحرك تحريكًا متتابعًا، وتضطرب بِمَن عليها، ولا تسكن

---

(١) (ش): يَنْدكّ: يُهدَم حتى يُسَوَّى بالأرض. الصَّرْح: القَصر العالي. ينهار: يسقط ويَنْهدم. راسخ: ثابت.
(٢) «التفسير الكبير» ٣١/ ٥٨.

حتى تُلقِي ما على ظهرها مِن جبلٍ وشجرٍ وبناءٍ وقِلَاع[١] ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي وأخرجت الأرض ما في بطنها منَ الكنوز والموتى قال ابن عباس: أخرجت موتاها وقال منذر بن سعيد: أخرجت كنوزها وموتاها[٢] وفي الحديث «تَقِيءُ الأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ فِى هَذَا قَتَلْتُ. وَيَجِىءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ فِى هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِى. وَيَجِىءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ فِى هَذَا قُطِعَتْ يَدِى ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلاَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا»[٣] ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؟ أي وقال الإنسان: ما للأرض تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة، ولفظَت ما في بطنها[٤]؟! يقول ذلك دهشةً وتعجُّبًا من تلك الحالة الفظيعة ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يوم القيامة تتحدث الأرض وتخبر بما عُمل عليها من خير أو شر، وتشهد على كل إنسان بما صنع على ظهرها، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فقال: «أتدرون ما أخبارها» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمَةٍ بما عمل على ظَهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها»[٥] وفي الحديث: «تحفَّظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحدٍ عامل عليها خيرًا أو شرًّا إلا وهي مخبرة به»[٦] ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي ذلك الإخبار بسبب أن اللهَ جلت عظمته أمرها بذلك، وأذن لها أن تنطق بكل ما حدث وجرى عليها، فهي تشكو العاصي وتشْهَد عليه، وتشكر المطيع وتُثْنِي عليه، والله على كل شيء قدير ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي في ذلك اليوم يرجع الخلائق من موقف الحساب، وينصرفون متفرقين فِرقًا فِرقًا، فآخذٌ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذٌ ذات الشمال إلى النار ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي لينالوا جزاء أعمالهم من خير أو شر[٧] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ أي فمَن يفعل مِن الخير زِنَةَ ذرةٍ من التراب[٨]، يجِدْه في صحيفته يوم القيامة ويَلْقَ جزاءه عليه.. قال الكلبي: الذَّرةُ أصغرُ النمل وقال ابن عباس: إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها، فكلُّ واحد مما

---

(١) انظر «التسهيل» ٤/ ٢١٣، و«الخازن» ٤/ ٢٨٠. (ش): قِلَاع: جمع قَلْعَة: حِصْن مَنيع على مكان مرتفع.

(٢) تفسير الألوسي ٣٠/ ٢٠٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. (ش): الْفَلْذُ: الْقِطْعَةُ مِنْ كَبِدِ الْبَعِيرِ أو الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ. وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: التَّشْبِيهُ أَيْ تُخْرِجُ مَا فِي جَوْفِهَا مِنَ الْقِطَعِ الْمَدْفُونَةِ فِيهَا. وَالْأُسْطُوَانُ جَمْعُ أُسْطُوَانَةٍ، وَهِيَ السَّارِيَةُ وَالْعَمُودُ، وَشَبَّهَهُ بالأُسْطُوَان لعِظَمه وكَثْرَتِه.

(٤) (ش): لفَظَت ما في بطنها: أخرجَتْ ما في بطنها.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. (ش): ورواه أحمد وضعفه الألباني والأرنؤوط.

(٦) أخرجه الطبراني في معجمه. (ش): ضعفه الألباني

(٧) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٤٦١): «﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أَيْ: لِيَعْمَلُوا وَيُجَازُوا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ».

(٨) (ش): زِنة: وَزْن وقَدْر.

لصق به من التراب ذرة[1] ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أي ومن يفعل من الشر زِنَةَ ذَرَّةٍ من التراب، يجِدْه كذلك ويلْقَ جزاءه عليه. قال القرطبي: وهذا مثل ضربه الله تعالى في أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة، وهو مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[2] [النساء: ٤٠].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتهويل والتفظيع ﴿زِلْزَالَهَا﴾.

٢ - الإظهار في مقام الإضمار ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ لزيادة التقرير والتوكيد.

٣ - الاستفهام للتعجب والاستغراب ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾

٤ - جناس الاشتقاق ﴿زُلْزِلَتِ .. زِلْزَالَهَا﴾.

٥ - المقابلة بين ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا ..﴾ وبين ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا ..﴾.

٦ - السجع المرصَّع كأنه الذهب السبيك أو الدر والياقوت مثل ﴿زِلْزَالَهَا، أَثْقَالَهَا، أَوْحَىٰ لَهَا، أَخْبَارَهَا، مَا لَهَا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

فَائِدَة: سمَّى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ..﴾ الجامعة الفاذَّة حين سئل عن زكاة الحُمُر. فقال: «مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلاَّ هَذِهِ الآيَةَ الْفَاذَّةَ الْجَامِعَةَ»: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أخرجه البخاري[3].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزلزلة»



(١) «التفسير الكبير» ٣١/ ٦١.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٥٠.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم. (الْفَاذَّةِ): الْقَلِيلَةُ النَّظِيرِ. (الْجَامِعَةَ): الْعَامَّةُ الْمُتَنَاوِلَةُ لِكُلِّ خَيْرٍ وَمَعْرُوفٍ.

سُورَةُ العَادِيَات (١٠٠) (١١)

مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة العاديات مكية، وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله، حين تغير على الأعداء، فيسمع لها عند عدوها [١] بسرعة صوتٌ شديد، وتقدح بحوافرها[٢] الحجارة فيتطاير منها النار، وتثير التراب والغبار، وقد بدأت السورة بالقسم بخيل الغُزاة -إظهارًا لشرفها وفضلها عند الله- على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه[٣]، جحود لآلائه وفيوض نعمائه، وهو معلن لهذا الكفران والجحود بلسان حاله ومقاله، كما تحدثت عن طبيعة الإنسان وحبه الشديد للمال، وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزء، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه، وإنما ينفع العمل الصالح.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا
﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا
يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ

اللغَة: ﴿ضَبْحًا﴾ الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدَتْ[٤]

قال عنترة:

وَالْخَيْلُ تَكْدَحُ حِينَ تَضْبَحُ ... فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحَا[٥]

﴿فَأَثَرْنَ﴾ هيَّجنَ ﴿نَقْعًا﴾ النَّقعُ: الغُبار ﴿لَكَنُودٌ﴾ كَفُور جَحُود لنعمة الله، من كَند النعمة إذا كفرها ولم يشكُرها قال الشاعر:

كَنُودٌ لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ ... كَنُودًا لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ يَبْعُدُ[٦]

﴿بُعْثِرَ﴾ أُثِيرَ وقُلِبَ، من بَعثَرْت المتاع إذا جعَلْت أسفلَه أعلاه.

---

(١) (ش): عدَا الحصانُ، عَدْوًا: جرَى، ركض، سار بخطًى متباعدة، قفز قفزاتٍ متتابعةً.

(٢) (ش): قدَح النَّارَ/ قدَح النارَ من الزَّنْد: أخرجها منه، أشعلها بالاحتكاك. والزَّنْدُ: العودُ الأعلى الذي تُقدَح به النَّارُ، والأسفل هو الزَّنْدَ.

(٣) (ش): جَحَدَ الأَمرَ: أنكرهُ مَعَ علمه بِهِ. فُيوض نَعمَائه: كثرةُ نِعَمه.

(٤) (ش): عدَا الحصانُ، عَدْوًا: جرَى، ركض، سار بخطًى متباعدة، قفز قفزاتٍ متتابعةً.

(٥) «الألوسي» ٣٠/ ٢١٥. (ش): تَكْدَحُ: تُجْهِدُ نَفْسَها.

(٦) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٦٠.

التفسير: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ أي أُقسمُ بخيل المجاهدين المسرعات في الكرّ على العدو، يُسمع لأنفاسها صوتٌ جهير هو الضبحُ قال ابن عباس: الخيل إِذا عدت قالت: أُحْ، أُحْ فذلك ضبْحُها. قال أبو السعود: أقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو وتضبح ضبحًا وهو صوت أنفاسها عند عدوها[١] ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ أي فالخيل التي تخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها على الحجارة من شدة الجري ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾ أي فالخيل التي تغير على العدو وقت الصباح قبل طلوع الشمس قال الألوسي: هذا هو المعتادُ في الغارات، كانوا يعدون ليلًا لئلا يشعر بهم العدو، ويهجمون صباحًا ليرَوْا ما يأتون وما يَذَرُون[٢] ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا﴾ أي فأثارت الخيل الغبار الكثيف لشدة العدو، في الموضع الذي أغرن به ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾ أي فتوسطن به جموع الأعداء، وأصبحن وسط المعركة.. أقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة، تعظيمًا للمقسم به وهو خيل المجاهدين في سبيل الله، التي تُسرع على أعداء الله، وتقدح النار بحوافرها، وتُغِير على الأعداء وقت الصباح، فتُثير الغبار، وتتوسط العدو فتُصيبه بالرعب والفزع، أما الأمور التي أقسم عليها فهي قوله ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ أي إِن الإِنسان لجاحد لنِعَم ربه، شديد الكفران قال ابن عباس: جاحدٌ لنعم الله وقال الحسن: يذكر المصائب وينسى النعم[٣] ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾ أي وإِن الإِنسان لَشاهدٌ على كُنُوده، لا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي وإِنه لَشديدُ الحُب للمال حريصٌ على جَمْعه، وهو لِحُبّ عبادة الله وشكر نعمه ضعيفٌ متقَاعِس[٤] ثم بعد أن عدَّد عليه قبائح أفعاله خَوَّفه فقال ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أي أفلا يعلم هذا الجاهل إِذا أُثِير ما في القبور وأُخرِج ما فيها من الأموات ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي وجُمِع وأُبرِز ما في الصدور من الأسرار والخفايا التي كانوا يُسِرُّونها ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾ أي إنَّ ربهم لعَالِمٌ بجميع ما كانوا يصنعون، ومُجَازِيهم عليه أوفر الجزاء، وإِنما خص علمه بهم في ذلك اليوم يوم القيامة لأنه يوم الجزاء، بقَصد الوعيد والتهديد، فهو تعالى عالم بهم في ذلك اليوم وغيره.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بإِنَّ واللام في مواضع مثل ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

---

(١) «أبو السعود» ٥/ ٢٨٠.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/ ٢١٥. (ش): أي ما يفعلون وما لا يفعلون.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٦٠.

(٤) (ش): متقَاعِس: مُهمِل، مُتكاسِل، غير مُهتم.

٢ - الجناس غير التام بين ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿لَشَدِيدٌ﴾ وكذلك ﴿ضَبْحًا﴾ و ﴿صُبْحًا﴾.
٣ - الاستفهام الإنكاري للتهديد والوعيد ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾؟
٤ - التضمين ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ضمَّن لفظ ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ معنى المجازاة أي يجازيهم على أعمالهم.
٥ - توافق الفواصل مثل ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿لَشَدِيدٌ﴾ إلخ. ويسمى «السجع المرصَّع» وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات»



سُورَةُ القَارِعَةِ (١٠١) (١١)

مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة القارعة مكية، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وشدائدها، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام، كخروج الناس من القبور، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير، المنتشر هنا وهناك، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم.

* كما تحدثت عن نسف الجبال وتطايرها حتى تصبح كالصوف المنبث[١] المتطاير في الهواء، بعد أن كانت صلبة راسخة فوق الأرض، وقد قرنت بين الناس والجبال تنبيهًا على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالصوف المندوف[٢]، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب؟

* وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها، وسميت السورة الكريمة بالقارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ
ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾
فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

اللغة: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ اسم من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تَقْرَع الخلائقَ بأهوالها وأفزاعها، وأصلُ القَرْع الضرْب بشدة وقوة، تقول العرب: قرَعَتْهم القارعة وفَقَرتهم الفَاقِرة، إذا وقع بهم أمر فظيع ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ المنتشر المتفرق ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ الصوف ذو الألوان أو المصبوغ ﴿هَاوِيَةٌ﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأنَّ الناس يهْوون بها، أي: يسقطون.

---

(١) (ش): «المُنبَثّ: المُنتَشر».

(٢) (ش): ندَف القطنَ: طرَقه وضرَبه بالمِنْدَف ليَرِقَّ ويزول تَلَبُّده. والمِنْدَف والمِنْدَفَة: خَشَبَةٌ يُطرَق بها القطنُ ليرِقَّ ويزولَ تلبُّده، أي: يزول تداخُلُه والتصاقُ بعضه ببعض.

التفسِـير: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ أي القيامة وأيُّ شيء هي القيامة؟ إنها في الفظاعة والفخامة بحيث لا يدركها خيال، ولا يبلغها وَهْمُ إنسان فهي أعظم من أن تُوصَف أو تُصَوَّر، ثم زاد في التفخيم والتهويل لشأنها فقال ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾؟ أي أيُّ شيءٍ أعلَمَك ما شأن القارعة في هولها على النفوس؟ إنها تُفزع القلوب فحسب، بل تؤثّر في الأجرام العظيمة، فتؤثِّر في السموات بالإنشقاق، وفي الأرض بالزلزلة، وفي الجبال بالدكّ والنسف، وفي الكواكب بالانْتِثَار، وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار إلى غير ما هنالك[1] قال أبو السعود: سميت القيامة قارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع، ووَضْع الظاهر موضع الضمير ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [2] تأكيدًا للتهويل. والمعنى: أيُّ شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة، ثم أكد هولها وفظاعتها بقوله ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾؟ ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق، بحيث لا تكاد تنالها دراية أحد[3].. وبعد هذا التخويف والتشويق إلى معرفة شيءٍ من أحوالها، جاء التوضيح والبيان بقوله تعالى ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ أي ذلك يحدث عندما يخرج الناسُ من قبورهم فَزِعين، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض من شدة الفزع والحيرة قال الرازي: شبه تعالى الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث، وفي آية أُخرى بالجراد المنتشر، أما وجه التشبيه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهةٍ واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأُخرى، فدلَّ على أنهم إذا بُعثوا فَزِعوا، وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة، يصبحون كغوغاء[4] الجراد يركب بعضه بعضًا، فكذلك الناس إذا بُعِثوا يمُوجُ بعضُهم في بعض[5] كالجراد والفراش كقوله تعالى ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾ [الكهف: ٩٩][6] ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المَهُول[7] أي وتصير الجبال كالصوف المنتشر المتطاير، تتفرق أجزاؤها وتتطاير في الجو، حتى تكون كالصوف المتطاير عند الندْف[8] قال الصاوي: وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال، تنبيهًا على

(١) (ش): فتنشق السماء، ويختلّ نظامُها، وتُلَفُّ الشمس ويذهب ضَوْءُها، ويذهب ضوء القمر، وتُزَلزَل الأرض، وتُزال الجبال عن أماكنها فيجعلها الله هباءً منبثًا، وتتساقط الكواكب، وتتناثر النجوم، ويذهب نورها.

(٢) (ش): وَضْع الظاهر (القارعة) موضع الضمير (هي)، أي لم يقُل: ما هي؟ بل قال: ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾.

(٣) «أبو السعود» ٥/ ٢٨١.

(٤) (ش): غَوْغاء: ضوضاء، صياح.

(٥) (ش): ماج القومُ: دخل بعضُهم في بعض.

(٦) «التفسير الكبير» ٣١/ ٧٢.

(٧) (ش): مَهُول: مُرعب، مُخيف.

(٨) (ش): ندَف القطنَ: طرَقه وضرَبه بالمِنْدَف ليَرِقَّ ويزول تَلَبُّده. والمِنْدَف والمِنْدَفَة: خَشَبَةٌ يُطرَق بها القطنُ ليرِقّ ويزول تلبُّده، أي: يزولَ تداخُله والتصاقُ بعضِه ببعض.

أن تلك القارعة أثَّرت في الجبال العظيمة الصلبة، حتى تصير كالصوف المنْدُوف مع كونها غير مكلفة، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب[١]!! ثم ذكر تعالى حالة الناس في ذلك اليوم، وانقسامهم إلى شقي وسعيد فقال ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي رجَحَت موازين حسناتِه، وزادَتْ حسناتُه على سيئاتِه ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي فهو في عيش هَنِيءٍ رغِيد سعيد، في جنان الخلد والنعيم[٢] ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي نقصت حسناته عن سيئاته، أو لم يكن له حسناتٌ يُعتدُّ بها ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي فمسْكَنه ومصيره نارُ جهنم يهوِي في قعرها، سمَّاها أُمًّا لأن الأم مأوى الولد ومفزعُه، فنار جهنم تُؤوِي هؤلاء المجرمين، كما يَأوِي الأولاد إلى أمهم، وتضمهم إليها كما تضم الأم الأولاد إليها قال أبو السعود: ﴿هَاوِيَةٌ﴾ اسم من أسماء النار، سميت بها لغاية عُمقها وبُعد مهواها، روي أن أهل النار يهوون فيها سبعين خريفًا[٣] ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾؟ استفهام للتفخيم والتهويل أي وما أعلمك ما الهاوية؟ ثم فسَّرها بقوله ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ أي هي نار شديدة الحرارة، قد خرجت عن الحد المعهود، فإن حرارة أيِّ نارٍ إذا سُعرت وأُلقي فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم، أجارنا الله منها بفضله وكرمه.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام للتفخيم والتهويل ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾؟ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾؟

٢ - وضع الظاهر مكان الضمير للتخويف والتهويل ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾؟ والأصل أن يقال: القارعة ما هي؟

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه، أي: في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، ومثله ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ أي في تطايرها وخفة سَيْرها فيُسمَّى مرسلًا مجملًا.

٤ - المقابلة ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ثم قابلها بقوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٥ - المجاز العقلي ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي راضٍ بها صاحبُها ففيه إسناد مجازي.

---

(١) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٤٧.

(٢) (ش): رغُدَ/ رغِدَ العيشُ: اتَّسع ونَعُم وطاب.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٨٢، ونقل عن قتادة أن المراد بقوله: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يُطرَح فيها منكوسًا، والأول أظهر. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟». قَالَ: قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: « هَذَا حَجَرٌ رُمِىَ بِهِ فِى النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِى فِى النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الوَجْبَة: صوتُ وقْع القدم على الأرض.

٦ - الاحتباك وهو أن يحذَف من كل نظير ما أثبته في الآخر، فقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ حذف من الأول (فأمه الجنة) وذكر فيها ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وحذف من الآية الثانية (فهو في عيشة ساخطة) وذكر ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ فحذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، وهو من المحسنات البديعية.

٧ - توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو واضح في السورة الكريمة.

تنبيه: الجمهور على أن الميزان حقيقي له كِفَّتان ولسان، توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات، وروي عن ابن عباس أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة، وبالأعمال السيئة على صور قبيحة، فتوضع في الميزان، فمن رجحت حسناته سُعِدَ، ومن رجحت سيئاته شَقِيَ، والله أعلم(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة»



---

(١) (ش): أخبر الله أنه يضع الموازين لوَزْن الأعمال، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين. قال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والميزان ميزان حقيقي، لا يقْدِر قدْرَه إلا الله تعالى، قَالَ ﷺ: « يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: «يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟»، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي»، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: «سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه يوزن في الميزان ثلاثة: الأعمال، وصحائف الأعمال، والعامل نفسه.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ ١٠٢ ٨

مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة التكاثر مكية، وهي تتحدث عن انشغال الناس بمغريات الحياة، وتكالبهم على جمع حطام الدنيا، حتى يقطع الموت عليهم متعتهم، ويأتيهم فجأة وبغتة، فينقلهم من القصور إلى القبور.

الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

* وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفًا للناس، وتنبيها لهم على خطئهم، باشتغالهم بالفانية عن الباقية ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان المخاطر والأهوال التي سيلقونها في الآخرة، والتي لا يجوزها[1] ولا ينجو منها إلا المؤمن الذي قدم صالح الأعمال.

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ

اللغَة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ الإلهاء: الشغل والانصراف عن الشيء الهام إلى ما يدعو إليه الهوى، وأصل اللهو الغفلةُ ثم شاع في كل شاغلٍ قال الراغب: اللهو ما يشغلك عما يعني ويهمُّ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التباهي بكثرة المال والجاه وهو بمعنى المكاثرة ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ القبور جمع مقبرة، والقبور جمع القبر قال الشاعر:

أَرَى أَهْلَ الْقُصُورِ إِذَا أُمِيتُوا ... بَنَوْا فَوْقَ الْمَقَابِرِ بِالصُّخُورِ
أَبَوْا إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا ... عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ

التفسِير: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي شغلكم أيها الناسُ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال عن طاعة الله، وعن الاستعداد للآخرة ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أدرككم الموت، ودُفِنتُم في المقابر، والجملةُ خبرٌ يراد به الوعظ والتوبيخ قال القرطبي: المعنى شغلكم المباهاة بكثرة المال والأولاد عن طاعة الله، حتى مُتُّم ودفنتم في المقابر[2] ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجرٌ وتهديدٌ أي ارتدعوا أيها الناس وانزجروا عن الاشتغال بما لا ينفع ولا يفيد، فسوف تعلمون

---

(١) (ش): جازَ الموضعَ/ جازَ بالموضع: سلَكَه وترَكه خلفه، سارَ فيه وقطعه.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/١٦٨، وقال ابن كثير: يقول تعالى: شغَلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها، عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادَى بكم ذلك حتى جاءكم الموت، وزرتم المقابر وصِرتُم مِن أهلها.

عاقبة جهلكم وتفريطكم في جنب الله، وانشغالكم بالفاني عن الباقي ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعيدٌ إثر وعيد، زيادة في الزجر والتهديد، أي: سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعايَنْتُم أهواله وشدائده قال ابن عباس: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي في الآخرة إذا حَلَّ بكم العذاب[1] ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي ارتَدِعوا وانزجِروا فلو علمتُم العلم الحقيقي الذي لا شك فيه ولا امتراء، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ لقصد التهويل أي لو عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله، ولما خُدِعتُم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها كما قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»[2] الحديث. قال في التسهيل: وجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ تقديره: لو تعلمون لازدُجِرتُم واستعدَدتُم للآخرة، وإنما حذف لِقَصْد التهويل، فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله[3] كقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ أي أُقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عيانًا ويقينًا قال الألوسي: هذا جواب قسم مُضْمَر[4] أكَّد به الوعيد، وشدَّد به التهديد، وأوضح به ما أُنذِروه بعد إبهامه تفخيمًا[5] أي والله لَتَرَوُنّ الجحيم ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي ثم لَتَرَوُنَّها رؤيةً حقيقية بالمشاهدة العينية قال في البحر: زاد التوكيد بقوله ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ نفيًا لتوهم المجاز في الرؤية الأولى[6] ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي ثم لتسألنَّ في الآخرة عن نعيم الدنيا من الأمن والصحة، وسائر ما يُتلذذ به من مطعم، ومشرب، ومركب، ومفرش.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الوعظ والتوبيخ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فقد خرج الخبر عن حقيقته إلى التذكير والتوبيخ.

٢ - التكرار للتهديد والإنذار ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعطفه بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول، كما يقول العظيمُ لعبده: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل، ولكَوْنه أبلغَ نُزِّل منزلة المغايَرة فعطف بـ(ثُم)[7].

٣ - حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي لرأيتم ما تشيب له الرءوس، وتفزع له النفوس من الشدائد والأهوال.

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٧٢.
(٢) جزء من حديث رواه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٣) «التسهيل» ٤/ ٢١٦.
(٤) (ش): مُضْمَر: غير ظاهر.
(٥) «الألوسي» ٣٠/ ٢٢٥.
(٦) «البحر المحيط» ٨/ ٥٠٨.
(٧) (ش): فالعطف يقتضي المغايَرة - أي الاختلاف - بين المعطوف والمعطوف عليه.

٤ – الإطناب بتكرار الفعل ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ لبيان شدة الهول.
٥ – الكناية ﴿ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ كنَّى عن الموت بزيارة القبور، والمراد حتى مُتُّم.
٦ – المطابقة بين ﴿ٱلنَّعِيمِ .. ٱلۡجَحِيمَ ﴾.
٧ – توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: روى الترمذي عن عبد الله بن الشخِّير قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فقال: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»[(١)].

لطيفة: روى مسلم عن أبي هريرة قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ، فقال ﷺ: « مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟ ». قَالاَ: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: « وَأَنَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِى الَّذِى أَخْرَجَكُمَا قُومُوا ». فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِى بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلاً. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلاَنٌ؟». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِىُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّى. فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ – عُنقود – فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ. وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ – السِّكِّينَ – فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ ». فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ »[(٢)].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر»



(١) (ش): ورَوَاهُ مُسْلِمٌ.
(٢) (ش): (ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا الْمَاء) أَيْ يَأْتِينَا بماءٍ عَذْب. (إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ) أي هم في ذلك إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ». (الْعِذْق) الْغُصْن مِن النَّخْل. (الْحَلُوب): ذَات اللَّبَن.



مكية وآياتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة العصر مكية، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان، لتوضيح سبب سعادة الإنسان أو شقاوته، ونجاحه في هذه الحياة أو خسرانه ودماره.

* أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان، وما فيه من أصناف العجائب، والعبر الدالة على قدرة الله وحكمته، على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان، إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهي (الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والاعتصام بالصبر) وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ

التفسير: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أي أُقْسِمُ بالدهر والزمان[1] لِمَا فيه من أصناف الغرائب والعجائب، والعبر والعظات، على أن الإنسان في خسران، لأنه يفضِّل العاجلة على الآجلة وتغلب عليه الأهواء والشهوات قال ابن عباس: العصر هو الدهر أقسم تعالى به لاشتماله على أصناف العجائب وقال قتادة: العصرُ هو آخر ساعات النهار، أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة الباهرة، والعظة البالغة[2].. وإنما أقسم تعالى بالزمان لأنه رأس عمر الإنسان، فكل لحظةٍ تمضي فإنها من عمرك ونقص من أجلك، كما قال القائل:

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالأَيَّامِ نَقْطَعُهَا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى نَقْصٌ مِنَ الأَجَلِ

قال القرطبي: أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بالعصر وهو الدهر لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيه من الدلائل على الصانع، وقيل: هو قَسَمٌ بصلاة العصر؛ لأنها أفضل

(١) (ش): تقدم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يُقْسِمَ إِلاَّ بِالْخَالِقِ.
(٢) «البحر» ٨/ ٥٠٩.

الصلوات[١] فهؤلاء هم الفائزون لأنهم باعوا الخسيس بالنفيس[٢]، واستبدلوا الباقيات الصالحات عوضًا عن الشهوات العاجلات ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي أوصى بعضهم بعضًا بالحق، وهو الخير كله، من الإيمان، والتصديق، وعبادة الرحمن ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أي وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب، وعلى فعل الطاعات، وترك المحرمات.. حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.. فإن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا كَمَّل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وكَمَّل غيره بالنُّصح والإرشاد، فيكون قد جمَع بين حق الله، وحق العباد، وهذا هو السرُّ في تخصيص هذه الأمور الأربعة.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - إطلاق البعض وإرادة الكل ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي الناس بدليل الاستثناء.

٢ - التنكير للتعظيم ﴿لَفِي خُسۡرٍ﴾ أي في خسرٍ عظيم ودمار شديد.

٣ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ لإبراز كمال العناية به.

٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ بعد قوله ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فإن الصبر داخل في عموم الحق، إلا أنه أفرده بالذكر إشادة بفضيلة الصبر.

٥ - السجع غير المتكلف مثل ﴿وَٱلۡعَصۡرِ، بِٱلصَّبۡرِ، خُسۡرٍ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: أخرج البيهقي في الشعب عن «أبي حذيفة» وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيَا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر سورة ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ ثم يُسَلِّمُ أحدهما على الآخر[٣].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر»

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٧٩. (ش): قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. عن عَلِيّ بن أَبِي طَالِبٍ - رضى الله عنه - قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - يَوْمَ الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الْوُسْطَى صَلاَةِ الْعَصْرِ؛ مَلأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال، (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطْفُ العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٢) (ش): خَسيس: حقير. نفيس: عظيم القيمة.

(٣) (ش): ورواه الطبراني، وصحَّح إسنادَه الألباني.

وهذا الأثر يدل على أن التسليم عند الافتراق، وقراءة سورة العصر قبل التفرُّق كانا من هدي الصحابة ﭫ. أما اشتمال دعاء كفارة المجلس على سورة العصر فلم يَرِدْ به دليل، وإنما ورد فضل قراءتها عند التلاقي من غير تحديد وقتٍ معيَّن لذلك.

سُورَةُ الهُمَزَةِ ١٠٤ ٩

مكية وآياتها تسع

بين يدي السورة

* سورة الهمزة مكية، وقد تحدثت عن الذين يعيبون الناس، ويأكلون أعراضهم، بالطعن والانتقاص والازدراء، وبالسخرية والاستهزاء فعل السفهاء.

* كما ذمت الذين يشتغلون بجمع الأموال، وتكديس الثروات، كأنهم مخلدون في هذه الحياة يظنون -لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم- أن المال سيخلدهم في الدنيا.

* وختمت بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء، حيث يدخلون نارًا لا تخمد أبدًا، تحطم المجرمين ومن يلقى فيها من البشر، لأنها الحطمة نار سقر!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ

اللغة: ﴿هُمَزَةٍ﴾ الهمَّاز: الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم، وبناءُ «فُعلَة» يدل على الاعتياد فلا يقال: لُعنَة وضُحكَة إلا للمُكثِر المعتاد ﴿لُّمَزَةٍ﴾ اللمَّاز: الذي يعيب الناس وينال منهم بالحاجب والعين ﴿الْحُطَمَةِ﴾ نار جهنم سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلقى فيها وتحطّمه وتُهَشِّمه ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مُطبَقة مُغْلَقة من أوْصَد الباب إذا أغْلقه.

التفسير: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي عذاب شديد وهلاك ودمار، لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن في أعراضهم، أو يلمزهم سرًّا بعينه أو حاجبه قال المفسرون: نزلت السورة في «الأخنس بن شريق» لأنه كان كثير الوقيعة في الناس، يلمزهم ويعيبهم مقبلين ومدبرين، والحكم عام لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[1]، ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي الذي جمع مالًا كثيرًا وأحصاه، وحافظ على عدده لئلا ينقص فمنعه من الخيرات قال الطبري: أي أحصى عدده ولم ينفقه في سبيل الله ولم يؤد حقَّ الله فيه ولكنه جمعه فأوْعَاه وحفظه[2] ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي يظن هذا الجاهل لفرط غفلته أن ماله سيتركه مخلدًا في الدنيا

(١) انظر «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٨٣، و«الرازي» ٣١/ ٩١. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٨٩. (ش): أَوْعَى مَالَهُ: وضعه فِي وِعَاءٍ حِرْصًا عَلَيْهِ، وضعه في خزائنه، ولم يؤدِّ حق الله فيه.

لا يموت ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ أي ليرتدِعْ عن هذا الظنّ فوالله لَيُطرَحَنَّ في النار التي تحطم كل ما يُلقى فيها وتلتهمه ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ تفخيمٌ وتهويلٌ لشأنها أي وما الذي أعلَمك ما حقيقة هذه النار العظيمة؟ إنها الحطمة التي تحطم العظام وتأكل اللحوم، حتى تهجم على القلوب، ثم فسرها بقوله ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ أي هي نار الله المسعَّرة بأمره تعالى وإرادته، ليست كسائر النيران فإنها لا تخمد أبدًا، وفي الحديث «أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ»[1] ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي التي يبلُغ ألمُها ووجعُها إلى القلوب فتحرقها قال القرطبي: وخصَّ الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، فإنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣] فهم إذًا أحياء في معنى الأموات[2] ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ﴾ أي إن جهنم مُطبَقة مغلَقةٌ عليهم، لا يدخل إليهم رَوْح ولا رَيْحان[3] ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ أي وهم مُوثَقون[4] في سلاسل وأغلال، تُشدُّ بها أيديهم وأرجلهم، بعد إطباق أبواب جهنم عليهم، فقد يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم، وتمدد العمد إيذانًا بالخلود إلى غير نهاية.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ – صيغة المبالغة ﴿هُمَزَةٖ، لُّمَزَةٍ﴾ لأن بناء «فُعلة» يدل على أنها عادة مستمرة.

٢ – التنكير للتفخيم ﴿جَمَعَ مَالٗا﴾ أي مالًا كثيرًا لا يكاد يحصى.

٣ – التفخيم والتهويل ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾؟ تهويلًا لشأن جهنم.

٤ – الجناس غير التام بين ﴿هُمَزَةٖ﴾ و ﴿لُّمَزَةٍ﴾ ويسمى الجناس الناقص.

٥ – توافق الفواصل مثل ﴿وَعَدَّدَهُۥ، أَخۡلَدَهُۥ، ٱلۡمُوقَدَةُ، مُّمَدَّدَةِۭ﴾ ويسمى بالسجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الهمزة»



(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا، قال: والأصح أنه موقوف. (ش): ضعَّفه الألباني.
(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٨٥.
(٣) (ش): رَوْحٌ: رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَاسْتِرَاحَةٌ، وَفَرَحٌ. رَيْحان: رِزْقٌ حَسَنٌ، وَرَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، وَجَمِيعُ مَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ.
(٤) (ش): في أكثر من طبعة: مَوْثُوقون. والمُثْبَتُ هنا هو الصواب، يقال: أوثق الأسيرَ ونحْوَه، إيثاقًا، فهو مُوثِق، والمفعول مُوثَق: شدَّه في الوَثاق أي القيد بحبل أو سلسلة. ويقال: وثِق بالشّخصِ/ وثِق في الشّخص/ وثِق من الشخص، ثِقَةً ووُثوقًا ووَثاقةً، فهو واثِق، والمفعول مَوثُوق به: ائتمنه، صدّقه، وضع ثِقتَه به.

سُورَةُ الفِيلِ ١٠٥ ٥

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة الفيل مكية، وهي تتحدث عن قصة «أصحاب الفيل» حين قصدوا هدم الكعبة المشرفة، فرد الله كيدهم في نحورهم، وحمى بيته من تسلطهم وطغيانهم، وأرسل على جيش «أبرهة الأشرم» وجنوده أضعف مخلوقاته، وهي الطير التي تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة، ولكنها أشد فتكًا وتدميرًا من الرصاصات القاتلة، حتى أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم، وكان ذلك الحدث التاريخي الهام في عام ميلاد سيد الكائنات محمد بن عبد الله(١)، سنة سبعين وخمسمائة ميلادية وكان من أعظم الإرهاصات(٢) الدالة على صدق نبوته ﷺ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

اللغَة: ﴿أَبَابِيلَ﴾ جماعاتٍ جماعاتٍ بعضُها في إِثْر بعض. قال الجوهري: وهو من الجمع الذي لا واحد له يقال: جاءت إِبِلُك أبابيلَ أي فرقًا وجماعاتٍ قال الشاعر:

كَـادَتْ تُهَدُّ مِنَ الْأَصْـوَاتِ رَاحِلَتِي ... إِذْ سَالَتِ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ(٣)

﴿سِجِّيلٍ﴾ طين متحجر ﴿كَعَصْفٍ﴾ ورق الزرع بعد الحصاد كالتين وقشر الحنطة، سمى عصفًا لأن الريح تعصف به فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أي ألم يبلُغك يا محمد وتعلم علمًا يقينيًّا كأنه مشاهَدٌ بالعين، ماذا صنع الله العظيم الكبير بأصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت الحرام؟ قال المفسرون: روى أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن، بنى كنيسةً بصنعاء وأراد

---

(١) (ش): وصف الرسول ﷺ بأنه سيد الكائنات، وصف فيه غلو وإطراء، وقد نهى النبي ﷺ عن مثل ذلك، فلو قال المؤلف: «سيد البشر» لكان ذلك صحيحًا مطابقًا لقوله - ﷺ -: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(رَوَاهُ مُسْلِمٌ)، أما سيادته على الكائنات فهذا لا دليل عليه.

(٢) (ش): الإرْهاص: أَمرٌ خارق للعادة يُظهِره الله قبل بَعثة نبي، يكون من مُقَدِّمات نُبُوَّته.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٥١١. (ش): هدَّ الحائطَ: هدَمه بشدَّةٍ صوتٍ. هدَّه الأمرُ: أوهنه وبلغ منه. الْجُرْد: خَيلٌ قصيرةُ شعْرِ الجلْد. سَالَتِ الْأَرْضُ بهم: أنهم كثير كأنهم السَّيْل، أي الطوفان، وهو ماء كثير يسيل، أو ماء المطر إذا تجمّع فوق الأرض وجرى مسرعًا غزيرًا.

أن يصرف إليها الحجيج، فجاء رجلٌ من كنانة وتغوَّط فيها ليلًا ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقارًا لها، فغضب «أبرهة» وحلف أن يهدم الكعبة، وجاء مكة بجيش كبير على أفيال، يتقدمهم فيل هو أعظم الفيلة، فلما وصل قريبًا من مكة فرَّ أهلها الى الجبال، خوفًا من جنده وجبروته، وأرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيورًا سودًا، مع كل طائر ثلاثة أحجار، جحر في منقاره وحجران في رجليه، فرمَتْهم الطيور بالحجارة، فكان الحجر يدخل في رأس الرجل ويخرج من دبره فيرميه جثة هامدة، حتى أهلكهم الله ودمَّرهم عن آخرهم، وكانت قصتهم عبرة للمعتَبِرين[1] قال أبو السعود: وتعليقُ الرؤية بكيفية فعله جل وعلا ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ لا بنفسه بأن يقال: «ألم تر ما فعل ربك» الخ لتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة، وهيئةٍ عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات لما رُوِي أن القصة وقعَت في السنة التي ولد فيها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام[2] ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي ألم يهلكهم ويجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياع وخسار؟! ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي وسلَّط عليهم من جنوده طيرًا أتَتْهم جماعاتٍ، متتابعة بعضها في إثْر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل إلى أحدٍ إلا قتلَته ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح، وأكلته الدواب ثم راثَتْه[3]، فأهلكهم عن بكْرة أبيهم، وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدَفْع العدو عنهم، فكان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه، وفيها مع ذلك عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه قال في البحر: كان صَرْفُ ذلك العدُوّ العظيم عام مولده السعيد عليه السلام، إرهاصًا بنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام، وقد أهلكهم الله تعالى بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[4].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

---

(١) انظر «التفسير الكبير» ٣١/ ٩٦، و«تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٨٧. (ش): لا تكاد الروايات التأريخية لقصة أصحاب الفيل تخرج عن الوصف القرآني إلا في تحديد جزئيات وتفصيلات يسيرة. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (١/ ٩٧)].

(٢) «أبو السعود» ٥/ ٢٨٥. (ش): إن القرائن التأريخية المحتفَّة بالروايات التي تفيد مولد النبي ﷺ عام الفيل قوية، ويرى ابن القيم ويتابعه القسطلاني أن مولد النبي كان في عام الفيل بعد حادثة الفيل، لأن قصة الفيل توطئةٌ وإرهاصٌ لظهوره، حيث دفع الله نصارى الحبشة عن الكعبة دون حَوْلٍ من العرب المشركين تعظيمًا لبيتِه. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (١/ ٩٨)].

(٣) (ش): (رَاثَ): أَلْقَى غَائِطَهُ، أَيْ بِرَازَهُ، مَا تَطْرَحُهُ الأَمْعَاءُ مِنْ فَضَلاَتٍ.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٥١٢.

١ – الاستفهام للتقرير والتعجيب ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ ..﴾ الآية.

٢ – الخطاب للنبي ﷺ بإضافته إلى اسم الجلالة ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ تشريف للنبي العظيم، وإشادةٌ بقدرة الله تعالى.

٣ – التشبيه المرسل المجمل ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤ – توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ٱلۡفِيلِ، تَضۡلِيلٖ، سِجِّيلٖ، أَبَابِيلَ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل»



سُورَةُ قُرَيْشٍ ١٠٦ ٤

مكية وآياتها أربع

بين يدي السورة

* تحدثت هذه السورة عن نعم الله الجليلة على أهل مكة، حيث كانت لهم رحلتان: في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام من أجل التجارة، وقد أكرم الله تعالى قريشًا بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما: نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار[1] ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ

التفسير: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ﴾ هذه اللام متعلقة بالفعل الذي بعدها ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ ومعنى ﴿لِإِيلَافِ﴾ الإلفُ والاعتياد يقال: أَلِفَ الرجُلُ الأمرَ إِلْفًا؛ وآلَفَه غيره إيلافًا. والمعنى: من أجل تسهيل الله على قريش وتيسيره لهم ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام كما قال تعالى: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أي في رحلتي الشتاء والصيف، حيث كانوا يسافرون للتجارة، ويأتون بالأطعمة والثياب، ويربحون في الذهاب والإياب، وهم آمنون مطمئنون لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيرانُ بيت الله وسُكان حرمه، وهم أهل الله لأنهم ولاة الكعبة، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم، ولما أهلك الله أصحاب الفيل، وردَّ كيدهم في نحورهم، ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلذلك جاء الامتنان على قريش، وتذكيرهم بنعم الله ليُوَحِّدوه ويشكروه ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ أي فليعبدوا الله العظيم الجليل، ربَّ هذا البيت العتيق، وليجعلوا عبادتهم شكرًا لهذه النعمة الجليلة التي خصَّهم بها قال المفسرون: وإنما دخلت الفاء ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ لما في الكلام من معنى الشرط كأنه قال: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه من أجل إلفهم الرحلتين، التي هي مِن أظهرِ نِعَمِه عليهم؛ لأنهم في بلادٍ لا زَرْع فيها ولا ضَرْع[2]، ولهذا قال بعده ﴿الَّذِي

(١) (ش): يَسار: غِنًى وثَرْوة، رخاء، سِعَة.

(٢) (ش): الضَّرْعُ: مَدَرُّ اللّبن في ذوات الظِّلْف والخُفّ، وهو كالثّدي للمرأة، ضَرْع البقرة / الشَّاة. والظِلْف: ظفر مشقوق، للبقرة والشّاة والظبي ونحوهم، وهو بمنزلة الحافر للفرس والظفر للإنسان. خُفّ البعير: ما يقابل =

﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي هـذا الإلـه الـذي أطعمهم بعد شـدة جـوع، وآمنهم بعـد شـدة خوف، فقد كانوا يسافرون آمنين لا يتعـرض لهم أحد، ولا يُغيـر عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم كما تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبـوت: ٦٧] وذلـك ببركة دعـوة أبيهم الخليل إبراهيم عليه السـلام حيث قال ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [البقـرة: ١٢٦] وقولـه ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقـرة: ١٢٦] أفـلا يجب على قريش أن يفردوا بالعبادة هذا الإله الجليل، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟!

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الطبـاق بين ﴿ٱلشِّتَآءِ .. وَٱلصَّيْفِ﴾ وبين الجوع والإطعام ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ وبين الأمن والخوف ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

٢ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾.

٣ - تقديـم ما حقه التأخير ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ والأصل (لْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت لإِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتاء والصيف) فقدَّم الإيلاف تذكيرًا بالنعمة.

٤ - التنكيـر في لفظـة ﴿جُوعٍ﴾ ولفظة ﴿خَوْفٍ﴾ لبيان شـدتهما أي جوع شـديد، وخوفٍ عظيم.

تنبيـه: قال الإمـام الفخر: إعلـم أنَّ الإنعام على قسـمين: أحدهما دفع ضـر وهو ما ذكره في سـورة الفيل، والثـاني: جلب النفع وهو ما ذكره في هذه السـورة، ولما دفع الله عنهم الضر، وجلـب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية وأداء الشـكر ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ..﴾ الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش»



= القدم عند الإنسان والحافر عند الفرس. الزَّرْعُ وَالضَّرْعُ: الزِّرَاعَةُ وَالْمَاشِيَةُ. ما له زَرْع ولا ضَرْع: ليس له شيءٌ من أرض أو حيوان.

سُورَةُ المَاعُون ١٠٧ ٧

مكية وآياتها سبع

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية، وقد تحدثت بإيجاز عن فريقين من البشر هما:

أ- الكافر الجاحد لنعم الله، المكذب بيوم الحساب والجزاء.

ب- المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله، بل يرائي في أعماله وصلاته.

* أما الفريق الأول: فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة، أنهم يهينون اليتيم ويزجرونه[1] غلظة لا تأديبًا، ولا يفعلون الخير، حتى ولو بالتذكير بحق المسكين والفقير، لا هم أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه.

* وأما الفريق الثاني: فهم المنافقون، الغافلون عن صلاتهم، الذين لا يؤدونها في أوقاتها، والذين يقومون بها «صورة» لا «معنى» المراءون بأعمالهم وقد توعدت الفريقين بالويل والهلاك، وشنعت عليهم أعظم تشنيع، بأسلوب الاستغراب والتعجيب من ذلك الصنيع!!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

اللغة: ﴿يَدُعُّ﴾ يدفع بعنفٍ وشدة يقال: دعَّه دعًّا أي دفعه دفْعًا ومنه ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] ﴿يَحُضُّ﴾ الحَضُّ: الحَثُّ والترغيب ﴿سَاهُونَ﴾ جمع ساهٍ يقال: سها عن كذا يسهو سهوًا إذا تركه عن غفلة ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ الشيء القليل، من المَعن وهو القلة تقول العرب: « مَا لَه مَعْنَةٌ ولا سَعْنَةٌ » أي ما لَه قليلٌ ولا كثيرٌ من المال، قال المبّرد والزجاج: الماعون كل ما فيه منفعة كالفأس والقِدْر والدَّلْو وغير ذلك.

التفسير: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؟ استفهام للتعجيب والتشويق، أي: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء والحساب في الآخرة؟ هل عرفتَ من هو، وما أوصافه إن أردتَ تعرفه[2]؟ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي فذلك هو الذي يدفع اليتيم دفعًا عنيفًا بجفوة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي ولا يحث على

(١) (ش): زجَر الشَّخصَ: طرده صائحًا به محتقرًا له.

(٢) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: إن أردتَ أن تعرفه؟

إطعام المسكين قال أبو حيان: وفي قوله ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ إشارة إلى أنه هو لا يُطعم إذا قدر، وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يحُضَّ غيره بُخلًا، فلأَنْ يترك هو ذلك فعلًا أَوْلَى وأحرى[1] وقال الرازي: فإن قيل: لِمَ قال ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ولم يقل: ولا يُطعم المسكين؟ فالجواب أنه إذا منَع اليتيم حقه، فكيف يُطعم المسكين من مال نفسه؟ بل هو بخيل من مال غيره، وهذا هو النهاية في الخسة، ويدل على نهاية بخله، وقساوة قلبه، وخساسة طبعه[2]، والحاصل أنه لا يُطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه، لأنه يكذّب بالقيامة، ولو آمن بالجزاء وأيقن بالحساب لما صدر عنه ذلك ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي هلاكٌ وعذابٌ للمصلين المنافقين، المتصفين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي الذين هم غافلون عن صلاتهم، يؤخرونها عن أوقاتها تهاونًا بها قال ابن عباس: هو المصلي الذي إن صلى لم يَرْجُ لها ثوابًا، وإن تركها لم يخْشَ عليها عقابًا[3] وقال أبو العالية: لا يصلونها لمواقيتها، ولا يُتمُّون ركوعها ولا سجودها[4]، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الآية فقال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»[5] قال المفسرون: لمَّا قال تعالى ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ بلفظة ﴿عَن﴾ عُلم أنها في المنافقين، ولهذا قال بعض السلف: الحمد لله الذي قال ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل (في صلاتهم) لأنه لو قال (في صلاتهم) لكانت في المؤمنين، والمؤمنُ قد يسهو في صلاته، والفرق بين السهوين واضح، فإن سهو المنافق سهو تركٍ وقلة التفات إليها، فهو لا يتذكرها ويكون مشغولًا عنها، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال وجبره بسجود السهو، فظهر الفارق بين السَّهْوَيْن، ثم زاد في بيان أوصافهم الذميمة فقال ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أي يُصَلُّون أمام الناس رياءً ليُقال: إنهم صلحاء، ويتخَشَّعون ليُقال: إنهم أتقياء، ويتصدقون ليُقال: إنهم كرماء، وهكذا سائر أعمالهم للشهرة والرياء ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي ويمنعون الناس المنافع اليسيرة، من كل ما يستعان به كالإبرة، والفأس، والقِدْر، والملح، والماء وغيرها قال مجاهد: الماعون العارية للأمتعة وما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية وقال الطبري: أي يمنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كل شيء منفعته[6]. وفي الآية زجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة؛ فإن البخل بها نهاية البخل وهو مخل بالمروءة.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

(١) «البحر المحط» ٨/ ٥١٧.
(٢) «التفسير الكبير» ٣١/ ١٦٢.
(٣) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢١١.
(٤) نفس المرجع السابق.
(٥) أخرجه ابن جرير. (ش): ضعفه الألباني.
(٦) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٢٠٣.

١ – الاستفهام الذي يراد به تشويق السامع إلى الخبر والتعجب منه ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؟

٢ – الإيجاز بالحذف ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ حذف منه الشرط، أي: إن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُّ اليتيم، وهذا من أساليب البلاغة.

٣ – الذم والتوبيخ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ووضع الظاهر مكان الضمير ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ زيادة في التقبيح لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة.

٤ – الجناس الناقص ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

٥ – توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿سَاهُونَ، يُرَآءُونَ، ٱلْمَاعُونَ﴾ إلخ.

«انتهى تفسير سورة الماعون»





مكية وآيتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة الكوثر مكية، وقد تحدثت عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم، بإعطائه الخير الكثير والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها «نهر الكوثر» وغير ذلك من الخير العظيم العميم، وقد دعت الرسول إلى إدامة الصلاة، ونحر الهدى شكرًا لله.

* وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصفت مبغضيه بالذلة والحقارة، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة، بينما ذكر الرسول مرفوع على المنائر والمنابر(١)، واسمه الشريف على لسان، خالد إلى آخر الدهر والزمان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ

اللغة: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ الخير الكثير وهو مبالغة من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد، والقدْر والخطر كوْثرًا قال الشاعر:

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا ابْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ ... وَكَانَ أَبُوكَ ابْنُ الْعَقَائِلِ كَوْثَرَا (٢)

﴿وَٱنْحَرْ﴾ النَّحْر خاص بالإبل، وهو بمنزلة الذبح في البقر والغنم ﴿شَانِئَكَ﴾ الشانِئ: المُبغِض من الشنآن بمعنى العداوة والبُغْض ومنه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: ٢] أي بُغضُهم ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ المُنقطِع عن كل خير، من البَتْر وهو القطعُ يقال: بترتُ الشيء بترًا قطعْته، والسيف الباترُ: القاطعُ، ويقال للذي لا نسل له أبتر، لأنه انقطع نسبه، وسميت خطبة زياد بالخطبة البتراء لأنه لم يحمد الله فيها ولم يصلّ على النبي ﷺ(٣).

التفسير: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ تكريمًا لمقامه الرفيع وتشريفًا، أي: نحن أعطيناك يا محمد الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة، ومن هذا الخير «نهر الْكَوْثَر» وهو كما ثبت في الصحيح « نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ تُرْبَتُهُ

(١) (ش): المَنارة: المِئذنة.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢١٦. (ش): العقيلة: الزَّوْجَة الْكَرِيمَة، وسيد الْقَوْم، والجمعُ عقائل.

(٣) (ش): الخطبة منسوبة لزياد بن أبيه، يُروَى أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما اختاره واليًا على البصرة، وكانت مَعقِلًا للخارجين على الخلافة الأموية ولهذا فقد كانت الفتن والثورات على بني أمية تنبع منها. فلما وصل زياد إلى البصرة صعد المنبر وألقى هذه الخطبة.

أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا»(١).

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ قَالَ «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ». فَقَرَأَ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾». ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؛». فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ - أي يُنتَزَع ويُقتطَع منهم - فَأَقُولُ: «رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي». فَيَقُولُ: «مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ»(٢) قال أبو حيان: وذكر في الكوثر ستة وعشرون قولًا، والصحيحُ هو ما فسره به رسول الله ﷺ فقال: «هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ». وعن ابن عباس: الكوثرُ: الخير الكثير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي فصلِّ لربك الذي أفاضَ عليك من الخير خالصًا لوجهه الكريم، وانْحَر الإبل التي هي خيار أموال العرب شكرًا له على ما أوْلَاك ربُّك(٣) من الخيرات والكرامات قال في التسهيل: كان المشركون يصلون مُكاءً وتَصديةً(٤)، وينحرون للأصنام فقال الله لنبيه ﷺ: صلِّ لربك وحده، وانْحر لوجهه لا لغيره، فيكون ذلك أمرًا بالتوحيد والإخلاص ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي إن مُبغِضَك يا محمد هو المنقطع عن كل خير قال المفسرون: لما مات «القاسم» ابن النبي ﷺ قال العاص بن وائل: دعوه فإنه رجلٌ أبتر لا عقب له -أي لا نسله له- فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى هذه السورة(٥)، وأخبر تعالى أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد، لأنه مبتور من رحمة الله، أي مقطوع عنها، ولأنه لا يُذكر إلا ذكر باللعنة، بخلاف النبي ﷺ فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، مرفوع على المآذن والمنابر، مَقْرونٌ بذكر الله تعالى،

---

(١) رواه الترمذي. (ش): صححه الألباني.

(٢) رواه مسلم والترمذي.

(٣) (ش): أوْلَاك ربُّك: أعطاك ربك.

(٤) (ش): أي صفيرًا وتصفيقًا.

(٥) (ش): موضوع، رواه ابنُ سعد في «الطبقات الكبرى». وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ قَالَتْ قُرَيْشٌ: «أَلَا تَرَى هَذَا الصُّنْبُورَ الْمُنْبَتِرَ مِنْ قَوْمِهِ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَجِيجِ، وَأَهْلُ السِّدَانَةِ، وَأَهْلُ السِّقَايَةِ!». قَالَ: «أَنْتُمْ خَيْرٌ». فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الْكَوْثَر:٣] وَنَزَلَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٥٢، ٥١]. (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ وَابْنُ جَرِيرٍ، وصحّحه الألباني). (الصُّنْبُورُ): الرَّجُلُ الْفَرْدُ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ بِلَا أَهْلٍ وعَقِبٍ وَنَاصِرٍ. الْمُنْبَتِرَ: الْمُنْقَطِعُ.

والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعُه فهو كالوالد لهم صلوات الله وسلامه عليه.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - صيغة الجمع الدالة على التعظيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ ولم يقل: أنا أعطيتك.

٢ - تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ﴿إِنَّآ﴾ لأن أصلها إِنَّ ونحن.

٣ - صيغة الماضي المفيدة للوقوع ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ ولم يقل: سنعطيك لأن الوعد لما كان محققًا عبَّر عنه بالماضي مبالغة كأنه حدث ووقع.

٤ - المبالغة في لفظة الكوثر.

٥ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.

٦ - إِفادة الحصر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾.

٧ - المطابقة بين أول السورة وآخرها بين ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ و﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ فالكوثر الخير الكثير، والأبتر المنقطع عن كل خير، فهذه السورة على وجازتها جمعت فنون البلاغة والبيان فسبحان مُنزل القرآن!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر»



سُورَةُ الكَافِرُونَ (١٠٩) (٦)

مكية وآياتها ست

بين يدي السورة

* سورة الكافرون مكية، وهي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال، فقد دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى المهادنة، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة فنزلت السورة [١] تقطع أطماع الكافرين، وتفصل النزاع بين الفريقين: أهل الإيمان، وعبدة الأوثان، وترد على الكافرين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

التفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي لا أعبد هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها، فأنا بريءٌ من آلهتكم ومعبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع ولا تُغني عن عابدها شيئًا. قال المفسرون: إن قريشًا طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فقال. معاذ الله أن نشرك بالله شيئًا. فقالوا: فاستلِم بعض آلهتنا نصَدِّقْك ونعبدْ إلهك، فنزلت السورة فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رءُوسهم فقرأها عليهم فأيِسُوا منه [٢] وآذوه وآذوا أصحابه وفي قوله ﴿قُلْ﴾ دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله، وخطابه ﷺ لهم بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ونسبتهم إلى الكفر وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى ذلك دليلٌ على أنه محروسٌ من عند الله، فهو لا يبالي بهم ولا بطواغيتهم ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم يا معشر المشركين عابدون إلهي الحق الذي أعبده وهو الله وحده، فأنا أعبد الإله الحقَّ هو الله ربُّ العالمين، وأنتم تعبدون الأحجار والأوثان، وشتان بين عبادة الرحمن، وعبادة الهوى والأوثان!! ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ تأكيدٌ لما سبق من البراءة من عبادة الأحجار، وقطعٌ لأطماع الكفار كأنه قال: لا أعبد هذه الأوثان في

---

(١) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما».

(٢) انظر روح المعاني للألوسي ٣/ ٢٥٠، و«تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٢٥. (ش): لم أجده بهذا السياق إلا في بعض التفاسير بدون إسناد، وذكر بعضه السيوطي في «الدر المنثور» ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدونه أبدًا ما عشتُ، لا أعبد أصنامكم الآن، ولا فيما يستقبل من الزمان ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي ولستم أنتم في المستقبل بعابدين إلهي الحق الـذي أعبد ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ أي لكم شـركـكم، ولي توحيدي، وهـذا غاية في التبرؤ من عبـادة الكفار، والتأكيد على عبادة الواحد القهار، قال المفسـرون: معنى الجملتين الأوليين: الاختـلاف التام في المعبود، فإله المشـركين الأوثان، وإله محمـد الرحمن، ومعنى الجملتين الأخريين: الاختلاف التام في العبادة، كأنه قال: لا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ – الخطاب بالوصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ للتوبيخ والتشنيع على أهل مكة.

٢ – طباق السلب ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فالأول نَفْيٌ والثاني إثبات.

٣ – المقابلـة بيـن كل من الجملتيـن الأوليين ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي في الحـال، والمقابلـة بيـن الجملتيـن الأخريين ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي في الاسـتقبال، وفي هـذه المقابلـة نَفْـيٌ لعبـادة الأصنـام في الحـالِ والاستقبال[1] وهو من المحسنات البديعية.

٤ – توافـق الفواصـل في الحـرف الأخيـر مثـل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكافرون»



(١) (ش): أي في الحاضر والمستقبل.

١١٠ سُورَةُ النَّصْرِ ٣

مدنية وآياتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة النصر مدنية، وهي تتحدث عن «فتح مكة» الذي عز به المسلمون، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وتقلمت أظافر الشرك والضلال، وبهذا الفتح المبين دخل الناس في دين الله، واضمحلت ملة الأصنام، وكان الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه، من أظهر الدلائل على صدق نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا

التفسير: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، يذكّره ربه بالنعمة والفضل عليه وعلى سائر المؤمنين. والمعنى: إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك، وفتح عليك مكة أم القرى قال المفسرون: الإخبارُ بفتح مكة قبل وقوعه إخبارٌ بالغيب، فهو من أعلام النبوَّة ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعاتٍ جماعاتٍ من غير حربٍ ولا قتال، وذلك بعد فتح مكة صارت العرب تأتي من أقطار الأرض طائعة قال ابن كثير: إنَّ أحياء العرب كانت تنتظر فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبيٌّ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهرٌ للإسلام[1] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي فسبّح ربك وعظمه مُتَلَبِّسًا بحمده على هذه النعم، واشكره على ما أوْلَاك[2] من النصر على الأعداء، وفَتْح البلاد، وإسلام العباد ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ أي اطلب منه المغفرة لك ولأُمتك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ أي إنه جلّ وعلا كثير التوبة، عظيم الرحمة لعباده المؤمنين.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - ذِكْر الخاص بعد العام ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ نصر الله يشمل جميع الفتوحات فعطف عليه (فتح مكة) تعظيمًا لشأن هذا الفتح واعتناءً بأمره.

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٨٧، وقال القرطبي: و«إذا» بمعنى «قد» أي قد جاء نصر الله لأن نزولها بعد الفتح.

(٢) (ش): أوْلَاك: أعطاك.

٢ - إطلاق العموم وإرادة الخصوص ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ ﴾ لفظ الناس عام والمراد به العرب.

٣ - دين الله هو الإسلام ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ وأضافه إليه تشريفًا وتعظيمًا، كبَيْت الله وناقة الله.

٤ - صيغة المبالغة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ لأن صيغة «فعال» للمبالغة.

تنبيه: هذه السورة الكريمة فيها نَعْيُ النبي ﷺ ولهذا تسمى سورة (التوديع) وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة: «ما أراه إلا حضور أجلي»[1]، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] الآية. فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يومًا[2]. وروى الإمام البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: «لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟» فَقَالَ عُمَرُ: «إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ». فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، وَدَعَانِي مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ. فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾؟». فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا بأن نَحْمَد اللهَ وَنَسْتَغْفِرهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا ». وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَقَالَ لِي: «أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟». فَقُلْتُ: «لا». قَالَ: «فَمَا تَقُولُ؟». قُلْتُ: «هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ وَذَلِكَ عَلامَةُ أَجَلِكَ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ ». فَقَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَقُولُ»[3].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النصر»



(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.
وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١] دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاطِمَةَ فَقَالَ: «قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي»، فَبَكَتْ، فَقَالَ: «لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي»، فَضَحِكَتْ، فَرَآهَا بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَ: يَا فَاطِمَةُ، رَأَيْنَاكِ بَكَيْتِ ثُمَّ ضَحِكْتِ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ لِي: «لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لَاحِقٌ بِي» فَضَحِكْتُ» (رواه البيهقي والدارمي بإسناد صحيح). وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ قال رسول الله - ﷺ -: «نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي» بأنه مقبوض في تلك السنة. (رواه أحمد، وصححه أحمد شاكر).

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٣. (ش): رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَعَرَفَ أَنَّهُ الْوَدَاعُ، فَأَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ الْقَصْوَاءِ فرحلت، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ، فَذَكَرَ خُطْبَتَهُ الْمَشْهُورَةَ (رواه الْبَزَّارُ وَالْبَيْهَقِيُّ بإسنادٍ ضعيف).

(٣) «جمع الفوائد وأعذب الموارد» ٢/ ٢٨٥.

سُورَةُ المَسَد ١١١ ٥

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة المسد مكية، وتسمى سورة «اللهب»، وسورة «تبت»، وقد تحدثت عن هلاك «أبي لهب» عدو الله ورسوله، الذي كان شديد العداء لرسول الله ﷺ، يترك شغله ويتبع الرسول ﷺ ليفسد عليه دعوته، ويصد الناس عن الإيمان به، وقد توعدته السورة في الآخرة بنار موقدة يصلاها ويشوى بها، وقرنت زوجته به في ذلك، واختصتها بلون من العذاب شديد، هو ما يكون حول عنقها من حبل من ليف تجذب به في النار، زيادة في التنكيل والدمار.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

اللغة: ﴿تَبَّتْ﴾ هلكت، والتباب: الهلاك والخسران ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] وقال الشاعر: «فَتَبًّا لِلَّذِي صَنَعُوا»... ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات اشتعال وتلهُّب ﴿جِيدِهَا﴾ عُنقها قال امرؤ القيس:

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ[(١)]

﴿مَّسَدٍۭ﴾ ليف قال الواحدي: المسد في كلام العرب: الفَتْل، يقال: مسد الحبل يمسده مسدًا إذا أجاد فَتْله، وكلُّ شيء فُتِل من الليف والخُوص فهو مسد[(٢)].

سبَبُ النّزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي « يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ ». لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: « أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ». قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا. قَالَ: « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[(٣)].. السورة.

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٤١. (ش): الرِّيم: الظبيُ الأبيض الخالص البياض. لَيْسَ بِفَاحِشٍ: ليس بكريه المنظر. (ش): خُوص: جمع خُوصة: ورق النَّخل وما شابهه.

(٢) «التفسير الكبير» ٣١/ ١٧٣.

(٣) «روح المعاني» ٣٠/ ٢٦٠. (ش): رواه البخاري.

ب- عَنْ طَارِقِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُحَارِبِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَأَنَا فِي بِيَاعَةٍ لِي فَمَرَّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا» وَرَجُلٌ يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ قَدْ أَدْمَى عُرْقُوبَيْهِ - مؤخر القدم - وَكَعْبَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوا هَذَا فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟، فَقِيلَ: غُلَامٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قُلْتُ: فَمَنْ هذَا الذي يَتْبَعُهُ، يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ؟. قِيلَ: هذَا عَمُّهُ عَبْدُ الْعُزَّى أَبُو لَهَبٍ[1].

التفسير: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي هلكت يد ذلك الشقي ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ وخاب وخسر وضلَّ عمله ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد هلك وخسر، الأول دعاءٌ، والثاني إخبارٌ كما يقال: أهلكه اللهُ وقد هلك قال المفسرون: التباب هو الخسار المُفضِي إلى الهلاك[2]، والمراد من اليد صاحبُها، على عادة العرب من التعبير ببعض الشيء عن كله وجميعه، وأبو لهب هو «عبد العُزى بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ وامرأته العوراء «أم جميل» أخت أبي سفيان، وقد كان كلٌّ منهما شديد العداوة للرسول ﷺ فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْه، وفي يدها فِهْر - قطعة من الحجارة -، فلما دنَت من الرسول ﷺ أخذ الله بصرها عنه فلم ترَ إلاّ أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك يهْجُوني، فوالله لو وجَدته لضربت بهذا الحجر فَاهُ، ثم أنشدت تقول: مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا، ثم انصرفت فقال أبو بكر: يا رسول الله: أما تراها رأتك؟ قال: ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني»[3]، وكانت قريش يسبون الرسول ﷺ يقولون: مذممًا بدل «محمد» وكان يقول صلوات الله عليه: «ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذممًا وأنا محمد»!؟[4] قال الخازن: فإن قلت: لم كناه وفي التكنية

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٦. (ش): رواه ابنُ حبان والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي والألباني. (سُوقُ ذِي الْمَجَازِ): مَوْضِعٌ بِمِنًى كَانَتْ بِهِ سُوقٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَقِيلَ: سُوقٌ كَانَتْ لَهُمْ عَلَى فَرْسَخٍ مِنْ عَرَفَةَ. وَالْفَرْسَخ: مِقْيَاسٌ لِلطُّولِ يُقَدَّرُ بِثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ (٤٨٢٧ مِتْرًا)، أَوْ أَرْبَعَة كِيلُو مِتْرَاتٍ.

(٢) (ش): أي المُؤدّي إلى الهلاك.

(٣) (ش): عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) [المسد: ١] أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ: مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ فَلَمَّا رَآهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي». وَقَرَأَ قُرْآنًا فَاعْتَصَمَ بِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَقَرَأَ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فَوَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي». فَقَالَ: «لَا وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ». فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: «قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا» (رَوَاهُ الْحَاكِمُ وصححه ووافقه الذهبي والألباني). (وَلْوَلَةٌ): الْوَلْوَلَةُ: الدُّعَاء بِالْوَيْلِ. (فِهْرٌ): حَجَرٌ. (هَجَانِي): ذَمَّنِي وَعَدَّدَ مَعَايِبِي. قلَى فلانًا: أبغضَه واشتدّ كُرْهُه له فهجره.

(٤) انظر «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٤، و«الألوسي» ٣٠/ ٢٦٤. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ» رواه البخاري.

تشريف وتكرمة؟ فالجواب من وجوه: أحدهما: أنه كان مشتهرًا بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه لم يعرف. الثاني: أنه كان اسمه «عبد العزى» فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك لأن العزَّى صنم فلم تُضَف العبودية إلى صنم. الثالث: أنه لما كان من أهل النار، ومآله إلى النار، والنارُ ذاتُ لهب، وافقت حاله كنيته وكان جديرًا بأن يُذكَر بها[١] ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي لم يُفِدْه مالُه الذي جمعه، ولا جاهه وعزه الذي اكتسبه قال ابن عباس ﴿وَمَا كَسَبَ ﴾ من الأولاد، فإن ولد الرجل من كسبه.. روي أن الرسول ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا، فإني أفتدي نفسي من العذاب بمالي وولدي فنزلت[٢] قال الألوسي: كان لأبي لهب ثلاثة أبناء «عُتبة» و «متعب» و «عُتيبة» وقد أسلم الأولان يوم الفتح، وشهدا حنينًا والطائف، وأما «عُتيبة» فلم يسلم، وكانت «أم كلثوم» بنت رسول الله ﷺ عنده، وأختها «رُقية» عند أخيه عُتبة، فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما: رأسي ورأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد، فطلقاهما ولما أراد «عُتَيبة» بالتصغير الخروج إلى الشام مع أبيه قال: «لآتِيَنَّ محمدًا وأُوذِيَنَّه» فأتاه فقال: «يا محمد إنّي كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى»، ثم تفَل أمام النبي ﷺ وطلّق ابنته «أم كلثوم» فغضب ﷺ ودعا عليه فقال: «اللهم سلِّطْ عليه كلبًا من كلابك» فافترسه الأسد[٣]، وهلك أبو لهب بعد وقعة بدر بسبع ليالٍ بمرضٍ معدٍ كالطاعون يسمى «العدسة» وبقي ثلاثة أيام حتى أنتن، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن[٤] ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي سيدخل نارًا حامية، ذات اشتعال وتوَقُّد عظيم، وهي نار جهنم ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ أي وستدخل معه نار جهنم، امرأته العوراء «أم جميل» التي كانت تمشي بالنميمة بين الناس، وتُوقِد بينهم نار العداوة والبغضاء قال أبو السعود: كانت تحمل حزمة من الشوك والحَسَك[٥] فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ لإيذائه[٦] وقال ابن عباس: كانت تمشي بالنميمة بين الناس لتفسد بينهم[٧] ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ أي في عنقها حبلٌ من ليف قد فُتِل فَتْلًا شديدًا، تُعذَّب به يوم

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٣١٧. (ش): أي لم ينتفعْ به.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٩٠. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٣) (ش): عَنْ أَبِي نَوْفَلِ بْنِ أَبِي عَقْرَبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ لَهَبُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ» فَخَرَجَ فِي قَافِلَةٍ يُرِيدُ الشَّامَ فَنَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا لَهُ: كَلَّا، فَحَطُّوا مَتَاعَهُمْ حَوْلَهُ وَقَعَدُوا يَحْرُسُونَهُ فَجَاءَ الْأَسَدُ فَانْتَزَعَهُ فَذَهَبَ بِهِ (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي).

(٤) «روح المعاني» ٣٠/ ٢٦٢. (ش): رواه ابن إسحاق في «السيرة» والبيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد ضعيف.

(٥) (ش): حَسَك: جمع حَسَكَة: نبات عُشبي برّيّ شائك.

(٦) «أبو السعود» ٥/ ١٩٢.

(٧) «الألوسي» ٣٠/ ٢٦٣.

القيامة قال مجاهد: هو طوقٌ من حديد وقال ابن المسيب: كان لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللاتِ والعُزَّى لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلًا في جيدها من مسد النار(١).

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس المرسل ﴿يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي هلك أبو لهب.

٢ - الجناس بين ﴿أَبِى لَهَبٍ﴾ وبين ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فالأول كنية والثاني وصف للنار.

٣ - الكنية للتصغير والتحقير ﴿أَبِى لَهَبٍ﴾ فليس المراد تكريمه بل تشهيره، كأبي جهل.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ مستعار للنميمة وهي استعارة مشهورة قال الشاعر: « وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ»(٢).

٥ - النصب على الشتم والذم ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أي أخُصّ بالذم حمالةَ الحطب(٣).

٦ - توافق الفواصل مراعاةً لرءوس الآيات وهو من المحسِّنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المسد»



(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٤٢.

(٢) (ش): يَعْنِي: لَمْ تَمْشِ بِالنَّمَائِمِ، وَجَعَلَ الْحَطَبَ رَطْبًا لِيَدُلَّ عَلَى التَّدْخِينِ، الَّذِي هُوَ زِيَادَةٌ فِي الشَّرِّ.

(٣) (ش): أي نصب كلمة ﴿حَمَّالَةَ﴾ فما قبلها مرفوع.

سُورَةُ الإخلَاصِ ١١٢ ٤

مكية وآياتها أربع

بين يدي السورة

* سورة الإخلاص مكية، وقد تحدثت عن صفات الله جل وعلا الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المتنزه عن صفات النقص، وعن المجانسة والمماثلة، وردت على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذين جعلوا لله الذرية والبنين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

اللغَة: ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد المقصود في قضاء الحاجات قال الشاعر:

أَلَا بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدْ ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدْ[١]

﴿كُفُوًا﴾ الكُفُوءُ: النظير والشبيه قال أبو عبيدة: كُفُوٌ وَكُفْءٌ وَكِفَاءٌ كلها بمعنى واحد وهو المِثْل والنظير[٢].

سَبَبُ النّزول: روي أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد صف لنا ربَّك، أمِن ذهبٍ هو، أم مِن فضة، أم مِن زبرجد، أم مِن ياقوت؟! فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ..﴾ السورة[٣].

التفسِير: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين: إن ربي الذي أعبده، والذي أدعوكم لعبادته هو واحد أحد لا شريك له، ولا شبيه له ولا نظير، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو جل وعلا واحد أحد، ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث «الآب، والابن، وروح القدس» ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة قال في

---

(١) «البحر المحط» ٨/ ٥٢٧. (ش): بَكَّرَ: بادر، عَجِل وأَسْرع. نعَى فلانًا: أذاع خبرَ موته.

(٢) انظر «التفسير الكبير» ٣١/ ١٧٥.

(٣) (ش): ضعيف جدًّا، رواه الهروي في «ذم الكلام». وعن أُبي بن كعب -رضي الله عنه-: أن المشركين قالوا لرسول الله - ﷺ -: انسب لنا ربك؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؛ فالصمد: الّذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وإن الله -عزّ وجلّ- لا يموت ولا يورث، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء. (حسن، رواه أحمد والترمذي).

التسهيل: واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معانٍ، كلها صحيحة في حقه تعالى: الأول: أنه واحد لا ثاني معه فهو نفيٌ للعدد. والثاني: أنه واحد لا نظير له ولا شريك له، كما تقول: فلان واحد في عصره أي لا نظير له والثالث: أنه واحد لا ينقَسم ولا يتبعَّض، والمراد بالسورة نَفْيُ الشريك ردًّا على المشركين، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، وذلك كثير جدًا، وأوضحها أربعة براهين: الأول؛ قوله تعالى ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]؟ وهذا دليل الخلق والإيجاد فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات، لم يصح أن يكون واحد منها شريكًا له والثاني: قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهو دليل الإحكام والإبداع الثالث: قوله تعالى ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢] وهو دليل القهر والغلبة. الرابع: قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] وهو دليل التنازع والاستعلاء[1] ثم أكد تعالى وحدانيته واستغناءه عن الخلق فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ أي هو جل وعلا المقصود في الحوائج على الدوام، يحتاج إليه الخلق وهو مُستَغْنٍ عن العالمين قال الألوسي: الصَّمد السيدُ الذي ليس فوقه أحد، الذي يُصمَدُ إليه أي يلجأ إليه الناسُ في حوائجهم وأمورهم[2] ﴿لَمْ يَلِدْ ﴾ أي لم يتخذ ولدًا، وليس له أبناء وبنات، فكما هو متصف بالكمالات، منزَّه عن النقائص قال المفسرون: في الآية رَدٌّ على كل من جعل لله ولدًا، كاليهود في قولهم ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] والنصارى[3] في قولهم ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] وكمشركي العرب في زعمهم أن (الملائكة بنات الله) فرَدَّ الله تعالى على الجميع في أنه ليس له ولد، لأن الولد لا بدَّ أن يكون من جنس والده، والله تعالى ليس له زوجة وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١]؟! ﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أي ولم يولد من أبٍ ولا أُم، لأن كل مولود حادث، والله تعالى قديم أزلي، فلا يصح أن يكون مولودًا ولا أن يكون له والد، وقد نفت الآية عنه تعالى إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأولُ الذي لا ابتداءَ لوجوده، القديمُ الذي كان ولم يكن معه شيء غيره[4] ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي وليس له جل وعلا مثيلٌ، ولا

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٢٣، وقد ذكر في «التسهيل» هذه النصوص الكريمة دون بيان وجه الدلالة، وما ذكر بين المعترضين مثل: دليل الخلق والإيجاد، دليل الإحكام والإبداع فهو من كلامنا.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/ ٢٧٣.

(٣) يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم «الآب، والابن، وروح قدس» وهي عقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الآية ويعتقدون بأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، ويزعمون أنهم موحدون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

(٤) (ش): قال ﷺ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

نظير، ولا شبيه أحد في خلقه، لا من ذاته، ولا من صفاته، ولا من أفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] قال ابن كثير: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظيرٌ يساميه، أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدَّس وتنزَّه، وفي الحديث القدسي « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فأما تكذيبه إياي فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤًا أَحَدٌ»[1].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ – ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن ﴿قُلْ هُوَ﴾ للتعظيم والتفخيم.

٢ – تعريف الطرفين ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ لإفادة التخصيص.

٣ – الجناس الناقص ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.

٤ – التجريد فإن قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقتضي نفي الكفء، والولد، وقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ هو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في العموم وذلك زيادة في الإيضاح والبيان.

٥ – السجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

لطيفَة: هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية، ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأثبتت الثانية كماله تعالى، ونفت النقص والعجز ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وأثبتت الرابعة عظمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص.

فَائِدَة: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَكَأَنَّمَا قَرَأَ بِثُلُثِ الْقُرْآنِ»[2] قال العلماء: وذلك لما تضمنته من المعاني والعلوم والمعارف، فإن علوم القرآن ثلاثة: «توحيد، وأحكام، وقصص» وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد، فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار، وقيل: إن ذلك في الثواب، أي: لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن، والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإخلاص»

---

(١) (ش): رواه البخاري.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والنسائي من حديث أبي بن كعب مرفوعًا. (ش): صححه الألباني.

سُورَةُ الفَلَقِ ١١٣ ٥

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سـورة الفلق مكية، وفيها تعليم للعباد أن يلجئوا إلى حمى الرحمن، ويستعيذوا بجلاله وسـلطانه من شـر مخلوقاته، ومن شـر الليل إذا أظلم، لما يصيب النفوس فيه من الوحشـة، ولانتشـار الأشـرار والفجار فيه، ومن شر كل حاسد وساحر، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعوذ نفسه بهما.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

اللغَـة: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ الفَلَق: الصبـح تقول العرب: هو أبيَنُ من فلَق الصبح، والفِلْق بالكسـر الداهيـة والأمـر العجـب، وأصله مـن فلقْتُ الشـيء أي شـقَقْته، فكل ما انفلق من شـيء من حيوان، وحب، ونوى فهو فلق، ومنه «فالق الإصباح» قال ذو الرمة:

حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَى عَنْ وَجْهِهِ فَلَقٌ

أي انجلى الصبحُ عن وجهه ﴿غَاسِقٍ﴾ الغاسق: الليل إذا اشتد ظلامه، والغسق أول ظلمة الليل يقال: غسق الليل أي أظلم قال الشاعر:

إِنَّ هَـذَا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا ... وَاشْتَكَيْتُ الْهَمَّ وَالأَرَقَا[1]

﴿وَقَبَ﴾ دخـل بظلامه، والوُقُوب: الدخول ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ النفْث: شَـبَهُ النفخ دون تَفْلٍ بالريق، فإذا كان معه رِيقٌ فهو التَّفْل قال عنترة:

فَإِنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أُنْفِثْ عَلَيْهِ ... وَإِنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ لَهُ الْفُقُودُ[2]

التفسِـير: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي قـل يا محمـد ألتجئ وأعتصم بـرب الصبح الذي ينفلـق عنه الليل، وينجلي عنه الظلام قال ابـن عباس: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ الصبحُ كقوله تعالى ﴿فَالِقُ

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٥٧. (ش): كانت العرب تزعُم أن الرجل إذا طعَن آخر فنفَث عليه الطاعنُ ورَقاه، أن المطعون يبرأ مِن طعنته.

﴿ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦][١] وفي أمثال العرب: هو أبْيَنُ من فلَق الصبح قال المفسرون: سبب تخصيص الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة، فكما أن الإنسان يكون منتظرًا لطلوع الصباح، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس، والجن، والدواب، والهوام، ومن شر كل مُؤْذٍ خلقه الله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي ومن شر الليل إذ أظلمَ واشتد ظلامه، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ولهذا قالوا في المثل: «الليلُ أخفى للوَيْل»[٢] قال الرازي: وإنما أُمر أن يتعوذ من شر الليل، لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارقُ والمكار، ويقع الحريق، ويقِلّ فيه الغَوْث[٣] ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ أي ومن شر السواحر اللواتي يعقدن عقدًا في خيوط وينفثن، أي: ينفخن فيها ليضروا عباد الله بسحرهن، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال في البحر: وسبب نزول المعوذتين قصة «لَبِيدِ بن الأعْصَم» الذي سحر رسول الله ﷺ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ - قشر الطلع - طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، ووترٍ معقود فيه إحدى عشرة عقدة، مغروزٍ بالإبَر، فأُنْزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد في نفسه خفة ﷺ حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نُشِطَ من عقال[٤]

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٩٤.

(٢) (ش): أي افعل ما تريد ليلاً، فإنه أسترُ لسِرِّك.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٣١/ ١٩٥. (ش): أَجَمَة الأسد: مأْواه في الأدغال. المُكابِر: الطاغِي، مُتجاوِز الحدّ. غاثَه، غَوْثًا / أغاثَه، إغاثةً: أعانه ونصره، قدّم له المساعدةَ.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٥٣٠. (ش): بهذا السياق الذي فيه ذِكْر الإبر المغروزة ضعيف جدًّا، رواه البيهقي في «دلائل النبوة». ولكن قصة سحر لبيد بن أعصم للنبي ﷺ ثابتة في البخاري ومسلم. وكون هذه القصة سببًا لنزول المعوِّذتين ثابتٌ أيضًا في مُسنَد عبد بن حميد بسند صحيح عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: سَحَرَ النَّبِيَّ -ﷺ- رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ. قَالَ: فَاشْتَكَى، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَقَالَ: «إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ». قَالَ: فَأَرْسَلَ عَلِيًّا فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ «وَتَقْرَأُ» آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ، حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ -ﷺ- كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ. فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ، وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ». كان لَبِيدُ بنُ أعْصَم غلامًا يهوديًّا يخدم النبي ﷺ. (مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ) المشط معروف، والمُشَاطَة هي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه. (جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ) وعاء للقاح النخل، وغشاؤه - قِشْره - إذا جف. كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ: يقال: أنْشَطْتُ الحبلَ: حَلَلْتُه، والعِقَال: ما يُشَدُّ به البعير من الحبل. (فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ. وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ): أي إن النبي ﷺ لم يقتل ذلك الرجل ولم يُشْعِره حتى في تعابير وجهه عليه السلام أنه يضمر له شيئًا؛ فلم يكن عليه السلام ينتقم لنفسه.

تنبيه: السحر الذي أصابه ﷺ لم يكن ليمس عقله الشريف ولا يؤثر في تبليغ الرسالة بل كان عارضًا كعوارض الأمراض المختلفة التي تصيب الصالح والطالح والكبير والصغير، والنبي ﷺ مشرع لذا تحدث هذه =

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ أي ومن شر الحاسد الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿خَلَقَ﴾.

٢ - الإطناب بتكرار الاسم ﴿شَرِّ﴾ مرات في السورة ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ ﴾ إلخ تنبيهًا على شناعة هذه الأوصاف.

٣ - ذكر الخاص بعد العام للاعتناء بالمذكور ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ فإنه عموم يدخل تحته شر الغاسق، وشر النفاثات، وشر الحاسد.

٤ - جناس الاشتقاق بين ﴿حَاسِدٍ﴾ و ﴿حَسَدَ﴾.

٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفلق»



= الحوادث معه لبيان جواز حدوثها مع غيره ﷺ مهما بلغ قدرًا عاليًا في العبادة، وهو أمر جائز عقلًا ونقلًا. فهو كحديث نسيان النبي ﷺ في الصلاة، وهو الذي ينزل عليه الوحي، وهو أخشع الخلق في الصلاة ﷺ وذلك لتعليم الأمة الإسلامية من خلال هذا الحدث.

سُورَةُ النَّاسِ (١١٤) (٦)

مكية و آياتها ست

بين يدي السورة

* سورة الناس مكية، وهي ثاني المعوذتين، وفيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء، إبليس وأعوانه من شيطان الإنس والجن، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء.

* وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين وبدئ بالفاتحة، ليجمع بين حسن البدء، وحسن الختم، وذلك غاية الحسن والجمال، لأن العبد يستعين بالله ويلتجئ إليه، من بداية الأمر إلى نهايته.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

اللغة: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الشيطان الموسوس، مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي وحديث النفس قال الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاسًا إِذَا انْصَرَفَتْ[1]...

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتوارى ويختفي ويتأخر يقال: خنَس الظبْيُ إذا اختفَى، وسُمي الشيطان خناسًا لأنه يتوارى ويختفِي إذا ذكَر العبد ربَّه، فإذا غفل عن ذكر الله عاد فوسوس له، والخنوس: التأخر ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ بكسر الجيم الجنُّ جمع جنِّيّ، وبضم الجيم الوقاية وفي الحديث «الصَّوْمُ جُنَّةٌ»[2] أي وقاية من عذاب الله.

التفسير: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي قل يا محمد أعتصم وألتجئ وأستجير ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي بخالق الناس ومربيهم ومدبر شئونهم، الذي أحياهم وأوْجدهم من العدم، وأنعم عليهم بأنواع النعم قال المفسرون: إنما خصَّ الناس بالذكر وإن كان -جلت عظمته- رب جميع الخلائق تشريفًا وتكريمًا لهم، من حيث إنه تعالى سخَّر لهم ما في الكون، وأمدهم بالعقل والعلم، وأسجد لهم ملائكةَ قُدْسِه، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ أي مالك جميع الخلق حاكمين ومحكومين، ملكًا تامًّا شاملًا كاملًا، يحكمهم، ويضبط أعمالهم، ويدبّر

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٦١.
(٢) جزء من حديث رواه الشيخان.

شئونهم، فيعز ويذل، ويغني ويُفقر ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي معبودهم الذي لا ربَّ لهم سواه قال القرطبي: وإنما قال ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ لأن في الناس ملوكًا فذكر أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره فذكر إنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ويُلجأ إليه، دون الملوك والعظماء، وترتيب السورة بهذا الشكل في منتهى الإبداع، وذلك لأن الإنسان أولًا يعرف أن له ربًّا، لما يشاهده من أنواع التربية ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم إذا تأمل عرف أن هذا الرب متصرفٌ في خلقه، غنِيٌّ عن خلقه فهو الملك لهم ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم إذا زاد تأمله عرف أنه يستحق أن يُعبد، لأنه لا عبادة إلا للغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ وإنما كرر لفظ الناس ثلاثًا ولم يكتف بالضمير، لإظهار شرفهم وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم، كما حسن التكرار في قوله الشاعر:

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ   نَغَّصَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا [(١)]

قال ابن كثير: هذه ثلاث صفات من صفات الرب عَزَّ وَجَلَّ «الربوبية» و«الملك» و«الإلهية» فهو ربُّ كل شيء ومليكه وإلهه، وجميع الأشياء مخلوقة ومملوكة له، فأُمر المستعيذُ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ أي من شر الشيطان الذي يلقي حديث السوء في النفس، ويوسوس للإنسان ليغريه بالعصيان ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس أن يختفي ويتأخر إذا ذكر العبد ربه، فإذا غفل عن الله عاد فوسوس له وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ - أنْفَه - عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ ذَكَرَ خَنَس، وَإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ»[(٢)] ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي الذي يلقي لشدة خبثه في قلوب البشر صنوف الوساوس والأوهام قال القرطبي: ووسوستُه هو الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ ﴿مِنَ﴾ بيانيَّة أي هذا الذي يوسوس في صدور الناس، هو من شياطين الجن والإنس كقوله تعالى ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] فالآية استعاذة من شر الإنس والجن جميعًا، ولا شك أن شياطين الإنس، أشدُّ فتكًا وخطرًا من شياطين الجن، فإن شيطان الجن يخنس بالاستعاذة، وشيطان الإنس يُزيِّن له الفواحش ويُغْرِيه بالمنكرات، ولا يَثْنيه عن عزْمه شيء، والمعصوم من عصَمَه الله[(٣)].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ وفي الآيتين بعدها.

---

(١) (ش): نغَّص أخاه: كدَّره. نغَّص عليه الأمرَ: قطع عليه ما كان يحبُّ الاستكثارَ منه.

(٢) رواه الحافظ الموصلي. (ش): رواه الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ في «مُسنَده» بإسناد ضعيف.

(٣) (ش): أغراه بالشَّيء/ أغراه على الشَّيء: حضَّه عليه. ثناه عن الأمر: صَرفَه عنه، رَدَّه وأبعده. عصَمه اللهُ عن المكروه/ عصَمه اللهُ من المكروه: مَنَعَه، حَفِظه ووَقَاه.

٢ - الإطناب بتكرار الاسم ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ زيادة في التعظيم لهم، والاعتناء بشأنهم، ولو قال (ملكهم، إلههم) لما كان لهم هذا الشأن العظيم.

٣ - الطباق بين ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ و ﴿وَٱلنَّاسِ﴾.

٤ - جناس الاشتقاق ﴿يُوَسْوِسُ.. ٱلْوَسْوَاسِ﴾ ثم ما في السورة من الجرس الموسيقي، الذي يفضل الألحان بعذوبة البيان، وذلك من خصائص القرآن.

تنبيه: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».[1]

يقول راجي عفو ربه الجليل، الشيخ محمد علي الصابوني ابن الشيخ جميل: إنه قد تم بعون الله وتوفيقه - تفسير القرآن العظيم، في مهبط الوحي -مكة المكرمة- البلد الأمين، وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنين، وكان الفراغ منه في الثامن عشر من شهر جمادى الثانية ١٣٩٨هـ سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين، ونسأل الله حسن القبول، وأن يمنحنا التوفيق والسداد والحمد لله في البدء والختام، وصلى الله على عبده ورسوله، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

وكتبه
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبدالعزيز

تم بحمد الله المجلد الثالث



(١) رواه أهل السُنن. (ش): رواه البخاري.